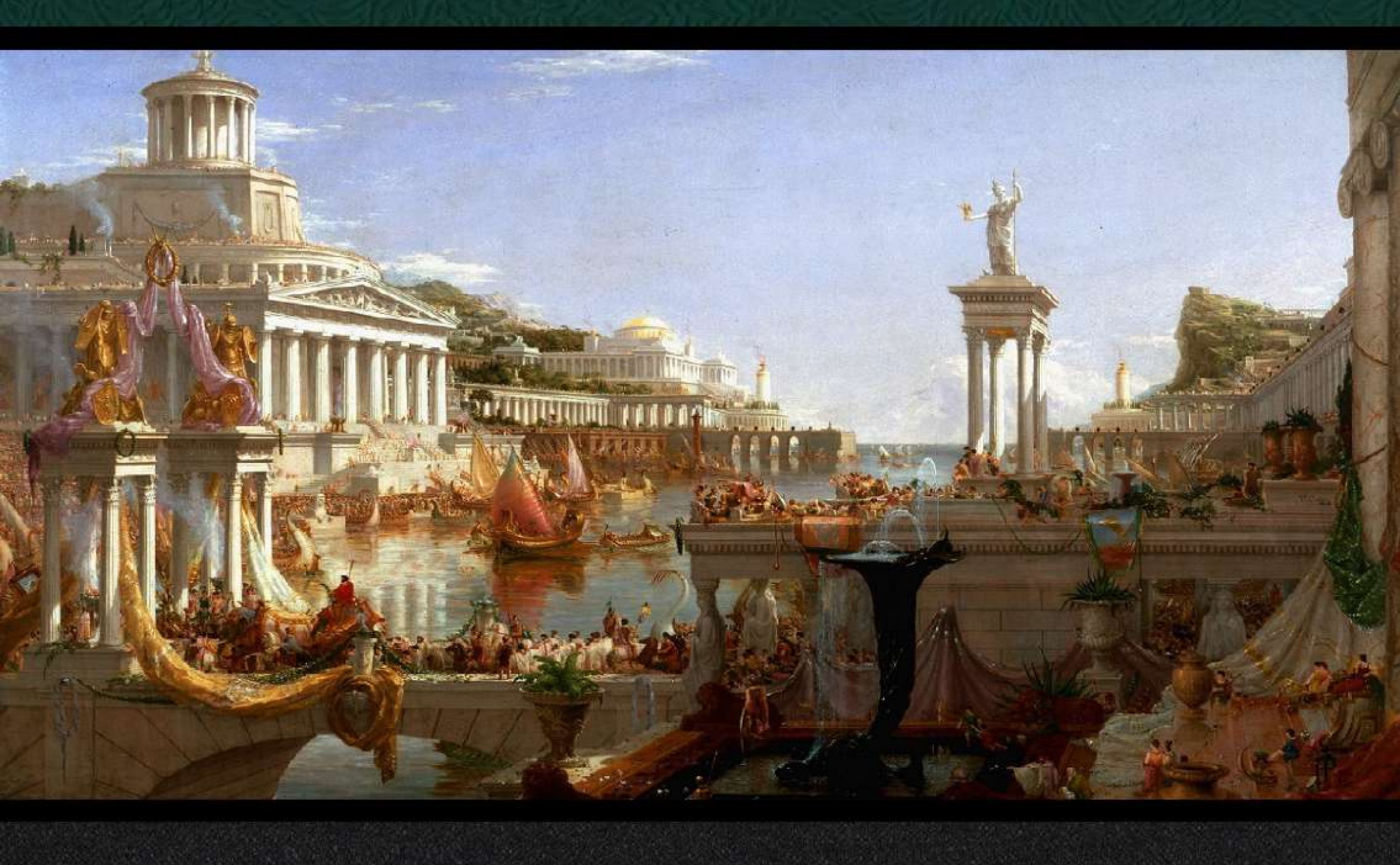
قصة الحضارة



المجلد الحادي عشر

ويل ديورانت

قصة الحضارة

43- عصر نابليون (الجزء الأول)

44- عصر نابليون (الجزء الثاني)

45- عصر نابليون (الجزء الثالث)

46- عصر نابليون (الجزء الرابع)

ويل ديورانت

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

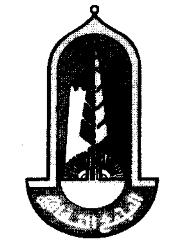
عصر نابوليون

تاريخ الحضارة الأوروبيّة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الأول





عَصْرُ نابُولِيُون

الكتاب الأول

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يتناول موضوعا" حيا مع أنه تاريخي، فلا زالت أصداؤه تترى، ومثل هذه الموضوعات التي لا تزال متفاعلةً مؤثرة في حاجة إلى كاتب عركته الأيام، وتأمل فأغرق في التأمل ليخلص بالعبر والنتائج الصحيحة، وقد بدأ ول ديورانت – وزوجته – تأليف هذا الكتاب وقد تجاوز السبعين من عمره، بعد أن لاحظ – على حد تعبيره – أن الحصادة التي تحصد الناس قد تأخرت فلم " تحصده"، وأن من غير الحكمة أن يجلس عاطلاً مكتئبا بلا عمل، فعكف مع زوجته على تأليف هذا الكتاب عن عصر نابليون، وجعل قسمه الأول عن الثورة الفرنسية، وهذا بعينه ما يضيف قيمة أخرى للكتاب ففي هذه المرحلة من العمر لا يكون المرء متهورا متسرعا، وإلا فمن غير ول ديورانت يقول لنا إن المساواة المطلقة بين الناس حلم غير قابل للتحقيق، وأقصى ما يمكن أن نصل إليه هو "مساواتهم أمام القانون" ؟ وهل نتوقع من ديورانت ابن السبعين إلا أن يقول إن مَبْدَأي الحرية والمساواة، مبدءان متناقضان بحكم الضرورة، فبمجرد إطلاق العنان للحرية، سيكون هناك " السابق" و" المتخلف" ومن يقع مغشيا عليه في أثناء السباق، ومن سيستطيع بالجهد والعرق أو بالغش والخداع أو بكل ذلك أن يصبح ثريا، ومن ستعوزه القدرة فيكون دون ذلك، وإذا كان لا بد من التطبيق الحرفي للمساواة، فإن هذا يعنى قمع الحرية ويضرب أمثلة بالنظم الفاشستية التي قمعت الحرية ولم تستطع – مع ذلك – فرض المساواة المطلقة، لكنه مع هذا يشير إلى وقائع تاريخية تحتم ضرورة التكافل الاجتماعي وإحداث التوازن من خلال نظم ضريبية عادلة. إنه يشير إلى ملكيات دستورية، وحركات ديمقراطية، ومحاولات شيوعية، ويرى – بحق – أن الثورة الفرنسية كانت عدّة ثورات متداخلة وليست ثورة واحدة مما يطالعه القارىء في ثنايا هذا التاريخ الممتع. ومن غير ديورانت الذي نيف على السبعين وهو يكتب سطور هذا الكتاب، يقول لنا: إن كل محاولات إبعاد الدين، وإحلال " عناصر طبيعية" مكانه لضبط السلوك البشرى قد باءت – عبر التاريخ – بالفشل، فالقانون وحده لا يكفي لضبط هذا الحيوان الناطق، وإنما لا بد من يقين إيماني بوجود إله يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ويعاقب على السيئة، ويثيب على الحسنة، وهو الأمر الذي انتهى إليه

ثوار فرنسا الذين لم ينكر غالبهم وجود الله سبحانه، رغم ما يتردد في بعض الكتب من نسبة الإلحاد إليهم. ومن غير ديورانت ابن السبعين يعكف على نتائج الثورة الفرنسية بتؤدة وترو فلا ينكر جوانبها الإيجابية، ولكنه يقول: إن جزءاً كبيرا من هذه النتائج الإيجابية كان سيتحقق – بدون ثورة – من خلال التطور الطبيعي للأمور، والمسار المنضبط للتاريخ، وبذا تكون النتائج الطيبة قد تحققت بغير هذا القدر الهائل من الدماء المراقة. وسيجد القراء والمتخصصون أن ديورانت وزوجته أضافا جديدا" إلى معلوماتنا عن الثورة الفرنسية، وصححا كثيرا من الأخطاء، ونشرا كثيرا من الوثائق المهمة خاصة مراسلات نابليون لزوجته جوزفين التي أثرت كثيرا في حياته، بل وفي وقع خطواته في المعارك، حتى إن المؤلف أورد لنا خطابا أرسله نابليون إلى أخيه نفهم منه أنه كان قد اعتزم ترك مصر والعودة إلى فرنسا حتى قبل أن تطلب منه حكومة الإدارة العودة، وقبل أن يتأزم وضع الحملة في مصر بعد هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبى قير البحرية على يد الأسطول الانجليزي بقيادة نلسن، لا لشيء إلا لعلمه أن جوزفين قد اتخذت في غيابه عشيقاً.

وحتى تحقق الترجمة – في أي مجال – غرضها لا بد أن تركز على نقل المفاهيم إلى القارئ العربي، وليس مجرد الألفاظ مجردة من مفاهيمها، وسيجد القارئ فيما ترجم وكتب عن الثورة الفرنسية ترجمةً قد تكون حرفيّة أو دقيقة من الناحية اللفظية، لكنها – وهذا مؤكد – تبعد القارئ العربي تماما عن المعنى المقصود، فالترجمة ليست من لغة إلى لغة فقط ولكنها في الأساس من ثقافة إلى ثقافة. ولنبدأ بمصطلح السانس كولوت Sans Culottes الوارد في هذا الكتاب والذي يعنى حرفيا " الذين هم بغير [بناطيل] أو سراويل قصار " فالكلمة Sansتعنى (بغير) والكلمة Culottes تعنى "السروال" أو [البنطلون] القصير أي الذي يصل إلى الركبة فقط، والكلمة مستخدمة في عاميّة بعض البلاد العربية (الكلوت والجمع كلوتات)، ومن المعروف أن المجتمع الفرنسي قبل الثورة كان ينقسم إلى طبقة النبلاء وطبقة الإكليروس، وطبقة عامة الشعب أي الذي ليسوا نبلاء وليسوا إكليروس (رجال دين)، فلما قامت الثورة حققت شرائح من الطبقة الثالثة بعض طموحاتها خاصة طبقة البورجوازية العليا (رجال البنوك والوسطاء والتجار والصناع والمديرون والمحامون

والأطباء والعلماء والمدرسون والحرفيون والصحفيون) أما طبقة عامة الشعب (وهم مثل البورجوازيه ليسوا نبلاء ولا إكليروس) فكانت تشمل الفلاحين وعمال النقل البرى والبحري وبعض الحرفيين، ثم أصبحت تعنى خليطا غير متناسق يشمل فيما يقول ديورانت : الجزارين والطباخين والبائعين الجوالين والحلاقين وأصحاب المحلات والعاملين في الفنادق وتجار الخمور وصانعيها والنجارين والبنائين، والحذائين، والخياطين........ الخ.

وكان هؤلاء يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كعوب أقدامهم لأنهم عرضة لقسوة المناخ أكثر من غيرهم، ولطبيعة أعمالهم، وهم بلباسهم هذا يختلفون عن النبلاء الذين يرتدون السراويل القصيرة والجوارب الغالية. فعندما يقال : الذين لا يرتدون السراويل القصيرة فهذا لا يعني أكثر من أنهم ليسوا نبلاء، الكلمة لا تعني أكثر ولا أقل من ذلك، فإذا ترجمنا الكلمة (سانس كولوت) بقولنا (اللامتسرولون) أو الذين لا (يرتدون سراويل) كما ترجمتها المعاجم المتداولة(إنجليزي - عربي)، فليس على القارىء العربي جناح إن هو تصور هذه الشريحة من طبقة الشعب، تهتف صارخة في شوارع باريس، وأياديها تلوح مهددة، بينما تتأرجح أعضاؤها الأخرى مشاركة في الانفعال، ظاهرة لا تغطيها سراويل!. وليس الأمر كذلك، ولدينا في التراث العربي الحديث أمثلة، فالمصريون كانوا حتى مطلع الخمسينات يقولون هذا مطربش(أي من لابسي الطرابيش) وهذا ليس مطربشا، وهذا لا يعني أنه لا يغطي رأسه بالضرورة وإنما المعنى أنه ليس (أفندي) أو ليس متعلما أو أنه جاهل، وفي العامية أيضا نصف فلاناً بأنه (حافي) وهذا يعني أنه هَمَل رقيق الحال، ولا يعني بالضرورة أن الرجل بغير خف أو نعال، وفي ثقافات أخرى كانوا يقولون حتى وقت غير بعيد : هذا لا يليق به "بشت" أو أنه يرتدي "بشتا" فأفسح له الطريق، وليس المعنى أن من لا يلبس بشتا عاريا بالضرورة. وترجم بعض المترجمين الكلمة (سانس كولوت) بما هو أسوأ إذ وصفهم بأنهم (العراة) كما في النص التالي :

" ..ولفت بعض المؤرخين، حديثاً، الانتباه الى ثورة اكثر تقدما وأكثر أصالة، قادها المسعورون Les enragés وهم فرقة متطرفة أكثر الى اليسار من العراة Sans culottes ومن اليعاقبة، كانت تحلم باعادة صنع شاملة للنظام الاجتماعي، وبالغاء كل تفاوت. وتقع حركة

بابوف، وان كانت مختلفة، ضمن نفس الامتداد"[١][*].

وهذا بطبيعة الحال خطأ صراح رغم أنها الترجمة اللفظية - وليس الحضارية- الدقيقة.

وطائفة أخرى اكتفت بكتابة الكلمة كما هي لكن بحروف عربية أي (السانس كولوت) فماذا يفهم العربي؟ لا بد إذن من مقابل عربي لهذه الكلمة (الذين يرتدون السراويل الطويلة) مع عبارة شارحة توضح وضعهم الطبقي.

• عبارة أخرى تردّدت في ثنايا هذا الكتاب، وفي الكتب الأخرى التي تعرضت للثورة الفرنسية وهي Hôtel de ville .والعبارة تعنى دار البلدية أو دار المجلس البلدي.

حقيقة إن من بين معاني "أوتل " Hôtel (فندق)، لكن لها معاني أخرى، والأهم من ذلك أن هناك لغة اصطلاحية اصطلح عليها أصحاب كل لغة. نقرأ في بعض الترجمات العربية على سبيل المثال مثل هذا:

"تشكلت في باريس سلطة مدينة جديدة في فندق "دي فيل". وكانت تتألف من الناخبين الثانويين الذين التقوا في الأصل لانتخاب ممثلي باريس بالطبقة الثالثة من مجلس الطبقات. وكان العمدة الجديد هو "بيلى" الذي أشرف على قسم ملعب التنس. وفي اليوم التالي لسقوط "الباستيل" تم الاعتراف بالمليشيا البرجوازية كحرس قومي، ...... الخ "[٢].

وهكذا وجدنا الثورة الفرنسية تجرى أحداثها في فنادق، خاصة أن كلمة (أوتيل Hôtel) وجدت في سياقات أخرى مختلفة، وبهذا أحضر نابليون المدافع من فندق، واجتمعت سلطة باريس في فندق، .... وهذا طبعا غير صحيح.

والحقيقة أن اللغة الانجليزية قد دخلتها ألفاظ فرنسية كثيرة منذ القرن الحادي عشر للميلاد، وزادت هذه الألفاظ بشكل ملحوظ بعد الثورة الفرنسية. سنجد في المعاجم الإنجليزية Corvée بمعنى السخرة، و Coup d'état بمعنى انقلاب، وسنجد في القصر الملكي صالة للمسرات البريئة Hôtel des Menus Plaisirs، وفي المعاجم الإنجليزية كذلك

---

(١) رينه ريمون، مدخل إلى التاريخ المعاصر - النظام القديم والثورة الفرنسية. وعنوانه بالفرنسيه هو :

.Introduction de l'histoire de Notre temps, Ancien Régime et la révolution

(*) لم يصحح ما في الفقرة من أغلاط لغوية؛ لأنها منقولة كما هي.

(٢) باريس في سنوات الثورة، تاليف راى تاناهيل.القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ترجمة إلهام عثمان.

سانس كولوت Sans Colottes ، وكلمة émigrésأي الذين هاجروا من فرنسا بعد أحداث الثورة الفرنسية، وغير ذلك كثير.

● أما الكلمتان المضللتان اللتان نود التوقف أمامهما كثيرا فهما كلمة heresyوترجمتها الحرفية هرطقة وكلمة Atheist وترجمتها الحرفيه ملحد. فمن المفهوم أن شخصا ما عندما يصف آخر بالكفر فإنه يعنى أنه غير مؤمن بما يؤمن به هو. وهكذا فالبوذي بالنسبة للزرادشتي كافر أو ملحد، والزرادشتي بالنسبة للبوذي كافر أو ملحد، والهندوسي بالنسبة للمانوي كافر أو ملحد، والعكس بالعكس، وهكذا يتحدث كل شخص من خندقه أو من منطلقه أو من خلفيته الثقافية هو، وعلى ذلك فعندما أقرأ في كتاب أوروبي أن جماعة ما أو شخصا ما من الملحدين أو من الهراطقة فإن هذا يتطلب مني أن أعرف خلفية المؤلف الدينية والثقافية ولا أكتفي بنقل الكلمة حرفيا، وانتهى الأمر. فمن هم الهراطقة الذين نقرأ عنهم في التاريخ الأوربي؟ إنهم الذين أنكروا التثليث، وقالوا إن الله واحد أحد One Soleوليس ثالث ثلاثة، فاعتبرتهم المذاهب المسيحية الأخرى كلها هراطقة، بينما اعتبروا هم أنفسهم من المسيحيين الحقيقيين، وجرى العرف في كتب التاريخ الأوربي كلها على أنهم "هراطقة"، وأن مذهبهم هو الهرطقة heresy بعينها، وترجم المترجمون العرب هذه الكلمة على علاتها. فهل هذا بالنسبة لي أنا كمسلم صحيح؟ أمن يقول إن الله واحد مسيحي مهرطق ومن يقول إن الله ثالث ثلاثة مسيحي صحيح المسيحية؟. الترجمة ليست نقلا من حرف إلى حرف أو من كلمة إلى كلمة أو حتى من لغة إلى لغة، وإنما هي نقل من ثقافة إلى ثقافة، وإلاّ أدّى الأمر إلى أن يفهم القارىء العربي عكس المطلوب. المهم أن هؤلاء المناهضين للتثليث تعرّضوا لأذى شديد فتشتتوا ودخلوا في المذاهب المسيحية الأخرى، وظلوا محتفظين بعقيدتهم سرا، وظل وجودهم مستمرا منذ القرن السادس عشر، وها نحن نقابلهم مرة أخرى في أثناء الثورة الفرنسية، فوصفهم مسيحيون آخرون بأنهم هراطقة، ووصفت الثورة الفرنسية بأنها ثورة هراطقة، وليس الأمر كذلك، ولجدة هذه الأفكار ربما حتى بالنسبة لبعض المثقفين، نورد فيما يلي المبحث التالي الذي نشرته إحدى الدوريات المتخصصة:

« .. اتهم الكاثوليك لوثر ورفاقه بالخروج على المسيحية واتهم البروتستنت الكاثوليك بأنهم ليسوا على المسيحية الصحيحة، ولكن الطرفين - الكاثوليك والبروتستنت - تعاونا معا في إحراق جماعة أخرى واضطهادها، هي الجماعة المناهضة للتثليث. وهي تشكل حركة بكل معاني الكلمة في التاريخ الأوروبي، وتشير لها مراجع التاريخ الأوروبي العام، وتاريخ الأديان التي كتبها أوروبيون تحت عنوان شامل، هو الهراطقة والهرطقة. وتشير الكتب العربية التي تناولت التاريخ الأوروبي إلى هذه الحركة بالتسمية نفسها التي تسميها بها المراجع الأوروبية، وهذا خطأ واضح. وقد اعتمد في هذا البحث على وثائق منشورة ومصادر أصلية. ولعل هذا البحث يكون فاتحة لبحوث أخرى عن هذه الحركة المجهولة، مكتوبة من وجهة نظر عربية إسلامية. »

المعروف أن القرن السادس عشر في أوروبا قد شهد حركة شهيرة عرفت بحركة الإصلاح الديني، نتج عنها مذهب جديد، عرف بالمذهب البروتستني، منشقا عن كنيسة روما الكاثوليكية. وكان الكاثوليك وكنيستهم يسمون هؤلاء المعترضين البروتستنت هراطقة أو مبتدعين. وقد شغل هذا الصراع بين البروتستنت والكاثوليك مساحة كبيرة في كتب التاريخ الأوروبي، وهو جدير بهذه المساحة وأكثر. فقد شارك هذا الصراع في صياغة خريطة أوروبا المعاصرة. فالصراع بين الكاثوليك والبروتستنت كان أحد أسس ثورة الأراضي المنخفضة التي نتج عنها قيام كيانين: هولندا فبلجيكا. وهذا الصراع نفسه هو الذي أصل وعمق استقلال سويسرا، مما أدى إلى اعتراف مجتمع الدول الأوروبية بها في النهاية كدولة مستقلة سنة ١٦٤٨م في صلح وستفاليا. وهذا الصراع نفسه هو الذي صاغ تاريخ إنجلترا (بريطانيا فيما بعد)، فلا أحد إذن يقلل من أهمية حركة الإصلاح الديني التي تزعمها لوثر أولا وتلاه زونجلي فكلفن. تلك العصبة التي أطلق عليها الكاثوليك اسم الهراطقة أو المبتدعين.

وهذه الحركة الإصلاحية التي تزعمها لوثر، فزونجلي وكلفن بعده اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والسياسية الاجتماعية والدينية، فقد أزكاها رغبة الأمراء الألمان في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية في مقاطعاتهم. كما أزكاها رغبة الامبراطور في عدم

تدخل البابا في شؤونه. كما أن رغبة الملك الإنجليزي هنري الثامن في طلاق زوجته، كانت أحد العوامل في تبنيه منهجا إصلاحيا وخروجه على البابا، لكن الباحثين في التاريخ الأوروبي يغفلون أو يشيرون على استحياء إلى حركة إصلاحية دينية من نوع آخر زامنت وواكبت حركة مارتن لوثر، تلك هي حركة الموحدين Unitarians أو المناهضين للتثليث. ولقد حظي هؤلاء الموحدون باتهامات من الكاثوليك والبروتستنت معا. وحركة الموحِّدين الأوروبيين تلك حركة دينية خالصة، وإصلاح ديني خالص لم تختلط فيها الأطماع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. بدليل أن هذه الحركة اتخذت شكل المناظرات والمناقشات الفكرية في الغالب الأعم، ولم يلجأ القائمون عليها إلى عقد محالفات مع أمراء أوروبا، أو لم ينجحوا في ذلك. كما أنهم اتخذوا إنشاء المدارس والكليات طريقا لبث دعوتهم كما سيتضح من ثنايا هذا البحث. كما أن عددا كبيرا من المنخرطين في سلك هذه الدعوة كانوا من العلماء الأفذاذ في مختلف المجالات. وتلك الحركة هي موضوع هذا البحث الذي أرجو أن يكون بداية تعقبها بحوث أخرى.

إرازم والبداية

كانت بداية إثارة الأفكار المناهضة للتثليث في التاريخ الأوروبي الحديث على يد أحد رواد الحركة الإنسانية في القرن السادس عشر، ونعني به إرازم Erasmus لقد أقدم إرازم على الرجوع إلى نسخ عديدة من الإنجيل باللغة اليونانية ولم يكتف بالرجوع إلى الترجمات اللاتينية المتاحة. وشرع يترجم من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية. وقرر إرازم أنه وجد في النص الإنجيلي الشائع على أيامه كثيرا من الأخطاء الواضحة. والأهم من هذا أنه عندما أصدر الإنجيل الذي ترجمه، والإنجيل اليوناني الذي حققه من نسخ عديدة سنة ١٥١٦م أسقط منه العبارات المتعلقة بالتثليث أو على حد تعبير " دائرة معارف الدين والأخلاق"

His omission of the famous Trinitarian verse" Encyclopedia of Religion and Ethic "

ولم يكن من الممكن للرأي العام المسيحي وقتها أن يعتبر هذا خطأ غير مقصود أو سهوا أو خللا طباعيا، خاصة وأن من جملة الأفكار الأساسية التي كان يرددها الإنسانيون ومن بينهم

إرازم في ذلك الوقت أنه ينبغي أن ينفض العالم المسيحي كل ما يظن أنه دخيل على المسيحية. وأنه من الضروري الرجوع للأصول الأولى قدر الممكن. كما كان من الآراء التي يرددها إرازم أن الإنجيل (العهد الجديد) الشائع على أيامه زاخر بالأخطاء اللغوية والأخطاء في المعاني الناتجة عن عدم فهم فيلولوجية اللغتين اليونانية واللاتينية. ورغم أن إرازم قد خاطب البابا ليو العاشر بشأن التناقض في الترجمة الإنجيلية المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية Vulgate's discrepancies برقة وأدب شديدين، إلا أن هذا لم يقلل من خطورة ما أقدم عليه بنشر نص يوناني للإنجيل يختلف في بعض معانيه مع النص اللاتيني المعتمد. ورغم أن إرازم لم يهاجم عقيدة التثليث، إلا أن نشره لنص إنجيلي خال من الإشارة إليها جعل الأعمال التي راحت تنكر فكرة التثليث بشكل مباشر تتوالى تباعا، حتى اتخذت شكل حركة بكل معاني الكلمة، تفاعلت بها أوروبا كلها، حتى أنها في تأثيرها الديني لم تكن تقل خطرا وأهمية عن حركة مارتن لوثر ورفاقه وإن كانت آثارها السياسية أقل قيمة.

لقد كتب مارتن سيلاريوس Martin Cellarius (1499-1564) الذي كان تلميذا ليوحنا رخلن Reuchlin، وكان أيضا تابعا وصديقا لمارتن لوثر، مهاجما فكرة التثليث. وفي ١٥٢٧م أيد آراءه هذه بكتاب نشره في ستراسبورج Strasbourg أسماه De Operibus Dei

ظهور سيرفيتوس وإحراقه:

على أن المفكر الأكثر أهمية وشهرة ووضوحا في هذه الحركة المناهضة للتثليث هو سيرفيتوس (١٥١١ – ١٥٥٣) Servetus الذي أصدر كتابه الشهير "خرافة التثليث" De Trinitatis Erroribus سنة ١٥٣١م. وعلى إثر ذلك "بدأ هياج ولغط كبيران بين المعلمين. ورجال الدين والمحامين وعلماء الطبيعة والرياضيات ورجال العلم والأدب... لقد أصيب الجميع بحالة عدم توازن فكري we're all astired، لقد رحلوا من مكان إلى مكان بحثا عن الحقيقة وانخرطوا في مناقشات صاخبة. وذهبت أفكارهم كل مذهب. ففي نابلي Naples كان الشاب الإسباني يوحنا فالدز John Valdés قد كون جماعة دينية ضم إليها النبيلات لدراسة الكتاب المقدس وإعادة النظر فيه. وظلت الجمعية قائمة حتى وفاته سنة ١٥٤١م".

وفي ١٥٣٩م وجد ميلانشتون Melanchthon أنه من الضروري أن يحذر من انتشار أفكار سيرفيتوس على نطاق واسع في شمال إيطاليا. ثم ظهر برنارد أوشينو Bernard Ochino (1487-1565) الذي عبر سويسرا واتجه إلى لندن، وكان يحارب فكرة التثليث بكل قواه.

وفي ١٥٣٩م تم إحراق كاترين فوجيل Catherine Vogel وكانت زوجة جواهري، وكانت في الثمانين من عمرها وذلك لاعتقادها كما جاء في قرار الاتهام "بوجود إله واحد لا شريك له، خالق كل شيء، ما نراه وما لا نراه ولا يمكن للعقل البشري أن يحيط به".

ولما كان سيرفيتوس Migel Servetus أكثر أفراد الحركة المناهضة للتثليث صخبا في هذه الفترة وكان له من الثقل العلمي ما يجعله جديرا بالاهتمام، لذلك لا بد أن نتوقف لاستعراض ظروفه وأهم أفكاره خاصة وأن كتب تاريخ الهرطقة قد أفردت له فصولا مستقلة. ورغم أن مؤلف كتاب "حق الهرطقة" يصفه بأنه شخص لم يكن على قدر فائق من الذكاء وأنه كان مضطرب الشخصية سيىء التنظيم،إلا أنه يعود فيقول عنه إنه كان ذا عقل قوي. ويزعم مؤلف كتاب "حق الهرطقة" أن سيرفيتوس لم يتفوق في علم من العلوم مع أنه درسها جميعا. فقد درس الفلسفة والطب واللاهوت؛ إلا أن المؤلف يعود فيقول إن له ملاحظات واكتشافات طبية رائدة.

لقد كان سيرفيتوس يعتقد أن لوثر وكلفن وزونجلي لم يكونوا حاسمين بما في الكفاية فيما يتعلّق بعقيدة التثليث the dogma of the trinity كما أنهم لم يطهروا الإنجيل cleansing على حد قوله من هذه الفكرة الخاطئة. بل لقد أعلن سيرفيتوس أن مجمع نيقية Council of Nicaea قد قرر عقيدة التثليث على نحو خاطىء وقد أكد سيرفيتوس إنكاره لفكرة التثليث في عدة كتب أصدرها تباعا، وترجمت للإنجليزية حاملة العناوين التالية:

- Seven Books on the Errors of the Trinity (1531).
- Two Dialogues on the Trinity (1532).
- The Restoration of Christianity (1535).

لقد تملكت الأفكار المناهضة للتثليث عقل سيرفيتوس وقلبه فلم يكتف بدعوة الناس العاديين لها، وإنما راح ببراءة يزور كل رجال الدين ليقدم لهم براهينه. كما راح يزور كل علماء عصره لهذا الغرض. ففي ستراسبورج Strasbourg زار كلا من رجال الدين

المشـــهـــورين: مـــارتن بـوســـر Bucer وكـــابيـــتـــو .... Capito الخ، وفي بازل Basle زار اوكلامباديوس Oecolampadius ليحثه على إصدار بيان أو كتاب عن تهافت عقيدة التثليث وخطئها وأنها مقحمة على المسيحية الحقة. وكان رد فعل رجال الدين المسيحي من الكاثوليك والبروتستننت على السواء عنيفا ضد سيرفيتوس ووصفوه جميعا بأنه(مبعوث الشيطان) ويذكر تسايفج Zweig مؤلف كتاب الهرطقة أن أوكلامباديوس Oecolampadius قد طرد سيرفيتوس على نحو ما "يطرد كلب أجرب" وقد قرر أوكلامباديوس بأن سيرفيتوس ما هو إلا "يهودي أو تركي(*). وهو كافر يجدف على الله." وحذر ونجلي أتباعه من أفكار سيرفيتوس ذاكراً أن اتباعه سيخسرون عقيدتهم المسيحية. أما بوسر Bucer فقد أعلن أن سيرفيتوس هو "ظل الشيطان" ولما يئس سيرفيتوس من إقناع الخاصة من رجال الدين توجه بدعوته إلى الجماهير فأصدر كتابه الذي سبق أن أشير إليه وهو "خرافة التثليث" بعد أن أنفق كل ما يملك لطبعه. وأعلن سيرفيتوس بوضوح أن الكاثوليكية والبروتستنتية كلاهما هراء. وظن سيرفيتوس أنه سيجد خيرا عند كالفن فراح يراسله مراسلات ضافية زاخرة بالمسائل اللاهوتية. ولكن كالفن حقد عليه حقدا شديدا، لا لأسباب دينيه فحسب وإنما لأسباب شخصية أيضا. فلم يكن سيرفيتوس يخاطبه على أنه زعيم ديني كبير. كما أنه وجه نقدا لكتابات كالفن واصفا إياها بأنها كموضوعات الإنشاء التي يكتبها الصبية. وفي آخر خطاب من سيرفيتوس لكالفن ذكر له ما نصه: " أنا شيطان؟ أنا أقترح ألا تكون بيننا مكاتبات بعد الآن. أعد إلي مخطوطاتي وكل ما لي طرفك. ولكن إذا كنت تعتقد بصدق أن البابا ليس مسيحياً حقيقيا، فيجب أن تعرف أيضا أن التثليث وتعميد الأطفال هراء... إنها عقائد فاسدة".

ورغم أن سيرفيتوس ظل هادئا بعد ذلك لبضع سنوات إلا أن حقد كالفن عليه لم ينته وراح يدبر لاستدراجه لجنيف ذاكراً أنه لو دخلها فلن يخرج منها حيا. وراسل كالفن البروتستنتي بعض الكاثوليك في فرنسا حيث كان يقيم سيرفيتوس مذكرا إياهم بهرطقته، وتآمر رجال الدين في ليون مع رجال الدين البروتسنت في جنيف على هذا "الطبيب

(*) يقصد مسلم.

الجدف" على حد تعبيرهم. وقد تم سجن سيرفيتوس في فرنسا، ولكنه فر من سجنه متوجها إلى جنيف وكأنه يسعى إلى حتفه بنفسه. ودخلها في ١٣ أغسطس ١٥٥٣م. وتوجه إلى كاتدرائية سانت بيير St.Pierre فأصدر كالفن أمره بالقبض عليه. وسجن سيرفيتوس ولاقى في سجنه كل أنواع العنت، ويبدو أن آراء سيرفيتوس كانت قد بدأت تنتشر مما أفزع كالفن لدرجة أنه كان في حاجة إلى مراسلات يرسلها في كل اتجاه ليحصل على دمغ لآراء سيرفيتوس قبل إحراقه. وفي ٢٦ أكتوبر ١٥٥٣م قرر مجلس مدينة جنيف بالإجماع وبتحريض من كالفن إحراق سيرفيتوس حياً. وتقدم بعض أصدقائه منه وهو على المحرقة طالبا منه العدول عن آرائه في رفض التثليث، ولكنه أبى.

وهكذا تناقض البروتستنت مع أنفسهم. ووقعت الحركة الإصلاحية في الأخطاء نفسها التي وقع فيها أعداؤهم الكاثوليك. لقد كان الإصلاحيون البروتستنت ينظرون للمسألة الدينية من وجهة نظر أساسية وهي أن العلاقة بين الإنسان وربه يجب أن تكون حرة ومباشرة إذ يجب أن يكون الإنسان حراً ومسؤولا مسؤولية مباشرة أمام ربه وحده ودون وساطة من بشر. "إلا انهم بإحراقهم الجماعات المناهضة للتثليث يكونون قد تدخلوا بين الإنسان وربه".

ورغم أن الحركة الإصلاحية البروتستنتية كانت تعيب على الكنيسة الكاثوليكية عدم تسامحها وإجبارها الناس على معتقدات لا يريدونها واتخاذها أساليب العنف والإحراق ضد مخالفيها، إلا أن البروتستنت أنفسهم كما رأينا سرعان ما اتخذوا الأساليب نفسها التي كانوا يمجونها من قبل. خاصة ضد الموحدين أو المناهضين للتثليث.

وقد لاحظ بعض الباحثين في مقارنة الأديان أن " نظرة الإسلام السني تشبه على نحو ما نظرة أتباع الحركة المناهضة للتثليث Unitarianism ورغم أن سيرفيتوس كان واحدا من كثيرين قالوا بعدم التثليث إذ إن القائلين بهذه الأفكار كانوا يشكلون حركة – إلا أن شهرته واحتفاء المراجع به ترجع إلى أن الرجل لم يكن نكرة في عالم الدين والعلم. فهو عالم وطبيب ولاهوتي من أصل إسباني ودارس متعمق للقانون. لقد كان قمة من قمم العلم في القرن السادس عشر. ولا يخلو كتاب من كتب تاريخ العلوم من الإشارة إليه، فقد ترجم

كتاب الجغرافيا لبطليموس Ptolemy's Geography وهو أحد المكتشفين الكبار لتركيب الدم وحركة الدم في الرئة the pulmonary circulation of the blood كما كان عالما في مجال التشريح ووظائف الأعضاء، ورغم إحراق سيرفيتوس فإن أفكاره لم تمت. فسرعان ما دافع عن أفكاره صديقه عالم النبات ليوناردفكس Leonard Fucks ولعل كون سيرفيتوس من أصل إسباني، بالإضافة لاتهام أعدائه له بأنه تركي أو متأثر بالترك، لا يجعلنا نستبعد تأثيرات إسلامية على تفكيرة كما لا نستبعد بالقدر نفسه أن تكون أفكاره هذه مستقاة من أصول إنجيلية صحيحة، خاصة وأن وجهة النظر الإسلامية تشير من خلال القرآن الكريم إلى أن المسيحية في بدايتها كانت من أديان التوحيد الخالص.

والواقع أنه عندما أحرق أهل جنيف سيرفيتوس أحرقوا معه كل طبعات كتبه فيما عدا نسخاً قليلة وتكفلت محاكم التفتيش بإحراق النسخ التي كان بعض الناس يحتفظون بها لأنفسهم، لهذا وجدنا المراجع تختلف اختلافا شديدا فيما ذهب إليه سيرفيتوس. ففي حين نجد بعض الباحثين يذكرون أن سيرفيتوس لم يجعل المسيح (عليه السلام) إلها، وأنه قد وضعه في مرتبة أقل مما يضعه سائر المسيحين، نجد مراجع أخرى تذكر غير ذلك. إذ نجد أن مور Moore يذكر أن سيرفيتوس كان يعتقد أن المسيح نفسه هو الله، ثم يعود الكاتب نفسه فيورد نصا لاتينيا يستخلص منه أن سيرفيتوس قد وضع المسيح(عليه السلام) في مرتبة أقل، ويذكر باحث آخر أن سيرفيتوس كان باختصار ينكر قدسية المسيح. ولسنا نجد تفسيرا لموقف الذين قالوا إن سيرفيتوس ذكر أن المسيح نفسه هو الله، إلا أنهم بعد إحراق الرجل أرادوا أن يخففوا التهمة الموجه إليه، على اعتبار أن إنكار ألوهية المسيح، هو أقصى درجات الكفر بالنسبة للمجتمع المسيحي، سواء كان كاثوليكياً أم بروتستنتياً. ولما كان سيرفيتوس أحد علماء عصره، ومخافة أن يتأثر بأفكاره الدينية قوم آخرون، لذا جرى تشويه هذه الآراء. وتلك مسألة معروفة في التاريخ الكنسي خاصة، وتاريخ الفكر عامة، ولا نعدم شبيها لهذا في تاريخ الفكر الإسلامي إذ كثيرا ما شوه أعداء الإسلام أفكار بعض مفكريه بعد مماتهم. على كل حال، لقد كان ميلانشتون، ساعد مارتن لوثر الأيمن، قد كتب إلى كالفن ذاكرا أن سيرفيتوس يستحق كل عقاب، وأنه - أي ميلانشتون - يوافق على أي

عقاب ينزل به. والواقع أن كالفن لم يكن يطيق المختلفين معه في الرأي، فقد أجبر على سبيل المثال لاهوتياً آخر على مغادرة جنيف وهو كاستليو Sebastian Castellio فتركها له سنة ١٥٤٤م. ومهما يكن من أمر فقد رفضت الكنائس الأوروبية اعتبار المناهضين للتثليث مسيحيين بينما اعتبروا هم أنفسهم المسيحيين الحقيقيين، ورأى عدد كبير من المسيحيين وهو عدد ليس بالقليل أن المسيح مجرد شخص مميز ورفضت الكنائس الأوروبية الرسمية ذلك.

تبلور حركة المناداة بالتسامح الديني نتيجة اضطهاد المناهضين للتثليث.

يجمع الباحثون في تاريخ الأديان من الأوروبيين أن الاضطهاد الذي لاقاه المناهضون للتثليث من قبل الكاثوليك والبروتستنت على السواء هو الذي بلور المناداة بالتسامح الديني toleration ففي سنة ١٥٥١م أعلن كاستيلو Sebastian Castellio أنه لا ينبغي أن ترتكب الجرائم لفرض عقيدة ما فيجب أن تكون حرية الاعتقاد مكفولة. لقد اهتز الضمير الأوروبي نتيجة إحراق سيرفيتوس، وإحراق مسيحيين آخرين لا يدخلون تحت حصر بتهمة الهرطقة التي كانت تعني في المقام الأول إنكار التثليث. فرغم كلمات لوثر التي تنص على أنه" لا يجب استخدام العنف ضد الهراطقة وإنما علينا أن نهديهم بكلمات الله، فالهرطقة مسألة معنوية روحية لا يمكن أن نغسلها بنار الأرض ومائها" . ورغم هذه الكلمات فقد تم إحراق ما لا يقل عن عشرة آلاف مسيحي في قرن واحد تحت شعار العقيدة الحقة. رغم أن لوثر نفسه كان قد أتهم بالهرطقة. ورغم هذا فإن البروتستنت لم يأخذوا العبرة من ذلك فشاركوا في إحراق كثيرين من بينهم نساء بل وأسر كاملة حيث كان يساق للحرق كل من الزوج والزوجة والأبناء وأبدى بعض المحرقين تمسكا وشجاعة فقد ذهبت امرأة للمحرقة كأنما هي "ذاهبة لعرسها" وأحضروا زوجة رجل وأولاده بالقرب منه قبيل احتراقه ليعود عن معتقده فرفض حتى ولو جعلوا له "ملء الأرض ذهباً" على حد قوله. وصرخ رجل وهو يحترق قائلا، "لقد أخفيتم حقيقة الانجيل فترة طويلة" وقد أورد براندت تفاصيل مذهلة عن حفلات النار هذه استغرقت من كتابه ذي القطع الكبير حوالي ٤٠ صفحة، وكان يدخل

ضمن الهراطقة الذين أحرقوا أولئك الذين يعارضون "سلطة البابا والمناهضون لتعميد الأطفال".

أشينو:

ومن أقطاب الحركة المناهضة للتثليث برنارد أوشينو Bernard Ochino الذي حارب عقيدة التثليث بكل قواه على أساس أنه لم يجد لها سندا في الأصول الإنجيلية. ومن الأمور التي قال إنه لم يجد لها في الأصول الإنجيلية سندا مسألة تحريم تعدد الزوجات. إذ قال إنه مباح وإن العبارات الإنجيلية التي فهم خطأ منها المنع، يجب أن تحمل على سبيل المجاز وأن من فهم أن تعدد الزوجات ممنوع لا يفهم اللغتين اليونانية واللاتينية. ولقد اعتمد أوشينو في تفسيراته تلك على ترجمة كازيليو Casellio الإيطالية للإنجيل والتي رفضها كالفن.

وبطبيعة الحال فقد حارب كل من الكاثوليك والبروتستنت آراء أوشينو عن تعدد الزوجات كما حاربوا إنكاره لفكرة التثليث.

ولم يكن برنارد أوشينو شخصا عاديا بعيدا عن علوم الدين المسيحي وإنما كان من أكثر رجال الدين شهرة في عصره مشهودا له "بطاقاته الروحية وبركاته" على حد قول مؤلف كتاب "الإصلاح الكاثوليكي" بير جانيل. وقد ترقى في السلك الكنسي إلى رتبة كاردينال سنة ١٥٣٨م ولكنه سرعان ما فتن بالبروتستنتية فاعتنقها وظل فترة حائرا "بين العقيدة الصحيحة والهرطقة"، وكان له اتصالات بالحركة الإصلاحية الدينية في إنجلترا.

أما دافيد جوريس (1501-1556) David Joris فقد ذكر في كتابة الموسوم باسم Wonder Bookوالصادر سنة ١٥٤٢م أنه لا يوجد إلا "إله واحد أحد sole لا يُرى. وأنه لمن الحمق أن نتصوره في ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ذوات أو نتصوره على هيئة ثلاثية".

لقد هاجر آلاف من معتنقي فكرة الإله الواحد من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا هروبا بعقيدتهم إلى انجلترا خلال حكم هنري الثامن وكونوا كنائس أسموها كنائس الغرباء. وبهذه الهجرة دخلت الحركة في مرحلة أخرى إذ بدأت أفكارهم تتفاعل في شمال أوروبا وزاد من قوة الحركة دخول قسس معترف بهم من عامة المسيحيين فيها.

ففي ٢٨ ديسمبر ١٥٤٨م طلع علينا القس الإنجليزي جون اشيتون John Assheton بقوله: "إن الروح القدس ليس هو الله وإنما هو قوة أرسلها الله وإن عيسى المسيح الذي تلقته مريم العذراء هو نبي مرسل مبارك. ولكنه أبدا لا يمكن أن يكون الإله الحي".

ولكن حظ المناهضين للتثليث في إنجلترا لم يكن أفضل من حظهم في سواها، ففي إبريل ١٥٤٨م عينت لجنة لبحث أمور الهراطقة، وقد مثل كثيرون من التجار وأصحاب الحرف أمام هذه الهيئة في شهر مايو من العام نفسه. وكانت التهمة الموجهة إليهم هي أنهم يقولون "لا تثليث وأن المسيح نبي وليس إلهاً البتة. وأن كل ما قدمه لنا المسيح هو أنه علمنا الطريق إلى السماء،" وقد نفذت فيهم أحكام قضائية تصل إلى السجن مدى الحياة.

الحركة السوسينية

ثم تمركز المناهضون للتثليث في بولندا خاصة منذ عام ١٥٧٩م حيث كان لاستقرار سوسينوس Faustus Socinus الذي تحلق حوله الأتباع وعرف تفكيرهم في أوروبا بالتفكير السوسيني. وهو يعود في الأصل إلى أسرة إيطالية هي أسرة Sozini وقد ذكر سوسيني في كتبه التي نشرها أن المسيح لا يمكن أن يكون إلها على الحقيقة. وقد حوربت السوسينية بضراوة وتم إغلاق كليتهم التي افتتحوها في بولندا وأجبرهم الكاثوليك على الرحيل فتشتتوا. وفي إنجلترا كان يحرم من الكنيسة كل من يعتنق هذه الأفكار كما صدر قرار بمنع جلب الكتب التي تحمل هذه الأفكار أو طبعها أو نشرها. هذا هو الموقف الرسمي من هذه الحركة في كل أنحاء أوروبا طوال القرن السادس عشر وفي مطلع القرن السابع عشر للميلاد. وقد حاول سوسينوس التوفيق بين الفرق المتنازعة داخل الحركة المناهضة للتثليث. وأهم أعمال سوسينوس والتي توضح فكره، كتابه The Rakovian Catechism الذي نشر سنة ١٦٠٥م. وكانت راكو Rakow في بولندا هي مركز الحركة التي انتشرت انتشاراً كبيرا، وأسس أصحابها مدرسة لهم ضمت في وقت من الأوقات ألف طالب، كما أسسوا مطبعة وأنشأوا مجمعا كنسياً يحضره السوسينيون في بولندا وترنسلفانيا يعقد سنويا. وفي القرن السابع عشر كان للحركة أتباع في ألمانيا نفسها، وكانت جامعة ألتدروف Altdrof

University مـركـزا لنشـاطهـم العلـمي. ولكـن منذ ١٦٣٢م نشط الكاثوليك في بولندا وأصبح لهم اليد العليا، خاصة بعد أن تولى الحكم الملك جون كازيمير John Casimir سنة ١٦٤٨م، وهو كاثوليكي يسوعي وكان كاردينالا في الوقت نفسه فأجهز على السوسينيين وألغى مؤسساتهم، فهربوا إلى الأراضي المنخفضة وبروسيا. وفـي سنة ١٦٤٨م صدر تشريع برلماني في إنجلترا باعـتبـار أفكار السوسينيين جـريمة كبرى. ولم يعـتبـر مؤرخـو الكنسـية الإنجليـزية كنائس الحركات المناهضة للتثليث ضمن الكنائس الإنجليزية ولا حتى الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الإنجليزية. أي أنهم لم يعتبروهم مسيحيين على الإطلاق.

ويرجع بعض البـاحـثين أصـول هذه الحـركـة للنهـضـة في إيطاليـا ممثلة في إحيـاء التـراث والعـودة إلى المصـادر والمنابع الأولى. ويوجـز واحـد من البـاحـثين في تاريخ الأديان الخطوط العامة لتفكير السوسينيين فيقول: إنهم يعتقدون أن المسيح (عليه السلام) إنسان مميز وغير عـادي أوتي الحكمـة وفصل الخطاب، وهو نبي قـدم لنا المعاني الحـقيـقيـة للتـشريع والحياة الموعودة، وهم يؤمنون بمبدأ حرية الإرادة البشرية.

ورغم انحسار المد السوسيني نتيجة التشريعات المناهضة لهم، وحل مؤسسـاتهم إلا أن بعض البـاحثين يذكر أنهم كـانوا يعقدون اجتماعات على نحو سري، والتحق عدد منهم بالكنائس الكلفنية وراحوا يبثون عقائدهم سرا وبحذر شديد.

ورغم قـمع هذه الحـركـة فقـد ظلت الكنيسـة الكاثوليكيـة الأوروبيـة تخشى من انتـشـار أفكارها. لذلك بدأ بالنص على فكرة التثليث بعد ذلك في أسمـاء التجـمعـات الكنسـية وركزت الجهود الكنسية نشاطها بين المسيحيين التابعين للدولة العثمانية. وظل هذا واضحا حتى القرن الثامن عشـر، بل والقـرن التـاسع عـشر. فـفي سنة ١٨٠٧م تم إنشـاء كـاتدرائيـة الثالوث الأقـدس Holy Trinity Cathedral وكـان فونتـو Battista Fonto Giovanni يتـخـذ من اسطنبول مقرا دائما ويعمل بحرية شبه كاملة بين كاثوليك الدولة العثمانية.

ورغم كل هذه الاحـتيـاطات التي اتخذتـها كنائس أوروبا ضد الأفكار السوسينية، فإنها لـم تنـدثـر، فـقـد اعـتـنق المفـكرون الإنجليـز: جـون بـدل (١٦١٦-١٦٦٢م) وجـون لـوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) وبرسـتـلي (١٧٣٣-١٨٠٤م) وبلشـام (١٧٥٠-١٨٢٩م) أفـكـارا

لا تبعد كثيرا عن أفكار السوسينية.

وإذا كانت حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر ورفاقه في القرن الساس عشر، كانت فيما يرى لامبرت امتدادا لما كان يسمى بحركات الهرطقة في العصور الوسطى فهل يمكننا القول إن الحركة المناهضة للتثليث ستتمخض عن حركة إصلاح جديدة في المسيحية؟ هذا ما ستبديه الأيام.

لقد كان القرن السادس عشر هو قرن تفجر الصراعات الدينية في أوروبا، لذا كان من الطبيعي أن تظهر الحركة المناهضة للتثليث بمثل هذه القوة في هذا القرن بالذات، رغم وجود جذور لها في المسيحية. فالإسلام يقدم المسيحية من خلال القرآن الكريم على أنها ديانة توحيد، وأن ما اعتراها من فساد كان نتيجة الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليبتغوا به ثمنا قليلا. كما شهد تاريخ المسيحية الباكر خلافات مذهبية حادة حول طبيعة المسيح عليه السلام، لا تزال أصداؤها حتى اليوم، ولعل أشهر هذه الخلافات الأولى تلك التي كانت بين آريوس وأثناسيوس، لكننا بصدد بحث تاريخي في المقام الأول كما أن تفاصيل ما حدث في القرون الأولى للمسيحية تخرج عن نطاق هذا البحث.

فإذا ما عدنا للتحليل الاجتماعي للبيئة الأوروبية لمعرفة مبررات ظهور هذه الحركة المناهضة للتثليث، بمثل هذا التجلي والوضوح في هذا القرن بالذات، فإننا نجد عدة عوامل قد تقدم لنا بعض التفسير لذلك:

أولاً: أن النهضة الأوروبية كانت – في كثير من جوانبها – مراجعة للأفكار التي كانت مألوفة وسائدة في مختلف مجالات الحياة، فقد تأكد الأوروبيون على سبيل المثال من كروية الأرض بعد تمام رحلة ماجلان ١٥٢٢م، وكانت هذه الفكرة تحاربها الكنيسة الكاثوليكية، وثبت أن الأرض هي التي تدور حول نفسها فينشأ عن دورانها الليل والنهار، وما هكذا كانت تقول الكنيسة. كل هذا ومثله كثير جعل الأوروبيين يعيدون التفكير في أمور كانت تبدو في وقت من الأوقات في حكم المسلمات. ولم يكن الإنجيل استثناء من هذه القاعدة، فقد وجدنا إرازم كما أشرنا في هذا البحث يعود للنسخ الإنجيلية القديمة غير مكتف بالنسخة التي اعتمدتها الكنيسة، ووجدنا ترجمات جديدة للإنجيل كثر عددها وفهم منها

مارتن لوثر على سبيل المثال في مرحلة من مراحل تفكيره تحريم الربا، وفهم منها أوشينو جواز تعدد الزوجات. فلم يكن بدعا إذن أن يظهر من يفهموا منها خرافة التثليث. وقد أفاضت الكتب الأجنبية والعربية التي تناولت تاريخ أوروبا الحديث منذ عصر النهضة في الحديث عن التحرر الفكري وانتشار مبدأ أفكر لأعتقد، وليس العكس بمعنى أعتقد لأفكر، وظهور حركة إحياء العلوم وتطور الروح الفردية وما إلى ذلك. كل هذا وغيره هيأ ومهد لظهور حركات إصلاحية دينية. وإذا كان الأوروبيون ينظرون لحركة لوثر كحركة إصلاح ديني، وإلى الحركة المناهضة للتثليث كحركة دينية يصفونها بالكفر والهرطقة ويضعونها في مكان أقل أهمية من الناحية الدينية فمن السخرية أن ننظر نحن المسلمين لهذه الحركة نظرتهم نفسها إليها.

ثانياً: أنه منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والقارة الأوروبية كلها عرضة لتأثيرات إسلامية واضحة، في مختلف المجالات لم تحظ بدراسة كافية، فقد وجدنا لورد أكتون يقرر بوضوح أن التاريخ الأوروبي الحديث يبدأ تحت مطارق **العثمانيين**. وقد أظهرت الوثائق الأوروبية التي راجع الكثير منها بعض الباحثين الأوروبيين أن كثيراً من المناطق الأوروبية كانت تستنجد **بالعثمانيين** إذ كان يطلب أهلها بأنفسهم الفتح العثماني تخلصا من حكم مسيحيين يخالفونهم في المذهب، أو مسيحيين يسومونهم سوء العذاب، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أهل كريت توسلوا إلى **العثمانيين** لفتح ديارهم، كما يؤكد ذلك الباحث الغربي كولز. كما نظر أهل المورة للعثمانين كمخلصين، بعد أن سئموا سيطرة البنادقة الكاثوليك. وقد كان وصول **العثمانيين** لساحل دلماشيا واستقرارهم فيه منذ القرن الخامس عشر، حدثا جللا أثر على سائر أنحاء أوروبا.

وكانت أوروبا كلها منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، وربما بعد ذلك تتابع الصراع بين المسلمين والكاثوليك، في البحر المتوسط خاصة، مع اختلاف وجهات نظرهم إزاء هذا الصراع بطبيعة الحال. فبينما كان عدد من البروتستنت (بعد ظهور البروتستنتية) يرى في إسبانيا الكاثوليكية حامية للمسيحية بمذاهبها المختلفة، أو على الأقل لا يتمنى هزيمتها أمام **العثمانيين**، ومجاهدي البحر المتوسط. كان هناك عدد آخر من

البروتستنت يرى في الصراع بين المسلمين والكاثوليك الإسبان، صراعا بين شيطانين، ويتمنى أن يذهب كلاهما - المسلمون والكاثوليك - إلى حيث لا عودة. وفي وقت من الأوقات كان البروتستنت يجدون في مناطق أوروبا الشرقية الخاضعة للعثمانيين ملجأ وملاذا لهم هروبا من الاضطهاد الديني.

فإذا ما تركنا شرق أوروبا وانتقلنا إلى غربها، وجدنا حقائق أخرى مذهلة، أثبتتها الوثائق التي كشف عنها الباحثون الغربيون، وهي أن الشعب الإسباني كان معارضا لإخراج المسلمين بعد سقوط غرناطة، وأن أصحاب الأراضي والأعمال ظلوا متمسكين بالعاملين المسلمين لديهم، حتى مطلع القرن السابع عشر، وأن طرد المسلمين كان عملا كنسيا خالصا، وأن الشعب الإسباني كان متعاطفا فقط مع إخراج اليهود لاشتغالهم بالربا وامتصاصهم دماء الشعب الإسباني. ويهمنا في هذا الصدد أن عدد كبيرا من المسلمين الإسبان قد خرجوا عبر البرانس إلى الأراضي الفرنسية ولاقوا في سفرهم هذا نصبا، وقد تمركزوا في سواحل فرنسا الجنوبية حيث رحلوا بعد ذلك إلى الشمال الإفريقي، وانضم عدد كبير منهم إلى حركة مجاهدي البحر المتوسط.

أبقي بعد هذا شك في أن أوروبا في مطلع العصور الحديثة لا بد أن تكون تأثرت بالفكر الإسلامي، أو على الأقل اطلعت عليه، بشكل أكثر وضوحاً؟ فقد غدا الاسلام بالنسبة لأوروبا بعد سقوط القسطنطينية وتمركز المسلمين في شرق أوربا، أقرب إليها من حبل الوريد، كما أن طبيعة العصر أتاحت لأكبر عدد ممكن من الباحثين والمثقفين، بل والناس العاديين، معرفة أمور عن الإسلام، ما كانت لتتاح لهم معرفتها قبل ذلك. كل هذا يجعلنا لا نستبعد وجود تأثيرات إسلامية على الحركات الإصلاحية الدينية الأوروبية عامة، والحركة الأوروبية المناهضة للتثليث خاصة.

بقي القول إن أحد الباحثين العرب المتخصصين في تاريخ أوروبا الحديث قد أشار إلى وجوب أن يكتب التاريخ الأوروبي الحديث من وجهة نظر إسلامية عربية تماما كما يكتب الأوروبيون تاريخنا الإسلامي من وجهة نظرهم. فمن غير المنطقي أن نسمي بالهرطقة ما يسمونه هرطقة ففي هذا تبعية، وبعد عن الأصالة. ولو أخذنا بهذا المنطق، لباركنا حركة

الاستعمار لأنهم يباركونها، ولأسمينا المسلمين الأوروبيين كفرة. لأنهم يسمونهم كذلك، فهذا البحث رغم تواضعه دعوة للأصالة في كتابة التاريخ"[١].

* * *

وفوليتر، الذي وصفه لويس السادس عشر بأنه زعيم الهراطقة، ونسبت إليه الثورة الفرنسية لفرط تأثرها به، كان يؤمن بوجود الله سبحانه، لكنه لم يكن مقتنعاً بالكنيسة.

« .. وحين اقتنع باني لست ادري ما أنا، ولا استطيع أن اعرف من خالقي، اجد جهلي يضنيني، واسلي نفسي اذ أفكر، دون انقطاع، بأنه لا يهمني أن اعرف ما اذا كان خالقي موجوداً في المتسع ام لا، اذا انا لم افعل شيئاً يناقض الوجدان الذي منحني اياه. واذا سئلت: من بين جميع الانظمة الالهية التي اخترعها الانسان، ايها سأعتنق؟ اجبت: لن اعتنق اياً منها، بل سأعبد الله.. »[٢][*]

ألأنه لا يؤمن بالتثليث أسميه مهرطقا؟! إنه مهرطق من وجهة نظر كاتب لا يؤمن بافكاره، فما دخلي أنا؟ ولم أجعل القارىء العربي يفهم أن الرجل لا يؤمن بالله؟.

والعالم لا بأس عندما ألّف بحثا عن نظام الكون سأله نابليون: من فعل كل هذا؟ وهو سؤال يعني أنه لا بد من فاعل، فالكلمة atheist وإن كانت تعني الملحد حرفيا أي غير المؤمن بوجود إله إلا أنها في حاجة إلى عبارة شارحة في كل جملة ترد فيها. وفي هذه العجالة نورد نبذة عن أثر الإسلام في العقيدة المسيحية الأوروبية:

« .. ثم إن انتشار روح عصر التنوير في أوروبا راح يطرد شبح الأحكام السلبية، المسبقة والجذرية المرتكزة على كليشيهات الدفاعات الدينية المبتورة والباترة. فقد أصبح الدين الإسلامي بالنسبة للفلاسفة عمل مشرع فطن. ويمكن للإسلام أن يقارن نفسه بالمسيحية دون أي عقدة نقص. على العكس. فهو يتميز على المسيحية بأنه يلجأ أقل منها إلى عالم الأسرار والعجيب الخلاب. كما ويتميز بأنه يعترف بالعقائد الأخرى ومشروعيتها. ولكنه

---

(١) مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود مجلد ١٤ (٢) ٠٧ ١٤هـ/١٩٨٧ ص ص٥٦٣-,٥٨٨

(٢) أندريه كريسون: فولتير، ترجمة صلاح محي الدين. بيروت، منشورات عويدات، ص١١٦-١١٧.

(*) يبقى النص المنقول كما هو من غير تصحيح الأغلاط اللغوية أو النحوية أو الإملائية، حيثما ورد. (المصحّح اللغوي).

على الرغم من كل ذلك مطبوع بطابع التعصب كبقية الأديان. وفولتير، بعد أن جعل من مؤسس الإسلام المثال النموذجي على الرجل الدنيوي الذي استغل بساطة معاصريه (انظر مأساة محمد ١٧٤١). راح يقارن بين تسامح المسلمين وتعصب المسيحيين. (انظر كتابه مقالة في الأخلاق ١٧٥٦) وهو بذلك يضرب أكبر مثل على الغموض والازدواجية فيما يخص الموقف من الإسلام. وبعد صدور كتاب مونتسكيو "روح القوانين" (١٧٤٨) صورت الدولة التركية على أساس أنها تُجَسِّد نموذج الاستبداد بالذات. وأما فيما يخص رجال الممارسة والانخراط فإنهم لا يهتمون بالطبع كثيراً بعملية الفهم بقدر ما يهتمون بمعرفة المصادر المادية ونقاط القوة والضعف لهذه البلاد. فهي لا تبدو مواضيع للمعرفة بقدر ما تبدو مصدراً محتملاً للفائدة والقوة. ثم تبدو كأرض للمغامرة. وهنا نلتقي بذلك الجزء من الحلم الذي طالما هيمن على روح بونابرت شاباً..."[1]

وتشير بعض المراجع التي كتبها فرنسيون إلى هجرة إسلامية إلى جنوب فرنسا بعد سقوط غرناطة، وأن هؤلاء المسلمين "تقية" منهم اعتنقوا المسيحية، لكن ها نحن نرى جيرونديين في الثورة الفرنسية يسعون إلى إغلاق نوادي القمار ويسعون لتحريم الميسر، وأصدرت الثورة بالفعل مرسوما بذلك، لكنه سرعان ما أصبح حبرا على ورق. وعن هذه الهجرة الإسلامية الباكرة إلى فرنسا نقرأ:

".. وكانت الهجرة الرابعة التي نحن بصدد الحديث عنها على شكل موجة جماعية هامة العدد نتجت عن طرد العرب المسلمين والإسبان المسلمين من إسبانيا. يبدو أن هؤلاء كانوا قد تحولوا إلى المسيحية منذ قرنين خشية العذاب والتنكيل والقمع، ولكنهم استمروا على دينهم الإسلامي بسرية اعتماداً على مبدأ التقية.

علم ملك اسبانيا، فيليب الثالث، أن هؤلاء يمارسون الدين الاسلامي بسرية، وأنهم يحتفلون بالأعياد الاسلامية. وفي العاشر من كانون الثاني / يناير ١٦١٠، أصدر مرسوماً ملكياً يمنحهم مهلة ٣٠ يوماً، ثم خفضها إلى ٢٠، لمغادرة إسبانيا. هاجر خمسمئة الف منهم إلى بلاد المغرب العربي، وشغلوا بصورة فورية مناصب هامة، ذلك لأنهم شكلوا،

---

(١) جان فريمو، فرنسا والاسلام من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح ص ص ٢٢-٢٤ .

بسبب ثقافتهم ومعرفتهم تياراً جديداً في البرجوازية المحلية. وتوجه مئة وخمسون ألفاً نحو الشمال، إلى فرنسا. عاد ثلاثون ألفاً منهم، فقط، إلى بلاد المغرب العربي أو إيطاليا عن طريق البحر، وكان هؤلاء من الأغنياء الذين يملكون نفقات السفر. أما الباقون، مئة وعشرين ألفاً، فقد استقروا في الجنوب الفرنسي. توجد الكثير من المخطوطات التي تتحدث عن هذه الحلقة من التاريخ الإسلامي، الفرنسي. كتب الماركيز فوسل إلى ملك فرنسا: " يعلم جلالتكم أن جميع لاجئي إسبانيا المسلمين قد عبروا الحدود، يصل عددهم إلى مئة وثلاثة وثلاثين ألفاً". وفي مذكرة أرسلها الماركيز فيزيو إلى الملك، نستطيع أن نقرأ: "اليوم، ٢٨ كانون الأول / ديسمبر ١٦١٠، وصلتني رسالة من الماركيز دوسان جيرمان الذي يبحث عن وسائل لنقل عدد المسلمين الأندلسيين الذين يتمنون اللجوء إلى فرنسا". وفوراً، أصدر الملك أوامره باستقبال هؤلاء القادمين، كلاجئين وليس كغزاة، استقبالاً حسناً..."[١]
ويلاحظ القارىء أن الثورة الفرنسية كانت حريصة على أن يكون لها ثلاثة شعارات (حرية وإخاء ومساواة) وكان ذلك لإحلالها محل الأقانيم المسيحية الثلاثة (آب وابن وروح قدس) وكانت حريصة على التخلص من التقويم المرتبط بميلاد المسيح عليه السلام، فابتدعت تقويما جديداً، كما كانت حريصة على إقامة مهرجانات لتوقير الكائن الأسمى أو الموجود الأعلى Supreme being، وبعض الثوار مزقوا الأناجيل. وتحدثوا عن "خرافات" العهدين القديم والجديد، وبالغ بعضهم في ذلك، وفي وقت من الأوقات شكلت لجان لضبط السلوك، وجرت محاولة لإغلاق بيوت الدعارة... لقد كانت لجانا شبيهة بلجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنها لم تستمر فقد كانت هناك قوى أخرى ذات بأس أشد. نخلص من هذا إلى أن الثورة الفرنسية كانت في جانب من جوانبها استمرارا لحركة الإصلاح الديني التي انطلقت في أوروبا منذ القرن السادس عشر، وأن عداوة الثوار للكنيسة كانت أكثر بكثير من عداوتهم للملكية، وقد عادت الملكية بالفعل، وطالب بها كثيرون، لكن الكنسية لم تعد أبداً لسابق هيمنتها، ولم تسترد أبداً أموالها وأوقافها. وركز الباحثون العرب على معاداة الثوار للملكية، لكنهم أغفلوا الشق الثاني والأهم وهو امتعاضها من الإكليروس أو

(١) فرنسا والأديان السماوية تاليف حسين عبدالقادر، نشر مركز الدراسات العربي الأوروبي.

رجال الدين المسيحي، وبسبب هذا التركيز لم تحظ الثورة الفرنسية بالدراسة المتأنية الشاملة الحصيفة في عالمنا العربي، لأسباب لا تخفى، وهذا الكتاب يسد هذه الثغرة. وإذا كان مما زاد من أهمية الكتاب أن مؤلفه قد كتبه وهو في السبعينات من عمره، فلعلّ مما يزيد من أهمية هذه الترجمة أن المترجم قد أنجزها وهو في الخامسة والخمسين من عمره، وأظنه سنا يسمح بالبحث عن المعاني وعدم الاكتفاء بظاهر الحرف أو الكلمة.

بقي الحديث عن مصطلح آخر أسيء نقله إلى العربية أيضاً، ذلك أن الفرنسيين في هذه الفترة كانوا يطلقون لفظ philosophes أو الفلاسفة تجاوزا، على طائفة من الخطباء والمثقفين والأدباء ليسوا بالضرورة "فلاسفة" بالمعنى الضيق للكلمة philosophers، ومن هنا فترجمة المصطلح philosophes في هذه الفترة بالذات لا يعني أكثر مما نعنيه بقولنا "مفكرين" أو "مثقفين" .... الخ.

وقد نبه إلى هذا بعض من كتب عن الفلسفة الفرنسية، وهاك قبسٌ ممن نبهوا على ذلك:

« .. ينبغي أن يقال في مبدأ الأمر أنه لا الفلسفة تنفصل عن ضروب النشاط الإنساني الأخرى، ولا فرنسا تنفصل عن غيرها من الأمم. والواقع أن القرن الثامن عشر الفرنسي حين أطلق اسم الفلاسفة على رجال كانوا في حقيقة الأمر أدباء أكثر منهم فلاسفة، فإنه جعلنا نشعر - عن حق تماما - بأن الفلسفة ليست مجالا مقصورا على أشخاص محترفين. وعلى هذا ينبغي أن يحسب أي تاريخ للفلسفة الفرنسية حسابا لأدباء عظام من أمثال مونتاني وروسو.

وتاريخ الفلسفة الفرنسية لا ينفصل - بخاصة - عن تاريخ العلم، فديكارت - مثلا - لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى العلم في عصره، وإلى جاليلو، كما لا يمكن أن يفهم فولتير دون نيوتن، أو بوترو Boutroux دون هنرى بوانكاريه ..Henri Poincaré»[1].

* * *

(١) الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، تاليف جان فال. ترجمة فؤاد كامل. مراجعة زكريا ابراهيم. القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع. ص٣.

ومن الطبيعي أن نخصص عدة فقرات في هذه المقدمة للحديث عن المؤلفين: إنهما ول ديورانت Will Durant وزوجته أريل Ariel Durant . ولد ول في نورث آدمز North Adams في ولاية ماساشوستس Massachusetts بالولايات المتحدة الأمريكية في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٥ وتلقى تعليمه في المدارس الأبرشية الكاثوليكية هناك، ثم في كيرني Kearny فنيويورك، ثم التحق بكلية القديس بطرس (بيتر Peter) وهي كلية جزويتية (ومعناها أنصار يسوع أو اليسوعيون) في مدينة جيرسي Jersey بولاية نيوجيرسي ثم التحق بجامعة كولومبيا. وكان يعمل في أثناء الصيف مراسلاً مبتدئا لصحيفة نيويورك New York Journal لكن هذا العمل لم يكن متمشيا مع طبيعته فالتحق بكلية سيتون هولSeton Hall في سوث أورانج South Orange في ولاية نيوجيرسي مدرساً للاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة المستوية في الفترة من ١٩٠٧ إلى ١٩١١ . وفي سنة ١٩٠٩ التحق بالمعهد اللاهوتي في سيتون هول لكنه انسحب منه في سنة ١٩١١ . وفي الفترة من ١٩١١ إلى ١٩١٣ عمل مدرسا في إحدى مدارس الفرير الحديثة. وفي سنة ١٩١٢ قام بجولة في أنحاء أوروبا على نفقة صديقه ألدن فريمان Alden Freeman فلما عاد إلى مدرسة الفرير الآنف ذكرها أحب إحدى تلميذاته فتزوجها في سنة ١٩١٣، وهي من مواليد روسيا في ١٠ مايو سنة ١٨٩٨ . درس ول أيضا علم الأحياء (البيولوجيا) في جامعة كولومبيا كما درس الفلسفة وفي سنة ١٩١٧ حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة وعين في جامعة كولومبيا فدرّس فيها الفلسفة لمدة عام واحد. وفي سنة ١٩١٤ كان قد بدأ في إلقاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ والأدب والفلسفة مرتين في الأسبوع طوال ثلاثة عشر عاما، وذلك في الكنيسة البروتستانتية المسيحية في نيويورك. وقد شكلت هذه المحاضرات نواة كتبه الأخيرة ومنها كتابنا هذا.

وفي سنة ١٩٢٦ صدر كتابه "قصة الفلسفة" فلاقى نجاحا لم يكن يتوقعه، فخصص هو وزوجته أريل ما بين ثماني ساعات وأربع عشرة ساعة يوميا لتأليف كتاب "قصة الحضارة" وهو الكتاب الذي يمثل الحادي عشر الذي بين أيدينا. ولم يكتف المؤلفان بالاعتماد على المراجع والكتب وإنما هيأا نفسيهما بزيارة أوربا والتجول فيها سنة ١٩٢٧، وقاما بجولة حول

العالم في سنة ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان، وقاما بجولة أخرى حول العالم في سنة ١٩٣٢ زارا خلالها اليابان ومنشوريا وسيبيريا وروسيا وبولندا، وكانت هذه الزيارات العلمية بالإضافة إلى المصادر المكتوبة هي أساس كتاب (تراثنا الشرقي Our Oriental heritage) الصادر سنة ١٩٣٥ كمجلد أول لكتاب قصة الحضارة الذي بين أيدينا . وقاما بزيارات أخرى لأوروبا تمهيداً لإصدار (حياة اليونانيين The Life of Greece) في سنة ١٩٣٩، و (قيصر والمسيح Caesar & Christ) في سنة ١٩٤٤ . وفي سنة ١٩٤٨ قضيا ستة أشهر في تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا لتجهيز مادة حية لكتاب (عصر الإيمان The Age of Faith) الذي صدر سنة ١٩٥٠ ثم زارا إيطاليا تمهيدا لإصدار كتاب (عصر النهضة The Renaissance) في سنة ١٩٥٣، ثم كتاب (عصر الإصلاح الديني The Reformation) في سنة ١٩٥٧ . وعند تأليف كتاب (عصر العقل The Age of Reason) وجد وِلْ أنه من العدل أن يكتب اسم زوجته معه على صفحة العنوان، وهكذا استمر اسمها إلى جوار اسمه في كتاب (عصر لويس الرابع عشر The Age of Louis XIV) الصادر في سنة ١٩٦٣ و(عصر فولتير The Age of Voltaire) الصادر في سنة ١٩٦٥ وكتاب (روسو والثورة Rousseau & revolution) و (عصر نابليون) وهو الكتاب الذي بين أيدينا، والذي صدر في سنة ١٩٧٥ . وماتت أريل في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٨١ وهي في الثالثة والثمانين من عمرها ولم يعش بعدها ول كثيرا فقد مات بعد موتها بثلاثة عشر يوما في ٧ نوفمبر وقد بلغ من العمر ستا وتسعين عاما . وكانا قد نشرا كتابا عن قصة حياتهما في ١٩٧٧ .

بقى القول إنني استعنت بطائفة من القواميس للتحقق من بعض المصطلحات من اللغات الأوروبية الأخرى غير الانجليزية، فرجعت إلى معجم: Hamlyn Italian dictionary إيطالي - إنجليزي، وإنجليزي - إيطالي، للتحقق من كلمة أو كلمتين ومعجم يوسف رضا "الكامل الوسيط" فرنسي عربي لمطابقة المصطلح الفرنسي الذي دخل الإنجليزية رغم وروده في المعاجم الإنجليزية، وإلى بعض كتب القانون للتحقق من المفهوم القانوني لبعض المصطلحات التي لم ترد في القواميس، وقد نقلت عن هذه الكتب ما يراه القارىء مدرجا في الحواشي،

وأفادني معجم الفاروقي كثيرا في مجال المصطلح القانوني والسياسي، أما ما ورد من مصطلحات علمية قليلة فقد اعتمدت فيها المقابل العربي كما ورد في معجم الخطيب للمصطلحات العلمية.

وأخيرا فإنني أشكر المجمع الثقافي (بأبوظبي) وأمينه العام الأستاذ محمد السويدي، لحسن اختيارهم هذا المرجع الناضج المهم، لإكمال هذه الموسوعة التي سبقني إلى ترجمة أجزائها السابقة إخوة أفاضل. والله من وراء القصد.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

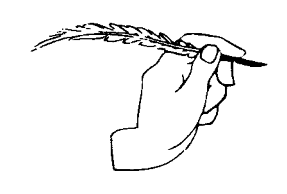
كتب ديورانت (ول)

ـ قصة الفلسفة	The Story of Philosophy
-التحول	Transition
-مباهج الفلسفة	The Pleasure of philosophy
-مغامرون في بحار العبقرية	Adventurers in Genius

كتب ول ديورانت وزوجته أريل

● قصة الحضارة :

١– تراثنا الشرقي	Our Oriental heritage
٢– حياة اليونانيين	The life of Greece
٣– قيصر والمسيح	Caesar & Christ
٤– عصر الإيمان	The Age of Faith
٥– عصر النهضة	The renaissance
٦– عصر الإصلاح الديني	The Reformation
٧– بداية عصر العقل	The Age of Reason begins
٨– عصر لويس الرابع عشر	The Age of Louis XIV
٩– عصر فولتير	The Age of Voltaire
١٠– روسو والثورة	Rousseau & Revolution
١١– عصر نابليون	The Age of Napoleon
● عبر التاريخ	The Lessons of history
● تفسير الحياة	The Interpretation of Life
● سيرة حياتيْنا	A Dual Autobiography



إلى ابنتنا إثيل

To Ethel

توطئة

ورد في الموسوعة البريطانية (١٦ / ١٠أ) أن "ما كتب عن نابليون حتى منتصف القرن العشرين زاد على مائة ألف مجلد" فلم إذن نضيف إلى هذا الكم الهائل كتابا آخر؟ ولا نجد سببا نقدمه خيراً من القول بأن الموت reaper قد تحاشانا، فصرنا بعد سنة ١٩٦٨ نعيش حياة سلبية، ونقرأ قراءات غير موجهة فاعترانا القلق من هذا الفراغ التافه الذي لم نعتد عليه. ولكي نجعل لأيامنا هدفا ونخضعها لبرنامج قررنا أن نعكف على عصر نابليون(١٧٨٩–١٨١٥) بمنهجنا الأثير الذي ندرس به التاريخ بشكل متكامل – فرحْنا ننسج في سياق واحد الجوانب المهمة كلها في الحضارة الأوروبية في هذه السنوات السبع والعشرين: الحكم والحرب والاقتصاد والأخلاق والعادات والدين والعلم والطب والفلسفة والأدب والدراما والموسيقا والفن، لتظهر جميعا كعناصر في صورة واحدة حية، وكأجزاء متفاعلة في كل واحد متكامل متحد. سنرى رئيس الوزراء وليم بت William Pitt يأمر بالقبض على المؤلف توم بين Tom paine وسنعرف عن الكيميائي لافوازيه Lavoisierوعن شارلوت كورادى Charlotte Corday وهي تعتلي المقصلة، وعن الأدميرال نيلسون Nelson وهو يتخذ لادي هاميلتون Lady Hamilton خليلةً له، وسنعلم كيف تنبأ جوته Goethe بأحداث قرن بعد معركة فالمي Valmey، وحماس ورزسوورث Wordsworth للثورة الفرنسية، وحماس بايرون Byron لليونانيين، وسنرى كيف راح شيلى Shelly يعلم التعاليم المخالفة للكاثوليكية (النص: الإلحاد(*)) لأساقفة أكسفورد. ومدرسي الكليات الإكليريكية، وسنطالع عن نابليون وهو يحارب الملوك ويسجن البابا، ويضايق الأطباء والفلاسفة ويصحب خمسين عالما وباحثا ليغزو مصر أو يستكشفها ويستلهمها فاقداً اهداء بيتهوفن للإيرويكا(**) Eroica من أجل الإمبراطورية. لقد راح يتحدث في الدراما مع تالما Talma وفي الرسم مع ديفيد وفي النحت مع كالوفا وفي التاريخ مع ويلاند Wieland وفي الأدب والفكر مع جوته وخاض الحروب طوال خمسة عشر عاما مع مدام ستيل Stael تلك

(*) راجع مقدمة الترجمة العربية

(**) سيمفونية البطولة.

المرأة التي يمكن الوصول إليها بسهوله لكنها لا تقهر(*).

لقد أيقظتنا هذه الرؤية من الكسل والخمول اللذين اعترياننا وقد تجاوزت السبعين لنعود بتهور إلى دراساتنا التي نتخذها هواية ولنصور هذا العصر المثير الحافل بالأحداث ونتناوله ككل حي. أسوف نعترف بذلك؟ - لقد تعلمنا منذ مرحلة المراهقة رأيا حكيما بعيد النظر وهو أن نابليون ليس مجرّد مثير حرب طاغية لكنه أيضا فيلسوف قلما يخدعه التظاهر، وسيكلوجي لم يتوقف عن دراسة الطبيعة البشرية، سواء طبيعة الأفراد أم طبيعة الجموع. وكان أحدنا من الجسارة بمكان بحيث ألقى عشر محاضرات عن نابليون في سنة ١٩٢١، وطوال ستين عاما رحنا نجمع ما كتب عنه حتى إن بعض مراجعنا كانت في وقت من الأوقات مفيدة، وأصبحت الآن في حكم الميتة.

والآن فهذا جهد خمس سنوات عددا لكنه جهد كفيل بملء عمر بأكمله. إنه كتاب طويل جدا في مجمله، لكن كل جزء من أجزائه مختصر وغير كاف. فلم يجعلنا نعلن عن هذا الكتاب سوى الخوف أن يدهمنا الموت المتربص (النص: الحصادة المتربصة أو آلة الحصد المتربصة). ونحن لا نوجه هذا الكتاب للمتخصصين الذين لن يجدوا فيه جديدا لكن لأصدقائنا أينما كان مكانهم والذين صبروا معنا أعواما كثيرة، قد يجدون فيه بعض اللحظات التنويرية أو الفانتازيا المبهجة.

ول ديورانت

أريل ديورانت

(*) ليس المقصود أنها حاربت معه كجندي أو خاضت الحروب فعلاً. (المترجم)

شكر وعرفان بفضل

نوجه الشكر أولاً لابنتنا إيثل ديورانت كي Ethel Durant Kay التي لم تكتف بطباعة المخطوط على الآلة الكاتبة بدقة، وإنما غالبا ما كانت تحسنه بتصويباتها واقتراحاتها. لقد كانت صبورة وشريكا مساعدا لنا في كل مرحلة من مراحل مشروعنا.

وإلى صديقينا العزيزين آرثر يونغ Arthur Yong وجالا كورليف Gala Kourlaeff اللذين أعارانا كتبا قيمة من مجموعتيهما الخاصة.

وإلى مكتبة لوس أنجلوس العامة خاصة فرع هوليود Hollywood والعاملات في غرفة المراجع ونخص منهم السيدة إديث كروكشانك والسيدة إليزابيث فنتون.

وإلى ج كريستوفر هيرولد، فإن كتبه عن نابليون ومدام دي ستيل Stael كانت بالنسبة لنا كنزا أنار لنا الطريق ولي ليزلي أ. ماشاند؛ فمجلداته الثلاثة عن بايرون Byron قد خففت بما حوته من ثروة معلوماتية من الإدمان البايروني الذي كان بالفعل مستعراً في سنة ١٩٠٥ عندما دعا ول ديورانت ربه أن يطلق سراح الشاعر الأعرج ويخرجه من الجحيم.

وإلى فيرا شنيدر التي استفاد كتابنا كثيرا من جهدها، لأنها طوال شهور طوال استغرقتها عملية التحرير استحضرت دقتها الدراسية ومجالات اختصاصها كلها.

وإلى صديقنا العزيز فيرناند كونت دى سان سيمون الذي أعطانا كثيراً جداً من وقته لإرشادنا في باريس في زياراتنا لنابوليونايا وفرساي ومالميزون **Malmaison**.

وفي الأحوال كلها فقد وجدنا في الحياة وفي التاريخ كثيرا من الرجال الطيبين والنساء الطيبات حتى إننا طرحنا جانبا أي قول عن مكر البشر.

ملحوظة: في النصوص المقتبسة الحروف المائلة التي يقصد بها التأكيد ليست من عندنا ما لم ينص على ذلك. الفقرات الفاترة غير الأساسية في مسار الكتاب كتبت بحروف صغيرة.

مقارنة قيمة العملات

من غير الممكن إيجاد صيغة متماسكة: العملات التي تحمل الأسماء نفسها الموجودة الآن، والتي كانت موجودة منذ مائتي عام كان لها قيمة شرائية أكثر كثيرا من قيمتها الحالية، لكن في بعض الأحيان كانت قيمتها أقل. التاريخ تضخمي (من التضخم أي كثرة النقود على قلة قيمتها) على الأقل من ناحية تخفيض قيمة العملة بشكل متكرر كطريقة قديمة لسداد ديون الحكومة، لكن فكرة أن البضائع (المنتجات) كانت تكلفتها في الماضي أقل من تكلفتها الآن ربما تقرب المسافة (تسحر المسافة على وفق النص the enchantment of distance). وبلغة العمل من المطلوب تحصيل (أو كسب) المال (النقود) لنشترى بها ما هو أغلى منها (ما يكلف أكثر من قيمتها). وعلى العموم، فمع كثير من الاستثناءات والاختلافات بين الدول، سنقدم ما يوازي قيمة بعض العملات الأوروبية في سنة ١٧٨٩ من عملة الولايات المتحدة في سنة ١٩٧٠، كالتالي:

الكرون ٦,٢٥ دولار، الدوكات ١٢,٥٠ دولار، الفلورين ٢,٥٠ دولار، الفرنك ١,٢٥ دولار، الجروشن 1/4 groschen سنت، الجلدر 5.25 guilder دولار، الجينيا 26.25 guinea دولار، الجولدن 5 gulden دولار. الكروزر 1/2 kreuzer سنت، الليرا 125 Lira دولار، الليفر 1.25 Livre دولار، لويس دور 1.25 Louis d'or دولار. المارك ١,٢٥ دولار، البوند 25 pound دولار، الشلن ١,٢٥ دولار، السو 5 Sou سنتات، التالر 5.25 thaler دولار.

الكتاب الأول

الثورة الفرنسية

[١٧٨٩ ـ ١٧٩٩]

الفصل الأول

خلفية الثورة



أحوال فرنسا قبيل الثورة

١- الشعب الفرنسي :

كانت فرنسا هي أكثر أمم أوروبا سكاناً وأشدها ازدهاراً، فقد كان عدد سكان روسيا في سنة ١٧٨٠ هو ٢٤ مليون نفس، وإيطاليا ١٧ مليونا، وأسبانيا ١٠ ملايين وبريطانيا العظمى ٩ ملايين، وبروسيا ٨٫٦ ملايين، والنمسا ٧٫٩ ملايين، وأيرلندا ٤ ملايين، وبلجيكا، ٢٫٢ مليون، والبرتغال ٢٫١ مليون، والسويد ٢ مليون، وهولندا ١٫٩ مليون، وسويسرا ١٫٤ مليون، والدنمرك ٨٠٠٫٠٠٠، والنرويج ٧٠٠٫٠٠٠ بينما كان عدد سكان فرنسا ٢٥ مليوناً[١]. وكانت باريس هي أكبر مدن أوروبا إذ بلغ عدد سكانها حوالي ٦٥٠٫٠٠٠ نفساً، كانوا هم الأفضل تعليما في أوروبا كلها، كما كانوا أكثر أهل أوروبا قابلية للهياج والثورة.

وكان الشعب الفرنسي مقسما إلى ثلاث طبقات: طبقة الإكليروس أو رجال الدين وكان عددهم يبلغ نحو ١٣٠٫٠٠٠ نفساً[٢]، وطبقة النبلاء[*] وكان عددهم يبلغ نحو ٤٠٠٫٠٠٠، وطبقة العامة وهي الطبقة التي لا ينتمي أفرادها لواحدة من الطبقتين الآنف ذكرهما. وكانت الثورة الفرنسية هي المحاولة التي بذلتها هذه الطبقة الثالثة (العوام) التي كانت مغموطة الحقوق السياسية رغم ازدهارها الاقتصادي، بغية الوصول إلى ما يتلاءم مع ثروتها النامية من سلطان سياسي وقبول اجتماعي. وكانت كل طبقة من هذه الطبقات الآنف ذكرها منقسمة بدورها إلى طبقات أو شرائح يعلو بعضها الآخر حتى إن كل فردٍ تقريبا كان يمكنه أن ينعم بالنظر إلى من هم دونه، أو بتعبير آخر كان في مكنة كل شخص تقريبا أن ينظر من عَلٍ إلى أشخاص هم دونه.

وكانت طبقة الهيئة الكهنوتية الكنسية - من كاردينالات ورؤساء أساقفة وأساقفة ورؤساء أديرة - هي أغنى الطبقات جميعاً، بينما كان القسس ومساعدوهم Pastors & Curates في الريف الفرنسي من بين أفقر خلق الله. ومن هنا وجدنا أنه في أثناء الثورة انضم الإكليروس من الرتب الأدنى درجة (كالقسس والرعاة الآنف ذكرهم) إلى عامة الشعب ضد سادتهم، وبذا طغى العامل الاقتصادي على العامل الديني[**]. وكانت الحياة في الأديرة

(*) أو الأشراف كما تكتبها بعض الكتب المؤلفة بالعربية.(المترجم)

(**) أو بتعبير آخر أدت المعاناة المشتركة التي عانتها طبقة عامة الشعب من ناحية، والشريحة الدنيا من طبقة رجال الدين، إلى اشتراكهم جميعاً في الثورة، فالمصائب يجمعن المصابينا، بصرف النظر عن كون هؤلاء عامة وأولئك إكليروس.(المترجم)

(حياة الرهبنة) قد فقدت بريقها، فطائفة الرهبان البنيدكتيين **Benedictins** الذين بلغوا في فرنسا في سنة ١٧٧٠م، ٦٤٣٤ راهبا قد تقلص عددهم في سنة ١٧٩٠ ليصبح ٤٣٠٠، وفي سنة ١٧٨٠ كانت تسع [أخويات] دينية (روابط أو تجمعات قائمة على أسس دينية) قد حلّت، وفي سنة ١٧٧٣ كان جماعة الجزويت(جماعة يسوع) قد تفككت وتدهورت أحوال الدين بشكل عام في المدن الفرنسية، فكانت الكنائس في كثير من المدن نصف خاوية، وفي الريف زاحمت العادات الوثنية والخرافات القديمة عقائد الكنيسة وطقوسها[٣]، مزاحمةً فعالة. وعلى أية حال فقد كانت الراهبات لا يزلن يكرسن أنفسهن لتعليم الدين والتمريض بحماس، وكن يحظين بتقدير الأغنياء والفقراء على سواء. وحتى في هذا العصر المتسم بالنزوع للشك والاتجاهات العملية كان هناك الآلاف من النسوة والأطفال والرجال الذين استعانوا على قسوة الحياة بالتقوى فراحوا يعزون أنفسهم بحكايات القديسين(*) وراحوا يخففون من حدة أيامهم الرتيبة المرهقة بممارسة الشعائر في الأعياد الدينية، وفي الاسترخاء، ووجدوا في الآمال الدينية ملاذاً يلوذون به ضد ما اعتراهم من ارتباك وقنوط.

وكانت الدولة تدعم الكنيسة لأن رجال الحكم بشكل عام كانوا متفقين على أن رجال الدين (الإكليروس) إنما يقدمون لهم عوناً لا غنىً عنه لحفظ النظام الاجتماعي. فقد كان رجال الدين (الإكليروس) يرون أن الاختلاف الخلْقي Natural بين الناس فيما يتمتعون به من مواهب، يجعل مما لا مناص منه أن تختلف حظوظهم من حيث الثراء، فقد بدا مهما لطبقة الملاك أن يستمر رجال الدين في تقديم نصائحهم للفقراء، تلك النصائح التي تحثهم على الإذعان المسالم لقاء دخول الفردوس تعويضا لهم عما يلاقون. وكان مما يعني كثيرا لفرنسا أن نظام الاسرة – وهو النظام الذي يدعمه الدين ويكثف أهميته – ظل كمرتكز للاستقرار الوطني في أثناء التقلبات كلها التي شهدتها الدولة. وأكثر من هذا فقد جرى الحث على الطاعة باستخدام عقيدة الحق الإلهي للملوك – سواء في تعيينهم ملوكا أم في مباشرتهم لسلطاتهم. وكان رجال الدين يغرسون هذه العقيدة في نفوس الناس، وشعر الملوك أن هذه الخرافة (الحق الإلهي للملوك) كانت عوناً ذا قيمة غالية لهم لضمان سلامتهم

(*) أو بتعبير آخر راحوا يطعمون خيالاتهم بحكايات القديسين.(المترجم)

الشخصية ولاستقرار حكمهم. لذا فقد تركوا لرجال الدين الكاثوليك معظم مؤسسات التعليم العامة، وعندما هدد ازدهار البروتستانتية في فرنسا، بإضعاف سلطان الكنيسة الكاثوليكية وما يتمخض عنه من فوائد، جرى طرد الهوجونوت (البروتستانت الفرنسيين) بلا رحمة.

وعرفاناً من الدولة بأهمية هذه الخدمات التي تقدمها الكنيسة، سمحت لها بجمع العشور وسمحت لها بدخول مالية أخرى تجبيها من أبناء كل أبرشية وسمحت لها بتقديم الوعود بتحقيق الأماني التي يرنو إليها العصاة الغافلون بتشجيعهم على شراء نعيم الآخرة لقاء تنازلهم عن ممتلكاتهم في الدنيا لصالح الكنيسة.

وأعفت الحكومة رجال الدين من الضرائب واكتفت بالحصول من الكنيسة بين الحين والآخر على منحة كبيرة بلا مقابل. ونظراً لهذه المزايا المختلفة فقد جمعت الكنيسة مقاطعات شاسعة قدرها البعض بأنها تبلغ خمس الأراضي الزراعية في فرنسا[٤]. وكانت الكنيسة تدير هذه الأراضي باعتبارها ممتلكات إقطاعية وراحت تجمع منها العوائد الإقطاعية. لقد حولت الكنيسة إيمان المؤمنين إلى حليٍ من ذهب وفضة - كجواهر التاج الملكي - أصبحت كحاجز أو كمنطقة محرمة ذات مناعة، وقداسة وتخصيص لمواجهة أي ادعاء أو تطاول فبدت هذه المكاسب الكنسية راسخة عبر التاريخ عميقة الجذور.

وتلاعب كثير من الكهنة والقسس في عوائد العشور واحتالوا ليحصلوا منها على شيء، وعاشوا في فقر تغلفه التقوى بينما كان كثيرون من الأساقفة يعيشون عيشة مترفة فخمة وكان رؤساء الأساقفة يعيشون بعيدا عن مقارهم الأسقفية وراحوا يحومون حول البلاط الملكي. وفي وقت كانت الحكومة على حافة الإفلاس وجدنا الكنيسة الفرنسية (على وفق تقديرات تاليران Talleyrand) تنعم بدخل سنوي مقداره ١٥٠ مليون ليفر (فرنك)[*]، وكانت طبقة العوام التي أنهكت الضرائب كاهلها في حالة عجب لعدم إرغام الكنيسة على إشراك الدولة معها في ثروتها. وعندما انتشرت كتابات غير المؤمنين (غير المتمسكين بتعاليم

(*) الليفر Livre أو الفرنك في فرنسا في سنة ١٧٨٠ كان يساوي تقريبا ١,٢٥ دولار أمريكي في الولايات المتحدة سنة ١٩٧٠. (المؤلف).

الكنيسة)(*) تخلى الآلاف من أفراد الطبقة الوسطى والمئات من أفراد الطبقة الأرستقراطية – عن العقيدة المسيحية، وكانوا مستعدين لأن ينظروا بهدوء فلسفي إلى غارات الثورة على الموروثات المقدسة والمصونة.

وكان النبلاء على وعي يشوبه غموض أن النبالة قد فقدت كثيراً من أسباب وجودها أو بتعبير آخر قد ظلت باقية رغم أن المهام المنوطة بها والتي كانت سبب وجودها قد انتهت. فعنصر الفخر في هذه النبالة (أوالشرف) متمثلا في القيام بدور الحماية العسكرية للمجتمعات الزراعية، أو التوجيه الاقتصادي لها أو الرياسة القضائية، لم يعد قائما كما كان، فكثير من هذه الخدمات قد حلت محلها السلطة المركزية والإدارية القوية في ظل ريشليو Richelieu ولويس الرابع عشر. لقد أصبح كثيرون من السادة الإقطاعيين الآن يعيشون في البلاط الملكي وأهملوا إقطاعاتهم، وفي سنة ١٧٨٩ بدا أن أثوابهم الفخمة ورقتهم في التعامل ولطفهم[٥] لم تعد أمورا كافية لتبرير امتلاكهم لربع الأرض الزراعية وابتزازهم للعوائد الإقطاعية .

وادعت الأسر الأقدم من بين أسر النبلاء أنها من جنس أكثر نبالة (نبالة الجنس La Noblesse de race أو أصالة العرق) إذ أرجعت هذه الأسر أصولها إلى الفرنجة الجرمان (الفرنك الجرمانيين) الغزاة الذين تسموا في القرن الخامس باسم الغال Gaules لكن كاميل ديمولين Camille Desmoulins أحال فخرهم إلى منقصة في سنة ١٧٨٩ باعتبارهم غزاة أجانب، عندما دعا إلى الثورة باعتبارها ثأرا تأخر كثيراً من أعراق وافدة. ومن الناحية الفعلية كان نحو ٩٥٪ من طبقة النبلاء الفرنسية قد أصبحوا بشكل متزايد بورجوازيين وسلتيين Celtic قد تركوا أفراد الطبقة الوسطى – ذوي العقول الذكية والثروة التي حازوها مؤخرا – يشاركونهم أراضيهم وألقابهم .

وكان ثمة قسم من الأرستقراطية – عرفوا بنبلاء « الروب » أو النبلاء بحكم المنصب Noblesse de robe وكانوا يكونون نحو أربعة آلاف أسرة شغل أربابها مناصب قضائية أو إدارية رفعت شاغليها – تلقائيا – إلى مرتبة النبالة.

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

ولأن معظم مثل هذه المناصب كان يمكن الحصول عليها بشرائها من الملك أو وزرائه الذين كانوا يبيعونها لزيادة دخل الدولة، فقد شعر كثيرون من المشترين لهذه المناصب بأحقيتهم في استرداد ما دفعوه فأصبحوا أكثر ميلاً إلى قبول الرشوة[٦] . لذا فقد انتشر الفساد (عدم طهارة اليد) بين شاغلي المناصب في فرنسا بشكل غير عادي[٧] وكان هذا واحدة من مئات الشكاوى والأسباب الداعية إلى التذمر من نظام حكم يموت. وكانت بعض هذه المناصب والرتب وراثية، ولأن شاغليها والحائزين عليها قد تضاعف عددهم خاصة في البرلمانات أو المحاكم القانونية في مختلف المديريات districts(أو المحافظات أو الدوائر) فقد تنافى شعورهم بالقوة والفخر حتى إن برلمان باريس في سنة ١٧٨٧ ادعى لنفسه الحق في الاعتراض على المراسيم الملكية (التي لها قوة القانون) . لقد بدأت الثورة قرب القمة .

وفي نشرة بعنوان "ما هي طبقة العوام أو الطبقة الثالثة؟" صدرت في شهر يناير سنة ١٧٨٩ طرح الراهب الفرنسي عمانوئيل جوزيف سييز Emmanuael Joseph Sieyès ثلاثة أسئلة وأجاب عنها: ما هي الطبقة الثالثة أو طبقة العوام؟ إنها كل شيء. ما حالها حتى الآن؟ لاشيء. ماذا تود هذه الطبقة أن تكون؟ تريد أن تكون شيئاً ما[٨] – أو على وفق لتصحيح شامفورت - Chamfort كل شيء. لقد كانت تقريبا كل شيء فقد ضمت البرجوازية أو الطبقة الوسطى التي تتكون من ١٠٠,٠٠٠ أسرة[٩] وطبقاتها (شرائحها layers) العديدة – رجال البنوك والسماسرة والوسطاء والصناع والتجار والمديرون والمحامون والأطباء والعلماء والمدرسون والحرفيون والصحفيون (تشكل الصحافة السلطة الرابعة) وطبقة عامة الشعب Menu peuple والعبارة تعني قليلي الأهمية (وأحيانا يطلق عليهم لفظ عام هو الشعب) ويقصد بهم البروليتاريا وحرفيي المدن وعمال النقل البري والبحري والفلاحين .

وكانت الطبقة الوسطى العليا تقبض على زمام السلطة الصاعدة متسعة المدى وتديرها: كان لها السلطان على عملية انتقال الأموال وحركتها ورؤوس الأموال، وكانت تمارس هذه العملية بشدة وجرأة تتسم بالمغامرة، وكانت – في ذلك – تدخل في منافسة واسعة المدى مع الذين يمتلكون السلطان على الاقتصاد الزراعي الإستاتيكي (المتسم بالسكون Static)

ومع العقيدة الآفلة. لقد دخلوا في مضاربات تجارية في أسواق الأوراق المالية في باريس ولندن وأمستردام، فتحكموا – على وفق لتقديرات نيكر - Necker في نصف أموال أوروبا[١٠]. وكانوا يمدون الحكومة الفرنسية بالقروض ذوات الفوائد وكانوا يهددون بإسقاطها في حالة عدم سداد هذه الديون وعدم سداد ما اشترته الحكومة بالديون. وكانوا يمتلكون – أو يديرون – صناعة استخراج المعادن وتعدينها في شمال فرنسا، وصناعة النسيج في ليون Lyons وتروي Troyes وأبيفيل Abbeville وليل Lilleوروان Rouen، وأعمال استخراج الحديد والملح في اللورين Lorraineومصانع الصابون في مارسيليا Marseilles ومدابغ الجلود في باريس.

لقد أداروا الصناعة الرأسمالية التي حلت محل دكاكين الحرف والنقابات الحرفية التي كانت سائدة في الماضي، وكانوا من أنصار المذهب الفزيوقراطي[١١][*] المنادي بأن المشروع الحر (غير المرتبط بالدولة) أكثر إنتاجية ولدى القائمين عليه حوافز أقوى ودوافع أشد من المشروع التقليدي المرتبط بالتنظيمات والقواعد التقليدية التي تفرضها الدولة؛ سواء كان مشروعاً صناعيا أم تجاريا. لقد مولوا ونظموا الصناعات التحويلية (تحويل المواد الخام إلى بضائع) وراحوا ينقلون هذه البضائع من المنتج إلى المستهلك ليحققوا من كليهما ربحا. لقد استفادوا من ثلاثين ألف ميل من أفضل الطرق في أوربا لكنهم اعترضوا على الرسوم المعوقة التي كانت تفرض على استخدام طرق فرنسا وقنواتها، كما اعترضوا على اختلاف الموازين والمقاييس نتيجة تمسك بعض الولايات (المقاطعات Provinces) بها بسبب عوامل الغيرة. لقد تحكموا في التجارة التي كانت سبب ثراء بوردو Bordeaux ومارسيليا ونانت Nantes، وكونوا شركات مساهمة كشركتي : Compagnie des Eaux , Compagnie des Indes ووسعوا مجال سوقهم ومدوه. فلم يعد قاصرا على المدينة وإنما شمل العالم، وعن طريق مثل هذه التجارة جعلوا لفرنسا إمبراطورية فيما وراء البحار لا يبزها في المضمار سوى إنجلترا. لقد شعر أفراد هذه الطبقة أنهم – وليس طبقة الأشراف – هم صانعو الثروة الفرنسية النامية،

(*) أي انصار مذهب الطبيعة في الاقتصاد. قال به كيسناي Quesnay طبيب الملك لويس ١٥ أشهر كتبهم (الجدول الاقتصادي) ملخص رأيهم: اترك البضائع تنتقل بين البلدان. اترك الأفراد يزرعون ما يشاؤون وينتجون ما يشاؤون بلا تدخل الدولة. (المترجم)

ومن ثم صمموا على مشاركة النبلاء ورجال الدين في المزايا التي تُسْبغها الحكومة عليهم وفي التعيينات وصمموا على أن يكون لهم الوضعية نفسها التي للنبلاء أمام القانون وفي البلاط الملكي وأن يستمتعوا بالمزايا كلها ويتسنموا مراتب الشرف كلها في المجتمع الفرنسي، فعندما دعيت مانون رولاند Manon Roland وهي سيدة رقيقة كيسة - لكنها بورجوازية - لزيارة سيدة من النبيلات، وطلب منها أن تأكل مع الخدم وألا تجلس إلى المائدة مع الضيوف النبلاء صلحت محتجة وتغلغلت صيحتها في قلوب أفراد الطبقة الوسطى(١٢). لقد كان هذا الامتعاض وذلك الطموح منغرساً في أفكار هذه الطبقة عندما رفعوا مع الثورة الفرنسية شعارها "حرية ومساواة وإخاء"، إنهم لم يكونوا يعنون بهذا "دونية" أو "رفعة" لكن هذا الشعار خدم أغراض هذه الطبقة حتى يجري تصحيح الأمور. وفي هذه الأثناء أصبحت الطبقة البورجوازية هي أقوى القوى التي تعمل على قيام الثورة.

لقد كان أفراد الطبقة الوسطى هم الذين يملأون المسارح وهم الذي يصفقون لقصائد بومارشيه Beaumarchais التي يهجو فيها الأرستقراطيين. لقد كان أفراد الطبقة الوسطى هم الذين التحقوا - أكثر من أفراد طبقة النبلاء - بالمحافل الماسونية ليعملوا على تحقيق الحرية في الحياة والفكر، لقد كانوا هم الذين يقرأون فولتير Voltaire ويستطيبون سخريته اللاذعة، ويتفقون مع جيبون Gibbonفيما ذهب إليه من أن الأديان كلها - بالنسبة للفيلسوف - زائفة(*)، وهي - أي الأديان بالنسبة للحكومات (رجال الدولة) مفيدة. وكانوا في السر يبدون إعجابا بالمذهب المادي الذي قال به دولباش وهيلفيتيوس d' Holbach and Helvétius وقد لا يكون هذا المذهب صحيحا تماما أمام أسرار الحياة والنفس البشرية، لكنه كان سلاحا جاهزا يمكن شهره في وجه الكنيسة التي تتحكم في عقول ونفوس معظم الفرنسيين وفي نصف ثروة فرنسا. وكانوا متفقين مع ديدرو Diderot، ولم يكونوا مولعين بروسو Rousseau الذي يشتم منه طعم الاشتراكية ويفوح منه معنى اليقين لكنهم هم - أكثر من أي شريحة أخرى في المجتمع الفرنسي - الذين شعروا بتأثير الآداب والفلسفة

(*) كان التركيز على انتقاد الأفكار المسيحية والكاثوليكية خاصة، وأفكار التثليث وما أسموه خرافات العهد القديم. وأشار الكتاب الذي بين أيدينا في مواضع كثيرة إلى ذلك. راجع أيضا مقدمة الترجمة العربية. (المترجم)

وعملوا على نشرهما.

وكان الفلاسفة[*] بشكل عام معتدلين في سياساتهم. لقد قبلوا الملكية ولم يرفضوا عطايا الملك، وولوا وجوههم شطر الحكام المتنورين مثل فريدريك الثاني Frederick II في بروسيا، وجوزيف الثاني Joseph II في النمسا بل وحتى كاترين الثانية Catherine II في روسيا، أكثر مما ولوا وجوههم شطر الجماهير الأمية العاطفية، واعتبر الفلاسفةُ (المفكرون) هؤلاء الحكامَ المتنورين هم مهندسى الإصلاح. ووضع الفلاسفة ثقتهم في العقل رغم إدراكهم قصوره. لقد كسر هؤلاء الفلاسفة (المفكرون عامة) وصاية الكنيسة والدولة ورقابتهما على الفكر وفتحوا ملايين العقول ووسعوا من آفاقها، لقد مهدوا لانتصارات العلم في القرن التاسع عشر، رغم أن لافوازيه Lavoisierولابلاس Laplace ولامارك Lamarck شهدوا الهياج في أثناء الثورة وما صاحبها من حروب.

أما روسو Rousseau فقد فك ارتباطه بالفلاسفة. لقد كان يحترم العقل، ولكنه احتفى بالمشاعر وبالعقيدة (الإيمان) المريح. وقد طرح كتابه Savoyard Vicar's Profession of Faith الموقف الديني لروبيسبير Robespierre، وأدى إصراره على توحيد العقيدة الوطنية إلى أن اعتبرت لجنة الأمن العام الهرطقة السياسية جريمة عقوبتها الإعدام - خاصة في زمن الحرب. وقد قبل يَعاقِبةُ الثورةِ مبادىء العقد الاجتماعي التي مؤداها أن الإنسان خير بطبعه وما جعله شريرا سوى تبعيته لمؤسسات فاسدة منحرفة وقوانين جائرة، وأن الناس قد خلقوا أحرارا ولم يستعبدهم سوى الحضارة الزائفة. وعندما كان القادة الثوريون في السلطة تبنوا أفكار روسو Rousseau التي مؤداها أن المواطن بتلقيه حماية الدولة يصبح مطيعا لها ضمنا. وقد كتب مالي دى بان Mallet du Pan "لقد سمعت مارا Marat في سنة ١٧٨٨ يقرأ العقد الاجتماعي ويعلق عليه في الطرقات العامة وسط تصفيق المستمعين المتحمسين"[١٣]. لقد تحولت سيادة الشعب العليا التي نادى بها روسو إلى سيادة لجنة الأمن العام التي لا معقب عليها بعد الثورة، ثم أصبحت سيادة عليا لرجل واحد.

(*) المقصود المفكرون بشكل عام وليس الفلاسفة بالمعنى الضيق للكلمة. راجع مقدمة الترجمة العربية. (المترجم)

وكان "الشعب" في مصطلح الثورة يعني الفلاحين وعمال المدن، فحتى موظفي المصانع في المدن كانوا أقلية سكانية. لقد كانت الصورة هناك بعيدة عن صورة المنشآت أو المؤسسات الصناعية، إذ كان مصطلح الشعب أقرب ما يكون إلى معنى الخليط غير المتناسق الذي يضم الجزارين والخبازين وصانعي الجعة (البيرة) والبقالين والطباخين والبائعين الجوالين والحلاقين وأصحاب المحلات والعاملين في الفنادق وتجار الخمور وصانعيها والنجارين والبنائين والذين يطلون البيوت والعاملين في مجال الزجاج وصانعي الجص وصانعي الآجر وصانعي الأحذية والخياطين والصباغين وعمال النظافة وصانعي الثياب والحدادين والخدم وصانعي الأثاث وصانعي السروج وصانعي العجلات والعربات والصاغة وصانعي السكاكين والنساجين والدباغين والعاملين في مجال الطباعة وبائعي الكتب والعاهرات (المومسات) واللصوص. وكان هؤلاء العمال يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كعوب أقدامهم أكثر مما يرتدون السراويلات القصيرة التي تصل إلى الركبة والمعروفة باسم الكلتات Culottes والجوارب كما يفعل أبناء الطبقات العليا لذا فقد أطلق على هؤلاء العمال اسم "الطبقة التي لا ترتدي كلوتات Sans Culottes" وقد لعبت هذه الطبقة دورا فعالا (دراماتيا) في الثورة الفرنسية. وقد أدى تدفق الذهب والفضة من العالم الجديد وإصدار النقود الورقية بشكل متكرر إلى ارتفاع الأسعار في أنحاء أوروبا كلها، ففي فرنسا ارتفعت الأسعار فيما بين عامي ١٧٤١ و ١٧٨٩ بمقدار ٦٥٪ بينما لم ترتفع الأجور سوى ٢٢٪[١٤]، وفي ليون Lyons كان هناك ٣٠,٠٠٠ شخص معفون من الخدمة في سنة ١٧٨٧، وكان في باريس ١٠٠,٠٠٠ أسرة مدرجة باعتبارها في حالة عوز في سنة ١٧٩١ . وكان من الممنوع إنشاء اتحادات عمال ذوات أهداف اقتصادية ومن هنا تتالت الإضرابات. وكلما اقترب ميعاد الثورة كان مزاج العمال وحالتهم النفسية يزدادان توترا واكتئابا وميلاً إلى الثورة والتمرد، ولم يكن ينقصهم سوى بندقية وزعيم ليستولوا على الباستيل ويغزوا قصر التوليرى Tuileries ويعزلوا الملك.

ومن المسلم به أن الفلاحين في فرنسا في سنة ١٧٨٩ كانت حالهم أفضل مما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بالغ لابروييير La Bruyère قائلاً: إنه لا يكاد يميز بينهم وبين البهائم[١٥].

وكان حال الفلاحين الفرنسيين في سنة ١٧٨٩ أفضل من حال الفلاحين في سائر أنحاء أوروبا، ربما باستثناء فلاحي شمال إيطاليا. وكان نحو ثلث الأراضي الزراعية مملوكا للفلاحين، وكان ثلث آخر تتم زراعته بتأجير الأرض من النبلاء والإكليروس (رجال الدين) وأفراد الطبقة البورجوازية، أو بنظام المزارعة (المشاركة في المحصول، هذا لقاء ملكيته للأرض وذاك لقاء عمله فيها) أما ثلث الأرض الزراعية الباقي فكان يقوم على زراعته أجراء تحت إشراف الملاك أو من ينوب عنهم. وشيئا فشيئا أصبح عدد الملاك محصوراً فلم يكن أمامهم سوى الزراعة أو الرعي، بينما تكاليفهما غدت مرهقة، وأصبحت المنافسة حادة بينهم خاصة مع وجود الأرض العامة (المشاع) Common Land التي كان من حق الفلاحين – سابقا – أن يرعوا فيها وأن يجمعوا منها الحطب.

وكان حائزو الأرض من الفلاحين كلهم ملزمين بدفع رسوم إقطاعية فيما عدا قلة قليلة كانوا يمتلكون أراضي معفاة من أي التزام أو واجب أمام السيد الإقطاعي، إذ كان الفلاحون – خلا هذه القلة الآنف ذكرها– ملزمين بناء على عقد بينهم وبين صاحب العزبة بأن يعملوا لديه عدة أيام كل عام بدون أجر، بنظام السخرة (Corvée) لمساعدته في زراعة أرضه وإصلاح الطرق في عزبته، ومع هذا فقد كانوا يدفعون له رسوم مرور عند استخدامهم هذه الطرق. وكانوا يدفعون له بدلية (رسما بدليا لقاء الإعفاء من أداء خدمات معينة) وكانت قيمة هذه البدلية معتدلة وكانوا يدفعونها كل سنة نقدا أو عينا، وإذا باع الواحد منهم ممتلكاته طالبه السيد الإقطاعي بمبلغ يساوي ١٠٪ أو ١٥٪ من الثمن الذي تقاضاه[١٦]. وكانوا يدفعون له لقاء صيدهم الأسماك من المياه التابعة له، وإذا رعوا أنعامهم في حقله، وكانوا يدفعون له رسما في كل مرة يستخدمون فيه طاحونته أو مخبزه أو معصرته التي تستخدم في استخراج الزيت أو إعداد عصير العنب ليصير نبيذا.

ولأن هذه الرسوم كانت محددة على وفق القانون، فقد أصبحت قيمتها متدنية بسبب التضخم فشعر المالك أن لديه مسوغا في استنزاف هؤلاء الفلاحين بقسوة كلما ارتفعت الأسعار[١٧].

وكان على الفلاح أن يدعم الكنيسة التي **تبارك محصوله وتهيئ** أطفاله للطاعة والإيمان

وتشرف حياته بالطقوس والأسرار المقدسة، بأن يدفع لها سنويا العشور (Tithe وإن كانت عادة ما تكون أقل من العشر) من محصوله وما ينتجه. وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة عليه أشد وطأة من العشور والمستحقات الإقطاعية، فقد فرضت الدولة ضريبة الرأس كما فرضت عليه نصف العشر Vingtième عن دخله السنوي، وفرضت عليه ضريبة المبيعات عن كل ما يشتريه من مشغولات ذهبية وفضية أو منتجات معدنية أو كحول أو ورق أو نشا..... وفرضت عليه مصلحة الملح أن يشترى كل عام كمية محددة من الملح من الحكومة بالسعر الذي تحدده (أي تحدده الحكومة). وعلى هذا فقد كان العبء الأساسي لدعم الدولة والكنيسة - زمن الحرب وزمن السلم - يقع على كاهل الفلاحين، أما النبلاء والإكليروس فقد كانوا يجدون طرائق قانونية أو غير قانونية للتخلص من كثير من هذه الضرائب وكان الشباب الأثرياء يمكنهم زمن الحرب أن يدفعوا "البدلية" (مبلغ لقاء عدم التحاقهم بالقوات المقاتلة).

وكان من الممكن تحمل هذه الضرائب والعشور والمستحقات الإقطاعية طالما كان المحصول طيباً، لكن حالهم يصبح بائساً في أثناء الخراب الذي تسببه الحروب أو تقلبات المناخ فيصبح المحصول غير مجز ويضيع شقاء العام هباء، ساعتها يبيع الفلاحون الملاك أراضيهم أو عملهم أو كليهما للمغامرين المحظوظين المغرمين بشراء الأراضي الزراعية.

واتسم عام ١٧٨٨ بكثرة مصائبه التي انهالت عليهم بلا رحمة، فقد أدى الجفاف الشديد إلى نقص شديد في المحصول ودمرت العواصف المصحوبة بالبَرَد ١٨٠ ميلا من الأراضي الزراعية الخصبة عادة من نورماندي Normandie إلى شامبني Champagne، وكان شتاء ١٧٨٨ / ١٧٨٩ هو أقسى شتاء مر بالبلاد منذ ثمانين عاما، ففنيت آلاف من أشجار الفاكهة، وشهد ربيع سنة ١٧٨٩ فيضانات مدمرة، أما الصيف فكان مصحوبا بمجاعة في المقاطعات تقريبا كلها.

وبسبب الأعمال الخيرية التي قدمتها الدولة والكنيسة والأفراد حصل الجوعى على الطعام فلم يمت من الجوع إلا عدد قليل، لكن الملايين أنفقوا في هذه المجاعة كل ما يملكون، وشهدت كان Caen ورون Rouen وأورليان Orléans، ونانسي Nancy وليون Lyon

جماعات تتقاتل كالحيوانات للحصول على القمح، وشهدت مارسيليا ٨٠٠٠ جائع عند بواباتها يهددون بغزو المدينة وسلبها. وفي باريس شهد حي سان (القديس) أنطوان - St.Antoine حي الطبقة العاملة ٣٠,٠٠٠ معوز في حاجة إلى إعانة[١٨].

وفي هذه الأثناء أدت اتفاقية تيسير التجارة مع بريطانيا العظمى (١٧٨٦) إلى إغراق فرنسا بالمنتجات الصناعية البريطانية الأرخص سعرا من المنتجات الفرنسية فأدى هذا إلى تعطل آلاف العمال الفرنسيين عن العمل - لقد فقد ٢٥,٠٠٠ عامل فرنسي عملهم في ليون، و ٤٦,٠٠٠ في إميان Amiens و ٨٠,٠٠٠ في باريس[١٩]. وفي مارس سنة ١٧٨٩ رفض الفلاحون دفع الضرائب بالإضافة إلى المخاوف من إفلاس الدولة.

وقد قابل آرثر يونج Arthur Young الذي كان يقوم برحلة في مقاطعات فرنسا في يوليو سنة ١٧٨٩ - فلاحة فرنسية كانت تشكو من الضرائب والمستحقات الإقطاعية اللتين تجعلانها دوما على حافة الإملاق، لكنها أضافت قائلة إنها تعلم "أنه لا بد أن يقوم عدد كبير من الناس بعمل شيء من أجل هؤلاء البؤساء ... لأن الضرائب والرسوم تسحقنا"[٢٠] لقد سمعوا أن الملك لويس السادس عشر Louis كان رجلاً طيبا راغبا في إصلاح الفساد وحماية الفقراء. لقد كانوا يتطلعون بأمل إلى فرساي Versailles ويدعون بطول العمر للملك.

٢- الحكومة:

كان لويس السادس عشر رجلاً طيبا، لكنه يصعب - إلا قليلاً - اعتباره ملكا صالحا، فلم يكن الرجل يتوقع أن يصبح حاكما (ملكا)، فقد كان هو الابن البكر لأبيه الذي مات مبكراً ١٧٩٥، وقد جعله موت جده لويس الخامس عشر ١٧٧٤ سيدا لفرنسا وهو على حافة العشرين. ولم يكن لديه رغبة في حكم الرجال فقد كان بارعا في استخدام الأدوات والآلات وكان صانعا للأقفال ويجيد إصلاحها بشكل ممتاز، وكان يفضل الصيد على الحكم، فلم يكن يعتبر اليوم الذي لا يصطاد فيه أيّلا إلا يوما ضائعا غير محسوب من عمره ففي الفترة من سنة ١٧٧٤ إلى سنة ١٧٨٩ طارد ١,٢٤٧ أيلا، وقتل ١٨٩,٢٥١ طريدة،

ومع هذا فقد كان لا يحب إصدار أوامر بإعدام البشر، وربما يكون قد فقد عرشه لأنه منع حرسه السويسري من إطلاق النار في ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ وكان بعد أن يعود من رحلات الصيد يأكل بشراهة حتى يملأ معدته عن آخرها، وكانت طاقة معدته لتحمل مزيد من الطعام في ازدياد مستمر، وأصبح نتيجة لذلك بدينا لكنه كان قويا، وقد أصابت ماري أنطوانيت Marie Antoinette في حكمها على زوجها عندما قالت: "الملك ليس جبانا، بل يتحلى بقدر كبير جدا من الشجاعة الكامنة لكن الخجل يربكه وتعوزه الثقة بالنفس .. وهو يخاف من القيادة .. لقد عاش كالطفل وفي حالة قلق دائم وهو تحت رعاية لويس الخامس عشر، وظلت هذه حاله حتى بلغ الواحدة والعشرين. لقد عمقت هذه القيود المفروضة عليه جبنه"(٢١).

وكان حبه لمليكته جزءاً من الأسباب التي ألحقت الدمار به لقد كانت جميلة فخمة تزين بلاطه بجاذبيتها ومرحها، وغفرت له تباطؤه في عقد قرانه بها. لقد كان الملك ذا عضو تناسلي محكم الإغلاق بمعنى أن قلفته أو غرلته(*) كانت ملتصقةً التصاقا شديدا بعضوه وكان هذا يسبب له ألماً لا يحتمل إذا ما أنعظ. وقد حاول مرات عدة طوال سبع سنوات، وكان يتحاشى العملية الجراحية البسيطة التي يمكن أن تحل مشكلته إلى أن حثه في سنة ١٧٧٧ أخو الملكة جوزيف الثاني Joseph النمساوي على إسلام ذكره للسكين وما أن فعل حتى صارت أمور ذكره على ما يرام.

وربما كان الشعور بالذنب الذي يعتريه عنيفا حينا، وهوناً حيناً هو الذي جعله متسامحا جداً مع زوجته؛ متسامحاً إزاء مقامرتها ومغامرتها في لعب الورق (الكوتشينة)، متسامحا إزاء مبالغتها في اقتناء الثياب، متسامحا إزاء رحلاتها المتكررة إلى باريس لحضور الأوبرا، وتحمل صداقتها الأفلاطونية بالكونت فون فيرسن Comte Von Fersen وصداقتها للأميرة دى لامبل de Lamballe وممارستها السِّحاق معها في ظل هذه الصداقة. لقد كان الملك بتكريسه نفسه لزوجته بشكل واضح يسلي حاشيته ويسعدها لكن هذا كان مدعاة لخجل أجداده. وكان الملك يقدم لها الجواهر الغالية، لكنها – وكذلك فرنسا– كانت أكثر حاجة

(*) قطعة الجلد التي تغلف هذا العضو المهم والتي يزيلها المسلمون عند عملية الختان. المترجم

إلى طفل. وعندما أتى الأطفال أثبتت أنها أم صالحة وانشغلت بمتاعبهم وقللت من غلوائها، واعتدلت في أمورها كلها خلا كبريائها، وتدخلها المتكرر في أمور الدولة **(شؤون الحكم)**، وفي هذه كان لها بعض العذر لأن لويس كان قلما يحسم الأمور أو يحدد المسار أو يختار بين البدائل بل كان غالباً ينتظر الملكة لتنظم له تفكيره، وكان بعض أفراد الحاشية يتمنون لو كان له قدرتها على تقدير الأمور بسرعة واستعدادها للقيادة.

لقد فعل الملك كل ما استطاع لمواجهة المصائب والأزمات التي سببها له سوء الأحوال الجوية والمجاعة والشغب بسبب عدم توفر الخبز، والثورات ضد الضرائب، ومطالب النبلاء والبرلمان، ونفقات البلاط والإدارة وزيادة العجز في الخزانة. وظل طوال عامين (١٧٧٤-١٧٧٦) يسمح لتورجو Turgot بتطبيق نظرية الفيزيوقراط (الطبيعيين) والتي مؤداها أن إطلاق الحرية للمشروعات الخاصة والمنافسة وعدم إعاقة قوانين السوق المتحكمة - قانون العرض والطلب - سينعش الاقتصاد الفرنسي ويضيف عوائد جديدة للدولة، وأنه من الضروري تطبيق هذه النظرية على أجور العمال وأسعار البضائع. لكن أهل باريس قد اعتادوا التفكير في أن الحكومة هي الملاذ الوحيد الذي يحميهم من جشع المضاربين في السوق، لذا فقد عارضوا إجراءات تورجو Turgot وقاموا بأعمال شغب، واعترتهم البهجة عند سقوطه (أي سقوط حكومة تورجو).

وبعد أن لبث الملك عدة شهور مترددا مشوش الفكر استدعى جاك نيكر Jacques Necker وهو خبير مال سويسري يدين بالمذهب البروتستانتي ومقيم في باريس ليكون مشرفا على أمور الخزانة (١٧٧٧-١٧٨١).

وفي ظل هذا الغريب غير الكاثوليكي(*) نفذ الملك لويس برنامجا شجاعا لإصلاحات صغرى؛ فقد سمح بتشكل مجالس (جمعيات) منتخبة على المستوى المحلي ومستوى المقاطعات لتعبر عن أهالي هذه المناطق لتكون كجسر يسد الفجوة بين الشعب والحكومة. وأعلن الملك رفضه لنظام السخرة Corvée، وكان إعلانه هذا صدمة لطبقة النبلاء، بل لقد

(*) النص Alien and heretical وما ذكرناه في المتن هو المعنى المقصود. فالكلمة هرطقة تطلق لتعني المخالف في المذهب أحيانا، ولتعني المناهض للتثليث غالبا. راجع مقدمة المترجمة العربية (المترجم)

أعلن في بيان أمام الجمهور (١٧٨٠) " أن الضرائب المفروضة على القطاعات الأشد فقرا من رعايانا قد زادت زيادة كبيرة أكثر بكثير مما زادت فيه الضرائب على القطاعات الأخرى جميعا" وعبر عن "أمله في أن يفكر الأغنياء في تحمل الأعباء التي كان يجب أن يشاركوا الآخرين في حملها منذ مدة طويلة"(٢٢) وقام الملك بتحرير الأقنان (عبيد الأرض) في ممتلكاته ولكنه قاوم ما حثه نيكر عليه بتطبيق ذلك على الأقنان في أراضي النبلاء والإكليروس. وأسس الملك مراكز للرهن(مراهن) لتقرض الأموال للفقراء (بعد إيداع رهن) بنسبة ربح ٣٪، ومنع استخدام أساليب التعذيب مع الشهود ومرتكبي الجرائم. ووعد بالغاء الزنزانات في فينسين Vincennes وأن يدمر الباستيل Bastille ضمن برنامج لإصلاح السجون.

ورغم أن الملك كان تقيا متمسكا بكاثوليكيته(*) إلا أنه سمح بقدر كبير من الحرية الدينية للبروتستانت واليهود . ورفض أن ينزل العقاب بأصحاب الأفكار الحرة، بل لقد سمح لمؤلفي الكتيبات (مصدري النشرات) الغلاظ الذي لا يرحمون أن يصفوه بأنه ديوث، ويصفوا زوجته بأنها بغي ويصفوا أولاده بأنهم أولاد زنا. ومنع حكومته من التجسس على مراسلات المواطنين الخاصة.

وأرسل لويس مساعدات مالية ومادية بلغ إجمالي قيمتها ٢٤٠,٠٠٠ دولار للمستعمرات الأمريكية دعماً لها في نضالها من أجل الاستقلال، وقد أيده في هذا بحماس بومارشيه Beaumarchais والفلاسفة(**) Philosophes، بينما كان نيكر معارضا (بحجة أن ذلك سيعجل بإفلاس فرنسا إفلاسا كاملا) . لقد كان الأسطول الفرنسي وكتائب لافايت Lafayette وروشامبو Rochambeau هي التي ساعدت واشنطن Washington على حصار كورنويلز Cornwallis في يوركتون York town وإرغامه على التسليم ومن ثم كانت القوات الفرنسية سببا في إنهاء الحرب. لكن الأفكار الديمقراطية عبرت المحيط الأطلنطي إلى فرنسا، وبينما كانت خزانتها تئن من وطأة الديون الجديدة، جرى طرد نيكر Necker من

(*) النص piety & orthodoxy وما ذكرناه في المتن هو المقصود.

(**) المقصود المفكرون والمثقفون عامة. راجع مقدمة الترجمة العربية (المترجم).

الحكومة عام ١٧٨١ وراح حاملو السندات من الطبقة البورجوازية يصرخون متذمرين مطالبين بضبط مالية الحكومة.

وفي هذه الأثناء راح برلمان باريس يضغط على دعواه بحقه في الاعتراض على المراسيم الملكية. وغالبا ما كان لويس- فيليب - جوزيف Louis - Philippe - Joseph دوق أورليان Orléans - ابن عمه فهو منحدر مباشرة من الأخ الأصغر للويس الرابع عشر - يخطط علنا للاستيلاء على العرش. وراح لويس - فيليب - جوزيف يوزع عن طريق كوديرلو دى لاكلو Choderlos de Laclos وغيره من الوكلاء عنه النقود والوعود على السياسيين وكتاب النشرات (الكتيبات) والخطباء والعاهرات (المومسات).

لقد أباح لأتباعه التسهيلات والبلاط وحدائق قصره الملكي والمقاهي والحانات ومخازن الكتب ونوادي القمار لتكون في خدمة الجماهير التي تجمعت هناك نهارا وليلا ووصلت الأخبار من فرساي Versailles بسرعة. حملها بعض أفراد الحاشية. فظهرت النشرات (الكتيبات) هناك في كل ساعة ودوى الخطباء بخطبهم من فوق المنصات والمناضد والكراسي، وحبكت المؤامرات لعزل الملك.

وانزعج الملك من فكرة عزله فاستدعى نيكر Necker وولاه وزارة المالية (١٧٨٨)، وأصدر بناء على حث نيكر له دعوة للفرنسيين بأن ينتخبوا ممثليهم من النبلاء ورجال الدين والعوام ويرسلوهم إلى فرساي ليشكلوا مجلس طبقات الأمة (لم ينعقد مجلس طبقات الأمة منذ سنة ١٦١٤) ليقدم له المشورة والدعم لمواجهة مشاكل المملكة. وكانت دعوة الملك لعقد مجلس طبقات الأمة هي الملاذ الأخير والخطير الذي اضطر للجوء إليه والذي قد يؤدي إلى إنقاذ عرشه أو الإطاحة به. وقد أصدر الملك دعوته هذه في ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨.

وثمة بعض الملامح الجديرة بالملاحظة حول هذه الدعوة التاريخية التي وجهتها الحكومة لأنها طوال نحو قرنين من الزمان لم تكن تفكر في طبقة العوام إلا باعتبارهم مجرد دافعي ضرائب وموردي طعام، و- دوريا- وقود حرب. وقد أعلن الملك في البداية بناء على حث نيكر له أن طبقة العوام لا بد أن يكون لها ممثلون (نواب) بقدر عدد نواب الطبقتين

الأخريين (طبقة النبلاء وطبقة الأكليروس)، في هذا الاجتماع القادم. وكانت طبقة النبلاء معترضة على هذا الإعلان الملكي. أما الأمر الثاني: أن تكون الانتخابات في فرنسا أقرب ما تكون إلى نظم الانتخابات العالمية بالنسبة للبالغين؛ فأي رجل يبلغ السابعة والعشرين من عمره أو أكثر، يكون قد دفع في العام الماضي أي ضرائب للحكومة مهما قلت قيمتها، له حق التصويت في المجالس المحلية Local assemblies التي ستنتخب ممثليها لتمثيل المنطقة في باريس. والأمر الثالث أن الملك أضاف إلى دعوته طلبا من المجالس المنتخبة كلها أن تقدم له تقارير(*) Cahiers لتحديد المشكلات وطلبات كل طبقة في كل مقاطعة (أو إقليم district) مع اقتراحات وتوصيات لعلاج هذه المشكلات ورسم سبل للإصلاح. ولم يحدث أبداً قبل ذلك – فيما تعي ذاكرة الفرنسيين – أن طلب أي من ملوكهم مشورة شعبه.

ومن بين ٦١٥ تقريراً حملها النواب للملك، بقي منها ٥٤٥. وكلها تقريبا تعبر عن ولائها للملك بل وتعاطفها معه باعتباره رجلاً حسن النوايا بشكل ظاهر، لكن هذه التقارير كلها أو العرائض تقريبا قد اقترحت عليه أن يشرك معه في مشاكله وسلطاته مجلسا منتخبا ليكون معه ملكية دستورية. ولم يرد في تقرير واحد من هذه التقارير أي ذكر لحق الملوك الإلهي في الحكم. وطالبت التقارير جميعا بنظام قضائي قائم على المحاكمة أمام هيئة محلفين، وطالبت بخصوصية الرسائل(عدم جواز اطلاع السلطات عليها) وتخفيف الضرائب وإصلاح القانون. أما التقارير التي كتبها النبلاء فقد اشترطت أن يجلس أفراد كل طبقة بمعزل عن الطبقتين الأخريين في مجلس طبقات الأمة القادم، وأن تصوت كل طبقة على حدة، وألا يصبح أي إجراء قانونيا إلا بعد موافقة الطبقات الثلاث. أما تقارير(عرائض) الإكليروس فدعت إلى نبذ التسامح الديني وأن تشرف الكنيسة – وبمفردها – على التعليم. وعكست تقارير الطبقة الثالثة (طبقة العوام) – مع اختلاف في درجة التركيز على عنصر أو آخر – مطالب الفلاحين في تخفيض الضرائب، وإلغاء القنانة (عبودية الأرض) والعوائد الإقطاعية وتعميم التعليم الحر وحماية المزارع من الدمار الذي تلحقه أنعام السادة وممارستهم الصيد فيها، وطالب أفراد الطبقة الوسطى بإتاحة الفرص للموهوبين بصرف النظر

(*) أو مظالم (المترجم).

عن الأصل وبإلغاء رسوم الانتقال، وبامتداد نظام الضرائب ليشمل النبلاء والإكليروس، واقترح بعضهم أنه يجب على الملك أن ينهي العجز المالي بمصادرة الأملاك الكنسية وبيعها. لقد ظهرت الخطوط العريضة للمراحل الأولى للثورة الفرنسية - بالفعل- في هذه التقارير (العرائض Cahiers).

وقد ظهر في هذه الدعوة المتواضعة التي وجهها الملك لمواطنيه بعد ملحوظ عن التجرد والحياد، فبينما كان من حق كل مواطن خارج باريس أن يدلي بصوته ما دام قد دفع ضرائب، فلم يكن من حق الباريسي أن يدلي بصوته إلا اذا كان قد دفع ضريبة رأس قيمتها ست ليفرات(*) Livres أو يزيد. ربما تردد الملك ومستشاروه في أن يتركوا للخمسمائة الف عامل "الطبقة التي لا يرتدى أفرادها كلوتات قصيرة وإنما سراويلات (بناطيل) تصل إلى كواحل الأقدام(**) Sans Culottes (انتخاب رجال يمثلون في مجلس طبقات الأمة أفضل مصدر للمعلومات للعاصمة (يكونون كاستخبارات داخل المجلس). فمشكلة الديمقراطية المتمثلة في أن الكيف إنما هو ضد الكم والمتمثلة في الحصول على الكفاءات العقول الذكية (brains) بالتَّشَمُّم المحسوب (باستخدام الجواسيس) قد ظهرت هنا في الفترة التي سبقت الثورة مباشرة، قبل إعلان الديمقراطية في سنة ١٧٩٣م. وعلى هذا فقد ترك أولئك الذين لا يرتدون كلوتات(***) (العمال) خارج الحركة الشرعية للأحداث، وأدى هذا إلى أن تشعر هذه الطبقة أنه بالعنف وحده - ذلك العنف الذي يستطيعونه بسبب عددهم الكبير - يمكنهم أن يكونوا قاسماً مشتركا في كل ما ترغب الإرادة العامة للشعب التعبير عنه. كانوا هم الذين استولوا على الباستيل في سنة ١٧٨٩، وهم الذين أطاحوا بالملك في سنة ١٧٩٢، وهم الذين شكلوا حكومة فرنسا سنة ١٧٩٣ .

(*) فرنكات (المترجم).

(**) وانما يرتدون سراويلات (بناطيل) طويلة (السانس كولوت)

(***) أحد شرائح الطبقة الثالثة. راجع مقدمة الترجمة العربية (المترجم)

الفصل الثاني

الجمعية الوطنية

[من ٤ مايو ١٧٨٩ إلى ٣٠ سبتمبر ١٧٩١]

١- مجلس طبقات الأمة :

في ٤ مايو سنة ١٧٨٩ اتجه ممثلو الطبقة الثالثة (طبقة العوام) وعددهم ٦٢١ وكيلا، وكانوا يلبسون الملابس البورجوازية السوداء، يتبعهم ٢٨٥ من النبلاء وقد وضع الواحد منهم قبعته المزدانة بالريش فوق رأسه وارتدى ثيابا محلاة بالأشرطة والذهب، ثم ٣٠٨ من رجال الدين، وقد امتاز الأساقفة عنهم بعباءات من قطيفة، ثم وزراء الملك وأفراد عائلته، ثم لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت Marie Antoinette، وكان الجند يحيطون بالركب كله وراحت الأعلام ترفرف وكذلك الشارات، واتجهوا جميعا إلى المكان المخصص لاجتماعهم وهو صالة المسرات البريئة Hôtel des Menus Plaisirs التي لا تبعد إلا قليلا عن القصر الملكي في فرساي.

وحفت الجماهير الفخورة والسعيدة بالموكب، وراح بعضهم يبكي فرحا وأملا[١] وهو يرى في هذا المنظر الذي ينم عن وحدة الطبقات المتنافسة، وعداً بالتماسك والتضامن والعدل في ظل ملك خير.

وخطب لويس في الوفود المجتمعة معا معترفاً بأن الخزانة على شفا الإفلاس، وعزا ذلك إلى "الحرب المكلفة والمشرفة في آن" وطلب منهم أن يفكروا في وسائل جديدة لزيادة دخل الدولة وأن يصدقوا على المراسيم التي تصدر بهذا الشأن. ثم جاء نيكر Necker فاستمر ثلاث ساعات يقرأ إحصاءات جعلت حتى الثورة نفسها، كئيبة ينقصها الحماس. وفي اليوم التالي خبا تألق الوحدة بين الطبقات الثلاث، فوجدنا الإكليروس (طبقة رجال الدين) يتقابلون في صالة ملحقة أصغر من الصالة التي ضمت الطبقات الثلاث، وراح النبلاء يتقابلون ويجتمعون في صالة أخرى ملحقة وشعر أفراد الطبقتين (النبلاء والإكليروس) أنه يجب عليهم أن يتدارسوا الأمر في نطاق طبقتهم كما يجب عليهم أن يصوتوا بمعزلٍ عن الطبقتين الأخريين كما حدث في آخر مجلس طبقات أمة انعقد منذ ١٧٥ عاما مضت، وكان من رأي أفراد الطبقتين أنه لا يجوز إقرار أي اقتراح واعتباره قانونا إلا إذا وافقت عليه الطبقات الثلاث والملك، أما ترك الأمور للانتخابات الفردية أي أن يحسب صوت كل فرد بصرف النظر عن طبقته بين هؤلاء المندوبين المجتمعين فإن هذا يعني تسليم كل شيء لطبقة العوام.

وقد حدث بالفعل أن انضم رجال الدين الأشد فقرا من سواهم إلى جانب طبقة العوام "بل إن بعض النبلاء مثل لافييت Lafayette وفيليب دورليان Philipe d'Orléans ودوق لا روشيفوكو La Rochefoucauld، وليانكو Liancourt أضمروا مشاعر ليبرالية خطرة.

وبسبب هذا بدأت حرب أعصاب لفترة طويلة، وكان يمكن لطبقة العوام أن تنتظر لأن إقرار ضرائب جديدة يستلزم موافقتهم العلنية بينما كان الملك ينتظر إقرار هذه الضرائب الجديدة بصبر فارغ. وكانت طبقة العامة(*) تتحلى بالشباب والحيوية والفصاحة والتصميم. لقد كان هناك أونوري -Honoré جابريل - Gabriel فيكتور ريكيتي Victor Riquiti الذي قدم لهم الكونت دى ميرابو Comte de Mirabeau خبرته وشجاعته وقوة فكرة وصوته الجهوري، وقدم بيير – صامويل دى بو دى نيمور Pierre - Samuel du Pont de Nemours لهم معلومات عن طبيعة اقتصاد الفيزيو قراطيين (الطبيعيين) وعن الاستراتيجية، أما جان بيلي Jean Bailly فقد حقق بالفعل شهرة في مجال الفلك، وقد هدأ من حدة الانفعال ليصلوا إلى حكم هادىء بعد دراسة الأمور وتقليبها. أما مكسيمليان دى روبيسبير - Maximilien de Robespierre فظل يتحدث بانفعال وباستمرار كرجل عقد عزمه ألا يسكت حتى يجد طريقه.

لم يبق من عمر روبيسبير الذي ولد في أراس Arras في سنة ١٧٥٨ سوى خمسة أعوام، لكنه كان في غالب هذه الفترة هو محور الأحداث أو يتحرك بالقرب من قلبها. وكان روبيسبير قد فقد أمه وهو في السابعة من عمره، أما أبوه فقد اختفى في ألمانيا. وقام الأقرباء بتربية الأيتام الأربعة وفاز مكسيميليان الطالب الدؤوب بمنحة دراسية في كلية لويس لي جراند Louis - le - Grand في باريس، ونال درجة جامعية في القانون ومارس المحاماة في أراس Arras وحقق شهرة كمدافع عن الإصلاح حتى إنه كان من بين الذين تم إرسالهم من إقليم أرتوا Artois لحضور مجلس طبقات الأمة State - General.

ولم يكن مظهر روبيسبير يدعم دورة كخطيب فقد كان طوله لا يزيد على خمسة أقدام وثلاث بوصات، وكان وجهه عريضاً ومسطحاً شوهه الجدري، وكانت عيناه ضعيفتين

(*) من ليسوا نبلاء ولا إكليروس (المترجم).

محاطتين بدائرتين، وكان لونهما أزرق مخضراً حتى إن كارليل Carlyle أطلق عليه اسم "روبسبير البحر الأخضر" وله بعض العذر في ذلك. وكان روبسبير يدعو إلى الديمقراطية ويدافع عن حق الذكور البالغين في الانتخاب رغم أن ذلك قد يجعل من أدنى الطبقات(*) شركاء في الحكم بل ويجعل رايتهم ترتفع فوق الجميع. لقد عاش عيشة بسيطة كعيشة أحد أفراد طبقة العمال لكن لم يقلد ذوى السراويلات (البناطيل) الطويلة المعروفين باسم السانس كلوت (أي الذين لايرتدون الشورتات "الكلوتات" القصيرة) لقد كان يلبس سترة خطافية (فراك) زرقاء غامقة نظيفة، وسروالاً (بنطلوناً) قصيرا يصل إلى الركبة وجورباً حريرياً، وقلما كان يغادر بيته قبل أن ينثر المساحيق على شعره. وكان يسكن مع نجار اسمه موريس دبلي Maurice Duplay في شارع سانت أونري Rue St-Honoré وكان يتغذى على مائدة الأسرة وكان يدفع لقاء ذلك ثماية عشر فرنكا في اليوم. وكان ينطلق من هذا المستوى المتدني (مستوى الحضيض) ليتحرك في معظم أنحاء باريس، وبعد ذلك في معظم أنحاء فرنسا. لقد كان يتحدث بشكل متتابع تتابعا ملحوظا عن الفضيلة، وكان يطبقها بقسوة وصرامة وعناد أمام الجماهير، أما في علاقاته الخاصة فقد كان "كريما عطوفا بل وكان مستعدا لتقديم الخدمات" على حد قول فيليبو بوناروتي Filippo Bunoarrotti الذي كان يعرفه جيدا(٢).

لقد كان يبدو محصنا تماما ضد مفاتن النساء، فقد صرف طاقة الحب التي لدية لأخيه الأصغر أوغسطين Augustin وسان ـ جوست Saint - just ولم يتهمه أحدٌ أبداً بأي انحراف جنسي، ولم يكن من الممكن إغواؤه برشوة مهما بلغ قدرها، وعندما عرض أحد الفنانين صورة شخصية لروبيسبير في سنة ١٧٩١ لم يكتب إزاءها سوى فقرة واحدة "غير قابل للرشوة(٣) The incorruptible " ولم يبد أن هناك من تجرأ على الاعتراض على ذلك. وكان روبيسبير يؤمن بأفكار منتسكيو Montesquieu باعتبارها أساساً لازما لجمهورية ناجحة، فمن غير ناخبين لا يمكن شراء أصواتهم الانتخابية ومن غير موظفين لا يمكن رشوتهم تصبح الديقراطية كذبا ورياء. وقد آمن روبيسبير كما آمن روسو بأن الإنسان خير

(*) المقصود أدنى شرائح طبقة العامة (الطبقة الثالثة) المترجم.

بالطبيعة أو بتعبير آخر خلقه الله خيرا، بحيث يجب أن تكون "الإرادة العامة" هي قانون الدولة وأن أي معارض مصر على مواجهة الإرادة العامة يستحق بلا ريب الإدانة التي تفضي به إلى ساحة الإعدام. وكان روبيسبير متفقاً مع روسو في أن بعض أشكال المعتقدات الدينية لا بد منها لضمان السلام النفسي والانضباط الاجتماعي ولأمان الدولة وبقائها.

ولم يبد أنه بدأ يشك في اتفاقه التام مع الإرادة العامة "الإرادة الجماهيرية" إلا قرب نهاية حياته. لقد كانت نفسه أضعف من إرادته، وكانت معظم أفكاره مستقاة من قراءاته أو من الشعارات التي ملأت الجو الثوري المحيط. لقد مات في عمر باكر جدا مما لم يتح له فرصة سبر أغوار الحياة بعمق أو تحصيل قدر كبير من المعرفة التاريخية يتيح له أن يقارن بين أفكاره المجردة أو العامة وواقع الأمر من خلال تأمل محايد. لقد عانى بشدة مما حاق بنا من فشل عام، ولم يكن يستطيع أن ينأى بذاته بعيداً عن عينيه. لقد كان مقتنعاً بما يتفوه به مشوبا بالحماس والعاطفة. لقد كان على يقين خطر، وكان يصرخ عبثا بشكل يدعو للسخرية، قال عنه ميرابو **Mirabeau" هذا الرجل** سيشتط كثيرا وسيذهب بعيدا. إنه مؤمن بكل كلمة يقولها"(٤) وكانت نهايته إلى المقصلة.

وقد ألقى روبيسبير على مدار عامين ونصف العام في الجمعية الوطنية نحو خمسمائة خطبة(٥) عادة ما كانت الخطبة منها طويلة طولا يبعدها عن تحقيق الإقناع، وعادة ما كانت جدلية خلافية مما يجعلها غير بليغة، ومع هذا فإن جماهير باريس فهمت مغزاها وتعلمت منها وأحبته من أجلها. لقد عارض روبيسبير التفرقة القائمة على أسس عرقية أو دينية واقترح تحرير السود(٦) وظل حتى شهور حياته الأخيرة مدافعا عن الشعب. لقد قبل مبدأ الملكية الخاصة، لكنه رغب في تعميم الملكية الصغيرة لتكون هي الأساس الاقتصادي لديمقراطية قوية. وقد اعتبر التفاوت في الثروة شراً لا بد منه (٧) **راجعاً إلى التفاوت الطبيعي** بين قدرات البشر. وفي هذه الفترة وجدناه يؤيد الإبقاء على الملكية فقد كان يرى أن الإطاحة بلويس السادس عشر قد تؤدي إلى فوضى وسفك دماء تفضيان في النهاية إلى دكتاتورية أكثر من طغيان الملكية(٨).

واستمع كل عضو من أعضاء الجمعية الوطنية - تقريبا - لخطب هذا الخطيب الشاب

بحياد فيما عدا ميرابو Mirabeau الذي احترم حجج روبيسبير التي أعدها إعدادا متقنا وبسط شرحها بوضوح. ومن ناحية أخرى[٩] لاحظنا ميرابو الذي نشأ في ظل والد عبقري رغم دقته الشديدة الصارمة راح يتشرب بتوق شديد كل تأثير متاح في الحياة مما تهيؤه فرص الرحلة والمغامرة والخطيئة، وراح يطالع مظاهر الضعف البشري والظلم والفقر والمعاناة في اثنتي عشرة مدينة، وسجنه الملك بناء على طلب والده وشهر بأعدائه في نشرات هجائية واتهامات غاضبة، وأخيرا انتخبته طبقة العوام في كل من مرسيليا Marseilles وايزنبروفنس Aix-en- Provence لمجلس طبقات الأمة فحقق انتصارا مزدوجا فعالا، وأتى إلى باريس وقد أصبح بالفعل أحد المشاهير اللامعين الذين تحوم حولهم الشكوك في بلد كانت الأزمة تدفع بالنابغين والعباقرة إلى الصدارة في ظروف قلما شهد لها التاريخ مثيلا. لقد رحب به متعلمو باريس كلهم، وأطلت الرؤوس من النوافذ لمشاهدة عربته وهي تمر، وكانت النسوة مشتاقات لمعرفة حقيقة الإشاعات المثارة حول غرامياته كما كن مفتونات بما في وجهه من ندوب وتشوه، فتنة لا يعادلها سوى الاشمئزاز من قبح هذه الندوب وهذا التشوه.

لقد استمع الأعضاء باستسلام لخطابه رغم أنهم كانوا شاكين في طبقته وأخلاقه ونواياه، فقد سبق أن سمعوا أنه كان يعيش عيشة تفوق إمكاناته، وأنه كان يشرب حتى يفقد عقله، وأنه لم يكن يتورع عن استخدام بلاغته وفصاحته للتخفيف من وطأة ديونه، لكنهم علموا أنه لام أفراد طبقته دفاعاً عن العوام الذين قدروا فيه شجاعته لأنهم تشككوا في أن يجدوا لهذا البركان من الطاقة المعتمل في نفسه مثيلا آخر.

لقد انتشرت الخطابة في هذه الأيام المحمومة وازدادت المناورات السياسية أكثر بكثير مما شهده قصر (صالة) المسرات البريئة (مينو بلازير Hôtel des Menus Plaisirs) وطغت بها الصحف والنشرات والإعلانات المعلقة على الجدران والنوادي؛ فبعض المندوبين القادمين من بريتاني Brittanyكونوا نادي البريتون Club Breton الذي سرعان ما فتح باب عضويته للأعضاء الآخرين وللخطباء والكتاب، وجعل منه كل من سييز Sieyès وروبيسبير، وميرابو منصة يعرضون عليها أفكارهم ويجربون وقع مشاريعهم على المستمعين، وشهد هذا النادي التشكيل الأول للتنظيم القوي الذي عرف بعد ذلك باسم اليعاقبة. وكانت المحافل الماسونية

نشيطة أيضا، وكانت عادة مؤيدة للملكية الدستورية، لكن ليس لدينا دليل عن مؤامرة ماسونية سرية[١٠].

وربما كان نادي البريتون هو الذي شهد خطة سييز Sieyès وآخرين القاضية بأن يتحرك النبلاء والإكليروس في خطوة واحدة مع طبقة العوام. وقد ذكّر سييز طبقة العوام بأنّ عددهم ٢٤ مليونا من بين ٢٥ مليوناً،هم سكان فرنسا، فلم طال ترددهم في الحديث باسم فرنسا؟. وفي ١٦ يونيو اقترح على المندوبين في المينو بلازير(صالة المسرات البريئة) Menus Plaisirs ضرورة أن يرسلوا دعوة أخيرة للطبقتين الأخريين للانضمام إليهم فإن كانت الإجابة بالرفض فما على مندوبي الطبقة الثالثة إلا أن يعلنوا أنهم هم ممثلو الأمة الفرنسية وأن يشرعوا في سن القوانين.

واعترض ميرابو في بادىء الأمر بأن الملك على رأس مجلس طبقات الأمة وبالتالي فهو – من الناحية القانونية – تابع له، ومن ثم يمكن فض المجلس بناء على رغبة الملك. وبعد أن قضى المجتمعون ليلة في النقاش وسوق الحجج والتشابك بالأيدي تمّ طرح القضية للتصويت: أسوف يعلن المجتمعون أنفسهم جمعية وطنية؟ وتمت الموافقة على ذلك بأربعمائة وتسعين صوتا مقابل تسعين كانوا هم المعترضين فقط. وتعهد النواب بالالتزام بحكم دستوري. ومن الناحية السياسية تكون الثورة قد بدأت في ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩.

وبعد ذلك بيومين اجتمع ممثلو الإكليروس بشكل منفصل وصوتوا لصالح الانضمام لطبقة العوام (الطبقة الثالثة)، وكان عدد الأصوات الموافقة ١٤٩، مقابل ١٣٧ اعترضوا وألقى الإكليروس الأدنى درجة بثقلهم لصالح طبقة العوام وفزع ذوو الرتب الكنسية العليا من الإكليروس من هذا الانشقاق فانضموا للنبلاء ولجأوا إلى الملك لمنع اتحاد الطبقات معا حتى لو اقتضى الأمر حل مجلس طبقات الأمة وصرفه، فأمر الملك في مساء يوم ١٩ يونيو بإغلاق صالة المسرات البريئة (مينوبلازير Hôtel des Menus Plaisirs) لإعدادها لجلوس ممثلي الطبقات الثلاث في الدورة الملكية التي ستعقد في ٢٢ يونيو. وعندما ظهر نواب الطبقة الثالثة في اليوم العشرين وجدوا الأبواب موصدة فاعتقدوا أن الملك يريد صرفهم فتجمعوا في ملعب تنس مجاور Salle du Jeu de Paume واقترح مونييه Mounier على

النواب وعددهم ٥٧٧ المتجمعين أن يقسم كل واحد منهم ألا ينفصل عن المجموع وأن يواجه الظروف مهما كانت حتى يتم وضع الدستور بشكل نهائي. وبالفعل أقسموا جميعا ما عدا واحدا، وقد سجل الفنان جاك لويس ديفيد Jacques - Louis David هذا المشهد التاريخي في واحدة من أهم اللوحات الفنية الكبرى في هذا العصر. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجمعية الوطنية هي أيضا الجمعية التأسيسية التي تتولى صياغة الدستور.

وتم افتتاح الدورة الملكية في ٢٣ يونيو أي بعد الميعاد المقرر لها بيوم، وتلي خطاب للملك في حضورة، وكان الخطاب يعكس اقتناعه أنه بغير حماية النبلاء والكنسية ستتضاءل أهميته السياسية، ورفض في خطابه هذا دعوى الطبقة الثالثة بأنها هي الأمة، باعتبار ذلك أمراً غير قانوني. ووافق الملك في خطابه هذا على إلغاء السخرة، وإبطال إصدار المراسيم الملكية القاضية بالسجن من غير محاكمة وإلغاء رسوم الانتقال داخل فرنسا وكل ما يترتب على نظام القنانة (عبودية الأرض) لكنه أكد على اعتراضه عل كل ما يفسد "الحقوق الدستورية القديمة،.. فيما يتعلق بالملكية أو المزايا الشرفية لطبقتي النبلاء والإكليروس" ووعد بالمساواة في الضرائب في حالة موافقة هاتين الطبقتين. كما قال إن كل ما يتعلق بالدين أو الكنسية لا بد أن يتم بموافقة الإكليروس، وأنهى خطابه بإعادة تأكيده على النظام الملكي المطلق:

"وإذا شاءت الأقدار أن تخليتم عني في هذا المشروع العظيم، فإنني وحدي سأعمل على رفاهية شعبي، وأنا وحدي الذي يجب أن ينظر في أمر ممثليه الحقيقيين.. اعتبروا أيها السادة ولتعلموا أن أيا من مشروعاتكم وخططكم لن يكون له قوة القانون بغير موافقتي.. إنني آمركم أيها السادة أن تنفضوا فورا، وأن تجتمعوا غدا كل واحد منكم في الصالة المخصصة لطبقته"(١١).

وغادر الملك ومعظم النبلاء وعدد قليل من الإكليروس صالة الاجتماع، وأعلن المركيز دي بريزى de Brézé عن رغبة الملك في إخلاء الصالة. وأجاب بايبه - Bailly رئيس الجمعية – بأن الأمة المجتمعة لا يمكنها أن تقبل مثل هذا الترتيب، ودوى صوت ميرابو كالرعد معلنا لدى بريزى de Brézé : "اذهب وقل لمن أرسلوك إننا هنا بإرادة الشعب ولن نغادر إلا إذا

أجبرتمونا على ذلك بالقوة المسلحة"(١٢) . ولم يكن ما قاله صحيحا فقد أتوا إلى هنا بناء على دعوة الملك ومع هذا فقد عبر المجتمعون عن هذا المعنى نفسه بالصياح قائلين "تلك إرادة الجمعية" وعندما حاول الحرس الملكي دخول القاعة سدت مجموعة من النبلاء الليبراليين – وكان من بينهم – لافاييت - Lafayetteالمداخل بسيوفهم المشهرة، وعندما سئل الملك عما يجب عمله أجاب بضجر "دعوهم يبقون" .

وفي ٢٥ يناير انضم دوق أورليان Duc d'orléans مع سبعة وأربعين نبيلا للجمعية الوطنية فاستقبلهم أعضاؤها بعاصفة من الفرح وتردد صدى صياحهم المتحمس في أرجاء القصر الملكي Palais - Royal وحوله، وتآخى الحرس الفرنسي مع الحشود الثائرة، وفي اليوم نفسه شهدت العاصمة ثورتها السلمية فقد التقى الرجال الذين كان قد تم اختيارهم(وكان عددهم ٤٠٧) من أقسام باريس لاختيار مندوبي باريس في دار البلدية Hôtel de Ville وقاموا بتعيين مجلس بلدي جديد، ولما رأى المجلس الذي عينه الملك أنه لا يجد دعما عسكريا يؤازره تخلى – سلميا – عن دار البلدية.

وفي ٢٧ يونيو استسلم الملك لحكم الظروف وتوجهات نيكر Necker وأمر طبقتي النبلاء والإكليروس بالانضمام إلى الجمعية الوطنية الظافرة، وبالفعل ذهب النبلاء إليها لكنهم رفضوا المشاركة في التصويت ومن ثم عاد كثيرون منهم إلى ضياعهم.

وفي أول يوليو استدعى لويس عشرة أفواج – معظمهم من الألمان والسويسريين– لمساعدته، وفي العاشر من يوليو احتلت قوات قوامها ستة آلاف جندي بقيادة المارشال دى بروجلي Maréchal de Broglie فرساي، واتخذ عشرة آلاف جندي بقيادة البارون دى بيسينفال Baron de Besenvalمواقع حول باريس. وفي أجواء ملأها الهياج والرعب شرعت الجمعية في اعتبار التقرير الذي سبق تقديمه في ٩ يوليو بمثابة دستور جديد. وتوسل ميرابو إلى الأعضاء أن يحتفظوا بالملك كدرع ضد الفوضى الاجتماعية وحكم الغوغاء، ووصف لويس السادس عشر بأنه رجل طيب القلب ذو نوايا حسنة لكن مستشاريه قصيري النظر يضللونه وقال لهم وكأنه يتنبأ:

"أَدَرَسَ هؤلاء الناس في تاريخ أي شعب كيف تبدأ الثورات، وكيف يجري تنفيذها؟

ألم يلاحظوا كيف أن سلسلة من الظروف التي يفرضها القدر تبعد أحكم الرجال عن حدود الاعتدال، وكيف أن الشعب الساخط تدفعه الأحداث المرعبة لتورده موارد الإسفاف؟"[١٣].

وانصاع أعضاء الجمعية لنصيحته لأنهم شعروا أيضا بتطور الأحداث السريع في شوارع باريس. لكن الملك لويس بدلا من أن يكافىء الطبقة الثالثة بتنازلات جوهرية لتهدئتها، فإنه أثار غضب الراديكاليين والليبراليين بطرده نيكر Necker للمرة الثانية (في ١١ يوليو) ليضع في منصبه صديق الملكة العنيد المتشدد البارون دي بريتيل (Baron de Breteuil) وفي ١٢ يوليو جعل المقاتل دي بروجلي de Broglie وزيرا للحرب، وتأزمت الأمور وحان وقت الجد.

٢- الباستيل:

في ١٢ يوليو اعتلى كاميل ديمولين Camille Demoulins الجزويتي (اليسوعي) المتخرج، منضدة خارج مقهى دي فوي Café de Foy بالقرب من القصر الملكي وأعلن خبر طرد نيكر واستدعاء القوات الأجنبية وراح يصرخ "إن الألمان سيدخلون باريس هذه الليلة ليذبحوا سكانها" وراح يحث مستمعيه على تسليح أنفسهم وقد نفذوا ما أشار به لأن المجلس البلدي الجديد لم يبد إلا مقاومة واهية عندما كسروا الأبواب وصادروا الأسلحة المخزونة في دار البلدية. لقد أصبح الثوار المسلحون يستعرضون الآن قوتهم في الشوارع رافعين تماثيل نصفية لنيكر ودوق أورليان Duc d'orléans مزينين قبعاتهم بأشرطة ذوات عقد خضراء. وعندما أصبح معروفا أن هذا اللون هو أيضا لون ملابس خدم الكونت المكروه (كونت درتوا Comte d'Artois) الأخ الأصغر للملك وكذلك حرسه، فإنهم سرعان ما غيروا ألوان عقد أشرطة قبعاتهم ليجعلوها حمراء وبيضاء وزرقاء - الألوان التي تمثل العلم الوطني.

وأغلق رجال البنوك البورصة وكونت الطبقة الوسطى ميليشيا خاصة بها أصبحت هي نواة الحرس الوطني بقيادة لافاييت Lafayette؛ كل ذلك خوفاً من عنف طائش لا يميز

وتدمير للممتلكات وذعر مالي. ومع هذا فإن بعض الوكلاء البورجوازيين - رغبة منهم في حماية الطبقة الوسطى التي أصبحت آمنة الآن - أسهموا في تمويل المقاومة الشعبية للملكية المطلقة وجذب الحرس الفرنسي من أحضان الملكية صوب المشاعر الديمقراطية[١٤]. وفي ١٣ يوليو أعيد تشكيل الجماهير فانضم إليهم عدد كبير من أحياء الفقراء وأتاهم مدد جديد من الجنود الجدد من كل حدب وصوب، وغزت هذه الجماهير المتزايد عددها مخزن السلاح في مستشفى المحاربين القدماء Hôtel des Invalides واستولت على ٢٨,٠٠٠ بندقية (مسكت) وبعض المدافع، وخشي بيسينفال Besenval أن تطلق هذه الكتائب الشعبية النار على الشعب فاحتفظ بهم في الأحياء الجانبية، وعلى أية حال فقد أصبحت الجماهير المسلحة تسيطر الآن على العاصمة.

كيف يتم تصريف طاقات هذه القوى؟ لقد اقترح كثيرون توجيهها في محاولة للاستيلاء على الباستيل، ذلك الحصن القديم الواقع في الجانب الشرقي من باريس والذي شرع في بنائه منذ سنة ١٣٧٠ وجرت توسعته شيئا فشيئاً في السنوات اللاحقة بقصد احتجاز وسجن من يحيق بهم غضب الملك أو النبلاء، وعادة ما كان ذلك يتم من خلال أوامر سجن تصدر بشكل سري من الملك **Lettres de Cachet**، وفي سنة ١٧٨٤ طلب من المهندس المعماري وضع خطط لتدمير الزنزانات الكئيبة[١٥] من غير أن يعلم الناس بهذه الأوامر فقد كانوا يظنون أن الباستيل يضم زنزانات يقبع بها ضحايا الحكم الاستبدادي.

بل إنه لم يكن لدى الثوار نوايا - كما هو ظاهر - بتحطيم حصن الباستيل لكنهم بعد أن قضوا ليلة استراحوا فيها تقاربت آراؤهم حول فكرة التدمير في ١٤ يوليو، ذلك اليوم الذي سيصبح عيدا وطنيا لفرنسا. لقد كان هدفهم هو أن يطلبوا من محافظ السجن أن يسمح لهم بالدخول ويتناولوا البارود والأسلحة النارية التي ذكرت التقارير أنها موجودة خلف جدرانه، ولم يجدوا حتى الآن إلا القليل من البارود ولم تكن بنادقهم الكثيرة ومدافعهم القليلة - بلا مزيد من البارود - قادرة على منعهم إذا وجه بيسينفال Besenval كتائبه إليهم. وعلى أية حال فإن هذه الجدران ذوات السماكة البالغة ثلاثين قدما والارتفاع البالغ مائة قدم التي تحميها أبراج مزودة بالمدافع، والمحاطة بخندق يبلغ عرضه ثمانين قدما -

كانت كتحذير كاف . وانضم أعضاء المجلس البلدي الجديد للجماهير وعرضوا التدخل لدى محافظ الباستيل لعقد ترتيبات سلام .

وكان محافظ الباستيل هو برنارد – رينيه جوردان Bernard - René Jordan, Marquis de Launay رجلاً من المؤكد أنه مثقف ولطيف المعشر(١٦)، فقد استقبل المفوضين من الجماهير بترحاب، وعرض المفوضون أن يضمنوا أن يتصرف الثوار بشكل سلمي إذا هو أزاح المدافع من مواقع الإطلاق . وإذا أمر جنوده وكان عددهم ١١٤ جنديا بعدم إطلاق النار، ووافق المحافظ واستضاف الزوار لتناول الغداء .

وتلقت لجنة أخرى ضمانا مشابها، ولكن المحاصرين راحوا يصيحون قائلين إنهم يريدون ذخيرة لا وعودا وكلمات .

وبينما الطرفان يتفاوضان تسلق بعض العمال النشيطين إلى مراكز التحكم ودلوا الجسرين المتحركين فاندفع المهاجمون عبر هذين الجسرين إلى ساحة الباستيل، فأمرهم دي لوني de Launayالمحافظ الآنف ذكره بالتراجع لكنهم رفضوا، فأطلق عسكره النار عليهم، وتغلب الثائرون المقتحمون عندما قام الحرس الفرنسي بإحضار خمسة مدافع وبدأ في تدمير أسوار الحصن، فتحت هذا الغطاء من النيران اندفع جمهور الثائرين إلى داخل السجن واشتبكوا في معركة مع جنود الحرس، وتلاحم الطرفان فسقط من المهاجمين ثمانية وتسعون . كما قتل واحد من المدافعين، وازداد المهاجمون عدداً وشراسة وعرض دى لوني De Launay محافظ السجن أن يسلم إذا سمح الثوار لرجاله بالخروج سالمين بأسلحتهم، لكن قادة الجماهير الثائرة رفضوا ذلك، فاستسلم فقتل المنتصرون ستة عساكر آخرين وحرروا سبعة سجناء واستولوا على الذخائر والأسلحة وأسروا محافظ السجن دى لوني واتجهوا مظفرين إلى دار البلدية . وفي الطريق كان جانب من الجماهير مغيظا محنقاً بسبب ما مر بهم من كوارث فضربوا رجلا أرستقراطيا اعتراه الارتباك والذهول وأجهزوا عليه وقطعوا رأسه ورفعوه على رمح، وقطع رأس جاك دى فليسيل Jacques de Flesselles شهبندر التجار والذي كان قد ضلل الناخبين عن موضع الأسلحة، وأضيف رأسه المقطوع إلى موكب الثوار، وكان قد جرى قطعه في بلاس دى جريف Place de Grève (ميدان الرمال) .

وفي ١٥ يوليو جعل ناخبو الجمعيات المحلية من بايبه Bailly محافظا لباريس (رئيساً لبلديتها Mayor) واختاروا لافاييت Lafayette رئيسا للحرس الوطني الجديد، وبدأ العوام السعداء (السانس كولوت أي الذين لا يرتدون سراويل (بناطيل) قصيرة) في تدمير أحجار الباستيل حجراً حجراً، أما الملك الذي اعترته الصدمة وأصابة الرعب فقد ذهب إلى الجمعية الوطنية وأعلن أنه طرد الكتائب العسكرية التي سبق أن جلبها إلى فرساي وباريس. وفي ١٦ يوليو نصحه مؤتمر من النبلاء بمغادرة البلاد تحت حماية الكتائب المغادرة وأن يجد لنفسه ملاذا في إحدى عواصم المقاطعات أو في بلاط أجنبي، وأيدت مارى أنطوانيت بحرارة هذا الاقتراح وجمعت جواهرها وما غلا ثمنه وسهل حمله استعداداً للرحلة(١٧) أما لويس فقد استدعى نيكر في ١٧ يوليو، وابتهج لذلك رجال المال والعامة، وفي ١٨ من الشهر نفسه اتجه إلى باريس وزار دار البلدية ووقع بقبوله المجلس البلدي الجديد وثبت على قبعته الشريط ذا الألوان: الأحمر والأبيض والأزرق، وهي التي ترمز للثورة، وعاد إلى فرساي وعانق زوجته وأخته وأطفاله وقال لهم : "يسعدني ألا يسفك مزيد من الدماء، وإنني أقسم ألا تسفك قطرة دماء فرنسية بأمري"(١٨) أما أخوه الأصغر كونت درتوا **Comte d'Artois** فقد أخذ معه زوجته ورئيسة الخدم(١٩) وقاد أول مجموعة من اللاجئين السياسيين émigrés خارج فرنسا.

٣- دخول مارا Marat: 1789

لم يكن الاستيلاء على الباستيل مجرد عمل رمزي ومجرد سهم ضد الحكم الاستبدادي، وإنما كان عملاً أنقذ الجمعية الوطنية من الخضوع لجيش الملك في فرساي كما أنقذ حكومة باريس الجديدة من أن تحكم الكتائب العسكرية التي تطوق باريس سيطرتها عليها. لقد حافظت هذه العملية - بشكل غير مقصود تماما - على الثورة البورجوازية، لكنها أتاحت لأهل باريس السلاح والذخيرة، وسمحت بذلك لتطورات أبعد مدى للقوى البرولتيارية.

لقد أدى سقوط الباستيل إلى إعطاء دفعة جديدة، للصحف التي زاد ولع الباريسيين بها

فزاد عدد قرائها. وكانت صحيفة فرنسا (Gazette de France جازيت دي فرانس) ومؤشر فرنسا (Mercure de France مركير دي فرانس) وجريدة باريس (Journal de Paris جرنال باريس) من الصحف القديمة التي ظلت محافظة على مستواها بعد أحداث الثورة، أما الآن **فقد أصدر لوستالو Loustalot صحيفة ثورات باريس Les Revolutions de Paris في ١٧** يوليو ١٧٨٩ وأصدر بريسو Brissot الوطني الفرنسي (لوباتريوت فرانسيه) (Le Patriote Français) في ٢٨ يوليو، وأصدر مارا Maratصديق الشعب (لامى دي بيبل (L`Ami du peuple في ١٢ سبتمبر، وأصدر دى موليه Desmoulins صحيفة ثورات فرنسا Révolutions de France في ٢٨ نوفمبر..... وبالإضافة لهذه الصحف كانت اثنتا عشرة نشرة تظهر كل يوم تصفق لحرية الصحافة، وترفع صورا جديدة. وقيما جديدة، وتحطم ما جرى العرف على توقيره.

ويمكننا أن نتخيل محتوى هذه النشرات بملاحظة أصل الكلمة Libel والذي يعني "يطعن أو يقذق أو يشهر" فمن هذه الكلمة كان المسمى الفرنسي لهذه النشرات وهو ليبل Libelles أي الكتب الصغيرة المخصصة للسب والهجاء.

وكان جان – بول مارا Jean - Paul Marat هو أكثر هؤلاء الصحفيين الجدد راديكالية وتهورا وقسوة وكان هو أقواهم وأكثرهم تأثيرا. ولد في نوشاتل Neuchatel في سويسرا في ٢٤ مايو سنة ١٧٤٣ من أم ملكية وأب سرديني (Sardinian من سردينيا) ولم يكف أبداً عن تبجيل روسو Rousseau وهو وطني آخر اغترب عن بلده. درس مارا الطب في بوردو Bordeaux وباريس، ومارسه في لندن(١٧٦٥–١٧٧٧) وحقق قدراً معقولاً من النجاح في هذه المهنة. أما القصص التي رويت بعد ذلك عن الجرائم والسخافات التي ارتكبها فربما كانت من تدبير أعدائه في جو الحرية الصحفية التي **أُسيء** استخدامها في ذلك الوقت[٢٠]. ومنحته جامعة سانت أندرو St.Andrewsدرجة فخرية (شرفية)، وعلى أية حال فهي درجة كما قيمها جونسون Johnson كانت أهميتها تزداد على وفق الدرجات العلمية السابقة عليها[٢١]. وقد كتب مارا بالإنجليزية ونشر في لندن (١٧٧٤) كتابه قيود العبودية The Chains of Slavery وهو شجب عنيف للحكومات الأوروبية باعتبارها مجموعة من

المتآمرين من الملوك واللوردات والإكليروس لخداع الشعوب والاحتفاظ بولائها وتبعيتها.
وعاد مارا إلى فرنسا في سنة ١٧٧٧ وعمل طبيباً بيطرياً في إسطبلات كونت درتوا Comte d' Artois ثم رقي طبيباً لحرس مخافر الكونت. وحقق بعض الشهرة في علاج الرئة وفي طب العيون. ونشر بحوثاً في الكهرباء والضوء والبصريات والنار، وترجمت بعض بحوثه إلى الألمانية. وظن مارا أنه جرى تعيينه لعضوية أكاديمية العلوم Academie des Sciences ولكن هجومه على نيوتون Newton جعله موضع شك الأكاديميين.

وكان مارا Marat رجلا شديد الكبرياء، وكانت العلل الجسدية تتناوب عليه فتعوقه وتجعله نزقا سريع الغضب إلى حد الهياج الشديد. وكان مصابا بالتهابات جلدية جعلته يجد راحة لبعض الوقت في الجلوس في الماء الساخن، وكان يكتب وهو بالفعل جالس في هذا الماء الساخن(٢٢) وكان ذا رأس ضخم جداً إذا قورن بطوله الذي لا يزيد عن خمسة أقدام، وكانت إحدى عينيه أعلى من العين الأخرى. من المفهوم إذن لم كان يفضل العزلة. وكان الأطباء يعالجونه بفصد دمه بين الحين والحين لتخفيف آلامه. وكان يعمل بجد شديد وكان يقول عن نفسه إنني لا أقضي في النوم سوى ساعتين.. إنني لم أستمتع بخمس عشرة دقيقة من اللعب طوال أكثر من ثلاث سنين (٢٣). وفي سنة ١٧٩٣ أصيب بداء الرئة وشعر أنه لن يعيش طويلا، وربما كانت إصابته هذه بسبب طوال مكوثه في البيت. وكانت هذه الحقائق غير معروفة لشارلوت كورداى Charlotte Corday.

لقد تأثرت شخصيته بعلله الجسدية، فعوض نقصه بالخيلاء والغرور وعمل تقلب مزاجه وادعاؤه العظمة وشجبه الضاري لكل من نيكر Necker ولافاييت Lafayette ولافوازيه Lavoisier ودعوته المجنونة للعنف الجماهيري.. كل أولئك زاد من وطأته قدر من الشجاعة والحرفية والتكريس.

ولا يرجع نجاح جريدته لمجرد المبالغات المثيرة التي يتسم بها أسلوبه فحسب وإنما يرجع في الأساس إلى تأييده المتواصل والمتحمس للبرولتياريا الذين لا أصوات لهم، ذلك التأييد الذي كان لا ينطوي على أي نوع من الرشوة.

ومع هذا فهو لم يكن يبالغ في تقدير ذكاء الشعب. لقد كان يرى الفوضى ضاربة أطنابها، وأضاف إليها فوضى جديدة من عنده لكنه على الأقل في ذلك الوقت لم يكن يدعو إلى الديمقراطية وإنما إلى الديكتاتورية والثورة والاغتيال تماما كما كان يحدث في أيام روما الجمهورية، بل إنه قد اقترح أن يكون نفسه هو هذا الديكتاتور المطلوب(٢٤). وفي بعض الأوقات كان يرى أن الحكومة يجب أن تكون في قبضة الملاك (أصحاب الثروة) طالما أن لديهم العصا الطولى التي تستخدم لصالح الجمهور(٢٥). وكان يعتبر تركز الثروة أمرا طبيعيا لكنه اقترح موازنة ذلك بالدعوة إلى أن الرفاهية أمر ينطوي على الفسق، وإلى الحق المقدس للجائع والمحتاج.

"لا شيء فائض عن الحاجة يمكن أن يكون من وجهة نظرنا شرعيا طالما أن الآخرين يعانون من نقص الضروريات... فمعظم الثروات الكنسية يجب أن يتم توزيعها على الفقراء، ولا بد من إنشاء المدارس المجانية في كل مكان "(٢٦) " إن المجتمع يضم أولئك الذين لا يملكون شيئا والذين قلما يكفي حصاد عملهم لإعاشتهم، والمجتمع ملزم بالنسبة لهؤلاء أن يدبر لهم مورد رزق لتمكينهم من إطعام أنفسهم والسكنى واللباس بشكل مناسب، وعلى المجتمع أن يدبر الوسائل لعلاج المرضى منهم ورعاية كبار السن وتدبير وسائل تنشئة أطفالهم. وهؤلاء الذين يتمرغون في الثروة والنعيم لا بد لهم من إمداد المعوزين بضروريات الحياة" وإن لم يفعلوا يصبح من حق الفقراء أن يحصلوا بالقوة على ما يحتاجونه(٢٧).

وقد ارتاب معظم أعضاء الجمعيات المتتابعة في مارا وخافوا من أفكاره، لكن السانس كولوت Sans culottes (الذين لا يرتدون سراويل «بناطيل» قصيرة(*)) من بينهم كانوا يتسامحون مع أخطائه بسبب فلسفته، بل وكانوا يخاطرون بإخفائه إذا ما جدت الشرطة في البحث عنه. ولا بد أن مارا Marat كان يتحلى ببعض الصفات المحبوبة لأن رفيقته (زوجته التي تزوجها عرفيا أي بمجرد اتفاق الطرفين دون طقوس كنسية) ظلت مخلصة له إلى النهاية.

(*) الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة. (المترجم)

٤- تخلي النبلاء عن امتيازاتهم في ٤و٥ أغسطس ١٧٨٩ :

في ٣١ يوليو سنة ١٧٨٩ كتب الحاكم موريس Gouverneur Morris من فرنسا "إن هذه البلاد أقرب ما تكون في الوقت ا لحاضر إلى فوضوية لا ضابط لها"[٢٨] فالتجار يتحكمون في السوق وتسببوا في نقص الحبوب لصالحهم ورفعوا الأسعار، والعربات التي تنقل الطعام إلى المدن تتعرض للنهب في أثناء الطريق، وعمت الفوضى واختل الأمن وتهدد النقل. وضجت باريس من كثرة المجرمين. وكان الريف الفرنسي أيضا مرتعاً للصوص الطوافين حتى إن الفلاحين في كثير من المقاطعات سلحوا أنفسهم في ذلك الجو من الرعب الهائل الذي سببته هذه الجموع التي لا يحكمها قانون، ففي غضون ستة أشهر اقتنى المواطنون ٤٠٠,٠٠٠ بندقية، وعندما انتهت فترة الرعب الهائل Great Fear هذه قرر الفلاحون استخدام أسلحتهم ضد جامعي الضرائب والاحتكاريين والسادة الإقطاعيين، فهاجموا قصور الإقطاعيين بالبنادق (المسكت) والمذاري والمناجل (المحشات) وراحوا يطالبون بإظهار الوثائق والمستندات التي تثبت حقوق السادة، ومدى تفو يضهم في جمع الرسوم الإقطاعية، فإذا ما أطلعهم عليها السادة، قاموا بحرقها، وإذا رفضوا إطلاعهم وقاوموهم، أحرق الفلاحون قصر السيد الإقطاعي وحدث في عدة حالات أن قتلوا المالك (السيد الإقطاعي) واستمر الحال على هذا المنوال منذ بداية شهر يوليو سنة ١٧٨٩ وانتشر حتى عمّ أنحاء فرنسا كلها. وفي بعض الأماكن حمل المتمردون إعلانات يزعمون بمقتضاها أن الملك قد خولهم كل الصلاحيات في مقاطعاتهم[٢٩]. وغالبا ما كان التدمير يجري بغير ضابط وبعنف شديد حتى إن الفلاحين التابعين لأراضي دير مورباش Murbach أحرقوا مكتبة الدير، وحملوا معهم الطبق الذي يدار به على المتعبدين لجمع التبرعات واستولوا على ستائر الكتان وفتحوا براميل النبيذ وشربوا كل ما استطاعوا شربه وأراقوا الباقي. وفي ثمانية كومونات Communes (بلديات) اجتاح السكان الأديرة واستولوا على الحجج القانونية ومستندات الملكية بها وأعلنوا للرهبان أن رجال الدين (الإكليروس) أصبحوا الآن تابعين للشعب، وورد في تقرير مقدم للجمعية الوطنية أنه في كونتيّه فرانش Franche Comté تم إحراق أو نهب نحو أربعين قصراً إقطاعيا، وفي لانجر Langers جرى نهب وإحراق ثلاثة قصور من

خمسة، وفي دوفيني Dauphine جرى إحراق وتدمير سبعة وعشرين قصرا وفي فينوا Viennois تم نهب الأديرة كلها. وتم اغتيال من لا حصر لهم من السادة الإقطاعيين والبورجوازيين الأثرياء [٣٠].

أما المسئولون الرسميون في المدن الذين حاولوا إيقاف ثورة الفلاحين (ثورة الجاكيين Jacqueries) فقد جرى عزلهم، بل لقد جرى إعدام بعضهم. وهجر الأرستقراطيون بيوتهم وراحوا يبحثون عن الأمان في أماكن أخرى لكنهم كانوا يواجهون هذه الفوضوية التلقائية التي لا ضابط لها أينما ذهبوا، ثم بدأت موجة الهجرة الثانية (النزوح عن فرنسا).

وفي ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ذكر مندوب للجمعية الوطنية في فرساي في تقرير له أن "الخطابات الواردة من المقاطعات كلها تشير إلى أن مختلف الممتلكات عرضة للنهب بعنف إجرامي لا حد له، ففي أنحاء البلاد كلها جرى إحراق القصور الإقطاعية وتدمير الأديرة وتركت المزارع للناهبين. وتم إلغاء الرسوم الإقطاعية، وأصبح القانون بلا قوة تحميه وأصبح المسئولون بلا سلطة ولا صلاحيات" [٣١]. لقد أدرك من تبقى من النبلاء أن الثورة التي كانوا يأملون أن تكون قصرا" على باريس وأن تهدأ ببعض التنازلات الصغرى التي تقدمها الحكومة قد أصبحت الآن على مستوى فرنسا كلها وأنه لم يعد من الممكن الاستمرار في تحصيل الرسوم الإقطاعية، فاقترح الفيكونت دى نوال "The Vicomte de Noailles" أنه لم يعد من الممكن فرض الرسوم الإقطاعية..... إذ يجب إلغاء القنانة (عبودية الأرض) وغيرها من أشكال العبودية الشخصية بلا تعويض، وأنه لا بد من أن تكون المبالغ المدفوعة مقننة على أسس عادلة" وأنهى حديثه معلنا نهاية التمايز الطبقي "لا بد أن يدفع كل فرد في المملكة ضرائب بما يتناسب مع دخله".

لقد كان الفيكونت دي نوال Noailles فقيرا وبالتالي كان يمكنه تحمل هذه الإجراءات تماما، لكن دوق ديجلون the Duc d'Aiguillon كان من بين أغنى البارونات ثنى على الاقتراح وأعلن قبوله ذا الوقع الشديد قائلاً: "إن الناس قد حاولوا أخيراً أن ينفضوا عن كاهلهم نير العبودية الجاثم عليهم طوال قرون طويلة مضت، ويجب أن نعترف- رغم ضرورة شجب هذا العصيان المسلح- أن من الضروري أن نلتمس للثائرين عذراً فقد كانوا

ضحايا بشكل مثير "(٣٢) وقد دفع هذا الاعتراف النبلاء الليبراليين إلى تأييده بحماس، فتزاحموا واحدا إثر الآخر لإعلان تخليهم عن امتيازاتهم التي كانوا يطالبون بها، وبعد ساعات من التخلي ذي الطابع الحماسي أعلنت الجمعية الوطنية في الساعة الثانية من صباح ٥ أغسطس تحرير الفلاحين، وجرى إضافة بعض التحفظات بعد ذلك تطالب الفلاحين بدفع مبالغ على أقساط دورية لاسترداد رسوم معينة، لكن مقاومة هذه الفكرة جعلت تحصيلها غير عملي، وبذلك كان في هذا القرار إنهاء حقيقي للنظام الإقطاعي. وكان توقيع الملك على تخلي النبلاء عن امتيازاتهم مدعاة إلى اعتباره كما سجل في المادة ١٦ "معيد الحرية الفرنسية"(٣٣).

واستمرت موجة المشاعر الإنسانية مدة طويلة تكفي لإبراز وثيقة تاريخية أخرى هي "إعلان حقوق الإنسان" والمواطن (٢٧ أغسطس ١٧٨٩) وقد اقترح هذه الوثيقة لافاييت Lafayette الذي كان لا يزال متحمساً لتأثره بإعلان الا ستقلال ووثائق الحقوق التي أعلنتها عدة ولايات أمريكية، وأيد النبلاء الأصغرون سناً في الجمعية مبدأ المساواة لأنهم كانوا قد عانوا من المزايا الوراثية التي كان يتمتع بها أكبر الأبناء، وبعضهم مثل ميرابو Mirabeau كان قد عانى من السجن التعسفي.

وشجب المندوبون البورجوازيون تفرد الأرستقراطيين بالوضعية الاجتماعية واحتكار النبلاء المناصب العليا في المجالين المدني والعسكري. وكان معظم الأعضاء قد قرأوا ما كتبه روسو Rousseau عن الإرادة العامة وقبلوا ما اعتقده هذا الفيلسوف من أن لكل إنسان حقوقا أساسية بمقتضى القانون الطبيعي. لكل هذا لم تكن هناك سوى معارضة قليلة لأن يتصدر الدستور الجديد إعلانا بدا مكملاً للثورة. وكانت بعض المواد تتضمن تكراراً :

مادة ١ : ولد الناس أحرارا ويظلون أحراراً ومتساويين في الحقوق .....

مادة ٢ : هدف التنظيمات السياسية كلها هو ضمان الحقوق الطبيعية التي لا يمكن انتزاعها بحكم القانون أو العادة للإنسان (الحقوق الأساسية) وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الجور.

مـادة ٤ : الحـرية هي أن يمارس الفـرد كل مـا يحلو له شـريطة ألا يكون في ذلك ضـرر للآخرين، ومن هنا فإن ممارسة كل إنسان لحقوقه الطبيعية لا حد لها إذا عاقت أفراد المجتمع الآخرين عن التمتع بالحقوق نفسها. ومن ثم فهذه الحدود لا يرسمها إلا القانون.....

مادة ٦ : القانون هو تعبير عن الإرادة العامة، ولكل مواطن الحق في المشاركة شخصياً أو من خلال ممثل له في صياغته أي القانون... والمواطنون كلهم سواء في نظر القانون، ولهم حقوق متساوية في شغل المناصب والوظائف العامة على وفق قدراتهم.....

مـادة ٧ : لا يجوز اتهام أي شخص أو القبض عليه أو سجنه إلا على وفق الطرائق التي يحددها القانون ....

مادة ٩ : الأفراد كلهم أبرياء إلى أن تثبت إدانتهم، وإذا حتمت الضرورة القبض على أي شخص فإن القانون يمنع بشدة استخدام العنف مع السجين أو المعتقل.

مادة ١٠ : لا يضار أحد بسبب آرائه بما في ذلك معتقداته الدينية طالما أن إظهار هذه الآراء والمعتقدات لا يخل بالنظام العام كما يحدده القانون.

مـادة ١١ : حـرية تداول الأفكار والآراء مكفـولة وهي من أهم حـقـوق الإنسـان، فكل مـواطن له حق الكلام والكتابة وله أن ينشـر مـا يريد بحـرية لكنه سيكون مسئولاً إذا أساء استخدام هذه الحرية مسئولية سيحددها القانون.

مادة ١٧ : ما دامت الملكية حقاً مقدساً لا يجب انتهاكه فلن يسلب أحد ممتلكاته أو يجرد منها إلا على وفق ما تمليه المصلحة العامة وهو الأمر الذي يحدده القانون بوضوح، وفي حالة نزعها – أي الملكية – لا بد من تقديم تعويض عادل ومنصف للمنزوع ملكيته[٣٤].

ومع تأكيد هذه المثاليات الديمقراطية ظل هناك بعض القصور فقد ظل الرق مستمراً ومسموحاً به في مستعمرات فرنسا في الكاريبي حتى أبطلها ميثاق إبطال الرق في سنة ١٧٩٣، وقصر الدستور الجديد حق الاقتراع وشغل المناصب العامة على دافعي الحد الأدنى

من الضرائب. وظلت الحقوق المدنية غير كاملة بالنسبة للممثلين actors والبروتستانت واليهود. وامتنع لويس السادس عشر عن الموافقة على الإعلان على أساس أنه سيؤدي إلى مزيد من الفوضى وعدم الاستقرار. ولم يبق أمام الباريسيين سوى إجباره على القبول.

٥- إلى فرساي: ٥ أكتوبر ١٧٨٩:

ظل الشغب في باريس طوال شهري أغسطس وسبتمبر، وتزايد نقص الخبز وراحت ربات البيوت يناضلن للحصول عليه من المخابز، وفي إحدى نوبات الشغب هذه أعدم العامة خبازاً وأحد مسئولي البلدية. ودعا مارا Marat إلى مسيرة للجمعية الوطنية والقصر الملكي في فرساي:

"عندما يكون الأمن العام في خطر لا بد للشعب أن يستولي على السلطة من أيدي أولئك الذين يقبضون عليها.... ضعوا هذه المرأة النمساوية (الملكة) وأخي زوجها (أرتوا Artois) في السجن... اقبضوا على الوزراء ومساعديهم وكبلوهم بالحديد.. تأكدوا من وجود المحافظ (رئيس البلدية) [ذلك البائس الدمث المستغرق في أحلام اليقظة] والقادة التابعين له، لا تدعوا الجنرال [لافاييت] يبتعد عن نواظركم واقبضوا على مساعديه... فلا حق لوريث العرش في الغداء طالما أنكم لا تجدون الخبز. نظموا صفوفكم المسلحة.. هيا إلى الجمعية الوطنية لنطالب معا وجميعاً بالطعام... طالبوهم أن يكون لفقراء الأمة مستقبل آمن من خلال تضامنها. إنكم إن رفضتم الالتحاق بالتشكيلات المسلحة فليس أمامكم إلا الاستيلاء على الأراضي والذهب الذي يمتلكه الأوغاد الذين يريدون إجباركم على شروطهم في ظل الجوع، اقتسموا فيما بينكم ذهبهم وممتلكاتهم. هيا احملوا رؤوس الوزراء وتابعيهم التافهين. هيا إنه الوقت المناسب!"[٣٥].

وركن لويس إلى نصائح وزرائه القاضية بضرورة استدعاء جنود لم يتأثروا بالأفكار الثورية لحمايته وحماية أسرته وبلاطه، وذلك خوفا من تحريض الصحافة الباريسية وخوفا من الفوضى الضاربة أطنابها في باريس ومظاهرات الجماهير في فرساي. فأرسل في أواخر شهر سبتمبر إلى دواي Douai مستدعيا أفواج الفلاندر العسكرية Flanders Regiment، فلما

وصلت رحب بها حرس الملك الذي أقام لأفرادها مأدبة في دار الأوبرا بالقصر، وعندما ظهر لويس وماري أنطوانيت علا تصفيق الجنود بشدة، فقد كانوا نصف سكارى لفرط ما شربوا من النبيذ، كما أن جلال المشهد الملكي زادهم حماساً، لذا سرعان ما أزاحوا الشارات الوطنية مثلثة الألوان من على بزاتهم العسكرية ووضعوا الشارات الملكية (الأبيض والأسود) على قبعاتهم، وورد في التقارير أن الألوان التي ترمز للثورة قد طرحت أرضاً لتدوسها أقدام الراقصين[٣٦] (وقد أنكرت مدام كامبا Mme Campan الوصيفة الأولى للملكة والتي كانت شاهدة عيان حدوث هذا)[٣٧].

وتضخمت القصة عند وصولها إلى باريس، وتأكدت بسبب تقرير مؤداه أن جيشا يتجمع بالقرب من متز Metz بنية التوجه إلى فرساي لفض الجمعية الوطنية. واستنكر ميرابو Mirabeau والمندوبون الآخرون هذا التهديد العسكري الجديد. وطالب مارا Marat ولوزتالو Loustalot وصحفيون آخرون بضرورة أن يرغم الشعب كلا من أفراد الأسرة المالكة والجمعية الوطنية على الانتقال إلى باريس حتى يكونوا تحت مراقبة الجماهير. وفي ٥ أكتوبر أخذ النسوة في سوق المدينة ممن يعلمن بنقص الطعام على عاتقهن تكوين فرقة للتوجه إلى فرساي على بعد عشرة أميال من باريس. وكان ينضم إليهن في مسيرتهن رجال ونساء وكثيرون بلغوا الآلاف. ولم يكن الموكب تراجيديا أو كئيباً، فقد لطفت منه حيوية الفرنسيين، فقد راح جميعهم يصيح "سنحضر معنا الخباز وزوجته" وسنستمتع بالاستماع إلى ميرابو"[٣٨].

ووصل الموكب إلى فرساي بينما المطر ينهمر بكثافة، وتجمعوا في صفوف كيفما اتفق أمام بوابات القصر الملكي العالية وأسواره وطالبوا بمقابلة الملك، وتوجه وفد إلى الجمعية الوطنية وأصر على ضرورة أن يدبر المندوبون في الجمعية الخبز للحشود المتجمعة. واتجه مونييه Mounier - القائم بالحراسة في ذلك الوقت مع إحدى المندوبات وهي سيدة لطيفة اسمها لويسون شابري Louison Chabry لمقابلة لويس. فلما رأته تأثرت كثيرا حتى إنها لم تستطع أن تنطق سوى بكلمة واحدة (خبز) ومن ثم سقطت مغشيا عليها. فلما أفاقت وعدها لويس بتدبير خبز للجموع الجائعة التي بللها المطر. وعندما همت بالمغادرة أرادت أن

تقبل يده لكنه عانقها عناقا أبويا. وفي هذه الأثناء اختلطت كثيرات من الباريسيات الجذابات بجنود الفلمنكية (كتائب الفلاندر الآنف ذكرها) وأقنعنهم بعدم إطلاق النار على النسوة العزل. فتعاطف معهن الجنود واصطحب كثيرون من الجنود هؤلاء الجميلات الجائعات إلى ثكناتهم وقدموا لهن الطعام والدفء. وفي الساعة الحادية عشرة من هذه الليلة وصل لافاييت Lafayette على رأس خمسة عشر ألفاً من الحرس الوطني، فاستقبله الملك، وتعهد له لافاييت بحمايته، لكنه أي لافاييت- انضم إلى نكر Necker بتوجيه النصح للملك بقبول مطالب الشعب بالتوجه مع الملكة ليعيش في باريس. وكان لافاييت مرهقا فاتجه إلى هوتيل(*) دي نوال Hôtel de Noailles.

وفي الصباح الباكر في يوم السادس من أكتوبر اندفعت الجماهير الغاضبة المرهقة إلى ساحة القصر الملكي من خلال بوابة تصادف فتحها وشق بعض الرجال المسلحين طريقهم إلى السلم ومنه إلى غرفة نوم الملكة التي هربت بلباس نومها وابنها على ذراعيها إلى غرفة الملك. وقاوم حرس القصر هذا الاقتحام ولاقى ثلاثة منهم حتوفهم، وهب لافاييت متباطئا لكنه كان راغبا في تقديم العون- لتهدئة هذا الشغب، مؤكدا الموافقة على مطالب الثائرين. واتجه الملك إلى الشرفة ووعد الجموع بالانتقال إلى باريس، فصاحت "عاش الملك"! لكن هذه الجموع عادت فطلبت ظهور الملكة أمامهم، فظهرت الملكة وانتصبت واقفة وفي هذه الأثناء صوب واحد من الجماهير المحتشدة بندقيته (من نوع المسكت) إليها، لكن القريبين منه كسروا بندقيته وفي هذه الأثناء تقدم لافاييت ليقبل يد الملكة في إشارة منه للولاء فهدأت الجماهير التي هتفت بحبها للملكة إن هي أتت لتعيش في باريس.

وكلما اقترب وقت الظهيرة تجمع موكب لا نظير له في التاريخ أمام الحرس الوطني وكتائب الحرس الملكي، ثم أتت العربة الملكية التي تحمل الملك وأخته مدام إليزابيث والملكة وطفليها، وتلا ذلك صف طويل من العربات التي تجرها خيول حاملة أكياس الدقيق ثم الباريسيون المنتصرون وجثمت بعض النسوة فوق مدفع، ورفع بعض الرجال عاليا رؤوس من جرى إعدامهم من حرس الملك على أسنة الرماح، وفي سيفر Sèvres توقفوا لنشر المساحيق

(*) الكلمة هنا لا تعني فندقاً.(المترجم)

فوق هذه الرؤوس وعقص شعورها[٣٩]. وكانت الملكة تشك في إمكان أن تصل إلى باريس وهي على قيد الحياة، لكنها في هذه الليلة نامت وكذلك أفراد الأسرة المالكة على أسرة أعدت على عجل في قصر التوليري Tuileries حيث سبق للملوك الفرنسيين أن ناموا قبل أن يجعل عصيان المقاليع (الفروند Fronde) من باريس مكانا كريهاً بالنسبة للويس الرابع عشر Louis XIV. وبعد ذلك بأيام قلائل تبعتهم الجمعية الوطنية حيث أقاموا في مسرح القصر نفسه.

ومرة أخرى فرض الباريسيون رأيهم بليّ ذراع الملك والآن انصاع الملك لرعاياه وقبل إعلان حقوق الإنسان كأمر واقع. وهكذا بدأت الهجرة الثالثة (هجر فرنسا).

٦- الدستور الثوري: ١٧٩٠:

وشرعت الجمعية الوطنية في كتابة الدستور الذي يحدد ويقنن منجزات الثورة، وكانت في عملها هذا متحررة من الضغوط الملكية، لكنها كانت واعية بشكل قلق للمدينة (باريس) التي تراقب أفعالها.

بادىء ذي بدء، أيجب الإبقاء على الملكية؟ لقد أبقت الجمعية عليها وسمحت أن تكون وراثية، لأنها أي الجمعية خشيت من انتقال الولاء ومشاعر الانتماء من العرش للأمة، فالهالة المحيطة بالملكية كانت أمراً ضروريا للانضباط الاجتماعي، ويمكن أن يكون حق انتقال الملك ضمانا يمنع نشوب حروب الوراثة ومثل هذه المشروعات المتعلقة بضبط وراثة العرش كانت بالفعل تختمر في ذلك الوقت في القصر الملكي. لكن سلطات الملك لا بد من تحديدها بصرامة، فستقدم له الجمعية الوطنية في كل سنة قائمة "بالمخصصات الملكية" لإنفاقه، وسيحتاج أي إنفاق يزيد عن هذه "المخصصات" إلى إصدار تشريع جديد.

وإذا غادر الملك المملكة الفرنسية بلا إذن الجمعية الوطنية أمكن عزله عن العرش. ومن حق الملك أن يختار وزراءه وعزلهم لكن على كل وزير أن يقدم تقريرا شهريا عن تصرفاته المالية في نطاق الميزانية المنوطة به ويمكن استجوابه في أي وقت أمام المحكمة العليا. والملك هو الرئيس الأعلى للجيش والبحرية لكنه لا يستطيع إعلان الحرب أو توقيع معاهدة بلا

موافقة مسبقة من المجلس التشريعي، ومن حقه أن يعترض على أي تشريع يقدم له لكن إذا أقرت ثلاثة مجالس تشريعية متوالية هذا التشريع الذي اعترض عليه اعتبر هذا التشريع قانونا (بصرف النظر عن اعتراضه) .

والمسألة الثانية : أيحب أن يكون المجلس التشريعي مكونا من هيئتين كما هو الحال في إنجلترا وأمريكا؟ ويمكن للهيئة العليا أن تبتّ في الأمور المستعجلة، لكنها يجب ألاّ تكون مكونة من أفراد الطبقة الأرستقراطية أو كبار السن. وقد رفضت الجمعية الوطنية ذلك فباعتبارها حارسا على منجزات الثورة أعلنت إبطال المزايا والألقاب الوراثية كلها فيما عدا تلك الخاصة بالملك.

ويقوم "المواطنون الفعالون" ويقصد بهم فقط أولئك الذكور البالغون ذوو الممتلكات الذين يدفع الواحد منهم ضريبة مباشرة تبلغ ما يساوي قيمة عمل ثلاثة أيام،وهذا التعريف يشمل الفلاحين الأثرياء لكنه لا يشمل الأجراء والبرولتياريا، إذ جرى اعتبار هؤلاء "مواطنين سلبيين" لأنه يسهل على سادتهم وعلى الصحفيين التأثير فيهم ليصبحوا أداة للفوضى والعنف والتراجع. وعلى وفق هذا الترتيب تمتع ٤٫٢٨٩٫٣٦٠ رجلا (من بين ٢٥ مليون نفس) بحق الانتخاب في فرنسا في سنة ١٧٩١، وأصبح ثلاثة ملايين بالغ لا حق لهم في التصويت. لقد أقرت الجمعية الوطنية البورجوازية ثورة البورجوازيين خوفاً من جماهير المدينة (باريس) .

وقسم الدستور فرنسا على وفق أغراض انتخابية وإدارية إلى ثلاث وثمانين دائرة (محافظة أو قسم إداري كبير) تنقسم كل دائرة منها إلى بلديات (كومونات Communes) بلغت ٤٣٫٣٦٠ كومون (بلدية) . لقد أصبحت فرنسا للمرة الأولى أمة موحدة بلا أقاليم أو مناطق ذات امتيازات وبلا رسوم انتقال داخلي، وأصبحت مناطق فرنسا جميعا تستخدم نظاما واحدا للمقاييس والمكاييل وتخضع للقوانين نفسها. والعقوبات حددها القانون ولم تعد على وفق تقدير القاضي، وتم إبطال التعذيب والتشهير والكي بالنار، ومع هذا فقد تم الإبقاء على عقوبة الإعدام، وكان هذا مثار سخط روبيسبير Robespierre، وأصبح المتهمون بارتكاب جرائم يمكنهم أن يختاروا المحاكمة أمام هيئة محلفين من "المواطنين الفعالين"

تختارهم الهيئة القضائية، ويكفي أن يؤيد ثلاثة من اثني عشر عضوا في هذه الهيئة تبرئة المتهم، لاعتماد براءته. ويقضي القضاة في القضايا المدنية.

أما البرلمانات القديمة التي كانت سببا في ظهور أرستقراطية ثانية فقد حلت محلها نظم قضائية جديدة تقوم جمعيات منتخبة بتعيين أفرادها. أما المحكمة العليا فيتم اختيارها من ممثلي العدالة في المحاكم الجنائية الأدنى درجة، بحيث يكون في هذه المحكمة العليا عضوان من كل محافظة (دائرة).

بقيت مسألتان مهمتان مرتبطتان معا هما: كيف يتم تجنب إفلاس المملكة؟ وكيف يتم تنظيم العلاقة بين الكنيسة والدولة؟ لقد فشلت الضرائب في تمويل الحكومة بينما الكنيسة تقبض بيديها على ثروة تحسد عليها ولا تدفع عنها ضرائب.

وقد أخذت الجمعية برأي شارلز موريس دى تاليران بيريجور Charles Maurice de Talleyrand Perigord أسقف أوتون Autun الذي اقترح في ١١ أكتوبر سنة ١٧٨٩ الاستفادة من ممتلكات الكنيسة لدفع الدين الوطني.

وتاليران Talleyrand هذا واحد من الشخصيات التي ثارت حولها الشكوك في التاريخ إذ يرجع أصله إلى أسرة عريقة معروفة بخدماتها العسكرية وربما كان من الممكن أن ينهج نهج أسرته لو لم تنخلع قدمه إثر سقطة وهو في الرابعة من عمره وكان عليه أن يشق حياته بقدم عرجاء لكنه كان مصمما على اجتياز كل عقبة تواجهه، وقد عهد به والده إلى الكنيسة، وقد قرأ في مرحلة الدراسة فولتير ومنتسكيو وكان يحتفظ دائما بخليلة، ومن الواضح أنه طرد من المدرسة اللاهوتية التي كان بها في سنة ١٧٧٥ لكن في تلك السنة وكان في الواحدة والعشرين من عمره عينه لويس السادس عشر مسئولا عن دير القديس (سان) دينيس St- Denis في رايم Reims وقد جرى ترسيمه قسيسا في سنة ١٧٧٩ وفي اليوم التالي أصبح هو النائب الأسقفي العام لعمه رئيس أساقفة رايم Reims، وظل مع هذا ينعم بصحبة السيدات ذوات الأصول الراقية وأنجب من إحداهن غلاما أصبح ضابطا تحت قيادة نابليون. وفي سنة ١٧٨٨ تم تعيينه أسقفا لأوتو Autun رغم معارضة أمه التقية التي كانت تعلم أنه رجل قليل الإيمان (رقيق العقيدة). ومع هذا فقد رتب أمر تقديم برنامج إصلاحي

لمجلس طبقات الأمة مما دفع رجال الدين (الإكليروس) التابعين له لجعله مندوبا عنهم[٤٠].

وقد وافقت الجمعية الوطنية في ٢ نوفمبر سنة ١٧٨٩ بأغلبية ٥٠٨ ضد ٣٤٦ على تأميم الممتلكات الكنسية التي كانت تصل قيمتها وقتئذ إلى ثلاثة بلايين فرنك[٤١] رغم المعارضة اليائسة لممثلي الإكليروس بها. وقد عهدت الجمعية للحكومة "بتقديم مصاريف إقامة العبادات العامة وتقديم الإعانات لرجال الدين وما يفرج عن الفقراء، وذلك بالطريقة المناسبة" وفي ١٩ ديسمبر خولت صندوق الأمور غير العادية Caisse de L'extraordinaire ببيع ٤٠٠ مليون فرنك مقابل أسينات assignates وهي أوراق نقدية تعطى لحائزها الحق في مبلغ مقرر (معلوم) من الممتلكات الكنسية بفائدة قدرها ٥٪ عند إتمام البيع ودفعت الحكومة من هذه الأسينات assignates الديون العاجلة وبذا ضمنت دعم الجماعات المالية لنظام الحكم الجديد.

لكن الذين اشتروا هذه الأسينات وجدوا صعوبة في القيام بعمليات شراء على نحو مرض، فاستخدموها أي الأسينات كعملة، ولأن الدولة كانت قد أصدرت كثيراً من هذه الأسينات فقد استمر التضخم المالي، وفقدت الأسينات قيمتها إلا في دفع الضرائب حيث كانت الخزانة مرغمة على قبولها بقيمتها المدونة عليها، وبالتالي وجدت الخزانة نفسها مرة أخرى تعاني عجزاً ماليا يتزايد عاما بعد عام.

وبعد أن اتخذت الجمعية الوطنية هذه القرارات الخطيرة التي لا رجعة فيها، في ١٣ فبراير سنة ١٧٩٠ كانت كأنها قد اجتازت نهر الربيكون(*) Rubicon أوقفت الأديرة، وسمحت بصرف معاشات تقاعد للرهبان المطرودين[٤٢] أما الراهبات فقد تركن وشأنهن نظراً لقيامهن بخدمات قيمة في مجالي التعليم والإحسان. وفي ١٢ يوليو تم إعلان "الدستور المدني للإكليروس" الذي اعتبر القسس موظفين في الدولة يتقاضون منها رواتب، والذي اعتبر الكاثوليكية هي الدين الرسمي للدولة، أما بالنسبة للبروتستانت واليهود فلهم أن يتعبدوا بحرية على وفق عقائدهم في أماكن عبادتهم الخاصة لكن لا تقدم لهم الحكومة دعما. وتقوم الجمعيات المنتخبة في الدوائر (المحافظات) باختيار الأساقفة الكاثوليك، على

(*) المعنى: اتخذت قرار مصيريا. (المترجم)

أن يعفى من التصويت في هذه الحالة غير الكاثوليك أي البروتستانت واليهود واللاأدريين agnostic[٤٣]. وكان على كل القسس أن يتعهدوا بالامتثال الكامل للدستور الجديد كشرط لتسلّمهم رواتبهم. وقد رفض ١٣٠ أسقفا في فرنسا من بين ١٣٤ أن يقسموا يمين الولاء كما رفض ٤٦,٠٠٠ قس من بين ٧٠,٠٠٠ من قسس الأبرشيات أداء هذا القسم أيضا[٤٤] واتخذت الغالبية العظمى من السكان جانب أولئك الإكليروس الرافضين تقديم قسم الولاء للدستور الجديد وقاطعوا الطقوس الدينية التي يقوم عليها رجال الدين الذين أدوا القسم. لقد أصبح هذا الصراع المتنامي بين الكنيسة المحافظة التي يؤيدها الشعب والجمعيات اللاأدرية السائدة التي تؤيدها الشرائح العليا من الطبقة الوسطى- عاملا جوهريا في إضعاف الثورة. وبسبب عدم شعبية هذا الإجراء ظل الملك الفرنسي طويلا يرفض توقيع الدستور الجديد.

وكان لآخرين أسبابهم أيضا لرفضه، فقد قاد روبيسبير Robespierre أقلية قوية للاعتراض على قصر حق الانتخاب على الملاك باعتبار أن ذلك انتهاك لإعلان حقوق الإنسان، وباعتباره أيضا إهانة مثيرة لبرولتياريا باريس التي سبق لها أن أنقذت الجمعية الوطنية مرارا من القوات المسلحة الملكية.

واتفق الفلاحون وأهل المدن في استيائهم من التخلي عن الإجراءات والقوانين الحكومية التي كانت على نحو ما تحمي المنتجين والمستهلكين من (ضراوة) السوق الحرة التي يتلاعب فيها الموزعون.

ومع هذا فقد شعرت الجمعية وكان لها بعض الحق في هذا. أن الدستور كان وثيقة مهمة تعطي للثورة المنتصرة شكلا قانونيا محددا. واعتبر مندوبو الطبقة الوسطى الذين لهم السيادة الآن أن العوام- وكانت غالبيتهم أميين ليسوا مؤهلين للمشاركة بنسبة أعدادهم في قرارات الحكومة ومداولاتها. وبالإضافة لهذا- وقد هرب النبلاء الآن - ألم يحن الآن دور البورجوازية في توجيه الدولة معتمدة بشكل متزايد على كبار السن الحكماء المجربين، وعلى اقتصاد متقدم فعال؟ لذا فإن الجمعية أعلنت فرنسا ملكية دستورية بلا اعتبار لتردد الملك، وفي ٥ يونيه سنة ١٧٩٠ دعت المحافظات (الدوائر) الثلاث والثمانين لأن ترسل كل محافظة

(دائرة) حرسها الوطني الفدرالي لينضم لشعب باريس وحكومة فرنسا في ساحة دي مارس (شامب دي – مارس Champs-de-Mars) للاحتفال بإنجاز الثورة بمناسبة مرور عام على استيلاء الثوار على الباستيل. وفي أثناء انتشار نبأ هذه الدعوة وما صاحبها من حماس دخل ثلاثون أجنبيا على رأسهم الهولندي الثري المعروف في التاريخ "بِأنا شارزيس كلوتس Anacharsis Cloots"(*) الجمعية في ١٩ يونية وطلبوا أن يحوزوا شرف المواطنة الفرنسية وطلبوا حق التقدم "لعيد" الفدرالية باعتبارهم "سفارة" تمثل الجنس البشري". وصدرت الأوامر بتنفيذ طلبهم.

لكن ساحة مارس التِّلّية الآنف ذكرها كانت في حاجة إلى تسوية لتكون صالحة لهذه المناسبة إذ كان يجب تسوية مساحة تبلغ ١٠٠٠X٣٠٠٠ قدم وإعداد شرفات بها لتستوعب ٣٠٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل، وكان لا بد من الارتفاع بالرابية الوسطى ليكون مذبحاً يعتليه الملك والأمراء والأساقفة وأعضاء الجمعية وأصحاب الحق في الوقوف هذا الموقف لأداء يمين الولاء للأمة التي تولد ميلادا شرعيا جديدا الآن. وخصص لإعداد الساحة على هذا النحو خمسة عشر يوما فقط. من الآن يستطيع أن ينافس الصفحات الأربع عشرة(٤٥) التي بين فيها كارليل Carlyle كيف أن أهل باريس رجالا ونساء، شيبا وشبانا قد أقبلوا جميعا حاملين معاولهم ومجارفهم ودافعين أمامهم عربات الواحدة منها ذات عجلة واحدة لنقل الركام، وراحوا يغنون "ستسير الأمور على ما يرام" وسووا الأرض الواسعة وشيدوا الشرفات ومذبح قسم الولاء للوطن Autel de la Patrie من منا اليوم يجسر اليوم أن يكتب بمثل هذه الجرأة نافخا في أبواق البلاغة معلنا هذا الانجذاب وذلك الفرح ذا الطابع التنبئي خاصة إذا علمنا أن نصف مخطوطاتنا قد أحرقتها خادمة متعجلة، وكان علينا أن نجمع ما تبعثر من جواهرنا مرة أخرى لنعيد ترتيبها وصقلها؟ أي نار كان يجب كبتها في هذا الاسكتلندي القاسي لإحياء مثل هذه المحرقة (الهولوكوست)!.

وعلى هذا فإنه طوال الأسبوع السابق على هذا العيد الديني Holyday راح جنود من مختلف أنحاء فرنسا يتجهون إلى باريس وراح الحرس الوطني الباريسي في بعض الأحيان

(*) مصطلح كنسي، والمقصود منصة أو مقصورة.(المترجم)

يقطع من باريس أميالاً كثيرة للقائهم ومرافقتهم. وفي ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠ دخلوا ساحة دي مارس الآنف ذكرها في موكب مهيب؛ خمسون ألفا من الأقوياء[٤٦] أعلامهم ترفرف وفرقهم الموسيقية تعزف وحناجرهم تدوي بالأغاني القوية، وثلاثمائة ألف من الباريسيين المثيرين للخيال يصاحبونهم. ورتل الأسقف تاليران بيريجور **Talleyrand pèrigord** ولم يكن قد طرد من رحمة الكنيسة بعد القداس، واعتلى مئتان من الأساقفة والقسس المذبح وأقسموا اليمين، وتعهد الملك بطاعة القوانين الجديدة بكل ما وسعه من جهد وصاحت الجموع "عاش الملك" وعندما أطلق المدفع طلقات التحية رفع آلاف الباريسيين ممن لم يتمكنوا من الحضور- أيديهم في اتجاه ساحة دي مارس **Champs-de-Mars!** وأقسموا يمين الولاء. وجرت في كل مدينة فرنسية تقريبا مهرجانات مشابهة وشارك الجميع في تناول النبيذ والطعام وتعانق القسس الكاثوليك والبروتستانت كما لو كانوا مسيحيين على مذهب واحد. كيف يمكن لأي فرنسي أن يتشكك في أن عصرا جديداً مجيدا قد بزغ فجره؟

٧- ميرابو Mirabeau يدفع ديونه: ٢ أبريل ١٧٩١:

كان رجل واحد وامرأة واحدة يمكنهما التشكك في بزوغ هذا الفجر الجديد. فبالنسبة للويس وزوجته الملكة بدا التوليري The Tuileries منزلاً زجاجياً ترصد من خلاله الجماهير كل حركة يأتيان بها بموافقة صامتة أو إدانة طال أمدها. وفي ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٠ تمرد فوج سويسري كان في خدمة الملك في نانسي Nancy بسبب تأخر الرواتب والمعاملة المتسمة بالاستبداد. وأطلق الحرس الوطني النار على بعض المتمردين وتم إرسال بعضهم إلى السفن، كما جرى شنق بعضهم. وتجمع أربعون ألف باريسي عند سماعهم بذلك وهددوا القصر الملكي واتهموا لافاييت Lafayette ولاموا الملك بسبب ما أسموه "مذبحة نانسي" وطالبوه بإقالة وزرائه. وبهدوء غادر نكر Necker في ١٨ سبتمبر سنة ١٧٩٠ ليعيش مع أسرته في كوبيت Coppet على ضفاف بحيرة جنيف، ونصح لافاييت الملك بتهدئة باريس بقبوله للدستور[٤٧]. وعلى أية حال فقد كانت الملكة مرتابة في مبدأ التخطيط لجعلها سلطة محركة للعرش، لذا فقد عبرت بوضوح عن بغضها بأن يترك البلاط ويترك لميرابو

Mirabeau مهمة إنقاذ الملكية[٤٨].

ورحب ميرابو. وكان في حاجة إلى المال ليكفي أسلوب حياته المتسم بالإسراف. وشعر أن التضامن أو الائتلاف بين الملك والجمعية هو الخيار الوحيد لحكم يقوم عليه زعماء جماهيريون، ولم يكن يرى تناقضا في متابعة هذه السياسة وسد النقص (العجز) ثانية في موارده المالية. وكان قد كتب في ٢٨ سبتمبر ١٧٨٩ لصديقه لامارك La Marck : "لقد ضاع كل شيء فسيتم إبعاد الملك والملكة وسترى الجماهير المنتصرة ترقص فوق جثتيهما"[٤٩] وكتب لصديقه هذا نفسه في ٧ أكتوبر: "إن كان لك أي تأثير في الملك والملكة فلتحثهما على ترك باريس لأنهما إن لم يفعلا ضاعا وضاعت فرنسا. إنني مشغول بخطة لإبعادهما"[٥٠] وقد رفض لويس هذه الخطة لكنه وافق على تمويل خطة ميرابو للدفاع عن الملكية. وفي أوائل شهر مايو سنة ١٧٩٠ وافق على أن يدفع ديون المغامر الكبير بالسماح له بمبلغ ألف دولار في الشهر بالإضافة إلى مكافأة مقدارها ١٩٢,٠٠٠ دولار إن هو نجح في إزالة الخلافات بين الملك والجمعية[٥١]. وفي أغسطس منحته الملكة شرف اللقاء بها لقاء خاصا في حدائقها في سان كلو St. Cloud.

وكان تأثير الملكة هائلا حتى أن تنين الثورة الصارم اهتز لفرط إخلاصه لها عندما قبل يدها. وتحدث ميرابو لأصدقائه المقربين عن جاذبيتها وسحرها "أنتم لا تعرفون الملكة.. إن لعقلها قوة مدهشة، وهي رجل إذا كان مقياس الرجولة هو الشجاعة"[٥٢].

وكان ميرابو يعتبر نفسه "شخصا يقبض أو يتسلم أموالاً لكنه لا يشترى فعلى وفق ما ذكره لامارك La Marck فإنه يقبل أموالاً تدفع له للاحتفاظ بآرائه أو للتمسك بآرائه"[٥٣]. ولم تكن لديه نية للدفاع عن الحكم المطلق (الاستبدادي) بل على العكس فقد كانت الأفكار التي تقدم بها لوزراء الملك في ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ تشكل برنامجا للتوفيق بين الحرية العامة (حرية الجماهير) والسلطات الملكية: "إننا نخطىء الهدف إذا هاجمنا الثورة فهي حركة أعطت لشعب عظيم قوانين أفضل تستحق أن ندعمها... وإنما يجب قبول روح الثورة وكثير من العناصر في دستورها.. إنني أقدر نتائج الثورة كلها... باعتبارها فتوحات لا يمكن الانسحاب منها فلا مجال لتدمير هذه النتائج تحت أي ظروف"[٥٤].

لقد راح ميرابو يعمل على إنقاذ ما تبقى من السلطات الملكية، يدفعه لذلك إيمانه وإخلاصه من ناحية، وما تلقاه من رشاوٍ من ناحية أخرى. وقد تشككت الجمعية في أمر ذمته لكنها احترمت عبقريته، ففي ٤ يناير سنة ١٧٩١ اختارته رئيساً لها لدورة عادية مدتها أسبوعان، فأدهش الجميع بانضباطه الإداري وحياد قراراته. وكان يعمل طول النهار ويظل يأكل ويشرب طول المساء، وكان يرافق النساء. وفي ٢٥ مارس استضاف راقصتين من الأوبرا، وفي صباح اليوم التالي أصيب بتقلص معوي حاد، وحضر اجتماع الجمعية في ٢٧ من الشهر نفسه لكنه سرعان ما عاد إلى مقر إقامته منهكا يرتجف.

وانتشر خبر مرضه في باريس فتم إغلاق المسارح احتراما له وحاصر الناس منزله يسألون عن أحواله وتقدم شاب عارضا نقل دمه إليه [٥٥] وقال تاليران Talleyrand له (لميرابو): "إنه من الصعب الوصول إليك فنصف أهل باريس يقيمون بشكل دائم خارج باب منزلك"[٥٦] وفي ٢ أبريل ١٧٩١ مات ميرابو بعد أن عانى في مرضه كثيراً.

في ٣ أبريل طلبت وفود من ناخبي باريس من الجمعية تحويل كنيسة القديسة جنيفيف Ste Geneviève إلى ضريح ومقبرة لأبطال فرنسا، وهذا البانثيون[*] Panthéon كما أطلق عليه لا بد أن ينقش على مدخله "إلى عظماء الأمة، فبلاد أجدادهم ممتنة لهم"، وتم تنفيذ ذلك وتم دفن ميرابو في هذا المثوى في ٤ أبريل وحضر جنازته فيما يقول ميشليه Michelet عدد غفير فكانت أكبر الجنازات التي شهدها العالم وأكثرها شعبية [٥٧] وقدر المؤرخون عدد من حضرها ما بين ٣٠٠،٠٠٠ و ٤٠٠،٠٠٠ ملأوا الشوارع وتسلقوا الأشجار وأطلوا من النوافذ ومن فوق أسطح المنازل وحضرها كل أعضاء الجمعية الوطنية كلهم ما عدا بيتيون Pétion (الذي كان لديه دليل سري على أن ميرابو تلقى أموالاً من الملك) وحضرها كل أعضاء نادى اليعاقبة كلهم وعشرون ألفا من الحرس الوطني، لكأنما ينقلون رفات فولتير أو رفات واحد من أولئك الذين لا يموتون أبداً[٥٨]. وفي ١٠ أغسطس ظهرت أدلة من بين أوراق الملك تشير إلى دفعه مبالغ لميرابو، وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤ صدرت الأوامر في اجتماع للجمعية بنقل رفات البطل الملوث من البانثيون (مقبرة الخالدين).

(*) مدفن العظماء.

٨- إلى فارين Varennes : ٢٠ يونيو ١٧٩١ :

لقد قاوم الملك إلحاح النبلاء والملكة بضرورة الهرب من باريس وربما من فرنسا كلها ليعود مزودا بجيش قوي فرنسي أو أجنبي يمكنه من إعادة ترسيخ وضعه على العرش، ومع أن الملك كان غير راض عن تجريد النبلاء والإكليروس والملكية من صلاحياتهم القديمة ومع أنه كان مقتنعا أن شعْبا كالشعب الفرنسي يتسم بالعنف والطيش والفردية سينصاع لغياب الحكم ولن يسمح بفرض القيود وصدور المراسيم التي تتأصل بمرور الوقت، فإنه - أي الملك - راح يعلق الآمال على السلطات والصلاحيات غير المؤثرة التي لا تزال في حوزته، ووقع في ٢١ يناير سنة ١٧٩١ الدستور المدني للإكليروس (رجال الدين) لكنه شعر أنه يخون العقيدة التي كانت ملاذه الأثير ضد ما حاق به في الحياة من خيبة أمل. لقد صدم بعمق بسبب قرار الجمعية الصادر في ٣٠ مايو سنة ١٧٩١ بنقل رفات فولتير إلى مقبرة الخالدين(البانثيون Panthéon) لقد بدا له أمراً لا يحتمل أن تحمل رفاة كبير كفرة القرن(*) في موكب نصر لتودع بشرف وتكريم في مقبرة كانت حتى الأمس فقط كنيسة للتكريس (موقوفة لغرض ديني نبيل) ووافق الملك أخيراً وبعد طول تردد على رأي الملكة وطلب منها أن تستعد للهرب خارج الحدود فجهز صديقها المخلص كونت أكسيل فون فيرسن Axel Von Fersen الأموال اللازمة للهرب ودبر تفاصيل الخطة، وكان الملك بالتأكيد رجلا مهذبا gentleman وربما لم يكن ديوثا(قوادا) لذا فقد شكره بحرارة(٥٩).

والعالم كله يعرف القصة التالية: كيف تنكر الملك والملكة في زي رجل وزوجته. وغادرا كورف Korff مع أطفالهما والخَدَم والمرافقين قصرَ التوليري Tuileries خلسة في منتصف ليلة ٢٠ / ٢١ يونيه سنة ١٧٩١ وظل راكبا طوال اليوم التالي بفرح مشوب بالخوف وقطع ١٥٠ ميلا إلى فارين Varennes بالقرب من حدود ما يعرف اليوم باسم بلجيكا (كانت وقتها الأراضي المنخفضة النمساوية أي التابعة للنمسا) ومعروف كيف أوقفهم فلاحون مسلحون بالمذاري والهراوات، وكيف قادهم جان بابتست دروت Jean- Baptiste Drouet مدير محطة البريد في سانت مينيهولد Ste Menehould، وأرسل أي مدير المحطة

(*) راجع مقدمة الترجمة العربية.

للجمعية طالبا التعليمات وسرعان ما وافاه بارناف Barnave و بيتيون Petion بالإجابة: أحضر أسراك ولا تمسهم بسوء إلى باريس. والآن لقد مضت ثلاثة أيام لا عمل فيها قضاها ستون ألفا من الحرس الوطني في مرافقة الأسرى الملكيين. وفي الطريق جلس بارناف Barnave في العربة الملكية قبالة الملكة، وكان قد سبق تدريبه وفقا لنظام الفروسية الذي تم إحياؤه في عهد الحكم البائد. وقد تأثر بفتنة الجمال الملكي وراح يتأسى متحسراً، وراح يعجب متسائلاً في سريرته عما يكون مصيرها ومصير أطفالها. وعندما وصل الركب إلى باريس كان قد أصبح عبداً Slave لها (أسيراً لها).

وبسبب جهوده بالإضافة إلى محاذير أخرى رفضت الجمعية طلب الذين لا يرتدون كلوتات (الشريحة الدنيا من طبقة العوام/السانس كولوت) عزل الملك فورا. فلا أحد يستطيع أن يخبر بنوع الفوضوية التي ستنشأ عن ذلك. أتكون الجمعية البورجوازية والممتلكات كلها تحت رحمة الجماهير الباريسية الذين ليس لهم حق دستوري في الانتخاب؟ لذا فقد سرى القول بأن الملك كان قد خطف أو أبعد قسراً عن مقر إقامته، لذا فلا بد من السماح له بالاحتفاظ برأسه (عدم إعدامه) على الأقل لفترة، واعترض الزعماء الراديكاليون ودعت النوادي والصحف الشعب للتجمع في ساحة دي مارس في ١٧ يوليو سنة ١٧٩١ فاجتمع خمسون ألفا ووقع ستة آلاف طلباً بتنازل الملك عن العرش[٦٠] وأصدرت الجمعية أوامرها للافاييت Lafayette والحرس الوطني لتفريق المشاغبين الذي رفضوا التفرق بل وحصب بعضهم أفراد الحرس وقتل الجنود الغاضبون خمسين رجلاً وامرأة، كان قتل بعضهم حرقا، وبذا انتهت الأخوة العامة التي تعاهدوا عليها هناك منذ عام مضى. وطارد البوليس مارا Marat الذي كان يعيش في قبو رطب وراح يدعو لثورة جديدة، أما لافاييت فقد انتهت شعبيته وعاد إلى الجبهة وراح ينتظر بصبر فارغ الفرصة المناسبة ليهرب من الفوضى التي بلغت ذروتها في فرنسا.

وكلما اقترب الشهر من نهايته كثفت الجمعية جهودها لإنهاء أعمالها، وربما كان أعضاء الجمعية قد اعتراهم التعب وشعروا أنهم أنجزوا ما يكفي إنجازه على مدى حياة الواحد منهم.

وحقيقة كانوا قد أنجزوا الكثير من وجهة نظرهم، فقد أشرفوا على القضاء على النظام الإقطاعي، وأبطلوا الامتيازات الوراثية وحرروا الناس من الاستبداد الملكي والأرستقراطية المتعجرفة التي لا عمل لأفرادها، ووضعوا أسس المساواة أمام القانون.

وأنهوا مبدأ السجن بلا محاكمة وأعادوا تنظيم البلاد إداريا سواء على المستوى المحلي أم على مستوى الدوائر (المديريات أو المحافظات) وهذبوا الكنيسة التي كانت ذات يوم مستقلة لها القدرة على توجيه النقد القاسي، بمصادرة ثرواتها، وإعلان مبدأ حرية العبادة وحرية الفكر، وثأروا لجان كالا Jean Calas وفولتير Voltaire وشهدوا بسرور هجرة النبلاء الرجعيين، وجعلوا من الشرائح العليا للطبقة الوسطى حكاما للبلاد. وأنهم ضمنوا هذه التغييرات كلها في دستور استطاعوا الحصول على موافقة الملك عليه، وكذلك موافقة الغالبية العظمى من السكان باعتباره - أي هذا الدستور - أملاً في وحدة وسلام وطنيين.

وأكملت الجمعية الوطنية والتأسيسية (المنوط بها صوغ الدستور) أعمالها بالترتيب لانتخابات جمعية تشريعية لتضع قوانين محددة على هدى الدستور، ولتواجه بالدراسة المتأنية قضايا المستقبل. وحث روبيسبير Robespierre أعضاء الجمعية الوطنية على ألا يرشح أحد منهم نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية، آملاً في أن يؤدي الاقتراع الجديد إلى دفع مزيد من الممثلين الشعبيين إلى السلطة. وفي ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩١ أعلنت الجمعية الوطنية أشهر الجمعيات السياسية جميعاً حل نفسها[٦١].

الفصل الثالث

الجمعية التشريعية

[أول أكتوبر ١٧٩١ ـ ٢٠ سبتمبر ١٧٩١]

١- شخصيات الأحداث :

كانت انتخابات المؤسسة الثورية الثانية يراقبها الصحفيون بحماس وتشرف عليها الأندية بقوة فعالة. لقد أصبح للصحفيين تأثير جديد في السياسة العامة منذ كادت الرقابة على المطبوعات تختفي، فقد كان لكل من بريسو Brissot ولوزتالو Loustalot ومارا Marat وديمولين Desmoulins وفريرون Fréron ولاكلو Laclos، دورية (صحيفة) كمنبر له يعبر من خلالها عن آرائه في الدفاع عن حقوق الشعب.

وفي سنة ١٧٩٠ كان في باريس وحدها ١٣٣ صحيفة بالإضافة إلى مئات الصحف في الدوائر (المحافظات أو المديريات)، وكانت هذه الصحف كلها تقريبا تؤيد الخط الراديكالي. وكان ميرابو Mirabeau قد نصح الملك بضرورة شراء بعض الصحفيين ذوي الشعبية إن أراد الاحتفاظ بعرشه أو برأسه. ومما قاله نابليون إنه "كان من الممكن أن يبقى نظام النبالة القديم لو عرف النبلاء بقدر كاف أن يسيطروا على المطبوعات... لقد أدى ظهور المدافع إلى قتل النظام الإقطاعي، أما الحبر فسيقتل النظام الحديث"(١).

وكادت النوادي أن يكون لها تأثير الصحف نفسه، فنادي البريتون The Breton Club الذي تبع الملك والجمعية إلى باريس أعاد تسمية نفسه بجمعية أصدقاء الدستور Society of Friends of the Constitution وأجرت حجرة في الدير اليعقوبي السابق بالقرب من التوليري Tuileries ليعقد الأعضاء فيها اجتماعاتهم، وفيما بعد توسعوا في المكان فضموا المكتبة بل وحتى المصلى(٢). وكان اليعاقبة كما أطلق عليهم التاريخ في البداية يمثلون كل أعضاء هذا النادي أو الجمعية لكنهم سرعان ما أثروا جماعاتهم بضم أشخاص مبرزين في العلوم والآداب والسياسة أو إدارة الأعمال. وهنا وجد الأعضاء السابقون (في الجمعية الوطنية) مثل روبيسبير الذي نحى نفسه عن عضوية الجمعية التشريعية منطلقاً جديداً يمارسون منه السلطة. وكانت الديون مرتفعة فحتى سنة ١٧٩٣ كان معظم الأعضاء من أفراد الطبقة الوسطى(٣).

وتضاعف تأثير اليعقوبيين بفعل منظمة النوادي المنتسبة إليهم في كثير من كومونات فرنسا (الكومون هنا تنظيم إداري أصغر من الدائرة أو المحافظة) والتي اتفقت جميعا على

الاعتراف بالنادي الأم وبقيادته في مجالي الفكر والاستراتيجية. وفي سنة ١٧٩٤ كان هناك نحو ٦,٨٠٠ ناد يعقوبي تضم جميعا نصف مليون عضو[٤]. وكان اليعاقبة يشكلون أقلية منظمة وسط جماهير (أغلبية) غير منظمة. وعندما أيدت الصحف سياساتهم أصبح تأثيرهم في المحل الثاني لا يسبقه سوى تأثير الكومونات (البلديات) التي تتحكم في التشكيلات المحلية للحرس ا لوطني من خلال مجالسها البلدية وأقسامها التأسيسية. وعندما كانت هذه القوى كلها تعمل بتناسق، كان على الجمعية أن تعمل حسابها أو تحسب أمر مواجهة جماهير غير مدركة لا يضبطها ضابط أو حتى مواجهة عصيان مسلح. لقد كتب رجل إنجليزي كان في باريس في سنة ١٧٩١ "إن النوادي متوفرة في كل شارع"[٥]. لقد كانت هناك جمعيات أدبية ورياضية ومحافل ماسونية وتجمعات عمالية. ولما وجد بعض الزعماء الراديكاليين أن اليعاقبة بورجوازيون غلاة أسسوا في سنة ١٧٩٠ "جمعية أصدقاء الإنسان والمواطن" التي سرعان ما أطلق عليها أهل باريس نادى الرهبان الفرنسسْكان (نادي الكوردلير)(*) Cordeliers Club لأن أعضاءه كانوا يجتمعون في مبنى كان فيما سبق ديراً للفرنْسِسْكان، وقد أتاح هذا النادى لكل من مارا Marat وهربير Herbert وديمولين Desmoulins ودانتون Danton عرض أفكارهم فيه. وقد أسس كل من لافاييت Lafayette وبايبه Bailly وتاليران Talleyrand ولافوازيه Lavoisier وأندريه André وماري جوزيف دى شينيه Marie Joseph de Chénier ودو بونت دى نيمور Du pont de Nemours جمعية عرفت "بجمعية ١٧٨٩" كان هدفها هو دعم الملكية المترنحة، وقد بدأت هذه الجمعية اجتماعاتها بشكل منتظم في القصر الملكي في سنة ١٧٩٠، وكان تأسيسها بهدف الحد من غلواء اليعاقبة، إذ رأى مؤسسو هذه الجمعية (جمعية ١٧٨٩) أن اليعاقبة راديكاليون مغالون (مفرطون في راديكاليتهم)، وظهرت جماعات أخرى ملكية (ذات توجه ملكي) بقيادة أنتوني بارناف Antone Barnave واسكندر دى لاميت Alexandre de Lameth اللذين كونا ناديا عرف في التاريخ باسمه المختصر الفويان(**) Feuillants لأنهم

(*) اتجاههم يساري متشدد. (المترجم)

(**) ذوو اتجاهات ملكية.(المترجم)

كانوا يعقدون اجتماعاتهم في دير بندكتي عرف بهذا الاسم.

إن هذا كله علامة على علمنة الحياة الباريسية بسرعة فقد أصبح كثير من الأديرة السابقة الآن مراكز للإثارة السياسية.

وقد ظهرت التيارات (الاتجاهات) المختلفة للأندية في أثناء الانتخابات التي استوعبت ببطء أوراق الاقتراع السري على الجمعية الجديدة (التشريعية) إذ تم الاقتراع في شهري يونيه وسبتمبر سنة ١٧٩١، فالموالون Loyalists الذين هذبهم التسامح والتعليم عولوا على حث الناخبين وعلى تقديم الرشاوي لجمع الأصوات لصالحهم، أما اليعاقبة وأعضاء النادي الفرنسسكاني (الكوردلير) الذين عركتهم الأسواق والشوارع فقد زاوجوا في دعايتهم الانتخابية بين الرشوة واستخدام القوة (الإرغام) لقد فسروا القانون تفسيرا مفصلا إلى أبعد مدى ومنعوا أي شخص رفض أن يقسم يمين الولاء للدستور الجديد من الإدلاء بصوته، ومن هنا فإن غالب الكاثوليك المتدينين قد جرى استبعادهم تلقائيا. وتم تنظيم الجموع للإغارة على الاجتماعات التي يعقدها الموالون **Loyalists** وتشتيت المجتمعين فيها، كما حدث في جرينوبل Grenoble، وفي بعض المدن مثل بوردو **Bordeaux** حيث منعت السلطات البلدية كل اجتماعات النوادي ما عدا نادى اليعاقبة وحدث في مدينة واحدة أن أحرق اليعاقبة وأنصارهم صندوق اقتراع كانوا يشكون أنه يضم أصواتا غالبها محافظ(٦).

ورغم هذه المظاهر الديمقراطية فلم تؤد الانتخابات إلى وصول أقلية أساسية تسعى للحفاظ على الملكية إلى الجمعية التشريعية. وشغل الفويان Feuillants وعددهم ٢٦٤ عضوا القسم الأيمن من القاعة، لذا فقد أعطوا اسمهم (المحافظون) في كل مكان لكل من اتخذ مجلسه إلى اليمين. و جلس اليعاقبة والكوردلير (جماعة أصدقاء الإنسان والمواطن) إلى اليسار في القسم المرتفع الذي أطلق عليه اسم الجبل وبالتالي فقد عرفوا باسم الجبليين Montagnards وفي الوسط جلس ٣٥٥ عضوا رفضوا تصنيف أنفسهم ومن ثم فقد أطلق عليهم اسم أهل السهل Plaine. ومن بين ٧٥٥ عضواً كان هناك ٤٠٠ قانوني كانوا ملائمين لطبيعة الجمعية التشريعية. والآن فقد خلف القانونيون رجال الدين في السيطرة على البلاد. وكان أعضاء الجمعية التشريعية كلهم تقريبا من الطبقة الوسطى، فلا زالت الثورة

إذن عيدا للبرجوازية.

وحتى ٢٠ يونية سنة ١٧٩٢ كان أكثر الجماعات نشاطا في الجمعية التشريعية هم أولئك المنتمين إلى دائرة (محافظة) جيروند Gironde. إنهم لم يكونوا حزبا منظما (ولم يكونوا من الجبليين(*) Montagnards) ولكنهم كانوا جميعا تقريبا من مناطق ذات نشاط صناعي وتجاري - كان Caen ونانت Nantes وليون Lyon وليموج Limoges ومرسيليا Marseille وبوردو Bordeaux، فسكان هذه المراكز النشيطة كانوا قد تعودوا على الحكم الذاتي Self-rule وكانوا يتحكمون في كثير من أموال المملكة وتجارتها الداخلية والخارجية، وكانت بوردو Bordeaux عاصمة الجيروند تتذكر بفخر أنها هي التي نشّأت مونتاين Montaigne ومنتسكيو Montesquieu، وكان زعماء الجيرونديين كلهم تقريبا أعضاء في نادي اليعاقبة وكانوا متفقين مع معظم اليعاقبة الآخرين في معارضة الملكية والكنيسة لكنهم كانوا ممتعضين من أن تحكم باريس وجماهيرها بلاد فرنسا، واقترحوا بدلا من ذلك أن تكون فرنسا جمهورية فدرالية تتمتع دوائرها (محافظاتها) بقدر كبير من الحكم الذاتي.

وكان منظّرهم هو كوندرسيه Condorcet وكان فيلسوفا ومتخصصا في التربية والمالية واليوتوبيا Utopia (المدينة الفاضلة أو المثالية). لقد مضى وقت طويل قبل أن ندفع له ما علينا من دين. وكان خطيبهم المفوه هو بيير فيرجنيو Pierre Vergniaud الذي ولد في ليموج Limoges من رجل أعمال وقد ترك بيير المعهد اللاهوتي ودرس القانون ومارس المحاماة في بوردو وتم انتخابه فيها للجمعية التشريعية التي جعلته رئيسا لها أكثر من مرة. وكان جاك بيير بريسو Jacques-Pierre Brissot لا يزال من أكثر أعضاء الجمعية التشريعية تأثيرا وهو من مواطني شارتر Chartres وكان أقرب إلى المغامر، شغل عدة وظائف، وخبر مجموعات القوانين في أوروبا وأمريكا وعاش في مناخات مختلفة، وباختصار فقد تم سجنه في الباستيل في سنة ١٧٨٤، وأسس في سنة ١٧٨٨ جمعية الأصدقاء السود Société des Amis Noirs وعمل بجد على تحرير العبيد.

(*) أي ليسوا من اليسار الذي يمثله أساسا اليعاقبة والكوردلبير.

وكان واحداً من مندوبي باريس في الجمعية التشريعية وأخذ على عاتقه مهمة السياسة الخارجية، وقد قاد الاتجاه المنادي بالحرب. وقدمه كوندرسيه Condorcet مع فيرجينيو Vergniaud إلى مدام دى ستيل de Stael فأصبحا من المداومين بإخلاص على الحضور إلى صالونها وساعدا عشيقها الكونت دى ناربون لارا – Comte de Narbonne Lara كي يعينه لويس السادس عشر وزيرا للحرب(٧). وظل الجيرونديون لفترة طويلة يطلق عليهم اسم البريسوتيين Brissotins نسبة إليه.

ويذكر التاريخ جيدا جان ماري رولاند دي لا بلاتيير Jean- Marie Roland de La Platière لسبب رئيسي وهو أنه تزوج لامعة ألهمته الأفكار والأسلوب وخدعته واحتفت بذكراه، ومجد صعودها إلى المقصلة على وفق رواية شهيرة وقد تكون خرافية. وعندما كانت جين مانون فليبون Jeanne Manon Philipon في الخامسة والعشرين من عمرها تقابلت مع جان ماري Jean- Marie الآنف ذكره في روان Rouen في سنة ١٧٧٩، وكان وقتها في الخامسة والأربعين من عمره، برأسه بداية صلع وكانت الاهتمامات التجارية والتأملات الفلسفية قد أرهقته، وكان ذا ابتسامة أبوية جميلة، وكان يدعو لرواقية نبيلة فتنت مانون التي كانت بالفعل متآلفة مع الكلاسيكيات القديمة وأبطالها فقد قرأت بلوتارخ Plutarch وهي في الثامنة من عمرها، وكانت أحيانا تفضله على كتاب الصلوات عندما تكون في الكنيسة ومن أقوالها" إن بلوتارخ قد مهد الطريق لأكون جمهورية"(٨).

وكانت ذات روح عالية وهي طفلة، فمن أقوالها " في مناسبتين أو ثلاث عندما ضربني أبي عضضت فخذه الذي كان يجلسني عليه"(٩) ولم تفقد عضتها أبدا، لكنها قرأت أيضا حيوات القديسين، وتطلعت – وكأنها تتنبأ – إلى الاستشهاد (الموت في سبيل المبدأ) وشعرت بالجمال وأحست بجلال الطقوس الكاثوليكية واحتفظت باحترامها للدين وبعض الكتابات التي تناولت العقيدة المسيحية حتى بعد استمتاعها بكتابات فولتير Voltaire وديدرو Diderot ودلباش d'Holbach ودلمبير d'Alembert ولم تهتم كثيرا بروسو Rousseau(*) وكانت صارمة جداً إزاء مشاعره، وبدلاً من ذلك فقد أضاعت قلبها

(*) Roussean and Revolution, 894 - 97

لبروتس Brutus (شخص آخر) ومن كليهما أصبحت هي والجيرونديون يؤمنون بالمثل السياسية نفسها(*)، وقد قرأت أيضا خطابات مدام سيفني Sévigné لأنها كانت تتطلع إلى كتابة نثر كامل الأوصاف.

وكان هناك من طلب يدها للزواج لكنها كانت واعية بمآثرها فلم تكن لتقبل أي عشيق عادي، وربما وجدت أنه من الأفضل أن تجد حلا وسطا، وكان هذا عندما بلغت الخامسة والعشرين من عمرها فوجدت في رولان Roland الآنف ذكره " عقلا قويا وأمانة واستقامة ومعلومات وكياسة.... فقد جعلني وقاره أنظر إليه بتقدير كما هو بدون أي اعتبار للجنس"[١٠]. وبعد زواجهما في سنة ١٧٨٠ عاشا في ليون Lyon التي وصفتها بأنها «مدينة جرى تشييدها بفخامة بالإضافة إلى موقعها المهم، انتعشت فيها التجارة والصناعة... مشهورة بأثريائها الذين يحسدهم على ثرائهم حتى الإمبراطور جوزيف[١١] Joseph " وفي فبراير سنة ١٧٩١ تم إرسال رولان Roland إلى باريس ليدافع عن مصالح تجارة ليون وأشغالها أمام لجان الجمعية التأسيسية، وحضر اجتماعات نادي اليعاقبة وكون صداقة قوية مع بريسو Brissot، وفي سنة ١٧٩١ أقنع زوجته بالانتقال معه إلى باريس.

وفي باريس لم تعد سكرتيرته وإنما تحولت إلى مستشارة له. إنها لم تكن ترتب تقاريره بأناقة وإنما بدت توجه سياسته. وفي ١٠ مارس سنة ١٧٩٢ عين وزيراً لداخلية الملك بوساطة بريسو Brissot. وفي هذه الأثناء أصبح لمانو Manon صالون كان يلتقى فيه بانتظام بريسو Brissot وبيتيو Pétion وكوندرسيه Condorcet وبوزو Buzot وغيرهم من الجيرونديين، ليضعوا خططهم[١٢]. وكانت تقدم لهم الطعام والمشورة، كما كانت تقدم لبوزو Buzot حبها بشكل سرى (كانت على علاقة عشق به)، وقد تبعتهم أو سبقتهم بشجاعة إلى الموت.

(*) في النص فقرة لم نتبين معناها : ..to both the catos &both the Gracchi

٢- حرب ١٧٩٢ :

لقد كانت فترة عصيبة للثورة، فالمهاجرون (الذين تركوا فرنسا بسبب الثورة) كانوا قد جمعوا بحلول عام ١٧٩١ عشرين ألف فرقة في كوبلنز Coblenz وراحوا يتقدمون مع منجديهم لتقديم العون. واستجاب فريدريك وليم الثاني Frederick William II في بروسيا لأنه وجد إمكانية انتهاز الفرصة لتوسيع مملكته على طول الراين Rhine، وجوزيف الثاني Joseph II إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد يكون السبب الوجيه بالنسبة له لخوض حرب ضد فرنسا هو مساعدة أخته لكن شعبه أيضا كان في حالة ثورة، وما لبث أن مات ولم يكن أخوه ليوبولد الثاني Léopold الذي خلفه على عرش الإمبراطورية في سنة ١٧٩٠ ميالاً للحرب، ومع هذا فقد أصدر هو وملك بروسيا "إعلان بيلنتس Pillnitz" التحذيري في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٩١ دعيا فيه حكام أوروبا الآخرين للانضمام إليهما في جهودهما ليعيدوا إلى فرنسا "الشكل الملكي لحكومتها لتكون مرة أخرى متمشية مع ما للملوك من حقوق ولتحسين أوضاع الأمة الفرنسية وازدهارها".

ومن الغريب أن نقول إن كلا من أنصار الملكية وأنصار الجمهورية كانوا يفضلون الحرب، فملكة فر نسا طالما حثت إخوتها على القدوم لإنقاذها، وكان الملك قد طلب صراحة من حكام بروسيا وروسيا وإسبانيا والسويد والإمبراطورية الثنائية (النمسا المجر) جمع قوات مسلحة لإعادة السلطان الملكي إلى ملك فرنسا[١٣]. وفي ٧ فبراير سنة ١٧٩٢ وقعت النمسا وبروسيا حلفا عسكريا ضد فرنسا، فقد كانت النمسا في توق شديد للاستيلاء على الفلاندر Flandres، وكانت بروسيا لا تقل عنها توقا للاستيلاء على الألزاس Alsace.

وفي أول مارس توفي ليوبولد الثاني Léopold وخلفه ابنه فرنسيس الثاني Francis الذي كان متلهفاً لخوض الحرب بسبب تفويضه بخوضها، و لرغبته في تحقيق مجد شخصي. أما في فرنسا فقد كان لافاييت Lafayette يحبذ الحرب على أمل أن يكون هو القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية وبذا يكون في وضع يمكنه من السيطرة على الجمعية والملك معا. أما الجنرال دومورييه Dumouriez وزير الشئون الخارجية فكان أيضا يفضل الحرب على أمل أن ترحب الأراضي المنخفضة (نذرلاند Netherlands) به باعتباره محررا

لها من النمسا وقد تكافئه بتاج صغير، ولم يكن هناك حديث عن التجنيد الإلزامي لكن الفلاحين والبروليتاريا قبلوا الحرب باعتبارها شرا لا بد منه فإن عاد المهاجرون بلا عوائق فإن هذا قد يؤدي إلى عودة الظلم الذي كان سائداً في ظل الحكم القديم Old Regime وربما كانت عودتهم مصحوبة بالرغبة في الانتقام. وكان الجيرونديون يفضلون الحرب لأنهم توقعوا أن تهاجم النمسا وبروسيا معا فرنسا وبالتالي فإن الهجوم المضاد من قبل فرنسا هو خير طريق للدفاع. وعارض روبيسبير الحرب خوفا من إراقة دم البروليتاريا الذي لن يحصد ثمنه سوى الطبقة الوسطى، ورد عليه بريسو Brissot قائلا "لقد أتى الوقت المناسب لحرب(*) جديدة حرب لتحقيق الحرية للعالم(١٤)". وفي ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢ أعلنت الجمعية التشريعية (ولم يعترض سوى سبعة) الحرب على النمسا وحدها أملاً في فك حلف الدولتين المتحالفتين ضد فرنسا. وهكذا بدأت الحرب الثورية والنابليونية التي استمرت ثلاثة وعشرين عاما. وفي ٢٦ أبريل ألف روج دي ليل Rouget de Lisle في ستراسبورج Strasbourg النشيد الوطني الفرنسي (المارسييز The Marseillaise).

لكن الجيرونديين لم يكونوا قد حسبوا حساب أوضاع الجيش الفرنسي، فقد كان عدد أفراده في الجبهة الشرقية ١٠٠,٠٠٠ رجل يواجهون ٤٥,٠٠٠ مقاتل نمساوي، لكن كان على رأس هذه القوات الفرنسية رجال تمرغوا في نعيم الحكم القديم Old Regime (العهد البائد)، فعندما أمر الجنرال دومورييه Dumouriez هؤلاء الضباط بقيادة جنودهم لخوض الحرب أجابوا بأن هؤلاء المتطوعين الغفل (غير المدربين) ليسوا مستعدين لخوض القتال ضد قوات مدربه، فأسلحتهم وتنظيمهم لا يؤهلانهم لذلك. ومع هذا فعندما تكرر صدور الأمر بالتقدم تخلى عدد من الضباط عن مناصبهم، واتخذت ثلاثة أفواج من الخيالة طريقها إلى العدو (لتكون في جانبه).

وأرسل لافاييت Lafayette للحاكم النمساوي في بروكسل Brussels عرضا بأن يقود حرسه الوطني إلى باريس ويعيد الصلاحيات للملك الفرنسي، إذا وافقت النمسا على عدم دخول الأراضي الفرنسية ولم ينتج عن اقتراح لافاييت هذا شيء سوى ما حدث بعد ذلك

(*) استخدم بريسو كلمة Crusade أي حرب صليبية جديدة، وفضلنا ما أوردناه في المتن لأنه المعنى المقصود.

من اتهامه - أي لافاييت - بالخيانة (في ٢٠ أغسطس ١٧٩٢) وهروبه إلى العدو.

ووصلت الأمور إلى حد الأزمة عندما أرسلت الجمعية التشريعية لوزارة الجيروندين المسيطرة طالبة توقيع الملك للموافقة على إنشاء معسكرات دفاعية مسلحة حول باريس ووقف الرواتب الحكومية للقسس والراهبات الذين لم يؤدوا اليمين للدستور. وفي قرار عجول غاضب لم يرفض الملك التوقيع فحسب بل وطرد الوزراء كلهم فيما عدا دوموريه Dumouriez الذي سرعان ما تخلى عن قيادة قوات الثورة على الجبهة البلجيكية. وعندما تناقل الناس في باريس أخبار هذا الاعتراض الملكي فسروا الأمر على أنه علامة على أن لويس كان يتوقع وصول جيش من الفرنسيين أو الأجانب إلى باريس في وقت قريب لوضع نهاية للثورة. فجرى وضع خطط غير متأنية لإخلاء العاصمة وتكوين جيش ثوري جديد في الجانب الأبعد للوار of the Loire، ونشر الجيرونديون في أنحاء باريس الدعوة إلى مظاهرات جماهيرية حاشدة أمام قصر التوليري Tuileries.

وعلى هذا ففي ٢٠ يونية سنة ١٧٩٢ تجمعت الجموع المستثارة رجالا ونساء وطنيين منفعلين وغوغاء ومغامرين من الأتباع المتحمسين لروبيسبير، وبريسو، ومارا، وشقت هذه الجموع طريقها عنوة إلى ساحة قصر التوليري Tuileries وهي تصيح ساخرة مصرة على رؤية " السيد فيتو ومدام فيتو Monsieur et Madame Veto أي رؤية الملك والملكة اللذين اعترضا ((Veto). وأمر الملك حرسه بإدخال عدد منهم، فتم إدخال خمسين شخصا وهم يلوحون بأسلحتهم المختلفة، وجلس لويس إزاء المنضدة وسمع التماسهم بسحب اعتراضاته، فأجاب أنه لا هذا المكان ولا هذه الظروف تسمح بالبت في هذه الأمور المعقدة، وظل طوال ساعات ثلاث يصغي إلى حجج وطلبات وتهديدات، وصاح واحد من الثوار قائلاً: "إنني أطالب بالتصديق على مرسوم ضد القسس.. إما أن تصدق وإما ستموت!" ووجه آخر سيفه تجاه لويس الذي ظل ثابتا بشكل واضح ولم يتحرك، وقدم له بعضهم غطاء رأس أحمر red cap فوضعه الملك بسرور فوق رأسه، فصاح هؤلاء "الغزاة": تحيا الأمة! تحيا الحرية! وأخيراً "يحيا الملك". وغادر الملتمسون وذكروا أنهم أعطوا الملك درساً مفزعاً، وانسلت الجموع عائدة إلى المدينة مرهقة لكنها غير راضية، وتم فرض مرسوم على الإكليروس(رجال الدين)

الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور الجديد رغم الاعتراضات، لكن الجمعية التشريعية رغبة منها في ألا تبدو متعاطفة مع التمرد الجماهيري الآنف ذكره استقبلت الملك استقبالاً حماسيا عندما أتى بناء على دعوتها لتلقي عهدها باستمرار الولاء[١٥].

ولم يستطب الراديكاليون هذا التوافق الرسمي بين البرجوازية والملكية، فقد كانوا يشكون في إخلاص الملك وامتعضوا لاستعداد الجمعية التشريعية إيقاف الثورة الآن لأن الطبقة الوسطى قد ضمنت مكاسبها الاقتصادية والسياسية.

وتحول روبيسبير ومارا تدريجيا إلى نادي اليعاقبة تاركين مشاعرهم البورجوازية متعاطفين مع الجماهير العريضة. وتحركت البروليتاريا في المدن الصناعية لتتعاون مع عمال باريس. وعندما طلبت الجمعية التشريعية من كل دائرة (محافظة) من الدوائر إرسال فصيل من حرسها الوطني، ليشارك في الاحتفال بالذكرى السنوية الثالثة لسقوط الباستيل، تم اختيار هؤلاء الممثلين الفدراليين Fédérés في غالبهم من قبل بلديات المدن (الكومونات) ممن يفضلون السياسات الراديكالية. وكان هناك فوج ثوري على نحو خاص مكون من ٥١٦ جندياً، وهو ذلك الفوج الذي خرج من مارسيليا في ٥ يوليو، وكان يطالب بعزل الملك، وراح هذا الفوج في أثناء مسيرته عبر فرنسا ينشد النشيد الجديد الذي وضعه روج دى ليل Rouget de Lisle وقد أخذ هذا النشيد اسمه نسبة إلى أهل مارسيليا وهو أمر لم يكن مقصوداً عند تأليف النشيد الذي أصبح اسمه المارسييز(*) The Marseillaise

ووصل فوج مارسيليا وعدد آخر من أفواج الممثلين الفدراليين (الفيدير Fédérés) إلى باريس بعد ١٤ يوليو لكن كومون باريس طلب منهم تأخير عودتهم إلى ديارهم فقد تتطلب مجريات الأمور وجودهم. وكان يسيطر على كومون باريس - وهو المكتب المركزي الذي يضم ممثلين من ثمانية وأربعين حيا Sections هي أحياء المدينة - زعماء راديكاليون - وكان يوما بعد يوم يحول الموظفين في دار البلدية إلى تشكيل حكومي لحكم المدينة، فجعل من دار البلدية تشكيلا حكوميا.

(*) قبل المؤتمر الوطني نشيد المارسييز كنشيد وطني في ١٤ يوليو سنة ١٧٩٥، لكنه رفض من نابليون والملك لويس الثامن عشر Louis XVIII واعيد كنشيد وطني في سنة ١٨٣٠ ومنعه نابليون الثالث، ولخيراً عاد فاعتبر هو النشيد الوطني منذ سنة ١٨٧٩.

وفي ٢٨ يوليو ارتعدت المدينة خوفا وغضبا عندما علمت بالبيان الرسمي الذي أصدره من كوبلينز Coblenz دوق برونسفيك Duke of Brunswick «عهد إليّ صاحبي الجلالة الإمبراطور وملك بروسيا بقيادة قواتهما المسلحة الموحدة التي جرى حشدها على حدود فرنسا. إنني راغب في أن أعلن لسكان هذه المملكة (فرنسا) الدوافع الكامنة وراء تصميم هذين العاهلين والأغراض التي يضعانها نصب عيونهما.

بعد الافتئات الصارخ على حقوق الأمراء الألمان في الألزاس لورين Alsace Loraine والإطاحة بنظام طيب وحكومة شرعية في داخل المملكة (فرنسا).... فإن أولئك الذين اغتصبوا صلاحيات الحكومة قد وصل بهم الأمر في النهاية إلى إعلان حرب غير عادلة على جلالة الإمبراطور وهاجموا محافظاته (مديرياته أو دوائره) في الأراضي المنخفضة ....

وبالإضافة إلى هذه المصالح المهمة لا بد أن نضيف أمراً آخر مهما يسبب القلق... وأعني به ضرورة وضع نهاية لهذا الحكم الفوضوي في داخل فرنسا لوقف الاعتداء على العرش والمذبح Altar (المقصود الكنيسة)... ولنعيد.... للملك أمنه وحريته اللذين سُلبَهما وجعله يمارس مرة أخرى سلطته الشرعية.

واقتناعا منا بأن العقلاء في الأمة ا لفرنسية يمقتون الزمرة النزاعة للشقاق التي تسيطر عليها وأن أغلب الفرنسيين يتطلع بصبر نافد إلى الوقت الذي يستطيعون فيه أن يعلنوا صراحة أنهم ضد المشروعات البغيضة التي يخطط لها أعداؤهم، فإن صاحب الجلالة الإمبراطور وصاحب الجلالة ملك بروسيا يدعوانهم إلى العودة بدون توان إلى طريق العقل والعدل والسلام. وبناءً عليه فإنني أنا.... أعلن:

١- أن..... العاهلين المتحالفين ليس من هدف لهما سوى ازدهار فرنسا، وهما - العاهلان المتحالفان - لا يبغيان الإثراء من وراء فتح البلاد الأخرى ....

٧- كل من يجسر من سكان المدن والقرى على الدفاع ضد قوا ت صاحب الجلالة الإمبراطور وصاحب الجلالة الملك أو يطلق النار عليها.... سيعاقب على الفور وفقاً لأشد قوانين الحرب صرامة وسيتم تدمير بيته......

٨- سيكون مطلوبا من مدينة باريس - وكل سكانها - أن تذعن فوراً وبلا إبطاء

للملك . . . والعاهلان المتحالفان يعلنان . . . أنه إذا تم اقتحام قصر التوليري أو مهاجمته أو جرى تعريض الملك والملكة والأسرة المالكة لأي إزعاج، وإذا لم يتم ضمان أمنهم على الفور، فسيتعرض أهل باريس لانتقام لا ينسى على مدى الدهر إذ سيتم إعدام أهلها على وفق القانون العسكري وسيتم تدميرها تماما . . . . .

لكل هذه الأسباب فإنني أدعو وأحض بإلحاح سكان المملكة كلهم ألا يواجهوا تحركات القوات التي أقودها ولا عملياتها بل الأدعى أن يتيحوا لها مرورا آمنا وأن يساعدوها . . . بالنوايا الصادقة كلها .

كتب في مركز القيادة في كوبلنز Coblenz في ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٢ .

شارلز وليم فرديناند

Charles William Ferdinand

دوق برونسفيك – لونبرج [١٦]

Duke of Brunswick - Luneburg

وكانت الفقرة الثامنة الكئيبة (ربما قدمها للدوق المعروف بدماثته أحد المهاجرين الحاقدين ـ التاركين فرنسا بسبب أحداث الثورة)[١٧] مثار تحد للجمعية التشريعية والكومون (حكومة باريس) ولأهل باريس، فإما أن يبطلوا الثورة أو يقاوموا الغزاة بالوسائل كلها ومهما كانت التكاليف .

وفي ٢٩ يوليو خطب روبيسبير في نادي اليعاقبة مطالبا – تحدّياً لدوق برونسفيك Brunswick – بسرعة الإطاحة بالملكية وتأسيس الجمهورية بإتاحة حق التصويت لجميع الرجال . وفي ٣٠ يوليو انضم الممثلون الفدراليون القادمون من مارسيليا إلى وفود من دوائر (محافظات) أخرى لتقديم العون لعزل الملك . وفي ٤ أغسطس وما تلاه أرسلت أحياء باريس، الحي إثر الحي Section مذكرات للجمعية التشريعية تفيد أنهم لم يعودوا يعترفون بالملك، وفي ٦ أغسطس تم تقديم ملتمس لأعضاء الجمعية بضرورة عزل لويس عن العرش، لكن الجمعية التشريعية لم تتخذ إجراء ما، وفي ٩ أغسطس نشر مارا Marat مناشدة

للشعب يطالبه باجتياح قصر التوليري Tuileries والقبض على الملك وأسرته والموظفين الملكيين الكبار كلهم باعتبارهم "خونة لا بد أن تضحي بهم الأمة أولا لتحقيق رفاهية الجماهير"(١٨) وفي تلك الليلة قام الكومون (المجلس البلدي أو حكومة باريس) وكذلك مسؤولو الأحياء بدق ناقوس الخطر لدعوة الجماهير إلى التجمع حول قصر التوليري في صباح اليوم التالي.

وحضر بعض الجماهير مبكرا جدا في الساعة الثالثة صباحا، وقبل الساعة السابعة كان خمسة وعشرون حيا (قسما) قد أرسلت العدد الذي سبق تحديده لها من الرجال المسلحين بالبنادقيات (المسكت) والرماح والسيوف، وأتى بعضهم بمدافع وانضم إليهم ٨٠٠ من الممثلين الفدراليين Fédérés وسرعان ما وصل عدد المحتشدين إلى تسعة آلاف، وكان يدافع عن القصر تسعمائه سويسري ومائتين من الحراس الآخرين، ورغبة من لويس في تهدئة الهياج فإنه قاد أسرته من الغرف الملكية إلى مسرح القصر حيث كانت الجمعية التشريعية في دورة انعقاد مضطربة، وقال الملك: "لقد أتيت إلى هنا لأمنع جريمة كبرى"(١٩).

وسمح للمتمردين بدخول ساحة القصر، وعند بداية الدرج المؤدي إلى غرف النوم الملكية منع الحرس السويسري المتمردين من التقدم إلا أن الجماهير الحاشدة ضغطت، فأطلق السويسريون النار فقتلوا أكثر من مائة رجل وامرأة، فأرسل الملك أوامره إلى الحرس السويسري بوقف إطلاق النار والانسحاب، فنفذوا الأوامر لكن المحتشدين وعلى رأسهم الممثلون الفدراليون لمارسيليا اجتاحوهم وتم ذبح معظم أفراد هذا الحرس السويسري كما جرى القبض على كثيرين منهم تم اقتيادهم إلى دار البلدية حيث أعدموا(٢٠).

وجرى ذبح الخدم - بمن فيهم العاملون في المطبخ - في مهرجان دموي مجنون. وأنشد أهل مرسيليا نشيد المرسييز بمصاحبة عزف على البيانو القيثاري (الهاربسكورد) الخاص بالملكة، واستراحت العاهرات اللائي اعتراهن التعب فوق سرير الملكة، وأحرق المتمردون الأثاث وأراقوا النبيذ، وبالقرب من ساحة الفروسية أشعل الجمهور السعيد النار في تسعمائة مبنى وأطلقوا النار على رجال الإطفاء الذين أتوا لإخماد النيران(٢١). واستعرض بعض المنتصرين بأعلامهم التي صنعوها من السترات الحمراء لأفراد الحرس السويسري المقتول -

وبذلك كانت هذه أول حالة معروفة لاستخدام العلم الأحمر رمزاً للثورة [٢٢].

وحاولت الجمعية التشريعية إنقاذ الأسرة المالكة، لكن مقتل عدد من أعضائها على أيدي الجماهير الغازية، أقنع الباقين بتسليم اللاجئين إليها من الأسرة المالكة لكومون باريس ليكونوا تحت تصرفه، فجرى التحفظ عليهم بعناية تحت حراسة صارمة في المعبد the Temple - وهو دير قديم حصين لجماعة الفرسان الداويين (رهبان وجنود في الوقت نفسه) واستسلم لويس بلا مقاومة حزينا على زوجته التي وخط الشيب - الآن - مفرقها، وعلى ابنه المريض، وراح ينتظر النهاية بصبر.

٣- دانتـــــون :

خلال هذه الأسابيع المتشنجة امتنع غالب أعضاء الجمعية التشريعية (ممثلو الحقوق Rights) عن الحضور إلى مقر الجمعية فبعد العاشر من أغسطس لم يعد يحضر إلا ٢٨٥ عضوا من مجموع الأعضاء البالغ عددهم ٧٤٥ . وصوت هذا المجلس التشريعي المبتور (الناقص) على أن يجعل الأمور في يد مجلس تنفيذي به ممثلون للدوائر (المحافظات) المختلفة ليحل محل الملك ومستشاريه، واختارت الأغلبية جورج دانتون Georges Danton ليرأس هذا المجلس وزيراً للعدل، وأن يكون رولان Roland وزيرا للداخلية وجوزيف سيرفان Joseph Servan وزيرا للحرب. وكان اختيار دانتون في جانب منه محاولة لتهدئة أهل باريس إذ كان له شعبية بينهم بالإضافة إلى أنه كان في ذلك الوقت أقوى شخصيات الحركة الثورية وأكثرهم قدرة.

وكان في الثالثة والثلاثين من عمره وسيموت في سن الخامسة والثلاثين، فالثورة امتياز للشباب. ولد دانتون في أرسي - سير - أوب Arcis - Sur - Aube في شامباني Champagne وحذا حذو أبيه في الاشتغال بالقانون، وازدهرت أحواله محامياً في باريس لكنه فضل أن يعيش في المبنى نفسه مع صديقه كاميل ديمولين Camille Desmoulins في حي الطبقة العاملة المنتمية لتنظيم الكوردلييز[*] (نادي الرهبان الفرنسسكان أو نادى

(*) اليسارى (الجبلي).

جمعية أصدقاء الإنسان والمواطن) وسرعان ما أصبح هو وصديقه أعضاء بارزين في هذا النادي الآنف ذكره (الكوردليير) . وكانت شفتاه وأنفه مشوهة بسبب حادثة وقعت له في مرحلة الطفولة، وكان بجلده آثار الجدري لكن قليلين كانوا يدركون ذلك نظراً لطوله الفارع ورأسه الكبير ولشعورهم بقوة أفكارة الحاسمة الحادة المتبصرة خاصة عند سماعهم خطبه العاصفة وهو يهدر كالرعد في الاجتماعات الثورية لنادي اليعاقبة أو الحشود البرولتيارية، وغالبا ما كان يتعرض في خطبه تلك لما يمس المقدسات .

ولم تكن شخصيته قاسية وحشية أو مستبدة كوجهه أو صوته . وكان قادراً على التجرد من مشاعره ليكون فظا غليظ القلب في أحكامه كما تدل على ذلك مذابح سبتمبر ومع هذا فقد كانت به بعض الرقة الكامنة ولم يكن حقودا كامن الحقد، فقد كان سريع العطاء سريع الصفح، وكان معاونوه يدهشون عندما يجدونه يتراجع عن أوامره الظالمة أو يحمي ضحايا تعليماته القاسية، وسرعان ما فقد حياته لأنه جسر على القول بأن الإرهاب قد أمعن وتطرف كثيرا وأنه قد حان وقت الرحمة . وكان على عكس روبيسبير الرزين، فقد كان يستطيب الفكاهات Rabelaisian humour ويحب المباهج الدنيوية، كا كان مقامراً عاشقا للنسوة الحسان وقد كون ثروة وأقرض واشترى منزلا جميلا في أرسي Arcis كما اشترى جزءاً كبيرا من ممتلكات الكنيسة، وقد تعجب أناس كثيرون كيف حصل مبالغ تفوق حاجاته الضرورية وشكوا في أنه تقاضى مبالغ مالية كرشوة لحماية الملك . وكانت البراهين التي تؤكد ذلك هي السائدة ولم تكن في غير صالحه[٢٣] . ومع هذا فقد كان ثوريا من الطراز الأول وبدا كأنه لم يخن أبداً أيا من مصالح الثورة الحيوية، لقد أخذ أموال الملك ومع هذا فقد عمل لصالح البرولتياريا، ومع هذا فقد كان يعلم أن دكتاتورية البرولتياريا أمر ينطوي على التناقض ولا يمكن أن يكون إلا للحظة في التاريخ السياسي (غير مستمر) .

وقد تلقى تعليما كثيرا جعلته يوتوبيا (يوطوبيا - أي من أنصار المدن أو الحكومات المثالية)، وكانت مكتبته (التي كان يأمل أن يعود إليها بسرعة بعد خلاصه من مهامه السياسية) تضم ٥٧١ مجلدا باللغة الفرنسية و ٧٢ بالإنجليزية و ٥٢ بالإيطالية إذ كان يستطيع قراءة الإنجليزية والإيطالية بلا عناء، وكان لديه من مؤلفات فولتير ٩١ مجلدا و ١٦

لروسو، كما كان لديه موسوعة ديدرو كاملة[٢٤] Didero's Encyclopedie وكان ملحدا[*] لكنه كان متعاطفا على نحو ما مع فكرة أن الدين إنما هو للفقراء. فلنقرأه وهو يقول في سنة ١٧٩٠ ما قاله موسّيه Musset[٢٥] بعد ذلك بجيل:

"من ناحيتي، أعترف أنني لا أعرف إلا إلهاً واحدا – إلهاً لكل الكون والعدالة... لكن الرجل في الحقول يضيف إلى هذا أوهاما... لأنه في شبابه ومرحلة رجولته ومرحلة كهولته مدين للكاهن (القسيس) بلحظات السعادة القليلة التي تمر به.. لندعه لهذا الوهم. علمه أيها القس إن شئت... لكن لا تجعل الفقير يخشى فقدان الشيء الوحيد الذي يربطه بالحياة"[٢٦].

وهو – دانتون – كزعيم ضحى بكل شيء حتى النهاية لحماية الثورة من الهجوم الأجنبي ومن الفوضى الداخلية. ولهذه الأغراض كان مستعداً للتعاون مع أي شخص – مع روبيسبير، ومارا Marat والملك، والجيرونديين، لكن روبيسبير كان يحقد عليه، وكان مارا Marat يتهمه، وكان الملك لا يثق به وكان الجيرونديون حذرين منه بسبب وجهه وصوته وكانوا يرتجفون من تعبيراته المنطوية على الازدراء. ومع هذا فلم يكن أي من هؤلاء بقادر على أن يتجاهل وجوده فقد نظم أمور الحرب وتفاوض من أجل السلم وكان يزأر كالأسد وهو يتحدث عن الرحمة وحارب من أجل الثورة وساعد بعض الملكيين على الهرب خارج فرنسا[٢٧].

وكوزير للعدل عمل على توحيد كل الفصائل الثورية كلها لرد الغزاة، وتحمل مسئولية إثارة الجماهير في ١٠ أغسطس فالحرب في حاجة لدعم هذه الأرواح المثمرة فمنهم يمكن تجنيد جنود متوقدين حماسة، لكنه لم يشجع المحاولات غير الناضجة لدعم الثورات على الملوك الأجانب (الملوك خارج فرنسا) فهذا قد يؤدي إلى اتحاد الملكيات في عدائها ضد فرنسا. وقاوم اقتراح الجيرونديين بانسحاب الحكومة والجمعية إلى ما وراء اللوار The Loire فمثل هذا التراجع لا بد أن يحطم معنويات الشعب. لقد انقضى وقت المناقشات وحان وقت العمل لبناء قوات مسلحة جديدة وتحصين أفرادها بالروح العالية والثقة، وفي ٢

(*) كان مؤمنا بالله الواحد لكنه معارض لعقيدة الكنيسة. انظر مقدمة الترجمة العربية.(المترجم)

سبتمبر سنة ١٧٩٢ ألقى خطابا مشحونا بالعواطف والأنفعالات وردت فيه فقرة حركت المشاعر في فرنسا ودوت في هذا القرن العامر بالاضطرابات. ودخلت القوات البروسية النمساوية فرنسا وحققت نصرا تلو نصر، واضطربت باريس وترددت بين الاستجابة العازمة المصممة والخوف المربك. وتحدث دانتون للمجلس التنفيذي وذهب إلى الجمعية لبث الحماس في أعضائها وفي الأمة كلها كي يتشجعوا ويتحركوا :

"إنه لأمر مرض لوزير في دولة حرة أن يعلن لهم أن بلادهم قد نجت فالكل مستثار والكل متحمس، والكل تواق للنضال... فجانب من شعبنا سيحرس حدودنا وجانب آخر سيقيم الحصون ويسلحها، وجانب سيدافع عن داخل مدننا بالرماح... إنني أطالبكم بإعدام أي شخص يرفض تقديم ما يقدر عليه سواء خدماته الشخصية أم تزويد القوات المسلحة بما يحتاجه....

إن ناقوس الإنذار الذي سنسمعه ليس إشارة إلى الخطر وإنما هو يأمر بالهجوم على أعداء فرنسا. لا بد أن نكون قادرين على التصدي للهجوم... لا بد أن نجسر على ذلك، لا بد دائما أن نجسر على ذلك – عندها يكون قد تم إنقاذ فرنسا".

لقد كان خطابا قويا وتاريخيا لكن في اليوم نفسه بدأت أكثر الأحداث مأسوية في فرنسا بشكل غير متوقع.

٤– المذبحة : من ٢ إلى ٦ سبتمبر ١٧٩٢ :

يعود الهياج العاطفي الذي بلغ ذروته في ٢ سبتمبر في بعض أصوله البعيدة التي أعطته حرارته إلى الصراع المتزايد بين الدين والدولة والجهود التي بذلت لإحلال عبادة الدولة بديلاً للدين أو بتعبير آخر إزاحة الدين لتكون عبادة الدولة عوضاً عنه.

وكانت الجمعية التشريعية قد قبلت الكاثوليكية ديناً رسمياً، وتعهدت بدفع رواتب للقسس كموظفي الدولة، لكن الراديكاليين الذين كانت لهم السيادة في كمون باريس لم يجدوا سببا لتمويل الحكومة أفكاراً يعتبرونها من خرافات الشرق (يقصدون المسيحية) طالما تحالفت مع الإقطاع والملكية. ووجدت وجهات نظر هؤلاء الراديكاليين قبولاً في النوادي

كما وجدت قبولاً آخر الأمر في الجمعية التشريعية . وكان نتيجة ذلك سلسلة من الإجراءات جعلت العداوة بين الكنيسة والدولة تمثل تهديدا متكررا للثورة .

فبعد ساعات قليلة من عزل الملك عن عرشه أرسل كمون باريس إلى الأحياء المختلفة فيها Sections قائمة بالقسس المشكوك في أهدافهم والمشكوك في أن لديهم مشاعر معادية للثورة، وكان عدد كبير منهم - كما يفهم - قد أرسلوا إلى السجون المختلفة لذا فقد كانوا ضحية أساسية في أثناء المذبحة .

وفي ١١ أغسطس أنهت الجمعية التشريعية أي إشراف للكنيسة على التعليم، وفي ١٢ أغسطس منع الكومون ارتداء الثياب الكنسية علناً، وفي ١٨ أغسطس جددت الجمعية التشريعية هذا الأمر بإصدار مرسوم لمنع ارتداء هذه الملابس الدينية على مستوى فرنسا كلها، وحلت التنظيمات الدينية الباقية كلها، وفي ٢٨ أغسطس دعت لترحيل كل القسس الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور المدني للإكليروس على أن يمنحوا مهلة أسبوعين لمغادرة فرنسا، وبالفعل فقد هرب ٢٥,٠٠٠ قسيس إلى بلاد أخرى وراحوا يساندون هناك دعايات المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب وقائع الثورة)، ولأن الإكليروس كانوا حتى الآن يحتفظون بسجلات المواليد وحالات الزواج والوفيات في الدوائر المختلفة، فقد كان على الجمعية أن تنقل هذه المهمة إلى سلطات علمانية (غير إكليريكية) . ولأن معظم السكان كان يؤمن بارتباط حالات الولادة والزواج والوفيات بطقوس دينية، فإن محاولة استبعاد هذه الطقوس القديمة قد وسعت الخرق (الثغرة) بين إيمان الناس من ناحية، وعلمانية الدولة من ناحية أخرى[٢٨] . وقد اتفق الكوميون واليعاقبة والجيروندیون والجبليون (Montagnards بالمعنى السياسي السابق الإشارة إليه) على أنهم يأملون أن يكون الإخلاص للجمهورية الشابة سيصبح هو دين الشعب، فستحل مبادىء : الحرية والمساواة والإخاء محل الآب والابن والروح القدس وأن تعزيز هذا الثالوث الجديد يمكن أن يكون هو الهدف المهيمن للنظام الاجتماعي والمعيار النهائي للأخلاق .

وأجل الافتتاح الرسمي للجمهورية الجديدة إلى ٢٢ سبتمبر أول يوم من العام الجديد . وفي هذه الأثناء التمس بعض المستقبليين المتطلعين من الجمعية أن تمنح الجمعية لقب

"مواطن فرنسي" لكل الفلاسفة غير الفرنسيين الذين أيدوا بشجاعة قضية الحرية فاستحقوا عن جدارة "رضا البشرية" وذلك كإيماءة إلى أحلامهم في تحقيق الديمقراطية العالمية. وفي ٢٦ أغسطس استجابت الجمعية فأعطت المواطنة الفرنسية لكل من جوزيف بريستلي Joseph Priestley وجيرمي بنثام Jeremy Bentham، ووليم ولبرفورس William Wilberforce وأنا كارسيس كلوتس Anachasis Cloots وجوهان بيستالوزي Johann Pestalozzi وثاديوس كوسكيوسكو Thaddeus Kosciusko وفريدريش شيلر Friedrich Schiller وجورج واشنطن George Washington، وتوماس بين Thomas Paine وجيمس ماديسون James Madison وألكسندر هاميلتون[٢٩] Alexander Hamilton.وقدم الكسندر فون همبولدت Alexander Von Humboldt إلى فرنسا، وكان من بين ما قاله: "لقد أتيت إلى فرنسا لأتنسّم نسيم الحرية ولأعاون في طعن الحكم المطلق الاستبدادي"[٣٠] وبدا أن الدين الجديد ينشر فروعه بمجرد وضع جذوره.

وفي ٢ سبتمبر ارتدت فرنسا أبهى حللها (وكأنها في يوم أحد Sunday Clothes) وعبرت عن ولائها (للدين الجديد) بطرق مختلفة، فقد تجمع الشباب ومن هم في منتصف العمر في نقاط التجنيد ليتطوعوا للخدمة في الجيش، وراحت النسوة يخطن لهم عباءات تدفئهم، ويعددن الضمادات لمن قد يصاب بجروح منهم في المعارك، وأقبل الرجال والنساء والأطفال إلى مراكز أحيائهم لتقديم الأسلحة والجواهر والنقود لإنفاقها لأغراض الحرب. وتبنت الأمهات الأطفال الذين يعولهم جنود أو ممرضات سيغادرون إلى جبهة القتال، وذهب بعض الرجال إلى السجون لقتل القسس وغيرهم من أعداء العقيدة الجديدة.

ومنذ إعلان الدوق برونسفيك Brunswick (٢٥ يوليو سنة ١٧٩٢) كان القادة الثوريون يعملون كرجال يميلون إلى العمل عندما تكون حياتهم مهددة. ففي ١١ أغسطس أرسل أعضاء اللجنة العامة في دار البلدية ملاحظة غريبة إلى أنطوني سانتير Antonie Santerre الذي كان وقتئذ هو القائد العسكري لقوات أحياء باريس: "لقد علمنا أن خطة توضع للمرور على سجون باريس لنقل السجناء كلهم لتنفيذ حكم العدالة فورا فيهم. إننا نرجوك أن يشمل إشرافك الحصون الصغيرة والبوابات وقوات الشرطة" – والمقصود مراكز

الحجز الثلاثة الرئيسية في باريس[٣١]. ولا ندري كيف فسر سانتير Santerre هذه الرسالة، ففي ١٤ أغسطس عينت الجمعية أعضاء "محكمة استثنائية" لمحاكمة أعداء الثورة كلهم لكن ما ورد في المرسوم كان أقل بكثير من أن يرضي مارا Marat، ففي جريدته "صديق الشعب" في عددها الصادر في ١٩ أغسطس قال لقرائه: "إن أفضل طريق ننهجه وأحكمه هو أن نذهب مسلحين إلى الأباى Abbaye (الكلمة تعني الدير، وقد استخدم كسجن فالمقصود إذن هو التوجه لهذا السجن) لنجرجر الخونة خاصة الضباط السويسريين [من أفراد الحرس الملكي] وشركاءهم ونعمل السيف في رقابهم فما أغبى أن نحاكمهم!"[٣٢] وانجرافا مع هذا الحماس جعل الكومون من مارا Marat المحرر الرسمي لنشراته وجعل له مكانا في غرفة اجتماعاته وضمه إلى لجنة الرقابة التابعة له (للكومون)[٣٣].

وإذا أصاخت الجماهير السمع إلى مارا Marat وأطاعته بكل طاقاتها فما ذلك إلا لأنها كانت بدورها مرتجفة مرعوبة ممتلئة كرها وخوفا. وفي ١٩ أغسطس عبر البروس الحدود بقيادة الملك فريدريك وليم الثاني Frederick William ودوق برونسفيك Brunswick بصحبة قوات صغيرة من المهاجرين (الفرنسيين الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) الذين يطالبون بالانتقام من الثوار. وفي ٢٣ أغسطس استولى الغزاة على حصن لونجواى Longway، وكان هناك ادعاء أن ذلك ما كان ليحدث لولا ضلوع ضباط الحصن الأرستقراطيين في هذا الأمر. وفي ٢ سبتمبر وصلوا إلى فيردون Verdun ووصل إلى باريس خبر مبتسر (قبل الأوان) بسقوط هذا الحصن المنيع في الصباح لكنه في الحقيقة لم يسقط إلا بعد الظهر، والآن لقد أصبح الطريق إلى باريس مفتوحا للعدو فلم يكن هناك أي جيش فرنسي في هذا الطريق لإيقافه، وبدت العاصمة تحت رحمة الغزاة وتوقع الدوق برنسفيك Brunswick أن يتناول عشاءه بعد قليل في باريس[٣٤].

وفي هذه الأثناء اندلعت ثورة مضادة (ثورة على الثورة) في المناطق النائية في فرنسا مثل الفيندى Vendée والدوفينى Dauphiné، وكانت باريس نفسها تضم آلاف البشر المتعاطفين مع الملك المخلوع؛ ومنذ أول سبتمبر كانت توزع نشرة تحذر من مؤامرة لإطلاق سراح السجناء وقتلهم على يد الثوريين[٣٥]. ودعت الجمعية والكومون كل الرجال القادرين

للالتحاق بالجيش لملاقاة قوات العدو المتقدمة، لكن كيف يستطيع هؤلاء الرجال أن يخرجوا للقتال تاركين نساءهم وأطفالهم تحت رحمة الملكيين والقسس ومعتادي الإجرام ممن هم في سجون باريس، فقد يتمكنون من الخروج بأعداد كبيرة؟ فصوتت بعض أحياء باريس على حل مؤداه ضرورة قتل كل القسس والأشخاص المشكوك في ولائهم للثورة قبل خروج المتطوعين لقتال العدو[٣٦].

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٢ سبتمبر اقتربت ست عربات حاملة القسس الذين لم يؤدوا يمين الولاء للدستور الجديد من سجن أباى Abbaye (الكلمة تعنى دير، ذلك أن هذا السجن كان في أصله ديرا)، فصاحت بهم الجموع مستهزئة وقفز رجل من الجموع إلى سلم العربة فضربه قس بعصا فسبت الجموع القس وتزاحمت وتضاعف عددها وراحت تهاجم السجناء عند توقف العربات عند البوابة بل وانضم حراس السجناء إلى المهاجمين، فتم قتل ثلاثين سجينا، واندفعت الحشود - منتشية بمنظر الدماء ونشوة القتل غير المنسوب إلى أحد بعينه - إلى مبنى دير الكرمل وقتلوا القسس المحتجزين هناك، وفي المساء، بعد قضاء فترة راحة، كانت الحشود قد تزايد عددها الآن فانضم إليها كثير من المجرمين وغلاظ الأكباد وجنود الأفواج الفدرالية القادمة من مارسيليا وأفينون Avignon وبريتاني Brittany وعادوا إلى أباى Abbaye (الكلمة تعني ديرا لكن المقصود سجن يحمل هذا الاسم لأنه كان في الأصل ديرا) وأجبروا السجناء كلهم على الخروج والجلوس لسماع الحكم عليهم، وأسلموا الغالبية العظمى منهم، - أي سويسري أو قس أو ملكي أو أي شخص كان في خدمة الملك أو الملكة - إلى رجال متعطشين لقتلهم، فقتلوهم بالسيوف والسكاكين والرماح والهراوات.

وفي البداية كان القتلة مثاليين فكانوا يكتفون بالقتل ولا يسرقون المقتولين فقد كانوا يجردون الضحايا من مقتنياتهم القيمة لنقلها إلى السلطات الثورية في الكمون لكن في آخر الأمر راح هؤلاء القتلة الذين اعتراهم التعب يحتفظون من قتلاهم بتذكارات، وكان كل قاتل يتلقى ستة فرنكات في اليوم لقاء عمله بالإضافة إلى ثلاث وجبات وكل ما يريده من النبيذ، وأظهر بعضهم شيئا من الرحمة فهنأوا أولئك الذين تمت تبرئتهم واستضافوا

المميزين منهم في بيوتهم[٣٧]، وكان بعضهم متوحشا قاسيا فأطالوا من معاناة المتهمين بتعريضهم للسخرية أمام المشاهدين، وقام واحد من المتحمسين بعد أن نزع السيف من صدر الجنرال لالو Genéral Laleu بدس يده في الجرح وانتزع القلب ووضعه في فمه كما لو كان يريد أن يأكله[٣٨] – وهي عادة كانت شائعة وفي وقت من الأوقات في أيام الهجمية–.

وكان كل قاتل، عندما يعترية التعب يأخذ قسطا من الراحة ويتجرع خمرا ثم يواصل عمله حتى تم القضاء في أمر سجناء الأباى كلهم The Abbaye إما إلى الموت وإما إلى الأمان.

وفي ٣ سبتمبر انتقل الجلادون (منفذو القتل) والقضاة إلى سجون أخرى – سجن ثكنات الشرطة La Force وسجن البوابة Conciergerie.حيث استمرت المذبحة في ضحايا جدد وبجلادين جدد.

وهنا كانت توجد سيدة مشهورة، إنها الأميرة دى لامبل de Lamballe التي كانت ذات يوم ثرية ورائعة الجمال وكانت محبوبة لمارى أنطوانيت Marie Antoinette وأثيرة لديها، وكانت قد اشتركت في مؤامرة لإنقاذ الأسرة الملكية. إنها الآن في الثالثة والأربعين من عمرها عندما قطعت رأسها وبترت أطرافها ونزع قلبها من جسدها وأكله الجمهوريون المتحمسون[٣٩]، ورفعوا رأسها على رمح ولوحوا به عارضين إياه من نافذة زنزانة الملكة في سجن تمبل[٤٠] (المعبد The Temple).

وفي ٤ سبتمبر تحرك القتلة إلى سجون تور سانت بيرنار Tour St.- Bernard، وسانت فيرمي St.- Firmin والحصن الصغير the Chalelet سجن مخزن ملح البارود the Salpetrière وهناك كانت النسوة الشابات يخيرن بين إتيانهن أو قتلهن، فكن يؤتين. وكان من بين نزلاء سجن بيستر Bicetre ملجأ للمجانين والمختلين علقيا تتراوح أعمارهم بين سبعة عشر عاما وتسعة عشر عاما، وعددهم ثلاثة وأربعون شابا أنزلهم – في غالبهم – آباؤهم في هذا المكان لتلقى العلاج، وقد قتلهم الثوار جميعاً[٤١].

واستمرت المذبحة يومين آخرين في باريس حتى وصل عدد الضحايا بين ١٢٤٧.[٤٢] و١٣٢٨[٤٣]، وانقسم الناس في الحكم على الأحداث : فالكاثوليك والملكيون اعتراهم رعب

شديد لكن الثوريين حاجّوا بأنه كان لا بد من هذه الاستجابة العنيفة بسبب تهديدات برونسفيك Brunswick ولضرورات الحرب، واستقبل **بيتيون** Pétion رئيس بلدية باريس الجديد الجلادين كوطنيين بذلوا جهدا كبيرا وأنعشهم بتقديم النبيذ لهم [٤٤]. وأرسلت الجمعية التشريعية بعض الأعضاء إلى سجن الإباى (سجن الدير) Abbaye ليوصوا بالتزام القانون وعادوا ليقرروا أن المذبحة لا يمكن إيقافها، وأخيرا وافق زعماء الجمعية – من الجيرونديين والجبليين[*] Montagnards - أن هذا الاتجاه الأكثر أمنا واحتياطا (المذبحة) أصبح محل موافقة[٤٥]. وأرسل كميون باريس ممثلين عنه للمشاركة في منح الحصانة للقضاة، وكان بيلو – فارين – Billaud Varenne المحامي المندوب عن الكوميون ممن شهدوا ما حدث في سجن أباى Abbaye وقد هنأ القتلة: "إنكم مواطنون زملاء، إنكم تدمرون أعداءكم، إنكم تؤدون واجبكم"[٤٦] وبارك مارا Marat بفخر العملية برمتها. وعند محاكمة شارلوت كورداى Charlotte Corday بعد ذلك بعام، سئلت: "لماذا قتلت مارا؟" فأجابت "لأنه كان هو السبب في مذبحة سبتمبر" ولما طالبوها بالدليل أجابت: "ليس لدي دليل، انه رأي فرنسا كلها"[٤٧].

وعندما طلب من دانتون Danton أن يوقف المذبحة هز كتفية: "سيكون هذا مستحيلاً" ثم أردف معللا" ثم لماذا نوقفها؟ هل أزعج نفسي بسبب هؤلاء الملكيين والقسس الذين كانوا لا ينتظرون سوى اقتراب الأجانب الغزاة لذبحنا؟... لا بد أن نرعب أعداءنا."[٤٨] ومع هذا فقد سحب دانتون سراً أكثر من واحد من أصدقائه وأخرجهم من السجون، بل إنه أخرج حتى بعض أعدائه الشخصيين[٤٩]. وعندما اعترض عضو من زملاء دانتون في المجلس التنفيذي على عمليات القتل، قال له دانتون: "إجلس، فهذا أمر ضروري"[٥٠]. وعندما سأله شاب: "كيف تستطيع أن تساعد ما يسمى إرهابا؟" أجابه: "إنك أصغر من أن تفهم هذه الامور... انه لا بد أن يفيض نهر الدم بين أهل باريس والمهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة)"[٥١].

فقد كان يعتبر أن أهل باريس قد أصبحوا الآن **مناصرين للثورة**، وأن المتطوعين للحرب

(*) أي اليساريين.

الذين كانوا يغادرون لملاقاة الغزاة يعرفون الآن أنهم لن يرحمهم العدو إن هم استسلموا، إنهم سيحاربون دفاعا عن حياتهم بكل ما في الكلمة من معنى.

وكان يوم ٢ سبتمبر أيضا هو اليوم الذي صوتت الجمعية التشريعية للدعوة إلى انتخاب عام لمؤتمر وطني Convention لتضع دستورا جديدا يتلاءم مع ظروف فرنسا الجديدة ومع متطلبات الحرب، ذلك لأن الجمعية أحست أن مسيرة الأحداث قد أحدثت دمارا في الدستور الحالي الذي جرى اختيار أعضائها لتنفيذه، ولأنه منذ دعي الفلاحون والبرولتياريا والبورجوازية – على سواء – للدفاع عن وطنهم فقد بدا من غير المقبول أن أيا مهما كان سواء أكان دافع ضرائب أم لا يحق منعه من حق الانتخاب (إبعاده عن صناديق الاقتراع).

وهكذا حقق روبيسبير أول انتصار كبير له، فالمؤتمر الوطني الذي سيلعب فيه دورا كبيرا جرى انتخابه من الراشدين الرجال كلهم أي أنه كان انتخابا عاماً.

وفي ٢٠ سبتمبر أنهت الجمعية التشريعية دورتها الأخيرة ولم يكن أعضاؤها يعلمون أنه في اليوم نفسه التقى الجيش الفرنسي بقيادة دوموريه Dumouriez وفرنسوا – كريستوف كيلرمان François-Christophe Kellermann بالجيوش المحترفة البروسية والنمساوية بقيادة دوق برونسفيك Brunswick، عند قرية يقال لها فالمي Valmey بين فردو Verdun وباريس، وأن الجيش الفرنسي أرغم أعداءه على الانسحاب – لقد كان نصرا مؤثرا حتى إن ملك بروسيا أمر قواته المهاجمة بعد المعركة بالتراجع وتخلى عن فردو Verdun ولونجواي Longway وترك الحدود الفرنسية. أما فريدريك وليم الثاني Frederick William فلم يكن يتحمل الإزعاج الذي تسببه له فرنسا البعيدة الآن فقد كان يتنافس مع جارتيه ؛ روسيا والنمسا للاستيلاء على أكبر جزء عند تقسيم بولندا، وأكثر من هذا فقد كان جنوده يعانون من الإسهال الذي أصابهم نتيجة تناولهم أعناب شامباني[٥٢] Champagne.

وكان حاضرا في هذه المعركة جوته Goethe ضمن العاملين مع دوق ساكس – فيمار Saxe-Weimar فقال (كما أخبرت) ملاحظة شهيرة: "منذ الآن ومن هذا المكان تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العالم"[٥٣].

الفصل الرّابع

المؤتمر الوطني (*)

[٢١ سبتمبر ١٧٩٢ - ٢٦ أكتوبر ١٧٩٥]

(*) Convention، وقد اصطلح المؤلفون العرب على تسمية هذه الحقبة بالمؤتمر أو المؤتمر الوطني، وأطلق فيشر في كتابه - تاريخ أوروبا في العصر الحديث - على هذه الفترة اسم الجمهورية الفرنسية الأولى، وقد تَرْجَمَ هذا الكتاب للعربية ترجمة واضحة لا عوج فيها الأستاذان أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. «المترجم».

١- الجمهورية الجديدة :

أدار اليعاقبة بحذق ومهارة انتخابات هذه الجمعية الثالثة (المؤتمر الوطني) التي تعتبر ذروة المد الثوري وانحداره في الوقت نفسه، وكانت مهارتهم في هذه الانتخابات تفوق حتى مهارتهم في انتخابات سنة ١٧٩١ . لقد وجهوا الأمور بعناية بشكل غير مباشر: فالمصوتون يختارون الناخبين الذين يلتقون في جمعية انتخابية تختار بدورها النواب أو الوكلاء الذين يمثلون دوائرهم الانتخابية في المؤتمر الوطني، وكان الانتخاب في المرحلتين علنا وبالتعبير الصوتي عن الرأي، وكان الناخب - في كل مرحلة - يتعرض للأذى إن هو أغضب الزعماء المحليين(١) . وفي المدن رفض المحافظون التصويت "فقد كان عدد الممتنعين كبيرا"(٢) فمن بين سبعة ملايين شخص مؤهلين للتصويت امتنع ٦,٣ (٣) . وفي باريس بدأ التصويت في ٢ سبتمبر واستمر لعدة أيام، بينما كانت المذبحة عند بوابات السجون ترسل الإشارات وتعطى التلميحات للناس: كيف تصوتون وكيف تبقون على قيد الحياة . وفي كثير من المناطق أحجم الكاثوليك الأتقياء عن التصويت وانتخبت منطقة فيندي `Vendée المعروفة بانتمائها الملكي القوي تسعة نوّاب سيصوّت ستة منهم بالموافقة على إعدام الملك(٤) . وفي باريس اجتمعت الجمعية الانتخابية في نادي اليعاقبة وانتهوا إلى أن الأربعة والعشرين نائباً المختارين لتمثيل العاصمة لا بد أن يكونوا مقتنعين بالجمهورية وأن يكونوا مؤيدين للكومون :

دانتون Danton، وروبيسبير Robespierre ومارا Marat وديمولين Desmoulins وبلو- فارن Billaud- Varenne وكولو دربوا Collot d 'Herbois وفريرون Fréron وديفد (David الرسام) . . . وفي المحافظات قام الجيروند Girondins ببعض الاستعدادات الخاصة بهم، ومن ثم فإن بريسو Brissot ورولان Roland وكوندرسيه Condorcet وبيتيون Pétion.وجود Goudet وباربارو Barbaroux وبوزو Buzot ربحوا حق الخدمة والموت . ومن بين الأجانب الذين جرى انتخابهم بريستلي Priestley وكلوتز Cloots وبين Paine، وتم اختيار دوق أورليان Duc d'Orléans الذي أعاد تسمية نفسه باسم المواطن فيليب المحب للمساواة(*)

(*) ودخلت الصفة جزءاً من الاسم إذ تشير إليه بعض الكتب العربية باسم فيليب إيجاليتيه.(المترجم)

Citizen Philippe Egalité لتمثيل الحي (القسم) الراديكالي في باريس.

وكانوا جميعا - فيما عدا عضوين - من الطبقة الوسطى وعندما اجتمع المؤتمر الوطني في التوليرى في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ كان يضم ٧٥٠ عضواً، وكان هذان العضوان من العمّال، وكان الأعضاء كلهم تقريبا من المحامين، وكان الجيرونديون وعددهم ١٨٠ عضواً منظمين ومتعلمين وفصحاء وبلغاء هم الذين تولوا القيادة في مجال التشريع. وكان هناك استرخاء في إصدار القوانين ضد المشكوك في ولائهم والمهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) والقسس كما كان هناك تحرر من السيطرة على الاقتصاد، على أساس أنه لم يعد هناك خوف الآن من الغزو الأجنبي، لكن سرعان ما ظهرت الشكايات من الاستغلال والتلاعب بالأسعار. ولإسكات حركة ظهرت بين الراديكاليين بمصادرة الملكيات الكبيرة وتوزيعها على الشعب، أعلن الجيروندينون في اليوم الأول للمؤتمر احترام الملكية الخاصة. وهكذا هدأت الأمور فاتفق الجيروندينون مع أعضاء الجبل (اليسار) وأعضاء السهل (المعتدلون) على إعلان الجمهورية الفرنسية الأولى في ٢٢سبتمبر سنة ١٧٩٢ وفي اليوم نفسه أصدر المؤتمر الوطني مرسوما، بعد عام من الدراسة والضبط والتعديل بإبطال التقويم المسيحي (الميلادي) في فرنسا وممتلكاتها ليحل محلة تقويم ثوري تبدأ فيه السنة الأولى (من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ إلى ٢١ سبتمبر ١٩٧٣) ثم السنة الثانية فالثالثة وهكذا وأن تسمى الشهور على وفق الحالة المناخية المعتادة (النمطية) شهر قطف العنب (فيندميير Vendémiaire) وشهر الضباب برومير (Brumaire) وشهر الصقيع (فريمير Frimaire) بالنسبة للخريف، وشهر تساقط الثلج (نيفوز Nivose)، شهر المطر (بلوفيوز Pluviose)، شهر الرياح (فينتوز Ventose) بالنسبة للشتاء، وشهر التبرعم (جيرمينال Germinal) وشهر الإزهار (فلوريال Floréal) وشهر المروج الخضر (بريريال Prairial) بالنسبة للربيع، وشهر الحصاد (مسيدور Massidor) وشهر الدفء (ثيرميدور Thermidor) وشهر الفواكه (فركيتدور Fructidor) بالنسبة للصيف، وقد تم تقسيم الشهر إلى ثلاثة أقسام Décades كل قسم عشرة أيام وينتهي كل قسم بيوم يقال له ديكادي décadi هو يوم الراحة بدلا من يوم الأحد الذي كان يوم راحة في التقويم الميلادي، وخمسة الأيام الباقيات في السنة

تسمى(السانس كولوتيد Sans - Culottides) يكـون فيـهـا مـهرجـان وطني، وكـان المؤتمر الوطني يأمل أن يذكـر هذا التـقـويم الفـرنسـيين بالأرض والعـمل الذي يجـعلهـا مثـمـرة لا بالقديسين religious saints والمواسـم. فستحل الطبيعة محل الرّب God وتم استخدام هذا التقويم الجديد في ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٩٣ وانتهى استخدامه في نهاية سنة ١٨٠٥ للميلاد.

لقد وافق الجيرونديون وأعضاء الجبل (اليسار) على إقرار الملكية الخاصة وعلى الجمهورية وعلى الحرب على المسيحية، لكنهـم اختلفوا اختلافا شديدا جدا في قضايا أخرى مختلفة، فالجيرونديون شجبوا بشدة النفوذ الجغرافي لباريس، باعتباره غير متوازن مع بقية المحافظات، فأهل باريس بنوابهم وجماهيرهم يؤثرون بإجراءاتهم التي يتخذونها في كل فرنسا، وامتعض الجبليـون(*) (Montagnards من تأثيـر التـجـار وأصحـاب الملايين في تكديس الجيـرونديين لأصوات الناخبين. واستقال دانتون (الذي حصل في دائرته الانتخابية على ٦٣٨ صوتا من مجموع أصوات الناخبين وعددهم ٧٠٠) من منصبه كوزير للعدل ليقوم بمهمة التوحيد بين الجيرونديين وأهل الجبل (اليسار) في سياسة العمل على إقرار السلام مع بروسيا والنمسا لكـن الجيـرونديين لـم يكونوا يثـقـون به باعـتـباره معـبـود باريس الراديكالية وطالبـوا ببيـان بمصروفاته كوزير ولـم يقدم لهم تفسيرا يقنعهـم بالمبالغ التي أنفقها (كان دانتون من المؤمنين الكبار بجدوى الرشاوى) ولم يقدم لهـم أيضا تفسيرا يقنعهم بكيفية حصوله على الأموال التي مكنته من شراء ثلاثة منازل في باريس وضواحيها والعقارات الكبيرة في محافظة أوب Aube، فالذي لا ينكر أنه كان يعيش حياة مترفة، واتهـم مستجوبيه بالعقوق ووجه جهده للتوفيق والمصالحة في الداخل والخارج وضم جهوده إلى جهود روبيسبير.

ورغم أن روبيسبير كان هو الشخصية الثانية بعد دانتون من حيث الشعبية في أحياء (أقسام) باريس إلا أنه كان لا يزال حتى الآن شخصية ثانوية بين نواب المؤتمر الوطني، فعند التصويت على رياسة المؤتمر لم يحز إلا على ستة أصوات، بينما حصل رولان Roland على ٢٣٥ . وكان معظم النواب يعتبرونه متغطرسا غارقا في العموميات والتفاهات الافتراضية نهازاً للفرص يتحين الوقت المناسب بصبر ليستحوذ على سلطات إضافية، لكن ما تنطوي

(*) اليسار.(المترجم)

عليه اقتراحاته من وضوح واستقامة قد جعلت نفوذه يزداد – ببطء – شيئا فشيئاً، فقد نأى بنفسه عن التورط المباشر في الهجوم على التوليري وفي أحداث مذبحة سبتمبر، ومنذ البداية كان يدافع عن حق الانتخاب العام للذكور الراشدين كلهم رغم أنه من الناحية العملية، تغاضى عن مسألة إبعاد الملكيين والكاثوليك عن المشاركة في الاقتراع والإدلاء بأصواتهم ودافع عن الملكية الخاصة ولم يشجع دعوى مصادرة الممتلكات وتوزيعها، وعلى أية حال فقد اقترح ضريبة على المواريث وضرائب أخرى بالإضافة إلى إجراءات أخرى مهذبة لكنها فعالة لمعالجة التفاوت الشديد في الثروات[٥] .

وفي هذه الأثناء راح ينتظر الفرصة المناسبة وسمح لمنافسيه بإرهاق أنفسهم حماسة وتطرفا، وبدا مقتنعا أنه سيحكم يوما وتنبأ أنه سيقتل ذات يوم[٦]. "لقد كان يعرف – كما يعرف هؤلاء الرجال كلهم أنه يكاد يحمل ساعة بعد ساعة روحه في كفه"[٧].

لقد كان مارا - Maratوليس دانتون ولا روبيسبير – هو الذي ناصر البروليتاريا وناضل من أجلها، وقد غير مارا عنوان جريدته ليصبح "جريدة الجمهورية الفرنسية Journal de la République Française" . لقد بلغ الآن التاسعة والأربعين من عمره (كان عمره روبيسبير في الرابعة والثلاثين، وكان دانتون في الثالثة والثلاثين) ولم يبق له لينهي حياته سوى أقل من عام لكنه ملأ هذه الفترة بانشغاله بمعركة عنيدة وصلبة ضد الجيرونديين باعتبارهم أعداء للشعب وباعتبارهم ممثلين للبورجوازية التجارية الصاعدة التي ظهر أنها تعمل على استخدام الثورة سلاحاً سياسياً لصالح "المشروعات والنشاطات الاقتصادية الحرة" التي يتسم بها الاقتصاد الحر، وكان نقده الساخر وخطبه اللاذعة تتردد في باريس ومنها وتثير الأحياء (الأقسام) وتحرضها على التمرد وتشيع في المؤتمر الوطني روح العداوة العامة، وقد شجب الجيرونديون ما أسموه "بحكومة الثلاثة" ويقصدون دانتون وروبيسبير ومارا، لكن دانتون تبرأ منه وتنكر له، وتحاشاه روبيسبير فجلس مارا مع الجبليين (اليسار) لكنه كان عادة منفرداً وحيداً بلا أصدقاء. وفي ٢٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢ قرأ فيرجنيو Vergniaud وآخرون في المؤتمر الوطني وثيقة تفيد أن مارا Marat كان قد دعا إلى دكتاتورية وأنه كان قد تسبب في الإثارة التي أدت إلى المذبحة، وعندما هب مارا (نصير الشعب) للدفاع عن نفسه،

هوجم بغير هوادة بصيحات "اجلس!" فقال "يبدو أن هناك أعداء كثيرين لي في هذا المؤتمر" فصرخ الجيرونديون: "كلنا أعداؤك". وعمل مارا على تكرار طلبه بقيام دكتاتورية على النمط الروماني المحدود واعترف بتحريضه على العنف لكنه برأ دانتون وروبيسبير من أي مشاركة في خططه، واقترح واحد من النواب القبض عليه ومحاكمته بتهمة الخيانة لكن هذه الحركة لم تنجح، وأخذ مارا مسدسه من جيبه وصوبه إلى رأسه وأعلن: "إذا صدر مرسوم باتهامي فسأنثر مخي عند أقدام الشعب"(٨).

وكان موقف الجيرونديين الذين قادوا فرنسا في الحرب على الأعداء - قويا في هذه الشهور بسبب انتصارات جيش فرنسا وانتشار القوات الفرنسية والأفكار الثورية.

ففي ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩١ قاد الجنرال أني - بيير دي منتسكيو - فيز نزاك Anne - Pierre - Montesquieu - Fezensac قواته محققا فتحا سهلا لسافوى Savoy (كانت وقتها جزءاً من سردينيا) وذكر في تقرير له إلى المؤتمر الوطني أن "تقدم جيشي إنما هو نصر، فقد كان الناس في الريف والمدينة يخرجون لاستقبالنا وكان الناس في الأنحاء كلها يضعون الشارة الثلاثية ألوانها"(٩) وفي ٢٧ سبتمبر دخل قسم آخر من الجيش الفرنسي نيس Nice بلا مقاومة، وفي ٢٩ سبتمبر فيلفرانش Villefranche وفي ٢٧ نوفمبر تم إدماج سافوي Savoy في فرنسا بناء على طلب زعمائها السياسيين المحليين.

أما فتح بلاد الراين Rhineland فكان أمراً أكثر صعوبة. ففي ٢٥ سبتمبر قاد الجنرال آدم - فيليب دى كوستين Adam - Philippe de Custine المتطوعين التابعين له للاستيلاء على سبير Speyer وأخذ ثلاثة آلاف أسير وفي ٥ أكتوبر دخل فورمز Worms وفي ١٩ أكتوبر مينز Mainzوفي ٢١ أكتوبر فرانكفورت - آم - مين ، Frankfurt - am - Main.ولكسب بلجيكا (التابعة للنمسا) إلى صف الثورة حارب ديمورييه Dumouriez في جيمابز Jemappes (٦ نوفمبر) إحدى أكبر المعارك في الحرب، فقد تراجع النمساويون بعد مقاومة طويلة مخلفين وراءهم أربعة آلاف قتيل في ساحة المعركة، وسقطت بروكسل في ١٤ نوفمبر ولييج Liège في ٢٤ نوفمبر وأنتورب Antwerp في الثلاثين من الشهر نفسه، وفي هذه المدن كلها استقبل السكان الفرنسيين كمحررين. وقد تأخر ديمورييه في بلجيكا، وأثرى

نفسه بالتعامل مع المضاربين في تمويل الجيش بالمؤن، بدلا من إطاعة أوامر المؤتمر الوطني بالتحرك جنوبا وضم قواته إلى قوات كوستين Custine، وعندما أُنب على ذلك هدد بالاستقاله تمّ إرسال دانتون لاسترضائه فنجح في مهمته، لكن عندما تراجع ديموريه Dumouriez أمام العدو في ٥ أبريل سنة ١٧٩٣ عانى دانتون من الشعور بالذنب.

وقد تبنى المؤتمر الوطني اتجاهين سياسيين يكمل أحدهما الآخر بعد أن انتشى أعضاؤه بسبب هذه الانتصارات: الاتجاه الأول هو مد فرنسا إلى "حدودها الطبيعية" الراين والألب والبرنيس (البرانس) Pyrénées والبحار - والثاني هو مساعدة سكان الحدود بتقديم مساعدات عسكرية لهم ليتمكنوا من تحقيق الحرية الاقتصادية والسياسية. ومن هنا كان هذا المرسوم الجسور الصادر في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٢ .

"من هذه اللحظة تعلن الأمة الفرنسية سيادة الشعب [في المناطق المتعاونة كلها]، وقمع كل السلطات العسكرية والمدنية التي حكمتكم حتى الآن كلها، وإبطال كل الضرائب التي ينوء بها كاهلكم، وإلغاء العشور التي تتقاضاها الكنيسة وكذلك الرسوم الإقطاعية ... والغاء القنانة (رق الأرض).. وتعلن الأمة الفرنسية أيضا إبطال المؤسسات (التشكيلات) التي تضم النبلاء والإكليروس كلها، وإبطال الامتيازات كلها لتعارضها مع مبدأ المساواة.

انكم الآن منذ هذه اللحظة إخوة وأصدقاء، فالكل مواطنون متساوون في الحقوق ويمكن لأي منكم أن يتولى أمور الحكم وأن يقدم الخدمات وأن يدافع عن بلاده"[١٠].

وأدى هذا المرسوم "مرسوم الأخوة" إلى عدد من المشاكل للجمهورية الشابة. فعندما فرضت الضرائب على المناطق المفتوحة "أو المحررة بتعبير رجال الثورة" لدعم الاحتلال الفرنسي جأر الناس بالشكوى قائلين إن سيدا حل محل سيد آخر وإن ضريبة حلت محل أخرى. وعندما رأت الهيئة الكنسية في كل من بلجيكا وليج Liège وبلاد الراين Rhineland التي ألفت أن تسيطر على السلطات الحاكمة أو تشاركها - أنها مهددة في سلطانها وعقيدتها، مدت أيديها إلى ما وراء الحدود لمقاومة الثورة الفرنسية وتحطيمها إذا أمكن. وفي ١٦ نوفمبر ١٧٩٢ أصدر المؤتمر الوطني مرسوما بفتح نهر شيلدت Scheldt للملاحة كلها.

وكان الهدف من هذا القرار هو جذب تجار أنتورب Antwerp إلى قضية الثورة الفرنسية – طالما أن صلح وستفاليا (1648) Peace of Westphalia كان قد منع الملاحة في هذا النهر إلا للهولنديين، (لأنها سحبت منها هذا الامتياز) وفسر ملوك أوروبا إعلان المؤتمر الوطني (السابق إيراد مقتطفات منه) بأنه إعلان للحرب عليهم جميعا وعلى السادة الإقطاعيين، فبدأ تشكيل أو تحالف ضد فرنسا.

وقرر المؤتمر الوطني قراره (حتى لا يكون أمامه سبيل للتراجع) بمحاكمة لويس السادس عشر بتهمة الخيانة. فمنذ ١٠ أغسطس راح المسئولون في التمبل Temple يقدمون لمعظم أفراد الأسرة المالكة معاملة نصف إنسانية: للملك وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، والملكة كانت في السابعة والثلاثين من عمرها، وأخت الملك "مدام إليزابت" وكانت في الثامنة والعشرين، وابنة الملك (ماري تيريز Marie - Thérèse) (مدام رويال Madame Royale) وكانت في الرابعة عشرة، وابن الملك وولي العهد لويس – شارلز Dauphin Louis - Charles وكان في السابعة من عمره. وبذل الجيرونديون كل ما في وسعهم لتأجيل المحاكمة لأنهم كانوا يعلمون أن الأدلة ستؤدي بالضرورة إلى الإدانة وتنفيذ حكم الإعدام وهذا سيؤدي إلى تكثيف القوى الخارجية جهودها للهجوم على فرنسا، واتفق معهم دانتون في هذا الرأي لكن ظهر شخص آخر في المؤتمر الوطني، إنه لويس – أنطوان سان – جوست Louis - Antoine -Saint - Just، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وقد لفت نظر المؤتمر الوطني بدعوته لقتل الملك: "لويس قتل الشعب وحاقت به الهزيمة ... انه همجي (بربري) سجين حرب أجنبي. لقد رأيتم خططه وتصميماته الغادرة .. إنه هو القاتل في الباستيل وفي نانسي Nancy وساحة دي مارس Champ-de - Mars .. وفي التوليري. فأي عدو وأي أجنبي قد ألحق بكم الضرر أكثر منه؟"(١١) وكان من الممكن أن يتوقف هذا الهجوم بسبب الحكمة والتدبر، لكن حدث في ٢٠ نوفمبر أن تم اكتشاف صندوق حديدي في جدار الغرف الملكية في قصر التوليري فأحضره رولان Roland إلى المؤتمر الوطني ، وكان به دليل يؤكد بقوة تهمة الخيانة، لقد كان الصندوق يضم ٦٢٥ وثيقة سرية تفضح تعاملات الملك مع لافاييت Lafayette وميرابو Mirabeau وتاليران Talleyrand، وبرناف Barnave وعدد

من المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر قيام الثورة) والصحفيين المحافظين. كان من الواضح أن لويس رغم تأكيده ولاءه للدستور، يتآمر للقضاء على الثورة. وأصدر المؤتمر الوطني أوامره بكشف النقاب عن ميرابو، وحطم اليعاقبة تمثالا في ناديهم كانوا قد أقاموه إحياء لذكراه، وتم القبض على بارناف Barnave في جرينوبل Grenoble وهرب لافاييت إلى جيشه، أما تاليران فهرب كما يفعل دائماً. وفي ٢ ديسمبر ظهر بعض الوفود من أحياء (أقسام) باريس أمام المؤتمر الوطني وطالبوا بالتعجيل بمحاكمة الملك، وسرعان ما أرسل كومون باريس توصيات شديدة للغرض نفسه، وفي ٣ ديسمبر انضم روبيسبير للمطالبين بهذا الأمر. وحمل مارا Marat لواء المطالبة بأن يكون التصويت على المحاكمة علنا by voice &in public حتى يضع الجيرونديين المترددين تحت رحمة السانس كولوت (الذين لا يرتدون سراويل « بناطيل » قصيرة) في الممرات والشوارع.

وبدأت محاكمة الملك في ١١ ديسمبر سنة ١٧٩٢ أمام أعضاء المؤتمر الوطني جميعا. على وفق ما ذكره سيباستين ميرسييه Sébastien Mercier أحد النواب في المؤتمر الوطني فإن "خلفية الصالة تحولت إلى مقصورات وكأنها مسرح، حيث كانت النسوة يرتدين أكثر ملابسهن أناقة ورحن يلعقن المثلجات ويأكلن البرتقال ويشربن المسكرات المعطرة والمحلاة .... ويمكن للمرء أن يرى السعاة والحجاب ... يرافقون خليلة دوق أورليان"[١٢] وتم إطلاع الملك على الوثائق التي وجدت في الصندوق فأنكر توقيعه وأنكر أي علم له بالصندوق. وواجه الأسئلة بالتعلل بعدم التذكر ليعين لنفسه محامين، فعرض شريتين دى ماليشيرب Chrētien de Malesherbes الذي دافع عن الفلاسفة[*] Philosophies **والأنسيكلوبيدي (الموسوعي) في عهد لويس الخامس عشر ـ Louis XV الدفاع عن الملك، فوافق** لويس السادس عشر وهو حزين وقال له: "إن تضحيتك عظيمة لأنك تعرض حياتك للخطر ومع هذا فلن يمكنك إنقاذ حياتي"[١٣]. (وبالفعل فقد أعدم ماليشيرب بالمقصلة في أبريل سنة ١٧٩٤) وفي هذه الأثناء اقترح ممثلو القوى الأجنبية شراء بعض الأصوات لصالح الملك ووافق دانتون أن يكون وكيلا للمشترين لكن المبلغ المطلوب كان أكثر مما يريد أصحاب

(*) المقصود: المثقفون أو المفكرون. راجع مقدمة الترجمة العربية.

الجلالة استثماره[١٤] .

وفي ٢٦ ديسمبر قدم رومين سيز Romain de Sèze القضية للدفاع، وساق رومين الحجة بأن الدستور لم يعط لأعضاء المؤتمر الوطني الحق في محاكمة الملك، وأن للملك الحقوق الإنسانية للدفاع عن حياته، فقد كان واحدا من أكثر الرجال إنسانية وأرقهم حاشية ومن أكثر الحكام ليبرالية ممن تبوأوا عرش فرنسا . هل نسي نواب المؤتمر الوطني إصلاحاته العديدة؟ ألم يكن هو الذي بدأ الثورة بدعوته مجلس طبقات الأمة للانعقاد ودعوته الفرنسيين كلهم ليقولوا له عن الأخطاء الحادثة وعن رغباتهم؟

وأجاب المدعي العام بأن الملك قد تفاوض مع القوى الأجنبية للقضاء على الثورة، فلم نستثني وارث العرش إذا كان خائنا من إيقاع القصاص عليه؟ فطالما ظل على قيد الحياة ستحاك المؤامرات لإعادته إلى سلطانه كما كان قبل الثورة . فليكن عبرة للملوك كلهم حتى يرعووا ويتفكروا قبل أن يخونوا آمال شعوبهم.

وبدأ التصويت على جرم(إدانة) الملك في ١٥ يناير سنة ١٧٩٣ . فصوت ٦٨٣ - بمن فيهم ابن عم الملك فيليب دورليان Philipee d Orléans من بين ٧٤٩ نائبا على إدانة الملك[١٥] . وقد عارض روبيسبير ومارا وسان ـ جوست Saint - Just حركة طرح هذا القرار (الحكم) للتصديق أو دعوة الشعب الفرنسي للاقتراع عليه من خلال جمعيات القاعدة Primary assemblies، ولم يحظ هذا الاقتراح بالقبول فقد عارضه ٤٢٤ ولم يوافق عليه سوى ٢٨٧ ، لأن دعوة الشعب إلى مثل هذا الاقتراع تعني استفتاءهم على عودة الملكية، كما قال سان جوست . أما روبيسبير الذي طالما دافع عن الديمقراطية وحق الذكور جميعهم في الانتخاب فقد تردد الآن وقال إن "الفضيلة (وتعني الحماسة الجمهورية) كانت دائما في الأقلية على هذه الارض"[١٦] وعندما وضع السؤال التالي في صياغته الأخيرة في ١٦ يناير: "ما هو الحكم الذي سيتعرض له ملك فرنسا؟" فإن الفريقين دخلا في نزاع شهدته الشوارع حيث صاحت الجموع مطالبة بحكم الإعدام وهددوا حياة كل من يصوت لحكم أقل من الإعدام، حتى إن النواب الذين كانوا حتى الأمس يطالبون بعدم إعدامه أصبحوا خوفا على حيواتهم يصوتون لصالح الحكم عليه بالإعدام، وأذعن دانتون، وثبت بين Paine على

موقفه، أما فيليب دورليان الذي كان مستعدا للحاق بابن عمه فقد صوت لإقصائه (لإعدامه) أما مارا Maratفقد صوت لإعدامه في ظرف أربع وعشرين ساعة أما روبيسبير الذي كان دائما يعارض العقوبات الغليظة (الإعدام) فقد أصبح الآن يقدم الحجج ليبرهن على أن بقاء الملك حيا سيكون خطراً على الجمهورية [١٧]، أما كوندرسيه فطالب بإبطال العقوبات الغليظة (الإعدام) الآن وإلى الأبد، وحذر بريسو Brissot من أن الحكم بالإعدام سيؤدي إلى دخول ملوك أوروبا كلهم الحرب ضد فرنسا. وبعض النواب في المؤتمر الوطني أضافوا إلى تصويتهم شروحا (تعليقات) فقد قال باجانل Paganel : الموت! - إن الملك لا يصلح إلا له، أو لا فائدة منه إلا له "وقال ميلو Millaud اليوم إذا لم يكن الموت موجودا لوجب اختراعه". هكذا اقترح فولتير على الرب echoing voltaire on Godأما دوشاتل - Duchatel وكان قد مات - فكم كان يود أن ترد إليه الحياة ليصوت ضد قتل الملك أمام المحكمة ثم يموت مرة أخرى[١٨]. وكانت النتيجة النهائية هي موافقة ٣٦١ على موت الملك عاجلا، وصوت ٣٣٤ لتأجيل هذا الأمر.

وفي ٢٠ يناير قتل العضو السابق في فيلق حراسة الملك، لويس - ميشيل ليبليتيه دي سان فارجو Louis - Michel Lepeletier de Saint - Fargeau الذي كان قد صوت لصالح قتل الملك. وفي ٢١ يناير حملت عربة يحيط بها حرس مسلح، سارت على طول الشوارع التي حددها الحرس الوطني، لويس السادس عشر إلى ميدان الثورة (الآن ميدان الكونكورد Concorde أي ميدان الوفاق والوئام). وقبل أن تهوي عليه المقصلة حاول أن يتحدث إلى الجموع: "أيها الفرنسيون، إنني أموت بريئا .. إنني أقول ذلك وأنا على سقالة المقصلة وسأمثل قريبا أمام الرب. إنني أعذر أعدائي، وآمل أن فرنسا - " لكن عند هذه الكلمة أشار سانتير Santerre رئيس حرس باريس الوطني وقال: فلتدق الطبول " Tambours فدقت الطبول، وراحت الجماهير تنظر في صمت كئيب والنصل الثقيل يسقط، وراحوا يبكون حتى النخاع، وفي وقت لاحق قال واحد ممن حضروا هذا المشهد" في ذلك اليوم راح كل واحد يسير ببطء ولم يكن الواحد منا يجسر على النظر إلى الآخر"[١٩].

٢- الثورة الثانية : ١٧٩٣

لقد كان إعدام الملك نصراً بالنسبة للجبليين (اليسار) والكومون وسياسة الحرب، كما أنه وحد المشتركين في قتل الملك والمتسببين فيه فارتبطوا ارتباطاً مصيرياً بالثورة فقد يقع عليهم الاختيار للتضحية بهم عند إعادة عرش البوربون. وقد أدى هذا الحدث إلى انقسام الجيروندين وعزلتهم، فقد انشقوا عند التصويت وهم الآن يتحركون في باريس وهم في حالة خوف على حيواتهم وتطلعوا إلى المحافظات حيث السلام والنظام موجودان بشكل نسبي، واستقال رولان - Roland مريضا محبطا - من المجلس التنفيذي بعد يوم من إعدام الملك، والسلام الذي كان ممكنا بانشغال النمسا وبروسيا بتقسيم بولندا، غدا مستحيلا الآن بسبب غضب ملوك أوروبا لقطع رأس واحد من إخوانهم.

وفي انجلترا وجد وليم بت Willam Pitt رئيس الوزراء الذي كان يفكر في شن الحرب على فرنسا، أنه لم يعد هناك كبير أثر لأي معارضة برلمانية لسياسته، وصدم جماهير الإنجليز لأخبار إعدام الملك الفرنسي كما لو أن الملكية نفسها هي التي وضعت تحت المقصلة، كما لو أنهم هم أنفسهم (الإنجليز) ليسوا سلالة من نفذ الإعدام في شارلز الأول Charles I، وكان هدف بت Pitt الحقيقي - بطبيعة الحال - هو أن سيطرة فرنسا على أنتورب ستعطي لها - وهي عدوة بريطانيا القديمة - مفتاح الراين - Rhine وهو الطريق الرئيسي لتجارة بريطانيا مع وسط أوروبا. وأصبح هذا الخطر أكثر حدة عندما أعلن المؤتمر الوطني في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٢ ضم بلجيكا إلى فرنسا. والآن لقد فتح الطريق للسيطرة الفرنسية على هولندا وبلاد الراين Rhineland، فكل وادي الراين الخصب والمعمور بالسكان يمكن أن يغلق في وجه بريطانيا التي تعيش على تصدير منتجات صناعتها المنتشرة.

وفي ٢٤ يناير سنة ١٧٩٣ طرد بت Pitt السفير الفرنسي وفي أول فبراير أعلن المؤتمر الوطني الحرب على كل من إنجلترا وهولندا. وفي ٧ مارس انضمت إليهما أسبانيا وبدأ التحالف الأوربي الأول (المكون من بروسيا والنمسا وسردينيا وإنجلترا وهولندا وإسبانيا) المرحلة الثانية في العمل على كبح الثورة الفرنسية.

لقد توالت الكوارث بسرعة جعلت المؤتمر الوطني غير قادر على ملاحقتها، فالجيوش

الثورية قد خملت بعد انتصاراتها المبدئية وترك آلاف المتطوعين الخدمة بعد انقضاء الفترة المحددة وتناقص عدد الجنود في الجبهة الشرقية من ٤٠٠,٠٠٠ إلى ٢٢٥,٠٠٠، وحتى هؤلاء كانوا ذوي ثياب رثة طعامهم الكفاف بسبب عدم كفاءة الممولين (المتعاقدين لتمويل الجيش) وفسادهم وارتشائهم، هؤلاء الممولين الذين كان يحميهم دومورييه Dumouriez ويستغلهم.

وفي ٢٤ فبراير لجأ المؤتمر الوطني إلى التجنيد الإلزامي لإنشاء جيوش جديدة لكنه حابى الأثرياء بالسماح لهم بدفع البدلية لمن يقاتل عنهم (النص: شراء من يقوم مقامهم)، وانفجر التمرد على التجنيد الإلزامي في محافظات مختلفة، ففي الفنيدي Vendée كان السخط على التجنيد الإلزامي وارتفاع تكاليف المعيشة وندرة الطعام، بالإضافة للسخط على التشريع المضاد للكاثوليكية، كل أولئك تضافر معا ليسبب تمردا حقيقيا اتسع مداه حتى استلزم الأمر استدعاء جيش من الجبهة للسيطرة على الأمور. وفي ١٦ فبراير قاد دومورييه Dumouriez ٢٠,٠٠٠ جندي لغزو هولندا، فهاجمت قوة نمساوية بقيادة الأمير ساكس - كوبرج Saxe - Coburg الحامية التي تركها دومورييه في بلجيكا، وكان هجومه مفاجئا مما تسبب في إبادة الحامية الفرنسية، أما دومورييه نفسه فقد هزم في نيرفندن Neerwinden (١٨ مارس)، وفي ٥ أبريل انضم إلى النمساويين ومعه ألف رجل (تخلى عن الثورة لصالح أعدائها). وفي ذلك الشهر التقى مندوبون. من إنجلترا وبروسيا والنمسا لوضع الخطط لإخضاع فرنسا.

لقد هددت المصاعب الداخلية والنكسات الخارجية بانهيار الحكومة الفرنسية، فرغم مصادرة أملاك الكنسية وممتلكات المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) فإن الأسينات assignates (العملة التي أصدرتها حكومة الثورة) كادت تفقد قيمتها فجأة، إذ أصبحت لا تساوي سوى ٤٧٪ من قيمتها الاسمية في أبريل سنة ١٧٩٣ وفي غضون ثلاثة أشهر بعد ذلك تدنت قيمتها إلى ٣٣٪ (أي أصبحت لا تساوى سوى ٣٣٪ من القيمة المكتوبة عليها)[٢٠] واتسع مدى المقاومة للضرائب الجديدة حتى أصبحت تكاليف جمعها تكاد تساوي قيمتها.

وأدت القروض الجبرية (اقتراض الحكومة بتوجيه الأوامر لمن تقترض منهم)- كما في حدث في الفترة من ٢٠ - ٢٥ مايو ١٧٩٣ - إلى سلب البورجوازية الصاعدة، وعندما حاولت هذه الطبقة استخدام الجيرونديين لحماية مصالحهم في الحكومة، أدى هذا إلى تعميق الصراع بين الجيرونديين والجبليين (اليسار) في المؤتمر الوطني. واستطاع دانتون وروبيسبير ومارا نزع نادي اليعاقبة من سياساته البورجوازية الأصلية ليجعلوه أقرب إلى الأفكار الراديكالية. أما الكوميون الذي يقوده الآن بيير شومت Pierre Chaumette وجاك هيبرت Jacques Hébert فقد استخدم الجريدة الضارية (العنيفة) التي يمتلكها هذا الأخير (جاك) والتي تحمل اسم Père Duchesne لإثارة المدينة (باريس) ومحاصرة المؤتمر الوطني بوابل من المطالب والإلحاح على مصادرة الثروات، وراح مارا Marat يوما بعد يوم يشن الحرب ضد الجيرونديين باعتبارهم حماة للأثرياء. وفي فبراير سنة ١٧٩٣ قاد جاك رو Jacques Roux وجان فارلت Jean Varlet مجموعة من البروليتاريا (الذئاب المسعورة Enragés) لمهاجمة ارتفاع أسعار الخبز والإصرار على أن يقوم المؤتمر الوطني بتحديد أسعار كل ما هو ضروري للحياة. ولأن المؤتمر الوطني قد أزعجته عاصفة المشاكل فقد عهد بأعماله المنوطة به في عام ١٧٩٣ إلى لجان تتم الموافقة على قراراتها بأقل قدر من النقاش.

وتم تعيين معظم اللجان لتكون مخصصة لمجال معين من مجالات النشاط والإدارة: الزراعة، الصناعة، التجارة، المحاسبة، المالية، التعليم، الخدمة الاجتماعية، شؤون المستعمرات.

وعادة ما كانت كل لجنة تضم اختصاصيين في مجالها، وقد أدت هذه اللجان أعمالاً طيبة جداً، بل إنها وسط الأزمات التي بلغت ذروتها، أعدت دستورا جديدا وتركت تراثا تشريعيا بناء راق لنابليون فكون على هديه "المدونة القانونية النابليونية" Code Napoléon.

ولحماية الثورة من الوكالات الأجنبية (غير الفرنسية) والتخريب الداخلي والإزعاج السياسي عين المؤتمر الوطني في ١٠ مارس ١٧٩٣ لجنة الرقابة العامة(*) كوزارة وطنية

(*) Committee of General Security وقد ترجمتها بعض الكتب العربية ترجمة لا غبار عليها وهي (لجنة الضمان العام) وترجمتها أخرى (لجنة السلامة العامة) وهي أيضا ترجمة طيبة، وآثرنا ما يجده القارىء في المتن لقربه من اختصاصات اللجنة.

للبوليس ذات صلاحيات عملية مطلقة للقيام بزيارات مفاجئة للأماكن كلها بما فيها البيوت دون تحذير للقبض على أي شخص يشك في عدم ولائه أو في ارتكابه جريمة وقد تم إنشاء لجان أخرى للمراقبة في الكوميون وأحياء (أقسام) المدن .

وأنشأ المجلس الوطني أيضا في ١٠ مارس محكمة ثورية(*) لمحاكمة من يرسل إليها من المشكوك فيهم الذين سمح لهم بمحامين للدفاع عنهم لكن الحكم الذي يصدره المحلفون **Jurors** لا يمكن استئنافه أو إعادة النظر فيه . وفي ١٥ أبريل عين المؤتمر الوطني أنطوان - كوينتن فوكير - تينفيل Antoine -Quentin Fouquier - Tinville مدعياً عاماً رئيسياً أمام هذه المحكمة الثورية الآنف ذكرها وهو محام حقق شهرة بسبب إتقانه التحقيق ولعدم رحمته لكنه كفء، وإن كان لا يخلو من المشاعر الإنسانية بين الحين والآخر،[٢١] وعلى أية حال فإننا عرفناه من خلال رسم محفور يظهره بوجه كالصقر وأنف كالسيف . وبدأت هذه المحكمة الثورية جلساتها في ٦ أبريل في قصر العدل، وكلما سارت الحرب قدما،وزاد عدد المتهمين المقدمين للمحكمة زيادة يصعب على المحكمة السيطرة عليها، اختزلت إجراءاتها القانونية وراحت تصدر الحكم بالإدانة في القضايا كلها تقريبا التي أحالتها لجنة الأمن العام(**) Committee of Public Safety .

وهذه اللجنة الأخيرة (لجنة الأمن العام Comite´ de Salut Public) أنشئت في ٦ أبريل سنة ١٧٩٣ لتحل محل المجلس التنفيذي Executive Council وأصبحت هي ذراع الدولة الفعال (الرئيسي) . لقد كانت مجلس حرب . إنه لا يجب النظر إليها كحكومة مدنية تعترف بالقيود الدستورية (المقصود تمتنع عما يمنعه الدستور) وإنما كجهاز مخول تشريعيا بقيادة أمه تحارب من أجل وجودها، وبالتالي توجيه الأوامر لها . ولم تكن لسلطاته حدود إلا بمسئولياته أمام المؤتمر الوطني، ولا بد من تقديم قراراته لهذا المؤتمر الوطني الذي أحالها كلها تقريبا إلى مراسيم ملزمة . لقد كانت هذه اللجنة تدير السياسة الخارجية وتتحكم في

(*) Revolutionary Tribunal، وكلمة Tribunal لا تعني محكمة بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنها ذات أبعاد غامضة، فليكن إذن معناها تشكيلا قريب الشبه من المحكمة، وما ذكرناه في المتن تجاوز لتقريب المعنى وتمشيا مع الصياغات العربية التي كتبت في الموضوع.(المترجم)

(**) وهي غير لجنة الرقابة العامة / أو الضمان العام Committee of General Security الآنف ذكرها (المترجم).

الجيوش وجنرالاتها وفي الموظفين المدنيين ولجان الفنون والدين، والخدمات السرية للدولة، وكان يمكنها أن توجه الرسائل الخاصة (للأفراد والهيئات) والعامة (للجماهير)، وكانت ذات ميزانيات سرية ومن خلال "ممثليها المبعوثين" أو المرسلين في مهام كانت تتحكم في الموت والحياة في المحافظات وكانت تجتمع في حدائق (قسم النباتات) في التوليري (بافيلون دي فلور Pavillon de Flore) بين القصر (التوليري) والسين Seine وكان أعضاؤها يجتمعون حول منضدة اجتماعات مغطاة بقماش أخضر، أصبحت - أي هذه المنضدة - لمدة عام مجلساً للحكومة الفرنسية.

وكان يجلس في صدر اللجنة حتى ١٠ يوليو دانتون الذي تم اختياره للمرة الثانية ليقود الأمة وهي في حالة خطر، وبدأ دانتون على الفور بحث زملائه في اللجنة - وبالتالي المجلس الوطني - على ضرورة أن تتراجع الحكومة علناً عن عزمها التدخل في الشئون الداخلية لأي أمة أخرى[٢٢]. وأرسل المؤتمر الوطني بسبب حث دانتون ورغم اعتراضات روبيسبير مبعوثها لجس النبض طلبا للسلام لكل دولة من الدول التي شكلت تحالفا ضدها. وحث دوقبرونسفيك Duke of Brunswick لإيقاف تقدمه، ونجح في ترتيب حلف مع السويد[٢٣]. وحاول مرة أخرى التوفيق بين الجبليين (اليسار) والجيرونديين لكن الخلافات بينهما كانت عميقة جداً.

وكشف مارا Marat هجومه على الجيرويدنيين حتى إنهم في ثورة غضبهم استصدروا في ١٤ أبريل سنة ١٧٩٣ مرسوما من المؤتمر الوطني بإحالته إلى المحكمة الثورية لدفاعه عن القتل ودعوته إلى الدكتاتورية. وعند محاكمته تجمع عدد كبير من السانس كولوت (الذين لا يرتدون سراويل قصيرة أي الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة) في قصر العدل والشوارع المفضية إليه يطالبون "بالانتقام من أي حماقة ترتكب ضد حاميهم الأثير لديهم"، وعندما خاف المحلفون أطلقوا سراحه فحمله أتباعه في موكب نصر على أكتافهم إلى المؤتمر الوطني وهناك هدد بالانتقام من متهميه، ومن هناك حملته الجماهير المبتهجة إلى نادي اليعاقبة وهناك جعلوه على مقعد الرياسة[٢٤]. وواصل مارا معركته فطالب بطرد الجيرونديين من المجلس الوطني باعتبارهم خونة الثورة البورجوازيين Bourgeois betrayers of the revolution

وحقق مارا Maratمكسبا خطيرا عندما أصدر المؤتمر الوطني - رغم اعتراض الجيرونديين وتحذيرهم - مرسوما بوضع حد أقصى لأسعار الحبوب في كل مرحلة من مراحل انتقالها من المنتج إلى المستهلك وأمر الجهات الحكومية بأن يصادروا من الزراع الإنتاج كله اللازم لمواجهة الاحتياجات(٢٥).

وفي ٢٩ سبتمبر امتدت هذه الإجراءات لتحديد أسعار البضائع الأساسية كلها، فدخلت تحت سياسة "تحديد سقف أعلى للأسعار"(٢٦) لقد برزت الآن الحرب الداخلية بين المنتج والمستهلك، فثار الفلاحون على مصادرة محاصيلهم(٢٧) وقل الإنتاج للشعور بأن القوانين الجديدة عاقت الدوافع للربح واتسعت السوق السوداء، عارضة بأسعار عالية البضائع للقادر على الدفع، والأسواق التي نفذت قوانين تحديد الأسعار خلت من الحبوب والخبز، ومرة أخرى سارت مظاهرات الجياع خلال شوارع المدينة.

وفزع الجيرنديون إلى ناخبيهم من الطبقة الوسطى في المحافظات لإنقاذهم من استبداد الجماهير، بعد أن امتعضوا بشدة ومرارة من الضغط الذي تمارسه الطبقات الدنيا في باريس على المجلس الوطني. وكتب فرجنيو Vergniaud إلى ناخبيه في بوردو Bordeaux في ٤ مايو سنة ١٧٩٣: "إنني أدعوكم إلى منبر الدفاع عن حقوق الشعب لتدافعوا عنا إن كان هناك وقت باق للثأر للحرية، بإبادة الطغاة"(٢٨) وكتب باربارو Barbaroux على النحو نفسه إلى مؤيديه في مرسيليا، وفيها - أي في مرسيليا- كما في ليون Lyon: تحالفت الأقلية البورجوازية مع النبلاء السابقين لطرد رئيسي البلدية الراديكاليين في كلتيها.

وفي ١٨ مايو حث النواب الجيرونديون المؤتمر الوطني لتعيين لجنة للتفتيش على علميات كومون باريس وأحيائه (أقسام باريس) لكشف المخالفات القانونية. وكان أعضاء هذه اللجنة كلهم من الجيرونديين. وفي ٢٤ مايو أمر المؤتمر الوطني بالقبض على هيبير Hébert وفارلت Varletباعتبارهما محرضين (مثيرين للفتنة)، وطالب الكومون والستة عشر قسما التابعة له - في الوقت نفسه - بالإفراج عنهما، لكن المؤتمر الوطني رفض. وحرض روبيسبير في نادي اليعاقبة في ٢٦ مايو المواطنين على الثورة: "عندما تظلم الجماهير، وعندما لا يكون لها ملجأ إلا إلى نفسها، فمن الجبن حقا ألا ندعوها إلى الثورة. فعندما تنتهك

القوانين كلها وعندما يبلغ الاستبداد ذروته، وعندما تداس العقيدة الطيبة واللياقة فلا بد أن يقوم الشعب بحركة مقاومة شعبية. لقد آن الأوان لذلك"(٢٩) وفي ٢٧ مايو طالب مارا Marat في المؤتمر الوطني بقمع اللجنة (لجنة الجيرونديين الآنف ذكرها) "لأنها معادية للحرية ولأنها تميل إلى الحث على معارضة الشعب ومقاومته، وهذا التهديد مصلت فوق الرأس قريب الحدوث بسبب الإهمال الذي وقعتم فيه بالسماح بارتفاع أسعار البضائع ارتفاعا فظيعاً". وفي تلك الليلة مهد الجبليون (اليسار) الطريق لاتخاذ إجراء بإلغاء اللجنة (لجنة الجيرونديين الآنف ذكرها) وجرى التصويت الذي كانت نتيجته هذا الإلغاء، بأغلبية ٢٧٩ ضد ٢٣٨ . وفي ٣٠ مايو انضم دانتون إلى روبيسبير ومارا للدعوة إلى "نشاط ثوري أو هبة ثورية Revolutionay Vigor".

وفي ٣١ مايو قرعت الأحياء أجراس التنبيه للخطر ليهب المواطنون – عند سماعها، وتجمعت الجماهير عند دار البلدية Hôtel de ville(*) وكونوا مجلس مقاومة، وضمنوا دعم حرس باريس الوطني بقيادة قائده الراديكالي هانريوت **Henriot**، ودخل هذا المجلس الجديد – يحميه هانريوت بحرسه والجماهير المتزايدة العدد – إلى صالة المؤتمر الوطني وطالب بمثول الجيرونديين ليحاكموا أمام محكمة الثورة، وتحديد سعر الخبز عند ثلاثة جنيهات في أنحاء فرنسا كلها، وأي عجز ينتج عن ذلك يعالج بفرض ضريبة على الأثرياء، وأن يكون حق الانتخاب مقتصرا مؤقتا على السانس كولوت(٣٠) (الذين لا يرتدون سراويل «بناطيل» قصيرة – الطبقة الثالثة)، وأقر المؤتمر الوطني الاعتراض الثاني فقط لهذه اللجنة البغيضة، وتراجعت الفصائل المسلحة لحلول الليل.

وعاد مجلس المقاومة الآنف ذكره إلى المؤتمر الوطني في أول يوليو مطالبا بالقبض على رولان **Roland** الذي اتهمه السانس كولوت (الطبقة الدنيا) بارتباط مصالحه بالمصالح البورجوازية. وفر رولان هاربا إلى الجنوب حيث لاقى ترحيباً. أما زوجته مدام رولان فقد تأخرت ولم تلحق به لأنها خططت للدفاع عنه أمام المؤتمر الوطني لكن قبض عليها وأودعت في سجن أباى Abbaye (الكلمة تعني، الدير لأن هذا السجن كان في أصله ديرا) ولم يتح

(*) انظر مقدمة الترجمة العربية عن المقابل الصحيح لهذا التركيب Hôtel de Ville (المترجم)

لهـا أن ترى زوجـهـا بعـد ذلك أبدا، وفي ٢ يونيـه احـتـشـد ثمـانون ألف رجل وامـرأة – كـان كثـيـرون منهـم مـسلحين – حـول مـقـر المؤتمر الوطني، ووجـه الحـرس مـدفـعـه للمـبنى، وأخـبـر مـجلس المقاومة الآنف ذكره نواب المؤتمر الوطني أن أحداً منهم لن يسمح له بالخروج حتى تتم الاسـتـجابة لطلبـات المجلس (مـجلس المقاومـة) كلهـا. وذكـر مـارا Marat بصـوت عـال أسـمـاء الجـيـرونديين الذين يوصي بالقـبض عليـهم، وكـان مارا قد سيطر على المنصـة (المنبـر) التي يتـحـدث مـتـحـدثـو المؤتمر من فـوقـهـا ودبر بعض نواب المؤتمر أمـر تملصـهـم من الحـرس والجـماهيـر وهربوا إلى المحافظات، وجرى القبض على اثنين وعشرين وفرضت عليهم الإقامة الجبـرية في منازلهـم بباريس. ومنذ هذا اليوم وحتى ٢٦ يوليو أصبح المؤتمر الوطني خادماً مطيـعـا للجبليين (اليـسـار) ولجنة الأمن العـام وجـمـاهيـر باريس. لقـد هزمت الثـورة الثـانيـة البورجوازية وأسست مؤقتا دكتاتورية البرولتياريا.

وأعطى المنتصرون للنظام الجديد شكلا بتكليف كل من هيرول دى سيشل Hérault de Sechellesوسان –جوستSaint - Just بصياغة الدستور الجديد الذي كان قد صدر في ١١ أكتوبر ١٧٩٢ . وقد أعاد حق الانتخاب للذكور البالغين كلهم وأضاف حق كل مواطن في مورد رزق، والتعليم والمقاومة، وقصر حقوق الملكية بحيث لا تتعارض مع المصلحة العامة، وأعلن حـرية العـبـادة واعـتـرف بكرم ولطف بوجـود الله (سـبـحـانه) a Supreme being كموجود أسمى وأعلن الأخلاق كأمرٍ لازم للمجتمع، وقد أطلق كارليل Carlyleالذي لم يكن يستطيع أن يهضم (يستسيغ) الديمقراطية هـذا بأنه " أكثر الدساتير– التي حبرت على الورق – ديمقـراطيـة[٣١] وقـبله المؤتمر الوطني (في ٤ يونيـة سنة ١٧٩٣) وأقـره ربع الناخبين ١,٨٠١,٩١٨ واعترض عليه ١١,٦١٠ وظل دستور ١٧٩٣ على الورق فقط لأنه في ١٠ يوليـو جـدد المؤتمر الوطني للجنة الأمن العـام Committee of Public Safety صلاحياتها كسلطة حاكمة فوق الدستور حتى يعود السلام.

٣- مصرع مارا: ١٣ يوليو ١٧٩٣:

ولجأ ثلاثة من الجيرونديين هم بتيون Pétion وباربارو Barbaroux وبوزو Buzot إلى كان Caen حيث وجدوا الحماية، وكانت هي الحصن الشمالي "للفدراليين Federalist" الذين يعارضون هيمنة أهل باريس على الحكومة الوطنية. وراحوا يلقون الخطب ليشجبوا السانس كولوت (ذوي السراويل «البناطيل» الطوال) والمتحدثين باسمهم خاصة مارا Marat ونظموا مظاهرات عسكرية للاعتراض ونظموا جيشا للتقدم صوب العاصمة.

وكانت شارلوت كورداي Charlotte Corday من بين أكثر المستمعين إليهم حماسة وتعاطفا، وهي تنحدر من سلالة المسرحي بيير كورنيل Pierre Corneille سليلة أسرة مؤيدة للنظام الملكي بشدة، وكانت أسرتها قد أصابها الفقر فتعلمت شارلوت في دير للراهبات وخدمت مدة عامين كراهبة وأتاحت لها الظروف قراءة بلوتارخ Plutarch وروسو Rousseau بل وحتى فولتير Voltaire، وقد تركت إيمانها (تشككت في المسيحية) وفتنت بأبطال روما القديمة. وقد صدمت عندما سمعت بقتل الملك الفرنسي (لويس السادس عشر) وكانت ممتعضة بسبب ما أثاره مارا Marat من سخط على الجيرونديين. وفي ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٣ زارت باربارو Barbaroux وكان وقتها في السادسة والعشرين وكان وسيما جدا حتى أن مدام رولان Mme - Roland شبهته بأنطونيوس محبوب الإمبراطور هدريان. وكانت شارلوت تقترب من الخامسة والعشرين، وكان عقلها مشغولا بأمور أخرى بالإضافة إلى الحب، وكل ما طلبته هو خطاب تعريف لنائب في المؤتمر الوطني ليرتب لها لقاء مع المؤتمر، فكتب لها باربارو خطاب تقديم إلى لوز دوبرى Lauze Duperret، وفي ٩ يوليو استقلت مركبة عمومية إلى باريس فوصلتها في ١١ يوليو واشترت سكين مطبخ يبلغ طول نصلها ست بوصات، ودبرت أن تدخل قاعة اجتماع المؤتمر الوطني وتقتل مارا Marat على مقعده لكنها علمت أن مارا مريض ومقيم في منزله، فحصلت على عنوانه وذهبت إليه لكن لم يسمح لها بالدخول إذ قيل لها "السيد في الحمام" فعادت إلى محل إقامتها.

لقد كان الحمام الآن هو "المكتب الأثير" لدى مارا Marat، فقد تفاقم مرضه الذي يظهر أنه كان نوعا من الدرن الجلدي (السلية الجلدية) أو الاسكروفولا Scrofula وكان يجد

راحة من آلامه بالجلوس مغمورا في الماء الدافىء حتى وسطه، وكانوا يضيفون له في هذا الماء المواد المعدنية والأدوية، وكان يضع قطعة قماش للتجفيف (منديلاً) فوق كتفيه، ويلف حول رأسه منديلا كبيرا مبللاً بالخل، وكان يحتفظ بالأوراق والقلم والمحبرة فوق متسع على حافة الحوض، وكان يكتب يوما بعد يوم المادة المطلوبة لصحيفته على هذه الحافة وهو في هذا الحوض(٣٢). وكانت أخته ألبرتين Albertine تتولى العناية به، ومنذ سنة ١٧٩٠ أصبح موضع رعاية من خادمته سيمون إيفارد Simone Evard التي تزوجها زواجا غير موثق كنسيا (لم يعقد أمام الإكليروس) وانما "أمام الله Supreme being أو الموجود الاسمي، .... في معبد الطبيعة الواسع"(٣٣).

وأرسلت شارلوت Charlotte من مقر إقامتها طلباً لمقابلته: "لقد قدمت من كان Caen، إن حبك لأمتك يجب أن يجعلك متنبها للمؤمرات التي تحاك هناك. إنني في انتظار إجابتك"(٣٤). ولم تطق شارلوت صبرا حتى تتلقى الإجابة، ففي مساء ١٣ يوليو طرقت باب داره مرة أخرى، فلم يسمح لها بالدخول ولكن مارا Marat سمع صوتها فطلب السماح لها بالدخول واستقبلها بترحيب وأمر لها بمقعد فجلست فقربت مقعدها منه، فسألها: "ماذا يجرى في كاين Caen؟" (أو هكذا روت شارلوت فيما بعد هذا الحوار الغريب) فأجابت: "ثمانية عشر نائبا من المجلس الوطني يحكمون هناك بالتآمر مع مسؤولي المحافظة" فسألها: ما أسماؤهم، "فذكرتها له، فكتبها، ,وأصدر حكمه التالى: ستجز المقصلة رقابهم" وعندئذ سحبت شارلوت سكينها وطعنته في صدره بكل قوتها حتى أن نصل السكين اخترق الأورطي aortaوتفجر الدم أثر الطعنة، فصرخ مناديا سيمون Simonne " أسرعي إليّ.. أسرعي إليّ يا صديقتي العزيزة" فأقبلت سيمون فمات بين ذراعيها، واندفعت شارلوت خارجة من الحجرة فاعترضها رجل وكف مقاومتها مستخدما كرسيا، وتم استدعاء البوليس فقبض عليها، فقالت: "لقد أديت واجبي فلندعهم – أي رجال الشرطة – يؤدون واجبهم"(٣٥).

ولا بد أن مارا Marat كان يتمتع ببعض الصفات الطيبة فقد اجتمعت على حبه امرأتان تنافستا في ذلك ونذرت أخته نفسها فيما تبقى من عمرها لتوقير ذكراه.

وكان مارا في وقت من الأوقات طبيبا ناجحا، ولم يترك عند مماته شيئا سوى بعض المخطوطات العلمية وخمسة وعشرين سو[٣٦] Sous وكان مارا Marat متعصبا لكنه أخلص للجماهير الذين نسيتهم الطبيعة والتاريخ، واحتفظ نادي الكوردلير (نسبة إلى مقرهم في دير فرنسسكاني) بقلبه كأثر مقدس (ذي طابع ديني كرفات القديسين)، وأقبل الآلاف لإلقاء نظرة عليه "بتوقير صامت وقد كتموا أنفاسهم"[٣٧] وفي ١٦ يوليو تبع جثمانه أعضاء المجلس الوطني المتبقون كلهم وخلق كثير من رجال ونساء أتوا من الأحياء (الأقسام) الثورية، إلى مثواه في بساتين الكوردلير (نسبة إلى دير فرنسسكاني جعلوه مقراً لهم) ونصب تمثاله الذي نحته دافيد David في قاعة المؤتمر الوطني وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانثيون Panthéon (مدفن العظماء).

وكانت محاكمة شارلوت قصيرة فقد اعترفت بفعلتها لكنها لم تعترف بأنها مذنبة، فقد قالت إنها لم تفعل سوى الانتقام لضحايا مذبحة سبتمبر، وقالت لقد قتلت "رجلا لأنقذ مائة ألف رجل"[٣٨] وكتبت في خطاب إلى باربارو Barbaroux بصراحة قائلة "إن الغاية تبرر الوسيلة"[٣٩] وبعد ساعات قليلة من اعترافها تم إعدامها في ميدان الثورة، وواجهت بزهو لعنات الجماهير التي حضرت تنفيذ الحكم فيها ورفضت عرض أحد القسس تلقينها العبارات التي يقولها الكاثوليكي عند الموت ورفضت قيامه بطقوس دينية قبل إعدامها[٤٠].

لقد ماتت شارلوت قبل أن تتحقق من أن فعلتها (قتل مارا) فيها هلاك الجيرونديين الذين كانت تظن أنها تخدمهم بفعلتها هذه. وقال فيرنيو Vergniaud للجيرونديين مسامحاً إياها ومدركاً لأبعاد فعلتها: "لقد قتلتنا، لكنها علمتنا كيف نموت"[٤١].

٤- اللجنة الكبرى(*) : ١٧٩٣ :

احتفظ المؤتمر الوطني لنفسه بحق المراجعة الشهرية لعضوية لجنة الأمن العام، وفي ١٠ يوليو كانت سياسة السلام التي تبنتها اللجنة وكذلك سياستها الخارجية والداخلية قد فشلت، فأزاح المؤتمر دانتون، وفي ٢٥ يوليو انتخبه المؤتمر رئيساً له لدورة عادية لمدة

(*) "The Great Committee" المقصود لجنة الأمن العام على أيام روبيسبير.

أسبوعين(وربما كان هذا كي يظهر المؤتمر استمرار تقديره له)، وماتت زوجة دانتون في فبراير وتركت له طفلين، وفي ١٧ يونية تزوج من فتاة في السادسة عشرة، وفي ١٠ يوليو استقر في بيته كزوج مرة أخرى.

وفي ٢٧ يوليو تم تعيين روبيسبير في لجنة الأمن العام ولم يهتم دانتون به وقال: "هذا الرجل ليس لديه من الدهاء ما يكفي لسلق بيضة"(٤٢) ومع هذا ففي أول أغسطس حث المؤتمر الوطني على تخويل لجنة الأمن العام صلاحيات وسلطات كاملة. وربما اعتذاراً منه عن هذه المشورة، ذكر لديمولان Desmoulins وهما يراقبان غروب الشمس على نهر السين، وكانت أشعة الشمس الغاربة قد جعلت مياهه حمراء قانية: "إن النهر يجرى دما". وفي سبتمبر اقترح المؤتمر الوطني عليه العودة إلى لجنة الأمن العام لكنه رفض(٤٣) وغادر باريس في ١٢ أكتوبر مرهقا مريضا ونشد الراحة في البيت الذي كان قد اشتراه في موطنه الأصلي أرسي – سير أوب Arcis - Sur - Aube في وادي ميرن Marne، وعندما عاد إلى باريس في ٢١ نوفمبر كان السين يجرى دما بالفعل.

وخلال الصيف أخذت "اللجنة الكبرى" كما أصبحت تسمى شكلها التاريخي. إنها الآن تتكون من اثنى عشر رجلاً كلهم من الطبقة الوسطى وكلهم نالوا قسطا طيبا من التعليم، وكلهم ذوو دخول جيدة وكلهم يعرفون الفلاسفة Philosophes(*) وروسو Rousseau، لقد كان ثمانية منهم محامين واثنان مهندسين، ولم يكن منهم من اشتغل بيديه سوى كولوت دربوا Collot d'Herbois إن دكتاتورية البرولتياريا إذن ليست على الإطلاق برولتيارية، ولنراجع السجلات:

١– برتران بارير Bertrand Barère، في الثامنة والثلاثين، أوكل إليه بالإضافة إلى واجباته المختلفة مهمة الحضور أمام المؤتمر الوطني والدفاع عن القرارات التي تصل إليها اللجنة (لجنة الأمن العام) والعمل على صدور مراسيم بشأنها. كان ودودا مقنعا، فقد كان يصوغ الإحصاءات شعرا ويزف أحكام الموت ببلاغة ولم يكن له أعداء كثيرون على قيد الحياة وكان يتلون بلون السياسة القائمة وعاش حتى سن السادسة والثمانين، وهي فترة طويلة

(*) رجال الفكر عامة – راجع مقدمة الترجمة العربية. (المترجم)

ليتعلم منها أن الحكومات تموت وكذلك الأفكار.

٢- جان - نيكولاس - بيلو - فارين Jean -Nicolas Billaud Varenne، في السابعة والثلاثين قدم البراهين على أن الكنسية الكاثوليكية هي أخطر أعداء الثورة على الإطلاق ولا بد من تدميرها. وقد احتفظ بصلاته مع أحياء باريس والكومون في تناغم تام، واتبع سياسات تتسم بالعناد والإلحاح مما جعل رفاقه في اللجنة (لجنة الأمن العام) يخافونه، وحمل مسئولية مراسلة المحافظات ورأس الجهاز الإداري الجديد، وكان في وقت من الأوقات "أقوى أعضاء اللجنة"(٤٤).

٣- لازار كارنو Lazare Carnot، في الأربعين من عمره كان معروفا كعالم رياضيات ومهندس عسكري، أخذ على عاتقه الجيوش الفرنسية ورسم خرائط المعارك، وعلم الجنرالات ودربهم وكسب احتراما عاما لمقدرته واستقامته وهو الوحيد من بين أعضاء هذه اللجنة الذي لا يزال اسمه يحظى بالتكريم والتشريف في فرنسا كلها حتى اليوم.

٤- جان - مارى كولو دربوا Jean- Marie Collot d'Herbois، في الثالثة والأربعين، كان ممثلاً سابقا، وقد عانى من موقف الثورة التي كانت تعتبر المهن المسرحية لا تعطيه الأهلية الشرعية للترقي في مدارجها. ولم ينس أبدا أن البورجوازيين كانوا يغلقون أبوابهم في وجهه وأن الكنيسة قد أصدرت قرار الحرمان ضده بسبب مهنته، وكان أقسى أعضاء اللجنة الاثني عشر في التعامل مع أرستقراطية التجار aristocracy of merchants واقترح ذات مرة - كإجراء اقتصادي - نسف سجون باريس - المزدحمة بالمشكوك فيهم والمحتكرين والمتربحين - بالألغام (بمن فيها)(٤٥).

٥- جورج كوتو GeorgesCouthon، في الثامنة والثلاثين، أقعده التهاب السحايا فكان لا بد من حمله على مقعد أينما ذهب، وكان قد أفرط في الممارسات الجنسية في شبابه فأدى هذا إلى إصابته بالعلل لكن زوجته كانت تحبه، وكان طيب القلب حديدي الإرادة عرف عنه إدارته الإنسانية للمحافظات المحورية في أثناء عهد الإرهاب.

٦ - جان ـ ماري هيرول دى سيشل Jean-Marie Hérault de Séchelles، في الرابعة والثلاثين وكان يبدو في غير موضعه ودرجته بين هؤلاء الاثني عشر (لجنة الاثني عشر أي لجنة

الأمـن العـام التي نحـن بصـددها الآن) فـقـد كـان أحـد نـبلاء « الأرواب » (نـبـيل بحكـم المنصب الذي شغله) ومحامياً ثرياً، كان مرموقا لأناقته وسلوكه المهذب وعقله ذي النزعة الفـولتـيـرية (كـان مـتـأثرا بفكر فـولتـيـر) . وعنـدما شعـر بالمد الثـوري يزداد انضم مع الذين هاجـمـوا البـاسـتـيل وكـتب مـعظم دسـتـور سنة ١٧٩٣ وعـمل منفـذاً لسـيـاسـات اللجنة في الألزاس فنفذها بصرامة، وعاش حياة مريحة مع خليلة نبيلة حتى قصت المقصلة رقبته في ٥ أبريل سنة ١٧٩٤ .

٧- روبرت لند Robert Lindet، في السابعة والأربعين تولى أمر إنتاج الطعام وتوزيعه في ظل سياسة التوجيه الاقتصادي المتزايدة، وحاز إعجابا لجهوده في إطعام الجيوش الفرنسية وتقديم الكساء لها.

٨- كلود - أنطوان بريير - دوفيـرنوا Claude Antoine Prieur - Duvernois، كـان يسـمى بريير ساحل الذهب the Côte d'or، عـمـره ثلاثون سنة بذل جهـودا مميزة - مثل روبرت لند - في تزويد الجيوش بالأغذية وغيرها من المواد اللازمة.

٩- بيير - لويس Pierre - Louis المعروف ببيير المارن The Marne (الكلمة في المعاجم الفـرنسـيـة العـربيـة تعني المَرِن أو السـجـيل أي خليط من جـملة مـواد)، كـان في السـابعـة والعشرين من عمره، بذل كل جهده في محاولة كسب الكاثوليك والملكيين في محافظة بريتاني Brittany إلى جانب الثورة.

١٠- أندريه جـانبـون سـان أندريه - . André Jeanbon Saint - Andre في الرابعـة والأربعين. من ذرية بروتسـتانتـية ولكنه تلقى تعليـما يسـوعيا (جـزويتيـا) . أصبح قـائدا (قبطانا) لسفينة تجارية ثم كاهنا بروتـستانتيا وتولى مسئولية الأسطول الفرنسي في بريست Brest وخاض به معركة مع الأسطول البريطاني.

١١-لويس - أنطوان سـان - جـوست - Louis - Antoine Saint - Just، في السـادسـة والعـشرين. وكـان أكثر أعضاء اللجنة The Twelve شبابا وغرابة، فهو الابن الإرهابي لعصر الإرهاب، إذ كـان شـديد الإيمان بالثورة إيمانا ثوريا انفعاليا غلابا لا يقهـر. ربتـه في بيكـاردي Picardy أم مطلقـة فكان مـدللا مطلقاً العنان لرغبـاته فرفض أي حكـم أو ضـوابط وهرب إلى

باريس وأخذ معه فضة أمه وأنفقها على العاهرات[٤٦] وقبض عليه وأودع السجن ودرس القانون وكتب قصيدة جنسية من عشرين قسما(مكونة من عشرين مقطوعة) وكان مولعاً باغتصاب النساء خاصة الراهبات منهن ، وكان يمجد اللهو واللذة باعتبارهما حقا مقدسا[٤٧] . وقد وجد في الثورة ، في البداية تبريرا شرعيا ظاهرا لمذهبه في المتعة واللذة لكن مثلها العليا وغاياتها جعلته يسمو بفرديته ليتمسك بالفضائل الرومانية Roman Virtus بطريقة جعلته على استعداد للتضحية بكل شيء لجعل هذه المثل العليا على أرض الواقع[٤٨] . لقد تحول من الأبيقورية (مذهب اللذة) إلى الرواقية (مذهب مجاراة الضرورة) لكنه ظل رومانسيا حتى النهاية. لقد كتب : "عندما يأتي اليوم الذي لا أستطيع فيه أن أهدي الشعب الفرنسي إلى طرق مناسبة وقوية وعقلية لا تنثني أمام الطغيان والظلم . . ساعة تبين عجزي عن هذا سأطعن نفسي"[٤٩].وفي "المؤسسات الجمهورية Republican Institutions" (1791) قدم البراهين على أن تركز الثروة إنما هو سخرية من مَبْدَأَي المساواة والحرية من الناحية السياسية والقانونية، فلا بد من تحديد الثروات وتوزيعها، ولا بد أن تقوم الحكومة على ملاك فلاحين وحرفيين مستقلين، ولا بد أن تمول الحكومة التعليم للجميع وتقدم إعانات للفقراء. ولا بد أن تكون القوانين قليلة ومختصرة ومفهومة "فالقوانين الطويلة مثل كوارث ومصائب عامة"[٥٠]، ولا بد أن تتولى الدولة تربية الأطفال كلهم بعد سن الخامسة ببساطة إسبرطية (لتعليمهم البساطة والجلد) ولتطعمهم الخضراوات ولتدربهم على القتال. والديمقراطية أمر طيب لكن الدكتاتورية أمر لازم وقت الحرب[٥١] . وعندما تم انتخابه للجنة الأمن العام في ١٠ مايو سنة ١٧٩٣ نذر نفسه للعمل الجاد المضني ورد على الشائعات التي ترددت باتخاذه عشيقة مع الزعم بأنه مشغول جداً ولا وقت لديه لمثل هذه الرفاهية. وأصبح الشاب العنيد سريع الهياج متجهما صارما منضبطا ومنظما قديرا وجنرالا لا يهاب ومحققا للنصر. وعندما عاد منتصرا إلى باريس تم اختياره رئيساً للمؤتمر الوطني (١٩ فبراير ١٧٩٤) ومع أنه كان فخورا معتزا بنفسه واثقا بها متسوّداً على الآخرين إلا أنه قبل بتواضع قيادة روبيسبير ودافع عنه في هزيمته وصحبه إلى الموت وهو – أي سان جوست – في سن السادسة والعشرين وأحد عشر شهرا.

١٢– روبيسبير لم يحل محل دانتون تماما كعقل حاكم مدبر وكشخص فارض إرادته على لجنة الأمن العام The Twelve فقد كان كل من كارنو Carnot وبيلو Billaud وكولو Collot لديهم من الصرامة والشدة مما يعسر معه حكمهم، فلم يصبح روبيسبير أبدا دكتاتوراً. لقد كان يعمل من خلال دراسة متأنية صبورة واستراتيجية مراوغة لا من خلال أوامر مباشرة (زعامة واضحة) وحافظ على شعبيته بين أفراد الطبقة الثالثة (السانس كولوت) فقد عاش عيشة بسيطة وراح يمدح الجماهير ويمجدها ويدافع عن مصالحها، وفي ٤ أبريل ١٧٩٣ قدم للمؤتمر الوطني "الإعلان المقترح لحقوق الإنسان والمواطن" :

"المجتمع ملزم بتقديم ما يقيم أود كل فرد فيه، سواء بإتاحة فرص العمل لهم أم بضمان وسائل العيش لغير القادرين على العمل.... فمن كان عنده فضل مال فليعد به على من لا مال له... إنه لدين على القادرين أن يساعدوا من تنقصهم الضروريات. إن التخلص النهائي من الاستبداد يكون بمقاومة الظلم الذي يلبس لبوساً قانونيا (يأخذ شكلاً شرعيا)... والهيئات والمؤسسات التي لا تؤمن بأن الناس كلهم صالحون طيبون وأن الحكام والقضاة مرتشون فاسدون، هي هيئات أو مؤسسات كلها باطلة.. .فالناس في كل البلاد سواسية (إخوة)"(٥٢).

بالتأكيد لم يكن أعضاء لجنة الأمن العام الاثنا عشر كلهم مجرد قتلة أوغاد كما توحي بذلك النظرة السطحية. حقيقة أنهم اتبعوا باستعداد تام تراث الإرهاب وحذوا حذو ذلك التراث الذي كان قد وصل إليهم من الحروب الدينية ومذبحة ١٥٧٢ فترة القديس بارثيليمي Barthélémy وكان معظمهم قد تعلم أن يعدم أعداءه من غير أن يتحرك ضميره بل وفي بعض الأحيان بلا وازع من فضيلة لكنهم كانوا يتذرعون بضرورات الحرب وأعرافها. وكانوا هم أنفسهم عرضة لهذا الحظ العاثر، فقد كان كل واحد منهم مهددا بالعزل وجز رقبته بالمقصلة، وبالفعل فقد حدث لعدد منهم هذا. وكانوا في كل لحظة عرضة لسخط جماهير باريس أو الحرس الأهلي (الوطني) أو جنرال طموح، وكانت أي هزيمة كبرى على الحدود أو في المحافظات (الدوائر) المتمردة كفيلة بالإطاحة بهم. وفي الوقت نفسه فإنهم كانوا يعملون ليل نهار لإنجاز المهام الموكلة إليهم، فكان الواحد منهم يواظب من الثامنة صباحا حتى الظهر

في مكتبه أو لجنته الفرعية (المنبثقة من اللجنة الأم- لجنة الأمن العام) ومن الساعة الواحدة حتى الرابعة يحضر جلسات المؤتمر الوطني، ومن الساعة الثامنة حتى وقت متأخر يدخل في مناقشات ومشاورات حول المنضدة الخضراء في غرفة اجتماعاتهم.

وعندما تولوا أمر فرنسا كانت البلاد تمزقها الحروب الأهلية بسبب الرأسمالية الطارئة في ليون Lyon وبسبب اضطرابات الجيروندبين في الجنوب وحروب الكاثوليك والملكيين في الغرب، وكانت الجيوش الأجنبية تهددها من الشمال الشرقي والشرق والجنوب الغربي، وكانت تعاني الهزيمة برا وبحرا وكانت موانئها كلها محاصرة، وعندما سقطت هذه اللجنة العظمى(الكبرى) كانت فرنسا قد أصبحت وحدة سياسية تحت مطارق الدكتاتورية والإرهاب وظهر جيل جديد من الجنرالات الشبان مدربين قادوا المعارك أحيانا فقد أحرز كارنو Carnot وسان جوست Saint - Justانتصارات حاسمة أجبرت الأعداء على التراجع، ووقفت فرنسا وحدها ضد أوروبا كلها تقريبا وظهرت منتصرة على كل شيء لكنها لم تنتصر على نفسها.

٥- عهد الإرهاب : ١٧ سبتمبر ١٧٩٣ - ٢٨ يوليو ١٧٩٤ :

أ- الأرباب عطاش :

كان الإرهاب هو السمة العامة المتكررة(منذ ظهور الثورة الفرنسية) وارتبط أيضا بفترة زمنية بعينها. وعهد الإرهاب يطلق اصطلاحا على الفترة الممتدة من صدور قانون المشتبه فيهم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٣ حتى إعدام روبيسبير في ٢٨ يوليو ١٧٩٤ لكن كان هناك قبل ذلك إرهاب سبتمبر ١٧٩٢ وكان هناك ما يمكن تسميته "الإرهاب الأبيض White Terror" في مايو سنة ١٧٩٥ وثمة إرهاب آخر سنجده بعد سقوط نابليون.

وكانت أسباب عهد الإرهاب الشهير (الفترة التي نتحدث عنها متمثلة في الأخطار الخارجية والفوضى الداخلية، مما أدى إلى خوف عام وشغب فظهرت الأحكام العرفية (قانون الطوارىء) فالتحالف الأوربي الأول كان قد أدى إلى إعادة الاستيلاء على مينز Mainz (٢٣ يوليو) وغزو الألزاس، ودخول فالينسين Valenciennes على بعد مائة ميل من باريس،

في مكتبه أو لجنته الفرعية (المنبثقة من اللجنة الأم– لجنة الأمن العام) ومن الساعة الواحدة حتى الرابعة يحضر جلسات المؤتمر الوطني، ومن الساعة الثامنة حتى وقت متأخر يدخل في مناقشات ومشاورات حول المنضدة الخضراء في غرفة اجتماعاتهم.

وعندما تولوا أمر فرنسا كانت البلاد تمزقها الحروب الأهلية بسبب الرأسمالية الطارئة في ليون Lyon وبسبب اضطرابات الجيرونديين في الجنوب وحروب الكاثوليك والملكيين في الغرب، وكانت الجيوش الأجنبية تهددها من الشمال الشرقي والشرق والجنوب الغربي، وكانت تعاني الهزيمة برا وبحرا وكانت موانئها كلها محاصرة، وعندما سقطت هذه اللجنة العظمى(الكبرى) كانت فرنسا قد أصبحت وحدة سياسية تحت مطارق الدكتاتورية والإرهاب وظهر جيل جديد من الجنرالات الشبان مدربين قادوا المعارك أحيانا فقد أحرز كارنو Carnot وسان جوست Saint - Justانتصارات حاسمة أجبرت الأعداء على التراجع، ووقفت فرنسا وحدها ضد أوروبا كلها تقريبا وظهرت منتصرة على كل شيء لكنها لم تنتصر على نفسها.

٥– عهد الإرهاب : ١٧ سبتمبر ١٧٩٣ – ٢٨ يوليو ١٧٩٤ :

أ– الأرباب عطاش :

كان الإرهاب هو السمة العامة المتكررة(منذ ظهور الثورة الفرنسية) وارتبط أيضا بفترة زمنية بعينها. وعهد الإرهاب يطلق اصطلاحا على الفترة الممتدة من صدور قانون المشتبه فيهم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٣ حتى إعدام روبيسبير في ٢٨ يوليو ١٧٩٤ لكن كان هناك قبل ذلك إرهاب سبتمبر ١٧٩٢ وكان هناك ما يمكن تسميته "الإرهاب الأبيض White Terror" في مايو سنة ١٧٩٥ وثمة إرهاب آخر سنجده بعد سقوط نابليون.

وكانت أسباب عهد الإرهاب الشهير (الفترة التي نتحدث عنها متمثلة في الأخطار الخارجية والفوضى الداخلية، مما أدى إلى خوف عام وشغب فظهرت الأحكام العرفية (قانون الطوارىء) فالتحالف الأوربي الأول كان قد أدى إلى إعادة الاستيلاء على مينز Mainz (٢٣ يوليو) وغزو الألزاس، ودخول فالينسين Valenciennes على بعد مائة ميل من باريس،

واستولت القوات الاسبانية على بيربينان Perpignan وبايون Bayonne وكانت القوات الفرنسية في حالة فوضى وكان جنرالاتها يجهلون أوامر حكومتهم. وفي ٢٩ أغسطس سلم الملكيون للبريطانيين الأسطول الفرنسي وكذلك سلموهم القاعدة البحرية المهمة والترسانة في طولون Toulon، وحكمت بريطانيا الأمواج (تحكمت في البحار) واستولت بلا جهد على المستعمرات الفرنسية في قارات ثلاث، وتداول الحلفاء المنتصرون في "تقطيع أوصال فرنسا وأعادوا الحقوق الإقطاعية للمناطق التي تقدموا فيها[٥٣].

وعلى الصعيد الداخلي بدت الثورة وقد انفرط عقدها فأهل فاندي Vendée كانوا يعملون بحماسة منقطعة النظير إلى جانب المناهضين للثورة، وهزم المتمردون الكاثوليك قوات الدولة في فيير Vihiers (١٨ يوليو) وراح الأرستقراطيون في الداخل والأرستقراطيون المهاجرون يخططون بثقة لإعادة الوضع كما كان قبل الثورة. وأيدت ليون Lyon وبورج Bourges ونيم Nimes ومارسيليا Marseilles وبوردو Bordeaux ونانت Nante وبريست Brest الجيرونديين الثوار (ضد الثورة)، وكانت الحرب الطبقية مُسْتَعِرة بين الأغنياء والفقراء.

وكان الاقتصاد نفسه ساحة حرب. فالنظام الذي تم وضعه لضبط الأسعار في ٤ مايو و ٢٩ سبتمبر فشل بسبب براعة الجشعين، وفقراء المدن كانوا من أنصار التطرف الشديد (الاستيلاء على أموال الآخرين) وعارضهم الفلاحون والتجار، وشيئا فشيئا رفضوا – بشكل متزايد – إنتاج البضائع التي حددت أسعارها أو توزيعها، فراح ما يرد لمخازن المدن من الأسواق أو الحقول يتضاءل شيئا فشيئا ولم يعد يكفي سوى الأقلية التي تقف صفوفاً يوميا أمام أبواب هذه المخازن. واجتاح الخوف من المجاعة باريس والمدن الفرنسية الأخرى. ففي باريس وسينلي Senlis وأميان Amiens وروان Rouen كادت الجماهير تطيح بالسلطات الحاكمة اعتراضا منها على نقص الغذاء. وفي ٢٥ يونية قاد جاك رو Jacques Roux جماعته من الهائجين Enragés (والترجمة الحرفية للكلمة هي الكلاب المسعورة) إلى المؤتمر الوطني وطالبوا بالقبض على المستغلين كلهم – الذين ذكر جاك رو من بينهم بعض أعضاء المؤتمر الوطني – وإجبارهم على التخلي عن ثرواتهم الجديدة (التي جمعوها

باستغلال الموقف الاقتصادي في فرنسا).

"هذه الديمقراطية التي تدعونها ليست ديمقراطية لأنكم تسمحون بتكوين الثروات، فلم يجن سوى الأثرياء – خلال السنوات الأربع الأخيرة – ثمار الثورة. إنها الارستقراطية التجارية التي هي أكثر ظلماً لنا من النبلاء. إننا لا نرى حدا لاستغلالهم، فأسعار البضائع تزداد بشكل يثير الذعر.

لقد آن الأوان لمعركة حتى الموت بين المستغلين والعمال.... هل ممتلكات الأوغاد (السفلة) أكثر قداسة من حياة الإنسان؟ لا بد من إتاحة ضرورات الحياة وتوزيعها من قبل أجهزة إدارية تحت إشرافكم ، تماما كما أن القوات المسلحة تحت إشرافكم، فلن يكون كافيا تحصيل ضريبة من الأثرياء طالما أن النظام لم يتغير، لأن الرأسماليين والتجار سيرفعون في اليوم التالي الأسعار ليستردوا المبلغ الذي دفعوه كضريبة من السانس كولوت (الشريحة الدنيا من الطبقة الثالثة) ... إذا لم يتم تدمير الاحتكاريين وقوى الاستغلال فلا حل"(٥٤).

وأدان جاك هيبر Jacques Hébert البورجوازيين باعتبارهم المخططين للثورة – بعبارات أقل جنوحا نحو الشيوعية – وحث العمال على الاستيلاء على السلطة من الحكومة المهملة أو المتسمة بالجبن. وفي ٣٠ أغسطس نطق واحد من النواب بالعبارة السحرية "فليكن الإرهاب هو نظام هذه الأيام"(٥٥). وفي ٥ سبتمبر أتت جماهير من الأحياء تهتف "الحرب على الطغاة وخازني البضائع (لمنعها عن الناس) والأرستقراطيين" واتجهت إلى مقر الكومون في دار البلدية، فصحب رئيس البلدية – جان جولوم بيش - Jean - Guillaume Pache ووكيل المدينة – بيير شومت - Pierre Chaumette مفوّضين عن الجماهير المتظاهرة واتجهوا جميعا إلى المؤتمر الوطني وطالبوا بجيش ثوري يطوف فرنسا ومعه مقصلة للقبض على الجيرونديين وإجبار كل فلاح لتسليم منتجاته المخزونة وإلا جرى إعدامه في المكان نفسه(٥٦).

وفي هذا الجو الذي يخيم فيه شبح الغزو الأجنبي، وشبح الثورة داخل الثورة – كونت لجنة الأمن العام الجيوش الفرنسية وقادتها للنصر، وكانت هي آلة الإرهاب (جهاز الرعب) التي كوت بنارها أمة شديدة الاضطراب فوحدتها.

وفي ٢٣ أغسطس، وبناء على خطط جسورة وضعها كارنو Carnot وباربر - Barère أمر

المؤتمر الوطني بتجنيد جيش شعبي بطريقة عفوية ينضم إليه الفرنسيون Levy en masse، لا نظير له في تاريخ فرنسا:

"من الآن وحتى يتم طرد أعداء الجمهورية الفرنسية من أراضيها، الفرنسيون كلهم مطلوبون بشكل دائم للخدمة في قواتها المسلحة، فالشباب سيذهبون للقتال والمتزوجون سوف يعدون السلاح وينقلون الطعام والنسوة سيعددن الخيام والملابس ويخدمن في المستشفيات، وكبار السن سينتقلون إلى أماكن التجمع لبث الشجاعة في المقاتلين ويدعون لكراهية الملوك ويحثون على وحدة الأمة".

كل غير المتزوجين من سن الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين تم تنظيمهم في كتائب ترفرف عليها أعلام كتب عليها "الشعب الفرنسي يتصدى للطغاة".

وسرعان ما تحولت باريس إلى مؤسسة نابضة لصناعة السلاح، وامتلأت حدائق قصر التوليري ولكسمبرج Luxembourg بالمحلات التي تنتج نحو ٦٥٠ بندقية في اليوم بالإضافة إلى مواد أخرى. وانتهت البطالة وصودرت الأسلحة الشخصية والمعادن والملابس الزائدة عن الحاجة، ووضعت آلاف المطاحن تحت إشراف الدولة. لقد صودرت رؤوس الأموال والعمل، واقترضت الحكومة – بالضغط من الموسرين بليون جنيه(ليفر Livres)، وحددت الحكومة الأسعار وحددت للمتعاقدين معها ما ينتجون. وهكذا أصبحت فرنسا بين عشية وضحاها دولة شمولية totalitarian state.

وكان لا بد من الحصول من تربة فرنسا المحاصرة من كل ناحية وفي كل ميناء – على النحاس والحديد والملح الصخري (نترات البوتاسيوم والصوديوم) والبوتاس والصودا والكبريت، وكان الاعتماد جزئيا فيما سبق على الاستيراد للحصول على بعض هذه المواد. ومن حسن الحظ أن قام الكيميائي لافوازيه Lavoisier (الذي سرعان ما قصت المقصلة رقبته) في سنة ١٧٧٥ بتحسين نوعية البارود وزيادة إنتاجه، فكان لدى الجيوش الفرنسية بارود من نوعية أفضل مما لدى أعدائهم وتم استدعاء علماء مثل مونج Monge وبيرثولية Bertholet وفوركروي Fourcroy لتدبير إمدادات من المواد التي دعت الحاجة إليها أو اختراع بدائل لها، وكان هؤلاء العلماء هم الأعلام في مجال دراساتهم في ذلك الوقت وقد

أدوا خدمات جيدة لبلادهم.

وفي نهاية سبتمبر كان لدى فرنسا ٥٠٠,٠٠٠ مجند كانت معداتهم غير كافية، وكان تنظيمهم بائسا وكانت روحهم يعتريها التردد فلا أحد يتحمس وهو مقبل على الموت سوى القديسين. والآن ولأول مرة أصبحت الدعاية (البروباجندا) صناعة حكومية (صناعة من صناعات الدولة) تكاد تكون حكراً عليها، فدفع وزير الحرب جان - بابتست بورشوت Jean - Baptiste Bourchotte أموالاً للصحف لتقدم موضوعات عن حالة الأمة وأوصى القائمين عليها بتوزيع نسخ من هذه الصحف في معسكرات الجيش، فلم يكن هناك - إلا القليل - من يقرأها في أي مكان آخر (غير معسكرات الجيش) وذهب أعضاء من اللجنة أو ممثلون عنهم إلى جبهة القتال لإلقاء الخطب الرنانة في الجنود ولمراقبة الجنرالات.

وفي أول اشتباك مهم في المعركة الجديدة - في هوندشوت Hondschoote في ٦-٨ سبتمبر - مع قوات بريطانية ونمساوية كان ديبرل Debrel مبعوث اللجنة هو الذي حول الهزيمة إلى نصر بعد أن كان الجنرال هوشار (أوشار Houchard) قد اقترح انسحاب القوات الفرنسية. ولهذا، ولأخطاء أخرى جرى إرسال هذا المقاتل العجوز لتجز المقصلة رقبته في ١٤ نوفمبر سنة ١٧٩٣. وسجن اثنان وعشرون جنرالا - كلهم تقريبا من بقايا النظام القديم - لأخطاء وقعوا فيها أو لعدم مبالاتهم أو لإهمالهم تعليمات اللجنة. أما الشباب الذين نشأتهم الثورة فقد تبوأوا مكانتهم - رجال مثل هوش Hoche وبيشجرو Pichegru وجوردا Jourdan ومورو Moreau الذي كان أهم من نفذ سياسة كارنو Carnot القاضية بالهجوم المتواصل، ففي واتجنز Wattignies في ١٦ أكتوبر عندما واجه ٥٠,٠٠٠ مجند فرنسي جديد ٦٥,٠٠٠ نمساوي حمل كارنو Carnot ذو الأربعين عاما بندقيته على كتفه وخاض هو ورجال جوردا Jourdan المعركة. حقيقة إن النصر الذي حقّقوه لم يكن حاسما لكنه رفع من معنويات جيوش الثورة ودعم من سلطة اللجنة (لجنة الأمن العام).

وفي ١٧ سبتمبر أقر المؤتمر الوطني المطيع (المقصود المذعن للجنة الأمن العام) قانون الاشتباه مخولاً اللجنة أو من ينوب عنها القبض على أى مهاجر عائد إلى فرنسا (المهاجرون هم الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) وأي قريب لهذا المهاجر وأي موظف عام موضع

شك ولا يعاد إلى وظيفته مرة أخرى، وأي شخص تبدر منه أية إشارة تفيد مقاومة الثورة أو معارضة الحق، ويحق للجنة أو من تنيبه عنها أن يقبض على أي من المذكورين آنفا دون سابق إنذار أو تحذير. لقد كان هذا (قانون الاشتباه) قانونا قاسيا فقد فرض على الجميع - باستثناء الثوريين المعروفين - أن يعيشوا في خوف دائم من القبض عليهم أو حتى من قتلهم، وكان من بين هؤلاء الذين أصابهم الرعب الكاثوليك كلهم تقريبا والبورجوازيون كلهم.

ووافق بعض المهاجرين (الذين كانوا قد تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة) لجنة الأمن العام The Twelve على أن استخدام الرعب والخوف من الأمور الشرعية المباحة التي يحق لنظام الحكم استخدامها في الظروف الحرجة. وفي سنة ١٧٩٢ كتب الكونت مونتمورين Montmorin وزير الخارجية السابق في ظل حكم لويس السادس عشر: "أعتقد أنه من الضروري معاقبة أهل باريس بالإرهاب" وقدم الكونت فلاشلاندر Flachslander الأدلة على أن المقاومة الفرنسية للحلفاء "ستستمر حتى يتم ذبح المؤتمر الوطني" وعلق واحد من سكرتارية ملك بروسيا على موقف المهاجرين: "إن لغتهم مرعبة. فإذا كنا مستعدين للتخلية بينهم وبين مواطنيهم ليثأروا منهم، فسرعان ما ستصبح فرنسا مقبرة رهيبة لا أكثر"[٥٧].

لقد واجه المؤتمر الوطني خيارا بين الإرهاب والرحمة في قضية ملكة فرنسا. لقد نحى جانبا تبذيرها وإسرافها في المرحلة الأولى، وتدخلها في شؤون الدولة وعدم استساغتها لجمهور باريس وكان هذا معروفاً عنها (وهي إهانة تستحق عليها الإعدام بجدارة)، فبصرف النظر عن ذلك كله فقد كان من المؤكد أنها اتصلت بالمهاجرين والحكومات الأجنبية لإيقاف الثورة وإعادة السلطات التقليدية إلى العرش الفرنسي، وكان رأيها أنها بفعلها هذا إنما هي تمارس حقا إنسانيا في الدفاع عن النفس، أما متهموها فاعتبروا أنها بفعلها هذا انتهكت القوانين التي أقرها نواب الأمة المنتخبون، وبذا فهي قد اقترفت خيانة. وكان من الواضح أنها أفشت لأعداء فرنسا بالمشاورات التي جرت في المجلس الملكي بل وأفشت لهم الخطط الحربية لجيوش فرنسا.

وقد أنجبت من لويس السادس عشر أربعة أطفال مارى تريز Marie -Thérèse وهي الآن

في الخامسة عشرة من عمرها، وابن مات في مرحلة الطفولة، وابن ثان مات في سنة ١٧٨٩، وطفل ثالث هو لويس – شارلز Louis - Charles هو الآن في الثامنة من عمره واعتبر هو لويس السابع عشر Louis XVII، وكانت ابنة الملكة وأخت زوجها (إليزابيث) تعاونانها في العناية بالطفل الذي راحت تنظر إليه بقلق ومن ثم بيأس لتدهور صحته وحالته المعنوية، بسبب طول فترة احتجازه. وفي مارس سنة ١٧٩٣ عرضت عليها خطة للهروب لكنها رفضت لأن الخطة تتطلب ترك أطفالها(٥٨). وعندما علمت الحكومة بهذه الخطة التي لم تنفذ نقلت ابن الملكة ونزعته منها رغم مقاومتها وأبعدته عن أقربائه، وفي أغسطس سنة ١٧٩٣ – بعد عام من السجن في سجن التمبل Temple تم نقل الملكة وابنتها وأخت زوجها إلى غرفة في مسكن البواب (الكونسيرجيري) ذلك القسم من قصر العدل الذين كان يشغله قبل ذلك مشرف المبنى. وهناك راحوا يعاملون هذه الأرملة - Widow Capet كما كانوا يسمونها – برقة أفضل من ذي قبل بل إنهم أرسلوا لها قسا ليرتل القداس في زنزانتها. وفي آخر هذا الشهر وافقت على محاولة أخرى لتهريبها، وفشلت المحاولة فنقلوها إلى غرفة أخرى ووضعوها تحت مراقبة وحراسة مشددتين.

وفي ٢ سبتمبر اجتمعت اللجنة لتقرير مصيرها، وكان بعض الأعضاء إلى جانب الاحتفاظ بحياتها للمساومة عليها مع النمسا مقابل سلام مقبول، أما بارير Barère وسان أندريه Saint - André فدعوا إلى إعدامها لأن هذا وسيلة لتوحيد الموقعين على الحكم وربطهم بميثاق الدم. أما هيبر Hébert عضو الكومون، فقال للجنة The Twelve : "إنني باسمكم وعدت العامة (السانس كولوت) برأس ماري أنطوانيت، وهم (العامة) غاضبون ساخطون يطالبون بها، وأنتم لا تستطيعون الاحتفاظ بمقاعدكم بل ووجودكم دون دعم منهم.. إنني سأذهب وأقطع رأسها بنفسي إذا كان علي أن انتظر كثيرا لتسلّم هذا الرأس"(٥٩).

وفي ١٢ أكتوبر جرى تحقيق مبدئي مطول مع الملكة، وفي ١٤ و١٥ أكتوبر حوكمت أمام المحكمة الثورية، وكان المدعي العام هو فوكييه – تينفيل Fouquier - Tinville، وظلت الأسئلة توجه لها من الساعة الثامنة صباحا حتى الرابعة، ومن الساعة الخامسة حتى الحادية

عشرة مساء، وذلك في اليوم الأول للمحاكمة ومن الساعة التاسعة صباحا إلى الثالثة، في اليوم الثاني من المحاكمة. لقد أتهمت بتحويل ملايين الفرنكات من الخزانة الفرنسية لأخيها جوزيف الثاني إمبراطور النمسا ودعوة القوات الأجنبية لغزو فرنسا، وكان هناك افتراض – أكد إلى بعيد – أنها حاولت أن تفسد "ابنها جنسيا". وكان هذا الاتهام الأخير هو الاتهام الوحيد الذي لم يشرها فقد أجابت: "إن الطبيعة ذاتها ترفض أن ترد على مثل هذه التهمة (تعيرها اهتماما) الموجهة إلى أم، إنني أستغيث بكل الأمهات الموجودات هنا". لقد تأثر الجمهور الحاضر بمنظر هذه المرأة التي كان جمالها وشبابها ومرحها في وقت من الأوقات حديث أوروبا، أما الآن فقد اشتعل رأسها شيبا وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها مرتدية ملابس الحداد بعد إعدام زوجها، وراحت تناضل دفاعاً عن حياتها أمام رجال كانوا قد انتهوا – كما هو واضح – إلى قرار بتحطيم روحها وتعذيبها بإطالة فترة المحاكمة بلا رحمة لتذهب نفسها حسرات قبل تدمير جسدها. وعندما انتهت المحاكمة أصابها العمى لفرط الإرهاق وكان لا بد من مساعدتها لتتخذ طريقها إلى زنزانتها، وهناك علمت أن قرار المحلفين هو الحكم عليها بالموت.

والآن فإنها كتبت في محبسها الانفرادي خطاب وداع لمدام إليزابيث طالبة منها أن تنقل لابنها وابنتها التوجيهات التي تركها أبوهما الملك. لقد كتبت: "إن ابني يجب ألا ينسى كلمات أبيه الأخيرة والتي طالما كررتها على مسامعه وهي قوله: لا تعمل أبداً على الثأر لمقتلي"[٦٠].

ولم يسلم الخطاب إلى مدام إليزابيث فقد سلمه – بعد أن استولى عليه – فوكييه – تينفيل Fouquier -Tinville إلى روبيسبير، وتم العثور عليه ضمن أوراقه السرية بعد موته.

وفي صباح ١٦ أكتوبر ١٧٩٣ أقبل المنفذ (الجلاد) هنرى سانسون Henry Sanson إلى زنزانتها وعقد يديها خلف ظهرها وفض شعرها الذي يغطى رقبتها وحملها في عربة مرت على طول شارع يحفه الجنود والجموع التي كانت قبل ذلك معادية لها هازئة بها إلى أن وصلت إلى ميدان الثورة. وعند الظهر عرض سانسون Sanson على الجموع رأسها العنيد.

إن المحكمة الثورية الآن قد أنست إلى عملها، راحت تصدر أحكام الموت بمعدل سبعة

أحكام في اليوم[٦١]، لقد تم القبض على الأرستقراطيين الذين تيسر القبض عليهم وتم إعدام كثيرين منهم، وفي ٢٤ أكتوبر أحيل الواحد والعشرون جيرونديا الذين كانوا تحت الحراسة منذ ٢ يونيه، إلى المحاكمة، فلم تغن عنهم بلاغة فيرنيو وبريسو Vergniaud &Brissot شيئاً، وطعن واحد منهم نفسه بينما هو يغادر المحكمة فوضعت جثته بين المتهمين وحملت في عربة إلى سقالة المقصلة حيث هوى النصل المحايد (الذي لا يميز بين حي وميت) على رقبته (رقبة الجثة). إن الثورة – فيما قال فيرنيو "Vergniaud مثل ساتورن[*] Saturn تفترس أبناءها"[٦٢].

لنضع في اعتبارنا هذا الحنق وذلك الرعب اللذين سببتهما هذه الأحداث والتي لا بد أنها قد تغلغلت في أعماق مانو رولان Manon Roland التي تنتظر مصيرها في غرفة البواب (الكونسيرجيري) التي أصبحت هي المنطلق أو العتبة الأخيرة إلى المقصلة. وقد كانت تلاقي في سجنها بعض المتع والكياسة فقد كان أصدقاؤها يحضرون لها الكتب والزهور، فجمعت في زنزانتها مكتبة تدور في غالبها حول بلوتارخ تاسيوس Tacius (الخطيب والمؤرخ الروماني)، ولأن موقفها كان أقوى فقد راحت تشغل نفسها بكتابة مذكراتها التي أطلقت عليها "دعوة لأجيال غير منحازة" كما لو أن الأجيال أيضا لا يمكن تقسيمها، وبينما كانت تكتب ذكريات شبابها في أيام السعادة tempi felici تعمق لديها الشعور بمرارة حاضرها. لقد كتبت في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٣:

"أشعر أنني فقدت الرغبة في متابعة هذه المذكرات. فالبؤس الذي يعانيه وطني يعذبني، إن كآبة تتغلغل في روحي رغم إرادتي فتشل خيالي، فقد أصبحت فرنسا جلجثة واسعة (ساحة إعدام)[**].. لقد أصبحت ميدانا للإرهاب وأصبح أطفالها يبكون ويدمر

(*) إله في عقائد الرومان الوثنية.

(**) الكلمة Golgoth أو الجلجثة كلمة مشهورة في التراث الديني المسيحي إشارة للمكان الذي صلب فيه المسيح – كما يعتقد بعض المسيحيين، نقرأ في قاموس الكتاب المقدس الذي أعده بطرس عبدالملك وآخرون: هي موضع الجلجثة حيث صلب يسوع هناك وهو موضع بالقرب من أورشليم لكنه خارج أسوار المدينة وفي حدودها دفن (يوحنا ١٩: ١٧ و ٤١ وعبرانيين ١٣: ١١-١٣) ويظهر أنها كانت بقعة منظورة (مرقس ١٥: ٤٠ ولوقا ٢٣: ٤٩) وبالقرب من طريق سلطاني عام (مت ٢٧: ٣٢ و ٣٣).
والكلمة مأخوذه عن اليونانية «كرانيون» جمجمة. واما جلجثة فهي الكلمة الارامية لكلمة جمجمة وبالعبرانية (جولجوليث): (مت ٢٧: ٣٣ ومرقس ١٥: ٢٢ ويوحنا ١٩: ١٧).
ويظن جيروم ان الاسم اطلق على الموضع بسبب وجود جماجم مكشوفة غير مدفونة. وافتكر غيره أن المكان كان ساحة للاعدام. والتفسير العادي الشائع ان المكان كان تلاً على شكل جمجمة.

بعضهم بعضا ... لا يستطيع التاريخ أن يصور هذه الأيام المرعبة، ولا الغيلان التي تملأها ومن معها (مع الغيلان) من برابرة ... أكانت باريس يوما مثل روما أو بابل؟"(٦٣).

وتنبأت أن دورها سيحين حالا فقد كتبت في مذكراتها المخطوطة كلمة وداع لزوجها وعشيقها اللذين هربا من الشرك الذي أعدّ لهما:

"آه يا صديقي(*)، ربما قادكما قدركما الملائم السمح إلى الولايات المتحدة الملاذ الوحيد للحرية .. وأنت يا زوجي وصديقي قد اعتراك الضعف فقد صرت عجوزا قبل الأوان وتملصت من القتلة بصعوبة، أيسمح لي أن أراك مرة أخرى؟ ... إلى متى يجب أن أبقى شاهدة على خراب بلادي وانحطاط مواطني ؟ "(٦٤).

ولم يطل الانتظار ففي ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٣ مثلت أمام المحكمة الثورية ووجهت إليها تهمة الاشتراك مع رولان Roland في إساءة استخدام الميزانية العامة وإرسالها خطابات من زنزانتها لتشجيع باربارو Barbaroux وبوزو Buzot اللذين كانا في ذلك الوقت يثيران التمرد على سيطرة اليعاقبة على المؤتمر الوطني، وعندما تحدثت مدافعة عن نفسها اتهمها الحضور (المشاهدون) الذين تم اختيارهم بعناية بأنها خائنة . وصدر الحكم بأنها مذنبة وتم إعدامها بالمقصلة في اليوم نفسه في ميدان الثورة . وثمة رواية غير مؤكده تفيد أنها نظرت إلى تمثال الحرية الذي أقامه ديفد David في الميدان المهيب، وصاحت: " آه أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك!"(٦٥).

وتبعها إلى المقصلة موكب من الثوريين، ففي ١٠ نوفمبر أتى دور بايبه Bailly رئيس البلدية والفلكي الذي كان قد قدم شارة الثورة الحمراء للملك وكان قد أمر الحرس الوطني بإطلاق النار على مقدمي الالتماسات في غير الوقت المحدد في معسكر دي مارس – Champ - de - Mars. وفي ١٢ نوفمبر هوت المقصلة على فيليب مساواة Philippe Egalité، ولم يفهم لم رغب الجبليون Montagnards (اليسار) في إرسال مثل هذا الحليف المخلص إلى المقصلة! إن السبب هو أن الدماء الملكية تجرى في عروقه وأنه كان يتلهف للوصول للعرش . من الذي يستطيع أن يقول إن هذه الرغبة الملحة لا يمكن أن تعتريه مرة أخرى؟، وفي ٢٩

(*) تخاطب زوجها وعشيقها في سياق واحد .(المترجم)

نوفمبر أتى دور أنطوان بارناف Antoine Barnave الذي سبق له أن حاول حماية الملكة ثم أتى دور الجنرالات كوستين Custine وهوشار (أوشار Houchard) وبيرو ... Biron الخ .

وبعد أن شكر رولان Roland أصدقاءه الذين خاطروا بحياتهم لحمايته تابع مسيرته وحيدا، وفي ١٦ نوفمبر جلس إزاء شجرة وكتب كلمة وداع: "ليس الخوف هو الذي دفعني للتراجع وإنما هي السخط والنقمة، فعندما علمت بقتل زوجتي لم أعد أرغب في البقاء أكثر من ذلك على أرض لوثتها الجرائم"(٦٦) . ثم طعن نفسه بسيفه، أما كوندرسيه Condorcet فبعد أن كتب أنشودة الشكر أو التسبيح (دعاء ديني) ليواصل طريقه تناول السم (٢٨ مارس سنة ١٧٩٤) أما باربارو Barbaroux فأطلق النار على نفسه فلم يفلح في قتل نفسه فقامت المقصلة بما عجز عنه في ١٥ يونيو . أما بتيون Pétion وبوزو Buzot فقد جد ممثلو الحكومة في إثرهما، فانتحرا في حقل بالقرب من بوردو Bordeaux، وتم العثور على جثتيهما في ١٨ يونيو، وقد نهشتهما الذئاب فلم يبق من كل جثة إلا نصفها .

ب – الإرهاب في الدوائر (المحافظات):

كان هناك جيرونديون آخرون لا يزال كل واحد منهم يحمل رأسه، وحققوا في بعض المدن مثل بوردو Bordeaux وليون Lyon مكانة عالية وأصبح لهم اليد الطولى، فشعر اليعاقبة بضرورة استئصالهم لتكون فرنسا موحدة One ويعقوبية وهذا يتطلب مد حركتهم إلى الدوائر (المحافظات) المكتفية ذاتيا . ولهذا الغرض وأغراض أخرى، أرسلت لجنة الأمن العام ممثلين مبعوثين عنها وتكاد تكون قد خولتهم بكل الصلاحيات والسلطات المطلقة المخولة إليها في كل المناطق المحددة لهم، فلهم الحق في عزل المسؤولين المنتخبين وتعيين آخرين محلهم، والقبض على المشتبه فيهم، وإعداد الرجال للالتحاق بالجيش وفرض الضرائب وضبط الأسعار وتحديد مبلغ القروض المطلوبة ومصادرة المؤن والملابس وغيرهما من المواد وتشكيل لجان محلية للأمن العام أو إقرارها لتكون كوكيل للجنة الكبرى (لجنة الأمن العام المركزية في باريس) وحقق ممثلو اللجنة هؤلاء معجزة التنظيم الثوري والعسكري، في وسط شبه معاد أو لا مبال. لقد قمع هؤلاء الممثلون المعارضة بلا رحمة بل بإفراط في الحماس في

بعض الأحيان .

وكان أكثر هؤلاء الممثلين نجاحا هو سان جوست Saint - Just، ففي ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٣ تم إرساله مع جوزيف ليباس Joseph Lebas (الذي ترك له القيادة عن رضى) لإنقاذ الألزاس Alsace من الغزو النمساوي الذي اجتاح بسرعة منطقة ذات طبيعة ألمانية إذا تسود فيها اللغة الألمانية والآداب الألمانية ونمط الحياة الألماني، وأجبر الجيش الفرنسي المعروف بجيش الراين Rhine على التراجع إلى ستراسبورج Strasbourg وسادت فيه روح الهزيمة والتمرد . وعلم سا ن – جوست Saint - Just أن القوات الفرنسية كانت تعامل معاملة سيئة متسمة بروح الاستبداد وأن قيادتها كانت سيئة وربما ضللها ضباط غير متحمسين للثورة بما فيه الكفاية، فأمر بإعدام سبعة من هؤلاء الضباط أمام القوات العسكرية المتجمعة، واستمع إلى المظالم باهتمام وأزال أسبابها بحسم مميز، وصادر من الطبقات الموسرة كل ما هو فائض عن حاجتها من الأحذية والسترات والمعاطف والقبعات ومن ١٩٣ ثرياً من أثرياء المدينة جبى تسعة ملايين جنيه Livres وطرد من الخدمة الموظفين غير الأكفاء أو اللامبالين، وأمر بإطلاق النار على المستغلين الذين ثبت استغلالهم . وعندما التقى الجيش الفرنسي بالنمساويين مرة أخرى تم طرد الغزاة (النمساويين) من الألزاس Alsace الذي أعيد إلى السيطرة الفرنسية . وعاد سان – جوست إلى باريس راغبا في أداء أعمال أخرى والقيام بمهام جديدة وكاد ينسى أنه كان قد ارتبط بأخت ليباس Lebas.

أما جوزيف لوبون Joseph Le bon فلم يسلك السلوك الذي يتطلبه عمله كمندوب ممثل للجنة الأمن العام، فحذره موظفوه ليحذر من "الطبيعة البشرية الزائفة والمعرضة للخطأ"، وظن الرجل ذو العينين الزرقاوين أنه يسعدهم بتقليص عدد ١٥٠ كمبري Cambrai مرموق في غضون ستة أسابيع، و ٣٩٢ في آراس Arras، وكتبت السكرتارية التابعة له تقريرا ذكرت فيه أن لوبون قتلهم بطريقة محمومة وعندما وصل إلى منزله راح يقلد تقلصات الوجه التي كانت تبدر من الموتى ليسلي زوجته[٦٧] . وسرعان ما قصت المقصلة رقبته بعد ذلك بقليل في سنة ١٧٩٥ .

وفي يوليو سنة ١٧٩٣ انتدب جان – بابتست كاريه Jean - Baptiste Carrier لقمع

التمرد الكاثوليكي في الفندي the Vendée وليؤمن نانت Nantes حتى لا يحدث فيها مزيد من التمرد وشرح له عضو اللجنة الكبرى (لجنة الأمن العام) هيرول دى سيشل Hérault de Séchelles مهمته قائلا : "يمكننا أن نكون إنسانيين عندما نتأكد من النصر"(٦٨) فكان هذا القول ملهما لهيرول . ففي لحظة حماس فرضتها ظروف فرنسا البيئية، أعلن أن فرنسا لا تستطيع أن تطعم سكانها الذين يتزايد عددهم بسرعة لذا فمن المطلوب تقليص هذه الزيادة بقطع رقاب النبلاء والقسس والتجار والحكام magistrates كلهم.

وفي نانت Nantes اعترض على المحاكمات باعتبارها من قبيل تضييع الوقت فأمر القاضي بضرورة إعدام المشتبه فيهم كلهم في ظرف ساعتين «وإلا أمرت بإطلاق الرصاص عليك وعلى زملائك"(٦٩) . ولأن السجون في نانت Nantes كانت في غالبها مزدحمة إلى حد الاختناق بالمقبوض عليهم والمدانين وكان هناك نقص في الطعام فقد أمر مساعديه بملء البوارج (السفن الكبيرة) والطوافات (نوع من السفن) وغيرها من السفن بخمسمائة رجل وامرأة وطفل – معطيا الأولوية للقسس – وإغراقهم في نهر اللوار Loire. وبهذه الوسيلة وغيرها قرر مصير أربعة آلاف من غير المرغوب فيهم في غضون أربعة أشهر(٧٠) . وأقنع نفسه بأن هذا ضروري على وفق قوانين الحرب . وكان الفينديون (أهل الفيندى the vendéans) في حالة تمرد مصممين على معاداة الثورة حتى الموت، فقال : "سنجعل من فرنسا مقبرة إذا لم نستمر في طريقنا"(٧١) وكان على اللجنة الكبرى (لجنة الأمن العام في باريس) أن تكبح جماحه فهددته بالقبض عليه لكنه لم يخف وقال "على أية حال فإننا جميعا ستذبحنا المقصلة واحدا إثر الآخر" .

وفي نوفمبر سنة ١٧٩٤ قدم للمحكمة الثورية، وفي ١٦ ديسمبر تحققت نبوءته فجزت المقصلة رقبته .

وصبغ ستانيسلاس فريرون Stanislas Fréron (ابن عدو فولتير المفضّل) وغيره من ممثلي اللجنة نهرى الرون Rhone والفار Var بدماء غير الموالين للثورة . ١٢٠ في مرسيليا، ٢٨٢ في طولون و ٣٣٢ في أورانج(٧٢) Orange.وعلى النقيض من ذلك كان جورج كوثو

Georges Couthon قد تجلت صفة الرحمة في بعثته لجمع متطوعين للجيش في دائرة (محافظة) بيى – دي – دوم Puy - de - Dôme . وفي كليرمونت – فران - Clermont Ferrand أعاد تنظيم الصناعات من خلال التركيز على إنتاج المواد للأفواج الجديدة. وعندما رأى المواطنون أنه يمارس سلطاته بعدل وإنسانية أحبوه حتى أنهم راحوا – بالتناوب – يحملونه وهو فوق كرسيه . وفي أثناء بعثته لم يعدم أحد على وفق "العدالة الثورية"(٧٣).

أما جوزيف فوشي Joseph Fouché الذي كان في وقت من الاوقات أستاذا للغة اللاتينية والفيزياء، فهو يبلغ الآن الرابعة والثلاثين من عمره، ولم يكن حتى الآن "أمهر الرجال الذين قابلتهم أبداً"(٧٤) على حد تعبير بلزاك Balzac . لقد بدا كرجل خلق للتآمر والخداع: هزيل بارز العظام مزموم الشفتين حاد العينين، مدبب الأنف كتوم صامت رزين صارم . وكان عليه أن ينافس تاليران Talleyrand في سرعة التحول والمراوغة من أجل البقاء. ومن خلال الملاحظات الظاهرية، فهو رب أسرة ملتزم معتدل في عاداته ومسلكه كما كان في الوقت نفسه جسورا في أفكاره . وفي سنة ١٧٩٢ تم انتخابه للمؤتمر الوطني عن نانت Nantes . وفي البداية جلس مع الجيرونديين وصوت معهم، ثم انتقل إلى الجبليين (اليساريين) بعد أن تنبأ في نفسه بسقوط الجيرونديين وسيادة باريس وأصدر نشرة يدعو فيها الثورة للانتقال من مرحلة البورجوازية إلى المرحلة البروليتارية. ولتطوير الحرب والسير بها قدما قدم البراهين على ضرورة أن تقوم الحكومة "بالاستيلاء على كل شيء يزيد عن حاجة المواطنين، لأن ما هو زائد عن الضرورة (الفَضْل) إن هو إلا انتهاك واضح غير مسوغ لحقوق الشعب" فلا بد من مصادرة كل الذهب والفضة حتى تنتهي الحرب . "إننا سنكون مزعجين قاصرين في ملء السلطة المخولة لنا. فلا وقت لأنصاف الحلول .... ساعدونا لتوجية لكمات قوية"(٧٥).

وباعتباره ممثلا للجنة الأمن العام في محافظة لوار الأدنى Loire Inférieure خاصة في نيفير Nevers ومولين Moulin فتح النار على الملكية الخاصة، فاستطاع بمصادرة الأموال والمعادن النفيسة والأسلحة والملابس والطعام أن يجهز عشرة آلاف متطوع كان قد أدرجهم في قوائم المجندين الجدد. لقد نهب الكنائس وجردها مما بها من أوعية القربان المقدس

المصنوعة من الذهب والفضة ومن الشمعدانات والأواني وأرسلها إلى المؤتمر الوطني ووجدت اللجنة (لجنة الأمن العام) أنه من غير المفيد معارضة حماسته واعتبرته الرجل المناسب لمساعدة كولو دربوا Collot d'Herbois في إعادة ليون Lyon إلى حظيرة العقيدة الثورية.

لقد كانت ليون تكاد تكون عاصمة الرأسمالية الفرنسية فمن بين سكانها البالغ عددهم ١٣٠,٠٠٠ كان هناك ماليون ذوو صلات بأنحاء فرنسا كلها وتجار يتعاملون مع أسواق أوربا كلها وأصحاب صناعات يتحكمون في مئات المصانع، وعدد كبير من البرولتياريا، كانوا يحسدون برولتيارية باريس التي كادت تستولى على الحكم. وفي بداية سنة ١٧٩٣ وتحت قيادة القس السابق (المطرود من رحمة الكنيسة) ماري جوزيف كاليه Marie - Joseph Chalier حققوا نصرا مشابها، لكن الدين أثبت أنه أقوى من الطبقة (الانتماء للدين أقوى من الانتماء للطبقة) فقد ظل نصف العمال على الأقل كاثوليكا واعترضوا بامتعاض على سياسة اليعاقبة المناهضة للمسيحية وعندما عبأت البورجوازية قواها المختلفة ضد دكتاتورية البرولتياريا انقسم العمال وطرد تحالف رجال الأعمال والملكيين والجيرونديين الحكومة الراديكالية وتم إعدام كاليه Chalier ومائتين من أتباعه (في ٦ يوليو سنة ١٧٩٣) وغادر آلاف العاملين المدينة واستقروا في الضواحي والمناطق المحيطة بها وراحوا ينتظرون التحول الثوري التالي.

وأرسلت لجنة الأمن العام جيشا للإطاحة بالرأسماليين المنتصرين وأقبل كوثو Couthon مقطوع الساق من كليرمونت Clermont لقيادة هذا الجيش. وفي ٩ أكتوبر شق طريقه إليها وأعاد تأسيس الحكم اليعقوبي بها. وظن كوثون Couthon أن سياسة الرحمة مطلوبة في مدينة يعتمد سكانها إلى حد كبير على التشغيل المستمر للمصانع والمحلات لكن لجنة الأمن العام في باريس كان لها رأى مخالف، فطرح الأمر في المؤتمر الوطني في ١٢ أكتوبر وتم إرسال توجيه إلى كوثون Couthon. توجيه صاغه روبيسبير مطالبا بالثأر لمقتل كاليه Chalier والمائتين من الراديكاليين الذين جرى قتلهم. نقرأ في جزء من هذا التوجيه: "ستدمر مدنية ليون Lyon. لا بد من تدمير سكانها الأثرياء كلهم... وسيمحى اسم ليون من قائمة المدن الجمهورية .... وما سيبقى من منازلها سيطلق عليها اسم المدينة المحررة

Ville Affranchisée، وسيقام بين أطلال ليون عمود ليذكر الأجيال القادمة بالجرائم التي ارتكبت بالعقاب الذي حاق بالملكيين"(٧٦).

ولم يستسغ كوثون Couthon المهمة التي أوكلت إليه لقد أدان تدمير المباني التي تكلف بناؤها الكثير، فنقل لممارسة أنشطة أكثر ملاءمة له في كليمونت فران Clemont - Ferrand وحل محله في ليون في ٤ نوفمبر كولوا دربوا Collot d´Herbois الذي سرعان ما لحق به فوشي Fouché وبدأا معا حفلاً شعائرياً دينيا هازلا في ذكرى كالييه Chalier باعتباره "ربا مخلّصا مات ليخلص الشعب"(*) وقاد الموكب حمار ألبسوه زي الأسقف ووضعوا فوق التاج الكنسي (تاج الأسقف) وربطوا في ذيله صليباً ونسخة من الكتاب المقدس، وفي ميدان عام تم تشريف "الشهيد " Martyr بمدائح لتأبينه وأعدت المشاعل من الإنجيل والكتب الدينية (كتب القداس) وخبز العشاء الرباني وتماثيل القديسين المختلفة المصنوعة من الخشب(٧٧) وأنشأ كولو Collot وفوشي Fouché لجنة مؤقتة من عشرين عضوا ومحكمة من سبعة أعضاء لتحقيق الطهارة الثورية في ليون، بالتحقيق مع المشتبه فيهم وأصدرت هذه اللجنة المؤقتة إعلانا بالمبادىء التي أطلق عليها "المانيفستو الشيوعي الأول" في التاريخ الحديث(٧٨). واقترح المانيفستو (البيان) أن تعتمد الثورة على الغالبية الفقيرة" وانتقد النبلاء والبورجوازية وخاطب المانيفستو العمال: "إنكم ظلمتم ولا بد أن تقمعوا من ظلمكم " فكل ما تنتجه أرض فرنسا ملك لفرنسا والثروات الخاصة كلها لا بد أن تكون في خدمة الجمهورية، وكخطوة أولى نحو العدالة الاجتماعية لا بد من تحصيل ضريبة مقدارها ثلاثون ألف جنيه Livres من كل من لديه دخل يصل إلى عشرة آلاف جنيه في السنة. وتم تحصيل مزيد من المبالغ من السجناء من النبلاء والقسس وغيرهم وبمصادرة ممتلكاتهم.

ولم يستقبل أهل ليون هذا الاعلان الشيوعي استقبالا حسنا فقد كانت قلة لها وزنها منهم قد ارتفعت إلى مستوى الطبقة الوسطى. وفي ١٠ نوفمبر قدم طلب موقع من عشرة آلاف امرأة يطالبن فيه بالرحمة لآلاف الرجال والنساء الذين تزدحم بهم السجون، فأجاب مبعوثو لجنة الأمن العام بصرامة: "قرن في بيوتكن وانشغلن بأعمالكن المنزلية ... وكفى

(*) "Savoir - God who had died for the people"

دموعاً فهذا لا يليق بكن"[٧٩]. وفي ٤ ديسمبر - ربما لجعل الأمور واضحة - أدانت المحكمة الجديدة ستين سجينا فتم إخراجهم من السجن إلى ساحة مكشوفة عبر الرون Rhône ووضعوا بين خندقين وأطلقت عليهم المترليوزات زخات الرصاص، وفي اليوم التالي، وفي البقعة نفسها تم ربط سجناء عددهم ٢٠٩ معا (بحبل واحد) وتم حصدهم بالمترليوز (المدفع) نفسه.

وفي ٧ ديسمبر تم إعدام مائتين بالطريقة نفسها وبعد ذلك وجد أن الذبح بالمقصلة أكثر متعة كما أن الجثث التي امتلأ بها الخندق كانت قد بدأت تسمم هواء المدينة . وبحلول شهر مارس ١٧٩٤ بلغ عدد المعدومين في ليون ١٫٦٦٧ ثلثاهم من الطبقتين الوسطى والعليا[٨٠] وتم تدمير مئات البيوت الغالية تدميرا شديدا[٨١].

وفي ٢٠ ديسمبر ١٧٩٣ ظهر وفد من مواطني ليون أمام المؤتمر الوطني يطالبون بإنهاء عمليات الانتقام، لكن كولو Collot ردهم إلى باريس ودافع عن سياسته بنجاح، وترك فوشي ليرعى أمور ليون فواصل سياسة الإرهاب . ولما علم بأن طولون قد تم الاستيلاء عليها مجددا كتب إلى كولو Collot: "ليس أمامنا للاحتفال بالنصر سوى طريق واحد . لقد أرسلنا هذا المساء ٢١٣ متمردا تحت نار السهام النارية المشتعلة "[٨٢] وفي ٣ أبريل ١٧٩٤ تم استدعاء فوشي Fouché ليقدم تقريرا عن نفسه أمام المؤتمر الوطني. لقد أفلت من العقاب لكن لم يسامح أبداً روبيسبير لاتهامه له بالبربرية . وسيأخذ منه ثأره يوما.

واعترفت لجنة الأمن العام شيئا فشيئا أن الإرهاب في المحافظات قد زاد زيادة مفرطة . وفي هذا الصدد كان روبيسبير ذا تأثير ملطف (مهدىء) فأخذ على عاتقه دعوة كاربيه Carrier وفريرون Fréron وتاليان Tallien وطلب تقارير عن أعمالهم . لقد انتهى الإرهاب في المحافظات (الدوائر) في مايو سنة ١٧٩٤ بينما كان يزداد في باريس . وفي ذلك الوقت أصبح روبيسبير نفسه ضحية له (٢٧-٢٨ يوليو ١٧٩٤)، لقد بلغ ضحايا الإرهاب ٢٧٠٠ في باريس و ١٨٠٠٠ في سائر أنحاء فرنسا الأخرى[٨٣]. وهناك من يرفع إجمالي الرقم إلى ٤٠٫٠٠٠[٨٤] وبلغ عدد المسجونين المشتبه فيهم حوالي ٣٠٠٫٠٠٠ . وكان الإرهاب مربحا للدولة إذا نظرنا إلى أموال وممتلكات من جرى إعدامهم والتي عادت إلى الدولة.

ج – الحرب ضد الدين(*):

والآن، فقد كان هناك انقسام حاد بين أولئك الذين يعتبرون العقيدة الدينية هي سندهم النهائي في الدنيا التي – بغيره – تغدو بلا غاية ولا معنى ومأسوية، وأولئك الذين يعتبرون الدين – على وفق تفكيرهم، خرافات مكلفة ومحبوكة لسد الطريق أمام العقل والحرية، وهذا الخلاف كان حادا في الفندي the vendée وهي منطقة ساحلية بين اللوار Loire ولاروشيل La Rochelle حيث المناخ القاسي والأرض الصخرية الجدبة، وحيث الولادات والوفيات تجري بشكل روتيني مكرر، مما جعل السكان في غالبهم محصنين ضد أفكار فولتير ورياح التنوير. حقيقة إن أهل المدن والفلاحين قبلوا الثورة لكن عندما أعلنت الجمعية التأسيسية الدستور المدني للإكليروس – مصادرة ممتلكات الكنيسة محوِّلة القسس كلهم إلى موظفين في الدولة – أيد الفلاحون قسسهم في رفضهم الموافقة على هذا الدستور، فتحولت دعوة شبابهم للتطوع في الجيش أو التجنيد الإلزامي فيه، إلى دعوة لإشعال النار في الثورة . فلم يقدم أولادهم حياتهم لحماية حكومة كافرة؟، فالأولى هو أن يدافعوا عن قسسهم ومذابح كنائسهم ومعبودات أسرهم .

وعلى هذا ففي ٤ مارس ١٧٩٣ انفجر التمرد في الفندي وبعد ذلك بتسعة أيام انتشرت في الإقليم، وبحلول أول مايو أصبح هناك ٣٠,٠٠٠ متمرد مسلح، وشارك عدد من الموالين للملكية الزعماء القرويين في تنظيم هؤلاء المتطوعين في كتائب منظمة، وقبل أن يتحقق المؤتمر الوطني من قوتهم كانوا قد استولوا على توار Thouars وفونتني Fontenay وسومور Saumur وأنجر Angers وفي أغسطس أرسلت لجنة الأمن العام إلى الفندي جيشا بقيادة الجنرال كليبر (كليبه) Kléber مزودا بتعليمات بتدمير قوات الفلاحين وتدمير المناطق التي تؤيدهم كلها. وهزم كليبر جيش الكاثوليك في شولت Cholet في ١٧ أكتوبر ولاحقه حتى سافيني Savenay في ٢٣ ديسمبر، وجرى تعيين مندوبين عسكريين من لجنة الأمن العام في أنجر Angers ونانت Nantes ورينز Rennes وتور Tours وزودتهم بأوامر بإعدام أي واحد من أهل فندي يحمل السلاح . وفي غضون عشرين يوما تم إعدام ٤٦٣ في أنجر

(*) المسيحية أساساً.

Angers أو بالقرب منها . وقبل إخضاع الفنديين على يد المارشال هوش Hoche (في يوليو ١٧٩٦) كان نصف مليون شخص قد فقدوا حياتهم في هذه الحرب الدينية الجديدة .

وفي باريس كان عدد كبير من السكان غير مبالين بأمر الدين ولهذا سهل الاتفاق بين الجبليين (the Mountain اليسار) والجيرونديين، فقد تعاونوا معا في تقليص قوة الإكليروس وعملا معا على إنشاء تقويم وثني [*]Pagan Calendar، وشجعت الثورة زواج القسس بل وصدر مرسوم بإبعاد (نفي) كل أسقف امتنع عن الزواج . وفي حماية الثورة تم تزويج ألفي قس وخمسمائة راهبة[٨٥] . وكان ممثلو لجنة الأمن العام يعمدون إلى بعض الإجراءات المناهضة للمسيحية في عملهم، وقد أمر أحدهم بسجن قس وألا يفرج عنه حتى يتزوج . وفي نيفر Nevers أصدر فوشي Fouché أحكاما صارمة فيما يتعلق بالقسس: لا بد أن يتزوجوا، ولا بد أن يعيشوا ببساطة حياة غير مترفة . لتكن حياتهم كحياة الرسل[**] Apostles ولا بد أن يمتنعوا عن ارتداء ثياب الكهنوت وأن يمتنعوا عن ممارسة الطقوس الدينية خارج الكنائس، وتم إبطال الطقوس الكنسية في أثناء الجنائز ولا بد أن تنقش على المقابر عبارة "الموت نوم أبدي" وأمر (فوشي) رئيس الأساقفة وثلاثين قسا أن يطرحوا قلنسواتهم الدالة على هويتهم الدينية ليضعوا فوق رؤوسهم غطاء الرأس الثوري الأحمر . وفي مولين Moulin ركب (فوشي) على رأس موكب ليحطم في طريقه الصلبان المجردة كلها "+" والصلبان التي تمثل المسيح مصلوبا والصور والتماثيل الدينية كلها[٨٦]. وفي كليرمونت – فران Clermont - Ferrand أعلن كوثو Couthon أن دين المسيح قد تحول إلى دجل مالي (خداع للحصول على المال)، واستأجر طبيبا لإجراء تجارب أمام الجماهير ليثبت أن ظهور "دم المسيح" بشكل إعجازي في الزجاجة التي تقدمها الكنيسة ليس سوى زيت التربنتينة مصبوغاً باللون الأحمر[***] Colored Turpentine وألغى المرتبات التي تدفعها الحكومة للقسس وصادر ما في الكنائس من آنية ذهبية وفضية، وأعلن أن الكنائس التي لا

(*) المقصود تقويم غير مرتبط بميلاد المسيح، وليس من الضروري أن يكون مثل هذا التقويم وثنيا كما يرى القارىء (المترجم).

(**) المقصود المبشرون بالمسيحية الذين ألحقت أعمالهم بالأناجيل وعرفت باسم أعمال الرسل (المترجم).

(***) لدحض العقيدة المسيحية القائلة أن خبز القربان في الكنيسة هو لحم المسيح ودمه، وأنهم بتناوله إنما يشاركون المسيح في اللحم والدم. والإخوة المسيحيون الآن قد خففوا الآن من هذا المعتقد، واعتبروا هذا التحول رمزيا (المترجم).

يمكن أن تتحول إلى مدارس يمكن - بموافقته - أن تهدم ليبنى مكانها مساكن للفقراء، وأعلن لاهوتا جديدا (نظرية دينية جديدة) تحل فيها الطبيعة محل الرب God، وتصبح السماء (المقصود الآخرة أو ما بعد الموت) مكانا لجمهورية مثالية (دولة مثالية - يوطوبيا) يصبح بها الناس كلهم صالحين[٨٧].

وكان زعماء المعركة ضد الدين هم هيبير Hébert في مجلس مدينة باريس وشوميت Chaumette في كومون باريس. وبسبب الحماس الذي أثارته خطب شوميت وصحافة هيبير اقتحمت جموع من الطبقة الثالثة الدنيا (السانس كولوت) دير القديس دينيس (سان ديني) Abbey of St. Denis في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣ وأفرغوا توابيت أفراد الأسرة المالكة المدفونين فيها، وصهروا معادن هذه التوابيت لاستخدامها في صنع أسلحة للحرب، وفي ٦ نوفمبر وافق المؤتمر الوطني رسميا على إعطاء كومونات فرنسا الحق في نقد الكنسية المسيحية، وفي ١٠ نوفمبر راح رجال ونساء قادمون من أحياء الطبقة العاملة ومن النوادي (المراكز الأيديولوجية) في باريس يلوحون في الشوارع بطريقة هزلية بالملابس التي يرتديها رجال الدين الكاثوليك ويسخرون من طقوسهم، ودخلت جموعهم المؤتمر الوطني وفرضوا على أعضائه الحضور في المهرجان المسائي في كاتدرائية نوتر - دام Notre - Dame التي أصبح اسمها "معبد العقل the Temple of Reason" وهناك تم تنظيم طقوس جديدة حيث ارتدت الآنسة كاندل Mlle. Candelle ممثلة الأوبرا علم الثورة الثلاثي الألوان ووضعت فوق رأسها الكاب الأحمر، ووقفت باعتبارها ربة الحرية وراحت نسوة مقنعات يحطن بها ويغنين "نشيد الحرية" الذي ألفه لهذه المناسبة ماري جوزيف دى شينيه Marie - Joseph de Chénier ورقص المتعبدون وغنوا في صحن الكنيسة، بينما راح المستفيدون من الحرية يحتفلون بممارسة الحب (الجنس) في المصلات الجانبية في الكنيسة، كما ذكر كتاب التقارير المعادون للثورة[٨٨]. وفي ١٧ نوفمبر تم إحضار جان - بابتست جوبل Jean - Baptiste Gopel أسقف باريس، بناء على طلب الجماهير، ليمثل أمام المؤتمر الوطني ليشجب منصبه ويتنكر له ويسلم لرئيس المؤتمر صولجانه (صولجان الأسقف ذا الدلالة الدينية Crozier) وجرسه ring وأن يضع فوق رأسه الكاب الأحمر الدال على الحرية[٨٩].

وفي ٢٣ نوفمبر أمر الكومون بإغلاق الكنائس كلها في باريس[٩٠].

ومن ناحية أخرى كان المؤتمر الوطني يرى أنه لا يجب المغالاة في تأكيد دوره في العمل ضد المسيحية . وكان أعضاء المؤتمر جميعا – تقريبا – من اللاأدريين agnostics والمؤمنين بوحدة الوجود أو من الملحدين(*) (المقصود كما سبق القول غير المؤمنين بالثالوث والطقوس المسيحية) ومع هذا فإن كثيرين منهم تشككوا في مدى حكمة إثارة الكاثوليك المخلصين الذين كانوا يشكلون الأغلبية، وكان كثيرون منهم مستعدين لحمل السلاح ضد الثورة . وكان بعض الأعضاء مثل روبيسبير وكارنو Carnot قد شعروا أن الدين هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تمنع تكرار حدوث التمرد الاجتماعي ضد عدم المساواة المبدأ عميق الجذور جدا في الطبيعة لدرجة يصعب معها إزالته بالتشريعات . واعتقد روبيسبير أن الكاثوليكية كانت استثمارا منظما للخرافة[٩١] لكنه رفض الإلحاد باعتباره افتراضاً مغروراً وقحاً باستحالة المعرفة، وفي ٨ مايو سنة ١٧٩٣ كان قد أدان الفلاسفة Philosophes باعتبارهم منافقين احتقروا العامة وراحوا يلتمسون المنح من لدن الملوك . وفي ٢١ نوفمبر قال أمام المؤتمر الوطني وكانت مهرجانات معاداة المسيحية قد بلغت ذروتها في هذا الوقت .

"كل فيلسوف وكل شخص يمكنه أن يعتقد من أفكار الإلحاد ما يحلو له . وأي شخص يرغب في أن يجعل هذا الفكر جريمة متهم، لكن الرجل العام (صاحب المسئولية) أو المشرع إذا ما تبنى هذه الأفكار الإلحادية فإنه غبي بل إن غباءه يتضاعف مائة مرة عن غيره . . . .

فالإلحاد أرستقراطي؛ ففكرة الموجود الأعظم (الله) الذي يرى ويعلم كل شيء والمطلع على كل ما يناقض الطهارة، ويعاقب على الجرائم الكبرى هي فكرة الشعب في الأساس (فكرة شعبية) إن هذه الفكرة هي التي تمثل شعور أوربا بل والعالم . إنها فكرة الشعب الفرنسي التي تمثل مشاعره وإحساسه . إن هذه الفكرة (وجود موجود أعظم) لا علاقة لها بالقسس ولا بالخرافة ولا بالطقوس . إنها فقط مرتبطة بقوة لا يدركها أحد (مبهمة لا يمكن سبر أغوارها) . . إنها فكرة مرهبة للآثمين وراحة واستقرار للمتمسكين بالفضيلة[٩٢].

وهنا كان دانتون متفقا مع روبيسبير: "إننا لا ننوي هدم صروح الخرافة لنقيم حكم

(*) راجع مقدمة الترجمة العربية.

الإلحاد . . إنني أطالب بإنهاء هذه الحفلة التنكرية ضد الدين في هذا المؤتمر الوطني"(٩٣).

وفي ٦ ديسمبر سنة ١٧٩٣ أعاد المؤتمر الوطني تأكيده على حرية العبادة وضمن حماية الطقوس الدينية التي يقوم عليها قسس موالون، واعترض هيبير **Hobert** ذاكرا أنه هو أيضا يشجب الإلحاد لكنه انضم للقوى التي تهدف إلى تقليص شعبية روبيسبير . لقد أصبح روبيسبير الآن يعتبره عدوا لدودا وراح ينتهز الفرص لتدميره(*).

د – الثورة تأكل أبناءها:

كانت قوة هوبير تعتمد على شريحة العوام من السانس – كولوت التي يمكن تنظيمها وحشدها عن طريق إدارات الأحياء في باريس وعن طريق الصحافة الراديكالية لاجتياح المؤتمر الوطني واستعادة حكم باريس على سائر الجمهورية الفرنسية أما قوة روبيسبير التي كانت تعتمد سابقا على جماهير باريس فقد اصبحت الآن تعتمد على لجنة الأمن العام التي سيطرت على المؤتمر الوطني من خلال تسهيلات كبرى في المعلومات والقرارات والإنجاز .

وفي نوفمبر سنة ١٧٩٣ كانت لجنة الأمن العام في ذروة شهرتها ومجدها، وكان هذا يعود في جانب منه إلى نجاحها في حشد الجماهير وتجنيدهم، لكن السبب الأساسي لهذه الشهرة والمجد كان يرجع على نحو خاص للانتصارات العسكرية على مختلف الجبهات، فالجنرالات الجدد – جوردان Jourdan وكلرمان Kellermann وكليبر (او كليبه) Kléber وهوش Hoche وبيشرجو - Pichergu كانوا أبناء للثورة غير مقيدين بالنظم والتكتيكات القديمة، ولم تكن ولاءاتهم قد تناقصت بمرور الوقت، وكانوا يقودون مائة مقاتل كانوا – رغم كونهم ناقصي السلاح والتدريب – مفعمين حماسا وشجاعة فماذا يمكن أن يحدث لهم ولأسرهم إن اخترق العدو خطوط القتال الفرنسية؟ حقيقة لقد جرى صدهم عند كيزرسكوتيرن Kaiserskautern لكنهم استعادوا تقدمهم واستولوا على لاندو Landau

---

(*) كتب جون مورلي John Morley في نحو سنة ١٨٠٠: « إن الصراع الذي دار بين هيبير **Hébert** وشومت وكومون باريس من ناحية وروبيسبير ولجنة الأمن العام من ناحية أخرى، كان شكلا محددا من أشكال الخلاف لا زال موجودا في المجتمع المعاصر: أيمكن تحقيق الوحدة الاجتماعية بغير الاعتقاد في وجود الله، أما شومت فقد أجاب بنعم، وأما روبيسبير فقد أجاب بلا ... وقد كان روبيسبير في هذا تابعاً لروسو (المتبوع)، أما شوميت فقد كان متفقاً مع ديدرو.(٩٤)"Diderot (٩٤)

وسبير Speyer . وقد أجبروا الإسبان على التراجع عبر جبال البرانس وأعادوا الاستيلاء على طولون Toulon بمساعدة الشاب نابليون .

ومنذ ٢٦ أغسطس استولت على طولون ذلك الميناء المهم ذو الموقع الاستراتيجي على ساحل البحر المتوسط قوات متعددة إنجليزية وإسبانية ونابلي (قادمة من نابلي في إيطاليا) يحميها أسطول إنجليزي إسباني مشترك ويؤازرها المحافظون المحليون (غير المؤازرين للثورة)، وظل جيش الثوار يحاصرها ثلاثة أشهر بلا جدوى، وكان هناك رأس هو كشريط محدد للطرفين (رأس أوجوليت (Cap L'Aiguillette والكلمة في القواميس الفرنسية تعنى الرأس أو الشريط أو القنة الداخلة في البحر) يقسم الميناء ويشرف (من عل) على الترسانة، والقوات التي تستولي على هذا الموقع تتحكم في الميناء لكن البريطانيين كانوا قد أغلقوا الطريق إلى هذا الرأس من ناحية البر بحصن جيد التسليح ومتين جدا حتى إنهم أطلقوا عليه جبل طارق الصغير . وكان من رأي بونابرت Bonaparte وكان عمره ٢٤ سنة أنه إذا أمكن إجبار الأسطول المعادي على مغادرة الميناء، فإن الحامية التي تحتل المدينة ستفقد المؤن والمدد اللذين يأتيانها من البحر، مما يجبرها على التخلي عن المدينة . ووجد نابليون – بعد عملية استطلاع تنطوي على المخاطرة والتصميم – داخل دغل موقعا يمكنه منه – بشيء من الأمن – أن يطلق مدافعه على الحصن الذي يتحصن به الأعداء، وعندما دمرت قذائق المدافع جدرانه شنت القوات الفرنسية هجوما عاصفا على الحصن، فقتلت المدافعين عنه واستولت على ما به من بنادق وحولت القوات الفرنسية المهاجمة جهودها لضرب أسطول العدو، فأمر اللورد هود Hood الحامية بمغادرة المدينة وأمر سفنه بمغادرة الميناء . وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ استرد الجيش الفرنسي مدينة طولون . وكتب أوغسطين روبيسبير Augustin Robespierre المبعوث المفوض المحلي من لجنة الأمن العام إلى أخيه مادحاً جهود نابليون مبينا "الجدارة التي تفوق الحد" لقائد المدفعية الشاب . وبدأت ملحمة جديدة .

هذه الانتصارات الآنف ذكرها وانتصارات كليبر Kléber في الفندي the Vendée أطلقت يد لجنة الأمن العام في التعامل مع المشاكل الداخلية . لقد كان هناك زعم بوجود "مؤامرة أجنبية" لاغتيال قادة الثورة وإن لم يوجد دليل على ذلك . وانتشر الفساد (خراب

الذمم) في مجال إنتاج المؤن للجيش وتسليمها له "ففي جيش الجنوب فقد ٣٠٫٠٠٠ زوج من السراويل (البناطيل) – فكانت أكثر الفضائح خزيا"[٩٥] وساعدت المضاربات على عمليات التلاعب في السوق مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بشدة . ولم تعد الأسعار التي حددتها الحكومة (حددت لها سقفا Maximum) تسري إلا على المنتجات المهمة، ولكن المنتجين اشتكوا من أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بهذا السقف (الحد الأقصى للأسعار كما حددته الحكومة) إذا لم يتم ضبط أجور العمال أيضا .

وجرت مواجهة التضخم لفترة، ولكن الفلاحين والصناع والتجار خفضوا الإنتاج وزادت البطالة بينما الأسعار ترتفع وراحت المؤن تقل وراحت ربات البيوت يقفن في الصفوف للحصول على الخبز والحليب واللحم والزبد والزيت والصابون والشموع وخشب التدفئة . وراحت الصفوف تبدأ منذ منتصف الليل ليكون لمن فيها السبق في الحصول على المواد المطلوبة، فراح الرجال والنساء ينطرحون عند مداخل المحلات على الممرات انتظارا لفتح المحلات لأبوابها، وتحرك الصفوف للحصول على المؤن . وهنا وهناك راحت المومسات الجائعات يعرضن بضاعتهن على الواقفين في « الطابور »[٩٦] . وفي حالات كثيرة كانت جماعات قوية مسلحة تقتحم المخازن لتحمل معها ما تريد من بضائع وتدنت الخدمات البلدية وانتشرت الجرائم وكان عدد أفراد البوليس قليلا، وامتلأت الشوارع بالقمامة، وأفسدت جو المدن، واعترت ظروف مشابهة روان Rouen وليون Lyon، ومارسيليا وبوردو Bordeaux.

ونقل عوام باريس (السانس كولوت) ولاءهم من روبيسبير إلى هيبر Hébert وشومت Chaumette لأنهم اعتبروا أن لجنة الأمن العام قد أساءت إدارة الاقتصاد وأن المستغلين والمتربحين قد حاصروا "سفينة" الدولة وراح عوام باريس يصغون بشغف ورغبة إلى اقتراحات بتأميم الثروات والممتلكات كلها أو – على الأقل – الأراضي . واقترح أحد زعماء الأحياء (أقسام باريس) معالجة المحنة الاقتصادية بقتل الأثرياء كلهم[٩٧] . وبحلول عام ١٧٩٤ كانت هناك شكوى عامة بين العمال من أن البورجوازية قد سرقت الثورة (جعلتها لصالحها) .

وفي نهاية ١٧٩٣ ظهرت تحديات جديدة للجنة الأمن العام سببها زعيم ثوري قوي وصحفي لامع . فرغم الشراسة الظاهرة التي يبديها دانتون Danton فقد كان به لمسة محببة لدرجة أنه جفل عند إعدام الملكة وبسبب العنف الشديد في فترة الإرهاب، فعند عودته من أرسيز Arcis حكم بأن طرد الغزاة من فرنسا وإعدام معظم أعداء الثورة النشيطين لم يعد يترك مسوغا معقولاً للحرب أو الإرهاب وعندما عرضت بريطانيا السلام أوصى بقبوله، أما روبيسبير فقد رفض وكثف من الإرهاب على أساس أن الحكومة ما تزال تواجه العقبات التي يضعها غير الموالين والمتآمرين والمفسدين . أما كاميل ديمولان Camille Desmoulins الذي كان في وقت من الأوقات سكرتيرا لدانتون وصديقه المعجب به وقد كان مثله ينعم بزواج سعيد، فقد أسس جريدة هي "الكوردلييه العجوز Le Vieux Cordelier" (الكلمة كوردلير تعنى الراهب الفرنسسكاني لكن هذا ليس هو المعنى المقصود فقد تم إنشاء ناد ثوري كما ذكرنا في سياقات سابقة في مقر دير للرهبان الفرنسسكان بعد طرد الرهبان منه، فعرف بنادي الكوردلير) جعلها المتحدث الناطق باسم المتسامحين أو دعاة السلام، ودعا من خلالها إلى إنهاء حكم الإرهاب:

"الحرية ليست إحدى عذراوات الأساطير اللائى يشاهدن في الأوبرا، وليست غطاء رأس (كاب) أحمر وليست قميصا قذرا أو أسمالا . إنما الحرية هي السعادة والعقل والمساواة والعدالة، وإعلان حقوق الإنسان الذي هو دستوركم الأعلى الذي لا يزال يدعو إلى التحرر .

أتريدونني أن أعترف بهذه الحرية (بمعناها الثاني الذي أقره) وأخر عند قدميها وأسفك دمي من أجلها؟ إذن أفتح السجون وأخرج منها من بلغ عددهم ٢٠٠,٠٠٠ ممن تسمونهم المشتبه فيهم ... لا تظنوا أن في هذا الإجراء نهاية للجمهورية . إن العكس هو الصحيح . إنه إجراء أكثر ثورية مما تظنون . أتريدون إبادة أعدائكم كلهم بقطع رقابهم بالمقصلة؟ أهناك جنون أكثر من هذا؟ أيمكنكم أن تنهوا حياة شخص من غير أن توجدوا لأنفسكم عدوين من بين أسرته وأصدقائه؟

إنني مختلف تماما مع أولئك القائلين بضرورة الإبقاء على الإرهاب كنظام لهذه الفترة، إنني على ثقة من أن الحرية ستتأكد وأن فرنسا ستفتح أوربا حالما تصبح لجنتكم لجنة

للرحمة والاعتدال(٩٨) Committee of Clemency.

وانزعج روبيسبير – الذي كان حتى الآن صديقا لديمولان - Desmoulins من دعوته لفتح السجون، فهؤلاء الارستقراطيون والقسس والمضاربون والبورجوازيون المنتفخون، ألن يواصلوا – إذا ما أطلق سراحهم – بغير تردد مشروعاتهم لاستغلال الجمهورية وتدميرها؟ لقد كان روبيسبير مقتنعا أن خوفهم من القبض عليهم وإدانتهم إدانة سريعة، وشبح الموت المتراقص أمامهم، هي وحدها القوة التي تبعدهم (أعداء الجمهورية) عن حبك المؤامرات ضدها والعمل على إسقاطها.

لقد شك روبيسبير في أن تحول دانتون المفاجىء إلى سياسة الرحمة إنما هو خدعة لينقذ من نصل المقصلة بعض الذين قبض عليهم مؤخرا لقيامهم بأعمال محظورة ممن لهم علاقة به، ولحماية نفسه (دانتون) إذا افتضحت علاقته (أي دانتون) بهم. وكان بعضهم – فابر دجلانتين Fabre d'Eglantine وفرنسوا شابو François Chabot – قد حوكما في ١٧ يناير سنة ١٧٩٤ واتضح أنهما مذنبان. وانتهى روبيسبير إلى أن دانتون وديمولان يميلان إلى التخلي عن مقعديهما وإنهاء أعمال لجنة الأمن العام. وخلص روبيسبير إلى أنه لن يكون آمناً أبدا طالما ظل صديقاه القديمان هذان على قيد الحياة.

وعمل (روبيسبير) على ألا يتحد أعداؤه وعمل على تحويل معارضتهما له إلى معارضة كل واحد منهم للآخر فقد شجع هجوم دانتون وديمولان Desmoulins على هيبر (إيبير) Hébert ورحب بمساعدتهما في شجب الحرب على الدين، وعول هيبير Hébert على شغب أهل المدن بسبب غلاء أسعار الطعام وندرته. ووجه النقد لكل من الحكومة وجناح المتساهلين المطالبين بالتسامح وإنهاء الإرهاب Indulgents، وفي ٤ مارس ١٧٩٤ أدان روبيسبير وذكره بالاسم، وفي ١١ مارس هدد أتباعه في نادى الكوردلير (لأن هذا النادي أصبح أعضاؤه يجتمعون في مقر دير سابق للرهبان الفرنسيسكان – الكوردليير) صراحة بعصيان مسلح. واتفقت غالبية لجنة الأمن العام مع روبيسبير على أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء، فتم القبض على هيبر Hébert وكلوت Cloots وعدد آخر غيرهما وحوكموا بتهمة ارتكاب أعمال محظورة عند توزيع المؤن على الناس، وكانت تهمة ماكرة لأنها

جعلت العوام من السانس كولوت يتشككون في قادتهم الجدد، وقبل أن يستطيع هؤلاء المتهمون إثارة الناس، جرى اتهامهم واقتيادهم بسرعة إلى المقصلة (في ٢٤ مارس)، وانهار هيبير Hébert وبكى، أما كلوت Cloots، فبقي باردا هادئا - بطريقة تيوتونية(*) منتظرا دوره ليموت، وخاطب الجماهير قائلا: "يا أصدقائي لا تخلطوا بيني وبين هؤلاء الأنذال"(٩٩).

ولا بد أن دانتون قد تحقق أنه كان قد استخدم كأداة ضد هيبير Hébert وأنه أصبح الآن قليل القيمة بالنسبة للجنة (لجنة الأمن العام)، ومع هذا فقد استمر في محاولاته في تحويل اتجاه اللجنة إلى الرحمة والسلام. وهي سياسة تتطلب من الأعضاء نبذ الإرهاب الذي حافظوا من خلاله على مقاعدهم، ونبذ الحرب التي بررت دكتاتوريتهم.

وحث دانتون على إنهاء عمليات القتل فقال: "دعونا نترك شيئا لذبح الآراء (بدلا من البشر)" وظل يخطط لمشروعات تعليمية وإصلاحات قضائية. وظل جريئاً متحديا إذ قال له أحدهم إن روبيسبير يخطط للقبض عليه، فأجابه "إذا ظننت أن مجرد فكرة كهذه في رأسه فسأجعل قلبه يذوب حسرات"(١٠٠) فحكم الإرهاب قد حول فرنسا في غالبها إلى دولة من دول الطبيعة(**) State Nature فغدا معظم الناس يشعرون أنه يجب عليهم أن "يأكلوا قبل أن يؤكلوا". وحثه أصدقاؤه أن يأخذ المبادرة ويهاجم لجنة الأمن العام أمام المؤتمر الوطني، لكنه كان مرهقا جدا معتل الإرادة فلم يشأ أن يعقب اجتماعاته التاريخية بحماقة. لقد استنفدت مقاومة أمواج الثورة طوال أربع سنوات طاقته وقد ترك الآن الأمواج التحتية (غير الظاهرة) تحمله بعيدا دون مقاومة. لقد قال "لأن تقطع المقصلة رقبتي أفضل عندي من أن أقطع رقاب الآخرين" (لم يكن أمره كذلك دائما) "بالإضافة إلى أنني سئمت البشر"(١٠١).

وكان من الواضح أن بيلو - فارين - Billaud Varenne هو الذي أخذ المبادرة بالتوصية بالقضاء على حياة دانتون، واتفق معه كثيرون من أعضاء لجنة الأمن العام لأن معنى السماح باستمرار سياسة المتسامحين Indulgents هو تسليم الثورة لأعدائها في الداخل والخارج.

(*) Teutonically من Teuton وهم فيما يقول البعلبكي في قاموس المورد (إنجليزي - عربي) شعب جرماني أوسلتي قديم (المترجم).

(**) المقصود ارتدت إلى المرحلة البدائية.

وكان روبيسبير لفترة يعارض فكرة "اختصار" حياة دانتون، لكنه شارك أعضاء اللجنة الآخرين الاعتقاد بأنه – أي دانتون – سمح لجزء من أموال الدولة بالتسرب بين أصابعه، لكنه أدى خدمات للثورة، وكان روبيسبير يخشى أن يؤدي الحكم بالإعدام على واحد من أكبر زعماء الثورة إلى عصيان مسلح في أحياء باريس وفي الحرس الوطني .

وخلال فترة تردد وربيسبير هذه كان دانتون يزوره لمرتين أو ثلاثة لا ليدافع عن ذمته المالية فحسب، وإنما ليحول هذا الوطني العنيد (روبيسبير) إلى سياسة السلام وإنهاء حكم الإرهاب، لكن روبيسبير ظل غير مقتنع بذلك بل وزادت شراسته، فساعد سان – جوست Saint - Just (الذي كان دانتون كثيرا ما يسخر منه) في إعداد التهمة ضد منافسه الكبير (دانتون) . وفي ٣٠ مارس جمع لجنة الأمن العام ولجنة الضمان العام لاتخاذ قرار مشترك (واحد) ليضمن إصدار المحكمة الثورية حكما بالإعدام على دانتون وديمولان Desmoulins واثني عشر شخصا أدينوا مؤخراً بالاختلاس . ونقل واحد من أصدقاء هذا الجبار (التيتان Titan) الأخبار إليه وحثه على مغادرة باريس والاختباء في إحدى المحافظات، لكن "الجبار" (المقصود دانتون) رفض العرض. وفي صباح اليوم التالي قبض عليه البوليس الذي قبض أيضا على ديمولان Desmoulins الذي يعيش في طابق فوق الطابق الذي يسكن فيه دانتون في البناية نفسها .

وسجن دانتون ومن معه في الكونسير جيري (غرفة البواب في قصر التوليري) فأبدى ملاحظة "ذات يوم مثل يومنا هذا نظمتُ المحكمة الثورية .... إنني أسأل الله والبشرية أن يسامحاني على هذا ... في الثورات يظل قابضا على السلطة من هو أكثر نذالة"[١٠٢] .

وفي أول أبريل اقترح لويس ليجندر Louis Legendre على النواب أن يسمح لدانتون بالدفاع عن نفسه أمام المؤتمر الوطني فقد أرسل يطلب ذلك من سجنه وأنه – لويس ليجندر الذي كان معيناً حديثا مبعوثاً مفوّضاً للجنة الأمن العام – قد وافق، لكن روبيسبير أوقفه عن مواصلة حديثه بحملقة مشئومة منذرة بسوء وصاح قائلا : "دانتون غير مميز ... سوف نرى هذا اليوم ما إذا كان المؤتمر الوطني قادراً على تدمير وثن (إله زائف) ..."[١٠٣]

عندئذ قرأ سان – جوست قائمة الاتهامات التي كان قد أعدها سلفا فأمر النواب – وكان

كل واحد منهم متنبهاً لسلامته الشخصية - بتحويل دانتون وديمولان للمحاكمة فورا .

وفي ٢ أبريل قيد دانتون وديمولان ليمثلا أمام المحكمة . وربما لخلط الأمور، كانا ضمن دفعة من المتهمين بمن فيهم فابر ديجلانتين Fabre d'Eglantine ومتآمرون أو مختلسون آخرون، وهيرول دى سيشل Hérault de Séchelles (وقد أدى هذا إلى دهشة عامة ودهشة دانتون) وكان هيرول هذا عضوا مهذبا دمثا في لجنة الأمن العام لكنه متهم الآن بالتعاون مع أتباع هيبير Hébertists وبالتورط في مؤامرة خارجية ودافع دانتون عن نفسه بقوة وأمعن في السب وتوجيه التهم مما أثر في اللجنة والحاضرين لمشاهدة المحاكمة وسماعها(١٠٤) . لدرجة أن فوكييه تينفيل Fouquier - Tinville أرسل يطلب من لجنة الأمن العام قرارا بإسكات الدفاع واضطرت اللجنة لأن ترسل للمؤتمر الوطني تتهم أتباع دانتون ديمولان - وفقا على ما وصلها من معلومات - بأنهم يتآمرون لإطلاق سراحهما بالقوة، وعلى هذا الأساس أعلن المؤتمر الوطني أن كلا الرجلين لم يعودا تحت حماية القانون وهذا يعني أنه يمكن إعدامهما دون إجراءات قانونية . وعندما تلقى أعضاء المحكمة هذا القرار أعلنوا أنه قد اصبح لديهم أدلة كافية وأنهم مستعدون لإصدار الحكم . وأعيد المسجونان إلى سجنهما وتم صرف من حضروا لمتابعة المحاكمة . وفي ٥ أبريل صدر حكم بإجماع أعضاء المحكمة بإعدام المتهمين كلهم، وعندما سمع دانتون بالحكم تنبأ قائلا : "قبل أن تنقضي هذه الشهور سيمزق الشعب أعدائي إربا "(١٠٥) . وقال : "حقير أنت يا روبيسبير ! إن المقصلة تناديك أنت أيضا . إنك ستتبعني"(١٠٦) . وكتب ديمولان من سجنه إلى زوجته : "حبيبتي لوسيل! Lucile.لقد ولدت لأقرض القصائد وأدافع عن سيئي الحظ . . . يا عزيزتي اهتمي بصغيرك . عيشي لحبيبي هوراس(*) Horace، وحدثيه عني . . . يداي المقيدتان تعانقانك"(١٠٧) .

وبعد ظهر الخامس من أبريل حمل المتهمان في عربة إلى ميدان الثورة، وفي أثناء الطريق تنبأ دانتون مرة أخرى قائلا : "إنني أترك الأمور مشو شة متخبطة . ليس من رجل فيهم لديه فكرة عن الحكم، إن روبيسبير سيتبعني إلى المقصلة . لقد جروه إلى المقصلة وجعلوني أسبقه"(١٠٨) . وعلى سقالة المقصلة كان ديمولان هو الثالث في طابور من ينفذ فيهم حكم

(*) شاعر روماني قبل الميلاد . وهو يقصد هنا ابنه، وقد يكون هذا اسمه فعلا وقد يكون من قبيل التدليل .(المترجم)

الإعدام وكانت أعصابه تكاد تتحطم، وكان دانتون في آخر الطابور وفكر دانتون أيضا في زوجته الشابة وراح يتمتم ببعض الكلمات ذكرها فيها ثم أمسك وقال لنفسه: "أقبل دانتون، لا تضعف" وبينما كان يقترب من نصل المقصلة، قال لجلاده (منفذ الحكم) "اعرض رأسي على الشعب. إنه جدير به"(١٠٩). لقد كان وقت إعدامه في الرابعة والثلاثين من عمره و كذلك ديمولان، لكنهما عاشا أعماراً كثيرة منذ ذلك اليوم في شهر يوليو الذي دعا فيه كاميل Camille أهل باريس للاستيلاء على الباستيل. وبعد موتهما بثمانية أيام تم إعدام لوسيل ديمولان مع أرملة هيبير Hébert وشومت Chamette.

لقد بدت الساحة ممهدة فكل الجماعات التي كانت قد تحدت لجنة الأمن العام قد تم التخلص منها أو قمعها، فالجيرونديون إما ماتوا أو تفرقوا، والعامة من السانس كولوت إما قسموا أو أرغموا على الصمت، وتم إغلاق النوادي(*) ما عدا نادي اليعاقبة وأخضعت الصحافة والمسارح لرقابة صارمة، وتخلى المؤتمر الوطني خوفا منه وجبنا عن القرارات الكبرى كلها للجنة الأمن العام . وأقر المؤتمر الوطني - بتوصية من لجانه الأخرى - قوانين ضد المضاربين والمحتكرين (خازني البضائع) Hoarders وقوانين لمجانية التعليم الابتدائي وإتاحته للجميع، وإنهاء القنانة (عبودية الأرض) في المستعمرات الفرنسية وتأسيس دولة الرفاهية مع الأمن الاجتماعي (الضمان الاجتماعي) وقوانين تنص على تقديم إعانة لغير العاملين (إعانة بطالة) ومساعدات طبية للفقراء ومساعدات لكبار السن . وقد أدت الحرب والفوضى الداخلية إلى حد كبير بالإسراع في هذه القرارات لكنها بقيت كأفكار تلهم الأجيال المتتالية.

أما روبيسبير الذي كانت يداه مخضبتين بالدم لكنهما طليقتان - فإنه الآن يعمل على إرجاع "الله" إلى فرنسا، فمحاولة إحلال "المذهب العقلي rationalism" محل المسيحية أثارت الفرنسيين ضد الثورة، ففي باريس كان الكاثوليك ثائرين لإغلاق الكنائس وإزعاج القسس بالغارات المستمرة عليهم، وشيئا فشيئا بدأت تزداد أعداد أفراد طبقة العوام والطبقة الوسطى التي تذهب لحضور قداس الأحد . وقدم روبيسبير البراهين في إحدى خطبه البليغة

(*) Clubs يكاد يكون معناها «الأحزاب السياسية» راجع مقدمة المترجم.

(٧ مـايو ١٧٩٤) على أن الوقت قـد حـان لعـقـد وفـاق بين الثـورة وجـدها الأعلى روسـو Rousseau الذي نقلت رفاته إلى البانثيون -Panthéon (مدفن العظمـاء) في ٤ أبريل فـلا بد للدولة أن تدعم الدين النقي البسيط - خاصة ذلك الذي اعتنقه Savoyard Vicar في كتاب إميل - Emile القـائم على الإيمان بالله واليـوم الآخر، والدعـوة إلى الفـضـائل المدنية والاجتـمـاعيـة كـأسـاس لقـيـام الجـمـهـورية . ووافق المؤتمر الوطني على ذلك على أمل إرضاء الأتقياء والتخفيف من حدة الإرهاب، وفي ٤ يونيو انتخب روبيسبير رئيساً له .

وترأس روبيسبير في ٨ يونيو ١٧٩٤ في سياق هذا التوجه ا لرسمي مهرجانا للاحتفاء "بالموجود الأسمى Fast of the superme Being" حـضـره مـائة ألف رجل وامرأة وطفل في ساحة دي مارس Champs-de-Mars وعلى رأس موكب كـبـير (يضم النواب المتشككين) امتد مسافة طويلة كان هذا المستقيم غير القابل للفساد أو الرشوة (المقصود روبيسبير) وقد حمل في يده الورود وسنابل القمح . وكـانت هناك عربة محملة بحزم القمح يجرها ثور أبيض بلون الحليب، وخلفها سار الرعاة من رجال ونساء يمثلون الطبيعة (في فطرتها الأولى) باعتبارها - أي الطبيعة - هي تركيبة واحدة وهي صوت الله Voice of God، وفي حوض يزين ساحة دي مارس، أقام ديفيد David الفنان الفرنسي الرائد في هذا العصر تمثالاً من خشب يمثل الإلحاد وقد قام على الرذيلة وتوج بالجنون، وإلى الأعلى في مواجهة هذا التمثال جعل الحكمة المنتصرة ترفع إصبعها في مواجهة الإلحاد والرذيلة والجنون . ووضع روبيسبير - الذي هو تجسيد للفضيلة - المشعل ناحية الإلحاد (ليحرقه) لكن ريحا تعسة حولت اللهب إلى "الحكمة" . ووضع نقش يشير إلى المبادىء الجديدة ويتسم معناه بالسماحة : "إن الشعب الفرنسي يؤمن بالموجود الأسمى وخلود الروح"[١١٠] وجرى إقامة احتفالات مشابهة في مختلف أنحاء فرنسا .

وكان روبيسبير سعيداً لكن بيلو فارين - Billaud - Varenne قال له : "لقد بدأت تضجرني مع موجودك الأسمى" .

وبعد ذلك بيومين حث روبيسبير المؤتمر الوطني على إصدار مرسوم يدعم - بشكل مثير للدهشة - حكم الإرهاب، لقد بدا روبيسبير وكأنه يجيب دانتون ويتحداه (رغم أن دانتون

كان قد أعدم بالمقصلة) عندما أقام مهرجانا لتكريم "الموجود الأسمى" كما بدا وكأنه يوبخ هيبير Hébert، فالقانون الصادر في ١٠ يونية ١٧٩٤ (٢٢ بريريال(*) Prairial بالتقويم الجمهوري) نص بهدف شجب الملكية والدفاع عن الجمهورية والرقي بها – على إعدام كل من يسيء للأخلاق أو يروج أخبارا كاذبة أو يسرق المال العام أو يتربح ويستغل أو يختلس أو يعوق نقل الطعام أو يعوق باي شكل مسار الحرب، وأكثر من هذا فإن هذا القانون خول المحاكم أن تقرر ما إذا كان المتهم في حاجة إلى محام أو مستشار أو شهود، إذا ظهر برهان إدانته[١١١]. وقال واحد من المحلفين: "بالنسبة لي شخصيا، فإنني مقتنع بذلك دائما ففي ظل الثورة، يعد كل من يمثل أمام هذه المحكمة Tribunal مدانا"[١١٢].

وكان ثمة تبريرات لهذا الإرهاب المكثف . ففي ٢٢ مايو جرت محاولة للاعتداء على حياة كولو دربوا Collot d'Herbois، وفي ٢٣ مايو جرى وقف شاب حاول – بشكل واضح – اغتيال روبيسبير . وأدى الاعتقاد في وجود مؤامرة أجنبية إلى أن أصدر المؤتمر الوطني مرسوما بالتعامل بغير رحمة مع أسرى الحرب البريطانيين والهانوفريين Hanoverian.وكان في سجون باريس نحو ثمانية آلاف من المشكوك في ولائهم، وكان لا بد من إرهابهم حتى لا يفكروا في إثارة الاضطرابات أو الهروب.

لهذا ظهر على نحو خاص ما يسمى "الإرهاب الأعظم Great Terror" واستمر من ١٠ يونيو إلى ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤، ففي أقل من سبعة أسابيع قطعت المقصلة رقاب ١,٣٨٦ **رجلاً وامرأة**، هذا بالإضافة إلى ١٥٥ كان قد جرى إعدامهم خلال الواحد والستين أسبوعا، بين مارس ١٧٩٣ و ١٠ يونيو ١٧٩٤[١١٣]. ولاحظ فوكييه تينفيل Fouquier - Tinville أن الرؤوس تتدلى من السقف كألواح الاردواز"[١١٤]. ولم يعد الناس يذهبون لمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام فقد أصبح المشهد معادا مكررا، وإنما راحوا يعكفون في منازلهم يتحسسون أي كلمة ينطقون بها. وتوقفت الحياة الاجتماعية تقريبا، وكادت المواخير وبيوت الدعارة والحانات تكون خاوية على عروشها. بل وتقلص عدد الحضور في المؤتمر الوطني نفسه، فمن بين ٧٥٠ عضوا لم يعد يحضر – الآن – سوى ١١٧، وحتى هؤلاء امتنع كثيرون منهم عن

(*) شهر المروج الخضر.

التصويت حتى لا يورطوا أنفسهم، وحتى أعضاء اللجنة عاشوا في رعب من أن يقعوا تحت نصل هؤلاء الثلاثة (المتحكمين الجدد) روبيسبير، وكوثو Couthon وسان جوست Saint - just.

وربما كانت الحرب هي التي أدت إلى أن يتبوأ الصدارة أفراد أقوياء عمدوا إلى تركيز السلطة في أيديهم بشكل مثير. وفي أبريل سنة ١٧٩٤ كان الأمير ساكس كوبرج Sax - Coburg قد قاد جيشا آخر داخل فرنسا، وكانت أي هزيمة تلحق بالدفاعات الفرنسية كفيلة بإثارة الفوضى والخوف في باريس، وحاول البريطانيون من خلال فرض الحصار البحري منع الإمدادات الأمريكية عن فرنسا ولولا نجاح الدفاعات الفرنسية في إلحاق الهزيمة بالأسطول البريطاني في أول يونيو ما وصلت الحمولات الغالية الثمن إلى برست Brest واستطاع الجيش الفرنسي أن يصد الغزاة بالقرب من شارلروي Charleroi (٢٥ يونيو) وبعد ذلك بيوم قاد سان جوست Saint - Just قوة فرنسية لإحراز نصر حاسم في فلورس Fleurus وانسحب كوبرج Coburg من فرنسا، وفي ٢٧ يوليو عبر جوردا Jourdan وبيشجرو Pichegru الحدود لإقامة الحكم الفرنسي في أنتورب Antwerp وليج Liège وقد يكون الانتصار الذي تحقق بصد الغزوة الكبيرة، مما ساهم في تدمير روبيسبير، فأعداؤه الكثيرون كانوا يشعرون أن الدولة والجيش قد يعملان على تفجير صراع مكشوف في قلب الحكومة، صراع لا هوادة فيه.

فلجنة الأمن العام كانت على خلاف مع لجنة الضمان العام(*) Committee of public Safety بسبب التنازع على السلطة السياسية. وفي هذه اللجنة الأخيرة كان بيو فارين Billaud - varenne وكولو دربوا Collot d'Herbois وكارنو Carnot في حالة ثورة متزايدة ضد روبيسبير وسان – جوست. فلما شعر روبيسبير بعداوتهم الشديدة له تحاشى حضور اجتماعات اللجنة في الفترة من أول يوليو إلى ٢٣ من الشهر نفسه لعل هذا يؤدي إلى تخفيف حساسيتهم من زعامته، لكن غيابه هذا أعطاهم الفرصة ليخططوا لإسقاطه. وأكثر من هذا فإن استراتيجيته راحت تضطرب وتترنح: ففي ٢٣ يوليو أحال المؤيدين له إلى

(*) بعض الكتب العربية تسميها «لجنة السلامة العامة».

أعداء بتسليمه لنواب السهل (المعتدلين) من رجال الأعمال بتوقيعه مرسوما بتحديد سقف الأجور (الحد الأقصى للأجور)، ومن الناحية الفعلية، وبسبب انخفاض قيمة العملة، خفض المرسوم بعض الأجور إلى النصف(١١٥).

وكان هناك الإرهابيون الذين عادوا من الدوائر أو المحافظات – فوشي Fouché وفريرو Fréron وتاليان Tallien وكاريه Carrier الذين وجدوا أن حياتهم متوقفة على إقصاء روبيسبير، فقد كان هو الذي استدعاهم إلى باريس طالباً منهم تقارير عن مهامهم لقد قال متسائلاً: "تعال يا فوشي Fouché وأخبرنا من الذي فوضك لتقول للناس إن الله غير موجود؟"(١١٦) وفي نادي اليعاقبة اقترح روبيسبير التحقيق مع فوشي فيما يتعلق بعملياته في طولون وليون أو سحب العضوية منه، ورفض فوشى أن يجيب عن مثل هذا الاستجواب، وانتقم لنفسه بإشاعة قائمة بأسماء أشخاص زعم أن روبيسبير اعتزم إعدامهم بالمقصلة. أما بالنسبة لتاليان Tallien فلم يكن في حاجة إلى من يحرضه ضد روبيسبير فقد كان هذا الأخير قد أمر بالقبض على خليلته الجذابة في ٢٢ مايو. وتقول الإشاعات إنها أرسلت إلى تاليان خنجرا، فأقسم أن يحررها (يخرجها من المعتقل) مهما كلفه ذلك.

وفي ٢٦ يوليو ألقى روبيسبير آخر خطاب له أمام المؤتمر الوطني الذي كان نوابه معادين له لأن كثيرين منهم كانوا معارضين للتسرع في إعدام دانتون ولام كثيرون منهم روبيسبير لتقليله من شأن المؤتمر الوطني. وحاول روبيسبير أن يدفع هذه التهم عن نفسه:

"أيها المواطنون... أريد أن أفتح قلبي، وأنتم في حاجة إلى سماع الحقيقة... لقد أتيت إلى هنا لأصحح أخطاء فظيعة. لقد أتيت لأبطل الأيمان المغلظة التي أقسمها بعض الرجال بقصد العصيان والتي راحوا يملأون بها معبد الحرية هذا... أي أساس لما هو موجود من نظام إرهابي بغيض؟ وأي أساس لهذا القذف والتشهير بالسمعة؟ ألكم أنتم نبدي أنفسنا مرعبين؟ إنهم الطغاة والأنذال هم الذين يخشون بأسنا لا الوطنيون وذوو النوايا الطيبة. ألم نضرب الإرهاب في المؤتمر الوطني؟ لكن من نكون نحن بغير المؤتمر الوطني؟ إننا نحن الذين دافعنا عن المؤتمر الوطني مخاطرين بحياتنا. نحن الذين وقفنا أنفسنا للحفاظ عليه، بينما يعمل فرقاء بغيضون على التآمر لتدميره كما ترون جميعا؟... إلى من توجه سهام التآمر

في المقام الأول؟ إننا نحن المقصودون. إننا نحن الذين يطلقون علينا سوط فرنسا أو سبب نكبها .. منذ فترة أعلنوا الحرب على بعض أعضاء لجنة الضمان العام (تسميها بعض المراجع العربية أيضا لجنة السلامة العامة).

وأخيرا بدوا يعملون على تحطيم رجل واحد ... إنهم يسمونني طاغية، إنهم يودون على نحو خاص أن يثبتوا أن محكمة الثورة إنما هي محكمة دم أنشأتها أنا وحدي وأسيطر عليها وحدي سيطرة مطلقة لقتل ذوي النوايا الطيبة كلهم....

إنني لا أجسر على تسمية هؤلاء المتهمين هنا والآن. إنني لا أستطيع وحدي أن أزيح بشكل كامل الحجاب الذي يغطي الألغاز العميقة لهذه الجرائم. لكنني أؤكد بشكل جازم أن من بين حابكي هذه المؤامرات ممثلين لجهاز فاسد مرتشٍ يدفعه الأجانب لتدمير الجمهورية ... إن الخونة موجودون هنا مختبئون تحت مظهرهم الكاذب الزائف. إنهم سيتهمون من يوجه لهم الاتهامات وسيضاعفون خداعهم .. ليضربوا وجه الحقيقة. إن هذا جزء من مؤامرة.

وأريد أن أنهي حديثي هنا بأن الطغيان يحكم بيننا، لكن ليس لهذا يجب أن أصمت. كيف يمكن لأي شخص أن يلوم رجلاً الحق بجانبه، ويعرف كيف يموت في سبيل وطنه"(١١٧).

وثمة بعض الاضطراب في هذا الخطاب التاريخي فقد كان روبيسبير حتى لحظة إلقاء خطابة يشق طريقة بحذر بين أشراك السياسة، والسلطة تفقد العقل أكثر مما تسبب الفساد، والاحتفاظ بالسلطة يتطلب العمل السريع (اتخاذ إجراءات سريعة أكثر مما يتطلب تأملا). إن لهجة الخطاب التي لا تكتفي بالدلالة على البراءة وسلامة الطوية فقط، وإنما تشير إلى أنه "رجل يقف الحق بجانبه" .... مثل هذا الكلام لا يصلح إلا أن يكون على لسان سقراط بعد أن قطع نصف الطريق فعلا إلى الموت.

إنه لمن الصعب أن ندخل في باب الحكمة ما قام به من حث لأعدائه على معاداته، وإثارة غيظهم وحنقهم بتهديدهم بفضح أخطائهم وكشفها – وهذا يعني الحكم عليهم بالإعدام. لقد كان من غير الحكمة أن يؤكد أن المؤتمر الوطني متحرر من الخوف والإرهاب، عندما

يكون معروفاً أن هذا غير صحيح . والأسوأ من كل هذا رفضه أن يسمي الأشخاص الذين سيتهمهم (يقدمهم للمحاكمة) مما ضاعف من أعداد الأعضاء الذين قد يعتبرون أنفسهم ضحايا في المستقبل لغضبه . لقد تلقى المؤتمر الوطني اتهامه ببرود وأحبط حركة نادت بطبع خطابه وكرر روبيسبير خطابه هذا المساء في نادي اليعاقبة فقوبل بتصفيق حاد، وفي النادي أضاف لخطابه الآنف ذكره هجوما واضحا على بيلو - فارين Billaud - Varenne وكولو دربوا Collot d'Herbois اللذين كانا حاضرين فخرجا من النادي إلى حجرات لجنة الأمن العام حيث وجدا سان - جوست Saint - Just يكتب ما ذكره لهما بجسارة وهو قرار توجيه الاتهام لهما(١١٨) .

وفي صباح اليوم التالي ٢٧ يوليو (التاسع من شهر ثيرميدور(*) حسب التقويم الجمهوري) هب سان - جوست Saint - Just ليقدم هذا الاتهام المكتوب إلى المؤتمر الوطني الذي أعمت العدوانية بصائر أعضائه وأرعبهم الخوف . وكان روبيسبير يجلس أمام منصة الخطابة مباشرة . وكان دبلي Dupaly وصيفه المخلص قد حذره من توقع اضطرابات، لكن روبيسبير أعاد من جديد تأكيده لمن تنبأ بذلك (دبلي) بأن "المؤتمر الوطني سائر على خط الأمانة والإخلاص، والجماهير مخلصة كلها"(١١٩) . ولسوء الحظ كان الضابط الرئيسي (رئيس الضباط) في هذا اليوم من أعدائه (أي أعداء روبيسبير) الذين أقسموا أن يتخلصوا منه - إنه كولو دربوا Collot d'Herbois . وعندما بدأ سان جوست Saint - Just يقرأ قائمة الاتهامات، توقع تاليان Tallien أن يكون من بينهم، فاندفع إلى المنصة وأزاح الخطيب الشاب جانبا، وصاح قائلا : "إنني أطالب بإزاحة الستارة" يقصد كشف حقيقة الأمور . وحاول جوزيف ليباس Joseph Lebas الموالي لسان - جوست أن يأتي لنجدته لكن كلماته ضاعت إذ أسكتته مئات الأصوات، وطلب روبيسبير الفرصة ليسمعوه، فرفع تاليان Tallien السلاح الذي أرسل إليه عاليا وأعلن : لقد سلحت نفسي بخنجر سيتغلغل في جسده إذا لم يكن لدى المؤتمر الوطني الشجاعة الكافية لإصدار قرار باتهامه"(١٢٠) .

وسلم كولون Collon المقعد لثريو Thuriot الذي كان من أنصار دانتون، واقترب

(*) شهر الدفء» .

روبيسبير من المنصة صائحا، لكن جرس ثريو Thuriot بعثر معظم كلمات روبيسبير، واعتلى أحدهم موجة الفتنة وقال: "لآخر مرة يا زعيم الحشاشين(*) Assassins سيكون كلامي بالإذن منك" وارتفعت أصوات أعضاء المجلس الوطني معبرة عن عدم رضائها عن هذه الطريقة في الخطاب، ونطق أحد الأعضاء بكلمات كأنها قدر نزل: "إنني أطالب بالقبض على روبيسبير" فقام أوغسطين روبيسبير يتحدث كرجل روماني "إذا كان أخي مذنبا فإنني مذنب معه، إنني أشترك معه في فضائله، فليكن اسمي مدرجا في قراركم بالقبض عليه" وطلب ليباس Lebas الطلب نفسه، وبالفعل فقد ناله. وجرى التصويت على القرار فقبض البوليس على الروبيسبيرين (روبيسبير وأخيه) وسان - جوست، وليباس Lebas وكوثون Couthon وأسرع بهم إلى سجن لكسمبرج Luxembourg.

وأمر محافظ باريس (رئيس بلديتها) **فلوريو - ليسكو** Fleuriot Lescot بنقل السجناء إلى دار البلدية فتلقاهم كضيوف مكرمين وبسط عليهم حمايته، وأمر رؤوس الكومون (أولو الأمر فيه) هانريو Henriot رئيس الحرس الوطني في العاصمة - أن يأخذ جنودا وأسلحة من التوليري Tuileries وأن يحاصر أعضاء المؤتمر الوطني حتى يسحبوا قرارهم بالقبض على روبيسبير والآخرين الذين قبض عليهم معه لكن هانريو Henriot كان ثملا لإفراطه في الشراب فلم ينفذ هذه المهمة. وعين نواب المؤتمر الوطني بول بارا Barras ليكون على رأس قوة من قوات الدرك (الجندرمة) والتوجه إلى دار البلدية ليعيد القبض على السجناء، ودعا رئيس المجلس البلدي هانريو Henriot مرة ثانية فوجده قد جمع بشكل ارتجالي مجموعة من عوام السانس كولوت، بدلا من رجال الحرس الوطني (الأهلي) الذين لم يستطع جمعهم، وكان أفراد الطبقة الدنيا قد أصبحوا الآن لا يحبون كثيرا الرجل (روبيسبير) الذي خفض أجورهم وقتل هيبير Hébert وشومت Chaumette ودانتون وديمولان، وثمة سبب آخر وهو أن الأمطار كانت قد بدأت تسقط فانصرفوا إلى منازلهم وأعمالهم، واستطاع بارا Barras - وجنود الدرك الذين معه - أن يحاصر دار البلدية بسهولة.

(*) المقصود السفاحون القتلة.

وحاول روبيسبير الانتحار عندما رآهم، لكن الطلقة التي أطلقها بيده غير الثابتة اخترقت وجنته ولم تحطم غير فكه[١٢١]. أما ليباس Lebas فقد كانت يده أكثر ثباتا فقد أطلق النار على رأسه فشقها وخرج مخه، أما أوغسطين روبيسبير فقفز من النافذة في محاولة لم تنجح للهروب فكسرت ساقه أما كوثون المشلول (الذي لا يحس بساقيه) فقد دفع تحت السلالم وظل هناك لا أحد يقدم له مساعدة حتى حمله الجنود إلى السجن فأودعوه إياه مع روبيسبير وأخيه وسان - جوست Saint - Just.

وبعد ظهيرة اليوم التالي (٢٨ يوليو ١٧٩٤) نقلت أربع عربات هؤلاء السجناء الأربعة بصحبة فلوريو Fleuriot وهانريو Henriot (وكان لا يزال ثملا) وستة عشر آخرين إلى المقصلة التي نصبت فيما يعرف الآن - ويا للعجب - بميدان الوئام Place de La Concorde، وفي الطريق سمعوا من المتفرجين صيحات مختلفة من بينها: "هيا اهبطوا مع سقف الأسعار"[١٢٢] والمعنى لقد قل سعركم فلتقل أسعار البضائع ووجدوا جمهورا أنيقا في انتظارهم، فقد تم تأجير النوافذ المطلة على الميدان بأسعار غالية وحضرت النسوة في نظام وترتيب كأنهن في مهرجان، وعندما رفع رأس روبيسبير المقطوع ليراه الجمهور ارتفعت صيحات الرضا والاستحسان. إن قتل رجل واحد زيادة على من قتلوا قد يكون أمراً هينا، لكن قتل هذا بالذات (روبيسبير) جعل باريس تشعر أن عهد الإرهاب قد وصل إلى نهايته.

٦- الثيرميدوريون (نسبة إلى شهر الدفء أو الثيرميدور في التقويم الجمهوري الفرنسي): ٢٩ يوليو ١٧٩٤ - ٢٦ أكتوبر ١٧٩٥:

في ٢٩ يوليو أرسل الذين انتصروا في التاسع من ثيرميدور (شهر الدفء في التقويم الجمهوري) سبعين من أعضاء كومون باريس إلى المقصلة وبعدها أصبح الكومون تابعا للمؤتمر الوطني، وتم إلغاء قانون يوم ٢٢ من شهر المروج الخضر(*) وهو الشهر التاسع من التقويم الجمهوري (تم الإلغاء في أول أغسطس)، وتم إطلاق سراح من سجنهم روبيسبير وتم

(*) شهر بريريال Prairial.

سجن بعض أعوانه[١٢٣]. وتم إصلاح المحكمة الثورية لضمان محاكمات عادلة. وتم استدعاء فوكييه - تينفيل Fouquier Tinville للدفاع عن أعماله فاستطاع بسبب براعته الاحتفاظ برأسه حتى ٧ مايو سنة ١٧٩٥ وظلت لجنة الأمن العام ولجنة المراقبة العامة (لجنة الضمان العام) لكن مخالبهما كان قد قصت، وازدهرت الدوريا ت المحافظة وماتت الصحف الراديكالية لافتقارها للدعم الجماهيري. ووجد تاليان Tallien وفوشيه Fouche´ وفريرون Fréron أنه يمكنهم أن يشاركوا في القيادة الجديدة بالتأثير في المؤتمر الوطني لتجاهل أدوارهم في فترة حكم الإرهاب، وتم إغلاق نوادي اليعاقبة في أنحاء فرنسا كلها (١٢ نوفمبر)، وانتقل نواب المؤتمر الوطني ممن كانوا في السهل Plain (نواب الوسط) الذين طالما عانوا من التخويف والإرهاب إلى اليمين، أما الجبليون(*) The Mountain فقد أزيحوا عن السلطة، وفي ٨ ديسمبر استعاد ثلاثة وسبعون عضوا من الجيرونديين ممن ظلوا على قيد الحياة مقاعدهم. وهكذا أعادت البورجوازية قبضتها على "الثورة".

وسمح استرخاء الحكومة بإعادة إحياء الدين. لقد كان معظم الرجال الفرنسيين، والنساء الفرنسيات كلهن تقريبا يفضلون الاحتفال بالقديسين والطقوس الدينية على وفق التقويم الكاثوليكي على مهرجانات الاحتفاء بالموجود الأسمى Supreme being ولم يكن على خلاف هذا الاتجاه الشعبي سوى قلة صغيرة ممن تلقوا تعليما عاليا وأفراد الشريحة العليا من الطبقة الوسطى التي تأثرت بحركة التنوير. وفي ١٥ فبراير سنة ١٧٩٥ تم توقيع معاهدة سلام مع متمردي الفندي Vendée يضمن لهم حرية العبادة، وبعد أسبوع واحد امتد هذا الحق ليشمل فرنسا كلها؛ وتعهدت الحكومة بالفصل بين الكنيسة والدولة.

أما المشكلة الأكثر صعوبة واستعصاءً على الحل الدائم المرضي فهي مشكلة العلاقة بين المنتج والمستهلك، فالمنتجون يطالبون ويلحون في المطالبة بإلغاء سقف الأسعار (الحد الأقصى الذي حددته الحكومة لأسعار السلع) والمستهلكون يطالبون بالغاء الحد الأعلى للأجور، وقد استمع المؤتمر الوطني إلى طلبات الطرفين وألغى الحد الأقصى في الحالتين (في ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٤) فقد كان يسيطر على المؤتمر في ذلك الوقت أعضاء متحمسون

(*) ممثلو اليسار.

يؤمنون بالاقتصاد الحر والمنافسة وحرية التجارة، فأصبح العمال الآن أحرارا في البحث عن الأجور العليا، وأصبح الفلاحون والتجار أحرارا في التصرف على وفق الحركة التجارية.

وارتفعت الأسعار على الجانبين (أسعار البضائع وأسعار العمالة) وأصدرت ا لحكومة أسينات assignates جديدة كعملة ورقية لكن قيمتها تدنت أكثر من ذي قبل: فبشل(*) الدقيق الذي كان يكلف أهل باريس أسينين اثنين في سنة ١٧٩٠ أصبح يكلفهم ٢٢٥ أسيناً في سنة ١٧٩٥ وارتفع سعر الحذاء من خمسة أسينات إلى مائتين، وارتفع سعر الاثنتي عشرة بيضة من ٧٦ إلى ٢٥٠٠[١٢٤].

وفي أول أبريل سنة ١٧٩٥ انفجرت في أحياء مختلفة في باريس مرة أخرى اضطرابات بسبب أسعار الخبز واقتحمت جماهير غير مسلحة مقر المؤتمر الوطني مطالبة بالغذاء وإنهاء اضطهاد الراديكاليين، وقد أيدهم عدد من الأعضاء ممن أصبحوا الآن ضمن الجبليين(**) Mountain، ووعد المؤتمر الوطني بإيجاد حل عاجل لكنه في الوقت نفسه دعا الحرس الوطني لتفريق المشاغبين. وفي تلك الليلة أصدر المؤتمر الوطني قرارا بترحيل (نفي) الزعماء الراديكاليين بيلو فارين Billaud Varenne وكولو دربوا Collot d´Herbois وباريز Barère وفالدييه Valdier إلى غيانا Guyana، وتملص باريز وفالدييه من القبض أما كولو وبيلو Billaud فقد نفيا إلى مستعمرة أمريكا الجنوبية حيث الحياة القاسية، وهناك مرض هذان المعاديان للإكليروس فاعتنت الراهبات بهما ومرضنهما. واستسلم كولو للموت أما بيلو Billaud فعاش وتزوج من جارية مخلطة وأصبح فلاحا قانعا، ومات في هايتي Haïti في سنة ١٨١٩[١٢٥].

وأصبحت المعارضة العامة شرسة فقد ظهرت منشورات حائطية Placards داعية للعصيان المسلح، وفي ٢٠ مايو غزا حشد من النساء والرجال المسلحين المؤتمر الوطني مطالبين بالخبز ومطالبين بإطلاق سراح الراديكاليين المقبوض عليهم وباستقالة abdication الحكومة، وقتل أحد النواب بطلقة مسدس ورفع قاتلوه رأسه اليابس (إشارة لعناده) على رمح أمام رئيس المؤتمر بواسي

(*) bushel البشل أو البوشل مكيال للحبوب = ٨ جالون او نحو ٣٢ لترا ونصف اللتر. عن قاموس المورد للبعلبكي (المترجم).
(**) اليساريين.

دنجلا Boissy d'Anglas الذي أدى له (للرأس) التحية الرسمية، وأجبرت القوات الحكومية والمطر الهاطل المتمردين على العودة لبيوتهم. وفي ٢٢ مايو حاصرت قوة بقيادة بيشجرو Pechegru عمال فوبورج سان أنطوان Faubourg St. Antoine وأجبرت المتمردين المسلحين الآخرين على الاستسلام وقبض على اثني عشر نائبا من النواب الجبليين (أي اليساريين) بتهمة المشاركة في الاضطرابات وقد هرب منهم اثنان وانتحر أربعة وكان خمسة على وشك الموت من جراء جروح أحدثوها بأنفسهم فأسرعوا بهم إلى المقصلة حيث جزت رقابهم. وطالب عضو محافظ بالقبض على كارنو Carnot فاعترض صوت: "لقد خطط لانتصاراتنا ونظم أمرها" وهكذا احتفظ كارنو برأسه.

والآن (مايو ويونيه ١٧٩٥) استعر الإرهاب الأبيض White Terror الذي كان ضحاياه هم اليعاقبة وقضاته هم البورجوازية (المعتدلون Moderates) المتحالفة مع الروابط الدينية: "جماعة يسوع Companies of Jesus" و "جماعة يهوه Companies of Jehova" وجماعة الشمس Companies of Sun". وفي ليون (٥ مايو) جرى ذبح ٧٩ إرهابيا سابقا في السجن وفي إيكس إن بروفنس Aix- en Provence (١٧ مايو) جرى ذبح ثلاثين آخرين "للتخلص من البربرية" وحدث أمر كهذا في أرل Arles افينون Avignon ومارسيليا. وفي تاراسكون Tarascon (٢٥ مايو) حاصر مائتا رجل ملثم الحصن المليء بالمسجونين وقذفوا بهم إلى الرون Rhône. وفي طولون Toulon ثار العمال على الإرهاب الجديد، فقام إسنار Isnard أحد الجيرونديين الذين عادوا إلى وضعهم السابق بقيادة كتيبة جند وقضى على هذا الاضطراب العمالي (٣١ مايو)[١٢٦]. إن الإرهاب إذن لم ينته، وإنما غير يديه (حل إرهابيون جدد محل إرهابيين قدامى).

لم يعد البورجوازيون المنتصرون في حاجة لحلفاء من البروليتاريا لأنهم - البورجوازيون - قد كسبوا دعم الجنرالات وأولئك الذين أحرزوا الانتصارات التي رفعت من مركز البورجوازيين حتى بين طبقة العوام (السانس كولوت) ففي ١٩ يناير سنة ١٧٩٥ استولى بيشجرو Pichegru على أمستردام وهرب ستادثولدر وليم الرابع Stadtholder IV إلى إنجلترا وأصبحت هولندا طوال عقد من الزمن هي جمهورية "باتافيا Batavian Republic" تحت

الوصاية tutelage الفرنسية. وقامت جيوش فرنسية أخرى بإعادة الاستيلاء على الشاطىء الأيسر لنهر الراين Rhine واحتفظت بمواقعها فيه. أما المتحالفون ضد فرنسا Alliés فإنهم بعد أن هزموا واختلفوا تركوا فرنسا واتجهوا إلى فريسة أسهل في بولندا. فبروسيا رغبة منها في منع روسيا من الاستيلاء على أي شيء في التقسيم الثالث Third Partition (١٧٩٥) أرسلت مبعوثيها إلى باريس ومن ثم إلى بازل Basel للتفاوض لعقد سلام منفصل (أي بغير مشاركة حلفائها) مع فرنسا. وما كان المؤتمر الوطني ليستطيع تحمل هذا الطلب لأنه نظر بذعر إلى سلام يمكن أن يعيد إلى باريس أو أي مكان آخر في فرنسا آلاف الجنود نصف المتوحشين يعيشون الآن من موارد البلاد التي فتحوها، ولو عادوا لكانوا إضافة جديدة للمجرمين والمرضى والمشاغبين في المدن الفرنسية التي يصرخ ساكنوها الآن طالبين فرص عمل وخبزا. كما أن الجنرالات الذين لم يستريحوا من متاعب الحروب والذين أثملتهم الانتصارات - بيشجرو Pichegru وجوردا Jourdan وهوش Hoche ومورو Moreau - ربما لا يقاومون الإغراء بالقيام بانقلاب عسكري ضد الحكومة إن هم عادوا من جبهات القتال. لكل هذا أرسل المؤتمر الوطني إلى بازل،المركيز فرنسوا دى بارثليمي Marquis François de Barthélemy مزودا بتعليمات بالتمسك بالممتلكات الفرنسية على الشاطىء الأيسر للراين، ورغم اعتراض بروسيا إلا أنها استسلمت للواقع، ولحقت ساكسوني Saxony وهانوفر Hanover وهيس كاسيل Hesse Cassel بالمناطق الأخرى، وفي ٢٢ يونيه تخلت إسبانيا لفرنسا عن الجزء الشرقي(سانتو دومنجو Santo Domingo) من جزيرة هسبانيولا Hispaniola. واستمرت الحرب مع النمسا وإنجلترا لسبب بدا كافيا وهو إبقاء الجنود الفرنسيين على جبهات القتال.

وفي ٢٧ يونيه جلبت السفن البريطانية ٣٦٠٠ مهاجرا (من الذين كانوا قد تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة) من بورتسموث Portsmouth وأنزلتهم عند قنة كيبورن Quiberon (قنة الجبل الداخلة في البحر) من بريتاني Brittany لينضموا إلى كتائب شوان Chouan الملكية لإحياء تمرد أهالي فندي، وقد هزمهم تاليان في معركة عبقرية(٢١ يوليو) وفي حركة قادها تاليان Tallien قبض المؤتمر الوطني على ٧٤٨ وأمر بقتلهم.

وفي ٨ يونيو سنة ١٧٩٥ مات ابن لويس السادس عشر (ولي العهد) البالغ من العمر عشر سنوات. مات في السجن وليس من دليل على أن ذلك كان لسوء المعاملة، وربما كان موته بسبب درن العقد الليمفية العنقية (الاسكروفولا Scrofula) والاكتئاب despondency. ومن ثم اعترف الملكيون بالأكبر من أخوي لويس السادس عشر ملكا وهو المهاجر كومت (كونت) دئ بروفنس Comte de Provence باعتباره لويس الثامن عشر Louis XVIII وأقسموا أن يجعلوه ملكا لفرنسا، وأعلن هذا البوربوني غير الإصلاحي (في أول يوليو ١٧٩٥) أنه إن عاد للعرش أعاد نظام الحكم القديم على حاله كما كان بلا تغيير بما في ذلك الحق المطلق للملك والحقوق الإقطاعية، ومن هنا كان الدعم المشترك الذي قدمه البورجوازيون والفلاحون والعامة من السانس كولوت لنابليون خلال اثنتي عشرة معركة.

لقد أرهقت الثورة فرنسا فبدأ التسامح مع المشاعر الملكية التي تظهر في بعض الصحف والصالونات والأسر الثرية. فلا يستطيع سوى ملك شرعي يتولى الملك بالوراثه وعلى وفق التقاليد المتبعة أن يعيد النظام والأمن لشعب خائف وتعس بعد سنوات من التمزق السياسي والاقتصادي والانقسام الديني والحرب والمستمرة، وعدم ضمان فرصة عمل أو طعام أو حتى حياة. وكان نصف سكان جنوب فرنسا أو أكثر نافرين بعمق من باريس وسياسيّيها. وفي باريس وجدنا اجتماعات الأحياء التي كان يسيطر عليها العامة (السانس كولوت) في وقت من الأوقات أصبحت الآن بشكل متزايد يسودها رجال الأعمال، بل وقبض على زمام الأمور فيها الملكيون وكانت صالات المسارح تضج بالتصفيق استحسانا عندما يرد في سياق المسرحية حديث عن "أيام زمان الطيبة" قبل سنة ١٧٨٩ وأصبح الشباب الذين كانوا في حالة ثورة دائمة يشاغبون أو يتمردون على الثورة فنظموا أنفسهم في روابط كرابطة الشباب الأنيق (الترجمة الحرفية: الشباب المموه بالذهب) Jeunesse Dorée ورابطة الهوى Merveilleux (أو العجيب كما تفيد الكلمة في القواميس الفرنسية) ورابطة الشباب الغندو أو الأنيق Muscadins (أو شباب الثمار أو الفاكهة على وفق المقابل الإنجليزي الذي وضعه المؤلف لها Fruits) وراحوا يتباهون بملابسهم الغالية الغريبة وشعورهم الطويلة المعقوصة يجوبون الشوارع حاملين الهراوات الخطرة معبرين بجسارة عن مشاعرهم الملكية.

لقد أصبح من غير الملائم (مما لا يتمشى مع المودة) أن يؤيدوا الحكومة الثورية بدليل أنه عندما سرى خبر مبتسر عن حل المؤتمر الوطني قوبل ذلك بالفرح حتى إن بعض الباريسيين رقصوا في الشوارع.

لكن المؤتمر الوطني استمات للاستفادة مما بقي له من وقت، ففي يونيو سنة ١٧٩٥ بدأ في وضع دستور جديد مختلف كثيرا عن الدستور الديمقراطي غير العملي الصادر في سنة ١٧٩٣ والآن فقد تبنى المؤتمر الوطني نظاما توجد بمقتضاه هيئتان تشريعيتان إحداهما عليا مكونة من النواب الأكبرين سنا والأكثرين خبرة، وموافقة هذه الهيئة العليا Upper Chamber يعد ضروريا لإقرار أي إجراء تتبناه الهيئة الأخرى (الأدنى درجة Lower Chamber) الأكثر انفتاحا واتصالا مباشرا بالحركات الشعبية والأفكار الجديدة. فالشعب كما قال بواسي دنجلا Boissy d'Anglas ليس على الدرجة الكافية من الحكمة والتوازن ليقرر سياسة الدولة[١٢٧]. وعلى هذا كان دستور السنة الثالثة(*) Constitution of the year III (تبدأ السنة الثالثة من ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤) كمراجعة لإعلان حقوق الانسان (١٧٨٩) لحذف ما به من تضليل وخداع فيما يتعلق بالفضائل والسلطة. لقد جرى حذف الافتراض القائل إن "الناس يولدون أحرارا، ويظلون أحرارا متساوين في الحقوق" وعرف المساواة بأنها لا تعني أكثر من أن "القانون ينطبق على الجميع" وجعل الانتخابات غير مباشرة بمعنى أن يقوم المصوتون Voters (من كان لهم حق الانتخاب وأدلوا بأصواتهم) بانتخاب مندوبين (أو مفوضين delegates) ليكونوا أعضاء في هيئة المنتخبين (بكسر الخاء) Electoral College في كل دائرة (محافظة) ويقوم هؤلاء الناخبون بدورهم باختيار أعضاء الهيئة التشريعية الوطنية (على مستوى فرنسا) وأفراد السلطة القضائية Judiciary والهيئات الإدارية. واقتصرت عضوية هيئة المنتخبين على أصحاب الملكيات وبذا يكون اختيار الحكومة الوطنية منوطا بثلاثين ألف فرنسي. وقدم واحد من الأعضاء اقتراحا للمؤتمر الوطني بإتاحة حق الانتخاب للنساء لكن عضواً آخر أقنعه بسؤال وجهه: "أين هي الزوجة الصالحة التي تجسر على القول بأن رغبة زوجها غير رغبتها؟"[١٢٨] ورفض مبدأ سيطرة الدولة

(*) ثالثة بالنسبة للتقويم الجمهوري الذي وضعه رجال الثورة الفرنسية.

على الاقتصاد باعتباره غير عملي لأنه يعوق الإبداع والمشروعات ويبطىء من نمو ثروة البلاد.

وضم هذا الدستور بعض الأفكار الليبرالية: لقد أكد على الحرية الدينية، وكذلك حرية الصحافة " لكن في حدود آمنة" (وكانت الصحف في ذلك الوقت في غالبها تديرها الطبقة الوسطى)(*) وأكثر من هذا فإن التصديق على الدستور ترك للناخبين الذكور الراشدين، مع إضافة شرط يدعو للدهشة: أن يكون ثلثا النواب في الهيئات الجديدة أعضاء في المؤتمر وإذا لم ينجح عضو المؤتمر في الانتخابات ملأ الأعضاء (من المؤتمر الوطني) الذين أعيد انتخابهم الفراغ (في الثلثين) باختيار زملاء لهم ممن هم أعضاء في المؤتمر الحالي، وكان تعليل ذلك هو ضرورته لاستمرار السياسات والخبرات.

وكان المصوتون طيّعين (متجاوبين) فمن بين ٩٥٨,٢٢٦ أدلوا بأصواتهم في صناديق الاقتراع وافق على الدستور ٩١٤,٨٥٣، ومن بين ٢٦٣,١٣١ صوتاً كانت مطلوبة للثلثين(الشرط الآنف ذكره) وافق ١٦٧,٧٥٨[١٢٩]. وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٥ جعل المؤتمر الوطني الدستور الجديد هو قانون فرنسا وجهز لانسحابه (أي المؤتمر) بنظام.

لقد كان من الممكن أن يزعم بقيامه ببعض الإنجازات رغم شهوره التي قضاها في التشوش والإرهاب والخضوع للجان التابعة له وخوف أعضائه من الطرد (من المؤتمر الوطني) بناء على طلب السانس كولوت(عوام الطبقة الثالثة). لقد حافظ المؤتمر على شيء من القانون في المدينة في وقت فقد فيه القانون هالته وجذوره. كما أن المؤتمر دعم تفويض السلطة للبورجوازيين لكنه حاول السيطرة على جشع التجار بدرجة تكفي لمنع حدوث مجاعة تسبب شغب العامة وكان قد نظم الجيوش الفرنسية ودربها، ورفع من شأن الجنرالات الأكفاء المخلصين، وصد التحالف القوي ضد فرنسا وحقق السلام بأن جعل فرنسا تحميها حدود طبيعية (الراين وجبال الألب وجبال البرانس) ومياه المحيط، وبالإضافة إلى هذه الجهود كلها المكلفة أسس النظام المتري، وأسس أو أعاد تأسيس متحف التاريخ الطبيعي ومدرسة البوليتقنية (البوليتكنك) ومدرسة الطب. وافتتح معهد فرنسا Institute of France، لقد

(*) الكلمة ليبرالي Liberal عند تطبيقها على الاقتصاد والسياسة تعني اقتصاداً حرا تحت حد أدنى من الإشراف الحكو مي Minimal government.

بات المؤتمر الوطني الآن بعد ثلاثة أعوام ظل فيها باقيا بما يشبه المعجزة يستحق موتاً هادئا على أن يبعث ثلثا أعضاؤه (بانضمامهم للهيئات الجديدة).

لكن ما حدث هو أن موته لم يكن بسلام وإنما كان ملطخاً بالدم كما هو المألوف في ذلك الوقت فالبلوتوقراط (ذوو النفوذ الناشيء عن ثرواتهم Plutocrates) والملكيون الذين كانوا قد استولوا على قسم (حي) الليبليتيير Le Lepeletière في باريس حول البورصة، قاموا بحركة تمرد على التشريعات التي ولدت من جديد، وانضمت إليهم أحياء أخرى لأسباب مختلفة تخصها، وكونوا جميعا قوة قوامها ٢٥,٠٠٠ رجل وتقدموا إلى عدة مواقع فتحكموا في التوليري ومن ثم في المؤتمر الوطني (٥ أكتوبر، ١٧٩٢ / ١٣ فيندميير(*) بالتقويم الجمهوري) فعين نواب المؤتمر المرعوبون بارا Barras لتولى أمور الدفاع كيفما اتفق فعين بدوره بونابرت وكان في السادسة والعشرين من عمره، وكان وقتها عاطلا في باريس (أي بلا عمل) ليجمع الرجال والمؤن والأهم من ذلك المدفعية. وكان بطل طولون يعرف مكان المدافع فأرسل مورا Murat مع قوة لتأمينها فأحضروها ووضعوها في مراكز تشرف على المتمردين المتقدمين، وصدرت النداءات للمتمردين بالتفرق، فاحتقروها، فأمر نابليون بإطلاق المدافع فسقط ما بين مائتي قتيل وثلاثمائة جريح وفر الباقون، وأحيا المؤتمر الوطني بذلك آخر محاكماته المصحوبة بالتعذيب ودخل نابليون الحاسم القاسي لتكون أعماله وسيرته من أكثر المشاهد دراماتيه في التاريخ الحديث.

وفي ٢٦ أكتوبر حل المؤتمر الوطني نفسه وفي الثاني من نوفمبر سنة ١٧٩٥ بدأ الطور الأخير للثورة الفرنسية.

(*) شهر قطف العنب.

الفصل الخامس

حكومة الإدارة(*)

[٢ نوفمبر ١٧٩٥ ـ ٩ نوفمبر ١٧٩٩]

(*) أو حكومة المديرين.

١- الحكومة الجديدة:

كونت هذه الحكومة من خمسة أجهزة (هيئات) أولها مجلس الخمسمائة Les Cinq Cents وخوّل لها اقتراح الإجراءات ومناقشتها لكنها غير مخولة بتحويلها إلى قوانين. وثانيها مجلس الشيوخ Anciens وهو مكون من ٢٥٠ عضوا لا بد أن يكون الواحد منهم متزوجا وفي الأربعين من عمره على الأقل وهم ليسوا مخولين بوضع التشريعات أو اقتراحها وإنما الاعتراض عليها أو إقرارها (التصديق عليها) وتأتيهم (الاقتراحات résolution) من المجلس (الجهاز) السابق (مجلس الخمسمائة). ويكوّن هذان المجلسان آنفا الذكر (الهيئة التشريعية Legislature ، Corps Legislatif) ويغير ثلثا أعضائهما سنويا على وفق تصويت هيئات المنتخبين (بكسر الخاء) الآنف ذكرها. ويمثل مجلس الإدارة أو حكومة المديرين Directoire السلطة التنفيذية في الحكومة ويتكون من خمسة أعضاء لا يقل عمر الواحد منهم عن أربعين عاما ويتم اختيارهم لمدة خمس سنوات ويقوم على اختيارهم مجلس الشيوخ Ancien من بين خمسين اسماً يقدمهم إليه مجلس الخمسمائة. وفي كل عام يتم اختيار عضو جديد ليحل محل واحد من الأعضاء الخمسة. وتقوم هيئات المنتخبين (بكسر الخاء) في الدوائر (المحافظات) باختيار السلطات القضائية ومسئولي الخزانة وهما سلطتان مستقلتان عن الهيئات (المجالس) الثلاث الآنف ذكرها "مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ وحكومة (مجلس) الإدارة". إنها حكومة مراجعات وموازنات صمم نظامها لحماية البورجوازية المنتصرة من العوام غير المنضبطين.

واتخذ مجلس الإدارة (حكومة الإدارة أو الخمسة) مقراً له قصر لوكسمبورج Luxembourg وسرعان ما أصبح فرعا دائماً للحكومة سيطر على الجيش والأسطول ورسم السياسة الخارجية وأشرف على وزراء الداخلية والخارجية والبحرية والمستعمرات والحرب والمالية. وأصبح مجلس الإدارة (حكومة الإدارة) تقريباً مستقلا عن الهيئات الأخرى كما كان الحال بالنسبة للجنة الأمن العام، وذلك بفعل الجاذبية الطبيعية التي تنساب بها السلطة إلى القيادة أو بتعبير آخر بفعل الميل للمركزية.

وكان أول مجلس إدارة تم اختياره مكونا من الخمسة الآتية أسماؤهم: بول بارا paul

Barras ولويس ماري دي لاريفيليير ليبو Louis Marie de Larevellière lépaux وجان فرانسوا ريبل Jean François Rewbell وشارل ليتورنيه Charles Letournier ولازار كارنو Lazare Carnot . وكانوا جميعا ممن اشتركوا في قتل الملك (بمعنى وافقوا عليه وعملوا له) وكان أربعة منهم يعاقبة وواحد منهم وهو بارا Barras فيكونت (الفيكونت دون الكونت وفوق البارون)، وهم الآن قد كيفوا أنفسهم مع الحكم البورجوازي. وكان جميعهم رجالا ذوي كفاءة لكنهم باستثناء كارنو Carnot لم يكونوا معروفين بالاستقامة الشديدة (لم يكونوا فوق الشبهات). وإذا كان الاستمرار في الساحة السياسية أو البقاء فيها مقياسا للجدارة فإن بارا Barras هو أكثرهم مهارة وقدرة، فقد خدم لويس السادس عشر ثم روبيسبير وساعد كليهما حتى آخر دقيقة في حياة كل منهما وناور من أجل سلامته بنجاح فاجتاز الأزمة إثر الأزمة من خلال علاقته بالنساء، فقد اتخذ خليلة إثر خليلة، وجمع الثروة وحقق النفوذ في كل فترة وأعطى نابليون جيشا وزوجه(*) وقد عاش بعدهما وعمر حتى مات بهدوء في باريس في وقت عادت فيه لحكم البوربون Bourbonized وقد بلغ من العمر أربعا وسبعين سنة(١٨٢٩)[1]. لقد عاش تسع حيوات باعها جميعا.

والصعوبات التي واجهتها حكومة الإدارة في سنة ١٧٩٥ ربما كانت بسبب تعدد المشاكل وكثرتها وتنوعها، مما يعطي حكومة الإدارة عذرا في بعض الأمور التي عجزت عن حلها. فجماهير باريس كانت تواجه دائما المجاعة، والحصار البريطاني قوى من حدة الصراع الاقتصادي لإعاقة حركة نقل الطعام والبضائع وخفض التضخم من قيمة العملة فقد أصبح مطلوبا دفع خمسة آلاف من الأسينات Assignates في سنة ١٧٩٥ لشراء ما كان ثمنه مائة من الأسينات في سنة ١٧٩٠ وكانت الخزانة تدفع فائدة (أرباحا) على سنداتها بالأسينات على وفق قيمتها الاسمية Face value، مما أدى إلى انضمام أصحاب الدخول الذين كانوا يستثمرون أموالهم في "سندات الحكومة وأسهمها Securities" إلى الفقراء الثائرين[2].

(*) كان بارا Barras هو الذي توسط لتزويج نابليون من جوزفين الشهيرة أو التي اصبحت شهيرة بعد زواجها من نابليون. (المترجم).

واشترى آلاف الفرنسيين بضائع ومواد غذائية بكميات كبيرة، وبسباق محموم، ليستفيدوا من التضخم بالغش والخداع، فعندما ترتفع الأسعار وتبلغ ذروتها يطرح المضاربون بضائعهم في السوق، وجرى سباق محموم لبيع مخزونات البضائع الرخيصة (التي انهارت أسعارها)، ووجد الأبرياء (غير المضاربين) أن مدخراتهم قد حصدتها قلة نشيطة. لقد واجهت الخزانة الإفلاس مرارا وأعلنته في سنة ١٧٩٥ مما أفقدها الثقة العامة، وأدى القرض الذي أخذته الحكومة من الأثرياء إلى قيام التجار برفع الأسعار وإلى دمار تجارة الكماليات، وارتفعت نسبة البطالة، واستمرت الحرب ومعها استمر التضخم.

ووسط هذا الفقر وهذا التشوش استمر الحلم الشيوعي الذي كان قد داعب خيال مابلي Mably في سنة ١٧٤٨ وموريلي Morelly في سنة ١٧٥٥ ولنج(*) Linguet في سنة ١٧٧٧، استمر في قلوب الفقراء اليائسين، ووجد هذا الحلم الشيوعي من يعبر عنه في جاك رو Jacques Roux في سنة ١٧٩٣، وفي ١١ أبريل وجدت أحياء الطبقة العاملة في باريس ملصقات تقدم "تحليلا لعقيدة بابوف Babeuf" نقرأ بعض موادها كالتالي:

" ١- لقد جعلت الطبيعة لكل الناس حقوقا متساوية في الاستمتاع بالسلع كلها.....

٣- فرضت الطبيعة على الإنسان العمل، فلا يمكن منع أى إنسان (لم يرتكب جريمة) عن العمل.

٧- في المجتمع الحر لا يجب أن يكون هناك غني وفقير.

٨- الثري الذي لا يساهم بما لديه من فائض لمساعدة الفقراء هو عدو للشعب.....

١٠- هدف الثورة هو القضاء على التفاوت (عدم المساواة) وتحقيق السعادة العامة.

١١- الثورة لم تنته لأن الأثرياء يمتصون السلع كلها من كل نوع ويسيطرون وحدهم [على السوق] لا يشاركهم أحد، بينما العمال الفقراء كعبيد حقيقيين.. ولا تعتبرهم الدولة شيئا مذكورا.

١٢- دستور ١٧٩٣ هو قانون فرنسا الحقيقي... وقد أطلق المؤتمر الوطني النار على الشعب الذي طالب بالإبقاء على هذا الدستور وأيدوه.. فدستور ١٧٩٣ أقر الحق

(*) انظر: Rousseau and Revolution, 80-84 (المؤلف)

الثابت لكل مواطن لممارسة حقوقه السياسية وحقه في الاجتماع والمطالبة بما يعتقد أنه مفيد، وحقه في تعليم نفسه وحقه في ألا يموت من الجوع، وهي جميعا حقوق عارضها بشكل كامل وبصراحة دستور ١٧٩٥ الذي يمثل الثورة المضادة أو بتعبير آخر المناهض للثورة Counter revolutionary "[٣].

وقد ولد صاحب هذا المنشور وهو فرنسوا إميل بابوف "François Emile " Gracchus Babeuf في سنة ١٧٦٠ وذكر التاريخ اسمه للمرة الأولى في سنة ١٧٨٥ كمندوب عينه ملاك الأراضي لدعم حقوقهم الإقطاعية على الفلاحين. وفي سنة ١٧٨٩ غير اتجاهاته فوزع نشرة Cahier يطالب بإلغاء العوائد الإقطاعية. وفي سنة ١٧٩٤ استقر في باريس فدافع عن الثيرميدوريين (نسبة لشهر ثيرميدور أي شهر الدفء في التقويم الجمهوري) ثم ما لبث أن هاجمهم، فقبض عليه وظهر في سنة ١٧٩٥ كشيوعي متحمس، ونظم بسرعة "رابطة المساواه" أو رابطة الأنداد " Sociéte des Egaux وقد أتبع تحليله " الذي أوردنا فقرات منه آنفا بإعلان جعل عنوانا له: "قرار العصيان المسلح" موقع باسم لجنة العصيان المسلح للأمن العام. ومن مواده القليله:

" ١٠- المجلس (المقصود مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ) وحكومة الإدارة اغتصبا السلطة، وسوف يتم حلهما، وسيحاكم الشعب أعضاءهما فورا.

١٨- وضع الممتلكات العامة والخاصة تحت رعاية الشعب.

١٩- سيكون من مهام الجمعية الوطنية National assembly المكونة من ديمقراطي عن كل دائرة (محافظة) معين من قبل المتمردين (الخارجين عن السياسة والتنظيمات الحالية) والتي تحمل اسم لجنة العصيان المسلح واجب إنهاء الثورة وفرض الحرية والمساواة ودستور ١٧٩٣ على الجمهورية. وسيكون هذا الحق قصرا عليها (على لجنة العصيان المسلح).

وستبقى هذه اللجنة بشكل دائم حتى يتم إنجاز العصيان المسلح بشكل شامل[٤].

لقد كانت هذه الدعوة المشؤومة كدعوة لدكتاتورية جديدة. إنها مجرد تغيير روبيسبير بروبيسبير آخر، وبالغ بابوف Babeuf في حلمة هذا، فكتب في صحيفته التي تحمل عنوان

"منصة (أو منبر) الشعب Tribune du peuple " .

"لا بد أن يكون ما يملكه الفرد متناسبا مع دوره في [إنتاج] سلع المجتمع، وأي ممتلكات تزيد عن هذا الدور، تم تحصيلها بالسرقة والاغتصاب، فمن العدالة إذن سلبهم هذه الممتلكات (أو الثروات) . والشخص الذي يبرهن أنه يستطيع بقوته (بطاقته) الشخصية أن يكسب أو يعمل ما يكسبه أو يعمله أربعة أشخاص إنما هو برغم ذلك يتآمر على المجتمع لأنه يدمر مبدأ المساواة الغالي . . . . لا بد للتمرد الاجتماعي المسلح أن يستمر حتى يزيح أى شخص لديه أمل أن يكون أغنى من الآخرين أو أقوى منهم أو أكثر تميزا منهم بحكم تنوره ومواهبه . إن الخلاف والتنافر أفضل من الوئام البشع الذي يموت المرء في ظلاله جوعا . دعونا نعود إلى الفوضى والاضطراب، ومن خلاله دعوا خلقاً جديدا يظهر للوجود"(٥) .

وأخبر أحد العملاء المحرضين **agent provocateur** حكومة الإدارة أن أعدادا متزايدة من أهل باريس يقرأون ملصقات بابوف **Babeuf** وصحفه وأنه يجري الإعداد لثورة مسلحة في ١١ مايو ١٧٩٦ وفي ١٠ مايو صدر أمر بالقبض على بابوف والزمرة ذات الموقع القيادي المرتبطة به : فيلبو بوناروتي Filippo Buonarrotti و أ . دارثي A. Darthe و م . ج . فاديية M. G. Vadier و ج.- ب . درو J.- B. Drouet . وتمت محاكمتهم في فيندوم Vendome في ٢٧ مايو سنة ١٧٩٧ بعد سجن دام عاما فشلت فيه مساعي إطلاق سراحهم . وصدر الحكم بسجن بوناروتي وهرب درو Drouet أما بابوف ودارتى Darthe فحكم عليهما بالإعدام فحاولا الانتحار لكن الجلادين أسرعوا بهما إلى المقصلة قبل أن تفيض روحاهما . وبطبيعة الحال كانت خطتهما غير عملية تبسط طبيعة الانسان تبسيطا شديدا لدرجة أنه حتى برولتياريا باريس لم يأخذوا أفكاره على محمل الجد، بالإضافة إلى أن فرنسا بأغنيائها وفقرائها وجدوا في سنة ١٧٩٧ بطلاً جديدا . إنه أكثر الحالمين سحرا وأكثر المنفذين مدعاة للإبهار في التاريخ السياسي للبشرية .

٢- نابليون الشاب: ١٧٦٩ - ١٧٩٥:

قال اللورد أكتون Acton: "لا يمكن أن تكون هناك تدريبات عقلية يمكن أن تكون أكثر فعالية ونشاطا من ملاحظة كيف يعمل عقل نابليون المعروف تماما بأنه أقدر رجل في تاريخ البشرية"(٦) لكن من الآن يمكن أن يشعر أنه عرف بصدق وبشكل كامل رجلا قدمه لنا مئات المؤرخين المثقفين كبطل ناضل لتوحيد أوربا وسيادة القانون بها، ومئات المؤرخين المثقفين قدموه أيضا كغول Ogre استنزف دماء فرنسا وخرب أوربا ونهبها ليشبع نهمه للسلطة والحرب؟ من منا يستطيع الزعم بالإحاطة بكل أبعاد نابليون في ظل هذا السؤال الآنف ذكره رغم أن ٢٠٠,٠٠٠ كتاب ونشرة قد صدرت عنه. "فالثورة الفرنسية" كما يقول نيتشه Nietzsche " جعلت نابليون ممكنا بمعنى أنها جعلت من الممكن ظهور نابليون فهو تسويغ أو تبرير لها"(٧).. وقد استغرق نابليون في التأمل وهو واقف أمام قبر روسو Rousseau وتمتم قائلا: "ربما كانت الأمور على نحو أفضل لو لم يولد كلانا أبداً"(٨).

ولد نابليون في أجاسيو Ajaccio في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩، قبل أن تبيع جنوا Genoa كورسيكا لفرنسا بخمسة عشر شهرا، وقبل أن تؤكد فرنسا تبعيتها (كورسيكا) لها بإخماد ثورة باولي Paoli. ولمثل هذه الأمور التافهة يلتفت التاريخ. ولقد كتب نابليون بعد بعشرين عاما لباولى قائلا:" لقد ولدت عندما كان وطني يموت. ثلاثون ألف فرنسي يتقيأون disgorged على شواطئنا، يغرقون تاج الحرية في بحر من الدم. لقد كان هذا منظراً كريها أزعج عيني في مرحلة الطفولة"(٩).

وذكر ليفي Livy أن "كورسيكا جزيرة وعرة جبلية معظمها غير مأهول بالسكان. وأهلها يشبهون طبيعة بلادهم فهم متمردون كالوحوش لا يحكمون"(١٠) لكن احتكاكها بإيطاليا قد هذب نوعاً ما من هذه الوحشية، ولكن جدب الأرض والحياة القاسية، البدائية غالبا والعداوات الأسرية الشديدة والدفاع الضاري ضد الغزاة، كل ذلك جعل أهل كورسيكا على أيام باولي Paoli صالحين لحرب العصابات أكثر من صلاحيتهم للتنازلات التي يتحتم على ذوي الطباع العنيفة أن يقوموا بها للخضوع للنظام وهو أمر مطلوب لتشكيل الحضارة. لقد كانت الحياة المدنية تتطور في عاصمة كورسيكا، لكن خلال معظم الفترة التي كانت

فيها ليتيزيا رامولينو بونابرت Letizia Ramolino Buonaparte (أم نابليون) تحمل بونابرت، كانت تتبع زوجها من معسكر إلى معسكر مع باولي Paoli، وعاشت في خيام أو أكواخ في الجبال وتنفست هواء المعركة. ويبدو أن طفلها (نابليون) يتذكر كل ذلك ويسري فيه مسرى الدم فلم يكن لديه بعد ذلك مقدار من السعادة كتلك التي يحس بها وهو يخوض غمار الحروب. لقد ظل إلى النهاية كورسيكيا. وفي كل شيء كان إيطاليا فيما عدا الفترة الزمنية والتعليم –، إيطالياً سلّمه عصر النهضة لكورسيكا، فعندما استولى على إيطاليا وضمها لفرنسا استقبله الفرنسيون بترحيب باعتباره إيطاليا غزا فرنسا.

وكان أبوه كارلو بونابرت Carlo Buonaparte يمكنه أن يرجع سلالة نسبه إلى أفراد كان لهم وجود في التاريخ الإيطالي: من سلالة نشيطة كانت تعيش في غالبها في تسكانيا Tuscany ثم انتقلت إلى جنوا Genoa ثم هاجرت في القرن السادس عشر إلى كورسيكا، واحتفظت الأسرة بسلالة نسب نبيلة اعترفت بها الحكومة الفرنسية، وعلى أية حال، فعندما أصبحت النبالة في عهد الثورة الفرنسية تمثل خطوة نحو المقصلة طرح نابليون ذكر هذا النسب (غير وضع زهر النرد the de). وكان كارلو (والد نابليون) ذا موهبة في القدرة على التكيف، فقد حارب في جانب باولي Paoli من أجل تحرير كورسيكا فلما فشلت المحاولة سالم الفرنسيين وعمل في الإدارة الفرنسية الكورسيكية وأمن دخول اثنين من أبنائه في الأكاديميات الفرنسية وكان من بين النواب الذين أرسلهم نواب كورسيكا إلى مجلس طبقات الأمة (الذي دعا إليه الملك لويس السادس عشر) وقد أخذ نابليون عن أبيه عينيه الرماديتين وربما أخذ عنه أيضا سرطان المعدة المميت"[١١].

وقد أخذ عن أمه ما هو أكثر "إنني مدين بنجاحاتي وبكل عمل طيب قمت به لأمي ومبادئها الممتازة. إنني لا أتردد في التأكيد على أن مستقبل الطفل يعتمد على أمه"[١٢].

وقد كان نابليون يشبه أمه في طاقتها ونشاطها وشجاعتها وثباتها الشديد **(المجنون mad)** وحتى في إخلاصها لآل بونابرت كثيري الذرية. ولدت أم نابليون ليتيزيا رامولينو سنة ١٧٥٠ وتزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها وأصبحت أرملة وهي في الخامسة والثلاثين وأنجبت ثلاثة عشر مولودا في الفترة من ١٧٦٤ إلى ١٧٨٤ وشهدت موت خمسة

من أولادها وهم في سن الطفولة ورفعت الباقين بعزم صارم وسعدت بنجاحهم وعانت بسقوطهم.

وكان نابليون هو ابنها الرابع، والثاني بالنسبة لمن بقوا على قيد الحياة من أبنائها. أما الابن الأكبر فهو جوزيف بونابرت (١٧٦٨ - ١٨٤٤) فكان لطيف المعشر مغرقا في الشهوات (أبيقوريا) ونصب ملكا على نابلي ثم على إسبانيا، وكان يأمل أن يكون هو الإمبراطور الثاني لفرنسا، وبعد نابليون في ترتيب أفراد **أسرته يأتي لوسيان** Lucien (١٧٧٥ - ١٨٤٠) الذي ساعده في القبض على زمام الحكومة الفرنسية في سنة ١٧٩٩، وأصبح عدوه اللدود، لكنه وقف بجانبه في المائة يوم Hundred days المتسمة بالعبث البطولي heroic futlity، ثم تأتي ماريا أنا إليزا Maria Anna Elisa التي أصبحت دوقة لتوسكانيا وكانت معتزة بنفسها ومقتدرة وعارضت أخاها في سنة ١٨١٣ وسبقته إلى الموت، ثم يأتي من أفراد أسرته لويس (١٧٧٨ - ١٨٤٦) الذي تزوج الرقيقة هورتينز دى بوهارنيه Hortense de Beauharnais فقد أصبح ملكا على هولندا وقد أنجب نابليون الثالث. وأخته الأخرى هي بولين Pauline (١٧٨٠ - ١٨٢٥) الجميلة الخليعة التي تزوجت الأمير كاميلو بورجيز **Camillo Borghese** وقد حكى نابليون قائلا: "إنني وبولين كنا الأثيرين عند أمي هي لأنها كانت ألطف أخواتي وأظرفهن، وأنا لأن إحساسها الفطري جعلها تعتقد أنني سأكون مؤسس عظمة الأسرة"[١٣]. أما أخته ماريا كارولينا Maria Carolina (١٧٨٢ - ١٨٣٩) فتزوجت، **جواشيم مورا** Joachim Murat وأصبحت أميرة نابلي، وأخيرا Jérôme (١٧٨٤ - ١٨٦٠) الذي أسس الأسرة البونابارتية في بلتيمور Baltimore وأصبح ملكا لوستفاليا Westphalia.

وفي سنة ١٧٧٩ حصل كارلو(والد نابليون) من الحكومة الفرنسية على امتياز إرسال ابنه نابليون إلى الأكاديمية (المدرسة) العسكرية في برين Brienne التي تبعد نحو تسعين ميلا جنوب شرق باريس. وكان هذا حدثا أساسيا في حياة الفتى، لأنه ربط مصيره بالمجال العسكري، كما جعله حتى نهاية حياته تقريبا يفكر في الحياة والقضاء والقدر بمفاهيم الحرب ومصطلحاتها. لقد أصبحت برين بالنسبة لابن العاشرة محنة أثرت في تكوينه فقد

ابتعد عن داره بعيدا وعاش في بيئة غريبة وصارمة. ولم يستطع الطلبة الآخرون أن يغفروا له كبرياءه وحدة مزاجه اللذين يبدوان غير متجانسين مع نبالته الغامضة (غير الواضحة بالنسبة لهم). وقد عبر نابليون عن ذلك قائلا: "لقد عانيت كثيرا جدا من سخرية زملاء الدراسة الذين كانوا يعتبرونني غريبا". وانسحب الفتى الذي لم يأتلف مع أقرانه وتقوقع على نفسه واستغرق في الدراسة والكتب والأحلام. وكان ميله للعزلة عميقا، فقد كان قليل الكلام لا يثق في أحد وجعل نفسه بعيدا عن عالم بدا قد صمم لتعذيبه. ومع هذا فقد كان هناك استثناء واحد ذلك أنه صادق لويس أنطوان فيفيليت دى بورين Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne الذي ولد أيضا في سنة ١٧٦٩ وقد تحمس كل منهما للآخر ودافع عنه، وحارب كل منهما الآخر وبعد انفصال طال بينهما أصبح سكرتيرا له في ١٧٩٧ وظل قريبا منه حتى سنة ١٨٠٥.

ومكنت العزلة هذا الشاب الكورسيكي من التفوق في دراسته التي أشبعت عطشه للسمو والتفوق. لقد نفر من دراسة اللاتينية ومن كل الدراسات الميتة فلم يكن ثمة فائدة له من دراسة فضائل فيرجيل virgilian graces ومحكماته الصامتة. وتلقى دراسات قليلة في الأدب أو الفن لأن المعلمين (في هذه المدرسة الحربية) غير ملمين كثيرا بهذه الأمور. لكنه كان شغوفا منذ البداية بالرياضيات ففيها وجد ما يصبو إليه من دقة ووضوح بعيدا عن الأحكام المسبقة والجدال بالإضافة إلى ضرورتها الدائمة لمهندس عسكري. وفي هذا المجال تفوق نابليون على كل طلبة فصله، كما أنه كان يستسيغ الجغرافيا فهذه الأراضي المختلفة لا بد من دراستها، ودراسة الشعوب التي تعيش عليها، وفي الأرض الطعام وهو لازم للأحلام وكان التاريخ فيما يرى (وهو كذلك رأي كارليل) هو عبادة الأبطال خاصة الذين يقودون الأمم ويشكلون الإمبراطوريات وأحب بلوتارك Plutarch حتى أكثر من حبه لإقليدس Euclid. لقد تنفس التعاطف مع هؤلاء الوطنيين القدماء وشرب من دم هذه المعارك التاريخية، فقد قال له باولي Paoli ذات يوم "ليس من شيء جديد فيك فأنت تنتمي إلى بلوتارك تماما"[١٤]. ولا بد أنه كان يفهم هاين Heine الذي قال إنه عندما قرأ بلوتارك تطلع إلى ركوب حصان والانطلاق لفتح باريس. وقد حقق نابليون هذا الهدف من خلال غزوه

لإيطاليا ومصر، لكن نقطة قوته (مجال تميزه) كانت تبدو واضحة في هجماته الجانبية (هجماته على جناحي الجيش المعادي) .

وبعد أن قضى خمس سنوات في برين Brienne وقد اصبحت سنه الآن خمس عشرة سنة، أصبح من بين الطلبة الذين تم اختيارهم من اثنتي عشرة مدرسة عسكرية في فرنسا ليحضروا برامج دراسية متقدمة في مدرسة باريس العسكرية (ليكول ميليتير Ecole Militaire) . وفي أكتوبر سنة ١٧٨٥ تم تعيينه قائم مقاماً ثانياً (ليفيتنانت ثانى Second Lieutenant) للمدفعية في فوج لافير La Fère Regiment المتمركز في فالنس Valence على الرون Rhône . وكان إجمالي راتبه هناك ١٢٠ر١ جنيه (ليفر) في السنة(١٥) . ومن هذا المبلغ كان فيما يظهر يرسل جانبا لمساعدة أمه في تربية أخيه الأصغر، ولأن أباه قد مات في فبراير ولم يكن جوزيف (الابن الأكبر) يملك بعد موارد للمعيشة فقد أصبح نابليون هو رأس الأسرة the clan الفعال. وفي أثناء إجازاته كان يقوم بعدة زيارات إلى كورسيكا وحيدا حتى يشم ترابها" .. حبا في جروفها وجبالها العاليات ووديانها العميقة"(١٦) وذلك على حد تعبيره.

وفي فالنس Valence (وكذلك في أوكسن Auxonne سنة ١٧٨٨) كسب احترام زملائه الضباط بتقدمه السريع في الفنون العسكرية وبسرعة استيعابه وما لديه من خصوبة فكرية تتمثل في اقتراحاته العملية واستعداده للمشاركة في الأعمال التي تتطلب جهدا بدنياً للتحكم في المدافع. وقد درس بعناية كتابا في التكتيك الحربي هو Essai de tactique **générale** (١٧٧٢) بالإضافة إلى كتابات عسكرية أخرى ألفها جاك أنطوان هيبوليت دى جوبير Jacques Antoine Hippolyte de Guibert الرجل الذي أهملته عشيقته جولى دى ليسبيناس Julie de Lespinasse ولم يعد نابليون منبوذاً الآن فقد كون صداقات وارتاد المسارح وسمع الكونشرتات وتلقى دروساً في الرقص واكتشف مباهج النساء. وفي إجازة له قضاها في باريس (٢٢ يناير سنة ١٧٨٧) راح يحدث نفسه مجهدا عن مغامرة جنسية مع إحدى البغايا. لقد أكد لنا ذلك قائلا : "هذه الليلة باشرت امرأة للمرة الأولى في حياتي"(١٧) ومع ذلك ظل بعض الاكتئاب يراوده، فكان أحيانا عندما يكون في غرفته

البسيطة منفردا يتساءل بمنطق صرف لم ينبغي أن تستمر حياته؟ "أليس من المحتم أن أموت في وقت ما؟، فربما كان من الأفضل أن أقتل نفسي"[١٨]. لكنه لم يكن يستطيع أن يفكر في طريقة يتم فيها ذلك بسرور لقد وجد لنفسه وقتا متاحاً في ساعات الفراغ ليوسع مجال تعليمه الذاتي بدراسة الأدب والتاريخ، وقد ظنته مدام دى ريموزا Mme de Rémusat آخر وصيفة لجوزفين أنه "جاهل لا يقرأ إلا قليلا، ومتسرع"[١٩]. والحقيقة أننا وجدنا أنه حتى في فالنس وأوكسون Valence & Auxonne كان يقرأ الأعمال الدرامية التي ألفها كورنيل Corneille وموليير Molière وراسين Racine وفولتير Voltaire[٢٠]، وكان يتلو من الذاكرة فقرات مما قرأ. وأعاد قراءة ترجمة أميوت Amyot لبلوتارك ودرس كتاب الأمير لميكيل وروح القوانين **Esprit des lois** لمنتسكيو وكتاب رينال **Raynal** وعنوانه: **Histoire** Philosophique des deux Indes وكتاب ماريني Marigny عن تاريخ العرب Histoire des **arabes** وكتاب هوسي عن تاريخ حكومة البندقية **Histoire du gouvernement de Venise** وكتاب بارو Barrow الموسوم باسم: **Histoire des Angleterres** وغيرها كثير. وكان يكتب مذكرات أو تعليقات في أثناء القراءة ويقوم بتلخيص الكتب المهمة ولا زالت توجد ٣٦٨ صفحة من مذكراته وتعليقاته هذه منذ أيام شبابه[٢١]. وكانت شخصيته متأثرة بالنهضة الإيطالية كما كانت عقليته متأثرة بالتنوير الفرنسي. ولكن شعاعا من الرومانسية تغلغل فيه استجابة لنثر روسو Rousseau العاطفي والقصائد المنسوبة إلى أوسيا Ossian " التي كان يستطيبها "للسبب نفسه الذي جعلني ابتهج لتلاطم الموج وهفيف الريح" [٢٢].

وعندما قامت الثورة الفرنسية رحب بها وقضى إجازة أخرى في سنة ١٧٩٠ يعمل بتواؤم كامل مع حكم الثورة. وفي سنة ١٧٩١ قدم نابليون لأكاديمية ليون مقالاً دخل بها مسابقة لنيل جائزة قدمها رانيال Raynal حول "ما هي الفضائل أو المشاعر التي يجب أن يتحلى بها الشخص ليحقق مزيداً من السعادة؟ وربما كان مقال نابليون بهذا الشان متأثرا بما كتبه روسو **Rousseau à Julie, ou la Nouvelle Héloise**[٢٣]. يقول نابليون إجابة عن هذا السؤال: علّمهم أن أفضل حياة هي أبسطها. ليفلح الآباء والأبناء التربة وينعموا بثمارها بعيدا عن ضوضاء المدينة وفسادها. فكل ما يحتاجه الإنسان ليكون سعيدا هو الطعام

واللباس وكوخ وزوجة. دعه يعمل ويأكل وينجب وينام وسيكون أسعد من أمير. فحياة أهل أسبرطة وفلسفتهم هما الفضليان "والفضيلة شجاعة وقوة... والطاقة حياة الروح... والرجل القوي صالح والرجل الضعيف هو وحده السيئ "(٢٤). هنا كان الشاب نابليون صدى لترا سيماكوس(٢٥) Thrasymachus ومقدمة لنيتشه الذي رد المديح بأن جعل نابليون بطلا للإرادة والقوة(٢٦). ومن بين آرائه التي ساق لها الأدلة إدانته للملكية والامتيازات الطبقية وتفاهة الإكليروس. وقد رفضت أكاديمية ليون مقالة نابليون تلك باعتبارها فجة.

وفي سبتمبر سنة ١٧٩١ زار نابليون مرة أخرى بلده الأصلي [كورسيكا] وابتهج بقرار الجمعية التأسيسية الفرنسية بجعل كورسيكا دائرة (محافظة) تابعة لفرنسا، وحدث شعبها عن مزايا المواطنة الفرنسية كلها. لقد سحب رغبته في الانتقام من الأمة التي جعلته فرنسيا رغم أنفه ذلك أنه شعر أن الثورة كانت تخلق وطنا فرنسيا جديدا ألمعيا، وفي حوار متخيل بعنوان (Le Souper de Beaucaire نشره على نفقته الخاصة في خريف سنة ١٧٩٣ دافع عن الثورة باعتبارها "نضالاً حتى الموت بين الوطنيين والحكام المستبدين في أوروبا"(٢٧). وحث المعارضين كلهم لينضموا للنضال من أجل حقوق الإنسان وعلى أية حال فقد شعر بطله القديم (مثله الأعلى القديم) باولي Paoli أن انضمام كورسيكا للأمة الفرنسية لن يكون مقبولا منه إلا إذا خولته الثورة سيادة كاملة على الجزيرة، وتقديم دعم مالي له وإلا تم طرد القوات الفرنسية من كورسيكا وكان من رأي نابليون أن هذا اقتراح متطرف واختلف مع مثله الأعلى السابق (باولي Paoli) وعارض طلباته في انتخابات المجلس البلدي في أجاكسيو Ajaccio في أول ابريل سنة ١٧٩٢، وفاز باولي وعاد نابليون إلى فرنسا.

وشاهد في باريس في ٢٠ يونيو اجتياح الجماهير لقصر التوليري وعجب لأن الملك لم يفرق هؤلاء "الوحوش" بوابل من طلقات حرسه السويسرى. وفي ١٠ أغسطس رأى العوام (السانس كولوت) والاتحاديين Fédérés يسوقون الأسرة الملكية من القصر، فوصف المتجمهرين بأنهم "حثالة".. إنهم لا ينتمون للطبقة العاملة أبدا"(٢٨). واستمر في دعم

الثورة مع اتخاذه الحذر والاحتياط بشكل متزايد، وأصبح الآن ضابطا في جيشها. وفي ديسمبر سنة ١٧٩٣ كما ذكرنا في مناسبة سابقة وجد نفسه في عملية الاستيلاء على طولون ونتيجة التوصيات التي أرسلت إلى روبيسبير بشأنه تم تعيينه عميدا (بريجادير جنرال) brigadier général وهو في الرابعة والعشرين من عمره. لكن هذا أدى إلى القبض عليه بعد سقوط روبيسبير، فسجن في أنتيب Antibes ووضع اسمه في قائمة المحالين للمحاكمة وكان من الممكن أن يعدم إلا أنه تم إطلاق سراحه بعد أسبوعين، وأعيد للخدمة في مواقع غير فعالة براتب مخفض. وفي ربيع سنة ١٧٩٥ (كما أخبرنا) كان يتجول على طول نهر السين تراوده فكرة الانتحار عندما التقى به صديق وجعل الحياة تسري في عروقه إذ منحه ثلاثين ألف فرنك[٢٩] وأعاد نابليون المبلغ في وقت لاحق مضاعفا. وفي شهر يونيو وصفه بواسي دنجلا Boissy d'Anglas، بأنه "إيطالي صغير شاحب ونحيل وسقيم لكن وجهات نظره جريئة بشكل لا نظير له"[٣٠]. وقد فكر في وقت من الأوقات في الذهاب إلى تركيا لإعادة تنظيم جيش السلطان (العثماني) وليخلص لنفسه بمملكة شرقية على نحو ما. وعندما كان في حالة مزاجية أكثر انتحاء نحو ما هو عملي قدم لوزارة الحرب خطة معركة لطرد النمساويين من إيطاليا.

وفي واحدة من نزوات التاريخ حيث تفتح الأبواب التي لا مناص من فتحها تم تعيين بارا Barras لتنظيم الدفاع عن المؤتمر الوطني عندما حاصره الملكيون وغيرهم في ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥، فقرر بارا أن طلقات المدافع قد تحقق الغرض لكن لم تكن هذه المدافع تحت يده، وكان قد تذكر ما فعله نابليون في طولون فأرسل إليه وأوكل له مهمة تدبير المدافع وإطلاقها، فأدى المهمة وأصبح نابليون فجأة مشهوراً وسيِّئ السمعة. وعندما احتاجت وزارة الحرب قائدا جسورا مجربا لقيادة الجيش الفرنسي المتوجه إلى إيطاليا زكى كارنو Carnot (أو بارا Barras)[٣١] تعيين بونابرت (٢ مارس ١٧٩٦) وبعد ذلك بسبعة أيام تزوج الجنرال السعيد من جوزفين التي كانت لا تزال جميلة.

٣- جوزفين دى بوهارنيه:

كانت جوزفين كروليّةً Créole (وهي كلمة تطلق على من كان من سلالة فرنسية أو أسبانية ولكنه ولد في المستعمرات الاستوائية وترعرع فيها). وقد كانت جزيرة مارتينيك Martinique الواقعة في البحر الكاريبي فرنسية طوال ١٢٨ عاما عندما ولدت مارى جوزيف روز تاسكر دى لا باجيرى Marie-Joseph Rose Tascher de la Pagerie هناك في سنة ١٧٦٣ من أسرة أورليان Orléans العريقة. وكان عمها البارون دى تاسكر de Tascher حاكما للميناء، وكان أبوها وصيفاً في مقر أم لويس السادس عشر ماري جوزيف Marie Joseph. وتلقت جوزفين تعليمها في دير سيدات العناية الإلهية في فورت رويالFort Royal (الآن فورت دى فرانس Fort de France) عاصمة الحكومة الاستعمارية. وكان المنهج الدراسي في ذلك الوقت يتكون من تعليم مبادىء العقيدة الدينية بطريقة السؤال والجواب وتعليم السلوك (الاتيكيت) وفن الخط والرسم والتطريز والرقص والموسيقا إذ كانت الراهبات المعلمات يعتقدن أن هذا أجدى نفعا للمرأة من تعليمهن اللاتينية واليونانية والتاريخ والفلسفة. وقد أثبتت جوزفين أنهن كن على صواب. فقد أصبحت - أي جوزفين - فيما تقول مدام دى بومبادر de Pompadour "كطبق شهي مقدم للملك".

وفي السادسة عشرة من عمرها جيء بها إلى فرنسا وزوجت من الفيكونت (دون الكونت وفوق البارون) الكسندر دى بوهارنيه وهي في التاسعة عشرة من عمرها ومع صغر سنها فإنها كانت بالفعل قد خبرت فن الغزل وطرائقه في المجتمع الأرستقراطي الفرنسي. لكن سرعان ما كشف غياب زوجها الطويل والمتكرر انخراطه في ممارسة الرذيلة مما جعل جوزفين الحساسة تقتنع أن القائد السادس Sixth Commandant لم يخلق ليكون من الطبقات العليا، فوقفت حياتها بإخلاص لطفليها: يوجين Eugène (١٧٨١ - ١٨٢٤) وهورتنس Hortense (١٧٨٣ - ١٨٣٧) وقد ظلا وفيين لها طول حياتهما.

وعندما قامت الثورة مال الفيكونت إليها وكيف سياساته معها وظل محتفظا برأسه طوال خمس سنوات، لكن كلما تقدم الإرهاب أصبح أي لقب من ألقاب النبالة يعرض حامله للقبض عليه، وبالفعل ففي سنة ١٧٩٤ تم القبض على الكسندر وجوزفين وأودع كل منهما

في سجن منفصل وفي ٢٤ يوليو قصت المقصلة رقبة زوجها.

وبينما هي تنتظر المصير نفسه عرض عليها الجنرال لازار هوش Géneral Lazare Hoche حبه فلبت بهيت لك(*)(٣٢)، فكانت من بين النبلاء كثيرى العدد الذين تم الإفراج عنهم بعد سقوط روبيسبير.

ولما أصبحت تقريباً معدمة لمصادرة ثروة زوجها وكانت في الوقت نفسه حريصة على تعليم أبنائها، استغلت عينيها الزرقاوين المغريتين وجمالها الهادىء الجاذب لعقد صداقة مع تاليان Tallien وأصبحت عشيقة لبارا Barras الصاعد نجمه(٣٣)، وبذا عاد إليها كثير من أموال بوهارنيه المصادرة بما فيها عربة أنيقة ومجموعة خيول سوداء(٣٤). وأصبحت الآن في المرتبة الثانية بعد مدام تاليان مباشرة تأثيرا في مجتمع حكومة الإدارة وقد وصف نابليون صالونها بأنه "أكثر صالونات باريس تميزا"(٣٥).

وكان نابليون يحضر بعض الأمسيات في صالونها، وكان مفتونا بمفاتنها الناضجة ودلالها السهل وتصرفاتها الحلوة بشكل يفوق الوصف "على وفق وصف أبيها المتسامح"(٣٦). ولم تكن جوزفين معجبة ببونابرت الذي بدا لها شاباً نهما ذا نظرة جائعة تنادي" بالإضافة إلى أن دخله غير قابل للزيادة. وأرسلت ابنها وكان في ذلك الوقت في الرابعة عشرة من عمره ليلتمس مساعدته لاستعادة سيف زوجها المصادر. وكان يوجين (ابن جوزفين) فتى وسيما بسيطا حتى أن نابليون وافق مباشرة على التدخل في الأمر، وأعاد لها السيف بالفعل، فدعته جوزفين لتشكره ودعته لتناول الغداء عندها في ٢٩ أكتوبر، فأتى إليها وأصبح راغبا فيها أو بتعبير آخر لقد غزته he was Conquered وفي أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٥ لم تكتف بالخضوع بالقول لهذا الذي أصاب قلبه مرض العشق، وإنما خضعت بالفعل فقدمته لسريرها(٣٧)، لكنهما عزفا عن الزواج. وفيما راح نابليون يستغرق في سرد ذكرياته في جزيرة سانت هيلينا St. Héléna فقال: "إن بارا Barras أسدى إليّ خدمة عندما نصحني بالزواج من جوزفين. لقد أكد لي أنها تنتمي إلى المجتمعين؛ القديم والجديد معا، وأن هذه الحقيقة ستكون مزيداً من الدعم لي، فقد كان منزلها هو أفضل منازل باريس، وستخلصني

(*) هيتَ لك أو هيتُ لك أو هِئْتُ لك. كلها قراءات صحيحة وكلها في عرف النساء تجاوب وقبول.

من اسمي الكورسيكي، وأخيرا فبالزواج منها يمكنني أن أصبح فرنسيا تماما "[٣٨]. وقام بارا Barras أيضا بتوجيه النصح لجوزفين لتحقيق الغرض نفسه (زواجها من نابليون) لأسباب لا تزال موضع خلاف[٣٩]. إذ قال لها إنه رجل تشير الدلائل كلها أنه سيحقق لنفسه مركزا عاليا في العالم. ولم يهتم نابليون بأمر عشقها السابق لآخرين ولم يكن ذلك عائقا أمامه للزواج منها إذ كتب لها: "كل شيء فيك يعجبني.. حتى عندما أتذكر ما ارتكبتيه من أخطاء... فالفضيلة بالنسبة لي هي ما قمت به"[٤٠].

وقد تزوجا في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ على وفق إجراءات مدنية (وليس كنسية)، وشهد على وثيقة الزواج كل من تاليان Tallien وبارا Barras ولم يحضر أحد من أقارب العروسين. وليخففا من حدة فارق العمر بينهما إذ كان نابليون في السابعة والعشرين من عمره، بينما هي في الثالثة وا لثلاثين، سجل نابليون أن سنه ثمانية وعشرون عاما، وسجلت جوزفين أن سنها تسعة وعشرون عاما[٤١]. وقضى العروسان ليلة الزواج الأولى في منزل العروس، لكن جوزفين أبدت مقاومة حاسمة لا تراجع فيها فيما يتعلق بكلبها المدلل المسمى بالمحظوظ Fortune، إذ قال لها نابليون (كما روى لنا): "هذا السيد (يقصد الكلب) أسيظل شاغلاً سرير المدام... إنني أريد منه أن يغادر السرير. لكن لم تكن هناك جدوى من مطالباتي فقد قيل لي إما أن أشارك الكلب في النوم فوق السرير، أو أن أنام في أي مكان آخر. لقد كان عليّ أن أقبل هذا الأمر لكن هذا الكلب المدلل كان أقل مجاملة مني". ففي أسوأ لحظة ممكنة عقر ساقي عقرة شديدة خلفت ندبة ظلت فترة طويلة[٤٢].

وفي ١١ مارس كان نابليون ممزقا بين هذه البهجة الجديدة، وعاطفته الطاغية للسلطة والعظمة، فترك البهجة الجديدة ليقود جيشا لغزو إيطاليا في إحدى أكثر المعارك عبقرية في التاريخ.

٤- الزوبعة الإيطالية: ٢٧ مارس ١٧٩٦ - ٥ ديسمبر ١٧٩٧:

لقد بُسِّط الموقف العسكري بعقد معاهدات مع كل من بروسيا وإسبانيا، أما النمسا فقد رفضت السلام طالما فرنسا متمسكة بفتوحها في الأراضي المنخفضة (النذر لاندز

Netherlands) وعلى طول نهر الراين. وواصلت انجلترا حروبها في البحر وقدمت للنمسا إعانة مالية قيمتها ٦٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني لتمويل حروبها البرية على فرنسا. وكانت النمسا تحكم لومبارديا Lombardy منذ سنة ١٧١٣، وهي الآن متحالفة مع شارل عمانويل الرابع Charles Emmanuel IV ملك سردينيا وبيدمونت Piedmont الذي كان يأمل في استعادة سافوي Savoy ونيس Nice اللتين استولى عليهما الفرنسيون في سنة ١٧٩٢.

وكانت حكومة الإدارة قد تركت أمر التخطيط لعملياتها العسكرية في سنة ١٧٩٦ لكارنو Carnot، فخططها بحيث تشن فرنسا ثلاث هجمات اختراقية على النمسا. فكان على جيش يقوده جوردا Jourdan أن يهاجم النمساويين عند الحدود الشمالية الشرقية على طول سامبر Sambre والميز Meuse وعلى جيش آخر بقيادة مورو Moreau أن يتقدم ضد النمساويين على طول الموسيل Moselle والراين Rhine وعلى جيش ثالث بقيادة نابليون أن يحاول طرد النمساويين والسردينيين من إيطاليا. أما جوردا فبعد أن حقق بعض الانتصارات، واجه القوات المتفوقة للأرشيدوق كارل لودفيج **Archiduke Karl Ludwig** فعانى من الهزائم في أمبرج Amberg وفيرتسبرج Wurzburg وتراجع إلى الشاطىء الغربي للراين. أما مورو فتقدم بجيشه في بافاريا Bavaria وكاد يصل إلى ميونخ Munich ثم علم أن الأرشيدوق المنتصر يمكن أن يقطع خطوط مواصلاته أو أن يهاجمه عند مؤخرة جيشه فانسحب إلى الألزاس. وكأمل أخير لجأت حكومة الإدارة إلى نابليون.

وعندما وصل إلى نيس Nice في ٢٧ مارس وجد أن "الجيش المعد لغزو إيطاليا Army of Italy" ليس على حال يسمح له بمواجهة القوات النمساوية والسردينية التي تسد المدخل الضيق في إيطاليا بين البحر المتوسط وجبال الألب الشاهقة. وكانت قواته مكونه من ٤٣,٠٠٠ مقاتل شجاع اعتادوا على الحروب في الجبال لكن ملابسهم بائسة ونعالهم بائسة، وطعامهم الكفاف حتى إنهم كانوا يضطرون للسرقة ليظلوا على قيد الحياة[٤٣]، ويكاد لا يصلح منهم لخوض معارك شاقة سوى ٣٠,٠٠٠، خيولهم قليلة جداً، ويكادون يكونون بلا مدافع. كما أن الجنرالات الذين وضع على رأسهم نابليون ابن السبع والعشرين سنة كانوا مستائين لتعيينه قائداً لهم وأرادوا أن يشعروه بأنهم أعلى خبرة (هؤلاء الجنرالات هم أوجيرو

Augereau وماسينا Masséna ولاهارب Laharpe سيسورييه Sèsurier) لكن عند أول اجتماع عقده لهم نابليون راعهم شرحه لخططه بوضوح واثق، وإصداره أوامره جلية فسرعان ما أصبحوا له طوعا.

لقد استطاع نابليون أن يفرض نفسه على جنرالاته لكنه لم يستطع أن يحرر نفسه من سحر جوزفين، فبعد أربعة أيام من وصوله إلى نيس نحى خرائطه ومعاونيه وكتب لها خطابا حارا فيه عاطفة مشبوبة لشاب قد اكتشف لتوه عمق عواطفه الكامنة تحت أحلامه بالسلطة:

"نيس في ٣١ مارس ١٧٩٦

لا يمر يوم دون أن أتدله في حبك، ولا تمر ليلة إلا وأنا أضمك بذراعي. أنا لا أستطيع أن أشرب كوباً من الشاي دون أن ألعن الطموح المادي (الدنيوي) الذي أبعدني عن روح حياتي. لكن مهما كنت مشغولا بالأعمال أو قيادة جنودي أو التفتيش على المعسكرات، فإن جوزفين حبيبتي تملأ جوانحي....

إن روحي حزينة وقلبي في الأغلال، وإني أ تخيل أشياء ترعبني، فأنت لا تحبينني كما أحبك، فأنت ستسلين نفسك في مكان آخر......

إلى اللقاء يا زوجتي يا معذبتي يا سعادتي.... فأنت أنت التي أحبها، وأنت التي أخشاها، إنك مصدر المشاعر التي تجعلني مهذبا كالطبيعة Nature نفسها، ومصدر الدفع الذي يجعلني مفجعاً كالصاعقة.... إنني لا أطلب منك أن تحبينني للأبد أو أن تكوني مخلصة لي، لكنني أطلب منك ببساطة.... أن تقولي لي الصدق.... لقد وهبتني الطبيعة Nature روحا مصممة قوية، بينما روحك رقيقة كونت من شرائط زينة وشاش..... عقلي منشغل بالخطط الواسعة، بينما قلبي مستغرق فيك منشغل بك تماما....

إلى اللقاء! آه لو أنك تحبينني أقل مما يجب، ذلك أنك لم تحبيني أبداً، لذا فقد كنت أهلاً للشفقة.

بونابارت(٤٤)

وكتب لهما مرة أخرى مرتين في يومي ٣ و٧ أبريل، وسط معمعة الحرب. وقد درس المعلومات كلها التي أمكنه الحصول عليها عن قوات العدو التي يتحتم عليه هزيمته: جيش نمساوي بقيادة بوليو Beaulieu في فولتري Voltri بالقرب من جنوا، وجيش آخر بقيادة أرجنتو Argentau في مونتنوت Montenotte إلى الغرب من الجيش الآنف ذكره (جيش بوليو) وجيش سرديني بقيادة كولي Colli عند سيفا Ceva أبعد إلى بالجنوب. وقد افترض بوليو Beaulieu أن خطوط مواصلاته هي التي ستملي عليه أي جيش من جيوشه سيكون في حاجة لنجدة طارئة. وعلى هذا الأساس كان يتوقع بناء على أسباب معقولة أن يصد الهجوم الفرنسي نظراً لقواته المشتركة (المتحدة) التي تفوق القوات الفرنسية عددا بنسبة ٢ إلى ١ أي أن قواته ضعف القوات الفرنسية، أما إستراتيجية نابليون فهي أن يتحرك بأكبر عدد من جنوده بأقصى سرعة ممكنة وبسرية ليواجه واحداً من الجيوش المدافعة ويسحقه قبل أن ينجده أي جيش من الجيشين الآخرين. لقد كانت خطة نابليون تنطوي على الإسراع بالقوات الفرنسية في طرق جبلية و عرة، وكان هذا يتطلب مقاتلين شديدى البأس ذوي عزم. وعمد نابليون إلى إثارة حماسهم ورفع روحهم المعنوية بأول بيان من بياناته المشهورة التي كانت إحدى عُدَدِه – غير قليلة الشأن – في معاركه:

"أيها الجنود. إنكم جائعون عريانون. إن الجمهورية مدينة لكم بالكثير، لكنها تفتقد الوسائل لرد ديونها لكم. لقد أتيت لأقودكم إلى أخصب سهول طلعت عليها الشمس. فالمديريات الغنية والمدن الوافر ثراؤها.. كلها ستكون تحت أمركم. أيها الجنود، أيكون هذا الرخاء أمامكم ثم تعوزكم الشجاعة والثبات؟"(٤٥).

لقد كان ذلك دعوة واضحة للسلب والنهب. وكان هذا ضرورياً وإلا بأية وسيلة كان يستطيع هؤلاء الرجال الذين لم يتقاضوا مرتباتهم تحمّل المسيرة الطويلة ثم مواجهة الموت؟ فما كان نابليون مثل معظم الحكام والثوريين ليسمح للاعتبارات الأخلاقية أن تعوق النصر، وكان واثقا أن نجاحه سيمحو خطاياه. ألا يجب أن تساهم إيطاليا في تكاليف تحريرها؟

لقد كان الهدف الأول لاستراتيجيته هو أن يحطم الجيش السرديني ويدفع ملك سردينيا للتراجع إلى تورين Turin عاصمة بيدمونت التابعة له his Piedmont Capital ودخل نابليون في سلسلة مواجهات عسكرية حسمها لصالحه بنجاح: في مونتنوت Montenott (١١ أبريل) وميليسيمو Millesimo (١٣ أبريل) وديجو Dego (١٥ أبريل) وموندوفي Mondovi (٢٢ أبريل) وأدى هذا إلى بعثرة القوات السردينية وتدميرها مما أرغم شارلز عمانوئيل على توقيع هدنة في شيراسكو Cherasco (٢٨ أبريل) تنازل بمقتضاها عن سافوي ونيس لفرنسا، ومن ثم ا نسحب من الحرب. وفي هذه المعارك أثر القائد الشاب في المحاربين التابعين له بأوامره الواضحة الحاسمة، وتكتيكاته المنطقية الناجحة التي تكمل حكمة استراتيجيته التي كانت مبنية في غالبها على مهاجمة جناحي العدو ومؤخرته. وتعلم الجنرالات الأقدمون أن يطيعوه ثقةً منهم في رؤيته وحكمه، أما الضباط الأصغرون سنا (مثل جونو Junot ولان Lannes ومورا Murat ومارمون Marmont وبيرتييه Berthier) **فكانوا مخلصين له حتى أنهم واجهوا الموت مرارا بسببه. وعندما وصل الجنود الباقون على** قيد الحياة بعد هذه الانتصارات إلى مرتفعات مونت زيموتو Monte Zemoto التي يمكن أن يروا منها سهول لمبارديا المشمسة انخرط كثيرون منهم في تحية تلقائية للقائد الشاب الذي قادهم بعبقرية.

والآن لم يعد يتحتم عليهم أن يسلبوا وينهبوا كي يعيشوا، فحيثما أقام نابليون الحكم الفرنسي فرض على الأثرياء والإكليروس الضرائب وحث المدن (أو أمرها) على الإسهام في ضبط سلوك جنوده. وفي ٢٦ أبريل، في شيراسكو Cherasco خاطب جيشه مادحاً إياه ومحذرا من قيام الجنود بعمليات سلب أو نهب:

"أيها الجنود

لقد حققتم في أسبوعين ستة انتصارات، واستوليتم على واحد وعشرين علما، وخمسة وخمسين مدفعا، وفتحتم أغلى جزء في بيدمونت... كل ذلك بدون أية موارد تزودكم بما هو ضروري. لقد حققتم النصر بلا مدفع، وعبرتم الأنهار بلا جسور، وسرتم سيرا حثيثا بلا نعال، وعسكرتم بلا براندي بل وغالبا بلا خبز.... إن وطنكم المقدر للجميل والمعترف به

سيكون مدينا برخائه لكم....

لكن أيها الجنود، إن كل ما فعلتموه لا يساوى شيئا إذا قيس بما ستعملونه. لاتورين Torin ولا ميلان صارت لكم... أثمة واحد فيكم تنقصه الشجاعة؟ أهناك من سيفضل العودة عبر قمم جبال أبنين والألب ليتحمل بصبر نذالة جندي حقير؟ لا ليس من شخص كهذا بين فاتحي مونتنوت وفاتحي ديجو، وفاتحي موندوفي. فكلكم تحترقون لزيادة عظمة الشعب الفرنسي....

أيها الأصدقاء إنني أعدكم بهذا الفتح شريطة أن تقسموا (وتنفذوا ما أقسمتم عليه) أن تحترموا الشعوب التي تحررونها، وأن تكفوا عن السلب الذي يقترفه بعض الأوغاد بتحريض من أعدائنا. وإذا لم تكفوا عن هذا السلب فما أنتم محررون للشعوب بل أنتم إذن جلادوها لو استمر النهب لضاعت ثمار انتصاراتكم وشجاعتكم ونجاحاتكم ودم إخوانكم الذين ماتوا في المعركة، بل وضاع أيضا شرفكم وعظمتكم. ذلك أنه بالنسبة لي وللجنرالات الذين حازوا ثقتكم لا بد أن نستحي من قيادة جيش بلا نظام وضوابط.... إن أي شخص سيقوم بعملية نهب أو سلب سيتم إعدامه رمياً بالرصاص بلا رحمة.

أيها الشعب الإيطالي إن الجيش الفرنسي أتى ليحطم أغلالكم، فالشعب الفرنسي صديق لكل الشعوب، فلتستقبلوا الجيش الفرنسي بثقة، فممتلكاتكم ودينكم وعاداتكم كلها موضع احترام، فلسنا نحقد على أحد سوى على الطغاة الذين يظلمونكم".

بونابرت

لقد شهدت المعركة الأولى عمليات سلب كثيرة، وظل شيء منها رغم هذا الطلب وذاك التهديد، وقد أمر نابليون بإطلاق النار على بعض السلابين وعفا عن آخرين منهم قائلاً:

"هؤلاء البؤساء لا بد من التماس الأعذار لهم، لقد ظلوا طوال ثلاث سنوات يتطلعون للأرض الموعودة... والآن وقد دخلوها فإنهم يريدون الاستمتاع بها"[٤٦]. وقد هدأهم بأن جعلهم يشاركون في المؤن والأموال التي تم جمعها من المدن " المحررة".

ووسط هذا الهياج العظيم كله بسبب طول المسيرة، والمعارك ورغم انشغاله بالأمور الدبلوماسية، فقد كان نابليون في كل ساعة تقريبا يفكر في الزوجة التي كان قد تركها بسرعة بعد ليلة العرس. والآن وقد أصبح يمكنها أن تمر بأمان في السيفن Cévennes فقد أرسل لها خطاباً في ١٧ أبريل يتوسل إليها فيه أن تحضر إليه. وكتب لها في خطاب آخر في ٢٤ أبريل سنة ١٧٩٦ قائلاً: "تعالي بسرعة. إنني أحذرك فإن زاد تأخرك، فستجدينني مريضا. فهذه المتاعب التي أواجهها الآن، أيضاف إليها غيابك عني؟! لا أطيق هذا... فليكن لك جناحان، ولتطيري إليّ.. قبلة مني على قلبك.. وقبلة أخرى تحت قلبك بقليل.. وقبلة ثالثة تحت القبلة السابقة... وأخرى تحت... تحت.... أبعد تحت؟!"[٤٧](*).

أكانت جوزفين مخلصة؟ أكان يمكنها، وهي التي تعودت على المسرات أن تكتفي طوال عدة شهور برسائل التملق التي كان يرسلها إليها؟ وفي الشهر نفسه الآنف ذكره (أبريل) وجد ضابط وسيم في الرابعة والعشرين من عمره هو هيبوليت شارل Hippolyte Charle طريقه إليها. وفي شهر مايو دعت تاليران Tallyerand للقائه. "ستكونين عاصفةً معه، فمدام ريكامييه Récamier ومدام تاليان Tallien ومدام هاميلان Hamilin كلهن يتقن إليه أو بتعبير آخر فقدن اتزانهن من أجله"[٤٨]. وشغفت به جوزفين حبا، حتى إنه عندما أتى مورا Murat قادما من طرف نابليون محملاً بالأموال ومعه تعليمات لها بأن تلحق به في إيطاليا، فإنها تلكأت مُتعلِّلة بالمرض وقالت لمورا أن يبلغ نابليون (رئيسه) أنه قد ظهرت عليها دلائل الحمل. وكتب لها نابليون في ١٣ مايو: "أحقا ما قاله مورا من أنك حامل!... إن مورا يقول إنك متوعكة وهذا ما جعله يعتقد أنه ليس من التدبير السليم أن تتحملي مشاق هذه الرحلة الطويلة. وعلى هذا فإن عليّ أن أظل فترة أطول دون أن أسعد بضمك بين ذراعي! أمن الممكن أن أحرم من رؤية بطنك وقد ارتفع قليلا من جراء الحمل؟"[٤٩] لكن فرحته لم تدم فلم تكن جوزفين أبداً لتلد له طفلا.

(*) يضطر المترجم أحيانا لاستعمال اللغة العامية لنقل ما في المعنى من شحنات: تحت كمان او تحت خالص (عامية مصرية) أو تحت مرة!. او كلش تحت (عامية خليجية).

وفي هذه الأثناء قاد نابليون رجاله ليخوض بهم اثنتي عشرة معركة للفوز بدرة لمبارديا مدينة ميلان الغنية المتحضرة. وعند لودي Lodi على الشاطىء الغربي للأدا Adda لحقت قواته الرئيسية بالقوة الرئيسية في الجيش النمساوي بقيادة بوليو Beaulieu، فتراجع بوليو وعبر النهر فوق جسر خشبي طوله ٢٠٠ متر تم نصب مدافعه في مواقع تسمح له بمنع الفرنسيين من القيام بعبور مماثل، فأمر نابليون فرسانه بالاتجاه شمالا حتى يجدوا مخاضة يعبرون المجرى منها، ومن ثم يتجهون جنوبا لمهاجمة مؤخرة الجيش النمساوي. واحتفظ نابليون بمشاته خلف أسوار المدينة ومنازلها، وشارك بفعالية في توجيه نيران مدافعه إلى المدافع النمساوية التي تحمي الجسر. وعندما وصل فرسانه فجأة إلى الشاطىء الشرقي للنهر وهاجموا القوات النمساوية، أمر نابليون الرماة (رماة القنابل اليدوية) أن يشقوا الطريق عبر الجسر فحاولوا لكن المدافع النمساوية أوقفت تقدمهم، فاندفع نابليون متقدما وانضم إلى كل من لان Lannes وبيرثييه Berthier في قيادة المجموعة فهزم النمساويون وأسر منهم ألفان، فانسحب بوليو Beaulieu إلى مانتوا Mantua واستراح الجيش الفرنسي مدة يوم ثم دخل ميلان وبسبب هذه الواقعة وهي اندفاع القوات الفرنسية بقيادة بونابرت بشكل انتحاري وبروح عالية في الوقت نفسه معرضا نفسه لنيران العدو أطلق عليه تدليل محبب وهو "العريف الصغير Le petit Caporal " .

وبعد هذا الانتصار بفترة وجيزة تلقى نابليون من حكومة الإدارة اقتراحاً مهينا له حتى إنه نص في رده لهم عن تخليه عن مهامه مضحيا بما وصل إليه من مجد. فهؤلاء الرجال الخمسة (حكومة الإدارة) الذين كانوا ينعمون بالمهرجانات الاحتفالية عندما تصل أخبار انتصارات نابليون إلى باريس، أخبروه (٧ مايو) بضرورة أن ينقسم جيشه الآن إلى قسمين؛ قسم يقوده الجنرال فرانسوا إيتين كيلرمان François- Etienne Kellermann (ابن محقق نصر فالمي Valmy) ليعهد إليه حماية الفرنسيين في شمال إيطاليا من هجمات النمساويين، وقسم بقيادة بونابرت ليتجه به جنوبا ليضم الولايات البابوية Papal States ومملكة نابلي إلى الحكم الفرنسي. ولم ير نابليون في هذا الاقتراح حيفا أو ظلما لشخصه فحسب وإنما رأى فيه خطأ إستراتيجيا أساسيا، فالهجوم على البابوية Papacy لن يثير فحسب كاثوليك

أوربا كلهم بمن فيهم كاثوليك فرنسا على الثورة الفرنسية، وإنما سيكون كاثوليك النمسا مستعدين بالفعل لإرسال جيش قوي بقيادة الفيلد مارشال كونت داجوبيرت فون فيرمسر (فورمسر Wurmser) لطرده (أي طرد نابليون) إلى فرنسا . لذا فقد أجاب نابليون بأن الجيش الفرنسي في إيطاليا Army of Italy في حاجة لأن يكون موحدا مزودا بما يلزمه ليحافظ على مكاسبه ولا يمكن أن تتم قيادته بنجاح إلا بقيادة واحدة، لذا فهو – أي نابليون – سيترك موقعه القيادي للجنرال كيلرمان Kellermann وسيقدم استقالته .

وتلقت حكومة الإدارة رسالة نابليون في الوقت الذي تلقت فيه تقارير عن نجاحاته الأخيرة في المجالين الحربي والدبلوماسي . ذلك أن الجنرال الشاب (نا بليون) كان قد أعطى لنفسه الحق في عقد معاهدات السلام تماما كحقه في شن الحرب، كما أعطى لنفسه الحق في أن يقدر الثمن الذي يجب أن تدفعه كل مدينة أو دولة إيطالية لتنعم بالحماية الفرنسية بدلاً من أن يتركها نهباً لطمع عساكره، ولم يعط نابليون لنفسه هذه الحقوق إلا اعتزازا منه بما حققه من نصر ولشعوره بأن هؤلاء السياسيين القابعين بعيدا في باريس (حكومة الإدارة) ليسوا في موقف يمكنهم من التفاوض لعقد المعاهدات بما يتناسب مع موارد العدو وظروف الجيش الفرنسي . وإنما وجد نفسه هو الأقدر بحكم قربه من الحقائق الموجودة على أرض الواقع . لكل هذا فإنه بعد دخوله ميلان Milan منتصرا (١٥ مايو ١٧٩٦) رتب هدنة مع دوق بارما Duke of Parma ودوق مودينا Modena وملك نابلي Naples، ضمن – من ناحيته – لهم السلام مع فرنسا وحمايتهم من النمسا، وحدد لكل منهم قيمة ما يدفعه لقاء هذا التفاهم، فدفعوا مبالغ طائلة وتحملوا – عاجزين عن فعل أي شيء – سرقة الأعمال الفنية الخالدة من متاحفهم وقصورهم وميادينهم العامة .

لقد رحبت به ميلان، فطوال ما يقرب من قرن كانت تتطلع للتحرر من حكم النمسا، وكان هذا القائد الحربي الشاب – على غير العادة – كريما – إذا قيس بالفاتحين الآخرين، وكان متآلفا مع أسلوب الحياة الإيطالي ومع اللغة الإيطالية مقدرا للنساء الإيطاليات، حفيا بموسيقا الإيطاليين وفنهم . ولم يكن ذلك غريبا على الإيطاليين فلم يكن إدراكهم لشغفه بالفن الإيطالي مفاجئا . وعلى أية حال فهو لم يكن إيطاليا إلا لشهر أو نحو ذلك (المقصود

أنه لم يظل ودوداً بهذا الشكل إلا لفترة شهر أو نحو ذلك) . لقد جمع حوله فناني إيطاليا وشعراءها ومؤرخيها وفلاسفتها وعلماءها وراح يتحدث معهم بألفة . لقد بدا له لفترة وكأن لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza وليوناردو دا فنشي Leonardo da Vinci بعثا معا من جديد وصارا كيانا واحدا . أي شيء يمكن أن يكون أكثر جاذبية وتشويقا من خطابه إلى عالم الفلك بارنابا أورياني Barnaba Oriani ؟

"المثقفون والعلماء في ميلان لم يعتادوا أن ينعموا بما يستحقونه من تقدير . فهم مختبئون في معاملهم يظنون أنه إذا لم ينلهم من الملوك والقسس أذى، إنهم إذن لفي نعيم . إن الأمر ليس كذلك الآن . لقد أصبح الفكر في إيطاليا حرا . لا مكان لمحاكم التفتيش بعد الآن . لا مكان للتعصب وعدم التسامح . لا مكان للظلم والطغيان . إنني أدعو المثقفين والعلماء كلهم أن يجتمعوا معا وأن يدلوني على ما يجب عمله أو الاحتياجات المطلوبة حتى نبث حياة جديدة في العلوم والفنون الجميلة . . . أرجوك أبلغ هذه المشاعر عني للرجال المميزين من قاطني ميلان المثقفين والعلماء"(٥٠) .

قد أدمج نابليون مدينة ميلان ومدناً أخرى في جمهورية لومبارديا التي كان على سكانها أن يشاركوا الفرنسيين في "الحرية " و "المساواة" و "الإخاء" و "الضرائب" .

وفي إعلان للمواطنين الجدد (صدر في ١٩ مايو ١٧٩٦) وضح أنه ما دام الجيش المحرر قد دفع ثمنا باهظا لتحرير لومبارديا، فإن على المحررين أن يشاركوا بدفع نحو عشرين مليون فرنك لإنفاقها على جنوده (جنود نابليون)، وهذا – بالتأكيد – مجرد إسهام صغير بالنسبة لبلاد بمثل هذا الخصب، وأكثر من هذا فإن الضرائب ستفرض على "الأثرياء . . . وعلى المؤسسات الكنسية حتى يتم إعفاء الفقراء(٥١) . ولم يحظ النظام الذي فرض في الأيام الآنف ذكرها بكثير من الشعبية، ذلك النظام القاضي بأن يصحب مندوب إيطالي الجيش الفرنسي ليدله على الأعمال الفنية والمستلزمات العلمية وما إلى ذلك الموجودة في المدن المفتوحة لتحويلها إلى الجمهورية(٥٢) . ولم يستطع الإيطاليون الثأر لأنفسهم وإنما عللوا أنفسهم ببعض التوريات اللفظية كقولهم: "ليس الفرنسيون كلهم لصوصا وإنما منهم عدد كبير من الصالحين" . وعلى أية حال فقد كان نابليون يتبع في هذا النظم التي وضعها المؤتمر

الوطني وحكومة الإدارة، وكان سلب الأعمال الفنية في المدن المفتوحة عملاً ليس له سوابق إلا فيما ندر، أثار السخط في كل مكان ما عدا فرنسا، وكان نموذجا احتذاه المحاربون بعد ذلك. وتم إرسال كل ما سلب إلى حكومة الإدارة فتلقتها بسرور ووجدت هذه المسلوبات طريقها إلى اللوفر Louvre حيث توجهت لوحة الموناليزا Mona Lisa التي لم تفقد ابتسامتها رغم ما تعرضت له من اغتصاب (المقصود أن نقل اللوحة من إيطاليا إلى فرنسا نوع من الاغتصاب) واحتفظ نابليون لنفسه بقليل من العوائد الإيطالية(٥٣) استثمر بعضها في تقديم الرشاوى بحكمة وتدبير، واستخدم كثيرا منها في الدفع لجنوده ليخفف من حماسهم للسرقة.

وبعد أن جهز نابليون عشا لعروسه أرسل يلح على جوزفين (١٨ مايو) لتأتي إليه: "ميلان... لابد أن تعجبك فهي جميلة جداً.. سأطير من الفرح... أكاد أموت شوقاً لأراك وأنت تحملين طفلك ... . Addio,mio dolce amor تعالي بسرعة لتسمعي الموسيقا اللطيفة ولترى إيطاليا الجميلة"(٥٤). وبينما كان خطابه في الطريق إليها عاد لينهمك في طرد النمساويين من إيطاليا. وفي ٢٠ مايو كان مرة أخرى مع جنوده ولأنه كان يعلم أنهم سيواجهون بعد فترة وجيزة كثيرا من المصاعب وقوات العدو، فقد خاطبهم في بلاغ آخر من بلاغاته البليغة:

"أيها الجنود

لقد اندفعتم كالسيل من جبال أبينين Apennines وهزمتم كل قوة اعترضت مسيرتكم وشتتم شملها... فبو Po وتيسينو Ticino وأدا Adda لا يمكنها أن توقف تقدمكم.. نعم، أيها الجنود، لقد قمتم بالكثير لكن أحقا ما عاد مطلوبا منكم شيئا آخر؟ لا! إنني أراكم بالفعل وقد طرتم لتقبضوا على أسلحتكم... فأنتم لا تحبون الاستجابة الكسلى.. فكل يوم يمر دون أن تحققوا أمراً جليلا، إنما هو يوم ضائع لا يحسب من أعماركم.. وهو ضائع أيضا لأنكم لم تحققوا فيه سعادتكم. دعونا نتحرك بسرعة، فما زال أمامنا مسيرة شاقة، ومازال أمامنا عدو يتحتم علينا الانتصار عليه، ولا زالت أمامنا أكاليل الغار نحوزها، ومن الخطأ أن تحركنا روح الانتقام... لا تفزعوا الشعوب التي نمر بها، فنحن أصدقاء

للشعوب كلها. . . ستحوزون العظمة الخالدة لتغييركم وجه الحياة في أجمل بقاع أوربا . . فالأمة الفرنسية الحرة . . . ستقدم لأوربا سلاما مجيدا . . . عندها ستعودون إلى بيوتكم ومواطنيكم الذين سيميزونكم عن سواكم . . . سيقول قائلهم عن الواحد منكم " إنه كان مع الجيش الفرنسي المقاتل في إيطاليا "(٥٥).

وفي ٢٧ مايو واصلت القوات الفرنسية تقدمها في لومبارديا واحتل نابليون بريسكيا - Brescia متجاهلاً أنها تابعة للبندقية – وجعلها المركز الأول للمعركة القادمة، وعندما أرسلت البندقية مبعوثيها إليه للاحتجاج، تظاهر بالغضب وأثار الرعب فيهم بقوله لهم إن البندقية – بالفعل – تسمح للقوات النمساوية باستخدام طرقها ومدنها، فاعتذر البنادقة له ووافقوا على أن يكون له الحق نفسه في استخدام أراضي البندقية(٥٦).

وأدى جد القوات الفرنسية في المسير إلى وصولها إلى بشيرا Peschiera، فهربت الحامية النمساوية التي تركها النمساويون فيها، وتملك نابليون الحصن الاستراتيجي ودعمه ليحمي طرق مواصلاته، واندفع إلى مانتوا Mantua حيث كانت بقايا جيوش بوليو Beaulieu الثلاثة قد اتخذت لنفسها مواقع دفاعية حصينة. وترك نابليون جزءاً من قواته لمحاصرة الحصن، وأرسل جزءاً آخر إلى الجنوب لطرد البريطانيين من ليجورن Leghorn، وتم ذلك فعلا، وسرعان ما قامت ثورة شعبية أرغمتهم على مغادرة كورسيكا. ووجد مورا Murat أن طرد المبعوث (السفير) النمساوي من جنوا مسألة بسيطة، وعمل على ضم هذا الجزء النَّاتئ في البحر المتوسط في الجمهورية الليجورية تحت الحكم الفرنسي. ولا تكاد تكون إيطاليا قد شهدت مثل هذه التغييرات في القوى في فترة قصيرة كما شهدتها في هذه الفترة.

وعاد نابليون إلى ميلان وانتظر جوزفين التي وصلت في ١٣ يوليو، فعانق القائد المنتصر (نابليون) هازمه (جوزفين). وفي اليوم التالي حيتها المدينة بإقامة عروض خاصة في لاسكالا(*) La Scala أعقبها حفل راقص قدم لها فيه الشخصيات المحلية البارزة كلهم –

(*) أي المدرج وفي المعجم الايطالي (إنجليزي – إيطالي، إيطالي – إنجليزي)
= Scala : Homlyn Italian Dic , Ladder, Staircase , Stairs . (المترجم)

وبعد ثلاثة أيام من النشوة كان على الجنرال (نابليون) أن يعود إلى جنوده في مارميلورو Marmiloro، ومن هناك بثها أنشودة حب وإعجاب وفتنة لا تصدر إلا عن شاب :

"منذ فارقتك وأنا حزين الفؤاد. عندما أكون معك لا أستطيع ادخار شيء من السعادة . . . فمفاتن جوزفنيني (حبيبتي جوزفين) التي لا مثيل لها تشعل النار التي تحرق قلبي باستمرار وتلهب مشاعري. وعندما أتخلص من مشغولياتي ومسئولياتي، وأكون حرا في قضاء وقتي كله معك، فلن أفعل شيئا سوى أن أحبك.

منذ أيام قليلة مضت ظننت أنني أحبك، لكن الآن وقد رأيتك مرة ثانية فإنني أحبك أكثر من ذى قبل آلاف المرات . . . .

آه ! إنني أتوسل إليك، دعيني أرى أن فيك عيوبا. كوني أقل جمالا، أقل لطفا، أقل رقة، أقل طراوة. وفوق كل هذا لا تكوني غيوراً. لا تبكِي، فدموعك تفقدني عقلي، تجعل دمائي تغلي .. تعالي بسرعة إليّ، على الأقل لنستطيع القول قبل الممات : لقد قضينا ساعات كثيرة طيبة معاً . . . "(٥٧).

وأطاعت جوزفين رغم خطر شرك العدو في الطريق فلحقت به في بريسكيا Brescia وصحبته إلى فيرونا Vérona وهناك حمل له جواسيسه أخبارا مفادها أن جيشا نمساويا جديدا كان قد دخل إيطاليا بقيادة الكونت فون فيرمسر Von Wurmser كان قد طرد مؤخرا الفرنسيين من مانهيم Mannheim وقدر أن عدد أفراد هذا الجيش المعادي يفوق عدد قوات نابليون بنسبة ٣ إلى ١.

وتحسبا لكارثة محتملة أعاد جوزفين إلى بيشيرا Peschiera ودبر أمر نقلها من هناك إلى فلورنسا. وفي هذه الأثناء أصدر أوامره للفصائل الفرنسية بضرورة أن تغادر إلى مانتوا Mantua لفك الحصار عنها، وأن تأتي من طرق ملتوية (غير مباشرة) لتنضم إلى قوات جيشه الرئيسية. ووصلت القوات الفرنسية في وقت مكنها من المشاركة في معركة كاستيجليون Castiglione (٥ أغسطس ١٧٩٦). ولم يكن فيرمسر Wurmser يتوقع هذا الهجوم الفرنسي المبكر، فقد كان يقود كتائبه صوب الجنوب في صفوف طويلة ليس لها عرض كثيف، فانقض نابليون على القوات النمساوية غير المستعدة وشتتها وأسر خمسة

عشر ألف أسير، وتراجع فيرسمر Wurmser إلى روفيريتو Rovereto فتبعته القوات الفرنسية وألحقت به الهزيمة هناك، كما ألحقت به هزيمة أخرى في باسانو Bassano، وهرب القائد العجوز الحزين مع من تبقى من جيشه ليجد له ملجأ خلف أسوار مانتوا Mantua، فترك نابليون بعض فصائل قواته للتعامل معه هناك.

لكن – الآن – وصلت قوات نمساوية إضافية عددها ٦٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة بارون الفنتسي Alvinczy عبر جبال الألب لتخوض حربا مع ٤٥,٠٠٠ مقاتل فرنسي هم من بقى الآن مع نابليون. والتقى الجيشان في أركول Arcole، لكن هذه القوات النمساوية كانت على الجانب الآخر من نهر أديجي Adige ولم يكن يمكنها العبور إلا على جسر في ظل وابل من النيران. ومرة أخرى – كما حدث في لودي Lodi في الأدا the Adda كان نابليون من بين أول العابرين(*). وقد حكى نابليون بعد ذلك: "عندما كنت في معمعة المعركة، ألقى مساعدي الكولونيل مويرو Muiron بنفسه ناحيتي وغطاني بجسده وتلقى عني قذيفة كانت موجهة لي، وغرق عند قدمي"(٥٨). وفي معركة الأيام الثلاثة التي تلت ذلك (١٥–١٧ نوفمبر ١٧٩٦) تراجع النمساويون – بعد قتال شرس – تراجعا منظما. وأعاد ألفنتسي Alvinczy ترتيب قواته في ريفولي Rivoli لكنه لاقى هناك هزيمة أخرى، فقاد ألفنتسي ما تبقى من قواته – بعد أن فقد ٣٠,٠٠٠ مقاتل، وعاد متراجعا إلى النمسا. أما فيرسمر Wursmer فبعد أن فقد الأمل في استرجاع شيء وبعد أن عانت قواته من الجوع بشكل يدعو للشفقة – استسلم في ٢ فبراير سنة ١٧٩٧، وبذلك يكون قد تم استيلاء الفرنسيين على لومبارديا.

وبعد ذلك استدار نابليون – النهم – بقواته إلى الجنوب في اتجاه الولايات البابوية، وطلب – بأدب – من البابا بيوس السادس Pius VI أن يتنازل عن بولونيا Bologna وفرارا Ferrara ورافنا Ravenna وأنكونا Ancona والأراضي التابعة لهذه المدن جميعا. وبالفعل

(*) رسم جروس Gros لوحته الشهيرة للقائد الشاب وهو يعبر جسر اركول Arcole بعد فترة قصيرة من وقوع الحدث وقد أنجز جروس لوحته في ميلان، وأصبحت بعد ذلك هي اللوحة المعروفة بلوحة المقاومة Pièce de résistance في صالون باريس سنة ١٨٠١. وفي هذه اللوحة يظهر نابليون بعينين متقدتين وشعر مهوش بفعل الريح، وفي إحدى يديه علمه مرفوعا، وفي الأخرى سيف.

سلم البابا هذه المدن إلى نابليون على وفق معاهدة تولينتينو Tolentino (١٩ فبراير ١٧٩٧)، ودفع البابا مبلغ خمسة عشر مليون فرنك "تعويضاً indemnity" عما لحق الجيش الفرنسي من خسائر. لقد أصبح نابليون الآن هو سيد الشمال الإيطالي كله فيما عدا بيدمونت Piedmont والبندقية (فينيسا)، فأعاد تنظيم قواته وأضاف إليها بعض الكتائب كونها في إيطاليا بالإضافة إلى دفعة جديدة وصلته من فرنسا بقيادة الجنرال برنادوت Bernadotte فبلغ عدد أفراد القوات تحت إمرته ٧٥,٠٠٠ مقاتل قادهم عبر الألب في طرق ارتفع فيها الجليد ثلاثة أقدام، ليهاجم فينا نفسها، المركز الإمبراطوري للهجوم على الثورة الفرنسية.

وأرسل الامبراطور فرانسيس الثاني Francis II جيشا قوامه ٤٠,٠٠٠ مقاتل لمواجهته بقيادة الأرشيدوق كارل لودفيج Karl Ludwig الذي عاد لتوه ثملاً بما حققه من انتصارات على جبهة الراين Rhine لكنه عندما علم بأعداد القوات الفرنسية المتقدمة، وهالته شهرة نابليون المقرونة بالاحترام اتخذ استراتيجية تراجعية (خططاً للانسحاب)، فتعقبه نابليون حتى أصبح على مسافة ستين ميلا من العاصمة النمساوية، وكان يمكنه حتى بلا جيش أن يستولي على المدينة فيحلو له عند ذلك أن يترنم مع هايدن العجوز Haydn وبيتهوفن الشاب. لكن لو أن ذلك حدث لتراجعت حكومة فينا إلى المجر وساعتها قد تطول مدة الحرب وتتسع رقعتها، وفي وسط الشتاء، وسيكون الجيش الفرنسي في وسط معادٍ عرضة في كل لحظة للهجوم على جناحيه. وفي لحظة نادرة من لحظات الاعتدال وبالحذر الذي استفاد منه كثيرا في سنواته اللاحقة – أرسل نابليون إلى الأرشيدوق دعوة للتفاوض لعقد هدنة، لكن الأرشيدوق رفض العرض، فألحق به نابليون هزائم منكرة في نو ماركت Neumarkt وفي أومتسماركت Umzmarkt فوافق كارل على التباحث، وفي ١٨ ابريل في لوبن Leoben عقد القائدان الشابان معاهدة سلام مبدئية يتوقف إقرارها على موافقة حكومتيهما.

وكان الطريق إلى التصديق على المعاهدة مغلقا يعترضه رفض النمسا التسليم من ناحية، وإصرار نابليون على الاحتفاظ بفتوحاته في لمبارديا من ناحية أخرى. لكن حدثاً بدا قليل

الشأن أعطى لنابليون فرصة - كفرصة لاعب القمار - ليتخلص من هذا المأزق. لقد كان نابليون قد احتل عدة مدن تابعة للبندقية (فينيسيا)، وقد سرى عصيان مسلح في بعض هذه المدن ضد الحاميات الفرنسية. ولأن مجلس الشيوخ (السينات Senate) في البندقية كان متورطا في إثارة هذا العصيان، فقد عزله نابليون وأحل محله سلطات بلدية (جهاز إداري على نمط المجالس البلدية) تابعة للسيطرة الفرنسية وجردها (أي البندقية) من الأراضي التابعة لها في البر الإيطالي. وعندما حان الوقت لتحويل الاتفاق المبدئي في لوبن Loeben ليصبح معاهدة كامبوفورميو Campoformio (١٧ أكتوبر ١٧٩٧) عرض نابليون على النمسا أن تكون حرة في ضم البندقية إلى إمبراطوريتها مقابل تنازلها عن لمبارديا وبلجيكا واعترافها بالحقوق الفرنسية على الشاطيء الأيسر لنهر الراين Rhine لقد اعترى أوربا كلها تقريبا رعب شديد بسبب دبلوماسية التبرع بأراضي الآخرين هذه (إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق)، ونسيت آلاف المعاهدات.

وعلى أية حال فإن مكيافيللي الجديد أصر على الاحتفاظ لفرنسا بالجزر التابعة للبندقية في البحر الأدرياتي وهي كورفو Corfu وظانطه Zante وسيفالونيا Cephalonia فقد كتب نابليون إلى حكومة الإدارة في ١٦ أغسطس ١٧٩٧ "إن هذه الجزر بالنسبة لنا أكثر فائدة لنا من إيطاليا كلها مجتمعة. إنها حيوية لإنعاش تجارتنا وازدهارها وإذا كان علينا أن ندمر إنجلترا بفاعلية فلا بد لنا من الاستيلاء على مصر. فالإمبراطورية العثمانية تذوي يوما بعد يوم، وهذا يرغمنا على استباق الأحداث وأن نتخذ خطوات مبكرة للحفاظ على تجارتنا في الشرق[٥٩] Levant". لم يكن لدى الشيوخ إلا القليل ليعلموه لهذا الشاب ابن الثامنة والعشرين (نابليون).

وأعاد نابليون تنظيم المناطق التي فتحها فخول لنفسه صلاحيات سياسية واضحة، فجعل من ميلان مركزا لجمهورية سيزالبينية Cisalpine وجعل من جنوا مركزا لجمهورية ليجورية، يحكم كل منهما حكومة ديمقراطية محلية تحت الحماية الفرنسية وأيضا تحت السيادة الفرنسية. والآن وقد انتقم من الفتح القيصري الروماني لبلاد الغال، عاد العريف

الصغير Little Corporal (عبارة تدليل أطلقها عليه جنوده) مكللا بغار المجد محملاً بالأسلاب – إلى باريس لاعتماد معاهداته التي أبرمها من حكومة إدارة انتقالية كان هو – بانتصاراته – قد ساعد أعضاءها على البقاء في مناصبهم.

٥– انقلاب ١٨ فروكتيدور(*): ٤ سبتمبر ١٧٩٧ :

لم تكن باريس التي وصلها هي باريس نفسها التي ألفها في أيام عامي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ حيث حكم الجماهير والحشود. بل إنه حتى منذ سقوط روبيسبير سنة ١٧٩٤ كانت العاصمة (باريس) تتبع خطى أهل الريف فزادت معارضتها للثورة؛ معارضة ذات بعد ديني وبعد سياسي أيضا. فالكاثوليكية – بقيادة القسس الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور المدني – استعادوا نفوذهم على شعب كان قد فقد تصديقه للبديل الدنيوي عوضا عن الآمال المعقودة على حياة أخرى فيها العزاء وزاد حنينه إلى الطقوس الدينية والمناسبات المرتبطة بالقديسين، فزاد إهماله للنظام العشري لتقسيم الأيام الذي ابتدعته الثورة The décadi واعتبار اليوم العاشر هو يوم الراحة، وعادوا للاحتفاء بيوم الأحد من كل أسبوع وتوقيره. إن فرنسا تصوت الآن لصالح الرب God

أما بالنسبة للملك، ففي البيوت والصالونات والشوارع بل وفي تنظيمات الأحياء التي كان العوام (السانس كولوت) يسيطرون عليها – راح الرجال والنساء يتحسرون على أيام الرجل الطيب لويس السادس عشر bonhomme Louis XVI وراحوا يلتمسون الأعذار لما وقع فيه البوربون من أخطاء وراحوا يتساءلون أيمكن لأي حكومة أخرى غير الملكية الشرعية أن تعيد النظام والأمان والرخاء والسلام وتخرج فرنسا من حالة الفوضى والجريمة التي دمرت فرنسا؟ والمهاجرون العائدون (الذين كانوا قد تركوا فرنسا إثر قيام الثورة) كثر عددهم حتى إن الظرفاء منهم أطلقوا على مقار إقامتهم في باريس اسم "كوبلينز الصغيرة Le petit Coblenz" (إشارة إلى مكان إقامتهم في ألمانيا بعد مغادرتهم فرنسا)، وفي مقارهم في باريس بعد عودتهم كان يمكن للمرء أن يسمع الفلسفات الملكية التي كان يدعوهم إليها

(*) أي شهر الفواكه في التقويم الجمهوري.

خارج فرنسا بونال Bonald وميستر .Maistre والجمعيات المنتخبة التي كان يسودها البورجوازيون كانت ترسل إلى مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة مزيدا من النواب المستعدين لمغازلة النظام الملكي شريطة ضمان الممتلكات. وبحلول سنة ١٧٩٧ كان أنصار النظام الملكي في المجلسين من القوة بمكان حتى إنهم انتخبوا لحكومة الإدارة الماركيز دى بارثيليمي de Barthélemy ووجدنا لازار كارنو Lazare Carnot عضو حكومة الإدارة منذ سنة ١٧٩٥ يعود مرة أخرى ألى اليمين ويتخذ موقفا معارضا من دعايات بابيف Babeuf وراح ينظر بعين الرضا إلى الدين باعتباره طعما (تطعيم) ضد الشيوعية.

وشعر الجمهوريون الراسخون من أعضاء حكومة الإدارة - بارا Barras ولارفيلييرـ ليبو - Larevellière Lépaux وروبل Rewbell، بالخطر على مناصبهم وحياتهم بسبب الحركة الملكية، فقرروا المخاطرة بكل شيء والقيام بانقلاب يمكن أن يخلصهم من الزعماء الملكيين في كلا المجلسين وفي حكومة الإدارة. وراحوا يطلبون الدعم الجماهيري من اليعاقبة الراديكاليين الذين اختفوا عن الساحة والمرارة في حلوقهم في أثناء حركة المحافظين (المطالبين بالعودة إلى الماضي الملكي)، كما طلبوا الدعم العسكري من نابليون ليرسل لهم من إيطاليا جنرالا ذا كفاءة لتنظيم جنود باريس للدفاع عن الجمهورية. وكان نابليون راغبا في مساعدتهم، فإحياء مطالبات أسرة البوربون بالعرش قد تحبط خططه، إذ كان راغبا في ترك الطريق مفتوحا لوصوله هو للسلطة السياسية، فالوقت لم يصبح مناسبا بعد لهذه المغامرة. فأرسل إليهم قائدا حازما هو بيير أوجرو Pierre Augerau وهو رجل محنك عركته المعارك. فقام أوجرو بضم بعض جنود هوش Hoche للعمل معه، وبهؤلاء الجنود اقتحم في ١٨ فروكتيدور(*) (شهر الفواكه) المجلسين التشريعيين وقبض على ٥٣ نائبا وكثير من الوكلاء الملكيين كما قبض على عضوي حكومة الإدارة : بارثيليمي Barthélemy وكارنو Carnot، وهرب كارنو إلى سويسرا وتم ترحيل معظم الباقين إلى جويانا (غيانه) Guiana في أمريكا الجنوبية حيث الكدح والعمل وحيث لا يعرف بهم أحد. وفي انتخابات سنة ١٧٩٧ سيطر الراديكاليون على المجلسين وضموا كلا من ميرليّ الدووي Merlin of Ldouai، وجان

(*) بالتقويم الجمهوري الآنف ذكره (المترجم).

بابتست تريهار Jean - Baptiste Treihard إلى الثلاثة الآخرين في حكومة الإدارة التي تم تعديلها على هذا النحو، وخولوها سلطة تكاد تكون مطلقة[٦٠].

وعندما وصل نابليون إلى باريس في ٥ ديسمبر ١٧٩٧ وجد إرهابا جديدا موجها إلى المحافظين كلهم، وكل ما كان يفرق بين هذا الإرهاب الجديد والإرهاب القديم، أن الإرهاب الجديد استخدم نفي المعارضين إلى جويانا (غيانه) Guiana بدلا من قطع رقابهم بالمقصلة. ومع هذا فقد بدت الطبقات كلها متفقة على كفاءة هذا الشاب (نابليون) الذي أضاف نصف إيطاليا إلى فرنسا. وقد نحى نابليون جانبا الآن تطلعه إلى القيادة الصارمة، وراح يظهر بمظهر التواضع والاعتدال، وراح يعمل على إرضاء الجميع بطرق مختلفة؛ إرضاء المحافظين بتمجيد النظام، وإرضاء اليعاقبة بإظهار دوره في نقل إيطاليا من مرحلة العبودية الإقطاعية إلى مرحلة الحرية، وإرضاء المثقفين بكتابته "إن الفتوح الحقيقية تتمثل في القضاء على الجهل، ولا عذر لنا في التواني في القضاء عليه"[٦١]. وفي ١٠ ديسمبر قام أصحاب المقام الرفيع في الحكومة الوطنية بتكريمه بشكل رسمي. وكانت مدام دى ستيل Mme. de Stael حاضرة، وقد حفظت لنا مذكراتها هذا المشهد:

"استقبلت حكومة الإدارة الجنرال بونابرت استقبالا مهيبا كان في بعض جوانبه علامة مميزة في تاريخ الثورة وقد اختاروا قصر لوكسمبرج Luxembourg لإقامة هذه المراسم، فلم تكن هناك قاعة من السعة بحيث تتسع لمثل هذا الحشد؛ وتجمع الناس لمشاهدته فوق كل سطح. وقد وقف أعضاء حكومة الإدارة الخمسة - وقد ارتدوا ملابس رومانية - على منصة، وبالقرب منهم كان نواب مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة وأعضاء المعهد العلمي..

ووصل نابليون وهو يلبس ملابس بسيطة جدا ويتبعه مساعدوه، وكانوا جميعا أطول منه لكنهم كانوا يحترمونه جدا وينحنون له، وشملت النخبة - المتجمعة هناك - الجنرال المنتصر بالتحية والتصفيق. لقد كان نابليون هو أمل الجميع من جمهوريين وملكيين، فالجميع رأوا الحاضر والمستقبل في قبضته"[٦٢].

وفي هذه المناسبة سلم أعضاء حكومة الإدارة معاهدة كامبوفورميو Campoformio،

فتم اعتمادها رسميا وأصبح نابليون قادرا على قضاء فترة راحة من المشاغل الدبلوماسية ومن الحرب.

وبعد أن حضر نابليون هذا الاحتفال الفخم الذي أقامه تاليران Talleyrand على شرفه (تاليران كان في ذلك الوقت هو وزير الخارجية أو عضو حكومة الإدارة للشؤون الخارجية) انسحب نابليون إلى بيته في شارع شانترين Chantereine وقبع فيه يستجم مع جوزفين وأبنائها وكان يسمح لنفسه بالظهور أمام الجمهور فامتدح المعجبون به تواضعه، وراح المقللون من شأنه يبدون سعادتهم بانتهاء دوره، وعلى أية حال فقد دأب على زيارة المعهد العلمي، وراح يتحدث في الرياضيات مع لاجرانج Lagrange وفي الفلك مع لابلاس Laplace وفي نظم الحكم مع سييز Sieyès وفي الأدب مع مارى - جوزيف دى شنييه Marie - Joseph de Chénier وفي الفن مع ديفيد David وربما كان بنشاطه هذا يعد بالفعل للحملة على مصر، ويفكر في أن يصحب معه مجموعة من الدارسين والعلماء.

ورأت حكومة الإدارة في مسلكه المتواضع هذا شيئا غير واضح المعالم يدعو إلى الريبة، فهذا الشاب الذي كان في إيطاليا والنمسا يتصرف وكأنه هو الحكومة، كيف يتخذ قرارا بالتصرف على النحو (المتواضع) في باريس؟ فأرادوا أن يشغلوه ويبعدوه فعرضوا عليه أن يقود خمسين ألف جندي وبحار جمعوهم في برست Brest لغزو إنجلترا. ودرس نابليون المشروع ورفضه وحذر حكومة الإدارة في خطاب بتاريخ ٢٣ فبراير ١٧٩٨:

"لا بد أن تتخلوا عن محاولة حقيقية لغزو إنجلترا وأن تقنعوا أنفسكم بالاكتفاء بالظهور أمامها (بمظهر القوة) فالأولى هو أن نركز انتباهنا لمواردنا ناحية الراين Rhine ... ويجب ألا نبعد الجيش الكبير عن ألمانيا ... أو يمكننا إرسال حملة إلى الشرق Levant ونهدد تجارة (إنجلترا) مع الهند"[٦٣].

فهناك في الشرق كان حلمه، فحتى عندما كان وسط معامع المعارك في إيطاليا كان يفكر في إمكانيات القيام بغزوة في الشرق: ففي ظل الانهيار التدريجي للدولة العثمانية، فإنه بروح جسور ورجال شجعان جوعى يمكن تشكيل الأمور، وتكوين إمبراطورية. إن إنجلترا تحكم المحيطات ولكن قبضتها على البحر المتوسط يمكن خلخلتها بالاستيلاء على

مالطة، وقبضتها على الهند يمكن إضعافها بالاستيلاء على مصر، ففي مصر حيث العمالة رخيصة يمكن بالفرنكات والتفكير السليم بناء أسطول، ويمكن بالشجاعة والخيال الخصب دفع هذا الأسطول عبر البحر والمحيط ليصل إلى الهند والاستيلاء من النظام الاستعماري البريطاني على أغلى ممتلكاته. وقد اعترف نابليون في سنة ١٨٠٣ لمدام دى ريموسا Rémusat:

" لا أدري ما كان يحدث لي لو لم تواتني الفكرة السعيدة بالذهاب إلى مصر. فعندما غادرت السفن إلى شواطئها لم أكن أعرف سوى أنني قد ودعت فرنسا إلى الأبد، وإن اعتراني قليل من الشك أن فرنسا ستستدعيني. إن سحر فتح بلاد الشرق قد أبعد أفكاري عن أوربا أكثر مما كنت أتصور"(٦٤).

ووافقت حكومة الإدارة على اقتراحاته، وكان أحد أسباب موافقتها هو اعتقادها أنه سيكون أكثر أمانا (لها) أن يكون هو بعيدا عن فرنسا، ووافق أيضا تاليران Talleyrand لأسباب لا تزال محل خلاف، فمشرفة بيته مدام جراند Mme Grand تفسر ذلك بأنه اتخذ هذا الموقف " لمصلحة أصدقائه الإنجليز "بتحويل مسار الجيش الذي يهدد بغزو إنجلترا إلى مصر(٦٥). وأخرت حكومة الإدارة موافقتها لأن الحملة مكلفة وتتطلب من الرجال والعتاد ما تحتاجه فرنسا لحماية أراضيها من إنجلترا والنمسا وربما أيضا من تركيا التي قد تنظم في حلف جديد ضد فرنسا (وكانت السلطة التركية - العثمانية - على مصر متراخية) لكن التقدم السريع للقوات الفرنسية في إيطاليا - ضم الولايات البابوية ومملكة نابلي - أدى إلى وصول أسلاب متتالية إلى حكومة الإدارة، وفي أبريل سنة ١٧٩٨ غزا جيش فرنسي آخر - بموافقة نابليون - سويسرا وأقام فيها الجمهورية الهيلفيتية Helvetic وتم جمع "التعويضات" منها، وتم إرسالها إلى باريس. والآن أصبح يمكن الإنفاق على تحقيق حلم الاستيلاء على مصر.

وبدأ نابليون فورا في إصدار أوامر مفصلة لإعداد أسطول فرنسي جديد (استخدم المؤلف عبارة new armada أي أسطول قوي على نمط الأساطيل الإسبانية والبرتغالية في عصورها الزاهرة)، فكان لا بد من تجميع القوات والمواد التالية في طولون وجنوا وأجاكسيو

أو سيفيتا فيشيا Civitavecchia : ١٣ سفينة حربية وسبع فرقاطات و ٣٥ سفينة قتال أخرى و ١٣٠ سفينة نقل، ١٦,٠٠٠ بحار و ٣٨,٠٠٠ جندي (كثيرون منهم كانوا مع الجيش الفرنسي الذي حارب في إيطاليا) بالإضافة إلى المواد والعتاد الضروري، ومكتبة مكونة من ٢٨٧ مجلداً. وكان العلماء والباحثون والفنانون سعداء بقبول الدعوة للانضمام إلى ما وصف بأنه اتحاد مثير وتاريخي بين المغامرة (العسكرية) والبحث. وكان من بين هؤلاء العلماء: مونج Monge الرياضي وفورييه Fourier الفيزيائي، وبيرثولي Bertholet الكيميائي. وجيوفرى سان هيلار Geoffroy Saint - Hilaire البيولوجي (عالم الأحياء). وقام تاليان Tallien بالتنازل عن زوجته لبارا(*) Barras واتخذ سبيله بين العلماء. وقد لاحظ العلماء وقد اعتراهم الفخر أن نابليون أصبح الآن يوقع خطاباته مشفوعة بعبارة " بونابرت عضو المجمع العلمي الفرنسي والقائد العام"(٦٦). وبوريين Bourrienne الذي كان قد رافق نابليون كسكرتير له في كومبوفورميو في سنة ١٧٩٧، صحبه أيضا في هذه الرحلة (إلى مصر) وقدم لنا رواية مفصلة عن مصيرها. وأرادت جوزفين أيضا أن تواصل الرحلة، فسمح نابليون لها بمرافقته حتى طولون لكنه منعها من ركوب السفن، وعلى أية حال فقد أخذ معه ابنها يوجين بوهارنيه Eugène Beauharnais الذي كان نابليون قد أحبه لتواضعه وكفاءته وولائه وقوة إخلاصة، وقد حزنت جوزفين حزنا مضاعفا لهذا الفراق؟ أيمكنها أن ترى ابنها أو زوجها مرة أخرى بعد هذا الفراق؟ ومن طولون اتجهت جوزفين إلى بلومبيير Plombières لتتناول "مياه الخصوبة Fertility waters" لأنها أصبحت الآن – وكذلك نابليون – تريد طفلا.

وفي ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ أبحر الأسطول الأساسي من طولون ليكرر في التاريخ الحديث إحدى روايات تاريخ العصور الوسطى.

(*) نظام قريب من نظام المخلف الذي عرفته بعض الحضارات الأخرى، وأبطله الاسلام، لكنه ظل يقاوم لفترة متاخرة (المترجم).

٦- الفانتازيا الشرقية (الحملة الفرنسية على مصر):

١٩ مايو ١٧٩٨ - ٨ أكتوبر ١٧٩٩:

لقد تمت التعمية على الجهة التي يقصدها الأسطول حتى إن الرجال كلهم - تقريبا - والبالغ عددهم ٥٤٫٠٠٠ لم يكونوا يعلمون وجهة الأسطول، وفي بيان له سمات خاصة وجهه نابليون "لجيش الشرق" الجديد أشار إليه بأنه مجرد "جناح" للجيش الفرنسي المعد لغزو انجلترا، وطلب من البحارة والجنود أن يثقوا به رغم أنه لا يستطيع حتى الآن أن يحدد المهام الموكلة إليهم. وقد حققت هذه السرية بعض الأغراض : فالحكومة البريطانية كانت مضطربة الفكر بشكل ظاهر بناء على معلومات وصلتها عن أسطول فرنسي صغير يجري إعداده ليشق طريقه عابرا مضيق جبل طارق ليشارك في غزو إنجلترا. وكانت سفن نلسون Nelson غير دقيقة في مراقبة البحر المتوسط، وكانت السفن التجارية وسفن النقل تروغ منها في البحر المتوسط.

وفي ٩ يونيو ظهر الأسطول الفرنسي إزاء سواحل مالطا، وكانت حكومة الإدارة قد قدمت رشوة لرئيس جماعة فرسان مالطا(*) وذوي الشأن فيهم لتكون مقاومتهم شكلية[٦٧]، ونتيجة لهذا استولى الفرنسيون على الحصن المنيع الممول جيدا في هذه الجزيرة بسهولة ولم يفقدوا في سبيله سوى ثلاثة رجال. وتأخر نابليون في الجزيرة أسبوعا ليعيد تنظيم إدارة الجزيرة على نمط الإدارة الفرنسية Gaulward وكان ألفريد دي فيني Alfred de Vigne - الذي سيصبح شاعرا فيما بعد - يومئذ في الثانية من عمره، وقد قدموه لنابليون، فرفعه وقبله، وقال ألفريد - فيما بعد - "عندما أنزلني بعناية إلى سطح السفينة، كان قد كسب إلى جانبه، عبداً آخر يضاف إلى عبيده"[٦٨]. وعلى أيه حال فإن نابليون ذلك الرجل الشبيه بالإله عانى دوار البحر طوال فترة الإبحار إلى الإسكندرية تقريبا، وفي هذه الأثناء درس القرآن.

ووصل الأسطول إلى الإسكندرية في أول يونيو سنة ١٧٩٨ وكان في الميناء حامية،

(*) عرف هذا التنظيم بهذا الاسم منذ سنة ١٥٣٠ بعد احتلاله مالطا، وكان معروفا في العصور الوسطى باسم : Hospital of St. John of Jerusalem.

ومعنى هذا أن رسوه بالأسطول قد يكلفه كثيرا، ومع هذا فقد كانت عملية إنزال القوات مسألة لا بد منها حتى لو لم يكن الأسطول الفرنسي موضع مراقبة من أسطول نلسون، وكانت الأمواج تتكسر على الساحل بعنف ومع هذا فإن نابليون شخصيا قاد مجموعة من خمسة آلاف مقاتل ونزل بهم على جزء من الساحل غير محمي (ليس به قوات مدافعة)، وتقدم بقواته ليلاً بلا فرسان ولا مدفعية وانقض على الحامية وهزمها ولم يكلفه ذلك سوى مائتين من رجاله بين قتيل وجريح، واستولى على المدينة (الإسكندرية) وقدم الحماية لبقية سفن الأسطول الفرنسي فتم إنزال بقية الجنود وأسلحتهم على أرض مصر.

وحث نابليون القادة المحليين في المدينة على الاجتماع به، وكان عماده في هذه الدعوة هو ما حققه من انتصار بإنزال جنود على البر المصري، وكلمات قليلة أتقنها باللغة العربية. وراح نابليون يسليهم – ومن ثم يؤثر فيهم – بمعلوماته عن القرآن (الكريم) واستخدامه الماهر لآياته وأفكاره، وتعهد لهم نيابة عن نفسه وباسم جيشه أن يحترم دينهم وقوانينهم وممتلكاتهم، ووعدهم – إن هم ساعدوه بالعمال والعتاد – أن يعيد لهم البلاد (مصر) التي استولى عليها المرتزقة المماليك الذين جعلوا من أنفسهم حكاما لمصر في ظل أسر حاكمة متراخية. ووافق العرب نصف موافقة (كانت موافقتهم غير حاسمة)، وفي ٧ يوليو أمر نابليون جيشه الذي تملكه العجب بالتقدم معه لقطع ١٥٠ ميلاً في الصحراء للوصول إلى القاهرة.

لم يسبق للعسكر الفرنسيين أن خبروا مثل هذه الحرارة وهذا العطش، وتلك الرمال التي تعمي البصر، والحشرات التي لا تعرف التعب أو هذه الدوسنتاريا (الزحار والإسهال) المنهك. وراح بونابرت يخفف من حدة شكاويهم بمشاركتهم المتاعب في صمت. وفي ١٠ يوليو وصلوا إلى نهر النيل، فشربوا حتى الامتلاء وأنعشوا أجسادهم. وبعد مسيرة أخرى استمرت خمسة أيام، شاهدت طليعة الجيش بالقرب من قرية شبراخيت Kobrakit جيشا قوامه ثلاثة آلاف مملوك "تشكيل عسكري مبهر من الفرسان" على حد تعبير نابليون الذي قال أيضا: "كلهم يومضون بفعل بريق الذهب والفضة ومسلحون بأفضل البنادق اللندنية القصار Carbines & Pistols وبأفضل سيوف الشرق، وكانوا يركبون – ربما – أفضل خيول

في القارة"[٦٩] وانقض الفرسان المماليك سراعا على الجيش الفرنسي من الأمام ومن ناحية الجناحين فلم يكن لهجومهم نتيجة سوى أنهم سقطوا بقذائف مدافع الفرنسيين وبنادقهم، ففروا هاربين وقد جرحوا في أبدانهم وكرامتهم.

وفي ٢٠ يوليو وكان لا زال باقيا على القاهرة مسافة ثمانية عشر ميلا شاهد المنتصرون الهرم. وفي مساء هذا اليوم علم نابليون أن جيشا من ستة آلاف مملوك بقيادة ثلاثة وعشرين بك من البكوات حكام الأقاليم – قد تجمع في إمبابه، وأن هذا الجيش قد اتخذ أهبته لمواجهة الغزاة الكفار. وبعد ظهيرة اليوم التالي انقضوا بكل قواتهم على الفرنسيين في معركة حاسمة عرفت بمعركة الأهرام. وهناك قال لجنوده (إن كان لنا أن نثق في ذاكرة نابليون):

"إن أربعين قرنا تتطلع إليكم"[٧٠] ومرة أخرى واجه الفرنسيون هذا الهجوم بطلقات المدافع والبنادق والحراب المثبته فقتل سبعون فرنسيا وألفٌ وخمسمائة مملوك، وغرق كثيرون منهم في النيل في أثناء هروبهم الطائش. وفي ٢٢ يوليو أرسلت السلطات التركية (العثمانية) في القاهرة مفاتيح المدينة إلى نابليون مما يعني الاستسلام. وفي ٢٣ يوليو دخل نابليون المدينة البهية من غير أن يواجه مقاومة.

ومن القاهرة أصدر أوامره بأن تدار أمور مصر عن طريق دواوين عربية Arab divans (لجان) تابعة لسيطرته. ومنع جنوده من السلب والنهب وحمى حقوق الملكية الموجودة لكنه استمر في تحصيل الضرائب التي فرضها المماليك الغزاة على أهل البلاد لتمويل جيشه، وجلس مع الزعماء المحليين واعترف باحترامه للشعائر الإسلامية وإعجابه بالفن الإسلامي، وشهد ألا إله إلا الله ، وطلب مساعدة المسلمين له ليعم الرخاء والازدهار مصر. وعقد اجتماعا مع علماء الحملة لوضع الخطط للقضاء على الطاعون وإدخال صناعات جديدة وتطوير نظم التعليم المصري وتحسين القوانين المعمول بها، وإنشاء خدمات بريدية ونظام مواصلات، وإصلاح الترع وضبط الري وربط النيل بالبحر الأحمر. وفي يوليو سنة ١٧٩٩ نظم المعهد العلمي المصري من علماء مصر وعلماء الحملة، وكان العلماء هم الذين أعدوا الأربعة والعشرين مجلداً الضخام التي مولتها ونشرتها الحكومة الفرنسية بعنوان وصف مصر

(١٨٠٩-١٨٢٨) Description de L'Egypte وأحد هؤلاء العلماء لا نعرف إلا أن اسمه بوشار Bouchard وجد في سنة ١٧٩٩ في مدينة تبعد عن الاسكندرية ثلاثين ميلا حجر رشيد Rosetta عليه نقوش بلغتين وثلاثة خطوط (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية) وقد مكنت هذه الكتابات توما يونج (1814) Thomas Young وجان - فرنسوا شامبليون Jean - François Champolion (1821) من وضع أسس منهج ترجمة النصوص الهيروغليفية ففتحوا بذلك أمام أوربا "الحديثة" أبواب حضارة مصر القديمة المركبة والناضجة بشكل يدعو إلى الدهشة. وكان هذا هو النتيجة الرئيسية لحملة نابليون على مصر، أو النتيجة الوحيدة المهمة.

لكن فتح مصر كان - لفترة - مدعاة لفخره، كذلك كان مدعاة لمباهاته إدخال نظم الإدارة فيها. لقد قال لمدام دى ريموسا de Rémusat في وقت لاحق وهو يستدعي ذكرياته:

"لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر هي أكثر الفترات بهجة في حياتي ... لقد وجدت نفسي في مصر متحررا من قيود الحضارة وإزعاجها. لقد رحت أحلم بأمور كثيرة ورأيت كيف أن كل ما حلمت به يمكن أن يتحقق.

لقد خلقت دينا (المقصود ابتدعت دينا) وتصورت نفسي في الطريق إلى آسيا راكبا فيلا وعلى رأسي عمامة وفي يدى قرآن جديد كان علي أن أصيغه على وفق أفكاري.... وكان عليّ أن أهاجم القوات الإنجليزية في الهند وتجديد علاقاتي بأوربا القديمة بفتحها... لكن القدر كان ضد أحلامي"(٧١).

وكان أول سهام القدر ضده هو معلومات نقلها إليه أندوش جونو Andoche Junot الضابط المعاون مؤداها أن جوزفين اتخذت لها في باريس عشيقا. لكن الحالم الكبير (نابليون) بكل تألقه العقلي أهمل أن يضع في اعتباره أنه من الصعب على نبات استوائي كجوزفين أن تظل لشهور عديدة دون أن تمتع مفاتنها بشكل حسي. لقد ظل نابليون لعدة أيام حزينا ساخطا، وكتب في ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٨ خطابا يظهر فيه الاكتئاب والقنوط إلى أخيه جوزيف:

"في غضون شهرين سأكون في فرنسا مرة أخرى... فهناك أمور كثيرة تزعجني في

بلادي . . . إن صداقتك تعني لي الكثير، أكنت لأفقدها أو أظنك تخدعني . إنه لا بد لي أن أكون صالحا تماما مبغضا للشر . . . .

إنني أريدك أن تهيىء لي مكانا في الريف أستقر فيه عندما أعود، إما في برجاندى Burgundy أو بالقرب من باريس. إنني أفكر في قضاء الشتاء فيه بحيث لا أرى أحدا. لقد سئمت المجتمع. إنني أحتاج أن أنفرد بنفسي. مشاعري متبلدة. لقد سئمت الشهرة. إنني متعب من تحقيقي هذا المجد وأنا في سن التاسعة والعشرين. لقد فقد ذلك جاذبيته بالنسبة لي، فلم يعد لي سوى الأنانية الكاملة. . . .

إلى اللقاء يا صديقي الوحيد الذي لا صديق لي سواه . . . . حبى لزوجتك ولجيروم Jérôme" .

ووجد بعض العزاء عندما جعل من امرأة فرنسية شابة قيمة لمسكنه، وكانت هذه المرأة الشابة قد تبعت زوجها الضابط إلى مصر. إنها بولين فورى **Pauline Fouré** التي لم تستطع مقاومة اهتمام نابليون بجمالها المرح فبادلته الابتسام ولم تبد مقاومة جادة عندما أرسل زوجها السيد فوري في مهمة في باريس، ليوسع لنفسه الطريق. وعندما علم زوجها سبب مكرمة نابليون وتمييزه بإرساله إلى باريس عاد إلى القاهرة وطلق بولين **Pauline** وفكر نابليون أيضا في الطلاق وشغلته فكرة الزواج من بولين وإنجاب وريث لكنه وضع في اعتباره دموع جوزفين وعمل لها حسابا(*).

وقد سعدت بولين بهدية حقيقية، وعاشت بعد ما نالته من حظ عاثر تسعا وستين سنة .

وبعد أسبوع من أخبار جوزفين المحبطة التي أتى بها جونو **Junot** حدثت كارثة كبرى قوضت نصر جيش الشرق. فإن نابليون عندما ترك أسطوله في الإسكندرية متجها إلى القاهرة كان قد أمر (على وفق رواية نابليون) نائب الأدميرال (اللواء البحري) فرنسوا – بول بروى François-Paul Brueys أن يفرغ كل حمولته من المواد اللازمة للجنود ومن ثم يبحر بأقصى سرعة ممكنة إلى كورفو **Corfou** التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها . كما أمره

(*) النص : but he reckoned without Josephine's tears ونظن أن كلمة with out حلت بسبب الخطا المطبعي محل كلمة with.

بضرورة اتخاذ الإجراءات كلها لتجنب تدخل البريطانيين، لكن سوء الاحوال الجوية أخر إبحار بروي Brueys، وفي أثناء فترة التأخير هذه رسا بأسطوله في خليج أبي قير القريب، وهناك في ٣١ يوليو سنة ١٧٩٨ رآه نيلسون وهاجمه بسرعة. وبدت القوتان البحريتان المتواجهتان متكافئتين: فالقوات البحرية الإنجليزية قوامها ١٤ سفينة حربية وسفينة بصاريين، والقوات البحرية الفرنسية قوامها ١٣ سفينة حربية وأربع فرقاطات. لكن البحارة الفرنسيين كان الحنين إلى العودة إلى بلادهم قد ازداد ولم يكونوا متدربين بما فيه الكفاية، أما البحارة البريطانيون فقد كان البحر هو وطنهم الثاني ألفهم وألفوه، والآن فإن تنظيمهم (البريطانيين) الأكثر تفوقا وبراعتهم البحرية وشجاعتهم سادت طوال النهار والليل لأن المعركة الدامية استمرت حتى فجر الأول من أغسطس. ففي الساعة العاشرة من يوم ٣١ يوليو انفجرت، سفينة القيادة (التي بها بروى Brueys) التي بها ١٢٠ بندقية، وقتل كل من كان على متنها تقريبا بمن فيهم اللواء بحري نفسه، وكان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما. ولم تستطع الهروب سوى سفينتين فرنسيتين، وبلغت خسائر الفرنسيين ما يزيد على ١٧٥٠ قتيلاً و ١٥٠٠ جريح، أما خسائر البريطانيين فكانت ٢١٨ قتيلاً و٦٧٢ جريحاً (بمن فيهم نيلسون). وهذه المعركة (أبوقير) بالإضافة إلى معركة الطرف الأغر Trafalgar (1805) هما آخر محاولتين قامت بهما فرنسا النابليونية لتحدي السيادة الإنجليزية على البحار.

وعندما وصلت أخبار هذه النكسة الكاسحة إلى نابليون في القاهرة أيقن أن فتحه لمصر غدا بلا معنى. فالمغامرون المرافقون له قد أحيط بهم الآن برا وبحرا وما من سبيل لوصول العون الفرنسي إليهم، وأنهم سرعان ما سيصبحون تحت رحمة أهل البلاد المعادين، والبيئة غير المواتية ومن الأمور التي تذكر لهذا القائد الشاب، أنه وجد الوقت في ظروفه العصيبة هذه ليعزي أرملة اللواء البحري المتوفى في مصابها:

"القاهرة، ١٩ أغسطس ١٧٩٨

لقد قتل زوجك بطلقة مدفع بينما كان يحارب على سطح سفينته، لقد مات بشرف كما يتمنى أن يموت كل جندي. (ولم يعانِ زوجك حال وفاته).

إن أساكِ يؤثر في كثيرا. إنها لحظة قاسية عندما نفارق من نحب... وإذا لم يكن من

سبب للحياة فقد يكون من الأفضل أن نموت، لكن هناك جانب آخر للأمور عندما تضمين أطفالك لقلبك فستحيي الدموع والعطف رغبتك في الحياة، لتعيشي من أجل أولادك. نعم يا مدام ستبكين معهم وستنشئينهم وسترعين طفولتهم وستعلمينهم في شبابهم وستحدثينهم عن أبيهم وما حدث له، وعن حبهم وجمهوريتهم. وعندما تربطين روحك بهذا العالم ثانية من خلال التفاعل المتبادل مع أطفالك، أريدك أن تجعلي لصداقتي بعض القيمة ولتضعي في اعتبارك اهتمامي الصادق الذي سأوليه دوما لزوجة صديقي. كوني متأكدة أن هناك رجالا ... يمكنهم أن يحولوا الأسى إلى أمل لأنهم يشعرون بشكل واضح تماما بعذابات القلب"[٧٢].

وتضاعفت المحن، فلا يكاد يمر يوم بلا هجمات يشنها العرب أو الترك أو المماليك غير المؤتلفين مع سادتهم الجدد - على القوات الفرنسية. وفي ١٦ أكتوبر قامت جماهير القاهرة بثورة على الفرنسيين الذين قمعوا الثائرين، وتخلى نابليون لفترة عن دور الفاتح المتسامح وأمر بقطع أعناق كل ثائر مسلح[٧٣].

وعندما سمع نابليون أن الأتراك (العثمانيين) يعدون جيشا لاستعادة مصر صمم على مواجهة التحدي فأعدّ ثلاثة عشر ألفا من رجاله إلى سوريا، وانطلق في ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩ واستولى على العريش وأتم عبور صحراء سيناء. ويبين لنا خطاب كتبه نابليون في ٢٧ فبراير بعض جوانب هذه المحنة : حرارة وعطش "وماء غير عذب تعتريه ملوحة، وأحيانا لا ماء أبداً لقد أكلنا الكلاب والحمير والجمال" ووجدوا في غزة - ويا لسعادتهم - بعد معركة قاسية - خضراوات طازجة وبساتين ذات فواكه لا مثيل لها.

وفي يافا Jaffa (٣ مارس) توقفوا أمام مدينة ذات أسوار وسكان معادين وحصن يدافع عنه ٢,٧٠٠ مقاتل تركي من ذوي البأس، فأرسل نابليون يعرض عليهم شروطا، لكنهم رفضوها، وفي ٧ مارس أحدث المهندسون العسكريون الفرنسيون في أسوار المدينة ثغرة اندفع الجنود خلالها فقتلوا من قاومهم من السكان وسلبوا المدينة، وأرسل نابليون، يوجين دي بوهارنيه لإعادة النظام في المدينة فعرض حق الخروج الآمن لكل من يستسلم، وسلم جنود الحصن أسلحتهم حتى لا يلحق الفرنسيون مزيدا من الدمار في المدينة، وسيقوا أسرى

إلى نابليون، فرفع يديه فزعا وتساءل : "ماذا يمكنني أن أعمل معهم؟" فلم يكن نابليون يستطيع أن يأخذ ٢٧٠٠ أسير معه في مسيرته تلك فالرجال الفرنسيون بذلوا قصارى جهدهم ليجدوا الطعام والشراب لأنفسهم، ولا يمكنه تدبير عدد كاف من الحراس لاصطحاب هؤلاء الأسرى ليسجنوا في القاهرة، وإذا هو أطلق سراحهم فما الذي يمنعهم من حرب الفرنسيين ثانية فعقد نابليون اجتماعا عسكريا وسألهم عن رأيهم في هذه المشكلة، فكان رأيهم أن أفضل حل هو قتل هؤلاء الأسرى، فتم الصفح عن نحو ثلاثمائة منهم، وقتل ٢٤٤١ طعنا بالحراب لتوفير الذخيرة(٧٤).

وواصل الغزاة مسيرتهم، وفي ١٨ مارس وصلوا إلى مدينة عكا **Acca** شديدة التحصين، وكان يقود المقاومة الجزار باشا Djezzar يساعده أنطوان دي فيليبو - Phélippeau الذي كان زميلا لنابليون في الدراسة في بريين Brienne، وحاصر الفرنسيون المدينة دون مدافع حصار ذلك أن مدافع الحصار التي كان قد تمَّ ارسالها من الإسكندرية بحرا استولى عليها أسطول إنجليزي بقيادة سير وليم سدني Sir William Sidney وسلمها إلى حصن المدينة (عكا) وراح يزود حاميتها بالطعام والمواد اللازمة في أثناء الحصار. وفي ٢٠ مايو بعد أن قضى الفرنسيون شهرين أمام أسوار المدينة وتكبدوا خسائر فادحة أمر نابليون بالعودة إلى مصر، وقد ذكر نابليون بعد ذلك متفجعا : "إن فيليبو **Phélipeau** جعلني أتراجع عن عكا **Acca**، فلولاه لأصبحت سيد مفتاح الشرق ولأمكنني الذهاب إلى القسطنطينية واستعادة الإمبراطورية الشرقية"(٧٥). وفي سنة ١٨٠٣ (غير متوقع أحداث سنة ١٨١٢) ذكر لمدام دى ريموسا Rémusat" لقد مات خيالي عند عكا. لن أسمح لها أبدا بالتداخل معي مرة أخرى"(٧٦).

كانت العودة على طول الساحل في أيام نحسات متوالية، لقد كان الجيش أحيانا يقطع مسيرة تصل إلى إحدى عشرة ساعة يوميا بين آبار لا يشرب ماؤها في معظم الحالات يسمم البدن ولا يكاد يطفىء عطشا. وطلب نابليون من أطباء الحملة تدبير جرعات مميتة من الأفيون للقضاء على المصابين بأمراض لا شفاء لها، لكن الأطباء رفضوا وسحب نابليون اقتراحه(٧٧)، وأمر بالتخلي عن ركوب الخيل وتركها للمرضى وجعل من نفسه قدوة لضباطه

بسيره على قدميه تاركا حصانه المريض[٧٨]. وفي ١٤ يونيو دخل الجيش الفرنسي المنهك مدينة القاهرة دخول المنتصر وعرض سبعة عشر علما من أعلام الأعداء وستة عشر أسيرا تركيا، كدليل أن الحملة قد حققت نصرا يدعو للفخر. وكان دخولهم القاهرة بعد رحلة شاقة قطعوا فيها ٣٠٠ ميل في ستة وعشرين يوما.

وفي ١١ يوليو أنزلت مائة سفينة على ساحل خليج أبي قير جيشا تركيا لطرد الفرنسيين من مصر فخرج نابليون من القاهرة متجها شمالا على رأس أفضل جنوده وانقض على الجيش التركي فألحق به هزيمة منكرة (في ٢٥ يوليو) حتى إن كثيرين من الترك فضلوا الاندفاع إلى البحر ليموتوا غرقى بدلا من مواجهة الفرسان الفرنسيين المندفعين بعنف.

ومن الصحف الإنجليزية التي أرسلها سيدني سميث Sidney Smith إلى نابليون علم - **ويا لدهشته** - أن التحالف الأوربي الثاني قد طرد الفرنسيين من ألمانيا، وأعاد الاستيلاء على إيطاليا كلها (تقريبا) من الألب إلى كالابريا[٧٩] Calabria إن صروح انتصاراته كلها قد انهارت عبر سلسلة من الكوارث من الراين وبو Po إلى أبي قير وعكا، والآن من خلال هزائم مخزية وجد نفسه وجيشه الذي هلك جانب كبير منه وقد حوصروا في ممر يحيط به الأعداء، حيث يمكنهم محق الفرنسيين في غضون وقت قليل.

وفي نحو منتصف شهر يوليو تلقى من حكومة الإدارة أمرا كان قد أرسل له في ٢٦ مايو، مؤداه أن يعود إلى باريس فورا[٨٠]. فصمم على العودة إلى فرنسا بطريقة ما رغم الحصار البريطاني، ليشق طريقه إلى السلطة، وليعزل القادة المخطئين الذين سمحوا بضياع مكاسبه كلها في إيطاليا بهذه السرعة السريعة. ونظم نابليون الأمور العسكرية والإدارية في القاهرة وعين كليبر Kléber المعارض ليكون على رأس ما تبقى من حلم فرنسا ضم مصر إليها. وكانت الخزانة خاوية بالإضافة إلى كونها مدينة بستة ملايين فرنك، فقد كانت هناك متأخرات للجنود وصلت قيمتها إلى أربعة ملايين فرنك، وكان عدد الجنود الفرنسيين يتناقص يوما بعد يوم وكذلك معنوياتهم، بينما أهل البلاد المقاومون يزدادون قوة ويتحينون الفرصة للقيام بثورة أخرى. وكان من الممكن في أي وقت أن ترسل تركيا وبريطانيا العظمى قوات عسكرية إلى مصر يمكنها - بمساعدة أهل البلاد - عاجلا أم آجلا إجبار الفرنسيين

على التسليم. وكان نابليون يعلم ذلك كله ولم يكن يستطيع تبرير مغادرته مصر إلا بالقول إنه مطلوب في باريس ولديه أمر بالعودة. وعندما كان يودع جنوده رفع صوته قائلا: " إذا حالفني الحظ ووصلت إلى فرنسا فلا بد أن ينتهي حكم هؤلاء الثرثارين الحمقى"[٨١]. ولا بد من إرسال الدعم لهؤلاء الفاتحين المحاصرين. ولم يصل هذا الدعم أبداً (ومما يذكر أن نابليون كان قد وعد - في وقت سابق - أن يقدم لكل جندي من جنوده ستة هكتارات من الأرض بعد أن يعودوا ظافرين إلى بلادهم).

وكانت الفرقاطتان مويرو Muiron وكارير Carrère قد أفلتتا من الإبادة التي ألحقها الأسطول البريطاني بالأسطول الفرنسي في أبي قير، فأرسل نابليون أمراً بتجهيزهما في محاولة منه للوصول إلى فرنسا. وفي ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩ ركب السفينة مويرو Muiron ومعه كل من بورين Bourrienne وبرثولي Berthollet ومونج Monge، وتبعهم الجنرالات لان Lannes وموراً Murat ودينو Denon وغيرهم السفينة كارير[٨٢] Carrère وبسبب الضباب وحسن الحظ أفلتت السفينتان من مراقبة جواسيس نلسون وأسطوله. ولم يستطع نابليون ومن معه التوقف في مالطا لأن البريطانيين المنتصرين كانوا قد استولوا على هذا الموقع الحصين في ٩ فبراير. وفي ٩ أكتوبر رست السفن إزاء فريجو Fréjus وجدف نابليون ومساعدوه حتى الشاطىء عند سان رافائيل St. Raphaèl والآن إما أن يكون " القيصر أو لا أحد " aut Caesar aut nullus.

٧- انهيار حكومة الإدارة :

٤ سبتمبر ١٧٩٧ - ٩ نوفمبر ١٧٩٩ :

أدت نجاحات الجيوش الفرنسية - والتي بلغت ذروتها في إخضاع بروسيا في بازل Basel في سنة ١٧٩٥، والنمسا في كومبوفورميو Compoformio في سنة ١٧٩٧، ونابلي وسويسرا في سنة ١٧٩٨ - إلى تراخي الحكومة الفرنسية التي تكاد تكون قد أصيبت بالكسل الشرقي (الكسل والتراخي السائدين في بلاد الشرق) فقد خضع المجلسان التشريعيان لحكومة الإدارة (حكومة المديرين) واعترف هؤلاء (أعضاء حكومة الإدارة)

بدورهم بزعامة كل من بارا Barras وروبل Rewbell ولارفيلييه Larevellière ويبدو أن هؤلاء الثلاثة قد اتخذوا من الشعار الذي تنسبه الروايات إلى البابليون العاشر Léon X، ذلك الشعار القائل: إنه "ما دام الرب قد أعطانا هذا المنصب فدعونا نستمتع به". لقد كانوا سعداء فيما يبدو بفترة السلام النسبي التي أتاحت لفرنسا أمنا من الناحية الظاهرية، وكانوا قد تعلموا بالخبرة أن المناصب الحكومية غير مضمونة خاصة في أثناء الثورات، فراحوا يستعدون للإطاحة بهم بفرش أعشاشهم (المقصود راحوا يجمعون الأموال ليؤمنوا حياتهم إذا ما تركوا الحكم)، فعندما عرضت إنجلترا المعزولة عليهم السلام في يوليو سنة ١٧٩٧ قيل لها إن ذلك أمر يمكن ترتيبه إذا دفعت مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنية إسترليني لكل من بارا Barras وروبل Rewbell واستطاع هؤلاء الأشخاص الآنف ذكرهم الحصول على رشوة - فيما يظهر - من البرتغال، كان مقدارها ٤٠٠,٠٠٠ جنية إسترليني، لقاء السلام الذي حصلت عليه من فرنسا في أغسطس من العام نفسه[٨٣]. وكان روبل Rewbell جشعا وكان بارا يحتاج إلى دخل متحرك (غير ثابت كالمرتبات الحكومية) ليحتفظ بالمدام. أما تاليان Tallien والمرتبطون به فكانوا ذوي نزوات ومتسمين بالمرح، وكانوا في حاجة إلى الأموال للاحتفاظ بمساكنهم الفاخرة في قصر لكسمبرج[٨٤] Luxembourg أما تاليران Talleyrand وزير الشئون الخارجية فقلما كان يفلت فرصة ليجعل الثورة تمول ما يشبع ذوقه الأرستقراطي، وقد أحصى بارا العمولات tips التي يحصل عليها، فوجدها - غالبا - تزيد عن ١٠٠,٠٠٠ جنيه (ليفر) في السنة[٨٥]. وفي أكتوبر سنة ١٧٩٧ حضر إلى باريس ثلاثة مندوبين أمريكيين لفض نزاع حول سفن أمريكية استولى عليها قراصنة فرنسيون مفوضون من الحكومة، على وفقا ما ذكره الرئيس جون آدمز John Adams فقد قيل لهم إنه يمكنهم الوصول إلى اتفاق بتقديم قرض قيمته ٣٢ مليون فلورين Flourins لحكومة الإدارة و"حلاوه" douceur (المقصود رشوة)(*) قيمتها ٥٠,٠٠٠ جنية إسترليني لتاليران[٨٦].

لقد واجه هؤلاء الثلاثة (اعضاء حكومة الإدارة الآنف ذكرهم) كثيرا من المشاكل فقد يجوز لنا التسامح معهم في معظم أخطائهم - على الأقل فيما يتعلق بإنعاش أنفسهم مساء

(*) أو ترضية أو مكافأة على مسعاه .... الخ.

بابتسامات الغيد الحسان. لقد تجنبوا انهيارا ماليا آخر بجمع الضرائب التقليدية بجدية أكثر من ذي قبل، واستردوا الضرائب التي كانت في حكم الميتة كضريبة الانتقال، وفرضوا ضرائب جديدة - كتلك التي فرضوها على الرخص، والأختام والدمغات وطوابع البريد، وعلى النوافذ والأبواب. لقد ترأسوا أمة ممزقة الجسد والروح، ممزقة في الدوائر (المحافظات) وممزقة حتى على مستوى الطبقة الواحدة، ممزقة لتصارع أغراضها:

النبلاء والبلوتوقراط (الذين حازوا النفوذ بسبب ثرواتهم)، أهالي فيندي الكاثوليك واليعاقبة غير المؤمنين بالكاثوليكية (النص: الملاحدة atheists)(*). الاشتراكيون أتباع بابوف Babeuvian Socialists والتجار المطالبون بالحرية، والعوام الحالمون بالمساواة والذين يعيشون على حافة المجاعة. ولحسن الحظ فقد أدت وفرة المحاصيل في عامي ١٧٩٦ و١٧٩٨ إلى تقليل أعداد الواقفين في الصفوف للحصول على الخبز.

لقد كان انتصار الليبراليين على أعضاء حكومة الإدارة ذوي الاتجاه الملكي في سنة ١٧٩٧، من إنجاز الراديكاليين الذين قدموا دعما ضد ذوي الاتجاهات الملكية في ذلك الوقت.

وعن طريق الدفع إلى حد ما (تقديم الرشاوي) استطاع هؤلاء الثلاثة - على أية حال - فرض الرقابة على الصحافة ذات الميول البورجوازية والمسارح والانتخابات غير النزيهة والقبض على المعارضين بلا سابق انذار، وجددوا معركة هيبير Hébertist Campaign ضد الدين.

وتم إبعاد الراهبات عن مهمة تعليم النشء، وعهد به إلى معلمين صدرت إليهم الأوامر بنزع الأفكار الغيبية كلها من المقررات التي يدرسونها(٨٧). وفي غضون اثني عشر شهرا في عامي ١٧٩٧ و ١٧٩٨ تم ترحيل ١٩٣ إكليريكياً على السفينة ديكاد décade لم يبق منهم على قيد الحياة بعد ترحيلهم بعامين سوى تسع وثلاثين(٨٨).

وبينما كان الصراع الداخلي يشتد كان الخطر الخارجي يزداد، ففي هولندا وبلاد الراين أدى جشع حكومة الإدارة إلى خلق أعداء لفرنسا بدلا من الأصدقاء، فقد كانت الضرائب

(*) أنظر مقدمة المترجم.

باهظة، وعارض الشباب التجنيد الإلزامي، وزاد الحنق بسبب القروض الإجبارية (الاقتراض بدون رغبة المقرض - بكسر الراء)، والاستيلاء على الذهب والفضة والقطع الفنية من الكنائس ورجال الدين المبعدين، والناس العاديين على سواء. وفي غضون ثلاث سنوات جمعت حكومة الإدارة من بلجيكا ومناطق الراين وإيطاليا بليونين من الجنيهات[٨٩] Livres وبعد مغادرة بونابرت مصر "واصلت حكومة الإدارة سياسة الفتح أو بمعنى أوضح سياسة السلب، فاحتلت مناطق جديدة بقصد تحصيل الأموال وسلبت السكان وفرضت "التعويضات" على الحكومات المحلية (التعويض هو مبلغ تقدمه الحكومة المحلية لقاء قيام الثورة بتحريرها). كل ذلك جعل فرنسا ملعونة مكروهة"[٩٠] فقد قال مالي دي با Mallet du Pa وهو موالٍ للنظام الملكي " إن فرنسا تأكل أوربا ورقة ورقة وكأنها - أي أوربا - رأس خرشوفة. إنها - أي فرنسا تحرض الشعوب على الثورة حتى تسلبها، وهي تسلبها حتى تتمكن هي من الاستمرار"[٩١] لقد أصبحت الحرب مربحة ما السلام فقد يكون مدمرا لها. وقد وجد تاليران أن سفينة الدولة غير ثابتة وتبحر في جو عاصف فقدم استقالته من منصبه الوزاري(٢٠ يوليو ١٧٩٨) وانسحب ليستمتع بما سلبه[٩٢].

وكان نابليون قد قدم مثالا حفز غيره على تقليده، بجعل الحرب وسيلة لجمع الأموال، كما أن عملياته الطائشة كانت إلى حد ما مسؤولة عن ويلات الحرب التي أوقعت فرنسا في براثن حكومة الإدارة المنهارة. لقد تسرع نابليون كثيرا - وبشكل سطحي - بإخضاع إيطاليا للحماية الفرنسية وترك المناطق التي فتحها في أيدي أتباع ينقصهم ما كان يتصف به هو من حدة ذهن ومهارة دبلوماسية. وكان نابليون قد عول - بشكل متفائل جدا - على رغبة الجمهوريات الإيطالية الجديدة في دفع مبالغ لفرنسا لقاء تحريرها من النمسا، وأساء تقدير موقف إنجلترا العنيف من احتلاله لمالطا ومصر، فما كان يظن أن موقف انجلترا إزاء هذا الاحتلال سيكون بمثل هذه الشدة، وإلى أي مدى ستقاوم تركيا الخاملة دعوة عدوّتيْها القديمتين: روسيا والنمسا إلى الانضمام إليهما لتأديب هؤلاء الثوار محدثي النعمة؟ وإلى أي مدى سيؤدي اهتمام روسيا وبروسيا والنمسا بتقسيم بولندا في شرق أوربا إلى انشغالهم عن إعادة الحق الإلهي إلى الملوك في غرب أوربا؟.

لقد كانت عروش أوربا كلها تقريبا تتحين الفرصة للانقضاض على فرنسا مرة أخرى. وقد أدرك الملوك أن هذه الفرصة قد سنحت عندما أخذ نابليون معه ٣٥,٠٠٠ من خيرة جنود فرنسا ورجالها إلى مصر، فحاصروا فرنسا بمجرد انتصار نلسون في معركة أبي قير البحرية، وما نتج عن ذلك من عدم قدرة الجيش الفرنسي في مصر على العودة سريعا إلى فرنسا. وقبل القيصر بول الأول Ceasar Paul I نتيجة انتخاب ليكون الرئيس الأعلى لفرسان مالطا Knights of Malta وأخذ على عاتقه طرد الفرنسيين من هذه الجزيرة بالغة الأهمية وعرض مساعدته على فرديناند الرابع Ferdinand IV لاستعادة نابلي Naples، وكان يحلم بأن تكون لروسيا موانىء صديقة في نابلي ومالطا والإسكندرية، وبالتالي بجعل روسيا قوة من قوى البحر المتوسط. وفي ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ عقد حلفا مع إنجلترا، وعندما سمح الإمبراطور فرانسيس الثاني Francis II بالمرور الآمن في الأراضي النمساوية للجيش الروسي ليمر إلى الراين، أعلنت فرنسا الحرب على النمسا (١٢ مارس ١٧٩٩)، فانضمت النمسا – إثر هذا – إلى كل من روسيا وتركيا ونابلي والبرتغال وانجلترا في الحلف الثاني ضد فرنسا.

وتجلى ضعف حكومة الإدارة في هذا الصراع الذي كانت هي السبب في إثارته، وعجزت عن التنبؤ به. لقد كانت بطيئة كسلى فلم تستعد له بما فيه الكفاية، وكانت غير ناجحة في إعداد ميزانية الحرب، وكانت خرقاء في تطبيق سياسة التجنيد الإجباري. لقد جندت ٢٠٠,٠٠٠ رجل لم يكن صالحا منهم للخدمة سوى ١٤٣,٠٠٠ وقد مثل من هؤلاء للأوامر ٩٧,٠٠٠ وفر منهم آلاف في أثناء المسيرة فلم يصل منهم إلى وحداتهم العسكرية المحددة لهم سوى ٧٤,٠٠٠، وفي معسكراتهم وجدوا الفوضى ضاربة أطنابها ووجدوا نقصا في الملابس والمعدات والأسلحة. وكانت روح الحماسة التي كانت في وقت من الأوقات تغمر الجيش الجمهوري شجاعة ورغبة في القتال، قد اختفت من هؤلاء الرجال الذين عاشوا سنين محبطين حيث الفوضى وخيبة الأمل. لم يكن هناك في ظل حكومة الإدارة الآن (١٧٩٨) ذلك العزم والنظام الذي ساد في حرب ١٧٩٣ في ظل لجنة الأمن العام.

لقد كانت هناك بعض النجاحات الأولية والمضللة فقد فتح الفرنسيون بيدمونت Piedmont وتسكانيا Tuscany وجمعوا منهما الضرائب. وانتصار الملك فرديناند الرابع

بطرد الفرنسيين من روما، سرعان ما محقه الفرنسيون باستعادة روما بقيادة جان - اتين شامبيون Jean - Etienne Championnet الذي دخل المدينة (روما) في ١٥ ديسمبر، وتراجع فرديناند بحاشيته مع لادي هاميلتون Lady Hamilton وعشرين مليون دوكات ducat إلى باليرمو Palermo في ظل حماية أسطول نلسون. واستولى شامبيون على نابلي وأقام فيها الجمهورية البارثينوبية Parthenopean Republic تحت حماية فرنسا. وكلما تقدمت الحرب كانت تنضم فرق عسكرية جديدة للقوات الروسية النمساوية الإنجليزية فوجد الفرنسيون أنفسهم أمام قوات تفوق قواتهم عددا (١٧٠,٠٠٠ مقاتل فرنسي مقابل ٣٢٠,٠٠٠ من قوات الحلفاء). وكان الجنرالات الفرنسيون - رغم براعة عمليات مسينا Masséna في سويسرا - تنقصهم قدرة بونابرت على هزيمة قوات أكثر عددا باستخدام استراتيجيات أكثر براعة وتكتيكات ونظم متقدمة. لقد هزم جوردا Jourdan في ستوكاش Stockach (٢٥ مارس ١٧٩٩) وتراجع إلى ستراسبورج Strasbourg وتخلى عن منصب القائد. وهزم شيريه Shérer في ماجنانو Magnono (٥ أبريل) وانسحب بقواته بغير نظام ففقد قواته كلها تقريبا وتخلى عن منصبه تاركا إياه لمورو Moreau، عندئذ أقبل "شيطان الإنس" حقا الإكسندر سفورف Alexandre Suvorov على رأس ثمانية عشر ألف روسي وقادهم مع بعض الفصائل النمساوية في معركة شرسة فاستعاد من الفرنسيين المناطق التي كان نابليون قد فتحها في عامي ١٧٩٦ و١٧٩٧، منطقة إثر منطقة، ودخل ميلان منتصرا في ٢٧ أبريل فتراجع مورو Moreau إلى جنوا، وانتهت جمهورية سيزالبين Cisalpine النابليونية نهاية مبكرة. ولما وجد ماسينا Masséna نفسه وحيدا بجيش صغير في سويسرا تخلى عن فتوحاته هناك وانسحب إلى الراين.

ولما وجد سوفورف Suvorov مدى سهولة استرجاع لمبارديا إلى حوزة النمسا انطلق من ميلان لمقابلة القوات الفرنسية القادمة من نابلي وروما وألحق بها الهزيمة في تريبيا Trebbia (١٧ - ١٩ يونيو ١٧٩٩) فلم يبق منها إلا بقايا وصلتْ جنوا. وبذا انتهت الجمهورية البارثينوبية نهاية مبكرة. واستعاد فرديناند عرشه Neapolitan throne وأقام حكم إرهاب حكم في ظلاله بالإعدام على مئات الديمقراطيين. وقاد جوبير Joubert الذي تولى منصبه

مؤخراً بقايا القوات الفرنسية في إيطاليا ضد سوفورف Suvorov في نوفى : Novi (١٥ أغسطس) وتصرف بتهور شديد فلاقى حتفه في مستهل المعركة . لقد حارب الفرنسيون بشجاعة لكن من غير أن يحققوا نتائج طيبة . لقد سقط منهم في ساحة المعركة ١٢,٠٠٠ ، وعندما علمت الحكومة الفرنسية بهذه النكبة التي بلغت ذروتها تحققت أن فتوحاتها التي حصلت عليها بصعوبة شديدة قد ضاعت ، وأنه قد يصبح الروس بقيادة سوفوروف حالاً على الأرض الفرنسية . وكان خيال العامة في الألزاس وبروفنس Provence يصور هذا القائد الروسي ورجاله وكأنهم "برابرة عماليق" كموجات عاتية من السلاف المتوحشين تجوس خلال مدن فرنسا وقراها .

إن فرنسا التي كانت إلى عهد قريب فخورة بقوتها وانتصاراتها أصبحت الآن في حالة فوضى وفزع لا تقل عن حالة الفوضى والفزع التي سادتها سنة ١٧٩٢ والتي أدت إلى مذابح سبتمبر . لقد ثار أهل إقليم فيندي Vendée مرة أخرى وتمردت بلجيكا على حكامها الفرنسيين ، وأصبح خمس وأربعون دائرة (محافظة) من ست وثمانين محافظة – تقريباً بلا حكومة ولا ضوابط ، لقد قاتل الشبابُ الضباطَ الذين أتوا لتجنيدهم إجباريا ، وجرى قتل موظفي البلديات وجامعي الضرائب وأثار مئات اللصوص وقطاع الطرق الذعر في قلوب التجار والمسافرين سواء في شوارع المدن أم على الطرق الزراعية (المارة بالريف) وفاقت قوة المجرمين رجال الشرطة ، ففتحوا السجون وأطلقوا سراح المسجونين وضموهم في تنظيمات شكلوها ، وتعرضت المساكن ودور العبادة كلها للنهب . لقد عاد "الرعب الكبير" الذي ساد في سنة ١٧٩٤ مرة أخرى .

وتطلعت الأمة بأمل طالبة الحماية من نوابها الذين أرسلتهم إلى باريس لكن المجلسين كانا قد استسلما لحكومة الإدارة ، وحكومة الإدارة بدورها لم تبد سوى أنها أوليجاركية مغتصبة (حكومة أقلية مغتصبة) تحكم بالرشوة والمغالطة والقهر .

وفي مايو سنة ١٧٩٩ وجدنا سييز Sieyès – الذي كان راهبا في وقت من الأوقات ، والذي راح طوال عشر سنوات مضت يغازل الثورة بتوجيه هذا السؤال : ماهي الطبقة الثالثة؟ وكان يجيب عن السؤال الذي طرحه بقوله إنها الأمة ويجب أن يسمي أبناؤها

أنفسهم بذلك (الأمة) سييز هذا خرج من ثوب الغموض الذي كان يتدثر به، فتم انتخابه عضوا في حكومة الإدارة وذلك لأنه كصانع دساتير أصبح متفاعلاً مع القانون والنظام ووافق سييز على الخدمة شريطة استقالة روبل Rewbell ، فاستقال روبل بعد أن حصل على ترضية باهظة: ١٠٠,٠٠٠ فرنك[٩٣] . وفي ١٨ يونيو أرغمت أقلية قوية من ا ليعاقبة في المجلسين حكومة الإدارة على إبعاد لاريفليير Larevelliere وتريهار Treihard ومرلي Merlin على أن يحل محلهم لويس جيروم جوهييه Louis-Jérome Gohier وجان فرنسوا مولي Jean-François Moulin وروجر دوكو Roger Ducos . وأصبح فوشي Fouché وزيرا للشرطة و روبرت ليند Robert Lindt رئيسا للخزانة، وكان كلاهما في لجنة الأمن العام المنحلة وأعيد فتح نادي اليعاقبة في باريس، وراح الناس يسمعون ثناء على روبيسبير وبابوف[٩٤] Babeuf .

وفي ٢٨ يونيو فرضت الهيئة التشريعية Législature بتأثير اليعاقبة تحصيل قرض مقداره مئة مليون جنيه (ليفر) على شكل ضريبة تتراوح بين ٣٠٪ و ٧٥٪ على الدخول العالية، فاستأجر المواطنون الأثرياء محامين لإيجاد ثغرات في القانون لتحاشي هذا القرض الإجباري وراحوا يصيخون السمع برغبة لحبك مؤامرات للإطاحة بالحكومة. وفي ١٢ يوليو مهد اليعاقبة لإصدار "قانو ن الرهائن a law of Hostages" والذي بمقتضاه صدرت الأوامر إلى كل كومون في فرنسا أن يعد قوائم المواطنين من النبلاء الذين لا يحميهم القانون في دائرته والتحفظ عليهم وإخضاعهم للمراقبة فإذا حدثت سرقة اتهم فيها واحد منهم تحتم إرغامه على إعادة المسروقات وإن قتل واحد من الوطنيين (المقصود هم الموالون للحكم القائم) تم نفي أربعة من هؤلاء الرهائن. وقد قوبل هذا القرار بصيحات الفزع من الطبقات العليا ولم يرحب به العامة ترحيبا كافياً .

وبعد عقد من الهياج والنزاع بين الطبقات والحروب الخارجية والقلاقل السياسية والمحاكمات غير القانونية والسلب والنهب والإعدامات والمذابح أصبح أهل فرنسا كلها من ضحايا الثورة فراحوا يتحسرون على الأيام الطيبة التي خلت، أيام لويس السادس عشر وشعروا أنه لا يستطيع أحد أن يعيد إلى فرنسا النظام والسلامة سوى ملك. وأولئك الذين

ظلوا على كاثوليكيتهم راحوا يصلون مبتهلين طالبين أن يحل اليوم الذي يتخلصون فيه من حكم الملاحدة(*) atheists ، بل إن بعض المتشككين الذين تخلوا عن المعتقدات الغيبية كلها راحوا الآن يتشككون الآن في إمكانية أن يستطيع نظام أخلاقي لا يدعمه دين مقاومة العواطف والانفعالات غير المنضبطة والدوافع غير الاجتماعية التي ترسخت في قرون انعدم فيها الأمان وسادت فيها الوحشية والقنص، وراح كثيرون من الآباء غير المتمسكين بعقيدة يرسلون أبناءهم إلى الكنائس لأداء الصلوات، وتأدية طقس الاعتراف وتناول العشاء الرباني حتى يعين ذلك كله على تحليهم بالتواضع ولتقوية عرى الروابط الأسرية وتحقيق السلام مع النفس. والفلاحون والبورجوازيون الذين يدينون للثورة بأراضيهم ويريدون الاحتفاظ بهذه الأراضي قد بغضوا الحكومة رغم هذا، فهي ترسل لهم غالبا من يفرض الضرائب على محصولاتهم أو يجند أبناءهم قسراً. وكان عمال المدن صاخبين في مطالبتهم بالخبز بدرجة أكثر يأساً عن ذي قبل حتى عن فترة ما قبل سقوط الباستيل، لقد رأوا التجار والصناع والسياسيين وأعضاء حكومة الإدارة يعيشون في رغد من العيش فراحوا ينظرون إلى الثورة باعتبارها أحلت البورجوازيين سادةً ومستغلين للدولة بدلا من النبلاء، ومع هذا فقد كان سادتهم البورجوازيو ن ساخطين بدورهم فالطرق غير الآمنة والتي اعتراها الإهمال جعلت التجارة عملية مرهقة ومنطوية على المخاطرة، وأحبطت القروض القسرية (على غير رغبة المقرض بكسر الراء) والضرائب المرتفعة الراغبين في الاستثمار وإقامة المشروعات، ففي ليون Lyon أغلق ثلاثة عشر محلا تجارياً أبوابها من بين خمسة عشر ألفا، باعتبارها غير مربحة، وكان هناك الألوف من العاطلين رجالا ونساء، وكان لي هافر Le Havre وبوردو ومرسيليا قد اعتراها الخراب بسبب الحرب وبسبب الحصار البحري البريطاني. ولم تكن الأقلية التي يزيد تناقصها تستطيع إلا بجهد شاق أن تعقد رباطا بين الثورة والحرية، فقد حطمت الثورة كثيرا من الحريات وأجازت كثيرا من القوانين الإرهابية وأرسلت خلقاً كثيرا رجالا ونساء- إلى السجن أو المقصلة. وراحت النسوة خلا الزوجات ومشرفات البيوت وبنات الأثرياء الجدد وكبار السن ينتقلن من صف إلى صف باضطراب أمام المحلات مخافة أن ينفد

(*) المقصود غير الكاثوليك وليس بالضرورة الذين لا يؤمنون بوجود الله، راجع مقدمة المترجم.

المعروض من البضائع ورحن يتساءلن متى يعود أبناؤهن وإخوانهن وأزواجهن من الحرب؟ أما لهذه الحرب من نهاية؟ وكان الجنود الذين اعتادوا على العنف والسرقة لا يعانون فقط من الهزيمة وإنما أيضا من نقص المؤن ورداءة الطعام، وكان مما يثير غضبهم ما يصل إلى علمهم مرارا بشأن فساد الرجال الذين يقودونهم وأولئك الذين يقدمون لهم الغذاء واللباس، وعندما كان هؤلاء الجنود يعودون إلى باريس أو إلى مدنهم كانو ا يجدون أيضا عدم الأمانة سائدة في المجتمع وفي التجارة والصناعة والمالية والحكومة. لقد كان سراب إيجاد عالم بهيج جديد يتراجع ويتلاشى كلما زادت أيام الثورة .

وارتفعت الروح المعنوية شيئا ما ولفترة قصيرة عندما وصلت أنباء بأن الحلفاء قد تنازعوا وانقسموا على أنفسهم، وأنهم قد هزموا وتراجعوا في سويسرا والأراضي المنخفضة، ذلك لأن ماسينا Masséna استعاد المبادرة وقسم الجيش الروسي إلى قسمين في زيوريخ Zurich (٢٦ أغسطس ١٧٩٩) ذلك أن هؤلاء السلاف المرعبين كانوا في حالة تراجع لأن روسيا كانت قد خرجت من التحالف ضد فرنسا وبدأ الفرنسيون يأملون في أن يعود بعض الجنرالات الأكفاء مثل ماسينا Masséna أو مورو Moreau ، وحبّذا بونابرت الذي عاد من مصر سالما ويقود جماعة منظمة في باريس ويطيح بالسياسيين ويمنح فرنسا الانضباط والأمان حتى لو كان هذا على حساب الحرية. لقد انتهى الفرنسيون إلى نتيجة مؤداها أنه لا يقدر على إنهاء فوضى الثورة، وفرض النظام في فرنسا وإحلال الأمن بها مما هو ضروري لحياة متحضرة سوى حكومة مركزية يقودها زعيم واحد متمتع بالصلاحيات اللازمة .

٨- نابليون يتولى المسئولية: ١٨ برومير(*) (٩ نوفمبر) ١٧٩٩ :

ووافق سييز Sieyès ، لكنه عندما درس زملاءه في حكومة الإدارة رأى أنه لا أحد منهم (ولا حتى بارا Barras البارع) يشاركه الفكر والرؤية اللازمتين لفرنسا موحدة سوية وكان الرجل متشربا بفكرة الدستور لكن يحتاج إلى جنرال ليكون عوناً على إصدار الدستور وليكون ذراعاً له (أي لسييز) . وفكر في جوبير Joubert لكن جوبير كان قد مات، فأرسل

(*) شهر الضباب في التقويم الجمهوري .

في طلب مورو Moreau وراح يحثه أن يكون "فارس الحلبة a man on horse back لكنهما عندما علما بعودة نابليون من مصر، قال مورو: "جاء رجلك إنه يستطيع أن يقوم بالانقلاب الذي تفكر فيه أفضل مما أستطيع أنا"(٩٥) وتفكر سييز ملياً، فنابليون يمكن أن يكون هو الرجل المطلوب، لكن أيقبل أن يوجهه سييز والدستور الجديد؟

وفي ١٣ أكتوبر أحاطت حكومة الإدارة المجلسين علما بأن بونابرت قد رسا بالقرب من فريجو Fréjus فهب النواب وقوفاً وهللوا. وظل أهل باريس طوال ثلاثة أيام يحتفلون ليلا ونهارا بهذه الأخبار بالشرب في الحانات والغناء في الطرقات. وفي كل مدينة تقع على الطريق من الساحل إلى العاصمة (باريس) هبت الجموع شعبا وقادة لتحية الرجل الذي بدا لهم رمزا للنصر وتأكيدا له. حتى إنهم لم يسمعوا بالنكبة التي حدثت للفرنسيين في مصر، ففي المراكز والتجمعات المختلفة ذكر المراقبون أن "الجموع المتجمعة كثيرة جدا مما عطل حركة المرور فلا يستطيع أحد أن يتقدم إلا بصعوبة"(٩٦) وفي ليون جرى عرض مسرحية تكريما له، ووجه الخطيب الحديث إليه قائلاً: "اذهب وحارب العدو واهزمه وسننصبك ملكا"(٩٧) لكن الجنرال الصغير (نابليون) كان صامتا مكتئبا، لقد كان يفكر في كيفية التصرف مع جوزفين.

وعندما وصل باريس (١٦ أكتوبر) اتجه مباشرة إلى المنزل الذي كان قد اشتراه في الشارع الذي كان اسمه قد تغير تكريما له ليصبح اسمه " شارع النصر Rue de la victoire. لقد كان يأمل أن يجد زوجته المنحرفة هناك ليطردها من حياته، لكنها لم تكن هناك لسببين، أولهما أنه في ٢١ من أبريل سنة ١٧٩٩، بينما كان يحاصر عكا، اشترت هي ٣٠٠ أكر على نهر السين على نحو عشرة أميال من باريس وشيدت في هذه المساحة بيتاً Malmaison (بيت الضرار أو بيت السوء) قدم لها بارا Barras ٥٠,٠٠٠ فرنك كدفعة أولى من تكلفته البالغة ٣٠٠,٠٠٠ فرنك، وكان الكابتن هيبوليت شارل Hippolyte Charles هو أول ضيوفها في هذا القصر الرحب(٩٨). والسبب الثاني أنها هي وابنتها كانتا قد غادرتا باريس قبل أربعة أيام لتتجها إلى ليون Lyon على أمل مقابلة بونابرت في الطريق، وعندما اكتشفت جوزفين وهورتينز Hortense أن نابليون كان قد اختار طريقا

مغايرا عادا وقد اعتراهما التعب وشملهما المرض حقا بسبب الرحلة وقطعا مائتي ميل إلى العاصمة، وفي هذه الفترة أتاه والد زوجها الراحل، الرجل الهرم الماركيز دي بوهارنيه de Beauharnais وراح يبرر له ويحثه على مسامحتها :

"مهما تكن أخطاؤها فلتنسها، لا تلوث لحيتي التي اشتعلت شيبا ولا تلوث الأسرة التي منحتك التشريف"(٩٩) . أما إخوة بونابرت فقد حثوه على طلاقها وقد كانت أسرته مستاءة من سلطانها عليه، لكن بارا Barras حذره من أن الفضيحة العامة تضر بمركزه السياسي.

وعندما وصلت الأم المنهكة (جوزفين) وابنتها إلى ٣ شارع النصر (١٨ أكتوبر) قابلهما يوجين Eugène عند نزولهما من العربة وحذرهما من عاصفة متوقعة، فتركت جوزفين، يوجين يحتفي بأخته، وأسرعت بصعود السلم قفزا وطرقت باب غرفة نابليون الذي أجابها بأنه قرر ألا يراها ثانية، فخرت على السلم وراحت تنشج بالبكاء حتى أتى يوجين وهورتنس Hortense فساعداها على النهوض، وعادا معها ليتوسلا إلى نابليون معا، وفي وقت لاحق قال نابليون: " لقد تأثرت بشدة فلم أكن أستطيع أن أتحمل بكاء ابنها وبنتها، وسألت نفسي: أيجب أن يكونا ضحية سقوط أمهما؟ فبسطت يدي وأمسكت بذراع يوجين وأردفته خلفي. عندئذ أتت هورتنس ومعها أمها... ماذا يمكن أن يقال؟! إن المرء لا يكون إنسانا دون أن يرث الضعف البشري"(١٠٠).

في هذه الأيام التي نزع فيها إلى السكون والتأمل تجنب فيها أن يظهر أمام العامة، فقد كان يعرف أن الرجل العام (موضع اهتمام العامة) لا يجب أن يكون عاما جدا. وفي البيت وعندما يخرج، كان لباسه مدنيا حتى يحبط الشائعات القائلة بأن الجيش كان يخطط للاستيلاء على الحكم. وقام بزيارتين: زيارة ليقدم احترامه لمدام هيلفيتيوس Helvétius البالغة من العمر ثلاثة وثمانين عاما، وذلك في أوتيل Auteuil، والزيارة الثانية للمعهد العلمي حيث تحدث عن الحملة الفرنسية على مصر باعتبارها في جانب كبير منها ذات أبعاد علمية (لصالح العلم) وقد أيده في هذا بيرثولى Berthollet ومونج Monge وراح لابلاس Laplace ولاجرانج Lagrange وكابانيه Cabanis وكثيرون غيرهم يستمعون إليه

كعالم وفيلسوف[١٠١] . وفي هذا الاجتماع قابل سييز Seiyès وكسبه إلى جانبه بملاحظة واحدة: " ليس لدينا حكومة لأنه ليس لدينا دستور أو على الأقل ليس لدينا الدستور الذي نحتاج لا بد أن تقدم لنا بعبقريتك هذا الدستور المطلوب "[١٠٢] .

وسرعان ما أصبح بيته مركزا لمفاوضات سرية . لقد استقبل زوارا من "اليسار" ومن "اليمين" (يساريين ويمينيين)، ووعد اليعاقبة بالمحافظة على الجمهورية ودافع عن مصالح الجمهور، لكنه أعلن أخيرا وبصراحة أنه "قابل ممثلي البوربون Bourbons "[١٠٣] وعلى أية حال فقد جعل نفسه بعيدا عن أي فريق، خاصة الجيش . ونصحه الجنرال بيرنادوت Bernadotte الذي كان يأمل أن يتولى الحكومة بنفسه ألا يقحم نفسه في السياسة ويكتفي بمنصب قيادي عسكري . واستمع نابليون بمزيد من الرضا لمدنيين مثل سييز الذي نصحه بتولي أمر الحكومة وتدشين دستور جديد . وكان هذا يتطلب تعديل أو خرق قانون أو قانونين، ولكن مجلس الشيوخ خوفاً من إحياء حركة اليعاقبة قد يتغاضى عن شيء من التجاوز للقانون (يتغاضى عن خروج قليل عن القانون)، أما مجلس الخمسمائة فرغم أن به أقلية يعقوبية قوية، فإنه قد انتخب مؤخراً لوسين بونابرت Lucien Bonaparte رئيساً له . ومن بين أعضاء حكومة الإدارة الخمسة كان سييز Sieyés ودوكو Ducos إلى جانب نابليون ، وكان تاليران Talleyrand يحث بارا Barras على الانسحاب بما حققه من مجد ومكاسب (غنائم) أما جوهييه Gohier رئيس حكومة الإدارة فكان على علاقة نصف غرامية بجوزفين ويمكن شل حركته بابتسامة منها[١٠٤] . وقد يكون بعض المصرفيين قد أرسلوا فرنكات لتأكيد صداقتهم[١٠٥] .

وفي الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سرت إشاعة في باريس مؤداها أن اليعاقبة كانوا يجهزون لقيام الجماهير بتمرد، واعتبرت مدام دى ستيل Mme de Stael هذه الأخبار صحيحة فجهزت نفسها للخروج السريع من باريس إذا انفجرت الاضطرابات[١٠٦] . وفي ٩ نوفمبر (اليوم الثامن عشر من شهر بروميير (شهر الضباب) الذي سيصبح يوما شهيرا من الآن فصاعدا) أمر مجلس الشيوخ مستخدما حقوقا كفلها له الدستور بنقل اجتماعاته وكذلك اجتماعات مجلس الخمسمائة إلى القصر الملكي في ضاحية سان كلو St. Cloud

اعتبارا من اليوم التالي، وتوسع في استخدام حقه الدستوري فقام بتعيين بونابرت قائداً لحامية باريس وأمره بالقدوم فورا إلى مقر مجلس الشيوخ في التوليري Tuileries لأداء القسم، فأتى نابليون يرافقه ستون ضابطا والتزم بشروط فضفاضة بما فيه الكفاية ليسمح لنفسه بشيء من حرية العمل والاختيار فيما بعد، واستخدم عبارات عامة تتيح له تفسيرها فيما بعد: "إننا نريد جمهورية قائمة على الحرية والمساواة والمبادىء المقدسة لتمثيل الأمة، وسنصل إلى هذه الجمهورية، إنني أقسم"(١٠٧).

وعندما خرج من القاعة قال للجنود المتجمعين: "الجيش متحد معي ثانية، وأنا أتحدث ثانية مع المجلسين". وفي هذه الأثناء أحضر بوتو Bottot سكرتير بارا Barras إلى نابليون رسالة من بارا عضو حكومة الإدارة الذي كان قويا ونافذا في وقت من الأوقات، يطلب فيها ضمانا بالخروج الآمن من باريس لأنه ينوي الخروج منها. فهب نابليون صارخاً في بوتو Bottot – البائس الذي لا ذنب له إلا أنه حامل رسالة – وراح يقول له بصوت عال يريد أن يسمعه الجند والمدنيون، كلمات كانت كحكم بالإعدام على حكومة الإدارة، لقد قال له بطريقة إياك أعني واسمعي يا جارة: "ماذا فعلتم بفرنسا التي تركتها لكم مزدهرة؟ لقد تركتكم تنعمون بالسلام، فوجدتكم – عندما عدت – في حرب، لقد تركت لكم انتصارات فوجدتها هزائم! لقد تركت لكم الملايين من إيطاليا فوجدت السلب والبؤس. ماذا فعلتم بمئات الآلاف من الفرنسيين الذين أعرف أنهم زملائي وشركائي في النصر والعظمة؟ لقد ماتوا."

ولم يكن المستمعون إليه يعلمون أنه استعار بعضا من هذه السطور من جرينوبل اليعقوبي Grenoble Jacobin فأحسوا بقوتهم إذ كان قد جرى اختزانهم في الذاكرة فترة طويلة كمبرر للانقلاب الذي سيحدث. ومخافة أن تثير كلماته هذه سخط بارا فقد انتحى جانبا ببوتو وأكد له أن مشاعره الشخصية عن عضو حكومة الإدارة (بارا) لم تتغير(١٠٨).

ثم ركب حصانه واستعرض جنوده وعاد إلى جوزفين سعيدا بنجاحه كخطيب.

وفي ١٠ نوفمبر قاد الجنرال ليفيبفر Lefebvre خمسمائة من حامية باريس إلى سان كلو St.-Cloud وعسكر بالقرب من القصر الملكي، وتبعهم نابليون وعدد من ضباطه المقربين،

ثم لحق بهم سييز، ودوكو Ducos ، وتاليران ، وبوريين Bourrienne . وراحوا يراقبون اجتماع مجلس الشيوخ في بهو مارس Mars واجتماع مجلس الخمسمائة في حديقة البرتقال المجاورة للبهو (الأورانجيري Orangerie) وحالما دعا لوسين بونابرت الخمسمائة للجلوس والنظام حتى تعالت الاحتجاجات على وجود العساكر حول القصر. لقد تعالت الصيحات: "لا للدكتاتورية.. فليسقط كل دكتاتور! إننا أحرار ولن تخيفنا الحراب" وكان هناك اقتراح مؤداه أن على كل نائب أن يتقدم إلى المنصة وأن يجدد بصوت مسموع قسمه بحماية الدستور، وجرى تنفيذ ذلك بهدوء حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

وتباطأ مجلس الشيوخ أيضا على أساس أنه من الضروري انتظار ما يتقدم به الخمسمائة من اقتراحات، وكان نابليون في غرفة جانبية مغيظا محنقا مخافة أن يضيع هدفه إذا لم يتم اتخاذ عمل حاسم حالا. وشق نابليون طريقة بين بيرتييه Berthier وبوريين **Bourrienne** واتجه إلى منصة مجلس الشيوخ وحاول أن يثير هؤلاء الرجال كبار السن ليتحركوا للقيام بعمل ما، لكنه رغم ما كان معروفا عنه من بلاغة في بياناته وحسم في مناقشاته كان في هذه المرة يكظم غيظة ويكتم أفكاره مما جعله غير قادر على ارتجال خطبة منسقة أمام هذا المجلس التشريعي. لقد تحدث بحدة وعنف وطريقة مشوشة:

" إنكم فوق بركان !.... اسمحوا لي أن أتحدث بحرية كجندي (كمقاتل).. لقد كنت أعيش في سلام في باريس عندما استدعيتموني لتنفيذ أوامركم.... إنني أجمع رفاق السلاح... لقد هببنا لنجدتكم.... بينما الناس يغمرونني بافتراءاتهم. لقد قالوا إنني مثل قيصر، وكروميل Cromwell وتحدثوا عن حكومة عسكرية... إن الوقت يمضي بسرعة. إنه من الضروري أن تتخذوا إجراءات حاسمة فورية.... إن الجمهورية بلا حكومة، فلم يبق إلا مجلس الشيوخ، فليتخذ المجلس إجراءات، فلينطق، وسأكون أداة التنفيذ. دعونا ننقذ الحرية ! دعونا ننقذ المساواة!"[١٠٩].

وقاطعة أحد الأعضاء: " وننقذ الدستور أيضا !"

فأجاب نابليون بانفعال غاضب: " دستور!؟ إنكم أنفسكم قد دمرتموه. أنتم انتهكتموه

في ١٨ فروكتيدور(*)! أنتم انتهكتموه في ٢٢ فلوريل Floreal . أنتم انتهكتموه في ١٣ بريريال Prairial. إنه لم يعد جديرا باحترام من أي إنسان" . وعندما طالبوه بأن يسمى الذي وقفوا وراء مؤامرة اليعاقبة، ذكر اسم بارا Barras ومولا Moulin ، فلما طلبوا منه دليلا تلعثم ولم يجد ما هو أكثر إقناعا من توجيه حديثه للجنود الواقفين عند المدخل: " أنتم ، يا رفاقي الشجعان الذي تصحبونني، يا رماة القنابل الشجعان.. إذا تجاسر أي خطيب من هؤلاء، مدفوعا من أحد الأجانب وأعلن إباحة دمي(أنني لست تحت حماية القانون Hors La Loi)، فدعوا بريق الحرب يمحقه فورا"(١١٠) وغمرت الأسئلة والاعتراضات المتحدث (نابليون) فأصبحت كلماته أكثر اضطرابا وتشوشا، فهب مساعدوه لإنقاذه من هذه الورطة ورافقوه إلى خارج الغرفة(١١١) . لقد بدا أنه دمر مشروعه.

لكنه قرر أن يحاول مرة أخرى، لكنه في هذه المرة سيواجه عدوه مباشرة، أولئك الخمسمائة الذين تلونوا بلون اليعاقبة، فاتخذ سبيله إلى حديقة البرتقال المجاورة (الأورانجيرى) يرافقه أربعة من رماة البنادق. وكان النواب مستائين من العرض العسكري فضجت القاعة بالصياح" : يسقط الدكتاتور.. يسقط الطغيان ! دمه حلال... إنه ليس تحت حماية القانون Hors La Loi " . لقد كانت هذه العبارة الأخيرة هي التي تسببت فيما سبق في إسقاط روبيسبير وموته. لقد طرحت فكرة "إهدار دم نابليون" بالفعل فرفض لوسين بونابرت رئيس المجلس طرح الفكرة للتصويت وترك مقعد الرياسة ليعتلي المنصة ويدافع عن نابليون (أخيه) . وأحاط النواب المستقرون (بضم الميم) بنابليون: "إنه من أجل هذا حققت انتصاراتك؟!" هكذا سأل أحدهم، وتكالب آخرون عليه وتزاحموا حوله حتى كاد يغمى عليه، فأفسح له العسكريون المصاحبون له الطريق وخرجوا به خارج القاعة، فأنعشه الهواء الطلق، فركب حصانه ولجأ الجنود الذين وقفوا مندهشين لرؤية ثيابه ممزقة وشعره مهوشاً، فخاطبهم: "أيها الجنود. أيمكنني أن أعتمد عليكم؟" فرد كثيرون منهم بنعم وتردد آخرون. لقد كان نابليون مرة أخرى في الغاية من التشوش، فخطته الكبرى تبدو قد تعثرت. لقد أنقذه أخوه الذي أسرع خارج القاعة الكائنة في حديقة البرتقال (الأورانجيري)

(*) شهر الفواكه.

وامتطى أقرب حصان وجعل حصانه إلى جانب حصان نابليون وخاطب الحرس غير المنظم بحسم وبلاغة ولوى الحقائق بشدة:

"إنني كرئيس لمجلس الخمسمائة أعلن لكم أن الغالبية العظمى في المجلس في هذه اللحظة قد اعتراهم الرعب بسبب الخناجر التي يحملها بعض النواب والذين حاصروا المنصة وهددوا زملاءهم بالموت . . . إنني أعلن أن هؤلاء المجرمين الوقحين لا شك قد تلقوا أموالا من إنجلترا وأنهم ضد إرادة مجلس الشيوخ وأنهم تجرأوا على اقتراح إهدار دم الجنرال الذي أخذ على عاتقه تنفيذ قرار مجلس الشيوخ . . إنني أعهد إلى المقاتلين بمسئولية تحرير الأغلبية من ممثليهم . أيها الجنرالات والجنود والمواطنون أنتم يجب ألا تعترفوا بمشرعين لفرنسا إلا بالنسبة لهؤلاء الذين يتبعونني أما الذين سيظلون في قاعة حديقة البرتقال (ألاورانجيري) فليتم طردهم بالقوة[١١٢] .

وشهر لوسين Lucien سيفه ووجهه لصدر نابليون وأقسم أنه إذا تصدى أخوه(نابليون) لحرية الشعب الفرنسي فسيقتله بسيفه هذا .

وعندئذ أمر نابليون بقرع الطبول وأمر الجنود باجتياح الأورانجيرى(قاعة اجتماع مجلس الخمسمائة في حديقة البرتقال) وتفريق النواب غير الممتثلين للأوامر، فشق مورا Murat وليفيبفر Lefebvre ليكونا في المقدمة وتبعهما رماة القنابل وهم يصيحون : "برافو (حسناً) يسقط اليعاقبة! يسقط من كان لهم من دور في سنة ١٧٩٣ . . . هذا هو القرار الحاسم . . . إننا الآن نعبر الروبيكون(*) Rubicon " .

وعندما رأى النواب الحراب مشرعة هرب معظمهم وقفز بعضهم من النوافذ وتجمعت أقلية حول لوسين Lucien . وتقدم هذا المنتصر الذي حبك هذه الأفاعيل إلى مجلس الشيوخ وشرح لأعضائه أن مجلس الخمسمائة قد تخلص من أعضائه غير المرغوب فيهم، عندئذ وافق مجلس الشيوخ الذي سعد أعضاؤه بعدم إبعادهم على مرسوم يقضي بأن يحل ثلاثة قناصل بشكل مؤقت Provisional Consuls محل حكومة الإدارة، وهؤلاء القناصل الثلاثة هم : بونابرت وسييز ودوكو Ducos . وتم تنظيم نحو مائة من بين الخمسمائة في

(*) أي نتخذ قرارا حاسما .

مجلس ثان (بدلا من مجلس الخمسمائة)، وتم إرجاء اجتماعات المجلسين حتى ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٠ وتفرد القناصل الثلاثة لكتابة الدستور الجديد وحكم فرنسا. وقال نابليون لبورين Bourrienne : "غداً سننام في لكسمبورج[١١٣] Luxembourg " .

الفصل السادس

الحَياة في ظلّ الثورة

[١٧٨٩ ـ ١٧٩٩]

١- الطبقات الجديدة :

هنا نوقف الزمن (نتوقف عن سرد الوقائع التاريخية المتتابعة سراعاً) لننظر إلى شعب يعاني من كثافة التجارب التاريخية التي مرت به . فالست والعشرون سنة الكائنة بين سقوط الباستيل، حتى تنازل نابليون نهائيا (١٧٨٩ - ١٨١٥) كانت حافلة بالأحداث التي لا تنسى، مثلها في ذلك مثل العشرين سنة الكائنة بين عبور قيصر للربيكون(*) Rubicon ووصول أغسطس Augustus للسلطة (٤٩-٢٩ ق.م) . لقد كانت هذه الفترة التي مر بها الشعب الفرنسي حافلة بالأحداث الخصبة فإنها أحداث تكفي لتشغل قرونا قد تشتمل على وقائع أقل تشنجا وتحولا . ومع ذلك فقد واصلت الحضارة مسيرتها رغم العقبات، ففي ظل حكومات مرتعشة غير ثابتة الأيدى ظلت المؤسسات وزاد عددها ومجدت العبقرية وتواصلت عناصر الحضارة وفضائلها : إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعهما، والعمل على الوصول إلى المعرفة ونقلها، ورعاية المواهب والشخصية، وتبادل التأثير والتأثر، وتلطيف حدة الكدح من أجل الحياة، والنضال من أجل الارتقاء بالفنون والآداب والأعمال الخيرية والألعاب الرياضية والأغاني، وإحداث تحولات في الخيال والعقائد والآمال . حقيقة ألم يكن ذلك هو جوهر التاريخ واستمراره، إذا قورن بهياج الحكومات السطحي وفوران الأبطال؟! فهذه الظواهر الأخيرة إن هي إلاّ عرضية سريعة الزوال، لا تمثل جوهر الحلم .

١ / ١- الفلاحون : كان كثيرون منهم في سنة ١٧٨٩ لا يزالون إما عمال يومية (عمال مياومة يتلقى الواحد منهم أجرا عن عمل أداه في أثناء اليوم) أو يعملون في الأرض لقاء المشاركة في المحصول(نظام المزارعة)، وكانوا يعملون في أراضٍ يمتلكها الآخرون، لكن ما إن حل عام ١٧٩٣ إلا وكان الفلاحون يمتلكون نصف الأراضي الزراعية في فرنسا، إذ كان معظمهم قد اشترى أكراتهم (فدادينهم Acres) بأسعار خفضت للمساومة bargain price من ممتلكات الكنيسة التي صادرتها الثورة . وتحرر معظم الفلاحين إلا قليلا منهم من الرسوم الإقطاعية . فدوافع الملكية حولت العمل من كونه جهدا شاقا وكدحاً مرهقا إلى نوع من العبادة أو الحب الشديد، إذ أدى ذلك كل يوم إلى زيادة الفائض الذي يتحول إلى بناء

(*) يقال عبر الربيكون (نهر في إيطاليا) أي أتخذ قرارا حاسما .

المنازل وأماكن الاستجمام والكنائس والمدارس، وهذا يحدث فقط إذا تم التحايل على جامع الضرائب أو تضليله أو استرضائه. وكان يمكن دفع الضرائب بالأسينات assignates (العملة النقدية الورقية الحكومية) على وفق قيمتها الاسمية (المكتوبة عليها) بينما كانت المنتجات تباع بأسينات مضاعفة مائة مرة حتى يضمن البائع أن المبلغ الذي باع به أصبح يساوي قيمة ما باعه. ولم يحدث أبدا أن كانت زراعة الأرض الفرنسية تتم في أي وقت مضى بمثل هذا الحماس وهذه الطريقة المثمرة، وكان تحرير أكبر الطبقات في مجتمع أصبح الآن بلا طبقات هو أهم نتائج الثورة وأكثر ديمومة وأشدها وضوحا. فهؤلاء الممولون الأشداء أصبحوا أقوى المدافعين عن الثورة لأنها أعطتهم الأرض التي سيأخذها منهم البوربون إن هم عادوا ملوكا لفرنسا. وللسبب نفسه أيد الفلاحون نابليون وقدموا طوال خمسة عشر عاماً نصف ابنائهم. وباعتبارهم (أي الفلاحين) ملاكا - وكان هذا مدعاة لفخرهم - فقد صنفوا أنفسهم سياسيا مع البورجوازية، وعملوا خلال القرن التاسع عشر كثقل محافظ يحفظ توازن الدولة التي كانت تعتريها نوبات تغيير مفاجىء.

وليضمن المؤتمر الوطني (١٧٩٣) المساواة في الحقوق، منع نظام البكورة في الميراث (حق الابن الأكبر في أن يرث الميراث كله) وأصدر أوامره بأن يوصى للأبناء بأسهم متساوية بمن في ذلك الأبناء غير الشرعيين(المولودين خارج نطاق الزوجية) إذا اعترف الأب ببنوتهم له. وكان لهذا التشريع نتائج مهمة على المستويين الأخلاقي (المعنوي) والاقتصادي: وقد عارضه معارضون لأن هذا النظام الجديد يفضي بالورثة إلى الفقر نتيجة تقسيم الميراث على التوالي بين أبناء كثيرين، لذا فقد رسخ الفرنسيون وسائل تحديد النسل القديمة. لقد ظل الفلاحون مزدهري الأحوال لكن عدد سكان فرنسا راح ينمو ببطء خلال القرن التاسع عشر إذ ارتفع من ٢٨ مليون نفس سنة ١٨٠٠ إلى ٣٩ مليون نفس في سنة ١٩١٤، بينما ارتفع سكان ألمانيا في الفترة نفسها من ٢١ مليوناً إلى ٦٧ مليوناً[1]. ونظراً لخصوبة الأرض ووفرة ثمرها تباطأ الفلاحون الفرنسيون في الانتقال والحركة إلى المدن والمصانع، لذا بقيت فرنسا دولة زراعية في الأساس، بينما تطورت إنجلترا وألمانيا صناعيا وتكنولوجيا، فأدى هذا لتفوقها في الحرب وسادت أوربا.

١ / ٢- **البروليتاريا** : ظل الفقر شديد الوطأة بين الفلاحين الذين لا يمتلكون أراضي، والمشتغلين في المناجم والعمال والحرفيين في المدن. لقد راح الرجال يحفرون الأرض لاستخراج المعادن اللازمة للصناعة والحرب، فقد كان الملح الصخري (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) لازما لصناعة البارود، وزاد استخدام الفحم ليحل محل الأخشاب كمولد للطاقة المحركة. وكانت المدن متألقة مفعمة بالحيوية نهارا مظلمة هامدة بالليل حتى سنة ١٧٩٣ عندما أخذت الكومونات على عاتقها إضاءة شوارع باريس، وواصل الحرفيون العمل ليلا في محالهم المضاءة بالشموع وراح البائعون الجوالون ينادون على بضائعهم ليلا في مركز السوق المفتوح، وكان في الضواحي مصنع أو مصنعان .

وفي سنة ١٧٩١ ألغيت روابط الطوائف المهنية Guilds وأعلنت الجمعية الوطنية أنه من الآن فصاعدا لكل فرد الحق في ممارسة العمل الذي يختاره والمهنة التي يرتضيها والفن أو التجارة التي يبغيها"[٢]. ومنع قانون منع التكتلات Law of le Chapelier (الصادر في سنة ١٧٩١) العمال من الانضمام إلى تكتلات اقتصادية[*]، وظل هذا المنع ساريا حتى سنة ١٨٨٤، وكانت الإضرابات ممنوعة لكنها حدثت لفترات متواصلة أحيانا[٣]، وبشكل متقطع أحيانا أخرى. وناضل العمال حتى لا يأكل التضخم أجورهم، وعلى كل حال، وبشكل عام، استطاعوا الحفاظ على أجور لا يقلل ارتفاع الأسعار من جدواها[٤]. وبعد سقوط روبيسبير أحكم أصحاب الأعمال قبضتهم وساءت أحوال البروليتاريا. وبحلول عام ١٧٩٥ أصبح العوام من السانس كولوت طبقة فقيرة ومطحونة كما كان حالها قبل الثورة. وبحلول عام ١٧٩٩ فقدت هذه الطبقة إيمانها بالثورة، وفي سنة ١٨٠٠ رحبوا بدكتاتورية نابليون عاقدين عليها الآمال .

(*) عن هذا القانون رجعنا إلى كتب القانون ومنها (دور الأحزاب السياسية في ظل النظام النيابي لطارق فتح الله خضر. القاهرة. ١٩٨٦، يقول المؤلف، ص ٩٣ :

«..... ظلت المجادلات فترة طويلة في فرنسا تبرز القضية التقليدية التي تقوم على عدم اعتبار النقابات، قوة من القوى السياسية، وإهمال دورها في النظام السياسي الفرنسي .

وفي شهر يونيو عام ١٧٩١ تم إصدار قانون Le chapelier الذي حرم أي تجمع للعمال أو الموظفين حيث نص على «مواطني ولاية واحدة، أو مهنة واحدة، والعمال، والزملاء في حرفة واحدة ليس لهم حين يتجمعون في مكان واحد أن يتداولوا أو يصدروا بيانات عن مصالحهم المشتركة المزعومة ......».

١ / ٣- البورجوازية : حققت البورجوازية نصراً من خلال الثورة لأنها كانت أغنى بالأموال والعقول من الأرستقراطية أو العوام Plebs . لقد اشتروا من الدولة من خلال صفقات معظمها رابح ممتلكات الكنيسة المصادرة، ولم تكن ثروة البورجوازية مرتبطة بالأرض التي لا يمكن نقلها (الممتلكات الثابتة) وإنما كان يمكنهم نقل ثرواتهم من مكان إلى مكان، وتشغيلها في أي مجال ولأي غرض، كما كان يمكنهم تداولها والانتقال بها من ظل قانون (تشريع) إلى ظل قوانين أخرى. وكان يمكن للبورجوازية أن يدفعوا للجنود والحكومات وللجماعات المشاركة في أي عصيان مسلح. وحصلت هذه الطبقة خبرة في إدارة الدولة فكان أفرادها يعلمون كيف يجمعون الضرائب وأثروا في خزانة الدولة من خلال ما أقرضوه لها، وكان أفراد البورجوازية أكثر تحصيلا للتعليم ذي المردود العملي، من النبلاء ورجال الدين، وكانوا أكثر كفاءة في حكم مجتمع، المال هو دورته الدموية، وكانوا يعتبرون الفقر عقاباً للأغبياء، وأن ثراءهم ما هو إلا مكافأة عادلة لعملهم وذكائهم، ولم يشاركوا في حكومة العامة من السانس كولوت، واعتبروا تدخل البروليتاريا في أمور الحكم شيئا لا يطاق ويؤدي إلى اضطراب الحكومة. وانتهوا إلى نتيجة مؤداها أنه عندما يهمد صوت الثورة وعنفها، سيصبح البورجوازية هم سادة الدولة.

وكانت البورجوازية في فرنسا بورجوازية تجارية أكثر منها صناعية، ولم تشهد فرنسا تحول بعض مزارعها إلى مراع كما كان يحدث وقتها في إنجلترا، مما أدى إلى نزوح الفلاحين الإنجليز من حقولهم إلى المدن مكونين طاقة عاملة رخيصة في المصانع، كما أن الحصار الذي فرضته بريطانيا على فرنسا منعها من تصدير منتجاتها، ذلك التصدير الذي يؤازر التوسع الصناعي. ومن هنا فإن نظم الصناعة كانت تتطور في فرنسا بشكل أبطأ مما عليه الحال في إنجلترا. لقد كان هناك بعض التنظيمات الرأسمالية الكبيرة في باريس وليون وليل Lille وتولوز Toulouse . . . . . . ، لكن الصناعة الفرنسية في معظمها كانت لا تزال في المرحلة "الحرفية" وكانت لا تزال في محلات (دكاكين)، بل إن الرأسماليين (الفرنسيين) قد أوكلوا كثيرا من الأعمال اليدوية على أسر تعمل في مساكنها الريفية أو غيرها. وباستثناء الفورات الفاشستية زمن الحرب، وتعاطف اليعاقبة شيئا ما مع الاشتراكية، فإن الحكومة الثورية قد

قبلت نظرية الفيزيوقراط(*) في الاقتصاد الحر باعتبار ذلك نظاما اقتصاديا يحفز على العمل ويزيد الإنتاج. وخففت معاهدات السلام مع بروسيا في سنة ١٧٩٥ ومع النمسا في سنة ١٧٩٧، من العوائق الاقتصادية، ودخلت الرأسمالية الفرنسية كالرأسمالية الإنجليزية والأمريكية، القرن التاسع عشر بتبريكات الحكومة التي تمارس عليها حدا أدنى من الحكم.

١ / ٤- **الأرستقراطية** : فقدت الارستقراطية سلطانها كله في توجيه الاقتصاد والحكم. فقد كان معظم الأرستقراطيين ما زالوا خارج فرنسا (مهاجرين منها) يعيشون عيشة مذلة، فقد صودرت أملاكهم في فرنسا وتوقف دخلهم. وكان منهم النبلاء الذين بقي بعضهم في فرنسا، وعاد بعضهم الآخر من مهجره، وقد قصت المقصلة رقاب كثيرين منهم وانضم بعضهم للثورة، وظل الباقون حتى سنة ١٧٩٤ مختبئين بشكل غامض وكانت السلطات تزعجهم بتكرار الإغارة على عقاراتهم. وفي ظل حكومة الإدارة قلت المعوقات فعاد كثيرون من هؤلاء المهاجرين واستعاد بعضهم جزءاً من ممتلكاته، وفي سنة ١٧٩٧ راحت أصوات كثيرة تهمس بأن الملكية وحدها تدعمها (أو تراجعها) أرستقراطية نشيطة هي وحدها التي يمكن أن تعيد النظام والأمان للحياة الفرنسية، واتفق نابليون معهم لكن على وفق طريقته وتمشيا مع مقتضيات زمنه .

١ / ٥- **الديـــن** : عرف الدين في فرنسا كيف يشق طريقه دون عونٍ من الدولة، بعد أن اقتربت الثورة من التخلص منه. وتحرر البروتستانت الذين كانوا يشكلون ٥٪ من السكان من المعوقات التي اعترضت سبيل عقيدتهم، فحقهم في العبادة الذي أقرهم على قليل منه لويس السادس عشر في سنة ١٧٨٧ اصبح الآن حقا كاملا على وفق دستور سنة ١٧٩١، وامتدت الحقوق المدنية إلى يهود فرنسا ليصبحوا ذوي حقوق قانونية مساوية للمواطنين الآخرين، على وفق مرسوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩١ .

أما الإكليروس الكاثوليك الذين كانوا فيما مضى من الطبقة الأولى فقد أصبحوا الآن

(*) الطبيعيين، ورد تعريفهم في حاشية سابقة (المترجم).

يعانون من عنف حكومة فولتيرية(*) مناهضة للإكليروس. وفقدت الطبقات العليا معتقداتها (إيمانها) بالكنيسة، وحصلت الطبقة الوسطى على معظم أراضي الكنيسة وفي سنة ١٧٩٣ بيعت ممتلكات الكنيسة لأعدائها، تلك الممتلكات التي قدرت قيمتها بمليونين ونصف مليون ليفر(٥) Livres وفي إيطاليا جردت البابوية من ولاياتها وعوائدها، وأصبح بيوس السادس Pius VI أسيرا، وفر آلاف الفرنسيين إلى البلاد الأخرى، وعاش كثيرون منهم على إحسان البروتستانت(٦) وأغلقت مئات الكنائس أو صودرت أموالها وتحفها، وصمتت أجراس الكنائس أو راحت تدق على استحياء. لقد كسب فولتير وديدرو Diderot، وهليفيتيوس Helvétius ودلباش d'Holbach معركتهم مع الكنيسة فيما يظهر.

لكن هذا النصر لم يكن واضحا. حقيقة لقد فقدت الكنيسة ثرواتها وسلطانها السياسي لكن جذورها الحية ظلت متمثلة في الولاء للإكليروس وفي حاجات الناس وآمالهم، فكثيرون من الرجال في المدن الكبيرة ممن كانوا قد شردوا بعيدا عن معتقداتهم أصبحوا جميعا تقريبا من رواد الكنائس في عيدي الميلاد والفصح، وفي ذروة أحداث الثورة (مايو ١٧٩٣) كان أهل باريس (على وفق رؤية شاهد عيان) رجالا ونساء وأطفالا يخرون على ركبهم توقيراً واحتراما عندما يمر القس حاملا خبز القربان المقدس في شوارع باريس(٧) بل وحتى المتشككون لا بد أنهم شعروا بالتأثير "المغناطيسي" للشعائر الدينية، وما توحيه من جمال لا يذوي، ولابد أنهم تأملوا ما كتبه بسكال في الرهان Wager " من أنه من الحكمة أن يكون المرء مؤمناً، ففي خاتمة المطاف لن يفقد المؤمن شيئا، بينما يفقد غير المؤمن كل شيء إن ثبت خطؤه (أو بتعبير آخر: المصدق لن يفقد شيئا والمكذب سيفقد كل شيء إن ثبت خطؤه).

وفي ظل حكومة الإدارة انقسمت الأمة الفرنسية إلى قسمين: شعب عاد ببطء إلى العقيدة التقليديه، وحكومة عمدت إلى تأسيس مجتمع علماني خالص اعتمادا على القانون والتعليم، ففي ٨ أكتوبر ١٧٩٨ أرسلت حكومة الإدارة الجديدة (بعد طرد الأعضاء غير المرغوب فيهم منها) لكل المعلمين في مدارس الدوائر (المحافظات) التعليمات التالية :

(*) متأثرة بفولتير المفكر الفرنسي الذي آمن بإله واحد وانكر التفاصيل الكنسية الأخرى راجع مقدمة الترجمة العربية (المترجم).

"يجب أن تحذفوا من مقرراتكم الدراسية كل ما يتعلق بعقائد أي دين وشعائره (أو طقوسه) من أي مذهب كان. إن الدستور يكفل حرية العبادة، لكن تدريسها ليس جزءا من المقررات الدراسية العامة (الحكومية Public) ولا يمكن أن تكون أبدا مجالاً للتدريس. لقد قام الدستور على قاعدة الأخلاق العامة (غير المرتبطة بدين) وهي أخلاق (مبادىء أخلاقية) صالحة لكل زمان وكل مكان وكل الأديان فهذا القانون (الأخلاقي) محفور في ألواح الأسرة البشرية - إنها - أي هذه الأخلاق الصالحة لكل زمان ومكان ودين - هي ما يجب أن تكون روح دروسكم وهدف وصاياكم والرابط بين مجالات الموضوعات التي تدرسونها كما أنها الرباط الذي يربط بين أفراد المجتمع"(٨).

وهنا نجد هذا المبدأ الذي جرى النص عليه بوضوح كان واحدا من أكثر مشروعات الثورة صعوبة، فتلك قضية من أصعب قضايا عصرنا: أن تبني نظاما اجتماعيا اعتمادا على نظام أخلاقي قائم على عقيدة دينية. وقد اعتبر نابليون ذلك اقتراحا غير عملي، وكان على أمريكا أن تلتصق به حتى عصرنا هذا(*).

١ / ٦- التعليم: تولت الدولة الإشراف على التعليم بدلاً من الكنيسة، وعمدت الدولة إلى أن تجعل من هذه المدارس مراكز تربوية لتنمية الذكاء وتعميق الأخلاق، وترسيخ الوطنية. وفي ٢١ أبريل سنة ١٧٩٢ قدم كوندرسيه Condorcet مسئول التعليم العام للجمعية التشريعية تقريرا تاريخيا داعيا إلى إعادة تنظيم التعليم حتى يحدث "التقدّم الدائم المستمر في مجال التنوير مما قد يفتح موارد لا نهاية لها لسد احتياجاتنا ومداواة عللنا ولتحقيق السعادة للفرد والرخاء للجميع"(٩). وقد عوّقت الحرب تحقيق هذا التصور المثالي، لكن في ٤ مايو سنة ١٧٩٣ جدد كوندرسيه عرضه لكن على أساس أضيق مما سبق. لقد قال: "البلاد (فرنسا) لها حق تربية أبنائها وتنشئتهم، ولا يمكن أن نعهد بهذه المهمة إلى طموح الأسرة، ولا إلى أفراد مفسدين... فالتعليم لا بد أن يكون مباحاً للفرنسيين كلهم وعلى قدم المساواة.... إننا نعول عليه كثيرا ليكون متمشيا مع طبيعة حكومتنا ومبادىء جمهوريتنا الراقية"(١٠) وهذه الصياغة كما هو واضح تحل عقيدة محل أخرى - الوطني بدلاً من

(*) America was to Cleave to it till our time.

الكاثوليكي -، وتبشر "بالوطنية" كدين رسمي. وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٩٣ أصدر المؤتمر الوطني مرسوما بمنع تعيين أي إكليريكي مدرساً في مدارس الحكومة، وفي ١٩ ديسمبر صدر بيان بجعل التعليم الابتدائي مجانيا وإلزاميا للأولاد كلهم. أما البنات فكان من المتوقع أن تعلمهن أمهاتهن أو يتلقَّيْنَ التعليم في الأديرة أو على يد معلمين خصوصيين.

وكان من الضروري إرجاء تنظيم المدارس الثانوية إلى ما بعد الحرب، وعلى هذا ففي ٢٢ فبراير سنة ١٧٩٤ بدأ المؤتمر الوطني في تأسيس "المدارس المركزية **Ecoles Centrales** " التي أصبحت هي مدارس المحافظات أو الدوائر Lycées الثانوية. وتم افتتاح مدارس خصوصية **Spéciales للتعدين والأشغال** العامة والفلك والموسيقا والفنون والحرف، وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٤ بدأت مدرسة البوليتقنية **École Polytechnique** التدريس في مجالها المميز. وتم إغلاق الأكاديمية الفرنسية في ٨ أغسطس سنة ١٧٩٣ باعتبارها مركزا للمعارضين القدماء، لكن في ٢٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ دشن المؤتمر الوطني أكاديمية أخرى هي المعهد القومي الفرنسي الذي ضم أكاديميين مختلفين لتشجيع كل العلوم والفنون، وتجمع في هذا المعهد العلماء والباحثون الذين أخذوا على عاتقهم إنجاز التراث الفكري التنويري، وهم الذين أعطوا حملة نابليون على مصر أهمية دائمة (بفضل إنجازاتهم العلمية).

١ / ٧- السلطة الرابعة : الصحفيون والصحافة: قد يكون لها أهمية تفوق المدارس من حيث تأثيرها في تشكيل عقل فرنسا وحالتها النفسية في هذه السنوات المفعمة هياجاً. فأهل باريس وعلى نحو أقل أهل فرنسا عامة كانوا يلتهمون ورق الصحف التهاما بشغف شديد (المقصود يقرأونه برغبة عارمة) كل يوم. لقد ازدهرت صحف الشباب (صحف الهجاء أو الفضائح) التي راحت تجرح السياسيين والعلماء وتقلل من أقدارهم أمام العامة. وقد التزمت الثورة في (إعلان حقوق الإنسان) بالمحافظة على حرية الصحافة، وقد جرى تنفيذ ذلك خلال فترة حكم الجمعية الوطنية فالتأسيسية (١٧٨٩ - ١٧٩١) لكن نتيجة اشتداد حدة النزاع بين الفرقاء عمد كل جانب إلى التقليل من عدد منشورات أعدائه، لكن الواقع أن حرية الصحافة قد ماتت بإعدام الملك (٢١ يناير ١٧٩٣)، وفي ١٨ مارس أصدر المؤتمر الوطني قرارا بإعدام كل "من يقترح قوانين بتقسيم الأراضي وتوزيعها أو أية قوانين تؤدي إلى تدمير

الملكية الخاصة أو التجارية أو الصناعية" وفي ٢٩ مارس حث قتلة الملك والمؤيدون لقتله المؤتمر الوطني على إصدار قرار بإعدام كل من "يدان بطبع أو كتابة ما يحث على . . . إعادة الملكية أو إعادة أي سلطات أخرى في عودتها ضرر بسيادة الشعب"(١١). ودافع روبيسبير طويلا عن حرية الصحافة، لكنه بعد أن أرسل إلى المقصلة كلا من هيبير Hébert ودانتون وديمولين Desmoulins وضع بإعدامهم حدا لظهور الصحف التي كانوا يدعمونها. وخلال فترة حكم الإرهاب اختفت حرية التعبير حتى في المؤتمر الوطني، وأعادت حكومة الإدارة حرية الصحافة في سنة ١٧٩٦ لكنها ألغتها بعد ذلك بعام واحد بعد انقلاب ١٨ فروكتيدور(*) ونفت محرري ٤٢ جريدة(١٢). ولم يدمر نابليون حرية التعبير وحرية الصحافة لأنه عندما وصل إلى السلطة كانت مدمرة بالفعل(١٣).

٢- الأخلاق الجديدة

٢ / ١ الأخلاق والقانون :

أما وقد تم استبعاد الدين أساساً للأخلاق (أي حب الرب المراقب العليم المكافىء المعاقب والخوف منه، وطاعة شريعته والتزام أوامره واجتناب نواهيه)(**)، فإن الأرواح المتحررة في فرنسا وجدت نفسها بلا دفاع (إلا من خلال الأصداء الأخلاقية للعقائد التي هجرتها) ضد غرائزها الأقدم والأقوى والأشد فردية التي غرست وتأصلت بفعل قرون بدائية ساد فيها الجوع والجشع والصراع وانعدم فيها الأمان. لقد راح الفرنسيون يبحثون عن فكرة جديدة لتكون مرساة في بحر هائج، أفراده متمردون، لا يخشون إلا القوة (لا يذعنون إلا إذا كان هناك ما يخيفهم)، أما الأخلاق المسيحية فتركوها لزوجاتهم وبناتهم. لقد انعقدت آمالهم على أن تكون هذه الفكرة الجديدة (التي هي عوض عن القيم الدينية) في حقوق المواطنة وواجباتها (Citizenship) Civisme بمعنى قبول الواجبات التي تفرضها هذه المواطنة، وتحصيل المزايا الناتجة عن الانتماء إلى مجتمع منظم يحظى بالحماية، وفي مقابل هذه

(*) شهر الفواكة في التقويم الجمهوري (المترجم).

(**) راجع مقدمة الترجمة العربية فمعظم الثوار لم ينكروا وجود الله.

الحماية وكثير من الخدمات العامة (التي تقدم للجميع) لا بد أن يراعى الفرد في كل اختيار معنوي (أخلاقي) يقدم عليه مصالح المجتمع باعتبارها القانون الأعلى Salus Populi Suprema Lex . لقد كان ترسيخ " أخلاق طبيعية" محاولة نبيلة وقد اكتشف النواب الفلاسفة(*) ميرابو Mirabeau وكوندرسيه Condorcet وفيرجنيو Vergniaud ورولان Roland وسان جوست St-Just وروبيسبير من خلال مراجعاتهم للقرون المسيحية الماضية أن التاريخ الكلاسي أو المرويات التاريخية للنماذج التي يبحثون عنها : فليونيداس Leonidas وإيبا مينونداس Epaminondas وأرستيدس Aristides والبروتسيون Brutuses وكاتوس Catos وسكيبيوس Scipios كل أولئك كانت "الوطنية" بالنسبة لهم إلزاما حاكما حتى إن الرجل قد يقتل استقامة منه وتمسكا بالخلق أبناءه أو والديه إذا اعتقد أن هذا ضروري لصالح الدولة .

لقد أصابت المجموعة الأولى من الثوار نجاحا معقولا مع هذه الأخلاقيات الجديدة. والمرحلة الثانية بدأت من ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ : جمهور باريس الذي خلع لويس السادس عشر وزعم أن السلطة التي قد قامت بذلك مغفور لها (لها عذرها) . وفي ظل الحكم القديم كانت بعض فضائل الأرستقراطية وبعض لمسات الإنسانيين التي بشر بها الفلاسفة والقديسون قد لطفت من ميل الناس الطبيعي للنهب والسلب وهجوم بعضهم على بعضهم الآخر، لكن – الآن – وجدنا أنه قد تبع هذا في موكب الموت، مذابح سبتمبر وإعدم الملك والملكة وانتشار حكم الإرهاب والمقصلة مما وصفته مدام رولان (التي كانت إحدى ضحايا الإرهاب) : "ساحة إعدام موسعة مليئة بالأشلاء مثل الجلجثه"(**)(١٤) وأصبح زعماء الثورة متربحين مستغلين ظروف الحرب وفرضوا على المناطق "المحررة" أن يدفعوا ثمنا لحقوق الإنسان، وقيل للجيوش الفرنسية أن تعيش في المناطق المفتوحة، وأصبحت كنوز الفن في المناطق المحررة أو المهزومة ملكا لفرنسا، وفي هذه الأثناء تآمر أعضاء المجلسين وضباط الجيش مع الموردين لخداع الحكومة والجنود . وفي ظل الاقتصاد الحر Laissez

---

(*) أو المثقفين، فهذا هو المقصود. راجع مقدمة المترجم .

(**) الجلجثة كلمة إنجيلية تشير إلى مكان صلب المسيح عليه السلام. (وفقا للمعتقد المسيحي).

Faire economy عمد المنتجون والموزعون والمستهلكون إلى الخداع وراح ٬ **كل طرف يخدع الطرف الآخر** أو يعمد إلى التهرب من سقف الأسعار المسموح به (الحد الأقصى لسعر البضاعة المطروحة) أو الأجور، أو ممارسة الأعمال الأخرى المشابهة والتي تتسم بعدم الانضباط، وكل هذا بطبيعة الحال كان موجودا لآلاف السنين قبل الثورة، لكن في محاولة لضبط كل هذا بدت القيم الأخلاقية الجديدة- أخلاق المواطنة . أنها ليست بقوة تأثير الخوف من الآلهة . أو بتعبير آخر بدت فكرة التركيز على واجبات المواطن وحقوقه أنها ليست بنفس قوة "الخوف من الآلهة" .

لقد زادت الثورة من عدم الأمان في الحياة، ومن عدم الاستقرار في القوانين، فكان أن عبر الناس عن توترهم الشديد بارتكاب الجرائم، كما راحوا يبحثون عن وسيلة يلهون بها أنفسهم فوجدوا طريق القمار، واستمرت المبارزات لكنها قلت عما كانت عليه قبل الثورة. وقد منع القمار بمراسيم صدرت سنة ١٧٩١ و١٧٩٢ ومع هذا فقد تضاعفت بيوت القمار السرية Maisons de Jeu ففي سنة ١٧٩٤ كان هناك ثلاثة آلاف محل قمار في باريس[١٥] . وخلال فترة بحبوحة الطبقة العليا في سنوات حكومة الإدارة راح الرجال يراهنون بمبالغ ضخمة فخربت بيوت أسر كثيرة مع دوران العجلة (عجلة القمار) لكن في سنة ١٧٩٦ دخلت حكومة الإدارة مجال القمار بإعادة "اللوترية الوطنية" أو "اليانصيب الوطني أي على مستوى الدولة" . وفي التماس طالب حي (قسم) التوليري التابع لكومون باريس المؤتمر الوطني بإصدار قانون بمنع كل بيوت القمار والمواخير كلها (بيوت الدعارة) وساقت لذلك برهانا هو أنه "بلا أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون أو نظام، وبدون أمان شخصي لن تكون حرية"[١٦] .

لقد أقامت الحكومات الثورية نظاما قانونيا جديدا لشعب مستثار ومضطرب ، وتركت له الحبل على غاربه ، فانفلت من القيم الأخلاقية والضوابط القانونية كلها بعد انهيار المعتقد الديني وموت الملك. وكان فولتير في وقت سابق قد دعا إلى إعادة النظر في القوانين الفرنسية بشكل عام وجمع قوانين الولايات الفرنسية كلها، وعددها ــ أي القوانين ٣٦٠ مجموعة وضمها معا في خلاصة واحدة محكمة لتطبيقها على فرنسا كلها. ولم يستجب أحد لهذه الدعوة فقد كانت الثورة على أشدها، وكان لا بد لهذه الدعوة أن تنتظر نابليون

لتحقيقها. وفي سنة ١٧٨٠ قدمت أكاديمية شالون سير مارن Chalons sur Marne جائزة لأحسن مقال عن "أحسن طريقة لتخفيف حدة قانون العقوبات الفرنسي دون الإضرار بالأمن العام"(١٧).

واستجاب لويس السادس عشر بمنع التعذيب (١٧٨٠) وأعلن عن عزمه بمراجعة القوانين الجنائية الفرنسية كلها وصياغتها في مدونة قانونية مقومة، وأكثر من هذا "سوف نبحث الوسائل كلها للتخفيف من حدة العقاب دون الإخلال بالنظام" وعارض القانونيّون المحافظون الذين كانوا وقتها يسيطرون على "برلمانات Parlements " باريس ومتيز Metz وبيسانسون Besançon الخطة، واضطر الملك للتخلي عنها اضطرارا.

وعرضت المذكرات والعرائض التي تم تقديمها لمجلس طبقات الأمة في سنة ١٧٨٩ عدة إصلاحات قانونية: المحاكمة لا بد أن تكون علنية. ضرورة أن يكون للمتهم محام أو مجموعة تقدم له المشورة القانونية. إلغاء المراسيم الملكية بالسجن دون محاكمة Lettres de Cachet. لابدّ من ترسيخ قواعد المحاكمة أمام محلفين. وفي يونيو أعلن الملك إبطال المراسيم الملكية بالسجن بلا محاكمة، وسرعان ما تبنت الجمعية التأسيسية هذه المطالب الإصلاحية وصاغتها قوانين، وأعيد نظام المحاكمة أمام محلفين الذي عرفته فرنسا في العصور الوسطى مرة أخرى. لقد أصبح المشرعون الآن محصنين ضد التأثيرات الإكليريكية (المسيحية) بما فيه الكفاية، وواعين لاحتياجات الأعمال (التجارية) ليعلنوا في ٣ أكتوبر سنة ١٧٨٩ (بعد قرون من وجود هذا الأمر على أرض الواقع) أن تحصيل فائدة ليس جريمة؟ Charging of interest was not a crime وصدر قانونان في سنة ١٧٩٤ لتحرير العبيد في فرنسا ومستعمراتها، وإعطاء الزنوج حقوق المواطنين الفرنسيين. وعلى أساس أن "الدولة الحرَّة بمعنى الكلمة لا يمكن ان تسمح بأي نتوءات مفتعلة في صدرها" ومنعت قوانين مختلفة كل «الأخويات» (المقصود الجميعات أو التكتلات المكونة من جماعة ذات اتجاهات معينة تربط أعضاءها) والجمعيات العلمية والأدبية والتنظيمات الدينية وروابط الأشغال business (الجمعيات الحرفية أو المهنية). وكان أمراً مستغرباً تماما أن نوادي اليعاقبة تم استثناؤها من هذا الحظر بينما حُظرت اتحادات العمال. والواقع أن الثورة سرعان ما أحلت

"الدولة كلية السلطة أو الدولة الشمولية Omnipotent State" محل الملكية.

والحقيقة أن تباين التشريعات القديمة، وإقرار قوانين جديدة وازدياد تعقد علاقات الأعمال كل هذا أدى إلى زيادة أعداد القانونيين زيادة كبيرة، فهم ـ الآن قد حلوا محل الإكليروس كطبقة أولى. ومنذ حل "البرلمانات Parlements " لم يكونوا تابعين لتنظيم رسمي، لكن معرفتهم بكل ثغرات القانون، وبالإجراءات القانونية بكل حيلها، ووسائل التسويف فيها، قد أعطتهم قوة وجدت الدولة نفسها صعوبة في السيطرة عليها (مع أن الحكومة نفسها كانت تضم مجموعة من القانونيين) وبدأ المواطنون يحتجون على التسويف في ظل القانون (التسويف القانوني) وعلى حيل المحامين، وتكاليف التقاضي المرتفعة مما جعل – ويا للسخط – المواطنين حقيقة غير متساوين أمام المحاكم[١٨]. وحاولت الجمعيات المتتالية خلال اختزال إجراءات التقاضي، والتقليل من حدة سلطان المحامين، وفي إجراء عنيف صدرت مراسيم بإبطال وظيفة الموثق العام (كاتب العدل) في ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٣. وتم إلغاء مدارس القانون (١٥ سبتمبر ١٧٩٣) وصدر مرسوم في ٢٤ أكتوبر ١٧٩٣ بإلغاء وظيفة الوكيل القانوني attorney at Law وإنما يقوم المتقاضون (المتخاصمون) بتفويض مندوبين عنهم ليمثلوهم أمام المحاكم بلا مقابل Mandatories "[١٩] وهذه الإجراءات غالباً ما كان يتم الالتفاف حولها وظلت مجرد قوانين في الكتب حتى أعاد نابليون نظام المحامين أو الوكلاء القانونيين attorneys في ١٨ مارس سنة ١٨٠٠.

وقد أحرزت الثورة تقدما في إصلاح القوانين الجنائية فأصبحت الإجراءات أقرب إلى فهم العامة، فقد انتهت لفترة سرية الاستجوابات، والأخذ بشهادة أشخاص لا تذكر أسماؤهم، ولم يعد السجن وسيلة للتعذيب، فقد سمح لكثيرين من المساجين بإحضار الكتب والأثاث، وأن يدفعوا لشراء وجبات لهم من خارج السجن، وسمح للمساجين الذين سجنوا للاشتباه فيهم ولم يدانوا بعد بالتزاور معا وممارسة الألعاب الرياضية[٢٠] أو على الأقل ممارسة العشق، وقد سمعنا عن بعض الأمور الدافئة كالتي حدثت بين السجينة جوزفين بوهارنيه والسجين الجنرال هوش Hoche والمؤتمر الوطني الذي نفذ في عهده مئات من أحكام الإعدام، أعلن في دورته الأخيرة (٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥) أن "أحكام الإعدام ستمنع في

أنحاء الجمهورية كلها بمجرد إعلان السلام" .

وفي هذه الأثناء استطاعت الثورة أن تزعم أنها قد حسنت طريقة الإعدام Capital punishment وفي سنة ١٧٨٩ اقترح الدكتور جوزيف إيجناس جليوتين Dr. Joseph Ignace Guillotin عضو مجلس طبقات الأمة إحلال الشّنّاق وحامل البلطة (منفذ حكم الإعدام باستخدام البلطه) بحيث تكون بلطته حادة النصل بحيث تفصل رأس المحكوم عليه بالإعدام عن جسده بسرعة فلا يتألم كثيراً قبل الموت . ولم تكن هذه الفكرة جديدة، فقد سبق استخدامها في إيطاليا وألمانيا منذ القرن الثالث عشر [٢١] . وبعد بعض التجارب التي أجراها الطبيب بسكينته (مشرطه) على جثث الموتى، تم نصب المقصلة (٢٥ ابريل ١٧٩٢) في ميدان الرملة Place de Grève (الآن ميدان دار البلدية) ثم توالى نصبها في كل مكان، وتوالى تنفيذ أحكام الإعدام بها . وظلت مشاهدة المقصلة وهي تهوي على رقاب الضحايا تجذب اهتمام الجماهير، وكان بعضهم يبدو سعيدا بمن فيهم النساء والأطفال[٢٢]، ولما تكرر المشهد كثيرا أصبح أمرا عاديا مألوفا لا يجذب الجماهير، فقد ذكر الناس المعاصرون لهذه الأحداث أن "عربات نقل السجناء المحكوم عليهم بالإعدام بالمقصلة، كانت تمر وهم يعملون في محلاتهم، فلا تؤثر فيهم ولا يكلفون أنفسهم حتى رفع رؤوسهم لمشاهدتها[٢٣]" فالرؤوس المطأطِئة تبقى أكثر من الرؤوس المرفوعة .

٢ / ٢ الأخلاق الجنسية :

بين عربات نقل المسجونين إلى المقصلة، وبين الخراب لم يتوقف العشق ولا توقفت الممارسات الجنسية . وكانت الثورة قد أهملت المستشفيات، لكن هناك وفي ميادين المعارك، وأحياء الفقراء كان الإحسان يخفف الألم والحزن، والصلاح يواجه الشر، والمشاعر الأبوية تفوق نزوع الأبناء إلى الاستقلال . وراح أبناء كثيرون يعجبون من عدم استطاعة آبائهم فهم طابعهم الثوري وطرائقهم الجديدة، وتخلى بعضهم بشدة عن الكوابح الأخلاقية القديمة وأصبحوا أبيقوريين غير مبالين(أي ميالين إلى المتع والملذات) فانتعش الاتصال الجنسي غير الشرعي وانتشرت الأمراض التناسلية، وتضاعف عدد اللقطاء، واستمر الانحراف .

والكونت دوناتين ألفونس فرانسوا دى ساد(*) (١٧٤٠ – ١٨١٤) سليل أسرة عريقة بروفنسية، وارتقى فأصبح حاكما عاما لمحافظتي (دائرتي) بريس Bresse وبوجي Bugey وبدا قاصداً للعيش كمدير من مديري المحافظات (الأقاليم غير العاصمة) لكنه كان مولعا مهتاجا بالخيالات والرغبات الجنسية وراح يبحث عن فلسفة ليبرر بها هذا الولع. وبعد علاقة جنسية غير شرعية مع أربع فتيات حكم عليه بالموت في إيكس إن بروفنس Aix en Provence (١٧٧٢) لجرائم " دس السم وممارسة اللواط "[٢٤]. لكنه هرب، وأعيد القبض عليه، فهرب مرة أخرى، وارتكب مزيدا من الأمور الشنيعة القبيحة، وفر إلى إيطاليا ثم عاد إلى فرنسا، وقبض عليه في باريس وسجن في فينسن Vincennes (١٧٧٨–١٧٨٤) وفي الباستيل وفي شارنتون Charenton (١٧٨٩)، وأطلق سراحه سنة ١٧٩٠ وأيد الثورة، وفي سنة ١٧٩٢ أصبح سكرتيرا لحي (قسم) دي بك des Piques.

وخلال فترة حكم الإرهاب قبض عليه بناء على افتراض زائف وهو أنه أحد المهاجرين (المعادين للثورة) العائدين، وتم إطلاق سراحه بعد عام، لكن في سنة ١٨٠١ في ظل حكم نابليون تعرض للسجن بسبب نشره لقصة بعنوان جوستين Justin (١٧٩١) وجوليت Juliette (١٧٩٢)، فقد تعرضت هاتان الروايتان لتجربة جنسية سوية وشاذة، وكان المؤلف يفضل الشاذة واستغل مهارته الأدبية في الدفاع عن هذا الشذوذ (العلاقات الجنسية غير الطبيعية أو السوية)، ودلل على أن كل الرغبات الجنسية طبيعية لا شذوذ فيها ولا بد من ممارستها والضمير مرتاح حتى لو تم تحصيل اللذة الجنسية بإحداث الألم، وبهذا المعنى الأخير حقق شهرته فأصبح خالدا بكل معنى الكلمة، وقد قضى سنوات حياته الأخيرة في سجون مختلفة وكتب مسرحيات جيدة ومات في مصحة للأمراض العقلية في شارينتون Charenton وفي أثناء الثورة رحنا نسمع عن الشذوذ الجنسي بين طلبة المدارس[٢٥]، وربما كان لنا أن نسلم بانتشاره في السجون، فالمومسات والعاهرات كان عددهن كبيراً خاصة بالقرب من القصر الملكي وحدائق التوليري وفي شارع سان هيلير St. Hilaire وشارع الساحات الصغيرة (بيتيت شامب Petits Champs) ، ويمكن أن يوجدوا أيضا في المسارح ودار

(*) تكتب بعض المؤلفات العربية دى صاد.

الأوبرا بل وحتى في طرقات المجلس التشريعي و المؤتمر الوطني. وكانت النشرات توزع حاوية عناوين بيوت الدعارة والرسوم المطلوبة وكذلك أسماء النسوة وعناوينهن. وفي ٢٤ أبريل أصدر حي (قسم) المعبد Temple أمرا: "الجمعية العامة... رغبة منها في إيقاف ما لايحصى من كوارث (سوء حظ) سببها تدهور الأخلاق العامة، وانزلاق النسوة للفسق وقلة احتشامهن،... بموجب هذا قامت بتعيين مأمورين أو مندوبين... الخ"[٢٦].

وراحت أحياء (أقسام) أخرى تشن الحرب (على الفساد) فجرى تشكيل فرق من الخفر أو العسس، وتم القبض على بعض المستهترين. وأيد روبيسبير هذه الجهود، لكن بعد موته تراخت قبضة هؤلاء المراقبين، فظهرت فتيات المتعة Filles مرة أخرى وازدهر حالهن في ظل حكومة الإدارة حتى أن النسوة ذوات الخبرات الجنسية الواسعة أصبحن زعيمات (سيدات مجتمع) ورائدات "الموضة" (أي تقلدهن النسوة في لباسهن).

وكان من الممكن مواجهة هذا الشر بتيسير الزواج المبكر، فلم يعد وجود قس مسألة ضرورية لإتمام الزواج بعد ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢، فالزواج المدني كان كافيا من الناحية القانونية، وهذا لا يتطلب سوى موافقة الطرفين وأن يوقع الطرفان أمام السلطات المدنية. وبين أفراد الطبقة الدنيا، كانت هناك حالات كثيرة لنساء ورجال يعيش كل رجل وأليفته معا دون عقد زواج وبلا إزعاج. وكثر عدد أبناء الزنا، ففي سنة ١٧٩٦ دلت الإحصاءات الرسمية على وجود ٤٤،٠٠٠ لقيط[٢٧]. وبين عامي ١٧٨٩ و ١٨٣٩ كان ٢٤٪ من إجمالي عدد النسوة (العروسات) في مدينة نمطية هي مولان Meulan حبالى (حوامل) عندما أتوا إلى مذبح الكنيسة[٢٨]. وكما كان الحال في عهد الحكم السابق على الثورة كان الزنا بين المتزوجين مغفور، وكان الرجال متوسطو الحال يفضلون اتخاذ مدبرة لشئون المنزل (لا زوجة شرعية) وفي ظل حكومة الإدارة كانت مدبرات المنازل هؤلاء يظهرن في المجتمع كزوجات. وأبيح الطلاق بمرسوم صدر في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢، ومنذ صدور هذا المرسوم أصبح يمكن الحصول على الطلاق بموافقة الطرفين أمام مسئول المجلس البلدي.

وتضاءلت السلطة الأبوية مع التطور الهادئ في حقوق المرأة القانونية، وتفاقم الأمر بزيادة ثقة الشباب (الأبناء) في أنفسهم، والنظر إلى أنفسهم باعتبارهم قد تحرروا من

سلطة الوالدين. وقد عرضت لنا آن بلمبتر Anne Plumptre التي تجولت في فرنسا سنة ١٨٠٢ ماذكره بستاني :

"خلال فترة الثورة لم نكن نجسر على توبيخ أبنائنا إذا ارتكبوا خطأ، فقد كان أولئك الذين يسمون أنفسهم بالوطنيين يعتبرون قيامنا بتصحيح سلوك أبنائنا، مما يتناقض مع مبادىء الحرية، وقد اعتبر الأبناء مسألة تقويمهم مما يتناقض مع القانون، فغالبا ما كان الواحد من هؤلاء الأبناء يقول لأبيه إذا ما وبخه" التفت لعملك. فأنا وأنت والناس كلهم أحرار ومتساوون. إن الثورة هي أبي، ولا أب لي سواها» ثم يستطرد البستاني قا ئلا: "سيستغرق الأمر سنوات طويلة حتى نعيد هؤلاء الأبناء إلى صوابهم"[٢٩].

وانتشر الأدب الإباحي (وفقا لما ذكرته الصحف المعاصرة) وكان هو الأثير المفضل لدى الشباب[٣٠]. وراح بعض الآباء الذين كانوا راديكاليين في وقت سابق يرسلون أبناءهم في سنة ١٧٩٥ (كما حدث سنة ١٨٧١ بعد ذلك) إلى مدارس يديرها قسس، بغية إنقاذهم من التفسخ الخلقي والتسيب الذي ساد المجتمع[٣١]. وظلت هناك لفترة فكرة مؤداها أن نظام الأسرة لا بد أن يكون كارثة على الثورة الفرنسية، لكن استعادة النظام في ظل حكم نابليون أرجأ التفسخ الأسري حتى أتت الثورة الصناعية .

والنساء اللائي كن قد حققن مكانة رفيعة في ظل حكم ما قبل الثورة إنما كان ذلك بفضل تأثير سلوكهن الراقي المهذب وترقية تفكيرهن وتثقيف أنفسهن، لكن هذا في غالبه كان قصرا على الطبقة الأرستقراطية والشرائح العليا من الطبقة المتوسطة. وعلى أية حال فقبيل عام ١٧٨٩ انخرطت نسوة طبقة العوام بشكل واضح في الأمور السياسية. لقد كدن يكن هن صانعات الثورة بمسيرتهن إلى فرساي، وإحضارهن الملك والملكة إلى باريس ليكونا أسيرين تحت إشراف الكومون، فاكتشفن - أي نساء العوام - مدى قوتهن، فازدادت ثورتهن شراسة[*]. وفي يوليو سنة ١٧٩٠ نشر كوندرسيه Condorcet مقالا بعنوان "إعطاء الدولة الحقوق للنساء"، وفي شهر ديسمبر قامت مدام إيلدر Aelders بمحاولة لتأسيس ناد

(*) ربما بالغت الروايات في الدور الذي لعبته الموسى النشيطة (المليئة حيوية) في هذه الأحداث، تلك الموسى المسماة تيريز دي ميريكورت Thérèse de Méricourt (١٧٩٢-١٨١٧). (المؤلف)

مخصص لحركة تحرير المرأة(٣٢). وكان صوت النساء مسموعا في ممرات الجمعيات المختلفة (الوطنية، فالتأسيسية، فالمؤتمر الوطني...) لكن محاولات تنظيم أنفسهن للحصول على حقوقهن السياسية ضاعت بسبب الانشغال بالحرب وعنف الإرهاب، ورد فعل المحافظين بعد شهر ثيرميدور Thermidor. ومع هذا فقد حققت النساء بعض المكاسب: أصبح للزوجة مثل الزوج حق طلب الطلاق، وأصبح رضى الأم تماما كموافقة الأب - مطلوبا لزواج الأبناء الذين لم يبلغوا الرشد(٣٣). وفي ظل حكومة الإدارة، أصبح النساء رغم أنه لا حق لهن في التصويت، نفوذ سياسي واضح، يرقين الوزراء والجنرالات ويمارسن بفخر حريتهن الجديدة في السلوك والأخلاق والثياب، وقد وصفهن نابليون البالغ من العمر ستة وعشرين عاما في ١٧٩٥:

"النساء في كل مكان؛ في المسرحيات، وفي الطرقات العامة، وفي المكتبات. وأنت ترى نساء لطيفات جدا في غرفة دراسة الدارس. هنا فقط (في باريس) من بين بلاد المعمورة كلها تستحق النساء هذا النفوذ كله (التأثير)، وحقيقة فإن الرجال مجنونون بهن، لا يفكرون إلا فيهن، ولا يعيشون إلا عن طريقهن ومن أجلهن. وعلى المرأة كي تعرف ما لها من سلطان أن تعيش في باريس ستة أشهر"(٣٤).

٣- أساليب الحياة:

عادات الشعوب وأساليب حياتها تكاد تكون مثل أي شيء آخر تتأثر بحركة البندول جيئة وذهابا، تمرد وعودة عن التمرد. لقد أخذت الأرستقراطية معها وهي تفر قبل العاصفة التي ساوت الجميع - ألقابها الفخمة، وملابس البلاط، ولغتها المعطرة، وتوقيعاتها الزهرية، وتحررها الواثق، ونعمتها وترويها. وسرعان ما أصبح لطف الصالونات واللياقة في الرقص، وأسلوب المتعلمين من نقائص النبلاء التي قد تؤدي إلى احتجازهم باعتبارهم عناصر مشكوك فيها متمسكة بالتقاليد البالية، وكأنهم مخلوقات عاشت في عصر ما قبل الطوفان ونجت منه(٣٥). وفي نهاية سنة ١٧٩٢ أصبح الفرنسيون كلهم في فرنسا "مواطنين" وأصبحت الفرنسيات كلهن "مواطنات". الكل على قدم المساواة فلا أحد **"سيد Monsieur"**

ولا "سيدة Madame" ، وأصبح الخطاب بأنتَ وأنتِ بدلا من "أنتم" أو "سيادتكم" سواء في المنزل أم في الشارع. وعلى أية حال فمع بواكير عام ١٧٩٥ انتهى هذا الأسلوب في التخاطب (التخاطب بصيغة الفرد) وعاد التخاطب بأسلوب التوقير أو الجمع Vous وحل "السيد" و "السيدة" محل المواطن" و "المواطنة"(٣٦). وفي ظل حكومة نابليون عادت الألقاب ثانية بل وزاد استخدام الألقاب بحلول سنة ١٨١٠ عن ذي قبل.

وتغيرت طرز الثياب ببطء أكثر من تغير الظاهرة السابقة، فالرجال الأثرياء رفضوا أن يتخلوا عما اعتادوا عليه منذ مدة طويلة من ملابس النبلاء؛ القبعة المرتفعة ذات الزوايا الثلاث في أعلاها، والقميص الحريري، والرباط المنساب، والصدرية الملونة المشغولة (المطرزة)، والمعطف الكامل الذي يصل إلى الركبة، والسروال القصير الذي ينتهي أدنى الركبة بدرجات متفاوتة، والجورب الحريري والحذاء ذو الأبزيم مربع المقدمة. وفي سنة ١٧٩٣ حاولت لجنة الأمن العام "تلطيف الزي الوطني الحالي لتجعله متمشيا مع العادات الجمهورية وروح الثورة"(٣٧) لكن لم يلتزم سوى الطبقات الوسطى بسروال «بنطلون» العمال والحرفيين الطويل. واستمر روبيسبير نفسه يلبس كاللوردات، ولم يكن هناك ما يفوق بهاء الثياب الرسمية التي كان يرتديها أعضاء حكومة الإدارة التي كان بارا Barras يمشي بها متبخترا. ولم يكسب السروال (الطويل) معركته ضد السروال «البنطلون» الذي يصل إلى الركبة (الكلوت أو السروال القصير) الا منذ سنة ١٨٣٠ وكان العوام فقط (السانس كولوت) هم الذين يرتدون قلنسوات الثورة ذات اللون الأحمر والكارمانول Carmagnole.

وتأثرت ملابس النساء بالثورة التي كان رجالها يرون أنهم يسيرون في نهجهم كروما الجمهورية، وكبلاد الإغريق البيريكيسية. وقد اتخذ جاك لويس ديفيد Jacques Louis David الذي ساد الفن الفرنسي من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ من الأبطال الكلاسيين موضوعات لأعماله الفنية الأولى وجعل لباسهم على النمط الكلاسي. وعلى هذا فإن النسوة الباريسيات الأنيقات (الحريصات على ارتداء الأزياء الحديثة او المتمشية مع «الموضة»)، قد تخلّين بعد سقط البيوريتاني (المتطهر)(*) روبيسبير، عن «التنورة» Petticoat والبلوزة

(*) إشارة إلى شدة تمسكه بالفضيلة.

(القميص)، وأصبح لباس الواحدة منهن في الأساس عباءة فضفاضة بسيطة شفافة (تشف وتصف) بلغ من شفافيتها أنها توحي بالخطوط الداخلية الناعمة(توحي بالأجزاء المنبعجة والمنقعرة في الجسم Contours) حتى أنها لتثير الرجل الذي لم يستثر في حياته. فخط الخصر في هذا الزي مرتفع ارتفاعا غير معتاد ليدعم الثديين، وخط الرقبة في هذا الزي منخفض بما فيه الكفاية ليقدم للرائي مساحة واسعة مكشوفة، والكمان قصيران قصرا يكفي لإظهار الذراعين الجذابين. واستبدل (الكاب) بعصابة الجبين، واستبدل الحذاء ذو الكعب العالي، بصندل بلا كعب (شبشب أو خف) وكتب الأطباء عن الوفيات بين النساء اللائي يرتدين هذه الملابس البهيجة ويذهبن بها إلى ا لمسارح والمتنزهات، بسبب الهبوط الحاد في درجة الحرارة في باريس مساء[٣٨]. وفي هذه الأثناء، عمل الرجال، والنساء الغندورات المثيرات للإعجاب على جذب انتباه الطرف الآخر بالملابس اللافتة للنظر بشكل مبالغ فيه. وفي سنة ١٧٩٢ ظهرت مجموعة من النساء بزي الرجال أمام اجتماع كومونات باريس، فوجه إليهن شوميت Chaumette تأنيباً مهذبا: "أنتن أيتها النسوة الطائشات اللائي تردن أن تكن رجالا. ألستن قانعات بنصيبكن كما هو؟ ماذا تردن أكثر من هذا؟ إنكن تسيطرن على مشاعرنا، المشرع والرئيس تحت أقدامكن. فسحركن هو وحده الذي لا نستطيع مقاومته، لأنه سحر الحب، وبالتالي فهو عمل الطبيعة، فباسم الطبيعة، كن كما أرادت الطبيعة لتحققن الهدف الذي قصدته الطبيعة بوجودكن"[٣٩].

وعلى أية حال فقد كانت النسوة متأكدات أنهن قادرات على إدخال تحسينات على الطبيعة. ففي إعلان في المونيتير Moniteur في ١٥ أغسطس سنة ١٧٩٢ أعلنت مدام بروكين Broquin أنها " لم تستنفد مسحوقها الشهير، ذلك المسحوق الذي يصبغ الشعر الأحمر أو الأبيض ليجعله كستنائياً (بنيا مشوبا بحمرة) أو أسود، وهي تعرضه لمن يطلبه" وعند الضرورة كان الشعر الذي لا يرضى عنه صاحبه يغطى بالباروكات (الشعر المستعار) والذي كان في حالات كثيرة مقطوعا من ضفائر النسوة الشابات اللاتي قصت المقصلة رقابهن[٤٠]. وفي سنة ١٧٩٦ اعتاد الرجال من الطبقتين الوسطى والعليا أن يضفر الواحد منهم شعره الطويل في ضفيرة[٤١].

وخلال العامين الأولين من الثورة راح الثمانمائة ألف (سكان باريس) يمارسون أعمالهم المفيدة، ولا يلتفتون إلا بين الحين والحين لما يجري في الجمعية الوطنية والسجون. لقد كانت الحياة مبهجة بما فيه الكفاية في ذلك الوقت بالنسبة للطبقات العليا؛ فقد استمرت الأسر في تبادل الزيارات والدعوة إلى الولائم، واستمر حضور الحفلات الراقصة، وغير الراقصة، والمسرحيات والذهاب لسماع الكونشرتات حتى خلال فترات العنف بين مذابح سبتمبر سنة ١٧٩٢ وسقوط روبيسبير في يوليو سنة ١٧٩٤ عندما جرى في هذه الفترة إعدام ٢٨٠٠، كانت الحياة التي يحياها - تقريبا - كل من بقوا على قيد ا لحياة تسير سيرها المعتاد في العمل واللهو، والممارسات الجنسية والحب الأبوي. لقد كتب سيباستيان ميرسييه Sébastian Mercier في سنة ١٧٩٤ :

"الأجانب الذين يقرأون صحفنا يتصورون أننا جميعا قد غرقنا في الدم وغطتنا الأسمال البالية، ونعيش حياة ملؤها البؤس. لكنهم سيدهشون عندما يعرفون أن الطريق الرائع الذي تحفه الأشجار في الشامب إليزيه (ميادين الإليزيه) حيث توجد في الجانب المقابل منه المركبات الخفيفة الأنيقة التي تجرها الجياد (الحناطير) والنسوة الجذابات الجميلات.. هذه الحدائق الباهرة، أصبحت الآن أكثر بهاء وأجمل من ذي قبل"[٤٢].

وكانت هناك مباريات رياضية في الكرة والتنس والركوب، وسباق الخيل، وألعاب القوى... وكان هناك متنزهات شائقة مثل حدائق التيفولي Tivoli حيث يمكنك التمتع، وشراء الكماليات من (البوتيكات) ومشاهدة الألعاب النارية والبهلوانات وهم يمشون على الحبال، أو إطلاق البالونات، وسماع (الكونشرتات) أو أن تضع صغيرك في الحلقة الدوارة (الأرجوحة الدوارة Jeu de bagues)، وستجد معك في هذه المتع اثني عشر ألفا آخرين في أيام المرح. ويمكن أن تجلس في مقهى أقيم في الهواء الطلق أو تحت سرادق مقهى دي فوي Café de foy أو في أحد مقاهي الطبقة الراقية مثل مقهى تورتوني Tortoni أو مقهى فراسكاتي Frascati أو تتبع السائحين إلى النوادي الليلية مثل السافو Caveau (القبو) والسوفاج (الوحشي) Sauvage ومقهى العميان Les Aveugles حيث يلتقى الموسيقيون العميان. ويمكن أن تذهب إلى ناد لتقرأ أو تتحدث أو تستمع إلى المناقشات السياسية.

ويمكنك أن تحضر إحدى المهرجانات المرحة المتنوعة التي نظمتها الدولة والتي نسقها فنانون مشاهير مثل ديفيد David، وإذا أردت أن تجرب رقصة جديدة كرقصة الوالتس waltz التي وصلت من ألمانيا لتوها يمكنك أن تجد شريكة ترا قصك في إحدى قاعات الرقص التي بلغ عددها في باريس في عهد حكومة الإدارة ثلاثمائة قاعة[٤٣].

والآن (١٧٩٥) في السنوات التي خمدت فيها حدة الثورة، سمح لبعض المهاجرين (الذين كانوا قد فروا من فرنسا بسبب أحداث الثورة) بالعودة إلى فرنسا، وبرز النبلاء المختبئون من مخابئهم التي كانوا يتوارون فيها، وأظهر البورجوازيون ثرواتهم فشيدوا البيوت الغالية وأثثوها بالأثاث الفاخر وحلوا نساءهم بالجواهر الثمينة وأقاموا الحفلات المسرفة. وظهر أهل باريس من شققهم ومنازلهم للتمتع بقسط من الشمس نهارا أو ليستمتعوا بالنسيم ليلا في حدائق التوليري أو لكسمبورج أو على طول شوارع الإليزيه التي تحفها الأشجار، وخرجت النسوة متفتحات كالزهور في أثوابهن الجذابة الطائشة (العربيدة) ورحن يحركن مراوحهن بطريقة معبرة تعجز عنها الكلمات. وأحذيتهن الأنيقة التي تظهر ما خفى من القدمين بشكل فاتن. لقد بعثت الحيا ة في المجتمع من جديد.

لكن مئات الأسر (أو نحو ذلك) التي تكوّن الآن المجتمع لم تكن من الأسر عريقة النسب والفلاسفة(*) الذين حققوا شهرة عالمية والذين كانوا متألقين في الصالونات في ليالي ما قبل الثورة، وإنما كانت هذه الأسر في الغالب من محدثي النعمة (الأثرياء الجدد) الذين كدسوا الليفرات Livres من (شراء) العقارات الكنسية، أو من التعاقدات مع الجيش أو الاحتكارات التجارية أو البراعة المالية أو الصداقات السياسية. وراح بعض من عاشوا أيام البوربون وظلوا على قيد الحياة يترددون على منازل مدام دى جينلى Genlis أو أرملتى كوندورسيه Condorcet وهيلفيتيوس Helvétius، لكن معظم الصالونات التي فتحت بعد موت روبيسبير (باستثناء حلقة مدام دى ستيل Stael) لم تكن عامرة بالمناقشات الذكية وكان ينقصها جو الراحة والطمأنينة، ذلك الجو الذي كان يسودها في الماضي (قبل الثورة) نتيجة الأمن الذي طال أمره والثراء الراسخ. وصالون القمة الآن هو ذلك الذي يعقد في

(*) المقصود «المثقفون» رجال الفكر عامة. (المترجم)

الغرفات المريحة في قصر بارا عضو مجلس الإدارة في لكسومبرج أو في قصر جروسبوا Cha-teau Grosbois الذي يمتلكه أيضا. ولم تكن جاذبية صالون بارا هذا ناتجة عن معارف الفلاسفة (المثقفين) الذين يرتادونه وإنما كانت جاذبيته تكمن **في ابتسامات مدام تاليان** Tal-lien وجوزفين دى بوهارنيه.

ولم تكن جوزفين قد تزوجت نابليون بعد، كما أن **مدام تاليان** Tallien لم تعد بعد (في ذلك الوقت) زوجة له (لتاليان)، لقد تم تزويج هذه المدام الأخيرة منه في ٢٦ ديسمبر ١٧٩٤، ونودي بها فترة سيدة ثيرميدور(*) **Notre Dame de Thermidor** لكنها هجرت هذا الإرهابي الذي أفل نجمه بعد فترة وجيزة من زواجها منه وأصبحت خليلة (راعية شؤون منزله) لبارا Barras، وغمزها بعض الصحفيين في أخلاقها ومع هذا فقد بادلوها جميعا الابتسام لأنه لم يكن في جمالها شيء من الكبر أو التغطرس، وكانت معروفة برقتها الشديدة مع النساء والرجال على السواء. وقد وصفتها في وقت لاحق **الدوقة دبرانت** D'Abrantés **بأنها**: "فينوس الكابيتول وأنها أجمل من العمل الفني الذي أنجزه فيدياس Phe dias، لأنك تدرك فيها اكتمال الملامح كما في عمل فيدياس، وتدرك فيها التناسق نفسه في الذراعين واليدين والقدمين، كل هذا تعبير كريم حي"(**)(٤٤) وكان من فضائل بارا Barras أنه كان كريما معها ومع جوزفين، وقدر جمالهما تقديرا يفوق مجرد الإعجاب الجنسي، ذلك التقدير الذي اشترك معه فيه مئات المنافسين الذين كانوا من الممكن أن يفوزوا بهما، لكنه بارك فوز نابليون بجوزفين.

٤- الموسيقا والدراما:

انتعشت أنواع الموسيقا كلها، وكان يمكنك أن تجعل أحد المغنين في الشوارع يعيد لك أغنية مقابل قطعة عملة أو يمكنك أن تنظم لمجموعة مغنين لتخيف البورجوازيين بأغنية الكارمانول Carmagnol (or Ca Ira) أو أن تهز الحدود بنشيد المارسيليز الذي كان روج دى

(*) شهر جمهوري (ثوري) حل محل شهر ميلادي ومعناه شهر الدفء.

(**) تزوجت في سنة ١٨٠٥ من الكونت كارامان Caraman (الذي سيصبح بعد ذلك أمير كيماى Prince de Chimay) وماتت سنة ١٨٣٥ (المؤلف)

ليزل Rouget de Lisle قد ألف معظمه . وفي كونشرتو فيدو Concert Feydeau يمكنك أن تعجب مع دومينيك جارا Dominique Garat الذي يعتبر كاروز عصره Caruso of his time الذي يحرك صوته مشاعر القلوب، بل ويحرك حتى الألواح وكان مشهورا في أنحاء أوربا كلها لطبقة صوته . ووسط الرعب الذي ساد في سنة ١٧٩٣ افتتح المؤتمر الوطني المعهد الوطني للموسيقا وبعد ذلك بعامين أصبح اسمه الكونسرفتوار، ومنح المؤتمر الوطني المعهد مبلغ ٢٤٠,٠٠٠ جنية كل عام للتدريس لستمائة طالب بدون أن **يدفعوا رسوما دراسية** . وفي الليلة التي أطلق فيها الرصاص على روبيسبير، كان الباريسيون يستطيعون سماع "أرميد Armide" في الأوبرا أو بول وفرجيني Paul et Virginie في الأوبرا كوميك[٤٥] (الأوبرا التي يتم فيها الغناء والحوار غير الملحن وليس من الضروري أن تكون هزلية)[*] .

وانتعشت الأوبرا في عهد الثورة . ففيما عدا وضع بيرناردين دى سان بيير Bernardin de Saint Pierre للألحان الرعوية (مقطوعات موسيقية ذات طابع رعوي أو رومانسي) في سنة ١٧٩٤، فإن جان فرانسوا لوزير Jean François Leuseur (١٧٦٠ - ١٨٣٧) قد حقق نجاحا آخر في هذا المجال في العام نفسه فمقطوعاته الموسيقية بالإضافة إلى مقطوعة تيليماك Télémaque التي وضعها فينيلون Fénélon كانت تنهج النهج الموسيقي نفسه . لقد أثار فرنسا كلها وحرك مشاعر الإرهاب فيها بمقطوعته لا كافيرن (الكهف La Caverne) التي عرضت سبعمائة مرة، وقد استمر في الإنتاج خلال فترة صعود نابليون، وعاش عمراً مديدا فدرس على يديه بيرليو Berlioz وجونو Gounod . وقد كتب إيتين ميهول Etienne Méhul (١٧٦٣ - ١٨١٧) في عمره القصير جدا مقارنة بعمر لوزير أكثر من أربعين أوبرا من نوع الأوبرا كوميك Opéra Comique (المصطلح لا يعني بالضرورة الأوبرا الهزلية كما ذكرنا في تعليق سابق) بينما كانت كورالاته الغزيرة : أنشودة إلى العقل Hymné à La raison (١٧٩٣)، ونشيد الرحيل Chant du départ (١٧٩٤) هي السبب في

(*) هذه الجملة الشارحة عن معجم الكامل الوسيط / فرنسي عربي، ليوسف محمد رضا.(المترجم)

جعله رب الموسيقا في عهد الثورة(*)(٤٦).

وكان ماريا لويجي كارلو سالفاتور شيروبيني Maria Luigi Carlo Salvatore Cherubini هو أعظم مؤلف موسيقى في فرنسا الثورة. ولد في فلورنسا في سنة ١٧٦٠ يقول: "لقد بدأت في تعلم الموسيقا وأنا في السادسة من عمري، وألفت مقطوعات موسيقية وأنا في التاسعة"(٤٧). وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره كان قد ألف ثلاثة أعمال كبيرة؛ رائعته a Te Deum وهي موشحة دينية وثلاث كنتاتات Cantatas (الكنتاتة قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقا بلا تمثيل). وفي سنة ١٧٧٧ وجدنا ليوبولد Léopold دوق تسكاني Tuscany الكبير الخير يمنحه منحةً للدراسة مع جيوسيب سارتي Giuseppe Sarti في بولوجنا Bologna (**) فأصبح شيرو بيني في غضون أربعة أعوام سيدا يشار إليه بالبنان في مجال التأليف الطباقي الموسيقى Contrapuntal Composition وفي سنة ١٧٨٤ دعى إلى لندن لكن سوقه لم يرج فيها، وفي سنة ١٧٨٦ انتقل إلى باريس التي ظلت موطنه الدائم لم يغادرها إلا لفترات قصيرة حتى مات في سنة ١٨٤٢، وفي أولى أعماله الأوبرالية في باريس (ديموفون Démophon) التي وضعها في سنة ١٧٨٨ تحاشى روح الجزالة والخلو من اجترار الهموم تلك الروح السائدة في الإنتاج النابولي Néapolitan بإخضاع القصة والأوركسترا للألحان، وإنما حذا حذو جلوك Gluck في الأوبرا العظيمة grand opéra " والتي كانت الأنغام (الألحان) تحتل فيها المرتبة الثانية من حيث الأهمية. وكانت أهم الأعمال التي حققت له نجاحا في باريس في عهد الثورة هي: لودويسكا Lodoiska (١٧٩١) وميدي Médée (١٧٩٧). ومع العمل الذي لا زال مشهورا (يومان Les deux Journées) (١٨٠٠) بدأ مرحلة مضطربة في حياته في ظل حكومة نابليون ويمكننا تشبيهه بشهاب(٤٨).

(*) خلال فترة الثورة لم يعد مصطلح أوبرا كوميك Opéra Comique يعنى الكوميديا الموسيقية وإنما كان يطلق على أي أوبرا تراجيدية كانت أم كوميدية وتضم حوارا أو حديثا غير ملحن. ومن هنا دخل مسرح الأوبرا كوميك في منافسة مع أكاديمية الموسيقا في إنتاج سلسلة من الأعمال الأوبرالية. وفي نحو هذا الوقت أيضا عمد بعض المؤلفين الأوبراليين مثل ميهول Méhul في عمله الموسوم باسم Ariodant (١٧٩٩) إلى إدخال بعض الفقرات الأوركسترالية التي راحت تتكرر في المواقف المختلفة، ومن هنا بدأ ما يعرف بالفكرة المهيمنة أو المتكررة (الليتموتيف Leitmotif) (المؤلف).

(**) ليس بولونيا وإنما القصد هنا مدينة إيطالية. (المترجم).

لقد كان في باريس في أثناء الثورة أكثر من ثلاثين مسرحا، وكانت جميعها مزدحمة ليلة بعد ليلة حتى أيام حكم الإرهاب، وتحرر الممثلون في ظل الثورة من العراقيل التي كانت تضعها الكنسية أمامهم، وكان يمكنهم الابتسام عند صدور قرار الحرمان الكنسي(*) (ضدهم) أو قرار بعدم دفن جثثهم (بعد الوفاة) في مقابر المسيحيين، لكن الحكومة أخضعتهم (١٧٩٠ - ١٧٩٥) لرقابة أشد صرامة، وكان عليهم على وفق توجيهات المؤتمر الوطني ألا يجعلوا في كوميدياتهم أي "بطل" أرستقراطي، أو أية مشاعر أرستقراطية وأصبحت المسارح أداة للدعاية الحكومية، وأسفت الكوميديا وهبطت إلى مستوى منحط، واتبعت التراجيديات الخط الثوري (من حيث المضمون) والوحدات الكلاسية (من حيث الشكل).

وجرت العادة أن يكون الممثلون الكبار أكثر شهرة من رجال الدولة، بل إن بعضهم مثل فرانسوا جوزيف François Joseph Talma كان محبوبا من الناس أكثر من رجال الدولة بكثير. وكان أبوه مستخدما في فندق ثم أصبح طبيب أسنان، وذهب إلى لندن وانتعشت حالته فيها فأرسل ابنه إلى فرنسا ليتلقى تعليمه فيها، وبعد التخرج عاد فرانسوا ليعمل مساعداً لأبيه، فتعلم الإنجليزية، وقرأ شكسبير ورأى أن تمثيل مسرحياته أمر شائق، وانضم إلى فرقة من الممثلين الفرنسيين كانت تقدم عروضها في إنجلترا، ولما عاد إلى فرنسا قُدم للكوميدي فرانسيز Comédie Française وظهر على المسرح لأول مرة سنة ١٧٨٧ في شخصية سعيد Seide في مسرحية فولتير (محمد) وساعده على التقدم في مجال التمثيل المسرحي شكله المتناسق وملامحه الكلاسية الواضحة وكأنما نحتت بإزميل، وشعره الكثيف وعيناه المتألقتان لكن تأييده للثورة ودعمه لها صرف عنه معظم أفراد الفرقة الذين كانوا يدينون بوجودهم لعطف الملك.

وفي سنة ١٧٨٥ شاهد تالما Talma الصورة التي رسمها ديفيد David والتي جعل لها عنوانا هو "قسم الهوراتي the Oath of Horatii" وتأثر كثيرا لا بما في الصورة من قوة دراماتية وإنما أيضا بالتزامها الشديد المتقن بالزى القديم. فقرر أن يظهر على المسرح بهذا

(*) الطرد من رحمة الكنيسة.(المترجم).

الزي نفسه، وأدهش زملاءه عندما ظهر بهذا التنك (الرداء الروماني ذو الحزام المشدود حول الخصر) والصندل بذراعين وساقين مكشوفين، ليلعب دور بروكولوس Proculus في مسرحية فولتير التي تحمل عنوان بروتس Brutus.

وأصبح صديقا لديفيد David الذي نضح عليه من ثوريته. وعندما قام بدور ماري جوزيف دي شينيير في مسرحية شارل التاسع (٤ نوفمبر ١٧٨٩) أدى د وره بشحنة عاطفية بثها في مشاهديه في الفقرات المعارضة للملكية تلك الفقرات التي تصور الملك الشاب كآمر بمذابح ليلة القديس بارثولومو St. Bartholomew`s eve، وقد صدم هذا مشاعر معظم مشاهديه وكثيرين من زملائه الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالولاء للملك لويس السادس عشر.

وكلما تطورت أحداث الثورة زاد الصراع حدة بين "الحمر Reds" و "السود Blacks" في الفرقة وبين المشاهدين حتى إن تالما Talma ومدام فيسترى Vestris (التراجيديانه الرئيسية) وغيرهما من الممثلين انشقوا عن فرقة الكوميدي فرانسيز ذات الامتيازات الملكية وأقاموا فرقة أخرى خاصة بهم في مسرح الجمهورية الفرنسية بالقرب من القصر الملكي. وهناك طور تالما فنه بدراسته للتاريخ والشخصية ولباس كل شخصية على وفق الفترة الزمنية التي كانت فيها، وذلك في المسرحيات والأدوار كلها التي أدتها الفرقة ومارس تحكما في ملامحه لتتمشى مع كل تغيير في المشاعر أو الأفكار (في أثناء التمثيل)، وقلل من نبرته الخطابية، والمبالغة الانفعالية فوق المسرح، حتى أصبح متمكنا تماما من فنه.

وفي سنة ١٧٩٣ غيرت الفرقة القديمة اسمها ليصبح مسرح الأمة Théâtre de la Nation الذي أنتج مسرحية "صديق القوانين L'Ami des Lois " وهي المسرحية التي تضمنت هجاء وسخرية من زعماء الثورة. وفي ليلة ٣ و٤ سبتمبر تم القبض على أعضاء الفرقة كلهم. وقبلت فرقة تالما فرض الرقابة الصارمة عليها، فأصبحت مسرحيات راسين Racine محرمة وتعرضت مسرحيات موليير Molière للتغيير وحذف أجزاء منها، وحذفت الألقاب الأرستقراطية من المسرحيات المسموح بها (مثل سيد "مسيو" وسيدة "مدام")، وفرض هذا في مسارح فرنسا كلها[٤٩] . وبعد سقوط روبيسبير تم الافراج عن الممثلين الذين كان قد قبض

عليهم، وفي ٣١ مايو ١٧٩٩ وكلما اقتربت الثورة من نهايتها وجدنا الفرقة القديمة والأخرى الجديدة تتحدان معا لتصبحا فرقة واحدة هي "الكوميدى فرانسيز Comédie Française" وجعلت مقرها في المسرح الفرنسي في القصر الملكي حيث هي موجودة ومزدهرة اليوم.

٥- الفنانون:

تأثر الفن في فرنسا الثورة بثلاثة أحداث خارجية: خلع الأرستقراطية وهجرتها (عقب أحداث الثورة) والحفائر الأثرية التي كشف عن آثار قديمة في هيركيو لانيوم وبمبي Herculaneum and Pompeii (١٧٣٨ وما بعدها)، واستيلاء نابليون على ذخائر الفن الإيطالي، وقد أدت هجرة الأرستقراطية بعد الثورة إلى أن نزح عن فرنسا أكثر الطبقات امتلاكا للثروة وتمتعاً بالذوق مما يمكنهم من شر اء الأعمال الفنية، وفي بعض الأحيان هاجر الفنانون مع هؤلاء المهاجرين، ومن أمثلة هؤلاء الفنانين المهاجرين مدام فيجي ليبرون Vigee **Lebrun**. أما الفنان فراجونار Fragonard فرغم أنه كان قبل الثورة يعتمد في حياته كلية على أموال الطبقات الموسرة (التي لا عمل لها) إلا أنه أيد الثورة وعاش حياة بائسة على حافة المجاعة. وهناك فنانون آخرون أيدوا الثورة لأنهم تذكروا أن النبلاء كانوا يعاملونهم كعبيد ومأجورين مرتزقة، وكيف أن أكاديمية الفنون الجميلة لم تسمح إلا لأعضائها لعرض أعمالهم في صالوناتها. وفي سنة ١٧٩١ أتاحت الجمعية التشريعية الأكاديمية للفنانين الأكفاء كلهم سواء كانوا فرنسيين أم أجانب لخلق مجال للتنافس. وقد ألغى المؤتمر الوطني الأكاديمية باعتبارها مؤسسة أرستقراطية في الأساس. وفي سنة ١٧٩٥ أعادتها حكومة الإدارة باسم أكاديمية الفنون الجميلة وجعلت مقرها اللوفر Louvre الذ ي كان منذ سنة ١٧٩٢ قد أصبح متحفا عاما، وسمح للفنانين الفرنسيين بدراسة ونسخ أعمال رافائيل Ra-phael وجيورجيون Giorgione وكوريجيو Correggio وليوناردو Leonardo، وفيرونيس Veronese ... بل وحتى خيول القديس مرقص St. Mark، ولم تحدث سرقات، وتمت الاستفادة من هذه الأعمال بشكل يدعو إلى الثناء. وفي سنة ١٧٩٣ جدد المؤتمر الوطني دعمه للأكاديمية الفرنسية في روما وكذلك للمؤسسة المعروفة باسم Prix de Rome. وشيئا

فشيئا حلت الطبقة الوسطى الصاعدة محل النبلاء كمشترين للأعمال الفنية. وازدحم صالون سنة ١٧٩٥ بالمشاهدين، وقد عمر هذا الصالون بخمسمائة وخمس وثلاثين لوحة. لقد ارتفعت أسعار الأعمال الفنية.

من المستغرب أن نقول إن الثورة لم تحدث أية حركة راديكالية في مجال الفن. بل العكس، فالإلهام الذي قدمه للكلاسية الجديدة هو النبش والتنقيب عن التماثيل والعمائر القديمة في نابلي، وكتابات ونكلمان Winckelmann (١٧٥٥ وما بعدها) وليسنج Lessing (١٧٦٦) قد عملت على إحياء الأسلوب الكلاسي بكل ما فيه من مضامين أرستقراطية. وردة الفعل هذه ثبت أنها من القوة بحيث تتصدى للتأثيرات الرومانسية، والديمقراطية المنبعثة من الثورة. لقد قبل الفنّانون في هذه الفترة المتزنة (باستثناء برودون Prud'hon) نظريةً وتطبيقا الصيغ الكلاسية والنبيلة كلها التي تشير للنظام والشكل والاتساق والفكر والعقل باعتبارها حارسا يحول بين التعبير الفني، واعتماده على الانفعال والعاطفة والحماسة والفوضى. وقد راعى الفن في ظل لويس الرابع عشر هذه القواعد القديمة التي توخاها كونتيليان Quintilian وفيتروفيوس Vitruvius وتوخاها كورنيل Corneille و بوالو Boileau، لكن في ظل لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وجد الفنانون راحتهم في الباروك وأنسوا إلى الركوكو rococo ومع مشاعر روسو Rousseau المتحفظة ومشاعر ديدرو Diderot المؤيدة بدا أن عصر الرومانسية أصبح قريب التناول. لقد كان هذا في المجالين السياسي والأدبي، لكنه لم يكن في مجال الفن.

وفي سنة ١٧٧٤ اتجه جوزيف مارى فين Joseph Marie Vien إلى إيطاليا بعد أن زاد شوقه للاطلاع على حفائر هيركولانيوم وبمبي Herculaneum and Pompeii بعد أن وصلته تقارير عنها، وقد اصطحب جوزيف معه تلميذه جاك لويس ديفيد Jacques Louis David لكن الشاب (ديفيد) وقد وقف نفسه لفكر الثورة عزم على ألا يجعل الفن المحافظ والأرستقراطي الذي يتجلى في الآثار الكلاسية، يضله أو يبعده عن هدفه[٥٠]. لكن شيئا ما في داخله كان يتحكم فيه جعله يستجيب لعظمة التكوين ومنطق البناء وقوة الخط ووضوحه، كما تتجلى في الفن الإغريقي والروماني. لقد قاوم لفترة رسالتها الموحية بالرجولة والقوة،

لكنه استسلم لها بالتدريج، وحمل هذا التأثير معه عند عودته إلى باريس، وجعله يتناسق مع مناهضة الثورة للمسيحية وتمثلها بالجمهورية الرومانية ولكاتوس Catos وسكيبوس Scipios بل إن هذا الاتجاه كان متفقاً مع عباءة مدام تاليان Tallien الإغريقية. والآن لقد حان الوقت المناسب لطرح استلهام الفن القوطي ذي النزعات العلوية (السماوية) وما يوحيه الباروك من يفاعة مدهشة، وما يتجلى في الروكوكو rococo من زخارف بهيجة، والصور الزيتية العارية والمتفائلة التي انتجها بوشيه Boucher ولوحة الفتيات وهن يقفزن، التي انتجها فراجونار Fragonard. الآن يجب أن يكون الخط الكلاسي والمنطق الكلاسي، والمنطق المجرد Cold reason والقيد الأرستقراطي والشكل الرواقي هو هدف الفن وعليه تقوم دعائمه في فرنسا الثورة الرومانسية، الديمقراطية، العاطفية، الزاخرة بالمشاعر.

وقد ولد ديفيد الذي كان عليه أن يتبوأ الصدارة في الفن في فرنسا الثورة وإمبراطوريتها، في باريس في سنة ١٧٤٨ من أسرة بورجوازية ثرية كانت تقيه العوز دوما. وقد التحق وهو في سن السادسة عشرة بأكاديمية الفنون الجميلة Académie des Beaux Arts ودرس على يد فين Vien وحاول مرتين من أجل الحصول على الجائزة المعروفة بجائزة روما Prix de Rome وفشل في المرتين، فحبس نفسه وحاول أن يموت جوعا لكن جاره الشاعر افتقده فبحث عنه فوجده وراح يتوسل إليه حتى تناول طعامه، ودخل ديفيد المسابقة مرة أخرى في سنة ١٧٧٤ وفاز برسم من نوع الروكوكو rococo جعل له عنوانا هو (Antiochus Dying for the love of Stratonic أنتيوشس تموت حبا في ستراتيونيس)

وفي روما أصبح مفتونا برافائيل ثم تخلى عن افتتانه به لرقة خطوطه رقة شديدة ووجد في أعمال ليوناردو ما هو أقوى، ووجد في بوسين **Poussin** انضباطاً أشد في الفكرة والتكوين، وانتقل من صور العذراء في عصر النهضة إلى الأعلام القدامى في عالم الفلسفة والأساطير والحرب، وفي عاصمة المسيحية تخلى عن عقيدته المسيحية.

وعاد إلى باريس في سنة ١٧٨٠ وتزوج من ثرية وعرض في صالونات الأكاديمية سلسلة متتابعة من أعماله الكلاسية (بليزا ريوس Belisarius وأندروماك Andromache) وبعض البورتريهات (رسوم لأشخاص). وفي سنة ١٧٨٤ ذهب إلى روما ليرسم صورة بتكليف من

لويس السادس عشر فخرج فيها عما ألفه الرسامون في روما. إنها اللوحة التي جعل لها عنوانا(The Oath of the Horatii). وعندما عرضت اللوحة في روما، قال له الفنان الإيطالي العجوز بومبيو باتوني Pompeo Batoni : "أنت وأنا وحدنا رسامان، أما الباقون فلا يستطيعون القفز في النهر(٥١). -Tu ed io soli , siamo pittori ; Pel rimanente Si puo get tarlo nel fume " .

ولما عاد إلى باريس قدم عمله الموسوم باسم (قسم الهوراتيين Serment des Horaces) في صالون سنة ١٧٨٥(٥٢). وهنا في تاريخ ليفي الأسطوري وجد ديفيد في "الوطنية" الدين الحقيقي لروما القديمة: ثلاثة إخوة من أسرة هوراتية Horatii Family يقسمون أن يشعلوا الحرب بين روما وألبالونجا Alba Longa (القرن السابع قبل الميلاد) وأن يقتتلوا حتى الموت مع ثلاثة إخوة من عشيرة كورياتي Curiatii لقد صور ديفيد الهوراتيين Horatii وهم يقسمون ويتسلمون السيوف من أبيهم بينما أخواتهم يندبن، وكان واحدٌ منهم خطيبا لفتاة كورياتية Curiatii . وكان الفرنسيون يعلمون القصة من كتاب كورنيل Corneille Horace وفسروا فحوى اللوحة على أن "الوطنية" تجعل الأمة فوق الفرد، بل وحتى فوق الأسرة.

لقد كان الملك (لويس السادس عشر) راغبا وبإخلاص في القيام بإصلاحات، وكانت المدينة(باريس) معبأة بالفعل للثورة، وكان أهلها متفقين على استحسان إنجازات الفنانين، وكان منافسو ديفيد يعلمون مهارته في استيحاء الشجاعة البطولية والتضحية الأبوية وأحزان النساء، لقد كان النجاح الذي حققته لوحته (قسم الهوارتيين) إحدى العلامات البارزة في حوليات الفنون، لأنها كانت تعني نجاح الأسلوب الكلاسي.

ولاقى ديفيد تشجيعا لأسلوبه الفني ولاختياره لموضوعاته فعاد إلى التراث الإغريقي وقدم في سنة ١٧٨٧ عمله "موت سقراط" ولما رأى السير جوشوا رينولد Joshua Reynold هذه اللوحة في باريس وصفها بأنها "أعظم إنجاز فني منذ ميكل (ميشيل) أنجلو ورافائيل. إنها يمكن أن تكون امتيازا لأثينا في عصر بريكليس Pericles"(٥٣). وبعد ذلك بعامين عاد ديفيد إلى التراث الروماني بلوحته (الليكتور أي الموكلون بإفساح الطريق للحاكم الروماني

يعيدون إلى بروتس في بيته جثث أبنائه" وكانت هذه اللوحة تصور حكاية أوردها ليفي Livy عن القنصل الروماني (٥٠٩ ق.م) ذلك القنصل الذي حكم على اثنين من أبنائه بالموت من أجل تآمرهما لعودة الملكية. وقد كانت هذه اللوحة قبل سقوط الباستيل ولم يكن لدى الرسام فيما يظهر أية فكرة عن الثورة المرتقبة، وقد منع وزير الفنون عرضها لكن الجلبة التي سببتها الجماهير ضمنت له عرضها في صالون سنة ١٧٨٩، واعتبرتها الجماهير التي أتت لرؤيتها جزءاً من الثورة، وهكذا وجد ديفيد نفسه الناطق الفني باسم عصره.

وعلى هذا فقد قدم ديفيد نفسه للثورة في زواج نادر بين السياسة والفن. لقد قبل ديفيد مبادئها ووضح أحداثها ونظم مهرجاناتها وزينها وأحيا ذكرى "شهدائها"، وعندما قتل واحد من الملكيين النائب الراديكالي ليبيلتييه دى سان فارجو Lepeletier de Saint Fargeau (في ٢٠ يناير ١٧٩٣) نذر ديفيد نفسه لإحياء ذكرى هذا المشهد، ففي غضون شهرين قدم صورة المشهد للمؤتمر الوطني الذي علقها على جدران مقره. وعندما قتل مارا Marat (١٣ يوليو ١٧٩٣) دخلت جموع الحزانى إلى ممرات المؤتمر الوطني، وانطلق صوت من بينهم "أين أنت يا ديفيد ؟ لا بد أن تنقل للأجيال القادمة ما حدث كما فعلت بالنسبة لليبلتييه، فهو ومارا قد ماتا من أجل الوطن. إن عليك أن ترسم لوحة أخرى".

فوقف ديفيد وقال: "سأرسمها" وبالفعل قدم لوحة مكتملة للمؤتمر الوطني في ١١ أكتوبر. وقد أظهرت هذه اللوحة مارا وقد غطت مياه حوض الاستحمام الخاص به نصفه وقد تدلى رأسه إلى الخلف فاقداً الحياة وإحدى يديه تقبض على مخطوط وذراعه متدلية إلى الأرض، وقطعة الخشب إلى جانب الحوض موضوع عليها مخطوطة تدعو للفخر "إلى مارا ديفيد". لقد كانت اللوحة نقلة ترك فيها ديفيد أسلوبه الفني المميز. فقد حلت الحماسة المتوهجة محل الكلاسية الجديدة مع الواقعية. وأكثر من هذا فهذه اللوحة بالإضافة إلى اللوخة التي رسمها لليبيليتييه قد كسرتا المنحى الكلاسي باتخاذهما الأحداث الجارية موضوعا لهما. لقد جعلت هاتان اللوحتان الفن مشاركا في الثورة.

وبحلول عام ١٧٩٤ كان ديفيد مشهورا سياسيا حتى إنه قد تم انتخابه عضواً في لجنة الأمن العام. وقد كان من أتباع روبيسبير، ونظم ديفيد موكب مهرجان الموجود الأعظم -Su

preme being وقدم فيه ديكوراته وروحه الفنية . وبعد سقوط روبيسبير قبض عليه باعتباره واحداً من أتباعه وقضى في السجن ثلاثة أشهر قبل أن يفرج عنه بسبب ضجيج تلاميذه . وفي ١٧٩٥ عكف في مرسمه لكنه عاد إلى الظهور في سنة ١٧٩٩ فقدم "البانوراما الكبيرة The Rape of the Sabine" . وفي العاشر من نوفمبر استولى نابليون على السلطة، فبدأ ديفيد الذي بلغ الواحدة والخمسين من عمره مرحلة فنية جديدة منتصرة .

٦- العلم والفلسفة :

الثورات لا تتعاطف مع العلوم البحتة، وانما هي تحفز العلوم التطبيقية على مواجهة احتياجات مجتمع يناضل من أجل حريته . لقد ساعد لافوازيه Lavoisier الكيميائي المالي الثورتين الأمريكية والفرنسية بتحسين نوعية البارود، وزيادة كمية انتاجه . وبيرتوليه Ber-tholet وكيميائيون آخرون حفزهم الحصار البريطاني على إيجاد بدائل للسكر المستورد وكذلك بدائل لما يستورد من صودا ونيلة (صبغة زرقاء)، وقد تم إعدام لافوازيه بتهمة أنه مستغل متربح (١٧٩٤)[٥٤] لكن بعد إعدامه بعام شجبت الحكومة الثورية هذا الإعدام . وحمى المؤتمر الوطني العلماء في لجانه وقبل خططهم فيما يتعلق بالنظام المتري Metric System . وبوأت حكومة الإدارة العلماء مكانا حفيا في المعهد الفرنسي الجديد . ولا زالت أسماء لاجرانج Lagrange ولابلاس Laplace وأدريان ماري ليجيندر Adrien Marie Legendre وديلامبر Delambre وبيرتوليه Bertholet ولامارك Lamarck وكوفييه Cuvier، شهبا تلمع في تاريخ العلم، وكانوا جميعا من بين أعضائها الأول . لقد أصبح العلم لفترة هو عماد التعليم الفرنسي حالاً محل الدين، وعرقلت عودة البوربون هذه الحركة لكن سقوطهم (١٨٣٠) كان مصحوبا برفع شأن العلم متمثلا في الفلسفة الإيجابية Posi-tive Philosophy التي نادى بها أوجست كونت Auguste Comte .

وترك لاجرانج وليجندر علاماتهما الأخيرة على الرياضيات، فصاغ لاجرانج حساب التغاير(*) والذي لا تزال معادلاته جزءا من علم الميكانيكا . وظل ليجندر يدرس التكامل

(*) Calculus of variations ، والمصطلح العربي نقلا عن معجم المصطلحات العلمية للخطيب (المترجم)

الإهليلجي (*) (ناقص المقطع) من سنة ١٧٨٦ إلى سنة ١٨٢٧ عندما نشر نتائج بحوثه في إحدى الدوريات المتخصصة Traité des fonctions أما جاسبار مونج Gaspard Monge وهو ابن بائع جوال فقد ابتدع الهندسة الوصفية وهي طريقة أو منهج لتقديم أبعاد ثلاثة للأشياء على مستوى ذى بعدين، وقد نظم أمور استخلاص النحاس والقصدير على مستوى الدولة، وكتب نصا شهيرا عن الفن الدقيق لصناعة المدافع وخدم الحكومة الثورية ونابليون فترة طويلة في مجال اختصاصه رياضياً وإدارياً. وأثار لابلاس أهل الفكر في أوربا بمبحثه عرض لنظام الكون Exposition du Système du Monde (١٧٩٦) صاغ من خلال النظرية السديمية (كون النظام الشمسي نشأ من سديم غازي) وحاول أن يشرح الكون من خلال ميكانزم خالص (مجرَّد) وعندما سأله نابليون: "من الذي فعل كل هذ النظام" (الميكانزم)؟ أجاب لابلاس: "إنني لست في حاجة إلى هذه الفرضية". أما لافوازيه مؤسس الكيمياء الحديثة فقد ترأس اللجنة التي صاغت النظام المتري (١٧٩٠) وطور بيرثوليه Ber-tholet كلا من الكيمياء النظرية والعملية وساعد لافوازيه في وضع مصطلحات ورموز كيميائية جديدة.

وساعد وطنه الذي كان يخوض الحرب بطريقته في تحويل خام الحديد إلى حديد، وتحويل الحديد إلى صلب. وكان زافييه بيشا Xavier Bichat رائدا في مجال علم الأنسجة (الهيستولوجيا) بدراساته الميكروسكوبية للأنسجة. وفي سنة ١٧٩٧ بدأ سلسلة محاضراته الشهيرة في علم الفيسيولوجيا والجراحة ولخص نتائج بحوثه في دورية علمية هي Anatomie générale (١٨٠١). وفي سنة ١٧٩٩ وكان سنه وقتها ثمانية وعشرين عاماً عين طبيبا في مصح الرّب Hôtel Dieu وعكف على دراسة التغيرات العضوية الناتجة عن المرض في مرحلة الاحتضار (١٨٠٢) وكان عمره وقتها واحداً وثلاثين عاما.

وربما يمثل بيير كاباني Pierre Cabanis مرحلة انتقال في مجال الفلسفة رغم أنه كان معروفا في عصرة كطبيب في الأساس، إلا أن الأجيال التالية اعتبرته فيلسوفا. وفي سنة ١٧٩١ كان يرعى ميرابو Mirabeau في مرضه الأخير. وحاضر في مدرسة الطب عن الصحة

(*) elliptic integrals والمصطلح العربي في المتن اعتمادا على المعجم الآنف ذكره.(المترجم).

والطب الشرعي وتاريخ الطب، وكان لفترة رئيسا لكل مستشفيات باريس. وكان واحدا من كثيرين من الرجال المشهورين الذين أحبوا حبا عاقلا مكتوما أرملة المثقف (الفيلسوف)(*) هيلفيتيوس Helvétius التي كانت دائما جديرة بأن تحب. وقد قابل في صالونها كلاً من:

ديدرو Diderot ودلمبير d'Alembert ودولباش d'holbach وكوندرسيه Condorcet وكوندياك Condillac وفرانكين Franklin وجيفرسون Jefferson، وباعتباره دارسا للطب فقد كان على نحو خاص منجذباً إلى كوندياك Condillac الذي كان معروفا تماما في المجال الفلسفي في فرنسا باعتقاده أن كل المعارف أساسها الحس (أو الإحساس Sensation). وقد راقت هذه الفلسفة الحسية (التي مؤداها أن الحس هو أساس المعرفة) لكاباني Cabanis فاتفقا اتفاقا تاما على ما وجده من علاقة ارتباط بين العمليات الجسدية والنفسية. ولقد صدم حتى المفكرين الذي بلغوا مرتبة كبيرة في عصره بقوله: "لتكون فكرة صحيحة عن العمليات التي ينتج عنها الفكر، من الضروري أن تنظر للمخ brain كعضو خاص مهمته المحددة هي إنتاج الفكر، تماما كما للمعدة والأمعاء وظيفة هي هضم الطعام، وكما أن للكبد وظيفةً هي فلترة الصفراء،......الخ"(٥٥).

ومع هذا فإن كاباني Cabanis عدل من تحليلات كوندياك Condillac (كما فعل كانت Kant مؤخراً في كتابه نقد العقل الخالص)(**) فقال بأن الحس يدخل التكوين العضوي (الكائن العضوي) الذي يكون قد تكوّن على نحو ما (نصف تكوّن) عند الميلاد، لكنه يعدل بعد ذلك من خلال كل تجربة يخوضها، ويحمل معه ماضيه في خلاياه وذاكرته ليشكل جزءا من الشخصية المتغيرة بما في ذلك الأحاسيس الداخلية والأفعال الانعكاسية والغرائز والمشاعر والرغبات. فالكلية السيكولوجية تنتج كذلك نماذج لكل بنية (تكوين) وتجعل لكل حس (محسوس) تستقبله غرضا. وبهذا المعنى يكون كاباني Caba-nis قد اتفق مع كانت Kant على أن العقل (أو النفس) ليست غفلاً قبل التعليم (أو ليست كصفحة بيضاء خالية) بحيث يطبع عليها الحس ما يشاء. إنها "منظمة" لتحويل

(*) راجع مقدمة المترجم عن إطلاق العامة لفظ فيلسوف على كل مثقف وقد كتبها المؤلف هنا بالحروف المائلة. (المترجم)

(**) أو كانط

الأحاسيس إلى أفكار وأعمال. وعلى كل حال فقد أصر كاباني على أن "العقل" الذي يرجع إليه كانت Kant ليس منفصلاً انفصالا تاما عن الأنسجة والأعصاب.

هذا النظام (أو النسق) المادي ظهر للمرة الأولى (١٧٩٦) في المذكرات الاثنتي عشرة التي نشرها كاباني معا في سنة ١٨٠٢ بعنوان "حصاد دراسة فيزيقية الإنسان وأخلاقه "Rapports du Physique et du moral de L'homme

وهذه المذكرات تجعل العقل (أو المخ) القوي فعالا وبشكل نشيط على منطقة واسعة من حب الاستطلاع والتأمل. والمقالة الأولى تكاد تكون مسحا للسيكولوجيا الفيسيولوجية وتدرس الأعصاب ذات الصلة بالحالة النفسية. والمقالة الثالثة تحلل "اللاشعور": فذكرياتنا المتجمعة (أو العلامات التي تحدثها الأعصاب) قد تتداخل مع المثيرات الحسية الداخلية والخارجية لتنتج أحلاما، وربما على نحو لا شعوري تؤثر في أفكارنا حتى ونحن في حالة يقظة وانتباه. والمقال الرابع بارتباط العقل بالعمر فأفكار الشخص نفسه وشخصيته قد تختلف تماما في سن السبعين عنها في سن العشرين. أما المقال الرابع فيتناول كيف أن إفرازات الغدد خاصة الجنسية قد تؤثر في مشاعرنا وأفكارنا. والمقال العاشر يؤكد أن الإنسان عرضة لتغير يتم مصادفة أو تبدل، ثم إن هذه الصفات المتغيرة تورث.

وفي كتاب نسب إلى كاباني بعنوان "خطابات في العلل الأولى Letters sur les causes premières (١٨٢٤) نشر بعد موته بستة عشر عاما يظهر أنه تراجع عن مذهبه المادي وأرجع العلة الأولى للذكاء والإرادة[٥٦]. والمادي قد يذكرنا بأن الجراح الكبير قد حذرنا من تأثير الجسم الهرم (الذي اعترته الشيخوخة) على عقله المرتبط به (أي المرتبط بهذا الجسم). وربما افترض الشكوكي (النزاع إلى الشك خاصة في مبادىء الدين) أن غموض الوعي (الشعور) هو الذي دفع كاباني Cabanis إلى الشك في قدرة المذهب المادي على تبسيط الحقيقة المعقدة جدا والمباشرة. وعلى أية حال فإنه لأمر طيب أن يذكر فيلسوف نفسه بين الحين والحين أنه مجرد ذرة يتحدث إلينا عن اللامتناهي.

وثمة رجلان عاصرا عهد الفلاسفة (المفكرون Philosohpes) عاشا حتى يلتقيا بالثورة التي كانت حلما مرغوباً فيه. فعندما رأى الأب الراهب رينال Abbé Raynal الذي أصبح

اسـمـه لامـعـا في سنة ١٧٧٠ بإصـداره كـتـابا عن التـاريخ الفلسـفي Histoire philsophique des deux Indes... – نور الحركة التنويرية يخبو بسبب إسفاف الجماهير (العوام)، أرسل إلى الجمعية التأسيسية خطابا في ٣١ مايو سنة ١٧٩١، يعترض فيه ويتنبأ: "لقد كانت لدي الجسارة مدة طويلة لأذكر الملوك بواجباتهم، فدعوني اليوم أن أقول للشعب أخطاءه". لقد حذر هذا الأب الراهب من أن طغيان العامة يمكن أن يكون ظالما و طاغيا كالحكم المطلق للملوك. لقد دافع عن حق الإكليروس في الدعوة للدين، ما دام المناوئون للدين أو رجاله يتمتعون بحرية الكلام. وأدان كذلك التمويل المالي الحكومي لأي دين (كانت الدولة في ذلك الوقت تدفع رواتب القسس) كما أدان هجوم الغوغاء المعادين للدين على رجال الدين. وحث روبيسبير أعضاء الجمعية الغاضبين على التسامح مع هذا الفيلسوف (المثقف) الهرم البالغ من العمر ثماني وسبعين سنة، وبذا نجا من القبض عليه، ومع هذا فقد صودرت ممتلكاته ومات فقيرا محبطا في سنة ١٧٩٦.

وعاش كونستانتيل شاسبيف دي فولني Constantin Chassebeuf de Volney في معمعة أحداث الثورة وعرف الشخصيات البارزة كلها في باريس من دولباش d'Holbach إلى نابليون. وبعد أعوام من الترحال في مصر والشام تم انتخابه لمجلس طبقات الأمة كما كان عضوا في الجمعية التأسيسية (الوطنية قبل ذلك) حتى حلها سنة ١٧٩١. وفي هذا العام نشر الأصداء الفلسفية لرحلاته وجولاته في كتابه:

Les Ruines, Ou Méditations sur les révolutions des empires

ما سبب انهيار هذه الحضارات القديمة الكثيرة؟ وقد أجاب فولني على هذا السؤال بقوله إنها انهارت بسبب الجهل المبثوث في شعوب هذه الحضارات بفعل الأديان الغيبية التي تدعمها حكومات استبدادية، وبسبب صعوبة نقل المعرفة من جيل إلى جيل. والآن وقد فقدت هذه العقائد الخرافية أساسها، ويسرت الطباعة حفظ المعرفة وانتقال العناصر الحضارية، فإن على البشر أن يأملوا في بناء ثقافات (حضارات) دائمة قائمة على نظم أخلاقية تفضي إلى امتداد سيطرة الإنسان على نزعاته غير الاجتماعية وتساعده على التعاون والوحدة خاصة وأن المعرفة قادرة الآن على التطور والانتشار وقد قبض عليه في سنة

١٧٩٣ باعتباره جيروندياً وقضى في السجن تسعة أشهر، فلما أطلق سراحه أبحر إلى أمريكا ورحب به جورج واشنطن، لكن الرئيس آ د مز Adams (١٧٩٨) اتهمه بأنه جاسوس فرنسي فكرّ عائداً إلى فرنسا. وعمل كسيناتور Senator في ظل حكم نابليون وعارض الانتقال من "القنصلية" إلى الإمبراطورية وعكف على الدراسة منعزلاً حتى عهد لويس الثامن عشر الذي جعله شريفاً (نبيلا) في سنة ١٨١٤ ومات في سنة ١٨٢٠، وقد شارك في تنحية البوربون عن العرش كما شارك في إعادتهم للعرش.

٧- الكتب والمؤلفون:

رغم المقصلة ظل الناشرون ينشرون، وظل الشعراء يقرضون، وظل الخطباء يخطبون وظل المسرحيون يستوحون التاريخ والعشق، وراجع المؤرخون أحداث الماضي، وهذب الفلاسفة الحاضر، ونافست امرأتان الرجال في مجال التأليف من حيث عمق المشاعر والشجاعة السياسية وعمق الفكرة. وإحدى هاتين المرأتين هي مدام رولان Roland التي سجنت وجزت المقصلة رقبتها.

واستمرت أسرة ديدو Didot أكثر الأسر شهرة في مجال النشر، في تحسين صب الحروف وإتقان تجليد الكتب وكان فرانسو ديدو François- Didot قد أسس الشركة - للطباعة وبيع الكتب - في باريس في سنة ١٧١٣ وأجرى ابناه فرنسوا أمبروز François- Ambroise وبيير فرانسو Pierre- François تجارب في مجال فن الطباعة، وأصدرا مجموعة من الأعمال الكلاسية الفرنسية برعاية لويس السادس عشر. ونشر بيير - ابن فرنسوا - أمبروز طبعات فيرجيل (١٧٩٨) وهوراس Horace (١٧٩٩) وراسين (١٨٠١)، وكانت هذه الطبعات فاتنة ولائقة حتى إن الأثرياء كان يمكنهم شراءها للاستمتاع باقتنائها من قراءتها. وحقق فيرمين ديدو Firmin Didot (١٧٦٤-١٨٣٦) شهرة بابتداعه حروفاً طباعية جديدة، كما حاز قصب السبق في اختراع الاستريوتيب (الصفحة الطباعية التي تصنع بصب المعدن في قالب من الجص أو الورق المعجن مأخوذ عن حروف منضدة) وقد نشرت شركة فيرمين ديدو في سنة ١٨٨٤ الطبعة الفاخرة لكتاب بول لاكروا Paul Lacroix الموسوم بالعنوان "حكومة

الإدارة و القنصلية والإمبراطورية Directoire, Consulat et Empire وهو الكتاب الذي رجعنا إليه في هذا الموضع عدة مرات، فمنه على سبيل المثال علمنا أنه على طول فترة الحقبة الثورية كانت مبيعات كتب فولتير وروسو بمئات الألوف من النسخ. وقد أصدر المؤتمر الوطني مرسوما (١٩ يوليو ١٧٩٣) لضمان الملكية الفكرية للمؤلف في مطبوعاته حتى بعد وفاته بعشر سنوات[٥٧].

وأشهر شاعرين في العقد الثوري بدأا متفردين في طريقة التعبير والأسلوب، وانتهت حياتهما بنصل المقصلة نفسها. لقد ألف فيليب فرانسوا فابر Philippe François Fabre أشعارا جميلة ومسرحيات ناجحة، وأصبح رئيسا لنادي الكوردلييز(تجمع سياسي يسارى سبقت الإشارة إليه) وسكرتيرا لدانتون وعضوا في المؤتمر الوطني وفيه صوت لصالح طرد الجيرونديين وإعدام الملك وعين في اللجنة المنوط بها وضع تقويم جديد (التقويم الجمهوري بدلا من التقويم الميلادي). وابتدع كثيرا من أسماء شهوره الفصلية، تلك الأسماء المتسمة بجمال التعبير وحسن التصوير، وفي ١٢ يناير سنة ١٧٩٤ قبض عليه بتهمة الفساد والتزوير والتعامل مع الوكلاء الأجانب والتربح والاستغلال، وفي أثناء محاكمته غنى قصيدته القصصية الجذابة :

"الدنيا تمطر Il pleut

الدنيا تمطر Il pleut

هيا أيها الراعي berger

اجمع غنمك البيضاء rentre tes blancs moutons"

لكن القضاة لم تكن لهم آذان لسماع هذه الأغنية الرعوية (المعنى: لم تجده قصائده شيئا) وفي طريقة إلى المقصلة (٥ أبريل ١٧٩٤) راح يوزع نسخاً من أشعاره على الناس.

أما أندرية ماري دى شينييه André - Marie de Chénier فكان أفضل شعرا وأفضل أخلاقا، لكنه لم يكن أفضل مصيرا. ولد في القسطنطينية سنة ١٧٦٢ من أب فرنسي وأم يونانية وقد قسم حبه الأدبي بين الشعر الإغريقي والفلسفة الفرنسية. تلقى تعليمه في نافار Navarre وأتي إلى باريس في سنة ١٧٨٤، وعقد صداقات مع ديفيد ولافوازيه وقبل الثورة

بتحفظ. وعارض الدستور المدني للإكليروس الذي ربط الكنيسة الكاثوليكية بالدولة، وأوصى في الجمعية الوطنية بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة، وبإطلاق حرية العبادة لكل الأديان والمذاهب وأدان مذابح سبتمبر وامتدح شارلوت كورداي Charlotte Corday لقتلها مارا Marat وكتب خطابا من أجل لويس السادس عشر إلى المؤتمر الوطني طالبا استئناف حكم الإعدام أمام الشعب، وأدى هذا إلى أن أصبح موضع شك من اليعاقبة الحاكمين، فتم سجنه باعتباره جيروندیا، وقد أحب سجينة جميلة هي الآنسة دى كواني de Coigny التي وجه إليها "الفتاة الأسيرة La Jeune- Captive" التي أكد لامارتين Lamartine أنها "أكثر التنهدات التي خرجت من زنزانات السجون شجنا"(٥٨) وعندما مثل للمحاكمة رفض الدفاع عن نفسه وذهب في طريقه إلى الموت تخلصا من عصر تسوده البربرية والطغيان. ولم ينشر سوى قصيدتين طوال حياته لكن أصدقاءه أصدروا بعد إعدامه بخمسة وعشرين عاما طبعة جمعوا فيها أشعاره جعلته مثل كيتس Keats بالنسبة للأدب الفرنسي. ولا بد أن يكون تفجعه لمأساته ومأساتها هو ما عبر عنه في المقطع الشعري الأخير من قصيدته "الفتاة الأسيرة".

"– آه أيها الموت لست في حاجة للعجلة !

انصرف! انصرف!

– اذهب لتواسي قلوبا عرفت العار والخوف

– حيث النواح والعويل بلا أمل

– بالنسبة لي فإن بالز Pales إلهة القطعان سيظل أمامها طرقها المعشوشبة

– إن للحب قبلاته، وللربة موزيه Muze راعية الشعر والفنون والعلوم أناشيدها

– وأنا ايضا لا أرغب الموت."(٥٩)

وكان أخو أندريه الأصغر جوزيف دى شينييه Joseph de Chénier (١٧٦٤ – ١٨١١) مسرحيا ناجحا، وأعاد للأذهان الهياج الذي سببه تمثيل تالما Talma لمسرحية شارل التاسع Charles IX. وكتب كلمات الأنشودة العسكرية "نشيد الرحيل Chant du départ" وأغنية للحرية Hymne à La Liberté وقد غنيتا في "مهرجان العقل Fast of rea-

son" وقدم لفرنسا ترجمة بارعة لكتاب جراى Gray :

Elegy Written in a Country Churchyard وتم انتخابه للمؤتمر الوطني، وأصبح بمعنى الكلمة هو الشاعر الرسمي للثورة. وفي آخر عمره كلفه المعهد الفرنسي بإعداد حصر تاريخي بحالة الفكر الفرنسي وتطوره منذ سنة ١٧٨٩، لكنه مات قبل أن يتمه، ومع هذا فهو سجل واسع للكتاب الذين حققوا شهرة في هذه الفترة والذين نسي الناس معظمهم حتى المتعلمون الفرنسيون. وقد مات أعضاء الأكاديمية الفرنسية الملقبين بالخالدين بعد موته بفترات يسيرة.

وكان الأدب الفرنسي قد استعاد عافيته في ظل حكومة الإدارة بعد أن تحكمت فيه السياسة في عهد المؤتمر الوطني. لقد تكونت مئات من الجمعيات الأدبية وكثرت نوادي القراءة، وانتشرت عادة القراءة وازدهرت. وكانت معظم القراءات في مجال الروايات والقصص الرومانسي والشعر، فهذه القراءات بدأت تحل محل الولع بقراءة الأعمال التراجيدية. وترجم كتاب ماسفير سون Machpherson (Ossain) إلى الفرنسية وأقبل عليه القراء على اختلاف ميولهم من خادمات غرف النوم إلى نابليون.

٨ مدام دى ستيل والثورة :

كان ثمة امرأة تقف بمعزل عن صائغي الكلمات التي يفرضونها بقوة الصوت أو بقوة شخصياتهم، لقد قبلت هذه المرأة الثورة في الوقت الذي كانت فيه معشوقة من عشاق كثيرين أتى الواحد منهم إثر الآخر، لكنها شجبت الغوغاء وحكم الإرهاب وتصدت لنابليون في كل خطوة وظلت حية حتى النصر، بينما كان هو يذوي حيا كالميت. لقد تمتعت جيرمين نيكر Germaine Necker بمزايا هيأت لها الشهرة والحظ الحسن: فأبوها الذي سرعان ما أصبح مليونيرا أصبح وزيرا لمالية فرنسا، وأمها التي كان إدوارد جيبون Edward Gibbon يلاحقها في وقت من الأوقات، جمعت في صالونها عباقرة باريس المشهورين، ليؤدي ذلك إلى تعليم ابنتها، سواء كانت هذه النتيجة مقصودة مدبرة أم أتت بغير قصد ولا تدبير.

ولدت في باريس في ٢٢ أبريل سنة ١٧٦٦ . وقد ملأها نيكر Necker - باعتباره مرشدها الرئيسي - بمزيج متفجر من التاريخ والأدب والفلسفة، وكتابات راسين وريتشاردسون وكالفن Calvin وروسو. ولقد تجاوبت في رقة الشعور مع كلاريسا هارلو Clarissa Harlow وفي حماس الشباب مع دعوة روسو إلى الحرية لكنها أثبتت حساسيتها بشكل مؤلم مع الكالفنية Calvinism وقاومت النظام واللاهوت اللذين كانا هما طعامها اليومي. وشيئا فشيئا نفرت بسرعة مما يزعجها - سيطرة أمها - وأحبت أباها الفاضل المعين رغم تسامحه. تلك هي العلاقة الوحيدة التي حافظت عليها وتمسكت بها بإخلاص كامل، أما علاقاتها الأخرى فكانت عرضية لا تتسم بالاستمرار. لقد كتبت: "قدرانا كانا سيكونان قدرا واحدا يوحدنا للأبد لو كان القدر قد شاء أن يجعلنا في الفترة الزمنية نفسها"(٦٠). وفي هذه الأثناء سمح لها من سن البلوغ فصاعدا أن تحضر اجتماعات أمها الدورية مع المفكرين، وكان الهدف من السماح لها بذلك هو مزج عواطفها بالفكر، وفي صالون أمها أسعدت العلماء بسرعة فهمها وحضور بديهتها. وبمرور الوقت أصبحت وهي في السابعة عشرة نجمة الصالون.

والآن حان وقت البحث لها عن زوج موافق لعقليتها ومناسب لمكانة أسرتها الثرية. ورشح لها والداها وليم بت William Pitt النجم الصاعد في سماء السياسة الإنجليزية لكن جيرمين رفضت الفكرة للسبب نفسه الذي جعل أمها ترفض جيبون Gibbon وهو أن الشمس لا تكون مشرقة فترة كافية في إنجلترا كما أن الإنجليزيات جميلات لكنهن مقموعات (لا يسمعهن أحد). وتقدم لها البارون إريك ماجنوس ستيل فون هولشتين Eric Magnus Stael Von Holstein الذي كان قد أصبح مفلسا، وأرجأ آل نيكر طلبه حتى أصبح هو السفير السويدي لدى فرنسا. فما أن حدث هذا حتى وافقت جيرمين على الزواج منه لأنها توقعت أن تكون وهي زوجة أكثر استقلالا منها وهي ابنة. وفي ١٤ يناير في سنة ١٧٨٦ أصبحت هي البارونة دى ستيل هولشتين Holstein de Stael وكانت في العشرين من عمرها، بينما كان البارون (زوجها) في السابعة والثلاثين من عمره. وكان هناك تأكيد أنها "لم تكن تعرف شيئا عن الاتصال الجنسي حتى زواجها"(٦١) لكنها كانت

سريعة التعلم في مختلف المجالات. وقد وصفتها الكونتيسة دي بوفلر de Boufflers التي كانت في مقدمة الحاضرين في حفل العرس بأنها "معجبة بعقلها وذكائها بشكل زائد حتى إنه من الصعب أن يجعلها ذلك تتحقق من عيوبها. إنها متغطرسة وذات إرادة قوية بشكل يفوق الوصف، وواثقة من نفسها حتى إنني لم أر لها في هذا نظيراً ممن هم في مثل عمرها"(٦٢) لم تكن جميلة فبنيانها رجولي كعقلها لكن عينيها تتلألآن بالحيوية أما عند النقاش فليس لها كفء.

وقد ذهبت لتعيش في السفارة السويدية في شارع دوباك Rue du Bac وسرعان ما أسست لها صالونا هناك، لكن أيضا - تخلصاً من إزعاج أمها - اتخذت لصالونها مقرا في شقة فوق بنك أبيها. وطرد نيكر من وزارة المالية في سنة ١٧٨١ ولكنه استدعى مرة أخرى ليشغل المنصب نفسه في سنة ١٧٨٨ لتحاشي تهديد الثورة. إنه الآن رغم ملايينه المثل الأعلى في باريس، وكانت جيرمين تؤيده بشدة بلسانها وقلمها، وكان لديها بعض الأسباب التي تجعلها فخورة به، وأصبحت السياسة والحب غير المشروع هما طعامها وشرابها (لا هم لها سواهما).

وبناء على نصيحة نيكر دعا لويس السادس عشر مجلس طبقات الأمة للانعقاد، وأمر الملك متجاوزا اعتراض نيكر أن تجتمع كل طبقة في مكان منفصل محافظا بذلك على الفصل بين الطبقات. وفي ١٢ يوليو سنة ١٧٨٩ طرد الملك نيكر للمرة الثانية وأمره بمغادرة فرنسا فورا. فأسرع نيكر وزوجته بالتوجه إلى بروكسل وتبعتهما جيرمين وقد ملأها الغضب فنسي ستيل Stael مهام منصبه وصحبها وربط مصيره بمصيرها. وفي ١٤ يوليو اجتاح الباريسيون سجن الباستيل وهددوا العرش. فأرسل الملك الذي تملكه الرعب لاستدعاء نيكر إلى باريس ليشغل منصبه فعاد نيكر وصفق له الشعب، واندفعت جيرمين عائدة إلى باريس وراحت تحس كل يوم برياح الثورة الساخنة حتى مذابح سبتمبر.

وأيدت مجلس طبقات الأمة لكنها دافعت عن فكرة وجود مجلسين تشريعيين في ظل ملكية دستورية مؤكدة أفكار الحكومة النيابية والحريات المدنية وحماية الملكية. وكلما تقدمت الثورة في مسارها كانت هي تبذل قصارى جهدها للتخفيف من أفكار اليعاقبة.

وكانت تشجع الجيرونديين.

وعلى أية حال فقد بزّت اليعاقبة في فلسفتها الأخلاقية وكل من قابلتهم من الرجال تقريبا كان الواحد منهم يرى أنه من المعقول أن يكون زواجه قائما على اتحاد الثروات (ثروته وثروة زوجته) لا على اتحاد القلوب، إذ يمكن لمحظية أو محظيتين أن تتيح له الإثارة والرومانسية، لكن الواحد من هؤلاء الرجال لم يكن يظن أن هذا الامتياز يمكن أن يمتد ليشمل الزوجة لأن عدم إخلاصها قد يؤدي إلى إنجاب أولاد ليسوا من صلبه وبالتالي تضيع الثروة (تذهب لغير أبنائه أي تفسد عملية التوريث) ولم تكن جيرمين تشعر بهذه الحجة لأنها وهي الابنة الوحيدة يكاد يكون الميراث كله لها، لذا فقد انتهت إلى نتيجة مؤداها أن عليها أن تبحث عن الرومانسية متحررة من القيود كلها حتى في اختيار أسرّة أخرى (التعامل في غير مخدع الزوجية).

وكانت قد فقدت احترامها لزوجها سريعا، فقد كان مطيعا جدا بطريقة لا تجعله مثيرا، وكان غير كفء بطريقة تجعله غير قادر على تسديد ديونه، ولم تكن معترضة على اتخاذه من الآنسة كليرون Clairon محظية، لكنه كان ينفق دخله الحكومي على ممثلة مسرحية عمرها إحدى وسبعون سنة وكان يهمل واجباته كسفير وكان يقامر ويخسر وتراكمت عليه الديون مرارا، فكان يدفعها عنه زوجته وأبوها مكرهين، ومن هنا فقد شقت طريقها بين موكب العشاق لأنه كما قالت في "دلفين Delphine" "بين الله والحب لا أعترف بوسيط سوى ضميري" والضمير يمكن التحكم فيه Could be managed وكان من بين أول من تعاون معها تاليران Talleyrand أسقف أوتون Autun المطرود الذي اتفق معها في مسألة مرونة النذر أو القسم (اتخاذ المرء على نفسه عهدا Flexibility of vows) ثم أتى بعده الكونت جاك أنطوان دى جوبير Jacques Antoine de Guibert الذي أصبح فيما بعد "المثل الأعلى الجميل beau Idéal" لجولي دى ليسبيناس Julie de Lespinasse لكنه على أية حال مات في سنة ١٧٩٠ وهو في السابعة والأربعين. وقبل موته بعام كون علاقة أعمق وأكثر استمرارا مع لويس دي ناربون لارا Louis de Narbonne Lara، وكان ابنا غير شرعي، وكان لديه هو نفسه عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره عددا من الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) لكنه

كان وسيما بشكل ملحوظ، ويتحلى بدماثة وفضائل قلما يتحلى بها شاب وضيع الأصل (ليس له شجرة نسب). وكان بحكم ميراثه الاجتماعي يقف إلى جانب الأرستقراطية ضد البورجوازية (محدثي النعمة) لكن جيرمين جذبته إلى أفكارها وجعلته من أنصار الملكية الدستورية التي يمكن في ظلالها للطبقة التي تمتلك أن تشارك النبلاء والملك في الحكم. وإذا كان لنا أن نصدقها فإن ناربون Narbonne "غير قدره من أجلي، وتخلى عن ارتباطاته ووقف حياته لي. باختصار... لقد أقنعني أنه سيعتبر نفسه سعيدا بامتلاكه قلبي، وأنه إذا لم يجد لذلك سبيلا فقد لا يستطيع البقاء على قيد الحياة"[٦٣].

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٠ استقال نيكر، لعدم رضا النبلاء المحيطين بالملك عن سياسته، واتجه هو وزوجته ليعيشا حياة هادئة في قصره في كوبت Coppet، ولحقت بهما جيرمين في أكتوبر لكنها سرعان ما سئمت الهدوء في سويسرا، وأسرعت عائدة لما أسمته – بالمقارنة – باسم شارع دو باك اللذيذ[٦٤] Rue du Bac فهناك كان صالونها تتردد فيه أصوات لافاييت Lafayette وكوندرسية Condorcet وبريسو Brissot وبارناف Barnave وتاليران وناربون، وصوتها. ولم تكن راضية عن اكتفائها بالمناقشات الألمعية، فقد كانت تتطلع للقيام بدور سياسي. وأطلقت العنان لأحلامها بتحويل فرنسا من الكاثوليكية إلى البروتستانتية وكانت تأمل من خلال عش النبلاء الذي بنته أن تنهي الثورة بملكية دستورية تحقق فرنسا في ظلها السلام. وبمساعدة لافاييت Lafayette وبارناف Barnave ضمنت تعيين ناربون Narbonne وزيرا للحرب (٦ ديسمبر ١٧٩١). وقد أيدت ماري أنطوانيت هذا التعيين مكرهة، فقد علقت قائلة:

"يا للمجد الذي حازته مدام دستيل de Stael " يا لسعادتها أن يكون الجيش كله تحت تصرفها !!"[٦٥].

لقد اشتط ناربون كثيرا، ففي ٢٤ فبراير قدم للويس السادس عشر مذكرة يشير عليه فيها أن يولي ظهره للأرستقراطية، وأن يعطي ثقته ودعمه لبورجوازية الملاك التي تأخذ على عاتقها المحافظة على القانون والنظام والملكية(*) المقيدة، وقد اعترض بقية الوزراء غاضبين،

(*) الملكية بفتح الميم واللام.

ورضَخَ لويس لمعارضتهم وطرد ناربون Narbonne، فسقط بيت جيرمين غير الراسخ أو غير القائم على أساس، وقامت مدام رولان بوضع الملح على جروح منافستها بأن عملت من خلال بريسو Brissot على تعيين زوجها (زوج مدام رولان) وزيرا للداخلية.

لقد عاشت جيرمين في باريس خلال معظم عام ١٧٩٢، هذا العام المتسم بالاضطراب، وفي ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ شاهدت اجتياح الجموع لقصر التوليري، ورغم أنها رأت المشهد عبر نهر السين إلا أن طريقة الجماهير غير المتحضرة سببت لها الرعب.

"لقد كانت صيحاتهم المرعبة وتهديداتهم المصحوبة بالقسم وإيماءاتهم وأسلحتهم الغدارة القاتلة، كل ذلك كان يشكل مشهدا مرعبا يمكن أن يدمر وإلى الأبد الاحترام الذي يجب أن يتطلع إليه الجنس البشري"(٦٦). لكن هؤلاء الجورى Jourée (كما اعتاد الفرنسيون تسميتهم بعد ذلك) أصبحوا هادئين بعد أن استرضاهم الملك بوضع « كاب » الثورة الأحمر فوق رأسه. وعلى أية حال ففي ١٠ أغسطس شاهدت من مكمنها الآمن استيلاء الغوغاء على التوليري وإراقة الدماء في أثناء عملية الاستيلاء وكيف أن الغوغاء لم يهدأوا حتى فر الملك والملكة ليكونا تحت حماية الجمعية التشريعية. وبدأ الثوار في القبض على كل أرستقراطي وقعت عيونهم عليه، واستغلت جرمين وضعها الآمن في حماية أصدقائها من الأرستقراطيين، فخبأت ناربون في موضع منعزل في السفارة السويدية، وصمدت بعناد وأخيرا اتفقت مع جماعة من خفر السواحل، وفي ٢٠ أغسطس كان ناربون آمنا في إنجلترا.

وكان بعد ذلك ما هو أسوأ، ذلك أنه في ٢ سبتمبر قاد لابسو السراويل « البناطيل » الطويلة (الذين لا يرتدون سراويل قصيرة أو السانس كولوت) النبلاء ومؤيديهم وقتلوهم ولم تنج مدام دى ستيل من هذا المصير إلا بشق الأنفس. فبعد أن ساعدت كثيرين من أصدقائها على الخروج من باريس بل ومن فرنسا كلها بدأت هي نفسها في يوم ٢ سبتمبر الساطع هذا رحلتها في عربة من عربات الدولة تجرها ستة خيول ومعها خدم ذوو ثياب مميزة واتجهت إلى بوابات المدينة، ووضعت بترٍو شارة السفراء وعلاماتهم على أمل أن يستقبلها موفدون دبلوماسيون، وما كادت العربة تنطلق حتى أوقفها "سرب من النسوة العجائز،

وكأنهن خرجن من الجحيم" وأمرت جماعة من العمال الحوذيين بالتوجه إلى مركز الحي (القسم) وهناك أَفْزَعَ الحراس المجموعة بتوجيههم العربة ومن فيها إلى دار البلدية. "وهناك خرجت من العربة وأحاط بي غوغاء مسلحون وشققت طريقي بين أسنة الرماح، وبينما كنت أصعد السلم الذي كان أيضا غاصا بحاملي الرماح وجه أحدهم رمحا إلى قلبي. لكن رجل الشرطة المصاحب لي أبعده عني بسيفه. لو أن قدمي زلت في هذه اللحظة لكان في ذلك نهايتي"(٦٧). وفي مقر الكومون وجدت صديقا عمل على إطلاق سراحها ورافقها إلى السفارة وسلمها جواز سفر مكنها في صباح اليوم التالي من مغادرة باريس بأمان إلى كوبت Coppet. لقد كان هذا هو اليوم الذي رفع فيه رأس الأميرة ديلامبل de Lamballe على سن رمح وطيف به لتراه الملكة السجينة.

ووصلت جيرمين إلى أحضان والديها في ٧ سبتمبر وعندما سمعوا بثورة في جنيف اتجهوا شرقا إلى رول Rolle بالقرب من لوزان Lausanne. وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أنجبت جيرمين ابنها ألبرت وكان سنها وقتئذ ستة وعشرين عاما والذي كانت تحمله معها خلال مغامراتها مع الموت. وربما تكون قد أنجبته من خلال علاقتها مع ناربون لكن زوجها (دي ستيل) أقنع بأنه أبوه، فاقتنع أو تظاهر بالاقتناع. وفي رول Rolle وبعد ذلك في كوبت Coppet آوت إليها عددا من الرجال والنساء المشاهير وغير المشاهير الهاربين من فرنسا قبل حكم الإرهاب في طريقهم إلى بلاد أخرى. "ولم تعبأ هي ولا أبوها بأن هذا قد يسبب المتاعب لهما"(٦٨).

وعندما علمت أن ناربون عرض أن يغادر ملجأه في إنجلترا ويعود ليدافع عن لويس السادس عشر، لم تستطع تحمل فكرة أن يعرض نفسه للخطر، فوجدت أنه يجب عليها التوجه إلى إنجلترا لإثنائه عن عزمه، فاتخذت طريقها عبر فرنسا وعبرت القناة والتقت بناربون في صالة جونيبر Jouniper Hall في ميكلهام Mickelham بالقرب من لندن، وفي ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ أي اليوم نفسه الذي قدم فيه الملك لويس السادس عشر للمقصلة. وكان عشيقها السابق مستثارا جدا بالأخبار التي وصلته، فلم يرحب بها الترحيب الكافي. لقد غلب عليه أصله الأرستقراطي، وضاع حبه لخليلته وسط أحزانه لمقتل الملك، وراح

تاليران المقيم بالقرب من لندن يزورهما تباعا للتخفيف عنهما بفكاهاته. وانضمت إليهما فاني بورني Fanny Burney وذكرت في تقريرها in Macaulay's Summary) أنها " لم تكن قد سمعت أبداً مثل هذه المناقشة قبل ذلك. لقد تجمعت أمور كثيرة لتفتنها: بلاغة تتسم بالحيوية وملاحظات حادة كأشد ما تكون الحدة، وعقل متألق كأشد ما يكون التألق، ولطف وكياسة وعاطفة جياشة، كأشد ما يكون ذلك كله" . ورفضت فاني أن تصدق الإشاعات القائلة بأن ناربون وجيرمين يعيشان في الحرام(يمارسان الزنا معا). لقد كتبت إلى أبيها المؤرخ الموسيقى الشهير :

"لقد كانت هذه المشاركة الحميمة... جديدة تماما لي، وإنني أعتقد اعتقادا راسخا أن ما يقال عنها محض افتراء. إنها تحبه حبا حنونا، لكن بشكل واضح جدا وبسيط جدا.. خال تماما من كل غنج أو عبث. إنها متسامحة جدا، وسهلة جدا، وهو وسيم جدا، ولا بد أن موهبتها العقلية هي مصدر جاذبيتها له، ولا شيء آخر... أظن أنك لا تستطيع أن تقضي يوما معهما من غير أن تدرك أن تجاوبهما الفكري من النوع الخالص رغم سموه وهو أى هذا التجاوب عماد صداقتهما"(٦٩).

لكن عندما تأكدت فاني أنهما يمارسان الرذيلة تخلت آسفة عن زيارتهما في صالة جونيبر. بل إن المهاجرين (الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة) قد ابتعدوا عن هذه المجموعة الصغيرة باعتبار أنهم دافعوا عن الثورة مدة طويلة. وفي ٢٥ مايو سنة ١٧٩٣ عبرت جيرمين إلى أوستند Ostend واتخذت طريقها بأمن إلى بيرن Bern باعتبارها لا تزال زوجة للسفير السويدي، وفي بيرن التقت بزوجها الموسمي (الذي لا يلقاها إلا بين الحين والحين أو بتعبير آخر زوج المناسبات) وذهبت معه إلى كوبت Coppet. وهناك نشرت كتابها: تأملات في محاكمة الملكة بقلم امرأة" دعت فيه بحرارة للنظر إلى ماري أنطوانيت بعين الرحمة، لكن المقصلة سرعان ما قطعت رقبة الملكة في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣.

وماتت مدام نيكر في ١٥ مايو سنة ١٧٩٤ وحزن عليها زوجها حزنا عميقا لا ينتج إلا عن طول العشرة " أما جيرمين فلم تتأثر كثيرا، وانتقلت إلى قصر ميزيرى Mézery لتكون صالونا جديدا ولتنسى كل شيء آخر في أحضان كونت ريبنج Ribbing، ووصل ناربون

متأخرا فوجد أحضانها مشغولة بغيره فعاد إلى خليلته السابقة، وأحيانا في أثناء سقوط سنة ١٧٩٤ كان بنيامين كونستانت (قسطنطين) Benjamin Constant يلتقي بها في نيون Nyon، ليندمجا معا في علاقة طويلة قوامها الفكر والعشق، وكان بنيامين هذا سويديا في نحو السابعة والعشرين من عمره، طويلا بوجهه نمش و كان أحمر الشعر.

وفي هذه الأثناء سقط روبيسبير ووصل المعتدلون إلى السلطة فآن لها أن تعود إلى باريس فعادت في مايو سنة ١٧٩٥ وتصالحت مع زوجها وأحيت صالونها في السفارة النمساوية ودعت إليه الزعماء الجدد للمؤتمر الوطني المحتضر : بارا، وتاليان Tallein وبواسي دنجلا Boissy d ' Anglas وأسود الأدب مثل ماري جوزيف شينييه Marie Joseph de Chénier . واقتحمت مجال السياسة بشوق شديد حتى إن أحد أعضاء المؤتمر الوطني اتهمها بأنها تدبر مؤامرة ملكية واتهم زوجها بأنه ديوث (يقبل الخنا في أهله). وأصدرت لجنة الأمن العام الجديدة قرارا بإبعادها عن فرنسا، وفي أول يناير سنة ١٧٩٦ عادت مرة أخرى إلى كوبت Coppet، وهناك بين كونستانت (قسطنطين) وكتبها كتبت دراسة كئيبة بعنوان: "De L'influence des Passions" أي "أثر الهوى" استوحت فيه روسو وشعورها، وكانت فيه صدى لكتاب The Sorrows of Werther وقد امتدحت في كتابها هذا الانتحار، ورتب أصدقاؤها في باريس طلبات مفعمة حماسا وعاطفة لإعادة النظر في أمرها، فأعلمتها حكومة الإدارة أنه في مقدورها أن تعود إلى فرنسا على أن تكون في مكان يبعد عن العاصمة عشرين ميلا على الاقل، فعادت مع كونستانت (قسطنطين) لتستقر في دير سابق في هيريفو(*) Hérivaux، وفي ربيع سنة ١٧٩٧ سمح لها بالانضمام لزوجها في باريس، وفي ٨ يونيو انجبت ابنتها ألبرتين Albertine لا يعرف أبوها على وجه اليقين. وخلال هذه التعقيدات استطاعت عن طريق باراس Barras أن تتوسط لاستدعاء تاليران من منفاه وتعيينه (في ١٨ يوليو ١٧٩٧) وزيرا للخارجية. وفي سنة ١٧٩٨ فقد البارون دي ستيل de Stael منصبه كسفير، فمنح جيرمين انفصالا وديا (اتفق معها على الانفصال بشكل ودي) مقابل حصة مالية، وعاد إلى منزله الذي يعرف الآن باسم قصر

(*) المعنى شغلت المبنى، الذي كان ديرا سابقا، وليس المعنى أنها ترهبنت. (المترجم)

الكونكورد(*) Concorde وظل به حتى وجدناه ميتا في سنة ١٨٠٢.

وفي ٦ ديسمبر سنة ١٧٩٦ قابلت نابليون لأول مرة في استقبال أعده تاليران لاستقبال فاتح إيطاليا عند عودته لفرنسا. وتحدث إليها نابليون مادحا والدها في عبارات موجزة. ولأول مرة في حياتها لم تكن جاهزة للرد (للتجاوب في الحديث). لقد قالت بعد ذلك: "لقد اعتراني الاضطراب إعجابا به ورهبة منه"(٧٠) وقد سألته سؤالا غبيا: "من هي أعظم امرأة بين الأحياء والأموات؟" فأجابها إجابة ملتوية شيطانية: "إنها المرأة التي أنجبت أكبر عدد من الأبناء"(٧١) وبعد ذلك بأربعة أيام رأته مرة أخرى وأعضاء حكومة الإدارة يستقبلونه مصفقين في قصر لكسمبورج. لقد كانت مرتبكة إزاء شخصية نابليون التي جمع فيها مزاج من الكبرياء والتواضع، وهنا شعرت أن نابليون هو الرجل الذي يحمل معه قدر فرنسا. وظلت طويلاً تواقة لكسب ثقته والاشتراك معه في مشروعات كبيرة، ربما ليكون ذلك نصرا لها يضاف إلى انتصاراتها السابقة، وقد سعدت كثيرا كعاشقة تكتم عشقها في ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ عندما أخبرها لوسين بونابرت أن نابليون خرج منتصرا في سان كلود St.- Cloud وحمل لقب القنصل الأول وهذا يعني عمليا أنه حاكم فرنسا. لقد شعرت عندئذ أن عصر الفوضى والتشوش والمثاليات الكاذبة قد أنتهى وأن عصرا جديدا للأبطال والعظمة قد بدأ.

٩- النتائج، وتأملات في الأحداث:

أما وقد قصصنا قصة الثورة الفرنسية بحياد بقدر ما سمح بعدها عن زماننا. لقد بقي أن نواجه الأسئلة التي أثارها الفلاسفة: أكان للثورة مبرراتها المعقولة في أسباب قيامها وما تمخضت عنه؟ هل حققت مكاسب مهمة للشعب الفرنسي أو البشرية؟ أكان من الممكن الوصول إلى هذه المكاسب بغير ما جرى من فوضى ومعاناه؟ أيمكن أن نخلص من أحداثها بنتائج يمكن تعميمها على الثورات عامة؟ أتلقي أضواء على طبيعة الإنسان؟ إننا نتحدث هنا - فقط عن الثورات السياسية أي التغيرات السريعة والعنيفة لتغيير الحكومات سواء

(*) الكلمة تعني الوئام.

تغيير الحكام أم تغيير السياسة أما التطور بلا عنف فسنطلق عليه "التحول أو النمو والتقدم evolution ، أما التغير السريع والعنيف أو التغيير غير الشرعي الذي يشمل الأشخاص بلا إحداث تغيير في شكل الحكومة فسنسميه انقلاباً Coup d'état، أما أي مقاومة علنية للسلطة القائمة فسنسميها عصيانا rebellion.

إن أسباب الثورة الفرنسية باختصار هي :

(١) عصيان برلمانات الدوائر (المحافظات) مما أدى إلى إضعاف سلطة الملك وإضعاف الولاء لنبلاء « الأرواب » of the robe.

(٢) طموح فيليب دورليان Philippe d'Orléans للوصول إلى العرش ليحل محل لويس السادس عشر.

(٣) عصيان ا لبورجوازية وتمردها على تخلي الدولة عن مسؤوليتها المالية وتدخل الدولة في الاقتصاد، وعدم مشاركة الكنيسة بثرواتها لمواجهة الإفلاس المالي للدولة، واعتراض البورجوازية أيضا على امتيازات الأرستقراطية في أموال الدولة، وفي الحياة الاجتماعية.

(٤) عصيان الفلاحين وتمر دهم بسبب العوائد والمراسيم الاقطاعية والضرائب والعشور الكنسية.

(٥) عصيان جماهير باريس ضد الظلم الطبقي والمعوقات القانونية والعجز الاقتصادي والأسعار المرتفعة والتهديد العسكري. وقد مول البورجوازيون وفيليب دورليان الدعاية التي بثتها الصحف وأججها الخطباء، وتوجيه الجماهير، وإعادة تنظيم الطبقة الثالثة في جمعية وطنية تمكنت من فرض دستور ثوري. وأدت شجاعة العوام وصلابتهم وعنفهم وما بذلوه من دماء إلى إرهاب الملك وإرغامه على قبول الجمعية والدستور كما أرغموا الأرستقراطية على التخلي عن عوائدها الإقطاعية وأرغموا الكنيسة على التخلي عن العشور، وربما وجب أن نضيف كعامل ثانوي إنسانية الملك ورغبته في تحاشي إراقة الدماء.

أما نتائج الثورة الفرنسية فعديدة ومعقدة ومتنوعة ودائمة تماما حتى إنها تجعل من المحتم

تناولها عند كتابة تاريخ القرن التاسع عشر.

١ / ٩ ـ النتائج السياسية، وهي نتائج واضحة: انتهاء النظام الإقطاعي، ليصبح الفلاحون أحراراً، ويصبح جانب منهم ملاكا. وحلت المحاكم المدنية محل المحاكم الإقطاعية وحلت ديمقراطية الملاك محدودي الملكية محل الملكية المطلقة، وحل بورجوازيو الأعمال Business محل الأرستقراطية كطبقة ذات سيادة تتولى أمور الإدارة ومع الديمقراطية أتت المساواة أمام القانون وإتاحة الفرص للجميع على سواء وحرية إبداء الرأي وحرية العبادة وحرية الصحافة (على الأقل تم الإعلان عن هذا كامل) لكن سرعان ما قلت مقادير الحرية المتاحة بسبب التباين الطبيعي بين الناس في القدرات، والتباين بين بيئاتهم في البيوت والمدارس والثروات. ويلاحظ أن هذا التحرر السياسي والاقتصادي والتشريعي قد امتد إلى شمال إيطاليا وبلاد الراين وبلجيكا وهولندا بفضل جيوش الثورة، ففي هذه المناطق أيضا أزيح النظام الإقطاعي ولم يعد حتى بعد سقوط نابليون. ومن هنا كان الفاتحون محررين وإن لوثوا عطاياهم بما مارسوه من ابتزاز في أثناء حكم هذه المناطق.

وأكملت الثورة توحيد ولايات (محافظات) فرنسا نصف الموحدة وجعلوا منها دولة فرنسية ذات حكومة مركزية وجيش وطني وقانون يسري في جميع الولايات جميعها. وكانت وحدة هذه المحافظات في كيان واحد ناقصة قبل الثورة بسبب البارونات الإقطاعيين وضرائب الانتقال من محافظة إلى أخرى واختلاف أصول (أعراق) سكانها واختلاف تقاليدها وعملتها وقوانينها. لكن هذا التغيير فيما يشير توكفيل Tocqueville كان يسير سيرا حثيثا في ظل البوربون، فكان من المحتمل انجاز وحدة فرنسا بغير الثورة لأن التجارة على مستوى فرنسا كلها كانت بشكل متزايد تتجاهل الحدود بين المحافظات، تماما كما فرض الاقتصاد الوطني في الولايات المتحدة تقليص حقوق (الولايات) بإيجاد حكومة فدرالية كان لا بد أن تكون قوية.

وعلى النحو نفسه فإن تحرير الفلاح وصعود البورجوازية للسلطة السياسية و الهيمنة الاقتصادية، كان من الممكن أن يحدث بغير الثورة، وإن كان حدوثه في هذه الحال سيكون بشكل أبطأ. وكانت الثورة في ظل الجمعية الوطنية (١٧٨٩-١٧٩١) معقولة ولها ما يبرر

تصرفاتها فيما وصلت إليه من نتائج دائمة، لكن الثورة في ظل حكومات الفترة من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٥ كانت تمثل فترة بربرية تمثل فيها القتل والإرهاب والانهيار الخلقي بطريقة لا يمكن تبريرها بشكل كاف بوجود مؤامرات خارجية وهجوم خارجي. وفي سنة ١٨٣٠ عندما أنهت ثورة أخرى الأمور بتأسيس ملكية دستورية، كانت النتيجة هي تقريبا مثل النتيجة التي تم التوصل إليها في سنة ١٧٩١.

وما حققته الثورة من مكسب بتوحيد فرنسا جرت موازنته بتطور "الوطنية" لتصبح مصدرا جديدا للعداوة بين الجماعات، فالقرن الثامن عشر كان ينحو عند الطبقات المتعلمة إلى التحرر من الأحقاد الوطنية بإضعاف الفروق بين الأوطان في الثقافة واللباس واللغة، لقد كانت الجيوش نفسها في غالبها تنحو نحو العالمية جنوداً وقادة. وقد غيرت الثورة هذا الاتجاه باتخاذها التجنيد الإلزامي نظاما، وأصبح الولاء للأمة بدلا من الولاء للأسرات المالكة هو الأساس وهو دافع الحرب وينبوعه. ونجح التآخي (الرفقة) بين الجنرالات في أن **يحل محل التكتل** الأرستقراطي بين الضباط، وطغت وطنية الجنود المفعمة حماسا على برود موظفي الحكم القديم وممارستهم أعمالهم بلا روح. وعندما طور الجيش الفرنسي نظامه وازداد كبرياؤه أصبح القوة الوحيدة المنظمة في دولة مشوشة، وأصبح الملجأ الوحيد من بلبلة حكومات لا تتسم بالكفا ء ة وجماهير متمردة.

لا شك أن الثورة قد أتاحت الحريات بشكل أفضل في فرنسا وما وراءها، ومدتها لفترة إلى المستعمرات الفرنسية، بل وحررت عبيد هذه المستعمرات. لكن الحرية الفردية كانت تنطوي على مثالب. لقد ظلت هذه الحرية الفردية تزداد حتى تجاوزت الحدود الضرورية لنظام اجتماعي والضرورية لبقاء المجتمع على قيد الحياة، فالحرية التي لا حدود لها هي الفوضى كاملة، وأكثر من هذا فإن القدرات المطلوبة لإشعال ثورة تختلف تماما عن القدرات المطلوبة لبناء نظام جديد، فإشعال ثورة يتطلب – ليتم بسرعة – سخطا وعاطفة وانفعالا وشجاعة ولامبالاه بالقانون، وبناء نظام جديد يتطلب صبرا وعقلا وتقديرا للأمور بشكل عملي واحتراما للقانون. وما دامت القوانين الجديدة لا يدعمها تراث وعادات، فإنها عادة ما تفرض بالقوة. وأصبح دعاة الحرية هم القابضين على السلطة أو الذين أفسحوا المجال

للقابضين على السلطة ولم يعودوا هم زعماء الغوغاء المدمرين وإنما قادة البناء المنظمين في ظل دولة عسكرية تحميهم وتشرف عليهم. ولحسن الحظ، فإن الثورة استطاعت أن تتخلص من الدكتاتورية أو تقصر أمدها، فحافظت على مكاسبها من الحرية للأجيال التالية.

٩/٢ ـ النتائج الاقتصادية: وتتمثل في ملكية الفلاحين وفي الرأسمالية وقد نتج عن كل منهما آثار لا نهاية لها، فبعد أن أصبح الفلاحون ملاكا صاروا قوة محافظة شديدة، أبطلوا الاتجاه الاشتراكي للبرولتياريا الذين لا يملكون، وعملوا - أي الفلاحون - كمرساة أمان لاستقرار الدولة التي كانت تعاني من صدمات ما بعد الثورة، وظل دورهم هذا قائما عبر قرن من الزمان. وعلى هذا فقد تطورت الرأسمالية التي تلقى الحماية في الريف كما تطورت في المدن، وحلت النقود السائلة (السيولة النقدية) محل الثروة العقارية كقوة اقتصادية وسياسية، وتخلص الاستثمار الحر من السيطرة الحكومية.

وحقق الفيزيوقراط(*) نصرا في معركتهم، أي أن يتركوا لحركة السوق تحديد الأسعار والأجور والإنتاج، فيكون "النجاح" أو "الفشل" محكوما بالمنافسة في "السوق" فيجب ألا تعوق القوانين حركة السوق. وتحركت البضائع من محافظة إلى محافظة بلا إزعاج أو تعويق بعد إلغاء ضرائب الانتقال الداخلية (من محافظة إلى أخرى) ونمت الثروة الصناعية وزاد تركزها عند القمة.

وعملت الثورة أو تشريعات الثورة بشكل متكرر على إعادة توزيع الثروة التي تركزت في جانب دون الجوانب الأخرى وأدى تفاوت القدرات أو الامتيازات إلى تركزها مرة أخرى (في جانب أو طبقة). لقد حتم تفاوت قدرات الأفراد حصول كل منهم على ما يكافىء جهده، فكان من الضروري أن تتفاوت حظوظهم في الحياة. فكل تفوق "طبيعي" يؤدي إلى مزايا في البيئة أو في الفرص. وحاولت الثورة أن تقلل من هذا التفاوت المتكلف (المصطنع)، لكنه سرعان ما عاد مرة أخرى وبشكل أسرع في ظل الحرية، فالحرية والمساواة لا يجتمعان (الحرية والمساواة عدوان لا يلتقيان Liberty and equality are enemies) فالناس تسعد بمزيد من الحرية لا لشيء إلا ليحصدوا نتائج تفوقهم "الطبيعي" و "البيئي" ومن هنا

(*) الطبيعيون ورد في حاشية سابقة فكرة مبسطة عنهم.

فإن التفاوت (عدم المساواة) يزداد كثيرا في ظل الحكومات التي تؤيد الاقتصاد الحر وتدعم حقوق الملكية. فالمساواة مبدأ مزعزع غير مستقر (توازنه غير ثابت) أي أن المساواة (بفرض وجودها) سرعان ما تنتهي إن حدث تغير في المواريث أو الصحة أو الذكاء أو الشخصية. وقد وجدت معظم الثورات أنه لا سبيل لمواجهة التفاوت "عدم المساواة" إلا بالحد من الحرية، كما في نظم الحكم الشمولية. وفي فرنسا الديمقراطية كان التفاوت (عدم المساواة) مطلق السراح ليزداد، أما المساواة فقد ذبحتها الجيلوتين (المقصلة) وفي الوقت المحدد أصبحت اتفاقا على ارتداء السراويل(*) (يقصد المساواة من الناحية الشكلية كون الناس جميعا في فرنسا يرتدون زيا واحدا - السراويل - أو أن من حقهم ذلك).

٣/ ٩ - النتائج الثقافية: لا تزال النتائج الثقافية للثورة الفرنسية تؤثر في حياتنا. لقد أعلنت الثورة حرية الحديث والصحافة والاجتماع، حقيقة لقد جرى تقليص هذه الحريات بشدة، بل وانتهت على يد نابليون تحت ضغط الحرب، لكن المبادىء نفسها ظلت باقية وخاضت معارك متتالية لإثبات وجودها خلال القرن التاسع عشر لتصبح قابلة للتطبيق (أو إدعاء تطبيقها) في ديمقراطيات القرن العشرين. وخططت الثورة لقيام نظام وطني للمدارس ونفذت ذلك بالفعل. وشجعت العلم ليكون بديلا للاهوت على مستوى العالم كله. وفي سنة ١٧٩١ عينت الحكومة الثورية لجنة جعلت على رأسها لاجرانج Lagrange لتضع لفرنسا الجديدة الموحدة نظاما جديدا للموازين والمقاييس فتم اعتماد النظام المتري الذي أوصت به رسميا في سنة ١٧٩٢، وصدر به قانون في سنة ١٧٩٩. وكان على هذا النظام المتري أن يناضل ليشق طريقه في المحافظات الفرنسية إذ لم يكن قد حقق النصر الكامل حتى سنة ١٨٤٠ وقد ألغي في بريطانيا العظمى الآن ليحل محله النظام الاثني عشري duodecimal system.

وبدأت الثورة بفصل الكنيسة عن الدولة لكن هذا ثبت أنه أمر صعب في دولة كفرنسا تهيمن عليها الكاثوليكية وتعتمد تقليديا على الكنيسة في تهذيب شعبها. ولم يكن هذا الفصل كاملا حتى سنة ١٩٠٥ وعاد ليضعف مرة أخرى هذه الايام تحت ضغط أسطورة

(*) أي البناطيل.

مؤازرة الحياة a life sustqining myth . وفي محاولتها إحداث طلاق بين الدولة والكنيسة ناضلت الثورة لنشر "الأخلاق الطبيعية" . ووجدنا أن هذه المحاولة لم تنجح. فمن ناحية نجد أن تاريخ فرنسا في القرن التاسع عشر كان يمثل محاولات متشنجة دورية طال أمدها للخروج من كهف الانهيار الأخلاقي الذي سببته الثورة. وها هو القرن العشرون على مشارف النهاية من غير أن تجد البشرية حتى الآن بديلا طبيعيا للدين في حث هذا الحيوان الناطق (الإنسان) على الالتزام بمبادىء الأخلاق.

وتركت لنا الثورة بعض الدروس في الفلسفة السياسية لقد بدأت بالأقلية التي راح عددها يزداد إلى التحقق من أن الإنسان هو الإنسان بصرف النظر عن طبقته، فهؤلاء الثوار الذين وصلوا إلى السلطة راحوا يتصرفون كما تصرف من سبقوهم بل وفي بعض الحالات راحوا يتصرفون بشكل أشد فظاعة. قارن تصرفات روبيسبير بتصرفات لويس السادس عشر. لقد أصبح الناس نزاعين للشك في دعاوى الثورة فما عادوا يتوقعون شرطة لا يعتريها الفساد وسيناتورات يراعون الفضائل، وعلموا أن الثورة لا يمكن أن تحقق أكثر مما يمكن أن يحققه التحول والتطور التدريجي، وتسمح به الطبيعة البشرية، وما كانت هذه الفكرة لترسخ في الأذهان لولا ما عاينه الناس في نفوسهم من جذور البربرية الراسخة التي تمتد لتعمل خلاف ضوابط الحضارة.

ورغم نواقص الثورة وعيوبها - وربما بسبب **تجاوزاتها** وإسفافها - فقد تركت تأثيرا قويا في آداب فرنسا وفنونها وتطلعاتها وانفعالاتها وذاكرتها.

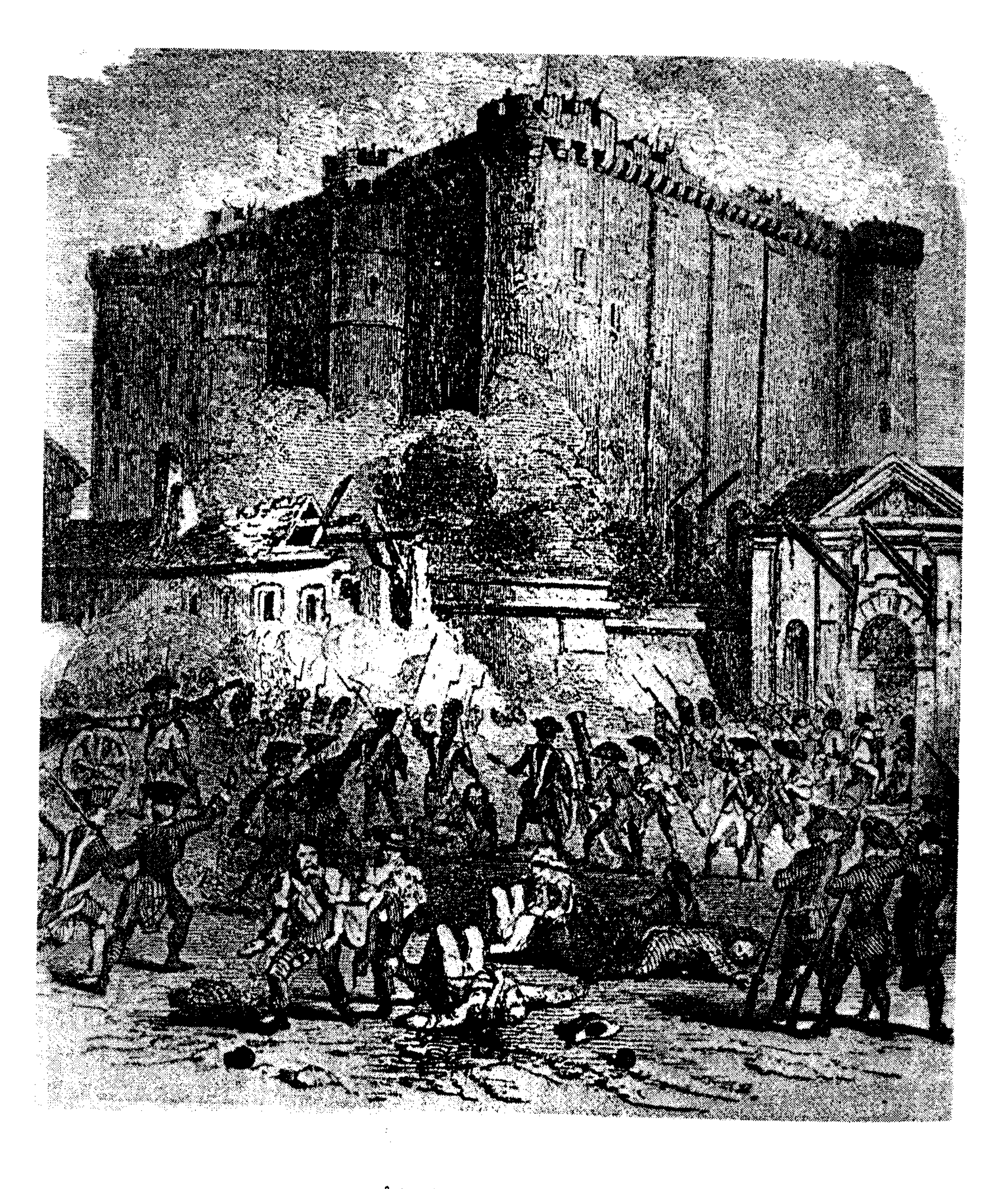
بل وتركت التأثيرات نفسها في أمم أخرى من روسيا إلى البرازيل. فحتى سنة ١٨٤٨ كان كبار السن يحكون لابنائهم عن أبطال هذه الفترة المثيرة، وما سادها من إرهاب اتسم بالطيش والقسوة بشكل يناقض القيم المتوارثه كلها. أكان عجباً أن يتحرك الخيال وتجيش العواطف على نحو قلما كان يحدث قبل قيام هذه الثورة؟ أكان عجباً أن يدفع التفكير في قيام دول يعيش فيها الناس على نحو أسعد، الرجال والنساء لتكرار محاولات تحقيق الأحلام النبيلة لهذه الحقبة التاريخية؟ إن قصص الوحشية والفظاعة التي سادت في أثناء الثورة الفرنسية دفعت الأرواح إلى التشاؤم والتخلي عن كل عقيدة. لقد ظهر شوبنهور

Schopenhauers وليـوباردز Leopardis وبايرون Byrons ومـوسـيت (مـوسى) Mossets وشوبرت Schubert وكيتس Keats في الجيل الثاني. لكن كانت هناك أيضا أرواح يملؤها الأمل والانتعاش: هوجو، وبلزاك، وجوتييه Gautier وديلاكروا Delacroix وبيرليوز Berlioz وبلاك Blake وشيلي Shelley وشيلر Schiller وبيتهوفن الذين سيشاركون بشكل مكثف في الصحوة الرومانسية للمشاعر والخيال والرغبة في التخلص من التقاليد والمحظورات والعوائق. وكان على فرنسا طوال ستة وعشرين عاما أن تظل مندهشة حائرة – تحت تأثير الثورة ونابليون – أعظم قصة على الإطلاق! إنها الأكثر رومانسية من بين الرومانسيات كلها، ومنذ حدوثها أصبح نصف العالم مستثاراً خوفاً أو تطلعا وانبهاراً بهذا القرن العامر بالأحداث الذي لمست فيه أمة عانت الكثير مثل هذه الذرى وتلك الأغوار بطريقة قلما عرفها التاريخ قبل ذلك، ولم يعرف لها مثيلا منذ حدوثها(حتى الآن).



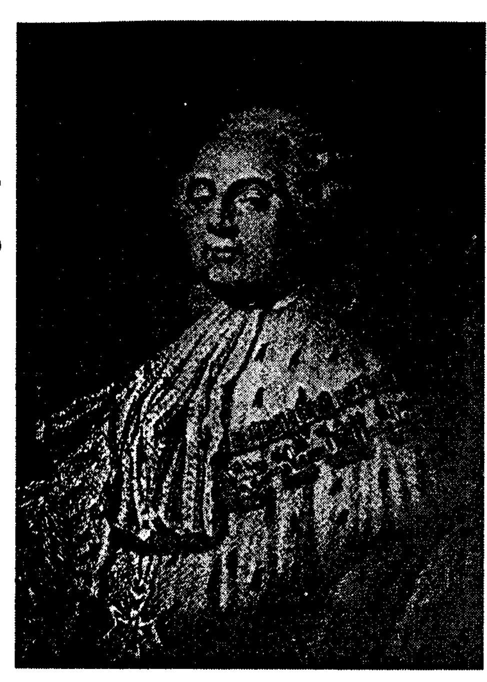
شكل (١) : صورة نصفية غير مكتملة لبونابرت، اللوفر بباريس
(كليشيه المتحف الوطني) الصورة من رسم جاك – لويس – ديڤد .

شكل (٢) : قصر فرساي (أرشيف بتمان) / حفر (داجويريوتيب) .



شكل (٣): تدمير الباستيل، ١٤ يوليو ١٧٨٩ / حَفْر (أرشيف بتمان)

ص١٨-١٩



شكل (٤) : لويس السادس عشر
(أرشيف بتمان) حفر (ص ٩)

شكل (٥) : ماري
أنطوانيت / حفر على
نسق لوحة رسمها شابل
(أرشيف بتمان)



شكل (٧) : جورج جاك دانتون ٥ أبريل، ١٧٨٩ / سكتش (رُسيْم) (مكتبة جماعة نيويورك)



شكل (٦) : مُنَمنمة على العاج انتجها أڤي Avey : ڤيكونت بول دي برّا. متحف كاڤ أڤينون



شكل (٨) : ميرابو، للرسام چان أنطوان هودّو / متحف ڤرساي (كلاشيه المتحف الوطني)



شكل (٩) : شارل – موريس
دي **تاليران** بيريجور (١٨٤٥)
حفر قام به هنري كولبورن،
معتمداً فيه على رسم فرانسوا
جيرارد (أرشيف بيتمان)



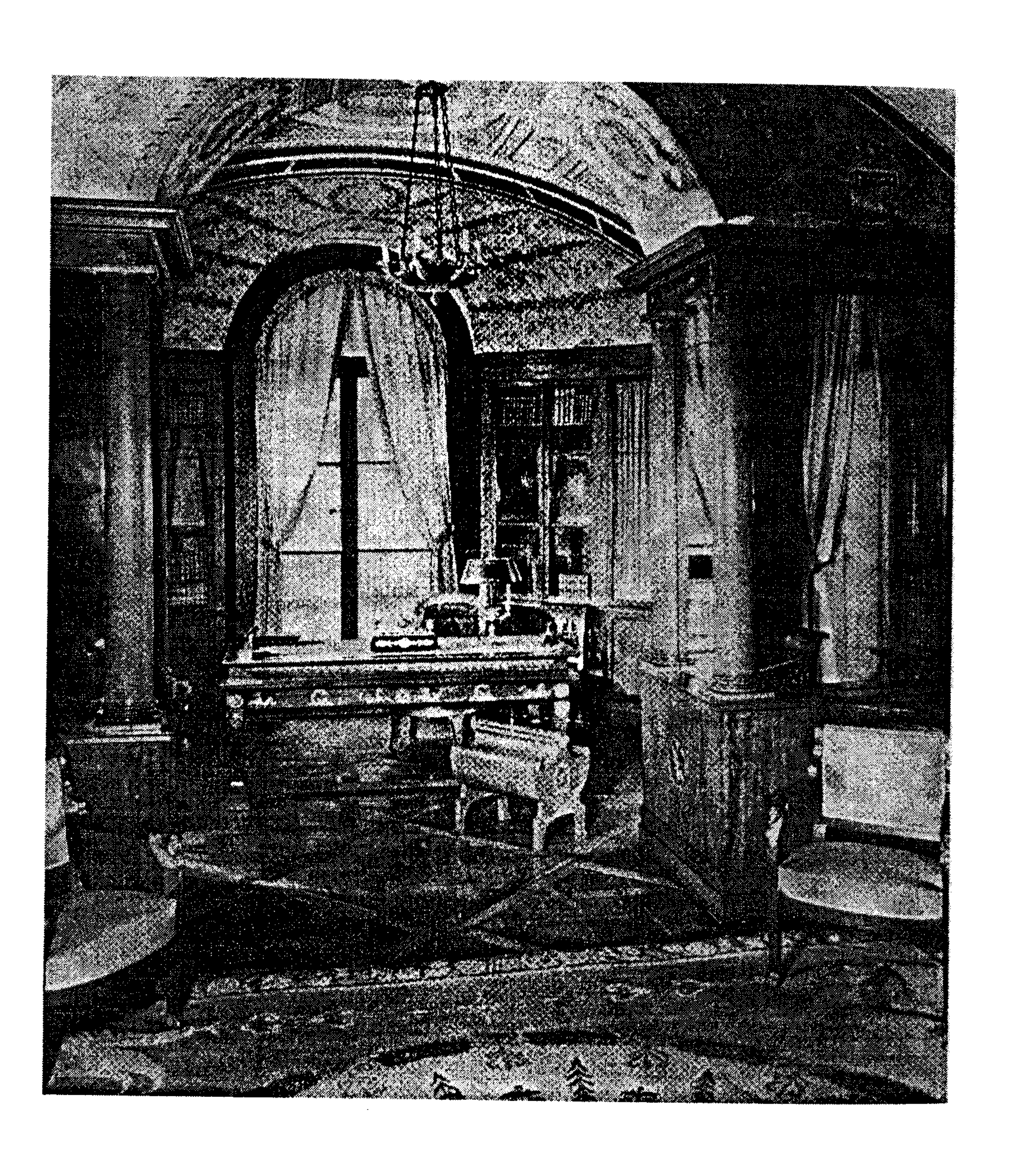
شكل (١٠) : چان – بول مارا /
بوز Boze (أرشيف بتمان)



شكل (١١) : نابليون على الجسر في أركول تفصيل / رسم أنطوان – چان جرو / اللوڤر بباريس (كليشيه المتحف الوطني) .



شكل (١٢) : الإمبراطورة چوزفين / ستوديو فرانسوا جيرارد / متحف مالميزو
بباريس (كليشيه المتحف الوطني) .



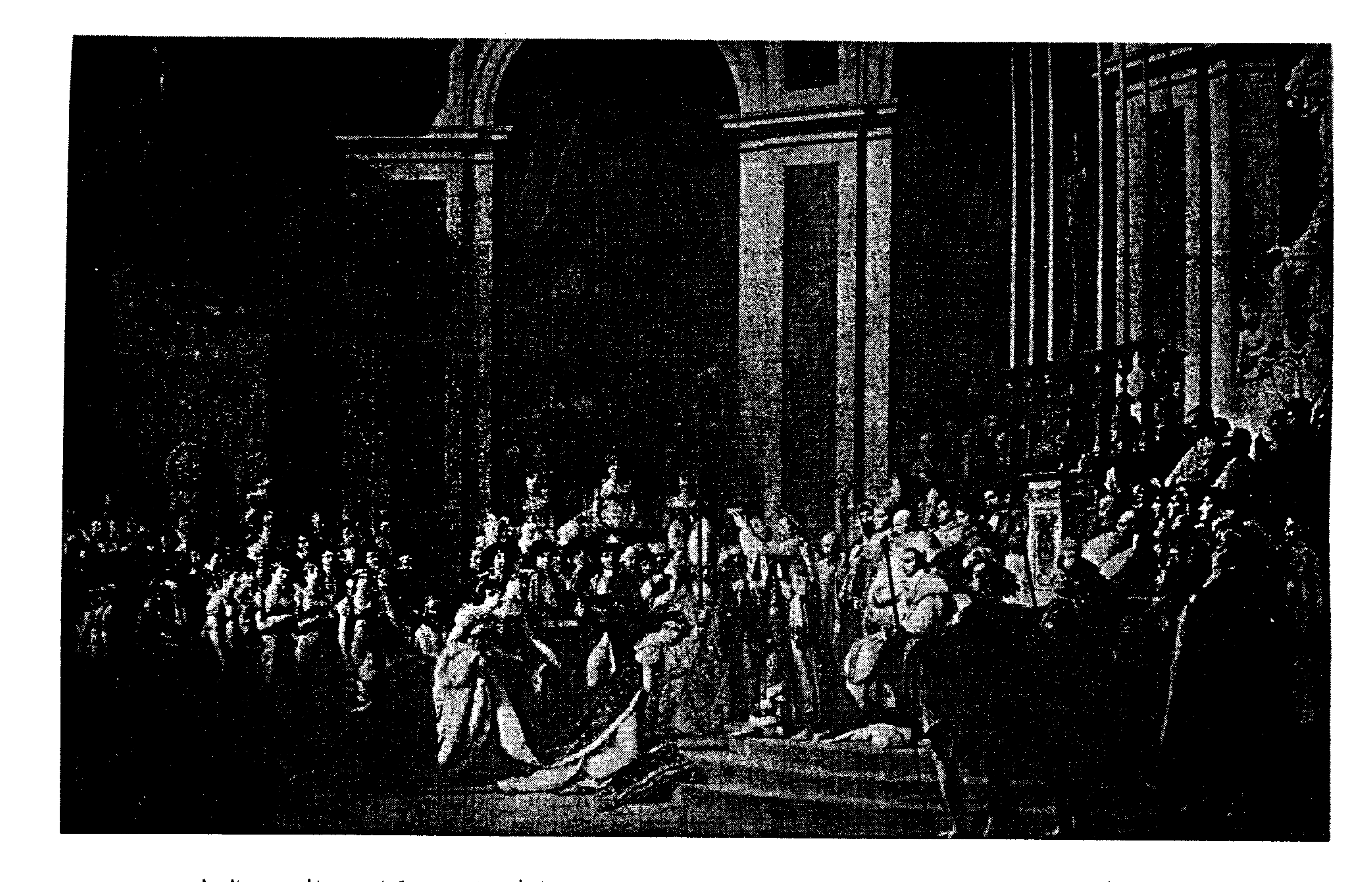
شكل (١٣): غرفة البحث والدراسة الخاصة بنابليون في مالميزو (كليشيه المتحف الوطني).



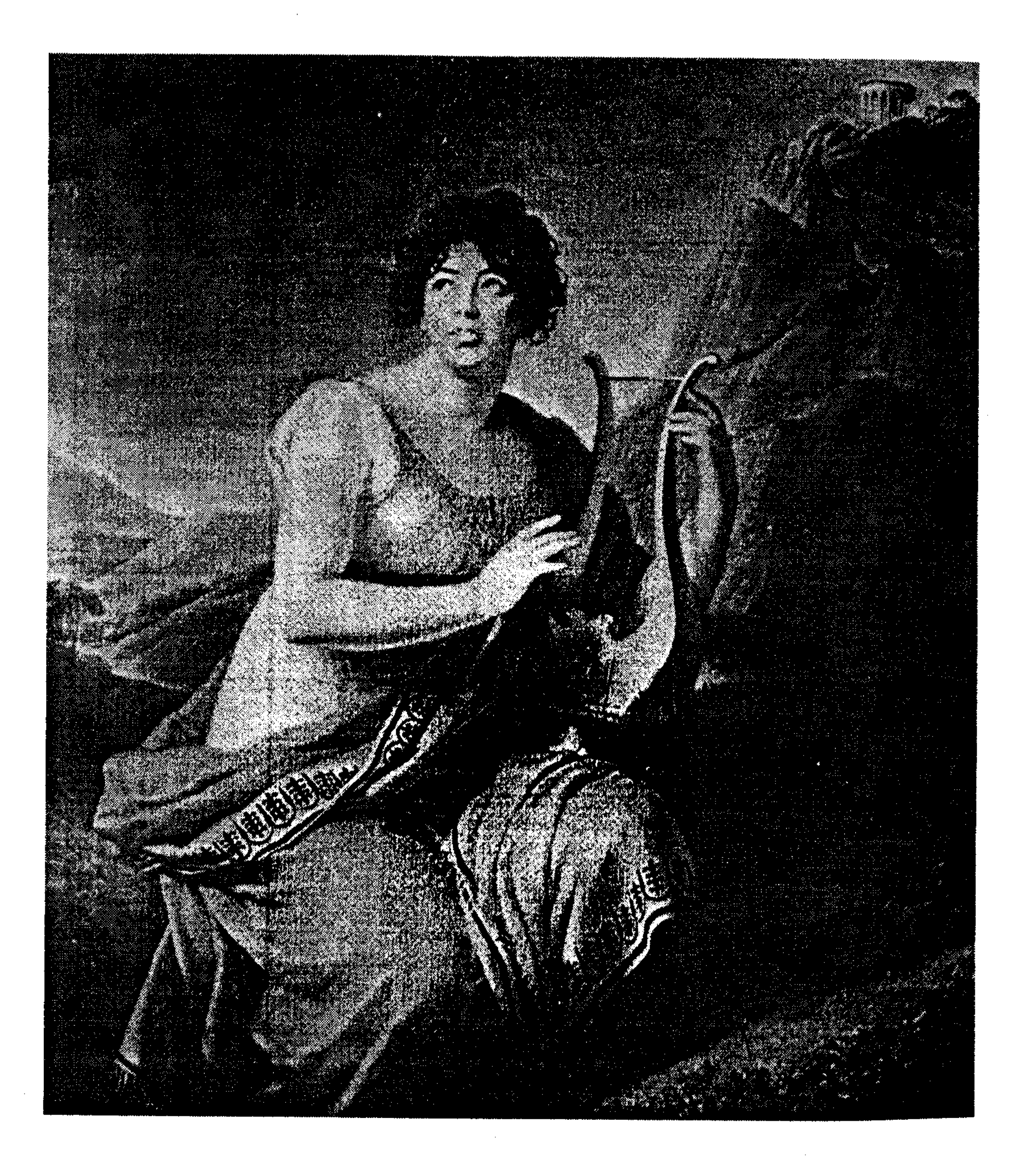
شكل (١٤) : بونابرت يعبر الألب (١٨٠١) رسم چاك – لويس ديڤد . متحف المالميزو بباريس (كليشيه المتحف الوطني) .



شكل (١٥) : الإمبراطور نابليون الأول في لباس التتويج (١٨٠٥) رسم فرانسوا جيرارد . متحف درسدن (أرشيف بتمان) .



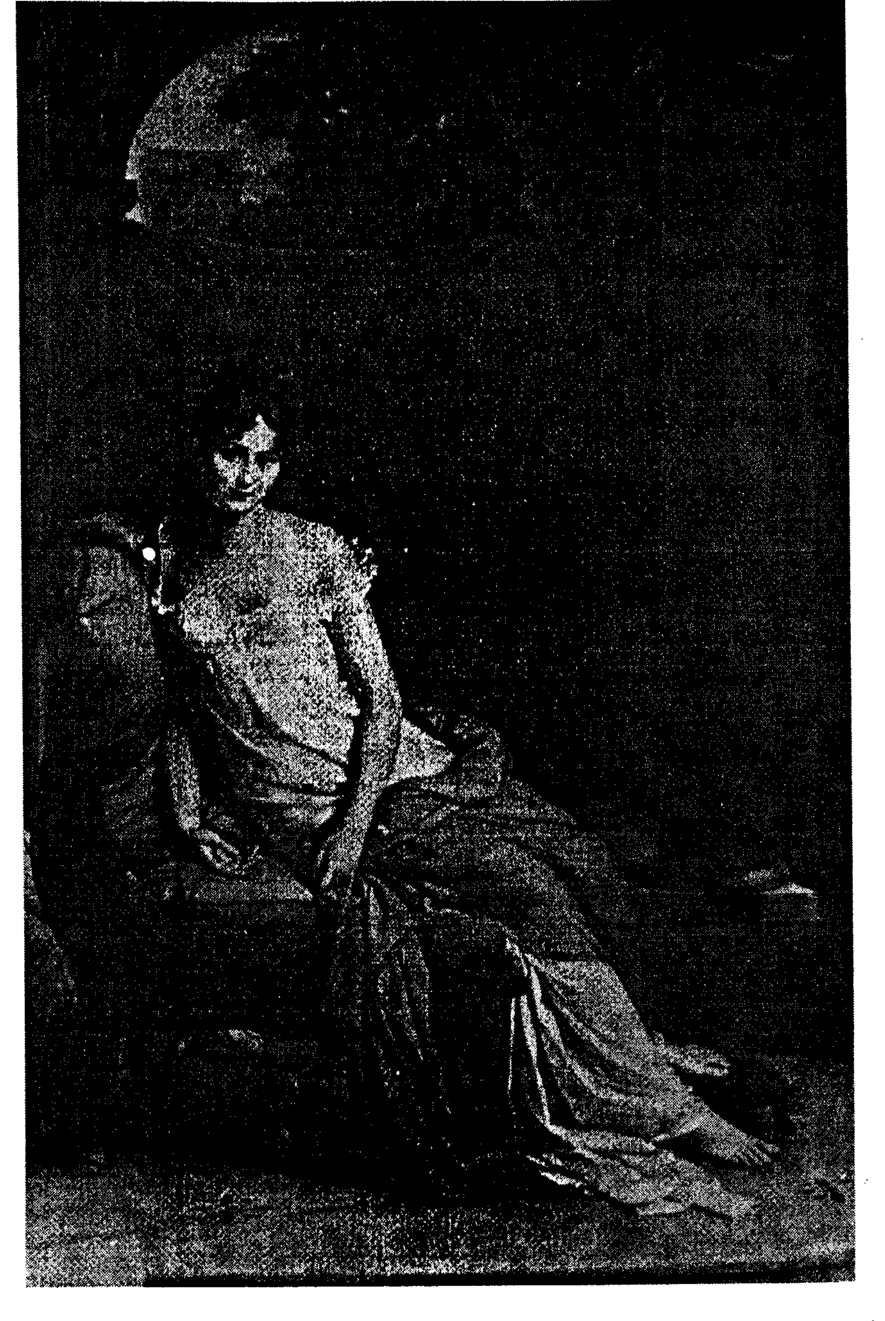
شكل (١٦) : تتويج نابليون. لوحة چاك – لويس ديڤد . اللوڤر بباريس (كليشيه المتحف الوطني) .



شكل (١٧) : مدام دي ستايل (ستيل) مجموعة متحف الفن والتاريخ بجنيف .
لوحة مدام ڤيچي ليبرو .



شكل (١٨) : فرانسو رينيه دي‌شاتوبريان (١٨٠٩) لوحة جيرود . متحف دي سانت مالو (تصوير ج . س . فيليبّو) .



لوحة (١٩) : مدام ريكامييه. لوحة فرانسوا جيرارد متحف كارنافال بباريس (تصوير جيرودو) .



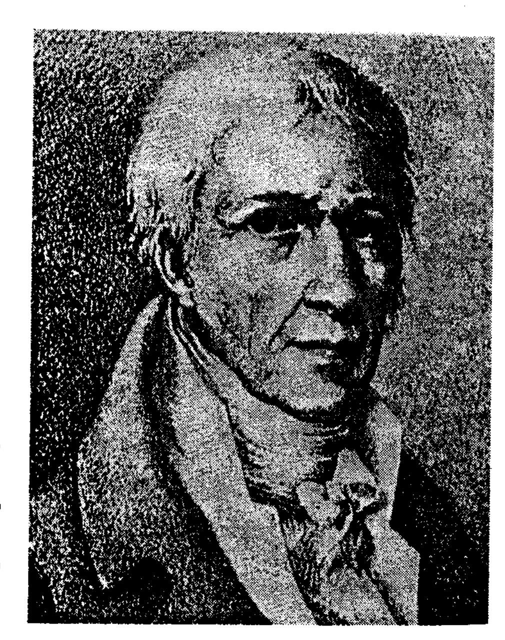
لوحة (٢٠) : چاك – لويس ديڤيد
لوحة نصفية رسمها لنفسه (أي أنه
هو الرسّام وهو موضوع الصورة) .
اللوڤر بباريس (أرشيف بيتمان) .



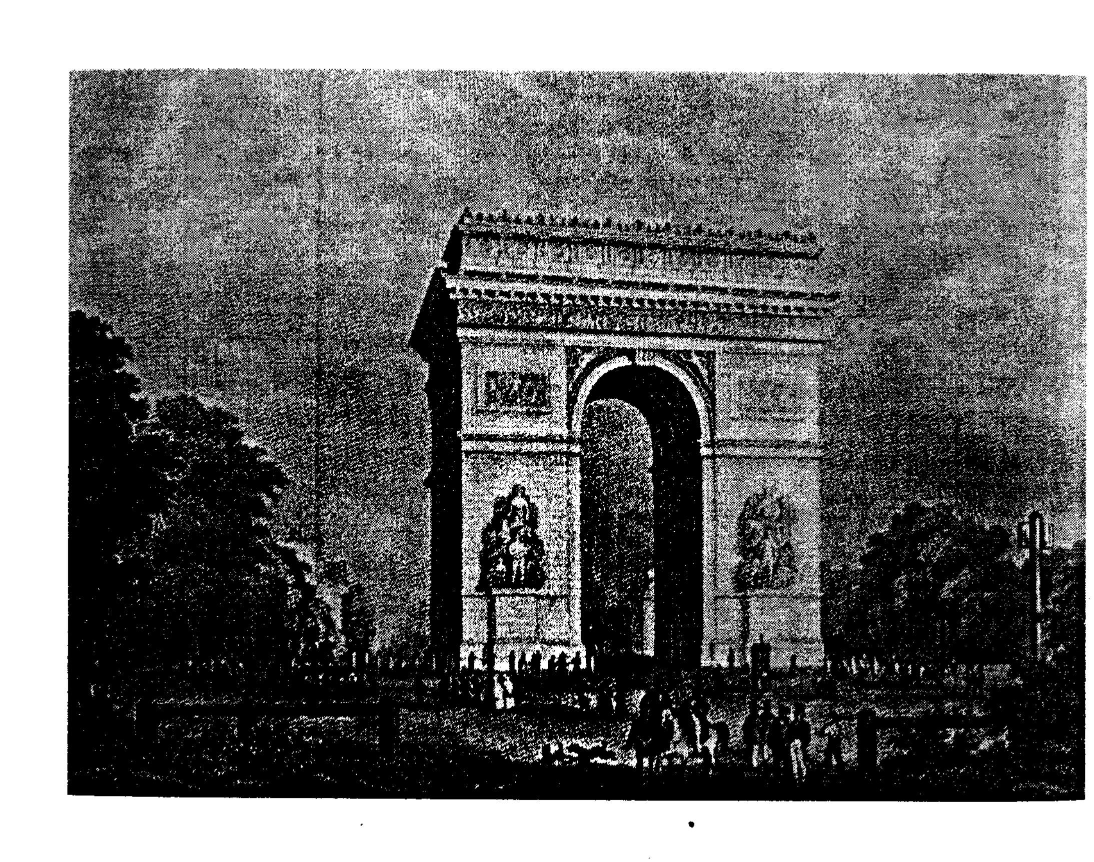
شكل (٢١) : فرانسوا چوزيف تالما
/ حفر / مكتبة جماعة نيويورك .



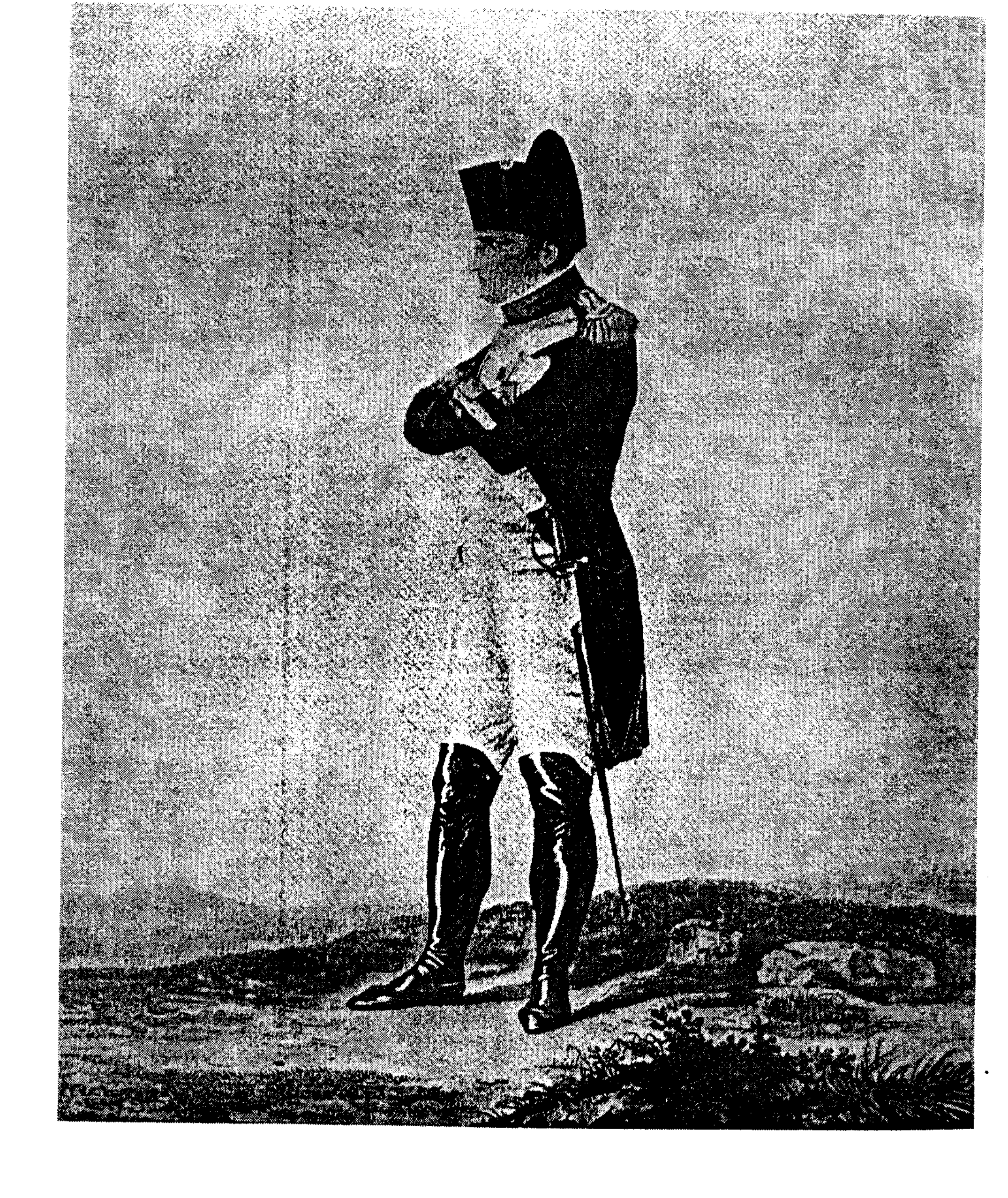
شكل (٢٢) : البارون چورچي ليوبولد كوڤييه / المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي بباريس لوحة : سيڤر بلاك . (كليشيه مكتبة المتحف / باريس) .



شكل (٢٣) : حفر : چان بابتست لامارك (أرشيف بيتمان) .



شكل (٢٤) : قوس النصر – نصر ليتويل، باريس (أرشيف بيتمان) حفر ب
ميتزيروث B. Metzeroth



شكل (٢٥) : نابليون الأول (١٨٠٧) / حفر.



شكل (٢٦) : الإمبراطورة ماري لويز / لوحة فرانسوا جيرار (كليشيه المتحف الوطني) .



شكل (٢٧) : حفر على الخشب : إدموند كيد في دور هملت (أرشيف بتمان) .



شكل (٢٨) : سكتشن (رُسَيْم) قام به س . مارتين يرسم فيه ج . م . و . تيرنر .

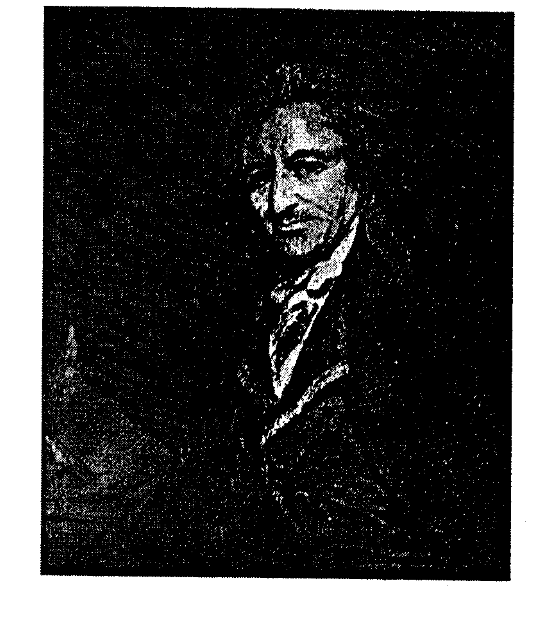
كليشيه المتحف الوطني – لندن .



شكل (٢٩) : انظر الفصل ١٧ : لوحة چون كونستابل : العربة the High wain (١٨٢٤) المتحف الوطني، لندن .



شكل (٣٠): لوحة تيرنر: كاليه بيير، موجودة بالمتحف الوطني، لندن.



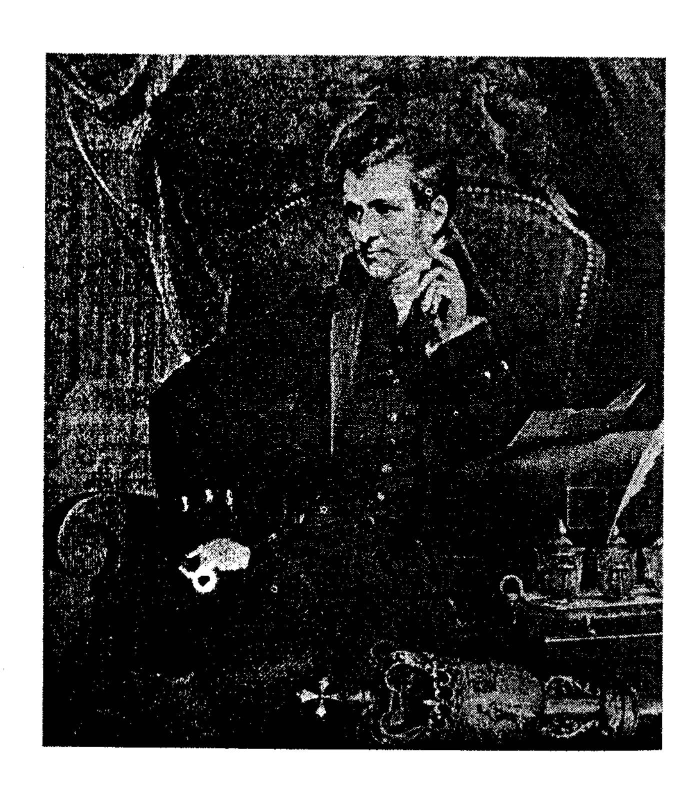
شكل (٣١) : توماس بين / حفر أعده وليم شارب اعتماداً على رسم رسمه چورج رومني (أرشيف بتمان)،



شكل (٣٢) : روبرت أوين / سكتش (رُسَيْم) (أرشيف بتمان)،



شكل (٣٣) : إرازمس داروين / مكتبة جماعة نيويورك .



شكل (٣٤) : سير همفري ديڤي / حفر (أرشيف بتمان) .



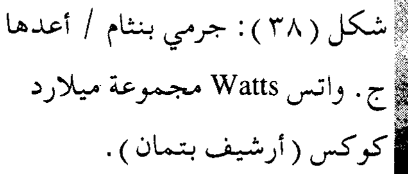
شكل (٣٥) : ماري ڤولستونكرافت / ليثوجراف (بطريقة الطباعة الحجرية) لرسم چون أبي opie (أرشيف بتمان) .

شكل (٣٦) : وليم جدوين « الفيلسوف المضحك » / كاريكاتير من رسم أعدّه ماشس Machse.



شكل (٣٧) : توماس مالتوس (١٨٣٠) حفر قام به چون لينل Linnell (أرشيف بتمان) .

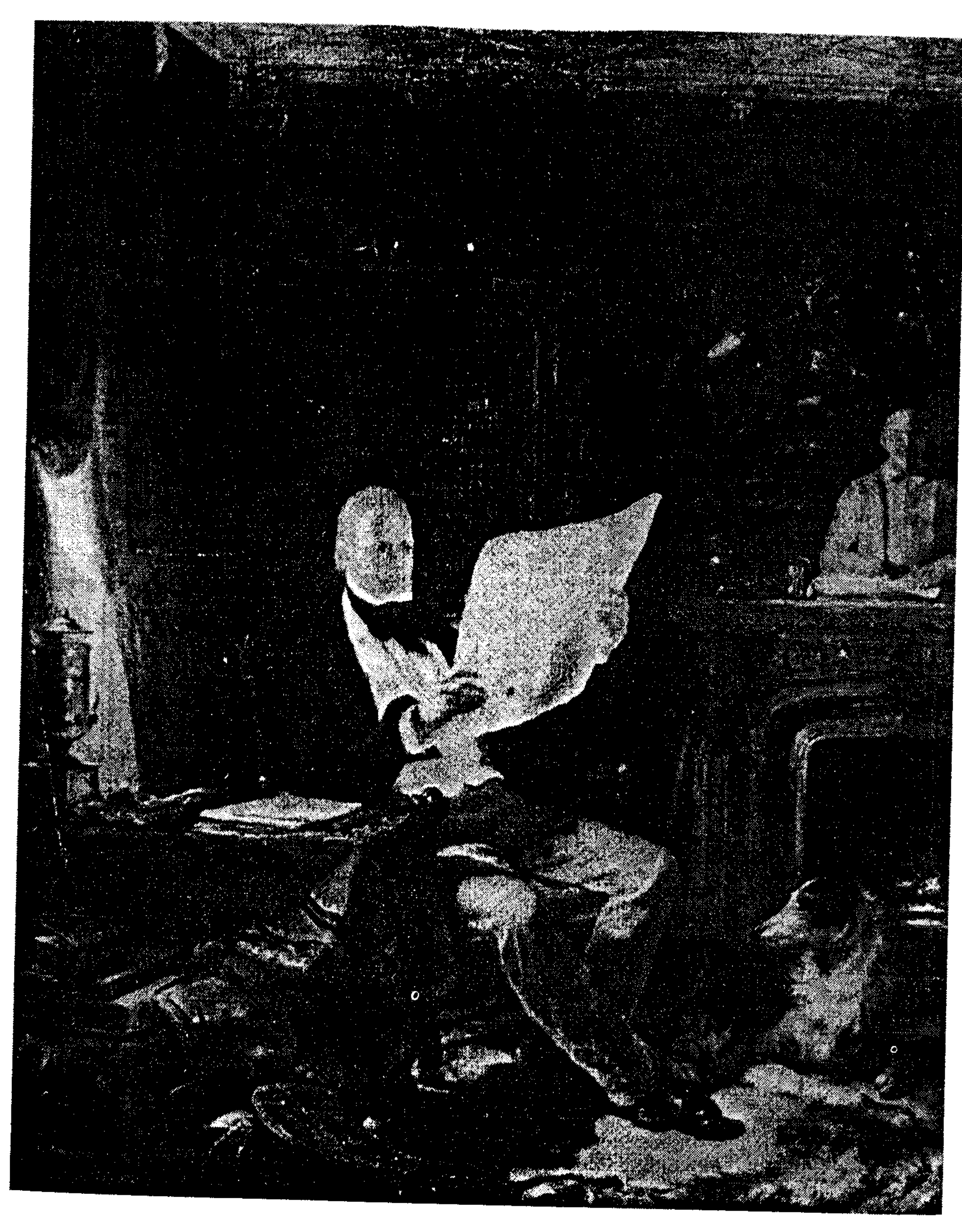




شكل (٣٨) : جرمي بنثام / أعدها ج. واتس Watts مجموعة ميلارد كوكس (أرشيف بتمان) .



شكل (٣٩) : حفر : چين أوستن (أرشيف بيتمان) .

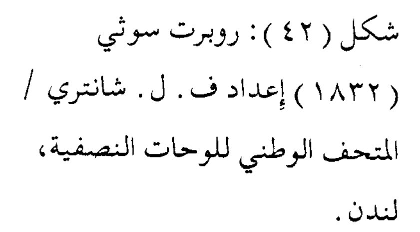


لوحة (٤٠): سير وليم سكوت (١٨٣٢) لوحة وليم ألان / المتحف الوطني للوحات النصفية، لندن.



شكل (٤١) : صمويل تايلور
كولردج (١٧٩٥) لوحة : ب
ڤانديك . المتحف الوطني للوحات
النصفية، لندن .



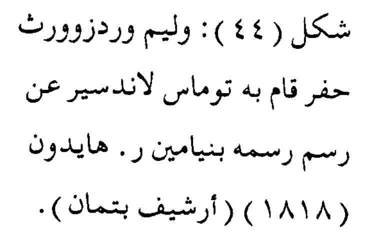


شكل (٤٢) : روبرت سوثي
(١٨٣٢) إعداد ف . ل . شانتري /
المتحف الوطني للوحات النصفية،
لندن .



شكل (٤٣) : لورد بايرون (١٨١٣)، لوحة ر. وستال / المتحف الوطني للوحات النصفية، لندن.





شكل (٤٤) : وليم وردزوورث حفر قام به توماس لاندسير عن رسم رسمه بنيامين ر. هايدون (١٨١٨) (أرشيف بتمان).



لوحة (٤٥) : بيرسي شيلي / لوحة بالألوان المائية لوليم بلاك Blake (أرشيف بيتمان) .

شكل (٤٦) : الانطلاق من مصر (١٨٠٦) لوحة بالألوان المائية لوليم بلاك / متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك (أرشيف بتمان) .

الحَواشي

حواشي الفصل الأول

1- New Cambridge Modern History (NCMH), VIII, 714.
2- Lefebvre, Georges, *French Revolution*, I, 41.
3- Aulard, Alphonse, *Christianity and the French Revolution*, 36-37.
4- Ibid., 29.
5- Taine, Hippolyte, *French Revolution*, I, 147, 158.
6- Morley, John, *Biographical Studies*, 411.
7- Lefebvre, *French Revolution*, I, 42.
8- Sieyès, E.- J., *What is the Third Estate?*, 51.
9- Taine, *French Revolution*, III, 318.
10- Pierre Gaxotte in Greenlaw, R. w., *Economic Origins of the French Revolution*, 43.
11- See Durant, *Rousseau and Revolution*, 71-77.
12- Roland, Mme., *Private Memoirs*.
13- Taine, *The Ancient Regime*, 317.
14- C.E. Labrousse in Greenlaw, 62; Lefebvre, *Etudes sur la Révolution française*, 229, 239.
15- La Bruyère, Jean de, *Characters*, XII, 128, 318.
16- A., Aulard, in Greenlaw, 25.
17- Lefebvre, *Etudes*, 351, 435.
18- Michelet, Jules, *French Revolution*, I, 185; Taine, *French Revolution*, I, 3.
19- NCMH, VIII, 660.
20- Young, Arthur, *Travels in France*, 197.
21- Campan, Jeanne-Louise, *Memoirs of the Private Life of Marie Antoinette*, II, 216.
22- Tocqueville, Alexis de, *L'Ancien Régime*, 190-191.

حواشي الفصل الثاني

1- Michelet, *French Revolution*, I, 84.
2- Rude, Georges, *Robespierre*, 123.
3- Morley, *Biographical Studies*, 287.
4- Michelet, I, 498.
5- *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 392 b.
6- Lefebvre, *Etudes*, 145.
7- Aulard, *French Revolution*, I, 230.
8- Ibid., 309, 359; Lefebvre, *Etudes*, 145.
9- Durant, *Rousseau and Revolution*, 951 - 54.
10- Brinton, Crane, *The Jacobins*, 15.
11- Mathiez, Albert, *French Revolution*, 44.
12- Ibid.
13- Mirabeau, *speech of July 9, 1789*.
14- Mathiez, 40.
15- EB, III, 264d; Gramont, Sanche de, *Epitaph for Kings*, 378.

16- Taine, *French Revolution*, I, 42.
17- Campan, *Memoirs*, II, 59.
18- Ibid., 66.
19- Gramont, Sanche de, *Epitaph for Kings*, 384.
20- Gottschalk, L. R., *Jean Paul Marat*, 6-8.
21- Ibid., 4.
22- Maclaurin, C., *Post Mortem*, 200.
23- Taine, *French Revolution*, III, 122.
24- Gottschalk, 117-18.
25- Ibid., 15.
26- Ibid., 23.
27- Taine, *French Revolution*, III, 129.
28- Morris, Gouverneur, *Diary and Letters*, I, 143.
29- Taine, I, 73.
30- Ibid., 70-71; Mathiez, *French Revolution*, 50-51.
31- Robinson, James Harvey, *Readings in European History*, 435.
32- Mathiez, 53.
33- Robinson, 438.
34- Ibid., 440.
35- In Taine, II, 5.
36- Michelet, *French Revolution*, 253; Mathiez, 63.
37- Campan, II, 78.
38- Michelet, 258.
39- Taine, I, 105.
40- Herold, J. C., *Mistress to an Age*, 92; EB, XXI, 634.
41- Mathiez, 98.
42- Phillips, C. S., *The Church in France*, I, 9.
43- Ibid., 14; Taine, I, 180.
44- Ibid., 182.
45- Carlyle, *French Revolution*, Book VIII, Ch, 11-12.
46- Michelet, 411.
47- Mathiez, 68.
48- Campan, II, 128; Ségur, *Marie Antoinette*, 225.
49- Taine, I, 96.
50- Ibid., 106.
51- Campan, II, 126n.
52- Carlyle, *French Revolution*, I, 397.
53- Ségur, 230.
54- Vallentin, Antonina, *Mirabeau*, 490-91.
55- Michelet, 567-68.
56- Vallentin, 512 -17.
57- Michelet, 568.
58- Ibid., 569.
59- Ségur, 237.
60- Rude, Georges, *The Crowd in the French Revolution*, 89.
61- Acton, J. E., Lord, *The French Revolution*, 199.

حواشي الفصل الثالث

1- Bertaut, Jules, *Napoleon in His Own Words*, 58, 63.
2- Alexandre, Lameth de, in Robinson, *Readings*, 452.
3- Mathiez, *French Revolution*, 134.
4- Brinton, *The Jacobins*, 39, 183, 251.
5- Rude, *Robespierre*, 88.
6- Taine, *French Revolution*, II, 54 - 67.

7- Lefebvre, *French Revolution*, I, 217.
8- Roland, Mme., *Private Memoirs*, 273.
9- Ibid., 55.
10- Ibid., 345.
11- Ibid., 357.
12- Lanfrey, Pierre, *History of Napoleon*, I, 292.
13- Mathiez, 140-141.
14- Lefebvre, *French Revolution*, I, 217.
15- Aulard, *The French Revolution*, 366.
16- Robinson, *Readings*, 456.
17- Acton, *French Revolution*, 232.
18- Gottschalk, *Jean Paul Marat*, 96.
19- Taine, II, 182.
20- Lefebvre, *French Revolution*, I, 238.
21- Taine, II, 179 - 86; Ségur, 273-76.
22- Sorel, Georges, *Reflections on Violence*, 194.
23- Lefebvre, *Etudes*, 77-82˜; *French Revolution*, I, 239n.
24- Belloc, Hilaire, *Danton*, 380.
25- Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21-23.
26- Belloc, 198.
27- Mathiez, 174.
28- Ibid., 184-89; Aulard, *Christianity and the French Revolution*, 86-90; Lefebvre, *French Revolution*, I, 244.
29- Aulard, *French Revolution*, II, 141.
30- le Bon, Gustave, *The Psychology of the Revolution*, 170.
31- Mathiez, 170.
32- Taine, II, 211; Lefebvre, 242.
33- Gottschalk, *Marat*, 120.
34- Carlyle, *French Revolution*, II, 174.
35- Madelin, Louis, *French Revolution*, 285.
36- Ibid., Mathiez, 180.
37- Taine, II, 221.
38- Ibid., 226.
39- Ibid., 227.
40- Morris, G., *Diary*, 583; Mathiez, 81.
41- Taine, II, 228.
42- Lefebvre, *French Revolution*, I, 243.
43- Taine, II, 229.
44- Le Bon, *The Psychology of the Revolution*, 188.
45- Taine, II, 214n.
46- Ibid., 218.
47- Le Bon, 98.
48- Mathiez, 183; Carlyle, II, 199.
49- Belloc, *Danton*, 342.
50- Taine, II, 214.
51- Ibid., 212n.
52- Mathiez, 222.
53- Brandes, Georges, *Main Currents in Nineteenth Century Literature*, II, 50.

حواشي الفصل الرابع

1- Mathiez, *French Revolution*, 195; Taine, *French Revolution*, II, 232 n; Fay, B., *Louis XVI*, 388; Aulard, *French Revolution*, III, 109 - 11.
2- Lefebvre, *French Revolution*, I 244.
3- Taine, II, 279.
4- Ibid., 276-82.
5- Mathiez, 211.
6- Taine, III, 155.
7- Morley, 296.
8- Mathiez, 239 ff.
9- Ibid., 275.
10- Robinson, *Readings*, 460.
11- Mathiez, 256.
12- Robiquel, Jean, *Daily Life in the French Revolution*, 91.
13- Gramont, *Epitaph for Kings*, 423.
14- Mathiez, 262.
15- Taine, II, 283.
16- Madelin, *French Revolution*, 320.
17- Gramont, 426; Rude, *Robespierre*, 170.
18- Hugo, Victor, *Ninety three*, 160.
19- Robiquel, *Daily Life in the French Revolution*, 9.
20- Taine, III, 361.
21- E. g., Lenôtre, G., *The Tribunal of the Terror*, 119 and facing P. 22.
22- Aulard, *French Revolution*, III, 90.
23- Taine, III, 135.
24- Gottschald, *Marat*, 159 ff; Loomis, Stanley, *Paris in the Terror*, 104-5.
25- Lefebvre, *French Revolution*, II, 50.
26- Mathiez, 387 ff.
27- Taine, III, 388 ff.
28- Mathiez, 319.
29- Ibid., 322.
30- Ibid., 324.
31- Carlyle, II, 332.
32- Loomis, 14, 128.
33- In Gottschalk, 92.
34- Ibid., 168.
35- Ibid., 136.
36- Ibid., 170.
37- Mathiez, 344; MacLaurin, *Post Mortem*, 296.
38- Mathiez, 344.
39- Loomis, 138, 143.
40- Mathiez, 343.
41- Loomis, 149.
42- Belloc, *Danton*, 234.
43- Palmer, R. R., *Twelve who Died*, 55.
44- Morley, 324.
45- Palmer, 58, 160.
46- Taine, III, 313.
47- Palmer, 110.
48- Lefebvre, *Etudes*, 139.
49- Taine, II, 51.
50- Lefebvre, *French Revolution*, II, III, 282.
51- Ibid., 283 ff.
52- Rude, *Robespierre*, 55.
53- Palmer, 58.
54- In Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 502 ff.
55- Palmer, 52; Mathiez, 366.
56- Palmer, 47.

57- Mathiez, 403.

58- Ségur, 293.

59- Ibid., 304.

60- Ibid., 309.

61- Lenôtre, 151.

62- Lamartine, Alphonse de, *Histoire des Girondins,* III, 36-37.

63- Roland, Mme., *Private Memoirs,* 105.

64- Ibid., 114.

65- Ibid., 288.

66- Carlyle, II, 356.

67- Madelin, *French Revolution,* 377; Taine, III, 207, 297.

68- Madelin, 374.

69- Taine, III, 209 - 10.

70- Ibid., 299; Madelin, 375; Mathiez, 402.

71- Taine, III, 211.

72- Madelin, 376.

73- Palmer, 150.

74- Zweig, Stefan, *Joseph Fouche,* xv.

75- Ibid., 37.

76- Palmer, 156.

77- Zweig, 57.

78- Ibid., 167; Palmer, 167.

79- Ibid., 169.

80- Ibid., 180.

81- Taine, III, 39.

82- Palmer, 175.

83- Rude, *Robespierre,* 8; NCMH, LX, 280.

84- Lefebvre, *French Revolution,* II, 120.

85- Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain,* I, 593.

86- Zweig, *Fouché,* 39ff.

87- Palmer, 142 ff.

88- Taine, III, 175; Madelin, 389; Mathiez, 412; Carlyle, II, 371; Becker, Carl, *Heavenly City of the 18th Century Philosophers,* 156.

89- Lefebvre, *French Revolution,* II, 119.

90- Ibid., 78.

91- Palmer, 143.

92- Morley, 319; translation slightly improved.

93- Ibid., 321.

94- Ibid., 311.

95- Carlyle, II, 229.

96- Taine, III, 380 - 81.

97- Soboul, Albert, *the Parisian Sansculottes and the French Revolution,* 28.

98- Robinson, *Readings* 467.

99- Lefebvre, *French Revolutions,* II, 88; Madelin, 395.

100- Morley, 332.

101- Madelin, 395.

102- Ibid., 397; Taine, III, 142.

103- Madelin, 397.

104- Lenôtre, *The Tribunal of the Terror,* 137.

105- Ibid., 138.

106- Madelin, 398.

107- Brockway and Winer, *Second Treasury of the world's Great Letters,* 273.

108- Morley, 333.

109- Madelin, 399.

110- Morley, 338.

111- Aulard, *French Revolution,* II, 286; Lefebvre, *French Revolution,* II, 124; Palmer, 365.

112- Taine, III, 299.

113- Lefebvre, II, 125.

114- Mathiez, 499.

115- Rude, *Robespierre*, 9˜; Soboul in Kafker and Laux, *The French Revolution˜; Conflicting interpretations*, 293.

116- Madelin, 408.

117- Stephens, H. Morse, *Principal Speeches of the French Revolution*, II, 143 - 63.

118- Madelin, 420.

119- Belloc, *Danton*, 330.

120- Madelin, 422.

121- Mathiez, 508; Lefebvre, *French Revolution*, II, 135; Palmer, 379.

122- Mathiez, 509.

123- Ibid., 510.

124- Robiquel, *Daily Life in the French Revolution*, 202.

125- Palmer, 389.

126- Aulard, III, 247 - 48.

127- Lefebvre, II, 161.

128- Aulard, III, 291.

129- Ibid., 319.

حواشي الفصل الخامس

1- Madelin, 489; Lefebvre, *French Revolution*, II, 173.

2- Lacroix, Paul, *Directoire, Consulat et Empire*, 120.

3- Aulard, IV, 40.

4- Ibid., 41.

5- Ibid., 42.

6- Acton, *French Revolutions*, 5.

7- Nietzsche, *Will to Power*, 877.

8- Source Lost.

9- Napoleon, Letter of June 12, 178, in *Letters*, 33.

10- In Lanfrey, I, 4.

11- Chuquet in Bourgujignon, Jean, *Napoleon Bonapart*, I, 4.

12- Kircheisen, F. M., *Memoirs of Napoleon*, I, 11.

13- Ibid., 10.

14- Las Cases, *Memoirs of Napoleon*, under May 29, 1816, In Taine, *The Modern Regime*, I, 200.

15- Bourguignon, I, 22.

16- Kircheisen, 11.

17- Ibid., 24; Bourguignon, I, 23.

18- Kircheisen, 18.

19- Remusat, Mme. de, *Memoirs*, 10.

20- Ibid., 102-3.

21- Rose, J. Holland, *The Personality of Napoleon*, 17.

22- Remusat, 102.

23- Bourguignon, I, 28.

24- Rose, 57.

25- Plato, *The Republic*, paragraphs 338-44.

26- Nietzsche, *Beyond Good and Evil*, 201 and 53.

27- Mistler, Jean, ed., *Napoléon et L'Empire*, I, 36.

28- Kircheisen, 34-35.

29- Ibid., 41.

30- Taine, *Modern Regime*, I, 2n.

31- Lefebvre, *French Revolution*, ˜II, 185.

32- Mossiker, Frances, *Napoleon and Josephine*, 65-66.

33- Ibid., 72; Mistler, I, 49.
34- G. Lenôtre in Bourguignon, I, 91.
35- Mossiker, 89.
36- Ibid., 49.
37- Ibid., 86-90.
38- Kircheisen, 47.
39- Lanfrey, I, 58; Mossiker, 92-95.
40- Mossiker, 34.
41- G. Lenôtre in Bourguignon, I, 91.
42- Ibid., 93.
43- J. Godechot in Bourguignon, I, 96.
44- Napoleon, *Letters,* 45.
45- Bourienne, *Memoirs of Napoleon Bonaparte,* I, 24.
46- Lanfrey, I, 71.
47- Mossiker, 23.
48- Ibid., 119.
49- Ibid., 28.
50- Napoleon, *Letters,* 51.
51- Lanfrey, I, 87.
52- Ibid., Bourguignon, I, 108; Mistler, I, 270.
53- Lanfrey, I, 84.
54- Mossiker, 29.
55- Bourguignon, I, 112.
56- EB, IX, 92od.
57- Mossiker, 128.
58- Kircheisen, 71.
59- Napoleon, *Letters,* 62.
60- Vandal, Albert, *L'Avènement de Bonaparte,* I, 13-15.
61- Stael, Mme de, *Memoirs,* in Bourguignon, I, 137.
62- Ibid., 138.
63- Napoleon, *Letters,* 72.
64- Remusat, *Memoirs,* 99.
65- Lefebvre, *French Revolution,* II, 219.
66- Talleyrand, *Memoirs,* I, 332.
67- CMH, VIII, 598.
68- Bourguignon, 148.
69- Kircheisen, 75.
70- Herold, J. C. ed., *The Mind of Napoleon,* 51.
71- Remusat, *Memoirs,* 99, slightly rearranged.
72- Napoleon, *Letters,* 75.
73- Ibid., Oct. 23, 1798.
74- Herold, *Bonaparte in Egypt,* 276; CMH, VIII, 609.
75- Kircheisen, 42.
76- Remusat, 99.
77- Kircheisen, 91.
78- Bourrienne, I, 212.
79- Las Cases, III, 200.
80- Mistler, I, 73; Méneval, *Memoirs,* I, 25-34; Madelin, *French Revolution,* 605.
81- Bourguignon, I, 172.
82- Méneval, I, 24; Mistler, I, 74.
83- CMH, VIII, 494.
84- Vandal, *Avènement,* 10.
85- Madelin, *Talleyrand,* 61.
86- CMH, VIII, 493.
87- Madelin, *French Revolution,* 559.
88- Taine, *French Revolution,* III, 455.
89- Ibid., 469.
90- Vandal, I, 70.
91- Taine, III, 467n.
92- Talleyrand, *Memoirs,* I, 207.
93- Madelin, 584.
94- Taine, III, 426-27.
95- Vandal, I, 233.
96- Aulard, IV, 139.
97- Fournier, *Napoleon the First,* I, 182.

98- Mossiker, 190-91.
99- Ibid., 202.
100- Bourrienne, II, 12n; Vandal, I, 245; Mossiker, 205.
101- Aulard, IV, 139.
102- Madelin, *French Revolution*, 611.
103- Vandal, I, 274.
104- Ibid., 297 - 98.
105- Mistler, I, 76.
106- Lefebvre, *French Revolution*, II, 255.
107- Vandal, I, 314.
108- Ibid., 316-17.
109- Ibid.,468.
110- Ibid., 370.
111- Bourrienne, I, 272.
112- Vandal, I, 386.
113- Bourrienne, I, 284.

حواشي الفصل السادس

1- EB, IX, 755; X, 343; NCMH, VIII, 714.
2- Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 351.
3- Lefebvre, *French Revolution*, I, 114.
4- Palmer, R. R., *Twelve Who Died*, 240.
5- Mathiez, 267.
6- Macaulay, T. B., *Critical, Historical, and Miscellaneous Essays*, II, 70.
7- Taine, *French Revolution*, II, 291.
8- Aulard, *French Revolution*, IV, 108.
9- Lefebvre, *French Revolution*, II, 287.
10- Taine, III, 84.
11- Aulard, II, 282.
12- Ibid., III, 373, 387, 391.
13- Ibid., 392; Lacroix, *Directoire, Consulat et Empire*, 298.
14- Roland, Mme., *Memoirs*, 105.
15- Lacroix, 123˜; Carlyle, *French Revolution*, 382˜; Palmer 65.
16- In Soboul, *The Parisian Sansculottes in the French Revolution*, 244.
17- CMH, VIII, 744.
18- Ibid., 750.
19- Ibid., 752.
20- Robiquel, *Daily Life in the French Revolution*, 149ff.
21- EB, X, 1019d.
22- Le Bon, G., *Psychology of Revolution*, 217.
23- Robiquel, 126.
24- EB, XIX, 868c.
25- Palmer, 65.
26- Robiquel, 74.
27- Soboul, 246˜; Madelin, *French Revolution*, 553.
28- Marcel Lachiver in *London Times Literary Supplement*, March 3, 1972, P.243.
29- Taine, III, 82n.
30- Madelin, *French Revolution*, 554.
31- Taine, *Modern Regime*, I, 175.
32- Aulard, I, 232.
33- Lefebvre, *French Revolution*, II, 267.
34- Herold, ed., *The Mind of Napoleon*, 13.
35- Taine, *French Revolution*, III, 346.

36- Aulard, III, 241; Soboul, 229.
37- Taine, *French Revolution*, III, 88n.
38- Lacroix, *Directoire, Consulat et Empire*, 81, 34.
39- Robiquel, 54.
40- Ibid., 89.
41- Lacroix, 70.
42- Ibid., 80.
43- Robiquel, 88.
44- Madelin, *French Revolution*, 546.
45- Junot, Mme., *Memoirs*, I, 44.
46- Madelin, 428.
47- Lang, P.H., *Music in Western Civilization*, 787.
48- *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, I, 614.
49- Mantzius, K., *History of Theatrical Art*, VI, 153f.
50- Hauser, A., *The Social History of Art*, II, 635.
51- Muther, R., *History of Modern Painting*, I, 103.
52- Livy, *History of Rome*, I, 24.
53- Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 291.
54- Duran, *Age of Voltaire*, 536.
55- Brett, G. S., *History of Psychology*, 460.
56- Uberweg, F., *History of Philosophy*, tr. Morris, II, 339.
57- CMH, VIII, 729.
58- Lamartine, *History of the Girondists*, III, 418.
59- Van Laun, H., *History of French Literature*, III, 166.
60- Stevens, Abel, *Mme, de Stael*, I, 54.
61- Herold, J. C., *Mistress to an Age*, 30.
62- Ibid., 62.
63- Ibid., 95.
64- Ibid., 103.
65- Ibid., 108.
66- Ibid., 113-14.
67- Ibid., 117.
68- Pierre Lacretelle in Stevens, I, 145.
69- Herold, *Mistress to an Age*, 125.
70- In Bourguignon, I, 137.
71- Herold, 181.

فهرس المحتويات

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

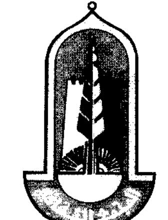
عصر نابوليون

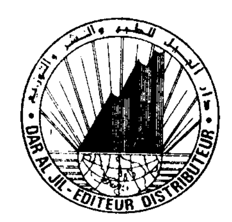
تاريخ الحضارة الأوروبيّة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الثاني





عَصْرُ نابُولِيُون

الكتاب الثاني

مقدمة الترجمة العربية

في هذا الكتاب الثاني من المجلد الحادي عشر لموسوعة قصّة الحضارة يُواصل المؤلفان حديثهما عن التطوّرات التي حدثت في أعقاب الثورة الفرنسيّة، وكان بعض هذه التطورات استمراراً لأفكار الثورة، وكان بعضُها الآخر تصحيحاً لها. وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يتناول السياسة والاقتصاد والدين والفن والأدب والعلم ومختلف مظاهر الحياة في سياق واحد يُفَسّر بعضُه بعضَه الآخر فتأتي النظرةُ شاملةً عميقة، بالإضافة إلى أنّ هذا المنهج يُوضح تزاوج الحضارات ولقاء الأفكار.

نفهم من هذا الكتاب أنّ التقسيم النظري للمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا وُجود له بشكل واضح على أرض الواقع فثمة تقسيم نظري (وهذا مجرد مثال) تبين فصول الكتاب أنه مجرّد تقسيم لا يخرج عن رؤوس من سمّاهم نابليون بالأيديولوجيين أي المنظّرين، وكانت الكلمة - حين استخدمها - تنطوي على شيء من السخرية، ونعني به تقسيم النُّظم إلى علمانية ودينية، فليس هناك نظام واحد يستطيع حتّى لوْ أراد أن يُغفِل عقائد الشعب حتّى لو كانت عقائد خرافيّة. من المؤكّد أنّ الكنيسة الكاثوليكية في روما لم تكن تعتبر نابليون مسيحياً أو على الأقل لم تكن تعتبره كذلك من وجهة نظرها، ولم يحضر الرجل للصلاة في كنيسة، ولم يحضر تسبيحة شكر وفقاً للطقس المسيحي، ولم يؤمن في يوم من الأيام بفكرة التثليث في المسيحية، وتزوّج ماري لويز النمساوية في الوقت الذي لم يكن البابا قد أقرّ طلاقة من جورفين (أى أنه جمع بين زوجتين) ولم يؤمن يوماً بعصمة البابا (وهو مُعتقد في صلب العقيدة الكاثوليكية) بل لقد أهانه بعد ذلك كما نقرأ في فصول هذا الكتاب وسَجَنه وجرّده من ممتلكاته... نابليون إذن من وجهة نظر معاصريه الأوروبيين « كافر» أو « مُلحد » أو « عَلْماني » بل إن السلطات الكنسيّة لم تكن مُقتنعة أن اعتناقه للإسلام في مصر كان مجرّد خدعة فوصفته « بالمرتد » عن المسيحية. ومع كل هذه « العلمانيّة » إن صحّ التعبير، وجدنا نابليون نفسه عندما أراد أن يضبط ما انْفلت في فرنسا: ضياع، وتمرّد وتفسّخ في الأسرة وفي الحياة العامة، وافتقاد لجو الرخاء الاقتصادي والاستثمار

لم يجد إلاّ الدين «وسيلة» لذلك، وعندما أراد أنْ يُتوج نفسه ملكاً كان لابُد أن يتعزّز بالدين أمام غالبية شعبه، رغم أنّ هذا أثار سخرية أهل باريس السّاخرين بطبعهم من الكنيسة، فاسترضى البابا ونَفَحَه جُعْلا ليتوّجه ويُباركه (أى يمسحه بالزيت)، ومع هذا كانت هناك إشارات تَنمُّ عن حقيقة ما بداخله ففي حفل تتوجيه وَضَع هو نفسُه التاج على رأسه بعد أن تناوله من فوق منضدة مُعدَّة لذلك ولم يسمح للبابا بأن يضع التاج فوق رأسه (رأس نابليون)، والمعنى واضح، وشجع نابليون نشر كتاب عن (عبقرية المسيحية)، ومؤلفُ الكتاب نفسه اعترف في آخر حياته أنه لم يقصد إلاّ إيجاد وسيلة (هي هنا المسيحية) لإسكات الفقراء ومنع الثورات. ليست هناك إذن «علمانيّة» خالصة ولا يمكن أن تكون.

فإذا ما انتقلنا إلى النّظم الدينية وجدنا البابا يناور ويتحالف ويطالب بممتلكات دنيوية (الولايات البابوية) ووجدنا الأساقفة يطالبون بممتلكات الكنيسة، بل ووجدنا مثالاً طريفاً قد يكون من المفيد ذكره في هذا السياق، فعندما وصل نابليون إلى بولندا المقسّمة وقتها بين روسيا وبروسيا والنمسا راقت له امرأة جميلة من نسائها النبيلات، فاستقْصت عليه ورفضت ما أراد، فترجّاها نبلاءُ بولندا بمن فيهم رجال الدين المسيحي أن تُضحّي بنفسها وترضَخَ له وتُرضيه حتى يُخلّص بولندا من أعدائها الذين اقتسموها وقسّموها وليعيد بولندا موحّدة كما كانت، فتكون (أي هذه المرأة) بذلك قدِّيسة مثل أستير وساقوا لها آيات من الكتاب المقدس (العهد القديم – سفر أستير) فمن هي أستير هذه؟ إنها فتاة يهودية جميلة تراءت للامبراطور أَحَشويروش «الذي ملكَ من الهند إلى كوش» فتزوّجها بعد أن أوصاها قريبها مردخاي ألاّ تذكُر للامبراطور عن شعبها اليهودي، وسلبت أستير لُب الملك واستطاعت أن تُثير حفيظته ضد وز يره هامان إذْ دبّرت إجلاس الوزير على سريرها فهاج الإمبراطور وقال «أيكبسُ في بيتي» وأعدمه، وكان هامان عدوا لليهود.. المهم أن أستير استطاعت بفضل حب الإمبراطور لها حماية شعبها اليهودي ومكّنته من قتل مئات من أهل البلاد.

نعود إلى حكاية نابليون، لنجد أنّ هذه المرأة البولندية بعد أن اقتنعت بهذا الشاهد

« الديني » أتاحت نفسها لنابليون فَذَاق عَسِيلتها وأَمعن، لكنه والحقّ يُقال كان أذكى كثيراً من الإمبراطور أَحَشويرش فلا هو وحّد بولندا لأن هذا كان سيكلفه الكثير، ولا أخرج منها روسيا لأن هذا كان سيُفقده حليفاً محتملاً وهذا ما تحقق لكن إلى حين.

ولعلّ الفصل الرابع عشر (عن العلم والفلسفة في عصر نابليون) يكون من أمتع فصول الكتاب، فهو يقدم لنا في عَرْض بسيط وواضح جهود العلماء الفرنسيين في الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا (علم الأحياء) وما تمخّض عنها من آراء فلسفية تبنَّى منها كل حزب سياسي ما يُدعّم اتجاهه السياسي، وهذا أمر طريف، كما استثمر السياسيون النظريات العلمية الخالصة لدعمَ أفكارٍ سياسية، وهذا بطبيعة الحال لا ينفي فضل العلماء وإن كان يعيب إنحراف السياسيين.

ولم يدع نابليون – على سبيل المثال – مبادئ الثورة الفرنسية وحرية الأديان وما إلى ذلك تعوقُه عن النظر للأمور من خلال المنظور العملي الذي يؤكّده الواقع وتدعمه الإحصاءات. لقد أقر حرية الدين للجميع بمن فيهم اليهود لكنه أرسل ليسأل حاخاماتهم عن موقف الشريعة اليهودية من « الربا » فأجابوه أن هذه الشريعة كما جاء بها موسى تحرّم الربا، وسألهم عن موقفهم من غير اليهود فقالوا قولاً حسناً، فأتاح لهم حرية العبادة أُسوة بغيرهم لكنه أمرهم بعدم التمركز في منطقة بعينها وأن ينتشروا في أنحاء فرنسا، وأمرهم ألاّ يقتصروا على مهنة الصرافة والعمل في المعادن النفيسة وإنما عليهم توجيه أبنائهم للعمل في مختلف المهن، والأهم من هذا أنه أسقط الفوائد الربوية التي فرضها اليهود على رعاياه، وهدّأ نابليون من ثائرة فلاّحي الالزاس الذين كانوا على وشك الهجوم على البنوك التي يمتلكها يهود ألمان بأن أمر ألاّ تُحصِّل هذه البنوك المبالغ التي أقرضتها (بالربا) للفلاحين قبل عام (راجع تفاصيل هذا في الفصل الحادي عشر).

* * *

والفصول السابع والثامن والتاسع تحوي صفحات شائقة في التاريخ العسكري وفن إدارة المعارك: معركة مارنجو، وأوسترليتز، وأولم وغيرها،... لقد تناول المؤلف بالتفصيل معارك فرنسا في عهد القنصلية (عندما كان نابليون هو القنصل الأول) وفي عهد الإمبراطورية

(بعد تتويجه إمبراطوراً)، ولم يكن عرضُه جافا وإنما تخلّله جانب من أقوال نابليون وتوجيهاته بل ونصوص نشراته التي كان يوزّعها على جنوده مما أعطى العرض حيوية فائقة.

وفيما يتعلّق بالأعلام الواردة في الكتاب بذلت كل الجهد لتقديم الاسم كما يُنطقه أهله إلاّ في حالات قليلة، بالإضافة لإثبات الاسم كما هو متداول في الكتابات العربية نقلاً عن الصيغة الانجليزية التي غلبت في بلادنا العربية لظروف تاريخية، وعلى هذا فقد كتبتُ قُبالة الاسم وارسُو Warsaw الصيغة (فرسافا) فهكذا ينطقون وارسو في شرق أوروبا، أما معركة وارنر فكتبتها أيضاً بنطقها الألماني ڤارنر، ومدينة ويمار وضّحت أيضاً أنها ڤيمار، وجعلت حرف الوار لها في الأعلام الألمانية (ڤ ٧) في أسماء المدن والأشخاص ليكون الاسم كما ينطقه أهله مع عدم إغفال الإشارة للاسم كما هو متداول في الكتب العربية. وفي حالتين أو ثلاث أغفلتُ ذلك لاستقرار الاسم في الاستعمال العربي استقراراً راسخاً، وعلى هذا فقد كتبتُ باريس Paris وليس باري كما ينطقها الفرنسيون، واستقر الاستعمال عندنا على الاسم لويس وليس لوِي كما ينطقه الفرنسيون، والكتب العربية تذكر الجنرال كليبر بإثبات الراء فلم أجد مبرراً لكتابته (كليبه). وهناك بعض الأسماء الأوروبية مألوفة لنا بصيغ عربية، فأثبت الصيغة العربية أيضاً مدّاً للجسور بين الحضارات، كالاسم جوزيف الذي هو يوسف وكونستانت الذي ينطقه الفرنسيون كونستان وأوردته الكتب التراثية العربية قستنطين، أما الفيلسوف الألماني جوته أو جيته والصيغتان واردتان في الكتب العربية – فقد اعتمدتُ الصيغتين وأشرتُ لهما معاً، فالألمان ينطقون ما بعد الجيم واواً يُميلونها حتى تكاد تكون ياء، أو واواً يميلونها حتى تكون ياء على نحو ما نُميل الياء المتطرّفة في بعض القراءات فنقول (والضُّحى) مع إمالة الياء لتكون عَواناً بين الألف والياء.

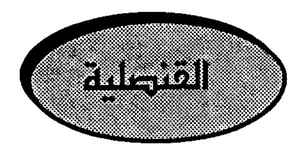
وقد راجعتُ المواضِعَ والأماكن التي وردت في الكتاب على الأطالس التاريخية وضبطتها وأزلت بعض اللّبس الذي وقع فيه سهواً آخرون، فمنطقة نهر إِلْب Elbe تُطل على بحر الشمال ولا علاقة لها بمنطقة جبال الألب أو الجمهورية السيزالبية (جمهورية الألب الشمالية).

ومن المصطلحات التي قمتُ بتصويبها في هذه الترجمة ما ورد في مجال التعليم عن

نشر كلّيات المعلمين أو كليات التربية، والمصطلح المستخدم هو Ecole Normale الذي يعني كلية المعلمين أو مدرسة المعلمين العليا، ولا يعني أبداً «المدارس العاديّة» وأخيراً فالكمال للّه وحده سبحانه وتعالى، ندعوه أن يُلهمنا الصواب ويُقيلنا من العثرات، وأكرر شكري للأستاذ محمد السويدي الأمين العام لاختياره – للترجمة – هذه الأعمال الكبيرة، فالمجمع الثقافي في (أبوظبي) أصبح بذلك صَرْحاً ثقافياً موجّهاً للضمير العربي – وعلى اللّه قصد السبيل.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الفصل السابع



[من ١١ نوفمبر ١٧٩٩ إلى ١٨ مايو ١٨٠٤]

١- الدستور الجديد

١ / ١ القناصل (الحكّام القناصل)

في ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٩ اجتمع القناصل المؤقتون في قصر لكسومبرج لإعادة بناء فرنسا من جديد . وكان هؤلاء القناصل المؤقتون هم نابليون وسييز Sieyès وروجر (روجيه) دوكو Roger Ducos، وساعدهم في مهمتهم لجنتان تضمان أفراداً من المجالس والجمعيات القديمة، وكان كل من سييز ودوكو لديهما بالفعل مقر إقامة في لكسمبورج باعتبارهما كانا عضوين في حكومة الإدارة السابقة، وقد انتقل نابليون وجوزفين ويوجين Eugène وهورتنس Hortense والعاملون معهم إلى لكسومبورج في ١١ نوفمبر ١٧٩٩ .

وقد واجه المنتصرون في هذا الانقلاب أمّة نهشت الفوضى في بِنْيتها الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية. وكان الفلاحون يخشون إذا ما عادت أسرة البوربون المالكة أن تُلْغَى سندات الملكية التي بحوزتهم. وكان التجار والحرفيون يرون أن رفاهيتهم مهدَّدة بسبب الموانئ المحاصرة، والطرق التي اعتراها الإهمال وأعمال اللّصوصية وتردّد أصحاب الأموال في استثمار أموالهم بضمان الحكومة التي سبق أن اجتاحتها الانقلابات عدَّة مرَّات. والآن وقد أصبحت الحاجة ملحّة لقوّة القانون وتنفيذ المشروعات العامة، وتقديم الغوْث للفقراء، لم يكن تحت تصرف الخزانة إلاّ ١٢٠٠ فرنك. وكان رجال الدين في حالة معارضة دائمة : فمن بين ثمانية آلاف قس كاثوليكي في فرنسا، رفض ستة آلاف منهم التوقيع على الدستور المدني لرجال الدين (الإكليروس) وراحوا يعملون ضد الدولة في عداء سافر أو مقنّع، أما التعليم العام فقد تدهور حاله - بعد إبعاد الكنيسة عن تولّي أمره - رغم البيانات الرسميّة الفخمة ورغم الخطط الحكومية الطموحة. أما الأسرة الدعامة الأساسية للنظام الاجتماعي فكانت قد اهتزّت بسبب حرية الطلاق مما أدّى لانتشاره، وبسبب كثرة الزواج

الاعتباطي (غير المدروس) وبسبب تمرّد الأبناء . أما الروح العامة للشعب فقد كانت تحتضر خوفاً من الثورة والحرب وبسبب الشك في كل زعيم وبسبب التشاؤم لعدم تحقّق الآمال، بينما كانت هذه الروح في سنة ١٧٨٩ قد بلغت ذُرى الوطنية والشجاعة . لقد كان مثل هذا الموقف يتطلب فنّ إدارة شؤون الدولة، لا دهاءً سياسياً، ويتطلب حسماً دكتاتورياً (كما تنبّأ مارا Marat وحثّ من قبل) لا مناقشات ديمقراطية تَتَّسم بالترف في جمعيات فارغة - لقد كان المطلوب مزاوجة بين الرؤية الرحّبة والفكر الهادف والعمل المضني والبراعة مع البصيرة وإرادة آمرة . وقد انطبق كل هذا على نابليون .

وفي أول اجتماع لهؤلاء القناصل المؤقتين اقترح سييز أن يكون نابليون - ذلك الجنرال ذو الثلاثين عاماً - هو الرئيس (القنصل الأول) لكن نابليون استرضى سييز Sieyès بترتيب الأمر بحيث يتولّى الرياسة كل واحد منهم على التعاقب، واقترح - أي نابليون - أن يكون سييز هو المسؤول الأوّل عن صياغة الدستور الجديد . وعكف هذا المنظِّر القديم على دراسته وترك نابليون (مع دوكو Ducos اللطيف المسالم) لإصدار المراسيم لضمان حُسن سيْر الإدارة، وتحسين أداء الخزانة بتطوير قدرتها على الوفاء بديونها، وتهدئة النزاعات واكتساب ثقة الشعب الذي أزعجه اغتصاب السلطة بالقوة .

وكان أوّل ما قام به القنصل الأول The ruling Consul أنه ارتدى زيًّا مدنياً مُتواضعاً مُحتشماً وطرح لباسه العسكري . لقد كان عليه أن يكون هو الفتى الأول فوق خشبة مسرح الأحداث . لقد أعلن عن نواياه بمجرد تأسيس الحكومة الجديدة مقترحاً شروط السلام مع إنجلترا والنمسا . وكان طموحه في بواكير فترة حكمه هذه هو طمأنة فرنسا وتقويتها لا إجبار إنجلترا على التسليم . لقد كان نابليون في هذا الوقت هو من أسماه بِت Pitt ابن الثورة ومضمّد جراح فرنسا الناتجة عن النزاعات الداخلية، ومخطط رخائها الساعي لاستتباب السلام . ابن الثورة الذي هو إفراز من إفرازاتها، وحاميها، والعامل على الاحتفاظ بما حققته من مكاسب اقتصادية، لكنه أيضاً كان واضحاً في إبداء رغبته في إنهاء الثورة .

لقد أسعد البورجوازية عندما أصدر في ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٩ قراراً بنفي ثمانية وثلاثين شخصاً كانوا مصدر خطر على الأمن العام (وكان نابليون لا يستغني عن الدعم

الاقتصادي الذي تقدّمه البورجوازية له، فقد كان هذا أمراً ضرورياً لسلطته) وقد كان قراره هذا يمثل الدكتاتورية المفرطة إذ جلب من السّخط أكثر مما جلب من الاستحسان، لذا فإنه سرعان ما عدّل القرار ليجعله نفياً إلى المحافظات (المديريات الفرنسية) بدلاً من النفي خارج فرنسا .وألغى ضريبة المصادرة التي تتراوح قيمتها من ٢٠٪ إلى ٣٠٪ والتي كانت حكومة الإدارة قد فرضتها على كل الدخول[١] التي تزيد على المستوى العادي . وألغى القانون الذي كانت الحكومة تعمل بمقتضاه على احتجاز المواطنين البارزين كرهائن يتم تغريمهم أو نفيهم إذا ارتكب مواطنوهم أية جرائم ضد الحكومة . وهدّأ الكاثوليك في إقليم الفندي Vendée بدعوة زعمائهم إلى مؤتمر وأكّد لهم نواياه الحسنة ووقّع معهم في ٢٤ ديسمبر هدنة أنهت الحروب الدينية في فرنسا لفترة . وأمر أن تعاود كل الكنائس الكاثوليكية – التي سبق أن كُرّست قبل سنة ١٧٩٣ – ممارسة العبادات الكاثوليكية في كل الأيام ما عدا يوم الديكادي[٢] décadi (اليوم العاشر)(*) وفي ٢٦ ديسمبر أو بعد ذلك بقليل أعاد من المنفى ضحايا أجنحة الثورة التي حققت انتصارات على الأجنحة الثورية الأخرى في وقت من الأوقات : الليبراليون السابقون في الجمعية الوطنية National Assembly بمن فيهم لافاييت Lafayette، ولطّف من حدّة أعضاء لجنة الأمن العام Committee of Public Safety، مثل باريز Bayrère ولازار كارنو Lazare Carnot الذي عاد إلى ممارسة مهامه في وزارة الحرب . وأعاد بونابرت الحقوق المدنية للنبلاء غير المشاغبين، وللمسالمين من أقارب الذين تركوا فرنسا بسبب أحداث الثورة emigrès . وأبطل المهرجانات التي كان وقودها الحقد والكراهية، كمهرجان الاحتفال بذكرى مقتل الملك لويس السادس عشر، ونفى الجيرونديين Girondins وذكرى سقوط روبيسبير . وأعلن نابليون أنه لن يحكم فرنسا لصالح أية فئة من الفئات المتصارعة – اليعاقبة أو البورجوازية أو الملكيين – وإنما سيحكمها كممثّل للأمّة كلها . لقد أعلن أنه إن حكم لصالح أي فريق فمعنى هذا أنه سيعتمد عليه (دون سواه) عاجلاً أم آجلاً . ولن يسمح لي الفرقاء الآخرون بذلك أبدا . إنني وطني فرنسي »[٣] .

وعلى النحو نفسه نظر الشعب الفرنسي له – حقاً لقد نظر إليه الفرنسيون جميعاً

(*) أسبوع الثورة الفرنسية يساوي عشرة أيام . (المترجم)

باعتباره وطنياً فرنسيا فيما عدا بعض الجنرالات الحاقدين، واليعاقبة الجامدين. لقد تحوّل الرأي العام الفرنسي منذ ١٣ نوفمبر بشكل حاسم لصالحه. لقد كتب السفير البروسي لحكومته في ذلك اليوم قائلاً: «كل ثورة سابقة اعتراها كثير من الخوف والريبة، أما هذه الثورة الفرنسية، فعلى العكس، فقد أبهجت أرواح الجميع وأيقظت أكثر الآمال حيوية، كما شهدتُ ذلك بنفسي»(٤). وفي ١٧ نوفمبر بلغ الهبوط في البورصة أحد عشر فرنكاً، وفي ٢٠ من الشهر نفسه ارتفع إلى ١٤، وفي ٢١ من الشهر نفسه، ارتفع إلى ٢٠(٥).

وعندما قدَّم سييز Sieyès للقنصليْن الآخرين خطته فيما يتعلق «بدستور السنة الثامنة» (١٧٩٩) فإنهما سرعان ما أدركا أنَّ المولِّد السابق الذي وُلدت الثورة على يديه قد فقد كثيراً من ذلك الإعجاب الذي كان يُكنه للطبقة الثالثة أي طبقة العوام، ذلك الإعجاب الذي كان يُزكى أوار لهيب نشراته أو دفاتره الدعائية المتَّسمة بروح التحدي خلال العقد الماضي. لقد أصبح الآن متأكداً تماماً أنه ليس في مقدور أي دستور أن يحفظ الدولة لفترة طويلة إذا امتدت جذوره – وجذور الدولة معه – في إرادة غير ثابتة الاتجاه تحركها عواطف الجماهير غير المُدركة لأبعاد الأمور.

لقد كادت فرنسا في هذه الفترة تكون خالية من المدارس الثانوية، وكانت صحافتها مُمثِّلة للتحزّب والتشيّع لفئة أو أخرى مما جعلها مصدر تَعْمِية على العقل العام أكثر منها مصدر إِخْبار صحيح.

وقد قصد الدستور الجديد لحماية الدولة من الجهل المنتشر من ناحية ومن الحكم الاستبدادي من ناحية أخرى. وقد تحقَّق نصف نجاح في هذا السبيل.

وقام نابليون بمراجعة سييز Sieyès في بعض أفكاره التي أوردها في الدستور الجديد، لكنه بشكل عام قبل معظمها لأنه – أي نابليون – كان بدوره غير ميّال للديمقراطية. ولم يغير رأيه الذي مؤدّاه أنّ الشعب (الفرنسي) غير مؤهَّل لاتخاذ قرارات حكيمة بشأن انتخاب ممثليهم أو بشأن الأمور السياسية؛ فهم أناس تأسرهم الجاذبية الشخصية، وتخدعهم البلاغة الخطابية والكتابات الصحفية، ويُؤثِّر فيهم القُسس الذين ترفرف قلوبهم حول روما. واعتقد نابليون أن الشعب الفرنسي نفسه لابد أنه معترف بعدم مقدرته (أي مقدرة

الشعب) على مواجهة مشاكل الحكومة. وسيكون الشعب راضياً إذا خوّل لهم الدستور الجديد حق الموافقة أو الاعتراض على قضايا تطرح عليهم في استفتاء عام. لقد أعاد سييز Sieyès الآن تشكيل فلسفته السياسية وفقاً للمبدأ الأساسي التالي: « لابد أن تأتي السلطة من أعلى، وأن تأتي الثقة من أدنى »(٦) وبتعبير آخر فلتحكم الحكومة وليثق الشعب.

لقد بدأ بانحناءه احترام « موجزة » للديمقراطية. فقد كان على كل فرنسي بلغ العشرين أو أكثر أنْ يصوّت لاختيار عُشر هذه الفئة العمرية ليُصبح المنتخبون (بفتح الخاء) وجهاء محليون (في الكوميونات) Communal notables ويقوم هؤلاء المنتخبون (بضم الميم وفتح الخاء) بدورهم بانتخاب عُشر عددهم ليكونوا وجهاء على مستوى المحافظات (الأقسام أو الدوائر) departmental notables وهؤلاء بدورهم ينتخبون عُشر عددهم ليكونوا وجهاء على مستوى فرنسا National notables. وهنا تمخضّت العملية الديمقراطية عن: موظفين محلِّيين كان لا بد أن يعينهم (لا ينتخبهم) الوجهاء الكوميونيون (المنتخبون على مستوى الكوميونات)، وموظفين محليين على مستوى الدوائر أو المحافظات يتم تعيينهم من قِبَل المنتخبين على المستوى نفسه، وموظفين كبار على مستوى الدولة الفرنسية يتم تعيينهم من قِبَل المنتخبين (بضم الميم وفتح التاء) على هذا المستوى الثالث (الوطني). وكان لا بد أن تتم كل التعيينات من قِبل الحكومة المركزية.

وأسفرت هذه الانتخابات عن تأسيس:

(١) مجلس الدولة الذي كان عادة ما يضم خمسة وعشرين عضواً يعينهم رأس الدولة The chief of state مخوَّلين باقتراح القوانين الجديدة.

(٢) مجلس التريبيون(*) Tribunatē أو مجلس المدافعين عن حقوق الشعب (وهو ما تعنيه الكلمة) ويتكون من مائة عضو Tribunes (والمعنى المباشر للكلمة هو: حامي حمى الشعب) مخوَّلين بمناقشة الإجراءات المقترحة ولهم الحق في تقديم توصياتهم إلى الهيئة التشريعية.

(٣) الهيئة التشريعية Le corps Législatif وهي مكونة من ثلاثمائة عضو من حقهم

(*) أو التريبيونيل. (المترجم)

رفض الإجراءات المقدَّمة أو تكييفها مع القانون (وليس مناقشتها) .

(٤) السينات Sénat أو مجلس الشيوخ وعادة ما يضم ثمانين عضواً من ذوي العقول الناضجة مخوَّلين بإلغاء القوانين التي يحكمون بأنها غير دستورية، وهم مخوّلون أيضاً بتعيين أعضاء مجلس التريبيون (مجلس المدافعين عن حقوق الشعب) وأعضاء الهيئة التشريعية، كما أنهم مخوّلون بإضافة أعضاء جدد إلى مجلسهم (مجلس الشيوخ أو السينات) من بين وجهاء الأمة National notables كما أن عليهم قبول الأعضاء الجدد الذين يعينهم « الناخب العظيم grand elector » .

(٥) الناخب العظيم.

ومصطلح الناخب العظيم هو المصطلح الذي أطلقه سييز Sieyès على رأس الدولة لكن نابليون رفض المصطلح وتوصيفه، لأنه رأى في هذا المنصب (كما يدل عليه المصطلح الذي وصَّفه سييز Sieyès) مجرد وكيل تنفيذي لقوانين تمت إجازتها دون مشاركته أو موافقته، وتجعله مجرَّد رئيس شكلي (صُوري) ليس له من الأمر شيء سوى استقبال الوفود والدبلوماسيين، وتصدّر الحفلات الرسمية . وشعر نابليون أنّ هذه الأمور لا تحتاج إلى موهبة، وكان على عكس ذلك يتطلع إلى أن يصل بأقصى سرعة ممكنة – عن طريق القوانين – إلى تحقيق أمل أمة تصرخ مطالبة بالنظام والتوجيه، ومصرّة على البقاء (الاستمرار)، لذا فقد قال لسييز Sieyès إن ناخبكم العظيم هذا Grand Elector مجرّد ملك عاطل وقد ولّى الآن زمن هؤلاء الملوك الكسالى . إنَّ أيّ رجل ذي قلب وعقل لا يمكنه أن يقبل هذه الحياة البليدة مقابل ستة ملايين فرنك ومسكن في التوليري؟ ما هذا؟ أيكمن جالساً يُعيِّن من يعملون بينما يظل هو بلا عمل! هذا غير مقبول »[٧] . لقد طلب الحق في أن يبادر بالتشريع، وإصدار المراسيم وأن يعين في مناصب الحكومة المركزية من يراه كُفؤاً حتى ولو لم يكن من بين الوجهاء المنتَخبين (بفتح الخاء) . لقد كان برنامجه لإعادة البناء في المجالات السياسية **والاقتصادية** والاجتماعية يتطلب استحواذاً مضموناً على السلطة طوال سنوات عشر . لذا فإن نابليون لم يرغب في أن يكون « الناخب العظيم » – ذلك اللقب ذو المذاق البروسي – وإنما أراد أن يكون « القنصل الأول » ذلك اللقب الذي يحمل عبق روما القديمة . وهكذا رأى

سييز Sieyés دستوره يسقط ليصبح ملكيا إلاّ أنه ملكي معدَّل نظراً للمهمة الإشرافية لمجلس الشيوخ (السينات) وتم تعيين سييز Sieyès ودوكو Ducos قنصلين وفي ١٢ ديسمبر ١٧٩٩ أحلّ نابليون محلّهما كلاً من: جان – جاك كامباسير Jean - Jacques Cambacérès كقنصل ثان، وشارك فرانسو ليبرون Charles François Lebrun كقنصل ثالث.

ومن الخطأ تصنيف هذين القنصلينْ باعتبارهما مجرد موظَّفيْن مُطيعيْن. فقد كان لكل منهما خبراته وتجاربه. لقد أصبح كامباسير Cambacérès الآن هو المستشار القانوني لنابليون، وكان كامباسير قد شغل سابقاً في حكومة الإدارة منصب وزير العدل. وكان يترأس مجلس الشيوخ، كما كان في حالة غياب القنصل الأول – يترأس مجلس الدولة (Conseil d'Etat) Council of State وقام بدور قيادي في تشكيل مدوّنة نابليون القانونية Code Napoléon. وقد كان شخصاً هادئاً وكان معتزاً بالولائم الفخمة التي يُقيمها، لكن هدوءه هذا وكذلك ميله للتأمل مكّناه – غالباً – من إنقاذ القنصل الأول (نابليون) من أخطاء طائشة. لقد قام بتحذير نابليون من معاداة أسبانيا وحذّره من التورّط مع روسيا، أما شارل – فرنسوا ليبرون Lebrun فقد كان فيما مضى أمين سر لريني دي موبو René de Maupeou في مهمته الساعية لإنقاذ فرنسا البوربونيّة من الإفلاس (أي أنه قام بهذه المهمة يوم كانت فرنسا تحت حكم أسرة البوربون الحاكمة) وسبق له أن شارك في إعداد التشريعات المالية التي أصْدرتها الجمعية الوطنية National Assembly وحكومة الإدارة، والآن فقد بدأ مهمته في حكومة القناصل مع نابليون بخزانة خاوية فعمل على تنظيم مالية الحكومة الجديدة. لقد قرَّر نابليون كفاءة هذين الرجلين فعندما أصبح إمبراطوراً جعل من ليبرو Lebrun مسؤولاً أول عن الخزانة، كما جعل من كامباسير Cambacérès مستشاره الأول، وقد ظلا وفيّيْن له حتى النهاية.

ورغم إيمان نابليون الراسخ بأنّ ظروف فرنسا تتطلّب قرارات عاجلة وتنفيذ سياسات سريعة إلاّ أنّه قدَّم مقترحاته–في عامه الأوَّل في الحكم – إلى مجلس الدولة وسمع أعضاءه وهم يُهاجمون ويدافعون واشترك هو نفسه في المناقشات الدائرة بشكل إيجابي. وكان هذا دوراً جديدا له، فقد اعتاد أن يقود أكثر من اعتياده الاشتراك في المناقشات، وقد أصبحت

أفكاره الآن تتجاوز كلماته (تسبق كلماته): لكنه تعلّم بسرعة وعمل بكل جهده داخل مجلس الدولة وخارجه وبذل كل ما يستطيع لتحليل المشكلات وإيجاد الحلول. لقد كان حتّى الآن مجرَّد مواطن قنصل Citoyen - Consul وسمح لآخرين بفرض آرائهم عليه[٨] وكان أعضاء مجلس الدولة من أمثال بورتالي Portalis ورودريه Roederer وثيباودو Thibaudeau من ذوي الكفاءة العالية، ولم يكونوا من النوع المنساق، ومع هذا فإنَّ مذكراتهم تَغُصّ بالثناء على رغبة نابليون الشديدة في الإصلاح وبذله قُصارى جهده في العمل. لنستمع إلى روديريه Roederer وهو يقول: «إنه دقيق في كلّ موقف، يُطيل الجلسة لخمس ساعات أو ست... ودائماً يعودُ إلى هذا السؤال: أهذا عدل؟ أهذا مفيد؟... وهو دائماً يربط كل مشكلة بظروفها التي يعمد إلى تحليلها تحليلاً دقيقاً والحصول على معلومات بشأن فلسفة التشريعات السابقة الصادرة في أيام الملك لويس الرابع عشر وفردريك العظيم Frederick the Great... ولم يحدث أبداً أن تم تأجيل المجلس دون أن يكون أعضاؤه أكثر علماً بالأمور من ذي قبل - إذا لم يكن ذلك من خلال المعلومات التي يحصلون عليها منه، فمن خلال البحوث التي يُجبرهم على القيام بها.. وما كان يُميزه عنهم جميعاً هو قوة ملاحظته ومرونته ودأبه إنني لم أره أبداً وقد اعتراه التعب. ولم أجده أبداً وقد فقد عقله تألّقه حتّى ولو كان بدنه متعباً... أنه لا يوجد أبداً من يُكرّس نفسه كُلّية للعمل الذي هو عاكف عليه مثله، ولم أرَ أفضل منه في استثمار وقته وتخصيصه لإنجازِ ما يتحتَّم عليه عمله»[٩].

في تلك الأيام كان في مقدور المرء أنْ يُحب نابليون.

١/ ٢ الوزراء:

وبالإضافة إلى تنظيم أمور التشريعات اللازمة لحكم فرنسا، فقد انخرط في العمل الأصعب ونعني به إدارة البلاد، لقد قسّم هذه المهام الإدارية بين ثماني وزارات جعل على رأس كل منها أكفأ من وجد من الرجال بصرف النظر عن انتماءاتهم الحزبية وماضيهم. لقد كان بعضهم يعاقبة وبعضهم من الجيرونديين وبعضهم الآخر من الملكيين وفي حالة أو

حالتين سمح نابليون لميوله الشخصية بتجاوز الحد فتطغى على الاعتبارات العملية، ومن ذلك أنه عيَّن لابلاس Laplace وزيراً للداخلية، لكنه سرعان ما وجد الفلكي والرياضي الكبير وقد نقل «روح التفاصيل الرياضية الدقيقة إلى الإدارة»[١٠] فنقله إلى السينات (مجلس الشيوخ) وأوكل وزارة الداخلية لأخيه لوسين (لوسيان) بونابرت Lucien.

لقد كان العمل الأساسي، والذي يكاد يكون متعذراً، لوزارة الداخلية هو إعادة الحيوية للكميونات أو المجالس البلدية، وتطويرها لإعادة قدرتها على الوفاء بديونها، باعتبارها – أي هذه الكيمونات أو المجالس البلدية – هي الخلايا المكونة للجهاز السياسي. وقد عبر نابليون بنفسه عن هذه الحال في خطاب وجهه إلى لوسين (لوسيان) في ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٩.

«منذ سنة ١٧٩٠ وهذه الكيانات المحلية (الكميونات أو المجالس البلدية) البالغ عددها ٣٦,٠٠٠ تشبه البنات اليتيمات. لقد كانت هذه الكيانات هي وارثة الحقوق الاقطاعية القديمة، وقد أهملها وسلبها إرادتها الأمناء المفوضون الذين كانت حكومة المؤتمر الوطني وحكومة الإدارة ترسلهم. إن مناصب: رئيس البلدية والخبير التابع له، والمستشار البلدي، أصبحت بالتدريج لا تعني بشكل عام سوى أنها نوع جديد من اللصوصية. فشاغلو هذه المناصب يقطعون الطريق ويسرقون المشاة ويستولون على الأخشاب وينهبون الكنائس ويختلسون ممتلكات الكيمونات.. وإذا كان لابد أن يستمر هذا النظام عشر سنوات أخرى فماذا سيحدث لمؤسسات الإدارة المحلية هذه؟ إن هذه المؤسسات لم ترث شيئاً سوى الانخراط في المناقشات، وسوى الإفلاس حتى أنها ستطلب الإحسان من السكان»[١١].

هكذا كان نابليون في نوبات غضبه، لقد كان مبالغاً بمرارة. وإن كان ما قاله صحيحا لجاز الاقتراح بأن يُسمح (بضم الياء) للكوميونات باختيار موظفيها، كما هو الحال في كوميون باريس. لكن نابليون لم يكن راغباً لوصول الأمور فيها إلى ما وصلت إليه في باريس. فالثورة الفرنسية – فيما يرى مؤرخ أتى بعد انقضاء أحداثها، لم تكتشف في الكوميونات الأصغر (من كموميون باريس) سوى عدد قليل من الفلاحين كانوا متعلمين بدرجة كافية وكانوا مثقفين لدرجة تمكنهم من الإحساس بمعنى التكامل والصالح العام»[١٢]. وغالباً ما كان هؤلاء الحكام الذين تم اختيارهم محلياً – مثلهم مثل الحكام

الذين بعثت بهم باريس – إما أنهم غير أكفاء، وإما فاسدون، وإما غير أكفاء وفاسدون معاً. لذا فقد أصم نابليون أذنيه عن المطالبات بالحكم الذاتي المحلي Communal self-rule. لقد فضّل – بعد أن رجع للنظام الروماني القنصلي أو لنظام المحافظين intendants في أواخر حكم أسرة البوربون – أن يُعيِّن (أو يجعل وزارة الداخلية تعين) لكل دائرة أو محافظة أو مديرية أو قسم مأموراً prefect (منوطاً به تنفيذ القوانين)، ونائب مأمور (أو مأموراً مساعداً) في الوحدات الإدارية الفرعية، وأن يعين لكل كميون مديراً أو محافظاً أو رئيساً mayor ويكون كل معيَّن (بتشديد الياء وفتحها) مسؤولاً أمام من هو أعلى منه وأخيراً أمام الحكومة المركزية. وعلى هذا فقد كان كل «المأمورين» المعيَّنين من الرجال ذوي الخبرة الواسعة، وكان معظمهم من الأكفاء جداً[١٢]. وفي كل الأحوال وجدناهم يمكنون نابليون من القبض على زمام السلطة إلى حد كبير.

وكانت الخدمة المدنية (الجهاز الإداري كَكُل) في فرنسا في عهد نابليون هي الأكثر كفاءة والأقل ديموقراطية من بين كل ما عرفه التاريخ، ربما فيما عدا روما القديمة. وقاوم الشعب هذا النظام، الذي أثبت مع ذلك أنه ترياق يمكن تبرير استخدامه لعلاج نزعتهم الفردية المنطوية على تحقيق مكاسب، وقد احتفظ البوربون عندما عادوا للسلطة بهذا النظام كما احتفظت به الجمهوريات الفرنسية المتعاقبة. لقد أعطى هذا النظام لفرنسا استقراراً واستمرارية طوال قرن اجتاحته الاضطرابات السياسية والثقافية فقد كتب فاندال Vandal سنة ١٩٠٣ «إن فرنسا تعيش اليوم في ظل التشكيل الإداري والقوانين المدنية التي أورثها لها نابليون».

وكانت المشكلة الأكثر إلحاحاً هي إعادة ملء الخزانة. لقد عرض نابليون وزارة المالية على مارتن – ميشيل جودين Martin - Michel Gaudin بناء على توصية من القنصل ليبرو Lebrun وكان جودين قد رفض في وقت سابق هذا المنصب في ظل حكومة الإدارة، وكان مشهوراً بالكفاءة والأمانة. وكان توليه لهذا المنصب في ظل حكومة القناصل ضماناً لتأييد الماليين وثقتهم في هذه الحكومة الجديدة. فوصلت للخزانة قروض لإنقاذ الدولة وقدم أحد الماليين (البنكيين) للخزانة قرضا مقداره ٥٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبا ولم يطلب فوائد. وسرعان

ما أصبح في الخزانة ١٢ مليون فرنك تُغطى بها نفقاتها الجارية وتقدم منها للجيش طعامه وكساءه، فقد عانى أفراد الجيش طويلا من الملابس الرثة كما أنَّ رواتبهم لم تكن قد دفعت منذ فترة طويلة. (وكان نابليون يضع دائما الجيش في المحل الأول من اعتباره) وسرعان ما نقل جودين Gaudin سلطة تقدير الضرائب وجمعها من المسؤولين المحليين إلى الحكومة المركزية، نظرا للسمعة السيئة للسلطات المحلية في هذا الشأن. وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٠٠ وحد جودين االوكالات المالية المختلفة في بنك واحد هو بنك فرنسا Bank of France وطُرحت أسهمه للبيع وأصبح له حق إصدار العملة الورقية. وسرعان ما استطاعت الإدارة الدقيقة للبنك أن تُصدر أوراقاً نقدية محل ثقة انتشر استخدامها بين الناس. وكان هذا في حد ذاته ثورة. ولم يكن البنك مؤسسة حكومية وإنما بقي قطاعاً خاصا (in private hands) لكن الحكومة دعمته، وأشرفت عليه جزئياً عن طريق العوائد الحكومية المودعة به، وأصبح على وزير الخزانة باربي ماربوا Barbe - Marbois بالإضافة إلى وزير المالية إدارة ميزانية الدولة والحفاظ عليها في البنك.

وكانت أكثر الأمور في هذا النظام الإداري مدعاة للسخط هي: الحظر، وأعمال البوليس السري والعقاب على الجرائم، وإجراءات حماية المسؤولين الحكوميين من الاغتيال. وكان جوزيف فوشي (فوشيه) Fouché هو رجل هذه المهام. لقد سبق أن تمرس بكثير من أشكال الخداع والتنكر، وباعتباره كان من المشتركين في قتل الملك، فقد كان الملكيون يضعونه نصب أعينهم كهدف للانتقام، لذا فقد كان يمكن لنابليون أن يعتمد عليه كحاجز منيع يحول بين البوربون Bourbon والاستيلاء على العرش. فبينما دلل جودين Gaudin الماليين ورجال البنوك وروّضهم، وجدنا فوشيه Fouché يُشرك اليعاقبة في آمال القنصل الأول باعتباره ابناً مخلصا للثورة — يحمي العامة من الارستقراطية والإكليروس (رجال الدين) ويحمي فرنسا من القوى الرجعية. وكان نابليون يخشى فوشيه ولا يثق به، وظل محتفظا بطاقم منفصل من المخبرين السريين من بين مهامهم مراقبة وزير البوليس، ولكنه لم يبعده عن منصبة إلا في سنة ١٨٠٢ وكان هذا بحذر شديد، وأعاده سنة ١٨٠٤ وظل محتفظاً به إلى سنة ١٨١٠. لقد كان نابليون يقدر في فوشيه اعتداله في طلب الدعم المالي، وأوحى لهذا

الوزير اللمّاح بأن يموّل قواته – جزئياً – بمصادرة أموال نوادي القمار بالإضافة إلى الحصول على أموال من المباغي والمواخير[١٤].

وكُلّفت قوات درك خاصة (جندرمة) لمراقبة الشوارع والمخازن والمكاتب والمنازل التي من المفترض أنها تشارك في دخل الأحياء أو الدوائر (داخل المدن).

أما دفاع الفرد حتى لو كان مجرماً عن نفسه أمام البوليس والقانون والدولة فلم يحظ بالعناية الكافية في فرنسا على النحو الذي حظي به في انجلترا في تلك الأيام، لكن شيئا من ذلك قد كفله قضاة أكفاء. وعند اسناد هذا الفرع من فروع الادارة للفقيه القانوني أندريه - جوزيف أبريمال André - Joseph Abrimal قال له نابليون: « أيها المواطن. إنني لا أعرفك، لكن هناك من أخبرني أنك أكثر الرجال أمانة عندما تتولى أمراً من أمور الحكم، وهذا هو السبب الذي جعلني أعينك وزيراً للعدالة »[١٥] وسرعان ما امتلأت فرنسا بالمحاكم المختلفة التي غصت بهيئات المحلفين Juries التي تضم الكبار والشباب وقضاة الصلح Justices of Peace والمحضرين bailiffs والمدعين العموم (المفرد: مدّعي عام Prosecutor) والمدعين (مقدمي الدعاوى Plaintiffs) وكتاب العدل (محرري العقود notaries) والمحامين...

أما حماية الدولة الفرنسية من الدول الأخرى فتلك هي مهمة وزارة الحرب التي تولاها الجنرال لويس – اسكندر بيرثييه Louis - Alexander Berthier ووزارة البحرية التي تولاها دينيس ديكر Denis Dècres ووزارة الخارجية Ministère des Relations Extérieures التي تولاها تاليران Talleyrand المستعصي على الفساد. وكان قد بلغ من العمر عند توليه هذا المنصب خمسة وأربعين عاماً، وقد حقق شهرة عريضة كشخص مهذب رقيق الحاشية عميق الفكر فاسد الأخلاق (عاهر) with moral deprairty لقد رأيناه أخيراً (في ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠) يقيم قداساً مقدساً في مهرجان معسكري دي مارس Champs de Mars، وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب لآخر محظية من محظياته آديليد دي فيلول، كونتيسة فلاهوت Adélaïde de Filleul, Comtesse de Flahaut : « إنني آمل أن تكوني قد أحسست لأي إلهٍ وجهت صلواتي بالأمس، ولمن أقسمت قسم الولاء والاخلاص في هذه الصلوات. لقد كان ذلك موجهاً لك. فأنتِ الموجود الأسمى Supreme being الذي أعبده وسأظل أعبده

دوماً»[١٦] وقد أنجب من الكونتيسة ابناً لكنه حضر عرسها بهدوء كواهب خفي للعروس[١٧] وكان ضعفه أمام جمال النساء مصحوباً بطبيعة الحال بشغفه بالفرنكات فبها يعيش الجمال (المقصود أن النساء الجميلات في حاجة إلى المال الوفير). ومنذ رفض الأخلاق المسيحية واللاهوت الكاثوليكي وجدناه يوظف بلاغته وفصاحه لسانه لتحقيق المكاسب، وتلقى باقة ورد – لهذا – من كارنو Carnot[*] الذي قال عنه:

«لقد حمل تاليران معه كل رذائل الحكم القديم دون أن يكون قادراً على اكتساب فضائل الحكم الجديد. إنه شخص بلا مبادئ ثابتة. إنه يغير مبادئه كما يغير ملابسه، ويغير اتجاهه وفقا للريح، فهو فيلسوف إن كانت الفلسفة هي الصرعة السائدة، وهو جمهوري الآن لأن ذلك ضروري ليكون أي شيء، وسيعلن غداً أنه ملكي تماماً إن كان سيحصل منْ جراء هذا الاعلان على أي شيء. إنني لا أشتريه بشروى نقير أو بتعبير آخر أنا لا أريده بأي ثمن مهما كان بخساً». ووافق ميرابو Mirabeau على أن «تاليران سيبيع روحه من أجل المال، وسيكون على حق لأنه في هذه الحال إنما يبيع القذارة بالذهب»[**][١٨].

وعلى أية حال فقد كانت هناك حدود لدوران تاليران وعبثه، فعندما طردت الجماهير الملك والملكة من قصر التوليري وأقامت دكتاتورية البروليتاريا، فإنّه لم يَنْحَنِ للسادة الجدد وإنما استقل قارباً واتجه إلى إنجلترا في ١٧ سبتمسر نسة ١٧٩٢، وهناك قُوبل بمشاعر مختلفة ومتباينة، فقد استقبله بحرارة كل من جوزيف پرستلي Joseph Priestley وجيرمي بنثام Jeremy Bentham وجورج كاننج George Canning وشارلز جيمس فوكس[١٩] Fox، أما من استقبلوه ببرود فهم الارستقراطية الإنجليزية الذين لم ينسوا دوره في الثورة الفرنسية. وفي مارس سنة ١٧٩٤ انتهى التسامح الانجليزي معه وصدرت الأوامر له بمغادرة انجلترا في غضون أربع وعشرين ساعة، فأبحر إلى الولايات المتحدة وعاش هناك بارتياح من عوائد ممتلكاته واستثماراته، وعاد إلى فرنسا (أغسطس ١٧٩٦). وأصبح وزيراً للخارجية (يوليو ١٧٩٧) في ظل حكومة الإدارة. وبمثل هذه الطاقة والقدرة استطاع أن يضيف لثروته الكثير

(*) التعبيرات هنا تنطوي على سخرية كما يلاحظ القارئ. (المترجم)

(**) يقصد أن روحه هي القذارة أو الوسخ أو الروث muck. (المترجم)

بأساليب شتى حتى أنه كان قادراً على إيداع مبلغ ثلاثة ملايين فرنك في البنوك الإنجليزية والألمانية. وعندما علم أن حكومة الإدارة ستسقط استقال منها في ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٩ وراح ينتظر مطمئناً مترقباً وصول نابليون للحكم ليستدعيه لشغل منصبه من جديد، ولم يطل انتظاره فقد استدعاه القنصل (نابليون) في ٢٢ نوفمبر سنة ١٧٩٩ ليصبح – من جديد – وزيراً للخارجية.

لقد اعتبره نابليون شخصاً ذا قيمة باعتباره حلقة وسطى بين الحاكم (المقصود متولي المنصب) المُحْدَث (أي الذي لم يتول شؤون الحكم من قبل) والملوك المنحلين[*]. لقد ظل تاليران – خلال كل ثوراته وتقلباته – محافظاً على ملابس الارستقراطية القديمة وعاداتها وطريقتها في التفكير وأسلوبها في الحديث: فقد كان حسن المنظر مقبولاً (رغم قدمه المعوجة) كما كان هادئاً رابط الجأش حاد الذهن لماحاً حتى أنه إذا لزم الأمر استطاع أن يقتل بعبارة ساخرة. وكان دائب العمل ودبلوماسياً داهية قادراً على إعادة صياغة تصريحات سيده (نابليون) الطائشة الفظة ليغلفها بغلاف ودي أنيق. وكان مبدأه «لا تتعجل» في اتخاذ القرار[٢٠] – وهو شعار طيب يتناسب مع رجل أعرج، وفي حالات مختلفة أدى تأخره في إرسال بريد الدولة إلى تراجع نابليون عن قرارات غير صائبة.

لقد أراد – مهما كان العلم الذي يرفرف فوقه[**] – أن يعيش مبذراً في بحبوحة دائمة، مهتبلاً فرص المسرات بتروٍ، جامعاً ثمار أي شجرة يلقاها. وعندما سألة القنصل (نابليون) كيف تمكن من جمع هذه الثروة الضخمة؟ أجابه مبتسماً ودون مواربة «لقد اشتريت بضائع في السّابع عشر من شهر برومير Brumaire (الجمهوري) وبعتها بعد ذلك بثلاثة أيام»[٢١]. ولم يكن ما قاله لنابليون سوى البداية، ففي غضون أربعة عشر شهراً من استعادته لمنصبه كوزير للخارجية أضاف لحساباته البنكية خمسة عشر مليون فرنك أخرى. لقد كان «يلعب» في السوق بناء على معلومات يحصل عليها من داخل الحكومة، كما أنه تلقى «عمولات tidbits» من القوى الأجنبية التي بالغت في تقدير تأثيره على سياسات نابليون. وفي نهاية فترة القنصلية قُدرت ثروته بأربعين مليون فرنك[٢٢]. وكان رأي نابليون فيه أنه شخص مقرف وليس هناك من يحل محله (لا يمكن الاستغناء عنه). لقد وصفه مستوحياً

(*) المقصود أنه شخص عوان، فلا هو ملكي ولا هو حديث عهد بالحكم.

(**) المقصود مهما كان النظام الحاكم. (المترجم)

ذكرى ميرابو Mirabeau بأنه الأعرج «أنه بُراز (غائط) في جورب حريري»[٢٣] مستخدماً عبارات أقل إيحاء في الفرنسية من نظيراتها لدى الإنجلوسكسون. وكان نابليون نفسه الذي استحوذ على الخزانة الفرنسية وفرنسا كلها – فوق مستوى الرشوة.

١/٣ كيف استقبل الفرنسيون الدستور الجديد؟:

واجه الدستور الجديد عند نشره في ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ كثيراً من النقد رغم ما ورد به من دعوى أنه «إنما قام على المبادئ الحقة لحكومة تمثيل نيابي، وعلى احترام حقوق الملكية والمساواة والحرية. وأن السلطات التي رسخها ستكون قوية راسخة كما ينبغي أن تكون لضمان حقوق المواطنين ومصالح الدولة. أيها المواطنون «لقد قطعت الثورة شوطاً بعيد المدى في سبيل تحقيق المبادئ التي انطلقت منها. لقد انتهت الآن هذه الثورة It is Finished»[٢٤]. لقد كانت هذه كلمات مطاطة لكن نابليون اعتبرها كافية لأن الدستور سمح لكل الذكور البالغين بالادلاء بأصواتهم في المراحل الأولى للانتخابات. وأنه – أي الدستور – نص على ألاّ يكون هناك تعيين جديد إلاّ من بين الممثلين notables الذين انتخبهم الشعب بطريق مباشر أو غير مباشر، وأنّه – أي الدستور – أقر ملكية الفلاحين والبورجوازية الذين استحوذوا عليها بالشراء نتيجة قيام الثورة، وأقر إلغاء الرسوم الاقطاعية وإلغاء العشور التي كانت تجمعها السلطات الكنسية. ومن الناحية النظرية أكد مساواة كل المواطنين أمام القانون وأهليتهم لشغل أي موقع في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي، ورسخ – أي الدستور – حكومة مركزية قوية للقضاء على الجريمة والفوضى السياسية والفساد والتسيب الإداري، وللدفاع عن فرنسا ضد القوى الأجنبية، وأنه – أي الدستور – قد أنهى الثورة بأن جعلها أمراً واقعا (أي حقق ما كانت تعمل على تحقيقه) إذ حقق غرضها في نطاق حدود طبيعية وشكّل شكلاً جديداً من التنظيم الاجتماعي يمتد بجذوره في حكومة ثابتة الأركان، وإدارة ذات كفاءة وحرية على مستوى الأمة كلها، وقانون دائم.

ومع هذا كان هناك متذمرون، فقد شعر اليعاقبة أن دستور السنة الثامنة قد تجاهلهم ذلك أن الحكومة النيابية (حكومة التمثيل الوطني representative government) التي أخذ بها

الدستور إنما هي حكومة تُسلِّم الثورة.. بشكل متملق للبورجوازية. وكان العديد من الجنرالات في حالة دهشة فَلِمَ لم يختر القدر واحداً منهم ليتسنم الذروة السياسية بدلاً من هذا الكورسيكي التافه (نابليون) ومن أقوال نابليون أنه «ليس من جنرال من هؤلاء الجنرالات إلا وتآمر ضدي»[٢٥] وحزن الكاثوليك لأن الدستور أقر مصادرة الثورة لممتلكات الكنيسة، وعم الاضطراب مرة أخرى منطقة الفندي Vendée (١٨٠٠). والملكيّون تملكهم الغيظ لأن نابليون قد رسخ وضعه بدلاً من أن يدعو لويس الثامن عشر Louis XVIII ليعتلي عرش البوربون. وبدأ الملكيّون في شن حملات صحفية رافضين الحكم الجديد وساعدهم على ذلك أنهم كانوا يسيطرون على معظم الصحف[٢٦]. وقد رد نابليون على هذه الحملات (١٧ يناير سنة ١٨٠٠) بوقف ستين صحيفة من ثلاث وسبعين صحيفة كانت تصدر في فرنسا في ذلك الوقت بحجة أنها تتلقى أموالاً من دول أجنبية. وتم تقليص الصحافة الراديكالية ايضا وأصبحت جريدة المونيتور (المرشد أو المعلم Moniteur) هي الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحكومة. وأدان الصحفيون والكتاب والفلاسفة هذا التعدي على حرية الصحافة، والآن تحقق أمل مدام دي ستيل de Stael لتلعب دور إيجيريا[*] Egeria (الناصحة) فبدأت هجوماً ضارياً استمر طوال حياتها ضد نابليون واصفة إياه بأنه دكتاتور وَأَدَ الحرية في فرنسا.

وكانت صحيفة المونيتور هي اللسان الناطق بالدفاع عن نابليون. لقد قالت إنه لم يدمر الحرية، وإنما كان هذا أمراً قائماً بالفعل بسبب الحاجة إلى حكومة مركزية لأغراض الحرب، وبسبب تلاعب اليعاقبة بالانتخابات، ودكتاتورية الجماهير المشاغبة، وتوالي الانقلابات في الأعوام التي تولت فيها حكومة المديرين الحكم، وما كان قد تبقى منها (الحرية) تمرغ في أوحال الرشوة السياسية والفساد الأخلاقي. إن الحرية التي وَأَدَها (صَلَبها) نابليون كانت هي حرية الجماهير بعدم الالتزام بالقانون، حريتهم في ارتكاب الجرائم والسرقة والقتل، حرية الدعاية الغوغائية في الكذب وحرية القضاة في تقاضي الرشاوي وحرية رجال المال في

(*) شخصية في الأساطير الرومانية قامت بدور الناصحة والعرافة. كان يزورها الملك الروماني في كهف للحوريات قرب روما. عن معجم الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة. (المترجم)

الاختلاس، وحرية رجال الاعمال في الاحتكار. ألم يدافع مارا Marat عن الدكتاتورية باعتبارها العلاج الوحيد لفوضى المجتمع التي ضربت أطنابها فجأة بسبب وصاية الدين والهيمنة الطبقية والأوتوقراطية الملكية، وأوصى بترك الأمور تحت رحمة إلحاح الغرائز وطغيان العامة؟ ألم تمارس لجنة الأمن العام هذه الدكتاتورية ممارسة فعلية؟ لقد آن الأوان لفرض شيء من النظام لإعادة ضبط الأمور، فهذا أمر لازم لتقوم الحرية على أساس(٢٧).

أما الفلاحون فلم يكونوا بحاجة لمثل هذه الحجج ليؤيدوا الدستور الجديد، فهم يمتلكون الأراضي وقد أيدوا سراً كل حكومة تقمع اليعاقبة. وهنا وجدنا البروليتاريا في المدن يتفقون مع الفلاحين - رغم المصالح الاقتصادية المتعارضة. أما ساكنو الشقق - عمال المصانع والكتبة في المحلات والبائعون الجوالون - الذين هم مثل السانس كولت (الذين يرتدون البناطيل الطويلة أي الذين ليسوا نبلاء ولا إكليروس) وكانوا يكافحون طلباً للخبز والسلطة، فقد وجدناهم يفقدون إيمانهم بالثورة التي حلقت بهم في عنان السماء ثم هوت بهم من حالق، تاركة إياهم وقد تمزقت آمالهم، ولم يبق هناك سحر يثيرهم سوى بطل الحرب وهازم إيطاليا فهو في رأيهم لن يكون أسوأ من السياسيين في حكومة الإدارة. أما البورجوازيون - رجال البنوك والتجار ورجال الأعمال - فكيف يرفضون رجلا احترم الملكية (بكسر الميم) احتراما كاملا وأقر مبدأ الحرية الاقتصادية؟ إنهم به (أي بنابليون) ربحوا الثورة وورثوا فرنسا. لقد كان هو رجلهم حتى سنة ١٨١٠.

وعندما أصبح نابليون واثقاً من تأييد الغالبية العظمى له طرح الدستور الجديد للاستفتاء العام في ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ولا ندري إن كان هذا الاستفتاء قد جرى التلاعب فيه مثل كثير من الاستفتاءات المشابهة قبل ذلك وبعده أم لا، لكن الإحصاء الرسمي للأصوات يشير إلى موافقة ٣,٠١١,١٠٧ على الدستور الجديد، واعتراض ١,٥٦٢(٢٨).

ولما أدرك نابليون كثرة المؤيدين له، انتقل مع أسرته ومعاونيه من لكسومبرج المزدحمة إلى قصر التوليري الرحب وكان ذلك في ١٩ فبراير سنة ١٨٠٠. وكان انتقاله مصحوباً بموكب فخم يضم ثلاثة آلاف تشكيل من الجنود، وجنرالات يركبون خيولاً، والوزراء في العربات وأعضاء مجلس الدولة في مركبات كبيرة، أما القنصل الأول (نابليون) فكان في

مركبة فخمة تجرها ستة خيول بيض. لقد كان هذا الموكب أول نموذج للعروض التي كان نابليون يأمل عن طريقها في التأثير في جماهير باريس. وقد شرح ذلك لسكرتيره بورين Bourrienne: «سنبيت أخيراً هذه الليلة في قصر التوليري. إنك في حال أفضل مني: فأنت لست مضطرا لإظهار نفسك، لكنك قد تأخذ طريقك إلى هناك. وعلى أية حال فلابد أن أذهب إلى التوليري في موكب، وهذا يُزعجني لكنه ضروري للحديث إلى عيون الناس... في الجيش تتجلى البساطة لكن في مدينة كبيرة وفي القصر لابد أن يجذب رئيس الحكومة الانتباه بكل طريقة ممكنة مع الحذر»[٢٩].

واكتلمت طقوس النصر بملاحظة مزعجة: على أحد مراكز الحراسة في ساحة قصر التوليري قرأ نابليون: «العاشر من أغسطس ١٧٩٢ – تم إلغاء الملكية في فرنسا ولن تعود مرة أخرى أبدا»[٣٠] وأثناء تجواله في غرف القصر التي سبق أن شهدت يوما ما ثراء البوربون، أبدى مستشار مجلس الدولة – روديريه Roederer – الملاحظة التالية: «أيها الجنرال هذا محزن» فأجاب نابليون «نعم، محزن مثل العظمة»[٣١] واختار نابليون غرفة واسعة لا يزينها سوى الكتب ليعمل بها مع سكرتيره بورين Bourrienne وعندما أطلعه مساعدوه على السرير الملكي وغرفة النوم الملكية رفض استخدامها مفضلاً النوم بشكل معتاد مع جوزفين إلا أنه على أية حال قال لزوجته بطريقة لا تخلو من فخر «تعالي يا صغيرتي كرول Creole ونامي في سرير سادتك»[٣٢].

٢– معارك الحكومة القنصلية

لقد أسس نابليون نظاماً داخليا وهيأ ظروفا تؤدي إلى ازدهار اقتصادي لكن بقي أن فرنسا كانت محاطة بالأعداء بسبب الحروب التي بدأتها (أي فرنسا) في ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢. لقد كان الشعب الفرنسي يتطلع للسلام لكنه كان يرفض التخلي عن المناطق التي سبق أن ألحقتها الثورة بفرنسا: أفينون Avignon وبلجيكا والشاطئ الشمالي للراين Rhine وبازل، وجنيف Geneva وسافوا Savoy ونيس Nice. وكانت كل هذه المناطق تقريباً داخلة فيما أطلقت فرنسا عليه اسم «حدودها الطبيعية» وقد تعهد نابليون في قَسَمِه عند

تولي السلطة بحماية هذه الحدود - الراين والألب والبيرينيز Pyrénées والحدود البحرية - باعتبارها مناطق كانت تابعة لبلاد الغال Gaul القديمة وبالتالي فهي فرنسية. وأكثر من هذا فقد كانت فرنسا قد استولت على هولندا وإيطاليا ومالطا ومصر. أكانت فرنسا راغبة في التنازل عن هذه البلاد التي فتحتها مقابل السلام أم أنها سرعان ما سترفض أي زعيم يتفاوض للتخلي عن هذه المكاسب المربحة؟ إن شخصية فرنسا قذ التحمت مع شخصية نابليون في سياسة فخورة ملؤها الوطنية والرغبة في الحرب.

وقد تلقى نابليون في ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٠ خطابا يضم اقتراحا هو بمثابة مَخْرج من هذا القدر المحتوم. إنه خطاب من لويس الثامن عشر الذي يعترف به - تقريباً - كل الذين تركوا فرنسا مهاجرين بسبب أحداث الثورة، وكل أنصار النظام الملكي. يقول فيه:

« سيدي

إن الرجال من أمثالك، مهما كان مسلكهم الظاهر لابد أنهم لا يرومون الأذى. لقد حققت مكانة عظيمة، وإنني أشكرك لهذا. إنك تعلم أكثر من أي شخص آخر مدى القوة والسلطة المطلوبتين لضمان السعادة لأمة عظيمة. انقذ فرنسا من العنف فإن فعلت حققت أهم مايصبو إليه قلبي. أعد لفرنسا ملكها، وستحيي الأجيال القادمة ذكراك وتباركها. وستكون دائما ضرورياً جداً للدولة فبشغلك للمناصب المهمة سأكون قادراً على رد أفضالك على أسرتي وعليَّ شخصيا.

لويس[٣٣] »

وترك نابليون هذا الطلب بلا إجابة. فكيف يستطيع أن يعيد إلى العرش رجلاً وعد رجاله المخلصين أن يعيد الحال في فرنسا إلى ما كان عليه قبل الثورة بمجرد عودته للعرش؟ وماذا يمكن أن يحدث للفلاحين المحررين الذين أصبح لهم حق الاقتراع؟ وماذا سيحدث لمن اشتروا ممتلكات الكنيسة؟ بل وماذا سيحدث لنابليون؟ فالملكيون الذين كانوا يتآمرون عليه يوميا، كانوا يعلنون ما يجب أن يفعلوه مع هذا الدَّعِيّ (نابليون) الذي تجرأ على تسنم منصب الملك دون أن يكون له مسوّغ أو أصل نبيل[٣٤].

وفي يوم عيد الميلاد (الكريسماس) في سنة ١٧٩٩ (وهو اليوم التالي لاعتماد نتيجة

الاستفتاء الذي أقر حكمه لفرنسا) كتب نابليون إلى ملك إنجلترا جورج الثالث :

« . . . أظن أنه من الملائم أن أخبر جلالتكم بالحقيقة وأكتبها لكم بخط يدي، وفقاً لما تمليه عليّ مسؤولياتي، بعد أن دعيت وفقاً لإرادة الشعب الفرنسي لشغل أعلى منصب في الجمهورية.

أليست هناك نهاية للحرب التي أشاعت الاضطراب في مختلف انحاء المعمورة طوال السنوات الثماني الماضية؟ أليست هناك وسائل نصل بها إلى تفاهم؟ كيف لأمتين هما الأكثر تنوراً في أوروبا، وهما الأكثر قوة حتى أن قوة أي منهما تفوق ما يتطلبه أمنها واستقلالها - كيف لهما أن يقنعا بالتضحية بنجاحاتهما التجارية ورخائهما الداخليين وسعادة شعبيهما من أجل أحلام العظمة الخيالية؟ كيف لا تدرك أمتانا أن السلام محقق لعظمة كل منهما بالإضافة لكونهما في أمسّ الحاجة إليه؟

إن مثل هذه المشاعر لا يمكن أن تكون بعيدة عن قلب جلالتكم لأنكم تحكمون أمة حرة ولا هدف لكم إلا أن تكون أمة سعيدة.

إنني أتوسل من جلالتكم أن تصدقوا أنه عند تناولكم هذا الموضوع، فإنني سأكون مخلصا وراغبا في المشاركة العملية لتحقيق هذا الأمر. . أي العمل من أجل تحقيق سلام كريم . . إن قدر كل أمة متحضرة يقوم على إنهاء الحرب التي أزعجت العالم كله »[٣٥].

ووجد جورج الثالث أنه لا يليق بملك أن يجيب فردا من العامة (يقصد نابليون) فعهد إلى اللورد جرنفيل Granville بهذه المهمة، فأرسل جرنفيل إلى تاليران (في ١ يناير سنة ١٨٠٠) ملاحظات حادة تشير إلى اعتداءات فرنسا وأن إنجلترا لا تستطيع التفاوض مع فرنسا إلا إذا عادت أسرة البوربون إلى المُلك فعودتها شرط لإحلال السلام. وتلقى نابليون الرد نفسه من المستشار النمساوي بارون فرانتس فون توجوت Baron Franz von Thugut على خطاب أرسله إلى الإمبراطور فرانسيس الثاني. وربما لم يضع نابليون في اعتباره أن تكون الردود على هذا النحو. إنها على عكس ما كان يتوقع. فلم يُخبر أحد نابليون أن رجال الدولة يزنون كلماتهم وفقاً لعدد ما لديهم من بنادق ومدافع فقد ظلت الحقيقة الواقعة تتمثل في أن الجيش النمساوي قد استعاد شمال إيطاليا ووصل إلى نيس Nice وأن

الجيش الفرنسي حبيس في مصر يحاصره البريطانيون والأتراك (العثمانيون) وقد اقترب وقت استسلامه أو تدميره.

لقد كان الجنرال كليبه (كليبر) قائداً شجاعاً وذكياً، لكنه كان دبلوماسياً غير ناجح، ذلك أنه عندما لم يتوقع وصول نجدة شارك رجاله القنوط والجزع، إذ أصدر أوامره للجنرال ديزيه Desaix بتوقيع اتفاق في العريش (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠) مع الترك (العثمانيين) والقائد الإنجليزي المحلي يقضي بمغادرة القوات الفرنسية أراضي مصر بسلام بأسلحتهم وأمتعتهم محتفظين بشرفهم العسكري على سفن تركية تنقلهم لفرنسا، في هذه الأثناء كان الفرنسيون (في مصر) يسلمون للترك (العثمانيين) الحصون التي كان يحتمي بها الأوروبيون (المقصود هنا: الفرنسيون) من هجمات المصريين، وعندما تم التسليم وصلت تعليمات من الحكومة البريطانية برفض شروط الإخلاء (وفقاً لاتفاق العريش الآنف ذكره) مصرَّة على أن يُلقي الفرنسيون (في مصر) أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب. ورفض كليبر ذلك وطالب بإعادة الحصون التي كان قد سلمها، وما كان الترك (العثمانيون) ليقبلوا ذلك وتقدموا نحو القاهرة، فقاد كليبر رجاله البالغ عددهم عشرة آلاف ليواجه القوات التركية البالغ عددها عشرين ألف مقاتل قوي في سهول هليوبولس (عين شمس) ورفع من الروح المعنوية لرجاله بخطاب بسيط «إنكم لا تملكون من مصر سوى الأرض التي تحت أقدامكم، فإن لم تتراجعوا سوى خطوة واحدة لضاع كل شيء»[٣٦] وبعد معركة استمرت يومين (٢٠ / ٢١ مارس ١٨٠٠) استسلمت الشجاعة التركية (العثمانية) أمام التكتيكات الفرنسية المنظمة وعاد من بقي من المنتصرين إلى القاهرة لينتظروا مرة أخرى المدد من فرنسا.

ولم يستطع نابليون أن يُرسل لهم غوثاً لأن بريطانيا كانت تتحكم في البحر المتوسط. لكنه كان يستطيع أن يفعل شيئاً ما إزاء التقدم الناجح الذي أحرزه الجنرال النمساوي الذي نيَّف على السبعين بعام (بارون فون ميلاس) على رأس مائة ألف من خيرة الجنود النمساويين عبر شمال إيطاليا إلى ميلان. لقد أرسل نابليون القائد ميسينا Masséna لوقف تقدمه لكنه هُزم ولجأ بقواته إلى حصن جنوة فترك ميلاس Melas قوة لمحاصرته وعيَّن فصائل

إضافية لحراسة ممرات الألب تحسبا لهجوم قادم من فرنسا وتقدم على طول الريفيرا الإيطالية حتى وصلت طلائع قواته إلى نيس Nice في أبريل سنة ١٨٠٠ . لقد قُلبت (بضم القاف) الموائد على رأس نابليون أو بتعبير آخر صار موقفه حرجاً : فالمدينة التي كان قد بدأ منها هجومه لفتح سهل لومبارديا في سنة ١٧٩٦ أصبحت الآن في أيدي أمة كانت قد ذاقت الهزيمة على يديه - في الوقت الذي كان فيه أفضل جزء من جيشه المشهور الذي عُرف بالجيش الفرنسي فاتح إيطاليا Army of Italy مقسَّماً ضائعاً في مكان ناء بلا أمل هناك في مصر . لقد كان هذا أكبر تحد واجهه نابليون حتى الآن .

لقد ترك نابليون أمور إدارة فرنسا وطرحها جانباً ، وعاد مرة أخرى قائداً عاماً يجمع المال ويحشد الجنود والعتاد ويرفع المعنويات وينظم الإمدادات ويدرس الخرائط ويرسل التوجيهات لجنرالاته . وعَهِد إلى مورو Moreau وهو الأكثر صراحة في إظهار عدائه لأعداء نابليون بجيش الراين Army of Rhine وزوده بتعليمات حاسمة لا رحمة فيها : اعبر الراين وشق طريقك عبر الأقسام النمساوية تحت قيادة المارشال كروج Krug ثم أرسل ٢٥,٠٠٠ من رجالك عبر ممر القديس جوتهارد St. Gotthard في إيطاليا لدعم جيش الصمود Army of Reserve الذي وعده نابليون بانتظاره قرب ميلان . وقد نفذ مورو Moreau معظم هذه الأعمال البطولية ، ولكنه شعر - وربما كان على حق - أنه في موقفه هذا المنطوي على المخاطرة لن يعود لقائده (نابليون) إلاّ بخمسة عشر ألف رجل .

ومن بين كل معارك التاريخ العظمى ، كانت معركة سنة ١٨٠٠ هذه أحكمها تخطيطاً وأكثرها دهاءً وفي الوقت نفسه أسوأها تنفيذاً . لقد كان تحت قيادته المباشرة أربعة آلاف مقاتل فقط معظمهم من المجندين إلزامياً الذين لم يألفوا مشاق الحرب . تمركزت القوات بالقرب من ديجون Dijon وكان من الممكن ان تتحرك فوق الألب بالقرب من البحر إلى نيس لتنقض في هجوم مواجه (أمامي) على قوات ميلاس Melas ، لكن عدد القوات كان قليلاً جداً ، بالإضافة إلى أن الجنود لم يكونوا متمرسين بالحرب جيداً ، وحتى لو أنهم انقضوا عليه (ميلاس) وهزموه في مثل هذه المواجهة فقد كان يمكنه الانسحاب بأمان عبر شمال إيطاليا إلى مانتوا Mantua الحصّينة . وبدلاً من ذلك اقترح نابليون أن يقود قواته عبر ممر القديس

برنار St. Bernard في لومباردیا لیتَّحِد مع الرجال المتوقع وصولهم مع مورو Moreau ويقطع خطوط مواصلات ميلاس Melas ويجتاح الفصائل العسكرية النمساوية التي تحرس هذه الخطوط لينقض على جيش هذا البطل الهرم (العجوز) أثناء تراجعه السريع من الريفيرا Riviera الإيطالية وجنوة في اتجاه ميلان. ومن ثم يواجهه فإما هزمه وإما انهزم أمامه، وفي أفضل الحالات فإنه (أي نابليون) سيحاصره ويمنعه من التراجع ويجبر جنراله على تسليم كل الشمال الإيطالي.

وذات يوم (١٧ مارس سنة ١٨٠٠) أمر نابليون سكرتيره بورين Bourrienne أن يبسط خريطة كبيرة لإيطاليا فوق الأرض. يقول بورين «ثم انبطح أرضاً ليطالعها، ورغب إليَّ أن أفعل الشيء نفسه» وفوق نقاط معينة على الخريطة ثبَّت دبابيس ذوات رؤوس حُمر، وفوق نقاط أخرى ثبّت دبابيس لونها أسود. وبعد تحريك الدبابيس حول مواقع مختلفة على الخريطة سأل سكرتيره: «أين سأضرب ميلاس Melas فيما تظن؟... هنا في سهول نهر سكريفا the River Scrivia» وأشار إلى سان جيليانو[٣٧] San Giuliano. لقد كان يعلم أنه يخاطر بكل شيء من أجل معركة واحدة. يخاطر بكل انتصاراته العسكرية والسياسية التي سبق أن أحرزها، لكن كبرياءه كان معه يسانده ويشد أزره. لقد ذكّر سكرتيره بورين قائلاً: «منذ أربع سنوات مضت ألم أَسُق أمامي بجيشي الضعيف قطعان السردينيين (جيوش سردينيا) والنمساويين وطفت بجيشي على وجه إيطاليا؟ إننا سنفعل الشيء نفسه مرة أخرى، فالشمس التي تشرق فوقنا الآن هي الشمس ذاتها التي كانت تشرق في أركول Arcole ولودي Lodi. إنني أعوّل على القائد ماسينا Masséna. إنني آمل أن يصمد في جنوا، لكن إن أجبرته المجاعة على الاستسلام فأستيعد جنوا مرة أخرى وكذلك سهول السكريفيا the Scrivia. ساعتها سأعود مسروراً إلى عزيزتي فرنسا، ويا له من سرور!»[٣٨].

لقد أضاف استعدادات لكل ما هو متوقع ببصيرة نافذة ولم يهمل التفاصيل البسيطة. لقد خطط للطريق الذي ستسلكه القوات ولوسائل النقل: من ديجون Dijon إلى جنيف، وبالقوارب عبر البحيرة إلى فيلينيف Villeneuve وبالخيول والبغال والمركبات أو سيراً على الأقدام إلى مارتيني Martigny، ومن هناك إلى سان بيير St. - Pierre عند قاعدة الممر ومن

ثم فوق الجبال مسافة ثلاثين ميلاً في طريق لا يتجاوز عرضه في بعض الأحيان ثلاثة أقدام عرضاً، غالباً ما يكون على طول جروف (جمع جرف – بضم الجيم) عادة ما تغطيها الثلوج ومعرضة في أي لحظة لانهيار جليدي أو صخري أو أرضي، ومن ثم إلى التوغل في وادي دوستا (فال دوستا Valle d'Aosta). ورتّب نابليون في كل مرحلة من مراحل هذا الطريق أمر الطعام واللباس والنقل ليكون في انتظار الرجال، وفي مراكز عديدة دبر أمر النجارين وصانعي السروج وغيرهم من العمال لإصلاح ما أفسدته المسيرة، كما دبّر أن يجري التفتيش على كل جندي مرتين أثناء الطريق للتأكد من سلامة معداته. وأرسل للرهبان الذين يعيشون في صوامع على قمم الجبال أموالاً لشراء الخبز والجبن والنبيذ لإنعاش الجنود المارين بهم. ورغم كل هذه الاستعدادات فقد ظهر كثير من أوجه القصور، لكن هؤلاء الجنود الشبان المجندين إلزامياً بدوا وكأنهم على استعداد لتحمل هذه المشاق بصبر بسبب التشجيع الصامت الذي أبداه لهم المحاربون المخضرمون.

وغادر نابليون مدينة باريس في السادس من مايو سنة ١٨٠٠. وما كان يغادر حتى شرع الملكيون واليعاقبة وآل بونابرت في التدبير لشغل مكانه إذا لم يعد منتصراً وناقش سييز Sieyès وآخرون مدى أحقية أي من كارنو Carnot ولافاييت Lafayette ومورو Moreau لشغل منصب القنصل الأول الجديد (الذي سيحل محل نابليون) وعرض أخوا نابليون: جوزيف ولوسيان Lucien كورثة للعرش. وعاد جورج كادودال Cadoudal من انجلترا في الثالث من يوليو ليحرض الثوار الملكيين Chouans. لقد بدأت المواجهة الفعلية مع ممر سان بيرنار St. Bernard في ١٤ مايو. لقد تذكر السكرتير بورين قائلاً: «لقد تقدمنا جميعاً على طول ممرات الماعز رجلاً في إثر رجل وحصانا في إثر حصان. وتم انزال المدفعية والبنادق وتم وضعها في جذوع أشجار جرى حفرها، وتم سحبها بالحبال.. وعندما وصلنا للقمة.. مركزنا أنفسنا في الجليد وأنزلقنا فوق السفوح»(٣٩). وترجّل الخيالة حتى لا يؤدي انزلاق الخيول غير المدربة إلى هلاكها وهلاك راكبيها. وفي كل يوم كان قسم آخر من القوات يُكمل العبور، وبحلول اليوم العشرين من شهر مايو اكتمل العبور وأصبح جيش الاحتياط (الانقاذ) آمناً في إيطاليا.

وبقي نابليون في مارتيني Martigny، وهو موقع جميل في منتصف الطريق بين بحيرة جنيف والممر – حتى رأى بنفسه آخر شحنة امدادات. وبعدها ركب إلى القمة وهناك توقف ليشكر الرهبان لتقديمهم ما أنعش جنوده، ثم انزلق فوق المنحدر في معطفه وانضم لجيش في أوستا Aosta في ٢١ مايو. وكان لانز Lannes قد اجتاح بالفعل الفصائل النمساوية التي واجهته في الطريق. وفي اليوم الثاني من شهر مايو دخل نابليون مدينة ميلان Milan منتصراً – للمرة الثانية – على الحامية النمساوية. ورحب به السكان الإيطاليون كما فعلوا في المرة السابقة. لقد استعاد نابليون الجمهورية السيزالبية (جمهورية الألب الشمالية Cisalpine) وسط مظاهر الفرحة الغامرة. وكان نابليون قد ارتد عن دين محمد (الذي سبق أن اعتنقه في مصر)(*) فدعا إلى اجتماع عقده هيئة أساقفة ميلان وأكد لهم إخلاصه للكنيسة وأخبرهم أنه عند عودته لباريس سيجري صلحاً بين فرنسا والكنيسة. أما وقد أمّن ظهره على هذا النحو فقد أصبح حراً في رسم استراتيجية معركته بالتفصيل.

لقد انتهك القائدان مبدءاً استراتيجياً أساسياً – لا تقسّم القوات المتاحة تقسيما لا يُمكّنها من إعادة لمّ شملها بسرعة. فالبارون فون ميلاس Melas تمركز بالجزء الأساسي من جيشه في اليساندريا Alessandria (بين ميلان وجنوة) وترك حاميات في كل من جنوة وسافونا Savona وجافي Gavi وأكوي Acqui وتورين Turin وتورتونا Tortona وغيرها من النقاط التي قد تكون عُرضة لهجوم فرنسي. وتعرضت مؤخرة قواته التي كانت تزحف عائدة من نيس Nice لتنضم إليه لهجوم ٢٠٠٠٠ جندي فرنسي بقيادة سوشيه Suchet وماسينا Masséna – الذي قد تمكن من الهرب من جنوة. ولم يعد متبقياً من ٧٠,٠٠٠ نمساوي كانوا قد عبرو الأبينين Apennines من لومبارديا إلى ليجوريا Liguria (جنوة) سوى ٤٠,٠٠٠، كان على ميلاس أن يواجه بهم نابليون وقواته. لقد أرسل جزءاً من هذه القوات المتبقية (الأربعين ألف مقاتل) لإعادة الاستيلاء على بياسنز Piacenza باعتبارها

(*) نفهم من هذا الكتاب أن نابليون منع الميسر ونصّ على ذلك، وقال بقوامة الرجل على المرأة، ووبخ مدام دي ستيل للباسها غير المحتشم، وأجبر – ولكن أخيراً – جوزفين على ترك الزنا، وآمن بالإله الأعظم الواحد، لكن قوى أخرى عارضته وفرض الواقع رأيه عليه، بل لقد اتخذ موقفاً واضحاً من الربا، وقد عدد الزوجات فتزوج ماري لويز بينما لم يقر البابا طلاقه من جوزفين.. هل كانت حضارة الإسلام – إذن – بغير تأثير عليه؟! (المترجم).

طريقاً لا بديل له للهروب إلى مانتوا Mantua إذا حاقت بقوات جيشه الرئيسي الهزيمة. أما نابليون فقسَّم جيشه بطريقة محفوفة بالمخاطر: لقد ترك ٣٢,٠٠٠ مقاتل في ستراديلا Stradella لحراسة بياسنزا Piacenza و ٩,٠٠٠ في تيسينو Tessino و ٣٠٠٠ في ميلان، و ١٠,٠٠٠ على طول مجرى البو Po والأدّا Adda. لقد ضحّى ببقاء جيشه موحدا رغبة منه في سد كل طرق الهرب في وجه رجال ميلاس Melas.

وتعاون جنرالاته في انقاذ سياسة الطريق المسدود هذه بعدم ترك نابليون يدخل المعركة الرئيسة بلا استعداد. ففي ٩ يوليو قاد لانز Lannes ثمانمائة مقاتل من ستراديلا Stradella ليواجه بهم ١٨,٠٠٠ مقاتل نمساوي كانوا في طريقهم الى بياسنزا Piacenza، وتراجع الفرنسيون في مواجهة كلفتهم الكثير عند كاستيجيو Casteggio رغم صمود لانز Lannes الذي ظل يقاتل وهو متسربل بالدماء في طليعة قواته، لكن مدداً من ستة آلاف مقاتل فرنسي وصل في الوقت المناسب ليحوِّل الهزيمة إلى نصر بالقرب من مونتبلو Montebello. وبعد ذلك بيومين سعد نابليون بوصول واحد من أقرب جنرالاته إلى نفسه قادماً من مصر. إنه لويس ديزيه Louis Desaix «الذي ربما كان يعادل مورو Moreau وماسينا Masséna وكليبر (كليبه) ولانز في مواهبه العسكرية، وإن كان يفوقهم جميعاً في رزانته الشخصية رزانة تصل إلى حد الكمال»(٤٠)، وفي ١٣ يونيو أرسله نابليون إلى جنوب نوفي Novi على رأس ٥٠٠٠ رجل ليتأكد من الإشاعة التي مؤدّاها أن ميلاس Melas ورجاله يهربون إلى جنوا حيث يمكن للأسطول البريطاني مساعدتهم على إتمام الهروب أو يقدم لهم دعماً من الغذاء والسلاح. وعلى هذا فقد ظل التشكيل الرئيسي لجيش نابليون يتناقص حتى حلول المعركة الفاصلة في ١٤ يونيو.

لقد كان ميلاس Melas هو الذي اختار موقع المعركة الفاصلة، بالقرب من مارينجو Marengo وهي قرية على طريق أليساندريا - بياسنزا حيث لاحظ سهلاً فسيحاً يمكنه فيه حشد قواته البالغ عددها ٣٥,٠٠٠ مقاتل الذين لايزالون متاحين له مع مائتي قطعة مدفعية. وعلى أية حال، فعندما وصل نابليون إلى هذا السهل في ١٣ يونيو لم يجد دليلاً يشير إلى أن ميلاس كان يخطط للمغامرة بالخروج من أليساندريا Alessandria فترك عند

مارينجو Marengo فصيلين عسكريين بقيادة الجنرال فكتور، وفصيلاً آخر بقيادة لانز Lannes مع خيالة بقيادة مورا Murat وأربعة وعشرين مدفعا فقط. وعاد هو نفسه (نابليون) بحرسه القنصلي في اتجاه فوجيرا Voghera حيث رتب للقاء مع ضباط من جيوشه المتناثرة. وعندما وصل لنهر السكريفيا Scirivia وجد مياهه وقد فاضت بدرجة كبيرة بسبب مياه الربيع، حتى أنه أجّل عبور النهر وبات ليلته في تور دي جارو فولو Torre di Garofolo. وكان هذا التأخير من حُسن حظه فلو أنه واصل طريقه الى فوجيرا Voghera لكان من المحتمل ألا يصل إلى مارينجو في الوقت المناسب لإصدار الأمر الذي يوفّر يوما.

وفي وقت باكر من يوم ١٤ يونيو أمر ميلاس جيشه بالتقدم في سهل مارينجو وأن يشق طريقه إلى بياسنزا Piacenza ففاجأت قوات نمساوية قوامها ٣٠,٠٠٠ مقاتل القوات الفرنسية بقيادة فكتور ولانز ومورو البالغ عددها ٢٠,٠٠٠ مقاتل، وتراجع الفرنسيون رغم بطولتهم المعتادة أمام وابل قذائف المدفعية التي أهلكت منهم عدداً كبيراً، واستيقظ نابليون في جاروفولو Garofolo على صوت المدافع التي وصلت إلى أسماعه من مكانها البعيد فأرسل مبعوثاً لاستدعاء ديزييه Desaix من نوفي Novi واندفع هو نفسه إلى مارينجو وهناك خاضت قواته المكونة من ٨٠٠ مقاتل من حرسه معركة شرسة لكنها لم تستطع وقف النمساويين، وواصل الفرنسيون تراجعهم إلى سان جوليانو Guliano. وكان ميلاس متعجلاً لطمأنة الإمبراطور فأرسل رسالة إلى فيينا يعلن فيها أنه حقق النصر، وانتشر التقرير نفسه في باريس مما سبب ذعراً للعامة وفرحاً لأنصار الملكية.

لقد جرى ما جرى بدون ديزيه Desaix الذي لم يعمل النمساويون له حساباً، وسمع ديزيه أيضاً وهو في الطرق إلى نوفي Novi دمدمة المدافع فعاد فجأة على رأس قواته البالغ عددها ٥٠٠٠ مقاتل في اتجاه أصوات الدمدمة ووصل إلى سان جوليانو Guliano في الثالثة بعد الظهر فوجد اخوانه الجنرالات ينصحون نابليون بالتراجع أكثر فأكثر فاحتج فقالوا له «لقد خسرنا المعركة» فقال «هذا صحيح، لكن الساعة الآن الثالثة بعد الظهر فقط وهناك وقت لكسب معركة أخرى»[٤١] فوافقوه ونظم نابليون خط هجوم جديد وركب حصانه بين الجنود لرفع روحهم المعنوية وقاد ديزيه Desaix العملية فتعرض لطلقة من نيران العدو

وخرّ من فوق حصانه وأوصى وهو يموت من يليه في القيادة «اخف خبر مماتي، حتى لا يؤثر في معنويات الجنود»(٤٢) ومع أن الجنود قد علموا بموته إلاّ أن ذلك لم يؤثر فيهم سلباً بل جعلهم يندفعون صائحين أنهم سيثأرون لمقتل قائدهم. ومع هذا فقد واجهوا مقاومة لاتكاد تلين. فلما رأى نابليون ذلك أرسل إلى كيلرمان Kellermann تعليمات بالتوجه بكل قوة الخيالة التي معه لإنقاذ الرجال، فانقض بقواته بشراسة على جناح الجيش النمساوي فشقه قسمين واستسلم ٢٠٠٠ منهم وتم أسر الجنرال فون تساخ Von Zach الذي كان يقود الجيش بدلاً من ميلاس الغائب، وسلّم تساخ سيفه إلى نابليون، واستُدعي ميلاس من أليساندريا ليأتي متأخراً بحيث لا يستطيع تغيير نتيجة المعركة فعاد منكسر القلب حزيناً إلى مقره.

ولم يكن نابليون ليستطيع أن يسعد تماماً بهذا النصر لقد خسر خسارة شخصية أثّرت فيه تأثيراً عميقاً بموت ديزيه Desaix المخلص بالاضافة إلى كثيرين من الضباط الآخرين الذين لاقوا حتوفهم مع ستة آلاف فرنسي في سهل مارينجو Maringo Plain ولم يشف غليله موت ثمانية آلاف نمساوي هناك في اليوم نفسه، فنسبة القتلى النمساويين إلى إجمالي عدد القوات النمساوية كانت أقل من نسبة القتلى الفرنسيين إلى إجمالي عدد القوات الفرنسية(*).

وفي ١٥ يونيو طلب البارون فون ميلاس من نابليون عقد هدنة بعد أن أدرك أن ما تبقى من قواته في حالة لا تسمح له بخوض معركة جديدة. وكانت شروط الهدنة قاسية إذ كان على النمساويين اخلاء كل ليجوريا Liguria وبيدمونت Piedmont، وكل لمبارديا إلى الغرب من منشيو Mincio ومانتوا Mantua وأن يعيدوا للفرنسيين كل الحصون في المناطق المسلحة. ويُسمح في مقابل ذلك بمغادرة القوات النمساوية محتفظة بشرفها العسكري كله، ووافق ميلاس على هذه الشروط التي ألغت حصاد كل فتوحاته في يوم واحد وأرسل إلى إمبراطور النمسا ملتمساً منه إبرام هذا الاتفاق. وفي ١٦ يونيو أرسل نابليون رسالة إلى فرنسيس

(*) صعوبة المواصلات وحدها هي التي جعلت نابليون لا يعلم أنه في اليوم نفسه الذي مات فيه ديزيه Desaix تم اغتيال قائده السابق كليبر في القاهرة. وبعد عام آخر من مقاومة الهجمات التركية (العثمانية) البريطانية المملوكية ربح الفرنسيون في مصر حق مغادرة محبسهم (مصر) والعودة إلى فرنسا (أغسطس ١٨٠١).

الثاني يطلب منه السلام على كل الجبهات. وبعض فقرات ذلك الخطاب لا يمكن أن تأتي إلاّ من داعية للسلام:

« .. لقد كانت هناك حرب بيننا. آلاف من النمساويين والفرنسيين قضوا نحبهم.. آلاف من الأسر المحرومة تدعو أن يعود الآباء والأزواج والأبناء!.. الشر لا علاج له، لكن عساه - على الأقل - يُعلمنا أن نتجنب كل ما قد يُطيل فترة العداء. لقد أثرت هذه المشاهد في قلبي لدرجة جعلتني أرفض قبول ما أحرزته من تقدم في السابق لآخذ على عاتقي الكتابة إلى جلالتكم مرة أخرى متوسلاً إليك أن تضع نهاية لمآسي أوروبا.

في ميدان معركة مارينجو Marengo حيث يحيط بي الذين عانوا ويلات المعركة، وأنا في وسط ١٥,٠٠٠ جثة، أتوسل إلى جلالتكم أن تسمع نداء الإنسانية وألا تسمح لأبناء أمتين قويتين يتسمون بالشجاعة، أن يذبح بعضهم بعضهم الآخر من أجل مكاسب أنتم تعلمون أنها لا تعني شيئا...

إن المعركة الحالية هي خير برهان على أن فرنسا ليست هي التي تهدد ميزان القوى. فكل يوم يؤكد أن إنجلترا هي التي تهدد ميزان القوى. إنجلترا التي احتكرت تجارة العالم وإمبراطورية البحار التي تستطيع منفردة التصدي لأساطيل روسيا والسويد والدنمرك وفرنسا وأسبانيا وهولندا متحدة.

إن اقتراحاتي التي أظن من الصواب توجيهها لجلالتكم هي:

١- أن تمتد الهدنة لتشمل كل الجيوش.

٢- أن يتم إرسال مفاوضين من الطرفين للتفاوض سرًّا أم علناً، وفقاً لما تفضلونه، وأن تكون المفاوضات في مكان ما بين منيشو Mincio والشيز Cheese للموافقة على وسائل ضمان الاحتفاظ بأقل عدد من القوات ولتوضيح مواد معاهدة كامبو فورميو Campoformio التي أظهرت التجربة أنها مواد غامضة...»[٤٣].

ولم يبد أن الإمبراطور قد تأثر، فمن الواضح أن الفاتح الشاب كان راغباً في ضمان مكاسبه التي حققها ولم يكن هناك ما يشير إلى أنه راعي الحياة الإنسانية عند خوضه معاركه. وربما لم يتوقف كل من الإمبراطور والقنصل الأول (نابليون) عن التساؤل عن

كيفية تصرف النمساويين والفرنسيين في إيطاليا . ووضع البارون فون توجوت Von Thugut حداً واضحا لهذا الأمر بتوقيعه في ٢٠ يونيو سنة ١٨٠٠ معاهدة مع إنجلترا تضمن هذه الأخيرة تقديم عون مالي جديد للنمسا مقابل تعهدها بعدم التوقيع على معاهدة صلح منفرد مع فرنسا(٤٤) .

وفي هذه الأثناء كان نابليون يلعب بكل أوراقه فحضر قداساً مهيباً (قداس تسبيحة الشكر) عبّر فيه رجال الدين في ميلان عن شكرهم الله لخروج النمساويين من بلادهم . واحتفلت الجماهير بإقامة الاستعراضات على شرف محقق النصر (نابليون) وسأل نابليون سكرتيره بورين: « هل سمعت يا بورين التهليل والبهجة؟ إن أصداءها لا تزال تدوي . إن هذه الأصوات عندي في مثل حلاوة صوت جوزفين . كم أنا سعيد وفخور أن يحبني مثل هؤلاء الناس! »(٤٥) . لقد كان لا يزال في إيطاليا عاشقاً للغتها مفتوناً بالجمال والعاطفة والبساتين المزدانة والدين المرن المتساهل والطقوس الشجية والألحان الغامضة . لكن ما حرّك مشاعره أيضاً هو تصفيق الجماهير التي تجمعت أمام قصر التوليري في ٣ يوليو في الصباح الذي أعقب عودته ليلاً إلى باريس، فقد بدأ الشعب الفرنسي يعتقد أن الله يختصه، فشربوا بشغف حتى الثمالة من كأس العظمة .

أما لويس الثامن عشر الذي ورث قروناً من العداء بين بوربون فرنسا، وهابسبرج النمسا، فلم يستطع أن يكون محايداً - إلاّ بالكاد - إزاء هذا النصر الجديد الذي حققه نابليون على أعداء البوربون القدماء، وربما أيضاً رغبة منه في أن يكون نابليون هو صانع الملك، لا الملك نفسه، لذا فقد كتب (لويس الثامن عشر) مرة أخرى إلى نابليون في يوم غير معروف من صيف سنة ١٨٠٠ :

« لابد أنّك مقتنع أيها الجنرال منذ فترة طويلة أنني أكن لك تقديراً كبيراً . وإن شككت في تقديري لفضلك وعرفاني بجميلك، فحدد جائزتك التي تريدها وحدّد نصيب أصدقائك . فأنا فرنسي بمبادئي، رحيم بحكم شخصيتي، وبحكم ما يمليه العقل أيضاً .

لا ، فمحقق النصر في لودي Lodieوكاستليون Castillone وأركول Arcole وفاتح إيطاليا ومصر، لا يمكن أن يفضل الشهرة الزائفة على المجد الحقيقي . لكنك تضيّع وقتاً ثميناً . إنه

يمكننا أن نؤكد عظمة فرنسا، وأنا أتحدث بضمير جمع المتكلِّمين وأقول «يمكننا» لأنني في حاجة إلى عون بونابرت، وبونابرت لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدوني.

أيها الجنرال إن أوروبا تنظر إليك والعظمة في انتظارك وإنني في شوق شديد لإعادة السلام لشعبي»

لويس[٤٦]

وقد أجاب نابليون على هذا الخطاب بعد فترة طويلة في ٧ سبتمبر:

«سيدي

لقد تلقيتُ خطابك. وأشكرك على ملاحظاتك الرقيقة فيما يختص بشخصي. يجب أن تتخلى عن أي أمل في عودتك لفرنسا. فأنت إن عدت فسيكون ذلك على جثث مئات الألوف. ضَحِّ إذن بمصالحك الشخصية من أجل سعادة فرنسا وتحقيق السلام لها.. إن التاريخ لن ينسى. ولا أقول إنني لم أتأثر بمحنة أسرتك.. وسيسعدني أن أفعل ما أستطيع لأجعل حياتك في معتزلك (مكان تقاعدك) سعيدة ليس بها ما ينغِّص»[٤٧].

وكان لويس الثامن عشر قد أرسل خطابه من ملجئه المؤقت في روسيا، وربما كان هناك عندما تلقى القيصر بولس الأول في يوليو سنة ١٨٠٠ من نابليون هدية تكاد تكون قد غيّرت مسيرة التاريخ. ففي خلال حرب سنة ١٧٩٩ وقع حوالي ستة آلاف عسكري روسي في قبضة الفرنسيين فعرض نابليون على إنجلترا والنمسا (حلفاء روسيا) أن يُبادل بهم الأسرى الفرنسيين، فرفضتا[٤٨]. ولم تكن فرنسا بقادرة على الاستفادة منهم بطريقة شرعية، كما أن احتفاظها بهم سيكلفها الكثير من النفقات، فأمر نابليون بإلباسهم ملابس جديدة وتسليحهم وإرسالهم إلى القيصر دون أن يطلب أي مقابل لفعله هذا[٤٩]. فأجاب القيصر بول بعقد أواصر الصداقة مع فرنسا، وشكّل في ١٨ مارس سنة ١٨٠٠ ضد إنجلترا العصبة الثانية للحياد المسلَّح the Second League of Armed neutrality[*]. وفي ٢٣ مارس سنة ١٨٠١ تم اغتيال القيصر بول فعادت الأمور سيرتها الأولى أي كما كانت قبل الهدية.

(*) لحماية حقوق المحايدين – المترجم.

وفي هذه الأثناء رفض الإمبراطور النمساوي هدنة أليساندريا Alessandria وأرسل ثمانية آلاف مسلح بقيادة الجنرال فون بيليجارد Bellegarde ليُحكم قبضته على طول مينشيو Mincio، فأجاب الفرنسيون بطرد النمساويين من توسكانيا Tuscany ومهاجمتهم في بافاريا Bavaria. في ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ هزمت القوات الفرنسية بقيادة مورو Moreau والبالغ عددها ٦٠٠٠ مقاتل القوات النمساوية البالغ عددها ٦٥,٠٠٠ في هوهنليندن Hohenlinden بالقرب من ميونخ Munich، هزيمة منكرة وأسرت ٢٥,٠٠٠ نمساوي حتى أن الحكومة النمساوية وقد أدركت أن عاصمتها فيينا باتت تحت رحمة مورو، اضطرت لتوقيع هدنة شاملة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ووافقت على الدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية للوصول إلى سلام مُنفصل (منفرد) بعيداً عن القوى الأوروبية الأخرى المناوئة لفرنسا. وعند عودة مورو إلى باريس لاقى استقبالا حافلاً وهتافات مدوية بدرجة ربما أثارت بعض المشاعر المضادة لدى نابليون، لأن مورو Moreau كان أثيراً لدى الملكيين واليعاقبة على سواء وكانوا يفضلون أن يكون رأساً للدولة.

واستمرت المؤامرات ضد حياة نابليون لا ترعوى، ففي بواكير سنة ١٨٠٠، تم العثور على صندوق نشوق يُشبه صندوق النشوق الذي اعتاد القنصل الأول على استخدامه، في درج مكتبه في ماليزون Malmaison، وكان هذا الصندوق يحوي سماً مخلوطاً بالنشوق[٥٠]. وفي ١٤ سبتمبر و ١٠ أكتوبر تم القبض على عدد من اليعاقبة المشتركين في مؤامرة لقتل نابليون. وفي ٢٤ ديسمبر قاد ثلاثة من الثوار الملكيين – أرسلهم جورج كادودال Cadoudal من بريطانيا – آلة مفخخة محملة بالمتفجرات واقتحموا بها الجموع التي كانت تحمل نابليون وأسرته إلى دار الأوبرا، فقتلوا اثنين وعشرين شخصا وجرحوا ستة وخمسين ولم يُصب نابليون ولا أحد من حاشيته، وواصل نابليون طريقه إلى الأوبرا بهدوء ظاهر لكنه أمر عند عودته لقصر التوليري بإجراء تحريات دقيقة وبإعدام اليعاقبة المسجونين بالإضافة إلى نفي أو اعتقال ١٣٠ آخرين، كانوا موضع شك، أما فوشيه Fouché الذي كان يعتقد أن الملكيين – وليس اليعاقبة – هم المجرمون فقد اعتقل مائة منهم وأرسل للمقصلة اثنين في أول أبريل سنة ١٨٠١. لقد تجاوز نابليون القانون وتخطاه، لكنه كان يشعر أنه يخوض حربا

وأن عليه أن يبث شيئا من الرعب في قلوب رجال كانوا هم أنفسهم يحتقرون القانون. لقد زاد عداؤه تدريجياً لليعاقبة وأصبح شيئاً فشيئاً متساهلاً مع الملكيين.

وفي ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٠ أوعز إلى مساعديه بأن يشطبوا من قائمة المهاجرين إثر أحداث الثورة الفرنسية أسماء المسموح لهم بالعودة إلى فرنسا وأن يستردوا ما صادرته الدولة منهم إذا لم تكن الحكومة قد باعته أو خصصته للاستعمال الحكومي. لقد كان هناك الآن حوالي ١٠٠,٠٠٠ مهاجر كان كثيرون منهم قد طلبوا الإذن بالعودة إلى فرنسا. ورغم احتجاج المعارضين الذين سبق لهم أن اشتروا الممتلكات المصادرة سمح نابليون لعدد بلغ ٤٩,٠٠٠ من هؤلاء المهاجرين بالعودة. وأكثر من هذا فقد كان يجري شطب أسماء أخرى من قائمة الممنوعين من العودة بين الحين والآخر أملاً في تقليص العداء الخارجي ضد فرنسا، وأملاً في إحلال السلام العام في أوروبا. وابتهج الملكيون لذلك، أما اليعاقبة فازدادوا كمداً.

وكانت الخطوة الأولى في برنامج السلام هذا هو اجتماع المفاوضين الفرنسيين والنمساويين في لونفيل Luneville (بالقرب من نانسي Nancy). وأرسل نابليون أخاه جوزيف لعرض حُجج فرنسا هناك، ولم يُرسل تاليران، وقد قام جوزيف بمهمته خير قيام. وكان نابليون يؤيده في كل خطوة تأييداً راسخاً ينطوي على التصميم، فكانت طلباته من الجانب النمساوي تزداد إذا لمس منه أي تأخير. وأخيراً استسلم النمساويون ووقعوا على ما أسموه - بسوء فهم - سلام لونيفيل المرعب في ٩ فبراير سنة ١٨٠١ بعد أن رأوا جيوش فرنسا تبتلع كل إيطاليا تقريباً ورأوها تدق أبواب فينا. واعترفت النمسا بتبعية بلجيكا ولوكسمبورج والأراضي الواقعة على طول الضفة الغربية للراين من بحر الشمال إلى بازل لفرنسا. وأقرت ما سبق أن ورد في معاهدة كامبو فورميو Campoformio واعترفت بسيادة فرنسا على إيطاليا فيما بين جبال الألب ونابلي وما بين الأديج Adige ونيس Nice كما اعترفت بالحماية الفرنسية على جمهورية باتافيا (هولندا) وجمهورية هيلفيتيا (سويسرا). لقد كتب الوزير البروسي هوجفتز Haugwitz: «لقد اتفقت النمسا الآن اتفاقاً منفرداً مع فرنسا لإقرار السلام في أوروبا»[٥١] وارتفعت بورصة باريس عشرين نقطة في يوم واحد وراح عمال باريس يفضلون الانتصارات أكثر من تفضيلهم للتصويت في الانتخابات،

يهتفون لإنجازات نابليون على الصعيدين السياسي والحربي، «عاش نابليون». وعلى أية حال فربما كانت لونيفيل معركة حربية أكثر منها انتصارات دبلوماسية. لقد كانت لونيفيل انتصارا للكبرياء على التدبر والتعقل ففيها كمنت بذور حروب كثيرة انتهت بواترلو Waterloo.

وثمّة مفاوضات أخرى جلبت لفرنسا مزيداً من القوة فبناء على الاتفاق مع أسبانيا في أول أكتوبر سنة ١٨٠٠ أصبحت لويزيانا Louisiana تابعة لفرنسا. وأدت معاهدة فلورنسا (١٨ مارس سنة ١٨٠٠) مع ملك نابلي إلى أن أصبحت جزيرة إلبا Elba وممتلكات نابلي في وسط إيطاليا تابعة لفرنسا، وأدّت المعاهدة نفسها إلى اغلاق موانئ نابلي في وجه التجارة البريطانية والتركية. وأدّى الإدعاء الفرنسي القديم في سان دومينجو St. Domingue – القسم الغربي من هسبانيولا Hispaniola – إلى دخول نابليون في صراع مع رجل يكاد لا يقل عنه في قوة الشخصية. إنه فرانسو – دومينيك توسين François Dominique Toussaint الذي وُلد كعبد زنجي في سنة ١٧٤٣ وقاد عبيد سان دومنيجو وهو في سن الثامنة والأربعين – وهي سن يفترض أن بالغها يتسم بالحذر – في ثورة ناجحة، واستولى على الجانب الفرنسي من الجزيرة ثم على الجانب الاسباني منها. وحكم الجزيرة باقتدار لكنه وجد صعوبة في ضبط النظام المؤدي لكثرة الانتاج بين العبيد المحررين الذين كانوا يفضلون حياة البطالة ويبدو أن ذلك بسبب الحرارة. وسمح توسين Toussaint لكثير من الملاك السابقين بالعودة إلى مزارعهم وأسس نظام عمل يكاد يكون قائما على العبودية. وقد اعترف من الناحية النظرية بالسيادة الفرنسية على سان دومِنجو St. Domingue اما من الناحية العملية فإنه – على أية حال – احتفظ بلقب الحاكم العام طوال حياته كما احتفظ بحقه في تولية من يخلفه، تماما – إلى حد كبير – كما سيفعل نابليون بعد فترة وجيزة في فرنسا. وفي سنة ١٨٠١ أرسل القنصل الأول (نابليون) عشرين ألف عسكري بقيادة الجنرال شارل لكلير Leclerc لإعادة بسط السيادة الفرنسية في سان دومنجو St. Domingue، لكن توسين واجه هذه القوات بشراسة ومع هذا فقد لاقى الهزيمة ومات في جوJoux في فرنسا (سنة ١٨٠٣). وفي سنة ١٨٠٣ وقعت الجزيرة كلها في يد بريطانيا.

وقد ظل الأسطول البريطاني - يدعمه التفوق البريطاني في مجالي التجارة والصناعة - هو العقبة الكأداء التي تعوق نجاح نابليون طوال فترة حكمه فيما خلال عامين اثنين. لقد كانت بريطانيا تستطيع أن تزوّد بالأموال جيوش حلفائها في أوروبا في محاولاتهم المتكررة للإطاحة بنابليون، فقد كانت إنجلترا قابعة وراء القنال الإنجليزي غير معرضة للدمار الذي تسببه الحرب، ثرية بفضل تجارتها البحرية التي لا ينافسها فيها أحد وعوائد مستعمراتها وسبقها في الثورة الصناعية. لقد اتفق التجار والصناع مع الملك جورج الثالث والتوريين Tories (حزب المحافظين البريطاني) والمهاجرين الفرنسيين الذين اضطروا لترك فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية وإدموند بورك Burke - على أن عودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا هي الطريقة المثلى لإعادة الاستقرار إلى نظم الحكم القديمة (غير الثورية) ومع هذا فإن الجناح المعارض للتوريين (المحافظين) وكان يشكل في إنجلترا أقلية قوية بقيادة شارلز جيمس فوكس Charles James Fox وكان يمثل الاتجاه الليبرالي الراديكالي ويضم رجالا يتسمون بالبلاغة وحُسن البيان - اعترض على أساس أن الحرب المستمرة ستنشر الفقر وتحرض على الثورة، وعلى أساس أن نابليون أصبح الآن أمراً واقعاً، وعلى أساس أن الوقت قد حان لإيجاد تسوية مؤقتة مع قائد المرتزقة الذي لا يقهر (المقصود نابليون).

وأكثر من هذا فقد راحوا يسوقون الأدلة على أن مسلك بريطانيا كسيدة للبحار قد خلق لها أعداء أصبحوا أصدقاء لفرنسا. وادعى الأدميرالات البريطانيون أن حصارهم لفرنسا يعطيهم - ومن معهم من بحارة - الحق في تفتيش السفن المحايدة ومصادرة البضائع المتجهة إلى فرنسا، وقد امتعضت كل من روسيا والسويد والدنمرك وبروسيا من هذا التصرف واعتبرته انتهاكا لسيادتها وكوّنت في ديسمبر سنة ١٨٠٠ عصبة الحيادة العسكري الثانية Second League of Armed Neutrality واقترحت مقاومة أي تعرض بريطاني لسفنها من الآن فصاعداً. أما وقد ازدادت حدة الخلاف، فقد استولى الدنمركيون على هامبورج Hamburg (التي كانت قد أصبحت الباب الرئيسي لبريطانيا المفضي إلى وسط أوروبا)، واستولى البروسيّون على هانوفر Hanover التابعة لجورج الثالث. وأخيراً أصبح نصف أوروبا الذي كان معادياً لفرنسا، معادياً لانجلترا الآن. ولأن فرنسا كانت بالفعل تسيطر على مصبات

الراين وشاطئه الشمالي، فقد أصبحت البضائع البريطانية لا تجد سبيلها - إلى حد كبير جدا - لأسواق فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والدنمرك ودول البلطيق وروسيا. وأغلقت إيطاليا موانئها في وجه التجارة البريطانية. وكانت اسبانيا متذمرة بسبب جبل طارق، وكان نابليون يكوّن جيشاً ويبني أسطولاً لغزو إنجلترا.

وحاربت إنجلترا عن مؤخرتها، وربحت من تغيّر اتجاه الاحداث، لقد دمر أسطول بريطانيا أسطولاً دنماركياً في ميناء كوبنهاجن (في ٢ أبريل سنة ١٨٠١). وَخَلَفَ القيصر بول الأول، القيصر اسكندر الأول Alexander I الذي غيَّر سياسة سلفه نحو فرنسا، وأدان غزو نابليون لمصر واعترف بالسيادة الإنجليزية على مالطة بعد أن كانت في يد الفرنسيين. ووقع مع إنجلترا معاهدة في ١٧ يونيو سنة ١٨٠١، وهكذا انهارت العصبة الثانية للحياد العسكري، ومع هذا فإن توقف الازدهار الاقتصادي في بريطانيا وتضخم الجيش الفرنسي في بولونيا وانهيار النمسا رغم المعونات المالية الباهظة التي قُدمت لها - كل ذلك جعل إنجلترا تجنح للسلم. ففي أول أكتوبر سنة ١٨٠١ وقَّع مفاوضوها اتفاقاً مبدئياً تتعهد فيه فرنسا بتسليم مصر إلى تركيا (الدولة العثمانية)، وأن تُسلم بريطانيا جزيرة مالطة في ظرف ثلاثة أشهر لفرسان القديس يوحنا Knights of St. John وكان لابد أن تستعيد كل من فرنسا وهولندا وأسبانيا معظم مستعمراتها التي سُلبت منها، وكان على فرنسا أن تسحب كل قواتها من وسط إيطاليا وجنوبها. وبعد سبعة أسابيع من المناقشات وقعت بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة السلام في إميان - تلك المعاهدة التي طال انتظارها - في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢. وعندما وصل ممثل نابليون إلى لندن بالوثائق مصدقة أخذت الجماهير السعيدة بألجمة خيوله وسحبت العربة إلى وزارة الخارجية وسط هتافات «عاشت الجمهورية الفرنسية! عاش نابليون»[٥٢].

وكانت الجماهير الفرنسية مفعمة حماساً شاكرة وممتنة للرجل الشاب (نابليون) الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره، والذي وضع - بالمعيّة - نهاية لحرب استمرت عشر سنين. لقد سبق أن اعترفت أوروبا كلها بمقدرته كجنرال، وهاهي ترى الآن أن هذا العقل الصافي نفسه، وهذه الإرادة الراسخة، تتألقان في مضمار الدبلوماسية أيضاً. ولم تكن إميان

Amiens سوى البداية، ففي ٢٣ مايو سنة ١٨٠٢ وقَّع نابليون معاهدة مع بروسيا وفي اليوم التالي مع بافاريا وفي ٩ أكتوبر مع تركيا (الدولة العثمانية) وفي ١١ أكتوبر مع روسيا، وعندما اقترب التاسع من نوفمبر - الذكرى السنوية للثامن عشر من الشهر الجمهوري برومير Brumaire - رتَّب الأمور للاحتفال به كمهرجان للسلام. وفي هذا اليوم أعلن بسعادة هدف جهوده: « إن الحكومة إيماناً منها بطموحاتها وتنفيذاً لوعودها لن تستسلم للمشروعات المنطوية على المخاطرة. إن واجبها كان هو استعادة الهدوء، لتعمل على ترسيخ العلاقات القوية والأبدية بين الأسرة الأوروبية الكبيرة لتشكيل أقدار العالم»[٥٣] وربما كانت هذه اللحظة هي أرقّ لحظة في تاريخه.

٣- فرنسا المرموقة: ١٨٠٢-١٨٠٣:

قال نابليون في جزيرة سانت هيلانه: « لقد اعتقدتُ بكل الاخلاص أن قدري وقدر فرنسا قد استقرا في إميان. لقد كنت بصدد تكريس نفسي تماماً لإدارة فرنسا، واعتقدتُ أنني سآتي بالأعاجيب »[٥٤]. لقد كان هذا القول بمثابة محاولة لإزالة آثام اثنتي عشرة معركة، لكن في اليوم التالي لتوقيع سلام إميان كتب جيرولامو لوشيسيني Girolamo Lucchesini السفير البروسي في باريس لمليكه تقريراً مفاده أن نابليون قرر « الالتفات للزراعة والصناعة والتجارة والفنون وكل ما يُدرُّ عائداً مالياً والتي كانت الحرب قد استنزفتها » واستمر جيرولامو قائلا إن نابليون سيتحدث بحرارة عن « افتتاح الترع والقنوات وإكمالها وإصلاح الطرق وتطهير الموانئ والمرافئ وإنشاء المدن، وإقامة المؤسسات الدينية وأماكن العبادة، . . . كما يتحدث عن مقررات دراسية»[٥٥] والحقيقة إن قدراً كبيرا من التقدم في هذا المجال كان قد تحقق قبل أن تحتل الحرب - مرة أخرى - مكانة الاهتمام الأولى (١٦ مايو سنة ١٨٠٣). وكانت الضرائب معقولة وكان يتم جمعها بأقل قدر من الخداع والقوة، وقد غمرت عوائدها الحكومة فساعدت على بقاء الصناعة منتعشة وعلى تشغيل العمالة. وتوسعت التجارة بسرعة عقب رفع إنجلترا للحصار البحري، وانتعش الدين من جديد في ظل الكونكوردات Concordat (المعاهدة البابوية) الذي عقده نابليون مع البابا. وبدأ

المعهد العلمي في وضع نظام للتعلم على مستوى الأمة الفرنسية . وجرى تقنين القوانين، وأصبح للقانون مكانته، وبلغت الإدارة درجة الامتياز وجنحت للأمانة.

وأصبحت باريس مرة أخرى - كما كانت في عهد لويس الرابع عشر - عاصمة السياحة في أوروبا . ونسي مئات من الإنجليز الرسوم الكاريكاتيرية الكثيرة التي كانت تهزأ بنابليون وتسخر منه في الصحف البريطانية فقطعوا الطرق الوعرة وعبروا القنال لإلقاء نظرة على التمثال ضئيل الحجم (المقصود نابليون) الذي تحدى القوى العظمى وفرض عليها السلام. وأتى إليه عدد من أعضاء البرلمان الإنجليزي من مختلف الاتجاهات، ليس أقلهم رئيس الوزراء السابق والذي شغل المنصب بعد ذلك مرة أخرى: شارلز جيمس فوكس Charles James Fox الذي زاره في أغسطس سنة ١٨٠٢، والذي سبق له أن بذل جهوداً مضنية لفترة طويلة لتحقيق السلام بين الإنجليز والفرنسيين. واعترت الدهشة الأجانب للرخاء الذي حطَّ على فرنسا بهذه السرعة بعد وصول نابليون للحكم. وقد وصف دوق بروجلي Broglie الأعوام من ١٨٠٠ إلى ١٨٠٣ بأنها «أفضل صفحات الحوليات الفرنسية وأكثرها نبلاً»[٥٦].

٣/ ١ المدوَّنة القانونية النابليونية: ١٨٠١ - ١٨٠٤:

استغرق نابليون في ذكرياته فقال «إن عظمتي الحقيقية ليست في المعارك الأربعين التي خضتها وأحرزتُ فيها النصر، ذلك لأن هزيمتي في واترلو Waterloo ستمحق ذكرى هذه الانتصارات.. أما ما لا يمكن محقه، وما سيبقى أبد الدهر فهو مدوَّنتي القانونية»[٥٧]. إن كلمة «أبد الدهر» ليست ذات طابع فلسفي، فهذه المدونة هي بالفعل أعظم إنجازاته. لقد أجبر الطيشُ والفسادُ اللذان لا ينضب معينهما المجتمعَ - بشكل دوري - على تحسين طرائقه لحماية نفسه من العنف والسرقة والغش والخداع، واقتضى هذا إعادة صياغة هذه الطرائق. وكان جستنيان قد حاول ذلك في سنة ٥٢٨ للميلاد، لكن مجموعة قوانينه المدنية التي سجلها رجال القانون في عهده كانت موجودة بالفعل ولم يتعد عملهم تنسيقها ولم تكن في غالبها بناءً قانونياً جديداً يهدف إلى تغيير المجتمع واجتثاث سلبيات كانت فيه. أما المشكلة بالنسبة لفرنسا فكانت مضاعفة لأن كل محافظة (دائرة) كان لها قوانينها الخاصة

حتى أن القانون في منطقة (أو محافظة أو ولاية) لم يكن ليسود في المنطقة التي تليها . وكان مرلين الدُّوي Merlin of Douai وكامباسير Cambacérès قد قدَّما الخطوط العريضة لمدوّنة قانونية جديدة موَّحدة لحكومة المؤتمر الوطني في سنة ١٧٩٥ لكن الثورة لم يكن لديها الوقت الكافي لإنجاز هذا العمل، ولأن الحكومة في ذلك الوقت كانت تواجه فوضى مربكة فقد أضافت آلافاً من القرارات والمراسيم المتسرّعة اقتضى الأمر فترةً من الوقت لتُصاغ بشكل متّسق.

وأدى اقرار نابليون للسلام مع النمسا وبريطانيا إلى إتاحة الفرصة له لإنجاز مدوَّنته. ففي ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٠ فوَّض القناصل الثلاثة كلاً من فرانسوا ترونش François Tronchet وجان بورتالي Jean Portalis وفيلي بيجو دي بريمينو Felix Bigot de Preameneu وجاك دي مالفيل Jacques de Maleville لوضع مخطط جديد لمدوّنة وطنية متسقة تضم القوانين المدنية وأرسل نابليون مشروع المدونة كما أعدوه وقدموه في أول يناير سنة ١٨٠١ إلى رؤساء المحاكم القانونية لإبداء تعليقاتهم وملاحظاتهم، فقدَّموه بدورهم بعد ابداء الملاحظات إلى نابليون بعد ثلاثة أشهر من إحالته لهم، فأحاله إلى اللجنة التشريعية في مجلس الدول لإعادة النظر فيه، وكان على رأس هذه اللجنة التشريعية كل من بورتالي Portalis وانطوان ثيبودو Antoine Thibaudeau وبعد أن مرَّت المدوّنة القانونية بكل هذه الفحوص تدارسها المجلس كله بنداً بنداً خلال سبعة وثمانين دورة قضائية.

وكان نابليون هو رئيس المجلس في خمس وثلاثين دورة منها. ولم يكن نابليون خبيراً بالقانون لكنه استفاد من فطنة زميله في القنصلية كامباسير Cambacérès وتعليمه القانوني. لقد اشترك نابليون في المناقشات بتواضع لدرجة حبَّبته إلى أعضاء المجلس وجعلته موضع إعجابهم. ولقد تأثر أعضاء المجلس بحرارته وحماسه وتصميمه فوافقوا برضا على مد فترة كل جلسة من الجلسات لتمتد من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الخامسة بعد الظهر، لكنهم لم يتحمسوا عندما دعاهم للاجتماع مرة أخرى مساء، فقد حدث أن اعترى النعاسُ بعض الأعضاء من جراء التعب في هذه الاجتماعات المسائية فنبههم نابليون – بكياسة ولطف – إلى ضرورة الانتباه. « هيا أيها السادة فنحن لم نتقاض رواتبنا بعد »(٥٨)

وفي رأي فاندال Vandal أن هذه المدوّنة ما كانت لتتم أبداً لولا حثّ نابليون الدؤوب وتشجيعه الوِدّي[٥٩].

وغالبا ما كان القضاة وأعضاء المجلس يتوقفون عندما تتناول المدونة أمراً مرتبطاً بالتربيونية Tribunate (محامي الشعب) . لقد أدان المجتمعون الذين كانوا لا يزالون متفاعلين مع الثورة المدونة لأن بنودها قمعت الاتجاهات التي تبنتها الثورة - باعتبارها أعادت تسلُّط الزوج على زوجته وتسلُّط الأب على أبنائه، وتوجت البورجوازية ليكونوا على رأس الاقتصاد الفرنسي. لقد تم إقرار هذه التوجهات إلى حد كبير. وقَبِلت بنود المدونة المبادئ الأساسية للثورة وطبقتها: حرية الحديث والعبادة والعمل التجاري ومساواة الجميع أمام القانون وحق الجميع في محاكمة علنية أمام القاضي، وإبطال الرسوم الاقطاعية وإلغاء العشور الكنسية وأقرت عمليات الشراء التي تمت بالنسبة لمن اشترى جانبا من الممتلكات المصادرة للكنائس أو الاقطاعات أو الدولة، ولكن المدوّنة حذت حذو القانون الروماني فقبلت الأسرة كوحدة أساسية للنظام الاجتماعي وكحصن للنسق الأخلاقي وأعطتها أساساً بإحياء السلطة الأبوية على النحو الذي كان سائداً في الحكم القديم (العهد البائد) فأصبح للأب الحق في التحكم في ممتلكات زوجته وأصبح له السلطة الكاملة على أبنائه حتى يبلغوا سن الرشد ويمكنه أن يطلب سجنهم فيتم ذلك بناء على طلبه هو وحده وأصبح يمكنه منع زواج الابن فيما دون السادسة والعشرين والابنة فيما دون الواحدة والعشرين. وانتهكت المدوَّنة مبدأ المساواة أمام القانون بنصها على أنه في حالة المنازعات حول الأجور فإن القول الفصل لصاحب العمل (وفيما عدا ذلك فالجميع أمام القانون سواء) ومن ١٢ أبريل سنة ١٨٠٣ تجدد حظر الروابط العمالية (إلاّ ذات الأغراض الاجتماعية الخالصة) وبعد الأول من ديسمبر من العام نفسه (١٨٠٣) أصبح على كل عامل أن يحمل معه بطاقة عمل مدوّن بها مهنته، وأعادت المدوَّنة - بموافقة نابليون - نظام الرِّق في المستعمرات الفرنسية[٦٠].

لقد كانت المدونة تمثل ردة فعل تاريخية فقد كان توجهها العام هو الانتقال من مجتمع يكثر فيه ما هو مباح إلى مجتمع منضبط على مستوى الأسرة والدولة. وكان واضعو التشريع هم رجال هذه الأعوام، إذ نبههم إفراط الثورة وإسفافها، ورفض التراث والتقاليد

بطيش وبلا روية، وسهولة الطلاق وتفسخ الروابط الأسرية والسماح بالانحلال الأخلاقي بين النساء، والسماح بممارستهن للشغب السياسي، وتشجيع دكتاتورية البرولتياريا والتستر على مذابح سبتمبر والارهاب باسم الشعب. لقد قرر هؤلاء الرجال أن يُوقفوا ما بدا لهم مدمراً للمجتمع والحكومة. وقد أيد نابليون تأييداً مطلقاً اتجاه هؤلاء الرجال رغبة منه في استقرار فرنسا في ظل حكمه. لقد اتفق معه مجلس الدولة على ضرورة إغلاق باب المناقشة على المستوى العام في مواد المدوَّنة البالغة ٢,٢٨١ مادة، وفي ٢١ مارس أصبحت هذه المدونة – واسمها الرسمي المدونة القانونية المدنية لفرنسا – هي قانون فرنسا.

٣/٢ الكونكوردات (الاتفاق مع البابا) ١٨٠١:

ولم يقنع الشاب نابليون[*] the young Lycurgus بهذا فقد كان يعرف بطبيعته القوية أن روح الإنسان لا تميل للقانون إلا قليلاً. لقد سبق له أن رأى في إيطاليا ومصر كيف أن الإنسان لا يزال في رغباته قريباً من ماضيه الأول قنّاصاً حيواناً متمرداً متحرراً. ومن عجائب التاريخ أن هذه الكائنات الحية المتفجرة (سريعة الانفعال) ظلت بمنأى عن التفسخ الاجتماعي أو بتعبير آخر لم تحطم الهيكل الاجتماعي الذي تعيش خلاله حتى الآن. أكان هذا بفضل رجال الشرطة؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك لأن عدد رجال الشرطة قليل كما أنهم متباعدون (بمعنى أنهم لا يتجمعون في مكان واحد لضبطه) كما أن الميل للفوضى السياسية كامن في نصف أفراد المجتمع. فما الذي كبح انهيار البناء الاجتماعي؟

لقد انتهى نابليون نفسه – مع أنه من المتشككين في الدين – إلى أن النظام الاجتماعي قد استقر أخيراً على طبيعة هي مزاج من الحيوانية والانسانية غُرس فيها بدقة خوف من القوى غير المنظورة (القوى الغيبة أو الفوقطبيعية) ومن ثم فقد راح نابليون ينظر للكنيسة الكاثوليكية كأداة مفيدة الفائدة كلها لضبط سلوك الرجال والنساء. إنها – أي الكنيسة الكاثوليكية – تعد أداة لضبط السلوك الإنساني في مواجهة تأرجحه ما بين الموافقة

(*) يشبهه المؤلف هنا بليكورجوس أحد أبطال الأساطير الاغريقية الذي استخدم دهاءه وشجاعته في هزيمة أعدائه. انظر مادة أراثيوس في معجم الاعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة. (المترجم)

والسخط إزاء التفاوت الاقتصادي والاجتماعي والجنسي. وهي - أي الكنيسة الكاثوليكية - أداة لضمان الالتزام بالوصايا الدينية التي تقاوم متطلبات الجسد. فإذا كان يستحيل وضع رجل بوليس في كل مكان، فالآلهة موجودة في كل مكان، وكل ما هو أكثر مدعاة للرعب (من البوليس) موجود، وهو أكثر مدعاة للرعب لأنه غير مرئي ويمكن مضاعفة كم الرعب عند الرغبة أو الحاجة عن طريق الموجودات الغامضة وبالوعظ العنيف والتهديد الشديد بالثبور وعظائم الأمور التي ستصبها الآلهة أو قوى الرهبان القابعين في الصحراء أو الأماكن النائية والقادرين على توجيه طلباتهم الى الآمر الناهي المبقي على النجوم والبشر والقادر على تدميرهم. يا له من تصور سامٍ! يا له من تنظيم لا يُضاهى بمدى انتشاره ومدى مفعوله! يا له من نظام يدعم - بلا مقابل - المعلمين والأزواج والآباء ورجال الدين والملوك!.
لقد انتهى نابليون إلى أن الفوضى والعنف اللذين سببتهما الثورة قد آن وضع حد لهما وما عاد هناك مجال للحديث عن رفض الدولة للكنيسة. لقد قرر إعادة الارتباط بين الدولة والكنيسة بقدر ما يستطيع أن ينتزع ذلك من مخالب اليعاقبة المرعبين والفلاسفة المستميتين.

لقد كان الدين في فرنسا في سنة ١٨٠٠ في حالة تسيب مضطربة ولم يكن هذا بعيداً عن التسيب الأخلاقي الذي خلفته الثورة. لقد أصبح هناك أقلية كبيرة في المحافظات - وربما أغلبية أهل باريس - غير مبالين بمواعظ القسس[٦١]. وكان هناك آلاف من الفرنسيين - فلاحين ومليونيرات - قد اشتروا من الدولة ممتلكات الكنيسة المصادرة. وكان هؤلاء المشترون قد جرى حرمانهم من رحمة الكنيسة، وكان الناس الذين يرون فيهم مشترين لممتلكات مسروقة ينظرون إليهم بعيون غير راضية. وكان في فرنسا في ذلك الوقت ثمانية آلاف قس نشط، منهم ألفان دستوريون أي من الذين أقسموا بيمين الولاء لدستور سنة ١٧٩١ الذي أقر مصادرة ممتلكات الكنيسة، أما الستة آلاف فكانوا قسساً غير معتمدين أو بتعبير آخر غير دستوريين لرفضهم الثورة وعملهم على إبطال إجراءاتها، وكانوا قد احرزوا تقدما في مسارهم هذا. فقد عمل النبلاء الذين لم يغادروا فرنسا إثر أحداث الثورة وكذلك كثيرون من أفراد الطبقة البورجوازية على إعادة المكانة للدين كحصن لضمان الملكية

(بكسر الميم) والنظام الاجتماعي. وكثيرون من هؤلاء - رغم أن بعضهم كان سليل الثورة ومنتمياً إليها - أرسلوا أولادهم إلى مدارس يديرها - أو يُدرّس فيها - قسس وراهبات فهم (وفقاً لما يعتقدونه) يعلمون أكثر مما يعلم المدرسون الذين لا يرتدون الطيلسانات (عباءات رجال الدين) وهم الأقدر على تنشئة أبنائهم ليكونوا محترمين وبناتهم ليتصفن بالحياء(٦٢). لقد أصبح الدين سائدا في « المجتمع » وفي الآداب، وسرعان ما أصبح كتاب شاتوبريان Chateaubriand (١٨٠٢) المرسوم باسم « عبقرية المسيحية » والذي يكيل فيه المديح للمسيحية - حديث الناس في هذا الوقت.

وقرر نابليون - في مسعاه لتدعيم حكمه الذي لا جذور له - الاستعانة بدعم الكنيسة الكاثوليكية الروحي والتنظيمي، وقد أدى هذا الاتجاه إلى تهدئة منطقة الفندي Vendée الثائرة وأسعد القاطنين في الدوائر (المحافظات) والستة آلاف قس الآنف ذكرهم. إن نابليون بهذا يمكنه أن يضيف لرصيده تأييد البابا الأخلاقي (المعنوي) والروحي، وهو - بهذا - إنما يسحب البساط من تحت أقدام المطالبين بعودة أسرة البوربون، وهو أيضاً - بهذا - يحفظ العداء المستحكم بين فرنسا - وبينه شخصياً - وكل من بلجيكا وبافاريا والنمسا وإيطاليا وأسبانيا وهي كيانات كاثوليكية. « لذا فإنني بكل ما لدي من سلطة.. أُعيد ترسيخ الدين. إنني أجعل منه الأرضية والأساس اللذين أبني فوقهما. لقد اعتبرته دعماً للمبادئ الصحيحة والأخلاق الصالحة »(٦٣).

وقد قاوم اللاأدريون في باريس (القائلون بأن أمور الغيب لا سبيل للتيقن منها) وكاردينالات روما خطة نابليون هذه، فكثيرون من رجال الدين قاوموا التصديق على أي اتفاق، يتساهل بشأن الطلاق أو يُبطل دعاوى الكنيسة الفرنسية في أحقيتها في أملاكها المصادرة. واعترض كثيرون من اليعاقبة على جعل الكاثوليكية ديناً رسمياً للأمة تحميه الحكومة وتنفق عليه، وكان من رأيهم أن مثل هذا القرار إنما هو تخلٍ عما اعتبروه أهم إنجاز من إنجازات الثورة الفرنسية، ألا وهو فصل الدولة عن الكنيسة. أما بالنسبة للكاردينالات ورجال الدين الذين عارضوا مشروعه فقد أرهبهم مُهدداً أنهم إذا رفضوا مشروعه فإنه سيحذو حذو هنري الثامن Henry VIII في إنجلترا وسيفصل الكنيسة الفرنسية فصلاً كاملاً

عن روما. أما بالنسبة للاأدريين (المتشككين) فحاول نابليون تهدئتهم بأن شرح لهم أنه إنما يريد أن يجعل الكنيسة أداة حكومية لاستمرار السلام الداخلي. لكنهم خشوا أن يكون اقتراحه خطوة أخرى في طريق التراجع من الثورة إلى الملكية (بفتح الميم). ولم يغفر نابليون أبداً للالاند Lalande (الفلكي) رغبته في «إدراج اسم نابليون في قاموس الملحدين في اللحظة ذاتها التي فتح فيها – أي نابليون – باب المفاوضات مع بلاط روما البابوي» وذلك على حد ما ذكره بورين Bourrienne سكرتير نابليون(٦٤).

وقد بدأت هذه المفاوضات في باريس في ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ واستمرت عامرة بالمناورات طوال ثمانية أشهر، فقد كان الكاردينالات دبلوماسيين متمرسين لكن نابليون كان يعلم رغبة البابا الشديدة في الوصول إلى اتفاق ورغبته في تقديم كل ما هو في صالح سلطته على الكنيسة. لقد قدم البابا بيوس السابع Pius VII تنازلاً إثر تنازل لأن الخطة المقترحة عرضت إنهاء عقد من النكبات التي ألمت بالكنيسة الفرنسية. ولأن هذه اللحظة تتيح له عزل كثيرين من الأساقفة الذين سبق وهزأوا بالسلطة البابوية، وستمكنه – بمساعدة التدخل الفرنسي – من التخلص من الجيش النابولي الذي يحتل عاصمته، وستعيد للبابوية «المفوّضيات Legations» (فرارا Ferrara وبولونيا Bologna ورافينا Ravenna – التي عادة ما كان يحكمها سفراء باباويون Legates) التي انتقل حكمها إلى فرنسا في سنة ١٧٩٧. وأخيراً بعد جلسة استمرت حتى الساعة الثانية صباحاً وقع ممثلو كنيسة روما، وممثلو الدولة الفرنسية في ١٦ يوليو ١٨٠١ الاتفاق (الكونكوردات) الذي حكم العلاقات بين فرنسا والباباوية طوال قرن من الزمان. وصدّق نابليون على الاتفاق في شهر سبتمبر، وصدّق عليه البابا بيوس السابع في ديسمبر. وعلى أية حال فإن نابليون وقّع مع النص the Proriso ما يفيد أنه قد يُقر فيما بعد بعض «الإجراءات لمنع ما قد ينشأ من تفسير حرفي متعنّت لهذا الاتفاق (الكونكوردات)»(٦٥).

وهذه الوثيقة التاريخية ألزمت الحكومة الفرنسية بالاعتراف بالكاثوليكية كدين للقناصل الحاكمين وكدين لأغلبية الشعب الفرنسي (وبالتالي ألزمتها بتمويلها أي الانفاق على مؤسساتها) ولكنها – أي هذه الوثيقة التاريخية – لم تجعل الكاثوليكية دين الدولة

وأكدت على حرية العبادة لكل الفرنسيين بمن فيهم البروتستنط واليهود. وسحبت الكنيسة دعاويها بأحقيتها في ممتلكات الكنيسة التي صادرتها الدولة، ووافقت الدولة - على سبيل التعويض - أن تدفع للأساقفة راتباً سنوياً، خمسة عشر ألف فرنك لكل أسقف وأن تدفع رواتب أقل لقسس الأبرشيات. وكان للحكومة - كما كان الحال زمن لويس الرابع عشر - أن تُعيِّن الأساقفة، الذين يقسمون يمين الولاء للدولة على ألا يصبح تعيينهم سارياً إلا بعد موافقة البابا. ويُعد قرار تعيين الأساقفة الدستوريين (أي الذين أقسموا يمين الولاء لدستور الثورة الأول) صحيحاً، ويُعاد كل الأساقفة التقليديون orthodox (ولا علاقة لهذا المصطلح في هذا السياق بالمذهب الأورثوذكسي المعروف)، وتفتح الكنائس رسمياً للعبادة الصحيحة (وكانت قد فتحت عملياً بالفعل). وبعد مناقشات طويلة سلَّم نابليون للكنيسة في مسألة مهمة وهي حقها في قبول الأوقاف (الأموال التي يوقفها المتبرعون للكنيسة بوصية Béquet).

وليهدِّئ نابليون منتقديه من المتشككين في أمور الدين ممن هم أكثر كياسة من غيرهم من المتشككين الآخرين، فإنه أضاف من جانبه إلى الاتفاق / ١٢١ «مواد أساسية» لضمان تفوق وضع الدولة على الكنيسة في فرنسا فمنع دخول أي مرسوم أو وثيقة بابوية أو موفد بابوي أو مرسوم للمجمع العام أو المؤتمر الكنسي إلى البلاد دون موافقة واضحة من الحكومة. وأصبحت الإجراءات المدنية للزواج شرطاً مسبقاً لإتمام الزواج من الناحية الدينية. وأصبح على كل الذين يدرسون ليصبحوا قسساً كاثوليك أن يدرسوا «المواد الغاليَّة Gallcan Arterit» (نسبة إلى بلاد الغال) الصادرة سنة ١٦٨٢ التي تؤكد الاستقلال الشرعي للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية عن السيادة الباباوية المطلقة.

وفي ٨ أبريل سنة ١٨٠٢ تم تقديم هذا الاتفاق البابوي (الكونكوردات) المعدَّل إلى مجلس الدولة والتريبيونيت Tribunate (أو التربيون وهو مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) والهيئة التشريعية، فهاجمه أعضاء هذه المؤسسات بضراوة باعتباره اتفاقا مناهضاً للتنوير والثورة (فقد كان من الضروري أن يكون متسقاً مع دستور سنة ١٧٩١) ولم يكن هذا ليثير الرعب لدى نابليون. وفي التريبيون دخل كونت فولني Volney المثقف في مناقشة

جريئة مع القنصل الأول (نابليون) حول هذا الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وانتخب الهيئة التشريعية شارل – فرنسوا دوبوي Charles - François Dupuis رئيساً لها، وهو مؤلف رسالة قوية مناهضة للإكليروس بعنوان « أصول كل العبادات L'Origine de tous les Cultes » (١٧٩٤) . وسحب نابليون الاتفاق البابوي (الكونكوردات) من المناقشة وراح ينتظر الوقت المناسب .

وعند التسمية الجديدة لأعضاء التريبيون (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب Tribunate) والهيئة التشريعية لم يعيّن مجلس الشيوخ كثيرين مم انتقدوا الاتفاق البابوي (الكونكوردات) . وفي هذه الأثناء كان نابليون قد نشر بين العامة قصة الاتفاق البابوي ومحتواه لأنه كان يتوقع أن الناس ستطالب بإقراره . وفي ٢٥ مارس سنة ١٨٠٢ حقق نابليون أمل الغالبية العظمى بتوقيعه اتفاق سلام مع إنجلترا، فزاده هذا قوة مما جعله يقدم الاتفاق البابوي (الكونكوردات) مرة ثانية للهيئات الآنف ذكرها، فأقره التربيون ولم يزد عدد المعارضين عن سبعة، وصوتت الهيئة التشريعية لصالحه بواقع ٢٢٨ ضد ٢١ . وفي ١٨ أبريل أصبح الاتفاق البابوي قانونا، وفي يوم أحد الفصح Easter Sunday تم إعلان سلام إميان والاتفاق البابوي في حفل وقور في نوتردام Notre - Dame وسط أنين الثوريين، وضحك العسكريين وبهجة الشعب . وانتشر رسم كاريكاتيري يُظهر نابليون وقد غمر نفسه في مياه المعمودية (رمزاً يشير إلى أنه مسيحي كاثوليكي) مع عبارة ساخرة : « عندما كان ملكاً لمصر آمن بالقرآن وعندما كان ملكاً لفرنسا آمن بالإنجيل » .

وقد عزّى نابليون نفسه بإقناعها أنه إنما كان يعبِّر عنه إرادة الغالبية العظمى من الفرنسيين وأن ما قام به يقوّي سلطانه على مستوى القاعدة رغم أنه أضعفها على مستوى القمة . لقد أعاد الأساقفة لكن منذ أن عيَّن الأساقفة ودفع لهم أجورهم، وأجور حوالي ثلاثة آلاف قس، وضع في اعتباره أنه يمكنه أن يسيطر عليهم بهذا المقود الاقتصادي . لقد ظن أن الكنيسة يمكن أن تكون إحدى أدواته تُغَنِّي لعظمته وتؤيد سياساته . فبعد ذلك بفترة وجيزة نظر إليها (أي إلى الكنيسة) باعتبارها وسيلة لتعليم الأطفال الفرنسيين أن « توقير الإمبراطور يعني توقير الرب ذاته » و « أنهم إن فشلوا في أداء واجبهم نحو الإمبراطور . . . إنما هم بذلك

يعصون الله، وأن هذا (عصيانهم للإمبراطور) يجعلهم يستحقون اللعنة الأبدية»[٦٦] وعبَّر نابليون عن امتنانه لرجال الدين (الإكليروس) بحضور القداس مبدياً الطاعة، لكنه أوصى أن يكون القداس موجزاً بقدر الإمكان.

لقد كان مقتنعاً في هذه اللحظات المفعمة بنشوة الانتصارات أنه قد كسب العالم الكاثوليكي كله إلى جانبه. ومن الناحية الفعلية فإن الإكليروس الفرنسيين لم يكونوا قد نسوا أبداً فقدانهم أراضيهم وكانوا ممتعضين لربطهم بالدولة بقيد الراتب (الأموال التي يتقاضونها من الدولة)، وكانوا ينظرون - أكثر فأكثر - للبابا لتأييدهم ضد حاكم كانوا يعتبرونه كافراً فيما بينهم وبين أنفسهم. إنهم وإن كانوا «غاليِّين Gallican» (نسبة إلى بلاد الغال) وفقاً للقانون إلا أن مشاعرهم كانت متجهة نحو البابا فعندما نزع الإمبراطور من البابا بيوس السابع الأراضي التي كانت في حوزة الباباوية لآلاف السنين (وأكثر من هذا عندما تم انتزاع البابا من روما وسجنه في سافونا Savona وفونتينبلو Fontainebleau) - هبَّ الإكليروس وجماهير فرنسا للدفاع عن حبرهم (البابا) وعقيدتهم، واكتشف نابليون متأخراً أن قوة الخرافة والكلمة أشد من قوة القانون والسيف.

٤- طريق المجد:

وسط مشروعاته وانتصاراته، كان عليه دائما أن يكون حذراً لمواجهة التحديات لسلطانه وللحفاظ على حياته. وكان الملكيون في فرنسا هادئين نسبياً لأنهم كانوا يأملون في إقناعه أن أكثر الطرق التي عليه أن يسلكها أمناً هي إعادة البوربون وأن يقبل منصباً شرفياً مقابل هذا. وشجعوا كتابا مثل مدام دي جينلي de Genlis على الكتابة في هذا الموضوع، وقد صوّرت روايتها «مدموازيل دي لا فاليير Mademoiselle de la Vallière» فرنسا في صورة مبهجة في ظل حكم لويس الرابع عشر. ولعبوا على الميول الملكية السرية لبورين، سكرتير بونابرت وعملوا من خلاله على كسب جوزفين إلى صفهم. لقد كان لهذه المعشوقة تطلعات سياسية مفرطة، لقد كانت تخشى إذا أصبح نابليون ملكاً أن يطلقها ليتزوج أخرى تستطيع أن تلد له وريثاً، وحاول نابليون أن يهدئ مخاوفها ببعض لحظات العشق والدلال

ولكنه منعها من التدخل في السياسات.

لقد كان نابليون يعتقد أن من يهددون سلطانه ليسوا هم الملكيين أو اليعاقبة وإنما الجنرالات الغيورون الذين يقودون الجيش الذي يعتمد عليه في المقام الأول لدعم سلطانه. لقد عبَّر هؤلاء الجنرالات علناً عن سخطهم: مورو Moreau وبيشجرو Pichegru، وبيرنادوت Bernadotte وموراً Murat وماسينا Masséna، ففي مأدبة غداء دعا إليها مورو أدان بعض الضباط نابليون واصفين إياه بأنه «مغتصب» ووصفه الجنرال دلما Delmas بأنه «غول مجرم» وكتب كل من مورو، وماسينا، وبيرنادوت طلبا لرفعه إلى نابليون مفاده أن يكتفي بحكم باريس وضواحيها، وأن يقسِّم بقية فرنسا بينهم مخولاً كل واحد منهم سلطة مطلقة على المنطقة (أو الإقليم) الذي يحكمه [٦٧] وعلى أية حال فإن أياً منهم لم يأخذ على عاتقه تسليم هذا الاقتراح للقنصل الأول. وكان بيرنادوت قائد جيش الغرب في رين Rennes على شفا التمرد أكثر من مرة وفقد أعصابه[٦٨]. وقد قال بونابرت «إذا حاقت بي هزيمة فسيكون الجنرالات هم أول من يتخلى عني»[٦٩].

ويجب أن نفسر خطاب نابليون الذي لا يحمل طابعاً حربياً أمام مجلس الدولة في الرابع من مايو سنة ١٨٠٢ دون أن نضع هذه الخلفية العسكرية التآمرية في اعتبارنا، بمعنى أنه في خطابه هذا لم يكن يشير بشكل أو بآخر إلى تآمر العسكريين عليه:

«في كل البلاد تنحني القوة أمام الحضارة: تنحني الحربة أمام القس... وأمام من هو أكثر علماً... فما كانت الحكومة العسكرية لتقبض على زمام الأمور في فرنسا لولا أن الأمة قد عانت من الجهل طوال خمسين عاما مما جعلها متوحشة قاسية الفؤاد... وإذا كان لنا أن نستخلص من علاقات أخرى لأدركنا أن الرجل العسكري لا يعرف قانوناً غير القوة ولا شيء سواها... أما الرجل المدني (المتمدن) فعلى العكس لا يرى سوى ما هو صالح. أن شخصية الرجل العسكري تجعله يُملي إرادته أو بتعبير آخر إذا طغى بغية تحقيق إرادته، أما الرجل المتمدن فهو يطرح كل الأمور للمناقشة ويعرضها على العقل ويبسطها بين يدي الحقيقة، غالباً ما يغلِّف الخداع ذلك كله، ولكنه يُلقي مع ذلك ضوءاً... إنني لا أتردد في أن أعزو السمو والفضل للرجل المتمدن بشكل لا يقبل الجدل.. إن الجنود هم أبناء

المواطنين، والجيش الحقيقي إنما هو الأمة»[٧٠].

اقترح نابليون على رفاقه الحميمين أن خططه لتأسيس فرنسا وتطويرها ستتطلب فترة حكم أطول من العِقْد الذي حصل عليه بالفعل، فقد كان نابليون مستاء من القلاقل ساعياً دوما لمزيد من السلطة. وفي الرابع من شهر أغسطس سنة ١٨٠٢ أعلن مجلس الشيوخ دستوراً جديداً للسنة العاشرة من الثورة (١٨٠١) وزاد هذا الدستور عدد أعضاء مجلس الشيوخ من أربعين إلى ثمانين - وقد عيّن القنصل الأول كل الأعضاء الجدد، وصوَّت أعضاء المجلس على جعل نابليون قنصلاً أول مدى الحياة. وعندما اقترح المعجبون به تخويله حق تعيين خليفته اعترض مبدياً تواضعا غير معتاد «تعيين من يخلفني أمر متناقض مع مبدأ سيادة الشعب وهو أمر غير ممكن في فرنسا»[٧١] لكن عندما وافق مجلس الشيوخ - بعد المناقشة - على الاقتراح بواقع ٢٧ (موافقون) و ٧ (معارضون)، وجد هؤلاء المعارضون السبعة أن يسحبوا خطأهم فجعلوا القرار بالإجماع، وعندها قبل نابليون متفضلاً باعتبار هذا الأمر (تعيين من يليه في المنصب) قد حظي بموافقة عامة. وفي ١٧ أغسطس كان على كل الذكور البالغين المسجلين كمواطنين فرنسيين أن يُدلوا بأصواتهم للإجابة عن سؤالين: أيجب أن يكون نابليون قنصلاً (أول) مدى الحياة؟ أيجب أن يُسمح له باختيار من يخلفه؟ وكانت نتيجة الاستفتاء ٣,٥٠٨,٨٨٥ موافقون و ٨,٣٧٤ معارضون[٧٢]. ومن المفترض - كما في استفتاءات أخرى - أنه كان للحكومة أساليبها للتشجيع على الموافقة. وتفاعلت البورصة مع نتيجة الاستفتاء مما أنعش الطبقات المالكة: لقد كان الرقم القياسي للأسهم لا يتعدى النقاط السبع قبل تولي نابليون للسلطة وقد ارتفع الآن بسرعة ليصل إلى اثنين وخمسين[٧٣].

أما وقد آوى نابليون إلى ركن متين فقد أحدث بعض التغييرات في حاشيته. لقد تخيَّر مجموعة قليلة العدد من الرجال ليكوِّن منهم مجلسه الخاص Private Council[*] يستطيع من خلالهم - بعد أن أصبحت سلطته لا تحتمل الجدل - إصدار المراسيم بالإضافة إلى مهامهم الاستشارية، واختصر أعضاء التريبيون Tribunate (مجلس الدفاع عن حقوق

(*) المعنى الحرفي للمصطلح مجلس الملك. (المترجم)

الشعب) من مائة إلى خمسين وجعل مناقشاته من الآن فصاعدا سرية . وأقصى وزير الشرطة (الداخلية) فوشيه Fouche النشيط إلا أنه متقلب . ودمج وزارة الداخلية مع وزارة العدل وجعل على رأسها كلود رجنييه Claude Regnier وطرد سكرتيره بورينBourrienneفي ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ بعد أن اكتشف أنّه يستغل مكانته لتحقيق ثروة، وراح من الآن فصاعداً يعوّل على الخدمات المخلصة التي يقدمها له كلود مينيفال Claude Meneval . بعد ذلك أصبحت مذكرات بورين لا يعوّل عليها لفرط عدائها لنابليون وأصبحت مذكرات مينيفال لا يعول عليها لفرط محاباتها لنابليون . وعلى أية حال - فبتناولهما بحيطة - لا يزالان يكونان أكثر الروايات تعاطفاً عن نابليون الذي شاء قدره أن يمتطي صهوة أوروبا في العشر سنوات القادمة .

وربما كان هذا الاستفتاء الذي جرى سنة ١٨٠٢ - بالإضافة إلى ما حققه نابليون من انتصار في مارينجو Maringo وإميان - هو الذي دمَّر في نابليون النزعة إلى الاعتدال والقدرة على رؤية العلاقات الصحيحة بين الأشياء، وبدونهما تصبح العبقرية على شفا الجنون . لقد وجد براهين قوية وحافزة تبرِّر له اتخاذ كل الخطوات التي تُفضي به إلى السلطة التي تُصيبه بالدوار، فعندما طلب منه زعماء الجمهورية السيزالبية (جمهورية الألب الشمالية Cisalpine) المتمركزون في ميلان أن يساعدهم في وضع دستور قدم لهم واحداً ينص على اختيار ثلاثة منتخبين (بفتح التاء) يختارون لجنة من صلاحياتها تعيين أعضاء الهيئة التشريعية ومجلس الشيوخ ومجلس الدولة الذين يختارون بدورهم الرئيس (ويتم اختيار المنتخبين الثلاثة من ملاك الأراضي ورجال الأعمال والفنيين على التوالي) . وبالفعل اجتمع المندوبون في ليون في يناير سنة ١٨٠٢ وأقروا هذا الدستور ودعوا نابليون الذي كانوا ينظرون إليه كإيطالي في فرنسا - ليكون أول رئيس للدولة الجديدة . فقدم من باريس ليخطب فيهم بالإيطالية، وفي ٢٦ يناير أصبح قنصل فرنسا الأول هو رئيس الجمهورية الإيطالية Republica Italiana وسط مظاهر الفرحة والابتهاج . واعترى الذهول كل أوروبا فماذا بعد، وماذا سيفعل هذا الساحر المنوّم في خطوته التالية[٧٤] .

وزاد الحذر عندما ألحق بيدمونت Piedmont بفرنسا . لقد احتل الفرنسيون « قدم الجبل »

في سنة ١٧٩٨ . لقد كانت تقع وراء « الحدود الطبيعية » لفرنسا والتي تعهد نابليون بحمايتها . وعلى أية حال فلو استعادها ملك سردينيا لأصبحت عازلاً معاديا بين فرنسا ومحمياتها الإيطالية في ليجوريا Liguria ولومباردي Lombardy، وفي الرابع من سبتمبر سنة ١٨٠٢ أعلن نابليون أنَّ بيدمونت جزءٌ من فرنسا .

وفي سويسرا حيث سبق أن وجد طرقاً كثيرة تؤدي إلى إيطاليا لم يستطع أن يتقدم بمثل هذه الثقة، فقد كانت كانتوناتها (ولاياتها) القوية تغص برجال اعتبروا – عبر القرون – الحرية أثمن من الحياة نفسها، وكانوا على استعداد لتكبيد أي غازٍ خسائر فادحة . وعلى أية حال فقد رحَّب غالب السويسريين بالمُثل العليا الفرنسية المعلنة في سنة ١٧٨٩، وفي سنة ١٧٩٨ كوَّنوا الجمهورية السويسرية (الهلفيتة helvetic) تحت حماية فرنسا . وقاوم ملاَّك الأراضي الشاسعة هذا الاجراء وجنّدوا فلاحيهم وكوَّنوا حكومة مُنفصلة في بيرن Bern وتحدوا الجمهورية الخاضعة للحماية الفرنسية والتي اتخذت عاصمة لها لوزان Lausanne . وأرسل كل من الطرفين مندوبا مفوضاً إلى نابليون لطلب تأييده، فرفض نابليون مقابلة مندوب بيرن الذي اتخذ طريقه بعد ذلك لطلب العون من انجلترا، فأرسلت أموالاً وأسلحة لهؤلاء الأوليجاركيين Oligarchs وأرسل نابليون جنوداً للجمهوريين (في نوفمبر سنة ١٨٠٢) فاستطاعوا بهم قمع تمرد بيرن (ملاّك الأراضي) وسوَّى نابليون النزاع بين الطرفين وفقاً لإعلان تسوية (في ١٩ فبراير سنة ١٨٠٣) الذي نشأت بمقتضاه كونفدرالية سويسرية من تسعة عشر كانتونا (ولاية) مستقلاً لكل واحد منها دستوره الخاص به، وكلها تحت الحماية الفرنسية ومُلزمة بإرسال عدد معين من الجنود للجيش الفرنسي . ورغم هذه المادة، فإن إعلان التسوية – بشهادة انجلترا – قد لاقى قبولا من كثير من الجهات وأصبح بلا شك حائزاً على القبول في الكونتونات (الولايات السويسرية)[٧٥] .

ومع ذلك فإن الحكومة الإنجليزية نظرت إلى التحركات الفرنسية المتوالية – في لمبارديا وبيدمونت وسويسرا – كتوسع خطير للنفوذ الفرنسي يدمّر توازن القوى في أوروبا، ذلك التوازن الذي كان قد أصبح حجر الزاوية للسياسة البريطانية في القارة . ومما سبّب لبريطانيا مزيدا من القلق، ما نشرته جريدة المونيتور Moniteur في عددها الصادر في ٣٠ يناير سنة

١٨٠٣ عن تقرير رسمي قدمه للحكومة الفرنسية الكونت هوراس سيباستياني Horace Sébastiani الذي كان نابليون قد أرسله لدراسة دفاعات القاهرة والقدس ويافا وعكا، وذكر التقرير أن ستة آلاف جندي كافون . . لفتح مصر»[٧٦] وأثارت هذه الوثيقة شكوك بريطانيا مخافة أن يكون نابليون يفكر في إعداد حملة أخرى لغزو مصر. وشعرت الحكومة البريطانية أنها لا يجب أن تفكر بعد الآن في إخلاء مالطة والإسكندرية فهما الآن ضروريتان للدفاع عن السيادة البريطانية في البحر المتوسط.

ولازال هناك ازدياد آخر لنفوذ نابليون أثار بريطانيا. فمعاهدة لونيفيل Lunéville اشترطت ضرورة تعويض حكام المديريات الألمان غرب الرين الذين تخلّوا عن ٤,٣٧٥ ميلاً مربعاً من الأراضي ذات العائد الضرائبي باعترافهم بالسيادة الفرنسية على المنطقة، اشترطت تعويضهم بمديريات أخرى شرق النهر. وأرسل عشرون نبيلاً ألمانياً ممثلين إلى باريس للحث على تنفيذ مطالبهم. واشتركت بروسيا وروسيا في الصيد، وجمع تاليران مبالغ أخرى كبقشيش (حَلَوان Pourboires) وأخيراً تم التوزيع بإقامة مدن دول City - States واضفاء الطابع العلماني عليها بعد أن كان يحكمها طوال قرون أساقفة كاثوليك. وكان هدف نابليون من هذا إقامة كونفدرالية الراين كدولة عازلة بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من ناحية أخرى. واحتجت النمسا على أساس أن قلب هذه الدويلات قد يكون دليلاً على خطورة أخرى لتفكيك الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الأمر كذلك بالفعل.

وتساءل العسكريون الإنجليز وقد أغضبهم اتساع الرقعة التي تسيطر عليها جيوش نابليون، ما إذا كانت الحرب أقل تكلفة من مثل هذا السلام. واعترض رجال الصناعة البريطانيون على سيطرة فرنسا على الراين[٧٧] مما يجعلها وسيطاً بين التجارة البريطانية ومعظم الأسواق الأوروبية المُربحة. واشتكى التجار من أنه بينما أنهى صلح إميان حصار بريطانيا للسواحل الفرنسية فإن الفرنسيين فرضوا حظراً على استيراد المنتجات البريطانية التي تنافس مثيلاتها الفرنسية.

وأدانت الارستقراطية البريطانية السلام باعتباره استسلاما مُخزياً للثورة الفرنسية. واتفقت كل الأحزاب البريطانية تقريباً على ضرورة التمسك بمالطة، وفي هذه الأثناء راحت

الصحف البريطانية تَسُبّ نابليون قصصاً ومقالات ورسوماً، فاشتكى نابليون للحكومة البريطانية التي أجابته بأن الصحافة فيها حرة. فأمر (أي نابليون) الصحف الفرنسية أن تكيل لبريطانيا من السلعة نفسها(٧٨).

وأصبحت العلاقة بين الحكومتين تقترب شيئاً فشيئا من الحرب، فقد أخبر السفير البريطاني اللورد هوتيورث Whitworth نابليون - بجفاءة أن بريطانيا لن تترك مالطة حتى تقدم الحكومة الفرنسية تفسيراً مُرضياً لحركاتها التوسعية منذ عقد صلح إميان. وفي ١٣ مارس سنة ١٨٠٣، واجه نابليون السفير البريطاني هوريتورث وسط جمع غفير من أصحاب المقام الرفيع من فرنسيين وأجانب كما لو كان في معركة مُتّهماً بريطانيا بانتهاك معاهدة السلام والاستعداد للحرب، وأصيب هوريتورث بالرعب لهذا الانتهاك الصارخ للأصول الدبلوماسية ففضّل التعامل مع تاليران الذي يعرف كيف يُلبس الحقائق لبوساً يجعلها تبدو ودية. وفي ٢٥ أبريل تلقى هويتورث تعليمات من حكومته بتوجيه إنذار مؤدّاه أنه لابد أن توافق فرنسا على احتفاظ انجلترا بجزيرة مالطة لمدة عشر سنوات على الأقل، ويجب أن تنسحب (أي فرنسا) من هولندا وسويسرا وإيطاليا ويجب أن تعوّض ملك سردينيا عن ضياع بيدمونت منه في الحرب التي جرت مؤخراً. وسخر نابليون من هذه المقترحات فطلب هويتورث جواز سفره فحصل عليه، وراح الطرفان يستعدان للحرب.

ولأن نابليون قد تحقّق من سيطرة إنجلترا على البحار وأنه يمكنها الاستيلاء على أية مستعمرة فرنسية فقد باع لويزيانا Louisiana للولايات المتحدة بمبلغ ثمانين بليون فرنك في ٣ مايو سنة ١٨٠٣ وزوّدت انجلترا قواتها البحرية بتعليمات - مع أنها رسمياً لازالت في سلام مع فرنسا - للاستيلاء أي سفينة فرنسية تلقاها. وتم إعلان الحرب رسمياً في ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ واستمرت اثنى عشر عاماً.

ومنذ هذه اللحظة المريرة انسحب نابليون كإداري من التاريخ، واسترد نابليون الجنرال ابن الرابعة والثلاثين روحه الحربي، فأمر بالقبض على كل البريتون Briton الذين لازالوا موجودين على الأرض الفرنسية. وأمر فجأة جنراله مورتييه Mortier بالاستيلاء على هانوفر Hanover قبل أن تتحول إلى قاعدة عسكرية على يد جورج الثالث الهانوفري

Hanoverian . وما أحنقه انه خلال عِقْد من الصراع مع انجلترا موّلت فيها جيوش أوروبا ضد فرنسا وحاصرت الموانئ الفرنسية واستولت على السفن الفرنسية، وظلت – مع ذلك – هي نفسها بمنأىً عن الهجوم. وقد آن الآن أوان ما يرفضه في اللحظات التي كان فيها أكثر هدوءاً باعتباره حلماً غير عملي، لقد قرّر أن يحاول عبور هذه القناة اللعينة ليذيق هؤلاء التجار ورجال المال ويلات الحرب على أرضهم، ويكْوى بها جلودهم.

لقد أمر جنرالاته بجمع ١٥٠,٠٠٠ رجل و ١٠,٠٠٠ حصان على طول الساحل عند بولوني Boulogne ودنكرك Dunkirk وأوستند Ostend، وأمر أدميرالاته بإعداد أسطول قوي في بريست Brest وركفورت Rochefort وطولون Toulon، وأن يُبحر بعد تجهيزه ويحارب ليشق طريقه بين شبكة السفن البريطانية المتناثرة إلى الموانئ حيث سيكون ملايين العمال مستعدين في انتظارهم حول بولوني Boulogne، وفي هذه الموانئ سيقوم الرجال ببناء مئات من سفن النقل مختلفة الأنواع. وراح نابليون نفسه يغادر باريس بشكل متكرر لتفقّد المعسكرات وأحواض السفن ليطمئن على تقدم مشروعه وليرفع من روح الجنود والبحارة والعمال.

وراحت السفن الحربية البريطانية تُحكم الرقابة في القناة وعلى طول الساحل الإنجليزي – في دوفر Dover وديل Deal وفي كل مكان – راح آلاف الوطنيين يُحكمون المراقبة ليل نهار مُصرِّين على المقاومة حتى الموت لمحق أية محاولة لغزو سواحلهم التي لا تُنتهك حرمتها.

٥– المؤامرة الكُبرى

في ليلة ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٣ أحضرت فرقاطة بريطانية يقودها القبطان ريت Wright عَبْر القنال الإنجليزي من إنجلترا ثمانية فرنسيين على رأسهم جورج كادودال Georges Cadoudal الثائر العنيد الذي يقود الثوار الملكيين الذين لم تُفلح الثورة الفرنسية في ترويضهم. لقد أنزلتهم الفرقاطة على منحدر صخري بالقرب من بيفيل Biville في نورماندي Normandy حيث سحبتهم عُصبة من الرجال كانوا على اتفاق سابق معهم – بالحبال. وفي العاشر من ديسمبر أحضر القبطان ريت Wright من إنجلترا إلى بيفيل مجموعة

ثانية من المتآمرين بمن فيهم النبيل الذي هاجر من فرنسا عقب أحداث الثورة أرمان دي بولينياك Armand de Polignac، وفي العبور الثالث في ١٦ يناير سنة ١٨٠٤ أحضر القبطان جول دي بولينياك Jules de Polignac والجنرالين الفرنسيين المهاجرين بيشجر Pichegru ولاجولي Lagolais، وكان بيشجرو قد تآمر - بعد أن أحرز انتصارات مع جيوش الثورة - مع البوربون لإعادتهم للعرش فلما افتُضح أمره ولّى مُدبراً إلى إنجلترا. وكان هذا في سنة ١٨٠١. واتخذت المجموعات الثلاث طريقها إلى باريس حيث اختبأوا في بيوت أنصار الملكية (بفتح الميم) واعترف كادودال Cadoudal في وقت لاحق أنَّه كان يخطط لاختطاف نابليون فإن قاوم قتله(٧٩). وربما جاز لنا تصديق أن «الحكومة البريطانية قد زوّدت كادودال بمبلغ مليون فرنك لتمكينه من تنظيم عصيان مسلح في العاصمة باريس»(٨٠) لكن ليس هناك دليل على أنَّ الحكومة البريطانية قد وافقت على الاغتيال.

وأخَّر المتآمرون تنفيذ الخطة متوقِّعين أن ينضم إليهم في باريس الكونت درتوا Conte d'Artois أخو لويس السادس عشر الأصغر(٨١) لأنه كان مستعداً لتولي أمر فرنسا بعد نابليون، لكنه لم يأت. وفي هذه الأثناء (٢٨ يناير سنة ١٨٠٤) زار بيشجرو الجنرال مورو Moreau وطلب منه التعاون مع المتآمرين. لكن مورو رفض أن يشترك في أية محاولة لإعادة البوربون وإنما عرض نفسه كحاكم لفرنسا إذا تمت إزاحة نابليون(٨٢). وفي حوالي هذا التاريخ قدَّم بيرنادوت Bernadotte لجوليت ريكامييه Juliette Récamier أسماء عشرين جنرالاً قال انهم مخلصون له ومستعدون بتوق شديد لإعادة «الجمهورية الحقيقية true Republic»(٨٣) وقد استدعى نابليون إلى ذاكرته عندما كان في سانت هيلانه هذه الأيام فقال: «لا أبالغ إن قلت انني خلال الشهور من سبتمبر سنة ١٨٠٣ إلى يناير سنة ١٨٠٤ كنت جالساً فوق بركان»(٨٤).

وفي ٢٦ يناير أدلى ثائر ملكي اسمه كوريل Querelle - كان قد قُبض عليه منذ ثلاثة أشهر وحُكم عليه بالاعدام - بتفاصيل عن المؤامرة مقابل تخفيف الحكم عليه. واسترشاداً باعترافه تمكَّنت شرطة كلود ريجنييه Claude Regnier بطيئة الحركة من العثور على مورو Moreau وألقت القبض عليه في ١٥ فبراير كما قبضت على بيشجرو في السادس والعشرين

من الشهر نفسه، وعلى الأخوين بولينياك Polignac في ٢٧ فبراير، وعلى كادودال في ٢٩ مارس. وقد اعترف كادودال بفخر أنَّه كان يُخطط لإزاحة نابليون من السلطة وأنه كان يتوقع أن يقابله أمير فرنسي في باريس، لكنه رفض أن يدلي باسم أيٍّ ممن شركائه في المؤامرة[٨٥].

وفي هذه الأثناء كان مفوَّض بريطاني يدير مجموعة أخرى من المتآمرين في ميونخ وبالقرب منها وقد وضع خطة لبث دعاية ضد نابليون في المناطق الفرنسية الجديدة على الشاطئ الغربي للراين. وإذا كان لنا أن نُصدِّق مينيفال Meneval « فقد صدر أمر مجلس الملك البريطاني بأن يُفرض على المنفيِّين الفرنسيين التعامل مالياً مع بنوك الراين ومن لم يمتثل صودر معاشه (راتبه)، ووُضِعت الإجراءات لتحديد المبالغ المخصصة لكل ضابط وكل جندي »[٨٦] وعندما علم نابليون عن طريق جواسيسه بهذه التطورات استنتج أن أمير أسرة البوربون الذي كان متآمرو لندن ينتظرونه إنما كان من بين هؤلاء المهاجرين. ولم يكن ممكناً أن يكون الكونت درتوا d'Artois بينهم وإنما كان في مدينة إتنهيم Ettenheim الصغيرة التي تقع على بعد حوالي ستة أميال شرق الراين في مقاطعة بادن Baden، واكتشف رجال نابليون أنه كان يعيش حياة هادئة إلاّ أنه كان يزور في المناسبات – لكن بطريقة تدعو للشك – لويس أنطوان هنري دي بوربون – كونديLouis - Antoine - Henri de Bourbon Condé ودوق دنجهين (وتكتب دنجيان) d'Enghein ابن دوق دي بوربون وحفيد الأمير دي كوندي de Condé وجميعهم في ستراسبورج[٨٧].

وعندما وصل هذا التقرير إلى نابليون خَلُص بأن هذا الدوق البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاما هو قائد مؤامرة إقصائه عن الحكم. فاعترافات كوريل Querelle وعمليات القبض التي جرت مؤخراً في باريس أوقعت الجنرال المتسم دوماً بالجسارة في حالة من الذهول حتى أنَّه – ربما نتيجة الخوف والحنق – تعجّل في قراراته التي دافع عنها دوماً[٨٨] وربما كان يأسف لها بينه وبين نفسه. لقد أصدر تعليماته للجنرال أوردنية Ordener بأن يتجه على رأس قوة مسلحة إلى إتنهايم Ettenheim ويقبض على الدوق ويحضره إلى باريس، وبالفعل تم القبض على الدوق في ليلة ١٤ مارس سنة ١٨٠٤ وفي ١٨ مارس أودع سجن حصن فينسين

Vincennes إلى الشرق من باريس بخمسة أميال.

وفي ٢٠ مارس أمر نابليون محكمة عسكرية من خمسة كولونيلات وماجور major بالتوجه إلى فينسين لمحاكمة الدوق بتهمة تقاضي أموال من إنجلترا للتآمر عسكرياً على وطنه. وفي الوقت نفسه تقريباً أرسل الجنرال سافاري Sarvary – رئيس شرطته الخاصة – لمراقبة السجن وإجراءات محاكمته. لقد اعترف إنجهين (دنجيان Enghien) بأن كان قد تلقى أموالاً من السلطات الإنجليزية وأنه كان يأمل في قيادة قوة عسكرية في الالزاس[٨٩]، وأعلنت المحكمة أنها وجدته مذنباً بتهمة الخيانة وحكمت عليه بالإعدام. فطلب الإذن برؤية نابليون فرفضت المحكمة طلبه لكنها اقترحت أن يرسل له رسالة يطلب فيها الرأفة، وتخطى سافاري Savary هذا الاقتراح وأمر بتنفيذ حكم الإعدام[٩٠].

وفي هذه الأثناء كان نابليون والمقربون منه في المقر الذي تقيم فيه جوزفين يناقشون مصير الدوق. لقد استنتجوا أنه سيكون مُدانا – لكن هل يمكن العَفْو عنه كإشارة سلام للملكيّين؟ أما تاليران – الذي أيّد في سنة ١٨١٤ عودة البوربون – فقد كان رأيه التعجيل بإعدامه كوسيلة سريعة لإنهاء آمال الملكيّين ومؤامراتهم، بعد أن تذكر أدواره (أي أدوار تاليران) في الثورة وخوفاً على ثروته وربما حياته إذا عاد البوربون للسلطة. لقد كتب بارّا Barras إن تاليران «كان راغباً في حفر نهر من الدم بين نابليون والبوربون»[٩١] أما كامباسير Cambacérès – أهدأ القناصلة الثلاثة وأكثرهم ميلاً للشرعية – فكان يفضل التريّث. أما جوزفين فقد خرّت عند قدمي نابليون مدافعة عن حياة إنجهين (انجيان)، وتضرّع إلى نابليون أيضاً للعفو عنه ابنة جوزفين (هورتنس Hortense) وأخت نابليون كارولين.

وأرسل نابليون ليلاً هوج مار Hugues Maret إلى باريس برسالة إلى بيير ريل Pierre Real عضو مجلس الدولة يأمره بالتوجه إلى فينسين ليستجوب الدوق شخصيا ويرسل النتيجة إليه، وتلقّى ريل الرسالة ولكنه خرَّ نائماً في غرفته بسبب الإنهاك في العمل طوال النهار ولم يصل إلى فينسين حتى الساعة الخامسة عصراً في ٢١ مارس، وكان حُكم الإعدام قد نُفِّذ في دنجهين (دنجيان) رمياً بالرصاص في ساحة السجن في الساعة الثالثة عصراً. وظن سافاري أنه قد خدم سيدة (نابليون) خدمة جليلة فاتجه إلى مقر نابليون عند جوزفين ليزف

إليه الأخبار فتراجع نابليون إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب ورفض توسلات زوجته لدخولها غرفته.

وانتقد المناصرون للملكية وأفراد الأسرة المالكة ما حدث انتقادا مريرا. لقد روّعتهم فكرة أن يَقْتلَ واحد من العامة فرداً من أفراد أسرة البوربون. وأرسل مجلس الوزراء في كل من روسيا والسويد احتجاجاً إلى ديت Diet الإمبراطورية الرومانية المقدسة في راتيسبون Ratisbon مع اقتراح بأن يكون غزو القوات الفرنسية لبادن Baden موضوعا لتحقيق دولي. ولم يُجب الديت Diet ورفض ناخب Elector بادن إدانة فرنسا. وزوّد القيصر الإكساندر (اسكندر) الأول سفيره بباريس بتعليمات لطلب تفسير لهذا الإعدام، فأجاب تاليران بحجة مفحمة: «لو كانت إنجلترا تدبّر لاغتيال بول الأول، وعُرِف أن مدبّري المؤامرة على مرمى حجر من الحدود، ألم يكن العمل يجري على قدم وساق للقبض عليهم بأقصى سرعة»؟(٩٢) أما وليم بت Bitt، فقد كان أكثر ما يكون ارتياحا عندما وصلته أخبار الإعدام إذ قال «لقد ألحق بونابرت من الأذى بنفسه أكثر مما ألحقناه به منذ إعلان الحرب الأخيرة»(٩٣).

أما رد الفعل في فرنسا نفسها فكان أكثر اعتدالا مما توقع كثيرون، فقد استقال شاتوبريان Chateaubriand من منصب قليل الشأن في وزارة الخارجية، لكن أصبحت الكرة في ملعب تاليران وزير الخارجية رابط الجأش في ٢٤ مارس (بعد إعدام إنجهين « دنجيان » بثلاثة أيام) حضر إليه عشرون من نبلاء فرنسا القدامى وممثلون من كل بلاطات أوروبا(٩٤). وبعد الحادث بثلاثة أشهر بدا أنه لم يعد محل اهتمام من الرأي العام الفرنسي، إلاّ أن فوشيه Fouché الذي كان يُراقب الأمور بذكاء علّق على الإعدام قائلا: «إنه ليس جريمة. إنه أكثر من جريمة. أنه خطأ فادح»(٩٥).

وربما شعر نابليون ببعض الندم لكنه لم يعترف بذلك أبداً، لقد قال: «هؤلاء الناس أرادوا أن يوقعوا الفوضى في فرنسا وأن يدمّروا الثورة بتدميري. لقد كان من واجبي أن أدافع عن الثورة وأن أثأر لها... لقد كان إنجهين (دنجيان Enghien) متآمراً كأي متآمر آخر وكان لابد من معاملته على هذا الأساس.. لقد كان علينا أن نختار بين اضطهاده اضطهادا دائما

وتوجيه ضربة قاضية. ولم يكن قراري موضع شك لقد أسكتُّ إلى الأبد أنصار الملكية واليعاقبة »[٩٦]. لقد أظهر لهم ألاّ أحد بقادر على بث الرعب في قلبه[٩٧] وأن دمه ليس رخيصاً (ليس مجرّد ماء خندق)[٩٨]. لقد ظن - وله بعض الحق - أنه بث الرعب بعقوبة الإعدام في قلوب أنصار الملكية المتآمرين الذين رأوا الآن رأى العين انه حتى لو كانت دماء البوربون تسري في عروقهم فإن ذلك لن يعصمهم من الإعدام. ومن الناحية الفعلية فقد كفَّت المؤامرات الملكية الهادفة لقتل نابليون.

وفيما يتعلق بالمتآمرين الذين سبق أن قُبض عليهم في باريس فقد التزم مزيداً من الحذر. فقد جرت المحاكمات علناً وسمح للصحف بالكتابة عنها بتفصيل. ورغم أن بورين Bourrienne كان معارضاً لإعدام إنجهين (دنجيان Enghien) إلاّ أن نابليون طلب منه حضور المحاكمات ليقدم له تقريراً عن سيْر الأمور فيها. ولم ينتظر بيشجرو Pichegru حتى يتم تقديمه للمحاكمة ففي الرابع من شهر أبريل عُثر عليه ميتاً في زنزانته خنقاً برباط عنقه (كرافتته) وفي حالات أخرى اعترف المذنب أو قدم البراهين الدالة على براءته أما بالنسبة لمورو Moreau فلم يكن هناك أدنى شك أنه معاد لنابليون بشكل واضح وأنه أخفى عن السلطات الفرنسية معلوماته التي مؤدّاها أن بيشجرو Pichegru وآخرين كانوا يُدبِّرون للإطاحة به (بنابليون) بالقوّة. وفي العاشر من يونيو سنة ١٨٠٤ أعلنت المحكمة الأحكام: تسعة عشر متآمراً حُكم عليهم بالموت، وحُكم على مورو بالسجن لمدة عامين. ولم يندم كادودال Cadoudal على تآمره وأُعدم في ٢٨ يونيو. ومن بين المتآمرين الباقين البالغ عددهم ثمانية عشر متآمراً عفا نابليون عن اثنى عشر منهم بمن فيهم الأخوان بوليناك Polignac. والتمس مورو Moreau نفيه بدلاً من سجنه ووافق نابليون على ذلك رغم أنه تنبأ بأن مورو سيواصل التآمر عليه[٩٩]. واستقل مورو سفينة إلى أميركا ومكث بها حتى سنة ١٨١٢ ثم عاد للخدمة في الجيش الروسي وحارب ضد نابليون في دريسدن Dresden (٢٩ أغسطس ١٨١٣) ومات متأثراً بجروحه في الثاني من سبتمبر ودُفن في روسيا.

٦- الطريق إلى الإمبراطورية ١٨٠٤:

وبينما نابليون يتأمل في أمر المؤامرة اعترته الدهشة لم يتحتم عليه أن يمارس عمله في ظل تهديد دائم باغتياله، بينما الحكام الذين تحالفوا ضده مراراً - جورج الثالث في إنجلترا وفرنسوا الثاني في النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة وفريدريك وليم الثالث في بروسيا واسكندر الأول في روسيا - يمكن للواحد منهم أن يُواصل حكمه حتى يوافيه الموت بشكل طبيعي، كما يمكن للواحد منهم أن يُعَوِّل على نقل سلطته إلى وريثه الطبيعي أو المُعيَّن. ووجد أن هذا لا يمكن أن يكون بسبب أخذهم بأساليب الحكم الديمقراطي سياسة وتعييناً. لقد ظهر له أن السر الكامن في استقرار أوضاعهم يكمن في « شرعيتهم » - أي رسوخ مبدأ الوراثة في الحكم في الرأي العام بسبب اعتيادهم عليه طوال أجيال وقرون.

لقد كان نابليون يحلم بينه وبين نفسه بالحكم المطلق الخالص بل وأن يكون مؤسس أسرة حاكمة تكتسب شرعيتها بمرور الزمن وتكتسب عبير العراقة. لقد شعر أن الأعمال التي يتطلع لإنجازها تتطلب استقراراً واستمرارية كالتي يتسم بهما الحكم المطلق. لقد وضع في اعتباره كيف أن قيصر أدخل القوانين الرومانية والحضارة الرومانية إلى بلاد الغال Gaul وأبعد الجرمان إلى ما وراء الراين واكتسب لقب إمبراطور والقائد العام - حسناً، ألم يفعل نابليون هذا؟ وفكر نابليون كيف أن أغسطس Augustus أنجز الكثير خلال فترة حكمه الإمبراطوري الذي دام واحداً وأربعين عاماً بعد أن أنهى الفوضى التي سببها العامة مُتلقياً دعم أعضاء السينات (مجلس الشيوخ) الذين كانوا على درجة كافية من الحكمة تجعلهم يتخلون عن المناقشات الطويلة واللّغو مُخْلين الطريق أمام العبقرية. وان نابليون ابن إيطاليا والذي يُكنّ إعجاباً بالرومان القدماء يتطلع إلى مثل هذا الاستمرار في الحكم الذي لا يُعكِّر صفوه شيء وإلى الحق في تعيين من يَخْلُفه على نحو ما كان يفعل أباطرة القرن الثاني.

وكان يفكر أيضاً في شرلمان وغالباً ما كان يتحدث عنه. شرلمان الذي استمر حكمه ستة وأربعين عاما (٧٦٨ - ٨١٤) ففرض النظام على بلاد الغال وجلب لها الرخاء ونشر قوانين الفرانكيين (الفرنج Franks) - كقوة متحضرة - في ألمانيا وإيطاليا، ونال مباركة البابا، ألم

يفعل نابليون كل ذلك؟ ألم يُعِد لفرنسا دينها الذي قمع الشعب الوثني(*) الذي أطلقته الثورة من عقاله؟ ألا يستحق - مثل شارلمان - التاج مدى الحياة؟

لم يكن أغسطس ولا شرلمان يؤمنان بالديمقراطية ولم يكونا لِيُخْضِعا أحكامهما المصقولة الحكيمة وسياساتهما بعيدة النظر وخططهما المستقبلية لنقد ممثلي الجماهير الساذجة المتسم بالميل للأسفاف ومناقشاتهم غير المجدية لكونهم عُرضة لقبول الرشاوى. لقد عرف قيصر وأغسطس الديمقراطية الرومانية في أيام شراء أصوات الناخبين مع أيام ميلو Milo وكلوديوس Clodius، وما كان لهما أن يحكما توصية من جماهير لا عقل لها. لقد شهد نابليون الديمقراطية الباريسية في سنة ١٧٩٢ وشعر أنه لا يستطيع أن يقرر (ويعمل) باسم الجماهير الملتهبة عواطفها. لقد آن الأوان لطي صفحة الثورة وتعزيز مكاسبها الأساسية وإنهاء الفوضى والقلق والحرب بين الطبقات.

والآن بعد أن طارد أنصار الملكية بأحكام الإعدام، أصبح مُستعداً لقبول دعواهم الرئيسية التي مؤدّاها أنّ فرنسا ليست مستعدّة - عاطفياً أو عقلياً - لحكم نفسها بنفسها (المقصود ليست مستعدة للحكم الديمقراطي) وأن شكلاً من أشكال الحكم الفاشستي أمرٌ لا مفر منه. وفي سنة ١٨٠٤ - وفقاً لما ذكرته مدام دي ريموزا Remusat «بدأ أشخاص مُعيَّنون مُرْتبطون على نحو ما بالأمور السياسية يؤكدون أن فرنسا تشعر بضرورة حق السلطة في الحكم المطلق. ورأى السياسيون من الحاشية والمؤيدون للثورة أن استتباب الهدوء في البلاد يعتمد على حياة فرد واحد وراحوا يناقشون عدم استقرار نظام القنصلية. لقد مالت آراء الجميع شيئاً فشيئاً إلى الملكية[١٠٠]. واتفق نابليون معهم، فقد ذكر لمدام ريموزا Remusat أن «الفرنسيين يحبون الملكية وكل زخارفها»[١٠١].

وعلى هذا، فإنه ليبدأ الطريق إليها، قدَّم للفرنسيين كل زخارف الملكية (بهارجها الخارجية) فأمر القناصل بارتداء زي رسمي وكذلك الوزراء وأفراد الحكومة الآخرون. وشاع استخدام المخمل في صنع هذه الملابس، وكان هذا في جانب منه لتشجيع صُنّاع المخمل في ليون. وجعل نابليون في خدمته الشخصية أربعة جنرالات وثمانية معاونين وأربعة مديرين

(*) المقصود: المعادي للكاثوليكية. (المترجم)

للشرطة واثنين من السكرتيرين. وشهدت المحكمة القنصلية بروتوكولات معقدة، وفُرِض فيها نمطُ سلوك خاص (اتيكيت) يضارع ما كان في العهد الملكي. وعُيّن الكونت أوغسط دي ريموزا Auguste de Remusat قيّما على المراسم، بينما أصبحت زوجته كلير Claire على رأس أربع سيّدات لمرافقة جوزفين. وأضاف الخدم ذوو الملابس المزركشة والمركبات المزدانة مزيداً من التعقيد للحياة الرسمية. وقد راعى نابليون كل هذه المراسم أمام الجماهير أما عندما يكون بعيداً عن عيون العامة فإنّه يجنح إلى بساطته التي اعتاد عليها. وعلى أية حال، فإنّه كان يبتسم ابتسامة الرضا والموافقة في مهرجانات البلاط وعندما يرى الملابس التنكرية في الكرنفالات وعند قيامه بزيارات رسمية للأوبرا حيث تعرض زوجته عباءاتها (الغالية) مذكّرة بأميرة أخرى مُسْرفة ماتت مؤخراً ميتة تثير الشفقة. لقد دلّلته باريس كما دلّل هو جوزفين، ومع ذلك فلم يكن نابليون هذا الحاكم الشاب لينخرط في الأناقة المتكلّفة والمظاهر الكاذبة فما كان لمن جمع بين إهابة روح أغسطس الإدارية وانتصارات قيصر ليفعل ذلك. لقد بدا من الطبيعي أن يصبح نابليون إمبراطوراً.

ومن الغريب أن نقول أن كثيراً من الجماعات سمعت – بلا امتعاض – الإشاعات التي مؤدّاها أنه على وشك أن يتوّج. لقد كان هناك حوالي ١,٢٠٠,٠٠٠ فرنسي قد اشتروا من الدولة ممتلكات صادرتها من الكنيسة أو من المهاجرين الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة. وهؤلاء كانوا يرون أنه لا ضمان لسندات ملكيتهم خير من منع عودة البوربون ورأوا في استمرار سلطة نابليون خير ضمان لمنع وقوع كارثة بسلبهم ما اشتروه. وكان الفلاحون يفكرون على النحو نفسه، أما البروليتاريا فكانت منقسمة إذ كانت لا تزال مغرمة بالثورة باعتبارها – إلى حد كبير – من عملها لكنها أيضاً كانت مرتاحة للتوظيف الثابت والأجور الطيبة اللذين أتاحهما الحكم القنصلي. بالاضافة الى أن أفرادها لم يكونوا بعيدين عن الإحساس بالعظمة أو مستثنين من الإحساس بفتنة الإمبراطورية وسحرها، وربما كانوا في هذا يفوقون كل أولئك الذين ناضلوا من أجل فرنسا. أما البورجوازية فكانت متشككة في الأباطرة إلاّ أن هذا الإمبراطور المرتقب (نابليون) كان هو رجلهم المخلص والنشط. وكان المحامون الذين نشأوا في أحضان القانون الروماني في غالبهم ميّالين إلى تحويل فرنسا

إمبراطورية لتواصل عمل أغسطس والأباطرة الفلاسفة من نيرفا Neva إلى ماركوس أوريليوس Aurelius، بل إن الملكيّين كانوا يرون أنه حتى لو لم يستطيعوا إعادة سلالة البوربون فإنها خطوة للأمام إن عادت الملكية لفرنسا. أما الإكليروس فإنهم رغم معرفتهم أن تقوى نابليون ما هي إلاّ غطاء سياسي فقد كانوا ممتنين لإعادة الكنيسة. وكادت كل الطبقات خارج باريس تؤمن بأن الحكومة الملكية المستقرة هي وحدها التي تستطيع ضبط النَّزَق الفردي والانقسام الطبقي الذي يُدَمْدم تحت قشرة الحضارة أو بتعبير آخر الكامن في الحضارة التي لا تشكل سوى قرشة خارجية.

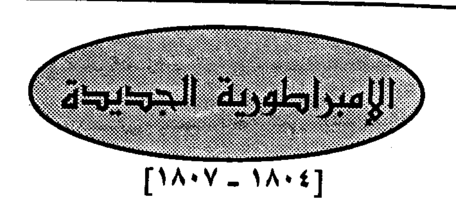
ومع هذا فقد كانت هناك أصواتٌ معارضة فباريس التي سبق أن قامت بالثورة وعانت من أجلها ما كان لها أن تتخلى عنها بكل دساتيرها التي تُتيح قدراً من الديمقراطية كَثُر هذا القدر أم قل - دون أسف عليها جهراً أم سراً. والزعماء اليعاقبة الذين كانوا لايزالون على قيد الحياة رأوا في التغيير المتوقَّع نهاية لدورهم في توجيه فرنسا، وربما نهاية لحياتهم. والذين كانوا قد صوَّتوا لإعدام لويس السادس عشر قد علموا الآن أن نابليون قد استثمر اشتراكهم في قتل الملك، وكان عليهم أن يعتمدوا على فوشيه Fouché ليحميهم لكن فوشيه كان يمكن أن يُطرد مرة أخرى. والجنرالات الذين كانوا يأملون في اقتسام فرنسا معه ومشاركته السلطة لعنوا الحركة التي كانت تُعد لإلباس الثياب الملكية الأورجوانية لهذا «التافه» القادم من كورسيكا[١٠٢]. أما الفلاسفة والعلماء في المعهد الفرنسي فحزنوا لأن واحداً من أعضاء معهدهم (نابليون) كان يخطط لإسقاط الديمقراطية في استفتاء إمبراطوري.

حتى بين أفراد الأسرة المالكة كانت هناك مشاعر متضاربة. فقد كانت جوزفين تُعارض بخوفٍ أيَّ اتجاه نحو الإمبراطورية فإذا أصبح نابليون إمبراطوراً صار أكثر توقاً لوريث، وبالتالي مال لتطليقها فهو لا يتوقع أن تنجب له ولياً للعهد، وإذا ما تم طلاقها فقدت في لحظات عالمها المتألق العامر بالملابس الغالية والمجوهرات. وكان اخوة نابليون وأخواته يحثونه منذ زمن طويل على طلاقها. لقد كانوا يكرهون هذه الكرول Creole العاهرة اللعوب كعقبة في سبيل أحلامهم لتحقيق السلطة. والآن فإنهم يؤيدون الاتجاه للإمبراطورية كخطوة

لإزاحة جوزفين، وقد صاغ جوزيف أخو نابليون القضية كالتالي: «مؤامرة كادودال ومورو حتمت إعلان مبدأ الوراثة كأساس للحكم. فقد تؤدي حركة مفاجئة إلى الإطاحة بنابليون كقنصل (أول) ومن ثم فإن مبدأ الوراثة يُعد بمثابة ترس حماية فإن قَتْله في هذه الحال لا يُحقِّق الغرض المطلوب وهو الإطاحة بنظام الحكم كله. والحقيقة أنَّ طبيعة الأشياء تجعلنا نميل إلى تحقيقٌ مبدأ الوراثة في الحكم. إنها مسألة ضرورة»(١٠٣).

وتحرك أعضاءُ مجلس الدولة ومجلس الشيوخ (السينات) والتريبيون (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) وغيرهم في الحكومة بكياسة لتحقيق رغبات نابليون لأسباب بسيطة فموافقتهم لن تؤدي إلاّ إلى التقليل من حريتهم في المناقشة، تلك الحرية التي كانت قد قُيِّدت بالفعل بالإضافة الى أن معارضتهم قد تُنهي أدوارهم السياسية، كما أن الموافقة في وقت باكر قد تُحقِّق لهم مكافآت سخية. وفي الثاني من شهر مايو سنة ١٨٠٤ أقرَّت الهيئات التشريعية ثلاثة اقتراحات «١- سيتم تعيين نابليون بونابرت إمبراطوراً للجمهورية الفرنسية، ٢- لقب إمبراطور والسلطات الإمبراطورية ستكون وراثية في أسرته.. ٣- الحرص على حماية مبادئ المساواة والحرية وحقوق الشعب ككل» وفي ١٨ مايو أعلن مجلس الشيوخ (السينات) نابليون إمبراطوراً. وفي ٢٢ مايو أقرت نتيجة الاستفتاء (من خلال الأصوات المسجلة والتي وقّع فيها كل منتخب على قراره) هذا الأمر الواقع بواقع ٣,٥٧٢,٣٢٩ موافقون و ٢,٥٦٩ معارضون، فقال جورج كادودال في سجنه بعد أن وصلته هذه الأخبار: «لقد أتينا هنا - أي إلى السجن - لنجعل لفرنسا ملكاً، أمّا الآن فقد جعلنا لها إمبراطوراً»(١٠٤).

الفصل الثامن



الإمبراطورية الجديدة

[١٨٠٤ - ١٨٠٧]

١- التتويج: ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤:

وراح نابليون يسير على دَرْب الأباطرة برضا حتى قبل الاستفتاء، إذ كان قد بدأ منذ مايو سنة ١٨٠٤ يوقِّع خطاباته ووثائقه باسمه الأول فقط، وسرعان ما أصبح يكتب الحرف الأول من اسمه ببساطة هكذا (ن N) فيما عدا الوثائق الرسمية ومنذ ظهر هذا الحرف الفخور (ن N) على النُّصب التذكارية والمباني والعربات، لم يعد نابليون يتحدث عن الفرنسيين « كمواطنين Citizens » وإنما راح يتحدث عنهم ولهم بقوله «رعاياي»[١] . وراح يتوقع من أفراد حاشيته مزيداً من الإذعان والاحترام، ومن وزرائه مزيداً من التبعية وسلاسة القِياد، وعلى أية حال فقد حَذَا حَذْو أساليب تاليران الارستقراطية بصمت صارم وقَبِل بشيء من الاستمتاع سخرية فوشيه غير الوقورة. وتقديراً منه لما قدّمه فوشيه من مساعدة في تعقّب المتآمرين، أعاده لمنصبه كوزير للداخلية في ١١ يوليو سنة ١٨٠٤ وعندما فكَّر نابليون في قمع حرية فوشيه في التفكير المستقل والكلام بتذكيره أنه صوَّت بالموافقة على قتل لويس السادس عشر، أجاب فوشيه: « هذا صحيح تماما. لقد كانت هذه أول خدمة أؤديها لجلالتكم »[٢].

بقي شيء واحد ينقص هذه « الجلالة »: إنها لم تحظ بالاعتراف ولا الإقرار الديني من أعلى ممثل لعقيدة الأمة الدينية، على النحو الذي حظيت به « التيجان » الأخرى. لقد كان هناك شيء لازال باقيا – على أية حال – من نظرية الحق الإلهي الوسيطة(*) للملوك: فبالنسبة لشعب تسود فيه العقيدة الكاثوليكية، فإن قيام البابا بتكريس الحاكم « ومسحه بالزيت » يعني أن هذا الحاكم قد أصبح – بالفعل – مختاراً من الرَّب لأن البابا بدوره يزعم

(*) أي العائدة للعصور الوسطى.

أنه لم يشغل منصبه (منصب البابوية) إلاّ من قِبَل الرَّب، ومعنى هذا أن الحاكم الذي يكرسه البابا بمسحه بالزيت إن تحدث فغالباً ما يكون حديثه باسم الرّب. أي فكرة تساعد على تسهيل مهمة الحاكم أكثر من هذه؟ ثم أليس هذا المسح بالزيت سيضع نابليون في مصاف الحكام الأوروبيين حتى ولو كان لهم جذور عميقة في السلطة تمتد من الماضي حقَباً؟ لهذا فقد أوكل إلى دبلوماسييه مهمة حث البابا بيوس السابع Pius VII للقيام بخطوة غير مسبوقة لباريس بتتويج ابن الثورة والتنوير باعتبار هذا نصراً للكنيسة الكاثوليكية على الثورة والتنوير. ثم ألَن يكون مفيداً لقداسته (قداسة البابا) أن يستحوذ على أفضل القادة الحربيين في أوروبا وأكثرهم ألمعية ليكون مدافعاً عن المؤمنين؟ وعارض بعض الكاردينالات هذا العرض باعتباره تدنيساً للمقدسات، لكن بعض الايطاليين الماكرين اعتقدوا أن هذا سيكون نصراً كاملاً ليس للدين فحسب وإنما لإيطاليا أيضاً « إننا بهذا سنضع أسرة حاكمة إيطالية على عرش فرنسا لتحكم البرابرة، إننا بهذا سننتقم لأنفسنا من الغال Gauls »[٣] وربما كان البابا أكثر عملية: إنه سيوافق على أمل إعادة أمّة تائبة مرة أخرى إلى طاعة البابا واستعادة المناطق التي كانت تابعة للبابوية والتي استولت عليها جيوش فرنسا.

وراح نابليون يستعد لهذا النصر المشترك كما لو كان يستعد لحرب كبرى، فكلّف من يقومون بدراسة مراسم الحكم القديم (الملكي) وتعديلها وإضفاء مزيد من التفاصيل والمبالغات عليها. وتم التخطيط للمواكب والمسيرات كما لو أن المخطط لها مدير فرقة راقصة وتم تحديد وقت كل تحرّك. وتم تصميم أزياء جديدة لسيدات الحاشية وتجمع أفضلُ المصممين للقبعات النسائية حول جوزفين وأمر نابليون بإحضار المجوهرات من الخزانة لها بالإضافة لما لديها من مجوهرات. ورغم اعتراض أمه وإخوته وأخواته قرَّر أن يتوّجها معه. وقام جاك – لويس ديفد (داود) Jacques- Louis David – الذي كان عليه أن يخلّد الحدث في أعظم لوحات ذلك الوقت – بتدريب جوزفين وحاشيتها على كل حركة وكل وضع. وتم الاغداق على الشعراء للاحتفاء بالحدث. وصدرت التعليمات لدار الأوبرا بإعداد رقصات الباليه التي تشرح صدر البابا. وجرت الترتيبات لحماية الشوارع الكبرى بالجنود،

وأن يكون الحرس القنصلي مصطفاً في صَحْن نوتردام كما لو كان في حفل زواج حقيقي بين القيصر والكنيسة(*) a veritable marriage of Caesar & Christ ودُعِيَ الأمراء وذوو المقام الرفيع من الدول الأخرى فلبوا الدعوة. ووصلت الجموع من المدينة والأحياء والمحافظات ومن الخارج وساوموا للحصول على أفضل الأماكن في الكاتدرائية أو في الطرقات، وراح أصحاب المحال يأملون في الحصول على ربح وفير، وقد كان. ورضي الناس عن الأعمال والمشاهد رضاءً مُفعماً بالسعادة ربما بطريقة لم تحدث منذ مهرجانات روما أيام الإمبراطورية.

واتخذ البابا بيوس السابع الدَّمث طريقه بتؤدة في الفترة من ٢ نوفمبر إلى ٢٥ من الشهر نفسه عَبْر مدن إيطاليا وفرنسا محاطاً بمراسم التشريفات وقابله نابليون في فونتينبلو Fontainebleau. ومنذ هذه اللحظة حتى التتويج قدَّم الإمبراطور (نابليون) للبابا كل مظاهر الود فيما عدا الإذعان، فلم يكن نابليون (الإمبراطور) ليتصرَّف على أساس أنه يخشى قوَّة أعلى متمثلة في البابا. ورحب أهل باريس - أكثر الناس تشككاً في الكاثوليكية على ظهر البسيطة في تلك الأيام - بالحَبْر (البابا) باعتباره يمثل مشهداً جديداً بالرؤية، وقادت ثُلَّة من الجنود والقسس هذا البابا في قصر التوليري حيث تمَّ إيصاله إلى مقرٍّ إقامته في جناح دي فلور Pavillon de Flore. ورحَّبت به جوزفين وانتهزت هذه الفرصة لتُخبره أنها لم تكن مُرتبطة بنابليون من خلال زواج ديني، فَوَعَدها بيوس Pius بعلاج هذا الخطأ قبل التتويج، وفي ليلتي ٢٨ و ٣٠ نوفمبر أعاد تزويجهما وأحست جوزفين أن عقبة مُباركة وُضعت لتمنع نابليون من تطليقها(٤).

وفي بواكير يوم بارد (الثاني من ديسمبر) غادر اثنا عشر موكبا من نقاط مُختلفة لتتجمَّع في نوتردام: مفوَّضون من مدن فرنسا ومن الجيش والبحرية والجمعيات التشريعية والهيئات القضائية والإدارات، وجوقة الشرف، والمعهد العلمي وغُرف التجارة.. فوجدوا

(*) فكرة الزواج هذه ليست مجرد تشبيه عادي، فلها دلالات عميقة في اللاهوت المسيحي (اللاهوت أقرب ما يكون إلى علم الكلام عند المسلمين، ويتناول موضوعات علم التوحيد نفسها مع اختلاف طبعاً فيما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى علواً كبيراً) فالعلاقة بين المسيح والكنيسة الكاثوليكية علاقة (زواج) وأحياناً يكون هو (المسيح) رأس الكنيسة.. إلى غير ذلك من الصياغات ذات الدلالة. (المترجم).

الكاتدرائية تكاد تكون مُمتلئة عن آخرها بالمدعوّين من المدنيين إلاّ أن الجنود تمكنوا من إفساح الطريق لهم للوصول إلى أماكنهم المخصّصة سلفاً. وفي التاسعة صباحاً تحرَّك موكب البابا من جناح دي فلور في قصر التوليري: البابا بيوس السابع وخَدَمُه والكاردينالات وكبار معاونيه، في عربات فخمة مُزدانة بزينات مُبهجه تجرّها خيول جرى اختيارها بعناية، جميلة ونشطة، وأمام الموكب أُسقف يمتطي بَغْلاً ويحمل الصليب البابوي ويرفعُه عاليا. وعند الكاتدرائية ترجَّل الجَمْعُ الجميع وساروا في صف وصعدوا الدرجات إلى صحن الكاتدرائية وتوجَّهوا بين صُفوف الجنود الشّداد إلى أماكنهم المحدّدة - البابا على عرشه إلى يسار مذبح الكاتدرائية. وفي هذه الأثناء ومن مكان آخر من قصر التوليري انطلق موكب المركبات الإمبراطوري: في البداية، مارشال مورا Murat محافظ باريس، والعاملون معه، ثم بعض الأفواج العسكرية المميزة، ثم مركبات تجرُّ كلّ واحدة منها ستة خيول، فيها: المسؤولون القياديون في الحكومة، ثم مركبة إخوة نابليون وأخواته ثم المركبة الإمبراطورية مزركشة بشعار النبالة الحرف N تجرها ثمانية خيول وتحمل الإمبراطور (نابليون) في حلة مخملية أرجوانية مطرزة بالجواهر والذهب، والإمبراطورة (جوزفين) في قمة تألّقها وجمالها (غير القائم على أساس متين) في فستان من حرير وهي تضوي بالجواهر، وقد أتقنت تجميل وجهها فبدت في الرابعة والعشرين بينما هي في الواحدة والأربعين[٥]، ثم عربات ثمان أخرى يحملن سيدات البلاط وموظفيه. واستغرق وصول هذه المركبات جميعاً للكاتدرائية ساعة. وهناك غَيَّر نابليون وجوزفين ملابسهما ولبسا ملابس التتويج واتخذا مكانهما على يمين المذبح، وجلس هو على عرش، وهي على عرش أصغر من عرشه وأدنى مكانة منه بثماني درجات Steps.

وصعد البابا إلى المذبح وركع نابليون وجوزفين على رُكبهم أمامه، فقام البابا بدهنهما بالزيت وباركهما. ونزل الإمبراطور والإمبراطورة الدرجات حيث الجنرال كلرمان Kellermann واقفاً حاملاً صينيّة عليها تاج، فتناوله نابليون ووضعه فوق رأسه، ثم ركعت جوزفين أمامه بتواضع وولاء فوضع تاجاً من ماس فوق شعرها المحلّى بالجواهر - برقّة واضحة[٦]. ولم يُثر كل هذا دهشة البابا لأنه كان مرتباً سلفاً، عندئذ قبَّل الحَبْرُ (البابا) نابليون فوق

خدّه(*) وأعلن الصيغة التقليدية التي تفيد أن الكنيسة قبلته إمبراطوراً « Vivat Imperator in aeternum»[٧] ورتّل البابا القدّاس، وأحضر مساعدوه الأناجيل إليه ووضع نابليون يده عليها وتلى القسم الذي لازال يؤكد أنه ابن الثورة: «إنني أقسم أن أحافظ على حدود الجمهورية كاملة وأن أحترم بنود الكونكوردات (الاتفاق البابوي) وأدعمه وأن أقر حرية العبادة وأن أحترم - وأدعم - مبدأ المساواة أمام القانون، والحرية السياسية والمدنية وألاّ أُلغي ما تم من مبيعات ممتلكات الدولة وألاّ أفرض التزامات أو ضرائب إلاّ وفقاً للقانون وأن أحافظ على وسام الشرف، وألاّ أحكم إلاّ وفقاً لما يحقق مصالح الشعب الفرنسي وسعادته وعظمته»[٨].

وانتهت المراسم في الساعة الثالثة، وعادت المواكب من حيث أتت وسط مظاهر الحفاوة والفرحة بينما الثلوج تتساقط وبقي البابا اللطيف في باريس أو بالقرب منها طوال أربعة شهور مفتوناً ببهاء باريس آملاً في مفاوضات مثمرة، وكان يظهر كثيراً في شرفته ليُبارك الجموع التي تركع احتراماً له. ووجد أن نابليون جامد الشعور رغم ما يُبديه من أدب، وتحمل (أي البابا) بصبر تصرّف مضيفه (نابليون) العَلْماني وعدم التزامه بالمسلك ذي الطابع الديني في تعامله معه (البابا). وفي ١٥ أبريل سنة ١٨٠٥ غادر إلى روما. وواصل نابليون مشروعاته الإمبراطورية واثقاً من أنه الآن أصبح حاكماً «مقدّساً holy» كأي حاكم (أوروبي) آخر وأصبح يمكنه أن يُواجه - وهو مطمئن - القوى التي ستتحد حالاً لتدميره.

٢- الائتلاف الثالث ضد فرنسا ١٨٠٥:

بحلول سنة ١٨٠٤ كانت كل الحكومات الأوروبية - باستثناء إنجلترا والسويد وروسيا - قد اعترفت بنابليون «كإمبراطور للفرنسيين» وخاطبه بعض الملوك بكلمة «أخي»[٩] وفي الثاني من شهر يناير سنة ١٨٠٥ عرض نابليون - مرة أخرى - السلام على جورج الثالث وخاطبه هذه المرة بعبارة (أخي):

(*) قال نابليون للاكاس Las Cases في سانت هيلانة في ١٥ أغسطس ١٨١٥ «وافق البابا قبل تتويجي بفترة ألاّ يضع التاج بيديه فوق رأسي. إنه أيضاً أعفى نفسه من إقامة طقس العشاء الرباني، وقال للأساقفة الذين أرادوا منه أن يصر على ذلك: إن نابليون قد لا يكون مؤمناً (بالكاثوليكية) لكنه سيستعيد إيمانه بلا شك في وقت من الأوقات».

« سيدي وأخي

أما وقد دعاني الله وأصوات مجلس الشيوخ والشعب والجيش لأتبوأ عرش فرنسا فقد تأكّد لي شعوري بالرغبة في السلام.

إن فرنسا وإنجلترا تُهدران ثرواتهما. ربما ناضلا طوال قرون، لكن هل أدّت حكوماتهما - بشكل صحيح - واجباتهما الأكثر قداسة لكفٍّ هذه الدماء الغزيرة التي أُريقت عبثاً بغير هدف محدد؟ إنني لا أجد حرجاً في أن آخذ بزمام المبادأة في هذا الأمر (طلب السلام) ولديَّ فيما أظن براهين كافية.. فأنا لا أخاف الحرب إذا حَلّت.. لكن السّلام هو رغبتي الكامنة في قلبي ولم تكن أبداً بعيدة عن شهرتي. إنني أُناشد جلالتكم ألاّ تحرموا أنفسكم من السعادة بإقرار السلام في العالم.. ولن تكون هناك فرصة أفضل لكبح الغضب والاستماع لصوت الإنسانية والعقل، فإذا ضاعت هذه الفرصة فأى أجل يمكن أن يُحدَّد لحرب قد لا أستطيع وقفها بكل مساعِيَّ؟..

ماذا تأمل أن تكسب من الحرب؟ تكوين ائتلاف من بعض القوى في القارة (الأوروبية)؟ انتزاع مستعمرات من فرنسا؟ إن المستعمرات هدف لفرنسا، لكنه هدف ثانوي ثم ألا تحتفظ جلالتكم بالفعل بمستعمرات أكثر مما تستطيع الاحتفاظ به؟

إنَّ العالم رحب واسع بدرجة تكفي لتعيش أمّتانا فيه. وقوة العقل كافية لتمكيننا من تجاوز كل الصّعاب إذا توفرت الإرادة من الجانبين. وعلى أية حال فقد قُمت بواجبي لما أعتقد فيه الصلاح وما هو قريب إلى قلبي. إنني واثق من أن جلالتكم ستُصَدِّقون إخلاص مشاعري التي عبّرتُ عنها وعن توقي الشديد لتقديم ما يُثبتها لكم.

نابليون[١٠]

ولا ندري ما هي التأكيدات الخاصة لنوايا السلام والتي ربما تم إرفاقها بهذا الاقتراح. وعلى أية حال فإن ذلك لم يُثْنِ انجلترا عن إقامة أمنها على مبدأ توازن القوى في القارة، والحفاظ على هذا المبدأ بتشجيع الضعيف ضد القوى. بل إن جورج الثالث لم يقبل مخاطبة نابليون له بكلمة «أخي» فلم يُرسل له رداً، لكن في ١٤ يناير سنة ١٨٠٥ أرسل وزير الخارجية اللورد ملجريف Mulgrave إلى تاليران خطابا ذكر له فيه بَشكْل ودي شروط

إنجلترا للسلام:

«ليس لدي صاحب الجلالة رغبة أعز من انتهاز أول فرصة تُتيح لرعاياه مزايا السلام الذي سيُقام على أُسس غير مزعزعة لأمنٍ دائم ولتحقيق المصالح لطبقات الأمة، إنّ جلالته مُقتنع أنه لا يمكن الوصول لهذه النتيجة إلاّ بترتيبات تؤدّي أيضاً إلى مستقبل آمن وهدوء واستقرار في أوروبا لمنع تجدّد الأخطار والكوارث التي أَقْلقت القارة.

وعلى هذا فصاحب الجلالة يرى أنه من غير الممكن أن يجيب بشكل حاسم على الأسئلة التي طُرحت عليه إلاّ بعد أن يتصل بالقوى الأوروبية المُتحالفة معه خاصة إمبراطور روسيا الذي قدَّم أقوى الأدلة على حكمته ومشاعره الطيبة واهتمامه العميق بأمن أوروبا واستقلالها»[١١].

وتولى وليم بت Pitt الأصغر رئاسة وزراء إنجلترا في الفترة من (مايو ١٨٠٤ إلى يناير ١٨٠٦) وكان يُمثل - كَمَعْقل مالي جديد لبريطانيا - طبقة أصحاب المصالح التجارية التي كادت تكون هي الرابح الوحيد من الحرب. وقد عانت الطبقة ذات المصالح التجارية خسائر حقيقية من سيطرة الفرنسيين على مصبّات الراين ومجراه لكنها استفادت من السيطرة البريطانية على البحار. ولم يخنق هذا غالب الجهد الحربي الفرنسي فحسب بل مكَّن بريطانيا من الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية والهولندية ساعة تشاء، وعلى السفن الفرنسية حيثما وُجدت. وفي الخامس من أكتوبر سنة ١٨٠٤ استولت السفن الإنجليزية على عدّة سفن اسبانية (شراعية حربية من نوع الغليون) متجهة إلى اسبانيا محملة بالفضة التي قد تمكنها من دفع كثير من ديونها لفرنسا. وفي ديسمبر سنة ١٨٠٤ أعلنت إنجلترا الحرب على اسبانيا ووضعت أسبانيا أسطولها تحت أمر فرنسا. وبصرف النظر عن هذا الاستثناء فإن البريطانيين استطاعوا بالتدريج عن طريق دبلوماسييهم البارعين وإعاناتهم المالية التي تقدم بحكمة - أن تكسب إلى جانبها القوى الأوروبية الأغنى بالرجال وإن كانت أقل حظاً في الذهب (المال).

ولم يستطع اسكندر الأول أن يحسم أمره: أيكونُ مصلحاً ليبرالياً وقائدا خيِّراً أم فاتحاً عسكرياً دعاه القدرُ للسيطرة على أوروبا؟. وعلى أية حال فإنه كان واضحاً في عدة نقاط:

لقد أراد أن يَمُدَّ حدوده الغربية بضم فاليشيا Wallachia ومُولدافيا Moldavia(*) التابعتين لتركيا. ورنا بالتالي – مثل كاترين المتوسّعة – إلى اجتياح تركيا (الدولة العثمانية) أن يستولى على البسفور والدردنيل جاعلاً قدماً في آسيا وأخرى في أوروبا، ليسيطر في الوقت المناسب على البحر المتوسط، وكان بالفعل قد استولى على الجزر الأيونية Ionias Isles. لكن نابليون كان قد استولى فجأة على هذه الجزر وهي الآن تابعة له. ولا زال – أي نابليون – يتوق شوقاً للاستيلاء على مصر وهو ظمآن للسيطرة على البحر المتوسط، بل كان قد تحدث بشأن ابتلاع تركيا ونصف الشرق Orient. هنا كان يوجد منافس نَهِم، ولابد أن يستسلم واحدٌ منهما (اسكندر الأول أو نابليون). لكل هذا ولأسباب أخرى لم يكن اسكندر الأول راغباً في أن يرى انجلترا تُقيم مع فرنسا سلاماً. ففي يناير سنة ١٨٠٥ وقع معاهدة تحالف مع السويد التي كانت بَدَوْرها متحالفة مع إنجلترا. وفي ١١ يوليو أكمل أمره بعقد تحالف مع إنجلترا التي تعهدت أن تدفع لروسيا إعانة مالية سنوية مقدارها ١,٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني لقاء كل ١٠٠,٠٠٠ مُقاتل يشتركون في المعارك ضد فرنسا[١٢].

وتفاوض فريدريك وليم الثالث البروسي مع نابليون طوال عام على أمل أن يُضيف إلى مملكته مقاطعة هانوفر Hanover التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها في سنة ١٨٠٣. وعرضها نابليون بشرط عقد تحالف تتعهد فيه بروسيا بدعم فرنسا في إقرار الوضع الجديد. ولم يستسغ فريدريك الفكرة خوفاً من الأسطول الحربي البريطاني الغاضب على طوال سواحله، وفي ٢٤ مايو سنة ١٨٠٤ وقَّعت بروسيا تحالفاً مع روسيا للقيام بعمل مشترك ضدَّ أي تقدم فرنسي إلى الشرق من وِزر Weser.

وترددت النمسا أيضاً. إنها إن انضمت للائتلاف الجديد فستكون أول من يُكوى بنيران الهجوم الفرنسي. لكن النمسا – وهي الأقرب إلى فرنسا من إنجلترا – كانت قد شعرت بالاندفاعات المتوالية للقوات الفرنسية المتوسّعة: توجيهها وإشرافها على الجمهورية الإيطالية في يناير سنة ١٨٠٢، وإلحاقها لبيدمونت في سبتمبر سنة ١٨٠٢، وإخضاع سويسرا كمحمية فرنسية في فبراير سنة ١٨٠٣، وادعاؤها (أي فرنسا) لقباً إمبراطورياً في مايو سنة

(*) هما الأفلاق والبغدان في المصطلح العثماني والكتب العربية التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية (المترجم).

١٨٠٣، واستمرت الاندفاعات الفرنسية: في ٢٦ مايو ١٨٠٥ تلقَّى نابليون في ميلان التاج الحديدي من لومباردیا وفي ٦ يونيو قبل طلب دوق جنوا بدمج الجمهورية الليجورية في فرنسا. وتساءل النمساويون متى سيتوقَّف شارلمان الجديد هذا؟ أليس هو بقادر بسهولة - إذا لم تتحد معظم أوروبا لإيقافه - على ابتلاع الولايات البابوية Papal States أولاً ثم مملكة نابلي؟ ما الذي يمنعه من الاستيلاء على فينيسيا (البندقية) وكل زمامها المغري الذي كان يُسهم بعوائد مالية في دخل النمسا؟ لقد كان هذا هو تفكير النمسا القلق عندما عرضت إنجلترا عليها مساعدات مالية ووعدتها روسيا بمئة ألف مقاتل شديد المراس في حالة هجوم فرنسا عليها. وفي ١٧ يونيو سنة ١٨٠٥ انضمت النمسا إلى كل من إنجلترا وروسيا والسويد وبروسيا، وبذا اكتمل الائتلاف الثالث ضد فرنسا.

٣- أوسترليتز: ٢ ديسمبر ١٨٠٥:

وفي مواجهة هذا التحالف الخماسي كانت فرنسا تتلقى دعما مترددا من هس Hesse وفيرتمبرج Wurtemberg وتعاوناً من أسطولي هولندا وأسبانيا. وسحب نابليون من مختلف أنحاء مملكته الأموال والمجنَّدين إلزامياً ونظَّم ثلاثة جيوش: (١) جيش الراين بقيادة دافو Davout ومورا Murat وصول Soult وني Ney، ليُواجه به القوة النمساوية الرئيسية بقيادة الجنرال ماك Mack. (٢) جيش إيطاليا بقيادة ماسينا Masséna لمواجهة الهجوم النمساوي الغربي الذي قوامه جيش على رأسه الأرشدوق كارل لودفيج Karl Ludwig. (٣) وجيش نابليون العظيم الذي تجمع حديثاً حول بولوني Boulogne ولكنه قادر على الانقضاض انقضاضاً مفاجئاً على النمسا. وكان أملُ نابليون يكمن في الاستيلاء - سريعاً - على فيينا ليُجبر النمسا على توقيع اتفاق سلام منفصل ويجمد - بذلك - تحالفاتها في القارة ويجعل - بذلك - إنجلترا مُحاصرة دون عَوْن.

وكان الإمبراطور الشاب يُكنّ كراهية شديدة لإنجلترا باعتبارها «لعنة» أصابت حياته والعقبة الرئيسية أمام تحقيق أحلامه. لقد كان يُسميها «إنجلترا الغادرة» وأعلن أن أموالها كانت هي السبب الأساسي لويلات فرنسا. لقد راح ليل نهار يُخطط - بالاضافة لمئات

المشروعات الأخرى - لبناء أسطول يُنهي سيادة بريطانيا على البحار. لقد أغدق الأموال وجلب العمال إلى مراكز صناعة السفن مثل طولون وبريست وأخضع للاختبار اثني عشر قائداً ليختار منهم أدميرالا (أمير بحر) يمكن أن يقود إلى النصر البحرية الفرنسية النامية. وظنَّ أنه عثر على بغيته في شخص لويس دي لا توش تريفيل - Louis de la Touche Tréville وبذل كل جهده ليبثَّ في روعه أنه يمكن غزو انجلترا واجتياحها «إذا استطعنا السيطرة على القنال (الفاصلة بين فرنسا وإنجلترا) لمدة ست ساعات، فساعتها سنكون سادة العالم»[١٣] لكن لاتوش تريفيل مات في سنة ١٨٠٤ فارتكب نابليون غلطة بأن جعل على رأس البحرية الفرنسية بيير دي فيلينيف Pierre de Villeneuve.

لقد كان فيلينيف قد أسهم في إخفاق الحملة الفرنسية على مصر، وصفحته الماضية تُشير إلى جُبنه وميله للعصيان، ولم يكن مؤمناً بإمكانية السيطرة على القنال الإنجليزي لستٍّ ساعات، وقد تلكأ في باريس حتى أمره نابليون بالتوجه لشغل منصبه في طولون. وكانت تعليمات (أي تعليمات نابليون) ماكرة ومعقدة: فليفقُد أسطوله في عرض البحر وليترك نلسون يتتبعه بالأسطول البريطاني الرئيسي ويغريه بتتبعه في الأطلنطي إلى جزر الهند الغربية، ثم يتملص منه بين هذه الجزر ويعود بأقصى سرعة إلى القنال الإنجليزي حيث تنضم إليه الأساطيل الفرنسية والهولندية والاسبانية في الالتحام بالسفن البريطانية فترة تكفي لعبور الجيش الفرنسي بقواربه التي تُعد بالآلاف إلى الأرض الإنجليزية قبل أن يتمكن نلسون من العودة من البحر الكاريبي. ونفذ فيلينيف Villeneuve الجزء الأول من مهمته بطريقة حسنة. لقد أغوى نلسون بتتبعه إلى أمريكا، وراغ منه وكرّ عائداً إلى أوروبا. لكنه عند وصوله إلى أسبانيا لم يجعل سفنه ورجاله في حالة استعداد لاجتياح السفن الإنجليزية التي تحرس القنال، وبدلا من ذلك بحث عن الحماية في مرفأ آمن وصديق في كاديز (قادش) Cadiz. وفُجع نابليون في خطته فأصدر أوامره إلى فيلينيف ليخرج باحثاً عن أسطول نلسون وأن يخاطر بكل شيء في تحد متهوّر للقضاء على السيادة البريطانية على البحار.

وفي قرار عصبي مفاجئ ابتعد الإمبراطور عن القنال الإنجليزي ودار بآلاف الرجال ليسير جنوباً وشرقاً إلى الراين وما وراءه. وراحت قلوب الفرنسيين جميعاً تخفق أملاً وقلقاً مع هذا

الجيش العظيم (وفقاً لتسمية نابليون) وراح الناس في كل مدينة يمر بها يدعون له بالنصر لتحقيق مشروعه. وفي كل كنيسة تقريباً راح رجال الدين يحثون شباب الأمة على الانضمام إليه ليخدموا تحت راياته وراحوا يتلون من فقرات الأناجيل ما يفسرونه على أساس أن نابليون قد أصبح الآن في رعاية الله وتحت توجيهه المباشر[١٤]. ما أسرع ما أتى الكونكوردات (الاتفاق البابوي) بالثمار! وتعاونوا مع نابليون لترتيب أمر تمويل هذه العشرين ألف مركبة على طول الطريق، وعمد نابليون إلى الإسراع وإراحة الجند أثناء مرورهم عبر فرنسا[١٥]. وركب هو نفسه مع جوزفين إلى ستراسبورج التي أصبحت الآن مفعمة عاطفة وتلهفا وحبا، فقد كانت ثروتها معلقة أيضاً بكل رمية نرد (زهر). ووعد نابليون أنه خلال أسابيع قليلة سيكون سيِّد فينا[١٦]. وفي ستراسبورج ترك جوزفين في رعاية ريموزا Remusat وأسرع إلى الجبهة.

وكانت استراتيجيته - كالعادة - هي أن يُقَسّم جيش عدوه ويغزوه: أن يمنع الجيش النمساوي من التوحّد (من أن يشكل كُتلة مقاتلة واحدة)، وأن يُدمّر أو يُجمِّد القوات النمساوية قبل وصول القطيع الروسي (الجنود الروس) الذي يتوقع النمساويون وصوله لتقديم المساعدة، ثم يجتاح الجيش الروسي القادم مُحققاً النصر عليه مما سيُجبر أعداءه الأوروبيين على توقيع سلام مؤقّت على الأقل. ورغم الأيام الكئيب نهارها الحالك سواد ليلها المعن مطرها الغزير طينها وجليدها - نفذ جيش الراين ما أوكل إليه في المعركة على نحو شامل وأرسل من التوضيحات ما يدل على أن نابليون مدين لمارشالاته دَيْنا كبيراً. وبعد أسبوع من المناورة وجد الخمسون ألف مقاتل التابعون للجنرال مارك أنفسهم في أولم Ulm محاصرون من ثلاث جهات بالمدفعية والفرسان والمشاة بقيادة دافو Davout وسول Soult وموار Murat وني Ney واستحال عليهم التراجع عبر الدانوب خلفهم، وكانوا جوعى ينقصهم الطعام كما كانوا يعانون عجزاً في الذخيرة، وهدد الجنود النمساويون بالتمرد إذا لم يُسمح لهم بالاستسلام، فاستسلم ماك Mack بالفعل أخيراً في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٥ فأسر الفرنسيون ثلاثين ألفاً من رجاله وأرسلوهم إلى فرنسا. لقد كان النصر الذي أحرزه الفرنسيون في هذه المعركة هو الأقل تكلفة والأكثر حسماً وأثراً في تاريخ الحرب. وانسل

الإمبراطور فرانسيس الثاني وبعض النمساويين ممن بقوا على قيد الحياة بعد معركة أولم Ulm إلى الشمال لينضمّوا للروس الذي اقترب ميعاد وصولهم، بينما دخل نابليون فيينا في ١٢ نوفمبر دون مقاومة وأيضاً دون تباه.

وسرعان ما تعكر مزاج الفرنسيين وفسُدت عليهم نكهة النصر بوصول أخبار مفادها أن فيلينيف - تنفيذاً للتعليمات - انطلق لمقابلة نلسون ليُصارعه حتى الموت، فقد كانت نهاية هذه المواجهة موتاً لكليهما، وانتصر نلسون في الطرف الأغرّ لكنه جُرح جرحاً مميتاً، أما فيلينيف فقد خسر وانتحر. ونحّى نابليون جانباً - وهو حزين مكتئب - أمله في التصدي للسيادة البريطانية على البحار ولم يعد أمامه إلا كسب أكبر عدد من المعارك على البر الأوروبي حتى يجبر القوى الأوروبية على السير في ركاب فرنسا بإغلاق أسواقها في وجه البضائع البريطانية حتى يجبر تجار إنجلترا حكومتهم على عقد معاهدة سلام مع فرنسا.

وترك نابليون الجنرال مورتييه Mortier وخمسة عشر ألف مقاتل للسيطرة على فيينا وانطلق في ١٧ نوفمبر لينضم إلى جنوده لإعدادهم لمواجهة جيشين روسيين يتجهان نحو الجنوب؛ جيش بقيادة كوتوزوف Kutuzov الصارم وجيش آخر على رأسه القيصر اسكندر نفسه. وتقابل الدب الروسي مع النسر الفرنسي في أوسترليتز (قرية في مورافيا Moravia) في الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٨٠٥. وقبل المعركة أصدر نابليون لفيالق جيشه البيان التالي:

« أيها الجنود

الجيش الروسي أمامكم ليثأر لهزيمة الجيش النمساوي في أولم Ulm... إن المواقع التي نشغلها هائلة بينما هم يسيرون ليكونوا عن يميني وبذا سيعرضون جناح جيشهم لي...

إنني شخصياً سأوجّه كتائبكم. إنني سأتجنب النيران إن أنتم - بشجاعتكم المعتادة - أحدثتم الفوضى والاضطراب في صفوف العدو. لكن إذا أصبح النصر في أي لحظة غير مؤكد فسترون إمبراطوركم أول من يعرّض نفسه للخطر لأن النصر لا يجب أن يكون موضع شك هذا اليوم بالذات فشرفُ الجيش الفرنسي الذي يعني - وبعمق - شرف الأمة الفرنسية كلها معلّق على هذه المعركة.. إنه ينبغي علينا أن نهزم هؤلاء الذين استأجرتهم إنجلترا التي تُكِن مثل هذه الكراهية المريرة لأمتنا..

إن هذا النصر سيضعُ نهاية للمعركة وسنكون بعد النصر قادرين على العودة إلى مقرّنا الشتوي حيث سننضم إلى الجيوش الجديدة التي يجري إعدادها في فرنسا وعندئذ سيكون السلام الذي سأعقده جديراً بشعبي وبكم وبي »[١٧].

وكان أول تكتيك هو استيلاؤه على تل يسمح لمدفعيته بإطلاق نيرانها على الجيش الروسي (المشاة) المتحرك إلى يمين قواته لكن هذا التل استولى عليه عدد من رجال كوتوزوف Kutuzov الأكثر شجاعة. لقد تركوا طريقاً للقوات الفرنسية وأعادوا تشكيل قواتهم وحاربوا مرة ثانية لكن قوات نابليون الاحتياطية اجتاحتهم. وسرعان ما أصبحت المدفعية الفرنسية تحصُد الروس وهم يتقدمون في السهل الأدنى من التل، فانكسر قلب جيشهم رُعباً وأمعن في الفرار وانقسم جيشهم إلى قسمين عمَّت الفوضى فيهما؛ واجه القسم الأول مشاةُ دافو Davout وسول Soult وواجهت القسم الثاني كتائبُ لان Lannes ومورا Murat وبيرنادوت Bernadotte، أما بالنسبة للقلب المُبعثر فقد أرسل إليه نابليون عساكره الاحتياطيين ليجتثوه اجتثاثاً. ومن بين المقاتلين الروس والنمساويين البالغ عددهم ٨٧,٠٠٠ استسلم ٢٠,٠٠٠ واستولى الفرنسيون على كل مدفعية العدو تقريباً، وبينما انطرح على أرض المعركة من جيش أعداء فرنسا ١٥,٠٠٠ قتيل. وهرب اسكندر وفرانسيس بمن تبقى إلى هنجاريا (المجر) بينما راح حليفهم الذي مُلِّئ رعباً فريدريك وليم الثالي يتوسّل السلام بذلّة.

وفي هذه المذبحة فقدت القوات الفرنسية البالغ عددها ٧٣,٠٠٠ وحلفاؤها ٨٠٠٠ ما بين قتيل وجريح. وهتف من بقي على الحياة من الجيش الفرنسي – وقد أنهكهم التعب، بعد أن تعبوا كثيراً من رؤية الموت – بحماسة وحشية بحياة نابليون. وفي بلاغ (نشرة توزع في الجيش) ٣ ديسمبر وعدهم نابليون انه سيتوقف عن الحرب بعد أن يتم انجاز كل ما هو ضروري لتأمين سعادة ورخاء بلدنا، ساعتها سأعودُ بكم إلى فرنسا. وهناك ستكونون موضع عنايتي وحُبي. وسيرحّب بكم شعبي بفرح وما على الواحد منكم إلا أن يقول: «لقد كنتُ في معركة أوسترليتز» ليهتف الناس «انظر إلى البطل»[١٨].

٤- صانع الخرائط ١٨٠٦-١٨٠٧:

عندما تلقى وليم بت Pitt أخبار أوسترليتز كان يقترب من الموت، ولما رأى خريطة أوروبا معلّقة على الحائط طلب إزاحتها من أمامه وقال « أطووا هذه الخريطة، فلن نحتاج إليها في هذه السنوات العشر »(١٩). ووافق نابليون وأعاد رسم الخريطة.

لقد بدأ نابليون في إعادة رسم بروسيا والنمسا. ونصحه تاليران الذي خلّفه نابليون على فيينا لصياغة الإرادة الإمبراطورية بلغة دبلوماسية - أن يفرض على النمسا شروطاً مُعتدلة مقابل عقد تحالف بينها وبين فرنسا على أساس أن هذا قد يَفُك الارتباط بين المساعدات المالية الإنجليزية والسياسات النمساوية وقد تحصل فرنسا من جرّاء ذلك على بعض الدعم في صراعها مع بروسيا وروسيا (حتى لو كان هذا الدعم لا يعدو مزايا جغرافية) لكن نابليون الذي كان يعتقد أن تحالف أعدائه يتسم بالهشاشة كان من رأيه إضعاف النمسا بحيث لا يمكنها تحدِّي فرنسا مرة أخرى، وأن يكسب بروسيا ويُبعدها عن روسيا بأن يعرض عليها سلاماً سهلاً. وفي هذه الأثناء سمح لاسكندر بأن يقود الروس الذين لازالوا على قيد الحياة عائداً إلى روسيا دون أن يتعقبه.

وبناء على معاهدة وقِّعت في حجرة ماريا تريزا في القصر الملكي النمساوي في شونبرن Schonbrunn في الخامس من ديسمبر سنة ١٨٠٥ طلب نابليون من بروسيا تسريح جيشها، والتنازل عن مرجريفية أنسباخ Ansbach (المرجريفية هي محافظة حدودية في المناطق الناطقة بالألمانية) لبافاريا Bavaria وأن تتنازل عن إمارة (مديرية أو محافظة) نيو شاتل Neuchatel لفرنسا وأن تقبل تحالفاً وثيقاً مع غازيها (نابليون). وتوقَّع فريدريك وليم الثالث أن يحصل في مقابل ذلك على ولاية هانوفر Hanover وكان نابليون سعيداً بوعده بتحقيق ذلك ليكون في ضمّها لبروسيا حائلاً يمنع أية مشاعر مُتعاطفة مع الإنجليز في بروسيا.

لقد كانت معاهدة بريسبرج Pressburg مع النمسا (والتي اكتملت - في غياب نابليون - في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥) معاهدة قاسية لم ترحم. لقد كانت النمسا قد بدأت فيما مضى الأعمال العدائية ضد بافاريا، وأصبح عليها الآن أن تتنازل لها (لبافاريا) ولبادن

Baden ولفيرتمبرج Wurttemberg عن كل أراضيها (أراضي النمسا) في التيرول Tirol وفورارلبرج Vorarlberg وجنوب ألمانيا، وبهذا اتسعت كل من بافاريا Bavaria وفيرتمبرج فصارتا مملكتين وأصبحت بادن دوقية كبيرة متحالفة مع فرنسا. ولتعويض فرنسا عن انفاقها الاموال في الحرب وعما فقدته من رجال ومعدات تعيَّن على النمسا أن تجعل كل ممتلكاتها في ايطاليا بما في ذلك البندقية وظهيرها تحت الحماية الفرنسية، ووافقت - أي النمسا - على أن تدفع لفرنسا تعويضا مقداره أربعون مليون فرنك، وبالسعادة نابليون عندما علم أن جزءاً من هذا المبلغ كان قد وصل حديثاً للنمسا من إنجلترا[٢٠] . وبالإضافة لهذا أمر نابليون خبراءه الاختصاصيين في الفنون أن يُرسلوا إلى باريس بعض اللوحات المختارة والتماثيل من القصور والمتاحف النمساوية. واعتبر نابليون كل ذلك - استيلاءه على الأراضي والأموال والأعمال الفنية - أسلاباً مشروعة، وفقاً لطريقته الرومانية. وأخيراً أمر بإقامة نُصُب النصر في ميدان فيندوم Vendome في باريس وأمر بتغطيته بمعادن مأخوذة من مدافع العدو التي استولى عليها في أوسترليتز.

ووقَّع تاليران هذه الاتفاقات ولكنه لم يكن مرتاحاً بسبب رفض اقتراحاته، فبدأ يستخدم نفوذه - ولم يكن دائماً خائناً لنابليون - للحد من المزيد من امتداد سلطان نابليون، وقد برَّر ذلك في وقت لاحق بأنه كان يخدم مصالح فرنسا بإساءته لمن يعمل في خدمته (نابليون).

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٥ غادر نابليون فيينا ليكون مع جوزفين في ميونخ، وهناك ساعدا في زواج يوجين Eugène (الذي كان قد تمَّ تعيينه نائباً ملكياً في إيطاليا) من الأميرة أوجستا Augusta الابنة الكبرى لملك بافاريا. وقبل الزفاف تبنى نابليون - رسمياً - يوجين ووعده بتاج إيطاليا كوريث له. لقد كان زواجاً سياسياً لتوثيق التحالف بين بافاريا وفرنسا، وقد أحبَّت أوجستا زوجها وساعدت في إنقاذه بعد سقوط أبيه الذي تبنّاه (نابليون).

وذهب الإمبراطور والإمبراطورة (نابليون وجوزفين) إلى باريس، فتلقَّته بالمهرجانات الرسمية والاحتفاء الشعبي حتى أنَّ مدام دي ريموزا Remusat تساءلت مندهشة « أيمكن لرأسٍ بشري ألاّ تديرها هذه المبالغة في المديح »[٢١] لكن الحقائق أيقظته من سكرته. لقد وجد أن الخزانة الفرنسية قد أصبحت - أثناء غيابه خارج فرنسا - على وشك الإفلاس

بسبب سوء الإدارة، وأتى التعويض الذي قدمته النمسا لإنقاذها. وكان عليه أن يُناضل محاولاً الحفاظ على حياته؛ ففي ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٦ تلقى معلومات من شارل جيمس فوكس Charles James Fox – رئيس وزراء إنجلترا في ذلك الوقت – تُحذره من أن قاتلا مُدّعيا عرض قتله (أي قتل نابليون) مقابل مبلغ معقول[٢٢]. وكان فوكس قد اعتقل هذا الشخص لكن ربما كان هناك أشخاص آخرون وطنيون مستعدين لقتل نابليون لقاء مبالغ مالية. لقد كانت إنجلترا وقتئذ في حرب مع فرنسا، وكان تصرف رئيس الوزراء البريطاني الآنف ذكره ينطوي على معانٍ خُلقية مسيحية مُضافاً إليها روح الفروسية. ووسط أجواء القتل الفردي والجماعي عادت فرنسا في أول يناير سنة ١٨٠٦ للتقويم المسيحي الجريجوري (التقويم الميلادي المعروف).

وفي الثاني من شهر مايو – بعد أربعة أشهر قضاها نابليون في إعادة الأمور الإدارية إلى سيرتها الأولى، قرأ أمام الهيئات التشريعية «تقريره عن أحوال الإمبراطورية في سنة ١٨٠٦» لقد سرد – مرة أخرى – باختصار انتصارات الجيش واكتساب الحلفاء والأراضي، ووصف انتعاش أحوال فرنسا في المجالين الزراعي و الصناعي، وأعلن عن «المعرض الصناعي» – وهو أمر جديد على نحو ما في تاريخ فرنسا – وأمر بافتتاحه في اللوفر Louvre في الخريف، وأشار التقرير إلى بناء – وإصلاح – الموانئ والترع والجسور و ٣٣,٥٠٠ ميل من الطرق – كان عدد من هذه الطرق عَبْر الألب، وتحدّث التقرير أيضاً عن مشروعات عظيمة يجرى العمل فيها – مَعْبد النصر (الآن: لا ماديلين La Madeleine) والبورصة وقوس النصر.. وانتهى التقرير بالتأكيد على أنَّ «فتوح مزيد من البلاد ليس هو ما يشغل بال الإمبراطور، فقد استنفذ أهدافه في المجد العسكري.. وإنما ما يشغله هو الوصول بالإدارة إلى درجة الكمال ليجعلها مصدراً لسعادة دائمة ورخاء مُتزايد لشعبه.. إنَّ ما يقصد إليه الآن هو تحقيق هذا المجد»[٢٣].

وواصل نابليون مهمته في صنع الخرائط، ففي ٢١ مايو سنة ١٨٠٦ قَبِلَ الإمبراطور – الذي بلغ النُّهى – إمبراطورية أخرى – كهدية – تتكوّن من ممالك، بافاريا وسكسونيا Saxony وفيرتمبرج Wurttemberg ووستفاليا Westphalia والدوقيات الكبيرة التالية: بادن

Baden، وبرج Berg وفرنكفورت، وهس - دارمستدات Hesse - Darmstadt وفيرتنسبورج وآرنبرج Arenberg ومكلنبورج - شفيرين Macklenbug - Schwerin ونساو Nassau وأولدنبرج Oldenburg وساكس - كوبورج Saxe - Coburg وساكس - جوثا Saxe - Gotha وساكس فيمار Saxe - Weimar وست إمارات صغيرة. لقد كانت المبادأة في هذا الاتحاد الوثيق بين الصديق والعدو على يد الأمير الأسقفي كارل تيودور فون دالبرج (وفقاً لما قال مينيفال Meneval)[٢٤] الذي كان فيما مضى رئيساً لأساقفة مينز Mainz. فبسبب توجيهاته طلبت هذه الكيانات (الدول) المختلفة من نابليون أن تكون تحت حمايته متعهّدة بتقديم فرق عسكرية لجيوشه (يبلغ عدد أفرادها ٦٣,٠٠٠ مقاتل) مُعلنة انفصالها عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة (التي كان شارلمان قد أسسها في سنة ٨٠٠ للميلاد)، وكونت كونفدرالية الراين. وربما كان هذا التوجّه الجديد للمناطق التيتونية Teutonic راجعاً لانتشار اللغة والأدب الفرنسيين فيها. فقد كاد مجتمع المثقفين والمفكرين يكون ذا طابع عالمي. ومن الطبيعي أن تعترض بروسيا على كل ما يجعل من فرنسا قوة هائلة، لكن النمسا التي أفقدتها الهزيمة كلَّ أمل قبلت هذا التغيير. ومنذ انسحاب ستة عشر أميرا بوحداتهم السياسية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى تقلّصت هذه الإمبراطورية الى مُزَق تافهة فتخلّى فرانسيس الثاني (في ٦ أغسطس سنة ١٨٠٦) عن لقبه وامتيازاته كرأس لما كان ذات يوم كياناً كبيراً أي الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي وصفها فولتير ذات يوم بأنها «ليست مقدسة، وليست رومانية وليست إمبراطورية» وأقنع نفسه بلقب فرانسيس الأول إمبراطور النمسا.

والآن فإن الإمبراطورية الفرنسية وفي ركابها مدوَّنةُ نابليون القانونية قد امتدت من ساحل الاطلنطي إلى نهر إلْب Elbe(*)، واشتملت هذه الإمبراطورية على فرنسا وبلجيكا وهولندا والدول الحدودية غرب الراين وجنيف، وكل إيطاليا تقريباً إلى الشمال من الولايات البابوية، إن الرجل الذي حَسَد شارلمان قد كرر - بشكل واضح - إنجاز شارلمان بتقديم

(*) الكلمة لا تعني جبال الألب كما ورد في بعض الترجمات العربية، ولا تعني أيضاً جزيرة البا، وقد أضفنا في النص كلمة نهر للتوضيح. (المترجم).

« القوانين للغرب » – المقصود غرب أوروبا . لكن من الاطلنطي إلى نهر إلب Elbe كان الناس يتساءلون : إلى متى تستمر هذه الأخُوّة بين التيوتون Teuton والغال Gaul؟

٥– جينا (يينا) وإيلاو وفريدلاند: ١٨٠٦ – ١٨٠٧:

في ١٥ أغسطس سنة ١٨٠٦ احتفلت فرنسا بيوم القديس(*) نابليون وبعيد ميلاده السابع والثلاثين. وكتبت مدام دي ريموزا Remusat (المنتقدة عادة) « أصبحت الدولة في حالة هدوء عميق، وقلّت المعارضة يوما فيوم، فقد نظّمت الإدارة الحازمة الرصينة المستقيمة طريقة ممارسة السلطة وأساليب دعمها . فتم دعم نظام التجنيد الإجباري بشدّة لكن الآن أصبحت ثرثرة الفرنسيين وشائعاتهم واهنة ضعيفة، فالفرنسيون لم يكونوا قد استنفذوا بعد مشاعر العظمة »(٢٥) والأهم من كل هذا أن فوكس رئيس وزراء إنجلترا والكونت بطرس أوبريل Peter Oubril قد فتحا باب المفاوضات من أجل السلام.

وعلى أية حال، فإن بروسيا كانت مترددة ترنو إلى الحرب، فاتحادها القسري مع فرنسا كان مكلِّفاً لها كما ثبت : فانجلترا والسويد كانتا قد أعلنتا الحرب عليها، والأسطول البريطاني حاصر سواحلها واستولى على سفنها في البحار، وكان اقتصادها يعاني، وكان شعبها في حالة دهشة لِمَ أقام ملكُهم هذا التحالف المدمّر؟ وأخبر رجل الدولة البروسي العجوز فريدريك وليم الثالث المتردد أن التحالف الدائم مع روسيا هو الطريق البديل الوحيد لمنع نابليون من ابتلاع بروسيا، ولم يقدم هذا السياسي العجوز اقتراحه إلا بعد أن لمس أن عظمة الجيش البروسي لاتزال قائمة بفعل الذكريات الداعية للفخر التي تتداعى للأذهان عن أيام فريدريك العظيم Frederick the Great، كما أنه وضع في اعتباره القوى البشرية الهائلة التي يجندها القيصر اسكندر استعدادا لجولة أخرى مع فرنسا . كما أن الأميرة لوسي (لويزا Louise) الجميلة المؤثرة التي كانت تحب زوجها الوسيم العطوف اسكندر، راحت تزدري خوف زوجها من حثالة الجحيم »(٢٦) (تقصد نابليون)، وحثها الفوج العسكري الذي

(*) الكلمة كما لا يخفى فيها من السخرية شيء، والمقصود أنه أصبح تابعاً – وللعجب! – للكنيسة الكاثوليكية (المترجم).

يحمل اسمها على ارتداء زي الكولونيل لأنها تبدو فيه جميلة، وركبت حصانها وسارت أمامهم في ساحة العرض العسكري. وراح الأمير لويس فرديناند ابن عم الملك يحث على الحرب باعتبارها طريقاً لمجد العرش البروسي.

وفي ٣٠ يونيو سنة ١٨٠٦ أرسل فريدرك وليم إلى اسكندر تأكيداً مفاده أن معاهدة بروسيا مع فرنسا لن تكون حائلاً في سبيل تنفيذ معاهدة بروسيا مع روسيا والتي سبق توقيعها في سنة ١٨٠٠. وفي شهر يوليو صدمه أن يعلم أن نابليون قد قبل تحت حمايته كونفدرالية الراين Confederation of Rhine، تلك الكونفدرالية التي شملت عدة مناطق كانت فيما قبل تابعة لبروسيا، والمفترض أنها لازالت داخلة في مجال نفوذها. وأكثر من هذا فإن السفير البروسي في فرنسا كتب لسيِّدة أن بونابرت اقترح بشكل سرّي عودة هانوفر Hanover لإنجلترا كجزء من ثمن السلام. وكان نابليون سبق أن وعد بضم هانوفر إلى بروسيا فشعر مِليكها (أي مليك بروسيا) بالاحباط وأنه قد غُرِّر به. وفي ٩ أغسطس أمر بتعبئة الجيش البروسي، وفي ٢٦ أغسطس أثار نابليون بروسيا أكثر من ذي قبل بأن أصدر أوامره - أو سمح - بإعدام بالم Palm وهو بائع كتب في نورمبرج Nuremberg لإصدارة كُتيباً يُحرّض على الثورة ضد فرنسا. وفي ٦ سبتمبر تعهد فريدريك وليم في خطاب أرسله إلى القيصربالانضمام إلى أي هجوم على «مُزعج العالم»(٢٧) وفي ١٣ سبتمبر مات فوكس الشجاع وقد ذكر نابليون عنه في وقت لاحق أنه «كان من بين فعاليات قَدَرِي فلو أنه عاش لأمكن إبرام السلام»(٢٨) وبعد موته عادت الوزارة البريطانية إلى سياسة النضال ضد نابليون حتى الموت وتخلى اسكندر عن الاتفاقية المؤقتة التي سبق أن وقعها أوبريل Oubril مع فرنسا. وفي ١٩ سبتمبر أرسلت بروسيا إلى فرنسا إنذاراً أنه إذا لم تتحرك القوات الفرنسية في غضون أسبوعين إلى غرب الراين فإن بروسيا ستعلن الحرب، وعرض جودوي Goday الوزير الماكر الذي كان يحكم أسبانيا في ذلك الوقت، صداقته على بروسيا، ودعا الاسبان لحمل السلاح ولم ينس له نابليون ذلك، وقرر أنه إذا ما أُتيحت الفرصة فسيقيم في أسبانيا حكومة تكون أكثر صداقة لفرنسا. وغادر نابليون باريس على مضض واتجه مع جوزفين وتاليران إلى مينز Mainz لمواجهة أخطار الحرب مرة أخرى.

ولابد أنه كان قد فقد شهيته لخوض معركة لأنه عندما كان يتعيّن عليه مفارقة جوزفين في مينز Mainz اعتراه انهيار عصبي، وربما كان قد أتى للتحقق أنه ليس هناك من أمر يستحق أن يخاطر من أجله بعرشه وحياته بخوض حرب، فلم يكن أي نصر ليحقق له سلاماً مقبولاً. وقد وصفت مدام دي ريموزا Remusat المشهد كما رواه لها زوجها:

«أرسل الإمبراطور زوجي ليدعو الإمبراطورة للاجتماع به فعاد بها إليه في غضون لحظات. لقد كانت تبكي، وحركت دموعها مشاعر الإمبراطور فضمَّها لفترة طويلة بين ذراعيه وكاد يبدو غير قادر على وداعها. لقد كان متأثراً بشدة وتأثرت مدام دي تاليران بدورها كثيرا، وقرّب نابليون بيده الممدودة مدام دي تاليران – وهو لايزال يضم إلى قلبه جوزفين، ثم ضمَّ المرأتين معاً في الوقت نفسه وقال لمدام دي ريموزا Remusat: يصعبُ على المرء كثيراً أن يفارق اثنين، يُكنِّ لهما أعمق الحب، وبينما كان ينطق بتلك الكلمات اعترته نوبةٌ من الهياج العصبي زادت حتى أنه بكى فاقداً السيطرة على نفسه وأعقب ذلك نوبة تشنّج ثم تقيَّأ. فتمَّ رفعُه وإجلاسه على الكرسي وشرب بعض ماء زهر البرتقال لكنه استمر يبكي بشكل متواصل زهاء ربع ساعة. وأخيراً سيطر على نفسه وقام فجأة فصافح مدام دي تاليران، واحتضن زوجته للمرة الأخيرة قبل الوداع، وقال للسيد دي ريموزا Remusat: «هل المركبات جاهزة؟ استدعِ الحاشية، ولننطلق»[٢٩].

لقد كان عليه أن يُسْرِع لأن استراتيجيته كانت تقوم على مواجهة بروسيا بأفضل قواته قبل أن يتمكن الروس من الوصول إلى الجبهة. ولم يكن البروس قد وحدوا قواتهم بعد: ففي المقدمة كان هناك ٥٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة الأمير فريدريك لودفيج الهوهنلوهي of Hohenlohe وفي الخلف – إلى الأبعد – كان هناك ٦٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة فريدريك وليم ودوق برونسڤيك Brunswick الذي كان قد أقسم منذ خمسة عشر عاماً أن يدمر باريس؛ بالإضافة إلى حوالي ٣٠,٠٠٠ من جنود هانوفر الذين أقبلوا دون رغبة شديدة لمساعدة مليكهم الجديد. وكان مجموع المقاتلين على الجبهة البروسية ١٤٠,٠٠٠ مقاتل بينما بلغ عدد جنود نابليون ١٣٠,٠٠٠ تم تجميعهم بسرعة لكنهم كانوا ماهرين في المناورة، وكانت الهزيمة غريبة عليهم، وكانوا واثقين في قادتهم: لين Lannes دافو Davout وأوجيرو

Augereau وسول Soult وموراً Murat ونيي Ney. واستولت قوات لين Lannes وأوجيرو على فرقة عسكرية بروسية في سالفيلد Saalfeld وهو سهل بين سال Saale وإلم Ulm رافدي نهري إلب the Elbe، وتعرض البروس لهزيمة أمام الفرنسيين لعدم دُربتهم على المناورات السريعة التي يجيدها الفرنسيون وفي هذه المعركة قُتل الأمير لويس فرديناند (١٠ أكتوبر ١٨٠٦).

واندفع الفرنسيون بستة وخمسين ألف مقاتل وانقضوا على جيش هوهنلوهي Hohenlohe بالقرب من يينا (جينا Jena) مقر الجامعة المشهورة التي كان شيلر Schiller قد درّس فيها مؤخرا، وحيث كان على هيجل Hegel – بعد ذلك بعام – أن يُربك العالم بفلسفة جديدة. ونشر نابليون قواته في شبكة معقدة لتمكين فرق لين Lannes وسول Soult من التعامل مع قلب جيش العدو وجناحه الأيسر، بينما هاجمت فرقة أوجيرو Augereau الميمنة واندفعت خيّالة مورا Murat بعنف بين صفوف البروس الذين اجتاحتهم الفوضى وافتقدوا كل تنظيم فولوا مدبرين تاركين ساحة المعركة. وأثناء هروبهم مرّوا بين كتائب دوق برونسفيك المنكسرة التي كانت قد لاقت الهزيمة في أورستدت Auerstedt على يد الجيش الفرنسي الذي كان يقوده باقتدار دافو Davout، وفي هذه المعركة جُرح دوق برونسفيك جرحاً مميتاً. وفي هذا اليوم (١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦) فقد البروس ٢٧,٠٠٠ بين قتيل وجريح و ١٨,٠٠٠ أسير كما فقدوا كل مدفعيتهم تقريبا. وفي هذا المساء أرسل نابليون تقريرا سريعاً إلى جوزفين: «لقد التقينا بالجيش البروسي ولم يعد له وجود. إنني على مايرام وأضمّك إلى قلبي»[٣٠]. وفي الأيام التاليات تعقب نيي Ney وسول وموراً الهاربين وأسروا منهم ٢٠,٠٠٠ وتوجهت قوات أوجيرو مباشرة إلى برلين فاستسلمت المدينة سريعاً وفي ٢٧ أكتوبر دخل نابليون العاصمة البروسية.

وكان من بين مهامه الأولى أن يجبي من البروس وحلفائهم ١٦٠ مليون فرنك ليدفع للجيش الفرنسي[٣١] وبالإضافة لهذا فقد كان على برلين أن تمد القوات الفرنسية المحتلة بالغذاء والملابس والدواء. وأصدر أمراً بإرسال الأعمال الفنية (أفضل الرسوم والتماثيل) من برلين وبوتسدام Potsdam إلى باريس، وحصل نابليون نفسه – بدوره – على سيف فريدريك العظيم.

وأصدر من برلين في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٦ قراره: من الآن فصاعداً لا يسمح لأي سفينة قادمة من بريطانيا العظمى، ومستعمراتها بدخول أي ميناء من موانئ الإمبراطورية الفرنسية التي تضم الآن المدن الهانزيتية Hanseatic towns، ولا يُسمح لأية بضائع من بريطانيا العظمى أو ممتلكاتها بدخول الأراضي التي تحكمها فرنسا أو المتحالفة مع فرنسا، ولا يُسمح لبريتوني Briton بدخول أراضي الإمبراطورية الفرنسية وأراضي المناطق المتحالفة معها. إن نابليون لمّا وجد كل انتصاراته الحربية غير مُجدية لحث إنجلترا على السلام، بالإضافة إلى علمه أنها (إنجلترا) ستفرض الحصار البحري على كل المناطق التي تحكمها فرنسا، كما سبق لها أن مدّت حصارها (في مايو سنة ١٨٠٦) على كل الساحل من بريست Brest إلى إلب[٣٢](*) Elbe - أراد أن يحوّل هذا السلاح نفسه (الحصار البحري) إلى صدر عدوه بمعنى أن يتم إبعاد بريطانيا عن القارة الأوروبية أو بتعبير آخر غلق القارة الأوروبية في وجه إنجلترا، تماماً كما أن الأسطول البريطاني كان منذ فترة يغلق أبواب التجارة البحرية في وجه فرنسا وحلفائها. وربما بهذه الطريقة - كما كان يأمل - يدفع تجار بريطانيا وصناعها للحركة مطالبين حكومتهم بالسلام.

وكانت هذه الخطة تنطوي على كثير من نقاط الضعف. فالصنّاع في القارة الأوروبية - بعد أن تخلّصوا من منافسة الصنّاع الإنجليز - رفعوا أسعار منتجاتهم، وحزن المستهلكون لافتقادهم المنتجات البريطانية التي اعتادوا عليها. وكثرت الرشاوى وعمليات تهريب البضائع (وقد جمع بورين Bourrienne بالفعل ثروة ببيع استثناءات من هذا الحصار، وكان نابليون قد عيّنه وزيرا في هامبورج Hamburg، فاضطر نابليون لطرده مرة أخرى). وكانت روسيا لاتزال متحالفة مع إنجلترا، وكان يمكن للبضائع البريطانية ان تجد طريقها إلى بروسيا والنمسا عبر الحدود الروسية. وكانت البضائع البريطانية تَصُبُّ يوميا في ميناء دانتسج Danzig الذي كان العساكر البروس لا يزالون يسيطرون عليه.

ورغم أن الجيش البروسي كان قد تحطّم وأصبح نابليون دكتاتوراً في برلين إلاّ أن موقفه العسكري سرعان ما أصبح مُزعزعا بشكل أكثر من موقفه الاقتصادي. وكانت معظم أراضي

(*) على بحر الشمال وليس المقصود جبال الالب في الشمال الإيطالي (المترجم)

بولندا واقعاً في أيدي الروس والبروس، وكان الوطنيون البولنديون قد أرسلوا يناشدون نابليون القدومَ لتحرير بلادهم التي كانت في وقت من الأوقات ذات سيادة - تحريرها من العبودية المخزية. وعلى أية حال، فقد كان هناك جيش روسي جيد التسليح مكون من ٨٠,٠٠٠ مقاتل يتمركز غرب فيستولا Vistula بقيادة كونت ليفين بنجسن Levin Bennigsen وكان يستعد لتحدي أي تدخل فرنسي في بولندا. وكان الجيش الفرنسي الذي لم يكن قد تخلّص تماما من آثار معركة يينا (جينا Jena) غير شغوف بخوض غمار معركة من أجل بولندا لأن رجاله لم يكونوا معتادين على البرودة الكئيبة في منطقة البلطيق فقد كانوا يرتجفون لاقتراب الشتاء ويتوقون العودة إلى بلادهم. وفي هذه الأثناء قَدِم من باريس إلى برلين وفد مفوّض هدفه الظاهري هو تهنئة نابليون لانتصاراته الباهرة، لكن الحقيقة أنه أتى ليتوسّل إليه ليعقد سلاماً ويعود لفرنسا التي بدأت ترى في كل انتصار نابليوني ما يحتم مزيداً من الحروب الكثيرة التي قد يكون في أحدها مخاطرة بكل ما تمَّ تحقيقه من انتصارات، فأخبر الوفد أنه لا يستطيع أن يتوقف الآن، فلابد من مواجهة التحدي الروسي، وأن حصار إنجلترا (المقصود هنا حصار فرنسا لإنجلترا) سيفشل إذا لم تنضم روسيا للخطة الفرنسية مُجبرةً أو مُداهنة. وأمر نابليون جيشه بالتقدم في المناطق البولندية التي تسيطر عليها بروسيا ولم يلق في تقدمه مقاومة عاجلة، وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٨٠٦ دخل نابليون وارسو Warsaw (فرسِافا) دون عائق وسط مظاهر الترحيب.

كل الطبقات في بولندا من النبلاء الذين كانوا لا يزالوان توّاقين للتحرّر، إلى الفلاحين الذين كانوا لايزالون يعانون من مآسي عبودية الأرض (القِنانة).. كلهم اتفقوا في النظر إلى نابليون كأعجوبة سيُبطل تقسيم دولتهم إلى ثلاثة أقسام قسم لروسيا وآخر لبروسيا وثالث للنمسا، وسيجعل بولندا مرة أخرى دولة ذات سيادة، ورد نابليون استحسان البولنديين له بالثناء على الأمة البولندية وامتدحها وبالثناء على أبطالهم ونسائهم (اللائي كن يتحدث الفرنسية بلكنة جذَّابة فيها صفير) وقد انتقى نابليون منهن واحدة هي الكونتيسة ماري لاكزينسكا فالفسكا Marie Laczynska Walewska ودعاها لسريره وقلبه. وكانت مُناشدته إيّاها - قبل أن يذوق عَسيلتها وبعد أن ذاقها - مُفعمة بالعاطفة ومتسمة

بالتواضع(*) تماماً كما كان واضحاً في خطاباته الأولى إلى جوزفين. لقد رفضته فالفسكا Walewska (كما قيل لنا) حتى طلبت منها مجموعة من النبلاء البولنديين «في وثيقة وقَّعوها جميعاً بأسمائهم الأولى في بولندا» أن تضحّي بنفسها على أمل أن يقوم نابليون من أجل خاطرها بتوحيد بولندا وإعادة سيادتها (تخليصها من التقسيم بين ثلاث دول) وذكّرتها هذه الوثيقة بأن أستير Esther قد أعطت نفسها لأحشويروش(**) Ahasuerus لا حباً فيه وإنما لتنقذ شعبها «وإن كان لنا أن نقول الأمر نفسه، فإنما أنت تفعلين ذلك لتحققي المجد لنفسك والسعادة لنا!»[٣٣] وعندما توسّلت جوزفين أن يُسمح لها بالقدم إليه من مينز Mainz منعها نابليون بحجة ان الطرق سيئة (غير ممهدة) قائلاً لها «عودي إلى باريس.. وكوني مُبتهجة وسعيدة، وربما سألحق بك حالاً هناك»[٣٤].

وبينما كان كامنا مع فالفسكا Walewska طوال الشتاء راح يأمُل أن ينتظر الروس حتى حلول الربيع ولا يسببون له إزعاجاً قبل ذلك. لكنه عندما أرسل قوات بقيادة المارشال فرانسوا - جوزيف ليفيبفر Lefebvre للاستيلاء على دانتسج Danzig، قاد بنيجسن Bennigsen كل قواته تقريباً، والبالغ عددها ٨٠,٠٠٠ مقاتل عبر الفيستولا Vistula في هجوم كاسح على قوات ليفيبفر عند اقترابهم من ثورن Thorn، وعاد المراسلون تواً لإحاطة نابليون علماً بما جرى فأسرع (نابليون) شمالاً على رأس ٦٥,٠٠٠ مقاتل في ٨ فبراير سنة ١٨٠٧ وحارب عند إيلان Eylan (جنوب كونيجسبرج Konigsberg) معركة من أكثر معاركه قسوةً إذ كلّفته أكثر بكثير مما كان يتكلفه في المعارك السابقة إذ كانت المدفعية الروسية متفوقة على المدفعية الفرنسية، وكان أوجيرو Augereau قد كَبر في السن وأصبحَ يُصاب بالدوار فطلب من قائده (نابليون) اعفاءه بحجة أنه لم يعد قادراً على التفكير بصفاء ذهن، واجتاحت خَيَّالةُ موراً Murat صفوف الأعداء، لكنهم استطاعوا الاحتفاظ بتشكيلاتهم وصمدوا حتى المساء. ثم أمر بينجسن Bennigsen قوّاته بالتراجع تاركاً في

(*) المقصود هنا التذلّل الشديد.

(**) حققنا الاسم من سفر أستير الملحق بالتوراة، والتوراةُ وملحقاتها يسميها المسيحيون العهد القديم. راجع مقدمة الترجمة العربية. (المترجم).

ساحة المعركة ٣٠,٠٠٠ بين قتيل وجريح، إلاّ أنه – على أية حال – كتب إلى القيصر أنه حقق نصراً مجيداً، واحتفى به القيصر بإقامة قدّاس تسبيحة الشكر Te Deum Mass في سان بطرسبرج[٣٥] St. Petersburg.

لقد انتصر الفرنسيون في هذه المعركة لقاء ١٠,٠٠٠ ما بين قتيل وجريح، وراح من بقي على قيد الحياة يُبدون عدم رضاهم فكيف سيستطيعون مقاومة هجوم آخر يقوم به هؤلاء السلاف Slaves الشّداد كثيرو العدد. وأيضاً أصبح نابليون الآن مكتئباً اكتئاباً غير عادي، فآلام المعدة اشتدت عليه، تلك الآلام التي قضت عليه فيما بعد. ولم ينس أبداً ما أولته ماري فالفسكا من رعاية مُخلصة أثناء هذا الشتاء القاسي في معسكر الجيش في فينكنشتين Finkenstein. ومع هذه الآلام فقد كان يواصل العمل يومياً آمراً بالطعام واللباس والدواء لجنوده، مُشرفاً على الأمور العسكرية، مُجتمعاً بالمجنّدين إلزامياً من شعبه المرهق وحلفائه الكارهين، مُصدراً المراسيم والأوامر للحكومة الفرنسية. وفي الوقت نفسه اجتمع القيصر اسكندر الأول والملك فريدريك وليم الثالث في بارتنشتين Bartenstein في ٢٦ أبريل سنة ١٨٠٧ ووقعوا اتفاقية لتقسيم أوروبا غير الفرنسية (المناطق الأوروبية التي لم تستولِ عليها فرنسا) بينهما بعد المعركة القادمة مع نابليون والتي توقعا أن يحطما فيها الجيش الفرنسي.

وعندما تم تدعيم هذا الجيش الفرنسي المتعدد الجوانب وانتعش الجنود بحلول الربيع أرسل نابليون قوّة للاستيلاء على دانتسيج Danzig فتم الاستيلاء عليها فعلاً. وتلقى بينجسن Bennigsen – الذي كان بدوره يعيد بناء كتائبه – أوامر من اسكندر بالتوجه إلى كونيسجبرج Konigsberg حيث سيتقوّى بأربعة وعشرين ألف مقاتل بروسي شديد البأس. وانطلق بينجيسن لكنه أثناء الطريق سمح لقواته البالغ عددها ٤٦,٠٠٠ بأخذ قسط من الراحة في فريد لاند Friedland. وهناك في الساعة الثالثة من صباح ١٤ يونيو سنة ١٨٠٧ (الذكرى السنوية لمارينجو Marengo) استيقظوا على وابل من النيران صبّه فوق رؤوسهم ١٢,٠٠٠ فرنسي يقودهم لان Lannes القائد المتهور لكنه مستعصٍ على الهزيمة. ورد الروس على نيرانه فوراً، وكان من الممكن أن تنتهي مغامرته بكارثة لو لم يأته الدعم. اندفع نابليون بكل قواته وحاصر الروس من كل جانب خلا من ناحية نهر آل Alle لأن النهر سيعوق

تراجعهم، وفي الخامسة عصراً ساد الفرنسيون وولّى الروس الأدبار فاستقل بعضهم قوارب لعبور النهر، وألقى بعضهم الآخر بأنفسهم في النهر يأسا وخلّفوا في ميدان المعركة ٢٥,٠٠٠ قتيل وجريح. وفقد الفرنسيون في هذه المعركة ٨,٠٠٠ لكنهم أحرزوا نصراً حاسماً على الجيش الروسي المتبقي لمواجهة غزو خارجي. وهرب الروس والبروس إلى تيلست Tilsit وفقدوا المئات أثناء الهروب بسبب تقعب الفرنسيين لهم حتى أن جنرالاتهم سألوا اسكندر ان يطلب الهدنة ووافق نابليون وترك جنراله سافاري Savary ليحكم كونجسبرج konigsberg ويدبّر أمورها، وتوجه هو نفسه إلى تيليست ليعقد سلاما مع ملكٍ منكسر، وقيصرٍ مقصوص الجناح.

٦- تيلست: ٢٥ - يونيو - ٩ يوليو ١٨٠٧:

وفي تيلست الواقعة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من كونيجسبرج Konigsberg تواجه الجيشان المتنافسان تواجهاً سلمياً جيش على شاطئ نهر نيمن Niemen والآخر على الشاطئ المقابل، وزاد بينهما التفاهم وروح الصداقة»[٣٦] وعلى أية حال فإن الأباطرة المتنافسين - بناء على اقتراح اسكندر - التقوا باحتراس - في خيمة أُقيمت على طوّافة جرى تثبيتها في وسط مجرى النهر. وكان على كل حاكم منهم أن يستقل قارباً ليصل إلى الطوافة، فوصل نابليون إلى الطوافة أولاً (كما كان يتوقع كل جندي فرنسي) واستغرق وقتاً في تفقد الخيمة ورحّب باسكندر على الجانب الآخر، وتعانقا وواجها جيشيهما الذي راح أفراده يهتفون بحيوية وابتهاج. «لقد كان مشهداً جميلاً» على حد تعبير مينيفال Meneval الذي كان شاهد عيان.

لقد كان لدى كل واحد من هؤلاء الحكام أسبابه ليكون ودوداً: فجيش نابليون لم يكن في حالة تسمح له بغزو أراضٍ مجهولة لا حد لشساعتها وكثرة رجالها (لم يكن جيش نابليون عُدّةً وعدداً مستعداً لمثل هذا الغزو ولم تكن مؤخرته محمية وكان الدعم المتوقع وصوله من فرنسا - التي تصرخ طالبة السلام - غير مضمون الوصول)، أما اسكندر فكان سعيداً لحصوله على فترة لالتقاط الأنفاس قبل أن يأخذ على عاتقه هزيمة رجل لم تعرف

الهزيمة إليه سبيلاً (فيما عدا هزيمته في عكا Acre)، وكان اسكندر مشمئزا من ضعف حلفائه وهشاشة جنودهم، وكان يخشى قيام عصيان مسلح في الدوائر التابعة له في بولندا أو ليتوانيا، كما كان مشوّشاً بسبب علاقته السيئة بتركيا (الدولة العثمانية) وحالة جنوده.

وإلى جانب هذا فلم يكن نابليون هذا الرجل الفرنسي الذي كان يتعامل مع خريطة أوروبا وكأنها رقعة شطرنج، لم يكن «غولاً» و «بربرياً» كما وصفته القيصرة والكونيجن Konigen وإنما كان رفيقاً لطيفاً جذّابا، كَرَمُه كامل، وإن كان غير مفرط. وبعد هذا اللقاء الأول كان اسكندر قد وافق بالفعل على أن يكون مؤتمرهم القادم في مدينة تيلست في مقر ملائم يدبره نابليون بالقرب من مقرّه (مقر نابليون). وكانوا غالباً ما يتناولون غداءهم على مائدته وأحياناً مع ملك بروسيا وفي وقت لاحق مع مليكتها. ولفترة جعل القيصر من نفسه تلميذاً فسأل الكورسيكي (نابليون) أن يعلمه شيئاً من فن الحكم واتفق معه على أن لويس الثامن عشر (الذي كان يعيش وقتئذ في كورلاند Courland) تنقصه كل المواصفات اللازمة للحاكم وأنه «أكثر من أي شخص آخر في أوروبا تفاهة وشرعية»[٣٧].

وعمد كل إمبراطور منهما إلى ابهاج الآخر ومداهنته. وبعد مفاوضات ودية بشكل واضح لم يوقّعا معاهدة فحسب وإنما تحالفاً. وأصبح لروسيا أن تحتفظ بممتلكاتها كما هي لم يُنقص نابليون منها شيئاً لكن كان عليها أن تُنهي تعاونها مع إنجلترا وأن تنضم إلى فرنسا للحفاظ على السلام في أوروبا. وبناءً على اتفاق سرّي أصبحت روسيا حرّة في ضم فنلندا والاستيلاء عليها من السويد (التي كانت معادية لفرنسا منذ سنة ١٧٩٢) كما أصبح من حق فرنسا أن تغزو البرتغال التي كانت قاعدة أمامية لإنجلترا في الحرب. وتعهد اسكندر بالتوسط لإقامة سلام مُرضٍ بين إنجلترا وفرنسا وإن فشل في تحقيق ذلك أن ينضم إلى فرنسا في مواجهة إنجلترا حصاراً وحرباً. وقد أبهج هذا التعهد نابليون لأنه قدَّر أن التعاون مع روسيا في حصار إنجلترا أهم بكثير من استحواذه على مزيد من الأراضي.

ولأن نابليون لم يكن مستعداً للتضحية بهذه الاتفاقات ولم يكن مستعداً لخوض حرب حتى النهاية ضد روسيا وبروسيا والنمسا - فقد نحَّى جانباً فكرة إعادة بولندا لوضعها السابق قبل تقسيمها بين هذه الدول الثلاث، باعتبار أنها فكرة غير عملية، وإنما اقنع نفسه

بتأسيس دوقية وارسو (فرشافا) تحت الحماية الفرنسية مقتطعاً إياها من المناطق البولندية التي تحتلها بروسيا. ولهذه الدولة (الدوقية) الجديدة التي تضم مليوني نفس، وضع - في ٢٢ يوليو سنة ١٨٠٦ - دستوراً يمنع القِنانة (عبودية الأرض) ويجعل كل المواطنين أمام القانون سواء ويجعل المحاكما علنية أمام القضاء ويجعل مدوّنة نابليون القانونية أساساً للتشريع والعدالة. وألغى حق النبلاء في الاعتراض على القرارات والعوائد الاقطاعية وألغى الدايت الخامل Faineant Diet، وخوّل السلطة التشريعية لمجلس شيوخ من الأعيان ومجلس house من مئة نائب، أما السلطة التنفيذية فأوكلها لملك سكسونيا Saxony الذي كان سليلاً لحكام بولندا السابقين. لقد كان هذا الدستور دستوراً متنوِّراً مُتفقاً مع ظروف مكانه وزمانه.

ومع أن نابليون كان كريماً مع القيصر، فإنه كان قاسياً لا يرحم مع ملك بروسيا الذي سبق أن نقض تحالفه مع فرنسا لينضم إلى أعدائها. لقد طالب (نابليون) فريدريك وليم الثالث بتسليم كل المناطق البروسية غرب نهر إلب Elbe. وكان معظمها قد جرى إعادة تكوينها كدوقية بيرج Berg الكبيرة ومملكة وستفاليا Westphalia. وكلُّ بولندا البروسية تقريباً أصبحت دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة ما عدا دانتسج Danzig التي أصبحت مدينة حرّة في ظل حامية فرنسية. وكان على نصف بروسيا الباقي أن يُغلق أبوابه في وجه التجارة البريطانية وأن يشترك في الحرب ضد إنجلترا إن دُعِي لذلك وأن تظل القوات الفرنسية تحتله حتى يتم دفع التعويض المالي الكبير كاملاً. وصُعق فريدريك وليم - الذي لم يكن يريد الحرب - لقسوة هذه الشروط. واندفعت الملكة لوسي (لويزا) Louise - التي تكاد تكون هي السبب في دخول بلادها الحرب - من برلين (في ٦ يوليو) وطلبت من نابليون متودّدة له بالحجج والعطور والابتسامات والدموع كي يُخفف من مطالبه. فبرَّد نابليون من فيض فصاحتها وأثر عطرها وسحر ابتسامتها بأن قدم لها كرسياً لتجلس فيصعُب عليها - وهي جالسة - بث سحرها، وشرح لها أنه لابد أن يدفع أحد الطرفين بسبب الحرب. ولماذا لا تكون الحكومة التي خرقت المعاهدة - بناءً على وصيتها - هي التي تدفع؟ وأبعدها بعد أن رفض طلباتها بأدب، وفي اليوم التالي أمر تاليران بإبرام الاتفاقات كما سبقت صياغتها قبل

قـدوم الملكة لوسي (لويزا Louise) وعـادت الملكة إلى برلين مكسـورة القلب ومـاتـت في غضون ثلاثة أعوام وهي في الرابعة والثلاثين من عمرها .

وفي ٩ يوليو غـادر الإمبـراطوران وقـد وقر في شعور كل منهـما أنه حقَّق صـفـقـة طيبـة : الاسكندر أمَّن روسيا من الغرب وأصبح مطلق اليد في فنلندا وتركيا . ونابليون حصل على بيرج Berg ووستفاليا Westphalia وهدنة غير قائمة على أساس متين. وقد عرّف نابليون في سنوات لاحـقـة « مـؤتمر القـوى Congress of Powers » هذا بأنه « خـدعـة وافق عليـهـا دبلوماسيون . لقد كان بمثابة قلم مكيافيلي وسيف محمد »(*)(٣٨) وفي اليوم التالي غادر إلى باريس حيث استقبلته الجماهير الشاكرة الممتنّة بصيحات التهليل لإقراره السّلام أولاً ولتحقيقه الانتصارات ثانياً . وكان التقرير الذي قدَّمه للمجلس التشريعي عن حالة الأمة في سنة ١٨٠٧ من بين أكثر تقاريره فخراً : فالنمسا قد عُوقبت، وبروسيا قد أُدّبت وروسيا أصـبـحـت مـتـحـالفـة مع فـرنسا بعـد أن كـانت عـدوّة لهـا . وثمـة أراضٍ جـديدة أُضيـفـت للإمبراطورية بالإضافة إلى ١٢٣,٠٠٠ أسير - ودفع المعتدون المهزومون كل التكاليف ولم نضطر لأي زيادة في الضرائب في فرنسا »(٣٩) .

وأعلن نابليون ترقية تاليران ليجعله أميراً لبنيفنتو Benevento بالإضافة لترقيته آخرين . وقد أدت هذه الترقـيـة لزيادة دخل هذا الأب (الراهب) الفـرنسي النَّهِم بمقـدار ١٢٠,٠٠٠ فـرنك، لكن هذه التـرقـيـة كـانت تعني اسـتـقـالتـه من منصـبـه كـوزير للخـارجـيـة، مـادام البروتوكول يقضي بأن الوزير أقل رتبة من الأمير .

وبهـذه الطريقـة أصبح الموقف الصـعب سـهـلاً لأن نابليـون كـان قـد بدأ يرتاب في أنه مختلس رغم عبقريته الدبلوماسية، لكنه (أي نابليون) تردّد فلم يطرده، والحقيقة أيضاً أن نابليون استمر في استخدامه في عدة مفاوضات كبرى . وبعد أن درّب تاليران خليفته في

(*) يقصد سيف محمد صلى الله عليه وسلم، والواقع أن الرسول الكريم لم يفرض بالسيف عقيدة، وإنما كان دوماً مُدافعا منذ غزوة الأبواء وبدر إلى آخر نفس في حياته، ولم يفرض المسلمون الفاتحون بعده دينهم بالسـيف، وإنما فتحوا البلاد وأزالوا الحكام الجائرين وحرروا الناس، ثم بعد ذلك من أراد الإسلام فأهلاً به ومن لم يُرِد فهو في ذِمة المسلمين أي حمايتهم ... إلخ. والحقيقة أن نابليون أيضا «كان مقتنعاً بكثير من الأفكار الإسلامية حسب فهمه لها؟ قوامة الرجل، خطر الميسر ولم يكن نابليون شارب خمر، وبذل جهوداً غير موفقة لتحريم الزنا، وفي وقت من الأوقات وافق على تعدد الزوجات، وكان يكره الرّبا كرهاً شديداً، كما يطالع القارئ في هذا الكتاب. (المترجم).

وزارة الخارجية جان – بابتست دي شامباني Jean - Baptiste de Champagny على طريق وأساليب وألاعيب منصبه الجديد، أصبح (أي تاليران) حرا في الاستمتاع بحياته في قصره الفخم الذي سبق أن اشتراه في فالينساي Valencay بمبلغ مالي كان جزء منه من الأموال التي أعطاه إياها نابليون.

وفي ١٥ أغسطس احتفل البلاط بانتصار نابليون بإقامة مهرجان يُعيد للأذهان بهاء الملك العظيم Grand Monarque: عُزفت الكونشرتات، ورقصت الباليرينات وعُرِضت الأوبرات، وحضر الملوك والوزراء بملابسهم الرسمية، وحضرت النسوة وقد تزيّن بثروة من الجواهر، وارتدين العباءات النسائية الجميلة. وبعد ذلك بأربعة أيام أُلغي التريبيون Tribunate (المجلس المدافع عن حقوق الشعب) ففي هذا المجلس كانت هناك أقلية جَسُرت لسنوات على معارضة قراراته ووجهات نظره، فأراد أن يستكمل أُبهته الملكية بإلغائه. وخفّف من وقع القرار بتعيين عدد من أعضائه الذين لا خطر منهم في مناصب إدارية، وبإلحاق معظم الأعضاء الآخرين في الهيئات التشريعية التي أصبح لها الآن الحق في أن تناقش الإجراءات، والحق في التصويت. أما الذين كانوا قد تركوا فرنسا بسبب احداث الثورة الفرنسية ممن عادوا ولا زالوا على قيد الحياة، والذين كانوا في قصور ضاحية سان ـ جرمين Germain التي غدت ـ من جديد ـ مُفعمة بالحياة، فقد صَفّقُوا لنابليون استحسانا وتقديراً كشخص يكاد يكون نبيل المولد. لقد راح كل واحد منهم يسأل الآخر: «لم لا يكون مُلكُه شرعياً؟» إذن لأصبحت فرنسا به كاملة. لكن نادراً ما أصبح نابليون ـ بعد ذلك ـ يحظى بمثل هذه الشعبية والقوة والرِّضا.

الفصل التاسع



[١٨٠٧ - ١٨١١]

١- آل بونابرت

لقد زاد نابليون من أعبائه بمضاعفة ممتلكاته، لأن المناطق العديدة التي أضافها لإمبراطوريته والتي كان أهلها مختلفين عِرقاً ولغةً وديناً وعادات وشخصية - لا يمكن أن يتوقع أحد أن تكون مُطيعة طاعةً مطلقةً لحِكُم أجنبي يُرسل الضرائب التي يتمُّ جمعها منهم إلى باريس ويُرسل أبناءهم إلى الحروب. ومن ذا الذي يستطيع نابليون اختياره ليحكم هذه البلاد بحكمةٍ وإخلاص، بينما هو (أي نابليون) منشغل بأمور فرنسا غير المنضبطة؟ لقد كان بإمكان نابليون أن يثق في عدد قليل من جنرالاته لإدارة بعض الأقاليم الصغيرة وعلى هذا فقد جعل من بيرثييه Berthier أميراً لنيوشاتل Neuchatel وجعل مورا Murat الدوق الكبير لبيرج Berg وكليف Cleves لكن معظم جنرالاته كانوا ذوي أرواح متمرسة على القيادة العسكرية ولم يكونوا مُلمِّين بفن الحكم وما يتطلبه من دهاء وكان عدد منهم - مثل بيرنادوت Bernadotte الطموح لا يرضون بغير الوصول للعرش.

لذا فقد لجأ نابليون إلى الاستعانة بإخوته فصلةُ الدم تضمن ولاءهم كما كانوا - وفقاً لبعض المقاييس من القوى الوطنية التي أدَّت دوراً في القنصلية والإمبراطورية. وربما يكون نابليون قد بالغ في قدراتهم وإمكاناتهم - بسبب مفهومه القوي لمعنى الأسرة - لأنه بذل قُصارى جهده - لمواجهة تطلّعاتهم لمشاركته الثروة والسلطة - لقد كافأهم جيداً لكنه أيضاً كان يتوقع مشاركتهم له في سياساته. خاصة في إحكام إغلاق القارة الأوروبية في وجه التجارة البريطانية، التي كان يأملُ أن تُجبر إنجلترا على السير في طريق السلام. وربما أيضاً كان يأملُ في أن يستطيع بمشاركتهم أن يخطو خطوة نحو توحيد أوروبا كلها في ظلٍّ قانون واحد ورياسة واحدة (كلاهما من عنده) وأن يعمل على انتشار الرخاء العام وإنهاء الحروب الوطنية - والحروب بين الأسرات الحاكمة - في أوروبا.

وبدأ مع أخيه الأكبر جوزيف (يوسف) الذي كان قد أدّى له خدمات معقولة في مفاوضاته مع النمسا وإنجلترا . وكان كورنويل Cornwallis - بعد أن تعامل معه في إميان - قد وصفه بأنه حسن النية، لكنه لا يتمتع بقدرات كبيرة . . إنه حساس ومتواضع ولطيف . . ومُتفتِّح . . وربما أدت قرابته بالقنصل الأول بجعله - إلى حد ما - بعيداً عن روح المكر والخداع، تلك الروح التي تمكنت من وزير الداخلية (تاليران) بشكل واضح(١) . وكان جوزيف يحب المال بالقدر نفسه الذي كان فيه نابليون يحب السلطة، ففي بواكير سنة ١٧٩٨ كان جوزيف قادراً على شراء عقار مُترف في مورفونتين Mortefontaine بالقرب من باريس، كان يدعو فيه أصدقاءه والمؤلِّفين والفنانين وذوي المقام الرفيع حيثُ يَحْتفي بهم احتفاء سخياً . وكان جوزيف مُتلهفاً كي يُعيِّنه أخاه وريثاً للعرش الإمبراطوري، ولم يكن قانعاً قناعةً كاملة عندما عيَّنه نابليون (في ٣٠ مارس سنة ١٨٠٦) ملكاً على نابلي - أي جنوب إيطاليا . ووصل فرديناند الرابع البوربوني الذي أُبعدت أسرته عن العرش إلى صقلية Sicily بمساعدة الأسطول البريطاني، وقادت زوجته الملكة تمرداً عسكرياً لإعادته لعرش بلاده، فأرسل نابليون أربعين ألف مقاتل بقيادة ماسينا Masséna وريجنييه Regnier لقمع التمرد مهما كانت التكاليف، وقد كان إذ تم القمع بضراوة شديدة تركت ذكريات مريرة عبر الأجيال . وحاول جوزيف (يوسف) أن يكسب ولاء رعاياه بالاعتدال واللطف والكياسة ولكن نابليون حذَّره قائلا : « على الحاكم - كي يدعّم مركزه - أن يعملَ على أن يكون مُهاباً أكثر من عمله ليكون محبوباً » . وكان حُكم نابليون النهائي على جوزيف متعاطفا :« إن جوزيف لم يقدّم لي مساعدة، لكنه كان رجلاً طيباً جداً . . إنه يُحبني بإخلاص شديد، وأنا لا أشك في أنه يريد أن يفعل كلَّ شيء من أجلي . لكنَّ صفاته الشخصية ومزاياه لا تصلح إلاّ للحياة الخاصة، إنه لطيف رقيق في تصرفه ولديه مواهب ومعلومات، وهو بشكل عام رجل لطيف . وقد بذل قُصارى جهده في تنفيذ المهام الكبيرة التي أوكلتها إليه . لقد كانت نواياه طيبة، لذا فإن الخطأ إنما هو خطئي أنا فقد وضعته في المكان غير المناسب له »(٢) .

أما أخوه لوسين (لوسيان) Lucien المولود في سنة ١٧٧٥ فكان متقلّبا تماما كأخيه

نابليون، ذلك التقلب الذي لم يكن له ضابط سوى الطموح المهيمن. وبمعنى من المعاني فإن نابليون مدين له بالوصول إلى منصب القنصل الأول، فقد كان رفض لوسين Lucien - باعتباره رئيساً لمجلس الخمسمائة - ما اقترحه البعض من التصويت على خروج مغتصب العرش من تحت مظلة القانون (إهدار دمه)، بالإضافة إلى دعوته (أى دعوة لوسين) الجنود لتشتيت المجلس (مجلس الخمسمائة) فأنهى اليوم لصالح نابليون. وفي وقت لاحق اقترح سلطات ملكية لأخيه قبل الأوان، فأبعده أخوه (نابليون) عن مسرح الأحداث بإرساله سفيراً له في أسبانيا. وهنالك استخدم كل الوسائل المتاحة لهُ لزيادة ثروته وبمرور الوقت صار أغنى من نابليون[٣] ولمّا عاد إلى باريس رفض الزواج السياسي الذي رتَّبه له أخوه وتزوج وفقاً لاختياره وذهب ليعيش في إيطاليا. وعاد إلى باريس ليقف إلى جوار أخيه خلال أخطار المئة يوم the Hundred Days لقد خُلق لوسين للشعر وبالفعل فقد كتب ملحمة طويلة عن شارلمان.

أما أخوه لويس فقد كان أيضاً له عقل أخيه ومزاجه مع قدر من القناعة والمقدرة مما جعله قلقاً أو غير مستقر في ظل أوامر أخيه (نابليون) وسيطرته. وقد أنفق نابليون على تعليمه وأخذه معه إلى مصر وجعله معاوناً له، وهناك استغل منصبه العسكري في الانخراط في علاقات جنسية أدت لإصابته بمرض السيلان، ومن ثم لم يصبر حتى يُشفى من هذا المرض تماماً[٤]. وفي سنة ١٨٠٢ - وبناء على تشجيع جوزفين - حثّ نابليون أخاه اللامع لويس للزواج من هورتينز دي بوهارنيه، وكانت شخصية نسائية لامعة Hortense de Beauharnais. وكان لويس زوجاً جلفاً boorish (المقصود لا يجيد فنَّ الجِماع) وكانت هورتينز زوجة غير سعيدة وغير مخلصة[٥]، ومما ساهم في إفسادها تأثير مُتبنيها. وعندما أنجبت طفلاً (١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٢) هو نابليون - شارل Napoléon - Charles، تم تسجيل نابليون كأب له في العماد، وقد أدى هذا إلى إلقاء ظلال من الشك على علاقة نابليون بزوجة أخيه، وظل هذا الشك يطاردهما إلى آخر حياتهما. ومما أعطى لهذه الشائعات بعض التسويغ أن نابليون اقترح تبنّي الطفل، وكان يُدلله بشغف ويُطلق عليه لفظ «ولي عهدنا» أو وريث العرش[٦]، لكن هذا الطفل مات وهو في الخامسة من عمره،

فأصيبت هورتينز Hortense بجنون مؤقت. وفي سنة ١٨٠٤ أنجبت مولوداً آخر هو نابليون - لويس Napoléon Louis وفي سنة ١٨٠٨ أنجبت آخر هو شارل - لويس - نابليون بونابرت Charles - Louis - Napoléon Bonaparte الذي أصبح فيما بعد نابليون الثالث Napoléon III.

وفي ٥ يونيو سنة ١٨٠٦ جعل الإمبراطور (نابليون) من أخيه صعب المراس (لويس) ملكاً على هولندا، فكان مستعداً لعشق الشعب الهولندي أكثر من استعداده لعشق زوجته. لقد أدرك إلى أيِّ مدى يعتمد رخاء هولندا على تجارتها مع إنجلترا ومستعمراتها، وعندما وجد الهولنديون سبيلاً لاختراق المنع المفروض على التجارة البريطانية لم يترددوا في اختراقه ورفض لويس (أخو نابليون) أن يُدينهم، ولكن نابليون قاوم هذا التصرف فأصر لويس (أخو نابليون) عليه، ووجه القوات الفرنسية إلى هولندا فتنازل لويس (أخو نابليون) عن عرش هولندا في أول يوليو سنة ١٨١٠ فألحقها نابليون بفرنسا وجعلها تحت حكمه المباشر. وتراجع لويس (أخو نابليون) إلى جراز Graz وأصبح مؤلفاً يكتب الشعر والنثر ومات في ليفورنو Livorno في سنة ١٨٤٦(*)(٧)

وانفصلت هورتنز Hortense عن لويس (أخي نابليون) في سنة ١٨١٠ وتلقَّت من نابليون منحة مقدارها مليوني فرنك سنويا للعناية بابنيها، وفي سنة ١٨١١ أنجبت طفلاً آخر نتيجة علاقة مع الكونت شارل دي فلاهوت Charles de Flahaut إلاّ أن مدام دي ريموزا Remusat تُخبرنا - على أية حال - أن هورتنز كانت امرأة ذات تصرفات ملائكية.. وأنها صادقة جداً وطيبة القلب جداً، ولا تعرف الشر أبدا»(٨). وبعد ترك نابليون العرش للمرة الأولى التحقت بأمها حيث اهتم بها القيصر أسكندر وأولاها رعايته. وقد اجتمعت مع

(*) ذكر نابليون للاكاس Las Cases رؤيته لهذا الحدث في سانت هيلانه كالتالي: «بمجرد أنه وصل أخي لويس إلى هولندا حتى تصور ألاّ شيء أفضل له من أن يصبح منذ حلوله بها فصاعداً هولنديا، فوثق صلاته بالمجموعة المتعاطفة مع إنجلترا المنخرطة في تهريب البضائع منها وبذلك يكون قد تواطأ مع أعدائنا... فماذا بقي أمامي بعد ذلك كي أفعل؟ هل أتنازل عن هولندا لأعدائنا؟ أم أُعيّن عليها ملكاً آخر؟ وهل كنت أتوقع من هذا الملك الآخر أكثر مما فعله أخي؟ ألم يفعل كل الملوك الذين صنعتهم الصنيع نفسه تقريبا؟ لذا فقد ضممتُ هولندا للإمبراطورية وأدى هذا إلى استياء في أوروبا.. وأسهم بقدر غير قليل في زيادة متاعبنا».

لويس الثامن عشر مما أفزع البونابرتيين. وعندما عاد نابليون من إلبا Elba عملت كمضيفة له، وعندما تنازل عن العرش للمرة الثانية أعطته – سراً – قلادتها الماسية التي كانت قد اشترتها بمبلغ ٨٠٠,٠٠٠ فرنك، وقد تم العثور عليها تحت وسادته عندما مات في سانت هيلانة وأعادها الجنرال دي مونثولو de Montholon إلى هورتنز، فأنقذها – بذلك – من الفقر. وماتت في سنة ١٨٣٧ ودُفنت بجوار رفاة أمها في رويل[٩] Rueil. لقد عاشت حياة حافلة بالمفارقات في تلك الأيام العصيبة.

أما جيروم بونابرت Jérôme أصغر إخوة نابليون فقد قسَّم حياته وزوجاته بين نصفي الكرة الأرضية. وُلد جيروم في سنة ١٨٧٤ وتم استدعاؤه وهو في السادسة عشرة من عمره للخدمة في الحرس القنصلي، ودخل في مبارزة فجرح فتمَّ إبعاده إلى البحرية فارتكب كثيراً من حماقات الشباب الطائشة ودفع من جراء ذلك غرامات اقترض قيمتها من بورين Bourrienne الذي قدم إيصالات لنابليون بقيمة هذه الديون غير المستردة، وعندما كان جيروم في بريست Berst كتب لنابليون يطلب ١٧,٠٠٠ فرنك فأجابه نابليون بالتالي:

« تلقيتُ خطابك يا سيدي الملازم، وإنني في انتظار أن أسمع أنك تدرس – على متن سفينتك الحربية – مهنة أرجو أن تضع في اعتبارك أنها هي طريقك للمجد إنك لو مِت شاباً لكان في موتك بعض العزاء لي، لكن إن عشت حتى الستين من عمرك دون أن تخدم وطنك ودون أن تُخلّف ذكرى مشرّفة، فتلك حياة كان من الأفضل لك ألا تحياها »[١٠].

وترك جيروم البحرية في جزر الهند الغربية ورحل إلى بلتيمور Baltimore وتزوج هناك وهو في سن التاسعة عشرة (سنة ١٨٠٣) من إليزابث بترسون Patterson وهي ابنة تاجر محلّي، وعندما عاد بها إلى أوروبا رفض البلاط الفرنسي الاعتراف بهذا الزواج على أساس أن كليهما (الزوج والزوجة) لم يبلغا سن الرشد. ورفض نابليون دخول العروس إلى فرنسا، فاتَّجهت إلى إنجلترا وهناك أنجبت ابنا هو جيروم نابليون بونابرت وعادت إلى أمريكا فتلقَّت هناك موافقة نابليون على قدومها إلى فرنسا، وأصبحت بعد ذلك هي جدة شارل جوزيف بونابرت الذي شغل منصب وزير البحرية الاميركية في عهد تيودور روزفلت.

وعُيّن جيروم قائداً في الجيش الفرنسي، وأحرز مكانة حَفِيَّة في معارك ١٨٠٦ – ١٨٠٧ باستيلائه على عدة حصون بروسية، وكافأه نابليون بأن جعله ملكاً على وستفاليا Westphalia، وهي منطقة مؤلفة من مناطق بروسية بالإضافة إلي هانوفر وهس – كاسل Hesse - Cassel، وكي يُهيئ له شذاً ملكياً عمل على تزويجه من الأميرة كاترين ابنة ملك فيرتمبرج **Wurttemberg** . وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٨٠٧ أرسل نابليون إلى أخيه جيروم خطاباً يتجلّى فيه بشكل جلي أنَّه لازال حاكما ملتزماً بالدستور:

«إنني أرفق لك دستور مملكتك. إنه يضم الشروط التي أعلنتُ فيها كل حقوقي على المناطق التي فتحتُها، وكل ما لي من حقوق على دولتك. لابد أن تُراعيها بإخلاص... لا تُنْصت لأولئك الذين يقولون إن رعاياك قد اعتادوا العبودية وأنهم لن يشعروا بالامتنان لما تُقدمه لهم. ففي مملكة وستفاليا من الذكاء والوعي أكثر مما تظن، ولن يكون عرشك راسخ الأركان إلا بثقة الشعب وحبه. إن ما يُطالب به الرأي العام الألماني بإلحاح هو أنَّ الناس ليسوا برتبهم المتوارثة وإنما بقدراتهم – وهذا الرأي سيكون لصالحك، فعليك أن تُزيل كلَّ أثر للقنانة (عبودية الأرض) والمواريث الاقطاعية بين السلطة والطبقات الأدنى درجة من رعيتك. إن مزايا مدوّنة نابليون القانونية، والمحاكمات العلنية، وأحكام القضاء ستكون ملامح بارزة في حكومتك... لأن امتداد حكمك وترسيخه يعتمد في الأساس عليها أكثر من اعتماده على الانتصارات المدوية. أُريد أن يسعد رعاياك بدرجة من الحرية والمساواة والرخاء لم يعرفها الشعب الألماني حتى الآن.. إن هذه الطريقة في الحكم ستكون أقوى مانع حصين بينك وبين بروسيا. إنه مانع أقوى من الألب والحصون وحماية فرنسا»(١١).

وكان جيروم لايزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والعشرين فلم يُقدِّر هذه النصيحة حق قدرها، فكان يُعوزه ضبط النفس والرزانة اللذان يتطلبهما الحكم، وانغمس في الرفاهية وحرص على الأبهة والمظاهر وعامل وزراءه كتابعين قليلي القيمة وجعل لنفسه سياسة خارجية خاصة به، مما ضايق أخاه الذي كان عليه أن يُفكر واضعاً في اعتباره القارة كلها. وعندما خسر أخوه (نابليون) معركة ليبتسج Leipzig الحيوية (١٨١٣) لم يستطع جيروم أن يجعل رعاياه موالين لقضية الإمبراطورية، فانهارت مملكته وفرَّ هو (جيروم) إلى فرنسا. وساعد أخاه

بشجاعة في معركة واترلو Waterloo ثم فرَّ إلى حَمِيه طالباً حمايته في فيرتمبرج Wurtemberg، وعاش عمراً مديداً حتى أصبح رئيساً لمجلس الشيوخ (السينات) في عهد ابن أخيه نابليون الثالث وأسعده الحظ بموته في سنة ١٨٦٠ في أوج مملكة ميتة أخرى.

أما يوجين دي بوهارنيه Eugène de Beauharnais فكان تلميذا أفضل. لقد كان فتى محبوبا في الخامسة عشرة من عمره عندما تزوجت أمه من نابليون، وقد امتعض في بداية الأمر من هذا الجنرال الشاب الفظ كمتطفل دخل أسرتهم وتزوّج أمه، لكنه سرعان ما أَنِس إلى نابليون الذي أولاه عاطفة وعناية. وكان يوجين سعيداً يكاد يطير فرحاً لأن نابليون – ذلك الغازي الشبيه بالإعصار – قد اصطحبه معه إلى إيطاليا ومصر كمعاون له. وتمزّقت مشاعره بين نابليون وأمه عندما علم بخيانتها، لكن الدموع التي ذرفها أعادت ارتباط أمه بزوجها (نابليون)، وبعد ذلك لم تتحطم أبداً الرابطة بينه (يوجين) وبين زوج أمه. وفي السابع من شهر يونيه عيَّن نابليون ابن زوجته هذا (يوجين) في منصب نائب ملك في إيطاليا، لكن نابليون قدَّر مدى ثقل المسؤولية التي ألقاها على عاتق شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، فغمره بقدر كبير من النصائح:

«بعهدنا إليك حُكم مملكتنا الإيطالية، إنما نقدم لك برهاناً على احترامنا لمسلكك. لكنك لازلت في سن لا تسمح لك بالتحقق من سوء طويّة الناس أو ما يُضمرونه من سوء. وعلى هذا فإنني لا أستطيع أن أشدّد عليك كثيراً بضرورة الحرص والحذر، فرعايانا الإيطاليون أكثر لؤماً وخداعاً بطبيعتهم من مواطنينا الفرنسيين، والطريقة الوحيدة التي تستطيع بها أن تحتفظ باحترامهم وتحقق سعادتهم هي ألا تُولي أحداً منهم ثقتك الكاملة وألاّ تُخبر أياً من الوزراء وذوي المراتب العليا في بلاطك بحقيقة ما تفكر فيه. إنني يجب أن أُركّز لك على ضرورة الاحتياط لأمرك بإخفاء قَصْدك، وهو أمر يأتي للمرء – طبيعياً – في سن النضج..

قد يُحقُّ لك أن تفخر لكونك فرنسياً، إلاّ في حالة واحدة وهي عندما تكون في منصب نائب الملك في إيطاليا، ففي هذا المنصب يجب أن تنسى أنك فرنسي واعتبر نفسك قد فشلت إذا لم يصدق الإيطاليون أنك تُحبهم. إنهم يعرفون أنه لا حُب دون

احترام، تعلّم لغتهم، ولا تكن غريبا عن مجتمعهم وخُصّهم باهتمام خاص في الحفلات والمناسبات.

قلّل من كلامك، هذا أفضل لك فأنت لم تتلّق قدراً كبيراً من التعليم وليس لديك معلومات كافية تتيح لك أن تشترك في مناقشات عامة. تعلّم كيف تستمع، وتذكر أن الصمت لا يقل تأثيراً عن استعراض المعلومات. لا تُقلِّدني في كل مجال، فأنت تحتاج أن تكون متحفِّظاً بشكل أكثر. لا تترأس - غالباً - مجلس الدولة، فخبرتك لا تؤهلك للنجاح في هذا الموقع... وعلى أية حال لا تُلْق خطباً في مجلس الدولة... فقد يكتشفون فجأة أنك غير كفؤ لمناقشة مجريات الأمور... فطالما أن الأمير (الملك) يمسك لسانه، فإن سلطاته تكون كثيرة كَثْرة تفوق الحصر، إذ يجب على الأمير (الملك) ألاّ يتحدث إلاّ إذا علم أنه هو الأكثر قدرة من بين كلِّ مستمعيه.

كلمة واحدة أخيرة: اجعل لعدم الأمانة عقاباً غليظا..»(١٢).

وقد أنجز يوجين ما كان يأمله منه الإمبراطور (نابليون) بمعاونة وزرائه أعاد تنظيم المالية وحسّن الخدمة المدنية وشيّد الطرق وطبق قوانين مدوّنة نابليون القانونية، وقاد الجيش الإيطالي بشجاعته المعهودة ومهارته المتزايدة، وزاره الإمبراطور المسرور من فِعَاله في سنة ١٨٠٧، وانتهز الفرصة (بواسطة إعلان ميلان Milan Decree) بأن يَرُدَّ - بإجراءات صارمة - على الأمر البريطاني British Order in Council الذي يُطالب السفن المحايدة أن ترسو في ميناء بريطاني قبل التوجه للقارة الأوروبية. وبذل يوجين قُصارى جهده لتنفيذ الحصار القاري(*) المثير. وظل موالياً لنابليون خلال الحروب وأثناء فترة تنازله عن العرش، وتوفي في سنة ١٨٢٤ بعد موت نابليون (زوج أمه) بثلاث سنوات فقط. وقد كرر ستندهول Steendhal في أكثر من موضع ما يفيد حب الإيطاليين لذكرى حُكمه المتنوّر(١٣).

ولأن نابليون كان يمتلك أراضي أكثر من إخوته، فقد أوقف على أخواته الكثير، فقد أعطى إليزا Elisa (ماريا أنّا Maria Anna) وزوجها اللطيف فليس باكيوكوش Felice Bacciocchi مقاطعات بيومبينو Piombino ولوشا Lucca، فحكمتهما بطريقة جيدة -

---

(*) المقصود الحصار القاري المضاد - أي منع دخول البضائع الإنجليزية للقارة الأوروبية. (المترجم).

موّلت المشروعات العامة، ورعت الآداب والفنتون وشجعت باجانيني Paganini - حتى أن نابليون جعلها في سنة ١٨٠٩ دوقة توسكانيا الكبيرة Tuscany حيث واصلت أعمالها الخيّرة her dictatorial benefience.

أما بولين بونابرت Pauline التي اعتبرها نابليون أجمل نساء عصرها فقد وجدت أن ابداء مفاتنها على سرير واحد (المقصود لرجل واحد) أمر لا يُحتمل - ففي السابعة عشرة من عمرها تزوجت الجنرال شارل لكلير Leclerc، وبعد ذلك بأربع سنوات أمرها نابليون بمرافقة زوجها إلى سان دومنجو St. Domingue لخوض معركة ضد توسّان لوفرتور Toussaint L'Ouverture، وربما كان نابليون يقصد بهذا إبعادها عن جو العبث الذي يعلم أنها ستنخرط فيه بمجرد غياب زوجها. على كل حال فقد مات لكلير هناك بالحمّى الصفراء، فعادت بولين إلى أوروبا مع جثمانه، وقد زوى جمالها بفعل المرض. وفي سنة ١٨٠٣ تزوجت الأمير كاميلو بورجيز Camillo Borghese لكنها سرعان ما راحت تمارس الزنا وراح كاميلو يبحث عن المتعة مع مشرفة البيت (القيِّمة على الخدمة) وطلب نابليون من خالها الكاردينال فش Fesh أن يوبخها «أخبرها على لساني أنها لطيفة كما كانت وأنه في غضون أعوام قليلة ستغدو مرتبتها أدنى عندي بينما هي تستطيع أن تكون صالحة ومحترمة في كل أوجه حياتها»(١٤) وانفصلت بولين غير الطاهرة عن الأمير وفتحت بيتها العامر لجماعة الأُنس. وجعلها نابليون دوقة لجوستالا Guastalla (في مقاطعة رجيو إميليا Reggio Emilia في إيطاليا) لكنها فضّلت أن يكون لها بلاط في باريس. وقد تجاوز نابليون عن آثامها لافتتانه بنظراتها وطريقتها، وطباعها الطيبة حتى رأها - في المرآة - تسخر من إمبراطورته الجديدة ماري لويز Louise فنفاها إلى إيطاليا وسرعان ما أدارت صالونا في روما. وفي وقت لاحق (كما سنرى) هبّت لمساعدته عندما أصابته الكوارث. وفي سنة ١٨٢٥ عادت لزوجها مرة أخرى وماتت بين ذراعيه، فقال «رغم كل هذا فقد كانت أرق مخلوق في العالم»(١٥).

أما كارولين Caroline فكانت جميلة أيضاً، وكانت في أيامها الأخيرة أكثر تأثيراً وقد قيل لنا إنها كانت ناعمة الجلد مُشربة بحمرة، وكأنّ جلدها قطعة من الساتان الأحمر،

وكانت ذراعاها ويداها وقدماها متناسقة الخلق سوية كما هو الحال في آل بونابرت. وفي سن السابعة عشرة (١٧٩٩) تزوجت جوشيم مورا Joachim Mura الذي كان قد حقق بالفعل شهرة في الحروب في إيطاليا ومصر. ولهذه الخدمات التي أداها ولإنجازه الحيوي في مارينجو Marengo تم تعيينه دوقاً لكل من بيرج Berg وكليف Clèves. وبينما كان منشغلاً في عاصمته دوسلدورف Dusseldorf بقيت كارولين في باريس وسمحت لنفسها بإقامة علاقات جنسية غير شرعية مع الجنرال جونو Junot الذي أرسله نابليون إلى بوردو Bordeaux، وعاد مورا إلى باريس ليرد زوجته إلى طريق الصواب، لكنه كان يهوى المعارك والتعرض للأخطار. وفي أثناء غيابه المتتابع في ساحات الحرب أخذت كارولين على عاتقها إدارة دوقيتهما، وكانت إدارتها حسنة حتى أن الناس لم يفتقدوا مورا الذي لم يكن يلفت نظرهم إلاّ بزيه الجميل.

وفوق كل هذه العصبة من الإخوة والأخوات تتربع الأم ليتيزيا Letizia صارمة لا يخدعها شيء مستقيمة لا يُفسدها شيء. لقد شاركت ابنها فخاره لانتصاراته وشاركته الحزن العميق لما حلّت به من كوارث. وفي سنة ١٨٠٦ جعلها نابليون - وقد بلغت السادسة والخمسين من عمرها - الإمبراطورة الأم وسمح بصرف مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لها كل عام. وقدم لها بيتاً جميلاً في باريس وخدماً كثيرين لكنها عاشت العيشة المقتصدة التي اعتادتها قائلة إنها توفّر تحسباً لظروف صعبة تُلم به (بابنها نابليون)(١٦). وكانوا يخاطبونها بالأم Madame Mère لكن لم يكن لها نفوذ سياسي ولم تحاول ذلك. وصحبت ابنها (نابليون إلى إلبا Elba كما صحبته في عودته، وراحت تراقب أحواله بقلق أثناء دراما المائة يوم، وكانت تُصلّي من أجله. وفي سنة ١٨١٨ قدّمت طلباً للقوى الأوروبية بإطلاق سراحه من سانت هيلانه، مستعطفة من أجله لما ألَمَّ به من أمراض خطيرة فلم يَرُد أحد على طلبها، وتحمّلت باستسلام قدري كعادتها موت نابليون وإليزا وبولين وعدد من أحفادها، وماتت في سنة ١٨٣٦ عن عمر يناهز السادسة والثمانين. آه يا لها من امرأة! Voilà une femme!

ولم تؤتِ خطة أسرة بونابرت مفعولها وهذا يرجع في جانب منه أنها لم تُلب حاجة الشعوب التي حكمتها ويرجع في جانب آخر إلى أن كلَّ واحد من أفراد هذه الأسرة (فيما

عدا يوجين) كان ذا نزعة فردية وله أفكاره الخاصة ورغباته – وكان نابليون أيضاً كذلك فقد كان يفكر في سلطته أولاً، ووضع قوانين ممتازة إذا قورنت بالنظام الاقطاعي الذي كان قد أصبح عديم الجدوى، لكنه – أي نابليون – تجنَّب فحوى هذه القوانين وخفف من وطأتها بمزايا عسكرية ومالية فرغم أنه حطّم الاقطاع إلاّ أنه أقام إقطاعاً آخر خاصاً به – ظناً منه أن بمنحه اقطاعات لإخوته وأخواته أصبحوا تابعين مُطيعين له يقدمون له المجندين إلزاماً وفقاً لحاجته في الحروب، ويقدمون له الضرائب في السلم. وقد دافع عن فكرته شارحاً أن كل المناطق – تقريباً – التي يحكمها بهذه الطريقة قد فُتحت عُنوة (تم إخضاعها بالقوة العسكرية) ومن ثم فأهلها رعايا « لقانون » الحرب وهم سعداء لخضوعهم لقوانين فرنسية حديثة وإمبراطور متنور هو بالنسبة لهم بمثابة أب. أما بالنسبة لأسرته فقد لخص الأمر بطريقة حزينة عندما كان في سانت هيلانه:

« إنه لمن المؤكد أنني بائس فليس هناك من يخلفني في أسرتي، أو بتعبير آخر ليس لي ظهير منهم.. لقد قيل الكثير عن قوة شخصيتي، لكنني ضعيف وأستحق التوبيخ بسبب أسرتي، وكل أفرادها واعون بذلك. فبعد انتهاء العاصفة الأولى ضدي، كان إلحاحهم عليَّ لا ينتهي وفعلوا معي ما يشتهون (تصرفوا وفقاً لأمزجتهم). لقد أخطأتُ خطأً كبيراً بسماحي لهم بذلك. لقد كنتُ أثق في أحكامهم، وكان يمكننا أن نسير سوياً حتى إلى القطبين فتهاوى كل شيء أمامنا. لقد كان علينا أن نُغيّر وجه البسيطة. لم يكن لدي حظ جنكيز خان فقد كان لديه أربعة أبناء لا هَمَ لهم إلاّ خدمته بإخلاص. إنني إذا ما جعلتُ من واحد من إخوتي ملكاً فإنه سرعان ما يظن أن العناية الإلهية هي التي جعلته ملكاً، وتنتقل هذه العبارة على نحو مرضيٍّ للآخرين. فلا يعود هذا الذي عينته ملكاً قائداً يمكنني أن أوليه ثقتي وإنما يصبح عدواً جديداً عليَّ أن آخذ حِذْري منه إذ تغدو أعماله وجهوده سائرة في طريق تأكيد استقلاله، لا لدعم أعمالي.. ثم إنهم بالفعل راحوا ينظرون لي بعد ذلك كعقبة في سبيلهم.. يا للبؤس! وعندما استسلمتُ كان عَزْلهم عن عروشهم مسألة تلقائية، لم يعمل لها الأعداء حساباً بل ولم يشغلوا بها فكرهم، ولم يستطع واحد منهم إثارة حركة شعبية، لقد كانوا محتمين بجهودي، لقد ذاقوا حلاوة الملك، أما الأعباء فقد تحملتُها وحدي »[١٧].

ولأن نابليون فتح كثيراً من المناطق والمقاطعات فلم يكن هناك العدد الذي يكفيها من الأمراء من أسرته فقد عيَّن بعض جنرالاته وأفراد حاشيته على بعض البلاد dependencies الصغيرة ذات الأهمية الاستراتيجية القليلة، وعلى هذا فقد تولى المارشال بيرثييه Berthier مقاطعة نيوشاتل Neuchatel وأصبح كامباسير Cambacérès أمير بارما Parma وأصبح ليبرون Lebrun دوق بياسنزا Piacenza . وتم اقتطاع اثنتي عشرة دوقية صغيرة من مناطق إيطالية أخرى: وأصبح فوشيه Fouché دوقاً على أوترانتو Otranto وسفاري Savary دوقاً على روفيجو Rovigo . وأخيراً كان أمل نابليون هو أن يجعل من إيطاليا دولة واحدة ويجعلها وحدة في اتحاد فيدرالي أوروبي بقيادة فرنسا وأسرته الحاكمة. وكان من الممكن حدوث هذا، فقط إذا كانت هذه الوحدات المتنافسة والمختلفة والمعتزة بخصوصيتها على استعداد لتكون جزءاً من كل، وعلى شيء من الاستعداد للتخلّي لسلطة بعيدة منها وأجنبية عنها عن حق كتابة قوانينها وتنظيم تجارتها!.

٢- الحرب الأولى في شبه جزيرة أيبيريا
(١٨ أكتوبر ١٨٠٧ - ٢١ أغسطس ١٨٠٨)

بحلول عام ١٨٠٧ كان غالب البر الأوروبي ممتثلاً لبيان برلين Berlin Decree، فالنمسا انضمت للحصار القاري(*) المضاد في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧، ومع أن البابوية اعترضت إلاّ أنها وقّعت في ١٢ ديسمبر. أما تركيا (الدولة العثمانية) فكانت معارضة للانضمام إليه لكنها امتثلت بسبب التعاون المستمر بين روسيا وفرنسا. وكانت البرتغال مُتحالفة مع إنجلترا لكن كان يحدها من الشرق أسبانيا التي ربطتها أسرة البوربون تاريخيا بفرنسا، مما جعلها تتعهد بالالتزام بالحصار إذ بدت من الناحية العسكرية تحت رحمة نابليون وربما فكر الإمبراطور (نابليون) في أمر يمكنه تنفيذه ولو حتى بقيادة جيوشه عبر أسبانيا لإجبار البرتغال على الامتثال رغم السفن الحربية البريطانية التي تتحكَّم في موانئها ورغم الوكلاء التجاريين البريطانيين الذين يتحكّمون في تجارتها.

(*) أي الحصار الذي فرضته فرنسا على دخول البضائع الإنجليزية إلى أوروبا (المترجم).

وفي ١٨ يوليو سنة ١٨٠٧ أخبر نابليون الحكومة البرتغالية أن عليها إغلاق موانئها في وجه البضائع البريطانية فرفضت. وفي ١٨ أكتوبر عَبَرَ جيشٌ فرنسي من عشرين ألف مقاتل معظمهم من المجندين إلزاميا في غير موسم التجنيد الإلزامي – البيداسوا Bidassoe في أسبانيا، وكان على رأس هذا الجيش أندوش جونو Andoche Junot فرحبت به الدولة الاسبانية والشعب الاسباني الذي كان يأمل أن يحرِّر نابليون ملكَ أسبانيا من قبضة وزيره الخائن، كما كان هذا الوزير يأمل أن يكافئه نابليون لتعاونه معه بتركه يُشارك في تقطيع أوصال البرتغال.

لقد كان عهد التنوير الأسباني المتألق قد انتهى بموت شارل الثالث Charles III (١٧٨٨) فرغم أن ابنه الذي بلغ الآن من العمر ستين عاماً كان ذا نوايا طيبة إلاَّ أنه كان مفتقداً الحيوية والذكاء، ففي اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان جويا Goya والتي جعل لها عنواناً (شارل الرابع وأسرته) يبدو الملكُ فيها مولعاً بالتهام الطعام أكثر من ولعه بالتفكير وبدت الملكةُ ماريا لويزا Maria Luisa وكأنها هي الرجل، لكنها كانت امرأة أيضاً فلم تكتف بزوجها المطيع وإنما فتحت ذراعيها لمانويل دي جودوي Manuel de Godoy الذي رفعته من ضابط في الحرس الملكي إلى رئيس للوزراء Chief minister. وكان الشعب الأسباني أكثر شعوب أوروبا التزاماً بالأخلاق في أمور الجنس، لذا فقد استاء كثيراً من هذه العلاقة الجنسية غير الشرعية لكن جودوي Godoy العاهر كان يحلم بفتح البرتغال ليحصل لنفسه على الأقل على دوقية، إن لم يكن مملكة. فهبَّ لمساعدة نابليون وحاول أن ينسى ما كان منه في سنة ١٨٠٦ حين عرض صداقته المصحوبة بالعمل على بروسيا للتخطيط لشن حرب ضد فرنسا. وشجَّع نابليون آمال جودوي ووقّع في فونتينبلو Fontainebleau (٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧) اتفاقاً «لفتح البرتغال واحتلالها» على أن يكون شمالها الغربي مع أوبورتو Oporto من نصيب الملكة الاسبانية، ومقاطعات الجارف Algarve وألينتجيو Alentego في الجنوب من نصيب جودوي Godoy، وما تبقّى في الوسط مع لشبونة يوضع تحت الحماية الفرنسية حتى صدور تعليمات أخرى. وأضافت المادة الثالثة من المعاهدة «أنه من المفهوم أن الأطراف المتعاقدة سيُقسّمون بالتساوي – بين أنفسهم – جزر

البرتغال ومستعمراتها وسائر ممتلكاتها البحرية»[١٨] ونصت بنود سرّية على تعهد اسبانيا بإلحاق ٨٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٣٠٠٠ مقاتل من الخيالة بجيش جونو Junot أثناء مروره باسبانيا.

ووجدت الأسرة المالكة البرتغالية ألاّ طاقة لها بمقاومة هذه القوات المشتركة الفرنسية الاسبانية، فاستقلّت سفينة إلى البرازيل. وفي ٣٠ نوفمبر دخل جونو Junot لشبونة، وبدا أن فتح البرتغال قد اكتمل. ولكي يدفع نابليون تكاليف عملياته فرضَ على رعاياه الجُدد دفع تعويض مقداره مائة مليون فرنك، جزء من منه لمساعدة جونو Junot إذا ما أرسلت بريطانيا حملة عسكرية إلى البرتغال، وربما لتحقيق أغراض أكبر، وأرسل نابليون إلى أسبانيا ثلاثة جيوش إضافية جعل قادتها تحت قيادة مورا Murat الموحّدة وأمره باحتلال بعض المراكز الاستراتيجية قرب مدريد.

وكانت الخلافات في الحكومة الاسبانية بين يدي نابليون يُكيِّفها كيف شاء. لقد خشي فرديناند Ferdinand ذو الثلاثة والعشرين عاما وهو الوريث الظاهر لعرش اسبانيا أن يعوق جودوي Godoy طريقه إلى العرش فقاد بنفسه مؤامرة للإطاحة به، واكتشف جودوي المؤامرة فأمر بالقبض على فرديناند ومؤيديّه في ٢٧ أكتوبر واقترح محاكمتهم بتهمة الخيانة. وبعد ذلك بشهرين علم أن مورا Murat الذي يتقدم بجيوشه قد يعمل على إطلاق سراحهم، فبادر هو بإطلاق سراح فرديناند ومعاونيه واستعد للهرب إلى أمريكا مع الملك والملكة، فهاجت جماهير المدينة في ١٧ مارس سنة ١٨٠٨ وقبضت على جودوي Godoy وأودعته في زنزانة بأحد السجون، وتنازل الملك الذي اعتراه الذهول عن العرش لابنه، وبناء على أوامر نابليون قاد مورا Murat جنوده إلى مدريد (٢٣ مارس) وأطلق سراح جودوي ورفض الاعتراف بفرديناند ملكاً فتراجع شارل عن تنازله عن العرش وسادت الفوضى. وحثّ تاليران، الإمبراطور نابليون للاستيلاء على عرش اسبانيا أى أن يجعل من نفسه ملكاً على أسبانيا أيضاً[١٩].

وانتهز نابليون الفرصة – وربما كان هو الذي دبّرها، فدعا كلا من شارلز الرابع Charles IV وفرديناند السابع Ferdinand VII للالتقاء به في بايون Bayonne (على بعد حوالي

عشرين ميلاً شمال الحدود الأسبانية الفرنسية) للنظر في إعادة الاستقرار والنظام للحكومة الأسبانية . ووصل الإمبراطور في ١٤ أبريل ووصل فرديناند في ٢٠ من الشهر نفسه واستضاف نابليون الشاب ومستشاره كانون جوان إسكواكيز Canon Juon Escoiquiz على الغداء، وخَلُص نابليون إلى أن هذا الشاب غير ناضج انفعالياً وعقلياً وأن مهمة قيادة اسبانيا وجعلها في تحالف مفيد مع فرنسا، مهمة لا يقدر عليها، وأفضى نابليون بهذه النتيجة إلى اسكواكيز الذي نقلها إلى فرديناند معترضا عليها، واعترض الشاب بدوره على أساس أن العرش انتقل إليه بتنازل ابيه عنه، وأرسل جواسيس إلى مدريد يُخبر مؤيِّديه بأنه أصبح ولا مُعين له لمواجهة قوات نابليون، لكن الفرنسيين عاقوا هؤلاء الجواسيس فتمَّت إعادتهم وما معهم من رسائل إلى الإمبراطور (نابليون) ومع هذا فقد وصلت أخبار موقف فرديناند إلى العاصمة فاعترى الجماهير شكٌّ في أن نابليون يعتزم إنهاء حكم أسرة البوربون في أسبانيا ومما زاد من شكوكهم ما انتشر من أخبار مُفادها أن شارل الرابع Charles IV والملكة وجودوي كانوا قد وصلوا إلى بايون Bayonne في ٣٠ أبريل، وأن مورا Murat الذي يحكم مدريد الآن تلقى أوامر من نابليون بإرسال أخي الملك وابنه الأصغر وابنته إلى بايون . وفي الثاني من شهر مايو سنة ١٨٠٨ – وهو اليوم الذي ظل مشهوراً فترة طويلة في التاريخ الأسباني باسم Dos de mayo – تجمعت جماهير غاضبة امام القصر الملكي الاسباني وحاولت منع الأمراء والأميرات من مغادرة القصر وقذفوا الجنود الفرنسيين بالحجارة، بل وقيل إنهم مزَّقوا بعض الجنود – ممن كانوا يحرسون العربة الملكية – إرباً، فأمر مورا Murat جنوده بإطلاق النيران على الجماهير حتى تتفرّق .

وتم ذلك بالفعل وقد سجل الفنان جويا Goya هذا المشهد بتعبير فني قوي وخلّد بعمله هذا ذكرى الحدث، وتم إخمادُ التمرد في مدريد لكنه انتشر في سائر أنحاء أسبانيا الأخرى .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى نابليون في بايون Bayonne (٥ مايو) دعا كلاً من شارل فرناند للمثول عنده وفي إحدى فورات غضبه المحسوبة أدانهما لسماحهما للأسبان بالانخراط في أعمال الفوضى مما جعلها – بشكل خطير – لا يمكن الاعتماد عليها كحليف لفرنسا، وما هذا إلا بسبب عدم كفاءتهما . ولام الوالدان ابنهما وكالا له الانتقادات متهمانه بأنه كان

قد اعتزم قتل والديه (المقصود غالباً أنه بفعله هذا سيورد والديه موارد التهلكة)، واعطى نابليون الشاب المرتعد خوفا مهلة حتى الساعة الحادية عشرة مساء ليتنازل عن العرش، فإن رفض فسيعتبر مدبّر انقلاب ضد والديه ومن ثم يُسجن ويحال للمحاكمة بتهمة الخيانة، واستسلم الشاب فرديناند وأعاد التاج لوالده ولما كان شارل يتطلع للأمن والسلام أكثر مما يتطلع إلى السلطة والقوة فقد قدم الصولجان (العرش) لنابليون الذي عرضه بدوره على أخيه لويس فرفضه ومن ثم عرضه على أخيه جيروم Jérôme الذي شعر أنه ليس ملائماً لمثل هذا المنصب الخطير، وأخيراً عرضه على أخيه جوزيف (يوسف) الذي تلقى بالفعل أمراً بقبوله وتم إرسال شارل Charles ولويزا Louisa وجودوي Godoy ليعيشوا في منتجع في مارسيليا تحت الحراسة. أما فيرديناند وأخوه فقد هُدِّئا وجرى إرضاؤهما بتهيئة مَصْدر دخل يُدِرُّ عليهما عائداً مالياً كبيراً وعُهد إلى تاليران بإسكانهما في مكان مريح وآمن في قصره في فالنسي Valency . وأحسَّ نابليون أنه عقد صفقة رابحة فركب عائداً مرتاح البال إلى باريس وتلقَّته الجموعُ بحفاوة في كل خطوة باعتباره سيِّد أوروبا الغلاَّب.

وذهب مورا Murat – الذي كان يأمل أن يكون ملكاً على اسبانيا – ممتعضاً ليحل محل جوزيف (يوسف) كملك على نابلي. أما جوزيف – فبعد أن توقف في بايون Bayonne – دخل مدريد في ١٠ يونيو سنة ١٨٠٨ . لقد كان قد اعتاد على نابلي التي كان ملكاً عليها وسرعان ما أوحشته حياة المرح والسرور في إيطاليا، تلك الروح المرحة التي يتسم بها أهل جنوب إيطاليا والتي تلطّف قسوة الحياة، فهو لم يأنس ذلك في الاسبان الصارمين المتدينين. وقد جلب معه إلى أسبانيا دستوراً نصف ليبرالي كيّفه نابليون على عجل، يضم كثيراً من بنود مدوّنة نابليون القانونية لكنه قَبِلَ الكاثوليكية باعتبارها الدين المعتمد الوحيد في اسبانيا (نظراً لإصرار شارل الرابع على ذلك)، وحاول جوزيف ما وسعته المحاولة أن يكون حاكماً محبوباً من الشعب وأيده عدد كبير من الليبراليين الأسبان، ولكن النبلاء ظلوا بعيدين عنه متحفّظين ازاءه، وأدانه الإكليروس (رجال الدين الأسبان) على أساس أنه متحرر التفكير (المقصود غير متمسك بأهداف الكاثوليكية) يتظاهر بما لا يُكنّه، وصُدِم العامةُ لأن نابليون قد أحل محل أسرتهم الحاكمة التي باركتها الكنيسة رجلاً لا يكاد يعرف

كلمة من اللغة الاسبانية، ويفتقد تماماً «الكارزما» أو مقومات الشخصية المحبوبة كما هي في ذلك العصر.

وازداد الامتعاض ببطء ثم بسرعة، وتطور من مجرّد التجهم والعبوس إلى اللعن جهراً إلى التمرد. وظهرت روابَط الفلاحين في كثير من بلاد أسبانيا وسلّحوا أنفسهم بالأسلحة القديمة والسكاكين الحادة فصارت كل البيوت مصانع للسلاح وصارت كل عباءة شركاً يُخفي سلاحاً وراحوا يقتنصون كل فرنسي يشرد من معسكره أو يبتعد عن فرقته ورفع الإكليروس الأسبان (رجال الدين) الصلبان في مواجهة البنادق الفرنسية واتهموا جوزيف بأنه «لوثري(*) وماسوني ومهرطق» وحرّضوا جماهيرهم على العصيان المسلّح «باسم الرب وأمّه الطاهرة والقديس جوزيف»[٢٠](**) وتفجّر الحماس ضد الفرنسيين مما أدى إلى عمليات بتر أعضاء وإخصاء وصلب وقطع رؤوس وشنق وإجلاس على الخوازيق (خوزقة) كما صوّر لنا الفنان جويا Goya. وأعاد الجيش الأسباني تشكيلاته وانضم للثوار واجتاحت كتائبهم الموحّدة الحاميات الفرنسية المتناثرة والتي ينقصها العتاد والرجال. وفي بعض الأحيان تمكنت القوات الاسبانية من التفوق على قوات الفرنسيين الذين لم يألفوا الأرض الأسبانية كما كانوا يعانون نقصاً في الرجال والعتاد، ففي بيلا Beulen (شمال شرق قرطبة) توهمت فرقتان عسكريتان فرنسيتان أنهما محاصرتان بقوات كثيرة العدد والعُدَد فاستسلمتا في واحدة من أكثر الهزائم خزياً في التاريخ وأسر الأسبان ٢٢,٨٠٠ وتم اقتيادهم إلى جزيرة كابريرا Cabrera الصغيرة فمات مئات منهم جوعاً ومرضاً. وقد حدثت هذه الواقعة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٠٨. ولما تم تجريد جوزيف (أخو نابليون) من قواته العسكرية الرئيسية انسحب مع ما تبقى من قواته من مدريد إلى خط دفاعي على طول الإبرو Ebro على بعد ١٧٠ ميلاً شمال شرق العاصمة.

وفي هذه الأثناء أرسلت الحكومة الإنجليزية - بعد أن صارت واثقة من تناقص قوات

(*) لوثري أي بروتستنطي من أتباع لوثر، والمقصود بالماسوني هنا اللاديني، وأما الهرطقة فهي في هذا السياق معاداة الكاثوليكية. (المترجم)

(**) الأم الطاهرة هي العذراء مريم / والقديس جوزيف المقصود به يوسف النجار كافل مريم. والمسلمون يوقرون العذراء لكنهم لا يؤمنون بأنها أم الرّب. (المترجم)

جونو Junot في لشبونة وأن لم يعد ممكنا أن تتلقى دعماً إسبانياً – أرسلت السير آرثر ولسلي (يُكتب أيضاً ولزلي) Arthur Wellesely (دوق ولنجتون فيما بعد) بأسطول وجيش إلى البرتغال. فأنزل رجاله عند مصب نهر مونديجو Mondego في أول يوليو سنة ١٨٠٨ وسرعان ما انضمت إليه فرق مشاة برتغالية. وقاد جونو Junot – الذي كان قد أَنِسَ إلى الراحة بدلاً من جعل قوّاته في حالة استعداد – قوّاته البالغ عددها ١٣,٠٠٠ مقاتل من المجندين إلزامياً من لشبونة لمواجهة قوات وِلْسِلي (ولزلي) البالغ عددها ١٩,٠٠٠ في فيميرو Vimeiro في ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٨ فمني بهزيمة نكراء، وعادت البرتغال للتحالف مع إنجلترا، وبدا الغزو الفرنسي لشبه جزيرة أيبيريا وقد تحول لكارثة بالنسبة للفرنسيين.

وعندما وصل نابليون إلى باريس في ١٤ أغسطس سنة ١٨٠٨ بعد جولته الاحتفالية في محافظاته (دوائره) الغربية وجد أعداءه التقليديين سعيدين للنكسة التي ألمت بالجيوش الفرنسية في شبه جزيرة ايبيريا، وشرعوا بالفعل في تكوين تحالف ضد نابليون الذي أصبح الآن قابلاً للهزيمة. وكان مترنيخ Metternich سفير النمسا لدى فرنسا يتحدث مع نابليون عن السلام بينما يُخطط للحرب. وكتب فريهر فوم أوند تسوم شتين Freiherr vom und zum Stein رئيس الوزراء البروسي اللامع التوّاق للتحرر من الاحتلال الفرنسي – إلى صديق له في شهر اغسطس من العام الآنف ذكره قائلاً: « هنا تبدو الحرب بين النمسا وفرنسا مسألة لا مفر منها، وهذه الحرب ستقرر مصير أوروبا »[٢١] ووافق نابليون الذي استولى وكلاؤه (جواسيسه) على هذا الخطاب، على ما ورد به، فالحرب كما كتب إلى أخيه لويس « مؤجلة حتى الربيع »[٢٢].

وتأمل نابليون في خياراته، أيجب عليه أن يقود جيشه الكبير الذي لم يعرف الهزيمة إلى أسبانيا ويقمع تمردها ويطارد ويلسلي (ولزلي) ليعود إلى سفنه، ويسد الفجوة البرتغالية ليُحكم الحصار المضاد ضد بريطانيا ويخاطر بالجبهة الشرقية على أساس أن النمسا وبروسيا ستضربان بينما أفضل جنوده على بعد ألف ميل – هناك في البرتغال؟ إن اسكندر في تليست Tilsit كان قد وعد بمنع مثل هذا الهجوم بينما كانت اسبانيا معه، لكن أيصمد القيصر ويحافظ على وعده امام الضغوط الواقعة عليه؟ ناهيك عن إمكان رشوته. وبعد أن

تفكّر نابليون في الأمر دعا القيصر إلى مؤتمر في ايرفورت Erfurt حيث يمكنه أن يحيطه بكوكبة لامعة من السياسيين لجعله يلتزم بما كان قد تعهّد به.

٣- كوكبة السياسيين في ايرفورت: ٢٧ سبتمبر - ١٤ أكتوبر ١٨٠٨

لقد أعد نابليون لهذا المؤتمر بعناية فائقة كما لو كان يُعد لخوض حرب، فقد دعا كل الملوك والدوقات التابعين له للحضور مع حاشياتهم بأبهة ملكية فخمة، فأتى عدد كبير منهم حتى أن مذكرات تاليران المطبوعة ضمت ثلاث صفحات تحوي قوائم بهؤلاء الذين لبوا الدعوة[٢٣]. واصطحب نابليون معه كل أفراد أسرته، وليس هذا فحسب وإنما معظم جنرالاته وطلب من تاليران أن يترك معتزله وأن يساعد شامباني Champagny في توجيه المفاوضات وصياغة النتائج، وأصدر تعليماته للكونت دي ريموزا Remusat أن ينقل إلى إيرفورت Erfurt أفضل ممثلي المسرح الفرنسي بمن فيهم تالما Talma، وكل ما يلزم لإخراج التراجيديات الكلاسية في الدراما الفرنسية، وقال نابليون «أريد أن أُبهر إمبراطور روسيا بمشاهد قوتي وسلطاني، فليس هناك مفاوضات أكثر عُرضة للفشل من تلك المفاوضات التي نحن مقبلون عليها»[٢٤].

ووصل نابليون إلى إيرفورت Erfurt في ٢٧ سبتمير، وفي اليوم التالي خرج لتحية اسكندر وحاشيته باستقبالهم على بعد خمسة أميال من المدينة، وجرى إعداد كل الترتيبات لبعث المسرّة في نفس القيصر باستثناء شيء واحد وهو أن نابليون تصرف على أنه المُضيف (صاحب الدار) في مدينة ألمانية كانت قد أصبحت جزءا من الإمبراطورية الفرنسية. ولم ينخدع إسكندر بالهدايا التي تلقاها والإطراء الذي كِيلَ له كَيْلا، فتظاهر هو أيضاً بكل ما يوحي بالصداقة أو بتعبير آخر كال لهم من الكيل نفسه، وقاوم محاولاً ألا يقع في شباك هذه المظاهر النابليونية ومما ساعده على ذلك أن تاليران نصحه سراً أن يدعم النمسا وأن يكون إليها أقرب منه إلى فرنسا، مقدماً له الدليل على أن النمسا - وليس فرنسا - هي مرتكز الحضارة الأوروبية (فيما يرى تاليران) التي دمرها نابليون، وقال له تاليران ايضا

«إن فرنسا متحضرة ولكن السلطة فيها ليست كذلك»[٢٥] وأكثر من هذا فكيف يكون من صالح روسيا دعم فرنسا والشد من أزرها؟ وعندما سعى نابليون لتوثيق التحالف بأن يتزوج من أخت إسكندر – الدوقة الكبيرة أنّا Anna، أشار تاليران على القيصر بعدم القبول وأجّل الروسي الماكر الإجابة عن هذا الاقتراح متحجّجاً بأن القيصرة هي صاحبة الرأي في هذه الأمور[٢٦]. وقد كافأ اسكندر، تاليران بترتيب زواج ابن أخيه (أو ابن أخته) من دوقة دينو Dino وارثة دوقية كورلاند Courland، ودافع تاليران – في وقت لاحق – عن خيانته ذاكراً أن شهية نابليون لابتلاع الأمم لن تتوقف باستنزاف أوروبا بالحروب فحسب وإنما ستؤدي إلى انهيار فرنسا وتقطيع أوصالها، وعلى هذا فخيانته لنابليون – فيما يقول – كانت وفاء لفرنسا وإخلاصاً لها[٢٧]. لكن من الآن فصاعداً ستترك تصرفاته الكيّسة انطباعا سيئاً (سُمعة رديئة) في كل مكان.

وخلال هذا المؤتمر دعا دوق ساكس – فيمار Saxe - Weimar أشهر رعاياه للحضور إلى ايرفورت Erfurt، ففي ٢٩ سبتمبر، طلب نابليون من الدوق – بعد أن رأى اسم جوته (تكتب أيضاً جيته) في قائمة الذين سيصلون – ترتيب لقاء مع هذا الفيلسوف الشاعر، فجاء جوته (جيته) سعيداً (في ٢ أكتوبر) فقد كان من رأيه أن «العالم لم يشهد عقلية أعظم من عقلية نابليون»[٢٨] وكان موافقا تماماً (أي جوته) على توحيد أوروبا في ظل حكمه. والتقى جوته (جيته) بالإمبراطور نابليون على مائدة إفطار مع تاليران وبيرثييه Berthier وسافاري Savary والجنرال دارو Daru، وقد كتب تاليران في مذكراته، ما زعم أنه تسجيل دقيق لهذه المحادثة الشهيرة (فيلكس ميلر Felix Muler قاضي ڤيمار الذي كان مصاحباً لجوته قدم تقريراً عن هذه المحادثة مختلفاً قليلاً عن رواية تاليران):

«قال نابليون: السيد جوته انني مبتهج لرؤيتك.. إنني أعلم أنك على رأس الشعراء المسرحيين في ألمانيا».

– «سيدي أنت تظلم بلدنا.. فلابد أن عظمتكم تعرفون شيلر Schiller ولسنج Lessing وفيلاند Wieland».

– «اعترف أنني لا أعرفهم إلاّ بالكاد. لقد رأيت عمل شيلر (حرب الثلاثين عاما)..

أنت بشكل عام تعيش في فيمار Weimar . . انه المكان الذي يلتقي فيه معظم مشاهير أدباء ومفكري ألمانيا».

– «إنهم يتمتعون بحماية في فيمار أكثر من سواها، لكن بالنسبة للوقت الحالي فليس هناك إلا رجل واحد في فيمار حقق شهرة على مستوى أوروبا، إنه فيلاند Wieland.

«سأكون مبتهجاً لرؤية السيد فيلاند Wieland».

– «ان سمحتُم لي عظمكتم أن أطلب منه الحضور، فعلتُ، فأنا متأكد من أنه سيحضر فورا..».

– «هل أنت مُعجب بتاسيتوس Tacitus؟».

– «نعم يا سيدي أنا معجب به جداً».

– «حسنا إنني لستُ معجباً به، لكننا سنتحدث في هذا الموضوع في وقت آخر. اكتب إلى السيد فيلاند ليأتي هنا. وسأرد له الزيارة في فيمار لأن دوقها دعاني»[٢٩].

وبينما كان جوته يغادر الغرفة قيل أن نابليون أبدى ملاحظة لبيرثييه Berthier ودارو Daru بشأن جوته قائلاً: «هذا هو الرجل حقا!»[٣٠] Voilà un homme!.

وبعد أيام قليلة استضاف نابليون جوته وفيلاند مع رهط من ذوي المكانة. وربما قد أنعشَ ذاكرته بالمعلومات في هذه الأيام لأنه راح يتحدث كناقد أدبي واثق من معلوماته:

– «السيد فيلاند، إننا نحب كتاباتك جداً في فرنسا. فأنت مؤلف أجاثون وأوبيرون Agathon and Oberon إننا نسميك فولتير ألمانيا».

– «سيدي إن الإطراء يسعد المرء إن كان يستحقه..».

– «أخبرني أيها السيد فيلاند، لماذا كتبت أعمالك «ديوجنز Diogenes» و «آجاثون Agathon» و «بيريجرينوس Peregrínus» بأسلوب رمزي يحتمل أكثر من معنى تخلط فيه السرد الروائي بالتاريخ والتاريخ بالسرد الروائي. إن رجلاً متفوقاً مثلك يجب أن يفصل بين هذين النوعين من الكتابة.. لكنني أخشى أن أتحدث كثيراً في هذا الموضوع لأنني أتحدث مع شخص أكثر خبرة في هذه الأمور مني»[٣١].

وفي ٥ أكتوبر قطع نابليون حوالي خمسة عشر ميلاً إلى فيمار، وبعد أن مارس رياضة

القنص في يينا (جينا Jena) ومشاهدة مسرحية موت قيصر la Mort de César في مسرح فيمار، حضر الداعون والمدعوون حفلاً راقصاً فأنستهم النسوة الجميلات المتألقات ذِكْر أشعار فولتير. وعلى أية حال فقد انسحب نابليون إلى أحد الأركان وطلب جوته وفيلاند Wieland، فحضرا ومعهما ثلّة من رجال الأدب، فتحدث نابليون موجها حديثه على نحو خاص إلى فيلاند، وكان موضوع حديثه يدور حول المجالين الأثيرين عنده: التاريخ وتاسيتوس Tacitus:

« لابد من اعتبار المسرح التراجيدي الجيد مجالا لا يجدر إلا بالرجال المتفوقين. إنه فوق التاريخ إذا نظرنا إليه من وجهة نظر معينة. ففي أفضل وقائع التاريخ لا يمكن ان يُحدث إلا أثراً قليلا، فالإنسان إذا كان وحيداً لا يتأثر إلا قليلا، ويختلف الحال إن كان في جَمْع، فهنا يكون التأثير أقوى وأكثر ديمومة.

إنني أؤكد لك أن المؤرخ تاسيتوس Tacitus الذي تستشهد دائما بفقرات من كتاباته لم يعلّمني أي شيء أيمكنك أن تجد كاتبا ينتقص من قدر الجنس البشري مثله؟ بالإضافة إلى أن أحكامه في بعض الأحيان غير عادلة فهو يجد في كل فعل – ولو كان بسيطاً – دافعاً إجرامياً. لقد أظهر الأباطرة كأجلاف أنذال، وعمّق هذه المعاني في نفس قارئه.. إن حولياته ليست تاريخاً للإمبراطورية وإنما ملخّص لسجلات سجن روما، إن هذه الحوليات تتعامل دائماً مع تُهم وإدانات، ومع أناس يقطعون أوردتهم في الحمامات.. يا له من أسلوب ملتوٍ! يا له من غموض!.. ألستُ على حق أيها السيد فيلاند؟ لكن... إننا لسنا هنا لنتحدث عن تاسيتوس. انظر، إلى أي حد يُتقن القيصر إسكندر فن الرقص.. »(٣٢)

ولم يقتنع فيلاند فقد دافع عن تاسيتوس بشجاعة وتعاطف، فقد أشار إلى أن « سوتونيوس Suetonius وديوكاسيوس Dio Cassius قد رويا من الجرائم أكثر بكثير مما روى تاسيتوس لكن أسلوبهما تعوزه الحيوية، أما تاسيتوس فما أشد تأثير أسلوبه » وفي غمزة جسورة قال لنابليون: « إنه بلمسة عبقريته، يمكن للمرء أن يعتقد أنه لا مجال لأن يحب سوى الجمهورية.. لكنه عندما يتحدث عمن يحبهم من الأباطرة، والحرية والإمبراطورية، فإن المرء يشعر أن فن الحكم يبدو له أجمل اكتشاف على ظهر البسيطة... يا سيدي إن

كان حقا قولنا ان تاسيتوس يُعاقب الأباطرة بتصويرهم على هذا النحو فحقاً أيضاً قولنا إنه كافأ الأمراء (الملوك) الصالحين عندما تتبّع أعمالهم وصورهم وأهداهم لمن يصنعون المجد في الزمن الآتي».

وكان المنصتون المتجمعون مبتهجين بهذا الجواب اللاذع والخاطرة السريعة، وحار نابليون جوابا وقال: «إن لديّ حججا قوية جداً لمناقشتك والاختلاف معك أيها السيد فيلاند.. وأنت لم تُغفِل أي عنصر مما يدعّم رأيك.. لا أحب أن أقول أنني هُزِمت في هذه المناقشة.. فمن الصعب أن أتفق مع هذا الرأي. غداً أعود إلى ايرفورت، وسنواصل مناقشاتنا»[٣٣] وليس لدينا كتابات عن هذه المناقشات التي تمت بعد ذلك.

وفي ٧ أكتوبر عاد معظم الزوّار إلى ايرفورت، وحث نابليون جوته على الإقامة في باريس قائلاً له «هناك في باريس ستجد دائرة أوسع لتنشر فيها أفكارك. ومادة هائلة لابداعاتك الشعرية»[٣٤]. وفي ١٤ أكتوبر منح نابليون وسامَ صليب فيلق الشرفِ لكل من جوته وفيلاند.

وفي هذه الأثناء وقَّع وزراء خارجية فرنسا وروسيا اتفاقية تُجدد التحالف بينهما ويتعهد كل طرف بتقديم المساعدة للطرف الآخر في حال تعرضه لهجوم وأصبح اسكندر – بناء على الاتفاق – مُطلق اليد في الاستيلاء على فاليشيا Wallachia ومولدافيا[*] Moldavia، لكن ليس تركيا. وأصبح نابليون يستطيع التوجه إلى أسبانيا بمباركة قيصر روسيا وفي ١٢ أكتوبر تم توقيع وثيقة الاتفاق. وبعد ذلك بيومين غادر الإمبراطوران ايرفورت Erfurt، وقبل أن يفترقا سارا للحظات جنبا إلي جنب وتعانقا وتعاهدا أن يلتقيا ثانية. (لكن هذا لم يحدث) وعاد نابليون إلى باريس أقل تعطشاً للدماء لكنه قرر أن يتوجه بجيشه الأساسي (الجيش العظيم) إلى أسبانيا ليفرض أخاه جوزيف مرة أخرى على عرش اسبانيا رغم إرادة الأسبان.

(*) الأفلاق والبغدان في المصادر العثمانية والعربية (المترجم).

٤- الحرب الثانية في شبه جزيرة أيبيريا
(٢٩ أكتوبر ١٨٠٨ - ١٦ يناير ١٨٠٩)

لقد كانت هذه الحرب معركة نابليونية تقليدية: انقضاض سريع، وانتصار، ثم لا جدوى. لقد أحس الإمبراطور بازدياد معارضة الشعب الفرنسي لسلسلة حروبه التي لا تنتهي. لقد كانوا قد وافقوه على أن حروبه في الجبهة الشرقية كانت حروبا سبّبتها حكومات تتآمر لمحق الثورة وإبطال نتائجها لكنهم شعروا أن دماءهم قد استنزفت، واستاءوا على نحو خاص من الأموال التي تم انفاقها في حرب البرتغال وأسبانيا. لقد فهم نابليون هذه المشاعر وخشي أن يكون بصدد فقدان سيطرته على الأمة الفرنسية لكنه كما برّر في وقت لاحق «لم يكن من الممكن ترك شبه جزيرة أيبيريا فريسة لكيد الإنجليز ومطامع البوربون ومؤامراتهم وطموحاتهم»[٣٥] فإذا لم ترتبط أسبانيا بفرنسا رباطاً وثيقاً يؤمّنها لأصبحت تحت رحمة الجيوش البريطانية القادمة عبر البرتغال أو كادير (قادش) Cadiz، وسرعان ما تجمع إنجلترا الذهب والفضة المجلوبة من المستعمرات البرتغالية والأسبانية في أمريكا لتقدم منها بسخاء معونات لتمويل تحالف جديد ضد فرنسا، مما يقتضي مزيداً من المعارك، مارينجو أخرى وأوسترليتز Austerlitz أخرى وجينا (يينا Jena) أخرى.. إن إحكام الحصار الأوروبي المضاد على البضائع البريطانية هو وحده الذي يجعل تجار لندن يطلبون السلام.

وترك نابليون حاميات على بعض الحصون تحسباً لأية مفاجآت نمساوية أو بروسية، وأمر ١٥٠,٠٠٠ مقاتل من جيشه الأساسي (الجيش العظيم) بعبور جبال البرانس والانضمام إلى قوات أخيه جوزيف البالغ عددها ٦٥,٠٠٠ كانت تتجمع في هذه الأثناء في فيكتوريا Victoria. وغادر هو نفسه (نابليون) باريس في ٢٩ أكتوبر ومعه خطة المعركة التي كان قد رسمها فعلاً. وكان الجيش الأسباني يحاول تطويق قوات جوزيف، فأرسل نابليون تعليمات إلى أخيه (جوزيف) أن يتجنب خوض معركة وأن يترك العدو يتقدم منتشراً في نصف دائرة حتى تكون قواته غير ذات عمق. وعندما اقترب نابليون من فيكتوريا Victoria نشر جانبا من قواته في جبهة مستعرضه لمهاجمة قلب الجيش الأسباني، فانكسر وولّى الأدبار واستولت

فرقة فرنسية أخرى على بورجوز Burgos (١٠ نوفمبر) واجتاحت فرق فرنسية أخرى بقيادة نيي Ney ولان Lannes وتوديلا Tudela جيشاً اسبانياً بقيادة جوزي دي بالافوكس إي ميلزي Jose de Palafox y Melzi ولما أردك قادة الجيش الأسباني انه لا قِبَلَ لهم بنابليون وجنوده تفرقوا ثانية في ولايات اسبانيا وفي ٤ ديسمبر دخل الإمبراطور مدريد، وعندما بدأ بعض جنوده في نهبها أمر بإعدام اثنين من الناهبين علناً فتوقفت عمليات السلب والنهب[٣٦].

وترك المدينة (مدريد) تحت حماية عسكرية قوية وفرض فيها الأحكام العسكرية واتجه بقواته إلى شامارتين Chamartin على بعد ثلاثة أميال، وهناك وكأنه واحد من الأرباب خالقة الكون أصدر في ٤ ديسمبر سلسلة من المراسيم ودستوراً جديداً لأسبانيا. وبعض بنود هذا الدستور تبين أنه لازال «ابناً للثورة الفرنسية»: «منذ نشر هذا المرسوم يتم إبطال الحقوق الاقطاعية في أسبانيا. ويتم إبطال كل الامتيازات وكل الاحتكارات الاقطاعية وكل الإلزامات المفروضة على الأشخاص، وكل من سيلتزم بالقوانين سيكون حراً في تطوير عمله وصناعته وحرفته دون معوّق.

إبطال محاكم التفتيش لأنها لا تتمشّى مع السيادة المدينة، وتؤول ممتلكاتها إلى الدولة الاسبانية لتُسدّد منها الديون التي التزمت بسدادها...

نظراً لزيادة أعداد أعضاء الطوائف الديِّرية المختلفة زيادة مفرطة... وكذلك بيوت العبادة، فسيتم تقليص أعدادها إلى الثلث... بتوحيد أعضاء البيوت المختلفة (المقصود بيوت العبادة أو الطوائف الديرية) الخاصة بطائفة واحدة في تشكيل واحد...

ستزال الحواجز بين ولايات أسبانيا وهذا يعني من بين ما يعني إزالة الجمارك الداخلية لأنها أمر يقف حائلاً في سبيل رخاء أسبانيا[٣٧].

ولم يكن هناك ما يمكن ان يدعم هذا الدستور في مواجهة المعارضة الفعالة للنبلاء الذين ترسّخت أوضاعهم ورجال الدين والرهبان والسكان الذين أَلِفوا بمرور الوقت الزعامة الإقطاعية وعقيدة المواساة (الصبر على مكارة الدنيا لدخول الفردوس في الآخرة Consolatory Creed) - سوى السيطرة العسكرية. وكان ولسلي (ولزلي Wellesley) لا

يزال منتصراً في البرتغال واضعاً في اعتباره غزو أسبانيا حالما يعود الجيش الفرنسي الأساسي (العظيم) لمواجهة تحدّي النمسا. وأكثر من هذا فقد غادر جيش بريطاني مكوّن من ٢٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة سير جون مور Moore، سالامنكا Salamanca في ١٣ ديسمبر وبدأ يزحف في اتجاه الشمال الشرقي آملاً في اجتياح فرق سول Soult بالقرب من برجوز Burgos. ورد نابليون بسرعة على هذا التحدي فقاد قوة فرنسية رئيسية شمالاً عَبْر سيّراً دي جوداراما Sierra de Guadarrama آملاً في مهاجمة مؤخرة مور Moore والآن سيواجه – أخيراً – بمواهبه العسكرية وجنوده هؤلاء الانجليز المحتمين وراء البحر. وكان المرور عبر ممر جوادارما Guadarrama في عز الشتاء محنة قاسية لرجاله أشد وطأة من عبور الألب سنة ١٨٠٠. لقد عانوا وتذمروا وكادوا يقومون بتمرد عسكري لكن نابليون لم يوقف المطاردة. ولما علم مور Moore بقدوم نابليون خاف أن تقع قواته بين جيشين فرنسيين، فتوجه بقواته غرباً بسرعة قاطعاً ٢٥٠ ميلاً على أراضٍ وعرة غطتها الثلوج حتى وصل كورونا Corunna ليستطيع مع قواته أن يلوذوا بالأسطول البريطاني.

وفي ٢ يناير أصبح نابليون قريباً من مؤخرة هذا الجيش الإنجليزي عند أستورجا Astorga لكنه – أي نابليون – اضطر للتوقف بسبب أنباء مزعجة أتته من مصدرين: ففي النمسا كان الأرشيدوق كارل لودفيج يستعد استعداداً حقيقياً لخوض حرب ضد فرنسا، وفي باريس كان تاليران وفوشيه يؤيدان خطة للإطاحة بنابليون وإحلال مورا Murat مكانه. فترك نابليون مهمة تعقّب قوات مور Moore لسول Soult وأسرع عائدا إلى فرنسا. أما وقد غادر السيد (نابليون) فقد تباطأ سول Soult ولم يصل إلى كورونا Corunna حتى كان معظم القوات البريطانية قد آوى إلى سفن الأسطول. وقد قاد مور مؤخرة قواته ببطولة لحماية آخر مراحل ركوب السفن فأصيب بجرح مميت لكنه لم يلفظ أنفاسه الأخيرة إلاّ بعد اكتمال ركوب قواته سفن الأسطول البريطاني. وتحسَّر نابليون «آه لو كان لدي وقت لتعقب الإنجليز، لما أفلت مني واحد منهم»[٣٨]. إنهم لم يهربوا فحسب، بل لقد عادوا ثانية.

٥- فوشيه وتاليران والنمسا: ١٨٠٩

عندما وصل نابليون إلى باريس (٢٣ يناير) وجد المؤامرات تختمر وسط استياء عام. فقد وصلت خطابات من الجنود من الجبهة إلى مئات من الأسر الفرنسية تُفيد أن المقاومة الاسبانية أعادت تشكيل قواها وأنها موطدة العزم على طرد الفرنسيين، وأن ولسلي (أو ولزلي) Wellesely الذي تزداد قواته سيتحرك حالاً لطرد جوزيف (أخي نابليون) من مدريد مرة أخرى. ومن الواضح أن الحرب ستستمر وأن الصبية الفرنسيين سيجندون إلزامياً عاماً إثر عام ليفرضوا على الأسبان حكومة معادية لكنيستهم القوية وغريبة عنهم ومجرد وجودها يحطم كبرياءهم. وواصل الملكيون في فرنسا مؤامراتهم للإطاحة بنابليون رغم تحركاته لاسترضائهم، وتم القبض على ستة متآمرين منهم فأعدموا رمياً بالرصاص في سنة ١٨٠٨، وتم إعدام آخر هو أرمان دي شاتوبريان Armand de Chateaubriand في فبراير سنة ١٨٠٩ رغم توسلات أخيه رينيه René الذي كان وقتها أحب كتّاب فرنسا للجماهير، وكان مصير عدد من اليعاقبة – لأسباب أخرى مختلفة – الموت أيضاً. وحتى في دوائر الحكومة الإمبراطورية بلغ السخط ذروته فقد راح فونتان Fontaine يردد لدى معارفه الكتومين أن «الإمبراطور مجنون، مجنون تماماً، سيدمر نفسه ويدمرنا جميعاً» وقال القول نفسه ديكري Decres لكن بشكل علني[٣٩].

أما فوشيه وزير الشرطة فكان قد اكتسب تعاطف نابليون ومديحه لاكتشافه مؤامرات اغتياله لكن فوشيه كان قد بدأ يتشكك على نحو متزايد في سياسات سيده (نابليون) وفي أن مستقبله الشخصي سينتهي إلى انهيار لا مفر منه، لقد شعر فوشيه أن حكومتي النمسا وبروسيا المهزومتين واللتين رغم هزيمتهما لازالتا تحسان بالكبرياء، وحكومة روسيا المؤيدة تأييداً سطحياً (ظاهريا) لفرنسا – سوف تتحد من جديد، عاجلاً أم آجلا، يمولها الذهب البريطاني للقيام بانتفاضة أخرى ضد السيطرة الفرنسية غير المريحة. وأكثر من هذا فإن نابليون قد يفقد حياته في واحدة من المعارك القادمة. فليس من المستبعد أن تصيبه طلقة تقضي عليه كتلك الطلقة التي انهت – منذ وقت غير بعيد – حياة جنرال كان يقف إلى جانبه. إنه لا يجب أن يُوقع موته المفاجئ – ولا وريث له – فرنسا في فوضى تجعلها غير

مهيأة للدفاع ضد أعدائها. وربما كان ميتران يحث على الانضمام لمن يهيئون مورا Murat للعرش إذا ما خلا بموت نابليون. وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٠٨ اتفق تاليران وفوشيه على أن مورا Murat هو رجلهم المنشود، وكان مورا مجنداً. ولما تشمَّم يوجين (ابن زوجة نابليون) أخبار المؤامرة وأخبر بها أم نابليون أرسلت سريعاً من ينقلها له في أسبانيا[٤٠].

وكان نابليون على استعداد لمسامحة فوشيه أكثر من استعداده لمسامحة تاليران، فنصيحة فوشيه كانت غالباً في الجانب الآمن لكن تاليران كان قد أوصى بإعدام دوق دنجهين (يكتب أيضاً دنجان) d'Enghien كما كان قد شجع الاستيلاء على أسبانيا، وربما كان شريكاً في مسؤولية عدم تجاوب اسكندر بالقدر الكافي. وفي ٢٤ يناير سنة ١٨٠٩ أعرب نابليون عن استيائه الشديد من تاليران بعد أن كان قد كظم غيظه فترة طويلة، وذلك عندما رآه في مجلس الدولة. لقد انفجر نابليون موبخاً إياه علناً: «اتجرؤ أيها السيد أن تقول إنك لم تكن تدري شيئاً عن موت إنجهين (دنجان)!! أتجرؤ على مواصلة القول إنك لا تدري شيئاً عن الحرب الأسبانية..! أنسيت أنك نصحتني كتابة بإعدام انجهين (دنجان)؟ أنسيت أنك نصحتني في خطاباتك بإحياء سياسة لويس الرابع عشر (أي بترسيخ أفراد أسرته على عرش أسبانيا)» ومن ثم لوّح بقبضته في وجه تاليران وصاح «فلتفهم هذا: إذا كان لابد أن تنفجر الثورة، فستكون أول من يُسحق، مهما كان الدور الذي لعبته فيها.. إنك قذارة في جورب حريري». وما إن قال نابليون ذلك حتى سارع بمغادرة القاعة، وسار تاليران مترنحاً وراءه وقال لمستشاريه «يا للأسف أيتصرف مثل هذا الرجل العظيم على هذا النحو السيئ!»[٤١] وفي صباح اليوم التالي أنهى نابليون كل المهام الموكلة إلى تاليران وأوقف راتبه الذي كان يتقاضاه كموظف كبير في البلاط. لكن نابليون سرعان ما اعتذر عن نوبة انفعاله – كما هي عادته – ولم يُبدِ اعتراضاً على استمرار تاليران في الحضور إلى البلاط. وفي سنة ١٨١٢ كان نابليون لايزال يقول: «لقد كان تاليران أفضل وزير عندي على الإطلاق»[٤٢]. ولم يترك تاليران أية فرصة للإسراع بسقوط نابليون.

وكانت النمسا تقوم بدورها، فقد كان كل أهلها من فقراء إلى أغنياء تواقين للقيام بمحاولة للتحرر من هذا السلام الثقيل (المفروض) الذي فرضه نابليون على النمسا. وكان

الإمبراطور فرانسيس الأول هو وحده المتردد بحجة أن مستلزمات إعداد الجيش ستؤدي بالدولة إلى الإفلاس. وأرسل إليه تاليران كلمات تشجيع: «إن الجيش الفرنسي العظيم متورّط في المستنقع الأسباني والرأي العام الفرنسي يعارض الحرب بشدة، ووضع نابليون قلق ومشكوك فيه»[٤٣]. وكان مترنيخ Metternich حتى الآن مترددا، وحذّر نابليون الحكومة النمساوية من أنها إذا استمرت في التسلّح فإنه سيبني في فرنسا جيشاً آخر مهما كانت التكاليف، ولن يكون أمامه سوى هذا الاختيار. لكن النمساويين واصلوا تسليح أنفسهم فطلب نابليون من اسكندر تحذيرهم، فأرسل القيصر لهم كلمة تحذير يمكن تفسيرها على أنها متأخرة تأخراً مقصودا. واستدعى نابليون فرقتين من أسبانيا وجمع ١٠٠,٠٠٠ مجند إلزامي وأتاه بناء على أوامره ١٠٠,٠٠٠ جندي من كونفدرالية الراين، وكان أهل هذه الكونفدرالية خائفين على حياتهم إذا اجتاحت النمسا فرنسا، وبحلول أبريل سنة ١٨٠٩ كان تحت إمرة نابليون ٣١٠,٠٠٠ مقاتل، وتم تنظيم قوات منفصلة قوامها ٧٢,٠٠٠ مقاتل فرنسي و ٢٠,٠٠٠ مقاتل إيطالي لحماية يوجين (ابن زوجة نابليون) والمُعَيَّن في منصب نائب الملك في إيطاليا من جيش نمساوي أُرسل إلى إيطاليا بقيادة الأرشيدوق جوهان (يوهان Johann) وفي ٩ أبريل غزا الأرشيدوق كارل لودفيج Ludwig بافاريا على رأس قوة من ٢٠,٠٠٠ مقاتل، وفي ١٢ أبريل وقَّعت إنجلترا تحالفاً جديداً مع النمسا وتعهدت بتقديم معونات جديدة لها. وفي ١٣ أبريل غادر نابليون باريس قاصداً ستراسبورج Strasbourg بعد أن أعلن لموظفي قصره المرتاعين «في غضون شهرين سأجبر النمسا على نزع السلاح» وفي ١٧ أبريل وصل إلى جيشه الرئيسي في دونّاوفورث Donauworth على الدانوب وأصدر أوامره النهائية بنشر قواته (تكوين جبهة مستعرضة) وانتصر الفرنسيون في بعض المواجهات الصغيرة في أبنسبرج Abensberg ولاندشت Landshut (١٩ و ٢٠ أبريل) وقاد المارشال دافو Davout في إكموهل Eckmuhl (٢٢ أبريل) هجوماً لا يُقاوم على الجناح الأيسر لقوات الأرشدوق كارل لودفيج Ludwig بينما هاجمت القوات التي على رأسها نابليون القلب ولم يتراجع كارل إلا بعد أن فقد ٣٠,٠٠٠ من رجاله، وكان تراجعه إلى بوهيميا. وزحف نابليون بقواته إلى فيينا فدخلها في ١٢ مايو بعد أن عبرت قواته إلى الشاطئ الأيمن

للدانوب، وكان عبوراً شاقاً استلزم جُهداً فائقاً اتسم بالشجاعة إذ كان عرض النهر عن نقاط العبور ثلاثة آلاف قدم. وفي الوقت نفسه أعاد كارل تنظيم قواته وقادها إلى الشاطئ الأيسر للنهر عند إسلنج Essling. وحاول نابليون أن يعبر النهر من جديد ليلتقي به أملاً في أن يهزمه في معركة حاسمة، لكن فيضان النهر كان مرتفعاً فأزاح ماؤه الجسور الرئيسية التي أقامها الفرنسيون وكان يتعين عليهم ترك جزء من الجيش الفرنسي وكثير من الذخيرة إذا كان لابد من العبور، وفي ٢٢ مايو وجدت قوات نابليون البالغ عددها ٦٠,٠٠٠ (التي تمكنت من العبور) نفسها تستعد لخوض معركة مع ١١٥,٠٠٠ نمساوي، وبعد أن فقد الفرنسيون ٢٠,٠٠٠ قتيل – كان لان Lannes المحبوب منهم – أمر نابليون من تبقى ٤٠,٠٠٠ بالعودة (الرجوع عبر النهر) بأية وسائل ممكنة. وفقد النمساويون ٢٣,٠٠٠ ومع هذا فإن هذه المواجهة اعتبرت في سائر أنحاء أوروبا هزيمة ماحقة ألّمت بنابليون. وراحت بروسيا وروسيا ترقبان نتائج الموقف بشغف، وهما على استعداد – عند أي بارقة أمل – للانقضاض على هذا المدعي المزعج الذي أفلت مرات عديدة من قبضة سادة الاقطاع.

وفي إيطاليا أصبح مصير يوجين (الذي عينه نابليون في منصب نائب الملك) متأرجحاً مع الأحداث، فقد أصبحت Milan – قاعة حكمه – غير آمنة بسبب ازدياد سخط الناس من طريقة معاملة نابليون للبابا، رغم حكم يوجين المعتدل. لقد قاد يوجين جيشه وهو في حالة ذعر بيِّنة ليواجه الأرشيدوق جوهان Johann، وهزم في تاجيليامنتو Tagliamento في ١٦ أبريل وكان من الممكن أن يتعرّض لما هو أسوأ لولا أن جوهان (يوهان Johann) – عند سماعه انتصار نابليون في إكموهل Eckmuhl استدار عائداً يحدوه أمل يائس أن يُنقذ فيينا، وترك يوجين إيطاليا مجازفاً بملكه كي يدعم بقواته جيش زوج أمه، فتحرك بقواته أيضاً إلى الشمال ووصل بقواته إليه وخاض معه معركة فاجرام(*) Wagram.

وعمد نابليون – بعد الخيبة التي ألمت به في اسلنج Essling إلى تدعيم قواته ومدفعيته وأمر بتشييد الجسور على الدانوب، وحصن جزيرة لوباي Lobay تحصيناً جيداً وجعل منها

(*) في الكتب العربية نقلاً عن الإنجليزية تُكتب هكذا: وجرام. (المترجم).

معسكراً حصيناً، ومركزاً لإصلاح السفن، وإعداد الذخيرة، ولا تبعد هذه الجزيرة سوى ثلاثمائة قدم عن الشاطئ الأيسر للنهر. وفي الرابع من يوليو أمر قواته بالعبور مرة أخرى، وأدرك نابليون أن قواته كثيرة العدد وأن كارل لودفيج Ludwig يتراجع للشمال، فتعقّبه والتقى الجمعان في فارجام (وارجام Wargam) التي تعد واحدة من أعنف المعارك في التاريخ إذ أريقت فيها دماء غزيرة، وكان عدد القوات الفرنسية والحليفة لها ١٨٧,٠٠٠ بينما كان عدد القوات النمساوية والمتحالفة معها ١٣٦,٠٠٠ . لقد حارب النمساويون ببسالة وكانوا في وقت من أوقات المعركة قريبين من النصر، لكن نابليون كان متفوقاً في عدد جنده وفي براعة تكتيكاته، فغيّر اتجاه المعركة فبعد يومين (٥ و ٦ يوليو ١٨٠٩) استحر فيهما القتل من الطرفين أمر كارل قواته بالانسحاب بعد أن فقد ٥٠,٠٠٠ من رجاله. وفقد نابليون في هذه المعركة ٣٤,٠٠٠ وبقي معه ١٥٣,٠٠٠، بينما كان المتبقي مع كارل ٨٦,٠٠٠. لقد أصبحت النسبة بينهما لصالح الفرنسيين تكاد تكون ٢:١، وطلب الأرشيدوق الذي اعتراه الجزع الهدنة وأسعد هذا الطلب نابليون فوافق عليه.

وتمركز نابليون في شونبرون Schonbrunn مع مدام فالفسكا Walewska وأسعده أن يعلم أنها حامل. إنه يستطيع الآن أن يقول إن عدم إنجاب جوزفين إنما كان بسببها لا بسببه. وكان زوج ماري Marie الهرم متسامحاً بما فيه الكفاية حتى أنه عفا عن خيانتها الزوجية ودعاها للعودة إلى مقره في بولندا، واستعد للاعتراف بالطفل الوليد باعتباره ابناً له[٤٤].

وتباطأت مفاوضات السلام طوال ثلاثة أشهر وكان هذا - في جانب منه - لأن كارل لودفيج Ludwig لم يستطع أن يقنع أخاه فرانسيس الأول باستحالة تنظيم مزيد من المقاومة، بالإضافة إلى أن فرانسيس الأول كان يأمل أن تهب بروسيا وروسيا لمساعدته. وساعد نابليون القيصر اسكندر على مقاومة هذا العرض بأن قدّم له جزءاً من جاليسيا Galicia ووعده بعدم استرداد مملكة بولندا، وفي أول سبتمبر أخبر القيصر النمسا أنه ليس مستعداً لنقض تعهداته مع فرنسا. وظلت المفاوضات النمساوية متعثرة فأصدر نابليون إنذاراً، وفي ١٤ أكتوبر وقع الطرفان معاهدة شونبرون Schonbrunn أملتها فرنسا في القصر الملكي على أعدائها القدامى من الهابسبرج. وتنازلت النمسا - بمقتضى هذه المعاهدة - عن إنفيرتل

Innvertel وسالزبورج (سالستبورج Salzburg) لبافاريا، وأصبح جزء من جاليسيا تابعاً لروسيا، وجزء آخر لدوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة في مقابل ما بيد النمسا من بولندا المقسّمة. واستولت فرنسا على فيوم Fiume وإستريا Isteria وتريست Triest والبندقية (فينيسيا Venezia) وجزء من كرواتيا ومعظم كارينثيا Carinthia وكارينولا Carniola، وبذا يكون قد انسلخ من النمسا ٣,٥٠٠,٠٠٠ مواطن من دافعي الضرائب وكان عليها أن تدفع ٨٥ مليون فرنك كتعويض حرب لفرنسا، لقد استولى نابليون على كل ذلك باعتباره حقاً له، وبعد ذلك بستة أشهر توّج أسلابه بتزوجه من أرشدوقة (أميرة) نمساوية.

٦- الزواج والسياسة: ١٨٠٩- ١٨١١

غادر نابليون فيينا في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٠٩ ووصل إلى فونتينبلو Fontainebleau في ٢٦ من الشهر نفسه، وشرح لأقاربه الحميمين ومستشاريه قراره بطلب الطلاق، فأجمع جميعهم - تقريباً - على الموافقة، لكن نابليون لم تواته الشجاعة على الإفضاء بعزمه إلى جوزفين إلاّ في ٣٠ نوفمبر، فرغم إفراطه في المعاشرة الجنسية واللهو - وهو الأمر الذي كان يراه حقاً مشروعاً للمقاتل البعيد عن وطنه - إلاّ أنه كان لا يزال يحب جوزفين وقد أدى انفصاله عنها إلى معاناة عاطفية استمرت عدة شهور.

لقد كان نابليون يعرف عيوبها - كسلها، وفتورها، ومبالغتها في التبرج، وإسرافها في استخدام الثياب والجواهر، وضعفها الشديد أمام بائعي القبعات النسائية ومصمميها الذين يأتون لعرض بضاعتهم عليها « لقد اشترت كل ما أحضروه إليها دون أي اعتبار للسعر »[٤٥] وأكثر من مرة زادت ديونها زيادة أدت إلى امتعاض زوجها امتعاضاً شديداً فطرد البائعات المتجمعات عند مقرّها وعنّفها ودفع ديونها. وقد اعتمد نابليون لها ٦٠٠,٠٠٠ فرنك سنوياً لنفقاتها الشخصية و ١٢٠,٠٠٠ فرنك سنوياً لتهب منها من تشاء لأنه كان يعلم أنها مُلزمة بتقديم الصدقات والهبات[٤٦]. وكان نابليون يتساهل مع عشقها للألماس ربما لأن التحلي به يجعلها فاتنة رغم بلوغها الثانية والأربعين، لقد كانت كلها مشاعر وأحاسيس ولا تملك من

(*) من المفهوم أن نابليون يصف هنا أحوالها على السرير: "unfailing sweetness of her disposition"

العقل شيئاً اللهم إلاّ الحكمة التي وهبتها الطبيعة للنساء والتي بها يقدرن على اللعب بالرجال. لقد قال لها نابليون « يا جوزفين إن لك قلبا ممتازاً وعقلاً فارغاً »(٤٧) وقلما كان يسمح لها بالحديث في السياسة وعندما كانت تقاومه وتتحدث في الأمور السياسية فإنه سرعان ما كان ينسى وجهات نظرها. لكنه كان شاكراً ممتنا لأحضانها الدافئة الحارة وجسدها المؤثر، وحلاوتها التي لا تخف تدريجياً عند اللقاء، وبراعة تخلصها »(٤٨)(*) كما كان شاكراً ممتناً لاعتدالها وامتيازها في ممارسة كثير من مهامها كإمبراطورة. لقد أحبته حباً شديداً، وأحبها هو بعد السلطة، وعندما اتهمته مدام دي ستيل Stael بأنه لا يحب النساء أجاب ببساطة « أنا أحب زوجتي »(٤٩) ويعجب أنطوان أرنول Antoine Arnault « من إمبراطورية تديرها جميلات لطيفات واهنات يحكمن رجالاً مستبدين متشددين كأشد ما يكون الاستبداد والتشدد. لقد كان كل الرجال يجبنون أمام تصميمه ومع ذلك لم يكن بمستطيع مقاومة دموع امرأة »(٥٠) فكما قرر نابليون – بعد ذلك – في سانت هيلانه « إنني بشكل عام كنت مستسلماً أمامها »(٥١).

لقد كانت جوزفين تعرف منذ وقت طويل أن نابليون في توق شديد لوريث من صُلبه ليرث الحكم بشكل شرعي ومقبول، وكانت تعلم خوفه من أن يؤدي موته أو أسره أو إصابته بمرض عضال إلى نزاع مجنون على السلطة بين الفرقاء المتنازعين والجنرالات، وأن تتحول فرنسا المنظمة والمزدهرة والقوية التي بناها إلى حُطام وأن تعود للإرهاب – الدموي أو الأبيض – كما كانت على الحالة التي أنقذها هو نفسه منها في سنة ١٧٩٩، وكان من رأيه أن وريثاً شرعياً من صلبه تنتقل إليه السلطة بشكل تقليدي سيُعفي فرنسا من ذلك كله.

وعندما أخبر نابليون زوجته جوزفين أخيراً بأن عليهما أن ينفصلا وهنت وغابت عن الوعي لعدة دقائق، فحملها نابليون إلى غرفتها واستدعى طبيبه جان – نيقولا كورفيزار دي مارت Jean - Nicolas Corvisart des Marets وطلب مساعدة هورتينز Hortense لتهدئة أمها، وظلت جوزفين طوال أسبوع مصرّة على رفض الطلاق، وفي ٧ ديسمبر وصل يوجين Eugène من إيطاليا وأقنع أمه بالموافقة. قطيب نابليون خاطرها بكل وسيلة وقال لها: « سأظل على حبّك دائماً لكن السياسة لا قلب لها، ففي السياسة لا مجال إلا للعقل »(٥٢)

وقال لها انها ستظل دائما محتفظة بلقب سيدة القصر القصر الملكي وملحقاته ولقب إمبراطورة وبراتب سنوي كبير، وأكد لأبنائها أنه سيظل دائما وحتى آخر حياته كأب محب.

وفي ١٦ ديسمبر أصدر مجلس الشيوخ - بعد أن سمع رغبة كل من الإمبراطور والإمبراطورة في الطلاق - مرسوم الطلاق، وفي ١٢ يناير أعلن رئيس أساقفة باريس فصل عُرى زواجهما، وتساءل عدد كبير من الكاثوليك عن مدى شرعية هذا الطلاق، ولم يُوافق معظم سكان فرنسا على هذا الانفصال، وتنبأ كثيرون أنه من الآن فصاعداً سيتخلى الحظ الحسن عن نابليون، ذلك الحظ الحسن الذي كان يتبعه دائما كظله[٥٣].

لقد طغت السياسة على الحب وراح نابليون يبحث عن شريكة لحياته ليس فقط على أمل أن تكون أماً (لولي عهده) وإنما أيضاً ليكوّن عن طريقها بعض الروابط والصلات التي تُعين على تحقيق السلامة لفرنسا، وتشد من أزر حكمه. ففي ٢٢ نوفمبر (قبل إفضائه لجوزفين برغبته في الطلاق بثمانية أيام) أرسل نابليون بتعليمات إلى كولينكور Caulaincourt سفيره في سان بيترسبورج St. Petersburg (بطرسبرج) أن يقدم طلباً رسمياً لاسكندر طالباً يد أخته البالغة من العمر ستة عشر عاماً - أنّا بافلوفا Anna Pavlova. وكان القيصر يعلم أن أمه التي كانت تطلق على نابليون اسم «الملحد» لن توافق أبداً على مثل هذا الارتباط فأرجأ الإجابة على الطلب أملاً في أن يحصل من نابليون على مقابل مُمثَّل في حصوله على بعض المناطق (الأخرى) في بولندا. لكن نابليون بعد أن نفد صبره لطول المفاوضات في هذا الأمر ولخوفه أيضاً من الرفض - أرسل يوعز إلى مترنيخ Metternich أنّ النمسا ستتلقّى اقتراحاً لطيفاً بشأن الأرشيدوقة (الأميرة) ماري لويز Marie Louise. وعارض كامباسير Cambacérès الخطة متنبئاً أن هذا الارتباط سيؤدي إلى إنهاء التحالف الروسي مع فرنسا وسيؤدي للحرب[٥٤].

ولم تكن ماري لويز Marie Louise البالغة من العمر ثمانية عشر عاما - جميلة، لكن كان يكفي نابليون أن عينيها زرقاوان، وخديها متوردان وشعرها كستنائي وطبعها هادئ وذوقها بسيط، وكانت كل الأدلة تؤكد عذريتها (لم يطمسها قبله إنس) وخصوبتها

(إمكان انجابها) . وقد تلقت قدراً طيباً من التعليم وتعرف عدة لغات وكانت بارعة في الموسيقا والرسم، وقد تعلمت منذ طفولتها أن تكره طالب يدها (نابليون) باعتباره شريراً بل أكثر أهل أوروبا امتلاء بالشر، لكنها تعلمت أيضاً أن الأميرة بضاعة سياسية يرتبط فهمها للرجال بصلاح الدولة. ومع هذا فلابد أن هذا الغول سيئ السمعة (المقصود نابليون) يمثل تغييرا مثيراً لفتاة محكومة تخضع لإشراف دقيق طال شوقها لعالم أكثر رحابة.

وعلى هذا ففي ١١ مارس سنة ١٨١٠، وفي فيينا تم زواجها رسمياً من نابليون الذي لم يكن حاضراً وإنما مثله المارشال بيرثييه Berthier . وتحرك ركب الأميرة المكوّن من ثلاث وثمانين عربة ومركبة طوال خمسة عشر نهارا وليلة مصحوبة بالاحتفالات والترحيبات ليصل الركب إلى كومبيين Compiègne في ٢٧ مارس. لقد كان موكبها كموكب زفاف ماري أنطوانيت في سنة ١٧٧٠ . وكان نابليون قد رتّب أموره للقائها في كومبيين هذه لكن – فضولاً منه أو لطفاً – انطلق ليقابلها مرحباً بالقرب من كورسيل Courcelles وعندما رآها. . لكن دعنا نتركه هو يروي لنا ما حدث: «لقد خرجت من المركبة بسرعة وقبّلت ماري لويز Marie Louise لقد كانت الطفلة الساذجة قد حفظت عن ظهر قلب حديثاً طويلاً كان عليها أن تردده على مسامعي وهي راكعة. . وكنت قد سألتُ مترنيخ وأسقف نانت Nantes عمّا إذا كان يمكنني الليلة أن أكون تحت سقف واحد مع ماري لويز فأزاحوا كل شك علق بي وأكدا أنها الآن الإمبراطورة، وليس الأميرة (الأرشيدوقة) . . . وعكفتُ عليها في غرفة نومها لا أبرحها إلاّ إلى المكتبة، وسألتها عمّا قالوه لها عندما غادرت فيينا، فأجابتني بسذاجة شديدة أن أباها وفراو لاتسانسكي Lazansky قد وجهاها بأن قالا لها: « حالما تصبحين مع الإمبراطور ولا ثالث معكما عليك أن تفعلي كل ما يطلبه منك تماماً، عليك أن توافقي على كل شيء يطلبه منك» لقد كانت مبهجة.

وقد أراد السيد سيجو Segur منّي ألاّ أظهره لها(!) مراعاة للتقاليد، لكنني بعد أن تزوجتها فعلاً أصبح كل شيء على ما يرام، وقلت له: اذهب إلى الشيطان»[٥٥].

في أول أبريل أصبح الاثنان زوجين وفقاً للإجرادات المدنية وذلك في سان كلود .St

Cloud وفي اليوم التالي أصبح زواجاً دينياً في الصالة الكبرى في اللوفر Louvre، ورفض كل الكاردينالات تقريبا حضور المراسم الدينية للزواج على أساس أن البابا لم يلغ زواج جوزفين، فطردهم نابليون الى الأقاليم (المحافظات أو الدوائر) لكن هذا لم يعكر صفوه فقد كان مغموراً بالسعادة من نواح أخرى. لقد وجد عروسه باعثة على المسرّة حسياً واجتماعياً - متواضعة ومطيعة وكريمة ورقيقة. إنها لم تعرف أبداً أن تحبه لكنها كانت رفيقة جذابة. وهي كإمبراطورة لم تحقق جماهيرية كالتي حققتها جوزفين، لكن صارت مقبولة كرمز لانتصار فرنسا على ملكيات أوروبا العدوانية.

ولم ينس نابليون جوزفين فكان يزورها تباعاً في مقرها حتى أن ماري بدأت في الاستياء، فاضطر للتوقف عن زيارتها لكنه راح يرسل لها خطابات دافئة، جميعها تقريبا تبدأ بعبارة «يا حُبّي»[٥٦] وقد أجابت جوزفين على أحد هذه الخطابات من نافار Navarre في نورماندي Normandy في ٢١ أبريل سنة ١٨١٠: «ألف ألف شكر لك لأنك لم تنسني. لقد أحضر إليّ ابني خطابك تواً. لقد اعتراني الضعف عند قراءته. وأي ضعف!.. فلم يكن به أي كلمة إلا وجعلتني أبكي، لكنها كانت دموعاً حلوة...

لقد كتبتُ إليك عند مغادرة مقر إقامتي في باريس Malmaison، وبعد مغادرتني رغبت كثيراً في الكتابة إليك أكثر من مرة، لكنني أحسست بأسباب سكوتك وخشيت أن أكون مزعجة...

كن سعيداً، كن سعيداً فأنت تستحق السعادة، إنني أحدّثك بكل قلبي. لقد أعطيتني أيضاً نصيبي من السعادة، وهو نصيب أُحس به إحساساً قوياً... وداعاً يا صديقي، وأشكرك بكل الحب فسأحبك دائماً»[٥٧].

وراحت جوزفين تُسلي نفسها باشباع هوايتها في ارتداء الملابس والحُلي واستقبال الضيوف. وكان نابليون قد اعتمد لها ثلاثة ملايين فرنك سنوياً لكنها كانت تنفق أربعة ملايين، وبعد وفاتها في سنة ١٨١٤ لاحقته بعض فواتير مُشترواتها التي لم تُدفع في إلبا[٥٨] Elba لقد جمعت جوزفين في مقر إقامتها Malmaison أعمالاً فنية كثيرة هيأت لها صالة عرض وكانت تُنفق على الولائم ببذخ. وكانت قيمة تكاليف دعواتها تلي مباشرة

تكاليف زوجة نابليون (ماري لويز) وراحت تاليا Tallien الأميرة الأربعين لشيماي Chimay – تزور جوزفين ويتذكران معاً أيام حكومة الإدارة ونفوذهما القوي الذي جعلهما كملكتين، وزارتها الكونتيسة فالفسكا Walewska فاستقبلتها جوزفين بحفاوة وراحتا معاً يندبن حظمها لضياع حبيبهما (نابليون) .

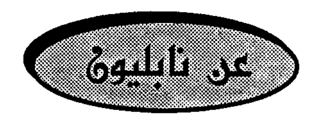
لقد قضى نابليون عامين كان فيهما سعيداً وفي سلام نسبي ، فقد وسَّعت معاهدة شونبرون Schonbrunn مملكته وأثرت خزانته وفتحت شهيته، فقد ضمّ إلى ملكه الولايات البابا وية (١٧ مايو ١٨٠٩) وأعاد أخاه جوزيف (يوسف) إلى عرشه في مدريد ، وفي سنة ١٨١٠ وقّعت السويد – التي طال عدواؤها له – معاهدة سلام مع فرنسا وانضمت للحصار القاري المضاد (المقصود منع التعامل مع البضائع البريطانية) وفي شهر يونيو قبلت – بناء على إلحاحه – أن يكون وريثاً للعرش السويدي . وفي ديسمبر ابتلع هامبورج وبريمن ولوبك Lubeck وبيرج وأولدنبورج Oldenburg وضمها للإمبراطورية الفرنسية . وأدت رغبته الشديدة في اغلاق كل موانئ القارة الأوروبية في وجه التجارة البريطانية إلى أن أصبح في نظر أعدائه غازياً نَهِماً لا يشبع يجمع الديون لأرباب الحقد والحسد .

وكانت الأمور الداخلية هادئة ومستتبة، فكانت أحوال فرنسا مزدهرة، وكان شعبها يحس بالفخار، ولم يكن هناك ما يعكر صفو أنسياب الماء في النهر سوى ما أحدثه طرد فوشيه Fouché نهائيا لازدياد نفوذه زيادة كبيرة . وقد تم تعيين سافاري Savary بدلاً منه كوزير للشرطة وعاد فوشيه إلى اكس – ان – بروفنس Aix - en-Provence ليدبِّر للانتقام لنفسه . أما الأمور الخارجية فلم تكن بمثل هذه السهولة؛ فهولندا كانت في الغاية من الاستياء لفرض الحظر على السفن البريطانية . وفقدت إيطاليا صبرها لسوء معاملة نابليون للباباوية ، وكان الإيطاليون يفخرون بأنهم مقر الباباوية ، وكان ولينجتون Wellington يبني جيشاً في البرتغال ليغزو به أسبانيا . وفيما وراء الراين Rhine كانت الدول الألمانية الخاضعة لحكم بونابرت متذمرة من الأعباء الضريبية في انتظار بعض الحماقات الإمبراطورية لتعود مرة أخرى لحكم سادتها السابقين الأكثر ملاءمة لها .

ومع هذا فقد كانت ماري لويز Marie Louise حاملاً وكان الإمبراطور السعيد يَعُد الأيام

لوضعها هذا المولود. وعندما اقترب الحدث أحاطه بكل الطقوس الاحتفالية ذوات المهابة التي كانت تصاحب – تقليدياً – ميلاد طفل من البوربون، فجرى الإعلان إنه إن كان المولود طفلة فستسمع واحداً وعشرين طلقة مدفع تحية للمولودة أما إن كان المولود ذكراً فستستمر الطلقات إلى مئة وواحد. وكانت عملية الوضع شاقة جدا، فقد (أراد) الجنين أن يأتي للعالم بقدميه أولا، وقال الدكتور كورفيزار Corvisart لنابليون إنه إما أن يضحي بحياة الأم أو بحياة الوليد، فقيل له أن ينقذ الأم مهما كان الأمر[٥٩]. واستخدم طبيب آخر أدوات ليعكس وضع الجني، وأصبحت ماري لعدة دقائق قريبة من الموت. وأخيراً (وافق) الجنين على الظهور برأسه أولاً، وعاش الطفل والأم (٢٠ مارس ١٨١١) ودوَّت مائة طلقة وطلقة معلنة لباريس ميلاد ذكر، وانتقل الخبر سريعاً في سائر أنحاء فرنسا، ولم يكن في أوروبا كثيرون يستكثرون على الإمبراطور هذه السعادة. فقد أرسل كل حكام أوروبا تهانيهم للأب الذي طال انتظاره لوليد ولمن تم إعلانه بالفعل «ملك روما»[٦٠] والآن ولأول مرة منذ بدأ مهامه أصبح يمكن لنابليون أن يحس بالطمأنينة بدرجة معقولة فقد أسس أسرة حاكمة يأمل أن تكون عظيمة مفيدة كالأسرات الحاكمة المعروفة بهذه الصفات في التاريخ، وربما أمكنها أن تجعل من أوروبا كياناً واحداً.

الفصل العاشر



١- الصفات البدنيّة

يجب ألا نتصور نابليون كما رسمه جروس Gros في سنة ١٧٩٦ - يحملُ علماً في إحدى يديه وسيفاً مُشهراً في يده الآخرى بزيه المزخرف بالأحزمة الملونة والشارة الرسمية للسلطة، وشعره الكستنائي الهائج بفعل الرياح، وعينيه وحاجبيه وشفتيه المضمومتين بما توحيه هيئة كل هذه الأعضاء من عزم وتصميم. إن هذا التصور أبعد ما يكون عن الحقيقة. ويُقال إن جروس قد رآه - عندما كان أصغر بعامين من بطله (نابليون) البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما - يغرس العلم على جسر أركول[١] Arcole، لكن ربما كانت اللوحة التي رسمها تمثل حبا شديداً مفعماً بالحماسة. إنه الفنان عندما يتعبّد في محراب رجل الانجازات. ومع هذا فإن غيران Guerin عندما رسم نابليون بعد ذلك بعامين مُبرزا في الأساس الملامح نفسها: شعرٌ متدلّ على الجبهة والكتفين، حاجبان مقوّسان على عينين داكنتين ثابتتين، وأنف مستقيم مدبّب حاد كإرادته، وشفتان مزمومتان عازمتان كعقله. هذا التصور - أيضاً - ليس إلاّ جانباً واحداً من جوانب شخصية الرجل (نابليون) - شخصية الرجل العسكري، فهناك جوانب أخرى كثيرة يمكن أن تُخفف من حدة هذه القسمات - كصورته وهو يشد أُذُنَيْ سكرتيره مداعباً أو صورته وهو ينحني بشوق أبوي على الطفل[*] «ملك روما King of Rome». وبحلول سنة ١٨٠٢ قص خصلات الشعر الطويلة هذه[٢] كلها فيما عدا خصلة واحدة تركها تتدلى على جبهته غير البارزة، وبعد الأربعين بدا متثاقلاً واعتاد أحياناً أن يضع يده على كرشه، وعادة ما كان يعقد يديه خلف ظهره خاصة أثناء المشي، وقد ترسخت فيه هذه العادة حتى أنها كانت تكشف شخصيته في الحفلات التنكرية. وطوال حياته كانت يداه تجذبان الانتباه بجمال بشرتهما واكتمالهما

(*) ابنه من ماريا لويز (المترجم).

وأصابعهما المستدقّة، والحق أنه كان فخوراً تماماً بأطرافه الأربعة، وعلى أية حال فإن لاكاس Las Cases الذي كان يظنه واحداً من الأرباب لم يستطع أن يمنعنا من الابتسام سخرية عند رؤية « هاتين اليدين الوسيمتين »[٣].

لقد كان بشكل عام قصيراً بشكل مفرط إذ لا يزيد طوله عن خمسة أقدام وست بوصات[٤]، أما روح القيادة فتتجلى في عينيه، فالكاردينال كابرارا Caprara الذي أتى للتفاوض بشأن الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وضع على عينيه « عدستين خضراوتين كبيرتين » ليخفّف بهما وهج عيني نابليون وحملقته. والجنرال فاندام Vandamme يعترف بخوفه من أثر عيني نابليون الشبيه بأثر التنويم المغناطيسي. يقول « هذا الشيطان الآدمي يمارس معي سحراً يجعلني غير قادر على التعبير عمّا في نفسي، ورغم أنني لا أخاف الله ولا الشيطان، فإنني أخشاه (نابليون) لدرجة أنني أرتعد كالطفل عندما أكون في حضرته وهو يستطيع أن يجعلني أمرق من سَمِّ الخياط (من ثقب الإبرة) لألقي نفسي في النار »[٥] وكانت بشرة الإمبراطور شاحبة، إلاّ أنها - على أية حال - كانت تتألق بسبب حركات عضلات وجهه التي تعكس - إن أراد - أي خلجة من مشاعره أو فكرة من أفكاره. وكان رأس نابليون كبيراً بالنسبة لجسمه، لكنه كان ذا تكوين حسن، وكانت كتفاه عريضتين، وصدره بارزاً يَنُم عن بنية قوية. وكان لباسه بسيطا تاركاً أبهة الملبس لمارشالاته، ولم يكن في قبعته المعقدة التكوين والمنتشرة كالكعكة المطوية أية زينات خلا الشريط المثلث الألوان[*]. وعادة ما كان يلبس معطفاً رمادياً فوق الزي الرسمي لكولونيل من حراسه. وكان يحمل صندوق نشوق يضعه في حزامه (النطاق الذي يلفّه حول وسطه) ويستعمل ما به من نشوق (سعوط) بين الحين والآخر، وكان يفضّل ارتداء البنطلون القصير (الشورت) والجوارب الحريرية الطويلة على البنطلون الطويل. ولم يتحلّ أبداً بالجواهر، لكن حذاءه كان محفوفاً بالحرير وإبزيم من ذهب. لقد كان في ملبسه ينتمي إلى ما كان سائداً أثناء حكم ما قبل الثورة، تماماً كما جنحت فلسفته السياسية الاخيرة إلى المنحى نفسه (منحى ما كان سائداً قبل الثورة).

(*) بيعت إحدى قبعات نابليون في مزاد علني عقد في باريس في ٢ أبريل سنة ١٩٥٩ بمبلغ ٣٠,٨٤٠ دولارا[٦].

لقد كان نابليون منظماً دقيقاً إلى درجة الوسوسة[٧]. وكان يحب كثيراً الاستحمام بالماء الدافئ وأحياناً كانت تستغرق فترة استحمامه ساعتين، وربما كان يجدُ في هذا راحة له من التوتر العصبي وآلام العضلات، وراحة لجلده بعد اصابته بداء الحكَّة أو الهرش الذي انتقلت إليه عدواه في طولون[٨] وكان يضع الكولونيا (العطر الكحولي المعروف) على رقبته وجذعه كما كان يضعه على وجهه[٩]. وكان معتدلاً بدرجة كبيرة في طعامه وشرابه إذ كان يخلط النبيذ بالماء[١٠] كالإغريق القدماء وكان غذاؤه يستغرق عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة لا غير. وفي المعارك كان يأكل إذا سنحت الظروف، وغالبا ما كان يلتهم طعامه في هذه الظروف بعجلة، وكان هذا يسبب له أحياناً عُسر هضم، وكان هذا غالباً ما يحدث في أكثر اللحظات حرجاً كما حدث له في معركتي بورودينو Borodino وليبتسج[١١] Leipzig. وكان يعاني من الإمساك وصحب ذلك في سنة ١٧٩٧ داء البواسير الذي زعم أنه داواه بإجراء عملية نزف[١٢]. لقد قال مينيفال Meneval «إنني لم أره مريضاً أبداً» ولكنه أضاف «إلاّ أنه فقط، كان عُرضة بين الحين والحين لنوبة قيء Vomiting bile لا تترك أبداً آثاراً بعيدة المدى... وكان يخشى – لفترة – أن يكون قد أُصيب بداء وهن المثانة bladder لأن هواء الجبال الشديد سبّب له نوعاً من عُسر البول لكن اتضح أن هذا الخوف بلا أساس»[١٣]. وعلى أية حال، فهناك أدلّة قوية على أن نابليون أُصيب في أواخر حياته بالتهاب في جهازه البولي[١٤]. وكانت أعصابه ذوات الحساسية المفرطة تنهار (كما حدث في مينز Mainz في سنة ١٨٠٦) ليصير في حالة تشنج يشبه نوبات الصرع، لكن هناك اتفاقاً عاماً الآن أنه لم يكن مصاباً بداء الصرع[١٥].

لكن ليس هناك اتفاق كهذا فيما يتعلق بمعدته، فقد أخبر لاكاس Las Cases في ١٦ سبتمبر سنة ١٨١٦ «إنني لم أُصب أبداً بالصداع ولا بآلام في معدتي» وقد أيّده مينيفال Meneral في قوله هذا «لم أسمعه أبداً يشكو من آلام في معدته»[١٦] وعلى أية حال فقد قرّر بورين Bourrienne أنه رأى نابليون أكثر من مرة يشكو من آلام في المعدة حتى «أنني كنت أصطحبه إذا ما اعترته نوبة آلام المعدة إلى غرفة نومه، وكنت غالباً ما أضطر لمعاونته وسنده مخافة وقوعه». وفي وارسو (فارسافا) في سنة ١٨٠٦ بعد ان اجتاحته آلام عنيفة في

المعدة، تنبأ بأنه سيموت بالمرض نفسه الذي مات به أبوه – سرطان المعدة[١٧]. ولقد اتفق الأطباء الذين شرحوا جثته في سنة ١٨٢١ أنه كان مصاباً بمرض في المعدة يبدو ذا طبيعة سرطانية. وأضاف بعض الدارسين اصابته بالسيلان والزهري (السيفلس) ذاكرين أن آثار المرضين ظلت معه حتى آخر حياته[١٨].

وقد رفض نابليون أن يعالج اعتلاله الجسدي بالدواء وكان يؤمن بالحاجة إلى الجراحة فهي السبيل التي عادة ما كانت تستخدم مع الجنود الجرحى، اما الأدوية (العقاقير) فكان لا يثق فيها لآثارها الجانبية (لما تُحدثه من ضرر يفوق ما تقدمه من شفاء) وكان يفضّل إذا ما مَرِض أن يُعالج نفسه بالصوم وشرب ماء الشعير وعصير الليمون والماء الذي نقعت به أوراق البرتقال وممارسة رياضة عنيفة تؤدي لإفراز العرق، ثم يترك بدنه يشفي نفسه بنفسه. وقد ذكر لاكاس Las Cases « أن الإمبراطور لا يذكر أنه تداوى في أي وقت بالعقاقير»[١٩] لكن ذاكرة الإمبراطور كانت في هذا الوقت تجنح للنسيان (كان النسيان يريحه). وقد تحدث نابليون للطبيب نورثمبرلاند S. S. Northumberland وهو في الطريق إلى سانت هيلانه قائلاً: « اسمع يا دكتور. إن الجسد البشري كآلة مهيّأة لتحقيق أغراض الحياة، لقد نُظّم لتحقيق هذه الغاية – تلك هي طبيعته. اترك الحياة على سجيتها واترك هذا الجسد يعتني بنفسه، فهذا أفضل من أن تَشُلَّه بتحميله أعباء الأدوية »[٢٠]. ولم يتعب نابليون من ازعاج طبيبه الأثير كورفيزار Corvisart بحديثه عن عدم جدوى الأدوية حتى استطاع أخيراً أن يجعله يتّفق معه على أن الأدوية تُحدث من الأضرار أكثر مما تحدث من الفائدة[٢١]. ومازح نابليون طبيبه الأخير فرانسسكو أنتومارشي Antomarchi بأنه سأله عمّن سيحاسب يوم القيامة عن قتل أكبر عدد من البشر أهم الجنرالات أم الأطباء. ورغم اعتلاله الجسدي فقد كان لديه طاقة هائلة لم تتخل عنه أبداً. وكان العمل معه لا يعني أبداً البطالة المقنّعة، فلا مجال لبيروقرطية زائفة ومناصب بلا عمل، بل لقد كان العمل معه غالباً ما يؤدي إلى الموت البطيء (لكثرة الإرهاق) فكم من موظف (مسؤول) فخور استنفذ كل طاقته وغدا مرهقاً تماما بعد خمس أو ست سنوات من ملازمة الإمبراطور الذي تتطلب ملازمته أن يكون المرء لاهثا دوما. وقد اعتبر أحد موظفيه نفسه أنه محظوظ لعدم وجود مقر عمله في باريس « لو

كنت في باريس لوافتني المنية قبل انصرام الشهر بسبب الارهاق. لقد قتل نابليون بالفعل بورتالي Portalis وكريت Creet (المقصود قتلهم لكثرة ما أوكل إليهم من أعمال ومهمات) ويكاد يكون قد قتل أيضاً تريلهار Terilhard - رغم قوّة بنيته - لقد كان تريلهار - كالآخرين - لا يستطيع التبوّل»[22] وقد قال نابليون «إن الرجل المحظوظ هو الذي اختفى بعيداً عن عينّي في عمق إحدى المحافظات»[23] وعندما سأل نابليون لويس - فليبي دي سيجو Louis - Philippe de Ségur عما سيقوله الناس عنه بعد موته أجاب سيجو قائلاً إن العالم كله سيعبّر عن أسفه، لكن نابليون أجاب مصحّحاً: «عفواً، إنهم سيقولون: أف، لقد ارتحنا» سيقولونها بارتياح عميق وعلى مستوى العالم[24].

لقد أرهق نفسه كما أرهق غيره فقد كانت طاقته أقوى من بدنه. لقد ملأ في عشرين سنة أحداثاً تكفي لقرن لأنه كان يكثّف عمل الأسبوع ليجعله في يوم واحد. لقد كان يأتي إلى مكتبه في حوالي الساعة السابعة صباحاً، ويتوقع أن يكون سكرتيره مستعداً للحضور في أي وقت. لقد كان يقول لبورين Bourrienne «تعالَ، دعنا نذهب للعمل»[25] وقال لمنيفال Meneval «كن هنا في الساعة الواحدة ليلاً أو الرابعة صباحاً، لنعمل معاً»[26] وكان يحضر اجتماعات مجلس الدولة ثلاثة أيام أو أربعة كل الأسبوع، وقال للمستشار روديريه Roederer «إنني - دائماً - أعمل. إنني أعمل وأنا أتناول غدائي، وأنا في المسرح، بل إنني أقوم في منتصف الليل لأعمل».

وقد نتصوّر أنه لم يكن يجد وقتاً للنوم في ظل هذه الأيام الممتلئة عملاً وإثارة، لكن هذا غير صحيح فبورين Bourrienne يؤكد لنا أن الإمبراطور كان ينام جيداً، ولمدة كافية - سبع ساعات أو ثمان ليلاً بالإضافة إلى اغفاءة بعد الظهر[27] وكان يفخر قائلاً للاكاس Las Cases «إنني أستطيع النوم في أي ساعة وفي أي مكان إذا دعت الحاجة» وقد وضّح نابليون شارحاً أنه يحتفظ بأمور كثيرة مختلفة مرتبة في عقله أو ذاكرته كما لو كانت في أدراج خزانة «فعندما أرغب في ترك موضوع أغلق الدُّرج الذي به هذا الموضوع لأفتح آخر به موضوع آخر. . وإذا أردت النوم أغلقت كل الأدراج عندها أنام حالاً»[28].

٢- عقلــه

كان جوته Goethe يظن أن عقل نابليون هو أعظم عقل أنجبته البشرية[٢٩]. واتفق معه لورد أكتون Acton في ذلك الرأي. أما مينيفال Meneval الذي كان متأثراً بقربه من السلطان والشهرة فقد نسب إلى سيده (نابليون) «أرقى فكر مُنِحَهُ بشر على الإطلاق»[٣٠]. أمّا تين Taine المعارض الشديد للمبالغين في الاعجاب بنابليون، والذي لا يكل ولا يمل من شجب موقفهم، فإنه رغم هذا يُبدي دهشة شديدة من قدرة الإمبراطور على العمل الفعلي المكثف لفترة طويلة: «ليس هناك أبداً عقل كعقله من حيث التنظيم والإنضباط»[٣١] دعونا نوافق على أن عقل نابليون كان من بين عقول كل من تبوّأ منصباً تنفيذياً هو العقل الأكثر إدراكاً ووعياً وحدّة وقدرة على التذكر وبراعة في استخدام المنطق. لقد أحبّ أن يُشير لنفسه «كعضو في المجمع العلمي الفرنسي» وقد عبّر ذات مرّة للابلاس Laplace عن أسفه «لأن الظروف قد أبعدته كثيراً عن مجال العلم فقد كان يوّد أن يشتغل به ليكون عالما»[٣٢] ففي تلك اللحظة كان نابليون يقدّر الرجل الذي يضيف للفهم البشري تقديراً يفوق تقديره لمن يستحوذ على مزيد من السلطة(*) وعلى أية حال، يمكننا أن نسامحه لاحتقاره «أيديولوجية» المعهد العلمي الفرنسي الذي أساء فهم الأفكار فظنّها هي نفسها الحقائق الموجودة على أرض الواقع، وراح (أعضاؤه) يشرحون أوضاع العالم (أو الكون) واقترحوا أن يعرضوا عليه كيفية حكم فرنسا. لقد كان عقل نابليون يُعاني من عيوب الخيال الرومانسي، لكنه أيضاً كان يتعامل مع حقائق حية من لحم ودم من خلال احتكاكه اليومي بمثيرات واقعية. لقد كان نشاطه العقلي الدائم على أعلى مستوى يمكن أن يكون عليه رجل الدولة وقد وظّف هذا النشاط العقلي لتحقيق أهدافه بشكل دائم فأصبح جزءاً لا غنى عنه في أي عمل يقوم به.

لقد كان نابليون – في المقام الأول – حاد الحواس، بل لقد كان يعاني من هذه الحدة، فقد كانت أُذناه تلتقطان كل شاردة وواردة أو بتعبير آخر كانتا تسمعان حتى الأصوات

(*) قال أناتول فرانس Anatole France «لو كان نابليون حكيماً لعاش كالاثينيين وألّف أربعة كتب» يعني لاصبح مثل الفيلسوف سبينوزا(٣٣) Spinoza.

الخافتة، وكان أنفه حسّاساً يجيد الشّم (كان شمّاماً) وكانت عيناه تخترقان ما هو ظاهر لتتغلغل للأعماق، وتستبعد ما هو عارض لتستجلي المعنى واضحاً لا شِيَةً فيه. وكان محباً للاستطلاع وجّه آلاف الأسئلة، وقرأ مئات الكتب ودرس الخرائط والتواريخ وزار المصانع والمزارع، واندهش لاكاس Las Cases لاتساع دائرة اهتماماته واتساع مجالات معرفته عن البلدان والقرون. لقد كان يمتلك ذاكرة قوية أخضعها لطبيعة أغراضه فتخيّر لها ما يفيده. لقد كان يعلم ما يجب عليه نسيانه وما يجب عليه إبقاءه حياً في ذاكرته. لقد كان منظَّماً؛ إذ كان يرتب رغباته بشكل موحّد وطبقي (نظامي) بشكل واضح ومباشر ليجعل أفكاره وسياساته وطريقة حكمه تسير في كُلٍ متكامل لتحقيق هذه الأغراض. لقد كان يطلب من مساعديه تقارير وتوصيات تتضمّن أهدافاً محدّدة ومعلومات حقيقية وإجراءات تنفيذية ونتائج محسوبة لا مجرد كتابات بليغة وأفكار مثالية تدعو للإعجاب. وكان يدرس هذه المادة التي تقدمها التقارير والتوصيات في ضوء خبرته وأهدافه ومن ثم يُصدر تعليمات قاطعة ودقيقة. ولا نعلم لحكومته نظيراً في التاريخ من حيث الإعداد الدقيق المنظم لمثل هذه الإدارة الدقيقة المنظمة. فمع نابليون أسلمت الحرية قيادها لدكتاتورية النظام.

وكان بتحويله مذكراته إلى توقعات ماهراً في حساب نتائج الاستجابات المحتملة، وفي التنبؤ بخطط أعدائه وتحركاتهم، فمن أقواله: «إنني أقضي وقتاً طويلاً في التأمل والتفكير، فإذا كُنت نداً لموقف مستعداً لمواجهته إذا حل وقت المواجهة، فما هذا إلا لأنني قد فكرت في الأمر كثيراً قبل حدوثه... لقد كنتُ أُعد لكل احتمال عُدّته واضعاً في الاعتبار كل ما يمكن أن يحدث. لم يكن الجنّي هو الذي يُلهمني فجأة بما يجب عليّ فعله أو قوله.. وإنما هو تفكيري»(٣٤). ومن ثم فقد وجدناه يستعد - واضعاً في اعتباره التفاصيل - لمعركة مارنجو Marengo وأوسترليتس Austerlitz وتنبّأ لا بالنتائج فحسب وإنما بالوقت الذي ستستغرقه كل معركة منهما. وفي قمة ازدهاره (١٨٠٧) كان قادراً على الاحتفاظ برؤيته واضحة لا تشوِّش عليها رغباته. لقد حاول أن يدرس الصعوبات المتوقعة والمفاجآت التي يمكن حدوثها، وما قد يقوم به أعداؤه من مجازفات، وذلك ليستعد لمواجهتها: «عندما أُخطط لمعركة فلا يمكن أن يكون هناك من هو أكثر جُبناً مني. إنني أُضخّم أمام عيني كل

خطر يمكن أن يحدث في ظل ظروف المعركة»[٣٥]. لقد كان مبدأه الأول في حالة حدوث أمور طارئة غير متوقّعة هو مواجهة العدو حالاً وبأقصى سرعة مهما كان الوقت؛ نهاراً أم ليلاً. وكانت تعليماته الدائمة لبورين Bourrienne (سكرتيره): «لا توقظني من نومي إن كان لديك أخبار طيبة تريد أن تُفضي بها إليّ، ففي هذه الحال لا مبرّر للعجلة، لكن إن كان لديك أخبار سيئة فأيقظني على الفور، ففي حال الأخبار السيئة يجب ألاّ نُضيّع لحظة واحدة»[٣٦] وقد اعترف نابليون أنه رغم كل هذا الاحتياط وبُعد النظر إلاّ أنه فوجئ ببعض الأحداث غير المتوقعة لكنه كان يتباهى بقدرته على التفكير الواضح والعمل الحاسم والمؤثر عقب استيقاظه من نومه فجأة[٣٧] وقد حاول أن يُحصّن نفسه ضد المفاجأة وأن ينتهز المناسبة بسرعة، وكان يكرر دوماً قوله: «ليس هناك إلاّ خطوة واحدة بين النصر والهزيمة»[٣٨].

وكان حُكمه على الرجال عادة عميقاً كحساباته للوقائع والأحداث، فلم يكن ينخدع بالظواهر أو الاحتجاجات، فشخصية المرء – فيما يرى – لا تظهر على وجهه إلاّ إذا صار كبير السن، وغالباً ما يُخفى الحديث بالقدر الذي يُفصِح. لقد أخضع نابليون نفسه للدراسة على نحو متواصل وخَلُص إلى أن كل الرجال وكل النساء تحرِّك مصالحُهم الذاتية أفعَالهم الواعية. ومع أنه – أي نابليون – قد حظي بإخلاص شديد مجرّد من المصالح الذاتية (من ديزيه Desaix ولان Lannes ومينيفال Meneval ولا كاس Las Cases... ومن أولئك الجنود الذين كانوا يهتفون وهم يحتضرون: عاش الإمبراطور) إلاّ أنه لم يستطع أن يتخيّل وجود هذا النوع من الإخلاص الذي لا ينطوي على مصالح ذاتية أو بتعبير آخر لم يستطع أن يُقنع نفسه بوجود شيء اسمه «إنكار الذات» فوراء كل كلمة وخلف كل فعلٍ مَدْروس مقصود لم يكن يرى سوى سيطرة الأنا سيطرة لا تهمد – طموح الرجال الأقوياء وخوف الرجال الضعفاء، وتفاهة النساء أو خِداعهن. لقد كان نابليون يبحث في كل شخص عن العاطفة المتحكمة فيه أو نقطة ضعفه، ليلعب على أوتارها ويطوّعها لأغراضه الإمبراطورية.

ورغم كل حيطته وحذره وتوقعاته إلا أنه وقع في أخطاء متباينة تبايناً شديداً (لم يدرك

فحوى بعض الأحداث إلاّ بعد وقوعها) سواء فيما يتعلق بحُكمه على الرجال أم بتقويم النتائج وحسابها. وربما كان يعرف أن جوزفين لا يمكن أن تتحمّل شهراً من العِفّة (لا يمكن أن تصون عفّتها لمدّة شهر) وإن ماري لويز Marie Louise لا يمكن أن تَشُد النمسا إلى السلام. وكان يظن أنه أسعد القيصر اسكندر في تليست Tilsit وايرفورت Erfurt بينما كان القيصر يخدعه ببراعة بمساعدة تاليران. لقد أخطأ بتوسيع نطاق العداوة لبريطانيا في سنة ١٨٠٢ بمد سلطانه - بجسارة - على بيدمونت ولومبارديا وسويسرا. وقد أخطأ عندما نصَّب إخوته على عروش أكبر بكثير من عقولهم، وأخطأ عندما تصوّر أن الدول الألمانية في كونفدرالية الرَّاين ستخضع للسلطة الفرنسية ولن تفلت منها إذا واتتها الفرصة، وأخطأ بنشره وثيقة تُظهر نواياه في غزو تركيا، وأخطأ (كما اعترف في وقت لاحق) بتشتيت جيشه الأساسي (الجيش العظيم Grand Army) في أسبانيا. وأخطأ بغزوه روسيا الشاسعة أو ببقائه فيها حتى اقتراب الشتاء. ومع أنه كان متفوقاً على كثيرين إلاّ أنه كان كطبيعة الأشياء - كما قال - عرضة للمفاجآت ولأوهان المرض وتناقُص السلطة. لقد قال: «لقد فكرت في كثير من الخطط لكنني لم أكن أبداً حراً مطلق اليد في تنفيذ واحدة منها. فكل ما في الأمر أنني كُنت أمسك المِقْوَد (الموّجه) بيد ثابتة قوية، لكن الأمواج كانت أقوى، الحقيقة أنني لم أكن أبداً سيّد نفسي my own master، لقد كانت الظروف دائما هي التي تحكمني»(٣٩).

وعلى سبيل التخيّل أذكر الآتي. لقد كانت روح نابليون ساحة معركة بين ملاحظة حادة تضيء طريق العقل وتبث الحياة في خيال تتوجه الرومانسية أو حتى الخرافة(٤٠). فعندما ذهب بحملته إلى مصر أخذ معه كثيراً من كتب العلوم وكثيراً من الكتب العاطفية أو الخيالية ومنها كتاب روسو «La Nouvelle Héloise» وكتاب جوته «Werther» وكتاب ماكفرسون «Ossian»(٤١) وقد اعترف نابليون - في وقت لاحق - أنه قرأ كتاب جوته (Werther) سبع مرّات(٤٢)، وفي خاتمة المطاف خَلُص بأن «الخيال يحكم العالم»(٤٣) وعندما أوصلته الظروف إلى مصر استغرق في أحلام الاستيلاء على الهند وخوض الحروب في الشام، وتصوّر نفسه يغزو القسطنطينية بحفنة رجال ومن ثم يتجه إلى فيينا وكأنه

سليمان الذي لا يُقهر[*] (القانوني) بُعث من جديد ولأن القوة والسلطة قد طردتا الحذر من دمه، فقد تجاهل تحذير جوته (التحذير المعروف بالتوقف في الوقت المناسب Entsagen). لقد كانت نجاحاته المتوالية تتحدّى الأرباب، وتتمرّد على أي حدود، وفي خاتمة المطاف وجد نفسه منبوذاً بلا عون مقيّداً إلى صخرة في المحيط.

٣- شخصيته

لقد بدأ كبرياؤه أو اعتداده بنفسه من اكتفائه بذاته أو بتعبير آخر باعتماده على نفسه، كان من الطبيعي أن يرتبط هذا بكل اعضائه، ففي شبابه تضخّم هذا الشعور متخذاً شكلاً دفاعياً أثناء الصدامات التي جرت بينه وبين أفرادٍ أو أسرات في كورسيكا، وبعد ذلك تجلّى ضد عجرفة طلبة برين Brienne الذين كانوا يتكبّرون عليه بحكم انتماءاتهم الطبقية أو العرقية. ولم يكن اعتداده بنفسه على أية حال خالياً من الأنانية، لكن هذا لم يمنع اخلاصه وتكريمه لأمه ولجوزفين وأبنائها ولم يمنع حبه لابنه من ماري لويز ذلك الوليد الذي أطلق عليه اسم «ملك روما» وحبّه الشديد لإخوته وأخواته الذي كانوا أيضاً ذوي نفوس تواقة. لكن كلما اتّسعت دائرة نجاحاته في السلطة والمسؤوليات، ازداد اعتزازه بنفسه واستغرقته ذاته، وبدأ يميل لنسبة كل انتصارات جيوشه لنفسه، لكنه مع هذا كان يمتدح ديزيه Desaix ولان Lannes، وقد أحبهما حقاً وحزن من أجلهما. وأخيراً فقد اعتبر نفسه هو فرنسا ذاتها وتضخّمت ذاته مع كل اتساع لحدودها.

وأحياناً كان كبرياؤه ووعيه بقدرته يتدنّيان إلى مستوى من التفاهة أو الخواء، أو استعراض ما أنجزه. لقد قال يوماً لسكرتيره بورين: «حسناً يا بورين، أنت أيضاً ستكون خالداً» فلما سأله بورين: «لماذا يا جنرال» قال نابليون «ألست سكرتيري؟. أخبرني عن اسم سكرتير الاسكندر أليس هو هم Hm، هذا ليس أمراً سيئاً يا بورين»[٤٤]. وكتب نابليون ليوجين (حامل لقب نائب الملك في إيطاليا) في ١٤ أبريل سنة ١٨٠٦: «إن شعبي

(*) يقصد السلطان العثماني سليمان الذي تطلق عليه المراجع العربية والتركية اسم سليمان القانوني، وتسميه المراجع الأوروبية غالباً سليمان الرائع أو الفخم. (المترجم)

الإيطالي يجب أن يعرفني جيداً بشكل كاف ويجب ألا ينسى أن في إصبعي الصغير من الفهم أكثر مما في عقولهم جميعاً»(٤٥) وكان الحرف الأول من اسمه (N) يتألق في آلاف الأماكن وكان أحياناً يقترن بالحرف الأوّل من اسم زوجته جوزفين (J). لقد شعر الإمبراطور أن «الاستعراض» مسألة ضرورية كدعامة من دعامات الحُكم.

لقد أعلن لروديريه Roederer في سنة ١٨٠٤ عندما كان جوزيف (يوسف) يحتال ليكون وريثاً (ولياً لعهد نابليون): «إن السلطة هي خليلتي أو رفيقتي. لقد بذلت جهوداً فائقة في هذه الفتوحات، جهوداً تجعلني لا أسمح لأيٍّ مهما كان أن يأخذها مني أو يُبعدها عني أو حتى يرنو إليها أو يشتهيها.. منذ أسبوعين لم أكن مصمماً على معاملته بظلم. أما الآن فإنني غير متسامح. سوف ابتسم له بشفتي (ابتساماً ظاهرياً) - لكنه نام مع رفيقتي أو خليلتي (يقصد السلطة)»(٤٦) (هنا أظهر نابليون نفسه غير عادل. لقد كان عاشقاً غيوراً لكنه كان رجلاً متسامحاً) ومن أقواله «إنني أحب السلطة كما يحب الموسيقيُّ كمانه»(٤٧) لذا فإن طموحهُ قد أدى به إلى وثبات متتالية من منطقة إلى أخرى. لقد كان يحلم بمنافسة شارلمان في توحيد أوروبا الغربية بما في ذلك الولايات البابوية - بالقوة، ومن ثم يتتبع خطى قسطنطين فيخرج من فرنسا إلى ميلان ومنها إلى القسطنطينية (اسطنبول) ليستولي عليها، ويشيد أقواس النصر التقليدية لإحياء ذكرى انتصاراته، ويستمر في أحلامه فيجد أوروبا صغيرة جداً، وأنها مجرّد تل من تراب(٤٨)، فيشرع في منافسة الإسكندر الأكبر فيغزو الهند، قد يكون هذا عملاً شاقاً له وللمليون جندي التابعين له، لكن العظمة ستكون عِوَضاً كافياً له ولهم عن هذا التعب، وإن أدركهم الموت فلا بأس فهذا ليس ثمناً باهظاً «فالموت ليس مأساة، وإنما المأساة أن تعيش مهزوماً تافهاً، فتلك حياة تعني أنك تموت كل يوم»(٤٩) «إنني لا أعيش إلاّ للأجيال القادمة»(٥٠). لقد أصبح «المجد La gloire» هو حبّه المهيمن، لذا فقد قبلته فرنسا كلها - تقريباً - كمرشد (باعتباره نجماً هادياً) طوال عقد من الزمن، وكأنها مسوقة بقوى التنويم المغناطيسي.

لقد تابع تحقيق أهدافه بإرادة لا تلين إلاّ لتقفز من جديد - حتى استنفد طاقاته في بلوغ الذروة وأصبح بعدها جديراً بالشفقة. لقد توحّد طموحه الذي لا يهمد مع إرادته

وتوجهاته ليتفاعل مع جوهر أيامه، ففي برين Brienne قال: «حتى عندما لم يكن أمامي شيء محدد لأقوم به، فإنني كنت أشعر دائماً أنني لا يجب أن أضيع الوقت»(٥١) وإلى جيروم Jérôme في سنة ١٨٠٥ وجه حديثه قائلا: «إنني لا أدين إلاّ لقوة الإرادة والشخصية والقدرة على التنفيذ والجسارة»(٥٢) فالجرأة كانت جزءاً من استراتيجيته، وكان يستغل عامل الوقت فكان يواجه عدوه بسرعة إجراءاته، وأفعاله الحاسمة في وقت لا يتوقّعونه وفي مكان لا يتصوّرون حدوث المواجهة فيه. لقد كان يقول: «إن هدفي هو الوصول للهدف مباشرة دون أن أسمح لأي اعتبار أن يوقفني»(٥٣)، لكنه استغرق عقداً من الزمن ليتعلم الحكمة القديمة التي مؤداها أنه في السياسة يعتبر الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين.

وفي بعض الأحيان كان الهوى يُفسد أحكامه ومسلكه ويُشكل حاجزاً بينه وبين الرؤية الصحيحة. وكان نفاذ الصبر (قصير البال كما أنه قصير البدن)، وكلما اتّسع سلطانه زاد نفاذ صبره (قلّ طول باله). لقد كانت ضراوة أهل كورسيكا وحرارتهم تسري فيه مسرى الدم، ورغم أنه عادة ما كان يتحكم في نفسه إذا ما اعتراه الغضب إلاّ أن أولئك المحيطين به بدءاً من جوزفين إلى حارسه الشخصي القوي روستام Roustam كانوا يتحوّطون في كل كلمة وكل حركة مخافة إثارة سخطه. وكان نافذ الصبر إذا ما ظهر له تناقض أو توان أو عدم كفاءة أو غباء. وعندما ينفذ صبره لأمكن أن يوبّخ علناً أحد السفراء، وأن يسبَّ أحد الأساقفة وأن يركل فيلسوفاً في بطنه، وإذا لم يتوفر له ما هو أفضل ركل الأخشاب في المدفأة(٥٤). ومع هذا فقد كان غضبه يخمد بمجرد تفريغ شحنته، وغالباً ما كان هذا الغضب غطاء أو حركة من حركات السياسة، وفي معظم الحالات كان يقوم بعملية استرضاء لمن صبَّ عليهم غضبه بعد يوم أو حتى بعد دقيقة(٥٥). وقلّما كان فظًا إلى حد مؤلم، فهو في غالب أحواله رقيق مداعب فكهٌ (حاضر النكتة)(٥٦) لكن روح الفكاهة عنده قد أضعفتها المعارك وما تعرّض له من مواقف صعبة، ولم يُتح له وقت كثير لمسرّات أوقات الفراغ أو الانهماك في القيل والقال، أو ظُرف الصالونات. لقد كان رجلاً في عجلة دوماً تحيط به ثُلّة من الأعداء، ويمسك بزمام إمبراطورية، ومن الصعب علي رجل في عجلة من

أمره أن يكون متمدينا .

لقد استنفذ كثيراً جداً من طاقته في فتح نصف أوروبا، وتبقى منها – أي من هذه الطاقة – شطر كثير للانهماك في الأمور الجنسية على نحو منافٍ للعقل، وكان من رأيه أن كثيراً من أشكال الرغبة الجنسية يتم تعلّمها من خلال المعايشة البيئية أكثر من كونها مسألة موروثة فنجده يقول: «كل شيء بين الناس اصطلاحي أو متفق عليه حتى فيما يتعلق بالمشاعر التي قد يظن المرء أن الطبيعة وحدها هي التي فرضتها»[٥٧] لقد أمكنه أن يكوّن له باقة من المحظيات على النسق البوربوني بمعنى الكلمة لكنه تعامل أيضاً مع ستّ خليلات أخريات على فترات بين المعارك، وكانت كل امرأة تُسعده لليلة تعتبر نفسها قد دخلت التاريخ، وعادة ما كان يُفشي أسرار لقاءاته الجنسية بفظاظة ويتحدث عن آخر شريكاته في الفراش ليس بامتنان وإنما بقسوة[٥٨]. وقد تسبَّب عدم إخلاصه في إزعاج جوزفين لساعات طوال قضتها في كآبة وحزن، لكنه شرح لها الأمر (إن جاز لنا أن نصدّق مدام دي ريموزا Remusat) قائلاً إن هذه التسالي وهذا الترويح عن النفس أمر طبيعي وضروري ومعتاد ولابد أن تتفهمه الزوجة، وكانت تبكي، وكان يُطيّب خاطرها، وكانت تسامحه[٥٩]. وفيما عدا ذلك فقد كان زوجاً صالحاً بقدر ما تسمح به مهامه وما تحتمه من تنقلات كثيرة.

وعندما أتته ماري لويز Marie Louise قبل بمبدأ الاكتفاء بزوجة واحدة (على حد علمنا) ولو حتى يكون الزنا قد يتسبب في فقدانه النمسا، وتضاعف إخلاصه لها (لماري لويز) عندما أدرك ما تعانيه من آلام مبرحة وهي تضع له طفلاً. لقد كان دائماً يُظهر حبه الشديد للأطفال وسجلت المدوّنة القانونية النابليونية لهم ما ينم عن عناية خاصة[٦٠]. والآن فقد أصبح ابنه الذي سماه «ملك روما» معبوده ومحبوبه ومَعْقِدَ آماله، فراح يعتني به لتوريثه حُكم فرنسا واهبة القوانين لأوروبا الموحدة ليحكمها بِحكمة. وبذا تضخمت ذاته المتضخمة أصلاً بالانغماس في حب الزوجة والحب الأبوي (حبه لابنه).

لقد كان نابليون منشغلاً بالأمور السياسية انغماساً هائلاً لا يجعل له وقتاً لأصدقاء. بالإضافة إلى أن الصداقة تعني أخذاً وعطاء على قدم المساواة وقد وجد نابليون أنه من الصعوبة أن يُذعن لمساواته وقد وجد نابليون أنه من الصعوبة أن يُذعن لمساواته مع آخرين

في أي شكل من أشكال المساواة. لقد كان هناك مخلصون أوفياء له ضحّى بعضهم بحياته فداء لمجده ومجدهم ومع هذا لم يكن أحدهم يفكر في أن يدعوه صديقاً. لقد أحبّه يوجين لكن حبّه له كان كحب الابن لأبيه أكثر منه كحب الصديق لصديقه، ويحكي لنا بورين Bourrienne (وهو لم يكن جديراً بالتصديق تماماً) أنه سمع مراراً من نابليون في سنة ١٨٠٠ قوله:

«الصداقة ليست إلاّ اسماً بلا مضمون. أنا لا أحبُّ أحداً. إنني حتى لا أحب إخوتي، ربما أحب جوزيف (يوسف) قليلاً بحكم التعوّد ولأنه أخي الكبير. وأنا أيضاً أحب دوروك[*] Duroc... اعلم جيداً أنه لا أصدقاء حقيقيين لي. فطالما أنني مستمر على ما أنا عليه، فإنه يمكنني أن احتفظ بعدد كبير من الأصدقاء الظاهريين (غير الحقيقيين) كما أشتهي. دع رقة الشعور للنساء، فتلك مهمتهن. لكن الرجال يجب أن يكونوا رابطي الجأش ذوي أهداف محددة، وإلا تخلّوا عن مهامهم في الحرب والحكم»[٦١].

تلك هي الحلقة النابليونية الرواقية لكن ليس من السهل أن نوفّق بين هذا وإخلاص رجال مثل ديزيه Desaix ودوروك Duroc ولان Lannes ولاكاس Las Cases وآخرين كثيرين دام إخلاصهم له طوال حياتهم. بل ان بورين نفسه يصدّق على أن نابليون كان «رفيقاً رقيق المشاعر خارج نطاق المعارك»[٦٢] ويوافق مينيفال Meneval الذي كان قريباً من نابليون طوال ثلاثة عشر عاما على ذلك فيقول:

«لقد توقّعت أن أجده فظاً متقلب المزاج، لكنني - على العكس من ذلك - وجدته صبوراً متسامحاً من السهل بعث المسرّة في نفسه، وهو بلا شك منضبط كما أنه مرح وكثيراً ما يتخذ مرحه طابع الجلبة وروح السخرية، وأحياناً يتخذ طابع الوداعة الجذابة.. فلم أعد خائفاً منه، ومما جعلني أستمر في حالة الاطمئنان إليه كل ما رأيته من أساليب مؤثرة وداعية للمسرّة كان يتّبعها في تعامله مع جوزفين وحرصه على الاخلاص لضباطه ورقته مع ذوي قرابته ومع مستشاريه ووزرائه وألفته مع جنوده»[٦٣].

(*) كبير مارشالات القصر. قُتل في بوتزن Bautzen في سنة ١٨١٣.

ومن الواضح أنه كان يستطيع أن يكون شديد البأس إذا ما رأى أن السياسة تتطلب هذا، كما كان يغدو لطيفاً رقيقاً إن سمحت السياسة بذلك، فالسياسة عنده تأتي في المقام الأول. لقد أمر بسجن رجال كثيرين ومع هذا فقد سجل التاريخ له كثيراً من مظاهر التسامح أوردها فريديريك ماسون Frédéric Masson في مجلّده. واتخذ إجراءات لتحسين أحوال سجون بروكسل لكن أحوال السجون الفرنسية في سنة ١٨١٤ كانت سيئة لا تتناسب مع الكفاءة العامة التي اتسم بها حكمه. لقد رأى آلاف القتلى في ساحة المعركة ومع هذا لم يتردد في خوض معارك أخرى، ومع هذا فقد سمعنا أنه غالباً ما كان يتوقف لإتاحة فترة راحة لجندي جريح ورآه فيري كونستان (قستنطين) Very Constant «يبكي أثناء تناول إفطاره بعد عودته من عند سرير المارشال لان Lannes[٦٤] الذي أصيب بجروح مميتة في إسلنج Essling في سنة ١٨٠٩».

ولا جدال في سخائه واستعداده للعفو. لقد عفا كثيراً عن بيرنادوت Bernadotte وبورين Bourrienne وعندما طلب منه كارنو Carnot وشينييه Chenier - بعد أن ظلاّ يعارضانه سنوات - أن ينقذهما من الفقر أرسل لهما - على الفور - ما يُعينهما. وفي سانت هيلانة التمس الأعذار لمن تخلّوا عنه في سنة ١٨١٣ أو سنة ١٨١٥. ولم يكن هناك إلاّ البريطانيون الذين ظل ممتعضاً منهم حتى النهاية بسبب عداوتهم المتواصلة له، فلم يكن يرى في بت Pitt سوى أنه مرتزق قاس، وكان غير منصف على نحو أبعد في رأيه في سير هدسون لو Hudson Lowe وكان من المحال عليه أن يرى ميزة في ولنتجتون[٦٥] Wellington وكان عادلاً بدرجة كبيرة في تقويمه لنفسه: «إنني اعتبر نفسي رجلاً طيب القلب»[٦٦] لقد قيل لنا ان الرجل مهما كان شأنه لا يمكن أن يعتبر بطلاً في نظر خادمه الخصوصي لكن فيري كونستان Very Constant الذي ظل طوال أربعة عشر عاماً يعمل مع نابليون بهذه الصفة يسجل لنا في مذكراته التي شغلت عدة مجلدات «إعجاباً يفوق الحد»[٦٧].

ولم يكن الذين نشأوا في رحاب الحكم القديم (ملكية ما قبل الثورة) وتشربوا عاداته الأنيقة ليتحملوا طريقة نابليون المباشرة الفظة في الحركة واللباس. لقد أثار سخرية مثل هؤلاء بمركبته التي يريد أن يؤكد بها ذاته على نحو أخرق، وبطريقته الخشنة في الحديث في

بعض المناسبات. ولم يكن يعرف كيف يُرضي هؤلاء الناس ويبدو أنه لم يكن مهتماً بذلك فقد كان أكثر حرصاً على الجوهر منه على الشكليات. «إنني لا أحب الغموض والإبهام وهذه العبارة السطحية التي تشير إلى الايتكيت أو آداب المجتمع.. إن هذا إلاّ وسيلة الأغبياء ليرفعوا أنفسهم لمستوى رجال الفكر.. وعبارة «الكياسة أو الذوق الحسن» هي الأخرى من التعبيرات التقليدية التي لا تعني لي شيئاً.. أما ما يُقال له «زيّ أو مُودة» سواء كان حسناً أم سيئاً فلا يؤثر فيّ. إنني لا أهتم إلاّ بقوة الفكر»[٦٨] وعلى أية حال فإنه كان يبدي اعجابه – على نحو سرّي بهدوء الرجال المهذبين ودماثتهم، وكان يتطلع لقبول الارستقراطيين له، أولئك الارستقراطيون الذين كانوا يسخرون منه في صالونات فابورج سان جرمين **Faubourg St - Germain**. ومن ناحية فإنه بطريقته الخاصة كان «يستطيع أن يكون جذاباً فاتناً عندما يريد»[٦٩].

وربما يرجع رأيه السخيف في النساء إلى تسرعه في عدم الاهتمام بمشاعرهن، لقد أبدى ملاحظة لمدام شاربنتييه Charpentier قائلاً: «يا لَبَشاعة منظرك في هذا الرداء الأحمر!»[٧٠] وجعل من مدام دي ستيل Stael عدوّه له عندما ذكر لها أنه يُقدر النساء وفقاً لدرجة خصوبتهن (قدرتهن على الإنجاب) وقد وبّخته بعض النسوة لفظاظته بلطف أنثوي، فعندما قال لمدام دي شيفريز Chevreuse «صدقيني ما أشد حُمرة شعرك!» أجابته قائلة: «ربما كان الأمر كذلك يا سيدي، لكن هذه هي المرة الأولى على الإطلاق يقول لي رجل هذا القول»[٧١] وعندما قال لذات الجمال المشهور: «مدام إنني لا أحب أن تتدخل النساء في السياسة». أجابته إجابة مفحمة قائلة: «أنت على حق أيها الجنرال، لكن في بلد تُقطع فيه رؤوسهن، من الطبيعي أن يُردن معرفة السبب»[٧٢] ومع هذا فإن مينيفال Meneval الذي – غالباً – ما كان يراه كل يوم لاحظ «جاذبية نابليون التي لا تُقاوَم»[٧٣].

وكان نابليون يحب في بعض الأحيان أن يكون حديثه على سبيل المزاح، وغالباً ما يكون ذلك مفيداً وموجهاً. وكان يدعو العلماء والفنانين والممثلين والكتاب لمائدته ويدهشهم بدماثته وسعة معلوماته في مجالات تخصصهم وبراعة ملاحظاته، وقد ترك لنا إيزابي Isabey رسام المنمنمات ومونج Monge العالم الرياضي وفونتين المعماري وتالما الممثل

مذكرات عن هذه اللقاءات، وجميعهم يشهدون بأن مناقشات نابليون معهم كانت ممتازة وودودة ومرحة[٧٤] . وكان كثيراً ما يُفضّل الحديث على الكتابة، فقد كانت أفكارُه تسبقُ كلامه لذا فعندما كان يريد كتابة أفكاره فإنه كان يكتبها بسرعة شديدة حتى أن أحداً - بمن في ذلك هو نفسه - لا يستطيع فك مغاليقها[٧٥] . لذا فقد كان يُملي، وقد تم نشر ٤١,٠٠٠ خطاب من خطاباته ولا شك أن آلافاً أخرى لم تنشر، وهذا يجعلنا نفهم مدى المعاناة التي كان يعانيها سكرتيروه. لقد نجا بورين الذي عُيّن سكرتيراً له في سنة ١٧٩٧ وكان حسن الحظ إذ تم فصله من عمله في سنة ١٨٠٢ وبذا تمكن من العيش حتى سنة ١٨٣٤، لقد كان بورين يتوقع أن يستدعيه نابليون في السابعة صباحا ليظل يعمل معه طوال النهار كما كان يستدعيه ليلاً. وكان بورين يُتقن عدة لغات حديثاً وكتابةً كما كان يعرف القانون الدولي، وكان له طريقته في الاختزال مما مكّنه عادة من الكتابة أسرع مما يُملي نابليون .

أما مينيفال Meneval الذي خلف بورين في سنة ١٨٠٢ فقد كان يعاني من العمل مع نابليون أكثر من معاناة بورين فهو يقول: «إنني لم أكن أعرف أي نوع من أنواع الاختزال» وكان نابليون يحبه وغالباً ما كان يمزح معه لكنه كان يرهقه كل يوم غالباً وبعدها يطلب منه أن ينصرف ليأخذ حماماً[٧٦] . وقد ذكر الإمبراطور وهو في سانت هيلانه: «إنني مسؤول تقريباً عن موت مينيفال. لقد كنت ملزماً بإعفائه لفترة من واجبات وظيفته وجعله بالقرب من ماري لويز للاستشفاء وكان منصبه الجديد هذا لا ينطوي على مهام عمل حقيقية»[٧٧] وفي سنة ١٨٠٦ خوّله نابليون في اختيار مساعد له أي مساعد لمينيفال، فرشح فرانسوا فان François Fain الذي عمل مع نابليون للنهاية وفي كل المعارك. ومع هذا فقد كان مينيفال قد تعب تماما فهرب من إمبراطوره المحب له في سنة ١٨١٣ . لقد كان حُب مينيفال له من نوع الحب الذي يزدهر في ظل الاعتراف بعدم المساواة بين المحبين، وهو حب غير مذموم.

٤- الجنـرال

لقد صاغ تعليمه العسكري في برين Brienne - إلى حد ما - بدنه وعقله وشخصيته ومجال اهتمامه، فهناك تعلّم كيف يكون لائقاً لكل طقس أو مكان، وأن يفكر بوضوح في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل وأن يميز بين الواقع والرغبة وأن يُطيع الأوامر وينفذها دون تردد وأن ينظر لتضاريس المنطقة من حيث إمكانية حركة الجماعات فيها، هل الأصلح أن تكون حركتها مكشوفة أم من وراء سُتر وأن يتوقع ما يُزمع العدو القيام به من مناورات وأن يستعد لمواجهتها وأن يتوقع ما سيحدث فلا يُفاجأ وأن يلتقي بالعدو لقاءً محسوبا لا لقاء الفُجاءة وأن يرفع الروح المعنوية لرجاله بالخطابة فيهم وأن يعوّض آلامهم ببث روح العظمة والمجد فيهم وأن يحبب إليهم الموت في سبيل الوطن وكل هذا بدا لنابليون عِلْم العلوم، فما دامت حياة الأمة تقوم على اصرارها وقدرتها على الدفاع عن نفسها عن طريق الحرب كَحَكَم نهائي لا خيار سواه إن فشلت الوسائل الأخرى. لقد أعلن نابليون أن « فن الحرب دراسة هائلة تضم بين جنبيها كل الدراسات الأخرى »[٧٨].

وعلى هذا فقد تثقَّف بمعظم هذه العلوم التي تُسهم في تكوين علم الدفاع عن الوطن. لقد قرأ التاريخ ليتعلم طبيعة الإنسان وسلوك الدول. ولقد أدهش العلماء في وقت لاحق بمعلوماته عن الإغريق والرومان ومعلوماته عن أوروبا الوسيطة والحديثة. لقد « درس وأعاد دراسة » معارك الإسكندر، وهانيبال، وقيصر وجوستافوس أدولفوس Gustavus Adolphus وتورين Turenne ويوجين السافوي Eugene of Savoy وفريدريك الأكبر، وقال لضباطه « سيروا على نهجهم وارفضوا الاقتداء بغير هؤلاء الرجال العظماء »[٧٩].

وانتقل من الأكاديمية العسكرية إلى المعسكر، ومن المعسكر للحكم، وربما أخذ عن أمه الرواقية (غير العاطفية) موهبة القيادة وعرف أسرارها، وكان لديه الشجاعة لتحمل المسؤولية وللمخاطرة بأمور مجرى حياته مرة ومرة معتمداً على تقديره للأمور، وقام بالمغامرة إثر المغامرة مستهزئاً - غالباً - بالمحاذير. لقد خسر الرهان الأخير، لكن بعد أن فرض نفسه كأبرع جنرال في التاريخ.

وبدأت استراتيجيته العسكرية باتخاذ إجراءات لكسب عقول رجاله وقلوبهم. لقد شغل

نفسه بخلفية كل ضابط تحت قيادته المباشرة وشخصيته وآماله. وكان يختلط بين الحين والآخر بالجنود العاديين مذكّراً إياهم بانتصاراتهم سائلاً عن أحوال أسرهم مستمعاً لشكاياتهم. وقد كان يحشد حرسه الإمبراطوري ويسميهم « المدمدمون » لكثرة دمدمتهم، وقد حاربوا من أجله حتى الموت. وفي بعض الأحيان كان يتحدث إليهم ساخراً من سذاجة جندي المشاة، فعلى سبيل المثال عندما كان في سانت هيلانة أبدى ملاحظة مؤداها « أن الجنود جُعلوا ليُلقوا بأنفسهم إلى التهلكة »(٨٠) ولكنه تبنّى – وأعان – كل أطفال المقاتلين الفرنسيين الذين ماتوا في أوسترليتز(٨١) Austerlitz . لقد كان جنوده يحبونه حباً يفوق حب أي طائفة أخرى من الشعب الفرنسي له، لذا فقد كان حضوره في ميدان المعركة – وفقاً لرأي ولنجتون Wellington يعادل حضور أربعين ألف مقاتل(٨٢).

وكانت خطاباته لجيشه جزءاً مهما من استراتيجيته، فمن أقوال أنه « في الحرب تعتبر المعنويات والرأي تعادلان ما هو أكثر من نصف المعركة »(٨٣). فمنذ معركة قيصر على نهر الروبيكون Rubican لم يكن لقائد مثل هذا التأثير الذي كان نابليون يُحدثه في جنوده. ويخبرنا بورين الذي كتب بعض هذه البيانات الشهيرة من املاء نابليون أن الجنود في حالات كثيرة « لم يكونوا يستطيعون فهم ما يقوله نابليون لكن هذا لم يكن مهما فقد كانوا على استعداد لتنفيذ أوامره راغبين غير مكرهين حتى لو كانوا حُفاة وبلا مؤن »(٨٤) وفي كثير من خطبه شرح لهم خطط عملياته وعادة ما كانوا يفهمون ما يعنيه، وكانوا يتحملون المسيرات الطويلة الشاقة بصبر مما كان يمكّنهم من مفاجأة العدو أو اجتياحه بالتفوق العددي عليه. ومن أقوال نابليون أن « أفضل الجنود هو الذي يسير بلا تعب، فهذا أفضل من مقاتل لا يجيد المسيرات الطويلة »(٨٥) وفي اعلان سنة ١٧٩٩ قال للمستمعين إليه: « إن فضائل الجندي تتمثل في الجَلَد والتحمل والنظام، وتأتي الشجاعة في المقام الثاني »(٨٦) وغالباً ما كان يبدي رحمة ولكنه لم يكن يتردد في اتخاذ قرارات قاسية إذا كان الانضباط في خطر. وبعد انتصاراته الأولى في إيطاليا عندما سمح لجنوده – بعد تروّ – بشيء من السلب لتعويض تقصير حكومة الإدارة في إمداد الجنود بالطعام واللباس والرواتب، عاد فمنع مثل هذه المسلك (السلب) وفرض النظام بشدّة ومنع السلب وسُرعان

ما وُضعت أوامره موضع التنفيذ. يقول مينيفال «لقد شهدت فيينا وبرلين ومدريد وغيرها من المدن حالات إدانة جنود وإعدامهم بمن فيهم جنود تابعون للحرس الإمبراطوري لارتكابهم أعمال سلب ونهب»[٨٧].

وقد عبّر نابليون عن جانب من استراتيجية في صيغة رياضية كالتالي: «قوة الجيش كالقوة الدافعة في الآلة تُقدَّر بمدى السرعة التي تم تحقيقها في اجمالي مدة زمنية محدّدة. فالسرعة في المسير (الزحف أو الحركة) تزيد من الروح المعنوية للجيش، وتزيد من قوته لتحقيق النصر»[٨٨] وليس هناك مصدر موثق لتأكيد قول من ينسب إليه قوله: «إن الجيوش تزحف على أمعائها» والمقصود امداداتها من الطعام[٨٩]. بل إن رأيه أقرب ما يكون إلى القول «بأنها تزحف على أقدامها» فقد كان شعاره «القوة، النشاط، السرعة»[٩٠] وعلى هذا فهو لم يكن يعوّل على التحصينات كوسائل للدفاع فقد كان سيضحك ساخراً من خط ماجينو Maginot الذي أقيم سنة ١٩٣٩، فقد قال في سنة ١٧٩٣ (أي قبل إنشاء خط ماجينو الدفاعي بحوالي قرن ونصف): «إنه لمن البديهي أن الجانب الذي سيبقى خلف خط محصّن سيظل دائماً مهزوماً» وكرر قوله هذا في سنة ١٨٠٦[٩١]. لقد كانت عناصر استراتيجية نابليون تقوم على: ترقُّب قيام العدو بتقسيم قواته أو نشرها، واستخدام الجبال والأنهار كساتر لحماية تحركات قواته (أي قوات نابليون)، والاستيلاء على المرتفعات الاستراتيجية التي تستطيع منها المدفاع أن تدك ساحة المعركة، واختيار ساحة معركة تُتيح المناورة للمشاة وقوات المدفعية والفرسان، والتركيز على جانب من القوات – عادة ما يكون ذلك بالحث على سرعة الحركة – لمواجهة الكتلة الأكثر عدداً من قوات العدو التي بعدت عن القلب بُعداً يجعل من الصعب قدوم قوات أخرى لدعمها في الوقت المناسب.

والمَحَك الأخير للجنرال (نابليون) هو تكتيكاته – تنظيم قواته والمناورة بها من أجل المعركة وأثناءها. وكان نابليون يتخذ لنفسه موقعاً يستطيع منه أن يُشرف منه على أكبر مساحة من ساحة العمليات بحيث يكون آمناً له بقدر المستطاع. وطالما كانت خطة العمليات قد بدأت في الدخول إلى حيز التنفيذ – بما يتطلبه ذلك من تغيير سريع في مسار وقائعها – فإن هذا يستلزم تركيزاً ومتابعة شديدين منه، وفي هذه الحال يكون لسلامته

(أمنه الشخصي أو عدم إصابته أو وقوعه في يد العدو) الاعتبار الأول، وحتى هذا كان بناء على تقدير جنوده للموقف أكثر من كونه إجراء عملياً يتم تنفيذه فعلاً، ذلك أنه إن خطر في باله أنه من الضروري أن يعرّض نفسه للخطر فإنه لم يكن يتردد في ذلك كما حدث في أركول Arcole وأكثر من هذا فقد قرأنا عن مقاتلين قد قُتلوا وهم إلى جواره في موقعه الذي يشرف منه على المعركة. لذا فقد كان يُرسل التعليمات لقيادات قواته في المشاة والمدفعية والفرسان عن طريق عساكر المراسلة الراكبين، ليعودوا إليه سِراعاً لإخباره بمجريات الأمور في كل جانب من جوانب مسرح العمليات، فقد كان نابليون يعتقد أن الجنود لا تكون لهم قيمة بشكل أساسي في المعركة إلاّ من خلال مواقعهم، والمناورة بهم. هنا - أيضاً - كان هدفه هو التركيز بزخم جنوده وكثافة نيرانه علي نقطة بعينها، وكان يفضل أن تكون هذه النقطة هي جناح جيش العدو على أمل بث الفوضى في صفوف قوات جيش العدو في هذا الجزء (الجناح) مما يؤدي لانتشاره (تشتته). فمن أقواله: «في المعارك تأتي لحظة يشعر فيها أشجع الجنود - بعد أن يكونوا قد بذلوا أقصى المجهود - بالرغبة في الجري (ترك ساحة القتال).. فالجيشان المتحاربان كيانان يلتقيان ويناور كل واحد منهما ليخيف الآخر، وتحدث لحظة الرعب، ولابد من استغلال هذه اللحظة والاستفادة منها. وعندما يكون الإنسان قد اعتاد حضور العمليات العسكرية، يمكنه أن يتعرّف على هذه اللحظة ويحدّدها دون مشقّة»[٩٢]. وكان نابليون سريعاً - على نحو خاص - في انتهاز مزايا هذه الفرص في تطور المعارك أو أنه إذا اعترى رجاله التردد، يقوم بإرسال التعزيزات، أو يغير خط العمليات أثناء المعركة، وقد أدى هذا إلى توفير يوم لصالحه في معركة مارينجو Marengo. لم يكن التراجع لفظاً معروفاً في قاموسه قبل سنة ١٨١٢.

وكان من الطبيعي أن رجلاً طوَّر مثل هذه المهارة القيادية العسكرية أصبح يجد إثارة مُرعبة في الحرب. لقد سمعنا أنه يجعل المدنيين (غير العسكريين) في المحل الأول قبل الجنود، فقد كان يُعطي الأسبقية في بلاطه لرجال الدولة (المدنيين) ليأتي المارشالات بعدهم (في المقام الثاني) وعندما كان ينشأ صراع بين السكان المدنيين والعسكريين، فإنه كان يأخذ تلقائياً جانب المدنيين[٩٣]. لكنه لم يستطع أن يُزيل من نفسه أو من الآخرين الإحساس بأنه

كان يجد في ساحة المعركة سعادة أكثر من أي سعادة أخرى في مجال الإدارة. لقد قال، واعترف لجوميني Jomini أن هناك «مرحاً أو متعة في الخطر» وأنه يحب «جو الإثارة في المعركة»[٩٤] لقد كان أسعد ما يكون عندما يرى جموع المقاتلين يتحركون وفقاً لمشيئته في العمليات العسكرية التي غيّرت الخريطة وكتبت التاريخ. لقد كان ينظر لمعاركه على أنها استجابة لهجوم (رداً على هجوم) لكنه كان يؤمن بما ذكره لبورين - على حد رواية هذا الأخير: «إن سلطاني يقوم على مجدي، ومجدي يعتمد على انتصاراتي. وسيضيع سلطاني إذا لم أدعمه بمجد جديد وانتصارات جديدة. فالفتح (الغزو) هو الذي جعلني على ما أنا عليه الآن، والفتح وحده هو الذي سيبقيني»[٩٥] ولا نستطيع ان نثق تماما في نسبة هذا الاعتراف بالغ الأهمية لنابليون، فقد رواه بورين غير المحب لنابليون (في فترة كتابته عنه) لكن لا كاس Las Cases الذي كان نابليون بالنسبة له يأتي في المحل الثاني مباشرة بعد الرب نسب إليه قوله (في ١٢ ماسر سنة ١٨١٦): «لقد تطلعت أن أكون إمبراطوراً للعالم، وأن أؤمّن ذلك لنفسي، فالسلطة التي لا تحدها حدود مسألة ضرورية لي»[٩٦].

أكان نابليون - كما قال أعداؤه عنه - جزاراً؟ لقد قيل إنه جند في جيوشه عدداً يبلغ إجماليه ٢,٦١٣,٠٠٠ فرنسي[٩٧]، مات منهم حوالي مليون في سبيل خدمته[٩٨] . أكان يُزعجه القتل؟ لقد ذَكَرَ القتل الجماعي (مُنَدِّداً) في مناشدته للقوى المعادية له طلباً للسلام، وقيل إنه بكى عندما رأى جثث القتلى في إيلاو[٩٩] Eylau، بل إنه قال للاكاس Las Cases بعد أن انتهى كل شيء، وراح يسترجع ما كان: «لقد كنت أقود المعارك التي أخوضها واضعاً في اعتباري مصير الجيش ككُل (برمته) دون أن أضع العواطف في اعتبار. لقد كنت أرقب تنفيذ المناورات التي يقتضي تنفيذها كثيراً من القتلى يسقطون بين صفوفنا، ومع هذا تظل عيناي جافتين (بلا دموع)»[١٠٠]. ومن المحتمل أنه كان على الجنرال (نابليون) أن يعزّي نفسه بفكرة أن موت هؤلاء الشباب صغار السن لم يكن أمراً مهماً بالنسبة للمكان والزمان اللذين لاقوا حتوفهم فيهما، فعلى أية حال، أليست هذه هي النهاية الطبيعية لهم، فمن لم يمت بالحرب مات بغيرها، وإن كان - أي نابليون - يؤمن بشكل غامض أن موتهم في غير الحرب أقل مجداً لهم كما أن موتهم في غير الحرب ربما سبب لهم آلاماً أكثر ففي

الحرب يكون المرء مخدّراً مستعداً للموت، كما أن الموت في الحرب يُعطي المرء تعويضاً عن موته متمثلاً في بريق الشهرة!

ومع هذا فقد شعر كما شعر كثيرون من العلماء (رانكه Ranke وسورل Sorel وفاندال Vandal . . .) أنه إن كان مذنباً فإنما ارتكب آثامه ضد من هم أشد منه إثماً ذلك أنه حارب ومارس القتل دفاعاً عن النفس ذلك لأن المتحالفين ضده قد صمّموا على عزله باعتباره ابناً للثورة ومغتصباً لعرش البوربون. لقد طالب مراراً بالسلام، فلم تلق طلباته بهذا الشأن إلاّ إعراضاً. ومن أقواله: «إنني ما غزوت إلاّ دفاعاً عن النفس. فأوروبا لم تكف عن شن الحرب ضد فرنسا ومبادئها وضدي شخصياً. وظل التحالف الأوروبي قائما ضد فرنسا إما سراً وإما جهراً»[١٠١] وكان نابليون قد تعهد عند تتويجه بالحفاظ على «الحدود الطبيعية» لفرنسا، فماذا كانت ستقول فرنسا لو أنه تخلّى عن هذه الحدود؟ فمن أقواله «إن السُّوقة لم يتوقفوا عن لومي على أساس أن كل حروبي إنما كانت لتحقيق طموحي. لكن أكانت هذه الحروب من اختياري؟ ألم تكن دائماً مفروضة يتعذر اجتنابها؟ ألم تكن نضالاً بين الماضي والمستقبل»[١٠٢]. وكان نابليون دائماً مثقلاً – بعد الأعوام الأولى النشطة المفعمة أحداثاً – بمشاعر مؤدّاها أنّه مهما كان عدد انتصاراته فإن هزيمة واحدة حاسمة ستمحقه ليغدو تحت رحمة أعدائه. لقد كان مستعداً للتنازل عن نصف العالم مقابل السلام لكن وفقاً لشروطه.

ويمكننا أن نُنهي حديثنا بالحديث عن نابليون كجنرال، أنه كان حتى في تيلست Tilsit (١٨٠٧) وفي غزوه لأسبانيا، في حالة دفاع، ومن ثمّ فإن محاولته لضم النمسا ثم بروسيا فأسبانيا فروسيا وإحكام الحصار القارّي (المضاد) إنما فرض حروباً إضافية على فرنسا المنهكة وأوروبا المتعضة. ورغم أنه كان قد برهن على أنه إداري متفوق من الطراز الأول إلاّ أنه تخلّى عن الاهتمام بأمور الدولة في سبيل تحقيق المجد في مضمار مباهج الحرب. لقد رَبح فرنسا كجنرال، لكنه أيضاً ضيّعها كجنرال. لقد أصبح موطن قوته هو حَتْفه.

٥- نابليون الحاكم

لم يَنْس نابليون تماما وهو حاكم مدني أنه كان قد نشأ في رحاب الجنرالية. لم يغب ذلك عنه أبداً، فقد ظلت عادات القيادة باقية فيه لكنها مقموعة مُثبطة إلاّ في مجلس الدولة وفي الاعتراض أو المناقشات. لنسمعه يقول: «منذ دخولي الحياة العامة (المقصود غير العسكرية) للمرّة الأولى كُنتُ معتاداً على ممارسة القيادة (إصدار الأوامر) فتكوين شخصيتي وقوّتها كانتا من النوع الذي يجعلني إذا ما أصبحت السلطة في يدي لا اعترف بأيٍّ سيِّد إلاّ ما هو نتيجة فكري ولا أي قانون إلاّ إذا كان من وضعي أو بتعبير آخر إلا إذا كان منبثقا من قناعتي»[١٠٣] لقد رأيناه في سنة ١٨٠٠ يؤكد على الصيغة المدنية (غير العسكرية) لحكمه - عندما كان الجنرالات يتآمرون عليه لعزله، لكن في سنة ١٨١٦ دافع عن وجهة النظر التي مؤدّاها أنه «في خاتمة المطاف، فإن التحليل الصحيح يعني أنه إن أردت أن تحكم فمن الضروري أن تكون رجلاً عسكرياً، فالمرء لا يمكن أن يحكم إلاّ ملوحاً بغنيمة ومستخدماً مهمازاً»[١٠٤] لذا فإنه بنظرته الثاقبة لُمِثُل الشعب الفرنسي ما ظهر منها وما بطن، ما هو سَوِي منها وما متناقض - أعلن أنه رجل السلام وعبقري الحرب. ومن هنا فإن الديمقراطية النسبية التي شهدها عهد القنصلية ذابت في ظل النظام الملكي في عهد الإمبراطورية، ثم ذابت أخيراً.. في عهد السلطة المطلقة. لقد كان مصير مدونات نابليون القانونية - فيما يتعلق بقانون العقوبات (١٨١٠) - أن أصبحت قاسية مثّلت في قسوتها أساليب العقاب البربرية في العصور الوسطى. ومع هذا فقد ظل نابليون متألقاً ذكياً في أمور الحكم كما كان في أمور المعارك. ولقد تنبأ نابليون أن إنجازاته في أمور الإدارة ستبزّ انتصاراته العسكرية وستكون أكثر خلوداً في التاريخ، وأن مدوّنته القانونية ستكون أثراً أكثر خلوداً من استراتيجية وتكتيكة (التي لم تصبح ذات صلة بالحروب الجارية). لقد كان نابليون يرنو لأن يكون جستنيان عصره بالإضافة إلى كونه قيصره Caesar.

ولم يقض نابليون في باريس سوى ٩٥٥ يوماً من إجمالي أيامه التي كان فيها إمبراطوراً، والبالغة ٣٦٨٠ يوماً (١٨٠٤ - ١٨١٤)، ومع هذا فقد أعاد صياغة فرنسا في هذه الأيام البالغة ٩٥٥ يوماً[١٠٥]، ففي هذه الأيام كان قبل ١٨٠٨ يرأس بانتظام مرتين في الأسبوع -

مجلس الدولة، وقال لا كاس Las Cases في ذلك الوقت (وكان هو عضواً في المجلس): «ولم يكن أحد منا يغيب مهما كان السبب»(١٠٦) وكان يعمل بجد شديد فنظراً لرغبته الشديدة في إنجاز الأمور، كان يستيقظ أحياناً في الساعة الثالثة صباحاً ويظل يواصل العمل طوال النهار. وغالباً ما كان يتوقّع أن يبذل مساعدوه الجهد نفسه. وكانوا دائماً جاهزين لتقديم معلومات حديثة جداً عن أي أمر واقع في دائرة اختصاصهم، وكان يحكم عليهم وفقاً لدرجة دقة تقاريرهم ونظامها ووفائها بالمراد، وسرعة تقديمها حاوية آخر التطورات حتى آخر ساعة. ولم يكن يعتبر يومه منتهياً حتى يقرأ المذكرات والوثائق التي غالباً ما كانت تأتيه يومياً من دوائر الحكومة المختلفة. وربما كان نابليون هو صاحب أفضل جهاز للتزويد بالمعلومات في التاريخ.

وقد اختار للوزارات الكبرى (المهمة) رجالاً ذوي قدرات عالية من الطراز الأول مثل تاليران Talleyrand وجودين Gaudin وفوشيه Fouché رغم اعتزازهم الشديد بأنفسهم مما كان يسبب له بعض المتاعب، وكان يفضل - بشكل عام - للمناصب الأخرى خاصة الإدارية رجالاً من الطبقة الثانية ممن لا يوجّهون أسئلة له أو يقترحون عليه إجراءات من عند أنفسهم، فلم يكن لديه الوقت أو الصبر لمثل هذه المناقشات، فقد كان ينتهز الفرص وفقاً لتقديره هو، كما كان يتحمل المسؤولية والمخاطرة. وكان يطلب من العاملين معه أن يُقسموا يمين الإخلاص ليس فقط لفرنسا وإنما الإخلاص له شخصيا. وفي معظم الحالات كانوا على استعداد للموافقة على أداء هذا القسم مَسُوقين بتأثير شخصيته وكأنهم منوَّمون مغناطيسياً وبتأثير عظمة مخططاته. «لقد كنت أثير المنافسة وأكافئ كل مستحق وأُزيح للخلف حدود المجد لأجعل مجالها أرحب»(١٠٧). لكنه دفع ثمن منهجه في اختيار مساعديه ذلك المنهج الذي سار بالتدريج نحو إحاطة نفسه بتابعين قلّما كانوا يجسرون على مناقشة وجهات نظره حتى أن الأمر انتهى بإزاحة كل اعتراض في سبيل تسرعه أو كبريائه إلاّ ما تمثله الدول الاجنبية المعادية له، إلا أن كولينكور Coulaincourt يُعد استثناء من هؤلاء المحيطين به في سنة ١٨١٢.

لقد كان نابليون قاسياً مع مرؤوسيه، صارماً إذا وبّخ، بطيئاً إذا امتدح، لكنه كان مستعداً

للمكافأة على الخدمات الباهرة (غير العادية) ولم يكن يؤمن بوضع مرؤوسيه في وضع يكونون فيه مطمئنين مرتاحي البال، فشيء من الوعد غير المؤكد بمنصب أو ولاية قد يدفع لمزيد من العمل الجاد، ولم يكن نابليون يعترض على اتصالاتهم وتكوين علاقات وثيقة بينهم، بل ولم يكن يعترض على وجود أمور غامضة مشبوهة في ماضي الواحد منهم فذلك يتيح له ممسكاً يضمن به حُسْن سلوكهم[١٠٨]. وكان يستخدم مساعديه إلى أقصى درجة، ثم يترك الواحد منهم ليعود متراجعاً مستمتعاً بمعاشٍ سخي، وربما ببعض ألقاب النَّبالة كمفاجأة سارة. ولم يعش بعضهم حتى يتلقوا هذه المكافأة أو حتى يصلوا إلى هذه النتيجة المرجوّة، فقد فضل فيلينيف Villeneuve الذي هُزِم في الطرف الأغر - الانتحارَ على مواجهة لومه، ولم تَهُز الاعتراضات مشاعره القاسية، فمن أقواله: « يجب أن يكون قلب رجل الدولة في رأسه »[١٠٩] ولا يجب أن يُدخل مشاعره في الأمور السياسية، وفي عملية إدارة إمبراطورية، لا يساوي الفرد إلاّ قليلاً إلاّ إذا كان هذا الفرد هو نابليون. وربما بالغ نابليون في عدم إحساسه بأهمية الجاذبية الشخصية عندما قال: « أنا لا أحب إلاّ المفيدين لي، وطالما هم مفيدون »[١١٠] وقد استمر نابليون في حبّه لجوزفين فترة طويلة بعد أن أصبحت مُعوَّقةً لخططه. وبالطبع فإنه كمعظم البشر كان في هذا راضخاً لرغبته فيها. وكان يعدّل في نشراته الحربية - كما تفعل معظم الحكومات - ليحتفظ بالروح المعنوية العامة مرتفعة. وقد درس ميكافيلي Machiavelli وقلمه الرصاص في يده (كناية عن الاهتمام ليخط به تحت السطور الحاوية على فكرة مهمة) وثمة نسخة من كتاب الأمير (لميكيافيلي) عليها بعض التعليقات تم العثور عليها في مركبته في واترلو Waterloo. لقد كان نابليون يعتبر أن كل شيء يُعجِّل بتحقيق أهدافه شيء طيب أو بتعبير آخر كان يعتبر الغاية تبرر الوسيلة. إنه لم ينتظر نيتشه Nietzche ليُرشده بقوله إن « الرغبة في القوة كامنة وراء الخير والشر على سواء » لذا فإن نيتشه اعتبره الناتج الطيب الوحيد للثورة الفرنسية وأطلق عليه « Ens realissimum » وقد قال نابليون « القوة خير والضعف شر »[١١١] وقد حزن من أجل أخيه جوزيف (يوسف) قائلاً إنه « أطيب من أن يكون رجلاً عظيماً » ومع هذا فقد كان نابليون يحبه.

وقريب من آرائه هذه – التي تعلمها في كورسيكا وفي ميادين القتال – ما كان يكرره كثيراً « أن الناس لا يمكن دفعهم أو حكمهم إلاّ بالتلويح بمصالحهم أو بإخافتهم » أو بتعبير آخر لا يرضخون إلاّ خوفاً أو طمعاً[١١٢]. لذا فإنه عاماً بعد عام أصبحت مشاعره هذه هي أساس حكومته وعُمُدُها. ففي سنة ١٨٠٠ نصح الجنرال هيدوفيل Hedouville أنه ليقمع الاضطرابات في إقليم فندي Vendée عليه « أن يحرق مدينتين كبيرتين – أو ثلاث – ويسويها بالأرض، على أن تكون هذه المدن في المناطق الأكثر إثارة للاضطراب، وذلك لتكون عِبْرة لغيرها ». لقد علّمته خبرته (كقنصل أول) أن القسوة المروّعة هي أكثر الوسائل إنسانية ورحمة في ظل هذه الظروف التي تواجهها، فالضعف هو وحده القاسي وغير الإنساني »[١١٣]. وكان يوجه تعليمات لقضاته بإصدار أحكام قاسية. وقال لفوشيه Fouché « إن فنّ الشرطة يعني أن نعاقب قليلاً لكن إن عاقبت فكن قاسيا»[١١٤] ولم يكتف نابليون بالاعتماد على قوات كبيرة من الشرطة والمخبرين السريين تحت إدارة فوشيه أو ريجنييه Regnier، وإنما نظّم هيئة إضافية للشرطة السرّية، مهمتها مساعدة فوشيه وريجنييه والتجسّس عليهما، وأن يكتب أفرادها تقارير له عن أية مشاعر معادية ضدّه (ضد نابليون) في الصحف أو المسارح أو الصالونات أو الكتب. ومن أقوال نابليون إن « الحاكم عليه أن يشك في كل شيء »[١١٥]. وبحلول عام ١٨٠٤ كانت فرنسا دولة بوليسية. وبحلول عام ١٨١٠ أصبح فيها نماذج مصغرة لسجن الباستيل – سجون الدولة التي كان يمكن فيها « احتجاز » المعارضين السياسيين بناء على أوامر إمبراطورية دون أن يتم ذلك من خلال إجراءات قضائية نظامية[١١٦]. وعلى أية حال فلابد أن الإمبراطور كانت تبدر منه مبادرات الرحمة والعفو في عدة مناسبات. فقد أصدر كثيراً من مراسيم العفو حتى بالنسبة للذين تآمروا ليقتلوه[١١٧]، وأحياناً كان يخفف الأحكام الشديدة التي تصدرها المحاكم[١١٨]. لقد قال – وهو مستغرق في التأمل – لكولينكور Coulaincourt في ديسمبر سنة ١٨١٢ :

« إنّهم يظنونني صارماً أو حتى متصلّب الفؤاد. هذا أفضل كثيراً، فهذا يجعل من غير الضروري أن أُثبت لهم ذلك. إنهم يظنون ثباتي (تصميمي) قسوة قلب. إنني لن أشكو ما

دامت هذه الفكرة عنّي هي السبب في الانضباط وحُسن النظام اللذين أصبحا سائدين.. انظر هنا يا كولكينكور، إنني بشر، فمهما كان ما يقوله بعض الناس فإن لدي مثلهم أحشاء [أحشاء الرحمة] وقلب – لكنه قلب حاكم. إن دموع أرشدوقة لا تحركني. وإنما تحركني معاناة الناس»(١١٩).

ولا جدال أنه كان إمبراطوراً وأنه في غالب أحواله كان متنوراً، وفي غالب أحواله كان في عجلة مطلقة. لقد اعترف للاكاس Las Cases: «الدولة أنا»(١٢٠). وربما كان علينا أن نغفر له شيئاً من استبداده باعتباره إجراء معتاداً تقوم به الحكومات لضبط الاقتصاد الوطني والمسارح والمنشورات زمن الحرب. وقد شرح نابليون إحكامه الهيمنة على أمور البلاد باعتبارها أمراً ضرورياً في مرحلة الانتقال الصعبة من الحرية المتسيِّبة بعد سنة ١٧٩١ نتيجة وقائع الثورة، والنظام البنّاء في عهدي حكومتي القنصلية والإمبراطورية. وقد استدعى نابليون لذاكرة الناس أن روبيسير – وكذلك مارا Marat – كان قد أوصى بالدكتاتورية كضرورة لإعادة النظام والاستقرار لفرنسا التي أشرفت على الانحلال والتفسّخ على صعيد الأسرة وعلى صعيد الدولة. ولم يشعر نابليون أنه دمَّر الديمقراطية، فما أزاحه في سنة ١٧٩٩ كان هو أوليجاركيّة الفساد (جمهورية تسيطر عليها مجموعة فاسدة) والقسوة وعصبة من رجال لا ضمير لهم. لقد قضى على حرية الجماهير (الجموع) لكن هذه الحرية كانت تدمّر فرنسا بالاضطرابات التي كان يثيرها العامة، وبالتسيّب الأخلاقي، ولم يكن يمكن لفرنسا أن تستعيد قوتها كدولة متحضرة ومستقلة إلاّ بإعادة السلطة المركزية.

وحتى سنة ١٨١٠ لم يكن نابليون بمستطيع أن يتسامح مع نفسه لعدم صدقه في ادعائه الإيمان بالهدف الثاني للثورة الفرنسية وأعني به المساواة، لكنه آمن بمبدأ مساواة الجميع أمام القانون وعمل على نشر هذا المبدأ. فهو لم يفرض مساواة مستحيلة تجعل كل قدرات الناس واستحقاقاتهم على نحو سواء، وإنما أسس نسقاً من المساواة قوامه إتاحة الفرص – على نحو سواء – لكل الموهوبين وذوي القدرات بصرف النظر عن مكان مولدهم ليطوروا أنفسهم في مجتمع يُقدِّم للجميع دون مفاضلة فرص التعليم، والفرص الاقتصادية والحقوق السياسية،

وربما كان فتحه المجال لكل ذي موهبة ومقدرة هو أكثر عطاياه لفرنسا بقاءً. وكان نابليون يقضي على الفساد في الحياة العامة(١٢١). وهذا وحده يكفي لتخليد ذكراه. لقد أعطى المثل – بكل معنى الكلمة – لرجل يكرس نفسه للإدارة إذا لم تدعُه الحربُ لميادينها. لقد أعاد صياغة فرنسا.

لماذا فشل إذن؟ ذلك لأن ما كان في حوزته فاق إمكاناته (استطاعته)، وخياله سيطر على طموحه، وطموحه تحكم في بدنه ونفسه وعقله وشخصيته. لقد كان عليه أن يعرف أن القوى المناوئة له لم تكن لترضى أبداً بترك فرنسا تحكم نصف أوروبا. لقد نجح – بشكل يمكن تحديده، في تخليص بلاد الراين الألمانية من اقطاع القرن التاسع عشر لكنه لم يكن بمستطيع – لا هو ولا أي رجل في عصره – أن يُدمج في فيدرالية دائمة منطقة طال عليها العهد وهي مقسمة إلى دول، كل دولة منها لها تراثها الحريصة عليه، ولها لهجتها الخاصة وعاداتها وعقيدتها وحكوماتها. ويكفي أن نذكر هذه الممالك المختلفة من الراين إلى فستولا Vistula ومن بروكسل لنابلي لنحس بحجم المشكلة: ممالك أو إمارات مثل هولندا، وهانوفر، ووستفاليا Westphalia والمدن الهانسياتية Hanseatic، وبادن Baden وبافاريا، وفيرتمبرج Wurttemberg وإيليريا Illyria والبندقية (فينيسيا) ولمبارديا والولايات الباباوية والصقليتين – من أين له برجال أقوياء بالقدر الذي يكفي لحكم هذه المناطق، وفرض الضرائب على أهلها، وأخيراً لتجنيد أبنائهم لشن حروب ضد أمم أقرب إليهم من فرنسا؟ كيف يستطيع أن يفرض الوحدة بين هذه الدوائر الإضافية البالغ عددها أربعاً وأربعين ودوائر فرنسا البالغ عددها ستاً وثمانون؟ أو كيف يستطيع أن يوحّد قسراً ستة عشر مليوناً من الأقوياء المعتزين بأنفسهم مع ستة وعشرين مليونا من الفرنسيين المتقلبين والمعتزين بأنفسهم أيضاً؟ ربما كان أمراً رائعاً أن يحاول ذلك لكن كان لابد أن يحالفه الفشل في هذه المحاولة. وفي خاتمة المطاف أطاح الخيال بالعقل. لقد تفرّق شمل هذا الكيان غير المستقر، وهزمت القوة الراسخة للشخصية الوطنية إرادة الدكتاتور الكبير.

٦- نابليون الفيلسوف

وعندما طوى الخيال جناحيه، أصبح نابليون قادراً على استخدام عقله على نحو ما يفعل أفضل العلماء وأكثرهم مقدرة في المعهد العلمي الفرنسي، ومعهد دراسة مصر. ورغم أنه لم يستنبط نظاماً محدداً من الفكر يتحتم سجن الكون داخله بحيث لا تفلت منه شاردة ولا واردة، إلاّ أن عقله الواقعي قد أظهر القصورَ في أعمال المفكرين الذين يسيئون استخدام الأفكار ويبنون قلاعاً في الهواء لا أساس لها من البيولوجيا (علوم الأحياء) أو التاريخ. فبعد أن جرَّب (أي نابليون) لابلاس Laplace وغيره من العلماء في المناصب الإدارية، خلص إلى «أنك لا تستطيع أن تنجز أي عمل مع فيلسوف»[١٢٢] وعلى أية حال فإنه شجع العلوم وأوصى بدراسة التاريخ فمن أقواله «لابد ان يدرس ابني كثيرا من علم التاريخ وأن يستغرق في تأمله، فالتاريخ هو الفلسفة الوحيدة الحقيقية»[١٢٣].

وكان الدين واحداً من المجالات التي روّج لها المفكرون بدلاً من ترسيخ أنفسهم في مجال التاريخ. وقد شعر نابليون أن عالم المنطق وحده هو الذي يمكن أن يقلق طويلاً أمام هذا السؤال: هل الله موجود؟ أما الفيلسوف الحقيقي الذي تعلم في مدرسة التاريخ فيجب أن يسأل: لماذا يظل الدين حياً دائماً ويلعب دوراً مهماً في كل حضارة، رغم أنه - أي الدين - كان في أغلب الحالات تنقصه الحجة ويدعو للسخرية؟ لماذا قال فوليتر الفيلسوف المتشكك إن الله لو لم يكن موجوداً لكان من الضروري أن نخترعه أو بتعبير آخر نتخيل وجوده؟.

لم يكن نابليون نفسه يؤمن بعقيدته الدينية منذ كان في الثالثة عشرة من عمره. وفي بعض الأحيان كان يتمنّى لو كان قد احتفظ بها. «إنني أتخيّل أنها (أي العقيدة) لابد أن تؤدي إلى سعادة كبيرة حقيقية»[١٢٤] وكلنا يعرف القصة التي حدثت في مصر عندما سمع بعض العلماء (الفرنسيين) يتحدثون عن (الخالق) بغير وقار، إذ تحداهم مشيراً إلى النجوم: «تحدثوا كما تشاءون، وأطيلوا الحديث كما يحلو لكم أيها السادة من خلق كل هذه النجوم؟»[١٢٥] ومن الممكن أن نقتبس من أقواله ما يؤيد وما يعارض مقالته هذه وموضوعات أخرى كثيرة، لأنه غيّر وجهات نظره بمرور الوقت، كما تغيرت حالته النفسيّة أيضاً ونحن نميل لتجاهل تواريخ حدوث هذا التغير، فحتى بالنسبة للمفكّر الذي لم يبلغ

الخمسين من عمره نجده يتخلّى عن عقائد أقسم في شبابه ألا يتخلى عنها، ومن في الثمانين من عمره لا يبتسم ساخراً من وجهات النظر «الناضجة» التي قال بها في أواسط عمره؟ وبشكل عام فإن نابليون ظل محتفظاً باعتقاده في وجود «عقل» كامن وراء العالم المادي أو كامن فيه(١٢٦) لكنه ينكر معرفته بأية معلومات عن طبيعة هذا «العقل» وهدفه. لقد استقر رأيه وهو في سانت هيلانه على أن كل شيء يشهد بوجود الله»(١٢٧) لكن أن تقول «من أين جئت؟ ومن أكون، وإلى أي مصير أنا صائر، فتلك كلها مسائل فوق مستوى الفهم»(١٢٨) وفي بعض الأوقات نجده يتحدث كالتطوريين الماديين materialistic evolutionist «المادة كل شيء(١٢٩)... فالإنسان ليس إلاّ موجوداً أكثر اكتمالاً من الحيوان، وأفضل منه تفكيراً»(١٣٠) ومن أقواله: «إن الروح ليست خالدة، وإذا كان لا بد أن نقول بشأنها قولا فقد وجدت قبل أن نولد»(١٣١) ومن أقواله أيضاً: «إن كان لابد أن أتخذ ديناً لعبدتُ الشمس لأنها السبب في خصوبة كل شيء إنها الرّب الحقيقي للأرض»(١٣٢) ومن أقواله «لقد كان يتحتم عليَّ أن أتخذ ديناً لو أنه وُجد مع بداية الكون. لكنني عندما أقرأ سقراط أو أفلاطون أو موسى أو محمد (المترجم؛ عليهما السلام) فإنني لا أزداد إيماناً، فكلها عقائد ابتدعها الناس»(١٣٣).

لكن لماذا ابتدع الناس الأديان؟ يجيب نابليون: لقد ابتدعوها ليريحوا الفقراء وليمنعوهم من قتل الأغنياء. ذلك لأن الناس قد ولدوا غير متساوين وزادت الفروق بينهم مع كل تقدم في مجال التكنولوجيا والتخصص، ولابد للحضارة أن تستنبط وسائل لمكافأة ذوي القدرات المتفوقة والاستفادة منهم وتطويرهم، ولابد ان تُقنع الأقل حظاً بأن يقبلوا بسلام هذا التفاوت في العوائد والممتلكات باعتباره أمراً طبيعياً وضرورياً. كيف يمكن أن يتم هذا؟ يجيب نابليون: بالقول أن ما حدث إنّما هو إرادة الله ومشيئته(*)، إنني لا أرى في الدين سر التجسّد(**) بل سرّ النظام الاجتماعي. إن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلاّ في ظل التفاوت

(*) لنابليون آراء مناقضة لذلك في سياقات أخرى، وما ورد في المتن على أية حال لا يعني إيمان المؤلف أو المترجم بهذه الآراء. (المترجم).

(**) هذا النص يعني أنه لا يؤمن بالمسيحية. (المترجم)

(عدم المساواة) في الرواتب أو المكافآت أو الدخل، ومن ثم في الممتلكات هذا التفاوت (عدم المساواة) لا يمكن الإبقاء عليه إلاّ بالدين... لابد أن يكون في مقدورنا أن نقول للفقير: تلك إرادة الله. لابد أن يكون هناك غني وفقير في هذا العالم لكن في الآخرة حيث الخلود، سيكون هناك توزيع مختلف»(١٣٤) ومن أقواله «إن الدين ينسب إلى (فكر) الله فكرة المساواة التي تنقذ الأغنياء من مذبح يقيمها لهم الفقراء»(١٣٥).

وإذا كان هذا صحيحاً فقد أخطأت حركة التنوير في مهاجمتها للمسيحية وأخطأت الثورة الفرنسية في وضع العراقيل في سبيل الدعوة للكاثوليكية. «فانعدام الحكومة على المستوى الفعلي والخلقي [؟](*) الذي قاسينا منه نتيجة الفوضى العقلية الأخلاقية [؟](*) – انهيار الإيمان وإنكار العقيدة كانا استهلالاً له أو سبقاه فكان انعدام الحكومة نتيجة لهما»(١٣٦) وربما لهذا السبب ولأغراض سياسية أعاد نابليون الكنيسة الكاثوليكية لتكون «حارساً مقدّسا للأمة الفرنسية»(**) وهو – أي نابليون – لم يفسرّ هذا التحالف الجديد مع الكنيسة بمعنى ارتباطه بالوصايا العشر(***)، وإنما كان يطوف حولها – أي هذه الوصايا – بين الحين والحين ومع هذا فقد دفع رواتب القسس ليبشروا بها لجيل مرتعب من الفوضى ومستعد للعودة إلى النظام. وكان معظم الآباء والمعلمين سعداء بالحصول على عون العقيدة الدينية لتنشئة أبنائهم وتربيتهم – لمواجهة النزوع الطبيعي للشباب إلى الفوضى – بالقوانين الأخلاقية القائمة على أسس من التقوى الدينية وأسس من حب الآباء لأبنائهم وولاء الأبناء لآبائهم، باعتبارها – أي هذه الأسس – من عند الله المطّلع على كل شيء والذي يعاقب المخطئ عقاباً أبدياً، ويثيب المصيب ثواباً أبدياً، وكان معظم أفراد الطبقة الحاكمة ممتنيّن لعملية تعليمية تُفرز رأياً عاماً يقبل بمبدأي التفاوت (عدم المساواة) في القدرات والممتلكات باعتبار هذا من الأمور الطبيعية التي لا مفر منها. فأبناء الأرستقراطية القديمة قد جرى إيجاد المبرّرات لهم بالقول إنهم طهرّوا ثرواتهم بما لهم من أفضال وبأسلوب حياتهم،

(*) علامة الاستفهام تفيد أن الأستاذ المؤلف ول ديورانت لا يدري على وجه التحديد المقصود بهذا التركيب.

(**) المعني أنه يريد أي دين ليكون أداة لضبط الأمة، ومن الطبيعي أن يوظف الدين السائد مع عدم إيمانه به. (المترجم).

(***) (لا تقتل، لا تسرق..) وهي الواردة في العهد القديم. (المترجم)

أما أبناء الارستقراطية الجديدة فقد ترسَّخت ارستقراطيتهم كما أن الثورة – طوال جيل – قد كفّت صوتها وأخفت بنادقها.

في هذا المجتمع الذي تُبعث فيه الحياة من جديد لزم أن يُعاد للزواج أهميته وقداسته وشرعيته مرة أخرى، وكذلك لزم الأمر نفسه بالنسبة للأمومة، وكذلك الملكية – وليس **الحب الرومانسي، لزم لهذا كله أن يُرسَّخ لتحقيق غاياته**(١٣٧). **فالحب الذي ينشأ نتيجة المفاتن** البدنية بين الفتى والفتاة إنما هو بسبب الهرمونات وتقارب العمر والاقتراب المكاني. وأن توجد زواجاً دائماً اعتماداً على هذه الظروف القائمة على المصادفة والظروف العابرة «إنما هو تفكير يدعو للسخرية. إنه حماقة مزدوجة»(١٣٨). إن كثيراً من هذا الحب تثيره – بشكل غير طبيعي – الكتابات الرومانسية. وربما اختفى لو أن الناس كانوا أميِّين. يقول نابليون «إنني اعتقد جازماً أن الحب الرومانسي له من الأضرار أكثر مما له من الحسنات.. وربما كان من الخير اقصاؤه» كسبب لتوحّد رجل وامرأة في مشروع دائم لتنشئة الأطفال وأساس لنقل الملكية (المقصود التوريث أو انتقال الثروة بالميراث) ويقول نابليون «لابد من منع الزواج بين ذكر وأنثى يعرف كل منهما الآخر لفترة تقل عن ستة أشهر»(١٣٩).

وكان نابليون يؤمن بنظر محمد(*) (صلى الله عليه وسلم: المترجم) للزواج: إن هدفه هو إنجاب عدد كبير من الذرية في ظل ظروف يتمتع فيها الرجل بالحرية، وتتمتع فيها الزوجة المخلصة المطيعة بالحماية. وشعيرة الزواج – رغم إمكان عقد القران مدنياً – لابد أن تكون ذات طابع مقدّس ووقور يتم التأكيد خلالها على التزامات الطرفين(١٤٠). ولابد أن ينام الزوج والزوجة معاً، فهذا يُقصي الفردية من الحياة الزوجية ويضمن وضع المرأة وارتباط الزوج بها، ويجعل بينهما مودة ورحمة intimacy ويضمن الفضيلة»(١٤١) وقد اتبع نابليون هذه العادات القديمة حتى استقر رأيه على الطلاق.

وعلى أية حال فإن كانت الزوجة المخلصة الواحدة غير كافية للرجل «فإنني أجد أنه من السخرية ألاّ يكون قادراً على أن يكون له أكثر من زوجة شرعية، ذلك أن المرء إذا كان لديه

(*) حاول نابليون فرض مبدأ قوامة الرجل، ولم يكن يؤمن بالدور السياسي للمرأة. (المترجم)

زوجة واحدة حُبلى، أصبح وكأنه لا زوجة له(*)»[١٤٢] فتعدد الزوجات أفضل من الطلاق أو الزنا. ويجب ألا يُسمح بالطلاق بعد عشرة زوجية استمرت عشر سنوات. ويجب ألا يُسمح للزوجة بالطلاق إلاّ مرة واحدة وألاّ يُسمح لها بالزواج - إن طُلقت - إلا بعد خمس سنوات[١٤٣] ولا يعتبر زنا الزوج مبرراً كافياً للطلاق إذا لم تكن هناك ظروف أخرى كاحتفاظ الزوج بخليلته في مكان إقامة الزوجة»[١٤٤] وإذا اقترف الزوج عملاً من أعمال الخيانة الزوجية وجب عليه أن يعترف لزوجته ويبدي ندمه فيمحو باعترافه وندمه كل أثر من آثار جُرمه. تغضب الزوجة وتعفو فتنصلح الأمور بينهما. لكن الأمر يختلف إن كانت الزوجة غير مخلصة لزوجها. شيء طيب أن تعترف وتعتذر لكن من الذي يضمن ما إذا كان قد بقي - نتيجة خيانتها - شيء في رَحمها أو في عقلها؟ لذا فالزوجة بعد خيانتها لا يجب (ولا يمكن) أبداً أن تنتهي مع زوجها إلى تفاهم»[١٤٥] (المؤلف: ولكنه سامح جوزفين على خيانتها له مرتين).

وقد حصّن نابليون نفسه ضد فتنة النساء بأخذه بالنظرة الإسلامية (النص: نظرة محمد صلى الله عليه وسلم) للمرأة: «إننا نعامل النساء معاملة جيدة جداً، وبهذه الطريقة نفقد كل شيء. إننا نخطئ خطأً كبيراً في رفعهن إلى مستوانا. حقاً إن شعوب الشرق أكثر منا عقلاً وإحساساً بإعلانهم أن الزوجة ملكية حقيقية لزوجها. فالحقيقة أن الطبيعة قد جعلت المرأة جارية للرجل. فالمرأة تضع الأطفال للرجل.. وعلى هذا فهي من ممتلكاته تماماً كما أن فاكهة الشجر ملك لصاحب البستان»[١٤٦].

كل هذه الأفكار تتسم بالبدائية (السذاجة) وهي تناقض البيولوجيا (أي علم الأحياء) الذي عادة ما يُظهر الأنثى جنساً مسيطراً أو سائداً بينما الرجل مجرد تابع يقدّم الطعام، وأحياناً ما يؤكل هو نفسه أي تأكله الأنثى، لذا سنكون سعداء بقبول تأكيد لا كاس Las Cases أن كثيراً من أفكار نابليون المتعلقة بالنساء إن هي إلاّ تظاهر بالشجاعة أو تبجّح ومزاح أو أحلام رجل عسكري توّاق لعدد لا نهاية له من المجنّدين إلزامياً الذين تنتجهم أرحام النساء، لكن نظرة نابليون هذه متسقة تماماً مع أفكار أي قائد من قوّاد المرتزقة في

(*) لم يستطع نابليون فرض آرائه هذه لمقاومة بعض النساء، ولاعتراضات الكنيسة. (المترجم)

كورسيكا. وقد أصرّت المدوّنة القانونية النابليونية على أن الرجال قوّامون على النساء قوامةً مطلقة، بل وقوّامون على ممتلكاتهن، واعتبرت ذلك (أي مدوّنة نابليون) مسألة ضرورية لتحقيق الانضباط الاجتماعي. لقد كتب نابليون إلى جوزفين في سنة ١٨٠٧ «لقد كُنت دائماً أعتقد أن المرأة خُلقت للرجل، والرجل للوطن والأسرة والمجد والشرف»(١٤٧) وبعد معركة فريدلاند Friedland (١٤ يونيو ١٨٠٧) التي شهدت مذبحة مروّعة على الجانبين وضع نابليون برنامجاً دراسياً لمدرسة تُبنى في إكوين Ecouen «للبنات اللائي فقدن أمهاتهن واللائي ليس لهن أهل قادرون على إعالتهن».

«ماذا يجب أن تتعلّم البنات في إكوين Ecouen؟ يجب أن نبدأ بتعليمهن الدين بكل صرامته.. فما نطلبه من تعليم البنات هو أن يجعلهن مؤمنات لا مفكّرات، فضعف عقول النساء وكونهن غير مستقرات في أفكارهن (يحركهن الهوى)... يجعلهن في حاجة إلى الإذعان الدائم.. ولا يمكن الوصول لكل هذا إلا من خلال الدين.. إنني لا أريد لهذه المدرسة أن تُخَرِّجَ نساء ذوات فتنة وإنما نساء ذوات فضيلة ولابد أن يكن جذّابات بحكم مبادئهن السامية وقلوبهنّ الدافئة لا بحكم ظُرفهن وكونهن مُسلّيات.. وبالإضافة لهذا لابد أن نعلّم البنات الكتابة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسيّة... ولا ضرورة لتدريس اللاتينية لهن.. ولابد من تعليمهن إجادة كل أعمال المرأة.. ولا مجال لأن يقوم الرجال بالتدريس للبنات، فلا يجب أن يكون في المدرسة رجل إلاّ الناظر.. حتى أمور حديقة المدرسة يجب أن يقوم عليها النساء»(١٤٨).

وكانت فلسفة نابليون السياسية غير متسقة بالقدر نفسه. فما دام كل الناس قد وُلدوا غير متساوين فلا مناص من أن الأقلية وهي التي تمتلك العقول الأقوى هي التي ستحكم الأغلبية بقوة السلاح والفكر (الكلمة)، ومن ثمَّ فإن يوتوبيا المساواة ما هي إلاّ خرافة مسلّية (أو بتعبير آخر إن هي إلاّ أساطير) يقول بها الضعفاء، فالصيحات الفوضوية المطالبة بالتحرر من القوانين والحكومات، إنما هي تضليل فج يدل على عدم النضوج كما يدل على عقول مستبدّة. والديمقراطية لعبة يستخدمها الأقوياء ليُخفوا بها حُكمهم الأوليجاركي (الأوليجاركية تعني حكم الأقلية التي تعمل لصالحها في ظل نظام ظاهره جمهوري)(١٤٩)

ومن الناحية الفعلية فقد كان على فرنسا أن تختار بين حُكم النبلاء الوراثي وحكم طبقة رجال الأعمال business class. وعلى هذا «فالأرستقراطية دائماً موجودة بين الأمم وفي أثناء الثورات، وإذا حاولت التخلّص منها بتدمير نظام النبالة فإنها سرعان ما تعيد تكوين نفسها بين الأسر الغنية والقوية من الطبقة الثالثة Third Estate فإن دمّرتها في موقعها الجديد هذا، اتخذت لنفسها ملاذاً بين زعماء العمال وزعماء الشعب»(١٥٠) فالديمقراطية – إن كانت معقولة – يجب أن تقتصر على إتاحة فرص متساوية أمام الجميع ليتنافسوا ويتملكوا»(١٥١) ويزعم نابليون أنه حقق هذا بكسر الحواجز أمام المتفوقين والموهوبين في كل المجالات، ولكنه سمح بكثير من الانحرافات التي أخرجت مسار حكمه عن هذه القاعدة.

لقد كان رأيه غير واضح فيما يتعلق بالثورات. فهي تُطلق العنان لمشاعر الجماهير المتقدة «مادامت الجرائم الجماعية لا تُوقع المسؤولية الجنائية على أحد»(١٥٢) ولا يمكن «أن تكون هناك ثورة بدون إرهاب»(١٥٣) و «الثورات هي السبب الحقيقي لبعث الأعراف العامة وبث الروح فيها من جديد»(١٥٤) لكنه انتهى بشكل عام (في سنة ١٨١٦) إلى أن «الثورة واحدة من أكثر الشرور التي يمكن أن يُبتلى بها البشر. إنها كارثة حلّت بجيل ومهما كانت المزايا الناتجة عنها، فإنها لا يمكن أن تكون تعويضاً عن البؤس الذي نغّصت به حياة الذين قاموا بدور فيها»(١٥٥).

لقد كان نابليون يفضل النظام الملكي على كل أشكال الحكم الأخرى ولو من قبيل الدفاع عن التوريث في الحكم (يعني توريث ذريته وقرابته هو) ضد الشكوك التي أثارها القيصر اسكندر(*)(١٥٦) «إن فرص تأمين الحكم الصالح في النظام الوراثي أكثر منها في النظام الانتخابي»(١٥٧) فالناس يكونون أكثر سعادة في ظل مثل هذه الحكومة الراسخة الدائمة منهم في ظل ديمقراطية تجعل كل الأمور متاحة للجميع بلا ضابط فيستولى الشيطان في خاتمة المطاف على مقدّراتها «ففي الأزمنة التي يسودها الهدوء والنظام ينعم كل فرد بنصيبه من السعادة فيصبح عامل الاسطبل سعيدا في اسطبله سعادة لا تقل عن سعادة

(*) المفهوم الشكوك التي أثارها القيصر اسكندر حول أحقية نابليون في الملك وأحقية ذريته في وراثته، وليس المقصود معارضة اسكندر لمبدأ توريث الملك بشكل عام. (المترجم)

الملك على عرشه، ويسعد الجندي العادي سعادة لا تقل عن سعادة الجنرال»[١٥٨].

وكان حُلمه السياسي المثالي هو توحيد أوروبا في فيدرالية واحدة أو جعل باريس «عاصمة العالم» التي تحكم القارات والدول من خلال علاقاتها الخارجية. وفي هذا الكيان الأوروبي المشترك تُلغي الحواجز السياسية وتُكفل حرية السفر والنقل والتجارة، ويتم توحيد العملة والموازين والمكاييل والمقاييس[١٥٩]. وعندما وصل نابليون إلى موسكو في سنة ١٩١٢ ظن أن تحقيق سلام عادل - فقط - مع اسكندر هو الأمر الوحيد الباقي لتحقيق حلمه في توحيد أوروبا. لقد أساء نابليون تقدير القوى الطارئة المركزية الممثلة في الفروق بين الوطنيات المختلفة (الاختلاف بين الأمم)، لكن ربما كان نابليون على حق في الاعتقاد في أن أوروبا إذا ما حقّقت الوحدة فلن يكون ذلك بالاقناع أو بالاحتكام إلى أحكام العقل وإنما رضوخا لقوة متفوقة تستمر طوال جيل. ومع هذا فقد تستمر الحرب، لكنها - على الأقل - ستصبح مدنية (أقرب ما تكون للمنافسة).

وكلما اقترب نابليون من نهايته راحت فكرة عجيبة تُلح عليه أكان حُر الإرادة مُبدعاً فيما أتاه أم أنه كان أداة لا حَوْل لها في يد قوى كونية معيّنة. ولم يكن نابليون قدرياً (جبرياً)، ينزع من الإنسان قدرته على العمل الحر، والجبري هو ذلك الشخص الذي يعتقد أن نجاحه وفشله، وصحته ومرضه، وطبيعة حياته ولحظة مماته قد حدّدتها - سلفاً - قوى غير منظورة بصرف النظر عمّا يختاره هو بإرادته[١٦٠]، ولم يكن نابليون يؤمن بالحتمية على نحوٍ واضح، والحتمي هو الشخص الذي يعتقد أن كل ما يجري - بما في ذلك خياراته وأفكاره وأفعاله - إنما هو محكوم سلفاً بتوليفة من كل القوى أو العوامل بالإضافة لما حدث في الماضي (أحداث التاريخ)، لكنه كان يتحدث كثيراً عن «القضاء والقدر» أو القسمة والنصيب» destiny - المجرى الرئيسي للأحداث الذي يمكن تطويعه جزئياً عن طريق الإرادة البشرية لكنه يسير في مساره لا يمكن مقاومته بشكل أساسي، وكأنه ينساب من طبيعة الأشياء ملازماً لها لا يبغي عنها حِولاً. وفي بعض الأوقات كان يحدثنا عن إرادته القوية قوّة تكفي لاعتراض المجرى أو تحويله - «لقد كُنتُ دوما قادراً على فرض إرادتي على القدر»[١٦١] وينسب إليه قول يتعذّر التعويل عليه لأنه غير مؤكد: «إنني اعتمد على

مـجـريـات الأحـداث، فـلا إرادة لي. إنني أتـرقب كل الأمـور عنـد صـدورها»[١٦٢] - أي من مصادرها. «فالأعظم والأعلى سلطة هو الذي يمتلك قدراً أقل من حرية الإرادة» فثمة قوى أكثر وأعظم إرادة تفرض نفسها عليه وترتطم بإرادته «فالمرء يعتمد على الظروف والأحداث. إنني العبد Slave الأعظم بين الرجال فسيّدي هو طبيعة الأشياء»[١٦٣]. لقد مَزَج بين أمزجته المتقلبة وحالاته النفسية المتباينة والفكرة المنطوية على كبرياء والتي مؤدّاها أنه كان أداة في يد القدر، وهو يقصد بالقدر طبيعة الأشياء التي تفرض مجرى الأحداث ونهاياتها. «إن القدر يدفعني لهدف أجهله، وحتى يتحقق هذا الهدف فأنا منيع حصين لا يستطيع أحد مواجهتي فإذا ما تحقق هذا الهدف أصبحت ذبابة واحدة كافية لتدميري»[١٦٤]. لقد شعر بنفسه مقيّداً بقدر محتوم، قدر رائع لكنه خَطير. لقد كان المجد والظروف يسوقانه سَوْقاً فلابد من «إنجاز ما يريده القدر»[١٦٥].

وكان نابليون يفكر مراراً - مثلنا جميعاً - في الموت، وكان تكوينه النفسي يجعله ميالاً للدفاع عن الانتحار أو التأمل فيه. وفي شبابه شعر أنّ الانتحار هو الحق النهائي لكل إنسان لكنه عندما بلغ الواحدة والخمسين أضاف لذلك «إذا لم يضر بموته أحداً»[١٦٦] وكان لا يؤمن بالخلود «ليس هناك خلود وإنما الذكرى التي يتركها المرء في عقول الناس ونفوسهم... أن تعيش بلاد مجد، ودون أن تترك أثراً لوجودك، فكأنك لم تَعِش على الإطلاق»[١٦٧].

٧- من هو نابليون؟

أكان فرنسياً؟ لقد كان فرنسياً بالصدفة وبمرور الوقت، وإلاّ فهو ليس فيه من الفرنسيين شيء لا في تكوينه الجسماني ولا في عقله ولا في شخصيته. إنه قصير وأصبح في وقت لاحق بديناً، وكانت ملامحه أقرب ما تكون إلى الصرامة الرومانية منها إلى الملامح الغاليّة الوضاءة وكان ينقصه ما يتمتع به المثقفون الفرنسيون من مرح وتسامح وروح فكاهة وأناقة. لقد كان ميالاً للسيطرة على العالم أكثر من ميله للاستمتاع به. وكان يعاني من بعض الصعوبات في نطق اللغة الفرنسية فقد ظل حتى سنة ١٨٠٧ يشوب نطقهُ لها لكنة أجنبية[١٦٨] وكان يتحدث الإيطالية بطلاقة وكان يبدو في ميلان أكثر التصاقاً بها وألفة

معها مما هو في باريس. وقد عبَّر في مناسبات مختلفة عن عدم حبّه للشخصية الفرنسية. قال لا كاس Las Cases «إن الأمبراطور يتحدث باسهاب عن تقلّبنا وتغير مواقفنا بسرعة فهو يقول إن كل الفرنسيين متمرّدون ميَّالون لتوجيه اللوم... فرنسا تحب التغيير ولا تُطيق بقاء أي حكومة لفترة طويلة»(١٦٩).

وتحدث غالبا – بإلحاح شديد لا يُلح مثله إلاّ من كان غير واثق – عن حبه لفرنسا، وكان يكره أن يُقال له «يا كورسيكي» فمن أقواله «أريد أن أكون فرنسياً خالصاً»(١٧٠) «وإنه لنُبل ما بعده نُبل أن يكون المرء قد وُلد فرنسياً»(١٧١) لكنه في سنة ١٨٠٩ أفضى إلى روديريه Roderer بما يعنيه بهذا الحب: «ليس له إلاّ عاطفة حب واحدة وخليلة واحدة. إنها فرنسا. إنني أنام معها، فلم تخذلني أبداً. لقد ضحّت بدمائها وأموالها من أجلي، فإن طلبت منها ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل قدمتهم لي»(١٧٢) لقد أحبّها على نحو ما يحب عازف الكمان كمانه، كأداة سريعة الاستجابة لقوسه وإرادته. لقد شد على أوتارها حتى قطعها، قطعها جميعاً تقريباً وفجأة.

أكان نابليون هو «ابن الثورة الفرنسية»؟ هكذا كان يطلق عليه المتحالفون الأوروبيون ضدّه لكنهم كانوا يقصدون بذلك أنه ورث كل آثامها وجرائمها وأنه واصل مهمتها في إبعاد أسرة البوربون التي كانت حاكمة. أما هو نفسه فقال مراراً إنه قد كان سبباً في إنهاء الثورة الفرنسية أو بتعبير آخر أوصلها إلى النهاية – انه لم يُنه ما سبّبته من فوضى وعنف فحسب، وإنما أنهى أيضاً دعاويها الديمقراطية (غير الحقيقية). لقد كان ابناً للثورة إلى الحد الذي احتفظ فيه بانعتاق الفلاحين وتحررهم، وحرية التجارة والقيام بالمشروعات وإلى الحد الذي جعل فيه الناس سواسية أمام القانون وإلى الحد الذي فتح فيه أبواب المناصب على مصاريعها أمام الموهوبين والقادرين كما كان ابناً للثورة في إرادته المعقودة على الدفاع عن حدود فرنسا الطبيعية، لكنه عندما جعل من نفسه قنصلاً مدى الحياة فإمبراطوراً وعندما قضى على حرية الحديث وحرية الصحافة وأنهى شراكة الكنيسة الكاثوليكية في الحكم وأقام سجوناً جديدة وشجع الأرستقراطية القديمة والجديدة – فإنه – بالتأكيد – يكون قد أصبح بعيداً عن كونه ابناً للثورة. وكان نابليون يمكث أيضاً في البلاد المفتوحة، وفيها أنهى

الإقطاع ومحاكم التفتيش وسيطرة رجال الدين على مناحي الحياة، وأدخل لهذه البلاد مواد مدونته القانونية وشيئاً من التنوير، لكنه أيضاً ربط هذه الدول المفتوحة به فعين عليها ملوكا.

أكان حقاً - رغم إرادته - كورسيكيا؟ هذا غير صحيح إلاّ فيما يتعلق بولائه لأسرته، وميله للقتال، وعاطفته الجياشة في الدفاع عن فرنسا ضد أعدائها، لكنه لم يكن كورسيكيا إذا نظرنا لعدم ميله للإقطاع كما ان قراءاته للمفكرين الفرنسيين أبعدته عن كاثوليكية العصور الوسطى التي كان عليها أهل جزيرته (كورسيكا). لقد كان كورسيكي الدم، فرنسي التعليم، إيطالياً في كل شيء خلال ذلك.

نعم فبعد كل محاولاتنا للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نرجع إلى ما قاله ستندهال Stendhal وتين Taine من أن نابليون كان كأحد قادة الجنود المرتزقة في إيطاليا في عصر النهضة، وساعد على بقائه محتفظاً بهذه الخاصية، انعزال كورسيكا وحروبها ونظامها الإقطاعي. لقد كان هو كقيصر بورجيا Ceasar Borgia لكنه ضعْفه عقلاً، وكان كمكيافيللي لكن حذره بمقدار النصف، وإرادته تزيد على ما أوصى به ميكافيللي مئة مرة. لقد كان إيطالياً لكن فولتير جعله شكّاكاً، كما جعلته الثورة الفرنسية التي شهد وقائعها حاذق الذهن محتالاً، وأصبح لمّاحاً حاد الذهن بدخوله في مناقشات يومية مع المفكرين الفرنسيين اللامعين. لقد ظهرت فيه كل صفات إيطاليا في عصر النهضة: الفنان والمقاتل والفيلسوف والقائد وحدتهم جميعا - في شخصه - مواهبه وأهدافه وفكره المتغلغل الثاقب اللمّاح، واتجاهه المباشر للانجاز والهيمنة، لكنه لم يكن قادراً علي التوقف. وباستثناء هذا الخطأ الحيوي، فقد كان هو أبرع من شهده التاريخ تحكماً في الأمور المعقدة وأبرع من شهده التاريخ تنسيقاً للطاقة البشرية. لقد أحسن توكويفيل Tocqueville عندما قال: لقد كان كأفضل ما يكون الرجال لكن دون فضيلة، وكأحكم ما يكون الرجال لكن دون تواضع. ومع هذا فقد كان نابليون في نطاق ما هو معقول محتمل عندما توقّع أن العالم قد لا يشهد نظيراً له لقرون كثيرة قادمة.

الفصل الحادي عشر

فرنسا في عهد نابليون

[١٨٠٠ - ١٨٠٥]

١- الاقتصـــاد:

رغم أنَّ نابليـون نشـأ ليكون رجـلاً عـسكرياً إلاَّ أنه كـان ذا حِس صـائب إزاء الحـقـائق الاقتصادية باعتبارها أساس تحديد مصائر الأسر وباعتبارها ركيزة للحضارة، وبها يكون الحُكْم على قوّة الدولة أو ا ضعفها . وبشكل عام فإنه رغم ميله الشديد للتنظيم كان مناصراً للحرية الاقتصادية، وفتح أبواب المنافسة، وحقوق الملكية الخاصّة. فلم يهتم كثيراً بالخطط الاشتراكية التي قال بها شارل فورييه Charles Fourier وغيره والمتعلقة بالانتاج الجماعي وتوزيع الناتج توزيعاً متساوياً. فقد كان يشعر شعوراً أكيداً أن الأقلية الأكثر مقدرة – في أي مجتمع – سرعان ما تحكم الأكثرية وتستوعب – أي هذه الأقلية النَّشِطة – القدر الأكبر من الثروة، وأكثر من هذا فإن المُثُل الشيوعية لا تستطيع على المدى الطويل بأساليبها المتباينة في تقديم الحوافز في حفز الناس على الكدح، ففي تحليل جانبي ورد أن « الجوع هو الذي يجعل العالم يتحرك »(١) وأكثر من هذا فإن الملكية الجماعية تمثّل إغراء مستمراً باللامبالاة. « فبينما الملكية الفردية بما فيها من مصالح شخصية للمالك في ثروته – تدفع لليقظة الدائمة والانتباه المستمر مما يجعل خططه مثمرة محققة لأهدافها، فإن الملكية الجماعية تؤدي للخمول وعدم الانتاجية، لأن المشروع الفردي مسألة موهبة ومهارة بينما المشروع الجماعي مسألة روح عامة، وتوفر الروح العامة العالية لا يكون إلاَّ نادراً »(٢). ومن هنا فقد فتح نابليون كل الأبواب وأتاح كل الفرص لكل الناس بصرف النظر عن ثرواتهم وأنسابهم. وقد نعمت فرنسا حتى سنوات حكمه الأخيرة بالرخاء الذي حقَّق السلام الاجتماعي بين كل الطبقات ولم تعد هناك بطالة(٣) ولا اضطرابات سياسية. « ولم يعد أحد مهتماً بالإطاحة بحكومة وظّفت أو أتاحت فُرصة عمل لكل محتاج »(٤).

لقد كان نابليون يؤمن بمبدأ أساسي هو أن دولة « تقوم ماليتها على نظام زراعي جيد لا

تسقط أبداً»[٥]. لقد أدرك أنه بإشرافه على كل شيء وعدم إغفاله أي شيء أن التعريفات الحامية Protective tarifs والتمويل المالي الموثوق به وصيانة الطرق والقنوات بشكل جيد، كل ذلك لابد أن يشجع الفلاحين على العمل الجاد المتواصل وعلى شراء الأراضي واستصلاح المزيد منها، وتزويد جيوشه بالشباب الأقوياء. لقد كان عدد كبير جداً من الفلاحين الفرنسيين يعملون بنظام المزارعة (أي العمل في مزارع الآخرين لقاء المشاركة في المحصول) أو في أراضٍ مستأجرة لكن نصف مليون منهم أصبحوا بحلول عام ١٨١٤ يمتلكون الفدادين (الأكرات acres) التي يزرعونها. وقد وصفت سيدةٌ إنجليزية قامت برحلة إلى فرنسا في هذا العام الفلاحين الفرنسيين بأنهم يتمتعون بدرجة من الرخاء لم يصل إليها الفلاحون في أي مكان في أوروبا[٦]. وقد نظر هؤلاء الزرَّاع إلى نابليون باعتباره الضمان الحي لحُجج مليكاتهم وظلوا موالين له حتى وهنت أراضيهم نتيجة غياب أبنائهم المجندين في جيوشه.

واهتم نابليون أيضاً بالصناعة اهتماماً أساسياً. فجعل من مهامه زيارة المصانع وإظهار اهتمامه بعمليات الانتاج والمنتجات، وبالعمال والحرفيين والمديرين. وتطلّع إلى وضع العِلْم في خدمة الصناعة. لقد أقام المعارض الصناعية – ففي سنة ١٨٠١ أقام معرضاً في اللوفر Louvre، وآخر في سنة ١٨٠٦ في خيمة هائلة في ميدان الجنود المتقاعدين ومشوّهي الحرب Place des Invalides ونظم مدرسة الفنون والحِرَف، وكافأ المخترعين والعلماء. وأجريت التجارب في سنة ١٨٠٢ لاستخدام طاقة البخار وبالفعل فقد تم تجريب آلة غير مُتقنة تعمل بالبخار لتسيير بارجة نقل بضائع في ترعة قرب باريس، لكن أمر استخدام الطاقة البخارية كان في حاجة إلى مزيد من الجهود. وفي سنة ١٨٠٣ قدَّم روبير فلتون Robert Fulton خطة لاستخدام الطاقة البخارية في الملاحة، فأحالها نابليون إلى المعهد الوطني الفرنسي National Institute الذي رفضها بعد شهرين من التجارب لكونها غير عملية. لقد كانت الصناعة الفرنسية تتقدم على نحو أبطأ من الصناعة البريطانية، فقد كانت أسواق تصريف منتجاتها أقل ورؤوس أموالها أقل، واستخدام الآلات فيها أقل. وعلى أية حال ففي سنة ١٨٠١ عرض جوزيف – ماري جكوار Joseph - Marie Jacquard آلة جديدة للنسج وفي سنة ١٨٠٦

اشترت الحكومة الفرنسية اختراعه هذا ونشرته فأصبحت صناعة النسيج الفرنسية تنافس نظيرتها البريطانية. وزاد عدد الأنوال (جمع نول) المستخدمة في صناعة الحرير في ليون Lyon من ٣٥٠٠ نُول سنة ١٨٠٠ إلى ١٠,٧٥٠ في سنة ١٨٠٨[٧] وفي سنة ١٨١٠ كان يعمل في مصانع مورّد نسيج واحد أحد عشر ألف عامل[٨]. وفي هذه الأثناء كان الكيميائيون الفرنسيون يواصلون جهودهم لمواجهة منع المنتجات البريطانية من السكر والقطن والأصباغ (النيلة أو الأصباغ الزرقاء) فصنعوا السكّر من البنجر والأصباغ الزرقاء من نباتات الوَسمة Woaol، وطوّروا الكتان فجعلوا منسوجاته أفضل من المنسوجات القطنية[٩]، وصنعوا البراندي (نوعاً من الخمور) من البطاطس.

وساعد نابليون الصناعة الفرنسية بالتعريفات الحامية Protective tarifs والحصار القاري المضاد وعاونها لتجاوز الصعاب المالية بالقروض بشروط مُيسَّرة وفتح أسواقاً جديدة للمنتجات الفرنسية في إمبراطوريته الواسعة، وكان يستوعب العمال في أشغال عامة على نطاق واسع إن شهدت البلاد ركوداً في عمليات التشغيل أو التوظيف. وكان بعضها شاهداً على عظمة نابليون وجيوشه مثل عمود فيندوم[*] Vendome Column والمادلين Madeleine (الكلمة تعني حرفياً فواكه الصيف) وقوس النصر المرصّع بالنجوم وقوس نصر ميدان الفروسية، وشغَّل الشباب في بعض الأعمال الأخرى مثل إقامة تحصينات عسكرية أو أعمال تهدف لتسهيل التحركات العسكرية وغيرها كالأشغال التي جرت في ميناء شيربورج Cherbourg وحصنه وقناته، وبعض هذه الإنشاءات ذات النفع كانت مصمّمة بحيث يكون لها أبعاد فنية جمالية، كمبنى البورصة وبنك فرنسا ومبنى مكتب البريد العام ومسرح الأوديون Odéon (الكلمة تعني حرفياً مسرح إغريقي للموسيقا والغناء)، بل وحتى سوق القمح Bels أو سوق النبيذ Vins (١٨١١) وبعض هذه الأشغال العامة كانت لتسهيل العمل الزراعي، كتجفيف المستنقعات بالإضافة لأعمال أخرى تُيسِّرالنقل والتجارة. وتم افتتاح شوارع جديدة في باريس مثل طرق ريفولي Rivoli وكاستينجليون Castinglione اليه Paix (السلام) وميلين من الأرصفة على طول نهر السين ومقر وزارة الخارجية الفرنسية

(*) الكلمة لا تعني اسم شخص..

المطل على هذا النهر ذاته، والأكثر أهمية إنشاء ٣٣,٥٠٠ ميل من الطرق الجديدة في فرنسا، وما لا حصر له من الجسور بما في ذلك جسر أوسترليتز في باريس وجسر لينا Léna في باريس أيضاً، أضف إلى هذا تطهير النهر ومد شبكة رائعة من الترع والقنوات. لقد تم حفر ترع كبرى لتربط باريس بليون Lyon وليون بستراسبورج Strasbourg وبوردو **Bordeaux** وسقط نابليون قبل أن يستطيع إكمال مشروعين آخرين: قنوات تربط الراين بالدانوب والرون، وقنوات أخرى تربط البندقية (فينيسيا) بجنوة[١٠].

ولم يكن مسموحاً للعمال الذين يعملون في حفر القنوات وإقامة أقواس النصر وتشغيل المصانع بالاشتراك في أي إضراب أو تكوين اتحادات للمطالبة بتحسين ظروف العمل أو رفع الأجور. وعلى أية حال فإن حكومة نابليون عملت على أن تكون الأجور متمشية مع الأسعار وأن يخضع الخبّازون والجزارون (اللحّامون) والمنتجون لتنظيم الدولة وأن تتوفّر ضروريات الحياة خاصة في باريس. وحتى الأعوام الأخيرة من حكم نابليون كانت الأجور تزداد بمعدّل أسرع من ازدياد الأسعار وشاركت البروليتاريا (الطبقة العاملة) على نحو معتدل في الرخاء العام وفي مجد انتصارات نابليون، فأصبحوا أكثر وطنية من البورجوازية. فأعطوا أذناً غير مصغية للبورجوازيين الليبراليين مثل مدام دي ستيل Stael وبنيامين كونستات (قستنطين) Benjamin Constant في تبشيرهم بالحرية.

ومع هذا كانت هناك أصوات مستاءة، وأسباب للاحتجاج. فلأن الاقتصاد الحر كلما تقدَّم أصبح النشيطون أثرياء، فقد أدرك بعض الناس أن «المساواة» تتدهور في ظل الحرية، وعلى هذا فقد كان رأيهم أن الحكومة تقوم بعمل مُنكر بسماحها بتركيز الثروة لتستثني بذلك نصف السكان من ثمار الاختراعات ومزايا الحضارة، ففي سنة ١٨٠٨ أصدر فرانسوا – ماري فورييه Fourier كتابه «نظرية الحركات الأربع ومصير العامة» الذي يمثل أول مثال تقليدي للاشتراكية المالية Utopian. لقد اقترح على غير الراضين بأوضاعهم في ظل النظام الصناعي القائم أن يتَّحدوا في كتائب تعاونية Phalanges بمعنى أن تعيش حوالي أربعمائة أسرة معاً في مستعمرات تعاونية (تستخدم بعض الكتب والقواميس العربية مصطلح كتائب تعاونية أو كتائبية تعاونية) أو مبنى واحداً مُشاعاً بينهم بحيث يقضي كل الأعضاء

جزءاً من العمل اليومي في مجال الزراعة (بحيث يكون هذا العمل منظماً تنظيماً جماعياً) وجزءاً آخر في الصناعة الجماعية أو المنزلية، ويقضون الجزء الثالث في الترفيه أو التثقيف، وفي نظامه هذا يتحتم أن يقوم الفرد بمهام مختلفة وأن يُغير موقعه في العمل بين الحين والحين، بمعنى أن يساهم كل فرد على قدم المساواة في انتاج أو أرباح هذه المستعمرة التعاونية (أو الكتيبة التعاونة Phalanx) ووفقا لهذا النظام يكون في كل مستعمرة تعاونية مركز اجتماعي ومدرسة ومكتبة وفندق وبنك. وسرعان ما كانت هذه الخطة مصدر إلهام في شطري الكرة الأرضية وكانت مزرعة بروك Brook Farm بالقرب من بوسطون Boston هي الوحيدة التي تكوّنت من عدّة مجتمعات مثالية (يوتوبية Utopian) سرعان ما تناقص عددها نتيجة النزعات الفردية الطبيعية للبشر.

ولم يكن نابليون نفسه مولعاً ولعاً شديداً بالرأسمالية. فقد كان يقول عن الأمريكيين أنهم « مجرّد تجّار » فهم « يكرّسون كل همهم لجمع المال الذي هو مجدهم »[11] وقد شجّع نابليون التجارة الفرنسية بمضاعفة وسائل النقل وصيانة الطرق بشكل مستمر، وبالتمويل المالي وضخ الأموال بشكل ثابت لكنه عوّقها بألف مرسوم ومرسوم لإحكام الحصار القاري المضاد، وأخيراً اضطر للتسليم نتيجة شكاوى التجار (١٨١٠ - ١٨١١) وسمح بتصدير بضائع معينة لبريطانيا وباستيراد السكر والبن ومنتجات أجنبية أخرى. لقد أرهقته هذه التراخيص (بالاستيراد أو بالتصدير) فقد عملت المحسوبية عملها وظهر الفساد من خلالها[12]. فكلما نمت الصناعة في فرنسا كانت استفادة التجارة والحرفيين الصغار أكبر من استفادة تجارة الجملة فكلما توسعت الزراعة والصناعة ووسائل النقل أصبحت بضائع المخازن غير متاحة لتجار الجملة الفرنسيين. حقاً إن عدداً كبيراً من الشوارع قد انتعش بالبوتيكات (المحلات) العامرة، لكن الموانئ الكبرى - مارسيليا وبوردو ونانت Nantes ولا هافر Le Havre وأنتورب Antwerp وأمستردام - كلها كانت تعاني الكساد الذي أرجع التجار سببه لنابليون وحصاره القاري (المضاد).

وكان أعظم نجاحات نابليون كإداري في مجال المالية. ومن الغريب أن نقول إن حروبه حتى سنة ١٨١٢ عادة ما كانت تدر عائداً أكثر من تكاليفها. لقد حمّل أعداءه مسؤولية

بدء الحرب وعندما هزمهم فرض عليهم وعلى حُكامهم السابقين دفع مبالغ طائلة تأديباً لهم، وكان نابليون يحتفظ بجانب من هذه الغرامات تحت إشرافه الشخصي كملك استثنائي Domaine extraordinaire وقد تباهى في سنة ١٨١١ أن لديه ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبي في أقبية (جمع قبو) قصر التوليري(١٣) وكان يستخدم هذه الميزانية في تذليل صعوبات الخزانة الفرنسية، وفي تصحيح التحوّلات الخطرة في سوق الأوراق المالية وتمويل الأشغال العامة أو التحسينات البلدية والقروية، وللمكافأة على الخدمات البارزة ولتمييز الفنانين والكتاب ولإنقاذ الصناعات المتعثرة ولرشوة صديق أو عدو، ولتنفيذ سياساته السرّية. ويتبقى جزء كافٍ للاستعداد للحرب التالية وليجعل الضرائب أقل بكثير مما كانت عليه في ظل لويس السادس عشر أو أثناء الثورة الفرنسية(١٤).

يقول تين Taine «قبل سنة ١٧٨٩ كان الفلاح الفرنسي يدفع من كل مئة فرنك يكسبها ١٤ فرنكاً للسيد الإقطاعي و ١٤ فرنكاً للإكليروس (رجال الدين) و ٥٣ فرنكاً للدولة ولا يبقى له سوى ١٨ أو ١٩ فرنكاً. وبعد سنة ١٨٠٠ لم يعد يدفع للسيد الإقطاعي أو للإكليروس وإنما أصبح يدفع قدراً قليلاً للدولة و ٢٥ فرنكاً لمجلس الدائرة أو المحافظة ويحتفظ لنفسه بسبعين فرنكاً من مئة لنفسه»(١٥). وقبل سنة ١٧٨٩ كان العامل اليدوي يدفع ما يعادل أجر أيام عمل تتراوح ما بين عشرين يوماً إلى تسعة وثلاثين يوماً ليسدّد ما عليه من ضرائب كل عام، وبعد سنة ١٨٠٠ أصبحت هذه الفترة تتراوح ما بين ستة أيام إلى تسعة عشر يوماً». وكاد عبء الضرائب المباشرة يقع كله على كاهل من يملكون مقابل الاعفاء شبه الكامل (من الضرائب) لمن لا يملكون»(١٦) وعلى أية حال فقد كانت هناك ضرائب كثيرة «معتدلة تماماً» غير مباشرة أو ضرائب مبيعات كان يتحملها كل الناس على نحو سواء ومن ثم كان الفقراء يعانون منها أكثر من الأثرياء. وقرب نهاية الحكم الإمبراطوري زادت تكاليف الحرب عن عوائدها فارتفعت الضرائب والأسعار وعمّ السخط. ودفعت الأزمة المالية في سنة ١٨٠٥ نابليون إلى إعادة تنظيم بنك فرنسا الذي كان قد أنشئ في سنة ١٨٠٠ في ظل إدارة خاصة. وبينما كان نابليون يحارب دفاعاً عن وجوده السياسي في مارنجو Marengo أحكمت مجموعة من المضاربين سيطرتها على إمدادات Supplies القوات

المسلحة وكان على رأس هؤلاء المضاربين جابريل جوليان أوفرار Gabriel - Julien Ouvrard وقد طلب هؤلاء المضاربون - أثناء مرورهم بمصاعب - من البنك قرضاً كبيراً، ولكي يقدم البنك هذه المبالغ أصدر - بعد استئذان وزارة الخزانة - عملته النقدية كعملة رسمية معترف بها، وفشل هذا الإجراء فلم تُقبل هذه الأوراق النقدية عند إجراء الصفقات وتدنّت قيمتها الفعلية إلى نحو ٩٠٪ من قيمتها المدونة عليها (الاسميّة). وواجه البنك وجماعة المضاربين الإفلاس. وعند عودة نابليون إلى باريس أنقذ البنك بجزء من التعويضات التي تسلّمها من النمسا، لكنه أصر - أي نابليون - أن يصبح البنك من الآن فصاعداً «تحت إشراف الدولة لكن على الدولة ألاّ تتجاوز الحد في هذا الإشراف» وفي ٢٢ أبريل سنة ١٨٠٦ وضعه تحت إشراف محافظ governer واثنين من المساعدين تُعينهم الحكومة، وخمسة عشر وصي يختارهم المساهمون، وافتتح هذا البنك الجديد (المقصود بنظامه الجديد) فروعاً له في ليون Lyon وروان Rouen وليل Lille وبدأ مهمته التي طال أمدها في خدمة الاقتصاد الفرنسي والدولة. وظلت الحكومة لا تمتلك إلاّ القليل من أسهم هذا البنك.

ولم يكن نابليون يحترم كثيراً أولئك الذين يبيعون المؤن لجيشه ووزاراته. فقد كان كل متعاقد من المتعاقدين يحشو فواتيره وكان بعضهم يُقدم مواد زائفة (مغشوشة) مقرونة بأسعار تشير إلى أنها (أي هذه المواد) ممتازة. وأصدر تعليماته لموظّفيه ليراجعوا بحزم كل الفواتير المقدمة لهم بل لقد كان يراجعها بنفسه في بعض الأحيان. لقد قال لبورين «إن كل المتعاقدين (المورّدين) وكل وكلاء التمويل محتالون.. إنهم يمتلكون الملايين ويتمرغون في النعمة، بينما جنودي ليس لديهم خبز ولا أحذية..»[١٧] وفي فيينا تلقي سنة ١٨٠٩ شكايات من رداءة الملابس والمعدّات التي بيعت لجيشه، فأمر بإجراء تحقيق تبيّن منه أن المتعاقدين حققوا أرباحاً طائلة من هذه المبيعات بغير وجه حق، فأمر بتشكيل محكمة عسكرية حكمت على المختلسين بالإعدام، وتم تنفيذ الحكم رغم كل الوساطات التي بُذلت لإنقاذهم والتي رفضها نابليون[١٨].

وعلى العموم فحتى ناقدو نابليون المعادون يعترفون[١٩] أنه في السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكم نابليون شهدت فرنسا أقصى درجات الرخاء والازدهار لم تعرفه قبل ذلك

أبداً. وعندما عاد لا كاس Las Cases إلى فرنسا سنة ١٨٠٥ من جولة في ستين دائرة (محافظة) ذكر في تقرير له أن «فرنسا لم تكن في أي فترة في تاريخها أكثر قوة وانتعاشا وسعادة، وأفضل حكما مما هي عليه الآن»[٢٠] وكان لا كاس أحد الذين هاجروا من فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية لكنه عاد إليها بعد العفو عنه. وفي سنة ١٨١٣ زعم وزير الداخلية الكونت دي مونتاليف Montalievt «أن هذا الرخاء المستمر راجع إلى القضاء على النظام الاقطاعي، والنظام الطبقي والنظم الدّيرية... والاتجاه بشكل أكثر نحو توزيع أكثر عدالة للثروة وتبسيط القوانين وجعلها أكثر وضوحاً[٢١] وفي سنة ١٨٠٠ كان تعداد سكان فرنسا حوالي ٢٨ مليون، أصبحوا في سنة ١٨١٣ ثلاثين مليوناً. ولا تبدو هذه الزيادة مروّعة لكن لو كانت هذه النسبة في الزيادة قد استمرت حتى سنة ١٨٧٠ (حتى بدون حساب الزيادة المركبة) لكان على ابن أخي نابليون أن يحكم خمسين مليوناً ليواجه بهم تحدي ألمانيا بزعامة بسمارك.

٢- المعلّمون

لقد لاحظنا أن نابليون خلال فترة القنصلية (الفترة التي كان يحكم فيها فرنسا كقنصل أول) يحاول أن يقدم لفرنسا في فترة ما بعد الثورة نظاماً جديداً ويُعيد إليها الاستقرار بمدوّنة القانون المدني، وكونكوردات السلام (الاتفاق مع البابا) والتعاون بين حكومته والدين التقليدي للشعب الفرنسي.

وبالإضافة إلى هذه القوى المكوّنة للوجدان الفرنسي، رأى نابليون أن يضيف قوّة أخرى ثالثة بإعادة تنظيمه التعليم في فرنسا. من بين كل الآليات الاجتماعية، ربما كانت المدرسة هي الأكثر فعالية وتأثيراً، لأنها تمارس على الأطفال والشباب ثلاثة أنواع من التأثيرات بشكل مباشر وغير مباشر: تأثير الناظر والمدرسين، وتأثير من خلال الدراسة المشتركة، وتأثير أخير من خلال القواعد المتبعة والإجراءات المرعية»[٢٢]. لقد كان نابليون مقتنعاً أن سبباً واحداً كان كامناً وراء انهيار القانون والنظام أثناء الثورة الفرنسية هو عدم قدرتها على ترسيخ نظام تعليمي جديد يكفي ليحل محل النظام التعليمي الذي كانت تديره الكنيسة

قبل الثورة. لقد نسيت الثورة هذا المشروع في خضم صراع الموت أو الحياة في هذه الفترة. لقد تم وضع خطط رائعة، لكنها لم توضع موضع التنفيذ بسبب نقص المال، كما أن الوقت الكافي لتنفيذها لم يكن متاحاً أثناء الثورة. وكان التعليم الابتدائي قد تُرِك للقسس والراهبات أو في أيدي معلمين ونظار تركهم الآباء والمجالس البلدية (الكوميونات) يعيشون فوق خط الجوع بقليل. وكانت المدارس الثانوية موجودة بالكاد في مؤسسات تعليمية Lycées تقدم مقررات دراسية في العلوم والتاريخ دون أن تهتم – إلاّ قليلاً – بتكوين شخصية الطالب. لقد فكر نابليون في التعليم العام من منظور سياسي: إن وظيفته هي تخريج مواطنين أذكياء لكن مطيعين. «لقد قال بصراحة غير معهودة في الحكومات: «عند تكوين هيئات التدريس، فإن هدفي الأساسي هو تأمين وسائل توجيه الرأي السياسي والأخلاقي... فطالما أن المرء ينشأ دون أن يعرف ما إذا كان جمهورياً أم ملكياً، كاثوليكياً أو لادينياً، فإن الدولة لن تستطيع أبداً تكوين أمّة، وإنما ستقوم على أسس غامضة وغير أكيدة، وستكون دائماً عرضة للفوضى والتغيير»(٢٣).

وبعد أن أعاد الارتباط بين الكنيسة والدولة سمح لمنظمات نصف ديرية مثل جماعة إخوة المدارس المسيحية Frères des Ecoles Chrétiennes بتقديم مناهج دراسية في المرحلة الابتدائية، كما سمح للراهبات بتعليم البنات الموسرات. لكنه رفض أن يدخل الجزويت Jesuits (اليسوعيين) فرنسا من جديد. ومع هذا فقد كان معجباً بهم لتنظيمهم المنضبط كنقابة مكرّسة للمدرسين(*). لقد كتب نابليون (١٦ فبراير سنة ١٨٠٥) «ان الأمر الأساسي هو تعليم الأطفال على نسق الجزويت الأوائل»(٢٤) وتذكر بورين قائلا: «عندما كنت معه (نابليون) كان كثيراً ما يقول لي إنه من الضروري أن تكون كل المدارس والكليات وغيرهما من مؤسسات التعليم العام خاضعة للنظام العسكري»(٢٥) وفي ملاحظة أبداها نابليون في سنة ١٨٠٥ قال «لا يمكن تكوين نظام للتدريس إلاّ إذا خضع كل مديري المدارس وموجهيها ومعلميها في الإمبراطورية لرئيس واحد أو عدة رؤساء على نسق رؤساء

(*) طبعاً هذا مجرد تشبيه لأن الجزويت ليسوا «نقابة» وليسوا مخصّصين للتدريس وإنما للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية على نسق جديد صارم. (المترجم)

عموم الرهبنة ومسؤوليها المحلّيين. . . عند الجزويت (اليسوعيين) » وإلاّ إذا كانت القاعدة هي ألا يشغل أي شخص منصباً أعلى في المؤسسة التعليمية إلا إذا كان قد سبق له وشغل المناصب والمراكز الأخرى الأدنى درجة. ومن المستحب أيضاً ألا يتزوج المدرّس أو أن يؤجّل زواجه « حتى يؤمّن لنفسه مركزا ودخلاً. . كافيا لإعالة أسرة »[٢٦].

وبعد عام (١٠ مايو سنة ١٨٠٦) ضَمِنَ أنطوان فرنسوا دي فوركروي Antoine - François de Fourcroy - الموجّه العام للتعليم العام من المجلس التشريعي مرسوماً مؤقتاً مفاده « تأسيس الجامعة الإمبراطورية لتكون جهازاً مختصاً دون سواه بالتدريس على مستوى الإمبراطورية » (أسست جامعة باريس حوالي سنة ١١٥٠ وألغتها الثورة الفرنسية في سنة ١٧٩٠). وكان على هذه الجامعة الجديدة ألا تكون مجرّد مجموعة كليات - كلية للاهوت، وأخرى للقانون وثالثة للطب ورابعة للعلوم وخامسة للآداب، وإنما أن تكون المؤسسة الوحيدة لتخريج مدرّسي المرحلة الثانوية في فرنسا، وأصبح يتعين تأسيس مدارس ثانوية في مدينة أو أكثر في كل محافظة لتقدم لطلبتها مناهج دراسية تزاوج بين اللغات الكلاسية والآداب والعلوم وأن تقوم المجالس البلدية بتمويلها، لكن كل مدرسيها لابد أن يكونوا من خريجي الجامعة، وألا يرقى أي منهم إلى منصب أعلى إلا إذا سبق له شغل المنصب الأدنى منه[٢٧]، وأن يُطيع رؤساءه على نحو ما يطيع الجندي الضابط. ولحث الشباب الفرنسي على الالتحاق بهذه « الطاحونة الشاقة Treadmill » قدّم نابليون ٦,٤٠٠ منحة دراسية تعهّد الذين حصلوا عليها بالتفرغ لمهنة التدريس وأن يؤجلوا زواجهم حتى بلوغهم سن الخامسة والعشرين على الأقل. « وسيكون أمامهم في النهاية فرص الترقي لأعلى المناصب في الدولة »[٢٨]. وقال نابليون لفوركروي Fourcroy « إن كل هذا مجرد بداية، فشيئاً فشيئاً ستقوم بتحقيق ما هو أكثر وما هو أفضل »[٢٩].

وبالفعل فقد فعل ما هو أفضل - من وجهة نظره - بأن أعاد (في سنة ١٨١٠) دار المعلمين Ecole Normale لتكون فرعاً من فروع الجامعة، وفي هذه الدار يعيشون معاً في ظل نظام عسكري ويتلقون تعليماً خاصاً على يد هيئة تدريس ذات تقدير واحترام تضم أساتذة مثل لابلاس Laplace ولاجرانج Lagrange وبيرثول Bertholet ومونج Monge وبحلول عام

١٨١٣ كان من المتوقع أن يكون كل معلّمي الكليات من خريجي دار المعلمين، وبدأ العِلم يسود على حساب الدراسات الكلاسيـة في مناهج الكليات وأصبح هو الذي يَسِمُ الروح العامة لفرنسا المتعلمة. وتحولت مدرسة البوليتقنية Ecole Polytechnique التي أسست خلال الثورة إلى الأكاديمية العسكرية حيث وُضعت العلوم الفيزيقية في خدمة الحرب، وبقيت عدة جامعات في المحافظات حتى بعد انتهاء انتصارات الإمبراطور العسكرية، وسُمح بإقامة كليات خاصة بعد الترخيص لها من الجامعة وعلى أساس خضوعها للتفتيش الدوري. وبعد استتباب الأمور سُمِح لأفراد من المحاضرين باستخدام قاعات الجامعة لتقديم برامج دراسية خاصة وسُمح للطلبة بحضور هذه البرامج وفقاً لرغباتهم.

وكان على رأس الهرم الفكري المعهدُ الوطني الفرنسي. وأعيدت الأكاديمية الفرنسية التي كانت قد ألغيت في سنة ١٧٩٣ لتكون في سنة ١٧٩٥ بمثابة القسم الثاني Class II للمعهد الجديد. وكان نابليون فخوراً بعضويته في المعهد لكن عندما تجرأ قسم السياسة والأخلاق في المعهد في سنة ١٨٠١ على تقديم محاضرات عن كيفية إدارة دفّة الحكم، أمر نابليون الكونت لويس – فيليب دي سيجور de Ségur «أن يخبر القسم الثاني في المعهد أنني لا أسمح أن يناقش الأعضاء في اجتماعاتهم موضوعات سياسية»[٣٠] وكان المعهد يضُم في ذلك الوقت كثيراً من الثوّار القدامى المؤمنين بالتنوير والثورة وقد عبَّروا عن سخطهم بالضحك أو البكاء لإعادة الكنيسة الكاثوليكية بشكل رسمي. واستخدم كاباني Cabanis وديستوت دي تراسي Destut de Tracy كلمة «أيديولوجية» للتعبير عن دراسة تكوين الأفكار. وقد أطلق نابليون على هؤلاء السيكلوجيين والفلاسفة اسم «الأيديولوجيين idēologues» وقال عنهم إنهم أُناس غارقون في الأفكار ويُعربدون بالمنطق والعقل لدرجة تجعلهم غير قادرين على فهم حقائق الحياة والتاريخ. وكان نابليون يرى أن المفكرين الذين ينشرون أفكارهم عبر منشورات لا يُحصى عددها يشكلون عقبة في سبيل الحكومة الصالحة. ومن أقواله: «إن من يجيدون الكتابة ويتمتعون بالفصاحة ليس لديهم القدرة الحاسمة على الفصل في الأمور»[٣١] وقد حذَّر نابليون أخاه جوزيف الذي كان يحكم وقتها نابلي (١٨ يوليو سنة ١٨٠٧) قائلا: «أنت تقضي وقتاً طويلاً مع رجال

الأدب » إنهم مثل المثقفين والمفكرين الذين يثرثرون وينشرون الإشاعات في الصالونات «إنني أعتبر العلماء والمفكرين كالنِّسوة المغناجات الحنَّانات لابد أن يتابعهن المرء ويتحدث معهن لكنه أبداً لا يختار من بينهنّ زوجة له كما أنه لا يختار من بين هؤلاء الناس وزراءه»[٣٢].

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٠٣ أعاد تنظيم المعهد وقسّمهُ إلى أربعة أقسام، وألغى منه قسم السياسة والأخلاق. القسم الأول وهو القسم الذي كان يقدّره تقديراً شديداً مختص بدراسة العلوم. وكان من بين أعضائه الستين ادريان ليجندر Adrien Legendre ومونج Monge وبيوت Biot وبيرثول Bertholet وجاي - لوسّاك Gay - Lussac ولابلاس Laplace ولامارك Lamarck وجيوفري سان - هيلير Geoffroy وكوفييه Cuvier والقسم الثاني ويضم أربعين عضواً مختصاً بدراسة اللغة الفرنسية وأدبها وقد حلّ هذا القسم محل الأكاديمية الفرنسية القديمة، وواصل العمل في «القاموس Dictionnaire» وكان هذا القسم يضم الشاعر المخضرم ديليل Delille والدرامي الشهير ماري - جوزيف دي شينييه Marie Joseph de Chenier والمؤرخ الشاب جيزو Guizot والكاتب الرومانسي شاتوبريان، والفلاسفة: فولني Volney وديستوت دي تراسي Destutt de Tracy ومين دي بيرا Maine de Biran. أما القسم الثالث الذي يضم أيضاً أربعين عضواً فمختص بدراسة التاريخ القديم وتاريخ الشرق سواء التاريخ العام أم تاريخ الآداب والفنون، وفي هذا القسم تابع لويس لانجلي Langles تلك الدراسات عن فارس والهند التي أدّت بالفعل إلى ظهور مدرسة اللغات الشرقية Ecole des Langues Orientales (١٧٩٥) واكتشف جان بابتست دَنس دي فيلوسو - Jan - Baptiste d'Ansse de Villoison المعلّقين السكندريين على هوميروس وبذا مهّد الطريق أمام نظرية ف. أ. ولف F.A. Wolf التي مؤداها أن أعمال هوميروس اشترك في كتابتها عدد كبير. والقسم الرابع - أكاديمية الفنون الجميلة - يضم عشرة رسامين وستة نحاتين وستة معماريين وثلاثة حفارين (مشتغلين بفن الحفر) وثلاثة ملحنين، وفي هذا القسم تألق ديفد (داود David) وانجر Ingres وهودو Houdon.

ورغم نفور نابليون من الأيديولوجيين فقد دعَّم المعهد بإخلاص وكان تواقاً لجعله حلية

يتحلّى بها حكمه. وكان كل عضو من أعضاء المعهد يتلقى من الحكومة ١٥٠٠ فرنك كراتب سنوي، وكان كل فرد من أفراد السكرتارية الدائمة يتلقى راتباً سنوياً مقداره ستة آلاف فرنك. ويقدم كل قسم في شهري فبراير ومارس، للإمبراطور تقريراً بانجازاته، وكان نابليون مسروراً من الصورة العامة، فقد زعم مينيفال Meneval أنه قال «إن هذه المتابعة العامة للآداب والعلوم والفنون... تظهر أن الذكاء البشري أبعد ما يكون عن الارتداد والتراجع وأنه لم يتوقف أثناء مسيرته المتواصلة نحو التقدم»(٣٣) وقد نتشكك في كلمة «المسيرة المتواصلة» لكن الذي لا شك فيه أن إعادة تنظيم المؤسسات العلمية، وتقديم المنح الدراسية في ظل حكم نابليون جعل المشتغلين في الحقول العلمية والأدبية والفنية في فرنسا على رأس قرنائهم الأوروبيين طوال نصف قرن.

٣- المحاربون

لقد أدى قيام الثورة الفرنسية إلى أن أصبحت الحرب هي الأكثر تتابعاً والأكثر مدعاة للقتل والأكثر تكلفة، وقد أدى التجنيد العفوي العام (تسليح الشعب بشكل عام لمواجهة عدو لم تجر الاستعدادات العسكرية المعتادة لمواجهته) في سنة ١٧٩٣ إلى قناعة بأن الحرب لم تعد (ولا يجب أن تكون) مباراة بين الملوك يستخدمون فيها المرتزقة وإنما نضال أمم تشترك فيه كل الطبقات - رغم أن الحكومات الأخرى حذت حذو فرنسا قبل ذلك ببعض الوقت بسماحها للعوام أن يُصبحوا ضباطاً بل وحتى مارشالات. وكان روسو Rousseau قد وضع بالفعل القاعدة العامة التي مؤداها أن الخدمة العامة هي اللازمة المنطقية للاشتراك في التصويت (في الانتخابات)، فيجب على من سيصوّت أن يخدم (وطنه) ففرنسا بمواجهتها للملكيات الأوروبية دفاعاً عن نظامها الجمهوري، فرنسا تلك التي كانت قبل لويس الرابع عشر تضم خليطاً من مناطق لكل منطقة مقوّماتها الخاصة ولا تربطها معها روح وطنية عامة، وحدّها الآن (١٧٩٣) الخوف العام. لقد كانت استجابتها للتهديد حاسمة وذات طابع وطني عام. لقد أصبح من الضروري تكوين جيش كبير يضم كل الرجال، وبدأ التجنيد الإلزامي وعندما بدأت جماهير الفرنسيين (من غير العسكريين) في هزيمة القوات

العسكرية المحترفة للملكيات الاقطاعية - فإن هذه الدول الملكية المهزومة فرضت هي الأخرى التجنيد الإلزامي، وبذا أصبحت الحرب صراع جماهير تتنافس في مضمار القتال. لقد أصبحت الحرب في الأساس صراعاً على المجد بين القوميات (الوطنيات) بعد أن كانت صراعاً بين الأسرات الحاكمة التي تبغي كل منها تحقيق ذاتها على حساب الأخرى.

وفي سنة ١٨٠٣ أصدر نابليون قانوناً جديداً للتجنيد الإلزامي لمواجهة انهيار سلام معاهدة إميان Amiens وتحسباً لحرب ضد تحالف أوروبي آخر ضدّه. ونص هذا القانون الجديد على تجنيد كل الذكور من الشريحة العمرية ما بين عشرين وخمسة وعشرين، مع استثناءات كثيرة كاستثناء المتزوجين حديثاً وطلبة المعاهدة اللاهوتية والذين فقدوا زوجاتهم أو طلقوهن ويقومون بإعالة أطفال، كما تم إعفاء من كان له أخ مجنَّد والأخ الأكبر من بين ثلاثة أيتام. وأكثر من هذا فقد كان يمكن للمجنَّد أن يقدِّم بديلاً يحل محلّه. وقد بدا هذا - في البداية - أمراً غير عادل في نظر نابليون لكنه عاد فسمح به، وكان هذا في الأساس لاقتناعه بأن الطلبة الذين قطعوا شوطا متقدماً في الدراسة لابد من تركهم لمواصلة دراساتهم ليهيئوا أنفسهم لشغل المناصب الإدارية»[٣٤].

لقد تحمّل الشعب الفرنسي بصبر هذا الاستنزاف السنوي الملح للقوي البشرية في نشوة الابتهاج بانتصارات نابليون، لكن عندما بدأت الهزائم (١٨٠٨) مخلّفة آلاف الأسر الحزينة، نمت المقاومة وتضاعفت أعداد المتهرِّبين والفارِّين. وبحلول عام ١٨١٤ كان نابليون قد جند في جيوشه ٢,٦١٣,٠٠٠ فرنسي[٣٥]. مات منهم حوالي مليون بسبب جروح شديدة ألّمت بهم أو بسبب الأمراض[٣٦]. وبالإضافة لهؤلاء فقد ضمَّ لجيوشه نصف مليون من الدول الأجنبية المتحالفة مع فرنسا أو التابعة لها. وفي سنة ١٨٠٩ طلب نابليون من القيصر اسكندر أن يتوسط بين فرنسا وإنجلترا ذاكراً له أن تحقيق السلام العام سيُتيح الفرصة لوضع نهاية للتجنيد الإلزامي. لكن هذا الأمل لم يتحقق. وطالما كان أعداء فرنسا المهزومون يفيقون من أحزانهم ليكوِّنوا تحالفات جديدة وليخوضوا معارك جديدة فقد جنَّد نابليون كثيرين قبل حلول دورهم في التجنيد بخمس سنوات، وكان يستدعي للتجنيد كل عام دفعات قبل حلول دورها وفي سنة ١٨١٣ جندّ دفعة سنة ١٨١٥[٣٧]. وأخيراً نفذ صبر

الآباء الفرنسيين وتعالت صيحات « يسقط التجنيد الإلزامي » في كل مكان في فرنسا.

وبهذه الطريقة كان الجيش العظيم ينمو ويزداد عدده، ذلك الجيش الذي كان حُب نابليون ومصدر فخره. وقد عمل نابليون على رفع الروح المعنوية لهذا الجيش فجعل لكل كتيبة من كتائبه علماً خاصاً بها ذا لون محدّد كان يحمله أحد الشبان الشجعان أثناء المعركة ليقود أفراد الكتيبة ويبث العزم فيهم فإن سقط اندفع شاب آخر ليرفعه. وعادة ما كان هذا العلم يمثل روح الكتيبة وعلامتها الظاهرة. وعادة ما كان يُحتفظ بهذا العلم ليتم عرض ما بقي منه في الاستعراضات العسكرية احتفاء بالنصر، وأخيراً يتم تعليقه كشارة مقدسة للنصر رغم تمزقه واهترائه في كنيسة ضحايا الحرب. وكان لكل كتيبة تقريبا لباسها المحدّد الخاص بها واسمها، وكانت هذه الكتائب مشهورة في وقت من الأوقات من بريست Brest إلى نيس Nice ومن أنتورب Antwerp إلي بوردو Bordeaux: رُماة القنابل اليدوية (الرمّانات) Grenadiers الهوصّار Hussards (سلاح الفرسان الخفيف)، القنّاصة Chasseurs حاملو الرماح Lanciers الفرسان Dragons .. إلخ والأهم من كل هؤلاء الحرس الإمبراطوري البالغ عدده ٩٢,٠٠٠ مقاتل كاحتياطي دفاعي حول الإمبراطور حين يظهر موقف متأزم يقتضي منهم التضحية بحياتهم. وكان من الممكن لأي مجنّد أن يترقّى ليصبح عضواً في هذا الحرس الإمبراطوري أو حتى يحمل عصا المارشالية كواحد من الثمانية عشر مارشالاً في فرنسا النابليونية.

لقد كانت نتائج الحروب لا حد لها - بيولوجياً واقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً. والرقم القديم الدال على عدد القتلى الفرنسيين في هذه الحروب هو ١,٧٠٠,٠٠٠[٣٨] إلاّ أن الحسابات اللاحقة قد قلّصته ليصبح مليوناً[٣٩]. وحتى لو كان هذا الرقم الأخير صحيحاً فإنه كفيل بإضعاف فرنسا طوال جيل حتى تستطيع أرحام نسائها تعويض هذه الخسارة. ومن الناحية الاقتصادية فإن هذه الحروب والاحتياجات العسكرية وظروف الموانئ المحاصرة - قد عجّلت بتقدم الصناعة وازدهارها. ومن الناحية السياسية فإنها قوّت الوحدة بين الحكومات الإقليمية (في فرنسا) وعمّقَت الولاء للحكم المركزي. ومن الناحية الأخلاقية فإن الصراع المستمر عوّد أوروبا على توسيع نطاقات الحروب وعوّدها على تقنين المذابح

البشرية على نحو لم يشهده العالم منذ غزوات البرابرة، فعلى جبهات القتال ومن ثم في العواصم تخلّى الحكّام عن الوصايا العشر. فقد كتب نابليون إلى الجنرال بيرثييه Berthier في سنة ١٨٠٩[٤٠] «الحرب تبرّر كل شيء، فلم يحدث أن استقر شيء – مطلقاً – إلاّ بالسيف»[٤١] وأن «التحليل الأخير يشير إلى أن الحكومة لابد أن تتحلّى بالصفات العسكرية»[٤٢] فبدون الجيش لا تكون دولة.

ولتعويد الشعب الفرنسي على هذه الأخلاقيات العسكرية عمد نابليون إلى استثارة حبهم للمجد. فالمجد la gloire أصبح حمّى وطنية يغمر الجميع بالوئام والحماس والطاعة. ومن هنا كان يحق لنابليون أن يقول «إن حروب الثورة قد جعلت من كل الأمة الفرنسية نبلاء»[٤٣]، وطوال عشر سنوات وبمساعدة حلفائه كان الشعب الفرنسي كأنه منوّم تنويماً مغناطيسيا وراح نابليون يوحي إليه بنشوة المجد. ولندع ألفرد دي موس Alfred de Musset الذي كان شاهداً للأحداث، يصف لنا الروح العامة في فرنسا في سنة ١٨١٠:

«لقد كان شباب هذا العصر يتنفّسون هواء في جو لا يعكر صفوه شيء، حيث يتألق المجد. كثير من المجد، وحيث تبرق السيوف. كثير من السيوف. لقد كانوا يعرفون جيداً أن قدرهم أن يكونوا ضحايا في مجزرة لكنهم كانوا ينظرون إلى مورا Murat كقائد لا يُغلب وللإمبراطور على أنه عبر الجِسْر والقذائف الكثيرة تنهمر من حوله مدوّية فراحوا يعجبون: أهو محصّن ضدّ الموت؟ وحتى الموت نفسه كان يبدو لهم جميلاً نبيلاً متألقاً في معركته المخضّبة بالدماء. لقد استعار الموت لون الأمل. لقد حصد كثيراً من المحاصيل التي حان قطافها فأصبح شاباً. لقد ماتت الشيخوخة، فكل أَسِرَّة الأطفال في فرنسا وكل القبور كانت مسلّحة بالتروس، ولم يعد هناك شيوخ (عجائز) وإنما هناك جثث لأنصاف آلهة demi - gods»[٤٤] وفي هذه الأثناء كان جنود نابليون على الجبهة يسرقون، ويقامرون ويبتلعون مخاوفهم ليتمكنوا من النوم، وكان ضباطه يسرقون بالقدر المتلائم مع مواقعهم: جمع ماسينا Massena الملايين. ولم يكن ما جمعه سول Soult أقل كثيراً مما جمعه ماسينا، وجوزفين اللطيفة وجوزيف الرحيم ولوسيان Lucien الشجاع والعم الكاردينال فش Fesch، كل

هؤلاء تربّحوا بتوظيف أموالهم في الشركات التي كانت تبيع البضائع المغشوشة للجنود الفرنسيين. وقد زين نابليون نشرات الحرب التي كان يوزعها داخل جيشه بالمبالغات واخفاء الحقائق، واستنزف ثروات الأمم المهزومة وسلب أعمالها الفنية بغير حق وراح يتفكّر مليا في بعض الأخلاق والقيم الفرنسية من جديد.

٤- الأخلاق والسلوك

إنَّ الثورة الفرنسية - بتحطيمها للسلطة السياسية والسلطة الأبوية (قوامة الآباء على الأبناء) وبتدميرها للمعتقد الديني (الكاثوليكي) قد أطلقت غرائز أفراد الشعب الفرنسي من عقالها وتركتها بلا ضابط، وكان هذا الانفلات فاجعاً مأسوياً في العاصمة وإن اتَّسم بالاعتدال في الدوائر (المحافظات)، فوجد القانون ورجاله أنفسهم يناضلون ضد الفوضى والجريمة. وصمّم نابليون - الذي كان هو نفسه مارقاً غير ملتزم بالقانون - أن يعيد ترسيخ القيم الأخلاقية والانضباط السلوكي كأمر حيوي لإعادة بعث فرنسا والرضا لشعبها والنجاح لحكمه. لقد أوضح بجلاء أنه سيراقب بعين يقظة كل العلاقات والارتباطات التجارية في الحكومة ومعها، وسيعاقب بشدّة كل من يثبت عدم أمانته. والتفت نابليون معترضاً على الملابس غير المحتشمة في المجتمع وفي المسرح، ووبَّخ - رسميا - أخاه لوسيان Lucien وأخته إليزا Elisa لكشفهما جانباً كبيراً من جسميهما عند حضورهما العروض المسرحية الخاصة. وفي إحدى الحفلات المسائية عندما وجد نفسه في مواجهة مدام دي ستيل de Stael وقد ارتدت فستاناً واسع الصدر يكشف عن جانب كبير من صدرها وظهرها وكتفيها (فستان ديكولتيه) انتقدها بحدّة قائلا: «إنني أفترض أنك تربين أطفالك بنفسك»(٤٥) وأصرَّ نابليون على أن يتزوّج تاليران من خليلته. ومدام تاليا Tallien التي كانت توجّه أخلاقيات حكومة الإدارة باستدارة ورِكَيْها (مُثنّى ورك) اضطرت إلى التواري في الأقاليم (الدوائر أو المحافظات) وقالت جوزفين للزنا وداعاً وابتعد بائعو القبعات النسائية عنها وشقّوا فواتيرهم. لقد كادت قوانين مدوّنة نابليون تعطي للزوج كل السلطات التي كان يتمتع بها الزوج الروماني على زوجته وأطفاله، فواصلت الأسرة وظيفتها لتحويل الحيوانات (المقصود

الأطفال) إلى مواطنين، مهما كان هذا على حساب الحرية الشخصية.

لقد كانت الحالة النفسية للعصر تعتريها معاناة من بعض الكآبة كجزء من ثمن (كان لابد من دفعه) لقاء النظام الجديد. فالمسرّات الطائشة بين الجنسين وبين الطبقات في ظل الثورة قد استسلمت لآداب المجتمع البورجوزاية. ومتاعب البروليتاريا. والحواجز الطبقية التي كانت تفصل السكان بشكل صارم إلى طبقات في عهد البوربون قد انهارت لتفتح الطريق لحمّى المنافسة التي لا تهمد في ظل «فتح أبواب المناصب ومجالات العمل للكفاءات» مما أدّى إلى بناء جسور بين كل الطبقات[٤٦]، وجعلت شباباً لا أصول لهم يتسلقون الأهرام الزَّلقة إلى ذرى السلطة. لقد كان معنى هذا أن لنابليون الحق في أن يشعر أنه في ظل حكمه، عادت الأخلاق إلى فرنسا واستعادت السلوكيات شيئاً من الاحترام واللطف اللذين كانا يميزان حياة المتعلمين في فرنسا قبل الثورة.

وقد شعر أنه رغم كل الجهود لإتاحة فرص متساوية للجميع فإن شيئاً من التمييز الطبقي لابد أن يظهر كأمر لا مناص منه نتيجة الاختلافات الطبيعية natural في القدرات وظروف النشأة. وليجعل نابليون هذه النتيجة غير مقتصرة على مجرد الأرستقراطية الناشئة عن استحواذ الثروة، فقد أنشأ في سنة ١٨٠٢ جوقة الشرف Legion of Honor لتتكوّن من رجال تختارهم الحكومة من المميّزين تميزاً خاصاً في مجالاتهم: الحرب، القانون، الدين، العلوم، الدراسات الأكاديمية الفن... إلخ على أن يكون هذا الجهاز نصف ديمقراطي كما هي الحياة إذ جعله قَصْراً على الرّجال دون النساء. وكان الأعضاء يقسمون عند انضمامهم أن يؤيدوا مبدأي الحرية والمساواة لكن سرعان ما تم تصنيفهم في ثلاث رُتب وفقاً للجدارة أو التقسيم أو الأقدمية. وكان كل واحد منهم يتقاضى من الحكومة الفرنسية راتباً سنوياً، فإن كان من رتبة «مسؤول مهيب Grand officer» استحق ٥٠٠٠ فرنك وإن كان من رتبة «قائد Commander» استحق ٢٠٠٠ وإن كان من رتبة «مسؤول officer استحق ١٠٠ أما «الفارس Chevalier»[٤٧] فيستحق ٢٥٠[*]، وللتمييز بينهم كان على كل واحد منهم أن يضع شريطاً خاصاً (وشاحاً) أو صليباً يرمز لرتبته وعندما ابتسم بعض المستشارين لمثل هذه

(*) من المفهوم أن هذه الرُّتب ليست عسكرية. (المترجم)

الامتيازات الشكلية البسيطة (النص: الدّمى baubles) قال لهم نابليون إن قيادة الرجال تكون أسهل بالأوسمة (التكريم) منها بالقوّة أو السلطة، أو على حد قوله «إن المرء يحصل على كل شيء من الرجال باستنهاض معاني الشرف لديهم»(٤٨).

واتخذ الإمبراطور خطوة أخرى نحو إيجاد ارستقراطية جديدة بإنشائه في سنة ١٨٠٧ «النبالة الإمبراطورية» فأعطى الألقاب لأقربائه ومارشالاته وبعض العاملين في الإدارة والعلماء المبرّزين، ونتيجة لهذا وجدنا أنه في السنوات السبع التالية قد أوجد: ٣١ دوق و ٤٥٢ كونت و ١٥٠٠ بارون ١,٤٧٤ فارسا (بالمعني التشريفي لا العسكري)، وأصبح تاليران يحمل لقب أمير بينيفينتو Benevento وفوشيه أمير دوترانت d'Otrante (Otranto) وجوزيف بونابرت أصبح فجأة هو الناخب الأعظم، ولويس بونابرت الكونستابل الكبير (النبيل الكبير Grand Constable) ومورا Murat قائد الفرسان اعترته الدهشة عندما وجد نفسه «الأدميرال الكبير grand admiral» وتم الإنعام على المارشال دافو Davout بلقب دوق دورستت Duc d'Auerstedt ولان Lannes بلقب دوق دي مونتبلو Duc de Montebello وسافاري Savary بلقب دوق دي روفيجو Duc de Rovigo وليفيفر Lefebvre بلقب دوق دي دانتسج Duc de Dentzig. وأصبح لابلاس Laplace كونتا وكذلك فولني Volney أما أخوات نابليون فأصبحن أميرات. وخُصص لكل لقب زي رسمي خاص بألوان بهيجة وراتب سنوي وأحياناً كان يُخصص لحامل اللقب ممتلكات كعقار أو مزارع أو أراضٍ. وأكثر من هذا فإن معظم هذه الألقاب أضحى وراثياً، وهنا نجد نابليون يدير ظهره بشكل صريح للمبادئ الجمهورية. لقد كان نابليون يرى أنه لا يمكن لأرستقراطيته الجديدة أن تحتفظ بوضعها وقوتها إلاّ بانتقال الملكية (وراثياً)(*) وبالتالي يمكن استخدامها كدعامة للحاكم. بل إن الإمبراطور نفسه رغبة منه في الاقتراب أكثر فأكثر نحو الارستقراطية الجديدة التي سرعان ما راحت تتباهى بألقابها وملابسها الرسمية المميزة ونفوذها - أحاط نفسه بالحجّاب والياورات ومسؤولي البلاط ومسؤولي القصر ومئات من الخدم، وأُحيطت جوزفين بالوصيفات اللائي يحملن ألقاباً تعود إلى زمن البوربون وما قبل البوربون.

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

والتفت نابليون إلى من ظل على قيد الحياة من النبلاء القدماء (نبلاء ما قبل الثورة) وعمل على إغرائهم بشتى الطرق لضمّهم لبلاطه، واستدعى كثيرين منهم من خارج فرنسا ليبارز بهم اليعاقبة الذين كانوا لايزالون متشبّعين بروح الثورة، وأملاً منه في مد جسور التواصل والاستمرار بين فرنسا ما قبل الثورة وفرنسا الجديدة. وبدا هذا مستحيلاً لأن هؤلاء المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) العائدين كانوا يحتقرون نابليون باعتباره مُحدث نعمة ومغتصب عرش فشجبوا سياساته وهجوا مسلكه ونظراته وأحاديثه وسخروا من ارستقراطيته الجديدة. وعلى أية حال، فبالتدريج زادت مكانته بانتصاراته وكلما ارتفع شأن فرنسا حتى وصلت من حيث الثروة والقوة درجة لم تصلها حتى في أيام لويس الرابع عشر - تضاءل هذا الاتجاه المتعالي للأرستقراطية القديمة، فقبل أبناء المهاجرين émigrés بسعادة تعيينهم في مناصب أو ألقاب شرفية (تلك المناصب التي كان آباؤهم يصفونها بأنها مناصب أو ألقاب مُحدثي النعمة)(٤٩) وأقبلت السيدات العظيمات ليلتحقن ببلاط جوزفين، وأخيراً وجدنا بعض البنلاء القدامى ينضمون إلى البلاط الإمبراطوري ليُكسبوه عبير البلاط القديم، ومن هؤلاء النبلاء القدامى: مونتمورنسي Montmorency ومونتسكيو Montesquieu وسيجور Ségur وجرامونت Gramont ونُوال Noailles وتورين Turenne وقد كافأهم نابليون بأن أعاد لهم بعضاً من ممتلكاتهم المُصادرة. وبعد أن تزوج نابليون من ماري لويز Marie Louise بدت المواءمة كاملة. لكن كثيراً من مظاهر هذه المواءمة كان سطحياً فأبناء الثورة وبناتها الأكثر حداثة لم يستسيغوا ملكيات ذوي الأصول (المنتمين إلى أسرات عريقة) ولا أوضاعهم المتعالية. والجيش الذي كان لايزال يتغنّى بالمثل الثورية مُغرماً بها تذمّر لرؤيته مُثله الثورية تتبادل الانحناء مع الأعداء القدامى الذين كانوا يتعالون علي الجنرالات الطوال والعلماء العصبيين وآل بونابرت الطموحين الذين تجرّأوا على شغل أماكنهم.

ولتجنّب حرب بالكلمات أو السيوف مع عرين الأسود هذا، أصرّ نابليون على إصدار مدوّنة لقواعد السلوك (كود للاتيكيت Code of etiquette) فعهد إلى بعض الاختصاصيين بكتابتها بتخيّر أفضل النماذج من تراث البوربون، على أن تكون دليلاً

للسلوك يمكن اتباعه ويلبي حاجات المواقف المختلفة، بحيث يبدو مسلك المرء ودودا. وبالفعل فقد تم إنجاز هذا العمل في ثمانمائة صفحة[٥٠] ودرسة الفلاسفة ورماة القنابل اليدوية grenadiers وأصبح البلاط الإمبراطوري نموذجاً يتجلّى فيه اللباس المتانق والخطب الجوفاء أو الكلام الفارغ. وراح رجال الحاشية يلعبون الورق وفقدت اللعبة قيمتها لأن نابليون منع الميسر forbade playing for money، وأخرجت المسرحيات وعُزفت الكونشرتات وأقيمت المراسم والتشريفات والحفلات التنكرية، وعندما تضاءل ما تسببه الأزياء والمراشقات الفكرية من إثارة، وجد أفراد الحاشية الأساسيين متعتهم في الانتقال مع الإمبراطور والإمبراطورة إلى سان كلو St. Cloud أو رامبول Rambouillet أو تريانو Trianon أو – وهذا أكثر مدعاة للسعادة – إلى فونتينبلو Fontainebleau حيث تتلاشى الرسميات وتؤدي ممارسة القنص إلى تدفئة الدماء.

ولم يكن أحد أكثر ضيقاً بهذه الطقوس الملكية كنابليون فقد تجنبها بقدر ما يستطيع. وقد قال: «إن الاتيكيت (قواعد السلوك) هي سجن الملوك»[٥١] وقال للاكاس Las Cases: «الضرورة تجبرني على مراعاة درجة من الأبهة (أو التكلّف State) وأن أتبع نظاماً معيناً يجعلني وقوراً – أو بعبارة أخرى أن التزم بالاتيكيت. وإلاّ كنت عُرضة للضرب على كتفي يومياً»[٥٢] وكان للمراسم والتشريفات أيضاً أساسها المنطقي «فالحكومة التي تم تأسيسها حديثاً لابد أن تكون مُبهرة مثيرة للدهشة، فإذا فقدت تألّقها سقطت»[٥٣] «فالاستعراض للسلطة كالطقوس للدين»[٥٤] أليس صحيحاً أن الدين الكاثوليكي يروق بشكل أفضل للخيال بأبهة طقوسه أكثر مما يروق بسمو عقائده؟! فإن أردت أن تثير الحماسة في الجماهير فلتبد في نواظرهم مقبولاً أو بتعبير آخر اعمل على أن تروق لعيونهم»[٥٥].

وكما جرت العادة في التاريخ فقد تدهورت سلوكيات البلاط، وتدنت تدريجياً في محيط المتعلمين. قال بول لاكروا Paul Lacroix جامع الكتب المتعلّم «لتجعل غالب مجتمع حكومة الإدارة راقياً مهذباً حسن التربية فإن هذا يستغرق ما بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة»[٥٦] وهذا حقيقي على نحو خاص بالنسبة لليون Lyon وبوردو، لكننا

لا نتحدث عن باريس التي قالت عنها مدام دي ستيل Stael أنه « يتلاقى فيها كثيرون من رجال الفكر.. واعتاد عدد كبير منهم أن يزاوجوا بين مسرّات النقاش والقضايا الفكرية الجادة »[٥٧] وقد ذكر نابليون للاكاس Las Cases « نقول الحق إن أشرنا للحساسية والذوق الرفيع اللذين يميزان سكان العاصمة الفرنسية؛ فلن تجد في مكان آخر غير باريس مثل هذه الفطنة وتلك الألمعيّة ومثل هذا الذوق »[٥٨]. مئات المقاهي يتجمع الناس فيها بروح اجتماعية فيجلسون ويرتشفون مشروباتهم ويتبادلون الأخبار والنكات والقفشات الذكية السريعة، بينما العالم يتحرك أمامهم في استعراض عنيد، وكل حيوان ميكروسكوبي يجعل من نفسه محور الكون. وكانت المطاعم الجميلة قد اختفت في فترة الإرهاب إلا أنها عادت لنشاطها في ظل حكومة الإدارة وأصبحت الآن خير شاهد على أذواق الفرنسيين ومدى امتلاء جيوبهم بالنقود. وحدث خلال فترة حكم القنصلية والإمبراطورية أن أنثيلم بريلا – سافارين Anthelme Brillat - Savarin جمع الحقائق والأساطير المتعلقة بعلم الأكل أو فن تذوق الطعام (الجاسترو نوميا) والتي ضمّنها عمله الكلاسي « فسيولوجيا تذوّق الطعام La physiologie du goût » الذي لم يمثل للطبع إلاّ سنة ١٨٢٦ أي قبل وفاته بعام واحد.

وكان أسلوب الحديث ونمط اللباس في حالة تغيّر. فقد حلت كلمتا « مواطن » و « مواطنة » محل كلمتي سيّدي (مسيو) ومدام اللتين كانتا سائدتين قبل الثورة. وتراجع الرجال الملتزمون بقواعد اللباس والسلوك عن ارتداء السراويل التي تصل للركبة (البناطيل القصار) والجوارب الحريرية الطويلة، فاستعادت البناطيل الطوال سيادتها كلما شحبت الإمبراطورية. أي راحت تزوي. وهجرت السيدات نمط اللباس الإغريقي الذي كان سائدا في عهد حكومة الإدارة وعُدن إلى التنورة (الجيبة) والقميص (البلوزة)، وظل الديكولتيه Décolletée واسعاً سخياً في إظهار « لحْم » المرأة حيث تكون الأكتاف مكشوفة وكذلك الذراعين، وعارض نابليون هذا الطراز في اللباس (الديكولتيه) لكن جوزفين وافقت عليه وأقرته، فانتصرت (على نابليون) بذراعيها الجميلتين وكتفيها وثدييها الناتئين[٥٩].

ووافق الإمبراطور على إقامة الحفلات التنكرية لسروره بازدهار الحياة الاجتماعية. ولم

يهتم بالصالونات التي كانت تنتعش في باريس، فقد أصبحت موئلاً للسياسيين والمؤلفين والأيديولوجيين (المنظِّرين) ومنتقدي حكمه الذي يتجه أكثر فأكثر نحو الدكتاتورية. ونظم أخواه جوزيف ولوسيان حفلات استقبال متتالية كان الكلام يجري فيهما – بالضرورة – لصالح الإمبراطور، لكن فحواه – بشكل عام – كان موجهاً ضد جوزفين. وأقام كل من تاليران وفوشيه بلاطاً خاصاً لنفسه حيث كانت الانتقادات مهذّبة. وشجب المهاجرون العائدون كل تصرفات آل بونابرت في حفلات مسائية كئيبة في فابورج سان جيرمين Faubourg St. Germain وواصلت مدام دي ستيل الإبقاء على صالونها الشهير كجزء من حربها ضد نابليون طوال خمسة عشر عاماً، وكرّست مدام جلني Gelnis – التي عادت إلى فرنسا بعد سبع سنوات قضتها كمهاجرة خارجها – صالونها وكتاباتها للدفاع عن نابليون ضد البوربون ومدام دي ستيل ومدام ريساميه.

٥ - مدام ريكاميه

يعود نجاح صالون ريساميه إلى جمالها الأخّاذ وثروة زوجها المِطْواعة. وُلدت في ليون Lyon في سنة ١٧٧٧ واسمها الحقيقي هو جين – فرانسوا – جولي أديلادي برنار Jeanne - Françoise - Julie - Adelaïde Bernard وعُرفت بين أصدقائها باسم جولي أو جوليت، وكانت تتمتع بوجه محبوب وقوام جذّاب، وظلت تتحلّى بهاتين الميزتين حتى بعد أن بلغت السبعين وأصابها العمى، لقد كادت تجمع في شخصها كل ما تتحلّى به الأنثى من جاذبية – لطف وعطف وميل للخدمة أو المساعدة وذوق وكياسة وحساسية وبراعة... وقد أضافت إلى هذه المرونة والحساسية أنها جذبت إليها مئة ذكر males (رجل فحل) دون أن يتركوا أي أثر معروف علي عذريتها (أي أنها ظلت عذراء رغم هؤلاء الرجال المئة). وفي سنة ١٧٩٣ وكان عمرها ستة عشر عاماً تزوّجت من جاك روز ريكاميه Jacques - Rose - Récamier وكان في الثانية والأربعين من عمره لكنه كان صاحب بنك. وكان سعيداً جداً بتأمل جمالها وسماع غنائها وملاحظة يديها الدقيقتين الجميلتين وهي تعزف البيانو أو الهارب (القيثارة) فكان يُجلسها على وسائد ليريحها في جلستها تماماً وكان يُنفق على

صالونها، وتحمّل بتسامح أبوي استعصاءها عليه فلم تسمح له بغزوها ولم تمكنه من الوصول إلى المُرام وإن كان هو – فيما يظهر – لم يكن مصراً على حقوقه الزوجية[٦٠].

وفي سنة ١٧٩٨ اشترى منزل جاك نيكر Jacques Necker في شارع مون بلان Mont - Blanc في باريس. وأثناء إجراءات اتمام الصفقة تقابلت جوليت التي كانت قد بلغت واحداً وعشرين عاماً مع مدام دي ستيل البالغة اثنين وثلاثين عاماً. لقد كان لقاءً بالصدفة لكن هذا اللقاء كان بداية صداقة استمرت طوال العمر لم يستطع أن ينهيه حتى التنافس في مضمار الحب. وحذت جوليت حذو مدام دي سيتل (الأكبر منها سناً) والتي جمعت في صالونها الرجال المشاهير والبارزين في عصرها من رجال دولة ومؤلفين، فافتتحت – أي جوليت – صالونها في منزلها الجديد لتعقد فيه اجتماعات دورية للرجال والنساء البارزين في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية في باريس، وقضى لوسين بونابرت وزير الداخلية وقتاً قصيراً يبثها فيه حبّه الذي لا نهاية له، فأظهرت له خطابات زوجها الملتهبة التي ينصحها فيها بمعاملة لوسين بصبر خشية أن يتعرض بنك ريساميه لعداء من الأسرة الحاكمة الصاعدة، وأطفأ نابليون النيران المتأججة حباً في صدرلوسين بأن أرسله كسفير في أسبانيا. وربما كان نابليون نفسه قد صوّب عينيه على جوليت «وليمة جديرة بملك»[٦١] لكن اتجاهاتها كانت مختلفة تماماً، فرغم تحذيرات زوجها ومنصب أبيها المتقلقل (غير المستقر) كمسؤول للبريد في الحكومة القنصلية، فإنها رحبت في صالونها بالموالين للملكية مثل ماثيو دي مونتمورنسي Mathieu de Montmorency، والجنرالات المعادين لنابليون مثل برنادوت ومورو وغيرهما ممن امتعضوا من الاتجاهات الإمبراطورية المتزايدة للقنصل الأول (نابليون).

لقد كانت الآن في ذروة جمالها وكان الرسامون الرواد يسعدون بجلوسها أمامهم. وقد رسم لها دافيد (داود David) لوحة في الوضع الأثير لربّات الجمال وهن متكئات على الحشيّات – وقد ارتدت ثوباً على النّسق اليوناني فضفاضاً، وقد ظهر ذراعاها عاريان، وكذلك قدميها. وقد شعر السيد ريساميه (زوجها) أن الرسام ديفيد لم يُثر زوجته أو بتعبير آخر لم يحرك مشاعر حبها الوقور، فتحدّى فرانسوا جيرار Gérard – تلميذ ديفيد –

أن ينافس استاذه فنجح جيرار في رسمها بشكل رائع ولم يغفر له ديفيد ذلك أبداً(٦٢).

وفي سنة ١٨٠٢ زارت جوليت وأمها إنجلترا فاستقبلها ذوو المكانة كأمير ويلز والجميلات كدوقة ديفونشير Devonshire بكل مظاهر التكريم بسبب جمالها ومشاعرها المناهضة لنابليون. وسرعان ما قُبض على أبيها بعد عودتها من إنجلترا لتواطئه في مفاوضات سرية بين الباريسيين والموالين للملكية والمتمردين الملكيين في إقليم الفندي the Vendee، وأصبح أبوها عُرضة للحكم عليه بالإعدام، إلا أن ابنته الذاهلة حثت بيرونادوت على التوسط لدى نابليون لإطلاق سراح والدها. ووافق نابليون لكنه طرده من منصبه، فقالت جوليت «لقد كانت الحكومة على حق تماماً في إبعاده»(٦٣).

وفي سنة ١٨٠٦ لجأ زوجها لبنك فرنسا لإنقاذه من الإفلاس بإقراضه مليون فرنك. وأحال مديرو البنك طلبه إلى نابليون الذي كان قد وجد بنك فرنسا نفسه – بعد عودة نابليون من مارينجو Marengo – يعاني مصاعب مالية، فرفض تقديم هذا القرض. وباع ريساميه البيت الكائن في شارع مونت بلانك، وباعت جوليت فضتها ومجوهراتها وقبلت – دون تذمّر – أن تعيش عيشة أكثر بساطة. لكنها كانت على حافة الانهيار عندما ماتت أمها في ٢٠ يناير سنة ١٨٠٧. فلما علمت مدام دي ستيل بما كان من أمرها دعتها للإقامة في قصر نيكر Necker château في كوبت Coppet في سويسرا. وكان السيد ريساميه مستغرقاً حتى أذنيه في العمل على سداد ديونه فأذن لها بالذهاب إلى سويسرا. وفي ١٠ يوليو وصلت إلى كوبت وهناك بدأت أهم مرحلة من مراحل عمرها من حيث ممارسة العشق.

وتتابع الراغبون فيها في الوصول إلى هناك بمن فيهم عاشق مدام دي ستيل وهو بنيامين كونستانت (قستنطين). وقد سعدت جوليت (مدام ريساميه) بهم وشجعتهم وقد قيل إنهم كانوا يحرسون قلعتها طوال الوقت، وقد اتهمها بعض ناقديها أنها كانت تتعامل بتهور مع قلوب الرجال (المقصود بعدم اهتمام) وقد كتبت كونستانت بمرارة: «لقد لعبت بسعادتي وحياتي، عليها اللعنة!»(٦٤) لكن كونستانت هو أيضاً لعب بقلوب وحيوات. وتتذكر دوقة أبرانتس Duchesse d'Abrantes جوليت (مدام ريساميه) كإنسانة مبرأة

من العيوب تماماً: «إن المرء لا يتوقع أن يوجد لها نظير في المستقبل. إنها امرأة راودها عن صداقتها (خطب ودّها) ألمع رجال العصر. امرأة ذات جمال فائق طرح تحت قدميها كل الرجال الذين وقعت نواظرهم عليها. لقد كان الفوز بحبّها هدفاً عاماً، ومع هذا فإن فضائلها ظلت نقية (لا شائبة فيها).. وفي أيام مسرّاتها وبهائها كانت مستعدة دائماً للتضحية بمسرّاتها لتقدم مواساتها.. لأي صديق ألمت به بلوى أو مرض. إن مدام ريساميه بالنسبة للعالم امرأة مشهورة، وهي بالنسبة لمن أسعدهم الحظ بمعرفتها ومعرفة قدرها مخلوق كريم مميّز جعلته الطبيعة نموذجاً كاملاً للطباع الخيّرة الرحيمة»[٦٥].

وفي أكتوبر سنة ١٨٠٧ دخلت جوليت في علاقة حميمة مع الأمير أوجست البروسي وهو ابن أخ فريدريك الكبير، حتى أنها كتبت لزوجها طالبة منه الطلاق، فذكرها ريساميه بأنه شاركها في ثروته طوال أربعة عشر عاماً وأنه لبّى لها كل رغبة، ألا يبدو بعد هذا أنه من الخطأ أن تهجره وهو يبذل قصارى جهده لإقالة عثرته المالية؟ فعادت لباريس ولزوجها وراح الأمير أوجست يعزي نفسه بخطاباتها.

وبعد أن أصبح زوجها غنياً مرة أخرى وبعد أن ورثت من أمها ثروة، افتتحت صالونها من جديد وواصلت معارضتها لنابليون. وفي سنة ١٨١١ – عندما كانت مدام دي ستيل تتبادل الكراهية والازدراء الشديدين مع نابليون. تجرأت جوليت وأصرت على قضاء يوم على الأقل مع مدام دي ستيل في كوبت رغم تحذيرات جيرمين Germaine فما كان من نابليون الذي أزعجته الأخبار السيئة التي أتته من أسبانيا وروسيا – إلاّ أن منعها من الاقتراب من باريس وأن تكون على بعد ١٢٠ ميلاً على الأقل من العاصمة (باريس). وبعد تنازله الأول (١١ أبريل سنة ١٨١٤) عادت لباريس وأعادت افتتاح صالونها ودعت إليه ولنجتون Wellington وغيره من قادة الحلفاء المنتصرين. وعندما عاد نابليون من إلبا Elba واستعاد فرنسا بلا ضجة استعدت لمغادرة العاصمة لكن هورتنس Hortense وعدت بحمايتها فبقيت مقهورة لفترة، وبعد اعتزال نابليون للمرة الثانية (٢٢ يونيو سنة ١٨١٥) واصلت استقبال ضيوفها. لقد عاد شاتوبريان Chateaubriand فدخل حياتها من جديد – وكان قد سبق لها الالتقاء به سنة ١٨٠١ – فأعاد لها شبابها في قصة رومانسية غريبة وتاريخية.

٦- اليهود في فرنسا

بدأ انعتاق اليهود الأوروبيين أول ما بدأ في فرنسا لأنها كانت رائدة في تحرير العقول ولأن حركة التنوير قد عوّدت نسبة كبيرة من الراشدين على تفسير التاريخ تفسيراً غير ديني (تفسيراً علمانياً Secular) . والبحوث المتعلقة بالكتاب المقدس تظهر المسيح (عليه السلام) كداعية محبوب مؤمن باليهودية لكن الفريسيّين(*) هم الذين عادوْه . والأناجيل نفسها تظهر آلاف اليهود يستمعون إليه بسرور وأن الآلاف منهم قد استقبلوه بترحاب عند دخول القدس . فكيف إذن يُعاقب شعب كامل عبر آلاف السنين لجريمة حَبْر كبير وحِفْنة مختلطة من الناس طالبوا بموته؟ لقد بقيت عداوات وخصومات اقتصادية غذّت قلقاً طبيعياً وخوفاً مرتقباً في وجود أحاديث غريبة وأزياء أو ملابس غير مألوفة، بل لقد انهار هذا الاتجاه المناهض لليهودية فلويس السادس عشر لم يواجه مقاومة شعبية في ازاحته الضرائب التي كانت تثقل كاهل اليهود على نحو خاص، وميرابو في مقاله الذي زاوج فيه بين المنطق والأسلوب اللاذع قد دعا إلى انعتاق اليهود انعتاقاً كاملا (١٧٨٧) وفاز الراهب الفرنسي جريجوار Abbé Grégoire بجائزة من الجمعية الملكية للعلوم والآداب في ميتز Metz في سنة ١٧٨٩ لمبحثه الذي حمل عنوان « البعث اليهودي المادي والأخلاق والسياسي » . وبدا أن النتيجة المنطقية الوحيدة لإعلان حقوق الإنسان قد تحققت عندما مدّت الجمعية التأسيسية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٩١ مظلة الحقوق المدنية كاملة لتشمل كل يهود فرنسا . وأعطت جيوش الثورة الحرية السياسية ليهود هولندا في سنة ١٧٩٦ ويهود البندقية (فينيسيا) سنة ١٧٩٧ ويهود مينز Mainz في سنة ١٧٩٨ وسرعان ما أقرت المدوّنة القانونية النابليونية ذلك بشكل تلقائي وجرى تطبيقها في كل المناطق التي فتحها نابليون .

وقد تعامل نابليون نفسه مع القضية بالروح المعتادة للجندي الذي يحتقر التجّار، فعندما توقف في ستراسبورج في يناير سنة ١٨٠٦ أثناء عودته بعد خوضه معركة أوسترليتز

(*) إحدى الطوائف اليهودية المهمّة وهم المتمسكون بظواهر الشريعة اليهودية تمسكاً شديداً، ولازال لهم وجود تحت أسماء أخرى. (المترجم)

Austerlitz تلقى طلبات لمساعدة فلاحي الألزاس وإقالتهم من عثراتهم المالية، لأنهم بعد أن تحرروا فجأة من عبوديتهم للاقطاع وجدوا أنفسهم بلا وظائف أو أرض يحصلون منها على مصدر لرزقهم. وكانوا قد طلبوا من رجال البنوك المحليين - وكان معظمهم من اليهود الألمان - أن يُقرضوهم المبالغ المالية التي يحتاجونها لشراء أكرات Acres (أفدنة) وأدوات وبذور ليرسّخوا أوضاعهم كفلاحين ملاّك، وقد قدّم اليهود من أصحاب البنوك هذه المبالغ لكن بفائدة تصل إلى ١٦٪ وقد اعتبر المقرِضون (بضم الميم وكسر الراء) أن هذا عدلٌ نظراً للمخاطرة التي تنطوي عليها عملية الإقراض (ملحوظة: المقترضون في أميركا الآن يدفعون النسبة نفسها) والآن فإن بعض الفلاحين لم يستطيعوا الوفاء بدفع هذه النسبة ولم يستطيعوا تخصيص جزء من عوائدهم ليستنزلوا تدريجياً ما عليهم من ديون. وعلم نابليون أنّه إذا لم يتدخّل في الأمر تعرّض فلاحون كثيرون لضياع أراضيهم، وحُذِّر نابليون من أن كل مسيحيي الألزاس ساخطون بشدّة بسبب هذا الوضع وأنهم على وشك القيام بهجوم على اليهود.

وعندما وصل نابليون إلى باريس تداول الأمر مع مستشاريه فنصحه بعضهم باتخاذ إجراءات عنيفة، وذكر بعضهم الآخر أن يهود مرسيليا وبوردو وميلان وأمستردام كانوا يعيشون في سلام واحترام في مجتمعاتهم ولا يجب معاقبتهم في ظل أي إلغاء للحقوق التي يتمتعون بها في المناطق التي تحكمها فرنسا. ووقف نابليون موقفاً وسطا (موقفاً توفيقياً) فحكم ألاّ يجمع الدائنون اليهود أية مبالغ يطالبون دائنيهم بها في ولايات (محافظات) بعينها قبل مرور عام[٦٦]. لكنه في الوقت نفسه (٣٠ مايو ١٨٠٦) دعا أولي الشأن من اليهود في مختلف أنحاء فرنسا للاجتماع في باريس للتباحث في أمور العلاقات بين المسيحيين واليهود وليقترح توزيع اليهود على فرنسا (بمعنى عدم تمركزهم في مكان واحد) وتوزيعهم أيضاً على المهن والوظائف المختلفة (بمعنى عدم استئثارهم بمهنة بعينها). وكان على مديري الشرطة الفرنسية في الدوائر المختلفة (المحافظات) أن يختاروا هؤلاء اليهود المهمين الذين سيجتمعون في باريس، فكان اختيارهم بشكل عام موفقاً»[٦٧].

فتجمع اليهود من الرابيين (الحاخامات) وغيرهم في باريس في يوليو سنة ١٨٠٦ وحظوا

باحترام كبير وبلغ عدد المجتمعين منهم ١١١ وقدم لهم المجلس البلدي قاعة يتداولون فيها. وقدّم نابليون – أو مستشاروه – للمجتمعين بعض الأسئلة يود الإمبراطور معرفة إجابتها: هل يُقر اليهود تعدّد الزوجات؟ أيسمحون بالتزاوج بين اليهود والمسيحيين؟ أيزعم الرابيون (الحاخامات) الحق في إبرام الطلاق بعيداً عن السلطان المدنية؟ أيعتبر اليهود الرّبا شرعيا Lawful؟. وصاغ الرابيون إجابات عملوا على أن تكون مدعاة لسرور نابليون: تعدد الزوجات ممنوع في المجتمعات اليهودية. ولا يُسمح بالطلاق إلاّ إذا أقرّته المحاكم المدنية، والتزاوج بين اليهود والمسيحيين مسموح به، والربا معارض للشريعة الموسوية(٦٨). فأرسل نابليون الكونت لويس مولي Louis Mole ليعبّر لهم عن رضاه. والكونت لويس مولي الذي كان معارضاً لليهود قبل ذلك أصبح الآن يخاطبهم ببلاغة تلقائية قائلا: «من الذي لا تعتريه الدهشة لرؤية هذا الجمع من الرجال المتنورين الذين تم اختيارهم من سلالة أقدم الأمم؟ إنه إذا بُعِث للحياة شخص ممن عاشوا في القرون الخوالي وشاهد هذا المنظر، ألا يظن أنه قد انتقل إلى داخل أسوار المدينة المقدسة؟»(٦٩) وعلى أية حالة، فقد أضاف قائلاً إن الإمبراطور يضفي على المبادئ الغالبة على هذا الاجتماع مزيداً من المصداقية واليقين ويقترح ضرورة دعوة هؤلاء اليهود من أولي الشأن للحضور إلى باريس فيما بعد لهذا الغرض ولأغراض أخرى وأن هذا الاجتماع الرابي (الحاخامي) الأعلى (السنهدريم العظيم) الذي لم ينعقد بعد تشتت اليهود عقب دمار الهيكل منذ سنة ٦٦ قبل الميلاد. وكان الرابيون سعداء وأبدوا رغبتهم في التعاون. وفي السادس من أكتوبر أرسلوا إلى كل المعابد اليهودية الأساسية في أوروبا دعوة الإمبراطور لانتخاب مندوبين يهود لحضور السنهدريم (الاجتماع اليهودي / والسنهدريم مشتقة من الكلمة اليونانية سينيدريون Synedrion) لدراسة وسائل تخفيف الصعوبات الناشئة بين المسيحيين واليهود ولتسهيل تمتع اليهود الفرنسيين بكل الحقوق والمزايا في الحضارة الفرنسية. وأرفق هؤلاء اليهود ذوو الشأن دعوتهم بإعلان سعيد ينم عن الفخر:

«إن حدثاً عظيماً على وشك أن يصبح أمراً واقعاً. حدث لم يتوقعه آباؤنا طوال قرون متوالية، بل لم نكن نتوقعه نحن في أيامنا هذه. إن العشرين من أكتوبر قد أصبح هو اليوم

المقرر لافتتاح السنهدريم الكبير (الاجتماع اليهودي) في عاصمة أحدى أقوى الأمم المسيحية وبحماية مليكها الخالد. إن باريس ستُظهر للعالم مشهداً جديراً بالملاحظة، وإن هذا الحديث التاريخي (السنهدريم) سيفتح للبقايا المشتتة من سلالة إبراهيم عصراً من التحرر والرخاء»[٧٠].

ولم يستطع السنهدريم الكبير (الاجتماع اليهودي) أن يستمر وفقاً لهذه التوقّعات الحماسيّة، فبعد إرسال هذه الدعوات بثمانية أيام حارب نابليون وجنوده البروس في يينا (جينا Jena)، وظل طوال هذا الخريف في ألمانيا أو بولندا ويقطّع أوصال بروسيا وينشئ دوقية وارسو (فيرسافا) الكبيرة، ويعزف على أوتار السياسية أو الحرب، وظل طوال الشتاء في بولندا يعيد تنظيم جيشه ويحارب الروس ليتعادل معهم في إيلاو Eylau ويهزمهم في فريدلاند Friedland ويعقد سلاماً مع القيصر اسكندر في تيلست (١٨٠٧) ولم يعد لديه وقت للسنهدريم الكبير إلاّ بشق النفس. واجتمع السنهدريم الكبير في ٩ فبراير سنة ١٨٠٧. وتباحث فيه ٤٥ من الرابين (الحاخامات) و ٢٦ من اليهود العاديين (غير ذوي المراتب الدينية) واستمعوا إلى الخطب وأقرّوا الإجابات التي قدّمها اخوانهم من ذوي الشأن (في اجتماعهم السابق) لنابليون. وخلصوا بإصدار توصيات لليهود: أن ينهوا عداوتهم للمسيحيين، وأن يحبوا البلاد التي يقيمون فيها باعتبارها أصبحت الآن بلادهم وأن يقبلوا الخدمة العسكرية للدفاع عنها وأن يتجنبوا الربا وأن ينخطروا أكثر فأكثر في أعمال الزراعة والحرف والفنون. وفي مارس أرسل السنهدريم تقريره إلى نابليون البعيد عن فرنسا، فتم إرجاؤه.

وفي ١٨ مارس سنة ١٨٠٨ أي بعد حوالي عام أصدر نابليون قراراته النهائية التي قضت بإقرار الحرية الدينية لليهود وإقرار حقوقهم السياسية في كل أنحاء فرنسا ما عدا في منطقتي الألزاس واللورين، ففيهما وُضعت – طوال العشرة أعوام التالية – قيود على رجال البنوك لتقليل عدد المفلسين ولتخفيف العداوة العرقية، وتم إلغاء ديون النساء والقُصَّر والجنود، وخوّلت المحاكم في إلغاء أو تخفيض الديون المتأخّرة التي قوامها الفوائد بالإضافة إلى فترة سماح (تأخير مواعيد السداد)، ولم يكن مسموحاً لأي يهودي بالعمل في التجارة قبل

الحصول على إذن من مدير الشرطة ومُنع مزيد من هجرة اليهود إلى الألزاس[٧١] وفي سنة ١٨١٠ أضاف الإمبراطور طلباً آخر وهو ضرورة أن يُصبح لكل يهودي اسم أسرة Family name لأنه كان يأمل في أن يساعد هذا على تسهيل الاندماج العرقي.

وكان هذا غير ملزم من الناحية القانونية ولكن لابد من التماس بعض العذر لحاكم أصرّ على السيطرة على كل شيء ومن ثم وجد نفسه مراراً غارقاً في المشاكل والتفاصيل. وشعر يهود الألزاس بأنهم أُضيروا بهذه التنظيمات الإمبراطورية ولم يكونوا على حق في ذلك، لكن معظم الجماعات اليهودية في فرنسا وفي غيرها قبلت هذه التنظيمات كمحاولة معقولة لتلطيف الوضع المتفجر[٧٢]. وفي هذه الأثناء، أعلن نابليون من خلال الدستور الذي وضعه لوستفاليا Westphalia أن كل يهود هذه المملكة الجديدة لابد أن ينعموا بكل حقوق المواطنة مثلهم في ذلك مثل أي مواطن من مواطنيها[٧٣]. ومرّت الأزمة في فرنسا بسلام وأصبح لليهود دور مثمر وخلاق في آداب فرنسا وعلومها وفلسفتها وموسيقاها وفنونها.

الفصل الثاني عشر

نابليون والفنون

١- الموسيقا:

كان على نابليون أن يُدير قارة، لذا لم يكن لديه كثير من الوقت للموسيقا. إنّه لمن الصعبِ أن نتصوّره جالساً صامتاً يستمع إلى كونشرت في مسرح فيدو Théâtre-feydeau، ومع هذا فقد سمعنا عن كونشرتات تُعزف في قصر التوليري وهناك من أكّد لنا أنّه كان يستمتع على نحوٍ ما بحفلات موسيقية يُحييها عازِف واحد، كانت جوزفين تقيمها في جناحها بالقصر[١]. وعلى أيّة حال فقد كان سيَباسْتيان إيرار Sebastien Erard وإجْناز بليل Ignaz pleyel يصنعان بيانوات pianos جميلة ولم يكن يخلو بيت من بيوت الطبقة الراقية من بيانو. ورتّب كثيرون من المُضيفين سهرات موسيقية خاصّة حيث كان الضيوف – كما يقول الجونكورث Goncourts – يتكلّفون الاستماع بينما هم في الحقيقة يُفضّلون الحوار الهامس أو المناجاة[٢]. فالألمان مآدبهم الموسيقا بلا كلمات، والفرنسيون يعيشون على كلمات بلا موسيقا.

وكان نابليون يُفضّل الأوبرا على الكونشرتات فلم يكن يستسيغ الغناء إلاّ قليلاً ولم يكن صوتُه ليساعده على الغناء، لكن كان من متطلبات المظاهر الملكية ضرورة حضور الحاكم للأوبرا في المناسبات، ليراه الناس، وليتأمّل. وقد أَسِف نابليون لأنّ باريس ينقصها.. دار أوبرا جديرة بمكانتها العالية «كعاصمة للحضارة»[٣]، لكن اقتضى الأمر الانتظار حتى استطاع ابن أخيه وشارل جارنييه Charles Garnier أن يُقيما في الفترة من ١٨٦١ إلى ١٨٧٥ الدرّةَ المتلألئة التي كَلّلت شارع الأوبرا Avenue del'opéra إلاّ أنّ مئات الأعمال الأوبرالية جرى تأليفها وإخراجها أثناء فترة حكم نابليون، وأوبرا السّيدة الشقراء (لا دام بلانش La Dame blanche) التي وضعها فرنسوا أدريان بويلديو François - adrien Boieldien سيّد الأوبرا الكوميدية (الهزْليّة) عُرِضت ألفَ مرة في أربعين عاماً[٤]. وكانت طبيعة نابليون الإيطالية تميل أكثر للأوبرات الإيطالية بما تتميز به من ألحان شجية وحبكات

درامية. ولحماس نابليون لمؤلفات جيوفاني بيزيللو Giovanni Paisiello دعاه لتولّي إدارة أوبرا باريس والكونسرفتوار (المعهد الموسيقي) وأتى بيزيللو لباريس في سنة ١٨٠٢ وقد بلغ من العمر خمسة وستين عاماً، ولم يؤلف فيها سوى أوبرا واحدة هي «بروسربينا Proserpina» في سنة ١٨٠٣ وتضايق من الاستقبال الفاتر الذي قُوبل به، فعاد إلى إيطاليا سنة ١٨٠٤ وقدَّمَ أعماله لجمهور أكثر تجانساً وملاءمة في نابلي حيث كان جوزيف بونابرت وجوشيم مورا Joachim Murat.

وكان نابليون أكثر حظاً مع جاسبارو سبونتيني Gasparo Spontini الذي قَدِمَ إلى فرنسا في سنة ١٨٠٣ إذ حظي بتأييد الإمبراطور ودعمه بمعالجته موضوعات تاريخية بطريقة تُضفي الجلال والعظمة على الامبراطورية الجديدة، وأشهر أوبرا قام بوضعها هي أوبرا كاهنة الإلهة الرومانية فستا أو قيِّمة النار المقدّسة» (لافيستيل La Vestale) إلاّ أنه واجه صعوبات في إيجاد مسرح لعرضها، فتدخَّلت جوزفين فتم إخراج هذه الأوبرا، وقد أدَّى ما بها من «غرابة» و«ضوضاء» بالإضافة إلى قصة الحب التي تتحلّق حولها إلى تحقيقها نجاحاً فائقاً سجَّله تاريخ الأوبرا. وعندما أُطيح بنابليون أَلَّف سبونتيني Spontini مقطوعة موسيقية احتفاءً بعودة البوربون إلى العرش.

واستمر شيروبيني Cherubini الذي كان مُهيمنا على الأوبرا الباريسية أثناء الثورة مُهيمناً عليها أيضاً في ظل حكم نابليون. وعلى أية حال فإن الإمبراطور كان يُفضِّل الموسيقا المرحة على أعمال شيروبيني الجادة لذا لم يُقدم له جوائز أو مكافآت، وكان هذا أمراً ملحوظاً. وقد قبل شيروبيني دعوة للحضور إلى ڤينا (يوليو ١٨٠٥) لكن نابليون استولى عليها في شهر نوفمبر من العام نفسه. ولم يكن شيروبيني سعيداً تماماً عندما دُعي لقيادة فرقة موسيقية تعزف في حفلات مسائية تكريماً لنابليون في قصر شونبرون Schonbrunn، وعاد لفرنسا ووجد تكريماً في قصر أمير دي شيمي de Chimay الذي أَضْفى الاحترام على مدام تاليه Tallien بتزوّجه منها.

وعندما عاد نابليون من إلبا Elba ورغم مشاغله الكثيرة فإنه وجد من الوقت، ما يجعله يمنح شيروبيني رتبة فارس في جوقة الشرف، لكن لم يحدث إلاّ في عهد لويس

الثامن عشر أن تلقّى هذا الإيطالي الكئيب اعترافاً بفضله ودخلاً كافياً. وفي الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٤١ وهي الفترة التي كان فيها مديراً للكونسرفتوار في باريس (معهد باريس للموسيقى) أثّر في جيل كامل من الموسيقيين الفرنسيين. ووافته منيّته في سنة ١٨٤٢ عن عمر يناهز الثانية والثمانين، وكاد يطويه النسيان في مشكاة الزمن المتغيرة (اللامبالية).

٢- متنوعات

يشبه نابليون تماماً لويس الرابع عشر في رعايته للفنون فهو - مثله - كان راغباً في ترسيخ مجد فرنسا وعظمتها، وكان يأمل أن يجعله الفنانون حياً في ذاكرة البشر. ولم يكن ذَوْقه الخاص على أحسن ما يكون فقد كان ملتفتاً دائماً للأمور العسكرية لكنه قام بما يستطيع لِيُلْهم فنَّاني فرنسا بالأصول التاريخية والمثيرات الشخصية، لقد نهب الأعمال الفنية الكبيرة ليس فقط باعتبارها ثروة قابلة للنقل وقابلة للتفاوض بشأنها (على نحو ما تُشترى في أيامنا هذه) وكأوسمة وشواهد على انتصاراته، وإنما أيضاً كنماذج (موديلات) يحتذيها طلبة الفنون في متاحف فرنسا. لقد نقل « ڤينوس » وهي من أعمال دي ميديتشي de medici من الفاتيكان، و« القديسون المتسامحون » وهي من عمل كوريجيو Correggio من بارما، وزواج كانا « وهي من أعمار ڤيرير Vermeer من البندقية (ڤينيسيا) و« سلالة الصليب » وهي من أعمال روبنز Rubens من أنتورب « وصعود العذراء » وهي من أعمال موريلو Murilo من مدريد... وحتى تماثيل خيول القديس مرقس الصغيرة وجدت طريقها المحفوف بالمخاطر إلى باريس. وفي الفترة من ١٧٩٦ إلى ١٨١٤ أرسل نابليون إلى باريس ٥٠٦ من الأعمال الفنية الإيطالية عاد منها - بعد سقوطه - ٢٤٩، وبقي ٢٤٨ وضاع تسعة أعمال[٥]. وعن طريق النهب حلّت باريس محل روما كعاصمة للفن في غرب أوروبا. وكلّما زادت فتوح نابليون زادت الأسلاب حتى فاضت على أقاليم (محافظات) فرنسا وأنشئت المتاحف لاستيعابها في نانسي Nancy وليل Lille وتولوز ونانت Nantes وروان Rouen وليون وستراسبورج وبوردو ومارسيليا وجنيف وبروكسل ومونتبلييه Montpellier

وجرينوبل Grenoble وإميان Amiens . . وَعيَّن نابليون دينون الدومنيكاني كمسؤول عن كل هذه المجموعات الفنية خاصة متحف اللوفر، وكان دينون قد خدمه في بلاد كثيرة ولم ينس دينون أنَّ الامبراطور قد ذهب بنفسه ليمكِّنه من الانسحاب بأمان من هضبة كان العدو قد غمرها بنيرانه خلال معركة إيلاو Eylau .

وقد رصد نابليون الجوائز المادية وأقام المسابقات في مجالات فنية مختلفة، فجدَّد جائزة روما وأعاد الأكاديمية الفرنسية في روما . ودعا الفنانين إلى مائدته وتحدث في النقد الفني حتى أثناء خوضه المعارك وقدَّر أعمال معظم الرسّامين الذين بذلوا كل طاقاتهم لتخليد أعماله وكذلك المعماريين الذين استطاعوا مساعدته في أن يجعل باريس أجمل المدن وحكمه ذِروة تاريخية وَعَهِدَ للمثّالين والنحاتين بتزيين خمس عشرة نافورة جديدة في ميادين باريس .

ولأن ذوقه في الرسم والعمارة كان ينحو نحواً كلاسيّا فإنه كان معجباً بالأسلوب التذكاري(*) الذي ساد في روما القديمة، وكان هذا الأسلوب يهدف لإظهار القوّة والسمو أكثر من الحسن المريح وجاذبية التفاصيل . لذا فقد عَهِد إلى بارثيليمي ڤينون Barthélemy vignon لتصميم « معبد المجد » على شرف جيشه الأساسي (الجيش العظيم) وأمر بُناته ألا يستخدموا في تشييد هذا المعبد سوى الرخام والحديد والذهب . وقد أثبتت الأيام أن هذا المعبد (معبد المجد) كان مكلّفا جداً وكان العمل فيه صعباً حتى أنه رغم أنّ بداية العمل فيه كانت في سنة ١٨٠٩ إلاّ أنه ظلّ غير مكتمل حتى سقوط نابليون، فأكمله خلفاؤه في سنة ١٨٤٢ لكنهم جعلوه كنيسة إحياء لذكرى القديسة ماري ماجدالين Magdalen– لامادلين La Madeleine . ولم تَنْعم به فرنسا أبداً سواء لتحقيق أغراض التقوى (المقصود العبادة) أو لجلب المسرّات نظراً لواجهته الكالحة ولأعمدته الأكثر تعبيراً عن جيش متقدّم منها عن آثم واهن نادم توّاق لحبها (حب المكان الذي أصبح كنيسة) . ومن المباني التذكارية أيضاً مبنى البورصة الذي بدأ اسكندر تيودور برونجنيار Alexandre Théodore Brangniard العمل به

(*) استخدم البهنسي في معجم مصطلحات الفنون الذي طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق مصطلح الأسلوب الآبدي، وقد فضلنا ما أوردناه في المتن لسهولته ودلالته على المعنى. (المترجم)

في سنة ١٨٠٨ وواصل إتين دي لا بار Etienne de La Barre إكماله في سنة ١٨١٣، ولا يوجد في أي مكان آخر لشيطان الجشع وحب المال Mammon مثل هذا المبنى الفخم ذي الأُبَّهة.

وكان المعماريّان المُفضَّلان في فترة حكم نابليون هما بيرسيبه Percier والمعماري المرتبط به عادة بيير فرانسوا ليونار فونتين Pierre- François - Léonard Fontaine وقد عملا معاً للربط بين اللوفر وقصر التوليري رغم تفاوت خطوطهما المعمارية ومن ثم فقد بنيا الجناح الشمالي (كور كاري Cour Carrée) للوفر (١٨٠٦) وأصلحا وجدّدا السطح الخارجي وربطا الأرضيات بسلالم قوية (المقصود أن الأرضيات لم تكن في مستوى واحد فاضطرا لإقامة سلالم لمواصلة الطريق أو الممر). وصمّما قوس النصر في ميدان الفروسية Arène Triomphe du Carrousel على نمط - وبالنسب نفسها - قوس سيتيميوس سيڤيروس Septimius Severus في روما. وبدأ جان فرنسوا شالجرين Chalgrin في سنة ١٨٠٦ في إقامة قوس النصر المرصّعه بالنجوم - وهو القوس الأكثر فخامة - في الطرف الأقصى لرحْبة الإليزيه، لكنه ما كاد يرفع قواعده حتى سقط نابليون ولم ينته العمل به حتى سنة ١٨٣٧ أي قبل ثلاث سنوات من مرور رفاته تحته في طريقه إلى مثواه الأخير في مقبرته بدار ضحايا الحرب Hôtel des Invalides ولا ريبَ أن هذا القوس يُحاكي قوس قسطنطين في روما إلاّ أنه يتفوّق عليه - وعلى أى قوس نصر روماني آخر - في جماله، ويرجع هذا. في جانب منه - إلى نقوشه الدقيقة على الرخام. فإلى اليسار حفر جان - بيير كورتو Jean- Pierre Cartot « تتويج نابليون »، وإلى اليمين فرانسوا رودي Rudé وهو يعزف النشيد الوطني الفرنسي (١٨٣٣-١٨٣٦) معبراً عن النشوة العسكرية في ظلال الثورة، إن هذا العمل يُعد واحداً من روائع فن النحت في القرن التاسع عشر.

لقد قام هذا الفن الصعب في ظل نابليون على الأمجاد التي حقّقها قبل وصوله للحكم. وقد عاش هودو Houdon حتى سنة ١٨٢٨ ونحت له تمثالاً نصفياً (موجود الآن في متحف ديجو Dijon) وقد ضمن هذا التمثال للفنان مكاناً بين جوقة الشرف. ولأن نابليون كان لا يزال يتذكر الأباطرة الرومان خاصة من خلال الأعمال النحتية المتعلّقة بتراجان، فقد عُهِد إلى

جـان بابتـست الأب Jean- Baptiste le Père وجـاك جُـونْدوِي Jaques Gandouin بتـخليـد ذكرى معركة أوسترليتز Austerlitz في أعـمال من النحت البارز لتُلصق طبقة طبقة بشكل تصاعدي حول العمـود الذي سيـشـغل مكاناً بارزاً في ميـدان ڤـيندوم Vendôme وتم هذا بالفـعل (١٨٠٦–١٨١٠)، وفي سنة ١٨٠٨ توَّج أنطوان شـود Antoine Chaudet اسطوانة العمـود بتمثال لنابليون نحته من مدفع كان – أي نابليون – قد استولى عليه من الأعداء. وقلّما وصل الفخر بالانتصارات إلى هذا المستوى العالمي.

وكـادت الفنون الصـغرى – كـصناعـة الأثاث الفـاخـر، والزخـرفـة الداخليـة (الديكور) والتطريز وأشغال الإبرة والفخار والخزف والجوهرات والزجاج والتماثيل الصغيرة – تموت أثناء الثورة لكنها بدأت تنتعش في ظل حكومة الإدارة (حكومة المديرين) وانتعشت في عـهد نابليون، فقد أنتج سيڤر Sèvres مرة أخرى أعـمال خزفٍ جميلة. واتخذ الأثاث « النمط الإمبراطوري » بصرامة. وتُعد المصغّرات التي صوّر فيها إيزابي Isabey الشخصيات القيادية في هذا العصر من بين أجمل المصغّرات الفنية في التاريخ. وأبدعَ جوزيف شينار Chinard تماثيل نصفية جميلة من طين نضيج لجوزفين ومدام ريسَامْيِيه، وكانت تماثيل مدام ريساميه على نحو خاص تتّسم بالجمال وقد عرّى أحد نَهدَيْها ليظهرها كنموذج للمرأة المثل التي قررّت أنْ تبقى نصف عذراء حتى آخر حياتها.

٣– الرسّامون

لقد انتعش فن الرسم الآن مع انتعاش البلاد مّما مكّن رعاة الفنون من الدفع. وكان نابليون يدفع بسخاء لأنّه كان يرنو للخلود عَبْر القرون وكان يرنو للفت الأنظار لإنجازاته بالتقرب إلى أهل الأدب والفن. لقـد جـعله اعـجـابه بأوغـسطس روما Augustus ولويس الرابع عـشـر البـاريسي يميل للإعـجاب بالمعايير الفنيـة الكلاسيّة – في الخط والانضباط والمنطق والنِّسب والتصـميم والعقلانية والتحفّظ، لكن حدّة أحاسيسه، ومدى خياله وقوة عاطفته، كل ذلك جعله يتفهّم على نحو ما الحركة الرومانسية التي قامت لإطلاق الفرديّة والمشاعر والخيال والأصالة والإبداع والتأمل الباطني والألوان وتحريرها من أسر التقاليد والشكليات. لذا فإن

نابليون جعل من ديڤد (داود David) الرسّام الرسمي في بلاطه، لكنه أَوْلى أيضاً شيئاً من رعايته لوجدان جيرار Gérard ورعويّة برودون Prud'Hon وألوان جروس Gros المتفجِّرة الصَّاخبة.

وقد كان جاك لويس ديڤد (داود) مولعاً ولعاً طبيعياً بهذا الرَّاعي النصير (المقصود نابليون) الذي اتخذ لنفسه لقب قنصل والذي كان لفترة حامي حمى المدافعين عن حقوق العامة والذي تخفى وراء قراراته ومراسيمه الشبيهة بقرارات مجلس الشيوخ الروماني ومراسيمه وسرعان ما زار ديڤيد هذا الكورسيكي المنتصر (المقصود نابليون) بعد الثامن عشر من شهر برومير Brumaire (وفقاً للتقويم الجمهوري الذي وضعته الثورة الفرنسية)، وكسبه نابليون إلى جانبه بأن حيّاهُ ذات مرة كفرنسي مُقَدَّم لكنه وبّخه بكياسة لاستنزافه كثيراً من موهبته في التاريخ القديم، أليست هناك أحداث تستحق الخلود في تاريخنا الحديث بل والمعاصر؟! وعلى أية حال فقد أضاف نابليون قائلاً « افعل ما يسّرك، فقلمك الرصاص سيُحقِّق الشهرة لأيٍّ موضوع تختاره، لأنَّ أي صورة تاريخية ترسمها ستتلقَّى مقابلها ١٠٠,٠٠٠ فرنك »[٦]. وكان هذا مُقْنعا. وصدَّق ديڤيد على الاتفاق بأن رسم لوحة لبونابرت وهو يعبر الألب (١٨٠١) تلك اللوحة التي تظهر المقاتل الوسيم بساق جذّابة فوق حصان رائع يعدو بسرعة فوق المنحدر الصخري للجبل - إنها إحدى أجمل الصور في هذا العصر.

وكان ديڤيد قد صوّت إلى جانب قرار إعدام لويس السادس عشر ولابُد أنه جفل عندما جعل نابليون من نفسه إمبراطور وأعاد للملكية كل أبهتها وسلطانها، و مع هذا فقد ذهب (أي ديڤيد) ليرى سيّده الجديد (المقصود نابليون) وهو يضع التاج فوق رأسه، وكان افتتانه بالمشهد يفوق توجّهاته السياسية، وبعد ثلاث سنوات من الإخلاص المتردّد لسيّده (الذي أصبح ملكاً)، خلّد هذا الحدث في لوحة زيتية تُعد من روائع هذه الفترة. ويكاد يكون قد صوّر مائة شخصية في لوحة « تتويج نابليون » (١٨٠٧) بل إنه رسم فيها مدام ليتيزيا (الأم) Mme Mère Letizia التي لم تكن حاضرة أثناء التتويج. وكان معظمهم راضين عن اللوحة ما عدا الكاردينال كابرارا Caprara الذي اشتكى ديڤيد لأنه رسمه أصلعَ

بدون شعره المستعار الذي اعتاد وضعه فوق رأسه. وبعد أن تأمل نابليون اللوحة لمدة نصف ساعة رفع قبّعته للفنان (ديفيد) وقال له: «هذا حسن، حسن جداً يا ديفيد، إنني أحييك»[٧].

ولم يكن ديفيد مجرد رسّام رسمي للبلاط، وإنما كان زعيم الفن الفرنسي في هذه الفترة بلا منازع. لقد سعى إليه كُلّ ذوي الحيثية يجلسون أمامه طمعاً في لوحة منه - نابليون، بيوس السابع، مورا Murat، وحتى الكاردينال كابريرا بعد أن وضع باروكته (شعره المستعار) فوق رأسه[٨]. وقد نشر تلاميذ ديفيد - خاصة جيرار وجروس وإيزابي وإنجر Ingres - تأثيره حتى عندما انحرفوا عن اسلوبه. وفي وقت متأخر زمنا حتى سنة ١٨١٤ كان زوّار اللوفر الانجليز يندهشون لوجود فنانين شبان ينسخون لوحات ديفيد - لا لوْحات عصر النهضة[٩]. وبعد عام تم نفيه بعد عودة البوربون، فذهب إلى بروكسل حيث انتعشت أحواله نتيجة عمله في رسم اللوحات الشخصية خاصة. ومات ديفيد في سنة ١٨٢٥ عن عمر يناهز السابعة والسبعين بعد أن عاش حياة حافلة.

ومن بين تلاميذه انجر Ingres (١٧٧٠ - ١٨٦٧) الذي عاش بعده سنوات طوال. وعرَّجنا أثناء حديثنا عن جيرار وجيرين Guérin على رسومهما الشخصية ذات الطابع التنويري، وتوقفنا أكثر إزاء انطوان - جان جروس بسبب تنقله الشائق بين الأساليب المختلفة. لقد لاحظناه في ميلان يرسم أو يتخيَّل «نابليون على جسر أركول» ففي هذه اللوحة، سرعان ما ندرك ميراث ديفيد الفني يعانق الرومانسية. وقد كافأ نابليون الفنان جروس الذي كان معجباً به اعجاباً أعمى، بأن أرسله ليشهد إحدى المعارك حتى يتمكن الفنان الشاب من رؤية الحرب عن قرب، وبعد ذلك بسنوات قلائل أصبح مثل جويا Goya لا يرى أن الحرب تسبب معاناة شديدة، ففي لوحته «طاعون يافا» (١٨٠٤) أظهر نابليون يلمس قروح الضحيّة، لكنه أظهر أيضاً الفزع واليأس باديَيْن على الرجال والنساء والأطفال وقد أصابهم قدرهم الأعمى القاسي. ولم يصوّر في لوحته «معركة إيلاو» (١٨٠٨) مجريات الحرب وإنما صوّر ميدانها وقد غصّ بالمُحْتَضرين والموتى. وقد أحس بدفء ألوان روبين Rubens وأغرق رسومه بحيوية الدم واللحم التي رفعت الروح الرومانسية لفرنسا بعد

عصر نابليون. لكن شعوره بأنه يخون سيده المنفي (نابليون) جعله يحاول العودة في أعماله للأسلوب الكلاسي بما فيه من هدوء وسكون. وفشل واستسلم للاكتئاب (المانيخوليا) وجفت فيه منابع الحيوية وحب الحياة. لقد تاه وأصبح عرضة للنسيان في عصر يَمُور بهوجو Hugo وبيرليوز Berlioz وجيريكول Géricault وديلاكْرُوا Delacroix. وفي ١٥ يونيو سنة ١٨٣٥ غادر بيته وهو في الرابعة والستين من عمره وانطلق إلى ميدون Meudon حيث أغْرق نفسه في رافد نهر السِّين.

أما بيير- بول برودن Pierre- Paul Prudhon (١٧٥٨-١٨٢٣) فطوّر الفَوَران الرومانسي بتفضيله الجمال المثالي على الحقيقة والنسوة الفاتنات على الأرباب وفضل كوريجيو Correggio على رافائيل Raphael. وأعاد مع ديڤيد الأهمية الأولى للخط لكنه شعر أنَّ الخطَّ يموت بلا ألوان. وكان دقيقاً إلاّ في حبّه للنساء، (النص: لم يكن رجلاً إلاّ عندما يتعامل مع النساء) فولعه بالتأمل وحاسيته الشديدة للحب والعشق يمكن أن يغفرا كل أخطائه التي تأتي في سياق مهذّب، ولأنه كان الأخ الأصغر لثلاثة عشر طفلاً فقد عانى الفقر في كلوني Cluny لكنه تطور على نحوٍ متردد، وعلى أية حال فإن رجال الدين عندما رأوه وهو يخطِّط ويرسم حثّوا الأسقف على تمويل دراسته للفن في ديجون Dijon، فكان طالباً جيداً، لكنه في سن العشرين تزوّج من امرأة فاتنة إلاّ أنها سرعان ما تحوّلت إلى امرأة فظة سليطة اللسان. وحصل على منحة دراسية فذهب إلى روما دون أن يصحب زوجته معه، فَفُتن برافائيل ثم ليوناردو وأخيراً استسلم لتأثير كوريجيو Correggio.

وفي سنة ١٧٨٩ عاد لزوجته وانتقل معها إلى باريس وسرعان ما وجد نفسه منساقاً في الفوضى الثورية ولم يعد لديه وقت أو تذوق لكيوبيدْ his Cupids ولا بيسيشهه(*) his Psyches، لكنه بعناد واصل رسمهما وبدا رقيقاً محباً في رسمه حتى لقد بدا كأن فرشاته تعانق الأجساد البشرية التي يصورها. وكان يتكسّب عيشه من تصميم أوراق الشركات

(*) كتبها أمين سلامة في معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية «بسوخي» وبإضافة ضمير الغائب للملكية تكون بسوخه، وعن بيسيشي أو بسوخي يذكر: «تشخيص للروح الإنسانية ممثلة في هيئة سيرين وتارة في هيئة ديك أو فراشة وطوراً في هيئة عذراء لها أجنحة الفراشة أو بدون. نشأ من العلاقة بين الروح والحب كل من بسوخي وإروس ليمثلا السعادة في الوفاق والاتحاد أو التعاسة في الانفصال والشقاق. =

والمؤسسات التي يكتب في رأسها اسم الشركة أو المؤسسة وعنوانها، ورسم المُصَغَّرات والإعلانات التجارية، وبعد عشر سنوات من العذاب فاز بتكليف من حكومة الإدارة برسم صورة «الحكمة تهبط للأرض» التي لفتت إليها نظر الجنرال بونابرت، وفي وقت لاحق كان نابليون يركّز على ديڤيد وكان أحياناً يعتمد بشكل عابر على برودون Prudhon وعلى أية حال فقد جلست جوزفين أمامه ليرسمها فكانت لوحة عُلّقت في اللوڤر، وفي هذه الأثناء كان يُعاني من زواجه بواحدة، فاتفق مع زوجته على الانفصال.

ولم يلفت النظر ويحظى بالتصفيق إلاّ وهو في الخمسين من عمره أي من حوالي سنة ١٨٠٨ ففي هذا العام صَبَّ أحلامه الشهوانية في لوحته «اغتصاب بسوخي» (بسيشي) ثم وازنها بلوحته «العدالة والانتقام يلاحقان الجريمة» وتأثر نابليون بجمال لوحاته فعيَّنه في

= كانت بسوخي أجمل ثلاث أميرات فاتنات، فقد كان جمالها آية في الروعة والبهاء مما أثار غيرة وحقد فينوس، فأرسلت الإلهةُ كيوبيدَ ليلهب فيها نار العاطفة والحب نحو شخص يقل عنها مركزاً. بيد أنه ما أن رآها كيوبيد حتى رنا لبهجتها وجمالها فجرح نفسه عفواً بأحد سهامه ووقع في غرامها، وأمر زيفيروس أن يحملها إلى قصر ناء مخفي عن الأنظار في واد بعيد، وصار يتردد عليها ليلاً وأخبرها أنه إله ونهاها عن أن تنظر إليه. ولما كانت وحيدة وتمل وحدتها إذ لم تجد من يؤنسها طلبت إليه أن يسمح لأخواتها بزيارتها فوافق على ذلك. وعندما أبصرت الأخوات عظمة البيت الذي تعيش فيه بسوخي وبعد أن متعن أنفسهن بما فيه الكفاية، اشتعلت نيران الغيرة والحسد في صدورهن، فأخذن يستهزئن من بسوخي كيف تثق في زوج خفي لا تراه، فأثرن الشك في نفسها أولاً ثم أغرينها أخيراً أن تحنث في وعدها أن لا تنظر إليه. وذات ليلة بينما كان كيوبيد يغط في نومه، نهضت بسوخي أضاءت مصباحاً وأخذت تحدق في الإله بلهفة، ومن شدة ارتباكها أمالت المصباح فسقطت نقطة زيت ساخنة على كتفه فأيقظته. فلامها كيوبيد لوماً رقيقاً على عدم ثقتها بشخصه ثم اختفى. فجزعت جزعاً شديداً واقلعت تبحث عنه دون أن تذوق طعاماً ولا شراباً أو تستريح، بل ظلّت تهيم على وجهها ليل نهار من مكان إلى مكان حتى وصلت إلى معبد كيريس حيث نصحتها الربة نظير ما قامت به لها بسوخي من خدمات، أن تبحث عن فينوس وتستغفرها، ولكن فينوس أبت أن تحسن استقبالها وانتهرتها وطلبت منها أن تقوم بعدة أعمال شاقة. فأمرتها بادئ ذي بدء أن تفصل كل نوع من الحبوب على حدة من كومة عظيمة مختلفة الأنواع. فأرسل كيوبيد النحل سراً ليساعدها، ثم أمرتها ثانية أن تجمع أصنافاً من الصوف لكل قطيع من قطعان الأغنام الهائلة التي ترعى عبر البحر، فتمكنت بسوخي من القيام بهذا العمل تحت إشراف ربة النهر، إذ انتظرت حتى جاءت الأغنام تستظل بين الأعشاب وجمعت العينات وسط الأدغال. بعد ذلك طلبت منها فينوس أن تقوم برحلة إلى هاديس كي تحضر إليها صندوقاً مملوءاً بجمال بروسيربينا، فحاولت بسوخي، التخلص من الحياة بعد أن فقدت كل أمل في العثور على كيوبيد كما ضلت الطريق إلى هاديس؛ لولا أن أرشدها صوت إلى الطريق إلى العالم السفلي وكيف يمكنها أن ترفق إلى مدخل ومخرج كما حذرها من رؤية مما بداخل الصندوق، فاتبعت هذه الإرشادات وتحصّلت على الصندوق. وبينما هي في الطريق إلى فينوس دفعها الفضول والكبرياء إلى فتح الصندوق لتخص نفسها بقليل من الجمال. وما إن فتحت الصندوق حتى اجتاحتها جيوش النوم، غير أن كيوبيد أسرع إليها وخلّصها من النوم أغلق الصندوق على النوم مرة ثانية. ثم أسرع إلى جوبيتر وتوسل إليه أن يساعد بسوخي، فتدخل جوبيتر في الأمر ورجا فينوس من أجل الحبيبين فاستطاع أن يحصل على غفرانها وأعطى بسوخي الخلود وجمعها بكيوبيد في زواج تكتنفه سعادة أبدية وأنجبا ابنة تسمى فولوبتاس (أنظر إروس).

جوقة الشرف ومنحه مكاناً لإقامته في السوربون، وفي المكان المجاور لهذا الفنان الجائع للحب كانت تُقيم فنانة أخرى، إنها كونستانس ماييه Constance Mayer التي أصبحت خليلته ومديرة شؤون بيته وعزاءً له في شيخوخته. وفي سنة ١٨٢١ اعترى كونستانس ماييه وخز ضمير مفاجئ ومشاعر دينية عارمة وانتحرت. وتأثر برودون Prudhon بهذا الحدث تأثراً كبيراً عصف به. وفي سنة ١٨٢٣ وافته منيته ولم يُحدث موته - إلاّ بالكاد - تأثيراً كبيراً في الحركة الرومانسية التي سبق له أنْ عزّزها بالرجوع إلى أعمال الفنانين من ديفيد إلى واتو Watteaw، فأعاد للفرنسيين من جديد حُبّهم للجمال والحُسْن.

٤- المسرح

كان نابليون مُلماً تماماً بالدراما الكلاسيّة في فرنسا، وكان إلمامه بأدب الدراما في بلاد الإغريق القديمة أقل. وكان نابليون يفضّل كورنيل Corneille لأنه وجد فيه ما شعر أنه فهم دقيق للبطولة والنبالة، وقد عبَّر كورنيل عنهما - فيما أحسَّ نابليون - بشكل أفضل كثيراً مما فعل راسين Racine قال نابليون في سانت هيلانة إن التراجيديا الجيّدة تقترب منا اقتراباً شديداً كل يوم والتراجيدا من النوع الأرقى هي مدرسة العظماء: إنه لمن واجب الحكّام تشجيعها والعمل على تشجيع الناس على تذوّقها.. آه لو أنَّ كورنيل عاش في زماني لجعلته أميراً»[١٠] ولم يكن الإمبراطور يهتم بالكوميديا فلم يكن في حاجة للتسلية والترفيه، وكان تاليران يُشفق على السيِّد دي ريميوزا de Rémusat لأنه كمسؤول عن الحفلات والترفيه في البلاط الإمبراطوري، كان يتوقع أن يقوم بترتيب أمور الترفيه والتسلية لهؤلاء المسؤولين المرهقين[١١] لكن هؤلاء المسؤولين أنفقوا الأموال على الكوميدي فرانسيز Comédie-Française (المصطلح يعني المسرح الفرنسي وليس مرتبطاً بالكوميديا بالضرورة - المترجم) ونجومه. وقد رحّب نابليون بتالما Talma على مائدته كما رحب بالآنسة (المدموازيل) جورج Mlle. George على فراشه.

وفي سنة ١٨٠٧ قلّص نابليون عدد مسارح باريس إلى تسعة مسارح وأعاد تأسيس المسرح الفرنسي Théâtre Français (وهو غير الكوميدي فرانسيز الآنف ذكره) كما كان

يهتم بين الحين والآخر بدار الكوميديا الفرنسية - وكان لها حقوق - مقصورة عليها - لإخراج الدراما الكلاسيّة. وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٢ - وبين خرائب موسكو المحترقة - وجد الوقت الكافي ليصوغ للمسرح الفرنسي Théâtre - Français مجموعة قواعد وإجراءات دقيقة ظلت تحكم هذا المسرح حتى اليوم(١٢) وفي ظل هذا التشجيع قدّم الكوميدي فرانسيز خلال فترة الإمبراطورية أجمل مسرحيات شهدها التاريخ الفرنسي.

ولإضافة نشاطات أخرى لهذه النشاطات أعيد بناء مسرح لودون Théâtre de L'Odéon- الذي كان شُيّد في سنة ١٧٧٩ ودمَّرهُ حريق في سنة ١٧٩٩ - في سنة ١٨٠٨ وكانت خطوط معماره كلاسيّة كما أراد لها المعماري شالجرين Chalgrin. وأنشئ مسرح البلاط في قصر التوليري، كما أنشئت منصات خاصة للتمثيل المسرحي تميزت بقدر كبير من الامتياز في كثير من الدور التي يتمتع أهلها بالثراء.

وقد وصل تالما Talma بعد أن لعب أدواره في الثورة الفرنسية - إلى ذروة مجده في ظل حكم نابليون.

وكان معتزاً بنفسه وكان انفعالياً مميَّزاً فلا بُد أنه كان يجد صعوبة في السيطرة على مكوّنات شخصيته الحقيقية عند أداء أدواره التمثيلية. لقد أصبح هو سيّد الفن البارع بتعلّمه كيف يضبط وينسق كل حركة من حركات أطرافه، وكل خَلْجة من خلجات وجهه، وكل نبرة من نبرات صوته، ليجعلها ملائمة لأية أحاسيس ومشاعر أو أفكار للشخصية التي يمثلها، وليجعلها ملائمة للتعبير عن أية دهشة أو معنى أو مغزى.... تريد هذه الشخصية أن توصلها للمشاهدين، وكان بعض المولعين بمشاهدة المسرحيات يذهبون عدّة مرّات لمشاهدة العرض الواحد ليروْه في الدّور نفسه ليستمتعوا ببراعة فنه وليدرسوه. ولم يكن أسلوبه في الأداء خطابياً على نحو ما كان عليه أسلوب الأداء التمثيلي في ظل الحكم القديم (قبل الثورة). لقد كان يلقي الأشعار سداسية التفاعيل كما لو كان يقرأ نثراً (غير منظوم) وكان يعارض المبالغة غير الطبيعية في إظهار المشاعر ومع هذا فقد كان بمقدوره أن يكون حالما كأي عاشق انفعالياً كأي مجرم. وكادت مدام دي ستيل تصل إلى حد الرّعب عندما شاهدت تالما يؤدي دور أوثيلو(١٣) Othello فكتبت له في سنة ١٨٠٧ : «انّك في مجال

فنك فريد في العالم (ليس لك نظير) ولم يصل أحد قبلك إلى هذه الدرجة من الاتقان حيث وحّد الفن في شخصك بين الإثارة والإلهام والتفكير من ناحية والتلقائية من ناحية اخرى، وبين العقل والسجيّة»[١٤].

وكان نابليون أيضاً مفتوناً بهذا التراجيدي (تالما) فقدّم له مبالغ عينية ودفع ديونه ودعاه مراراً على مائدة الإفطار وكان الامبراطور يستطيع أن يظل مستغرقاً في الحديث عن الدراما والدبلوماسيون والجنرالات ينتظرون لقاءه بينما هو يشرح تفاصيل تاريخية يجب مراعاتها عند تقديم «الشخصية». وذات صباح بعد أن شاهد مسرحية «موت بومبي La Mort de Pompée» قال لتالما: «إنني لستُ براضٍ تماماً. إنك تستخدم ذراعيك كثيراً. إن الملوك لا يُكثرون هكذا من الإشارات والإيماءات. إنهم يعرفون أنّ الحركة أمر a motion is an order وأن النظرة موت، لذا فهم يقتصدون في الإشارات والحركات والنظرات» وقد تأكدنا أنّ تالما قد استفاد من هذه النصيحة[١٥]. وعلى أية حال فقد ظل تالما حتى آخر حياته سيّداً للمسرح الفرنسي.

وكان للمسرح الفرنسي أميراته (ممثلاته البارعات) أيضاً فقد كانت الآنسة (المدموازيل) دوشسنوا Duchesnois ذات وجه عادي لكنها متناسقة القوام. لذا فقد كانت - على حد ما ذكر دوماس الأب Dumas Père - «معجبة على نحو خاص بدور الزير Alzire حيث كانت تستطيع عرض دوْرها وهي شبه عارية «وكان صوتها أيضاً ذا نغمات شجيّة عميقة ويُعبّر عن الأسى الميلودي (يتسم بأنه صوت رخيم) حتى أنه في يوم عرض هذه المسرحية فضّلها معظم من شاهدوها في دِور ماريا ستورات Maria Stuart على الآنسة راشيل Mlle. Rachel»[١٦] لقد كانت أكثر ما تكون إبداعاً عندما تؤدي أدواراً تراجيدية إذ كانت تنافس تالما Talma في أداء هذه الأدوار، وعادة ما كان يتم اختيارها لتلعب أدوارها معه. أما الآنسة جورج Mlle. George فكانت ذات جمالٍ يُحَرّضُ على الإثم ولا بد أن المسرح الفرنسي تردّد عند توزيعه الأدوار في أن يعهد إليها بدوْر كليتمنسترا Clytemnestre في مسرحية راسين Iphigénie. لقد جذب صوتها وقوامها القنصل الأول (نابليون) وكأيّ سيد إقطاعي يتمتّع بحق السيّد droit de seigneur راح يزورها زيارات قصيرة بين الحين

والحين وكان عليها أن تستجيب لطلبه[١٧]. ورغم أن هذه العلاقة قد انتهت بعد عام إلاّ أنها – مثل تالما – ظلت مخلصة لنابليون طوال انتصاراته وهزائمه على سواء، ومن ثمّ فقد فقدت مكانها في المسرح الذي كانت تعمل به عندما سقط نابليون، لكنها عادت بعد ذلك لتُشارك في حركة المسرح الرومانسي بما في هذه الحركة من إثارة.

واعتقد نابليون – وله بعض الحق – أنّ المسرح الفرنسي Comédie - Française في عهده رفع من شأن المسرح عموماً إلى درجة من الامتياز لم يحقّقها من قبل. وأمر نابليون فرقة هذا المسرح عدة مرات بتقديم عروضها على نفقة الدولة إظهاراً لتفوقها ودليلاً علي عظمته – في مينز Mainz أو كومْبِنْيْ Compiègne أو فونتينبلو Fontainebleau في مسرح البلاط أو – كما حدث في إيرفورت Erfurt ودريسْدن Dresden – لعرض مسرحية « قبل لقاء الملوك »[١٨].

الفصل الثالث عشر

الكتابات المناهضة لنابليون

١- الرقيب

كان نابليون مهتماً بالمسرح أكثر من اهتمامه بالكتابات الأدبية. لقد راقب بعناية برامج المسرح الفرنسي Théâtre- Français وأبدى حكمه عليها، وكان إلى حد كبير – مسؤولاً عن استبعاد (مسرحيات) ڤولتير وإحياء مسرحيات كورنيل وراسين. ولم يكن ذوقه في الأعمال الأدبية راقياً على هذا النحو. وكان يقرأ الرِّوايات بشغف بل كان يأخذ معه كثيراً من الروايات – معظمها ذات طابع رومانسي – عند ذهابه للمعارك. وكانت مائدة حديثه في سانت هيلانه تضم بعض كُتب النقد الأدبي الجيِّدة التي تحوي معلومات عن هومر وڤرجيل وكورنيل وراسين ولا فونتين ومدام دي سيفني Sévigné وڤولتير ورتشاردسون Richardson وروسّو لكنه كان لا يستسيغ شكسبير على الإطلاق. «انه لمن المحال أن يُنهي المرءُ أيّاً من مسرحيّاته. إنها هزيلة يُرثى لها، فليس فيها شيء يجعلها تقترب – في أي موضع فيها – من أعمال كورنيل أو راسين»[1] (كانت الترجمات الفرنسية لأعمال شكسبير غير كافية وغير جيّدة).

وكمعظم رجال الأعمال لم يكن نابليون يُكنُّ احتراماً للكتاب في مجال الاقتصاد أو الحكم، إذ كان يعتبرهم بائعي كلام ليس لديهم إلاّ القليل من الحِسِّ الصائب لفهم الحقيقة والطبيعة وحدود القدرة البشريّة. وكان متأكداً أنه يعرف أفضل منهم ما يُريده الشعب الفرنسي وما يجب أن يكون: كفاءة الحكومة وتكاملها، والاعتدال في الضرائب، وحرية السوق، وانضباط الإجراءات، وانتظام التمويل، وضمان توفّر فرص العمل بشكل يعادل العمالة المطروحة في مجال الصناعة، والأراضي الزراعية المُتاح ملكيتها للفلاحين، وتهيئة مكانة عزيزة لفرنسا بين الدول، فإن تحقق ذلك فلن يصر الشعب على تدابير (إجراءات) محدَّدة ولن يهتم الشعب بمسألة شغل المناصب بحفنة من المخبرين بعد نزاع كلامي. ولم يكن نابليون في سعيه الدؤوب للوصول لهذه الغايات يُطيق كثيراً تدخل لوردات الكلام من

رجال القلم والخطباء. وكان نابليون إذا وجد ان تهدئة هذه الطائفة (لوردات الكلام من كتاب وخطباء) يستلزم تقديم جوائز أو مكافآت أو معاشات فإنه لم يكن يتوانى في تقديمها، وإلاّ فإنه يعمل على الحيلولة بين مسببي الإزعاج لحكمه القنصلي أو الإمبراطوري والنشر، أو العمل على إبعادهم عن باريس أو فرنسا. «وقد كتب نابليون في سنة ١٨٠٢ «إنَّ حرية الصحافة التي لا تحدّها حدود سُرعان ما تُسبب الفوضى وترسّخها في دولة كل شيء فيها مهّياً لذلك بالفعل»[٢].

وكما كان يحدث في عهد حكومة الإدارة، فإن نابليون رغبة منه في متابعة الرأي العام، عمد إلى إصدار الأوامر لمديري البريد بفضّ بعض الخطابات الخاصّة، وكتابة تقارير له فيما يتعلق بالفقرات المعادية له، وأن يُعيدوا إغلاق الأظرف، وأن يُرسلوا نسخاً من المقتطفات التي يجمعونها من هذه الخطابات إليه شخصياً أو إلى «الغرفة السوداء» في مكتب البريد العام في باريس[٣]. وأصدر تعليمات لأمين مكتبته الخاصة أن يُعِد تقريراً ملخصاً يعرضه عليه «كل يوم فيما بين الساعة الخامسة والسادسة» يتضمن ما ورد في الدوريّات الجارية متعلقاً بالأمور السياسية، وأن يُقدّم هذا التقرير كل عشرة أيام، وأن يتضمن هذا التقرير أيضاً تحليلاً لما ورد في الكتب والنشرات والأبحاث التي نُشرت في غضون العشرة أيام السابقة على تقدير التقرير وأمر نابليون أمين مكتبته الخاصّة أن يقدم له في اليوم الأول والسادس من كل أسبوع (أسبوع الثورة الفرنسية عشرة أيام) فيما بين الساعة الخامسة والسادسة نشرة بالملصقات والإعلانات التي قد تلفت الانتباه وأن يكتب في تقريره أيضاً ما يكون قد نما إلى علمه من أقوال أو أفعال في المدارس المختلفة والتجمّعات الأدبية والخطب والمواعظ.. مما قد يكون ذا أهمية من منظور سياسي أو خلقي»[٤].

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٠٠ أمر نابليون بوقف ستين صحيفة من بين ثلاث وسبعين صحيفة كانت تصدر في فرنسا في ذلك الوقت. وكان نابليون يُواصل بذلك السياسة التي سارت عليها حكومة الإدارة. وفي نهاية هذا العام المذكور آنفاً لم يَعُد باقياً من هذه الصحف إلاّ تسع، لم تكن واحدة منها ذات طابع نقدي راديكالي. قال نابليون «إن هذه الصحف المعادية تسبب الرعب أكثر مما تسببه ألف حربة»[٥] ودأبت صحيفة «لي مونيتير

يونيفيرسال Le Moniteur universel» على الدفاع عن سياسة نابليون، وكان في بعض الأحيان يكتب لها المقالات بل وحتى مستخلصات الكتب، لكنه لم يكن يوقّع هذه المقالات، لكن أسلوبها المؤثّق كان يُفشي بسرّ كاتبها. وقد سمّي المفكرون الظرفاء هذه الصحيفة الحكومية باسم ساخر محرّف يعني الصحيفة الكذّابة[٦] منتير يونيفيرسال Menteur universel»[*].

«إنني أريد منك أن تكتب لمحرّري (جورنال دي ديبات le Journal de débats) و«بيليسيزت Le Publiciste» و«جازيت دي فرانس Les Gazette de France» فهي الأكثر انتشاراً، كما أعتقد.. أمراً تُعلن لهم فيه.. أن عصر الثورة قد انتهى وأنه ليس في فرنسا الآن إلاّ حزب واحد، وانني لن أتسامح مُطلقاً مع الصحف التي تكتب - أو تفعل - أيَّ شيء ضدَّ مصالحي، فإن نشرت هذه الصحف مقالات قليلة تحوي قدراً من السم مهما كان قليلاً، فإنها ستجد ذات صباح جميل من يُغلق أفواه كتّابها»[٧].

وفي ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ امتدت الرقابة لتشمل الدراما. وكانت حجة الحكومة في إجرائها هذا أنَّ الآراء التي يتم التعبير عنها على مستوى الأفراد وبشكل خاص قد لا تُحدث إلاّ أضراراً قليلة، لكن هذه الآراء نفسها إذا ما تم وضعها على لسان شخصية تاريخية شهيرة فإنها ستُحدث تأثيراً انفجارياً مُضاعفاً عند عَرْضها على المسرح بسبب بلاغة ممثلٍ محبوب جماهيرياً وقوة أدائه، إنها - أي هذه الأفكار - في هذه الحال ستُثير المشاعر بشكل مُضاعف بين جمهور المشاهدين[٨]. وقد استثنت الرقابةُ من ذلك نقد المَلَكيَّة، وامتداح الديمقراطية. وقد تمَّ استبعاد مسرحية موت قيصر La Mort de César من المسارح بسبب تَصْفيق جماهير النظّارة لخطب بروتس ضد الدكتاتوريّة[٩].

وأخيراً أحكمت الدولةُ السيطرةَ على كلِّ المطبوعات: «انه لمن المهم جداً ألاّ يُسمح بالنشر إلاّ لمن تثق بهم الحكومة. فمن يُخاطب الجماهير من خلال مطبوعات هو كمن يتحدث إليهم في اجتماع عام[١٠]، في مقدوره أن يعرض موادَّ مثيرة ولا بد من مراقبته

(*) الاسم الاصلي هو Moniteur وتعني المرشد أو المعلم والاسم المحرّف هو Menteur وتعني كاذب أو مضلل، ومن الواضح أن المثقفين الفرنسيين استغلوا هذا التشابه بين اللفظين (الجناس الناقص) لتحقيق غرضهم. (المترجم)

باعتباره محرِّضاً مُحتملاً أو مُسبباً مُحتملاً للحرائق. وعلى هذا فكلُّ طابع لابد أن يُقدِّم للرقيب كلَّ نصٍّ قبل طبعه، سواء قَبْل أنْ يطبعه أو أثناء طبعه ولابُدَّ من الحصولِ على موافقة الدولةِ على الطَّبْع، ولا بد أن يُوافق الطابعُ (الناشرُ) على حذفِ المادة التي تعترضِ عليها الرقابةُ أو إحلال البديل عنها كما تقترحه الحكومة. وحتى بعد أن يُوافقَ الرقيبُ وبعد طباعة الكتاب أو الصحيفة أو النشرة، فمن حقِّ وزير الشرطة (الداخلية) أن يُصادر المادةَ المنشورة أو حتى يُتْلفها تماماً، دون اعتبار لخسارة المؤلِف أو الناشر[١١].

وكان على الأدب والفكر في ظل هذه القيود على الفكر أن يُناضلا ليظلاَّ على قَيْد الحياة في ظلِّ نابليون. وقد وقع هذا النضال بأشجع معانيه على كاهل امرأة.

٢- مدام دي ستيل: ١٧٩٩-١٨١٧

٢/١ خَصْمُ نابليون اللَّدود

سبق للجنة الأمن العام أن أبعدت مدام دي ستيل عن فرنسا وخفّضت حكومة الإدارة هذه العقوبة فاكتفت بإقصائها عن باريس(*)، وبعد سقوط حكومة الإدارة أسرعت عائدة إلى العاصمة (١٢ نوفمبر ١٧٩٩) وسكنت شقّة في شارع دي جرينل de Grenelle في حي فوبورج سان جيرمين Faubourg ST. Germain الرَّاقي. ولم تعترض الحكومةُ القنصليةُ - أعني نابليون - على عَوْدتها - وسرعان ما افتتحت صالوناً جديداً لأسباب منها «أن المناقشات في باريس.. كانت دائماً أكثر فتنةً وسحراً من كل المسرّات»[١٢] وأنها كانت قد صمَّمت على أن تلعب دوراً في توجيه الأحداث، ولم تضع في اعتبارها أن مثل هذا الدور لا يليق بامرأة. لقد بَدَا لها أنَّ هذا أمر لائق تماماً لامرأة مثلها ذات مال وذكاء، خاصة إن كانت وريثة جاك نيكر Jacques Necker (والدها) الذي كانت تعتبره بطل الثورة الفرنسية الذي لم يُقَدَّر حق قدره. وبالإضافة لهذا فقد كانت الحكومة الفرنسية لا تزال مدينة له

(*) استخدم المؤلف عنواناً لهذه الفقرة Napoleon's Nemesis ونميزيس هي إلهة الانتقام عند الإغريق، فكان المؤلف اعتبر مدام ستيل سخطاً إلهياً حل على نابليون أو سَهْماً صوّبه القدر إليه، وقد جعلنا عنوان هذا الفقرة (خصم نابليون اللدود) وهو يكفي بالغرض. (المترجم)

بمبلغ عشرين مليون فرنك كان قد أقْرضها لها (للحكومة) في سنة ١٧٨٩، وكان أحد أهداف مدام دي ستيل هو استعادة هذا المبلغ. وكان نموذج الحكومة الأمثل من وجهة نظرها هو الملكية الدستورية التي تسمح بحرية الصحافة والعبادة والخطابة، والتي تحمي مِلْكية الأثرياء ضد حسد الفقراء، تماماً كما كان رأي أبيها. وبهذا المعنى كانت تَشْعر أنها كانت مُخلصة للثورة كما عرفتها الجمعية الوطنية ١٧٨٩ - ١٧٩١. لقد كانت تحتقر المشتركين في قَتْل الملك ورحَّبت في صالونها بجيرانها من ذوي الرُّتب والألقاب في فوبورج Faubourg الذين كانوا يدعون كل يوم طالبين من الرب عوْدة البوربون إلى الحكم. ومع هذا فقد حلَّقت المتجمعين في صالونها حول بنيامين كونستانت (قستنطين) Benjamin Constant الذي نذر حياته للدفاع عن الجمهورية والذي كان - كعضو في التربيونيت(*) Tribunate - يُعارض كل حركات نابليون من مرحلة القنصلية إلى مرحلة السلطة الإمبراطورية، ورحّبت في صالونها أيضاً بإخوة القنصل الأول (نابليون) لأنهم كانوا هم أيضاً غير مرتاحين في ظلّ سلطته المتزايدة.

وحقيقة الأمر أن كل ذوي الشأن في المجالَيْن السياسي والفكري في باريس - وجدوا طريقهم إلى اجتماعات المساء في صالونها، شغفاً منهم في معرفة آخر الأقاويل في المجال السياسي وليسمعوا مدام دي ستيل تَخُوض غمار الحوار والمناقشات على نحو لم تشهده باريس من امرأة منذ مدام دي ديفان Mme de Deffand. وقد أعلنت مدام دي تيسّي Tesse: «لو كنتُ ملكة لأمرتُ مدام دي ستيل بالحديث معي طوال الوقت»(١٣). وقد كتبت جيرمين(**) Germaine نفسها أن «كل طبقات فرنسا كانت تشعر بضرورة النقاش، فلم يكن الكلام (الحوار) هنا كما هو في أي مكان آخر - مجرد وسيلة للتعارف والاتصال بين الناس... وإنما كان كآلة موسيقية شُغف الناس بالعزف عليها»(١٤).

ولم تكن دوماً معارضة لنابليون إن كان لنا - حقيقة - أن نُصدّق بورين Bourienne، فقد كتبت له خطابات إطراء وتملّق في بداية الفترة القنصلية لتعرض خدماتها عليه(١٥).

(*) مجلس الدفاع عن حقوق الشعب. (المترجم)

(**) هي مدام دي ستيل نفسها. (المترجم)

ولكن قرارهُ بتجاهل عروضها، وتوسيع دائرة الرقابة واحتقاره للمكفرين السياسيين، وفكرته عن المرأة التي مؤداها أنها مجرد أداة للإنجاب، ووسيلة للذة، وأنه لا يُوثق في فكرها، كان بمثابة لدغة (قرصة) لها دفعتها للرد عليه . وعندما أطلق على ضيوفها اسم « الأيديولوجيين idéologues »[*] أطلقت عليه بدورها « عدو الفكر / أيدو فوب idéophobe »، ولأن غضبها منه (من نابليون) كان يزداد، فقد وصفته بأنه « روبيسبير فوق صهوة جواد »[١٦] أو « هذا البورجوازي الذي اعتلى العرش »[١٧] .

وفي السابع من مايو سنة ١٨٠٠ انتقلت بزوجها وبطانة صغيرة من المخلصين إلى كوبت Coppet في فترة الصيف . وكان نابليون قد غادر باريس في اليوم السابق ليعبر جبال الألب ويواجه النمساويين في مارينجو Marengo، واعترفت جيرمين Germaine (مدام دي ستيل) في وقت لاحق : « لم أستطع أن أمنع نفسي من تمنّي أن تحيق الهزيمة بنابليون إذ بدت هزيمته هي الطريق الوحيدة لوقف الطغيان »[١٨] . وفي خريف هذا العام عادت إلى باريس بعد أن ضَجِرت من الإقامة في كوبت ومون بلان Mont Blanc، فقد كانت لا تستطيع العيش دون مناقشات « ولم تكن المناقشات مزدهرة في أيّ مكان ازدهارها في باريس »[١٩] . وسرعان ما جمعت في صالونها جماعة من العباقرة والنوابغ راحوا يتحاورون في موضوعهم الأثير وهو دكتاتورية نابليون . واشتكى نابليون من هذا الوضع قائلاً : « لقد حملت كنانتها المليئة بالسهام . إن الجماعة المتحلّقة حولها تتظاهر بأنها (مدام دي ستيل) لا تتحدث في السياسة ولا تتحدث عنّي لكن كيف - إذن - أفسرّ أنّ كلّ من رآها، قلّ حبُه لي؟ »[٢٠] وقال بعد ذلك في سانت هيلانه « إن بيتها أصبح حقاً ترسانة توجِّهُ أسلحتها ضدي . لقد كان الناس يذهبون إلى هذا البيت ليكونوا فرساناً زائفين في حرب صليبية تشنها ضدي »[٢١][**] . بل أنه ذهب إلى حد القول : « إن تلك المرأة علّمت الناس أن يفكروا فيما لم يتعوّدوا التفكير فيه قبل ذلك، وما كانوا قد نسوا كيفية التفكير فيه »[٢٢] .

(*) المفهوم أن هذه الكلمة كانت تنطوي على(سخرية واحتقار . (المترجم)

(**) المقصود في حرب ضده، والتعبير يدل على رأي نابليون في الحروب الصليبية المعروفة in her Crusade . (المترجم)

لقد شعر نابليون أنه كقائد يعمل على إخراج فرنسا من حالة الفوضى بفرض نظام إداري يتَّسم بالكفاءة، وبتحقيق جيوشها انتصارات - في الوقت نفسه - ضد التحالفات المعادية، أنَّ من حقه أن يتوقع - أو يفرض عند الضرورة - معنويات عامة وأخلاقاً عامة على الجماهير، وأن يفرض تنسيقا بين الروح الوطنية والإرادة الوطنية للدفاع عن جمهورية فرنسا الجديدة وحدودها «الطبيعية» - لكن هذه المرأة (مدام دي ستيل) جمعت حولها كلا من الموالين للملكية واليعاقبة ووحَّدتهم ضده، ووالت أعداءه. وكان والد جرمين Germaine متفقاً مع نابليون. لقد أنَّبها (أي أنّب ابنته) لهجومها المتواصل على الدكتاتور الشاب (نابليون) وقال لها إن شيئاً من الدكتاتورية ضروري أثناء الحرب[٢٣]. لكنها أجابته قائلة إن الحرية أهم من النصر. وشجعت مدام دي ستيل، بيرنادوت Bernadotte في معارضته لنابليون، وكتبت بعض الخطب التي ألقاها كونستانت Constant (قسطنطين) في التريبيونيت Tribunate (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) ضد انتهاكات نابليون لاختصاصات وصلاحيات المجلس التشريعي (الهيئة التشريعية). لقد كانت هي (مدام دي ستيل) وبونابرت سريعي الغضب متّسمين بالغرور، ولم تكن فرنسا لتتسع لكليهما، ليكون كل منهما حراً يتصرف كما يشاء.

وفي ربيع سنة ١٨٠١ كتب نابليون لأخيه جوزيف (يوسف): «إن السيِّد دي ستيل في بؤس شديد، ومع هذا فإن زوجته تُقيم الولائم والحفلات الراقصة»[٢٤] ونقل جوزيف إليها هذا التوبيخ، فانتقلت إلى مقرِّ إقامة زوجها في ميدان الكونكورد (الكلمة تعني الوفاق) فوجدته وقد أخذ به الشَّلل كل مأخذ، فراحت تُمرِّضه وتعتني به، وفي شهر مايو سنة ١٨٠٢ أخذته معها عندما غادرت باريس إلى سويسرا، ومات في الطريق وتمّ دفنه في مقبرة كوبت Coppet. وفي العام نفسه بدأت مدام دي ستيل في تعاطي الأفيون لأن نوبات الهياج كانت تعتريها.

٢ / ٢ المؤلفة

كانت مدام دي ستيل أعظم مؤلفة في أوروبا في زمانها وكانت أعظم كتاب فرنسا باستثناء شاتوبريان Chateaubriand لقد كتبت خمسة عشر كتاباً قبل سنة ١٨٠٠ (أصبحت هذه الكتب منسيّة الآن)، وفي ذلك العام (١٨٠٠) قدَّمت عملاً كبيراً «عن الأدب De la Litterature» ثم ألفت روايتين (دلفين Delphine في سنة ١٨٠٣ وكورين Corrine في سنة ١٨٠٧) وقد حقَّقت هاتان الروايتان لها الشهرة في أنحاء أوروبا. وفي الفترة من ١٨١٠ إلى ١٨١٣ خاضت معركة حياتها لنشر عملها المهم (عن ألمانيا De L'Allemagne)، وتركت بعد موتها كتاباً آخر مهماً وكبيراً (أفكار وتفسيرات حول... الثورة الفرنسية Considérations Sur... La Révolution Française) و (عشر سنوات في المنفى Les dix Années d'exil) لقد اتّسمت كتاباتها التي أشرنا إليها هنا بالصدق، كما أنها كانت أعمالا أساسيَّة، وبعضها بلغ ٨٠٠ صفحة. وكانت مدام دي ستيل تبذل جُهدا شاقاً في العمل. لقد كانت تعمل بجد وتمارس الحب بجد ومواظبة، وتكتب بعاطفة جيَّاشة وحماس. لقد حاربت حتى النهاية أقوى رجال العصر (نابليون) وكان سقوطُه نصراً لها، مع أنها كانت تعاني ظروفاً حزينة.

لقد تناول عملها الموسوم باسم (De la littérature Considérée dans ses rapports avec les institutions sociales) موضوعاً كبيراً ومهماً: «إنني أريد أن أفحص أثر الدينِ والأخلاق والقوانين على الأدب (والفكر) وأثر الأدب (والفكر) على الدين والأخلاق والقانون»(*). لقد كانت لاتزال تتنفّس روح القرن الثامن عشر – حرية الفكر، الفرد في مواجهة الدولة، تطور المعرفة والأخلاق، هنا لا مجال للميثولوجيا (الأساطير) الفوقطبيعية (التي لا تنسجم مع قوانين الطبيعة)، فقد كانت مدام دي ستيل تؤمن بنشر التعليم والعلم والمعرفة. وكان المطلب المسبّق – في رأيها – لإحداث أي تطور هو تحرير العقل من سطوة السيطرة السياسية. فبالعقول المتحررة على هذا النحو، سينتعش الأدب (والفكر) ويتضمّن أفكاراً

(*) لم نقرأ هذا الكتاب حتى سنة ١٩٢٥. ومعظم التحليلات التي أوردناها إنّما هي من كتاب هيرولد Herold الرائع الذي يتعرض فيه لحياتها Mistress to an Age, pp. 205 - 213 (المولف)

مفيدة، وسينتشر لينتقل لنا تراث الجنس البشري. لا يجب أن نتوقع أن يزدهر الفن والشعر على نحو ما يتقدم العلم والفلسفة لأنهما (الفن والشعر) يعتمدان بشكل أساسي على الخيال الذي اتَّسم بالخصوبة والتوقّد في الأزمنة المتأخرة كما كان في الأزمنة الباكرة في التاريخ. وفي التطور الحضاري يسبق الفن والشعر العلمَ والفلسفة، ومن هنا فإن عصر بيريكليس Periclès سبق عصر أرسطو، والعصور الوسطى سبقت جاليليو Galilée، والفن في عهد لويس الرابع عشر سبق عصر التنوير العقلي. والتطور العقلي لا يتسم بالاستمرار، فهناك تقهقر أو تراجع أو نكوص بسبب اضطرابات في الطبيعة أو تقلّبات السياسة، لكن حتى في العصور الوسطى كان العلم والمنهج العلمي يتقدمان مما مهّد لظهور كوبرنيكس وجاليليو وبيكون وديكارت. وفي كل العصور تمثل الفلسفة تجميعاً تراكمياً للتراث الفكري وجوهره. وتأملت مدام دي ستيل وتنبأت قائلة إنه ربما أصبحت الفلسفة في بعض حقب المستقبل مفهومة وناضجة بشكل كاف «بحيث تحل محل العقيدة المسيحية أو بتعبير آخر تغنينا عن العقيدة المسيحية التي كنا نعتقدها في الماضي»(٢٥). وقد عرَّفت التنوير الفلسفي Les Lumières Philosophiques بأنه «الحكم على الأشياء بمعيار العقل»(٢٦) ولم تفقد مدام دي ستيل إيمانها بحياة العقل إلاّ عند حديثها عن الموت. «إن انتصار التنوير الفلسفي (العقلي) كان دوماً ملائما لعظمة الجنس البشري وإصلاح حاله»(٢٧).

لكنها استمرت تقول (وكانت قد قرأت روسّو كما قرأت فولتير) إن تطور العقل (الفكر) ليس كافيا فالمعرفة ليست إلاّ عنصراً واحداً في عملية الفهم. أما العنصر الآخر فهو الشعور، فلابد أن تكون الروح حساسة مرهفة كما لابد أن تكون الحواس كذلك. فبدونها (الحواس) تصبح الروح كلوح ميت غير قابل للتلقي أو تصبح كمتلق ميت للمثيرات المادية (الفيزيقية)، فبالحواس تدخل الروح في حياة الموجودات الحية الأخرى وتشاركها إعجابها ومعاناتها، فبشعور الروح من خلال الجسد يكون الشعور بوجود الله وراء العالم المادي. ومن خلال وجهة النظر هذه تصبح الآداب الرومانسية التي ظهرت في الشمال الضبابي (ألمانيا وسكاندينافيا وبريطانيا العظمى) على الدرجة نفسها من الأهمية التي لآداب الجنوب المشمس (اليونان وإيطاليا) وتصبح قصائد «أوسيان Ossian» في أهمية ملاحم هوميروس Homére

وكان من الممكن أن يوافق نابليون في فترة شبابه على هذا التقويم لكن كان لا بد أن ينزعج من وجه نظر المؤلفة عن العلاقة بين الأدب (والفكر) والحكومة. فالديمقراطيات (كما اعتقدت مدام دي ستيل) تجنح إلى جعل الكُتّاب والفنانين يجنحون إلى إرضاء أذواق الجماهير بينما تعمد الارستقراطيات إلى جعل الكتاب والفنّانين يعملون على إرضاء أذواق النُّخبة (الخاصّة) وتشجيع الفكر المصقول المحكم ورصانة الصياغة والشكل[٢٨]. فنظام الحكم الاستبدادي يعمل على ترقية الفنون والعلوم ليُظهر نفسه – أي هذا الحكم الاستبدادي – من خلال البهاء والقوة، ولكنه – اي النظام الاستبدادي – لا يشجع الفلسفة والدراسات التاريخية لأنها خطر على الدكتاتورية بسبب تناولها للأمور بعمق وسِعَة، والديمقراطية تحفز الآداب وتؤخّر الفن، والارستقراطيات تفرض الذوق لكنها تعمد إلى إطفاء الحماسة والجدة والابداع، والحكومة المطلقة (الاستبدادية) تكبت الحريات والإبداع والفكر. فلو أمكن ان يكون لفرنسا حكومة دستورية تُزاوج ما بين النظام والحرية لأمكنها أن تزاوج بين تشجيع الديمقراطية والقيود المفروضة بحكمة في ظل حكم القانون.

نقول الحق تماماً إن هذا الكتاب كان كتاباً جديراً بالاهتمام بالنسبة لامرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها، وتمتلك سبعة ملايين من الفرنكات. وبطبيعة الحال كانت هناك أخطاء في هذا الكتاب ذي الستمائة صفحة لأنَّ العقل عندما يفلت يكون عُرضة للزَّلل بشكل أكيد رغم أنه قد يُسْقِط بعض الثمار التي يتعذّر الإمساك بها (المراوغة). لقد كانت مدام دي ستيل شخصية غامضة في مجالي التاريخ والأدب، لقد كانت ترى أنَّ الايرلنديين ألمان وأن دانتي شاعر صغير (قليل القيمة) بل لقد دافعت بشجاعة عن الحكومة الليبرالية وعن المسيحية القائمة على أسس عقلية فاسقطت في طريقها مئات من المُسلَّمات. وتنبّأت بأن تطوّر الاحصاءات قد يجعل الحكومة أكثر وعياً وأن التعليم السياسي قد يساعد في إعداد مرشحين للوظائف العامة. ولاحظت وكأنها تتنبّأ أن «التقدم العلمي سيجعل التقدم الخلقي أمراً لا مناص منه لأنه إذا زادت قوة الإنسان زادت قوةً وسائل منعه من اساءة استخدامها»[٢٩] وقلما كانت هناك فكرة من أفكار القرن الثامن عشر لم يتناولها هذا

الكتاب، وقلما كانت هناك فكرة من أفكار القرن العشرين لم يبذر هذا الكتاب بذرتها»[٣٠].

لقد كتبت في هذا المجلد حياتها بطولها بما فيها من آلام وحسرات ذلك أن «النظام الاجتماعي بكامله.. قد حشد حشوده ضد امرأة أرادت أن تُحقق شهرة لم يُحققها الرجال» في عالم الأدب والفكر[٣١]. والآن فقد كان عليها أن تكون استثناء لأنها كما كتبت بعد ذلك بواحد وعشرين عاما «في ربيع سنة ١٨٠٠ نشرتُ كتابي في الأدب وأدى نجاحه إلى استعادتي ثقتي كاملة بالمجتمع، وامتلأت – مرة أخرى – غرفة الاستقبال عندي بالزائرين»[٣٢]. وكانت قلوب كثيرين قد انخلعت فابتعد عن صالونها من كان يتردد عليه بعد هجوم كونستانت (قسطنطين) العنيف على الدكتاتورية إلا أنهم بعد صدور كتابها هذا عادوا إليها نادمين وراحوا يتملّقونها ووجد العريف الصغير Little Corporal (المقصود نابليون) في قصر التوليري أن عليه أن يعترف بوجود عدو له يُباريه في همته وطباعه.

وفي أغسطس سنة ١٨٠٢ أرسل جاك نيكر Jacques Necker للقنصل ليبرون Lebrun «نظرات أخيرة في السياسة والمالية Les Dernières Vues de politique et de Finance» – الذي عرض فيه آخر أفكاره في السياسة والاقتصاد. وفي هذا الكتاب التمس الأعذار لدكتاتورية نابليون لكن باعتبارها شراً لا بُد منه، وافترض أن هذه الدكتاتورية مؤقتة وحذر من استمرار تركز السلطة في أيدي العسكريين وعبَّر عن أسفه لأن مالية الحكومة الجديدة تعتمد اعتمادا كبيرا على تعويضات الحرب، واقترح دستوراً أكثر ليبرالية يكون نابليون «حارسا A guardian» عليه. وقد أطلع ليبرون Lebrun نابليون على هذا الكتاب وكان نابليون وقتها قد أصبح بالفعل نصف إمبراطور (على وشك أن يكون إمبراطوراً) فامتعض – أي نابليون – من فكرة تقليص سلطاته. ولأن نابليون كان مُقتنعاً أن مدام دي ستيل هي التي وجهت أفكار أبيها، فقد أصدر أمراً بإبعادها عن باريس مما يعني إغلاق صالونها المزعج ونسي نابليون أنها كانت تستطيع الكتابة بالمهارة نفسها التي تتحدث بها. وقضت شتاء ١٨٠٢ / ١٨٠٣ في جنيف لكنها أصبحت في ديسمبر حديث باريس بنشرها روايتها

« دلفين Delphine » . لا أحد يقرأ هذه الرواية الآن، لكن عند صدورها لفتت نظر كل المهتمين بالأدب والسياسية لأنها كانت جزءاً من نضال قوي بين امرأة وعصرها.

ودلفين (بطلة القصة) فتاة فاضلة قوية تتوق إلى الاستسلام (الإذعان) وتخشاه (ويُقصد بها مدام دي ستيل) وأحب ليونس Leonce (= ناربون Narbonne) الارستقراطي الوسيم الفتاة دلفين لكنه جفل منها (ابتعد عنها) بسبب إشاعة تتهمها بعلاقات جنسية غير شرعية affaires فلم يستطع أن يُقامر بوضعه الاجتماعي باتخاذها زوجة له، فتزوج من ماتيلدا دي فيرنون Matilde de Vernon التي كانت أمها تمارس السحر وتغطي أكاذيبها بالظُّرف والذكاء، ونظر أهل باريس لهذه السيدة (الواردة في الرواية) على أنها تاليران Talleyrand رغم أنها امرأة بينما تاليران رجل، وقد انتقم تاليران لنفسه بأن ذكر أن هذه المؤلِّفة المسترجلة (المرأة الذَّكر) قد تنكرت وكذلك هو في زي النساء. (يقصد أنه ليس فيها من الأنوثة شيء). وتُواصل القصة ذاكرة أن دلفين - بعد رفضها - عادت للدير حيثُ قادتها رئيسة الدير لعالم العفة طوال الحياة. وعندما اكتشف ليونس Leonce طهارتها فكر في تطليق زوجته غير الحساسة وأن يتزوج دلفين لكنه خشي تدمير مصالحه بخرقه قانون الكنيسة القاضي بالزواج الأحادي (الزواج مرة واحدة في العمر)، وماتت ماتيلدا Matilde - ضحية، وكان موتها مناسبة درامية (في القصة) مناسبة ليحث ليونس Leonce دلفين على الفرار معه لتستسلم لعواطفه، وهجرها وانطلق ليلحق بالمهاجرين émigrés (الذين غادروا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) إلاّ أن السلطات قبضت عليه وحكم عليه بالإعدام. واندفعت دلفين - التي كانت تحب قسوته - لإنقاذه، إلا أنها لم تصل إلا لتراه صريعا بعد اطلاق النار عليه، وعندئذ خرت هي أيضاً وفارقتها روحها. واستخدمت المؤلفة هذه الأحداث الدرامية السخيفة أو المنافية للعقل، وهذه الحبكة الرومانسية النمطية لتجعل منها منصة خطابة تناقش من خلالها شرعية الطلاق، وتعصّب الكاثوليكية (وكانت قد ورثت عن أسرتها المذهب البروتستنطي)، والحقوق المعنوية للمرأة بدلاً من المعايير المزدوجة، ومشروعية الوعي الفردي (تصرف الفرد بما يميله عليه ضميره) بدلا من شرف الانتماء إلى طبقة. وقد تلقى المثقفون في باريس حججها بقبول حسن، لكن نابليون لم

يكن سعيداً بها، فقد كان في ذلك الوقت قد ولى وجهه شطر الكاثوليكية كعلاج للتفسّخ الخُلقي، والاضطراب الفكري في فرنسا، وفي ١٣ أكتوبر سنة ١٨٠٣ أصدر أمراً يمنع مدام دي ستيل من الاقتراب من باريس مسافة أربعين فرسخا.

وظنَّت مدام دي ستيل أن الوقت الملائم قد حان لزيارة ألمانيا. وكانت قد تعلَّمت قدراً كافياً من الالمانية يُتيح لها قراءة ما هو مكتوب بهذه اللغة، إلاّ أنها لم تكن تجيد الحديث بها، فلم لا تنعم الآن بموسيقا فينا، ومفكري فيمار Weimar والمجتمع الملكي في برلين؟ وفي ٨ نوفمبر عبرت الراين عند متز Metz إلى ألمانيا مع أوجست والابنة ألبرتين Albertine وخادمين وكونستانت (قسطنطين) الذي أصبح بالنسبة لها عشيقاً أفلاطونياً أو بتعبير آخر فارساً أقل رتبة في خدمة فارس كبير Cavalier servant

٣/٢ السَّائحة

وكان انطباعها الأول - في فرانكفورت - غير سار، فقد بدا الرجال في ناظريها ذوي بدانة، وكأنهم يعيشون ليأكلوا، ويأكلون ليدخنوا، وكانت تجد صعوبة في التنفس عندما يقتربون منها. وكان الألمان مندهشين من هذه المرأة المعتزة بنفسها التي لا تستطيع أن تُقدّر ما تُسببه غلايينهم pipes من جوٍ مريح، وكتبت أمُّ جوته Goethe قائلة لابنها. «إنها تكبس على نفسي كحجر الرحى. إنني اتحاشاها قدر استطاعتي وأرفض أي دعوة لحضور أي مكان هي فيه، إنني أتنفس بحرية أكثر عندما تكون غير موجودة»(٣٣).

وأسرعت جيرمين Germaine مع حاشيتها إلى ڤيمار Weimar حيث وجدت الشِّعر قد نقّى الجو المحيط بها. لقد كانت المدينة (فيمار) يسودها الكتّابُ والفنانون والموسيقيون والفلاسفة، وكان البلاط يقوده بتسامح وحكمة الدوق شارل أوجستس Charles Augustus وزوجته الدوقة لويز Louise وأمه الدوقة دواجر أنّا أمالي Dowager Anna Amalie. وكان هؤلاء الناس على درجة عالية من التعليم، ويتسمون بحسن التمييز والحصافة، وكانوا جميعاً - تقريباً - يتحدثون الفرنسية. وأكثر من هذا فقد قرأ كثيرون منهم رواية «دلفين Delphine» وكان عدد أكثر بكثير قد سمع عن حربها ضد نابليون ولاحظ كثيرون أنها

كانت ذات مال وأنها انفقته. وقد أكرموها بالدعوة على الغذاء والمسرح والحفلات الراقصة، ودعوا شيلر Schiller ليقرأ مشاهد من «فيلهيلم تل Wilhelm Tell» واستمعوا إليها وهي تقرأ فقرات طوال من كتابات راسين Racine، وحاول جوته Goethe – الذي كان وقتئذ في يينا Jena – أن يتهرّب من واجبه بادعاء إصابته بالبرد، لكن الدوق حثّه على المجيء إلى فيمار رغم هذا، فأتى وتناقش مع مدام دي ستيل بغير ارتياح. ولكنه غدا حذراً بسبب تهديدها الصريح بأنها تنوي طبع تقرير عن ملاحظاته[٣٤]. وكانت مستاءة خائبة الرجاء لأنها وجدت جوته على غير ما توقعت فلم يعد هو فيرتر Werther وأنه تحوّل من عاشق إلى حَبْر (كبير كهنة). وحاول جوته أن يُربكها بالمتناقضات وبالآراء المتضاربة «لقد أدى تناقضي ومشاكستي بشكل عنيد إلى إصابتها باليأس في غالب الأحوال، لكنها كانت في ذلك الوقت ودودة جداً وأظهرت على نحو متألق ذكاءها وفصاحتها»[٣٥] وقد ذكرت هي في وقت لاحق أنه «كان من حسن حظي أن جوته وفيلاند Wieland كانا يتحدثان الفرنسية بطلاقة، أما شيلر فكان يناضل من أجل ذلك»[٣٦] وقد كتبت لشيلر بود، وكتبت لجوته باحترام، فهو أي جوته بالإضافة إلى نابليون هما الرجلان الوحيدان اللذان قابلتهما وأجبراها على التزام حدودها (عرّفاها حدودها أو أوقفاها عند حدودها أو جعلاها تتحقق من إمكاناتها المحدودة) ولم يكن شيلر مرتاحاً لسرعتها في الحديث وتوالي أفكارها بشكل سريع، لكنه انتهى متأثراً، فقد كتب إلى أحد أصدقائه «لقد قادني الشيطان إلى امرأة فرنسية فيلسوفة هي من بين كل المخلوقات الحية، الأكثر حيوية والأكثر استعداداً للجدال والنضال دفاعاً عن رأيها، والأكثر امتلاكاً لنواصي الكلمات، وهي أيضاً الأكثر ثقافة والأكثر اتقاداً ذهنياً من بين نساء العالمين، وإذا لم تكن شائقة حقيقة وممتعة، لما سبّبت لي ازعاجاً»[٣٧]. وتنفّست فيمار الصعداء عندما غادرت مدام دي ستيل برلين بعد إقامة استمرت ثلاثة أشهر.

لقد وجدت ضباب برلين محبطاً مسببا للكآبة، بعد أن شهدت التألق في فيمار، وكان سادة الحركة الرومانسية غير موجودين بها أو وافتهم منيتهم، وكان الفلاسفة قد انشغلوا في جامعات بعيدة. هيجل في يينا، وشيلنج في فيرتسبورج Wurzburg، فكان على جيرمين أن

تقنع بما عند الملك والملكة وأوجست فلهيلم فون شليجل August Wilhelm Von Schlegel من معارف لغوية وثقافية أبهجتها. وقد اتفقت معه ان يصحبها إلى كوبت Coppet ليكون معلّما ومرشداً لابنها أوجست Auguste فوافق وأحبها في أسوأ فترة في حياتها.

وفي برلين تلقت إخباراً تُفيد ان اباها مريض بشكل خطير فاسرعت عائدة إلى كوبت لكنها تلقت خبر وفاته (٩ أبريل ١٨٠٤) قبل وصولها (إلى كوبت). فكان هذا الحدثُ لطمةً لها سبَّبت لها حزناً أكثر من اي نزاع بينها وبين نابليون. لقد كان أبوها يمثل لها دعماً معنوياً ومالياً، وكانت تراه دوماً على حق وصلاح، وما كان أيٌّ من عشاقها ليحل محله. ووجدت عزاءً بعد موته في كتابة نصر ادبي يَغُصُّ بتوقيره وحبه (السيد نيكر، شخصيته وحياته الخاصة Monsieur Necker's Character & Private Life) كما كتبت عنه في مقدمة عملها الكبير (عن المانيا De l'Allemgne) وقد ورثت معظم ثروة أبيها وأصبح دخلها الآن ١٢٠,٠٠٠ فرنك في السنة.

وفي شهر ديسمبر ذهبت تلتمس الدفء في إيطاليا وأخذت معها ثلاثة أطفال ـ أوجست والبرتين والبرت ـ وشليجل Schlegel الذي أصبح معلّماً ومرشداً لها ايضاً (وليس لأطفالها فحسب) لأنه وجد معلوماتها قليلة جداً عن الفن الإيطالي. وفي ميلان انضم إليهم بيدكر دي سيسموندي Baedeker Jean Charles leonard de Sismondi الذي كان قد شرع في كتابة كتابه التعليمي: «تاريخ الجمهوريات الإيطالية». وقد وقع هو أيضاً في حب جيرمين ـ أو بالأحرى وقع في حب عقلها ومالها ـ حتى اكتشف كما اكتشف شليجل من قبله أنها لم تأخذ الأمر على محمل الجد. واتَّجهوا معاً عبر بارما Parma ومودينا Modena وبولونيا Bologna (مدينة إيطالية) وأنكونا Ancona إلى روما. وكان جوزيف بونابرت مولعاً بها أيضاً فزودها بخطابات تُقدّمها إلى افضل المجتمعات الإيطالية، واحتفت بها الطبقات الارستقراطية لكنها وجدت الأمراء والأميرات أقل احتفاءً بها من الكاردينالات الودودين الذين عرفوا كتبها وثروتها وعداءها لنابليون ولم تزعجهم عقيدتها البروتستنطية، لقد تم استقبالها بشكل رسمي ولافت ترحاباً وأُلقيت امامها القصائد وعُزفت الموسيقا في اكاديمية أركاديا Accademia dell Arcadia وقد سجلت هذه التجربة في روايتها كورين

Oswald. هذه الرواية (التي كانت شهيرة في وقت من الأوقات) أصبحت الآن على وشك الاكتمال فراحت المؤلفة تبحث عن ناشر فرنسي، وكان الأمر يتطلب موافقة على الطبع من وزارة الداخلية، وأكد والد بروسبير Prosper – مدير شرطة ليمان Leman – لفوشي أن مدام دي ستيل قد أصبحت متحفظة وحذرة طوال العام الماضي، وبناء على هذا سُمِح لها بقضاء صيف سنة ١٨٠٦ في أوكزير Auxerre (على بعد ١٢٠ ميلاً من باريس) فاتخذت لها فيلا هناك، وفي الخريف سُمِح لها بالانتقال الى روان Rouen لقضاء الشتاء، وزارها أصدقاء كثيرون في المدينتين وعبر بعضهم عن أمله في أن تحيق الهزيمة أخيراً بنابليون في معركة شرسة تجبره على قضاء الشتاء مع جيشه في الشمال المتجمد"[٣٩] وفضّ البوليس السرّي التابع لنابليون مراسلات جيرمين (مدام دي ستيل) وعلم نابليون بمشاعرها. فكتب غاضباً إلى فوشيه Fouché في ٣١ ديسمبر «لا تترك هذه البغي(*) bitch مدام دي ستيل تقترب من باريس إنني أعلم أنها ليست بعيدة عنها»[٤٠] (وكانت قد انسلت بشكل سري إلى باريس وقضت فيها فترة وجيزة في ربيع سنة ١٨٠٧) وأثناء الاستعداد لمعركة فريدلاند Friedland كتب نابليون إلى فوشيه في ١٩ أبريل:

«من بين ألف أمر وأمر وصلني بشأن مدام دي ستيل يوجد خطاب يمكن أن يظهر لك كم هي لطيفة(**) هذه المرأة الفرنسية الموجودة هناك.. حقيقة أنه من الصعب أن يكبح المرء سخطه ونقمته عند رؤية كل هذه المسوخ عند هذه البغي. لن أقول لك عن المشروعات التي أعدتها بالفعل هذه الزمرة السخيفة في حالة وقوع الحدث السعيد الممثل في مقتلي، مادام وزير الداخلية لابد أن يكون قد علم بذلك».

وفي ١١ مايو كتب إلى فوشيه مرة أخرى:

«لقد كتبت لي هذه المرأة المجنونة خطاباً من ست صفحات زادت فيه الخلاف إلى الضعف.. إنها تقول لي إنها اشترت عقاراً في وادي مونتمورنسي Montmorency وخَلُصت إلى أن هذا يخوّلها حق الإقامة في باريس. إنني أكرر لك أن معنى أن تترك هذا الأمل

(*) المعنى الحرفي الكلبة أو أنثى الكلب، والمعنى المقصود العاهرة.

(**) السخرية واضحة.

يُداعب خيال هذه المرأة هو أنك تُعذّبها دون مبرر. إنني لو أظهرت لك الأدلة التفصيلية على كل ما فعلته في محل إقامتها خلال شهرين لأصابتك الدهشة. حقيقة رغم بُعدي عن فرنسا بخمسمائة فرسخ، فإنني أعلم ما يحدث هناك بشكل أفضل من وزير داخليتي»[٤١].

وعلى هذا فقد عادت جيرمين (مدام دي ستيل) على غير رغبتها إلى كوبت Coppet في ٢٥ أبريل سنة ١٨٠٧. وقد صحبها كونستانت Constant (الثابت رغم التقلبات) لكنه فارقها عند دول Dole ليقيم مع والده المريض. فلمّا وصلت إلى كوبت أرسلت شليجل إلى كونستانت (قسطنطين) ليقول له أنه إذا لم يَعُد إليها فإنها ستقتُل نفسها. وكان بنيامين يعلم أن هذا تهديد خيالي (تهديد سيرانه أو بتعبير آخر تهديد امرأة فاتنة لعوب، والسيرانة كائن أسطوري عند الإغريق له رأس امرأة وجسد طائر) وليس تهديد أوزّة عراقية Swang (أي ليس تهديداً حقيقيا) ومع هذا فقد عاد إليها وتحمل صامتاً توبيخها. كان قد كفّ عن حبها منذ وقت طويل «لكن كيف يقول المرء الحقيقة لامرأة لا إجابة عندها سوى ابتلاع الأفيون» وفي العاشر من يوليو أتت جوليت ريكاميه Récamier في زيارة طويلة فأحبتها جيرمين (مدام دي ستيل) وقررت أن تعيش.

وسمحت وزارة الداخلية بطبع روايتها كورين، وتم نشرها في ربيع سنة ١٨٠٧ فأعطى المؤلفة انتصارا يُعزيها عن انتصار نابليون في فريدلاند Friedland في ١٤ يونيو. وكانت الكتابات التي موّلتها الحكومة معادية للرواية لكن آلاف القراء عبروا عن رضاهم وسعادتهم بهذه الرواية. إننا اليوم غير مفتونين بشكل (بناء) هذه الرواية -- إنها رواية عاطفية تخللتها مقالات كئيبة مؤرخة عن مشاهد وشخصيات وأحوال دينية وآداب وفنون في إيطاليا، ولم يؤثر بطل الرواية «ذو الوجه الرجولي» في أي من القراء (فقد تحوّل إلى شخصية ضعيفة) أو «إيحاء سماوي» تُوّج (بضم التاء) في عيني بطلة القصة[٤٢]. لكن في سنة ١٨٠٧ لم تكن إيطاليا قد أصبحت بعد بلدا انتشر فيه التأليف، كانت بلادا أكثر شهرة في نواظرنا في مجالي التاريخ والفنون، وكان فن الرواية فَرْخاً ينشر جناحيه وكان الحب الرومانسي يناضل للتحرر من سلطان الوالدين والروابط الاقتصادية والمحرمات، وبدأت حقوق المرأة تجد من يُعبر

عنها. وكان في رواية كورين كل هذه الامور الفاتنة تجرى على لسان شخصيات تُغني الأشعار بشكل تلقائي وتداعب أوتار القيثارات الفاتنة، وكورين في شبابها (كشخصية في الرواية) هي نفسها - كما هو واضح جيرمين، «بشال هندي حول خصلات شعرها الأسود الصقيل... وذراعاها جميلان جمالاً فائقاً.. وقوامها الذي ينم عن قوة ونشاط». وأكثر من هذا فإن حوارها وطريقة كلامها، يجتمع فيهما كل ما هو طبيعي وخيالي ودقيق وسام وقوي وحلو»[٤٣] انه لأمر غريب أن نقول إن الإمبراطور (نابليون) الذي لم يكن يُطيق مدام دي ستيل، عندما وصلت السفينة التي تقله إلى سانت هيلانه، تناول الكتاب (كورين) ولم يستطع أن يضعه جانباً إلا بعد أن قرأه حتى آخر سطر فيه[٤٤].

٢ / ٤ عندما تصبح ألمانيا مفهومة:

لقد اضافت الآن مدام دي ستيل إلى مهامها (الإطاحة بنابليون والانغماس في الملذات الحسية والمعنوية) مهمة أخرى وهو مشروع حساس يهدف إلى توضيح المانيا وشرحها للفرنسيين. وحتى عندما كانت روايتها الوليدة (كورين) تناضل دفاعاً عن نفسها ضد الصحافة الخاضعة لسلطة نابليون، كانت مدام دي ستيل تُخفي في نفسها معزوفة جَسُورة مفعمة في بلاد ما وراء الراين. ولإعداد نفسها لهذه المهمة (المعزوفة) ولتكون على وعي كامل بما هي مقدمة عليه شرعت في القيام بجولة سياحية أخرى في أوروبا الوسطى.

وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٧ غادرت كوبت مع ألبرت والبرتين وشليجل وخادمها الخاص (راعي ملابسها) يوجين Eugène (جوزيف أجينت Uginet). وفي فينا استمعت إلى موسيقا هايدن Haydn وجلوك Gulck وموزار Mozart لكنها لم تُعر بيتهوفن التفاتاً. وخلال ثلاثة أسابيع من بين الأسابيع الخمسة التي قضتها في النمسا راحت تمارس الحب مع الضابط النمساوي موريتس (موريس) أودونيل Moritz O'Donnell وعرضت عليه المال والزواج لكنها فقدته فكتبت إلى كونستانت خطابات مفعمة بالإخلاص الذي لا حدود له - «قلبي وحياتي وكل ما عندي ملكك كما تشاء وكيف تشاء»[٤٥] لكنه اكتفى باقتراض بعض من

أموالها. وفي تبلتس Teplitz وبيرنا Pirna أجرت مباحثات مع فريدرتش فون جينتس Friedrich Von Genz الناشر (النص وكيل الدعاية والإعلان Publicist) المعادي لنابليون عداء شديداً، وعندما علم نابليون بهذا اللقاء خَلُص بأنها تعمل على تدمير اتفاق السلام الذي عقده مؤخراً في تيليست Tilsit في شهر يوليو. وفي فيمار لم تجد شيلر (كان قد مات سنة ١٨٠٥) ولا جوته، فواصلت طريقها إلى جوثا Gotha وفرانكفورت، وفجأة اعتراها المرض والإحباط فأسرعت عائدة إلى كوبت.

وربما ساهمت أخبار الموت التي تلقتها، في اتجاهها نحو التأمل الباطني (التصوّف)، وقد أسهم شليجل في ذلك أيضاً، لكن التأثير الأقوى كان من الزاهد جولي فون كرودنر Julie Von Krudener والدرامي الداعر زكاريا (زكريا) فيرنر Zacharias Werner وقد جال كلاهما في كوبت في سنة ١٨٠٨. وبحلول شهر أكتوبر من هذا العام كان معظم ضيوفها بين الألمان وسادت اللغة الالمانية في صالونها واستسلم التنويريون لتأثير الدين الصوفي (ذي المنحى الباطني). لقد كتبت جيرمين (مدام دي ستيل) إلى أدونل O'Donnell «لا حقيقة على هذه الأرض إلاّ الدين وسلطان الحب، وكل شيء آخر فان، بل إنه أكثر فناء من الحياة نفسها»[٤٦].

وفي هذا الجو كتبت كتابها «عن ألمانيا De L'Allemagne». وفي سنة ١٨١٠ قَرُب كتابها من الاكتمال وتطلّعت إلى باريس لتطبعه فيها. وكتبت بتواضع إلى نابليون قائلة له «إن ثمانية أعوام من النفي والبؤس قد غيّرت كل الشخصيات والقدر يعلّم الاستسلام». واقترحت أن تذهب للولايات المتحدة وطلبت منه جواز سفر كما طلبت أن تقضي فترة انتقالية في باريس. فمنحها نابليون جواز السفر لكنه لم يوافق على دخولها باريس[٤٧]. ومع هذا ففي أبريل سنة ١٨١٠ تحركت بأسرتها ومعها شليجل إلى شومونت Chaumont (بالقرب من بلوا Blois) ومنها أشرفت على طبع كتابها المخطوط ذي المجلدات الثلاثة في تور Tours. وفي شهر أغسطس انتقلت إلى فوسي Fosse المجاورة.

وسلّم الطابع نيكول Nicole بروفات (التجارب الطباعية) للمجلدين الأوّلين إلى الرقابة في باريس، فوافقت على الطباعة بعد حذف جمل قليلة غير مهمّة. وطبع نيكول خمسة

آلاف نسخة وأرسل نسخاً للأشخاص ذوي الحيثية، وفي ٣ يونيو أُزيح فوشيه وزير الداخلية المتعاطف، وحل محله الصارم رينيه سافاري (دوق دي روفيجو) . وفي ٢٥ سبتمبر أحضرت جوليت ريكاميه J. Récamier للرقيب بروفات (التجارب الطبيعية) المجلد الثالث، وبروفات المجلدات كلها مع خطاب من المؤلفة للأميرة هورتنس Hortense لتسليمها لنابليون . وقرر سافاري أن الكتاب ليس في صالح فرنسا ولا حاكمها وبالتالي فلا يمكن السماح بتوزيعه، ومن الواضح أن نابليون كان موافقاً على هذا المنع. وأمر وزير الداخلية الطابعَ بوقف النشر، وفي ٣ أكتوبر أرسل إلى مدام دي ستيل ملحوظة صارمة مؤداها أن تُنفِّذ ما كانت قد عقدت العزم عليه وأن تغادر إلى أمريكا فورا. وفي ١ أكتوبر هاجمت فرقة من الجنود دار الطباعة وحطمت ألواح الطباعة وحملت معها ما استطاعت الوصول إليه من مجلدات الكتاب، وفي وقت لاحق جرى فَرْمها، وطالبَ ضُباط آخرون بمخطوط الكتاب فأعطتهم جيرمين (مدا دي ستيل) الأصل، لكن ابنها أوجست Auguste أخفى نسخة احتياطية . وعوّضت المؤلفة الطابعَ عن خسارته وانسلّت عائدة إلى كوبت .

وهذا الكتاب (عن ألمانيا) كما نُشر في سنة ١٨١٣ هو محاولة جادة لتناول كل جوانب الحضارة الألمانية في عصر نابليون بإيجاز وتعاطف. إن امرأةً لها هذه الاهتمامات الكثيرة والعشّاق الكثيرون ثم بعد هذا تجد الوقت الكافي لإنجاز هذا العمل، والطاقة والكفاءة اللتين تُعينانها على إتمامه، لهي حقاً إحدى عجائب هذه الفترة المتسمة بالهيجان والاضطراب . فمن خلال خلفيتها السويسرية العالمية وزواجها من واحد من بارونات الهولشتين Holestein وتراثها البروتستنطي وكراهيتها لنابليون كانت مؤهلة لإعطاء ألمانيا كل مزية وأن تجعل – تقريبا – كل ارتباط لها فيها في صالحها، وكانت تستخدم الفضائل الألمانية كوسيلة توجه بها نقدا غير مباشر لنابليون وطغيانه، ولتقدم الثقافة الالمانية للفرنسيين كثقافة غنية بالمشاعر والعواطف والدين وبالتالي كثقافة مناسبة بشكل جيد لتصحيح ما ساد بين مثقفي فرنسا من شكوكية ومصلحية وميل للسخرية .

ومن الغريب أن نقول أنها لم تهتم بفيينا رغم أن فيينا كانت مثلها مرحة وحزينة في آن واحد – مَرِحةً بسبب النبيذ والكلام (المناقشات والأحاديث) وحزينة بسبب موت الحب،

وبسبب توالي انتصارات نابليون. كانت فيينا كاثوليكية وجنوبية (لها مزاج أهل الجنوب) في موسيقاها وفنها وعقيدتها التي تكاد تكون عقيدة طفولية ساذجة، اما هي (مدام دي ستيل) فكانت بروتستنطية شمالية (لها مزاج اهل الشمال) مثقلة بالطعام والمشاعر تتقدم متعثرة في الفلسفة، لم يكن هنا ثمة كانط Kant وإنما موزار Mozart، فلا خلافات حادة ولا مناقشات ملتهبة، ولا كتابات للمفكرين تشبه الألعاب النارية فليس هناك إلا المسرات البسيطة التي نعم بها الأصدقاء والعشاق، والآباء والأبناء، والنزهات في المستنزهات والتسكع على نهر الدانوب.

حتى الألمان أذهلها وضعهم « مدفاة وبيرة (جعة) وتدخين التوباكو حول كل تجمع شعبي، فيصبح الجو ثقيلاً حاراً مع هذا فهم لا يميلون أبداً إلى التخلي عنه »[٤٨] وكانت ترثي للبساطة الريفية التي يتصف بها اللباس الألماني، وميل الرجال الألمان للمسالمة (كونهم مروضين أو داجنين) واستعدادهم للتخلي عن السلطة. « والانفصال بين الطبقات... أكثر ما يكون وضوحاً في ألمانيا منه في اي مكان آخر.. فكل شخص محتفظ برتبته (المقصود وضعه الطبقي) ومكانه.. كما لو كان منصباً أو وظيفة مخصصة له منذ زمن طويل »[٤٩] لقد افتقدت في ألمانيا هذا التلاحم الخصب بين الارستقراطية والمؤلفين والفنانين والجنرالات والسياسيين، ذلك التلاحم الذي وجدته في المجتمع الفرنسي، فهنا في هذا المكان « ليس لدى النبلاء سوى القليل من الأفكار، وليس لرجال الأدب خبرة عملية كثيرة بالأمور العامة »[٥٠]. والطبقة الحاكمة ظلت اقطاعية والمفكرون أضاعوا أنفسهم في احلام لا أساس لها على أرض الواقع (أحلام في الهواء). وهنا اقتبست مدام دي ستيل القول المأثور الشهير الذي قال به جان بول ريشتر Jean Paul Richter : « إمبراطورية البحار لإنجلترا، وإمبراطورية البر لفرنسا، أما ألمانيا فلها إمبراطورية الهواء »[*][٥١] واضافت قائلة وهو قول (مرتبط بالموضوع الآنف ذكره) : « إن انتشار المعارف في العصر الحديث يؤدي إلى إضعاف الشخصية إذا لم يتم تدعيم هذا الانتشار بعادة العمل في المجالات المختلفة وتحقيق الإرادة »[٥٢].

(*) المقصود طبعاً أنه لا إمبراطورية لها لأن الطائرات لم تكن قد اكتشفت بعد. (المترجم)

وأعجبت مدام دي ستيل بالجامعات الألمانية كأفضل جامعات في العالم في ذلك الوقت، لكنها كانت تأسى للغة الألمانية بما فيها من حروف صامتة متوالية، كما بغضت تركيب الجملة الألمانية وطولها، تلك الجملة التي تجعل الفعل الحاسم في آخرها (أي الفعل الأساسي الذي يحدّد المعنى)، وبذا تكون المقاطعة أو المداخلة أثناء الحوار أمراً صعباً[٥٣]، وكانت تشعر أن المداخلة أو المقاطعة إنما هي حياة المناقشات. كما أنها وجدت في ألمانيا القليل جداً من المناقشات المُفعمة بالحيوية والمهذبة في الوقت نفسه[٥٤]. تلك المناقشات التي تعد خاصية من خواص الصالونات الباريسية. وهذا فيما ترى كان يرجع إلى عدم وجود عاصمة وطنية (واحدة) لألمانيا يمكنها - أي العاصمة - أن تجمّع مفكري البلاد (ألمانيا)، بالإضافة إلى العادة الألمانية المتمثلة في إبعاد الألمان للنساء عن مائدة العشاء أو الغداء عندما يشرعون في التدخين أو الحديث. «في برلين قلما يتحدث الرجال إلا مع بعضهم، فالجو العسكري (المقصود الروح العسكرية) يجعلهم يتسمون بشيء من الخشونة والغلظة ينأى بهم عن مشاكل مجتمع النساء»[٥٥] وعلى أية حال ففي فيمار نجد السيدات مثقفات وميّالات للحب والعشق ونجد الجنود وقد هذبوا من عاداتهم وسلوكياتهم، ونجد الدوق وقد تحقق من أن شعراءه قد خلّدوا له مكانا لائقاً في التاريخ. «ورجال الأدب في ألمانيا.. كوّنوا - في نواحٍ كثيرة - أكثر التجمعات المتنورة تميزاً في العالم»[٥٦].

لهذا السبب رحبت مدام دي ستيل بالفلسفة الألمانية رغم صعوبتها لأنها - مثلها في ذلك مثل مدام دي ستيل - تركز على الذات. إنها - أي الفلسفة الألمانية - ترى في الشعور (الوعي) معجزة أعظم من ثورات العلم. لقد رفضت سيكولوجيا لوك Locke وكوندياك Condillac التي قصرت كل المعارف على الحواس، وبالتالي جعلت الأفكار آثاراً لأشياء خارجية، وهذا - فيما شعرت - يؤدي ولا مناص إلى المادية والإلحاد (إنكار وجود الله). وفي واحد من أطول فصول كتابها حاولت - بتواضع - أن تحدثنا عن جوهر الديالكتيك الكانطي (فلسفة كانط فيما يتعلق بالديالكتيك): إنه - أي هذا الديالكتيك - يُعيد العقل إلى مكانه كمشارك فعّال في البحث عن الحقيقة، والإرادة الحرة (حرية الاختيار) كعنصر فعّال في تقرير الأفعال، والالتزام الخلقي الذي يمليه الضمير كمقوّم (بتشديد الواو

كرسها) أساسي للأخلاق . لقد شعرت أنه بهذه النظريات « فصل كانط Kant بيد ثابتة إمبراطورية الروح عن إمبراطورية الحواس »[٥٧] وعلى هذا فقد أقام الأساس الفلسفي للمسيحية كبناء خُلقي فعّال .

ورغم أنها كانت قد جعلت من الوصية السادسة من الوصايا العشر(*) ساحة مخضبة بالدماء إلا أنها اقتنعت أنه لا حضارة تبقى بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا عقيدة دينية . ودللت على أن تدخل العقل في الدين إجراء خائن « فالعقل لا يعطي السعادة لمن فقدوها »[٥٨] « فالدين سلوى البؤساء وثروة الفقراء ومستقبل الأموات »[٥٩] وفي هذا وافقها الإمبراطور والبارونات . وعلى هذا فقد كانت تُفضل بروتستنطية ألمانيا على الكاثوليكية التي تدعيها الطبقة العليا الفرنسية . واهتزت مشاعرها عند سماع الترانيم الدينية الرائعة منطلقة من حناجر الألمان في الأماكن المخصصة للتراتيل في الكنائس وفي المنازل والشوارع، واشمأزت لأن أثرياء الفرنسيين يفضلون حضور البورصة (سوق الأوراق المالية) تاركين الفقراء ليلتقوا بالرب (المقصود لينفردوا بالتعبّد)[٦٠] . وكان لديها كلمة طيبة تقولها للإخرة المورافيين، فالفصل الأخير في كتابها يمثل دعوة للحماسة الصوفية (الوجد الديني الباطني) – إنه المعنى الباطني للدعوة إلى الله كُلّي الوجود (سبحانه) .

لقد كان كتاب (عن ألمانيا) واحداً من أبرز الكتب في عصره، لقد كان بالنسبة لها يُمثل قفزة هائلة من كورين (الرواية) إلى كانط (الفيلسوف) مع ما فيه من بعض القصور لظروف العصر، ونزوع كاتبته إلى التمرد . وكان نابليون حكيما عندما قلّص تأثيره بالاقلال من امتداحه . لقد كان كتاباً رائعا من سيّدة غير متعاطفة مع توجهات الحكومة . لقد انتقدت الرقابة على المطبوعات بشدّة، لكن كان عليها أن توضح قضيتها وتدعمها . لقد امتدحت ألمانيا في كثير من الصفحات على حساب فرنسا، لكنها غالبا ما كانت تمتدح فرنسا على حساب ألمانيا، ويحوي الكتاب مئات الفقرات تبث فيها حبها لوطنها (فرنسا) المحرم عليها . وتناولت بخفة وحساسية الموضوعات الغامضة (غير الواضحة) لكنها كانت تهدف إلى جذب اهتمام قِطَاع عريض من القراء في فرنسا، وبتلك الوسيلة تحقق تفاهماً عالميا . لقد

(*) الوصايا العشر الواردة في العهد القديم (لاتقتل، لا تسرق... إلخ) (المترجم)

طالبت بتزاوج خصب بين الثقافتين الفرنسية والالمانية مما قد يُساعد نابليون في توحيد اتحاد الراين Rhenish Confederation مع فرنسا[٦١]. لقد كتبت بذكاء – وأحياناً بالمعية – مزّينة صفحات كتابها بالأفكار والملاحظات التنويرية. وأخيراً لقد قدمت ألمانيا إلى فرنسا، كما سرعان ما قدمها (ألمانيا) كوليردج Coleridge وكارليل Carlyle لإنجلترا. يقول جوته: «إن هذا الكتاب لابد من اعتباره صدعا في سور الصين العظيم(*) الذي فصل الأمتين الفرنسية والالمانية، نتيجة سوء الفهم والاحكام المسبقة، لقد أصبح الألمان الآن معروفين بشكل أفضل فيما وراء الراين وفيما وراء القنال (يقصد بحر المانش) – الأمر الذي لن نعدم بسببه تحقيق نفوذ كبير في كل غرب أوروبا»[٦٢]. لقد كانت امرأة «أوروبية جيّدة».

٢/٥ نصرٌ لم يكتمل

مؤلف آخر – ولا غيره – كان يمكن أن يفهم ماذا يعني لجيرمين دي ستيل أن يبقى انتاجها المتراكم وفكرها غير منتشر، وقابعاً في مُعتزلات كوبت، كوليد وأدوه عند مولده. لقد اكتشف أن بيتها محاط بجواسيس الإمبراطور، وأن بعض خدمها تلقّوا الرشاوى لكتابة تقارير عنها، وأن أي صديق يجسر على زيارتها سيتعرض لانتقام الإمبراطور وأُحيط ذوو الحيثية – الذي أنقذتهم وثرواتهم أثناء الثورة الفرنسية – علماً بألا يقتربوا منها الآن[٦٣].

ومع هذا فقد كان هناك موقفان مُرْضيان لها. في سنة ١٨١١ قابلت ألبير جان روكا Albert - Jean Rocca وكان عند التقائه بها في الثالثة والعشرين من عمره، وكان ليفتنانت ثاني، أصيب بجرح في إحدى المعارك وأصبح أعرج، ومصاباً بالسل، وقد أحبها وكانت وقتها في الخامسة والأربعين ولم يعد جسدها على ما يرام وما عاد مزاجها في التمام إلاّ أنها كانت متألقة فكرياً، ولم تكن بغير جاذبية مالية.

وحاصرها «جون»(**) وأنجب منها طفلاً، ورحبت جيرمين بالحب الجديد متحدية الشيخوخة ملتمسة تأخيرها – وكان أملها الثاني هو أنها إن استطاعت أن تتخذ طريقها إلى

(*) يقصد السور أو الحائط الهائل واستخدم عبارة (سور الصين العظيم) لشهرته التاريخية. (المترجم)

(**) اسم تدليل له. وشكله العربي يوحنا أو يحيى. (المترجم)

السويد أو إنجلترا فربما تجد ناشراً لمخطوط كتابها الذي أخفته (عن المانيا)، لكنها لم تكن تستطيع أن تلتمس طريقاً إلى السويد خلال أي من المناطق الخاضعة لسلطة نابليون، فقررت أن تأخذ مخطوطها سراً عبر النمسا ومن ثم عبر روسيا إلى سان بطرسبرج ومنها إلى ستوكهولم حيث سيساعدها الأمير بيرنادوت. ولم يكن يسيراً عليها أن تترك الوطن الذي حققت فيه شهرتها، وفيه قبر أمها التي لم تستطع - الآن - نسيانها وقبر أبيها الذي كان لايزال يبدو لها حكيم السياسة وقديس المال - وفي ٧ أبريل سنة ١٨١٢ أنجبت ابنها من روكا Rocca وأرسلته إلى مربية تعتني به، وفي ٢٣ مايو سنة ١٨١٢ استطاعت أن تفلت من مراقبة كل جواسيس نابليون فصحبت ابنتها البرتين وابنيها وعشيقها العجوز شليجل وعشيقها الجديد روكا Rocca أو أنها سبقتهم ثم تبعوها هم، قاصدة فيينا على أمل أن تدبر هناك جواز سفر إلى روسيا ومن ثم تجد طريقها إلى سان بطرسبرج وقيصر الوسيم المتحرر المتحلي بروح الفروسية. وفي ٢٢ يونيو عبر نابليون بخمسمائة ألف جندي النيمن Neimen في روسيا على أمل أن يجد هناك قيصر المهزوم النادم.

وقد روت جيرمين قصة رحلتها هذه في كتابها «عشر سنوات في المنفى Ten Years of Exile». إن المرء وهو يتأمل الآن هذه الإرادة والأحداث المتشابكة، ليدهش للشجاعة التي دفعت هذه المرأة المنهكة عبر آلاف العوائق والمشاكل لتصل - عبر شعب كان التصور أنه بربري - إلى زيتومير (تسيتوميير Zhitomir) في بولندا الروسية (المناطق البولندية التابعة لروسيا) قبل وصول جيوش نابليون بثمانية أيام فقط[٦٤] لقد أسرعت إلى كييف Kiev ومنها إلى موسكو حيث - ويا للقدر - تلبثت لزيارة الكرملين Kremlin لتستمع إلى موسيقا الكنيسة وتزور المبرزين المحليين في العلم والأدب. وقبل وصول نابليون بشهر غادرت موسكو عن طريق نوفجورود Novgorod إلى سان بطرسبرج، وفي كل مكان في المدن التي مرت عليها تلقّاها الناس كحليف مميز في الحرب ضد الغازي (نابليون). وتملّقت القيصر وامتدحته كأمل للحرية الأوروبية (الليبرالية الأوروبية European Liberalism) وخططت معه لتنصيب بيرنادوت Bernadotte ملكاً على فرنسا.

وفي سبتمبر وصلت إلى ستوكهولم وساعدت في إدخال بيرنادوت في تحالف ضد

نابليون[٦٥] وبعد أن أقامت في السويد ثمانية أشهر عبرت إلى إنجلترا، فنادت بها لندن كسيدة أوروبا الأولى، وأتى بايرون Byron وغيره من ذوي الحيثيات لتقديم احترامهم لها، ولم تجد صعوبة في ترتيب نشر مجلدات كتابها (عن المانيا) مع ناشر كتب بايرون وهو جون مري Murray (كان هذا في أكتوبر سنة ١٨١٣)، وبقيت في إنجلترا بينما الحلفاء يهزمون نابليون في ليبتسج Leipzig، ويتجهون إلى باريس ويضعون لويس الثامن عشر Louis XVIII على العرش. وعندها (في ١٢ مايو سنة ١٨١٤) أسرعت بعبور القنال الإنجليزي (المانش) واستعادت صالونها في باريس بعد عشر سنوات في المنفى واستضافت ذوي الحيثية من اثنى عشر بلداً - الاسكندر، وولينجتون Wellington وبيرنادوت، وكانج Canning وتاليران، ولافاييت Lafayette. ولحق بها كونستانت Constant وتألقت مدام ريكامييه Récamier مرة أخرى. ودعت جيرمين (مدام دي ستيل) اكسندر Alexander إلى تذكّر اعلاناته (بياناته) الليبرالية، وحث الاسكندر وتاليران الملك لويس الثامن عشر أن (يمنح to grant) رعاياه الذين استعادهم دستورا ينص على وجود مجلسين تشريعيين على النسق البريطاني، وأخيراً أصبح لمونتسكيو Montesqieu طريقه. لكن مدام دي ستيل لم تكن تحب كلمة (يمنح to grant) هذه فقد أرادت أن يعترف الملك بسيادة الشعب وسلطته المطلقة. وفي يوليو سنة ١٨١٤ اتخذت طريقها عائدة إلى كوبت Coppet منتصرة فخورة، لكنها كانت تحس باقتراب أجلها.

إن مغامراتها ومعاركها وحتى انتصاراتها استنزفت حيويتها المذهلة. ومع هذا فقد اهتمت بروكا Rocca أثناء موته، ورتبت لزواج ابنتها من الدوق دي بروجلي Broglie وبدأت تكتب تحفتها «ملاحظات على الأحداث الرئيسية للثورة الفرنسية Considérations sur les principaux événements de la Révolution Française» في ٦٠٠ صفحة. وكان الجزء الأول من هذا الكتاب مُخصصا للدفاع عن نيكر Necker (أبيها) في كل سياساته، والثاني تشجب فيه بقوة حكم نابليون الاستبدادي. فهو - أي نابليون - بعد استيلائه على السلطة بدت كل حركة من حركاته في ناظريها خطوة نحو الدكتاتورية، وكانت حروبه - في ناظريها - دعامات ومبررات لممارسة الحكم المطلق، وقبل ستندهال Stendhal - قبل تين

Taine بكثير – كانت تُشبِّه نابليون بالقادة العسكريين الإيطاليين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر(٦٦) لقد قرأ مبادئ ميكافيلي في الحكم واقتنع بها دون أن يشعر بحبٍ لوطنه يمكن مقارنته بحبه لهذه المبادئ. لم تكن فرنسا حقيقة بلاد آبائه وإنما كانت حجراً يعتليه ليعلو فوقه. ولم يكن الدين بالنسبة له قبولاً متواضعاً بوجود الموجود الأعظم وإنما أداة للفتح والغزو والسلطة، فالرجال والنساء لم يكونوا في ناظرية أرواحاً وإنما مجرد أدوات(٦٧). لم يكن سفاحاً متعطشاً للدماء ولكنه كان دوما غير مبال بالقتلى مادام النصر قد تحقق. لقد كانت فيه غِلظة قائد العساكر المرتزقة وليس خلق الإنسان المهذب (الجنتلمان) وأدى هذا إلى تتويج سُوقي جعل من نفسه قاضياً ورقيباً على كل حديث وكل فكر، وعلى كل الصحافة التي كانت هي الملاذ الأخير للحرية، وعلى الصالونات التي كانت قلاعاً للعقول المتحررة في فرنسا. إنه لم يكن ابن الثورة، وإن كان ابناً لها فهو أيضاً قاتلها(٦٨).

وعندما علمت مدام دي ستيل بخطة تُحبَك لقتل نابليون ذلك الإمبراطور المعزول عن العرش أسرعت بإخبار أخيه جوزيف بذلك وعرضت أن تذهب إلى إلبا Elba لتحمي عدوّها المخلوع، فأرسل نابليون يشكرها على موقفها، وعندما عاد من إلبا Elba واستعاد حُكم فرنسا دون تفاخر، لم تستطع أن تكتم إعجابها بشجاعته: «إنني لن أكف عن معارضة نابليون لقد فعل ما هو طبيعي لاستعادة عرشه، وكانت مسيرته من كان Cannes إلى باريس واحدة من أعظم مظاهر الجُرأة والجسارة في التاريخ»(٦٩).

وبعد واترلو Waterloo انسحبت أخيراً من ميدان الصراع السياسي. ولم تستسغ احتلال قوات اجنبية لفرنسا كما لم تستسغ اندفاع النبلاء القدامى لاستعادة الأرض والثروة والسلطان. وعلى أية حال فقد كانت سعيدة بأن يرسل لها لويس الثامن عشر العشرين مليون فرنك التي كانت الخزانة الفرنسية مدينة بها لأبيها نيكر Necker أو لورثته. وفي العاشر من أكتوبر سنة ١٨٠٦ تزوجت روكا Rocca بشكل شخصي (دون مراسم زواج) وفي ١٦ أكتوبر رغم أن كليهما كان مريضاً، اتجها إلى باريس وأعادت جيرمن (مدام دي ستيل) افتتاح صالونها. وكان هذا آخر نصر حققته. وحضر لصالونها أشهر قاطني باريس:

وحضر ولنتجتون من انجلترا، بلوشر Blucher وفلهلم فون همبولدت WilhelmVan Humboldt من بروسيا، وكانوفا Canova من إيطاليا، وهنا بدأ شاتوبريان حكايته الرومانسية مع مدام ريسامييه. لكن صحة جيرمين كانت قد تدهورت كثيراً وخاب أملها في الذين استعادوا العرش وراحت هذه الخيبة تزداد عندما بدأ الملكيّون يعملون على إزالة كل أثر للثورة الفرنسية من الحياة السياسية. ولم يكن هذا هو حلمها الذي حلمت به لقد عرَّفت في كتابها (ملاحظات عن الوقائع الرئيسية للثورة الفرنسية) الطغيان (الحكم المطلق) بأنه تجمّع السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في شخص واحد، وأصرّت على وجود جمعية وطنية ينتخبها الشعب المخول، لا مجال للتعيين فيها.

ولم تعش مدام دي ستيل حتى ترى كتابها هذا منشورا لقد ضعف جسدها لفرط ما أفرطت في ممارسة العواطف والجنس، وتسمَّم لفرط ما تناولت من مخدرات، ولم تكن تستطيع النوم إلا إذا زادت من جرعات الأفيون، وفشل جسدها في محاولاته لدعم عقلها. وفي ٢١ فبراير سنة ١٨١٧ وبينما هي تصعد السُّلَّم لحضور استقبال دعاها إليه أحد وزراء لويس الثامن عشر، ترنحت وسقطت إذا أصابها شلل دماغي، وظلت طوال ثلاثة أشهر منطرحة على ظهرها لا تستطيع حراكاً لكنها كانت قادرة على الكلام وشاعرة بالألم. وحثت ابنتها على القيام بدورها كمضيفة في صالونها. قالت لشاتوبريان «لقد أحببتُ الله وأبي والحرية»[٧٠] وماتت في ١٤ يوليو سنة ١٨١٧ (الذكرى السنوية لسقوط الباستيل) ولم تكن قد بلغت عند موتها الواحدة والخمسين وبعد أربعة أعوام مات عدوها العظيم (نابليون) ولم يبلغ الثانية والخمسين.

وقد نتفق مع ماكولي Macaulay أنها كانت «أعظم امرأة في زمانها»[٧١] وأعظم اسم في عالم الأدب والفكر بين روسو وشاتوبريان. وكانت أعمالها (كتاباتها) ذات، أهمية من حيث الهدف والمدى أكثر من أهميتها من حيث كونها أعمالا أدبية خالصة وكان فكرها أكثر انتشاراً (يشغل رقعة واسعة) أكثر من كونه عميقاً. وكانت تشترك مع عدوها الذي اختارته (نابليون) في كثير من الصفات: شخصية قوية، طاغية، شجاعة عند النزاع، روح مهيمنة وثابة، تعصّب للرأي، لكن كان ينقصها عقله الواقعي فكان خيالها - كما يبدو في

رواياتها - طفولياً رومانسياً، إذ ما قورن بأحلامها السياسية. لنتركه (أي نابليون) يلخصها لنا من خلال منظوره في جزيرته المنعزلة: «لقد أصبح بيت مدام دي ستيل ترسانة حقيقية تصوّب أسلحتها ضدي. لقد كان يأتيها كثيرون ليتسلّحوا كما لو كانوا فرسانها في حرب يشنونها ضدي... ومع هذا فمن الحق أن نقول إنها كانت امرأة ذات موهبة عظيمة وتمييز فائق وشخصية قوية. إنها ستتحمّل وتثبُت»[٧٢].

٣- بنيامين كونستانت (قسطنطين) ١٧٦٧-١٨١٦:

هناك اثنان، اسمُ كلٍّ منهما كونستانت (قسطنطين) - في حياة نابليون العاصفة: ڤيري كونستانت، خادمة المعنى بشؤون ملابسه الذي كتب عن الحياة الخاصة للدكتاتور الكبير (نابليون) مذكرات طويلة، وبنيامين كونستانت دي ريبك Benjamin Constant de Rebeque الذي ولد في سويسرا وتعلم في عدة مدن (اثنتي عشرة مدينة) وأخيراً أعد للمعركة في فرنسا وضيّع حياته في ديون لم يسدّدها وخليلات منبوذات وتقلّبات سياسية حتى أصبح التعامل معه لا يكاد يكون مُربحاً هنا إلاّ إذا اقترب من التاريخ بالدخول في كثير من المنازعات فأحبَّته امرأة ذات حيثية لتلهو به، وكان قادراً على وصف أخطائه ببلاغة وحدَّة ذهن وموضوعية وتجرّد وربما يكون قد ساعدنا بعمله هذا على فهم أنفسنا.

لقد أرّخ للعشرين سنة الأولى في حياته في كتاب سماه «المذكرة الحمراء Cahier rouge» وكتب عن العشرين سنة التالية من حياته في رواية قصيرة بعنوان «أدولف Adolphe» وكتب عن الأعوام من ١٨٠٤ إلى ١٨١٦ مُؤلّفاً بعنوان «اليومّيات Journal intime» تنقل فيه من باريس إلى كوبت إلى ڤيمار إلى لندن وذكر فيه نُتَفاً من التاريخ والأدب والسيكولوجيا والفلسفة وروايته «أدولف» هي المؤلف الوحيد الذي تم نشره أثناء حياته (لندن ١٨١٦)، أما اليوميات Journal» فظلّ مخطوطاً حتى سنة ١٨٨٧، و«المذكرة الحمراء» حتى سنة ١٩٠٧، وهذه المؤلفات المتناثرة بالإضافة لآلاف المراجع المعاصرة هي التي تكون فكرتنا عن كونستانت (قسطنطين) هذه الأيام.

أنه سليل أسرة سويسرية عريقة ترجع بها شجرة نسبها إلى ثمانمائة سنة، لكننا لن نحتاج

إلاّ لتناول حياة والده في هذا الصَّدد، فقد كان أبوه أيضاً منشغلاً بآثامه لدرجة أنّه لم يكن لديه وقت لرعاية ابنه. وكان البارون أرنولد جوست كونستانت دي ريببيك ضابطاً في فرقة عسكرية سويسرية في خدمة برلمان الأراضي المنخفضة (نذر لاند / هولندا) وكان وسيماً قارئاً جيداً لفولتير وصديقاً له.

وفي بواكير سنة ١٧٦٧ تزوّج من بروتستنطية (هوجونوت) فرنسية هي هنريت دي شانديه (كانديه) Henriette de Chandieu، وكان هو في الأربعين من عمره بينما كانت هي في الخامسة والعشرين، وفي ٢٥ أكتوبر أنجبت له بنيامين في لوزان Lausanne ثم ماتت بعد الإنجاب بأسبوع، فكانت هي الأولى من بين نساء كثيرات عانيْن من عدم انضباطه، وعهد الأب بابنه لمشرفين كثيرين لم يكن يدقق عند اختيارهم، حاول أحدهم بالضرب تارة والتدليل أخرى أن يجعل منه طفلاً أعجوبة في اليونانية وعندما أضرّ الضرب بصحة بنيامين تمَّ نقله إلى مشرف (معلّم) ثان فأخذه إلى ماخور في بروكسيل، أما مشرفه (معلّمه) الثالث فعلمه قدراً طيباً من المعلومات الموسيقية، أما المعلِّمون الآخرون فعوّلوا على أن يُعلّم نفسه بنفسه بتدريبه على القراءة، فكان بنيامين يقرأ من ثماني ساعات إلى عشر يومياً، فأضر ذلك – بشكل دائم – بعينيه وإيمانه(٧٣) وقضى عاماً في جامعة ارلانجن Erlangen ثم نُقل إلى إدنبورج (أدنبره Edinburgh)، حيث شعر بالهبّة الأخيرة للتنوير الاسكتلندي لكن هناك أيضاً بدأ في المقامرة، فأصبح القمار (الميسر) في المحل الثاني بعد ممارسة الجنس في حياته المضطربة. وبعد مغامرات في باريس وبروكسل استقر في سويسرا وبدأ يكتب تاريخ الدين من وجهة نظر تُظهر تفوق الوثنية على المسيحية.

وراح يتنقل من امرأة إلى امرأة ومن كازينو (نادي قمار) إلى كازينو حتى رتّب أبوه أخيراً (١٧٨٥) أمر إقامته في باريس مع أسرة جان – بابتست سوار Jean - Baptiste Suard الناقد الأدبي الوَدُود.

«لقد تلقتني جماعته بقبول تام، وكان يَنْقُصني في ذلك الوقت السلامة والانضباط نقصاً معيباً، لكن حدث تغير مُحكم بشكل مضحك في حياتي. فقد بدا تعليمي – الذي كان متقطعاً غير منهجي، لكنه أرقى من تعليم معظم أدباء الجيل الصاعد – وأصالة

شخصيتي أمراً جديداً وشائعاً. . . وعندما أتذكر نوعية الموضوعات التي اعتدتُ تناولها في ذلك الوقت والأزدراء المُقْنِع الذي كنتُ أبديه لكل الناس، أحتار في معرفة كيفية تسامح الآخرين معي»(٧٤).

وفي سنة ١٧٨٧ قابل «أول امرأة ذات ذكاء فائق عرفتها حتى الآن» «زيليدا Zélide أو إيزابيلا فان تويل Van Tuyll – إذ كانت فيما مضى صعبة المراس مُستعصية في بوزويل Boswell أثناء الفترة التي قضيتُها في هولندا. لقد سبق لها أن رفضت آخرين لتتزوّج من معلِّم أخيها وأصبحت تعيش الآن معه ساخطة مستاءة في مدينة كولومبييه Colombier بالقرب من بحيرة نيوشاتل Neuchatel وعندما التقى بها كونستانت Constant كانت في باريس تتابع روايتها «كالست Caliste» في المطبعة وكانت في السابعة والأربعين لكنها بدت كعاشقة في التاسعة عشرة من عمرها، فاتنة لا يزال جسدها ينادي ولازال عقلها متألقاً، كما كانت نافرةً لدرجة أظهرتْه فتى مغروراً ذا ثقافة سطحية. «لقد كُنت لأزال أتذكر بعاطفة تلك الأيام والليالي التي قضيناها معاً نشرب الشاي ونتحدث بحرارة لا تنضب في كل موضوع ممكن». وعندما عادت إلى كولومبييه Colombier اتخذ له مسكناً بالقرب من لوزان واعتقد زوجها – وكان مخطئاً في اعتقاده – أنَّ فارق السن بين كونستانت (قسطنطين) وزوجته (زيليدا) سيحُدّ من العلاقة بينهما، لكنها راحت تعلّم بنيامين كونستانت بحماسه غواية النساء وأكاذيب الرجال. «لقد أسْكرَ كلٌّ منا الآخر بسخريتنا من الجنس البشري واحتقاره»(٧٥).

وقطع أبوه عليه هذا اللّهو شبه الفكري بإرساله إلى برونسڤيك Brunswick ليعمل كمرافق للدوق الذي كان عليه – حالاً – أن يقود جيشاً ضد الثورة الفرنسية. وأثناء مراسم التشريفات وقع في فخ (شَرَك) سهل نصبته له البارونة ڤيلهيلمينا فون كرام Wilhelmina Von Cramm فتزوجها (في ٨ مايو سنة ١٧٨٩) ووجد أن الزواج أسوأ من العِشق وخَلُص إلى «أن مينا Mina» أحبت قططاً وكلاباً وطيوراً وأصدقاء وعشيقا» أكثر من حبها لزوجها الشرعي، وتسعى للطلاق. وعندما شعر أن قلبه أصبح خالياً تودّد لشارلوت فون هاردنبرج زوجة البارون فون مارينهولتس Marenholz، فرفضت إرضاءه بممارسة الزنا معه لكنها

عرضت عليه أن يتزوجها حالماً تستطيع الحصول على الطلاق من البارون، ، خاف كونستانت من فكرة الزواج مرة ثانية فانْسل إلى لوزان (١٧٩٣) وكولومبييه Colmbier حيث واصلت زيليدا Zelida تعليمه. لقد أصبح الآن في السادسة والعشرين من عمره وشعرت هي أن عليه أن يضحّي بلذّة التنويع (مضاجعة نساء مختلفات) ليستقر معها ويرتبط بها. لقد قالت له: « لو أنني أعرف امرأة أخرى شابة ونشيطة تحبك كما أحبك وليست أكثر غباءً مني، لكان لديّ من الكرم ما يجعلني أقول لك: اذهب إليها »[٧٦] ويا لدهشتها ونقمتها، إذ وجدت أنه سرعان ما عثر على امرأة غيرها شابة ونشيطة.

في ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٤ وفي الطريق بين نيو Nyon وكوبت Coppet قابل بنيامين كونستانت جيرمين دي ستيل وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، فقفز داخل مركبتها وبدأ كوميديا (مهزلة) استمرت خمسة عشر عاماً من العهود والوعود والدموع والكلمات. لم يسبق له أن عرف أبداً امرأة ذات فكر بهذه الخصوبة وإرادة بهذه القوة وعواطف ومشاعر بهذه الحرارة وفي مقابل هذه القوى، كان هو يُمثّل الضّعف كلّه فقد كان قد فقد شخصيته خلال فترة شبابه الإباحية الممزّقة وقلّص حيويته الطبيعية (الجنسيّة) بسبب معاركه البدنية (الفسيولوجية) (المفهوم مع أجساد النساء) دون وقار وقبل الزواج. وهنا أيضاً كان انتصاره الفعلي هزيمة فرغم أنها (جيرمين دي ستيل) قبلته كعشيق وجعلته يعتقد أنه كان والداً لأليبرتين (أن ألبرتين من نُطفته) إلاّ أنها حثّته على أن يوقّع معها – في تاريخ لا نعلمه – قسم ولاء يجعله مرتبطاً بها ارتباطاً معنوياً (النص: سيكولوجيا) حتى بعد أن اصطحَبت جيرمين غيره إلى مخدعها، واصطحب هو غيرها إلى مخدعه، وقد استغلت جيرمين كونْه مديناً لها لإجباره على التوقيع على هذا العهد (القَسَم).

« إننا نقسم على أن يكرّس كلّ منا حياته للآخر. إننا نعلن أننا نعتبر شخصينا وقد ارتبطنا رباطاً لا يقبلُ الانفصال. قدرنا واحد للأبد وفي كل الظروف ولن يدخل أيّ منا إطلاقاً في أي رباط آخر، وأننا سنقوّي الرباطَ الذي يوحّد بيننا الآن بكل ما لدينا من طاقة.

إنني أُعلن أنني أقررت بهذا الاتفاق بقلب مخلص وأنني أعرف ألاّ شيءَ في العالم يستحق مني كما يستحق حب مدام دي ستيل، وأنني كنت أسعد الرجال خلال الأشهر

الأربعة التي قضيتُها معها، وأنني أعتبر أن أعظم سعادة في حياتي هي أن أجعلها سعيدة في فترة شبابها، وأن أكون إلى جانبها مسالماً مع تقدمنا في العمر وأن أقضي عمري (أجلي term) معها (مع الروح التي تفهمني) والتي بدون وجودها تصبح الحياة على الأرض (في هذه الدنيا) لا قيمة لها بالنسبة لي. التوقيع بنيامين كونستانت»[٧٧] .

وتبعها إلى باريس في سنة ١٧٩٥ فكانت لهما سياسات مشتركة فأيّد حكومة الإدارة (حكومة المديرين) وقبل انقلاب نابليون كضرورة تُمليها ظروف فرنسا وكان متحدثاً رسمياً باسمها، كما كان يتحدث بالأصالة عن نفسه عندما أصبح عضواً في التريبيونيت (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) بعد تعيين نابليون له. ولكن حالما ظهرت علامات من القنصل الأول (نابليون) تشير لرغبته في الحكم المطلق عارضه العاشقان معاً: هي في صالونها وهو في خطبته غير المسبوقة (٥ يناير سنة ١٨٠٠) والتي طالب فيها بحق التريبيونيت (مجلس الدفاع عن حقوق الشعب) في إطلاق حرية النقاش والحوار دون قيد أو شرط، وقد حقّق شهرة كخطيب مُفَوَّه، لكنه وُضع في اعتبار الحكومة بحيث يتم عزله من هذا المجلس حالما يأتي ميعاد تغيير أعضائه (١٨٠٢) وعلى أية حال فعندما استمر العاشقان في حربهما ضد نابليون، تم إبعادهما – عقاباً لهما – عن باريس.

وذهب كونستانت (قسطنطين) معها إلى كوبت، رغم أن أقاربهما كانوا – فيما ظهر – غير متحمسين لهذا الهدوء الأفلاطوني. لقد قال لنفسه: « إنني أريد امرأة »، وجيرمين غير شهوانية (والمعنى لا تُشْبِعُني) »[٧٨] وعرض أن يتزوجها ولكنها رفضت قائلة إن هذا الزواج قد يجعلها تضحّي بمكانتها الاجتماعية ويُضيِّع فرص الزواج المشرّف أمام ابنتها، وفي سبتمبر سنة ١٨٠٢ أحبّت كاميل جوردان Camille Jordan ودعته لصحبتها إلى إيطاليا وتم دفع كل النفقات ونذرت نفسها أمامه « أن أنسى كل شيء معك، فأنا أحبك بعمق »[٧٩] ورفض جوردان العرض. وفي إبريل سنة ١٨٠٣ غادر كونستانت (قسطنطين) كوبت إلى عقار كان قد اشتراه بالقرب من مافلير Mafliers على بعد حوالي ثلاثين ميلاً من باريس، وفي الخريف خاطرت بإثارة غضب نابليون بانتقالها مع أسرتها لمنزل ريفي في مافلير، وعندما علم نابليون أَمَرها بإطاعة أوامره بالابتعاد ١٢٠ ميلاً عن باريس، ففضلت أن تزور

ألمانيا، وقرر كونستانت (قسطنطين) - لامتعاضه من قسوة نابليون وتأثره بحزن جرمين- أن يصحبها.

وساعدها وأطفالها على تحمل مشاق الرحلة وابتهج عند وصوله إلى ڤيمار فأقام فيها ليؤلف كتابه عن تاريخ الدين.

وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٠٤ بدأ يدوّن كتابه (اليوميات Journal Intime) بادئاً إياه بمدخل مرح: «لقد وصلت لتوي إلى ڤيمار إنني أنوي البقاء هنا بعض الوقت ففي هذا المكان سأجد المكتبات والمناقشات الجادة التي تتمشّى مع ذَوْقي، والأهم من هذا الهدوء الذي يساعدني على العمل»[٨٠] وبعض الفقرات الأخرى في يومياته هذه تشير إلى تطوره العقلي والنفسي:

«٢٣ يناير: إنني أعمل قليلاً وبشكل سيِّئ، لكن عوّضني عن ذلك أنني رأيتُ جوته Goethe! صفاء وعزّة وحساسية مفرطة لدرجة المعاناة. روح فياضة وملامح وسيمة وجسد اعتراه الوهن شيئاً ما.. وبعد العشاء تحدثت بغير كلفة مع ڤيلاند Wieland - روح فرنسية، بارد كفيلسوف رقيق كشاعر... هيدر Heder كسرير دافئ ناعم حيث يمكن للمرء أن يرى أحلاماً طيبة...

٢٧ يناير: شرح لي المؤرخ السويسري جوهان فون ميلر Johannes Von Muller خطته في كتابة تاريخ العالم... ومعه ثار سؤال شائق: هل العالم مخلوق أم غير مخلوق. وفقاً لكيفية الإجابة عن هذا السؤال، فإن مسار التاريخ البشري سيظهر لنا نتيجة متناقضة (متعارضة) بمعنى الكلمة: فإن كان العالم مخلوقاً فلا محالة من فنائه وإن كان غير مخلوق فلا محالة من تحسّنه (تطوره)...

١٢ فبراير: اعدت قراءة «فاوست Faust» لجوته(الجزء الأول). إنها تسخر من الجنس البشري وكل العلوم. لقد وجد الألمان فيها عمق تفكير غير مسبوق، لكنني أفضل كانديد Candide.

٢٦ فبراير: زيارة لجوته..

٢٧ فبراير: أمسية مع شيلر...

٢٨ فبراير: عشاء مع شيلر وجوتة. لا أعرف من العالم ما هو أكثر مرحاً وفكاهة ورقة

وقوة وسعة صدر من جوتة...

٢٩ فبراير:... غدا سأغادر قاصداً ليبتسج Leipzig وسأكون حزيناً لتركي ڤيمار. لقد قضيت هنا ثلاثة أشهر كنت فيها سعيداً جداً. لقد درست، وعشت في أمان ولم أعانِ إلاّ قليلاً.. لم أطلب أكثر من هذا...

٣ مارس: زرت المتحف في ليبتسج.. المكتبة تحوي ٨٠,٠٠٠ مجلد.. لم لا أبقى هنا وأعمل؟...

١٠ مارس: لقد اشتريت بستة لويسيّات (جنيهات ذهبية فرنسية/ حوالي ١٥٠ دولار) كتباً ألمانية»[٨١].

لقد ترك مدام دي ستيل في ليبتسج واتخذ طريقه إلى لوزان لزيارة أقاربه، وبمجرد وصوله علم بموت والد جيرمين (نيكر) – هذا السيّد الطيِّب نيكر كم هو نبيل وكم هو كُفء وكم هو نقي: لقد أحبني. مَن الآن سيُرشد ابنته؟»[٨٢] واندفع عائداً إلى ألمانيا على أمل أن يُخفف وطأة الخبر عليها فقد كان يعلم أن هذه الخسارة ستجتاحها. وعاد معها إلى كوبت ومكث معها حتى أفاقت من هَوْل الصدمة.

لقد كانت في مسيس الحاجة إليه في تلك الأيام التي كان يتطلع فيها لفراقها ليكون حراً في متابعة أموره السياسية وأعماله دون أن يربط نفسه بمصالحها. لقد شعر أنه كان قد دمّر مصالحه السياسية عندما أصبح «ليفتنانت»(*) في حربها ضد نابليون. وفي أبريل سنة ١٨٠٦ دوّن في يومياته تحليلاً يبيِّن اختلال إرادته: «إنني دائماً أميل إلى قطع علاقتي بمدام دي ستيل، لكن في كل مرة أحس فيها بضرورة السير في هذا الطريق أجد نفسي في صباح اليوم التالي على خلاف ما كُنتُ عقدت عليه العزم. وفي هذه الأثناء أجد أن اندفاعها وطيشها يجعلانني في عذاب وخطر دائم. يجب أن نفترق... إنها فرصتي الوحيدة لحياة آمنة»[٨٣] وبعد ذلك بشهر نقرأ في يوميّاته: «في المساء كان المشهد مرعباً – ألفاظ شنيعة لا مبالية ومرعبة. إنها مجنونة أو أنني مخبول. فكيف تكون النهاية؟»[٨٤].

(*) العبارة لا تعدو كونها تشبيهاً أو كناية فلم تكن مدام دي ستيل قائدة جيوش على وجه الحقيقة. (المترجم)

ومثل كثيرين من المؤلفين الذين لا يستطيعون أن يسوسوا حياتهم، عمد إلى كتابة حكايته من وجهة نظره في رواية أخفى فيها الشخوص الحقيقية والوقائع الحقيقية بعناية، لكنها كانت اعترافات صريحة. لقد كتب في خمسة عشر يوماً (يناير ١٨٠٧) وهو ممتعض بحرارة من سيطرة جيرمين وتوبيخها له، غاضب من نفسه لتردده وضعف إرادته – مائة صفحة أصبحت هي أول رواية نفسية (سيكولوجية) في القرن التاسع عشر. لقد كانت أكثر سَبْراً لأغوار النفس البشرية وكانت طريقة تناوله أكثر ذكاء وألمعية من معظم الروايات. لقد حلَّل شخصية الرجل والمرأة بطريقة لا ترحم.

لقد تابعت هذه الرواية التي جعل عنوانها (أدولف) شبابه الضائع (الذي لا هدف له) وتعليمه المتقطع غير المنتظم وغير المنهجي، وعلاقاته العاطفية السطحية والمتسرِّعة، وشغفه بالقراءة الذي جعل إيمانه يُشاب بالسخرية (الكلبيّة Cynicism) مما أثر في حياته فجعلها بلا معنى. وقد حكى تطوافه في مجال العشق غير المسؤول ووصل بأحداثه إلى ذروة المأساة في حكاية قصة إلينور Ellenore – وهي قصة إمرأة من النبلاء ضحّت بأسرتها وشرفها ومستقبلها لتكون خليلة للكونت ب... ولاحظ أدولف (بطل القصّة) أن المجتمع يعاقب المرأة التي تخرج عن القواعد المرعية بالقيل والقال والازدراء (أكثر بكثير مما يفعل مع الرجل)، ذلك لأن المجتمع يقيم نظامه واستقراره على القوانين والأعراف التي تكبح الرغبات التي لا تتمشى مع صالح المجتمع. وكان سهلاً أن يتحوّل عطفه على إلِّينور Ellenore (إحدى شخصيات القصة) المنبوذة، وإعجابه بشجاعتها إلى حب، وربما لرغبة سرّية (مكبوته) في انتزاع حب امرأة ترضي غروره. وبمجرد أن بَرُدت حرارة حبه استسلمت له وتركت الكونت وأمواله واتخذت له مسكناً متواضعاً وحاولت أن تعيش على زيارات أدولف وأمواله، وكلما زاد إخلاصها قل اهتمامه بها. لقد حاول أن يبتعد عنها لكنها وبَّخته وأخيراً تشاجرا وانفصلا. لقد تركته وتاهت في غياهب الفقر وفقدان الإرادة فلم تستطع العيش، ولم يلحق بها إلاّ لتموت بين ذراعيه.

وعمد كونستانت إلى التعمية على شخصياته في الرواية حتى لا يُدرك أحد أنه يقصد شخصيات مقيمة في كوبت، فجعل بطلة القصة بولندية، وجعلها خاضعة سَلِسلة غير

متحكّمة وجعلها تموت يأسا، ومع هذا فإن كل من قرأ الكتاب وكان يعرف مؤلفه قَرَنَ بين المؤلف وشخصية أدولف وبين مدام دي ستيل وشخصية إلينور. وأحجم كونستانت (قسطنطين) تسع سنوات عن نشر كتابه، لكن الخُيلاء انتصر على الحذر فراح يقرأ مقاطع منه وأحياناً يقرأه كله لأصدقائه، وأخيراً لجيرمين نفسها التي فُجعت بنهاية القصة.

وبعودة شارلوت فون هاردنبرج انتعشت حياة كونستانت شيئاً ما. لقد كانت طلّقت زوجها الأول وعانت مع زوجها الثاني الڤيكونت دي ترتر Tertre، وهي الآن تواصل ما انقطع من علاقتها الغرامية بكونستانت، وتزوجا في ٥ يونيو سنة ١٨٠٨ لكن عندما عاد بنيامين كونستانت إلى عبوديته في كوبت، ارضاءً لمدام دي ستيل، عادت شارلوت إلى ألمانيا. ولم يشعر كونستانت أنه أصبح حراً إلا بعد أن اكتشفت جيرمين عشيقاً جديداً هو جون روكا Rocca (١٨١١)، عندها ذهب كونستانت مع شارلوت ليعيشا بالقرب من جوتنجن Gottingen وأعانته مكتبة جامعتها فواصل عمله في كتابه عن تاريخ الأديان. وربما كان العامان التاليان هما أسعد عامين مرَّا في حياته.

لكن السعادة لم تكن ملائمة له أو بتعبير آخر لم تكن متَّفقة مع طبعه، فعندما سمع (في يناير سنة ١٨١٣) من الكونت دي ناربون de Narbonne لأول مرة عن قصة الكارثة التي حلّت بنابليون في روسيا، أحس بقرب سقوط نابليون، فعاد إليه قلقه القديم فسأل نفسه - كما كتب في يومياته، «أيجب أن أكون دائما مجرد متفرج؟» وأثناء تراجع نابليون إلى الراين أمام قوات الحلفاء المنتصرة، اتجه كونستانت إلى هانوفر، وقابل بيرنادوت هناك، فحثه على كتابة نشرة «روح الغزو Esprit de Conquète» يعزو فيها انهيار فرنسا إلى دكتاتورية نابليون واستبداده. وتم نشر هذا الكتيب (النشرة) في هانوفر في يناير سنة ١٨١٤ في ذروة اندفاع قوات الحلفاء داخل فرنسا، وقد أدى هذا إلى اعتباره أي (كونستانت) شخصاً مهما كقادة القوات المتحالفة وتبع كونستانت جيوشهم إلى باريس (أبريل (١٨١٤) على أمل أن يتلقى تعويضا شخصيا (على أمل أن يستعيد مكانته).

وزار صالون مدام دي ستيل الذي تم افتتاحه من جديد فوجدها غير عابئة به بالمرّة. ولأن

شارلوت كانت لا تزال في ألمانيا فقد صرّح في يومياته (٣١ أغسطس ١٨١٤) أنه قد وقع في حب مدام ريساميه وكان كونستانت (قسطنطين) يسخر منذ زمن طويل من « استراتيجية » مدام ريساميه التي تجعلها تتيح عسيلتها مع الحفاظ على عذريتها (أو بتعبير آخر تتيح لمن تحبّه أن يظهرها لكنها لا تُمكنه من نقبها، (وبالفعل فقد استطاع كثيرون أن يعلوها ولكنهم ما استطاعوا لها نقبا)[*] وقد اعترف للدوق بروجلي Broglie أنه حاول أن يبيع روحه للشيطان مقابل الاستمتاع بجسد جوليت ريساميه[٨٥]. وكانت مدام ريساميه من المؤيدين المتحمسين للبوربون وخافت على حياتها عندما علمت أن نابليون هرب من إلبا Elba ووصل إلى كان Cannes، فطلبت من كونستانت أن ينشر في جريدة باريس Journal de Paris (٦ مارس ١٨١٥) نداء لشعب فرنسا ليهب ضد مغتصب العرش (تقصد نابليون) « إن نابليون يَعِد بالسلام لكن مجرد ذكر اسمه يشير إلى الحرب . انه يَعِد بالنصر ومع هذا تخلّى عن جيوشه كجبان ثلاث مرات – في مصر، وفي اسبانيا وفي روسيا »[٨٦]. لقد أجّجت ريساميه نيران كونستانت – وكان لهوباً بطبعه – حتى بدا وكأنه يحرق كل الجسور وراءه أو بتعبير آخر يقطع على نفسه طريق التراجع . وفي ١٩ مارس أعلن في « جريدة الحوار / جورنال دي ديبات Journal des débats » أنه مستعد للموت في سبيل الملك الذي عزلوه (لويس ١٨) وفي هذه الليلة هرب لويس الثامن عشر إلى جنت Ghent وفي اليوم التالي دخل نابليون باريس فاختبأ كونستانت في سفارة الولايات المتحدة، وأصدر نابليون عفواً عاماً فظهر كونستانت من مخبئه، وفي ٣٠ مارس أكد له جوزيف بونابرت أن أخاه الإمبراطور في مزاج معتدل يميل للعفو . وفي ١٤ أبريل استقبله نابليون وطلب منه أن يصيغ مشروع دستور ليبرالي، وراجع نابليون مشروع الدستور بعناية وأعلنه كعهد أو ميثاق للحكومة الفرنسية . فأدار الإحساس بالمجد رأس كونستانت .

وفي ٢٠ يونيو – بينما كان يقرأ روايته أدولف للأميرة هورتنس، دخل الدوق دي روفيجو Rovigo ليخبرها أن نابليون قد لاقى الهزيمة في واترلو Waterloo منذ يومين . وفي ٨ يوليو عاد لويس إلى قصر التوليري، فأرسل له كونستانت اعتذارا متذللا فأصدر الملك عفوا

(*) ومعنى سخريته أنه لو تمكن من جسدها لَنَقَبَها رغم كل محاولاتها . (المترجم)

عنه، أثار استغراب الجميع، لأن الملك اعتبره مراهقاً غير مسؤول تمرّد، وأنه يكتب الفرنسية بامتياز. وتجنّبه كل أهل باريس وراحوا يحبكون التوريات (جمع تورية) والكنايات (جمع كناية) حول اسمه. وكتب كونستانت إلى مدام ريسامييه يُسامحها لأنها دمرت « مجال عمله ومستقبله وسمعته وسعادته »(٨٧) وفي أكتوبر غادر قاصداً بروكسل حيث التحق بشارلوت الصبورة، وفي أوائل سنة ١٨١٦ عبرا معاً إلى انجلترا حيث كانت روايته أدولف قد نشرت. وفي سبتمبر عاد مع زوجته إلى باريس، واشتغل بالسياسة وبدأ مرحلة جديدة من عمره.

٤- شاتوبريان ١٧٦٩ - ١٨١٥

٤/١ شبابه:

كان فرانسوا رينيه دي شاتوبريان أعظم كتاب فرنسا المعاصرين له. قال سانت بيف Saint Beuve في سنة ١٨٤٩ « أنه الأكثر شهرة بين كتابنا المعاصرين »(٨٨) وثمة لؤلؤة كبيرة (دانة) أخرى من لآلئ الأدب هو إميل فاج Emile Faguet، كتب في سنة ١٨٨٧ (ناسيا فولتير): **«شاتوبريان هو أعظم مَعْلم في تاريخ الأدب الفرنسي منذ البلياد La Pléiade»** (حوالي ١٥٥٠)(٨٩)، ومن المؤكد أن سيادته للأدب الفرنسي لا تضارعها إلاّ سيادة فولتير. وترجع مكانة شاتوبريان أنه انتصر للدين على حساب الفلسفة تماما كما انتصر فولتير للفلسفة على حساب الدين، وقد عاش عمراً طويلاً يكفي ليَرَى الكفر بالدين يُبعث من جديد. وعلى هذا فإن اتجاهاً ما رغم أنه يلقى ترحاباً في وقت من الأوقات تقل الحماسة له بمرور الوقت، ليولد من رَحِمِه اتجاه آخر مناهض له عبر الأجيال، خلال المعركة الدائرة في نفوس البشر بين الفكرة ونقيضها بحيث لا يكون للاعتدال (الموقف الوسط) وجود.

لقد كتب « إن حياتي والدراما تنقسم إلى ثلاثة فصول (أو مشاهد). من شبابي الباكر حتى سنة ١٨٠٠ كنت جندياً ورحالة، ومن ١٨٠٠ حتى ١٨١٤ في ظل الحكومة القنصلية والإمبراطورية، كرّست حياتي للأدب والفكر، ومنذ عودة الملكية حتى اليوم [١٨٣٣] اشتغلت بالسياسة »(٩٠). وثمة فصل رابع غائر (١٨٣٤ - ١٨٤٨) كان على بطلنا الثلاثي

هذا the triple hero أن يعيشه وقد وهنت ذاكرته ترعاه امرأة حنون. إنها فترة ضبابية ضاعت مع الزمن.

« كان أسمي في البداية يكتب هكذا: بريا Brien ... ثم بريان Briand ... ذلك أنه في بداية القرن الحادي عشر كان آل بريا Brien (بريان Briand فيما بعد) قد أطلقوا اسمهم على قصر فرنسي في بريتاني Britany في فرنسا، وأصبح هذا القصر مقراً لبارونية شاتوبريان »[٩١]. وعندما فقدت الأسرة العتيدة كل شيء تقريباً سوى قصرها وكبريائها، ذهب الأب إلى أمريكا وكوّن ثروة متواضعة. وعندما عاد إلى فرنسا تزوّج أبولين دي بيديه Appoline de Bédée التي أنجبت له بنين وبنات عدداً حتى أنه انطوى على نفسه في كآبة استمرت حتى انجاب ابنه الأخير وهو الوحيد – من بين أبنائه – الذي بقيت ذكراه. وعمدت الأم إلى العبادة واستغرقت فيها لتخفف عن نفسها متاعب العمل وما ألمّ بها من مرض. ومات لهذا الأب أربعة من أبنائه قبل مولد رينيه René في ٤ سبتمبر سنة ١٧٦٨ في سانت مالو St. Malo على الشاطئ الفرنسي الشمالي. وقد ذكر فيما بعد. « ما أسوأ أن يُرزق المرء بمولود »[٩٢] وكانت أخته لوسي Lucie متوعكة دائماً فدمجت متاعبها مع متاعبه ودخلا معا في علاقة مُغرقة جعلت كليهما غير راغبين في الزواج. لقد أضاف ضباب الشمال، والرياح التي تضرب جزيرتهم وبيتهم إلى كآبة روحهما كآبات أخرى، لكنها أصبحت فيما بعد ذكريات عزيزة.

وعندما بلغ التاسعة من عمره انتقلت أسرته إلى عقار في كومبورج Combourg الأمر الذي جلب للأسرة لقب كونت Comte وأصبح رينيه فيكونت Vicomte (شريف فوق البارون ودون الكونت) لقد تم ارساله الآن إلى مدرسة بالقرب من دول Dol وتلقى تعليمه على يد قسس، حثّتهم أمه لإعداده ليكون قَسّاً، فتلقى على يديهم تعليماً طيباً في الآداب الكلاسيّة، وسرعان ما شرع في الترجمة عن هوميروس وزينوفون Xénophon. « في عامي الثالث في دول Dol .. وضعت الصدفة في يديّ... هوراس Horace غير المهذبة.. فألقيت نظرة على مباهج الجنس غير المعروفة، ذلك الجنس الذي لم أعرفه إلا من خلال أم وأخوات ... إن رعبي من ظلال الشياطين ونار جهنم.. أثّر فيَّ معنوياً وبدنياً، فظللتُ على براءتي

متمسكاً بطهري أحارب ضد عواصف عواطف غير ناضجة، ورعب لا عقلاني من المجهول»[٩٣] وأدت طاقته الجنسية – دون أية اتصالات جنسية نعرفها – إلى أن تطورت في خياله صورة امرأة نموذجية أخلص لها (أي لهذه الصورة المتخيّلة) إخلاصاً باطنياً (ينحو نحواً صوفياً) شديداً، مما انحرف به وعاقه عن التطور المعتاد.

وكلما اقترب موعد حضوره أول طقس للعشاء الرباني (جزء من القدّاس) يقام له، اعتراه خوف من أن يُدلي لقس الاعتراف بهواجسه الداخلية، وممارساته السرية، وعندما وجد الشجاعة واعترف لقس الاعتراف هدّأه القس وأراحه وأحلّه من تبعاته (غفر له)، عندها شعر «بفرح الملائكة». «وفي اليوم التالي أقاموا لي طقوساً سامية محركة للمشاعر، حاولت عبثاً أن أصفها في كتابي عبقرية المسيحية Le Génie du christianisme. إن الحضور الحقيقي للفادي Victime (يقصد المسيح) في القربان المقدّس على مذبح الكنيسة كان واضحاً لي كحضور أمي إلى جانبي. لقد شعرت كما لو أن نوراً قد انبثق في داخلي. فارتعد إجلالا»[٩٤] وبعد ثلاثة أشهر غادر كلية (مدرسة) دول Collège de Dol. «إن ذكرى هؤلاء المعلمين الجادين ستبقى دائماً عزيزة إلى نفسي»[٩٥].

هذا السمو (المقصود هذه المشاعر الدينية) راح يقل كلما أمعن في القراءة مما أدى إلى ظهور قضايا أو أسئلة في حاجة لإجابة في أمور العقيدة. واعترف لوالديه أنه لا يريد أن يكون قساً. فتم إرساله وهو في السابعة عشرة من عمره إلى كلية رن Collège de Rennes لمدة عامين لتؤهله لوظيفة في الحراسة البحرية Naval Guard في بريست Brest. وفي سنة ١٧٨٨ (كان قد بلغ العشرين) تم تعيينه تحت الاختبار لكن حياته التي اعتاد عليها قبل ذلك بالإضافة إلى الانضباط في البحرية الفرنسية جعلاه خائفاً جداً من العمل في البحرية حتى أنه عاد إلى والديه في كومبورج Combourg ووافق على الالتحاق بكلية دي دينان de Dinan ليكون قساً، وربما قال هذا رغبة في أن يخفّف والداه من حدّة توبيخهما له. يقول «الحقيقة أنني لم أكن أريد إلا كسب الوقت لأنني لم أكن أعرف ما أريد»[٩٦]، وأخيراً التحق بالجيش برتبة ملازم، وتم تقديمه للملك لويس السادس عشر، وكان يمارس الصيد معه، وشهد الاستيلاء على الباستيل، وتعاطف مع الثورة إلى أن قامت في سنة ١٧٩٠ بإلغاء

الرّتب والألقاب والحقوق الاقطاعية. وعندما نذرت كتيبته نفسها للانضمام لجيش الثورة استقال من مهامه واكتفى بدخل متواضع من ميراث تركه له أبوه عند مماته - وفي أبريل سنة ١٨٩١ غادر فرنسا قاصداً الولايات المتحدة، وأعلن أنه سيحاول أكتشاف طريق شمالي غربي عبر القطب الشمالي (شمال أمريكا). «لقد كنتُ مفكراً حراً متحمساً في ذلك الوقت»[٩٧].

ووصل إلى بلتيمور Baltimore في ١١ يوليو سنة ١٧٩١ ومنها إلى فيلادلفيا، وتناول الغداء مع الرئيس وشنجطن ورفّه عنه بخططه المتسمة بالمبالغة واتخذ طريقه إلى ألباني Albany واستأجر دليلاً واشترى حصانين وركب مزهوا إلى الغرب، وكان معجباً بجلال المشاهد التي رأها حيث الجبال والبحيرات والمجاري المائية تتلألأ تحت شمس الصيف. لقد وجد متعة بالغة في هذه المساحات الواسعة المكشوفة وهذا الفن الذي خطته يد الطبيعة، ليكون ملجأ يلجأ إليه المرء هرباً من الحضارة وتكلّفها. وقد سجل تجربته في يوميات نقّحها في وقت لاحق ونشرها بعنوان: «رحلات في أمريكا Voyages en Amérique» وظهر في هذه الرحلات بالفعل جمال أسلوبه:

«أيتها الحرية البدائية (حرية الفطرة الأولى) لقد استعدتك أخيراً! إنني انطلق مثلما ينطلق الطير، أتنقّل كالذبابة فهي تقود نفسها لا عوائق أمامها، ولا تعرف إرباكاً ولا حيرة إلاّ في اختيارها للمكان الظليل. هنا أنا بطبيعتي كما خلقني الله جل جلال؛ سيد الطبيعة، منتصر أنا إذ يحملني الماء، بينما قاطنو المجاري المائية يصحبونني في طريقي وقاطنو الهواء يغنون أغنياتهم لي، وحيوانات الأرض البرية تحييني وأشجار الغابات تحني ذُراها لي كلما مررت، أليست أصولنا الأولى حُفِرت (سُجّلت) على جبين الإنسان في مجتمعه أو على جبيني؟ اجرِ إذن لتُخرس أنفاسك في مدنك! اذهب لتكون عبداً لقوانينك التافهة، احصل على خبزك بعرق جبينك أو التهم خبز الفقراء. ليقتل بعضنا بعضاً من أجل كلمة، من أجل السيد؛ فنتشكك في وجود الله أو نعبده بصيغ عبادة خرافية، أما أنا فسأذهب أتجوّل في قفري المنعزل ففيه لن يقمع أحد فكري ولن يُدمي أحد قلبي، فسأكون حراً كالطبيعة، ولن أعترف بسلطان أحد سوى سلطانه (الله) الذي أبقى لنا الشمس، والذي بإشارة واحدة من

يده قادر على اشعال الثورة (المقصود إحداث الاضطراب) في كل العوالم (جمع عالم بفتح اللام) »[٩٨].

هنا كل ميراث الحركة الرومانسية : الحرية والطبيعة والصداقة، لكل الكائنات الحية، احتقار للمدن واحتقار لمحاربة الإنسان لأخيه الإنسان من أجل الخبز أو السلطان، هنا رفض للإلحاد والخرافة، هنا نعبد الله بتأمل الطبيعة، هنا يكون الهرب من كل قانون خلا قانون الله. لا يهم – من وجهة نظر أدبية – أن يكون شاتوبريان قد فقد إيمانه الديني، أو أن كثيراً من أوصافه كان أقرب للخيال منه للحقيقة، أو أن النقاد الفرنسيين والامريكيين سرعان ما اكتشفوا مئات المبالغات والمستحيلات والمواضع التي اتسم فيها بعدم الدقة[٩٩]، وإنما المهم أن أسلوبه النثري هنا قد أثّر تأثيراً كبيراً في مشاعر كل النساء وكثير من الرجال. لم يشهد النثر الفرنسي منذ روسو Rousseau أو بيرناردين دي سانت بيير Bernardin de Saint-Pierre مثل هذا البهاء والخصوبة، ولم تقدّم الطبيعة بهذا الاشراق، ولم يُظهر أحد الحضارة بهذا السخف. إن كل ما تنتظره الحركة الرومانسية هو أن تقدم بشكل مقنع الهنود الحمر (الهنود الأمريكيين) كسادة يتجولون في الفردوس يتربعون على عروش الحكمة، وأن تقدم بشكل مقنع الدين كأساس للأخلاق والفنون والخلاص Salvation. وسرعان ما قدَّم شاتوبريان مثلاً على هذا في قصته « أتالا Atala » ورينيه René، وقدّم مثالا ثالثا في كتابه عبقرية المسيحية The Genus of Christianity.

لقد تجوّل مكتشف الشاعر راكباً خلال ولاية نيويورك واستقبله بعض الأونونداجا Onondago الهنود وأكرموه ونام بشكل بدائي على الثرى (الأرض الأم) بالقرب من نياجارا Niagara وسمع الأصوات المكبوتة لخرير مياه الشلالات. وفي اليوم التالي جلس بشكل تلقائي على شاطئ النهر الذي يُسرع في جريانه ليصل إلى مصبّه. « لكم تُقتُ لإلقاء نفسي فيه »[١٠٠] ولأنه كان شغوفاً لرؤية الشلالات من أدنى فقد هبط المنحدر الصخري فزلّت قدمه وكُسِر ذراعه، ورفعه الهنود (الحمر) إلى حيث الموضع الآمن. وتخلّى عن حلمه بالاتجاه نحو الشمال الغربي فاتجه جنوباً ووصل إلى الأوهايو Ohio. وعند هذه النقطة تصبح روايته للوقائع والمشاهد مُلتبسةً مشكوكاً فيها. إنه يخبرنا أنه تابع الأوهايو إلى المسيسبّي

ومنه إلى خليج المكسيك ومن هناك عَبْر آلاف الأميال ومئات الجبال إلى فلوريدا. وقارنَ النقّادُ المسافات ووسيلة الانتقال بزمن الرحلة وانتهوا إلى أن روايته مشكوك فيها. كما أنه وظفَ حيوانات المنطقة وغطاءَها النباتي بما لا يتفق أبداً مع طبيعة هذه المنطقة وغطائها النباتي بعد رحلته بمئة سنة(١٠١)، وعلى أية حال فإن قرناً من الزمان يكفي لتغيير الحياة البرية في المنطقة تغييراً حاداً، ولو حتى من خلال انتشار الزراعة والتعدين وارتفاعات الأرض وانخفاضاتها.

وبعد أن مكث مع الهنود الحمر من جماعات السمينول Seminole اتخذ طريقه نحو الشمال الغربي إلى شيليكوث Chillicothe وهي الآن إلينوي Illinois. وهناك قرأ في صحيفة إنجليزية أخبار هروب لويس السادس عشر إلى فارن Varennes (٢٢ يوليو ١٧٩١) فأصابه الرعب فمعنى القبض على الملك تعرض حياته - يومياً - للخطر. «قلت لنفسي: عُد لفرنسا وقطعت رحلاتي فجأة»(١٠٢) وفي ٢ يناير سنة ١٧٩٢ وصل فرنسا بعد غياب دام تسعة أشهر، وكان عمره عند عودته لا يتجاوز الثالثة والعشرين.

٤/٢ تطوره:

لقد كان قد أنفق تقريباً كل ما لديه من مال، وكان لا يزال غير متيقن ولا آمن في وطن يُعادي الفيكونتات (المقصود النبلاء عامة) ويسير نحو الحرب ومذابح سبتمبر. ونصحته أَخَواته أن يتزوّج المال ودبّرا له عروساً في السابعة عشرة من عمرها قبلت مهراً (دوطة) معتدلة هي سيليست بوسو دي لا فني Céleste Buisson de La Vigne فتزوجها في ٢١ فبراير سنة ١٧٩٢. وظلت سيليست المتواضعة مُخلصة له خلال كل التقلبات التي مرت به وتحملت خليلاته وتحملته خلال فترة صراعه مع نابليون مع أنها كانت معجبة به (بنابليون) وبعد سنوات طوال تعلّم شاتوبريان أن يحبها. وذهبا للعيش في باريس معاً بالقرب من أختيه لوسيل Lucile وجولي Julie. وضاع جزء من ثروة زوجته كان يتم استثماره في سندات تصدرها الكنيسة عقب مُصادرة حكومة الثورة للممتلكات الكنسية وخسر رينيه René جزءاً آخر على موائد القمار.

وفي ٢٠ أبريل أعلنت الجمعية التشريعية الحرب على النمسا، فكوّن المهاجرون الفرنسيون (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) كتيبةً لتنضم إلى النمسا للإطاحة بالثورة. وشعر شاتوبريان أن عليه أن ينضم لزملائه النبلاء رغم أنه لم يكن على يقين من رغبته في الاطاحة بالثورة. ترك شاتوبريان زوجته وأخواته في باريس وسرعان ما قرر ثوار باريس سجن (وإعدام) مئات من أفراد الطبقة الارستقراطية. واندفع إلى كوبلنتز Coblenz وانضم لجيش المهاجرين واشترك في حصار ثيونفيل Thionville الفاشل (أول سبتمبر ١٧٩٢) وجُرح في فخذه، وفي لفتة كريمة تم إطلاق سراحه. ولمّا لم يكن قادراً على العودة لزوجته عبر فرنسا المعبّأة، اتخذ طريقه إلى أوستند Ostend قاطعاً المسافة في غالبها على قدميه، وهناك وجد طريقا إلى جزيرة جيرسي Jerser فاعتنى به خاله، وفي مايو سنة ١٧٩٣ عبر إلى إنجلترا.

وفي إنجلترا عرف حياة الفقر وتحمّلها رغم «صحتي المعتلة ورغم تلاشي الأحلام الرومانسية في الحرية»[١٠٣]. ورفض شاتوبريان الإعانة المالية التي كانت الحكومة البريطانية تقدمها للنبلاء الفرنسيين المهاجرين وراح يتكسّب بتعليم الفرنسية لمن يريد، كما راح يتكسب من التدريس في مدرسة داخلية. وأحب إحدى تلميذاته، وهي شارلوت إيفز Ives وبادلته الحب واقترح والدها أن يتزوجها فاعترف لهما أنه متزوّج بالفعل. وفي هذه الأثناء سُجنت زوجته وأخواته في فرنسا، وقطعت مقصلة الثوار رأس أخيه الأكبر وزوجته (أي زوجة أخيه) وجدّها البطل مالليشيرب Malesherbes في ٢٢ أبريل ١٧٩٤. أما زوجة شاتوبريان وأخواته فلم يُطلق سراحهن حتى انتهاء فترة الارهاب بسقوط روبيسبير.

وكانت أخته لوسيل قد لاحظت كثيراً سهولة تعامله مع الكلمات فحثته ليكون كاتباً ومؤلفاً. وخلال السنوات التي قضاها في إنجلترا بدأ في كتابة ملحمته النثرية الطويلة (ناتشز Natchez) راح يصب في صفحاتها البالغة ٢,٣٨٣ صفحة أحلامه الرومانسية معتبراً حياة الهنود الحمر (الهنود الأمريكيين) حياةً مثالية. ولرغبته الشديدة في تحقيق الشهرة كفيلسوف نشر في لندن في سنة ١٧٩٧ كتابه «الثورات قديماً وحديثاً، دراسة تاريخية

وسياسية وأخلاقية Essai historique, Polilique et moral Sur les révolutions anciennes et modernes ». وكان هذا عملاً جديراً بالالتفات من شاب لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره ينقصه انضباط حياته وإن كان غنياً بالأفكار. لقد برهن شاتوبريان على أن الثورات هيجان يحدث بشكل دوري، وما يتبعها يتخذ دوماً شكل منحنى يبدأ بالثورة ويمر بالاضطراب والفوضى وينتهي بالدكتاتورية. ومن هنا وجدنا الإغريق يخلعون ملوكهم ويُقيمون الجمهوريات ثم يرضخون للأسكندر، ووجدنا الرومان يخلعون ملوكهم ويُقيمون جمهورية ثم يرضخون للقياصرة(١٠٤) وهنا نجد أن شاتوبريان يتنبأ بنابليون قبل الثامن عشر من إبرومير Brumaire بعامين. إن التاريخ دائرة أو أنه دوران متكرر على الدائرة نفسها، مع ظهور أهداب من هذه الدائرة تجعل القديم يبدو جديدا، ومع هذه الانقلابات العظيمة الواضحة يسقط البشر في الشرور نفسها، ويكررون أيضاً ما هو خير. وليس هناك في التاريخ تطور حقيقي، حقيقة إن المعلومات تزداد، وإنما - فقط - لتكون في خدمة الموهوبين الذين لا يتغيَّرون. والإيمان بالتنوير كوسيلة للوصول بالإنسان إلى كمال لا حد له، هذه الفكرة وهم طفولي. ومع هذا فقد نجح التنوير في تقويض دعائم المسيحية (وهذه النتيجة أذهلت معظم القراء) وليس هناك احتمال راجح أن يستعيد الدين(*) مكانته في نفوس شبابنا في هذا القرن حيث السلام السياسي والحرب الفكرية. فأي دين سيحل - إذن محل المسيحية؟ أو بتعبير آخر ما هو الدين الآخر الذي سيُحلّه المسيحي محل دينه؟ ربما لا دين آخر (هكذا انتهى الشاب المتشكك). فالنزاعات الفكرية والسياسية ستقوّض الحضارة الأوروبية وستعود بأوروبا إلى بربريتها الأولى(١٠٥).

لقد حقق هذا الكتاب لشاتوبريان شهرة في أوساط المهاجرين الفرنسيين لكنه صدم أولئك الذين شعروا أن الارستقراطية والدين يجب أن يقفا معاً ويصمدا معاً، أو أن يموتا منفصلين. وقد ترك هذا النقد أثره في شاتوبريان، فقد كانت كتبه التي صدرت بعد ذلك - في جانب كبير منها - اعتذاراً عن هذه الفكرة، لكنه الآن قد غدا متأثراً تأثراً عميقاً بخطاب أرسلته له من فرنسا أخته جولي Julie في أول يوليو سنة ١٧٩٨ : « صديقي، لقد

(*) يقصد المسيحية الكاثوليكية بالذات.

فقدنا لتوّنا أفضل الأمهات.. لو عرفتَ كثرة الدموع التي ذرفتها أُمُّنا العزيزة بسبب أخطائك، وكم هي هذه الأخطاء الباعثة على الأسى تبدو للجميع واضحة سواء من منظور التقوى والتدين أو العقل. أما وقد عرفت هذا فافتح عينيك وتخلّ عن الكتابة، وإذا استجاب الله لدعائنا واجتمعنا ثانية فستجد بيننا كل السعادة التي يمكن أن تكون على ظهر هذه الأرض»(١٠٦).

وعندما تلقى شاتوبريان هذا الخطاب، كان معه خطاب آخر يفيد أن أخته جولي هذه قد ماتت أيضاً. وفي مقدمة كتابه عبقرية المسيحية Le Gēnie du Christianisme عزا إلى هذين الخطابين تحوله الكامل الذي ظهر في كتابه هذا الآنف ذكره. «إن هذين الصوتين المنبعثين من القبر (صوت أمه وصوت أُخته) كانا يطنّان في أذنيّ، فأصبحت مسيحياً.. بكيتُ وآمنت، فقد فسّر لي موتهما ما يغنيه الموت».

إن مثل هذا التغير المفاجئ والمبهر (الدرامي) يُغري بالتشكك، لكنه لم يكن تشككاً بمعناه الحرفي، وربما أرجع شاتوبريان – الذي لم ينفصل الفيلسوف في شخصه أبداً عن الشاعر – للحظة واحدة، عملية تحوّله من عدم الإيمان إلى الإيمانْ (بالمسيحية) التي رآها أولاً جميلة ثم رآها مفيدة خيِّرة، ثم – أخيراً – اعتقد أنها – أي المسيحية – رغم أخطائها – تستحق التعاطف معها على المستوى الشخصي كما تستحق دعمها على المستوى العام (بين الناس)، لقد تأثر في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر بخطابات وصلته من صديقه لويس دي فونتين de Fontaine يصف فيها التفسخ الأخلاقي والانحلال الخلقي الذي حاق بفرنسا، ورغبة الناس المتزايدة في العودة إلى كنائسهم وقُسسهم. وخَلُص فونتين إلى أن هذا التوق الشديد سيجبر الدولة في وقت قريب جداً على العودة للعبادة الكاثوليكية.

وقرر شاتوبريان أن يكون هو الصوت المعبّر عن هذه الحركة (حركة العودة للكاثوليكية) فكتب دفاعاً عن المسيحية ليس من خلال المفاهيم العلمية والفلسفية وإنما من خلال الأخلاق والأدب والفن. لا جُناح إن كانت هذه القصص الفاتنة التي قصّوها علينا في شبابنا خرافات أكثر من كونها تاريخاً حقيقياً. إنها أبهجتنا وأوحت لنا بالكثير، وجعلتنا إلى حد

ما متآلفين مع الوصايا العشر(*) التي قام عليها نظامنا الاجتماعي وبالتالي الحضارة المسيحية. أليست جريمة كبرى أن تنزع من الناس العقائد التي ساعدتهم في السيطرة على الفوضى الاجتماعية وتحمل الظلم والشر والمعاناة، والمصير المحتوم الذي لا مهرب منه – الموت؟ وعلى هذا فإن شاتوبريان قد عبّر في مذكراته الأخيرة Mēmoires عن إيمانه وشكه في الوقت نفسه. «إن روحي لا تميل للاعتقاد في شيء حتى في نفسي، وتميل إلى ازدراء كل شيء – الفخامة والعظمة والبؤس والشعوب والملوك، ومع هذا فإن روحي يهيمن عليها العقل الذي يطالبها بالتسليم بكل ما هو جميل: الدين والعدالة والإنسانية والمساواة والحرية والمجد»(١٠٧).

وفي سنة ١٨٠٠ دعا فونتين Fontaine شاتوبريان للعودة إلى فرنسا، وكان فونتين شخصاً مقبولاً للقنصل الأول (نابليون) وفي مقدوره أن يضمن ألاّ يتعرض هذا الشاب المهاجر (شاتوبريان) للأذى. وكان نابليون يفكر بالفعل في إعادة الكاثوليكية، وقد يساعده كتاب جيِّد عن فضائل المسيحية في مواجهة سخرية اليعاقبة، تلك السخرية التي لا مناص من مواجهتها إن هو (نابليون) أعاد الكاثوليكية.

وفي ١٦ مايو سنة ١٨٠٠ عاد شاتوبريان إلى زوجته وأخته لوسيل Lucile في باريس، وقدّمه فونتين للدوائر الأدبية التي تجمع أفرادها في بيت الكونتيسة بولين دي بومونت Pauline de Beaumont التي كانت سهلة الانقياد نحو الإثم لكنها جميلة، وهي ابنة الكونت أرمان – مارك دي مونتموري Armand - Marc de Montmorin الذي كان في وقت من الأوقات وزيراً للخارجية في عهد الملك لويس السادس عشر، وقطع الثوار رأسه بالمقصلة بعد ذلك. سرعان ما أصبحت بولين خليلة شاتوبريان. وفي بيتها الريفي وبتشجيعها انهى كتابه «عبقرية المسيحية». ولم يكن يعتقد أن الوقت المناسب قد حان لنشر كتاب يعارض بشدّة الحركة المتشككة في المسيحية السائدة في دوائر الفكر والأدب، لكن في سنة ١٨٠١ قدم لباريس مئة صفحة مستخلصة منه على شكل نص نثري ذي طابع شعري يقدم

(*) النص Hebraic Commandments أي الوصايا العبرية، والمقصود الوصايا الواردة في التوراة (لا تقتل، لا تسرق.. إلخ). (المترجم)

الفضائل المسيحية والحب الرومانسي بشكل بسيط تغمره الطمأنينة دون لهجة خطابية أو وعظية. وجعله هذا الكتاب - فجأة - حديث المتعلمين في فرنسا ومحبوب النساء وابن الكنيسة الحبيب - تلك الكنيسة التي جرى احياؤها من جديد.

لقد أطلق على كتابه (قصته) هذا اسم اتالا Atala أو «حب اثنين من البدائيين في الصحراء». والمشهد الافتتاحي في لويزيانا Louisiana التي يقطنها الهنود الحمر (الأمريكيين) من جماعة ناتشز Natchez Indians والراوي هو شيخ الجماعة أو القبيلة وهو أعمى واسمه شاكتاس Chactas. إنه يقص علينا كيف أَسَرَتْهُ في شبابه قبيلة معادية وحكمت عليه بالموت حرقا لكن أنقذته أتالا Atala وهي عذراء هندية (من الهنود الحمر) وهربت معه عبر المستنقعات والغابات والجبال والمجاري المائية وأحب كل منهما الآخر لاقترابهما واشتراكهما في مواجهة الأخطار، وطلب منها اكمال الحب بالتواصل الجنسي لكنها رفضت لأنها كانت قد تعهدت أمام أمها التي ماتت أن تظل عذراء طوال عمرها، والتقيا بمبشر مسيحي عجوز أيد تقواها لاعناً الحب كشكل من أشكال السُّكر والزواج كقدر أسوأ من الموت[١٠٨]، وتمزقت اتالا Atala بين الدين والجنس (كما في التاريخ) وخرجت من المأزق بتناول السم. وغدا شاكتاس Chactas وحيداً معزولاً لكن المبشّر شرح له الموت باعتباره خلاصاً مباركاً من هذه الحياة:

«رغم ازدحام رأسي بذكريات أيام كثيرة.. فلم يحدث أبداً أن التقيت برجل لم يخدع في حلمه بالسعادة، فليس هناك قلب إلاّ وانطوى على جرح داخلي.. فالروح في صفائها الظاهري تشبه الآبار الطبيعية بين الحشائش الطوال (السفانا) في فلوريدا: إن سطحها يبدو هادئاً رائعاً، ولكن عند النظر إلى قيعانها.. تُدرك وجود التماسيح الكبيرة..»[١٠٩].

لقد أصبح وصف شاتوبريان لجنازة أتالا Atala حيث تعاون القس والوثني في مواراة جسدها الثرى، وصفاً مشهوراً في الأدب الرومانسي، كما ألهم الفنان جيرود - تريوزن Girodet - Triosen فرسم إحدى أعظم اللوحات في فترة حكم نابليون. إنها لوحة دفن أتالا التي بكى عند رؤيتها نصف سكان باريس في سنة ١٨٠٨، لكن التراث الكلاسي كان قوياً

في فرنسا في سنة ١٨٠١ لدرجة تمنع ترحيب النقاد جميعاً بالقصة وابتسم منهم كثيرون (ساخرين) عند قراءة الفقرات المنمّقة (المصاغة بعناية) وعند إدراكهم توظيف الحب والدين والموت (وهو توظيف قديم) لإنعاش القلوب وإيقاظها من غفوتها، وحشد مكوّنات الطبيعة بمختلف مظاهرها وأحوالها لتكون لحناً إلزامياً مصاحباً لأفراح الإنسان وأتراحه. لكن كان هناك أيضاً نقاد آخرون وعدد كبير من القراء امتدحوا بساطة استخدامه للكلمات والموسيقا الهادئة في أسلوبه ووصفه للحياة الحيوانية والنباتية والجبال والغابات والمجاري المائية معبراً عن الأصوات والأشكال والألوان بأزهى عبارة، مما شكّل خلفية مفعمة بالحياة لأحداث القصة. لقد كان المزاج العام في فرنسا على استعداد لسماع كلمات طيبة عن الدين والطهارة. وكان نابليون يخطط لتصالح مع الكنيسة. لقد حان الآن الوقت المناسب لنشر كتاب (عبقرية المسيحية).

٣/٤ كتاب عبقرية المسيحية

لقد ظهر هذا الكتاب في خمسة مجلدات في ١٤ أبريل سنة ١٨٠٢ في الأسبوع نفسه الذي شهد إعلان الوفاق البابوي (الكونكوردات) وقد كتب جول ليميتر Jules Lemaître في سنة ١٨٦٥ «إن كتاب عبقرية المسيحية هو أعظم إنجاز في تاريخ الأدب والفكر الفرنسيين»[١١٠] وقد امتدح فونتين Lemaître الكتاب في مقال بصحيفة المونيتور Moniteur مستخدماً صيغ التفضيل بشكل ينم عن احتفائه الشديد. وقد ظهرت الطبعة الثانية في سنة ١٨٠٣ مصدّرة بإهداء إلى نابليون. ومنذ هذا الوقت شعر المؤلف أن نابليون هو الشخص الوحيد الذي يتفوّق عليه (والمعنى أن المؤلف اعتز بنفسه اعتزازاً شديدا، فقد أصبح يحس أنه يلي نابليون مباشرة في الأهمية).

وكلمة gёnie الفرنسية التي تظهر في عنوان الكتاب لا تعني بالضبط كلمة genius الإنجليزيّة (عبقرية أو نبوغ) رغم أنها تنطوي على ذلك المعنى أيضاً. إنها تعني الشخصية المميزة والروح الخلاق الكامن في صلب الدين، تلك الشخصية وهذه الروح التي انجبت وغذّت الحضارة الأوروبية بعد الفترة الكلاسية. لقد اقترح شاتوبريان ابطال تنوير القرن

الثامن عشر أي الحركة التنويرية Enlightment المعروفة في ذلك القرن مَظهرا أن في المسيحية ما يُغني عنها. ففي المسيحية - على حد قوله - فهم متعاطف أو تعاطف فاهم مع حاجات الإنسان وفيها بَلْسم لأحزانه، وفيها إلهام متعدد الجوانب للفن ودعم قوي للنظام الاجتماعي والأخلاق، وهذا يكفي أما مصداقية العقائد والمرويات الكنسية فهي مسألة قليلة الاهمية. فالسؤال الحقيقي هو: هل المسيحية تمثل دعما للحضارة الأوروبية؟ وهل هو دعم لا يُبارى ولا يُجارى ولا يعوّض ولا يمكن فصله عنها؟ - أي عن هذه الحضارة.

لقد كانت صورة التفسخ الأخلاقي والاجتماعي والسياسي في فرنسا الثورة التي طلّقت نفسها من مسيحيتها الكاثوليكية تمثل برهاناً أقوى وأكثر منطقيّة من حُجج شاتوبريان. لكن شاتوبريان كان رجل مشاعر وأحاسيس وربما كان على حق في تأكيده أن معظم الفرنسيين هم أقرب إليه منهم إلى فولتير وغيره من المفكرين الذين عملوا بحماس على «ابعاد عار» هيمنة الدين المطلقة. لقد أطلق على نفسه اسم «المعادي للمفكرين - anti philosophe». لقد اشتط كثيراً - أكثر من روسو بكثير في حملته ضد المنهج العقلي ووبّخ مدام دي ستيل لدفاعها عن التنوير. وعلى هذا فقد بدأ بالدعوة إلى الإحساس والشعور، وترك العقل في المحل الثاني.

لقد أعلن في البداية إيمانه بالسِّر الأساسي للعقيدة الكاثوليكية وهو التثليث: الرب باعتباره الآب الخالق، والرب باعتباره الابن المخلص أو الفادي(*)، والرب باعتباره الروح القدس الذي يُنير الطريق ويبارك. إن المسألة ليست مصداقية هذا الأمر، فالمهم أنه دون عقيدة في وجود إله مدبِّر تُصبح الحياة معركة لا رحمة فيها وصراعاً وحشياً، وتُصبح الخطايا لا غافر لها ويُصبح الزواج رباطاً ممزقاً هشاً غير قائم على أساس وطيد، وتُصبح الشيخوخة انفصاماً كئيباً ويُصبح الموت شيئاً قبيحاً، وإن كان كرباً لا يمكن اجتنابه. أما الطقوس (الشعائر) الكنسية من تعميد (أو عماد) واعتراف وعشاء مقدس وتثبيت التعميد ومسح المحتضر بالزيت المقدس والسيامة الكهنوتية (مراسم تعيين الكهنة) - فتحيل آلامنا وانهيارنا المخزي

(*) يؤمن المسلم بوجود الله كحقيقة مطلقة، وليس كأداة استراتيجية لضبط المجتمع، كما أن المسلم يوحّد ذات الله وصفاته في موجود سام مُهيمن. (المترجم)

إلى تطور روحي متقدم يتم تعميقه بإرشاد القسس والكهنة وتوجيهاتهم وبالطقوس (الشعائر) المؤثرة، وتقوّي موقف الفرد الضعيف بمفرده ليكون كثيراً بإخوانه من المؤمنين بالمسيح المحبوب المخلص وأمه العذراء الشفيعة التي بلا خطيئة، والله الحكيم الكلّي القدرة المراقب المعاقب المسامح والمجازي. بهذا الإيمان يتم خلاص الإنسان من أعظم لعنة يمكن أن تحيق به – أن يكون بلا معنى في عالم بلا معنى.

وراح شاتوبريان يُعارض الفضائل التي أوصى بها الفلاسفة الوثنيون بتلك التي دعت إليها المسيحية: فمن ناحية نجد الجَلَد (الثبات) والاعتدال (ضبط النفس) والتدبر (التعقل) – كل هذه الفضائل تتجه نحو هدف تقدم الفرد، ومن ناحية أخرى نجد الإيمان والأمل وعمل الخير وهي – أي هذه الفضائل الأخيرة تجعل الحياة نبيلة وتقوي الروابط الاجتماعية وتحيل الموت إلى حياة (من خلال فكرة البعث). وقارن وجهة نظر الفيلسوف فيما يتعلق بالتاريخ باعتباره نضالاً وهزائم تلحق بالأفراد والجماعات بالنظرة المسيحية للتاريخ باعتباره جهدا إنسانياً للسمو فوق الخطيّة المتأصلة في طبيعته ولتحقيق آفاق أوسع. إنه لمن الأفضل أن تعتقد أن السماوات تمجد عظمة الرب من أن تعتقد أنها ركام عارض من صخور وتراب، خالدة لكن بلا معنى، جميلة لكنها كئيبة. وكيف نستطيع أن نتفكّر في جمال معظم الطيور وكثير من ذوات الأربع دون شعور بأن بعض «القداسة» كامن في نموّها المَرِن (التدريجي) وأشكالها الفاتنة؟

وبالنسبة للأخلاق فقد بدا الأمرُ لشاتوبريان واضحاً بشكل مؤلم: إن دستورنا الأخلاقي لابد أن يباركه الرب وإلا تردّى ليكون ضد طبيعة الإنسان (الطبيعة البشرية)، فليس هناك دستور أخلاقي من وضع البشر يمكن أن تكون له القوة الكافية للسيطرة على غرائز البشر المناقضة للحياة الاجتماعية. لكن الخوف من الله هو بداية الحضارة وحب الله هو هدف الأخلاق، وأكثر من هذا فإن هذا الخوف (من الله) والحب له لابد أن ينتقل من جيل إلى جيل على أيدي الآباء والمعلمين ورجال الدين. فآباء بلا إله ومعلمون دون دعم من عقيدة دينية ورداء كهنوتي سيجدون الأنانية مستشرية وسيجدون أن الهوي والانفعال والجشع أقوى من كلماتهم غير المؤثرة. وأخيراً «لا يمكن أن تكون هناك أخلاق إن لم يكن هناك

عالم آخر[١١١](*) لابد أن تكون هناك حياة أخرى لتعوضنا عن محنة الفضائل في عالمنا الأرضي.

ودلّل شاتوبريان على أن الحضارة الأوروبية تكاد تكون مدينة كلية للكنيسة الكاثوليكية – بدعمها للأسرة والمدرسة، ودعوتها للفضائل المسيحية، ولمعارضتها للخرافات والخوف اللاعقلاني والممارسات الخاطئة والقضاء عليها، وإلهامها للآداب والفنون وتشجيعها. إن العصور الوسطى قد منعت بحكمة السعي غير الموجّه للوصول للحقيقة، وكان منعها هذا لصالح الجمال فقد تجلى فن العمارة في الكاتدرائيات القوطية بشكل يفوق تجليه في الباثينون Pathénon. والآداب الوثنية فيها الكثير مما هو متعة للعقل والكثير مما هو مفسد للأخلاق. والكتاب المقدس المسيحي أعظم من كتابات هوميروس، والأنبياء أكثر تأثيراً في الناس من الفلاسفة، فأي رواية يمكن مقارنتها في رقتها وتأثيرها بحياة المسيح وتعاليمه؟!

إنه لمن الواضح أن كتاباً مثل «عبقرية المسيحية» لا يمكن أن يكون مقبولاً إلاّ من أولئك الذين كانوا مستعدين عاطفيا للاعتقاد (للإيمان) بسبب تجاوزات الثورة الفرنسية أو بسبب محَن الحياة. ومن هنا قال الفيلسوف جوبير Joubert صديق شاتوبريان أنه بحث عن ملجأ في الكاثوليكية هرباً من عالم ثوري مُرعب بدرجة لا تُحتمل[١١٢]. وقد يبتسم بعض القراء لتفسيره الطفولي لغاية أو غرض بعض مظاهر الطبيعة عندما يقول «إن شَدُو الطيور قد صُمِّم(**) ليتمشى مع آذاننا... فرغم قسوتنا عليها (أي على هذه الطيور) فهي لا تستطيع أن تكُف عن امتاعنا كما لو كانت مضطرة لتنفيذ أوامر إلهية»[١١٣]. لكن هؤلاء القراء كانوا دوماً منبهرين برقة موسيقا اللفظ والأسلوب حتى أنهم لم يتوقفوا كثيراً لفهم ما ذكره عن النّعم الثلاث لشرح فكرة التثليث في العقيدة المسيحية أو الخوف المالتوسي (الذي أثاره مالتوس) من زيادة عدد السكان زيادة هائلة للدفاع عن فكرة التبتل أو البقاء بلا

(*) النص Future State أي دولة في المستقبل، وما في المتن هو المعنى المقصود. (المترجم)

(**) النص ordained والمعنى الدقيق قد رُسِّم على نحو ما يُرسم الكاهن (رسّم بتشديد الميم وفتحها، والمصدر ترسيم) والمعنى أن الله (سبحانه) قد عيّنه أو رشحه لخدمة آذاننا. (المترجم)

زواج، تلك الفكرة ذات الأبعاد الكنسية (الإكليريكية). وإذا كانت الحجج التي ساقها ضعيفة في بعض الأحيان إلا أن جاذبية أسلوبه غطت على هذا الضعف. إن الطبيعة نفسها ليعتريها المرح إذا سمعت ابتهالات شاتوبريان وتدلّهه في حبها، بعد أن تكون ساخطة معبرة عن سخطها بالزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير المصحوبة بمطر ورعد وبرق.

والسؤال الآن: هل كان شاتوبريان حقاً مؤمناً؟ بدءاً من سنة ١٨٠١ إلى آخر حياته سمعنا[١١٤] أنه كفَّ عن صلاة عيد الفصح Easter فلم يعد يشترك في العشاء الرباني ولم يعد يتقدم للكاهن لأداء طقس الاعتراف – وهو الحد الأدنى الذي تطلبه الكنيسة من الأطفال. وقد ذكر سيسموندي Sismondi حواراً معه في سنة ١٨١٣:

«إن شاتوبريان قد لاحظ تدهور الدين في العالم على مستوى أوروبا وآسيا، وقارن علامات التدهور هذه بتعدد الآلهة على أيام جوليان Julian... وانتهى إلى أن أمم أوروبا قد تختفي مع دياناتها. لقد صُعقت لروحه المتحررة هذه... لقد تحدث شاتوبريان عن الدين... إنه يعتقد أن الدين ضروري لمساندة الدولة. إنه يعتقد أنه والآخرين ملزمون أو مقيدون بالإيمان بدين أو بتعبير آخر لا فكاك من ذلك»[١١٥].

إننا مندهشون لكتمانه شكّه في الدين (الكاثوليكي) طوال ستين عاماً، يا له من عبء ثقيل حمله! إنه لم يتخلّص أبداً من التشاؤم الذي ألمَّ به في شبابه والذي وصفه في كتابه رينيه René. وفي أواخر حياته قال «كان يجب ألا أُولد»[١١٦].

٤/٤ رينيه René:

كان كتاب شاتوبريان (عبقرية المسيحية) ملمحاً مهما للتعبير عن الحركة الرومانسية في مجال الدين. لقد شكل عودة للإيمان والأمل إن لم نقل أيضاً الخيرية أو النزوع لعمل الخير. لقد رفع من شأن شعر العصور الوسطى وفنونها وحث على إحياء فن العمارة القوطي في فرنسا. فخلال مجلداته الخمسة ضمَّ ليس فقط أتالا Atala (القصة الآنف ذكرها) بل أيضاً «رينيه René» حتى سنة ١٨٠٥. هذه الصفحات الأربعون (التي تكوّن رينيه) المفعمة تشاؤماً تعكس قنوط المهاجرين واكتئابهم (المهاجرون الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة)

ومعاشرته لأخواته أثناء فترة الشباب. لقد أصبحت هذه الصفحات الأربعون ينبوعاً لآلاف الفواجع (والعويل والنواح) من اليأس والأحزان التي تستدر الدموع.

لقد كان رينيه (شخصية القصة) من الأرستقراطية الفرنسية التي هرب أفرادها من فرنسا والتحق بقبيلة ناتشز Natchez وهي قبيلة من الهنود الحمر على أمل أن ينسى حبّه المحرَّم (ممارسته الجنس مع محارمه). وكان أبوه الذي تبناه شاكتاس قد قص عليه قصة أتالا Atala وحثّه على أن يحكي حكايته هو (أي حكاية رينيه). «لقد كنت خائفاً مخلوع الفؤاد مقيَّداً أمام أبي. لكنني كنت أحس باليسر والسهولة والرضا - فقط - مع أختي أميلي Amélie». وعندما تحقق أن حبه لها قد اقترب من امكانية غشيانه لها، بحث عن خلاصه بالضياع وسط زحام باريس أو بالجلوس ساعات في كنيسة مهجورة طالبا من الله أن يخلصه من جريمة حبّه أو من حياته التي تمثل كابوساً. وراح يبحث عن العزلة بين الجبال والحقول. لكنه في كل الأماكن التي هرب إليها لم يستطع أن يطرد أفكاره عن أميلي Amélie ووجده لها وعشقه إياها. يا للعار، لقد كان معذّباً بسبب رغبته في الذهاب إليها والاعتراف لها بحبه، فقرر أن يقتل نفسه. وأحسّت أميلي بقراره (حدّثها قلبها بقراره هذا) فأسرعت إلى باريس ووجدته وعانقته بشدة وضمته إليها، وغطت جبهته بالقبلات. وأعقب ذلك ثلاثة أشهر من الرفقة والصداقة والسعادة المنضبطة (المقيّدة)، ثم غلبها الندم فهربت إلى أحد الأديرة وتركت له كلمة تريح بها مشاعره، كما تركت له كل ثروتها، وبحث عنها وتوسل للحديث معها ولم تُرِد أن تراه. وعندما كانت على وشك أن تُوفي نذرها ذهب إليها في مصلاها في الكنيسة وركع إلى جوارها وسمعها وهي ساجدة أمام مذبح الكنيسة، تتوسل إلى الله قائلة: «يا رحيم لا تدعني أقوم من هذا السرير الكئيب واشمل برحمتك أخي الذي لم يشاركني أبداً في عواطفي الآثمة» ولم ير أي منهما الآخر مرة أخرى. وواصل تفكيره في الانتحار لكنه قرر ان يتحمل آلاماً أشد بأن يعيش. «لقد وجدتُ في المعاناة نوعاً من التكفير. لقد اكتشفتُ أن الأسى (الندم) ليس شعوراً ينتهي انه في هذا ليس كالسرور.. إن نزوعي إلى الحزن والانقباض أصبح يملأ كل لحظات حياتي. لقد انغمس قلبي تماماً وبشكل طبيعي في السأم والضجر والملل والبؤس»(١١٧) وقد أصبحت عباراته هذه

شاهداً تقليدياً يتم الاستشهاد به عند الحديث عن الحزن الرومانسي. لقد قرر أن يضيع في أمريكا ويعيش حياة بسيطة كالتي تعيشها إحدى القبائل الهندية الأمريكية، هروباً من أمراض الحضارة. ووبخه أحد المبشرين لتقوقعه وانعزاله ودوام تفكيره في نفسه وأمره بالعودة إلى فرنسا ليطهر نفسه بخدمة الجنس البشري. وعلى أية حال فقد مات بعد ذلك كل من رينيه René وشاكتاس Chactas في مذابح جرت في كل من فرنسا (حيث قُتل رينيه) وفي لويزيانا بالولايات المتحدة (حيث قُتل أفراد قبيلة ناتشز Natchea التي منها شاكتاس الهندي الأمريكي)».

إنها قصة جيدة لولا أن أحداثها وطريقة التعبير عن المشاعر والعواطف فيها تتسم بالمبالغة. لكن المشاعر كانت قد ماتت منذ عقد من الزمان كما كان الحزن خطيراً وعميقاً فجفّت الدموع، أما الآن فقد انتهت الثورة وتم استعادة الأمن، فأصبحت المشاعر حرة وآن للدموع أن تنهمر. إن أحزان رينيه – كرجع لصدى ويرثر Werther عبر جيل – أصبحت من سمات رينيه دي شاتوبريان، وانعكس تأثيرها في أوبرمان Obermann التي وضعها سيناكور Senacour في سنة ١٨٠٤، وظهر أثرها أيضاً في رحلة شيلد هارولد إلى الديار المقدسة Childe Harold's Pilgrimage» (١٨١٣) ووبّخ شاتوبريان الكاتب بايرون Byron لعدم اعترافه بما هو مدين به[١١٨]. لقد أصاب هذا الكُتيب جيلاً كاملاً بمرض العصر mal de siècle. لقد أصبح نموذجاً تحتذيه آلاف وربما مئات الآلاف من الحكايات الحزينة التي يطلق على بطلها (الشخصية الرئيسية فيها) اسم الراوي (رومانسير romancier) وربما كان اسم الحركة الرومانسية مشتقاً منها. وقد سادت هذه الحركة الفنون والآداب في فرنسا مدة نصف قرن.

٤/٥ شاتوبريان ونابليون

قال نابليون إن كتاب «عبقرية المسيحية عمل من رصاص وذهب، وإن كان الذهب فيه أكثر.. إن كل ما هو عظيم ووطني في شخصية الإنسان لابد أن يعترف بعبقرية شاتوبريان»[١١٩] وقد رحب نابليون من جانبه بالكتاب باعتباره متفقاً بشكل يدعو للعجب

مع الكونكوردات البابوي (الاتفاق مع البابا)، ورتب نابليون لقاء مع المؤلف واعترف به كشخص مهم ذي قيمة وعيّنه في سنة ١٨٠٣ كسكرتير أول في السفارة الفرنسية في روما. وقد كتب المؤلف عن هذا اللقاء بتواضع وفخر: «لم يكن يهم نابليون كثيراً ألا يكون لدي خبرة في الشؤون العامة، فأنا لم أتمرّس إطلاقاً في الشؤون السياسية العملية، لكنه - أي نابليون - كان يعتقد أن بعض العقول قادرة على الفهم وليست في حاجة للتدريب»(١٢٠) وسرعان ما لحقته خليلته إلى روما إلاّ أنها - على أية حال - سرعان ما ماتت (٥ نوفمبر) وشاتوبريان إلى جوارها، وكانت قد طلبت منه العودة إلى زوجته قبيل وفاتها. وسرعان ما أصبح شاتوبريان شخصاً مقبولاً لدى البابا، وشخصاً مزعجاً لدى السفير كاردينال فيش Cardinal Fesch خال نابليون الذي اشتكى من أن المؤلف الألمعي يتعدى على صلاحيات السفير. ولم يكن الكاردينال بالرجل الذي يسمح بذلك وطلب اعفاءه، فاستدعى نابليون الفيكونت وعيّنه متابعاً للأمور في جمهورية فالي Valais السويسرية الصغيرة. وذهب شاتوبريان إلى باريس لكن عند سماع خبر إعدام دوق دانجيان Duc d'Enghien أرسل لنابليون استقالته من الخدمة في السلك الدبلوماسي:

«عندما جرؤت على التخلي عن نابليون (ترك العمل معه) وضعت نفسي في مكان المساوي له (جعلتُ نفسي كُفواً له) فتوجه نحوي بكل قوة غدره... وكنت في بعض الأحيان منجذباً إليه للمناصب الإدارية التي كان يغريني بها وبفكرة أنني شاهد على تحوّل في المجتمع وليس مجرد تغيير في الأسرات الحاكمة، لكن طبيعة كل منا المختلفة عن طبيعة الآخر في جوانب كثيرة كان لها دوماً اليد العليا. وإذا كان هو (نابليون) سيكون سعيداً إن جعلني أُعدم بإطلاق النار عليّ، فإنني أيضاً لم أكن لأشعر بوخز شديد في ضميري إن رأيته مقتولاً»(١٢١).

ولم يلحق بشاتوبريان ضرر عاجل. لقد انشغل عن السياسة بمرض زوجته (التي أحبها فترات علاقاته الغرامية) وبموت أخته لوسيل (١٨٠٤). وفي هذه الأثناء اتخذ من دلفين دي كوستين Delphine de Custine خليلةً له. وفي سنة ١٨٠٦ سعى ليُحل محلّها ناتالي دي نوال Nathalie de Noailles التي اشترطت قيامه برحلة للأماكن المقدسة في

فلسطين[١٢٢]. فترك زوجته في البندقية (فينيسيا) وذهب إلى كورفو Corfu فأثينا فسميرنا Smyrna فالقسطنطينية (استانبول) فالقدس، وعاد عن طريق الاسكندرية، فقرطاجة فأسبانيا ووصل إلى باريس في يونيو ١٨٠٧. ولقد أظهر شجاعة وقوة احتمال في جولته الشاقة، وكان أثناء الطريق يجمع بجد ومثابرة مواد لكتابين عزّزا شهرته الأدبية: الكتاب الأول عن الشهداء Les Marytrs de Diocletien (١٨٠٩) والكتاب الثاني عن رحلته للقدس Itinéraire de Paris à Jérusalem (١٨١١).

وبينما كان يُعد لهذين المجلّدين أظهر عداءه لنابليون (الذي كان يتفاوض في تيلست Tilist للوصول إلى سلام) بكتابة مقال في جريدة Mercure de France (ميركيور دي فرانس، والعبارة تعني المؤشر الزئبقي لفرنسا) وفي ٤ يوليو سنة ١٨٠٧. حقيقة أن هذا المقال كان عن نيرونNéronوتاكيتوس Tacitus لكنه كان ينطبق بالفعل على نابليون وشاتوبريان:

«في الصمت الذليل عندما لا تسمع تنهيدة فلتفكّ أغلال العبد، ولتطلق حنجرة الراوي (المؤرّخ)، وعندما تكون الرجفة من الطاغية، ويصبح رضاه وسخطه خطراً على نحو سواء، هنا يظهر المؤرّخ ويُصبح مؤتمناً على مهمة الانتقام للأمة. لقد كان ازدهار نيرون ونجاحه عبثاً (بلا جدوى) لأن تايكتوس Tacitus كان بالفعل موجوداً في أنحاء الإمبراطورية (المقصود موجوداً بفكره وكتاباته). لقد نشأ مغموراً (غير معروف) إلى جانب بقايا جيرمانيكوس Germanicus وكان الله العادل قد سلّم بالفعل لطفل غامض (المقصود نيرون) مجد سيادة العالم. إذا كان دور المؤرخ دورا عادلا، فغالباً ما يتعرض للأخطار، لكن هناك مذابح altars (أي أماكن للعبادة) كما أن هناك ميادين للمجد، ومع أن هذه المذابح (أماكن العبادة) مهجورة (لا يرتادها كثيرون) إلا أنها تحتاج لمزيد من التضحيات.. فحيثما توجد فرصة الثروة لا تجد مؤرخاً يحاول الاستحواذ عليها. فالأعمال التي تتسم برحابة الصدر وسعة التفكير هي الأعمال التي نتيجتها التي يمكن التنبؤ بها هي المحنة والموت. ومع ذلك ماذا لو سبب ذكر اسمنا – الذي تردده الأجيال – طعنة في قلب كريم واحد، بعد ألفي عام من موتنا؟»[١٢٣].

وعند عودة نابليون من تيلسيت Tilsit أمر تاكيتوس (المقصود بالطبع شاتوبريان) بمغادرة باريس وتم تحذير صحيفة الميركيور Mecure من نشر مقالات أخرى له، وأصبح شاتوبريان مدافعاً متحمساً عن حرية الصحافة. وعاد إلى عقار كان قد اشتراه في وادي لوب Valée - aux Loups في شاتيني Chatenay وعكف على إعداد كتابه عن «الشهداء» للنشر، وشَطَبَ من مخطوطة الكتاب الفقرات التي قد تُفسَّر على أنها تحط من قدر نابليون. وفي سنة ١٨٠٩ ثم القبض على أخيه أرمان Armand لنقله رسائل من أمراء البوربون خارج فرنسا لأعوانهم في الداخل. وكتب شاتوبريان إلى نابليون طالباً الرحمة لأخيه، ووجد نابليون أن الخطاب ينم عند اعتداد شديد بالنفس فألقاه في النار، وحُوكم أرمان وأُدين وأُعدم بإطلاق النار عليه في ٣١ مارس. ووصل شاتوبريان بعد لحظات قليلة من إعدامه، ولم ينس أبداً المشهد: أرمان الميت وقد مزَّقت الرصاصات جمجمته ووجهه «وكلب الجزار يلعق دمه ومخه»[١٢٤]. لقد كان هذا هو يوم الجمعة الحزينة God Friday في سنة ١٨٠٩.

ودفن شاتوبريان أحزانه بانعزاله والإعداد لكتابه مذكرات من القبر - **Mémoirs d'outre tombe**، وقد بدأ في كتابة مذكراته هذه في سنة ١٨١١، وكان يكتب هذا العمل بشكل متقطع ليأنس إلى نفسه ويستريح من عناء الرحلة والسياسة، وكتب آخر صفحة منها سنة ١٨٤١ ومنع نشرها إلا بعد موته ليصبح عنوانها مذكرات القبر. لقد كانت مذكرات جسورة الفكر، طفولية المشاعر، رائعة الأسلوب. وهنا - على سبيل المثال - نجد اسراع حشود من عينهم نابليون إلى لويس الثامن عشر ليُقسموا يمين الولاء الأبدي له، بعد سقوط نابليون «دخلت الرذيلة مستندة إلى ذراع الجريمة - السيد تاليران يسير متسنداً إلى السيد فوشيه Fouché»[١٢٥]، إننا نجد هنا في هذه الصفحات المكتوبة بروّية وصفاً للطبيعة البشرية يضارع ما هو مكتوب في قصّته أتالا Atala وقصة رينيه René، نجد فيها أحداثاً زاخرة كأحداث حرق موسكو[١٢٦]. إنها صفحات عامرة بوصف المشاعر:

«الأرض أمنا الحنون. لقد أتينا من رَحِمها. في طفولتنا ضمتّنا إلى صدرها الذي يفيض لبناً وعسلاً، وفي شبابنا ورجولتنا أفاضت علينا بالماء البارد والمحاصيل والفاكهة... وعندما نموت تفتح صدرها لنا مرة أخرى وتُلقي علينا غطاء من حشائش وورود، بينما هي تحول

أجسادنا بشكل سرّي إلى تراب لنكون من جوهرها، فتنمو من جديد بشكل آخر جميل»[١٢٧].

وبين الحين والحين تومض الفلسفة في كتاباته، لكنها عادة ما تكون متشائمة: «التاريخ يعيد نفسه فهو ليس إلاّ تكراراً للحقائق نفسها وإن اختلف الناس والزمن»[١٢٨] إن «مذكرات من القبر» هو أكثر أعمال شاتوبريان بقاء.

لقد ظل حتى سنة ١٨١٤ يعيش في الريف إلى أن أعادته القوات المتحالفة ضد نابليون - بعد انتصارها - إلى فرنسا. هل سيؤدي تقدمهم - كما حدث في سنة ١٧٩٢ - إلى ثورة الشعب الفرنسي ومقاومته البطولية؟ في الذكرى السنوية الخامسة لاعدام أرمان Armand أصدر شاتوبريان نشرة قويّة تحمل عنوان «عن بونابرت والبوربون De Bonaparte et des Bourbons» انتشرت في فرنسا أثناء تراجع نابليون. وقد أكد المؤلف للأمة أن «الرب نفسه يسير على رأس قوات الجيوش المتحالفة ضد نابليون ويجلس في مجلس (اجتماع) الملوك Council of the Kings»[١٢٩]. لقد عرض اساءات نابليون - إعدام انجهين Enghein وكادودال Cadoudal و تعذيب بيشجرو Pichegru واغتياله» وسجن البابا... وهذه الأخلاق التي جلبها بونابرت (كتب بونابرت بالهجاء الإيطالي Buchjaparte) «غريبة على الطبيعة الفرنسية»[١٣٠]. إن حكاماً كثيرين قد قمعوا حرية الصحافة وحرية الكلام، لكن نابليون تمادى إلى أبعد من ذلك فأمر الصحافة بامتداحه مهما كان هذا على حساب الحقيقة. إن الضرائب التي جمعها لم يكن يستحقها فقد جعل من الاستبداد علماً ومن الضرائب مصادرة ومن التجنيد الاجباري مجزرة. لقد مات في معركة روسيا وحدها ٢٤٣,٦٠٠ مقاتل بعد معاناة شديدة بينما كان قائدهم (نابليون) في مأمن يأكل أحسن الطعام وتخلّى عن جيشه هارباً إلى باريس[١٣١]. كَمْ كان لويس السادس عشر نبيلاً وإنساناً بالمقارنة به!! وكما سأل نابليون أعضاء حكومة الإدارة في سنة ١٧٩٩: ماذا فعلتم بفرنسا التي كانت متألقة يوم تركتها؟ فكذلك الآن يوجه كل البشر السؤال نفسه لنابليون:

«إن البشر جميعاً يتهمونك (أي يتهمون نابليون)، طالبين الثأر منك باسم الدين والأخلاق والحرية. أي مكان لم تنشر فيه الخراب؟ في أي بقعة من بقاع العالم نجت أسرة من

دمارك وسلبك ونهبك؟ إن اسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وروسيا تطالبك بأبنائها الذين نحرتهم وبقصورها ومعابدها وخيامها التي أضرمت فيها النار، إن العالم كله يُعلن أنك أكبر مجرم على ظهر البسيطة... إنك انت الذي أردت في عصرك الحضارة والتنوير أن تحكم بسيف أتيلا Attila وحكمة نيرون. فلتسلّم الآن صولجانك الحديدي ولتنزل الآن من فوق ركام الخراب الذي جعلته عرشاً لك! إننا نطردك كما طردت حكومة الإدارة. اذهب – إن استطعت – فعقابك الوحيد هو أن ترى الفرحة لسقوطك تعم فرنسا، وأن تتأمل وأنت تذرف دموع الغيظ – مدى سعادة الناس».

والآن من الذي سيحل محله؟ إنه ملك أتى من أسرة نبيلة، نبيل مقدّس بالمولد، نبيل في شخصيته – إنه لويس الثامن عشر، «ملك معروف بتنوّره وتحرره من الأحكام المُسَبَّقة (الظلم) وعدم اعترافه بالانتقام أي أنه متسامح «إنه ملك أتى يحمل في يده عهداً بالعفو عن كل أعدائه. يا له من أمر رائع أن نرتاح أخيراً بعد كثير من الفوضى والإزعاج وسوء الطالع في ظل السلطة الأبوية لملك شرعي.. أيها الفرنسيون.. أيها الأصدقاء.. أيها الشركاء في المعاناة، دعونا ننسى معاركنا وكراهيتنا وأخطاءنا لننقذ أرض الآباء. دعونا نتعانق فوق أطلال بلدنا العزيز.. وليساعدنا على ذلك وريث هنري الرابع Henry IV ولويس الرابع عشر.. عاش الملك»[١٣٢] وليس غريباً أن يقول لويس الثامن عشر بعد ذلك أن هذه الصفحات الخمسين كانت تساوي عنده ١٠٠,٠٠٠ جندي[١٣٣].

دعونا الآن نترك شاتوبريان للحظة. لقد كان قد انتهى دوره مع أنه بقي له من العمر ٣٤ سنة كان عليه أن يعيشها بعد ذلك. وان عليه أن يلعب دوراً فعالاً في سياسات ما بعد عودة الملكية، وكان أمامه وقت لجمع مزيد من الخليلات وانتهى أخيراً بين ذراعي مدام ريساميه التي ودّعت الجمال واشتغلت بأعمال الخير وراح يقضي وقتاً يتزايد شيئاً فشيئاً في كتابة مذكراته. والآن فإن عدوّه نابليون سجين في جزيرة بعيدة وهي نفسها – أي الجزيرة – سجينة مياه المحيط، لذا فقد كتب عنه كتابات أكثر اعتدالاً ساعد على اعتدالها مرور الوقت وما حققه (أي شاتوبريان) من انتصار. لقد كتب عنه ٤٥٦ صفحة. وعاش شاتوبريان حتى سنة ١٨٤٨ وشهد ثلاث ثورات فرنسية.

العلوم والفلسفة في ظل حكم نابليون

١- الرياضيّات والفيزياء:

شهدت العلوم عصراً من أزهى عصورها في عصر نابليون لقد كان هو نفسه أوّل حاكم في التاريخ الحديث تلقى تعليماً علمياً، وربما لم يتلق الاسكندر تلميذ أرسطو مثل هذه الخلفية العلمية العميقة التي تلقاها نابليون. لقد كان الفرنسسكان الذين علّموه في المدرس العسكرية في برين Brenne يعلمون ان العِلْم أكثر فائدة من اللاهوت لكسب المعارك، فدرَّسوا للكورسيكي الشاب كل ما كانوا يعلمونه في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والجغرافيا. وعندما وصل للسلطة أعاد التقليد الذي كان على أيام لويس الرابع عشر، بتقديم جوائز مالية وعَيْنية لمن حققوا إنجازات ثقافية وقد قدّم معظم هذه الجوائز للعلماء مستوحياً بذلك خلفيته العلمية، ومرة أخرى حذا حذو من سبقه فوسّع مجال عطاياه ليشمل غير الفرنسيين، ففي سنة ١٨٠١ دعا المعهد العلمي الفرنسي باسمه العالم أليساندرو فولتا Alessandro Volta للحضور إلى باريس ليعرض نظرياته عن التيار الكهربائي، وحضر فولتا بالفعل وحضر نابليون ثلاث محاضرات من محاضراته وقدَّم لهذا الفيزيائي الإيطالي ميدالية ذهبية(١). وفي سنة ١٨٠٨ أعطى جائزة الاكتشافات في مجالي الكيمياء الكهربيّة لهمفري ديفي Humphry Davy الذي حضر إلى باريس لتسلّمها رغم أن فرنسا وانجلترا كانتا في حالة حرب(٢). وكان نابليون يدعو بشكل دوري علماء المعهد العلمي الفرنسي ليجتمعوا به ليقدموا له تقريراً عن الأعمال التي قاموا بها أو الجاري العمل فيها في مختلف مجالات تخصصهم. وفي أحد هذه الاجتماعات، في ٢٦ فبراير سنة ١٨٠٨ تحدث سكرتير المعهد كوفييه Cuvier ببلاغة كلاسيّة رصينة كبلاغة بفوّن Buffon وكان يحق لنابليون أن يشعر أن العصر الذهبي للنثر الفرنسي قد عاد من جديد.

لقد تفوق الفرنسيون في العلوم البحتة مما جعل فرنسا أكثر الأمم عقلانية وتشكّكاً، أما الإنجليز فشجعوا العلوم التطبيقية وطوّروا الصناعة والتجارة والثروة. مما جعلهم سادة العالم

في القرن التاسع عشر. وفي الحقبة الأولى من هذا القرن التاسع عشر خطا في الرياضيات خطوات واسعة كلٌّ من لاجرانج Lagrange وليجندر Legendre ولابلاس Laplace ومونج Monge وهذا الأخير كان صديقا حميماً لنابليون واستمرت صداقتهما حتى الموت. لقد أسف لتحوّل القنصل إلى إمبراطور ولكنه تحمل ذلك بتسامح بل لقد سعد عندما جعله نابليون كونت بلوز Conte de Péluse، وربما كان بينهما سرٌّ أن البيلوزيوم Pelusium كان خرائب قديمة في مصر. وقد حزن عندما نفى نابليون إلى إلبا Elba وأظهر فرحه وسعادته علناً عند عودته. وقد أمر البوربوني العائد إلى مُلكه المعهد الفرنسي بطرد مونج، فاستجاب المعهد للطلب، وعندما مات مونج في سنة ١٨١٨ أراد تلاميذه في مدرسة البوليتقنية L'Ecole Polytechnique (التي ساعد في انشائها) في حضور جنازته لكنهم مُنِعوا من ذلك، وفي اليوم التالي ذهبوا متجمّعين إلى قبره ووضعوا باقة من الزهور.

وقد تأثر لازار كارنو Lazare Carnot بمونج عندما كان يدرس في الأكاديمية العسكرية في ميزيير Meziers. وبعد أن عمل «كمنسّق للنصر Organizer of Victroy» في لجنة الأمن العام وهروبه مع زوجته من الانقلاب الراديكالي في ٤ سبتمبر ١٧٩٧، وجد أمنه وسلواه في الرياضيات. وفي سنة ١٨٠٣ نشر كتابه «انعكاسات على ميتافيزيقيّة حساب التفاضل والتكامل Réflexion sur la métaphysique du Calcul infinitesimal» وبعد ذلك كتب مقالين آخرين وضع فيهما أسس علم الهندسة التركيبية Synthetic geometry. – وفي سنة ١٨٠٦ أحدث فرانسوا موليبه Molein ثورة في مجاله بإدخاله نظام المدخلين في علم مسك الدفاتر إلى بنك فرنسا – وفي سنة ١٨١٢ التحق جان فيكتور بونسيل Jean Victor Poncelet – تلميذ مونج – بالجيش العظيم لغزو روسيا، فتم أسره، فشغل وقته في فترة حبسه في صياغة النظريات الأساسية في الهندسة الاسقاطيّة (الإسقاط الهندسي) Projective Geometry وكان وقتها في الرابعة والعشرين من عمره.

الرياضيات هي أم العلوم ونموذجها الأمثل: فقد بدأت بالحساب وارتفعت إلى مستوى المعادلات. ومن خلال مثل هذه التقديرات الكمية دلّت الفيزياء والكيمياء المهندس على ملاحظة العالم وفهمه، وفي بعض الاحيان – كما في حالة تصميم معبد أو جسر – قد تُثمرُ

الرياضيات فنّا. ولم يكن جوزيف (يوسف) فورييه Fourier راضيا بطريقة أيرز Isère (١٨٠١) فأراد أيضا تسجيل المعلومات عن توصيل الحرارة في صياغات رياضية دقيقة. فأجرى على مراحل، تجارب في جرينوبل Grenoble وطوّر، بل واستخدم ما يعرف الآن باسم متتاليات فورييه Fourier Séries» في المعادلات التفاضلية - ولا زالت معادلات فورييه التفاضلية هذه فعالة في مجال الرياضيات ولا تزال سرا غامضا بالنسبة للمؤرخين. وقد أعلن اكتشافاته في سنة ١٨٠٧ لكنه لم يعرض منهجه ونتائج بحوثه في هذا المجال في كتابه «نظرية تحليلية في الحرارة Théorie Analytique de la Chaleur » (١٨٢٢) «الذي يعد واحداً من أكثر الكتب أهمية في القرن التاسع عشر»[٣] لقد كتب فورييه:

« أثرالحرارةموضوع لقوانين ظهرت باستمرار، ولا يمكن اكتشاف هذا الأثر دون الاستعانة بالتحليل الرياضي. وهدف النظرية التي علينا أن نشرحها هو عرض هذه القوانين وإظهارها. إن التحليل الرياضي يختصر كل البحوث الفيزيائية عن انتشار (امتداد) الحرارة في مسائل متعلقة بحساب التكامل، بعد اخضاع الانتشار الحراري للتجارب.. وهذه الاعتبارات تقدم لنا مثالاً فريدا للعلاقة الموجودة بين الرياضيات، والقضايا (أو المسائل) الطبيعية»[٤].

والأكثر إثارة هي التجارب التي أجراها جوزيف لويس جاي لوزاك Lussac بهدف قياس أثر الارتفاع عن سطح البحر على المغناطيسية الأرضية وانتشار الغازات، ففي ١٦ سبتمبر صعد في بالون إلى ارتفاع ٢٣,٠١٢ قدم، وأدت اكتشافاته التي كتب عنها تقريراً إلى المعهد العلمي الفرنسي في الفترة من ١٨٠٥ الى ١٨٠٩ إلى وضعه بين مؤسسي علم الأرصاد الجوية (الميتيورولويجا) كما أن دراساته (التي أتت بعد ذلك) عن البوتاسيوم والكلور والسيانوجين كانت تعد استمرارا لأبحاث لافوازيه وبيرثول Berthollet في جعل الكيمياء النظرية في خدمة الصناعة والحياة اليومية.

وكان الأكثر تأثيراً في العلوم الفيزيائية في عهد نابليون هو لابلاس Pierre Simon Laplace انه لم يكن يدري أنه كان أوسم رجل في مجلس الشيوخ الذي تم تعيينه فيه بعد فشله كوزير للداخلية. وفي سنة ١٧٩٦ قدّم بأسلوب متألق لكن ليفهمه العامة كتابة عن « نظام الكون Exposition du Systême du Monde» تناول فيه نظريته السديمية (نظرية

السديم الأعظم) عن أصل الكون. أما العمل الذي بذل فيه جهودا اكثر روية فهو كتابه الصادر في خمسة مجلدات «معالجة للميكانيكا الفلكية Traité de mécanique Céleste » (١٧٩٩ - ١٨٢٥). لقد وظّف التطورات في مجال الرياضيات والفيزياء لتطبيقها على النظام الشمسي - وبالتالي أخضع كل الأجسام السماوية الأخرى لقوانين الحركة ومبدأ الجاذبية.

وكان نيوتن Newton قد ذكر ان بعض ما يبدو وكأنه عدم انضباط (عدم انتظام أو عدم خضوع لقاعدة) في حركة الكواكب السيارة - قد تحدّى كل محاولاته لشرحها. فعلى سبيل المثال فإن مدار زُحل يتسع باستمرار وإن كان ببطء أو تمهل - حتى أنه إذا لم يتم وقف هذا الاتساع في المدار، فلابد أن يضيع (أي زُحل) في الفضاء اللانهائي. كما ان مدار المشتري (جوبيتر) ومدار القمر(*) ينكمشان (يضيقان) ببطء، لذا فإنه - على المدى البعيد - لابد أن تمتص (تستوعب) الشمس كوب المشتري، ولابد ان تحدث مأساة بارتطام القمر بالأرض. واستنتج نيوتن أن الله نفسه لابد أن يتدخل بين الحين والحين لتصحيح مثل هذا الخلل، لكن كثيرين من الفلكيين رفضوا هذا الفرض الباعث على اليأس باعتباره مناقضاً لمبادئ العلم والطبيعة، وذهب لابلاس إلى أن هذا التفاوت (عدم الانتظام) راجع إلى تأثيرات تُصحح نفسها بنفسها بشكل دوري وأن قليلا من الصبر (في حالة المشتري ٩٢٩ سنة) لازم لتعود الأمور لمسارها المنضبط. وانتهى إلى أنه ليس من سبب يدعونا للقول أن النظام الشمسي والنظام النجمي لن يستمرا حتى النهاية وفقاً للقوانين التي اكتشفها نيوتن ولابلاس.

لقد كانت فكرة مهيبة مرعبة، تلك الفكرة القائلة بأن الكون آلة محكوم عليها أن تستمر وفقاً لرسم بياني لا يتغير، في حركة دائمة في السماء وإلى الأبد. لقد كان لهذه الفكرة أثر هائل في تطوير النظرة الميكانيكية للعقل (النفس) وللمادة على السواء وساهمت مع أفكار داروين Darwin في تقويض أساس اللاهوت المسيحي واضعافه. فالله - كما قال

(*) المفهوم طبعاً أنّ مدار القمر حول الأرض التي هو تابع لها، وليس له مدار مستقل حول الشمس وإنما هو تابع في هذا المدار الأخير لمدار الأرض. (المترجم)

لابلاس لنابليون – لم يكن رغم كل شيء لازماً (أو لابد من وجوده كضرورة) واعتقد نابليون أن هذا الافتراض غير واضح أو أنه غائم أو غامض بعض الشيء، بل إن لابلاس نفسه أتى عليه حين بدأ فيه يتشكك فيما كان هو نفسه قد قال به في وقت من الأوقات (تراجع عن رأيه). وكان يتوقف بين الحين والحين عن بحوثه عن النظام الشمسي والنجمي ليكتب «نظرية تحليلية عن الاحتمالات Théorie analytique des probabilités» (١٨١٢ – ١٨٢٠). وفي نهاية عمره ذكر زملاءه العلماء «أن ما نعرفه قليل وأن ما لا نعرفه هائل»[٥].

٢– الطب

ويمكن للأطباء أن يتحدثوا أيضاً عن نابليون برضاً تام. وهو لم يتخلّ أبداً عن أمله في اقناع طبيبه أن العقاقير (الأدوية) ضررها أكثر من نفعها وأنهم سيعذبون يوم القيامة لأن أعداد من تسببوا في قتلهم تفوق أعداد من راحوا ضحية حروب الجنرالات. وكان الدكتور كورفيزار Corvisart الذي أحب نابليون يسمع مزاحه صابرا، وقد انتقم الدكتور أنتومارشي Antommarchi من سخرية نابليون بأن راح يعطيه حقنه شرجية إثر أخرى، وكان نابليون حال تلقيه هذه الحقن الشرجية قد اقترب من الموت، وكان الدكتور الآنف ذكره يعتقد أنه يستحق (يستاهل) هذه الحقن. ويتضح مدى تقدير نابليون لعمل الأطباء المخلصين الأكفاء من أنه أوصى بمئة ألف فرنك للجرّاح الدومنيكاني «الفاضل» لرّي Larrey (١٧٦٦ – ١٨٤٢) الذي صحب الجيش الفرنسي إلى مصر وروسيا وواترلو والذي كان يسارع لتقديم المساعدة السريعة للجرحى، وأنجز مئتي عملية بتر في يوم واحد في بورودينو Borodino وترك لنا أربعة مجلدات عن «العمليات الجراحية أثناء الحروب والمعارك Mémoires de Chirurgie militaire et Compagnes» (١٨١٢ – ١٨١٧)[١٥].

ولم يخطئ نابليون عندما اختار جان – نيكولا كورفيزار كطبيب خاص له. فقد كان استاذا للطب التطبيقي في الكوليج دي فرانس Collège de France حريصاً عند التشخيص حذراً عند وصف الدواء. لقد كان هو أول طبيب فرنسي يفحص مرضاه بذق الأصابع

Precussion (طريقة في التشخيص) – بزل الصدر – كوسيلة تشخيصية مُعيَنة في حالة أمراض القلب أو الرئتين. وكان قد قرأ عن هذه الطريقة في كتاب ليوبولد أونبرجر Leopold Auenbrugger من أهل فيينا بعنوان «طريقة جديدة للتشخيص بقرع الأصابع Inventum novum ex Percussione» (١٧٩٩) وترجم كورفيزار إلى الفرنسية هذه الدراسة المكونة من ٩٥ صفحة وأضاف إليها خبراته وشرحها في كتاب تعليمي في ٤٤٠ صفحة[٦]. وأدى نشر مقاله عن «الأمراض والآفات العضوية في القلب.. إلخ Essai sur les maladies et les lésions Organiques du Coeur et des gros Vaisseaux إلى اعتباره أحد المؤسسين الكبار لعلم التشريح الباثولوجي (المرضي) وبعد ذلك بعام انتقل إلى المقر الإمبراطوري كطبيب مقيم، واعتاد الإمبراطور الصعب أن يقول أنه لا يؤمن بالطب لكنه يعتقد في كفاءة كورفيزار[٧]. وعندما نفى نابليون في سانت هيلانة انسحب كورفيزار ليعيش مغموراً في الريف، ومات وهو باق على إخلاصه في العام نفسه الذي مات فيه نابليون (١٨٢١).

وأجرى تلميذه رينيه – نيوفيل لينك René Théophile laennec مزيداً من التجارب على طريقة الفحص بالتسمّع auscultation (الكلمة حرفيا تعني الإصغاء) وقد استخدم في محاولته الأولى اسطوانتين يوضع طرف كل منهما على جسد المريض وطرف كل منهما الآخر عند أذن الطبيب الذي يفحص بهذه الطريقة الصدر (Seeing the Chest) والمقصود يتسمَّع الصدر Stethos بأذنيه، فالأصوات الصادرة عن الأعضاء الداخلية – كما في حالة التنفس والكحّة والهضم يمكن سماعها واضحة غير مختلطة بأصوات أخرى تشوّش على معناها، ولمساعدة هذه الأداة واصل لينّي Laennee أبحاثه ولخَّص نتائجه في بحث عن استخدام طريقة التسمّع في التشخيص – Traité à l'auscultation médiate – (١٨١٩) الذي طبع طبعة ثانية في سنة ١٨٢٦ ووصف هذا المبحث في طبعته الجديدة بأنه «أهم بحث كُتب في أعضاء الصدر»[٨] وظل وصفه لمرض التهاب الرئة (ذات الرئة) مصدرا تقليدياً حتى القرن العشرين»[٩].

وكان الانجاز البارز للطب الفرنسي في هذه الفترة هو الطريقة الإنسانية في معالجة المجانين وطريقة معاملتهم. وفي سنة ١٧٩٢ عندما تم تعيين فيليب بينل Philippe Pinel مشرفاً طبياً

على البيمارستان (مستشفى الأمراض العقلية) الذي كان ريشيليو Richelieu قد أسسه في ضاحية بيكتر Bicêtre – صُدِم عندما وجد أنّ حقوق الانسان التي اعلنتها الثورة بثقة لا وجود لها بالنسبة للمرضى العقليين المحجوزين هنا أو في البيمارستان الآخر – سالبتريه Salpetrière، فكثير من النزلاء كانوا مقيَّدين بالسلاسل حتى لا يؤذوا الآخرين أو أنفسهم كما كان يتم تهدئة كثيرين منهم بِفَصْدِ دمائهم بشكل متتابع أو بتقديم أدوية منوّمة لهم، وأي نزيل جديد (ليس من الضروري أن يكون مجنونا فربما كان مزعجاً – لا غير – لأهله أو للحكومة) يُزَج به في المارستان ويُترك عُرضة للتلف البدني بتعرضه للعدوى أو المرض العقلي (النفسي) كمداً وحزناً. والنتيجة جمع من غريبي الأطوار المحدّقين بغباء اليائسين يظهرون في المناسبات للتسوّل من العامة. وقد ذهب بينل Pinel بنفسه للمؤتمر الوطني ليطلب الصلاحيات لمحاولة تخفيف الوضع. لقد فك القيود، وقلّل عدد مرات فصد الدم وعدد جرعات الأدوية (المهدئة)، وأطلق سراح المرضى في الهواء المنعش وأمر الحراس ألاّ يعاملوا المجانين كمجرمين ارتكبوا جرائم سرية حقت عليهم بسببها لعنة الله وإنما كمرضى يمكن شفاؤهم بتحسين أحوالهم ورعايتهم بصبر. وقد صاغ وجهات نظره ونظامه هذا في مبحث كُتب له البقاء بعنوان (Traité medico - philosphique sur aliènation mentale) (١٨٠١)، وكان لهذا العنوان أكثر من دلالة، إذ كان يقصد ما ذهب إليه أبقراط من أن الطبيب إذا جمع بين عِلْم العَالِم والفهم السوّي الذي يتحلى به الفيلسوف أصبح هو النموذج والمثال. قال أبقراط « الطبيب محب الحكمة مساوٍ للأرباب »[١٠].

٣- البيولوجيا (علم الأحياء)

٣ / ١ كوفييه:

بلغ كوفييه النهى وأصبح على رأس أقرانه رغم انه كان بروتستنطيا في بلد كاثوليكي، وقد شغل منصبا سياسيا رفيعا بل واصبح عضوا في مجلس الدولة (١٨١٤) فقد رفع نابليون من شأن كثير من العلماء في عهده، واحتفظ كوفييه بمكانه في مجلس الدولة في عهد البوريون العائدين للحكم وأصبح رئيساً للمجلس ونبيل فرنسا a peer of France في

سنة ١٨٣٠ . وعندما مات (١٨٣٢) كان قد حاز الشرف في كل أنحاء أوروبا باعتباره مؤسسا لعلم البالونتولوجيا (علم أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة) وعلم التشريح المقارن كما أنه جعل البيولوجيا (علم الأحياء) مفهومة للعقل الأوروبي وقادرة على تغييره .

وكان أبوه ضابطا في كتيبة سويسرية فازت بوسام الاستحقاق (الجدارة) وتزوج أبوه في الخمسين من عمره من زوجة شابة رعت بحب واهتمام ابنه من الناحيتين البدنية والعقلية (النفسية) وكان ابنه هذا هو جورج – ليوبولد – شريتي Georges Leopold - Chretien، لقد كانت تراجع واجباته المدرسية وهو طالب وتجعله يقرأ لها كلاسيّات الأدب والتاريخ، فتعلم كوفييه ان يكون فصيحا إذا كان الحديث عن الرخويات (كالمُحّار والبسيدج والحلزون . .) والديدان . وكان لديه من المال ليقدمه للأكاديمية التي كان شارلز يوجين Charles Eugène دوق فيرتمبرج Wurttemberg قد أسسها في ستوتجارت Stuttgart حيث يقوم ثمانون معلماً بتعليم أربعمائة طالب مختار . وفي هذه الأكاديمية فُتِنَ لفترة بكتابات لينوس Linnaeus وفُتِن بشكل دائم بكتاب بوفون Buffon : التاريخ الطبيعي Histoire naturelle . وتخرّج من الأكاديمية وحصل منها على كثير من الجوائز لكن لم يكن لديه أي إرث يُتيح له تموين مزيد من الدراسة فعمل معلّما خصوصياً لدى أسرة تعيش بالقرب من فيكامب Fecamp على القنال الإنجليزي . وجذب اهتمامه بعض الأحفورات (البقايا المتحجرة من عصور جيولوجية سالفة) قد ظهرت عليها – بكل معنى الكلمة – بقايا حياة نباتية وحيوانية لعصور ما قبل التاريخ . كما فتنته بعض الأصداف (المحارات) المتجمعة من البحر بتباين تكوينها الداخلي وأشكالها الخارجية حتى أنه اقترح من خلالها تصنيفا جديداً للكائنات الحيّة وفقاً لتركيبها واختلافها أو بتعبير آخر وفقاً لطبيعة تكوينها واختلاف كل نوع منها عن النوع الآخر . ومن هذه البداية طوّر معلومات عن الاحفورات وأشكال الحياة لم يكن لها نظير قبله وربما لم يحدث بعده أن ظهرت معلومات على الدرجة نفسها من القيمة . لقد عكف بشغف وحب استطلاع ودأب لا يكلّ ولا يمل .

ووصلت أخبار عن علمه وتطبيقاته إلى باريس وحظي بتوصيات مفيدة من أولئك الذين

سينافسونه مستقبلا، سانت هيلار Saint - Hilaire ولامارك Lamarck وجعلته هذه التوصيات ينال استاذية علم التشريح المقارن وهو في سن السابعة والعشرين (١٧٩٦) في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي. ونشر وهو في الواحدة والثلاثين كتاباً يُعد واحداً من كلاسيّات العلوم في فرنسا « دروس في علم التشريح المقارن Leçons d'anatomie Comparée » وحتى الثالثة والثلاثين أصبح أستاذا أساسيا (باحثاً معترفاً به) في حديقة النباتات (جاردين دي بلانت Jardin des Plantes)، وفي الرابعة والثلاثين أصبح « سكرتيراً دائماً » (أي مديراً تنفيذياً) لقسم العلوم الفيزيائية والطبيعية في المعهد الوطني. وفي هذه الأثناء (١٨٠٢) كثرت أسفاره كمندوب للمعهد في مهمة إعادة تنظيم التعليم الثانوي.

ورغم واجباته كمعلّم وإداري فقد واصل أبحاثه مستعيناً ببعض المتعاونين معه لدراسة وتصنيف كل أنواع النبات والحيوان التي حفظت الأحفورات بقاياها أو التي لاتزال حيّة تدب على الأرض أو تعيش في البحر. وكتابه « التاريخ الطبيعي للأسماك Histoire naturelle des Poissons » (١٨٢٨ – ١٨٣١) يصف لنا خمسة آلاف نوع من السمك. وأبحاثه عن « أحفورات ذوات الأربع Recherches sur les fossiles des quadrupèdes » (١٨١٢ – ١٨٢٥) تكاد تكون قد أوجدت علم أحفورات الثدييات. إنّ هذا البحث يضم وصف كوفييه للفيل الأول الغامض وقد أسماه الماموث mammoth والذي تم العثور على بقاياه (١٨٠٢) مدفونة تحت كتل جليدية ظلت متجمدة بشكل دائم في سيبيريا وظلت محفوظة بشكل جيد حتى أن الكلاب أكلت من لحمها بعد إذابة الجليد الذي فوقها[١١]. وفي واحد من مجلداته هذه شرح كوفييه مبدأه العلمي عن اتصال الأجزاء» وعن طريق هذا المبدأ فكر في اعادة بناء نوع محدّد بدراسة عظمة واحدة تكون باقية من أحد أفراده (أي أفراد هذا النوع).

« كل فرد سوي (المقصود فرد من النوع أياً كان هذا النوع) يكوّن نظاماً (نسقاً) كاملا، فكل أجزائه تتواصل بشكل طبيعي، وتعمل في الوقت نفسه لتحقيق هدف محدّد بعينه عن طريق ردود فعل تبادلية، أو عن طريق العمل المشترك الذي يصل إلى غاية واحدة. ومن هنا فإن أيّاً من هذه الأجزاء المنفصلة لا يمكن أن يُغيِّر شكله دون تغيير يتم بالاتفاق مع

الأجزاء الأخرى في الكائن الحي نفسه (الحيوان) وعلى هذا فإن كل جزء من هذه الأجزاء، - إذا تمت دراسته بشكل منفصل - يشير إلى كل الأجزاء الأخرى في الكيان (الفرد) الذي ينتمي إليه. وعلى هذا... إذا كانت أمعاء حيوان منضبطة لتكون ملائمة فقط لهضم اللحوم الطازجة، فإن هذا يتطلب أن يكون الفكّان مهيّأين لالتهام الفريسة وأن تكون الأسنان مهيّأة لتقطيع لحمها، وأن يكون نظام الأطراف كله، أو سائر أعضاء الحركة مهيّأة لتتبّع الفريسة وإدراكها، وأن تكون الحواس مهيّأة لاكتشافها - أي الفريسة - عن بُعد.. وإذا كنا قد استنتجنا كل ذلك من دراستنا للأمعاء، فالأمر أيضاً ينطبق على المخالب والعظام الكتفية والنتوءات المفصلية وعظم الذراع أو أي عظام منفصلة، فكل هذه الأجزاء تمكننا من اكتشاف وصف الأسنان في الحيوان الذي تنتمي إليه، وعلى نحو تبادلي يمكننا أن نعرف عن عظام هذا الكائن بدراسة أسنانه. وعلى هذا فإن بدأنا دراستنا بتمعّن عظمة واحدة من الكائن الحي أمكننا ان كنا على قدر كافٍ من العلم بالتكوين العضوي للحيوان، إعادة تشكيل أو تكون (أو تصور) هذا الكائن الحي - الذي أتت منه هذه العظمة - بشكل كامل»(١٢).

وفي سنة ١٨١٧ ومن خلال عمله في ماموث آخر قدّم لنا كوفييه في مبحثه L'arène animal distribué d'après son organisation تصنيفه للحيوانات في فقاريات، ورخويات ومفصليات واشعاعيات radiates وعمد إلى شرح تعاقب طبقات الأحفورات بإرجاعها إلى انقراض مئات الأنواع بسبب اضطرابات أرضية شديدة. أما عن أصل الأنواع فقد قبل النظرة التقليدية السائدة وقتئذ والتي مؤدّاها أن الله خلق كل نوع على حدة (أي لم يتطور نوع من نوع آخر) لأن تباينها ناتج عن التوجيه الإلهي ليتلاءم كل كائن عضوي مع بيئته، وأن هذا التباين بين الأنواع لا يمكن أن يُنتج أنواعاً جديدة. ولقد انشغل كوفييه في مناقشة هذه الأمور وغيرها طوال عامين قبل وفاته، وكانت مناقشاته قد حققت شهرة كبيرة بدت لجوتة أهم أحداث التاريخ الأوروبي في سنة ١٨٣٠. وكان إتين جيوفروي سانت هيلار Etienne Geoffroy Saint Hilaire هو مناوئه ممن بقوا على قيد الحياة قد بنى نظريته على تحوّل العضو الحي وتطور الأنواع معارضاً بذلك كافييه الذي لايزال أعظم علماء البيولوجيا (علم الأحياء).

٣/ ٢ لامارك

من السهل أن نحب لامارك لنضاله ضد الفقر في شبابه، ولنضاله في فترة نضجه ضد كافييه الذي حقق شهرة عالمية، ولنضاله ضد العمى والفقر في شيخوخته، وأكثر من هذا لأنه ترك لنا نظريته عن أسباب التطور وطرائقه، تلك النظرية الأكثر قبولا لرقتها وتخلّصها الرفيق من نظرية الاختيار الطبيعي القاسية التي قدمها لنا دارون المهذب.

ومثل معظم الفرنسيين حمل لامارك جيشاً من الاسماء. انه جان – بابتست – بيير – أنطوان دي مونت – فارس لامارك Jean - Baptiste - Pierre - Antoine de Monet, Chevelier de Lamarck وكان الابن الحادي عشر لأب عسكري استطاع تدبير مناصب عسكرية لكل أبنائه ما عدا الأخير الذي أرسله إلى كلية من كليات الجزويتيين (اليسوعيين) في اميان Amiens . . . وغار من اخوته بأسلحتهم وخيولهم فترك الكلية فأنفق مخصصاته في شراء حصان هَرِم وانطلق إلى إسبانيا محارباً. لقد حارب ببسالة، لكن مجاله البطولي انتهى بجرح في رقبته أثناء مباريات في المعسكر، وكانت هزيمته في المباراة مخزية، فذهب ليعمل ككاتب في بنك ودرس الطب وقابل روسّو واهتم بالنباتات وراح يتتبعها ويدرسها طوال تسع سنين ونشر في سنة ١٧٧٨ كتابه عن النباتات في فرنسا Flore française وقَبِلَ بعد أن أوشكت موارده الاقتصادية على النفاد أن يعمل كمعلم خصوصي لأولاد بوفون Buffon، ولو حتى مقابل انتهاز فرصة مقابلة هذا العجوز المخضرم. وعندما مات بوفون Buffon (١٧٩٩) قبل لامارك عملاً متواضعاً كأمين لمخزن الأعشاب في الحديقة الملكية Jardin du roi (جاردين دي روي) في باريس وبعد اقالة الملك تحول اسمها بناء على اقتراح لامارك إلى حديقة النباتات. ولأن الحديقة كانت تضم أيضاً مجموعات حيوانية فقد أطلق لامارك مصطلح البيولوجيا على العلم الذي يدرس كل الأحياء من نبات وحيوان.

وكلما اتسعت دائرة اهتمامه لتشمل الحيوانات إلى جانب النباتات، ترك دراسة الفقاريات لكوفييه وأخذ على عاتقه دراسة الحيوانات التي ليس لها عمود فقري وأطلق عليها اسم اللافقاريات invertébrés. وبحلول عام ١٨٠٩ توصّل لأفكار أصلية فشرحها في مبحثيه: نظام اللافقاريات Système des animaux sans vertébres» و« فلسفة عالم الحيوان

Philosophie Zoologique ». ورغم تدهور قدرته على الإبصار، فقد واصل دراساته وكتاباته مستعيناً باخته الكبرى وبيير أندريه لاتريل Pierre André Latreille. وفي الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٢٢ أصدر تصنيفه النهائي والنتائج التي توصّل إليها في كتابه الضخم: «التاريخ الطبيعي للافقاريات Histoire naturelle des animaux sans vertébrés» وبعد ذلك أصابه العمى تماماً وأصبح عاطلاً عن العمل يكاد يكون معدوما. لقد كانت حياته ضريبة ثقيلة دفعها لقاء شجاعته، وكانت حالُه في شيخوخته عاراً لحكومته.

وبدأت فلسفته في علم الحيوان (أو بتعبير آخر إقامته على أسس عقلية) بتأمله التغيّر الدائم (الذي لا ينتهي) والغامض في أشكال الحياة. فكل فرد يختلف عن كل الأفراد الأخرى (فرد بمعنى واحد من جنس أو نوع من الكائنات الحية)، ومن بين أي نوع يمكن أن نجد فروقاً دقيقة تجعل من الصعب – وربما من عدم الدقة – أن نفصل النوع عن جيرانه الأقرب إليه شبها ونَسَبا سواء من حيث الشكل أو الوظيفة، وانتهى لامارك إلى أن «النوع» هو فكرة مجرَّدة أو مجرد مفهوم، أما في الحقيقة فليس هناك إلاّ موجودات فُرادى أو أشياء فُرادى أما الأقسام والفروع والأنواع التي نجعلها اطارا نجمع تحتها الأفراد أو نصنِّفهم من خلالها فما هي إلاّ أدوات فكرية (عقلية) تساعدنا على التفكير فيما هو متشابه.

لكن كيف ظهرت هذه «الأنواع» المختلفة من نبات وحيوان؟ هنا يجيبنا لامارك بالقانونين التاليين:

القانون الأول : في كل حيوان مازال في حالة تطور نجد أن العضو الأكثر استخداما والأكثر اعتماداً عليه، يقوى تدريجيا ويتطور وينمو بمرور الوقت، بينما العضو الذي لا يستخدم باستمرار يضعُف ويتقلص تدريجيا وينتهي الأمر باختفائه. (قانون الاستعمال والإهمال).

القانون الثاني: كل شيء أرادته الطبيعة أفرادا كي يكتسب بتأثير الظروف التي يمر بها «جنس» أو «نوع» هؤلاء الأفراد «صفات» بطول التعرض لهذه الظروف، أو يفقد بتأثير هذه الظروف نفسها «صفات» أخرى، وعلى هذا فتأثير الاستخدام السائد (المهيمن أو الغالب) للعضو أو بتأثير عدم استخدامه ينتقل بالوراثة إلى أفراد جديدين ينحدرون منه، والتغييرات

الحادثة نتيجة الظروف السابقة تشمل الذكر والأنثى أو بتعبير آخر تشمل أولئك « الأفراد » الناتجين من أصلاب السابقين »[١٣].

وكان القانون الأول واضحاً. فذراع الحداد تنمو لتصير أكبر وأقوى بسبب كثرة الاستخدام، ورقبة الزرافة تطول بسبب جهدها في الوصول إلى الأوراق العلوية للأشجار، وحيوان الخُلْد mole أعمى لأن حياته بشكل مستمر في الجحور تجعل عينيه لا تستخدمان. وفي كتاباته الأخيرة قسّم لامارك قانونه الأول إلى عنصرين مكمِّلين: الظروف البيئية أو (التحدي) وحاجة الكائن الحي ورغبته التي تحث جهوده لتحقيق الاستجابة المطلوبة كتدفق الدم في الحيوان أو العصارة في النبات إلى العضو المستخدم. وهنا حاول لامارك أن يجد إجابة للسؤال الصعب التالي: كيف تنشأ هذه الاختلافات؟ لقد أجاب كوفييه Cuvier عند هذا السؤال قائلا أن الله سبحانه يتدخل بشكل مباشر لإحداث هذا التغيير، أما دارون فذهب إلى أن هذا يتم من خلال « اختلافات تصادفية » أي تتم بالصدفة، ولا نعرف سببها. أما لامارك فقال بأن التغييرات تنشأ من حاجة الكائن الحي ورغبته وجهده الدائم لمواجهة الظروف البيئية. وقد لاقى هذا التفسير ترحيبا من علماء النفس المعاصرين الذين ركّزوا على الفعل الإبداعي للإرادة.

لكن قانون لامارك الثاني ووجه بآلاف من الاعتراضات. فقد رفضه البعض على أساس أن الختان عند الشعوب السامية وهو عادة تُمارس منذ القديم لم تؤد إلى ظهور مواليد مختونين بالطبيعة، والأمر نفسه بالنسبة لضغط القدم عند الصينيين لم تؤد إلى ظهور مواليد ذوي أقدام صغيرة (رغم أن العادة تُمارس من قديم)، وهذا ينفي وراثة الصفات المكتسبة التي قال بها لامارك، لكن مثل هذه الاعتراضات التافهة فشلت – بطبيعة الحال – في ادراك ان هذه العمليات كانت ذات أبعاد خارجية متعدّدة الجوانب وليست بأية حال منطوية على حاجة داخلية أو نتيجة جُهد داخلي مبذول. وفشلت بعض الاعتراضات الأخرى لفشلها في إدراك معنى « المدى الزمني الطويل » المطلوب لكي تُحدث الظروف البيئة أثرها بإحداث تغيير في (الجنس) أو (النوع) وقد وافق كل من دارون، وهربرت سبنسر – وفقاً لهذه الشروط: طول المدى الزمني، والجهد الداخلي المبذول – على امكانية توريث

« الصفات المكتسبة »، وكان هذا لصالح نظرية التطور، والمقصود بالصفات المكتسبة العادات أو التغيرات العضوية التي تتطور بعد الميلاد. واتخذ ماركس وانجلز موقفاً مؤيداً لمبدأ التوريث (البيولوجي) هذا وعولا على بيئة أفضل « لانتاج » إنسان أفضل، وظل الاتحاد السوفياتي لفترة طويلة يعتبر اللاماركية جزءا من عقيدته المحدّدة. وفي حوالي سنة ١٨٨٥ صفع أوجست فيسمان August Weisman نظرية لامارك صفعة قوية بأن أعلن أن البلازما germ plasm » (الخلايات التي تحمل الصفات الوراثية) محصّنة ضد التغييرات في الجسد المحمي (المغطّى enveloping body) فهذا الجسد وفقاً للتعبير العلمي سوما بلازم Somaplasm وبالتالي لا يمكن أن يتأثر (يتغير) بالخبرات الحادثة بعد الولادة. لكن هذا الزعم أصبح غير صحيح عندما وجدت بعض الكروموزومات Chromosomes (المورثات) في الخلايات البدنية، وخلايا البلازما، لقد أعادت التجارب - بشكل عام - التشكيك في نظرية لامارك(١٤)، لكن أخيراً ظهرت بعض الأدلة في البارامیسیوم Paramecium وبروتوزوا Protosoa أخرى تؤيد التغير أو التحوّل الذي قال به لامارك(١٥)(*). وربما ظهرت أمثلة أخرى تؤيد نظريته إذا أمكن أن تستمر التجارب على مدى الأجيال المتعاقبة، فمعاملنا تعاني من عدم إمكانية استمرار التجربة لفترة طويلة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للطبيعة.

٤- ما هو العقل؟

كان تركيز لامارك على الشعور بالحاجة وعلى الجهد المتواصل كعوامل لرد الفعل العضوي متناسقا مع تراجع علماء السيكولوجيا (علم النفس) في المعهد العلمي الفرنسي عن النظر للعقل كآلة ليس لها حق المبادرة وإنما هو استجابة لأحاسيس خارجية وداخلية. وقد استخدم علماء النفس كلمة « فلسفة » عند تلخيص ما توصّلوا إليه. فالفلسفة لم تنفصل بعد تماما عن العلم، والحقيقة أن الفلسفة قد تكون - بالضبط - هي خُلاصة العلم إذا نجح العلم في أن يكون مطابقاً للعقل (المنطقة) وكان واعيا لصياغة مناهج فروضه، وتطبيق ملاحظاته (مشاهداته) وإحكام تجاربه وصياغاته الرياضية ذات النتائج التي يمكن اثباتها

(*) يردد العلماء الآن أن الصفة التي يرثها الكائن الحي من ابويه تاتي عن طريق الخلايا الجنسية.

والتحقق منها لكن هذا الوقت لم يكن قدأتى بعد واعتبر سيكلوجيو (علماء نفس) القرن التاسع عشر أنفسهم هم الذين عليهم أن يجدوا المبررات المنطقية أو الأسس الفعلية للأمور التي لازالت بعيدة عن مطال العلم وأدواته.

ورغم معارضة نابليون، استمر الأيديولوجيون(*) idéologues طوال عقد من الزمان يهيمنون من خلال تدريس الفلسفة وعلم النفس في المعهد العلمي الفرنسي. وكان عدوّه اللدود his bête noire في المعهد العلمي هو أنتوان ديستوت، دي تراسي Antoine Destutt De Tracy المهيّج حامل شعلة حسيّه كونديلاس Condillac's sensationism طوال سنوات الحكم الإمبراطوري. وتم إرساله كمندوب جماهيري إلى مجلس الدولة في سنة ١٧٨٩ فعمل على اصدار دستور ليبرالي وهو الذي صدر بالفعل في سنة ١٧٩١، لكن في سنة ١٧٩٣ اعتراه سخط وخوف بسبب وحشية الجماهير وإرهاب «اللجنة الكبرى» فابتعد عن السياسة واشتغل بالفلسفة. ففي ضاحية أوتيل Auteuil انضم لمجموعة جذابة متحلقة حول مدام هيلفيتيوس Helvetius الجميلة أبدا، وهناك تعرض للتأثيرات الراديكالية لكل من كوندرسيه Condercet وكاباني Cabanis. وأصبح عضواً في المعهد العلمي فكانت له السيادة في القسم الثاني المخصص للفلسفة وعلم النفس وفي سنة ١٨٠١ بدأ في نشر أجزاء من كتابه عناصر الأيديولوجيةEléments de l'idéologie وأتم نشره في سنة ١٨١٥. وقد عرّف الأيديولوجية بأنها دراسة الأفكار على أساس حسِّية كونديلاس.. أو المذهب الحسي القائل بأن كل الأفكار نابعة من الحواس أو مشتقّة منها. وهذا - فيما اعتقد - قد يبدو غير حقيقي فيما يتعلق بالأفكار العامة والمجردة كالفضيلة والدين والجمال أو الإنسان، لكن عند التعامل مع مثل هذه الأفكار يجب أن «نفحص الأفكار الأساسية التي تم استخلاصها منها، وأن نعود إلى الإدراك الحسّي البسيط الذي انبثقت منه»[١٦] وظن ديستوت Destutt أن هذه الدراسة الموضوعية يمكن أن تُزيح الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعية) من مكانها، وتُنهي حكم كانط Kant. وإذا لم نستطع أن نصل إلى نتيجة محدّدة بهذه الطريقة «علينا أن ننتظر وأن نُرجئ الحكم وأن نحاول توضيح أننا - حقيقة - لا ندري»[١٧]. هذه اللاأدرية المحكمة لم

(*) أو المنظّرين وكانت الكلمة تنطوي على سخرية وسبق تناول معناها في ضوء الظروف التاريخية بالتفصيل. (المترجم)

تُعجب نابليون اللاأدري ذلك أن نابليون في هذا الوقت كان يرتب أمور الوفاق (الكونكوردات) مع الكنيسة. وصنّف ديستوت - دون أن يأبه لاعتراض - الأيديولوجيا (ويقصد السيكولوجيا) باعتبارها أحد أقسام علم الحيوان Zoology، وعرَّف الوعي بأنه إدراك الحواس (إدراك حسّي) وعرّف الحكم Judgement (أي التمييز الإدراكي) بأنه الاحساس بالعلاقات، وعرّف الإرادة بأنها حاسّة الرغبة. فكما أن المثاليين (أصحاب المذهب المثالي) نافحوا عن فكرة أن الحواس لا تُثبت بطريق لا تحتمل الشك وجود العالم الخارجي، فإن ديستوت كان يعني المشاهد والأصوات والروائح والطعم لكنه أصرّ على أنها قد تدرك على سبيل اليقين وجود العالم الخارجي عن طريق اللمس والوجود والحركة، فكما سبق أن قال الدكتور جونسون Johnson أننا نستطيع أن نحسم هذه المسألة بركل حجر.

وفي سنة ١٨٠٣ ألغى نابليون القسم الثاني في المعهد العلمي فوجد ديستوت دي تراسي نفسه بلا مدرّج يلقي فيه محاضراته وبلا طابع ولم يكن قادرا على الحصول على تصريح لنشر كتابه «ملاحظات على روح القوانين لمنتسكيو» فأرسل مخطوطة الكتاب إلى توماس جيفرسون Thomas Jefferson رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي أمر بترجمته للإنجليزية وطُبع في سنة ١٨١١ دون الإشارة لاسم مؤلفة[١٨]. وعاش ديستوت حتى بلغ الثانية والثمانين، وأصدر في أواخر عمره بحثاً عن الحب De L'Amour (١٨٢٦).

بدأ مين دي بيران Maine de Biran (Marie - François - Pierre Gauthier de Biran) عمله في مجال الفلسفة بعرض فلسفته الحسية Sensationism بغموض ضَمِن له الشهرة[*]. لقد بدأ عسكرياً وانتهى صوفيا (باطنيا). في سنة ١٧٨٤ التحق بالحرس الملكي للويس السادس عشر وساعد في الدفاع عنه ضد «كتيبة النساء الرهيبة»[٢٠] التي حاصرت الملك والملكة في فرساي في الخامس والسادس من أكتوبر سنة ١٧٨٩. ولما أصابه الرعب من الثورة عاد إلى عقارٍ له بالقرب من برجراك Bergerac. وتم انتخابه للمجلس التشريعي في سنة ١٨٠٩ وعارض نابليون في سنة ١٨١٣ وأصبح مسؤولاً عن خزانة مجلس النواب في عهد لويس الثامن عشر. وكانت كتاباته عملاً إضافياً إلى جانب مهمته

(*) قال تين Taine «إن رداءة أسلوبه جعلت منه رجلاً عظيماً.. فلو لم يكن غامضاً لما اعتقدنا أنه عميق»(١٩).

السياسية، ولكنها رفعت شأنه بين الفلاسفة الفرنسيين في عصره وجعلته في مكان الصدارة، وحقق شهرة سنة ١٨٠٢ بفوزه بالجائزة الأولى في مسابقة موّلها المعهد العلمي. وبدت مقالته «أثر العادة في القدرة على التفكير L'influence de L'habitude Sur les facultés de penser» تنهج نهج وجهات النظر الحسية التي قال بها كونديلاس Condillac بل وحتى السيكولوجيا الفسيولوجية (علم النفس الفسيولوجي) التي قال بها ديستوت دي تراسي Destutt de Tracy. لقد كتب أن «طبيعة الفهم ليست أكثر من مجموع العادات الرئيسية للعضو المركزي الذي لابد من اعتباره الحاسة الجامعة للإدراك»(٢١) وفكر في أن المرء قد يفترض أن «أي تأثير (انفعال) في الحقيقة ممثل في المخ بحركة عن طريق الألياف العصبية»(٢٢) لكن مع الاستطرد ابتعد عن هذه الفكرة التي تعني أن العقل ليس أكثر من جامع لحواس الجسم، فقد بدا له أنه عند بذل الجهد للانتباه أو جمع الإرادة «يصبح العقل فعّالاً، وفاعلاً أصيلاً وليس مجرد اختصار لأي تجميع لإشارات الحواس».

واتسعت هوّة الخلاف مع الأيدلوجيين في سنة ١٨٠٥ بنشر مبحث «مذكرات عن تحليل التفكير Mémoire sur la décomposition de la pensée» الذي يتفق مع رجوع نابليون للدين. لقد برهن مين دي بيران على أن الجهد المبذول لتحقيق الإرادة يُظهر أن روح الإنسان ليست مجرد ترداد سلبي لحواسه وإنما هي إيجابية وذات قوة إرادية كاملة. إنها الجوهر الحقيقي للنفس، فالإرادة والذات (الأنا ego) شيء واحد. (شوبنهور سيركز على هذه الإرادية Voluntarism في سنة ١٨٠٩ وستستمر في الفلسفة الفرنسية لتأخذ شكلاً متألقاً عبقرياً على يد بيرجسون Bergson). هذه الإرادة المبذولة بجهد بالإضافة للعوامل الأخرى هي التي تقرر الفعل، فيصبح الإنسان حر الإرادة Free will (قضاؤه وقدره في يده) وبالتالي لا يصبح مجرد آلة لا معنى لها. هذه القوة الداخلية هي حقيقة روحية وليست مجرد تجميع لخبرات الحواس والذكريات. وليس هناك شيء مادي عنها، ولا نعرف لها حيزا أو مكانا. حقيقة – كما يقول مين دي بيران – ربما كانت كل القوى – على هذا النحو – غير مادية ولا يمكن فهما إلا – بالقياس التمثيلي – للإرادة نفسها. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه

كان ليبنتز Leibniz على حق في وصف العالم (الكون) بأنه مجموعة من عناصر الوجود الأولية monads مركبة ومتصارعة، وكل منها يمثل محوراً أو مركزاً لقوة Force وإرادة Will وذاتية individuality .

وربما كانت حياة مين دي بيران الموزّعة بين السياسة والفلسفة بالاضافة الى المشاركات الحية في اللقاءات الأسبوعية في المعهد العلمي مع كل من كوفييه، وروييه كولار - Rouer Collar وأمبير Ampère وجيزو Guizot وفكتور كوزي Victor Cosin، قد أصبحت حياة خصبة وشاقة، فتدهور صحته قربت حياته القصيرة البالغة ثمانية وخمسين عاما من الانتهاء، فتحول من التفكير العقلي الواسع المدى إلى الإيمان الديني الهادئ وأخيراً إلى الصوفية (التأمل الباطني) التي انتشلته من آلام العالم. لقد قال إن الإنسان لابد أن يترقّى من المرحلة الحيوانية الحسّية إلى المرحلة الإنسانية حيث الإرادة الحرة الواعية ليذوب في الوعي بالله وحبة.

٥- أصوات محافظة

لقد أضعف مفكرو القرن الثامن عشر الحكومة الفرنسية بتشكيكهم في مصداقية الكنيسة وموقفها الأخلاقي وبدعوتهم إلى الاستبداد المتنّور (فكرة المستبد العادل) للتخفيف من شرور الجهل، وعدم الكفاءة والفساد والظلم والفقر والحرب. وقد أجاب فلاسفة بواكير القرن التاسع عشر على هؤلاء « الحالمين » بالدفاع عن ضرورة الدين وحكمة التراث وسلطة الأسرة ومزايا الملكية (بفتح الميم واللام) الشرعية والحاجة الدائمة لأسيجة (حدود سياسية) وأخلاقية واقتصادية لمواجهة طوفان الجهل والطمع والعنف والبربرية وزيادة السكان عن المعدّل المطلوب.

هناك رجلان في هذه الفترة أدانا بغضب دعوة القرن الثامن عشر للتحول من الإيمان إلى العقل ومن التراث للتنوير. ولد الفيكونت لويس جبريل امبرواز دي بونال - Vicomte Louis Gabriel - Ambroise de Bonald (١٧٥٤) في أسرة تنعم بالرخاء ودرس في ظل الأمن والطاعة والتقوى. واعترته الدهشة لأحداث الثورة الفرنسية وأصبح مهدّداً فهاجر إلى ألمانيا

وانضم لفترة إلى جيش الأمير كوندي Condé المعادي للثورة لكنه امتعض من فَوْضاه الانتحارية، فتراجع إلى هيدلبرج Heidelberg ليواصل حربه بقلمه المتحفّظ (المنضبط) ففي كتابه الذي تناول فيه إمكانات السياسة والدين Théorie du pouvoir Politique et religieux (١٧٩٦) دافع عن المَلَكِيّة المطلقة وعن الأرستقراطية المتوارثة وعن السلطة الأبوية في الأسرة وعن سلطان الباباوات الديني والمعنوي على كل ملوك العالم المسيحي وأدانت حكومة الإدارة هذا الكتاب لكنها سمحت للمؤلف بالعودة إلى فرنسا (١٧٩٧). وبعد فترة التزم فيها الحذر واصل هجومه الفلسفي بنشره مقالاً بعنوان: «مقال تحليلي عن القوانين الطبيعية للنظام الاجتماعي» (١٨٠٠) ورحب نابليون بدفاعه عن الدين كضرورة للحكومة، وعرض عليه عضوية مجلس الدولة فرفضها، ثم قبل في سنة ١٨٠٦ قائلاً إن الله هو الذي عيّن نابليون ليُعيد الإيمان الحق[٢٣].

وبعد عودة الملكية شغل سلسلة من الوظائف العامة، وأصدر سلسلة من البيانات المتحفّظة، المتوهّجة حماساً إلاّ أنها كانت غبيّة. لقد عارض الطلاق وعارض حقوق المرأة باعتبارها مدمّرة للأسرة والنظام الاجتماعي وأدان حرية الصحافة باعتبارها تشكل تهديداً لاستقرار الحكومة ودافع عن الرقابة وعقوبة الإعدام واقترح الحكم بالإعدام على كل من يجدِّف (يسخر من) الأواني (الكؤوس) المستخدمة في طقوس العبادة الكاثوليكية[٢٤]. وابتسم المحافظون لإمعانه في الحماسة وتمسكه الشديد بالأصولية (المفهوم انهم ابتسموا ساخرين)، لكنه لقي ترضيةً بمراسلاته مع جوزيف (يوسف) دي ميستر de Maistre الذي أرسل له من سان بطرسبورج St. Petersburg ما يفيد تأييده الكامل له، ونشر هذا الأخير بعد ذلك مجلدات لابد أنها أسعدت بونال Bonald وأهاجت فيه ميلهما الكامل للمحافظة، والتزام الأسلوب المتألق.

ولد ميستر Maistre في سنة ١٧٥٣ في شامبري Chambéry التي علّمت فيها مدام دي وارن de Warens روسّو فن الحب قبل ذلك بعشرين عاماً. وباعتبار شامبري عاصمة لدوقية سافوي فقد كانت تابعة لملوك سردينيا، وعلى أية حال فإن أهل سافوي كانوا يتكلمون الفرنسية كلغة وطنية وتعلّم جوزيف أن يكتب الفرنسية بحيوية وقوة بشكل جعل أسلوبه

قريباً من أسلوب فولتير. وكان أبوه رئيساً لمجلس شيوخ سافوي وأصبح هو نفسه عضواً في هذا المجلس في سنة ١٧٨٧، إذن لقد كان لديه هو وأبوه أسبابٌ تجعلهما يدافعان عن الوضع الراهن، أسباب أكثر من كونها فلسفية. وإذا كان جوزيف ابناً لأبيه سياسياً (المقصود يذهب مذهب أبيه في السياسة) فقد كان ابناً لأمه عاطفياً فقد نقلت إليه الولاء الحار للكنسية الكاثوليكية. لقد كتب في فترة لاحقة «لا شيء يمكن أن يحل محل ما يتلقاه المرء من تعليم على يد أمه»(٢٥) وتلقى تعليمه على يد الراهبات والقسس ثم في الكلية الجزويتية (اليسوعية) في تورين Turin، ولم يفقد حبه أبداً لهؤلاء القسس والراهبات، وبعد مغازلة – لم تَطُل – للماسونيين Freemasonary قبل بشكل تام نظرة الجزويت (اليسوعيين) والتي مؤدّاها أن الدولة يجب أن تكون تابعة للكنيسة وأن الكنيسة يجب أن تكون تابعة للبابا.

وفي سبتمبر سنة ١٧٩٢ دخل جيشُ الثورة الفرنسية سافوي Savoy وفي نوفمبر من العام نفسه تم إلحاق الدوقية بفرنسا. لقد تركت هذه الصدمة التي أعادت تقديم كل الأمور على أسس جديدة – القيَم والكلاسيّات والسلطات والعقائد – ميستر Maistre، في حالة من البغض والكراهية عكَّرت مزاجه وجعلت حياته قاتمة، وأثَّر ذلك في كتبه وجعل أسلوبه حاراً مُفْعماً، لقد هرب مع زوجته إلى لوزان وأصبح مراسلاً رسمياً لملك سردينيا شارلز عمانوئيل الرابع Charles Emmanuel وكان يجد بعض السلوى في تردّده على صالون مدام دي ستيل بالقرب من كوبت Coppet، لكن المفكرين الذين قابلهم عندها – مثل بنيامين كونستانت (قسطنطين) بَدوْا له وقد أصابتهم عدوى التشكّك المخزي الذي ساد فرنسا في القرن الثامن عشر. حتى المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثْر أحداث الثورة الفرنسيّة) المحتشدين في لوزان كانوا مدمنين على قراءة فولتير، واعترت الدهشة ميستر Maistre لعدم وعيهم فقد كان يرى أنَّ معاداة الكاثوليكية ستقوّض كل أساسات الحياة في فرنسا بإضعافها السّند الديني للقيم والأخلاق والأسرة والدولة. ولأنه قد غدا كبير السن لا يستطيع حمل السلاح ضد الثورة فقد قرر أن يحارب بقلمه غير المؤمنين (بالكاثوليكية) والثوريين. لقد مزج النّقد اللاذع بحبر قلمه وترك أثره كعلامة في هذا القرن. ولم يتفوق عليه – في عصره – في نزعته

المحافظة تلك سوى إدموند بورك Edmund Burke .

وعلى هذا فقد أصدرت له إحدى مطابع نيوشاتل Neuchatel « ملاحظات حول فرنسا Considérations sur la France » ذكر فيه أن حكومة لويس السادس عشر كانت متذبذبة متردّدة تُعْوِزها الكفاءة وأن الكنيسة الفرنسية تحتاج اصلاحاً[٢٦] . لكن أن نُغَيِّر شكل الدولة وسياساتها ونهجها بمثل هذه السرعة وهذا التهوّر يعني أن نُضَلل جهل المراهق (غير الناضج) الذي لا يفهم الأسس العميقة لفن الحكم. لقد اعتقد أنه لا يمكن أن يكون للأخلاق مكان إذا لم يكن لها جذور في التراث والزمن أو إذا لم تجد لها سنداً من دين وقِيَم، والثورة الفرنسية أغلقت كل هذه الأبواب المُفضية للأخلاق بإعدامها الملك وتجريدها الكنيسة من ممتلكاتها[٢٧] « أبداً لم يحدث أن كان لمثل هذه الجريمة البشعة كل هؤلاء المشاركين الكثيرين فيها . . إن كل قطرة نزفت من الملك لويس السادس عشر ستكلف فرنسا سيلاً من الدماء. ربما سيدفع أربعة ملايين فرنسي حياتهم بسبب هذه الجريمة الوطنية البشعة . . جريمة العصيان المسلح ضد الدين وضد النظام الاجتماعي، تلك الجريمة التي بلغت ذروتها بقتل الملك »[٢٨] .

وفي سنة ١٧٩٧ دعاه الملك شارل عمانوئيل ليعمل في تورين كتابع له، لكن سرعان ما استولى نابليون على تورين فهرب الفيلسوف إلى البندقية (ڤينيسيا) . وفي سنة ١٨٠٢ تم تعيينه مفوّضاً سردينيا كامل الصلاحيات في بلاط القيصر اسكندر الأول. ولأنه كان يتوقع ألاّ تطول مدّة مهمته فقد ترك اسرته ولم يصحبها معه لكن خدمة مليكه اقتضت منه البقاء في سانت بطرسبورج حتى سنة ١٨١٧ . وتحمل بُعده عن وطنه بصبر نافذ .

وأهم أعماله هو مبحثه عن المبادئ الدستورية Essai Sur le Principe gĕnĕrateur des Constitutions Politiques (١٨١٠) وقد استخلص مثل هذه الدساتير التي تناولها من الصراع البشري بين الخير والشر (بين ما هو اجتماعي وما هو غير اجتماعي)، ومن الاندفاعات (الاضطرابات) ومن الحاجة لسلطة منظمة ودائمة لحفظ النظام العام ولحفظ الجماعة بدعْم روح التعاون في مواجهة الفردية والأهواء. إن كل إنسان يتطلع وهذا طبيعي للسلطة والتملّك وهو إذا لم يُروّض تحول إلى دكتاتور مجرم مغتصب. إن بعض القدّيسين

يتحكمون في جشع البشر، وعدد قليل من الفلاسفة قد يمكنهم تحقيق ذلك (التحكم في أطماع البشر) عن طريق العقل لكن ما هو كامن في معظمنا لا يمكّن الفضيلة من السيطرة على غرائزنا الأساسية. وأن نترك كل من نفترض أنه ناضج ليحكم على الأمور وفقاً لعقله هو (وهو عقل ضعيف بسبب عدم الخبرة وبسبب العبودية للرغبة) فإن معنى هذا أن نضحّي بالانضباط (النظام) لصالح الحرية. ومثل هذه الحرية غير المنضبطة تصبح فوضى اجتماعية تهدد سلطة الجماعة التي من حقها أن تتّحِدَ ضدَّ هجوم يأتيها من الخارج أو فوضى تنشب في الداخل.

وعلى هذا فقد كانت حركة التنوير المغالية فيما يرى ميستر Maistre خطأ هائلاً. لقد قارنها بالشاب الذي تبنّى لنفسه وهو في الثامنة عشرة من عمره خططاً راديكالية لإعادة البناء في مجالات التعليم والأسرة والدين والمجتمع والحكم. واعتبر ميستر أن ڤولتير مثالاً اختاره لمثل هؤلاء التافهين الذين ادَّعْوا الإحاطة بكل شيء علماً «انه حدّثنا عن كل شيء في كل العصور دون أن يتوغّل مرة واحدة إلى ما تحت السطح»، «لقد كان مشغولاً دائماً بتعليم العالم» أنه «قلما يكون لديه وقت للتفكير»[٢٩] لو أنه درس التاريخ بتواضع كفرد زائل (مجرد فرد في مرحلة تاريخية) يبحث عن العلم من خبرات الجنس البشري، لكان قد عرف أن الزمن نفسه مُعَلِّم أفضل من التفكير الشخصي، ولكان عرف أن أصحّ اختبار لفكرة هو تأثيراتها العملية (البرجماتية) في الحياة والتاريخ والجنس البشري، ولكان عرف أن المؤسسات العريقة في تراث القرون الخوالي لا يجب رفضها دون حساب دقيق للخسائر في مقابل المكاسب، ولكان عرف أن المعركة التي شُنّت لتدمير الكنيسة وإلحاق الخزي بها ستؤدي إلى إنهيار الأخلاق والأسرة والمجتمع والدولة فالكنيسة هي التي صاغت النظام الاجتماعي في غرب أوروبا (يقصد الكنيسة الكاثوليكية). إن الثورة القاتلة المغتالة هي النتيجة المنطقية لحركة التنوير العمياء. إن «الفلسفة قوّة مخرّبة أساسيّة» لأنها وضعت كل ثقتها في العقل، والعقل فردي، والعقل يمثل الفكر الفردي، وتحرر الفرد من التراث السياسي والديني وتحرره من قبضة السلطة، يهدد الدولة بل والحضارة نفسها. «ومن هنا فإن الجيل الحالي يشهد واحداً من أكثر الصراعات حدّة لم تشهد لها البشرية مثيلاً: الحرب حتى الموت

بين المسيحية وعقيدة الفلاسفة»[٣٠].

وما دام عمر الفرد قصيراً جداً لا يمكنه من سَبْر حِكْمة التراث فيجب أن يتعلّم القبول به (أي بالتراث) كمرشد له ودليل حتى يبلغ من العمر مبلغاً كبيرا يمكّنه من فهمه (أي هذا التراث). انه - بطبيعة الحال - لن يكون قادراً على فهمه فهماً كاملاً. ولا بد أن يتشكك في أي تغيير مقترح في الدستور أو الأعراف الأخلاقية. ويجب أن يكرّم السلطة الشرعية باعتبارها رأي التراث وتوجّهه، وباعتبارها خبرة بشرية وباعتبارها بالتالي صوت الله[٣١].

الملكية الوراثية والمطلقة سلطتها هي من رأيه أفضل أنواع الحكم لأنها تمثل التراث الأعرض والأعمق والأطول وهي تعمل على تحقيق الانضباط والاستمرارية والاستقرار والقوة، بينما الديمقراطية بدوام التغيير فيها - سواء تغيير القادة والزعماء أو تغيير الأفكار - وجنوحها بشكل دَوْري لارضاء نزوات العوام و جهلهم تؤدي إلى الفوضى وعدم الرضى والطيش، وتنتهي سريعاً. إن فن الحكم يعني من بين ما يعني تسكين العوام، أمّا إِنْ أطاعتهم الحكومة فهي - بذلك - تنتحر.

وبتؤدة (١٨٠٢-١٨١٦) عرض في أكثر مؤلفاته شهرة: «أمسيات في سان بطرسبرج Les Soirées de Saint Petersbourg» (نشر سنة ١٨٢١) بعض الجوانب الثانوية لفلسفته. لقد كان يؤمن أن العلم يثبت وجود الله، لأن الله قد أوحى للطبيعة انضباطها العظيم الذي هو جزء من عبقرية النظام الكوني[٣٢] لا يجب أن ننزعج وألاّ تهتز عقائدنا بالنجاحات المؤقتة للشر، أو للإحباطات التي يواجهها الخير، فالله يتيح للخير والشر أن يهبطا على القديس والمجرم على سواء كما يتيح الشمس أن تشرق على كليهما، ويتيح للمطر أيضاً أن يهطل عليهما لا يمنعه عن أحدهما، لأنه - أي الله - يكره أن يعطّل قوانين الطبيعة[٣٣]، وعلى أية حال فإن الله قد يستجيب لدعاء الدّاعين لتغيير تأثير هذه القوانين الطبيعية[٣٤]. بالإضافة إلى أن معظم الشرور تعد عقاباً على أخطاء أو خطايا، وربما كان كل مرض وكل ألم عقاباً على بعض الفساد الكامن في نفوسنا أو نفوس أسلافنا أو نفوس مجموعتنا التي نعيش بينها.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن ندافع عن العقاب البدني، والإعدام كعقاب لبعض

الجرائم بل وندافع حتى عن التعذيب الذي تقوم به محاكم التفتيش، ويجب أن نبارك الجلاّد (منفّذ حكم الاعدام) بدلاً من جعله منبوذاً، فهو يقوم أيضاً بعمل الله (المهمة التي كلفه بها الله) وهي مُهمة حيوية للانضباط الاجتماعي[٣٥]. فاستمرار الشر ومثابرته يتطلب استمرار العقاب ومثابرته، فإن تواني العقاب نمت الجريمة. «وأكثر من هذا فليس هناك عقاب لا يؤدي إلى تطهير وليس ثمة اعتلال جسدي أو عقلي يُحدثه الحبيب الباقي (الله Eternal love) إلاّ ويتحول إلى سهم في صدر مبدأ الشر»[٣٦] «والحرب مقدَّسة ما دامت هي قانون العالم» وما دام الله قد سمح بها عبر التاريخ[٣٧]. إن الحيوانات المفترسة تطيع هذه القاعدة وتنفّذها. ويأتي الملاك الفاني (كذا: exterminating) بشكل دوري ليُفْنى آلافاً من هذه الحيوانات»[٣٨]. و«يمكن اعتبار البشرية كشجرة، وأن هناك يداً غير منظورة تشذّبها باستمرار، وغالباً ما يكون هذا التشذيب لصالحها... والدماء الغزيرة التي تُراق غالباً ما يمكن ربطها بزيادة عدد السكان»[٣٩] «فابتداء من الديدان بل وحتى الإنسان نجد القانون الكبير – وهو قانون التدمير العنيف للأحياء – يفعل فعْله. فالأرض جميعاً التي تشرب الدماء ليست إلا مذبحاً كبيراً (المقصود بالمذبح مكان تقديم القرابين في الكنائس والمعابد) حيث لا بد من التضحية بكل موجود حي، فالوقت بلا نهاية، بلا حدود، بلا توقف بل وحتى فناء كل شيء وحتى مَوْت الموْت نفسه»[٤٠].

وإذا كنّا نعارض أنّ مثل هذا الكون يدفعنا بشدَّة لعبادة خالقه. فإن ميستر Maistre يجيب بأننا لا بد أن نعبده رغم كل شيء لأن كل الشعوب وكل الأجيال عبدته، وأن مثل هذا التراث الباقي والعالمي لابد أن يحتوي «حقيقة» تفوق قدرة العقل الإنساني على الفهم وتستعصي على الدحض أو التفنيد. في خاتمة المطاف فإن الفلسفة – إن كانت حقيقة تحب الحكمة – ستستسلم للدين، والعقل سيستسلم للإيمان.

وفي سنة ١٨١٧ استدعى ملك سردينيا – وكان قد استعاد عرش تورين Turin – ميستر Maistre من روسيا، وفي سنة ١٨١٨ عينه في منصب كبير وجعله مستشاراً للدولة. وفي هذين العامين ألّف هذا الفيلسوف الشَّرس grim كتابه الأخير عن البابا Du Pape نُشر سنة ١٨٢١ بعد موته مباشرة. والكتاب إجابة عنيدة عن الأسئلة التي أثيرت حول تمجيده

للملكيّة كحماية للمجتمع ضد فرديّة المواطن: ماذا لو أن الملك كان هو أيضاً – كقيصر أو نابليون – متسما بالفردية والاهتمام بذاته كأي مواطن، وكان عاشقاً للسلطة عشقاً يفوق عشقه لسواها؟

هنا يجيب ميستر Maistre بغير تردّد أن كل الحكّام يجب أن يقبلوا تبعيتهم وخضوعهم لسلطة أعرق من سلطتهم وأعظم منها وأحكم: لابد أن يخضعوا في كل الأمور الدينية والأخلاقية لحُكم الحَبْر الجليل (البابا) الذي ورث سلطانه من القديس بطرس (النص الرسول بطرس، وكلمة الرسول يُطلقها المسيحيون على الدعاة الأوائل للمسيحية والمسيحيون يُلحقون بالأناجيل الأربعة ما يُسمّى أعمال الرسل Apostles أي الدعاة الأوائل، وفضلنا كلمة القديس على الرسول لأنها توفي بالمعنى وحتى لا يختلط الأمر على القارئ العربي)[*] الذي ورثه بدوره عن المسيح (النص: Son of God). وفي هذا الوقت (١٨٢١) ودول أوروبا تكافح لتتخلّص من وحشية الثورة واستبداد نابليون، لزم أن يتذكر قادة أوروبا كيف أن الكنيسة الكاثوليكية قد أنقذت بقايا الحضارة الرومانية بتصدّيها للبرابرة كثيري العدد وترويضهم، وكيف أنها أسست – من خلال اسقُفيَّاتها – نظاماً اجتماعياً منضبطاً وتعليماً نظامياً أنجب – ببطء – خلال الظُّلمة والعصور الوسطى، حضارة قائمة على موافقة الملوك على الاعتراف بالسلطة الروحية للبابا. « فالأمم لا تتحضّر أبداً إلاَّ بالدين » لأن الخوف من الله الذي يرى كل شيء والقادر على كل شيء هو وحده – أي هذا الخوف – الذي يضبط النزعات الفردية المتمثلة في الرغبات البشرية والدين مصاحب لمولد كل الحضارات، وغياب الدين نذير بموتها[٤١]. وعلى هذا فلا بد أن يقبل ملوك أوروبا مرة أخرى البابا كسيد أعلى لهم في كل الأمور الأخلاقية والروحية. يجب أن يُبْعدوا التعليم عن أيدي العلماء ويعيدوه للقسس لأن ارتقاء العلم سيُقَسي قلوب الناس[٤٢] بينما استعادة الدين لمكانته ستؤدي إلى سلام للأمة وأرواح أفرادها.

لكن ماذا لو كان البابا أيضاً أنانياً ويعمل على تحويل كل مسألة وقضية لتحقيق مكاسب دنيوية للباباوية؟ هنا نجد ميستر Maistre حاضر الإجابة: ما دام البابا يُرشده الرّب – فإنه

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

« معصوم » إذا تحدث في أمور العقيدة والأخلاق لأنه الرّأس الرسمي للكنيسة التي أسسها المسيح . وعلى هذا فقد أعلن ميستر « عصمة » البابا قبل أن تعلنها الكنيسة نفسها كجزء من الإيمان الكاثوليكي بنصف قرن . لقد اعترت الدهشةُ البابا نفسه ووجد الفاتيكان من الحكمة أن يعارض « المبالغين في سيادة البابا Ultramontanists » الذين يعلنون مزاعم مُرْبكة عن السيادة السياسية للباباوية .

وباستثناء هذه النقطة الأخيرة وبعض المبالغات الأخرى التي يمكن أن تدعو للابتسام (المقصود السخرية) فإن المحافظين في أوروبا رحبوا بدفاعه العنيد عن وجهات نظرهم ، وأثنى عليه كل من شاتوبريان وبونال Bonald ولاميني Lamennais ولامارتين . بل وحتى نابليون اتفق معه في بعض المسائل - نزوع الملك لويس السادس عشر للخير وخسّة قاتليه ، وتجاوزات الثورة ، وضعف العقل وسهولة وقوعه في الخطأ وتهافت الفلاسفة ، وضرورة الدين ، وقيمة التراث وأهمية السلطة ، وضعف الديمقراطية ، وكون الملكية المطلقة والوراثية أمراً مرغوباً فيه ، وكون الحرب مفيدة للتقليل من عدد السكان (الخدمات البيولوجية للحرب) . . .

وكان الأمر بالنسبة لأعداء نابليون الذين لا يزالون في الحكم أنهم شعروا أنَّ في فلسفة ميستر Maistre المستقيمة بعض الأسباب المعقولة تحتم عليهم الإطاحة بهذا الكورسيكي مُحْدث النعْمة (نابليون) وريث الثورة التي هدّدت كل ملكيّات العالم . لقد كانوا يؤمنون في قرارة أنفسهم أنهم لم يكونوا أبداً قادرين (ولن يقدروا) على أن يبرّروا لرعاياهم : لماذا قبلوا وهم الملوك الذين ورثوا الملك كابرا عن كابر ، وهم أباطرة أوروبا وارستقراطييها - أعباء الحكم وأخطاره وطقوسه بينما كان مارا Marat وروبيسبير وبابيف Babeufs يتهمونهم بعدم الرحمة باستغلال العوام الأبرياء بدعوى الحق الإلهي للملوك ، مستغلِّين كل المزايا (محقّقين كل المكاسب) من النظام الاجتماعي (السائد) مبتلعين كل خيرات الأرض ، وكيف كانوا يقتلون رعاياهم ويذبحونهم بدعوى هذا الحق نفسه (حق الملوك الإلهي) .

أما الآن وبعد كتابات ميستر Maistre فقد ظهرت عقيدة يستطيع في ظلها أن يتحد كل حكام أوروبا الشرعيون لإعادة النظام القديم في بلدهم ولشعوبهم ، بل وحتى لفرنسا البربرية غير المتسامحة قاتلة الملوك خائنة ربها المتخلّية عنه .

الحواشي

حواشي الفصل السابع

1. Bourrenne, *Mémoires,* I, 290.
2. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 46.
3. *Ibid.,* 37.
4. Fournier, *Napoleon,* 180.
5. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 3.
6. Thiers, L.A., *History of the Consulate and the Empire,* I, 55.
7. *Ibid.,* 57.
8. Las Cases, II, 330.
9. Taine, *Modern Regime,* I, 17.
10. EB, XIII, 717b.
11. Napoleon, *Letters,* 80.
12. Lefebvre, *Napoleon,* I, 84.
13. *Ibid.,* Taine, *Modern Regime,* I, 152; Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 56.
14. Lefebvre, *Napoleon,* I, 86.
15. Bourrienne, I, 289n.
16. Talleyrand, *Memoirs,* introduction by the Duc de Broglie, *xxi.*
17. *Ibid.,* xxii.
18. *Ibid.,* viii-ix.
19. Talleyrand, *Memoirs,* I, 170-171.
20. Madelin, *Talleyrand,* 84, 38.
21. Remusat, *Mémoires,* 50.
22. *Ibid.,* 106.
23. Madelin, *Talleyrand,* 85.
24. Thiers, I, 51; Herold, ed., *The Mind of Napoleon,* 72.
25. Canton, Gustave, *Napoléon antimilitariste,* 34.
26. Lefebvre, *Napoleon,* I, 86.
27. *Ibid.,* 88. Taine, V, 141n.
28. Lefebvre, I, 74.
29. Bourrienne, I, 370.
30. *Ibid.,* 372.
31. Jacques Banville in Geyl, Peter, *Napoleon: for and Against,* 345.
32. *Ibid.,* 344.
33. Bourrienne, I, 413.
34. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 93.
35. Napoleon, *Letters,* 48.
36. Thiers, I, 295.
37. Bourrienne, I, 419.
38. *Ibid.,* II, 2.
39. *Ibid.,* 3.
40. Thiers, I, 236.
41. *Ibid.,* 247.
42. *Ibid.,* 248.
43. Napoleon, *Letters,* 87.
44. Lefebvre, *Napoleon,* I, 100.
45. Bourrienne, I,22.
46. *Ibid.,* I, 414.
47. Napoleon, *Letters,* 90.
48. Thiers, I, 332.
49. Bourrienne, I, 345; Méneval, *Memoirs,* I, 69; Thiers, I, 332.
50. Bourrienne, I, 351n.
51. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 108.
52. Morris, Gouverneur, *Diary,* 92.
53. Madelin, I, 113.

54. Las Cases, IV, 103.
55. *Ibid.,*
56. Madelin, I, 150.
57. *EB,* VII, 120.
58. Rose, J. H., *Presonality of Napoleon,* 169.
59. In Geyl. 330.
60. Guerard, A. L., *French Civilization in the 19th Century,* 67.
61. Cardinal Consalvi in Lefebvre, *Napoleon,* I, 19.
62. Taine, *French Revolution,* III, 474.
63. Las Cases, II, 253.
64. Bourrienne, I, 236.
65. *CMH,* IX, 1986.
66. Stael, Mme de, *Considérations sur les principaux événements de la Révolution française,* 376; Caniton, 44; Herold, The Mind of Napoleon, 107.
67. Canton, 30 - 34.
68. Méneval, I. 188.
69. Canton, 37.
70. *Ibid.,* 1 - 3.
71. Bourrienne, II, 299.
72. Thiers, II, 302.
73. Bourrienne, II, 151.
74. This Phrase had been applied to Frederick II of Sicily; see Durant, *The Age of Faith,* 714.
75. Morris, *Diary,* 115 - 16.
76. *Ibid.,* 117; Lefebvre, *Napoleon,* I, 176.
77. Bourrienne, II, 226; Lefebvre, I, 169.
78. Fouche, Joseph, *Memoirs,* I, 256 - 57.
79. Lefebvre, I, 180; Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 192; Kircheisen, *Memoirs of Napoleon,* I, 107.
80. *CMH.* IX, 29.
81. Lefebvre, I, 180 - 81.
82. Las Cases, IV, 186; Madelin, I, 193.
83. Remusat, 39; Madelin, I, 193.
84. Kircheisen, 108.
85. Mistler, I, 120.
86. Lefebvre, I, 180-81; Meneval. I, 193.
87. Caulaincourt, Armand de, *With Napoleon in Russia,* 314.
88. *Ibid.,* 317.
89. Lefebvre, I, 182; Madelin, I, 208.
90. Méneval. I, 249.
91. Madelin, *Talleyrand,* 111.
92. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 218.
93. Bourrienne, II, 280.
94. Madelin, I, 210.
95. Las Cases, II, 67.
96. Remusat, 137, 167.
97. Bourrienne, II, 264.
98. Las Cases, IV, 192.
99. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 227.
100. Remusat, 108.
101. Mossiker, 271.
102. Madelin, I, 97.
103. Méneval. I, 278.
104. Madelin, I, 212.

حواشي الفصل الثامن

1. Rose, *Personality of Napoleon*, 191.
2. Madelin, *The Consulate and the Empire*, I, 240.
3. Las Cases, II, 133.
4. *EB*, XIII, 89c.
5. Masson, Frederic, *Napoleon and His Coronation*, 229.
6. Pinoteau, Hérvé, éd., *Le Sacre de S. M. l'empereur Napoléon*, p. *xii*.
7. Las Cases, II, 130. Madelin, *The Consulate and the Empire*, 224.
8. Masson, *Coronation*, 236.
9. Stael, Mme. de, *Ten Years' Exile*, 151.
10. Remusat, *Mémoires*, 249; Napoleon, *Letters*, 112.
11. Remusat, 251.
12. Lefebvre, *Napoleon*, I, 203, Madelin, I, 252f.
13. *Ibid.*, 235.
14. Remusat, 293.
15. Bourrienne, III, 3.
16. *Ibid.*
17. Thiers. IV, 64.
18. Madelin, *The Consulate and the Empire*, I, 269.
19. Wilson, P. W., *William Pitt*, 335.
20. Bourrienne, III, 52n.
21. Remusat, 324.
22. Bourrienne, III, 47; Madelin, I, 300.
23. *Ibid.*, 316.
24. Remusat, 453.
25. Remusat, 442.
26. Lefebvre, *Napoleon, I, 255*.
27. Madelin, I, 318.
28. *Ibid., 316*.
29. Remusat, 453.
30. Mossiker, *Napoleon and Josephine*, 296.
31. *CMH*, IX, 279.
32. Robinson, *Readings*, 489.
33. Georges Brandes in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 1080.
34. Remusat, 495.
35. Méneval, II, 449.
36. *Ibid.*, 463.
37. Vandal, *Napoléon et Alexandre Ier*, I, 65.
38. Bertaut, *Napoleon in His Own Words*, 8, 9.
39. Remusat, 534.

حواشي الفصل التاسع

1. Morris, Gouverneur, *Diary*, 98-99.
2. Las Cases, II, 192.
3. Mistler, Jean, ed., *Napoléon et l'Empire*, I, 145.
4. *Ibid.*; Stacton, David, *The Bonapartes*, 13.
5. Las Cases, II, 190; Mistler, I, 145.
6. Stacton, 16.
7. Las Cases, III, 321.
8. Remusat, 323n.

9. Goodrich, F. B., *The Court of Napoleon,* 290 - 93.
10. Bourrienne, II, 110.
11. Napoleon, *Letters,* 190.
12. *Ibid.,* 123.
13. Stendhal, *La Chartreuse de Parme,* 450.
14. Napoleon, *Letters,* 107.
15. Goodrich, 207.
16. Rose, *Presonality of Napoleon,* 32.
17. In Goodrich, 271; Caulaincourt, *With Napoleon in Russia,* 14.
18. Talleyrand, *Memoirs,* I, 261.
19. Caulaincourt, 23.
20. Lefebvre, *Napoleon,* II, 19.
21. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 410.
22. *Ibid.,* 411.
23. Talleyrand, *Memoirs,* I, 310-13.
24. *Ibid.,* 316.
25. *Ibid.,* 328; Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 416.
26. Talleyrand, I, 337.
27. Madelin, *Talleyrand,* 78, 134.
28. Brandes, G., *Goethe,* II, 164.
29. Talleyrand, I, 318.
30. Lewes, Georges. *Life of Goethe,* II, 312.
31. Talleyrand, I, 326.
32. *Ibid.,* 316.
33. *Ibid.,* 333.
34. Lewes, III, 313.
35. Las Cases, II, 134.
36. Méneval. I, 553.
37. Rose, *Presonality,* 495.
38. Madelin, I, 425.
39. Lefebvre, *Napoleon,* II, 57.
40. *Ibid.*
41. Méneval, II, 563; Madelin, I, 436; Mistler, I, 150.
42. Herold, ed., The *Mind of Napoelon,* 175.
43. Lefebvre, II, 52.
44. Mossiker, *Napoleon and Josephine,* 238.
45. Remusat, 376.
46. *Ibid.,* 17.
47. Herold, *The Mind of Napoleon,* 22.
48. Bourrienne, II, 117; Méneval, II, 423.
49. Herold, 16.
50. Mossiker, *Napoleon and Josephine,* 151.
51. Las Cases, II, May 19, 1816.
52. Madelin, II, 15.
53. *Ibid.,* 17.
54. Taine, *The Modern Regime,* I, 79n.
55. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I,* 149.
56. Méneval, II, 615.
57. Napoleon, *Letters to Josephine,* 222.
58. Las Cases, II, 185.
59. *Ibid.,* 21..
60. *Ibid.,* III. 275.

حواشي الفصل العاشر

1. *EB,* X, 941d.
2. Remusat, 47.
3. Las Cases, III, 258.
4. Mistler, I, 137.
5. Ross, E. A., *Social Control,* 276.
6. *Auction* Magazine, November 1971, p. 35.
7. Bourrienne, I, 211.
8. Méneval, I, 108.
9. Cronin, Vincent, *Napoleon Bonaparte,* 182.
10. Méneval. I, 416.
11. Ed.'s note to Bourrienne, I, 312.
12. Masson, F, *Napoleon at Home,* I, 90.
13. Méneval. I, 411.
14. MacLaurin, C., *Post Mortem,* 220; Howarth, David, *Waterloo, 52 ff.*
15. Las Cases, II, 252; MacLaurin, 222; Friedrich Kircheisen in *New York Times,* Feb. 26, 1931.
16. Méneval. I, 412.
17. Taine, *Modern Regime, I, 44.*
18. Rosebury, Theodor, *Microbes and Morals,* 158.
19. Las Cases, III, 146; I, 236.
20. *Ibid.,* III, 391.
21. *Ibid.,* I, 392.
22. Taine, *Modern Regime,* I, 68.
23. *Ibid.,* 69.
24. *Ibid.*
25. Bourrienne, I, 294.
26. Méneval. I, 346, 415.
27. Bourrienne, I, 309.
28. Las Cases, III, 346.
29. Herold, ed., *The Mind of Napoleon, xvii.*
30. Méneval, I, 353.
31. Taine, *Modern Regime,* I, 18 ff.
32. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 30.
33. Source lost.
34. Taine, I, 19; Madelin, I, 30.
35. Bourrienne, I, 315; Méneval, I, 356; Taine, I, 54.
36. Bourrienne, I, 310.
37. Las Cases, I, 251.
38. Napoleon, *Letters,* 68 (Oct. 7, 1797).
39. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution,* VI. 205, in Geyl, 251.
40. Fouché, *Memoirs,* II, 52.
41. Brandes, *Main Currents,* I, 29.
42. Lewes, *Life of Goethe,* II, 312.
43. Las Cases, I, 311.
44. Bourrienne, II, 102.
45. Taine, *Modern Regime,* I, 60.
46. Herold, ed., *The Mind of Napoleon,* 256.
47. *Ibid.,* No. xxxvi.
48. Taine, I, 35.
49. Napoleon, *Letters,* 111 (Dec. 13, 1804).
50. Lefebvre, *Napoleon,* I, 66.
51. Remusat, 95.
52. Herold, 43.
53. Bred, Lewis, *The Opinions and Re-Action of Napoleon,* I, 66.
54. Fouché, *Memoirs,* II, 18; Remusat, 370.

55. Las Cases I, 379; Lefebvre, I, 64.
56. Caulaincourt, 71.
57. Las Cases III, 318.
58. Rose, *Presonality of Napoleon*, 29.
59. Remusat, 60.
60. Masson, *Napoleon at Home*, I, 163.
61. Bourrienne, I, 317.
62. *Ibid.*, 328.
63. Méneval. I, 128.
64. Taine, *Modern Regime*, II, 45.
65. Las Cases, IV, 154-64.
66. Lefebvre, *Napoleon*, I, 64.
67. Constant, Very, *Memoirs*, I, 6 and *xii*.
68. Remusat, 102.
69. Caulaincourt, 27.
70. Goodrich, *Court of Napoleon*, 375.
71. *Ibid.*, 371.
72. Stael, Mme. de, *Considerations*, 334.
73. Méneval, I, 211.
74. Masson, *Napoleon at Home*, 168.
75. Méneval, I, 350; Las Cases, III, 345.
76. Méneval, I, 353.
77. Las Cases, III, 330.
78. In Rose, *Personality*, 119.
79. Bertaut, *Napoleon in His Own Words*, 125-26.
80. Herold, ed., *The Mind of Napoleon*, 211.
81. Las Cases, II, 244.
82. Rose, 86.
83. *Ibid.*, 200.
84. Bourrienne, III, 95.
85. Bertaut, 126.
86. Herold, 211.
87. Méneval, II, 534.
88. Rose, *Personality*, 119.
89. Herold, 217.
90. Rose, 110.
91. Herold, 217; Las Cases, II, 26.
92. Emerson, *Representative Men*, 254.
93. Canton, *Napoléon antimilitariste*, 146.
94. Bertaut, 122L; Rose, *Personality*, 347; Guerard, *French Civilization in the 19th Century*, 62.
95. Bourrienne, I, 314.
96. Las Cases, II, 12.
97. *CMH*, IX, 114.
98. Lefebvre, *Napoleon*, I, 227.
99. Canton, 214.
100. Herold, 206.
101. Quoted in Gooch, G. P., *History and Historians in the 19th Century*, 2d ed., 259.
102. Herold, 276-77.
103. Las Cases, IV, 37.
104. *Ibid.*, II, 384.
105. Remusat, 451.
106. Las Cases, I, 181.
107. Bourguignon, J., introduction, p. *ii*.
108. Remusat, 71, 319; Taine, *Modern Regime*, I, 70; Las Cases, IV, 163.
109. Herold.
110. *Ibid.*, 9.
111. *Ibid.*, 162.
112. Bourrienne, I, 237.
113. Herold, 172.
114. *Ibid.*, 171.
115. Bourguignon, I, 38.
116. Herold, 162.
117. Bourrienne, I, 380.
118. Taine, *Modern Regime*, I, 134a, 480.

119. Herold, 162.
120. Las Cases, II, 256.
121. Bourrienne, I, 235 notes, 293, 367a, 237a; Taine, I, 193.
122. Bertaut,
123. Herold, 255.
124. *Ibid.*, 30-31.
125. Bourrienne, I, 327.
126. Herold, 30; Bertaut, 107-8.
127. Las Cases, II, 253.
128. Taine, II, 3-4.
129. Herold, 32.
130. Bertaut,
131. Kircheisen, *Memoirs of Napoleon I,* 166.
132. Herold, 33.
133. Kircheisen, 160.
134. Aulard in Geyl, 323; Herold, 105.
135. Bertaut, 122-13; Taine, II, 5.
136. Bertaut, 114.
137. Taine, II, 6.
138. Bertaut, 32.
139. Herold, 20.
140. Bertaut, 28.
141. Herold, 21.
142. Kircheisen, 154.
143. Bertaut, 23-33.
144. Herold, 23.
145. Kircheisen, 153.
146. *Ibid.*, 152.
147. Mossiker, *Napoleon and Josephine,* 301.
148. Napoleon, *Letters,* 180.
149. Bertaut, 5.
150. *Ibid.*, 146.
151. Herold, 73.
152. Bertaut,, 1.
153. *Ibid.*, 46.
154. *Ibid.*, 45.
155. Las Cases, III, 241.
156. *Ibid.*, I, 400.
157. Bertaut, 65.
158. Las Cases, III, 242.
159. *Ibid.*, IV, 104; Bourrienne, II, 218.
160. Herold, 40-41.
161. Mossiker, 34.
162. *Ibid.*, 20.
163. Levy, M., *Private Life of Napoleon,* I, 274.
164. Bertaut, 9.
165. Herold, 40.
166. *Ibid.*, 36.
167. *Ibid.*, 40.
168. Remusat, 535.
169. Bertaut, 142.
170. Herold, 179.
171. Las Cases, II, 325.
172. Taine, *Modern Regime,* I, 59.

حواشي الفصل الحادي عشر

1. Las Cases, II, 389.
2. Letter to Lucien Bonaparte, Dec. 25, 1799, in *Letters,* 82.
3. Las Cases, III, 23.
4. Letter to Roederer, in Taine, *Modern Regime,* I, 265.
5. Breed, *The Opinions and Reflections of Napoleon,* 121.
6. Lacroix, *Directoire, Consulat et Empire,* 10.

7. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 291.
8. Mistler, ed., *Napoléon et l'Empire,* I, 196.
9. Lacroix, 540.
10. Las Cases, III, 94, 340; Remusat, 345-46; Madelin, I, 294-97.
11. Herold, ed., *Mind of Napoleon,* 190.
12. *CMH,* IX, 375-76.
13. Guillemin, Henri, *Napoléon tel quel,* 120-21.
14. Guerard, *French Civilization,* 77.
15. Taine, *Modern Regime,* I, 213.
16. *Ibid.,* 216-17.
17. Bourrienne, III, 32.
18. Méneval, II, 595.
19. Taine, *Modern Regime,* I, 226.
20. Las Cases, I, 36.
21. *Ibid.,* IV, 61.
22. Taine, II, 138.
23. *Ibid.,* 140-41.
24. *CMH,* IX, 127.
25. Lefebvre, *Napoleon,* I, 227.
26. Napoleon, *Letters,* 115.
27. *CMH,* IX, 115.
28. Rose, *Presonality of Napoleon,* 177; Taine, I, 153.
29. Thiers, *History of the Consulate and the Empire,* II, 275.
30. Taine, I, 67.
31. *Ibid.,* 262.
32. Sainte-Beuve, *Monday Chats,* 207.
33. Méneval. I, 499.
34. Taine, I, 233.
35. *CMH,* IX, 114.
36. Lefebvre, *Napoleon,* I, 227.
37. *CMH,* IX, 115.
38. Taine, I, 90; Guerard, *French Civilization,* 64.
39. Lefebvre, I, 227.
40. Herold, ed., *Mind of Napoleon,* 208.
41. Bertaut, *Napoleon in His Own Words,* 5.
42. *Ibid.,* 57.
43. *Ibid.*
44. Musset, *Confessions of a Child of the Century,* 3.
45. Bourrienne, II, 132.
46. Taine's phrases Cf. *The Modern Regime,* I, 250.
47. Thiers, II, 266-78.
48. Taine, I, 271; Herold, 212.
49. Fouché, *Memoirs,* I, 296.
50. Goodrich, *Court of Napoleon,* 157; Las Cases, III, 397.
51. Bertaut, 62.
52. Las Cases, II, 315.
53. Herold, ed., *Mind of Napoleon,* 242.
54. Bertaut, 48.
55. *Ibid.,* 111.
56. Lacroix, 45.
57. Stael, Mme de, *Ten Years' Exile,* 7.
58. Las Cases, II, 198.
59. Mossiker, *Napoleon and Josephine,* 272; Remusat, 227.
60. *Ibid.,* 7; Herold, *Mistress to an Age,* 287.
61. Remusat, 53; Herold, *Mistress,* 290.
62. David's *Mme Récamier* is in the Louvre; Guerard's is in the Musée de la Ville.

63. Remusat, 33-37.
64. Herold, *Mistress*, 288.
65. Junot, Mme., *Memoirs*, II, 60.
66. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 482.
67. *Ibid.*, 491.
68. *CMH*, IX, 205.
69. Graetz, V, 492.
70. *Ibid.*, 494.
71. Lefebvre, *Napoleon*, II, 186; *CMH*, IX, 205.
72. Lefebvre, 187.
73. Graetz, V, 500.

حواشي الفصل الثاني عشر

1. Masson, F., *Napoleon at Home*, II, 74.
2. Lacroix, *Directoire, Consulat et Empire*, 494.
3. Las Cases, III, 97.
4. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 326.
5. Dijon Museum.
6. Goodrich, *Court of Napoleon*, 299.
7. Muther, T., *History of Modern Painting*, I, 111.
8. Bertaut, *Napoleon in His Own Words*, 55.
9. Stranahan, C. H. *History of French Painting*, *129*.
10. Las Cases, I, 368.
11. Mantzius, K., *History of Theatrical Art*, VI, 164.
12. *Ibid.*, 163.
13. Goodrich, 118.
14. In Lacroix, 188.
15. Goodrich, 390.
16. Dumas *père* Alexandre, *Mes Mémoires*, Iv, 27, in Mantzius, VI, 178.
17. Remusat, 58-62.
18. Lacroix, 189.

حواشي الفصل الثالث عشر

1. Herold, ed., *Mind of Napoleon*, 156.
2. Mistler, ed., *Napoléon et l'Empire*, I, 231.
3. Méneval. I, 185.
4. Herold, 121.
5. *Time* Magazine, Oct. 19, 1970, p. 43.
6. Mistler, I, 121.
7. Herold., *Mind of Napoleon*, 132.
8. Goodrich, *Court of Napoleon*, 249.
9. *Ibid.*, 250.
10. Taine, *Modern Regime*, II, 200.
11. *Ibid.*
12. Stael, Mme, de, *Ten Years' Exile*, 19.
13. Santei-Beuve, *Portraits of Celebrated Women*, 224.
14. Stael, Mme, de, *Germany*, I, 77.
15. Bourrienne, II, 364-66.

16. Stael, Mme, de, *Corinne*, introduction., *xvi.*
17. Brandes, G., *Main Currents in 19th Century Literature,* I, 94.
18. Stael, Mme, de, *Ten Years' Exile,* 25.
19. *Ibid.*, 74.
20. Stevens, Abel, *Mme. de Stael,* II, 263.
21. Las Cases, IV, 7.
22. Taine, *Modern Regime,* I, 29n.
23. Madelin, *The Consulate and the Empire,* I, 150.
24. Herold, *Mistress to an Age,* 186.
25. In Brandes, *Main Currents,* I, 94.
26. Stael, Mme, de, *considerations,* 97.
27. *Ibid.*, 1.
28. Stael, Mme, de, *De la Littérature,* 11.
29. In Herold, *Mistress t,* 210.
30. *Ibid.*, 211.
31. *Ibid.*, 233.
32. Stael, Mme, de, *Ten Years' Exile,* 8.
33. In Herold, 259.
34. Source illégible.
35. Herold, 263.
36. Stael, Mme, de, *Ten Years' Exile,* 105.
37. Stevens, Abel, *Mme. de Stael,* I, 32.
38. Herold, 293.
39. Madelin, I, 368.
40. Herold, 342.
41. *Ibid.*, 343.
42. *Corinne*, 37-38.
43. *Ibid.*, 18-20.
44. Herold, 344.
45. *Ibid.*, 363.
46. *Ibid.*, 369.
47. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters,* 315.
48. Stael, Mme, de, *Germany,* I, 38.
49. *Ibid.*, 34, 84.
50. *Ibid.*, 34.
51. *Ibid.*, 31
52. *Ibid.*, 42.
53. *Ibid.*, 90-93.
54. *De la Littérature,* 21.
55. *Germany,* I, 114.
56. *Ibid.*, II, 84.
57. *Ibid.*, II, 187.
58. *Ibid.*, 297.
59. *Corinne,* 125.
60. *Germany,* I, 36.
61. E.g. *Germany,* II 18; cf. Stevens, II, 26.
62. Stevens, 218.
63. *Ten Years' Exile,* 246n.
64. *Ibid.*, 304.
65. source lost.
66. Stael, Mme, de, *considerations,* 432.
67. *Ibid.*
68. *Ibid.*, 430.
69. Stevens, II, 313.
70. Sante-Beuve, *Portraits of Celebrated Women,* 204.
71. Stevens, I, 4.
72. Bertaut, *Napoleon in His Own Words,* 77-78; Las Cases, Iv, 7.
73. Constant, B., *The Red Notebook,* 112.
74. *Ibid.*, 123.
75. *Ibid.*, 133.

76. Herold, *Mistress t,* 151.
77. Nicholson H., *Benjamin constant,* 140.
78. Herold, 240, 246.
79. *Ibid.,* 248.
80. Constant, B., *Journal intime,* 155.
81. *Ibid.,* 155-56.
82. *Ibid.,* 172.
83. *Ibid.,* 242.
84. *Ibid.*
85. Herold, 463.
86. In Nicholson, 255.
87. *Ibid.,* 273.
88. Sainte-Beuve, *Chateaubriand et son groupe littéraire,* I, 13.
89. Fuguert, Emile, *Dix-septième Siècle: Etudes et portraits littéraires,* 70.
90. Chateaubriand, *Memoirs,* ed. Baldick, preface, *xx.*
91. *Ibid.,* 5.
92. *Ibid.,* 39.
93. *Ibid.,* 39.
94. *Ibid.,* 46-47.
95. *Ibid.,* 47.
96. *Ibid.,* 56.
97. *Ibid.,* 122.
98. Sainte-Beuve, *Chateaubriand,* I, 128.
99. *Ibid.,* 203 ff.
100. *Memoirs,* ed. Baldick, 150.
101. Lonson, *Histoire de la littérature française,* 887n.
102. *Memoirs,* 157.
103. *Ibid.,* 191.
104. Sainte-Beuve, *Chateaubriand,* I, 149.
105. Fuguert, Emile, *Dix-septième Siècle: Etudes et portraits littéraires,* 14.
106. Sainte-Beuve, I, 175.
107. Un Faguet, 14.
108. Chateaubriand, *Atala and René,* 72 ff.
109. *Ibid.,* 87.
110. Lemaître, Jules, *Chateaubriand,* 146.
111. Chateaubriand, *The Genius of Christianity,* 190.
112. Lemaître, 138.
113. *The Genius of Christianity,* 148.
114. Lemaître, 150.
115. *Ibid.,* 326-27.
116. *Ibid.,* 312.
117. *Atala and René,* 135.
118. Brandes, *Main Currents,* I, 29.
119. Bertaut, 76.
120. *Memoirs,* 208.
121. *Ibid.,* 216.
122. *Ibid.,* Preface, *xiv.*
123. *Ibid.,* 218.
124. *Ibid.,* 231.
125. *Memoirs D'outre-tombe,* volum on Napoleon, 391.
126. *Memoirs,* ed. Baldick, 244.
127. *Ibid.,* 153.
128. In Sainte-Beuve, *Chateaubriand,* I, 149n.
129. *Memoirs,* appendix, 457.
130. *Ibid.,* 463.
131. *Ibid.,* 481.
132. *Ibid.,* 297-509.
133. *Memoirs,* ed. Baldick, 261.

حواشي الفصل الرابع عشر

1. *NCMH*, IX, 124.
2. Bernal, *Science in History*, 381.
3. *EB*, IX, 667a.
4. *NCMH*, IX, 133.
5. Berry, *Short History of Astronomy*, *307*, Repeated form The Age of Voltaire, 549.

5a. Bertrand, *Napoleon at st. Helena*, 168; Castiglione, *History of Medicine*, 714; letter of Dr. Elmer Belt.

6. Sigerist, H. E,m *The Great Doctors*, 240-274.
7. *Ibid.*, 276.
8. Garrison, F., *History of Medicine*, 412.
9. Castiglione, Arturo, *History of Medicine*, 701.
10. Hippocrate, *Works*, VI, "Decorum".
11. Williams, H. S. *History of Science*, III, 78 ff.
12. *Ibid.*, IV, 104-6.
13. Locy, W. A., *Biology and Its Makers*, 382.
14. *EB*, XIII, 614-17.
15. *Ibid.*
16. Destutt de Tracy in Boas, Georges, *French Philosophers of the Romantic Period*, 25.
17. *Ibid.*
18. Taine, *Modern Regime*, II.
19. Taine, *Les Philosophes classiques du XIXe siècle en France*, 55.
20. John Konx's phrase, See *The Age of Reason Begins*, 115.
21. Maine de Biran, *The Influence of Habit on the Faculty of Thinking*, 115.
22. *Ibid.*, 122.
23. Madelin, *The Consulate and the Empire*, I, 365.
24. Phillips, C.S. *The Church in France*, I, 192-93.
25. Maistre, *Soirées de Saint-Petersbourg*, I, 149.
26. Maistre, *Works*, 67.
27. *Ibid.*, 52.
28. *Ibid.*, 86.
29. *Ibid.*, 196.
30. *Ibid.*, 74.
31. *Soirées*, I, 10.
32. *Ibid.*, II, 222.
33. *Ibid.*, I, 24.
34. *Ibid.*, 128.
35. *Ibid.*, 31.
36. *Ibid.*, II, 64.
37. *Ibid.*, II, 254.
38. *Ibid.*
39. *Works*, 62.
40. *Soirées*, II, 24.
41. *Works*, 163, 177.
42. *Ibid.*, 57.

فهرس المحتويات

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر نابوليون

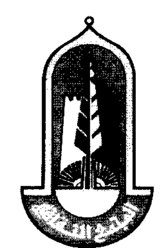
تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الثالث

(بريطانيا ١٧٨٩ - ١٨١٢)





عَصْرُ نابُولِيُون

الكتاب الثالث

يقدّم لنا المؤلفان كعهدنا بهما في الكتب السابقة فيضاً من الوقائع التاريخية، وفيضاً من الأفكار الجديدة التي لا نلتقي بها في كتب التاريخ التقليدية. إنه يسوق لنا عبر فصوله أسباباً مقنعة لعدم قيام ثورة في إنجلترا ومن ثم بريطانيا بكياناتها المختلفة (اسكتلندا، وإنجلترا وويلز وأيرلندا)، كتلك التي قامت في فرنسا.

إنه يربط ذلك بطبيعة الشعب الإنجليزي «لا تقلقل ما هو مُستقر» كما يربطه بطبيعة الأرستقراطية الحاكمة التي لا ترى في نظام الطبقات قيداً على الحريات، ويؤكد لنا أنه نظام طبقي غير جامد شتان بينه وبين النظام الطبقي الديني في الهند مثلاً، حيث يستحيل الانتقال من طبقة إلى أخرى، وحيث طبقة البراهمة المقدسة، ويشير إلى علاقات صداقة ودودة بين الفلاحين واللوردات.. إلخ. كما يشير إلى أن إنجلترا كانت قد شهدت ثورة دموية في القرن السابع عشر، ومن ثمّ لم تكن في حاجة إلى ثورة جديدة.

ولعل من أطرف الأفكار وأكثرها جدّة أن الشعب البريطاني في هذه الفترة على الأقل، بمليكه وبرلمانه ومثقفيه وعلمائه وشعرائه، كانوا متفقين - اتفاقاً غير مكتوب - على أن كثيراً من المسائل الدينية في المسيحية غير واضحة وغير مؤكدة، بل وفي كثير من الأحيان غير موثوق بها، وعلى هذا فليعتقد كل واحد ما يشاء، وليتصور الرب أو الإله كما يشاء، وليقم بأية طقوس يراها مناسبة بشرط واحد وهو أن يُعلن أنه مسيحي. ولا نكاد نجد من بين الشخصيات اللامعة التي أوردها المؤلف، مسيحياً حقيقياً بالمعنى الدارج للكلمة، لقد كان بعضهم ربانياً يؤمن بالله وحده ويُنكر تماما ألوهية المسيح، كما ينكر أي نبوّات أخرى، ووجدنا الموحدين Uniterians أو المناهضين للتثليث الذين لم يعترض عليهم التاج البريطاني شريطة أن يدرجوا أنفسهم تحت المسمّى العام (المسيحية)، ووجدنا الحلوليين (الشاعر وردزورث) الذي يرى الله غير منفصل عن الطبيعة، ورأينا المصلح أوين Owen الذي حارب الميسر، وطالب بتحريمه وتجريمه، وطالب الدولة بمنع اللوترية (اليانصيب) وأوصل صوته إلى البرلمان وعبّر عنه في كتبه، وطالب بتحريم الخمر، ومنع استيرادها، بل وطالب بعدم إصدار

تراخيص للحانات والخمارات، ليبقى السُّكر في أضيق الحدود لينفق فيه «الأثرياء الأغبياء أموالهم» وأقام أوين مدارس لم تحجُر عليها الدولة يُعلّم فيها الناشئة كل شيء مفيد إلا الخرافات – وهو يقصد اللاهوت المسيحي، ومع هذا فقد كان المسمى الرسمي للرجل أنه مسيحي.

أما موقف الدولة من الكاثوليكية فلم يكن مسألة خلاف عقائد في المقام الأول، وإنما كان مسألة – في الأساس – ذات بُعد وطني، فكيف يكون ولاء الكاثوليكي لملك بريطانيا بينما هو يقسم يمين الولاء «لملك» آخر هو «الحَبْر الجليل» في روما وكان هذا البابا صاحب سلطة زمنية إلى جانب سلطانه الديني؟!

والمؤلف يربط فصول كتابه كلها بمجريات الأمور في فرنسا، فهو عندما يتناول في الفصل الثاني والعشرين، الشعراء المتمردين وعلى رأسهم لورد بايرون يبيّن لنا تعاطف هؤلاء الشعراء في فترة من الفترات مع مبادئ الثورة الفرنسية ودستورها، ولكنه يُبيّن لنا أيضاً كيف تراجعوا عن هذا التأييد عندما أكلت الثورة أبناءها، وأقامت المذابح. وقد أورد المؤلف تفاصيل حياة الشخصيات التي يُترجم لها مما قطع في بعض الأحيان تسلسل العرض التاريخي، لكن هذا قد يكون مفيدا للراغبين في تتبع حياة هؤلاء المشاهير، فقراءة هذا الكتاب تحتاج إذن إلى صبر وجُهد إن أراد القارئ العام متابعته، لكنه لا يخلو من أفكار طريفة تتخلل عرضه الرتيب أحياناً.

وقد ركزت عند ترجمة هذا الكتاب على المعاني وأضفتُ بعض التعليقات البسيطة الشارحة، ففي التعليقات التي أوردتها عند ترجمة الكتابين السابقين ما لا داعي لتكراره هنا. ومن العدل والصدق أن أنوه هنا مرة أخرى، بفضل المجمع الثقافي، وعلى رأسه الأستاذ محمد السويدي باختيار هذه الكتب المفيدة لتقديمها إلى القارئ العربي.

وعلى الله قصد السبيل.

د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ

الفصل الخامس عشر

تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث

كانت إنجلترا، حكومةً وشعباً، بانتشار صناعتها واتساع تجارتها وبأسطولها وعلى رأسه نيلسون، وبعقلها وإرادتها – كانت على رأس المعارضين للثورة الفرنسية بعد سنة ١٨٩٢ . كانت على رأس المقاومة ضد نابليون في الوقت الذي تهاوى فيه أعداء الثورة الآخرون نتيجة الهزائم المدمرة التي حاقت بهم أو نتيجة انهيار تحالفاتهم. لكن هذا الموقف الذي اتخذته إنجلترا لم يكن مفاجئاً كما لم تكن كل القوى فيها متفقة عليه منذ البداية، ففي بداية اندلاع الحريق الهائل (الثورة الفرنسية) كانت مواقف زعماء إنجلترا والرسميين فيها غير محددة، وظهر الانقسام بينهم، وتباينت المشاعر ما بين الخوف واستلهام أفكار الثورة، لقد تجاوب الشعراء والفلاسفة بحماس مع المثاليات الأولى للثورة، ومع حماسة جيوشها وشجاعتها، ولكنهم سرعان ما تأثروا ببلاغة بورك Burke الغاضبة، وسرعان ما فُجِعُوا بأخبار المذابح والإرهاب في هذه اليوتوبيا Utopia(فرنسا)، ولأن هؤلاء المحرِّرين (يقصد الثوار الفرنسيين) أصبحوا غزاة ضموا نصف – طموحاً منهم – لفرنسا، فقد رأت إنجلترا أن توازن القوى في القارة الأوروبية يتوقف على نتيجة هذا الصراع بين فرنسا والقوى الأوروبية الأخرى، ذلك التوازن الذي ظلت إنجلترا – تلك الجزيرة الصغيرة – تعتمدُ عليه لضمان سلامتها وحريتها طوال قرون. وشيئاً فشيئاً أصبحت الأمة الإنجليزية على قلب رجلٍ واحد، فرغم استسلام حلفائها، فإن التحدي الأكبر الذي لم تشهده إنجلترا منذ سنة ١٠٦٦ متمثلاً في تعويق تجارتها وإفلاس شركاتها وماليها واستنزاف صانعي الأقمشة، والإغراء اليومي بقبول شروط هذا الكورسيكي العبقري المرعب (نابليون) الذي يمتطي الآن القارة الأوروبية ويهدد بعبور القنال الإنجليزي بنصف مليون مقاتل لم يعرفوا الهزيمة – كل هذا جعل الملك الإنجليزي وبرلمانه يقفان بحزم، وجعل النبلاء والتجار يدفعون الضرائب الباهظة وجعل الإنجليزي العادي يؤدي خدمته الإلزامية في الجيش أو الأسطول، وجعل البحار الإنجليزي الذي لا مثيل له يجتاز مرحلة التمرد إلى مرحلة تحقيق الانتصارات، وجعل هذه البقعة

الصغيرة الحبيبة (إنجلترا) تنطلق خارجة من العوز والمجاعة التي كادت تحيق بها في سنة ١٨١٠ / ١٨١١ لتبني خلال نصف قرن أكثر الإمبراطوريات قوة وتحضرا منذ سقوط روما.

لابد لنا أن نتوقف هنيهة عن متابعة هذه الدراما وهذا الصراع لندرس الأمور التي جعلت انتصار إنجلترا ممكنا - هذا الانتصار الذي يعد تحولا. لابد من التوقف لدراسة موارد التربة والعمل والعلم والأدب والفن والعقل والعقيدة والشخصية.

١- ثورة مختلفة

لقد لعبت الجغرافيا دوراً، فلم يكن مناخ إنجلترا مثالياً، فالرياح الدافئة التي يسببها تيار الخليج شمال الأطلنطي تواجه بشكل مستمر الرياح القطبية الشمالية، ويؤدي هذا الصراع (المواجهة) إلى تتابع نشوء الضباب وتتابع هطول المطر فوق أيرلندا وإسكتلندا وإنجلترا مما يجعل التربة خصبة، والحدائق خضراء والأشجار ضخاماً رائعة، والشوارع مبتلة، ومن هنا كانت السخرية السخيفة التي مؤداها أن الشمس لا تهاجم بعنف الكومنولث البريطاني، لكنها أيضاً لا تشرق في إنجلترا أبداً، وقد وقع نابليون في هذه المبالغة إذ قال ذات مرة لطبيبه البريطاني أرنوت Arnott «ليس لديكم شمس في إنجلترا»، فصحَّح له معلوماته قائلا: «هذا صحيح.. لكن الشمس تشرق دافئة في إنجلترا في شهري يوليو وأغسطس»[١]. هذا الضباب الذي يغلّف البيئة الحيوانية والنباتية قد يكون ظلة استظل بها شعر بليك Blake وغلافاً تغلّف به تيرنر Turner، وربما يكون قد أسهم في تقوية شخصية الشعب الإنجليزي وتقوية مؤسساته. لقد جعلتهم هذه الجزيرة (البريطانية) معزولين (منفردين) لكنها كانت لهم دِرعاً يحميهم من التقلبات العقائدية التي كانت تهب كرياحٍ عاصفةٍ بين الحين والحين، وضد بِدَعِ الفن، وضد هوس الثورات وجنونها، وضد فظائع الحرب التي غالباً ما كانت تشوّه وجه القارة الأوروبية. لقد وقفت الأمة الانجليزي بقدمين راسختين فوق الأرض الإنجليزية.

وإذا كانت جزيرتهم صغيرة، فقد كانت البحار بأمواجها التي تلطم شواطئها حيناً وتداعبها حانية مقبلة حينا آخر - تدعوهم إلى القيام بمغامرات للوصول إلى أماكن بعيدة. لقد أغرت آلاف الطرق السلسة الميسرة الرجال القادرين على الحل والترحال ليكونوا دائما

شامخين. لقد كانت آلاف المناطق Lands في انتظارهم بمنتجاتها وأسواقها، لتتحول إنجلترا – بسببها – من الزراعة إلى الصناعة والتجارة والمالية الواسعة على مستوى العالم. لقد أدت كثرة تعاريج سواحلها كثرة هائلة إلى وجود مداخل كثيرة وخلجان صغيرة كثيرة تقدم مرافئ آمنة للسفن من كل أنحاء العالم. وكان في الجزيرة البريطانية نفسها اثنا عشر نهراً صالحاً للملاحة النهرية ومئة قناة تُفضي إلى نهر أو آخر من هذه الأنهار فليس هناك إنجليزي واحد يبعد أكثر من خمسة وسبعين ميلاً عن المياه التي يمكن – عن طريقها – أن يصل إلى البحر.

لقد واجهت بريطانيا التحدي الجغرافي بقيامها بالثورة الصناعية وحمل تبعاتها على عواتقهم(*). لقد شيد البريطانيون سفناً ذوات أحجام كبار لم يُعرف لها من قبل مثيل، وكان بعضها مصمما للقيام برحلات تستغرق الرحلة منها نصف عام إلى الهند والصين. لقد أحبت إنجلترا البحر كأحد ممتلكاتها تعتبره امتداداً لها، وحاربت بلا هوادة للسيطرة على هذا الامتداد البحري ضد الإسبان، فالهولنديين، والآن ضد الفرنسيين. لقد مخرت عباب طرقٍ بحرية جديدة حول القارات وإليها؛ إلى موارد وأسواق أفريقية والهند والشرق الأقصى وأستراليا وجنوب المحيط الهادي (الباسيفيكي) والأمريكيتين، وكان الإنجليز – سواء كأجانب (غرباء) أو كمتمردين – تواقين للتجارة مع الآخرين. ولم يتحد هؤلاء البريتون النهمون سوى الطريق (الممر) الشمالي الغربي فقد صدهم وعادوا منه فرادى متفرقين، لكن غير مقهورين.

وعلى أية حال فإن هذه الأساطيل التجارية والأساطيل البحرية الطوافة التي تحميها كان لابد من بنائها – غالبا – من أخشاب منشورة مستوردة وكان لابد أن تحصل هذه المستعمرات وهؤلاء العملاء على مقابل لموادهم الخامة وفضتهم وذهبهم وبهاراتهم ومؤنهم وفاكهتهم الغريبة، فكان هذا المقابل هو المنتجات الصناعية البريطانية. وكان لا بد للثورة الصناعية من تمويل هذه التجارة المنتعشة ونقلها. وشيئاً فشيئاً راحت إنجلترا – خاصة المناطق الوسطى والشمالية منها، وإسكتلندا – خاصة منطقتها الشمالية – تعيد تنظيم

(*) عرض كتاب روسو والثورة هذا الأمر بإيجاز 681 - 669 Rousseou and Revolution.

حياتها الاقتصادية بسحب المزيد من سكانها من الحقول والقرى إلى المصانع والمدن، ومن العمل البطيء في مجال الحرف المنزلية وفي نطاق الطوائف المهنية (الحرفية) إلى العمل في نطاق مجموعات محددة منظمة ومدربة من رجال ونساء وأطفال دربوا على الميكنة والآلات لإنتاج منتجات مصنعة للعالم.

لقد ساعدت العزلة (كون بريطانيا جزراً تحيطها البحار) على إحداث هذا الانتقال. فمنذ وقت باكر يعود إلى القرن الثاني عشر للميلاد كان الإنجليز النشطون قد وقر في عقولهم أن بإمكانهم الاستفادة من الأراضي إن كانت شاسعة أكثر من استفادتهم منها إن كانت مجزأة في قطع صغيرة. لقد اشتروا مزارع كبيرة وكونوا «مشاعات Commons» وكانت هذه المشاعات حقولاً ومحاطب حيث يقوم الفلاحون - تقليدياً - برعي مواشيهم وجمع حطب الوقود، وكان الإنجليز يشغّلون في ممتلكاتهم الواسعة أُجراء "hired "hands يعملون تحت إشراف مشرفين (نظّار). وفي القرن الخامس عشر أدركوا أنه يمكنهم الحصول على مزيد من الأرباح بتربية الماشية والدواجن أو - وهذا هو الأفضل - برعي الخراف، فهذا أفضل من حرث الأرض وزراعتها، فهم بذلك يكونون أقل حاجة إلى الأيدي العاملة، كما أنهم قد وجدوا بالفعل أسواقاً للذبائح والصوف لدى البريطانيين الذين يعانون من البرد والمحبين لأكل اللحوم، وأيضاً لدى الشعوب الأخرى خارج بريطانيا، وشيئاً فشيئاً راح مزيد من الفلاحين يبيعون ممتلكاتهم أو يهجرون مزارعهم إلى المدن. واختفى - ببطء - صغار مالكي الأرض من الطبقة الوسطى آخذين معهم شيئاً من قوة الشخصية الإنجليزية وكبريائها. وبحلول سنة ١٨٠٠ كان عدد السكان في بريطانيا ١٥ مليون نفس، بينما كان عدد الخراف ١٩ مليون، فقال الظرفاء إن الخراف قد التهمت الناس. وحتى اليوم يفاجأ المرء عند ترحاله في وسط إنجلترا وشمالها بندرة المزارع والأراضي المعدة للزراعة، بينما يكثر عدد المسيجات (الأراضي المسيّجة) الخضراء التي لا يرى فيها إلا الخراف التي تحوِّلُ العشب إلى صوف وتكافئ التربة الممتنة بإفرازاتها (تُسمدها).

يجب ألا نبالغ، فخلال هذه الفترة (باستثناء الأزمة التي اقتربت في أثنائها بريطانيا من المجاعة في سنة ١٨١١ بسبب الحصار القاري الذي فرضه نابليون) نجحت الزراعة في إنجلترا

- تلك الزراعة التي راحت بشكل متزايد تعتمد على الميكنة ورأس المال - في إطعام إنجلترا دون حاجة لعون خارجي[٢]. لقد كان الزرّاع واثقين من أنفسهم لدرجة أنهم حثوا البرلمان على اعتماد (تمرير) وقف (مراجعة) قوانين الغلال (الحبوب) بفرض تعريفة عالية (رسوم جمركية قاسية) على استيراد الغلال (الحبوب grain) المنافسة (كانت الكلمة الإنجليزية Corn تعني أي حبوب، وفي إنجلترا كانت هذه الكلمة Corn تعني عادة القمح، بينما كانت تعني في إسكتلندا الشوفان Oats ومع هذا فحتى سنة ١٧٩٠ كانت هجرة الفلاحين المرحلين إلى المدن بالإضافة إلى المهاجرين الذين اعتراهم الفقر من إسكتلندا وأيرلندا - هي التي قدمت القوى العاملة التي جعلت حركة التصنيع ممكنة.

لقد كانت الصناعة لا تزال في غالبها في البيوت والدكاكين لكن معظمها كان مصمماً محلياً ويتم استهلاك منتجاتها محلياً أيضاً. إن الصناعة في هذه المرحلة لم تكن منظمة للإنتاج بكميات كبيرة (للبيع بالجملة) فلم تكن تستطيع تمويل الأسواق المختلفة المنتشرة عبر الحدود. وكان العامل في المنزل أو الدكان تحت رحمة الوسطاء (السماسرة) الذي يبعيون له المواد الخامة ويشترون منه منتجاته. وكان ما يحصل عليه من مال لقاء منتجاته محكوماً بالعرض والطلب، وكذلك بمنافسيه الذين هم أشد منه جوعاً، وعادة ما كان على زوجته وأطفاله أن يعملوا معه من الفجر حتى حلول الظلام[٣]، لإبعاد الذئب عن باب الدار (المقصود لإبعاد شبح الفقر) وكان لابد من إيجاد طريقة ما أكثر كفاءة لتمويل الصناعة وتنظيمها إن كان عليها مواجهة احتياجات سكان المدن المتزايدين أو ملء مخازن التجار الراغبين في البضائع الأجنبية أو الذهب (المقصود التجار العاملين في مجال التصدير).

لقد دُفعت الصناعة في إنجلترا نحو الخصخصة (المشروعات الخاصة) حيث الحافز لتحقيق الربح واضح، وحيث التحرر إلى حد كبير من التنظيمات أو الترتيبات الحكومية، وكان الاندفاع في هذا الطريق بتأثير من فكر آدم سميث Adam Smith مع تجاهل تحذيراته. لقد حصلت الصناعة الإنجليزية على رأس المال مما توفر لها من عوائدها ومن التجار الأثرياء ومن ملاك الأراضي الذين يجمعون العوائد الزراعية (الرَّيع) ومن الإيجارات في المناطق الحضرية، ومن رجال المال (البنكيين bankers) الذين عرفوا كيف يُولِّدون المالَ من المال،

والذين أقرضوا الأموال نظير نسبة من الفوائد أقل من النسبة التي كان يحصل عليها نظراؤهم الفرنسيون. وعلى هذا فإن الأفراد والمؤسسات قدموا الأموال للمقاولين الذين عملوا على تدعيم منتجات المزرعة والحقل بخدمات الآلات (الماكينات) والعمل والمهارة اللذين يقدمهما العمال رجالاً ونساء وأطفالاً فيكون مقدار الإنتاج أكبر، إذ حقق لإنجلترا عوائد مالية لم تعرفها من قبل أبداً، وراح الممولون (مقدمو الأموال) يراقبون كيفية استخدام أموالهم، وحمل النظام الاقتصادي الذي كان على وشك إعادة تشكيل العالم الغربي أسماءهم.

لقد كانت لعبة تنطوي على المخاطرة، فقد تدمر الإدارة السيئة أي استثمار، وقد تدمِّره أيضاً تقلبات الأسعار والأسواق وتغير الأذواق وزيادة الإنتاج بما يفوق طاقة المستهلكين أو بسبب اكتشاف جديد يُخفيه أحد المنافسين.

لقد جعل الخوف من الخسارة الطمع والرغبة الشديدة في الكسب أكثر حدة. لقد كان لابد من الإبقاء على أجور العمل في حدها الأدنى وكان لابد من تقديم المكافآت على الاختراعات الجديدة، وكان لابد أن تحل الآلة محل القوى العاملة البشرية كلما أمكن ذلك. وكان لابد من استخراج الحديد أو استيراده لصنع الآلات والسفن الحربية المدرعة والجسور والمدافع والبنادق، وكان لابد من استخراج الفحم (وكان متوفراً في إنجلترا لحسن الحظ) لتزويد المصاهر التي تصهر المعادن بالوقود اللازم ولتنقية المعادن الخامة ولتحويل الحديد إلى صلب فيصير أشد وأمتن، وكان لابد من ربط أكبر عدد ممكن من الآلات بمصدر طاقة واحد قوي، وقد يكون مصدر الطاقة هذا رياحاً أو ماءً أو حيوانات تدور بشكل مستمر أو تحرك لولباً (قلاووظ)، لكن أفضل منتج للطاقة لابد أن يكون ماكينة (محرك) بخارية كتلك «المحركات» (الآلات) التي أقامها جيمس وات Watt في مصنع متّى بولتون Matthew Boulton بالقرب من برمنجهام (١٧٧٤م). وإذا كان هناك رأس مال كاف، وإدارة دقيقة أمكن تشغيل أي عدد من الآلات بمحرك واحد (أو عدد قليل من المحركات)، ويمكن أن يرتبط بكل آلة رجل أو امرأة أو طفل يراقبها ويهتم بأمرها طوال ساعات تتراوح ما بين ١٢ و ١٤ ساعة في اليوم مقابل أجرٍ يقيم أوده.

وسرعان ما راحت آلاف المداخن تقذف بدخانها في سماوات المراكز الصناعية الناشئة ـ منشستر، وبيرمنجهام، وشفيلد، وليدز، وجلاسجو، وأدنبره (ادنبورج) وكان في بريطانيا في سنة ١٧٥٠ مدينتان سكان كل منهما ٥٠,٠٠٠، وفي سنة ١٨٠١ بلغ عدد مثل هذه المدن ثماني، ستصبح في سنة ١٨٥١ تسعاً وعشرين مدينة. وتم تمهيد الطرق لتسهيل نقل المواد الخامة والوقود والمنتجات للمصانع والأسواق والموانئ، وتم تشييد مركبات الجياد العمومية التي تسع الواحدة منها ثمانية ركاب ولتقطع عشرة أميال في الساعة. وفي نحو سنة ١٨٠٨ قام توماس تلفورد Thomas Telford بابتكار أسطح جديدة للطرق تشبه بشكل أساسي الطرق السريعة المرصوفة بالحصباء هذه الأيام، وفعل الشيء نفسه جون مكآدم John McAdam في نحو سنة ١٨١١، وكلاهما من المهندسين الإسكتلنديين. وفي سنة ١٨٠١ شيد جورج تريفيثك Trevithick أول محرك بخاري لسحب عربة المسافرين فوق قضبان، وفي سنة ١٨١٣ شيد جورج ستيفنسون Stephenson محركاً أفضل، وفي سنة ١٨٢٥ افتتح أول سكة حديدية نظامية تجري عليها قاطرات بخارية بين ستكتون Stockton ودارلنجتون Darlington. وفي سنة ١٨٠١ بدأ تشغيل أول قارب بخاري في القناة الإسكتلندية، وفي سنة ١٨٠٧ شيد مصنع بولتون ووات Boulton & Watt قارباً بخاريا لنقل الركاب حذا فيه حذو أنموذج قدمه روبرت فلتون Robert Fulton الذي أطلق قاربه (كليرمونت Clermont) من نيويورك إلى ألباني Albany في أغسطس من العام نفسه. وفي هذه الأثناء كانت لندن وهارفتش ونيوكاسل وليفربول وجلاسجو موانئ متطورة وبها تسهيلات للتجارة عبر المحيط، وكان نيلسون قد انتصر في أبي قير وفي الطرف الأغر، محققاً لإنجلترا السيادة على البحار.

وفي سنة ١٨٠١ أجرت الحكومة أول إحصاء مبني على أسس علمية في بريطانيا العظمى (إنجلترا، وويلز، وسكوتلندا) وأدى هذا إلى فزع المواطنين الذين استاؤوا من انتهاك خصوصياتهم كمقدمة لإخضاعهم لتنظيم صارم(٤). وأظهرت نتيجة الإحصاء المسجلة أن عدد سكان بريطانيا العظمى في ذلك الوقت كان ١٠,٩٤٢,٦٤٦ (كان عدد سكان الولايات المتحدة في ذلك الوقت نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠) وبحلول عام ١٨١١ كان عدد سكان

بريطانيا العظمى قد ازداد ليصبح ١٢,٥٥٢,١٤٤[٥] . وربما تعكس الزيادة زيادة كميات الطعام المتاحة وتحسن الخدمات الطبية وانخفاض نسبة الوفيات بين كبار السن والأطفال. لقد زاد سكان لندن في سنة ١٨١١ ليصبح ١,٠٠٩,٥٤٦ لكن التوسع الأكثر أهمية والأكثر ضخامة كان في الشمال والغرب الصناعيين، وفي سنة ١٨١١ كان عدد السكان العاملين في مجالي الزراعة والرعي هو: ٨٩٥,٩٩٨ على وفق ما هو وارد في السجلات بينما كان العاملون في مجالي الصناعة والتجارة ١,١٢٨,٠٤٩ وفي أعمال أخرى ٥١٩,١٦٨. لقد ضيّقت الحكومة على الزراعة بإقرارها نظام الحظائر المسيجة (التي ترعى فيها الأغنام...) وشجعت الصناعة بالعمل لصالح المشروعات الخاصة (الحرة) وبالحماية الجمركية وبمنع اتحادات العمال من المطالبة بأجور أفضل (١٨٠٠)، كما عملت على تحسين أحوال التجارة بتحسين الطرق والمجاري المائية، وبتشييد أسطول بحري بريطاني لا يُقهر. لقد حقق التجار والصناع والماليون ثروات كبيرة وفاز بعضهم بمقاعد في البرلمان أو اشتروها (حصلوا عليها لقاء مال دفعوه).

تُظهر الصورة الاقتصادية لبريطانيا في سنة ١٨٠٠ أنه يوجد في القمة - كانت الأرستقراطية لاتزال موجودة وإن كانت في تناقص - سادة الاقتصاد الذين تسوّدوا خلال ملكيتهم للأراضي، وكان يتعاون معهم نبلاء البرلمان والأرستقراطية المهيمنة (الحاكمة)، وحولهم أو أدنى منهم التجار والصناع البورجوازيون أصحاب المشاريع الذين لا يرحمون، وهم يُظهرون ثراءهم الجديد ومسلكهم السيئ، ويصخبون مطالبين بمزيد من السلطة السياسية، وإلى الأدنى منهم أصحاب المهن المحترمة بدءاً من أكثر الأطباء علماً إلى أكثر الصحفيين شجاعة ودهاء، وإلى الأدنى من هؤلاء جميعاً الفلاحون الذين يفقدون ملكياتهم بشكل متزايد منتظرين العون والنجدة، وعمال المناجم الذين لا يرون الشمس والذين يعيشون في أحشاء الأرض، والعمال غير المهرة الذين يسفلتون الطرق ويحفرون الترع وعمال المصانع الذين يشكلون بركة أو مجمعاً للجوع وعدم الانضباط وانهيار المعنويات، والذين راحوا يكتبون مأساتهم على صفحات سماوات ملوثة (لوثها دخان المصانع).

٢- في القاع

وإذا كان لنا أن نعيد النظر في أحوال عمال المصانع في بريطانيا في سنة ١٨٠٠ وجب علينا ألا نبالغ في أهميتهم في نطاق الصورة العامة في ذلك الوقت، إذ يمكن أن نفترض وجود كثير من المشاهد الباعثة على السرور في «إنجلترا السعيدة Merrie England». فلم يكن العمل في المصانع في حد ذاته في ذلك الوقت هو المَعْلم الرئيسي للصناعة البريطانية، فقد كان معظم الإنتاج الصناعي لا يزال يجري إنجازه في البيوت في الريف والحضر على أنوال أو مخارط، أو على يد حرفيين في محلات (دكاكين) مستقلة. وكان التصنيع من خلال نظام المصانع مقتصراً على عمليات إعداد القطن والكتان والصوف، ورغم محدودية هذا النظام، فإن دوره في بانوراما العصر (المشهد العام للعصر) كان واحداً من أشد الأدوار مدعاة للحزن في التاريخ الإنجليزي[٦].

لقد كانت المصانع نفسها قائمة في الأحياء القذرة أي أحياء الفقراء مكفّنة بالروائح الكريهة المنبعثة من الماء الآسن والدخان الناتج عن المصانع ذاتها التي كانت من الداخل متربة بشكل عام وقذرة وسيئة التهوية والإضاءة حتى عام ١٨٠٥ حين بدأت الإضاءة بغاز الاستصباح. وكان يتم تشغيل الماكينات بسرعتها القصوى مما كان يتطلب من العاملين عليها مراقبتها بعيون حذرة وتظل أيديهم مشغولة طوال اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم. لقد حدث وقتها كما حدث في وقت لاحق أن أدت المخترعات الآلية إلى إنقاذ العمل واستهلاك الإنسان. وكان مسموحاً للعمال بساعة لتناول الغداء وبعدها يستمر الكدح حتى الساعة الثامنة مساء في معظم الحالات[٧]. وعند الحاجة كان يتم دعم القوى العاملة من المخزون البشري المتمثل في الفلاحين المرحّلين والنسوة الضائعات.

وكان أصحاب المصانع يفضلون النساء على الرجال، والأطفال على النساء لقلة أجورهم. وفي سنة ١٩١٦ كان من بين ١٠,٠٠٠ من العاملين في ٤١ طاحونة إسكتلندية: ٣,١٤٦ رجلاً و ٦,٨٥٤ امرأة و ٤,٥٨١ طفلاً دون الثامنة عشرة من العمر[٨]. وكان أصحاب المصانع يفضلون تشغيل الأطفال الأيتام والمعوزين الذين يُرسلهم مقاولو تشغيل الفقراء لنجدتهم، وذلك لانخفاض أجورهم. وحاول مرسوم المصانع The Factory Act الصادر في

سنة ١٨٠٢ أن يضع حدودا دنيا لاستخدام مثل هؤلاء «العمال المهنيين» بمنع تشغيلهم أكثر من ١٢ ساعة يومياً، ولكن البرلمان قد رفض الدفع للمفوضين (مندوبي الحكومة) لوضع المرسوم موضع التطبيق»[٩] وبشكل عام ظل تشغيل الأطفال ساري المفعول في المصانع البريطانية حتى سنة ١٩٤٢[١٠].

وفي سنة ١٨٠٠ كان متوسط أجر العامل البالغ في لندن هو ١٨ شلنا في الأسبوع (نحو ٢٣ دولاراً في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠) أما في الريف فكان المتوسط ينقص بنحو الثلث[١١]. وبالجملة فإن أجور الأسرة كان يتحكم فيها العدد المطلوب لاستمرار العمل لكن هذا كان يتوقف على انضمام الزوجة والابن إلى القوى العاملة في المصنع[١٢]. وكان أصحاب العمل يدافعون عن مبدأ بقاء الأجور منخفضة لضمان عودة العمال إلى العمل، وكان بعض العمال يحصلون على إجازة أسبوعية لمدة يومين أو ثلاثة وعندما يعودون للعمل يكونون في حالة غير يقظة لفرط ما تناولوه من كحول في أثناء الإجازة[١٣] ولم يكن يدفع العامل للعودة للعمل في المصنع بين الآلات سوى الجوع.

وكانت هناك بعض الميزات المعينة التي تُلطِّف عناء العمال، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يدفعون قيمة الإيجار وتكاليف الوقود للعاملين لديهم. وكانت أسعار السلع منخفضة - كانت أرخص بنحو الثلث من الأسعار التي سادت في بريطانيا العظمى سنة ١٩٦٠[١٤]. وكانت الأجور - بشكل عام - تتناسب طردياً مع الأسعار، فكلما ارتفعت الأسعار زادت الأجور وكلما انخفضت الأسعار قلت الأجور، وظل الحال على هذا النحو حتى سنة ١٧٩٣ عندما بدأت الحرب مع فرنسا فعانت الطبقات كلها من نقص دخولها، وإن كانت معاناة العمال هي الأشد لأن أجورهم كانت منخفضة انخفاضاً لا يمكّنهم من العيش إلاّ بشق الأنفس.

لقد كان العمال يعيشون في المدن حيث الهواء الملوّث (المسمَّم) في أحياء منعزلة تعمها الأمراض، في مساكن مزدحمة - وأحيانا في غرف رطبة ضيقة كالقبور لايصلها نور الشمس إلاّ لماما، ولا مكان فيها للنظافة، وحيث النزاعات بين المقيمين فيها تتلف الأعصاب المرهقة ولم يكن هناك مجال لاحتفاظ الفرد بخصوصيته ولم يكن ثمة ملجأ أمام المرأة سوى

التقوى، ولم يكن أمام الرجل سوى الخمَّارة. وكان السُّكر (تناول الخمر) يتم كل أسبوع. وكان سكان البيوت يحصلون على المياه من الآبار و «الطلمبات» العامة فإذا ما قلَّ معين الماء في هذين المصدرين راحت النسوة يحملن الماء من أقرب نهر أو ترعة، وكانت هذه المياه ملوثة بالمخلفات الصناعية أو المنزلية أو البشرية[١٥] . وكان الصرف الصحي بدائيا وكانت البالوعات نادرة الوجود. وكتب ثورولد روجرز Thorolde Rogers في سنة ١٨٩٠ عندما كان أستاذاً للاقتصاد السياسي في أكسفورد: «إنني مُوقن أن التاريخ الإنجليزي الموثَّق لم يسجِّل في أي فترة من فتراته ظروفاً أسوأ للعمل اليدوي من تلك الظروف التي كانت موجودة في الأربعين سنة الممتدة من ١٧٨٢ إلى ١٨٢١ وهي الفترة التي جمع فيها أصحاب المصانع ثرواتهم بسرعة، وهي الفترة التي تضاعفت فيها أجور الأرض الزراعية»[١٦] . وقد استمرت هذه الأحوال حتى سني الأربعين من القرن التاسع عشر (١٨٤٠ – ١٨٤٩). وقد لخّص كارليل Carlyle الذي نشأ في إسكتلندا وإنجلترا ما بين سنتي ١٧٩٥ و ١٨٤٠ حال عامل المصنع البريطاني في تلك الفترة بأن قال: إن البريتون Briton كانوا في حالة أفضل منه عندما كانوا أقنانا (عبيداً للأرض) في العصور الوسطى. فالتقدم الصناعي جعل للبروليتاري نصيباً تافهاً جداً من الثروة المتنامية، حتى إنّها جعلته يرتد إلى مرحلة البربرية في مسلكه ولباسه وطريقة حديثه والأسلوب الذي يتَّبعه للترفيه عن نفسه. وقد كتب أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville بعد زيارته لمانشستر: «لقد كاد الإنسان المتحضر يتحول إلى همجي بدائي»[١٧] . ويرجع الفضل إلى هذه الأيام المريرة فيما حققته مانشستر والمدن الصناعية البريطانية الأخرى من تقدم.

وقدَّم «قانون الفقراء» الذي سُنّ في سنة ١٦٠١ (وجرت عليه تعديلات في فترات لاحقة) بعض المساعدة للمعدمين والعاطلين. وكان العاملون على تنفيذه مسؤولين إداريين في الوحدات الإدارية المختلفة وكانوا عادة ما يسلّمون المبالغ المجمّعة للملاجئ وإصلاحيات الأحداث. ولتمويل تنفيذ هذا القانون كان لابد من ضريبة خاصة مفروضة على أرباب البيوت الذين كانوا متذمرين من هذه الضريبة لأنها – على حد رأيهم – تُنفق على العاطلين وعديمي النفع وتساعد على تفريخ الطائشين والمهملين، وكان من رأيهم أن ضريبة المبيعات

(المكوس) على ما يُباع أو يُتاجر به محلياً هي خير ضمان ضد الفوضى الاجتماعية. وفي كثير من المديريات (الوحدات الإدارية) - بعد سنة ١٧٩٥ - كان يتم تنظيم المساعدات (الإعانات) ليحصل عليها أصحاب الأجور المتدنية (التي لا تكفي لإقامة أَوَد العمّال الحاصلين عليها)، وكان بعض أصحاب العمل ينتهزون فرصة تقديم هذه الإعانات للإبقاء على الأجور التي يدفعونها للعمال متدنية.

ورغم هذه الإعانات المتواضعة، فقد وصلت الحالة البائسة للعمال إلى منعطف خطير مع بداية القرن التاسع عشر. فحتى سنة ١٨٢٤ كان محظوراً تشكيل تنظيمات للمطالبة بأجور أفضل، ومع هذا فقد كانت هناك تنظيمات سرية، وكان محظوراً القيام بإضرابات ومع هذا فقد أضرب العمال وجرى قمعهم، فأضربوا ثانية[١٨]. وحذّر الإصلاحيون مثل روبرت أوين Robert Owen البرلمان أنه إذا لم تتحسن أحوال المصانع، فسيزداد العنف مما سيكلف كثيرا. وواجهت الحكومة السخط المتزايد بتجديد الأعمال العدائية مع فرنسا (١٨٠٣) وراحت حالة السخط تزداد كلما ابتعد شبحُ الحرب حتى انفجرت في ثورة علنية في سنة ١٨١١، ولم يكن في طليعة هذه الثورة عمال المصانع وإنما نسّاجو الجوارب والربط الذين يقومون بعملهم على ماكينات في البيوت والمحلات الصغيرة في نوتنجهام Nottingham أو بالقرب منها. وهؤلاء النسّاجون رجالاً ونساء كانوا لا يزالون قادرين على الاستمتاع بحياة في الهواء الطلق في الحقول والمزارع، وربما تحققوا من أن حياتهم ذات الطبيعة المنطلقة تتناقض - من الناحية المثالية مع انكفائهم على أنوالهم. لقد امتعضوا من تبعيتهم لأصحاب الأنوال (آلات نسج الجوارب) الذين أجّروا لهم هذه الأنوال، وباعوا لهم المواد الخامة واشتروا منهم منتجاتهم ولم يتركوا لهم ربحاً إلاّ بالنسب التي يحددونها هم (أصحاب الأنوال) أو يحددها الذين موّلوه بالخامات أو برأس المال. وأكثر من هذا فقد كانوا يخشون أن يفقدوا أعمالهم الحالية لصالح المصانع المنتشرة ذوات الأنوال الآلية التي تحركها الطاقة (البخارية) ذات الإنتاج المُضاعف، وفي فورة غضبهم قرروا أن يدمروا كلَّ ما يستطيعون تدميره من الآلات والماكينات التي اعتبروها رمزا لعبوديتهم.

ونظم ند Ned أو الملك لُود King Ludd - وهو شخصية غامضة وربما كان شخصاً

أسطوريا – النسّاجين الغاضبين ووضع الخطط لغاراتهم. وفي خريف سنة ١٨١١ راحت جماعات منفصلة من هؤلاء النسّاجين الثائرين (اللوديين Luddites) يغزون مديرية إثر مديرية وحطموا كل ما وجدوه من آلات النسيج. وامتدت الحركة من نوتنجهامشير Nottinghamshire إلى لانكشير Lancashire ودربيشير Derbyshire وليزيسترشير Leicestershire واستمرت الحركة خلال عام ١٨١٢. وامتنع محطّمو الآلات (اللوديون) عن إلحاق الأذى بالأشخاص إلاّ في حالة صاحب مصنع أمر رجاله بإطلاق النار عليهم، فقد أخرجه المضربون وقتلوه. وارتعد نصف إنجلترا خوفا وهلعاً متذكرة الثورة الفرنسية. وكتب روبرت سوثي R. Southey «في هذه اللحظات لا شيء ينقذنا سوى الجيش. إنه الذي سينقذنا من أكثر النكبات والكوارث ضراوة. سينقذنا من عصيان الفقراء المسلّح ضد الأثرياء، لكن إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الجيش في هذا الأمر؟ فهذا موضع سؤال قلما أجرؤ أن أوجهه إلى نفسي. إن البلاد ملغّمة تسيخ تحت أقدامنا[١٩]». ودافع وليم كوبت W. Cobbett الصحفي المفعم حيوية عن هؤلاء «المغيرين» في مجلس العموم البريطاني وألقى الشاعر بيرون Byron خطاباً حاراً لصالحهم في مجلس اللوردات، وقدم اللورد ليفربول Liverpool رئيس الوزراء بعض التشريعات القاسية التي أجازها البرلمان وأرسل كتيبة عسكرية لقمع الثوّار وتم القبض على قادة الثوار وأدينوا بسرعة في محاكمة جماعية في يورك (١٨١٣) ونفي بعضهم وشُنق آخرون. وتضاعف عدد الآلات والماكينات ولم يصدر تشريع يرحم العامل البريطاني البالغ حتى سنة ١٨٢٤.

٣– قسوة العِلْم:

لم يقدم الاقتصاديون سوى القليل لإراحة العمال والتخفيف من معاناتهم. وشرح توماس مالتوس Thomas Malthus في مبحثه (مقال عن السكّان) صدر سنة ١٧٩٨ أن زيادة الأجور تؤدي إلى ظهور أسرة أكثر عدداً مما يؤدي بدوره إلى زيادة الضغط على موارد الطعام وهذا يؤدي بدوره إلى عودة الفقر حالاً لأن الفقر هو النتيجة الدائمة لعدم كفاية الموارد الطبيعية لحاجة الإنسان[٢٠]. وقد راجع مالتوس نظريته هذه سنة ١٨٠٣ لكن دون

تراجع عن أفكارها الأساسية واضعاً بذلك « قانونه الحديدي للأجور » والقاضي بأَنّ أُجرة العامل ينبغي ألاّ تتجاوز الحدَّ اللازم لعيش الكفاف أوبتعبير آخر « ستظل أجور العمل دائما تتحكم فيها نسبة إمداد العمل للحاجة »[٢١] . وفي مبحثه مبادئ الاقتصاد السياسي (١٨٢٠) حذَّر من أنَّ النمو الاقتصادي قد يؤدي إلى التجاوز مادام سيؤدي إلى تقليص الاستثمار والإنتاج، ودافع عن الرِّيع rent (العوائد عن استثمار الممتلكات) باعتباره مكافأة عن الشجاعة والحكمة في الوقت الحالي، وعن قوةٍ أوبراعةٍ كانتا في الماضى »[٢٢] ، واتفق مع فولتير في أنّ « حياة الترف التي يحياها الأثرياء لها أثر طيب إذ تتيح للحرفيين الفنيين المهرة فرصاً للعمل. وفي لحظة ليبرالية أوصى بإقامة الأعمال العامة (الأشغال العامة) وفي فترات نقص الإنتاج كإعانة للعاطلين وتخفيفاً من معاناتهم.

واتفق ريكاردوRicardo مع نظريات صديقه مالتوس وأقام عليها مبحثه « أسس الاقتصاد السياسي والضرائب » (١٨١٧) الذي ظل طوال نصف قرن هو النص الكلاسي لما أطلق عليه كارليل « العلم البارد أو القاسي »[٢٣] . لقد كان (ريكاردو) ابناً ليهودي هولندي كانت أحواله قد انتعشت في سوق لندن للصرافة والأوراق المالية، وكان قد تحوّل إلى المسيحية على مذهب الموحِدين(*) وتزوَّج من فتاة على مذهب الكواكر Quaker (جماعة مسيحية) وأسَّس شركة سمسرة وكوّن ثروة كبيرة وانسحب من عالم الأعمال سنة ١٨١٥ وكتب عدّة مباحث عميقة خاصة في المالية » .وفي سنة ١٨١٩ تم انتخابه لمجلس العموم البريطاني حيث حارب المفاسد البرلمانية ودافع عن الاتحادات العمالية وحذّر الرأسماليين كي ينتبهوا مخافة أن يجني ملاَّكُ الأراضي في بريطانيا – عاجلا أم آجلا – حصادَ الصناعة ومكاسبها بما لهم من حق في رفع الإيجارات. ودلّل في بحث له في هذه الفترة على أن رفع الأجور لم يكن أبداً أمراً حقيقيا بسبب ارتفاع الأسعار الناتج عن زيادة تكاليف الإنتاج، لأن الأجر الخالص للعامل هو ذلك الذي يمكِّنه من العيش والإبقاء على نوْعه (دون زيادة) ولم يترك ريكاردو إلا القليل لكارل ماركس بتعريفه لقيمة value (وليس سعر price) البضاعة بكمية العمل المبذول اللازم لإنتاجها.

(*) الموحّدون المسيحيون هم الذين ينكرون فكرة التثليث وهم من الناحية العقائدية كالمسلمين. (المترجم)

ولم يكن هو نفسه قاسيا (باردا) كَعِلْمه، فقد ظلّ هو ومالتوس صديقين إلى النهاية رغم أنهما كانا يختلفان غالبا في أمورخاصة وفي أمور الطباعة، وعندما ماتا (ريكاردو في سنة ١٨٢٣ ومالتوس في سنة ١٨٢٤) قال عنهما سير جيمس ماكينتوش Mackintosh (الومضة الباقية من التنوير الإسكتلندي) : « لقد عرفتُ آدم سميث معرفة سطحية، وعرفت ريكاردو جيدا وعرفت مالتوس بعمق فقد كانت علاقتي به حميمة. وبصرف النظر عمّا يُقال عن العلم الذي كان هؤلاء الثلاثة هم سادته ورجاله الأساسيين، فإن ثلاثتهم كانوا من أفضل من عرفت على الإطلاق »[٢٤] .

٤-روبرت أوين:

نعود الآن بسرور إلى روبرت أوين، رجل الصناعة الناجح الذي حاول أن يجعل الاقتصاد البريطاني شأنا بهيجا يجعله عواناً بين الرأسمالية والاشتراكية. وُلد روبرت في نيوتون Newtown في ويلز Wales حيث كان أبوه صانع سروج وصاحب محطة تزويد المسافرين بجياد البريد، وصاحب مصنع حديد، وكان ناجحا في كل هذه الأعمال. وكان روبرت في صباه ضعيف البدن ولكنه تعلم كيف يحافظ على صحته وعاش حتى بلغ السابعة والثمانين. وقد جعله أهله يمارس العمل وهو في التاسعة من عمره، وفي العاشرة تمَّ تدريبه ليمتَهِن تجارة الأجواخ والألبسة في ستامفورد Stamford وفي الرابعة عشرة من عمره أصبح مساعدا لتاجر أجواخ وألبسة في مانشستر Manchester، وفي التاسعة عشرة من عمره أصبح مديرا لإحدى أكبر المصانع في لانكشير براتب سنوي قدره ثلاثمائة جنيه (بوند) (نحو ٧,٥٠٠ دولار؟) وظل في عمله هذا ثمانية أعوام حقق خلالها شهرة لكفاءته واستقامته. لقد راح يوفِّر ويدرس ويقرأ بشغف يفوق الحد، وكوّن صداقات مثيرة للانتباه مع كل من: جون دالتون Dalton المعروف بكيميائه الجزيئية atomic Chemstry وروبرت فلتون Fulton المعروف بقواربه البخارية وصموئيل (صامويل) كولرِدْج Coleridge المعروف بأفكاره الراديكالية وأشعاره المعروفة. وفي سنة ١٧٩٩ وكان قد بلغ الثامنة والعشرين اشترى من ديفد ديل David dale لنفسه واثنين من شركائه مجموعة مصانع نسيج في نيو لانارك New

Lanark بالقرب من جلاسجو Glasgow وحظي – مكافأةً له – بابنة ديل Dale التي أصبحت زوجته المحبوبة التي أنجب منها سبعة أبناء.

وكانت نيو لانارك تضم نحو ٢٠٠٠ نفس بمن فيهم نحو ٥٠٠ طفل أُرسلوا إليها من البيوت الفقيرة في جلاسجو وأدنبره (أدنبرج Edinburgh)، وكما تذكَّر أوين فيما بعد «كان السكان يعيشون في بطالة وفقر وسادت تقريبا كل أنواع الجرائم، وكانوا مدينين مرارا غير أصحاء وفي حالة بؤس... وأدى الجهل وقلة التدريب إلى اعتيادهم السُّكر والسرقة والكذب والغش والقذارة... وكانوا مجحفين في حق الأمة سياسيا ودينيا يتصدون لأية محاولة لتحسين أوضاعهم»[٢٥]. وكانت المدن الصناعية الصغيرة تكاد تخلو من وسائل الصحة العامة ووسائل منع تفشي الأمراض. وكانت المساكن مظلمة قذرة، وبدت ممارسة الجريمة عملا ترفيهيا من عناء العمل، وكانت الحانات ملاذاً دافئا وباعثا على المسرّة من مشاكل البيوت. وكان أوين Owen قد فقد إيمانه بالغيبيات تماما لكنّه تعلّق بإخلاص بالمثالية الأخلاقية للمسيح، لكنه صُدِم بالمزج بين العبودية الصناعية الجديدة واللاهوت المسيحي القديم (المقصود التوفيق بينهما)، وإنما راح يبحث عن سبيل للتوفيق بين الرأسمالية الناجحة والأخلاق المسيحية.

وأقنع نفسه – رغم تحذير والديه – بعائد قدره ٥٪ من رأس المال المستثمر، ورفع الأجور ومنع تشغيل الأطفال تحت سن العاشرة، ورفض حجة مالتوس التي مؤدّاها أن زيادة الأجور ستزيد ضغط (استهلاك) السكان على الطعام المتاح مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار مما يجعل الأجر الذي يتلقاه العامل وكأنه لم يزد (بمعنى أن قيمته الشرائية رغم الزيادة تظل كما هي) وساق الحجة على أن ما هو صالح للأكل مما يجود به البحر لا حد له، كما أن زيادة السكان تؤدي إلى زيادة الأراضي المزروعة وأن زيادة الإنتاج ستقترن بظهور المزيد من الاختراعات والمزيد من العمالة، كل ذلك سيساعد على توفير الطعام وتحقيق الازدهار للسكان، إذا أخذت الحكومة بالبرنامج الإصلاحي الذي يقترحه[٢٦]. وافتتح في نيو لامارك New Lamark محلا يبيع فيه مستلزمات الحياة بسعر التكلفة تقريبا، ودرّب – بصبر – العاملين معه ليس فقط على تقنيات الإنتاج بل أيضا على فن الحياة، وأكد لهم أنهم إذا تعاونوا وراعى

بعضهم بعضا سينعمون بسلام ورضا لم يألفوهما من قبل. ويبدو أنه كسب كثيرا من العمال إلى جانب النظام والنظافة والاعتدال، وعندما تذمّر والداه من أنه ينفق على أعمال الإحسان والتعليم أموالاً كان يمكن أنْ تحقق أرباحاً وافرة، كوّن لنفسه شركة خاصة به (١٨١٣) بعد أن فسخ شركته معهما، ورحب شركاؤه الجدد (كان من بينهم جيرمي بنثام) بتجربته وكانوا راضين بنسبة الخمسة في المائة كعائد لاستثماراتهم.

وحقَّقت مصانعه ومشروعاته في نيو لامارك شهرة على مستوى الوطن إن لم يكن على مستوى العالم. وكانت مدينة نيو لامارك تبعد عن الطريق الرئيسي مسافة تستغرق ركوب يوم كامل من جلاسجو عبر جبالٍ وضباب، ومع هذا كان آلاف الزائرين يأتون لفهم هذه الظاهرة التي لاتصدق – مصنع يُدار على وفق للمبادئ المسيحية، ووقَّع عشرون ألفا في دفتر الزيارات فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢٥ ، كان منهم كتاب ومصلحون ورجال أعمال وأمراء مثل الأرشيدوق جوهان (يوهان) ومكسمليان النمساوي، وفي سنة ١٨١٥ كان الدوق الكبير نيكولاس (الذي سرعان ما أصبح قيصرا) قد اقتنع بمشروع أوين وبنتائجه فدعا أوين Owen إلى روسيا لتأسيس مصانع ومشروعات مماثلة في روسيا.

وبعد أربعة عشر عاما من التجربة شعر أوين Owen بضرورة تأكيد تجربته وإعلانها للعالم لأنه كان واثقا من أن انتشارها في أنحاء العالم «سيضمن السعادة لكل البشر عبر الأجيال»(٢٧) لذا فقد أصدر في سنة ١٥١٣ أول مقال من مقالات أربع كان لها عنوان شامل (نظرة جديدة للمجتمع) أصبحت من الكلاسيّات الكبرى في الإنتاج الفكري الذي يتناول الإصلاح. ولم يقدم اقتراحاته بشكل مُستقر وكأنه مستعد للقتال، فقد أكَّد لحكّام بريطانيا ورجال الصناعة فيها أنه لايرغب في إحداث أيّ تغييرثوري، ولايؤمن به وأن خطته لا تهدف إلى إلحاق الخسارة بأيٍّ أحد بل إنها حقاً قد تزيد من دخل صاحب العمل، وأنها – أي خطته – قد تجنِّب إنجلترا الثورة. لقد بدأ باقتراحٍ وجدهُ أساسيا لأي إصلاح جذري – وهو ضرورة تعديل شخصية الإنسان منذ الطفولة ببث معتقدات وتجارب مفيده تُغير ما يبدو أنّه قد غُرِس فيه من خلال موروثات ثابتة تذكي فيه التنافس والصراع. «إن أكبر أخطائنا تتمثل في فكرة مؤداها أن الأفراد يشكلون شخصياتهم»(٢٨) لكن العكس هو

الصحيح، فآلاف المؤثرات التي تؤثر في الشخص قبل ميلاده ومن ميلاده إلى موته هي التي تكوّن شخصيته[٢٩] . وانتهى أوين Owen بحماس رافضاً أي معدل أو ملطف « فأي شخصية سواء كانت من أفضل الشخصيات أم من أسوئها، ومن أكثرها جهلاً أو أكثرها تنوراً لابد أن تكون موجودة في أي مجتمع، بل وفي العالم كله وذلك من خلال وسائل خاصة هي إلى حد كبير تحت سيطرة من يملكون زمام الأمر في الحكومات »[٣٠] . ومن هذا المبدأ خلُص أوين بافتراضين: الأول؛ أن الطبقات المالكة الحالية لا لَوْم عليها في ممارساتها وأفكارها طالما أن أفراد هذه الطبقات هم نتاج ماضيهم والبيئات التي هم فيها الآن، والثاني أن الإصلاح لابد أن يبدأ بالأطفال وبتحسين أحوال المدارس وزيادة أعدادها. لابد من بذل كل جهد لتنشئة الأطفال بحيث يفهمون أنه لابد أن يحترم كل فرد الأفراد الآخرين طالما أن أي فرد غير ملوم لصفاته (شخصيته) وغير ملوم بسبب ظروف المجتمع الذي نشأ فيه: لابد من تعليم الأطفال كيف يتعاونون بإراداتهم وأن يكونوا شجعانا. ولذا وجدناه عندما كانت المدارس المتاحة للعوام في إنجلترا قليلة جدا يقترح على الحكومات في كل البلاد وضع خطة وطنية (على مستوى الأمة) للتعليم وإعادة تشكيل الشخصية.. دون نظر إلى وطن أو مذهب ديني أو حزب »[٣١] .

وكان ديفد ديل Dale قد أنجز بالفعل الكثير لتعليم الأطفال في نيو لانارك، وزاد أوين على ذلك بأن أقام في أحد المباني من ممتلكاته « المعهد الجديد » ١٨١٦ لتحويل الملائكة والمتبربرين إلى مسيحيين بدون لاهوت. لقد راح يبحث عن تلاميذ لمعهده من بين الأطفال الذين يستطيعون المشي[٣٢] فقد كان يخشى (مثل أفلاطون) أن ينقل الآباء الذين تكونوا بالفعل (تشكلت عقولهم ونفوسهم بالفعل) أو فسدت طباعهم بالفعل – إلى أطفالهم روح التنافس .... في الحكم الموجود (القائم)، واستسلم للأمهات اللائي أصررن على أن الأطفال في أعوامهم الأولى يحتاجون إلى عطف الأم ورعايتها، وعادة ما كان يُلحق بمدرسته الأطفال في سن الثالثة ويتركهم – إن سمح الطقس – يتعلمون ويلعبون في الهواء الطلق، وكان الأطفال ذكوراً وإناثاً يلعبون ويتدربون معاً، وكان عليهم أيضاً أن يتدربوا في دار الفنون (الصناعات)، وكان الأولاد يتلقون تدريبات عسكرية، لكن كان عليهم أن

يتعلموا أيضاً الغناء والرقص والعزف على بعض الآلات الموسيقية كالبنات. وكان كل هذا البرنامج التعليمي لخدمة تكوين الشخصية الأخلاقية مع تركيز على الاحترام واللطف والكياسة والرفق والتعاون. ولم يكن هنا عقاب[٣٣] وعند نهاية كل يوم دراسي يعود الأطفال إلى آبائهم ولا يكون مسموحاً لهم بالعمل في المصانع قبل العاشرة.

ولم تقدم مدرسة أوين أي مقرر ديني، ولا حتى في المحاضرات المسائية التي يحضرها الكبار، فقد كان أوين Owen مقتنعاً أن الدين سيفسد عقل الطفل بخرافاته ومن ثم وجب النأي بطفل التنوير عن الدين، فالذكاء هو الفضيلة العليا وانتشار التعليم هو الحل الوحيد للمشاكل الاجتماعية، وأن التقدم – إذا ما أُتيح التعليم – حتمي ولا حدود له[٣٤] . ولم تكن هناك في مصانعه ومدرسته أي فصل عرقي أو ديني. «فقد كان يُقدم الإحسان والرفق للجميع على سواء»[٣٥] وكان يؤمن أن المناهج التي يقدمها هي محاولة للتحرك في اتجاه أخلاق المسيح وراح يتطلع بحماس ليوطوبيا أخلاقية!

وفي مقاله الرابع (١٨١٦) وهو المقال الذي أهداه للوصيٍّ على العرش قدم بعض المقترحات في مجال التشريع. لقد طالب البرلمان بالإسراع في إصدار مرسوم بتقليل المستورد من الخمور، ورفع الضرائب على المباع منها، وأخيراً إنهاء تراخيص محلات الجِن gin (شراب مُسْكر قوي) وحانات البيرة (الجعّة) وتضييق الخناق على السكر حتى يقتصر في النهاية على الأغنياء من ذوي المال. وأوصى بنشر التعليم الابتدائي وتمويله لتحسين أخلاق الأجيال القادمة. ودافع عن صدور تشريع المصانع الذي يمنع تشغيل الأطفال دون العاشرة ومنع العمل الليلي لمن هم دون الثامنة عشرة كما أوصى بتحسين ظروف العمل وتنظيم ساعاته، وتدبير نُظم للتفتيش الدوري على المصانع. وأوصى بضرورة أن يقوم المكتب الحكومي للعمل (الإدارة الحكومية المنوط بها أمور العمل) بجمع الإحصاءات بشكل دوري عن الحاجة للعمالة وغير ذلك من أمور العمل لاستخدامها للتخفيف من حدة البطالة[٣٦] . ودعا إلى إلغاء اللوترية (اليانصيب) التي تنظمها الدولة باعتبارها «وسيلة للإيقاع بغير الوعي، وسرقة الجاهل»[٣٧] .

واتفق مع مالتوس أن (قوانين الفقراء Poor laws) التي تُبقي العاطلين والفقراء على قيد

الحياة بالكاد ليست إلا خطوة واحدة من المجاعة، وهي تترك الذين يتلقون العون على وفق هذه لهذه القوانين نهباً للجريمة، وتجعلهم يتفرغون للتناسل، واقترح أوين (١٨١٧) بدلا من بيوت التشغيل Work houses التي تُدار في ظل هذه القوانين أن تقيم الدولة « مجتمعات » كل منها يتكوّن من ٥٠٠ أو ١٥٠٠ نفس، وتنظم كل منها نفسها تنظيما داخليا ويقتسمون العمل فيما بينهم لإنتاج طعامهم وملابسهم وليديروا مدرستهم[٣٨].

ولم تلق دعوته إلا استجابة قليلة الشأن من البرلمان، فتوجه في سنة ١٨١٨ « إلى أصحاب المصانع البريطانيين »[٣٩] يصف لهم نجاح النظام الذي اتبعه في نيو لانارك ويحثّهم أن يكفّوا عن تشغيل الأطفال دون الثانية عشرة من أعمارهم، لكنهم لم يجدوا ذلك متفقاً معهم وامتعضوا من تحليل أوين للركود الاقتصادي باعتباره راجعا إلى كون الإنتاج inventive productivity يتجاوز القدرة الشرائية للسكان. لقد رفضوه باعتباره حالما ملحدا لا يفهم فهما حقيقا حقيقة المشاكل التي يواجهها أصحاب العمل، ولا الحاجات البشرية التي لا يستطيع أن يشبعها إلاّ الدين.

وأخيراً عاد أُوين Owen إلى العمال أنفسهم فتوجه إليهم « بخطاب إلى الطبقة العاملة » (١٨١٩)، ولقد أسعدهم بإعلانه أن العمل اليدوي إذا تم توجيهه بشكل صحيح هو مصدر الثروة كلها ومصدر الرخاء والازدهار للأمة »[٤٠] ولكنه حذرهم من أن إنجلترا وطبقاتها العاملة ليست مستعدة للاشتراكية، وأنكر أي نيّة يُضمرها لتقديم اقتراح للحكومة البريطانية بضرورة تعيين كل القادرين على العمل في البلاد، تعيينا مباشرا[٤١] . ورفض قيام الحكومة بأية إجراءات متطرفة كما رفض القيام بثورة لأنها « ستثير الأحقاد والكراهية والثأر »[٤٢] وعلى أية حال فقد أعلن في سنة ١٨٢٠ في (تقرير إلى أصحاب الأراضي في لانارك) أن إنجلترا الآن لا تحتاج إلى إصلاحات تدريجية وإنما إلى تغيير جذري في نظامها الاجتماعي »[٤٣] .

وعندما لاقى إحباطاً في إنجلترا وجه وَجْهَهُ آملاً شطر الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان أصحاب فرق دينية مختلفة قد أقاموا بعض التجارب الاشتراكية. ففي سنة ١٨١٤ قامت جماعة من التقويين الألمان الأمريكيين بشراء ثلاثين ألف فدان (أكر) على طول نهر

وابش Wabash في جنوب غرب إنديانا وشيدوا مدينة طوروها أطلقوا عليها اسم هارموني Harmony ، وبحلول عام ١٨٢٥ حل بهم الإفلاس فأسعفهم أوين، ودمر ماليته بأن قدم لهم أربعين ألف جنيه من أجل الأكرات (الفدادين) والمدينة التي أعاد تسميتها لتصبح هارموني الجديدة New Harmony ودعا الرجال والنساء من ذوي النوايا الحسنة للانضمام إليه لتكوين مجتمع تعاوني . ودفع كل التكاليف ماعدا تكاليف المدرسة إذ دفعها وليم ماكلور Maclure وأتى إليه آلاف المتحمسين راحوا يأكلون طوال عام على نفقة أوين وتكيّفوا ببطء مع العمل المنظم واختلفوا في أمور الدين والسياسة، وفي ١٨٢٧ كان قد خسر معظم الأربعين ألف جنيه[٤٤] فأحال أمور هذه المستعمرة إلى ماكلور وعاد إلى بريطانيا .

ومع هذا لم يكن قد أنهى ما في جُعبته تماماً، فقد قاد حركة لتطوير نقابات العمال لتكوّن روابط صناعية وتجارية تنافس المشروعات الخاصة في الإنتاج الصناعي . وقَبِل الاتحاد الوطني للبنائين عقوداً . وفعلت الاتحادات الأخرى ما يناسبها وفي سنة ١٨٣٣ نظمها أوين في المنظمة الوطنية الكبرى للنقابات العمالية وكان يأمل أن تستأصل هذه المنظمة – بالتدريج – شأفة الرأسمالية وتحل أخيراً محل الدولة . وتدخل البرلمان بقوانين تكبح هذا الاتجاه لكنها لقيت مقاومة شديدة فرفضت البنوك تقديم قروض له وفي سنة ١٨٣٤ اعترف أوين بالهزيمة .

إن حياته التي شهدت نجاحا كبيراً في مضمار الصناعة، يبدو أنها وصلت الآن أو كادت إلى مرحلة الفشل الكامل، وأدت الاختلافات الدينية إلى تعكير صفو زواجه، فقد كانت زوجته كالفنية متحمسة عندما اكتشفت أنه (لا أدري)، وفي وقت لاحق حثت ابنها روبرت على إعادة أبيه إلى حظيرة الكالفنية، فكانت النتيجة أن تشكك الولد في دينه بدلا من أن يُقنع أباه[٤٥] . وبعد أن عاد أوين من أمريكا عاش منفصلاً عن زوجته رغم أنه ظل على علاقة صدَاقة بها . وكان يؤمن بالطلاق ولكنه لم يسع إليه واستغرق في مهمته (رسالته) استغراقاً كاملاً .

وقدَّم تشجيعاً فعّالاً للجماعات المختلفة التي حاولت تطبيق مبادئه : في أوربستون Orbiston في إسكتلندا، وفي رالاهين Ralahine في أيرلندا وفي كوينوود Queenwood في

إنجلترا. وقد حلت الجماعة الأولى نفسها في غضون عامين والثانية في غضون ثلاثة أعوام والثالثة في غضون ستة أعوام. وظل ينشر أفكاره بالخطب والتأليف وعاش حتى رأى كثيراً من تعاونيات المستهلكين في الجزر البريطانية. وظل مشغولاً بكتابة توصيات بالإصلاح للهيئات التعليمية والمسؤولين الحكوميين والملكة فكتوريا. وأخيراً - في سنة ١٨٥٣ - عاد إلى الاتجاه الروحي Spiritualism وأغرق في التأمل الذاتي، وراح يجري حوارات حميمة (باطنية) مع فرانكلن وجيفرسون وشكسبير وشيلي ونابليون والنبي دانيال[٤٦]. وفي سنة ١٨٥٨ كان قد تخلّى منذ زمن عن مجال اهتمامه بل وعن نفسه فعاد إلى بلدته تيوتون ومات فيها وهو في الثامنة والثمانين.

لقد كان رجلا طيبا، وكان غيْرياً يفكر في غيره أكثر من أي شخص آخر، ولم يستطع أن يسمو فوق ذاته كلية، فقد كان فخوراً في طيّات نفسه بسلطانه ونجاحه وفكره، وكان على حق عندما قرر أن التعاون السليم الذي يحقق الغرض في حاجة إلى نظام وسلطة. إنه أفضل من استطاع تضخيم ذاته لتضم بين جنباتها أقاربه وبلده وجنسه، ووجد - لهذا - رضا في توسيع نطاق الرحمة والعطاء. وهذا هو ما فعله روبرت أوين بعد كل شيء وقبل كل شيء، بشجاعة، وهذا وحده يكفي لنجعله بين الدعاة prophets الملهمين الداعين إلى حياة أفضل.

الفصل السادس عشر

الحياة الإنجليزية

[١٨٠٤ - ١٨٠٧]

١- الطبقات:

الحضارة شعب له نظام اجتماعي قامت عليه حكومة وقانون ودين وأخلاق وعادات وتقاليد ونظام تعليمي، مع إتاحة قدر كاف من الحرية للإبداع والتجربة وقدر كاف من الحرية لتكوين الصداقات وعلاقات الحب وأعمال الخير وتطويرها، وقدر كاف من الحرية يُتيح إبداع فن وأدب وعلم وفلسفة. والآن كيف كان حال هذه النظم والحريات في إنجلترا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ وكيف كان شكلهما (تكوينهما) وماذا نتج عنهما؟

في البداية نجد أن الفروق التي فرضتها الطبيعة بين الناس - فيما هو موروث، وفي الفرص والمهارات - جعلتهم يندرجون في طبقات تُسهم كل طبقة منها بنصيب في الحياة المشتركة. ولم يكن في إنجلترا نظام الطبقات المغلقة (أو المتحجرة) لأن الفرد ذا الثروة الكبيرة أو التفوق قد يترقى (يصعد) من طبقة إلى أخرى بل يصل حتى إلى مرتبة النبالة، وغالبا ما كانت العلاقة بين النبيل والفلاح تتسم بروح الصداقة وقلما تكون ذات طابع برهمي of Brahmin (أو علاقة لا تسمح بأن يمس (يلمس) الفلاحُ النبيلَ). وكانت القِنانة (عبودية الأرض) قد اختفت رغم أنه لم تكن هناك إلا أقلية تمتلك الأرض التي تزرعها. وكان النبلاء يدفعون الضرائب مثل غيرهم وفي بعض الأحيان (على عكس نظرائهم الفرنسيين) كانوا يعملون في مجال التجارة أو الصناعة. ولم يكن يرث لقب النبالة إلا الابن الأكبر أما بقية الأبناء فكانوا من الناحية القانونية (وليس الاجتماعية) من العوام.

وظلت كثير من مظاهر عدم المساواة (الفوارق) غير الطبيعية باقية. وكان تركُّزُ الثروةِ شديداً بشكل غير عادي. وكانت المساواةُ أمام القانون غير ذات معنى بسبب ارتفاع تكاليف التقاضي. ولم يكن ممكنا محاكمة اللوردات المتهمين إلا في مجلس اللوردات (الشيوخ)، وظلت « مزايا النبالة » هذه مستمرة حتى سنة ١٨٤١ . وكان من الممكن إجبار

من لا شجرة نسب لهم على الخدمة في البحرية. وقلما كان العوام يصلون إلى رتبٍ عليا في البحرية أو الجيش أو الخدمة المدنية أو الجامعات أو القضاء. وقلما كانت طبقة النبلاء الحاكم تسمح للجماهير التي لا تنتمي لطبقة معينة بأي دور في تقرير سياسات الحكومة أو اختيار القائمين عليها.

وربما كان الوعي الطبقي أكثر حدّة ووضوحاً لدى البورجوازية التي ظلت متعالية بكبرياء بعيدة عن الفلاحين والبروليتاريا، وكان أفرادها يحلمون بمراتب النبالة. وفي داخل الطبقة البورجوازية نفسها كانت هناك قطاعات متنافسة؛ فكان الرأسمالي العامل في المجال الصناعي يتعالى على جاره صاحب المحل التجاري(*)، والتاجر الكبير الذي تحلّى بالأموال نتيجة مغامراته التجارية يقف متباهياً إزاء رجل الصناعة. وكان ذوو المكانة أو الثروة العظيمة يطلون ما جمعوه من المستعمرات بطلاء الوطنية وكوّنوا طبقة خاصة بهم.

وكما في فرنسا، كذلك في إنجلترا لم يكن أي فرد راضياً بما فيه الكفاية بقسمته التي قسمها الله له، أتاحتها له قدراته، أو فرضتها الظروف. لقد كان كل شخص منشغلاً بالصعود أو التردي. لقد كان قلق العصر الحديث قد بدأ. وكانت المعركة الأساسية هي معركة الرأسمالي كي يحل محل الأرستقراطي في توجيه أمور الدولة. وكان هذا قد استغرق جيلا كاملا في فرنسا، أما في إنجلترا فاستغرق قروناً.

وعلى هذا، فحتى سنة ١٨٣٢ كان لطبقة النبلاء الغلبة، وكانوا يبتسمون ساخرين من متحديهم. وبالمعنى الضيق فقد كانت طبقة النبلاء هذه في سنة ١٨٠١ تتكوّن من ٢٨٧ نبيلاً أو نبيلة زمنياً (أي ليس من الإكليروس أو رجال الدين) و ٢٦ أسقفاً إنجيلياً هم النبلاء أو اللوردات الروحيون (أي من رجال الدين) وهم الذين يشكلون مجلس الشيوخ (مجلس اللوردات). وكان النبلاء الزمنيون (من غير رجال الدين) مرتبين طبقياً فيما بينهم ترتيباً تنازلياً: أمراء من دماء ملكية، دوقات، ماركيزات، إيرلات earls، فيكونتات Viscount وبارونات. وكان يمكن أن يُطلق على الواحد من كل هؤلاء – ما عدا الأمراء ذوي الدماء

(*) أطلق صامويل (صموئيل) آدم في سنة ١٨٤٧ على إنجلترا عبارة «كيان من البقّالين» وردد نابليون هذا القول. ومن الصعب الإقرار بصحة هذا.

الملكية – لقب لورد، وكان اللقب يُورَّث جيلاً بعد جيل للابن الأكبر. وكان الواحد منهم يمتلك أراضي شاسعة يزرعها فلاحون مقيمون وعمال مستأجرون، وكان لها بطبيعة الحال ريع بلغ في حالة دوق نيوكاسل Newcastle ١٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة أو نحو ١٢,٠٠٠ جنيه عادة كما في حالة الفيكونت بالمرستون. وكانت مزارع دوق بدفورد، ودوق نورفولك ودوق ديفونشير يمكن أن تغطي كونتيّة (مقاطعة[1]). وإلى الأدنى من هؤلاء اللوردات الزمنيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) نجد ٥٤٠ بويرين! (تصغير بارون، وتكتب أحيان بارونت) وزوجاتهم (الواحدة منهن بويرينة، وتكتب أحياناً بارونيته) ويشفع الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير Sir) إن كان بويرينا، وباللفظ (ليدي Lady) إن كانت بويرينة ويُتوارث هذا اللقب (سير أو ليدي) من هذه الأسرات. ويلي ذلك ٣٥٠ فارساً Knights (لقب وليس له علاقة بالضرورة بركوب الخيل) وزوجاتهم، ويُسبق الاسم المسيحي للواحد منهم باللفظ (سير) أو (ليدي) أيضاً، لكن اللقب هنا لا يتوارث، ويلي حاملي لقب فارس نحو ستة آلاف من حاملي لقب «حامل الدرع» Squire أو «شريف المحتد» gentry وهم من ملاك الأراضي الذين وُلدوا في أسرات قديمة حازت قبولاً اجتماعياً ومن حق الواحد منهم أن يحمل شعار النبالة. كل هذه المجموعات الآنف ذكرها من حملة الألقاب تقع دون اللوردات وهم يكوِّنون النبالة الدنيا أو النبالة الأقل درجة لكنهم بشكل عام من بين «الأرستقراطية» التي تحكم إنجلترا.

لم يكن أحد يشعر بأن حكم الأقلية ينطوي على شيء من الخطأ. فقد كان هناك رضاً متزناً قانعاً رواقياً (متسم بقبول الواقع) يبرر فقر الفلاحين وتدني أوضاع عمال المصانع واستغلال أيرلندا. لقد كانت هناك قناعة أن الفقر هو عقاب ضروري وطبيعي لعدم الكفاءة أو الكسل ويجب ألا يُسمحَ للمنظِّرين الخوَّارين بتحويل بريطانيا إلى ديموقراطية تقوم على تقديم الإعانات المالية (للكسالى وغير الأكفاء) ورغم الحالمين باختفاء أشكال الحكومة مثل وليم جودون أو بيرسي شيلي، فإن شكلاً من أشكال الحكومة يُعد أمراً ضرورياً فمن غير الحكومة يصبح الشعب غوغاء يهددون كل فرد وكل حرية، ولم يكن نابليون ظالما في حكمه لصالح الأرستقراطية الإنجليزية، بل إنه قال في سانت هيلانة: «ستكون مأساة (أو

كارثة) أوروبية إذا اختفت الأرستقراطية الإنجليزية وتُركت الأمور لغوغاء لندن »[٢] فكل الحكومات تقوم إما على حكم الأقلية أو حكم الطغاة (الحكم الفردي المستبد) والأقلية الحاكمة إما أن تكون بأرستقراطية المولد أو بلوتقراطية الثروة (حكومة الأثرياء / أو حكم الطبقة الثرية) وبطبيعة الحال فإن الديموقراطية كانت في هذا الاتجاه الأخير (البلوتوقراطي) لأن الثروة وحدها هي التي يمكنها تمويل المعارك أو دفع تكاليف حث الناس على التصويت لصالح المرشحين الأغنياء والذين يتم انتخابهم بطريقة ديموقراطية وهم قلما يكونون - بحكم المولد أو الخبرات - قادرين على التعامل بنجاح مع قضايا الحكم، أما تعاملهم مع الشؤون الخارجية فنجاحهم فيها أقل بكثير. فأرستقراطية المولد هي مدرسة لأجل الدولة. حقيقة إن بعض من تخرجوا في هذه المدرسة (أرستقراطية المولد) قد يصبحون عاطلين لا يصلحون لعمل، لكن هؤلاء قلّة، فأرستقراطيو المولد بحكم طول ارتباطهم بقضايا الحكم والأشخاص الحاكمين يكتسبون القدرة على التعامل مع الأمور الحرجة دون تعريض الأمة للخطر بحماقاتهم (تصرفاتهم غير المنضبطة). وأكثر من هذا فإن الأرستقراطية الموظفة توظيفا صحيحاً تستطيع أن تُلزم الناس بعادة الطاعة واحترام السلطة اللذين هما منحة للنظام العام والأمن.

وبدت هذه الحجج التي صيغت ببراعة وتغلغلت في الشعور بشكل غامض مقنعة لغالب الشعب البريطاني. لكنها لم تكن مقنعة للبورجوازية الصاعدة التي كان أفرادها ممتعضين من الثروة التي حققها ملاّك الأراضي فسيطروا على الوزارات والبرلمانات، كما كان العمال المتمردون ينكرون على الأرستقراطية - بغضب - دورها، كما تعرضت الأرستقراطية للمساءلة من المثقفين الذين هالتهم الوسائل التي توظفها الأرستقراطية التي تحكم إنجلترا لخدمة مصالحها.

٢- الحكومة

٢ / ١ الهيئة التشريعية:

دستور إنجلترا هو الكيان الكامل للتشريعات غير المُلغاة التي أصدرها البرلمان، والقرارات غير المُبْطَلة (بضم الميم) للمحاكم. فمثل هذه السوابق القانونية تُسند كل السلطات الحكومية إلى التاج (سواء أكان صاحبه ملكاً أو ملكة) والبرلمان اللذين يعملان بتوافق. وعادة ما كان الملك منذ سنة ١٦٨٨ يقبلُ ما يشرّعه البرلمان ويوافق عليه. وليست هناك وثيقة مكتوبة تحد من سلطة البرلمان في إجازة أيّ قانون يُرضي مجلسيه (مجلس العموم ومجلس اللوردات) (النص: غرفتا مشورته two chambers) وتتكون الغرفة العليا (مجلس اللوردات) من اللوردات الزمنيين (من غير رجال الدين) واللوردات الروحانيين (من رجال الدين) الذين يجلسون بترتيب على وفق الميلاد والتقليد، ومن سلطتهم رفض أي إجراء يصوت عليه مجلس العموم وهم كمحكمة عليا تُستأنف (بضم التاء) القرارات القضائية لديها، وكمحكمة عليا عند تولي مجلس العموم محاكمة أحد أعضائه بسبب جناية أو جُنحة أو عند محاكمة أحد أعضاء الحكومة كما أنه مختص بالنظر في الأمر عند اتهام أحد أعضائه من غير الإكليروس في جريمة كبرى. لقد كان هو حصن الأرستقراطية تقوم من خلاله بنضال يعوق تقدم البورجوازية المتقدمة.

وكان عدد أعضاء مجلس العموم ٥٥٨ عضواً: اثنان من جامعة أكسفورد واثنان من جامعة كامبردج، وواحد من كلية التثليث في دبلن، و ٤٥ من إسكتلندا، والباقون يتم انتخابهم في أربعين كونتية (مقاطعة) وعشرين مدينة تمثل كل منها دائرة انتخابية من قِبَل ناخبين لهم امتيازات محدودة مختلفة اختلافاً كبيراً مما يجعل من غير الممكن النص عليها بالتفصيل في هذا السياق[٣]. ويُستثنى من المنتخبين (بكسر الخاء) النساء والذين يتلقون إعانات، والأروام الكاثوليك والكوكر (أصحاب مذهب ديني) واليهود واللاأدريين، وبشكل عام كل من لا يؤدي قسم الولاء والطاعة لكنيسة إنجلترا وعقائدها. وفي المجموع كان في إنجلترا ذات التسعة ملايين نفس ٢٤٥,٠٠٠ ناخباً. وطالما كان التصويت علنياً فإن قلة من المصوتين (الناخبين) هم الذين كانوا يجسرون على انتخاب مرشح غير مالك

الأرض. وكان كثيرون من أهل المدن ممن لهم حق الانتخاب لا يُزعجون أنفسهم بالإدلاء بأصواتهم، وكانت بعض الانتخابات تجرى بترتيبات بين الزعماء دون أي تصويت. وكان عدد الممثلين البرلمانيين المسموح بهم لكل مدينة borough قد تحدد بحكم التقاليد المتوارثة دون أن يوضع في الاعتبار زيادة عدد السكان أو نقصهم في هذه المدينة التي تمثل دائرة انتخابية، إذ كان لبعض المدن التي لا يتجاوز عدد المصوتين فيها أصابع اليد ممثل أو أكثر، بينما لم يكن مسموحاً للندن سوى بأربعة ممثلين رغم أن عدد المصوتين فيها ستة آلاف. وكانت المراكز الصناعية قليلة التمثيل في البرلمان إن لم تكن غير ذات ممثلين برلمانيين أبداً. فمنشستر وبيرمنجهام وشيفلد لم يكن لها ممثلون في البرلمان، بينما كانت كونتية (مقاطعة كورنوال Cornwall القديمة) تتمتع باثنين وأربعين نائباً. وعلى أية حال يجب أن نضيف أن كثيراً من المدن والقرى كانت محتفظة بقدر كبير من الحكم الذاتي فيما يتعلق بأمورها الداخلية، وعلى هذا فمدينة لندن كانت تختار حكومتها عن طريق أصحاب الأملاك فيها (فهم وحدهم لهم حق التصويت). وكان نحو نصف مقاعد مجلس العموم يتم شغلها عن طريق انتخابات نصف جماهيرية، أما النصف الثاني فيتم شغله من خلال تعيينات الملاك المحليين أو المقيمين في مناطق نائية، ولا معقِّب على تعيينهم. وكان الراغبون في مثل هذه التعيينات يدفعون للمجالس المحلية في كثير من الحالات، وكانت هذه المجالس تعيِّن من يدفع أكثر من غيره أو بعبارة أخرى كانت مجالس المدن تبيع وتشتري مقاعدها في مجلس العموم بشكل علني واضح كما يجري التعامل في أية بضاعة[٤].

وكان الأعضاء المختارون يقسمون بشكل مرن بين الحزبين: التوري (المحافظون) والهويج (الأحرار)، وكان هذان الحزبان قد نسيا إلى حد كبير القضايا التي اختلفا عليها في الماضي والتي كانت سبباً في انقسامهما إلى حزبين. وكان زعيماهما من بين الأسرات الأرستقراطية القديمة لكن الهويج (الأحرار) كانوا أكثر ميلاً من التوري (المحافظين) للاستماع إلى لوردات التجارة والصناعة الأثرياء، بينما كان التوري (المحافظون) يدافعون عن الحقوق «المقصورة على» السلطة الملكية، وكان الهويج (الأحرار) يتحدونها. لقد كان عصب الصراع هو السلطة لا المبدأ؛ أي حزب عليه تشكيل الوزارة الحاكمة واقتسام المناصب الرابحة والإشراف

على التطور. ورغم الأساس الأرستقراطي للحكومة البريطانية فإنها كانت – بشكل ملحوظ – أكثر ديموقراطية في سَنّ القوانين من حكومات معظم دول القارة الأوروبية، ففي هذه الدول (بما في ذلك فرنسا بعد سنة ١٨٠٤) كان الإمبراطور أو الملك هو الذي يقبض على زمام السلطة، أما في بريطانيا فقد كان الحاكم الحقيقي منذ سنة ١٦٨٨ هو البرلمان وليس الملك، وفي هذا البرلمان ذي المجلسين (مجلس اللوردات ومجلس العموم) كانت السطة في الأساس في يد مجلس العموم من خلال «سلطته على الميزانية Power of the purse»: إذ لم يكن ممكنا إنفاق أي مبلغ من الميزانية العامة دون موافقته، ومن الناحية النظرية كان يمكن للملك أن يعترض على أي إجراء يُقرّه البرلمان، لكن جورج الثالث – من الناحية الفعلية – لم يمد هذا الحق المقصور عليه إلى هذه النقطة الحساسة. وعلى أية حال، كان في مقدور الملك أن يحل البرلمان، و «يلجأ إلى أهل البلاد go to the Country» لإجراء انتخابات جديدة.

وفي هذه الحال يكون لدى المرشحين الذين يؤيدهم ويمولهم فرصة طيبة للفوز بالمقاعد لأن الملك «الطبيعي المؤتلف مع شعبه» قد أصبح مرة أخرى تجسيداً للأمة ومحور الولاء لها والفخر بها.

٢ / ٢ النظام القضائي:

كان النظام القضائي في إنجلترا – مثله مثل النظام التشريعي – كافياً بالغرض، وكان قد تم مصادفة (أي بدون قصد)، وكان مشوشاًغير محدد المعالم. لقد كان لابد بادئ ذي بدء من السيطرة على مجموعة القوانين التي كانت تكاد تصدر يومياً خلال مئات السنين فظلت طويلاً غير منظمة ولا متسقة وكانت تنص على عقوبات قاسية جداً حتى إن القضاة كانوا غالبا ما يعدلونها أو يتجاهلونها. لقد كان القانون مثقلا ببقايا أصوله الإقطاعية وتنقيحاته المسيحية: فاللوردات المتهمون كان لا يزال من الضروري أن يُحاكمهم لوردات، وحتى سنة ١٨٢٧ كان القسس الأنجليكان مستثنين من المثول أمام المحاكم المدنية. وظلّت مئات القوانين (التي تنص على منع المقامرة ووسائل الترفيه الليلية والاجتماعات غير المصرّح بها)

مُثبتة ومنصوصاً عليها، رغم عدم تطبيقها إلا فيما ندر. وجرت بعض التحسينات في هذه الفترة: فعدد الجرائم (نحو مائتين) التي كان (في سنة ١٨٠٠) عقابها الموت، جرى تخفيف عقوبتها مراراً. وأصبح من الممكن تفادي السجن لعدم وفاء الدين بالحصر الدقيق للموجودات والديون والعوائق التي تعوق المدين عن سداد ديْنه. لكن قانون الإفلاس ظل ثقيل الوطأة حتى إن رجال الأعمال تحاشوه باعتباره طريقاً إلى إفلاس مضاعف. وقانون الإحضار لأغراض التحقيق الصادر في سنة ١٦٧٩ والذي كان يهدف إلى منع سجن المتهم قبل المحاكمة، غالباً ما عُلّق (لم يُنفّذ) حتى فقد قوته في أثناء أزمات مرّت بها البلاد مثل فترة الحروب الثورية الفرنسية. واستمرت التناقضات والمعوقات والتشوّش سمة من سمات القانون البريطاني حتى عكف بنثام Bentham عليها وأخضعها لمثابرته ودقته ومتابعته للتفاصيل بُغية إصلاحها.

ومما زاد من صعوبة القبض على المجرمين قلة عدد رجال الشرطة في المدن وانعدامهم - تقريباً - في القرى. وكان المواطنون مضطرون إلى تكوين مجموعات تطوعية لحماية حياتهم وممتلكاتهم، وحتى عندما كان يتم القبض على المجرم، فإن يستطيع أن يؤخّر سجنه أو يُفلت منه باستئجار المحامين ليجدوا له أسباباً لاستئناف الدعوى أو ليفتعلوها له أو ليبحثوا له عن ثغرات في القانون «فقد كان مجالا لفخر المحامين أنه لا يوجد قانون إلا واستطاعوا اختراقه وتوسيع رتقه ليسيروا خلاله بعربة بل وستة خيول»(٥).

وكان أفضل لمحة في القانون الإنجليزي هو حق المتهم في المحاكمة أمام هيئة محلفين. ومن الواضح أن هذه المؤسسة من مؤسسات الفرانك الكارولنجيين Carolingian Franks قد دخلت إنجلترا بشكلها الأوّلي مع الفتح النورماني. ولم يكن عدد هيئة المحلفين قد حُدِّد بعد باثني عشر عضوا حتى سنة ١٣٦٧، وفي نحو ذلك الوقت فقط كانت الموافقة الاجتماعية للمحلفين على قرار واحد أمراً مطلوباً. وكان يتم اختيار المحلفين (عادة كانوا من الطبقة الوسطى) من بين قائمة تضم من ثمانية وأربعين إلى واحد وسبعين رجلاً بعد جدال بين الحزبين المتصارعين. وكان قُضاة الصلح يعينون بشكل دوري بواسطة هيئة محلفين كبرى في كل كونتية (إقليم)، وكان من المتوقع أن تأخذ المحاكم بتوصياتهم. وفي أثناء نظر القضايا

كان المحلفون يسمعون الأدلة والمرافعات المختلفة ويقوم القاضي بتلخيص كل ذلك، وبعد ذلك ينسحبون إلى غرفة مجاورة ويُمنع عنهم الطعام والشراب والتدفئة والشموع (إلاّ بإذن القاضي) لتجنب أي تأخير غير مُبرَّر أو إسراف، «إلى أن يصدروا حكمهم بالإجماع»[٦] .

٢/٣ السلطة التنفيذية:

من الناحية النظرية فإن الملك هو المخوَّل بالسلطة التنفيذية، ومن الناحية الفعلية فإنها مسؤولية مجلس وزرائه الذين لابد أن يكونوا أعضاء في البرلمان ومسؤولين أمامه عن أعمالهم ومعتمدين عليه في إقرار ميزانيات وزاراتهم. ومن الناحية النظرية فإن الملك هو الذي يُعيّن هؤلاء الوزراء، ومن الناحية العملية كان من المتوقع أن يختار الملك رئيس الوزراء زعيم الحزب الفائز في آخر انتخابات، ويقوم رئيس الوزراء هذا مع البارزين من حزبه بتعيين الوزراء. وكان وليم بت Pitt في ولايته Administration الأولى (١٧٨٣ – ١٨٠١) قد قام بدور مزدوج كمستشار لوزارة المالية ومسؤول أول first Lord للخزانة وكانت هاتان المهمتان اللتان يقوم بهما مرهونتين بموافقة البرلمان فكل ما يتعلق بجمع الأموال المكونة للدخل الوطني وإنفاقها مرهونة بموافقة البرلمان. وفي مجلس الوزراء – والحكومة بشكل عام – كانت السلطة المالية هي الأداة الرئيسية للنظام والحكم.

ولم يقر الملك جورج الثالث بتبعيِّته للبرلمان فمنذ توليه العرش في سنة ١٧٦٠ وهو في الثانية والعشرين من عمره عمل على تقوية الهيمنة الملكية، لكن الانهيار المكلِّف لقيادته في حرب الاستقلال الأمريكية وتعرضه بشكل متكرر لنوبات خلل عقلي (١٧٦٥، ١٧٨٨، ١٨٠٤، ١٨١٠ – ١٨٢٠) أوهن جسده وروحه وإرادته وبعد سنة ١٧٨٨ سمح لوليم بت بالحكم بشروط ثلاثة: عدم تجريم الرّق وعدم السماح للكاثوليك البريطانيين بالتصويت (حق الانتخاب) وعدم إبرام سلام مع فرنسا حتى يعود لويس الثامن عشر إلى عرشه الذي هو حق له.

وكان جورج الثالث رجلاً طيباً ولكنه كان قصير النظر ضيق الأفق من الناحية الدينية. وقد وصفه نابليون في أثناء أسره وفي معرض تذكره للأحداث الماضية بأنه – أي جورج

الثالث «أكثر الناس أمانة في بلاده»[٧] وكان يمتاز عن أسلافه الهانوفريين بالتزامه بكل الوصايا العشر ما عدا الوصية الخامسة وقصّر كثيراً في الوصية اللاوية «أحب جارك كحبّك لنفسك» لكنه أحب الشعب الإنجليزي. ورغم أخطائه فقد أحبه شعبه بدوره (بادله حباً بحب) بسبب ما حل به من نكبات – لأنه أحب دينه الذي ورثه عن أسلافه وأحب زوجته وبناته ولأنه أعطى الأمة مثلاً مُلهماً لحياة البساطة والإخلاص. لقد تقطّعت قلوب شعبه من أجله حباً له وحدباً عليه عندما لوّث معظم أبنائه ألقابهم الأميرية بعدم انضباطهم عسكرياً وانعدام وعيهم وممارستهم المقامرة وغلوّهم الطائش الذي أدى إلى انهيارهم جسدياً وتدهور شخصياتهم، رغم أن أباهم كان رجلاً طيباً. لقد وصفهم ولنجتون: «إنهم أكبر لعنة يمكن تصورها تحيط برقبة حكومة»[٨].

لقد كان أكبرهم – جورج أمير ويلز مزعجاً بشكل لا يمكن تصوّره. لقد كان جذاباً وسيماً وكان على وعي بذلك. وكان قد تلقى قدراً طيباً من التعليم ويستطيع التحدث بالفرنسية والألمانية والإيطالية بطلاقة وكان يُحسن الغناء ويعزف على الفيولونسيلو Violencello (آلة موسيقية إيطالية) ويكتب الشعر كما كان مُلماً بالأدب الإنجليزي المعاصر، وكان يُعد من بين أصدقائه الحميمين ريتشارد شريدان وتوماس مور كما كان راعياً ذكياً للفنون وأقام في دار كارلتون Carlton House مؤسسة أميرية جعل فيها أثاثاً أنيقاً من أموال الأمة واشتغل بالسياسة ونافس شارلز جيمس فوكس في اهتمامه الشديد بالسياسة، وأصاب والده بالذعر عندما أصبح معبوداً لحزب الهويج (الأحرار) وكان أيضاً يحب الشباب المتأنقين الذين أنفقوا ثرواتهم على الملابس الأنيقة والنساء والخيول والكلاب[٩]. حذا حذو هؤلاء البريتون في إقامة مباريات تكسبية ولم يكن له نظير في إنفاقه وديونه. وخصّص البرلمان مرات عديدة مئة ألف جنيه لسداد ديونه[١٠].

وفي السابعة عشرة من عمره اعترف أنه «مغرم بالنساء والنبيذ أكثر من أي شيء آخر» وكان من بين خليلاته الأوليات – ماري روبنسون التي فتنته بقيامها بدور بيرديتا Perdita في «حكاية شتاء» A Winter's Tale، وظل ينفق عليها ببذخ طوال ثلاث سنوات. ثم كوّن علاقة أكثر جدية مع ماريا آن فيتسهيربرت Maria Anne Fitzherbert التي ترمّلت مرّتين

(مات عنها زوجها فتزوجت غيره ومات بدوره) وكانت كاثوليكية وأكبر منه بست سنوات، وكانت رقيقة لطيفة متحررة وقد رفضت أن تكون خليلته لكنها لم تمانع في الزواج منه. وكان قانون وراثة العرش الذي كان قد أعطى عرش إنجلترا لأسرة هانوفر قد استثنى من حق المُلك كل من يتزوج كاثوليكية أو تتزوج كاثوليكياً، كما منع قانون ١٧٧٢ أي فرد في الأسرة المالكة دون الخامسة والعشرين من الزواج دون موافقة الحاكم. ومع هذا فقد تزوج الأمير من السيدة ماريا فيتزهيربرت (١٧٨٥) بعد أن دفع لراعي أبرشية شاب خمسمائة جنيه ليقوم بإجراءات (طقوس) الزواج غير الشرعي، مما أدى إلى احتفاظه بحق وراثة العرش إذ ادعى هذا الحق في سنة ١٧٨٨ عندما انتابت والده نوبة خَبَل فراح يترقب موت والده بصبر نافد، وقلما كان الابن وأبوه على وفاق.

وعلى كل حال فقد كان هناك اتفاق أنه إذا دفع الملك (عملياً البرلمان) ديون الأمير (١١٠,٠٠٠ جنيه إسترليني) قام الوريث الظاهر بترك زوجته الأدنى منه منزلة وتزوج قريبة والده الأميرة كارولين أوف برنسويك of Brunswick. لقد بدت في عينيه دميمة غير مشجعّة، وبدا في عينيها سميناً مقرفا، لكنهما تزوجا في ٨ أبريل ١٧٩٥، وقد أكدت كارولين فيما بعد أنه قضى ليلة العُرس (الدُّخْلة) وقد أضاع الشراب همّته(١١). وعلى أية حال فقد أنجبت له بنتاً في ٧ يناير ١٧٩٦ (الأميرة شارلوت Charlotte) وسرعان ما فارقها وعاد لفترة إلى زوجته السابقة السيدة فيتزهيربرت التي كانت فيما يبدو المرأة الوحيدة التي أحبها بعمق. (عندما مات وجدوا صورتها معلقة على صدره)(١٢).

وفي نوفمبر سنة ١٨١٠ أصبح جورج الثالث مجنوناً تماماً بعد انكساره أمام المعارضة البرلمانية، وخجلاً من تصرفات ابنه وحزناً على وفاة ابنته أميليا Amelia. وطوال تسع سنين بعد ذلك أصبح ملك إنجلترا مقيداً كمجنون يرتدي سترة المجانين وأشفق عليه شعبه وأحبه، بينما تولى الوصي على العرش (الابن الآنف ذكره) مكانه مدّعياً السلطة الملكية والأبهة، وكان وقتها قد أصبح سميناً محطماً رقيقاً ديّوثاً Cuckolded مكروهاً محتقراً.

٣- الدين:

كانت الحكومة وأهل الفكر في إنجلترا قد وصلوا إلى اتفاق شرف (اتفاق يسري بمراعاة الشرف لا بقوة القانون) بخصوص الدين. فالهجوم الذي شنه الربوبيون على العقيدة التقليدية orthodox لابد أن تخف وطأته مادام المتشككون في الدين (المسيحي) ليس لديهم ما يحل محل الدين لتحقيق السلام بين الناس وضبط سلوك الأفراد. لقد كان وليم جودون، وروبرت أوين Owen، وجيرمي بنثام وجيمس مل أمثلة حية لعدم الإيمان (بالمسيحية) لكنهم لم يقوموا بدعاية ضد الدين. وكان توم بين Paine استثناء منهم. وكانت الأرستقراطية الإنجليزية - التي وجدت في فولتير الشاب ما يجذبها - تراعي الآن حرمة «السبت»(*) بوضوح. لقد لاحظ مؤرخ حوليّ في سنة ١٧٩٨ «دهشة الطبقات الدنيا فيَ كل أنحاء إنجلترا لرؤيتها الطرق إلى الكنائس غاصّة بالعربات التي تجرها الخيول» في أيام الآحاد(١٣). وفي سنة ١٨٣٨ لاحظ جون ستيوارت مِلْ: «يوجد في العقل الإنجليزي سواء من ناحية التفكير والتأمل أو الممارسة بُعد صحّي على درجة عالية من البُعد عن التطرّف... «لا تزعج الهدوء أو بتعبير آخر لا تغير ما هو مستقر Quieta non movere وكانت هذه هي العقيدة الأثيرة في تلك الأيام... وعلى هذا، ففي حالة عدم إثارة ضوضاء كثيرة حول الدين أو عدم تناوله بجدية شديدة فلم يكن لدى الناس حتى الفلاسفة مانع من تأييد الكنيسة باعتبارها حصناً ضد التعصّب ومسكناً للروح الدينية لمنعها من إفساد هارمونية المجتمع (اتساقه) أو تعكير صَفْو الدولة. ووجد الإكيروس أنهم حققوا صفقة طيبة بهذا الاتفاق والتزموا بشروطه بإخلاص»(١٤).

لقد كانت الكنيسة من الناحية الرسمية هي «الكنيسة المتحدة لإنجلترا وأيرلندا». ورغم أنها قبلت تسعاً وثلاثين مادة من العقيدة الكلفنيّة إلاّ أنها احتفظت بكثير من ملامح الطقوس الكاثوليكية. لقد كانت تضم رؤساء أساقفة وأساقفة لكنهم عادة ما كانوا يتزوجون، وكان تعيينهم يتم عن طريق التاج. وبشكل عام كان كبار ملاك الأراضي المحليون

(*) كلمة السبت هنا لا تعني يوم السبت المعروف، وإنما المقصود يوم العبادة وهو هنا الأحد - أي يوم الذهاب إلى الكنيسة. (المترجم)

هم الذين يختارون الكهنة والقسس البروتستنط، وكان هؤلاء الكهنة والقسس يساعدونهم في حفظ النظام الاجتماعي. واعترف الإكليروس الإنجليكان بالملك باعتباره رأس كنيستهم وباعتباره حاكماً، واعتمدوا على الدولة في جمع العشور للكنيسة من أسر إنجلترا. وقد وصف بورك Burke بريطانيا بأنها كومنولث مسيحي كانت فيه الكنيسة والدولة «كياناً واحداً بل إنهما الشيء نفسه. إن كلاً منهما جزء مختلف عن الآخر لكنّه مكمّل له»(١٥) ووصف جون ولسون كروكر كنيسة وستمنستر Westminster Abbey بأنها «جزء من الكومنولث البريطاني». لقد كانت العلاقة بينهما تشبه العلاقة التي بين الكنيسة الكاثوليكية وحكومة فرنسا في أثناء حكم لويس الرابع عشر مع فارق وهو أن إنجلترا لم تشهد – غالباً – اضطهادات أو مضايقات بسبب تهمة الهرطقة(*)(١٦) (الإلحاد).

وسُمِح للفِرَق (أصحاب المذاهب) المنشقة – الميتوديين (المنهجيين) والمشيخيِّين Persbyterians والمعمدانيين Baptists والإندبندنت (المستقلّين) والابرشيين congregationalists والكوكر Quakers والموحّدين (المناهضين للتثليث) Unitarians – بالدعوة لعقائدهم بشرط واحد: أن يُعلنوا أنهم مسيحيون(١٧) وكان هناك بعض من هؤلاء المنشقّين في مجلس اللوردات. وتحلّق عدد كبير من المستمعين حول المبشّرين (الدعاة) الميتوديِّين لما عُرفوا به من بلاغة رائعة. ولجأ عمال المدن المعارضون بعد أن يئسوا من تحقيق آمالهم في الدنيا إلى عقيدتهم البسيطة (عقيدة الطفولة) وبهذه العقيدة البسيطة قاوموا كل الجهود لتحريضهم على الثورة عندما تسلّلت الأفكار الثورية عَبْر القنال الإنجليزي من فرنسا. وفي سنة ١٧٩٢ طلب القادة الدينيون لجماعة الوِزليان الميتوديّين من كل عضو من أعضائهم أن يقسم يمين الولاء والطاعة للملك(١٨).

وفي نطاق الكنيسة الرسمية نفسها وجدنا تأثير الميتودية «الحركة الإنجيلية Evangelical»؛ كثير من رجال الدين صغار السن وكذلك كثير من جمهور المؤمنين (بالمذهب) قرروا إحياء

(*) كان المُهَرْطق (الملحد) بنص القانون خارجاً على القانون (مُداناً) وكان يمكن ملاحقته كمجرم. وكان التجديف – أي إشارة غير وقورة للرب – مشافهة أو كتابة أو إشارة – يمكن أن يكون موضوع عقاب بوضع المجدّف ستاً وثلاثين ساعة في المشهرة (آلة خشبية يتم فيها إدخال يدي المجرم ورأسه لتعذيبه والتشهير به Pillory لكن هذه القوانين قلّما كانت توضع موضوع التنفيذ.

العقيدة الإنجليكانية بتناول الإنجيل بحماسة وعاطفة (وضعه في القلب)، وتكريس أنفسهم لحياة البساطة والتقوى والإحسان وإصلاح الكنيسة. وكان أحدهم هو وليم ولبرفورس هو الذي قاد معركة الإنجليز ضد الرق، وهناك أيضاً حنا مور Hannah More التي نشرت حماساً مسيحياً جديداً بمحاضراتها وكتبها ومدارس الأحد التي أسستها.

وظلت جماعتان دينيتان خارج دائرة « التسامح الكامل » : الكاثوليك واليهود. لم يكن البروتستنط الإنجليز قد نسوا جاي فوكس Guy Fowkes ومحاولته نسف البرلمان (١٦٠٥) ولا مغازلات ملوك ستيوارت Stuwart – شارلز الأول وشارلز الثاني وجيمس الثاني – للقوى الكاثوليكية والأفكار الكاثوليكية والخليلات الكاثوليكيات، ومال الإنجليز إلى النظر للكاثوليكي كشخص يُوالي حاكما أجنبياً (كان البابوات يمثلون سلطة زمنية كحكام للولايات البابوية)، وكان الإنجليز يندهشون كيف سيتصرف الكاثوليكي في حالة حدوث صراع بين الحَبْر الروحاني (البابا) والملك البريطاني.

وكان في إنجلترا في سنة ١٨٠٠ نحو ستين ألف كاثوليكي. كان معظمهم من أصول أيرلندية لكن بعضهم كان ينحدر من سلالة كاثوليكية متوطنة قبل حركة الإصلاح الكاثوليكية في بريطانيا Pre-Reformation British Catholics. وفي الفترة الزمنية التي نتناولها كانت القوانين المناهضة لهم قد خفَّت وطأتها، فثمة مراسيم مختلفة صدرت فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٩٣ أعادت لهم حق تملّك الأراضي وحق العمل في مجال الخدمة المدنية وحق الدعوة لعقيدتهم من خلال مدارسهم الخاصة بهم، وحقهم – على نحو خاص في ترديد قسم الولاء للملك والحكومة دون التبرؤ من البابا أو جحده. إلاّ أنه لم يكن لهم – على أية حال – حق التصويت، ولم يكن لهم حق ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان.

وفي نحو نهاية القرن الثامن عشر بدت حركة إعطاء الكاثوليك كل حقوق المواطنة على وشك النجاح، وأيدها بروتستنط بارزون – وزلي، وكاننج، وولبر فورس، ولورد جراي Grey. وقد أدّت الثورة الفرنسيّة إلى موقف مضاد لفولتير في إنجلترا بل وموقف مضاد لحركة التنوير، كما أدّت إلى شيء من التعاطف مع الدين (المسيحي) الذي تعارضه الحكومة الثورية (الفرنسية)، وبعد سنة ١٨٩٢ تلّقى المهاجرون الفرنسيون (الذين تركوا فرنسا إثر

أحداث الثورة الفرنسية) استقبالاً حاراً ومساعدات مالية من الدولة البريطانية وكان بينهم رجال دين كاثوليك. وسمحت الدولة البريطانية لهؤلاء المهاجرين بإقامة أديرة، وحلقات بحثية. إن إنجلترا تبدو الآن في موقف سخيف (منافٍ للعقل) فقد كان الاتجاه أن الكنيسة الكاثوليكية يمكن أن تكون حليفاً ذا قيمة في حربها ضد فرنسا. وفي سنة ١٨٠٠ قدَّم بِتْ Pitt مشروع قانون لمنح كاثوليك إنجلترا حقوقهم كاملة. وعارض التوري (المحافظون) والكنائس والإنجليكانية العليا هذا القانون وأيدهم جورج الثالث بعزم، فسحب بِتْ مشروع قانونه واستقال، وكان على تحقيق الكاثوليك للمساواة الكاملة في إنجلترا أن ينتظر حتى سنة ١٨٢٩.

أما مساواة اليهود في إنجلترا فتأخرت حتى سنة ١٨٥٨. كان عددهم في سنة ١٨٠٠ نحو ٢٦,٠٠٠؛ معظمهم في لندن وكان بعضهم في المدن الكبرى ولم يكن منهم – تقريباً – أحد في الريف. وقد أوقفت الحربُ الطويلة مزيداً من عمليات التهجير وسمحت لليهود بمواءمة أنفسهم مع أساليب الحياة البريطانية وإزالة بعض الحواجز العرقية. وظل القانون الإنجليزي يحول بينهم وبين حق الانتخاب وتولي المناصب الكبرى فذلك كان يتطلب قَسَماً بالإخلاص للعقيدة المسيحية وإقامة الشعائر على وفق لطقوس الكنيسة الرسمية في إنجلترا. وفيما عدا ذلك فقد كان اليهود أحراراً ولهم حق العبادة في منازلهم ومعابدهم دون خفاء، وقبِل عدد من اليهود البارزين التحوّل إلى المسيحية – صامويل (صموئيل) جِدون Gideon رجل المال، وديفد ريكاردو Ricardo الاقتصادي وإيزاك (إسحق) المؤلف. وهذا الأخير نشر فيما بين ١٧٩١ و ١٨٣٤ «نوادر الأدب» دون أن يسجل اسمه عليه (تركةُ مجهول المؤلف)، وقد كان يكتبه بشكل عَرَضي أو مصادفة (أي كلما أتيحت له الظروف)، ولازال هذا الكتاب ممتعاً لأصحاب العقول المتعلّمة التي تأنس للمتعة والراحة.

إن خبرات اليهود الطويلة في أعمال البنوك وارتباطاتهم العائلية والأسرية عبر الحدود مكنتهم من مساعدة الحكومة البريطانية في حرب السنوات السبع وفي نزاعها الطويل مع فرنسا. وساعد الأخوان ابراهام (إبراهيم) جولدسمد، وبنيامين جولدسمد، بِتْ، في كسر طوق السماسرة المبتزين الذين كانوا قد احتكروا التعاملات مع الخزانة. وفي سنة ١٨١٠

أسس ناثان روتشيلد Rothschid (١٧٧٧ – ١٨٣٦) في لندن فرعاً للشركة التي كان أبوه – ميَر أمشيل روتشيلد – قد أسسها في فرانكفورت – آم – مين Frankfurt - am - Main وبدا ناثان أكثر الماليين عبقرية – تلك العبقرية التي مازت الأسرة خلال عدة قرون في عدة دول. وأصبح هو الوسيط الأثير للحكومة البريطانية في علاقاتها المالية مع القوى الأجنبية، وكان هو – أو وكلاؤه – الذي نقل من إنجلترا إلى النمسا وبروسيا المساعدات التي مكنتهما من حرب نابليون، وقام بدور رائد في التوسع التجاري والتطور الصناعي في إنجلترا بعد سنة ١٨١٥ (١٩).

٤– التعليم:

بدت إنجلترا وكأنها اعتزمت أن تعرض قضية عدم إرسال أطفالها إلى المدارس، فكيف تستمر الحكومة دون الالتزام بهذا الواجب؟ ولم يكن الأرستقراطيون مهتمين بالتعليم إلاّ بالنسبة إلى أبنائهم. لقد بدا من الأفضل بالنسبة إلى الوقت الراهن (في ذلك الوقت) ألا يستطيع الفلاحون والبروليتاريا – بل وربما البورجوازيون – أن يقرأوا خاصة وأن جُودون، وأوين Dwen Owen وكوبت Cobbett وبين Paine وكولردج وشيلي كانوا يطبعون في هذا الوقت هذا الهراء عن الأرستقراطية الاستكشافية (التمهيدية) والكميونات الزراعية ورِقّ المصانع وضرورة الإلحاد. لقد كتب جودون نحو سنة ١٧٩٣ : « المصممون على الدفاع عن النظام القديم ليس لديهم بصيرة نافذة. إنهم يعارضون بخسّة توصيل المعرفة للناس باعتباره بدعة تدعو إلى الحذر. ففي ملاحظتهم المشهورة « إن الخادم الذي يعرف القراءة والكتابة لا يصبح بعد تعلّمهما هو الأداة التي يطلبونها » نجد الجنين أو البذرة التي يسهل علينا من خلالها شرح كل فلسفة المجتمع الأوروبي (٢٠) ». بالإضافة إلى أن الطبقات الدنيا فيما ترى الطبقات الأعلى غير قادرة على الحكم بحذر وحكمة على الأفكار التي تُطرح عليهم في المحاضرات أو الصحف أو الكتب، وقد تكون أفكاراً مثيرة تخرّج من المدارس على مستوى الأمة أفواجاً من غير الأسوياء السذّج الحالمين الذين قد يحاولون تحطيم السلطات (القوى) والامتيازات الطبقية هي الوحيدة التي يمكنها حفظ النظام الاجتماعي والحضارة. وكان

أصحاب الصناعات قد اعتراهم الفزع من منافسيهم فكانوا يتطلعون إلى العمالة الرخيصة ولم يروا جدوى من تعليم الأطفال العاملين حقوق الإنسان وفخامة اليوطوبيا وبهائها (اليوطوبيا هي المدينة المثالية). لقد قال واحد من المحافظين غير المعروفين، اقتبس منه جودون قوله: «إن هذه المبادئ سوف تثور بلا شك في عقول السّوقة محدثة هياجاً.. أو محاولة وضعها موضع التنفيذ (أي هذه المبادئ) مما سيؤدي إلى كل أنواع الكوارث... فالمعرفة والذوق وتطوير الفكر واكتشافات الحكماء وجمال الشعر والفن كل ذلك سيتم سحقه تحت أقدام البرابرة»[٢١].

وفي سنة ١٨٠٦ قدَّر باتريك كولكهون Colquhoun القاضي البوليسي في لندن - أن عدد الأطفال الذين لم يتلقوا أي قدر من التعليم في إنجلترا وويلز بلغ مليونين، وفي سنة ١٨١٠ ذكر إسكندر مري Murray عالم فقه اللغة أن ثلاثة أرباع العمال الزراعيين أميون، وفي سنة ١٨١٩ ذكرت الإحصاءات الرسمية أن ٦٧٤,٨٨٣ طفلاً ملحقون بالمدارس في إنجلترا وويلز - ١٥٪ من السكان[٢٢]. وعندما اقترح بِت Pitt في سنة ١٧٩٦ على الحكومة إنشاء مدارس للتعليم الصناعي، لم يُقدَّم مشروعه للتصويت، وعندما قدَّم صمويل (صموئيل) هويتبريد whitbread في سنة ١٨٠٦ مشروع قانون بإقامة مدرسة ابتدائية في كل دائرة (كما كان موجوداً بالفعل في إسكتلندا) أقرّه مجلس العموم، لكن مجلس اللوردات رفضه على أساس أن هذا المشروع لا يجعل التعليم قائماً على أُسس دينية.

وكانت الجماعات الدينية تفرض رسوما على نفسها لإتاحة بعض التعليم لأطفالها، وواظب المجتمع على إقامة «مدارس خيرية» لتقديم المعارف المتعلقة بالدين المسيحي، لكن عدد التلاميذ في هذه المدارس لم يكن يتجاوز ١٥٠,٠٠٠[٢٣]. وكانت مدارس حنا مور Hannah More تكاد تكون مقتصرة على التعليم الديني. وبناء على «قانون الفقراء Poor Law» تم إنشاء «المدارس الصناعية» لتستوعب ٢١,٦٠٠ طفل لتأهيلهم للعمل، وكانت هناك إدارة منوط بها تنفيذ هذا القانون يتبعها ١٩٤,٩١٤ طفلاً. وفي المدارس الدينية لم يكن الأطفال يتعلمون إلاّ شيئاً واحداً بإتقان ألا وهو الكتاب المسيحي المقدس. لقد أصبح عقيدتهم وأدبهم وحكومتهم ومُعيناً له وزنه وقيمته يُعينهم في حياة لا تخلو من

سوء حظ وظلم وارتباك.

وفي سنة ١٧٩٧ أسس الدكتور أندرو بل Beel «نظام العرِّيفين أو المعيدين» لمواجهة نقص المدرسين، وذلك بالاستعانة بالطلاب الأكابر سناً كمدرسين مساعدين في المدارس الابتدائية المرتبطة بنظم العبادة الإنجليكانية. وبعد ذلك بعام قدَّم جوزيف لانكاستر Lancaster مشروعاً شبيهاً على أسس قبلها كل المسيحيين ورفض رجال الكنيسة العمل من خلال هذه الخطة غير الطائفية (المفهوم غير الملتزم بعقائد فرقة مسيحية بعينها) فقد كان لانكاستر متهما بأنه ربوي Deist (مؤمن بالله مع عدم اعترافه بأديان مَنزّلة) مُرتد (عن دينة) وأداة للشيطان[٢٤] وفي سنة ١٨١٠ أسس جيمس مل، ولورد بروهام Brougham وفرانسيس بلاس Place، وصمويل (صموئيل) روجرز المؤسسة الملكية اللانكسترية لنشر المدارس غير الطائفية. وأسس الأساقفة الإنجليكان «جمعية تعليم الفقراء على أسس المبادئ الدينية للكنيسة الرسمية» وذلك خوفاً من انتشار التعليم غير الطائفي المشار إليه آنفاً. ولم يُؤسس في إنجلترا نظام وطني للمدارس الابتدائية على أسس غير طائفية إلاّ في سنة ١٨٧٠.

وكان التعليم العالي متاحاً أيضاً لمن يقدر على تكاليفه، وذلك من خلال الأساتذة الذين يعلّمون في المنازل، ومن خلال المدارس «العامة» والمحاضرين وجامعتين. فالمدارس العامة — في إتون Eton وهارو Harrow ورجبي Rugby ووينشستر Winchester ووستمنستر، وشارترهوس، كانت مفتوحة مقابل مصروفات لأولاد النبلاء والطبقات العليا وكان يُسمح بها في بعض المناسبات للبورجوازية الثرية. وكانت برامج الدراسة في هذه المدارس كلاسية في الأساس — لغة وأدب الإغريق القدماء والرومان، وفي بعض الأحيان كان يتم إضافة بعض العلوم Sciences لكن أهالي الطلبة كانوا يريدون تدريب أولادهم على فن الحكم والصُّحبة الرفيعة، وكانوا مقتنعين أن الشاب إذا تعلّم أدب الإغريق والرومان وتاريخهما وفن الخطابة كان ذلك أجدى لتحقيق الغرض من تعلم الفيزياء والكيمياء والشعر الإنجليزي. وعلى أية حال فإن هذه المدارس كانت تقدم ملتون الذي كان يكتب اللاتينية بكفاءة تقارب كفاءته في كتابة الإنجليزية — كمؤلف لا يقل كفاءة عن الرومان.

وكان النظام في المدارس الثانوية (الداخلية) الأهلية Public Schools قائماً على الجلد

والانتقاد القاسي flogging. والتكدير أو إلزام التلاميذ الصغار على خدمة الطلاب الآخرين ممّن هم أكبر سناً. وكان نظّار المدارس يجلدون الذين يرتكبون مخالفات كبيرة، أما إجبار التلاميذ الصغار على خدمة من هم أكبر فتعني أن يقوم التلاميذ في الصفوف الدنيا بأداء خدمات صغيرة لطلاب الصفوف الأعلى: ينقلون رسائلهم، وينظفون أحذيتهم ويعدّون لهم الشاي، ويحملون كُراتهم ومضارب الكريكت الخاصة بهم، ويتحمّلون تنمّرهم صابرين، وكانت النظرية الكامنة وراء هذا الأسلوب هي أن على المرء أن يتعلّم كيف يُطيع حتى يكون صالحاً لإصدار الأوامر.

وكانت النظرية السائدة في الجيش والبحرية أيضاً قائمة على الجَلْد والانتقاد الشديد وقيام من هم أدنى رُتبة بخدمة من هُم أعلى رتبة وتنفيذ الأوامر دون اعتراض «الطاعة الصامتة» (وعلى هذا فإن الانتصار الذي تحقّق في الطرف الأغر وفي واترلو لم يكن نتيجة الجهود في ميدان القتال فحسب وإنما أيضاً نتيجة ما كان يجري في قاعات وفصول المدارس الثانوية الأهلية)، وإذا ما وصل طالب الصفوف الدنيا الذي كان يخدم طالب الصفوف العليا أصبح مستعداً للدفاع عن هذا النظام. وكان هناك بعض الديموقراطية في حضّانات الأرستقراطية هذه (أو بتعبير آخر في معامل تفريخ متعلّمي الطبقة الأرستقراطية: لقد كان كل الخَدَم fags (الطلاب الذين يخدمون من هم في الصفوف الأعلى) متساوين بصرف النظر عن الثروة والنّسب، وكان كل المتخرّجين (إذا تحاشوا التجارة) يعتبرون أنفسهم سواء، ويعتبرون غيرهم أدنى منهم درجة مهما كانت مواهبهم.

ومن مثل هذه المدارس التي يتخرّج فيها الطالب وهو عادة في الثامنة عشرة من عمره، يلتحق بأكسفورد أو كمبردج. وكانت هاتان الجامعتان قد انحدرتا عن وضعهما الممتاز في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة، ولم يكن جبون Gibbon هو وحده الذي تأسف على الأيام التي قضاها في أكسفورد باعتبارها أياماً ضاعت في دراسات غير مجدية (رغم أنه استفاد كثيراً من من دراسته للغتين؛ اللاتينية واليونانية) وتنافس بين الطلاب في المقامرة وشرب الخمر ومعاشرة البغايا. وكانت موافقة الكنيسة الرسمية شرطا للتقدم لإحدى هاتين الجامعتين. وكان المعلمون أو العمداء يقومون بالتدريس، وكان كل واحد يأخذ على عاتقه

طالباً أو أكثر وينقل إليهم معارفه وخبراته العلمية بأسلوب المحاضرة أو التوجيه والإرشاد، وهنا أيضا كانت الدراسات الكلاسية تسود المنهج الدراسي، لكن كان هناك أيضاً مكان للرياضيات والقانون والفلسفة والتاريخ الحديث، وكانت هناك أيضاً محاضرات في الفلك والفيزياء والنبات والكيمياء لكنها كانت قليلة.

وكانت جامعة أكسفورد من التوري (الاتجاه السائد فيها محافظ) أما كامبردج فكانت هويج (الأفكار السائدة فيها كأفكار حزب الأحرار أو الهويج). وفي كامبردج لم يكن يحصل على الدرجة العلمية إلا التابعون لكنيسة إنجلترا، رغم أن القيود المفروضة كشرط للالتحاق بهذه الجامعة وعددها تسعة وثلاثون قد أُزيلت. وكانت كامبردج هي التي سنّت الحرب على الرق منذ سنة ١٧٨٥ . ووجد العلم Science في كامبردج معلّمين أكثر وطلبة أكثر مما وجد في أكسفورد، وكانت كلتا الجامعتين متخلّفة عن جامعات ألمانيا وفرنسا. وكانت أكسفورد تدرِّس لطلبتها الفلسفة من كتب أرسطو، وأضافت كامبردج كتابات لوك Locke وهارتلي Hartley وهيوم Hume، وكانت كامبردج تخرِّج باحثين ذوي شهرة عالمية، أما أكسفورد فكانت أكثر اهتماماً بتخريج أفراد على قدر من الفصاحة، وملمّين بالاستراتيجية في البرلمان كي يصبحوا - بعد تجارب وخبرات، ومن خلال ارتباطات صحيحة - أصحاب أدوار في حكومة بريطانيا.

٥- المبادئ الأخلاقية

٥ / ١ - الرجل والمرأة:

أي نوع من الأخلاق يمكن أن ينبثق عن هذه الحكومة الطبقية، وهذا الاقتصاد المتغير، وهذه الوحدة بين الدولة والكنيسة، وهذا التعليم المحدود انتشاره، والمحدود في محتواه، وهذا التراث الوطني الذي كان في وقت من الأوقات قويا مؤثراً بسبب العُزلة التي تحدّتها الآن الاتصالات بالعالم الخارجي والثورة والحرب؟

ليس الرجال والنساء من الناحية الطبيعية naturally ملتزمين بالمبادئ الأخلاقية لأن مواهبهم الاجتماعية التي تُؤثر التعاون والعمل المشترك ليست في قوّة بواعثهم الفردية

ورغبتهم في تحقيق مصالحهم الذاتية، ومن هنا كان لابد من تقوية الباعث الاجتماعي وإضعاف الباعث الفردي بسن القوانين المعبّرة عن قوة الجماعة ورغبتها، وبالمواثيق الأخلاقية التي يتم بثّ محتواها من خلال الأسرة والكنيسة والمدرسة والرأي العام والعادات وتحديد المحرمات (الطابو أو التابو taboos) . من الطبيعي إذن أن تكثر الجرائم في إنجلترا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ وأن تكثر حالات عدم الأمانة، وأن يكون هناك ما لا حصر له من العلاقات الجنسية قبل الزواج، وإذا كان لنا أن نصدّق هوجارث Hogarth وبوزول Boswell فقد كانت بيوت الدعارة والمومسات تملأ لندن والمدن الصناعية . وكان أفراد الأرستقراطية يجدون البغايا أقل تكلفة من الخليلات « مدبّرات شؤون المنزل »، فاللورد إجريمونت Egremont الذي كان يفيض بكرمه على تيرنر Turner وغيره من الفنانين، يقال إنه استمتع بسلسلة من الخليلات أنجب منهن أطفالاً كثيرين . . وعلى أية حال قد زادت الشائعات أخباراً عن علاقة أصدقائه الدافئة به »[٢٥] ويمكننا أن نحكم على أخلاق الطبقات العليا من خلال محاكاتهم لأمير ويلز واستئناسهم بأخلاقه، وكان هذا الأمير « قد نشأ وسط أكثر الأرستقراطيين فجوراً وانحلالا . لقد كانوا ثُلّة لم تشهد إنجلترا مثيلاً في فجورها وانحلالها منذ العصور الوسطى »[٢٦] .

وربما كان الفلاحون يحترمون القيم الأخلاقية القديمة، لأن تنظيم الأسرة بما يخدم أغراض الزراعة يستلزم سلطة أبوية قوية، وقلما يسمح للشباب بالإفلات من سلطة من هم أكبر سنا . وعلى أية حال، فقد كانت البروليتاريا النامية قد تحررت من مثل هذه الهيمنة مقلّدة مستغليها في حدود ما تسمح به دخولهم (أي دخول البروليتاريا)، وقد « كانت الأجور المتدنية في المصانع الصغيرة غير المنضبطة تمثل دافعاً قوياً للفسق بالنسبة إلى النسوة العاملات في المصانع ليبعن أجسادهن بثمن بخس ليُضفنه (أي هذا الثمن) إلى أجورهن المتدنية .

وحتى سنة ١٩٢٩ كان العمر القانوني الذي يُسمح فيه بالزواج هو ١٤ سنة للذكور و ١٢ للإناث . وكان الزواج العادي ارتزاقا أو مصدر تعيّش وكسب . فالرجل (الزوج) كان مرغوباً بقدر ما لديه من مال فعلي أو متوقع، وكذلك كانت المرأة (الزوجة) مرغوباً فيها

بقدر مالها الموجود فعلاً أو المتوقع الحصول عليه، وكانت الأمهات يخططن ليل نهار (كما في روايات جين أوستن Austen) لتزويج بناتهن بُغية الحصول على المال . ومع أن الأعمال الأدبية تُعلي من شأن الزواج عن حب، إلا أن مثل هذا الزواج كان استثناء لا قاعدة . وكان الزواج على وفق للقانون العام مُعترفاً به رغم عدم عقده بواسطة رجال الدين وكان عدد أفراد الأسرة كبيراً لأن الأطفال كانوا يُعينون الأسرة من الناحية الاقتصادية، وكان عددهم (الأطفال) في المصانع أقل بقليل من عددهم في المزارع . وكان منع الحمل يتم بطرق بدائية . وكان عدد السكان يزداد لكنها كانت زيادة بطيئة بسبب وفيات الأطفال والشيوخ، وبسبب نقص الغذاء ونقص الرعاية الطبية وعدم مراعاة قواعد الصحة العامة . وانتشر الزنا، وكان يمكن أن يطلب الزوج الطلاق، وكذلك المرأة (بعد سنة ١٨٠١)، لكن هذا لم يكن ليتم دون إذن من البرلمان، وكان هذا يكلِّف كثيراً جداً، لدرجة أنه لم يحصل على الطلاق إلا ٣١٧ شخصاً قبل أن يصطبغ القانون بطابع ليبرالي في سنة ١٨٥٩ . وحتى سنة ١٨٥٩ كانت الممتلكات المنقولة للزوجة تصبح مُلكاً للزوج عند الزواج، بالإضافة إلى أنه كان يحصل تلقائياً على كل مالٍ يأتيها بعد الزواج، لكنها كانت تحتفظ بملكية الأرض الخاصة بها أما الريع فلزوجها وإن ماتت قبله ورث كل ممتلكاتها[٢٧] .

وسمعنا عن نسوة ثريّات لكنهن كن قليلات العدد . وجرى العُرف أن يقوم الأب الذي ليس له ولد (ذكر) بوقف ثروته على أحد أقربائه الذكور، تاركاً بناته دون مال يرثنه وإنما يعشن على إعانات الأصدقاء ومن يتلطّف عليهن . إنه عالم الرجال .

٥/٢ ماري ولستونكرافت

لقد تعوّد معظم النساء البريطانيات على هذا الجوْر بحكم ما اعتدْنَ عليه، لكن الرياح الآن تهب من فرنسا الثورية، فدفعت بعض اللائي يعانين إلى الاحتجاج، وقد أحسَّت ماري ولستونكرافت Wollstonecraft بهذه الرياح فرفعت عقيرتها مطالبة بتحرير المرأة، وكانت مطالبتها من أقوى المطالبات التي شهدتها حركة تحرير المرأة .

وكان أبوها من أهل لندن وقرر أن يجرب العمل في مجال الزراعة ففشل وفقد ثروته

وزوجته فعكف على الشراب وتخلى عن بناته الثلاث فتركهن يدبّرن أمور معيشتهن بأنفسهن، فافتتحن مدرسة فامتدحهن صامويل (صموئيل) جونسن لكنهم أفلسن وأصبحت ماري مربّية أطفال لكنها طُرِدت من عملها بعد عام «لأن الأطفال أحبوا مربّيتهم أكثر من حبّهم لأمّهم» (٢٨) وفي هذه الأثناء كتبت عدة كتب من بينها «دفاع عن حقوق المرأة» الذي كتبته في سنة ١٧٩٢ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها.

وقد أهدت كتابها إلى «م. تاليران – بيريجورد M. Talleyrand Perigord أسقف أوتون Auten الراحل» مع إشارة إلى أنه ما دامت الهيئة التأسيسية قد أعلنت حقوق الإنسان فهي ملزمة أخلاقيا بإعلان حقوق المرأة. وربما رغبة منها في تسهيل طريقها وتحقيق أهدافها تحدثت بنبرة أخلاقية عالية معترفة بولائها لبلادها وتمسكها بالفضلية، وإيمانها بالله. ولم تتحدث إلاّ قليلاً عن حق النساء في التصويت لأن نظام التمثيل النيابي كله الآن في هذه البلاد ليس إلا أداة في يد الحكم الاستبدادي (حكم الفرد) فلا مجال لشكوى النساء لأنّهن معدودات كطبقة ذات عدد للعمل الشاق وكأنهن آلات، يدفعن لدعم الملكية عندما يصبحن قادرات بشق النفس على إسكات أصوات أطفالهن بحشوها خبزاً» ومع هذا «فإنني حقا أعتقد أنه من الضروري أن يمثل النساء في البرلمان بدلا من أن يُسْلبن حقهن في أي مشاركة مباشرة في تفكير الحكومة وتخطيطها» (٢٩). وأشارت كمثال على انحياز القانون للرجل إلى قانون حق الابن البكر في ميراث أبيه، وحق الأب في وقف ممتلكاته على نسله أو أقاربه من الذكور، وذكرت أن الأعراف والعادات أشد قسوة على المرأة من القوانين فهي تُدين – وتُعاقب – المرأة للحظة واحدة فقدت فيها طهارتها، رغم أن الرجال يظلّون محترمين بينما هم منغمسون في الرذيلة» (٣٠).

وربما صُدِم بعض القراء بإعلان ماري حق المرأة بالإحساس بالإشباع عند اللقاء الجنسي، لكنها حذرت الجنسين قائلة «إن الحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) شهوة حيوانية لها نهاية» (٣١) فالحب (المقصود هنا المتعة الجنسية) كعلاقة مادية لابد أن تحل محله الصداقة بالتدريج، وهذا يتطلب احتراما متبادلا، والاحترام يتطلب أن يجد كل طرف (الزوج أو الزوجة) في الطرف الآخر شخصية متطورة (يعتبر الطرف الآخر كياناً له ذاته) (٣٢) وهنا فإن

أفضل طريق لتحرر المرأة هو اعترافها بأخطائها والتحقّق من أن حريتها تعتمد على تثقيف عقلها وسلوكها.

وراحت المؤلفة في كتابها تعدّد أخطاء النساء في زمانها: نزوعها إلى الضعف والجبن مما يغذي دعوى الرجل في التفوق والسيطرة ويُسعده، وإدمان لعب الورق والثرثرة والقيل والقال والتنجيم والتأثر العاطفي والتفاهة والاهتمام الزائد بالملبس والغرور.

«الطبيعة والموسيقا والشعر والكياسة، كل ذلك يميل إلى جعل النساء مخلوقات للإحساس.. وهذا الإحساس أو الشعور إذا ما زاد عن حده أضعف - بشكل طبيعي - قوى النفس الأخرى ومنع الفكر من الوصول إلى المرتبة التي يجب أن يشغلها... لأن التدرّب على الفهم والاستيعاب - كما تشير لنا الحياة - هو الطريق الوحيد الذي قدّمته لنا الطبيعة لتهدئة عواطفنا وانفعالاتنا ورغباتنا الجنسية»[٣٣].

وقد شعرت ماري أن كل هذه الأخطاء تقريباً راجعة إلى عدم المساواة مع الرجل في التعليم، وإلى نجاح الرجل في اقناعها «بأن أفضل إمبراطورية لها وأحلاها هي أن تُمتع»[٣٤] (كما قالت لهن إحدى المؤلفات).

لقد امتعضت ماري من الأناقة المتكلّفة ومن التصنّع وراحت تنظر بحسد إلى النسوة الفرنسيات اللائي أصررن على تحصيل العلم واللائي تعلّمن كيف يكتبن خطابات تعد من أجمل ما أنتجه العقل الفرنسي. «في فرنسا تنتشر المعرفة أكثر من أي جزء آخر من العالم الأوروبي، وأنا أعزو ذلك في جانب منه إلى العلاقات بين الجنسين على المستوى الاجتماعي، تلك العلاقات التي كانت مستمرة منذ فترة طويلة»[٣٥]. لقد لاحظت ماري ولستونكرافت قبل بلزاك بجيل أنّ:

«الفرنسي الذي يحكّم عقله في أمور الجمال أكثر من غيره، يفضل المرأة في الثلاثين من عمرها.. والفرنسيون يسمحون للنساء أن يكنّ في أكمل أوضاعهن عندما تتنازل الحيويّة لتعطي مكانها للعقل ولجدية الشخصية الدالة على النضوج... وفي مرحلة الشباب - حتى العشرين - يقذف الجسم خارج نفسه، وحتى الثلاثين تحقق الصلابة درجة من الكثافة، وتصبح عضلات الوجه المرنة يوما بعد يوم أكثر حدّة فتعطي شخصية للملامح - هذا يعني

أنها تعبر عما يعتمل في النفس، فلا تخبرنا فقط عن القوى الكامنة فيها وإنما كيف يتم توظيفها »[٣٦] .

لقد اعتقدت ماري أن أخطاء النساء راجعة كلها - تقريبا - إلى إنكار حق المرأة في تعليم مساوٍ لتعليم الرجل، وإلى نجاح الرجل في اقناع المرأة بأنها لُعبة جنسية قبل الزواج وحلية للزينة وخادمة مطيعة وآلة للإنجاب بعد الزواج. ولكي نُعطي الجنسين فرصاً متساوية لتنمية عقولهم وأجسادهم لا بُد أن يتعلم الأولاد والبنات معاً (حتى مرحلة الإعداد للوظيفة أو المهنة) وأن يتلقوا المناهج الدراسية نفسها، بل وأن يشتركوا في الألعاب الرياضية نفسها، في حالة إمكانية ذلك. ولابد أن تجعل كل امرأة من نفسها إنسانة قوية البدن وذات كفاءة عقلية لتتمكن من كسب عيشها بنفسها عند الضرورة[٣٧] . وعلى أية حال فعاجلاً أو آجلاً ستلعب الوظائف البيولوجية والفروق الفسيولوجية بين الجنسين دورها[٣٨] . إن قيام المرأة بدورها كأم مفيد لصحتها، وقد يؤدي ما ذكرنا آنفاً إلى أن تصبح الأسر أقل عدداً وأقوى صحّة[٣٩] . إن تحرير المرأة بشكل مثالي يعني اتحاداً - على قدم المساواة - بين أم متعلمة وزوج متعلم[٤٠] .

وبعد أن رأت المؤلفة الشابة اللامعة كتابها في المطبعة عبرت القنال الإنجليزي إلى فرنسا، وقد كانت مفتونة بالسنوات الخلاقة التي عاشتها الثورة الفرنسية، لكنها الآن - أي الثورة - قد تردّت في المذابح والإرهاب. وأحبّت في باريس أمريكياً هو القبطان جيلبرت إملي Imlay ووافقت على الحياة معه دون ارتباط رسمي. وبعد أن أصبحت حُبلى غاب عنها إملي لعدّة شهور منشغلاً بأعماله أو أية أمور أخرى، فكتبت له خطابات تتوسّل فيها له أن يعود وكانت خطاباتها بليغة لكنها كانت بغير جدوى تماماً كخطابات جولي دي ليبيناس Lespinasse قبلها بجيل[٤١] . وفي سنة ١٧٩٤ حملت طفلها الذي بغير أب، وعرض إملي أن يُرسل لها مبلغاً سنوياً لكنها رفضت وعادت إلى إنجلترا (١٧٩٥) وحاولت إغراق نفسها في نهر التيمز لكن بعض المراكبية أنقذوها.

وبعد ذلك بعام قابلت وليم جودون Godwin الذي تزوجها على وفق القانون العام (دون حضور رجل دين)، ولم يكن أي منهما يؤمن بحق الدولة في تنظيم الزواج. وعلى أية حال

فقد عقدا قرانهما على وفق الطقوس الدينية في ٢٩ مارس ١٧٩٧ تحسبا لطفلهما المرتقب. وتألقت – لفترة – بين الجماعة الثورية التي تحلّقت حول الناشر جوزيف جونسون وهم: جودون، وتوماس هولكروفت، وتوم بين، ووليم وردزورث، ووليم بليك Blake (الذي رسم رسوماً لبعض كتاباتها) وفي ٣٠ أغسطس ١٧٩٧ وضعت طفلة بعد معاناة شديدة، وبعد ذلك بسنوات عشر ماتت.

٥/٣ الأخلاق الاجتماعية

وعلى العموم فإن كل طبقات إنجلترا في هذه الفترة قد أسهمت في التفسخ الخلقي الذي عمّ البلاد، رغم ما أوردناه آنفاً عن حياة أشخاص عاشوا حياة مستقيمة ومحتشمة أهملها التاريخ. لقد كانت المقامرة شائعة تماماً، بل إن الحكومة نفسها (حتى سنة ١٨٢٦) أسهمت فيها بإصدار اللوترية الوطنية (اليانصيب الوطني) وكان الإغراق في شرب الخمور أمراً متوطّناً كوسيلة للهروب من الضباب البارد والأمطار والفقر المُدقع والنزاعات الأسرية والتوترات السياسية واليأس الفلسفي (المقصود تبرير الواقع على نحو يائس) وقد اتفق بِت Pitt وفوكس – رغم ما بينهما من فروق – على تشجيع هذا السُّكر (المهدئ أو المخدر) كعامل مسكّن. وسُمِح للحانات أن تبقى مفتوحة في مساء السبت وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد [٤٢]. لأن يوم السبت هو يوم استلام الأجور وبذلك يُتاح للحانات أن تكون أول من يحصل على نصيبها من هذه الأجور الأسبوعية، وكان أفراد الطبقة الوسطى يشربون باعتدال، أما أفراد الطبقات العليا فيسرفون في الشراب لكن كان عليهم أن يتعلموا حمل مُسْكرهم بثبات كحوض يرشَح بما فيه.

وكان الانغماس في الشراب يُتيح الفساد والرشوة في كل مستوى من مستويات الحكم. وفي حالات كثيرة – كما لاحظنا آنفاً – كانت الأصوات الانتخابية وعضوية المجالس المحلية والتعيينات والوظائف – وفي بعض الأحيان رُتب النبالة – تُشترى وتُباع علناً كما تباع الأسهم والسندات في سوق الأوراق المالية. ولم يكن جورج الثالث – وكانت فضائله متأصّلة – لا يرى بأساً في تخصيص أموال للحصول على أصوات الناخبين لأعضاء البرلمان أو

توزيع الوظائف طلباً للدعم السياسي. وفي سنة ١٨٠٩ كان ستة وسبعون عضواً في البرلمان يشغلون وظائف عاطلة «مجموعة قليلة من المقربين الأثيرين بحكم القرابة أو المصلحة التي تربطهم بالأثرياء وذوي النفوذ - تتلقى رواتب ضخمة دون عمل يؤدّونه بينما الذين يعملون بالفعل يتلقون في حالات كثيرة رواتب أقل مما يستحقون»[٤٣] وكان القضاةُ يبيعون المراكز التابعة (الملحقة) لزمام مناطقهم القضائية وينتزعون من شاغليها حصّة من الرسوم التي يدفعها الناس لقضاء مصالحهم لدى الجهات الرسمية.

والحكومة قد تكون قاسية، كما قد تكون فاسدة قابلة للرشوة. لقد ذكرنا قسوة تشريعاتها العقابية. لقد كان إلقاء القبض على عابري السبيل لتجنيدهم إجبارياً في البحرية مقدمة لدفع رواتب متدنية وتقديم طعام سيئ لهم، وضبطهم بقسوة وصرامة لا ترحم»[٤٤] وفي عدة مناسبات تمرّدت طواقم السفن، وأدّى أحد هذه الإضرابات إلى تعويق ميناء لندن طوال شهر. ومع هذا كان البحارة الإنجليز هم أفضل رجال بحر وأفضل مقاتلين في الأساطيل عرفهم التاريخ.

وكان هناك سعي وجهود كثيرة للإصلاح الأخلاقي، ففي سنة ١٧٨٧ أصدر جورج الثالث إدانة لكسر أحكام السبت، والتجديف على الله، والسُّكر، والأدب الفاحش، ووسائل الترفيه اللاأخلاقية، ولم يسجّل التاريخ أثراً لهذه الإدانة. وقد دلّنا جيرمي بنثام Bentham «التعاليم الإصلاحية البرلمانية Parliamentary Reform Catechism» (١٨٠٩) على اثنتي عشرة وسيلة لكشف الفساد السياسي وعدم الكفاءة السياسية. وكان لعظات الميتوديين، (طائفة دينية بروتستنطية) والإنجيليين (طائفة دينية بروتستنطية) بعض الأثر، وتضاعف تأثيرها عندما أثارت الثورة الفرنسية المخاوف، فقد أكد هؤلاء الدعاة أن أمة منضبطة أخلاقيا يمكنها أن تواجه بنجاح غزواً فرنسياً أو ثورة داخلية. وحاربت جمعية القضاء على الرذائل ضد المبارزة والمواخير وبيوت الدعارة والكتابات الداعرة (الأدب الإباحي). وهاجم إصلاحيون آخرون تشغيل الأطفال، واستخدامهم في تنظيف المداخن وقسوة أحوال السجون، ووحشية القوانين العقابية. وقد كان لموجة الاتجاه الإنساني (الحركة الإنسانية) التي انبثقت في جانب منها من ناحية، ومن حركة التنوير من ناحية أخرى أثر

في نشر الأعمال التطوعية والخيرية والميل للإحسان وعمل الخير.

وكان وليم ولبرفورس أكثر المصلحين الإنجليز دأباً. لقد ولد في هَلْ Hull (١٧٥٩) في أسرة ثرية تعمل في التجارة وتمتلك الضياع، وكان زميلاً لوليم بِت Pitt في كامبردج، ولم يجد صعوبة تُذكر ليحرز النجاح في انتخابات أوصلته للبرلمان (١٧٧٤) بعد عام من تبوُّؤ وليم بِتْ منصب رئيس الوزراء. وعندما شعر بتأثير الحركة الإنجيلية Evangelical ساعد في تأسيس جمعية إصلاح عادات الشعب وأسلوب حياته (١٧٨٧). والأهم من كل هذا أنه عارض أن تتسامح أمة تعتنق الديانة المسيحية رسمياً مع التجارة في الرقيق الإفريقي (تجارة العبيد).

وكانت إنجلترا الآن (في ذلك الوقت) رائدة في هذا المجال. وفي سنة ١٧٩٠ نقلت السفن البريطانية ٣٨٫٠٠٠ عبد إلى أمريكا ونقلت السفن الفرنسية ٢٠٫٠٠٠ والبرتغالية ١٠,٠٠٠ والهولندية ٤٠,٠٠٠ والدنماركية ٢٠٠٠. لقد أسهمت كل أمة أوروبية في هذه التجارة على وفق قدراتها، تلك التجارة التي ربما كانت أفظع الأفعال إجرامية في التاريخ. ومن ليفربول Liverpool وبريستول Bristol حملت السفن الخمور والأسلحة النارية والمنسوجات القطنية والأشياء التافهة إلى «ساحل العبيد» في إفريقية. وهناك – أي في إفريقية – غالباً ما كان الزعماء من أهل إفريقية يساعدون «الزعماء» المسيحيين في تسلّم عبيد أو زنوج Negros مقابل ما جلبوه من بضاعة، ويتم نقل هؤلاء العبيد (الزنوج) بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية والمستعمرات الجنوبية في أمريكا الشمالية. وكان هؤلاء الأسرى (العبيد من الزنوج) يوضعون في جوف السفينة وفي أحيان كثيرة كانوا يُقيّدون بالسلاسل لمنعهم من التمرد أو الانتحار. وكانوا يُزوّدون بالماء والطعام بالقدر الذي يكفي – بالكاد – لإبقائهم على قيد الحياة، وكانت التهوية بائسة كما كانت وسائل التخلص من الإفرازات والفضلات في حدها الأدنى، وإذا ما هبت عاصفة شديدة وكان لابد من تخفيف حمولة السفينة تم – أحياناً – إلقاء العبيد المرضى في عُرض البحر لتخفيف الحمولة، وفي بعض الأحيان كان يتم إلقاء غير المرضى أيضاً. فمن بين عشرين مليون زنجي كانوا يُنقلون إلى جزر الهند الغربية البريطانية لم يصل منهم على قيد الحياة سوى ٢٠٪ (٤٥) وفي رحلة العودة

كانت السفن تحمل دِبْس السكّر (المولاس) الذي كان يستقطر في بريطانيا لصنع الرُّم (نوع من الخمور) الذي كان يستخدم بدوره كثمن لشراء العبيد في الرحلة التالية (إلى إفريقية) .

وكان الكوكر (صحاب مذهب ديني منشق) هم أصحاب الريادة في القارتين في مهاجمة هذه التجارة باعتبارها الخطوة الأولى لإلغاء الرق . وانضم ما لاحصر لهم من الكتاب الإنجليز لمحاربة هذه التجارة : جون لوك، إسكندر بوب، جيمس طومسون، ريتشارد سافاج Savage، وليم كوبر، ولا ننس أن السيدة أفرا بيهن Behn قد قدمت لنا في روايتها أورونوكو Oroonoko (١٦٧٨) وصفاً للأحوال في جرز الهند الغربية يثير التقزز . وفي سنة ١٧٧٢ استصدر جرانفل شارب (من الكوكر - جماعة دينية) من إيرل مانسفيلد رئيس مجلس الملكة مرسوماً بمنع استيراد العبيد في بريطانيا، وكل عبد يصبح حراً بمجرد أن تطأ قدمه أرض بريطانيا . وفي سنة ١٨٧٦ نشر توماس كلاركسون (وهو أيضاً من جماعة الكوكر) مبحثاً بعنوان (مقال عن الرق والتجارة في البشر) قدم فيه خلاصة مؤثرة لنتائج الرق والتجارة في العبيد، تكاد تكون حصاد عُمر بأكمله . وفي سنة ١٧٨٧ كوّن كل من كلاركسون شارب، ويلبر فورس، جوزياه ودجوود، زاكاري Zachary ماكولاي (والد المؤرّخ) جمعية منع تجارة الرق . وفي سنة ١٧٨٩ قدَّم ويلبر فورس إلى مجلس العموم مشروع قانون لإنهاء هذا الشر . ولم يحصل المشروع على الأصوات المطلوبة بسبب أموال التجار، وفي سنة ١٧٩٢ دافع بت في واحد من أعظم خطبه عن إجراء مماثل (منع تجارة الرقيق) لكنه أيضاً لم يُوفق في تحقيق غرضه . وحاول ويلبر فورس مرات أخرى في سنة ١٧٩٨ و ١٨٠٢ و ١٨٠٤ و ١٨٠٥ لكنه مُني بالفشل في محاولاته تلك . وبقي على شارلز جيمس فوكس في فترة وزارته القصيرة (١٨٠٦ / ١٨٠٧) أن يضغط على هذا الأمر حتى حقّق النصر، إذ استسلم البرلمان ومنع التجار البريطانيين من أي مشاركة في تجارة الرقيق . وكان ويلبرفورس « والقدّيسون » الذي ساندوه يعلمون أن هذا النصر الذي حققوه ليس سوى البداية، فواصلوا نضالهم لتحرير (عِتق) كل الرقيق على الأرض البريطانية . ومات ويلبرفورس في سنة ١٨٣٣ وبعد موته بشهر جرى منع الرق في كل البلاد الخاضعة للحكم البريطاني، وكان هذا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٣ .

٦- العادات وأسلوب الحياة

من بين أكثر الأحداث إثارة في سنة ١٧٩٧ ظهور القبعة الحريرية العالية Silktophat لأول مرة، ويظهر أن خردواتياً لندنياً وضعها فوق رأسه زاعماً أن الحق الفطري (الموروث) للرجل الإنجليزي أن يكون متفرداً، وتجمهر الناس حوله وقيل إن بعض السنوة بُهِتْنَ لهذا المنظر المُرعب alarming sight ، لكن لم يكن هناك ما هو منافٍ للعقل يمنع مصمّمي الأزياء النسائية والخردواتية haberdashers من تعميم هذه التقليعة (المودة)، فسرعان ما وضع الذكور من أبناء الطبقات العليا هذه القبعات الحريرية فوق رؤوسهم.

واختفت السيوف الموضوعة على سنام تصفيفة الشعر وعلى الشعر المستعار. وحلق الناس لحاهم، وترك معظم الذكور شعرهم ينمو حتى الكتفين، لكن بعض الشباب عبروا عن تحديهم وفرديتهم بقص شعورهم[٤٦] وكسبت « السراويل » (البنطلونات) المعركة على سيقان الرجال، فبحلول سنة ١٧٨٥ كان « السروال » (البنطلون) يصل إلى منتصف بطّة الساق (الربَلة)، وبحلول عام ١٧٩٣ وصل إلى الكعب (رسغ القدم)، وحل رباط الحذاء محل الحِلية المعدنية، وبذا بدأت (أربطة الأحذية) دورها في مضايقة لابسي الأحذية وإزعاجهم. وكانت المعاطف طويلة خالية من التطريز والزخارف، لكن الصدرة « الصدار » كانت موضع اهتمام إذ كان الواحد منهم يُنفق عليها كثيراً من دخله ويتفنّن في تطريزها. لقد أدّى التنافس بين النبلاء وأعضاء مجلس العموم إلى ظهور « المتأنقين bucks » (المعنى الحرفي ذكر الوَعل أو الظبي، والمعنى لا يتضح تماما هنا إلا باللهجات العربية العامية إنه كاشخ أو كشخة كما يُقال عادة في دول الخليج، أو إنه كالهامور وما إلى ذلك، وفي مصر عادة يقولون نافش ريشه أو محلفط... إلخ) وظهور المنمقين أو الذين يلبسون ملابس تروق للنساء « beau ». لقد كان جورج بريان برومل Brummel (١٧٧٨ ـ ١٨٤٠) متأنقا (beau) معروفاً بشدة التأنق وتزيين نفسه فقد كان يقضي نصف النهار في ارتداء ملابسه وخلعها. وفي أتون Aton حيث كان الطلبة يسمونه « بَكْ duck » وأصبح صديقاً حميماً لأمير ويلز الذي شعر أن التأنق في الملبس هو نصف فنّ الحُكم. ولأن برومل كان قد ورث ثلاثين ألف جنيه فقد استأجر حائكاً لكل جزء من بدنه وجعل من نفسه « حكماً للأناقة » بين رجال لندن، وكان حسن الفكاهة رقيقاً،

وكان يهتم بنفسه ورباط عنقه اهتماماً شديداً، لكنه كان يحب المغامرة ربما أكثر من التأنق فركبته الديون وفرّ عبر القنال الإنجليزي تخلّصا من دائنيه وعاش عشرين سنة في فقر مُدقع وملابس رثة ومات في الثانية والستين من عمره في مصحة فرنسية للمجانين.

وتخلّت النساء عن الطوق الموسِّع (بتشديد السين وكسرها / وهو طوق من مادة لَدنة لتوسيع أطراف التنورة أو الجيبة وتستخدم النسوة في بعض البلاد العربية الكلمة الأجنبية الدالة عليه: الهوب hoop ويجمعنه على هوبات)(*) لكنهن أبقين المشدات (الكورسيهات، والمفرد كورسيه) لصدورهن، ليبدو ثديا المرأة ممتلئين متوازنين(**) وكان خط الوسط في الفساتين مرفوعاً إلى أعلى (أي أعلى من مستوى الخصر) وثمة ديكولتيه (تقويرة واسعة قد تشمل الصدر والظهر والكتفين) تكشف ما فوق خط الوسط، وخلال فترة الوصاية على العرش (١٨١١ – ١٨٢٠) تغيرت أساليب اللباس (المودة) تغيراً شديداً، فاختفت المشدّات (الكورسيهات) ولم يَعُدن يستخدمن التنورات (الجيبات)، واستُخدمت العباءات الشفافة بما يكفي للإيحاء بخطوط الفخذين والساقين أو بتعبير آخر أصبحت العباءات النسائية شفافة وصّافة، وكان من رأي بايرون أن هذا الأسلوب في اللباس يقلل من فتنة النساء وراح يشكو – على غير عادته – مدافعاً عن الأخلاق:

– لقد ضلّت نساؤنا السبيل كأمنّا حواء
– فهن عرايا
– لكنهن غير خَجِلات من عُرْيهن

ومع هذا فقد كان هناك اعتدال في اللباس أكثر منه في تناول الطعام. لقد كانت الوجبات هائلة، لأن المناخ كان يحثّ على تناول اللحوم ذات الدهن طلباً للدفء وليس نَهَما تماماً وإن كان النَّهم أيضاً سبباً وارداً. وكان الفقراء يتناولون في الأساس خبزاً وجبناً ويشربون شاياً أو مزرا (نوع من الجعة)، أما الطبقات ذوات المال فكانت الوجبة الرئيسية

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

(**) مصطلح (الكورسية) يستخدم في بعض البلاد العربية للدلالة على ما يَشُد الردف أو المؤخرة للهدف نفسه وهو أن تبدو متوازنة ممتلئة. (المترجم).

عندها تمتد أحياناً من الساعة التاسعة الى منتصف الليل، وكان يكن أن تمر بمراحل مختلفة: حساء، سمك، دجاج أو غيره من الطيور، لحوم، لحم غزال أو غيره من لحوم الطرائد، حلوى أو فاكهة، ونبيذ معدّل حسب الرغبة. وبعد تناول الحلوى أو الفاكهة تفارق النسوة المائدة حتى يتناقش الرجال بحرية في أمور السياسة والخيل والنساء. وكانت مدام دي ستيل de Stael تعترض على هذا الفصل بين الرجال والنساء بعد تناول الحلوى أو الفاكهة لأن هذا يزيل الباعث إلى الاحتشام وإلى العادات والتصرفات المهذبة، كما أنه يُقلل من سعادة الجماعة. ولم تكن آداب المائدة (الإتيكيت) في إنجلترا بالأناقة نفسها التي هي عليها في فرنسا.

وكانت العادات بشكل عام حميمة وخالية من التصنع (مباشرة) وكان الحديث يُتَبَّل بكلمات لا تتناول الذات الإلهية بوقار (كلمات ذات طابع تجديفي). لقد اشتكى رئيس أساقفة كانتربري قائلا «إن الكلمات المنطوية على التجديف تزداد يوماً بعد يوم بسرعة»[٤٧] وكان التلاكم Fisticuffs منتشرا بين الطبقات الدنيا، وكانت الملاكمة boxing رياضة أثيرة، وكانت الملاكمة بقصد الحصول على جائزة (الملاكمة التكسبية) تجذب المنظمين الطامعين من كل الطبقات. ولقد وصلنا وصف مكثف معاصر لهذه المباريات من روبرت سوثي Southey (١٨٠٧):

«عندما يتم الإعداد لمباراة بين اثنين كل منهما يبغي الحصول على الجائزة سرعان ما تصل الأخبار للناس عن طريق الصحف، فتظهر فقرات فيها في مناسبات مختلفة متناولة المتنافسين وكيف يتدربون، وما هي التمارين التي يقومون بها، وكيف أن أحدهم يتناول اللحم النيئ استعداداً للمباراة. وفي هذه الأثناء يختار الهواة والمقامرون أحد الطرفين لينحازوا إليه أو يقامروا على فوزه أو إخفاقه، وتظهر المراهنات في الصحف أيضاً، وفي حالات غير قليلة ينخرط الجميع في المراهنات حتى إن عدداً قليلاً من المحتالين الأوغاد قد يخدعون أعداداً كبيرة من الأغبياء»[٤٨].

ويتجمع جمهور غفير يصل أحياناً إلى عشرين ألفاً وكأن هذا التجمع ولهذا الغرض بديلٌ عن الثورة والتمرد (أو بتعبير أدق تسامٍ بهذه الرغبة) وقد أوصى اللورد ألثورب

Althorp بممارسة الألعاب الرياضية للتسامي بالغرائز العدوانية السائدة بين الناس، لكن منظمي هذه المباريات يعتبرونها تطهيراً لجيوب المرتادين (أي وسيلة لتجريد الناس من أموالهم).

أما الأفقرون حالاً فيبحثون عن التنفيس عن مكنونات صدورهم بتقييد ثور أو دُب، ثم يظلون يزعجونه بالعصي ويغرون به الكلاب، وأحياناً يظل هذا طوال ثلاثة أيام حتى تأتي لحظة الرحمة فيقتلون ضحيتهم أو يرسلونها إلى دار الذبح (أو القتل / المسلخ أو السلخانة)[٤٩]، واستمرت مباريات صراع الديوك حتى مُنعت في سنة ١٨٢٢. أما الكريكت Cricket الذي عرفته إنجلترا منذ سنة ١٥٥٠ فقد جرى تقنين قواعده في القرن الثامن عشر، وكانت مبارياته في إنجلترا هي الأكثر إثارة إذ كان يحضرها عدد غفير، وتكون المراهنات على أشدها، ويكون مشجعو كلٍ في حالة سعار. وكان سباق الخيول يمثل ميداناً آخر للمقامرة لكنه أيضاً كان يُحيي العشق القديم للخيول والاهتمام اللذيذ بتدريبها ومتابعة سلالاتها. أما الصيد فكان رياضة تمثل ذروة المتعة إذ يركب الصيادون في عربات أنيقة، وتطير العظاءات Swifts محلقة فوق الحقول ويعبر الصيادون المحاصيل والقنوات المائية والأسوجة (جمع سياج) فوق ظهور الخيول التي تبدو عليها – بعد الكلاب – السعادة بهذه المهمة.

وكان لكل طبقة مناسباتها التي يتجمع فيها أفرادها بدءاً من المقاهي – حيث يجتمع البسطاء لشرب البيرة (الجعة) وتدخين البايب (الغليون) وقراءة الصحف والحديث في السياسة والفلسفة – حتى الأجنحة الملكية الفخمة Royal Pavilion (البافليون الملكي) في بريتون Brighton حيث يشترك الأثرياء في مهرجانات «غالباً ما كانت باعثة على المسرّة في الشتاء والصيف على سواء»[٥٠] وعندما يتجمع الناس في منازلهم يلعبون «الورق» أو غيره من الألعاب المناسبة أو يستمعون للموسيقا أو يرقصون، وقد وصلت رقصة الفالس Walz قادمة من ألمانيا واسمها مشتق من الفعل الألماني Walzen بمعنى يدور، وقد علم المتمسكون بالأخلاق على انتشارها بوصفها بأنها «ألفة» أو مودّة» آثمة (المعنى يكاد يكون: لقاء جنسياً آثماً Sinful intimacy)، وقد شكى كولردج عن قناعة في سنة ١٧٩٨ «لقد

أزعجوني بدعوتي للرقص في كل حفلة رقص ليلية، وقد رفضت بتواضع. إنهم يرقصون رقصة شائنة تسمى الفالس Waltzen . ربما بلغ عددهم عشرين راقصاً وعشرين راقصة – لقد كان كل راقص يحتضن مراقصته وهي أيضاً تحتضنه، فتتلامس الأذرع والخصور والركب يلف بها وتلف به، وهكذا دواليك.. على موسيقا داعرة»(٥١).

وكان أفراد الطبقات العليا يستطيعون إقامة حفلات راقصة أو حفلات من أي نوع كانت في واحدة من النوادي الأنيقة: ألماك Almack، والهويت White والبروك Brook وهناك أيضاً يمكنهم المقامرة على مبالغ ضخمة ومناقشة آخر إنجازات السيدة سيدون Siddons وحفلات سمر الأمير وروايات جين أوستن ونقوش بليك Blake وأعمال تيرنر Turner وصور كونستابل. وكانت ذروة اللقاءات الاجتماعية عند الهويج (الأحرار) تتمثل في دار هولاند Holland House حيث كانت الليدي هولاند تعقد اجتماعات مسائية كان يمكن للمرء أن يلتقي فيها بذوي المكانة مثل اللورد بروهام Brougham أو فيليب دوق أورليان، أو تاليران، أو ميترنيخ، أو جرتان Grattan أو مدام دي ستيل أو بايرون أو توماس مور، أو أكثر من الهويج (الأحرار) نبالة – شارلز جيمس فوكس(٥٢). ولم يكن في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر صالوناً يضارع صالون هولاند.

٧- المسرح الإنجليزي

أضف إلى كل هذه الحياة المتعددة الأوجه، عشق الإنجليز للمسرح ولا يزالون مولعين به حتى اليوم. وكان الوضع كما هو عليه الآن حيث كان الناس ينظرون للمسرحية من خلال ممثليها ولا يعبأون كثيرا بمؤلفي هذه المسرحيات. ويبدو أن المؤلفين المسرحيين خشوا أن يكتبوا التراجيديات مخافة أن يبدوا قليلي الشأن في نظر الناس الذين سيعقدون بينهم وبين شيكسبير مقارنة لن تكون في صالحهم، وبعد ذروة شريدان Sheridan وجولد سمث Goldsmith كانت الكوميديات (الملهاة) تمثل أعمالاً لا بقاء لها مثل (الطريق إلى رون Ruin) (١٧٩٢) التي ألفها توماس هولكروفت Holcroft و (تعاهد العشاق) (١٧٩٨) التي ألفتها إليزابث إنشبالد Inchbald، فمثل تلك الأعمال تشبثت بالاتجاه الضعيف ولعبت

على أوتار سهولة الانقياد إلى الإثم مداعبة بذلك الطبقة الوسطى، وأين هذا من فكاهة شكسبير المنطوية على معان فلسفية، والأثر الرجولي الذي تحدثه مسرحيات بن جونسون في المشاهدين؟ ولم يبق في عالم المسرح من ظل متبوئاً مكانه سوى الممثلين.

لقد بدا الممثلون - من النظرة الأولى - وكأنهم جميعاً من أسرة (واحدة) من روجر كمبل Roger Kemble الذي توفي في سنة ١٨٠٢ إلى هنري كمبل الذي توفي سنة ١٩٠٧، وروجر كمبل أنجب سارة كمبل (التي أصبحت مدام سيدونز Siddons) وجون فيليب كمبل الذي انضم لفرقة دروري لين Drury Lane وفي سنة ١٧٨٣ وأصبح مديراً للفرقة في سنة ١٧٨٨، وستيفن كمبل الذي أدار مسرح أدنبرة من سنة ١٧٩٢ إلى سنة ١٨٠٠.

وُلدت سارة في سنة ١٧٥٥ في فندق شولدر أف متون في بريكون Brecon، وفي ويلز في أثناء جولة فرقة أبيها. وأُسند إليها دور بمجرد أن أصبحت قادرة على التمثيل، وأصبحت ممثلة موسمية وهي في العاشرة من عمرها. وقد دبرت أمرها لتحصل على قسط غير قليل من التعليم في أثناء حياتها غير المستقرة هذه، فأصبحت امرأة ذات نضج أنثوي، وذات عقل واع مثقف، واحتفظت بجاذبيتها دوما، وتزوجت وهي في الثامنة عشر من عمرها وليم سيدونز Siddons أصغر أعضاء فرقتها. وبعد ذلك بعامين أرسل جارك Garrick - بعد أن سمع بنجاحاتها - وكيلا عنه لمراقبة أدائها التمثيلي، فكتب تقريرا لصالحها فعرض عليها جارك الارتباط بفرقة دروري لين Drury Lane فظهرت هناك في دور بورتيا Portia في ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥. ولم تؤد الدور جيدا لسببين أحدهما عصبيتها وربما كان ثانيهما أنها كانت قد وضعت مولوداً منذ فترة وجيزة. لقد كانت نحيلة طويلة رزينة ذات ملامح كلاسية وكان صوتها ملائماً للمسارح الصغيرة، إذ كانت تفشل في مواءمة صوتها مع المسارح الواسعة. وبعد موسم غير ناجح عادت إلى جولاتها في المنطقة (المقاطعة) وظلت طوال سبع سنوات تعمل صابرة على الرقي بفنها. وفي سنة ١٧٨٢ حثها شريدان - الذي خلف جارّك كمدير للفرقة - على العودة إلى لندن. وفي ١٠ أكتوبر ١٧٨٢ أخذت دور البطولة في مسرحية (الزواج القدري) لتوماس سوثرن Southerne فأدت دورها بإتقان تام

حتى إنها أصبحت منذ هذه الأمسية تسير بخطى حثيثة لتصبح أفضل ممثلة مأساة (تراجيدية) في التاريخ البريطاني . وظلت طوال واحد وعشرين عاما تحكم دروري لين، وأصبحت لعشر سنوات بعدها ملكة كوفنت جاردن Covent Garden بلا منازع . وأدت دور الليدي مكبث بإتقان صبّت فيه كل خبراتها المسرحية . وعندما اعتزلت خشبة المسرح في ٢٩ يونيو ١٨١٢ وهي في السابعة والخمسين من عمرهابعد أن أدّت هذا الدور (الليدي مكبث) تأثر جمهور المسرح تأثراً شديداً بأدائها لمشهد (السير نائما) حتى أنه فضّل أن يظل يصفق لها على متابعة العرض المسرحي [٥٣] . وظلت طوال تسعة عشر عاماً بعد ذلك تعيش في عزلة هادئة، وقطعت ألسن مروجي الشائعات في المدينة، بوفائها لزوجها . وفاز جينسبورو Gainsborough برسم صورة لها لازالت حتى اليوم في المتحف الوطني للصور الشخصية .

وكان أخوها جون فيليب كمبل الذي وُلد مثلها في إحدى فنادق (خانات) الأقاليم، قد نذر والداه ليكون قساً كاثوليكياً وربما كان هذا (النذر) تمشياً مع الفكر الشعبي الذي مؤداه أن وجود أحد أفراد الأسرة في المؤسسة الدينية قد يضمن الفردوس لسائر أفراد الأسرة، فأرسله والداه إلى دواي Douai ليدرس في كليتها الكاثوليكية فتلقى هناك قدراً طيباً من التعليم الكلاسي كما اكتسب الرزانة والوقار اللذين مازا بعد ذلك كل أدواره تقريباً، وظل مفتوناً في طوايا نفسه بمهنة والده (التمثيل) فغادر وهو في الثامنة عشرة من عمره دواي Douai وعاد إلى إنجلترا . وبعد عودته بعام انضم لفرقة مسرحية، وبحلول عام ١٧٨١ كان يؤدي دور هاملت في دبلن، وانضمت إليه أخته سارة لفترة ثم ألحقته معها في فرقة دروري لين [٥٤] Drury Lane فكان ظهوره للمرة الأولى على هذا المسرح كظهوره في هاملت (١٧٨٣) مصحوباً بنجاح متواضع . لقد وجده جمهور لندن رزينا رزانة شديدة لا تتفق مع الدور وأدانه النقاد لأنه عدّل في نص شكسبير واختصره . وعلى أية حال فإنه عندما انضم إلى مدام سيدونز Siddons في مكبث (١٧٨٥) كان أداؤهما رائعاً حتى إنه أصبح حدثا مهما في تاريخ المسرح الإنجليزي .

وفي سنة ١٧٨٨ عيَّن شريدان – الذين كان في ذلك الوقت هو المالك الرئيسي لمسرح

دروري لين – كمبل مديرا للفرقة، فواصل القيام بأدوار البطولة لكن الممثل الحساس لم يكن مرتاحا بسبب تحكمات شريديان وبسبب قلة العائد المالي. وفي سنة ١٨٠٣ قبل إدارة مسرح كوفنت جاردن واشترى سدس الأسهم في هذا المسرح بمبلغ ٢٣,٠٠٠ جنيه إسترليني، وفي سنة ١٨٠٨ احترق المبنى، وبعد فترة بطالة سببت له خسائر جسيمة أخذ كمبل على عاتقه إدارة المسرح بعد أن يعيد بناءه. ولكنه عندما حاول أن يوازن التكاليف الهائلة غير المتوقعة للمبنى الجديد برفع أسعار دخول المسرح أوقف الجمهور عرضه التالي بصياحهم محتجين «عُد إلى الأسعار القديمة» ولم يسمح له الجمهور بالاستمرار في عروضه حتى يعد بذلك(٥٥). وأنقذ دوق نورثمبر لاند Northumberland الفرقة بمنحة مقدارها ١٠,٠٠٠ جنيه إسترليني وواصل كمبل كفاحه لكن ظهر ممثلون شبان مثلوا تحدياً له. وكان آخر نجاحاته في (كوريولاموس Coriolamus) عندما هز الجمهور المسرح تصفيقاً لفرط إعجابه، وكان هو الجمهور نفسه الذي سبق أن صاح في وجهه محتجاً في سنة ١٨٠٩. واعتزل كمبل المسرح البريطاني مسلّماً تاجه لإدموند كين Kean واختفى الأسلوب الكلاسي في التمثيل من إنجلترا باعتزاله، تماما كما اختفى في فرنسا بانتهاء دور صديقه تالما Talma، وانتصرت الحركة الرومانسية في المسرح كما انتصرت في الرسم والموسيقا والشعر والنثر.

تضم حياة كين Kean بين جنباتها كل التقلبات التي حاقت بمهنته شديدة الحساسية – بما فيها من ملهاة ومأساة. وُلد في حي الفقراء بلندن في سنة ١٧٨٧ نتيجة لقاء في نزهة ليلية بين آرون Aaron (أو إدموند Edmund) كين Kean وهو عامل (فرّاش) في مسرح وآن كاري Ann Carey التي كانت تكسب مالاً قليلاً من المسرح والشارع، وقد طرده أبواه في طفولته الباكرة فرباه عمه موسى كين المغني المشهور، وتولته على نحو خاص خليلة موسى واسمها شارلوت تدسويل Tidswell وهي ممثلة قليلة الشأن في مسرح الدروري لين. لقد دربته على الفن المسرحي والخدع المسرحية، وحثه موسى على دراسة الأدوار الشكسبيرية، فتعلم الفتى يجلب إليه النظارة بدءاً من الأكروبات (الألعاب البهلوانية) وإصدار الأصوات من بطنه (دون تحريك شفتيه) والملاكمة إلى هاملت وماكبث. لكنه كان متمردا في

أعماقه، ففر مراراً، وأخيراً وضعت شارلوت الطوق المقيّد للكلب حول عنقه ونقشت عليه «مسرح دروري لين» (المقصد ضبطته وربطته بهذا المسرح) لكنه نزع الطوق وهو في الخامسة عشرة من عمره، وشرد وراح يعمل ممثلاً بشكل مستقل يؤدي أي دور، مقابل ١٥ شلناً في الأسبوع.

وظل طوال عشر سنين يعيش حياة قلقة غير مستقرة ممثلاً جوالاً، يكاد يكون معدما محترقاً في كل الأوقات، لكنه كان واثقاً تماما من أنه يستطيع ان يبز الجميع على خشبة المسرح. وسرعان ما عكف على الكحول لينسى تعبه وعذابه وليغذي أحلامه وتمنياته بأن يكون نبيل الأصل، وليتصور انتصاراته المرتقبة. وفي سنة ١٨٠٨ تزوج ماري شامبرز زميلته في إحدى الفرق التي كان يعمل بها، فأنجبت له ولدين والتصقت به لم تفارقه في أثناء كل استبعاده لنفسه أمام الويسكي (الخمور) والنساء. وأخيرا بعد سنوات عديدة قضاها وهو يمثل الأدوار الشكسبيرية، ويحاكي الشمبانزي الذكي تلقى دعوة من مسرح دروري لين ليقوم بدور تجريبي (ممثل تحت الاختبار).

وقد اختار دور شيلوك Shylock الصعب ليؤديه في أول صعود له على خشبة الدروري لين في ٢٦ يناير ١٨١٤. لقد صَبّ في هذا الدور بعض الإهانات التي تلقاها في هذه الحياة. فعندما قال شيلوك – باحتقار وسخرية – لتاجر البندقية المسيحي الذي طلب منه قرضاً:

– ألدى الكلب مال؟ محال

– ألخسيس يستطيع أن يقرضك ثلاثة آلاف دوكة؟

لقد بدا أن كين قد تقمّص تماماً شخصية شيلوك ونسي أنه شخص آخر. لقد وضعت العواطف والمشاعر والانفعالات التي صبّها في دوره هذا نهاية للحقبة الكلاسية لفن التمثيل الإنجليزي (مع أن الدور الذي أدّاه كادت كلماته لا تتجاوز السطرين، وهكذا بدأت على مسارح لندن حقبة جديدة في التمثيل قوامها المشاعر والخيال والرومانسية. وبالتدريج راح جمهور المسرح يتفاعل مع هذا الممثل غير المعروف. لقد بدا المتحمسون له في البداية فرادى متشككين، لكن الجمهور سرعان ما تفاعل معه لفرط تفاعله واستغراقه في دوره. وسارع

وليم هازلت Hazlitt أبرع النقاد في عصره بكتابة عرض تحمس فيه كثيرا لهذا الممثل، واندفع كين عائدا إلى أسرته فعانق زوجته قائلا لها: «الآن يا ماري ستركبين مركبتك الأنيقة» وعانق ابنه قائلا: «يا ابني سوف تدرس في إيتون Eton».

وامتلأ المسرح عند عرض مسرحية تاجر البندقية التي كان يؤدي كين فيها دوره للمرة الثانية (في العرض الثاني) وبعد العرض الثالث قدم صامويل (صموئيل) هويتبيرد Whitebeard له عقداً للعمل في هذا المسرح لمدة ثلاث سنوات مقابل ثمانية جنيهات أسبوعياً فوقعه كين، لكن هويتبيرد غيرّه بعد التوقيع فجعل الجنيهات الثمانية، عشرين جنيها مع أن كين كان قد وافق على الثمانية. وأتى وقت دُعي فيه كين لأداء دور لليلة واحدة بخمسين جنيها. لقد أدى تقريباً كل الأدوار المشهورة في مسرحيات شكسبير – هاملت، ريتشارد الثالث، ريتشارد الثاني، هنري الخامس، ماكبث، أوثيلو[*] Othello، ياجو Iago، روميو. وقد نجح في كل هذه الأدوار باستثناء الأخير (روميو).

وعندما حان الوقت ليرى الممثلين الشبان ينتظرون بتوق ليحلوا محله، بدّد عوائده المالية في الشراب، وراح يرضي نفسه بما يتلقاه من حب شديد من مرتادي الحانات التي يرتادها وانضم إلى حركة سرية «لإدانة كل اللوردات وذوي المكانة» ونجح في إقامة علاقة آثمة مع زوجة أحد أعضاء المجلس التشريعي بالمدينة(١٨٤٢)[٥٦] وعمل على استعادة مكانته في المسرح، لكن ذاكرته لم تعد قوية كما كانت فَصَعُب عليه حفظ أدواره فقد كان ينسى السطور الموكل به أداؤها. لقد حدث هذا أكثر من مرة. ومع أن الجمهور كان معجباً به إعجاباً شديداً، إلاّ أنه عندما قصَّر لم يرحمه وصبّ عليه الإهانات صباً، وسأله لم يُغرق في الشراب دون اهتمام أو حذر؟ فغادر إنجلترا، وقام برحلة في أمريكا أدى فيها أدواراً تمثيلية فحقق انتصاراً في فنه وكوّن ثروة بدلاً من التي بددها، وبدّد الثروة الجديدة التي حققها، وعاد إلى لندن ووافق على القيام بتمثيل دور أوثيلو Othello أمام ابنه الذي كان عليه القيام بدور ياجو Iago على مسرح كوفنت جاردن Covent Garden (١٨٣٣) وصفق الجمهور لياجو، واستقبلوا أوثيلو صامتين. وكان هذا شديد الوقع على كين الذي لم يلق التصفيق

---

* ترجمت إلى العربية باسم «عُطيل» – المراجع –.

الكافي، فانهارت قواه وأصبح على شفا الانهيار وبعد أن نطق بعبارة «وداعا، لقد انتهت مهمة أوثيلو» سقط بين ذراعي ابنه وهمس له: «إنني أحتضر يا شارلز تحدّث لهم نيابة عني»[٥٧] فحملوه إلى بيته لترعاه زوجته التي كان قد هجرها ذات مرة، وبعد شهرين مات في ١٥ مايو ١٨٣٣ ولم يتجاوز السادسة والأربعين. لقد اختطف الموت أعظم الممثلين في التاريخ الإنجليزي – باستثناء جارِك – وهو في منتصف العمر.

٨- خلاصة

الحق أن الحياة في إنجلترا كانت ناشطة مثمرة، والحق أيضاً أن الصورة لم تكن خالية من عيوب كثيرة، وهذا أمر طبيعي في الحياة. لقد اختفى صغار ملاك الأراضي من الطبقة الوسطى، وتعرضت البروليتاريا للاستعباد وخرّب القمار بيوتاً ودمّر ثروات، وكانت الحكومة قائمة على الامتيازات الطبقية، وكان هذا أمراً معلناً واضحاً، وكانت قلة قليلة من الرجال هي التي تشرّع لرجال آخرين ولكل النساء، ومع هذا ففي وسط الأخطاء والجرائم، كان العلم يتطوّر، وكانت الفلسفة تترعرع، وكان كونستابل يستوحي مناظر الريف الإنجليزي، وكان تيرنر Turner يقيّد الشمس ويثبّت العاصفة (المقصود يرسمهما) وكان وردزورث وكولردج وبايرون وشيلي يقدمون لإنجلترا مهرجاناً من الشعر لا نظير له في أي مكان منذ إليزابث الأولى. وكان التمرد والاضطراب كقشرة خارجية إذ كان النظام والاستقرار هما العصب الأصيل الذي أتاح كثيرا من الحريات لم تكن متاحة في أي دولة أوروبية أخرى خلا فرنسا التي كان الإفراط في الحرية فيها مؤديا إلى الانتحار. لقد كانت حرية الحركة والانتقال والسفن مكفولة بغير قيود إلا في أوقات الحروب، وكانت حرية العبادة مكفولة فيما عدا التجديف على الله، وكانت حرية الصحافة مكفولة أيضاً فيما عدا الخيانة العظمى، وكانت حرية الرأي مكفولة فيما عدا الدفاع عن الثورة والتمرد فهذا على وفق لكل الشواهد والسوابق سيؤدي إلى عقد أو أكثر من الخطر حيث يختفي الأمن ومن الفوضى حيث يختفي القانون.

ولم يكن الرأى العام راقياً جدا فقد كان يتمسك بالمحاذير taboos البالية وغالبا ما كان

يدافع عن القديم لكن كانت لديه الشجاعة لإطلاق أصوات الازدراء نقداً لأمير منحط، واستحساناً لموقف زوجته التي طردها بقسوة[٥٨]، وعبّر الرأي العام عن نفسه أيضاً في مئات التجمعات والجمعيات التي وقفت نفسها لأغراض التعليم والعلم والفلسفة والإصلاح. وكان الرأي العام يظهر واضحاً في القضايا الحرجة إذ يعبّر الناس عن آرائهم في اجتماعات عامة، ويمارسون حق تقديم العرائض (الاحتجاجات) الذي كفله القانون الإنجليزي، فالإنجليز الصبورون لا يعمدون إلى المقاومة إلاّ كحل أخير إزاء هذه الدولة الأوليجاركية. لقد حدث أكثر من مرة أن قام تمرّد ناجح (حقق غرضه) في شوارع القرى والمدن. لقد كانت الحكومة أرستقراطية ومع ارستقراطيتها فقد كان أقل ما تتصف به هو أنها مهذبة فهذبت العادات وتصدّت للمستحدثات الضارة، وحافظت على الذوق السليم في الآداب والفنون وحمته من البربرية، كما تصدت للخرافات، وأيدت العديد من القضايا الطيبة (الصالحة) ولم تترك شعراءها الكبار نهباً لمجاعة. حقيقة لقد مر بها في بعض الأحيان ملك مجنون، لكن الحكومة كانت تُغل يده، ليظل ملكا محبوبا يمثل رمزاً للوحدة الوطنية ومحورا لكبرياء الأمة وحماسها ولم يجد الإنجليز معنى في قتل مليون شخص لعزل ملك له كل هذه الفائدة كرأس للتشريفات. فبعد انحراف لمرة أو مرتين يعود الإنجليزي إلى طبيعته غير مُصر على أن ماسح الأحذية والبويرن «البارون الصغير» (البارونت) لهما الحقوق نفسها في اقتراح بنود قانون الأراضي. وقد ذكرت مدام دي ستيل أن «الإبداع في إنجلترا مُتاح للأفراد، ومن هناك كان يمكن تنظيم الجموع»[٥٩]. إن النظام الهيراركي في إنجلترا – حيث لكل طبقة مكانتها فوق الأخرى – هو الذي سمح بانتشار الحرية.

دعونا الآن نرى كيف تفاعل الفن والعلم والفلسفة، ونظام الحكم حتى تكتمل صورة الحياة في إنجلترا في سنة ١٨٠٠. إننا سنعرض لذلك في الفصول التالية بقدر جهدنا.

الفنون في إنجلترا

١- الفنانون

كانت كلمةُ (فن) تُطلق في العصور الوسطى (أيام نظام الطوائف التجارية والصناعيَّة) على أيِّ حرفة، كما كانت كلمة (فنّان) تطلق على أيٍّ حرفي وقد تغير معنى الكلمتين في القرن الثامن عشر لأن الحرف ونظام الطوائف الحرفية قد حل محلهما صناعات وعمال صناعة، لقد أصبحت كلمة (فن) تطلق على الموسيقا والديكور وأعمال السيراميك (الخزف) والرسم والحفر والتصوير والنحت والعمارة، وأصبحت كلمة فنان تطلق على كل من يمارس واحداً أو أكثر من هذه الأعمال. وقد تغير أيضا معنى كلمة العبقرية أو النبوغ genius، فقد كانت تعنى شيئا من التميُّز الفطري، أو روحا متفوقة بشكل غير طبيعي، أما الآن فقد أصبحت بشكل متزايد تشير إلى القدرة الوطنية الفائقة أو المتعالية (والمتَّسمة بشيء من الغموض بمعنى أن أسبابها غير واضحةً تماما) أو يوصف بها مالكو هذه المقدرة. إنها كالمعجزة أو لنقل هبة من الله أو هي فعل من أفعاله. لقد أصبحت هذه الكلمة (العبقرية) أو (النبوغ) بديلا مناسبا لوصف (شخص) أو (حدث) متفرّد أو غير عادي

لقد أدَّى الانتقال إلى الصناعة (الحديثة) والتجارة وحياة المدن إلى مزيد من التدهور فيما يتعلق برعاية الأرستقراطية للفن. وعلى أية حال لابدلنا أن نذكر رعاية الأثرياء للشاعر وردزورث والشاعر كولردج، وأن لورد إجر يمونت فتح بيته المحاط بمزرعة، في بتورث Petworth للرسّام تيرنرTurner ليلجأ إليه هروبا من ضوضاء لندن. وكان جورج الثالث قد عاون في تأسيس أكاديميةالفنون الملكية (١٧٦٨) بخمسة آلاف جنيه ومقار (جمع مقر) أنيقة في دار سوميرست. ولم يكن أعضاؤها الأربعون ليصبحوا خالدين بمجرد عضويتهم بها كنظرائهم الفرنسيين وإنما كان الواحد منهم يرقى إلى مرتبة النبالة (الأرستقراطية) بحصوله على لقب اسكوير (معناها الحرفي حامل الدروع Squire أو المبجّل المحترم) ورغم أن هذا اللقب لم يكن يرثه أبناؤهم، فقد ساعد على تحسين الوضع الاجتماعي للفنانين

الكبار في بريطانيا ونظمت الأكاديمية فصولا لتعليم التشريح والرسم والتصوير والنحت والعمارة. ومن الطبيعي أن تصبح قلعةً للتراث والتقاليد والوقار مادام يدعمها عرش محافظ. وقد عارضها الفنانون المجددون الذين كثر عددهم وحازوا الإعجاب حتى إن بعض النبلاء والماليين موَّلوهم لتأسيس المعهد البريطاني لتطوير الفنون الجميلة الذي أقام معارض دورية وحصل على جوائز وأصبح منافسا - بشكل حيوي - للأكاديمية الملكية. وأدت هذه النافسة إلى ظهور أعمال ممتازة في مختلف مجالات الفنون في بريطانيا.

عفواً، لقد كانت الموسيقا مستثناةً من هذا، ففي هذه الفترة لم تظهر أعمال موسيقية خالدة. وكان الإنجليز على وعي شديد بهذا النقص، وتجلّى هذا في تقديرهم الوافر للمؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يأتون إليهم من القارة الأوروبية. لقد احتفوا بهايدن Haydn احتفاءً حارا في سنة ١٧٩٠ وفي سنة ١٧٩٤. وتمّ تأسيس الجمعية الملكية لعشاق الموسيقا في سنة ١٨١٣ وظلت باقية بعد الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وبعد النابوليونيْن، وبعد قيام حربين عالميتين، ولازالت موجودة كعنصر دوام واستمرارفي فيض غير متقطع. وانتعشت الفنون الصغرى دون أن يكون لها خصائص خاصة. لقد واصل الإنجليز إنتاجهم للأثاث الأنيق - رغم صرامته، وأشغال المعادن المتسمة بالقوة والجمال وأعمال السيراميك (الخزف) البديعة تماما. وقد طوع بنيامين سمث Smith الحديد فشكل منه شمعدانا ذا شعب لتقدمه مدينة لندن لدوق ولنجتون[١]. أما جون فلاكسمان فبالإضافة إلى قيامه بتصميمات كلاسيّة لمصنع ودجوود Wedgwood للفخار فإنه صمَّم كأس الطرف الأغرّ الشهير لتخليد ذكرى انتصار نلسون[٢]، وكان نحّاتا ومعماريا في آن عندما أقام النصب التذكاري لنلسون في كنيسة القديس بول.

وعلى أية حال فإن فن النحت أوشك أن يكون من الفنون الصغرى في إنجلترا، وربما كان هذا لأن فن النحت يفضِّل العري غير الملائم للمناخ أو للأخلاق السائدة. وفي سنة ١٨٠١ - بينما كان توماس بروس إيرل إلجن Elgin السابع، مبعوثاً لبريطانيا لدى الباب العالي (الدولة العثمانية) طلب من السلطات التركية (العثمانية) في أثينا السماح له بأن ينقل من الأكروبولس «أية أحجار عليها نقوش قديمة أورسوم»، وقد وجّه طلبه هذا باعتباره

لوردا، وبالفعل نقل اللورد الإفريز الضخم للبارثينون (معبدا إغريقي) وكثيرا من التماثيل النصفية في سفينة إثر سفينة إلى إنجلترا في الفترة من ١٨٠٣ إلى ١٨١٢ . وقد وصفه بايورن وآخرون – احتجاجا على هذا العمل – بأنه وندالي سلاب، لكن لجنة برلمانية برأته، وبيعت « رخامات إلجن » بمبلغ ٣٥,٠٠٠ جنيه إسترليني دفعها الشعب البريطاني وتم إيداعها في المتحف البريطاني « والمبلغ الذي دفعته الحكومة للورد إلجن كان أقل بكثير مما دفعه هو للحصول عليها[٣] » .

٢ – النَّحت:

لقد أسهمت هذه الرخامات (المقصود الأعمال النحتية التي جلبها من اليونان اللورد إلجن والآنف ذكرها) في دعم الاتجاه الكلاسي، في مواجهة الاتجاه القوطي، وأنهى الصراع بينهما لصالح الاتجاه الأول في مضمار الأساليب المعمارية. لقد أدت آلاف الأعمدة – من الطراز الاغريقي : الدوري Doric أو الأيوني Ionic أو الكورنثي – إلى تحدي جهود الهواة مثل والبول Walpole وبكفورد Beckford لإعادة الأقواس المستدقة (التي تنتهي من الجانبين بنقطة واحدة Poited arches) والشرفات أوالأسوار المفرجة (ذات الفرج أسوة بأسوار قلاع العصور الوسطى حيث كانت هذه الفرج تستخدم لإطلاق السهام وغيرها على العدو) . تلك الشرفات والفرج التي كانت عزيزة على فرسان العصور الوسطى وقديسيها . وحتى في المباني المدنيّة (غير الدينية) ربحت الأعمدة الجولة، فدار سومرست للسير وليم شامبرز(١٧٧٥وما بعدها) كانت مثل باراثون واسع، وكان الكثير من بيوت الريف يبدو كالأروقة الإغريقية المعمّدة (ذات الأعمدة) التي تحيط بقصر روماني، ولندع قصر حديقة أشردج Ashridge Parkmansian لجيمس ويات Wyatt (١٨٠٦ – ١٨١٣) يعطينا مثالا راسخا على هذا النوع. وفي سنة ١٧٩٢ بدأ من سيعرف باسم السير جون سون Soane وهو ابن أحد البنائين بالآجر – بدأ في إعادة بناء بنك إنجلترا خلف رواق كورنثي (على النسق الإغريقي الكورنثي) مازجاً بين قوس قسطنطين ومعبد الشمس أو القمر. وبدأت المنافسة القوطية بمبني هوراس ولبول Horace Walpole لستروبري هل Strawberry Hill (١٧٤٨ –

١٧٧٣) ولم تستطع (أي هذه المنافسة القوطية) أن تصمد في وجه طوفان الأعمدة والقباب والقواصر (جمع قوصرة وهي مثلث في أعلى واجهة المبنى) . وكان وليم بكفورد W. Beckford هو البطل الرومانسي لهذه النشوة الوسيطة (نشوة العصور الوسطى) لقد ولد ثرياً، فقد شغل أبوه منصب رئيس بلدية لندن لمرتين وتلقى تعليما مكثفا؛ تلقى دراسات في البيانو من الشاب موزارت وتدريبات معمارية على يد سير وليم شامبرز ومدرس التاريخ من خلال جولات واسعة زار خلالها المتاحف والمواقع الأثرية . وفي لوزان اشترى مكتبة إدوارد جيبون Gibbon، وبعد إشاعات جنسية مخزية تزوج الليدي مارجرت جوردون التي ماتت في أثناء الولادة . وفي هذه الأثناء كتب رواية (فاثك Vathek) التي تعد أقوى الروايات التي استوحت أحداثها من أساطير الشرق، والتي كان لها فضل كبير على الحركة الرومانسية وقد نشرت بالإنجليزية والفرنسية (١٧٨٦ - ١٧٨٧) وأثنى عليها اللورد بايرون ثناءً عاطرا . وبدأ في سنة ١٧٩٦ بمعاونة ويات Wyatt وبكفورد في تشييد مبنى على الطراز القوطي (على شكل كنيسة) في مزرعته في ولشير Wilshire، وملأه بالقطع الفنية والكتب وعاش فيها حياة النساك في الفترة من ١٨٠٧ إلى ١٨٢٢ ثم باعها، وتبين أن بالمبنى عيوبا في الأساسات والتصميم أدى إلى انهياره . ومات في باث Bath في سنة ١٨٤٤ وهو في الخامسة والثمانين من عمره . وقد رسم له جون هوبنر Hoppner صورة شخصية أظهر فيها حبّه له (رسمها حوالي سنة ١٨٠٠) . والصورة تنطق بروحه الشاعرة وإنسانيته وتأمله الباطني .

وقد أضاف جون ناش Nash إلى العمارة البريطانية المتجهّمة لمسةً من مرح الروكوكو (لمسة من الزخارف ذات الطابع المرح) وأتى ول Well وأعقبه همفري ربتون Repton ليقوم بدور بستاني فصمم القصور والمباني الواقعة في المزارع الريفية واضعاً في اعتباره توزيع الأكواخ والعرائش والزرائب على الطراز الفرنسي والهندي والصيني . وقد أمتعت هذه التصميمات النبلاء الذين كانوا قد برموا بحياتهم، وأفراد الطبقة العليا . وأصبح ناش Nash ثريا ورعاه الأمير السَّخيُّ . وفي سنة ١٨١١ عهد إليه إعادة تشييد ميل من شارع الوصي على العرش (ريجنت ستريت .Regent st بدءا من دار كارلتون ثم في قوس كبير (شامل)

إلى المناطق الريفية. ونوع ناش في خطوط مشروعه مستخدما الأهلة والشرفات جاعلاً مساحات مكشوفة من الحشائش والأشجار بين مجموعات المباني واستخدم الأعمدة ذوات الطرز الأيونية لاضفاء البهجة على قوس الطريق (في وقت لاحق تم تدمير معظم هذا العمل للسماح بمزيد من المباني على حساب الحشائش والأشجار)، لقد كان مشروعا عبقريا في تخطيط المدن لكن تكاليفه صدمت الشعب الذي كان صابراً على الجوع أملاً في إلحاق الهزيمة بنابليون.

ومع هذا فإن الوصي على العرش كان مبتهجاً بعمل ناش فعهد إليه بتجديد الجناح الملكي في بريتون Brighton الذي كان مكاناً أثيرا للأمير وأصدقائه، فأنجز ناش العمل فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢٣ بتكلفة بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لقد أعاد بناء الجناح على الطراز الهندي الإسلامي بمآذن ذات اليمين وأخرى ذات الشمال. ومبان أخرى ذوات قباب وكانت صالة المآدب ذات سقف محدّب وزخارف صينية، وبها ثريات على هيئة اللوتس والتنين، وتكلّفت هذه الصالة ٤,٢٩٠ جنيها إسترلينيا(٤). وكان الانطباع الأول الذي يأخذه المرء عند رؤيتها هو الفخافة الغريبة، وكان الحكم النهائي عليها أنها عمل مسرف سواء في النفقات أم في الزينات والزخارف.

وفي سنة ١٨٢٠ أصبح الوصي على العرش ملكا. إنه جورج الرابع. وسرعان ما عهد هذا الملك الجديد إلى ناش إعادة بناء دار بكنجهام لتكون قصرا ملكيا. ووسط هذا الفقر والاقتراب من الإفلاس الذي أعقب الانتصار على نابليون، راح ناش يعمل حتى مات الملك المبذّر (١٨٣٠) فاستدعت الحكومة ناش ذلك المعماري الوافر الإنتاج ليوضح لها ما صرفه ويفسّر بعض الأخطاء التي نسبت إليه. قلما كانت إنجلترا في مثل هذا السناء العظيم أو البؤس الشديد.

٣- من الكارتون إلى كونستابل

كان على آلاف الفنانين البريطانيين – طوال عشرين عاما من الحروب – أن يكافحوا لإطعام أسرهم وتحقيق أحلامهم. ولم يكن أسوأهم حالا من حيث العائد المالي والشهرة

رسامو الكاريكاتير الذين ملأوا الصحف برسومهم عن الأحداث الجارية. وكان نابليون هو الموضوع الأثير لدى هؤلاء العباقرة الشياطين. فقد راحوا يهجون كل يوم هذا «الضئيل الحجم ناتئ العظام» أو هذا «الخلاسي المولّد» كما كانت تسميه صحيفة المورننج بوست[٥] Morning Post ويخزونه لإضعاف جهوده الحربية والحط من كبريائه كإمبراطور. وكان أعظم هؤلاء الرسامين الكاريكاتيريين الذين ظلوا يخزون نابليون وخزا مؤلما هو توماس رولاندسون (١٧٥٦ - ١٨٢٧) الذي ولد لأب تاجر غني مولع بالمضاربة شجعه تشجيعا كبيرا لتنمية مواهبه في الرسم، وبعد أن درس في الأكاديمية الملكيه قيد نفسه في أكاديمية باريس وعاد إلى إنجلترا فحازت رسومه الإعجاب، وفجأة اعتراه الفقر بسبب خسائر أبيه في القمار، وأقيل من عثرته عندما أرسلت له إحدى قريباته (aunt) الفرنسيات ٣٥,٠٠٠ جنيه إسترليني. وكان متحررا في هجاء ما في عصره من سخافات ورياء. لقد رسم كاريكاتيرات عن دوقة تقبل يد جزار طمعاً في صوته الانتخابي، وشخصا سمينا يتلقى خنزيرا كضريبة عشر من فلاح على وشك الموت جوعا، ومجموعة من ضباط البحرية تصطاد البغايا من الشاطئ. وواصل رسم صور مركبة وشاملة: حدائق فوكسهول، مباهج باث Bath، وسلسلة رسوم مرحة صاخبة حققت شهرة على مستوى بريطانيا - رحلات الدكتور سينتاكس Syntax. وأدى غضبه من السياسيين والمهرجين (الصخابين) والأغبياء إلى رسم رسوم كاريكاتيرية فيها مبالغة شديدة، لكنها كانت مبالغة يمكن غفرانها. وكثير من رسومه تحتاج إلى تنقيتها مما فيها من بذاءات، وقد فقد هجاؤه (البحث عن المثالب) كل تعاطف. وإنجازه الفني الأخير ينضح احتقارا للجنس البشري كما لو أن البشرية لم تشهد أما عطوفا ولا رجلاً كريما.

وكانت رسوم جيمس جيلراي Gillray (١٧٥٧ - ١٨١٥) الكاريكاتيرية أكثر شعبية، فكان الناس يتزاحمون على محلات بيع الكتب للحصول على الطبعات الأولى لرسومه[٦]. وقد درس جيمس جيلراي - مثل رولاندسون - في الأكاديمية الملكية وأصبح فناناً مصقولا خصب الخيال وإن كانت خطوطه صارمة. وكاد يضع كل فنه في خدمة الحرب: لقد صور نابليون كقزم وصور جوزفين كامرأة بذيئة، ورسم فوكس وشريديان وهورن توك Tooke

(مؤيّدي الثورة الفرنسية) ينتظرون في نادي لندن حضور الجنرال الثوري المنتصر. وقد انتشرت رسومه الهجائية ذات الأفكار البسيطة والخطوط المصقولة في مختلف أنحاء أوربا وأسهمت في خلع نابليون من فوق عرشه[٧]. وقد مات قبل معركة واترلو بسبعة عشر يوما.

وشهد هذا الجيل كثيرا من الحفارين (النقاشين على الأخشاب أو المعادن) لكن أعمال وليم بليك Blake كانت هي الأكثر خلودا. لقد طور لنفسه طريقة خاصة في الحفر، بل إنه حاول أن يحل الحفر محل الطباعة، بحفر نصوص إلى جوارها رسومها التوضيحة على ألواح نحاسية، لكن قلمه سبق حفره، إذ راح يعبر عن نفسه في خاتمة المطاف بالشعر. وكان متمردا لأنه امتعض من فقره ويرجع هذا إلى كون الأكاديمية رفضت الاعتراف بالحفارين كفنانين ورفضت أن يقدموا أعمالهم في معارضها. ولأنه كان يرفض بشدة وصاياها بضرورة الالتزام بقواعد معينة وبالتقاليد الفنية التي فرضتها. لقد صرح في نحو سنة ١٨٠٨ بأن القضية في إنجلترا ليست مسألة رجل موهوب وعبقري، وإنما لا بد أن يكون خاضعا مشتغلا بالسياسة وثورا قويا ، ومطيعا لأوامر النبلاء فيما ينتجه من فن ، فإن كان كذلك فهو رجل طيب، والإ فعليه أن يموت جوعاً[٨]. وكان بالفعل قد اقترب من الموت جوعا في أوقات عدة لأنه لم يكن يتلقى سوى أجر زهيد لرسوم وأعمال حفر قدر ثمنها في لندن في سنة ١٩١٨ بمبلغ ١١٠,٠٠٠ دولار، ومكنته أعمال الحفر على المعادن التي قام بها لسفر أيوب والتي بلغت ٢٢ لوحة، من العيش بما مقداره جنيهان في الأسبوع في الفترة من ١٨٢٣ إلى ١٨٢٥، وقد بيعت هذه اللوحات في سنة ١٩٠٧ إلى ج. بيربونت مورجان J . Pierpont Morgan بمبلغ ٥,٦٠٠ جنيه إسترليني وهذه اللوحات التي حفرها لسفر أيوب من بين أجمل أعمال الحفر في التاريخ[٩]. وكان بليك Blake في موقف عوان بين البيوريتانية (التطهرية – مذهب ديني مسيحي متشدد – وإنكار المسيحية)، كما كان في موقف عوان بين الكلاسية والرومانسية، وكان مفتونا بمجموعة تماثيل ميشيل أنجلو (ميكل أنجلو) والرسوم التي رسمها على سقف الكنيسة وأحسّ أيضا ببهاء الجسم الإنساني السليم ورمزله بتجسيد بارز (١٧٨٠) في عمل جعل عنوانه « يوم سعيد » بشاب يرتدي ملابس شفافة

يعرف الحيوية المنضبطة، ولم يكن للجنس (العلاقة بين الرجل والمرأة سوى مكان متواضع في أعماله) فقد كانت زوجته مطيعة متعاونة محبة فجعلت الإخلاص لها ممكنا، وكانت خطوطه في البداية كلاسية صارمة يجعل الخط أهم من اللون والشكل أهم من الصورة الذهبية، لكنه كان كلما تقدمت به السنون وازداد حبه للعهد القديم (الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين)، ترك قلمه يجول في شخوص خيالية يغمرها بالملابس الكاسية، ووجوه تعبر عن ألغاز الحياة وغموضها[١٠].

وفي أعوامه الأخيرة حفر سبع لوحات لطبعة من طبعات دانتي وحفر وهو على فراش الموت (١٨٢٧) لوحة أخرى للرب يخلق العالم في قديم الزمان. ومن خلال خياله الراقي وتصوراته لما فوق الطبيعة، وكذلك من خلال دقة خيوطه وبراعتها، أصبح – طوال جيل بعد موته – السلف المعلن لمدرسة ما قبل الرافائيلية. وسنلتقي به مرة أخرى في هذه الصفحات.

لقد كان السؤال الحيوي بين الرسامين (وهو سؤال ينطوي أحياناً على طلب الخبز والزبد) هو: إلى أي مدى هم متوافقون مع نصيحة الأكاديمية وذوقها؟ لقد كان بعض أساتذة هذه الأكاديمية يوافقون موافقة تنطوي على التشجيع على الموضوعات التاريخية باعتبارها تذكر بالشخصيات المشهورة في الأحداث الخالدة. وكان أساتذة آخرون يمتدحون رسم الشخصيات باعتباره فناً يسبر أغوار الشخصية، وباعتباره فنا يسعد المشاهير الراغبين في تخليد أنفسهم في صور زيتية. وكان عدد قليل جدا من أساتذة الأكاديمية يهتم بالرسوم التي تصور مشاهد من الحياة اليومية لأنها تبدو عامية، أو بتعبير آخر فيها ريح العامة. وكانت رسوم المناظر الريفية تحظى بأدنى موافقة. لقد كان على كونستابل أن يظل يعمل فاقد الأمل في رسم لوحات فن الريف وهو خامل الذكر، ولم تمنحه الأكاديمية عضويتها الكاملة إلا وهو في الثالثة والخمسين.

وفي سنة ١٧٩٢ مات السير جوشوا رينولدز Joshua Reynolds فاختارت الأكاديمية رئيساً لها أمريكياً مقيماً في إنجلترا إقامة دائمة. إنه بنيامين وست West الذي ولد في سبرنجفيلد في بنسلفانيا من سنة ١٧٣٨. وقد أظهر في شبابه موهبة فنية عظيمة حتى إن جيرانه الكرماء أرسلوه للدراسة في فيلا دلفيا وبعد ذلك إلى إيطاليا. وبعد أن تشرب التراث

الكلاسي هناك في الصالات الفنية والمتاحف والمواقع الأثرية انتقل إلى لندن (١٧٦٣) حيث رسم بعض الصور الشخصية التي جلبت له الأموال، وأعجبت جورج الثالث، فتقدم بعدها لتناول الموضوعات التاريخية. لقد صُدمت الأكاديمية بلوحته (موت ولف Wolfe) الذي انتزع كندا من مونتكالم Montcalm وفرنسا – صُدمت لأنه صور شخوصا معاصرة بملابس حديثة، لكن كبار السن ذكروا أن نصف قارة أوربا تنحني احتراما للسراويل (البنطلونات).

وثمة أمريكي آخر هو جون سنجلتون كوبلي Copley ولد بالقرب من بوسطن في سنة ١٧٣٨ حقق شهرة برسمه جون هانوك، وصامويل آدمز وأسرة كوبلي. وفي سنة١٧٧٥ انتقل إلى لندن وسرعان ما وصل إلى الذروة بلوحته (موت شاثام) (١٧٧٩) . وليهرب من مثالية الكلاسية الجديدة في رسم الشخوص التاريخية رسم المشهد بواقعية شجاعة، أحدثت – رغم أنها أزعجت الأكاديمية – ثورة في فن الرسم الإنجليزي.

واستمر التعليم في الأكاديمية على أكتاف جوهان هينريتش فوسلي Fussli (من زيورخ) الذي أصبح اسمه في سنة ١٧٦٤ هنري فوسيلي اللندني (من لندن) وكان وقتها في الثالثة والعشرين من عمره. وبتشجيع من رينولدز غادر إنجلترا في سنة ١٧٧٠ ليدرس لمدة ثماني سنوات في إيطاليا. وكان نزوعه إلى التحليق الخيالي ذي الطابع الهرطقي غير متفق تماما مع النماذج والأساليب الكلاسية، وعندما عاد إلى لندن أيقظ الجمال النائم بلوحته « الكابوس » (١٧٨١) التي صور فيها امرأة جميلة تحلم باقتراب عفريت مرعب منها. (ارتبطت هذه اللوحة بدراسة لسيجموند فرويد)، ورغم اتجاهه الساخر أصبح (فوسيلي) أستاذا في الأكاديمية ويسرت محاضراته فيها الانتقال من الرومانسية إلى ما قبل الرافيئيلية (اتجاه فني إنجليزي ذو طابع صوفي).

وقد وضحت أحوال جون هوبنر Hoppner (١٧٥٨ – ١٨١٠) وجون كروم Crome (١٧٦٨ – ١٨٢١) صعوبة حصول الفنانين على مايمكنهم من العيش برسم الطبيعة، فهوبنر عانى شظف العيش كعاشق للمناظر الطبيعية لكن أحواله انتعشت كرسام للصور الشخصية، وكاد ينافس لورنس في زبائنه وأجره. لقد جلس نلسون أمامه وكذلك فعل

ولنجتون و والترسكوت وعدد من اللوردات. وقصرُ القديس جيمس غني بلوحات هوبنر، وظل كروم Crome في مسقط رأسه نورتش Norwich طوال ثلاثة وخمسين عاما هي كل عمره، ودرس صورهوبيما Hobbema وغيره من الرسامين الهولنديين الكبار وتعلم أن يجعل المشاهد البسيطة المألوفة في حياة العامة سائغة، ولأنه كان ملازما لبلدته لايكاد يفارقها فقد بحث عن موضوعات للوحاته في المناطق الريفية المحيطة بنوروتش Norwich. لقد وجد هناك منظرا سجله في إحدى أجمل لوحاته (مرج موسهولد). لقد كانت هذه اللوحة ذروة فنية بالإضافة لما تنطوي عليه من معادن فلسفية ليس هناك ما هو أرقى منها.

أما السير توماس لورنس (١٧٦٩ - ١٨٣٠) فاتخذ طريق رسم الصور الشخصية (البورتريهات) وهو طريق معترف به ولا يحتاج إلى مقاومة. وكان السير توماس ابنا لصاحب فندق، ولم يتلق قدرا كبيرا من التعليم ولم يتلق إلا قدرا قليلا من التدريب الفني. وكان لابد أن تحار الأكاديمية عندما لاحظ أساتذتها أنه نجح في الالتزام بما يريدون. لقد كان لديه حاسة التقاط الشبه بسرعة، وبسرعة كان يرسمه - في صباه في بريستول كان يرسمه بقلمه الرصاص، وفي شبابه في باث Bath كان يرسمه بالألوان البستل Pastel ولم يستخدم الألوان الزيتية إلا عندما انتقل إلى لندن (١٧٨٦) وربما كانت جاذبيته وروحه المرحة هما اللذين فتحا له القلوب والأبواب. وقد كلف وهو لم يتجاوز العشرين بالذهاب إلى وندسور لرسم صورة شخصية للأميرة شارلوت سوفيا Charlotte Sophia. وتصرف بدبلوماسية شديدة انطبعت على لوحته (ذلك لأن الأميرة لم تكن جميلة) وأدت به دبلوماسيته هذه إلى أن انتخب عضوامشاركا في الأكاديمية وهو في الثانية والعشرين، ومنح العضوية الكاملة فيها وهو في الخامسة والعشرين. وتنافس ذوو الحيثيات على الجلوس أمامه لرسمهم، ورفض نصيحة كرومويل Cromwell برسم البقع والبثور والتجاعيد كما يرسم الخال والغمازة (المقصود أن يرسم مظاهر القبح ومظاهر الجمال فيمن يرسمهم) ورفض لورنس الأخذ بهذه النصيحة فليس في البثور ذهب (المقصود أن ذلك قد لايرضي من يرسمه فلا يدفع له مالاً كثيرا). لقد كان يحسن من ملامح من يرسمه، ولم يكن المرسوم ليعترض على ذلك. فإذا كانت المرأة أو الفتاة التي يصورها يعوزها الجمال، عمد إلى رسمها بملابس رقيقة شفافة

جميلة، ورسم يديها جميلتين دقيقتين، وجعل عينيها فاتنتين، وجعلها في وضع (بوز Pose) درامي (مثير) . وتعد لوحته (بورتريهه) للوصي على العرش التي أظهره فيها وسيما جميلا نموذجا نمطيا للوحاته . وقد رسم هذه اللوحة الآنف ذكرها في سنة ١٨١٥ . وفي بعض الأحيان كان يضفي شيئا من الغرابة الباعثة على السعادة في صوره كما في صورته (Pinkie) في جلري (رواق) هنتجتون Huntington Gallery، لكن لوحاته التي رسم فيها الرجال كانت تفتقد الطبيعة القوية التي نجدها في رسوم رينولدز Reynolds. لقد كسب لورنس الكثير وأنفق الكثير وأصبح محبوب عصره . وعندما مات حفه موكب جنائزي فخم إلى مثواه الأخير في كنيسة القديس بول . وأصر جون كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) على رسم المناظر الطبيعة، ولم يتزوج حتى الأربعين . وكان والده هو طحان miller سوسكس Sussex، وقد قدم الدعم المالي لابنه لدراسة الفن في لندن لمدة عامين عندما لمس مواهبه، لكن تطور جون كان بطيئا،فعاد في سنة ١٧٩٧ إلى سوسكس ليعمل في طاحونة أبيه، وظل يواصل الرسم في أوقات فراغه، وأرسل بعض أعماله إلى الأكاديمية فأتاحت له فرصة الالتحاق بمدرستها، فعاد إلى لندن في سنة ١٧٩٩ بموافقة أبيه بتشجيع من بنيامين ويست West، ورسم له ريتشارد ريناجل Reinagle - وهو فنان زميل له - صورة شخصية في العام نفسه .

وربما قرأ أشعار وردزورث عن المناظر حول بحيرة وندرمير، لأنه كان يرى الله في كل ورقة شجر . وفي سنة ١٨٠٦ قام برحلة في أنحاء منطقة (دائرة) البحيرة فدرس الجبال يحتضنها الهضاب، والحقول تهطل عليها الأمطار الهادئة، وعاد إلى لندن وقد قوي عزمه على وقف فنه للطبيعة .

لقد قال عن لوحته التي عالج فيها الطبيعة إنه يأمل « أن يخلّد لحظة قصيرة أمسك بها من زمن سريع الزوال ليجعل لها وجودا دائماً رزينا[١١] » وفي هذه الأثناء كان يتلقى تكليفات عرضية مكنته من تدبير أمر طعامه وسكناه . وأخيرا في سنة ١٨١١ رسم لوحته العظيمة التي حازت الإعجاب - وادي ددهام Dedham Vale وهي بانوراما(مشهد عام) لإسكس Essex في شمس منتصف النهار .

وفي ذلك العام فيما يبدووقع في حب ماريابكل Maria Bickell التي رحبت باهتمامه

بها لكن أباها منعها كي لاتنحط بقبول شخص ذى دخل منحط مثل كونستابل، ولم تكن تنقضي خمس سنوات حتى مات والده فأورثه دخلا ثابتا فعاود التقدم لطلب ماريا فوافق أبوها فانطلق كونستابل بعروسه واحتفى بها برسم صورة (بورتريه) لها لا زالت تزين جدار تيت جلري (رواق تيت Tate Gallery) وبعد ذلك راح يرسم أجمل لوحات المناظر الطبيعية، التي لم تكن إنجلترا قد شهدت مثيلا لجمالها قبله. لم تكن لوحاته مثيرة مدهشة كلوحات تيرنر Turner لكنها كانت تحتفي بأدق التفاصيل حتى ورقة الشجرة كما كانت تركز على الهدوء والسلام والثروة الخضراء في الريف الانجليزي. وفي هذه الفترة السعيدة قدم للأكاديمية (طاحونة فلا تفورد Flatford Mill (١٨١٧) والحصان الأبيض (١٨١٩) والهاي وين Hay Wain (١٨٢١) وكاتدرائية سالسبوري (١٨٢٣) وحقول القمح (١٨٢٦) وكانت كل لوحة من هذه اللوحات حدثا فنيا وحازت الإعجاب وكثيرا من الإطراء.

وفي سنة ١٨٢٤ قدم الهاي وين (اسم لعربة تجرها الخيول) لتعرض في صالون باريس، وفي ١٨٢٥ عرض (الحصان الأبيض) في ليل Lille وفازت كلتا اللوحتين بالميدالية الذهبية واحتفى الفرنسيون بكونستابل كأستاذ في فنه. وأحست أكاديمية لندن بتقصيرها في حقه فمنحته أخيرا عضويتها الكاملة (١٨٢٩).

لقد أتى التكريم متأخراً فلم يكن له عنده معنى كبير، لأن زوجته ماتت في هذا العام نفسه بالسل الذي تفاقم ربما بسبب تلوث جو لندن بالسخام. وواصل كونستابل رسم المناظر مثل (مزرعة الوادي) و (جسر واترلو) لكن تكاد تكون كل أعماله الأخيرة تعكس ما يتحمله من أحزان، إذ ظل يلبس ملابس الحداد حتى موته المفاجئ.

٤ - تيرنر ١٧٧٥ - ١٨٥١

كان چوزيف وليم تيرنر معتزاً بنفسه وباسمه ولم يسمح أبداً لنقد معاد أوحب عنيف محطم بتعويق مسيرته نحو التفوق المطلق في مجاله. ولد في ٢٣ أبريل سنة ١٧٧٥، وربما شارك شكسبير في يوم الميلاد وكذلك الشهر. وكان أبوه صاحب محل حلاقة في ميدن لين

Maiden Lane خلف الكوفنت جاردن Covent Garden، وهو مكان لايكاد يكون ملائما لفنان المناظر (الطبيعة)، فعلى وفق لكاتب سيرة ذاتية متقدم زمنا[١٢] كانت ميدن لين منطقة كئيبة مسواة بالطين، مزدحمة تعج بصيحات البائعين. وكان بالقرب من محل الحلاقة خان يغني المترددون عليه بأصوات منكرة. أضف إلى هذا أن أخت وليم سرعان ما ماتت وأصبحت أمها مجنونة لكن الطبيعة والظروف عوضا الصبي شيئا ما فجعلته قوي البدن حديد الإرادة، واقعي العقل، لا تهتز ثقته بنفسه فاستعان بهذا كله ليقاوم طوال ست وسبعين سنة الأزمات والنكبات والنقاد والجراثيم.

ورأى فيه والده علامات الموهبة، كما رأى أن مكانه ليس في ميدن لين، فأرسله وهو في العاشرة ليعيش مع عمه، وليلتحق بالمدرسة في برنتوود في مدلسكس Middlesex. وفي غضون عامين رسم الصبي لوحات فنية حتى إن والده الفخور علق بعضها في محل الحلاقة وعلق بعضها الآخر حول المحل، وعرضها للبيع. وذكر رجل دين كان يحلق عند أبيه بعض هذه اللوحات بخير عند صديق له في الأكاديمية، وسرعان ما أجري له اختبار في الأكاديمية فاجتازه بنجاح فقبل طالبا في مدرستها وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد ذلك بعام سمح له بعرض لوحات بالألوان المائية في معرض الأكاديمية.

وفيما بين عام ١٧٨٩ و ١٧٩٢ كان يقضي فترة الإجازة متجولا في الريف ومعه دفتر الرسم (دفتر الإسكتشات). لقد ذهب بعيدا حتى أكسفورد وبريستول وويلز، ولازالت هذه الاسكتشات الشائقة التي سجل فيها الأرض والشمس والبحر موجودة في المتحف البريطاني. وكان يبيع رسومه وهو في التاسعة عشرة من عمره للمجلات، وفي الحادية والعشرين بدأ يعرض لوحاته الزيتية في الأكاديمية، وفي الرابعة والعشرين تم اختياره عضوا مشاركا، وفي السابعة والعشرين أصبح عضوا كامل العضوية (في الأكاديمية) وبعد أن أصبح مستقلا من الناحية المالية بفضل ما باعه من لوحات افتتح في سنة ١٨٠٠ مرسماً «ستوديو» واسعا في ٦٤ شارع هرلي Hurly وأتى أبوه ليعيش معه كمساعد وممثل تجاري له. وكان هذا الحب المتبادل بين الوالد وابنه متمشيا مع عزوف الفنان الابن عن الزواج، فلم يكن جذابا من الناحية البدنية ولم يكن مليح الوجه، وكان ذا طباع فيها القليل من

الجاذبية. لقد كان رجلا منشغلا ظل نحو نصف قرن يسيطر على الفن في إنجلترا ويسوده بأعماله الرائعة الكثيرة.

وعمد كتاب السير إلى تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل لتيسير دراستها ومحاولة فهمها. المرحلة الأولى (١٧٨٧ – ١٨٢٠) كان يميل فيها إلى الموضوعات التاريخية لكنه حولها إلى دراسات للشمس والبحر. وفي سنة ١٧٩٩ كان من بين الرسامين الأربعة الذين احتفوا في معرض الأكاديمية بانتصار نلسون وتحطيم أسطول نابليون في (أبوقير)، وفي سنة ١٨٠٢ قام بأول رحلة له خارج بلاده، وعندما اقتربت السفينة التي تقله من كاليه Calais ارتفعت الأمواج عالية وهبت العاصفة الشديدة، فدبر تيرنر وبعض الركاب أمر الوصول إلى الشاطئ بقارب تجديف، وتناول – على الشاطئ – كراسة الرسم (الاسكتشات) وراح يخطط المنظر المعقد لسفينة تناضل ضد العاصفة، وبعد ذلك بعام عرض في لندن لوحته القماشية الضخمة (رصيف كاليه Calais Pier) قدم فيها تفاعله مع مناظر السحب السوداء والبحار الغاضبة والرجال الشجعان ومن فرنسا أسرع إلى سويسرا ليرسم ٤٠٠ لوحة للجبال وهي تتحدى السماء بشموخها. لقد أصبحت رسومه (إسكتشاته) كذاكرة ثانية له.

وعندما عاد إلى لندن وجد النقاد الأكاديميين يشكون من أنه وضع ألوانه ثقيلة وباضطراب وبشكل طائش وخلطها بشكل ينافي كل السوابق المعقولة، ذلك أن طريقته تجاهلت التعاليم التي علمها الراحل سير جوشوا رينولدز للأساتذة Masters القدامى الذين خلفوه كما تتجاهل القواعد التقليدية المرعية.

وقد احترم تيرنر ذكرى الدكتاتور الرفيق (المقصود رينولدز) ولكنه أطاع ما تمليه عليه شخصيته. ومن الآن فصاعدا أصبح هو أوضح الأصوات المعبرة عن الثورة الرومانسية في مواجهة الموضوعات القديمة والقواعد العتيقة، والمحاكاة الحرفية للواقع والالتزام بما هو معتاد مما يخنق التجربة ويقيد الخيال. وقد واجه ناقديه بعرض لوحة (سفينة جانحة أوجنوح سفينة) في الاستوديو الخاص به في سنة ١٨٠٤ وكانت اللوحة توضّح قسوة الطبيعة وهيمنتها على الإنسان. وحظيت اللوحة بالإعجاب، وبعد ذلك بعام أحبه البريطانيون كثيرا لاحتفائه بانتصار نلسون في معركة الطرف الأغر.

لقد كانت لوحته فوضى من السفن والرجال والعناصر الأخرى لكن هكذا تكون المعارك .
ومع هذا فقد أحس النقاد إزاءها بالارتباك :

«لقد كان كل ما يستخدمه تيرنر هو الألوان، وليس هناك خط واحد، وحتى الألوان بدت وكأنما رشرشها دون أن يقصد تكوين شكل محدد، بل وجعلها موضوعا في حد ذاتها . لقد كانت القصور والصروح والمباني والبشر في لوحاته (المرسومة على كانافاه) بقعاً غير محددة ونقطا تشير إلى المعنى كما لو كان الفنان قد سلم بعجز الإنسان في مواجهة الطبيعة الساخطة . وهذا لايمنع من وجود استثناءات مبهجة كما في لوحة « الشمس تشرق من خلال الضباب » (١٨٠٧) لكن في لوحته هانيبال يعبر الألب (١٨١٢) نجد كل معاني البطولة البشرية يضيع وسط السحب السوداء والصفراء التي تمثل دوامة فوق جنود يرتعدون خوفا . أكان هذا الفنان الجامح عدوا للجنس البشري؟ .

لقد واصل تيرنر منهجه مُعْملاً فرشاته بقوة وحيوية عازما فيما يظهر على محق الحياة والبشر من فوق الأرض، مُخلياً إياها إلا من الشمس والسحب والجبال والبحار الهائجة . لكنه لم يكن عدوا للبشرية تماما فقد كان قادرا على تكوين علاقات دافئة وطور صداقات هادئة مع السير توماس لورنس المناقض له في أسلوبه الفني وفي نظرياته الفنية . ولم يكن تيرنر يعترف بأية نبالة سوى نبالة العبقرية، وكان مخدوعا شيئا ما من العوام، وكان يحب عمله وخصوصيته، وكان يشعر – مثل ليوناردو Leonardo – «أنه إذا كنت متفردا كلية فستكون كلية نفسك أي خير معبر عن نفسك» ولم يكن له عقيدة إيمانية يمكن التأكد منها فيما يتعلق بأي وجود فوق الطبيعة (غيبي)، فقد كان إلهه هو الطبيعة وقد وجه إليها نوعاً من العبادة خاصا به – عبادة ليست من نوع عبادة وردزودث الذي بحث في حكمتها وجمالها، وإنما راح تيرنر يركز على بقائها وإلحاحها وسطوتها، وكان يعلم أنها ستغمره أيضاً وستغمر الإنسان في زمنها الشرس المروع . ولم يزعج نفسه كثيرا بشأن الأخلاق . لقد كان لديه خليلة أو خليلتان، وجعلهما – بشكل رقيق – مقتصرتين عليه، ورسم بعض الصور الزيتية العارية ذات طابع جنس فتم تدميرها ذات مرة عندما وقعا في يد رسكين Ruskin وكان يحب المال ويتقاضى أثمانا باهظة وخلف ثروة . لقد كان ألماسا خاما

- سوليتير - .

وبدأ في المرحلة الثانية (١٨٢٠ - ١٨٣٣) رحلة إلى إيطاليا بحثا عن دفء الشمس، وخلال هذه الرحلة التي استغرقت ستة أشهر رسم خمسة عشر إسكتشا، وبعد عودته إلى إنجلترا حول بعضها إلى لوحات حاول فيها استخدام أساليب جديدة في اللون والضوء والظلال مثل (خليج بايبي) « ١٨٢٣ » جعل كل شيء فيها ينطق - حتى الظل. ومرة أخرى في فرنسا استخدم الألوان المائية في رسم نهر السين وجعله يتألق منيرا. في ١٨٢٥ - ١٨٢٦ تجول في بلجيكا وهولندا وأحضر إلى بلاده إسكتشات حول بعضها إلى لوحات مثل (كولوني Cologne) و (ديبي Dieppe) وهي الآن في مجموعة الفريك Frick في نيويورك. وفي سني الثلاثين من هذا القرن كان بين الحين والحين ينعم بضيافة اللورد إجريمونت Egermont في بتورث Petworth وكان كعادته ينشغل بعمله لكنه أعطى لمضيفه لحظة خالدة بلوحته (البحيرة عند الغروب)

وفي مرحلته الأخيرة (١٨٣٤ - ١٨٤٥) راح يستسلم أكثر فأكثر لإغراء الضوء، فغالبا ما كانت تختفي في لوحاته الأشياء فلا يتبقى إلا دراسة فاتنة للألوان والتألق والظلال، وفي بعض الأحيان كان يترك الأشياء تلعب دورا أساسيا كما في لوحته (Fighting temeraire towed to her Last berth) (١٨٣٩) أو لوحته (المطر والبخار والسرعة) (١٨٤٤) التي تمثل إعلانا حركيا فخورا لقرن من الخيول الحديدية. وعندما احترق مبنى البرلمان في سنة ١٨٣٤ جلس تيرنر بالقرب منه يرسم إسكتشات لآخر لوحاته عن هذا المشهد. وعندما كان يعبر من هاروتش Harwich تعرضت السفينة لريح مجنونة وهطل عليها الجليد فاندفع الفنان الهرم نحو الدقل وظل عنده طوال أربع ساعات حتى يحفر في ذاكرته تفاصيل المشهد وما فيه من رعب(١٣) ورسمه بعد ذلك مستخدما اللون الأبيض بكثرة في لوحته «عاصفة ثلجية» (١٨٤٢)، وفي سنة ١٨٤٣ حقق نصره الأخير بلوحته (شمس البندقية تتجه للبحر).

واسودت سنوات عمره الأخيرة بذروة الإجماع على إدانته، وإن خفف وطأة ذلك عنه ما كاله له سيد النثر الإنجليزي من مديح. لقد انتقد أحد النقاد لوحة (العاصفة الثلجية)

باعتبارها مجرد رغاوى صابون ودهان أبيض[١٤] ولخص آخر أعمال الفنان في حقبته الأخيرة بأنها نتاج « عين مريضة ويد طائشة » واقترح « شرابا مخلصا من عناصر شتى » كعنوان عام لأي لوحة من لوحات تيرنر (إعصار استوائي) يضرب (برياح سمومه) (دوامة) محدثا (اضطرابا عظيما) و (سفينة تحترق) وقت (الكسوف)، وتأثير (قوس قزح القمري)[١٥] - لقد بدت الأعمال الكاملة لهذا الفنان الكبير المتألق بعد نصف قرن من العمل - حقيرة مرفوضة في نظر أصحاب الاتجاه المحافظ.

وفي مايو ١٨٤٣ أصدر جون رسكن Ruskin وكان في الرابعة والعشرين المجلد الأول من كتابه (رسامون معاصرون)، ألح فيه بحماس على تفوق تيرنر على كل رسامي المناظر المحدثين، والحيوية البالغة التي عبر فيها تيرنر عن العالم (الوجود) الخارجي (خارج ذاته) حتى إنها تعد أفضل تقرير عن هذا العالم (الوجود)، ووجد تيرنر نفسه في درجة أعلى من كلود لورين Claude Laurain الذي كان يستلهم رسومه من مطلع شبابه، ولم يكن هذا غريبا بالنسبة إليه، لكنه كلما واصل قراءة كتاب رسكين راح يتساءل: ألن يضره هذا المديح المبالغ فيه؟ لقد أضره فعلا ولكن لفترة. لقد راح النقاد يثنون على كتاب رسكين Ruskin لكنهم راحوا يناقشون أحكامه طالبين حكما أكثر توازنا، ولم يتقيد رسكين بهذا النقد فراح يكرر في مجلد إثر مجلد دفاعه عن تيرنر وتمجيده له حتى كاد يخصص لتيرنر ثلث كتابه ذى الألفي صفحة. وأخيرا كسب معركته وعاش حتى رأى فنانه المحبوب وقد اعترف به الجميع كواحد من أعظم المبدعين في الفن الحديث.

وفي هذه الأثناء مات تيرنر (٢٩ ديسمبر ١٨٥١) وتم دفنه في مقبرة كنيسة القديس بول، وكان قد أوصى بأن تكون أعماله الفنية للأمة - ٣٠٠ سكتش، ٣٠٠ لوحة بالألوان المائية، ١٩,٠٠٠ تخطيط (رسوم تخطيطية) وترك ١٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لإنفاقها على الفنانين الفقراء (حصل أقرباؤه الأحياء بعد موته على قرار ببطلان الوصية وقسموا الأموال بين أنفسهم ومحاميهم) وربما كان أعظم تراثه هو اكتشافه للضوئية (نزعة في التصوير الحديث)، وفي هذا الجيل نفسه صاغ توماس يونغ Young نظريته عن الأمواج الضوئية، لقد نشرتيرنر عبر أوروبا رسومه التي طبق فيها هذا الأسلوب (الضوئي) وكذلك لوحاته بالألوان

المائية، معلنا أن الضوء هو (موضوع) للرسم كما أنه (وسيلة) للرسام أو (وسط) يرسم فيه الأشياء، وبالتالي فهو يستحق أن يمثل بأشكاله المختلفة وألوانه وتشكيلاته وتأثيراته. تلك هي الانطباعية impressionism ظهرت على يد تيرنر قبل ظهور الانطباعيين Impressionists. وربما كان مانت Manet وبيسارو Pissarro قد رأوا بعض أعمال تيرنر التي استخدم فيها هذا الأسلوب عند زيارتهم للندن في سنة ١٨٧٠[١٦]. وبعد ذلك بسبع سنين أرسل ديجاس Degas، ومونت (مونيه) Monet وبيسارو، ورينوار Renoir، خطاباً إلى تاجرأعمال فنية، ذكروا فيه أنه في دراساتهم « للظاهرة الهائمة للضوء » لم ينسوا أنه « قد سبقهم في هذا الاتجاه أستاذ عظيم لمدرسة فنية إنجليزية – إنه الفنان الشهير – تيرنر »[١٧].

الفصل الثامن عشر

العلم في إنجلترا

١- سُبُل التقدم:

لقد كانت إنجلترا تقود النَّقلة من الزراعة إلى الصناعة، وكان طبيعيا أن تشجع تلك العلوم التي تقدم إمكانات عملية، تاركة الدراسات النظرية للفرنسيين، وكان من المتوقع أن يكون فلاسفتها في هذه الفترة – بورك Burke ومالتوس وجودوين Godwin وبنثام Bentham وبين Paine – رجال دُنيا يواجهون المشاكل أو القضايا الحية، والأخلاقية والدينية والسكانية والحكومية والثورية، تاركين للفلاسفة الألمان التحليق في أجواء المنطق والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والدراسات الفلسفية لتطور العقل (فينومينو لوجيا العقل). وقد أعلنت «جمعية لندن الملكية لزيادة المعلومات في مجال العلوم الطبيعية Natural» عند تشكيلها في سنة ١٦٦٠ أنها تعمل على تأسيس كلية «لتحسين التعليم التجريبي الفيزيائي الرياضي». لكنها لم تصبح كلية بمعنى أنها لم تصبح مؤسسة أو منظمة لتخريج معلمي الشباب في المرحلة الثانوية وإنما تطورت لتصبح ناديا مقتصراً على خمسة وخمسين عالما، يجتمعون بشكل دوري للتشاور وتكوين مكتبة تضم كتب العلوم والفلسفة ويقدمون للجمهور المهتم المحاضرات والتجارب، ويقدمون الأوسمة لذوي الإسهامات العلمية، وينشرون في المناسبات مطبوعا بعنوان «المدونات الفلسفية Philosophical transactions». وكانت الفلسفة لاتزال تضم العلم بين جنبيها وقد تبرعمت العلوم وانبثقت منها علماً في إثر علم نتيجة إحلال الصياغات الكمية والتجارب اليقينية محل المنطق والنظر المجرد. ونظمت الجمعية الملكية – بدعم حكومي عادة – مشروعات ومهام علمية. وفي سنة ١٧٨٠ خصصت الحكومة لها مقراً أنيقا في دار سومرست Somerest House ظلت به حتى سنة ١٨٥٧ حيث انتقلت إلى مقرها الحالي في دار بيرلنجتون Burlington House في بيكادلي Piccadilly وأنفق السير جوزيف بانكس Banks – رئيسها في الفترة من ١٧٧٨ إلى ١٨٢٠ – كثيرا من أمواله للارتقاء بالعلم ورعاية العلماء. وكانت

مؤسسة لندن الملكية – الأقل شهرة من الجمعية الملكية، وإن كانت أهدافها أكثر وضوحا من حيث كونها مؤسسة تهتم بالتعليم – قد أسسها الكونت رمفورد Rumford في سنة ١٨٠٠ «لتوجيه الاكتشافات الجديدة في مجال العلوم لخدمة الفنون والصناعات، وذلك عن طريق تقديم دراسات نظامية – محاضرات فلسفية وتجارب (معملية أوميدانية) » وأتاحت مبنى شاسعاً في شارع البمارل Albemarle لتقديم برامجها التعليمية فألقى فيه جون دلتون Dalton وسير همفري ديفي Davy محاضرات في الكيمياء، وتوماس يونغ Young محاضرات في الطبيعة nature وانتشار الضوء، وكولردج Coleridge محاضرات في الفكر والأدب وسير إدوين لاندسير Edwin Landseer محاضرات في الفنون . . . وكانت هناك جمعيات أكثر تخصصا كجمعيات الشلالات التي اندمجت في سنة ١٨٠٢ في جمعية للنبات، والجمعية الجغرافية (١٨٠٧) وسرعان ما ظهرت بعد ذلك جمعية لعلم الحيوان وأخرى للبساتين وثالثة للكيمياء الحيوية ورابعة للفلك، وأسست مانشستر وبرمنجهام جمعياتها « الفلسفية »(*) رغبة منها في تطبيق العلم على صناعاتها، وأقامت بريستول معهد دراسة الغازات، وتم تكوين أكاديميات لشرح العلوم وتبسيطها للجمهور العام. وقدم ميشيل فاراداي Michael Faraday في إحدى هذه الأكاديميات وهو في الخامسة والعشرين من عمره سلسلة محاضرات أسهمت طوال نصف قرن في حفز البحوث في مجال الكهرباء. وقد ألقى ميشيل محاضراته هذه سنة ١٨١٦ ، وبشكل عام، ففي التعليم العلمي، كان مجتمع رجال الأعمال في طليعة الجامعات كما جرى كثير من التقدم العلمي في مجال العلوم على أيدي أفراد مستقلين (غير تابعين لمؤسسات علمية أو تعليمية) يدعمهم أو يمولهم أصدقاؤهم. لقد تخلى البريطانيون عن الرياضيات للفرنسيين، وراح العلم البريطاني يركز على الفلك والجيولوجيا والجغرافيا والفيزياء والكيمياء.

لقد اهتم التاج البريطاني بعلم الفلك ووضعه تحت حمايته وقدم لبحوثه الإعانات المالية، لأنه علم حيوي للملاحة ويساعد في السيطرة على البحار. واعترف بمرصد جرينوتش Greenwich بما فيه من أدق المعدات التي أمكن شراؤها بالأموال التي أقر البرلمان صرفها –

* المقصود العلمية لأن مصطلح الفلسفة حتى هذه الفترة كان يضم العلوم المختلفة بين جنبيه (المترجم)

بأنه على قمة المراصد الأخرى. ونشر جيمس هتون Hutton سنة ١٧٩٥ قبل موته بغامين مبحثه «نظرية الأرض» وهو مبحث جيولوجي كلاسي: يلخص الحياة العامة لكوكبنا من خلال عمليات دورية يقوم المطر في كل دور منها بجرف سطح الأرض فتنشأ الأنهار نتيجة التّحات الذي تسببه الأمطار أو تحمل الأنهار بدورها نتيجة التّحات إلى البحر، وتتبخر المياه والرطوبة من فوق سطح الأرض فتصير سحابا، وبتكثف المياه في السحب تنزل مرة أخرى مطرا... وعند الطرف الآخر لهذا العصر (١٨١٥) حقق وليم سمث W. Smith – الملقب بستراتا شمث أو سمث طبقات جيولوجية Strata Smith – شهرة لبحثه المركز الذي لا يزيد عن خمس عشرة صفحة والذي يحمل عنوان «خريطة جيولوجية لإنجلترا وويلز» ويظهر هذا البحث أن طبقات جيولوجية تتجه تدريجيا نحو الشرق صاعدة حتى تصل في النهاية إلى سطح الأرض، وتقدم لنا في أثناء اتجاهها الصاعد أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة كما تظهر في المتحجرات الحيوانية والنباتية في العصور الجيولوجية المختلفة، وقد قدمت له الحكومة البريطانية راتبا سنويا مقداره مائة جنيه إسترليني مدى الحياة بدءا من عام ١٨٣١ مكافأة له لكشفه عن أسرار باطن الأرض، وتوفي وليم سميث سنة ١٨٣٩.

واستمر الملاحون البريطانيون في شرح زوايا الأرض والبحر وشقوقها. وفيما بين عامي ١٧٩١ و ١٧٩٤ رسم جورج فانكوفر G. Vancouver خريطة لسواحل أستراليا ونيو زيلندا وهاواي والباسيفيكي شمال غرب أمريكا، وهناك دار مبحرا حول الجزيرة الفاتنة التي تحمل اسمه.

٢ – الفيزياء: رمفورد، ويونج

من الصعب أن تحدد جنسية بنيامين طومسون Thompson الذي ولد سنة ١٧٥٣ وأقام في أمريكا وحصل على رتبة فارس في إنجلترا وأصبح هو الكونت رمفورد Rumford في بارفاريا ومات في فرنسا سنة ١٨١٤. واتخذ جانب بريطانيا في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية وانتقل إلى لندن في سنة ١٧٧٦. وأعادته بريطانيا كوزير في مستعمرة جورجيا، وقد امتد اهتمامه ليشمل العلوم إلى جانب اهتمامه السياسي وقام بأبحاث علمية ضمنت له زمالة الجمعية الملكية. وفي سنة ١٧٨٤ دخل – بإذن من الحكومة البريطانية – في خدمة

بافاريا التي كان يحكمها الأمير مكسيميليان جوزيف – Maxi milian Joseph وفي غضون الأحد عشر عاما التي قضاها وزيراً للحرب والشرطة في بافاريا أعاد تنظيم الجيش وحسن أحوال الطبقة العاملة وقضى على التسول ومع هذا فقد وجد لديه من الوقت لكتابة أبحاث لدورية الجمعية الملكية «المدونة الفلسفية»(*) وقد جعله مكسمليان – اعترافاً منه بفضله – كونت الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٧٩١)، ويظن أن لقبه هو اسم مكان ميلاد زوجته (الآن كونكورد) في ماساشوستس . وفي غضون عام قضاه في بريطانيا (١٧٩٥) عمل على تنظيم وسائل التدفئة والطهي بقصد تخفيف حدة التلوث في الهواء، وبعد عام آخر قضاه في الخدمة في بافاريا عاد إلى إنجلترا وأسس مع السير جوزيف بانكس Banks المؤسسة الملكية Royal Institution ، وأسس نظام تكريم العلماء المعروف باسم وسام رمفورد الذي تمنحه الجمعية الملكية وكان هو نفسه أول من حصل عليه . وقدم أموالا لجوائز وأوسمة مماثلة تقدمها أكاديميات الفنون والعلوم في بافاريا وأمريكا ولأستاذية رمفورد في جامعة هارفارد . وبعد وفاة زوجته انتقل إلى باريس (١٨٠٢) واتخذ لنفسه مسكنا في أوتيل Auteuil وتزوج من أرملة لافوازيه Lavoisier ظل في فرنسا رغم تجدد حربها مع إنجلترا. وظل نشيطا إلى آخر حياته وعمل في آخر أعوامه على إطعام العامة المعوزين من فرنسيين «حساء رمفورد Rumford Soup» وكان نابليون قد أخذ معه كل أبنائهم (جنّدهم) وانطلق إلى قدره .

كانت إسهامات رمفورد في العلوم متباينة وعرضية بدرجة لا تجعلها دراماتية مذهلة، لكن إذا جمعناها معاً وجدناها تمثل مجموعة عناصر مؤتلفة جديرة بالملاحظة نظراً لانشغاله بالأعمال الإدارية، وبينما كان يراقب تجويف مدفع في ميونخ فوجئ بالحرارة الشديدة الناتجة من العملية . ولقياس هذه الحرارة رتب الحصول على أسطوانة معدنية دوارة ورأسها في مواجهة مثقب من الصلب وكلاهما الأسطوانة والمثقاب في صندوق محكم يحتوي على ثمانية عشر رطلا وثلاثة أرباع الرطل من المياه. وفي غضون ساعتين وثلاثة أرباع ساعة ارتفعت حرارة الماء من ستين درجه فهرنهيت إلى ٢١٢ – درجة الغليان . وقد ذكر رمفورد في وقت لاحق «كان من الصعب أن نصف الدهشة التي اعترت المشاهدين عند رؤيتهم هذا

* كان مفهوم مصطلح الفلسفة لايزال يضم العلوم البحتة والتطبيقية. (المترجم)

القدر الكبير من المياه يصل إلى درجة الغليان دون استخدام نيران»[١] وقد أثبتت هذه التجربة أن الحرارة ليست «جوهرا أو مادة» وإنما هي أسلوب للحركة الجزيئية تتناسب في الدرجة مع كمية الجهد المبذول لإنتاجها. وكان هذا الاعتقاد سائدا منذ فترة طويلة لكن تجربة رمفورد كانت هي الدليل التجريبي الأول، كما أنها كانت طريقة (منهجاً) لقياس المعادل الميكانيكي للحرارة – أي كمية العمل المطلوبة لتسخين رطل من المياه درجة حرارية واحدة.

ويكاد يكون توماس يونج Young مثل مونتاني Montaigne في تباين اهتماماته. ولد في سنة ١٧٧٣ من أسرة على مذهب الكوكر Quaker في سومرست. لقد بدأ متعلقاً بالدين وانتهى مخلصا الإخلاص كله للعلم. وهناك ما يؤكد لنا أنه كان قد قرأ الكتاب المقدس المسيحي وهو في الرابعةمن عمره وكان يستطيع الكتابة بأربع عشرة لغة وهو في الرابعة عشر من عمره[٢] وتم انتخابه وهو في الواحدة والعشرين من عمره كزميل في الجمعية الملكية، وفي الثمانية والعشرين كان يقوم بتدريس الفيزياء في المؤسسة الملكية، وفي سنة ١٨٠١ بدأ هناك التجارب التي أكدت –وطورت– فكرة هويجنز Huyghens عن الضوء كموجات لأثير افتراضي. وبعد مناقشات طويلة أزاحت هذه النظرية بشكل عام – وليس على مستوى العالم – نظرية نيوتن Newton عن الضوء كإشعاع لجسيمات مادية، وقدم يونج أيضا فرضا مؤداه أن إدراك اللون يعتمد على وجود ثلاثة أنواع من الألياف العصبية في شبكية العين حساسة – على التوالي – للأحمر والبنفسجي والأخضر، وقد طور هيلمهولتس Helmholts هذا الفرض فيما بعد. وقدم لنا أول وصف لحرج البصر (اللابؤرية أو اللا استجمية) وضغط الدم والجاذبية الشعرية والمد والجزر وشارك بنشاط (١٨١٤) في فك رموز حجر رشيد. وقال مؤرخ طبي مثقف إنه «كان أكثر الأطباء ثقافة وعلماً في عصره» وأضاف هيلمهولتس قائلا إنه «كان أوضح الناس بصيرة»[٣].

٣- الكيمياء : دالتون وديفي

في العقد نفسه، وأيضا في المؤسسة الملكية نفسها أحدث دالتون Dalton ثورة في مجال الكيمياء بنظريته الذرية atomic theory (١٨٠٤) لقد كان ابنا لنساج من طائفة الكويكر. ولد في سنة ١٧٦٦ في إيجلسفيلد Eaglesfield بالقرب من كوكرموث Cockermouth في الطرف الشمالي لمنطقة البحيرة الضبابية الرائعةLake District التي أنجبت الشعراء: وردسورث Wordsworth وكولردج Coleridge وسوثي Southey . وفي وقت لاحق كتب على لسان شخص ثالث ملخصاً اهتماماته الأولى في عرض زمني مجرد لم يخف طموحه الحار الذي أضاء أمامه طريق الإنجاز:

« كاتب هذه ... درس في مدرسة القرية... حتى سن الحادية عشرة. وفي هذه الفترة قطع شوطا في دراسة حساب المساحات والحجوم، والمساحة والملاحة ...الخ، وبدأ في سن الثانية عشرة في التدريس في مدرسة القرية ...وكان يعمل في المناسبات لمدة عام أو أكثر في مجال الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة، وانتقل إلى كندال Kendal وهو في الخامسة عشرة من عمره مساعداً في مدرسة مؤقتة (مشيدة من الألواح الخشبية) وظل في هذا العمل مدة ثلاث سنوات أو أربع، ثم أخذ على عاتقه إقامة مدرسة على نسق هذه المدرسة وقضى ثماني سنوات فيها وبينما كان في كندال كان يقضي وقت فراغه في دراسة اللاتينية واليونانية والفرنسية، والرياضيات مع الفلسفة الطبيعية natural، وفي سنة ١٧٩٣ انتقل إلى مانشستر معلماً للرياضيات والفلسفة (العلوم) الطبيعية في الكلية الجديدة[٤] »

وكان يواصل - إذا سمح الوقت والمال - ملاحظاته ومشاهداته وتجاربه التي كان يقوم هو شخصيا بكثير منها رغم أنه كان مصاباً بعمى الألون ورغم الأدوات المعملية البسيطة (البدائية) ووسط اهتماماته الكثيرة وجد الوقت الكافي لتدوين سجل بالأرصاد الجوية منذ كان في الواحدة والعشرين من عمره إلى اليوم الذي سبق وفاته مباشرة[٥] . وعادة ما كان يقضي إجازاته طوافا باحثاً عن الحقائق في الجبال نفسها التي كان الشاعر ورد سورث Wordsworth يجول فيها بعد ذلك بأعوام قلائل، وعلى أية حال فبينما كان ورد سورث Wordsworth يطوف بحثا عن الله مصغيا له فإن دالتون كان يرصد الأحوال الجوية عند

الارتفاعات المختلفة (فوق سطح البحر)، وكان عمله هذا يشبه إلى حد كبير عمل بسكال Pascal قبل ذلك بقرن ونصف قرن. وقد قبل في تجاربه نظرية أن المادة مكونة من ذرات غير قابلة للانقسام تلك النظرية التي قال بها كل من ليوسيبوس Leucippus (حوالي ٤٥٠ ق م) وديموقريتوس Democritus (حوالى ٤٠٠ ق.م) وواصل فرضية روبرت بويل Boyle (١٦٢٧ - ١٦٩١) التي مؤداها أن كل الذرات تنتمي إلى واحد أو آخر من عناصر معينة لا تنحل إلى عناصر أخرى أساسية - هذه العناصر المعينة التي لا تنحل هي: الهيدروجين والأكسوجين والكالسيوم .. وقد دلل دالتون في كتابه «نظام جديد لفلسفة الكيمياء A New System of Chemical Philosophy (١٨٠٨)» على أن وزن أي ذرة من ذرات عنصر إذا قورنت بأي ذرة من عنصر آخر، يجب أن يكون هو نفسه تماما كما أن وزن إجمالي العنصر الأول هو نفسه وزن إجمالي العنصر الآخر. وبعد العديد من التجارب والحسابات أخذ دالتون وزن ذرة الهيدروجين كوحدة as one وراح يراوح بين كل ذرة من ذرات العناصر الأخرى بالوزن النسبي لأي واحدة من ذراتها من ناحية وذرة الهيدروجين من ناحية أخرى، ومن ثم كوّن قائمة بالأوزان الذرية للثلاثين عنصرا التي كانت معروفة لديه. وكان لابد من أن تصحّح أبحاث لاحقة ما وصل إليه دالتون من نتائج، لكن نتائجه وكذلك قانونه المعقد المعروف باسم «قانون النسب المتضاعفة Law of multiple proportions ثبت أنها ساهمت إسهاما كبيرا في تطور العلم في القرن التاسع عشر. كان السير همفري ديفي Humphry Davy بحياته وتعليمه واكتشافاته اكثر إثارة كما أنه كان نمطاً مختلفا. ولد في بنزانس Penzance (١٧٧٨) من أسرة ثرية من الطبقة الوسطى وتلقى تعليما وزاد عليه بدراسات في الجيولوجيا وصيد الأسماك Fishing ورسم الاسكتشات sketching والشعر. وأكسبته طبيعته المرحة أصدقاء مختلفين بدءا من كولردج Coleridge وسوثي Southey والدكتور بيتر روجت Peter Roget (الذي أعد قاموسا بمفردات الإنجليزية وعباراتها، والذي اتسم بالجد والاجتهاد والعبقرية، وأطلق على عمله هذا الذي صدر في سنة ١٨٥٢ اسم: Thesaurus of English words & phrases) - حتى نابليون. وكان له صديق آخر أتاح له استخدام معمله الكيميائي مما جعل ديفي يعبر عن امتنانه له في صيغة الإهداء التي وجهها

له. وقد نظم ديفي مكتبته الخاصة وكان يصنف الغازات بتشممها وحث كولردج وسوثي على مشاركته في تشمم الغازات كاد يقتل نفسه بتسممه أبخرة الغازات شديدة السمية.

ونشر وهو في الثانية والعشرين مبحثا عن تجاربه بعنوان مباحث كيميائية وفلسفية Chemical and Philosophical Researches في سنة ١٨٠٠. ودعاه الكونت رمفورد وجوزيف بانكس Banks إلى لندن لإلقاء محاضرات عن عجائب المركم (البطارية) (عمود ڤولتا Voltas pile) وعرض لبعض إمكاناتها، فحقق شهرة جديدة في المعهد الملكي Royal Institution لقد استخدم بطارية مكونة من ٢٥٠ زوج من الرقائق المعدنية كوسيلة للتحليل الكيميائي بالكهرباء واستطاع - بهذه الطريقة - تحليل المواد المختلفة إلى عناصرها، فاكتشف - وعزل - الصوديوم والبوتاسيوم، وواصل تجاربه فاستطاع عزل الباريوم barium والبورون bo ron والسترونتيوم strontium والكالسيوم والمغنيسيوم وأضافها إلى قائمة العناصر. لقد وضعت اكتشافاته وإنجازاته أسس علم الكيمياء الكهربائية، كعلم له إمكانات نظرية وعملية لا حد لها. ووصلت أخبار أعماله إلى نابليون فأرسل له في سنة ١٨٠٦ عبر جبهة القتال جائزة المعهد الوطني الفرنسي Institut National.

وكان بيرثوليه Berthollet قد شرح في سنة ١٧٨٦ لجميس وات Watt ما في الكلور chlorine من طاقة تبييض bleaching power وتوانت إنجلترا في الأخذ بهذه الفكرة إلا أن ديفي جدد الأخذ بها وكانت جهوده فعالة. لقد تطور العلم والصناعة من خلاله فقد كانت اكتشافاته وتجاربه ذات دور رائد في التحول الاقتصادي لبريطانيا العظمى. وفي سنة ١٨١٠ أجرى ديفي تجارب لإظهار قوة التيار الكهربائي بتمريره من سلك كربوني دقيق إلى سلك آخر، لإنتاج ضوء وحراره، وكان ذلك أمام جمهور المعهد الملكي. وقد وصف هذه العملية كالتالي:

«عند تقريب قطع من الفحم النباتي يبلغ طول القطعة الواحدة منها بوصة واحدة ويبلغ قطرها سدس بوصة - بعضها من بعضها الآخر (بحيث تكون كل قطعة على بعد: واحد على أربعين أو واحد على ثلاثين من البوصة) ينتج عن هذا شرارة فيحترق أكثر من نصف حجم الفحم النباتي ليصبح رمادا أبيض، وبسحب مآخذ التيار points وإبعادها بعضها عن

بعضها الآخر يحدث تفريغ خلال الهواء الساخن في مساحة تبلغ أربع بوصات على الأقل فينتج عن هذا قوس من النور صاعد متألق ... وعند إدخال أي مادة في هذا القوس الضوئي فإنها تشتعل (تحترق) فورا، فكل المواد في هذه الحال تنصهر وتتحد سواء البلاتين أو الشمع المعتاد أو الكوارتز أو الياقوت الأزرق أو المغنيسيوم أو الجير (أكسيد الكلسيوم)»(٦).

إن إمكانات توليد الضوء والحرارة الآنف ذكرها لم تتطور حتى تم اختراع وسائل أرخص لإنتاج التيار الكهربائي، لكن في هذه التجربة الألمعية كان أساس الأفران الكهربائية التي أحالت الليل إلى نهار لنصف سكان المعمورة.

وفي سنة ١٨١٣ ارتحل ديفي بصحبة مساعده الشاب ميشيل فاراداي Faraday عبر فرنسا وإيطاليا في وقت كانت فيه كل أوربا تقريبا تخوض الحرب، لكنه استطاع التنقل بفضل حق المرور الآمن الذي أصدره له نابليون. وراح يزور المعامل ويجرب التجارب واكتشف خواص اليود (عنصر لافلزي) وأثبت أن الألماس هو نوع من الكربون. ولما عاد إلى إنجلترا درس أسباب انفجارات المناجم واخترع مصباح أمان للعاملين في المناجم. وفي سنة ١٨١٨ منحه الوصي على العرش Regent رتبة البارونتية(*) (وهي رتبة دون البارون) وفي سنة ١٨٢٠ خلف بانكس Banks كرئيس للجمعية الملكية Royal Society. وفي سنة ١٨٢٧ بدأت صحته في التدهور فترك العلم ليمارس صيد السمك وكتب كتابا في هذا الموضوع وجعل فيه رسوم إيضاح من رسمه. وفي سنة ١٨٢٩ - وكان مصابا بشلل جزئي - ذهب إلى روما ليكون حطاما بين الخرائب «أو بتعبير آخر ليكون أثرا بين الآثار»(٧) لكنه مات قبل انصرام العام. إنه لم يعش سوى ٥١ سنة لكن سنواته هذه كانت تساوي حيوات كثيرة. لقد كان رجلاً عظيما طيبا وكان واحداً من البشر المخلِّصين (بتشديد اللام وكسرها) الذين عملوا على تخليصنا من الجهل والخطايا (الآثام).

---

* رُتبة بُوَيرِين (بارون صغير).

٤ – البيولوجيا (علم الأحياء) : إرازموس داروين

حتى الآن لم تكن البيولوجيا (علم الأحياء) في إنجلترا تسير سيرا حسنا كسير الفيزياء والكيمياء والجغرفيا، فقد كانت هذه العلوم ذات صلات وثيقة بالعمل على تحسين الصناعة والتجارة وتطويرهما، أما البيولوجيا فقد كانت توحي بتراجيدية (مأساوية) الحياة وبهائها وكانت تهز العقيدة الدينية.

لقد كان إرازموس داروين – جد شارلز – قد تلقى بالفعل تقديرنا وثناءنا(*) فقد كان شرارة وضّاءة وسط ألمعية هذا العصر الذي شهد نشر أعماله: الحديقة النباتية Botanic Garden (١٧٩٢) وعلم أصول الحياة الحيوانية Zoonomia (١٧٩٤ – ١٧٩٦) ومعبد الطبيعة The Temple of Nature (١٨٠٣). لقد كتبت هذه الكتب جميعا من وجهة نظر تطورية. وقد اتفقت هذه الدراسات مع لامارك Lamarck في إقامة النظرية على أمل تكييف العادات والأعضاء على وفق للرغبة والمجهود والعزم فإذا ما استمر ذلك وقويت خلال أجيال كثيرة لأمكن انتقال (هذه الصفات الجديدة والمرغوب فيها) إلى العصب والجسم. هذا الأستاذ العبقري الذي أصبح اسمه كبيرا على طول المدى عمد إلى التوفيق بين «التطور» والدين بافتراض أن كل الحياة الحيوانية (بما فيها البشرية) كانت قد بدأت من «مستودع لقاح حي واحد كان هو العلة الأولى الكبيرة المتضمنة لكل الكائنات الحية» ثم خُلِّي سبيلها لتتحسن على وفق لنشاطها الداخلي الخاص بها، ولتسلم مالحق بها من تطورات وتحسنات للأجيال اللاحقة جيلا بعد جيل وبلا نهاية»(٨).

لقد دخل الحوار الدائم بين الدين والعلم – رغم خفوته في هذا العصر – في مملكة (عالم) السيكولوجيا الذي أصبح مجالا يحظى بالرعاية في وقت من الأوقات، عندما قام هارتلي Hartley وبريستلي Priestly بإعداد تفسير فسيولوجي للربط بين الأفكار وعندما استوحى علماء التشريح – بشكل متزايد – فكرة العلاقة بين الجسد والعقل (النفس). وفي سنة ١٨١١ نشر شارلزبل Bell مبحثه «فكرة جديدة عن تشريح المخ A new Idea of the Anatomy of the Brain» وبدأ في هذا المبحث يبرهن على أن أجزاء مخصوصة في الجهاز

* راجع عصر فولتير، ص ٥٧٩ – ٥٨١.

العصبي تحول انطباعات الحواس إلى أجزاء مخصوصة في المخ، وأن أعصاباً مخصوصة تحمل أوامر الحركة إلى أعضاء الاستجابة المنوط بها التنفيذ . وبدت ظاهرة التنويم المغناطيسي - التي زاد انتشارها - تشير إلى تحول فسيولوجي للإحساس إلى أفكار ومن ثم إلى أعمال ، وقد تم تناول تأثير الأفيون من حيث جلبه للنوم وتأثيره في الأحلام وحفزه للخيال وإضعافه للإرادة (كما ذكر كولردج Coleridge ودى كوينسي De Quincey) في سياق الحديث عن حرية الإرادة، وتم تقليص هذه القضية الكبيرة (حرية الإرادة) إلى مقادير جبرية تصوغ الدوافع والمحركات والخيالات المختلفة المتصارعة. وبدا الوضع المزدهر الصاعد للمناقشات العلمية والمركز الاجتماعي المرموق لمهنة الطب مقارنة بالمركز المتدني للإكليروس الأنجليكاني (رجال الدين الأنجليكان) الذي قلت فعاليته كثيرا - يعكس اللامبالاة الدينية التي كانت قد بدأت تنتشر بشكل سري، بل وتعكس ماحاق بالدين من شك لدرجة وجود من أنكره تماما .

٥- الطب: جنر Jenner

لايكاد الإخاء الطبي (تمتع الجميع بالرعاية الطبية) يستحق هذا الاسم الذي أطلق عليه لأن « الرعاية الطبية » تعكس تماما الولع البريطاني بالتمييز بين الطبقات، فكلية الأطباء الملكية Royal College of physicians - الفخورة بتأسيسها في عهد هنرى الثامن في سنة ١٨١٥ - تقصر زمالتها على نحو خمسين كانوا قد حصلوا على درجاتهم العلمية من أكسفورد أوكامبردج، كما تقصر « إجازاتها Licentiate » على نحو خمسين من الممارسين المميزين. ويكون هؤلاء المائة نوعاً من المجالس أقرب مايكون إلى مجلس لوردات الأطباء ودارسي الطب House of Lords to medicos في إنجلترا. ويحصل هؤلاء الأعضاء على دخول كبيرة فأحيانا مايصل دخل الواحد منهم إلى عشرين ألف جنيه في السنة. ولايمكن للواحد منهم أن يكون نبيلا أو أميرا، وإن كان يمكن أن يصبح في رتبة فارس وقد يطمح للبارونتية (درجة دون البارون) والكلية الملكية للجراحين التي أسست سنة ١٨٠٠ من بين المؤسسات الأدنى درجة. ويلي تلك الدرجة الأطباء القائمون بتوليد النساء (الذين يقومون بعمل القابلات male midwives) الذين تخصصوا في سحب الأجنة من الأرحام (حيث

الدفء والأمان) إلى العالم الخارجي حيث المنافسة والصراع. وفي قاع السلم الاجتماعي للعاملين في المهن الطبية يأتي الصيادلة الذين يقدمون كل الرعاية الطبية تقريبا في المناطق الريفية.

ولا تقدم أي كلية من هذه الكليات الآنف ذكرها أي نوع من التعليم الطبي فيما عدا بعض المحاضرات التي يلقيها مشاهير الأطباء في المناسبات. ولم يكن في أكسفورد ولا كامبردج مدرسة للطب فالطلاب الذين كانوا يرغبون في الحصول على تعليم وتدريب طبيين كان عليهم أن يلتمسوه في إسكتلندا وفيما عدا ذلك فإن تدريب الأطباء الإنجليز ترك للمدارس الخاصة التي أقيمت بالقرب من المستشفيات الكبرى بأموال المؤسسات الخيرية وتبرعات المحسنين. وقد أنفق السير توماس برنارد Thomas Bernard كثيرا من ثروته في إصلاح مستشفى اللقطاء الشهيرة في شمال لندن وشارك غيره من الأثرياء في تمويل مستوصفات (عيادات Clinics) لعلاج السرطان والرمد والفتق، في لندن وأماكن أخرى. لكن وسائل منع انتشار الأمراض كانت هزيلة في المدن مما أدى إلى انتشار الأمراض بل وظهور أمراض جديدة، وكانت سرعة انتشار الأمراض تفوق إمكانات العلاج.

وفي سنة ١٨٠٦ سجلت لندن حدثا فريدا: لقد مضى أسبوع كامل دون أن يتوفى أحد بمرض الجدري – ذلك المرض المسبب للبثور والحمى والمشوّه للوجه والمعدي والذي كان في وقت من الأوقات متوطنا في إنجلترا وقد ينتشر في أي وقت مرة أخرى ليصبح طاعونا مميتا (المقصود كارثة مسببة للموت).

وقد أعاد أسبوع المعجزات طبيب إنجليزي بسيط هو إدوارد جنر كان مدمنا على الصيد (القنص) وعلم النبات وقرض الشعر، وعزف الفلوت والضرب على الكمان (العثيولين)، بنشر التطعيم ضد هذا المرض طوال عقد من الزمان منهيا بذلك موقف المجتمع البريطاني المتحفظ ضد كل ما هو جديد. لقد كانت الوقاية من مرض الجدري عن طريق التطعيم بفيروس المرض بعد إضعافه طريقة يمارسها الصينيون القدماء ووجدت الليدي ماري وورتلي مونتاجو Mary Wortley Montagu هذه الطريقة معتادة في القسطنطينية (إسطنبول أو استانبول) في سنة ١٧١٧ وقد أوصت عند عودتها إلى إنجلترا باستخدام هذه الطريقة. وقد

جرب نظام التطعيم هذا على المجرمين ومن ثم على الأيتام وحقق نجاحا ملحوظا. وفي سنة ١٧٦٠ قرر الدكتور روبرت ستون sutton والدكتور دانيال ستون أنه من بين ثلاثين ألف حالة طعمت ضد الجدري لم يصب بهذا المرض سوى ١٢٠٠ (ألف ومائتي حالة). أيمكن أن تكون هناك طريقة أفضل لمنع الجدري؟

لقد اهتدى جنر إلى طريقة أفضل عندما لاحظ أن كثيرات من العاملات في حلب ماشية اللبن في بلده جلوسسترشير Gloucestershire يصابون بجدري البقر من خلال ملامستهم لحلمات الأبقار المصابة وبالتالي يصبحن ذوات مناعة ضد مرض الجدري (الذي يصيب البشر)، وتراءى له أنه يمكن تكوين مناعة شبيهة باستخدام طعم (لقاح) (الكلمة الإنجليزية Vaccine من الكلمة اللاتيينة Vacca وتعني بقرة) من فيروس جدري البقر الذي يمكن الحصول عليه من الأبقار المصابة. وفي بحث نشر في سنة ١٧٩٨ ذكر جنر الإجراء المغاير لما هو متبع والذي وضع به أسس الطب التجريبي وعلم الطب الوقائي (علم المناعة):

« .. لقد تخيرت صبيا صحيحا في نحو الثامنة من عمره بغرض تجريب تطعيمه بجدري البقر، وتم الحصول على القيح من قرحة من يد إحدى العاملات في حلب ألبان البقر وحقن الصبي بهذا القيح في ١٤ مايو سنة ١٧٩٦ في ذراعه ... وفي اليوم السابع اشتكى متوعكا .. وفي اليوم التاسع أصبح يرتعد وفقد شهيته وأصيب بصداع خفيف ... وفي اليوم التالي كان في حالة جيدة تماما...

وكي أتأكد مما إذا كان الصبي بعد تعريضه لإصابة خفيفة من فيروس جدري البقر، أصبح آمنا (اكتسب مناعة) ضد الجدري (الذي يصيب البشر)، فقد تم حقنه في أول يوليو التالي بقيح الجدري الذي يصيب البشر Variolous matter (الكلمة اللاتينية Variola تعنى الجدري Smallpox) تم أخذها مباشرة من بشرة مصاب بالجدري ... فلم تظهر على الصبي أعراض الجدري وبعد عدة أشهر تم حقنه مرة أخرى بقيح الجدري الذي يصيب البشر لكن لم يظهر على بدنه أي عرض من أعراض الجدري.»[٩] واستمر جنر Jenner يصف حالات أخرى بلغت اثنتين وعشرين حالة اتخذ معها الإجراء نفسه فكانت النتائج مرضية تماما. وقد تعرض لاتهامات بإجراء التجارب على الأحياء وبدا للذين اتهموه وكأنه يقوم

بتشريح الأحياء وحاول الاستفادة من الأقلية الموافقة ببناء بيت صغير له، وإنشاء حديقة زهور يزرعها بيديه[١٠] وفي عامي ١٨٠٢ و ١٨٠٧ وافق البرلمان على منح جنر ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني لتحسين طرائقه لمقاومة الجدري ونشرها. وكاد الجدري يختفي من أوربا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر، وإذا حدث وأصيب به شخص فإن هذا الشخص يكون غير مطعم (لم يتلق التطعيم ضد المرض). وتم تطبيق نظام التطعيمات الواقية ضد أمراض أخرى وأسهم علم المناعة الجديد بالإضافة للوسائل الجديدة التي أحرزها الطب وبالإضافة لتحسن الظروف الصحية والبيئية العامة في تحسين الأحوال الصحية في المجتمعات الحديثة التي نهشها الفقر وترعرع فيها الجهل وازداد فيها الجشع وثابر فيها المرض بأساليب شتى.

الفصل التاسع عشر



الفلسفة الإنجليزية

لم يكن للعلم في بريطانيا في الفترة من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥ سوى تأثير ضئيل في الفلسفة. أعني أن العلوم الطبيعية Physical يمكن أن تتوافق مع اللاهوت (الثيولوجيا) الليبرالي(المتحرر) بل وحتى فكرة التطور يمكن مواءمتها مع تفسير الخلق في ستة أيام باعتبار كل يوم يمثل فترة من فترات التطور تتسم بالطول. لقد أصبح أفراد الطبقات العليا الآن بعد أن أنهت الثورة الفرنسية تعاطفهم مع فولتير والموسوعيين Encyclopedists، لايثقون في الأفكار(الجديدة) باعتبارها أمراضاً معدية تصيب الشباب. لقد اعتبروا العبادة الأسبوعية استثمارا حكيما يؤدي إلى الانضباط الاجتماعي والاستقرار السياسي واشتكوا لأن رئيس الوزراء بت Pitt لايجد وقتا للذهاب إلى الكنيسة وكان هناك بعض الأساقفة الذين تشككوا في أمور الدين فيما بينهم وبين أنفسهم لكنهم عرفوا بين العامة بتقواهم ومع هذا استمر الصراع القديم. وفي عام ١٧٩٤ ظهر صوتان معبران عن الفكرتين المتناقضتين: توماس بين Paine في كتابه عصر العقل The Age of Reason ووليم بيلي Paley في كتابه نظرة في البراهين على المسيحية A view of the Evidences of Christianity.

١- توم بين: عن المسيحية

لقد كان «توم» بين – الذي عرف بهذا الاسم «توم» في قارتين – رجلا إنجليزيا ولد في أسرة من الكوكر(*) Quaker في ثتفورد في نورفولك Norfolk في سنة ١٧٣٧، وهاجر إلى أمريكا في سنة ١٧٧٤ بناء على نصيحة بنيامين فرانكلين، وقام بدور ناشط في الثورة الأمريكية. وأثنى الجنرال واشنطن على كتيب بين Paine الموسوم باسم «الحصافة أو الفطرة السليمة Common Sense» (يناير ١٧٧٦) لأنه «أحدث تغييراً قويا في عقول أناس

(*) أصحاب مذهب ديني. (المترجم)

كثيرين»[١] وفي أثناء حروب الثورة الأمريكية أصدر سلسلة من نشرات الدعاية باعتباره معاونا للجنرال ناثانيال جرين Nathanael Greene بعنوان «الأزمة» لرفع الروح المعنوية لجيش الثوار وللمواطنين. وقد بدأت إحدى هذه النشرات بالعبارة الشهيرة «في هذه الأوقات تعرف معادن الرجال» أوبتعبير آخر «تلك هي الأوقات التي تختبر فيها أرواح الرجال». وفي الفترة من ١٧٨٧ إلى ١٨٠٢ كان يعيش معظم الوقت في أوربا عاملاً لصالح الثورة الفرنسية في كل من فرنسا وإنجلترا. ووجدناه يخاطر برأسه عند تصويته لصالح تخفيف عقوبة الإعدام الصادرة ضد لويس السادس عشر إلى النفي. وفي ديسمبر من هذا العام (١٧٩٣) - بتحريض ظاهر من روبيسبير - أصدرت الجمعية الوطنية مرسوما بطرد كل الأجانب من عضويتها ولم يبق فيها إلا اثنان: أناكارزيس كلوتس Anacharsis Cloots وتوماس بين Paine. وعندما توقع بين Paine أن يقبض عليه سارع بكتابة ما يعرف الآن بالجزء الأول من «عصر العقل The Age of Reason»، وأرسل مخطوطة الكتاب إلى أمريكا مشفوعة بالإهداء التالي:

«إلى رفاقي أهل بلدي في الولايات المتحدة الأمريكية: إنني أضع العمل التالي تحت حمايتكم. إنه يضم آرائي في الدين. إنكم ستسدون إليّ عدلاً إن تذكرتم أنني كنت دائما أؤيد بشدة حق كل إنسان في إبداء رأيه مهما كان مختلفا مع ما قد يكون رأيي. إن من ينكر على الآخرين حقهم في إبداء رأيهم إنما هو عبد لرأيه الحالي لأنه يسلب نفسه حق تغيير هذا الرأي.

إن العقل هو أمضى سلاح ضد كل أنواع الخطأ ولم يحدث أبداً أن استخدمت سواه وإنني واثق أنني لن أثق - مستقبلاً - في سواه.

صديقكم المخلص ومواطنكم

توماس بين

باريس، ٢٧ يناير ١٧٩٤[٢]

ويقدم لنا بين Paine في مستهل كتابه هذا سببا غير متوقع لتاليف كتابه فيقول: إنه لا

يهدف إلى تدمير الدين وإنما يهدف إلى منع الفساد الناتج عن أشكاله(أشكال الدين) غير العقلية(اللاعقلانية) من أن يقوض النظام الاجتماعي ويدمره « خوفا من الخراب العام الذي تسببه الخرافة، والذي تسببه النظم الحكومية الزائفة واللاهوت الزائف، فهذه النظم الزائفة تفقدنا الأخلاق والإنسانية واللاهوت الحق » ويضيف قائلاً ومؤكداً مجدداً : « إنني أومن بالله الواحد الأحد لا رب سواه One and no more، وإنني آمل في تحقيق السعادة بعد هذه الحياة أي بعد الموت »(٣).

ثم يستل موسى أكام Occam يقول : « إنني لا أومن بعقائد اليهود ولا عقائد كنيسة روما ولا كنيسة الأورثوذكسية الشرقية (الكنيسة اليونانية) ولا عقائد المسلمين (النص : الكنيسة التركية Turkish Church) ولا الكنيسة البروتستنطية ولا أي كنيسة (مؤسسة دينية) أعرفها. فعقلي هو كنيستي. فكل الكنائس كمؤسسات وطنية... لاتبدو لي أكثر من كونها بدع بشرية أقيمت لإرهاب البشر واسترقاقهم ولاحتكار السلطة وتحقيق المكاسب »(٤).

وكان معجبا بالمسيح « كرجل فاضل ودود » وكان مقتنعا أن « الأخلاق والقيم اللتين بشر بهما وطبقهما كانتا خيرتين إلى أقصى حد » لكن حكاية كونه ابن الله ليست سوى خرافة مشتقة من خرافة شائعة بين الوثنيين.

« إذ يكاد كل الرجال المميزين الذين عاشوا في ظل الميثولوجيا الوثنية قد كرروا الزعم بأنهم أبناء الآلهة ... لقد كان اتصال الأرباب (الآلهة) اتصالا جنسيا بالنساء رأيا شائعا بين الناس. فالرب جوبيتر Jubiter في زعمهم قد تعايش مع كثيرات عيشة الأزواج. وعلى هذا فحكاية أن المسيح ابن الله ليست جديدة ولا غريبة ولا مدهشة ولا فاحشة وإنما هي مجرد فكرة كانت موجودة بالفعل ومريحة ومتمشية مع آراء وعقول غير اليهود Gentiles، ولأنها كانت منتشرة بينهم فهم وحدهم الذين آمنوا بها. أما اليهود الذين احتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا سواه (لا شريك له) فكانوا يرفضون دائما الميثولوجيا الوثنية ولم يوافقوا أبدا على هذه الحكاية (على أن المسيح هو ابن الله) »(٥).

وعلى هذا فالميثوجيا المسيحية ليست سوى الميثولوجيا الوثنية في شكل جديد. إنها لا

تعدو كونها تكراراً للميثولوجيا الوثنية :

« ففكرة التثليث أو وجود أرباب (أقانيم) ثلاثة التي ظهرت بعد ذلك ليست سوى تخفيض أو تنقيص للتعددية السابقة التي كانت تقول بوجود نحو عشرين ألف أوثلاثين ألف رب . وقد حل تمثال مريم (العذراء) محل تمثال ديانا الإفسوسية Diane of Ephesus، وحل تطويب القديسين(المصطلح المسيحي تطويب يعني ضم شخص ما إلى قائمة القديسين) محل تاليه (أو تعظيم) الأبطال . فالمؤمنون بالأساطير (الميثولوجيون) لديهم آلهة (أرباب) لكل شيء، والمسيحيون المؤمنون بالأساطير عندهم قديسون لكل شيء، وأصبحت الكنيسة مزدحمة بهم كما كان البانثيون Pantheon مزدحما بالآلهة . فالنظرية (العقيدة) المسيحية لا تختلف إلا قليلا عن وثنية الميثولوجيين القدماء بعد تحويرها (أي العقيدة المسيحية) لتخدم أغراض السلطة والدخل (الاقتصاد) وبقي على العقل والفلسفة أن يبطلا هذا الدجل المبهم »(٦) . ثم راح بين Paine يلقي أضواءه البحثية مستخدما العقل في سفر التكوين (السفر الأول في التوراة) ولم يطق صبرا على حكاياته الرمزية وأمثاله فهوى بمعوله على حواء والتفاحة . وكان مثل ميلتون Milton مفتونا بالشيطان أول الثائرين لقد كان الشيطان (إبليس) ملكاً أُدْخِل جهنم لمحاولته الإطاحة بالعرش، وفي جهنم ظل يعاني طول الوقت بلا نهاية . ومع هذا فلا بد أن يهرب من هذه النار التي لاتخمد (جهنم) في وقت أو آخر لأنه كان قد وجد طريقه إلى جنة عدن، ولأنه استطاع غواية (الناس) بأكثر الطرق التواء . لقد استطاع أن يقدم المعرفة لحواء ونصف عالم المسيح . ويعجب بين Paine من أن الميثولوجيا المسيحية قد أضفت على الشيطان (إبليس) شرفاً كبيرا . إنها تفترض أنه أجبر الله (عز وجل) على إرسال ابنه (المقصود المسيح) لبلاد اليهودية Judea ليُصلَب، وذلك ليعيد له (المقصود لله سبحانه) على الأقل جزءا من أهل الأرض كانوا على علاقة حب – بشكل واضح – مع الشيطان . ورغم صلب المسيح فلازال الشيطان يحتفظ لنفسه بكل الممالك غير المسيحية بل وله ملايين من الأتباع في الممالك المسيحية نفسها .

كل هذا – كما يقول مفكرنا المتشكك توماس – تُقدمه لنا بوقار شديد – على لسان

الله جل جلاله – سلسلة من الأقوال منسوبة إلى موسى وحتى القديس بول (بولس) . ورفض بين Paine كل هذه الأقوال (الحكايات) باعتبارها حكايات تصلح لأطفال الحضانة وللكبار الذين أنهكهم البحث عن الخبز والزبد وأعياهم المرض وأرهبهم الموت فباع لهم اللاهوتيون أوهام الوعود الموعودة . وقدم بين Paine لذوي الأرواح الأقوى الله بصورة لا تشبه الإنسان وإنما باعتباره حياة الكون (الروح الحي في الكون) .

« لا يمكننا أن نوحد كل أفكارنا عن الله إلّا من خلال الخلق .. إن الخلق (الكون) يتحدث لغة عالمية (كونية) ... إنه كلمة الله (الكون) التي توحي للبشر كل ما هو ضروري لمعرفة الله . أتريد أن تتأمل قوته؟ إنها تتجلى في عظمة خلقه . أتريد أن تتأمل حكمته؟ إنها تتجلى في سنن الكون التي لا يعتريها تبديل والتي تحكم الكل الذي لايحيط به أحد . أتريد أن تتأمل كرمه؟ إنها تتجلى في تلك الوفرة التي تملأ الأرض . أتريد أن تتأمل رحمته؟ إنها تتجلى في كونه لايمسك فضله حتى عن العصاة . باختصار أتريد أن تعرف الله؟ ابحث عنه في الخلق لا في الكتاب المقدس المسيحي Scripture»(٧) .

وقد سُجن في الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٧٩٣ حتى سقوط روبيسبير في ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ . « وفي ٤ نوفمبر دعتني الجمعية الوطنية Convention علناً وبالإجماع للعودة إليها (الجمعية الوطنية) . . . وقبلت»(٨) . وفي أثناء الاضطراب العظيم لرد الشيرموديريين Thermidorean reaction ألف الجزء الثاني من كتابه (عصر العقل The Age of Reason) وكرسه لتوجيه نقد حاد للكتاب المقدس Bible وأضاف قليلا لنقد أفكار وردت في دراسات أكاديمية كان معظمها من تأليف رجال الدين. لقد ضاعت سدى – في إنجلترا وأمريكا – اعتراضاته على الإيمان بالرب (المقصود هنا يسوع المسيح) بسبب اعتراضه وعدم تعاطفه مع الكتاب المقدس الذي كان عزيزا على الشعوب والحكومات، فوجد نفسه بلا تكريم في وطنه الأصلي ووطنه الجديد ، وعندماعاد في سنة ١٨٠٢ إلى نيويورك (التي سبق لها أن قدرت خدماته لجمهور الأمريكيين بمنحه ٣٠٠ أكر (فدان) في نيوروشل New Rochelle) ووجه باستقبال بارد . وأدمن الشرب في السنوات السبع الأخيرة من عمره ومات في نيويورك سنة ١٨٠٩ وبعد موته بعشرة أعوام عمل وليم كوبت William Cobbett على

نقل رفاته إلى إنجلترا، حيث لعبت روحه غير الواهنة - من خلال كتبه - دورا في المعارك الطوال التي تمخض عنها صدور مرسوم الإصلاح Reform Act في سنة ١٨٣٢ .

ورغم أن بين Paine كان من القائلين بوجود إله (دون إيمان بأديان منزلة) ولم يكن ملحدا إلا أن كثيرين من المؤمنين بالمسيحية شعروا أن إيمانه بوجود إله لم يكن إلا غطاء مهذبا لعدم إيمانه برب متجسد (المسيح كرب) وقدم وليم بالي William Paley كاهن أسقفية ويرموث Wearmouth دفاعا مقتدرا عن عقيدته في كتابه « نظرة في البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) لدرجة أن قراءة هذا الكتاب ظلت حتى سنة ١٩٠٠ شرطا للقبول في جامعة كيمبردج وكان كتابه « لاهوت الطبيعة Natural history » (١٨٠٢) لايزال هو الأكثر شهرة فهو كتاب يبحث في البرهنة على وجود قوة ذكية علوية » بتجميع براهين وأدلة من العلوم المختلفة. لقد قال: برهنا إذا رأى إنسان ساعة ولم يكن قد سبق له رؤية ساعة من قبل، ألن يتفحص ماكينتها، ويضع في اعتباره أن كائنا ذكيا صممها؟! ثم أليس في الطبيعة مئات العمليات تشير إلى تنظيم الوسائل لتحقيق الأثر المطلوب؟! « فمن ناحية نحن نرى قوة ذكية ترتب نظام الكواكب ... ومن ناحية أخرى فإنها - أي هذه القوة الذكية تقدم العملية (الميكانيكية) المناسبة لحركة جناحي الطائر الطنان وحركة ريشه... فكل جسم طبيعي متسق، بما ينطوي عليه من إمكانية حفظ نوعه وكيانه وإمكانية تكاثره يشهد بعناية الخالق وتوجيهه لتحقيق أهدافه »(٩).

وبدأ نصف المتعلمين في إنجلترا بمناقشة كتب بالي Paley وساعته ، وتحدث كولردج Coleridge ووردسورث Wordsworth وهازلت Hazlitt عنها في مناقشة حيّة في كزويك Keswick. لقد عاش كتاب « اللاهوت الطبيعي Natural Theology طويلا، بل إن دارون العظيم نفسه درسه بعناية قبل صياغة نظريته المنافسة عن تكيف الأعضاء وتطورها لتحقيق الغايات المطلوبة وأن البقاء للأصلح من خلال الانتخاب الطبيعي. وبعد بالي Paley بقرن جاء هنري بيرجسون Bergson ليفيد - ببلاغة - صياغة « برهان من تصميم الكون » في كتابه L'évolution Créatrice الصادر في سنة ١٩٠٦ . واستمر الجدل(١٠).

٢- جودون: عن العدالة

رغم أن الجميع قد نسوا وليم جودون (١٧٥٦ - ١٨٣٦) الآن إلا أنه كان أكثر الفلاسفة الإنجليز تأثيرا في جيله. لقد كتب هازلت Hazlitt في نحو سنة ١٨٢٣ : «ليس ثمة عمل في زماننا وجّه لطمة للتفكير الفلسفي في هذه البلاد مثل العمل الشهير» «أسئلة حول العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice»[١١] لقد قال وردسورث لطالب شاب «القِ بكتب الكيمياء الخاصة بك واقرأ كتاب جودون عن الضرورة On Necessity»[١٢] وعندما كبر جودون في السن وراح يشك في نفسه رأى أفكاره تنتشر على جناحي أغنية تغنى بها الشاعر شيلي Chelley زوج ابنته وكان أبواه مسيحيين متمسكين بمذهب كالفن مؤمنين بالقضاء والقدر خيره وشره من الله (الجبرية) وقد أصبح جودون مثلهما قدريا (جبريا) وكان أبوه منشقا عن كنيسة إنجلترا وتلقى هو نفسه تعليماً ليكون واعظاً وعمل كرجل دين في مدن كثيرة، وبينما كان في ستوماركت Stowmarket قدمه شاب جمهوري للمفكرين الفرنسيين الذين سرعان ما قلبوا عقيدته رأساً على عقب. لقد أخذ الإلحاد عن دولباش D'holbach رغم أنه في سنوات لاحقة جعل لله مكاناً - بشكل مهذب - في مجلده الحاشد. لقد أخذ من هلفيتيوس Helvetius الإيمان بالتعليم والعقل باعتبارهما أساس اليوطوبيا (المدينة الفاضلة) وحذا حذو روسو في قبول مبدأ صلاح البشر لكنه كان يفضل إقامة مجتمع قائم على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات - يفضله على دولة روسو ذات السلطة المطلقة. لقد تخلى عن منصبه في الكهنوت المسيحي وشرع في دهن خبزه بالأحبار والقلم. وانضم إلى لورد ستانهوب Stanhope وتوماس هولكروفت Holcroft في نادي «الثوريين» لكنه أسلم نفسه معظم الوقت للدراسة الشاقة والكتابة الصعبة، وفي سنة ١٧٩٣- وكان قد بلغ السابعة والثلاثين - أصدر أكثر الأعمال(الكتب) راديكالية في زمانه.

وقد جعل لكتابه عنواناً هو «سؤال عن العدل السياسي وتأثيره في الفضائل العامة والسعادة Enquiry Concerning Political Justice & its influence on General virtue & Happiness» وواضح أنه كتاباً عن الحكومة يغطي تقريبا كل قضايا الفلسفة من الإدراك إلى

فن الحكم (فن إدارة شؤون الدولة) ويتوقف غير بعيد عن تناول الرب (الله) . لقد احتقر خرافات الجنة والجحيم كأدوات (وسائل) واضحة لتسهيل أمور الحكم وفرض الطاعة[١٣]. وأدان الإكليروس (رجال الدين) الذين يقسمون على قبولهم الإيمان الرسمي المصاغ في تسع وثلاثين مادة (قانون الإيمان) بينما هم يتخلون عنه فيما بينهم وبين أنفسهم[١٤]. لقد رفض حرية الإرادة free will والإرادة نفسها إذا جرى فهمها كسلطة أو صلاحية أو مقدرة مميزة أو استثنائية . إنها بالنسبة إليه مجرد مصطلح مجرد للاستجابات الواعية للمواقف والرغبات والحوافز أو المثيرات[١٥]. وما دامت الأفعال مقررة سلفاً بفعل الوراثة والخبرة الفردية والظروف الحالية فلا بد أن نواجه أخطاء الآخرين بدون غضب أو اتهام مضاد وإنما لا بد من إصلاح نظامنا العقابي ليكون مبنياً على الإصلاح أو إعادة التأهيل أكثر من أن يكون مبنيا على العقاب، وعلى أية حال، فإنه قد يكون من الضروري أن نستخدم المديح واللوم والعقاب كوسائل معينة على الإصلاح مستقبلا »[١٦].

ما هو الذي سنمتدحه وما هو الذي سندينه؟ سنمتدح ما هو حسن وسندين ما هو قبيح، فما هو الحسن؟ لقد سار جودون على خطى هيلفيتيوس Helvetius (١٧٥٨) وبنثام Bentham (١٧٨٩) فعرف الحسن (الخير) بأنه ما يزيد سعادة الفرد والجماعة وعرف السعادة بأنها بهجة الجسد والنفس والعقل والمشاعر، بهجة سوية، وهذه الفلسفة الأخلاقية ليست حسية جسدية (شهوانية) وليست هي فلسفة اللذة لأنها تجعل المباهج العقلية فوق مباهج الحواس . إنها ليست أنانية (ذاتية تتحلق حول الأنا) لأنها تقول بأن الفرد جزء من جماعة لأن صلاح الجماعة شرط لأمان الأفراد الذين يكوّنون هذه الجماعة، ولأن من بين أرقى أنواع المباهج إسهام الأفراد في إسعاد رفاقهم في الجماعة . فغرائزنا الاجتماعية تؤدي إلى قيامنا بأفعال غير أنانية (منطوية على حب الغير) وهذه الأفعال يمكن أن تمنحنا مسرة تفوق أي بهجة حسية أو عقلية وأكثر دواماً منها[١٧]. فأن تكون شفوقا رحيما يعني أن تكون سعيدا، وأن تنزع منك الرحمة يعني أن تكون بائسا » . فالأخلاق – علم السعادة البشرية – هي المبدأ الذي يربط الفرد بجنسه البشري وهي الدوافع التي تعمل على حثنا على تعديل سلوكنا وجعله على نحو أمثل لتحصيل مزايا يجنيها الجميع »[١٨].

فالعدالة إذن هي تنظيم سلوك الفرد والجماعة لتحقيق أقصى قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. «فالهدف العاجل للحكومة هو أمن الجماعة والفرد» وما دام الفرد يرغب في أكبر قدر من الحرية مما ينسجم مع أمنه، فإن «أفضل وضع للبشر هو الوضع الذي يحافظ على الأمن العام مع أقل انتهاك ممكن لاستقلال الفرد»[١٩]. وعلى هذا فليست هناك حاجة لمراسيم حكومية أو دينية للزواج، فاتفاق اثنين من البالغين على العيش معا يجب أن يكون كافيا، ويجب فسخ الارتباط (الاتفاق على العيش معا) إذا رغب في ذلك أحد الطرفين[٢٠]. (وقد أعجب الشاعر شيلي Shelley بهذا الاتجاه على نحو خاص).

ولم يكن جدون يحب الحكومات. فمهما كانت أشكالها ومهما كانت النظريات التي تقوم عليها، فإنها لاتعدو أن تكون سيطرة الأقلية على الأغلبية. لقد كان دوما يتبرأ من دعوى المحافظين أن الجماهير مفطورة على الدونية وأنها دائما تميل للقتل، ولهذا فلا بد من حكمها إما بالكذب عليها أو إرهابها أو إجبارها (بالكذب أو الإرهاب أو القوة). وكان – مثل أوين Owen – يعتقد أن هذه الصفات الدونية ترجع إلى نقص التعليم أو قلة الفرص أو فساد البيئة[٢١]. وسخر من المساواة أمام القانون لأنه كان يرى كل يوم الذين يحصلون الأموال الطائلة بطرق ملتوية وغير سليمة يفلتون من العقاب بحيل قانونية أو بسبب محاباة القضاة لهم[٢٢]. ولم يكن اشتراكيا فقد قبل مبدأ توريث الثروة ومبدأ تعيين أوصياء لإدارتها[٢٣]. وعارض السيطرة الحكومية على الإنتاج والتوزيع[٢٤]، لكنه أصر على ضرورة أن تكون الملكية الشخصية في خدمة الصالح العام[٢٥]، وحذر من أن تركيز الثروة ما هو إلا دعوة إلى الثورة[٢٦].

وعلى أية حال، لم يكن ميّالاً إلى الثورة. «فحين تتغير طبائع الأجناس البشرية تغيرا جوهريا» فإن الإطاحة بالنظام القائم بالقوة، وأية محاولة ثورية لإعادة توزيع الثروة، ستسبب فوضى اجتماعية «تلحق ضررا بالرخاء العام أكثر من الضرر الذي يلحقه عدم المساواة (التفاوت في الثروة) الذي تحاول إزالته»[٢٧]. فالثورة في الفكر (تغيير الآراء) هي السبيل الوحيد للوصول لتوزيع أفضل للثروة[٢٨]. وهذا يتطلب تعليماً يستغرق فترة طويلة ويتطلب صبرا.. تعليماً تتلقاه الأجيال من خلال المدارس والإنتاج الأدبي والفكري.

ومع هذا فسيكون من الخطأ أن نقدم تعليما عاما من خلال نظام وطني للمدارس (المقصود نظام حكومي تتبناه الدولة) لأنه سيكون في هذه الحال أداة من أدوات الشوفينية (الغلوّ في الوطنية) مما يؤدي إلى قيام الحروب، وأداة من أدوات البروبا جندا (الدعاية) الحكومية التي تهدف إلى ترسيخ قيم الطاعة العمياء[٢٩]. إذ لا بد من ترك التعليم في أيدي القطاع الخاص الذي يجب دائما أن يقول الحق والذي يجب أن يعوّد الطالب على استخدام العقل. «فالعقل ليس» مبدأً مستقلاً أو ملكة أو قدرة كلية «وليس لديه ميل لحثنا على الفعل. فهو من الناحية العملية مجرد أداة للمقارنة – والموازنة – بين المشاعر المختلفة. فالعقل ... قد صُمِّم (بضم الصاد) لتنظيم سلوكنا على وفق القيمة المقارنة للمثيرات أو المنبهات أو الدوافع.» «فالأخلاق ليست إلا حساب النتائج أو العواقب»[٣٠] بما في ذلك النتائج أو العواقب التي تعود على المجتمع». وعلى هذا فتحسين العقل يعني تحسين أحوالنا الاجتماعية»[٣١].

إن الطريق إلى المدينة المثالية (اليوطوبيا) عن طريق التعليم طريق طويل وشاق لكن الإنسان قد حقق بعض التقدم في السيرفي هذا الطريق، وليس هناك حد لمزيد من التقدم فيه. إن الهدف أن تتلقى البشرية تعليما كافيا متبصرا يتيح لها إعمال العقل بحرية (دون قيود). إن إلغاء الحكومة (الأنارشية) هدف بعيد لكنه سيظل مع هذا هدفا لكثير من الأجيال القادمة وطبيعة الإنسان ستحتم شكلاً أو آخر من أشكال الحكومة. دعونا نواصل آمالنا في أن يتطور الذكاء – عبر أجيالنا القادمة – ليصبح حرية منضبطة.

ولابد أن جدون كان يمتلك نبعاً ثراً من الذكاء لأنه في سنة ١٧٩٤ أصدر – بعد عام واحد من نشرة كتابه الحاشد (أسئلة عن العدالة السياسية ...) أصدر رواية حكم عليها كثيرون بأنها الرواية الرائعة البارزة في ذلك العصر. إنها رواية كالب وليامز Caleb Williams التي أظهرت روح الحكومة وطبيعتها من حيث كونها تقحم نفسها في حياة كل طبقات المجتمع» وقد أضاف المؤلف إلى هذه الرواية قصة حياته: لقد تزوج ماري ولستونكرافت Wollstonecraft (١٧٩٧) وتبنى ابنتها فاني إمالي Fanny Imaly التي أنجبتها نتيجة اتصالها الجنسي بشخص دون زواج (نتيجة علاقة زنا) وعاش مع ماري مدة عام في عِشْرةٍ

مثيرة. يقول: «لقد قدرت فيها طاقاتها العقلية، ونزوعها النبيل إلى الكرم، ولم تكن الرقة وحدها كافية لتحقيق السعادة التي جربناها»[٣٢] وقد ماتت - كما رأينا - بعد فترة قصيرة من إنجابها ماري جدون شلي Mary Godwin Shelley وفي سنة ١٨٠١ تزوج من مدام ماري جين كليرمونت Mary Jane Clairmont التي كانت ابنتها (من زوجها الأول) واحدة من مديرات منزل بايرون Byron. وقد دعم الزوج والزوجة حياتهما المعقدة بنشر الكتب التي كان من بينها «حكايات من شكسبير» (١٨٠٧) الذي ألفه شارلز لامب وماري لامب Charles & Mary Lamb. ونتيجة تخلي وردسورث Wordsworth وكولردج Coleridge عنه وابتعادهما عن صداقته واجه أياما عصيبة، وساعده شيلي Shelley الذي كان هو نفسه معسرا، وفي سنة ١٨٣٣ - ويالسخرية التاريخ - عينته الحكومة - التي كان يعتبرها شرا لا بد منه - موظفاً في الخزانة براتب متواضع كان يكفي طعامه حتى مات في سنة ١٨٣٦.

٣- مالتوس: عن السكان

لقد عمل كتاب جودون الآنف ذكره (أسئلة حول العدالة السياسية) على دفع كتاب آخر إلى المطبعة وقد أصبح هذا الكتاب الآخر أكثر شهرة من كتاب جودون نفسه. وساعد على ذلك رد فعل غير عادي من ابن ضد فلسفة أبيه الليبرالية. لقد كان دانيال مالتوس Daniel Malthus (توفي سنة ١٨٠٠) شخصاً لطيفاً غريب الأطوار وكان صديقاً شخصيا لديفد هيوم (تكتب أيضا دافد / الصيغة العربيةللاسم هي داود) وجان جاك روسو. وشارك الإسكتلندي شكوكيتة والسويسري تشاؤمه، حول الحضارة. وقد كان هو شخصيا مشرفا على تعليم ابنه فيما قبل دخوله الكلية، وكان واثقا من أن توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) سيكون راديكاليا ممثلاً للقانون مثله (أي مثل أبيه دانيال مالتوس) مثل جودون. وواصل مالتوس في كامبردج ودخل في سنة ١٧٩٧ سلك الكهنوت الإنجليكاني، وعندما ظهر كتاب جودون (١٧٩٣) راح الأب والابن يتناقشان بشغف فيما ورد به من أفكار، ولم يشارك الابن أباه في حماسه لأفكار الكتاب. لقد شعر الابن بأنّ هذا الولع المثالي

(اليوطوبي) بالعقل المنتصر (بانتصار العقل) لامبرر له، لأنه قد جرى تسفيهه مرارا بالحقيقة البسيطة التي مؤداها أنه كلما زاد الطعام وتحقيق الرخاء سرعان ما يؤدي تزايد السكان إلى محق هذا الرخاء، وقد عبر سِفْر الجامعة في التوراة عن هذا ببلاغة. فمادامت خصوبة الأرض محدودة ولا سبيل لوقف الشهوة الجنسية فهذا يؤدي إلى تضاعف عدد الأفواه بسبب الزواج المبكر والإنجاب الكثير وانخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال والشيوخ، وهذا بدوره يؤدي إلى استهلاك أية زيادة في الطعام بسرعة. ولم يتفق الأب مع ابنه في هذه النتيجة ولكنه كان معجبا بالطريقة التي دافع بها ابنه عن آرائه فطلب من ابنه أن يكتب وجهات نظره وبالفعل كتبها توماس ونشرها في سنة ١٧٩٨ في كتاب بعنوان: « مقال عن مبادئ السكان وتأثيرها في مستقبل المجتمع An Essay on the principle of population as it affects the future improvement of Society » وقد بدأ كتابه باعتذار يسترضي فيه الكاتبين اللذين يتحدى في كتابه نزعتهما التفاؤلية:

« لا أستطيع أن أشك في مواهب رجال مثل جودون، وكوندرسيه Condorcet ... لقد قرأت – وبسرور شديد – بعضاً من آرائهما عن طرائق الوصول بالإنسان والمجتمع إلى حد الكمال، ولقد ابتهجت وتفاعلت بحرارة مع الصورة البهيجة التي رسماها. إنني أرغب بشدة في تحقيق هذه التحسينات. إلا أنني – على وفق ما يهديني إليه تفكيري – أرى صعوبات شديدة لا تقهر أمام ما ذكراه. وهدفي هو تبيان هذه الصعوبات، لكنني أعلن في الوقت نفسه أنني أبعد ما يكون عن السعادة لوجود هذه الصعوبات، وأنني لم أتخذها سببا يسعدني للانتصار على أصدقاء الفكر، فلا شيء يسعدني أكثر من أن أرى هذه الصعوبات وقد تلاشت »[٣٣]. وحاول مالتوس أن يصيغ حججه بشكل رياضي. فافترض أن الطعام يزيد كل ٢٥ عاما بمتوالية حسابية (من ١ إلى ٢ إلى ٣ إلى ٤ إلى ٥ إلى ٦ وهكذا) أما السكان فيزيدون – إذا لم تكن هناك عوائق تمنع الزيادة – بمتوالية هندسية (١، ٢، ٣، ٤، ٨، ١٦، ٣٢ .. وهكذا) مفترضا أن كل زوج وزوجة سينجبان ٤ أبناء يظلون على قيد الحياة. وعلى وفق هذه النسبة فإنه « في غضون قرنين سيصبح (عدد السكان) بالنسبة إلى موارد الرزق ٢٥ إلى ٩، وفي غضون ثلاثة قرون ٤,٠٩٦ الى ١٣، وفي غضون ألفي سنة

سيصبح الفارق مهولا »[٣٤] والسبب في أن عدد السكان لايرتفع بمثل هذه السرعة هو أن الناس يواجهون بعوامل سلبية أو إيجابية تحول بينهم وبين التناسل. فالعوامل السلبية مانعة (وقائية): تأجيل الزواج بسبب الفقر أو غيره من الأسباب، الرذيلة (ويعنى بها مالتوس العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية) والعلاقات غير الطبيعية (كالشذوذ الجنسي ..الخ) واستخدام وسائل منع الحمل أو تحديد النسل داخل نطاق الزوجية أو خارجها. وإذا فشلت هذه العوامل السلبية في حفظ التوازن بين السكان والطعام المتاح فإن الطبيعة nature والتاريخ يقدمان لنا عوامل إيجابية تؤتي مفعولها مع الأفراد الموجودين بالفعل: قتل الأطفال، الأمراض، المجاعات، الحروب، وبذلك تتم الموازنة بين المواليد والوفيات.

وخلص مالتوس من هذا التحليل الكئيب بنتائج غريبة. أولا، لا يوصي بزيادة أجور العمال لأنه إن زادت أجورهم تزوجوا مبكرا وأنجبوا مزيداً من الأطفال مما سيؤدي إلى زيادة السكان زيادة تفوق الزيادة المتاحة في الطعام فيعود الفقر من جديد. وعلى النحو نفسه لا داعي لزيادة الضرائب المخصصة للإنفاق على العاطلين فهذا سيؤدي إلى التشجيع على الكسل وسيجعل عدد أفراد الأسرة يزداد فتتضاعف الأفواه بسرعة أكثر من تضاعف الطعام المتاح، وسيؤدي التنافس بين المشترين لأن يرفع البائعون أسعار بضائعهم المتناقصة، وسرعان ما يعود الفقراء الذين كانوا قد نعموا بشيء من الرخاء إلى الفقر من جديد[٣٥].

وليواصل تدمير (أفكار) جودون، استمر مالتوس متناولاً «حلم» فلسفة اختفاء الحكومة (الاستغناء عنها) فإذا اختفت الحكومة تعين على كل فرد أن يحرس مخزونه القليل بالقوة» كما نحكم اغلاق أبوابنا ونوافذنا إذا ضاع القانون وعمت الفوضى. وستنتصر الأنانية وسيصبح النزاع أبديا »[٣٦] وبإزالة كل العوائق أمام الاتصال الجنسي سيزيد عدد السكان زيادة تفوق زيادة الإنتاج مما سيؤدي إلى تقليص نصيب الفرد وستضيع المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) في خضم منافسة يائسة وستحل فوضى لا سبيل إلى تجنبها وسينتشر البؤس[٣٧]. فلا يكون هناك حل إلا إعادة الحكومة وحماية الملكية الخاصة وتشجيع الإنتاج والاستثمار وإن حدث تمرد قامت عليه جماعة مخصوصة تحتم قمعه بالقوة وسيعود التاريخ

إلى صيغته التقليدية: منتجات الطبيعة nature تقتسمها طبيعة الإنسان، أو طبيعة الإنسان هي التي تقسم منتجات الطبيعة. وفي صياغة جديدة موسعة ومراجعة لكتابه وضّح مالتوس بشكل أكثر حدة وتفصيلا العلاجات الوقائية التي تحول بيننا وبين الكوارث التي يلحقها بنا التاريخ والطبيعة كعلاج لمشكلاتنا (عدم التوارن بين عدد السكان والطعام المتاح). لقد اقترح وقف الإعانات عن الفقراء وعدم التصدي للمشروعات الخاصة (الحرة) واقترح ترك قانون العرض والطلب ليقوم بدوره في العلاقات بين المنتجين والمستهلكين وبين العاملين وأصحاب العمل. واقترح وضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد. «إن التزامنا هو ألا نتزوج إلا بعد أن تكون إمكاناتنا في حالة تسمح لنا بدعم (رعاية) أبنائنا»(٣٨) وفوق هذا يجب أن يتعلم الناس كيف يكبحون شهواتهم قبل الزواج وبعده «ولا بد أن تتسم الفترة الواقعة بين سن البلوغ والزواج، بالعفة والتزام الفضيلة»(٣٩) فإذا ما تم الزواج لا بد أن يمنع الحمل بأي طريقة وبأي صورة من الصور». وإذا لم نلتزم بهذه التدابير أو تدابير مماثلة، فلا بد أن نوطن أنفسنا على مجاعات أو أوبئة أو حروب تقوم بدورها في إنقاص عدد السكان. وتلقى المحافظون البريطانيون ما ورد في كتاب مالتوس كوحي مقدس (إلهي)، وشعر البرلمان وأصحاب الأعمال بأن لديهم مايبرر موقفهم في مقاومة مطالب الليبراليين - مثل روبرت أوين Robert Owen - التي تنادي بالتخفيف من وطأة قانون العرض والطلب بإصدار قوانين لتخفيف آلام المحتاجين. وسحب وليم بت Pitt المرسوم الذي كان قد قدمه لتوسيع نطاق قوانين إغاثة الفقراء(٤٠). وبدت الإجراءات التي كانت الحكومة قد اتخذتها بالفعل ضد الراديكاليين البريطانيين عادلة بفعل مبررات مالتوس واتهاماته لهؤلاء الباعة الجوالين الذين يسوقون المدينة الفاضلة (اليوطوبيا) والذين يضلون البسطاء تضليلا مأسويا. واشتد إيمان أصحاب الصناعة البريطانيين في جدوى خفض الأجور لتحقيق الطاعة والانضباط في العمل. وجعل ريكاردو Ricardo من نظرية مالتوس أساسا «لعلمه الكئيب his dismal Science» (أطلق كارليل Carlyle هذا الاسم «العلم الكئيب» على الاقتصاد بعد قراءته لكتابات مالتوس). والآن أصبحت كل الشرور تقريبا تعزى إلى خصوبة الفقراء الطائشة أو بتعبير آخر تعزى إلى كثرة إنجابهم بشكل غير محسوب - لقد أحدث كتاب

مالتوس الاضطراب والفزع في صفوف الليبراليين، فاستغرق جودون عشرين عاما لإعداد رده وأخيرا أصدر كتابة «عن السكان، رد على مالتوس» (١٨٢٠) وكان في غالبه تكراراً لآماله وشكوى من أن مالتوس حول أصدقاء التقدم إلى رجعيين(٤١). وكان وليم هازلت Hazlitt استثناء: ففي مقال عن مالتوس في كتاب «روح العصر The spirit of the Age» (١٨٢٤) هاجم هذه «القدسية التي لاتعرف الرحمة» أوبتعبير آخر هاجم نسبة القسوة إلى الله بكل ما أوتي من طاقة عقلية وحدة في الذهن. لقد ذكر أن خصوبة النبات تفوق كثيرا خصوبة النساء «فالحبوب ستتكاثر وتتضاعف أسرع بكثير جدا من زيادة الجنس البشري، فمقدار بوشل bushel(مكيال للحبوب يساوي ثمانية جالونات أو نحو ٣٢ لترا ونصف اللتر) يزرع حقلا، وهذا الحقل سيثمر حبوبا تكفي لزراعة عشرين حقلا آخر». ستكون هناك «ثورات خضراء green revolutions»(٤٢).

وفي أوقات لاحقة راح الكتاب يجمعون الحقائق لإبطال مخاوف مالتوس وتسكينها. ففي أوروبا والصين والهند زاد السكان لأكثر من الضعف بعد مالتوس، ومع هذا كان لديهم من موارد الطعام أكثر من ذي قبل. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف السكان عدة مرات منذ سنة ١٨٠٠ ومع ذلك زاد الإنتاج الزراعي عن الحاجة وتبقى فائض وفير للتصدير. وعلى العكس مما قاله مالتوس أدى ارتفاع الأجور إلى انخفاض نسبة المواليد. فلم تعد المشكلة نقصا في البذور أو الحقول وإنما نقصا في الطاقة غير البشرية (الآلية) لاستخدامها في الزراعة والصناعة، وإمداد القرى والمدن.

وبطبيعة الحال فإن الإجابة الحقيقية بالنسبة إلى مالتوس كانت هي منع الحمل – لقبوله على المستوى الأخلاقي، ولانتشاره وكفايته وقلة تكلفته. لقد حطمت علمانية الفكر الحواجز اللاهوتية التي وضعها رجال الدين في وجه ضبط النسل. لقد حولت الثورة الصناعية الأطفال من موجودات اقتصادية ذات نفع كما كان الحال عند عملهم في المزارع إلى موجودات معوقه اقتصاديا في المدن إذ راح تشغيل الأطفال ينقص تدريجيا، وارتفعت تكاليف التعليم وزاد ازدحام المناطق الحضريّة. وانتشر الوعي (الذكاء) فقد تحقق الرجال والنساء أن الأحوال التي تغيرت لم تعد تتطلب أسرة كبيرة العدد. وحتى الحروب لم تعد

تتطلب حشوداً من الشباب ينتشرون في مواجهة حشود أخرى ليلقوا مصرعهم بقدرما أصبحت في حاجة إلى الابتكار التقني لتحقيق التدمير المادي. وعلى هذا فالرد على مالتوس لم يكن متمثلاً في نظريات جودون وإنما من «المالتوسيين الجدد Neo Malthusians» ودعوتهم إلى «ضبط النسل». وفي سنة ١٨٢٢ نشر فرانسس بلاس Place كتابيه «توضيحات وبراهين حول قضية السكان». لقد وافق على المبدأ الذي وضعه مالتوس والذي مؤداه أن السكان يزيدون بمعدل أسرع من زيادة مقادير الطعام. ووافق على ضرورة وضع قيود على الزواج لكن ليس بتأجيله وإنما الأفضل قبول منع الحمل كبديل شرعي ومقبول - نسبيا - من الناحية الأخلاقية لمواجهة الخصوبة الطبيعية العمياء (غير الموجهة) والتدمير الجماعي الذي تسببه الحروب.

(وكان هونفسه قد أنجب خمسة عشر طفلا مات منهم خمسة في مرحلة الطفولة) وقد وزع في لندن نشرات طبعها على نفقته الخاصة يدعو فيها لضبط النسل وواصل معركته (دعوته) هذه حتى موته وهو في الثالثة والثمانين من عمره (مات سنة ١٨٥٤). ولقد عاش مالتوس عمرا طويلا يسمح له بالشعور بمدى قوة حجج بلاس Place . وفي سنة ١٨٢٤ ساهم في دائرة المعارف البريطانية بمقال راجع فيه نظريته وتراجع عن نِسَبه الرياضية المرعبة، وركز - بشكل جديد - على زيادة عدد السكان كعامل في النضال من أجل الوجود. وبعد ذلك بسنوات طوال كتب شارلز دارون في سيرته الذاتية:

«في أكتوبر سنة ١٨٣٨ بعد أن بدأت بحثي النظامي بخمسة عشر شهرا، حدث أن قرأت - ترفيها عن نفسي - كتاب مالتوس عن السكان وكنت مهيأ لتقدير قيمة الصراع من أجل البقاء . . . من خلال ملاحظاتي المستمرة الطويلة لعادات الحيوانات والنباتات. لقد أذهلني ذات مرة أنه في ظل هذه الظروف فإن التغييرات الملائمة (المناسبة) ستسبب حفظ النوع، والتغييرات غير الملائمة ستؤدي إلى التدمير. ونتيجة هذه العملية هو ظهور أجناس جديدة. وهنا أمسكت بنواصي نظرية البقاء للأصلح»

وعلى هذا وبعد نحو جيل استمر فيه المزيد من البحوث والتأمل والتفكير نشر دارون في سنة ١٨٥٩ كتابه «أصل الأنواع» The Origin of species وهو الكتاب الأكثر تأثيرا في

القرن التاسع عشر. إن سلسلة من الأفكار تزين « السلسلة الكبرى للوجود » وتشكل تاريخ الحضارة.

٤- بنثام: عن القانون

استخلاص أفكار جرمي بنثام أصعب من استخلاص أفكار جودون ومالتوس، لأن جودون قدم مثاليات مغرية، ومالتوس قدم بعض الرعب الفاتن أما بنثام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) فكتب في الاقتصاد والربا والمنفعة والقانون والعدالة والسجون - بالإضافة إلى أنه كان ماردا انعزاليا ظل يتعلم بلا نهاية، دائم التفكير في الأمور التي يصعب تحديدها، وكان لاينشر إلا قليلا وفكر في إصلاح كل شيء، وتذمر من اقتران العملاقين (الغولين): المنطق والقانون، واستمر تأثيره يزداد في أثناء حياته (بلغ من العمر ٨٤ عاما) وساد طوال قرن.

لقد كان ابنا لمحام ثري كاد يسحقه من كثرة التعليم. وقيل إنه قرأ في الثالثة من عمره كتاب تاريخ إنجلترا ذي الثمانية مجلدات الذي ألفه بول دي رابين Paul de Rapin وكان قد بدأ تعلم اللغة اللاتينية وهو في هذه السن (كانت هذه التربية القاسية الخانقة قد انتقلت إلى جيمس ميل Mill تلميذ بنثام وطبقها على ابنه جون). وفي مدرسة وستمنستر Westminster تفوق جيرمي في كتابة الشعر باليونانية واللاتينية.

وفي أكسفورد تخصص في المنطق وحصل على درجته العلمية وهو في الخامسة عشرة من عمره. وواصل دراسة القانون في لينكولن Lincoln لكن اضطراب كتب القانون أثار سخطه وانتهى إلى إدخال المنطق والنظام للتشريعات البريطانية وعلم القانون في بريطانيا مهما كلفه ذلك . وفي ديسمبر سنة ١٧٦٣ وكان في الخامسة عشرة من عمره سمع مديح وليم بلاكستون William Blackstone للقانون البريطاني فاعترته الدهشة والسخط لهذا النفاق الصدّاح الذي سيؤخر الإصلاح التشريعي ولا شيء غير ذلك ويكاد يكون قد قضى عمره منذ ذلك الوقت حتى وفاته في إدخال المنطق والاتساق والروح الإنسانية للقانون الإنجليزي. لقد سأل نفسه: « ألدي عبقرية في أي شيء؟ ماذا أستطيع أن أنجز؟ ما هو الأكثر أهمية في هذه الحياة؟ التشريع. ألدي عبقرية في التشريع (سن القوانين)؟ لقد أحببت

نفسي خائفا مرتجفا: نعم»[٤٣] إن هذه الثقة وهذا الاعتزاز المصحوب بالخوف يمكن أن يكون ينبوعا للإنجاز.

لقد جلب إلى عمله الروح العملية (الواقعية) وسيف النظام والمنطق (العقل). لقد امتعض من التجريدات شديدة الوطأة، امتعض من المجردات كالواجب والشرف والسلطة والحق. لقد أراد أن يحولها إلى حقائق مشخصة (محددة) وأن يفحص كل جزء ليعرضه على الحقيقة من خلال وجهة نظر ثاقبة مثابرة. فما هو الحق - على سبيل المثال؟ أهو «طبيعي natural» - شيء مرتبط بنا منذ الميلاد كما افترض إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية؟ أم أنه مجرد «حرية فردية» تابعة للصالح العام أو في إطار الصالح العام؟ ما هي المساواة؟ أثمة شيء اسمه المساواة خارج نطاق المفاهيم الرياضية المجردة؟ هل التفاوت (عدم المساواة) قدر لا فكاك منه لكل كائن حي سواء عدم المساواة في القدرات أو الممتلكات أو السلطان؟ . ما هو «القانون الطبيعي»؟ وما هي «الحصافة أو الفطرة السليمة Common sense»؟ كل هذه المجردات - في رأي بنثام هراء»[٤٤] تضلل به الجامعات والبرلمانات والمحاكم.

وقد يمكننا أن نتخيل ما أحدثه هذا «الواقعي realist» في اللاهوت السائد في عصره وفي بلاده. إنه لم يجد جدوى في الألوهية التقليدية عند محاولته النظر بتجرد إلى عالم العلم أو التاريخ أو الاقتصاد أو الحكم[٤٥]. لقد حاول أن يمسك لسانه الحاد الذَّرِب عن هذه الأمور لأنه شعر أن الكنيسة الإنجليكانية تعد كنيسة عقلية (تحترم العقل) بالنسبة إلى غيرها من الكنائس، وقد تكون خيِّرة، لكن الإكليروس (رجال الدين) شعروا بخصومته الصامتة وشجبوا مذهبه النفعي his utilitarianism تماماً باعتباره «فلسفة إلحادية godless philosophy»[٤٦] لقد بدأ بمحاولة عزل بلاكستون Blackstone كاقتصادي يقوم بدور في نسج الدستور البريطاني، لقد بدا له هذا الوجود الباطني (الغامض) كخليط وناتج عتيق (عفا عليه الزمن) لمصادفات وأمور عارضة يتسم بالتناقض والتنقيحات المتعجلة غير قائم على منطق ولا أساس، وعلى هذا أصدر بنثام واحدة من الشرارات من سندانه، إنه كتابه A fragment on government (١٧٧٦) - كأول سهم تطلقه «الراديكالية الفلسفية

philosophical radicalism » التي كان عليها أن تناضل طوال نصف قرن قبل أن تحرز نصف انتصار في سنة ١٨٣٢.

وفي الوقت الذي قام فيه هذا المتحدي البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما بامتداح بلاكستون Blackstone لأنه علّم عِلْم القانون أن ينطق لغة الباحثين والسادة الأماجد gentlemen » إلا أنه لامه لانه قلص الدستور فجعله لاينص إلا على سلطة الملك المطلقة. وعلى العكس من ذلك فالدستور السليم (الذي يميز الخطأ من الصواب) هو الذي يوزع سلطات الحكومة بين أجزائها (مكوناتها) المختلفة، وسيسهل تعاونها وفرضها للقيود المتبادلة - فالمبدأ الهادي للمشرعين يجب ألا يكون هو الرغبة في الهيمنة وإنما « تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس» فهؤلاء الناس هم هدف التشريع والتشريع لم يوضع إلا لهم، والاختبار الصحيح لأي قانون مقترح هو مدى نفعه لتحقيق هذه الغاية (إسعاد أكبر عدد من الناس)[٤٧] هنا نجد أن « مبدأ النفعية » الشهير كان هو جوهر تعاليم بنثام التشريعية والأخلاقية. لقد كان هناك ارتباط ملحوظ بينه وبين إعلان الاستقلال الذي أصدره توماس جيفرسون في هذا العام نفسه. باختصار لقد تعانق التاريخ والفلسفة وعمل التراث المسيحي - بغير قصد من بنثام - على توثيق عرى هذه الوحدة (المقصود هذا التلازم) ومباركتها. لقد كتب بنثام كتابه الصغير الذي عرض فيه أفكاره هذه بأسلوب أكثر وضوحا وبروح أكثر جاذبية من مباحثه اللاحقة. والآن راح يقضي بعض الوقت في السفر والترحال. ومن روسيا أرسل في سنة ١٧٨٧ إلى إنجلترا مبحثه « دفاع عن الربا Defence of usuary » - أي الفائدة. لقد عارض الإدانة اللاهوتية للفائدة interest، ففي مجال الاقتصاد ومجال السياسة يجب أن يترك الفرد حرا في تنفيذ ما يراه على وفق لأحكامه على أن يكون هذا في صالح المجتمع. لقد كان بنثام ليبراليا ولكن الكلمة (ليبرالي) في المفهوم السائد في القرن الثامن عشر كانت تعني المدافع عن الحرية. لقد اتفق مع الفزيوقراط Physiocrates ومع جيفرسون على أن يكون تدخل الدولة في حرية الفرد في حده الأدنى. لقد كان راديكاليا - يحب الوصول إلى جذور الأمور، ولكنه لم يكن مؤيدا لتأميم الصناعة. وفي سنة ١٧٨٧ لم تكن الصناعة منتشرة انتشارا كبيرا ليطالب بتأميمها.

وعند عودته من روسيا أعد لنشر كتابه المهم: مبادئ الأخلاق والتشريع The Principles of Morals & Legislation (١٧٨٩، ارتبط طبعه بالتواريخ الثورية). لقد كان كتابا صعبا مدعما بصرامة بمئات التعريفات لدرجة تترك القارئ غير المختص مشوشاً لكن بنثام كان يأخذ على عاتقه عملاً عقليا مجهدا: لقد كان يهدف إلى إحلال الأخلاق الطبيعية محل اللاهوت، وإقامة السلوك والقانون على أسس قوامها صالح المجموع أو الوطن أكثر من إقامتها على أسس قوامها إرادة السلطة التنفيذية أو مصالح طبقة من الطبقات، وتحرير القانون والسلوك من فروض الدين من ناحية ومن الأحلام الثورية من ناحية أخرى.

إن هذه الأسس الجديدة - لكل من الأخلاق والقانون - قامت على مبدأ النفعية - فائدة الفعل act للفرد، وفائدة العادة للجماعة، وفائدة القانون للشعب وفائدة الاتفاقات الدولية للجنس البشري. وذهب بنثام إلى أن كل النظم تسعى لتحقيق المسرة وإبعاد الألم. وعرّف السروربأنه أي ترضية وعرّف الألم بأنه أي إزعاج سواء للبدن أو النفس. والنفعية هي ميزة تحقيق السعادة أواجتناب الألم، والسعادة هي استمرار السرور. والنفعية لا تحتاج لقصرها على الفرد فقد تكون - جزئيا أو أساساً - للأسرة أو المجتمع أو الدولة أو الجنس البشري. وقد يجد الفرد (من خلال غرائزه الاجتماعية) السعادة أوتجنب الألم في ربط ما يرضيه بما يرضي الجماعة التي ينتمي إليها[٤٨] وعلى هذا فعلاوة على تحقيق الهدف العاجل، فإن الهدف النهائي والمحك الأخلاقي لكل الأعمال والقوانين هو مدى إسهامها في تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد. «قد يكون لدى صديق هو أعز الأصدقاء لكنني إن عرفت أن مصالحه تتعارض مع مصالح المجموع، فإنني لن أضع مصالحه في اعتباري. إنني سأخدم أصدقائي وأتوقع أن يخدموني»[٤٩] ولم يدع بنثام أنه أصل هذه الصيغة النفعية. لقد أعلن بصراحته المعتادة - أنه وجد أساسها في كتاب «جوزيف بريستلى Joseph Prestly» «مقال عن المبادئ الأساسية للحكم Essay on the first principles of Government» (١٧٦٨) وكان يمكن أن يجده في كتاب فرانسيس هتشسون Hutcheson عن «الخير والشر في الأخلاق Enquiring Concerning Moral Good & Evil» (١٧٢٥) حيث عرف المواطن الصالح بأنه الذي يقدم «أقصى قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس»[٥٠] أو في كتاب

بيكاريا Beccaria الموسوم باسم: Trattato dei delitti e dille pene (١٧٦٤) الذي وصف لنا محك الأخلاق وهدفها « La massima felicita divisa nel maggior numero » أو كما أورد هيلفيتيوس Helvetius – بشكل أوضح – في كتابه عن الروح De L'esprit ١٧٥٨ « النفعية هي أساس كل الفضائل البشرية وأساس كل التشريعات ... فكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ واحدا – منفعة العامة – أي أكبر عدد من الناس يعيشون في ظل الحكومة نفسها »(٥١) إن بنثام لم يفعل أكثر من تقديم صيغة كمية لوصية الكتاب المقدس « أحب لجارك ما تحب لنفسك »(٥٢) لقد كان إنجازه هو تطبيق « مبدأ السعادة القصوى » على قوانين إنجلترا. لقد أصبح لديه الآن حقيقة أخلاقية فكرتها واضحة وأصبح لديه معيار يمكن به الحكم على وصايا المبشرين وتحذيرات المعلمين ومبادئ الأحزاب وقوانين المشرعين ومراسيم الملوك. فلا يجب أن يقدم القانون كليات غامضة (باطنية) « كالحقوق » طبيعية أو جماهيرية أو مقدسة (إلهية) ولا يجب عليه أن يقدم وحيا أوحاه الله إلى موسى أو محمد أو عيسى، ولاعقوبات بقصد الثأر. فكل اقتراح تشريعي يجب أن يجيب عن هذا السؤال: ما هو الأفضل أوما هو الأصلح؟ ما هو الأصلح للفرد أو للأقلية أو للكثرة أو للجميع؟ فالقانون يجب أن يكيف نفسه مع الطبيعة البشرية التي لا سبيل لتغييرها ومع القدرات المحدودة للبشر ومع الحاجات العلمية للمجتمع، ولابد أن يكون واضحا ويسمح بالتنفيذ أو التطبيق العملي والمحاكمة العاجلة والحكم الحازم والعقوبات الصحيحة والإنسانية. ولهذه الغايات كرس بنثام الفصول العشرة الأخيرة من كتابه والسنوات الأخيرة من حياته.

وفي هذه الأثناء راح يطبق معياره هذا على القضايا المثارة في أيامه. لقد أيد آراء الفزيوقراط في مبدأ عدم التدخل الحكومي في الشؤون الصناعية وإدارة الشؤون العامة Politics إلا في الحدود الدنيا ، فالفرد هو – بشكل عام – أفضل من يجيد الحكم فيما يحقق سعادته ولا بد من تركه حرا في نطاق ما هو مقبول اجتماعيا، وعلى أية حال لا بد أن يشجع المجتمع المؤسسات الخيرية التي يتنازل أعضاؤها عن جانب من حريتهم لتوحيد الجهود لخدمة قضية عامة. وانطلاقا من المبادئ نفسها دافع بنثام عن حكومة التمثيل الغيابي فهي الأفضل مع كل أخطائها ومفاسدها.

وقد لاقى كتاب « مبادئ الأخلاق والتشريع » ترحيبا وثناء على نطاق واسع أكثر مما كان متوقعا فقد كان الكتاب صعبا في صياغته ذا روح انتقادية وذا منحى علماني. وكان الترحيب به خارج البلاد أشد حرارة من الترحيب به داخلها. لقد ترجم في فرنسا التي جعلت مؤلفه مواطنا فرنسيا (منحته حق المواطنة الفرنسية) في سنة ١٧٩٢ . وراسله القادة السياسيون والمفكرون وأتته الرسائل من العواصم المختلفة ومن جامعات أوروبا. وفي إنجلترا أدان المحافظون Tories مبدأ النفعية باعتباره مبدأ غير وطني وغير مسيحي وأنه مبدأ مادي. ودافع بعض الكتاب ذاكرين أن أفعالا كثيرة - مثل الحب الرومانسي والأبوي والتضحية بالنفس وتبادل المساعدة - لاتنطوي على حسابات واعية بإرضاء الذات (أو إشباع رغبات الذات)، واعترى الفنانون الإحباط للحكم على أعمالهم الفنية بمقياس المنفعة. لكن الجميع فيما عدا الموظفين الحكوميين وافقوا على أن « النفع الذاتي » هو خلق كل الحكومات وسياساتها إذا نحينا جانبا الادعاء والخداع.

لقد عاش بنثام لفلسفته وجعل أعوامه مفيدة بشكل متواصل. لقد ناضل في كتابه عن « العقلانية في الدليل القضائي Rationale of Judical Evidence» (١٨٢٥) وفي مواضع أخرى ليوضح القوانين القديمة والحالات المعاصرة ونجح في تحديث (التخفيف من وطأة) المبالغات البربرية في أساليب إدارة السجون ومعاملة المجرمين. وبدأ في سنة ١٨٢٧ - وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره - في تقنين Codify القوانين الإنجليزية لكن المنية وافته بين المجلد الأول والثاني. وقد ساهم في تأسيس The Westminster Review (١٨٢٣) كمنبر للأفكار الليبرالية. وجمع حوله جماعة من التلاميذ والمريدين اعترفوا بحرارة قلبه وطيبته رغم فظاظته الخارجية. وكان بيير إتين دومون Pierre - Etienne Dumont داعيا لأفكاره في فرنسا، وجيمس ميل Mill - المفكر البارز - حرر بنفسه المخطوطة التي كتبها بنثام، ورفع جون ستيوارت مل Mill الدافع أو السبب من مرحلة الحساب إلى مرحلة الإنسانية.

لقد عمل هؤلاء « الفلاسفة الراديكاليون » بقيادة بنثام على حق التصويت للذكور البالغين والاقتراع السري وحرية التجارة وتحسين الصحة العامة وتطوير السجون وتطهير

الأدب والفكر في مرحلة انتقال

١- الصحافة

إن كانت فرنسا قد هيمنت على المسرح السياسي في هذه الحقبة، فقد كانت إنجلترا هي قائدة الأدب والحركة الفكرية. فإذا استثنينا شاتوبريان فَمَن لفرنسا في هذه الفترة يمكن مقارنته بوردزوورث Wordsworth وكولردج Coleridge وبايرون Byron وشلي؟ ولم نُدرج كيتسي Keats (١٧٩٥ - ١٨٢١) في هذه القائمة فأعماله الكبرى لا تدخل في مجال مقارناتنا الحالية، فقد كانت أزهى الورود في الشعر الإنجليزي طوال أربعة قرون بعد عصر إليزابث الأولى.

فحتَّى الرسائل المتبادلة كان يمكن اعتبارها في ذلك العصر أدباً، فخطابات بايرون وكولردج تبدو أقرب إلى روحنا من أشعارهما. وفي تلك الأيام عندما جرت العادة أن يدفع المُرْسَل إليه ثمن طابع البريد، فإنّه كان يطلب لقاء ما دفعه ثروة أو أسلوباً (المقصود أنه كان يتوقع نظير دفعه لتكاليف البريد أن يكون الخطاب مشتملاً على أموال أو أن يكون على الأقل ذا أسلوب جميل) وكان معنى أن يتلقى خطابا من هذه الأرواح المتوهجة (المقصود الشعراء المشاهير) أنه حصل على جواز سفر يخلد ذكره بعد الوفاة.

ولم تكن الصحف على أية حال تمثل أدبا وفكرا. فعادة ما كانت الصحيفة صفحة كبيرة مطوية لتصبح أربع صفحات؛ الأولى والرابعة للإعلانات، والصفحة الثانية تتناول السياسة بما في ذلك ملخص للأعمال البرلمانية في اليوم السابق . وكان يصدر في لندن عدة صحف يومية : خاصة التايمز Times (الأزمنة) التي أسست في سنة ١٧٨٨ وكانت تبيع نحو خمسة آلاف نسخة ، والكوريير Courier (الوقائع) التي تبيع عشرة آلاف نسخة، وصحيفة مورننج بوست Morning Post وهي صحيفة حزب الأحرار Whigs (حزب الهويج الذي عُرِف فيما بعد بحزب الأحرار) والمراقب Examiner صوت الليبراليين من أمثال لاي هنت Leigh Hunt . وكان لكل مركز من المراكز التي لها ممثلون في البرلمان ولكل كونتية (إقليم أو

مقاطعة) صحيفته الخاصة وأحيانا صحيفتان، واحدة للضالعين في السلطة، وأخرى لغير الضالعين فيها. وكانت هناك صحف أسبوعية مختلفة كان أشهرها بوليتكال ريجستر (المسجل السياسي) التي يصدرها وليم كوبت William Cobbet وكان هناك عدة دوريات سياسية واجتماعية وأدبية. كان أقواها «مراجعات أدنبره Review Edinburah» التي تصدر أربع مرات في السنة (فصلية) وكان قد أسسها في سنة ١٨٠٢ كل من فرانسيس جفري Francis Jeffery وهنرى بروهام Brougham وسدني سميت(*) Sydney Smith للدفاع عن الأفكار التقدمية والمراجعات الفصلية Quarterly Review التي أسسها في ١٨٠٧ جون مري Murry وروبرت سوثي Sauthy ووالتر سكوت Scott للدفاع عن أفكار حزب المحافظين (التوري Tory) وكانت سلطة الصحافة عنصرا مهيمنا على الساحة البريطانية. فلم تعد أداة للتعبير الأدبي كما كانت في الأيام المتمهّلة التي عاشها أديسون وستيل Addison & Steele وإنما أصبحت منفذاً للمعلنين ولساناً ناطقا باسم الجماعات السياسية . وما دام المعلنون يدفعون على وفق مدى انتشار الصحيفة فقد كان على المحرر والناشرين أن يضعوا في اعتبارهم الرأي العام حتى لو كان هذا على حساب الحزب في السلطة ، وعلى هذا راحت الصحافة تسخر من أبناء الملك الذين لا عمل لهم رغم كل جهود الحكومة لحمايتهم، وبالتدريج وكلما تقدمت أعوام القرن التاسع عشر، أصبحت الصحافة أداة – أصبحت أخيراً أداة لا مفر منها – للديمقراطية الصاعدة

٢ – الكتب

تضاعف عدد الكتب مع نمو الطبقة الوسطى وزيادة عدد القراء وأصبح النشر عملاً مربحاً بشكل كاف حتى إنه أصبح مهنة مستقلة، منفصلة عن بيع الكتب – لقد تنافس الناشرون للتعاقد مع المؤلفين ودفعوا لهم مبالغ جيدة وكرموهم في الصالونات الأدبية ومن هنا وجدنا الناشر جوزيف جونسون Joseph Johnson يفوز بالنشر لجدون Godwin وبين Paine وبلايك Blake، ووجدنا الناشر أرشيبالد كونستابل Archibald Constable يشرك والتر سكوت في

(*) يجب تمييزه عن سير وليم سدني الذي أحبط محاولة نابليون في عكا.

ديونه، ووجدنا توماس نورتون لونجمان Longman ينشر لوردزورث Words worth وجوزيف كوتل Cottle – في بريستول Pristol – ينشر لكولردج وسوثي. ووجدنا جون مري Murry – من لندن يستأثر ببايرون Byron ويتحكم في تجواله. وفي هذه الأثناء راحت شركة آل لونجمان العريقة تنفق ثلاثمائة ألف جنيه لنشر طبعة جديدة (١٨١٩) من موسوعة شامبرز Chamber's Cyclopaedia في ٣٩ مجلدا، وصدر من الموسوعة البريطانية ثلاث طبعات جديدة في فترة وجيزة – الطبعة الثالثة في ١٨ مجلداً (١٧٨٨ – ١٧٩٧)، والطبعة الرابعة في ٢٠ مجلدا في سنة ١٨١٠ والطبعة الخامسة في ٢٥ مجلدا في سنة ١٨١٥. وكان الناشر يدفع مبلغا إجماليا (دفعة واحدة) عند تسلمه مخطوط الكتاب من المؤلف، ولايتحدد المبلغ بنسبة من سعر كل نسخة مبيعة، كما كان الناشر يدفع بعض المال بالإضافة إلى هذا المبلغ الإجمالي الآنف ذكره إذا طبع من الكتاب طبعات أخرى وذلك بعد بيع النسخ المطبوعة من هذه الطبعات الجديدة، ومع هذا فقد كان قليلون من الكتّاب هم الذين يعيشون من حصاد مؤلفاتهم – لقد هيأ التأليف لتوماس مور Moore معيشة مريحة، وكان الأمر مشكوكا فيه بالنسبة إلى سوثى Southy وهازلت Hazlitt، وتراوحت حياة سكوت Scott بين الثراء والفقر. لقد خلف الناشرون النبلاء كحماة للأدب والفكر وظل بعض الأثرياء يقدمون يد العون، ومن هنا رأينا آل ودجوودز Wedg woods يقدمون العون المالي لكولردج Coleridge ووجدنا ريزلي كالفرت Raisley Calvert يوصي لوردزورث بتسعمائة جنيه، وأرسلت الحكومة للمؤلفين حَسَنِي السلوك مكافآت شرفية في المناسبات، ورعت شاعر البلاط بمائة جنيه لذا كان من المتوقع أن يؤلف قصائد تتناول نصرا حققه الجيش، أوتهنئة بمولود ملكي أو زواج ملكي أو رثاء لفقيد من الأسرة المالكية.

وقد عاق حركة القراءة العامة ارتفاع أسعار الكتب، لكن حركة القراءة هذه قد زادت بانتشار نوادي الكتب وبإتاحة الاستعارة من المكتبات التي كان أفضلها المكتبة العامة (قاعة المطالعة أو الأثينايوم Athenaeum) وقاعة المحاضرات (الليسيوم Lyceum) وكلتاهما في ليفربول، وكان في الأولى ثمانية آلاف مجلد وفي الأخرى أحد عشر ألفا. وكان على المشترك أن يدفع رسماً (اشتراكا) سنويا يتراوح ما بين جنيه (إنجليزي) وجنيهين مما يعطيه

الحق في استعارة أي كتاب من الكتب المصفوفة فوق الرفوف. وكان في كل مدينة مكتبة لإقراض (إعارة) الكتب. وكلما انتشرت القراءة بين العوام متخطية حدود الطبقة الوسطى فقدت شيئا من مذاقها ومستواها. فكلما اتسع جمهور القراء زاد التحول من التراث الكلاسي إلى الكتابات العاطفية (الرومانسية) ومما ساعد على هذا التحول أيضا زيادة انعتاق حب الشباب وانفلاته من الرقابة الأبوية وروابط الملكية (بكسرالميم) وكان من الممكن توظيف حكاية حب واحدة في خلق مائة عقدة قصصية. إن موضوعات ريتشاردسون Richardson المبكية مستقاة من حكايات فيلدنج Fielding عن العشاق المتيمين ومن حكايات سمولت Smollett عن المغامرين المفعمين رجولة.

لقد غلبت النساء (المقصود الشخصيات النسائية) على أعمال الروائيين باستثناء متى «لويس مونك(*) Monk» وقصة أمبروزيو Ambrosio أو الراهب (١٧٩٥) التي عرض فيها مشاهد مرعبة، ويليه في مدرسة الغموض والرعب السيدة آن راد كليف Ann Radcliffe، فهي فقط التي تستحق المكانة الثانية بعده في هذه المدرسة بأعمالها الناجحة: قصة صقلية (١٧٩٠) قصة الغابة (١٧٩١) وأسرار أدولفو (١٧٩٤) وعادة ما يطلق العامة من الإنجليز على مثل هذه الكتب: قصص romances (من الكلمة الفرنسية roman التي تعني قصة) أما الكلمة novel فخصصت للأعمال القصصية الممتدة التي تتناول أحداثا طبيعية في حياة مألوفة كما هو الحال في كتابات فيلدنج Fielding و الكاتبة جين أوستن Jane Austin وقد وصلت «روايات ويفرلي» التي ألفها سكوت بين هذين الفرعين أو بتعبير آخر كانت عوانا بينهما. وفي القصص الرومانسي تفوقت النساء على الرجال، وكان هذا أمراً طبيعيا. لقد أحدثت فرانسس (فانى Fanny) (بيرنى Frances (Burney زوبعة بروايتها إيفيلينا Evelina (١٧٧٨) واستمرت رواياتها كشرارات في الوسط الأدبي: سيسيليا Cecilia (١٧٨٢) وكاميلا Camilla (١٧٩٦) والمتجول Wanderer (١٨١٤) وبعد موتها (١٨٤٠) شغلت يومياتها (١٨٤٢) جيلاً آخر وكانت ماريا إدجورث Maria Edgeworth أكثر شهرة، فروايتاها Castle Rackrent (١٨٠٠) «والمتغيب Absentee» (١٨١٢؟)

(*) الكلمة تعني راهب.

من أشغاله الأكثر أهمية المتمثلة في اختيار الشريك المناسب ليراقصه أو ليعيش معه. وفي بيوت هذه الطبقة يجد المرء للدين مكانا يحفظه إذ إنهم نزعوا من الدين ما يجعله يسبب الرعب نتيجة التكلف الباطني (المقصود غالبا المصطنع) الذي قد يزدهر في بيت قسيس. ولم تكن الثورة الصناعية قد وصلت بعد إلى الريف لتغيظ الطبقات وتشوه المناظر وتلوث الهواء. إننا نسمع صوت جين أوستن الموثق والموثوق به في مواساتها لفاني بريس Fanny Price التي كان عليها أن تقضي شهورا في لندن على غير رغبتها:

لقد حزنت فاني لا فتقادها كل مباهج الربيع .. إنها لم تكن تعرف إلى أي مدى كانت تسببه لها بداية ظهور الأوراق واستمرارها في الاخضرار من بهجة وسرور، إلا بعد أن افتقدتها. يا للانتعاش الذي كان يحس به الجسد والروح عند مراقبة تقدم الربيع الذي لا يمكن – رغم نزواته وتقلباته – أن يكرهه المرء... انظر إلى جماله الذي يزداد رويدا رويدا من بداية ظهور وروده الباكرة في أكثر الأجزاء دفئا في حديقة خالتها إلى البراعم في مزرعة عمها وعظمة الأشجار وسموقها»[١].

لقد كانت مثل هذه البيئة هي التي أضفت على روايات جين أوستن جوا منعشا من السلام والصحة والطبيعة – إنها بيئة تمثل المنزل المريح والحديقة ذات العبير والتجول في الأمسيات مع الأخوات السعيدات، وكلمات التشجيع التي كانت تسمعها من أبيها عن تصفح مخطوطات رواياتها، هذا كله جعل قراءها من النوع غير المتعجل الذين كانوا راضين بهدوء عما يقرأون وقلما نجد قراء من هذا النوع لأي نوع من الروايات. لقد تعلمت أن النهار نفسه به ما يكفي من البركة.

لقد كتبت رواياتها الست وصبرت كثيرا على عدم نشرها. ففي سنة ١٧٩٥ – وكانت قد بلغت العشرين – ألفت أول أعمالها «الشعور والإحساس» لكنها لم تكن راضية عنه وفي العامين التاليين أنهت روايتها «الكبرياء والكراهية» وواصلت مراجعتها وتنقيحها وأرسلتها إلى الناشر وأعادها إليها لأنها لن تحقق ربحا. وفي سنة ١٧٩٨ – ١٧٩٩ وضعت التخطيط العام لرواية «دير نور ثانجر» فاشترى كروسبي Crosby حق نشرها لكنه تركها – بعد أن دفع للمؤلفة – دون نشر. ثم مرت بها فترة غير مثمرة (بلا إنتاج) ربما كانت بسبب

تغير محل الإقامة وربما كانت بسبب عدم التشجيع . وفي فبراير ١٨١١ بدأت كتابة رواياتها حديقة مانسفيلد، وفي نوفمبر أعادت صياغة روايتها « الشعور والإحساس » وتمت طباعتها. وفي آخر خمس سنوات عمرها ظهر الحصاد الكبير: فوجدت رواية « الكبرياء والكراهية » ناشرا في سنة ١٨١٣ وحديقة مانسفيلد في سنة ١٨١٤ ، وإيما Emma في سنة ١٨١٦ ، وبعد موتها في سنة ١٨١٧ ظهرت رواية دير نور ثانجر وبعدها بقليل رواية « الإقناع » . وتقدّم رواية « الكبرياء والكراهية » في بدايتها خمس أخوات كلهن جاهزات للزواج وتواقات إليه . فقد كانت السيدة بنت Bennet ذات روح متقلبة مندهشة وكانت دعواتها كل صباح أن تجد لبناتها أزواجا، وكان فكرها دوماً يدور حول هذا الأمر . أما زوجها السيد بينت فقد تعلم الهروب من حياته اليومية إلى المكتبة حيث يجد عالما آخر بلا إزعاج وكان قد تخلى تماما عن مشكلة تقديم خمس « دوطات » – من الأراضي والجنيهات – لبناته، فهو يحتفظ ببيته طوال حياته فقط ، وبعد الموت ينقل على وفق وصية للسيد المبجل كولنز Collins وهو قس بروتستنطي في مدينة قريبة ولما يتزوج بعد . آه لو أن إحدى بناته (بنات السيد بنت) استطاعت أن توقع هذا القسي في شراكها! لقد كانت كبرى البنات وألطفهن (جين Jane) . قد عقدت الآمال على الزواج من السيد بنجلي Mr Bingley الثري الوسيم لكن يبدو أنه كان يفضل أخرى، ولم تكن جين تستطيع إخفاء أحزانها إلا بالكاد . أما إليزابث التي تليها في العمر فلم تكن فخورة بجمال وجهها وقوامها وإنما باستقلالها وكونها شخصية معتمدة على نفسها فكانت تفكر بنفسها في أمر نفسها ولم تكن لتقبل أن تطرح في مزاد . لقد كانت تقرأ كثيرا في مجالات مختلفة وكان يمكنها مواجهة أي رجل في مضمار الثقافة والفكر، وأبدت المؤلفة إعجابا بمثل هذه الشخصية . والأخت الثالثة ماري كانت صالحة للزواج من حيث السن وكانت تواقة إليه وكانت مغيظة ساخطة لأن الأكبر منها سنا سيستغرقن وقتا طويلا قبل أن يفسحن لها الطريق (المقصود أنها لن تتزوج إلا إذا تزوجن) . أما ليديا Lydia أصغرهن فكانت مندهشة تتساءل لم يتحتم على البنت أن تنتظر الزواج الرسمي؟ ولِمَ لايسمح لها باكتشاف أسرار الجنس قبل ذلك؟[٢] .

لقد ابتهجت الأسرة بأخبار مفادها أن السيد كولنز Collins يخطط لزيارتها. وكان السيد

كولنز هذا رجلا معتزا بنفسه وواعيا بقداسته، لكنه يراعي بعناية الفروق الطبقية والمصالح المادية. ومن خلاله قدمت المؤلفة صورة قاسية للتبعية المطلقة للطبقة الاجتماعية المغلقة، تلك التبعية التي وقع فيها هذا القس الإنجليكاني المتدني الرتبة في السلك الكهنوتي. لقد كان هجاء المؤلفة شديدا، لكنه كان واضحا وعميقا وحادا كحد المقصلة.

وأتى الشاب المبجل ورأى أن جين الجميلة منيعة صعبة القياد فتقدم للزواج من إليزابث التي أربكت الأسرة برفضها إياه فقد كانت إليزابث حبيسة الصورة المثالية التي رسمتها لشريك حياتها. لكن ماري تُوجِّه عينيها وابتساماتها صوب وريث الثروة الموعود وراحت تلفت نظره برقتها وقد دفعه هذا إلى طلب يدها من والديها السيد والسيدة بنت، وهي لم تفعل ذلك إلا لإحساسها أن زواج الأخت الثالثة قبل الأخريات سيكون شركاً بكل معنى الكلمة.

لقد بدت كل الأمور على مايرام ولكن ليديا Lydia كانت خائفة أن يفوتها قطار الزواج بسبب تهور السيد وكمان Wickman معها. لقد تلوثت الأسرة كلها بسبب خطيئتها مع السيد وكْمان وتجنبها كل الجيران تقريبا. وأرسل السيد المبجل كولنز توبيخاً للسيد بنت: إن موت ابنتك كان أفضل مما حدث... من الذي سيرتبط بمثل هذه الأسرة؟» وأنقذت إليزابث الجميع بإغرائها السيد داركي Darcy الطبقي المتحفظ بتمنعها وكبريائها فألقى بملاينيه تحت قدميها وأجبر وكمان Wickman على إصلاح خطئه بالزواج من ليديا Lydia وحلت كل المشكلات وعبّرت المؤلفة عن هذا بطريقتها الساحرة لدرجة أن السيد بنجلي Bingley اكتشف أنه كان دوماً يحب جين.

أماروابة حديقة مانسفيلد فقد كانت أفضل بناء، فقد كان «الحل» متوقعاً في مستهل القصة. ويكاد يكون الإعداد له في كل حدث من أحداث الخطة بشكل تدريجي (خطوة خطوة). ولم تكن شخصيات القصة مجرد دمى في حبكة فنية وإنما كانت أرواحا تشق طريقها في الحياة بحيوية، وكلها توضح بشكل سوي توجيه (أو ملاحظة) هيراكليتوس Heracleitus التي مؤداها «شخصية الإنسان هي قدره» (وستكون هذه الملاحظة هي الدليل المرشد في كل القصة) أما الحديقة فمن الممتلكات الجميلة للسيد توماس برترام Thomas

Bertram الذي كان أبا أكثر تدقيقا ومراقبة من السيد بنت. وعلى أية حال فقد ارتكب هو أيضا أخطاء غريبة؛ فقد انشغل بجمع الثروة والحصول على الرتب الشرفية فترك ابنه الكبير الذي انحط أخلاقيا وتدهور بدنيا بسبب عدم رعاية أبيه له، وسمح هذا الأب أيضا لابنته بقضاء إجازة طويلة في لندن حيث تصبح كل أخلاق الريف مجالا للسخرية مع أن أهل الريف هم عماد الحياة. وكان مما يحسب له أنه تبنى في أسرته فاني بريس Fanny Price ابنة أخت زوجته الفقيرة والمتواضعة والحساسة. وكان محط فخره هو ابنه الأصغر إدموند Edmund المكرس للكنيسة والذي وصف بأنه نموذج لما يجب أن يكون عليه رجل الدين. لقد كان بديلاً مؤقتا للسيد كولنز. لقد استغرق الحديث عن إدموند مئات الصفحات لتؤكد المؤلفة أن تأثيره في فاني كبير، وقد عرضت المؤلفة في سياقها الهادئ ارتباطهما معا بالطريقة التي يحدث بها مثل هذا الارتباط في الحكايات الكلاسية.

لقد كانت جين أوستن حتى في روايتها هذه وفي دراساتها عن الحب كلاسيّة ذات عقل رزين وتناول ممتاز. ففي زمن سادت فيه أسرار أدولف Udolphian mysteries وقلاع والبول Walpolian Castles ظلت واقعية وظلت مراقبة تحكم أحكام العقل. وكان أسلوبها عفيفا محتشما كأسلوب دريدن Dryden وكانت تقواها غير انفعالية وإنما كانت كتقوى البابا (رزينة متعقلة) وكان مجال اهتمامها ضيقا لكنه كان عميقا تسبره بمسبارها. لقد أدركت أن الجانب الأساسي في الحياة هو تجنيد الفرد لخدمة الجنس البشري، فحتى أزمات الحكومات وصراع القوى بل والمطالبة بالعدالة الاجتماعية، كل ذلك أقل أهمية من الجهود غير الواعية للشباب للوصول إلى مرحلة النضج، واستخدام قواهم والاستفادة منها. ونظرت المؤلفة إلى عنصري البشرية – الرجال والنساء – على قدم المساواة، فكلاهما – الرجل والمرأة – تستعصي أمراضهما على العلاج وتستعصي أهدافهما على الفهم، فيما ترى المؤلفة. إنها تتناول موضوعها بهدوء، فلا نسمع لها صراخا لكننا نستطيع تتبع أفكارها بشوق بالقدر الذي تسمح به سرعة خطى الحياة أو سرعة وقع أحداثها، ويمكن في وسط هذه السرعة أن نكون هادئين أو بتعبير آخر أن نسمح لهدوء المؤلفة بالانتقال إلينا. في هذه الأيام كنا قلما نجد قرية في إنجلترا إلا وفيها متعبدوها (طائفة من المتدينين).

٤ – وليم بلايك[*] (١٧٥٧ – ١٨٢٧)

ولد وليم بلايك قبل جين أوستن بثمانية عشر عاما ولاقى نحبه بعد موتها بعشر سنين. ويمثل بلايك حلقة الوصل أو المرحلة الانتقالية إلى الرومانسية. لقد عاش في عالم الأسرار ورفض العلم وشك في الله وعبد المسيح وحوّل الكتاب المقدس ونافس الأنبياء ودعا إلى مدينة مثالية (يوطوبيا) يقطنها قديسون يمشون على الأرض.

لقد كان ابنا لصانع جوارب في لندن، واعتراه الرعب وهو في الرابعة من عمره عندما رأى الرب ينظر إليه عبر النافذة. وبعد ذلك بقليل رأى الملائكة ترفرف فوق شجرة، كما رأى النبي حزقيال Ezekiel يتجول في حقل[٣]. وربما لم يُرسل به أهله إلى المدرسة حتى العاشرة من عمره بسبب خيالاته التي كانت تختلط بحواسه دون فاصل أو قاعدة. وقد التحق بعد وصوله هذه السن (العاشرة) إلى مدرسة رسم، وفي الخامسة عشرة بدأ التدرب على مهنة النحت مع النحات جيمس باسير Basire واستمر على هذه الحال طوال سبع سنوات . لقد قرأ كثيرا بما في ذلك أعمالا رومانسية مثل ذخائر الشعر الإنجليزي القديم لبيرسى Percy ومؤلف ماكفرسون Macpherson المعروف باسم « أوسيان Ossian » وكتب هو نفسه الشعر ورسم الرسوم التوضيحية. وعندما بلغ الثانية والعشرين تم قبوله كدارس للحفر في الأكاديمية الملكية Royal Academy ولكنه تمرد على نصائح رينولدز Reynolds الكلاسية، وفي وقت لاحق ندم على أنه « أضاع جهده » وشبابه وعبقريته في ظل كابوس السيد يشوع Joshua وجماعته الماكرة من الخدم المستأجرين » وقد طور أسلوبه الخيالي في الرسم رغماً عنهم وكان قادرا على إبراز شخصيته من خلال الألوان المائية وأعمال الحفر[٤].

ولم يكن ميالاً بشدة إلى الجنس الآخر وقد عبر ذات مرة عن أمله في الا تكون هناك لقاءات جنسية وعن أمنيته في زوال هذه الرغبة من البشر[٥]. ومع هذا فقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من كاترين بوشير Catherine Boucher وكان غالبا ما يسبب لها المتاعب بنوبات غضبه كما كان يرعبها برؤاه، ومع هذا فقد اعترفت بعبقريته واهتمت به بإخلاص حتى آخر حياته ولانعرف أن له أطفالا لكنه كان يحب اللعب مع أطفال أصدقائه. وفي سنة

(*) Blake بلاك أو بليك (مع إمالة الألف إلى الياء أو الياء إلى الألف) وفضلنا كتابتها على نحو ما ورد في معجم المورد. (المترجم)

١٧٨٣ قام جون فلاكسمان Flaxman و أ. س. ماثوس A.S. Mathews بتمويل طبعة خاصة لأشعار بلايك الباكرة، وقد أعيد نشر هذه الاسكتشات الشعرية في سنة ١٨٦٨ فأسهم ذلك في تحقيق شهرته التي تأخرت. وبعض هذه الأشعار مثل «إلى نجم المساء (الزهرة)» وهي مقطع ملحمي غير مقفى احتل مكانا حفيا في الشعر الإنجليزي[٦]. وقد كان مثله في ذلك مثل أي روح شاعرة حساسة باغضا لتركز الثروة وشيوع الفقر في إنجلترا. لقد كان مثل توم بين Paine وجودون Godwin وماري ولستونكرافت Wollstonecraft وغيرهم من الراديكاليين الذين تعاملوا مع الناشر جوزيف جونسون Johnson، قد شرب حتى الثمالة من نبيذ التنوير الفرنسي وتغنوا بالعدالة الاجتماعية والمساواة. وكان مظهره ينم عن روح نافرة من أي نظام مفروض. كان قصيرا ممتلئا ذا ملامح نبيلة.مفعمة تعبيرا وحيوية وكان شَعره بنيا مُشرباً بصفرة مصففا بإتقان وكانت خصلاته غير متدلية وإنما منتصبة وكان ينظر وكأنه رادار لما هو بعيد ، ولابد أن عينه الحادة وجبهته العريضة وفراسته الشديدة قد أضفت على مظهره جاذبية حقيقية[٧].

وفي سنة ١٧٨٤ افتتح محل طباعة في شارع برود Broad Street واتخذ من أخيه الأصغر روبرت مساعداً له فكانت علاقتهما حميمة لأن كل واحد منهما كرس حياته للآخر، ولكن روبرت كان متلافا كثير الإنفاق وقد أدى موته في سنة ١٧٨٧ إلى تعميق التوتر والكآبة في نفس وليم، وأدّى إلى الجانب الصوفي في فكره. لقد كان مقتنعا أنه رأى روح روبرت لحظة موته وهي تصعد عبر السقف. رآها وهي تصفق من فرط السعادة[٨] وقد عزا إلى شبح روبرت طريقة الحفر على إحدى اللوحات - سواء حفر النص أو حفر الرسوم التوضيحية. وكانت كل كتب بلايك تقريبا محفورة على النحو نفسه وكانت تباع بمبلغ يتراوح بين شلنات قليلة وعدة جنيهات للواحد منها. وكان قراؤه - حتى ذلك الوقت - قليلين.

وفي سنة ١٧٨٩ أصدر أول عمل كبير من أعماله هو «أغاني البراءة» وكان يضم تسع عشرة مقطوعة شعرية. ومن الواضح أنه كان يعني بالبراءة مرحلة ما قبل البلوغ عندما كانت الحكايات المجمعة والمتعلقة بالمسيح تحظى بالتصديق وتسبب للمستمع إليها سعادة قصوى وبهجة، وعلى أية حال فقد كان بلايك قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره عندما ظهرت

قصائده هذه ونحن نحس أن الخبرة راحت تنمي موت البراءة. ولابد أن نعيد هنا سطوره الشهيرة التي يمكن أن نضاهيها بأبياته التي وجهها لنمر Tiger بعد ذلك بخمس سنوات :

أيّها الحمل الصغير، من خلقك؟

ألا تعلم من سوّاك؟

ألا تعلم من نفخ فيك الحياة ورزقك؟

وهيأ لك المجرى تشرب منه

وكساك ثوب البهجة

ياله من ثوب ! إنه أنعم الأثواب

ثوب من صوف فاتن متألق

أيها الحمل الصغير، من سوّاك فعدلك حملا؟

ألا تعرفه؟ !

أيها الحمل الصغير

أنا سأقول لك

إنه يدعى باسمك

لأنه أسمى نفسه حَمَلا(*)

إننا ندعو نفسنا باسمه

أيها الحمل الصغير ليباركك الرّب

ليباركك الرّب.

وربما كانت القصيدة التالية هي الأجمل. إنها بعنوان «الصبي الأسود الصغير» وفيها يعجب الصبي الزنجي لم خلقه الله أسود البشرة. إنه يحلم بوقت يأتي يلعب فيه الصبي الأسود مع الصبي الأبيض دون أن تعوق ظلال اللون لعبهما. وثمة قصيدتان بعد ذلك -

(*) من المصطلحات التي يستخدمها بعض المسيحيين للدلالة على السيد المسيح أنه «حَمَل الله» وهي عبارة وردت في الأناجيل، ويرى مسيحيون آخرون أن إطلاق «حمل الله» على السيد المسيح على سبيل المجاز مما يعني أيضا أن (ابن الله) لاتعني أكثر من المعنى المجازي أي القريب من الله. (المترجم)

قصيدة «كنّاس المدخنة» وفيها يتخيل ملكاً (ملاك) ينزل من السماء ليحرر العاملين في تنظيف المداخن من معاطفهم الملوثة بالسخام التي يعملون – ويناموت – وهي تغطي أبدانهم، أما القصيدة الأخرى فهي «الخميس المقدس» والتي ينهيها بتحذيره: «والآن، فلتتمسك بالرحمة والشفقة، وإلا أبعدت الملائكة عن بابك»

ومرت خمسة أعوام: إنها الأعوام التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية وتألقت مثاليتها (١٧٩١) ثم عادت إلى المذابح والإرهاب (١٧٩٢ – ١٧٩٤). وفي سنة ١٧٨٩ – على وفق بعض الروايات – وضع بلايك فوق رأسه غطاء الرأس الأحمر الذي يرمز للثورة الفرنسية وانضم إلى بلين Plaine في مهاجمة الكنيسة الإنجليزية وأثرت فيه الاضطرابات والفوضى فانفجر مؤلفاً قصيدة قصصية بسيطة زاخرة بالنبوءات تعكس ما ورد في إرمياء Jeremiah وهوشع Hosea، فكانت إعلانا مشئوما لعالم تجلله الخطايا والآثام.

ولانوصي أولئك الذين يمتعضون من الإبهام بقراءة عمله هذا ولكننا نلاحظ أن بلايك في ديوانه «زواج الفردوس وجهنم» (في معرض هجائه لسويدنبرج Swedenborg) يقارن بين هاتين المملكتين (مملكة الفردوس ومملكة جهنم) من ناحية والبراءة والخبرة من ناحية أخرى. وبعض الأمثال التي أتى بها من الجحيم» استوحت راديكالية هوتيمان وفرويد ونيتشة Whitmanic - Freudian - Nietzschean radicalism:

كل الطعام المفيد يتم الحصول عليه دون شباك أو شراك...

فما هو أجدى وأرفع أن تجعل آخر في مواجهتك...

فكبرياء الطاووس هي عظمة الرب ... وعري

النساء هو عمل الرب...

وقتله لطفل في مهده لا تجدي معه رغبات ممرضة

لاجدوى من جهودها...

فالرب هو – فقط – الفعل والوجود في الكائنات

أو البشر...

فكل الأرباب في صدور البشر...

فعبادة الرب هي توقير مواهبه للآخرين .. وهي حب أعظم الرجال ... إن أولئك الذين يغارون من الرجال العظماء أو يشوهون سمعتهم إنما يكرهون الرب لأنه ليس هناك أرباب سوى هؤلاء العظماء.

وفي ديوانه أغاني الخبرة (١٧٩٤) نجد الشاعر يعارض ما ورد في ديوانه « أغاني البراءة » بقصائد غنائية أخرى عامرة بالشك والإدانة:

أيها النمر .. أيها النمر

المتألق كالنار في ظلمات الغابة

أي يد خالدة أوعين ساهرة

أمكنها صياغة سيمتريّة رُعبك ؟!

يالكتفيك! يالمكرك ! ويالحيلك!

أيمكنها أن تتحمل قلبك؟!

ومتى بدأ قلبك يسحق ويضرب ويخفق؟

يا لقسوة أقدامك! .. يالقسوة قدميك الخلفيتين!

وقدميك الأماميتين!

متى تطرح النجوم حرابك؟

ومتى ترتوى السماء بدموعك؟

أليس هوالذي يسرّه فعلك؟

أليس هو الذي جعل «الحمل(*) Lamb» يوجدك؟

وبينما نجد في ديوانه « أغاني البراءة » الصبي الصغير التائه وقد أنقذه الرب وأعادهُ مسرورا إلى بيته، نجد في أغاني الخبرة» صبيا يحرقه القُسس لأنهم لم يعرفوا له دينا . وفي ديوان « أغاني البراءة » يصف في قصيدته « الخميس المقدس » كاتدرائية القديس بول مزدحمة بالأطفال السعداء الذين ينشدون الترانيم، نجده يتساءل في « أعاني الخبرة»

(*) الحمل أو حمل الله ، عبارة يطلقها المسيحيون على السيد المسيح عليه السلام. (المترجم)

يتساءل :

أهذا شيء مبارك (مقدس) يستحق أن نراه؟.

في بلاد غنية مثمرة

يرزح الأطفال في البؤس

يأكلهم البرد والمرابون

أتلك أغنية صارخة مضطربة؟

أيمكن أن تكون أغنية مرحة؟!

وهذا العدد الكبير من الأطفال الفقراء فيها

إنها بلاد الفقر.

ولم تكن الثورة فيما يبدو علاجا لهذه الشرور «فالقبضة الحديدية أطاحت برأس الطاغية، ثم أصبحت طاغية بدلاً عنه» (٩). لقد وجد بلايك – الذي لم يكن يحب الثورات العنيفة – العزاء فيما تبقى لديه من عقيدة دينية. إنه الآن لا يثق في العلم لأنه خادم للماديّة وأداة يستخدمها النشيط ضد البريء وتستخدمها السلطة ضد البسطاء. «فالفن هو شجرة الحياة والعلم هو شجرة الموت، والرب هو يسوع المسيح»(١٠).

وبعد سنة ١٨١٨ لم يكتب بلايك شعرا إلا قليلا ولم يجد له إلا قلة من القراء، وعاش على إنتاجه في الفن. وفي بعض سني الستينات من عمره عانى الفقر الشديد حتى اضطر إلى حفر الإعلانات لمصنع ودجوود Wedgwood للخزف. وفي سنة ١٨١٩ أنقذه من فقره جون لينل John Linnel إذ عهد إليه برسم الرسوم التوضيحيه لسفر أيوب Book of Job والكوميديا الإلهية لدانتي. ووافته منيته (١٨٢٧) بينما كان يعمل في هذين العملين، ولم يكن ثمة حجر يشير إلى موضع دفنه لكن بعد قرن كامل من وفاته نصب لوح حجري عليه اسمه في البقعة التي دفن فيها، وفي سنة ١٩٥٧ صنع له سير جاكوب إبستين Jacob Epstein تمثالا نصفيا وضع في كنيسة وستمنستر Westminster وعند موته كان الانتقال إلى مرحلة الرومانسية قد غدا انتقالا كاملا. لقد بدأ هذا الانتقال مترددا عندما كانت الكلاسية في ذروتها مع الفصول Seasons التي ألفها (١٧٣٠) طومسون والقصائد الغنائية

Odos التي ألفـهـا كـولنز (١٧٤٧)، و Clarissa Harlowe التي ألفـهـا ريشـاردسـون Richardson (١٧٤٧) وأغاني الرثاء Elegy التي ألفها جري Gray (١٧٥١) وجولي Julie ou la nouvelle Héloise لروسـو (١٧٦١)، وFingel (١٧٦٢) التي ألفـهـا مـاكـفـرسـون Macpherson وقلعة على أوترانتو Otranto (١٧٦٤) التي ألفـهـا والوب Walope وكـتـابات بيـرسي Percy عن الشـعـر الإنجليـزي القـديم (١٧٦٨) والقـصـائد الغنائيـة الإسكتلنـدية والألمانيـة، ومـا كـتبـه شـتـرتون Chatterton (١٧٦٩) وويرثر Werther (فيـرثر) التي كـتبـهـا جوته Goethe (١٧٧٤). حقيقة أن أي عهد لم يكن يخلو من الرومانسية، فالرومانسية لم تنعدم أبداً في أي وطن أو عصر عند أي فتى أوفتاة، وكـانت الكلاسيـة بناء متغلغلاً غير راسخ في الحكم وكانت قيدا على نبضات وعواطف تسري في العروق مسرى الدم.

ثم أتت الثورة الفرنسيـة فجلبت الحرية حتى في مرحلة انهيـارها – أي انهيـار الثـورة، ففقـدت الأشكال القـديمة للقـوانين والنظم التـقليـدية هيبتـهـا وسطوتهـا، وانطلقت المشاعر والخيـالات والطموحـات والتطلعـات تعبّر عن نفسـهـا بالكلمـة والفعل. لقـد أشعل الشـبـاب نيران الشعر والفن تحت كل قاعدة أدبية وكل حظر أخلاقي وكل تضـييق عقـدي وكل دولة مكتسـية بقشـور القانون، وفي سنة ١٧٩٨ راح وردزورث وكـولردج يكـتبـان مـعـا القـصـائد والمباحـث التـقـديميـة للقـصـائد الغنائيـة المعـروفـة باسم Lyrical Ballads وراح بيـرنز Burns وسكوت Scott يغنيـان للحب والثورة والحب في سكـتلندا، وراحت جيـوش نابليـون تحطم الحدود بشكل أسرع من قدرة الثورة على نشر حلمهـا. لقـد أصبح الأدب في كل مكان هو صوت الحرية. قلما بدا المستقبل مفتوحا بلا آفاق تحده كما هو الآن، وقلما كانت الآمال بلا نهاية كما هو الآن، وقلما بدا العالم شابا كما يبدو لنا الآن.

الفصل الواحد والعشرون

شعراء «منطقة البُحَيْرة»

[١٧٧٠ - ١٨٥٠م]

١- البيئة المحيطة

لقد جمعنا في فصل واحد مُربك بين وردزورث، وكولردج وسوثي، لا لأنهم أسسوا مدرسة أدبية، فهذا لم يحدث ولا لأنهم اشتركوا في سمات أدبية واحدة ، فأشعار كولردج الساحرة تغوص في أسرار عامرة بالغموض والأرواح الغريبة بينما أشعار وردزورث ذات روح نثري تجول برضا بين ما هو عام مألوف، من البشر رجالاً ونساء وأطفالا وما هو عام مألوف من الأشياء. ولقد عاش كولردج ومات رومانسيا – لقد كان رجل المشاعر والآمال والمخاوف والهوى، أما وردزورث – باستثناء فترة رومانسية انتقالية في فرنسا وفترة الإعلان الثوري سنة ١٧٩٨ – فقد كان كلاسيا مثل كريب Crabbe وكان يتسم بهدوء محافظ. أما بالنسبة إلى سوثي Southey فكان شعره رمانسياً في وقت راج فيه هذا الشعر، وكان نثره ملتزما جديرا بدريدن Dryden (المقصود يضارع كتابات دريدن) وكانت سياساته الناضجة مرتبطة بالوضع الحالي (الراهن) وكانت حياته الزوجية المستقرة وصداقاته الخصبة توازن الاتجاهات الفلسفية والمالية والجولات الجغرافية لرفيق الشاعر الذي راح يحلم وإياه في وقت من الأوقات بمدينة مثالية (يوطوبيا) اشتراكية على شواطئ سسكويهانا Susquehanna. إن هؤلاء الرجال لم يكونوا مدرسة إلا بمعنى أنهم جميعا قطنوا لسنوات طوال منطقة (ولاية أومحافظة) البحيرة في شمال غرب إنجلترا – إنها منطقة ضبابية ممطرة تتجمع فيها السحب .. إنها منطقة تجلّل ذرى جبالها الثلوج وتمتلئ بالبحيرات والبرك الفضية مما يجعل المنطقة من كندال Kendal وعبر وندمير Windemere أومبلسيد Ambleside وريدال ووتر Rydal Water وجراسمير Grasmere ودرونتووتر Derwentwater وكزويك Keswick حتى كوكرموث Cockermouth واحدة من أجمل مناطق كوكبنا. إن جبال المنطقة غير شاهقة فأعلاها لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم وهي غير متجانسة (لا يشبه بعضها بعضها

الآخر) ويكاد المطر يهطل يوميا لكن الضباب يعانق الجبال بحب، وتكاد الشمس تطل يوميا واعتاد المترددون على تحمل تقلبات المناخ بسبب السلام الذي يخيم على القرى وبسبب الخضرة الدائمة وكثرة الورود السعيدة يبللها الندى وروحي كولردج المجنون، ووردزورث الرصين اللتين تتردد أصواتهما بين التلال . هناك في كوكرموث Cockermouth ولد وردزورث وفي جراسمير Grasmere مات، وهناك في كزويك Keswick عاش كولردج فترات متقطعة وعاش سوثي Suthey أربعين سنة، وهناك عاش فترات مختلفة كل من : دي كوينسي De Quincey وأرنولد الروجبي Arnold of Rugby ورسكين Ruskin وباختصار، فهناك أتى كل من سكوت Scott وشيلي Shelley وكارليل Carlyle وكيتس Keats ليتذوقوا طعم الجنة Eden ويتشمموا عبيرها.

٢ - وردزورث : ١٧٧٠ - ١٧٩٧

كانت أمه ني آن كوكسون Nee Ann Cookson ابنة تاجر كتان في بنريث Penrith – أما أبوه جون وردزورث فكان محامياً نجح في عمله كوكيل لأعمال السير جيمس لوثر Lowther، وقد ربى الزوج والزوجة في منزلهما المريح في كوكرموث خمسة أطفال :ريتشارد الذي أصبح محاميا ووكيل أعمال، وأدار الأمور المالية للشاعر، ووليم ودوروثي وهما اللذان سنهتم بهما في سياقنا هذا، وجون الذي مات في حادث جنوح سفينة، وكريستيان الذي درس وتدرج في المناصب حتى صار رئيسا لكلية التثليث في كمبردج. ولأسباب لانعلمها الآن لم يتم تعميد وليم إلا بعد ميلاد دوروثي التي ولدت بعده بعام (في سنة ١٧٧١) فقد تم تعميد الأخ وأخته في اليوم نفسه كما لو كان هذا لمباركة حبهما الذي استمر مدى الحياة.

لقد أصبحت دوروثي هي صديقة طفولته وكان ارتباطه بها يفوق ارتباطه بإخوته الآخرين . وكان وليم وردزورث حاد الذهن حساسا ، وكانت هي أكثر منه حدة وأشد حساسية إذ كانت أسرع منه في تمييز أشكال النباتات وألوانها، وأنواع الأشجار وطبيعتها وما تفرزه وحركة السحب البطيئة وكانت شديدة الإحساس بضوء القمر الفضي الذي

يكسو البحيرات. لقد كان على الشاعر أن يقول عن أخته: «لقد كانت عيني التي أرى بها وأذني التي أسمع بها». لقد كانت تلطف من حدة اندفاعه في القنص ليطارد ويقتل، لقد أصرت على أن عليه ألا يؤذي أي كائن حي[1].

وعندما بلغت دوروثي السابعة من عمرها فُجعا بموت أمهما. وحزن أبوهما حزنا شديدا ورفض أن يتخذ له زوجه أخرى، واستغرق في عمله وأرسل أطفاله ليعيشوا مع أقاربهم. فذهبت دوروثي إلى خالة لها في هاليفاكس Halifax في يوركشير فلم تعد الآن قادرة على رؤية وليم إلا في فترة الإجازات. وتم إلحاقه في سنة ١٧٧٩ بمدرسة جيدة في هوكشيد Hawkshead بالقرب من بحيرة وندرمير Windermere وفيها درس الكلاسيّات الإغريقية واللاتينية وبدأ - كما قال - «ينسج الشعر».

ويبدو أن الغابات والمياه القريبة قد لعبت دورا أكبر من دور كتبه في تشكيل أسلوبه وشخصيته. ولم يكن عازفا عن الحياة الاجتماعية فقد كان يشارك غيره من الشباب في المباريات وأحيانا كان يقضي أمسيات صاخبة في فندق محلي لكنه كثيرا ما كان يتجول وحيدا بين التلال على طول شاطئ اسثويت Esthwaite Water وبحيرة وندرمير Windermere. وبين الحين والآخر كان لا يعبأ بالمناخ فقد ألف تغيراته، فكان يمعن في تجوله إلى أماكن لا يكون فيها آمنا وعرف المخاوف التي يمكن أن تلم بالشباب الذين يترددون على الأماكن التي بها كائنات حية غير بشرية، لكنه بالتدريج بدأ يحس بالروح الكامنة في نمو النباتات وفي لعب الحيوانات وصراعها، وفي شموخ الجبال وفي ابتسام السماء وتجهمها. لقد بدا له وكأن كل هذه الأصوات المنبعثة من الحقول والغابات والذرى والسحب تتحدث إليه بلغتها الخاصة. لغة أدق من لغة الكلمات وأرق وأكثر باطنية، لكنه يحس معانيها التي تؤكد له أن الأشياء المتعددة الكثيرة كثرة لا تصدق الموجودة حوله ليست مجرد ماديات لاحول لها وإنما هي إبداع رب أعظم وأقرب من الإله البعيد الصامت الذي لا شكل له، الذي يتوجه إليه في صلواته. ومن هنا أصبح ذا مزاج استبطاني جعله يستغرق في تأمل الحياة الداخلية أو الباطنية بالإضافة للعبادة الظاهرة.

وفي سنة ١٧٨٣ مات أبوه فجأة. وكانت ممتلكاته متفرقة وغير موثقة، فمرت عبر قضايا

استغرقت وقتاً طويلا وكلفت الكثير من الأموال وتأخر سداد مبلغ ٤,٧٠٠ جنيه إسترليني التي كان السير جيمس لوثر مدينا بها كثيرا حتى إن الوصية الموجودة لم تكن تسمح سوى بستمائه جنيه لكل طفل وهو مبلغ لا يسمح أبدا بمواصلة تعليمهم[٢] ومع ذلك وجد أخوهم ريتشارد من الوسائل ما يمكنه من رؤية وليم في هوكشيد Hawkshead وفي أكتوبر سنة ١٧٨٧ التحق وردزورث بكلية القديس جون في كمبردج. وحث أحد أعمامه مدير الكلية لتقديم منحة دراسية له على أمل أن يتمكن من إعداد نفسه لتسنم منصب كهنوتي في الكنيسة الإنجليكانية، وبالتالي لايشكل عبئا مالياً على أقاربه . لكن وليم بدلاً من أن يعكف على دراسات تؤهله لمنصب كهنوتي راح يقرأ ما يعجبه، خاصة شوسر Chaucer وسبنسر وشكسبير وميلتون – واعترض على إلزامه بالحضور إلى الكنيسة مرتين في اليوم، فقد كان من الواضح أن قراءاته قد أزاحت شيئا من عقيدته الموروثة. لكن كثيرا من إيمانه وعقيدته الموروثة هذه لا بد أن يكون قد ظل مصاحباً له لأنه لم يكن يأنس لأفكار فولتير. وفي يوليو سنة ١٧٩٠ حث زميل دراسته، ابن ويلز، روبرت جون على أن يدخرا معا عشرين جنيها للقيام معا برحلة – مشيا على الأقدام – في القارة الأوربية. واتخذا طريقهما إلى بحيرة كومو Como واتجها شرقا في سويسرا، وهناك أصبح المال اللازم معهما قليلا فأسرعا بالعودة إلى إنجلترا ليهدئا من غضب المسؤولين الماليين. وعوض وردزورث، دوروثي عن إهماله لها طوال عام بأن راح يقضي أيام الكريسماس معها في فورنست ركتوري Fornsett Rectory (المقابل الحرفي للكلمة ركتوري هو بيت القسيس) بالقرب من نورويتش Norwich – لقد كتبت دوروثي إلى جين بولارد «لقد اعتدنا أن نتمشى كل صباح نحو ساعتين ، وكنا في كل يوم نذهب إلى الحديقة في الساعة الرابعة مساء... لنسير جيئة وذهابا حتى السادسة .. آه يا جين .. إنني لم أكن أشعر بالبرد عندما يكون معي»[٣] وكانت تأمل أن يصير رجل دين وأن يسمح لها عندئذ بأن ترعى بيته. وعندما تخرج من كمبردج (يناير ١٧٩١) تحطمت كثير من آماله بذهابه إلى لندن « حيث عاش في خمول يكاد يكون تاما »[٤] وكان في كل شهر من شهور مايو يقوم مع جونز Jones بجولة في أنحاء ويلز، فكانا يتسلقان جبل سنودون Snowdon (١,٣٥٠ قدما) ليريا شروق

الشمس. وفي ٢٧ نوفمبر عبر مرة أخرى بمفرده إلى فرنسا. لقد كانت الثورة الفرنسية وقت وصوله إلى فرنسا هذه المرة في أجمل وأرق مراحلها، لقد كانت الثورة قد صاغت دستورها الليبرالي وتم إعلان حقوق الإنسان للعالم، فإلي أي حد كان شاب صغير لازال يتمرغ في مهاد الفلسفة، يستطيع أن يقاوم هذه الدعوة للعدالة والأخوة العالمية (على مستوى العالم)؟ لقد كان يصعب كثيرا على دارس فقير لحقه بعض الضرر من اللوردات وذوي الألقاب الطبقية (سير جيمس لوثر Lowther) أن يدين هؤلاء الفرنسيين الذين وصفهم بعد ذلك في مستهل ترجمته الذاتية (كتابته عن تاريخ حياته)[٥]:

- «**هؤلاء الفرنسيون الذين يعرضون أموراً علينا النظر إليها،**
- **إنهم يعرضون جمهورية حيث يكون،**
- **كل الناس فيها - إلى حد كبير - سواء،**
- **يقفون على أرضية مشتركة**
- **لنصبح جميعا إخوة**
- **متساويين في الكرامة والشرف لنكوّن مجتمعا**
- **واحدا كريما وشريفا،**
- **مجتمعا واحداً يضم السادة والدارسين، ولاتغدو**
- **هناك فوارق**
- **ويقل شأن الألقاب والثروة**
- **أمام المواهب والجدارة والحرف (الصناعات) المزدهرة».**

وعندما وصل إلى فرنسا تأثر بحماسة أمةٍ تفزع إلى السلاح لمواجهة تهديدات الدوق برونسويك Brunswick بسحق الثورة وتسوية باريس بالأرض إن قاومته. وعقد صداقة مع أحد ضباط جيش الثوار ميشيل دي بوبوى Michel de Beaupuis الذي كان ينتمي بحكم ميلاده إلى طبقة النبلاء، لكنه يشعر الآن بضرورة الدفاع عن فرنسا ضد الغزاة. لقد حرك هذا الانفلات من أسر الطبقية مشاعر وردزورث وأوحى له أن يكون مفيدا لخدمة قضية الثورة، لكنه شعر أنه أوهن من أن يحمل سلاحا وأن ما يعرفه من اللغة الفرنسية لا يؤهله

للعمل في المجال المدني أو السياسي، فاستقر في أورليان Orleans لدراسة الفرنسية، هذه اللغة الفاتنة خاصة إذا تحركت بها شفاه النساء.

ووجد هذه اللغة رائعة جذابة، ومما زاد من هذه الروعة وتلك الجاذبية أنه تلقاها على يد أنت فالون Annette Valon الشابة دافئة القلب دافئة الدماء التي لم تكتف بتعليمه الفرنسية وإنما وهبته جسدها أيضا. ولم يقدم لها مقابل هذا إلا شبابه فقد كان في الواحدة والعشرين بينما كانت هي في الخامسة والعشرين. وعندما ظهرت عليها بوادر الحمل ظنت أنها جديرة أن تكون زوجة له، ولكن وليم تساءل: أيستطيع هو - الذي يعرف من اللاتينية أكثر مما يعرف من الفرنسية أن يكون زوجاً في فرنسا، وهل تستطيع هي، وهي كاثوليكية وثنية(*) Pagan Catholic أن تعيش في إنجلترا البيوريتانية (التطهرية)؟

وفي ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٩٣ تركها في أورليان واتجه إلى باريس وقبل مغادرتها وقع مستنداً يخول السيد م. دفور Dufour أن يقوم بدور الأب الغائب عند تعميد الطفل المرتقب (الذي ستنجبه أنت Annette)(٦) وفي ١٥ ديسمبر أنجبت طفلة أطلق عليها اسم كارولين.

وانخرط وردزورث وهو في باريس في هذا الوقت في وقائع الثورة، فحضر اجتماعا لليعاقبة وزار الجمعية التشريعية وكون صداقات مع الجيرونديين. لقد دهمته حمى العصر (المقصود أحداثه الساخنة) فوجد نفسه في وسط أحداث صنعت التاريخ وهزته(٧):

- «**أن تكون على قيد الحياة في فجر هذه الأحداث، فتلك نعمة،**

- **أما أن تكون شابا فقد أدركت الفردوس بعينه!**»

ووصله خطاب من أخيه ريتشارد يرفض تقديم مزيد من الدعم المالي ويصر على عودته السريعة. ولم يعرض عليه الثوار دعما فعبر إلى لندن وحاول تحسين الأمور المالية للأسرة، وظل الأخ ريتشارد صارماً رغم حبه. أما العم وليم كوكسون Cookson وكاهن فورنست Fornsett ومضيف دوروثي (أي الذي تقيم عنده دوروثي) فقد أوصد أبوابه في وجه هذا الشاب الذي كان يقدم له الدعم المالي لمواصلة تعليمه ليكون رجل دين فإذا به الآن يتحول فيما يبدو إلى يعقوبي كسول.

(*) المقصود مخالفة له في المذهب. (المترجم)

لقد أضير وليم ضررا شديدا، فعكف على الشعر يدرسه ويقرضه، وشعر أنه كتابع مخلص لربة الشعر والغناء (موزيه Muse) جدير بدعم الإخوة والأعمام والأخوال، وانضم إلى الراديكاليين الذين كانوا يترددون على مكتبة جونسون (لبيع الكتب ونشرها) وواصل تأييده العلني للثورة. وفي السطور الخمسين الأخيرة لإسكتشاته الوصفية Descriptive التي كتبها ونشرها في سنة ١٧٩٣ امتدح الثورة الفرنسية لا باعتبارها تحريرا لأمة فحسب وإنما باعتبارها تنطوي على تحرير الجنس البشري كله، وقد اعترف في كتابات نشرت بعد وفاته أنه كان يكتم سعادته لانتصارات الثورة الفرنسية حتى عندما كان آلاف الإنجليز يلقون حتوفهم في ميدان المعركة دون أن يتركوا وراءهم مجدا»[٨] وفي أول فبراير سنة ١٧٩٣ أعلنت فرنسا الحرب على إنجلترا وفي مارس من العام نفسه وصل إلى وردزورث خطاب من أنت Annette تتوسل إليه أن يعود إليها لكن القنال الإنجليزي كان قد أغلق في وجه المسافرين المدنيين. ولم ينسها أبدا، فقد كانت ذكراها تحرق شعوره، وسنراه بعد ذلك بتسع سنين يحاول تقديم بعض الترضيات، وخلال هذه الأعوام أصبحت أنت Annette من أنصار الملكية المتحمسين، واكتشف وليم شيئا فشيئا مزايا الدستور البريطاني. لقد تضاءل إيمانه بالثورة الفرنسية عندما قطعت المقصلة رؤوس الجيرونديين في عهد الإرهاب في سنة ١٧٩٤، وكان وليم معجباً بهم. وفي نحو هذا التاريخ كان متأثرا تأثرا شديدا بكتاب جودون Godwin عن العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice لقد شجع هذا الكتاب اتجاهه الراديكالي لكنه أثر في تحذيره من الثورات التي يشعل الثوريون نيرانها. وفي سنة ١٧٩٥ قابل جدون Godwin نفسه وأعجب به ودعي سبع مرات في هذا العام إلى منزل الفيلسوف الشهير. وحتى عندما أصبح هو محافظا متحمساً للاتجاه المحافظ ظل على صداقته لجودون حتى فرق الموت بينهما (١٨٣٦).

وفي سنة ١٧٩٥ أوصى له ريزلي كلفرت Raisley Calvert بتسعمائة جنيه، فزاده هذا اعتدالا ووقارا لكنه أقرض - بطيش - ثلاثمائة جنيه من هذه الثروة لصديقه المتلاف سيىء السمعة بازل مونتاجو Basil Montagu كما أقرض لصديق مونتاجو الحميم المدعو شارلز دوجلاس Douglas مائتي جنيه - وفي كلتا الحالتين لم يكن هذا الرهن ليدر أكثر من ١٠٪،

وحسب وردزورث (وردزورث) أن الفوائد السنوية التي قوامها خمسون جنيها (لم تكن تدفع بانتظام) مع الأربعمائه جنيه المتبقية لن تكفي حتى مع العشرين جنيها التي تمثل دخلا سنويا لدوروثي لتمويل حلم أخته بإقامة سكن يعيشان فيه عيشة مشتركة متواضعة قوامها الشعر والحب، لكن منذ الآن قدم لهما صديق آخر هو جون بني البريستولي John Pinney of Bristol مقر إقامته المؤثث في دورست Dorset ليقيما فيه مجانا، وهناك ظلا حتى يونيو سنة ١٧٩٧ ونعما في هذا المكان بما لم يكونا يتوقعانه من راحة وخير.

إننا نصفه الآن وقد بلغ الخامسة والعشرين. شخص متوسط الطول، نحيل، منحن انحناء خفيفا، يتدلى شعره غير الكثيف وغير المرجَّل حول أذنيه و «ياقة» قميصه، وتنظر عيناه الداكنتان الحزينتان على طول أنفه المتسائل العدواني المستفز على نحو ما. وكان سرواله «بنطاله» ذا طابع ريفي من نسيج مزخرف بالمربعات، وكان معطفه عباءة واسعة، ولديه منديل أسود يستخدمه كرباط عنق وكان واهن الجسم لكنه كان ذا طاقه كبيرة وروح قوية وإرادة شديدة، وكان يستطيع أن يلبي حاجة ضيوفه مهما ثقلت وكان يستطيع أن يجعل نيرانه مشتعلة في الأخشاب التي جمعها من الغابة أو قطعها من أشجارها مستخدما قوة ذراعيه وضربات فأسه. لقد كان حساساً كشاعر، وعصبيا كامرأة وكان يعاني من الصداع خاصة عندما ينخرط في تأليف الشعر. وغالباً ما كان مكتئباً متقلب المزاج يميل إلى الهيبوكوندريا (الوسواس المرضي) وكان قريب الدمع، وفكر ذات مرة في الانتحار[٩] — لكن هذا كان وسيلة معروفة في العلم للتظاهر بالشجاعة. وكان يحب المال حبا جما، معتزا بنفسه واثقا من تفوق أحاسيسه وسموه العقلي ورقيه الخلقي (متساهلاً مع ما أتاه من اتصالات جنسية لاتتسم بالمبالاة) لكنه كان متواصعا أمام الطبيعة معتزا بنفسه خادماً لها ومعبراً عنها.

أما دوروثي فكانت على نقيضه، أكسبت وجهها سمرة بكثرة مشيها تحت أشعة الشمس، ولم تكن أنانية مستغرقة حول ذاتها أو مفرطة بالإعجاب بنفسها فعكفت على خدمة أخيها ولم تكن تشك في عبقريته أبدا وجعلت بيتهما نظيفا دافئا ورعته في مرضه وكانت تبحث عن مباهج الطبيعة وعجائبها وخوارقها «بعينين متوهجتين» وذلك على حد

تعبيره، وكانت تدون بسرعة في يومياتها هذه المدركات لتتذكرها، وكان هو يستخدم هذه اليوميات (لتوحي له أفكارا وأشعارا). لقد جعلت أذنيها ويديها وعينيها في خدمته، فلم تكن تمل أبدا من الإصغاء إليه وهو ينشد أشعاره، ولم تكن تمل من نسخها. أما من ناحيته هو فقد أحبها حبا عميقا - دون أن يمنع نفسه عن إقامة علاقات جنسية محرمة معها - لأنها كانت أعز مساعداته له، كما كانت لاتطلب منه الكثير، وكانت بالنسبة إليه تمثل الجزء الذي يحتاجه النبات المعترش للتعلّق والامتداد[١٠].

وعندما عادا إلى بيتهما حيث الأسرة، وحصلا على خمسين جنيها إضافية لدخلهما السنوي، شرعا يرعيان بازل Basil ذا الأعوام الثلاثة وهو ابن بازل مونتاجو Montagu وسعدا لرؤية هذا القاصر الغض وهو يتحول من نبات مرتعش هش على وشك الموت إلى صبي مفعم حيوية متورد لايعرف الخوف إليه سبيلا»[١١]. وفي ربيع سنة ١٧٩٧ أتت صديقة دوروثي، ماري هتشنسون من بنرث Penrith لتقيم معها حتى الخامس من يونيو. وفي السادس من الشهر نفسه اقتحم شاب في الخامسة والعشرين من عمره مسكون بالشِّعر البوابة وجاس خلال الحقل ودخل بكل قوته حياة وليم وردزورث (وردزورث) ودوروثي وردزورت، وكان هذا استجابة لدعوة أرسلها إليه وليم وردزورث. إن هذا الشاب الشاعر هو كولردج.

٣ - كولردج ١٧٧٢ - ١٧٩٤

كولردج هو أكثر أفراد المجموعة التي نتناولها في هذا الفصل تشويقا وأكثرهم تباينا في مواهبه وتنوعا في جاذبيته، وأفكاره وقلقه ونقائصه. لقد اجتاز السلسلة كاملة من المثالية إلى كوارث في الحب والأخلاق، ونكبات في الأدب والفلسفة. وقد اقتبس من أفكار - وكلمات - مؤلفين كثيرين تأثربهم واستوحى أفكارهم ولا يمكن لقسمٍ من فصل أن يوفيه حقه.

ولد صموئيل (صموئيل) تايلور كولردج في ٢١ أكتوبر سنة ١٧٧٢ وكان هو الابن العاشر والأخير لجون كولردج ناظر المدرسة والذي كان عند مولده قسا في أوتري سانت

ماري Ottery St. Mary في ديفونشير Devonshire وكان جون دارسا للرياضيات المتطورة وعالما باللغتين اليونانية واللاتينية واللغات الشرقية، وهو مؤلف كتاب عن نحو اللغة اللاتينية Acritical Latin Grammer أما الابن الذي أصبح بعد ذلك يشير إلى اسمه بالأحرف الأولى (S. T. C) فقد وقع في إسار هذا التراث الذي تعلمه إذ كادت كل فقرة من فقراته تتضمن اقتباسا يونانيا أو لاتينيا. وقد روى – فيما بعد – ما كان عليه حاله من الثالثة إلى السابعة:

«لقد اصبحتُ نكداً شكِساً رعديدا تماما واشيا، وكان رفاقي في المدرسة يبعدونني عن اللعب معهم وكانوا دائما يؤذونني لذا فلم أسعد بألعاب الصبية ومن ثم عكفت على القراءة باستمرار. . لقد قرأت في السادسة من عمري بيليزاريوس Belisarius وروبنزون كروزو Robinson Crusoe وألف ليله وليلة ... فتملكتني الأشباح ... وأصبحت حالما وأصبحت أعاني انحرافا في صحتي إثر أي نشاط جسماني، وكنت جباناً رعديدا عاطفيا انفعاليا بشكل مبالغ فيه . . وكنت كسولا مكروها من الصبية لأنني كنت أستطيع القراءة والهجاء ... وكانت لدي ذاكرة قوية وقدرة على الفهم تكادان تنمان عن نضج غير طبيعي، وكنت موضع إطراء وإعجاب من النسوة كبيرات السن ... ولذا فقد أصبحت مختالا فخورا، وأصبحت قبل أن أبلغ الثامنة من عمري «شخصية» (المقصود شخصا ذا سمات خاصة) من حيث الأحاسيس والخيال والزهو والكسل، ومشاعر الاحتقار العميق والمرير لكل من يمر على تفكيري. حتى لو كان من المبرزين المشاهير»[١٢].

وكان موت أبيه (١٧٧٩) الذي كان الشاعر يحبه بعمق صدمة عنيفة له . وبعد موت أبيه بعامين أُرسل إلى مدرسة خيرية في لندن تابعة لمستشفى يسوع Christ's Hospital لمواصلة تعليمه. وكانت الوجبات التي تقدمها هذه المدرسة هزيلة وكان النظام فيها صارما، وقد تحدث في أواخر حياته عن العقاب الشائن الذي أنزلوه مضاعفا وبقسوة على صبي شعر أن أسرته قد نسيته. لقد أرادوا له أن يكون قسّا بينما كان هو يرنو أن يكون صانع أحذية. وفي سنة ١٨٣٠ (في هذا التاريخ كانت ذاكرته – على نحو خاص لا يُعوّل عليها) جُلد، وهو يروي لنا قصة جلده ولم تكن هي المرة الوحيدة، فيقول:

عندما كنت في الثالثة عشرة من العمر ذهبت إلى صانع أحذية وتوسلت إليه أن أعمل عنده ليعلمني المهنة. وكان رجلا أمينا لذا فإنه سرعان ما دبّر لي لقاء مع بوير Bowyer رئيس جماعة صانعي الأحذية، فثار غاضبا وركلني .. وسألني لماذا أبرهن هكذا على غبائي؟ فأجبته إنني شديد الرغبة في أن أكون صانع أحذية وأكره أن أكون رجل دين، فسألني «لماذا؟» فقلت له: «الحق أقول لك يا سيدي .. إنني كافر» وبمجرد أن قلت ذلك لم يسمح بوير بمزيد من الكلام، وجلدني»[١٣] ومن الواضح أنه اقتطف بعض الفاكهة المحرمة، وربما كان ذلك من كتب إحدى محلات بيع الكتب بشارع الملك (كنج ستريت) ففي هذه المكتبات - كما زعم بعد ذلك - بطريقته التذكارية:

«لقد قرأت في كل الكتب الواردة في الفهرس (المقصود كتالوج المكتبة) وفي كل الكتب الضخام (من القطع الأعظم) سواء كنت أفهم ما أقرأه أم لا ... وكنت أغامر بكل شيء للحصول على المجلدين اللذين فرضت على نفسي الحصول عليهما يوميا. لقد كنت مدركا لما يجب أن أكون عليه وأنا في الرابعة عشرة من عمري. لقد كنت محموما دائما (المقصود أنه كان شديد التوق للقراءة). لقد كان كياني كله موجها نحو الانسحاب إلى ركن مشمس لأقرأ وأقرأ وأقرأ، مغمضا عيني عن أي هدف آخر»[١٤].

وبطبيعة الحال فإننا نلمح زهواً مبالغا فيه هنا. وعلى أية حال فقد أنجز إنجازا طيبا في مدرسة مستشفى يسوع حتى إن أسرته رتبت أمر إدراجه بين الطلبة المساعَدين (بفتح العين) الذين يعملون ويدرسون في آن واحد في كلية يسوع بكمبردج (١٧٩١) وهناك حاول دراسة الرياضيات المتقدمة واللغة اليونانية المغرقة في قدمها «لقد قرأت بندار Pindar ورحت أؤلف الشعر باللغة اليونانية وكأنني كلب مجنون أو بتعبير آخر ككلب مصاب بالسعار ... وفي أي وقت فراغ يتاح لي كنت أترجم Anacreon .. وتعلمت العزف على الفيولين (الكمان)»[١٥].

وعندما نقرأ عن كولردج لابد أن نسمح لأنفسنا بتقبل ما هو عليه من غلو وإفراط. لقد أهمل صحته، وأصيب في سنة ١٧٩٣ بالحمى الروماتزمية، ولجأ إلى الأفيون لتسكين آلامه، وكان الأفيون في ذلك الوقت شائعا كعقار مسكن لكن كولردج أدمنه، وأبطأت خطاه في

المجال الدراسي، وسمح لنفسه بمزيد من الأهتمام بالأمور العامة. وعلى أية حال فقد تجاوز ما سمحت له به أسرته ووقع في الديون وطارده دائنوه وفي جهد يائس للهرب منهم غادر كمبردج فجاة، وفي ديسمبر سنة ١٧٩٣ تطوع في جيش كان يعد لحرب فرنسا. واشترى أخوه جورج إطلاق سراحه مقابل أربعين جنيها إنجليزيا وحثه على العودة إلى كمبردج. ودبر أمر تخرجه من الجامعة في سنة ١٧٩٤ دون الحصول على الدرجة العلمية، ولم يزعجه هذا كثيرا لأنه في هذه الأثناء كان قد اكتشف اليوطوبيا (المدينة المثالية).

وكان يعد نفسه لهذا الاكتشاف بتخليه عن عقيدته الدينية، وعقد آماله على السعادة واليوطوبيا (المدينة المثالية) وقد حركت الثورة الفرنسية مشاعره كما كادت تحرك مشاعر كل المتعلمين وغير الماليين في إنجلترا. والآن، في ربيع سنة ١٧٩٤ وصلته رسالة من صديقه روبرت ألن Allen في أكسفورد مفادها أن طلبة مختلفي المشارب راغبون جدا في إصلاح الأساليب والمؤسسات البريطانية، وذكر ألن أن أحد الطلبة يتميز بالألمعية ويكتب شعرا يحتفي فيه بالثورة الاجتماعية. أيستطيع كولردج أن يذهب إلى أكسفورد للقاء هؤلاء الشباب؟. لقد فعلها كولردج في يونيو سنة ١٧٩٤.

٤ – سوثي: ١٧٧٤ – ١٨٠٣

من بين ثلاثي منطقة البحيرة كان روبرت سوثي Southey أفضل الرجال وأسوأ الشعراء (أقلهم قيمة). ولد في بريستول وكان ابنا لتاجر أثواب وأقمشة، لكن من بين هذه البيئة التجارية (الميركانتيلية) كانت خالته إليزابث تايلور غالبا ما تدفعه إلى التهذب بسلوكيات المجتمع الأرستقراطي في باث Bath، وتم إرساله في الرابعة عشرة من عمره إلى مدرسة وستمنستر الراقية في لندن وفيها – بلاشك – قرأ سرا أعمال فولتير وروسو وجيبون كما قرأ «فيرثر Werther» لجوته (تكتب أيضا جيته) كما كتب بعض الشعر الملحمي وقطعا نثرية ثورية، وأثارت مهاجمته للعقاب البدني في مجلة مدرسية بعنوان الضارب بالسياط Flagellant ناظر المدرسة الذي حار جوابا ففصله من المدرسة وهو على وشك التخرج، لكن روبرت استطاع بطريقة أو أخرى أن يتقدم إلى كلية باليول Balliol في أكسفورد في

ديسمبر سنة ١٧٩٢ . وهناك واصل أعماله السرية، فكتب ملحمة John of Arc امتدح فيها الثورة الفرنسية، واشتغل بالدراما الشعرية محاكيا وات تيلر Wat Tyler الثائر الإنجليزي في سنة ١٣٨١ – عندما وصل كولردج. ووجد الشاعر الأكبر سنا أن الرجل الأكثر شبابا مستغرق في تفكير عميق لأن روبيسبير كان قد أطاح برؤوس أكثر قادة الثورة الفرنسية حيوية – دانتون Danton وديمولان Desmoulins، ألم تنته حقوق الإنسان التي تم إعلانها إلى مجرد تنافس على القتل؟ لكن كولردج طمأن باله شارحاً أن أوربا ممزقة مهترئة، ومع هذا ففي غضون أسبوع أو نحو ذلك أبحرت من مدينة بريستول موطن سوثي سفينة متجهة إلى أمريكا الرحبة الخصبة الجمهورية. لم لا ينظم كولردج وسوثي مجموعة من الشبان والشابات الجسورين ويتم عقد قرانهم بشكل صحيح ويهاجرون معاً إلى بنسلفانيا ليقيموا مستعمرة جماعية (اشتراكية) على شواطئ سسكويهانا Susquehana الجميلة غير الملوّثة؟ لقد كان كل ما هو ضروري هو أن يشارك كل شاب بمبلغ ١٢٥ جنيه إسترليني لتكوين ميزانية موحّدة (مشتركة، وكان لا بد أن يكون لكل زوجين صوت – على قدم المساواة – في حكم المستعمرة، ومن هنا أطلق كولردج على هذه المستعمرة اسم «البانتيسوكراسيا Pantisocracy» .

وليرفع المؤسسان من نصيبهما المالي في التكاليف اشتركا معا في كتابة دراما شعرية بعنوان «سقوط روبيسبير» وتم نشرها لكنها لم تحقق المبيعات المطلوبة. وباع سوثي عمله الأدبي Joan of Arc إلى كوتل Cottle البريستولي of Bristol نظير خمسين جنيها.

وقام الخريجون (الذين لم يحصلوا على درجاتهم العلمية) بالقاء محاضرات في بريستول وكسبوا ما يكفي لتمكين سوثي من الزواج وبالفعل فقد قبلته إديث فريكر Edith Fricker زوجاً لها (١٤ نوفمبر ١٧٩٥) وكانت أخت إديث واسمها ماري قد قبلت بالفعل روبرت لوفل Lovell زوجاً لها كما قبلت مبدأ البانتيسوكراسيا (العيش في مستعمرة اشتراكية). والآن كما يقول سوثي كان من المرغوب فيه جدا أن يحب كولردج الأخت الثالثة سارة، وأن يتزوجها.

وقبل سوثي دعوة لزيارة لشبونة كمرافق لعم كان قسا بالسفارة البريطانية، وقد وسعت

الرحلة أفق هذا الشاب (سوثي). لقد ارتحل في إسبانيا وكذلك في البرتغال، وعندما عاد إلى إنجلترا (مايو ١٧٩٦) اكتشف أنه يحب إليزابث تيلر Tyler التي سبق أن رفضته لأفكاره المخربة وعدم عراقة أصله، كما اكتشف أن فكرة البانتيسوكراسيا أضاعت شبابه، فدرس القانون ووجد عملاً كصحفي، وكان لديه الوقت الكافي لكتابة ملاحم لم يكتب لها الخلود بالإضافة إلى بعض القصائد القصصيةَ البسيطة مثل «معركة بلنهايم The Battle of Blenheim» في سنة ١٨٠٣ وأقام في جريتا هول Greta Hall في كزويك Keswick مستعينا بإعانة ودية قوامها ١٦٠ جنيها إسترلينيا.

٥ - كولردج: ١٧٩٤ - ١٧٩٧

كان كولردج مزقا بين أعصاب حية وجَلَد وصَبْر من ناحية، وإرادة مترددة من ناحية أخرى. لقد أحب ماري إيفانز ابنة لندن لكنه جفل من مهمة الإبقاء عليها في ظل أسلوبها المعتاد، أما هي فقد أحبت روحه الثرية المتحمسة لكنها لم تكن واثقة في قدرته على الكسب فابتعدت عنه، فوجد نفسه مستسلما لسارة فريكر فهي رغم بساطتها وإفلاسها يمكن أن تحافظ له على بيته وتنجب أطفالا وإن كانت غير قادرة على إلهامه أشعاره.

وليموّل زواجه المأمول وأحلامه الباقية راح يلقي المزيد من المحاضرات في بريستول محصلا شلنا كرسم دخول (لقاعة الاستماع) (واستمر هذا في الفترة من يناير إلى يونيو ١٧٩٥)، وكان نشاط هذه الجماعة راديكاليا بشكل طائش: لقد شجبوا الكنيسة القائمة Established Church كخادمة للأثرياء، وأنها لاتعرف ربا Lord سوى المالك الإقطاعي Lord of the manor وأدانوا الحرب ضد فرنسا لقمع الثورة وإحداث ردة تاريخية. والتمسوا الأعذار «للإرهاب» باعتباره رد فعل «لحرب بت Pitt's war» وأدانوا «مراسيم تقييد حرية الرأي Gag Bills» كجهود حكومية لكبت إرادة الجماهير. لقد كان ما حصلوه من الأموال قليلا لكنه كان كافيا ليعقد كولردج قرانه على سارة فريكر في مذبح الكنيسة في ٤ أكتوبر ١٧٩٥.

وفي هذا الخريف نفسه التقى لأول مرة بوردزورث(*)، ولم يكن وليم ليكبر صمويل

(*) تكتب أحيانا وردسورث.

(صموئيل) بأكثر من عامين لكنه كان قد خَبَر الثورة الفرنسية، كان قد عاين « اليوطوبيا » معاينة حية « معاينة من رأى لا من سمع » . وقد شارك الرجل الأصغر منه بعامين الخشية من استعادة البوربون عرش فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على العيش في بنسلفانيا فقد كانت أوربا هي مسرح الصراع الفكري، أما بالنسبة إلى بهاء منطقة سوسكويهانا Susquehanna وجمالها، فلم لا يكتفي قانعا بعظمة البحيرات الإنجليزية وبهائها؟ ولم يكن كولردج مقتنعا تمام الاقتناع لكنه كتب في مذكراته (مجموعة أوراقه) أن يتابع تطور وليم وربما ليتعلم منه كيف يتخطى صعوبات الحياة (يجتاز عواصفها ومنحدراتها) لقد ملأ كثيرا من الأوراق بمعلومات وأفكار كثيرة جمعها من الكتب وممن قابلهم. لقد كان يقرأ قراءات واسعة في مجالات شتى وبشغف في اثني عشر مجالا، لقد قرأ في التراجم وعن الحيوانات والنباتات والعلوم والأديان والفلسفة والأمم والأدب والفكر والفنون. وكان واحداً من أكثر من عرفنا شغفا بالقراءة واستيعابا لما يقرأ وقدرة على التذكر. لقد أصبحت ذاكرته مخزنا يسحب من رصيده حتى نهاية حياته يسحب منه الأفكار والأخيلة والعبارات والأدلة، بل وحتى فقرات كاملة. وكثيرا ما كان يهمل ذكر مصدر معلوماته وربما كان ينسى المصدر سعيدا بهذا النسيان، وكان يخلط دون اهتمام أفكاره بالأفكار التي استقاها من مصادر أخرى. وفي خاتمة المطاف ضاق عقله بهذا المخزون الكبير من المعرفة المتباينة خاصة وأن عقله كان نزاعا للحرية نافراً من الانضباط. لقد كاد المخزن ينهار على المخزون.

وربما رغبة منه في تحرير ذاكرته أو رغبة منه في إطعام زوجته وجدناه يركز على فكرة طبع مجلة وبيعها، وكاد هو أن يكون كاتبها الوحيد، وأجبر معارفه والمستمعين لمحاضراته على الاشتراك في هذه المجلة ووزع عددا محدودا من هذه « النشرة التمهيدية Prospectus » حتى يعلم الجميع « الحقيقة » فقد تجعلنا « الحقيقة » « أحرارا » . وفي يوم الجمعة، الخامس من فبراير سنة ١٧٩٦ تم نشر العدد الأول (بسعر أربعة بنسات) على أن تصدر كل ثمانية أيام بعنوان (المراقب Watchman) بقلم س. ت. كولردج Coleridge مؤلف « نداءات إلى الشعب Addresses To the People »[١٦]. وهنا - كما هو الحال في محاضراته - كان يتحدث كراديكالي أحرق خلفه كل الجسور، لقد راح يهاجم الحرب والعبودية (الرق) وتعويق حرية

الصحافة والنشر، وكان يهاجم بشكل خاص الضرائب على المبيعات لوطأتها الثقيلة على عامة الشعب[١٧]. لكنه لم يوص بحق الانتخاب العام للبالغين من الذكور أو الإناث. « يجب أن تكون لدينا الجرأة بالاعتراف بالحقيقة السياسية فقط لأولئك الذين هم قادرون على استخدام عقولهم والإقناع بما هو منطقي، ولا نعترف بها أو نقرها للغالبية الجاهلة المحتاجة التي تحركها بالضرورة عواطفها المهتاجة»[١٨]. ووجد كولردج أنه من غير المحتمل أن يكتب اثنتين وثلاثين صفحة كل ثمانية أيام إذ راحت هذه الصفحات – بشكل متزايد – تمتلئ بكتابات غرباء لم يكونوا دائما معروفين. واحتج بعض القراء المتابعين للمجلة وقل التوزيع وارتفعت الديون وبعد العدد العاشر توقفت هذه المجلة (مجلة المراقب Watchman).

وفي أول سبتمبر سنة ١٧٩٦ وُلد لكولردج أول مولود. فأسماه ديفد هارتلي David Hartley على اسم رائد علم النفس الارتباطي (سيكلوجية الترابط أو التداعي). لقد كان المولود صبوح الوجه باعثاً للمسرة، لكنه كان فماً جديدا يطالب بالطعام. وفي هذه الأثناء كان كولردج نفسه يعاني متاعب في القلب والرئتين، وراح يزيد من جرعات الأفيون لتسكين آلامه، وكادت موارده تنفد عندما قدم له صديق متساهل ودود هو توماس بول Poole منزلا صغيرا بالقرب من منزله (منزل بول) في نثر ستوي Nether Stowey بالقرب من بردجووتر Bridgewater – بإيجار رمزي مقداره سبعة جنيهات سنويا. وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٦ انتقل كولردج وسارة وابنهما (ديفد) إلى هذا المنزل. وجعلت سارة المنزل نظيفا مريحا، وعمل كولردج في حديقة مجاورة وساعد في رعاية خنازير بول Poole ودواجنه، وكتب شعرا جديراً بأن يخلد.

وفي نحو هذا الوقت – على وفق ذاكرته الثرية العامرة دائما – ظهرت له فكرة « قبلاي خان Kubla Khan » في حلم رائع وقد كتب غالبها مستوحيا هذا الحلم:

(في صيف سنة ١٧٩٧ عكف المؤلف – وكان معتلا صحيا – في منزل ريفي منعزل بين بورلوك Porlock ولينتون Linton ... ونتيجة توعك صحته وتناوله العقارات المسكنة (الأفيون) غلبه النوم وهو جالس على مقعده بينما كان يقرأ ... في كتاب رحلة بورشاز Purchass Pilgrimage. وفي الحلم « أمر قبلاي خان ببناء قصر بداخله حديقة، وتم تسوير

هذه الأميال العشرة من الأرض الخصبة بسور ». ولقد استمر المؤلف في نوم عميق نحو ثلاث ساعات – على الأقل كانت حواسه الخارجية هي النائمة – وخلال هذه الساعات كان واثقاً ثقة تامة أنه لا يستطيع أن يكتب أقل من مائتي سطر أو ثلاثمائة سطر دون أن ينتابه الإرهاق والتعب. وعندما استيقظ ظهر أنه يتذكر تفاصيل الحلم فامسك بقلمه وأدنى منه الحبر والورق، وراح يكتب بشكل مستمر وبشغف السطور التي بقيت لنا).

هذه المقدمة الشهيرة فسرها النقاد بأنها خرافة خدع بها كولردج نفسه أو آخرين لقبول فكرة « الحَبَل بلا دنس Immaculate Conception »(*) وديمومة قبلاي خان. وعلى أية حال فمن غير المعلوم أن المؤلف بعد صياغة جُمله خلال النهار، واصل عمله في أثناء الحلم أم لا، لكن تكاد هذه الدرّر دوما تغوص في اللاشعور وكأنها يقظة نائم Sleeper wakes وربما كان للأفيون أثره ليس في الحلم (الرؤيا) فقط وإنما في الإيهام بأن التأليف كان جزءا من الحلم. وعلى أية حال فإن كولردج بمهارته المميزة في السجع والجناس قد حول نثر بورشاز Purchas إلى واحد من أكثر النصوص – التي لم يكتمل إنجازها – تشويقاً في اللغة الإنجليزية.

وربما كان الحدث (الأدبي) الأكثر أهمية من « قوبلاي Kubla » بالنسبة لكولردج في عام ١٧٩٧ هو دعوة ودزورث له لزيارته في ريسدون Racedown، فاستأذن من زوجته ساره وابنه ديفد David وانطلق ليسير كل المسافة تقريبا. وتراءى له هدفه في ٦ يونيو فجرى – وقد أخذت الإثارة منه مأخذها – إلى باب أخيه الشاعر. وعندما فتح له وليم ودوروثي الباب وفتحا له مع الباب قلبيهما، بدأت حقبة جديدة في حياة ثلاثتهم، وكان تعاونهم واحداً من أعظم ما حققه التعاون بين الأدباء إثماراً في تاريخ الأدب.

٦ – الثلاثي: ١٧٩٧ – ١٧٩٨

كان كولردج آنئذ في ذروة تألقه. كان بدنه – رغم آلامه وسمومه غير الظاهرة – مستجيباً لاهتمامات عقله الحيوية. وكان وجهه الوسيم – بفمه الشهواني وأنفه دقيق التكوين وعينيه الرماديتين تتألقان شغفا وحب استطلاع، ورقبته وأذنيه، وشعره الأسود

(*) إشارة إلى حمل العذراء مريم بلا زواج. (المترجم)

المهوّش المتدلي على رقبته وأذنيه – قد جعله جذابا خاصة في عيني دوروثي.

لم يطل الأمر أحبته بطريقتها الخجولة، وإن ظل إعجابها بوليم في المحل الأول. لقد أخذ كولردج برقتها وجذبته إليها بعاطفتها الهادئة. لقد كانت صديقة جارتْه في كل آثامه وتجاوزت عن كسله لتستمتع بمشاعره الدافئة وخيالاته العميقة الغريبة وإيمانه المهتز، وضاعت آلام الشاعر المبرحة بين الحيل والصراع. وعلى أية حال، فقد كاد يرى في هذه الفتاة شبحاً رعديدا سحقها أخوها (سيطر عليها تماما).

وهنا تحقق كولردج أن هذا الرجل وردزوورث بوجهه الهادئ الحزين وجبهته المرتفعة وعينيه المتأملتين شاعر حقيقي وحيوي حساس لكل خلجة ونبضة من خلجات الأشياء والأشخاص ونبضاتهم، وينأى بنفسه عن أي اضطراب اقتصادي جاعلاً من خلجات الطبيعة والناس ونبضهما وسيلة للبحث عن الكلمات المعبرة بعمق وعاطفة عن بصيرته وأحلامه. وكان كولردج – الذي كانت (أغاني البحار القديم) تعتمل بالفعل في نفسه – هو أعظم الشاعرين – لكنه أحسّ بتكريس هذا الشاعر (وردزوورث) نفسه للشعر وحسده لتكريس نفسه تماما للشعر، وربما كان قد تعجب ما إذا كانت الأخت ليست أفضل من الزوجة. لقد كتب حالما وصل: «لقد شعرت بضآلتي بجواره، ومع هذا لم أعتبر نفسي أقل مما كنت أظن نفسي سابقا إن وليم (وردزوورث) رجل عظيم جدا. إنه الرجل الوحيد الذي أحسست أنني أقل منه في كل الأوقات وفي كل حالات تفوقي»[١٩].

وبدأ ثلاثتهم ثلاثة أسابيع يحث بعضهم بعضاً، لقد راح كل واحد منهم يقرأ قصائده على الآخرين. وكان وردزوورث يقرأ أكثر، بينما كان كولردج يتحدث أكثر. كتبت دوروثي: «إن مناقشاته وحواراته تتزاحم في الروح والنفس والعقل. وهو خيِّر جدا حسن الطباع جذاب .. وهو يتحدث بعينه التي تعبر عن كل عواطفه»[٢٠].

وعادة ما يبرد الحب بين هذا الثلاثي بعد ثلاثة أسابيع فرجا كولردج كلاً من وليم ودوروثي أن يصحباه إلى نذر ستوي Nether Stowey ليكرمهما كما أكرماه، فانطلقا معه متوقعين أن يعودا سريعا إلى ريسدون Racedown لكن الصديق بول Poole علم أن الفترة التي يقضيانها مع كولردج ستنتهي ولا مجال لتمديدها فدبر لهما منزلا جميلا مؤثثا في

ألفوكسدن مقابل ٢٣ جنيهاً استرلينياً سنويا، وألوفكسدن هذه على بعد أربعة أميال من مقر كولردج، وهناك أقام وليم وردزورث ودوروثي في راحة، وراحا يستلهمان الشعر طوال خمسة عشر شهرا.

وفي هذه الفترة السعيدة راحوا يسيرون وهم ينشدون الشعر أو يتناقشون فيه : أحيانا كان الرجلان يسيران معا، وأحيانا كولردج ودوروثي، وأحيانا ثلاثتهم معا. لقد راحوا يتبادلون المشاعر والأفكار والملاحظات: وردزورث شجع كولردج على ترك الخيال كمرشد له؛ وزاد كولردج من معارف وردزورث عن الفلاسفة وتحداه ليكتب ملحمة شعرية. وفي أعوام لاحقة تذكر وردزورث في (المقدمة) صديقه الذي كان يجول معه (كولردج) ذاكرا أنه صديق «الأرواح المرحة / حيث كنا نخصص جانبا من أيامنا لأول مرة لننغمس معا في الشعر الجامح»[٢١] وكانت دوروثي هي رباطهما محفزتهما (مشجعتهما). لقد كانت تبهجهما بمديحها، وباستماعها باهتمام وشغف متحدية إياهما بحماسها وعمق إدراكها ونفاذ بصيرتها، موحدة إياهما كعروس روحية لكليهما. لقد كانوا - كما قال كولردج ثلاثة أشخاص في روح واحدة[٢٢].

ولابد أن وردزورث وكولردج قد طالعا اليوميات التي بدأت دوروثي كتابتها في أفوكسدن في ٢٠ يناير سنة ١٧٩٧. ولا بد أنهما توقفا عند سطر في الصفحة الثانية «طنين الحشرات، تلك الضوضاء الصامتة (غير المزعجة) التي تملأ أجواء الصيف» أما سارة كولردج فلا بد أنها كانت أكثر تأثرا بما ورد عن الفترة من ٣ إلى ١٢ فبراير:

٣ فبراير: سرت مع كولردج فوق التلال ...

٤ فبراير: سرت مسافة طويلة في الطريق إلى ستوي Stowey مع كولردج ....

٥ فبراير: سرت إلى ستوي مع كولردج ...

١١ فبراير: سرت إلى قرب ستوي مع كولردج

١٢ فبراير: سرت وحدي إلى ستوي، وعدت مساء مع كولردج[٢٣].

ولم تكن ساره سعيدة بحكاية المشي هذه، لقد بدا الأمر لها بريئاً غير مرتبط بعلاقة جنسية، لكن أين تنتهي هذه الحكاية؟

٧ ـ الشعر الغنائي: ١٧٩٨

وفي يناير سنة ١٧٩٨ ظهر في كولردج حافز آخر يحفزه على التفرغ للشعر، إذ إن جوسياه Josiah وتوماس ودجوود Wedgwood – ابني جوسياه ودجوود(١٧٣٠ – ١٧٩٥) ووريثاه – عرضا على الشاعر شبه المفلس راتباً سنوياً مقداره ١٥٠ جنيهاً (٣,٧٥٠ دولار) شريطة أن يتفرّغ تماماً للشعر والفلسفة. وكان أبوهما صانع فخار أتقن صنعته فجعل فخاره وخزفه مشهورا في أوربا كلها. وكتب كولردج لهما خطابا في ١٧ يناير يرحب فيه بهذه المنحة، وأغرق في التأمل والاندماج في عملية الإبداع ليكمل (أغنية الملاّح القديم) واقترح كولردج على وردزورث بعد أن تسلح بهذه المنحة الدالة على شهرته في مضمار الشعر – أن يجمعا معا قصائدهمـا الجديدة في مجلدات تحمل اسميهما فقد تعود عليهما بمبالغ مالية تكفي لتمويل رحلة يقومان بها إلى ألمانيا. لقد كان كولردج يأمل في أن عاما يقضيه في ألمانيا سيمكنه من تعلم اللغة الألمانية بشكل يكفي لقراءة الأعمال الكبرى التي ألفها الألمان من جوته (جيتة) إلى كانط Kant في لغتها الأصلية وفهمها، فهؤلاء الأعلام الألمان قد جعلا من ألمانيا رائدة في مجال الفلسفة الأوربية بلا منازع أو على الأقل جعلتها تنافس إنجلترا وفرنسا في مجال الأدب والفكر. ولم يكن وردزورث متحمساً لألمانيا، لكن لأن فرنسا وشمال إيطاليا كانا في قبضة الثورة الفرنسية، فقد وافق كولردج على خطته.

وفي أبريل سنة ١٧٩٨ وجها دعوة للناشر كوتل Cottle ليأتي إليهما من بريستول ليسمع أشعارهما الأخيرة، وأتى واستمع إليهما وعرض ثلاثين جنيها لشراء حق الطبع، وأراد أيضا أن ينشر اسمي الشاعرين ولكن كولردج رفض قائلا «إن اسم وردزورث ليس شيئا أما اسمي فيلاقي احتجاجا عنيفاً»(٢٤).

وبعد ذلك بثمانية عشر عاما شرح كولردج نظريته الكامنة وراء هذا التعاون (العمل المشترك):

«من المتفق عليه أن محاولاتي تتناول شخوصاً وشخصيات ميتافيزيقية (فوق الطبيعة) أو على الأقل رومانسية . . . . أما السيد وردزورث فقد جعل هدفاً له أن يضفي الجدّة والجاذبية على أمور تحدث كل يوم، وأن يثير مشاعر تناظر ما أثيره من أمور فوق طبيعية

(ميتافيزيقية) بلفت الأنظار إلى ما في العادات من بلادة ولا مبالاة، إنه يوجه شعره إلى ما في العالم أمامنا من جمال وعجائب . . .لقد كتبت « الملاح القديم » من هذا المنطلق وكنت أجهز أيضا بمثل هذه الروح لعمليّ « الليدي السوداء » و« كريستابل Christable» اللذين كنت فيهما أكثر اقترابا من تحقيق هذه الغاية »[٢٥] .

وربما أخذت هذه النظرية شكلها بعد كتابة القصائد . وقد وضح هذا وردزورث في مقدمة الطبعة الأولى :

« تعتبر معظم القصائد الواردة في هذه الطبعة تجارب شعرية . لقد كتبت في الأساس من وجهة نظر مؤداها التحقق من المدى الذي يمكن فيه للغة العادية (لغة الحوار) في الطبقتين الوسطى والدنيا أن تكون قادرة على تحقيق أغراض الشعر وما يحدث من بهجة . لقد اعتاد القراء على الزخارف اللفظية والأساليب الفارغة لكثيرين من الكتاب المعاصرين، لذا فإن هؤلاء القراء إذا ثابروا على قراءة هذا الكتاب إلى نهايته ربما كان عليهم أن يقاوموا ما يحسون به من غثاثة وسماجة وغرابة . إنهم سينظرون إلى الشعر الذي ألفوه واعتادوا عليه ثم يندفعون متسائلين بأي حق أطلقنا على محاولاتنا هذه لفظ الشعر؟ إنه لمن المرغوب فيه ألا يعاني مثل هؤلاء القراء أمام كلمة الشعر « المتفردة، تلك الكلمة التي تنازع الناس حول معناها؟ انه لمن غير المرغوب فيه أن تقف هذه الكلمة عائقا بين الناس وبين الاستمتاع (بما نكتب) . . . .

والقراء الأرقى حكما قد لايوافقون على الأسلوب الذي كتبنا به كثيرا من هذه القصائد . . . فسيظهر لهم أن المؤلف (الشاعر) رغبة منه في تجنب الأخطاء الشائعة قد تنازل كثيرا واستخدم كثيرا من التعبيرات الشائعة جدا والتي لا تتسم لفرط تداولها بالوقار الكافي . . . »[٢٦] .

وتدخل النثر(*) ليقطع عليهم روح الشعر : مالك منزل أفوكسدن أحاط آل وردزورث علما أن لاحق لهم في الإقامة في المنزل بعد ٣٠ يونيو ١٧٩٨ . وفي ٢٥ يونيو غادر وليم وردزورث ودوروثي إلى بريستول للتفاوض مع كوتل Cottle (الناشر) وفي ١٠ يوليو

(*) المقصود بالنثر هنا: الواقع. (المترجم)

استقلتهما سفينة ليعبرا نهر سيفرن Severn وسار عشرة أميال في ويلز إلى كنيسة تنتيرن Tintern Abbey . وبالقرب من هذه «الخرائب الجميلة جدا»(٢٧) وفي طريق العودة إلى بريستول ألف وردزورث القصيدة التي أضيفت كقصيدة أخيرة إلى ديوانهما «الشعر الغنائي Lyrical Ballads» .

وتم نشر هذا الديوان الصغير في ٤ أكتوبر ١٧٩٨ بعد تسعة عشر يوما من مغادرة الشاعرين – غير المعترف بشاعريتهما – قاصدين ألمانيا . لقد كان عنوان الديوان مناسبا؛ فقد كان إسهام كولردج الرئيس يسير على نسق الأشعار الإنجليزية القديمة – حكايات شعرية صالحة للغناء، وكان معظم إسهام وردزورث قصائد غنائية بسيطة تتناول الحياة البسيطة تكاد تقتصر على استخدام ألفاظ من مقطع واحد يستخدمها الفلاحون الإنجليز.

وكانت القصيدة الأولى في الديوان هي (أغنية الملاح القديم) وشغلت ١٥ صفحة من ١١٧ صفحة هي كل صفحات الديوان وهي أطول قصائده وربما أفضلها رغم أن إنجلترا لم تدرك ذلك إلا ببطء، أما وردزورث فلم يعترف بقيمتها أبدا . حقيقة ان هذه القصيدة كانت حاوية على أخطاء كثيرة لكن لايجب التركيز على الأخطاء التي نعتبرها منافية للعقل (أفكار اللامعقول) في الحكاية الشعرية، ذلك لأن كولردج كان قد اقتحم عالم الغموض حيث الأسرار والرموز وحيث الخيال الذي يجعل كل شيء ممكنا، ففي عالم الخيال يمكن أن تنتج أحداث جسام من وقائع تافهة أو بسيطة . ومع هذا فإنه يتمسك بعبير الأسرار في الحكايات والأساطير القديمة، كما يتمسك بأوزان وايقاعات الأشعار الغنائية والقصصية البسيطة القديمة (فالملاح القديم) تكاد تحملنا معه إلى النهاية . إنها (الملاح القديم) تعتبر – بالطبع – واحدة من أعظم قصائد الشعر الغنائي في اللغة الإنجليزية .

أما إسهامات وردزورث فتكاد كلها تكون نماذج من الحكمة التي وجدها في شخصيات البسطاء . وبعض هذه القصائد مثل (الصبي الأبله Idiot boy) و(سيمون لي Simon Lee) هجاهما المتابعون (النقاد) بصخب، لكن من منا لم يتعاطف مع حب الأم المتسم بالصبر لطفلها غير المؤذي ضعيف العقل (طفلها الأبله) ؟ (إن شطراً واحدا من هذه القصيدة المفهومة يخبرنا «عن العشب الأخضر – الذي تكاد تسمعه في أثناء نموه»(٢٨) أيمكن أن

يكون هذا التعبير اقتباساً من دوروثي؟) وبعد أن أطال كثيرا في قصائده ذات المذاق الريفي أنهى وردزورث الديوان بأبيات تأملية من (أميال قليلة) فوق (دير تنترن Tintern Abbey) . إنه هنا يقدم لنا تعبيرات فائقه (سامية) تعبر عن مشاعره عن أن (الطبيعة) و(الرب) هما شيء واحد (على وفق تعبير سبينوزا Deus sive Natura) إنهما (الطبيعة) و(الرب) لايتحدثان فحسب من خلال معجزات النمو (أو التطور) وإنما أيضا من خلال الرهبة التي تبدو (من خلال قصر نظر البشر) قوى مدمرة كان تيرنر Turner يتعبد في محرابها (أي الرهبة) عند ممارسة فن الرسم . ومن جولاته (وردزورث) في الغابات والحقول، وتجديفه على صفحات البحيرات الهادئة وتسلقه فوق الصخور الضخام الوعرة، وعن آلاف النداءات صياحا أو همساً الصادرة من آلاف الكائنات الحية، وحتى من تلك الموجودات التي يفترض ألا حياة فيها نسمعه -- عن هذا ينشد -- :

- إليها ... إنني مدين لها بكل ما هو مقدس ومبارك ،

- ففيها تكمن الأسرار ،

- وفيها يلقى الضوء ،

- على كل ما هو غامض مبهم في عالمنا ،

- وعن طريقها تريح هذا العبء الثقيل المرعب من الغموض والإبهام في عالمنا

- فبسلطان التناسق (الهارمونية) تسعد العين بالهدوء

- وبسلطان البهجة العميقة

- نرى أعماق كل ما هو حي(٢٩).

وبعد ذلك يشرئب إلى دقائق إيمانه :

- لقد تعلمت ،

- أن أنظر إلى الطبيعة ،

- لاكشاب لافكر له ، لكنني أسمع في أحوال كثيرة ،

- هارمونية الصمت ، وموسيقاه الحزينة ،

- إنها ليست فجة وليست ضبابية غامضة رغم سلطانها الواسع الممتد ، وقدرتها

- على التطهير (تطهير النفس) والسيطرة (القهر). ولقد شعرت،
- بحضور يثيرني بالبهجة،
- بهجة الأفكار السامية: معانٍ تسمو،
- الأشياء سمواً عميقا وبعيدا بما يتخللها،
- معانٍ محورها ضوء الشمس الغاربة،
- والمحيط الهائل والهواء الطلق،
- والسماء الزرقاء، وفي نفس الإنسان،
- الحركة والروح اللتان تدفعان،
- كل ما هو مفكر، وكل أهداف للأفكار،
- وتدور في كل الأشياء، لذا ألا زلتُ
- عاشقا لكل المروج والغابات
- والجبال ... معترفا أن،
- في الطبيعة ولغة المعاني
- دليل قلبي وحارسه وروح،
- كل وجودي المعنوي (أو بتعبير آخر مغزى وجودي)[٣٠].

وقد وصلت دوروثي أيضا إلى هذه العقيدة (الإيمان) الشافية التي توحّد بين الطبيعة والرب ووجدت أنها لا تتفق مع العقيدة المسيحية. وفي نهاية قصيدته أضاف وردزورث إهداء يعبر فيه عن شكره لها وتسبيحه بفضلها كأخت روحه معلنا تمسكه بها حتى النهاية:

- إن إيماننا البهيج الذي نتمسك به جميعا،
- إيمان مقدس ومبارك. لذا دع القمر،
- يبزغ بنوره عليك عندما تكون سائرا بمفردك،
- ودع رياح الجبال التي بللها السديم تهب حرة،
- دعها تهب عليك، .... وفي الأعوام التالية،

- عندما تصبح هذه الانجذابات البرية ناضجة

- في بهجة رصينة، عندما تصبح نفسك

- ملاذاً لكل ما هو محبب

- ستصبح ذاكرتك مسكناً

- لكل الأصوات الحلوة، وكل ما هو متناسق جميل ...»[٣١].

ولم يحظ هذا الديوان (Lyrical Ballads) باستقبال حسن إذ ذكرت السيدة كولردج «أن أحداً لم يحب هذه القصائد» - لقد كانت السيدة كولردج زوجة معذورة إذ كانت تغار من ملهمة زوجها الشاعر[*].

وانشغل المتابعون (النقاد) انشغالا شديدا بعدم الحبكة في قصيدة (البحار القديم) وعدم الترابط في الأفكار العاطفية في القصائد الغنائية القصيرة التي كتبها وردزورث، وبدا أن أحدا منهم لم يعترف بقصيدة (البحار القديم) كشكل سيسود مستقبلا في كل الأعمال الأدبيه الشعرية رغم أن بعض التابعين لاحظ وحدة الوجود (كون الطبيعة والرب شيئا واحدا) والإيمان بهما إيمانا شديداً في قصيدة (دير تينتيرن Tintern Abbey)، وبيع من هذا الديوان الصغير خمسمائة نسخة على مدار عامين وعزا كولردج أحد أسباب نقص المبيع منه إلى كلمه (البحار) التي أوحت أن الديوان يتناول أغاني التجارة أما وردزورث فقد عزاه إلى احتواء الديوان في على قصيدة (الملاح القديم) هذه وليس مجرد اسم (الملاح).

وفي سنة ١٧٩٩ بينما كان كولردج في المانيا أعد وردزورث طبعة ثانية من هذا الديوان. وفي ٢٤ يونيو كتب إلى الناشر كوتل: من خلال ما سمعته وقرأته يبدو أن قصيدة (الملاح القديم) قد ألحقت ضررا بالديوان (قد يكون هذا صحيحا) ...إذا قدر طبع الديوان طبعة ثانية فإننى سأضع مكانها بعض المقطوعات الصغيرة قد تكون أكثر مواءمة للذوق العام»[٣٢] ومع هذا فقد اشتمل الديوان في طبعته الثانية على قصيدة (الملاح القديم) مع شروح غير متعاطفة قدمها وردزورث ، يبيّن فيها عيوب القصيدة وأخطاءها ولكنه لفت الأنظار إلى

(*) النص: تغار من الموزية Muse وهي إحدى الربات التسع الشقيقات في الأساطير الاغريقية، كن يحمين الغناء والشعر، والمعنى الذي أوردناه في المتن هو المقصود. (المترجم)

كونها قصيدة ممتازة . وهذه الطبعة (يناير ١٨٠١) اشتملت على قصيدة جديدة لوردزورث هي قصيدة تحمل عنوان « ميشيل Michael » – وهي حكاية كتبها بالشعر المرسل (غير المقفى) عن راع بلغ من العمر أربعة وثمانين عاما مخلص في عمله متمسك بالأخلاق الحميدة ، محبوب في قريته ، وعن ابنه الذي انتقل إلى المدينة فغدا فاسقا منحلا . وذكر وردزورث في مقدمة جديدة للديوان بالتفصيل – وفي عبارات أصبحت الآن مشهورة – نظريته في الشعر : إن أي شيء وأية فكرة أن تثمر شعرا إذا حملت بالمشاعر والمعاني ، وإن أي أسلوب أولغة يمكن أن يكون شعرية إ ذا كان قادراً على نقل هذه المشاعر والأحاسيس والمعاني « فالشعر هوفيض عفوي للمشاعر القوية . التي تعود إلى أحاسيس وعواطف تراكمت بهدوء »[٣٣] وعلى الشاعر نفسه أن يتحكم في هذه الأحاسيس وتلك العواطف قبل أن يعطيها شكلها الفني ، ولكن مثل تلك المشاعر والأحاسيس ليست قصرا على المتعلمين أو النخبة المثقفة إذ يمكن أن تكون لدى الفلاح الأمي كما يمكن أن تكون لدى الدارس أو الباحث أو اللورد وربما تتخذ شكلها أنقى وأوضح عند الأشخاص الأكثر بساطة، ولا يحتاج التعبير عنها إلى مفردات شعرية خاصة أوأسلوب شعري خاص فأفضل الأساليب هو أبسطها وأفضل الألفاظ هو أقلها زخرفة وخلوا من الادعاء والخيلاء. والوضع الأمثل هو أن يتحدث الشاعر بلغة الرجل العادي وحتى الكلمات العلمية أو المكتسبة بالتعليم يمكن أن تكون شعرية إذا نقلت المشاعر والقيم المعنوية. وفي خاتمة المطاف فإن المضمون المعنوي –مشاعر وأحاسيس – هو المعول عليه في كل الفنون والآداب .المسألة إذن هي إلى أي مدى إذن نوظف مهارتنا (كشعراء) في توضيح الأفكار وتبرِئتها مما يشوبها والتسامي بها (جعلها نبيلة)، فالشاعر العظيم يجب أن ينقي المشاعر الإنسانية إلى درجة معينة. . . ليجعلها أكثر معقولية ونقاء ودواما – باختصار أكثر توافقا وتناغما مع الطبيعة – أعني مع الطبيعة الخالدة، والروح العظمى للأشياء. لابد للشاعر أن يكون إلى جوار الإنسان، وأن يسبقه (يستشف المستقبل) بين الحين والحين[٣٤] . والشاعر المثالي – أو الرسام أو النحات – هو فيلسوف يلبس الحكمة ثوب الفن والأدب، ويوحي المعاني من خلال الشكل الأدبي أو الفني الذي ابتغاه.

لقد قامت هذه المقدمة (التي كتبها وردزورث) بدور في التاريخ لأنها ساعدت في وضع نهاية للذوق اللغوي الذي كان سائدا غالبا في الشعر والخطابة لدى الإنجليز في العهد الأوغسطي كما ساعد على وضع نهاية للظلم الطبقي والمرجعيات الكلاسية في ذلك العصر. لقد أعلنت هذه المقدمة حرية المشاعر (حق الجميع في الشعور)، وكانت عاملا آخر من عوامل الترحيب بالقصص الرومانسي – وإن صاغها وردزورث بأسلوب أبعد ما يكون عن الرومانسية. لقد كان وردزورث نفسه ذا مزاج وصفات كلاسية فكرا وحكما لقد تفاعلت ذكرياته معه بهدوء، بينما كان كولردج رجل عواطف وأحاسيس وخيال. لقد كان التعاون بين الرجلين تعاونا مثمرا ومفيدا. إنها مشاركة ممتازة.

٨ – الباحثان المتجولان: ١٧٩٨ – ١٧٩٩

لم ينتظر الشاعران (وردزورث وكولردج) ليريا ديوانهما منشورا وأبحرا ومعهما دوروثي في ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ من يارموث Yarmouth إلى همبرج Hamburg، وكان أحد أسباب قرارهما منحة إضافية تلقاها كولردج من جوزياه ودجوود Josiah Wedgwood وقرضا تلقاه وردزورث من أخيه رتشارد. وفي همبرج، افترقا بعد أن قاما بزيارة غير ملهمة للشاعر العجوز كلوبستوك Klopstock. وذهب كولردج للدراسة في جامعة جوتنجن Gottingen أما وردزورث ودوروثي فاستقلتهما مركبة عمومية إلى جوسلار Goslar « المدينة الإمبراطورية الحرة » عند السفوح الشمالية لجبال هارتس Harz، وهناك مكثا أربعة أشهر، ولم يكن ذلك في خطتهما وإنما بسبب البرد الشديد. وفي هذه الفترة راحا يتسكعان في الشوارع ويتدفآن أمام الموقد « المدفأة » ويكتبان الشعر أو ينسخانه. وليدفئ نفسه بالذكريات ألف وردزورث الكتاب الأول من مقدمته (The Prelude) وهو ملحمة سيرته الذاتية. وفجأة تحققا من أنهما يحبان إنجلترا كثيرا فانطلقا سيرا على الأقدام في ٢٣ فبراير سنة ١٧٩٩ وكان البرد قارسا ليودعا كولردج في جوتنجن، ثم أسرعا عائدين عبر بحر الشمال القارس إلى يارموث ومنها إلى سوكبيرن Sockburn حيث كانت ماري هتشنسون تنتظر بصبر قدوم وليم (وردزورث) ليتزوجها[٣٥].

وفي هذه الأثناء كان كولردج قد بذل قصارى جهده في جوتنجن ليكون ألمانياً إذ تعلم الألمانية وأصبح مشغولاً بالفلسفة الألمانية. ولم يجد توضيحا للعقل (أو النفس mind) في سيكلوجيا المادية Psychology of materialism وتخلى عن نظرية هارتلي Hartley عن التداعي Mechanistic associationism وتبنى مثالية idealism كانط ولاهوت شلنج Shelling الذي جعل الطبيعة Nature والعقل Mind هما وجهي الرب (جانبي الله). وقرأ أو سمع محاضرات أوغسطس فيلهلم فون شليجل August Wilhelm Von Schlegel عن شكسبير واقتبس منها أفكارا كثيرة في محاضراته اللاحقة عن الدراما في عهد إليزابث. وبعد أن تشبع تماما بالفكر والمجردات، فقد ميله للمشاعر والخيال وترك الشعر إلى الفلسفة. وكتب: «لقد مات الشعر فيّ. لقد نسيتُ كيف أنظم قصيدة»(٣٦). لقد أصبح هو حامل الفلسفة الألمانية إلى إنجلترا. وفي يوليو سنة ١٧٩٩، غادر ألمانيا عائداً إلى نذر ستوي Nether Stowey لكن ابتعاده عن زوجه مدة عام كان قد أثر في قدرتها على رعاية بيتها، لم تعد ساره كولردج رومانسية حالمة، وأصابها هم بسبب موت ابنهما الثاني حديثا - بيركلي Berkeley. وفي شهر أكتوبر انطلق - وقد اعتراه الملل - شمالا ليرى وردزورث في سوكبيرن Sockburn. وفي تلك الزيارة أبقى يد سارة هتشنسون - أخت ماري - في يده طويلا، وسرى تيار باطني غامض من المرأة إلى الرجل، وانشغل كولردج بحبه الثالث غير السعيد، فسارة هذه - لم تقدم له أكثر من التعاطف لأنها كانت تدرك التزاماته تجاه الأخرى. وبعد عامين من التودد إليها بلا أمل استسلم للهزيمة وكتب قصيدة غنائية مؤثرة بعنوان «الأحزان» تكاد تكون آخر نبض شعري له.

وصحب وردزورث في جولة على الأقدام في منطقة البحيرة يبحث كل منهما عن مسكن، وفي كزويك Keswick ظن أنه وجد مكانا للإقامة لكنه تلقى عرضا للعمل في جريدة مورنينج بوسط Morning Post فغير خطته واتجه إلى لندن. وفي هذه الأثناء استأجر وردزورث مسكنا على بعد ثلاثة عشر ميلا إلى الجنوب - في جراسمير Grasmere. وعاد إلى سوكبيرن ورضيت دوروثي بالتحرك للمنزل الجديد وفي ١٧ ديسمبر ١٧٩٩ بدأ الأخ والأخت رحلتهما الطويلة سيرا على الأقدام في معظم الوقت قطعا خلالها أميالا كثيرة في

طرق وعرة وغير مستوية في فصل الشتاء. وفي ٢١ ديسمبر أقاما مدفأتهما في المنزل الجديد فيما أ سماه ورزورث «طرف المدينة» وأصبح فيما بعد يحمل اسم مسكن اليمامة (دوف كوتاج Dove Cottage) وهناك قضيا أصعب أعوامهما وأسعدها في الوقت نفسه.

٩ - قصيدة رومانسية في جريسمير: ١٨٠٠ - ١٨٠٣

احتفظت لنا دوروثي في يومياتها في جريسمير في الفترة من ١٤ مايو ١٨٠٠ إلى ١٦ يناير ١٨٠٣ بتفاصيل شغلت ١٥٠ صفحة تمكننا من معرفة الحياة اليومية للأخ والأخت - والتي أصبحت باختصار فيما بعد حياة أخ وأخت وزوجة في آن واحد. ولم يكن مناخ جراسمير صحيا: فالمطر والثلج يكادان يسقطان يوميا. وبرد الشتاء بما يصاحبه من ثلوج قد يعاود الظهور في يونيو أو يوليو[٣٧]. لقد كانت الأيام المشمسة تمثل - لندرتها - بهجة غامرة، وكان ظهور القمر بين الحين والحين إلهاما وتجليا. وكان المنزل يدفأ بإشعال الفحم في المستوقد ولكن دوروثي ذكرت «أنني لم اكن أستطيع النوم بسبب شدة البرد وقسوته»

لقد اعتبرا مسألة المناخ هذه مسألة مفروضة وتصرفا إزاءها على نحو رُواقي، وكانا ممتنين للربيع وهوادة الأمطار «لقد كانت السماء تمطر باعتدال وبشكل لطيف». هذه العبارة تكررت مرارا في يوميات دوروثي. وورد فيها أيضا أنه «في بعض الأحيان كانت جريسمير تبدو جميلة جمالا يكاد يذيب القلب»[٣٨].

وكانا يسيران مسافات طويلة، معاً، أو فرادى وأحيانا كانا يقطعان ميلا إلى أمبلسيد Ambleside حيث مقر البريد، وأحيانا كانا يقطعان رحلة تستغرق نصف يوم إلى كزويك keswieck بعد استقرار كولردج بها. وبدا ورد زورت راضيا بزواجه من أخته إذ كان يدعوها:

رفيقة وحدتي في مسيرتي،
أملي وفرحتي وأختي وصديقتي،
وأحيانا أعز عليّ من هذا كله إن كان
العقل يدرك ما هو أعز من ذلك، أو كان،
في قلب الحب، ما هو أعز.

وفي وقت تأخر حتى سنة ١٨٠٢ (عام زواجه) كان يشير إليها بعبارة (حبي) وكانت راضية بدعوتها له (أخي اللطيف) [٣٩].

لقد أصبح دخلها الآن أربعين جنيها أما هو فدخله سبعون جنيها بالإضافة إلى مبالغ ضئيلة متقطعة تصل إلى حوالي ١٤٠ جنيها (٣,٥٠٠؟ دولار) وهذا هو كل دخلهما السنوي. وكان عندهما خادم أو خادمان، ذلك لأن الفقر كان منتشرا جدا حتى إن نسوة كثيرات بل ورجالا من غير المتزوجين كانوا راغبين في أداء عمل مقابل المأوى والطعام..

وكان الشاعر وأخته يرتديان ملابس بسيطة: دوروثي كانت ترتدي عباءة عادة ما تكون من صنعها هي، بل إنها عادة ما كانت تصنع حذاءها[٤٠] أما وليم وردزورث فكان يرتدي ملابس فلاح أو ملابس مستعملة أرسلها له أصدقاؤه[٤١].

وكان لديهما حديقة خضراوات، وكانا أحيانا يصطادان الأسماك من البحيرة. وأكثر من هذا فقد ورد في يوميات دوروثي: «لقد كنت أصنع كعكة الفاكهة والحلوى»[٤٢] «الخبز والحلوى»[٤٣] «الحلوى والكعك»[٤٤]. لقد كانت تدلل وليم.

لقد كان وليم يعمل أيضا: فقد خصص شطراً من كل يوم عادي للتأليف، وعادة ما كان يؤلف في أثناء سيره منفردا فإذا ما عاد أملى على دوروثي. وكان أيضا يقطع الأخشاب ويعزق أرض الحديقة ويزرعها «كان وليم يطهر المجرى المائي اللازم»[٤٥] مثل المجرى اللازم حفره في الجليد للتخلص من صرف المرحاض. وبالإضافة إلى هذا كانت دوروثي تخمر الجعة[٤٦] وكنا نستعير بعض الزجاجات لتعبئة الرُّم (شراب مسكر)[٤٧] ورغم تناول وليم للخضراوات[٤٨] فقد كان يعاني من البواسير وبعد سنة ١٨٠٥ أصبح يعاني من ضعف الإبصار والأرق فكان على دوروثي في كثير من الأمسيات أن تقرأ له حتى ينام[٤٩].

وفجأة اضطربت تلك الأيام[*] بسبب المال والزواج. ففي ٢٤ مايو سنة ١٨٠٢ توفي سير جيمس لوثر James Lowther إيرل لونسديل Lonsdale تاركا ثروته ولقبه لابن أخيه - السير وليم لوثر الذي رتب دفع المبالغ المدين بها السير جيمس لورثة جون وردزورث. وكان

(*) النص Those Theocritean days.

من الواضح أنه قد جرى تقسيم أربعة آلاف جنيه بين الأطفال ورغم أن نصيبي وليم ودوروثي لم يتم دفعه حتى سنة ١٨٠٣ فإن وليم شعر أن توقعاته المعقولة تدعم تقدمه لطلب الزواج من ماري هتشنسون لكن ذكرى أنيت فالون Annette VaIon راحت تعتمل في وعيه. ألا يجب عليه الكشف عن علاقته بها قبل أن يطلب من ماري الاقتران به؟ وفي التاسع من يوليو غادرا جالوهل Gallow Hill استقلتهما عربة إلى لندن. لقد أخذ بروعة المدينة كما بدت له في الصباح الباكر من جسر وستمنستر Westminster Bridge. وألف وردزورث واحدة من سونيتاته (السونيتة قصيدة من أربعة عشر بيتا) الخالدة - «ليس على وجه البسيطة ما هو أجمل من ذلك»[٥٠] وواصلا طريقهما إلى دوفر Dover واستقلتهما سفينة نقل البريد عبر القنال وفي ٣١ يوليو وجدا أنيت Annette وابنتها كارولين ذات الأعوام التسعة في انتظارهما في كاليه Calais. ولا ندري ما توصلا إليه من اتفاق، وكل ما نعرفه أنه بعد ١٤ سنة، عندما تزوجت كارولين، كانت حالة وردزورث وقتها منتعشة خصص لها راتبا سنويا مقداره ٣٠ جنيها (٧٥٠ دولار). ومكث الأربعة في كاليه Calais مدة أربعة أسابيع حيث راحوا يسيرون على شاطئ البحر في وفاق ظاهر. ونسج وردزورث قصيدة (سونيتة) أخرى رائعة:

«إنها أمسية جميلة، هادئة وسمحة

الزمن القدسي هادئ كراهبة

كتم أنفاسه لفرط الوقار».

وانتهى بالدعاء لكارولين. وفي ٢٩ أغسطس غادر وردزورث ودوروثي إلى دوفر ولندن. ومن الواضح أنه لم يكن في عجلة من أمره فلم يعد الأخ ولا أخته إلى جالوهل Gallow Hill حتى ٢٤ سبتمبر.

وفي ٤ أكتوبر ١٨٠٢ تزوج وليم وماري ولم تتلق العروس هدايا لأن أقاربها لم يكونوا موافقين على زواجها منه[٥١] أما دوروثي التي كانت قد كتبت في يومياتها مؤخرا عن وليم أنه (عشيقها) فلم تستطع أن تثق في قدرتها على حضور مراسم زواجه «فقد كانت مشاعرها مهتاجة تكاد لا تستطيع السيطرة عليها»[٥٢] فصعدت السلم وهي لا تكاد تحس

بما حولها حتى دعتها سارة هتشنسون قائلة «إنهما عادا» من الكنيسة. كان هذا – كما ذكرت في يومياتها – بعد الظهر – فاضطرت إلى انتزاع نفسها من سريرها وتحركت لا تدري كيف ... وهي لا تكاد تحمل نفسها حتى «قابلت حبيبي وليم فارتميت على صدره، فقام هو وجون هتشنسون باقتيادي إلى البيت وهناك مكثت لأرحب بعزيزتي ماري».

وفي هذا اليوم نفسه بدأ الشاعر وزوجته وأخته رحلة طويلة إلى جراسمير Grasmere في عربة خفيفة تجرها خيول. وبالتدريج كيّفت دوروثي نفسها للعيش كثالثة ثلاثة وسرعان ما تعلمت أن تحب ماري كأخت وصديقة حميمة. بالإضافة إلى ذلك فقد جلبت ماري إلى بيت الزوجية دخلها السنوي البالغ عشرين جنيها. وعندما وصل مبلغ لوثر Lowther الآنف ذكره أخيرا ارتقت أحوال الأسرة فنعمت بالرفاهية البورجوازية، وأصبح وليم وطنيا غيورا وأُدرج اسمه في قائمة متطوعي جراسمير Grasmere للدفاع المدني عن إنجلترا ضد نابليون.

ومن أناشيده الرعوية الرومانسية التي تعد من أجمل قصائده (إلى فراشة To a Butterfly) وأقوى سونيتاته (ميلتون)، أما قصيدته (الثبات والاستقلال) فتعكس نزعته إلى الحزن الشديد، وبين عامي ١٨٠٣ و ١٨٠٦ ظهر أشهر أعماله (إعلانات الخلود من ذكريات الطفولة الباكرة) فقلما تكون هناك فنتازيا فلسفية جرى التعبير عنها بمثل هذا الجمال[٥٣].

لقد بدأت بملاحظة كئيبة عن إعتام عينيه:

«أدور قدر مايمكن

ليلا أونهارا

فالأشياء التي كنت أراها لم أعد أراها الآن».

لقد جعل هذا رمزا لرؤانا المثالية التي تذوب أوتتلاشى مع شبابنا – «أين هي الآن .. أين العظمة والجلال والأحلام؟» ويدهش لم لاتساعدنا المعجزات البائسة التي أتتنا من البيت السماوي، والتي كانت تبهج طفولتنا وتجعلها متالقة، ترى لم تخبو كلما تقدم بنا السن؟

– **ميلادنا ليس سوى نومٍ ونسيان،**

– **فروحنا التي تشب معنا ونجم حياتنا،**

- لابد أن يخبوا (يغربا) في مكانٍ ما،

- لقد أتت روحنا من بعد قَصِي

- ليست من المجهول تماما

- وليست من العري الكامل

- لكننا أتينا من مؤخرات سحب الجلال

- من الرب الذي هو سكننا

- فالفردوس حولنا في مرحلة طفولتنا

- وتبدأ ظلال السجن تدرك الصبي النامي،

- لكنه يمسك النور، وحيثما ينساب النور

- يراه في لحظات سعادته ومرحه

- وأخيرا يدرك الانسان أنه يتلاشى،

- ويذوب في وضح النهار.

ومن ثم يحيى الشاعر الطفل باعتباره:

- أنت أفضل فيلسوف، فأنت لاتزال تحتفظ

- بتراثك ...

بل وعندما نبلغ من العمر مبلغا يكون لدينا وعي غائم بهذا الأفق الضائع:

- الهواجس الشاحبة للخلق

- تتحلق حول عوالم غير مؤكدة ...،

- تلقي أرواحنا نظرة على هذا البحر الخالد

- الذي ألقى بنا هنا

- أيمكن في لحظة أن نرحل إلى هناك،

- ونرى ألعاب الأطفال على الشاطئ،

- ونسمع أصوات الأمواج الجليلة مرة أخرى؟

تلك إنثر وبولوجيا كُسيت كساء لاهوتيا: الطفل لايزال حيوانا يسعد بحريته وأطرافه وعواطفه الحيوانية، ينفض أي كساء وأية قيود وأي حظر، يتطلع إلى الحرية في الحياة الحيوانية والحركة في الحقول أو الغابات أو البحار أو الهواء وشيئا فشيئا يفقد - بامتعاض - تلك الحريات كلما تقدم به السن وكلما أصبح شابا يعيش في ظل الحضارة. لكن وردزورث لم يرد أن يكون كذلك، لقد راح يتذكر فيثاغورث وراح يأمل أن يجد فيه جسرا يعبر منه إلى عقيدته أيام الطفولة (عقيدة الطفولة أو إيمانها) إن الرجل الهرم يبحث عن رحم لمشاعره كالرحم الذي أتى به إلى الحياة.

١٠ - حب وعمل وأفيون: ١٨٠٠ - ١٨١٠

في أبريل سنة ١٨٠٠ أتى كولردج إلى جراسمير بعد أن أكمل مهمته في جريدة مورننج بوست Morning Post ليقضي ثلاثة أسابيع مع آل وردزورث، فأخبرته دوروثي أنها وجدت مأوى جميلا له ولأسرته في منزل كبيريقال له جريتا هول Greta hall على بعد نحو ثلاثة أميال خارج كزويك Keswick وذهب كولردج ورأى البيت في عز الصيف ووجد في إحدى الغرف مكتبة تضم خمسمائة مجلد، كثير منها غلال ملائمة لطاحونته (المقصود ملائمة لمزاجه الفكري) فوقع عقد الإيجاربحماس . وفي أغسطس سنة١٨٠٠ اصطحب زوجته سارة وابنه هارتلي من نذر ستوي Nether Stowey إلى منزلهم الجديد ، حيث وضعت ساره طفلا آخر أسموه درونت Derwent على اسم بحيرة ومجرى مائي قريب . وسرعان ما حل الشتاء فنبه الأسرة إلى خطئها فقد فاقم البرد والمطر من استعداد كولردج لمرض الربو والحمى الروماتيزمية ، كما أن ابتعاد الزوجة عن أقاربها عمّق اكتئابها لأن زوجها كان غالبا ما يتركها وحيدة مرتحلاً ببدنه وفكره.

فكثيرا ما كان يتركها ليسير على قدميه ستة عشر ميلا إلى كزويك وجراسمير ليسعد بمناقشات وردزورث المثيرة، ورعاية دوروثي الودودة. ولم يكن وردزورث ودورثي ليسيرا في اتجاه الشمال كثيرا ليبهجا أيام كولردج. وفي نوفمبر سنة ١٨٠٠ أقبلت سارة هتشنسون من جالوهل Gallow Hill لتمكث عدة شهور مع ماري ووليم ودوروثي في دوف كوتاج Dove

Cottage وهناك تابع كولردج ملاحقته لها، وببساطة قاسية غير مقصودة اعترف لزوجته بحبه لسارة الثانية وطلب منها أن تأذن له بحبهما معا. ويوما فيوم ابتعدت عنه نفسيا منشغلة باهتماماتها كأم، وانكفأ هو على كتبه وتأملاته.

وحاول أن يكمل قصته الشعرية (كريستابل Christabel) التي كان قد بدأها في سنة ١٧٩٧ لكنه لم يجد في نفسه حماسا أو إلهاما فتركها ولما تكتمل. وقد امتدح سكوت Scott وبايرون Byron هذه القصيدة في شكلها المخطوط رغم أنهما أخذا عليها بعض الهنات في الموضوع والوزن والحالة النفسية، وأخيرا (١٨١٦) طبعها الناشر مري Murray بتشجيع وحث من بايرون إنها بقايا لم تكتمل لأثر راح ما به من جمال يذوي.

وبعد عام في جريتا هول Greta Hall كانت صحة كولردج وميزانيته تنفد شيئا فشيئا وأحس أنه لن يستطيع الحياة شتاء آخر في منطقة البحيرات. وسعد لتلقيه دعوة للانضمام إلى هيئة تحرير المورننج بوست Morning Post وفي أكتوبر سنة ١٨٠١ ذهب إلى جراسمير Grasmere للوداع وفي التاسع من الشهر نفسه سارت معه دوروثي وماري إلى جريتا هول Greta Hall، وفي العاشر من الشهر نفسه غادر إلى لندن، أما دوروثي وماري فقد عادتا إلى جراسمير. وكتبت دوروثي في يومياتها «لقد قضى كولردج يوما ممتعا ...

إن كل مشهد وكل صوت يذكرني به كرفيق عزيز عزيز.. لقد كنت مكتئبة ولا أستطيع الحديث لكنني أخيرا هوّنت على نفسي بالبكاء – قال وليم: يا له من انتحاب عصبي. ولم يكن الأمر كذلك، آه يالكثرة الأسباب التي تجعلني قلقة عليه!».

وصل كرلردج إلى لندن وانشغل بالكتابة بجدية كاملة في كتاب (الزعماء) الذي كان يتمشى مع سياسة الجريدة (مورننج بوست) الأداة الرئيسية لحزب الأحرار (الهويج) – المعارض للوزارة، وإن كان مؤيداً للملكية (بكسر الميم). لقد أدان الرق و« التنظيم الإداري القابل للرشوة rotten boroughs» (الذي كان يرسل بانتظام التورى – المحافظين – إلى البرلمان) وأدان الحكومة لرفضها السلام الذي عرضه نابليون (١٨٠٠) وكاد يحطم بت Pitt بتحليلاته التي لا ترحم له كرجل دولة. وعلى أية حال فقد دافع عن الملكية (بكسر الميم) الشخصية كأساس ضروري لمجتمع متقدم ومنظم وساق الأدلة على أن الحكومة هي أفضل

من يجعل «سلطان كل فرد متناسبا مع ممتلكاته»[٥٤](*) لقد كانت كتاباته قوية ومؤثرة فزاد توزيع الجريدة كثيرا أثناء كتابته فيها[٥٥]. لكن عاما من العمل الشاق أسهم في تدمير صحته. وعندما عاد إلى جريتا هول (١٨٠٢) كان منهاراً صحيا ومعنويا – آلام بدنية، وانصراف عن الزوجة، وبُعد عن الحب وأصبح عبدا للأفيون. وكان قد بدأ في تناول الأفيون في سنة ١٧٩١، وهو في التاسعة عشر من عمره[٥٦] لتهدئة أعصابه وتخفيف آلامه وجلب النوم ووقف ما حاق به من تدهور في القلب والرئتين. وعندما وافاه النوم المتقطع أخيرا اجتاحته في أثنائه الأحلام المروعة (الكوابيس) التي أشار إليها في «آلام النوم» (١٨٠٣).

– **حشد شيطاني شرير،**

– **خليط غريب من الرغبة والقرف،**

– **أشياء كريهة وحشية يختلط بعضها ببعضها الآخر،**

– **عواطف جامحة وهدير مثير،**

– **وخجل، ورعب شامل**[٥٧].

ويخبرنا في مذكراته عن بشر خياليين على سطح القمر «إنهم مثل البشر على الأرض في كل شيء إلا أنهم يأكلون بمؤخراتهم (ألياتهم – جمع ألية) ويتبرزون (يتغوطون) في أفواههم .. ولا يمارسون التقبيل كثيراً»[٥٨]. لقد كانت تعتريه الأحلام المزعجة (الكوابيس) مثل غالبنا، لكن أحلامه المزعجة هذه كانت حية جدا تكاد تكون حقيقية حتى إنه كان – في بعض الأحيان – يوقظ ساكني المنزل بصراخه[٥٩].

وربما فتحت له آلامه وما يتناوله من عقاقير آفاقا جديدة وأتاحت له صورا ذهنية ومدركات حسية وخيالات غير متاحة للعقل العادي، رغم أنها – أي هذه الأمراض وتلك العقاقير – كانت تشوش على أفكاره وتضعف إرادته. على أية حال فقد كان محصوله المعرفي لايبارى في جيله، فهو في هذا يفوق وردزورث بمراحل، فلم يكن وردزورث يستطيع أن يتحدث في غير قصائده، بينما كان الحوار مع كولردج – حتى في فترة تدهوره

(*) to make "each man's power porportionate to his property"

- يشمل موضوعات كثيرة ويتسم بالحيوية كونه شائقا حتى إنه ترك بصماته على كارليل Carlyle، وربما كان قادرا حتى على إلزام مدام دي ستيل Stael الصمت. وماجعله مبهورا بوردزورث هو أن هذا الأخير كان شديد التركيز لتحقيق هدفه، بالإضافة إلى قوة إرادته أما هو (كولردج) فكان - شيئا فشيئا - يحل الإرادة محل الرغبة، ويزيح الخيال ليحل محله الحقيقة. لقد كان تواضعه شديدا بشكل غريب لكنه كان واعيا بذاته بشكل مكثف مدركاً أنه يكاد يكون مهتما بكل الموضوعات (وهو في هذا مثل وردزورث ومثلنا) وكان في طويته معتزا بنفسه بشكل عدواني (يفوق الحد) وقد لفت الانتباه بأمانته والتزامه الخلقي الصارم ولامبالاته بالشهرة والمال، لكنه كان يتطلع إلى المكانة. وانتحل عبارات الآخرين وأفكارهم بسعادة، واقترض المال وترك أصدقاءه ينفقون على زوجته وأولاده وربما أضعف الأفيون من قدرته على ممارسة الجنس[٦٠].

وفي أبريل سنة ١٨٠٤ راح يبحث عن تقليص آلامه التي ضاعفها الربو والحمى الروماتيزمية بالتوجه إلى شمس البحر المتوسط وهوائه فقبل مائة جنيه قرضا من وردزورث[٦١] وأبحر إلى مالطة التي كانت في ذلك الوقت معقلا للقوة البريطانية وإن كانت موضع نزاع. وأخذ معه أوقية (أونصة) من الأفيون الخام وخمس أوقيات (أونصات) من اللودانيوم (مستحضر أفيوني يسمى أحيانا صبغ الأفيون) وقد كتب عن الرحلة في مذكراته (يوم ١٣ مايو) دعاء يائس:

«يا ربي العزيز! أعطني القوة أن أقوم بتجربة واحدة عميقة - إذا رسوت في جزيرة مالطة، فلا يكون الجو متعباً طوال شهر واحد، وأن تكون الطبيعة هادئة .. إنني عاشق رقيق القلب ولا أستطيع ممارسة الخطيئة دون إفلات من العاقبة، لكن آه إنني واهن جدا جدا منذ أيام طفولتي وحتى الآن، فلترحمني فلترحمني أيها الأب والرب»[٦٢].

وفي نحو عام بدا وكأنه استعاد سيطرته على نفسه وفي يوليو تم تعيينه سكرتيرا خاصا لحاكم مالطة - السير إسكندر بول Ball، وفي يناير ١٨٠٥ رقي إلى منصب السكرتير العام وهو منصب صلاحياته أكثر. لقد مارس عمله بجدية وأظهر براعة مدهشة في الحكم والتنفيذ. وبعد عام من الخدمة اعتراه إرهاق شديد، حتى إنه أسرف في تناول المخدرات،

وغادر مالطة إلى صقلية وإيطاليا وعاد إلى إنجلترا (١٨٠٦) وفي هذا الوقت أصبح أكثر اعتمادا على الأفيون، وكان يقاوم تأثيره المنوم بتناول « البراندي » .

وفي ٢٦ أكتوبر ١٨٠٦ قابل وردزورث في فندق في كندال Kendal، وكتبت دوروثي تحت هذا التاريخ «لم أشعر أبدا قبل ذلك بصدمة مثل صدمتي عندما وقع عليه نظري، فمن النظرة الأولى وجدته سمينا جدا حتى إن عينيه بدتا غائرتين في وجهه المنتفخ والتألق الوحيد الذي بدا في عينيه للحظة كان « تعبيرا مقدساً عن هدوء محياه »[٦٣] وذهب إلى كزويك Keswick ليطلب من زوجته الانفصال لكنها رفضت فتركها واخذ معه ابنه دروئت Drewent البالغ من العمر ست سنوات، وحول لزوجته الراتب السنوي الذي كان يتلقاه من ودجود[٦٤] Wedgood لكن جوزياه ودجود سحب مساهمته في هذا الراتب السنوي في سنة ١٨١٣ . وأخذت سوثي Southey التي استقرت في جريتا هول Greta Hall منذ سنة ١٨٠٣ – على عاتقها رعاية امرأة أخيه . وتغلب كولردج على أزمته بفضل هدية أرسلها له رفيقه في الإدمان دي كوينسي De Quincey، وقد أرسلها له دون أن يحدد أنه هو مرسلها (أرسلها مجهولة المصدر) وبفضل المحاضرات التي ألقاها في المعهد الملكي Royal Institution في سنة ١٨٠٨ و١٨٠٩ و١٨١٠ .

وفي هذا العام انتهت الصداقة الكبيرة التي كان أساسها تبادل الخبرات الشعرية . لقد توقفت عندما جف ينبوع الشعر عند كولردج بعد سنة ١٨٠٠ بسبب وهن جسمه وتأثير الأفيون المنوم والنفور الزوجي وافتتانه بالفلسفة . وكان وردزورث قد شجع كولردج على ترك ربات الشعر، واقترح عليه كتابة النثر لأنه أقرب إلى عبقريته . وقد انزعج كولردج عندما علم أن آل وردزورث الثلاثة قد حذروا سارة هتشنسون من الاقتران به وبلغ الخلاف أشده عندما كتب وردزورث خطابا في ٣١ مايو ١٨٠٩ يحذر فيه بول Poole من الارتباط كثيرا بالعمل في مجلة كولردج الجديدة (١٨٠٩ – ٩١٨١٠) والتي تحمل عنوان « الصديق The friend » باعتباره – أي بول – أحد أعز أصدقاء كولردج وأقربهم إليه . كتب وردزورث : « إن ما أقوله لك هو رأيي الذي لم أقدمه لك إلا بعد ترو وتفكير، وهو رأي قائم على أدلة وبراهين تعمقت طوال سنوات . وإن كولردج لايقدر ولا يستطيع ولايريد تنفيذ أي شيء مفيد

لنفسه أو لأسرته أو للبشرية. فلا مواهبه ولا عبقريته ولا معلوماته الواسعة ستفيده في أي شيء، لقد خابت جميعا بسبب ما اعترى تفكيره من تشويش. والحقيقة أنه لم يعد لديه طاقة عقلية من أي نوع ولا هو قادر على تنفيذ أي عمل يحتمه الواجب أو الالتزام المعنوي»[٦٥] لقد كان هذا الرأي قاسيا متطرفا لكن وردزورث كان قد ذكر لكولردج الكثير في خطاب أرسله له منذ أسابيع قليلة سابقة[٦٦]. وتفاقم الأمر سوءا عندما أخبر بازل مونتاجو Basil Montagu كولردج أن وردزورث نصحه بألا يدعه (أي يدع كولردج) يقيم معه بسبب إدمانه الشديد الذي جعله مزعجا لايطاق عندما كان يقيم في جراسمير[٦٧] إلا أن وردزورث بعد ذلك أكد لكولردج أن مونتاجو أساء فهم كلماته، وتظاهر كولردج أنه اقتنع ولكن الخيوط بينهما كانت قد تقطعت واستحال وصلها وماتت الصداقة التاريخية.

١١- كولردج فيلسوفا

ربما نكون قد بالغنا في انهيار كولردج، فلا بد أن نلاحظ أنه بين عامي ١٨٠٨ - ١٨١٥ ألقى محاضرات في بريستول وفي المعهد الملكي في لندن - ظهر فيها أنه يعاني تشوشاً في الفكر والتعبير لكنه أثر في مستمعين مثل شارلز لامب Lamb ولورد بايرون وصمويل (صموئيل) روجرز، وتوماس مور ولاي هنت Leigh Hunt، وكأنما دفعهتم وغيرهم من الكتّاب للتضامن مع زميلهم الذي أصابه ما أصابه. وقد وصف هنري كراب Crabb الذي يعتبر واحداً من أصدقائه البارزين إنجليزاً وألماناً، المحاضرة الثالثة التي ألقاها في لندن «بأنها محاضرة ممتازة وألمانية جدا» وذكر أنه بالنسبة إلى المحاضرة الرابعة «فقد كانت ذات صبغة ألمانية جدا وكانت طريقة التناول فيها تتسم بالتجريد الشديد بما لا يطيقه المستمعون الذين كان عددهم قليلا»[٦٨]. لقد كان تجميع كولردج للحقائق والأفكار والفروض المسبقة تجميعا مزدحما وهائلا حتى إنه لم يستطع السيطرة على موضوعه. لقد كان يطوف بعناصر موضوعه بجموح لكنه كان مُلهما. لقد لخّص شارلز لامب، كولردج في عبارة مشهورة «إنه كملاك - بفتح الميم واللام - من الطبقة العليا، لحقه بعض الدمار»[٦٩] وانتهى إلى أنه «يكفينا أن نكون في نطاق رياح عبقريته ونسماتها حتى لا نمتلك مشاعرنا أو بتعبير آخر

حتى لاتصبح أرواحنا مستقرة»[٧٠].

وفي الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨١٧ عندما كان كولردج مرة أخرى على وشك الانهيار دفع بخلاصة فكره إلى المطبعة[٧١]. ففي كتابه نظرية الحياة Theory of Life (١٨١٥) أظهر لنا معلومات مثيرة في العلم – خاصة الكيمياء التي تعلمها عن طريق صداقته لهمفري ديفي Humphry Davy لكنه رفض كل المحاولات ليشرح العقل mind من خلال مصطلحات فيزيو كيميائية. لقد سمى فكرة إرازموس داروين السخيفة .. بأنها فكرة رجل انطلق من حالة انبثاق برتقالية orange - outagestate وفي مطبوع Statesmans manual (١٨١٦) قدم الكتاب المقدس باعتباره أفضل مرشد للفكر السياسي، والتبصر بالعواقب». نجده يقول:

«يجد المؤرخ أن الأحداث الكبرى – وحتى التغيرات الأكثر أهمية في العلاقات التجارية العالمية .. أنا لانجد جذورها لدى مجموعة رجال الدولة ولا في الرؤى العملية لرجال الأعمال وإنما نجد جذورها لدى المنظرين الذين لاتتسم كتاباتهم بالتشويق، وفي رؤى العباقرة المنعزلين (المتفردين) ... كل الثورات الدينية التي أعادت صياغة فترات زمنية في العالم المسيحي، والثورات الدينية التي أعادت معها صياغة العادات المدنية والاجتماعية والمحلية تزامنت مع قيام نظم (نظريات) ميتافيزيقية أوسقوطها»[٧٢].

(ربما كان يفكر في نتائج الفكر الذي أتى به يسوع، وكوبرنيكس وجوتنبرج ونيوتن وفولتير وروسو) وبعد موجز واضح للعوامل التي أدت إلى الثورة الفرنسية انتهى كولردج إلى أن صوت الشعب ليس هو صوت الله لأن الناس (الشعب) يفكرون في مجردات عاطفية أو «مطلقات عاطفية» ولا يمكن الوثوق بهم عند تولي السلطة[٧٣]، وأن أفضل طريق للإصلاح لايكون إلا من خلال وعي الأقلية المتعلمة ذوات الممتلكات[٧٤]، وأفعالها. وبشكل عام فإن أفضل مرشد للعمل الصحيح في السياسة وفي كل مجال هو الكتاب المقدس Bible لأنه يحتوي على كل الحقائق المهمة في التاريخ والفلسفة «فأنتم يا من تتحركون في الطبقات العليا من المجتمع «يجب أن تعلموا أيضا التاريخ والفلسفة واللاهوت، فأنتم أهل لها وليس أفراد الطبقات العاملة فتعلمهم التاريخ والفلسفة واللاهوت غير مطلوب إلى حد كبير بل وربما كان غير مرغوب فيه عموما. إن ترياق زيف رجال الدولة هو التاريخ ذلك أن جمع

الحاضر مع الماضي في سياق واحد، وتأصيل عادة مقارنة أحداث عصرنا - بعمق - بأحداث عصور خلت مسألة مطلوبة»[٧٥] ويواصل في كتابه (A Lay Sermon) الصادر في سنة ١٨١٧ دعواه للطبقات العليا والوسطى «باعتبارها أفضل أداة للإصلاح الصحيح وباعتبار أفرادها حراسا ضد الغوغائية والسفسطائية وضد المدرسة الثورية المضرمة للنيران»[٧٦] لكن الكتاب يعترف ببعض الشرور الجارية (الموجودة في زمنه): تضخم الدين الوطني بشكل غير محسوب، فقر الفلاحين فقرا شديدا، وعمل الأطفال في المصانع، ولاحظ كولردج «الحماقات والوقاحات والتبذير والتطرف الذي أعقب الرخاء الذي حل بنا والذي لم يسبق لنا أن شهدناه، كما لاحظ الممارسات العمياء والولع الأعمى بالمضاربات على مستوى التجارة العالمية بما في ذلك من مخاطر غير واضحة ومفاسد» لقد تفجّع بسبب احتمال تعرض الاقتصاد الجديد لهزات دورية تؤدي إلى انهيار عام ومعاناة يشرب الجميع كأسها[٧٧].

وأوصى ببعض الإصلاحات الأساسية «ضرورة خضوع أصحاب المصانع للقوانين العامة خاصة فيما يتعلق بتشغيل الأطفال[٧٨]، ولا بد أن تعترف الدولة أن أهدافها الإيجابية، هي: ١ - أن تجعل مصادر الرزق ووسائل الإعاشة أكثر يسرا لكل فرد. ٢- أن تؤمن لكل المواطنين آمالهم في تحسين أحوالهم وأحوال أبنائهم. ٣- تطوير القيم الضرورية لإنسانية المواطن - كمخلوق عاقل»[٧٩] ودعا إلى إنشاء منظمات (نقابات) تضم رؤساء كل العاملين في كل الحرف لدراسة المشاكل الاجتماعية من منظور فلسفي ولتقديم توصيات للجماعة، ولابد أن تمول الدولة هذه الطوائف الوطنية national churchs»[٨٠].

وأنهى كولردج كتابه (عظات غير دينية Lay Sermon) بأن رضخ للاهوتيين معترفاً بأنه ليست هناك عظة أو حكمة علمانية خالصة أو بتعبير آخر ليست هناك حكمة خالية من البعد الديني يمكنها أن تحل مشاكل البشرية[٨١] فلا يستطيع إلا الدين الغيبي (الفوق طبيعي) والنظام الأخلاقي الذي قدمه الله للبشر أن يواجه الشر الموروث في نفوس البشر، فالشر من شيم النفوس لدرجة أن الذكاء البشري وحده لايعتبر كافيا لجعل الإرادة البشرية مبرأة من العيوب[٨٢]. لقد دعا إلى العودة بتواضع إلى الدين وإلى الاعتقاد الكامل في يسوع

كرب مات لتخليص البشرية[٨٣] وفي ١٨١٥ / ١٨١٦ ألف (أو أملى) «فقرات عن حياتي الأدبية وآرائي» Sketches of my Literary Life & opinions لتكون أساساً لكتابة سيرته الذاتية. ولم يكمل هذا المجلد (سيرته الذاتية) ونشر (فقرات عن حياتي الأدبية وآرائي) في سنة ١٨١٧ بعنوان (ترجمة أدبية Biographia Literaria) التي تعد الآن أكثر مصادرنا أهمية عن فكر كولردج في مجالي الأدب والفلسفة. إنه كتاب متماسك وواضح بشكل ملحوظ رغم أنه كتب غالبه خلال فترة قنوط وجزع بسبب إدمانه الأفيون وتراكم ديونه، وعدم قدرته على تقديم المال اللازم لتعليم أبنائه. لقد بدأ بالتبرؤ من علم النفس الترابطي associationis Psychology الذي كان مفتوناً به في وقت من الأوقات. لقد رفض فكرة أن الفكر كله ما هو إلا نتيجة آلية (أوتومايتكية) للحواس (للإحساس)، فالإحساس - كما أصبح يعتقد - يعطينا مجرد مواد خامة تقوم النفس - التذكر، والمقارنة، والفردية المستمرة - بإعادة تكييفها لتصبح خيالا خلاقا وفكرا موجها ذا هدف، وفعلا واعيا. فكل تجاربنا - واعية أوغير واعية - مسجلة في الذاكرة التي هي مخزن يستقي منه العقل - بوعي أوبغير وعي - المادة اللازمة لتفسير التجربة (الخبرة) الحالية، ولتنوير الخيارات الحالية (أي التي تعين الفرد على الاختيار من بين متعددات كثيرة) وهنا - بطبيعة الحال - نجد كولردج يتبع خطى كانط Kant. إن الشهور العشرة التي قضاها في ألمانيا لم تحوله فقط من شاعر إلى فيلسوف وإنما من جبري determinist كإسبينوزا Spinoza إلى نصير لحرية الإرادة مثل كانط free - will Kantian وهنا اعترف اعترافا كاملا بدينه (المقصود اعترف لمن هو مدين له بفكره الجديد) «كتابات الحكيم المشهور حكيم كونيجسبرج Konigsberg أكثر من أي كتابات أخرى، تلك الكتابات التى كانت فى وقت من الأوقات قد أنعشت تفكيري ونظمته»[٨٤] ومن أفكار كانط Kant تقدم كولردج إلى فكرة فيشته Fichte عن النفس وإعلاء مقامها باعتبارها الحقيقة الوحيدة المعروفة بشكل مباشر، ومن ثم جاس خلال أفكار هيجل (الديالكتيك الهيجلي) بين الفكرة ونقيضها، والوحدة بين الطبيعة والنفس، إلى أفكار شلنج Schelling عن خضوع الطبيعة للنفس أوتبعيتها لها، باعتبارهما - أي الطبيعة والنفس - وجهان لحقيقة واحدة إلا أن الطبيعة - على أية حال - تعمل بلا وعي، بينما

يعمل العقل بشكل واع ويصل إلى أسمى درجات التعبير من خلال الخلق العبقري الواعي. لقد اقتبس كولردج بانطلاق كامل من شلنج Schelling إلا أنه غالباً ما كان يهمل ذكر مصادره[٨٥]. لكنه اعترف بشكل عام بمن هو مدين لهم بأفكاره وأضاف قائلا:

«بالنسبة إلي يكفيني سعادة وشرفا إن نجحت في نقل فكر شلنج بشكل واضح إلى أهل بلدي»[٨٦].

والأحد عشر فصلا الأخيرة من كتابه الآنف ذكره (ترجمه أدبية .. Biographia) تقدم مناقشة فلسفية للأدب باعتباره إفرازا للخيال، وقد ميز بين الوهم fancy والخيال، فالوهم فانتازيا (أو خيال جامح) كما في حالة حورية الماء (المخلوق البحري الذي له جسد امرأة ورأس سمكة) بينما الخيال (كتب كولردج الكلمة بحروف كبيرة / كابيتال هكذا IMAGINATION) فهو توحيد واع بين أجزاء لتشكل كلا جديدا كما في حالة حبكة الرواية، وتصنيف كتاب، وخلق عمل فني أو صياغة نتائج العلوم في نسق (نظام) فلسفي. هذا التصور (أو الإدراك) يصبح أداة لفهم - ونقد - أي قصيدة أو كتاب أو رسم أوسيمفونية أو تمثال أو عمارة؛ إلى أي مدى استطاع الشاعر أو الفنان أن يجعل مكونات عمله متناسقة أو بعبارة أخرى إلى أي مدى استطاع أن يصل بين الأجزاء بالأجزاء الأخرى المرتبطة بها أو ذات الصلة بها، لتحقيق معنى العمل ككل ولتجعله متماسكاً في كل واحد؟ إلى أي مدى نجح المنشئ في هذا وإلى أي مدى فشل؟ وفي هذه الصفحات قدم لنا كولردج الأساس الفلسفي للحركة الرومانسية في الأدب والفن.

وقد أنهى كتابه الآنف ذكره بنقد حاد لفلسفة ورذزورث، وطريقته الشعرية. هل حقيقة أن أسمى فلسفة في الحياة يمكن أن يجدها المرء في طرائق التفكير عند أبسط الناس؟ أحقا أن لغة هؤلاء البسطاء هي أفضل وسيلة شعرية؟ أليس هناك فارق جوهري بين الشعر والنثر؟ في كل هذه النقاط وجه كولردج نقده لوردزورث بشكل دمث لكنه حاد ومؤثر. وانتهى أخيرا بما يفيد ولاءه وتقديره لحكيم جراسمير كأعظم شاعرمنذ ميلتون[٨٧] Milton.

وبعد أن قام آل وردزورث بجولات قصيرة نقلوا مقر سكناهم (١٨٠٨) من دوف كوتاج Dove Cottage إلى مسكن أوسع بالقرب من ألان بانك Allan Bank وهناك أبدع الشاعر كبستاني فزرع حول البيت نباتات وورودا راحت تختال تحت أمطار جراسمير. وفي سنة ١٨١٣ انتقلت الأسرة أخيرا إلى عقار بسيط في جبل ريدال Rydal Mount في أمبلسيد Ambleside إلى الجنوب من جراسمير بميل. لقد أصبح آل وردزورث الآن في رغد من العيش ولديهم عدد من الخدم وصادقوا بعض ذوي المكانة. وفي هذا العام رتب اللورد لوندسديل Londsdale لتعيين وردزورث موزعا للطوابع في إقليم وستمورلاند Westmorland فاستمر يزاول هذا العمل حتى سنة ١٨٤٢ وكان يدر عليه مائة جنيه إضافية في العام. أما وقد تخلص من متاعبه المالية فقد راح يقضي مزيدا من الوقت في بستانه فجعله فردوساً من الورود والنباتات المزهرة لاتزال موجودة.

ومن نافذته في الطابق الثاني كان يطل على مشهد ملهم - انه منظر بحيرة ريدال Rydal water التي تبعد مسافة ميلين.

وفي هذه الأثناء (١٨٠٥) أكمل كتابه (المقدمة The Prelude) الذي كان قد بدأه سنة ١٧٩٨. وقد كتبت دوروثي: «إنه كان يجمعنا كل يوم في اجتماع كبير كله متعة وصفاء»[٨٨] بعد أن يقوم بجولاته مشيا على الأقدام. لقد كانت هي وسارة هتشنسون تنشغلان دوما بكتابة ما يُملى عليهما، وكان وردزورث قد تعلم التفكير من خلال الشعر المنثور. وكان يضع العناوين الجانبية لملحمته الشعرية التي تأتي في كتابتها «تطور عقل شاعر The growth of Poet's mind»، قد قصد بهذا العمل أن يكون سيرة ذاتية لتطوره العقلي والنفسي، وكمقدمة «للنزهة The Excursion» التي تعرض بالتفصيل الفلسفة التي تمخض عنها هذا التطور. وقد قدم لنا ما يفيد مودته لكولردج بأن راح مرارا يستعيد ذكرياته معه، وتوجيه الحديث إليه. لقد اعتذر للأنانية والحديث عن الذات كما تبدوان في القصيدة لمن تناولها بشكل سطحي، فقد اعترف «أنه لم يسبق لأحد أن تحدث عن نفسه بهذه الكثرة»[٨٩] وربما لهذا السبب لم ينشر هذا العمل في أثناء حياته.

لكنها مقبولة ومحتملة تماما إن تناولناها في جرعات قليلة، وأكثر ما هو مبهج فيها هو مشاهد طفولته (كتاب ١ و ٢) حيث ذكر جولاته في الغابات المنعزلة حيث بدا له أنه يسمع صوت الرب الكامن وراء كل شيء، الذي يأخذ صورا شتى، كلما جلس. لقد بدا له أنه يسمع هذا الصوت في أصوات الطيور والحيوانات وحفيف الأشجار بل ويسمعه حتى في الصخور نفسها وفي التلال:

- وحدي فوق ربوة ناتئة،

- مع تنفس الصبح

- ففي هذه اللحظات يكون - غالبا - هذا الهدوء القدسي،

- الذي يغمر روحي، فلا أعود أرى بعيني بدني

- إنني أنسى ذلك تماما، فما أراه

- يبدو لي وكأنه داخل نفسي، يبدو حلماً

- يبدو مشاهد موجودة داخل نفسي..

- لقد كنت في هذا الوقت

- أرى بركات تنتشر حولي وكأنها بحر...

- بركات قدسية لا توصف..

- لقد شعرت بعاطفة الموجود Being تنتشر،

- فوق كل ما يتحرك، وفوق كل مايبدو ساكنا،

- فوق كل ما لا يطوله فكر

- وفوق كل المعرفة البشرية، وفوق ما لا

- تراه عين البشر، بل إنني أحسست أنه يعيش حتى في القلب،

- فوق كل ما يثب وكل ما يجري، وكل ما يصيح وكل ما يغني

- أو يحرك الهواء العليل، فوق كل ما هو بين الأمواج، بل إنه موجود حتى في الأمواج نفسها،

– وفي أعماق البحار، وأعماق أعماقها،

– أحس بالبهجة القصوى، إن وصل الاتصال ذروته

– بين الأرض والسماء

– اتصال بين كل ما هو مخلوق، مع

– الخالق (غير المخلوق) . .

(قد نرى هنا تناقضا أو تراجعا، فالبيت الأخير يفترض وجود فاصل حقيقي بين الخلق والخالق، بينما نظرة وردزورث – كنظرة سبينوزا تريان الرب) والطبيعة شيئاً واحداً – النظرة القائلة (بوحدة الوجود).

وفي كابردج كان أحيانا ينضم إلى حفلات السمر التي يرتبها الطلبة كما كان أحيانا يشاركهم عبثهم، ومع هذا فقد كان منزعجا لفهمهم للحياة بشكل سطحي طائش، فقد كان يجد متعة أكثر في دراسة الكلاسيات الإنجليزية (الأعمال الأدبية الكلاسية) أو ركوب الزوارق (النص boating on the Cam) وفي أوقات العطلات كان يعود إلى مأواه الأصلي فيتناول طعامه على مائدة أسرته ويأوي إلى فراشه المعتاد:

– هذا السرير المنخفض الذي كنت أسمع وأنا ثاو فيه عصف الريح، وصوت المطر المنهمر بعنف

– وكنت في ليالي الصيف أظل يقظان رغم تمددي على السرير وكان هذا يحدث كثيرا، لأراقب

– القمر في بهائه مضطجعا بين أوراق

– أشجار الدردار الباسقة القريبة من مسكننا،

–ورحت أرقب هذه الأشجار بعينين لا تبغيان عنها حولا، بينما تتحرك ذراها بين الحين والحين

– مع كل هبة من هبات النسيم.

وفي كوكرموث Cockermouth كان يستطيع السير مع كلبه الهرم الذي كان يتركه يؤلف الأشعار وينشدها بصوت عال دون أن يتهمه بخلل أصاب عقله:

- آه ، أأنا في حاجة - يا صديقي العزيز
- أن أقول إن قلبي قد فاض؟ ، إنني لا
- أقدم نذورا ، إنما كانت النذور تقدم لي
- ذلك أنني لا بد كنت روحا مكرسة يُهدى إليها

لقد كان يعيش للشعر. كما كان يجد مسرة أيضا في تلك الرحلات الممتعة التي كان يقوم بها خلسة في القنال الإنجليزي ليشعر بالسعادة المجنونة لفرنسا الثورة، وبالفوران فوق الألب (المفهوم طبعا انه لا يصل إلى هذه الأماكن) ومن ثم يعود إلى لندن « تلك المدينة الضخمة التي تشبه كثيب الرمال الناتج عن تشييد النمل لمساكنها »(*) حيث برلمانها الذي يرتل تراتيل فضائل التقاليد « مع احتقار شديد لنظرية (أفكار) محدثي النعمة » (المقصود ثوار فرنسا) وراح يراقب الجموع المزدحمة في فوكسهول Vauxhall والذين يتعبدون في كنيسة القديس بول، وراح يرى أويسمع الجموع المتحركة تضم مختلف الأجناس والوجوه والأزياء واللغات، وفوضى المرور، وابتسامات المومسات ونداءات البائعين، ومناشدة النسوة، والفنانين يرسمون بالطباشير على أحجار الطريق (الرسم التقليدي - قرود على ظهور جمال) والمغنين في الطريق وكأنهم عشاق يعزفون السرينادات (أغان يرددها العشاق تحت شرفات المعشوقات) - كل هذا شعر به الشاعر شعورا قويا كشعوره بالغابات لكنه لم يرتبط بها وانسل إلى المشاهد الأكثر هدوءا حيث الحب لكل الطبيعة يمكن أن يعلمه أن يفهم ويعفو. ثم يعود مرة أخرى لفرنسا حيث برر الحكم الطاغي والبؤس القديم قيام الثورة وجعلها عادلة نبيلة بل إنه حتى البريتوني a Briton يمكنه أن ينخرط في هواها (تعتريه نشوة حب لها) :

- الجمال بشير بالوعود،
- ليس في الأماكن الأثيرة وحدها وإنما في كل الأرض،
- فأي منا لايتطلع مفكراً في السعادة المرتقبة.

(*) «monstrous ant - hill» ، والمعنى ينطوي على كناية بطبيعة الحال، والمقصود بالنمل هنا الإنجليز الذين أنشأوا لندن بدأب. (المترجم)

ومن هذه النشوة التي بلغت السؤدد انحدرت فرنسا إلى الجريمة وانحدر وردزورث إلى النثر:

- لكن الآن أصبح الثوار ظلمة

- حولوا الحرب من أداة للدفاع عن أنفسهم

- إلى أداة للغزو، ولم يعودوا يرون

- كل ما كانوا يناضلون من أجله...

وببطء وتردد أنهى الشاعر «مقدمته his Prelude» داعيا صديقه للعودة من مالطة (المقصود كولردج) لينضم للجهود المبذولة للعودة من الحرب والثورة إلى حب الطبيعة والبشر. ولم يكن على وفاق مع قصيدته(٩٠) فقد كان يعلم أنه توجد صحراوات شاسعات حول الواحات. ولم يكن وردزورث يرى إلا فروقا قليلة بين النثر والشعر. لقد اعترف بذلك، وكان غالبا أيضا ما يمزج بينهما في شعره غير المقفى، المتسم بفتور نبرته وتؤدة وقعه. لقد جعل العاطفة والأحاسيس تنبع من السكون وهدوء النبرة، وجعل من هذا جوهر الشعر وروحه (دعنا نقل الموسيقا الداخلية) لكن هذا السكون الشعري الذي يستمر على نحو متواصل طوال أربع عشرة مقطوعة قد يحيلها إلى هوادة أو هدهدة تبعث على النوم. وبشكل عام فإن طبيعة الملحمة أنها تتناول حدثا عظيما أو نبيلا، أما الأفكار فهي شخصية جدا حتى إنه لا يصلح تناولها في ملحمة. ومع هذا فإن (المقدمة The Prelude) تركت القارئ المصمم على مواصلة قراءتها وقد شعر بقبول سليم للحقيقة الباقية. وفي بعض الأحيان كان وردزورث - كأغاني الطفولة - يطهرنا بنقاء الغابات والحقول ويجعلنا - كالتلال الراسخات - نتحمل العواصف صامتين صابرين.

وكان وردزورث قبل المغادرة قاصدا ألمانيا في سنة ١٧٩٨ قد بدأ (الناسك The Recluse) وهو عمل بث فيه فكرة أن الانسان الذي يعرف الحياة حق المعرفة هو الذي عايشها ومن ثم انسحب منها، وقد حثه كولردج على تطوير هذه الفكره في صياغة كاملة ونهائية لفلسفته. وبتحديد أكثر اقترح عليه كولردج قائلا «أريدك أن تكتب قصيدة بالشعر الحر (غير المقفى) موجهة إلى هؤلاء الذين فقدوا كل أمل في تحسن أحوال

البشرية وانغمسوا فيما يكاد يكون أنانية لا تبحث إلا عن اللذة أو بتعبير آخر الأنانية الأبيقورية – وذلك نتيجة الفشل الكامل للثورة الفرنسية »[٩١] لقد اتفقا على أن ذروة الأدب هو الزواج السعيد بين الفلسفة والشعر. وعندما عاود وردزورث التفكير شعر أنه غير مستعد لمواجهة هذا التحدي. وكان قد أحدث تطويرا مهما في (المقدمة The Prelude) ليجعل منها تاريخا لتطوره العقلي (النفسي) فكيف يستطيع كتابة شرح أفكاره أو عرضها قبل إنجاز هذا العمل (الناسك)؟ لقد نحى (الناسك The Recluse) جانبا وتابع كتابة (المقدمة The Prelude) إلى نهايتها. وبعد ذلك وجد نفسه واهن العزم قليل الثقة، وكان خروج كولردج من حياته قد حرمه من الإلهام الحي الذي كان يحفزه على العمل في وقت من الأوقات. وفي ظل هذه الأحوال المثبطة كتب (الرحلة The Excursion) لقد بدأها بداية جيدة بوصفه لأطلال المسكن حيث كان يعيش الجوال (الرحالة) ويبدو أنه أخذ هذا الوصف من عمله الذي تخلى عنه ولم يكمله ونعني به الناسك Recluse وهذه الصورة التي رسمها وردزورث تقود الرحالة إلى العزلة والتنسك Solitary فهو يحكي لنا كيف فقد إيمانه الديني وأصبح متخماً بالحضارة فعاد إلى سلام الجبال. وقدم لنا الجوال الدين على أنه العلاج الوحيد لليأس، والمعرفة شيء طيب لكنها تزيد من قوتنا أكثر من زيادتها لسعادتنا، ثم ينقاد للقس (راعي الأبرشية) الذي يقدم الإيمان البسيط والترابط الأسري عند رعاياه الفلاحين باعتبارهما أكثر حكمة من محاولة الفيلسوف صياغة حكمة العصور في روابط فكرية. لقد كره الجوال حياة المدن المصطنعة وشرور الثورة الصناعية ودعا إلى تعليم عالمي وتنبأ بآثاره العظيمة. وعلى أية حال فإن القس (راعي الأبرشية) كانت لديه الكلمة الأخيرة فراح ينشد أنشودة التسبيح للرب. وقد نُشرت (الرحلة) وهي في جانب منها (الناسك Recluse) في سنة ١٨١٤ وبيعت النسخة بجنيهين (ومن المفترض أن المقدمة Prelude لم تكن قد طبعت حتى سنة ١٨٥٠) وطلب وردزورث من جيرانه – كلاركسون Clarksons – مساعدته في بيع نسخ مطبوعة بين أصدقائهم من طائفة الكويكر Quaker الذين كانوا أثرياء وشغوفين بالكتب التنويرية والثقافية » وقدم نسخة للروائي شارلز لويد Charles Lloyd على ألا يعيرها لأي قادر على شراء نسخة ورفض أن يعير نسخة لأرملة

ثرية اعتبرت أن سعر النسخة مرتفع بالنسبة «إلى جزء من عمل»[٩٢] وبعد ثمانية أشهر من النشر لم يكن قد باع إلا ثلاثمائة نسخة .

أما المتابعون للعمل فقد تباينت آراؤهم فاللورد جفري Jeffrey أدان في نوفمبر سنة ١٨١٤ (في مطبوع مستخلصات أدنبره Edinburgh Review) القصيدة بمقدمة تعتبرها نذير سوء «إن هذا لن يحدث أبداً» أما هازلت Hazlitt فبعد أن امتدح «الفقرات البهيجة المتعلقة بوصف الطبيعة، والأفكار الموحية» ذكر أن القصيدة طويلة ومتكلفة» وكرر «النتائج نفسها حتى أصبحت سطحية وتافهة»[٩٣] أما كولردج الذي دعا إلى تأليف عمل كبير خالد، فقد رأى في (الرحلة Excursion) «إسهابا وإطنابا وتكرارا وإعادة»[٩٤] لكن كولردج راح بعد ذلك في (Table Talk) يمتدح الكتابين (الجزئين) الأول والثاني باعتبارهما من أجمل القصائد في اللغة الإنجليزية[٩٥] . أما شيلي Shelley فقد كره (الرحلة) لأنها تبين استسلام وردزورث للفكر الحلولي (كوْن الرب والطبيعة شيئا واحدا)، لكن كيتس Keats اعتبر وردزورث بسبب هذه القصيدة أعلى مرتبة من بايرون Byron، وبمرور الوقت ترسخ رأي كيتس[٩٦] .

١٣- حكيم الهايجيت: ١٨١٦ - ١٨٣٤

في أبريل سنة ١٨١٦ كان كولردج قريبا من الأنهيار الجسدي والنفسي وهو في الثالثة والأربعين، وفي هذه الأثناء استقبله د. جيمس جيلمان James Gillman كمريض في هايجيت بلندن، وكان كولردج في هذه الأثناء يتناول ما وزنه باينت Pint من اللودانيوم (مستحضر أفيوني) يوميا. وقد وصفته سوثي Southey في نحو هذه الفترة بأنه كان كزوج «هائلا كمنزل» . لقد أصبح منحنياً غير متماسك، وأصبح وجهه شاحبا منتفخا مترهلا وأصبح ينهج (قصير النَّفَس)، وأصبحت يداه واهنتين مرتعشتين لا يستطيع إلا بالكاد أن يرفع كوباً إلى شفتيه[٩٧] وكان له بعض الأصدقاء المحبين له مثل لامب Lamb ودي كوانسي De Quincey وكراب روبنسون Crabb Robinson لكنه قلما كان يرى زوجته وأولاده . وربما كان الطبيب الشاب قد سمع أن بايرون Byron ووالتر سكوت Scott قد اعتبرا هذا الإنجليزي

المكسور أعظم رجال الأدب الإنجليز[٩٨] . وعلى أية حال فقد كان من رأي هذا الطبيب أنه يمكن إنقاذ كولردج - فقط - بالمداومة على العناية الطبية به والإشراف عليه، فأخذه إلى بيته (أي بيت الطبيب) بموافقه زوجته (زوجة كولردج) وأطعمه واعتنى به وعالجه، وظل تحت إشرافه إلى أن مات .

لقد استعاد كولردج نشاطه العقلي بشكل مدهش، ودهش الطبيب لاتساع دائرة معارف مريضه وثراء أفكاره وألمعية حواراته ومناقشاته التي فتحت أبوابه لعدد كبير من الشباب وكبار السن اعتبروا هذا « الملاك المحطم » ذا تأثير كبير وذا فطنة، ولحديثه مذاق خاص رغم أنه قلما يلتزم الوضوح الكامل والنظام المنطقي الصارم . ولازالت متفرقات من هذه المناقشات المدونة في (الحوارت Table Talk) تبرق تألقا : « كل إنسان ولد أرسطيا أو أفلاطونيا » « إما أن تكون لنا أرواح خالدة، أو لاتكون . فإن لم تكن لنا فنحن دواب، دواب من الدرجة الأولى أو دواب حكيمة أو أحكم الدواب ليس هذا مهما، المهم أننا بدون أرواح خالدة نكون دواباً (بهائم) حقيقية »[٩٩] .

ولم يكن يرضيه أن يكون من بين أحكم الدواب . وكلما اقترب من الموت كان يبحث عن راحته وسلواه في أحضان الدين، كما لو كان يريد التأكيد من صفقته فقد اعتنق الدين (المسيحي) في أقصى درجات سلفيته (أورثوذ كسية(*)) المعروفة - ممثلة في كنيسة إنجلترا باعتبارها ركيزة الاستقرار والأخلاق في إنجلترا والتي لها الدوام للأبد .

وقد قدم في مقاله « عن دستور الدولة وكنيستها » الدستور والكنيسة باعتبارهما ثنائيا ضروريا لوحدة الأمة يحمي كل منهما الآخر[١٠٠] . وقد عارض هو ووردزورث التحرر السياسي للكاثوليك البريطانيين على أساس أن قوة البابوية ستعرض الدولة للخطر بازدياد تنازع الولاء بين الوطنية والدين .

وقد أخذ الجانب المحافظ حتى كبر سنه . ففي سنة ١٨١٨ أيد روبرت أوين Robert Owen والسير روبرت بيل Peel في معركتهما لفرض قيود على تشغيل الأطفال، لكنه في سنة ١٨٣١ عارض مرسوم الإصلاح Reform Bill الذي كان سيؤدي إلى كسر هيمنة

(*) لا علاقة لكلمة الأورتونكس هنا بالمذهب الأورتونكسي المعروف (المترجم)

التـوريين (حـزب المحـافظين) عـلى البـرلمان، وعـارض إلغـاء الرق في الهند وجـزر الهند الغربية[١٠١] وكان هو من درس العلوم وأيد العلم – أكثر من غيره من الفلاسفة، ومع هذا فـقـد رفض فكرة التطور وفـضـل على حـد تعـبـيـره « التـاريخ كـمـا أجـده في الكتـاب المقـدس »[١٠٢] وفي النهـاية استـسلم ذكـاؤه الرحـب ورؤيتـه البـعـيـدة المدى لآلام جسـده وما اعترى إرادته من اعتلال، واعتراه خوف شديد من أي تغيير في السياسة أو العقيدة الدينية.

وكان يفـتـقـد الصـبـر والدأب لتـأليف عـمل مـتكامل مـترابط، فـفي « السـيـرة الأدبيـة Bigorophia Literaria » (١٨١٧) أخبرنا عن عزمه على كتابه اللوجوسوفيا Logosophia كعمل كبير يلخص فيه العلم والفلسفة والدين ويربط بينها، لكن كل ما سمح له به بدنه وروحه هو خليط غير مترابط مشوش وغامض. لقد أصبح هذا هو حال العقل الذي وصفه (في وقت من الأوقات) دي كوينسي De Quincey « بأنه أرحب عقل بشري وأكثر العقول دقة وفهما »[١٠٣].

وفي يوليو سنة ١٨٣٤ بدأ كولردج وداعه للحياة. «إنني أموت، لكن دون أن أتوقع راحة سريعة... هوكر Hooker رغب العيش ليُنهي كتابه « الحكومة الإكليريكية » – كذلك أنا أرغب أن تمهلني الحيـاة ويكون لـدي القـوة لإكـمـال فلسـفـتي، لأنني – والله يسـمـعـني – عزمت وصممت في قلبي على السمو باسمه الجليل كما أهدف – بعبارات أخرى – للرقي بالبـشـرية. لكن المرء يريد والله يريد والله فعّال لما يريد، وما أراده الله كـان وما لـم يرده لم يكن»[١٠٤] ومات كولردج في ٢٥ يوليو ١٨٣٤ في الثانية والستين من عمره.

وصـدم وردزورث لرحـيل « أفـضل من عـرفـهـم » وقـال لامب Lamb الصـديق الصـدوق لكليهما « إن روحه العزيزة والعظيمة تلبَّستني »[١٠٥].

١٤ – على الهامش

كـان شـارلز لامب (١٧٧٥ – ١٨٣٤) واحـداً من عـدة أرواح قلقـة ومـؤثرة جـعلتـهـم مؤلفاتهم أجدر بالتناول في فترة ما بعد سنة ١٨١٥، لكننا تناولناه في فترتنا هذه التي نتناولها الآن لأنه دخل بشكل حميم في حياة شعراء منطقة البحيرة. فقد كان لامب واحداً

من أقرب أصدقاء كولردج في لندن. لقد تعارفا كرفيقي دراسة في مدرسة مستشفى يسوع، وفي هذه المدرسة لم يتفوق لامب بسبب ما يعانيه من تلعثم شديد. وغادر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ليعول نفسه، وفي السابعة عشرة عين محاسبا في مؤسسة الهند الشرقية وظل في هذه الوظيفة حتى أحيل للتقاعد في الخمسين من عمره.

وشهدت حياته سلسلة من حالات الجنون فقد قضى هو نفسه ستة أسابيع في مصحة للأمراض العقلية (١٧٩٥ - ١٧٩٦)، وفي سنة ١٧٩٦ قتلت أخته ماري آن Ann (١٧٦٤ - ١٧٤٧) - في نوبة جنون شديدة - أمها، وبسبب جنونها ظلت ماري محتجزة في مصحة الأمراض العقلية عدة فترات، لكن لأن لامب Lamb لم يكن يرغب في الزواج فقد جعلها تقيم معه حتى وفاته. وقد شفيت ماري من جنونها بدرجة كانت تكفي لتشاركه في كتابة (حكايات من شكسبير Tales from Shakespeare) (١٨٠٧). أما عمله الوحيد الذي أنجزه بمفرده فهو (مقالات إليا Essays of Elia) (١٨٢٠ - ١٨٢٥) وفيه تجلى أسلوبه العبقري ووقاره وفنه الذي أوحى بواحدة من أكثر الشخصيات المحببة في هذا العصر غير المفرط في تسامحه.

وفي سنة ١٧٩٧ - وكان لايزال متأثرا بالمآسي التي واجهها في العام السابق - قبل دعوة من كولردج لزيارته في نذر ستوي Nether Stowey. وكان لا يكاد يتكلم - بسبب تلعثمه - عندما يكون في مواجهة شاعرين (كولردج، ووردزورث) يباري كل منهما الآخر في ذرابة اللسان. وبعد ذلك بخمس سنوات زار مع أخته عائلة كولردج في جريتا هول Greta Hall، وذكر لامب أنه تلقاهم «بفيض من الكرم يفوق الوصف»[١٠٦] ورغم أنه هو نفسه ظل شكوكيا حتى آخر عمره إلا أنه لم يسمح أبداً لتجاوزات كولردج اللاهوتية أن تتغلغل إليه رغم تأثره به ورغم إعجابه الشديد به.

ويضم المتحف الفني للفنون The National Portrait Gallery (المفهوم أنه متحف مقتصر على رسوم الأشخاص) رسما مؤثرا ولطيفا للامب Lamb إلى جوار صديقه وليم هازلت (١٧٨٧ - ١٨٣٠) الذي كان أبرع النقاد وأكثرهم حيوية في عصره. وقد زار هازلت كولردج سنة ١٧٩٨. كما زاره مرة أخرى في جريتا هول في سنة ١٨٠٣. وفي

المناسبة الثانية انضم إليهما وردزورث وهناك راح ثلاثتهم يتناقشون فيما إذا كان الله God موجودا. وكان وليم بالي Paley – كما رأينا – قد دافع مؤخرا عن وجوده بأدلة من التصميمات الهندسية والفنية، وقد رفض هازلت هذه الأدلة، أما وردزورث فاتخذ موقفا وسطا مؤكدا أن الله ليس موجودا خارج الكون، يوجّهه من مكان قصي وإنما هو كامن فيه إنّه حياة الكون وعقله. وفي هذه الزيارة أثار هازلت غضب الجيران باغتصابه تلميذة، وخوفا من القبض عليه أو حدوث ما هو أسوأ هرب إلى جراسمير حيث آواه وردزورث هناك طوال ليلة، وفي الصباح قدم له مبلغا من المال ليسافر إلى لندن.

وعندما عاد كولردج ووردزورث وهاجما الثورة وأدانا نابليون في قصيدة هجاء شديدة اعتبرهما هازلت متراجعين عن أفكار آمنا بها يوماً، وكتب أربعة مجلدات عن (حياة نابليون بونابرت ١٨٢٨ – ١٨٣٠) مدافعا عن وجهات نظر نابليون. وفي هذه الأثناء كان معروفا كناقد من خلال محاضراته (١٨٢٠) عن الدراما في العصر الإليزابيثي وكتابه عن (روح العصر – ١٨٢٥) ولم يكن وردزورث سعيدا بهجومه على مدرسة البساطة في الأدب أو على حد تعبير وردزورث (Peasant school). لقد أحب الشاعر العجوز أكثر توماس دي كونسي (١٧٨٥ – ١٨٥٩) الذي كان يبدي إعجابه به بشكل مستمر. لقد كان توماس عبقريا فيما يرى لأنه نبّه بريطانيا في سنة ١٨٢١ بمؤلفه Confessions of an English Opium Eater أي (اعترافات إنجليزي يتعاطى الأفيون).

لقد كانت بدايته كولد معجزة يتحدث اليونانية الكلاسية بطلاقة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأنهى الدراسة في المدرسة بسرعة وانتقل إلى أكسفورد حيث كانت خطاه أسرع من خطى أقرانه (المقصود أنه كان أكثر تفوقا) ولابد أنه اندهش مبتهجاً بالبساطة الخلابة التي صيغت بها الأشعار الغنائية Lyrical Ballads وفي مايو سنة ١٨٠٣ كتب إلى وردزورث خطابا ربما أدار رأس الشاعر المتفرد[١٠٧].

«ليس هناك ما يغريني بصداقتك أكثر – فيما أظن – مما يغري كل من قرأ Lyrical Ballads وأحس بها كما أحس. إن محصلة البهجة التي أحسست بها من ثماني قصائد أو تسع استطعت الحصول عليها جعلت العالم يبدو مقصراً تقصيراً لا حد له عن إدراك ما

يعنيه هذان المجلدان الفاتنان – إن اسمك سيرتبط معي إلى الأبد بمشاهد الطبيعة الجميلة ... أي زعم يمكنني من ادعاء القدرة على مرافقة جماعة فيها مثلك تشع عبقرية وسناء فائقين؟ . »

وأضاف أن وردزورث لن يجد أبداً أحدا « أكثر استعدادا .. للتضحية حتى بحياته (مثله) لتحقيق مصالحك وسعادتك » وكان رد وردزورث ينطوي على توجيهات رقيقة، فقد كتب له « إنني لا أقدر على منح صداقتي (لأحد) فهذا ليس في يدي. إنها هبة لا يستطيع الإنسان تقديمها ... فالصداقة الصحيحة والحقة تتكون بمرور الوقت وتحكمها الظروف. إنها ستزهو كالزهور البرية إن كانت الظروف حولها ملائمة، فإن لم يحدث هذا فعبثا البحث عنها. » وحاول أن يثني الشاب عن مراسلته بشكل منتظم فقال له « إنني أكثر الناس كسلاً في هذا العالم وأكثرهم عزوفاً عن كتابة الخطابات » لكنه أضاف قائلا: « وسأكون سعيداً جدا حقا أن أراك في جراسمير »(١٠٨) .

ورغم حرارة دي كوانسي De Quincy ورغبته في لقاء وردزورث، فإنه لم يقبل الدعوة إلا بعد ثلاث سنوات، وعندما أصبح منزل وردزورث على مرأى منه فقد الشجاعة وكأنما هو حاج واهن يقترب من روما، فرجع ولم يواصل رحلته للقاء وردزورث، ولكن في سنة ١٨٠٧ وفي بريستول قبل كولردج دعوته لمرافقة زوجته (زوجة كولردج) وأولاده إلى كزويك Keswick، وفي الطريق توقف معه عند منزل وردزورث، والآن، وأخيرا رأى دي كوانسي، الشاعر وردزورث رأي العين، كما كان على براوننج Browning أن يرى شيلي Shelley . قال دي كوانسي: « رأيته كومضة نور. إنه رجل أقرب إلى الطول. مد يده وحياني مرحبا ترحيبا ودوداً جداً »(١٠٩) .

١٥ – سوثي: ١٨٠٣ – ١٨٤٣.

وفي هذه الأثناء – في كل من جريتا هول ولندن – كان سوثي يعول زوجته إديث Edith وبناته الخمس (ولدن في الفترة من ١٨٠٤ و١٨١٢) وابنه – الذي أحبه حبا يفوق الوصف، والذي وافته منيته سنة ١٨١٦ وهو في العاشرة من عمره. كان سوثي ينفق على كل هؤلاء من

حصاد كتاباته المتقنة - لكنها غير ملهمة. وبعد انتقال كولردج إلى مالطة تولى سوثي رعاية أولاده (أي أولاد كولردج) وزوجته. وحتى وردزوث كان أحيانا يعتمد عليه: فعندما فقد أخو وليم في البحر (١٨٠٥) اضطربت الأسرة في جراسمير. فأرسل وردزورث خطابا إلى سوثي متوسلا إليه أن يأتي ويساعده لبث الطمأنينة في دوروثي وماري. واستجاب سوثي، وكان رحيما رفيقا جدا»: إذ كتبت دوروثي: «لقد كان ودودا حتى إنني أحببته في وقت من الأوقات. لقد بكى معنا وأبدى حزنه لحزننا، لذا أظن أنني لا بد أن أحبه دائما»[١١٠].

وعبثا حاولوا إثناءه عن التسرع في الكتابة. فكتب ملحمة شعرية في إثر ملحمة، لاقت جميعا الفشل، فكرس نفسه للنثر فكانت النتائج أفضل، ونشر في سنة ١٨٠٧ (خطابات من إنجلترا لدون مانويل ألفاريز إسبريلا Letters from England by Don Manuel Alvatez Esprlella) ووضع على لسان هذا الإسباني المتخيل شجباً عنيفا لتشغيل الأطفال والأحوال الأخرى السائدة في المصانع البريطانية:

«إنني أجد الجرأة الكافية لأتساءل عن أحوال هؤلاء البشر الذين يعملون في ظل هذه الأحوال الرهيبة، وأجد... أنه نتيجة جمع مثل هذه الأعداد من الجنسين بشكل يتنافى تماما مع مبادئ الدين والأخلاق، لابد أن يكون هناك تهتك وخلاعة وفساد، ورجال سكيرون ونساء منحلات، ومهما كانت الأجور التي يحصلون عليها مرتفعة، فإن قصر نظرهم سرعان ما يجعلهم في حالة عوز. وإن على المحافظات (الدوائر) التي هي غير قادرة على حمايتهم كأطفال، أن تقدم لهم العون في حالة المرض الناتج عن أسلوب حياتهم، وفي حالة العجز والشيخوخة»[١١١] وكان ما انتهى إليه هذا الأرستقراطي فيما يتعلق بالاقتصاد البريطاني هو أنه في «التجارة - ربما أكثر مما في الحرب - يعتبر البشر والدواب - في الأساس - مجرد آلات، ويتم التضحية بهم دون أي وخز من ضمير»[١١٢].

وسرعان ما أدرك سوثي أنه لن يستطيع العيش من حصاد كتاباته فقد وجد نفسه عاجزا عن إعالة من يعولهم خاصة زمن الحرب، إلا إذا تبنى اتجاها أكثر محافظة، وتم هذا التغير بسهولة بسبب إعانة حكومية قوامها ١٦٠ جنيهاً في السنة (١٨٠٧) وبسبب دعوة للمساهمة بتقديم مقالات بشكل منتظم لمجلة حزب المحافظين (التوري) ربع السنوية Tory

Quarterly Review . وفي سنة ١٨١٣ رفع من شأن نفسه كمؤلف وكوطني بإصداره كتابا عن حياة نلسون Life of Nelson فكان كتابا واضحا وحيويا يتضح فيه أثر البحث الجاد، وكتبه بأسلوب القرن الثامن عشر، بسيطا واضحا وسهلا يحمل القارئ رغم انحياز المؤلف الطبيعي للتعاطف مع نلسون بطلاً ومع بريطانيا وطنا . أما عن افتتان نلسون بإمّا هاملتون Emma Hamilton فلم يتناوله المؤلف سوى في فقرة واحدة .

وقد حزن بايرون Byron وشيلي Shelley وهازلت Hazlitt عندما بدأ سوثي يحط من شأن الشعر بقبوله جائزة إنجلترا Laureateship of England . وكان شأن هذه الجائزة قد انحط عندما قدمها بت Pitt في سنة ١٧٩٠ لهنري بي Pye قاضي السلام الغامض . وعند موت بي Pye (١٨١٣) عرضت الحكومة المنصب على والتر سكوت Scott فرفضه وأوصى به لسوثي وقبل سوثي فكوفئ بزيادة معاشه السنوي إلى ثلاثمائة جنيه وعلق وردزورث الذي كان يجب أن يحصل على هذا التعيين بلطف قائلا : « إن لدى سوثي عالما صغيرا يقوم على أكتافه »(١١٣) .

أما بايرون الذي أدان سوثي أخيرا بكلمات هي وسط بين التجريح والعفو فقد راح يتحدث عنه بشكل طيب بعد لقائه في دار هولندا Holland House في سبتمبر ١٨١٣ : « إنه أفضل من رأيت من الشعراء منظرا »(١١٤) وذكر لتوماس مور Moore : « إنه رجل ذو موهبة .. لطيف المعشر .. نثره يتسم بالكمال »(١١٥) لكن حرص سوثي على إرضاء ذوي المال والسلطة جعل بايرون يشن عليه حربا علنية في سنة ١٨١٨ ، وتمت القطيعة الكاملة مع الجميع عندما استطاعت مجموعة من هؤلاء الثوار الحصول على مخطوطة مسرحية (وات تيلور Wat tyler) وهي دراما راديكالية كان سوثي قد كتبها في سنة ١٧٩٤ وتركها مخطوطة لم يطبعها وقاموا بنشرها – سعداء بما فعلوا – في سنة ١٨١٧ .

وعاد سوثي إلى جريتا هول ومكتبته وزوجته التي كانت قد اقتربت من الجنون أكثر من مرة، وفي سنة ١٨٣٤ فقدت عقلها تماماً وماتت في سنة ١٨٣٧ . أما سوثي نفسه فقد تخلى عن معركته مع المناوئين له في سنة ١٨٣٤ ، ومن ثم جعل وردزورث أميرا للشعراء رغم معارضته هو نفسه (أي وردزورث) وقد حظي هذا التعيين بموافقة عالمية .

الشعر للشباب، وقد عاش وردزورث ثمانين عاما ومات كشاعر في نحو سنة ١٨٠٧ وعندما كان عمره ٣٧ سنة ألف أنثى الظبي البيضاء في ريلستون The White Dove of Rylstone. وفي هذا الوقت كان والتر سكوت قد نشر (أنشودة آخر المغنين The Lay of the Last Minstrel) (١٨٠٥)، وقد أثارت حسد وردزورث لأسلوبها المزهر فاستخدم الوزن نفسه لكتابة أنشودة من تأليفه - قصيدة قصصية غنائية عن الحروب الدينية في شمال إنجلترا في السنة الثانية عشرة من حكم إليزابث الأولى. إن أسرة كاملة تقريبا - أب وثمانية أبناء - قد هلكت في معركة واحدة. إميلى Emily - الأخت التي ظلت على قيد الحياة - قضت ما تبقى لها من الحياة في حالة حداد، وكانت أنثى الظبي البيضاء تأتيها كل يوم لتعزيها وكانت تصحبها كل سبت لزيارة قبر أخيها الصغير في ساحة كنيسة بولتون» وعندما ماتت إميلي ظلت أنثى الظبي البيضاء تقوم بهذه الرحلة الأسبوعية وحدها من رايلستون إلى بولتون وتظل إلى جوار القبر حتى تنتهي صلوات السبت sabbath(*) في الكنيسة ثم تعود بهدوء قاطعة الغابات والمجاري المائية إلى مأواها في رايلستون. إنها حكاية جميلة حكاها بطريقة جميلة ورائعة ومؤثرة.

وكان هذا العمل هو آخر انتصار أدبي لوردزورث، بصرف النظر عن بعض السونيتات Sonnets (السونيتة قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتا) التي عبر فيها عن مشاعره بأقل قدر من الإثارة - وفيما عدا ذلك - لم يقدم للشعر جديدا آخر. وبعد أن بلغ الخمسين بدا حكيما، طويلا، رزينا متدثرا بعباءة تقيه البرد الشديد وأصبح شعره مهوشا ورأسه مطأطأ وعيناه غائرتين مغرقتين في التأمل كما لو كان بعد أن رأى شيلي Shelly وبايرون ينتقلان من الطفولة إلى الانجذاب الصوفي إلى الموت - راح ينتظر الآن - بهدوء - دوره راضيا أن ترك من الآثار الأدبية ما هو أكثر خلودا من المدن المثالية (اليوطوبيات) أو الأشعار الساخرة.

لقد كان في فضائله نقص فقد تحدث عن ذاته كثيرا. لقد كتب هازلت «إن ميلتون هو وثنه الأكبر أو بتعبير آخر هو إلهه الزائف، وكان أحيانا يجد الجرأة لمقارنة نفسه به»(١١٦)

(*) المقصود يوم العبادة وهو يوم الأحد عند المسيحيين. (المترجم)

وقد قبل المديح كأمر لا يمكن تجنبه وكان يكره النقد ويعتبره جحودا، وكان يحب إنشاد شعره وقد لاحظ ذلك – بخبث – إمرسون Emerson الذي زاره في سنة ١٨٣٣، لكنه كان قد قال في مقدمة سنة ١٨١٥ إن قصائده قد ألفت لتقرأ بصوت عال والحقيقة أنها كانت قصائد تحوي من الموسيقا قدرا يساوي ما تحويه من معان، والقصيدة في حاجة إلى قيثارة.

وبطبيعة الحال كان اتجاهه المحافظ يزداد كلما تقدم به السن. إنها ميزة التقدم في السن، وربما كان واجب الأعوام أن تجعل المرء محافظا. وإذا كان بايرون وشيلي لم يعترفا بهذا فربما لأنهما ماتا وهما لا يزالان في حالة جنون الشباب. لقد أدى تدهور الثورة الفرنسية من الدستور إلى الفوضى إلى تحفظ وردزورث إلى حد ما، كما أن وحشية الثورة الصناعية بدت على نحو ما مرضية لمشاعره؛ ذلك أن شيئا لطيفا ومفيدا قد لحق بإنجلترا بإحلال عمال المصانع محل الحرس الوطني المكون من فرسان غلاظ شداد من طبقة صغار مالكي الأرض، ذلك الحرس الذي أنشئ سنة ١٧٦١. وفي سنة ١٨٠٥ أصبح – عن طريق الشراء أو تلقي الهبات – مالكا لعدة عقارات متواضعة، وكان كمالك للأرض مستعدا للتعاطف مع فكرة (الرّيع) أو (عوائد الأرض) كأساس للنظام الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي. وقد عارض الحركة الإصلاحية كخطة تبناها أصحاب المصانع لخفض أسعار الغلال، وبالتالي أجور العمال بإبطال (قوانين الغلال Corn Laws) وكذلك الرسوم الجمركية العالية التي تفوق استيراد الغلال من الخارج.

وقد أصبح وردزورث الذي كان طوال سنوات عديدة معجبا بأفكار جودون – أصبح الآن يرفض دعوة جودون للفردية (الحرية الفردية Free individualism) على أساس أن الأفراد لا يمكنهم العيش إلا من خلال وحدة اجتماعية (إلا من خلال جماعة) لا يمكنها الاستمرار إلا من خلال الاحترام العام للتقاليد والملكية والقانون. وبعد سنة ١٨١٥ أيد الحكومة في كل إجراءاتها القمعية، ووصف بأنه ارتد عن مبدأ الحرية. وتمسك بموقفه ولخص تشخيصه لحال العصر قائلا: «العالم يجري بجنون معتقدا أن شفاءه من شروره لا يكون إلا بالتغيرات السياسية والعلاجات السياسية والحلول السياسية، بينما الشرور العظمى – وهي الحضارة والرق والبؤس – تكمن عميقة في قلوب البشر ولا علاج لها إلا بالتمسك بالفضيلة

وأهداب الدين»[117].

وعلى هذا فقد دعا الشعب الإنجليزي مناشدا لدعم الكنيسة الإنجليزية وكتب (١٨٢١) مقطوعات شعرية دينية بلغت سبعا وأربعين مقطوعة (سونيتات) تناول فيها جانبا من جوانب التاريخ الإنجليزي، نقلنا فيها إلى أبطال إنجليز لم يعد أحد يذكرهم، وأثار في قرائه الدهشة. على وفق ما قاله هنري كراب روبنسون، فإن وردزورث قال «إنه سيبذل دمه عند الضرورة للدفاع عن الكنيسة القائمة (الإنجليزية) ولم يهتم بالضحكات الصاخبة التي قهقهها الآخرون ذاكرين أنه سبق أن اعترف أنه لايدري متى كان تابعا لكنيسة في بلاده»[118].

ونحن لا نعرف أنه بحث عن سلواه في أحضان الدين عندما بدأ عالم الحب حوله ينهار. في سنة ١٨٢٩ عانت دوروثي من حصاة في الكلى مما أدى إلى ضعف صحتها وانهيار روحها المعنوية باستمرار. وتعرض جهازها العصبي للتلف، وبعد سنة ١٨٣٥ لم تعد تستطيع تحريك ساقها، ولم تعد تتذكر إلا الأحداث البعيدة التي مضى عليها زمن طويل، وقصائد أخيها التي كانت – لاتزال – تستطيع إنشادها. وظلت قعيدة طوال العشرين سنة التالية بلا معين وأطبق عليها الجنون، وكانت تجلس صامتة على مقعد قرب المدفأة منتظرة الموت صابرة. وفي سنة ١٨٣٥ ماتت ساره هتشنسون، وتُرِك وردزورث مع زوجته ماري للعناية بأخته وأولاده. وفي سنة ١٨٣٧ كان لديه الجلد الكافي للقيام بجولة طوال ستة أشهر في فرنسا وإيطاليا مع روبنسون ذي الشخصية المؤثرة.

وتوفي في ٢٣ أبريل ١٨٥٠ ودفن بين من مات من جيرانه في باحة كنيسة جراسمير. وعاشت دوروثي (أخته) بعد موته خمس سنوات صابرة تعينها ماري التي أصبحت الآن شبه عمياء. وماتت ماري سنة ١٨٥٩ عن عمر يناهز التاسعة والثمانين ، وبعد عمر طويل أدت فيه واجباتها بإخلاص. ولا بد أن وردزورث كان يتحلى بصفات أعظم من كونه شاعرا كبيرا لأنه احتفظ بحب امرأتين – من هذا النوع – أخلصتا له دوما. – ومثلهما في ملايين البيوت – لا بد من تذكرهما كلمحة من ملامح صورة إنجلترا.

الفصل الثاني والعشرون

الشعراء الثوريون

[١٧٨٨ - ١٨٢٤][(*)]

١- قافلة فقدت بريقها: ١٠٦٦ - ١٨٠٩

كي نفهم بايرون لابد أن نُعرّف ببعض التفاصيل تاريخ أجداده وطبيعتهم الذين تجري دماؤهم - كالحمّى المتقطعة - في عروقه. إن بعضاً من هذه الدماء - كاسمه - قد تعود إلى فرنسا، فالتاريخ يذكر لنا عديداً من آل بيرون Byrons في فرنسا، وقد ذكر بايرون نفسه متفاخراً في (دون جوان) (النشيد ١٠ / البيت ٣٦) أحد جدوده - «ردولفس دي بورو Burun الذي قدم إلى إنجلترا في ركاب وليم الفاتح. وفي القرن الثاني عشر أصبح آل بورو Buruns هم آل بايرون Byron (أي تغير نطق الاسم ليتماشى مع طبيعة اللغة الإنجليزية أو الأسماء الإنجليزية)، وعمل السير جون بايرون في خدمة هنري الثامن بإخلاص حتى أن الملك عندما حل الأديرة نقل إليه نظير مبلغ ضئيل ملكية دير (أسس في نحو ١١٧٠) والأراضي التابعة له، ودير راهبات نيوستيد Newstede .. في زمام نوتنجهام»[(١)] ولعب آل بايرون بعد ذلك أدوارا صغرى في التاريخ الإنجليزي وأيدوا أسرة ستيوارت المالكة وتبعوا شارلز الثاني في المنفى وصادرت الحكومة منهم مبنى دير نيوستيد، واستعادوه بعد عودة الملك للعرش وخدم وليم عم والد الشاعر- لورد بايرون الخامس (١٧٢٢ - ١٧٩٨) في البحرية، وكان وسيما طائشا وأطلق عليه اسم «اللورد الشقي» أو «اللورد الشرير» إذ عاش حياة الخلاعة في مبنى الدير الآنف ذكره وأتلف كثيرا من ثروته وقتل قريبه وليم شورث Chaworth في مبارزة مرتجلة (لم يُعد لها) في غرفة مظلمة بأحد الفنادق، فتم إرساله إلى القلعة بتهمة القتل وحاكمه مجلس اللوردات (١٧٦٥) الذي قرر «أنه ليس مذنبا كقاتل عمدا وإنما هو مذنب بالقتل غير العمد» فعاد إلى مبنى الدير وعاش في عزلة كئيبة حتى وافته منيته.

(*) نحن مدينون بكثير من المعلومات الواردة في هذا الفصل لكتاب ليزلي مارشاند عند بايرون (٣مج، نيويورك، كنوبف، ١٩٥٧) وهو دراسة نزيهة.

وقد أصبح أخوه جون بايرون (١٧٢٣ - ١٧٨٦) ضابط صف بحري وتعرض لجنوح سفينته ونشر سرداً قصصيا عن جنوح السفينة استقى منه حفيده مشاهد حية في (دون جوان) . وقد دار جون - كقبطان للسفينة دولفين - حول الكرة الأرضية . وأخيرا عاد لموطنه في غرب إنجلترا وعرف باسم (الملاح العاشق) لأنه كان يحتفظ بزوجة أو خليلة في كل ميناء .

وكان ابنه الأكبر الكابتن جون بايرون (١٧٥٦ - ١٧٩١) وهو والد شاعرنا الذي نتناوله الآن . قد مارس كثيرا من الأعمال الشريرة في سنوات عمره البالغة خمسا وثلاثين سنة حتى عُرف « بجاك المجنون » . وبعد أن خدم في المستعمرات الأمريكية قضى بعض الوقت في لندن وجعل خليلاته يدفعن ديونه . وفي سنة ١٧٧٨ فرَّ مع مرليزة كارمارثن Carmarthen فطلقها زوجها المركيز، وتزوجها القبطان بايرون ونعم بثروتها وأنجبت له ثلاثة أبناء كان منهم أوجستا لاي Angusta Leigh الأخت غير الشقيقة لشاعرنا، وأحيانا خليلته .

وفي سنة ١٧٨٤ ماتت لادي كارمارثن .وبعد ذلك بعام تزوج الأرمل الأنيق من فتاة إسكتلندية في العشرين من عمرها ولها دخل يبلغ ٢٣,٠٠٠ جنيه إسترليني - إنها كاترين جوردون الجيتية of Gight، وكانت متكبرة جدا وتعود شجرة نسبها إلى ملك سكوتلندا جيمس الأول . وعندما حملت بشاعرنا أورثته التميز والقلق : فرنسي الأصل، عاصف الشخصية أو بتعبير آخر ذو طبيعة عاصفة ميال للنهب والقتل والعداوة، وكانت الأم نفسها مزيجا من الحب العنيف والكراهية . لقد أنفقت على زوجها الذي بدد ثروتها ثم هجرها ثم على ابنها الوحيد الذي غمرته بعواطفها فأصبح لفرط الدلال « كالطفل الكسيح » . قال شيلدهارولد « لا بُد أن يعرف المرء الثمرة التي تثمرها شجرة هذه بذورها »(٢) .

ولد جورج جوردون بايرون في لندن في ٢٢ يناير ١٧٨٨ ، ولحق بقدمه اليمنى تشوّه عند الولادة بسبب ليّة للداخل مع رفع الكعب لأعلى، وكان يمكن معالجة هذا الخلل بتدليك يدوي يوميا لكن الأم لم يكن لديها صبر ولاطاقة على هذا بالإضافة إلى أن هذا قد يبدو للطفل قسوة مقصودة كما أن الأطباء لم يكونوا ميالين لنصيحتها لهذا العمل العلاجي وفي سن الثامنة، تحسنت القدم المصابة كثيرا حتى أصبح الصبي يستطيع لبس الحذاء المعتاد

فوق حذاء داخلي مصمم لموازنة الاعوجاج والتقليل من أثره. وفي الحياة العامة، وفي أثناء ممارسة الألعاب الرياضية اتسم بالرشاقة رغم عرجته لكنه لم يكن يستطيع عبور قاعة الاستقبال دون أن يحس بألم وفي شبابه كان يغضب بشدة عند أي إشارة لعاهته. وقد ساعد هذا على جعله حساسا، وربما حثه هذا على تحقيق انتصارات في مجال السباحة والتودد للنساء والشعر، فربما يصرف هذا النظر عن إعاقته.

وفي سنة ١٧٨٩ انتقلت الأم مع ابنها إلى أبردين Aberdeen، وبعد ذلك بعام هرب زوجها إلى فرنسا حيث مات في سنة ١٧٩١ معدما فاجرا. ولم يكن قد ترك إلا قليلا من ثروة زوجته التي بذلت قصارى جهدها لتعليمه تعليما يليق بلورد. وكانت تصفه أوصافاً تنم عن حبها الشديد له عندما كان في السادسة من عمره (إنه ولد لطيف يمشي ويجري كأي ولد آخر)[٣] وفي السابعة دخل مدرسة أبردين الإعدادية حيث تلقى أساسا طيبا في اللغة اللاتينية وعن طريق مزيد من التعليم وكثير من الأسفار في اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا أصبح عاشقا للآداب اللاتينية واليونانية لدرجة أن الدارسين للآداب الكلاسية هم وحدهم الذين يمكنهم فهم الاقتباسات والإشارات التاريخية التي بثها في عمله (دون جوان). لقد أحب بايرون التاريخ - مبرأ من الوطنية والميثولوجيا - كحقيقة - لا حقيقة سواها - عن الإنسان - أما شيلي Shelley فقد أنكره وكان لا يرتاح للتاريخ.

وفي سنة ١٧٩٨ مات عم والده «اللورد الشقي أو الشرير» الآنف ذكره في نيوستيد تاركا لقب البارون لابنه البالغ من العمر عشرة أعوام، ومبنى الدير و ٣٢٠٠ أكر (فدان إنجليزي) وديونه (أي ديون اللورد الشقي)، وكان هذا لا يكفي إلا لتمكين الأرملة من الانتقال من أبردين إلى مبنى الدير لتعيش هناك مستمتعة بمزايا الطبقة الوسطى. لقد أرسلت الصبي إلى مدرسة في دلوش Dulwich، وفي سنة ١٨٠١ أرسلته إلى مدرسة ثانوية داخلية مشهورة في هارو Harrow على بعد أحد عشر ميلا من لندن. وفيها بَشِم العبادات المملة التي كان يفرضها الطلاب الأكبر سنا على الطلاب الأصغر سنا، وعندما أصبح هو نفسه كرجل من الطبقة العليا - يتحتم عليه القيام بهذه العبادات، أداها بحماس. وكان طالبا قلقا يكره النظام ويحب التهريج ويهمل الواجبات المدرسية لكنه قرأ كثيرا من الكتب

غـالبـهـا جيـد، بل وقرأ بيكون ولوك Locke وهيوم Hume وبيركـيلي Berkeley . وكـان من الـواضـح أنه فقد عقيدته الدينية لأن أحد رفاق دراسته وصفه بأنه «ملحد ملعون»[٤]. وفي السابعة عشرة من عـمره التحق بكلية التثليث Trinity College في كامبردج، وهناك أقام في جناح مكلف به خدم وكلب كـما اتخـذ له رفيقـاً غيـر متزن يشاركـه السكن وتعـامل مع العاهرات والأطباء وكان بين الحين والحين يبحث عن « خدمات » متميزة في لندن. وفي إجازة قضاها في بريتون Brighton (١٨٠٨) كان معه فتاة متنكرة في شكل صبي، لكنه طور في كامبردج ما أسماه « حبا شديدا وعاطفة قوية – رغم نقائها though Pure » لشاب وسيم[٥].

وقد أقام صـداقـات دائـمـة بسـبب مرحـه وحيويته وكرمـه، وكـان أفضل هـذه الصـداقـات هي صداقته مع جون كام هوبهوس Hobhouse الذي كان يسبقه في الدراسة بعامين إلا أنه ساهم في ضبط حياة بايرون غير المنضبطة في بعض الأحيان. فقد كـان الشاعر الشاب (بايرون) يبدو على وشك تدمير نفسه بتحرره (المقصود عدم انضبـاطه الخلقي) فلم يكن ذكاؤه بقادر على أن يحل محل المحاذير الدينية التي لم يعد يأخذ بها.

وفي يونيو سنة ١٨٠٧ – وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره. ونشر ديوان « ساعات من الكسل بقلم جورج جـوردون ولورد بايرون، الصـغـيـر ». وذهب إلى لندن لـتـرتيب أن يحظى ديوانه بتعليقات طيبة وقد حيته دورية « مستخلصات أدنبره » (عدد يناير ١٨٠٨) بتعليقات ساخرة. لقد سخرت من العنوان كعنوان يليق بالنثر لا بالشعر، وانتقدت المؤلف واعتبرت ذكر اسمه مقرونا بغيره هو نوع من الاعتذار، فلم لا ينتظر هذا اللورد المراهق الوقت المناسب للنشر عندما يصبح أكثر نضجا. وبلغ الحادية والعشرين من عمره في ٢٢ يناير ١٨٠٩، ودفع ديونه الملحة وانغمس في المقامرة وشغل مقعده في مجلس اللوردات وعانى كثيرا بسبب الصمت الذي ينصح به العضو الجديد (المبتدئ) لكن بعد ثلاثة أيام شن هجوما على ناقدي كتابه في دورية (English Bards & Scotch Reviewers) لقد شن هجوما حادا وحيويا وكأنما هو يحاكي – بل ويضارع – بيانات البابا. لقد سخر من الحركة الرومانسية الوجدانية (التي أصبح بعد ذلك رائدها) ودعا للعودة إلى الروح الرجولية والأسلوب الكلاسي اللذين سادا في عصر أوغسطس Augustan Age :

- سوف تؤمن بملتون ودريدن والبابا،
- ولن تُعلي من شأن وردزورث وكلردج وسوثي،....
- إننا نعلم من هوراس إن «هوميروس ينام أحياناً»،
- ونشعر بدونه أن وردزورث أحيانا يستيقظ (يظل يقظان - والمقصود أنه نائم عادة)[٦].

وبعد أن حصل بايرون على درجة الماجستير في كمبردج صادق الملاكمين وتعلم تحاشي الضربات وأخذ دورة عملية أخرى في حياة الليل في لندن، وأبحر في ٢ يوليو ١٨٠٩ مع هوبهوس إلى لشبونة وتطلع للشرق.

٢- الرحلة الكبرى: بايرون ١٨٠٩ - ١٨١١

لم تكن رحلة - من الناحية التقليدية - هائلة: فقد كانت إنجلترا في حالة حرب، وكان نابليون يحكم فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا، لذا فقد قضى بايرون معظم العامين اللذين استغرقتهما رحلته في ألبانيا واليونان وتركيا، وقد تركت هذه الرحلة أثرا مهما في سياساته وفي وجهات نظره عن النساء والزواج بل وأثرت في موته. لقد خلف ديونا مقدارها ١٣,٠٠٠ جنيه إسترليني وراءه (المقصود قبل أن يبدأ رحلته) واصطحب معه أربعة من الخدم. لقد وجد لشبونة فقيرة مسلوبة القوة ولم تكن حرب شبه الجزيزة الأيبيرية مبررا كافيا لهذه الحال، وبدا كل الناس عدوانيين فكان بايرون يحمل مسدسيه أينما ذهب. وانتقل ركبه على ظهور الخيل إلى أشبيلية وقادش ومنها - على ظهر فرقاطة بريطانية - إلى جبل طارق (وهناك أعفى كل خدمه ما عدا خادمه الخصوصي متولي أمور ملابسه وليم فلتشر) ومن جبل طارق اتجه إلى مالطة حيث أحب السيدة سبنسر سمث (١ - ١٨ سبتمبر ١٨٠٩)، وتصرف بشكل مناف للذوق حتى إن القبطان البريطاني علق على تهوره وعدم كياسته. فتحداه بايرون مع تلميح ادعائي سخيف «طالما أن السفينة التي عليّ أن أركبها لا بد أن تبحر على أول تغير في اتجاه الريح، فإن الإبحار في الساعة السادسة غدا هو الوقت المناسب تماما، فهذا أدعى لترتيب أشغالنا بشكل أفضل وأسرع» واعتذر القبطان عن عدم تنفيذ ذلك. وفي ١٩ سبتمبر غادر بايرون وهوبهوس على السفينة سبيدر Spider

(الكلمة تعني العنكبوت أو المقلاة) وبعد أن ظلت مبحرة طوال أسبوع وصلت إلى باتراس Patras. فنزلا إلى الشاطئ فورا لمجرد وضع أقدامهما على تربة اليونان، لكن في الليلة نفسها عاودا ركوب السفينة (سبيدر) وأبحرت السفينة متجاوزة ميسولونجي Missolonghi وبينيلوب الملحقة بإيثاكا Penelopes Ithaca نزلا إلى الشاطئ في بريفيزا Preveza بالقرب من أكتيوم Actium التي شهدت معركة تحدد فيها مصير أنطونيو وكليوباترا. ومن هنا اتجها شمالا على ظهور الخيل خلال إبيروس Epirus ودخل ألبانيا التي كان التركي المرعب علي باشا يحكم من عاصمتها - بالسيف والأوامر - كل ألبانيا وإبيروس، وقد رحب ببايرون ترحيبا يليق بلورد بريطاني لأنه (كما قال للشاعر) عرف أنه ذو أصل نبيل لصغر يديه وأذنيه.

وفي ٢٣ أكتوبر عاد بايرون ورفاقه. وفي ٢٧ من الشهر نفسه وصلا إلى يانينا Janina عاصمة إبيروس. وهناك بدأ يسجل انطباعاته عن الرحلة في (Childe Harold's Pilgrimage) على شكل سيرة ذاتية. وفي ٣ نوفمبر ارتحلت المجموعة جنوبا حتى ما يعرف اليوم باسم إيتوليا Aetolia في حماية حرس الباشا من المرتزقة الألبانيين، وكان كل واحد من هذا الحرس بارعاً في القتل والسرقة. وقد أحبوا سيدهم الجديد (المقصود لورد بايرون) وكان أحد أسباب ذلك أنه بدا لهم غير هيَّاب من الموت. وعندما أصابت الحمى بايرون هددوا الطبيب بالقتل إذا مات مريضه، ففر الطبيب وشفي بايرون. وفي ٢١ نوفمبر استقلت المجموعة سفينة نقلتهم من ميسولونجي Missolonghi إلى باتراس Patras وتقدموا يصحبهم حرس جديد على ظهور الخيول في البلوبونيز وأتيكا Attica (في اليونان الحالية) ورأوا دلفي Delphi وثيبز Thebes ودخلوا أثينا في يوم الكريسماس ١٨٠٩. وكان لابد أن يمر على الرحالتين يوم حافل بالأفراح والأحزان معا. عظمة الآثار القديمة، والدمار الذي لحق بالبلاد حديثا، وعدم الترحيب الشديد بالحكم التركي، فاليونانيون كانوا يوما شعبا فخورا معتزا بنفسه وأصبحوا الآن وقد نزلوا من علياء مجدهم السياسي والفكري ورضوا بحكم الأيام. لقد كان هذا مدعاة لتسلية هوبهوس لكنه أحزن بايرون الذي تجسدت فيه روح الاستقلال، والفخر بالعرق.

وعلى أية حال فقد كانت نساء اليونان جميلات، عيونهم سوداء مثيرات، خضوعهن (استسلامهن) لطيف. وقد سكن بايرون وهوبهوس عند الأرملة ماكري Macri التي تولت خدمتهما، وكان لديها ثلاث بنات كلهن دون الخامسة عشرة. الفاسقة الصغيرة تعلمت أن تحسّ إزاءهم بعاطفة أبهجتهما وذكرتهما بحبهما أيام براءتهما الأولى. إنها تريزا البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة وهي التي علّمته التحية الشجية: «يا حياة حياتي، أنا أحبك Zoe mou sas agabo وقد كتب أغنيته الشهيرة مستوحيا أفكارها من هذه الكلمات: «ياعذراء أثينا، هل سنفترق! أعيدي إليّ قلبي!» وفي ١٩ يناير ١٨١٠ انطلق بايرون وهوبهوس مع خادم ودليل ورجلين للعناية بالخيول لزيارة واحد من أكثر المشاهد إلهاما في اليونان، واستغرق انتقالهم راكبين أربعة أيام لكن الغاية تبرر الوسيلة: لقد أصبحوا على مرأى الأعمدة الباقية من معبد بوسيدون (النص temple to Poseidon) في الماضي البطولي على قُنةً جبل سونيوم Sunium Promontorium (Cape Colonna) لتخبر البحارة أنهم وصلوا بلاد الإغريق. ومما يذكر أن مشاهد هذا الكمال القدسي المتناثرة ومنظر بحر إيجه الذي يبدو على البعد هادئا ناعما، كل ذلك أوحى للشاعر بتأليف قصيدته (جزر اليونان) التي أدرجها أخيرا في النشيد الثالث في عمله (دون جوان). ومن سونيوم Sunium تستغرق المسافة إلى الماراثون ثلاثة أيام فقط على ظهور الخيل، وفي الماراثون تحركت قريحة الشاعر بالأبيات المشهورة التالية:

- الجبال تُطل على الماراثون،

- والماراثون يُطل على البحر،

- ورحت أسلّي نفسي هناك ساعة وحدي،

- وحلمت أن تعود اليونان حرة

- تقف على جثث الفرس (المقصود الأتراك)

- إنني لا أُطيق أن أكون عبدا.

وفي ٥ مارس غادر بايرون وهوبهوس أثينا واستقلتهما سفينة إنجليزية (البايلادز Pylades) قاصدين سميرنا Smyrna، وأجبروا هناك على الانتظار شهرا حيث أكمل الشاعر

النشيد الثاني في مؤلفه الشعري (شايلد هارولد Childe Harold) . وقام برحلة جانبية استغرقت ثلاثة أيام إلى إفسوس Ephesus واستوحى خرائب (آثار) مدينة شهدت أوج الحضارات الثلاث – الإغريق، والمسيحية والإسلام (النص : الديانة المحمدية) . ولاحظ هوبهوس أن « انحلال الأديان الثلاثة يقدم هناك من وجهة نظر واحدة »(٧) .

وفي ١١ أبريل عبروا (الشاعر وهوبهوس ومن معهما) على الفرقاطة سالست Salsette إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول)، وأدت الرياح القاسية والموانع الدبلوماسية للإبقاء على السفينة طوال أسبوعين راسية على الجانب الأسيوي من الدردنيل، ووطئ بايرون وهوبهوس سهل طروادة Troad Plain على أمل أن يكون قد غطى عظام هومر Homers Ilium ولكن شليمان Schliemann لم يكن قد ولد بعد . وفي ١٥ أبريل قام بايرون والضابط البحري الإنجليزي – الليفتنانت وليم إكنهيد بالانتقال عبر الهيليسبونت Hellespont إلى الجانب الأوربي، وحاولا العودة سباحة لكنهما عانيا من شدة التيار وبرودة الماء . وفي ٣ مايو حاولا مرة ثانية وعبرا من سيستوس Sestos في الجانب الأوربي من تركيا إلى أبيدوس Abydos في آسيا الصغرى . وأنجز إكنهيد Ekenhead قطع المسافة في ٦٥ دقيقة أما بايرون فأنجزها في سبعين دقيقة، وكان طول القناة في هذا الموضع (المقصود القناة الموصلة بين البر والأسيوى والبر الأوربي) ميلا واحدا فقط، لكن التيارات المائية أجبرتها على السباحة أكثر من أربعة أميال »(٨) .

ووصل السائحان إلى القسطنطينية (المقصود إستانبول) في ١٢ مايو وأثارت المساجد إعجابهما وغادراها في ١٤ يوليو وفي السابع عشر من الشهر نفسه رست سفينتهما في مرفأ زي Zea في جزيرة كوس Koes، وهناك افترقا فتابع هوبهوس طريقه إلى لندن واستقل بايرون وفلتشر قارب آخر متجها إلى باتراس Patras. ومرة أخرى عبر الطريق البري إلى أثينا . وهناك راح بايرون يواصل بحثه الطويل عن الفروق بين النساء (الفوارق الأنثوية) . لقد تباهى بغزواته (المفهوم طبعا غزواته النسائية) وأصيب بالسيلان، وسار سراعا في طريق الاكتئاب، ففي ٢٦ نوفمبر كتب إلى هوبهوس : « لقد رأيت العالم الآن . . . وذقت كل أنواع اللذة . . ليس لي من أمل آخر . وربما بدأت في التفكير في أفضل طريقة للخروج من هذا العالم . .

آمل أن أستطيع أن أجد بعضاً من نبات الشوكران (نبات سام) الذي حصل عليه سقراط»[٩] وفي يناير سنة ١٨١١ استأجر غرف لإقامته وإقامة بعض خدمه في دير كابوشن Capuchin عند سفح الأكروبوليس وراح يحلم بالسلام (النفسي) الذي تتيحه الحياة في دير.

وفي ٢٢ أبريل غادر أثينا لآخر مرة ومكث شهرا في مالطة ثم واصل رحلته عائدا إلى إنجلترا التي وصلها في ١٤ يوليو بعد عامين واثني عشر يوما من مغادرتها، وبينما كان منشغلا بتجديد عقوده في لندن تلقى خبر وفاة أمه عن عمر يناهز السادسة والأربعين، فاندفع متجها إلى مبنى دير نيوستيد Newstead، وقضى الليل جالساً في الظلام إلى جوار جثمان أمه وعندما توسّلت إليه الخادمة أن يترك الجثمان ويعود إلى غرفته رفض قائلا: «لم يكن لدي إلا صديق وحيد في العالم إنها أمي. وقد فارقتني!»[١٠] وكان قد قال عبارة قريبة من هذه ونقشها على قبر كلبه (من نيو فوندلاند) بوتسوين Boatswain الذي مات في نوفمبر سنة ١٨٠٨ ودفن في سرداب بحديقة الدير:

«للتذكير ببقايا صديق أقمت هذا الشاهد، فلم يكن لي إلا صديق واحد – انه يرقد هنا.» وفي أغسطس سنة ١٨١١ سجل وصية لوقف مبنى الدير على ابن عمه جورج بايرون، وخصص منحاً لخدمه، وترك توجيهات تنفذ عند دفنه «أريد أن يدفن جسدي في قبو في حديقة نيوستيد دون أية شعائر أو صلوات وألا ينقش على شاهد القبر أي شيء سوى الذي هو مدفون فيه» وبعد أن رتب الأمور المتعلقة بموته اتجه إلى لندن لمواصلة غزواته.

٣– أسد لندن: بايرون ١٨١١ – ١٨١٤

لقد كان لديه – في لندن – أصدقاء بالفعل لأنه كان جذابا دمثا جيد الحديث واسع المعرفة في الأدب والتاريخ كما كان مخلصا لأصدقائه أكثر من إخلاصه لخليلاته. لقد استأجر مقراً في ٨ شارع جيمس، وهناك في مقره هذا استقبل بترحاب توماس مور وتوماس كومبل Compbell وصامويل (صموئيل) روجرز، وهوبهوس... كما زارهم ورحبوا به

بدورهم. وعن طريق روجرز، ومور دخل بايرون دائرة الضوء في دار هولاند Holland House، وهناك قابل ريتشارد برينسلي شريدان Sheridan الذي كان نفوذه السياسي قد قل لكنه لم يكن قد فقد ميله للنقاش والحديث لقد روى بايرون متذكرا «عندما كان يتحدث كنا نصغي من الساعة السادسة حتى الواحدة دون أن يتثاءب واحد منا.. يا له من رفيق بائس! لقد انهمك في الشراب بشدة.. لقد كان من نصيبي في عدة مناسبات أن أنقله للبيت»[١١] وتبنى بايرون موقف «اللوديت Luddite» (محطمو الماكينات في موطنه نوتنجهامشير Nottinghamshire) متأثرا بهؤلاء المثقفين المؤيدين للإصلاح (الهويجيين Whiggish– الهويج هو حزب الأحرار فيما بعد)، وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨١٢ أجاز مجلس العموم مرسوما بالحكم بالإعدام على كل من يضبط متلبساً بتحطيم الماكينات، وعند مناقشة هذا المرسوم في مجلس اللوردات في ١٧ فبراير عارضه بايرون، وكان قد كتب خطابه مقدما بلغة إنجليزية راقية. وذكر أن بعض العمال مذنبون لقيامهم بأعمال عنيفة سببت خسائر في الممتلكات وأن الماكينات المحطمة كانت – على المدى البعيد – ستحقق مكاسب للاقتصاد الوطني. لكنها – أي هذه الماكينات – قد أدت إلى حرمان المئات من العمال من العمل الذي كانوا يعولون أسرهم عن طريقه، فأصبحوا الآن فقراء بائسين يعتمدون على ما يتلقونه من هبات وصدقات، وأن هذا اليأس وهذه المرارة هما اللذان أديا إلى قيامهم بأعمال العنف. وكلما تقدم في خطابه تخلى الخطيب الشاب عن حذره وراح يهاجم الحرب كمصدر لبؤس غير مسبوق يعاني منه العمال الإنجليز. لكن اللوردات تجهموا لمقالته وأجازوا المرسوم الآنف ذكره. وفي ٢١ أبريل ألقى بايرون خطابا ثانيا أدان فيه الحكم البريطاني في أيرلندا ودعا إلى تحرير (عتق) الكاثوليك في كل أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وقد امتدح اللوردات بلاغته ورفضوا قضيته وأجبروه على الجلوس (عدم مواصلة حديثه) باعتباره غرا سياسيا لمّا ينضج بعد، وتخلى عن السياسة وقرر الدفاع عن قضاياه وأفكاره من خلال الشعر.

فبعد اثني عشر يوما من خطبته غير المسبوقه قدم النشيدين الأولين الواردين في مؤلفه Childe Harolds Pilgrimage للناس. وكادا يلقيان نجاحاً غير مسبوق فقد نفدت الطبعة

الأولى (٥٠٠ نسخة) في ثلاثة أيام مما أقنعه أنه وجد وسيلة أكثر بقاء وقوة من الخطب المثيرة للجدل. لقد لفت الآن الأنظار إليه بشدة «لقد استيقظت ذات يوم فوجدت نفسي مشهورا»(١٢). حتى أعداؤه القدامى في دورية (مستخلصات أدنبره) امتدحوه، وإقراراً بالفضل أرسل اعتذارا لجفري لتعرضه له في دورية English Bards & Scotch Reviewers. تكاد تكون كل الأبواب مشرعة أمامه الآن، ودعته النساء الشهيرات – اثنتا عشرة امرأة تحلّقن حوله مبتهجات بوجهه الوسيم كل منهن تأمل في إيقاع الأسد الشاب في حبائلها. ولم يبعدهن عنه ما عرف عنه من نهم جنسي، كما أن لقب اللورد الذي يحمله جعله يبدو صيدا ثمينا لمن لا يعرفن ديونه. لقد سعد باهتمامهن به وكان بالفعل مستثارا بسحرهن الغامض. لقد قال: «هناك شيء فيَّ مريح جدا يظهر في حضور امرأة – إنه تأثير غريب على نحو ما حتى لو كنت غير عاشق لها – شيء لا أعرف كُنهه، فلست خبيرا بالجنس خبرة يشار إليها بالبنان»(١٣).

وكانت الليدي كارولين لامب (١٧٨٥ – ١٨٢٨) تمثل إحدى غزواته النسائية الأولى، وهي ابنة الإيرل الثالث لبيسبورو Bessborough وتزوجت في العشرين من عمرها من وليم لامب الابن الثاني للورد ميلبورن وليدي ميلبورن. وبعد أن قرأت كتابه (Childe Harolds Pilgrimage) قررت مقابلة المؤلف لكنها عندما رأته اعتبرته شخصا من الخطر معرفته وابتعدت عنه سريعا، فأثاره ذلك وعندما التقى بها ثانية رجاها أن يلتقيا وأتى إليها وكانت وقتها أكبر منه بثلاث سنين وكانت قد أنجبت بالفعل وكانت وارثة لثروة كبيرة كما كانت عطرة مرحة. وأتى إليها ثانية، وتكررت زياراته فغدت كل يوم تقريبا. وكان زوجها مشغولا بأعماله فقبله كمرافق لزوجته أو عشيق لها وهو أمر شائع في إيطاليا Cavalier Servente وتعلقت به أكثر فأكثر وذهبت إلى بيته علنا أو متنكرة في زي غلام وكتبت له خطابات غرامية حارة، وازداد اندماجهما حتى إنه اقترح عليها أن تفر معه تاركة بيت الزوجية(١٤) لكن عندما ذهبت إلى أيرلندا (في سبتمبر ١٨١٢) مع أمها وزوجها، كان قد تخلى عنها بالفعل وسرعان ما وثّق علاقته بليدي أوكسفورد. وفي خضم مثل هذه الأمور المعكرة للصفو، احتفظ بايرون ببعض الاستقرار النفسي بأن راح يكتب بسرعة شعراً سهلاً كان

آلام له فلا بد أن أترك علاقاتنا في المستقبل حسب تقديره وحكمه. وليس لدي سبب يحملني على التخلي عن معرفة ما يشرفني فهو قادر على منحي كثيرا من المباهج والمسرات الفكرية إلا أنني أخشى خداعه بشكل غير مقصود.»[١٨].

وتلقى بايرون هذا الرفض بتسامح فلم يكن في حاجة ماسة لهذه الليدي المتعلمة يقظة الضمير، ذلك أنه – بالفعل – كان يجد سلواه في أحضان كونتيسة أكسفورد، وفي أحضان الليدي فرانس Frances وبستر وفي الوقت نفسه في أحضان أخته غير الشقيقة أوغسطا لاي Augusta Leigh لقد مضى على زواجها الآن (١٨١٣) من ابن عمها الأول الكولونيل جورج لاي، ست سنوات وأنجبت منه ثلاثة أطفال. وفي هذه الأثناء أتت إلى لندن من منزلها في كمبرد جشير Cambridg shire لتطلب من بايرون مساعدة مالية لتعينها في مواجهة الصعاب بعد الخسائر التي مني بها زوجها وغيابه الطويل في حلبات السباق ولم يستطيع بايرون أن يقدم لها الكثير لأن دخله كان متقلقلاً غير قائم على أساس وطيد. لكنه أمتعها بحواراته الممتعه واكتشف أنها امرأة (المعنى مفهوم). لقد كانت في الثلاثين ولم تكن أنثى متفجرة وكان ينقصها الجانب الفكري والثقافي كما كانت الحيوية تنقصها أيضا لكنها كانت عاطفية لينة العريكة وربما كانت متأثرة بشهرة أخيها، فكانت ميالة لإعطائه ما ترغبه، فطول بعادها عنه بالإضافة لإهمال زوجها جعلها في حالة خواء عاطفي. وكان بايرون قد نحى جانبا كل المحاذير الأخلاقية أو كل المحرمات التي لم تتفق مع عقله الشاب فتساءل متعجبا لم لا يتزوج أخته كما كان الفراعنة يفعلون. وتشير الدلائل اللاحقة أنه الآن أو بعد ذلك أقام مع أخته أوجستا Augusta علاقات جنسية[١٩]. وفي أغسطس سنة ١٨١٣ فكر في اصطحابها في رحلة في البحر المتوسط[٢٠]. لكن الخطة فشلت فأخذها إلى مبنى دير نيوستيد في شهر يناير، وعندما أنجبت بنتا في ١٥ أبريل كتب بايرون إلى الليدي ميلبورن أنه «إذا كانت قردة، فلا بد أن يكون ذلك خطئي» وكانت الطفلة نفسها – ميدورا لاى Medora Leigh – تعتقد أنها ابنته[٢١]. وفي شهر مايو أرسل إلى أوجستا ثلاثة آلاف جنيه لدفع ديون زوجها. وفي يوليو كان معها في هاستنجز Hastings وفي شهر أغسطس أقامت معه في مبنى الدير.

وبينما راح يندمج أكثر وأكثر في علاقاته الجنسية مع أخته غير الشقيقة أرسلت له الآنسة ميلبانك خطابات أججت مشاعره حتى إنه كتب في يومياته عند حديثه عن الأول من ديسمبر سنة ١٨١٣ : «بالأمس وصلني خطاب رقيق من (أنابلا) وقد أرسلت لها خطابا رداً على خطابها . إن لصداقتنا وموقفنا وضعاً فريداً غريباً، وأي غرابة! - فبدون بارقة حب واحدة من كلينا . . . هي امرأة متفوقة جدا، عيوبها قليلة جدا بالنسبة لامرأة لها هذا النصيب الوافر من المال والثراء وفي العشرين من عمرها . . فمن هي في وضعها وفي سنها قد لا تزيد عن طفلة . إنها شاعرة ورياضية ومتيافيزيقية ومع ذلك - وفوق هذا - فهي لطيفة جدا وكريمة جدا وظريفة جدا، لا تدعي كثيرا . إن أحداً غيرها قد تدور رأسه إذا امتلك ما تملك وإن كان لديه عُشر مزاياها »[٢٢] .

وكأنما كانت قد قرأت هذا التقدير لها (مع أنه لم يكتبه لها وإنما سجله في يومياته) فقد أصبحت خطاباتها في سنة ١٨١٤ تعجّ شوقا وأكدت له أن قلبها غير مشغول الآن بأحد وطلبت منه صورة له ووقعت خطاباتها مشفوعة بكلمة (مع حبي) أو (المحبة) . وقد كتب لها تجاوبا مع خطاباتها الدافئة في ١٠ أغسطس : « كنت دوما ولا زلت أحبك » فأجابت أنها لا تصلح للزواج فقد استغرقتها الفلسفة والشعر والتاريخ[٢٣] . وقد أجاب على تحديها بأن أرسل لها في ٩ سبتمبر اقتراحاً آخر أقل عاطفية يدعوها لتواجهه في لعب الشطرنج فإن رفضت مرة أخرى فإنه سيخطط لمغادرة بريطانيا مع هوبهوس إلى إيطاليا . وقبلت مواجهته في (دَوْر) شطرنج .

لقد بدأ قدره ينحو به نحو الانضباط . لقد كان قد فقد الحرية التي اعتادها - حرية في الصداقة والجنس والأفكار آملاً في أن ينقذه الزواج من الروابط المتشابكة المعقدة والخطرة . لقد شرح لأصدقائه : « لا بد بطبيعة الحال أن أصلح حالي . . .إنها إنسانة طيبة » وقال لخطيبته «آمل أن تكوني صالحة طيبة . . سأكون كما تريدين »[٢٤] وقبلت مهمتها على أساس أنها مهمة يقوم بها الصالحون الأتقياء . وكتبت لإميلي ميلنر Milner في نحو الرابع من أكتوبر سنة ١٨١٤ :

« إن شخصية لورد بايرون الحقة لا مجال للبحث عن نظيرلها في هذا العالم، وكل ما

يمكننا هو البحث عن شخصية أقرب ما تكون إلى شخصيته. نبحث عن التعس الذي واساه وعن البائس الذي ساعده وعن أتباعه الذين كان لهم نعم السيد. أما عن قنوطه فأخشى أن أكون مسؤولة عنه طوال العامين الأخيرين. إنني أحس باطمئنان عميق – فأنا أثق في الله وفي الإنسان»[٢٥].

وعندما حان وقت ذهاب بايرون إلى أسرة أنابلا في سيهام (بالقرب من درهام) لطلب الزواج منها خانته شجاعته فعرّج في الطريق على منزل أوجستا وهناك كتب خطابا إلى خطيبته معلنا انسحابه من مشروع الارتباط بها لكن أوجستا حثته على تمزيق الخطاب[٢٦] وأن يقبل الزواج كرباط منقذ له. وفي ٢٩ أكتوبر تابع طريقه إلى سيهام وبصحبته هوبهوس الذي كتب في يومياته: «لم يكن متعجلا. لم أر عاشقا أقل تسرعا منه»[٢٧] ورحبت أسرة العروس به وأظهر هو من الصفات الطيبة ما جعلهم مسرورين وفي الثاني من شهر يناير ١٨١٥ ذهب معها إلى مذبح الكنيسة (لإتمام الزواج).

٤- محنة الزواج: بايرون: ١٨١٥ – ١٨١٦

وبعد إتمام طقوس الزواج ركبا في يوم من أيام الشتاء العابسة متجهين إلى (هالنابي هول) في ضواحي درهام لقضاء شهر العسل. لقد كان عمره الآن يقترب من السابعة والعشرين، وكانت هي في الثالثة والعشرين. وقضى ثماني سنوات أو أكثر يكاد لا يكف عن اللقاءات الجنسية غير الشرعية وغير المسؤولة وقلما كانت معاشرته الجنسية ترتبط بالحب. وعلى وفق ما ذكره مور Moore عن فقرة قرأها في مذكرات بايرون (تم إحراقها في عام ١٨٢٤) فإن الزوج لم ينتظر حلول الليل، وإنما «طرح الليدي بايرون على الأريكة قبل تناول العشاء في يوم الزواج نفسه» وبعد تناول العشاء إن جاز لنا أن نثق في ذاكرته سألها إن كانت تنوي أن تنام معه في السرير نفسه، وأضاف قائلا إنني أكره النوم مع أي امرأة لكن إن اخترت ذلك فسأفعل»[٢٨] وكيّف وضعه مع طبيعتها (المعنى غير عادته ونام معها في السرير نفسه) لكنه أخبر هوبهوس أنه في تلك الليلة الأولى «حاصرته نوبة مفاجئة من الانقباض وغادر السرير» وفي اليوم التالي (كما زعمت الزوجة) «قابلني عازفا عني وتمتم

بكلمات ساخرة لاذعة» لقد نفد القضاء، وكان ما كان»[٢٩] ووصله خطاب من أوجستا لاي فقرأ على أنابلا استهلاله: «يا أعز خلق الله وأفضلهم وأولهم»[٣٠] وعلى وفق ما روته الزوجة فإنه كان يشكو قائلا إنه «إذا كنت تزوجته قبل ذلك بعامين لكنت قد أنقذته من علاقة لا يستطيع هو نفسه أن يسامح نفسه عليها – لقد قال إنه يستطيع أن يخبرني لكن لا يجوز لأن هذا سر شخص آخر... وتساءلت إذا كانت أوجستا تعرف هذه العلاقة، فبدا مرعوبا لتساؤلي»[٣١] وعلى أية حال فيبدو أن أنابلا لم تكن تشك في أوجستا وقتها. وبعد ثلاثة أسابيع في (هالنابي هول) عاد العروسان وهما لا يزالان في شهر العسل إلى (سيهام) ليقيما مع أسرة (ميلبانك). وكيّف بايرون نفسه وأصبح أليفا لكل من حوله بمن فيهم زوجته. وبعد ستة أسابيع بدأ يَحِنّ لمباهج لندن وأصوات أصدقائه. ووافقت (أنابلا). وفي لندن أقاما في مقر فاخر في ١٣ (بيكادللي تراس) وبعد يوم من وصولهما أتى (هوبهوس) واستعاد بايرون روحه الفَكِهه. تروي زوجته أنه «طوال عشرة أيام كان رقيقا رقة لم أعهدها فيه أبداً من قبل»[٣٢] وربما عرفاناً بالجميل أو خوفاً من الوحدة دعت أوجستا لقضاء بعض الوقت معهما. وبالفعل أتت أوجستا في أبريل سنة ١٨١٥ وظلت مقيمة معهما حتى يونيو. وفي العشرين من هذا الشهر زار جورج تكنور المؤرخ الأمريكي الذي تخصص في تاريخ الأدب الإسباني عش الزوجية الجديد وأثنى على مسلك بايرون. وفي هذه المناسبة دخل عم (أنابلا) مبتهجا بأخبار يحملها مفادها أن نابليون قد هزم لتوه في واترلو، فقال بايرون «لقد كدت أموت كمداً لذلك».

وواصل بايرون كتابة الشعر. وفي أبريل ١٨١٥ اشترك مع مؤلفين يهوديين في إصدار (ألحان عبرية Hebrew Melodies) وقد ألف بايرون كلماتها ووضع اليهوديان ألحانها. وبيع منها عشرة آلاف نسخة رغم أن سعر النسخة كان جنيها إنجليزيا، وأصدر الناشر مري Murry طبعة بالقصائد وحدها (دون الألحان الموسيقية) لاقت أيضا رواجا كبيرا. وفي أكتوبر أنهى بايرون (حصار كورنيث The Siege of Corinth)، وقدمت الليدي بايرون نسخة واضحة للطابع. لقد قال بايرون لليدي بليسنجتون Blessington: «إن (أنابلا) على درجة كبيرة من الانضباط والتحكم في النفس بشكل لم أر له مثيلا.. وهذا يؤثر فيّ

سلبا»[٣٣]. وكان لديه بعض العذر لنزقه وسرعة استثارته. وقد استأجر بيتا مفروشا غاليا ليقيم فيه مع زوجته وراح ينفق ببذخ في إعادة تأثيثه - كل هذا لأنه افترض أن الثمن الذي سيتقاضاه من بيع بيته في نيوستيد Newstead Abbey سيكون مرتفعا، لكن الأسعار تدنت في هذه الأثناء ووجد بايرون نفسه محاصراً بكل ما تعنيه الكلمة. وفي نوفمبر سنة ١٨١٥ دخل مساعد المأمور البيت المؤثث واحتجز بعض الأثاث وهدد بالمبيت في البيت إلى أن يدفع بايرون ما عليه من ديون (يسدد فواتيره). وشعر بايرون أن والديْ (أنابلا) الثريين لابد أن يساهما مساهمة أكثر كرما في تكاليف منزل الزوجية الجديد.

وقد طبعت متاعبه أثراً واضحا بسبب ما سببته من مرارة وكآبة. لقد قال لزوجته «إذا كانت هناك امرأة قادرة على جعل الزواج أمراً محتملاً لي، فهو أنتِ. أعتقد أنك ستظلين تحبينني حتى أضربك» وعندما عبَّرت عن أملها ويقينها أنه سيعرف كيف يحبها، راح يكرر «هذا متأخر جدا الآن. لو أنّك تزوجتني منذ عامين مضيا .... لكن قدري هو أن أحطم كل من أقتربُ منه»[٣٤]. وقبل بايرون وظيفة في الهيئة الحكومية لمسرح درورى لين Drury Lane Theatre فاستغرقه الشّراب مع شريدات وآخرون، وكوّن علاقة جنسية مع إحدى الممثلات[٣٥]. ودعت (أنابلا) أخته غير الشقيقة (أوجستا) للقدوم لمعاونتها على ضبطه. وفي ١٥ نوفمبر ١٨١٥ قدمت (أوجستا) ووبخّت أخاها، ووجدت نفسها هي و (أنابلا) ضحايا حنقه وغضبه «وحزنت (أوجستا) كثيرا لحال زوجة أخيها»[٣٦].

وخلال أصعب هذه الشهور حملت الليدي بايرون وفي العاشر من ديسمبر ١٨١٥ وضعت أنثى وأسمتها (أوجستا أدا) وأصبح اسمها بعد ذلك (أدا) وفرح بايرون وسَعِد بالطفلة وبالتالي بزوجته. لقد قال لهوبهوس في هذا الشهر «إن زوجتي كاملة .. إنها الكمال نفسه. إنها أفضل مخلوق يتنفس .. لكن نفسي ترفض الزواج»[٣٧] وسرعان ما عاودته نوبات الغضب بعد مولد (أدا) وفي إحدى نوبات غضبه قذف في نار المدفأة ساعة ثمينة كانت معه منذ صباه ثم كسرها بالقضيب المعدني الذي يحرّك به وقود المدفئة[٣٨]، وفي ٣ يناير ١٨١٦ - على وفق ما قالته (أنابلا) لأبيها - دخل بايرون غرفتها وتحدث بعنف ظاهر عن علاقته الجنسية بإحدى نساء المسرح. وفي ٨ يناير استدعت الدكتور متّى بيلي

Matthew Baillie لفحص بايرون، فأتي وفحص الشاعر الحبيس، ومال إلى وصف الأفيون له.

وكان من الواضح أن بايرون موافق على ضرورة ذهاب (أنابلا) مع طفلها لتقيم مع أمها الليدي (ميلبانك) وكان اسم أسرتها قبل زواجها هو نول Noel - المقيمة في عقارات نول Noel في كيركبى Kirkby في ليسسترشير وفي بكور الخامس عشر من شهر يناير غادرت مع (أدا) بينما كان بايرون لايزال نائما. وفي ووبورن Woburn توقفت لترسل له تحذيرا وعظيا، جديرا بالذكر:

«بايرون الأعز: الطفلة على مايرام وهي أفضل المسافرين. آمل أن تكون صالحا good، وتذكر دعواتي وصلواتي ووصاياي لا تستسلم لحرفة الشعر البغيضة ولا للبراندي (نوع من الخمور) ولا لأي شيء غير شرعي أو شخص لا يكون على جادة الطريق. رغم أنك غير مطيع فدعني أسمع أنك أصبحت مطيعا وأنا في كيركبى Kirkby ابنتنا (أدا) تحبك. وكذلك أنا.» بيب Pip(٣٩).

وكتبت له من (كيركبى) مرة أخرى كتابات فكهة وعاطفية ذاكرة له أن والديها يتطلعان لرؤيته. وفي اليوم نفسه كتبت لأوجستا (التي كانت لاتزال تقيم مع بايرون) تنصحها بتخفيف اللودانيوم (مستحضر أفيوني) الذي يتناوله بايرون بثلاثة أرباعه ماء. وبالتدريج أخبرت (أنابلا) والديها كيف كان بايرون يعاملها - ذلك من وجهة نظرها، فَصُدِما وأصرا على انفصالها عنه نهائيا، فاندفعت الليدي (ميلبانك) إلى لندن لمناقشة الطبيب الذي كان يراقب سلوك بايرون، فإذا كان خبل (جنون) بايرون محقَّقا لأمكن إبطال زواجه دون ضرورة الحصول على موافقته. وكتب الطبيب تقريراً ذكر فيه أنه لا يرى علامات الجنون على الشاعر لكنه سمع أنه كانت تنتابه حالات هياج عصبي وأرسلت (أنابلا) تحذيرا لأمها بألا تُدخِل (أوجستا لاي) في الأمر لأن (أجستا) هي «أصدق صديقاتي.. وأخشى كثيرا أن تدرك أن كثيرين يؤيدون الانفصال عن بايرون، وسيكون هذا قاسيا بالنسبة إليها»(٤٠).

وفي الثاني من فبراير سنة ١٨١٦ راسل السير (رالف ميلبانك) - والد (أنابلا) - بايرون طالبا منه الانفصال عن ابنته بشكل ودي، فأجابه بايرون متوددا ذاكراً أنه لا يرى سببا لأن

تغير زوجة ظلت ترسل إلى وقت قريب رسائل ملؤها الحب موقفها هذا التغيير الكامل. وكتب إلى (أنابلا) متسائلا هل هي حقا موافقة بكامل إرادتها على موقف أبيها. وأصبحت في حالة أسى ومحنة بسبب هذا الخطاب لكن والديها منعاها من كتابة خطاب ترد فيه عليه. وكتبت (أوجستا) إليها طالبة إعادة النظر في الأمر، فأجابتها (أنابلا): «إنني فقط - أذكر اللورد بايرون بمقته الشديد الذي يفوق الحد للحياة الزوجية. وبرغبته وتصميمه. اللذين عبر عنهما - حتى منذ بداية الزواج - على التخلص من هذا الرباط الذي كان يرى فيه قيدا لايحتمل»[٤١] وفي ١٢ فبراير ذهب (هوبهوس) ليرى بايرون. وفي الطريق سمع بعض الإشاعات تدور في الأوساط الاجتماعية والأدبية في لندن مفادها عدم إخلاص بايرون لزوجته وفيما يلي نُتفة مما كتبه (هوبهوس) في مذكراته عن هذا اليوم: «رأيت السيدة (لاي) وجورج بايرون - ابن عم الشاعر - وعلمت منهما ما أخشى أن يكون حقيقة وهو أن بايرون مذنب لطغيانه الشديد، كثير التهديد والوعيد دائم الغضب والثورة، مهمل لزوجته، بل وألحق بها أذى حقيقيا فكان على سبيل المثال يخبرها بأنه كان «يعيش» مع امرأة أخرى... لقد كان يغلق الأبواب، ويلوح بالمسدسات .. وهي أمور ترويها جميعا الليدي بايرون تؤكد أنه مدان (مذنب) - لكنهم يبرئونه - كيف؟ بقولهم انه مجنون.... بينما سمعت هذه الأمور أتت السيدة (لاي) وراحت تقول إن أخاها يصرخ بمرارة في غرفة النوم.. إنه بائس .. بائس حقا.

الآن وجدت من واجبي أن أخبر بايرون أنني غيرت رأيي... وعندما أخبرته بما سمعته في الشوارع في هذا اليوم ذهل - لقد كان قد سمع أنه متهم بالقسوة والإغراق في الشراب وعدم الإخلاص لزوجته. لقد ذكرت له كثيرا مما سمعته في الصباح - فاهتاج هياجا هائلا وقال إنه محطم وإنه سيحطم رأس نفسه.. وكان أحيانا يقول: «وحتى لو أحبتني ذات مرة»، وفي أوقات أخرى كان يقول إنه سعيد للتخلص من مثل هذه المرأة - وقال: لو أنني غادرت البلاد لانفصلت عنها فورا»[٤٢].

وفي نحو هذه الفترة تلقى بايرون فاتورة مطلوباً سدادها بمبلغ ألفي جنيه ثمنا للمركبة الكبيرة التي كان كان قد اشتراها له ولزوجته. ولم يستطع تسديد الدين فلم يكن معه إلا

١٥٠ جنيها، ومع هذا فإنه في نحو ١٦ فبراير ١٨١٦ أرسل مائة جنيه إلى الشاعر كولردج وهذا دليل على كرمه الطائش الذي تتسم به شخصيته.

وفي ٢٢ فبراير أتت (أنابلا) إلى لندن وذكرت للدكتور (ستيفن لوشينجتون) أن الانفصال عن بايرون أصبح ضروريا بناء على تقريره عن حالة بايرون. وفي هذا الأسبوع سرت إشاعات ذكرت السيدة لاي وبايرون المتهم باللواط، أو العلاقة الجنسية غير السوية، وهنا أدرك بايرون أن الاستمرار في رفضه الانفصال بهدوء عن زوجته قد يؤدي إلى إجراء قضائي تتعرض فيه (أوجستا) لتدمير سمعتها. وفي ٩ مارس وافق على الانفصال وعرض التخلي عن كل حقوقه في ثروة زوجته التي كانت تتيح للزوجين ألف جنيه في السنة. لكنها وافقت على حصوله على هذا المبلغ سنويا ووعدت علانية بتجديد صداقتها مع (أوجستا) وأوفت بوعدها، كما أنها لم تطلب الطلاق.

وسرعان ماألف بعد الانفصال قصيدة أرسلها إليها:

- Fare thee well, and if for ever.

- Still fare thee well.

وواساه في إخفاق زواجه جماعة من أصدقائه أتوا إليه هم: هوبهوس، سكروب ديفز، لاي هنت، صامويل روجرز، لورد هولاند، بنيامين كونستانت. وحملت له ربيبة جودون (ابنة زوجة جودون) – كلير Claire كلمة إعجاب من الشاعر المنافس بيرسي شيلي Shelley وعرضت نفسها عليه لتكون بلسماً لجراحه. وقبل عرضها مفتتحاً بذلك سلسلة جديدة من الأحزان. وفي ٢٥ أبريل ١٨١٦ أبحر مع ثلاثة من الخدم وطبيبه الخاص قاصدا أوستند Ostend ولم ير إنجلترا بعد ذلك.

٥- شباب شيلي: ١٧٩٢ – ١٨١١

كان بيرسي Percy معجباً بجده – السير بيشي شيلي Byshe Shelley لأنه «تصرف بشكل جيد جدا مع زوجاته الثلاث» وأكثر من هذا «فقد كان ملحداً كامل الإلحاد وشيد كل آماله على إبطال العقيدة (المفهوم المسيحي)»[٤٣] واتخذ بيشي اسمه غير المعتاد بين

المسيحيين من اسم جدته لأمه قبل أن تتزوج أي قبل أن تحمل اسم زوجها. وكان له شجرة نسب طويلة (مثل بايرون) تعود إلى أيام الفتح النورماندي Norman Conquest وفي هذه السلالة المميزة تم إعدام واحد لتأييده ريتشارد الثاني، وتم إعدام آخر لاشتراكه في مؤامرة لقتل إليزابث الأولى. وقد أغوى بيشي زوجته الثانية فهرب معها بعد أن تركت زوجها، وماتت عنده، فأغوى امرأة أخرى وهرب معها، وكانت تعود في نسبها إلى السير فيليب سدني وقد تضخمت ثروتها فزادت ثروة زوجها فساعده ذلك على الوصول إلى البارونية في سنة ١٨٠٦، وعاش إلى أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره مما جعله عبئا على أبنائه الذين كان أكبرهم (تيموثي شيلي) الذي تخرج في أكسفورد وأصبح عضوا في البرلمان حيث اتخذ اتجاه حزب الهويج (الأحرار). وفي سنة ١٧٩١ تزوج من إليزابث بلفولد ذات الجمال الرائع والطباع الطيبة وشيء من اللاأدرية[٤٤] agnosticisn وقد ظهرت هذه الصفات جميعاً مرة أخرى في ابنها الأكبر.

وُلد بيرسي بيشي شيلي في ٤ أغسطس ١٧٩٢ في أحد عقارات الأسرة المعروف باسم فيلد بلاس (الترجمة الحرفية تعني مكان الحقل) – وهو بيت رحب بالقرب من (هورشام) بالقرب من سوزكس Sussex. وأنجبت أمه بعده أربع بنات وبعد ذلك بمدة طويلة أنجبت له أخا. ونشأ بيرسي بين أخواته فأخذ منهن شيئا من الرقة والخيال وسرعة الاستثارة، وكون مع أخته الكبرى علاقة حميمة.

وفي (إتون Eton) عانى كربا شديدا بسبب إلزامه بخدمة تلاميذ أكبر منه، وعزف عن كل أنواع الرياضة إلا التجديف ومن سوء الطالع أنه لم يتعلم السباحة أبدا، وسرعان ما نبغ في اللغة اللاتينية فراح يساعد زملاءه في دروسهم فرد لهم بذلك الكيل بتنمرهم له في مجالات أخرى. وكانت قراءاته الإضافية (الخارجة عن المقرر الدراسي) تضم كثيرا من الحكايات والأمور الغامضة والمرعبة، لكنه أيضا استساغ مادية لوكريتوس Lucretius في كتابه De rerum natura وكتاب بليني في العلوم – التاريخ الطبيعي Natural History وتفاؤل كوندرسيه Condorcet في كتابه Sketch of a tableau of the Progress of Human Mind وكتاب جودون الذي يفلسف الفوضوية (إلغاء الحكومة) والذي جعل له عنوانا هو

(البحث عن العدالة السياسية
Enquiry Concerning Political Justice) لقد كتب في وقت لاحق أن هذا الكتاب « قد فتح عقلي على آراء جديدة ورحبة. لقد أثر في شخصيتي. لقد أصبحت بعد دراسته بإمعان، أفضل وأكثر حكمة... لقد آمنت أن عليَّ واجبات لا بد أن أؤديها »(٤٥).

وخلال الإجازة وقع في حب قريبة لم تتجاوز ستة عشر ربيعا. إنها هاريت جروف Harriet Grove التي كانت تزور أسرته في (فيلد بلاس) كثيرا. وبدأا يتبادلان الرسائل الحارة حتى إنهما في سنة ١٨٠٩ تعاهدا على الإخلاص الأبدي. لكنه اعترف لها بشكه في الرب، فأظهرت خطابه المنطوي على منحى « لا أدري » لأبيها فنصحها ألا ترتبط به (أن تتركه بلا هدف) وعندما نقلت هاريت في يناير سنة ١٨١١ تعهدها بالإخلاص الأبدي له إلى وليم هلير، كتب شيلي لصديقه توماس جيفرسون هوج خطابا جديرا بأن يكون على لسان أبطال بايرون القساة. « إنها لم تعد لي. إنها تمقتني مقتا شديداً كربوني (مؤمن بالله دون الإيمان بأديان منزلة deist) مع أنها كانت تؤمن الإيمان نفسه قبل ذلك. آه! آه أيتها الديانة المسيحية كيف أغفر هذا الاضطهاد القاسي، عسى أن يدمرني الرب (إن كان للرب وجود).. هل الانتحار خطأ؟ لقد نمت ومعي مسدس محشو وبعض السم ليلة البارحة، لكنني لم أمت »(٤٦).

وفي هذه الأثناء (١٨١٠) كان قد انتقل من (إتون Eton) إلى الكلية الجامعية في أكسفورد. وتجنب هناك الإفراط في العلاقات الجنسية - فيما عدا ليلة أو ليلتين مارس فيهما الجنس على سبيل التجريب، وكانت العلاقات الجنسية تبدو لمعظم الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد أمرا لازما دالا على الرجولة. وكان يستمع بين الحين والحين إلى محاضرات يلقيها الأساتذة والعمداء الذين لم يكونوا يتفوقون عليه في اللاتينية واليونانية سوى بخطوة واحدة وسرعان ما راح يؤلف الشعر باللاتينية ولم ينس أبدا إيسخيلوس. وكان مقر إقامته غاصا بالكتب المبعثرة والمخطوطات والتعويذات غير الواضحة الواردة في كتب العلم القديمة (في الكتب العلمية قبل نضوجها). لقد كاد يملأ غرفته عند إجرائه لإحدى التجارب لقد كان يؤمن بقدرة العلم على صياغة الكون والإنسان. ولم يكن يهتم بالتاريخ

فقد كان يؤمن بما قاله فولتير وجيبون من أن التاريخ هو في الأساس سجل لجرائم البشر وغبائهم، ومع هذا فقد قرأ كتابات هذين المؤلفين المتشككين بشغف. وقد ظن أنه وجد حلا لسر الكون عند لوكريتيوس والمثقفين الآخرين، فحركة الذرات لابد أن تحكمها قوانين، ثم اكتشف سبينوزا وفسره شارحاً أنه يؤمن بجوهرين وحيدين: المادة والعقل (النفس) باعتبارهما جانبين لجوهر مقدس واحد - فشيء كالعقل (النفس) يسري في المادة، وشيء من المادة يغطي العقل (النفس)[٤٧].

لقد كان يقرأ بشغف، وقد وصفه رفيق دراسته هوج بأن « كتابا في يده طوال الوقت - إنه يقرأ .. وهو جالس إلى المائدة، وهو في السرير، بل وفي أثناء المشي خاصة ... لم يكن هذا في أكسفورد فقط، وإنما في الطريق السريعة بل وفي أكثر مناطق لندن ازدحاما.... لم تقع عيناي على من يلتهم الصفحات التهاما بشراهه أكثر منه»[٤٨]. وكان يعتبر تناول الطعام مضيعة للوقت إذا لم يكن مصحوبا بالقراءة، وكان يفضل أبسط أنواع الطعام، ولم يكن قد أصبح نباتيا بعد ومع هذا فقد كانت وجبة من الخبز والزبيب تبدو له متوازنة. وعلى أية حال فإنه كان مولعاً بما هو حلو، وكان يفضل عسل النحل على خبز الزنجبيل وكان يحب أن يخلط ماء الشرب بالنبيذ[٤٩]. وقد وصف في أيام أكسفورد بأنه طويل نحيل، حزمة منحنية من الأعصاب والنظريات والبراهين، غير مهتم بملبسه وغير مرجل لشعره، يترك قميصه مفتوحا من عند الرقبة يكاد يكون وجهه ذا ملامح أنثوية. عيناه متألقتان لكنهما غير مستقرتين وطباعه حادة لكنها ودودة، وكان كشاعر ذا أعصاب حساسة، دافئ المشاعر، مستسلما للأفكار الغامضة التي لم تتبلور بعد لكنه كان ينفر من التاريخ. وكان كالشعراء يركز على الحرية الفردية ويشك في القيود الاجتماعية وقد ذكر هوج Hogg أن الليالي في غرفة شيلي كانت رائعة عندما كانا يقرآن الشعر والفلسفة معاً ويدحضان القوانين والعقائد ويظلان يتبادلان الأفكار حتى الساعة الثانية صباحا ويتفقان - قبل كل شيء - على مسألة أساسية هي أن الرب God لا وجود له. وقد أعد المتمردان الشابان مؤلفا عن هذا الموضوع جعلا له عنوانا هو (ضرورة الإلحاد The necessity of Atheism) وكان هذا المصطلح Atheism (تستخدم القواميس المتداولة إنجليزي عربي، كلمه إلحاد كمعنى لهذا المصطلح)،

وكان هذا المصطلح ممنوع الاستخدام في المجتمع المهذب، فقد كان الشكاكون المهذبون يطلقون على أنفسهم deists أي الربانيين أو الربوبيين أي المؤمنين بوجود إله مع عدم إيمانهم بالأديان (المفهوم هنا كما هو واضح عدم إيمانهم بالمسيحية) وكانوا يتحدثون باحترام عن الله God كموجود لا يمكن معرفة طبيعته، كموجود في الطبيعة وهو حياتها - أي الطبيعة - والروح السارية فيها، وهو موجود غير مشخص Spirit (روحاني). وقد اعتنق شيلي في وقت لاحق أفكارهم، لكن عند صدور الكتاب الذي نتحدث عنه كان شيلي وزميله في مرحلة الشباب وكانا لا يقدران عواقب الأمور ففضلا استخدام لفظ Atheists ليطلقاه على نفسيهما متحدين بذلك كل ما هو طابو taboo (أي محرم) ولجذب الانتباه. وقد كانت الحجج التي ساقاها هي أنه لا الحواس ولا العقل ولا التاريخ تثبت وجود الرب فالحواس لا تدلنا إلا على المادة في حركتها على وفق قانون، والعقل يرفض الفكرة - فكرة وجود خالق واحد خلق الكون من لا شيء. والتاريخ لا يقدم مثلاً واحداً لفعل إلهي ولا لشخص إلهي ظهر على الأرض. ولم يوقع المؤلفان باسميهما لكنهما نسبا الكتاب على صفحة العنوان إلى «ملحد، ألحد لنقص البراهين على وجود الرب».

واحتوى مطبوع جامعة أكسفورد وسيتي هيرالد Oxford university and City Herald إعلانا عن هذا الكتيب في ٩ فبراير سنة ١٨١١ وظهر الكتيب فعلا في ١٣ فبراير، ووضع شيلي على الفور نسخا منه في مدخل مكتبة بيع الكتب في أكسفورد، ورآه جون ووكر Walker الإكليريكي الموقر فطلب من البائع تدمير كل النسخ وبالفعل تم هذا. وفي هذه الأثناء أرسل شيلي نسخاً إلى كثير من الأساقفة وكثير من الشخصيات المرموقة في الجامعة[٥٠]. وأحضر واحد من هؤلاء الكتيب (النشرة) إلى عميد الكلية الجامعية وأساتذتها فاستدعوا شيلي للمثول أمامهم في ٢٥ مارس، فمثل أمامهم فسألوه عن مؤلف الكتيب فرفض الإجابة ودعا لحرية الفكر وحرية الكتابة، فطلبوا منه مغادرة أكسفورد في الصباح التالي، وعندما سمع هوج Hogg بذلك اعترف أنه شاركه في تأليف الكتيب وطلب أن يطبقوا عليه العقاب نفسه الذي طبقوه على شيلي، وقد كان. وبعد الظهر ظهر في نشرة الكلية أن شيلي، وهوج قد فصلا «لتمردهما برفضهما الإجابة عن بعض الأسئلة

الموجهة إليهما » وأرسل العميد – بشكل شخصي إلى شيلي ذاكرا له أنه إذا تعذر عليه الرحيل (مغادرة أكسفورد) خلال هذه الفترة الوجيزة فإنه – أي العميد – يمكنه السماح له بالبقاء لأيام قليلة إن قدم طلبا بذلك، وتجاهل شيلي الرسالة وغادر ومعه هوج في ٢٦ مارس في أعلى مركبة قاصدين لندن .

٦– التطور الأول: شيلي ١٨١١ – ١٨١٢

استأجر شيلي وهوج مسكنا في ١٥ شارع بولاند Poland st وأتى والد شيلي – الذي كان في لندن لحضور جلسات البرلمان – إليهما وطلب منهما التراجع عن آرائهما فلما وجد ابنه متمسكا بموقفه أمره بالانفصال عن هوج لما له من تأثير شرير عليه وأن يعود إلى بيت الأسرة ويمكن هناك في رعاية « شخص سيعينه الأب وعليه الاستماع لتعاليمه وتوجيهاته »، ورفض شيلي فتركهما الأب غاضبا يائسا. لقد اعترف بقدرات شيلي وكان يتطلع لتبوئه مكانا مرموقاً في البرلمان. وترك هوج لندن قاصدا يورك لدراسة القانون وسرعان مانفد ما كان مع شيلي من مال وراحت أخواته اللاتي كن يدرسن في مدرسة مسز فننج Mrs. Fenning's School في محافظة (دائرة) كلافام Clapham يرسلن له ما يحصلن عليه من مصروف. وفي شهر مايو رق قلب أبيه فسمح له بمئتي جنيه استرليني في العام.

وكان من بين زميلات أخواته في (كلافام) فتاة في السادسة عشرة من عمرها هي هاريت وستبروك، وهي ابنة مالك ثري لحانة في ميدان جروسفينور. وعندما التقت ببيرسي فتنت بنسبه وبراعته في اللغة واتساع دائرة دراساته وسحر آرائه الفاتنة، وسرعان ما آمنت مثله أن الرب قد مات وأن القوانين إزعاج غير ضروري. وقرأت بشغف النصوص الثائرة التي أعارها إياها، والكلاسيات المترجمة التي تعكس حضارة رائعة، لم تسمع أبداً أن المسيح أتى بمثلها. ودعته لبيتها. وكتب شيلي إلى هوج في مايو سنة ١٨١١ « إنني أقضي معظم وقتي في منزل الآنسة وستبروك إنها تقرأ المعجم الفلسفي لفولتير[٥١] Dictionnaire Philosophique » وعندما اكتشفت زميلاتها أن صديقها ملحد atheist قاطعنها باعتبارها قد شمت بالفعل ريح جهنم وعندما ضبط معها خطاب منه تم فصلها[٥٢]. وفي بدايات شهر

أغسطس كتب شيلي إلى هوج: «أبوها يضطهدها بشكل مرعب لإجبارها على الذهاب إلى المدرسة لقد طلبت نصيحتي، فنصحتها بالمقاومة وحاولت في الوقت نفسه أن أطوع السيد وستبروك، لكن دون جدوى! ونتيجة نصيحتي لها جعلت حمايتها على كاهلي» ثم تناول نتائج هذا فقال في خطابه «لقد أصبحت أخيرا مرتبطة بي وخائفة ألا أبادلها موقفها... من غير الممكن أن أبتعد عن إنسانة لها مثل هذه المشاعر، لقد قررت أن أربط مصيري بمصيرها»[٥٣] ومن الواضح أنه عرض عليها الارتباط بعلاقات حب حرة لكنها رفضت فلما اقترح عليها الزواج وافقت لكن والدها رفض. وفي ٢٥ أغسطس هرب العاشقان واستقلتهما مركبة إلى أدنبره Edinburgh وتزوجا على وفق طقوس الكنيسة الإسكتلندية في ٢٨ أغسطس ١٨١١ واستسلم أبوها للأمر الواقع وخصص لها مبلغاً سنويا مقداره ٢٠٠ جنيه. وأتت أختها الكبرى إليزا Eliza لتعيش معها في يورك (اعترف شيلي أنه كان صفر اليدين) وكان شيلي ينفق من ميزانية الأسرة، وذكر أن «إليزا كانت تحتفظ بالميزانية المشتركة في أحد جيوبها لتخرج منها عند الطلب»[٥٤] ولم يكن شيلي سعيدا تماما بالإشراف المالي لإليزا لكنه كان يجد عزاءه في مرونة هاريت وانصياعها له. لقد كتب في وقت لاحق إلى جودون: «إن زوجتي تشاركني أفكاري ومشاعري»[٥٥].

ومكثت هاريت وإليزا - غير بعيدتين عن هوج - في يورك، بينما ذهب شيلي إلى لندن ليلين من عريكة والده الذي كان قد أوقف دعمه المالي له بعد أن سمع بزواجه من هاريت، وبعد أن تودد الشاعر إليه عاد فسمح به لكنه منعه (أي منع ابنه) من دخول منزل الأسرة، وعاد شيلي إلى يورك ووجد أن صديقه العزيز هوج كان قد حاول اغتصاب زوجته هاريت. إنها لم تقل لزوجها شيئا عن هذه المحاولة لكن هوج هو الذي اعترف وطلب الغفران ورحل. وفي نوفمبر غادر الثلاثة (الشاعر وإليزا وهاريت) إلى كزويك Keswick حيث تعرف شيلي على الشاعر سوثي Southey (ترد أحيانا في الكتابات العربية: صثي) الذي كتب في ٤ يناير ١٨١٢ «يوجد هنا رجل هو مثل قرين لي. إنه كشبحي. إنه يشبهني تماما عندما كنت في سنة ١٧٩٤ .. لقد قلت له إن الفرق الوحيد بيننا أنه في التاسعة عشرة من عمره وأنا في السابعة والثلاثين»[٥٦] ووجد شيلي أن سوثي شخص لطيف وكريم وراح يقرأ شعره بلذة.

وبعد ذلك بأيام قلائل كتب: «إن سوثي يفكر بطريقة أسمى من الطريقة التي أفكر بها.. ولابد أن أعترف أنني عندما أراه في أسرته يبدو أكثر ما يكون سناء وبهاء... كيف أزعجه العالم وأفسدته العادات، إن قلبي يتمزق عندما أفكر فيما آل إليه»[٥٧].

ووجد بعض التسلية والمتعة عند قراءة كتاب جودون (العدالة السياسية). وعندما علم أن هذا المؤلف الذي كان ذات يوم فيلسوفا مشهورا أصبح يعيش الآن فقيرا في الظل، كتب خطاب إعجاب: «لقد سجلت اسمك في قائمة العظماء الذين وافتهم المنية. لقد شعرت بالأسف لأن عظمة وجودك قد فارقت عالمنا الأرضي. ولم يكن الأمر كذلك. فأنت ستظل حيا وإنني أعتقد جازما أنك تخطط لرفاهية الجنس البشري. إنني لم أدخل إلا لتوي في معترك التفاعلات البشرية ومع هذا فمشاعري وتفكيري تواصلا مع مشاعرك وأفكارك.. إنني شاب وشغوف بقضايا الفلسفة والحقيقة.. عندما آتي إلى لندن سأبحث عنك. إنني مقتنع أنني أستطيع المثول أمامك مع أنني غير جدير بصداقتك.

وداعا. سأكون متشوقا لتلقي إجابتك»[٥٨]. وفقد رد جودون، لكن يمكننا الحكم على فحواه من خطابه المؤرخ في مارس ١٨١٢: على قدر ما أستطيع التغلغل في شخصيتك فإنني مقتنع أن فيك جملة من الصفات الحميدة بشكل غير عادي، وإن كانت لا تخلو من بعض العيوب. وهذه العيوب تحدث دوما وبشكل أساسي نتيجة كونك لازلت صغيرا جدا، وأنك لست مقتنعا قناعة كافية بهذا» ونصح شيلي ألا ينشر كل ما يعن له، وإن نشر شيئا من هذا النوع ألا يضع اسمه عليه «فحياة الإنسان الذي ينشر ويوقع ستكون سلسلة من التراجعات»[٥٩].

وكان شيلي بالفعل يطبق هذا بالاحتفاظ بمخطوطات مؤلفاته أو يطبعها طبعات خاصة (محدودة) وأول تآليفه المهمة (Queen Mab) «كنت قد كتبتها وأنا في الثامنة عشرة من عمري – وأجرؤ على القول أنني كتبتها بحماس كاف وروح عاليه – لكنني... لم أكن أنوي نشرها»[٦٠] وفي سنة ١٨١٠ كان لايزال مولعا بالمثقفين والمفكرين الفرنسيين لقد قدم لقصيدته (Queen Mab) بشعار فولتير الغاضب Ecrasez l'infame! واستعار أفكارا كثيرة من كتاب فولني Volney «Les Ruines, ou Méditations sur les révolutions des

Empires » (١٧٩١) في مطلع القصيدة الآنف ذكرها نجد يانث Ianthe العذراء نائمة. وفي الحلم نجد الملكة ماب (وهي جنية) تهبط عليها من السماء وتصعد بها إلى النجوم وتطلب منها أن تتأمل من هذا المنظور ماضي الأرض وحاضرها ومستقبلها فمرت أمام عينيها إمبراطوريات الماضي متتابعة – مصر وتدمر واليهودية والإغريق والرومان . . . وعند الانتقال إلى الحاضر صورت الملكة ماب ملكاً (من الواضح أن المقصود هو الوصي على العرش) هو في الحقيقة عبد لنهمه الشديد »[٦١] ودهشت لأن أحدا من البؤساء الذين يجوّعهم بينما هو متخم لم يرفع ذراعه للإطاحة به من فوق عرشه » . فأطلقت حكمها الذي أصبح الآن مشهورا :

– **الرجل**

– **ذو الروح الفاضلة العفيفة لا يأمر ولا يؤمر**

– **فالسلطة كالطاعون المدمر ،**

– **تلوث كل ما تمسه**[٦٢].

وكانت الملكة ماب تكره أيضا التجارة وتكره آدم سميث : « إن اتساق وسعادة شخص يستسلم لثروة الأمم » يتمثلان في « أن كل شيء للبيع حتى الحب »[٦٣] . وصورت لها أيضا إحراق ملحد مما أرعب البكر يانث Ianthe فواستها الملكة بأن أكدت لها أنه « لا وجود لله There's no God»[٦٤] ودخل أهاسويروس Ahasuerus اليهودي الجوال وراح يوبخ اللهGod كما ورد في سفر التكوين (السفر الأول من التوارة) لأنه عاقب بليون رجل وامرأة وطفل عبر آلاف السنين من أجل خطيئة غير مفهومة (خطيئة غامضة) ارتكبتها امرأة واحدة[٦٥] . (ربما وجد بايرون هنا أفكاراً أوحت له عمله « قابيل Cain »، وكان شيلي قد أرسل بصفة شخصية نسخة من عمله – ملكة ماب) . وأخيرا صورت الملكة ماب (الجنية) مستقبلا زاهرا : الحب بلا قانون . السجون خالية ولا لزوم لها . لا بغاء . الموت بلا ألم . وعندئذ أمرت يانث Ianthe بالعودة إلى الأرض لتبشر بإنجيل الحب العالمي ، وكان لديها إيمان غير واهن بانتصار هذا الحب . واستيقظت يانث Ianthe . إنها قصيدة قوية رغم فكرها الصبياني ورغم أسلوبها عالي النبرة في بعض المواضع (المقصود الأسلوب المنمق أو الطنان رغم بساطة

المعنى). وعلى أية حال فقد كان هذا عملا لافتا للنظر لفتى في الثامنة عشرة من عمره. وعندما تم نشر (الملكة ماب) في سنة ١٨٢١ دون موافقة الشاعر رحب بها الراديكاليون في إنجلترا باعتبارها تمثل حلمهم وخلال عشرين عاما ظهرت منها أربع عشرة طبعة غير مرخص بها[٦٦]. وبعد أن مكث شيلي وهاريت في أيرلندا (فبراير - مارس ١٨١٢) حيث عمل ببطولة محايدة لصالح قضايا الكاثوليكية والبروليتاريا، انتقل إلى ويلز. وهناك فجع وزوجته بمناظر الفقر السائدة فاتجها إلى لندن ليؤسسا صندوقا لجمع الأموال لصالح أهل ويلز. وانتهز هذه الفرصة لتقديم احترامه لجودون الذي سره أن تتزاور أسرتاهما كثيرا. وبعد زيارات قصيرة متكررة لأيرلندا وويلز استقر الزوجان الشابان (شيلي وهاريت) في لندن. وهناك أعاد شيلي وهاريت مراسم زواجهما على وفق طقوس كنيسة إنجلترا ليضمنا «شرعية» أي ابن يرزقانه ليكون وريثا شرعيا، وكان هذا في ٢٤ مارس سنة ١٨١٤[٦٧]. وكان شيلي قبل ذلك ببعض الوقت قد كتب لها قصيدة يجدد فيها حبه وعهده بمناسبة عيد ميلادها:

- هاريت، دعي الموت يدمر كل الروابط الزائلة،

- أما رباطنا فلن يتمزق أبدا،

- فالفضيلة والحب، راسخان صامدان

- وكذا الحرية والإخلاص والنقاء،

- فروحي مكرسة لك في هذه الحياة.

٧- التطور الثاني: شيلي ١٨١٢ - ١٨١٦

بدا شيلي خلال كل جولاته لا يفكر في تدبير مورد رزق له. ربما كان يشارك وردزورث نظرته في أن الشعر لا شريك له وأنه لا بد من إعفاء الشاعر من العمل أو الاهتمامات التي قد تخنق الشعر في دمه. ولم يكن يرى تناقضا بين دعوته للمساواة في الحقوق في ظل جمهورية وجهوده في الحصول على نصيبه من الثروة التي وقفها جده على أبيه. وقد أضاف إلى المبلغ السنوي الذي خصصه له والداه مبلغاً آخر فقد باع للمرابين حقه الذي سيحصل عليه بعد وفاة والده، ففي سنة ١٨١٣ تقاضى ٦٠٠ جنيه نقدا مقابل تنازله عن ألفي جنيه

من ميراثه المتوقع.

وربما شجع المرابين على ذلك هشاشة بنيانه، والأمراض التي كانت تعاوده دوما. فالآلام الدائمة التي كانت تعتري جنبه الأيسر (كما ذكرت زوجته الثانية) كانت تؤثر في أعصابه فتحيله حساساً حساسية شديدة، وتجعل نظرته للحياة مختلفة عن نظرة إنسان سليم الصحة. لقد كان يعاني من الاضطراب والقلق إلى حد كبير وكان أقرب ما يكون إلى الاستثارة وكانت قدرته على التحمل دوما يتسع مداها، حتى يكون لطيفا مع الآخرين متذرعاً بالصبر»(٦٨).

وظن أن بمقدوره تخفيف آلامه بتناول وجبات نباتية، وتمسك بهذا الأمل بناء على تجارب وصفها جون نيوتن في كتابه «عودة للطبيعة أو دفاع عن الرجيم النباتي» (١٨١١). وثبت على هذه الفكرة فأصبح هو وهاريت نباتيين في سنة ١٨١٢. وفي سنة ١٨١٣ تحمس لما أسمته زوجته (النظام الفيثاغورسي)(٦٩) فأقحمه في تعليقاته على قصيدة (الملكة ماب) ودعا إليه:

«إنني أناشد كل الذين يحبون السعادة والحقيقة أن يجربوا بشكل مناسب النظام النباتي (الاكتفاء بأكل ما هو نباتي).. إنني أدعوهم لهذا بحق ما هو مقدس في آمالنا لصالح الجنس البشري... فالوجبات النباتية والماء النقي لا تسببان أمراضاً بدنية أو عقلية (نفسية)، بل إنه لا يوجد مرض إلا ويسكنه هذا العلاج الناجع (الماء والنبات) فيتحول الضعف إلى قوة ويتحول المرض إلى صحة»(٧٠).

وفي مطبوع (الدفاع عن الوجبات الطبيعية Vindication of Natural Diet) (١٨١٣) عزا الدوافع الشريرة للبشر ومعظم الحروب للوجبات التي تحتوي على لحوم ودعا إلى ترك التجارة والصناعة والعودة للزراعة:

«عندما نأخذ بالنظام الطبيعي لن نكون بحاجة إلى بهار الهند ولا نبيذ البرتغال وإسبانيا وفرنسا وماديرا.... إن روح الأمة التي ستبادر بقيادة هذا الإصلاح العظيم ستصبح – لا إرادياً – زراعية. فالتجارة بكل آثامها وأنانيتها ستنهار تدريجيا، ومزيد من العادات الطبيعية سيتمخض عنها طباع أكثر دماثة»(٧١).

وأدت ظروف غريبة متتابعة نتجت عن نباتيته (مذهبه في الاقتصار على تناول ما هو نباتي) إلى دمار زواجه الأول. فبسبب إعجابه بجون نيوتن قابل أخت زوجته (أي أخت زوجة جون نيوتن) السيدة جون بوينتون John Boynton النباتية الجمهورية، الجذابة رغم شعرها الأبيض، والقادرة على إجراء مناقشات تنم عن علم وثقافة بالغتين. وفي يونيو سنة ١٨١٣ وضعت هاريت مولودة جميلة أسماها شيلي (يانث) وفي هذا الصيف انتقل بزوجته وابنته والأخت إليزا إلى براكنل وهو مكان جميل يبعد عن لندن بثلاثين ميلا. وبعد ذلك بفترة يسيرة استأجرت السيدة بوينتون منزلاً هناك وجمعت حولها المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا بسبب الثورة الفرنسية) والراديكاليين الإنجليز الذين كانت آراؤهم في الحكم والتشريع تعجب شيلي. وزادت فترات افتراقه عن هاريت وابنته يانث وإليزا فقد كان يذهب للاستمتاع بصحبة السيدة بوينتون وأصدقائها وابنتها المتزوجة.

ولم تعد علاقته بزوجته حميمة تماما كما كانت إذ يبدو أنه بدأ يشعر بشيء من التأخر في تطورها الفكري، كما أنها راحت تنشغل بابنتها انشغالا شديدا، ولم تعد تهتم بالسياسة بل راحت تهتم كثيرا بالمسرات والملابس الجميلة، وقد اشترى من أجلها عربة غالية الثمن، وفي هذه الفترة الحرجة تلقى في ٢٦ مايو ١٨١٣ من والده مايفيد أنه (شيلي) إذا لم يتراجع عن إلحاده atheism ويعتذر لعميد كليته في أكسفورد، فإنه (أي الوالد) سيحرمه من الميراث ويمنع عنه كل مساعدة مالية وكان شيلي قد استدان مقدماً على حساب الثروة التي ستأتيه بعد ذلك (استدان في ٤ أغسطس١٨١٣) وذعرت هاريت وأختها إليزا. أحقا لاتستحق باريس إقامة قداس؟! (المقصود أن هذه الأحوال ومثلها مبرر كاف لقيام الثورة الفرنسية)(*) ورفض شيلي التراجع عن آرائه وواصل سهراته المسائية التي تقيمها السيدة بوينتون. وأرسل جودون مايفيد أن دائنيه يهددون بالقبض عليه وطلب المساعدة. وفي يونيو سنة ١٨١٤ انتقلت هاريت وابنتها إلى باث Bath متوقعة أن يلحق بها زوجها بسرعة، لكن شيلي ذهب إلى لندن واستأجر غرفة في شارع فليت وحاول أن يجمع مالاً لصالح جودون وكان غالبا ما يتناول غداءه على مائدة هذا الفيلسوف في شارع سكينر

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

Skinner، وهناك التقى بماري جودون.

لقد كان دفاعها عن حقوق المرأة دفاعا طيبا لكن لم يلق قبولا على نطاق واسع، وكان شبابها الغض وعقلها النشيط. ووجهها الشاحب المفكر وإعجابها الذي لم ينته بشيلي - كبيرا جدا بالنسبة لشاعر لازال شابا في الحادية والعشرين من عمره. ومرة أخرى اختلطت الشفقه بالرغبة. وكان طالما سمع عن ماري ولستونكرافت وكتابها المثير للانتباه، وها هي ابنتها التي لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجة أبيها القاسية، تذهب كثيرا لتجلس وحيدة بجوار قبر أمها. وهنا شعر شيلي معها بتآلف نفسي وعقلي ووجدها أرقى عقلا وألطف روحا من هاريت، وفي غضون أسبوع بدا له أنه يحس إزاءها بعاطفة قوية لم يألفها من قبل. وفي ٦ يوليو طلب من جودون يد ابنته، واعتبر الفيلسوف المندهش هذا الطلب فسقا منه فمنعه من دخول بيته، ووضع ماري في رعاية زوجته (زوجة أبيها)[٧٢].

وبعد ذلك وجد توماس لف بيكوك الشاعر يكاد يكون مهتاجا في غرفته بشارع فليت.«لاشيء كالذي رأيته سبق لي أن قرأته في الحكايات أو التاريخ. لاشيء يقدم صورة أوضح للمفاجأة والعنف وعدم الاستقرار.. والوجد ... أكثر من الصورة التي وجدته عليها عندما دعاني لآتيه من الريف... لقد كانت عيناه كالدم وشعره مهوشا وثيابه غير مهندمة.. وأحضر زجاجة من اللودانيوم (مستخضر أفيوني) وقال: لن أفارق هذه»[٧٣].

ورغم كل هذه العراقيل رتب شيلي الأمر ليقابل ماري عند قبر أمها وخفف اعتراضها بأن أخبرها أن هاريت لم تكن مخلصة وأنها كانت تخونه مع المدعو السيد (مستر) ريان[٧٤] Mr. Ryan واستمر لفترة ينكر أبوته للطفل الذي تحمله هاريت في بطنها الآن (في وقت لاحق زعم أنه ابنه). وأنكرت اتهامه وأيدها أصدقاء شيلي: بيكوك، وهوج، وتريلاوني، ومتعهد نشر كتبه هوكهام. وقد رفض جودون في وقت لاحق هذه التهمة[٧٥]. وكتب شيلي إلى هاريت (وكانت لاتزال في باث) وطلب منها القدوم إلى لندن فأتت في ١٤ يوليو ١٨١٤ إلى بيت والدها فزارها الشاعر هناك ووجدها مريضة بشكل خطر، فطلب منها أن توافق على الانفصال عنه لكنها رفضت وعندما عاد إلى غرفته كتب لها خطابا محموما يقترح فيه عليها نوعاً من الاتفاق:

« يا أعز صديقة :

رغم أنني كنت منهكاً عندما التقينا ورغم أننا سنلتقي غدا في الساعة الثانية عشرة، فإنني لم أستطع منع نفسي من الكتابة لك. لقد أصبحت هادئا وأكثر سعادة بسبب تأكيداتك . . . لهذا يا عزيزتي هاريت فإنني أشكرك من أعماق روحي. ربما كان هذا أعظم ما تلقيت من بركة على يديك. لقد كرهت النهار في وضحه وكرهت - بعمق - حتى وجودي. لقد عشت على أمل أن تمنحيني السعادة، والعزاء لما أنا فيه، ولم يخب أملي. إنني أكرر لك (صدقيني فأنا مخلص فيما أقول) أن ارتباطي بك لم تنفك عراه، بل إنني مقتنع أنه قد أصبح أعمق وأكثر ديمومة فهو الآن أقل عرضة لتقلبات الهوى والنزوات. فارتباطنا لم يكن ارتباط هوى ونزوة، بل لقد كانت الصداقة هي أساسه، وعلى هذا الأساس كبرت هذه الصداقة وقويت، فأنت لم تملئي قلبي بمشاعر المعاناة . . . ألن أكون أكثر من صديق؟ آه . . سأكون أكثر من أخ، فأنا والد ابنتك الحبيبة لكلينا . . .

إن أردت الدفع لأصحاب المصارف قبل أن أراك، فإن هوكهام سيعطيك كل الشيكات.

وداعا. أحضري معك طفلتي الحبيبة الحلوة، فلا بد أنني سأكن لها حبا للأبد من أجلك. »

المخلص والمحب دوما

پ. ب. شيلي[٧٦]

وروت هاريت الأمور من وجهة نظرها في خطاب إلى كاترين نُوجِنْت مؤرّخ في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٤ :

« . . . إن ماري مصرة على اغتصابه . . . لقد ألهبت خياله باصطحابه إلى قبر أمها كل يوم وبمداومة الحديث عن أمها حتى أخبرته أخيرا أنها تموت فيه حبا . . . فلم لا نعيش جميعا معا؟ هكذا سألته ماري. أنا كأخته وهي كزوجته؟ وكان من الغباء أن اعتقد بإمكان هذا، فأرسل يطلبني ثم أقام في باث Bath. يمكنك تصور شعوري بعد افتضاح هذا الأمر. لقد لازمت الفراش طوال أسبوعين ولم أستطع إنجاز شيء. لقد توسل إليّ أن نعيش . . . وها أنا يا

صديقتي العزيزة في انتظار أن أضع طفلاً في هذا العام المحزن. وفي الشهر القادم سأكون حبيسة المخاض، ولن يكون قريباً مني.»

هـ. شيلي[٧٧]

وقدم لنا جودون بعض التفاصيل في خطاب أرسله إلى جون تايلور مؤرخ في ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٤:

«لقد كنت أثق فيه (أي شيلي) إلى أقصى درجة فقد عرفته سريع التأثر بالمشاعر النبيلة. لقد كان رجلاً متزوجاً عاش بسعادة مع زوجته طوال ثلاث سنين... وفي ٢٦ يونيو (وكان يوم أحد) اصطحب ماري وأختها جين كليرمونت إلى قبر أم ماري... وهناك يبدو أن فكرة غير تقية راودته. لقد فكر في اغتصابها. فخانني بعد أن ائتمنته، وهجر زوجته... وفي السادس من يوليو، وكان يوم الأربعاء.. وصل به الجنون حدا جعله يفضي إليّ بما يعتزمه وطلب موافقتي، فتجادلت معه... فوعدني في لحظة وهو في غاية التأثر بالتخلي عن حبه الآثم.. لكن الاثنين خدعاني، ففي ليلة ٢٧ يوليو هربت ماري وأختها جين من بيتي وفي الصباح وجدت خطابا يخبرانني فيه بفعلتهما»[٧٨].

وكانت جين كليرمونت أختا غير شقيقة لماري فهي ابنة زوجة جودون الثانية من زوجها السابق. وكان اسمها الأصلي كلارا ماري جين. لكنها كانت تفضل أن ينادوها كلارا ثم أصبح اسمها كلير(Claire أو Clare). ولدت في ٢٧ أبريل ١٧٩٨، وقد بلغت الآن السادسة عشرة من عمرها، وكانت صالحة للزواج بشكل واضح. لقد كانت موهوبة وحساسة ومعتزة بنفسها ولم تكن مرتاحة لسلطة أمها المرعبة وطباعها الثائرة، وكان زوج أمها مفلساً ومنشغلاً بدرجة لم تمكنه من تعويضها بأي قدر من الحب، فطلبت من ماري وشيلي أن يأخذاها معهما. وقد كان، ففي ٢٨ يوليو سنة ١٨١٤ هرب ثلاثتهم من لندن إلى دوفر ومنها إلى فرنسا.

وفي ٢٠ أغسطس وصلوا إلى لوسيرن، فلم يجد شيلي أية رسائل في انتظاره ولم يأته مال من لندن، ولم يكن معه سوى ثمانية وعشرين جنيهاً، فأخبر رفيقتيه وهو حزين بضرورة العودة إلى إنجلترا لتدبير المسائل المالية. فستقلتهما عربة ثم قارب وأسرعا للشمال،

وفي ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٤ كانوا - مرة ثانية - في لندن. ومكث طوال اثني عشر شهرا مختبئا من دائنيه، بل واقترض أموالاً أخرى ليطعم نفسه وماري وكلير وجودون الذي كان لايزال يرفض رؤيته لكنه رحب بالمساعدة المالية. وفي هذه الأثناء وضعت هاريت مولودها الثاني، وأسمته شارلز، ووضعت ماري مولودها الأول وليم. وأوت كلير إلى مخدع بايرون. وأخيرا مات جد شاعرنا تاركا ثروة لوالد شيلي الذي أصبح الآن هو السير تيموثي شيلي - تقدر بثمانين ألف جنيه. لقد أصبح شيلي الآن وارثا، لكن والده لم يعترف بذلك. لقد عرض عليه التنازل عن حقوقه مقابل مبلغ سنوي قدره ألف جنيه فوافق، فجعل شيلي مائتين منها كل عام لهاريت، وفي ٤ مايو ١٨١٦ غادر الشاعر وماري ووليم وكلير مرة أخرى قاصدين دوفر ومنها إلى فرنسا، وكان بايرون - قبلهم بتسعة أيام «قد نفض عن قدميه تراب إنجلترا».

٨- إجازة سويسرية: بايرون وشيلي، ١٨١٦

اختار شيلي وكذلك بايرون، دون اتفاق سابق، سويسرا لتكون ملاذا لهما، واختارا جنيف لتكون مركزا لنشاطهما. ووصلت جماعة شيلي في ١٥ مايو واتخذت لها محل إقامة في ضاحية سيشيرون Secheron. أما بايرون وبطانته فاستقلتهما في أوستد مركبة فخمة كان قد أمر بتشييدها بتكلفة خمسمائه جنيه على نمط مركبة كان يستخدمها نابليون واستولى عليها أعداؤه في جناب Genappe بعد هزيمته في واترلو. لقد كان بها سرير ومكتبة وكل مايلزم لتناول الطعام. وقام بايرون بجولة خاصة في أرض المعركة (واترلو) وتفقد ما تخلف عنها، وربما يكون قد ألف في بروكسل هذه الليلة المقاطع الشعرية من ٢١ إلى ٢٨ وهي المقاطع الأكثر خلودا في النشيد الثالث في (رحلة شيلد هارولد Childe Harold Pilgrimage) وفي ٢٥ مايو وصل إلى فندق انجلتير Angleterre الواقع على بعد ميل إلى الشمال من قلب جنيف، فطلب منه موظف الاستقبال كتابة سنّه فكتب «مائة» واكتشفت كلير كليرمونت التي كانت مشرفة بمراجعة أسماء الواصلين فأرسلت إليه تواسيه لكبر سنه واقترحت عليه اللقاء. وفي ٢٧ مايو أتى ليلتقي بشيلي وماري وكلير فكان هذا

أول لقاء بين الشاعرين. وكان بايرون قد قرأ (الملكة ماب) فامتدح القدرة الشعرية لكنه صمت تأدبا فيما يتعلق بالجانب السياسي الذي تنطوي عليه، فقد كان من الصعب أن يتوقع من شاب في الرابعة والعشرين أن يفهم فضائل الأرستقراطية – رغم أنهما ربما اتفقا على أهمية التوريث. وأخيرا اعتبر شيلي أن لورد بايرون أرقى منه شعرا.

وفي ٤ يوليو استأجر بيتا في مونتاليجر Montallegre التي تبعد عن جنيف بميلين، وتقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة جنيف. في ٧ يوليو استأجر بايرون فيلا ديوداتي Diodati التي لا تبعد عن شيلي سوى بمسيرة عشر دقائق، واشتركا معا في استئجارقارب صغير وغالبا ما كانت الأسرتان تبحران فيه معاً في البحيرة كما كانا يقضيان الأمسيات في النقاش والمسامرة في فيلا ديوداتي. وهناك، في ١٤ يوليو، اقترح بايرون أن يكتب كل واحد منهم قصة عن الأشباح. وحاول كل منهم وفشلوا إلا ماري التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقد ألفت واحدة من أشهر الروايات في القرن التاسع عشر. هي: فرانكنشتين أو بروميثيوس المعاصر Frankenstein,or the Modern Prometheus وتم نشرها في سنة ١٨١٨ وكتب شيلي مقدمة لها. وقد طرحت القصة – من بين أمور أخرى كثيرة – قضيتين غاية في الأهمية، ماتزالان محل اهتمام: أيمكن للعلم أن يخلق الحياة؟ وهل يمكنه تسخير قوته لمنع الشر بنفس مقدرته على إزجاء الخير؟

واقترح بايرون أيضا أن يقوم هو وشيلي بالطواف بقاربهما المتواضع حول البحيرة وأن يتوقفا عند النقاط التاريخية خاصة التي حققت شهرة بسبب كتاب روسو (Julie, ou La Nouvelle Héloise)، ووافق شيلي رغم أنه لم يكن قد تعلم السباحة. وانطلقا في ٢٢ يونيو واستغرق منهما الوصول إلى مليري Meillerie (في سافوي) يومين، وهناك تطلعا إلى البقعة التي افترق فيها سان – برو Saint - Preux عن جولي (كما ورد في الرواية أي أن هذه الأسماء وردت في الرواية وليس لها بالضرورة حقيقة تاريخية) وحيث – كما هو مفترض – نقش اسمها على الصخر. وواصلا الرحلة فتعرضا لعاصفة مفاجئة وغمرت الأمواج بشكل متكرر مقدمة القارب مهددة بقلبه رأساً على عقب، وقد تذكر بايرون بعد. ذلك ما حدث «لقد خلعت معطفي وطلبت منه أن يفعل الشيء نفسه وأن يمسك بالمجداف وأخبرته أنني

أظن... أنه يمكنني إنقاذه إذا لم يقاوم إذا أمسكت به... فأجاب ببرود شديد أنه ليست لديه فكرة عن إمكانية إنقاذه وأن كل ما يمكنني عمله هو إنقاذ نفسي وتوسل ألا يزعجني»[٧٩].

واستقر القارب ونزل الشاعران إلى البر واستراحا، وفي صباح اليوم التالي زارا شيلون Chilon والقلعة التي كان فرانسوا دي بونيفار de Bonnevard قد سجن فيها (١٥٣٠ – ١٥٣٦)، بأمر من دوق لوزان. وفي كلارنز Clarens كان شيلي يمسك بيده رواية روسو ليسترشد بها – لقد سار الشاعران على الأرض التي أصبحت جديرة بالذكر كمقدس للرومانسية الفرنسية. وفي ٢٧ يونيو وصلا بقاربهما إلى أوشي Ouchy مرفأ لوزان، وفي هذه الليلة كتب بايرون «سجين شيلون» Prisoner of Chillon كما كتب مقاطع شعرية عن روسو في (شيلد هارولد Childe Harold) وفي ٢٨ يوليو زار الشاعران منزلاً في لوزان كتب فيه جيبون كتابه (انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها). وفي أول يوليو عاد الجوالان إلى مونتاليجو وديوداتي. وفي غضون الأسبوعين التاليين كتب بايرون النشيد الثالث في «رحلة شيلد هارولد Childe Harolds' Pilgrimage ونسخت كلير كليرمونت نسخة منها فقد عرفت الآن إحدى لحظات السعادة القليلة في حياتها.

لقد كان قدرها أن يصاحبها سوء الحظ، فقد أدى إخلاصها لبايرون إلى إثارة الأقاويل في سويسرا لدرجة مؤذية: لقد كان هناك اتهام بأن الشاعرين كانا يعيشان مع الأختين في علاقات مشتركة غير شرعية، وسمى بعض الخياليين بايرون وشيلي بالشيطانين المتجسدين، وأصيبت سيدة إنجليزية تقوم برحلة في سويسرا، بالإغماء عندما ظهر بايرون في صالون مدام دي ستيل في كوبت[٨٠] . وربما أسهمت هذه الأقاويل في تصميم بايرون على إنهاء علاقته بكلير. لقد طلب من شيلي ألا يسمح لها بالقدوم إلى فيلا ديوداتي مرة ثانية. وكانت كلير في ذلك الوقت حاملاً من بايرون، وكانت في شهر حملها الثالث، فطلبت أن يسمح لها بزيارة واحدة أخرى لكن تم إثناؤها عن عزمها. وفي ٢٤ يوليو أخذ شيلي كلا من كلير وماري في رحلة إلى شامونكس Chamonix في سافوي. وفشلوا في هذا اليوم في محاولتهم الوصول إلى المير دي جلاس the Mer - de - Glace لكنهما نجحا في اليوم التالي. وعند

عودتهما إلى سويسرا توقفا عند دير شارتيز Charteuse في مونتنفير Montenvers. وكتب تحت توقيعه في دفتر الزيارات – وقد أثارته مظاهر التدين – كتب باللغة اليونانية: «إنني أحب البشر، وديموقراطي وملحد»[٨١] وعندما زار بايرون بعد ذلك بفترة وجيزة المكان نفسه محا الكلمة الدالة على الإلحاد خوفاً من أن تستخدم في غير صالح شيلي في إنجلترا. وقد كان[٨٢]. وفي ٩ أغسطس غادر شيلي وماري وكلير سويسوا قاصدين إنجلترا، وأعطى بايرون، مخطوطة (سجين شيلون) والنشيد الثالث والرابع من (شيلد هارولد) لشيلي كي يسلمها للناشر جون مري. أما شيلي نفسه فقد كان مشغولا مع ماري وكلير فلم يحضر سوى (ترنيمة جمال الفكر) وقصيدة Mount Blanc: أبيات كتبت في قصيدته (وادي شامونيكس Chamonix). وهذه القصيدة تكاد تكون مرتبكة كنهيرات الجليد التي تهبط ملتفة حول المنحدرات الجبلية في المير دي جلاس Mer - de - Glace. فقد وجد شيلي انطباعاته عديدة ومتباينة حتى إنه كان غير قادر على التعبير عنها بوضوح بأي شكل من الاشكال وفكر برهة من الزمن في الكتلة الشاهقة مخاطبا إله الطبيعة كما تصوره وردزورث لكنه عاد مرة أخرى إلى الشعور بالكثافة الباردة تاركاً كل الأمور لأحكام البشر. وتظهر أيضا في قصيدته (ترنيمة جمال الفكر) بعض تأثيرات وردزورث لكن سرعان ما زوى إعلان شيلي «بالخلود» لقد عبر عن دهشته لوجود الظلمة جنبا إلى جنب مع النور، والشر جنبا إلى جنب مع الخير، وراح يحلم بخلاص الإنسان بتنمية إحساسه بالجمال وتعميقه وتوسيع مداه، ومتابعة الإحساس بالجمال في الفكر والعمل كما نتابعه في الشكل والبدن:

– **لقد نذرت نفسي..**

– **لك.. ألم أف بنذري؟**

– **ليس من فرح أزال عن جبيني التقطيب**

– **فلا أمل لدي أن تتحرري**

– **فمن هذا العالم، من عبوديته المظلمة**

– **يمكنك التعبير عما لم تستطع هذه الكلمات التعبير عنه**

– **يا للفتنة المدهشة!**[٨٣]

وأخيراً كان على محاولات وردزورث، وبايرون، وشيلي أن تجد صديقا خيرا في طبيعة هوت أمام الحياد الهادئ، فاستسلم وردزورث لكنيسة إنجلترا، واستسلم بايرون وشيلي لليأس.

٩- انحلال في فينيسيا: بايرون ١٨١٦ - ١٨١٨

في شهر سبتمبر سنة ١٨١٦ قدم هوبهوس من إنجلترا وانضم إلى بايرون في رحلة واسعة المدى في الألب السويسرية. وفي أكتوبر عبراها إلى إيطاليا، فتلقاهما أهل ميلان بقبول حسن واحتفى المثقفون الإيطاليون ببايرون كأعظم شاعر إنجليزي على قيد الحياة وقدروا شجبه الواضح لحكم النمسا في لمبارديا. لقد أخذ وساما في لاسكالا La Scala ورآه ستندهال Stendhal هناك ووصفه بإعجاب «لقد فوجئت بعينيه... لم أر في حياتي ما هو أجمل ولا أكثر تعبيرا. وحتى اليوم فإنني إذا فكرت في التعبير الذي يجب أن يسبغه الرسام على العبقرية - لم أجد أمامي إلا هذا الرأس السامق (رأس بايرون)... لن أنسى أبدا التعبير القدسي في وجهه.. إنه يشيع جو القوة والعبقرية»(٨٤). ووصل الشاعر وصديقه إلى فينيسيا في ١٦ نوفمبر ١٨١٦ وفارقه هوبهوس لرؤية ما يستحق الرؤية وتابع طريقه بسرعة إلى روما، أما بايرون فاستأجر منزلاً في شارع جانبي متفرع من بيازا سان ماركو Piazza San Marco وجعل من زوجة صاحب الفندق واسمها ماريانا سيجاتي مدبرة لأمر جناحه في الفندق، ووجد وقتا لإتمام (مانفرد Manfred) وفي شهر سبتمبر سنة ١٨١٨ بدأ عمله (دون جوان Don Juan) الذي انتقل فيه من الرومانسية العابسة والانهماك في الذات إلى الأهاجي المرحة الساخرة ذات الطابع الواقعي.

وبطبيعة الحال فإن (مانفرد) هو (بايرون) نفسه مرة أخرى، وقد ألبسه المؤلف شخصية مكتئب كارهٍ للبشر في قلعة قوطية شاعرا «بلعنة هائلة على روحي» راقدا محتضنا بيض خطاياه. لقد استدعى الفاتنات من مخادعهن فوق الألب وطلب منهن منحة واحدة - النسيان، فقلن له لا نسيان إلا بالموت، وتسلق الجنجفراو Jungfrau ورأى في شجرة صنوبر ذابلة شبيها يرمز إليه «جذع أصابه التلف على صخرة ملعونة لا تمد الشجرة إلا بالفناء»

وبحث عن الموت بمحاولة القفز من فوق منحدر صخري شاهق لكن صيادا أوقفه واصطحبه إلى كوخ في الجبل وقدم له نبيذا دافئا وسأله عن سبب يأسه. وأجاب مانفرد الذي اعتبر النبيذ رمزا للدم(*) - بكلمات قد يفهم منها اعترافه بمعاشرة المحارم:

- إنني أقول إنه (أي النبيذ) دم! فالمجرى الدافئ النقي

- الذي جرى في عروق آبائي وعروقنا

- عند ما كنا في شبابنا، وكانت قلوبنا

- في حالة عشق وأحب أحدنا الآخر كما لا يجب أن يكون

- إن هذا كان ولايزال يغلق أبواب السماء دوني.

وراح يحسد الصياد لحريته وحياته الصحيحة. وقدم للصياد ذهبا ورحل، واستخدم علمه غير المقدس فاجتمع بأستارت Astarte التي رأى فيها شبح حبه المحرم ودعاها للصفح عنه «أستارت، يا حبيبتي تحدثي إلي» - في الذروة إذ حلق بايرون معبراً عن عواطفه وانفعالاته. وكما كان يحدث في بلاد جلفر التي يعيش فيها اللجناجيون Luggnaggian حكم عليه بالخلود، ظنا منه أن الخلود هو أقصى درجات العقاب. لقد توسل إليها (إلى أستارت) أن تستخدم قوتها السحرية وتمنحه الموت، فطمأنته قائلة «مانفرد، غدا تنتهي حياتك في هذه الدنيا» وصفقت ساحرة حاضرة لشجاعته: «إنه يسيطر على نفسه.إنه يجعل عذابه مرتبطا بإرادته. أكان واحداً منا؟! سيكون روحا مرعبة». وربما يكون شيطان Satan ميلتون Milton قد ترك واحدا من أصدائه الكثيرة في أعمال بايرون. وقد أجاب (مانفرد) رئيس دير الرهبان الذي أراد جذبه مرة أخرى إلى المسيحية، قائلا: إن هذه دعوة جاءت متأخرة جدا وأضاف قائلا:

- ليس هناك نظام

- للبشر على الأرض، فهناك من أصبحوا

- شيوخا في شبابهم وماتوا قبل منتصف العمر،

- دون أن يذوقوا الموت في ساحات الوغى.

(*) الرمز بالنبيذ للدم لازال سائداً في الطقوس الكنسية حتى اليوم. (المترجم)

وعندما غادر (مانفرد) للقاءاته الأخيرة حزن رئيس الدير وتفجع :

– هذا لا بد أنه كان مخلوقا نبيلا ، إن لديه

– كل الطاقة التي تخلق عناصر رائعة ،

– وقد تم مزجها بحكمة !

وكما لو كان يتحدى العالم معترفا بما كان موضع شك ، أرسل بايرون عمله (مانفرد) إلى إنجلترا فنشره الناشر مري Murray في ١٦ يونيو سنة ١٨١٧ ، وبعد النشر بأسبوع ظهر عرض في صحيفة لندنية منهيا كل تعاطف مع بايرون « انه تناول شخصه (أي شخص) بايرون وأطلق عليه اسم مانفرد . إنه يقصد نفسه . . إن (مانفرد) قد طرد نفسه من المجتمع فكيف نتعاطف مع منعزل مطرود؟! إنه ببساطة قد ارتكب أشد أنواع الجرائم المقززة . لقد غشي محارمه »[٨٥] .

وفي ١٧ أبريل ١٨١٧ غادر بايرون مدينة فينيسيا ليقضي شهرا مع هوبهوس في روما . وعاقته قدمه (المصابة) عن القيام بجولة في متاحف روما لكنه رأى البقايا الهائلة لروما الكلاسية وزار بومبي Pompeii « لقد وقفت كبقايا وسط بقايا » هكذا قال شيلد هارولد[٨٦] . وفي ٢٨ مايو عاد إلى فينيسيا (البندقية) وفي ديسمبر نجح بعد محاولات كثيرة في بيع مبنى دير نيوستيد Newstead Abbey والأراضي المحيطة به بمبلغ ٩٤,٥٠٠ جنيه إسترليني وفوض مسؤول أموره المالية في لندن دوجلاس كنيرد لدفع كل ديونه وأن يرسل له ٣,٣٠٠ جنيه إسترليني سنويا عن أرباح المبلغ المتبقي، وبالإضافة إلى هذا فقد أصبح الآن يقبل الحصول على أموال مقابل نشر أشعاره . وامتلأ بالحيوية فاشترى قصرا فخما Palazzo Mocenigo على القنال الكبير (جراند كانال Grand Canal) وحشدها بأربعة عشر خادما وقردين وكلب حراسة ضخم وخليلة جديدة هي مارجاريتا كوجني وهي زوجة معتزة بنفسها لأحد المسؤولين المحليين . ولم يكن ليكتفي بامرأة واحدة فقد تباهى بعلاقاته الجنسية بمائتي امرأة على التوالي في فينيسيا (البندقية)[٨٧] وفي ٢٠ يناير سنة ١٨١٧ أخبر كنيرد أنه « في الأمسيات أخرج أحيانا، وأنخرط دوما في علاقات جنسية » وفي ٩ مايو ١٨١٨ كتب لمسؤوله المالي « إن لدي عالماً من المومسات »[٨٨] وفي منتصف الصيف تردت أحواله

الصحية فأصبح بعيدا تماما عن الأوصاف الرائعة التي وصفه بها ستندهال منذ عامين. لقد أصبح سمينا وتحول شعره إلى اللون الرمادي وبدا أكبر من سنه (كان في الثلاثين من عمره) وصدم شيلي عندما رآه على هذه الحال عندما التقيا مرة أخرى.

١٠- أمور شيلي العائلية: ١٨١٦ - ١٨١٨

في الثامن من سبتمبر سنة ١٨١٦ وصل شيلي وماري وابنهما وليم ومربيته السويسرية إليز فوجي وكلير كليرمونت - إلى إنجلترا. وذهب جميعهم عدا شيلي إلى باث Bath أما شيلي فأسرع إلى لندن متوقعاً أن يجد أباه قد ترك له خمسمائه جنيه، لكن شيئا لم يصل وكان عليه أن يسحب وعده بأن يعطي ثلاثمائة جنيه لوالده الروحي واهتاج جودون وهرب شيلي إلى باث حيث زوجته غير الشرعية.

وهناك (في باث) تلقت ماري خطابات حنونة من أختها غير الشقيقة فاني جودون في ٢٦ سبتمبر و ٣ أكتوبر. ولدت فاني Fanny في فرنسا سنة ١٧٩٤ وكانت هي الابنة الطبيعية (ابنة زنا) من القبطان إملاي Imlay وماري ولستونكرافت Wollstonecraft، وتبناها جودون عند زواجه من أمها ورغم شفقته عليها فإنها لم تكن سعيدة بحياتها مع زوجته الثانية السيدة كليرمونت. وعكست خطاباتها روحاً لطيفة تتحمل التعاسة بشجاعة ولا تلوم أحدا وتتوق للسرور بقلب مخلوع. وكانت ماري محبة لها لكن بعد أن غادرت ماري وكلير مع شيلي لم يعد لفاني سند يواسيها لظروف حياتها مع زوجة أبيها، وعندما عاد العاشقان الهاربان إلى إنجلترا لم تساعدهما ظروفهما المالية على استقبال فاني لتعيش معهما. وفي ١٢ سبتمبر حمل شيلي لماري وكلير أخبارا مفادها أن فاني كانت قد ذهبت إلى سوانسي Swansea واعتزلت في غرفتها بالفندق وقتلت نفسها بالأفيون.

ولم ترحم الأحوال شيلي إلا قليلا. فعند عودته إلى إنجلترا جرى معه تحقيق بشأن زوجته التي كان لايزال مرتبطا بها من الناحية الرسمية. لقد علم أنها كانت تعيش مع أبيها وكانت تتلقى بانتظام مائتي جنيه سنويا. وفي نوفمبر سعى إلى زيارتها فعلم باختفائها، وفي ١٢ ديسمبر ١٨١٦ كتبت جريدة التايمز Times تقريرا عن انتشال جثتها منذ يومين

من بحيرة سيربنتين Serpentine في الهايد بارك Hyde Park وأسرع شيلي بتوثيق زواجه من ماري (جعل ارتباطه بها شرعيا) في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨١٦، رغبة منه في رعاية نسله من هاريت – الابنة يانث والابن شارلز، وظلت مطالبته بابنيه تسوّف في محكمة شانسري Chancery طوال ثلاثة أشهر . وقد أكدت له ماري أنها ستكون سعيدة باستقبال هذا «الكنز العزيز» ليكونا تحت رعايتها، لكن والد هاريت وأختها رفضا دعوى شيلي على أساس أنه ملحد وغير مؤمن بالزواج الشرعي (الزواج الموثق من الكنيسة) وأنه هجر زوجته وهرب مع امرأة غير متزوجة، فمثل هذا الرجل – على وفق رأيهما – غير جدير بتربية أطفال بطريقة سوية تجعلهم صالحين للعيش في إنجلترا، وحكمت المحكمة على شيلي في مارس سنة ١٨١٧ معترفة بالحجج التي ساقها والد هاريت بصرف النظر عن المسائل اللا هوتية (الدينية) . وعلى أية حال فإن المحكمة زكت اختياره والدين لتنشئة طفليه ووافق هو على دفع مائة جنيه سنويا لإعاشتهما . وسهرت ماري لرعاية كلير كليرمونت التي كانت لاتزال في التاسعة عشرة من عمرها ووضعت مولودة في ١٢ يناير سنة ١٨١٧ سميت أخيرا أليجرا Allegra في الوقت الذي كان فيه شيلي يرفع دعوى قضائية في لندن . ولم تكن كلير قد تلقت ردودا على خطاباتها التي أرسلتها لبايرون منذ مغادرة سويسرا، وكانت الفكرة الراسخة لديها أن بايرون لن يعترف أبداً بالطفلة مما دفع الأم لليأس وطلب شيلي من بايرون تعليمات بشأن رعاية الطفلة مركزاً في خطابه على جمالها . ووافق بايرون على رعاية الطفلة وضمها إليه إذا أتت إليه . وتعقدت الأمور في سبتمبر سنة ١٨١٧ عندما وضعت ماري مولودها الثاني، وقد وضعتها أنثى وجرى تعميدها باسم كلارا إيفيرينا . وعانت الأم والمولودة فاتفقت الأسرة كلها على أن ما يحتاجونه هو دفء إيطاليا وسماؤها وفاكهتها . وفي ١١ مارس ١٨١٨ عبروا إلى فرنسا وبدؤوا رحلة طويلة في مركبات مال دي مير - mal de - mer إلى ميلان .

ومن ميلان أرسل شيلي إلى بايرون ليأتي لرؤية أليجرا . وخوفا من أن يؤدي هذا إلى تجديد العلاقة مع كلير، رفض بايرون القدوم، واقترح – بدلا من ذلك – أن تأتي المربية بالطفلة إلى فينيسيا، فإذا تم ذلك بشكل مرض أصبحت الأم حرة في زيارة الابنة (أليجرا)

بين الحين والآخر، فوافقت كلير على كره منها، ووجد بايرون الطفلة رائعة جميلة فأخذها إلى قصره لكنها خافت من حيواناته ومومساته حتى إن بايرون سرعان ما دفع للقنصل البريطاني – ريتشارد هوبنر – وزوجته ليأخذا الطفلة إلى بيتهما.

وعندما سمع شيلي وكلير بذلك (تركا ماري وأطفالها في Lucca) وذهبا إلى فينيسيا ووجدا أليجرا تعامل معاملة جيدة بشكل معقول. وقابل بايرون، شيلي بحرارة واصطحبه في جولة في ممرات البندقية المائية (جوندولاتها) إلى الليدو Lido ودعاه هو وأسرته وكلير وأليجرا للإقامة في فيلته ما طابت لهم الإقامة. وقدمت ماري من Lucca مع أطفالها لكن كلارا إيفيرينا مرضت في الطريق وماتت في البندقية (فينيسيا) في ٢٤ سبتمبر ١٨١٨. وفي ٢٩ أكتوبر، بعد مرور شهر من الإقامة في فيلا بايرون (I Cappuccini) ودعوا أليجرا وقصدوا روما.

١١- شيلي: الذروة، ١٨١٩ – ١٨٢١

في الفترة من وصول شيلي إلى روما (١٨١٩) حتى ارتباطه ثانية ببايرون في بيزا، كانت قصائده هي الأحداث الكبرى في حياته. وهذا لا يمنع أنه قبل هذه الفترة كانت هناك ومضات شعرية فائقة الجودة متناثرة هنا وهناك في قصيدته الطويلة (الملكة ماب) وبعد ذلك في عمله Oz ymandias (١٨١٧) وهو سونتة (قصيدة من أربعة عشر بيتا) الفكر المحكم والقوة الهائلة «فالأبيات المكتوبة في التلال الإيجانية Euganean Hills» (١٨١٨) كان ينقصها مثل هذا التركيز في الفكر والحبكة في الشكل والصياغة، «والأبيات المكتوبة وهو في حال اكتئاب(*) Dejection بالقرب من نابلي» (١٨١٨) مغرقة في المرارة والتحسر على الذات إغراقا شديدا لا يدفع على المواساة (التعاطف مع كاتبها)، فالمرء لا يجب أن يحمل أحزانه وتظلماته في أكمامه. لكنه الآن بعد ثلاث سنين طلع علينا بروميثيوس المنطلق: (قصيدة إلى الريح الغربية) و(إلى طائر القبرة) و (السحاب) و (إبيسيكيدون Epipsychidion) وأدونيس Adonais. ونغفل هنا عمله (The Cenci) (١٨١٩) الذي

(*) كتب المؤلف الكلمة Dejection مبدوءة بحرف كبير D، ربما كان المقصود أن الشاعر ألف قصيدته وهو يتغوط.

حاول فيه – محققا بعض النجاح – أن ينافس جون وبستر وغيره من دراميي اليعاقبة في عصر إليزابث في قصصهم الدموية القاتمة التي تعج قتلا وغشياناً للمحارم.

وعلى وفق مقدمة المؤلف (لبروميثيوس المنطلق) فإنه كتبها في أعلى حمامات كاراكالا Caracalla في روما سنة ١٨٢٠.

وكان قد تحدى مؤلفي العصر الإليزابيثي بعمله (the Cenci) أما الآن فإنه يخاطر بقفزة أبعد بطموحه لتحدي الكتاب الإغريق. ففي (بروميثيوس المقيد) نجد «إيسخيلوس يظهر العارف سلفاً fore knower» كثائر. وتم تقييد تيتان Titan إلى صخرة في القوقاز ليوحي للبشرية كثيرا جدا من شجرة المعرفة. وفي البقايا المفقودة من هذه الثلاثية – على وفق المرويات – فإن زيوس فقد الآن قلبه وحرر بروميثيوس وفك قيوده كما حرره من الصقر الذي كان ينقر كبده باستمرار بناء على أوامر إلهية، ينقر كبد بطلنا كما ينقر الشك في صلب اليقين. وتصور (الدراما الغنائية Lyrical Drama) كما أسماها شيلي زيوس كبوربوني عجوز فظ مسؤول بقسوة عن تعاسة البشر وانقلاب حال الدنيا. لقد أطاح به بروموثيوس بكل حماسة خريج أكسفورد الفاهم المستوعب الذي يستدعي الأساقفة لحضور جنازة الرب (المقصود هنا جنازة زيوس). وهنا يظهر ندم تيتان على قسوة لعنته: «إنني لا أرغب في أن يعاني كائن حي من الآلام»[٨٩] لقد عاد يباشر مهمته التي اختارها – أن يجلب الحكمة والحب للبشرية. وهنا نجد روح الأرض Earth تهلل سعيدة هاتفة باسمه: «أنت أكثر من إله، فأنت حكيم ورحيم»[٩٠] خلال الفصل الأول نجد الحديث محتملا وقصائد الأرواح الحاضرة تدمدم بقوة جوهرية، متلألئة بكنايات واستعارات ومجازات حلوة وقصائد مقفاة متسقة – لكن الخطب – سواء كانت لاهوتية أم غير لاهوتية ليست هي روح الشعر ونوره، فبالخطب تصبح القصائد الغنائية كريهة، وبالخطب تفقد القصائد فتنتها وإغراءها عندما تهبط كالصخرة على القارئ بإسراف مربك. إن الجمال في هذه الحال يصبح مصدر إزعاج لا ينتهي! ففي كثير من شعر شيلي نجد عواطف متأججة دون سكون، وكلما تقدمنا في القراءة أحسسنا شيئا من الضعف في هذا الشعر وأحسسنا بكثير جدا من المشاعر إزاء أفعال درامية قليلة جدا، وكثير جدا من حالات القلوب ومجموعات الورود «تقول روح الأرض:

إنني كقطرة ندى تموت»[٩١]. إن أسلوبه الشعري يمكن أن يكون لائقا جدا بالقصيدة الغنائية لكنه بطيء بالنسبة إلى الدراما، «فكلمة الدراما تعني من بين ما تعني الفعل والحركة، وعلى هذا فعنوان عمله (الدراما الشعرية Lyrical Drama) ينطوي على تناقض (فالقصيدة تركز على المشاعر، والدراما تركز على الحركة مع عدم إغفال المشاعر) وعلى العكس من (الدراما الشعرية) نجد أن (قصيدة للريح الغربية Ode to the West Wind) تثيرنا لأن ما بها من أفكار ومشاعر قد تمّ تكثيفها في سبعين بيتاً. لقد ركز في قصيدته على فكرة واحدة، ولم ينشر المشاعر والعواطف على نحو ضحل، ولم يتخم قصيدته على ما فيها من ثراء القوافي والعبارات – إن الفكرة التي تتحلق حولها القصيدة هي أن الربيع آت بما يحمله من نماء رغم ما يعترينا من سخط نفقد الأمل فيه في أثناء الشتاء. لقد راح شيلي يستخدم المجاز الراقي على نحو متكرر. لقد كان هذا المجاز معيناً له عند التعبير عن عالم آماله وأحلامه الذي بدا حطاما أمام قسوة التجارب لكنه راح يأمل أن تبقى أفكاره وتنتشر من خلال «أشعاره / النص: تعاويذ أشعاره» كما تذرو الرياح الأوراق المتساقطة فتنشرها. وقد حدث هذا بالفعل. هذه القصيدة التي لامست ذروة الشعر راودت الشاعر فكرتها فكتب معظمها كما يقول لنا شيلي نفسه «في غابة تطوق الأرنو the Arno بالقرب من فلورنسا، في يوم كانت الريح فيه عاصفة... مما أدى إلى تجمع الضباب فخرت أمطار الخريف»[٩٢] لماذا غادر شيلي روما؟ إن هذا يرجع في جانب منه إلى أنه كان يريد أن ينفرد بنفسه لأنه لم يتحمل القرب من السياح البريطانيين الذين كان رأيهم فيه أنه زان ملحد لا شاعر كبير. كما أنه هو وماري قد أثر فيهما كثيرا موت ابنهما وليم (٧ يناير ١٨١٩) ولم يتجاوز الرابعة من عمره. ولم يستطع الأب ولا الأم أن يفيق من هول فقدان طفليهما في غضون تسعة أشهر. لقد ظهر الشعر الأشيب في حاجب شيلي رغم أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.

وبعد دفن وليم في المقبرة الإنجليزية في روما انتقلت الأسرة إلى ليفورنو Livorno – لوجوريا الأنجليكانية وعندما راح يتجول في حديقة هناك شعر بالألم –ربما كأي شاعر– لهروب الطيور طيراناً خوفاً من اقترابه –وقد فتن على نحو خاص بطائر من هذا السرب كان

يغني في أثناء تحليقه ، فلما عاد الشاعر إلى غرفته ألف قصيدته (إلى طائر القبرة) من شكلها الأول بتفاعيلها السداسية hexameters المتتابعة، وسرعة وقعها. وهذه المقاطع الشعرية المرحة كان كل بيت شعري فيها عامراً بالمشاعر الدافئة، والفكر الجاف، في آن واحد. وفي الثاني من شهر اكتوبر ١٨١٩ انتقل شيلي وأسرته إلى فلورنسا حيث وضعت ماري مولودها الثالث الذي سرعان ما أطلقوا عليها اسم بيرسي Percy. وفي فلورنسا وجدت كلير كليرمونت وظيفة معلمة خصوصية فأعفت – أخيرا – شيلي من رعايتها. وفي ٢٩ أكتوبر ١٨٢٠ نقل أسرته إلى فندق تري بالازي Tre Palazzi في بيزا حيث ربما يكون قد قام بأغرب مغامراته على الإطلاق. ورغم مرضه المتكرر فإنه لم يفقد حساسيته إزاء الجنس الآخر. وعندما وجد امرأة لم تكن فقط جميلة وإنما كانت تعسة، انجذب إلى جمالها وتعاستها. لقد كانت إيميليا فيفياني فتاة من أسرة راقية وضعوها على غير رغبتها في دير بالقرب من بيزا لضمان احتفاظها بعذريتها حتى يتم تدبير زوج ثري لها. وكان شيلي وماري – وأحيانا كلير يذهبون لرؤيتها وقد فتنوا جميعا بملامحها الكلاسية، ومسلكها المتواضع وبساطتها الواثقة، ورأى الشاعر فيها مثالاً للمرأة فأصبحت محور أحلام يقظته وكتب بعض هذه الأحلام في عمله (Epipsychidion) بعنوان (إلى روح فريدة) نشرها دون توقيع في سنة ١٨٢١ . ومن أبياتها المدهشة:

– لم أتصور أن أرى قبل مماتي

– مثل هذا الشباب المكتمل. أحبك

– يا إميلي، رغم أن العالم سيواري هذا الحب بخجل لا قيمة له.

– آه ليتني وأنت توأمان في رحم أم واحدة

– أو تبادلنا قلبينا

– او نكون شعاعين في أبدية واحدة

– أو أن يكون أحدنا شرعا، والآخر حقيقة

– إنني ملك يديك

– إنني لا أملك نفسي، فأنا قطعة منك!

ومن هذا الانجذاب الصوفي العاشق إلى انجذاب آخر:

- قرينة، أخت، ملك، دليل قدري

- دربك بلا نجوم (المقصود نورك يكفي)

- آه لقد تأخر حبك، فأنت سرعان ما صرت معبودتي.

- ففي حقول الخلود لابد أن تعبدك روحي، تعبدك أنت أول ما تعبد

- يا ذات الحضور القدسي..

من الواضح أن ابن الثمانية والعشرين عاما كان في حالة انجذاب ومثالية، فقوانيننا ومعنوياتنا (أخلاقنا) لا يمكن أن تنظم تماما غددنا (تحكم نزواتنا) وإذا كان امرؤ عبقريا أو شاعرا فلا بد أن يجد خلاصا أو راحة في عمل أو فن. وفي هذه الحال كان العلاج أو الخلاص عن طريق قصيدة تتأرجح بين اللامعقول والتفوق (الامتياز):

- سيأتي اليوم الذي ستطيرين فيه معي...

- فالسفينة في المرفأ الآن،

- والرياح تهب فوق حافة الجبل.. تهب ملوحة.

ليأخذهم إلى جزيرة في بحر إيجه الأزرق:

- انها جزيرة بين السماء والهواء والأرض والبحر

- جزيرة معلقه وسط السكون

- هذه الجزيرة وهذا البيت هما ملكي وإنني أعدك

- أن تكوني سيدة العزلة والانفراد.

وهناك ستكون هي حبه وسيكون هو حبها:

- ستختلط أنفاسنا، وسيتضام صدرانا

- وستخفق عروقنا معا وستلتقي شفاهنا ببلاغة أقوى من بلاغة الكلمات

- تلتقي لتطفئ لظى الروح التي تحترق بينها

- والينابيع الفوارة في عمق أعماق خلايانا

- إنني متلهف. إنني أغرق. إنني أهتز نشوة.

- لقد انتهيت![٩٣].

أيمكن أن تكون هذه هي «سهل شيلي»؟ مسكينة ماري، لقد تركها لطفلتها بيرسي وأحلامها فلم تلحظ هذا السيل العرم لفترة. وفي هذه الأثناء تبدد الحلم فتزوجت إيميليا وعدل شيلي عن خطيئته الشجية وراحت ماري تداوي أساها بفهم أمومي.

وعندما سمع بموت كيتس (مات في ٢٣ فبراير ١٨٢١) دفعه هذا للارتقاء بشعره، وربما لم يهتم كثيرا من أجل Endymion لكن «النقد القاسي»[٩٤] الذي حيت به الدورية ربع السنوية Quarterly Review جهود كيتس العظيمة، أغضبت شيلي كثيرا فاستلهم الموزية (إحدى إلاهات الشعر عند اليونان) لتلهمة ترنيمة جنائزية (قصيدة رثاء) مناسبة. وفي ١١ يونيو كتب لناشره في لندن: انتهيت من كتابة قصيدتي أدونيس Adonais وستسلمها حالا. قد لا يتقبلها العامة كثيرا لكنها ربما كانت أفضل أعمالي»[٩٥] وقد اختار شكلاً لهذه القصيدة الشكل الصعب الذي أخذ به الشاعر سبنسر والذي استخدمه مؤخرا جدا مع تحسين في نسق القوافي الشاعر بايرون في قصيدته (رحلة شايلد هارولد) وتعامل شيلي مع قصيدة الرثاء (النص: القداس المقام لراحة الميت) بكل عناية النحات الذي ينحت نصبا تذكاريا لصديق، لكن متطلبات الشكل الشعري الصارم (الوزن والقافية) أعطت لبعض الأبيات الشعرية طابعا مصطنعا[٩٦]. وقد بلغ عدد أبيات القصيدة خمسة وخمسين بيتا (مقطعا). وقد افترضت القصيدة بعجلة أن النقد (الظالم) قتل كيتس، ودعا الشاعر المتفجع أن تحل لعنة كاللعنة التي أصابت قابيل على من طعن هذا الصدر البريء لكن تشريح جثة كيتس أظهر أنه مات بمرض السل الحاد[٩٧]. ورحب شيلي في مقاطعه الشعرية الأخيرة في هذه القصيدة، بأن يموت، ففي الموت راحته لأنه سيلتقي بالميت الحي (المقصود كيتس):

-يبقى الواحد the One، ويتغير كثيرون ويمضون،

- فنور الله Heaven يشرق دائما، وظلال الأرض تطير،

- والحياة كقبة مزدانة بكثير من الزجاج الملون

- تلقي ظلالها على شعاع الأبدية الأبيض فتغير لونه

- حتى يسحقها الموت فيهشمها

- أيها الموت إن كان هذا ما تطلبه

- فلم تتوان ! لم تتراجع ! لم تحزن قلبي ؟

- آمالك ذهبت آنفا ونزعت من كل الأشياء هنا

- لقد غادرتنا (فارقتنا) ولا بد أن تفارق أنت الآن . . .

- إن أدونيس يناديك . آه ! أسرع إلينا

- لا تدع الحياة أكثر من هذا تفرّق ما يمكن أن يجمعه الموت . .

- لقد حملت دكانة وخوفا وبعدا

- بينما روح أدونيس كالنجم

- تهدينا إلى طريق الخالد الباقي . . إلى طريق الله .

وكأنما كان كيتس يجيبه بأبياته الشعرية التي لا تنسى :

- الآن أكثر من أي وقت ، يبدو شيئا نفيسا أن تموت ،

- أن تتوقف أنفاسك في منتصف الليل بلا ألم ،

- بينما أنت تدفع روحك خارجك

- في نشوة ما بعدها نشوة ، وانجذاب يفوق الوصف(٩٨) .

١٢- حب وثورة: بايرون ١٨١٨ - ١٨٢١

احتفظ شيلي بذكريات مختلفة عن بايرون في لقائهما الأخير - طباعه الرقيقة، ومناقشاته الصريحة، وكرمه - ورضاؤه الواضح عن علاقاته الجنسية غير الشرعية بالخليلات والمومسات . « فربما كانت النساء الإيطاليات اللائي كوّن معهن علاقات هن أحط النساء في العالم . . . لقد كان بايرون متآلفاً مع هذا النوع المنحط من النساء اللائي كان مسيّرو جوندولاته (القوارب التي تسير في قنوات البندقية) يلتقطونهنّ له . وكان يسمح للآباء والأمهات بمساومته على بناتهم . . . لكن أعتقد أن شهرته كشاعر كبير ساعدته في

ذلك»[٩٩]. وكان بايرون واعيا بتخليه عن الأخلاق الإنجليزية والذوق الإنجليزي. لقد كانت الأعراف الإنجليزية تجرمه (تعتبره خارجا على العرف والقانون) وقد رفضها هو بدوره. بل انه قال لأحد أصدقائه في سنة ١٨١٩: «إنني مشمئز ومُتّعتُ من الحياة التي وصلت إليها في فينيسيا وسعيد بأن أدير ظهري لها»[١٠٠] وقد نجح بمساعدة تريزا جويشيولي Teresa Guiccioli وصبرها وإخلاصها.

لقد تقابلا للمرة الأولى عند قدومها من رافنا Ravenna إلى البندقية (فينيسيا) في أبريل سنة ١٨١٩ وكانت وقتها في التاسعة عشر من عمرها رقيقة الملامح وجميله وعابثة، تلقت تعليمها في دير، وكانت عاطفية دافئة القلب. وكان زوجها الكونت أليساندرو جويشيولي في الثامنة والخمسين قد تزوج مرتين قبلها وكان منشغلاً بأعماله غالبا. وقد جرى العرف تماما في الطبقة العليا الإيطالية على السماح للمرأة (الزوجة) في هذه الحال باتخاذ رفيق Cavaliere Servente – شخص مهذب في خدمتها يكون تحت إمرتها يثير إعجابها ويسليها ويحرسها وتكافئه بتقبيل يدها أو بما هو أكثر في السر والكتمان إذا كان الزوج مشغولاً أو متعبا. ولم يكن من خطر كبير على الزوجة والرفيق بل إن الزوج في بعض الأحيان كان يقدر مساعدة هذا الرفيق Cavaliere Servente، وربما تعمد أن يتغيب بعض الوقت ليتيح لهما إتمام المراد. وعلى هذا شعرت الكونتيسة بأن من حقها أن تنجذب إلى الوجه الإنجليزي الوسيم ومناقشاته المثيرة وشفتيه الجذابتين، أو على حد قولها في وقت لاحق: «إن ملامحه النبيلة الجميلة الرائعة، ونغمة صوته وطباعه وآلاف الأشياء الساحرة الفاتنة التي تحيط به – جعلته مختلفاً تماما عن كل من رأيتهم ومخلوقاً أسمى بكثير منهم، فكان من المستحيل ألا يفتنني وألا يترك تأثيرا عميقا في نفسي. فمنذ ذلك المساء كنت ألتقى به كل يوم خلال كل فترة إقامتي في البندقية»[١٠١] وانتهت أيام السعادة الطائشة هذه عندما أخذ الكونت زوجته تيريزا وعاد إلى رافنا Ravenna، فأرسل لها بايرون تعهدات بالبقاء على حبه، ففي ٢٢ أبريل سنة ١٨١٩ مثلا أرسل إليها يقول: «أؤكد لك أنك ستظلين حبي الأخير، فقبل أن أعرفك شعرت باهتمام بكثير من النسوة لكنني لم أرتبط بواحدة بعينها. أما الآن فأنا أحبك وليس في حياتي حب آخر لامرأة أخرى سواك» على وفق ما نعلم فقد حفظ عهده.

وفي الأول من يونيو غادر البندقية في عربته النابليونية الثقيلة (المقصود المشيدة على طراز عربة نابليون) متوجها إلى رافنا كسائح يبحث عن آثار دانتي Dante فرحبت به تيريزا، وكان زوجها الكونت لطيفا كيسا، وكتب بايرون إلى أحد أصدقائه: «إنهم يجعلون للحب هنا مساحة كبيرة من وقتهم ولا يشوهون سمعة شخص إلا قليلا»[١٠٢] وسمح له باصطحاب تيريزا إلى الميرا La Mira (إلى الجنوب من البندقية بسبعة أميال) حيث كانت له فيلا هناك، وهناك باشر معها الحب من كل موضع ولم يعقه إصابتها بداء البواسير[١٠٣] وانضمت إليهما أليجرا Allegra في الفيلا فجعلت جو المجموعة محترما. ووصل توم مور واستلم الآن من بايرون مخطوطة كتابه (حياتي ومغامراتي) التي أحدثت كثيرا من الفتن والاضطرابات بعد موت المؤلف. ومن الميرا La Mira أصطحب بايرون، تيريزا إلى البندقية حيث عاشت معه في قصره Palazzo Mocenigo وأتى والدها ليردها إلى جادة الصواب فأخذها معه إلى رافنا ومنع بايرون من الذهاب معها. وعند وصولها إلى رافنا سقطت مريضة، وكان مرضها شديدا لا ادعاء فيه حتى إن زوجها الكونت أسرع باستدعاء عشيقها (بايرون) الذي وصل في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٩ وبعد أن قام ببعض الجولات استقر في الطابق الثالث في قصر الكونت مقابل دفع إيجار. وأحضر معه في مقره الجديد قطتين وستة كلاب وحيوان الغرير badger وصقرا وغرابا مدجنا وقردا وثعلباً. وفي خضم هذه الحياة التي انشغل فيها بأمور مختلفة كتب سطورا كثيرة. في مؤلفه (دون جوان) وبعض مسرحيات عن دوقات (دوجات) البندقية غير قابلة للتمثيل على المسرح (مسرحيات ذهنية) ودراما جيدة عن سردانا بالوس Sardanapalus وفي يوليو سنة ١٨١١ كتب (قابيل: سره Cain, A Mystery) ذلك العمل الذي به أصبح اسمه مكروها تماما، وموضع مقت شديد في إنجلترا.

المشهد الأول في هذا العمل يظهر آدم وحواء، وقابيل (قايين) وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Adah، وهابيل وأخته التي هي زوجته في الوقت نفسه Zillah يستعدون للصلاة وتقديم الأضاحي لله (جيهوفاه أو ياهوفاه Jehovah) ووجه قابيل لوالديه بعض الأسئلة – وهي أسئلة تحير بايرون في مرحلة الدراسة: لم خلق الله الموت؟ إذا كانت حواء قد أكلت من شجرة المعرفة، فلم زرع الله هذه الشجرة المحرمة في مكان ظاهر بجنة عدن؟ ولم

كان طلب المعرفة خطيئة؟ ولماذا أصدر الله قراره بأن يعمل الجميع وأن يصبح الموت مصير الأحياء عقابا على وجبة بسيطة تناولتها حواء؟ وظهر الشيطان (Lucifer (Lightbearer واعتلى خشبة المسرح – كما عند ميلتون – وأعلن نفسه متباهيا واحداً من تلك:

– **الأرواح التي تجاسرت على النظر إلى وجه الطاغية** (يقصد الله سبحانه وتعالى)

– **الذي لا فناء له، ليقول له**

– **إن أفعاله الشريرة غير صالحة.**

وتعود Adah (زوجة قابيل) لتطلب من قابيل الانضمام إلى العمل مع أهله في الحقل، لأنه أهمل ما يخصه من العمل في هذا اليوم وأنها قامت بعمله بدلاً عنه ، وهي تدعوه الآن لقضاء ساعة حب واستحمام. فوبّخها إبليس Lucifer بأن وصف لها الحب بأنه شرك أوطعم للإنجاب والتوالد وتنبأ لها بقرون من الكدح والنضال والمعاناة وبموت ينتظر الجموع التي ستنطلق للوجود من رحمها... وأعد قابيل وهابيل مكانا (مذبحاً) لتقديم الأضحيات، فضحى هابيل بأول قطيعه، وقدم قابيل فاكهة، لكنه بدلا من أن يصلي ويدعو راح يسأل ثانية لم سمح الله بالشر؟ ونزلت نار متألقة من السماء أحرقت حمل هابيل (دليل قبول أضحيته)، وأطاحت ريح غاضبة بأضحية قابيل فألقتها إلى التراب » فغضب وحاول تدمير مذبح (مكان تقديم الأضحية) هابيل فقاومه، فضربه قابيل فمات. ووبخ آدم حواء باعتبارها المصدر الأول للخطيئة فلعنت حواء قابيل لكن Adah (زوجة قابيل) دافعت عنه « لا تلعنيه يا أمي، فهو أخي وزوجي my betrothed» وأمر آدم قابيل أن يرحل عنهم وألا يعود، فلحقت Adah بقابيل وعوقبت بمثل عقابه، ولأن هابيل مات ولم يكن له ولد، فإن كل البشر (كما استنتج بايرون) من ذرية قابيل ويحملون طباعه في غرائزهم، تلك الطباع المتمثلة في العنف والقتل والحرب. ويبدو قابيل مرات عديدة وكأنه طالب ملحد لم يقرأ سفر الجامعة في العهد القديم Ecclesiastes، ومع هذا ترقى هذه الدراما في بعض الأحيان إلى مستوى قريب من كتابات ميلتون القوية. وقد امتدح والتر سكوت هذا العمل، وكان بايرون قد أهداه إليه (كتب اسمه في صفحة الإهداء) وقال جوته (تكتب أيضا جيتة) «لن نرى جمالًا كجمال هذا العمل مرة ثانية في هذا العالم»[١٠٤] ولا شك أنه كان قد فقد منظوره الاولمبي للحظات

عندما قال هذا . أما في إنجلترا فقد أدى نشر هذا العمل إلى موجة من النقد الساخط والرعب . لقد اعتبره الإنجليز قابيل آخر بل اعتبروه قاتلا أسوأ منه – إنه يقتل العقيدة التي حمت آلاف الأجيال وساندتهم . وحذر الناشر مري اللورد بايرون من أنه يفقد بسرعة قراءه . والصورة التي رسمها بايرون لزوجة قابيل المخلصة Adah تقدم برهانا آخر على الجوانب العطوفة في شخصيته، لكن معاملته لأليجرا وأمها تظهر قسوته . فالطفلة التي كانت سعيدة يوما ما بلغت الآن الرابعة من عمرها، وكانت تعسة لبعدها عن والديها، فأرسل بايرون يستدعيها إلى رافنا وحتى عندما أتت لم يستطع إلا بالكاد أن يطلب منها العيش معه ومع مجموعة حيواناته في قصر الرجل الذي أصبح معروفا بسطوته غير المريحة، وبعد تفكير طويل وضعها في دير في باجنا سافالو Bagnacavallo التي تبعد عن رافنا باثني عشر ميلا (في أول مارس ١٨٢١) وهناك سيكون لها – كما افترض – صداقات فتبتعد عن طريقه وتتلقى قدراً من التعليم، ولم يزعجه أن تصبح كاثوليكية بل العكس فقد شعر أنها ستصبح في مأساة إن نشأت بلا دين في إيطاليا، فكل النساء فيها (إيطاليا) كاثوليكيات متمسكات بالكاثوليكية حتى في علاقاتهن غير الشرعية . والأهم من كل هذا فإذا كان لابد للمرء أن يكون مسيحيا فالأفضل أن يسير في الطريق إلى منتهاه فيؤمن بما آمن به الدعاة الأوائل للمسيحية (الرسل Apostles) ويؤمن بالقداس والقديسين (الأولياء) ويصبح كاثوليكيا . لقد كتب في ٣ أبريل سنة ١٨٢١ «إنني أرغب أن تصبح أليجرا من الأروام الكاثوليك فدينهم أفضل الأديان» (المقصود أفضل المذاهب المسيحية)[١٠٥] وعندما أصبحت أليجرا مستعدة للزواج رأى أنها لن تجد صعوبة في الارتباط بالزوج المرتقب، وأنها سيخصص لها مبلغ ٤,٠٠٠ جنيه . وكان هذا ملائما لبايرون، ولكن عندما وصلت هذه الأخبار إلى كلير كليرمونت اعترضت وتأثرت عاطفيا على نحو مثير وطلبت من شيلي أن يعمل على إعادة أليجرا إليها فذهب شيلي إلى رافنا ليرى أحوال أليجرا فاستقبله بايرون في ٦ أغسطس ١٨٢١ بترحاب فكتب شيلي لزوجته «إن اللورد بيرون في أطيب حال وابتهج لرؤياي وقد استعاد صحته تماما ويعيش حياة غير الحياة التي كان يعيشها في البندقية (فينيسيا)[١٠٦]» . وقد أخبره بايرون أن الظروف السياسية سرعان ما ستجبره للانتقال إلى

فلورنسا أو بيزا، وسيأخذ أليجرا معه وستكون - بذلك - قريبة من أمها، ورضي شيلي بذلك، وصرف اهتمامه إلى شيء سيصبح حالا أكثر تأثيرا بالنسبة إليه.

لقد أصابه الرعب (أي شيلي) عندما علم أن المربية إليز Elise - مربية اليجرا - التي كان قد طردها من خدمته في سنة ١٨٢١) قد أخبرت الـ Hoppners أنه كان على علاقة جنسية سرية بأم أليجرا حتى إن كلير قد وضعت له طفلا في فلورنسا وضعه فورا في ملجأ للّقطاء، وأكثر من هذا أن شيلي وكلير كانا يعاملان ماري بطريقة تدعو للخجل ووصل الأمر إلى حد أنه كان يضربها. فكتب الشاعر الذي اعترته الدهشة إلى ماري (في أغسطس) طالبا منها أن تكتب للـ Hoppners مكذبة هذه الأقاويل، فقبلت ماري لكنها أرسلت خطابها إلى شيلي ليوافق على ما ورد به، فأظهره لبايرون وعول عليه في تسليم هذا الخطاب للـ Hoppners واستاء شيلي إذ وجد أن بايرون كان يعلم بهذه الإشاعات وكان - فيما هو واضح - يصدقها. وبدأت الصداقة الشهيرة بينهما تبرد وزاد برودها عندما انتقل بايرون من رافنا إلى بيزا تاركاً أليجرا في ديرها.

هذا التغير كان نتيجة تفاعل الحب والثورة في إهاب واحد. ففي يوليو سنة ١٨٢٠ استصدر والد تيريزا - الكونت رجيرو جامبا Ruggero Gamba من الإدارة البابوية أمراً باباويا (فتوى) بانفصالها عن زوجها مع حصولها على نفقة منه شريطة أن تعيش مع والديها. فانتقلت إلى بيت والديها بناء على هذا، وكان بايرون لايزال يعيش في قصر جويشيولى Guriccioli فأصبح يزور أسرة جامبا Gamba بشكل متتابع، وابتهج لأنه وجد جامبا وابنه بيترو كانا زعيمين في حركة الكاربونارى Carbonari وهي تنظيم سري يعمل على الإطاحة بالحكم النمساوي في شمال إيطاليا والحكم الباباوي في وسطها وحكم البوربون في نابلي لمملكة الصقليتين (جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية) وكان بايرون في (نبوءة دانتي) الصادرة سنة ١٨١٩ قد دعا الشعب الإيطالي أن يهب للتحرر من حكم الهبسبرج والبوربون. وفي سنة ١٨٢٠ شكك الجواسيس النمساويين في أنه يدفع أموالا لشراء أسلحة للكاربوناري، ووضعت ملصقات ملكية في رافنا مطالبة بإعدامه[١٠٧]. وفي ٢٤ فبراير سنة ١٨٢١ فشلت حركة العصيان المسلح التي قام بها الكاربوناري وهرب قادتها

من المناطق الإيطالية الخاضعة للبوربون. وذهب الكونت جامبا وابنه إلى بيزا وسرعان مالحقت بهما تيريزا بناء على نصيحة بايرون، وفي الأول من نوفمبر سنة ١٨٢١ وصل بايرون إلى بيزا واستقر في الكازا لا نفرانشي the Casa Lanfranchi في الأرنو the Arno حيث كان شيلي قد استأجر بالفعل غرفا لاستقباله. والآن سيأتي المحك الأخير لصداقتهما.

١٢ ـ التباين

لقد كان كل من الشاعرين قد وصل الآن إلى ذروة تطوره. لقد كان على الأكبر سنا منهما أن ينظم بعض القصائد في عمله (دون جوان) التي اشتملت على عداء مرير لإنجلترا، عداء لم يكن حتى الغاليون (الفرنسيون) يستسيغونه. وكان علمه The vision of Judgment (اكتوبر ١٨٢١) يمثل هجاء لا يرحم لكن سبق سوثي (صثي Southey) بعمله A vision of Judgment (أبريل ١٨٢١) قد حرض على الثأر منه (من بايرون) بإطلاق زعيم المدرسة الشيطانية في الشعر الإنجليزي عليه (على بايرون) وقد هوى عليه بايرون بنقده الماهر الساخر. وفي مؤلفاته الأخيرة هذه ابتعد بايرون عن روح (شايلد هارولد) الرومانسية والانقباض والمرارة، ليتخذ موقفاً أكثر كلاسية متجها نحو العقل والمنطق وروح الفكاهة، وإن كان لايزال ينقصه الاعتدال. وتظهر خطاباته - خاصة تلك التي أرسلها إلى الناشر مري - نضجاً أكثر لأنها تحتوي على نقد ساخر ينطوي على نقد ذاتي وتفحص لأعماله كما لو أنه اكتشف أن التواضع يفتح الباب للحكمة. لقد كان متواضعا فيما يتعلق بشعره «إنني أضع الشعر أو الشعراء في مرتبة فكرية سامية. وقد يبدو هذا انحيازا لكنه رأيي الحقيقي... إنني أفضل المواهب العملية - مواهب الحرب في مجلس الشيوخ أو حتى في مجال العلم - فتلك أفضل من تأملات الحالمين الذين لا يملكون إلا الحلم[١٠٨]». وقد امتدح شيلي إنساناً لكنه فكر كثيرا في شعره كفانتازيا طفولية Childish fantasy. وكان تواقا لتقييمه كإنسان أكثر من تقويمة شاعراً، وكان واعيا - بشكل مؤلم - بمظهره، وكان يفضل الركوب على المشي لأن إصابة قدمه اليمنى كانت تصرف النظر عن وجهه الوسيم، وكان موقفه من الطعام متذبذبا متغيراً فطورا يفرط في الطعام وطورا يقوم بحمية، ففي سنة

١٨٠٨ كان وزنه ١٩٤ رطلا (وطوله خمس أقدام وثماني بوصات ونصف البوصة)، وفي سنة ١٨١٢ تدنى وزنه ليصبح ١٢٧رطلا وفي سنة ١٨١٨ أصبح سمينا وبلغ وزنه ٢٠٢رطلا. وكان فخورا بإنجازاته الجنسية وكان يرسل تقارير إحصائية بعدد هذه الإنجازات لأصدقائه. وكان عاطفيا وغالبا ما يفلت زمام مشاعره منه. وكان متألقا من الناحية العقلية لكنه لم يكن مستقرا. قال جوته (جيته) «في لحظة من اللحظات يصبح بايرون طفلا[١٠٩]».

أما من الناحية الدينية فقد بدأ كلفنياً (من أتباع مذهب كلفن البروتستنتي) ففي عمله [شايلد هارولد] تحدث عن البابوية كبرتستنطي متحمس باعتبارها (زانية بابلية)[١١٠] وفي سني العشرين قرأ الفلسفة فأحب سبينوزا وفضل عليه هيوم وأعلن «أنا لا أنكر شيئا لكنني أتشكك في كل شيء»[١١١] وفي سنة ١٨١١ كتب إليه صديق من مذهب مسيحي يقال له مذهب المهتدين: «أنا لا أدري ماذا أفعل بالخلود الذي تقول عنه». وبعد ذلك بعشر سنوات كتب: «أعتقد أنني لا أشك كثيرا في خلود الروح[١١٢]» وفي إيطاليا تأثر بمن حوله وما حوله وبدأ يفكر في الكاثوليكية، وعندما حضر صلاة التجسد (أو صلاة التبشير) تطلع إلى حالة السلام (الصفاء) التي بدت للحظات تخيم على حياة أهل إيطاليا جميعا، وكتب «طالما تمنيت أن أكون قد ولدت كاثوليكيا[١١٣]» وفي أواخر حياته (١٨٢٣) راح يتحدث - كما كان يتحدث في صباه - عن الله، وعن القضاء والقدر وكون الإنسان لا يملك من أمره شيئا[١١٤]. وعندما كان في مرحلة المراهقة فقد عقيدته الدينية ولم يجد قيما ومعنويات يرتمي في أحضانها في أدب أو فلسفة وبالتالي لم يجد وازعا يقاوم حواسه وعواطفه ورغباته، وكان عقله المتحرر وفكره المتقلب يجدان أسبابا حافزة للاستسلام لرغباته ولم تتكشف له فحوى حكمة القيود التي فرضها المجتمع. ومن الظاهر أنه كبح ميوله للشذوذ الجنسي وعوضّ منها بالصداقات الحميمة المخلصة بل لقد استسلم لمفاتن أخته، وفي ديوانه (شايلد هارولد) يخبرنا بجسارة عن حبه:

- لواحدة ذات صدر ناهد

- ارتبط صدره بصدرها برباط أقوى

- من الارتباط بالكنيسة (أو أقوى من رباط تعقده الكنيسة)(١١٥)

وعندما أدانه المجتمع الإنجليزي لإطلاقه العنان لشهواته أو لفشله في إخفائها، أعلن الحرب على « النفاق الإنجليزي » أو بعبارة أخرى تظاهر الإنجليز بالفضيلة، وراح يهجو الطبقات العليا المكونة من قبيلتين قويتين(*) » وأدان استغلال أصحاب المصانع للعمال، بل ودعا أحيانا للثورة:

- «يحمي الله الملك» والملوك

- لأنه إن لم يفعل، أشك أن يستمر البشر !

- أظن أنني أسمع طائرا صغيرا يغني قائلا:

- سيغدو الشعب - عما قريب - أقوى..

- وكذا سواد الناس

- الكل أخيرا سيتخلى عن العمل الزائف..

- سأقول سعيدا: ياللتعاسة !

- إذا لم أدرك هذه الثورة

- فيمكنني وحدي أن أنقذ العالم من دنس جهنم(١١٦).

وعلى أية حال فإنه لم يكن ميالاً للديموقراطية فلم يكن يثق في الجماهير وكان يخشى أن تؤدي الثورة إلى دكتاتورية أسوأ من دكتاتورية الملك أو البرلمان. وكان يرى بعض المزايا في حكم الأرستقراطيين بالمولد ويتطلع إلى أرستقراطية نظيفة عاقلة مدربة تتسم بالكفاءة. فلم ينس أنه هو نفسه لورد فسرعان ما عارض رفع الكلفة والمساواة فقد كان يعرف أن وجود مسافة أو حدود في العلاقات الاجتماعية يُضفى سحراً عليها. وتغيرت نظرته لنابليون مع مرور الأحداث مادام نابليون قد توج نفسه إمبراطورا وسلّح نفسه بالألقاب فقد رآه بايرون خير صيغة وسطية بين الملوك والجماهير. لقد كان بايرون يدعو أن ينتصر نابليون على كل ملوك أوربا حتى عندما كان نابليون يغزو إسبانيا وروسيا دون مبرر واضح، وقد وبخ

(*) «هما the Bores & Bored».

الإمبراطور المهزوم (نابليون) لتنازله عن العرش بدلاً من أن ينتحر لكن عندما عاد نابليون من إلبا Elba عاد الشاعر (بايرون) يدعو له بالنصر ثانية على كل أعدائه المتحالفين ضده . وبعد ست سنوات عندما سمع بموت نابليون حزن حزنا شديدا «لقد كانت الإطاحة به سهما أصاب رأسي فمنذ مات أصبحنا عبيداً للأغبياء(١١٧) » .

لقد كان بايرون خليطا مربكا من الأخطاء والفضائل، ففي حال غضبه يصبح فظا قاسيا، وفي أحواله العادية نجده ودودا متحفظا كريما . لقد كان يعطي أصدقاءه بكرم غير محسوب، فقد نقل إلى روبرت دالاس حق نشر (حق المؤلف في النشر) وكان هذا الحق يساوي ألف جنيه، ودفع ألف أخرى لفرانسيس هودجسون فأنقذه بذلك من الإفلاس، ووصفته تيريزا جويشيولي التي كانت تراه تقريبا كل يوم بأنه ملك (بفتح اللام) حقيقي(١١٨) . لقد كان - أكثر من كولردج بكثير - « كبير ملائكة محطم » يحمل في جسمه ميراثا من الصدوع، وضحها وكان خلاصه منها بالجرأة وكتابة الشعر بوفرة وقوة الفكر الثوري مما دفع جوته العجوز إلى وصفه بأنه « أعظم عبقرية أدبية في قرننا » .

وبالمقارنة فقد كان شيلي « ملكا (بفتح اللام) غير مؤثر » ذا طابع تاريخي، لكننا لانستطيع أن نقول إنه غير مؤثر تماما فمن هو القائل إن أوراق الشجر ستتبعثر عند تجسد أشعاره . لم يضع بعض البذور لتنمو في جو التسامح الديني وتحرر المرأة وانتصار العلم وقيام التكنولوجيا وتألق الفلسفة وامتداد الحقوق الدستورية وإصلاح البرلمان مما جعل القرن التاسع عشر « قرنا مدهشا »؟(١١٩)

وكان شيلي ملكا (بفتح اللام) بشريا تماما، فقد كان له جسد استسلم لطلباته على الأقل من خلال إغوائه زوجتين على الهروب معه، دعنا من الحديث عن إيميليا فيفاني . لقد كان نحيلا معتل الجسد، يعاني ألما دائما في ظهره . وكان بطبيعة الحال مفرط الحساسية - ربما أكثر من بايرون - للمثيرات الداخلية والخارجية فلنتذكر خطابه المؤرخ في ١٦ يناير ١٨٢١ لكلير كليرمونت : « أنت تسألينني أين أجد المتعة؟ إن الريح والنور والهواء ورائحة الورد تؤثر في وتثير عواطفي(١٢٠) » وكان مثلنا جميعا معجباً بنفسه على نحو خاص . لقد اعترف لجودون (٢٨ يناير ١٨١٢) « يبدو أن إفراطي في الأنا لاينضب له معين(١٢١) »

وعندما أخذ ماري جودون، وطلب من زوجتة هاريت أن تصبح علاقته بها مجرد علاقة الأخ بأخته، فإنه كان يبحث عن إرضاء شهواته مثله في ذلك مثل أي كائن معرض للموت، وبرر الأمر لنفسه بأن هاريت أقل من ماري اتفاقا معه في فلسفته وأفكاره. وكان له رأي متواضع في شعره (لم يكن شاعراً مغرورا) إذ كان يصنف أشعاره في رتبة أدنى من أشعار بايرون. وكان مخلصاً متحفظا في صداقته إلى النهاية. لقد كتب بايرون مخبرا الناشر مري بوفاة شيلي «لقد كنتم جميعا قساة ومخطئين في حق شيلي، فقد كان – بلا استثناء – أقل من عرفت أنانية أو بعبارة أخرى أفضل الأنانيين الذين عرفتهم. إنني لم أعرفه بهيمة ترتدي ثياب البشر مقارنة بالآخرين[١٢٢]» وذكرهوج Hogg الشاعر بأنه غريب الأطوار ينسى واجباته ووعوده، يستغرق في التأمل والتفكير فينسي الزمان والمكان[١٢٣]». وهو بشكل عام غير عملي لكن ليس من السهل خداعه في أمور المال، ولم يتخل عن حقوقه الموروثه قبل نضال شديد.

وكان متوتر الأعصاب شديد الاستثارة مما يحول بينه وبين أن يكون مفكراً هادئا، وكانت تنقصه روح الفكاهة عند مناقشة أفكاره، وكان مغرماً دوماً بالخيال، فكان يهرب من الواقع إلى أحلام اليقظة. لقد اقترح أن نتخلص من الملوك والمحامين ورجال الدين، وأن نتحول إلى الحياة النباتية – مكتفين بتناول النباتات ممتنعين عن تناول اللحوم، كما كان يدعو لتخليص العلاقات الجنسية للبشر من كل القيود. إنه يرى أن كل هذه الأمور والقيود طارئة ليس لها أساس في طبيعة الإنسان ولا في ماضيه البيولوجي. لقد قالت أرملته المخلصة «كان شيلي يعتقد أن البشر لا يجب أن يتطلعوا إلا للقضاء على الشر... لقد احتفى بهذا الرأي احتفاء بالغا[١٢٤]». وكاد يهمل التاريخ إلا أنه كان يرى الإغريق مثاليين ولكنه كان يجهل أن الأغريق مارسوا الاسترقاق

ونحن نميل إلى المبالغة في بساطة شيلي لأننا ننسى أن الموت عاجله فلم يتركه يعيش حتى مرحلة النضج – لقد عرفنا بايرون وشيلي وهما لما يصلا بعد إلى مرحلة النضج فوصلا إلى قلوبنا كشاعرين رومانسيين كانا مفيدين جدا للحركة الرومانسية في إنجلترا، أما لو أنهما عاشا حتى الستين لكان من المحتمل أن يكونوا مواطنين محافظين، وفي هذه الحال ربما

كانت مكانتهما في التاريخ أكثر تواضعا، لكن موتهما المبكر جعلهما علمين في عالم الرومانسية.

إلا أن شيلي كان حقيقة قد أصبح بالفعل وهو في الثامنة والعشرين معتدلا، ففي سنة ١٨٢٠ كتب مقالاً جوهريا بعنوان «نظرة فلسفية للاصلاح» نشره بعد كتابته بعام، أعلن فيه أن «الشعراء الفلاسفة هم مشرعو العالم غير المعترف بهم[١٢٥]». الشعراء لأنهم صوت الخيال يأتون بأفكار جديدة تدحض كثيرا من السخافات السائدة، وهذه الأفكار الجديدة تثير في وقت من الأوقات الناس وتحفزهم إلى التجربة والتقدم. والفلاسفة لأنهم يخضعون القضايا الاجتماعية للفكر العقلي الهادئ، وينظرون إليها بمنظور السنين. وكان شيلي – مثله في ذلك مثل بايرون والإنسانيين – ساخطا لأحوال العمال في مصانع إنجلترا، كما كان مستاء من «البرود» الذي تعامل به مالتوس في كتاباته مع مشكلة السكان وطريقة ضبطها بينما (أي مالتوس) ترك الأجور ليحكمها قانون العرض والطلب[١٢٦]. وأدان البروتستنطية والكاثوليكية معا لفشلهما في إضفاء روح المسيح على العلاقة بين الأغنياء والفقراء[١٢٧]. واقترح فرض ضريبة على الأثرياء لسداد الدين الوطني الذي تتطلب فوائده السنوية الباهظة فرض ضرائب ثقيلة على العامة[١٢٨]. وأشار إلى أن زيادة السكان فيما بين ١٦٨٩ و ١٨١٩ قد أخل بالتناسب بين المصوتين Voters وغير المصوتين مما جعل انتخاب أعضاء البرلمان قاصرا على أقلية صغيرة، وهذا يعني من الناحية العملية حرمان الشعب من حق الاقتراع[١٢٩]. وقد غفر لأرستقراطية ملاك الأراضي لأنها تجذرت بمرور الزمن وأصبحت راسخة من الناحية القانونية (ربما بالنظر إلى مستقبل آل شيلي) وكان يبارك انتقال الثروة بطرق معتدلة، لكنه كان يحتقر البلوتوقراسية (حكم طبقة الأثرياء) ممثلة في التجار وأصحاب المصانع والماليين[١٣٠]. وامتعض من آراء مكيافيلي التي تعفي الحكومة من الالتزام بالأخلاق: «فالسياسات في الواقع هي أخلاق الأمم[١٣١]» ودافع عن الثورة الفرنسية وامتدح حكومة نابليون القنصلية وتبرأ من نابليون عندما توج نفسه إمبراطورا وحزن لهزيمة فرنسا في واترلو[١٣٢].

ولم يجد كتاب شيلي (دفاع عن الشعر) الذي كتبه سنة ١٨٢١ ناشرا حتى سنة

١٨٤٠ . وهنا وجدنا الشاعر «الذي نفى نفسه» الآن يسقط الفلاسفة، ويعلي من شأن الشعراء باعتبارهم «مشرعي العالم الأكثرين رقيا[١٣٣] . ولقد عبر عن رأيه هذا الذي اطمأن إليه في مقدمة (بروميثيوس المنطلق) : «كتاب عصرنا العظماء هم الذين يواكبون (أويسبقون إلى) بعض التغيرات التي لا يمكن تصورها في نظامنا الاجتماعي أو في الأفكار والآراء المرتبطة به . إن لدينا أسبابا معقولة لقولنا هذا . فسحابة العقل تفرغ ضياءها المتجمع . والتوازن بين المؤسسات institutions والآراء» . يعود الآن أو لنقل إنه على وشك العودة[١٣٤]» . لكنه عاد الآن ليضيف : «سيكون عصرنا عصراً خالدا بسبب إنجازاته الفكرية، فنحن نعيش وسط فلاسفة على شاكلة كانط وفيتشة وهيجل وشلنج وجودون وشعراء من أمثال جوته (جتية) وشيلر، ووردزورث، وكولردج وبايرون وشيلي فاقوا كل من تقدموامنذ النضال الوطني الأخير للمطالبة بالحريات المدنية والتحرر الديني» . (١٦٤٢)[*][١٣٥] .

وعلى النقيض من ذلك وجدنا شيلي يقلل من شأن دور العلم في إعادة تشكيل الأفكار والمؤسسات، وكان العلم قد بدأ بالفعل في تحقيق دوره في هذا المجال . لقد حذر من ترك التقدم العلمي يسبق التطور الأدبي والفلسفي - فالعلم ليس أكثر من أداة لتحسين أدواتنا tools بينما التطور الأدبي والفلسفة هو غايتنا[١٣٦] . وإلا زاد ثراء الأقلية الماهرة وأدى ذلك إلى زيادة تركز الثروة والسلطة[١٣٧] .

لقد انتقل استياء شيلي من أمور حميه المالية إلى فلسفة جودون . وقد استكشف شيلي كتابات أفلاطون من جديد (كان قد ترجم جانبا من حواراته) وانتقل من الاتجاه الطبيعي إلى التفسير الروحي للطبيعة والحياة . إنه الآن يشك في هيمنة العقل وقدرته المطلقة وفقد حماسه للإلحاد . وكلما اقترب من سن الثلاثين . وجدناه يتوقف عن مهاجمة الأمور الغيبية في الدين . إنه الآن يفكر في أن الطبيعة هي الشكل الخارجي أو الظاهري لروح (جوهر) داخلي، وتفكيره على هذا النحو يشبه كثيرا تفكير وردزورث الشاب (في هذه النقطة) . ولابد أن يكون هناك نوع من الخلود فالقوة الحيوية (الروح) في الفرد تنتقل بعد موته إلى

(*) كذا بالنص ولعلها ١٨٤٢ .

شكل أو كيان آخر لكنها لاتموت[١٣٨]».

١٤- نشيد بيزا: ١٨٢١ - ١٨٢٢

عندما وصل بايرون إلى بيزا كان قد تجاوز تاريخه الجنسي بالكاد منذ فترة، فيما عدا ذكرياته المثالية كما في أبياته العرضية (التي أدرجها بين نشيدين) في (دون جوان). وفي بيزا كانت تيريزا جويشيولي تعيش مع بايرون لكن المودة بينهما كانت قد قلت. كان يقضي معظم وقته مع أصدقائه وأصدقاء شيلي وكان يرتب لهم وجبة غداء أسبوعيا، وكانت المناقشات تجري حرة في هذه الأثناء، وكان شيلي يحضر ويجلس مهذبا لكنه كان حاسماً في سوق حججه، وكان ينسحب قبل أن يبدأ تناول الخمور شديدة التأثير. وحاولت تيريزا أن تعطي لحياتها الهادئة روحا بصداقتها لماري شيلر، وبقراءة التاريخ لتجاري ماري في اهتماماتها. ولم يكن بايرون موافقا على دراسة تيريزا للتاريخ مفضلاً أن تكون المرأة جذابة وفاتنة وأن تكون عقلها تابعها لهذه الجاذبية وتلك الفتنة أو بتعبير آخر أن يكون عقلها في المحل الثاني. وكان ينسى أليجا. ودبرت أمها مع ماري شيلي الذهاب إلى فلورنسا ليدبر ثلاثتهم خطة للذهاب إلى رافنا لإبعاد الفتاة وإحضارها لتعيش في مناخ أفضل للصحة، ولتعيش حياة أرحب. ورفض شيلي السماح بهذا، وأتت بعد ذلك أخبار مفادها أنه في ٢٠ أبريل سنة ١٨٢٢ ماتت في الدير بالملاريا وهي في الخامسة من عمرها. وكان لهذا الخبر أثره في فتور العلاقة بين شيلي وبايرون. وفي بواكير هذا الربيع كتب إلى لاي هنت Leig Hunt : «ثمة ميول خاصة في شخصية اللورد بايرون تحول دون الاقتراب منه والتودد معه، وهو ما وجدت نفسي أعاني منه .. فهو أمر لا يحتمل. يا صديقي العزيز هذا ما أعترف به وأفضي به إليك، ثقة مني فيك»[١٣٩].

لقد حاول أن يخفي استياءه لأنه كان قد حث بايرون على دعوة هنت إلى بيزا لتحرير مجلة جديدة (الليبرالى- Liberal) التي خطط بايرون وشيلي أن يبدآ بها كشعبة أو فرع من المستخلص ربع السنوي Quarterly المحافظة. وأرسل بايرون إلى هنت المفلس ٢٥٠ جنيها فأبحر مع أسرته من لندن آملا أن يصل جنوة في أول يوليو سنة ١٨٢٢ ووعد شيلي بلقائه هناك.

ومن الناحية الظاهرية كانت الشهور الستة الأولى من هذا العام الحاسم فترة سعيدة

للشاعرين. فقد كانا يذهبان راكبين كل يوم تقريبا إلى نادي الرماية ليجربا براعتهما في إصابة الهدف. وكاد شيلي يضارع بايرون في هذا المجال. لقد كتب إلى بيكوك «إن صحتي تحسنت، ومشاغلي قلت، ورغم أن شيئا لن يعالج مشكلة تضاؤل أموالي فإن جيوبي تبدو كجيوب الأثرياء دائما خاوية، لكن أموالهم لاتنفد تماما[١٤٠]» وفي يناير توفيت زوجة والد بايرون فتركته (رغم انفصاله عن زوجه) وقد أضافت إلى دخله السنوي ثلاثة آلاف جنيه، فأمر - سعيدا - ببناء يخت مناسب في جنوة وعين جون تريلاوني قائداً له وأطلق على يخته هذا اسم بوليفار احتفاء بثائر أمريكا الجنوبية ودعا شيلي وصديقيه الجديدين إدوارد ويليمز وتوماس مِدْوِن للانضمام إليه مع آل جامبا في رحلة باليخت في الصيف القادم. وشارك شيلي وويليمز بقارب أصغر طوله ٤٨ قدما وأقصى عرض له ثماني أقدام وكانت تكلفته ثمانين جنيها وأطلق عليه تريلاوني اسم (دون جوان) إلا أن ماري غيرت اسمه إلى (إريل Ariel)[١٤١].

وفي انتظار حلول الصيف للقيام بالرحلة، أقام بايرون في هذه الأثناء بفيلا دوبوي Dupuy بالقرب من يجورن (جنوة) واستأجر شيلي وويليامز لأسرتيهما الكازا ماجني Casa Magni بالقرب من ليريسي Lerice على ساحل خليج سبتسيا (سبيزيا Spezia) إلى شمال جنوه بأربعين ميلاً. وفي ٢٦ أبريل ١٨٢٢ انتقل شيلي وويليامز إلى المقر الجديد (الكازا ماجني) وراحا ينتظران تسلم القارب (الجديد).

١٥- تضحية: شيلي، ١٨٢٢

شيء من نزوات الشعراء هو الذي أملى اختيار هذا المكان الموحش لقضاء إجازة فيه. لقد كان الكازا ماجني Casa Magni واسعا جدا بالنسبة إلى أسرتين كما أنه لم يكن مؤثثا، وكان قديما يقترب منَ الانهيار. وكانت الغابة تحيطه من ثلاث جهات، أما واجهته فكانت تطل على البحر الذي كان يقذف بأمواجه أحيانا إلى أبوابه. وقد راحت ماري شيلي تتذكر فيما بعد قائلة: «لقد احتفت بنا الرياح الهوجاء والعواصف عند وصولنا، وكان أهل المنطقة أكثر وحشة من المكان. وبمجرد أن ارتطمت سفينتنا بجزيرة البحار السبعة حتى كدنا نشعر

أننا أبعد ما نكون عن الراحة والحضارة[١٤٢]».

وفي ١٢ مايو وصل القارب أريل Ariel من جنوه، فابتهج ويليامز الذي سبق له العمل في البحرية، وابتهج شيلي الذي لم يكن يجيد السباحة، وراحا يقضيان كثيرا من الفترات بعد الظهيرة أو في الماء وهما يبحران على طول الساحل. وقلما كان شيلي في أي وقت مضى سعيدا بمثل هذه السعادة الفائقة. وكانت النسوة أحيانا ينضممن إليهما في نزهاتهما هذه، لكن ماري أصبحت حاملاً مرة أخرى وكان المرض يعاودها ولم تكن سعيدة لأن زوجها لم يتركها تقرأ خطابات أبيها الحزينة[١٤٣]».

وقد كتب شيلي في المنزل أو القارب قصيدته الأخيرة «انتصار الحياة» التي توقف فيها عند البيت رقم ٥٤٤ بسبب رحلته الأخيرة. ولم يكن هناك انتصار في هذه الرحلة لأنها تصف مواكب الأجناس البشرية المختلفة في طريقها للفشل والانحطاط مسرعة إلى الموت. وفي البيت رقم ٨٢ نجد تأثير روسو، فالشاعر هنا يتعرض لغباء الحضارة، فهو يظهر مشاهير التاريخ -- أفلاطون وقيصر وقسطنطين وفولتير ونابليون -- وقد وقعوا في أحابيل الاندفاع المجنون نفسه نحو الثروة والسلطة، ويوصي بالعودة إلى الحياة الطبيعية البسيطة، ولا يجد خلاصا للبشر إلا بذلك.

لم يكن شيلي قد بلغ الثلاثين بعدما فكر في الانتحار في ١٨ يونيو سنة ١٨٢٢. لقد كتب إلى تريلاوني:

«أيمكنك أن تقابل أي عالم يستطيع أن يحضر حامض البروسيك أو خلاصة زيت اللوز المر.. سأعتبر ذلك فضلاً كبيرا إن أنت وفرت لي قدرا قليلا من هاتين المادتين.... إنني سأدفع أي مبلغ مطلوب مقابل هذا الدواء.. لست في حاجة لأن أخبرك أنني لا أنوي الانتحار في الوقت الحاضر لكنني أعترف لك أنني سأكون مرتاحا إذا ما امتلكت المفتاح الذهبي لغرفة أرتاح فيها راحة أبدية[١٤٤]».

وربما رغبة منه (شيلي) في مساعدة زوجته المريضة -- دعا كلير كليرمونت أن تأتي من فلورنسا لقضاء الصيف في الكازاماجني، وبالفعل أتت في أوائل شهر يونيو وكان هذا وقتا مناسبا لمساعدة ماري في عملية الإجهاض المهلكة. وفي ٢٢ يونيو كان شيلي على وشك

الانهيار العصبي وكان يعاني كوابيس مرعبة جدا حتى إنه كان يهب فزعا ويجري من غرفته إلى ماري وهو يصرخ. وفي أول شهريوليو وصلتهم الأخبار أن لاي هنت وأسرته قد وصلوا إلى جنوه وأنهم يستعدون لمغادرتها بقارب نقل للانضمام إلى بايرون. وكان شيلي تواقا للترحيب بصديقه المخلص، ولتيسير استقبال بايرون له (لهنت) ولتدعيم شريكه الذي تضاءلت مصالحه في إصدار مجلتهما الجديدة، فقرر أن يبحر فجأة مع ويليامز في القارب أريل Ariel إلى ليجورن.. وكانت ماري قد أرهصت بالكارثة (حدثها قلبها أن كارثة ستقع) «لقد طلبت منه ألايقوم بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث.. ورحت أصرخ بمرارة عندما ذهب(١٤٥)» وغادر القارب أريل (كازا ماجني) في ظهر الأول من يوليو ووصل ليجورن بأمان في التاسعة مساء. وحيّا شيلي صديقه هنت بسعادة وفرح لكنه أصيب بالإحباط عندما علم أن السلطات التسكانية قد أمرت آل جامبا Gambas بمغادرة البلاد فورا وأن بايرون الذي قرر أن يلحق بتيريزا كان يخطط لمغادرة ليجورن حالاً ليلحق بها في جنوا. ومع هذا وافق بايرون على الاحتفاء باتفاقيته مع هنت وخصص له ولأسرته غرفاً في الكازا لانفرانشي Casa Lanfranchi في بيزا pisa، فصحبهم شيلي إلى بيزا فلما اطمأن إلى مقامهم عاد إلى ليجورن في السابع من يوليو. وقضى صباح الأحد الموافق ٨ يوليو في شراء مستلزمات أسرته في كازا ماجني. وحثه ويليامز على الإسراع لانتهاز فرصة الرياح المناسبة إلى ليريسي Lerici، وكان قائد السفينة (البوليفار) قد تنبأ بهبوب عاصفة بعد ظهر هذا اليوم ونصح بتأخير الإبحار يوما، إلا أن وليم كان يلح على الإبحار حالا، فوافق شيلي وفي نحو الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر أبحر القارب أريل Ariel من ليجورن وعلى متنه شيلي وويليامز وبحار شاب هو شارلز فيفان.

وفي نحو السادسة والنصف من هذا اليوم هبت عاصفة عنيفة مصحوبة برعد ومطر على خليج سبيريا Spezia فهرعت مئات السفن والقوارب إلى داخل الميناء. وفي كازا ماجني كانت العاصفة قاسية جدا حتى إن النسوة الثلاث مكثن قلقات يعزين أنفسهن قائلات إن الزوجين لم يبحرا في هذه العاصفة وإنهما في أمان في ليجورن. ومضى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس. وراحت ماري في وقت لاحق تتذكر ما حدث: «إن الكرب الحقيقي

الذي عانيناه في هذه اللحظات يفوق كل كرب وصفته والقصص والروايات، فمهما ذهب الخيال لايمكن أن يعبر عن حالتنا تلك، فعزلتنا، وطبيعة السكان الفظة في القرية المجاورة ومجاورتنا للبحر الهائج، كل ذلك تضافر معاً ليبعث فينا رعبا غريبا(١٤٦)» وفي يوم الجمعة وصل خطاب من هنت إلى شيلي يضم سطورا جلبت مزيدا من الرعب إلى قلوب المرأتين المنتظرتين: «أخبرنا كيف وصلت منزلك لأنهم قالوا إن الطقس لم يكن مناسبا بعد إبحارك ونحن قلقون». وركبت جين ويليامز وماري طوال النهار ليصلا إلى بيزا. وفي منتصف الليل وصلتا إلى كازا لانفرانشي، فوجدتا بايرون وهنت هناك فأكدا لهما أن شيلي وويليامز غادرا ليجورن يوم الأحد، فركبا ليلا ووصلا ليجورن في الساعة الثانية صباح السبت ١٣ يوليو، وهناك حاول تريلاوني وروبرتز تهدئتهما بقولهما إن الأمواج ربما تكون قد أزاحت القارب إلى إلبا أو كورسيكا. وعهد بايرون إلى روبرتز بركوب (البوليفار) للبحث في البحر وعند السواحل بين ليجورن وليريسي Lerici، وصحب تريلاوني كلا من جين وماري وفي بحث غير مجد على طول الساحل بحثا عن أخبار عن الرجلين المفقودين ومكث مع المرأتين المنتحبتين في كازا ماجني حتى ١٨ يوليو، ثم فارقهما لإجراء مزيد من التحريات. وفي ١٩ يوليو عاد إليهما وأخبرهما بكل ما في جعبته من لطف أن جثتي زوجيهما قد عثر عليهما بالقرب من فيارجيو Viareggio في ١٧ أو ١٨ يوليو. (وفي ٣٠ يوليو تم العثور على جثة شارلز فيفان مشوهة على بعد أربعة أميال إلى الشمال وتم دفنها على الساحل) واصطحب ماري وجين إلى بيزا وعرض عليهما بايرون الإقامة في كازا لانفرانشي لكنهما استأجرا غرفا بالقرب منه. وكتبت ماري إلى إحدى صديقاتها «إن لورد بايرون رفيق جدا بي، وغالبا ما يأتي مع جويشيولي لرؤيتنا(١٤٧)».

وكان أهالي المنطقة قد دفنوا بالفعل الجثث في الرمال وقانون تسكانيا يمنع نقل الجثث التي تم دفنها لإعادة دفنها من جديد في مكان آخر، لكن تريلاوني كان يعلم رغبة زوجة شيلي في دفن رفات زوجها بالقرب من رفاة ابنه وليم في روما، فحث سلطات تسكانيا للسماح بإخراج رفاته على أن يتم حرقها على الساحل، وكانت جثة شيلي وصديقه قد تعفنتا أو تآكلتا فصعب تعرفهما، إلا أنهم وجدوا في أحد جيوب معطف أحدهما مجلدا

لسوفوكليس وفي الجيب الآخر مجلداً لكيتس Keats[١٤٨].

وفي ١٥ أغسطس، وقف هنت، وتريلاونى مع مسؤول الحجر الصحي، والكابتن شنلي Shenley وهو ضابط إنجليزي بينما تولت مجموعة من الجنود إحراق بقايا ويليامز. وفي اليوم التالي تم النبش عن رفاة شيلي وتم إحراقه في حضور بايرون، وهنت وتريلاوني وبعض الفلاحين المجاورين، وقذف تريلاوني في اللهيب المشتعل في الرفات عطورا ونبيذا وزيتا وراح يترنم ببعض الدعوات طالبا أن يعود رماده إلى الطبيعة التي عبدها[١٤٩]. ولم يطق بايرون تحمل المشهد إلى نهايته فسبح إلى (البوليفار) وبعد ثلاث ساعات تقريباً كان كل الجسد [الرفات] قد أصبح رمادا خلا القلب، فانتزعه تريلاوني من النار معرضا يده للإصابة بالحروق. وتم نقل رماد الرفات في سلة إلى روما، وتم دفنها في مقبرة جديدة بالقرب من مقبرة قديمة للبروتستنط تضم رفات ابنه وليم. أما قلب شيلي فقدمه تريلاوني لهنت الذي قدمه بدوره لماري، وعند موتها في سنة ١٨٥١ تم العثور على رماد القلب في نسختها من كتاب أدونيس Adonaïs.

١٦- التجلي: بايرون: ١٨٢٢ - ١٨٢٤

في سبتمبر ١٨٢٢ انطلق بايرون وآل جمبا Gambas من بيزا إلى ألبارو Albaro إحدى ضواحي جنوا. لقد أرهق بايرون بدنه وعقله منذ غادر إنجلترا، فبدأ يضجر حتى من حب تيريزا غير المضجر. لقد أزاحت عيناه الحادثان وروحه الساخرة ما على وجه الحياة من حجاب ويظهر أنه لم يترك حقيقة تحفزه على الإخلاص والمثالية. لقد كان أشهر شاعر على قيد الحياة لكنه لم يكن معتزا بشعره فالآلام المحمومة التي ظهرت في عمله (شايلد هارولد) بدت الآن تنم عن جبن، والملاحظات الساخرة في (دون جوان) تركت المؤلف والقارئ وقد خاب أملهما وتحررا من الوهم. إنه يشعر الآن أن على « الإنسان أن يقدم للبشرية شيئا أكثر من الشعر[١٥٠] » وفي جنوا طلب من طبيبه أن يدله على أفضل سم وأسرعه مفعولا[١٥١]. وعرض عليه اليونانيون موتا يخلصه. لقد سقطت اليونان في أيدي الترك (العثمانيين) في سنة ١٤٦٥ وأصبحت مخدرة في ظلال حكم أجنبي. وكان بايرون قد دعا اليونانيين في

قصيدته الطويلة (شايلد هارولد) (النشيد ٢ / الأبيات ٧٣ - ٨٤) للثورة ضد حكم الأتراك (العثمانيين) : « أيها الأرقاء! / ألا تعلمون أن تحرركم يحتاج إلى هبة كالإعصار؟ » .

وثار اليونانيون في سنة ١٨٢١ لكن كان ينقصهم السلاح والمال والوحدة، وكانوا يصرخون طالبين المساعدة من الأمم التي استفادت من تراثها الخصب، وأرسلت اليونان لجنة إلى لندن طالبة العون المالي، وأرسلت اللجنة ممثلين إلى جنوا متحدية بايرون أن يرسل بعض أمواله للتعجيل بالثورة التي كان يدعو إليها . وفي ٧ أبريل ١٨٢٣ أخبر المبعوثين أنه رهن إشارة الحكومة اليونانية المؤقتة.

لقد تحول بايرون من الشعر إلى العمل. إنه قد كرس نفسه الآن للأفعال لا الأقوال. لقد أفسحت التعبيرات الساخرة الطريق للعمل من أجل قضية. لقد تنحى الشعر، وخرجت الرومانسية من إهابها لتبحث عن حل. وبعد أن خصص جانبا من ميزانيته لآل هنت، وتيريزا على نحو خاص، جعل ما تبقى من ثروته لصالح الثورة اليونانية. لقد أصدر تعليماته لوكلائه في لندن ليبيعوا كل ما يملك في إنجلترا ويرسلوا إليه المبالغ، وباع (البوليفار) بنصف تكلفته واتفق أن تقوم سفينة إنجليزية لتستقله هو، وبيترو جمبا وتريلاوني إلى اليونان وأن تكون السفينة مزودة ببعض المدافع والذخيرة وإمدادات طبية تكفي ألف رجل مدة عامين. وناضلت تريزا لثنيه عن عزمه كي يكون إلى جوارها، فرفض برقة ورضى عندما علم أنها ووالديها قد حصلوا على إذن بالعودة إلى رافنا، وأخبر الليدي بليسنجتون « لديَّ شعور أنني سأموت في اليونان. أتمنى أن يتحقق هذا، فلو حدث لكان خير نهاية لحياة كئيبة جدا[١٥٢] » .

وفي ١٦ يوليو أبحرت السفينة (Hercules) من جنوا قاصدة اليونان. وبعد تأخير كان مدعاة لسخطه رست في ٣ أغسطس في ميناء أرجوستوليون Argostolion في سيفالونيا أكبر الجزر الأيونية. وبوصولهم لهذه الجزيرة يكونون على بعد خمسين ميلامن اليونان لكن بايرون أجبر على تضييع عدة شهور فيها. لقد كان يأمل أن ينضم في ميسولونجي Missolonghi بأهم الزعماء اليونانيين لكن ماركو بوزاريس Bozzaris كان قد لقي حتفه في أثناء العمليات، وكانت ميسولونجي في أيدى الأتراك العثمانيين كما كانت السفن الحربية

العثمانية تتحكم في كل السواحل المؤدية إلى البر اليوناني من جهة الغرب. وفي بواكير شهر ديسمبر استعاد الأمير أليكزاندروس مافروكورداتوس Alexandros Mavrokordatos، ميسولونجي، وفي ٢٩ من الشهر نفسه غادر بايرون جزيرة سيفالونيا وكتب الكولونيل ليسستر ستانهوب Leicester Stanhope ممثل اللجنة اليونانية التي كانت تجمع الأموال في إنجلترا لمساعدة الثورة اليونانية - كتب من ميسولونجي: «الكل يتطلع إلى وصول اللورد بايرون كما لو كانوا ينتظرون المسيح المخلص[١٥٣]» ووصل «المخلص» الشاب بعد عدة مغامرات وبعد اجتياز عدة مشاكل أدت لتأخره إلى ميسولونجي في ٤ يناير سنة ١٨٢٤ فتلقاه الأمير والناس بفرح غامر.

وعهد إليه مافروكورداتوس بقيادة ستمائة من السوليتو Sulitos، وتقديم المؤن لهم ودفع رواتبهم (والسوليتو فرقة انتحارية جزء منها يونانيون وجزء ألبان ولم يكن منظرهم ملهماً للورد بايرون وكان يعرف أن الثورة اليونانية منقسمة إلى فصائل متنافسة تحت قيادات ذوات ميول سياسية أكثر منها حربية. ومع هذا فقد كان سعيدا للقيام بدور فعّال ولم يتأخر عن تقديم المساعدة. لقد قدم إلى مافروكورداتوس وحده نحو ألفين من الجنيهات كل أسبوع لتمويل أهالي ميسولونجي بالطعام والمشروبات. وفي هذه الأثناء كان يعيش في فيلا شمال المدينة بالقرب من الساحل. يقول تريلاوني: «عند حافة أسوأ مستنقع رأيته في حياتي». وثبت أن السوليتو غير منضبطين ويميلون للتمرد، وكانوا مشتاقين لأمواله أكثر من رغبتهم لطاعة أوامره. وكان الشاب لوشينفار يأمل تأجيل الأعمال العسكرية حتى يتم استعادة النظام والانضباط، ولم يكن تريلاوني ميالا للتأجيل فمضى يبحث عن المغامرة في أي مكان. ولم يبق إلا بيترو جامبا Gamba قريبا من بايرون يرعاه قلقاً عليه لمعاناته من الحرارة والفزع والملاريا.

وفي ١٥ فبراير أصبح وجه بايرون على حين فجأة شاحبا في أثناء زيارة الكولونيل ستانهوب، وسقط مغشيا عليه وراح في حالة تشنج فاقد الوعي. واستعاد وعيه فتم نقله إلى فيلته وتجمع حوله الأطباء وراحوا يفصدون بعلقات تسحب الدم، وعندما تم إبعاد العلقات لم يتوقف نزيف الدم و وهن بايرون وأصبح يعاني من نقص دمه. وفي ١٨ فبراير تمرد رجال

الكتيبة التابعة له (السوليتو) مرة ثانية مهددين باقتحام فيلته وقتل كل الأجانب الذين يقابلونهم . فهب من سريره وهدأهم لكن أمله في قيادتهم ضد الترك في ليبانتو كان قد تلاشى وضاع بذلك حلمه بموت بطولي مثمر. وتلقى خطابا – كان كالعزاء له – من أوجستا لاي Augusta Leigh به صورة لابنته أدا Ada مع وصف لعادات الطفلة وميولها كما قدمته أنابلا – فالتمعت عيناه بالسعادة للحظات، فقد تنكرت له كل الأمور التي ألفها الناس.

وفي ٩ أبريل ذهب راكبا إلى بيترو Pietro وفي أثناء العودة دهمهم مطر عنيف وفي هذه الليله عانى بايرون من القشعريرة والحمى. وفي ١١ من الشهرنفسه زادت حالته سوءا فلزم سريره وشعر بانهيار قواه وأدرك أنه على وشك الموت. وفي أيامه العشرة الأخيرة كان يفكر أحيانا في الدين لكنه ذكر «الحقيقة أنني أجد صعوبة في معرفة ما يجب الاعتقاد فيه في هذا العالم وما لا يجب. هناك أسباب كثيرة معقوله تدفعني لأن أموت متعصبا، تماما كتلك الأسباب التي جعلتني أعيش حتى الآن مفكرا حرا[١٥٤]» وذكر الدكتور جوليوس ميلينجن – طبيبه الرئيسي:

« يجب أن أذكر بأسف لاحد له أنه رغم كوني لم أفارق وسادة اللورد بايرون خلال فترة مرضه الأخيرة إلا نادرا، فلم أسمعه يشير إلى الدين أية إشارة ، غير أنني في لحظة واحدة سمعته يقول « هل سأطلب الرحمة؟ » وبعد فترة صمت طويلة قال تعال! تعال! لاضعف، فلأكن رجلاً حتى النفس الأخير» . وهذا الطبيب نفسه يروي عنه قوله: « لا ترسلوا جثتي إلى إنجلترا. دعوا عظامي تفنى هنا! اطرحوني في أول ركن دون جلبة ولاتصرفات حمقاء[١٥٥] » .

وفي ١٥ ابريل، بعد أن انتابته حالة تشنج أخرى سمح لأطبائه بفصد دمه ثانيةً، فأسالوا منه رطلين من الدماء ورطلين آخرين في فترة لاحقة، ومات في ١٩ أبريل ١٨٢٤ . وأظهر تشريح جثته – ولم يكن هذا أمرا معتادا – إصابته بتبولن الدم (اختلاط بوله بدمه) ولم تكن هناك علامات على إصابته بداء الزهري (السيفلس) وظهرت أدلة أن كثرة الفصد والأدوية المسهلة (المسببة للإسهال) كانتا هما الأسباب الأخيرة لموته. وكان مخه من أكبر

الأمخاخ المعروفة – إذ كان يزن ٧١٠ جرامات وهو رقم يزيد على أعلى متوسط لمخ الإنسان العادي[١٥٦]. وربما أضعفه وعجل بنهايته ما عرف عنه من إفراط في الأمور الجنسية، وإفراطه في تناول الطعام أحيانا، وإفراطه في الحمية أحيانا أخرى بغير ضابط، فقد أضعف كل هذا مقاومته للإجهاد والقلق والهواء الرطب المحمل بالعفونة.

ولم تصل أخبار موته إلى لندن حتى ١٤ مايو، إذ حمل هوبهوس هذا الخبر إلى أوجستا لاي، وقد صدما معاً بهذا النبأ. والآن عاد هوبهوس لمشكلة المذكرات السرية لبايرون. لقد كان مور Moore قد باعها للناشر مري Murray بمبلغ ألفين من الجنيهات، فحاول هذا الأخير دفعها للمطبعة رغم تحذير مستشاره وليم جيفورد قائلاً على حد تعبير هوبهوس «إنها لا تصلح إلا لبيوت الدعارة والمواخير وستسيء كثيرا جدا إلى اللورد بايرون وستلحق به عاراً أبديا إن نشرت[١٥٧]».

واقترح مري وهوبهوس إتلاف المخطوطة، واعترض مور ولكنه وافق أن يترك الأمر لرأي السيدة لاي Leigh فكان من رأيها إحراق المذكرات، وتم ذلك بالفعل، وأعاد مور الألفي جنيه إلى مري.

وأصر فلتشر الخادم العجوز الذي صاحب لورد بايرون على أن سيده قد عبر عن رغبته قبل موته بقليل أن يدفن في إنجلترا، إلا أن السلطات اليونانية وعامة اليونانيين اعترضوا على ذلك لكن كان عليهم أن يقنعوا بأجزاء من أمعائه تمت إزالتها قبل تحنيطه. وتم حفظ بدنه باستخدام ١٠٠ جالون من الخمور، ووصلت الجثة بالفعل إلى لندن في ٢٩ يونيو، وتم تقديم طلب لسلطات كنيسة وستمنستر لدفن الشاعر في الركن المخصص للشعراء فيها لكن الطلب لم يلق قبولا. وفي ٩ / ١٠ يوليو سمح للعامة بإلقاء نظرة على الرفات المكفن فأقبل أناس كثيرون من قليلي الذكر، لكن بعض ذوي الحيثية سمحوا بأن تسير عرباتهم الخالية (أي التي لم يكونوا هم أنفسهم فيها) بالسير في الموكب الذي واكب الجثة من لندن إلى نوتنجهام في ١٢ – ١٥ يوليو. ورأت كلير كليرمونت، وماري شيلي من النافذة، موكب الجنازة وهو يتحرك. وفي ١٦ يوليو جرى دفن الشاعر في قبو أجداده بجوار أمه في كنيسة هكنال توركارد Hucknall Torkard – وهي قرية بالقرب من مبنى نيوستيد، وهو مبنى دير

قديم لم يعد يستخدم كدير Newstead Abbay .

١٧- الباقون على قيد الحياة

عاش معظم من لعبوا أدوارا في حياة بايرون الحافلة في الحقبة التالية لوفاته. وكان أسرعهم لحاقاً به هو بيترو جامبا الذي عاد لليونان بعد أن رافق جثمان بطله (بايرون) إلى لندن، وظل وفيا للثورة اليونانية ومات بالحمى في سنة ١٨٢٧ - وأصبحت الليدي كارولين لامب « مريضة جدا » عندما أخبرها زوجها أن جثمان بايرون قد مر في طريقه إلى مثواه الأخير، وكانت قد هجته في روايتها Glenarvon (١٨١٦) لكنها الآن تقول « إنني آسفة على كل كلمة غير طيبة قلتها في حقه[١٥٨] ».

وقد عاشت بعده ما لا يقل عن أربع سنوات - وورثت أوجستا لاي -بناء على وصية من بايرون كل ما تبقى من ثروته تقريبا (نحو مائة ألف جنيه) وأنفقت معظمها في دفع ديون زوجها وأولادها الناتجة عن المقامرة، وماتت فقيرة سنة ١٨٥٢[١٥٩] - والليدي بايرون ظلت تذكر بشيء من الخير الرجل الذي تسببت شروره الموروثه لعنة لزواجها. لقد كتبت « طوال ما بقي لي من حياة تظل مشكلتي الرئيسة هي أنني لا أتذكره بمودة كبيرة[١٦٠] ». ومع هذا فبعد كل الأمور التي اتضحت أقول لقد كان هناك موجود (إنسان) أفضل بكثير. . لقد كان صدره يحتمل بما هو أفضل . .لقد كان كثير التحدي لكنه لم يستطع التدمير أبدا[١٦١] . وابنتهما أدا Ada التي كان اللورد بايرون يعقد عليها الآمال تزوجت من الإيرل الثاني للوفيلاس Lovelace وفقدت ثروتها في الرهان على سباق الخيل وأنقذتها أمها من الإفلاس، وفقدت صحتها وآمالها - كأبيها - فماتت في السادسة والثلاثين (١٨٥٢) وحاولت الليدي بايرون أن تملأ وحدتها بالعمل في مجال الخدمة العامة، وماتت في سنة ١٨٦٠ .ودخل جون كام هوبهوس البرلمان كراديكالي، وارتقى ليصبح وزيرا في فترة الحرب (١٨٣٢ - ١٨٣٣) وأصبح بارونا ومات في سنة ١٨٦٩ في الثالثة والثمانين من عمره. وعادت تيريزا جويشيولي - بعد وفاة بايرون - إلى زوجها لكنها سرعان ما عملت على الانفصال عنه، وتم لها ما أرادت. وكونت علاقات لم تطل مع صديق بايرون الأعرج هنري فوكس ومع لامارتين الشاعر الفرنسي المعجب ببايرون. وتنقلت بين العاشقين، ولم يطل

مقامها مع أي منهم إلا قليلا وأخيرا تزوجت وهي في السابعة والأربعين من ماركيز بوسي Marquis da Boissy وكان ثريا لطيفاً يقدمها لمعارفه وأصدقائه بفخر قائلا: «زوجتي، والعشيقة السابقة لبايرون. (على وفق وجهة النظر الإنجليزية المجحفة شيئاً ما) وعندما مات الماركيز اشتغلت بتحضير الأرواح (الاتصال بأرواح الموتى) وتحدثت مع روح بايرون وروح زوجها الذي مات وقالت: «إنهما معاً الآن، وهما أفضل الأصدقاء - تقصد يصادق كل منهما الآخر صداقة مخلصة عميقة[١٦٢]» وماتت في سنة ١٨٧٣ في الثانية والسبعين من عمرها بعد أن كتبت عدة كتب تصور فيها بايرون كعبقري ورجل مهذب لاعيوب فيه - وماتت كلير كليرمونت في سنة ١٨٧٩ عن عمر يناهز الواحدة والثمانين وظلت حتى آخر أيامها متمسكة برأيها في بايرون «بأنه مجرد تركيبة من العبث والغباء وكل ضعف بائس - قلما تجتمع في مخلوق بشري واحد[١٦٣]».

أما ماري شيلي فرغم ما لحقها منه ببعض الضرر فقد كانت تحتفظ لألبي Albe [كما كان يطلق عليه المحيطون به - أي ببايرون -] بمشاعر أكثر وداً، فعندما علمت بوفاته كتبت «آه يا ألبي Albe (المقصود اللورد بايرون) - أيها العزيز الفاتن المتقلب ألبي - غادرت هذا العالم الخرب، فليمنحني الرب موتا باكرا في شبابي[١٦٤]» وأمضت كثيرا من وقتها فيما تبقى لها من العمر (٢٧ سنة) في تحرير كتب زوجها بحب ورعاية مستخدمة فصاحتها وقدرتها على البيان.

أما لاي هنت الذي كان قد تجاسر وامتدح أشعار شيلي في الوقت الذي أدانها كل النقاد تقريبا باعتبارها أوهام مراهقة - فقد ظل مخلصاً لراديكاليته الشابة وكتب مذكرات معادية لبايرون، وظل على قيد الحياة حتى ١٨٥٩. أما توماس جيفرسون هوج فبعد تجارب عاطفية مختلفة - تزوج من أرملة ويليامز (جين) وعاش معها السنوات الخمس والثلاثين الباقية من حياته. وكان الأكثر لفتاً للنظر هو إدوارد جون تريلاوني الذي دخل حياة شيلي في بيزا، وكان كلاهما في الثلاثين من عمره. وكان شيلي يقترب من نهايته، بينما كان على تريلاوني أن يعيش تسعا وخمسين سنة أخرى. لقد كان هذا «الفارس الجوال... الداكن الوسيم ذو الشارب الكبير» (كما وصفه هنت) قد قام بكثير من المغامرات في كثير من

البلاد، حتى إن استعادته لما مر به من ذكريات وأحداث لم يكن يسبب ضيقاً لأصدقائه الجدد. ورغم أن بايرون قد عينه مسؤولا عن خيوله وعن قاربه الفخم (يخته) بوليفار، فقد كان يحب كثيرا شيلي هذا الصبي الأمرد حسن الطباع. وبعد أن شهد وصول بايرون بأمان إلى ميسولونجي (وإن كان – أي بايرون – قد اضطر للبقاء هناك دون قدرة على الحركة لفترة) انطلق ليبحث عن قدره متوقعاً أن يموت في سبيل القضية اليونانية. لقد رأى اليونان وهي تتحرر فواصل تجواله وعاش حتى سنة ١٨٨١ وتم دفنه في مقبرة اشتراها في سنة ١٨٢٢ بالقرب من رفات (رماد) شيلي في المقبرة الإنجليزية في روما.

جيران إنجلترا

[١٧٨٩ - ١٨١٥]

١- الإسكتلنديون

كانوا تحت الحكم البريطاني منذ الاتحاد سنة ١٧٠٧، ينعمون بحرية الحركة والتجارة في الجزيرة لكنهم لم يكونوا على وفاق مع الحكومة بسبب البرلمان القصي الذي لا يحوي مجلس العموم فيه سوى خمسة وأربعين عضوا يمثلون ١,٨٠٠,٠٠٠ سكتلندي، بينما يوجد ٥١٣ عضوا يمثلون ١٠,١٤٦,٠٠٠ هم أهل إنجلترا وويلز. ومن بين الأعضاء الذين يمثلون سكتلندا خمسة عشر عضوا تم تعيينهم بواسطة أعضاء مجالس المدن المرتشين الذين انتخبهم ١,٢٢٠ مصوتاً في كل المدن التي يحق أن يكون لها ممثل في البرلمان boroughs. والثلاثون الباقون يتم انتخابهم بواسطة المقاطعات الريفية على أن يكون حق الانتخاب مقتصراً على ملاك الأراضي المؤثرين (ذوي النفوذ)، وعلى هذا فمقاطعة بيوت Bute بسكانها البالغ عددهم ١٤,٠٠٠ ليس فيها إلا ٢١ مصوتاً (فرد له حق التصويت في الانتخابات)، وكل المقاطعات مجتمعة ليس فيها إلا ٢,٤٠٥ مصوتين[١]. وقد تم انتخاب غالب المرشحين الناجحين بواسطة النبلاء من مالكي العقارات والأراضي الشاسعة منذ زمن طويل. وكان الإقطاع قد تم إلغاؤه في أنحاء سكتلندا في سنة ١٧٤٨ لكن الفقر ظل باقيا طالما كان الجشع والرغبة في التمايز (عدم المساواة) كافيين في تركيب البشر. وعلى العموم فقد قبلت إسكتلندا مثلها مثل إنجلترا هذا الشكل من الحكم التمثيلي representative government كأفضل شكل حكومي يمكن أن يقوم بين شعب ارتبط ارتباطا وثيقاً بالتقاليد وكان يعاني من حاجة ملحة للمعرفة والخبرة اللازمتين لإبداء الرأي بشكل ذكي في القضايا الوطنية. وكان الدين أقوى من الدولة. وكان يوم السبت (المقصود يوم العبادة)(*) هو يوم عبادة يتسم بالكآبة، فهو يوم تذكر الخطايا. وكان رجال الدين يتحدثون عن خطيئة آدم، وعن إبليس ورب منتقم، وكانت جموع المصلين يستغرقون في أمور العقيدة والأخلاق

(*) Sabath ليس هو بالضرورة Saturday (المترجم)

استغراقا يفوق استغراق قسسهم. وقد أكد ديفد دينز David Deans في كتابه (The heart of Midlothian) أن الفتاة التي تذهب إلى الحفلات الراقصة مصيرها إلى جهنم[٢]. ومع هذا فقد كانت سكتلندا في مجالات كثيرة سابقة إنجلترا. فقد كان لديها نظام وطني لمدارس حكومية حقيقية. وكان مطلوبا من كل دائرة أبرشية أن ترعى مدارس يتعلم فيها الأولاد والبنات معا القراءة والحساب. وكان أهل التلاميذ يدفع الواحد منهم شلنين في كل ربع سنة للتلميذ، وإذا رغب الطالب أو ذووه في تعلم اللاتينية دفع شلنين آخرين، وكانت الدائرة الأبرشية تدفع للطلبة الفقراء، وعندما تكون الدائرة الأبرشية متسعة اتساعا كبيرا مما يجعل جمع التلاميذ معاً أمراً صعبا، كان يتم تعيين ناظر متنقل ليشرف على تقديم تعليم لكل مجموعة على التوالي. وكان المدرسون تابعين بصرامة لرجال الدين في الأبرشية، وكانوا ملزمين بمساعدة رجال الدين في نقل اللاهوت المرعب إلى تلاميذهم، ذلك أن كبار السن وجدوا أن الكالفنية (مذهب كالفن) هي السبيل المقتصد لتعيين رقيب على كل روح. وبقي على قيد الحياة عدد كبير ليقوموا بحركة التنوير الإسكتلندية في جيل سابق على قيام الثورة الفرنسية، وعملوا على استمرارها في عصر نابليون (وإن كانت قد خفت قليلا ولم تعد في تألقها السابق في ذلك العصر - عصر نابليون).

وكانت إسكوتلندا فخورة بجامعاتها في سان أندروز St. Andrews (التي أسست في سنة ١٤١٠) وجلاسجو (١٤٥١) وأبردين (١٤٠٤) وأدنبره (أدنبورج) (١٥٨٣). وكانت هذه الجامعات تعتبر نفسها أرقى في أوجه كثيرة من أكسفورد وكامبردج بل إن بعض الباحثين المحدثين يؤكدون ذلك[٣]. وفي مجال التعليم الطبي كان لأدنبره (أدنبورج) الريادة التي اعترف بها الآخرون[٤]. وكانت دورية Edinburgh Review (مراجعات أدنبره) التي أسست سنة ١٨٠٢ تحظى باحترام عام وأكثر الدوريات تألقا في بريطانيا العظمى، وكان المحامي الليبرالي الشجاع توماس إرسكين (١٧٥٠ - ١٨٢٣) يبز كل المحامين تقريبا في ساحات المحاكم. وعلى أية حال لا بد أن نسلم أنه عندما حان وقت قمع الحريات الفكرية - خاصة إن كانت هذه الحريات تساند فرنسا الثورة - لم يكن هناك قانوني إنجليزي يضارع ذلك الإسكتلندي. ومن ناحية أخرى فقد استمر المناخ الفكري في أدنبره وجلاسجو

يساند الحرية التي كانت قد حمت ديفد هيوم، ووليم روبرتسون، وجيمس بوزول، وروبرت بيرنز وآدم سمث. وقيل إن محاضرات دوجالد ستيوارت Dugald Stewart لم يكن يحضرها الطلبة فقط وإنما كل أهل الفكر في أدنبره. ولايكاد يكون ستيوارت معروفا اليوم خارج سكتلندا لكن الإسكتلنديين قد أقاموا تخليدا لذكراه معبدا كلاسيا صغيرا، هو واحد من أخلد النصب التذكارية فيها. لقد تبع توماس ريد Reid في إخضاع النتائج الشكوكية لهيوم، وعلم النفس كما قال به ديفد هارتلي (علم نفس الحيل اللاشعورية) للفطرة السليمة (التفكير البسيط التلقائي)[٥] وقد رفض الميتافيزيقا باعتبارها محاولة عبثية يقوم بها العقل mind (النفس) لسبر أغوار طبيعة العقل (النفس). (البارون منشوزن Munchausen هو وحده الذي استطاع أن يقتلع نفسه (يستأصلها) برباط حذائه). لقد اقترح ستيوارت أن يحل علم النفس الاستقرائي Inductive Psychology محل الميتا فيزيقا إذ يمكن به استخدام أسلوب الملاحظة الصبورة الدقيقة للعمليات العقلية (النفسية) دون الادعاء بشرح العقل (النفس) نفسه. وكان ستيوارت رجلاً ذا بديهة وثقافة وصاحب أسلوب واستخدم كل هذا في تعريف الذاكرة والذكاء والأحلام والموهبة الشعرية. (لازال موطنه ينبوعا لأغاني الحب كما أن بعض أجمل الألحان التي أدفأت شبابنا أتت من منحدرات جبال سكتلندا وضفاف أنهارها). وكان جيمس مل Mill رجلا حسن النوايا واسع العقل خصب الفكر – مع أنه أتخم ابنه بالتعليم. وكان ابنا لصانع أحذية ومع هذا فقد تفوق في دراسة اللغة اليونانية في جامعة أدنبره. وعندما تخرج انتقل إلى لندن، واكتسب رزقه بالعمل في الصحافة، فكانت عيشته خطرة غير آمنة، وتزوج وأنجب طفلا أسماه جون ستيوارت، على اسم صديقه عضو البرلمان. وبين عامي ١٨٠٦ و١٨١٨ كتب (تاريخ الهند البريطانية History of British India) الذي حوى نقدا موثقا لسوء الإدارة والحكم فيها حتى إن كتابه هذا أدى إلى قيام إصلاحات كبرى في حكومة الهند.

وفي هذه الأثناء (١٨٠٨) قابل جيرمي بنثام وسرعان ماقبل بحماس أن معيار نجاح الممارسات السياسية والقيم الخلقية والأفكار هو قدرتها على تحقيق السعادة للبشر، وجعل من نفسه داعية لبنثام في بريطانيا. وكتب لدائرة المعارف البريطانية «في طبعتها الرابعة

(١٨١٠) والخامسة (١٨١٥) والسادسة (١٨٢٠) مقالات عن الحلم وفلسفة القانون وإصلاح السجون والتعليم وحرية الصحافة، وقد أعيد نشر هذه المقالات، وانتشرت انتشارا كبيرا وكان لها تأثير عظيم (ومما يذكر أن الموسوعة البريطانية كانت هي نفسها مشروعا إسكتلنديا). وهذه المقالات، وكذلك مقالاته في (مراجعات ويستمنستر Westminster Review) أصبحت قوة دافعة أدت إلى صدور مرسوم الإصلاح Reform Act في سنة ١٨٣٢ . وتحول الراديكاليون في ظل مثل هذه القيادة (الريادة) من المطالبة بالثورة الشاملة إلى الإصلاح التدريجي من خلال حكومة قائمة على توسيع حق الانتخاب والفلسفة النفعية. وقد حذر مل Mill في كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسي) الصادر في سنة ١٨٢١ من ترك السكان يتزايدون بمعدل أسرع من تزايد رأس المال واقترح ضرائب على الزيادة في « الدخول » الناتجة بغير عمل (كارتفاع أسعار الأراضي مثلا). وفي مبحثه (تحليل لظاهرة العقل البشري) الصادر سنة ١٨٢٩ عمد إلى شرح كل العمليات العقلية من خلال روابط فكرية. وفي سنة ١٨٣٥ (قبل وفاته بعام) نشر كتابه (شذرات حول ماكنتوش Fragment on Mackintosh).

ونقل السير جيمس ماكنتوش التعليم الإسكتلندي إلى إنجلترا، فبعد أن حصل على أدوات التفكير من جامعتي أبردين وأدنبره ارتحل إلى لندن (١٧٨٨) وسرعان ما استثارته أخبار الجموع الثائرة التي استولت على الباستيل في سنة ١٧٩٠ وامتعض من معاداة إدموند بورك Burke في مؤلفه (تأملات في الثورة الفرنسية)، وفي سنة ١٧٩١ أجاب مبرئا الديمقراطية الغالية. لقد رأى الفيلسوف البالغ من العمر ستا وعشرين سنة في المراحل الباكرة للتغير العنيف، صوتا نبيلا وثمارا للفلسفة الإنسانية، بينما لاتكون العروش المهددة -- كما ذهب بورك Burke – الحكمة المجربة للترات (التقاليد) والخبرة وإنما تصبح بقايا اعترتها الفوضى (الهيولى) وتصبح ملاذا لخليط متنوع غير مترابط كالأقمشة المرقعة وتصبح مؤسساتها كيفما اتفق بلا ضابط حيث تجري أحداث غير متوقعة.

« كل الحكومات الموجودة الآن في العالم (باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية) قد تكونت مصادفة وكيفما اتفق. لقد كان من المؤكد ألا نسلم بأن هذه الحكومات قد سبقت

الأعمال الفكرية بمعنى أنه من الضروري ألا نعتبر هذه الحكومات على حق. وأن الأفكار المطالبة بالإصلاح على خلاف ذلك.. لقد آن الأوان كي يتعلم الناس ألا يتسامحوا مع قديم لا يقره العقل، وآن الأوان كي يتعلم الناس ألا يرفضوا جديدا يقره العقل ويراه أمراً لازما، لقد آن الأوان لكي تشرع الطاقات البشرية في البدء بحقبة تاريخية جديدة تحسن فيها نظم الحكم لتحقيق مزيد من السعادة للإنسان(٦)» أما والثورة قد انحدرت من مثل الفلاسفة إلى الطغيان العشوائي المرعب، فقد راجع ماكنتوش نظرياته وواءم نفسه مع القوى الاجتماعية التي تركت آثارها عليه. ففي محاضراته «قوانين الطبيعة وقوانين الأمم» (١٧٩٩) تناول بطريقة كانت ستسعد بورك - كيف أن التنظيم الاجتماعي يمكنه أن يُعَمِّمَ (من خلال تطور الفرد) عادات الأفعال، وتأصيل الحكم على وفق الضمير بشكل يجعلها متأصلة في الأعماق، وعلى هذا فالشخص البالغ في مجتمعات حضريه ليس إفرازا طبيعيا فحسب وإنما هو أيضا ناتج التربية وأسلوب التنشئة - وقد كتب مكنتوش في أعوامه الأخيرة كتابه (تاريخ الثورة في إنجلترا History of the Revolution in England) (١٨٣٢) معتمدا على وثائق ومصادر أصلية. من الأمثلة السابقة يمكننا أن نحكم بأن الحضارة الإسكتلندية لم تكن قد استكانت إلى عظمتها الماضية عند الحد الزمني المتمثل في الانتقال من القرن ١٨ إلى القرن ١٩. لقد كانت الزراعة مزدهرة خاصة في الأراضي المنخفضة Lowlands. وهناك أيضا كانت آلات النسيج تعمل باستمرار، وكان روبرت أوين Owen قد فتح آفاقا جديدة للتعاون الإنساني. وكانت جلاسجو فخورة بعلمائها، وكانت أدنبره تعج بمحاميها وأطبائها ورجال الدين فيها، وكانوا في طليعة معاصريهم. وفي مجال الفن كان السير هنري روبورن Raeburn يرسم صورا شخصية جعلت منه رينولدز Reynolds سكوتلندا. وفي مجال الأدب كان بوزويل ينشر (١٧٩١) ذلك النبع الدائم من البهجة (حياة صمويل جونسون) وفي أبوتسفورد Abbotsford في التويد - بين الأعداء القدماء - راح يغني أعذب الأغاني ويكتب الروايات العالمية المشهورة ليدفع جانبا من ديونه. لقد كان ألطف الإسكتلنديين وأكثرهم وداعة ورقة.

وكان والتر سكوت بحكم مزاجه وحساسيته ملائما تماما ليكون ممن لهم الريادة في

ميدان الرومانسية المزدهرة في الأدب الإنجليزي؛ لأنه كان يحب التفكير في نفسه كسليل للقبائل الإسكتلندية التي كانت عداواتها وحروبها منبعا لأمور كثيرة كانت موضوعا للقصائد والأغاني الإسكتلندية التي كان يرددها في مرحلة طفولته. وعلى أية حال فقد كان أبوه هو الوكيل القانوني لأدنبره، أما أمه فابنة أستاذ للطب في جامعة أدنبره. ولد في سنة ١٧٧١ وكان واحداً من بين اثني عشر أخا مات ستة منهم في مرحلة الطفولة، وكان هذا أمر شائعا في ذلك الوقت، وأصيب بشلل الأطفال وهو في الشهر الثامن عشر من عمره فأصيب من جراء هذا المرض بعرج دائم في ساقه اليمنى. ومما ساعد سكوت على تكوين صداقة على نحو ما مع بايرون الشاب اشتراكهما في العاهة رغم اختلافهما في القيم والأخلاق والمعتقدات.

وبعد أن انتظم في كلية أدنبرة القديمة بدأ سكوت يتدرب طوال خمس سنوات على يد والده في مجال القانون، وفي سنة ١٧٩٢ أصبح محاميا أمام المحاكم الإسكتلندية. وقد أتاح له زواجه من شارلوت شاربنتير (١٧٩٧) وميراثه عن أبيه دخلا طيبا. وكان اجتماعيا محبوبا كما كان له عدد كبير من الأصدقاء من ذوي النفوذ استطاع عن طريقهم أن يعين كاتبا للتنازل (يسجل وثائق التنازل عن الملكية وخلافه للغير) في أدنبره في سنة ١٨٠٦. وقد أتاحت له المخصصات المالية وبعض ما أوصى له به أقرباؤه فرصة إهمال العمل في مجال القانون، بل والتخلي تماما عنه بعد ذلك ليشبع رغبته الأدبية. لقد أحيت مقابلة تمت مصادفة مع روبرت بيرنز Burns وولوعه بكتاب توماس بيرسي Percy عن الشعر الإنجليزي القديم Reliques of ancient English Poetry وتعرفه على الأشعار الغنائية لجوتفريد بيرجر Gottfried Burger - خاصة قصيدة لينور Lenore - كل ذلك أحيى اهتماماته الأولى في أيام الصبا بالشعر الإنجليزي القديم. وفي سنة ١٨٠٢ / ١٨٠٣ أظهر - في ثلاثة مجلدات - كتاب أغاني إسكتلندا The Minstrelsy of the Scottish Border. وقد أثارته هذه الحكايات الشائقة المنطوية عليها هذه الأغاني فحاول كتابة أشعار على نسقها، وفي سنة ١٨٠٥ أصدر (أغنية آخر المغنين) الذي بيع منه عدد كبير من النسخ شكل رقماً قياسيا بالنسبة إلى المبيع من دواوين الشعر في بريطانيا. وعندما ذهب إلى لندن في سنة ١٨٠٧

وجد نفسه سيد الصالونات، فقرر أن يشتغل بالأدب ويكون شغله الشاغل، يكاد يتفرغ له تماما، وبدأ استثمارا خطرا (غير مضمون) في التأليف والطبع والنشر. ووجد في «كوبليهات» كولردج ثمانية المقاطع شكلا سهلاً يصب فيه حكاياته الرومانسية عن الحب والحرب تلك الحكايات سريعة الحركة، وحكاياته الغامضة والخيالية في التاريخ الإسكتلندي وفي الحكايات التراثية الأسطورية الإسكتلندية. وقد استثمر هذا المجال الجديد في عمله مارميون Marmion (١٨٠٨) وسيدة البحيرة (١٨١٠) وروكبي Rokeby (١٨١٣) وسيد الجزر (١٨١٥). ولم يدع أنه شاعر كبير فقد كان يكتب لفائدة الجماهير محتفيا بهم، ولم يحتف بربات الشعر Muses اللاتي كن – على أية حال – قد سئمن من الملاحم والتفاعيل السداسية. وراح قراؤه يلاحقونه لاهثين من الفارس إلى السيدة الجميلة إلى الصراع البطولي، وتغنوا معه مفتونين بمثل هذه الأغاني «آه لقد أتى لوشينفار من الغرب / وكان جواده المطهم هو الأفضل من بين كل جياد البلاد الواسعة[٧]» وفي سنة ١٨١٣ أصدر بايرون (The Giaour) و(عروس أبيدوس) وفي سنة ١٨١٤ أصدر (القرصان) و(لارا). ورأى سكوت أن قراءه ينصرفون إلى أساطير الشرق وحكايات مبغضي البشر اليائسين. فاعترف أن اللورد الشاب (يقصد بايرون) يمكن أن يتفوق عليه في قدرته على النظم وخصوبته، فترك الشعر إلى النثر ليبحث عن مناجم جديدة.

وكان هذا أكثر ملاءمة له، ففي سنة ١٨٠٢ كان قد قدم أموالاً لجيمس بالانتين Ballantyne وهو صاحب مطبعة في كلسو Kelso لينقل مطبعته إلى أدنبره، وفي سنة ١٨٠٥ أصبح شريكا في شركة جيمس وجون بالانتين للطبع والنشر، ومن الآن فصاعدا رتب الأمور بحيث تطبع كل أعماله مهما كان ناشرها في مطابع بالانتين، واشترى سكوت من حصيلة أرباحه عقار أبو تسفورد Abbotsford (بالقرب من ملروز Melrose) واشترى ما يحيط به فزاد مساحة من ١١٠ أكر إلى ١٢٠٠ وأحل محل منزل المزرعة القديم قصراً، مؤثثا تأثيثا فاخرا ومزخرفا زخرفة جميلة وكان هذا سنة ١٨١١، ويعد هذا القصر من المعالم الجديرة بالرؤية في إسكتلندا. لكن في سنة ١٨١٣ أصبحت شركة بالانتين على شفا الإفلاس، وكان أحد أسباب ذلك نشرها عددا من الأعمال قام سكوت بتحريرها، وكانت

أعمالا لم تحقق سوى الخسارة، فعمد إلى الوفاء بديون الشركة بالاقتراض من أصدقائه الأثرياء ومن العوائد المالية لكتاباته. وفي سنة ١٨١٧ أوفت الشركة بديونها وأقيلت من عثرتها، وانشغل سكوت بكتابة سلسلة من أشهر الروايات في التاريخ الأدبي .لقد نشر روايته (Waverley) دون ذكر لاسمه عليها في سنة ١٨١٤ وحقق أرباحا من نشرها بلغت الفين من الجنيهات -- سرعان ما أنفق كثيرا من هذا المبلغ على عقار أبوتسفورد الذي سبق أن اشتراه والذي أشرنا إليه آنفا. ويرجع السبب في عدم ذكر سكوت لاسمه مقرونا بهذه الرواية لشعوره أنه قد لايكون ملائما لكاتب عدل (وهو منصب قانوني) أن ينشر رواية ويعرضها للبيع. لقد كان قلمه أكثر تواؤما في النثر منه في الشعر، وكانت قريحته النثرية سيالة بشكل واضح، لقد كتب في ستة أسابيع روايته Guy Mannering (١٨١٥) وفي سنة ١٨١٦ كتب (جامع العاديات Antiquary وفي الفترة من ١٨١٦ إلى ١٨١٩ قدم بانوراما جذابة للمشاهد الإسكتلندية (تحت عنوان شامل : حكايات ملاك الأراضي في بلدي Tales of my Landlord) – الموت القديم، قلب البغض، عروس لامرمور، أسطورة المونتروز، ومن واحدة من هذه الحكايات الأسطورية حقق دونيزتي Donizetti ثروة أخرى. وقد قام سكوت برحلات على نطاق واسع في إسكتلندا وإنجلترا وفي الجزر المجاورة، وقد اعتبر نفسه دارس تراث آثار أكثر منه روائيا، وكان قادرا على إضفاء الطابع المحلي على رواياته، كما كان قادرا على إعطائها طابعاً جدليا أبهج من اتبعه من الإسكتلنديين. ففي رواياته Ivanhoe وMonastery وThe Abbot – وكلها ظهرت في سنة ١٨٢٠ – كان مسرح الأحداث في إنجلترا في العصور الوسطى. وفي سنة ١٨٢٥ تغلغل سكوت في الشرق الوسيط (الشرق في العصور الوسطى) وفي عمله (الطلسم Talisman) قدم لنا صورة عامرة بالمزايا غاصة بالمديح لصلاح الدين (الأيوبي) حتى أن الإسكتلنديين المتدينين بدأوا يتشككون في مدى عمق إيمان المؤلف بالمسيحية. وعندما سئل جورج إليوت عن أول من هز عقيدته المسيحية أجاب « إنه والترسكوت[٨] ». ومن كان منا قد استساغ « روايات ويفرلي Waverly Novels » واستمتع بها في شبابه ليدهش من أنه لايزال يستمتع بها حتى الآن بل إننا حينما نغرق في رواية واحدة منها ولنقل (The heart of Midlothian) لابد وأن يأتينا خاطر مؤداه أن المؤلف

الذي يؤلف كل عام رواية على هذا النسق طوال عقد من الزمان لابد أن يكون واحدا من معجزات عصره (واحد من بين عباقرة عصره) ورأيناه يقوم بدور البارون الإقطاعي في أبوستفورد (حصل على رتبة فارس في سنة ١٨٢٠) ومع ذلك كان يقابل كل الناس برقة ولطف وبساطة، وكان كما قال بوشكين أشهر مؤلفي عصره من أدنبره إلى سان بيتر سبرج ومع هذا كان يضحك من قلبه عندما يسمع من يقارنه بشكسبير. وكانت قصائده ورواياته عناصر فعالة في الحركة الرومانسية رغم أنه كان لايأنس كثيرا للأوهام الرومانسية. وقد شارك في أحياء الاهتمام بالأساليب التي شاعت في العصور الوسطى، ومع هذا فقد حث الإسكتلنديين على التخلي عن مثل ماضيهم الإقطاعي وأن يتواءموا مع الوحدة (Union) (المقصود في ظل المملكة المتحدة التي ستمزج الشعبين – ببطء – معا (المقصود الشعبين الإسكتلندي والإنجليزي) ليصبحا شعباً واحدا. وعندما كبر في السن أمتع نفسه بوطنية حزب التوري (المحافظين) والتزامه بألا يكون في الدستور البريطاني أي نقص.

وفي هذه الأثناء كان طابعه (البالانتين) وناشره أرشيبالد كونستابل يقتربان من الإفلاس. وفي سنة ١٨٢٦ سلما موجوداتهما المتبقية للمحكمة وأصبح السير والتر – باعتباره شريكاً لهما – مسؤولاً من الناحية القانونية عن ديون الطابع Ballantynes. والآن، وأخيرا، علمت أوربا أن سلسلة روايات ويفرلي Waverley هو صاحب أبوتسفورد، وسمحت له المحكمة بالاحتفاظ ببيته وبعض الأكرات (الأكرهو الفدان الإنجليزي) وراتبه على أن تصادر بقية ممتلكاته. وظل رغم هذا يعيش عيشة رضية وواصل إصدار رواية إثر رواية على أمل أن يؤدي عائدها إلى الوفاء بديونه. وفي سنة ١٨٢٧ أصدر كتابه حياة نابليون الذي أطلق عليه أحد المفكرين عبارة « إنه تجديف على الله في عشرة مجلدات » فقد كاد يعري فيه هذا الكورسيكي من كل فضيلة لكنه – أي الكتاب – أبهج البريطانيين وقلص ديون المؤلف شيئا ما. ويعكس ما تبقى من إنتاجه تسرعه وعدم اطمئنانه. ففي سنة ١٨٣٠ / ١٨٣١ عانى من عدة لطمات، واعتلت صحته، وخصصت له الحكومة فرقاطة لتجول به تحت شمس البحر المتوسط لكن المرض اشتد عليه فعادت به السفينة بسرعة على أمل أن يموت في أبوتسفورد الحبيبة إليه (١٨٣٢) وثمة ناشر آخر – روبرت كادل Cadell –

أخذ على عاتقه ماتبقى من ديونه (٧٠٠٠ جنيه إسترليني) وحقوق النشر، وكوَّن ثروة نتيجة ذلك، وظلت روايات سكوت منتشرة حتى نهاية القرن. وكان وردزورث يظن أنه «أعظم روح في جيله[٩]».

٢- الأيرلنديون

بلغ عدد سكان أيرلندا في سنة ١٨٠٠ نحو ٤,٥٥٠,٠٠٠ نفس منهم ٣,١٥٠,٠٠٠ من الأروام (الكاثوليك التابعين لبابا روما) و٥٠٠,٠٠٠ من البروتستنط الاسقفيين و٩٠٠,٠٠٠ من المذاهب البروتستنطية المنشقة (خاصة في ألستر Ulster) ومنح الكاثوليك حق التصويت في سنة ١٧٩٣ ومن ثم أصبح من حقهم شغل معظم وظائف الخدمة المدنية لكنهم ظلوا بعيدين عن المناصب العليا وعن منصة القضاء وعن البرلمان الأيرلندي، وسمح للكاثوليك بانتخاب مرشحين بروتستنط لحكم أيرلندا. وكان الملك أو وزراؤه يعينون ليفتنانت أو نائب ملك بروتستنطي كمسؤول تنفيذي في أيرلندا، وسمحوا له بحكم الجهاز الإداري - وإلى حد كبير البرلمان الأيرلندي - باستخدام الرشوة، وتوزيع أو بيع الوظائف الشاغرة (المفهوم لغير مستحقيها)[١٠].

وحتى سنة ١٧٩٣ كانت كل الأرضي الزراعية في أيرلندا يمتلكها بروتستنط سواء من البريطانيين أو الأيرلنديين، وبعد سنة ١٧٩٣ سمح لعدد قليل من الكاثوليك بشراء أراض. أما الباقون فكانوا من المستأجرين الذين يزرعون قطعا صغيرة من الأراضي، أو أجراء في المزارع أو المصانع. وكانت الإيجارات والعشور تُجْبى بانضباط شديد حتى عاش معظم الفلاحين الأيرلنديين في فقر لا يرجى الخلاص منه. لقد كانوا فقراء جدا وكانوا محرومين من التطلع لشراء الآلات الجديدة التي كانت تضاعف الإنتاج الريفي في بريطانيا، فظلت الزراعة في أيرلندا تقليدية لاتحرز تقدما. وكان ملاك الأراضي الزراعية الكبار غائبين يعيشون في إنجلترا وكانوا يستنزفون أيرلندا بكل ما أمكنهم من جهد دون رعاية لمصالحها[١١]. ففي منطقة المصانع في دبلن كان الفقر أشد فتكا منه في الريف. لقد عوقت الصناعة الأيرلندية بالجمارك الباهظة التي منعت استيراد القطن الخام، وبالقوانين والإجراءات التجارية التي

منعت – إلى حد كبير – المنتجات الأيرلندية – باستثناء المنتجات المصنوعة من الكتان – من منافسة المنتجات البريطانية في أسواق الإمبراطورية[١٢]. وقد كتب شيلي بعد أن رأى أحوال عمال المصانع في دبلن سنة ١٨١٢: « لم أر بؤسا بشريا أعمق من ذلك حتى الآن[١٣] » وكان الأيرلنديون الكاثوليك يدفعون الأعشار مثل كل السكان لدعم الكنيسة البروتستنطية في أيرلندا، لكنهم بالإضافة لهذا استمروا من خلال الإسهامات التطوعية يدعمون رجال الدين الكاثوليك الذين كانوا قد جردوا من ثرواتهم. وكان من الطبيعي أن تمول كنيسة روما حركة الأيرلنديين الساعية للاستقلال، وبالتالي فقد اكتسبت حب الأيرلنديين الكاثوليك وولاءهم. ونجد هنا أن الثورة الاجتماعية كانت عادة دينية محافظة، وكان الليبراليون من أمثال توماس مور Moore رغم صداقتهم للشكوكيين من أمثال لورد بايرون لم يبتعدوا علنا عن الكاثوليكية الأصولية (التقليدية).

وقد كان الثائر الذي قاد الثورة ضد استغلال أيرلندا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بروتستنطيا هو هنري جراتان H. Gratan (١٧٤٦ – ١٨٢٠) وكان تابعا لمدرسة (منهج) أيرلنديين آخرين هما بورك Burke وشريدان Sheridan. وكان يؤمن بسلطان العقل وكان يعبر عن آرائه ببلاغة، وبهذا السلاح أحرز بعض الانتصارات التي وإن كانت محدودة إلا أنها كانت ذات مغزى: سحب قانون الاختبار Test Act إذ كان يتطلب الخضوع لكنيسة إنجلترا كشرط أساسي لعضوية البرلمان، وإزاحة أكثر القيود صرامة من أمام التجارة الأيرلندية، والاعتراف بأن ملك إنجلترا وحده بموافقة برلمان أيرلندا، هو صاحب الحق في إصدار التشريعات لأيرلندا، بمعنى أن التشريعات الصادرة عن البرلمان الأيرلندي لا تحتاج لموافقة برلمان بريطانيا العظمى. وعلى أية حال فإن جراتان قد فشل في دعوته إعطاء الحق لكاثوليك أيرلندا في دخول البرلمان الأيرلندي، فظلت أيرلندا بلدا كاثوليكيا تحكمه حكومة بروتستنطية.

وتبنى ثيوبالد ولف تون Tone (١٧٦٣ – ١٧٩٨) القضية. لقد تخرج – مثل جراتان – في كلية التثليث في دبلن، واتجه إلى لندن لدراسة القانون، وعندما عاد شارك في تنظيم جمعية الأيرلنديين المتحدين Society of United Irishmen (١٧٩١) التي كان هدفها

تحقيق التعاون بين البروتستنط والكاثوليك في أيرلندا للمطالبة بالإصلاح الاجتماعي والسياسي. لقد نظم تون بحماس شديد وطاقة لاتنفد ميثاقا كاثوليكيا أدى برنامجه العملي إلى إرهاب البرلمان الأيرلندي فسارع بإعطاء حق الانتخاب للكاثوليك ولم يقنع تون بهذا ففي سنة ١٧٩٤ دخل في مفاوضات مع وليم جاكسون الذي كان يمثل بشكل سري لجنة الأمن العام التي كانت تحكم فرنسا التي كانت آنئذ تخوض حربا ضد بريطانيا - واكتشف أمر جاكسون وتم القبض عليه فهرب تون إلى الولايات المتحدة ومنها إلى فرنسا حيث حث لازار كارنو Carnot عضو اللجنة للموافقة على قيام فرنسا بغزو أيرلندا. وتلقى الجنرال لازار هوش Hoche أمراً بجعل تون جنرالاً مساعدا والتوجه إلى أيرلندا في ١٥ ديسمبر ١٧٩٦ بست وأربعين سفينة وأربعة عشر ألف مقاتل، وفشلت الحملة بسبب عاصفة شديدة قبالة سواحل إنجلترا وجنحت معظم سفنها، لكن تون بقي على قيد الحياة وصحب قوة فرنسية أصغربهدف مساعدة أيرلندا فوقعت هذه القوة في الأسر وحكم على تون بالشنق لكنه تخلص من حياته بأن قطع حنجرته بنفسه في السجن في نوفمبر ١٧٩٨.

وفي هذه الأثناء تحول السخط الأيرلندي من الحكم البريطاني إلى ثورة عامة، ورأى رئيس الوزراء البريطاني بت Pitt تهدئة الحركة بالتصالح معها، فسمح للدوق بورتلاند وزير الداخلية (الذي تدخل في اختصاصه أمور أيرلندا) أن يعين وليم ونتورث ممثلا للتاج وهو معروف بتعاطفه مع الأيرلنديين. وبعد ثلاثة أشهر (من يناير إلى مارس ١٧٩٥) قدم خلالها مزيدا من التنازلات للأيرلنديين لم ير بت Pitt أنها تنازلات حكيمة، فتم استدعاؤه وأصبحت المقاومة الأيرلندية حرباً بكل معنى الكلمة، وفي وقت من الأوقات انضم البروتستنط الأيرلنديون للكاثوليك في مهاجمة الحكم الأجنبي، لكن في ألستر Ulster حيث كان البروتستنط أغلبية وجدناهم سرعان ما انقلبوا على الكاثوليك الأيرلنديين وتحول موقفهم من التعاون معهم إلى معارضتهم خوفاً من أن يؤدي نجاح الثورة الأيرلندية إلى وقوعهم (أي وقوع البروتستنط) تحت السيطرة الكاثوليكية. وفي سبتمبر سنة ١٧٩٥ كون البروتستنط في ألستر الجمعية البرتقالية (جمعية الأورانج Orange Society وانضموا لجماعة «Peep - of - Day Boys» في إحراق وتدمير بيوت الكاثوليك وكنائسهم فهرب مئات

الكاثوليك من الستر خوفا من مذبحة ، وراح البروتستنط ينسحبون بشكل متزايد من جماعة أيرلندا المتحدة. وحمل الكاثوليك أسلحتهم وأحكموا سيطرتهم على عدة كونتيات Counties (دوائر أو مديريات) وتقدموا صوب الحصون الحكومية في دبلن. وظن جراتان Grattan أنه قد يحقق السلام باقتراحه في البرلمان الأيرلندي أن يتاح للكاثوليك عضوية البرلمان الأيرلندي فلقي اقتراحه معارضة عامة لأنه سيحيل البرلمان الأيرلندي إلى قوة كاثوليكية (وكان للإيرلنديين في ذلك حق الانتخاب لمرشحين بروتستنط) وطلب الجنرال – البريطاني دعماً وتلقاه بالفعل وأعلن الأحكام العسكرية، وتحولت العاصمة التي كانت سعيدة مرحة إلى جهنم وانتشر فيها القتل طوال أسابيع، وانتصرت الحكومة إذا كان المعيار هوعدد الجثث وفي خريف ١٧٩٨ كانت الثورة قد قمعت.

لكن بت Pitt كان يعلم أن هذا القمع ليس هو الحل وأن تحت الرماد لهيب نار يمثل خطراً كبيرا على بريطانيا. وبحلول عام ١٨٠٠ كانت إنجلترا في حروب مستمرة مع فرنسا طوال سبعة أعوام أصابها فيها من الاضطرابات والفوضى ما أصابها بسبب الثورة الفرنسية وأفكارها. والآن فقد أعاد – على أية حال – نابليون النظام إلى فرنسا كما أعاد القوة لجيوشها، وكان يشيد أسطولا سرعان ما سيتحدّى بريطانيا في سيطرتها على البحار. وكانت أيرلندا النافرة غير الموالية على شفا الثورة دائما، تمثل دعوة يومية لنابليون لقيادة قواته عبر القنال الإنجليزي، ليتحالف الكاثوليك مع الكاثوليك ويتم تنظيم أيرلندا لتكون قوة معادية يتم غرسها في جنب بريطانيا. وشعر بت Pitt بضرورة إيجاد سبيل لتوحيد أيرلندا مع بريطانيا بطريقة آمنة في ظل برلمان واحد وملك واحد، فإذا ما أمكن تحقيق ذلك، أعطى حق الانتخاب للجميع على قدم المساواة وحق الترشيح – وبالتالي الوصول لعضوية البرلمان – للجميع دون تفرقة بين بروتستنطي وكاثوليكي، ليس في أيرلندا فقط وإنما في إنجلترا وإسكتلندا وويلز أيضاً، وأصبح شغل الوظائف والمناصب العليا مُتاحاً للجميع أيضاً على سواء، وأن يكون هناك برلمان واحد يضم البروتستنط والكاثوليك على سواء في لندن، وأن تقدم الحكومة رواتب لرجال الدين المعارضين ورجال الدين الكاثوليك أسوة برجال الدين في الكنيسة الرسمية[١٤]. وبهذه الطريقة لا يكون الدين عامل سخط وثورة وإنما قوة

للوحدة الوطنية والرضا العام.

ومثل هذه الخطة التي كان نابليون قد تبناها قبل ذلك بعام بوفاقه مع الكنيسة الكاثوليكية – واجهت معارضات مختلفة فالأيرلنديون الكاثوليك تشككوا في أنها مجرد قناع لاستمرار سيطرة إنجلترا على أيرلندا، واعترض الأيرلنديون البروتستنط لأن هذه الخطة قد تؤدي إلى أن يحكمهم الكاثوليك المنتصرون الذين قد ينتقمون منهم ويجردونهم من ممتلكاتهم. ولم يكن أعضاء البرلمان الأيرلندي راغبين في حل برلمانهم. وراح بت Pitt يأمل أن يؤدي اتحاد ايرلندا مع إنجلترا على المدى الطويل مع حرية التجارة في مختلف أنحاء الإمبراطورية سيؤدي إلى انتعاش الاقتصاد الإيرلندي مما سيرضي الايرلنديين ويؤكد اتحادهم مع إنجلترا كما كان الحال بالنسبة للاسكتلنديين، وكان بت Pitt يرى أن هذه الخطة سترضي الأيرلنديين وتجعلهم يقبلون حكم الأغلبية البروتستنطية في بريطانيا. وجرى حث البرلمان الأيرلندي على حل نفسه (وتم هذا في أول أغسطس سنة ١٨٠٠) واستخدمت أساليب عدة لتحقيق هذا الهدف منها توزيع الأموال بسخاء ومنح كثير من رتب النبالة، والمناصب الشرفية (التي يتقاضى شاغلها راتبا دون عمل حقيقي يؤديه[١٥]) ولعب التجار الأيرلنديون دورا مهما في حث البرلمان الأيرلندي على حل نفسه، وهكذا أصبحت أيرلندا حتى سنة ١٩٢١ يحكمها البرلمان البريطاني الذي كان فيه لأيرلندا ممثلون (نواب) في مجلس اللوردات ٢٨ من اللوردات الدنيويين وأربعة من اللوردات الروحانيين (الأساقفة ورؤساء الأساقفة) ومائة عضو في مجلس العموم.

ومما قلل نسبيا من النجاح الواضح الذي حققه بت Pitt أنه كان غير قادر على كسب الملك لصالح خطته. فقد رفض الملك جورج الثالث الموافقة عندما اقترح بت تنفيذ وعده الضمني بإكمال المساواة السياسية للكاثوليك وفي هذا الكيان السياسي الجديد المسمى «المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا» وكان رفضه قائما على أساس أن قسمه عندما تولى الملك يلزمه بحماية كنيسة إنجلترا الرسمية. وعندما ضغط عليه بت Pitt ألمح الملك إلى العودة للوضع السابق، فرضخ بت وشعر بالخطر واستقال في ٣ فبراير ١٨٠١، وهكذا أجل موضوع التحرر الكاثوليكي الكامل، وكان عليه الانتظار حتى سنة ١٨٢٩.

وخلص معظم القادة الأيرلنديون إلى أنهم قد خدعوا وأن بت لم يكن ينوي أبداً إنجاز وعده. وظهرت مقاومة الاتحاد مع إنجلترا باعتبارها إلحاقا أوضما فعليا. وفي سنة ١٨٠٣ قاد روبروت إميت Emmet جماعة انتحارية في ثورة جعلته من أحب الأبطال في التاريخ الأيرلندي، والأغاني الأيرلندية. وكان قد ولد في دبلن (١٧٧٨) وكان أصغر أبناء طبيب نائب الملك. وكان على وشك التخرج في كلية التثليث Trinity College بمرتبة الشرف عندما حذف اسمه من سجل الخريجين احتجاجاً على التحقيقات التي تجريها الحكومة فيما يتعلق بوجهات النظر السياسية للخريجين، وانضم إلى العصبة الأيرلندية United Irishmen (الأيرلنديين المتحدين) التي كان أخوه الأكبر توماس سكرتير مجلسها الأعلى. وكان توماس يناهض العنف الثوري ولكن روبرت ذهب إلى فرنسا ووجد قبولا عند نابليون وحثه على تكرار محاولة غزو أيرلندا فلما فشل في إقناع نابليون عاد إلى دبلن وجمع السلاح والناس وخطط للقيام بهجوم على حصن دبلن وعندما علم أن الحكومة اكتشفت مؤامرته وأمرت بالقبض عليه شكل – على عجل – قوة من ١٦٠ رجلا واتجه للحصن. وفي طريقهم قابلوا لورد كلراردن Kilwarden رئيس العدالة في أيرلندا فقتله الرجال الثائرون غير المنضبطين كما قتلوا ابن أخيه في البقعة نفسها. وتحقق إميت Emmet أنه لابد الآن من قمع حركته، ففر. واختبأ لفترة في جبال وكلو Wicklew. وكشف نفسه باقترابه من منزل خطيبته ساره كوران Sarah Curran ابنة جون فيلبوت كوران وهو بروتستنطي مدافع عن القضية الأيرلندية، فتم القبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة وحكم عليه بالإعدام. ويمثل حديثه للمحلفين نموذجا للبلاغة الأيرلندية الكلاسية:

«طلب واحد أرجو تحقيقه عند مغادرتي هذه الدنيا: أن تتكرّموا عليّ بالصمت. لاتدعوا أحدا يكتب على شاهد قبري شيئا، فلا أحد ممن يعرفون دوافعي الآن يجرؤعلى الدفاع عنها. لاتدعوا الظلم والجهل يلوثان أهدافي ودوافعي دعوا دوافعي وأهدافي ودعوني في طي النسيان وفي هدوء وسلام. وليبق قبري وليس عليه كتابة. ولتبق ذكراي في طيّ النسيان حتى يأتي وقت آخر ورجال آخرون يمكنهم أن يحكموا بعدل في أمري. وعندما تأخذ أمتي مكانها بين أمم الأرض اكتبوا شاهد قبري. اكتبوه ساعتها وليس قبل ذلك»[١٦].

بت ونلسون ونابليون

[١٧٨٩ - ١٨١٢]

١- بت Pitt والثورة

شغل وليم بت الثاني في سنة ١٧٨٣ منصب مستشار وزارة المالية البريطانية ووزيرا للخزانة. لقد كان هو الذي جمع أموال المملكة ووزعها فحق له أن يكون سيد الجزر البريطانية وراعي اندماج وحداتها.

وكاد يجمع في إهابه كل مزايا البريتون، فهو ينحدر من أسرة بارزة وتفهّم السياسات العالمية وأمور المالية العليا والطباع الحسنة من أبية المتألق المتسم بالمحافظة ومن الحاشية المحيطة به (بأبيه)، وكان أبوه هو إيرل شاثام Earl of Chatham. وتلقى بت أفضل أنواع التعليم الخاص، وكان أبوه في كثير من الحالات هو معلمه. ودخل البرلمان وهو في الحادية والعشرين من عمره وتولى أمر إنجلترا وهو في الرابعة والعشرين. لقد سحق المعارضة بتحفظه واعتزازه وبفكره ومنطقه أكثر مما فعل بإثارته العواطف وتوظيفه لبلاغته وفصاحة لسانه، لقد سحقها برؤيته الثاقبة الراسخة ومعلوماته عن المالية العامة وإتقانه لدقائقها. وكان قد قرأ كتاب آدم سمث عن ثروة الأمم وأعجب به واتفق مع سميث في فلسفته عن الاقتصاد الحر وحرية التجارة. لقد أيد – وهو الأرستقراطي – مطالبة الفئة التجارية الصاعدة (المرسانتيل) والبورجوازية الصناعية بأن يمثلوا تمثيلا كاملاً في البرلمان وفي السياسة البريطانية، فبثرواتهم المنسابة (بسيولتهم النقدية) حارب نابليون، بينما كانت ثروات الأرستقراطية يصعب تعبئتها لهذا الغرض لأنها تتمثل في الأراضي التي يمتلكونها فأسهموا بأدوار استشارية ودبلوماسية وأخرى متعلقة بالبروتوكول. وأسس بت نظاما ماليا لتسديد الدين الوطني (بتخصيص أموال خاصة لهذا الغرض) ونجح في تقليص هذا الدين حتى استنفدت الحرب كل شلن يمكن الحصول عليه من الشعب. لقد بذل جهدا شديدا لكن بدون نتيجة لتقليص البلدان الصغرى (مدن أو قرى) rotten boroughs (البلدان التي كانت قبل سنة ١٨٣٢

تمثل في البرلمان الإنجليزي بنائب واحد أو أكثر) رغم أنه استخدمها في بداية شغله لمناصبه. وأيد نقل قرار الحكم في الالتماسات القانونية من القاضي إلى هيئة محلفين علنية. وحمى الصحافة في كشفها للفساد الحكومي، وأيد ويلبرفورس في معركة طويلة ضد تجارة الرقيق. لقد هزمه نابليون وحطم روحه لكن بريطانيا التي كان بت قد أعاد تنظيمها وضبط ماليتها وبث فيها الروح هي التي هزمت نابليون.

وكاد الملك البريطاني يتساوى مع قنصل فرنسا (نابليون) في كم المشاكل التي يواجهها، فكاد - أي جورج الثالث - يأخذ بنصيحة بت Pitt في كل شيء إلا في حق الكاثوليك في المساواة الكاملة، غير أن الملك الهرم كان قابلا للانتكاس إلى درجة الخبل في أية لحظة، تماما كما فعل في الفترة من ١٧٨٨ إلى ١٧٨٩، وفي أثناء مثل هذه الانتكاسات كان أمير ويلز يحوم دوماً بالقرب من العرش - ذلك الأمير الذي كان الوثن المعبود لحزب الهويج (الأحرار) والذي كان صديقا لشارلز جيمس فوكس الذي لم يتفق مع بت Pitt سوى في حب النبيذ...(*) ولفترة ظل جورج الثالث متوقعا الموت، لكنه شفي - وإن ظل ضعيفا مترددا، فركن لحكم بت.

وعندما تولى رجل الدولة الشاب الحكم كانت إنجلترا قد بدأت لتوها تفيق من الحروب المدمرة مع مستعمراتها الأمريكية. لقد بدت بريطانيا مدمرة عسكريا في مواجهة فرنسا المفلسة إلا أنها منتصرة، وإسبانيا المزدهرة والمتنورة تحت حكم شارل الثالث، وروسيا التي وسعت رقعتها تحت حكم كاترين الثانية ونظمت جيوشا هائلة وابتلعت نصف بولندا وراحت تتآمر لتقسيم المناطق الأوربية التابعة لتركيا (الدولة العثمانية) بينها وبين جوزيف الثاني، إمبراطور النمسا. والآن فإن أمن إنجلترا يعتمد على أمرين: سيطرتها على البحار، وتوازن القوى السياسية في أوربا، فإذا اختل التوازن بسيطرة طرف من الأطراف لأمكنه أن يملي على إنجلترا ما يريد دون إغلاق أسواق القارة الأوربية في وجه البضائع الإنجليزية، وهون موت جوزيف الثاني من أمر التهديد الشرقي Eastern threat وترددت كاترين وأوشك بت على التركيز على الأمور الداخلية تاركاً أمور السياسة الخارجية في المحل الثاني لولا إعلان

(*) النص .. only in loving wine this side of paralysis.

الثورة الفرنسية أنها ستعطي الدول الملكية دستورا فإن لم تقبله دمرتها. ويوما بعد يوم كانت هذه الأخبار المثيرة تعبر القنال الإنجليزي: جماهير المدينة (باريس) يقتحمون الباستيل، تم التخلي عن الحقوق الإقطاعية، دولة لادينية تصادر ممتلكات الكنيسة، جحافل النساء تتقدم إلى فرساي وأجبرن لويس السادس عشر وماري أنطوانيت على ترك فرساي والعيش في باريس تحت رقابة الجماهير.

وفي البداية لم يكن بت منزعجا بقدر انزعاج أصدقائه من الطبقة العليا، ففي إنجلترا دستور بالفعل امتدحه عدد كبير من الفرنسيين المشاهير بل وحسدوا إنجلترا عليه لكن وجود اضطراب - مهما قل - في فرنسا لابد أن يوضع في الاعتبار: فإنجلترا لا يمكنها في حال وجود هذا الاضطراب أن تعكف مطمئنة على أمورها الداخلية[١] وفي الوقت الذي كان فيه الأرستقراطيون مضطربين كان رجال الأدب في بريطانيا في حالة سعادة - جودون، ووردزوورث، وكولردج، وسوثي، وكوبر Cowper وبيرنز Burns. ففي ٤ نوفمبر ١٧٨٩ تأثر أعضاء «جمعية إحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨» تأثرا شديدا بعظات الداعية ريتشارد بريسي Price وهو داعية مناهض للتثليث المسيحي Unitarian (موحد) حتى إنهم أرسلوا يهنئون الجمعية الوطنية في باريس معبرين عن أملهم في أن يكون «النموذج العظيم الذي قدمته فرنسا» حافزاً للأمم الأخرى لتأكيد حقوق الإنسان[٢] ووقع رئيس الجمعية الإيرل الثالث ستانهوب Stanhope الرسالة وهو زوج أخت وليم بت. وانتشرت خطب بريسي Price الآنف ذكره في كل أنحاء بريطانيا، وكانت هذه الخطب كنشرات تكاد تدعو للثورة.

«تشجعوا يا كل الأصدقاء، ولتصبوا إلى الحرية واكتبوا دفاعاً عنها، فبشارات النجاح قد هلت طلائعها، فلم يكن جهدكم بلاطائل. انظروا الممالك وقد أيقظتموها فهبت من سباتها وكسرت قيودها وطالبت ظالميها بالعدالة! انظروا النور الذي أطلقتموه، فبعد تحرر أمريكا، انعكس النور على فرنسا، ففيها تحول إلى لظى أحرق الطغيان (الحكم المطلق) فأدفأ أوربا وأضاءها!

«الويل لكم يا طغاة العالم! خذوا حذركم يا كل من يساندون الحكومات الحقيرة الذليلة وكل النظم الطبقية الخسيسة!... إنكم لن تستطيعوا الآن منع النور عن العالم، ولن

تستطيعوا فرض الظلمة عليه.. أعيدوا للبشر حقوقهم واقتنعوا بإصلاح ما أفسدتموه، قبل أن يلحقكم الدمار وما تأفكون[٣]» .

وكان هذا أكثر مما يستطيع إدموند بورك Burke تحمله فلم يعد هو الخطيب المفوّه المدافع عن قضية المستعمرات الأمريكية (المقصود المستعمرات البريطانية والفرنسية في أمريكا) أمام البرلمان. لقد بلغ الستين من عمره الآن، وكان قد لزم داره ومزرعته واستعاد إيمانه الديني الذي كان عليه في شبابه. وفي ٩ فبراير سنة ١٧٩٠ بدأ - في مجلس العموم مناقشات أنهت صداقته القديمة مع شارلز جيمس فوكس: «إن الخطر الحالي الذي يواجهنا هو الفوضوية أو انعدام الحكومة ومايتبع ذلك من فوضى سياسية واجتماعية. هذا الخطر الناتج عن الإعجاب بما حققه العنف من نجاح وما حققه الخداع من مكانة. إنه إعجاب بالديموقرطية المسفة الطاغية حيث يغيب العقل وتضيع المبادئ ويكون النفي والإبعاد وإهدار الدم ومصادرة الممتلكات والسلب والنهب والقسوة، والدموية. فإلى جوار الدين لايأتينا الخطر من التسامح وإنما من الإلحاد الذي يبدو واضحا في فرنسا لمدة طويلة كامنا في كل نزاع وواضحا ويكاد يكون معلنا، مع أن الإلحاد غباء ورذيلة لاتقرها الطبيعة وعداء لكل وقار البشر واتحادهم[٤]» وفي نوفمبر ١٧٩٠ أصدر بورك كتابه (تأملات في الثورة الفرنسية) الذي جعله على شكل خطاب إلى رجل مهذب في باريس، وقد استغرق هذا الخطاب (الكتاب) ٣٦٥ صفحة. لقد أدان الدكتور بريس Price «وجمعية إحياء ذكرى الثورة»: لقد كان من رأيه أن ينشغل رجال الدين بعملهم وهو الدعوة للفضائل المسيحية ولا دخل لهم بالإصلاحات السياسية، فهذه الفضائل تتغلغل في لب الأمور - ميل الطبيعة البشرية للشر، أما الإصلاح فلا يغير سوى الأشكال السطحية للشر فلا سبيل للسياسة لتغيير طبيعة البشر. فحق الاقتراع للجميع تضليل واحتيال يستخدم فيهما الخداع: فإحصاء الأنوف noses لن يؤثر في توزيع السلطة واتخاذ القرارات والنظام الاجتماعي شيء لابد منه لضمان أمن الفرد، وهذا النظام يصبح لا بقاء له إذا أصبح كل فرد حرا في التمرد ضد القانون الذي لايعجبه. فالأرستقراطية لا بد منها لأن وجود الأرستقراطية يتيح للأمة حكاما مدربين ذوي عقول صالحة. والملكية (بفتح الميم واللام) مطلوبة فهي نظام طيب لأنها تعين في الظروف

الصعبة على إعادة الانضباط والتوافق بين عناصر الأمة، مع وجود الوحدة أيضا، فالملكية تمثل استمرارا تاريخيا، كما أنها تعطي الإحساس النفسي بالانتماء لكيان واحد (الوحدة).

وبعد شهرين من هذا البيان التاريخي الناري نشر بروك (خطاباً إلى عضو الجمعية الوطنية الفرنسية)، وفي هذا الخطاب قدم لنا أساساً فلسفيا للاتجاه المحافظ Conservatism (وقدمه أيضا بشكل أكثر اكتمالا في: خطاب إلى لورد نبيل ١٧٩٦) إن أي فرد مهما أوتي من العلم والعبقرية لايمكنه بعمره المحدود أن تكون لديه الحكمة والمعرفة اللتان تكفلان له الحكم الصحيح على هذا التراث وتلك التقاليد المتوارثة المعقدة والمصقولة (المهذبة) والدائمة، ذلك التراث وتلك التقاليد المشتملة على تجارب المجتمع والأمة وأحكامهما. إن هذه التقاليد المتوارثة هي تيار تدفق مارا بآلاف الخبرات والتجارب في معمل عظيم اسمه التاريخ. ما كان للحضارة أن تظهر «إذا لم تكن أسباب ممارسة الواجبات المعنوية وأسس المجتمع واضحة ومقنعة لكل فرد(٥)». وعلى هذا فالدين لايمكن شرحه إلا بجهد جهيد للشباب لقلة معلوماتهم، وابتهاجهم بالتحرر العقلي. إن هؤلاء الشباب لن يقدروا ما يؤديه الدين من خدمات في ضبط المجتمع والحد من غرائز الأفراد والنزاع الفردي غير المنضبط إلا بعد أن تصبح لديهم خبرات كثيرة عن الطبيعة البشرية وبعد أن يدركوا قوة الغرائز البدنية. «وإذا كان لابد أن نكشف عرينا ونهتك سترنا (بإطلاق غرائزنا) بتخلينا عن الدين المسيحي .... الذي كان أحد المصادر الكبرى لحضارتنا.... فلا بد أن نتوقع شرا، فلا بد أن خرافات ومعتقدات أخرى ستحل محلها... معتقدات خرقاء مؤذية مهلكة ومنحطة(٦)».

وعلى النحو نفسه فمن الصعب أن نشرح لشاب قد ركن إلى العقل منذ فترة وجيزة وهو يحسد جاره لفضائله، أن الانسان ذا القدرات الفائقة لن يمر خلال تدريبات طويله ومكلفة لتحصيل مهارات مفيدة اجتماعيا أو لحث نفسه على وضعها موضع التنفيذ إلا إذا سمح له بالاحتفاظ بقدر من أمواله كهبة لأولاده. وأكثر من هذا فإن المجتمع البشري ليس مجرد تجمع أشخاص في مكان وإنما هو أيضا توالي الأشخاص (الأجيال) عبر الزمن – إنه من أشخاص وافتهم منيتهم وأشخاص لا يزالون أحياء أو لم يولدوا إنه استمرار للأبدان والدماء نفسها عبر الأجيال. هذه الاستمرارية موجودة فينا بشكل أعمق أكثر من اجتماعنا في بقعة

محددة من الأرض، لأنه يمكن حملها (أي هذه الاستمرارية) حتى ونحن نعبر مهاجرين من مكان إلى مكان. كيف نوضح هذا للصبية boys الذين تتفجر طموحاتهم الفردية وكبرياؤهم المغرور الذي يجعلهم - بطيش - مستعدين للانفلات من الالتزامات الخلقية أو الروابط العائلية؟

لقد حيّا القادة المحافظون في بريطانيا - بامتنان وبهجة - هذا اللحن الحزين الصادر عن بورك Burke ينعى فيه عالما يحتضر (المقصود باللحن الحزين هنا أفكاره الآنف ذكرها) وقبل رجال من ذوي الأحكام الناضجة المنشورات الثلاثة التي أصدرها كإسهام مميز في مجال الفلسفة الاجتماعية والسياسية، وقد تحمس لها كولردج في أواخر أيامه كحماسه في وقت من الأوقات للثورة. لقد كتب كولردج في سنة ١٨٢٠ «لا أتصور ألا تكون لكتابات بورك في أي وقت من الأوقات وفي أية حال - قيمة عظيمة كأعظم ما تكون القيمة... إنني لا أستطيع أن أضيف إليها كلمة كما لا أستطيع أن أحذف منها كلمة[٧]». ودافع اثنان من البريتون Briton - من بين كثيرين - عن الثورة: السير جيمس ماكنتوش في كتابه (الحجج الغاليّة[*]). وتوماس بين Paine في كتابه (حقوق الإنسان) - وصدر كلاهما في سنة ١٧٩١. لم يكن قد مضى على الثورة (الفرنسية) آنئذ إلا عامان، لكنها كانت قد أنجزت عملها الرئيسي - أعطت فرنسا دستورا إصلاحيا وأنهت الامتيازات الإقطاعية وأقرت حرية الكلام والصحافة والاجتماعات واستولت على أملاك الكنيسة لإنقاذ الدولة من الإفلاس، فلم يكن الدور التدميري للثورة قد حل بعد، وفي ظل هذه الظروف (عدم وصول الثورة الفرنسية إلى مرحلة التدمير) كان ماكنتوش يستطيع الرد على بورك بقوله: إن الثورة الفرنسية كانت احتجاجا شرعيا ضد حكومة غير عادلة ولا تتسم بالكفاءة. وكان في استطاعة بين Paine أن يدلل أنه لا يوجد تراث أو تقاليد يمكنها أن تنكر جهود المصلحين وأن الحقوق التي أعلنتها الثورة الفرنسية هي الميثاق الصحيح لدولة حديثة.

لكن بين Paine ذهب إلى ما هو أبعد كثيرا. لقد طالب بالجمهورية بدلا من الملكية والأرستقراطية، وطالب بالضرائب التصاعدية التي قد تؤدي إلى إعادة توزيع الثروات

(*) نسبة إلى بلاد الغال (فرنسا). (المترجم)

المكدسة مما قد يقضي على البطالة والفقر ويتيح التعليم لكل طفل، ويتيح معاشا لكل شيخ. وراح بين Paine يعيد صياغة حقوق الإنسان مستخدما المصطلحات التي استخدمها روسو:

١- يولد الناس أحرارا ويظلون دوما أحرارا متساوين في الحقوق. وبالتالي فالفوارق المدنية لا ينبغي الإبقاء عليها إلا للصالح العام.

٢- هدف كل التنظيمات السياسية هو الحفاظ على حقوق الإنسان الطبيعية التي لا تتغير بمرور الزمن. وهذه الحقوق هي الحرية، والملكية (بكسر الميم) والأمان ومقاومة الظلم.

٣- الأمة هي مصدر السلطات، فليس لفرد أو مجموعة سلطة مهما كانت إلا إذا كانت منبثقة من الأمة (الشعب).

وقد بيع من كتاب (حقوق الإنسان) هذا خمسون ألف نسخة في أسابيع قليلة، وقد يشير هذا إلى قوة الحركة الراديكالية في إنجلترا في سنة ١٧٩١. لقد انتعشت الجمعيات الراديكالية المختلفة، وكان بعضها أقل راديكالية من الأخرى: جمعية المعلومات الدستورية، جمعية لندن للمراسلة، جمعية أصدقاء الشعب الإسكتلنديين، وجمعية إحياء ذكرى الثورة وأرسلت بعض هذه الجمعيات تهاني للثورة الفرنسية، وقد أسهمت جمعيتان منها في العمل على نشر كتاب بين Paine على نطاق واسع[٨].

ولاحظ بت Pitt ذلك وانزعج له. وكان بت فيما بينه وبين نفسه متأثراً بكتاب بين Paine. لقد قال لابنة أخيه: «إن بين Paine ليس غبيا، ربما كان على حق لكنني إذا نفذت مايريد لوجدت بين لدي غدا آلافاً من قطاع الطرق، وستحترق لندن[٩]». فأصدر أمرا بالقبض على بين Paine ففر إلى فرنسا فحوكم غيابيا وأدين بالخيانة (ديسمبر ١٧٩٢). لقد كان لدى الإنجليز أسباب كثيرة لعدم اتباعهم فرنسا في ثورتها. لقد كانوا قد قاموا بثورة بالفعل في سنة ١٦٤٢ كثورة ١٧٨٩ في فرنسا. وكانت لهم ثورتهم الفكرية قبل الفرنسيين: لقد سبق التركيز على الجانب الربوبي في العقيدة الأورثوذكسية (لا علاقة لهذه الكلمة هنا وفي هذا السياق بالمذهب الأورثوذكسي المعروف وإنما هي أقرب ما يكون إلى

معنى الأصولية) – سبق هذا التركيز حركة التنوير الفرنسية، وكان هذا الاتجاه قد تغلغل متزناً في بريطانيا في الوقت الذي وصل فيه فولتير إلى بريطانيا في سنة ١٧٢٦ . وقد حول الميتوديون (المقابل الحرفي : الحركة المنهجية، والميتوديون أصحاب مذهب مسيحي بروتستنطي) بعض السخط إلى الايمان الديني . وكانت الكنيسة الأنجليكانية كنيسة ليبرالية نسبيا ولم تكن لها ثروات كبيرة تثير حسد جماعة المؤمنين وعداوتهم . وكان الإقطاع قد اختفى ولم تكن هناك رسوم إقطاعية، وكانت نسبة كبيرة من الفلاحين تمتلك الأرض التي تفلحها، وكانت الطبقة الوسطى قد أصبح لها – بالفعل – ممثلون في البرلمان وأصبح لها دور فعال في سياسة البلاد، وكان رئيس الوزراء غالبا ما يؤيد مطالبها . وكان العمال حقيقة يلقون معاملة سيئة من أصحاب العمل والمشرعين، وكان بعضهم يثورون بعنف لكن كانت الحكومة تعتمد على قواتها المسلحة لقمعهم بعنف وتعتمد على القضاء لإصدار أحكام بإعدام زعمائهم . وعندما نشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا تحولت الكراهية بين الطبقات إلى حمى وطنية بمعنى أن التهديد الخارجي وحد بين الجميع لمصلحة الوطن . لقد تخلت الثورة (في بريطانيا) عن مكانها تاركة إياه للإصلاح .

وفي هذه الأثناء كانت فرنسا قد انتقلت من مرحلة التشريع إلى مذابح سبتمبر، وألحق جيشها الهزيمة بالبروس والنمساويين في فالمي Valmy (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢)، وانتشرت الحمى الثورية في بلاد الراين الألمانية، وأقام مواطنو مينز Mainz ودارمستادت Darmstadt حكومة شعبية بعد أن أطاحوا بالحكم الإقطاعي وخوفاً من غزو أجنبي ومن عقاب يلحقهم من الجيوش الملكية أرسلوا مبعوثين إلى فرنسا طلباً للحماية . وبعد مداولات أصدرت الحكومة الفرنسية في ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أكثر قراراتها ثورية :

« تعلن حكومة الجمعية الوطنية باسم الأمة الفرنسية أنها ستمد يد العون والأخوة لكل الشعوب الراغبة في استرداد حريتها وستهيئ القوة التنفيذية بإصدار الأوامر الضرورية للجنرالات لتقديم المساعدات لهذه الشعوب وستدافع عن المواطنين الذين سيتعرضون أو قد يتعرضون لمشاكل لدفاعهم عن قضية الحرية[١٠] » .

لقد أدى هذا الإعلان السخي الطائش بجعل كل ملكيات أوربا على الحافة (في موقف

خطر) وكانت حكومة بريطانيا العظمى أكثر وعيا بالخطر القادم من غيرها بسبب تقدم الجيوش الفرنسية في بلجيكا ومطالب فرنسا من هولندا بفتح نهر شلدت Scheldt لكل التجارة، وهذا النهر الذي يبلغ طوله ٢٧٠ ميلا ينبع من شرق فرنسا ويمر خلال بلجيكا ويمر بالقرب القريب من أنتورب Antwerp في هولندا. وهناك ينشعب إلى فرعين يصبان في بحر الشمال. وكانت هولندا وفقاً لصلح ويستفاليا قد أغلقت النهر في وجه التجارة التي لا ترغب في مرورها، وكانت تعطي أفضلية لبريطانيا وتمنع البلجيك، وعلى هذا انهارت أنتورب وانتعشت أمستردام. وفي ٢٧ نوفمبر ١٧٩٢ أعلمت الحكومة الفرنسية إنجلترا قرارها باستخدام القوة لفتح منافذ النهر، فأجاب بت بأن بريطانيا ملتزمة على وفق معاهدة وقعت سنة ١٧٨٨ بحماية هولندا إذا تعرضت لهجوم خارجي. وأكثر من هذا فما دام نهر الراين أيضا يصب في بحر الشمال من خلال مصبات هولندية، فإن خضوع هولندا للسيطرة الفرنسية يعني سيطرتها أيضا على مصبات الراين، وبالتالي تحكمها في التجارة البريطانية التي تصل إلى وسط ألمانيا عن طريق الراين. وفي ٣١ ديسمبر ١٧٩٢ أنذرت الحكومة البريطانية فرنسا كالتالي:

«لن توافق إنجلترا بأي حال من الأحوال أن تدعي فرنسا لنفسها حق إبطال ما هو جار، على وفق هواها (بدعوى حماية الحقوق الطبيعية التي نصبت نفسها - أي فرنسا - قاضيا وحيدا يحكم بشأنها) بإلغاء النظام السياسي لأوربا مع أنه نظام ترسخ بفضل معاهدات محترمة وضمنته موافقة كل القوى. إن هذه الحكومة (البريطانية) انطلاقا من مبادئها التي سارت على هداها لأكثر من مائة سنة لا يمكن أن تنظر بلامبالاة إذا نصبت فرنسا نفسها - بشكل مباشر أو غير مباشر - سلطة ذات سيادة في الأراضي المنخفضة، أو حكماً للحقوق والحريات في أوربا[١١]».

وفي ٢١ يناير ١٧٩٣ أعدمت الحكومة الفرنسية لويس السادس عشر وعندما وصل هذا الخبر إلى لندن صدم الملك جورج الثالث وكذلك معظم الشعب البريطاني. وفي ٢٤ يناير أصدرت الحكومة البريطانية أمراً للوزير الفرنسي الماركيز فرانسوا برنار دي شوفيلان de Chauvelin بمغادرة المملكة. وفي أول فبراير أعلنت فرنسا الحرب على كل من إنجلترا

وهولندا. ورحب الملك جورج الثالث بهذه الحرب معتقداً أن الأمة البريطانية ستغدو موحدة بسبب هذه الحرب، أما بت Pitt فرغم أنه بذل كل جهوده لقضية الحرب هذه إلا أنه كان آسفا لاشتعالها. ولقد بدأ بت مفاوضات أدت إلى التحالف الأول (ضد فرنسا) في سنة ١٧٩٣: بريطانيا والبرتغال وأسبانيا وسردينيا ونابلي والنمسا وبروسيا وروسيا. وفرض ضرائب باهظة على كل الطبقات في المملكة وأرسل بشكل متكرر إعانات مالية لحلفائه. وعمل على إصدار القوانين المشددة ضد أي دعاية تروج للثورة الفرنسية أو تدافع عن موقف فرنسا، وعلق حرية الصحافة (١٧٩٤) وقانون الإحضار Habeas Corpus Act الذي كان يضمن للمقبوض عليهم محاكمة سريعة أو إطلاق سراح عاجل(*). وأصبح الوضع الآن هو القبض على المشكوك فيهم سياسيا دون محاكمة. (فعلت فرنسا الشيء نفسه) وبعد مظاهرة مناهضة للحرب جرى في أثنائها قذف حجر على الملك صدر مرسوم الاجتماعات التحريضية Seditious Meeting Act (١٧٩٦) يمنع اجتماع أكثر من خمسين شخصا إلا بإذن الحكومة وتحت إشرافها. وكان من يوجهون نقدا للدستور البريطاني عرضة للنفي مدة سبع سنوات في خليج بوتاني (خليج النبات) في أستراليا. وحوكم الراديكاليون البارزون بتهمة الخيانة في مايو ١٧٩٤ ودافع عنهم توماس إرسكين Erskine وصدر الحكم ببراءتهم. وهؤلاء الراديكاليون البارزون هم: جون هودن توك (عالم فقه اللغة) وجون ثلوال صديق كولردج في مرحلة سابقة، وصانع الأحذية توماس هاردي مؤسس جمعية لندن للمراسلة.

وأوحت هذه المحاكمات بالجو المسعور الذي كان قد صدم الطبقات العليا في بريطانيا عندما وجدوا أنفسهم مواجهين بثورة أخرى سرعان ما ظهرت بعد الثورة التي كلفتهم كثيرا في المستعمرات في أمريكا American Colonies. لقد بدا العالم الذي ظل الملوك والأرستقراطيون يحكمونه طوال ألف عام وكأنه ينهار يحاصره فلاحون يحرقون القصر الذي

(*) في المعجم القانوني للفاروقي: قانون الإحضار هو قانون جلب المحبوس أو الموقوف للمحاكمة أو التحقيق. صدر في ١٦٧٩ في عهد تشارلز الثاني ونص على حظر تقييد حرية الأفراد دون حكم محكمة مختصة، وضرورة جلبهم للمحكمة أو التحقيق خلال مدة معينة من تاريخ حبسهم أو توقيفهم.

يقيم فيه الإقطاعي ويحرقون حجج الملكية، وتحاصره جماهير المدن، يسجنون الأسر المالكة ويقطعون رؤوس مئات من النبلاء. لقد شعر كثير من البريطانيين أن كل هذه النتيجة كانت بسبب «الفلاسفة» الفرنسيين الملحدين وبسبب مقلّديهم من الإنجليز - جودون وبين Paine. وفي أي وقت الآن قد تأتي القوات الفرنسية الشريرة لتستولي على هولندا وبلاد الراين، وقد يحاولون في غضون عام أو عامين غزو إنجلترا، فكيف ستستطيع بريطانيا بسكانها الذين لا يتجاوزون ١٥ مليون نفس والتي ليس لها جيش دائم Standing army أن تهزم فرنسا بسكانها البالغ عددهم ٢٨ مليون نفس وبجيشها القوي المعتز بانتصاراته التي حققها فعلا؟

كان بت يعلم كل هذا لكنه كان يفكر بلغة المال أكثر مما كان يفكر بلغة الرجال، فالرجال يمكن شراؤهم بالمال إن لم يكن من إنجلترا فمن النمسا وبروسيا وروسيا، وإنجلترا بتملك المال يأتيها كل يوم من التجارة والصناعة وماتغله الأرض ومن المستعمرات والقروض والضرائب على كل المواد الاستهلاكية وعلى كل الدخول. كل تلك العوائد المالية يمكن توظيفها في إعداد جيش صغير للدفاع عن بريطانيا ضد غزو غير محتمل. وهذه العوائد يمكنها أن تجعل المصانع البريطانية في حالة عمل دون توقف وتجعل صحافتها وطنية وتجعل رسامي الكاريكاتير فيها على أعلى مستوى. وهذه العوائد يمكنها تمويل جيوش حلفاء بريطانيا الذين ينقصهم المال ويكثر عندهم الرجال. والأهم أن تلك العوائد تمكن بريطانيامن بناء العديد من السفن المحتشدة عسكرا، والمسلحة جيدا للسيطرة على المحيطات ولتحاصر كل ميناء فرنسي وتستولي على كل سفينة فرنسية في البحر، ولتضم للإمبراطورية البريطانية كل مستعمرة فرنسية.. وهكذا راحت بريطانيا تزيد من أساطيلها،ففي كل شهر كانت تضيف إليها سفنا قوية على متونها رجال بحر لا نظير لهم. لقد كان لديها من أعظم أدميرالات (أمراء البحر) في التاريخ.

٢- نلسون: ١٧٥٨ - ١٨٠٤

آل نلســون Nelsons هـم في الأصل آل نيلسن Nielsens من الفـيكنج Viking الآنجلز Anglian الشرقيين، وربما كانت السفن تجري في دماء هوراتيو Horatio. لقد ولد في ٢٩ سبتمبر سنة ١٧٥٨ في بورنهام ثورب Burnham Thorpe، نورفولك Norfolk التي تجاور البحر. وكان أبوه قسيس الأبرشية. وكانت أمه قريبة لروبرت والبول Walpole رئيس الوزراء، وكان أخوها هو الكابتن (القبطان) موريس سكلنج Suckling قد عين في سنة ١٧٧٠ على رأس أسطول H. M. S. توقعاً لحرب مع إسبانيا. وكان هوراتيو وقتها في الثانية عشرة من عمره فتوسل أن يعمل تحت إمرته فوافق، ومن يومها كانت مدرسة هذا الصبي هي البحر.

لم يكن هوراتيو قويا من الناحية البدنية، وكان في غالب الأحوال معتل الصحة لكنه راح ينتهز كل فرصة للدراسة وتطوير نفسه والحصول على مراتب الشرف وتحقيق الفخار. لقد عمل في سفن مختلفة في مهام متباينة وخاطر بحياته مرارا وكان يترقى خطوة خطوة، وفي سن العشرين أصبح قبطانا للفرقاطة هنشنبروك Hinchinbrook. وكان مزهوا مختالا كما كان كفؤا وكان على يقين أكيد أنه سيصل يوما إلى أعلى المناصب وذروة الشهرة. وكان بطيئا في تنفيذ أوامر رؤسائه كما أنهم كانوا متباطئين في مكافأته لخدماته، لكنه أعطى لبريطانيا ذراعه ثم عينه ثم حياته، وكان بمقدوره أن يظل مزهوا طوال حياته بالشموخ نفسه الذي دلت عليه ذكراه (آثاره الباقية).

وكان مستعدا للاستسلام لجمال النساء ورقتهن، فقد كان حساسا لكل نظرة ولمسة. ففي كويك Quebec في سنة ١٧٨٢ كان قبطانا للسفينة ألبيمارل Albemarle وكان على وشك التخلي عن عمله ومنصبه ليعود للمدينة ليقدم عرضا بالزواج لامرأة أمتعته في الليلة السابقة، لكن صديقاً له اعترضه مصمما على منعه ودعاه للعودة إلى واجبه وقدره[١٢]. وفي سنة ١٧٨٧ كان قبطانا للسفينة الطراد بورياس Boreas توانى في أنتيجوا Antigua في جزر الهند الغربية وتزوج السيدة فرانس نيسبت Francos Nisbet وهي أرملة شابة جميلة لها عم ثري. وأحضرها إلى إنجلترا وهيأ لها مقاما في عقار صغير لكنه مريح وقضى معها

فترة سعادة متبادلة في الريف. وعندما أصبحت الحرب مع فرنسا محتملة عين في سنة ١٧٩٣ قبطانا للسفينة أجاممنون – وهي من أكثر سفن البحرية البريطانية كفاءة، وزود بتعليمات للانضمام إلى أسطول اللورد هود Hood في البحر المتوسط وأخذ – عرضاً – مذكرة للسير وليم هاملتون الوزير البريطاني في بلاط نابلي فسلم الرسالة وقابل الليدي هاملتون.

لقد ولدت آمي ليون Amy Lyon في سنة ١٧٦١ لأب حداد من ويلز وراحت تتكسب في شبابها من كد جسدها (بالبغاء) وأنجبت طفلين غير شرعيين قبيل بلوغها التاسعة عشرة من عمرها، وفي هذه السن استقرّ بها الحال لأن تكون رئيسة خدم صاحب الشرف الرفيع شارلز جريفل الابن الثاني لإيرل واروك Warwick، فغير اسمها إلى إما هارت Emma Hart (النص: أعاد تعميدها باسم إماهارت) وعلمها فنون غناء النبيلات والرقص والعزف على البيانو القيثاري وكيف تدخل الغرفة بلطف وكياسة وكيف تتناقش بلطف وكيف تعد الشاي. وعندما تغير كل شيء فيها خلا روحها أخذها إلى جورج رومني Romney الذي رسمها في ثلاثين لوحة. وعندما وجد جريفل فرصة ليتزوج وريثة ثروة كان عليه أن يجد مأوى آخر لهذه السيدة التي تعلمت الآن أن تحبه، ولحسن الحظ فقد كان خاله وليم هاملتون – وهو رجل ماتت زوجته ولم ينجب – موجودا في إنجلترا آنئذ. وكان ثريا تربى مع جورج الثالث، وكان عضوا في الجمعية الملكية وكان جامعاً مميزا للكتابات والآثار عن هرقل، وللأعمال الفنية الكلاسية. وراقت له إما Emma التي وافقت على ترك ابن أخته والذهاب معه وبعد وصوله إلى نابلي أرسل إليها دعوة للحضور مع أمها لتكمل تعلمها للموسيقا فوافقت بعد أن فهمت أن شارلز جريفل سيلحق بها، لكنه لم يلحق.

وقدم السير وليم لها ولأمها أربع غرف ليقيما فيها في دار المفوضية البريطانية، وأمتعها بالرفاهيات والإعجاب اللبق ورتب لها برامج دراسية في الموسيقا واللغة الإيطالية وراح يدفع لمصمم قبعاتها دون تذمر. وكتبت خطابات حب لجريفل، متوسلة إليه أن يأتي إليها لكنه لم يضع نفسه موضع المنافسة مع سير وليم فراحت خطاباته لها تقل شيئا فشيئا عددا ومحتوى ثم توقفت. وأصبحت خليلة ومدبرة بيت للسير وليم لأنهاتضع الحب في المقام

الثاني بعد الرفاهية. ومن ناحية أخرى فإنها كانت تتصرف بتواضع وحكمة كما كانت تعمل الخير (توزع الأعطيات) وأصبحت أثيرة لدي الراهبات والملك والملكة، وجلست أمام رافائيل منجز، وأنجليكا كوفمان ومدام فيجي ليبرون Vigee - Lebrun ليرسموها. وسرّ منها السير وليم فتزوجها في سنة ١٧٩١، وعندما أعلنت فرنسا الحرب على إنجلترا أصبحت وطنية بشكل فعّال وحماسي، وعملت على إبقاء نابلي متحالفة مع إنجلترا (ضد فرنسا).

وفي صيف سنة ١٧٩٤ صدرت الأوامر لنلسون بحصار كالفي Calvi الميناء الكورسيكي الذي كان قد وقع في أيدي الفرنسيين، فاستولى على الحصن، لكن - في أثناء المعركة أدت قذيفة أطلقها العدو بالقرب منه إلى تناثر الرمال بشدة فأصابت عينه اليمنى وشفي جرحه دون أن يترك تشويها لكنه فقد الإبصار بها تماما.

ولم يكن لهذا الانتصار أهمية كبيرة من منظور الأحداث التي كانت مسيرتها في العامين التاليين ضد إنجلترا بشكل قوي، فقد دخل نابليون إيطاليا وشتت شمل الجيوش السردينية والنمساوية وأجبر حكومات سردينيا والنمسا ونابلي على الخروج من التحالف الأول ضد فرنسا، كما أجبرها على قبول شروطه للسلام، وفي أكتوبر سنة ١٧٩٦ أعلنت إسبانيا الحرب على انجلترا بسبب الإجراءات البريطانية في جزر الهند الغربية. لقد أصبح البحر المتوسط غير آمن للبريطانيين بسبب استعداد الأسطول الإسباني الانضمام للفرنسيين. وفي ١٤ فبراير ١٧٩٧ انقضت قوة بحرية بريطانية من خمس عشرة سفينة بقيادة الأدميرال (أمير البحر) جون جرفيز Jervis - الذي كان وقتها قائدا للأسطول البريطاني في البحر المتوسط - على أرمادا إسبانية (أسطول إسباني) من سبع وعشرين سفينة، على بعد ثلاثين ميلا من رأس فينسنت Vincent في أقصى الجنوب الغربي للساحل البرتغالي، ووجه القبطان نلسون H. M. S. Captain سفينته وسفنا أخرى لمهاجمة الحراسة الخلفية لأسطول العدو الصغير، وقاد هو رجاله من فوق متون السفن واستولى على السفينة سان جوزف San Josef ثم السفينة سان نيكولاس San Nicolas. لقد استسلمت السفن الإسبانية التي لم تكن مسلحة بشكل جيد، ولم يكن قادتها يحكمون السيطرة عليها، ولم يكن رجالها مدربين على إطلاق المدافع - استسلمت واحدة إثر الأخرى فحقق الإنجليز نصرا كاملا، فمنح (بضم

الميم) جيرفز لقب إيرل سان فينسنت وأصبح نلسون فارس الباث Knight of the Bath، وهكذا أصبحت البحرية البريطانية مرة أخرى سيدة البحر المتوسط.

وفي يوليو سنة ١٧٩٧ تم إرسال نلسون (وهو الآن عميد بحري rear admiral) للاستيلاء على سانتا كروز في إحدى جزر الكاناري Canary . لقد كان الإسبان قد حصنوا المدينة تحصينا قويا لموقعها الإستراتيجي الحيوي اللازم لحماية تجارتهم مع الأمريكتين. وقاومت المدينة مقاومة باسلة لم يتوقعها نلسون، وأدى عنف الأمواج إلى صعوبة رسو القوارب البريطانية فاصطدم بعضها بالصخور وأصابت المدافع الإسبانية بعضها الآخر فشلت قدرتها، وفشل الهجوم، وأصيب نلسون نفسه بطلقة في مرفقه الأيمن وتم بتر الذراع بطريقة لاتتسم بالكفاءة، وتم إرسال نلسون إلى بيته ليتعافى تحت رعاية زوجته. واعترى القلق نلسون مخافة أن تدرجه الأدميرالية في قائمة المعاقين إعاقة دائمة، فقد أصبح بذراع واحدة وعين واحدة. إلا أنه في أبريل سنة ١٧٩٨ تم تعيينه عميدا بحريا rear admiral وأصبح على رأس السفينة فانجارد، وتلقى أوامر بالانضمام إلى أسطول اللورد سانت فينسنت بالقرب من جبل طارق، وفي مايو أصبح قائدا لثلاث سفن وخمس فرقاطات وتلقى تعليمات بمراقبة مخارج طولون حيث كان نابليون يستعد بحملة غامضة يعدها خلف حصون الميناء، وفي ٢٠ مايو هبت عاصفة عاتية ألحقت أضرارا بالغة بأسطول نلسون فاضطر للتراجع إلى جبل طارق لإصلاح سفنه المعطوبة، وعندما عاد بسفنه لمواصلة المراقبة علم نلسون أن الأسطول الفرنسي الصغير قد انطلق في جنح الظلام مغادرا طولون متجها للشرق لجهة غير معلومة. فانطلق نلسون ليتعقبه وقضى وقتا طويلا على غير هدى ونفدت مؤنه فلجأ إلى باليرمو للتزوّد بالمؤن وإعادة تهيئة أسطوله وقد سمح (بضم السين) له بذلك بناء على وساطة الليدي هاملتون لدى حكومة نابلي التي كانت آنئذ في سلام مع فرنسا، وترددت في السماح لنلسون مخافة أن يعد هذا السماح خرقا لحيادها، لكن تم السماح لنلسون بهذا بناء على الوساطة الآنف ذكرها.

وهكذا أصبحت سفنه مرة أخرى مهيأة لأداء مهمته فواصل البحث عن أسطول نابليون، فوجده أخيرا في أبي قير بالقرب من الإسكندرية، ومرة أخرى غامر نلسون بكل شيء ففي

ليلة ٣١ يوليو ١٧٩٨ أصدر أوامره لضباطه بتجهيز كل السفن لخوض معركة عند الفجر. لقد قال لهم «في هذا الوقت غدا سأحصل على مرتبة النبالة أو أضمن مكانا في مقابر كنيسة ويستمنستر» (١٣) وفي أثناء المعركة تقدم الصفوف كالعادة فأصابته طلقة في جبهته فحمل إلى الأسفل على أساس أنه سيموت ولكن الجرح كان سطحيا، وأعيد نلسون معصوب الرأس إلى سطح السفينة وظل في مكانه حتى اكتمل النصر البريطاني.

واستطاع بت في ظل هذه الظروف التي بدت فيها بريطانيا محجوزة محصورة أن يكون التحالف الثاني ضد فرنسا من روسيا وتركيا والبرتغال ونابلي. وكانت ملكة نابلي ماريا كارولينا أخت ماري أنطوانت التي أعدمتها الثورة الفرنسية بالمقصلة، سعيدة لرؤية مملكتها الممزقة وقد وقفت جميعا إلى جانب الهبسبرج والكنيسة الكاثوليكية فانضمت لمليكها الضعيف فردناند الرابع للترحيب بأسطول نلسون المنتصر - رغم ما أصابه من دمار - الذي رسا في ميناء نابلي في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨، وعندما رأت الليدي هاملتون الأدميرال الجريح اندفعت إليه تحييه وتأثرت كثيرا لما أصابه، واصطحبته هي وزوجها إلى مقرهما (the Palazzo Sassa) وبذلا كل ما أمكنهما لراحته. ولم تحاول إما Emma حجب فتنتها فوقع البطل الظامئ أسيرا لابتساماتها ورعايتها له. لقد كان في الأربعين من عمره وكانت هي في السابعة والثلاثين ولم تكن جذابة بالقدرنفسه الذي كانت عليه من قبل لكنها كانت قريبة المنال وراحت ترضي رغبات هذا البريتوني (نلسون) بما اعتبره - بعد خوض المعارك - نبيذ الحياة. والآن فإن السير وليم في الخامسة والثمانين من عمره تتناقص موارده المالية سريعا، وهو منهمك في أمور الفن والسياسة - لذا فقدتقبل الوضع بشكل فلسفي (بمعنى أنه راح يبرره ويقنع نفسه به) وربما شعر في قرارة نفسه بالراحة لتخلصه من أمر لايقدر عليه. وقبيل ربيع سنة ١٧٩٩ دفع نلسون مبلغاً كبيرا من نفقات إما Emma. وبعد أن دفع الأدميرال البريطاني مبلغا كبيرا للسير وليم وأسبغ عليه الكثير من التشريف وسمح له بفترة من الراحة أمره بالتوجّه لمساعدة أدميرالات آخرين، ولكنه اعتذر على أساس أن الأكثر أهمية من وجهة نظره أن يبقى في نابلي لحمايتها من انتشار الثورة فيها.

وفي وقت متأخر من عام ١٧٩٩ حل آرثر باجت Paget محل هاملتون كوزير بريطاني في

نابلي . وفي ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠ غادر كل من سير وليم وإما Emma نابلي قاصدين ليجورن (في جنوة) حيث انضم إليهما نلسون ومن هناك سافرا برا إلى القنال الإنجليزي وعبروا إلى إنجلترا واحتفت لندن كلها بنلسون لكن الرأي العام أدانه لاستمراره في الارتباط بزوجة رجل آخر. وأرادت زوجة نلسون أن ترده إلى طريق الصواب وطلبت منه الابتعاد عن إما Emma لكنه رفض، ففارقته. وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٠١ وضعت إما في منزل السير وليم مولودا انثى وأسمتها هوراتيا نلسون طومسون Horatia Nelson Thompson إذ كان من المرجح أنها من نطفة نلسون. وفي هذا الشهر أصبح نلسون لواء بحريا (نائب أدميرال) وتم تكليفه بمهمته التالية وهي أن يستولي على الأسطول الدنمركي ويدمره. وسنلتقي به بعد ذلك في هذه المعركة. وعند عودته – وكان ذلك خلال فترة صلح إميان – عاش في بيته في ميرتون Merton في سري Surrey مع آل هاملتون الذين استضافهم في بيته. في ٦ أبريل سنة ١٨٠٣ مات السير وليم بين ذراعي زوجته وهو يمسك بيد نلسون. وورثت إما عن زوجها دخلاً سنويا مقداره ثمانمائة جنيه وعاشت مع نلسون في مرتون حتى دعي لتحقيق أعظم انتصاراته في معركة لقي حتفه فيها[١٤].

٣– الطرف الأغرّ: ١٨٠٥

عندما استقال بت Pitt من منصب رئيس والوزراء أول مرة (٣ فبراير ١٨٠١) كان على استعداد لتأييد تعيين صديقه هنري أدنجتون Addington ليشغل هذا المنصب إذ كان هنري يشاطره كرهه للحرب، وكان قد لاحظ أن الحرب لا تحظى بجماهيرية في البلاد خاصة بالنسبة إلى المصدرين، وهو قد رأى الآن رأي العين أن النمسا قد تخلت عن التحالف الثاني (ضد فرنسا) بعد هزيمتها في مارينجو Marengo ولم يكن يرى معنى في إنفاق الأموال على هؤلاء الحلفاء الضعفاء، وكان من رأيه إنهاء الحرب بقدر مايسمح به إنقاذ ماء الوجه. وفي ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ وقع ممثلوه مع نابليون صلح إميان Peace of Amiens فصمتت المدافع طوال أربعة عشر شهرا توسع نابليون في إيطاليا وسويسرا، وكذلك رفض إنجلترا ترك مالطه، كل ذلك أنهى هذه الفترة الانتقالية المريحة، واستؤنفت الأعمال العدائية ثانية في ٢٠ مايو

سنة ١٨٠٣، فعهد أدنجتون إلى نلسون أن يعد أسطولاً تحت قيادته للقيام بمهمة واضحة: الوصول إلى الأسطول الفرنسي الرئيسي وتدميره حتى آخر سفينة فيه. وفي هذه الأثناء كان نابليون يملأ المعسكرات والموانئ والترسانات arsenals في بولونيا Boulogna وكاليه Calais ودنكرك Dunkirk وأوستند Ostend– بالرجال والعتاد، وكان يشيد مئات السفن ليعبر بجيوشه القنال الإنجليزي لغزو إنجلترا. وعمل أدنجتون قصارى جهده لمواجهة التحدي لكنه كان مترددا متذبذبا أكثر منه آمراً حازما وكانت الأمور الداخلية تنحو إلى الفوضى، وتناقص عدد مؤيدي حزبه من ٢٧٠ إلى ١٠٧ فاستقال بإرادته (دون أن يجبره أحد على الاستقالة) وفي العاشر من مايو بدأ بت Pitt رئاسته للوزراء للمرة الثانية. شرع بت مباشرة في تكوين التحالف الثالث (ضد فرنسا) في سنة ١٨٠٥ مع روسيا والنمسا والسويد وقدم لهذه الدول إعانات مالية زادت بزيادة الضرائب على البريطانيين بنسبة ٢٥٪ ورد نابليون على هذا التحالف بأن أمرجيشه المرابط على القنال الإنجليزي بالتوجه إلى النمسا لتلقينها درساً آخر وأرسل تعليمات إلى لوائه البحري بيير دي فيلنيف Pierre de Villeneuve بأن يجهز أفضل سفن البحرية الفرنسية لمواجهة مع نلسون لإنهاء الهيمنة البريطانية على البحار.

لقد كان في سفينة القيادة (النصر) التي فيها نلسون ٧٠٣ غالبهم في نحو الثانية والعشرين وكان بعضهم في الثانية عشرة من عمره أو الثالثة عشرة بل لقد كان هناك عدد قليل منهم في العاشرة. وكان نحو نصفهم مجبرين على الخدمة في الأسطول كما كان كثيرون منهم مدانين في جرائم وحكم عليهم بالخدمة في الأسطول عقابا لهم، وكانوا يتقاضون أجورا ضئيلة لكنهم كانوا يتقاضون – على وفق موقفهم وسلوكهم – أنصبة من الأموال التي يتم الاستيلاء عليها من سفن الأعداء ومستودعاتهم. وكانت مغادرة الجنود إلى الشاطئ أمراً قلما يسمح به خوفا من فرارهم من الخدمة، ولسد حاجة الرجال للنساء كان يتم جلب البغايا إلى متون السفن،ففي بريست Brest جلبوا ذات صباح ٣٠٩ امرأة (بغي) بينما كان عدد الرجال ٣٠٧ فقط[١٥]. وسرعان ما اعتاد المجندون – رغم صرامة النظام – تكييف أنفسهم مع ظروفهم الجديدة وعادة ما كانوا يعتزون بعملهم وشجاعتهم. وقيل إن نلسون كان مؤتلفاً مع رجاله قريبا منهم فهو لم ينزل بأحد منهم عقابا إلا عند الضرورة

القصوى، وكان يعتريه الأسف - بشكل واضح - لذلك، لأنه يعلم مهمة رجل البحر وطبيعة عمله ونادرا ما كان يخطئ في تكتيكاته أو أوامره، وقد واجه هو نفسه مدافع الأعداء وبنادقهم وقد جعل رجاله يؤمنون أنهم لن يخذلوه أو يخذلوا إنجلترا أبدا ولن يسمحوا للهزيمة أن تلحق بهم أبدا. تلك هي «لمسة نلسون Nelson touch» التي جعلت هؤلاء المجرمين يحبونه.

وفي ٨ يوليو ١٨٠٣ انضم نلسون إلى سفنه الإحدى عشرة في البحر المتوسط في مواجهة طولون، ووجد فيلينيف في مينائها الرحب حماية لأسطوله بإطلاق مدافع حصون الميناء (على أسطول العدو). وكان الأدميرال الفرنسي قد تلقى مؤخرا أوامر جديدة من نابليون: أن يهرب من طولون ويقتحم طريقه في جبل طارق وأن يبحر إلى جزر الهند الغربية لينضم إلى أسطول فرنسي آخر هناك وأن يهاجم أي قوة بريطانية يلقاها. وبينما كانت سفن نلسون تتزود بالمياه في ميناء سرديني هرب فيلينيف بسفنه من طولون (٣٠ مارس ١٨٠٥) وأبحر قاصدا أمريكا. وتعقبه نلسون لكنه كان متأخرا عن الوقت اللازم، ووصل نلسون إلى باربادوس Barbados في ٤ يوليو وهناك سمع أن فيلينيف يعود الآن عبر الأطلنطي وانضم إليه عند كورونا Corunna أسطول إسباني من ١٤ سفينة بقيادة الأدميرال فيدريكو دي جرافينا[١٦].

وصدرت الأوامر من نابليون بالإبحار شمالا للانضمام إلى قوة فرنسية أخرى في بريست Brest ومحاولة السيطرة على القنال الإنجليزي قبل وصول نلسون من جزر الهند الغربية، لكن سفن فيلينيف بعد جولتها في الكاريبي لم تكن في حالة تسمح لها بخوض معركة. وفي ١٣ أغسطس قاد أسطوله الذي أصبح كبيرا جنوبا إلى ميناء قادش جيد التحصين والمزود بإمكانات كبيرة وبدأ هناك في إعادة تأهيل سفنه وبث العزم في رجاله، وفي أواخر شهر أغسطس تولى أسطول بريطاني بقيادة لواء بحري كثبرت كولنجوود Cuthbert Collingwood مهمة مراقبة اسطول فيلينيف. وكان نلسون قد ظن أنه بعد أن أكمل كوميديا عبوره أنه هو أيضا وكذلك رجاله في حاجة إلى الراحة وسمح له (بضم الميم) بقضاء عدة أسابيع مع خليلته في مرتون Meton. وفي ٢٨ سبتمبر لحق بسفنه بكولنجوود قبالة قادش وراح ينتظر نافد الصبر قدوم الأسطول الفرنسي لخوض معركة معه.

وهنا غير نابليون مرة أخرى تعليماته: لقد كان على فيلينيف أن يغادر قادش ويحاول مراوغة الأسطول البريطاني وأن يتجه للتعاون مع جوزيف بونابرت لإحكام السيطرة الفرنسية في نابلي. وفي ١٩ و ٢٠ أكتوبر قاد الأدميرال – على كره منه – سفنه الثلاث والثلاثين خارج قادش وتوجه قاصدا جبل طارق، وفي يوم ٢٠ من الشهر نفسه لمحه نلسون فأصدر أوامره فورا لسفنه البالغ عددها سبعا وعشرين بالاستعداد للمعركة، وراح في هذه الليلة يكتب خطابا لليدي هاملتون لكنه أكمله في صباح اليوم التالي:

«إما يا أعز وأحب من عرفت، يا أليفة قلبي. لقد ظهرت علامات خروج أسطول العدو الذي اتحد ضدنا (يقصد الأسطول الفرنسي والأسطول الأسباني الذي انضم إليه) من الميناء. الرياح لاتساعدنا على التقدم فلا يمكننا رؤيته قبل الغد. عسى رب المعارك يكلل مناوراتى بالنجاح في كل الأمور التي أراني معتاداً عليها ليكون أسمي أعز الأسماء عندك وعند هوراتيا، فإنني أحب كليكما كحبي لحياتي... وعسى يهبنا الرب العظيم نصرا على أولئك الرفاق ويمكننا من تحقيق السلام(١٧)».

وكتب في يومياته تحت اليوم السابق للمعركة: عسى يهب الرب العظيم بلادي – لصالح أوربا كلها– نصرا عظيما مؤزرا لاتشوبه شائبة ولايفسده سوء تصرف، وعسى تصبح الإنسانية لمحة دائمة في الأسطول البريطاني بعد تحقيق النصر... إنني أضع نفسي بين يدي الله الذي خلقني فعساه ينير ببركاته تحركاتي لخدمة بلادي بإخلاص. إنني أهب نفسي لله، وكذلك للقضية العادلة التي عهد إليّ بالدفاع عنها. آمين. آمين. آمين.(١٨)».

والتقى الأسطولان في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ قبالة رأس الطرف الأغر إزاء الساحل الإسباني إلى الجنوب بمسافة قصيرة من قادش، فأصدر فيلينيف من سفينة القيادة (بوسنتور Bucentaure) إشارة لسفنة أن تصطف في خط واحد من الشمال للجنوب لتكون جوانبها التي كانت ناحية الميناء في مواجهة العدو المقترب، ولم تتم السفن هذه المناورة بشكل كامل وما كادت تكملها حتى وجدت نفسها هدفا للقوات البحرية البريطانية المتقدمة إلى الشمال الغربي في خط مزدوج. وفي الساعة ١١:٣٥ صباحا أرسل نلسن من سفينة القيادة (فيكتوري) الإشارة الشهيرة «إنجلترا تتوقع أن يؤدي كل رجل واجبه» وفي الساعة ١١:٥٠

قاد الأدميرال كولنجوود بخمس عشرة سفينة الهجوم بأن أمر سفينة قيادته (التي هو فيها) وهي السفينة (Royal Sovereign) أن تبحر مباشرة خلال ثغرة بين البارجتين الحربيتين الأولى والثانية للأدميرال جوافينا، والسفينتان المقصودتان هما (سانتا أنا) و(نوجو)، وبهذه الحركة أصبح رجاله في وضع يمكّنهم من إطلاق النار من جانبي سفينته على السفينتين الاسبانيتين اللتين كانتا غير قادرتين على رد النيران. وكان لدى مطلقي المدافع البريطانيين مزايا إضافية: لقد كان يمكنهم إشعال مدافعهم باستخدام الزنود المصونة (زنود جمع زند) بمعنى أن الآلات المفجرة للشحنات في مدافعهم بها صوانات (جمع صوان) أو ظِرّات (جمع ظرة) في ديك البندقية أو المدفع (الديك هو الزند) لإطلاق الشرارة. وهذه الطريقة في الإشعال كانت أسرع بمرتين من الطريقة الفرنسية التي كان يُستخدم فيها فتائل لا تستجيب للإشعال بسرعة، كما كان إطلاق البريطانيين للنار أدق، إذ كان متزامناً مع تمايل السفينة[١٩]. وحَذَتْ بقية سفن أسطول كولنجوود حذوه باختراق خط سفن العدو ثم غيّرت اتجاهها وركزت هجومها على سفينة جرافينا (Gravina) حيث كانت الروح المعنوية لبحارتها متدهورة. وفي الطرف الشمالي لخط المعركة واجه الفرنسيون بشجاعة ضراوة هجوم نلسون، وراح بعضهم يهتف صائحاً: «عاش الامبراطور» وهو يلفظ أنفاسه، ومع هذا، فكما حدث في معركة «أبي قير»، فقد تفوّق البريطانيون لأنهم كانوا أكثر تدريباً وأعلى مهارة في أمور البحر والمدفعية.

لكن مصير نلسون كان قد تحدّد عندما وجّه قناص فرنسي في أعلى صاري السفينة الفرنسية ريدوتابل (Redoutable) طلقة إلى نلسون حددت مصيره. ولم يكن الأدميرال نلسون يعرّض نفسه للخطر كالعادة فقط، ولكنه أيضاً رفض أن يزيل من فوق صدره أوسمة الشرف التي منحته إياها بلاده (إنجلترا) مما سهّل عملية تمييزه. لقد اخترقت القذيفة صدره وكسّرت عموده الفقري، وحمله مساعده المخلص توماس ماسترمان هاردي (Thomas Masterman Hardy) إلى الطابق الأسفل من السفينة حيث أكد الطبيب بيتي Beatty ما كان نلسون مقتنعاً به وهو أنه لم يبق له في هذه الحياة سوى ساعات قليلة. وظل نلسون واعياً طوال أربع ساعات أخرى كانت كافية ليعلم أن أسطوله قد حقق نصراً كاملاً وأن تسع عشرة

سفينة من سفن العدو قد استسلمت ولم تفقد بريطانيا سفينة واحدة. وكانت كلماته الأخيرة هي: «فلتراعوا عزيزتي الليدي هاملتون ياهاردلي.. اهتم بالبائسة الليدي هاملتون.. قبلني ياهاردلي. والآن إنني راض. شكرا لله لقد أديت واجبي[٢٠]».

وبقيت كل سفن نلسن حتى تمر العاصفة المتوقعة – بناء على أوامر نلسون وهو في فراش الموت – ووصلت إنجلترا في وقت يسمح لبحّارتها ومقاتليها بالمشاركة في الاحتفال الوطني بانتصارهم ونقعت جثة نلسون في البراندي لتأخير تحللها وحملت منتصبة في برميل إلى إنجلترا حيث سيقت في أفخم جنازة تعيها ذاكرة الأحياء. وسلم القبطان هاردي لليدي هاملتون خطاب الوداع الذي كتبه حبيبها الذي وافته المنية، فاحتفظت به كذكرى غالية، وكتبت في آخره:

يا لإما البائسة!

يا لنلسون العظيم السعيد!

وبناء على وصيته ترك كل ممتلكاته ومكافآته الحكومية لزوجته فيما عدا منزله في مرتون فقد احتفظت به إمًا هاملتون. ومخافة ألا يكفيها هذا بالإضافة للمبلغ السنوي الذي تركه لها زوجها، فقد كتب نلسون في يوم المعركة ملحقاً لوصيته: «إنني أترك إمّا Emma ليدي هاملتون وديعة لدى مليكي وبلادي ليقدموا لها ما يحفظ لها مكانتها في الحياة» وساعة احتضاره – كما ذكر الدكتور سكوت Scott – طلب أيضاً أن ترعى بلاده ابنته هوراتيا Horatia، لكن الملك ورعاياه تجاهلوا هذه الطلبات، فتم القبض على إمّا في سنة ١٨١٣ لتأخرها في سداد دين وسرعان ما أطلق سراحها فهربت إلى فرنسا تخلّصاً من دائنيها، وماتت فقيرة في كاليه Calais في ٢٠ يناير ١٨١٥ [٢١].

نعود للأدميرال جراڤينا Gravina، فبعد مقاومة باسلة عاد هارباً بسفينة القيادة إلى إسبانيا لكن بعد أن أصيب بجرح فظيع تسبب في موته بعد شهور قليلة من وصوله. ولم يقد ڤيلينيف أسطوله بحكمة لكنه حارب بشجاعة وكان يعرّض نفسه للخطر – بطيْش – مثله في ذلك مثل نلسون، وقد استسلم ڤيلينيف بعد أن مات كل رجاله تقريباً. وأُخِذ أسيراً إلى إنجلترا وأطلق سراحه فعاد قاصداً فرنسا وانتحر في فندق في رِنْ Rennes في ٢٢

أبريل ١٨٠٦ خجلاً من رؤية نابليون له. واعتذر في آخر خطاباته لزوجته لفراقه إياها شاكراً الأقدار أنه لم ينجب طفلاً حتى لا يحمل عاري «حتى لا يُدفن مع اسمي»[٢٢].

لقد كانت معركة الطرف الأغرّ واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ. لقد ضمنت السيادة البريطانية على البحار طوال قرن.

لقد أنهت فرصة نابليون في تحرير فرنسا من الحصار الذي فرضه الأسطول البريطاني على السواحل الفرنسية. وأجبرت هذه المعركة نابليون على التخلّي عن فكرة غزو إنجلترا. وكان هذا يعني أن عليه أن يخوض حروباً برية مكلّفة كثيراً، وكل معركة منها ستؤدي إلى معارك أخرى. لقد ظنّ أنّ بمقدوره تجاوز معركة الطرف الأغرّ بانتصاره الحاسم في أوسترليتز Austerlitz (٢ ديسمبر ١٨٠٥) لكن هذه المعركة أدت إلى معارك أخرى: يينا Jena، إيلاو Eylau، فريدلاند Friedland واجرام Wagram، بورودينو Borodino، ليبتسج Leipzig، واترلو Waterloo. لقد كان لابد له أن يُحرز نصراً بحرياً.

ومع هذا فقد كان بِت Pitt الذي عاصر مئات الأزمات وسعد بنتائج معركة الطرف الأغر – متفقاً مع نابليون في أن معركة أوسترليتز قد محت آثار النصر الذي حقّقه نلسون. لقد انسحب بِتْ بعد أن أرهقته الأزمات المتلاحقة في داخل البلاد وفي خارجها – طلباً للراحة في باث Bath. وهناك وصلته الأخبار بأن النمسا (محور تحالفاته) قد انهارت ثانيةً، فزاده هذا آلاماً على آلامه الصحية التي تفاقمت بفعل إفراطه في تناول البراندي (نوع من الخمور) وفي ٩ يناير ١٨٠٦ وافته منيته في السابعة والأربعين من عمره بعد أن شغل منصب رئيس الوزراء في بريطانيا العظمى طوال حياته بعد البلوغ تقريباً. وفي هذه السنوات البالغة تسعة عشر عاماً ساعد في توجيه بلاده نحو السيطرة والتفوق في المجالات الصناعية والتجارية والحربية وأعاد صياغة نظامها المالي بكفاءة منقطعة النظير، لكنه فشل في معاقبة الثورة الفرنسية أو التصدي للتوسّع النابليوني الخطر في أوروبا. لقد اختفى توازن القوى في القارة الأوروبية – وهو أمر مهم جداً لإنجلترا – وافتقدت البلاد حرية الحديث والاجتماع والصحافة في فترات الحرب وهذا يعني أنها ظلت مفتقدة طوال اثنى عشرة عاماً، وليس من علامة دالة على انتهاء هذا الوضع.

٤- إنجلترا تترقّب أمراً: ١٨٠٦ - ١٨١٢

سيسمح لنا مجال دراستنا الآن أن نصف بالتفصيل الوزارات الأربع التي أعقبت وزارة بِتْ Pitt. فباستثناء عام فوكس Fox، كانت كل طاقات هذه الوزارات منصرفة إلى قضايا شخصية وحزبية أكثر من انصرافها إلى قضايا الدولة والسياسة، وكان حاصلها الإجمالي على المستوى الدولي مؤدياً للنتيجة نفسها: من الازدهار إلى تدنّي الأوضاع ومن الاعجاز إلى المماطلة والتسويف.

لكن «وزارة كل المواهب» (١٨٠٦ - ١٨٠٧) قد تألّقت بجهود شارلز جيمس فوكس Fox وزير الخارجية بسعيها لترتيب سلام مع فرنسا. لقد واجه الظروف غير المستقرة بليبرالية صابرة وقدرته على قبول الثورة الفرنسية، بل وقبوله حتى نابليون نفسه بتسامح غير مألوف في التاريخ. ولسوء الحظ أنّه وصل إلى السلطة في وقت تدهورت فيه صحته وعانى عقله ونفسيته من إفراطه في الطعام والشراب وقد مهّد للمفاوضات مع فرنسا بأسلوب رشيق بأن أرسل إلى تاليران (١٦ فبراير ١٨٠٦) أنّ بريطانياً وطنياً أتى إلى وزارة الخارجية بخطة لاغتيال نابليون وأضاف مؤكداً أن هذا المهرّج موضوع الآن تحت مراقبة صارمة. وقدّر الإمبراطور (نابليون) هذه اللفتة لكنه (أي الإمبراطور) كان معجباً بنفسه يتيه فخراً بانتصاره على النمسا، كما كانت بريطانيا شامخة الأنف لانتصار قائدها نلسون في الطرف الأغر، وبالتالي كان كل طرف من الطرفين غير مستعد لتقديم التنازلات اللازمة لعملية السّلام. وقد حقق فوكس نجاحاً أفضل فيما يتعلق باقتراحه الذي قدمه للبرلمان لإنهاء تجارة الرقيق بعد جيل من الجهود التي بذلها في هذا الصدد وِلْبَرفُورس ومئات آخرون، إذ صدر قانون بتحريم هذه التجارة في مارس سنة ١٨٠٧ وقبيل هذا التاريخ مات فوكس (١٣ سبتمبر ١٨٠٦) في السابقة والخمسين، وتردت السياسة البريطانية في جمود (قصور ذاتي) على أمل.

وعلى أية حال فهذه العبارة الأخيرة تكاد تكون مناسبة تماماً لوصف الأشخاص المهيمنين في وزارة وليم كافندش بنتينك William Cavendish Bentinck دوق بورتلاند (١٨٠٧ - ١٨٠٩). وأرسل جورج كانج وزير الخارجية أسطولاً لقذف كوبنهاجن (١٨٠٧)، وأرسل

روبرت ستيورات (ڤيكونت كاستلريج Castlereagh) وزير الحرب حملة مشؤومة إلى والشرن Walcheren في محاولة للاستيلاء على أنتورب Antwerp (١٨٠٩) ودخل الوزيران في نزاع وراح كل واحد منهما يتعدى اختصاصه إلى اختصاص الآخر فاستقالت حكومة بورتلاند .

وكان سبنسر بيرسيڤال Spencer Perceval كوزير (١٨٠٩ - ١٨١٢) سيئ الحظ بشكل مضاعف لرؤيته بريطانيا في الحضيض أكثر من أي وقت مضى في القرن التاسع عشر، كما أنه مات قتيلاً، وقبيل خريف سنة ١٨١٠ كان الحصار القاري الذي فرضه نابليون قد أضر ضرراً بليغاً بالصناعة والتجارة في بريطانيا فبلغ عدد العاطلين بالآلاف وكان الملايين على شفا الإملاق وأدى عدم الاستقرار إلى اندلاع العنف وبدأ النسّاجون (اللوديت) في تحطيم الآلات في سنة ١٨١١ . وفي الوقت الذي بلغت فيه الصادرات البريطانية لأوروبا الشمالية ٧,٧٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني وجدناها تنخفض في سنة ١٨١١ إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني[٢٣] . وفي سنة ١٨١١ كانت إنجلترا قد تورطّت في الحرب الثانية مع أمريكا، وكان من بين نتائج هذا أن تدنّت صادراتها للولايات المتحدة من ١١,٣٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في سنة ١٨١٠ إلى ١,٧٨٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في سنة ١٨١١ . وفي هذه الأثناء زادت وطأة الضرائب على كاهل كل بريطاني وقبيل سنة ١٨١٤ أصبحت هذه الضرائب تهدد بانهيار النظام المالي البريطاني وقيمة العملة المالية البريطانية في الخارج وصرخ البريطانيون الجوعى مطالبين بتخفيض الرسوم الجمركية على واردات الحبوب من الخارج، وعارض الزرّاع هذه المطالب مخافة أن تقل أسعار منتجاتهم. وعمل نابليون على تخفيف الأزمة في بريطانيا (١٨١٠ - ١٨١١) بأن راح يبيع تراخيص تصدير الحبوب الفرنسية لمُنْتجيها فقد كان في حاجة للأموال نقداً لتمويل تكاليف معاركه. وعندما انطلق جيشه الكبير قاصداً روسيا في سنة ١٨١٢ كانت إنجلترا تعلم أن انتصار نابليون يعني مزيداً من إحكام إقفال كل الموانئ الأوروبية في وجه البضائع البريطانية كما يعني مزيداً من سيطرة نابليون على سفن الشحن المتجهة إلى بريطانيا. لقد كانت إنجلترا كلها تراقب ما يجري وهي في حالة فزع، إلا الملك جورج الثالث فإنه لم يكن واعياً بهذه

الأحداث بعد أن استغرق في صممه وعماه وخبله، وكان موت ابنته الحبيبة أميليا Amelia (نوفمبر ١٨١٠) آخر سهم نزعه من كل رابط بين عقله والواقع الذي يجري. إنه الآن يفضل الحياة في عالم من صنعه ليس فيه مستعمرات متمرّدة ولا أنصار لنابليون يقتلون ولا وزراء على شاكلة فوكس. ولابد أنه وجد بعض الترضية في هذه الحال وإلا لما تحسّنت صحته ولما عاش بعد هذه الأحداث عشر سنوات أخرى، وكان يتحدث بابتهاج دون مراعاة منطق أو قواعد في جو من الراحة محاطاً بكل الخدمات، وزادت شعبيته مع زيادة مرضه وأشفق عليه شعبه. وفي ١١ مايو ١٨١٢ أطلق سمسار مفلس النار على رئيس الوزراء بيرسيفال في ردهة مجلس العموم، وهذا السمسار المفلس هو جون بِلِنْجهام كان قد شعر أن مشروعاته التجارية قد لحقها الدمار بسبب سياسات الحكومة. وفي يونيو تم تشكيل مجلس وزراء جديد برئاسة الإيرل ليفربول استمر حتى سنة ١٨٢٧، وكان استمراره كمعجزة أتاحتها الظروف، وفي هذا الشهر نفسه أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إنجلترا وعبر نابليون بجنوده البالغين ٥٠٠,٠٠٠ (نصف مليون) النيمن Niemen في روسيا.

الحَواشي

حواشي الفصل الخامس عشر

1. Bertrand, Henri, *Napoleon at St. Helena*, 148.
2. Hobsbawn, E. J., *The Pelican Economic History of Britain*, io.
3. Kropotkin, *Modern Science and Anarchism*, 84, 87.
4. Heilbroner, R. L., *The Worldly philosophers*, 67, 85.
5. Watson, J. S., *The Reign of Georges III*, 517.
6. Owen, Robert, *A New View of Society*, 120.
7. *Ibid.*, 123.
8. Halevy, Elie, *History of the English People in 1815*, 245.
9. J., Watson, 530.
10. Kropotkin, *Modern Science and Anarchism*, 33.
11. Rogers, J. E. Thorold, *Six Centuries of Work and Wages*, III.
12. Watson, 526.
13. Kropotkin, 33.
14. EB, XIII, 494.
15. Kropotkin, 8on.
16. Rogers, IIo.
17. Tocqueville, *Journeys to England Wales*, Io7, in Hobsbawn.
18. Rude, G., *The Crowd in History*, 238.
19. Heilbroner, 98.
20. Malchus, *Essay on Population* (1798), 14.
21. Malchus, *Essay* (1803), 106.
22. Heilbroner, 90.
23. Carlyle, Katter - *Day Pamphlets*, No. I (1850).
24. Heilbroner, 95.
25. Owen, *A New View of Society*, "Catechism," 172.
26. Owen, *New View*, 86.
27. Heilbroner, 98; Russell, Bertrand, *Understanding History*, 24.
28. Owen, address at New Lamark, in *A New View of Society*, 95.
29. *Ibid.*, 65.
30. Title Page of first edition of *A New View of Society*.
31. *New View*, 20.
32. *Ibid.*, 98.
33. *Ibid.*, 35.
34. *Ibid.*, 52-53.
35. *Ibid.*, 112.
36. *Ibid.*, 83.
37. *Ibid.*, 68.
38. *Ibid.*, 162-69.
39. *Ibid.*, 140-47.
40. *Ibid.*, 246.
41. *Ibid.*, 86.
42. *Ibid.*, 111.
43. *EB, XVI*, 1174b.
44. Cole, G. D., *Robert Owen*, 187.
45. *Ibid.*, 91.
46. *Ibid.*, 231.

حواشي الفصل السادس عشر

1. Halevy, *History of the English People in* 1815, 195.
2. Bertrand, H., *Napoleon at St. Helena*, 77.
3. Further details in *Rousseau and Public Opinion in England during the 19th Century*, 119.
4. Dicey, *Law and Public Opinion in England during the 19th Century*, 116.
5. Halevy, 293.
6. Blackstone in Halevy, 101.
7. Las Cases, II, 366.
8. Plumb, J. H., *The First Four Georges*, 147.
9. Burke, Thomas, *English Night Life, Passim;* Thackeray, *The Four Georges*, 84.
10. Thackeray, *The Four Georges*, 93; Plumb, 138, 101.
11. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*, 219.
12. *EB*, X, 212b.
13. Trevelyan, G. Mo, *English Social History*, 493.
14. Mill, J. S., *On Bentham and Coleridge*, 134f.
15. *NCMH*, IX, 177.
16. Markun, 251.
17. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution*, I, 352.
18. Halevy, 370.
19. Corti, E. C., *Rise of the House of Rothschild*, Ch, II, III, IV; Finkelstein, Louis, ed., *The Jews, I, 266*.
20. Godwin, *Enquiry Concerning Political Justice*, Book V, Ch. X.
21. Ibid., Book VII, Ch.x.
22. Halevy, 464.
23. Trevelyan, *English social History*, 459.
24. Monroe, Paul, *Text - Book in the History of Education*, 724; EB, VII, 996c; Halevy, 463.
25. Hirsh, Diana, *The World of Turner*, 100.
26. Plumb, J. H., *The First Four Georges*.
27. Dicey, *Law and Public Opinion*, 371-73.
28. *EB*, X, 518d.
29. Wollstonecraft, Mary, *Vindication of the Rights of Woman*, 154.
30. *Ibid.*, 142.
31. *Ibid.*, 44.
32. *Ibid.*, 46, 83, 128.
33. *Ibid.*, 75.
34. *Ibid.*, 69.
35. *Ibid.*, 5.
36. *Ibid.*, 83.
37. *Ibid.*, 64.
38. *EB*, X, 519c.
39. *Vindication*, 196.
40. *Ibid.*, 157.
41. Van Doren, Dorothy, *The Lost Art: Letters of Seven Famous Women*, 137-78.
42. Markun, *Mrs. Grundy*, 235.
43. Dicey, 87; Watson, 446; Halevy, 10.
44. Trevelyan, 499.

45. *EB*, X 635a.
46. Traill, H. D., *Social England*, V, 495.
47. Traill, *Social England*, V, 499.
48. Wright, Raymond, *Prose of the Romantic period*, 41.
49. *Ibid.;* Markun, 232.
50. Austen, Jane, *Mansfield Park*, Ch. xxi.
51. In Fruman, *Coleridge, the Damaged Archangel*, 372.
52. Burke, Thomas, *English Night Life*, 103.
53. *EB*, X 478d.
54. Mantzius, Karl, *History of theatrical Art*, VI, 30.
55. Burke, *Nitht Life*, 84; Mantzius, VI. 56.
56. *EB*, XIII, 263.
57. Mantzius, VI, 94.
58. Halevy, 8.
59. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 84.

حواشي الفصل السابع عشر

1. In the Victoria and Albert Museum.
2. *Ibid.*
3. *EB*, XIII, 280d.
4. Plumb, *the First four Georges*, 164.
5. Hirsh, *the World of Turner*, 56.
6. Mistler, *Napoléon et l'Empire*, I, 234.
7. EB, X, 419.
8. *Pelican Guide to English Literature*, V, 258.
9. *New York Evening Post*, April 13, 1918.
10. Russell, A. G., *The Engravings of William Blake*, Plates 6-7.
11. Hirsh, 123.
12. G. W., Thornbury, in Hirsh, 17. This section is especially in debted to Diana *Hirsh, The World of Thurner*.
13. *EB*, XII, 412d.
14. Hirsh, 7.
15. *Ibid.*, 169.
16. *EB*, XII, 413.
17. Hirsh, 175.

حواشي الفصل الثامن عشر

1. Wolf, A., *History of Science, Technology and Philosophy in the 18th Century*, 197.
2. Williams, H. S., *History of Science*, III, 216.
3. Garrison, *History of Medicine*, 350.
4. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 68.
5. *Ibid.*, 69.
6. Williams, H. F., *From the Greeks to Darwin*. Sedywick and Tyler, *Short History of Science*, 426.
7. *EB*, VII, 109b.
8. In Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 146.

9. Sedgwick and *Tyler, Short History of Science*, 426.
10. Garrison, 375.

حواشي الفصل التاسع عشر

1. *EB*, XII, 376.
2. Paine, Thomas, *the Age of Reason*, Part II, Preface.
3. *Ibid.*, 5.
4. *Ibid.*, 6.
5. *Ibid.*, 9.
6. *Ibid.*
7. *Ibid.*, 30.
8. *Ibid.*, 74.
9. William Paley, *Natural theology*, in Wright, R., *Prose of the Romantic Period*, 74, 73.
10. *EB*, XVII, 175a.
11. Hazlitt, *Lectures on the English Poets and The Spirit of the Age*, 183.
12. Godwin, *Enquiry Concerning Political Justice*, Book IV, Ch. 1.
14. *Ibid.*, VI, II..
15. *Ibid.*, IV, VII.
16. *Ibid.*, IV, VIII.
17. *Ibid.*, IV, XI.
18. *Ibid.*, IV, V.
19. *Ibid.*, XV.
20. *Ibid.*, VIII, VIII.
21. *Ibid.*, I, IV.
22. *Ibid.*, I, III.
23. VIII, VIII.
24. *Ibid.*, VIII, II.
25. *Ibid.*, II, V.
26. *Ibid.*, I, III.
27. *Ibid.*, V, XI; VII; VIII, II.
28. *Ibid.*, VIII, II.
29. *Ibid.*, IV, VII.
30. *Ibid.*, I, IV.
31. *Ibid.*, XV, XVI.
32. *EB*, X, 519d.
33. Malthus, *Essay on the Principle of Population*, 4.
34. *Ibid.*, 7, 12, 86.
35. Ibid., 26 - 31; Hilbroner, 85.
36. Malthus, 49.
37. *Ibid.*, 101.
38. Malthus, *Second Essay on Population*, 98.
39. *Ibid.*, 101.
40. Heilbroner, 85.
41. *Ibid.*, 71.
42. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 276.
43. R. K. Wilson, in Dicey, *Law and Opinion*, 133.
44. Bentham, *Anarchical Fallacies*, in *Encyclopedia of philosophy*, I, 284c.
45. Benn, Alfred, *History of English Rationalism*, I, 295.
46. *Ibid.*, 297.
47. Bentham, *Fragment on Government*, 3, 56.
48. Bentham, *Introduction to the Principles of Morals and Legislation*, 102-3.
49. Bentham, *Works*, X, 73, in Kicey, 133.
50. *EB*, XI, 913b.
51. Helvetius, *De l'Esprit*, 6, 17.
52. Leviticus xix, 18.

حواشي الفصل العشرين

1. Austen, Jane, *Mansfield Park, in Complete Novels*, 733.
2. *Pride and Prejudice*, 242.
3. Margoliouth, H. M., *William Blake, 3; EB*, III, 755d.
4. *EB*, II, 755d.
5. Bake, "Jerusalem", in *Selected Poems*, 277.
6. Blake, *Poems and Prophecies*, 392.
7. Margoliouth, 7.
8. *EB*, 756b.
9. Margoliouth, 63.
10. Blake, *Poems and Prophecies*, 289.

حواشي الفصل الحادي والعشرين

1. *"To a Butterfly"*.
2. Moorman, Mary, *William Wordsworth: The Early Years*, 71.
3. *Ibid.*, 150.
4. *Ibid.*, 153.
5. Wordsworth, *The Prelude*, Book 1x, in *Poems*, 297.
6. Moorman, *Early* Years, 201.
7. The Prelude, x1, in *Poems*, 311.
8. *Ibid., x. in poems*, 305.
9. Moorman, *Early Years*, 13, 171,: Bateson, F. W., *Wordsworth: A ReinterPretation*, 186.
10. *"Tintern Abbey"*, lines 118 - 19.
11. Moorman, *Early Years*, 288.
12. Letter to Thomas Poole, in Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 528 - 29.
13. Thornton, J. C., *Table Talk*, 171.
14. Gilman, James, *Life of Coleridge*, 20 - 21, in Fruman, Coleridge, *the Damaged Archangel*, 65.
15. Letter of Ovyonr, 1791, in Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 534 - 37.
16. *Ibid.*, 143.
17. Colmer, John, *Coleridge Critic of Society*, 112.
18. In White, R. J., *Political Tracts of Wordsworth, Coleridge, and Shelley*, P. xxxii.
19. Coleridge, *Letters*, I, 221 and 224, in Lowes, J. L., *The Road to Xanadu*, 600.
20. In Moorman, *Early years*, 317.
21. *The prelude*, xiv, in Wordsworth, *Complete Poems*, 331.
22. Gardner, Martin, ed., *The Annotated Ancient Mariner*, 16.
23. Wordsworth, Dorothy, *Journais*, 4 - 6.
24. Moorman, *Early years*, 373.
25. Coleridge, *Biographia Literaria*, 147.
26. Wordsworth and Coleridge, *Lyrical Ballads*, 3.
27. Gardner, 172.
28. *Lyrical Ballads*, P. 95, Line 294.
29. *Ibid.*, P. 133, lines 36-49.
30. *Ibid.*, Lines 88 - 112.

31. *Ibid.*, Lines 133 - 42.
32. Gardner, 24; Winwar, *Farewell the Banner*, 265.
33. *Lyrical Ballads*, appendix, P. 173.
34. *Letter to John Wilson*, June, 1805, Bateson, 175.
35. Letter of March 25, 1801, *in Selected poetry and Prose*, 591.
36. Dorothy Wordsworth, *the Grasmere journal*, June 9 - 20, 1800; May 13 - 18 and July 3, 1802.
37. *Journal*, June 20, 1800.
38. *Complete Poems*, 166.
39. *Journal*, June 19, 1802.
40. *Ibid.*, June 25, 1800.
41. *Journal*, Feb. 1, 1802.
42. *Journal*, June 10, 1800.
43. *Journal*, Dec. 11, 1801.
44. *Journal*, Dec. 12, 1801.
45. *Journal*, Dec. 22, 1801.
46. Moorman, *William Wordsworth: The Later Years*, 29n.
47. *Journal*, Sept. 1, 1800.
48. *Ibid.*, Nov. 4, 1800.
49. Moorman, *Early years*, 520.
50. *Complete Poems*, 173.
51. Moorman, *Early years*, 573.
52. *Ibid.*
53. *Journals*, 57.
54. Colmer, *Coleridge Critic of Society*, 55.
55. *Ibid.*, 78n.
56. Fruman, 264.
57. Coleridge, *Selectry and Prose*, 115.
58. Notebooks, note 1214, in Fruman, 377.
59. *Ibid.*, 380.
60. Fruman, 26 - 28.
61. Moorman, *Early years* 612.
62. Notebooks, note s091, in Fruman, 431.
63. Moorman, *Later years*, 87.
64. Gardner, 26.
65. Moorman, *Later years*, 612.
66. *Ibid.*
67. Ibid., 195.
68. Robinson, Henry Crabba *Diary*, I, S07 - 12.
69. Winwar, 330.
70. *Ibid.*
71. *Letter to Wordsworth*, may, 10, 1815.
72. White, R. J., 15 - 16.
73. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 497.
74. White, F. J., 8.
75. *Ibid.*, 17-18, 11-12.
76. *Ibid.*, 60.
77. *Ibid.*, 77, 102.
78. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 140.
79. White, R. J., 108.
80. *Ibid.*, 83-85; Mill, J. S., *On Bentham and Coleridge*, 96.
81. White, R. J., 93.
82. Coleridge in Benn, *History of English Rationalism*, I, 249.
83. White, R, J., 85.
84. *Biographia Literaria*, Ch. 1x, P. 70.
85. Fruman, 70-71, 81, 101, etc.
86. *Biographia*, 72, 74.
87. *Ibid.*, Ch. XXII, p. 236.
88. Moorman, *Later years*, 186.
89. *Pelican Guide to English Literature*, V, 154.

90. Moorman, *Later years*, 55.
91. *EB*, XXIII, 678d.
92. Moorman, *Later years*, 260.
93. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 256 - 57.
94. Moorman, *Later years*, 181.
95. Thornton, *Table Talk*, 211.
96. Moorman, *Later years*, 314 - 15n.
97. Winwar, 328.
98. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 671.
99. Thornton, 177, 145.
100. Colmer, John, *Coleridge Critic of Society*, 157.
101. Benn, I, 285.
102. Coleridge, *Selected Poetry and Prose*, 469.
103. De Quincey, *Collected Writings*, I, 77, in Fruman, 84.
104. Thornton, 255.
105. Gardner, 33.
106. Wright, R., *Prose of the Romantic Period*, 26.
107. Hazlitt, *Lectures on the English Poets*, 163.
108. Moorman, *Later years*, 580 - 81.
109. *Ibid.*, 115.
110. *Ibid.*, 36.
111. Wright, 35.
112. *NCMH*, IX, 109.
113. Moorman, *Later years*, 239.
114. Marchand, L. A., *Byron*, I, 412.
115. *Ibid.*, 421.
116. Hazlitt, *Spirit of the Age*, 258.
117. Moorman, *Later years*, 292, 452.
118. Wright, 50.

حواشي الفصل الثاني والعشرين

1. Marchand, *Byron*, I, 4.
2. Byron, *Childe Harold's Pilgrimage*, Canto 1v, line 10.
3. Marchand, I, 36.
4. *Ibid.*, 94.
5. *EB*, IV, 509c.
6. Byron, *English Bards and Scotch Reviewers*, 1, 205; 111, 98.
7. Marchand, I, 235.
8. Byron, *Works, 205;* Note 1; Marchand, I, 238.
9. *Ibid.*, 263.
10. *Ibid.*, 286.
11. *Ibid.*, 401.
12. *Works*, P. xxii.
13. Marchand, I, 437.
14. *Ibid.*, 360.
15. *Ibid.*, 334.
16. *Ibid.*, 333.
17. *Ibid.*, 360.
18. Mayne, *Life and Letters of Anna Isabella, Lady Noel Byron*, 48 - 49.
19. *EB*, IV, 510a.
20. Marchand, I, 403.
21. *Ibid.*, 446.
22. *Ibid.*, 429.
23. *Ibid.*, 465-69.
24. *Ibid.*, II, 49, 485.
25. *Ibid.*, 479.
26. Mayne, 154.
27. Marchand, II, 510.
28. Mayne, 161; Marchand, II, 510.
29. Mayne, 161.

30. *Ibid.*, 162.
31. Mayne, 165; Marchand, II, 513.
32. Marchand, II, 527.
33. *Ibid.*, 547.
34. Mayne, 190; Marchand, II, 544.
35. Marchand, II, 549.
36. *Ibid.*, 551-52.
37. *Ibid.*, 555.
38. *Ibid.*, 556.
39. Ibid., 563; Mayne, 203.
40. Marchand, II, 570.
41. Mayne, 209; Marchand, II, 572.
42. Marchand, II, 576 - 77.
43. Dowden, *Life of Shelley*, I, 4n.
44. Cameron, *the Young Shelley*, 3.
45. In Hancock, A. E., *The French Revolution and the English Poets*, 53.
46. Byron, *Letter to Hogg*, Jan. 2, 1811, in Cameron, 15.
47. *Ibid.*, 125.
48. Dowden, I, 73.
49. T. J. Hogg, *Life of Shelley*, in Dowden. I, 45 - 46.
50. Dowden, I, 118; Cameron, 24.
51. Cameron, 91.
52. Cameron, 93.
53. Dowden, I, 175.
54. Cameron, 102.
55. *Ibid.*, 97.
56. Dowden, I, 211.
57. *Ibid.*, 215.
58. *Ibid.*, 218.
59. *Ibid.*, 260-61.
60. Shelley, *Poems, Note to Queen Mab, in Complete Poems of Keats and Shelley*, Part II, 853.
61. *Queen Mab*, Canto 111, line 33.
62. *Ibid.*, lines 174-77.
63. *Ibid.*, v, lines 79, 177, 189.
64. *Ibid.*, v11, line 13.
65. *Ibid.*, v111, lines 106 - 60.
66. Cameron, 274.
67. Dowden, I, 287.
68. Mrs. Shelley, in Shelley, *Poems (Complete Poems of Keats and Shelley, Part* II, P. v).
69. Dowden, I, 258.
70. Wright, R., *Prose Works of the Romantic period*, 138 - 39.
71. In Cameron, 229.
72. Shelley, *Lost Letters to Harriet*, 22.
73. T. L. Peacock, *Memoirs of Shelley*, 336, in Dowden, I, 433.
74. Dowden, I, 424.
75. Dowden, 425, 429.
76. Shelley, *Letters*, od. F. L. Jones, I, 389.
77. *Ibid.*, 421.
78. *Ibid.*, 391.
79. Marchand, II, 630.
80. Brandes, G., *Main Currents*, IV, 303.
81. Dowden, II, 30.
82. Brandes, IV, 214.
83. Shelley, *Poems*, 570.
84. Brandes, IV, 319.
85. Marchand, II, 699.
86. *Childe Harold's Pilgrimage*, 1v, line 25.
87. Marchand, II, 747.
88. *Ibid.*, 681, 740.
89. *Prometheus Unbound*, Avy II, line 305.
90. *Ibid.*, I, 144.
91. *Ibid.*, II, 523.
92. *Poems.*, 616.

93. *Ibid.*, 464-77.
94. Dowden, II, 381.
95. *Ibid.*, 411.
96. *Adonais,* lines 151 - 52.
97. Stanzas lii, liii, lv.
98. Kests, *"Ode to Naightingale."*
99. Dowden, II, 235; Marchand, II, 757; *Childe Harold's Pilgrimage,* lv, lines 172 - 84.
100. Marchand, II, 772.
101. Brandes, IV, 325.
102. In Hirsh, *The World of Thurner,* 109.
103. Marchand, II, 816.
104. Eckermann, J. P., *Conversations with Goethe,* 261.
105. Marchand, II, 905.
106. Shelley, *Letters,* II, 316.
107. Marchand, III, 949.
108. Byron, *letter of Nov.* 10, 1813, in Marchand, I, 420.
109. In Arnold, Matthew, *Essays in Criticism,* 375.
110. *Childe Harold,* 1, line 29.
111. Marchand, I, 308; III, 1104, 1108.
112. *Ibid.*, II, 937.
113. *Ibid.*, 955.
114. *Ibid.*, III, 1126.
115. *Childe Harold,* 111, line 55.
116. *Ibid.*, v111, lines 50 - 51.
117. Marchand, II, 917.
118. Guiccioli, Countess, *My Recollections of Lord Byron.*
119. Eckermann, 265.
120. Dowden, II, 389.
121. *Ibid.*, 233.
122. Marchand, III, 1018.
123. Dowden, II, 377.
124. Notes to *Prometheus Unbound, in Poems,* 295.
125. White, R. J., *Political Tracts of Wordsworth, Coleridge, and Shelley,* 227.
126. *Ibid.*, 236-39.
127. *Ibid.*, 214.
128. *Ibid.*, 243.
129. *Ibid.*, 230-31.
130. *Ibid.*, 245, 235.
131. *Declaration of Rights,* No. 18, in Woods, Watt, And Anderson, *The Literature of England,* II, 319.
132. White, R. J., 247 - 49.
133. *"Defence of Poetry"* in White, R. J., 206.
134. Shelley, *Poems,* 227.
135. In Dowden, II, 384.
136. *"Defence of Poetry."* in White, R. J., 205.
137. *Ibid.*, 204.
138. Cameron, *The Young Shelley,* 119.
139. Dowden, II, 459.
140. *Ibid.*, 452.
141. *Ibid.*, 504.
142. Mrs. Shelley, *Notes on Poems* of 1822, in Shelley, *Poems,* 716.
143. Dowden, II, 510, 513.
144. *Ibid.*, 507.
145. *Ibid.*, 518.
146. Mrs. Shelley's Preface to the ed. of 1839. *Poems,* P. viii.
147. Marchand, III, 1018.
148. Dowden, II, 529.
149. Marchand, III, 1023.
150. *Ibid.*, 1052.
151. *Ibid.*
152. *Ibid.*, 1074.

153. *Ibid.*, 1147.
154. *Ibid.*, 1212.
155. *Ibid.*, 1217, 1224.
156. *Ibid.*, 1232-33.
157. *Ibid.*, 1246.
158. *Ibid.*, 1261.
159. Maurois, Byron, 547.
160. Mayne, *Life of.... Lady Byron*, 240.
161. Maurois, 546.
162. Marchand, III, 1243n.
163. Maurois, 554.
164. Marchand, III, 1245.

حواشي الفصل الثالث والعشرين

1. Halevy, *History of the English People* in 1815, 103; EB, XX, 56b.
2. Scott, Walter, *The Heart of Midlothian*, 106 - 7.
3. Halevy, 469.
4. *Ibid.*, 482.
5. On Reid see *Rousseau and Revolution*, 764; on Hartley see *The Age of Voltaire*, 581.
6. Wright, R., *Prose of the Prose of the Romantic Period*, 86.
7. Scott, *Poems*, 114.
8. Leslie Stephen in Benn, *History of English Rationalism*, I, 312.
9. Moorman, *William Wordworth: the Later Years*, 463.
10. See Longford, *Wellington*, 30n.
11. Watson, *Reign of George* III, 388.
12. *Ibid.*
13. Cameron, *The Young Shelley*, 158.
14. Halevy, 419.
15. Lecky, *History of England in the 18th Century*, VIII, 394 ff; Rosebery, Lord, Pitt, 189, 193.
16. Petersen, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 311.

حواشي الفصل الرابع والعشرين

1. Green, J. R., *short History of the English People*, III, 1750.
2. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 198.
3. Petersen, 240.
4. *Ibid.*, 241.
5. Morley, John, *Burke*, *in Biographical Studies*, 15.
6. *Ibid.*, 87.
7. *Letter to T. Ailsop.*
8. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 135.
9. Green, J. R., III, 1764.
10. *CMH*, VIII, 300.
11. *Ibid.*, 304.
12. Southey, *Life of Nelson*, 42.
13. *Ibid.*, 169.
14. Bowen, Marjorie, *Patriotic Lady: Emma, Lady Hamilton*, 143.
15. Howarth, David, *Trafalgar*, 31.
16. Southey, *Nelson*, 140, 322 - 23.
17. From a copy in the collection of sir Douglas Fairbanks. The original is in the British Museum.

18. Nelson, *Letters, 462.*
19. Howarth, *Trafalgar, 132.*
20. Southey, *Nelson, 274.*
21. Howarth, 209 - 10.
22. *Ibid., 239.*
23. Lefebvre, *Napoleon, II, 131.*

فهرس المحتويات

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر نابليون

تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥

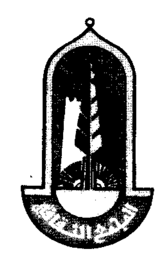
ترجمة

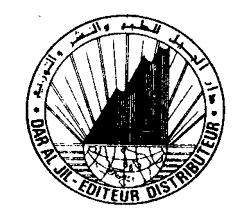
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الكتاب الرابع

مُلوكُ أوروبا في مواجهة التحدّي

(١٧٨٩ - ١٨١٢)





عَصْرُ نابُولِيُون

الكتاب الرابع

مقدمة الترجمة العربية

يتناول هذا الكتاب: كيف واجه ملوك أوربا خطر الثورة الفرنسية ونابليون؟ لم يكن هذا في رأي مؤلفي هذا الكتاب (ول ديورانت وزوجته) بالحرب فقط، فالحروب كما يقول لنا المؤلفان هي «الألعاب النارية في التاريخ» (راجع الفصل ٢٦)، وإنما كان في الأساس - وببساطة - بأن نقلوا إلى بلادهم ما وجدوه حسناً متمشيا مع روح العصر في هذه الثورة الفرنسية. لقد أخذوا بشيء كثير من التنظيمات النابليونية والقوانين النابليونية، بل لقد أخذوا من الدستور الفرنسي (راجع على سبيل المثال الفصل الخاص بالإمبراطورية الروسية، خاصة القسم المتعلق بالامبراطور اسكندر) واتخذوا خطوات للقضاء التدريجي على الإقطاع بإتاحة ملكية الأرض لكل أبناء الوطن الواحد كخطوة تمهيدية ليصبح الجميع ملاكا (راجع على سبيل المثال جهود شتاين Stein في الفصل الخاص بألمانيا)، ورغم أنهم راحوا يركزون على الدين ويحمون الكنائس التقليدية في بلادهم كأداةٍ جماهيرية فعّالة في مواجهة الملحد نابليون - على حد قولهم، إلا أنهم أيضاً وجدوا من الحكمة أن يأخذوا بما طبَّقه نابليون من حرية اعتقاد للأقليات الدينية بل وحماية المنشقين عن الكنيسة الرسمية شريطة ألا يهددوا الأمن العام، بل وإعطائهم معظم حقوق المواطنين العاديين (كما حدث في روسيا وألمانيا والنمسا) وإن تقاعست أسبانيا والبرتغال عن هذه الخطوة لأسباب تاريخية. بعد أن اتخذ ملوك أوربا هذه الإصلاحات أتى دور «الألعاب النارية» التي حقق فيها ملوك أوربا النصر العسكري على نابليون، بعد أن كانت تحالفاتهم ضدّه قد فشلت تحالفاً إثر تحالف. وبذلك جنت شعوب أوربا كلها ما في الثورة الفرنسية من جوانب إيجابية وتحاشت سلبياتها التي اكتوت بنارها فرنسا من حروب داخلية، وصراع طبقي دام ومقصلة جزّت من الرؤوس أكثر مما جز أي سلطان عثماني كما يقول المؤلفان في معرض تقويمهما الحصيف للدولة العثمانية. ولم تكن هذه أول حالة في التاريخ ينتصر فيها المهزوم انتصاراً حضاريا على هازميه، فالمؤرخ الأمريكي روم لاندو يذكر لنا أن المغول بعد أن اجتاحوا العالم الإسلامي، بل ودمروه، اعتنقوا دين ضحاياهم الأرقى حضارة وفكرا وأخذوا بمؤسساتهم

ونظمهم بل وراحوا يعمّرون ما سبق لهم تدميره. إننا هنا إزاء حالة انتصرت فيها الحضارة الإسلامية رغم هزيمة المسلمين. القول نفسه ينطبق شيئا ما على الثورة الفرنسية ونابليون، لقد خرجت جيوش نابليون من أوربا لكن بقيت المدوّنة القانونية النابليونية. خرجت جيوش نابليون لكن خرجت معها محاكم التفتيش وتقلصت سلطة الباباوات ولم تعد أبداً كما كانت.

***

في الفصل الخامس والعشرين يظهر لنا المؤلفان أن حركة تحرير المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في العالم الجديد، بدأت بسبب إنهاك نابليون للدولتين المستعمرتين: إسبانيا والبرتغال، وفي الفصل السادس والعشرين يبين لنا أن الجذور التاريخية لحركة الوحدة الإيطالية بعد ذلك - إنما تعود لجهود نابليون في توحيد إيطاليا تحت سلطانه، وفي الفصل التاسع والعشرين يرى المؤلفان أن تكوين نابليون لكونفدرالية الرّاين، وإثارته حفيظة الشعوب الألمانية كان هو الأساس التاريخي لقيام الوحدة الألمانية بعد ذلك.

***

والطريف أن المؤلفين يركزان هنا على ما سبق أن ألمحنا إليه في مقدمة المجلد الثالث، وهو أن المسيحية في أوربا أصبحت غطاء للم الشمل أكثر منها عقيدة محكمة، بعد أن تعرض شرق أوربا للاجتياح العثماني. إنه يقول لنا إن معظم رجال الدين البروتستنط في بروسيا كانوا يرون المسيح رجلا محبوبا أو بتعبير آخر مثله كمثل آدم، وإنهم رغم إيمانهم بهذه الحقيقة فإنهم لم يكونوا يصرحون بها (الفصل الثلاثون)، وكان بيتهوفن يقرأ الشعر الفارسي (الفصل ٢٨)، ولم يرد أبداً في أحاديثه أو كتاباته أية إشارة للمسيح كرب (الفصل ٢٨) وإنما تحدث وهو غير بعيد عن الموت عن الواحد القدوس (الفصل ٢٨) وكان يعتبر الارتباط بزوجة رجل آخر زنا، ولم يتسامح أبداً مع زوجة أخيه عندما زنت، وظل يقاضيها لينزع منها حضانة ابن أخيه «لأن الزانية لا تصلح لحضانة ابن أخيه». . وكان المؤلف قد علل في الفصل السادس والعشرين اهتزاز العقيدة المسيحية بتقدم العلم، فكلما ظهرت الحقائق العلمية انهارت الكنيسة أو تقهقر الإيمان المسيحي. . . وبينما كان بيتهوفن

يحتضر أشاروا عليه بإحضار القس فوافق وبعد أن انتهى القس من طقوسه قال بيتهوفن: انتهت المهزلة أو المسخرة أو الملهاة (كوميديا فينيتا) ورجح المؤلفان أن بتهوفن كان يقصد انتهت الحياة، ولا يقصد طقوس القس، ويبقى هذا – على أية حال – استنتاجاً قابلاً للجدل . وقد وصف أحد أصدقاء بيتهوفن الرجل بأنه مثل (المور Moor) إشارة إلى هيئته الغريبة وعدم وسامته لكن هذا لا يمنعنا في ضوء ما سبق من استنتاجات أخرى، لكن بيتهوفن على أية حال كان يعترف بأنه غير وسيم، فقد كتب لأحدهم طالبا منه أن يبحث له عن عروس شريطة أن تكون جميلة، « فمن غير المعقول أن أحب أي شيء غير جميل، وإلا لكنت قد أحببت نفسي » وعتب بيتهوفن على خالقه بأسلوب غير مهذب لأنه خلقه بهذا الوجه النكد . على أية حال فقد كان أحد أسباب سخط بيتهوفن على نابليون أن هذا الأخير عقد اتفاقا (كونكورد) مع الكنيسة . هذا المجلد إذن كالمجلدات السابقة غاص بالتحليلات الجديدة، والعرض الطيب لهذه المرحلة التاريخية المهمة . وعلى الله قصد السبيل .

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل الخامس والعشرون



١- البرتغال: ١٧٨٩ – ١٨٠٨

وصلت أخبار الثورة الفرنسية إلى البرتغال التي كانت تناضل للعودة إلى نظم العصور الوسطى المحافظة بعد المحاولة العنيفة المخزية التي قام بها الماركيز دي بومبال Pombal لجعل البرتغال تابعة في ثقافتها وقوانينها لفرنسا لويس الخامس عشر، وإسبانيا شارل الثالث Charles III. وكانت جبال البرانس تعوق تدفق الأفكار من فرنسا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان يحول بين انتقال الأفكار من إسبانيا إلى البرتغال شغف إسبانيا وتوقها المتكرر لابتلاع أختها الصغرى (البرتغال)، وكان ممثلو محاكم التفتيش طوال قرنين يبدون كأسود على بوابة قصر يصدون أية كلمة وأية فكرة تشكك في العقيدة الدينية القديمة أو تضعها موضع تساؤل.

وفي أدنى السلم الاجتماعي كان هناك حرس آخر يحمي الماضي ويدافع عنه: العوام البسطاء الذين كانوا في غالبهم يجهلون القراءة والكتابة – الفلاحون والحرفيون والعمال والجنود، فقد كانت هذه الطوائف قد أنست إلى عقائدها المتوارثة وارتاحت إلى ما بها من أساطير، واعترتها الخشية لما بها من معجزات وتفاعلت بتقوى شديدة مع طقوسها. وفي أعلى السلم الاجتماعي كان البارونات الإقطاعيون هم ملاك الأرض الذين يتصرفون بشكل نموذجي على وفق ما هو مطلوب في عصرهم، وكانت الملكة ماريا فرانسسكا Maria Francisca الرعديدة الواهنة العقل، وابنها جون الوصي على العرش (١٧٩٩) والذي أصبح ملكا (١٨١٦ – ١٨٢٦)، يعتمدان على الكنيسة كأداة للحماية، وكوسيلة لا بد منها لدعم أخلاق الأفراد، وضبط النظام الاجتماعي ومؤازرة الملكية المقدسة ذات الحق الإلهي والسلطة المطلقة. ووسط كل هذا الحرس المدافع عن القديم، كانت هناك قلة قليلة – الدارسون

(*) أطلق الإغريق هذا الاسم على المناطق الواقعة على طول نهر إبروس Iberus (الآن إبرو Ibro) ثم اتسع مفهوم الاسم ليشمل كل شبه الجزيرة الإسبانية البرتغالية.

والماسونيون والعلماء والشعراء ورجال الأعمال، وقلة من الموظفين، بل وواحد من النبلاء أو اثنان - يزعجها الحكم المطلق الذي ورثته البلاد عن الماضي، وكان أفراد هذه القلة يغازلون الفلسفة ويحلمون بحكومة تمثيل نيابي، ويحلمون بحرية التجارة وحرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية الفكر، ويحلمون بمشاركة فعالة متجاوبة مع فكر العالم.

وأتت أخبار الثورة الفرنسية لتسبب البهجة لتلك القلة المرتعدة، ولتسبب الرعب لذوي المقامات الرفيعة ومحاكم التفتيش، وعبَّر غير المتحفظين عن فرحتهم بشكل ينم عن الطيش، واحتفت المحافل الماسونية في البرتغال بهذا الحدث (الثورة الفرنسية) وهلل السفير البرتغالي في باريس للجمعية الوطنية الفرنسية، وربما كان قد قرأ كتابات روسو أو سمع خطب ميرابو، وسمح وزير الشئون الخارجية في البرتغال للجريدة الرسمية بنشرتحية لسقوط سجن الباستيل، وراح أصحاب المكتبات الفرنسيون في البرتغال يبيعون نسخاً من دستور ١٧٩١[١].

لكن عندما عزل ثوار باريس الملك لويس السادس عشر أحست الملكة ماريا أن عرشها يهتز وسلمت الحكم لابنها. وانقض جون الرابع (كما سيصبح اسمه فيما بعد) بشراسة على الليبراليين في البرتغال، فشجع مدير شرطته على ملاحقة كل ماسوني، وكل أجنبي ذي شأن، وكل كاتب يدعو للإصلاح السياسي، بالقبض عليهم، أو نفيهم أو مراقبتهم بشكل دائم. وجرى سجن فرانسكو دا سيلفا Francico da Sivla زعيم الليبراليين، وجرى إبعاد النبلاء الليبراليين عن البلاط. وسجن مانويل دى بوكيج du Bocage (١٧٦٥ - ١٨٠٥) الشاعر البرتغالي الرائد في عصره الذي كان قد كتب قصائد (سونيتات) قوية ضد الطغيان، فراح يستغل وقت فراغه في السجن في ترجمة أوفيد Ovid وفيرجيل[٢] Virgil.

وفي سنة ١٧٩٣ حذت البرتغال حذو إسبانيا فشنت حربا مقدسة على فرنسا بأن أرسلت أسطولا صغيرا لينضم إلى الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، والحقيقة أن تصرف البرتغال على هذا النحو كان يعبر عن استيائها الشديد من إعدام الملك الفرنسي لويس السادس عشر لكن سرعان ما سعت إسبانيا لعقد سلام منفرد مع فرنسا (١٧٩٥) فطلبت البرتغال من فرنسا تسوية العلاقات بينهما على النحو نفسه، لكن فرنسا رفضت بحجة أن

البرتغال هي في الواقع مستعمرة لإنجلترا وحليفة لها، واستعر النزاع حتى استطاع نابليون أن يطول هذه الدولة الصغيرة التي كانت ترفض الانضمام إلى جهوده لإغلاق القارة الأوربية في وجه البضائع البريطانية والنفوذ البريطاني (الحصار الفرنسي المضاد)، ولم يتمكن نابليون من وضع البرتغال في محور اهتمامه إلا بعد أن كان قد فتح نصف أوربا.

وكانت البنية الاقتصادية البرتغالية غير الراسخة كامنة وراء أوضاعها العسكرية والسياسية، فكما كان الحال في إسبانيا كانت ثروة البرتغال تقوم على جلب المعادن النفيسة من مستعمراتها. وكانت هذه المجلوبات من ذهب وفضة تذهب لقاء المواد التي تستوردها البرتغال لإضفاء مظهر براق زائف على العرش وزيادة غنى الغني، وشراء الرفاهيات والعبيد. ولم تكن هناك طبقة وسطى نامية لتطوير الموارد الطبيعية بزراعة متقدمة وصناعة تقوم على التكنولوجيا. وعندما أصبحت السيادة على البحار لإنجلترا أصبح وصول إمدادات الذهب للبرتغال متوقفا على إمكانية الإفلات من الأساطيل البريطانية، أو إمكانية عقد اتفاقات مع الحكومة البريطانية. واختارت إسبانيا طريق الحرب وكادت تستنفد مواردها في بناء أسطول ممتاز في كل شيء خلا طاقم بحارته والروح المعنوية لقادته وجنوده، فعندما انضم هذا الأسطول الإسباني - على مضض - للأسطول الفرنسي، حاقت به الهزيمة في معركة الطرف الأغرّ، فأصبحت إسبانيا معتمدة على فرنسا، أما البرتغال فأصبحت معتمدة على إنجلترا مخافة أن تبتلعها أسبانيا أو فرنسا، فراح المغامرون الإنجليز يشغلون مناصب مهمة في البرتغال وراح آخرون منهم يقيمون فيها المصانع أو يتولون إدارة المصانع البرتغالية، وهيمنت البضائع البريطانية على تجارة الواردات البرتغالية ووافق البريتون على شرب نبيذ الميناء من أوبورتو Oporto في البرتغال (الاسم أوبورتو يعنى ميناء Pirt).

لقد أسخط هذا الوضع نابليون واستثاره، إذ كان فيه التحدي لخطته القائمة على إجبار إنجلترا على قبول السلام بمنع بضائعها ومنتجاتها من دخول أسواق القارة الأوربية، ووجد نابليون في ذلك مبررا لغزو البرتغال، فالبرتغال إذا تم فتحها يمكنها أن تساهم مع فرنسا في إجبار إسبانيا على الارتباط بالسياسة الفرنسية، أو بتعبير آخر لا تجد لها فكاكا من الارتباط الدائم بفرنسا، وساعتئذٍ يمكن لبونابرت آخر أن يتبوأ عرش إسبانيا. وعلى هذا، فكما سبق

أن ذكرنا، حث نابليون الحكومة الإسبانية على الانضمام لفرنسا في غزو البرتغال، فهربت الأسرة المالكة البرتغالية في سفينة إنجليزية إلى البرازيل، وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٧ قاد جانو Junot جيشا فرنسيا إسبانيا إلى لشبونة، وكاد طريقه يكون خاليا من المقاومة، وتحلق الزعماء الليبراليون في البرتغال حول الحكومة الجديدة آملين أن يلحق نابليون بلادهم وأن يقيم فيها مؤسسات تمثيل نيابي[٣]. ولاطف جونو Junot هؤلاء الرجال، وضحك منهم في سريرته، وأعلن في أول فبراير سنة ١٨٠٨ «انتهاء حكم أسرة براجانزا Braganza» وراح هونفسه يحكم قبضته، ويتصرف أكثر فأكثر كملك.

٢- إسبانيا

كانت إسبانيا لاتزال تعيش أجواء العصور الوسطى. لقد كانت دولة ذائبة في عشق الرب، تزدحم كاتدرائياتها المهيبة، ويقوم أبناؤها بالحج إلى المزارات المقدسة، دولة مكتظة برجال الدين، أنست إلى الغفران الذي تمنحه الكنيسة الكاثوليكية، تخشى محاكم التفتيش وتوقرها، وكان الإسبان يخرُّون ركعا سجدا في الطرقات عندما يمر أعضاء محاكم التفيتس في موكبهم المهيب. كما كان الإسبان يضعون في اعتبارهم قبل أي شيء آخر أن يكون الرب God حاضراً في كل بيت من بيوتهم يرعى أطفالهم ويحفظ عذرية بناتهم ويثيب في النهاية بالفردوس بعد اختبار مرهق اسمه الحياة. وقد وجد جورج بورو Borrow بعد ذلك بجيل،« أن جهل الجماهير كان فظيعاً » على الأقل في ليون Lyon « لدرجة أن التمائم المطبوعة ضد الشيطان وأعوانه، والتمائم التي تبعد النحس، كانت تباع علناً في المحلات وكانت تلقى رواجا كبيرا[٤] » وقد انتهى نابليون الذي كان لايزال ابنا لحركة التنوير إلى أن « دور الفلاحين الإسبان وإسهامهم في الحضارة الأوربية أقل حتى من دور الفلاحين الروس[٥] ». لقد عبر نابليون عن ذلك بينما هو يوقع الكونكوردات (الوفاق) مع الكنيسة الكاثوليكية. ومع هذا فقد كان الفلاح الإسباني - كما شهد لورد بايرون يستطيع « أن يكون فخورا معتزا بنفسه كأكثر الدوقات نبالة[٦] ».

وكاد يكون التعليم مقصورا على البورجوازية والنبلاء. وكانت معرفة القراءة والكتابة

تمثل حداً فاصلا، فحتى الهيدالجوات hidalgos (من طبقة النبلاء الدنيا) قلما كان الواحد منهم يستطيع قراءة كتاب . وكانت الطبقة الحاكمة تتخوف من الطباعة(٧)، وعلى أية حال لم يكن محو الأمية مطلوبا في ظل الاقتصاد الإسباني الموجود آنئذ . وكانت بعض المدن التجارية مثل قادش Cadiz وأشبيلية مزدهرة، وقد اعتبر اللورد بايرون قادش « أجمل مدن أوربا »(٨) في سنة ١٨٠٩ . وكانت هناك بعض المراكز الصناعية المزدهرة، فقد ظلت توليدو Toledo مشهورة بسيوفها(٩) لكن طبيعة البلاد الجبلية الوعرة لم تجعل غير ثلثها فقط هو الذي يمكن زراعته بمردود اقتصادي، وكانت الطرق والقنوات (الترع) قليلة جدا، ووعرة وتنقصها الصيانة كما كان المرور فيها يستلزم رسوما تفرضها الولايات أو السيد الإقطاعي، لدرجة أن الناس وجدوا أنه من الأرخص استيراد القمح من إنتاجه محليا(١٠). لقد راح الفلاحون – وقد أوهنت التربة التي لا تصلح للزراعة إلا بشق النفس من عزائمهم - راحوا يفخرون بحياة البطالة الواضحة بدلاً من انتظار نتائج الكدح في تربة ليس نتاجها مؤكدا. ووجد أهل المدن سعادتهم في تهريب البضائع أكثر مما وجدوها في العمل الذي لايتقاضون لقاءه أجوراً مجزية. وكان يجثم فوق أنفاس الحياة الاقتصادية ضرائب تزداد أكثر مما يزداد الدخل وجهاز شرطة فاسد وطبقة موظفين متزايدة، وحكومة منحطة (فاسدة).

ورغم هذه الصعوبات فقد ظلت روح الأمة العالية، يشد أزرها تراث فيرديناند وإيزابيلا، وفيليب الثاني، وتراث فيلاسكويز Velaisquez وموريلو Murillo، ويشد أزرها زيادة ثروة الإمبراطورية الإسبانية في الأمريكتين والشرق الأقصى، تلك الثروة الهائلة التي كانت إمكانية زيادتها أمراً متوقعا. وحقق الفن الإسباني شهرة ضارعت الفن الإيطالي والهولندي. لقد جمعت الأمة الإسبانية – الآن – كنوزها الفنية – رسماً ونحتا في متحف دل برادو Museo del Prado الذي شيده في مدريد (١٧٨٥ – ١٨١٩) خوان دي فيلانوفا Juan de Vilanueva ومعاونوه ومن أتوا بعده. وفي هذا المتحف توجد الأعمال العظيمة الخالدة لسيد رسامي العصر فرانسسكو جوز دي جويا Francisco Jose de Goya Y Lucientes (١٧٤٦ – ١٨٢٨)(*) وقد

(*) انظر Rousseau & Revolution pp. 300 - 309 هذا المجلد يصحب جويا وجوته حتى نهايتهما باعتبارهما ينتميان لعصر نابليون ولصيقين به (أي بهذا العصر)، وكان كلاهما معجباً به سواء عند بروزه على الساحة أو عند سقوطه.

وصلتنا صورة لهذا الرسام رسمها له فيسنت لوبيزي بورتانا Vicente Lopez Y Portana وهي صورة تظهره عنيدا متصلباً مما يتوافق مع الروح المتجهمة التي أظهر فيها (في رسومه) الحرب بكل وحشيتها وقسوتها الدموية، ومما يتوافق مع رجل أحب بلاده لكنه في الوقت نفسه كان يحتقر ملكها. لقد انتعش الأدب الإسباني بفضل حافزين، أوّلهما الثقافة الكاثوليكية، وثانيهما التنوير الفرنسي، واستمر هذا الانتعاش حتى عندما استهلكت الحروب الأهلية والحروب الخارجية الأمة الإسبانية. فالقس الجزويتي (اليسوعي) خوان فرانسسكو دي ماسدو Juan Francisco de Masdeu أصدر على مراحل بدءا من سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٨٠٥ كتابه المهم عن تاريخ الثقافة الإسبانية Historia Critica de Espana Y de la Cultura Espanola تناول فيه التاريخ بشكل تكاملي إذ خلط التاريخ الثقافي في سياق التاريخ الحضاري العام[١١]. وتلقى خوان أنتونيو لورنت Juan Antonio Lorente – الذي كان سكرتيرا عاما لمحكمة التفتيش الإسبانية (الكاثوليكية) من ١٧٨٩ إلى ١٨٠١ – من جوزيف بونابرت (١٨٠٩) تكليفا بكتابة تاريخ هذه المؤسسة (محكمة التفتيش)، ووجد خوان أن كتابة هذا التاريخ في باريس سيكون أكثر أمناً، فكتبه بالفرنسية في الفترة بين عامي ١٨١٧ و ١٨١٨. ولم يكن ازدهار النثر والشعر الذي كان غرة في جبين عصر شارلز الثالث قد ذبل تماما عند موته: فقد واصل جاسبار ملشور دي جوفيلانوس Gaspar Melchor de Jovellanos (١٧٤٤ – ١٨١١) دوره كصوت معبر عن الليبرالية في التعليم ونظم الحكم، وظل ليندرو فرناندز دي مورتين Leandro Fernandez de Mortain (١٧٦٠ – ١٨٢٨) يتسوّد على خشبة المسرح بمسرحياته الضاحكة (كوميدياته) التي ضمنت له لقب (موليير إسبانيا)، وخلال حرب التحرير (١٨٠٨ – ١٨١٤) راح مانويل جوزي كوانتانا Manuel Jose Quantana والقس خوان نيكازيو جاليجو Juan Nicasio Gallego يفيضان أشعارا حماسية لتأجيج نيران الثورة على الفرنسيين.

لقد تأثر معظم الكتاب الإسبان الرواد بالأفكار الفرنسية سواء في مجال الفكر الخالص أو التحرر السياسي، لقد تفرنس هؤلاء الكتاب تماما كما تفرنس الماسونيون. حدث هذا رغم النضال الإسباني للتحرر من الاحتلال الفرنسي. لقد استنكروا إضعاف الملكية لمجالس الأقاليم (المحافظات) تلك المجالس المحلية التي كان لها دور في وقت من الأوقات في المحافظة

على أسبانيا حيّة في مختلف أنحائها. لقد هلّلوا للثورة الفرنسية ورحّبوا بنابليون كمتحدٍ يدفع اسبانيا لتخليص نفسها من الارستقراطية الاقطاعية والكنيسة ذات الصبغة الوسيطية (كنيسة العصور الوسطى) والحكومة التي لا تتسم بالكفاءة. ولندع مؤرخا أسبانيا متمكنا يقدم لنا لحنا جنائزيا حزينا ومتسما بالقوة يتناول فيه الأسرة الحاكمة الإسبانية المحتضرة:

«في سنة ١٨٠٨، وعندما كانت أسرة البوربون الحاكمة في فرنسا تسير نحو الهاوية - يمكننا أن نلخص الوضع السياسي والاجتماعي في أسبانيا كالتالي: أرستقراطية فقدت احترامها للملوك، فقد كان رجال الحاشية على نحو خاص لا يوقرون ملوكهم. وسياسات فاسدة يقوم عليها سياسيون تحركهم العداوات الشخصية، ويملأهم الخوف والتردد. وكانت الطبقات العليا تعوزها الوطنية لا يحركها سوى الجشع والهوى. وكانت الآمال المحمومة للجماهير تتحلق حول أمير (هو فرديناند) أثبت بالفعل أنه حقود يميل للانتقام وأنه أمير زائف. وأخيرا ظهر التأثير العميق في دوائر الأدب والفكر، لأفكار الموسوعيين (الأنسيكلوبيديين) الفرنسيين والثورة الفرنسية[١٢]».

وقد وصفنا في فصل سابق انهيار العرش الإسباني وتفسخه من وجهة نظر نابليون: لقد سمح شارل الرابع (حكم من ١٧٨٨ إلى ١٨٠٨) لزوجته ماريا لويزا Luisa وعشيقها جودوي Godoy أن يسلباه صلاحيات الحكم، وراح الأمير فرديناند الوريث الظاهر يناور لعزل أبيه، وحارب أنصار جودوي أنصار الأمير فرديناند، وغرقت مدريد وما حولها في حالة من الفوضى. ووجد نابليون في هذه الفرضى فرصة لضم كل شبه الجزيرة الأيبيرية للحكم الفرنسي ليحكم بها الحصار القاري (المضاد) في وجه البضائع والنفوذ البريطانيين. لقد أرسل نابليون مورا Murat والجيش الفرنسي الثاني إلى أسبانيا بتعليمات مؤداها إعادة النظام إلى أسبانيا. ودخل مورا Murat مدريد (٢٣ مارس ١٨٠٨) وقمع العصيان المسلح المعروف بعصيان الثاني من مايو historic Dos de Mayo. وفي هذه الأثناء دعا نابليون كلاً من شارلز الرابع وفرديناند للالتقاء به في بايون Bayonne في فرنسا بالقرب من الحدود الإسبانية. وأرهب نابليون الأمير وأجبره على إعادة العرش لوالده، ثم حث نابليون الأب على التنازل عن العرش لصالح من يعينه هو (أي يعينه نابليون) ووعد نابليون بالاعتراف

بالكاثوليكية كدين رسمي وحمايتها كدين وطني لأسبانيا. وأمر نابليون أخاه جوزيف بالقدوم ليكون ملكاً على أسبانيا. ولم يكن جوزيف راغباً في القدوم لكنه أتى على مضض وتسلم من نابليون دستورا جديدا لأسبانيا منح فيه الإسبان كثيرا مما كان يطمح إليه الليبراليون الإسبان، لكنه - أي الدستور - طلب منهم أن يكونوا على علاقة طيبة بالكنيسة. وتولى جوزيف مهامه الجديدة غير سعيد بها، وعاد نابليون إلى باريس سعيدا بابتلاع أسبانيا غير واضع في اعتباره الجماهير الإسبانية وولنجتون Wellington .

٣- آرثر ويليزلي: ١٧٦٩ - ١٨٠٧

حتى سنة ١٨٠٩ لم يحمل اسم ولنجتون، فحتى سنة ١٧٩٨ كان اسمه وزلي Wesley رغم أنه كان بعيدا عن الوزلية (أو الميتودية أو المنهجية Methodism). ولد في دبلن Dublin في أول مايو سنة ١٧٦٩ (قبل مولد نابليون بمائة يوم وخمسة أيام) وكان هو الابن الخامس لجاريت وزلي Garret Wesley الإيرل الأول لمورننجتون Mornington مالك مزرعة وعقار إلى الشمال من العاصمة الأيرلندية. وجرى إرساله إلى إتون Eton وهو في الثانية عشرة من عمره لكنه دعي للعودة إلى منزله «بعد ثلاثة أعوام غير مجيدة[١٣]». وليس هناك مايشير إلى أنه كان متفوقاً في الرياضة إذ كان حاله فيها كحاله في الدراسة، وفي وقت لاحق شكك في صحة المقولة التي لا نعرف قائلها والتي مؤداها أن «معركة واترلو ما كانت ليحقق فيها البريطانيون نصرا لولا ما كان يجري في ملاعب إتون Eton[١٤]» لقد كانت أمه حزينة تردد دائما قولها «إنني ألجأ إلى الله لأعرف ما سأفعله مع ابني آرثر غير البارع[١٥]» لكل هذا فقد تم إلحاقه بالجيش فجرى إرساله وهو في السابعة عشرة من عمره إلى الأكاديمية الملكية في أنجرز Académie Royale de L'Equitation, Angers حيث كان أبناء النبلاء يتعلمون الرياضيات وشيئا من العلوم الإنسانية ويتلقون كثيرا من التدريبات على ركوب الخيل والمبارزة وهي أمور لازمة للضباط. وعندما فاز بجوائزه - بفضل نفوذ أسرته أو مقابل دفع الأموال - تم تعيينه معاوناً للورد ليفتنانت أيرلندا كما شغل مقعداً في مجلس العموم في أيرلندا ممثلاً لمدينة تريم Trim. وفي سنة ١٧٩٩ أصبح ليفتنانت كولونيل وقاد ثلاث كتائب

لغزو الفلاندر Flanders وعاد من هذه المغامرة غير الناجحة مشمئزاً من الحرب ممرغاً في الوحل متهما بعدم الكفاءة حتى إنه فكر في ترك الجيش والانخراط في الحياة المدنية. لقد كان يفضل الكمان على الثكنات العسكرية وكان يعاني آلاما متلاحقة، وكان من رأي أخيه مورننجتون أن أحداً لا يجب أن يتوقع منه الكثير لنقص كفاءته[١٦] وقد رسمه جون هوبنر Hopner في صورة تظهره وهو في السادسة والعشرين بعينين كعيني شاعر، وبوسامة كوسامة بايرون. وقد رشح - مثل بايرون - للزواج من ليدي نبيلة رفضت الاقتران به. وفي سنة ١٧٩٦ ذهب إلى الهند كولونيلاً تحت قيادة أخيه ريتشارد الذي هو الآن (في هذه الفترة) المركيز ويلزلي Wellesley وأصبح حاكما لمدراس Madras ثم البنغال، وضم بعض الإمارات الهندية للإمبراطورية البريطانية. لقد أحرز آرثر ويلزلي Arthur Wellesley (كما أصبح دوق المستقبل يكتب اسمه) بعض الانتصارات الباهرة في هذه المعارك في الهند، ومنح لقب فارس في سنة ١٨٠٤.

وعندما عاد إلى إنجلترا ضمن لنفسه مقعدا في البرلمان البريطاني وتقدم مرة أخرى لطلب يد كاثي باكنهام Cathey Pakenham فقبلته (١٨٠٦) فعاش معها غير سعيد حتى تعلم كل منهما العيش بمعزل عن الآخر، وقد أنجب منها طفلين.

وواصل الترقي من منصب إلى آخر، ولم يكن هذا بتقديم الرشا وإنما كان في الأساس لشهرته بالتحليلات الدقيقة والإنجازات المتسمة بالكفاءة. وقد وصفه وليم بت Pitt قرب موته بأنه «رجل يضع في اعتباره كل الصعوبات قبل القيام بمهمة فلا يبقى من هذه الصعوبات شيء بعد إتمام المهمة[١٧]» وفي سنة ١٨٠٧ أصبح وزيرا أول لشؤون أيرلندا في وزارة دوق بورتلاند Duke of Portland، وفي سنة ١٨٠٨ أصبح ليفتنانت جنرال، وفي شهر يوليو من العام نفسه عهد إليه بقيادة ١٣٥٠٠ مقاتل لطرد جونو Junot والفرنسيين من البرتغال.

وفي أول أغسطس رسا برجاله في ساحل خليج مونديجو Mondego إلى الشمال من لشبونه بمائة ميل.

وانضم إليه هناك نحو ٥٠٠٠ برتغالي، ووصله خطاب من وزارة الحرب تعده فيه بإمداده

بمحاربين آخرين عددهم ١٥٠٠٠ في أقرب وقت، لكن الخطاب أضاف أن السير هيو دالريمبل Hew Dalrymple البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاما سيكون على رأس هذا المدد وسيتولى القيادة العليا للحملة كلها، ولكن ويلزلي Wellesley كان قد وضع خططه بالفعل ولم يكن سعيدا بالعمل تحت قيادة قائد آخر، فقرر ألا ينتظر وصول المدد المكون من ١٥,٠٠٠ مقاتل، فاتجه شمالا على رأس رجاله البالغ عددهم ١٨,٥٠٠ ليخوض المعركة التي ستحدد مصير جونو Junot ومصيره (أي مصير ويلزلي)، وكان جونو Junot قد سمح لرجاله بالانغماس في اللهو بكل أنواعه في العاصمة، وكان على رأس ١٣,٠٠٠ مقاتل، فقبل التحدي لكنه عانى هزيمة منكرة في فيميرو Vimeiro بالقرب من لشبونة (٢١ أغسطس ١٨٠٨). ووصل دالريمبل Dalrymple بعد المعركة فتولى القيادة، وأوقف مواصلة زحف القوات البريطانية ورتب مع جونو Junot اتفاق سنترا Cintra (٣ سبتمبر) يسلم بمقتضاه كل المدن والحصون التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها في البرتغال، على أن ينسحب بمن بقي من رجاله بأمان، ووافق البريطانيون على تقديم سفنهم لنقل الراغبين في العودة إلى فرنسا، ووقع ويلزلي Wellesley الوثيقة شاعراً أن تحرير البرتغال بمعركة واحدة أمر يستحق من بريطانيا بعض الرضا.

واتفاق سنترا Cintra هذا هو الاتفاق الذي وافق الشاعران وردزورث ولورد بايرون على أنه غباء لا يصدق (وإن كانا لم يرددا هذا الرأي بعد ذلك إلا نادرا) فهؤلاء المقاتلون الفرنسيون الذين تم إطلاق سراحهم سرعان ماسيجندون مرة أخرى لمحاربة بريطانيا وحلفائها. وتم استدعاء ويلزلي Wellesely إلى لندن لاستجوابه، فذهب غير آسف تماما فهو لم يكن راغبا في الخدمة تحت قيادة دالريمبل Dalrymple وكان يكره الحرب بالفعل. لقد قال بعد أن حقق انتصارات كثيرة «اسمع رأيي عن الحرب: إنك إن خضت الحرب ولو ليوم واحد فستدعو الله القدير ألا تشهدها ولو لساعة واحدة مرة أخرى[١٨]». ويبدو أنه أقنع محاكميه أن اتفاق سنترا قد أنقذ حياة الآلاف من البريطانيين وحلفائهم بمنع القوات الفرنسية من إبداء المزيد من المقاومة. وبعد ذلك عاد إلى أيرلندا منتظراً فرصة أفضل لخدمة بلاده واسمه ذي السمعة الطيبة.

٤- حرب شبه الجزيرة الأيبيرية: الحرب الثالثة (١٨٠٨ - ١٨١٢)

لقد كان ملك أسبانيا جوزيف بونابرت في اضطراب لا مزيد عليه. لقد عمل على اكتساب قبول واسع أكثر من القبول الذي حباه به بعض الليبراليين. وكان الليبراليون يؤيدون إجراءات المصادرة ضد الكنيسة الثرية ولكن جوزيف الذي كان يعاني من شهرته كلا أدري (اللاأدري هو الموقن بأن الأمور غير المادية يصعب الوصول إليها باليقين الإيماني) كان يدرك أن أي تصرف منه ضد رجال الدين سيسارع بإشعال نيران المقاومة ضد الحكم الأجنبي (الفرنسي) وكانت الجيوش الإسبانية التي هزمها نابليون قد جرى تشكيلها من جديد في مناطق أسبانية متفرقة، حقيقة أنها لم تكن منظمة منضبطة، لكنها كانت متحمسة. واستمرت حرب العصابات التي يشنها الفلاحون ضد مغتصبي العرش كل عام في الفترة ما بين موسم البذر وموسم الحصاد، وكان يتحتم على الجيش الفرنسي في أسبانيا أن يقسم نفسه إلى قوات متفرقة يقودها جنرالات متحاسدون يخوضون معارك في جو من الفوضى وعدم الانضباط أعجز جهود نابليون للتنسيق بينهم من مقره في باريس. قال كارل ماركس «لقد تعلم نابليون درساً مفاده أنه إذا كانت الدولة الإسبانية قد ماتت، فإن المجتمع الإسباني لا يزال مفعما بالحياة وأن كل جانب منه يفيض رغبة في المقاومة.. لقد كان محور المقاومة الإسبانية في كل مكان وليس في مكان واحد[١٩]. وبعد انهيار الجيش الفرنسي الرئيسي في بيلن Bailen انضم الجانب الرئيسي من الأرستقراطية الإسبانية إلى الثورة وبذلك حولوا الكراهية الشعبية التي كانت موجهة إليهم إلى الغزاة. وكان للتأييد الفعال الذي قدمه رجال الدين الإسبان للثورة أثره المهم في تحويل الحركة عن الأفكار الليبرالية، بل لقد حدث العكس فقد أدى نجاح حرب التحرير الإسبانية إلى تقوية الكنيسة ومحاكم التفتيش[٢٠]. ومع هذا فقد ظلت بعض العناصر الليبرالية موجودة في المجالس السياسية Juntas في المديريات (الولايات) الإسبانية المختلفة، وكانت هذه المجالس ترسل ممثلين عنها للمجلس الرئيسي (على مستوى الوطن كله) في قادش Cadiz، وكان هؤلاء يكتبون دستورا جديدا. لقد كانت شبه الجزيرة الأيبيرية مفعمة بالعصيان المسلح والآمال والإيمان الكاثوليكي، بينما كان جوزيف بونابرت يتطلع إلى نابلي، في حين كان نابليون يحارب النمسا وكان ويلزلي Wellesely

(ولنجتون) يستعد لينقض مرة ثانية من إنجلترا ليساعد في عودة أسبانيا إلى ما كانت عليه في العصور الوسطى، مع أنه هونفسه (ويلزلي) كان رجلا عصريا بكل معنى الكلمة.

وكان السير جون مور John Moore – قبل موته في كورونا Corunna (١٦ يناير ١٨٠٩) قد نصح الحكومة البريطانية ألا تقوم بمحاولات أخرى للسيطرة على البرتغال، فقد كان يعتقد أن الفرنسيين سينفذون أوامر نابليون بضم البرتغال إلى فرنسا عاجلاً أم آجلا، كما كان يعتقد أن إنجلترا لن تجد وسيلة لنقل العدد الكافي من الجنود لمواجهة ١٠٠,٠٠٠ جندي فرنسي موسمى في أسبانيا كما أنها لن تتمكن من تدبير المؤن اللازمة لجنودها. لكن السير آرثر ويلزلي كان قلقا في أيرلندا وأخبر وزير الحرب أنه إذا أتاح له قيادة عشرين ألف أو ثلاثين ألف جندي بريطاني ودعم وطني، فإنه يستطيع أن يحفظ البرتغال بعيدة عن قبضة أي جيش فرنسي لايزيد عن ١٠٠,٠٠٠ مقاتل[٢١]، ووافقت الحكومة البريطانية وألزمته بكلماته، وفي ٢٢ أبريل سنة ١٨٠٩ وصل إلى لشبونة على رأس ٢٥,٠٠٠ بريطاني وصفهم في وقت لاحق بأنهم « حثالة الأرض... ومجموعة من الأوغاد.. لايمكن السيطرة عليهم إلا بالسياط، إذ إنهم لم يخلقوا إلا للسكر[٢٢] ». لكنهم يستطيعون القتال بشراسة إذا لم يكن أمامهم سوى خيار واحد: إما أن يقتلوا (بفتح الياء) أو يقتلوا (بضم الياء).

وتحسبا لوصول ويلزلي وقواته، حرك المارشال سولت Soult ٢٣,٠٠٠ جندي فرنسي إلى أوبورتو Oporto وفي هذه الأثناء كان جيش فرنسي آخر بقيادة المارشال كلود فكتور Claude Victor يتقدم من الغرب على طول التاجوس Tagus. وقرر ويلزلي Wellesley – الذي كان قد درس معارك نابليون بدقة – أن يهاجم سولت Soult قبل أن يتمكن المارشالان من ضمّ قواتهما معاً لشنّ هجوم على لشبونة التي تمكن البريطانيون منها. وبعد أن انضم إلى قوات ويلزلي البالغة ٢٥,٠٠٠ مقاتل، ١٥,٠٠٠ مقاتل برتغالي بقيادة وليم كار بيرسفورد W. Carr Beresford (فيكونت بيرسفورد) قادهم جميعا إلى نقطة على نهر دورو Douro في مواجهة أو بورتو Oporto وفي ١٢ مايو سنة ١٨٠٩ عبر مجرى النهر وهاجم مؤخرة جيش سولت Soult بشكل مفاجئ فتراجع الجيش الفرنسي وعمته الفوضى، وخسر

الجيش الفرنسي ٦٠٠٠ قتيل وكل مدفعيته، ولم يتعقب ويلزلي الجيش الفرنسي المنهزم فقد كان عليه أن يسرع جنوبا للتصدي لجيش فرنسي آخر بقيادة فيكتور، لكن فيكتور بعد أن علم بهزيمة سولت Soult استدار عائداً إلى تالافيرا Talavera وهناك تلقى من جوزيف مددا زاد من عدد جيشه ليصبح ٤٦,٠٠٠ مقاتل، ولم تكن قوات ويلزلي تزيد على ٢٣,٠٠٠ بريطاني و ٣٦,٠٠٠ أسباني، والتقى الجيشان في تالافيرا في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩، وهرب الجنود الإسبان ومع هذا فقد تمكن ويلزلي من تكبيد جيش فكتور ٧٠٠٠ قتيل وجريح واستولى منه على ١٧ مدفعا. وسيطر ويلزلي على ميدان المعركة رغم أن جيشه فقد ٥٠٠٠ ما بين قتيل وجريح، وقدرت الحكومة البريطانية كفاءة ويلزلي وشجاعته فأصبح يحمل لقب فيكونت ولنجتون ومع هذا فقد أدى انتصار نابليون في معركة واجرام Wagram (١٨٠٩) وزواجه من ابنة الإمبراطور النمساوي (مارس ١٨١٠) إلى وضع حد لولاء النمسا لإنجلترا. وكانت روسيا لا تزال حليفة لفرنسا، وكان هناك ١٣٨,٠٠٠جندي فرنسي إضافي مستعدين للخدمة العسكرية في أسبانيا، وكان المارشال أندريه ماسينا André Masséna بجنوده البالغ عددهم ٦٥٠٠٠ يخطط للخروج بهم من أسبانيا لغزو البرتغال. وأخبرت الحكومة البريطانية ولنجتون أنه إذا غزا الفرنسيون أسبانيا مرة أخرى فلا جناح عليه إن انسحب بجيشه إلى إنجلترا[٢٣]. وكانت هذه لحظة حرجة في مهمة ولنجتون، فالانسحاب – رغم أن الحكومة البريطانية قد سمحت به – قد يلوث سجله إذا لم يحقق نصراً كبيرا على نحو ما يخفف من وطأة الانسحاب، فقرر أن يخاطر برجاله وبمهمته وبحياته بضربة أخرى تعتمد على الحظ (برمية نَرْد أخرى)، وفي هذه الأثناء كان قد جعل رجاله يقيمون خطا من التحصينات إلى الشمال من قاعدته في لشبونة بخمسة وعشرين ميلا من التاجوس Tagus وعبر تورز فيدراس Torres Vedras حتى البحر.

وبدأ ماسينا Masséna معركته بالاستيلاء على حصن سيوداد رودريجو Cuidad Rodrigo الإسباني ثم عبر إلى البرتغال بستين ألف مقاتل. وكان ولنجتون على رأس ٥٢,٠٠٠ من المتحالفين (بريطانيين وأسبان وبرتغاليين) فالتقى به في بوساكو Bussaco (شمال كويمبرا Coimbra) في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٠ فتكبّد ١٢٥٠ ما بين قتيل وجريح

أما ماسينا فتكبّد ٤,٦٠٠، ومع هذا فقد أدرك ولنجتون أنه لن يستطيع - كماسينا - التعويل على مدد يأتيه، لذا فقد تراجع إلى تحصينات تورز فيدراس Torres Vedras وأمر رجاله باتباع سياسة «الأرض المحروقة» أي تدمير كل ما يلقونه في طريق تراجعهم حتى يعاني جيش ماسينا من الجوع، وفي ٥ مارس سنة ١٨١١ قاد ماسينا جنوده الجياع عائداً إلى أسبانيا وأسلم القيادة لأوجست مارمون Auguste Marmont .

وبعد أن قضى ولنجتون فترة الشتاء في الراحة وتدريب رجاله أخذ المبادرة فاتجه إلى أسبانيا على رأس جنوده البالغ عددهم ٥٠,٠٠٠ وهاجم قوات مارمون البالغ عددها ٤٨,٠٠٠ بالقرب من سالامانكا Salamanca في ٢٢ يوليو ١٨١٢، ففقدت القوات الفرنسية ١٤,٠٠٠ ما بين قتيل وجريح بينما فقد البريطانيون وحلفاؤهم ٤,٧٠٠، وانسحب مارمون، وفي ٢١ يوليو غادر الملك جوزيف بونابرت مدريد على رأس ١٥,٠٠٠ مقاتل لتقديم النجدة لمارمون، لكنه علم في أثناء الطريق بما حل بمارمون من هزيمة، فلم يجرؤ (أي الملك جوزيف بونابرت) على العودة للعاصمة (مدريد) فقاد قواته إلى فالنسيا Valencia ليلحق هناك بجيش فرنسي أكبر عددا بقيادة المارشال سوش Sochet ولحق به - بعجلة وفوضى - ١٠,٠٠٠ من المتفرنسين (المؤيدين للحكم الفرنسي من الإسبان والبرتغاليين) وحاشيته وموظفوه. وفي ١٢ أغسطس دخل ولنجتون مدريد فرحبت به الجماهير بحماس بالغ، تلك الجماهير التي ظلت غير مفتونة بدستور نابليون. وكتب ولنجتون لأحد أصدقائه «إنني بين أُناس يكاد الفرح يذهب بعقولهم. لقد منحني الرب حظاً سعيداً أرجو أن يستمر لأكون أداة لتحقيق استقلاله»[٢٤].

لكن الرب تردّد فلم يُعطه استمراراً لهذا الحظ فقد أعاد مارمون تنظيم جيشه خلف تحصينات بورجو Burgos، فحاصره ولنجتون هناك؛، وتقدم جوزيف من فالنسيا Valencia على رأس ٩٠٠٠ مقاتل لمواجهة القوات البريطانية والمتحالفين معها، فتراجع ولنجتون (١٨ أكتوبر ١٨١٢) متجاوزاً سالامانكا إلى سيوداد رودريجو Ciudad Rodrigo وفقد في أثناء تراجعه ٦٠٠٠ من قواته (بين قتيل وجريح)، ودخل جوزيف مدريد مرة أخرى وسط استياء عارم من الجماهير، وإن ابتهجت الطبقة الوسطى لعودته، وفي هذه الأثناء كان نابليون

يرتجف في موسكو، وظلت أسبانيا – مثلها في ذلك مثل سائر أوروبا – في انتظار نتيجة مغامرته التي ستؤثر في أحوال القارة الأوروبية.

٥- النتائج

تمخضت حرب شبه الجزيرة الأيبيرية حتى عند هذه المرحلة غير الحاسمة عن بعض النتائج الواضحة. فمن الناحية الجغرافية كانت أهم النتائج هي أن المستعمرات البرتغالية والإسبانية في أمريكا الجنوبية قد استطاعت التحرر من قبضة الوطن الأم الذي اعتراه الضعف (إسبانيا أو البرتغال)، وبدأت هذا المستعمرات مرحلة نشيطة وحيوية. ومن النتائج أيضاً أن كل أسبانيا جنوب التاجوس Tagus قد تخلّصت من الجنود الفرنسيين. ومن الناحية العسكرية أثبت ولنجتون أن فرنسا يمكن ألاّ تستولي على البرتغال، أو بتعبير آخر أن منع فرنسا من الاستيلاء على البرتغال أمرٌ ممكن، بل وربما لا تستطيع فرنسا الاحتفاظ بأسبانيا، إلاّ إذا خاطرت بكل فتوحاتها إلى الشرق من الراين Rhine. ومن الناحية الاجتماعية حققت المقاومة الشعبية – رغم عدم انضباطها – انتصاراً لصالح الفلاحين والكنيسة. ومن الناحية السياسية استعادت المجالس السياسية المحلية (في الدوائر أو الولايات) بعضاً من سلطانها القديم فأقامت كل منها جيشاً خاصاً بها وسكّت عُملة خاصة بها، وأصبح لكل منها سياسة خاصة بها، بل إنها في بعض الأحيان كانت تُوقع سلاماً منفصلاً مع بريطانيا (أي دون الرجوع إلى الحكومة المركزية). والأكثر دلالة من ذلك كله هو أن هذه المجالس السياسية المحلية أرسلت ممثلين عنها إلى البرلمان المركزي مزوَّدين بتعليمات لصياغة دستور جديد لأسبانيا جديدة.

وبعد أن تحرر هذا البرلمان من الجيوش الفرنسية اجتمع للمرة الأولى في جزيرة دي ليون Isla de Leon في سنة ١٨١٠ وبعد الانسحاب الفرنسي انتقل إلى قادش Cadez، وهناك في ١٩ مارس تم إعلان الدستور الليبرالي. ولأن معظم المبعوثين (المفوَّضين) كانوا متمسكين بالكاثوليكية، فقد نصت المادة ١٢ من هذا الدستور على أن « دين الأمة الإسبانية هو الكاثوليكية وسيظل دائما كذلك، فالكاثوليكية الرومانية (التابعة لكنيسة روما) الرسولية

(كنيسة الرعاة الأوائل للمسيحية) هي الدين الوحيد الحق. إنها الدين الذي تحميه الأمة بالحكمة والتشريعات الصحيحة، ويتم حظر ممارسة شعائر أي دين آخر مهما كان » . وعلى أية حال فقد حظر الدستور (الجديد) محاكم التفتيش، وحدّدت عدد الجماعات (الفِرَق) الدينية. وقبل البرلمان بمجلسيه في كل الأمور الأخرى تقريباً قيادة (زعامة) المفوضين (الممثلين) من الطبقة الوسطى والبالغ عددهم ١٨٤ . وكان معظمهم يطلقون على أنفسهم (ليبراليين) – وكان استخدامهم لهذا المصطلح بمفهومه السياسي هو أول استخدام معروف له. وفي ظل قيادتهم أصبح دستور سنة ١٨١٢ يضارع دستور ١٧٩١ الذي أصدرته فرنسا الثورة.

لقد قبلوا بالملكية الإسبانية واعترفوا بفرديناند السابع (الغائب) ملكاً شرعياً، إلاّ أن الدستور على أية حال لم يضع السلطة في يد الملك وإنما في يد الأمة عن طريق ممثليها المنتخبين (بفتح الخاء)، وكان على الملك أن يكون حاكما دستوريا يُطيع القوانين، ولا يجوز إبرام المعاهدات إلاّ بموافقة البرلمان، ولابد من إجراء انتخابات كل عامين لتكوين برلمان جديد، والانتخاب حق لكل ذكر بالغ، وتتم الانتخابات على ثلاث مراحل: على المستوى الأبرشي Parochial، ومستوى المقاطعة، ومستوى الولاية. ولا بد من توحيد القوانين في إسبانيا كلها، وكل المواطنين سواء أمام القانون، والقضاء مستقل عن السلطة التشريعية وعن الملك. ودعا الدستور إلى إلغاء التعذيب والرق والمحاكم الإقطاعية، كما دعا إلى حرية الصحافة إلاّ في أمور الدين. كما دعا إلى ضرورة توزيع الأراضي العامة (أراضي الدولة) غير المزروعة على الفقراء.

لقد كان هذا الدستور شجاعاً وتقدمياً في ظل هذه الظروف وفي ظل التراث الديني الإسباني. لقد بدا الآن أن أسبانيا تدخل القرن التاسع عشر.

إيطاليا وغزاتها

[١٧٨٩ - ١٨١٣]

١- خريطة إيطاليا في سنة ١٨٧٩

في هذه الفترة لم تكن إيطاليا أمة وإنما كانت ساحة قتال. لقد كانت ممزقة إلى مناطق منفصلة متناحرة، وإلى لهجات متباينة لقد كانت ممزقة بشكل يصعب معه أن تتحد في وجه هجوم أجنبي وكانت المنطقة شمال نابلي تنعم بالشمس والتربة المثمرة التي توفر لها ريٌّ جيد ومجار مائية تهبط إليها من جبال الألب أو الأبينين Apennines، مما حمل أهلها مرارا على حمل السلاح بسبب الخلافات بينهم وبين الأجانب من جامعي الضرائب.

وكان معظم إيطاليا قد وقع تحت حكم - أو نفوذ - أسرة الهبسبرج النمساوية على وفق بنود معاهدة أوتريشت (أوترخت) الموقعة في سنة ١٧١٣، تلك المعاهدة التي جعلت ميلان، ومانتوا Mantua ونابلي وسردينيا وما يتبعها جميعا للإمبراطور شارل السادس Charles VI - وفي الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الإيطالية، كانت سافوي وبيدمونت يحكمهما ملوك سردينيا. وفي سنة ١٧٣٤ كانت مملكة الصقليتين بمركزيها: نابلي، وباليرمو، قد انتقلت من الهبسبرج إلى البوربون بفضل المقاتل المقتدر، والحاكم القدير الذي أصبح مليكا لأسبانيا ونعني به شارلز الثالث Charles III، وقبل أن يتجه إلى أسبانيا ورث مملكة نابلي لابنه فرديناند الرابع Ferdinand IV الذي تزوج الأرشدوقة ماريا كارولينا Maria Carolina التي أدت سيطرتها على زوجها إلى وقوع مملكة نابلي بكاملها تحت النفوذ النمساوي. وعندما ماتت الإمبراطورة ماريا تيريزا Maria Theresa (١٧٨٠) حكم أبناؤها لومبارديا Lombardy وتسكانيا Tuscany ومادينا Modena وتزوجت ابنتاها من حاكمي نابلي وبارما Parma وأصبحت سافوي Savoy وبيدمونت **Piedmont** وسردينيا Sardinia تحت الحماية النمساوية. وكانت المنطقة الإيطالية الوحيدة التي تحظى بالاستقلال آنئذ هي البندقية (فينيسيا Venice) ولوسا Lucca وسان مارينو وجنوة **Genoa**. وكان في

القسم الإيطالي الواقع بين المناطق التي يسيطر عليها هبسبرج النمسا في الشمال، والمناطق التي يسيطر عليها بوربون أسبانيا في الجنوب - الولايات البابَاوية Papal states، ولم تبق هذه الولايات باباوية (أي تابعة للبابا) إلا بسبب التنافس بين الأسرتين، وبسبب كون الإيمان الكاثوليكي هو وحده الذي يربط إيطاليا ليجعل منها كيانا واحدا.

وكان الحكم النمساوي في الشمال الإيطالي ممتازا بمقاييس العصر، فقد كانت الضرائب تفرض على الملاك الإقطاعيين والإكليريكيين (الملاك من رجال الدين)، وكانت امتيازات هؤلاء الإقطاعيين والإكليريكيين قد جرى تقليصها، وتم إغلاق مائة دير، وجرى تخصيص عوائدها لأغراض التعليم والإحسان، وجري إصلاح إجراءات التقاضي، ومنع التعذيب وأصبح القانون الجنائي أكثر إنسانية (أكثر مراعاة للبعد الإنساني)، وفي تسكانيا في الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٩٠ قدم الدوق الكبير ليوبولد لمناطق آل ميديتشي سابقا، ربما أفضل حكومة في أوربا[١] » وظلت عاصمتها فلورنسا حصنا للحضارة خلال كل الفترات التي تماوجت فيها القوى والأفكار.

والبندقية الثرية الفاسدة المرتشية الجميلة أصبحت الآن (١٧٨٩) تقترب -بشكل واضح - من نهايتها كدولة ذات سيادة. فإمبراطوريتها الشرقية وقعت منذ زمن طويل في أيدي الأتراك (العثمانيين)، لكن حكمها (أي البندقية) ظل معترفاً به فيما بين جبال الألب Alpes وبدوا Padua وما بين تريست Trieste وبريسكيا Brescia. وكانت البندقية من الناحية الرسمية جمهورية، لكنها كانت من الناحية الفعلية أرستقراطية مغلقة، وأصبحت حكومتها فاترة الهمة مستبدة لا تتسم بالكفاءة. لقد كان لدى البندقية أفضل التوابل في العالم المسيحي لكنها لم تكن تمتلك جيشا. لقد كانت قد أصبحت ملعباً لأوربا تضمن لأهلها المسرات وتوفر لهم البغايا حتى تضمن أن يعاملها الأعداء بود. لقد كانت واقعة بين النمسا في الشمال ولمبارديا النمساوية في الغرب، وكان من الجلي أن قدرها سيؤول بها إلى الوقوع فريسة للنمسا بمجرد توقف فرنسا عن حمايتها.

وإلى الجنوب من تسكانيا والبو the Po بدأت الولايات الباباوية أساليبها المتعرجة (غير المباشرة) مع منطقتها في روما، Rome ومفوضياتها: فرارا Ferrara وبولونيا Bologna

(ليس المقصود بطبيعية الحال كيان أو دولة بولونيا المعروفة حاليا) ورافنا Ravenna، وكان كل منها يديره مفوض باباوي (مفوض من قبل البابا)، ومن ثم إلى الجنوب مع الحدود marches أو الأراضي الحدودية بالقرب من الأدرياتي : ريميني Rimini، وأنكونا Ancona وأوربينو Urbino، ومن ثم عبر جبال الأبينين Apennines خلال بيروجيا Perugia التابعة لأومبريا Umbria وسبوليتو Spoleto، وعبر أورفيتو لاتيوم Latium's Orvieto وفيتربو Viterbo إلى روما Rome. كل هذه المنطقة التاريخية كانت تحت حكم الباباوات على وفق « هبات donations » قدمها للكنيسة الكاثوليكية بيبن Pépin ملك الفرنجة Franks في سنة ٧٥٤، وشارلمان في سنة ٧٧٤. وبعد انتصار حاسم في مجمع ترنت Council of Trent (١٥٤٥ – ١٥٦٣) وسع الباباوات سلطاتهم على الأساقفة تماما كما فعل الشيء نفسه الملوك المعاصرون بتوسيع سلطانهم على اللوردات الإقطاعيين. لقد بدأت السلطة تتمركز أو بتعبير آخر بدأت تتمحور حول مركز.

لكن سرعان ما بدأت الباباوية تنهار ببطء وبالتدريج كلما تقدم العلم وتعمقت الفلسفة مما أفقد الكنيسة – بشكل خطير – تأييد الطبقات المؤثرة في أوربا الغربية، ومما عرضها لتحديات صريحة ليس فقط من الحكام البروتستنط، وإنما أيضا من الحكام الكاثوليك من جوزيف الثاني في النمسا وفرديناند الرابع في نابلي. بل كان تزايد الأقلية المتشككة في الكاثوليكية في ولايات الكنيسة نفسها (الولايات الباباوية) والتي كانت تشكل روابط سرية، إلى إضعاف قبضة الإكليروس (رجال الدين) على الناس. لقد كتب جوزيف الثاني في سنة ١٧٦٨ إن المحكمة الباباوية Curia كادت تصبح محتقرة، فمن الداخل كان سكان الولايات الباباوية في الغاية من البؤس والانحطاط، وكانت ميزانية هذه الولايات في فوضى كاملة بدرجة لا تصدق » وكان جوزيف غير مؤمن بالكاثوليكية، لذا فقد نعتبره مبالغا، لكن سفير البندقية كتب في تقرير له في سنة ١٧٨٣ أن الأمور الداخلية في ولايات الحبر الجليل (البابا) في أقصى درجات الفوضى، إنها في حالة انهيار تدريجي، والحكومة الباباوية تخسر كل يوم قوتها ومصداقيتها ومشروعيتها[٢] ». ورغم فقر الولايات الباباوية وعدوى المالاريا في جو الصيف، فقد جعل أهل روما الحياة مستساغة باهتبال كل المزايا المتمثلة في

تسامح الكنيسة مع علاقاتهم الغرامية وبالاستمتاع بالكارنفالات، بل لقد كان رجال الدين أنفسهم ينعمون باسترخائهم في دفء الشمس في إيطاليا.

وكان الباباوات في هذه الفترة الحرجة على تقوى وشرف فبيوس السادس Pius VI (تولى الباباوية في الفترة من ١٧٧٥ إلى ١٧٩٩) - رغم رحلته الشاقة إلى البندقية فشل في إعادة جوزيف الثاني النمساوي للطاعة (المقصودة الطاعة للكاثوليكية والباباوية) ولم تنفعه ثقافته وكياسته من منع فرنسا من ضم أفينون Avignon إليها، ومات وهو في سجنه في ظل حكومة الإدارة (في فرنسا)، وبيوس السابع Pius VII (تولى الباباوية في الفترة ١٨٠٠ - ١٨٢٣) بذل كل ما في وسعه لإعادة الكاثوليكية لفرنسا، وعانى السجن لفترة طويلة في ظل حكم نابليون وعاش لينتصر بتواضع على الإمبراطور المخلوع (١٨١٤).

وإلى الجنوب من الولايات الباباوية ازدهر البوربون الأسبان بازدهاركل من جيتا Gaeta وكابوا Capua وكاسرتا Caserta ونابلي وكابري Capri وسورنتو Sorrento. لكن الازدهار الإيطالي توقف هناك (لم يعد له وجود) فمدن مثل بسكارا (بسكره Pescara) وأكويلا Aquila وفوجيا Foggia وباري Bari وبرينديسي Brindisi وتارانتو Taranto وكرتون Crotone تذكرت ميلو Milo وقيصر وفريدريك الثاني (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة)، بل وحتى فيثاغورس، لكن أهل هذه المدن كانوا عرضة للشمس الحارقة، منهكين بالضرائب وليس من سلوى لهم سوى في عقيدتهم الدينية. ثم يأتي جامعو الضرائب عابرين من رجيو كالابريا Reggio Calabria إلى مسينا Messina في صقلية، وهناك أيضا توقر المدن فقرها إذا ما تذكرت الفينيقيين، والإغريق، والقرطاجنيين والرومان والفندال والمسلمين والنورمان والأسبان حتى يتوقف جامعو الضرائب في بالرمو Palermo ليكونوا في خدمة احتياجات الملوك والملكات والأمراء التجار واللصوص والقديسين Saints. تلك هي المملكة التي ورثها في سنة ١٧٥٩ فرديناند الرابع ذو الثمانية أعوام. لقد نشأ رياضياً وسيماً يفضل المسرات والألعاب الرياضية على أعباء السلطة فكان غالبا ما يترك أمور الحكم لزوجته ماريا Maria Carolina. وبتوجيه من رئيس وزرائها (وزيرها الأول) وعشيقها السير جون أكتون John Acton أدارت ماريا سياسة نابلي من مناصرة الحكم الأسباني ألى مناصرة

الحكم النمساوي، إلى مناصرة إنجلترا في سنة ١٧٩١ . وفي هذه الأثناء كان البارونات الإقطاعيون يستقطعون كل عائد من الفلاحين المنهكين، وسادت الرشوة، وساد الفساد في البلاط وفي طبقة الموظفين والقضاة وكانت الضرائب باهظة وكانت تقع في الأساس على كاهل الطبقات الدنيا، وأصبح سكان المدينة يتصرفون كالبرابرة بسبب الفقر، لقد اعتادوا الفوضى والجريمة لا يكبحهم سوى العدد الوافر من رجال الشرطة ورجال الدين الظلاميين الماهرين في إظهار المعجزات . (في كنيسة الكاتدرائية، كانت رفات القديس جنيواريوس Januarius تنزف دما في كل عام). وجرت العادة أن تتسامح الكنيسة مع خطايا الجسد، فهذه الخطايا هي الرفاهية الوحيدة المسموح بها للفقراء. وفي أيام الكرنفالات ينظر الناس للوصية السادسة من الوصايا العشر باعتبارها قيدا لالزوم له يتنافى مع الطبيعة البشرية.

ومع هذا فقد كانت الملكة تغار من كاترين الثانية الروسية التي كان حولها كثير من الفلاسفة رهن إشارتها، لذا فقد رعت الفنانين والدارسين وأساتذة الحكمة حتى لو لم تكن تعرف شيئا عن الفن والبحث والحكمة. وهو احتمال وارد، لذا فقد كان في نابلي « كثير من الرجال النساء الذين يؤمنون بالأفكار العصرية، وربما فاق عددهم ما هو موجود في أية مدينة إيطالية أخرى[٣] » وقد تابع كثيرون منهم بأمل صامت الأخبار التي أتت من باريس والتي تفيد أن الفرنسيين قد اجتاحوا سجن الباستيل واستولوا عليه.

٢- إيطاليا والثورة الفرنسية

لقد هيأت أفكار الليبراليين ذوي التأثير، الطبقات المتعلمة في إيطاليا لاستيعاب بعض التحولات الأساسية في فرنسا. لقد كان بكاريا Beccaria وباريني Parini في ميلان، وتانوسي Tanucci وجينوفيسي Genovesi وفيلانجيري Filangieri في نابلي، وكاراكيولي Caraccioli في صقلية قد مارسوا بالفعل كتابة النثر والشعر، وكتبوا بالفعل في مجال التشريع والفلسفة وكانت الأفكار التي طرحوها هي نفسها - إلى حدما - الأفكار التي تقرها الآن حكومة الجمعية الوطنية (الفرنسية)، أفكار تؤيد العقل وتعتمد عليه وتميل إلى الحداثة. وفي توسكانيا Tuscany رحب الدوق الكبير ليوبولد نفسه بالثورة الفرنسية

باعتبارها إصلاحا عظيما واعداً في كل أنحاء أوربا[٤].

وعندما اندفع نابليون ابن الثورة وجنرالها في إيطاليا (١٧٩٦)، وكأنه ريح غربية عاصفة، وأخرج الجيوش السردينية (جيوش سردينيا) والنمساوية من بيدمونت ولومبارديا، رحب به كل الإيطاليين تقريبا باعتباره قائداً إيطاليا يقود جنودا فرنسيين لتحرير إيطاليا. ورغم ما واجهه من عصيان مسلح في بافيا Pavia وجنوة Genoa وفيرونا Verona فقد كان في مقدوره - لفترة - أن يتصرف في الدول والإمارات الإيطالية كما لو كانت قد استسلمت له بغير شروط، وعلى هذا ففي شهري يوليو وأغسطس سنة ١٧٩٧ دمج كلا من ميلان ومودينا Modena وريجيو إيميليا Reggio Emilia وبولونيا Bologna وجانبا من سويسرا، ليجعل منها كيانا مختلطا هو الجمهورية السيزالبية Cisalpine Republic (الجمهورية القريبة من جبال الألب والمحيطة بها)، وقدم لها دستورا كدستور فرنسا الثورة.

وقد أبهجت ليبراليته في فترة حكمه الأولى في شمال إيطاليا أحلام السكان المحليين بالحرية. وقد اعترف الزعماء المحليون بعد أن لانت عريكتهم بالوظائف الشرفية، وألقاب الفخامة التي وزعها عليهم نابليون، بأنه في قارة يقتسمها الذئاب لا بد من ذئب أو آخر كحام لإيطاليا، وإن أفضل ذئب يمكن اختياره هو الذي يتحدث الإيطالية بطلاقة، ويخفف أعباء الضرائب، ويضبط الأمن بقوانين متنورة. لكن زيادة التشريعات الثورية ضد الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا صدمت عواطف الإيطاليين، فقد ثبت لهم أن دينهم أغلى بالنسبة إليهم من التحرر السياسي الذي يضطهد في ظله قسسهم، ويتشمم المرء في ثناياه مذابح سبتمبر. وفي ١٣ يناير ١٧٩٢ هاجمت الجماهير في روما ممثلاً دبلوماسياً للحكومة الفرنسية، مات في اليوم التالي من فرط ما أصابه على أيدي هذه الجماهير. وقد خلق هذا أزمة جديدة للبابا بيوس السادس الذي كان يعاني بالفعل من مرسوم التسامح (١٧٨١) الذي أصدرة جوزيف الثاني في النمسا. لقد وجد البابا نفسه الآن في مواجهة مصادرة الثورة الفرنسية لممتلكات الكنيسة وفي مواجهة الدستور المدني للإكليروس (رجال الدين) الصادر في ١٢ يوليو سنة ١٧٩٠. ولأن هذا البابا كان قد نشأ على الاحترام الكامل للتراث

الكنسي فقد أعلن إدانته للثورة وأيد الملوك الذين يتصدون لها لمحقها. لكنه أجبر في صلح تولينتينو Peace of Tolentino (١٩ فبراير ١٧٩٧) على التخلي لفرنسا عن المقاطعات البابا وية:

أفينون Avignon وفيناسين Venaissin كما أجبر في الصلح نفسه على التخلي عن المدن الدول City - states : فرارا Ferrara وبولونيا Bologna ورافنا Ravenna للجمهورية السيزالبية.

وفي ديسمبر سنة ١٧٩٧ قتلت الجماهير الإيطالية الجنرال الفرنسي ليونار دوفو Leonard Duphot، وانتهز الجنرال الفرنسي لوي (لويس) بيرثييه Berthier الذي خلف نابليون في قيادة جيش إيطاليا (كان نابليون وقتها في مصر) الفرصة لغزو روما وإقامة جمهورية روما تحت الحماية الفرنسية، واعترض البابا بيوس السادس فتم القبض عليه وتم نقله من مكان إلى آخر حتى مات في فالنسي Valence في ٢٩ أغسطس ١٧٩٩ في عهد حكومة الإدارة. وراح المراقبون غير الواعين بالتاريخ يتساءلون عما إذا كان في موته موت للباباوية أو بتعبير آخر هل انتهى الآن عصر الباباوية بغير رجعة(٥)؟ وأتاح هذا الموقف لفرديناند الرابع النابلي (نسبة إلى نابلي) فرصاً ثلاث : أن يجرّب الجيش الجديد الذي كان جهزه له السير جون أكتون Acton، وأن يثبت للكنيسة الكاثوليكية أنه ابن مخلص لها، وأن يستولي على جانب من الولايات الباباوية مكافأة تشريفية له. ووافق الأدميرال (أمير البحر)نيلسون الذي كان في هذا الوقت يتلكأ في نابلي لقضاء اكبر وقت ممكن مع إما هاملتون Emma Hamilton – وافق على تقديم المساعدة بإنزال قوة بحرية في ليجورن Leghorn، وجعل الملك على رأس جيشه الجنرال النمساوي كارل ماك Karl Mack وركب معه لفتح روما (٢٩ نوفمبر ١٧٩٨) وقررت الحاميات الفرنسية التي بقيت في روما أنه لا قبل لها بمواجهة كل جيش نابلي فأبدت استعدادها لإخلاء المدينة (روما).

وبينما كان الكاردينالات المتفوقون يختارون بابا جديدا في البندقية (فينيسيا) كان جنود فرديناند يختبرون أجراس روما ويستعرضون فنونها، وفي هذه الأثناء هبط الجنرال الفرنسي اللامع جان – إتين شامبيون Jean - Etienne Championnet من الشمال على رأس

جيش فرنسي منتعش (لم تنهكه الحروب) فحقق نصرا على جيش ماك Mack غير المنظم في سيفيتا كاستيلانا Civita Castellana (١٥ ديسمبر ١٧٩٨) وتعقبه طوال انسحابه إلى نابلي واستولى على المدينة وسط فرحة طبقة المثقفين، وأقام الجمهورية البارثينوبية Parthenopean (٢٣ يناير ١٧٩٩) وهرب فرديناند والملكة وكذلك السير وليم هاملتون (من Bovary) إلى بالرمو في سفينة القيادة التابعة لنيلسون (كان اسم السفينة هو فانجارد Vanguard ومعناها الطليعة).

ولم تستمر هذه الجمهورية الجديدة سوى أقل من خمسة أشهر فقد تم استدعاء شامبيون وكثير من رجاله للاتجاه شمالا لطرد النمساويين، ومات شامبيون في هذه المعركة ضد النمساويين. وجهز الكاردينال فابريزيورفو Fabrizzio Ruffo جيشا جديدا لفرديناند، وعاون القائد الإنجليزي إدوارد فوت Foote في إعداد هذا الجيش، فاستعاد فرديناند نابلي بمساعدة الجماهير فيها، فقد كانت الجماهير في نابلي تنظر للحملة الفرنسية على أنها مكونة من مقاتلين ملحدين ملعونين، ولجأ الفرنسيون بمساعدة أدميرال من نابلي هو فرانسسكو كاراكيولو Caracciolo إلى حصنين من حصون الميناء. وعرض عليهم الكاردينال رفو Ruffo والقائد فوت Foote المغادرة إلى فرنسا دون عوائق إن استسلموا لكن قبل تنفيذ الاتفاق وصل نيلسون بأسطوله حاملاً مجموعة ملكية، قادما من بالرمو، فتولى هو (نيلسون) القيادة ووجه مدافعه إلى الحصون رغم اعتراض الكاردينال[٦]، فاستسلم الفرنسيون بلا شرط، وقبض على كاراكيولو (الذي ساعد الفرنسيين) بينما كان يحاول الإبحار بعيدا وحوكم محاكمة سريعة أمام محكمة عسكرية عقدت على سفينة نيلسون وشنق في ٢٩ يونيو ١٧٩٩ على سفينته. (لامينيرفا La Minerva) وتدلى جسده من عارضة شراع هذه السفينة، واستعاد الملك والملكة العرش فسجنوا مئات الليبراليين وأعدموا قادتهم.

٣- إيطاليا تحت حكم نابليون: ١٨٠٠ - ١٨١٢

ظل نابليون طوال تسعة أشهر بعد عودته من مصر يعمل على إقناع الأمة الفرنسية بتعريفه للحرية السياسية عن طريق استفتاءات دورية كان يتوقع أن تسفر نتائجها عن كون الحرية السياسية تتفق مع الاستبداد المتنور (حكم المستبد العادل) . لقد كانت فرنسا قد تعبت من الحرية الديمقراطية في الوقت الذي كان فيه الليبراليون الإيطاليون يتوقون إليها بعد أن أثار حفيظتهم عودة الحكم النمساوي . فمتى يعود هذا الإيطالي اللامع الذي أصبح فرنسيا (نابليون) إلى إيطاليا ليخرج هؤلاء النمساويين وليجعل لإيطاليا حاكما إيطاليا؟

واستغرق القنصل البارع (نابليون) وقتا مناسبا للإعداد المتقن - وكان الإتقان أول مبادئ استراتيجيته . وعندما تبلورت الأمور أمامه أخيرا كانت خطته أكثر كفاءة بكثير من هجوم سنة ١٧٩٦ : تسلق جبال الألب، ومن ثم الهبوط عليها من الجانب الآخر، وشق القوات النمساوية لتصبح في قسمين، وقيادة الجيش الفرنسي الرئيسي لمهاجمة مؤخرة القوات النمساوية وتطويقها وحجزها مع قائدها العجوز حتى يستسلم الذئب النمساوي للثعلب الغالي (الفرنسي) ويترك له كل الممتلكات الإيطالية غرب فينيزيا Venezia (١٨٠١) لقد كانت خطته أقرب ماتكون إلى خطة سبق أن وضعها ونفذها في سنة ١٧٩٧ . وأعطى نابليون للجمهورية السيزالبية المتمحورة حول ميلان والجمهورية الليجورية في جنوا استقلالاً نسبيا، وجعل على رأس كليهما حكاما إيطاليين تحت الحماية الفرنسية . وحتى الآن فإن نابليون لم يقدم على عمل يسبب الإزعاج للولايات البابوية إذ عقد اتفاقات وفاق مع الكنيسة وارتد عن الإسلام (لم يصبح محمديا Mohammedan) ووافق فرديناند الرابع ملك نابلي على إغلاق موانئها في وجه السفن البريطانية ولم يستطع نيلسون تقديم يد العون لبلاده لأنه كان مشغولا بمهاجمة كوبنهاجن (٢ أبريل ١٨٠١) وأحس الإيطاليون بيد إيطالية رفيقة كامنة وراء هذا الإنجاز (المقصود يد نابليون) فابتهجوا .

والآن لقد قبضت هذه اليد على زمام السلطة، ففي يناير سنة ١٨٠٢ تقابل ٤٥٤ مندوبا مفوضا من الجمهورية السيزالبية في ليون Lyon، وأقروا دستورا جديدا وضعه نابليون وقبلوا اقتراح تاليران بانتخاب نابليون رئيسا للجمهورية الإيطالية الجديدة Republica Italiana .

وبعد أن نصب نابليون نفسه إمبراطورا على فرنسا (١٨٠٤) بدا منصب (رئيس إيطاليا) متواضعا بالنسبة إليه، لذا، ففي ٢٦ مايو سنة ١٨٠٥ تلقى نابليون في ميلان تاج الملوك اللومبارديين الموقر والعريق، وكان تاجا من حديد وأصبح بذلك حاكما لشمال إيطاليا وقدم لأهل البلاد المدونة القانونية النابليونية، وساوى بين الجميع في فرص التعليم بأن فرض على الدوائر (المقاطعات) الأكثر ثراء مساعدة الدوائر الأفقر، ووعد بأن يجعل « شعبي في إيطاليا . . . لا يتحمل ضرائب باهظة بل ستكون وطأة الضرائب هنا أخف منها في أي أمة أخرى في أوربا » وعندما غادرهم ترك معهم ابن زوجته الحبيب إلى نفسه يوجين دي بوهارنيه **Eugène de Beauharnais** نائباً له (نائب ملك) دلالة على اهتمامه بأمرهم.

وطوال الأعوام الثمانية التالية نعمت المملكة الجديدة (خاصة لومبارديا) برخاء عام وحياة سياسية نشيطة ظل الإيطاليون يذكرونهما بخير لفترة طويلة . ولم تتظاهر الحكومة بالديمقراطية، فقد كان نابليون غير مؤمن بقدرة الجماهير في أي مكان على الاختيار الحكيم للقادة أو السياسات، لكنه بدلاً من ذلك نصح يوجين أن يجمع حوله أكثر المديرين خبرة وكفاءة . وبالفعل فإن هؤلاء الأكفاء قد خدموه بحماسة ومهارة، لقد نظموا جهازاً إدارياً يتسم بالكفاءة، ونفذوا كثيرا من الإنشاءات العامة – طرق، وقنوات وحدائق عامة ومشروعات إسكان ومدارس- وأصلحوا وسائل الصرف واتخذوا إجراءات للمحافظة على الصحة العامة وأصلحوا السجون وقانون العقوبات وأقاموا مشاريع محو الأمية ونهضوا بالموسيقا والفنون، وارتفعت عوائد الضرائب من ٨٢ مليون فرنك في سنة ١٨٠٥ إلى ١٤٤ مليون فرنك في سنة ١٨١٢ ، لكن جزءاً من هذه الزيادة كان يعكس التضخم (وفرة العملة اللازمة لتمويل الحرب) كما كان في جانب آخر منها نتيجة إعادة توزيع الثروات المتركزة في أيدي القلّة للقيام بمشروعات للصالح العام .

وفي هذه الأثناء واصل نابليون جهوده لصبغ إيطاليا بالصبغة النابليونية، ففي سبتمبر ١٨٠٢ ألحق بيدمونت بفرنسا، وفي يونيو سنة ١٨٠٥ حث حكومة جنوة على طلب إدماج الجمهورية الليجورية في الإمبراطورية الفرنسية . وفي سبتمبر ١٨٠٥ ضم دوقيات بارما Parma وبياسنزا Piacenza وجواستالا Guastalla . وفي ديسمبر ١٨٠٥ – بعد محق الجيش

النمساوي في مِعركة أوسترليتز – حث الإمبراطور فرانسيس الثاني على تسليم فينيزيا (فينيتسيا Venezia) لمملكة يوجين الجديدة . وكانت البندقية Venice شديدة الامتنان لهذا التعويض الجزئي عن المقايضة غير العادلة التي عقدها نابليون مع البنادقة في سنة ١٧٩٧، وعبرت عن امتنانها هذا بإقامة مهرجانات الترحيب به(بنابليون) عندما زار مدينتهم في سنة ١٨٠٧[٧] . وفي مايوسنة ١٨٠٨ تولى أمر دوقية تسكانيا Tuscany الكبيرة في وقت كانت الإدارة النمساوية بها في أحسن حالاتها . وحكمت ليزا أخته (أخت نابليون) لوسا Lucca حكما طيبا حتى إن نابليون حولها إلى تسكانيا وبفضل حكمتها وسياسة الاسترضاء التي اتبعتها أصبحت فلورنسا ملاذا للآداب والفنون يعيد إلى الأذهان ذكريات أيام آل ميدتشي .

وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٠٦ أعلن نابليون تعيين أخيه جوزيف ملكا على نابلي وأرسله على رأس جيش فرنسي ليعيد للطاعة فريدريك الرابع غير المنضبط وزوجته الملكة كثيرة المطالب . لقد بدا الإمبراطور (نابليون) قد ادخر أكثر المهام صعوبة لجوزيف الكريم وأنه – أي نابليون – لم يضع في اعتباره كثيرا المخاطر والصعوبات التي تنطوي عليها هذه المهام . لقد كان جوزيف رجل ثقافة يحب صحبة المتعلمين وصحبة النسوة اللائي لم يطغ علمهنّ على جاذبيتهنّ[٨] . وقد شعر بونابرت أن هذه الصفات لا تكفي ليحكم المرء مملكة حكما ناجحا . فلم عينه إذن؟ لقد عينه لأنه كانت لديه من الممالك التي فتحها مايفوق عدد إخوته، ولم يكن نابليون يثق في أحد ثقته في أقاربه المقربين .

لقد كان جوزيف قد حظي فعلاً – كملك لنابلي – بتأييد زعماء الطبقة الوسطى الذين لم يكونوا مرتاحين في ظل النظام الإقطاعي، لكن العامة رفضته كمغتصب وكافر، وكان على جوزيف أن يتخذ إجراءات صارمة لقمع مقاومتهم . وكانت الملكة قد أخذت معها إلى صقلية كل الأموال المودعة في بنك الدولة . وكان الأسطول البريطاني يحاصر الميناء ويعوق حركة التجارة، وكان الجنود الفرنسيون قد شرعوا في حركة عصيان خطيرة، فرغم جهودهم الحربية الممتازة كانت رواتبهم قليلة جدا، وطلب جوزيف من أخيه أن يحول إليه بعض الأموال، فوجهه أخوه إلى جمع الأموال من نابلي لقاء قيام الفرنسيين بتحريرها وتفاوض

جوزيف مع رجال المال الهولنديين للحصول على قرض، وفرض ضريبة على كل الدخول (جمع دخل)، على النبلاء والعوام ورجال الدين على سواء. واستدعى من باريس الكونت بيير - لويس روديريه Comte Pierre - Louis Roederer وهو أحد الاقتصاديين الذين يفضلهم نابليون ليتولى أمر خزانة الدولة فسرعان ماضبطها، وقام إداريون آخرون ذوو خبرة بتأسيس مدارس مجانية في كل كميونات المملكة، وكلية في كل مقاطعة وتم إبطال الإقطاع، وتم تأميم أراضي الكنيسة وبيعها للفلاحين ولأفراد الطبقة الوسطى النامية، وتمت مواءمة القوانين مع مدونة نابليون القانونية، وتم تطهير النظام القضائي، وتسهيل الإجراءات القضائية، وتم إصلاح السجون ونظام العقوبات[٩].

لقد كان جوزيف يقترب من النجاح الكامل وكاد يصبح مقبولا من العامة عندما دعي فجأة ليتبوأ عرشا يتعرض شاغله لخطر أشد، وليقوم بمهام أصعب - لقد دعي ليكون ملكا على أسبانيا (١٠ يونيو ١٨٠٨)، وعين نابليون بدلاً منه على عرش نابلي جوشيم مورا Joachim Murat زوج أخته كارولين بونابرت، ولم يلجأ نابليون لهذا (تعيين زوج أخته) إلا لأنه لم يكن لديه أخ آخر يمكن تعيينه على عرش نابلي- وإذا ذكرمورا Murat ارتبط اسمه بأناقة ملبسه وجرأته في المعارك، كما أنه يفرض علينا تكريم ذكراه لأنه أعاد تشكيل حكومة نابلي. لقد كان رجلا يتحلى بكل فضائل الفلاحين خلا الصبر. لقد كان أكثر ملاءمة للأعمال والمهام الشاقة (الهرقلية) منه للدبلوماسية الماكرة ودور رجل الدولة المتسم ببعد النظر، وكان زوجاً محبا ممزقا بين الخلافات مع أخي زوجته، والإخلاص له، حتى ظنه مجنونا، ونستطيع أن نفهم شكواه (أسباب تبرمه) من حقيقة أن الحصار القاري الذي طلبه نابليون (منع دخول البضائع الإنجليزية إلى دول أوربا) كان يدمر الحياة الاقتصادية في نابلي. ومع هذا فقدنجح هو ومساعدوه - ربما بسبب عدم صبره - إنجاز الكثير في فترة حكمه التي دامت أربع سنوات. لقد أكمل مع مساعديه إصلاح نظام الضرائب ودفع ديون البلاد بكاملها (وكان هذا في معظمه نتيجة بيع الممتلكات الكنسية) وألغى رسوم المرور الداخلية، ومول المشروعات العامة الأساسية. لقد حولت إدارة جوزيف وإدارة مورا Murat اللتان استمرتا أقل من ثماني سنوات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في نابلي

تحولاً أساسيا حتى إنه عندما استعاد فرديناند الرابع عرشه في سنة ١٨١٥ قبل تقريبا كل الإصلاحات التي قام بها الفرنسيون. وكان أعز هذه الإنجازات إلى قلب جوشيم Joachim هو الجيش ذا الستين ألف مقاتل الذي نظمه ودربه، وكان يأمل أن يستطيع به توحيد إيطاليا ليكون هو أول مليك لإيطاليا الموحدة، لكنه استيقظ من هذا الحلم ونزع من شمس إيطاليا باستدعاء أخي زوجته سنة ١٨١٢ لينضم إليه في غزو روسيا.

٤- امبراطور وبابا

شعر نابليون أنه خطا خطوات أساسية في تحويل إيطاليا من مجرد تعبير جغرافي إلى أمة، وذلك بتنظيمه الجمهورية السيزالبية (جمهورية جنوب الألب) في الشمال، ومملكة نابلي في الجنوب، لكن النمساويين كانوا قد استطاعوا - في أثناء غياب نابليون في مصر - وضع نهايه لجمهورية روما التي أسسها الفرنسيون قبل ذلك بعام واحد فقط، واستعادت البابوية عاصمتها التاريخية (روما) ومعظم الولايات البابوية، وفي ١٣ مارس ١٨٠٠ عقد الكرادلة اجتماعا لانتخاب بابا جديد، فوقع الاختيار على بيوس السابع Pius VII الذي كان كل الكاثوليك تقريبا يتطلعون إليه ليدافع عن ممتلكات الكنيسة وعن السلطة الزمنية للباباوات.

ووجد نابليون أن بيوس السابع معقول بما فيه الكفاية عند التفاوض لعقد اتفاقات (كونكوردات) مع الحكومة الفرنسية سواء جرت هذه المفاوضات في باريس أو روما، كما وجده معقولاً في مباركته للصلاحيات الإمبراطورية، لكن هذه الولايات البابوية (رغم أنها لم تكن منحة من قسطنطين(*) كما جرى الادعاء في وقت من الأوقات) قد قدمها بيبن القصير Pepin the Short للبابا ستيفن الثاني Stephen في سنة ٧٥٤. وقد أكد شارلمان في سنة ٧٧٤ منحة بيبن Pepin هذه، وإن كان «قد تدخل في شؤون الحكم في الولايات البابوية» «واعتبر نفسه رأس العالم المسيحي لا بد أن يصغي البابا إليه حتى في أمور اللاهوت(١٠)». وقد طور نابليون أفكاراً مشابهة لأفكار شارلمان. لقد كان نابليون قد عقد

(*) انظر الموسوعة البريطانية، مجلد ٧، ص ٥٨٠ أو عصر النهضة the Renaissance، ص ٣٥٢.

العزم على مواجهة حصار إنجلترا لفرنسا بحصار مضاد (الحصار القاري المضاد) بمنع دخول البضائع البريطانية إلى الأسواق الأوربية لكن المجلس الإداري التابع للبابا أصر على أن تظل الموانئ التابعة للولايات البابوية مفتوحة للجميع. وأكثر من هذا فقد كانت هذه الولايات البابوية تقف حاجزا (بحكم موقعها) بين شمال إيطاليا وجنوبها، فما الحل وقد أصبح نابليون تواقاً لتوحيد إيطاليا وضمها لتكون تحت قبعته. لقد قال لأخيه جوزيف «إن هذا هو هدف سياستي الذي لا أبغي عنه حولا(١١)» واتساقا مع هذه السياسة استولى الجيش الفرنسي على أنكونا Ancona (١٧٩٧) وهي ميناء إستراتيجي في البحر الأدرياتي يتحكم في الاتصال بين شمال إيطاليا وجنوبها والآن (١٣ نوفمبر ١٨٠٥)كان نابليون يستعد لخوض معركة ضد النمسا وروسيا، فانتهز البابا بيوس السابع هذه الفرصة واستجاب لتحريض مجلسه الإداري وحثه المتهور، فأرسل إلى نابليون تحديا خطيرا: «لقد أخذنا على عاتقنا أن نطلب من عظمتكم إخلاء أنكونا Ancona، فإن ووجهنا بالرفض فلا ندري كيف نكون على علاقة صداقة مع وزير عظمتكم(١٢)» وقد أجاب نابليون على هذا التحدي بتحدٍ مضاد «إن كان قدا ستكم تحكمون روما، فإنني إمبراطورها(١٣)» لقد امتعض نابليون كثيرا من إرسال البابا تحديه هذا قبيل معركة أوسترليتز Austerlitz. لقد تحدث نابليون كشارلمان لكنه تقدم كقيصر وهزم النمساويين والروس في معركة أوسترليتز.

وبعد ذلك بعام (١٢ نوفمبر ١٨٠٦) وكان قد دمر الجيش البروسي في يينا Iena - أرسل نابليون من برلين للبابا يطلب منه طرد الإنجليز من روما وأن تدخل الولايات البابوية في الكونفدرالية الإيطالية أي تنضم إليها في وحدة كونفدرالية لأنه - أي نابليون - لا يستطيع أن يتسامح بشأن وجود موانئ وحصون تقع بين مملكة إيطاليا (في الشمال) ومملكة نابلي (في الجنوب) يمكن أن يحتلها الإنجليز زمن الحرب مما يعرض ولاياته وأهلها للخطر(١٤). وأعطى نابليون للبابا بيوس فرصة حتى فبراير ١٨٠٧ للانصياع لهذا الأمر، ورفض البابا وسمح للوزير البريطاني بالبقاء في روما، وأعاد نابليون طلبه بطرد المفوضيين الإنجليز من روما عند عودته المظفرة من تيلسيت Tilsit ورفض البابا مرة أخرى، وفي ٣٠ أغسطس هدد نابليون بالاستيلاء على الولايات البابوية، فوافق البابا - خوفاً وهلعاً - على

إغلاق موانئه في وجه البريطانيين، وطلب نابليون الآن من البابا الانضمام إليه لمواجهة أعداء فرنسا، فرفض بيوس، وفي العاشر من شهر يناير ١٨٠٨ أمر نابليون جنراله ميولي Miollis الذي كان وقتها على رأس كتيبة فرنسية في فلورنسا، بالاستيلاء على روما.

ومنذ ذلك اليوم تحركت الأحداث لتشهد صراعا تاريخيا متصاعدا بين الكنيسة والدولة. وفي ٢ فبراير استولى جيش ميولي Miollis على سيفيتا فيشيا Civitavecchia ودخل روما في اليوم التالي وطوق الكويرينال Quirinal وهو التل الذي يقع عليه قصر البابا ومقر مجلسه الإداري. ومنذ هذا الوقت حتى مارس سنة ١٨١٤ أصبح بيوس السابع سجين فرنسا وفي ٢ أبريل ١٨٠٨ أمر نابليون بضم الولايات البابوية إلى مملكة إيطاليا. لقد أصبح هناك الآن منطقة مفتوحة بين مملكة نابلي ومملكة إيطاليا أي بين جوزيف ويوجين.

ثم كان عام انشغل فيه نابليون بأسبانيا. وفي ١٧ مايو ١٨٠٩ ومن فينا التي فتحها نابليون للمرة الثانية، أعلن ضم الولايات البابوية للإمبراطورية الفرنسية، وأعلن بذلك نهاية السلطة الزمنية (غير الدينية) للباباوات، وفي العاشر من يونيو أعلن البابا حرمان نابليون من رحمة الكنيسة، وفي ٦ يوليو قاد الجنرال راد Radet بعض الجنود في قاعة الاستقبال الخاصة بالبابا وخيّره بين التنازل (عن حكم الولايات البابوية) أو النفي، ولم يأخذ بيوس معه سوى كتاب الصلوات اليومية الخاص به وصليبه وتبع آسريه إلى عربة كانت في الانتظار حملته على طول الساحل الإيطالي مارة بجنوا إلى سافونا Savona وهناك ظل سجينا يعامل بلطف إلى أن أمر نابليون بنقله إلى فونتينبلو Fontainebleau (يناير ١٨١٢) بعد نشر تفاصيل مؤامرة مزعومة لخطفه إلى إنجلترا.

وفي ١٣ فبراير ١٨١٣ وقع بيوس اتفاقا جديدا مع نابليون وفي ٢٤ مارس سحب توقيعه، وكان يعيش في سجنه الفخم Palatial عيشة بسيطة لدرجة أنه كان يخيط (أو يرفو) قميصه بنفسه[١٥]. وظل في سجنه هذا خلال كل أحداث ١٨١٢ و ١٨١٣ حتى واجه نابليون نفسه السجن في ٢١ يناير سنة ١٨١٤، فأعيد إلى سافونا. وفي أبريل أرسل الحلفاء - بعد استيلائهم على باريس - إلى البابا بما يفيد أنه أصبح حرا وفي ٢٥ مايو دخل البابا بيوس السابع روما ثانية، وكان في حالة يرثى لها بدنيا ونفسيا، ورحب به كل السكان

تقريبا، وتنافس شباب روما في جر عربته (بدلا من ترك الخيول تجرها) إلى الكورينال[١٦] Quirinal (حيث قصره).

لقد استطاعت إدارة نابليون الفرنسية للولايات البابوية في فترة حكمها القصيرة بمساعدة من الليبراليين من أهلها إحداث نقلة مهمة في الحياة الاقتصادية والسياسية، كانت نقلة سريعة ونشيطة، وربما سببت هذه السرعة وهذا النشاط بعض الآلام. لقد أنهت الإدارة الفرنسية الإقطاع ومحاكم التفتيش وأغلقت ما يزيد على مائة كنيسة ودير وسرحت ٥,٨٥٢ راهباً وراهبة. وطردت الموظفين المرتشين الفاسدين، وأخضعت الجهات المختلفة لنظم محاسبية. وأصلحت الطرق وزادت فيها من قوات الشرطة، وكادت تقضي تماما على اللصوصية وقطع الطرق. وجعلت الشوارع نظيفة مضاءة ليلا، وجففت مستنقعات بونتين Pontine وأتاحتها للراغبين في زراعتها، وأعلنت حرية الاعتقاد (الحرية الدينية)، وسمحت لليهود بالانتقال بحرية من معازلهم their ghetto وانتعشت وحسنت من أوضاع السجون، وبنت المدارس وزودتها بالمعلمين، وتم افتتاح جامعة جديدة في بيروجيا Perugia، واستمرت أعمال الكشف عن الآثار الكلاسية وعين كانوفا Canova للإشراف على متحف يضم ما يعثر عليه من آثار، لكن الإدارة الفرنسية كانت تجمع الضرائب بدأب كما كانت تجند المواطنين إلزاميا في الجيش. واشتكي التجار من القيود التي فرضتها الإدارة الفرنسية على التعامل مع إنجلترا. وشعر غالب السكان بالتعاسة لتغيير مؤسساتهم التقليدية، وللمعاملة المخزية التي لاقاها البابا الذي كانت له شعبية، وبدأ الناس - حتى الملحدون - يحبونه وراح «الناس يتطلعون إلى الماضي بحسرة، متمنين عودة حكم البابا، ذلك الحكم المتسم بالنعومة والهدوء والتراخي[١٧]».

لقد كان إقدام نابليون على سجن البابا بيوس السابع خطأ فاحشا من حاكم عرف بدهائه وحنكته. لقد كانت اتفاقات الوفاق التي عقدها مع الكنيسة الكاثوليكية في روما وكذلك تتويجه إمبراطوراً قد جعلته مؤتلفاً مع الكاثوليك في أنحاء أوربا بل وجعلت كل ملوك أوربا تقريبا يقبلونه من الناحية الرسمية لكن معاملته السيئة للبابا في الفترة الأخيرة جعلت كل الكاثوليك تقريبا وكثيرا من البروتستنط ينفرون منه. لقد كانت البابوية قد قويت

بسبب محاولة نابليون استخدامها كأداة سياسية، فالكنيسة الكاثوليكية الفرنسية التي كانت حتى ذلك الوقت غالية « Gallican » أي مناهضة لبابا روما، أصبحت الآن توقر البابوية وتبدي ولاءها لها. والجزويت (طائفة اليسوعيين) الذين سبق أن طردهم بابا خائف مرتعد، عادوا مرة أخرى يمارسون نشاطهم في مختلف أنحاء العالم المسيحي في ظل البابا بيوس السابع المهذب والمصمم في الوقت نفسه، وقد حدث هذا في سنة ١٨١٤ . وفي هذا العام نفسه استعادت الباوباوية سلطانها الزمني، بل وازداد سلطانها الروحي بسبب المقاومة الهادئة التي أبداها البابا السجين. وقد اعترف نابليون نفسه بسوء حكمه على البابا بيوس السابع وكان هذا الاعتراف بعد تنازله عن العرش للمرة الأولى « لقد كنت دائما أعتقد أن البابا شخص ذو شخصية ضعيفة جدا.. لقد عاملته بقسوة. لقد كنت مخطئا. لقد كنت أعمى[١٨] ». ومن ناحية أخرى فإن البابا بيوس لم يقلل أبدا من شأن نابليون ولم يبخسه أبداً حقه، فقد أبدى إعجابه به كثيرا، بل لقد أظهر تعاطفا معه عندما سجن مع أنه (أي نابليون) كان سجانه. وعندما شكت أم نابليون للبابا من أن الإنجليز يسيئون معاملة ابنها في سانت هيلينا، توسل بيوس للكاردينال كونسالفي Consalvi طالبا منه التدخل لصالح عدوه السابق الذي هوى[١٩]. وعاش البابا بعد موت الإمبراطور بعامين. إذ مات في سنة ١٨٢٣ وهو يهذي هذيان المحموم « سافونا، فونتينبلو Savona, Fontainebleau »[٢٠].

٥- ما وراء المعارك

المعارك هي الألعاب النارية في دراما التاريخ، فخلفها يكمن الحب والكراهية بين الرجال والنساء، والكفاح والمقامرة في مضمار الاقتصاد، والهزائم والانتصارات في مجالات العلوم والآداب والفنون والتطلع اليائس لعقيدة دينية.

وقد يكون الإيطالي عاشقا متعجلا، لكنه يعمل بحيوية على زيادة أفراد الجنس البشري (المعنى أنه كثير الجماع) كما أنه يريد أن يملأ شبه الجزيرة الإيطالية الذهبية بأمثاله، حتى إن المهمة الوحيدة للمعارك والحروب هي تقليص عدد السكان المزدحمين، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية تشجع عدم الإنجاب بل كانت ترفضه أكثر من رفضها للزنا، لذا فلم تكن

الكنيسة تعمل على تحديد النسل وما كانت تستطيع وقف تضاعف عدد السكان.

لقد كانت الكنيسة تشجع العلاقات الغرامية مبتسمة لإيروس Eros (إله العشق عند الإغريق) ولم تفرض المحاذير على الشهوات المنطلقة في الكرنفالات. وكانت البنات غالبا ما يحتفظن بعذريتهن لأنهن كن يتزوجن في سن مبكرة، وكن يخضعن لمراقبة قاسية قبل الزواج، لكن بعد الزواج كان يمكن للمرأة أن يكون لها تابع يقوم بأمرها غير زوجها Cavalier Servente أو حتى عشيق (لأن الزواج يعني عادة ضم ممتلكات الزوجين) ولا يجد الإيطالي غضاضة في اتخاذ زوجته عشيقا، إذ يظل الزواج رغم هذا محترما في نظره، وإذا اتخذت المرأة عشيقين أو ثلاثة اعتبرت (شبقة على نحو ما Little Wild). وهذه على أية حال شهادة اللورد بايرون[٢١] الذي كان يميل إلى أن كل النساء يمكن الوصول إليهن. وربما كان حديثه منصرفا إلى نساء البندقية فقط حيث استقرت فيها فينوس (إلهة الحب عند الرومان) على نحو خاص، لكننا وجدنا ستندهال Stendhal يقول الشيء نفسه عن نساء ميلان في مؤلفه Chartreuse de Parme.

ورغم هذا التساهل والتسيب الخلقي، فالحياة في ميلان بدت كئيبة في نظر مدام دي ريموزا de Remusat التي حزنت «لغياب الحياة الأسرية، فالأزواج غرباء بالنسبة إلى زوجاتهم إذ يتركونهن ليرعى أمورهن العشاق Cavaliere Servente[٢٢]. ولم تكن مدام دي ستيل de Stael سعيدة لما اعتبرته سطحية «تبدو واضحة في مناقشات الرجال في إيطاليا، وكانت مدام دي ستيل متألقة في المناقشات التي أجرتها مع الجنسين. لقد كانت ترى أن الإيطاليين يرهقهم التفكير[٢٣]. لقد ذكرها الإيطاليون بأن الكنيسة لاترتاح إلى التفكير بصوت مسموع. لقد كان غالب الإيطاليين متفقين مع البابا في أن الدين مع العقيدة المستقرة والعوائد المالية التي تدرها مناطق ما وراء الألب أكثر فائدة لإيطاليا ومع هذا كان هناك الكثير من الفكر الحر الهادئ بين الأقلية المتعلمة[٢٤] بل وقدر غير قليل من الهرطقة السياسية. لقد كان باستطاعةألفيري Alfieri أن يكتب بحماس عن الثورة الفرنسية وصفق مئات الإيطاليين لسقوط الباستيل، وكان في إيطاليا مؤسسات مختلطة (تضم رجالاونساء) وتقدم تعليما مهذبا مثل أكاديمية أركاديا the Accademia della Arcadia التي كانت في

وقت من الأوقات تجمعا مشهورا للرجال المتعلمين والنساء المتعلمات، وتم تأسيس أكاديمية كروسكا Crusca في سنة ١٨١٢. وفي سنة ١٨٠٠ كانت هناك امرأة هي كلوتيدا تامبروني Coltida Tambroni تقوم بتدريس اليونانية في جامعة بولونيا Bologna في إيطاليا.

وانتعشت دراسة العلوم والطب في جامعات إيطالية أخرى ففي سنة ١٧٩١ وضح لويجي جالفاني Luigi Galvani (١٧٣٧ - ١٧٩٨) في جامعة بولونيا الايطالية أنه إذا تم توصيل عضلة ساق الضفدعة بقطعة من الحديد، وتم توصيل عصبها (عصب الضفدعة) بقطعة من النحاس، نشأ عن ذلك تيار كهربائي وسيسبب هذا التيار تقلص العضلة. وفي سنة ١٧٩٥ اخترع أليساندرو فولتا Alessandro Volta (١٧٤٥ - ١٨٢٧) في جامعة بافيا Pavia البطارية الجافة Voltaic Pile التي أدهشت أوربا حتى إنه استدعى إلى باريس في سنة ١٨٠١ لعرضها في المعهد العلمي الفرنسي، وفي ٧ نوفمبر، قرأ ورقة بحثية أمام جمهور ضم نابليون نفسه عن (تطابق الموائع الكهربائية مع الموائع الجلفانية) وفي سنة ١٨٠٧ نشر لويجى رولاندو Luigi Rolando أبحاثه التي مازت هذه الفترة عن تشريح المخ. إن إيطاليا «عديمة الفكر»(*) كانت تعلم أوربا ثورة أعظم من الثورة الفرنسية.

وضعف المسرح الإيطالي لأن الإيطاليين وجدوا أنه من الطبيعي تماماً أن يحولوا الحديث العادي إلى أغان، والدراما إلى أوبرا، وكانت الجماهير تميل كثيرا إلى المسرحيات البسيطة ذات الطابع الكوميدي، أما الأفراد الأكثر نضجا فكانوا يؤثرون المسرحيات من نوع ما يكتبه فيتوريو ألفيري Vittorio Alfieri (١٧٤٩ - ١٨٠٣) التي أعلن فيها كرهه للطغيان وتطلعه لتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي، فكل مسرحياته تقريبا سبقت الثورة الفرنسية[٢٥] لكن مبحثه الانفعالي المفعم حماسا لم ينشر إلاسنة ١٧٨٧ في بادن Baden مع أنه كتبه في سنة ١٧٧٧، ولم ينشر في إيطاليا إلا سنة ١٨٠٠ وأصبح بعد نشره من كلاسيات الفلسفة الإيطالية وفن الكتابة بالإيطالية. وأخيرا وجدناه في عمله الذي يحمل عنوان Misogallo (١٧٩٩) الذي كتبه في أواخر حياته المضطربة - يدعو الشعب الإيطالي للنهوض والإطاحة بالحكم الأجنبي كما دعاه للوحدة. وهنا وجد مازيني Mazzini وغاريبالدي صوتا واضحا

(*) العبارة ساخرة بطبيعة الحال. (المترجم).

يعبر عن أفكارهما.

لقد انعكست طبيعة الإيطاليين الانبساطية (غير الانطوائية) ولغتهم الشجية ونزوعهم الموسيقي إلى الشعر، فقد شهد هذا العصر القصير - حتى بعد استسلام ألفيري Alfieri للماضي وليوباردي Leopardi للمستقبل - مائة شاعر يتسلقون الشكل الشعري ويركزون عليه أكثر من تركيزهم على محتواه العاطفي (المدرسة البرناسية الفرنسية التي طغى اهتمامها بالشكل الشعوي على ما سوى ذلك)، وكان أسعدهم هو فينسينزو مونتي Vincenzo Monti (١٧٥٤ - ١٨٢٨) الذي كان لديه كلمات طيبة يقولها في كل موضوع واحد. لقد دافع في عمله (La Bassevilliana) (١٧٩٣) عن الدين في وجه الثورة الفرنسية مما جعله مقبولا في البلاط البابوي، وفي عمله (Il bardodella Selva Nara) المنشور في سنة ١٨٠٦ عظم من شأن تحرير نابليون لإيطاليا فعينه الفاتح (نابليون) أستاذا في جامعة بافيا Pavia وبعد سقوط نابليون اكتشف أخطاء الفرنسيين وأعلنها كما اكتشف فضائل النمساويين. وخلال كل هذه التقلبات راح يمتدح بشكل متواصل (La ballezza dell'Universo). وقد تخطى هذه الشطحات في ترجمته للإلياذة (١٨١٠)، ولم يكن يعرف من اللغة اليونانية شيئا، وإنما قام بصياغة شعرية لنص نثري، لذا فقد وصفه فوسكولو Foscolo بهذه العبارة: gran traduttor dei traduttore d'Omero وكان أجو فوسكولو Ugo Foscolo (١٧٧٨ - ١٨٢٧) شاعرا أكبر منه وكان أكثر ميلاً منه للحزن. وهو كشاعر كان ذا حس عاطفي يغلب على التفكير المنظم. لقد أطلق العنان لرغباته وانتقل من قصة شعرية قوامها الحب والفروسية إلى قصة أخرى، ومن بلد إلى بلد ومن بشارة gospel إلى أخرى، وانتهى إلى اشتياقه للأحلام القديمة. لكن خلال كل مراحل تطوره كان حريصا على الالتزام بالشكل الشعري، وحتى عندما استبعد الوزن والقافية راح يسعى للكمال في موسيقا اللغة.

لقد ولد بين عالمين - ولد في جزيرة زانطة Zante بين اليونان وإيطاليا، من أب إيطالي وأم يونانية، وبعد أن قضى في زانطة خمسة عشر عاما انتقل إلى البندقية واقتطف من جمالها السهل ووقع في حب تهتكها وتعلم أن يكره السيطرة النمساوية المجاورة، وفرح عندما أتى

نابليون كإعصار من نيس Nice إلى مانتوا Mantua، وهتف لبطل أركول Arcole : بونابرت المحرر، لكن عندماسلم المخلص (نابليون) البندقية للنمسا انقلب عليه معبرا عن سخطه في رواية (Le Ultime Lettere di Lacopo Ortis) التي نشرها في سنة ١٧٩٨، وهي رواية يعبر فيها عن أفكاره من خلال الخطابات الأخيرة التي كتبها بندقي (Werther) لأحد أصدقائه يقص عليه فيها مأساته المزدوجة : فقده حبيبته إذ فاز بها عزوله، وفقده البندقية تلك المدينة الحبيبة إذ وقعت في قبضة الغول التيوتوني Teutonic Ogre .

وعندما انطلق النمساويون لغزو شمال إيطاليا مرة أخرى انضم فوسكولو Foscolo للجيش الفرنسي، وحارب بشجاعة في بولونيا Bologna (مدينة إيطالية) وفلورنسا وميلان وخدم قائداً Captain في القوات التي أعدها نابليون لغزو إنجلترا . وعندما تبدد حلم غزو إنجلترا، تخلى فوسكولو عن الحرية وعكف على القلم وعاد لإيطاليا ونشر أجمل أعماله (القبور Sepolcri) في سنة ١٨٠٧ . لقد احتفى في هذه الرواية البالغ عدد صفحاتها ثلاثمائة صفحة مفعمة عاطفة مصقولة على نحو كلاسي بالكتابات على القبور باعتبارها تخليدا لذكرى أناس عظماء، وعظم من شأن كنيسة سانتا كروز Croce في فلورنسا لعنايتها الشديدة ببقايا مكيا فيللي وميشيل أنجلو وجاليليو، وراح يتساءل كيف يخضع شعب أنجب خلال قرون عديدة هذا العدد الكبير من رواد الفكر والإنجاز لحكام أجانب؟ كيف يخضع مثل هذا الشعب بإنجازاته الهائلة في الفلسفة والشعر والفن لهؤلاء الأجانب؟ وراح يعلي من شأن ما خلفه الرجال العظماء كدليل على الخلود، وكدليل على عظمة أمة وسمو حياتها الروحية .

وعندما أصبح النمساويون مرةأخرى سادة لشمال إيطاليا (١٨١٤ – ١٨١٥) فرض فوسكولو على نفسه النفي فأقام في سويسرا ومنها اتجه – بعد ذلك – لإنجلترا، وراح ينفق على نفسه من عمله مدرساً وكاتب مقالات ومات في فقر شديد سنة ١٨٢٧ . وفي سنة ١٨٧١ نقل رفاته من إنجلترا إلى فلورنسا حيث دفن في سانتا كروز في إيطاليا التي تحررت أخيرا .

قال بايرون (الذي أحب إيطاليا رغم قوله هذا) «في إيطاليا لا بد أن يكون الرجل في

خدمة امرأة Cicisbeo أو مغنياً في ثنائي أو متقناً لفن الأوبرا وإلا فإنه يصبح لا شيء[٢٦] »
فالأوبرا الإيطالية خاصة تلك التي كان يتم إنتاجها في البندقية ونابلي ظلت تسود المسارح الأوربية الهادفة، بعد أن تحداها لفترة وجيزة جلك Gluck وموزارت Mozart، إذ سرعان (١٨١٥) ماسرقت أعمال روسيني Rossini الميلودية وأنغامه العاصفة الأضواء حتى في فينا Vienna . وقد عاد بكيني Piccine – بعد أن نافس جلك Gluck في باريس – إلى نابلي، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله لتعاطفه مع الثورة الفرنسية .

وبعد أن فتح نابليون إيطاليا دعي مرة أخرى إلى فرنسا (١٧٩٨) لكنه مات فيها بعد عامين. وقد حقق بيسيلو Paisiello – كمؤلف وقائد فرقة موسيقية – انتصارات فنية في سان بطرسبرج St. Petersburg وفي فينا، وفي باريس، وفي نابلي في ظل حكم فرديناند الرابع، وبعده في ظل حكم جوزيف بونابرت، ثم في ظل حكم Murat . وخلف دومينيكو سيماروزا Domenico Cimarosa خلف أنطونيو ساليري Salieri كقائد أوركسترا في فينا وأنتج هناك أكثر أعماله الأوبرالية شهرة في سنة ١٧٩٢ وهي (IL matrimonio Segreto) وفي سنة ١٧٩٣ دعاه فرديناند للعودة إلى نابلي كما يسترو maestro di Capella، وعندما استولى الفرنسيون على نابلي استقبلهم بسرور، وعندما استعاد فرديناند عرشه حكم عليه بالإعدام لكن هناك من حثه على تخفيف الحكم فصدر قرار بنفيه خارج البلاد، فانطلق سيماروزا قاصدا سان بطر سبورج، لكنه مات في الطريق إليها في البندقية (١٨٠١)، وفي هذه الأثناء كان موزيو كليمنتي Muzio Clementi يؤلف الموسيقا ويعزف على البيانو في العواصم المختلفة، وكان يعد عمله الذي حقق شهرة في وقت من الأوقات (Gradus ad Parnassum) في سنة ١٨١٧ وهو كتاب تعليمي للشباب عن راغبي تعلم العزف على البيانو في كل مكان.

وبدأ نيكولو (نيقولا) باجانيني Niccolo Paganini (١٧٨٢ – ١٨٤٠) في جنيف في سنة ١٧٠٧ مهمته التي قضى فيها ردحا طويلا من الزمن إذ راح يحيي الحفلات بالعزف على الفيولين (الكمان) . لقد أحب الكمان بإخلاص وعشقه أكثر من أي امرأة من الكثيرات اللائي تدلهن حبا في موسيقاه. لقد طور إمكانات الكمان بشكل لم يسبق له

مثيل عزفاً وتأليفا. لقد ألف أربعة وعشرين لحنا حرا Capricci أدهشت بغرابتها وتطورها كل من سمعها. وقد عينته إليزا بونابرت باكيوش (باكيوكي Bacciocchi) على رأس فرقة موسيقية في بيمبينو Piombino (١٨٠٥) لكن هذا التعيين لم يمنعه لفترة طويلة من تنقلاته إلى حيث كانت كونشرتاته تجلب له الشهرة والنجاح الأكيدين، والثروة. وفي سنة ١٨٣٣ استقر في باريس، ومنح بيرليوز Berlioz عشرين ألف فرنك لينقذه من فقر شديد كان يعانيه، وشجعه لتأليف عمله (هارولد في إيطاليا). لقد أصبح باجانيني Paganini مرهقا إرهاقا شديدا بسبب انهماكه الشديد في العمل والعزف، فقرر أن يترك الإثارة في العاصمة المفتونة بالعبقرية والتي تمور بالثورة. ومات في نيس Nice سنة ١٨٤٠ تاركا بالإضافة إلى ألحانه الحرة الآنف ذكرها ثمانية كونشرتات والعديد من السونتات يتحدى بها عازفي الفيولين (الكمان) والذين يؤلفون مقطوعات له (للفيولين) لقرن قادم. إن فن العزف على الفيولين وتأليف مقطوعات للعزف على هذه الآلة لم يعودا بمثل هذه الحيوية إلاالآن وبفضله.

٦- أنطونيو كانوفا: ١٧٥٧ - ١٨٢٢

كانت إيطاليا في عصر نابليون منشغلة تماما بالحروب والسياسة بائسة تماما في روحها العام ليس بها من الأعمال الخيرية الخاصة إلا القليل وهما الأمران اللازمان لنشر الفنون خاصة فن العمارة الذي أعلى من شأن إيطاليا في الوقت الذي كانت فيه كل أوربا ترسل «بنسي Pence القديس بطرس» للباباوات، وفي الوقت الذي كانت فيه فلورنسا والبندقية وميلان مثل روما ونابلي - ثرية وتحكم نفسها بنفسها أو بتعبير آخر تتمتع بحكم ذاتي. لقد ارتفعت شامخة بعض الإنشاءات المتميزة:

- Arco della Pace في ميلان (١٨٠٦ - ١٨٣٣) التي قام عليها لويجي كاجنولا Luigi Cagnola
- Teatro La Fenice (مسرح البندقية) في البندقية (١٧٩٢) الذي قام عليه أنطونيو سيلفا Selva

– Palazzo Braschi (قصر برازش) في روما (١٧٩٥) بسلمه الفخم الذي قام عليه كوزيمو موريللى Cosimo Niccolini ولم تشهد إيطاليا رسوما (فن تصوير) خالدةً ولكن النحاتين الإيطاليين استلهموا الآثار الهرقلية Herculaneum لينبذوا تأثيرات فن الباروك العربية وطخامة الروكوكو rococo ليعودوا يستلهمون الروعة والهدوء والخطوط البسيطة في فن النحت الكلاسي. وقد ترك لنا واحد من هؤلاء النحاتين أعمالا لاتزال تستوقف الرائي، وتغريه بلمسها، وتبقى في ذاكرته إنه أنطونيو كانوفا الذي ولد في بوساجنو Possagno (بوسانو) عند سفح جبال الألب في البندقية. وكان أبوه – وكذلك جده – نحاتا، وقد تخصص الأب والجد في أعمال النحت المرتبطة بمذابح الكنائس وكذلك في نحت الأيقونات وتماثيل القديسين وغير ذلك من المنحوتات ذات الطابع الديني المسيحي. وعندما مات الأب (١٧٦٠) أخذ الجد ابن ابنه أنطونيو إلى بيته ثم بعد ذلك إلى الإستوديو الخاص به. ولفت أنطونيو أنظار شريف أرسولو Arsolo (الشريف Patrician لقب للأرستقراطي الروماني) جيوفاني فالير Giovanni Falier لدأبه على العمل وتوقه الشديد للتعلم، فقدم له المال اللازم لدراسته في البندقية ورد له الشاب جميله بأن قدم له أول منحوتاته اللافتة للنظر (أورفيوس ويوريديس[٢٧] Orpheus & Eurydice) وفي سنة ١٧٧٩ انطلق – بموافقة الشريف فالير – إلى روما، فدرس فيها آثار الفنون القديمة، وراح أكثر فأكثر يستوعب تفسيرات وشروح ونكلمان Winckelmann للنحت الإغريقي باعتباره فناً يهدف إلى تمثّل الجمال المثالي من خلال الشكل الكامل والخط كأفضل وأتم ما يكون. لقد كرّس نفسه تماماً لإحياء الأسلوب الكلاسي في النحت.

وحثّ أصدقاؤه في البندقية الحكومة على دفع راتب سنوي له طوال السنوات الثلاث التالية فأصبح يتلقى بناء على هذا ثلاثمائة دوكات Ducat في العام. ولم تُلهه هذه الأموال ولم تَعُقه عن مواصلة ما نذر نفسه له فقد راح – بحب – يحاكي النماذج الكلاسية وبدا في بعض الأحيان وقد أنتج مثيلا يضارعها تماماً كما في تمثال بيرسيوس Persues وعمله الذي أطلق عليه The Pugilist، وقد أنجز كلا العملين في سنة ١٨٠٠، فكانا هما العملين الوحيدين من بين أعمال النحّاتين المعاصرين اللذين استحقا أن يوضعا في بلفيدير الفاتيكان

جنباً إلى جنب مع الأعمال الفنية الكلاسيّة التي حازت إعجاب العالم(٢٨). وعملهُ النحتيّ (ثيزيوس يذبح القنطور « كائن خرافي نصفه فرس ونصفه بشر » Thesues Slying the Centaur) (١٨٠٥) – وهو نحت من رخام – موجود الآن فيما كان يعرف في وقت من الأوقات بالحدائق الإمبراطورية في فينّا – يمكن ببساطة أن يخطئ المرء فيظنه من الأعمال النحتية الخالدة في العصور القديمة، لولا المبالغة في إظهار القوة والضراوة، وكان كانوفا أفضل ما يكون في الأعمال ذات الطابع الناعم (المقصود غير العنيف) التي تتلاءم مع شخصيته كما في تمثاله هيب Hebe الموجود في المتحف الوطني في برلين، ففي هذا العمل نجد ابنة زيوس Zeus وهيرا Hera وهي ربّة الشباب تحظى بشرف توزيع النبيذ على الأرباب.

وبدأ كانوفا في عام ١٨٠٥ وهو عامه العامر بالإنتاج أشهر تماثيله: فينوس Venus Victri X (في متحف بورجيز في روما Galleria Borghese) وقد حث بولين بورجيز Pauline Borghese – أخت نابليون – أن تتخذ أمامه هذا الوضع (البوز Pose) لينحت لها تمثالاً يعبّر عن مفاتنها، وكانت وقتها في الخامسة والعشرين في تمام تكوينها الجسدي(٢٩) لكن قيل إن الفنان لم ينقل مباشرة إلاّ ملامح وجهها (لم يستخدم – كموديل – إلاّ وجهها) أما الملابس والأطراف فقد أعمل فيها خياله وأحلامه وذاكرته. وانتهى من هذا التمثال في غضون عامين ثم عرضه ليحكم عليه العامة والنحّاتون المنافسون، فراعهم التمثال بما فيه من جمال عزيز ولمسة حب، وفي هذا التمثال لم يكن الفنان مجرَّد مقلّد لبعض الأعمال القديمة العظيمة الخالدة، وإنما كان تعبيراً عن امرأة حية في زمن حي، كانت في رأي أخيها (نابليون) هي الأجمل. لقد جعل منها كانوفا هدية للأجيال.

وفي سنة ١٨٠٢ دعا نابليون الفنان كانوفا ليأتي من روما إلى باريس، فنصحه البابا بيوس السابع – وكان قد وقَّع لتوّه اتفاقا (كونكوردات) مع القنصل (نابليون) – بتلبية الدعوة والذهاب لفرنسا لأسباب ليس أقلها أن يكون غازيا إيطاليا آخر يغزو فرنسا (تلميح لأصول نابليون الإيطالية)(*) وأفضل التماثيل النصفية العديدة التي نحتها هذا الفنان لنابليون هو ذلك التمثال الموجود في متحف نابليون في كاب دنتيب Cap d'Antibes إذ يبدو المحارب

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم.

الشاب في هذا التمثال وكأنه أرسطو في حالة تأمل حقيقي والأكثر شهرة بكثير هو التمثال الكامل (من الرأس إلى القدمين) الذي صنعه كانوفا من الجص ثم نحته بعد ذلك من كتلة واحدة من رخام كارارا Carrara marble عند عودته لروما. وتم إرسال هذا التمثال إلى باريس في سنة ١٨١١ حيث وُضع في متحف اللوفر، لكن نابليون اعترض على هذا التمثال بحجة أنّ شارة النصر المجنّحة التي وضعها النحّات في يمينه تبدو للرائي وكأنها تطير مبتعدة عنه، فتم حجب التمثال عن المشاهدين وفي سنة ١٨١٦ اشترته الحكومة البريطانية وأهدته إلى ولنجتون Wellington، وهو الآن موجود أدنى سلّم قصر ولنجتون في لندن (بيت أبسلي Apsley) ويبلغ ارتفاعه أحد عشر قدماً. وقدم كانوفا إلى باريس مرة أخرى في سنة ١٨١٠ لنحت تمثال لماري لويز Marie Louise وهي جالسة على مقعد. ولم تكن النتيجة محل إعجاب لكن نابليون قدَّم للفنان عند رحيله الأموال اللازمة لترميم كاتدرائية فلورنسا ومبلغا لتمويل أكاديمية القديس لوك Luke (للفنون) في روما. وبعد سقوط نابليون أصبح كانوفا رئيساً لهيئة عيَّنها البابا لاستعادة الأعمال الفنية التي كان الجنرالات الفرنسيون قد أرسلوها لباريس، وردّها لأصحابها الأصليين.

لقد تربّع على عرش النحت الإيطالي في عصره، ولم يبزّه في أوربا إلاّ هودون Houdon (١٧٤١ – ١٨٢٨) الذي حظي في هذه الفترة بالتوقير، وكان من رأى بايرون الذي كان أكثر ألفة في إيطاليا منه في فرنسا أن « أوروبا والعالم ليس فيها إلاّ كانوفا واحد »[٣٠] وأنه – أي كانوفا – « يضارع نحّاتي العصور الكلاسية القديمة »[٣١] وربما كان أحد أسباب الاحتفاء به هو موجة الكلاسيّة الجديدة التي جعلته – كما جعلت ديفد David (ساعد نابليون كليهما) يتبوأ مقعد الريادة في فنّه. لكن أوروبا لم تكن لترضى لفترة طويلة بتقليد (أو نسخ) الأعمال الفنية القديمة أو بتعبير آخر لم تكن لترضى – لفترة طويلة – بتقليد الآثار، لذا فسرعان ما أخضعت الحركة الرومانسية الخط والشكل للون والمشاعر وهكذا زوت شهرة كانوفا.

ولا يبعد عن سياق حديثنا ان نذكر أن كانوفا كان رجلا طيبا معروفا بتواضعه وتقواه وحبه للإحسان كما كان قادراً على تقدير منافسيه وعدم بخسهم حقهم، وكان يعمل

بجد، وعانى من جو روما المسبب للملاريا ومن نحت الأعمال الضخمة، فغادر روما في صيف سنة ١٨٢١ طالبا هواء أنقى وحياة أهدأ في مسقط رأسه بوسّاجنو (بوسّانو) وفيها مات في ١٣ أكتوبر ١٨٢٢ وهو في الرابعة والستين من عمره فبكاه كل المثقفين في إيطاليا.

٧- ستُبعثُ إيطاليا من جديد

ما هي المحصلة الجبرية (نسبة إلى علم الجبر) الكلية لما أحدثته فرنسا من خير وشر في إيطاليا في هذا العصر؟ لقد قدمت فرنسا لأمّة تتمرّغ في الكسل بسبب حكم الأجانب لها، صيحة صاخبة ونموذجاً لأمة حققت حريتها بإرادتها وأفعالها وهي تكاد تميَّزُ من الغيظ. لقد قدّمت فرنسا لإيطاليا روحاً جديدة مفعمة بالتحدي فيما يتعلق بعلاقة المواطنين بالدولة. لقد قدّمت فرنسا لإيطاليا مجموعة المدوّنة النابليونية. لقد كانت صارمة لكنها كانت بنّاءة ومحدّدة وواضحة ضبطت الأمور وأشاعت النظام ومهدت الطريق للوحدة والمساواة أمام القانون في شعب طالما قسّمته الطبقية والنفور من الامتثال للقانون. وعمل نابليون ورجال إدارته الدؤوبون على تحسين الأداء الحكومي وتطهيره وعلى الإسراع بالتنفيذ ومضاعفة الأشغال العامة (المشروعات العامة) وتزيين الطرق وإنشاء الحدائق والشوارع التي تحفها الأشجار، وتطهير الطرق والمستنقعات والترع والقنوات، وتأسيس المدارس وإلغاء محاكم التفتيش وتشجيع الزراعة والصناعة والعلوم والآداب والفنون. وحمى الحكم الجديد (الفرنسي) دين الناس لكنه لم يعطِ الحكومة حق قمع المنشقين عن الكنيسة. لقد كان نابليون المتشكك (غير المؤمن بالكاثوليكية) هو الذي خصّص الأموال لإكمال كاتدرائية ميلان، وتم الإسراع بالإجراءات القانونية كلها كما أُدْخل عليها الإصلاح، وأصبح التعذيب مخالفاً للقانون ولم يُعد استخدام اللغة اللاتينية في المحاكمة أمراً لازماً، وفي هذه الفترة (١٧٨٩ - ١٨١٣) لم يكن ينقص جوزيف ومورا في نابلي ويوجين في ميلان إلاّ ان يكونوا إيطاليين ليحظوا بحب الشعب.

أما الجانب الآخر للصورة فيتمثل في التجنيد الإلزامي والضرائب والاختلاس (بمقادير قليلة). لقد وضع نابليون نهاية للصوصية وقطع الطرق، لكنه استولى على الأعمال الفنية

الشهيرة التي كانت إيطاليا متخمة بها، وفيما يتعلق بالتجنيد الإجباري فقد كانت حجج نابليون هي الأكثر معقولية باعتباره - أي التجنيد الإجباري - وسيلة عادلة لحماية الأمة الجديدة من الفوضى الداخلية والحكم الأجنبي، فالإيطاليون كما قال «لابد أن يتذكروا أن الجيش هو الدّعم الأساسي للدولة. لقد آن الأوان أن يكف الشباب العاطل في المدن الكبيرة عن الخوف من متاعب الحروب وأخطارها». وربما كان التجنيد الإجباري مقبولاً كشرٍ لابد منه لو أن المجنّدين الإيطاليين لم يجدوا أنفسهم عُرضة للذهاب إلى أي جبهة لحماية مصالح نابليون أو فرنسا، لقد تحرك ستة آلاف منهم إلى القنال الإنجليزي في سنة ١٨٠٣ للانضمام للجيش الفرنسي لغزو إنجلترا، ذلك المشروع الذي كان غير مضمون النتائج. وتحرك ثمانون ألفا منهم(٣٢) ليُقذف بهم بعيداً عن شمس إيطاليا ليعانوا في سهول روسيا ويدهمهم جليدها، ويواجهوا جنود القوزاق.

ولم يوافق الإيطاليون على «وطنيّة الضرائب Patriotism of Taxation»، ففي حالة الضرائب أيضاً لم يكن العامل الإيطالي يدفع لحماية إيطاليا وحدها وحكمها وتحسين ظروفها، وإنما أيضاً لمساعدة نابليون في مواجهة المصاريف المتزايدة المطلوبة لإدارة إمبراطورياته الممتدّة والمتقلقلة (غير المستقرة). وكان يوجين يتوقع أن يحظى بحب رعاياه بينما هو يسلب ما في جيوبهم، إذ ارتفعت عوائد الضرائب في مملكته الصغيرة من ٨٢ مليون فرنك في سنة ١٨٠٥ إلى ١٤٤ مليون في سنة ١٨١٢، وكان من رأي الإيطاليين أن هذه الأعباء الثقيلة كان من الممكن تحملها بشكل أيسر إذا لم يسلب الحصار القاري الذي فرضه الإمبراطور (نابليون) السوق الإنجليزي من الصناعة الإيطالية، بينما كانت جمارك التصدير والاستيراد التي تجعل فرنسا في الوضع الأكثر رعاية قد كبّلت التجارة الإيطالية بالتعامل مع فرنسا وألمانيا.

وعلى هذا فحتى قبل عودة النمساويين، كان الإيطاليون قد تعبوا من حماية نابليون. لقد شعروا أنهم لم يفقدوا أعمالهم الفنية العظيمة فحسب، وإنما كانوا أيضاً عُرضة لاستنزاف ثرواتهم التي كونوها في سبيل مشروع نابليون لغزو إنجلترا وفتح روسيا، ولم يكن هذا هو حُلم شعرائهم. إنهم يعترفون أن المسؤولين الذين عينهم البابا كانوا قد سمحوا

بدرجة كبيرة من الفساد والرشوة في الولايات البابوية ومع هذا فقد ساءتهم المعاملة السيئة التي لاقاها البابا بيوس السابع من المسؤولين الفرنسيين كما ساءهم أن يأمر نابليون بسجنه، وأخيراً كرهوا حتى يوجين المحبوب فعلى يديه جرى تنفيذ كثير من مراسيم نابليون التي لم تكن تلقى منهم ترحيباً وقد رفضوا دعْم جهود يوجين لإرسال دعم لنابليون عندما كان عُرضة لهزيمة كاملة (١٨١٣) بعد ليبسج (ليبزج) Leipzig. لقد فشلت جهود تحرير إيطاليا بواسطة حكم أجنبي وجيش من الغرباء، وكان على «التحرير» أن ينتظر وحدة وطنية من خلال جيش إيطالي ورجال دولة إيطاليين وأدب إيطالي.

وقد تنبأ نابليون نفسه بهذه الصعوبات، وكانت حساباته صحيحة هذه المرة، رغم أنه أساء الحساب كثيراً فيما يتعلق بإيطاليا، ففي سنة ١٨٠٥ - عام تتويجه ملكاً على إيطاليا. قال لبورين Bourienne:

«لا يمكن أن يكون اتحاد إيطاليا مع فرنسا إلاّ مؤقتاً، لكنه ضروري لتعويد أم إيطاليا (المقصود دولها) على العيش معاً في ظل قانون عام. فهناك كراهية متبادلة بين الجُنويين، والبيدمونتيين، والبنادقة، والميلانيين وأهل تسكانيا وأهل روما وأهل نابلي.. وروما هي العاصمة الطبيعية لإيطاليا بسبب التراث المرتبط بها. وعلى أية حال، فكي تكون روما كذلك (عاصمة طبيعية) من الضروري تقييد سلطة البابا في نطاق الأمور الروحية الخالصة. إنني لا أستطيع الآن التفكير في هذا لكنني سأنظر فيه مستقبلا.. إن هذه الدول الإيطالية الصغيرة ستصبح تلقائياً معتادة على القوانين نفسها، وعندما تخف حدة عداواتها ستصبح هناك إيطاليا واحدة، وسأجعلها مستقلة. لكن هذا قد يستغرق مني عشرين عاما، ومن منا يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل؟».

إننا لا نستطيع دوما الثقة في بورين Bourrienne لكن لا كاس Las Cases روى أن نابليون ذكر ما يشبه فحوى هذا الكلام في سانت هيلانه: «لقد زرعتُ في قلوب الإيطاليين مبادئ لا يمكن انتزاعها أبداً، فعاجلاً أم آجلاً سيتحقق البعث الإيطالي» وقد حدث هذا بالفعل.

الفصل السابع والعشرون



[١٨١٢ - ١٧٨٠]

١- أباطرة متنوِّرون: ١٧٨٠ - ١٧٩٢

في سنة ١٧٨٩ كانت النمسا واحدة من دول أوربا الكبرى معتزّة بتاريخها وثقافتها وقوتها وبإمبراطوريتها الأوسع كثيرا من النمسا ذاتها. واسم النمسا (أوستريا) من كلمة (أوستر Auster)(*) التي تعني ريح الجنوب ثم انصرف معناها ليعني شعبا صارما تيوتونيا وإن كان - رغم صرامته - حسن الطباع محباً للفكاهة يشارك بسعادة في مباهج الحياة ويشارك الإيطاليين جنونهم بالموسيقا. وكانت النمسا أمة سلتية Celtic عندما غزاها الرومان قبل ظهور المسيح بفترة وجيزة، وظهر أنها احتفظت عبر ألفي سنة بشيء من حيوية السلتيين وثقافتهم وذكائهم، وشيد الرومان في فيندوبونا Vindobona (التي أصبحت فيينا Vienna ثم فِين Wein) قاعدة أمامية لحضارتهم في مواجهة البرابرة المتطفّلين المهاجمين، وفي هذا الموضع كبح ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius الماركوماني Marcomanni في نحو ١٧٠م - بين أفكار ذهبية(**)، وفي هذا المكان وضع شارلمان العلامة الشرقية East Mark أو الحدود الشرقية لمملكته، وفي هذا المكان، في سنة ٩٥٥م أقام أوتو Otto العظيم مملكته الشرقية his Osterreich في مواجهة الماجيار Magiars، وفي هذا الموضع في سنة ١٢٧٨ أسس رودلف الهبسبرجي (من أسرة الهبسبرج) حكم أسرة حاكمة استمر حكمها حتى سنة ١٩١٨. وفي الفترة من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ هبت ريح الجنوب كاثوليكية عنيفة فهبت العقيدة القديمة في مواجهة العقيدة الجديدة واستعرت الحرب بينهما ثلاثين عاما،

(*) بحثنا عن معنى الكلمة في «القاموس الوحيد» ألماني عربي تأليف رياض جيد فوجدنا معناها (صَدَفة أو محارة)، وأورد المعنى نفسه جوتس شراجله في قاموسه الألماني العربي. (المترجم)

(**) النص الإنجليزي: Marcus Aurelius, between golden thoughts held back the Marcomanni about A. D. 170, والمعنى غير واضح بالنسبة إلي. (المترجم)

وتَدعّمت تلك العقيدة عندما وقفت فينا في سنة ١٦٨٣ وللمرة الثانية كحصن للدفاع عن العالم المسيحي بصدها التقدم التركي (العثماني). وفي هذه الأثناء نشرت أسرة الهبسبرج الحاكمة حكم النمسا على الدوقيات المجاورة: ستيريا Styria، وكارينثيا Carinthia وكارنيولا Carniola والتيرول Tirol وعلى بوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) وترانسلفانيا (رومانيا) والمجر (هنجاريا) وغاليسيا البولندية ولومبارديا والأراضي المنخفضة الإسبانية (بلجيكا). وعندما دقّ نابليون بوابات فينا للمرة الأولى في سنة ١٧٩٧ كان هذا هو وضع إمبراطورية النمسا ذات الممتلكات المبعثرة على هذا النحو ووصل الهبسبرج أَوْجهم في عهد ماريا تيريزا Maria Theresa (حكمت من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٠)، هذه الأم العنيدة المدهشة التي نافست كاترين الثانية Catherine II وفريدريك الكبير بين ملوك عصرها. لقد فقدت سيليزيا أمام دهاء فريدريك الميكافيللي لكنها - بعد ذلك - حاربته مع شعبها وحلفائها حتى وصل الطرفان إلى طريق مسدود، واستنزفتهما الحرب تماما، وعاشت لتضع خمسة من أبنائها البالغين ستة عشر ابناً على عروش مختلفة: جوزيف في فيينا وليوبولد في تسكانيا، وماريا أماليا في بارما Parma وماريا كارولينا في نابلي وماري أنطوانت في فرنسا. ونقلت مملكتها على كُره منها لابنها الأكبر، لأنها كانت منزعجة لعدم يقينه الديني (كان لا أدرياً) كما كان ميّالاً للإصلاح، وتنبأت أن شعبها الراسخ في حبه لها لن يكون سعيداً إذا حدث ما يُعكر صفو عقائده التقليدية وأساليبه المعتادة في الحياة.

وبدا حكمها صائباً بسبب الاضطرابات التي أربكت جوزيف الذي شاركها العرش من سنة ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ ثم تبوّأه عشر سنوات أخرى. لقد صدم الأرستقراطية بتحريره أقنان الأرض Serfs، وصدم السكان الكاثوليك ذوي الشوكة بإعجابه بفولتير وبسماحه للبروتستنط بممارسة طرائقهم في العبادة، وبإزعاجه المستمر للبابا بيوس السادس. وكان عليه أن يعترف في أواخر أيامه، وكان جهازه الإداري المحيط به غير مؤيّد له لأن الفلاحين الذين انفصلوا فجأة عن سادتهم الإقطاعيين قد أساءوا استخدام حريتهم، وأنه قد عطّل المسيرة الاقتصادية وأنه قد كان سببا في ثورة الطبقات العليا في المجر والأراضي المنخفضة النمساوية بل لقد هدّد وجود الإمبراطورية النمساوية نفسها، لقد كانت أهدافه خيّرة لكن

أساليبه في الحكم كانت قائمة على إصداره ما لا حصر له من القرارات والمراسيم التي تفرض النتائج ولا تهيّئ الأسباب أو بتعبير آخر لا تضع وسائل التنفيذ في الاعتبار. لقد قال عنه فريدريك الكبير: «إنه دائماً يتخذ الخطوة الثانية قبل الخطوة الأولى»[1] ومات في ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٠ آسفا على إجراءاته الطائشة المندفعة، حزيناً على النزوع العام للمحافظة ذلك النزوع الذي يُفضّل كثيراً ما هو مألوف معتاد على إجراء الإصلاح المطلوب.

أما أخوه ليوبولد فقد شاركه أهدافه ولكنه لم يشاركه تعجّله، فرغم أنه كان في الثامنة عشرة من عمره فحسب عندما تولّى منصب دوق تسكانيا الكبير (١٧٦٥) إلاّ أنه باشر سلطته بحذر وجمع حوله إيطاليين ناضجين (مثل سيزار بيكاريا Cesare Beccaria) وأدرك طبيعة الشعب وتآلف معها، وعرف احتياجات الدوقية وإمكاناتها، وبذلك قدّم لمملكته التاريخية حكومة كانت موضع حسد أوربا. وعندما أدّى موت أخيه إلى وصوله لمرتبة القيادة الإمبراطورية كان قد أصبح ذا خبرة امتدت خمسة وعشرين عاماً، فخفّف من حدة بعض إصلاحات أخيه (جوزيف) فجعلها أكثر اعتدالاً، وألغى بعضها الآخر، لكنه اعترف تماماً بالتزام «الإمبراطور المتنوّر» بزيادة فرص التعليم لشعبه، وتوسيع المجالات الاقتصادية أمامه. لقد سحب الجيش النمساوي الذي كان أخوه قد أعدّه دون تقدير للعواقب لمهاجمة تركيا (الدولة العثمانية) واستخدمه لحث بلجيكا على العودة للتحالف مع النمسا. وهدّأ نبلاء المجر بالاعتراف بالدايت Deit المجري ودستور المجر، وهدّأ البوهيميين Bohemians بأن أعاد إلى براغ تاج ملوك بوهيميا القدماء وقبل التتويج هناك في كاتدرائية القديس فيتس Vitus . لقد علم أن الملك يمكن ألا يكون له مكان إذا تم الحفاظ على الشكل.

وفي هذه الأثناء قاوم محاولات المهاجرين الفرنسيين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) وملوك أوربا لجرّه إلى حرب مع فرنسا الثورة. لقد شعر بمأزق أخته الأصغر منه – ماري أنطوانيت، لكنه خشي أن تؤدي حربه مع فرنسا إلى فقدانه بلجيكا التي لازالت الأحوال فيها غير مستقرة. ومع هذا فعندما توقف لويس السادس عشر وماري أنطوانيت في هروبهما عند فارن Varennes وأُعيدا إلى باريس ليعيشا حياة يتعرضان فيها للخطر كل يوم اقترح ليوبولد على الملوك الموالين له أن يتخذوا إجراء موحّداً لضبط الثورة

الفرنسية والسيطرة عليها فالتقى فريدريك وليم الثاني البروسي مع ليوبولد في بلنيتز Pillnitz ووقعا معا إعلانا (في ٢٧ أغسطس ١٧٩١) هددا فيه بالتدخل في شؤون فرنسا. وبقبول لويس السادس عشر لدستور الثورة الفرنسية (١٣ سبتمبر)، بدا هذا الإعلان بلا معنى، لكن الفوضى استمرت وزادت وأصبح الملك الفرنسي والملكة الفرنسية مرة أخرى في خطر، فنظَّم ليوبولد التعبئة العامة في الجيش النمساوي، وطلبت الجمعية الوطنية الفرنسية تفسيراً لهذا غير أن ليوبولد مات (أول مارس ١٧٩٢) قبل أن تصله رسالة الجمعية الوطنية الفرنسية. ورفض ابنه وخليفته فرانسيس الثاني (٢٤ عاماً) الإنذار، وفي ٢٠ أبريل أعلنت فرنسا الحربَ على النمسا.

٢- فرانسيس الثاني

تلك القصة وصلتنا من وجهة نظر فرنسية فما هي وجهة نظر النمساويين وكيف شعروا بهذا الأمر؟ لقد سمعوا أن أرشدوقتهم - التي كان جمالها قد أطلق عنان فصاحة أدموند بورك Edmund Burke - يحتقرها أهل باريس ويُطلقون عليها ساخرين (المرأة النمساوية L'Autrichienne) وأن جماهير باريس جعلوها سجينة قصر التوليري، وأن الجمعية الوطنية الفرنسية خلعتها بعد ذلك وأودعتها السجن. لقد سمعوا عن مذابح سبتمبر وكيف أن رأس الأميرة دي لامبل de Lamballe المتصلب قد يُعرض على رأس رمح على مرأى من الملكة التي كانت تحبها. لقد سمعوا أن الشيب غزا شعرها، وأنها ركبت عربة السجناء في طريقها لتُعدم بالمقصلة وحولها جمع غفير من الجماهير يسخرون منها. ولم يكن هناك ما هو أكثر من هذا يجعلهم يجأرون لإمبراطورهم الشاب ليقودهم في حرب ضد هؤلاء الفرنسيين القتلة، ولا يهم أنه كان ذا عقل متوسط وأنه كان إمبراطوراً خيّراً لكنه غير متقِن، وأنه اختار جنرالات غير أكفاء وأنه سلَّم النمسا جزءاً بعد جزء وترك عاصمتها تحت رحمة الغازي، فهذه الهزائم جعلت النمساويين يحبون فرانسيس أكثر، لقد بدا لهم الحاكم الذي عينته العناية الإلهية وكرّسه البابا وتبوأ العرش بشرعية لا تقبل التحدي وأنه كان يدافع عن شعبه بقدر ما يستطيع ضد البرابرة القتلة وهو الآن يدافع عنهم ضد الشيطان الكورسيكي

(نابليون)، إن رفضه لكل ما هو ليبرالي مما تركه عمه وأبوه، وإعادته للسخرة والرسوم الإقطاعية ورفضه لأي تحوّل من الأوتوقراطية إلى الحكم الدستوري – كل ذلك كان مغفوراً له مُتسامحاً فيه بعد أوسترليتز Austerlitz وبريسبورج Pressburg. لقد دخل عاصمته مرة أخرى مضروباً مهزوماً منهوباً. لقد أخلص له شعبه إخلاصاً لا مزيد عليه(٢). إن الشعب النمساوي لم ير في كل الأحداث المتلاحقة طوال السنوات الثماني الآتية التي انتصر فيها الشر سوى أن حاكمهم الطيب سينتقم لا محالة من أعداء النمسا وسيستعيد كلَّ سلطانه وممتلكاته التي ورثها، وكانوا على يقين من هذا كيقينهم بأن الرب موجود.

٣- ميترنيخ

لقد كان الرجلُ الذي قاد فرنسيس الثاني لهذا الإنجاز قد وُلد في كوبلنتس Coblenz (كوبلنز) على شاطئ الراين في ١٥ مايو سنة ١٧٧٣ وجرى تعميده باسم كليمنس فنزل فون ميترنيخ Klemens Wenzel Von Metternich وكان هو الابن الأكبر للأمير فرانتس (فرانز) جورج كارل فون ميترنيخ ممثل النمسا في بلاطات الأمراء الناخبين Electors (الأمراء المؤهلين لاختيار رأس الإمبراطورية) في كل من ترير Trier وميتز Mainz وكولوني Cologne. وتلقى الصبي اسميه الأولين من أول هؤلاء الحكام الإكليريكيين ولم ينس أبداً ارتباطه الديني وولاءاته خلال نزوعه لأفكار فولتير في شبابه ونزوعه لأفكار ميكيافيللي عند توليه الوزارة. وكان من أسمائه أيضاً لُثَر Lother لتذكير أوربا أن أحد أجداده الذين حملوا هذا الاسم حكم ترير Trier في القرن السابع عشر. وأحياناً كان يضيف إلى اسمه (فينبرج بيلشتين Winneburg Beilstein) ليشير إلى الممتلكات التي كانت الأسرة قد امتلكتها طوال ثمانية قرون وأن الخمسة والسبعين ميلا مربعاً التي امتلكتها أسرته هي مبرر كافٍ للفظ الدّال على النبالة الذي يحمله وهو (فون Von) من الواضح أن لرجل لم يُخلق ليحب الثورات أو يقودها.

تلقى تعليماً مناسباً لوضعه من معلم لقنه أفكار الحركة التنويرية الفرنسية(٣) ثم تعلم في جامعة ستراسبورج، وعندما شعر أساتذة هذه الجامعة بشيء من الرجفة لسقوط الباستيل

تمّ نقله إلى جامعة مينز (مينتس Mainz) حيث درس القانون كعلم لحقوق الملكية وكعلم يستشهد بالسوابق. وفي سنة ١٧٩٤ حاصر الفرنسيون كوبلنز (كوبلنتس Coblenz) باعتبارها مأوى للمهاجرين الفرنسيين المحرّضين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية)، وأمم الفرنسيون كل ممتلكات آل مترنيخ تقريباً، فلجأت الأسرة إلى فينا، وتودّد كليمنس Klemens الطويل الرياضي الأنيق إلى إلينور فون كونيتس Eleonore Von Kaunitz فكسب ودها وهي حفيدة ثرية لرجل الدولة الذي كان قد جمع بين النمسا الهبسبرجية وفرنسا البوربونية. وقد أخذ عن عروسه فنون الدبلوماسية ممثلة في انحناءات الاحترام التي لا معنى لها، وسرعان ما أصبح متمرساً في فن الخداع والمداهنة.

وفي سنة ١٨٠١ وكان وقتها في الثامنة والعشرين من عمره، تمّ تعيينه وزيراً في بلاط سكسونيا Saxony، وهناك التقى بفريدرتش فون جنتز (جينتس) Fredrich Von Genz الذي أصبح ناصحه المخلص والناطق باسمه طوال الثلاثين عاماً التالية وسلّحه بمعظم الحجج التي تؤيد الرجوع إلى الأوضاع السابقة على الثورة الفرنسية. وإخلاصاً منه للنظم التي كانت سائدة قبل الثورة الفرنسية Ancien Régime اتخذ له خليلة هي كاتارينا باجراسيون Katharina Bagration وهي ابنة جنرال روسي سنتحدث عنه مرة أخرى بعد ذلك، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها. وفي سنة ١٨٠٢ وضعت له طفلة اعترفت زوجته بأبوّته لها[٤]. واعترفت فينا بتقدمه فعينته (١٨٠٣) سفيراً للنمسا في برلين. وفي أثناء الأعوام الثلاثة التي قضاها في بروسيا التقى بالقصير إسكندر الأول وكوّن معه صداقة استمرت حتى الإطاحة بنابليون. وعلى أية حالة، فإن هذا لم يكن في حساب نابليون عندما طلب من الحكومة النمساوية بعد معركة أوسترليتز Austerlitz أن ترسل واحدا من « الكونيتز a Kaunitz » كسفير لها في فرنسا، فأرسل له وزير خارجية النمسا الكونت فيليب فون شتاديون Stadion – مترنيخ الذي وصل باريس في ٢ أغسطس ١٨٠٦ وكان وقتها في الثالثة والثلاثين من عمره.

والآن بدأت معركة استمرت تسعة أعوام عامرة بالدهاء والذكاء بين الدبلوماسية والحرب انتصر فيها الدبلوماسي بتعاونه مع الجنرال. وليسترخي ميترنيخ مبتعداً عن عيني نابليون

النفاذتين، وعن زوجته (أي زوجة ميترنيخ) المملّة الباردة جنسيا - راح يسلّي نفسه مع مدام لور جونو Laure Junot زوجة حاكم باريس وقتها، لكنه لم ينس أن النمسا كانت تتوقع منه أن يَسْبر أغوار عقل نابليون ويعرف أهدافه ويكتشف كل إمكانيات تحقيق مصالح النمسا. لقد كان كلا الرجلين معجباً بالآخر. لقد كتب ميترنيخ إلى جنتس Gentz في سنة ١٨٠٦ «إن نابليون هو الرجل الوحيد في أوربا الذي يفعل ما يريد»(٥) كما وجد نابليون في ميترنيخ فكراً ثاقباً كفكره(٦) وفي هذه الأثناء تعلم النمساويون الكثير بدراستهم لتاليران Talleyrand.

وقضى ميترنيخ ثلاثة أعوام سفيراً في باريس ورأى برضاً أخفاه الشَّرَكَ الذي وقع فيه الجيش الفرنسي العظيم Grande Armée في أسبانيا، وحاول - ولكنه فشل - أن يخفي عن نابليون أن النمسا تتسلَّح من جديد لبذل محاولة أخرى للإطاحة به. وغادر باريس في ٢٥ مايو سنة ١٨٠٩ ولحق بفرانسيس الثاني علىَ الجبهة وشهد هزيمة النمسا في وارجان (فارجان Wargan)، واستقال شتاديون Stadion من إدارة دفة السياسة بعد أن أصابه الإحباط لفشل مغامرته العسكرية، فعرض فرانسيس المنصب على ميترنيخ في ٨ أكتوبر ١٨٠٩ فقبله وكان وقتها في السادسة والثلاثين من عمره، وبدأ بذلك مهامه وزيراً للأسرة الإمبراطورية ومسؤولاً عن الشؤون الخارجية، واستمر في منصبه هذا تسعاً وثلاثين سنة.

وفي يناير سنة ١٨١٠ وجد الجنرال جونو Junot في مكتب زوجته بعض خطابات الحب أرسلها إليها ميترنيخ فحاول خنقها وكاد ينجح وأقسم أن يتحدى الوزير الممتلئ نشاطاً ليبارزه في مينز (مينس Mainz)، وأنهى نابليون النزاع بإرسال الجنرال وزوجته إلى أسبانيا، ومن الظاهر أن هذه الحكاية لم تدمّر سمعة ميترنيخ ولا زواجه ولا وضعه في الحكومة النمساوية، فقد شارك في ترتيب زواج نابليون من الدوقة النمساوية ماري لويز (ماريا لويس) Marie Louise، وابتهج عندما علم بأن هذا التقارب الفرنسي النمساوي قد أغضب روسيا، وراح يراقب التوتر يزداد بين هذين القطبين الأوربيين المصارعين. لقد كان يأمل ويخطط لإضعاف الإمبراطوريتين الفرنسية والروسية فهذا يمكن النمسا من استعادة الأراضي التي فقدتها واستعادة مكانتها العالية وسط القوى المتصارعة.

٤- فيينا

خلف أسوار الحرب عاش أهل فيينا المسالمون الوديعون. إنهم خليط متسامح صبور - بقدر معقول - من الألمان والمجريين والتشيك والسلوفاك والكروات والمورافيين والفرنسيين والإيطاليين والبولنديين والروس ١٩٠,٠٠٠ نفس. وكانت غالبيتهم العظمى من الكاثوليك التابعين لبابا روما (الأروام الكاثوليك) وكانوا - إذ سمحت لهم ظروفهم - يتعبدون في ضريح القديس حامي المدينة في كنيسة القديس ستيفن St. Stephen وكانت شوارعها في غالبها ضيِّقة وإن كانت هناك بعض الشوارع الفسيحة التي تكتنفها الأشجار والممهدة تمهيداً جيداً. وتتحلَّق المباني الملكية الفخمة حول مبنى البلاط الإمبراطوري الذي يشغله الإمبراطور وأسرته وشاغلو المناصب الأساسية في الحكومة ويمر نهر الدانوب (الأزرق) على طول حافة المدينة حاملاً التجارة والمسرات في فوضى محبّبة، وفي اتجاه النهر يُطلق على المتنزّه اسم المرج Prater حيث يُتاح لكل شاب وشيخ مجال للتنزه بالعربات التي تجرها الخيول أو التنزه سيراً على الأقدام بالنسبة إلى السائرين المحظوظين الذين يحبون الأشجار ورائحة الزهور وأوراق الشجر وشقشقة الطيور وألحانها الشجية، واللقاء بين هذه المناظر الخلابة والألحان الشجية.

وبشكل عام فإن أهل فينا أناس طيِّعون سهلو الانقياد حسنو السلوك، وهم يختلفون اختلافاً تاماً عن أهل باريس الذين يكرهون نبلاءهم ويتشككون في ملوكهم ويشكّون في وجود الرّب. ويوجد في فينا نبلاء كما في باريس، لكن نبلاء فينا يرقصون ويعزفون الموسيقا في قصورهم ويحترمون من هم دونهم ولا يتَّسمون بالتفاخر والادعاء ويموتون حبا في التودد للنساء، وكانت كل هذه الصفات بطبيعة الحال غير مجدية في مواجهة جيوش نابليون المحبة للقتال. وكان الوعي الطبقي أكثر حدة لدى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى التي كونت ثروات بتوريدها مستلزمات الجيش أو بإقراضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين تعرضوا للفقر أو بإقراضها الدولة التي كانت تحارب، وتخسر الحرب دائما.

وبدأت الطبقة الأرستقراطية تتشكل فبحلول عام ١٨١٠ كان هناك ما يزيد على مئة مصنع في فينا وبالقرب منها، وكان بهذه المصانع نحو ٢٧,٠٠٠ عامل وعاملة، وكانت

أجورهم تكفي - بشق الأنفس - للعيش والتكاثر[٧]. وفي وقت باكر يرجع لسنة ١٨١١ ظهرت الشكاوى من أن مصانع المواد الكيماوية ومصافي البترول تلوّث الجو[٨]. وكانت التجارة تتطوّر، ومما ساعد على تطورها ما أتاحه ميناء تريست Trest من تيسيرات لتجارة النمسا في البحر الأدرياتي، وكذلك نهر الدانوب الذي يمر بمئات المدن بالإضافة لبودابست، ويصل - أي النهر - إلى البحر الأسود. وبعد محاولة نابليون في سنة ١٨٠٦ إقصاء البضائع الأوروبية عن القارة الأوروبية، وكذلك بعد الهيمنة الفرنسية على إيطاليا وَهَنَت أوضاع التجارة والصناعة في النمسا، وأصبحت مئات الأسر تُعاني البطالة والفقر المدقع.

أما أمور المالية، فكانت في غالبها في أيدي اليهود إذ أدّى حرمانهم من الاستثمار الزراعي والصناعي إلى أن أصبحوا خبراء في التعاملات المالية. وضارع بعض البنكيين اليهود الإسترهيز the Esterhazys في بهاء منشآتهم وعظمتها وأصبح بعضهم أصدقاء أثيرين للأباطرة، وكُرِّم بعضهم باعتبارهم «مُنقذين» للدولة. ومنح جوزيف الثاني بعض البنكيين اليهود رُتب النبالة تقديراً لوطنيتهم. وكان الإمبراطور يحب عن نحو خاص زيارة ناتان فون أرنشتين Nathan Von Arnstein في بيته حيثُ كان يستطيع مناقشة أمور الأدب والفكر والموسيقا مع الزوجة الجميلة لهذا البنكي اليهودي. إنها فاني إيتسج Fanny Itzig المثقفة المتعدّدة المواهب التي كانت صاحبة أفضل صالونات فينا[٩].

وكان النبلاء يُسيِّرون أمور الحكومة بكفاءة متوسطة وبغير كثير من الأمانة، وقد نعى جيرمي بنثام Jeremy Bentham في خطاب مؤرّخ في ٧ يوليو ١٨١٧: «الفساد التام الذي يسود دولة النمسا» ويَئس لأنه لم يجد فيها «شخصاً شريفا» ولم يكن لأيٍ من العوام أن يطمح للوصول إلى منصب قيادي في الجيش أو الحكومة، لهذا لم يكن أي من البيروقراطيين (الإداريين) أو الجنود ليبذل الجهد متحملاً الآلام أو المخاطرة للترقي. فامتلأت صفوف الجيش بالمتطوعين الكسالى أو المجنَّدين إلزامياً أو بالمتسولين المكرهين على الخدمة والمجرمين والراديكاليين[١٠]، فلا عجب إذن إن كانت الجيوش النمساوية تتعرض لهزيمة منكرة أمام الكتائب الفرنسية التي كان يمكن لأي فرد فيها أن يصل إلى رتبة القيادة بل وينضم إلى جماعة الدوقات المحيطين بنابليون.

أما النظام الاجتماعي فقد كان يضبطه الجيش والبوليس والعقيدة الدينية. ورفض الهبسبرج الحركة الدينية الإصلاحية (حركة لوثر ورفاقه) وأبقوا على الولاء للكنيسة الكاثوليكية واعتمدوا على إكليروسها المدربين جيدا للتدريس في المدارس وإحكام الرقابة على الصحف وتنشئة كل طفل مسيحي على عقيدة تؤكد مبدأ وراثة العرش كحق إلهي، وتجعل الفقر والأحزان شيئاً مريحاً يُكافأ عليهما المرء في الحياة الأخرى كما تَعِدُ بذلك العقيدة الدينية. وكانت الكنائس الكبرى (مثل سيتفانسكيرش وكارلزكيرش) تقدم طقوساً وقورة مصحوبة بالأغاني والمباخر التي يتصاعد منها البخور والدعوات (الصلوات) الجماعية التي تمجدها الجماهير، والتي كان البروتستنط مثل باخ Bach والمتشككون مثل بيتهوفن يتوقون لتقديمها. وكانت المواكب الدينية مصحوبة بشكل دوري بالأعمال الدرامية التي تقدمها في الشوارع لتذكير رجل الشارع بحياة القديسين وشهداء العقيدة والاحتفاء بالتواضع والرحمة اللتين تميزان ملكة فينا، والأم العذراء. وبالإضافة للخوف من جهنم وبعض المشاهد المأسوية لتعذيب القديسين، فقد كانت هذه الأمور تمثل ديناً مُريحاً طالما جرى تقديمه للبشرية.

وتُرِك التعليم في المرحلة الأساسية والمرحلة الثانوية لتتولاّه الكنيسة، وكان الأساتذة في جامعتي فينا وانجولشتدت Ingolstadt وإنسبروك Innsbruck من الجزويت (اليسوعيين)، وتم إيقاف كل الأفكار الفولتيرية عند حدود النمسا بمعنى أنه لم يُسمح لها بالتغلغل كما تم إغلاق أبواب فينا في وجهها. وكان المفكرون الأحرار يمثلون قلة قليلة، وكان بعض المحافل الماسونية قد ظل باقياً بعد محاولة ماريا تيريزا تدميرها (أي تدمير هذه المؤسسات الماسونية) إذ حافظت بعض هذه المحافل والجمعيات على أفكار معتدلة بضرورة مقاومة تدخل الإكليروس في الحياة العامة، كان من الممكن أن يأخذ بها حتى الكاثوليكي المتمسك بكاثوليكيته، كما أخذت هذه الجمعيات والمحافل ببرنامج للإصلاح الاجتماعي أيّده الإمبراطور. ولهذا كان موزارت Mozart – وهو كاثوليكي متمسك تمسكاً شديداً بكاثوليكيته – ماسونياً، وانضم جوزيف الثاني للتنظيم السرّي (للماسونية) ووافق على مبادئ الإصلاح بل وحوّل بعضها إلى قوانين. وبقيت جمعية سرية راديكالية أخرى هي

جمعية الإليوميناتي Illuminati، وكان آدم فيشوبت Adam Weishaupt الجزويتي (اليسوعي) الذي نبذه الجزويت (اليسوعيون) قد أسس هذه الجمعية السرّية (الإليوميناتي) في سنة ١٧٧٦، لكن هذه الجمعية لم تكن منتعشة بالمقارنة بالجمعيات الأخرى. وجدّد ليوبولد الثاني قرار أمّه بمنع كل الجمعيات السرّية.

وقد حققت الكنيسة بشكل طيب مهامها في تعليم الناس الوطنية والإحسان والانضباط الاجتماعي والالتزام بالمحرمات في العلاقات الجنسية. وقد ذكرت مدام دي ستيل Stael في سنة ١٨٠٤: «أنت لا تلتقي أبداً بمتسوّل.. فالمؤسسات الخيرية منظمة بانضباط شديد، ويُقيمها من يشاء دون مانع. إن كل شيء يحمل الطابع الأبوي لحكومة دينية حكيمة»(١١) ويلتزم العامة – بشكل حر – بتجنب المحرمات الجنسية، لكن الطبقات العليا أكثر تسيّباً في هذا الشأن فللرجال في هذه الطبقة خليلات وللنساء عشّاق. واعترض بيتهوفن – فيما يقول ثاير Thayer – «على ممارسة كانت غير قليلة الانتشار في فيينا على أيامه وهي أن يعيش المرء مع امرأة غير متزوجة، حياة الأزواج»(١٢) لكن قوّة الروابط داخل الأسرة كانت أمراً معتاداً، وظلت سلطة الأب قائمة، وكانت العادات معتدلة لطيفة ولم تكن المشاعر الثورية لتلقى ترحاباً كبيراً. كتب بيتهوفن في ٢ أغسطس سنة ١٧٩٤ «أعتقد أن النمساوي لن يثور طالما كانت لديه جعّته (البيرة) الداكنة وسجقه (السجق هو النقانق)»(١٣).

وكان رجل فينا النمطي (التقليدي) يفضّل أن تُولم له (أي تدعوه لوليمة) أو تحتفي به أكثر من تفضيله للإصلاح. لقد كان بالفعل ينفق بنساته القليلة (قطع العملة القليلة القيمة، وكان من هذه العملات السائدة في فينا الجروشن groschen والكروزر Kreuzers) لمشاهدة نيكلوس روجر Niklos Roger ذلك الحاوي الإسباني الذي يدّعي أنه محصن ضد النار (لا يحترق)(١٤) وإن استطاع ابن فينا تدبير قطعة عملة أخرى لعب البليارد أو كرة البولنج. وكانت فينا وضواحيها تغص بالمقاهي – نسبة إلى مشروب القهوة الذي أصبح الآن ينافس البيرة (الجعّة) كمشروب محبّب. وكانت المقاهي هي نوادي الفقراء، إذ كان أهل فينا من الطبقات الصاعدة يذهبون إلى البيرهولن Bierhallen التي كانت الحدائق الجميلة تحيط بها، وكان بها قاعات حسنة حيث كان في مقدور الأثرياء أن يفقدوا أموالهم في

المقامرة كما كان في مقدورهم الذهاب إلى الحفلات التنكرية حيث يرقص مئات الأزواج والزوجات معاً وفي الوقت نفسه، في صالات مغلقة (ريدوتنستال)، وحتى قبل أيام جوهان شتراوس Strauss (١٨٠٤ - ١٨٤٩) كان رجال فينا ونساؤها وكأنهم قد خُلقوا ليرقصوا. وذابت الممنوعات والمحرّمات في ثنايا رقصات الفالس، لقد أصبح في مقدور الرجل الآن أن يسعد بالالتصاق الذي يحقق الرعشة مع من يراقصها، ويدور بها دورانا مجنونا، واحتجت الكنيسة لكنها تسامحت (غفرت).

٥- الفنـون

انتعش المسرح في فينا على كل مستوياته ابتداء من الاسكتشات التافهة في المسارح التي تقدم أعمالاً مُرتجلة (غير معدَّة سلفاً) إلى الدراما الكلاسيـة في المسارح الراقية ذوات الديكورات المكلِّفة. وكان أقدم المسارح وأكثرها انتظاماً هو الكيرنتنيرثور Karntnerthor الذي شيدته البلدية في سنة ١٧٠٨، وفي هذا المسرح وجدنا الكاتب المسرحي جوزيف أنطون سترانيتسكي John Anton Stranitsky (توفي ١٧٢٦) يبني على شخصية أرليشينو Arlecchino (هارلكوين Harlequein) الإيطالية، فيخلق ويطوّر شخصية هانزفيرست Hanswurst أو جون بولوني John Boloney المهرّج الضاحك الصخّاب الذي هجا الألمان - في الجنوب والشمال - سخافاتهم المحبّبة من خلاله. وفي سنة ١٧٧٦ دعم جوزيف الثاني وموَّل البيرجثيتر the Burgtheater الذي وعدت واجهته الكلاسية بأفضل المسرحيات الكلاسية والحديثة. وكان أكثر المسارح فخامة وترفا هو مسرح آن دير فين Theater an-der-wien (على نهر فين Wien) الذي شيّده في سنة ١٧٩٣ جوهان (يوهان) إيمانويل شيكاندر Johann Emanuel Schikaneder الذي كتب النّص الأوبرالي libretto «للفلوت السحرية majic Flute» لموزارت Mozart (١٧٩١) وقد زوّد مسرحه بكل أساليب الحيل الميكانيكية (المسرحية) المعروفة لتغيير المشاهد في عصره، وقد أدهش روّاد مسرحه بالمشاهد المسرحية التي تفوق الحقيقة فكسب لمسرحه ميزة تقديم العرض الأول لفيدليو Fidelio لبيتهوفن.

ولم يكن في ذلك الوقت فن آخر ينافس الدراما في فينا سوى فن واحد . إنه ليس فن العمارة لأن النمسا كانت قد أنهت في سنة ١٧٨٩ عصرها الذهبي الذي تميز بطراز الباروك baroque . إنه ليس الأدب لأن الكنيسة أناخت بكلكلها على فكر العباقرة كما أن عصر جريلبارتسر Grillparzer (١٧٩١ - ١٨٧٢) لم يكن إلا في بدايته . وفي فينا ذكرت مدام دي سيتل أن « الناس لا يقرأون إلا قليلاً »(١٥) فقد كانت الصحف اليومية تكفي لإشباع حاجاتهم الأدبية كما هو الحال في بعض المدن اليوم، وكانت صحيفتا Wiener Zeitung (صحيفة ابن فينا)، و Wiener Zeitschrift ، صحيفتين ممتازتين .

وكانت الموسيقا بطبيعة الحال هي الفن الأعلى مقاماً في فينا . فقد كانت الموسيقا في النمسا وألمانيا أقرب ما تكون إلى محلّي يفضله العامة كهواية أكثر من كونها عملا يحترفه المحترفون . فقد كان النمساويون والألمان يعتبرون بيوتهم ينبوع الحضارة وحصنها، فقد كان غالب الأسر المتعلمة لدى كل منها آلات موسيقية وكان يمكن لبعضها تقديم مقطوعات موسيقية تشترك في أدائها أربع آلات (أو بتعبير آخر تقديم مقطوعات رباعية)، وبين الحين والآخر كان يجري تنظيم كونشرتات لمشتركين دفعوا - سلفاً - ثمن حضورهم، لكن الكونشرتات العامة (الحفلات الموسيقية العامة) التي يُتاح حضورها للعامة كانت أمراً نادرا . وبذلك كانت فينا مدينة مزدحمة بالموسيقيين الذين أفقر بعضهم بعضاً بسبب كثرتهم .

فكيف بقي هؤلاء الموسيقيون؟ لقد كان ذلك في غالبه بسبب قبولهم دعوات (أو حتى بدون دعوة تضمن لهم حقوقهم المالية بعد ذلك) النبلاء الأثرياء ورجال الإكليروس ورجال الأعمال أو بتأليف مقطوعات موسيقية وإهدائها إليهم . لقد ظل حب الموسيقا ورعايتها تراثاً وتقليدا توارثه حكام أسرة الهبسبرج طوال قرنين، واستمر ذلك بشكل فعّال في فترة حكم جوزيف الثاني وليوبولد الثاني وابن ليوبولد الأصغر ونعني به الأرشدوق ردولف Rudolf (١٧٨٨ - ١٨٣١) الذي كان تلميذاً لبيتهوفن وراعياً له في الوقت نفسه . وقدمت أسرة الإسترهيزي the Esterhazy كثيرين ممن دعموا الموسيقا ورعوها، لقد رأينا الأمير ميكلوس جوزيف إسترهيزي Miklos Josef Esterhazy (١٧١٤ - ١٧٩٠) يرعى هايدن Haydn

طوال ثلاثين عاماً كقائد للأوركسترا في قصر Schloss إسترهيزي، الذي يُعد « فيرساي المجر Versailles of Hungary » . وارتبط حفيده الأمير ميلكوس نيكولاس إسترهيزي Milkos Nicolaus Esterhazy (١٧٦٥ – ١٨٣٣) مع بيتهوفن لتأليف مقطوعات موسيقية لأوركسترا الأسرة. وكان الأمير كارل ليشنوفسكي Lichnowsky (١٧٥٣ – ١٨١٤) صديقاً حميما – وراعياً – لبيتهوفن وآواه في قصره لفترة من الزمن. وقد شَرُف الأمير جوز فران لوبكوفتس Lobkowitz وهو سليل أسرة بوهيمية عريقة، والأرشيدوق رودلف والكونت كينسكي Kinsky بتقديم العون المالي لبيتهوفن حتى وافته منيته. ولابد أن نضيف إلى هؤلاء البارون جود فريد فان شفيتن Gottfried Van Swieten (١٧٣٤ – ١٨٠٣) الذي ساعد موسيقيين آخرين برعايته وجهوده ومهارته في جمع شملهم مع المتعاقدين معهم، أكثر من رعايته لهم بتقديم أمواله لهم. لقد فتح لندن لهايدن Haydn، وأهداه بيتهوفن أولى سيمفونياته وأسس في فينا جمعية موسيقية Musikalische Gesell Schaft من خمسة وعشرين نبيلاً بهدف العمل على عقد لقاءات واتفاقات بين المؤلفين الموسيقيين وناشري الأعمال الموسيقية وجمهور المستمعين. ويرجع إلى هذه الجمعية – على نحوٍ ما – الفضل في أن أصبح أكثر الموسيقيين في التاريخ عُرضة للنقد وعدم القبول هو سيد الموسيقا بلا منازع في القرن التاسع عشر.

الفصل الثامن والعشرون



[١٧٧٠ - ١٨٢٧]

تأثير إنجلترا في مسيرة الأحداث

١- شاب في بون: ١٧٧٠ - ١٧٩٢

وُلد في ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠، وكانت بون هي مقر الناخب الأسقفي لكولوني Cologne التي كانت إحدى إمارات أراضي الراين (قبل أن يقضي نابليون على الحكم ذى الطابع الديني فيها) التي يحكمها رؤساء أساقفة كاثوليك يميلون إلى دعم الفنانين ذوي السلوك الحسن، ورغم أن حكمهم كان ذا طابع ديني إلا أنهم أيضا كانوا ذوي ميول علمانية فاتنة منها دعم الفنانين ذوي السلوك الحسن كما أسلفنا. وكان الجانب الأكبر من سكان بون البالغ عددهم ٩,٥٦٠ نفساً يعتمدون على المؤسسة التي أقامها الناخب الحاكم electoral establishment (أو مؤسسة الإمارة أو مؤسسة الدولة) وكان جد بيتهوفن مغنيا جهير الصوت عميقه في كورس (جوقة المنشدين) الناخب Elector (الناخب في هذا السياق هو من له حق انتخاب الإمبراطور والمعنى الأقرب لفهم القارئ العربي هو: الأمير) كما كان أبو بيتهوفن (جوهان فان بيتهوفن) صادحا tenor (مغن عالي الصوت يفوق صوته كل من يشترك معه في الغناء) في الفرقة نفسها. وترجع الأسرة إلى أصولٍ هولندية إذ كانت قد أتت من قرية بالقرب من لوفين Louvain. والكلمة الهولندية فان Van تشير إلى مكان الأصل ولا تشير كالكلمة الألمانية فون Von أو الفرنسية de إلى لقب نبالة أو حيازة ممتلكات تؤهل للنبالة. وكان جده وأبوه مسرفين في الشراب، وقد ورث عنهما شيئا من ذلك.

وفي سنة ١٧٦٧ تزوج جوهان فان بيتهوفن من أرملة شابة هي ماريا ماجدالينا كيفيرتش لايم Laym ابنة طباخ في إيرنسبريتشتين Ehrensbreitstein وأصبحت ماريا أما يحبها بشدة ابنها المشهور لبساطتها، وقلبها الحنون. وقد أنجبت لزوجها سبعة أطفال مات أربعة منهم في مرحلة الطفولة، وتبقى لها الإخوة: لودفيج Ludwig وكاسبار كارل (١٧٧٤ - ١٨١٥)

ونيكولاوس جوهان (١٧٧٦ – ١٨٤٨).

ولم يكن للأب فيما يبدو سوى راتبه مغنياً صادحاً في بلاط الناخب (الأمير) ومقداره ثلاثمائة فلورين florin فعاشت الأسرة في أحد أحياء الفقراء في بون Bonn، ولم يكن المحيطون ببيتهوفن والمرتبطون به من النوع الذي يجعل منه رجلا مهذبا (جنتلمان)، لذا فقد ظل متمردا فظا (غير مصقول) وقد حث والد بيتهوفن ابنه – أو أجبره – وهو في الرابعة من عمره على العزف على البيان أو الفيولين عدة ساعات نهارا وأحيانا ليلا، رغبة من الوالد في تحسين دخل الأسرة بتقديم ابنه كعازف معجزة. ومن الظاهر أن الطفل لم يكن لديه من نفسه وازع يحثه على عزف الموسيقا وسماعها[١]. وعلى وفق شهود عيان كثيرين أن الطفل (بيتهوفن) كان يجبر على العزف بطرق قاسية حتى إنه كان يبكي في بعض الأحيان. وأحب الطفل الموسيقا بعد أن تعرض لآلام كثيرة بسببها، وظهر بيتهوفن وهو في الثامنة من عمره مع تلميذ آخر في حفلة موسيقية عامة في ٢٦ مارس سنة ١٧٧٨ وحصل على عائد مادي لم تذكره المصادر. وحث الأصدقاء الأب على التعاقد مع معلمين لينموا مواهب لودفيج Ludwig بيتهوفن.

وبالإضافة لهذا تلقى بعض التعليم الرسمي. لقد علمنا أنه التحق بمدرسة حيث تعلم اللاتينية بقدر يكفي لأن يبث في بعض خطاباته بعض « التلفيقات » اللاتينية المضحكة. وتعلم قدرا من الفرنسية (التي كانت هي اللغة العالمية في هذا العصر) بقدر يمكنه من الكتابة بها بشكل مفهوم. ولم يتعلم أبداً كيف يكتب هجاء الكلمات في أي لغة بشكل صحيح وقلما كان يكلف نفسه عناء استخدام علاقات الترقيم، لكنه كان يقرأ بعض الكتب بشكل جيد، وكانت هذه الكتب التي قرأها تتراوح بين روايات سكوت Scott والشعر الفارسي Persian وكان ينقل في دفتر خاص به نتفاً من الحكمة التي يلتقطها من قراءاته. ولم يكن يمارس الرياضة إلا من خلال أصابعه (يقصد عزفه على الآلات الموسيقية) وكان يحب أن يرتجل to improvise ولم يكن يضارعه في هذا سوى أبت فوجلر Abt Vogler وفي ١٧٨٤ تم تعيين ابن ماريا تريزا الأصغر – ماكسمليان فرانسيس Maximilian Francis – ناخبا لكولوني (على وفق مصطلح العصر في هذه المنطقة، فإن الناخب يعني من له حق

المشاركة في اختيار الإمبراطور الجديد، (ولعل كلمة أمير تقرب المعنى للقارئ العربي فهو إذن قد تم تعيينه أميراً لكولوني) فاتخذ بون مقرا لإقامته، وكان رجلا رحيما رفيقا مولعاً بالطعام والموسيقا وأصبح لفرط حبه للطعام «أسمن رجل في أوربا[٢]» لكنه أيضا جمع أوركسترا من إحدى وثلاثين قطعة موسيقية. وعزف بيتهوفن وهو في الرابعة عشرة من عمره الفيولا (الكمان الأوسط) في هذه الأوركسترا. كما كان له جمهور مستمعين أيضا كعازف مساعد على الأرغن في البلاط (بلاط الناخب) والمعنى أنه كان يعزف على الأرغن إذا غاب العازف الرئيسي، وكان يتقاضى راتبا على هذه المهمة مقداره ١٥٠ جلدن gulden (نحو ٧٥٠ دولاراً؟؟) في العام[٣]، وكتب المسئولون عنه تقريرا للناخب (الأمير) في سنة ١٧٨٥ بأنه «كفء... هادئ وسلوكه حسن، وفقير[٤]».

ورغم بعض الشواهد على قيامه بمغامرات جنسية[*][٥]، فإن سلوكه الطيب ونمو كفاءته الموسيقية وتطورها جعلت الناخب (الأمير) يسمح له، برحلة إلى فينا على نفقته (أي نفقة الناخب) لدراسة التأليف الموسيقي. وسرعان ما استقبله موزارت Mozart بمجرد وصوله، وكان موزارت قد سمع عزفه فامتدحه امتداحا معتدلا بشكل مخيب للآمال ظنا منه أن مقدرة الشاب على العزف متوقفة على هذه القطعة التي عزفها والتي عزفها قبله كثيرون، فلما أحس بيتهوفن منه هذا الشك طلب منه (من موزارت Mozart) أن يقدم له مقطوعات مختلفة لعزفها على البيانو، فانبهر موزارت بخصوبة الشاب وتمكنه من العزف، فقال لأصدقائه «راقبوه، فسيقدم في يوم من الأيام للعالم ما يجعله موضع حديث[٦]» لكن هذه القصة تبدو بغير أساس، فقد كان موزارت يعطي الفتى بعض الدروس، إلا أن موت والد موزارت - ليوبولد - في ٢٨ مايو ١٧٨٧، ووصول أخبار بأن أم بيتهوفن تحتضر قطعت هذه العلاقة التي لم تطل، إذ أسرع بيتهوفن عائداً إلى بون ليكون إلى جوار أمه وهي تموت (١٧ يوليو).

(*) أظهر تشريح جثة بيتهوفن بعد الوفاة اضطرابات داخلية مختلفة وصفها (قاموس جروف للموسيقا والموسيقيين، ط ٣، ١/ ٢٧١ ب) باعتبارها في الغالب نتيجة مرض السفلس (الزهري) الذي أصيب به في بواكير حياته» ووجدنا المؤرخ ثاير Thayer يشير بحذر وأدب شديدين إلى بيتهوفن «لم يسلم من العقاب الذي يلقاه الذين يدنسون طهارتهم إلا أن هذا الأمر لايزال محل مناقشة.

وكتب والد بيتهوفن الذي كان صوته الصادح قد تدهور منذ مدة طويلة، كتب للناخب (الأمير) واصفاً فقره المدقع طالباً منه المساعدة. ولم يصل إلينا ما يفيد أنه تلقى ردا لكن مغنياً آخر في الخورس (جوقة العزف في بلاط الناخب) قدم له يد العون، وفي سنة ١٧٨٨ أضاف لودفيج بيتهوفن نفسه للأسرة دخلاً إضافيا بتدريسه البيان لإليانور فون برونج Eleonore Von Breuning وأخيها لورنز (لورنتس Lorenz) وقد استقبلته الأم الأرملة الثرية المثقفة كابن من أبنائها، وقد أثرت هذه الصداقة إلى حد ما في تهذيب شخصية بيتهوفن. ومن الذين قدموا لبيتهوفن يد العون الكونت فرديناند فون فالدشتين Count Ferdinand Von Waldstein (١٧٩٢ - ١٨٢٣) الذي كان هو نفسه موسيقياً وصديقا مقربا للناخب (الأمير) إذ إنه عندما علم بفقر بيتهوفن راح يرسل له بين الحين والحين أموالا زاعما أنها من الناخب نفسه (من الأمير) وقد أهدى إليه بيتهوفن في وقت لاحق سوناتا البيانو (Opus 53 in C Major) التي حملت اسمه .. وكان لودفيج بيتهوفن لا يزال في حاجة إلى مساعدة أكثر من تلك التي كان يتلقاها حتى الآن لأن والده المكتئب كان قد استسلم للكحول (أدمن معاقرة الخمر) وتم إنقاذه من الاحتجاز (أو القبض عليه) يشق النفس لما يسببه من إزعاج عام. وفي سنة ١٧٨٩ أخذ بيتهوفن على عاتقه - ولم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره - مسئولية إخوته الأصغرين سنا وأصبح هو رأس الأسرة من الناحية الرسمية، وفي ٢٠ نوفمبر صدر مرسوم من الناخب (الأمير) بإنهاء خدمة جوهان (يوهان) فان بيتهوفن (والد لودفيج بيتهوفن) على أن يدفع نصف راتبه السنوي وقدره مائة ريخشالر reichsthalers لابنه لودفيج بيتهوفن ونصفه الآخر لأخيه الأكبر، واستمر بيتهوفن في كسب مبالغ بسيطة كعازف رئيسي للبيان وأرغني ثان (عازف ثان للأرغن) في أوركستر الناخب (الأمير).

وفي سنة ١٧٩٠ توقف فرانز (فرانتس) جوزيف هايدن Haydn - وهو عائد مكلل بالنصر من لندن - في بون وهو في طريقة إلى فينا، فقدم له بيتهوفن كنتاته Cantata كان قد ألفها مؤخرا فامتدحها هايدن، وربما علم الناخب (الأمير) بشيء من هذا الثناء، فلبى اقتراحاً بإرسال الشاب إلى فينا للدراسة مع هايدن وأن يتلقى راتبه في الوقت

نفسه كموسيقي عامل في بلاط الناخب (الأمير) وربما كان الكونت فون فالدشتين Waldstein وراء هذه المنحة التي تلقاها صديقه الموسيقي الشاب. لقد كتب في ألبوم لودفيج كلمة وداع كالتالي: «عزيزي بيتهوفن، أنت راحل إلى فينا لإنجاز ما طالما تقت كثيراً لإنجازه. إن عبقرية موزارت (الذي كان قد مات في ٥ ديسمبر ١٧٩١) لايزال ينعيها الناعون.. فلتعمل بجد ولتتلق روح موزارت من أيدي هايدن. صديقك المخلص فالدشتين Waldstein».

وغادر بيتهوفن بون وأباه وأسرته وأصدقاءه في أول نوفمبر سنة ١٧٩٢ أو في يوم قريبا من هذا التاريخ. وسرعان ما احتلت قوات الثورة الفرنسية بون فهرب ناخبها (أميرها) إلى مينز (منتس Mainz) ولم ير بيتهوفن بون بعد ذلك أبداً.

٢- تقدم ومأساة: ١٧٩٢ - ١٨٠٢

عندما وصل إلى فينا وجدها تعج بالموسيقيين المتنافسين على من يرعاهم وعلى جمهور المستمعين والناشرين، والذين ينظرون بازدراء لكل قادم جديد، فلم يجدوا في هذا القادم الجديد من بون جمالا يلطف وقع قدومه فقد كان لودفيج بيتهوفن قصيرا ممتلئ الجسم متجهم الملامح (أطلق عليه أنطون إيسترهيزي اسم «البربري the Moor» به آثار الجدري (بقايا بثور الجدري)، صف أسنانه الأمامي الأعلى بارز عن صف أسنانه الأمامي الأسفل، وأنفه عريض ممتلئ، وله عينان غائرتان متحديتان، أما رأسه فمثل كرة الرصاص يغطيه بشعر مستعار ولحية a wig & a van. لم تكن شخصيته مهيأة لتكون ذات بعد جماهيري سواء بين العامة أو بين منافسيه من الموسيقيين ومع ذلك فلم يعدم - إلا نادرا - صديقاً منقذاً (يسعفه وقت اللزوم) وسرعان ما وصلت الأخبار بوفاة والده (١٨ ديسمبر ١٧٩٢) وظهرت بعض المشاكل فيما يتعلق بنصيب بيتهوفن في راتب أبيه السنوي إذ قدّم بيتهوفن التماساً للناخب [الأمير] طالباً استمرار هذا الدخل السنوي، فرد الناخب الأمير بمضاعفة هذا الدخل وأضاف: «لابد من تقديم ثلاثة مكاييل من الحبوب له... لتعليم أخويه» (كارل وجوهان اللذين كانا قد انتقلا إلى فينا[٧]). وكان بيتهوفن ممتنا إذ انتهى إلى حلول

طيبة. لقد كتب في ألبوم أحد أصدقائه في ٢٢ مايو ١٧٩٣ مستخدما كلمات شيلر في مؤلفه دون كارلوس Don Carlos: «إنني لست شريرا – فالدم الحار(*) هو خطئي – إن جريمتي أنني شاب... فرغم أن الانفعالات والعواطف الجياشة قد تخدع قلبي وتخرجه عن جادة السبيل، إلا أن قلبي طيب». وقرر «أن يفعل كل ما يقدر عليه من الخير، وأن يحب الحرية قبل أي شيء آخر، وألا ينكر الحق حتى أمام العرش(٨)».

وأخضع مصروفاته لتكون في الحد الأدنى خاضعة لأحكام الضرورة: بالنسبة إلى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٢، ١٤ فلورينا (نحو ٣٥ دولاراً؟) للإيجار، ستة فلورينات لتأجير بيانو، «الأكل، في كل وجبة ١٢ كروزر Kreuzer» (ستة سنتات) «وجبات مع نبيذ ٦,٥ فلورين» (٢٥ و ١٦ دولار؟؟)، وثمة أوراق أخرى للتذكرة تدرج هايدن Haydn (كتبها بيتهوفن Haydn) باعتبار أن تكاليف الدروس التي يتلقاها بيتهوفن على يديه في أوقات مختلفة تبلغ جروشين two groschen (بنسات قليلة)، ومن الواضح أن هايدن لم يكن يطلب إلا القليل لقاء دروسه. وقد قبل التلميذ (بيتهوفن) لفترة تصويبات أستاذه بتواضع لكن مع استمرار الدروس وجد هايدن أنه من المستحيل أن يقبل ابتعاد بيتهوفن عن قواعد التأليف الموسيقي التقليدية. وقرب نهاية سنة ١٧٩٣ هجر بيتهوفن أستاذه العجوز وراح يتردد ثلاث مرات في الأسبوع لدراسة فن مزج الألحان (الكونتربوينت Counterpoint) على يد جوهان جورج البرختشبيرجر Albrechtsberger وهو رجل حقق شهرة معلماً أكثر منه مؤلفاً موسيقياً. وفي الوقت نفسه كان يدرس لثلاثة أيام في الأسبوع آلة الفيولين مع إجناز (إجناتس) شبانتزج وفي سنة ١٧٩٥ كان قد أخذ كل ما يحتاجه من ألبرختشبيرجر Albrechtsberger فتردد على أنطونيو ساليري Salieri الذي كان وقتها مديرا لأوبرا فينا لدراسة التأليف الموسيقي للأصوات. ولم يكن ساليري يتلقى شيئا من التلاميذ الفقراء. وقدم بيتهوفن نفسه له كفقير فقبله. وقد وجده كل هؤلاء المدرسين الأربعة تلميذا صعب المراس تندفع منه أفكار خاصة به ويرفض أن يشكل نفسه على وفق النظرية الموسيقية التي يقدمها له معلموه. ويمكننا أن نتخيل الرعدات (الارتجافات) التي كانت تعتري «بابا

(*) كناية عن سرعة الاهتياج Hot Blood.

هايدن Papa Haydn » (الذي عاش حتى سنة ١٨٠٩) بسبب مؤلفات بيتهوفن بالجهورية (المصوتية الموسيقية Sonorities) وعدم الاتساق . ورغم انحراف بيتهوفن عن الطرق المألوفة المطروقة (وربما بسبب ذلك) فقد حققت إنجازات بيتهوفن له بحلول عام ١٧٩٤ شهرة باعتباره أكثر عازفي البيانو (مؤلفي المقطوعات الموسيقية للبيان) تشويقا في فينا . لقد ربح البيانو الحديث معركته مع البيانو القيثاري (الذي يتخذ شكل قيثارة) . وكان جوهان (يوهان) كريستيان باخ Bach قد بدأ في سنة ١٧٦٨ في إنجلترا عزف الألحان الصولو Solos (لحن معد ليعزف على آلة واحدة) على البيانو، وأخذ موزارت بهذا الأسلوب تبعهما هايدن في سنة ١٧٨٠ ، وكان موزيو كليمنتى Muzio Clementi يؤلف الكونشرتات (الألحان التي تعزف بمصاحبة الأوركسترا) المخصصة للعزف على البيانو، والتي كانت لمرونتها عواناً بين البيانو والفورت forte (الشديد أي النغم الذي يعزف بشدة) وبين الستاكاتو Staccato (مقطع موسيقي متقطع) والسوستنوتو Sostenuto. لقد استخدم نابليون إمكانات البيانو استخداما كاملا ، كما صب كل قدراته هو نفسه لإنتاج كل مايمكن من أعمال موسيقية للبيانو، خاصة في أعماله المرتجلة (غير المعدة سلفا) حيث لايعوق أسلوبه الموسيقي أية نوت موسيقية مطبوعة . وقد أعلن – في وقت لاحق – فرديناند ريس Ries تلميذ هايدن وتلميذ بيتهوفن أيضاً أنه : « لا يوجد فنان أبداً فيمن أعرف من الفنانين أو سمعت عنهم يداني بيتهوفن في هذا الفرع من العزف . إن ثروة الأفكار التي تتزاحم فيه (في بيتهوفن)، والترددات والنزوات الفكرية التي يستسلم لها، وتغير المعالجة ومواجهة الصعاب اللحنية تمثل فيه طاقة لاتنفد[٩] » .

لقد رعاه رعاة الموسيقا في المقام الأول كعازف بيان، ففي حفلة موسيقية ليلية في بيت بارون فان سفيتن (شفيتن Sweiten) دعاه صاحب البيت للبقاء بعد انتهاء برنامج الحفل (كما يروي لنا سندلر كاتب سيرة حياة بيتهوفن) « وحثه على أن يضيف قليلا من فجوات fugues باخ Bach ليختم بها السهرة[١٠] » وكان الأمير كارل ليشنو فسكى Karl Lichnowsky الهاوي والموسيقي الكبير في فينا يحب أيضا بيتهوفن حتى إنه كان ليتعاقد معه بانتظام لإحياء حفلاته الموسيقية التي كان يعقدها كل يوم جمعة واستضافه في بيته

فترة لكن بيتهوفن – على أية حال – لم يستطع أن يكيف نفسه مع ساعات تناول الأمير لوجباته، فكان يفضل التردد على فندق قريب. وكان الأمير لوبكوفتس lobkowit أكثر رعاة الموسيقى – ممن يحملون رتب النبالة – حماسا، وكان هذا الأمير نفسه عازف فيولين ممتاز، أنفق كل دخله تقريبا على الموسيقا والموسيقيين. وظل لسنوات يساعد بيتهوفن رغم ما حدث بينهما من نزاع، وكان هذا الأمير يتعامل بروح سمحة مع بيتهوفن وإصراره على أن يعامل كند مساو لذوي الرتب من ناحية المكانة الاجتماعية. وكانت زوجات هؤلاء النبلاء الذين يقدمون له يد العون يسعدن بكبريائه واستقلاله ويتلقون على يديه دروس الموسيقا ويتحملن توبيخه بل ويسمحن لهذا الفارس الأعزب الفقير بإقامة علاقات حب معهن من خلال الخطابات، وكن – وكذلك اللوردات – يقبلن إهداءاته ويكافئنه عليها بهدوء[11].

لقد اقتصرت شهرته على تمكنه من عزف البيان، ووصلت هذه الشهرة إلى براغ prague وبرلين اللتين زارهما في سنة ١٧٩٦. لكن في هذه الأثناء راح يؤلف الموسيقا، ففي ٢١ أكتوبر ١٧٩٥ نشر مجموعة قطعه الموسيقية الأولى (من تأليفه) Opes (الثلاثية الكبيرة Three Grand Trios) التي أعلن جوهان كرامر Johann Cramer بعد عزفها «إن هذا الرجل (يقصد بيتهوفن) قد عوضنا عن موت موزارت[12]» وتأثر بيتهوفن بهذا المديح فكتب في دفتر مذكراته: «ياللتشجيع! فرغم كل ما يعتري جسمي من وهن، فإن روحي هي التي ستحكم مسيرتي.. إن هذا العام سيجعل مني رجلا كاملا. سأنجز كل شيء ولن أؤجل عملا[13]» وفي سنة ١٧٩٧ دخل نابليون حياة بيتهوفن للمرة الأولى، ولم يكن له فيها وجود قبل ذلك. لقد طرد الجنرال الشاب النمساويين من لومبارديا وقاد جيوشه عبر جبال الألب وكان يقترب من فينا فراحت العاصمة (فينا) تعد دفاعاتها بشكل مرتجل بقدر ما تستطيع. لقد راحت تعد المدافع وتجهزها، وتؤلف التراتيم الدينية ليحفظ الله النمسا، وكتب هايدن الآن النشيد الوطني للنمسا: «ليحفظ الله فرانتس Gott erhalte Franz den Kaiser, unsern guten kaiser Franz» وألف بيتهوفن موسيقا لأغنية حرب أخرى تطالب كل الألمان بمساندة النمسا «Ein grosses dertsch Volk sind wir» وفي وقت لاحق اعتبر النمساويون هذه المؤلفات الموسيقية ككتائب كثيرة العدد لكنها لم تحرك مشاعر نابليون

الذي أجبرهم على سلام مخزٍ.

وبعد ذلك بعام أتى الجنرال بيرنادوت Bernadotte إلى فينا ليكون السفير الفرنسي الجديد وصدم المواطنين (أهل فينا) بأن رفع من شرفته علم الثورة الفرنسية ذا الألوان الثلاثة. وأعلن بيتهوفن صراحة - كان بالفعل معجبا بالأفكار **الجمهورية** - إعجابه بنابليون، وغالبا ما كان يرى في حفلات الاستقبال التي يعدها السفير الفرنسي الجديد(١٤). ويظهر أن بيرنادوت هو الذي اقترح على بيتهوفن فكره تأليف عمل موسيقي لتكريم نابليون وتشريفه(١٥).

وأهدى بيتهوفن في سنة ١٧٩٩ مجموعة ألحانه رقم ١٣ **Opus** والتي جعل لها عنواناً هو **Grande Sonate Pathétiaque** للأمير ليشنوفسكي Lichnowsky اعترافاً بأفضاله أو أملا في أفضال تأتيه على يديه. لقد كان بإهدائه هذا يرنو لمصلحة قريبة. وكان رد الأمير (١٨٠٠) هو أن وضع ستمائة جلدن gulden تحت تصرف بيتهوفن « حتى أحصل (أي بيتهوفن) على تعيين مناسب(١٦) ». لقد بدأت هذه السوناتا ببساطة وكأنها مقتبسة بتواضع من أعمال موزارت Mozart إلا أنها سرعان ما تشابكت وتعقدت لكنها اعتبرت في وقت لاحق بسيطة إلى جانب سوناتات الهمركلافير the Hammerklavier Sonatas أو « الأباشيوناتا Appassionata » وكانت السيمفونية الأولى (١٨٠٠) وسيمفونية ضوء القمر في (**in C Sharp Minor**) سنة ١٨٠١ هما الأسهل سواء من ناحية العزف أو من ناحية القدرة على تذوقهما. ولم يعط بيتهوفن مقطوعته الأخيره اسمها المشهور لكنه أطلق عليها (Sonata quasi Fantazia) ويظهر أنه لم يكن ينوي تحويلها إلى أغنية محببة. حقيقة أنه أهداها إلى الكونيتسة جوليا جوشياردي Giulia Guicciardi التي كانت من بين ربات الجمال اللائي لم يمسهن واللائى أوحين له بألحانه الموسيقية الحالمة، لكنها (أي السوناتا) كتبت لمناسبة أخرى مختلفة(١٧).

لقد شهد عام ١٨٠٢ إحدى أغرب الوثائق في تاريخ الموسيقا التي طالما رجع إليها الباحثون، وهي جديرة بذلك. إنها الوثيقة السرية وثيقة هيليجنشتادت « Heiligenstadt Testament(*) » التي لم يكشف عنها إلا عندما تم العثور عليها بين أوراق بيتهوفن بعد

(*) قرية صغيرة بالقرب من جوتنجن. (المترجم)

وفاته. إنها وثيقة لا يمكن فهمها إلا من خلال مواجهة صريحة مع شخصيته. لقد كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة في شبابه، روح مرحة، ميل للفكاهة، إخلاص في الدراسه، استعداد لتقديم العون للمحتاج، وظل كثيرون من أصدقائه في بون - مثل مدرسة كريستيان جوتلوب نيف Neefe وتلميذته إليانور فون برونج Eleonore Von Breuning وراعيه الكونت فون فالدشتين Waldstein - أوفياءله رغم أن نظرته للحياة راحت - بشكل متزايد - تتسم بالمرارة. وعلى أية حال فقد راح يفقد صديقا إثر صديق في فينا حتى كاد يصبح وحيدا لكن أصدقاءه عندما علموا أنه على وشك الموت عادوا إليه وبذلوا كل ما في طاقتهم لتخفيف آلامه.

لقد تركت بيئته الباكرة فيه آثارا دائمة لاتمحى، فهو لم ينس أبدا الفقر المدقع والمقلق (ولم يغفر ذلك لبيئته ولم يكن متسامحاً إزاء هذه الظروف) ولم ينس الهوان لرؤية والده وهو يستسلم للفشل والخمر. بل إنه هو نفسه (بيتهوفن) بعد أن أتعسته الأيام راح يستسلم أكثر فأكثر لمعاقرة النبيذ طلبا للنسيان[١٨]. ويدعو تمثاله المقام في فينا (خمس أقدام وخمس بوصات) للتأمل، ولم يكن وجهه ينم عن حظ حسن أو ثراء، وكان شعره كثا مهوشا خشنا. وكانت لحيته تنتشر حتى قرب عينيه الغائرتين، وكان يتركها لتنمو فتصل إلى نصف بوصة قبل أن يحلقها[١٩]. لقد جأر بالشكوى في سنة ١٨١٩ «آه ياربي، يالها من مصيبة (طاعون) أن يكون لشخص مثل هذا الوجه المهلك(*) كوجهي[٢٠]» وربما كانت هذه العيوب الخلقية (بكسر الخاء) حافزاً على الإنجاز لكنها بعد الأعوام القليلة الأولى في فينا جعلته يهمل ثيابه وبدنه (صحته) ومسكنه وعاداته. لقد كتب في ٢٢ أبريل سنة ١٨٠١ «إنني رفيق مهمل (بفتح الميم الثانية)، وربما كان الملمح الوحيد لعبقريتي أن أشيائي ليست دائما في ترتيب جيد» وكان يكسب أموالا تتيح له أن يكون له خدم لكنه كان سرعان مايتعارك معهم وقلما احتفظ بهم لفترة طويلة. لقد كان فظا مع من هم أدنى منه، وكان في بعض الأحيان ذلولا خانعا لمن كانوا نبلاء المحتد، لكنه كان غالبا

(*) أو القبيح أو المسبب للنحس Fatal. (المترجم)

معتزا بنفسه بل ومتكبرا. وكان يقلل من قيمة منافسيه بشكل لا يرحم فكادوا يجمعون على كراهيته. وكان قاسيا مع تلاميذه لكنه علم بعضهم دون مقابل(٢١).

لقد كان كارها للناس، لكنه كان متسامحا مع ابن أخيه كارل Karl الذي كان يعاني المتاعب، وكان محبا له، كما كان يحب كل تلميذ ماهر. ولقد قدم للطبيعة عاطفة جياشة لم يستطع أن يكنها للبشر وكان مزاجه – تباعا – سوداويا، لكنه أيضا كان تباعا – ينخرط في حالات ابتهاج صاخبة سواء بنبيذ أو بدون نبيذ. (انظر على سبيل المثال الخطابات ١٤، ٢٢، ٢٥، ٣٠)(٢٢)، وكان كلامه ينطوي على تورية في كل مناسبة وكان أحيانا يخترع كنى عدائية لأصدقائه وكان أكثر استعداداً للقهقهة منه للابتسام.

وحاول خلال السنوات المزعجة أن يلغي الأحزان التي مررت حياته (جعلتها مريرة)، ففي خطاب بتاريخ ٢٩ يونيو ١٨٠١ كتبه لأحد أصدقاء شبابه وهو فرانز (فرانتس) فيجلر : Franz Wegeler

« طوال السنوات الثلاث الأخيرة أجد سمعي يضعف بالتدريج. وربما يرجع ذلك للآلام التي أعانيها في بطني.. والتي جعلت حياتي بائسة حتى قبل مغادرتي بون، لكنها غدت أسوأ في فينا حيث كنت مبتلى باستمرار بالإسهال وكنت أعاني من اعتلال غير عادي.. وظل هذا هو حالي حتى خريف آخر عام وأحيانا كنت أستسلم لليأس. يجب أن أعترف أنني حبيس حياة بائسة. فطوال عامين كدت لا أحضر أية مناسبة اجتماعية لأنني لم أكن قادرا على أن أقول للناس: إنني أصم. لو أن لدي مهنة أخرى لكنت قادرا على التغلب على عجزي (صممي)، لكن صممي هذا مصيبة بالنسبة إلي، وأنا عازف ومؤلف موسيقي. إن الله وحده يعلم ما ستأتي به الأيام بالنسبة لي. إنني بالفعل ألعن خالقي وألعن وجودي. أرجوك لاتذكر أي شيء عن ظروفي لأي أحد ولا حتى للورشين Lorchen [إليانور فون بروننج] ».

وقضى بيتهوفن شطراً من عام ١٨٠٢ في قرية هيليجنشتادت Heiligenstadt الصغيرة القريبة من جوتنجن Gottingen آملاً فيما يبدو الاستفادة من حماماتها الكبريتية. وفي أثناء تجوله في الغابات القريبة رأى على مسافة قريبة منه راعيا ينفخ في مزمار، ولكنه لم

يسمع شيئا، فتحقق الآن فقط أنه لن يصل إلى سمعه سوى أصوات الأوركسترا العليا. وكانَ قد بدأ بالفعل قيادة الفرق الموسيقية كما كان قد بدأ التأليف الموسيقي لذا فقد سقط صريع اليأس عندما تحقق أنه لايسمع موسيقا مزمار الراعي، فذهب إلى غرفته وكتب في ٦ أكتوبر ١٨٠٢ ما عرف باسم «وثيقة هيليجنشتادت» كوثيقة روحية واعتذارية، ورغم أنه ذكر شيئا عنها لأخوية «كارل وبيتهوفن» إلا أنه أخفاها بعناية عن كل العيون، ونحن هنا ننقل سطورها الأساسية:

«أنتم أيها الناس الذين ظننتم (وقلتم) أنني حقود أو عنيد أو كاره للبشر، كم أنتم مخطئون في حقي، فأنتم لم تعلموا السر الكامن وراء ظهوري بهذا المظهر. لقد كان قلبي وعقلي منذ طفولتي ميالين للعمل الخيّر وكنت دوما تواقا لإنجاز الأعمال العظيمة لكنني أصبحت الآن منذ ست سنوات فاقد الأمل، وتفاقم هذا بسبب الأطباء الحمقى.. وأخيرا أجبرت على مواجهة ما هو متوقع من استمرار مرضي... لقد ولدت صاحب مزاج متوهج حي بل وحساس لانحرافات المجتمع، فأجبرت منذ وقت باكر على العزلة وعلى أن أعيش وحيدا، وعندما حاولت في بعض الأوقات نسيان ذلك كله صدمت صدمة ما أقساها! لقد كانت صدمة مضاعفة إذ فقدت ما بقي من سمعي، وضاعف الحزن أنني لم أكن استطيع أن أقول للناس تحدثوا بصوت أعلى! اصرخوا، فأنا أصم. آه كيف أقر بصممي، ومن المفترض أنني كموسيقي، أكمل ما يكون في حاسة سمعه.. آه لا أستطيع أن أقر بذلك العجز، لذا سامحوني إذ رأيتموني أبتعد عنكم بينما كان المفروض أن أسعد بالاندماج معكم... آه يا للخزي عندما يجلس بجواري شخص يسمع الفلوت flute على البعد بينما أنا لا أسمع شيئا. إن مثل هذه الأحداث أسلمتني لحافة اليأس، بل ولما هو أكثر قليلا من ذلك وهو أن أضع حداً لحياتي، ولم ينقذني سوى الفن. آه لقد بدا لي أنه من المحال أن أترك العالم إلا بعد أن أنتج كل ما شعرت أنه يطالب بإخراجه للناس... آه أنت أيها الواحد القدوس Divine One الذي تعلم ما يخفيه صدري وما تكنه روحي. أنت تعلم أن حب البشر والرغبة في حياة صالحة كامنان في أعماقي. أيها الناس عندما تقرأون في يوم من الأيام كلماتي هذه ستدركون كم كنتم مخطئين في حقي... وأنتم يا إخوتي كارل و- إذا مت فاسألوا الطبيب

شمد Schmid إن كان لا يزال حيا، اسألوه نيابة عني ليصف مرضي وأضيفوا هذه الوثيقة لتاريخي المرضي، فلعل هذا يجعل العالم يتآلف معي بعد موتي ويلتمس لي العذر... إنني أرغب أن تكون حيواتكم أفضل من حياتي، أوصوا أولادكم بالفضيلة فهي وحدها التي تتيح السعادة، هي وليس المال إنني أحدثكم عن خبرة وتجربة. إنها الفضيلة هي التي كانت سندي أيام بؤسي، فالفضيلة – بعد فني – هي منعتني من الانتحار. وداعا ولتتبادلوا الحب ... إنني أسرع إلى الموت سعيداً.

وفي الهامش كتب: «تقرأ وتوضع موضع التنفيذ بعد موتي[٢٣]» إن هذه الوثيقة لم تكن وصية منتحر، وإنما تحوى في ثناياها اليأس والأمل (التصميم). لقد وجد بيتهوفن ضرورة تقبل المشاق والمتاعب التي يمر بهما لينقل لآذان أخرى غير أذنيه الموسيقا القابعة – في صمت – داخل وجدانه. لقد ألف، وكان لايزال في هيلجنشتادت في نوفمبر ١٨٠٢ سيمفونيته الثانية (in D)، ولم يكن فيها أثر لشكوى أو حزن، وبعد ذلك بعام واحد ألف سيمفونيته الثالثة (البطولة the Eroica) بعد صرخته النابعة من الأعماق، فدخل بهذه السيمفونية الثالثة مرحلته الثانية، وهي المرحلة الخلاقة الأكثر تميزا.

٣- أعوام بطولية أو أعوام سيمفونية البطولة: ١٨٠٣ - ١٨٠٩

قسم علماء الموسيقا الذين خاضوا هذه الصفحات المحيرة حياة بيتهوفن الفنية في ثلاث حقب: من ١٧٩٢ إلى ١٨٠٢، ومن ١٨٠٣ إلى ١٨١٦، ومن ١٨١٧ إلى ١٨٢٤. ففي الحقبة الأولى راح يعمل بشكل تجريبي على وفق أسلوب موزارت وهايدن، ذلك الأسلوب الهادئ الراسخ البسيط. وفي الحقبة الثانية ركز على مراقبة الأداء من حيث التمبو Tempo (درجة السرعة الواجب اعتمادها في العزف) وعلى البراعة في استخدام الأصابع، وعلى الفورس force (درجة القوة في العزف). لقد اكتشف التناقض في المود mood بين الرقة والقوة. لقد أطلق العنان لقدرته على الإبداع في الألحان على نحو يخالف المألوف كما أطلق العنان لنزعته للارتجال، لكنه أخضع هذا لمنطق الدمج والتناسب والتطور (المقصود تطور اللحن). لقد غير (جنس sex) السوناتا والسيمفونية فقد حولهما من الرقة والمشاعر

الأنثوية إلى الإرادة الرجولية والحسم، وكما لو أن بيتهوفن أراد إبراز هذا التغير في مسيرته فقد أعاد - الآن - المينيوت minuet في الحركة الثالثة مع شرزو Scherzo (موسيقا مرحة مازحة) تضحك في وجه القدر. لقد وجد بيتهوفن الآن في الموسيقا ردا على سوء الحظ: لقد أصبح بمقدوره أن يذوب في الإبداع الموسيقي بشكل يجعل موت جسده مجرد حدث عابر في حياة ممتدة (خلود الذكر). إنه يقول «عندما أعزف أو أؤلف الموسيقا.. تخف أحزاني إلى أدنى درجة[٢٤]». إنه لم يعد يسمع ألحانه الآن بأذنيه وإنما راح يسمعها بعينيه - بقدرة الموسيقى الباطنية على تحويل الأنغام التي يتخيلها إلى بقع وخطوط ثم يسمعها - بلا صوت - من الصفحات المكتوبة.

وتكاد كل أعماله الموسيقية في هذه المرحلة تصبح من الكلاسيات إذ ظهرت الأجيال المتعاقبة كذخائر (ريبورتوار) موسيقية أوركسترالية (المقصود أن الفرق المختلفة حفظتها وأتقنتها، وأصبحت على استعداد لأدائها في أي وقت). لقد ألف «سوناتا الكروتسر Kreutzer sonata» (الكروتسر عملة معدنية نمساوية صغيرة) / مجموعة ألحان ٤٧ في سنة ١٨٠٣ لعازف الفيولين (الكمان) جورج بردجتور Bridgetower وأهداها إلى رودولف كروتسر Rodolphe Kreutzer مدرس الفيولين (الكمان) في كونسرفتوار باريس، وكان بيتهوفن قد قابله في فينا في سنة ١٧٩٨، لكن كروتسر حكم على اللحن بالغرابة عن أسلوبه ومزاجه ولم ير أبداً عزفها على مسامع الجمهور. واعتبر بيتهوفن أن أفضل سيمفونياته هي سيمفونية الأرويكا (البطولة)[٢٥] the Eroica التي ألفها في عامي ١٨٠٣ / ١٨٠٤. ونصف العالم يعرف قصة إهداء هذه السيمفونية - في الأساس - لنابليون. ورغم أن بيتهوفن كان له صداقات بين النبلاء وذوي المكانة، ورغم إهداءاته الحكيمة لأعماله، إلا أنه ظل إلى آخر حياته جمهوريا مصمما وقد هلل لنابليون لقبضه على زمام السلطة في فرنسا وإعادة تنظيم الحكم (١٧٩٩ - ١٨٠٠) واعتبر ذلك خطوة نحو الحكم المسؤول، لكن بيتهوفن - على أيه حال - عبر عن أسفه لتوقيع نابليون وفاقا (كونكوردات Concordat) مع الكنيسة. لقد كتب بيتهوفن: «الآن انتكست الأمور[٢٦]» ويروي لنا شاهد عيان هو فرديناند ريس Ries قصة الإهداء الآنف ذكره، فلنتركه يروي لنا:

«في هذه السيمفونية كان نابليون (وهو قنصل أول) موجوداً في عقل بيتهوفن الذي كان يقدره تقدير شديدا في هذا الوقت وشبهه بأعظم القناصل الرومان. وقد رأيت مع عديد من أصدقائه الحميمين نسخة من سيمفونيةالأرويكا Eroica على مكتبه وقد كتب في أعلاها «بونابرت» وفي أدناها «لوجى Luigi فان بيتهوفن» ولم نقرأ أي كلمة أخرى... وكنت أول من حمل له خبر أن نابليون قد أعلن نفسه إمبرطورا، وعندها انفعل ساخطا (أي بيتهوفن) وصاح «إنه إذن بشر كالبشر العاديين.إنه سيطأ كل حقوق الإنسان وسينشغل بطموحاته، وسيعلي نفسه فوق الآخرين ويصبح طاغية» وتوجه بيتهوفن إلى المنضده فمزق اسم نابليون من فوق صفحة عنوان سيمفونية وقذفه إلى الأرض، وغير الصفحة الأولى وجعل عنوان السيمفونية إرويكا (البطولة) Sinfonia eroica[٢٧]».

وعندما نشرت السيمفونية (١٨٠٥) حملت العنوان التالي : Sinfonia eroica Per festeggiare il sovvenira d'un gran uomo ومعناها «سيمفونية البطولة للاحتفاء بذكرى رجل عظيم[٢٨]».

وفي ٧ أبريل ١٨٠٥ أدتها فرقة موسيقية للمرة الأولى على مسرح آن دير فين - Theatre an - der - wein بقيادة بيتهوفن رغم اعتلال سمعه. وكان أسلوبه في قيادة الفرقة مع شخصيته – مثيرا محكما «بارعا، فعند الفقرات الموسيقية الرقيقة جدا (البيانيسيمو Pianissimo) نجده ينحني حتى يكاد الدسك (المكتب المرتفع الخيل) يخفيه، وكلما تصاعد النغم وازداد (كريسندو Crescendo) وجدناه يرفع قامته شيئا فشيئا بالتدريج مع تصاعد النغم، فإذا وصل الصوت للذروة فورتسيمو fortissimo انبثق قافزا في الهواء مادا ذراعيه إلى آخر مدى كما لو كان يريد التحليق فوق السحاب[٢٩]». وتعرضت السيمفونية للنقد بسبب غرابة انتقالها النغمي أي غرابة الانتقال من أسلوب في الأنغام إلى أسلوب آخر (الموديولاشن modulation)، وعنف المقاطع الانتقاليه وصخبها Violent transitions ... ولما بها من حدّة غير مرغوبة». ولطولها المفرط. وقد نصح النقاد بيتهوفن بالعودة لأسلوبه الأول والأكثر بساطة. لكن بيتهوفن أرغى وأزبد وحاول قناعهم بأسلوبه[٣٠].

وحاول بيتهوفن دخول مجال الأوبرا لضمان نصر جديد، ففي ٢٠ نوفمبر ١٨٠٥ قاد

العـرض الأول لأوبرا ليـونور Leonore لكـن جيـوش نابليـون كـانت قـد احـتلت فيـنا في ١٣ نوفمبر، فهرب الإمبراطور فرانسيس ورؤوس النبلاء، فلم يعد الناس ميالين للأوبرا أو بتعبير أوضح لم تعد أمزجتهم رائعة للاستمتاع بالأوبرا. لقد حقق الأداء فشلا مدويا رغم تصفيق الضباط الفرنسيين الموجودين وسط الجمهور قليل العدد. وقيل لبيتهوفن إن أوبراه his opera طويلة جدا وغير متقنة الترتيب، فاختصرها وراجعها وعرضها مرة ثانية في ٢٩ مارس ١٨٠٦ فـفشلت مرة أخرى. وبعـد ذلك بثماني سنوات عندما ازدحمت المدينة بوفـود مؤتمرفينا، تم تغيير اسم الأوبرا ليصبح « فيدليو Fidelio » وتم عرضها للمرة الثالثة فلم تحقق إلا نجاحا متواضعا. لقد كان اتجاه بيتهوفن في التأليف الموسيقي يعتمد على التناغم بين الآلات أو المزاوجة بين أنغامها فقد كان يجد في ذلك رحابة ومرونة أكثر مما كان يجدها في الصوت البشري، لكن المغنين كانوا – على أية حال – تواقين لكسر حواجز جديدة، ولم يستطيعوا – ببساطة – القيام بالأداء الغنائي لبعض الفقرات المحلقة (المتسمة بالسمو) فتمردوا أخيرا. وهذه الأوبرا تعرض الآن في المناسبات بسبب شهرة مؤلفها (بيتهوفن) وبعد خضوعها لمراجعات كثيرة لا مجال لمزيد عليها.

وبعد هذه التجربة الصعبة راح ينتقل من تأليف عمل عظيم خالد إلى آخر. وفي سنة ١٨٠٥ قدم كونشرتو البيانو (G, No 4, Opus 58)، واحتفى بعام ١٨٠٦ بسوناتا (F. Minor ,Opus 57) التي أطلق عليها في وقت لاحق (أباسيوناتا Appassionata) وأضاف ثلاثة أرباع، ومجموعة ألحان Opus 59 وأهداها إلى كونت أندرياس رازوموفسكى Razumovsky السفير الروسي في فينا. وفي مارس ١٨٠٧ نظم أصدقاء بيتهوفن حفلاً خيريا له – ربما تعزية لفشل عمله الأوبرالي، وفي هذا الحفل أدار عزف سيمفونياته؟ الأولى والثانية والثالثة (إرويكا سيمفونية البطولة) وسمفونيته الجديدة (الرابعة) (in B Flat,opus 60) ولا ندري كيف تحمل جمهور المستمعين هذا الكم الموسيقي المفرط إلى حد التخمة.

وفي سنة ١٨٠٦ عهد الأمير ميكلوس نيكولاوس إيستر هيزي Miklos Nicolaus Ester-hazy إلى بيتهوفن تأليف موسيقا قداس لعيد شفيعة زوجته (إحياء لذكرى القديسة التي تحمل الزوجة اسمها)، فذهب بيتهوفن إلى قصر ايسترهيزي في ايزنشتادت Eisenstadt في

المجر وقدم هناك قداسه (C,opus 86) في ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ . وبعد العزف سأله الأمير « لكن يا عزيزي بيتهوفن، ما هو الذي فعلته مرة أخرى؟ » وفسّر بيتهوفن هذا السؤال على أنه دال على عدم الرضا فغادر القصر قبل انتهاء مدة دعوته.

وأتحف عام ١٨٠٨ بسيمفونيتين لا زالتا معروفتين حتى الآن في العالم كله: السيمفونية الخامسة (in C Minor) والسيمفونية السادسة (أو الرعوية) (in F.) ويبدو أنه ألفهما معا خلال عدة أعوام فقد تراوح المزاج العام فيهما ما بين الاكتئاب في الخامسة والبهجة في السادسة، وقد تم أداؤهما معا على مسمع من الجمهور للمرة الأولى في ٢٢ ديسمبر ١٨٠٨، وأدى تكرار أدائهما إلى أن فقدا جاذبيتهما حتى عند عشاق الموسيقا. فلم تعد مشاعرنا تتحرك « لقدرٍ يطرق الباب » أو طيور تغرد بين الأغصان، لكن ربما كان تلاشى انجذابنا إليهما راجعا لنقص التعليم الموسيقي الذي يمكننا من الاستمتاع بفن مزج الألحان وما فيهما من تضاد وتطور واتساق، وتنافس الآلات في الأداء، والحوار بين آلات النفخ والآلات الوترية. وطبيعة كل حركة موسيقية والبناء العام للقطعة الموسيقية وتوجهها. فالعقول التي تتنازع فيها المشاعر والأفكار لابد أن تجد عناء في تتبع هذا تماما كما أن هيجل يجد صعوبة في فهم بيتهوفن، وكما يجد بيتهوفن – أو أي شخص آخر – صعوبة في فهم هيجل.

وفي عامي ١٨٠٨ و ١٨٠٩ ألف بيتهوفن كونشرتو البيان رقم ٥ (in E Flat, Opus 73) المعروف باسم « الإمبراطور ». ومن بين كل أعماله، يعتبر هذا الكونشرتو هو الأكثر بقاء وجمالا. إنه عمل لا نمل سماعه أبدا. وعلى أية حال فإننا عندما نسمعه تهتز مشاعرنا اهتزازا يفوق اهتزاز مشاعرنا بالكلمات المصاحبة، فهو عمل موسيقي يتسم بالتألق والحيوية. إنه فيض من مشاعر وبهجة لا حد لهما. إنه عمل ينم عن قدرة إبداعية هائلة. ففي هذا الكونشرتو يسمو الإنسان منتصرا متجاوزا النكبات منشدا قصيدة تعج بالفرح، على نحو أكثر إقناعاً مما في الكورس الجهير في السيمفونية التاسعة.

وربما عكس « كونشرتوالإمبراطور » والسيمفونية الرعوية » ما كان يمر به بيتهوفن من رخاء وازدهار. وفي سنة ١٨٠٤ تعاقد مع الأرشدوق ردولف ابن الإمبراطور فرانسيس الأصغر – ليعلمه العزف على البيانو، وهكذا بدأ في تكوين صداقة، غالبا ما كانت سببا في زيادة

كتمان بيتهوفن لميوله الجمهورية. وفي سنة ١٨٠٨ تلقى عرضا مغريا من جيروم بونابرت، ملك وستفاليا ليأتي إلى كاسل Cassel ليعمل قائداً لأوركسترا في الفرقة الموسيقية الملكية فوافق بيتهوفن مقابل ستمائة دوكة ذهبية في العام ويبدو أنه كان لايزال مؤملا في أذنيه اللتين كانتا في مرحلة قريبة من الصمم، عندما شاعت الأخبار أنه يتفاوض مع كاسل Cassel اعترض عليه أصدقاؤه ذاكرين له أن في قبوله لهذا العرض نقضا لولائه لفينا فأجابهم إنه ظل يكدح في فينا ستة عشر عاما دون أن يؤمن وضعه. وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨٠٩ تلقى بيتهوفن موافقة رسمية من الأرشيدوق بأنه إذا وافق بيتهوفن على البقاء في فينا، فسيتلقى ٤٠٠٠ فلورين Florin سنويا، يدفع منها ردولف ١٥٠٠ ويدفع الأمير لوبكوفتس Lobkowitz ٧٠٠، والكونت كينسكي Kinsky ١٨٠٠، بالإضافة ما يكسبه بيتهوفن من أية أعمال يؤديها، ووافق بيتهوفن. وفي سنة ١٨٠٩ وهو العام الذي قبل فيه هذا العرض، مات الموسيقار هايدن المعروف ببابا هايدن فورث بيتهوفن تاجه.

٤- العاشق

بعد أن حقق بيتهوفن الاستقرار في أحواله الاقتصادية راح يرنو لزوجة، فطالما كان تواقا لذلك. لقد كان رجلاً حارا محبا للجنس، ومن المفترض أنه وجد متنفسات مختلفة لطاقته[٣١] لكنه شعر منذ فترة طويلة بحاجته إلى شريكة حياة دائمة. لقد كان في بون في حالة عشق دائمة على وفق ما ذكره صديقه فيجيلر Wegeler وفي سنة ١٨٠١ ذكر لصديقه هذا «فتاة حلوة عزيزة تحبه ويحبها» ويفترض بشكل عام أنه يقصد تلميذته ذات السبعة عشر ربيعا الكونتيسة جوليا جويشياردي Guilia Guicciardi إلا أنها – على أية حال – تزوجت الكونت جلنبرج Gallenberg. وفي سنة ١٨٠٥ عقد بيتهوفن آماله على الكونتيسة الأرملة جوزفين فون ديم Josephine Von Deym التي أرسل لها إعلانا عاطفيا كالتالي:

«إنني هنا أعدك وعدا مقدسا أنه في غضون وقت قصير سأقف أمامك وأنا جدير بنفسي وبك – آه لو أنك – فقط – راعيت هذا الذي أعنيه، وهو أن أجد سعادتي في أساليب حب لم ترينها.. آه يا جوزفين الحبيبة إن رغبتي فيك ليست رغبة رجل في امرأة (ليست

للجنس) وإنما رغبتي فيك أنت لشخصك، إنها فيك كلٌ متكامل، بكل صفاتك. إن هذا هو كل ما ستحوز على مشاعري نحوك، وكما يسترعي اهتمامي حيالك.. دعيني آمل أن يدق قلبك من أجلي، أما قلبي فلن يتوقف عن الدق حباً لك إلا إذا صمت للأبد ولم يعد يدق أبداً(٣٢)».

ويظهر أن الليدي كان لها تطلعات أخرى، فبعد ذلك بعامين كان بيتهوفن لا يزال يرنو للقياها والتقدم لها فلم تجبه وفي مارس ١٨٠٧ أحب بالعمق نفسه مدام ماري بيجوت Marie Bigot، فاعترض زوجها. فأرسل بيتهوفن خطاب اعتذار لها ولزوجها: «عزيزتي ماري، عزيزي بيجوت. إن من مبادئي الأساسية ألا أدخل في أية علاقة - سوى علاقة الصداقة - مع زوجة رجل آخر(٣٣)».

وفي ١٤ مارس ١٨٠٩ كتب إلى بارون فون جليشنشتاين Gleichenstein:

«الآن يمكنك مساعدتي بالبحث لي عن زوجة. حقيقة أنه يمكنك أن تجد بعض الفتيات الجميلات في فرايبورج Freiburg ربما يكن قد تنهدن لموسيقاي.. .إن وجدت واحدة منهن فمن فضلك اعقد رباطا بيني وبينها سلفا (لحين وصولي) - لكن لابد أن تكون جميلة فمن غير الممكن أن أحب أي شيء غير جميل، وإلا لكنت قد أحببت نفسي(٣٤)».

لكن يحتمل أن يكون هذا الخطاب أحد فكاهات (نكات) بيتهوفن.

وكان أمره مع تيريز مالفاتي Therese Malfatti أكثر جدية، وكانت هي الأخرى إحدى تلميذاته، وكانت ابنة طبيب مشهور. ويشير خطابه لها والمؤرخ في ٨ مايو سنة ١٨١٠ أن حبه كان مقبولا منها. وفي ٢ مايو أرسل بيتهوفن طلبا عاجلا إلى صديقه فيجلر - وكان وقتها في كوبلنز (كوبلنتس) - أن يذهب إلى بون ليستخرج له شهادة معمودية (التي يظهر فيها تاريخ الميلاد) لأنهم يقولون «إنني أكبر سنا مما أنا عليه» ونفذ فيجلر الطلب، لكن بيتهوفن لم يتابع الأمر، وفي شهر يوليو كتب ستيفان فون برونج Bruning إلى فيجلر: «أعتقد أن مشروع زواجه قد فشل، ولهذا السبب لم يعد يشعر برغبة في شكرك على ما بذلته من جهد لاستخراج هذه الشهادة». لقد ظل بيتهوفن حتى الأربعين من عمره يصر على أنه ولد في سنة ١٧٧٢، بينما تشير شهادة المعمودية (التي يظهر فيها تاريخ

الميلاد) أنه ولد في سنة ١٧٧٠ .

وبعد وفاته عثر على ثلاثة خطابات في درج مغلق، وكانت هذه الخطابات من بين أرق وأحر خطابات الحب التي عرفها التاريخ. لكنه لم يرسلها أبدا، ولم يذكر فيها اسما بعينه ولا عنوانا، فظلت خطابات غامضة.. الخطاب الأول يحمل تاريخ ٦ يوليو صباحا، ويحكي عن قيامه (بيتهوفن) برحلة تواقة إلى مكان غير محدد في المجر للقاء امرأة، وفيما يلي بعض عبارات هذا الخطاب :

« يا ملاكي، يا كلي، يا نفسي (ياروحي).... أيمكن أن يصمد حبنا إلا من خلال التضحيات – إلا بالكف عن طلب كل شيء – أيمكنك أن تغيريه فلا تكوني كلية لي، ولا أكون كلية لكِ – آه يا إلهي طالع جمال الطبيعة، ولتقر عينك بهذا الذي يجب أن يكون – الحب يحتاج لكل شيء – سنلتقي يقيناً في وقت أوشك حينه.. قلبي مليء بالكثير الذي أودّ قوله لك. آه إن هناك لحظات أشعر فيها مع ذلك أن الكلام ليس شيئا (لاقيمة له)، فلتبق حقيقتي، وكنزي الوحيد، وكلي (وكل كياني) تماما كما أنا بالنسبة لكِ فأنا حقيقتك وكنزك الوحيد وكلك (روحك)... »

والخطاب الثاني مختصر كثيرا وهو مؤرخ في « مساء الأحد، ٦ يوليو » وينتهي كالتالي : «آه ياإلهي، كم أنت قريب وكم أنت متعال! أليس حبنا حقا صرحا سماويا – محكم كالقبة الزرقاء ». أما الخطاب الثالث فنقرأ فيه مايلي :

« صباح الخير – كتب في ٧ يوليو رغم أنني في سريري إلا أن أفكاري تنطلق إليك ياحبي الخالد سعيدة طورا وحزينة طورا، في انتظار أن أعرف هل سيصغي لنا القدر أم لا. إن حياتي لاتكون كاملة إلا بك، فإما حياة أنت فيها بجانبي وإما لا حياة – نعم لقد قررت أن أتجول طويلا بعيدا عنك حتى أستطيع أن أطير إلى ذراعيك، لأقول ساعتها إنني أصبحت حقا في بيتي، وأرسل روحي لتستقر فيك في عالم الأرواح.... آه ياإلهي، لم كان ضروريا أن أفارق من أحب لتصبح حياتي في فينا بائسة؟.

لقد جعلني حبك في وقت من الأوقات أسعد الرجال وأتعسهم – ففي مثل عمري أحتاج حياة ثابتة مستقرة.. كوني هادئة، فبالهدوء وحده يمكن أن نحقق هدفينا بالعيش

معا – كوني هادئة – فلتحبيني – اليوم – الأمس – أشتاق إليك حتى البكاء – حياتي – كل كياني – وداعا – آه، واصلي حبك لي – لاتظلمي قلب حبيبك لودفيج وهو أكثر القلوب حبا لك. سأكون لك دوما. ستكونين دوما لي، سيكون كل منا للآخر دوما[٣٥].

من هي؟ لا أحد يعرف. لقد انقسم مؤرخو حياته فمنهم من قال إنها الكونتيسة Guicciardi - Gdllenberg ومنهم من قال إنها الكونتيسة تيريز فون برونسفيج Therese von Brunswig، ولم يلحق أي كونتيسة منهما ضرر. من الواضح أن الليدي كانت متزوجة، وإن كان الأمر كذلك يكون بيتهوفن بتودده لها قد نسي المبدأ الممتاز الذي اعترف به لآل بيجوت Bigots (والذي أشرنا إليه آنفا). وعلى أية حال، فهو لم يرسل هذه الخطابات ولم يحدث ضرر لأي طرف من الأطراف وربما استفادت الموسيقا من هذا الحب.

٥- بيتهوفن وجوته (جيتة): ١٨٠٩ – ١٨١٢

وفي سنة ١٨٠٩ كانت النمسا – مرة أخرى – تخوض حربا مع فرنسا. وفي شهر مايو كانت القذائف الفرنسية تدك فينا، فهرب النبلاء ورجال البلاط، ولجأ بيتهوفن إلى قبو يحتمي به، واستسلمت فينا وفرض المنتصرون ضرائب على طبقة العوام بلغت عشر دخولهم السنوية، وفرضت ثلث الدخول كضريبة على الأثرياء، ودفع بيتهوفن لكنه وهو آمن على البعد وجه لكمته للغال (الفرنسيين) وكتائبهم وصاح قائلا: «إذا أنا – كجنرال – أعرف عن الإستراتيجية، قدر معرفتي – كمؤلف موسيقي. عن تناسب الأنغام، لاقترحت عليك شيئاً تفعله»[٣٦].

ومن ناحية أخرى، شهدت الفترة من ١٨٠٩ إلى ١٨١٥ بيتهوفن وهو في حالة نفسية طيبة نسبياً. ففي هذه الأعوام كان غالباً ما يزور بيت فرانز (فرانتس) برينتانو Franz Brentano التاجر الثري وراعي الفن والموسيقا، والذي كان يساعد بيتهوفن – أحياناً – بتقديم القروض له. وكانت زوجة فرانز (فرانتس) أنطوني– تعكف في غرفتها لمرضها فكان بيتهوفن – أكثر من مرة يتسلل إليها بهدوء ليعزف على البيانو ثم يغادر دون أن ينطق بكلمة واحدة، فقد كان حديثه إليها بلغة الموسيقا. وفي إحدى مرّات عزفه لها فوجئ وهو

يعزف بيدين على كتفه فلما التفت لتبيّن الأمر وجد امرأة شابة (كانت وقتها في الخامسة والعشرين) جميلة، تتألق عيونها سروراً لعزفه بل ولغنائه، لقد كان يعزف موسيقاه التي وضعها لقصيدة جوته (جيته) الشهيرة عن إيطاليا (Kennst du das Land). لقد كانت هذه المرأة الجميلة هي إليزابث (بتينا Bettina) برينتانو أخت فرانز (فرانتس) وكليمنتس برينتانو الذي سنتناوله فيما بعد كمؤلف ألماني شهير، وهي نفسها أصبحت في وقت لاحق. مؤلفة لعددٍ من الكتب الناجحة تُزاوج فيها بين أدب السيرة الذاتية وأدب الرواية على نحو كان في ذلك الوقت سمة سائدة. إنها - أي هذه المؤلفة - هي مصدرنا الوحيد للقصة التي رويناها لتوّنا، كما أنها هي مصدرنا الوحيد للأحداث اللاحقة التي يظهر فيها أنها سمعت في حفلة في بيت فرانز (فرانتس) مناقشات بيتهوفن وفهمتها بعمق بل وروتها بنظام وأناقة كانا يُعوزان أحاديثه بشكل عام، وإن كان هذا النظام وتلك الأناقة يظهران أحياناً في خطاباته. وفي ٢٨ مايو ١٨١٠ كتبت - بحماس - عنه (عن بيتهوفن) إلى جوته (جيته) الذي لم تكن تعرفه من خلال علاقات الجوار مع أسرته في فرنكفورت فحسب وإنما من خلال زيارته في فيمار Weimar، وفيما يلي مقتطفات من خطابها الشهير هذا:

«عندما رأيتُ من سأحدثك عنه الآن، نسيتُ العالم كله.. إنه بيتهوفن الذي أود أن أحدثك عنه والذي جعلني أنسى العالم وأنساك.. إنه يسير شامخاً في طليعة الحضارة البشرية.. هل سندركه أو نتخطاه أبداً؟ أشك في ذلك، لكن لنضمن أنه يعيش حتى.. يتطور السر الغامض الكامن في روحه تطوراً تاماً.. ساعتها فإنه بالتأكيد سيضع بين أيدينا مفتاح علمه السماوي (المقدس)...

لقد قال هو نفسه: عندما أفتح عيني لابد أن أتنهّد، لأن ما أراه يناقض ما في ديني، ولابد أن أحتقر العالم الذي لا يدري أن الموسيقا وحي أرقى من الحكمة والفلسفة. إنها النبيذ الذي يوحي للمرء بعمليات تخليق وتوالد جديدة، وأنا عاصِرُ النبيذ the Bacchus الذي يستخلص هذا النبيذ العظيم للبشر لأجعلهم يثملون محلّقين في عالم الروح..

لا أخشى على موسيقاي، فلن يكون مصيرها شراً، فهؤلاء الذين يفهمونها لابد أن

تحررهم من كل البؤس الذي يوقع الآخرين في شباكه . . .

إن الموسيقا عوان بين الحياة الفكرية والحياة الحسّية . كم أود أن أتحدث إلى جوته (جيته) عن هذا – فهل سيفهمني؟ تحدثي إلى جوته عنّي . . قولي له ليسمع سيمفونياتي وسيجدُ أنني مصيب في قولي إن الموسيقا هي المدخل الروحي الوحيد لعالم معرفي أسمى . . » .

ونقلت بتينا Bettina إلى جوته (جيته) هذه الأقوال المبهجة التي قالها بيتهوفن، وأضافت : « أسعِدْني الآن برد عاجل يُظهر لبيتهوفن أنك تقدّره » وأجاب جوته بخطاب مؤرخ في ٦ يونيو ١٨١٠ :

« وصلني خطابك يا طفلتي الحبيبة إلى قلبي في وقت سعيد . لقد تكبدت عناء كبيراً لتصوّري لي طبيعة عظيمة وجميلة في إنجازها وكفاحها . . إنني لا أشعر برغبة في تكذيب ما استطعتُ الإلمام به من انفجارك السريع (حماسك الشديد)، بل العكس إنني أفضل في الوقت الحاضر أن أوفّق بين طبيعتي وما أمكن تمييزه في أقوالك المتعددة الأوجه . فالعقل البشري العادي ربما يجد تناقضا فيها، لكن قبل هذا القول الذي قاله شخص ملهم على هذا النحو، فإن الرجل العادي لابد أن يقف احتراماً له . . قدّمي لبيتهوفن أحر التحيات وأخبريه أنني سأضحي بكل شيء للتعرف به . . . ويمكنك أن تحثيه للقيام برحلة إلى كارلسباد Karlsbad التي أذهب إليها كل عام تقريبا لأكون في الغاية من السعادة لسماع موسيقاه والتعلم منه »[٣٧] .

ولم يستطع بيتهوفن أن يذهب إلى كارلسباد، لكن أكبر فنّانين في ذلك العصر التقيا في تبليتس Teplitz (منتجع في بوهيميا) في يوليو سنة ١٨١٢ . وزار جوته الموسيقار بيتهوفن في مقر إقامته هناك وكتب انطباعاته الأولى في خطاب أرسله لزوجته : « إنه أكثر من رأيتُ من الفنانين تحلقا حول نفسه (أكثرهم ذاتية) وحيوية وإخلاصا لفنه . إنني أستطيع أن أفهم جيداً كيف أصبحت نظرته للعالم متفردة . إنها لابد أن تكون كذلك »[٣٨] . وفي ٢١ و ٢٣ يوليو قضى أمسيتين مع بيتهوفن الذي « عزف ببهجة »، وثمة قصة مألوفة عن مرَّة سارا فيها معا :

« هناك أقبل نحوهما كلّ أفراد الحاشية وأميرة النمسا والدوقات، فقال بيتهوفن : (أمسك ذراعي لابد أن يُتيحوا لنا مكاناً، لا نحن الذين نتيح لهم مكاناً)، وكان لجوته رأي مختلف

وأصبح الموقف محرجاً له، فخلع ذراعه من ذراع بيتهوفن، واتخذ له مكاناً جانبياً وقد خلع قبعته (احتراماً) بينما ظل بيتهوفن طاوياً ذراعه وسار يميناً بين الدوقات ولم يخلع قبعته وإنما أمالها قليلاً، بينما تنحى الدوقات جانباً لإفساح الطريق له، وحيّوه جميعاً بسرور، وعند الطرف الآخر توقف منتظراً جوته (جيته) الذي سمح للدوقات ورجال الحاشية بالمرور به وهو واقف وقد أحنى رأسه، فقال بيتهوفن «حسناً لقد انتظرتك لأنني أكن لك التقدير والاحترام الجديرين بك، لكنك جعلت هؤلاء الواقفين هناك في مكانة أعلى بكثير»[٣٩].

تلك هي رواية بيتهوفن على وفق ما ذكرته بتينا Bettina التي أضافت قائلة: وبعد ذلك أتانا بيتهوفن سعياً وأخبرنا بكل شيء» وليس لدينا رواية بشأن هذه الواقعة عن جوته، وربما كان علينا أن نتشكك نحن بدورنا في هذه القصة التي اختلف الراوون وتضاربوا في تفاصيلها، ذلك أن جوته عندما عبَّر عن غيظه لقطع الحوار بينه وبين بيتهوفن بكثرة التحيات، أجابه بيتهوفن قائلاً: «لا تدعهم يسببون لسعادتكم إزعاجاً، فربما كانت هذه التحيات موجهة لي»[٤٠].

قد تكون الرواية مشكوكاً فيها، وقد تكون صحيحة، وفي كلا الروايتين وجدنا من يجعلها متسعة مع بعض التعبيرات التي ذكرها كل من العبقريين في معرض تلخيص مقابلاته، وفي ٩ أغسطس كتب بيتهوفن إلى ناشريه في ليبزج (ليبسيج) – برتكروبف Bretkropf وهارتل Hartel: «جوته مغرم غراماً شديد بأجواء البلاط أكثر من غرامه بأنه شاعر». وفي ٢ سبتمبر كتب جوته لكارل زلتر (تسلتر):

«لقد تعرفت على بيتهوفن في تيبليتز **Teplitz** . إن موهبته أذهلتني. لكنه لسوء الحظ ذو شخصية غير أليفة بالمرّة ليس فقط لنظراته الخاطئة للعالم، فهو يمقت ما حوله وإنما أيضاً لأنه لم يعمل على جعل هذا العالم مبهجاً له أو للآخرين. ومن ناحية أخرى فإنه رجل يمكن أن نسامحه وهو جدير تماماً بذلك فهو يدعو للشفقة فهو يفقد سمعه، وربما يشوّه هذا الجانب الموسيقي في طبيعته أكثر مما يسبب له مشاكل اجتماعية. إنه ذو طبيعة مقتضبة لا يحب الإطناب، وربما ضاعف اعتلال سمعه من ميله للإيجاز (عدم الإفراط في الكلام)»[٤١].

٦- الانتصارات الأخيرة: ١٨١١ - ١٨٢٤

أينما ذهب، ألّف الموسيقا، ففي سنة ١٨١١ وضع المجموعة الموسيقية ٩٧ في شكلها الأخير (Opus 97) (in B Flat) وهي ثلاثية للبيان والفيولين (الكمان) والفيولونسيل Violoncello وأهداها إلى الأرشدوق رودلف، فحملت اسمه. وهي المجموعة الأكثر بهجة ووضوحاً من بين أعماله إذ لا يعتريها الاضطراب إلا في أضيق الحدود، وهي متناسقة فيها تكامل عضوي يُضفي عليها الجمال الكلاسيّ والمهابة. وكان ظهوره لآخر مرّة كمؤدٍ (عازف) على البيان عند تقديمه لهذا العمل الكلاسي في أبريل سنة ١٨١٤. لقد كان الآن (عند أداء هذا العمل) وقد بلغ به الصمم حدا يجعله يفقد الحكم الصائب على صحة الضرب على مفاتيح البيان، فبعض الأصوات الصارخة (الفورتيسيمي Fortissimi) كانت تخفت منه، وبعض الأصوات الواهنة (البيانيسّيمي Pianissimi) كانت تتلاشى منه وتصبح غير مسموعة.

وفي مايو سنة ١٨١٢ بينما كان نابليون يسوق نصف مليون مقاتل إلى الموت في روسيا، أصدر بيتهوفن سيمفونيته السابعة التي قلما عزفها العازفون، وهي تبدو الآن أفضل من سيمفونيتيه الخامسة والسادسة. هنا (في السيمفونية السابعة) نجد ألحانا حزينة جنائزية مُعتمة لضياع العظمة وتحطم الآمال، وهنا أيضاً حنين، وهنا حزن لضياع الحب الباقي، وهنا تساؤل حول السلام ومحاولة للفهم.. وكما كان مارشه March الجنائزي مقدمة موسيقية عفوية (غير مقصودة) لهزيمة نابليون في موسكو فإن عرضه (أداءه) للمرة الأولى في ٨ ديسمبر ١٨١٣ كان مُزامنا لانهيار قوات نابليون في ألمانيا وأسبانيا. وقد أسعد الاستقبال الحماسي الذي لقيته هذه السيمفونية المتشائم العجوز (بيتهوفن) الذي استمر في إنتاج أعمال خالدة التي لابد أن نعتبرها بالنسبة إليه كأعمال كيتس Keats في الجرّة الإغريقية Grecian Urn: «أغان بسيطة بلا نغم».

ولم يستقبل مستعمو الموسيقا سيمفونيته الثامنة استقبالاً حسناً كسابقتها، وكان قد كتبها في أكتوبر سنة ١٨١٢. واسترخى الأستاذ وقرر ألاّ يعكف على الأعمال ثقيلة الوطأة، ولم يتوافق تمام الموافقة مع مزاج أمةٍ ترقب مصيرها (قدرها) يومياً وهو معلّق على نتائج

الحرب، وإنما كان من رأيه أن نبتهج الآن. لقد عكف على بندول الإيقاع (الميترونوم metronome) والسيرزاندو المرح المتبختر Scherzando، لقد كان هذا إبداعاً جديداً عامراً بالمرح والفكاهة.

وكانت أكثر تآليف بيتهوفن الموسيقية نجاحاً هي مقطوعة (Die Schlacht von Vittoria) التي عُزفت في فينا في ٨ ديسمبر ١٨٠٣ احتفاءً بالمعركة التي استطاع فيها ولنجتون Wellington تدمير القوة الفرنسية في إسبانيا. لقد فرحت فينا أخيراً بوصول هذه الأخبار إليها فلطالما كانت مُحبطة لما يبدو من أن هذا الكورسيكي (نابليون) لا يُقهر. والآن أصبح بيتهوفن بالفعل شهيراً في المدينة التي تبنّته (فينا). لقد كان موضوع هذه المقطوعة وما حققته من نجاح سبباً في جَعْل بيتهوفن معروفاً ومشهوراً لدى أصحاب الجلالة والفخامة والسمّو الذين حضروا مؤتمر فينا المعروف. وانتهز بيتهوفن الفرصة لينظم حفلاً موسيقيا لصالحه فقدم له البلاط الإمبراطوري – انتشاء بالنصر – قاعته الواسعة (الريدوتنسال Redoutensual)، وأرسل بيتهوفن دعوات شخصية لأصحاب المقام الجليل ممن حضروا المؤتمر، فحضر ستة آلاف شخص، فأصبح بيتهوفن ثرياً قادراً على ادخار مبلغ كبير لتأمين مستقبله ومستقبل ابن أخيه.

وفي ١١ نوفمبر سنة ١٨١٥ مات أخوه كارل Karl بعد أن ورَّث (بوصيّة) مبلغاً بسيطاً لأخيه لودفيج (بيتهوفن)، كما عينه (أي عيّن أخاه لودفيج بيتهوفن) وأرملته وصيين على ابنه كارل ذي الثمانية أعوام. وواصل بيتهوفن في الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٢٦ في الأوساط الأدبية وفي المحاكم نضاله الذي راح يذوي شيئاً فشيئاً مع تيريزا أرملة أخيه للحصول على رعاية ابن أخيه كارل وتنشئته وتعليمه، وكانت تيريزا قد قدّمت لكارل الكبير «دوطة» Dowrg ومنزلاً، لكنها كانت قد غرقت في إثم الزّنا، وكانت قد اعترفت لزوجها بأنها زنت فسامحها، لكن بيتهوفن لم يسامحها أبداً لارتكابها فاحشة الزنا، واعتبرها غير جديرة برعاية ابن أخيه (واسمه أيضاً كارل) ولن نتتبّع تفاصيل هذه القصة بجزئياتها القذرة. وفي سنة ١٨٢٦ حاول كارل (ابن أخي بيتهوفن) الانتحار بسبب تمزقه بين أمه (الزانية) وعمه (الموسيقار بيتهوفن) لكن أحواله صلحت أخيراً فالتحق بالجيش وراح يرعى أموره بشكل

طيب.

ومع سنة ١٨١٧ كان بيتهوفن في المرحلة الأخيرة من حياته الإبداعية. لقد ظل بيتهوفن لفترة طويله ثائرا في سياساته الخاصة(*)، أما الآن فقد أعلن هذه الثورة ضد القواعد الكلاسية ورحب بالحركة الرومانسية في الموسيقا، وخفف من وطأة البناء الكلاسي في السوناتا والسيمفونية لينطلق بها إلى رحاب العاطفة والتعبير عن الذات. لقد تأثر بيتهوفن بشيء من الروح المتمردة الحماسية التي كانت في فرنسا من خلال كتابات روسو وأحداث الثورة الفرنسية، والتي كانت في ألمانيا خلال فترة الغليان Sturm und Drag في كتابات جوته (جيته)(فيرتر ليدن Werthers Leiden) والشاب شيلر Schiller (دي راوبرت Die Raubert) ومن ثم في قصائد تيك Tieck ونوفاليس Noivalis، وفي الكتابات النثرية لشليجل Schlegels، وفي الكتابات الفلسفية لفيتشة Fichte وشلنج Schelling لقد وصل شيء من هذا كله لبيتهوفن فوجد تربة خصبة في نزوعه الفطري للاتجاه العاطفي وتميزه الفردي الفخور. لقد زوت قيود النظام القديم في الفن، كما زوت في القانون والمعاهدات، مخلية السبيل أمام الحرية الفردية المصممة على شق طريقها ضاربة عرض الحائط بالقواعد والقيود والأشكال القديمة. لقد سخر بيتهوفن من الجمهور كسوائم ومن النبلاء كمدعين. لقد هزأ من المعاهدات والاتفاقات باعتبارها بعيدة أولا صلة لها بالإبداع الفني ورفض أن يكون حبيس القوالب التي لا تليق إلا بالأموات، بل وحتى تلك التي كانت تليق بباخ Bach وهاندل **Handel** وهايدن **Haydn** وموزارت وجلوك **Gluck**. لقد أحدث ثورته الخاصة بل وحتى «إرهابه Terror» الخاص، وجعل مقطوعة «أغنية» فرحة Ode to Joy إعلانا للاستقلال حتى في توقعه للموت.

لقد شكلت سونتاته الصارخة (الهمركلافير Hammerklavier) جسراً بين مرحلته الفنية الثانية، ومرحلته الثالثة. حتى اسمها كان ثورة. وقد اقترح بعض التيوتون Teutons الذين سئموا هيمنة اللغة الإيطالية في الاقتصاد والموسيقا، استخدام اللغة (المقصود المصطلحات) الألمانية بدلا من الإيطالية في النوت الموسيقية والآلات الموسيقية، وعلى هذا كان من رأيهم

(*) المقصود أنه كان ثورياً في منهجه الموسيقي رغم عدم إعلانه ذلك. (المترجم)

ضرورة أن يستبدل الموسيقيون بمصطلح «منخفض» Low وعال Strong المصطلح الألماني همركلافير Hammerklavier مادام النغم ينتج بالطرق الخفيف على الأوتار (بواسطة مفاتيح البيان بطبيعة الحال) وقبل بيتهوفن الفكرة بالفعل وكتب إلى صانع الآلات الموسيقية سيجمون شتينر Sigmund Steiner في ١٣ يناير ١٨١٧ «بدلا من مصطلح Pianforte اكتب همركلافير Hammerklavier فهذا سيجعل الأمر مستقراً إلى الأبد وللجميع»[٤٢].

وكانت السوناتا الثانية (Opus 106 in B Flat) في مجموعة سوناتاته الصارخة (الهمركلافير) هي الأكثر لفتاً للنظر. كتبها في عامي ١٨١٨ و ١٨١٩ باعتبارها السوناتا الكبيرة للهمركلافير Grosse Santa fur das Hammerklavier» وأخبر زيرنى (تسيرنى) Czerny أنها ستظل أعظم مقطوعاته الموسيقية التي ألفها للبيان وأكد عازفو البيان في الأجيال المتعاقبة ذلك . وأنها تبدو معبرة عن استسلام بيتهوفن، ومع هذا فإنها تمثل انتصار الفن على اليأس. إنها أكثر من هذا فهي رفض للجزع والكآبة حتى إن بيتهوفن أتم بعدها سيمفونيته التاسعة. لقد بدأ في تأليفها في سنة ١٨١٨ في الوقت نفسه الذي يكتب فيه أيضا عمله (Missa Solemnis) الذي كان يعد ليتم أداؤه بمناسبة تنصيب (ترسيم) الأرشدوق ردولف رئيسا لأساقفة أولموتس Olmutz، وانتهى من موسيقا القداس أولا (قداس Missa Solemnis) وكان ذلك في سنة ١٨٢٣ وبذلك تأخر عن ميعاد الترسيم (التنصيب) ثلاث سنوات.

ورغبة من بيتهوفن في إضافة القليل (من المال) لما لديه ليكون مفزعاً له في الشيخوخة، وليوصي منه لابن أخيه كارل – فكر في بيع اشتراكات في نسخ من موسيقا قداسه الآنف ذكره قبل نشرها، وأرسل دعوى بهذا الصدد لملوك أوربا وحكامها طالبا من كل منهم خمسين دوكات ذهبا[٤٣]. وأتته الموافقة ببطء، لكن في سنة ١٨٢٥ أتته عشرة ردود: من حكام روسيا وبروسيا وفرنسا وسكسونيا وتوسكانيا، وأمراء جوليتسين Golitsyn وراد زيفيل Radziwill ومن جمعية في فرانكفورت (هي جمعية Caecilia Association og Frankfort) وموسيقا القداس التي نتحدث عنها (Missa Solemnis) طال تدبره فيها قبل

إخراجها للناس، واتسمت بغرابة بدائل شكلها النهائي، فكانت تلقى القبول بشكل عام. وليس فيها أثر لهرطقاته التي كانت تظهر في بعض المناسبات والتي شككت في عقيدته الكاثوليكية الموروثة، فكل نبضة في هذه الليتورجية (موسيقا القداس) تتفق مع موسيقا الكونكوردات (موسيقا التوافق مع الكنيسة الكاثوليكية) ومن خلال نغماتها كلها يمكن أن نسمع عقيدة يائسة لرجل يموت. لقد كتب في مستهل بيان عقيدته في مخطوطة قطعته الموسيقية: الله فوق الجميع – الله لم يتخل أبداً عني(٤٤)» لقد كانت موسيقاه في موسيقا القداس هذه تعبيرا قويا جدا عن التواضع المسيحي لكن التركيز الشديد عل كل جزء وفقرة، ومايساند ذلك كله من جلال وفخامة جعلت هذه المقطوعة الموسيقية (Missa Solemnis) أضحية أخيرة ومناسبة لروح حائرة لله الذي لايسبر أغواره أحد incomprehensible وفي فبراير سنة ١٨٢٤ أكمل سيمفونيته التاسعة التي ناضل فيها ليعبر عن فلسفته الأخيرة – أن يقبل الإنسان قدره بسعادة – وليكسر كل قيود النظام الكلاسي (في التأليف الموسيقي) ومضى الملك المتهور تاركا كبرياءه لتقوده لابتهاج كاسح للتضحية بالنظام الموسيقي القديم حتى الجيد منه للحرية الشابة الجيدة (أيضا). لقد اختفت عن مسامع السامعين إلا سمعه الباطني (السري) أوبتعبير آخر إلا من دوي النغمات في أعماقه كل المذابح(*) altars المتناثرة التي كان عليه أن يختار منها والتي كان يجب أن تقف شامخة كالأعمدة التي تحمل الصرح. لقد بدت الفقرات الموسيقية مفرطة في التكرار والإصرار، وفي بعض السياقات كانت تظهر لحظة من الرقة أو الهدوء ومن ثم ينطلق النغم الصارخ (الفورتيسيمو fortissimo) وكأنما ينبه عالما مجنونا غير مستجيب. لكن الدارس العظيم للموسيقا لايرى الأمر كذلك، وانما يرى في هذه الوفرة الموسيقية وهذا الثراء الموسيقي «بساطة في الشكل لا حد لها، وإتقاناً للتفاصيل الموسيقية التي قد تبدو لأول وهلة مربكة حتى نتحقق أنها متسقة مع نتائجها المنطقية...(٤٥)».

(*) المذابح جمع مذبح، وهو مكان مهم في أية كنيسة لتقديم الأضحيات والصدقات والدعوات – والأقرب للمضي بالنسبة للقارئ العربي أنه تخلى من كل ما كان يُعتبر أساسيا في الموسيقا الكلاسية، أو لنقل إنه لم يكن له وثن يحتذيه بين الموسيقيين السابقين عليه.. (المترجم)

وربما ألغى الأستاذ (بيتهوفن) بشكل غير معلن الجهود الكلاسية ليقدم لنا شكلا موسيقيا خالدا (دائما) لمعنى محجوب أو جمال هائل (لا حد له). لقد اعترف باستسلامه وراح يمرح في ثروته غير النظامية - ثروة خياله ومنابع فنه السخية. وفي النهاية عاد أسير تحديات الشباب، وادخر للموسيقا أغنية شيلر Schiller التي لم تكن - حقيقة - مجرد أغنية مرحة، وإنما كانت حربا مرحة سعيدة ضد الحكم المطلق وضد البعد عن القيم الإنسانية:

- واجهوا الملوك بأرواح ملؤها الرجولة

- حتى لو كلفنا هذا ثرواتنا وأرواحنا

- ففي دمار التيجان حياة لما هو أجدر

- الموت لهم جميعا - إنهم ذوو دماء كاذبة

(أويسري الكذب فيها)

لقد راح بيتهوفن الآن بعد اكتمال أعماله الكبرى ووصوله لأوج اكتمال فنه الموسيقي يتطلع إلى فرصة لتقديمها للجمهور، لكن روسينى Rossini كان قد فتن النمسا في سنة ١٨٢٣ بالإضافة إلى أن متذوقي الموسيقا البنادقة أصبحوا الآن مفتونين بالأنغام الإيطالية فأحجم مديرو الفرق الموسيقية المحليون عن المخاطرة بتقديم عملين موسيقيين يتسمان بالصعوبة مثل موسيقا القداس التي أسماها بيتهوفن (Missa Solemnis)، والسيمفونية الكورالية. وعرض منتج من برلين على بيتهوفن تقديمها فأوشك على قبول العرض، إلا أن مجموعة من عشاق الموسيقا على رأسها أسرة ليشنوفسكى Lichnowsky حذرت مؤلف فينا الموسيقي البارز من اللجوء إلى عاصمة منافسة لفينا لعزف آخر أعماله وأكثرها بهاء، وتعهدت بعزفها على مسرح كير نتنيرثور Karntnerthor، وبعد مساومات شاقة من كل الأطراف تحدد ميعاد الحفل الموسيقي في ٧ مايو ١٨٢٤ ببرنامج تمّ تكييفه على وفق المتاح من الإمكانات: مستهل موسيقي، وأربعة أجزاء من موسيقا القداس Missa Solemnis والسيمفونية التاسعة مع كورس ألماني جهير، ولم يستطع المغنون الوصول إلى المستوى المرتفع للنوتة الموسيقية، فحذفوا ما لم يستطيعوا أداءه[٤٦]، واستقبل الجمهور موسيقا

القداس استقبالا وقورا، أما السيمفونية التاسعة فأثارت إعجابا حماسيا. وكان بيتهوفن يقف على المسرح وظهره للجمهور، ولم يكن يستطيع سماع التصفيق، فكان عليه أن يدير وجهه للجمهور ليراه (التصفيق) رأي العين(٤٧).

٧- انتهت الملهاة (كوميديا فينيتا): ١٨٢٤ - ١٨٢٧

لقد تشاجر بيتهوفن مع شيندلر Schindler وأصدقاء آخرين بسبب المبلغ القليل (٤٢٠ فلورين) الذي تلقاه من عوائد الحفل الموسيقي البالغ ٢,٢٠٠ فلورين. لقد اتهمهم ببخس حقه، فتركوه وحيدا، ولم يكن يتردد عليه إلا ابن أخيه في المناسبات، وقد كانت محاولة ابن الأخ هذا الانتحار في سنة ١٨٢٦ مما ضاعف أحزان بيتهوفن فطفح به كيل الحزن، وفي هذه الأعوام كتب بيتهوفن آخر خمسة كارتيتات quartets من كارتيتاته البالغة ستة عشر كارتيتاً (الكارتيت قطعة موسيقية تعزفها أربع آلات) وبدأ تأليفه لهذه الكارتيتات في سنة ١٨٢٣ عندما عرض الأمير نيكولاي جوليتسين Nikolai Golitsyn أن يدفع أي مبلغ مقابل كارتيت واحد أو كارتيتين أو ثلاثة تهدى إليه، ووافق بيتهوفن أن يأخذ لقاء كل كارتيت خمسين دوكات (الكارتيت لحن موسيقي تعزفه أربع آلات). وهذه الكارتيتات الثلاثة تحمل الأرقام التالية (opp. 127, 130 & 132) أما العملان اللذان يحملان أرقام (Opp. 131 & 135) فهما الكارتيتان النهائيان اللذان اتسمت موسيقاهما بالغموض الباطني والغرابة مما ضمن لهما الشهرة. وتم عزف الكارتيت رقم ١٣٠ بشكل خاص في سنة ١٨٢٦ فجاهر المستمعون باستحسانهم إياه وبهجتهم به إلا أن العازفين وجدوا الحركة الرابعة فيه صعبة الأداء، فأعاد بيتهوفن كتابة هذه الحركة الأخيرة بشكل أبسط. وهذه الحركة التي كان قد تم رفضها يتم عزفها الآن في المجموعة اللحنية ١٣٣(Grosse Fugue, Opus 133) إذ فسرها أحد دارسي بيتهوفن بأنها تعبر عن فلسفته النهائية: الحياة والحقيقة تكونان نقيضين لا ينفصلان – الخير والشر، والفرح والتعاسة، والصحة والمرض، المولد والوفاة - ولابد أن تتكيف الحكمة مع هذا، فهذا هو جوهر الحياة الذي لا مناص منه. وأعظم هذه الكارتيتات في نظر بيتهوفن، هي رقم ١٣١ (in C Sharp Minor) وقد انتهى من تأليفها في ٧ أغسطس

١٨٢٦، وقد حظي هذا الكارتيت بثناء المستحقين والنقاد أكثر مما حظيت به الكارتيتات الأخرى. لقد قيل إن في هذا الكارتيت «نظرة باطنية (صوفية) معروضة بشكل تام»[٤٨] وقال السامعون عنها مؤخراً أنها تبدو كعويل غامض، وأنين مرير لحيوان أصيب بجرح مميت. وآخر الكارتيت الخامس (Opus 135) يطرح سؤالاً في حركته الأخيرة: أكان هذا ضرورياً؟ (Muss es Sein?) وكانت الإجابة: نعم Es muss Sein.

وفي ٢ ديسمبر سنة ١٨٢٦ أصيب بيتهوفن بسعال حاد فاستدعى طبيباً، فرفض طبيبان من أطبائه الذين سبق أن عالجوه - الحضور إليه[٤٩] وأتى إليه الطبيب الثالث ڤاڤروخ Wawruch وشخَّص حالته بأنه مصاب بداء الرّئة (نويمونيا Pneumonia) وعكف بيتهوفن في سريره وأتى أخوه جوهان Johann لرعايته، وغادر ابن أخيه كارل بناءً على استدعاء الجيش له، فباركه بيتهوفن (دعا له أن تصحبه السلامة)، وفي ١١ يناير انضم الدكتور (الطبيب) مالفاتي Malfatti إلى الطبيب فافروخ لعلاج بيتهوفهن، فوصف تناول المريض شراب البنش المجمّد (البنش شراب مسكر به كحول وليمون وأعشاب أخرى) لمساعدته على النوم، فحسّن بيتهوفن من مذاقه بإضافة الكحول المقطر «لقد أساء استخدام الوصفة الطبية»[٥٠] فتفاقم الاستسقاء Dropsy واليرقان Jaundice، ولم يستطع التبول فتراكم البول في جسمه، وتمّ سحب البول من جسمه مرتين فقارن نفسه بنبع ماء حار.

ورغم مرضه فقد قرر ألا ينفق من أسهمه البنكية (التي بلغت قيمتها الإجمالية عشرة آلاف فلورين) لأنه ادخرها لابن أخيه كارل، والآن فقد كان مضطراً لكثرة النفقات فكتب إلى السير جورج سمارت Smart في لندن في ٦ مارس ١٨٢٧:

«ماذا سيحدث لي؟ هل سأعيش حتى أستعيد قوتي وأستطيع أن أكسب عيشي مرة أخرى عن طريق قلمي؟.. أتوسل إليك أن تستخدم كل نفوذك لحث جمعية عشاق الموسيقا لتنفيذ قرارها الذي اتخذته في وقت سابق بإقامة حفل موسيقي لصالحي. ولا تساعدني صحتي على أن أقول المزيد[٥١]».

وأرسلت له الجمعية مائة جنيه مقدمة لعوائد الحفل الموسيقي المقترح.

وفي ١٦ مارس اتفق الأطباء على أن بيتهوفن لم يبق بينه وبين الموت وقت طويل، فطلبوا

منه – وكذلك طلب أخوه جوهان (يوهان) أن يوافق على استدعاء قس، فوافق. «**إذ يبدو أنه** نسي الآن ملاحاته للرّب ففي خطاب أرسله في ١٤ مارس يذكر أنه، يقبل كل ما تقرّه حكمة الله **سبحانه**»(٥٢) وفي ٢٣ مارس تلقى «أسرار المسيحية المقدسة Sacrament» لآخر مرة، ويظهر أنه قبلها بمزاج مرحّب، وقد ذكر أخوه في وقت لاحق أن الرجل المحتضر (بيتهوفن) قال له: «شكراً على هذه الخدمة الأخيرة»(٥٣)، وقال بيتهوفن لصديقه شيندلر Schindler وهو يحتضر بعد انتهاء الطقوس الدينية (تلقين أسرار المسيحية): «كوميديا فينيتا أي لقد انتهت الملهاة أو المهزلة» وهو لا يقصد غالباً الطقوس الدينية وإنما الحياة نفسها(*)(٥٤)، وكانت هذه العبارة (كوميديا فينيتا) تستخدم في المسرح الروماني الكلاسي لإعلان نهاية المسرحية.

لقد أسلم بيتهوفن الروح في ٢٦ مارس ١٨٢٧ بعد ثلاثة أشهر من المعاناة، و قبل لحظات قليلة من إسلامه الروح غمر الغرفة ضوء أضاء الغرفة أعقبها رعد شديد، فرفع بيتهوفن ذراعه اليمنى ووجه قبضته (لكمته) إلى شيء ما، يبدو أنه وجهها للعاصفة، وبعدها مباشرة انتهت آلامه (حياته) ولن نعرف أبداً ما تعنيه هذه الإيماءة الأخيرة (توجيهه لكمة إلى شيء ما).

وأظهر فحص جثته اضطرابات داخلية معقدة هي التي كانت سوّدت حياته ومزاجه. لقد كان كبده متقلّصة سقيمة.

وكانت شرايين أذنيه قد سدتها جزئيات دهنية كما كان العصب السمعي تالفاً. «إن آلام الرأس وعُسر الهضم والمغص واليرقان – تلك الأمراض التي كان يشكوا منها باستمرار، بالإضافة إلي الإحباط العميق الذي يُفسّر ما ورد في كثير من خطاباته – كل هذا كان نتيجة طبيعية لالتهاب الكبد المزمن وعسر الهضم(٥٥). وربما كان حبه للمشي والهواء الطلق قد خفّفا من آلامه، وأتاحا له ساعات في حياته لا يعاني فيها ألماً.

وحضر جنازته ثلاثون ألفاً، وكان هَميل Hummel عازف البيان، وكروتسر Kreutzer

---

(*) المترجم: والله أعلم.

عازف الفيولين من بين حاملي بساط الرحمة في جنازته، وكان شوبرت Schubert وزيرني Czerny وجريلبارتسر Grillparzer من بين حاملي المشاعل فيها (في جنازته)، ولم يُكتَب على شاهد قبره سوى الاسم بيتهوفن، وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته.

الفصل التاسع والعشرون



[١٧٨٦ - ١٨١١]

١- الإمبراطورية الرومانية المقدسة: ١٨٠٠

يرى هينرش فون تريتشكه Heinrich Von Treitschke، وهو بروسي وطني متحمس لبروسيا، ومع ذلك فهو مؤرخ عظيم (لم تُبعده وطنيته عن النظرة الموضوعية اللازمة للمؤرخ) أنه: «لم يحدث أبداً منذ أيام لوثر Luther أن أصبحت ألمانيا في هذه المكانة المرموقة في أوروبا كما هي عليه الآن (١٨٠٠) حيث أصبح أعظم أبطال العصر وأعظم شعرائه من أُمّتنا (ألمانيا)»[1].

قد نصنّف فريدريك Frederick كمنتصر في درجة أدنى من نابليون، ولكن الذي لا شك فيه أن السَّناء المنبعث من جوته (جيته) Goethe وشيلر Schiller كان لا يُضارعه سناء في مضمار الشعر والنثر من أدنبره (إدينبورج Edinburgh) إلى روما. وقد اهتز العقل الأوروبي من لندن إلى سان بطرسبرج St. Petersburg بفكر الفلاسفة الألمان من كانط Kant ومروراً بفيتشه Fichte وشيلنج Shelling وهيجل إلى شوبنهور Schopenhauer. لقد كانت ألمانيا تشهد عصر نهضتها الثاني Second Renaissance.

لقد كانت ألمانيا - مثل إيطاليا في القرن السادس عشر - ليست أمة إن كان المقصود بالأمة مجموعة من الناس يعيشون في ظل قوانين واحدة وحكومة واحدة. لقد كانت ألمانيا في سنة ١٨٠٠ سلسلة غير محكمة (غير متماسكة) من نحو ٢٥٠ «دولة» لكل منها قوانينها الخاصة وضرائبها الخاصة، وكثير من هذه الدول كان لكل منها جيشها الخاص، وعملتها الخاصة، ودينها(*) الخاص بل وعاداتها الخاصة ولباسها، وكان بعضها يتحدث لغة (ألمانية) غير مفهومة لنصف العالم الألماني. إلا أن اللغة الألمانية المكتوبة كانت على أية حال لغةً واحدة مما أتاح لكتاب ألمانيا قرَّاءً من ثلث القارة الأوروبية.

(*) المقصود مذاهبها. (المترجم)

ويجب أن ننوّه في هذا الصّدد أن الاستقلال النسبي لهذه الدول الفُرادى كان يسمح باختلاف الأشكال والأنماط، ويُثير المنافسة، ويتيح حرية التجريب والتفكير بقدر قد يفوق ما هو موجود في عاصمة مركزية لدولة كبيرة. لقد كان الوضع بالنسبة إلى هذه الدويلات الألمانية في هذه الفترة شبيهاً بما كان في إيطاليا في عصر النهضة (الرينيسانس). ألم تكن مدن ألمانيا القديمة – التي كانت لاتزال متفردة على هذا النحو الجذاب، لتفقد حيويتها وطبيعتها إذا ما تم إلحاقها ببرلين سياسياً وثقافياً، كما حدث بالنسبة لمدن فرنسا عندما أصبحت تابعة لباريس؟ وهل لو كونت كل أجزاء ألمانيا كياناً واحداً مشكّلةً أمة موحّدة – صارت قلباً لأوروبا غنياً بالسكان والمواد يبزّ كل ما بقي من أوروبا على نحوٍ لا يُقاوم؟

لقد كانت الدول الألمانية بمعنى واحد ناقصة الاستقلال: لقد قبلت هذه الدول أن تكون أعضاء في « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » التي كانت قد بدأت – أي هذه الإمبراطورية – في سنة ٨٠٠ بتتويج البابا لشارلمان الذي يشير إليه الألمان بأنه « their own Frankish Karl der Grosse »، وكان أهم هذه الدول الألمانية المكوّنة للإمبراطورية الرومانية المقدسة هي تسعة « دول ناخبة electoral » أي دول تنتخب الإمبراطور: النمسا، وبروسيا، وباڤاريا، وسكسونيا، وبرونزڤيك – لوينبورج Brunswick - Luneburg، وكولوني Cologne ومينز (مينتس) Mainz وهانوڤر وترير Trier (تريفز Treves)، ويأتي في المقام الثاني سبعة وعشرون كياناً ذا طابع روحي أو ديني « Spiritual Lands » يحكم كل منها أسقف (مطران) كاثوليكي على نحو يذكّر بالحكم الأسقفي للمدن في الإمبراطورية الرومانية الغربية التي انتهت منذ ألف عام، وهذه الكيانات الروحية (ذوات الصبغة الدينية) هي: أرشبيشوبية سالزبورج (سالتسبورج) **Salzburg** (لفظ الأرشبيشوب يعني كبير الأساقفة – والأرشبيشوبيَّة هي مقر كبير الأساقفة) وفي سالزبورج هذه عاش موزارت. أما الأسقفيات (حيث في كل منها أسقف « بيشوب » فهي: مينستر Munster وليبج **Liège** وڤيرتسبورج Wurzburg وبامبرج Bamberg وأوسنابروك Osnabruck وبادر بورن Paderborn وأوجسبرج Augsburg وهايلدشيم Hildesheim وفولدا Fulda وسبير Speyer وريجنسبرج Regensburg (راتيسبورن Ratisborn) وكونستانس Constance وڤورمز Worms ولوبك

Lubeck . . . وكان هناك أمراء علمانيون (غير إكليريكيين) يحكمون سبعاً وثلاثين دولة، بما فيها هِس – كاسل Hesse - Cassel وهيس دارمشتادت Hesse - Darmstadt وهولشتين Holstein وڤيرتمبرج Wurttemberg (مع شتوتجارت Stuttgart) وساشن (زاخن) Sachsen (ساكس – Saxe) ڤيمار Weimar (وكان بها جوته) وساشن جوتا Sachsen - Gotha (وكان فيها الدوق إرنست الثاني – المستبد المتنوّر) وبراونشڤيج فولفنبوتل Braunschweig Walfenbuttel (براونشفيج تُكتب أيضاً برونسفيك Brunswick) وبادن Baden - With (Baden Baden Karlsruhe وكانت هناك خمسون مدينة حُرّة (رايخشتادت Reichstadte) كانت كذلك زمن الإمبراطورية: هامبورج وكولوني، وفرانكفورت – آم – مين Frankfurt. am. Main وبريمن Bremen وفورمز (فورمس Worms) وسبير Speyer ونورمبرج Nuremberg (تكتب أيضاً نورنبرج Nurnberg) وأولم ulm . . . و من كل تلك الكيانات الألمانية وغيرها كان يأتي الناخبون Electors (أو الفرسان الإمبراطوريون) وغيرهم من الممثلين إلى الرايخستاج Reichstag أو الدايت الإمبراطوري Imperial Diet الذي يجتمع في ريجينسبورج Regensburg بدعوة من إمبراطورهم (إمبراطور كل هذه الكيانات أي إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة). وفي سنة ١٧٩٢ اختار الناخبون Electors (الناخب بالمفهوم الذي شرحناه آنفاً أكثر من مرة) فرانسيس الثاني النمساوي إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وتوّجوه في حفل تتويج فخم اتسم بالإسراف الشديد، فغصَّت فرانكفورت – آم – مين بالنبلاء وذوي المكانة من مختلف أنحاء ألمانيا. وكان فرانسيس الثاني هو الأخير في سلسلة طويلة من أباطرة هذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبحلول عام ١٨٠٠ فقدت هذه المؤسسة (الإمبراطورية) – التي كانت يوماً ما مؤثرة ومفيدة بشكل عام – فقدت تقريبا كل فعاليتها وفائدتها. لقد أصبحت أثراً من آثار النظام الإقطاعي. لقد كانت كل قطعة segment (لنقل قرية أو عزبة) يحكمها سيد (لورد) إداري manorial lord (لنقل عمدة فهو أقرب للمفهوم العربي) تابع لسلطة مركزية (في المدينة)، إلا أن هذه السلطة المركزية اعتراها الضعف بسبب ازدياد عدد سكان هذه

الوحدات وزيادة ثرواتها وقوتها العسكرية، وانتحائها نحواً علمانيا أما الوحدة الدينية في هذه الإمبراطورية «المقدسة» فكانت قد انتهت بظهور حركة الإصلاح الديني (الحركة البروتستنطية) وحرب الثلاثين عاما، وحرب السنوات السبع ١٧٥٦ – ١٧٦٣. فكان شمال ألمانيا في سنة ١٨٠٠ على المذهب البروتستنطي بينما كان جنوب ألمانيا على الكاثوليكية أما غرب ألمانيا فتخلى عن شيء من تدينه نتيجة حركة التنوير الفرنسية، التنوير Aufkarung الذي انتشر على يد الكاتب المسرحي الألماني ليسنج Lessing. وكلما مالت شمس الدين للأفول، ازدهرت الروح الوطنية على نحو قل أم كثر، فإن عقيدة ما (سياسية أو اجتماعية) كان لابد من وجودها لتمسك أجزاء المجتمع وتضمها معا وتوثق عراها في مواجهة الاندفاع بعيداً عن المركز أو بتعبير آخر في مواجهة الرغبة في مزيد من التفكك. وقد أدى استقطاب ألمانيا بين الشمال البروتستنطي بقيادة بروسيا، والجنوب الكاثوليكي بقيادة النمسا إلى نتائج رهيبة ممثلة في فشل القطبين (الشمال البروتستنطي والجنوب الكاثوليكي) في توحيد جهودهما ضد نابليون في معركة أو سترليتز Austerlitz في سنة ١٨٠٥ ومعركة جينا (يينا) في سنة ١٨٠٦. وقبل هاتين اللطمتين بفترة طويلة كانت النمسا نفسها قد بدأت تتجاهل الدايت الإمبراطوري (المجلس التشريعي الإمبراطوري) وتبعتها في ذلك دول ألمانية كثيرة[٢] (دول بالمعنى الوارد في صدر هذا الفصل)، وفي سنة ١٧٨٨ لم يستجب للدعوة لحضور هذا الدايت سوى ١٤ أميراً من بين مائة لهم حق انتخاب (الأمبراطور) وثمانية من بين خمسين من رؤساء المدن (عمد المدن[٣]) فكان محالا أن يستطيع الدايت إصدار قرارات. وفي معاهدة كومبوفورميو Compoformio (١٧٩٧) ولونيفيل Luneville (١٨٠١) أجبر نابليون النمسا على الاعتراف بالحكم الفرنسي على المناطق الواقعة غرب الراين، وهكذا أصبح الجزء الثري من الإمبراطورية الرومانية المقدسة – بما في ذلك مدن: سبير Speyer ومنهيم Mannheim وفورمز Worms ومينز (مينتس Mainz) وبنجن Bingen وتريير Trier وكوبلتر (كوبلنتس Coblenz)، وآخن Aachen وبون Bonn وكولوني Cologne – تحت الحكم الفرنسي. وبحلول عام ١٨٠١ كان هناك قبول عام بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبحت – كما قال فولتير – لا هي مقدسة، ولا هي رومانية ولا هي

إمبراطورية، فلم تكن هناك «دولة» ألمانية مهمة تعترف بسلطانها أو سلطان البابا فكان لا بد من ظهور شكل جديد من التعاون والنظام – وسط هذه الفوضى – يلقى القبول، وقد أخذ نابليون على عاتقه مواجهة هذا التحدي.

٢- كونفدرالية الراين: ١٨٠٦

كان نهر الراين العظيم كمتحف للمناظر الخلابة الرائعة، والذكريات التاريخية التي خلدتها – في بعض الأحيان – الأعمال المعمارية. وكان بالإضافة إلى ذلك ذا فضل حيوي على الاقتصاد؛ يروي التربة الصالحة للزراعة، ويربط كل مدينة يمربها بالكثير من المدن الأخرى التي تضارعها ثقافة وتجارة، وفقد النظام الإقطاعي أنيابه وأساليبه مع توطن التجارة والصناعة على جانب النهر. لكن هذا الازدهار المنساب كانت تفسده أربع قضايا: كسل الحكام وانغماسهم في الملذات، شيوع الرشوة بين الجهاز الإداري، تركز الثروة بشكل حاد، تمزق أوتفتّت عسكري يحرض الغزاة على الغزو.

وقد فتح الطريق إلى التنظيم الجديد لدول الراين بوعد قدمته كل من فرنسا والنمسا لتعويض ذوي الحيثية الألمان الذين فقدوا ممتلكاتهم بسبب اعتراف النمسا بالسيادة الفرنسية على غرب الراين – تعويضهم بممتلكات جديدة، وأدى تذمر الذين نزعت ملكيتهم واعتراضهم على ما عُوضوا به إلى انعقاد مؤتمر رشتات Rastatt بين فرنسا والنمسا (١٦ ديسمبر ١٧٩٧)، واقترح بعض الأمراء من غير أولي المصلحة ضرورة تحويل الولايات (الإمارات) الإكليريكية إلى ولايات (أوإمارات) علمانية، وبتعبير أوضح تحويلها من حكم الأساقفة إلى حكم سواد الناس (غير الإكليريك)، ولم يكن المؤتمر قادرا على الموافقة على هذا الاقتراح فأحال الأمر للدايت التالي للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وظل الأمر معطلاً «معلقاً» حتى عاد نابليون من مصر وأحكم القبضة على السلطة في فرنسا وهزم النمسا في معركة مارنجو Marengo، وعقد اتفاقاً معها (النمسا) وبروسيا وروسيا أصدر بمقتضاه الدايت الإمبراطوري في ٢٥ فبراير ١٨٠٣ مرسوما شاملا يحدد خريطة غرب ألمانيا ونظم الحكم فيها وهو المرسوم الذي يطلق عليه بالألمانية Reichsdeputationshauptschluss وبناء

عليه تم عزل كل الأساقفة تقريبا (من حكم وحداتهم) ووافقت بروسيا باعتدال على تقليص الحكم الأسقفى، وكانت النمسا بلا حول ولا قوة فلم يجدها سخطها فتيلا.

وتحقق الحكام الجدد أن النمسا قد تكون غير راغبة في تقديم حماية عسكرية لهم - بل إنها غير قادرة. كما لم يكونوا يتوقعون - وهم كاثوليك في غالبهم - حماية بروسيا البروتستنطية لهم. فلجأت الدول التي أعيد تشكيلها - المرة تلو المرة - إلى نابليون فهو الأقوى عسكريا، كما أنه من الناحية الرسمية - كاثوليكي. ففي ميونخ Munich (٣٠ ديسمبر ١٨٠٥) قابل كارل تيودور فون دالبرج Karl Theodor Von Dalberg ناخب منذ (مينتس Mainz) الإكليريكي (رئيس الأساقفة) - قابل نابليون العائد منتعشا لانتصاره في معركة أو ستر ليتز Austerlitz، ودعاه لقبول قيادة الولايات (الإمارات) التي أعيد تنظيمها. وظل الإمبراطور (نابليون) المشغول يفكر في الأمر مدة نصف عام، فوجد أن فرض الأمة الفرنسية لحمايتها على ألمانيا (جعلها محمية فرنسية) سيؤدي إلى عداء بقية الألمان، كما سيزيد عداء كل من إنجلترا وروسيا حدة. وفي ١٢ يوليو ١٨٠٦ دخلت بافاريا، وفيرتمبرج Wurttemberg وبادن Baden وهس - دارمشتادت Hesse – Darmstadt ونساو Nassau وبيرج Berg ودول ألمانية أخرى كثيرة - في اتحاد كونفدرالي هو « كونفدرالية الراين Rheinbond »، وفي أول أغسطس وافق نابليون أن يأخذ على عاتقه حماية هذا الاتحاد الكونفدرالي « وافق أن يجعله محمية فرنسية »، واحتفظ الكيان باستقلاله في الأمور الداخلية لكن المتحدين وافقوا على أن يرسم لهم السياسة الخارجية ووافقوا على أن يضعوا قوة عسكرية كبيرة تحت أمره يطلبها متى شاء(٤). وأرسلوا إلى فرانسيس الثاني والدايت الإمبراطورية بما يفيد أن دول الكونفدرالية لم تعد أعضاء في الرايخ. وفي ٦ أغسطس أعلن فرانسيس رسميا حل الإمبراطوريه الرومانية المقدسة وتخلى عن لقبه الإمبراطوري المرتبط بها (كإمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة) واحتفظ بمنصبه ولقبه كإمبراطور للنمسا. لقد زوت عظمة الهبسبرج وأصبح شارلمان الجديد (المقصود نابليون) يحكم من فرنسا مادا سلطانه على غرب ألمانيا. وحققت « كونفدرالية الراين » فوائد حيوية، كما عانت من كوارث لامفرمنها. لقد أدخلت مدونةنابليون القانونية (بما فيها من إلغاء العوائد أو الرسوم

الإقطاعية والأعشار الكنسية) وأخذت بحرية العبادة الدينية والمساواة أمام القانون والنظام الفرنسي في الإدارة (تولى محافظ أو مدير أو وال لمنطقة بعينها) وهو نظام مركزي ولكنه يتسم بالكفاءة، بالإضافة لتعيين قضاة مدربين أكثر استعصاء على الرشوة. وكان الخلل الأساسي في هذا البناء هو قيامه على أكتاف قوى أجنبية (فرنسية) ولايمكنه الاستمرار إلا إذا وازنت الحماية الأجنبية تكاليفه الداخلية. وعندما أخذ نابليون آلافاً من أبناء الألمان ليحاربوا النمسا في سنة ١٨١٢ بدت محمية الراين متوترة، وعندما أخذ آلافا من أبناء الألمان لمحاربة روسيا في سنة ١٨١٢ وطلب دعما ماليا ثقيل الوطأة لتمويل معركته، بدت المحمية وكأنها حمل كبير ينزع منه نابليون ويستنزفه شيئا فشيئا، وعندما جند ألمان كونفدرالية الراين ليحارب بهم ألمان بروسيا في سنة ١٨١٣ راح ألمان الكونفدرالية ينتظرون تراجع الفرنسيين لينقضوا البناء كله على رأس الكورسيكي الذي أنهكته الحروب (نابليون).

وفي هذه الأثناء كان نصراً لنابليون أنه كان قد رتب حدودا جديدة آمنة لفرنسا ذات ميزة أمنية مزدوجة. لقد كان قد أدمج أراضي غرب الراين في فرنسا، وأصبحت المناطق الغنية على الشاطئ الشرقي التي تصل حتى الألب متحالفة مع فرنسا ومعتمدة عليها. ورغم أن كونفدرالية الراين قد تفككت عقب هزيمة نابليون في ليبزج (ليبسيج Leipsig) في سنة ١٨١٣، فقد كان هذا التوحيد حيا في ذاكرة بسمارك بعد ذلك كما أن توحيدنابليون لإيطاليا كان بعد ذلك إلهاماً ألهم مازيني Mazzini وغاريبالدي Garibaldi وكافور Cavour.

٣- مقاطعات نابليون الألمانية

كانت هناك إلى الشمال من كولوني Cologne منطقتان كانتا رغم عضويتهما في كونفدرالية الراين (الراينبوند Rheenbund) تابعتين كلية لنابليون لاستيلائه عليهما عنوة عن طريق الحرب، وقد حكمهما هو نفسه أو بواسطة أقربائه: دوقيه بيرج Berg الكبيرة التي حكمها قريبه جواشيم مورا Joachim Murat ومملكة وستفاليا Westphalia التي حكمها

أخوه جيروم Jerôme. وعندما رقى نابليون أخاه جيروم فكلفه بحكم نابلي (١٨٠٨) راح نابليون يحكم دوقية بيرج عن طريق مفوضين يرسلهم إليها، وراح عاما بعد عام يدخل فيهما الأساليب الفرنسية في الإدارة والضرائب والقانون. وكان النظام الإقطاعي فيهما قد غدا أثراً بعد عين إذ تطورت التجارة والصناعة حتى أصبحت الدوقية مركزا مزدهرا لاستخراج المعادن وصناعتها.

أما وستفاليا فكانت أكثر تنوعا واتساعا، فطرفها الغربي هو دوقية كليفز Cleves (التي ترجع إليها أصول الزوجة الرابعة لهنري الثامن) ومن ثم تتخذ اتجاها شرقيا عبر مينستر Munster وهايلدشيم Hildesheim وبرونسفيك Brunswick وفولفن بوتل Wolfenbuttel إلى ماجدنبورج Magdenburg، وعبر بادربورن Paderborn إلى كاسل Cassell (العاصمة) وعبر أنهار الرور (الروهر Ruhr) وإمز Ems وليب Lippe إلى السال Saale والإلب Elbe. وعندما أصبح جيروم بونابرت ملكا عليها في سنة ١٨٠٧ كان في الثالثة والعشرين من عمره وكان أكثر اهتماماً بالمسرات منه بالسلطة. وراح نابليون - آملا أن تحوله المسئولية إلى شخص ناضج مستقر - يرسل له خطابات غاصة بالنصائح والتوجيهات الممتازة، بل وكانت ذات لمسة إنسانية حقا، لكنها كانت مصحوبة بمطالب مالية كبيرة، ووجد جيروم أنه من الصعب إشباع مطالب أخيه مقارنة بالموارد المالية المتاحة، بالإضافة إلى ميله (أي جيروم) للحاشية المسرفة وحياة الترف. وقد تعاون بشكل فعال تماما في إدخال الإصلاحات المبدعة الخلاقة التي عادة ما كان نابليون يجلبها معه في فترة فتوحاته وكان من مبادئ نابليون الأساسية أن «الناس لا قدرة لهم على تحديد مستقبلهم، فالمؤسسات وحدها هي التي تحدد قدر الأمم[٥]» لذا فقد قدم لوستفاليا مجموعة قوانين (مدونة قانونية) وإدارة تتسم بالكفاءة، كما كانت تتسم بالأمانة النسبية، وحرية دينية ونظاما قضائيا كفؤا وأدخل نظام المحلفين، والمساواة أمام القانون، وتوحيد الضرائب، ونظام المراجعة المحاسبية الدورية لكل الأنشطة الحكومية. وكانت جمعية وستفاليا الوطنية يتم انتخابها من خلال حق اقتراح محدود: ١٥ من بين ١٠٠ مندوب (نائب أومفوض) يتم اختيارهم من التجار ورجال الصناعة، و ١٥ من بين العلماء وغيرهم من ذوي المكانة. ولم يكن لهذه الجمعية الوطنية

حق المبادرة بإصدار التشريعات، لكن من حقها انتقاد الإجراءات التي يقدمها مجلس الدولة، وغالباً ما كان يؤخذ بنصائحها.

وكانت الإصلاحات الاقتصادية أساسية. لقد انتهى النظام الإقطاعي الآن، فالاقتصاد الحر لا بد أن يفتح كل المجالات أمام كل الطموحين. وكان لا بد من صيانة المجاري المائية والطرق وتحسينها، وتم إلغاء تعريفة الانتقال في نطاق وستفاليا وتم توحيد الموازين والمقاييس في كل أنحاء المملكة (وستفاليا). وصدر مرسوم في ٢٤ مارس ١٨٠٩ يحمل كل كُمْيون مسئولية الفقراء في نطاقه سواء بتوظيفهم أو تقديم مساعدات الإعاشة لهم[٦]. واشتكى دافعو الضرائب.

ومن الناحية الثقافية كانت وستفاليا أكثر الدول الألمانية تطورا لقد احتضنت بين جنباتها حياة فكرية منذ غذت مكتبة فودا Fuda الديرية عصر النهضة (الرينسانس) بالمخطوطات الكلاسية، بل وقبل ذلك. لقد كان في هايلدشيم Hildesheim الفيلسوف والرياضي ليبنيتس (ليبنتز Leibniz) وكان في فولفنبوتل Wolfenbuttel الناقد والكاتب المسرحي ليسنج Lessing، والآن فإن لدى الملك جيروم أمين مكتبة ماهر هو جاكوب جريم Jacob Grimm سنتناوله بعد ذلك كمؤسس لعلم فيلولوجيا (علم فقه اللغة التاريخي والمقارن) اللغات التيوتونية. وفي سنة ١٧٠٧ – بناء على دعوة نابليون – ترك جوهان فون ملر Muller كبير مؤرخي عصره – منصبه في برلين كمؤرخ ملكي (مؤرخ رسمي) ليأتي إلى وستفاليا وزيراً وليتولى (١٨٠٨ – ١٨٠٩) أمر التعليم العام. وكان في وستفاليا آنئذ خمس جامعات، كان معترفا بثلاث منها في ظل حكم جيروم: جوتنجن Gottingen وهيل Halle وماربوج Marburg، وحققت جامعتان منها شهرة عبر أوربا. لقد رأينا الشاعر كولردج Coleridge يتجه مباشرة من نذر ستوي Nether Stowey إلى جوتنجن، ويعود لإنجلترا بعد عام وقد اعترته الدهشة والإعجاب بسبب الأفكار الألمانية.

وفي مقابل هذه الأمور الطيبة كان هناك شران شديدا الوطأة: الضرائب والتجنيد الإلزامي. لقد كان نابليون يطلب من كل الكيانات التابعة له مساهمة مالية فعالة لحكمه، ولبلاطه الذي راح إسرافه يزداد يوما بعد يوم، ولنفقات جيوشه. وكانت حجته بسيطة: إذا

حدث أن استطاعت النمسا أو أي قوى معادية أن تلحق به الهزيمة أو تطيح به، فإن الأمور الطيبة التي جلبها معه ستنتزع من رعاياه. ولهذا السبب نفسه لا بد للدول الواقعة تحت حمايته من مشاركة فرنسا التزاماتها بتقديم أبنائها القادرين للخدمة العسكرية ليضحوا عند الضرورة بحياتهم. وحتى سنة ١٨١٣ كان رعايا جيروم يتحملون برجولة هذا الاستنزاف. والأهم أن الجلد لم يكن معروفا في جيوش نابليون، كما كانت الترقية بالجدارة والاستحقاق، فكان يمكن لأي جندي أن يصبح ضابطا، بل ومارشالاً، لكن بحلول عام ١٨١٣ كان على وستفاليا أن ترسل ٨٠٠٠ من شبابها للاشتراك في حرب نابليون في أسبانيا، و ١٦,٠٠٠ للمشاركة في حربه في روسيا، ولم يعد منهم من إسبانيا سوى ٨٠٠، أما من عادوا من روسيا فلم يزيدوا على ٢,٠٠٠.

وكانت ناخبية(*) (إمارة) هانوفر تقع في شمال شرق وستفاليا. وفي سنة ١٧١٤ كان ناخبها قد أصبح هو ملك إنجلترا جورج الأول، فأصبحت هانوفر تابعة لإنجلترا. أما الناخب الذي تولى أمرها تباعا فهو جورج الثالث الذي جعل منها منطقة موالية لبريطانيا وعمل على عدم ابتعادها عنها (عن بريطانيا) ولهذا الغرض ترك ملاك الأراضي الكبار فيها (في هانوفر) يحكمون الإمارة (المقاطعة) «لصالح الأرستقراطية الألمانية - وهي من أكثر الأرستقراطيات تمسكا وانغلاقا بمعنى أن من الصعب أن ينضم إليها غيرهم. لقد كانت كل المناصب المهمة يحتكرها النبلاء الذين كانوا حريصين ألا يقع على كاهلهم شيء من عبء الضرائب». وعلى أن يتحمل غالبها الفلاحون وأهل المدينة. وظل النظام الإقطاعي قائما وإن خفف من وطأته العلاقات الأسرية وكانت الحكومة المحلية أمينة أمانة فوق التصور(٧). وفي سنة ١٨٠٣ - عند بداية الحرب مع إنجلترا - أمر نابليون قواته وجهازه الإداري بالسيطرة على هانوفر لضمان عدم نزول قوات برية بريطانية فيها ولمنع أي بضائع إنجليزية، ولم يلق الفرنسيون سوى مقاومة بسيطة، وفي سنة ١٨٠٧ - وكان نابليون مشغولاً باهتمامات أكبر - أمر بإلحاق (ضم) هانوفر إلى وستفاليا وأتاحها (أي هانوفر) لجهاز جمع الضرائب التابع للملك جيروم. وراح أهل هانوفر يندبون حظهم متضرعين إلى الرب ليعودوا

(*) أي أن حاكمها كان له حق انتخاب إمبراطور الإمبراطورية المقدسة قبل حَلّها. (المترجم)

تابعين لإنجلترا كما كانوا.

وعلى النقيض من هانوفر، كانت المدن الهانسيتية - هامبورج ، وبريمن Bremen ولوبك Lubeck - موطناً للازدهار والرخاء والكبرياء (الاعتزاز بالانتماء) . لكن العُصبة (التحالف المكوَّن من هذه المدن) كانت قد انحلّت منذ مدة طويلة، غير أن انهيار أنتورب Antwerp وأمستردام تحت الإدارة الفرنسية أدّى إلى تحويل كثير من تجارتيهما إلى هامبورج وبدت المدينة الواقعة على مصب نهر إلب the Elbe والتي كان سكانها في سنة ١٨٠٠ : ١١٥,٠٠٠ نفس، وكأنما صُمِّمَت لخدمة التجارة البحرية ولإعادة شحن السفن بشكل ناشط . لقد كان يحكمها التجار الكبار والماليون، وكان احتكارهم محتملاً نظراً لمهارتهم ووضعهم كل الأمور في الاعتبار . وتلهّف نابليون لضم هذه المدن التجارية لحكمه ليضمها للحظر الذي فرضه على الواردات البريطانية وليستفيد بأموالها والقروض التي يحصلها منها على حروبه فأرسل بورين Bourrienne وآخرين لوقف تدفق البضائع البريطانية إلى هامبورج، وقد أصبح هذا الوزير السابق (بورين) ثرياً بفضل تغاضيه (إغلاقه عينيه الاثنتين) وأخيراً ضم نابليون المدينة الكبيرة إلى حكمه (١٨١٠) فانزعج أهلها انزعاجاً شديداً حتى إنهم شكّلوا جمعيات سرية لاغتياله (اغتيال نابليون) وراحوا يتآمرون كل يوم لإسقاطه .

٤- سكسونيا

إلى الشرق من وستفاليا وإلى الجنوب من بروسيا وُجِدت دولة ألمانية عرفها أهلها باسم Sachsen وعرفها الفرنسيون باسم ساكس Saxe كانت ذات يوم تمتد من بوهيميا إلى البلطيق، وقد تركت هذه الدولة آثارها في الأسماء المختلفة في بريطانيا التي تنتهي بالمقطع (Sexes) هذه الدولة قد لحقها الخراب في وقت لاحق بسبب حروب الأعوام السبعة لكنها الآن (من هذه الفترة) تنعم بناخبية (إمارة : بالمعنى السابق شرحه) مزدهرة تمتد على جانبي نهر الإلب Elbe من ڤيتنبرج Wittenberg (التي شهدت شطراً من حياة لوثر) حتى دريسدن Dresden (باريس ألمانيا) .

وفي ظل حكم فريدريك أوغسطس الثالث كناخب (له حق المشاركة في اختيار

إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة) (في الفترة من ١٧٦٨ - ١٨٠٦) وكملك (فريدريك أوغسطس الأول) في الفترة من ١٨٠٦ إلى ١٨٢٧ سرعان ما استعادت سكسونيا ازدهارها خاصة وهي تنعم بنهر الإلب الذي يرويها وكأنه أم رؤوم. ونعمت دريسدن Dresden مرة أخرى بعمائرها المشيدة على وفق طراز الروكوكو rococo وشوارعها الفسيحة وجسورها الجميلة، وتماثيل العذراء، وفخارها المنقوش. وأدار الحاكم الشاب - رغم عدم تفوقه كرجل دولة - مملكته بشكل حكيم وأنفق موارده بعناية وسدد الدَّيْن الوطني وطوّر مدرسة مشهورة للتعدين في فريبرج Freiberg.

وواصلت ليبزج (ليبتسيج Leipzig) تنظيم معرض الكتاب الذي يُعقد فيها سنوياً الذي كان ناشرو أوروبا يعرضون فيه آخر إصداراتهم فنافست بذلك درسدن. وأدى انتعاش الأدب الألماني إلى التفوق الفكري.

وانضم فريدريك أغسطس « العادل » أو « المستقيم » إلى بروسيا والنمسا في محاولة تهذيب الثورة الفرنسية وأسهم في معركة فالمي في سنة ١٧٩٢، وكانت قواته مع الجيش البروسي المنسحب. لقد انزعج كثيراً لإعدام ابن عمه لويس السادس عشر لكنه انضم راغباً إلى جهود السلام مع فرنسا في سنة ١٧٩٥. وعندما وصل نابليون إلى السلطة حافظ فريدريك على علاقات طيبة معه، وكان نابليون يحترمه كمستبد عادل (متنوّر) يحب شعبه. وعلى أية حال، فعندما كانت جيوش نابليون تقترب في سنة ١٨٠٦ من جينا (يينا) وقع فريدريك بين المطرقة والسندان: حذّره نابليون ألا يترك الجيش البروسي يمر في أراضي سكسونيا، لكن بروسيا أصرّت على مرور جيشها وغزت سكسونيا، فاستسلم الناخب وترك جيشه الصغير ينضم للجيش البروسي. و عامل المنتصرُ (نابليون) فريدريك أغسطس بتساهل نسبي فعرض عليه أن يدفع لفرنسا تعويضاً مقداره ٢٥ مليون فرنك وأمره أن يغير لقبه ليُصبح (ملك سكسونيا) وجعله على رأس دوقية وارسو (فرسافا) Warsaw الكبيرة وأجبر بروسيا على التنازل لسكسونيا عن مناطق Circle of Cattbus على الشاطئ الغربي لنهر سبري Spree. وهكذا أصبحت بروسيا محصورة بين بولندا من الشمال والشرق، ووستفاليا من الغرب وسكسونيا من الجنوب - وكلها مُعاهِدَة لنابليون. لقد بدا

وكأنّ المسألة مسألة وقت لتتبع بروسيا بقية ألمانيا في خضوعها لفرنسا النابليونية (فرنسا في ظل حكم نابليون).

٥- بروسيا: تراث فريدريك: ١٧٨٦ - ١٧٨٧

عند موت فريدريك الثاني كانت مملكة بروسيا الكبيرة تتكوّن من ناخبية (إمارة بالمعنى الآنف شرحه) براندنبورج Brandenburg، ودوقيتي سيليزيا Silesia وبوميرانيا القصوى Farther Pomerania، وولايات (مقاطعات) بروسيا الشرقية - بما فيها كونيجسبرج Konigsberg وفريدلاند Friedland وممل Memel - وبروسيا الغربية التي تم الاستيلاء عليها من بولندا في سنة ١٧٧٢ ومقاطعات مختلفة من قلب غرب ألمانيا تشمل فريدلاند الشرقية ومينستر Munster وإسّن Essen وبعد موت فريدريك أضافت بروسيا إليها منطقة ثورن Thorn ودانزج (دانتسِج Danzig) في التقسيم الثاني لبولندا (١٧٩٢) ووارسو (فرسافا) وقلب بولندا في التقسيم الثالث (لبولندا) في سنة ١٧٩٥ وأنسباخ Ansbach وبايروث Bayreuth ومانسفيلد Mansfield في سنة ١٧٩١ ونيوشاتل Neuchatel في سويسرا في سنة ١٧٩٧. لقد بدت بروسيا وكأنها قررت ابتلاع شمال ألمانيا عندما تقدم نابليون ليعفيها من هذه المهمة.

لقد كان والد فريدريك العظيم هو الذي جعل هذا التوسّع البروسي ممكناً، ذلك أن فريدريك الأول كان قد علّم ابنه وشعبه تحمّل المشاق بصمت، بالإضافة إلى أنه ترك له أفضل جيش في العالم المسيحي، وترك له شعباً منظّماً بإحكام يخضع لنظام تعليمي واحد ونظام ضرائبي واحد، ونظام خدمة عسكرية يسري على الجميع. لقد كانت بروسيا قد أصبحت لقمة سائغة لملك ذي ميول عسكرية، وارتعدت أوروبا كلها وألمانيا كلها وبروسيا كلها لرؤية هذا الرجل وهو يلتهم المُلك (العرش) بضباطه الأرستقراطيين (اليونكر Junker) المستبدّين ورماة القنابل ذوي الأقدام الثمانية(*). لقد حذّرت الأم ابنها قائلة:

[٨]Do not get tall, or the recruiters will get you

(*) النص his six-foot grenadiers والمعنى ذو كناية أو دلالة حضارية غير واضحة لي. (المترجم)

وقد أضاف فريدريك العظيم (حكم من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦) لهذا الجيش وهذه الدولة عبقريته الخاصة التي شحنها بقراءة فولتير، وتكيفاً مع الواقع (رواقية عميقة) من مورّثاته (جيناته)، لقد رفع من شأن بروسيا من مملكة صغيرة تضارعها سكسونيا وبافاريا إلى قوّة تُضاهي النمسا في العالم الألماني تقف كحاجز قوي في وجه الضغط الدائم للسلاف الذين يتكاثر عددهم بسرعة، ليصل بها (بروسيا) مرة أخرى إلى حدودها القديمة على نهر الإلب Elbe . وفي الداخل أسس نظاماً قضائياً مشهوراً بتكامله وجهازاً من الإداريين حل بالتدريج محل النبلاء لتسيير أمور الدولة. وأرسى دعائم حرية الحديث والصحافة والعبادة وتحت حمايته « أصبح نظام المدارس في ألمانيا هو البديل للتعليم الكنسي الذي جعل البروسي في سُبات روحي عميق »(٩). لقد كان هو الرجل الوحيد في عصره الذي يستطيع أن يفوق فولتير ويعلّم نابليون. قال نابليون في سنة ١٧٩٧ « إن فريدريك العظيم بطل أحب أن أناقشه في كل شيء؛ في الحرب وفي الإدارة. لقد درستُ مبادئه في الميدان، وخطاباته المألوفة كانت بالنسبة لي دروساً فلسفية »(١٠).

وكان هناك نقص في إنجازه، فهو لم يجد الوقت الكافي بسبب المعارك التي خاضها - لتهذيب النظام الإقطاعي البروسي فيعطيه طابعاً أكثر إنسانية كما هو الحال في دول الراين Rhineland States، وأدت حروبه إلى فقر أصاب شعبه، فكانت هذه الحروب إلى حد ما مسؤولة عن انحدار بروسيا بعد وفاته. أما فريدريك وليم الثاني (حكم من ١٧٨٦ إلى ١٧٩٧) فكان كعمه الذي لم ينعم بطفولته مولعاً بالنساء والفنون أكثر من ولعه بالحكم والحرب، فقد ألحق بزوجته الأولى خليلة أنجبت له خمسة أبناء، وطلق زوجته في سنة ١٧٦٩ وتزوّج من فريدريكه لويز Friedrike Louise (من هس دارمشتادت Hesse - Darmstadt) التي أنجبت له سبعة أبناء، وفي أثناء زواجه الأخير هذا حث رجال الدين في بلاطه على السماح له بارتباط مورجانتي (أي السماح له بالزواج ممن هي أدنى منه منزلة ودرجة على أن يظل كل طرف من الطرفين في درجته نفسها وطبقته نفسها، وليس للأولاد المولودين من هذا الزواج حق الإرث أو حق وراثة ألقاب النبالة) مع جولي فون فوس (١٧٨٧) التي ماتت بعد الزواج بعامين، ومن ثم تزوّج الكونتيسة صوفي دونهوف Sophie

Donhoff (١٧٩٠) التي أنجبت له ولداً. وكـان لديه من الوقت مـا يسـمح له بعـزف الفيولونشلو Violoncello وباستقبال موزارت وبيتهوفن، وبتأسيس أكاديمية للموسيقا ومسرح للدولة. وموّل (وأعلن) في سنة ١٧٩٤ مدوّنه قانونية جديدة تحوي كثيراً من العناصر الليبرالية.

وسمح لجوهان (يوهان) فون فولنر Johann Von Wollner وهو إصلاحي أخذ بالمذهب العقلي، وكان أثيراً لديه – سمح له في سنة ١٧٨٨ بإصدار قانون إيمان ديني[١١] Religionsedikt أنهى التسامح الديني وأحكم الرقابة حتى إن كثيراً من الكتاب هجروا برلين بسببه.

وقامت سياسته الخارجية على الدفاع، فقد رفض الموقف الهجومي لسلفه، وهزأ بقرن سبق من الأحداث، فخطب ود النمسا، باعتبار ذلك خطوة كبرى نحو وحدة ألمانيا وأمنها. ولم يكن يحب الثورة الفرنسية، فبقي راضياً عن النظام الملكي (وكذلك كان شعبه راضياً عن الملكية) وأرسل بعض القوّات للمشاركة في معركة فالمي (١٧٩٢) ولكنه كان سعيداً بعودة من بقي من جنوده لمساعدته في التقسيم الثاني لبولندا، وفي سنة ١٧٩٥ وقّع اتفاق سلام بازل (بَاسِل Basel) مع فرنسا التي سمحت له بالاستيلاء على وارسو (فرسافا) في التقسيم الثالث لبولندا.

ورغم ما حصل عليه وضمه لبلاده فقد سمح بتدهور أحوالها مالياً وعسكرياً. ومنذ وقت باكر يرجع إلى سنة ١٧٨٩ كتب ميرابو Mirabeau بعد إقامة طويلة في برلين – وكأنه يتنبّأ: « العرش البروسي أصبح في وضع لا يتمكن فيه من التغلب على أية كارثة »[١٢]. لقد أصبح الجيش في حالة استرخاء وفقد حماسه، وأصبح الجهاز الإداري هشاً يشيع فيه الغش والخداع والرشوة. وأصبحت ميزانية الدولة مضطربة وقريبة من الإفلاس[١٣]. ولم تكن سوى الحرب هي التي تستطيع بشكل حاسم أن تُوضِّح لهذا الجيل الأعمى ما وصلت إليه بلادهم من تدهور.. ذلك التدهور الذي أصاب بالشلل كل النشاطات بعد أن ركن الناس لسحر شهرة بلادهم في الماضي »[١٤].

وهكذا مات الملك الطيّب ووقع عبء العناية بالدولة المريضة على عاتق ابنه فريدريك وليم الثالث في فترة شهدت فيها أوروبا توسعات نابليون، وجهود ميترنيخ النمساوي، وظل فريدريك الثالث يحمل هذا العبء حتى سنة ١٨٤٠ . ويدهش الجميع لاستمراره في الحكم طوال هذه المدّة مع أنه كان ضعيف الإرادة رقيق المشاعر. لقد كان يتحلّى بكل الفضائل التي يمكن أن تمكن المواطن الصالح من التطوير والعمل: تعاون، عدالة، رقة، تواضع، إخلاص لزوجته وحب للسلام. لقد حرر الأقنان (عبيد الأرض) في الأراضي التي تمتلكها الأسرة المالكة. تزوّج في سنة ١٧٩٣ لويزا (Louise) Luise من مكلنبورج ستريليز Luise (Louise) of Mecklenburg وهي في السابعة عشرة من عمرها، جميلة وعاطفية ومخلصة ووطنية، وسرعان ما أصبحت محبوبة الشعب. وظلت المصدر الأساسي للسعادة التي غرق فيها متناسياً كل النكبات والكوارث.

لقد راح القرن الجديد يجلب له الأزمة تلو الأزمة. ففي سنة ١٨٠٣ استولى الفرنسيون على هانوفر التي كانت بروسيا قد ضمنت حيادها، فطالب الضباط الشبان في الجيش البروسي بقطع العلاقات - على الأقل - مع فرنسا، إن لم يكن الحرب. لكن فريدريك وليم عقد معها سلاماً. وأحكمت القوات الفرنسية قبضتها على مصب نهر الإلب Elbe ونهر فستر (وستر Wester) فأضرت - بفعلها هذا - بالتجارة البروسية، فتذرّع فريدريك بالصبر.

ودعت الملكة لويزا للحرب، وارتدت الزيّ العسكري الخاص بالفوْج العسكري الذي يحمل اسمها، وظهرت في عرض عسكري وهي تمتطي صهوة جواد، وراحت تبثُّ الحماس في الجيش الذي لا يُقهر. أما الأمير لويس فرديناند - ابن عم الملك - فكان يتطلع إلى فرصة لإظهار همته ونشاطه، أما دوق برونسفك (برونسويك Brunswick) العجوز فعرض أن يقود هو بنفسه الجيش البروسي.

أما الجنرال بلوشر (بلوخر) Blucher - الذي أصبح بعد ذلك بطلاً من واترلو - فقد أيده (أي أيد دوق برونسفيك). ومع هذا فقد راح فريدريك وليم يقاوم رغبات كل هؤلاء

بهدوء. وفي سنة ١٨٠٥ حثَّت النمسا – التي قررت أن تتحدّى نابليون – بروسيا على تقديم المساعدة لها، لكن الملك البروسي لم يستجب.

غير أن صبر فريدريك وليم نفد عندما توغلت القوات الفرنسية – وهي في طريقها إلى أوسترليتز Austerlitz في منطقة بيروث Bayreuth البروسية، فدعا الملكُ إلى مؤتمر في بوتسدام Potsdam يحضره ملك روسيا إسكندر، وأقسم الملكان عند قبر فريدريك الكبير أن يقفا معاً في مواجهة نابليون وأن يهبّا معاً لنجدة النمسا. وسارت قوات إسكندر الروسية جنوباً فلاقت الهزيمة وفي الوقت نفسه تشتت الجيش البروسي في الوقت الذي ولّى فيه إسكندر هارباً إلى بلاده روسيا. وأعطى نابليون سلاماً سهلاً – لكنه مشروط – لفريدريك وليم (١٥ ديسمبر ١٨٠٥، ١٥ فبراير ١٨٠٦): تتنازل بروسيا لفرنسا عن نيوشاتل Neuchatel وكليفز Cleves وأنسباخ (أنسباش Ansbach) لفرنسا، في مقابل أن تأخذ (أي بروسيا) هانوفر، ووافق فريدريك وليم على إغلاق الموانئ البروسية في وجه البضائع البريطانية بعد أن حصل على هانوفر وضمها لملكه – تلك الجائزة الثمينة التي طالما اشتهاها – ووقع مع فرنسا معاهدة تحالف دفاعية هجومية، فأعلنت إنجلترا الحرب على بروسيا. وتوجه نابليون لتكوين فدرالية الراين التي كانت تحيط ببعض المقاطعات البروسية في غرب ألمانيا، وعندما سمع فريدريك وليم أن نابليون يعرض هانوفر على انجلترا سرا – دخل في تحالف سري مع روسيا (يوليو ١٨٠٩)، وفي أول أغسطس استولى نابليون على كل غرب ألمانيا وجعلها تحت حمايته، وفي ٩ أغسطس عبأ فريدريك وليم جانباً من جيشه، وفي الرابع من سبتمبر أعاد فتح الموانئ الروسية أمام البضائع الإنجليزية، وفي ١٣ سبتمبر أمر قواته بدخول سكسونيا Saxony وانضمت قواته إلى القوات السكسونية، فأصبح جنرالاته وعلى رأسهم دوق برونسفيك (برونسويك) يقودون ٢٠,٠٠٠ مقاتل. وغضب نابليون غضبا شديدا لما اعتبره انتهاكا لاتفاقيتين وتحالف، فأمر جيوشه التي كانت متمركزة بالفعل في ألمانيا أن تنقض على مقدمة وجناح جيوش الحلفاء، وأسرع هو نفسه إلى الجبهة وأشرف على هزيمة البروس والسكسون هزيمة منكرة في جينا (يينا) وأورشتدت (أورشتاد Auersted) في اليوم نفسه – ١٤ أكتوبر ١٨٠٦.

ماذكرناه آنفا هو وجهة النظر الفرنسية. أما على الجانب البروسي فقد كان ما حدث واحدا من أظلم المآسي وأقساها في تاريخها. لقد هرب فريدريك وليم بحكومته وأسرته إلى شرق بروسيا وحاول أن يباشر مهامه من ممل Memel، وأصدرنابليون - من مقر البلاط الملكي في برلين - أوامر لقارة (بأكملها) بفرض الحصار القاري (على البضائع البريطانية) وأخرجت القوات الفرنسية الجيوش البروسية من بولندا، وهزم نابليون الروس في فريدلاند Friedland وصحبته قواته إلى تيلسيت Tilsit حيث عقد سلاما مع إسكندر. وهنا علم فريدريك وليم الشروط الأخيرة (النهائية) التي بمقتضاها يمكن أن تظل بروسيا كيانا موجودا على الخريطة. لابد أن تتنازل بروسيا لفرنسا عن كل الأراضي البروسية الواقعة غرب نهر الإلب وأن تعيد إلى بولندا كل أراضيها التي استولت عليها في التقسيمات الثلاثة. ولا بد أن تقبل دفع تعويض حرب بدفع رواتب الجنود الفرنسيين الذين احتلوا بروسيا حتى يصل إجمالي ما تدفعه إلى ١٦٠ مليون فرنك. وبهذه المعاهدة التي وقعتها بروسيا في ٩ بوليو ١٨٠٧ فقدت ٤٩٪ من الأراضي التي كانت تحكمها وصار عدد سكانها ٥,٢٥٠,٠٠٠ بعد أن كان ٩,٧٥٠٠,٠٠٠ (المقصود أنها بفقدها المناطق التي تنازلت عنها نتيجة الهزيمة فقدت حكم سكانها، وليس المقصود أن كل هذا النقص ضحايا حرب) وفي الفترة بين ١٨٠٦ و ١٨٠٨ كانت تكاليف القوات الفرنسية والتعويضات تستنفد كل دخل بروسيا(١٥). ومع هذا فقد كان هناك بعض الألمان يظنون - وهم يرون الدمار الذي حاق ببروسيا - أنها لن تقوم لها قائمة بعد ذلك ولن تلعب دوراً مهما في التاريخ الألماني.

٧- بروسيا تنهض من جديد: ١٨٠٧ - ١٨١٢

هناك نواة صلبة في الطبيعة الألمانية - أكدتها قرون من الحياة الشاقة بين شعوب محاربة وأجنبية - وهي أن الألمان شعب يمكنه تحمل الهزيمة مرفوع الرأس وينتظر الوقت المناسب للرد. وكان هناك آنئذ (الفترة التي نتحدث عنها) رجال على شاكلة شتاين Stein وهاردنبرج Hardenberg وشارنهورست Scharnhorst وجنيشيناو Gneisenau، ولم يتركوا يوما واحدا يمرّ دون أن يكون شغلهم الشاغل هو كيف يتم خلاص بروسيا أو بتعبير آخر

كيف تبعث من جديد. فهؤلاء الملايين من الأقنان (عبيد الأرض) الذين لا أمل لهم في ظل عبوديتهم القديمة - كم هي الطاقة التي سيصبونها في الاقتصاد البروسي وكم هي الحيوية التي سينعشونه بها لوأنهم تحرروا من أعبائهم المهنية وراحوا - وسط الترحاب - يعملون في مشروعات حرة في الريف أو المدن؟ وهذه المدن التي هي الآن كسولة فاترة الهمة في ظل حكم النبلاء الذين يحتقرون التجارة، ويمارسون مهامهم في حكم الأمة من عاصمة مركزية بعيدة - ما هي المبادرات النشيطة التي قد يطورونها في مجالات الصناعة وإدارة الأعمال، والمالية، في ظل حافز الحرية والتجريب؟ إن فرنسا في عهد الثورة الفرنسية قد حررت أقنان الأرض وانتعشت، بل إنها أبقت المدن تحت نفوذ باريس، فلم لا نحرر المدن والأقنان (عبيد الأرض) في آن، قاطعين الطريق على الغازي؟ على هذا النحو فكر فرايهر هنريش. فريدريش كارل فوم أوند تسوم شتاين Freiherr Heinrich Friedrich Karl Vom und zum Stein والمقطع الأخير من اسمه Vom und zum stein يعني «أبو صخر عند الصخرة of and at Rock» نسبة إلى مدينة أسلاف أسرته على نهر لاهن Lahn الذي يلتقي بنهر الراين فوق كوبلنز (كوبلنتس Coblenz)، ولم يكن الرجل بارونا وإنما فرايهر Freiherr - والكلمة تعني رجلا حرا - من الفرسان الإمبراطوريين (الرايخسترترشافت Reichstrittershaft)، وقد دعا للدفاع عن الأراضي التابعة له، وعن المملكة. لقد ولد (٢٦ أكتوبر ١٧٥٧) ليس في مدينة Vom Und zum Stein (مدينة أبو صخر عند الصخرة) وإنما بالقرب القريب من مدينة نساو Nassau، وكان أبوه حاجباً لناخب (أمير) مينز (منتس Mainz)، والتحق الابن عند بلوغه السادسة عشرة من عمره بمدرسة القانون والسياسة في جامعة جوتنجن Gottingen. وهناك قرأ منتسكيو Montesquieu وأخذ عنه إعجابه بالدستور الإنجليزي، وقرر أن يكون عظيما (أي بتعبير آخر قرر أن يلعب أدوارا مهمة) ومارس مهنته القانونية في محاكم الإمبراطوية الرومانية المقدسة في فتسلر Wetzler وفي الدايت الإمبراطوري في ريجنسبورج Regensburg.

وفي سنة ١٧٨٠ دخل الخدمة المدنية في بروسيا فعمل في الإدارة الوستفالية للصناعة والتعدين. وفي سنة ١٧٩٦ تولى منصبا قياديا في الإدارة الاقتصادية لكل المقاطعات

البروسية على طول الراين، واستدعيَ إلى برلين في سنة ١٨٠٤ ليشغل منصب وزير الدولة للتجارة بسبب نشاطه البالغ ونجاح مقترحاته. وفي غضون شهر من توليه منصب وزير الدولة للتجارة عهد إليه بتقديم العون لوزارة المالية. وعندما وصلت أخبار للعاصمة مفادها تشتيت نابليون للجيش البروسي في يينا (جينا Jena) نجح شتين Stein في نقل محتويات الخزانة البروسية إلى ممل Memel وبأموالها استطاع فريدريك وليم الثالث تمويل حكمه في المنفى (المقصود بعيدا عن العاصمة)، وربما أدت كوارث الحرب وماصاحبها من توتر إلى توتر أعصاب الملك والوزراء، ففي ٣ يناير ١٨٠٧ طرد فريدريك وليم الثالث وزيره شتاين Stein لأنه «عنيد متغطرس لاعلاج له وغير مطيع، وهو - لإعجابه بعبقريته ومواهبه... يعمل انطلاقا من عواطفه وكراهيته الشخصية وعلى وفق ما تمليه عليه ضغائنه»[١٦]. وعاد شتاين إلى بيته في نساو Nassau، وبعد ذلك بستة أشهر دعاه الملك - بعد أن علم أن نابليون طلبه كمدير - ليتولى وزارة الداخلية.

وكان منصب وزير الداخلية هو بالضبط الموقع المناسب الذي يمكن شتاين (ذلك الهر herr «أي السيد» المتحرر الغضوب) من تقديم أفضل الإصلاحات لإطلاق طاقات الشعب البروسي. وفي ٤ أكتوبر ١٨٠٧ تولى مهام منصبه الجديد بالفعل، وفي ٩ أكتوبر كان يعد للملك إعلانا طالما تطلع إليه ملايين الفلاحين ومئات الليبراليين، وكانت المادة الأولى في مشروعه هذا معتدلة إذ تعلن «حق كل ساكن من سكان ولاياتنا» أن يشتري أرضا ويتملكها وكان هذا الحق - حتى الآن - غير متاح للفلاحين. والمادة الثانية تسمح لأي بروسي أن يعمل في أي استثمار مشروع، وعلى هذا فستفتح كل المجالات أمام المواهب - كما هو الحال في ظل حكم نابليون - بصرف النظر عن الانتماء لأسرة أو طبقة، وستصبح الحواجز الطبقية لا مكان لها في المجال الاقتصادي، والمادة العاشرة تمنع أي قنانة (عبودية للأرض) أما المادة ١٢ فتعلن «ابتداء من ١١ نوفمبر (المارتنماس أي عيد القديس مارتن) لا يصبح في كل ولاياتنا فلاح نصف حر.. سنكون جميعاً أحرارا[١٧]» وقاوم نبلاء كثيرون هذا المرسوم، ولم يصبح ساريا بكل بنوده حتى سنة ١٨١١.

وعمل شتاين Stein والليبراليون المؤيدون له خلال عام ١٨٠٨ على تحرير المدن البروسية

من حكم البارونات الإقطاعيين أو ضباط الجيش المتقاعدين أو متعهدي الضرائب الذين كانت سلطتهم - في الغالب - بلا حدود. وفي ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٨ أصدر الملك - الذي أصبح مرة أخرى راغباً في الإصلاح - القانون المحلي للبلديات، يحكم المدن بمقتضاه مجلس محلي (جمعية محلية) تختار موظفيها بنفسها، باستثناء المدن الكبيرة فالملك هو الذي يعين عمدة burgomaster كل منها من بين ثلاثة رجال يختارهم المجلس المحلي. وهكذا بدأت الحياة السياسية الصحيحة على المستوى المحلي وتطورت إلى نظام إداري بلدي ألماني ممتاز.

ولم يكن شتاين Stein وحده في رعاية أمور بروسيا. فقد عمل جير هارد (جيراد) فون شارنهورست Gerhard Von Scharnhorst (١٧٥٥ - ١٨١٣) والكونت أوجست نيتهاردت فون جنيسناو Count August Neithardt Von Gneisenau (١٧٦٠ - ١٨٣١) والأمير كارل فون هاردنبرج Karl Von Hardenberg (١٧٥٠ - ١٨٢٢) عملوا معا على إعادة بناء الجيش البروسي مستخدمين مختلف الحيل لتحاشي القيود التي فرضها نابليون. وكان تطور هذه العملية (إعادة بناء الجيش البروسي) من التقدم بمكان كما يتضح من خطاب أرسله شتاين في ١٥ أغسطس سنة ١٨٠٨ إلى أحد الضباط البروس، ووقع في أيدي الفرنسيين الذين نشروه في جريدة المونيتير Moniteur في ٨ سبتمبر وفيما يلي جانب من هذا الخطاب:

« السخط يزداد كل يوم في ألمانيا. لا بد أن نطعم الناس ونعمل من أجلهم. إنني شديد الرغبة في إقامة روابط بين هيس Hesse ووستفاليا ومن الضروري أن نعد أنفسنا لأحداث معينة تتطلب منا مواصلة الاتصال بالرجال ذوي الطاقة والقدرة على العمل وذوي النوايا الحسنة. لابد أن نجعل هؤلاء الرجال يلتقون (لتدارس الأمر)... لقد تركت أحداث إسبانيا أثرا حيوياً، لقد أثبتت ما كنّا نتوقعه ومن المفيد أن ننشر هذه الأنباء بحذر. إننا نظن أن الحرب بين فرنسا والنمسا أمر لامناص منه. وهذا الصراع سيقرر مصير أوربا[١٨] ». وكان نابليون على وشك الاتجاه إلى إسبانيا لخوض معركة كبرى، فأمر فريدريك وليم بطرد شتاين Stein من منصبه فتوانى الملك في الإذعان إلى أن حذر من أن الجيش الفرنسي سيبقى في

الأراضي البروسية إلى أن يذعن لأمر لنابليون. وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ طرد شتاين مرة أخرى من منصبه، وفي ١٦ ديسمبر أصدر نابليون من مدريد مرسوما يجعله بعيدا عن حماية القانون (مرسوما بإهدار دمه) ومصادرة كل ممتلكاته والقبض عليه في أي مكان يوجد فيه داخل المناطق التي تسيطر عليها فرنسا. وهرب شتاين في بوهيميا. وسدت بروسيا النقص بتعيين هاردنبرج Hardenberg (١٨١٠) مستشارا للدولة – وهو منصب يعني في الواقع (رياسة الوزراء) وكان هاردنبرج عضوا في الحكومة السابقة، وكان قد أعاد تنظيم وزارة المالية وتفاوض في اتفاق السلام في سنة ١٧٩٥، وتحمل جانبا من المسئولية في كارثة ١٨٠٦ وطرد من الحكومة بإصرار من نابليون (١٨٠٧)، والآن فقد بلغ الرجل الستين من عمره، وبينما كان نابليون غارقا في حب إمبراطورته الجديدة، راح هاردنبرج يحرك الملك نحو النظام الملكي الدستوري بحثه دعوة أول جمعية للنبلاء (١٨١١) ثم دعوة جمعية لممثلي الأمة (١٨١٢) ذات مهام استشارية، ولأن هاردنبرج كان معجبا بالمفكرين الفرنسيين فقد جعل ممتلكات الكنيسة علمانية وأصر على أن ينعم اليهود بالمساواة (١١ مارس ١٨١٢) وفرض ضريبة ممتلكات على النبلاء وضريبة كسب على رجال الأعمال. وأنهى احتكار الطوائف (نقابات الصناع والتجار ذات الطابع الوسيط – أي العائد للعصور الوسطى) ذلك النظام المعوق ورسخ مبدأ حرية الاستثمار والتجارة.

لقد كانت حركة إعادة بناء بروسيا فيما بين عام ١٨٠٧ وعام ١٨١٢ موحية بالقوة المختزنة في طيات الشخصية الألمانية. فتحت نواظر العيون الفرنسية المعادية، وفي ظل حكم واحد من أضعف الملوك في بروسيا استطاع رجال مثل شتاين Stein وهاردنبرج Hardenberg – ولم يكن أي منهما نبيلا – أن يأخذوا على عاتقهم إعادة بناء أمة مهزومة ومحتلة ومفلسة، واستطاعوا في غضون ستة أعوام أن يسموا بها إلى سنام السلطة والفخر مما جعلها في سنة ١٨١٣ القائد الطبيعي في حرب التحرير (المقصود حرب التخلص من السيادة الفرنسية) وأسهمت كل الطبقات في هذا الجهد، فقاد النبلاء الجيش وقبل الفلاحون التجنيد الإجباري وتنازل التجار عن كثير من أرباحهم للدولة وناضل الرجال والنساء من أهل الأدب والفكر في طول ألمانيا وعرضها من أجل حرية الصحافة والفكر والعبادة، وفي سنة ١٨٠٧،

وفي برلين المحشودة بالقوات الفرنسية ألقى فيشته Fichte خطاباته الشهيرة التي وجهها للأمة الألمانية دعا فيها إلى أقلية منظمة لتقود الشعب البروسي إلى طهارة خلقية (معنوية) وبعث وطني جديد وفي كونيجسبرج Konigsberg في سنة ١٨٠٨ نظم بعض أساتذة الجامعات اتحاد الأخلاق والعلوم عرف فيما بعد باسم عصبة الفضيلة (توجنبوند Tugenbund) وكان هدفه تحرير بروسيا .

وفي هذه الأثناء كان شتاين Stein حائرا خارج بلاده يعاني النفي والفقر، والخوف الدائم من أن يقبض عليه أو تطلق عليه النار، وفي مايو سنة ١٨١٢ دعاه إسكندر للانضمام لبلاطه في سان بطرسبرج، وظل هناك مع مضيفه (إسكندر) في انتظار قدوم نابليون .



[١٧٨٩ - ١٨١٢]

١- الاقتصاد

كان الألمان في سنة ١٨٠٠ شعباً ذا وعي طبقي، قَبِل التقسيم الطبقي كنسق للنظام الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي، وقلما يحصل الشخص على لقب من ألقاب النبالة إلا بالميراث (أي يكتسبه عند ميلاده). لقد لاحظت مدام دي ستيل de Stael أنه «في ألمانيا يحافظ كل شخص على رتبته (طبقته) ومكانه في المجتمع وكأنما هما (الطبقة والمكانة) أمراً راسخا (غير قابل للتغيير)[١]»، وكان هذا الوضع أقل وضوحا على طول الراين وبين خريجي الجامعات، لكن - بشكل عام - كان الألمان أكثر صبرا من الفرنسيين، فلم يصل الألمان إلى وضع الفرنسيين في سنة ١٧٨٩ إلا في سنة ١٨٤٨.

لقد كان تأثير الثورة الفرنسية في الأدب مثيرا، وكان تأثيرها في الصناعة الألمانية سطحيا. لقد كان في ألمانيا موارد طبيعية ثرية، لكن استمرار النظام الإقطاعي وسلطة البارونات الإقطاعيين في الدول الألمانية الوسطى والشرقية أبطأ من نهوض طبقة رجال الأعمال والمستثمرين الصناعيين التي كان يمكن أن تزدهر في ظل الحوافز المتاحة في الاقتصاد الحر وغير الطبقي، مما يتيح للصناعة الاستفادة من الفحم والمعادن المتوفرة بكثرة في الأرض الألمانية. أما التجارة فقد ساعد على ازدهارها مجموعة من الأنهار الرائعة: الراين، والفستر Wester والإلب Elbe والسال Saale والمين Main والسبري Spree والأودر Oder لكن تمزق الكيانات الألمانية (أو بتعبير آخر عدم اتحاد ألمانيا، وبقاؤها في كيانات سياسية منفصلة) جعل الطرق قصيرة قليلة غير معتنى بها، وفرض على المرور بها ضريبة مرور، وقطعها اللصوص وقطاع الطرق. ومما عوق التجارة القيود التي فرضتها الروابط (التكتلات) التجارية والصناعية، والضرائب الباهظة واختلاف المقاييس والمكاييل والموازين والعملة والقوانين من منطقة إلى أخرى.

وكان على الصناعة الألمانية أن تواجه حتى سنة ١٨٠٧ منافسة البضائع الإنجليزية التي أنتجتها أحدث الآلات. لقد نعمت إنجلترا بجيل الريادة في الثورة الصناعية ومنعت تصدير تكنولوجيتها الجديدة كما منعت فنييها المهرة من العمل في الدول الأخرى[٢]. لقد عمل إله الحرب ذو الوجهين على ازدهار الصناعات لإطعام الناس وكسوتهم وقتلهم، فانتعش الاقتصاد الوطني، وبعد سنة ١٨٠٦ أدى الحصار القاري الذي فرضه نابليون إلى منع البضائع البريطانية من دخول القارة على نحو قل أم كثر، مما ساعد الصناعات داخل القارة على النمو (لمواجهة نقص البضائع الواردة). لقد تطورت صناعة استخراج المعادن وتصنيعها في غرب ألمانيا خاصة في دوسلدورف Dusseldorf وإسن Essen وماحولهما. ففي سنة ١٨١٠ بدأ فريدريش كروب Friedrich krupp (١٧٨٧ - ١٨٢٦) في إسن Essen مجمع صناعات معدنية ظلت تسلح ألمانيا لقرن.

ورغم هذا الجهد الذي كان يبذله رجال الصناعة فقد كان النبلاء والملك ينظرون إليهم نظرة دونية باعتبارهم مستغلين طلاب ربح، ولم يكن مسموحا لتاجر أو مستثمر صناعي أن يتزوج من طبقة النبلاء أو أن يشتري أرضا يمكنه أن يفرض عليها رسوما إقطاعية. وكان مسموحا للماليين - من الهوجونوت (طائفة من البروتستنط) أو اليهود أو غيرهم - أن يقرضوا النبلاء والملوك، لكن عندما اقترحوا في سنة ١٨١٠ أن تحذو بروسيا حذو إنجلترا وفرنسا بتأسيس بنك وطني يصدر سندات مالية بفوائد منخفضة، وبذا يساعد الدين العام في تمويل الدولة، كان من رأي الملك والنبلاء أن مثل هذا الإجراء سيجعل المملكة تحت رحمة رجال البنوك (الماليين). ورفضت بروسيا أن يتحكم في الأمة مديرو العاصمة، وإنما كانت أكثر ميلا إلى أن يقودها العسكريون والأرستقراطية (اليونكر Junker).

٢- المؤمنون (بالمسيحية) والمتشككون (فيها)

مازال الألمان في فترتنا هذه منقسمين دينيا كما كان عليه الحال خلال حرب الثلاثين عاما. وبطرق كثيرة كانت حروب فريدريك الكبير مع النمسا وفرنسا استجابة لهذه المأساة التي طال أمدها. وإذا كان فريدريك قد خسر، فإن البروتستنطية قد تختفي من بروسيا كما

كانت قد اختفت من هس Husse في بوهيميا Bohemia بعد سنة ١٦٢٠ . ولما كان رجال الدين البروتستنط قد انتقلت إليهم الممتلكات الكنسية للأساقفة الكاثوليك في الشمال البروتستنطي، فقد أصبحوا - أي رجال الدين البروتستنط - معتمدين على الحماية العسكرية للأمراء البروتستنط واعترفوابهم كرأس للكنيسة البروتستنطية في ممالكهم (أي ممالك هؤلاء الأمراء)، وعلى هذا كان فريدريك هو رأس الكنيسة البروسية مع أنه هو نفسه كان لا أدريا (أي متشككا في اللاهوت المسيحي - في هذا السياق) . وفي الدول الألمانية الكاثوليكية - النمسا، وبوهيميا، وكل كيانات كونفدرالية الراين تقريبا - كان الأساقفة - إن لم يكونوا هم أنفسهم حكاما - يحتاجون للحماية نفسها، وأصبحوا تابعين للسلطة المدنية (غير الدينية أو بمعنى أدق سلطة غير الإكليروس) وراح كثيرون منهم لايهتمون كثيرا بالبيانات التي يصدرها البابا، لكن معظمهم كان يقرأ بانتظام من فوق منابر الوعظ قرارات السلطات المدنية التي تحميهم. وعلى هذا كان الأساقفة في الكيانات الألمانية التابعة لنابليون - سواء منهم البروتستنط أو الكاثوليك - يقرأون من فوق منابر كنائسهم أوامر نابليون الإدارية ونشراته العسكرية[٣] وكان لتبعية الكنيسة على هذا النحو آثار مختلفة (غالبا ما كانت هذه التبعية تأخذ أشكالا متناقضة) : اتجاهات تقوية Pietism (وهو اتجاه ديني متشدد يؤكد على دراسة الكتاب المسيحي المقدس والخبرة الدينية الشخصية) واتجاهات عقلية (اتجاه يعتبر العقل هو الحكم في قضايا المعتقدات) . لقد كانت هناك أسر ألمانية كثيرة لها تراثها التقوي (بالمعنى الآنف ذكره) الذي يفوق انتماءها السياسي وهو في الوقت نفسه أعمق من تمسكها بالطقوس الدينية (الاتجاه الطقسي) . وهذه الأسر كانت تجد إلهامها الديني أكثر مايكون في الصلوات داخل المنزل (في نطاق الأسرة) وليس في اللاهوت الرسمي أو عظات رجال الدين من فوق منابر كنائسهم، فراحوا شيئا فشيئا يهملون الكنائس وعوضاً عن ذلك راحوا يتعبدون في جماعات خفية esoteric (المقصود جماعات لها أساليبها الخاصة في العبادة لا يعرفها غيرها)، وكانت جماعات المتصوفة (الباطنية) الذين يوقرون تراث المتنبئين مثل جاكوب (يعقوب) بوهم Jakob Bohme هم الأكثر حماسة واعتزازا بأساليبهم في العبادة إذ كانوا يزعمون رؤية الرب ومقابلته وجهاً

لوجه أو أنهم يسعون لذلك، كما كانوا يزعمون أنهم عاينوا التنوير وجربوه، ذلك التنوير (المعنى هنا أقرب إلى الذوبان في القوى القدسية العليا) الذي ينهي أقسى مشاكل الحياة وأكثرها مرارة. وكانت أخوية المورافيين Moravian Brotherhood (الأخوية تعني الجماعة الدينية التي يرتبط أفرادها ارتباطا شديدا أساسه الإيمان بمعتقدات واحدة) هي على نحو خاص الأكثر تأثيراً، فقد عانى أفرادها ببطولة صامتة قرونا من الاضطهاد، فقد طردتهم بوهيميا الكاثوليكية وانتشروا في المناطق الألمانية البروتستنطية وأثروا - بعمق - في حياتها الدينية. وقابلت مدام دي ستيل Stael بعضهم وتأثرت بتقواهم وإسهامهم في الأعمال الخيرية وكان ينقش على قبر الواحد منهم إذا مات «ولد في يوم كذا وعاد إلى وطنه في يوم كذا[٤]» وقد آمنت البارونة جولي (باربارا جوليانه) فون كرودنر (١٧٦٤ - ١٨٢٤) Julie (Barbara Juliane) Von Krudener الأثيرة لدي مدام دي ستيل آمنت بمعتقدهم وكانت تدعو إليه بطريقة جذابة حتى إن الملكة لويز Louise البروسية تأثرت بهذه الدعوة، وكذلك تأثر بها لفترة القيصر الروسي إسكندر، لكنهما وإن كانا قد تأثرا بالمعتقد فإنهما لم يستجيبا للمشاركة في الأعمال الخيرية.

وكان الشكاكون Skeptics (المفهوم أنهم شكاكون في المعتقد المسيحي) الذين استنشقوا هواء التنوير الفرنسي هم الطرف الآخر المقابل للباطنيين المسيحيين (المتصوفة المسيحيين) لقد فتح ليسنج Lessing على استحياء عصر التنوير الألماني Aufklarung بالبحث عن أمور أهملها التاريخ وراح ينشر جزءا منها (Fragmente eines ungenannten) في الفترة من ١٧٧٤ إلى ١٧٧٨ وقد عبر هيرمان ريماروس Hermann Reimarus في هذا العمل عن شكوكه في صحة الأناجيل (شكه في أصلها التاريخي)، وبطبيعة الحال كان هناك شكاكون (المفهوم أنهم شكاكون في المعتقد المسيحي) في كل جيل، لكن غالبهم كان يرى الصمت من ذهب، وكان تأثيرهم يتم قمعه إما بالبوليس أو بالتخويف من عذاب الجحيم. أما الآن فلم تعد أفكار هؤلاء الشكاكين مكتومة فقد وجدت طريقها في محافل البنائين الأحرار (الماسونيين) ومحافل الروزيكريشيين Rosicrucian (تشكيلات سرية اشتهرت في القرنين ١٧ و ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين) وفي

الجامعات بل وحتى في الأديرة. وفي سنة ١٧٨١ أدى كتاب كانط (نقد العقل الخالص) إلى حدوث بلبلة بين المتعلمين في ألمانيا بشرحه لصعوبات اللاهوت العقلي (صعوبات إخضاع اللاهوت للعقل)، وظلت الفلسفة الألمانية طوال جيل بعده تعمل على دحض شكوكه أو إلغائها، وحقق بعض الباحثين بدأب لدحض أفكاره شهرة عالمية مثل فريدريش شلايرماشر Schleiremacher، على وفق ما ذكره ميرابو Mirabeau (الذي زار ألمانيا ثلاث مرات بين عامي ١٧٨٦ و ١٧٨٨) كان معظم رجال الدين البروتستنط البروسي في هذا الوقت قد تركوا - بشكل سري - إيمانهم السفلي وباتوا يفكرون في المسيح كرجل صوفي محبوب أعلن قرب نهاية الدنيا. وفي سنة ١٨٠٠ سجل مراقب متعجل أن الدين (المسيحي) قد مات في ألمانيا «وأنه من غير الملائم وصفها بأنها مسيحية[٥]» وتنبأ جورج ليشتنبرج Lichtenberg (١٧٤٢ - ١٧٩٩) أنه سيأتي يوم يكون فيه اعتقاد الجميع في الرب (المقصود يسوع) God كاعتقاد أطفال الحضانة في الأشباح[٦]».

لقد كانت هذه التقارير مبالغاً فيها، فقد أثرت الشكوك في الدين في عدد قليل من الأساتذة وذوي الثقافة الضحلة لكن هذه الشكوك لم تكن تصل إلا قليلا إلى الجماهير. واستمرت العقيدة المسيحية تدعو إلى معنى اعتماد الإنسان على قوى علوية فوق الحسّ، وتوضح ميل الإنسان - حتى المتعلم - لطلب العون من قوى علوية (فوقطبيعية)، وراحت التجمعات البروتستنطية تدفئ قلوب أعضائها بالترانيم الرائعة، واستمرت الكنيسة الكاثوليكية في تقديم معجزات القديسين والمثولوجيا، والتأملات الباطنية والموسيقا والفن لتكون ملاذا أخيرا لأرواح أرهقتها أعوام من الملاحة العقلية وسط عواصف الفلسفة والجنس ومخاطرهما. وعلى هذا فإن علماء واسعي المعرفة مثل فريدريش فون شليجل Friedrich Von Schlegel وبنات موسى مندلسون Mendelssohn اليهوديات المتألقات راحوا يبحثون أخيرا عن الدفء وحنان الأمومة في حضن الكنيسة الأم. لقد ظل الإيمان دوماً، وبقي الشك أيضا.

٣- اليهود الألمان

لا بد وأن يكون الإيمان المسيحي قد ضعف مع ازدياد التسامح الديني، فكلما زادت المعرفة وجدناها تتخطى الحواجز التي وضعتها العقائد. لقد أصبح من المستحيل بالنسبة إلى المسيحيين المتعلمين أن يكرهوا اليهودي المعاصر بسبب صلب المسيح السياسي (صلب تم لأسباب سياسية) مضى عليه ثمانية عشر قرنا، وربما قرأ المسيحي المتعلم في إنجيل متى (٢١ / ٨) كيف أن جموعاً من اليهود قد انتشروا وجريد النخيل في أيديهم للترحيب بداعيهم المحبوب (المقصود المسيح عليه السلام) وهو يدخل القدس قبل موته(*) بأيام قليلة. وعلى أية حال فقد كان اليهو د في النمسا قد جرى تحريرهم على يد جوزيف الثاني، وفي بلاد الراين على يد الثورة الفرنسية أو نابليون، وفي بروسيا على يد هاردنبرج فخرجوا سعداء من معازلهم «ghettos» وتكيفوا مع محيطهم وزمانهم لباساً ولغة وعادات، وأصبحوا عمالاً قادرين ومواطنين موالين للبلاد التي يقيمون فيها وعلماء مبدعين ودارسين مخلصين. لكن ظلت معاداة السامية سائدة بين غير المتعلمين أما بين المتعلمين فقد فقدت بعدها الديني وإنما كان لها (أي معاداة السامية) أساس يغذيها في المنافسة الاقتصادية والفكرية وفي أساليب الحياة في (الجيتو) التي ظلت باقيه إذ حافظ عليها اليهود الفقراء.

لقد شهدت فرانكفورت أيام جوته (جيته) عداء شديدا بين المسحيين واليهود، واستمر هذا العداء طويلا، لأن البورجوازية الحاكمة هناك أحست بالمنافسة اليهودية الشرسة في مجال التجارة والصرافة والأمور المالية. وكان مير أمشل روتشلد Meyer Amschel Rothchild اليهودي (١٧٤٣ - ١٨١٢) يعيش بينهم في هدوء وأسس أعظم البيوت المالية في التاريخ بإقراض الأمراء المفلسين مثل الكونتات الألمان (اللاندجريف) في هس - كسل Hesse - Cassel، أو بعمل اليهود كوكلاء لإنجلترا لتقديم الأموال للذين يواجهون نابليون. ومع هذا فقد كان نابليون هو الذي أصرّ في سنة ١٨١٠ على منح يهود فرانكفورت حريتهم كاملة بضمان تشريعاته المعروفة بالمدونة النابليونية(٧).

(*) مفهوم طبعا أن الرأي السائد بين المسلمين أنه رُفِع إلى السماء، ولا بد أن يفهم المسلمون أيضاً أن الرأي السائد بين عدد كبير من المسيحيين أنه أيضاً رُفِع إلى السماء لكن بعد اليوم الثالث. (المترجم)

أما ماركوس هيرز (هيرتس) (١٧٤٧ - ١٨٠٣) فقد عمل على استخدام الازدهار - المالي لليهود في رعاية العلوم والفنون. ولد ماركوس في برلين وهاجر في سنة ١٧٦٢ إلى كونيجسبرج Konigsberg حيث كان كانط وغيرهم من الليبراليين قد أقنعوا الجامعة بقبول اليهود، وسجل هيرتس في الجامعة كطالب طب لكنه كان يحضر محاضرات كانط ويواظب عليها غالبا مع حضوره محاضرات الطب وجعله حبه للفلسفة واهتمامه بها تلميذا أثيرا لكانط[٨].

وعندما حصل على درجته العلمية في الطب عاد إلى برلين وسرعان ماحقق شهرة ليس فقط كطبيب وإنما أيضا كمحاضر في الفلسفة وجذبت محاضراته في الفيزياء مستمعين ذوي حيثية كان منهم فريدريك وليم الذي أصبح بعد ذلك هو الملك فريدريك وليم الثالث وكان زواجه من هنريتا دي ليموس Henrietta de Lemos - إحدى أجمل نساء عصرها - سببا لبهجة وتعاسة معا. لقد جعلت بيته صالونا يضارع أفضل صالونات باريس. وامتد كرمها ليشمل الجميلات اليهوديات الأخريات بمن فيهن برندل Brendel ابنة موسى مندلسون (أصبح اسمها بعد ذلك دوروثيا Dorothea) وراشيل ليفن Rachel Levin التي تزوجت بعد ذلك الدبلوماسي والمؤلف فارنهاجن فون إنس Varnhagen Von Ense وتحلّق ذوو الحيثية من مسيحيين ويهود حو ل ربات الفتنة والجمال الثلاث، وابتهج المسيحيون إذ وجدنهن جميلات جسدا وعقلا وكن مغامرات فاتنات. وحضر ميرابو Mirabeau هذه الاجتماعات ليناقش الأمور السياسية مع ماركوس كما كان يتناول موضوعات تتسم بالظرف والذكاء مع هنريتا، وكانت حواراته معها أكثر من حواراته مع زوجها ماركوس وكانت تستمتع بإعجاب ذوي الحيثية من المسيحيين بها، ودخلت في « علاقات غامضة » مع فيلهلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt المعلم، ومع فريدريش شليرماشر Friedrich Schleiermacher الذي كان داعية فلسفيا. وفي هذه الأثناء شجعت دوروثيا Dorothea - التي كانت لقد تزوجت سيمون فايت Simon Veit وأنجبت له طفلين - على ترك زوجها وبيتها لتعيش مع فريدريش فون شليجل Von Shlegel كخليلة له، غير أنها أصبحت بعد ذلك زوجته.

وكان لهذا الاختلاط الحرّ بين المسيحين واليهود أثر مضعف على الجانبين: لقد أضعف العقيدة المسيحية (السائدة) عندما وجد المسيحيون أن المسيح ورسله Apostles (الكلمة في المصطلح المسيحي تعني الدعاة له وسفر أعمال الرسل يعني سفر الدعاة أو المبشرين بالمسيحية) الاثني عشر لم يكن هدفهم سوى الوصول إلى يهودية جديدة إصلاحية، أو بتعبير آخر لم يكن هدفهم سوى إصلاح اليهودية لتكون مطابقة لشرائع موسى والهيكل. وكذلك أدى هذا الاختلاط إلى إضعاف عقيدة اليهود الذين رأوا أن إخلاصهم لليهودية يشكل معوقا قاسيا يحول بينهم وبين المكانة الاجتماعية والتواؤم مع من يعيشون معهم. وعلى كلا الجانبين (المسيحي واليهودي) أدى تدهور المعتقد الديني إلى تساهل في المعايير الأخلاقية.

٤- الأخلاق

كانت قواعد السلوك والأخلاق قائمة على الاعتقاد في إله رحيم منتقم، يشجع كل تواضع ويراقب كل عمل ويعلم ما تخفي الصدور، لاينسى شيئا، وهو صاحب الحق ومالك القوة، ليصدر الحكم ويعاقب أو يعفو. إنه إله الحب والانتقام إنه السيد المهيمن مالك الجنة والنار (وهي صورة الإله في العصور الوسطى). هذه العقيدة الكئيبة والتي ربما كان لابد منها ظلت موجودة بين الجماهير وساعدت رجال الدين والأرستقراطيين Junkers والجنرالات والبطارقة على التحكم في جماهيرهم (قطيعهم) والفلاحين والجنود والبيوت. لقد تطلبت الحروب الدورية والمنافسة التجارية والحاجة للانضباط الأسري، تأصيل وصياغة عادات الطاعة والتنفيذ لدى الشباب وعادات التواضع المبهج والعمل داخل المنزل لدى البنات، والصبر والإخلاص لدى الزوجات، والقدرة الصارمة على القيادة لدى الزوج والأب.

وكان الرجل الألماني العادي يجد من الحكمة أن يكون وقورا أمام زوجته وأبنائه ومنافسيه وموظفيه، رغم أنه- بعيدا عنهم - يكون مرحا محبا للفكاهة - على الأقل عندما يكون في الحانة. وهو - أي الألماني العادي - يعمل بجد، ويتوقع الشيء نفسه ممن يعملون تحت إدارته، وهو يحترم التقاليد والتراث باعتبارهما نبع الحكمة وعمود المصداقية. والعادات

القديمة تمكنه من مواجهة مهامه اليومية وارتباطاته بفكر منظم مريح. وهو متمسك بدينه كتراث مقدس وهو شاكر له لأنه يعينه على تدريب أبنائه على المودة والنظام والانضباط. وهو يتبرأ من الثورة التي أشاعت الفوضى في فرنسا ويكره استعجال الشباب الألماني وهياجهم متمثلة في تحللهم الطائش من العلاقات الراسخة، اللازمة بشكل حيوي لضبط المنزل والدولة. وهو - أي الرجل الألماني العادي - يجعل زوجته وأبناءه تابعين له، لكنه يستطيع أن يكون إنسانيا ومحبوبا في منزله في الوقت نفسه وهو يعمل بلا ملل ولا كلل لمواجهة احتياجات أسرته البدنية والعقلية والنفسية.

وقد قبلت الزوجة وضعها دون كبير مقاومة لأنها مقتنعة أن الأسرة الكبيرة في بلد غير آمن يحيطه الأعداء، في حاجة إلى يد ثابتة صارمة. وهي في المنزل - كتابعة لزوجها وملتزمة بالقانون (الشريعة) - تصبح مقبولة كسلطة موجهة، وغالبا ما كانت دوما تحظى بحب أولادها طوال الحياة. وكانت راضية بدورها «كأم للأطفال مبرأة من الإثم»[٩] تحافظ على بقاء الجنس البشري.

لكن كانت هناك أصوات أخرى. ففي سنة ١٧٧٤ كان تيودور فون هبل Theodore Von Hippel قد سبق ماري فولستونكرافت Wolstonecraft بثمانية عشر عاما، إذ نشر كتابه (عن الزواج) فكان صوتا رجوليا للدفاع عن تحرير المرأة. لقد اعترض على قسم الزوجة على طاعة زوجها إذ كان من رأيه أن الزواج مشاركة وليس تبعية الزوجة لزوجها، فهي شريكة له. وطالب بتحرير المرأة تحريرا كاملا ليس فقط بإعفائها من قسم الطاعة بل لأهليتها للمناصب بل لأعلى المناصب، وذكر بعض النسوة الحاكمات في عصره - كريستينا في السويد وكاترين في روسيا، وماريا تريزا في النمسا. وإذا لم ينص القانون على التحرر الكامل للمرأة، فإن من الأمانة أن نحول مصطلح «حقوق الإنسان» إلى مصطلح حقوق الرجال[١٠]» ولم تصغ إليه ألمانيا لكن - بتأثير الثورة الفرنسية وانتشار الفكر الراديكالي في ألمانيا - شهدت نهاية القرن ١٨ وبداية القرن ١٩ هبة لنساء متحررات كن كثيرات العدد في الفترة التي نتحدث عنها، لكن كانت حركة تحرير النساء في فرنسا في القرن الثامن عشر هي الأكثر ألمعية، ولم تتسم الحركة في كلا الكيانين بالطيش والتهور. ولم تنظر الحركة

الرومانسية – التي كانت صدى للتروبادوريين في العصور الوسطى – للمرأة كأم كديمتر Demeter ولا كعذراء كمريم وإنما كباقة ورد تجعل المرء ثملاً معجبا بحيويتها (أي المرأة) الجسدية والعقلية ولابأس من شيء من الغيبة والقيل والقال بل والفضائح لإكمال الإغراء (لإثارة الفتنة) . لقد لاحظنا أن هنريتا هيرز (هيرتز)، ودوروثا مندلسون Mendelssohn – بالإضافة إلى كارولين ميشيل Caroline Michaelis (ابنة جوتنجن أورينتالست Gottingen Orientalist) التي كانت – وهي أرملة ثورية – قد تزوجت أوجست فون شليجل وطلقته وتزوجت من الفيلسوف شيلنج. وهناك تيريزا فورستر التي ضارعت زوجها في اتجاهها الجمهوري، وتركته (أي تركت زوجها) لتعيش مع دبلوماسي من سكسونيا، وكتبت رواية سياسية (the Seldorf family) أحدثت ضجة في بلاد الراين. لقد كتب فيلهلم فون همبولدت أنها « بتفوقها الفكري كانت واحدة من أكثر النساء جدارة بلفت النظر إليها في عصرها[١١] » وهناك راشيل ليفن فارنهاجن فون إنس Ense التي كان يتردد على صالونها دبلوماسيو برلين ومفكروها، وهناك بتينافون أرنيم Bettina Von Arnim التي رأيناها تحوم حول بيتهوفن وجوته (جيته) ورأينا نسوة مثقفات – لسن ثوريات تماما يفقن جوته بريقا في فيمار : إنهن الدوقة لويزا Luise وشارلوت فون كالب Kalb وشارلوت فون شتاين Steins وكان من الطبيعي أن تؤدي حركة تحرير المرأة في المدن الألمانية الكبيرة إلى تخفيف الكوابح الأخلاقية، فقد اتخذ فريدريك وليم الثاني خليلات، وضارعه بعد ذلك في هذا الأمير لويس فرديناند، وازداد بدرجة كبيرة الزواج عن حب لأن الشباب الأصغر سنا تخلى عن البحث عن زوجة ذات مال إلى زوجة يعشقونها ذات جمال (أي راحوا يبحثون عن النشوة الرومانسية)، وراح جوته المسن ينظر بازدراء من فيمار لحياة الترف التي يحياها أفراد الطبقات العليا وذوو المكانة في برلين لكنه تبنى الأخلاق الجديدة عندما ذهب إلى منتجعات كارلسباد Karlsbad حيث رأى النسوة يعرض أنفسهن بخيلاء في ملابسهن المتمشية مع (المودة) الجديدة على نحو ما كانت تفعل مدام تاليا Tallien ونساء آل بوهارنيه Beauharnais في باريس في سنة ١٧٩٥ .

وضارع الفساد السياسي هذا الانحلال الجنسي، فكانت الرشوة أداة أثيرة يستخدمها

الدبلوماسيون، وكانت الرشوة سائدة في الجهاز الإداري في الدول الألمانية الكاثوليكية والبروتستنطية على سواء. وبدا رجال الأعمال أكثر أمانة من رجال السياسة وكان البورجوازي حتى إذا تزوج من امرأة متساهلة relaxed فإنه يجعلها بمعزل عن حفلات السمر على طول نهر السبري Spree وعلى أية حال ففي هذه الأثناء كانت الجامعات تصب في الحياة الألمانية وفي قيم الأخلاق فيها شبابا لم يحظ بالقدر الكافي من التعليم فكان كعملية هدم في خلايا المجتمع الحية تسبب له ازعاجا.

٥- التعليم

لقد أصبح التعليم الآن هو الشاغل الأول لألمانيا وهو الإنجاز الأول أيضا، وارتبط هذا بالحرب فقد كان لابد من حفز العقول والأنفس والأبدان لمواجهة نابليون. لقد وجدنا فشته Fichte في كتابه «خطابات إلى الأمة الألمانية» (١٨٠٧)[١٢] يعبر عن قناعات العصر رغم أن قلة هم الذين تنبهوا لقوله: إن إصلاح التعليم في كل مراحله، هو وحده الذي يعلي من شأن ألمانيا لمواجهة احتياجات الدولة في هذه الأعوام التي تحطمت فيها الروح الألمانية بسبب الاستسلام السريع والإذلال الذي تعرض له الوطن. وفي سنة ١٨٠٩ تم تعيين فيلهلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt (١٧٩٧ - ١٨٣٥) وزيرا للتعليم في بروسيا، وأعطى لنفسه صلاحيات تجعل إصلاحاته نافذة المفعول، فجدد النظام التعليمي الألماني الذي سرعان ما أصبح بفضله أفضل نظام تعليمي في أوربا. فأتى الطلاب من بلاد لا حصر لها للدراسة في جامعات جوتنجن Gottingen وهيدلبرج Heidelberg وييناJena وبرلين. وانتشر التعليم ليشمل كل الطبقات واتسعت موضوعاته وأعراضه، ورغم التركيز على دراسة الدين كدعامة أساسية للشخصية، فقد كان المعلمون الرسميون يركزون على الوطنية كدين جديد في مدارس ألمانيا - تماما كما فعل نابليون في مدارس فرنسا، إذ جعل الوطنية هي اللاهوت الجديد.

لقد كانت الجامعات الألمانية في حاجة إلى دعم قوي، وقد تلقته بالفعل، ذلك أن كثيرا منها كان يعاني من الإهمال الذي كان يعود لفترة طويلة مضت، لقد كانت جامعة

هايدلبرج Heidelberg قد أسست في سنة ١٣٨٦ ، وأسست جامعة كولوني Cologne في سنة ١٣٨٨ ، وجامعة أرفورت Erfurt في سنة ١٣٧٩ ، وجامعة ليبزج (ليبسج Leipzig) في سنة ١٤٠٩ ، وجامعة روستوك Rostok في سنة ١٤١٩ وجامعة مينز (مينتس Mainz) في سنة ١٤٧٦ ، وجامعة توبنجن Tubingen في سنة ١٤٧٧ وجامعة فيتنبرج Wittenberg في سنة ١٥٠٢ والآن أصبحت كل هذه الجامعات في عُسر وحاجة . وكانت جامعة كونجسبرج Konigsberg التي بدأت في سنة ١٥٤٤ قد انتعشت بوجود عمانويل كانط Emmanuel Kant بها . أما جامعة يينا Jena التي أسست سنة ١٥٥٨ فقد صارت العاصمة الثقافية لألمانيا بوجود شيلر Schiller وفيشته Fichte وشيلنج Schelling وهيجل Hegel والأخوين شليجل Schlegel والشاعر هولدرلين Holderlin ، وفي هذه الجامعة كانت هيئة التدريس غالبا ما تضارع الطلاب في ترحيبهم بالثورة الفرنسية . وكانت جامعة هال Halle (١٦٠٤) أول جامعة عصريه بثلاثة معان : لقد نذرت نفسها لحرية الفكر والتدريس، ولم تكن تطلب من أساتذتها تعهدا بالالتزام بالعقيدة الدينية السلفية orthodoxy (المقصود الصحيحة من وجهة نظر رجال الدين الكاثوليك أو البروتستنط) وقد خصصت في برامجها التعليمية مكانا للعلوم والفلسفة، وأصبحت مركزا للبحث العلمي بدراساته النظرية والمعملية[١٣] . أما جامعة جوتنجن التي أسست في وقت متأخر يرجع لسنة ١٧٣٦ ، فقد أصبحت في سنة ١٨٠٠ « أعظم مدرسة في أوربا[١٤] » لاتضارعها إلا جامعة لايدن Leiden في هولندا . قالت مدام دي ستيل Stael التي كانت تجول هناك في سنة ١٨٠٤ إن « كل شمال ألمانيا غاص بأفضل الجامعات في أوربا[١٥] » لقد كان فيلهلم فون Humboldt كفرانسيس بيكون في هذه الحركة الإحيائية التعليمية، وكان واحدا من بين العقول المتحررة العظيمة في عصره . ورغم أنه نبيل الأصل (من طبقة النبلاء) إلا أنه وصف طبقة النبلاء بأن وجودها « كان ضروريا في وقت من الأوقات أما الآن فقد أصبح وجودها شراً لا داعي له » وقد خلص من دراسته للتاريخ أن كل المؤسسات تقريبا مهما أصبحت ناقصة معوقة معيبة، إلا أنها في وقت من الأوقات كانت مفيدة . « فما الذي جعل الحرية على قيد الحياة في العصور الوسطى؟ إنه نظام الإقطاع fiefs . ما الذي حافظ على العلوم في عصور البربرية؟ إنه النظام

الديري[١٦]» . لقد كتب هذا وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وبعد ذلك بعام (١٧٩٢) حكم بحكم – وكأنه يتنبأ – على الدستور الفرنسي الجديد الذي أصدرته فرنسا في سنة ١٧٩١ بأنه يحوي – في رأيه – كثيرا من المبادئ المثيرة للإعجاب، لكن الشعب الفرنسي – وهو شعب عاطفي مستثار – لن يكون قادرا على التعايش معه بحكمة وقد يحولون بلادهم إلى فوضى ويغرقونها في الاضطراب . وبعد ذلك بجيل كان يتجول مع صديق له فيلولوجي (عالم بفقه اللغة) في ميدان معركة ليبزج (ليبتسج) حيث واجه نابليون كارثة في سنة ١٨١٣، فقال : «إن الممالك والإمبراطوريات – كما نرى هنا – تموت، لكن قصيدة رقيقة تبقى للأبد[١٧]» وربما كان يفكر في الشاعر بندار Pindar الذي كان هو قد ترجم أشعاره من لغتها الإغريقية الصعبة بشكل غير عادي .

لقد فشل كدبلوماسي لأنه كان شديد الافتتان بالثورة الفكرية بدرجة تجعله غير قادر على معالجة أمور السياسة المتغيرة ولما كان غير مرتاح على المسرح العام (غير مرتاح للتعامل مع الأمور العامة) فقد عكف على حياة العزلة وراح يدرس، وكان مفتونا بعلم فقه اللغة (الفيلولوجيا) وتتبع الألفاظ عند انتقالها من مكان إلى مكان (المفهوم لمعرفة ما يلحقها من تحريف أو تبديل) . ولم يكن يؤمن بقدرة الحكومة على حل المشكلة الاجتماعية لأن أفضل القوانين يمكن أن تفشل أمام طبيعة الإنسان التي لا تتغير . وخلص إلى أن الأمل الوحيد للإنسان يكمن في تطور أقلية قد يكون في إخلاصها منارة تهدي الشباب فيقتدون بها حتى في جيل أصابه القنوط .

وعلى هذا فقد خرج وهو في الثانية والأربعين من خصوصيته (انكفائه على نفسه) وخدم بلاده وزيراً للتعلم، وفي سنة ١٨١٠ عهدت إليه الحكومة بتنظيم جامعة برلين، فأحدث فيها تغييرات ظلت مؤثرة في الجامعات الأوربية والأمريكية حتى اليوم : لقد كان محك اختيار الأساتذة ليس قدرتهم على التدريس فحسب وإنما لشهرتهم أو رغبتهم في البحث العلمي الأصيل . وتم دمج أكاديمية برلين للعلوم (أسست في سنة ١٧١١) والمرصد الوطني وحديقة النباتات والمتحف والمكتبة في الجامعة الجديدة . والتحق بهذه الجامعة فيشته الفيلسوف، وشليرماشر اللاهوتي، وسافيجنى Savigny القانوني وفريديش أوغسط فلف

Wolf (١٧٥٩ - ١٨٢٤) العالم الكلاسي (المقصود المتخصص في الكلاسيات أي الدراسات اليونانية واللاتينية) الذي فاجأ الهيلينستيين Hellenists (المقصود هو المتخصصون في الدراسات الهيلينستية أي التراث اليوناني المتفاعل مع تراث الشرق عامة، وقد يكون المقصود أهل هذه المناطق) ببحوثه المتسمة بالتنور والتي خلص منها إلى أن هوميروس Homer ليس شاعرا واحدا وإنما سلسلة من المغنين هم الذين ألفوا - بشكل جماعي - الإلياذة والأوذيسة، وقد صدرت دراسته هذه (Prolegomena Homerum) في سنة ١٧٩٥، وفي جامعة برلين كان بارتولد جورج نيبور Niebuhr (نيبوهر) (١٧٧٦ - ١٨٣١) يلقي المحاضرات التي مهدت لظهور كتابه (تاريخ روما Romisch Geschichte) (١٨١١ - ١٨٣٢) وأدهش الباحثين برفضه الفصول الأولى من كتاب ليفى Livy باعتبارها أساطير وليست تاريخا. ومن الآن فصاعدا أصبحت ألمانيا هي رائدة العالم في الدراسات الكلاسية والفيلولوجيا (فقه اللغة) وتاريخ التاريخ (الهستور يوجرافي) وكذلك الفلسفة. أما تفوقها وسيادتها في مجال العلوم فسيأتيان فيما بعد.

٦- العلوم

لقد تأخر العلم في ألمانيا بسبب ارتباطه غالبا بالفلسفة، ارتباطا شديدا وكأنه والفلسفة توأمان ملتصقان (سياميان) فخلال معظم هذه الفترة كان يعتبر جزءا من الفلسفة، وكان مندمجاً فيها مع الدراسات التاريخية والثقافية تحت مسمى دراسة المعرفة أو حسب المصطلح الألماني فسنشافتلير Wissenschaftslehre لقد دمر هذا الارتباط العلم لأن الفلسفة الألمانية كانت في ذلك الوقت تنظر إلى المنطق النظري باعتباره أرقى بكثير من الإثبات بالبحث أو التحقق بالتجربة.

غير أن رجلين كانا هما على نحو خاص اللذين فرضا احترام العلم في ألمانيا في هذا العصر - كارل فريديش جاوس Gauss (١٧٧٧ - ١٨٥٥) وإسكندر فون همبولدت Humboldt (١٧٦٩ - ١٨٥٦). ولد جاوس في بيت ريفي في برونسفيك Brunswick لأب يعمل بستانيا وبناء بالآجر ومطهر قنوات ولم يكن هذا الأب موافقا على التعليم

باعتباره جواز مرور إلى الجحيم[١٨]. وكانت أم كارل – على أية حال – قد لاحظت ابتهاجه بالأرقام ومهارته في التعامل معها، وراحت الأم تقتصد وتوفر لتدبير المال اللازم لإرساله إلى المدرسة الابتدائية ثم المدرسة الثانوية Gymnasium وهناك أحرز تفوقا سريعا في الرياضيات حتى إن معلمه دبر له لقاء مع الدوق شارلز وليم (فليام) فرديناند البرونسفيكي of Brunswick وتأثر الدوق فدفع للصبي المصاريف الدراسية طوال ثلاث سنوات في كلية كارولينيم في برونسفيك Collegium Carolinum of Brunswick، وبعد اجتيازه اختباراتها التحق بجامعة جوتنجن (١٧٩٥) وبعد أن قضى فيها عاما لم تكن أمه قادرة على فهم دراسة ابنها للأرقام والدياجرامات (رسومه البيانية) فسألت معلمه عما إذا كان هناك أمل في أن يحقق ابنها درجة الامتياز، فكان رده: «سيكون ابنك أعظم علماء الرياضيات في أوربا[١٩]» وربما تكون الأم قد سمعت قبل موتها ما قاله لابلاس Laplace من أن جاوس Gauss قد حقق بالفعل نبوءة معلمه. إنه الآن في نفس درجة أرشميدس ونيوتن[٢٠].

إننا لن نتظاهر بفهم اكتشافاته، ولن نخوض في الشرح إلا في أقل القليل – اكتشافاته في نظرية الأرقام، والأرقام التخيلية وحساب التفاضل والتكامل والحساب اللانهائي – وبهذا نقل جاوس علم الرياضة من الحال التي كان عليها في أيام نيوتن إلى علم يكاد يكون جديدا، فأصبح بذلك (أي علم الرياضيات) أداة لما حققه العلم من معجزات في عصرنا. بل إنه هو نفسه راح يطبق نتائج الرياضيات في ستة حقول من حقول المعرفة. وأدى رصده لمدار أكبر السيارات (أكبر الكواكب السيارة الصغيرة بين المريخ والمشتري) ومراقبته إلى صياغة منهج جديد وسريع لتحديد مدارات الكواكب «كان أول هذه السيارات (الكويكبات) قد تم اكتشافه في أول يناير سنة ١٨٠١». وأجرى أبحاثا أقامت نظرية المغناطيسية والكهربية على أسس رياضية. لقد كان بركة لكل العلماء كما حملهم عبئاً ذلك أنه آمن بأن العلم لا يعتبر علما إلا إذا صيغ في شكل رياضي وبمصطلحات رياضية.

وكان هو نفسه شائقا كعلمه، فبينما هو يعيد بناء العلوم، ظل نموذجاً للتواضع، فلم يكن عجولا لنشر مكتشفاته ومن هنا لم يحظ بالإطراء لهذه المكتشفات إلا بعد وفاته، وأحضر أمه العجوز لتعيش مع أسرته ومعه، وراح يخدمها بنفسه ويمرضها دون أن يسمح

لأي أحد آخر غيره بالقيام بهذا حتى في أعوامها الأربعة الأخيرة عندما أصبحت عمياء تماما، وقد بلغت أمه من العمر سبعة وتسعين عاما[٢١].

وكان أخو فيلهلم فون همبولدت الأصغر واسمه إسكندر هو البطل الآخر في مضمار العلم الألماني في هذا العصر، فبعد تخرجه في جامعة جوتنجن التحق بأكاديمية المعادن والتعدين في فرايبرج Freiberg حيث عرف بدراساته عن الحياة الحضرية تحت الأرض، واكتشف عندما كان مديرا للمناجم في بيروث Bayreuth تأثير المغناطيسية الأرضية في الرواسب الصخرية فأسس بذلك مدرسة في علم المناجم وحسن ظروف العمل. ودرس تكوينات الجبال مع هـ . ب . دي سوسور H. B.de Saussure في سويسرا، كما درس الظاهرة الكهربية مع أليساندرو فولتا Alessandro Volta في بافيا Pavia. وفي سنة ١٧٩٦ بدأ – مصادفة – رحلة طويلة بهدف الكشف العلمي وأدت اكتشافاته إلى أن أصبح على وفق ملاحظة معاصرة تنطوي على الطرافة «أشهر رجل في أوربا بعد نابليون[٢٢]». لقد ضارعت اكتشافاته اكتشافات دارون.

وبدأ مع صديقه عالم النبات أمي بونبلاند Ame Bonpland من مرسيليا رحلة آملاً أن يلحق بنابليون في مصر لكن الظروف انحرفت بهم إلى مدريد حيث قدم لهم رئيس وزرائها رعاية لم يكونا يتوقعانها، مما شجعهما على اكتشاف أمريكا الإسبانية (المناطق التي احتلتها إسبانيا في العالم الجديد)، فأبحرا في سنة ١٧٩٩ وتوقفا لمدة ستة أيام في تينيريف Tenerife أكبر جزر الكناري، وهناك تسلقوا ذروة القنة الجبلية الداخلة في البحر (١٢,١٩٢ قدما) وشاهدوا البرد الجوي meteoric Shower مما دفع همبولدت Humboldt إلى دراسة تتابع هذه الظاهرة. وفي سنة ١٨٠٠ بدأ من كركاس Caracas في فنزويلا تجوالا لاكتشاف الحياة النباتية والحيوانية في مناطق السفانا (الأعشاب الطوال في المناطق الحارة) ومناطق الغابات الممطرة على طول نهر أو رينوكو Orinoco حتى وصلا إلى المنابع المشتركة لهذا النهر ونهر الأمازون. واستغرقت رحلتهما هذه ستة أشهر. وفي سنة ١٨٠١ شقا طريقهما عبر جبال الأنديز Andes من كارتاجنا Cartagna (ميناء كولومبيا) إلى بوجوتا Bogota وكيتو Quito وتسلقا جبل سيمبورازو Chimborazo (١٨,٨٩٣قدما) وقدما

للعالم تقريرا ظل مأخوذاً به طوال الست والثلاثين سنة التالية . ورحلا على طول ساحل المحيط الهادي (الباسفيكي) إلى ليما Lima فقاس همبولدت Humboldt حرارة تيارات المحيط ويحمل هذا القياس اسمه حتى الآن . وراقب عبور كوكب عطارد وقام بدراسة كيميائية على الجوانو guano (سماد طبيعي من إفرازات الطيور البحرية) وأظهر إمكانية استخدامه كسماد وأرسل عينات منه إلى أوربا لإجراء مزيد من التحليلات عليه، وبذا كان سببا في أن أصبح هذا السماد الطبيعي واحدا من أهم صادرات أمريكا الجنوبية . وكان الباحثان اللذان لا يكلان قد وصلا تقريبا إلى شيلي فعادا أدراجهما شمالا وقضيا عامين في المكسيك ووقتا قصيرا في الولايات المتحدة ووصلا أوربا في سنة ١٨٠٤ – لقد كانت رحلتهما واحدة من أكثر الرحلات العلمية فائدة في التاريخ .

ومكث همبولدت ثلاث سنوات تقريبا في برلين يدرس فيها ما جمعه من معلومات وكتب كتابه (ملاحظات عن الطبيعة Anzichten der Natur) (١٨٠٧) وبعد ذلك بعام ذهب إلى باريس ليكون قريباً من المراجع العلمية والوسائل المعينة على البحث، وظل في باريس ١٩ عاما حيث نعم بصداقة علماء فرنسا الرواد وحياة الصالونات، وكان واحداً ممن اعتبرهم نيتشه Nietzsche « رجال أوربا الصالحين »، وقد شهد بهدوء الجيولوجي الاضطرابات الظاهرية (السطحية) – قيام الدول وسقوطها . وصحب فريدريك وليم الثالث في زيارة مع الملوك المنتصرين للندن في سنة ١٨١٤ ، لكنه كان – في الأساس – منشغلا في تطوير العلوم القديمة أو استحداث علوم أخرى جديدة . واكتشف في سنة ١٨٠٤ أن القوى المغناطيسية للأرض تقل كلما اتجهنا من أحد القطبين إلى خط الاستواء . وأثرى علم الجغرافيا بدراسته للأصل الناري (البركاني) لبعض الصخور، ودراسته لتكوين الجبال والتوزيع الجغرافي للبراكين . وقدم المبادئ الأولى للقوانين التي تحكم الاضطرابات المناخية وألقى الضوء – بالتالي – على أصل العواصف المدارية واتجاهاتها، وقام بدراسات كلاسية للهواء والتيارات البحرية في المحيطات . وكان هو أول من قدم للجغرافيا (١٨١٧) تفسيراً لتساوي درجة الحرارة السنوية في بعض الأماكن رغم اختلاف درجات العرض . لقد اندهش الخرائطيون عندما رأوا في الخريطة التي وضعها همبولدت أن لندن متوسط درجة حرارتها

تساوي متوسط درجة حرارة سينسيناتي Cincinnati مع أن لندن تقع إلى الشمال مثل لابرادور Labrador، بينما سينسيناتي Cincinnati إلى الجنوب على خط العرض الذي تقع عليه لشبونة. وبدأ بمقاله عن جغرافية النباتات علما جديداً هو علم الجغرافيا البيولوجية (الحيوية)، ذلك العلم الذي يدرس توزيع النباتات على وفق الظروف الطبيعية (التضاريس) هذا بالإضافة إلى مئات الإسهامات الأخرى ثم نشرها في ٣٠ مجلدا من سنة ١٨٠٥ إلى ١٨٣٤. لقد كانت إسهاماته هذه تبدو متواضعة في الظاهر لكنها كانت ذات تأثير واسع ودائم. والمؤلف ذو الثلاثين جزءا والذي أشرنا إليه لتونا يحمل عنوان: «رحلات همبولدت وبونبلاند إ Voyages de Humboldt et Bonpland aux régions équinoxiales du nouveau Continent». وأخيرا بعد أن نفدت ثروته لكثرة ما أنفقه على أبحاثه قبل وظيفة يتقاضى منها راتبا فعمل حاجبا في البلاط البروسي (١٨٢٧)، وبعد استقراره في هذه الوظيفة سرعان ما عاد لإلقاء المحاضرات العامة في برلين، تلك المحاضرات التي شكلت فيما بعد أساس مؤلفه ذي المجلدات العديدة والذي يحمل عنوان (الكون Kosmos) (١٨٤٥ – ١٨٦٢) الذي كان من بين أكثر الكتب شهرة على مدى أفق الرؤية لدى الأوربيين. وتحدثنا مقدمة الكتاب بتواضع عقل ناضج:

«في الليلة الأخيرة من حياة حافلة، أقدم للشعب الألماني عملاً كانت صورته غير المحددة تتراءى لعقلي لنحو نصف قرن. وكنت مرارا أرنو إلى إكماله لكنني كنت أعتبر هذه الرغبة غير عملية، بل غالبا ما كنت أميل إلى التخلي عنه، إلا أنني عدت مرة أخرى إلى مواصلة العمل فيه، وربما كان هذا طيشاً مني... وكان الدافع الأساسي الذي وجهني هو السعي المتلهف لفهم ظواهر الأمور الفيزيقية في إطار ارتباطاتها العامة بعناصرها وبما هو خارج عنها، وفهم الطبيعة في إطارها العام ككل متكامل عظيم، يتحرك ويحيا ويتفاعل بفعل قوى داخلية(٢٣)».

وترجم الكتاب إلى الإنجليزية في سنة ١٨٤٩، فبلغت صفحاته ألفي صفحة تقريبا، كانت تتناول الفلك والجيولوجيا والأرصاد الجوية والجغرافيا، مظهراً العالم المادي (الفيزيقي) حيا مثيرا للدهشة ورغم هذه الحيوية فإن القوانين الرياضية، وقواعد الكيمياء والفيزياء

تحكمه. لقد قدم لنا صورة عامة كأوسع ما يكون، صورة عامة لم تنشأ كميكانيكية جامدة (كتركيب جامد لا حياة فيه) وإنما مفعمة بحيوية لا حد لها، وامتداد لا نهاية له، وإبداع ملازم للحياة.

لقد كانت طاقة همبولدت وحيويته مثيرة، فما كاد يستقر في برلين حتى قبل دعوة من القيصر نيقولا (نيكولاس) الأول ليرأس بعثة كشفية علمية في آسيا الوسطى (١٨٢٩) فقضى نصف عام يجمع بيانات عن الأرصاد الجوية ويدرس تكوين الجبال وفي الطريق اكتشف مناجم ألماس في الأورال Urals، وعندما عاد إلى برلين استفاد من منصبه في البلاط ليحسن النظام التعليمي ولتقديم العون للعلماء والفنانين. وبينما كان يكتب المجلد الخامس من كتابه عن (الكون Kosmos) أتاه الموت وهو في التسعين من عمره، فشيعته بروسيا في جنازة رسمية.

٧- الفـــن

لم يكن هذا العصر في ألمانيا مواتياً لعلم أو فن، فالحرب إما دائرة بالفعل وإما على وشك، فاستنزفت ثروات البلاد وحماسها، وكان قيام أفراد (من النبلاء أو الأثرياء) برعاية الفنون، أمراً نادرا، وإن حدث، فإنه يكون غير ثابت. وكانت متاحف ليبزج (ليبتسج) وشتوتجارت وفرانكفورت، ودريسدن وبرلين تعرض الأعمال الفنية الخالدة (والمدينتان الأخيرتان على نحو خاص) لكن نابليون نقلها إلى اللوفر Louvre.

ومع هذا فقد أنتج الفن الألماني بعض الأعمال الجديرة بالذكر وسط هذا الاضطراب العظيم، وبينما كانت باريس ترقص مع حالة اللاتكوّن (حالة لم تتضح فيها الأمور تماما) رفعت برلين بنيان بوابة براند نبورج Brandenburg شامخة. لقد صممها كارل جوتهارد لانجــهــانز Karl Gotthard Langhans (١٧٣٢ - ١٨٠٨) على الطراز الدوري الإغـريقي بأعمدة ذوات أقنية (جمع قناة أي نحت في العمود من أعلى إلى أسفل يبدو وكأنه قنوات) وأقام على هذه البوابة قوصرة (مثلث في أعلاها) كما لو كان يعلن بهذه القوصرة موت طراز الباروك والروكوكو، لكن هذا البنيان بشكله الراسخ كان يعلن بشكل أساسي

قوة آل هوهنتسولرن Hohenzollerns وتصميمهم على ألا يدخل برلين عدو. لكن نابليون دخلها في سنة ١٨٠٦ ودخلها الروس في سنة ١٩٤٥.

وحقق فن النحت تقدماً ملموسا. إنه في الأساس فن كلاسي يعتمد على الخط ويتحاشى (منذ القدم) اللون، كما أن عدم الاتساق في الطراز الباروكي baroque، والمرح في طراز الروكوكو Rococo لا يتفقان مع روحه. لقد نحت جوهان (يوهان) فون دانكر Johann Von Dannecker بإزميله لمتحف شتوتجارت تمثاليْه (a Sappho) و (فتاة كاتولس مع الطائر Catullus, Girl with the Bird) وتمثاله (أريادن Ariadne) لمتحف بثمان Bethmann في فرانكفورت، والتمثال النصفي الشهير لشيلر Schiller لمكتبة فيمار Weimar. أما يوهان (جوهان) جوتفريد شادو Johann Gottfrird Schadow (١٧٦٤ - ١٨٥٠) فبعد أن درس على يد كانوفا Canova في روما عاد إلى بلده برلين، وفي سنة ١٧٩٣ لفت انتباه العاصمة (برلين) بأن وضع عند قمة بوابة براندنبورج Brandenburg كارديجا Quardiga (مركبة بعجلتين) تجرها أربعة خيول يرشدها (يقودها) النسر المجنح الذي كان موجودا في المركبات الرومانية. ونحت لشتتن Stettin تمثالا من رخام لفريدريك الكبير واقفاً في ثياب عسكرية يحرق أعداءه بناظريه، لكن يوجد عند قدميه مجلدان كبيران ليشهدا أنه مؤلف أيضا، ونسي النحات فلوته (الفلوت آله نفخ موسيقية)، والتمثال الأكثر رقة هو تمثال يمثل عملا نحتيا واحدا للملكة لويز Luise والملك فريديك (١٧٩٧) وقد تغطى نصف كل منهما بالجوخ ووضع كل منهما ذراعه في ذراع الآخر، وهما يتحركان بهدوء رمزا للعلو والسمو والأسى. لقد ألهمت الملكة الفنانين بجمالها وعاطفتها الوطنية وموتها. وقد خصص هينريش (هينريخ) جنتس Heinrich Genz (١٧٦٦ - ١٨١١) ضريحا ضخما مهيبا في شارلوتنبورج Charlttenburg ونحت كرستيان راوخ Rauch ١٧٧٧ - ١٨٥٧) قبرا جديرا بجسدها وروحها.

وكان الرسم الألماني لايزال يعاني من فقر الكلاسية الجديدة يحاول أن يعيش على رماد البومبية Pompeii (نسبة إلى مدينة بومبي الأثرية الرومانية - في إيطاليا) ومواطن الآثار الهرقلية، ومباحث ليسنج Lessing وفنكلمان Winckelmann، ووجوه منج Mengs وديفد

David الشاحبة والخيالات الرومانية لأنجليكا كاوفمان Angelica Kaufman وما لاحصر له من الرسامين. لكن هذا التنصل (هذا الأسلوب في إزالة الألوان Décoloration) لم يكن له جذور حية في التاريخ الألماني والشخصية الألمانية، فالرسامون الألمان في هذا العصر كانوا لا يبالون بالكلاسية الجديدة، فعادوا للخلف يستلهمون المسيحية، وما وراء حركة الإصلاح الديني وعدائها للفن ولا مبالاتها به، وإلى ما قبل الرافيئيلية في إنجلترا Pre _ Raphaelities، وراحوا يصغون لأصوات مثل أصوات فيلهيلم فاكنرودر Wilhelm Wackenroder وفريدريش شليجل Schlegel تدعوهم للعودة للأصول إلى ما قبل رافائيل، العودة إلى الفن الوسيط (الفن في العصور الوسطى) الذي قدم لنا رسوما ومنحوتات تتسم بالبساطة وتمرح في سعادة في حضن إيمان غير مهتز. ومن هنا ظهرت مدرسة في الرسم عرفت باسم أهل الناصرة Nazarenes (إشارة إلى استلهامهم التراث المسيحي الأول، ولا يعني هذا أنهم من الناصرة).

وكان زعيم هذه المدرسة هو يوهان (جوهان) فريدريش أو فربك Overbeck (١٧٨٩ – ١٨٦٩) الذي ولد في لوبك Lubeck وحمل معه خلال ثمانين عاما الجدية الصارمة للأسر التجارية العريقة والضباب المنتشر الذي يصل لوبك من بحر البلطيق. ذهب إلى فينا لدراسة الفن فلم يجد في الكلاسية الجديدة غذاء يطعمه هناك وفي سنة ١٨٠٩ أسس هو وصديقه فرانتس بفر Franz Pforr أخوية القديس لوقا Lukan Brotherhood التي تهدف إلى إعادة إحياء الفن وإنعاشه بتكريسه لإيمان أعيد تجديده كما كان موجودا أيام البرخت (البريشت) دورر Durer (١٤٧١ – ١٥٢٨). وفي سنة ١٨١٩ هاجرا إلى روما لدراسة بيروجينو Perugino وغيره من رسامي القرن الخامس عشر، وألحقا في سنة ١٨١١ ببيترفون كورنيليوس Von Cornelius (١٧٨٣ – ١٨٦٧) وبعد ذلك بفيليب فيت Veit وفيلهلم فون شادو – جودنهاوس Schadow - Godenhaus وجوليوس (يوليوس) شنور فون كارلسفلد Julius Schnorr Von Carolsfeld.

لقد عاشا على النباتات كقديسين في دير منعزل على جبل بنشيو Monte Pincio هو دير سان إيزيدورو Isidoro وقد راح أوفربك Overbeck بعد ذلك يستعيد ذكرياته فقال:

«لقد عشنا حياة ديرية حقة، ففي الصباح كنا نعمل معا وفي منتصف النهار نطبخ غداءنا الذي لم يكن يتكون إلا من الحساء والسجق أو بعض الخضروات السائغة» وكان كل منهما يعتني بالآخر. لقد تجاوزا كنيسة القديس بطرس لأن فيها كثيرا من الفن الوثني». واتجها أكثر إلى الكنائس القديمة والأديرة مثل دير القديس جون لاتيران Lateran ودير القديس بولس خارج أسوار روما. وارتحلا إلى أورفيتو Orvieto لدراسة سيجنوريللي Signorelli وإلى فلورنسا وفيزول Fiesole لدراسة فرا أنجليكو Fra Angelico. لقد قررا ألا يقوما برسم الصور الشخصية أو أية رسوم للزينة، وإنما كان قرارهما أن يعودا بالرسم إلى عصر ما قبل رافائيل وتكريسه لتشجيع الإيمان المسيحي والوطنية المرتبطة بالعقيدة المسيحية.

وواتتهما الفرصة في سنة ١٨١٦ عندما عهد إليهما القنصل البروسي في روما – بارثولدي J. S. Bartholdy – بتزيين فيلته برسوم جصية عن قصة يوسف وإخوته. وتفجع أهل الناصرة(*) Nazarenes (المقصود قام هذان الفنانان) لإحلال رسوم بالزيت على (الكانافاه) محل الرسوم الجصية. والآن لقد درسا الكيمياء ليتمكنا من إعداد سطوح تجعل الألوان ثابتة، ونجحا إلى الحد الذي تم نقل رسومهما الجصية من روما لتوضع في المتحف الوطني ببرلين، وهي من بين المقتنيات التي تفخر بها العاصمة البروسية، لكن جوته العجوز عندما سمع بهذا الاتجاه الصوفي (ذي الانجذاب العاطفي الديني) أدانهما باعتبارهما يقلدان أسلوب القرن الرابع عشر في إيطاليا تماما كما تقلد الكلاسية الجديدة الفن الوثني. وتجاهل أهل الناصرة (المقصود أصحاب هذه المدرسة) هذا النقد، لكنهما غادرا المسرح بهدوء لأن العلم والبحث والفلسفة راحت – ببطء – تنحت في العقيدة القديمة (المقصود تشكك فيها وتعدلها).

٨- الموسيقا

كانت الموسيقا هي كبرياء ألمانيا في رخائها وازدهارها، وسلواها في أساها ونكباتها. فعندما وصلت مدام دي ستيل إلى فيمار في سنة ١٨٠٣ وجدت أن الموسيقا تكاد تكون

(*) مدرسة فنية أشرنا لهدفها آنفاً. (المترجم)

جزءا أساسيا في حياة الأسرة المتعلمة، وكان في كثير من المدن فرق أوبرية ومنذ أيام جلك Gluck راحت ألمانيا تقلل شيئا فشيئا من اعتمادها على الأعمال والألحان الإيطالية. وكان في مانهايم Mannheim وليبزج (ليبتسج) أوركسترات حققت شهرة في مختلف أنحاء أوربا. ودخلت موسيقا الآلات في منافسة عامة مع الأوبرا. وكان في ألمانيا عازفو فيولين عظماء مثل لويس سبوهر Spohr (١٧٨٤ - ١٨٥٩) وعازفو بيان مشاهير مثل جوهان (يوهان) همل Hummel (١٧٧٨ - ١٨٣٧) وكان الملك فريدريك وليم الثاني يعزف على الفيولنشلو Violoncello كما كان له دور في تأليف الكارتيات واحدهما: (كارتيتة وهي مقطوعة موسيقية تعزفها أربع آلات) وأحيانا الأوركسترات، وكان الأمير لويس فرديناند بارعا في العزف على البيانو ولم يمنعه من منافسة بتهوفن وهمل Hummel سوى أصله الملكي[٢٤].

وكان في ألمانيا أيضا أستاذ موسيقا وقائد فرقة حقق شهرة في مختلف أنحاء أوربا كمعلم ومؤلف وذواقة لمعظم الآلات الموسيقية: إنه أبت Abt (Abbot) جورج جوزيف فوجلر Vogler (١٧٤٩ - ١٨١٤). لقد حقق في بداية حياته شهرة كعازف على الأرغن والبيان، وقد تعلم الفيولين دون أستاذ وطور نظاما جديدا للعزف بالأصابع لتتمشى بشكل جيد مع أصابعه الطويلة. ذهب إلى إيطاليا لدراسة التأليف الموسيقي على يد الأب مارتيني Padre Martini وتمرد على أستاذ إثر أستاذ وارتمى في أحضان الدين، وكان الجمهور يصفق له في روما. ولما عاد إلى ألمانيا أسس مدرسة موسيقية في مانهايم Mannheim ثم في دار مشتدرت Darmstadt وأخيرا في ستوكهولم. ورفض الأساليب الموسيقية الصعبة في التأليف الموسيقي، تلك الأساليب التي يعلمها المعلمون الإيطاليون، وظنه موزارت وآخرون دجالا لكنهم بعد ذلك بوأوه مكانا حفيا ليس كمؤلف موسيقي وإنما كمعلم، وكإنسان وكمصمم أرغن، وجاب أوربا كعازف أرغن فجذب إليه جمهورا عريضا وحقق مكاسب كبيرة، وطور الأرغن. وغير أسلوب العزف على الأرغن، وأجاد الارتجال كبيتهوفن[٢٥]، وكان أستاذا جليلا وقره عدد كبير من تلاميذه بمن فيهم فيبر Weber وميربير Meyerbeer وعندما مات بكوه وحزنوا عليه كما لو كانوا قد فقدوا أباهم. وفي ١٣ مايو ١٨١٤ كتب فيبر

Weber : « في اليوم السادس من الشهر انتزع الموت منا فجأة فوجلر أستاذنا المحبوب . .لكنه سيحيا دوماً في قلوبنا[٢٦] » .

وكان كارل ماريا فون فيبر Carl Maria Von Weber (١٧٨٦ - ١٨٢٦) واحدا من أبناء كثيرين أنجبهم فرانتس أنطون فون فيبر (١٧٨٦ - ١٨٢٦) من زوجتيه (تزوجهما تباعا) . وقد تناولنا بالذكر في هذه المجلدات اثنين من بناته أو قريباته (أبناء أو بنات الأخ أو الأخت) : ألويزيا Aloysia التي كانت حب موزارت الأول كما كانت مغنية مشهورة، وكونستانزا Constanze التي أصبحت زوجة لموزارت . ودرس ابناه فريس Fritz وإدموند مع جوزيف هايدن، أما الابن كارل فلم يكن فتى واعدا في مجال الموسيقا حتى إن فرانتس قال له : « اسمع يا كارل كن كما شئت لكنك لن تكون موسيقيا[٢٧] » فاتجه إلى الرسم، لكن في أثناء تجوال فرانتس أنطون كمدير لفرقة تمثيلية وموسيقية، كان غالبا ما يؤلف لأبنائه، - واصل كارل تعليمه الموسيقي على يد معلم مخلص هو جوزيف هيسكل Heuschkel، فأظهر الفتى موهبة وحقق تقدما سريعا بدرجة أدهشت والده وأسعدته . وبحلول عام ١٨٠٠ كان كارل قد بلغ الرابعة عشرة من عمره واستطاع في هذه السن أن يؤلف الموسيقا ويعزفها أمام الجمهور . وعلى أية حال، ففي هذه الأثناء كان التسرع المحموم في الانتقال من مدينة إلى مدينة (مع الفرقة) قد ترك بعض الأثر على شخصية كارل فغدا عصبيا غير مستقر سريع التغير . وأصبح مفتونا بالطباعة على الحجر، تلك الطريقة التي اخترعها صديقه ألويز سنفلدر Aloys Senefelder حتى أنه أهمل لفترة التأليف الموسيقي وذهب مع أبيه إلى فرايبرج Freiberg في سكسونيا ليمارس الطباعة على الحجر كعمل تجاري . وفي بواكير سنة ١٨٠٣ قابل أبت فوجلر Abt Vogler فَرَبَّى فيه الحماس من جديد وأصبح تلميذاً لفوجلر وقبل نظامه الصارم في التدريب والتطبيق، ودفعته ثقة فوجلر لمزيد من الاتقان . لقد راح الآن يتطور تطوراً سريعاً حتى أنّه دُعي بناء على توصية فوجلر ليكون قائد أوركسترا Kapellureister في برسيلاو Breslau (١٨٠٤)، ومع أنه لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره إلاّ أنه قبِل فأخذ معه والده المريض وذهب إلى العاصمة السيليزية Silesia Capital .

ولم يكن الشاب مناسباً لوظيفة تتطلب مهارة في التعامل مع الرجال والنساء المختلفي

المشارب والأهواء، وليس فقط تحقيق انجاز موسيقي، فأصبح له أصدقاء **مخلصون** وأعداء مفرطون في العداوة، وراح ينفق بسفه ويشرب الخمر بطيش، وخلط بين زجاجة حمض النيتريك وزجاجة النبيذ، فشرب قدراً من حمض النيتريك قبل أن يُدرك أنه يبتلع ناراً، فأُضير ضرراً دائماً في حنجرته وحباله الصوتية ولم يعد يستطيع الغناء، بل أصبح لا يستطيع الكلام إلا بصعوبة، وفقد وظيفته بعد ذلك بعام، وراح يعول نفسه وأباه وعمته من المبالغ التي يحصلها من الدروس، وأصبح وضعه خطرا، واقترب من اليأس إلى أن عرض الدوق يوجن Eugen (من فيرتمبرج Wurttemberg) على ثلاثتهم مكانا للإقامة في مقر إقامته Lus Schloss Karlstuhe في سيليزيا (١٨٠٦) لكن تمزيق نابليون لبروسيا والحاقه الخراب بميزانيتها أثرا على الدوق فلحق به الخراب بدوره، واضطر فيبر Weber ليطعم نفسه وأباه وعمته لهجر الموسيقا لفترة وعمل كسكريتر للدوق لودفيج Ludwig (من فيرتمبرج) في شتوتجارت وكان هذا اللورد عربيدا مسرفا فاسقا غير أمين، فترك تأثيرا سيئا على كارل الذي ارتبط عاطفيا بالمغنية مارجرتيا لانج لكنه فقدها، ففقد بفقدها مدخراته وصحته لكن أسرة يهودية في برلين أنقذته من الفسوق – انهم آل بير Beers تلك الأسرة التي أنجبت ميربير Meyerbeer، وأعاده الزواج إلى حالة الاتزان لكنه لم يستعد صحته.

لقد حقق شهرة أثناء حرب التحرير لأنه وضع الموسيقا للأناشيد الحربية التي كتبها كارل تيودور كورنر Korner وبعد الحرب، دخل معركة من نوع آخر – ضد الأوبرا الإيطالية فقد ألف عمله «التحرير Freichutz» (١٨٢١) كإعلان استقلال، وتم أداؤه للمرة الأولى في ١٨ يونيو ١٨٢١ في الذكرى السنوية لمعركة واترلو، لقد طارت على جناحي الوطنية ولم تحقق أوبرا ألمانية ما حققته من نجاح. لقد كان موضوعها مستوحى من حكايات الأشباح والكائنات النورانية Gespenster buch وغمرتها روح المرح بما فيها من جنيات يحمين الحر الذي يذلق النار (على العدو). لقد كانت ألمانيا في هذه الأيام القاسية تتلقى مساعدات كبيرة من الجن، وفي سنة ١٨٢٦ وجدنا مندلسون Mendelssohn يقدم لنا حلم ليلة منتصف الصيف Midsummer Night Dream. لقد كانت أوبرا فيبر Weber **علامة** على انتصار الرومانسية Romanticism في الموسيقا الألمانية. وكان يأمل أن يواصل نجاحاته بعمله

(Euryanthe) الذي عرض للمرة الأولى في فينا سنة ١٨٢٣، لكن روسينى Rossini كان لتوه قد غزا فينا ولم تعد موسيقا فيبر الأكثر رقة وذكاء تجذب الناس. أدى هذا الفشل – بالإضافة إلى تدهور صحته – إلى إصابته بالإحباط فتوقف – أو كاد – عن التأليف الموسيقي طوال عامين. ثم عرض عليه شارلز كمبل Kemble مدير مسرح حديقة كوفنت Covent Garden Theatre ألف جنيه لكتابة أوبرا لدار أوبرا ويلاند Wieland وأن يأتي إلى لندن للتعاقد معه. فعمل فيبر Weber بحماس شديد لكتابة هذه الأوبرا ودرس الإنجليزية بجدية ومثابرة حتى إنه عندما وصل إلى لندن لم يكن يستطيع كتابة الإنجليزية فقط وإنما التحدث بها أيضا وبشكل جيد. وفي العرض الأول (٢٨ مايو ١٨٢٥) حقق نجاحا هائلا حتى إن المؤلف السعيد وصف هذه الليلة لزوجته في اليوم نفسه: «لقد حققت هذا المساء أعظم نجاح في حياتي.. عندما بدأت الأوركسترا كان المسرح غاصاً حتى السقف وصفق الحاضرون بحماس شديد عندما دخلت، وطوحوا بالقبعات والمناديل في الهواء وبعد نهاية العرض دعيت إلى خشبة المسرح... فاتجهوا إلي جميعا، وكان كل من أحاطوا بي سعداء[(٢٨)]».

لكن أعماله التي عرضت بعد ذلك لم تلق مثل هذا الاستحسان، وفي ٢٦ مايو ١٨٢٦ فشل – بشكل محزن – حفل موسيقي لصالحه (لتقديم العون المالي له) وبعد ذلك بأيام قلائل لزم المؤلف المحبَط (بفتح الباء) والمرهق سريره إذ تفاقم عليه داء السل (ذات الرئة) فمات في ٥ يونيو بعيدا عن وطنه وأسرته.

٩- المسرح

كان في كل مدينة ألمانية – تقريبا – مسرح لأن الناس الذين أرهقتهم الحقائق نهارا يرتاحون إلى الخيال مساء. وكان في بعض المدن فرق مسرحية دائمة كما هو الحال في هامبورج، ومينز (مينتس) وفرانكفورت وفيمار وبون وليبزج (ليبتسج) وبرلين. وكانت هناك مدن أخرى تعوّل على الفرق الجوالة وتقيم مسرحا مؤقتا عند وصول إحدى هذه الفرق. وحقق مسرح مانهيتن أفضل شهرة لجودة عروضه وبراعة ممثليه، كما كان مسرح برلين

هو الأكثر إيرادا وكان أفراد فرقته التمثيلية يتقاضون أعلى الأجور (بالنسبة إلى المسارح الأخرى) أما مسرح فيمار فاشتهر بعروضه الكلاسية.

وكان سكان فيمار في سنة ١٧٨٩ : ٦٢٠٠ نفس ارتبط كثيرون منهم بالوظائف الحكومية والحاشية الأرستقراطية، ولفترة من الزمن أخذ سكان المدن على عواتقهم دعم فرقة من الممثلين فكانت النتيجة أن انتهت هذه الفرقة في سنة ١٧٩٠ لسوء التمثيل، فأخذ شارلز أو جستس هذا المشروع على كاهله فجعل المسرح جزءاً من بلاطه وحث المستشار جوته على إدارته، وكان يمكن لأي فرد من أفراد الحاشيه أن يقوم بدور خلا أدوار البطولة (الأدوار الرئيسة) فهذه الأدوار مقتصرة على « النجوم » من الرجال أو النساء الذين يأتون إلى المسرح، وعلى هذا أتى إفلاند Iffland العظيم إلى فيمار، وأتت أيضا كورونا شروتر Schroter (١٧٥١ - ١٨٠٢) التي كادت تنتزع بصوتها وقوامها وعينيها المتألقين - جوته من شارلوت فون شتاين. ولم يكن جوته (الشاعر ورجل الدولة والفيلسوف) بالقليل الشأن في التميثل، فقد قام بدور أورستس Orestes التراجيدي أمام مدام شروتر Schroter التي قامت بدور إفيجينيا Iphigenia، ونجح أيضا - ويا للدهشة - ككوميدي بل وحتى في الأدوار - الهزلية[٢٩]. ودرب الممثلين على الأسلوب الغالي (الفرنسي) في الحدث الذي يكاد يكون خطابة، وكان هذا الأسلوب يتسم بالرتابة، وإن كان يتسم بالوضوح، والرتابة خطأ والوضوح فضيلة وشجع الدوق بشدة هذه السياسة، وهدد بعقوبة التوبيخ عند وقوع أي خطأ في التفاصيل.

لقد أخذ مسرح فيمار على عاتقه أداء مجموعة من الذخائر المسرحية الطموحة من سوفوكليس وتيرنس Terence إلى شكسبير وكارلدرون Carlderon وراسين وفولتير بل وحتى المسرحيات المعاصرة لفريدريش، وأوجست فيلهيلم فون شليجل وصولا إلى النصر الداعي للفخر مع عمل شيلر (فالنشتين Wallenstein) (١٧٩٨).

لقد أتى شيلر Schiller من يينا (جينا Jena) ليعيش في فينا، وبتشجيع من جوته أصبح عضوا في مجلس إدارة الفرقة. والآن (١٨٠٠) جعل هذا المسرح الصغير من فيمار قبلة يتجه إليها آلاف الألمان من محبي الدراما. وبعد موت شيلر (١٨٠٥) فقد جوته اهتمامه

بالمسرح، وعندما أصر الدوق - بتحريض من خليلاته اللائي كن يترددن عليه - على تقديم فاصل درامي يظهر فيه كلب كنجم مسرحي، استقال جوته من منصبه الإداري واختفى مسرح فيمار من التاريخ.

وهيمن ممثلان على الساحة المسرحية في ألمانيا في هذا العصر. أوجستس (أغسطس) فيلهيلم إفلاند (١٧٥٩ - ١٨١٤) الذي كان يضارع تالما، ولودفيج ديفرينت (١٧٨٤ - ١٨٣٢) الذي كرر اهتمامات إدموند كين Kean ومأساته. ولد في هانوفر يوم كان إفلاند في الثامنة عشرة من عمره، وترك بيته ليلتحق بفرقة مسرحية في جوتا Gotha رغم اعتراض والديه. وبعد ذلك بعامين فقط تألق في مانهايم بأدائه (Dierauber) لشيلر. وفي هذه الفترة الراديكالية من حياته نعم بالرخاء وتعاطف مع الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية، وسرعان ما غدا معبودا للمحافظين (المناهضين للثورة الفرنسية) وبعد أن قام بأدوار كثيرة في معظم أنحاء ألمانيا قبل دعوة جوته لزيارة فيمار (١٧٩٦) وأسعد مشاهديه بكوميديات الطبقة الوسطى، لكنه لم يكن بارعاً في الأدوار التراجيدية براعة فالنشتين Wallenstein أولير Lear. وألف عددا من المسرحيات التي أثارت إعجاب الناس بما فيها من فكاهة، وفي سنة ١٧٩٨ أصبح مديرا لمسرح برلين الوطني وبذلك حقق ما كان يصبو إليه.

وقبل موته بفترة وجيزة تعاقد مع ممثل هو لودفيج ديفرينت Devrient (ديفريا) جلب للمسرح الألماني كل مشاعر ومآسي tragedy الفترة الرومانسية. وكان لقبه الفرنسي ديفرينت (ديفريا - وهو النطق الفرنسي) جزءاً من تراثه الهيجونوتي (الهيجونوت هم البروتستنط الفرنسيون) وتزوج أبوه امرأتين على التوالي وأنجب ثلاثة أبناء كان هو آخرهم وكان أبوه تاجر أجواخ وألبسة في برلين، وماتت أمه في طفولته وتركته بائساً في بيت مزدحم، فانكفأ على نفسه وعاش في عزلة ووحدة ولم يكن يواسيه في حياته سوى أنه كان وسيما أسود الشعر، وهرب من البيت والمدرسة لكن أباه أعاده مرة أخرى وبذل كل جهده ليجعل منه تاجر أجواخ وأقمشة لكن جهوده فشلت فقد كان الفتى غير كفء بدرجة تدعو للسخط، فتركه أبوه على هواه. وفي سنة ١٨٠٤ التقى وهو في العشرين من عمره

بفرقةِ مسرحية في ليبزج (ليبتسيج) فعهدت إليه بدور صغير، انطلق منه فجأة إلى دور كبير بسبب مرض .الممثل الأول (النجم) . لقد كان الدور دور متسول سراق سكير، فوجده يتلاءم مع ذوقه فأداه بإتقان حتى كان يشار إليه على سبيل الإدانة أنه ممثل متجول سكير على المسرح وعندما يكون بعيدا عن المسرح (سكير تمثيلا وواقعا) وأخيراً – في بريسلاو Breslau في سنة ١٨٠٩ – وجد نفسه يمثل (فلستف Falstaff) وإنما في مسرحية راديكالية لشيلر (كارل مور Karl Moor)، وفي هذا الدور صبَّ كل ما تعلّمه من كراهية وعدوانية وشر . لقد استولت عليه شخصية زعيم السرّاق فعبّر عنها بكل خلجةٍ من خلجاته وببريق عينيه الغاضب المخيف، ولم تكن بريسلاو Breslau قد شهدت من قبل مثل هذه الحيوية والقوّة في التمثيل، ولم يكن يمكن أن يصل لهذه الذورة والعمق المسرحيين في هذا العصر العامر بالممثلين العظام سوى إدموند كين Kean، لقد أصبحت كل الأدوار التراجيدية تُسند إليه الآن دون منازع . لقد مثل لير Lear وذاب في دوره (تقمصه تماما) واستسلم لهذا الخط الرفيع بين الحكمة والجنون حتى أنه ذات ليلة انهار وسط المسرحية وكان لابد من حمله للبيت أو لحانته المفضّلة .

وفي سنة ١٨١٤ أتى إفلاند – وكان في الخامسة والخمسين – إلى بريسلاو Breslau ومثل مع ديفرينت (دوفريا) وأحس بطاقته ومهارته فطلب منه الانضمام للمسرح الوطني قائلا له « المكان الوحيد الجدير بك هو برلين، فأنا أحسّ تماما أن هذا المنصب في المسرح الوطني سيغدو شاغرا عما قريب . إنه محجوز لك(٣٠)» وفي سبتمبر مات إفلاند Iffland وفي الربيع التالي شغل ديفرينت مكانه . وهناك ظل يمثل إلى آخر حياته فعاش على الشهرة والنبيذ وقضى ساعات ممتعة يتبادل الحكايات مع إ. ت. أ. هوفمان فقبل تحديا بأن يمثل في فينّافعاد منها إلى برلين محطم الأعصاب، ومات في ٣٠ ديسمبر ١٨٣٢ في الثامنة والأربعين من عمره، وظل أبناء أخيه الثلاثة الموهوبون – وكلهم يحمل اسمه – يتوارثون فنه حتى آخر القرن .

١٠- كتاب المسرح

بعد أن قام فيلهلم فون شليجل بترجمته الممتازة لأعمال شكسبير (١٧٩٨ وما بعدها) قدم المسرح الألماني مكانا جديداً لمسرحيات العصر الإليزابيثي، وكان كتاب المسرح الألمان - بين ليسنج وكلايست Kleist يهدفون عادة إلى إرضاء الطبقة الوسطى بشكل عام، وكانوا قد فقدوا ما حققوه من نجاحات جماهيرية بسبب عدم الاستقرار الذي شهده عصرهم. لقد وضع زكارياس فيرنر Zacharias Werner اتجاهه الصوفي (الباطني) على المسرح بشكل عابر، أما أوجست فون كوتسبو Von Kotzebue (١٧٦١ - ١٨١٩) فأسعد بمسرحياته جيلا واحدا لكنه الآن ذكرى باهتة لا يكاد يذكر إلا بسبب اغتياله. لكن الألمان يذكرون هينريش (هينريخ) فيلهلم فون كلايست Kleist شفقة عليه ولاحترامه لقلمه. ولد (١٧٧٧) في فرانكفورت - آن - دير - أودر Frankfort - an - der - Oder وكان قريبا في طبعه (مزاجه) للسلاف كما كان قريباً من الناحية الجغرافية وقضى سبع سنوات في الجيش كأي مواطن ألماني صالح، لكنه تحسر بعد ذلك على ضياع هذه الأعوام. درس العلوم والأدب والفلسفة في الجامعة المحلية وفقد إيمانه بالدين والعلم على سواء. وارتجف لفكرة الزواج عندما رشح ليكون زوجا لابنة جنرال، وهرب إلى باريس ومنها إلى سويسرا حيث لعب خياله به بشراء مزرعة وليترك توالي الفصول يهدئ من عقله المزدحم بالأفكار، لكنه عاد مرة أخرى للأدب فكتب تراجيدية تاريخية (لم يكملها) هي: روبرت جسكارد Guiskard وفي سنة ١٨٠٨ عرض فوق خشبة المسرح في فيمار مسرحية كوميدية هي مسرحية «الإبريق المكسور Der Zerbrochene Krug» التي صنفها الجيل التالي باعتبارها عملاً كلاسيا باقيا. ومكث في فيمار فترة (١٨٠٢ - ١٨٠٣) ونعم بصداقة - وتشجيع - كريستوف فيلاند Wieland وهو «لا أدري» عجوز قال له بعد أن سمع مقتطفات من تراجيديته «جوسكارد Guiskard «أنت تحمل في داخلك أرواح أسخيلوس وسوفوكليس وشكسبير[٣١]» وقال له أيضا إن عبقرية كلايست Kleist خلقت لتسد كل الفراغ في تطور الدراما الألمانية فحتى شيلر وجوته لم يملآه[٣٢] وكان هذا كافيا لتدمير هذا الكاتب المسرحي الشاب أو بتعبير آخر تدمير سوفوكليس الجديد الذي لم يتجاوز الخامسة

والعشرين من عمره.

لقد اتجه إلى باريس ليعيش فيها فشعر بفورانها فراح يتفكر في النزعة إلى الشك المتوارثة في الفلسفة المثالية الألمانية: إذا كنا لا نعرف إلا أقل القليل عن الكون كما ندركه بوعينا، فلن نعرف الحقيقة أبدا. شيء واحد مؤكد فالكل مصيره للتراب: فلاسفة وعلماء وشعراء وقديسون ومتسولون ومجانين. لقد فقد كلايست الشجاعة لمواجهة واقع غير قائم على أساس وطيد، لقد رفض مواجهته وقبوله والاستمتاع به وانتهى إلى أن عبقريته وهم وكتبه ومخطوطاته عبث، وفي لحظة يأس حرق كل ما كان معه منها وحاول الانضمام إلى جيش نابليون المتأهب لعبور القنال الإنجليزي، وفي ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٠٣ كتب إلى أخته التي أحبها حبا يفوق الوصف «ماسأذكره لك قد يكلفك حياتك، لكن لا بد، لا بد من قوله لك. لقد درست وأمعنت مرة أخرى في عملي (مؤلفي) فرفضته وأحرقته. والآن حلت النهاية. السماء تنكر عليّ الشهرة – وهي أعظم ما يمكن أن يناله المرء في الدنيا، لكنني كطفل متقلب سأقذف بكل ما بقي أمامها (السماء). لا أستطيع أن أرى نفسي جديرا بصداقتك، وبدون صداقة لا أستطيع العيش. إنني أختار الموت. كوني هادئة، فسأموت ميتة جميلة. سأموت سامياً في معركة. لقد غادرت عاصمة البلاد واتجهت إلى سواحلها الشمالية وسألتحق بالخدمة العسكرية الفرنسية وسرعان ما سيركب كل الجنود السفن في الطريق إلى إنجلترا، ودمارنا جميعا رهن بالبحر. إنني مبتهج لهذا القبر الفخم. وستكونين يا حبيبتي آخر ما أفكر فيه[٣٣]».

لكن خطته أن يكون جنديا ألمانياً في الجيش الفرنسي أثارت الشكوك حوله، فطرد من فرنسا بإصرار من السفير البروسي، وبعد ذلك بوقت وجيز أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا، وفي سنة ١٨٠٦ دمر نابليون الجيش البروسي بل ودمر تقريبا بروسيا نفسها، وبحث كلايست عن ملجأ له في دريسدن لكن العسكر الفرنسيين قبضوا عليه ظانين أنه جاسوس فقضى في السجن ستة أشهر وعندما عاد إلى دريسدن انضم إلى مجموعة وطنية من الكتاب والفنانين وتعاون مع آدم ميلر Muller في تحرير دورية أسهم فيها بكتابة بعض من أجمل مقالاته. وفي سنة ١٨٠٨ نشر مسرحية تراجيدية (Penthesilea) كانت بطلتها

أميرة أمازونية Amazonian انضمت إلى تروجان المتهور ضد الإغريق في طروادة (وذلك بعد موت هيكتور Hector) . لقد انطلقت لتقبل أخيل Achilles إلا أنه تغلب عليها فوقعت في حبه، وعلى وفق قانون النسوة الأمازونيات كان عليها أن تثبت جدارتها بالانتصار على عشيقها في معركة، فوخزت أخيل بسهم وأطلقت كلابها عليه، وانضمت لهذه الكلاب في تمزيقه إربا وشربت من دمه ثم سقطت ميتة. والمسرحية صدى للجنون أو العربدة السعار المؤقت(*) الذي تناوله يوربيدز Euripides – وهو جانب من الميثولوجيا الإغريقية لم يركز عليه الدارسون للأدب الهيليني قبل نيتشه.

والذي لاشك فيه أن الغضب قد تصاعد بسبب تمزيق نابليون لأوصال بروسيا بطيش وبلا روية، مما أخرج الشاعر من أحزانه الخاصة وأصبح من بين أصوات أخرى تدعو ألمانيا لشن حرب تحرير. وفي نحو نهاية سنة ١٨٠٨ أصدر مسرحية Die Hermannsschlacht استعاد فيها ذكريات أرمينيوس Arminius على الجيوش الرومانية. في السنة السادسة للميلاد، ليبعث بذلك الشجاعة ويحثهم على التصدّي لنابليون في حرب بدت يائسة. هنا نجد – مرة أخرى – نجد وطنية كلايست Kleist ترتفع لذروة العصاب: فزوجة هيرمان (ثوزنلدا Thusnelda) تغري الجنرال الألماني (فينتيديوس Ventidius) لتلتقي به لقاء غرام، ومن ثم قادته ليلقى حتفه إذ يلتهمه دب متوحش.

وكان العامان ١٨٠٩ – ١٨١٠ يمثلان ذورة عبقرية كلايست. لقد عرضت مسرحيته الشعرية (Das Kathechen von Hilbronn) وحققت نجاحا في هامبورغ وفينا وجراز (جراتس) كما أن مجموعة قصصه القصيرة التي صدرت في مجلدين في سنة ١٨١٠ ميزته وربما جعلته من بين أصحاب أجمل الأساليب الأدبية في عصر جوته. وبعد ذلك أصيب بالإحباط ربما لتدهور صحته، ووقع أخيرا في حب رومانسي مع امرأة مصابة بمرض عضال هي هنريت فوجل، وربما كان هذا الحب ناتجا عن المعاناة المشتركة بينهما. وتعكس خطاباته لها عقل رجل على حافة الجنون: «يا جت Jette العزيزة، يا كلي، يا حصني، يا أرضي الخضراء، يا خلاصة حياتي، يا عرسي، يا عماد أطفالي، يا مأساتي، يا قدري، يا

(*) The Bacchic باخوسي نسبة إلى باخوس إله الخمر عند الإغريق. (المترجم)

ملاكي الحارس، يا ملاكي الجميل، يا سيرا في Seraph (الكلمة تعنى ملكاً مجندا لحراسة الله (أستغفر الله) في التوراة)!» وقد أجابته بأنه إن كان يحبها فلا بد أن يقتلها، وفي ٢١ نوفمبر ١٨١١ وعلى شاطئ الفانسي Wansee بالقرب من بوتسدام أطلق عليها النار فأرداها ثم قتل نفسه.

لقد استسلمت الرومانسية فيه إلى المشاعر كأشد ما يكون الاستسلام مع قوة خيال وبراعة أسلوب. وبدا في مرات عديدة فرنسياً أكثر منه ألمانياً، مناقضا لجوته، أخا لبودلير وأكثر قرباً لريمبو Rimbaud. ويكاد يكون (بحياته هذه) قد أكد مقولة جوته غير المتعاطفة (الكلاسية صحة، والرومانسية مرض). دعنا نر.

الفصل الواحد والثلاثون



[١٧٨٩ - ١٨١٥]

١- ثورة واستجابة

تأثر الأدب الألماني في عصر نابليون بتمرد الشباب الطبيعي وبالرغبة في كسر الروابط الأسرية والخروج على المألوف، وأصداء الشعر الرومانسي الإنجليزي وروايات ريشارد سون Richard son، والتراث الكلاسي للسنج Lessing وبعد ذلك جوته والثورات الناجحة في المستعمرات الأمريكية والهرطقات التي صاحبت حركة التنوير الفرنسية، والأهم من كل هذا التأثير اليومي للثورة الفرنسية، وأخير بدراما صعود نابليون وسقوطه. لقد كان كثيرون من المتعلمين الألمان قد قرأوا أعمال فولتير وديدرو Diderot وروسو، بل إن بعضهم قرأها في لغتها الفرنسية الأصلية، وكان عدد أقل من الألمان قد أحس بلسعات هلفيتيوس Helvetius ودولباش d'Holbach ولا متري La Mettrie. وكان للمفكرين والمثقفين الفرنسيين دور في صياغة (تكوين أو تشكيل) حكام على شاكلة فريدريك الكبير، وجوزيف الثاني النمساوي، والدوق شارلز وليم فرديناند البرونسفيكي، والدوق شارلز أو جستس (في ساكسي فيمار Saxe - Weimar) ولو لم يكن للكتاب والمفكرين الفرنسيين سوى هذا (أي سوى تأثيرهم في هؤلاء الحكام وصياغة فكرهم) لكفى بهذا دليلا على تأثيرهم في الحضارة الألمانية. لقد بدت الثورة الفرنسية في البداية تطورا منطقيا لفلسفة التنوير Enlightenment Philosohy : النهاية – التي أسعدت الناس – للإقطاع والامتيازات الطبقية والأسرية والإعلان الذي طال انتظاره لحقوق الانسان، والدعوة النشيطة لحرية الكلام والصحافة والتصرف والعبادة والفكر. هذه الأفكار (وكان كثير منها قد تطور داخل ألمانيا ذاتها) عبرت الراين على جناحي أخبار الثورة الفرنسية أو مصاحبة لجيوشها المندفعة لقلب أوربا واصلة حتى إلى كونجسبرج Konigsberg البعيدة.

وعلى هذا فإن مشكلي العقل الألماني وصانعي أدبه رحبوا بالثورة الفرنسية في أعوامها

الثلاثة الأولى. لقد رحب بها البناؤون الأحرار Freemasons والروزيكروشيون أصحاب الاتجاه الباطني Rosicrucians ودعاة التنوير المعتزون بفكرهم Illuminati، واعتبروها فجر عصر ذهبي طال انتظارهم له وشوقهم إليه. لقد أيد الفلاحون الثوار ضد السادة الإقطاعيين (الفرسان الإمبراطوريين) والحكام الأسقفيين في ترير Trier وسبير Speyer[١]. وبورجوازيو هامبورج هللوا للثورة باعتبارها إعلاء لشأن رجال الأعمال ضد الأرستقراطيين المتغطرسين، وراح الشاعر العجوز كلوبستوك Klopstockالذي يقيم في هامبورج، يقرأ قصائده في مهرجان الحرية ويصيح بفرح وهو يترنم بأبيات قصائده، وراح العلماء والصحفيون والشعراء والفلاسفة يترنمون مادحين in a Capell-a hymnes (والكابلا قاموسياً هي العَيّوق)، وراح جوهان (يوهان) فوص Voss مترجم أعمال هوميروس، ويوهان فون ميلر Muller المؤرخ، فريدريش فون جنتس Genz الدبلوماسي (خارج الخدمة) والفلاسفة من كانط إلى هيجل – راحوا جميعا يتغنون باسم الثورة ويدعون لها بالنجاح. كتب جورج فوستر Foster (الذي كان يصحب كوك Cook في رحلة حول العالم) : « إنه لشيء عظيم أن يرى المرء الفلسفة قد نضجت في العقول وأصبحت واقعاً في الدولة[٢] » لقد ظلت ألمانيا منتشية لفترة بأخبار الثورة الفرنسية ففي كل مكان فيها (حتى في الأوساط الملكية كما في حالة الأمير هنري أخو فريدريك الكبير الباقي على قيد الحياة) كان الناس يرفعون أيديهم بالدعاء لفرنسا الثورة. في ظل هذه النشوة أضاف الأدب الألماني الثورة إلى انتصارات فريدريك، وارتفع (أي الأدب) في غضون ثلاثين عام (١٧٧٠ – ١٨٠٠) ليكون أدبا ناشطاً فعالا متنوعا متألقا يضارع الأدب الناضج في كل من إنجلترا وفرنسا – لقد أصبح هذا هو حال الأدب في ألمانيا بعد أن ظل في حالة سبات طويل منذ فترة النزاع الديني، وهذا الأدب نفسه (المتأثر بالثورة الفرنسية) هو الذي أدهش الناس بتقدمه، فراح يلعب دوره في النهوض بألمانيا لإزاحة النير الفرنسي لتدخل (أي ألمانيا) في أزهى قرونها من النواحي السياسية والصناعية والعلمية والفلسفية.

وبطبيعة الحال لم يدم هذا المزاج السعيد، فقد أتت الأخبار بالهجوم على التوليري Tuileries، ومذابح سبتمبر وعهد الإرهاب وسجن الملك (الفرنسي) والملكة ثم إعدامهما

ثم أتى الاحتلال الفرنسي لدول ألمانيا، والضرائب الباهظة والتجنيد الإجباري لشباب ألمانيا لدفع ثمن الحماية الإمبريالية والتكالف الحربية لنشر الحرية. وعاما بعد عام راح حماس الألمان للثورة الفرنسية يخبو ويهمد وراح الذين دافعوا عن الثورة الفرنسية بالأمس ينسلون واحدا إثر واحد من مواقفهم السابقة (عدا كانط) وخاب أملهم فيها وتشككوا في أهداف فرنسا، بل وتحول بعضهم إلى معادين لها غاضبين عليها.

٢- فيمار

كان الرجال الذين شكلوا كوكبة من العباقرة في بلاط فيمار كالملجأ الفكري للمفكرين الألمان خلال فترة التأثير غير المستقر للثورة الفرنسية ونابليون. لقد كان الدوق شارلز أوغسطس (أوجستس) هو نفسه متقلب المزاج متعدد المواهب. لقد ورث الدوقية وهو ابن عام واحد وأصبح حاكمها الفعلي وهو في الثامنة عشرة من عمره (١٧٧٥) واستمد تعليمه العام من أستاذ خاص، واكتسب مزيدا من المعارف والخبرات من خلال مسئولياته في الإدارة، ومن خلال نزوات خليلة ومن خلال أخطار الحرب والصيد، ولم يكن صالون أمه أقل شأناً فقد تعلم منه الكثير، ففي هذا الصالون كان يلتقي الشعراء والجنرالات والعلماء والفلاسفة ورجال الدين والمهتمون بالأمور العامة مع بعض نسوة ألمانيا الأكثر ثقافة واستواء فطرة يتبادلون أحاديثهم المفعمة بالحكمة المتوارثة باللباقة والذكاء ولا يحسبون من أعمارهم يوما يمر دون أن يشهد الواحد منهم علاقة غرامية مكتومة (لا يعرف بها أحد). لقد ذكر جان بول ريشته Jean Paul Richter «آه هنا لدينا نساء!.. كل شيء هنا يتم بجرأة ثورية، حتى إن المرأة المتزوجة لا تعني شيئا[٣]» وفي سنة ١٧٧٢ دعت الدوقة (التي كانت هي نفسها نموذجا للفضيلة البهيجة) العالم والشاعر والروائي كريستوف فيلاند ليأتي كي يشرف على تعليم ابنيها شارلز أو جستس (أغسطس) وكونستنتين (قسطنطين) فأدى مهمته بتواضع وكفاءة وظل في فيمار حتى مات. وكان في السادسة والخمسين من عمره عندما قامت الثورة الفرنسية فرحب بها، لكنه طلب من الجمعية الوطنية في فرنسا أن تأخذ حذرها من حكم الغوغاء: وكان هذا في خطاب عالمي وجهه في أكتوبر ١٧٨٩: «الأمة

تعاني من حمى الحرية التي جعلت أهل باريس – وهم الأكثر أدباً وتهذيبا في العالم – ظمأى لدماء الأرستقراطية... عندما يعود الشعب لنفسه – عاجلا أم آجلا – ألن يدرك أنه أصبح يقاد رغم أنفه من ١٢٠٠ طاغية صغير، بعد أن كان يحكمه ملك؟... ولا يمكن أن تكونوا أكثر اقتناعا – وبعمق – مني بأن أمتكم كانت مخطئة لتحمل مثل هذا الحكم السيئ لفترة على هذا القدر من الطول، ذلك أن أفضل شكل من أشكال الحكومات هو الذي يفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ويوازن بينها، بحيث يكون لكل شيء حق لازب لايمكن إلغاؤه، حق في الحرية بحيث لاتتعارض مع النظام، وأن الضرائب لا بد أن تكون متناسبة مع الدخل، وأن يدفع الجميع الضرائب على وفق المبدأ السابق دون استثناء(٤)».

وفي سنة ١٧٩١ كتب أنه لم يكن يتوقع أبدا أن يتحقق حلمه بالعدالة السياسية هكذا سريعا بإعدام لويس السادس عشر(٥) لقد حول إعدام الملك في يناير ١٧٩٢ من مشاعره المؤيدة للثورة إلى مشاعر عداء لها. لقد عادى الثورة، وساءه كثيرا عهد الإرهاب، ونشر بعد ذلك في العام نفسه (كلمات في أوانها) وصل فيها إلى بعض النتائج المعتدلة: «لا بد أن يواصل المرء دعوته حتى يستمع الناس ويقتنعوا بأن البشر يمكن أن يصبحوا أسعد حالا إذا « أصبحوا أكثر تحكيما للعقل وأكثر مراعاة للأخلاق.. بهذا فقط يمكن أن يتقدموا.. فالإصلاح لا يجب أن يبدأ بالدساتير وإنما بالأفراد. إن كل الظروف اللازمة للسعادة موجودة فعلا في بلادنا (ألمانيا)(٦)».

وكان جوهان (يوهان) جوتفرايد فون هيردر Gottfreid Von Herder هو آخر من استقر من الأربعة في فيمار وأول من مات منهم، وقد أدان الثورة الفرنسية بعد أن كان يطريها عندما قام الثوار بإعدام الملكة بالمقصلة. لقد أدان الثورة عندها باعتبارها – أي الثورة – انتهاكا وحشيا للمثل الإنسانية. وفي آخر سني عمره عاد إليه الأمل فرغم أن الثورة الفرنسية قد أصابها الجنون المبكر، فإنها قد أحرزت تقدما في أوربا هو التقدم الثاني بعد ذلك الذي أحرزته حركة الإصلاح الديني (حركة لوثر ورفاقه). لقد أنهت الثورة الفرنسية تحكم الإقطاعيين في الناس، كما أنهت حركة الإصلاح الديني هيمنة البابوية على عقول

الخلق، فأصبح الناس الآن أقل خضوعا للظروف التي أملاها عليهم مولدهم وانتماؤهم الطبقي، وتحررت الموهبة ففتحت لها الأبواب للتطور والإبداع بصرف النظر عن ظروف الميلاد، وإلا أن التقدم على أية حال يمكن أن يكلف أوربا غاليا، وكان هيردر Herder سعيدا لأن هذه التجربة جرت في فرنسا وليس في ألمانيا الحبيبة إلى قلبه حيث لا يسارع الناس إلى التدمير والإحراق، وإنما هم عمال هادئون يعملون بدأب وعلماء صبورون يمكنهم أن يقودوا الشباب النامي باعتدال وحكمة وثبات، وينشرون بينهم الضياء (التنوير).

وكان فريدريش شيلر – الروح الرومانسي الذي حرسه بشغف الثلاثة الكلاسيون – قد أتى إلى فيمار (١٧٩٥) بعد مغامرات شائقة في الدراما والشعر والتاريخ والفلسفة. وكان خياليا رومانسيا وحسّاساً بدرجة شديدة فلم يجد إلا القليل يحبه في مرتع شبابه فيرتمبرج Wurttemberg . وقد رد على الظلم والاضطهاد بتوقيره روسو إلى حد العبادة، وبكتابة مسرحية ثورية. لقد أدان كارل مور Karl Moor (بطل مسرحيته اللص Die Rauber) (١٧٨١) استغلال الإنسان للإنسان فلم يترك شيئا لكارل ماركس غير أن هذا الأخير صاغ الأفكار نفسها بشكل ذي طابع أكاديمي. وتظل مسرحية شيلر الثالثة (كابال والحب Kabal und Liebe) (١٧٨٤) هي الأكثر ثورية، فقد امتدح فيها استقامة البورجوازية الألمانية وصبر ها وحياتها المنتجة وكشف الغش والخداع والرشوة والغلو (التبذير) والمزايا التي يحصل عليها من لا ينتجون. وفي أفضل مسرحياته التي كتبها شيلر قبل الثورة وهي مسرحية دون كارلوس (١٧٨٧) وكان وقتها في الثامنة والعشرين من عمره، نجده أكثر حرصا على عدم اغضاب نبلاء السلطة منه على عدم إغضاب الفقراء. لقد وضع على لسان الماركيز بوزا Posa عبارة مفادها أن فيليب الثاني هو « أبو الشعب » الذي « يترك السعادة تنساب من مجدك » « ولتدع العقول تنضج (وتثمر) في أرجاء مملكتك الواسعة، لتكون أنت بين آلاف الملوك، ملكاً حقا[٧] ».

وعندما انتقل شيلر من مرحلة الشباب إلى مرحلة منتصف العمر انتقل بشكل طبيعي من الراديكالية إلى الليبرالية. لقد اكتشف بلاد الإغريق القديمة وتعمق بدراسة مسرحييها (مؤلفي المسرح فيها). وقرأ كانط وأشاع الغموض في شعره بمزجه بالفلسفة. وفي سنة

١٧٨٧ زار فيمار وفتن بنسائها فبث فيه فيلاند Wieland وهيردرHerder الهدوء. (كان جوته في هذا الوقت في إيطاليا). وفي سنة ١٧٨٧ نشر كتابه (تاريخ ثورة الأراضي المنخفضة المتحدة Geschichte des Abfalls der vereinigten Niederlande) وتخلى عن فلسفته إلى التاريخ. وفي سنة ١٧٨٩ تم تعيين شيلر أستاذاً للتاريخ في يينا Jena بناء على توصية قدمها جوته لدوق ساكسي فيمار Saxe - Weimar وفي أكتوبر من العام نفسه كتب إلى أحد أصدقائه: «إنه لهدف صغير أن أكتب لأمة واحدة، فبالنسبة إلى فيلسوف يعتبر هذا الحد سجنا لا يطاق.. فالمؤرخ لايمكن أن يوهج أمة ويثير فيها حماسا إلا إذا جعلها (أو نظر إليها) كعنصر في مسيرة الحضارة وتقدمها(٨)».

وعندما وصلت أخبار الثورة الفرنسية إلى يينا Jena كان شيلر في منتصف العمر ينعم بدخل جيد وقبول عام وفهم مقبول. وساعدت مراسلاته مع جوته عبر مسافة بلغت اثني عشر ميلا (وكان الفارق العمري بينهما عشر سنوات) الشاعر الكامن في جوته على أن تظل واقعية العمل الإداري حية عنده، وكذلك محاذير الرخاء، كما ساعدت شيلر على التحقق من أن الطبيعة البشرية لم تتغير إلا قليلا عبر التاريخ تغيرا لا يجعل الثورات السياسية مفيدة للفقراء. وتعاطف مع الملك الفرنسي وزوجته عندما قبض عليهما الثوار في فرساي في سنة ١٧٨٩، وفي فارن Varennes في سنة ١٧٩١ وعند إخراجهما من القصر (الذي كان سجناً لهما) في سنة ١٧٩٢ وبعد ذلك بوقت قصير أضفت حكومة المؤتمر الثورية على «السيد المغفل Le Sieur Gilles» لقب «المواطن الفرنسي» وبعد ذلك بأسبوع دلت مذابح سبتمبر على سلطة العوام المسلحين، وفي ديسمبر حوكم لويس السادس عشر، وبدأ شيلر في كتابة نشرة للدفاع عنه لكن المقصلة هوت على رقبة الملك الفرنسي قبل أن يكملها (يكمل نشرته) وابتسم جوته لتقلب اتجاهات صديقه السياسية، لكنه هو أيضا كان قد ابتعد كثيرا عن المسلمات التي آمن بها في شبابه. لقد كان لديه علاقات جنسية عابرة كثيرة بنسوة جميلات فاسدات قبل أن يدعى في سنة ١٧٧٥ وهو في السادسة والعشرين من عمره لمغادرة فرانكفورت ليعيش في فيمار كشاعر للدوق شارلز أوجستس (أوغسطس) في وظيفة ثابتة وكرفيق له يمارسان معا الرذيلة بوجهيها (اللذه الجنسية

بوجهيها أو بنوعيها in both forms)، وخلال الاثني عشر عاما التالية استوعب الحقائق الاقتصادية والسياسية وأحرز تقدما سريعا. لقد اختفى المؤلف الرومانسي الذي ألف في سنة ١٧٧٤ Die Leiden des Jungen Werth ers وغاص في عمله الجديد كمستشار فرأى في انتصار فرنسا في معركة فالمي في سنة ١٧٩٢ عصراً جديدا يتشكل في التاريخ الأوربي. إلا أن التدهور والفوضى اللذين عما الثورة الفرنسية في هذا العام نفسه (١٧٩٢) جعله يخلص إلى أن الإصلاحات البطيئة في ظل مستبدين متنورين هذبتهم الفلسفة، وفي ظل حكام محليين متعلمين وحسني النوايا مثل دوق فيمار الذي يعمل معه - قد تكلف الشعب معاناة أقل من المعاناة التي يسببها التغيير السريع المفاجئ الذي قد يسبب انهيار القاعدة الأساسية للنظام الاجتماعي خلال عقد من الانفعال والعنف. وقد عبر في إحدى قصائد المنطوية على الحكمة Venetian Epigramsعن هذا الخوف في وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٧٩٠ :

- **ليحذر حكامنا قبل قوات الأوان مما أصاب فرنسا،**
- **لكن أيها الناس يا من أنتم في الدرك الأسفل، فلتحذروا أنتم أيضا.**
- **إذا ذهب الرجال العظماء بغير عودة فمن يحمي الشعب**
- **عندها سيصبح الغوغاء القساة طغاة يحكموننا جميعا.**

لقد هلل سعيدا عندما أنهى نابليون فوضى الثورة بقبضه على زمام السلطة واعتماده دستورا يسمح للناس بإدلاء أصواتهم في استفتاء في بعض المناسبات دون تدخل كثيرفي أمور حكومية حاسمة متسمة بالكفاءة. ولا يقلل من تقديره للكورسيكي (نابليون) استقبال نابليون له بشكل مجامل في فرانكفورت في سنة ١٨٠٧ وما قيل من أن هذا اللقاء أسهم كثيرا في شهرة هذا الشاعر المستشار شهرة عالمية.

وتغلغلت بعض اللمسات الرومانسية خلال تطوره الكلاسي الراسخ، حكماً وذوقا، فالجزء الأول من فاوست Faust (١٨٠٨) عبارة عن قصة حب كما أنها تركز على أخلاق العصور الوسطى، كما أن عمله الذي أصدره سنة ١٨٠٩ (Elective affinities) يبدو مؤيداً لصيحة الجيل الجديد، تلك الصيحة الصارخة المطالبة بأن يكون الانجذاب المتبادل هو

أساس الارتباط لا أن يكون الأساس هو الارتباط الشرعي أو الدعم المالي للآباء. واستمر المستشار الذي أصبح فيلسوفا يرفرف حول النسوة الشابات حتى بعد أن بلغ من العمر عتيا، لكن دراسته للفن القديم في إيطاليا وتطور اهتمامه بالعلوم وقراءته للفيلسوف سبينوزا Spinosa وتدهور نشاطه البدني - كل ذلك جعله واسع الأفق غير عجول في الحكم على الأمور. وقد أعلن عن هذا التغير في سيرته الذاتية (١٨١١) التي تعرض فيها لحياته بشكل موضوعي. وكانت ألمانيا الرومانسية - التي أثرت فيها عواطف فاكنرودر Wackenroder ونوفاليز Novalis، والحب المتحرر الذي دعا إليه الكاتبان شليجل Schlegels، وخبل هولدرلين Holderlin وقتل الرحمة (انتحار كلايست) - قد امتعضت لنقده الثورة الفرنسية، نقداً عالي النبرة، ولم تلحظ إلا بالكاد أنه كان أيضا يسخر من الطبقة الحاكمة. والحقيقة أنه حتى في أثناء حرب التحرير الألمانية كان يجد صعوبة في كراهية نابليون والفرنسيين وقد شرح لإكرمان Eckermann قائلاً:

« كيف أستطيع أن أكره أمة من بين أكثر أمم الأرض ثقافة؟ كيف أستطيع أن أكرهها وأنا مدين لها بقدر كبير جدا مما لدي؟ أتستوي عندي الثقافة والبربرية!؟ هناك مرحلة يختفي فيها العداء بين الأمم تماما حيث يقف المرء وقد تسامى فوق الأممية ليشعر أن آلام شعب مجاور وسعادته هي نفسها آلامه هو وسعادته[٩] ». ولم يسامحه أبناء جيله أبداً وقلما كانوا يقرأونه واعتبروا شيلر أفضل منه[١٠] وقلما كانت مسرحياته تعرض في فيمار، واشتكى الناشرون من قلة مبيعات (أعماله الكاملة المجمعة)[١١] ومع هذا فإن رجلا إنجليزيا هو اللورد بايرون أهدى إليه في سنة ١٨٢٠ في صدر مؤلفه (Marino Faliero) كتابه لأنه « إلى حد بعيد أول شخصية أدبية في أوربا منذ وفاة فولتير[١٢] » ولم يكن يطيق قراءة كانط، لكنه كان أحكم رجال عصره.

٣- الساحة الأدبية

لقد كانت ألمانيا مشغولة انشغالاً لم تعهده أبداً من قبل كانت مشغولة بالكتابة وبالرسم ونشر الصحف والدوريات والكتب. ففي سنة ١٧٩٦ توصل ألويز سينفلدر Aloys

Senefelder في ميونخ لما عرف فيما بعد بالطباعة الحجرية (الطباعة على الحجر) ذلك أنه حك (فرك) حلي أمه المثبتة في ملابسها المغسولة بحجر، فترك هذا الحك أثراً فتراءى له أن الكلمات والصور والألوان المختلفة يمكن بالحفر الغائر أو الحفر البارز على حجر ناعم أو لوح معدني، طباعتها والحصول على ما لايحصى من النسخ منها (على أن يتم النقش بطريقة عكسية لتكون الكلمات المطبوعة في وضعها الصحيح - أي كتابتها معكوسة لتبدو سوية كما في حالة المرآة) ومن هنا ظهر طوفان من الصور والرسوم المطبوعة بدءا من جويا Goya وهيروشيج Hiroshige إلى كورييه Currier وإيفز Ives وبيكاسو Picasso .

وكانت الصحف كثيرة وصغيرة الحجم وموالية وخاضعة للرقابة . فصحيفة أليماني تسايتونج Allgemeine Zeitung (الوقائع الألمانية) أسست في توبنجن Tubingen في سنة ١٧٩٨ ثم انتقلت إلى شتوتجارت ثم إلى أولم Ulm ثم إلى أوجسبورج Augusburg ثم إلى ميونخ لتتحاشى البوليس المحلي . وصحيفة كولنيش تسايتونج Kolnische Zeitung تم تأسيسها في سنة ١٨٠٤ وكانت مقالاتها وأخبارها أكثر هدوءا، وكانت وطنية كاثوليكية ثم أصبحت نابليونية . وكان في كل من فينا وبرلين وليبزج (ليبتسج) وفرانكفورت ونورمبرج صحف ظهرت في وقت سابق على قيام الثورة الفرنسية وظلت تؤدي عملها حتى الفترة التي نتحدث عنها . أما الدوريات والمجلات فكانت كثيرة، من أجملها دورية الموسيقا الألمانية Allgemeine Musikalische (أليماني موزيكاليشي) التي نشرتها في ليدن شركة برايتكوبف وهارتل Breitkopf und Hartel، وظلت تصدر من ١٧٩٥ إلى ١٨٤٩ أي من ثورة إلى أخرى . أما أكثرها تألقا فهي دورية أثيناوم Athenaum التي أسسها الأخوان شليجل في سنة ١٧٩٨ . وكان الناشرون كثيرين . كما كان المعرض الدولي للكتاب في ليبزج (ليبسج) حدثا أدبيا سنويا .

وكان لطائفة خاصة من الكتاب - تم تصنيفهم تصنيفا مرنا باعتبارهم (الخبراء في الشؤون العامة) - تأثير واسع لانحيازهم الشديد لقضاياهم وإن كانوا رغم انحيازهم يمتلكون ناصية المعلومات لمناقشة قضايا العصر الأساسية . لقد هلل فريدريش فون جينتس Von Gentz (١٧٦٤ - ١٨٣٢) لسقوط الباستيل، لكنه قلل من حماسه عندما التقى

بفيلهيلم فون همبولدت Wilhelm Von Humboldt ذي العقلية المتشككة، وقد قرأ كتاب بروك Bruke عن الثورة الفرنسية (Reflections on the French Revolution) وترجمه. وبعد أن ترقى في الخدمة المدنية البروسية إلى درجة مستشار في وزارة الصناعة قاد معركة أدبية ضد أفكار مثل حقوق الإنسان والحرية والمساواة وسيادة الشعب وحرية الصحافة. ولم يرض عن الثورة الفرنسية حتى بعد أن خفف نابليون من غلوائها. وهاجم نابليون كعسكري أدت غزواته إلى الإخلال بتوازن القوى الذي كان يقوم عليه سلام أوربا ونظامها وسلامتها - وكان هذا هو رأي معظم الدبلوماسيين. وأصبح أفصح الأصوات وأكثرها بلاغة حاثًّا فريدريك وليم الثالث على شن حرب لاهوادة فيها (النص صليبية Crusado) ضد نابليون، فلما تردد الملك البروسي، ترك جينتس Gentz خدمته وراح يقدم خدماته للنمسا (١٨٠٢). وعندما اجتاح نابليون النمساويين في معركة أوسترليتز Austerlitz لجأ جنتس Gentz إلى بوهيميا لكنه عاد إلى فينا في سنة ١٨٠٩ وراح يدعو لشن حرب جديدة ضد نابليون. وكان سكرتيرا ومساعداً لميترنيخ في مؤتمر فينا وأيده في سياسة ما بعد الحرب التي تبناها ميترنيخ بإبعاد كل تأثير ليبرالي ومنعه من التطور. وكان وقت ثورة ١٨٣٠ عجوزا مريضا ومات وهو مقتنع أنه خدم مصالح البشرية بشكل جيد.

أما جوزيف فون جورز Gorres فكان ذا روح أكثر حساسية، وكان نصف إيطالي، ومفعماً بالعواطف ولايكاد يصلح للصراع الحاد وخوض المعارك الأدبية الشرسة. ولد كاثوليكيا، فترك مهمة دعم الثورة للكنيسة (!) وعاون الفرنسيين في فتح مناطق غرب الراين وهلل لتحويل نابليون الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى رابطة الراين (الراينبوند Rheinbund) وهلل لفتح الفرنسيين لروما تحت شعار « روما حرة »، لكن تكبر عسكر الجيش الفرنسي وابتزاز الإداريين الفرنسيين أثاراً سخط الشاب الثوري. وفي سنة ١٧٩٨ أسس صحيفة ضعيفة هي (صحيفة الورقة الحمراء Das rothes Blatt) كصوت جمهوري يحب الثورة الفرنسية لكنه لا يثق في الفرنسيين. ورأى في استيلاء نابليون على السلطة في فرنسا نهاية للثورة الفرنسية، كما رأى في نابليون نفسه شخصا تواقا للسلطة بشكل خطر، وعندما هبت ألمانيا لتحارب من أجل التحرير انضم جورز Gorres للمعركة بإصدار صحيفة

راينيشي ميركور Rheinische Merkur، لكن عندما فرض المنتصرون - بعد إزاحة نابليون - ردة سياسية (حركة رجعية سياسية) في كل المجالات التي استطاعوا فرض إراداتهم فيها، هاجمهم جورز Gorres بحده شديدة وضراوة حتى إنهم اضطروه للجوء إلى سويسرا حيث عاش في فقر مدقع. ولم يعد محط النظر فعاد نادما حزينا لحض الكنيسة الكاثوليكية (١٨٢٤) وانتشله لودفيج الأول البافاري من الفقر والعوز بتعيينه أستاذاً للتاريخ في ميونيخ. هناك كتب كتابه ذا المجلدات الأربعة (أسرار المسيحية Chrisliche Mystik) (١٨٣٦ - ١٨٤٢) وراح يسلي أيامه بالخيالات، ويسود لياليه بالرؤى الشيطانية. وبعد موته بأربعة وثلاثين عاما تم تأسيس جمعية أحباء جورز Gorres Gesellschaft (١٨٧٦) لمواصلة أبحاثه في تاريخ الكنيسة.

وساد الرومانسيون النثر، لكن كاتباً واحدا ظل متفردا وتملص منهم، إنه جين (جان) بول ريشتر (ريختر) الذي بدأ حياته في بيروث Bayreuth في سنة ١٧٦٣. ويرجع اسمه المسيحي إلى جده جوهان (يوهان) بول كوهن (كون) Kuhn وحتى سنة ١٧٩٣ كان يطلق عليه ببساطة هانز Hanz. وكان أبوه معلما في مدرسة وعازف أرغن وأصبح قسا في كنيسة في جوديتس Joditz على نهر سال Saale، وهناك قضى هانز أعوامه الثلاثة عشر الأولى في سعادة وشكل هذا المحيط الريفي البسيط مزاجه خلال المتاعب الاقتصادية والعواصف اللاهوتية.

وعندما انتقلت الأسرة إلى شفارتسنباخ Schwarzenbach الواقعة على هذا النهر الهادئ نفسه (سال Saale) نعم بمكتبة رجل دين من الجيران، واعترف رجل الدين هذا بإمكانيات هذا الصبي ولكنه لم يعترف بما يراود الفتى من شكوك. ومات والد ريشتر (ريختر) في هذا المكان (٧٧٩) تاركا ذرية ضعافا قليلة الموارد، وعندما بلغ هانز Hanz العشرين من عمره دخل مدرسة اللاهوت في ليبزج (ليبسج) لكن قراءاته أضعفت عقيدته، فسرعان ما انسحب من الدراسة وراهن على أن يعيش من قلمه، واستطاع أن ينشر في سنة ١٧٨٣ وهو في العشرين من عمره، ولكنه لم يستطيع ذلك مرة أخرى إلا في سنة ١٧٨٩ وفي كلتا الحالتين تعرضت كتاباته لهجاء ساخر مما جعل المثقفين الساخرين يشفقون عليه. وفي سنة

١٧٩٣ أصدر (الكوخ الخفي Die unsichtbre Loge) باسم مستعار هو جين (جان) بول، وقد اختار الاسم (جان) حباً منه في جان روسو، وحظي الكتاب بعدد قليل من القراء زادوا بعد ذلك بالنسبة لروايته الوجدانية التالية (هيسبيروس Hesperus) (١٧٩٥)، فدعت شارلوت فون كالب kalb صديقة شيلر المؤلفَ الصاعد إلى فيمار وسعدت به حتى إنها أصبحت خليلته[١٣]. وبدأ في فيمار تأليف روايته ذات الأربعة مجلدات تيتان Titan (١٨٠٠ - ١٨٠٣)، وكان البطل الحقيقي لهذه الرواية هو الثورة الفرنسية.

ودافع المؤلف بعاطفة جياشة عن الثورة الفرنسية في سن تكوينها لكنه أدان مارا Marat لإفسادها بحكم الغوغاء، وامتدح شارلوت كورداي Corday باعتبارها جان دارك الثانية. ورحب باستيلاء نابليون على السلطة كأمر ضروري لاستعادة النظام، وبعد ذلك بثمانية أعوام كان ريشتر (ريختر) راغباً تماماً في أن يرى أوروبا كلها وقد توحّدت على يد هذا الرجل (نابليون) الذي يستطيع أن يمسك بها بعقله ويده وقوانينه التي تسري من فرنسا إلى برلين وموسكو. لكن جين (جان) بول كان في قرارة نفسه جمهورياً يرى في كل انتصار عسكري مقدمة لحرب أخرى. وأشفق على الشباب الذين جندهم نابليون، وعلى الأسر الحزينة لفقد أبنائها.

وساق الأدلّة على أن « الشعب وحده هو الذي يجب أن يتخذ قرار الحرب، لأنه هو وحده الذي يعاني ويلاتها ونتائجها » وأطلق من جرابه أقسى رماحه على الحكام الذين يبيعون جيوشهم للحكام (أو الملوك) الأجانب. وطالب بإلغاء الرقابة حتى تستطيع بعض القوى خارج الحكومة أن تكون حرّة في كشف أخطاء الحكومة وعَرْض إمكانات التقدم[١٤].

وتزوج جين (جان) بول Jean Paul وهو في الثامنة والثلاثين وفي سنة ١٨٠٤ استقر في بيروث Bayreuth، وبعد أن خاض تجارب حية كتب كتاباً عن التعليم (Lavana) وهو واحد من كلاسيات البيداجوجا الليبرالية (علم أصول التدريس الليبرالي، وتوسع علم التربية الليبرالي) وأصدر عدداً كبيراً من الروايات والمقالات، ترجم بعضها كارليل Carlyle لإعجابه بها. وكان مزجه بين النقد الواقعي والمشاعر الرومانسية قد جعل قراءة أكثر من قراء جوته (جيته) أو شيلر. ومات في سنة ١٨٢٥ تاركاً مقالاً لم يكتمل عن خلود الروح. لقد شهد

عصره بداية اكتشاف المادة، وظلت شهرته كأحد المؤلفين الألمان الروّاد تطبق آفاق أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أن خمدت شهرته في أوروبا انتقلت محلّقة في أمريكا حيث كان لونجفلو Longfellow واحداً من المتحمسين له. ولا نكاد نجد أحداً يقرأه الآن في ألمانيا لكن المؤكد أنّ كلّ ألماني يتذكر قوله المنطوي على الحكمة، والذي كان يقصد به توجيه طعنة إلى الفلسفة الألمانية، وتلخيص عصر نابليون على نحو يفوق كتابنا هذا: «إن الله قد أعطى الإنجليز إمبراطورية البحر، وأعطى الفرنسيين إمبراطورية البر، وأعطى الألمان إمبراطورية الهواء(*)(١٥)».

وهناك كاتبان آخران من كتّاب القصة كان لهما جمهور عريض كان إرنست تيودور فيلهلم هوفمان Hoffmann (١٧٧٦-١٨٢٢) واحداً من أكثر الألمان تعدداً للمواهب والاهتمامات بشكل غير عادي، وقد غيَّر الاسم فيلهلم Wilhelm إلى أماديوس Amadeus في سنة ١٨١٣: لقد كان رساما ومؤلفاً للموسيقا وعازفاً لها ومخرجاً للأوبرا وممارساً قانونياً وكتب قصصاً بوليسية ورواية ألهمت جاك أوفنباخ Offenbach في مؤلفه (حكايات هوفمان) (١٨٨١). أما أدلبرت فون كاميسو Adelbert Von Chamisso (١٧٨١ - ١٨٣٨) فكان متفردا في حياته وأدبه. لقد كان بحكم الميلاد نبيلاً فرنسياً، ترك فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية وتلقى معظم تعليمه في مدارس ألمانيا وتم تجنيده في كتيبة عسكرية بروسيّة وحارب فرنسا في معركة يينا Jena وفي سنة ١٨١٣ كتب قصة رمزية هي Peter Schlemihls Wundersame Geschichle يبث فيها فيها تَمزُّق ولائه وحنينه لبلاد آبائه وأجداده. لقد كانت حكاية غريبة عن رجل باع ظلّه للشيطان. وكان عالم نبات راسخاً ذا شهرة، فصحب أوتو فون كوتسبو Otto Von Kotzebue في رحلته العلمية حول العالم (١٨١٥-١٨١٨) وسجل اكتشافاته في مؤلّف حقّق شهرة في وقت من الأوقات يحمل عنوان (رحلة حول العالم Reise um die Welt) وقسّم ما بقي من عمره بين عمله كمسؤول عن حديقة برلين للنباتات، وكتابة الشعر الرومانسي، وقد امتدح هينريش (هينرخ) هاين Heine قصائده ووضع روبرت شومان Schumann موسيقا لسلسلة أشعاره عن الحب

(*) إشارة إلى عدم جدوى الفلسفة، والتعبير لا يصلح للدلالة على الخواء في عصرنا هذا بعد الطائرات والصواريخ.. إلخ. (المترجم)

والنساء.

وكان عدد الشعراء كبيراً ولا يزال كثير منهم في ذاكرة الشعب الألماني، لكن من الصعب نقل أشعارهم إلى لغة أخرى أو بلاد أخرى أو زمن آخر غير الزمن الذي قيلت فيه هذه الأشعار، لارتباط كلماتها بالموسيقا وبمشاعر خاصة. وكان فريدريش (فريدريخ) هولندرلين Holderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣) هو الأكثر مدعاة للشفقة منهم، فقد ثبت أن حاسيته الشعرية كانت حادة جداً بالنسبة إلى صحته النفسية والعقلية، ذهب إلى توبنجن Tubingen للدراسة ليصبح واحداً من رجال الدين فكون علاقة صداقة حافزة مع جورج هيجل Hegel الذي كان وقتها قد وضع المسيحية موضع الشك، وراح الفتى يحلم بسعادة البشرية عندما وصلته أخبار الثورة الفرنسية. لقد قرأ روسّو وألف «ترانيم الحرية» وفي سنة ١٧٩٢ وكان في آخر قرن يحتضر (القرن ١٨) راح يظن أنه رأى فجراً رائعاً لعصر من العدالة والنبالة. وعندما اندلعت الحرب كتب لأخته «صَلِّ من أجل الفرنسيين، نَصِيري حقوق الإنسان» وعندما غرقت الثورة الفرنسية في الدم تعلّق بحلمه يائساً:

«حُبِّي هو الجنس البشري - ولست أقصر بطبيعة الحال هذا الجنس الفاسد المرتشي الذليل التافه الذي غالباً ما نلتقي بأفراده. إنني أحب العظمة والكفاءة حتى لو وُجدت بين شعوب فاسدة. إنني أحب الجنس الذي لم أره بعد، أحب جنس البشر الآتي من القرون القادمة.. إننا نعيش في زمان يتجه فيه كل شيء إلى التحسّن. إنها بذور التنوير حيث تلك الرغبة الصامتة والنضال لتعليم الجنس البشري..

إن هذا سيكون له ثمار عظيمة. هذا هو الهدف المقدس لرغباتي ونشاطي (عملي) - هو أن أزرع البذور التي ستثمر شجرتها ثماراً ناضجة من جيل آخر غير جيلي»[١٦].

حتى الماضي كان يسمح له بالحلم، فقد وقع في حب أبطال اليونان الكلاسية (القديمة) مثله في ذلك مثل معاصره كيتس Keats ، فبدأ ملحمة نثرية عن الثوار الإغريق هي ملحمة (هيبريون Hyperion). وأخذ طريقه إلى يينا Jena فدرس على يد فيشه Fichte وتعلم كيف يحترم كانط وقابل أرباب فيمار عندما كانوا هم أيضاً معجبين بالثقافة الهيلينية. ودبّر له شيلر وظيفة معلّم ومرشد لأحد أبناء شارلوت فون كالب Kalb، وفي سنة ١٧٩٦ وجد

في بيت المالي banker جوتهارد J.F. Gotthard في فرانكفورت – آم – مين Frankfurt - am - Main - وظيفة ذات عائد مالي أعلى، وكانت وظيفة مرتبطة أيضاً بتعلم الأبناء ووقع في حب زوجة هذا المالي Banker وقد قدّرت الزوجة أشعاره كثيراً، وأدى هذا إلى طرده من الوظيفة وإجباره على مغادرة المدينة. وأدّى به الشوق والنفي إلى شيء من الهوس، ومع هذا ففي هذا الوقت (١٧٩٩) كتب قصيدة (Der Tod des Empedokies) التي تعد من بين روائع الشعر الألماني. وظل لعدة سنوات يجول المدن بحثاً عن مورد رزق وإلهامات لأشعاره. وطلب من شيلر أن يوصي به ليكون محاضراً في الأدب اليوناني لكن شيلر وجده لا يصلح لكرسي الأستاذية فلم يوص به وبينما هو يعمل معلما خصوصيا في بوردو Bordeaux تلقى (هولدرلين) خبر وفاة مدام جوتهارد Gotthard فترك وظيفته وعاد سيرا على الأقدام عبر فرنسا إلى ألمانيا حيث اعتنى به أصدقاؤه (١٨٠٢) عندما وجدوه وقد اختل عقله بدرجة كبيرة، وعاش حتى سنة ١٨٤٣ وظلت قصائده مهملة منسية لفترة طويلة، حتى هو نفسه كان قد نسيها لكن رينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke وستيفان جورج امتدحاه، وتضعه المجامع الأدبية الآن في مرتبة بعد جوته وشيلر مباشرة. وهناك شعراء آخرون كثيرون، منهم كارل تيودور كورنر Korner (١٧٩١ – ١٨١٣) وهو ابن كريستيان جوتفريد كورنر الذي كان قد عاون شيلر كثيرا[١٧]، وقد خاض بسيفه وبقلمه (أي كارل تيودور كورنر) حرب التحرير ضد نابليون وأنهض همم الألمان بدعوتهم للسلاح ومات في المعركة (٢٦ أغسطس ١٨١٣). أما إرنست موريتس (موريس) أرندت Arndt (١٧٦٩ – ١٨٦٠) فشهد خلال عمره البالغ واحداً وتسعين عاما ثلاث ثورات. لقد عمل على إلغاء النظام الإقطاعي في بوميرانيا بوصفه – بشكل واقعي في مبحثه (مقالات نحو التاريخ Versuche einer Geschichte) (١٨٠٣) وفي مبحثه Die Geist der Zeit (١٨٠٦) وأطلق صرخة مدوية ضد نابليون حتى إنه اضطر إلى اللجوء إلى السويد بعد انتصار نابليون في يينا Jena. وفي سنة ١٨١٢ دعاه شتاين Stein إلى سان بطرسبورج ليساعد في تحريض الشعب الروسي على طرد الغزاة الفرنسيين. وبعد سنة ١٨١٥ كافح في بروسيا لمقاومة الإجراءات المحافظة فسجن. وفي سنة ١٨٤٨ تم انتخابه عضوا في الجمعية الوطنية في فرانكفورت

وعندما اضطربت هذه الثورة أيضا (ثورة ١٨٤٨) وجه قريحته الشعرية بشكل نهائي إلى التقوى (المقصود الدين). وكتب جوزيف فون أيشندورف Eichendorff (١٧٨٨ – ١٨٥٧) النبيل الكاثوليكي قصائد بسيطة لازالت تحرك مشاعرنا، ومنها قصيدة (عند موت طفلي Auf meines Kindes Tod)، فهنا يمكن حتى للغريب المتشكك أن يشعر بالموسيقا الشعرية ويشارك في المشاعر ويحسد الأمل:

– الساعات تدق من بعيد ؛

– سنصبح حالاً في جوف الليل ؛

– ضوء ذبالة المصباح صار خافتا ؛

– لقد تم إعداد مخدعك الصغير ؛

***

– الرياح وحدها هي التي لاتزال تتحرك

– تنتحب حول البيت

– الذي نجلس فيه ولا أنيس

– وغالبا مانصغي لما يجري خارجه

***

– آه، كما لو أنك تحاول برفق

– أن تطرق الباب

– آه، كما لو أنك ضللت طريقك مع أنك تعرفه

– فعدت راجعا حزيناً

***

– إننا بؤساء. إننا مغفلون بؤساء

– نعم فنحن نجول في الظلمة المخيفة

– حتى اليأس

– لقد كنت تجد بيتك (لا تضل عنه) في الأيام الخوالي.

٤- الوجد الرومانسي

كان أكثر الكتاب تألقا في هذا الأوج الألماني هم أولئك الذين روعوا عصرهم بصيحات الغرائز وانفلاتها من قيود العقل، وانفلات المشاعر من أحكام الفكر وانفلات الشباب من حكم كبار السن وانفلات الفرد من ضوابط الأسرة والدولة. إن القليلين منّا هم الذين يقرأونهم هذه الأيام لكنهم كانوا في جيلهم ألسنة لهب تشعل النار في المفكرين والمثقفين الذين كانوا مهيئين لها، وفي الروابط الاجتماعية التي تحبس النفس - المحلقة بطبعها - داخل قيود العادات والمحرمات taboo والأوامر والقانون.

وكان مصدر هذه الثورة هو الاستياء الطبيعي الذي ينظر من خلاله أي مراهق للقيود التي يفرضها الوالدان والإخوة والأخوات والمعلمون والدعاة ورجال الشرطة والنحاة والمناطقة وعلماء الأخلاق. ألم يثبت الفيلسوف الذائع فيشته Fichte أن الحقيقة الأساسية لكل منا هي وعيه الفردي بنفسه؟ وإن كان الأمر كذلك، فإن الكون لا يعني لأي منا شيئا سوى ما يتعلق بتأثيره في الشخص نفسه، وقد يحق لأي منا أن يتوقف أمام التراث والتقاليد والمحاذير والقوانين والعقائد ليطلب السبب الذي يجعل طاعتها لازمة أو بتعبير آخر من حق الفرد أن يتساءل لِمَ يجب عليه احترام التقاليد والموروثات والمحاذير والقوانين والعقائد. إن المرء قد يرضخ لوصايا الله خوفاً منه، أو لوصايا أحد رجال الله الذين اكتسوا بالقداسة، لكن كيف يكون الأمر وقد تحول الله عند ديدرو Diderot ودلمبير d'Alembert وهيلفيتيوس Helvetius ودولباش d'Holbach ولامتري La Mettrie إلى مجرد قوانين موضوعية تسيّر الكون؟

وقد أضيفت الآن الثورة إلى حركة التنوير الفخورة المتحررة لقد ذابت التقسيمات الطبقية، فأولئك اللوردات الذين كانوا ذات يوم يصدرون القوانين وينتزعون الطاعة أصبحوا الآن يسارعون إلى الهرب. فلم يعد هناك حاجز بين الطبقات، ولم يعد هناك غول من الموروثات والتقاليد يساند القوانين. الآن أصبح في استطاعة أي فرد أن يكمل طريقه ليصل إلى أي وضع وأي سلطة، وله أن يختار الطريق إلى المقصلة. لقد فتح الطريق أمام أصحاب المواهب وأصحاب المخالب. لم يحدث أبدا في تاريخ الحضارة المعروف أن كان الإنسان على هذا القدر من الحرية - حرية أن يختار عمله ومشروعه ورفيقه وزوجه (أو زوجته) ودينه

وحكومته ونظامه الأخلاقي. وإذا خلت الساحة إلا من كيانات الأفراد فماذا بقي للدولة (ككيان) والكنيسة والجيش والجامعة؟ لن يبقى إذن سوى مؤامرات أفراد يتمتعون بمزايا خاصة للإرهاب والهمجية، ولتشكيل الأمور وفسخها، ولفرض الضرائب وتسيير أمور الحكم، وليسوقوا الباقين إلى المذابح؟ وقلما تستطيع عبقرية أن تحقق إنجازاً في ظل هذه القيود، ثم أليست عبقرية واحدة عدل عدد كبير من المعلمين والجنرالات والباباوات والملوك أو مئات التيجان؟

وعلى أية حال فقد كان هناك إلى جانب هذا الاتجاه الجديد الداعي إلى التحرر من كل شيء، كثير من الأرواح الحساسة التي شعرت أن العقل قد انتزع الكثير في طريقه إلى التحرر. «فالعقل» هو الذي هاجم الدين القديم بما فيه من حكايات القديسين وطقوس عطرة، وموسيقا محركة للمشاعر، ومريم العذراء الشفيعة والمسيح المخلص (بتشديد اللام وكسرها). وكان «العقل» هو الذي أحل محلّ هذه الرؤى السامية عمليات مادية كئيبة تتحرك بلا هدف نحو الدمار، وكان «العقل» هو الذي أحل محل صورة امرأة ورجل يعيشان في تواصل يومي مع المعبود، صورة رجل وامرأة مجسدين يقتربان كل يوم أكثر فأكثر بشكل تلقائي (أوتوماتيكي) على نحو مؤلم منحط، حتى يأتي موت لا قيامة بعده (موت أبدي). إن للخيال حقه حتى ولو لم يكن متسقا مع القياس المنطقي، وإننا لأكثر استعداداً للتفكير في أنفسنا كأرواح تتحكم في المادة أكثر من استعدادنا للتفكير في أنفسنا كآلات تتحكم في الأرواح. وللمشاعر حقها، وهي تترك آثارا أعمق من الفكر والعقل. فالمتجول البائس وجان جاك المندهش قد يشعران لحكمة ويحسّان بها أكثر من العفريت المؤذي (الولد الشقي) في فكر فرني Ferney thought.

لقد كانت ألمانيا قد عرفت روسو وفولتير وسمعت عنهما لكنها اختارت روسو. لقد قرأت - وأحست - بكتابيه أميل Emile وهيلويس La Nouvelle Héloïse، وفضلتهما على (القاموس الفلسفي Philosophical Dictionary) و(كانديد Candide) وقد تبعت ألمانيا ليسنج في تفضيله رومانسيات شكسبيكر على كلاسيكات راسين Racine. لقد كانت ألمانيا أكثر استعداداً لتقبل (كلاريسا هارلو Clarissa Harlowe) و(تريسترام شاندى Tristram

Shandy) وشخصية (أوسيان Ossian) في كتابات مكفرسون Macpherson عن مفكري باريس وأصحاب صالوناتها. لقد رفضت (ألمانيا) القواعد التي وضعها بوالو Boileau كقوانين للأسلوب الكلاسي. لقد امتعضت (ألمانيا) من التركيز على الوضوح والاعتدال، فهما لايتسقان مع الحماسة والوصول إلى الخلود، ومطلع النور.

لقد كانت الرومانسية الألمانية تحترم « الحقيقة » إن كان لها وجود، لكنها (أي الرومانسية الألمانية) كانت تشك في الحقيقة العلمية التي جعلت وجه الحياة كئيبا. لقد ظلت ألمانيا تحتفظ – بحب – في ذاكرتها بالحكايات الخيالية وحكايات الجنيات التي قام كليمنز برينتانو Clemens Brentano (١٧٧٨ – ١٨٤٢) وأشيم فون أرنيم Achim Von Arnim (١٧٨١ – ١٨٣١) بجمعها في مؤلف بعنوان Des Knaben Wunderborn (١٨٠٥ – ١٨٠٨)، وقام أيضا الأخوان جريم Grim (جاكوب، ١٧٨٥ – ١٨٦٣، وفيلهلم، ١٧٨٦ – ١٨٥٩) بتجميع آخر بعنوان Kinder - und Hausmarchen (١٨١٢). لقد كانت هذه الحكايات هي صدى لطفولة الأمة وطفولة الأفراد، وكانت جزءاً من روح الألماني « الطيب » وربما كانت انعكاساً لما وراء الوعي عنده. وإذا كان لا بد لهذا التراث الخيالي الذي يعود إلى ما قبل الثورة؛ إلى كاثوليكية العصور الوسطى وإلى روح القصة الشعرية أن يعود فإنه يقود ألمانيا إلى الكاتدرائيات القديمة التي كستها الطحالب لفرط قدمها وإلى العقيدة الراسخة التي لا تحتمل الشك والحرفيين المهرة الذين يغمرهم النشاط والمرح، ولا بد أن يقود ألمانيا إلى الصلوات والدعوات والترانيم الدينية وأجراس والكنائس مما يجعل الرب حاضرا في الحياة اليومية للناس، ويمزج الأفراد المرهقين بمجموعة القديسين والصالحين الذين كانت حياتهم ملحمة مقدسة في التاريخ المسيحي، وبالأم العذراء Virgin Mother التي نذرت بتوليتها وعذريتها للأسرة المقدسة والأمة والجنس البشري. وكان كل هذا بطبيعة الحال بقايا ذات طابع حماسي من العقائد الوسيطة (العقائد التي سادت في العصور الوسطى) وما صاحبها من مخاوف، وهراطقة لابد من تجريمهم وأرواح حائرة، ومع هذا فقد بلغت بكثيرين من الرومانسيين الألمان ذروة التوهج والحماس وراح بعضهم – ندماً وتوبة – يلقون بأنفسهم على أعتاب المذابح الكنسية في أحضان الكنيسة الأم.

٥- أصوات المشاعر

لقد كادت الرومانسية الألمانية تؤثر في كل مناحي حياة الأمة: لقد أثرت في موسيقا بيتهوفن وفيبر Weber وفيلكس مندلسون Felix Mendelssohn، وفي روايات هوفمان وتيك Tieck وفي فلسفة فشته وشيلنج Schelling، كما كان لها تأثيرها في الدين كما وجدنا عند شلايرماشر Schleiermacher ومئات من المتحولين للمسيحية مثل فريدريش شليجل، ودوروثيا مندلسون Dorothea Mendelssohn . لقد قاد خمسة رجال - على نحو خاص - هذه الحركة في الأدب الألماني، ولا بد أن نذكر من بينهم امرأة رومانسية شاركتهم الحب المنطلق أو المقيد كما شاركتهم الاهتمامات الفكرية مما صدم العقيلات المحتشمات من فرانكفورت إلى الأودر.

وكان بالقرب من منابع الحركة طائر يحرك جناحيه ونعني به فيلهلم هينريش فاكنرودر Vackenroder (١٧٧٣ - ١٧٩٨) وهو كاتب خجول سهل الانقياد غير مرتاح للحقيقة (الواقع) والعقل، إنما كان يجد راحته في الدين، وكان يجد سعادته في الفن. لقد رأى في قدرة الفنان على التصور والتنفيذ شبها قريبا بعملية الخلق. وقد صاغ دينه الجديد هذا في مقالات ذات طابع ديني تعبدي تناول فيها ليوناردو، ورافائيل، وميكل (ميشيل) أنجلو، ودوتر Dutter... ووجد دعما لاتجاهه هذا في جامعتي جوتنجن وإرلانجن Erlangn، إذ أيده لودفيج تيك Tieck وتحمس له واقترح لكتابات صديقه عنواناً طريفاً هو: (فيوضات قلبية لأخ مسيحي عاشق للفن Hrzensergiessungen eines Kunstlibenden Klosterbruders) ولأن هذه المقالات أخذت طابعا مسيحيا فقد وجدت لها ناشرا في سنة ١٧٩٧ . لقد سخر فاكنرودر من المذهب العقلي الذي أخذ به ليسنج ومن المذهب الكلاسي الذي أخذ به فنكلمان Winckelmann، وكانت سخريته هذه تكاد تكون بالحدة نفسها التي تجنح إليها البورجوازية الألمانية لإعلاء الفن والسموّ به، وراح فاكنردور يعمل في عصره على إعادة «أخويات»(*) الفنانين والعمال التي كانت سائدة في العصور الوسطى. وأصيب فاكنردور بالتيفود فمات وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

(*) brotherhood والمعنى أقرب ما يكون إلى الروابط أو النقابات مع لمسة دينية. (المترجم)

وظل صديقه تيك Tieck (١٧٧٣ – ١٨٥٣) طوال ثمانين عاما يلعب مباراة خطرة (فيها مخاطرة) إذ راح يؤيد المشاعر في مواجهة العقل، ويؤيد الخيال في مواجهة الواقع reality . لقد كان هو وفاكنرودر Wackenroder قد درسا الدراما في العصر الإليزابيثي والفن في العصور الوسطى، وابتهجا لسقوط الباستيل. إلا أن تيك كان يختلف عن فاكنرودر في عدة أمور منها أنه كان يتمتع بروح الفكاهة ونزعة للعب. لقد شعر أن الحياة مباراة يلعبها الأرباب مع الملوك والملكات والأساقفة والفرسان والحصون والكاتدرائيات، والرهانات متواضعة (بسيطة)، أو بتعبير آخر جائزة الفائز في المباراة بسيطة. وعندما عاد لمسقط رأسه برلين بعد أن قضى أيام الجامعة نشر في الفترة من ١٧٩٥ إلى ١٧٩٦ رواية في ثلاثة مجلدات (Die Geschichte des Herrn William Lovell) كتبها على نمط أسلوب ريتشاردسون، ووصف فيها بتفاصيل حساسة العلاقات الجنسية والانتقالات بين ربوع الفكر لشاب تخلى عن الأخلاق المسيحية واللاهوت المسيحي وانتهى إلى أنه ما دامت النفس - على وفق نظرية المعرفة عند فشته - هي الحقيقة الوحيدة التي يمكننا معرفتها بشكل مباشر، فلتكن إذن هذه النفس (الذات) هي معيار الأخلاق وواضع القوانين:

« لا توجد كل الأشياء إلا لأنني أفكر فيها، ولا وجود للفضيلة إلا لأنني أظن وجودها (أفكر فيها) .... الحق أقول لكم إن الرغبة الجنسية هي السر الكبير لوجودنا. فالشعر والفن، بل وحتى الدين، هي مجرد شهوة جنسية مقنّعة. وأعمال النحاتين وشخوص الشعراء ورسوم الفنانين التي نركع أمامها ليست سوى مقدمة للمباهج الحسية.

إنني أشفق على الأغبياء الذين يثرثرون ثرثرة المعتوهين عن الإثم والفسوق اللذين ترتكبهما حواسنا. وإنهم بائسون مصابون بالعمي. إنهم يقدمون الأضاحي لرب عنين (عاجز جنسيا) لا يمكن أن تسعد عطاياه قلب الإنسان... لا، إنني وهبت نفسي لخدمة إله أعلى تنحني أمامه كل الخلائق، إله يوحّد في طياته كل مشاعر الطرب والنشوة والحب وكل شيء... ففي أحضان لويزا فقط عرفت ما هو الحب، وذكرى أميليا Amelia تبدو لي الآن على البعد باهتة قليلا يغلفها الضباب[١٨] » هنا وقبل (الإخوة كرامازوف The brothers

Karamazov) (١٨٨٠) بخمسة وثمانين عاما نجد نبوءة إيفان كرامازوف بأن قرنا من التسيب الأخلاقي سيأتي بعده: «إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح» وعلى أية حال فإن لوفيل Lovell (بطل رواية تيك الآنف ذكرها) عاد للدين قبل أن يموت. لقد قال «إن أكثر المفكرين الأحرار طيشا ولا مبالاة أصبح أخيرا متعبدا[١٩]» وكان هذا الاعتراف مناسبا تماما وفي وقته ذلك أنه قتل بعد ذلك بفترة وجيزة في مبارزة.

وكان الكتاب مفخرة لشاب تحرر قبل أن يصل لسن (العقل). وفي سنة ١٧٩٧ نشر قصة قصيرة (إكهرت الشقراء Der blonde Eckhert) حازت إعجاب الأخوين شليجل. وذهب إلى يينا Jena بناء على دعوتهما، كانت يينا وقتها معقلاً للرومانسية. وعلى أية حال فإن تيك Tieck غادرها في سنة ١٨٠١ ليعيش في عزبة أحد أصدقائه في فرانكفورت – آن دير – أودر. Frankfort - an - der Oder، وتفرغ لفترة لترجمة مسرحيات العصر الإليزابيثي، ثم لتحرير أعمال معاصريه نوفاليز Novalis وكلايست Kleist وكتب عنها كتابات نقدية متألقة. وسار على خطى ليسنج فشغل طوال سبعة عشر عاما منصب الدراماتورج Dramaturg (المدير والناقد الدرامي) في مسرح دريسدن Dresden وجلبت له مقالاته الصريحة بعض الأعداء لكنها أيضا حققت له الشهرة على مستوى الأمة كناقد أدبي لايسبقه في هذا المضمار (النقد الأدبي) سوى جوته، وأوجست فون شليجل. وفي سنة ١٨٤٢ دعاه إلى برلين الملك فريدريك وليم الرابع (الذي لم يكن قد سمع مطلقا بروايته (لفل Lovell) وقبل تيك الدعوة (وكان قد تجاوز لفل منذ زمن) وعاش أعوامه الباقية كأحد عمد الأدب في العاصمة البروسية. أما نوفاليز Novalis (١٧٧٢ – ١٨٠١) فلم يعش طويلا ليتمكن من التخلص من أفكار شبابه. وقد تمتع بمزايا غير مؤكدة – كأديب – لنبالة مولده، فقد كان أبوه مديرا لإنتاج الملح في سكسونيا، وكان – أي أبوه – ابن عم الأمير كارل فون هارنبرج الوزير البروسي. وكان الاسم الحقيقي لشاعرنا هو فرايهر فريدريش فيليب فون هاردنبرج ، لكنه استخدم الاسم نوفاليز Novalis كاسم مستعار، لكنه (أي هذا الاسم) كان هو الاسم الفعلي لأحد أجداده في القرن ١٩ . وكانت أسرته تنتمي إلى جماعة هيرنهت Herrnhut التقوية (جماعة دينية بروتستنطية) وكان كأسرته ذا ميول دينية قوية

لكنه عمل أخيرا على التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستنطية كخطوة نحو توحيد أوربا.

والتحق وهو في التاسعة عشرة من عمره بجامعة يينا Jena وكون علاقات صداقة حميمة مع تيك Tieck وشيلر وفريدريش فون شليجل وربما حضر بعض محاضرات فيشته التي كان لها تأثيرها في يينا وفيمار. وبعد أن قضى عاما في جامعة فيتمبرج تبع أباه إلى أرنشتادت Arnstadt في ثورينجيا Thuringia. وبالقرب من جروننجن Gruningen التقى بصوفي فون كوهن Sophie Von Kuhn فاهتز لقوامها الجميل وشخصيتها الفاتنة لدرجة أنه طلب يدها من والديها. وفي سنة ١٧٩٥ كان هو وصوفي قد خطبا رسميا رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها. وسرعان ما سقطت مريضة بداء الكبد، فأجريت لها عمليتان أنهكتاها فماتت في سنة ١٧٩٧، ولم يفق نوفاليز أبدا من هول موت حبيبة قلبه فكانت أشهر قصائده هي ستة ترنيمات (١٨٠٠) Hymenenen an die Nacht كذكرى جزينة لحبيبته صوفي.

وفي سنة ١٧٩٨ خطب جولي فون كاربنتير لكن الخطبة فشلت فلم ترس السفينة على شاطئ الزواج. وشارك السل (ذات الرئة) الحزن في إنهاك الشاعر فمات في ٢٥ مارس ١٨٠١ وهو في الثامنة والعشرين. وترك لنا رواية هي (هنريش فون أوفتردنجن Heinrich Von Ofterdingen (١٧٩٨ - ١٨٠٠) تقدم لقرائها تعبيرا مكثفا عن التطلع للسلام الديني (التوق الشديد إليه، والمقصود التطلع لنهاية الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنطية). وكان قد امتدح في وقت من الأوقات (فيلهلم ميستر Wilhelm Meister) التي ألفها جوتة كعمل واقعي يقدم وصفا مفيدا لتطور الإنسان، لكنه عاد الآن يدينها باعتبارها تضفي المثالية على الأعمال الدنيوية. وكان البطل في روايته كشخصية تاريخية، فهو المؤلف الحقيقي لرواية (Nibelungenlied)، فجالاهاد Galahad كرس نفسه لتتبع وردة زرقاء رمزا لتحول الموت إلى فهم لا حد له (خالد) ولا نهاية. يقول هنريش: «إنها الوردة الزرقاء التي طالما تقت لرؤيتها، إنها دوماً في عقلي ولا أستطيع أن أتخيل سواها[٢٠]». إننا نجد هنا، كما نجد في مقاله الذي حقق شهرة في وقت من الأوقات (الدولة المسيحية في أوربا) دفاعا عن العصور الوسطى كعصر مثالي (بل إنه دافع عن محاكم التفتيش) شهدت فيها أوربا

وحدة سياسية ووحدة في عقيدتها الدينية، وكان من رأيه أن الكنيسة على حق في مقاومتها للعلم المادي والفلسفة العلمانية (غير الدينية) . ومن هذا المنظور يمكننا القول إن التنوير كان يتراجع حزينا . ولما كان الموت يدعوه إليه راح نوفاليزي يرفض كل الأهداف الدنيوية والمباهج الأرضية وراح يحكم بحياة أخرى (في العالم الآخر) لا مرض فيها ولا نصب ولا حزن، بل لا نهاية له .

٦- الأخوان شليجل

كان الأخوان أوجست (أغسطس) فيلهلم فون شليجل (١٧٦٧ - ١٨٤٥)، وفريدريش فون شليجل، أخوين جديرين بالتأمل : إنهما مختلفان في الطباع والعشق والدراسات والعقائد، لكن يجمعهما في النهاية السنسكريتية والفيلولوجيا (فقه اللغة) . ولدا في هانوفر لقس بروتستنطي، وأصبحا لاهوتيين عندما بلغا الحلم ومهرطقين (شاكين في المسيحية) عندما بلغ الواحد منهم العشرين . واستمتع أوجست فيلهلم في جوتينجن Gottingen بدراسة انتقال الكلمات من خلال محاضرات كريستيان هين Heyne ذي الشخصية الجذابة الذي ترجم أعمال فرجيل Virgil كما استمتع بدراسة التراث الفكري في العصر الإليزابيثي من خلال المحاضرات التي كان يلقيها جوتفرايد بيرجر Gottfried Burger مترجم أعمال شكسبير ومؤلف أغنية لينور[٢١] Lenore . واستقبلت الجامعة نفسها فريدريش فون شليجل بعد استقبالها لأخيه بخمس سنوات، وبدأ كدارس للقانون كما راح يتنقل بين دراسة الأدب والفن والفلسفة، ونضج سريعا فلحق بأخيه في يينا Jena في سنة ١٧٩٦ وشاركه تأسيس « الأثيناوم Athenaum » التي أصبحت طوال عامين (١٧٩٨ - ١٨٠٠) متحدثا باسم الحركة الرومانسية الألمانية ومرشدا لها . وساهم نوفاليز وشليرماشر Schleiermacher بالكتابة فيها، وأتى تيك Tieck وأضاف فيشته وشلنج فلسفتيهما، وكان يأتلف إلى هذه الدائرة الحية بعض النسوة الموهوبات، والمتحررات على نحو رومانسي .

وكان فريدريش فون شليجل هو ضابط السرعة الفكرية - إن صح هذا التعبير - لهذه المجموعة، ويكفي لهذا أنه كان أسرعهم في اعتناق الأفكار وأسرعهم أيضا في التخلي عنها .

وفي سنة ١٧٩٩ أصدر رواية (لوسينده Lucinde) وهي التي أصبحت علماً أحمر يقود الهجوم ضد المعتقدات القديمة والمحرمات taboos المزعجة. وكان هذا الهجوم نظرياً دفاعا عن حق الشعر كمفسر للحياة ومرشد لها. فالصناعة والاتجاه النفعي هما ملائكة الموت، فلم هذا الاندفاع المستمر والعمل الدائب بلا راحة ولا استرخاء؟ ويعلن بطل الرواية أيضا « إن إنجيلنا هو إنجيل المرح والحب »[٢٢] وهو يعني مرح الحب وبهجته دون زواج. وعندما حاول فريدريش زيارة أخيه الذي كان في ذلك الوقت معلما في جوتنجن (١٨٠٠) أرسلت السلطات في هانوفر أمرا حاسما لرئيس الجامعة: « إذا أتى فريدريش شليجل وهو أخو أستاذ عندكم، إلى جوتنجن بغرض الإقاقه لأي فترة فلن يسمح له بذلك، وسيكون أمراً طيبا إذا طلبتم منه مغادرة المدينة، ذلك لأن كتاباته تنحو نحواً غير أخلاقي[٢٣] » والمرأة التي ألهمت شليجل في روايته (لوسينده Lucinde) هي كارولين ميشاليز (ميكاليز Michaelis) ولدت كارولين في سنة ١٧٦٣ وتزوجت أستاذا جامعيا (١٧٨٤) ولم تكن سعيدة معه، فتحررت عندما مات، وراحت لعدة سنوات تمرح مستمتعة بمباهج الحياة كأرملة جميلة ومفكرة. وقد أحبها أوجست فون شليجل عندما كان طالبا في جوتنجن، واقترح عليها الزواج فرفضت لأنه أصغر منها بأربع سنوات. وعندما غادر ليدرس في أمستردام (١٧٩١) راحت تدخل في سلسلة من المغامرات الجنسية ففوجئت بأنها حامل وانضمت إلى مجموعة ثورية في مينز (مينتس) وقبض عليها، وعمل والداها على إطلاق سراحها فذهبت إلى ليبزج (ليبتسج) لتضع حملها، وهنا ظهر أوجست فون شليجل وعرض عليها الزواج مجددا فقبلت فتزوجها (١٧٩٦) وتبنى طفلها، واتجهوا جميعا (الزوج والزوجة وابنها) إلى يينا Jena.

وفي يينا أصبحت المضيفة الأثيرة لليبراليين لتعلمها وحيويتها ومناقشاتها الذكية وقال عنها فيلهلم فون همبولدت Von Humboldt إنها أكثر من عرف من النساء مهارة ونشاطا[٢٤]. وأتى جوته وهيردر Herder من فيمار ليجلسا إلى مائدتها ويسعدا بصحبتها[٢٥]. ووقع فريدريش فون شليجل الذي كان يقيم مع أخيه في هذا الوقت – وقع هو الآخر في حبها، فجعل منها (لوسينده) في روايته وراح ينشد لها أناشيد الحب ويرفع من شأنها حتى ضاقت الكلمات عن عاطفته. وفي هذه الأثناء ذهب أوجست شليجل الذي

كانت عاطفته إزاءها قد بردت - ليحاضر في برلين (١٨٠١) حيث كون علاقة مع صوفي برنهاردي Sophie Bernhardi التي طلقت زوجها لتعيش مع حبيبها الجديد . وعندما عاد أوجست شليجل إلى يينا وجد كارولين مفتونة بشيلنج (١٨٠٤) وعاشت معه حتى ماتت (١٨٠٩)، ورغم أن شيلنج تزوج بعد موتها إلا أنه ظل يذكرها لأعوام عديدة « حتى لو لم تكن لي ما كانت (زوجة) فلابد أن انعى الجنس البشري لفقدها فقد كانت أنموذجا للكمال العقلي لم يعد موجودا. إنها امرأة نادرة ذات روح قوي وعقل حاد اجتمعا معا في جسد أنثى فاتنة تضم قلبا عاشقا[٢٦] ».

وكانت دوروثيا فون شليجل مثل سابقتها ذات أهمية وتأثير في حياة هذه المجموعة . كان اسمها قبل الزواج برندل مندلسون (مندلسوهن) . ورغبة منها في إسعاد والدها المشهور تزوجت في ستة ١٧٨٣ من البنكي (المالي) سيمون فايت Veit وأنجبت له ابنا (فيليب فايت) الذي أصبح رساما شهيرا في الجيل التالي . وكان مالها وفيرا فزهدت فيه لكثرته وراحت تغامر في مجال الفلسفة، ذلك المجال الذي كان لايزال غير أكيد (كانت المباراة فيه غير مضمونة النتائج) وأصبحت نجما بارزا في مجال الفكر في صالون راشيل فارنهاجن Rachel Varnhagen في برلين، وهناك التقى بها فريدريش فون شليجل ووقع في حبها مباشرة أما هي فكانت مفتونة بأفكاره ووجدته يسبح فيها (في أفكاره) ففتنت به فتنتها بأفكاره، وكان وقتها في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الثانية والثلاثين، لكن المؤلف كان مفتونا بأمور جذابة كثيرة في هذه الأنثى ذات الثلاثين ربيعا femme de trente ans . لم يكن جمالها صارخا لكنها قدرت مواهبه العقلية وكانت تستطيع أن تصحبه متفهمة اكتشافاته الفلسفية والفيلولوجية (في علم فقه اللغة)، وأحس زوجها أنه فقدها فطلقها (أي تحولت للمسيحية وتركت ديانتها اليهودية) وتسمت باسم دورثيا، وأصبحت زوجة رسمية لفريدريش في سنة ١٨٠٤ .

نعود إلى أوجست شليجل، فقد أصبح في هذا الوقت أشهر محاضر في أوربا، وأدت ترجمته لأعمال شكسبير إلى إحرازه مكانة عالية وأصبح شكسبير (هذا الإليزابيثي العظيم) يكاد يكون ذا شعبية في ألمانيا كشعبية في إنجلترا . ورغم أن أوجست شليجل

يدعى «مؤسس المدرسة الرومانسية في ألمانيا[٢٧]» إلا أنه كانت فيه كثير من صفات العقل الكلاسي: النظام والوضوح والتناسب والاعتدال، والتقدم الثابت الوئيد للوصول إلى هدف محدد. وقد تجلت هذه الصفات بشكل أقوى في محاضراته «عن الأدب الدرامي» التي ألقاها في مدن مختلفة وأعوام مختلفة، وكذلك محاضراته عن شكسبير العامرة بالتعليقات والملاحظات التنويرية، والتي كان ينقد فيها بشجاعة في بعض الأحيان - شاعره المحبوب (شكسبير). لقد كتب وليم هازلت W. Hazlitt في سنة ١٨١٧: «لقد قدم إلى حد بعيد أحسن عرض ظهر لمسرحيات شكسبير .... إننا نعترف - مع قليل من الغيرة - .. أننا يجب أن نذكر لناقد غير إنجليزي تقديمه للمبررات التي تؤكد نظرتنا نحن الإنجليز إلى شكسبير[٢٨]».

وعندما كانت مدام دي ستيل تطوف ألمانيا بحثا عن مادة لكتابها حثت أوجست شليجل (١٨٠٤) على أن يذهب معها إلى كوبت Coppet ليدرِّس لأبنائها وليعاونها في إعداد موسوعتها مقابل ١٢,٠٠٠ فرنك في السنة، فسافر معها أخيرا إلى إيطاليا وفرنسا والنمسا وعاد معها إلى كوبت وظل معها هناك حتى سنة ١٨١١ عندما رضخت السلطات السويسرية لأوامر نابليون فأمرته بمغادرة سويسرا، فذهب إلى فينا واعترته الدهشة إذ وجد أخاه يحاضر فيها مدافعا عن العصور الوسطى باعتبارها العصر الذهبي الذي شهد وحدة أوربا سياسة وعقيدة.

لقد كانت فينا هي العاصمة الكاثوليكية لألمانيا وكان فريدريش ودوروثيا قد تحولا للكاثوليكية في سنة ١٨٠٨. وكانت دوروثيا قد قالت منذ أعوام خلت: «إن صور القديسين والموسيقا الكاثوليكية تهز مشاعري فقررت أنني لو تحولت للمسيحية فسأصبح كاثوليكية[٢٩]» أما فريدريش فون شليجل فعزا تحوله إلى الكاثوليكية إلى ميله للفن a prédilection d'artiste وعلى أية حال، فإن الكاثوليكية من نواح كثيرة - باعتبارها مثيرة للخيال والمشاعر والجمال - تبدو ملائمة للمشاعر الرومانسية.

لقد ضجر الرجل العقلاني من العقل بعد أن تأثر بالأسرار الدينية (الكاثوليكية)، وأحس بهوان الإنسان أمام الموت. لقد لجأ هذا الفَرْدِي individualist - بعد أن وجد نفسه

وحيدا غير آمن مع نفسه - إلى الكنيسة يرتمي في أحضانها لتكون له بيتا مريحا. لقد تخلى فريدريش شليجل أمهر أنصار الاتجاه العقلي وأكثر الشباب تحمسا للفردية (الاتجاه الفردي) ودعوة إليه، وأكثر الثوار تطرفا - تخلى الآن عن كل هذا موليا ظهره لفولتير، وموليا ظهره للوثر وكالفن ليرتمي في أحضان أوربا في العصور الوسطى يأخذ عنها ويستلهم منها ويتحرق شوقا لكنيستها القابضة على زمام كل الأمور. لقد حزن للتخلي عن الميثولوجيا الملهمة (الحكايات الأسطورية) وإحلال العلم البائس محلها وأعلن «أوضح عجز وأكبر نقص تعانيه كل الفنون الحديثه تتمثل في الحقيقة التي مؤداها أنّ الفنانين لم يعد أمامهم ميثولوجيا يستلهمون منها[٣٠]».

وربما كانت أبحاثه في آداب الهند القديمة وميثولوجيتها قد عمقت احترامه للميثولوجيا. وكان قد بدأ في باريس سنة ١٨٠٢ هذه الدراسات التي بلغت ذروتها، ووضعت أساسا لتطور هذا النوع من الدراسات فيما بعد تجلت في كتابه (لغة الهند وحكمتها Uber die Sparche und Weisheit der Inder) الذي ساهم في تأسيس علم فقه اللغة المقارن في نطاق اللغات الهندو أوربية. وناقش فريدريش هذا الجانب من حياته مع أخيه الذي انضم إليه لفترة في فينا في سنة ١٨١١، واستحضر أوجست في ذهنه عمله مع كريستيان هاين Heyne في مجال فقه اللغة (الفيلولوجيا)، فواصل عمله في هذا المجال وانضم إلى أخيه في دراسة اللغة السنسكريتية، فأثمر هذا الاشتراك أفضل النتائج التي تمخضت عنه حياتهما، وأرسخها وأكثرها دواما. لقد حقق فريدريش لنفسه مكانة في الحياة الثقافية والسياسية في فينا، ووصل إلى منصب أمانة السرفي الحكومة النمساوية، وساعد في كتابة هجوم عنيف على نابليون أصدره الأرشدوق كارل لودفيج كجزء من معركة سنة ١٨٠٩، وفي سنة ١٨١٠ وسنة ١٨١٢ ألقى في فينا محاضرات شهيرة متميزة في التاريخ الأوربي والأدب في أوربا، وفي هذه المحاضرات عرض نظرياته في النقد الأدبي وقدم تحليلا كلاسيا للرومانسية. وفي سنة ١٨٢٠ أصبح محرراً لصحيفة الجناح اليميني الكاثوليكية وهي صحيفة كونكورديا Concordia وراح في هذه الصحيفة يهاجم الأفكار والمعتقدات التي طالما كان قد دافع عنها بحماس في أثناء الأيام التي قضاها في يينا Jena مما

أدى إلى فرقة بلاعودة بينه وبين أخيه. وكانت آخر محاضراته في دريسدن في سنة ١٨٢٨ ومات في العام التالي، واحتفظت دوروثيا بذكراه واحتفت بها وظلت مخلصة لأفكاره وأعماله حتى ماتت في سنة ١٩٣٩.

وعاش أوجست فون شليجل بعدها. وفي سنة ١٨١٢ انضم إلى مدام دي ستيل مرة أخرى، وأرشدها خلال ترحالها في النمسا وروسيا إلى سان بطرسبورج، وذهب معها إلى ستوكهولم، حيث تم تعيينه – بوساطة من مدام دي ستيل – سكرتيرا لبيرنادوت Bernadotte ولي عهد السويد، وصحبه في معركة ١٨١٣ ضد نابليون.

ومنحته الحكومة السويدية رتبة النبالة لخدماته. وفي سنة ١٨١٤ انضم مرة أخرى إلى مدام دي ستيل في كوبت Coppet وظل معها حتى ماتت. وعند هذا الحد يكون قد أنجز ما وعدها به، فقبل منصب أستاذ الأدب في جامعة بون (١٨١٨) فواصل دراساته للسنسكريتية وأنشأ مطبعة سنسكريتية ونشر – وحرر – نص الباجافاد جيتا - Bhagavad Gita والراماياناRamayana ، وظل طوال عشر سنوات يعمل في مكتبة الأدب الهندي Indische Bibliothek، ومات في سنة ١٨٤٥ وهو في الثامنة والأربعين بعد أن ترك لنا كنوزا: نقل التراث الشكسبيري إلى ألمانيا، وقد بذل في هذا العمل جهدا مضنيا، وقدم لنا – من خلال محاضراته – حصاد ذكريات كولردج وأفكاره ليلتقط منها للفلسفة الألمانية. لقد كانت حياته (أوجست فون شليجل) حياة مثمرة.



[١٧٨٩ - ١٨١٥]

تَنَاوُلنا للفلسفة المثالية التي قال بها كانط ومن أتى بعده من تلاميذه، يعوقه أن كلمة مثالي ideal في التفكير الدارج أصبحت تعني التميز الخلقي، كما يعوقه أيضا أننا اعتدنا – في عصر العلم والصناعة – أن نفكر في الأشياء التي ندركها وقلما نفكر في عملية الإدراك نفسها. وهناك اتجاهان متنافسان في الفلسفة اليونانية حيث وجدنا ديموقريطس Democritus يبدأ بالجزء أو الذرة (أو الفرد المكون للكل أو العنصر المكون لما هو شامل) بينما بدأ أفلاطون بالأفكار. وفي الفلسفة الحديثة ركز بيكون Bacon على معرفة الكون، وبدأ ديكارت بالتفكير نفسه. ووجدنا هوبز Hobbes يلخص كل شيء في المادة، أما بيركلي Berkeley فكل شيء عنده « عقل » أو « نفس ». وقد أعطى كانط الفلسفة الألمانية خصوصيتها بتدليله على أن مهمة الفلسفة الأساسية هي دراسة العمليات التي نكوِّن بها الأفكار. لقد أقر بوجود الحقيقة الخارجية (الكائنة خارج العقل أو النفس) لكنه أصر على أننا لانستطيع أبداً أن نعرفها بشكل موضوعي ما دمنا لا نستطيع معرفتها إلا كمتغيرات بواسطة أعضاء وعمليات الإدراك الموجودة في أفكارنا. وعلى هذا « فالمثالية idealism » الفلسفية هي النظرية القائلة بأننا لا نعرف شيئا سوى الأفكار، وعلى هذا فالمادة matter هي شكل من أشكال العقل is a form of mind .

١- فيشته: ١٧٦٢ - ١٨١٤

١ / ١ الراديكالي:

نجد هنا - كما وجدنا غالباً عند تناولنا للتاريخ الأدبي - أن دراسة الرجل (المؤلف أو المفكر) أكثر تشويقا من دراسة مؤلفاته. فدراسة المؤلفات تجعلنا نحس بالتحات أو التآكل الذي يسببه فيضان أنماط مختلفة في الأفكار والصيغ لكن دراسة نفس تشق طريقها خلال متاهات الحياة تعد درساً حيا في الفلسفة، وصورة متحركة نابضة بالخبرات التي تصوغ الشخصية وتحول الأفكار.

لقد عاش جوهان (يوهان) جوتليب فيشته Johann Gottlieh Fichte اثنين وخمسين عاما كانت غاصة بتجارب مختلفة. لقد كانت أمه تدعو الله أن يكون ابنها قسا (راعي أبرشية) فوافق وبعد أن قضى فترة في بعض المدارس المحلية، تم إرساله إلى يينا لدراسة اللاهوت (أصول العقيدة)[١]، لكنه كان كلما تعمق في دراسة اللاهوت المسيحي زاد عجبا وشكا. وأعطاه واعظ القرية « تفنيدا لأخطاء سبينوزا Refutation of the errors of Spinoza » لكن فشته أعجب « بأخطاء » سبينوزا وغض الطرف عن تفنيدها[٢] واتخذ قرارا وهو أنه لن يصلح أن يكون قسا. ومع هذا فقد تخرج في كلية اللاهوت. وكان مفلساً معظم الوقت، فسار على قدميه من يينا Jena إلى زيورخ ليبحث عن عمل له كمعلم خصوصي، وهناك أحب جوهانا (يوهانا) ماريا راهن Rahn وتقدم لخطبتها رسميا، لكنهما اتفقا على تأجيل الزواج حتى يستقر ماليا.

وانتقل إلى ليبزج (ليبتسج) وقام بالتدريس لبعض الطلبة، وقرأ كتاب كانط (نقد العقل الخالص) وافتتن به. وأخذ طريقه إلى كونيجسبرج Konigsberg وقدم لكانط كتابه (مقال نحو نقد كل وحي vesush einer kritik aller Offenbarung) (١٧٩٢)، وطلب قرضاً من كانط فلم يعطه لكنه ساعده في الوصول إلى ناشر لنشر عمله. وأهمل الناشر ذكر اسم المؤلف على الكتاب وعندما ذكر النقاد أن الكتاب من تأليف كانط، صرح كانط باسم المؤلف وامتدح الكتاب وهكذا أصبح فيشته عضوا في « جماعة المفكرين الجليلة[٣] » ولم يستقبله اللاهوتيون بحفاوة كما استقبله المفكرون لأن الحجج التي ساقها في مبحثه الآنف

ذكره مؤداها أنه رغم أن الوحي لا يقدم دليلاً على وجود الله، فلابد أن نعزو نظامنا الأخلاقي لله، إن أردنا أن يكون هذا النظام مقبولا ومطاعا من الجنس البشري وبناء على توصية كانط وجد فيشته وظيفة كمعلم ومرشد في دانزج (دانتسج)، وكانت وظيفة ذات عائد مجز، ووافقت خطيبته الآن على أن تضم مدخراتها لما يأتيه من دخل، وتزوجا في سنة ١٧٩٣، ونشر في العام نفسه أيضا مقالين قويين دون أن يقرنهما باسمه. وفي مقال (ملوك أوربا وأمراؤها يعيدون حرية الفكر) بدأه بامتداح بعض الحكام المتنورين وتوجيه اللوم للملوك والأمراء الذين يعوقون تقدم العقل البشري، وحزن لموجة القمع التي أعقبت وفاة فريدريك الكبير. إن الإصلاح reform أفضل من الثورة révolution لأن الثورة قد تقذف بالإنسان إلى الخلف وترده إلى البربرية، ومع هذا فالثورة الناجحة قد تحقق تقدما للبشرية في نصف قرن ما يحققه الإصلاح في ألف عام. ثم خاطب فيشته قراءه في زمن كان الإقطاع فيه لا يزا ل راسخا في معظم أنحاء ألمانيا:

« لا تكرهوا حكامكم بل اكرهوا أنفسكم. إن أحد مصادر بؤسكم هوتقديركم المفرط لهؤلاء الأشخاص (الحكام) الذين ضلت عقولهم لنقص التعليم والانغماس في اللذات والخرافة... هؤلاء هم الذين يبذلون كل جهدهم لقمع حرية الفكر... اصرخوا في وجوههم قائلين لهم إنكم لن تسمحوا لأحد أن يسلبكم حرية فكركم...

لقد انتهت عصور الظلمة.. عندما يقولون لكم باسم الرب إنكم قطيع من المواشي خلق ليستغل وليخدم حفنة من الأشخاص الفانين (أي أنهم بشر مثلكم) بوئوا مكاناً عليا ليمتلكوكم وتصبحوا ملكاً لهم.. لا.. إنكم لستم ملكاً لهم، ولا حتى أنتم ملك للرب، إنكم ملك أنفسكم.. ستسألون الآن الأمير (أو الملك) الذي يريد أن يحكمكم. بأي حق ستحكمنا؟ فإن قال بحق الوراثة، فلتسألوه: وكيف حصل جدك الأول (مؤسس الأسرة الحاكمة) على هذا الحق؟.. إن الحاكم يستمد كل سلطانه من الشعب[٤] » أما مقاله الثاني فهو عن « تصحيح الأحكام العامة عن الثورة الفرنسية » فهو الأكثر راديكالية. فالمزايا الإقطاعية لا يجب أن تكون متوارثة، وإنما هي وجدت برضا الدولة ولابد من إلغائها بما يتفق مع مصلحة الدولة. والأمر نفسه بالنسبة إلى الممتلكات الكنسية. لقد تم إقرارها بموافقة

الدولة وتحت حمايتها، ويمكن تأميمها على وفق حاجة الأمة وإرادتها. وهذا ما فعلته الجمعية الوطنية الفرنسية، وهي على حق.

لقد نشر هذان المقالان غفلاً من الاسم، ولو كان معروفا أن فيشته هو مؤلفهما ما دعي في ديسمبر ١٧٩٣ ليشغل كرسي الفلسفة في يينا Jena. وكان الدوق شارلز أوجستس لايزال هو لورد فيمار ويينا Jena. الهادئ، وكان جوته الذي يشرف على هيئة التدريس في الجامعة لم يقرر بعد أن الثورة الفرنسية كانت سقما (مرضا) رومانسيا[٥]. وعلى هذا فقد بدأ فيشته محاضراته في يينا Jana في الفصل الدراسي الذي يبدأ بعد عيد الفصح في سنة ١٧٩٤. لقد كان مدرسا مقنعا وخطيبا مفوها يمكنه أن يمزج المشاعر بالفلسفة ويمكنه أن يجعل الميتافيزيقا فوق كل شيء لكن اندفاعه كان مؤثرا في مهنته كأستاذ، وكان ينذر بتمرد واضطراب وتم نشر خمس من محاضراته الأولى في سنة ١٧٩٧ بعنوان (بعض المحاضرات عن مهمة العالم) طرح فيها فكرة أن الدولة ستختفي في وقت مناسب في المستقبل، لتترك الناس أحراراً حقا، وكانت هذه الفكرة تكاد تكون دعوة للفوضوية (اللاحكومة) وتشابه ما دعا إليه جودوين في كتابه الذي نشره قبل ذلك بعام (بحث في العدالة السياسية Enquiry Concerning Political Justice): «المجتمع السياسي ليس جزءا من الأهداف الخالصة للحياة البشرية وإنما هو - فقط - الوسائل الممكنة لتكوين مجتمع كامل. والدولة تميل بشكل مستمر إلى إلغاء دورها، إذا كان الهدف النهائي لكل حكم أن يجعل من نفسه زيادة غير ضرورية. قد يكون علينا أن ننتظر دهورا طويلة لكن سيأتي يوم تصبح فيه كل التشكيلات السياسية غير ضرورية[٦]».

وأضاف فيشته لهذه النظرة العامة التي جعلها سائغة للملوك والحكام بتوقعه ألا تحدث إلا بعد فترة طويلة، فكرة أخرى Pisgah View: «إن الهدف النهائي للمجتمع هو المساواة الكاملة بين كل أفراده»، وكان في قوله هذا صدىً لأفكار جان جاك روسو، ولم ينكر فيشته ذلك: «ليحل السلام على رفات روسو ولتتبارك ذكراه لأنه أيقظ أرواحنا[٧]». ورحب الثوار الرومانسيون الذين كان عليهم أن يجتمعوا في يينا في سنة ١٧٩٦ بهذه الأفكار الداعية إلى يوطوبيا (مدينة مثالية)، فكتب فريدريش فون شليجل إلى أخيه: «إن أعظم الميتا فيزيقيين

موجود الآن على قيد الحياة. إنه كاتب ذو شعبية. يمكنك أن تراه في كتابه الشهير عن الثورة... إن كل لمحة من لمحات حياة فيشته العامة تبدو وكأنها تقول: هذا رجل[٨]»

١ / ٢ الفيلسوف

ترى ما هي هذه الميتا فيزيقا التي جذبت الرومانسي كل هذا الجذب؟ لقد كان محورها هو أن الفرد والأنا الواعية بذاتها - تلك الأنا التي جوهرها الإرادة الحرة - هي ذروة كل حقيقة reality . ولا شيء يبهج الرومانسي أكثر من هذا لكن الأمر لم يكن (لوسينده Lucinde) كما عرضها فريدريش فون شليجل، بل إن فيشته نفسه بعد أن نشر كتابه (تأسيس علم شامل للمعرفة، ١٧٩٤) وجد من الضروري أن يوضح أفكاره، فأصدر في سنة ١٧٩٧ (مقدمة ثانية) وبتقديم جديد، وقد أضاف كلا العملين سخافات جديدة (أمورا منافية للعقل). لقد كانت الكلمة الشارحة أو الكلمة المفتاح في حد ذاتها تحتاج إلى شرح. لقد استخدم كلمة Wissenschaftsleher التي تعنى عمود المعرفة Shaft أو عصبها أو جزءها المركزي Trunk، أو لنستخدم كلمة مانعة جامعة - نظرية المعرفة.

وبدأ فيشته بتقسيم الفلاسفة إلى قسمين: الدوجماتيين dogmatists (أصحاب النظريات الذين يؤكدون نظرياتهم أو أفكارهم ويرفضون بحسم كل نظرية غيرها) أو القائلون بالوجود الحقيقي للمادة خارج العقل realists . (إنهم مقتنعون بأن الأشياء موجودة بشكل مستقل خارج العقل (أو النفس)، والمثاليون idealists الذين يعتقدون أن كل التجارب وكل «الحقائق facts» هي مفاهيم عقلية، وعلى هذا فهي كل الحقيقة فكل ما يمكننا معرفته جزء من العقل المدرك. لقد اعترض فيشته على القائلين بالوجود المنفصل للمادة (الوجود المستقل لها) realists على أساس أن مقالتهم تفضي منطقيا إلى أن الجبرية التلقائية التي تجعل (الوعي) أمراً زائدا أو غير ضروري مما يقوض دعائم المسئولية (البشرية) والأخلاق، بينما حرية الإرادة (حرية الاختيار) من بين أكثر الأمور التي نتمسك بها. لقد رفض فيشته ما هو أكثر إذ ذهب إلى أن أي فلسفة تبدأ بالمادة لا يمكنها أن تشرح الوعي الذي هو غير مادي. لكن قضايا الفلسفة الأساسية تهتم بهذه الحقيقة الغامضة التي نسميها

الوعي. وهكذا بدأ فيشته بالوعي نفسه – الأنا (The Ego أو I ch أو I)(*). لقد تعرف العالم الخارج على الأنا، لكن كان تعرفه من خلال ما نعرفه (نحن) عنه عن طريق إدراكنا الحسي.

هذا – من خلال عمليات إعداد عقلية – يحول الأشياء إلى جزء من العقل (إنه تفسير الحواس من خلال الذاكرة أو الغرض (أو الهوى أو الهدف Purpose) ((وعلى هذا فالكلمة بمعناها الصحيح (الموضوعي) تختلف تماما عن الكلمة كما تفسرها الخبرة والسياق والغرض. وعلى هذا فالعاصفة (مثلا) التي هي من الناحية الحسية مجرد فوضى لا معنى لها تراها (وتحس بها) حواس مختلفة تصبح في الإدراك – من خلال الذاكرة والظروف والرغبة – مثيرة لفعل عامر بالمعاني)) وانتهى فيشتة إلى أننا يجب أن نفترض أن الأشياء خارج الذات أو (اللا أنا non - Ego) هي سبب لإحساسنا بما هو خارج الذات، لكن هذه الأشياء الواقعة خارج الذات لا تفسرها إلا الحواس والذاكرة والإرادة، وبالتالي فهي من مكونات العقل. وانطلاقا من وجهة النظر هذه فإن (الموضوع) والمادة Object هي جزء من الأنا، ولا يمكن أن نعرف أي شيء خارج الأنا Ego. تلك هي فلسفة فيشته إلا جانبا واحدا. فوراء النفس المدركة هناك النفس الراغبة (ذات الرغبة) والمريدة (ذات الإرادة) « فالأنا (الإيجو Ego) هي نظام للدوافع أو البواعث أو المثيرات » « فكل النظام الذي تتشكل منه أفكارنا يعتمد على دوافعنا وإرادتنا[٩] » (هنا نجد فيشته يتفق مع سبينوزا في قوله إن الرغبة هي الجوهر الصميم للإنسان) كما أن أفكاره هذه تفضي إلى فكرة شوبنهور عن (الكون كإرادة وفكرة). والإرادة الطائشة ليست جزءا من الكون (العالم) الموضوعي الذي يبدو خاضعا (أو عبدا) لجبرية تلقائية. من هنا فالإرادة حرة. فالحرية هي جوهر الإنسان لأنها تجعله كائنا مسئولا أخلاقيا، قادرا على الالتزام – بشكل حر – بالقانون الأخلاقي. وكلما مضت الأيام بفيشته طوّر إعجاب كانط بالنظام الفلكي والأخلاقي في لاهوت جديد يفترض قانونا أخلاقيا يحكم الكون ويدعمه كما يحكم شخصية الإنسان ومجتمعاته ويحميهما. وأخيرا فقد جعل النظام الأخلاقي للكون (بالمعنى الآنف ذكره) بمعنى قيام كل

(*) Ich أنا بالألمانية و I أنا بالإنجليزية. (المترجم)

جزء فيه بخدمة الكل من خلال أدائه لما هو منوط به – جعله هو نفسه الله[١٠]. فهدف الإنسان الحر وواجبه هو أن يعيش في تناسق (هارمونية) مع هذا النظام الأخلاقي المقدس. وعلى هذا فالنظام الأخلاقي الكوني ليس مجرد (شخص) وإنما هو (عملية) ويظهر أي هذا النظام بشكل أساس في التطور الأخلاقي للبشرية[١١] ». « فمهمة الإنسان » هي أن يعيش متناسقا (في هارمونية) مع النظام المقدس (بالمعنى الآنف ذكره). كل هذا يذكرنا مرة أخرى باسبينوزا Spinoza لكننا نجد فيشته أيضا في سياق آخر متأثرا بهيجل : فالنفس الفردية أو الروح الفردية فانية[١٢] ومع هذا فهي تسهم في خلود هذا (الكل) من النفوس الواعية التي هي الأنا Ego الخالصة أو الفكرة أو الروح.

إننا عند تناولنا لفلسفة فيشته نحس بقلق إنسان يتلمس طريقه بعد أن فقد إيمانه الديني المتوارث لكنه يناضل كي يجد لنفسه وقرائه أو تلاميذه طريقا وسطاً بين الإيمان والشك. وفي سنة ١٧٩٨ واجه المشكلة (القضية) مرة أخرى في مبحثه (على أساس معتقدنا في الحكم المقدس للكون « العالم »). لقد أعاد مفهومه لله سبحانه رافضا أن يكون الله شخصا (مشخصا) وإنما هو النظام الأخلاقي غير المشخص للكون، لكنه (أي فيشته) سمح بأن يعزى إلى هذا النظام شيء من (الشخصية) أو (التشخيص) (أي جعله مشخصا على نحو قليل) لإضفاء الحيوية. وعلى أية حال فقد أضاف أننا لو تصورنا الله كطاغية اعتمادا على ما سيقدمه لنا من مسرات ومباهج في المستقبل، فمعنى هذا أننا نعبد وثنا، والذين يعبدون إلها على هذا النحو حري بنا أن نسميهم وثنيين.

وظهر مقال لم يذكر اسم مؤلفه يصف مبحث فيشته الآنف ذكره بأنه مناهض للدين (المفهوم طبعا المسيحية بمعناها التقليدي) وشارك آخرون في الهجوم ، فصادرت حكومة سكسونيا كل النسخ المتاحة من مبحث (مقال) فيشته، وقبلت شكوى مؤداها أن حكومة فيمار تسمح للألحاد (المقصود هنا الخروج عن العقيدة المسيحية التقليدية) بأن يصبح موضاعا للدرس في مناطقها. وحاولت اللجنة التعليمية في فيمار تهدئة الأمر برد مهذب على السكسون Saxon، لكن فيتشه لم يكن مسالما فأصدر نشرتين (كتيبين) للدفاع عن كتابه أمام العامة، كانت نشرة منهما تحوي ردا مباشرا (نداء للجماهير)، فاعتبرتها لجنة

فيمار التعليمية تحديا لطريقتها في معالجة الأمر ووصلته شائعة مفادها أن اللجنة ستطلب من مجلس الجامعة توجيه اللوم له علنا. وساق فيشته الأدلة على أن هذا الإجراء سيسيء للحرية الأكاديمية وكتب إلى عضو المجلس الملكي في فيمار مهددا بالاستقالة إذا أصدرت الجامعة هذا اللوم وأضاف أن أساتذة آخرين وافقوا على تقديم استقالتهم تضامنا معه فأصدرت اللجنة التعليمية في فيمار (بموافقة جوته وشيلر) بلاغاً لمجلس الجامعة يرغبها في توجيه اللوم له وقبلت الجامعة تهديد فيشته وتحديه ففصلته، وقدم الطلبة ملتمسين لإعادة أستاذهم، فتجاهلتهما الجامعة(١٣).

وفي يوليو ١٧٩٩ انتقل فيشته وزوجته إلى برلين حيث تلقاه بحرارة فريدريش فون شليجل، وشليرماشر وآخرون من جماعة الرومانسيين الذين أحسوا المذاق الرومانسي في خيال فيشته وقوة «الأنا البطولية heroic - Egoism» في فلسفته. وكي يوفر فيشته أجرة الإقامة في منزل مستقل قبل رغم معارضة زوجته دعوة شليجل العيش معه ومع برندل مندلسون فايت Veit. لقد كان الفيلسوف المرح (فيشته) يحب العيش مع الناس واقترح أن يكثر من عدد المجموعة. لقد كتب يقول «لو نجحت خطتي فإن آل شليجل وآل شلنج ونحن سنكون أسرة واحدة كبيرة لنقطن في بيت أوسع وليكون عندنا طباخ واحد(١٤)» لكن الخطة لم توضع موضع التنفيذ لأن كارولين فون شليجل لم تنسجم مع برندل. إن الفردية هي الحية التي تتربص بفردوس العيش المشترك.

وعلى أية حال فقد ظل فيشته حتى النهاية وفيه مسحة اشتراكية، فقد نشر في سنة ١٨٠٠ مقالاً بعنوان (دولة التجارة المقفلة) ذكر فيه أن التجارة الخارجية وتداول النقد يمكنان الأمم الأغنى من استنزاف للأمم الأفقر، وعلى هذا فلابد أن تسيطر الحكومة على التجارة الخارجية كلها وأن تمتلك كل سبيكة صالحة للتداول. فالدولة إن تسلحت بهذه السلطة أمكنها أن تضمن لكل فرد أجراً يكفي معيشته ونصيبا مساويا في دخل البلاد، وفي مقابل هذا حق على كل فرد أن يسلم بحق الدولة في تحديد الأسعار وحقها في تحديد مكان عمله وطبيعته(١٥)».

ومن الغريب أن يتزامن مع دعوته هذه إصداره لمبحث ديني هو (مهمة الإنسان،

١٨٠٠) الذي يصف فيه الله باعتباره نظاما أخلاقيا للكون، ويلجأ إليه (إلى الله بهذا المعنى) بنشوة وحب وتعبد :

« عقيدتنا . . . عقيدتنا في الواجب هي – فحسب – إيماننا به (بالله in Him) وبحكمته His reason وبحقيقته His truth . . . فالإرادة الأبدية الخالدة هي خالقة الكون على نحو أكيد . . ونحن أيضا خالدون لأنه (الله He) هو الخالد .

الإرادة السامية الحية معروفة بغير اسم، لا يحيط بها فكر . . إن الأطفال يعرفونها كأفضل ما يكون وتعرفها النفوس البسيطة المؤمنة . . .

إنني أخفي وجهي أمامك Thee (يا ألله) وأضع يدي على فمي (لا أجرؤ على الكلام) . . كيف أنت Thou وكيف تنظر لوجودي . . لا أستطيع أن أعرف أبدا . .

أنت يا ألله (Thou) علمتنى واجبي ومهمتي في عالم الموجودات العاقلة . كيف لا أعرف وكيف لا أحتاج للمعرفة . . . في ظل علاقاتك هذه بي . . أأستطيع الاطمئنان إلى نعمتك أو بتعبير آخر أأستطيع أن أرتاح في ظل نعمتك المريحة[١٦] » . ؟

يظهر أن فيشته – وقد أصبح معتمداً في تدبير أمور معيشته على محاضراته العامة التي ينشرها بعد ذلك – راح يتجه أكثر فأكثر نحو الإيمان المسيحي، والوطنية الألمانية . وفي سنة ١٨٠٥ دعي ليشغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة إرلانجن Erlangen فحقق لنفسه فيها شهرة جديدة عندما اضطر بعد دخول جيوش نابليون ألمانيا إلى البحث عن منصب أكثر أمناً، فعبر إلى شرق بروسيا وراح يدرس لفترة في كونجسبرج Konigsberg وأدى اقتراب جيوش نابليون بعد ذلك بفترة وجيزة من فريلاند Frieland إلى انتقاله هذه المرة إلى كوبنهاجن . وفي أغسطس سنة ١٨٠٧ عاد إلى برلين مرة أخرى بعد أن تعب من العيش بلا وطن، وهناك ترك الفلسفة جانبا، وأعطى كل جهده لاستعادة كرامة شعب ممزق طعن في كبريائه .

١ / ٣ الوطني

راح فيشته كل يوم أحد من ١٣ ديسمبر ١٨٠٧ إلى ٢٠ مارس ١٨٠٨ يلقي في مدرج مسرح أكاديمية برلين سلسلة محاضرات تم نشرها بعد ذلك بعنوان « خطابات إلى الأمة الألمانية Reden an die deutsche Nation » . لقد كانت دعوة عاطفية مفعمة حماسا لشعبه كي يستعيد احترامه لذاته وشجاعته وأن يتخذ الإجراءات للخروج من العزلة التي فرضها عليهم وهم حاملو السيوف من الطبقة العسكرية البروسية، والخروج من اتفاقية سلام تلسيت Tilsit غير الإنسانية، والخروج من التمزق وتقطيع أوصال البلاد (المملكة البروسية) الذي فرضه الكورسيكي (نابليون) المنتصر. وفي هذه الأثناء كان العسكر الفرنسيون يقومون بدور البوليس في المدينة المغتصبة، وكان الجواسيس الفرنسيون يرصدون كل حديث . وتعتبر (خطابات إلى الأمة الألمانية) هي الأكثر حيوية في كل ما تركه فيشته، ولا زالت دافئة بمشاعر الفيلسوف الذي تحول إلى الاهتمام بأمور الوطن. لقد نحى جانبا الجوانب الفكرية للمنطق النظري وواجه الحقائق الأكثر مرارة في أسود أعوام بروسيا . ولم يوجه حديثه لبروسيا وحدها وإنما لكل الألمان الذين كانوا يحتاجون لهذا المثير نفسه ويتحدثون اللغة نفسها رغم انقسامهم في ظل إمارات متناثرة. لقد عمل على تقريبهم في شكل من أشكال الوحدة بتذكيرهم بتاريخ ألمانيا وانتصاراتها المشهورة وإنجازاتها في مجالات الحكم والدين والأدب والفن وبرفضه المادية materialism التي تدفع لفقدان الأمل والتي وجدها - كما زعم - في الحياة الإنجليزية والنظريات الإنجليزية، وبرفضه التخلي عن الدين تماما كما في حركة التنوير الفرنسية وفي الثورة الفرنسية ذاتها. لقد راح يتحدث مفتخرا ذاكرا الأدلة من المدن التجارية في ألمانيا الأقدم - نورمبرج ومنها البريخت (البريشت دورر Albrecht Durer، وأوجستبرج ومنها الفوجر Fuggers ومواطنو العصبة الهانستية Hanseatic Leaguo الذين جابوا الكرة الأرضية . فالقصور الحالي - كما يخاطب فيشته طبقته وبلاده - يجب النظر إليه من منظور الماضي المتألق، ولا يمكن أن يستمر حبس أمة بواسطة أمة أخرى، فالأمة الألمانية لديها من الأنفس والعقول والإرادة ما يمكنها من الخروج من حضيضها الحالي .

كيف؟ أجاب فيتشه: بإصلاح التعليم إصلاحاً كاملا، ومده ليشمل كل طفل ألماني، وجعله إلزاميا، وإعادة صياغته ليركز على الجوانب المعنوية الأخلاقية لا أن يكون الغرض منه تحقيق النجاح التجاري. ليس هناك حديث أكثر من ذلك عن ثورة، فليس هناك إلا ثورة واحدة وهي تنوير العقول وتطهير الطباع. لابد من تطوير قدرات الطفل على وفق منهج بيستالوزي Pestalozzi (السويسري) ولابد من توجيههم لتحقيق أغراض الأمة وأهدافها كما تحددها الدولة. ولابد أن يقود الدولة متعلمون مخلصون ولا يجب أن تكون خاضعة لإرادة الجيش وإنما توجهها إرادة الأمة، وأجهزتها. ولابد أن يكون كل مواطن خادما للدولة، وأن تكون الدولة خادمة للجميع. «وحتى الآن فإن الجزء الأكبر – إلى حد بعيد – من دخل الدولة... يتم إنفاقه لإقامة جيش دائم» أما تعليم الأطفال فترك لرجال الدين الذين يستغلون «الله كوسيلة للبحث عن الذات في عوالم أخرى بعد موت الجسد... مثل هذا الدين سيدفن حقا ليكون مع الماضي(١٧)» لابد أن يحل محله دين الوعي الأخلاقي القائم على حسّ ملم بالمسئولية الجماعية.

واعتقد فيتشه أن الوصول لهذا النوع من الرجال، يستلزم فصل الطلاب عن «مجتمع البالغين» ليكونوا مجتمعا منفصلا ومكتفيا ذاتيا.... تدريبات بدنية.. زراعة وتجارة بمختلف أنواعها بالإضافة إلى تنمية العقل بالتعليم..(١٨)» «إن الطلبة بعد أن نعزلهم على هذا النحو مبتعدين بهم عن مفاسد الماضي، فإنهم بالعمل والدراسة سيكونون متحفزين ولابد لخلق صورة لنظام البشرية الاجتماعي كما ينبغي أن يكون أي – ببساطة – كما يتمشى (أي هذا النظام) مع العقل. إن الطالب في هذه الحال يملأ بحب شديد لمثل هذا النظام (نظام الأشياء كما يجب أن يكون) بدرجة يصعب معها تماما ألا يأنس إليه ويرغبه، وبدرجة يصعب معها تماما ألا يعمل بكل قوته لتحسينه عندما يتحرر من توجيه المعلم(١٩)». إنه حلم رائع يذكرنا بجمهورية أفلاطون ويسبق دعاة Prophets الاشتراكية الذين انعقدت عليهم الآمال في القرون المتعاقبة. ولم يكن لهذه الأفكار سوى تأثير قليل في عصر فيتشه كما لم تسهم إلا بالقليل (رغم أن هذا القليل قد جرى تضخيمه) في إلهاب الحماس ضد نابليون(٢٠). لكن فيشته كان يفكر في أمر هو أعظم من طرد الفرنسيين

من بروسيا. لقد كان يحاول أن يجد طريقا لتحسين الطبيعة البشرية التي فعلت الكثير في التاريخ بجوانيها الخيرة والشريرة. وعلى أية حال فقد كان حلمه هذا حلما نبيلا شديد الثقة - ربما - في سلطان التعليم وقدرته على تغيير الصفات الوراثية والموروثات، كما أنه يفتح الباب - وهذا يدعو للحزن - لإساءة فهمه وإساءة استخدامه من قبل النظم الحكومية السلطوية، لكن فيشته قال: «لن أفقد الأمل ما حييت في أن أقنع بعض الألمان.... بأن التعليم وحده هو السبيل الوحيد لإنقاذنا[٢١]».

لقد ضعفت صحة فشته لهروبه المصحوب بالمخاطر من إرلانجن Erlangen إلى كونجسبرج إلى كوبنهاجن إلى برلين، فبعد إكماله (خطابات إلى الأمة بوقت قصير) انهارت صحته، فذهب إلى تبلتس Teplits وفيها استعاد صحته نسبيا وفي ١٨١٠ عين رئيسا لجامعة برلين الجديدة، وعندما بدأت بروسيا حرب التحرير حث فيشته طلبته بحماس بالغ على طرد المحتل حتى إن كلهم تقريبا دخلوا الجندية[٢٢]. وتطوعت زوجة فيشته للعمل كممرضة وأصيبت بالحمى فراح يعتني بها نهارا ويلقي محاضراته في الجامعة مساء وانتقلت إليه العدوى منها، فعاشت هي، ومات في ٢٧ يناير ١٨١٤. وبعد ذلك بخمس سنوات ماتت فدفنت إلى جواره على وفق العادة الطيبة القديمة في الدفن التي تسمح للعاشقين والزوجين أن يدفنا متجاورين رمزا لأنهما أصبحا بعد الموت كيانا واحدا (حتى لو لم يجتمع منهما سوى الشعر والعظام)

٢- شيلنج: ١٧٧٥ - ١٨٥٤

رغم أن فيشته اعترف بوجود عالم خارجي (عالم خارج الأنا) إلا أن فلسفته كانت غالبا ما تتحاشى ذكره (أي ذكر هذا الوجود خارج الذات) إلا من خلال مروره (وتنقيته) من خلال الإدراك (البشري). أما فريدريش فيلهلم جوزيف فون شيلنج فرغم حرف الجر (Von) الدال على أرستقراطيته، فقد كان - بالفعل - قد قبل الطبيعة nature ووحدها مع العقل في كيان مشترك يكون الله أو بتعبير آخر كان الله عنده هو الطبيعة والعقل مندمجين في كل واحد.

لقد كان شيلنج ابنا لقس بروتستانطي (من أتباع لوثر) في فيرتمبرج Wurttemberg، وكان أبوه من ذوي الممتلكات، وراح يعد ابنه ليشغل منصبا كهنوتياً (ليكون أحد رجال الدين)، فألحقه بكلية اللاهوت في توبنجن Tubingen، وهناك أصبح شيلنج وهولدرلين Holderlin وهيجل يشكلون مجموعة نشيطة من الدارسين الراديكاليين الذين احتفوا بالثورة الفرنسية وأعادوا تعريف الإله (أي تحديد معنى جديد له) وأقاموا فلسفة جديدة قائمة على المزج بين أفكار سبينوزا وكانط وفيشته. وأضاف شيلنج قصيدة بعنوان «عقيدة أبيقوري The Creed of an Epicurean»[٢٣] ويمكن أن يتنبأ المرءُ مطمئناً أن هؤلاء الشباب اليافعين سيكون اتجاههم محافظاً يحترم القديم.

واشتغل لبضع سنين مدرساً، مثل فيشته وهيجل ونشر وهو في العشرين مقالاً عن أسس الفلسفة (١٧٩٥) لفت أنظار فيشته وضمن لشيلنج دعوة لتدريس الفلسفة في يينا Jena، وكان وقتها في الثالثة والعشرين. وكان راضياً – لفترة – بوصف نفسه بأنه أحد أتباع فيشته. وأنه يقبل العقل كحقيقة وحيدة، لكن في يينا Jena، وبعد ذلك في برلين انضم للرومانسيين وأتاح لنفسه نشوة عابرة: «لن أطيق هذا طويلاً، لابد أن أمارس الحياةَ بشكل أعمق، لا بد أن أترك حواسي حرّة – فهذه الحواس هي – تقريباً – أساسي الذي خرجت منه (اشتُققتُ منه) على وفق ما تقول به النظريات الكبرى التي تتناول ما وراء الخبرة البشرية transcendental theories ولكنني أيضاً سأعترف الآن كيف أن قلبي يثب والدماء الحارة تندفع في عروقي.. ليس لي دين إلا هذا، وهو أنني أحب الرُّكب الجميلة التكوين والصدور الناهدة والخصور النحيلة والورود التي تفوح عطراً، والإرضاء الكامل لرغباتي، وتلبية كل حب أطلبه، وإذا كان لا بد أن يكون لي دين (رغم أنني أستطيع أن أعيش بدونه بسعادة أكثر) فلا بد أن يكون هذا الدين هو الكاثوليكية في شكلها القديم حيث كان القسس والمصلون من غير رجال الدين يعيشون معاً.. ويمارسون يومياً في بيت الرب House of God المرحَ الصاخب ويعربدون»[٢٤].

ومن المعقول أن يكون هذا العاشق المتحمس للحقيقة المادية الملموسة مروِّعاً للهالة المثالية المحيطة بفيشته في يينا Jena، والتي ظلت – أي هذه الهالة – وراءه حتى بعد أن غادر يينا

إلى برلين، لقد عرَّف شيلنج قضية الفلسفة الأساسية بأنها المأزق الواضح بين المادة والعقل، إذ كان من المستحيل (من وجهة نظره) أن نفكر في أن أحدهما ينتج عنه الآخر، وانتهى (وهو في هذا يعود مرة أخرى إلى فكر سبينوزا) إلى أنَّه أفضل مخرج من هذا المأزق هو أن نفكر في المادة والعقل كوجهين لحقيقة واحدة معقدة ولكنها متحدة « فكل فلسفة تقوم على العقل الخالص وحده » هي فلسفة سبينوزية (نسبة إلى سبينوزا Spinoza) أو ستصبح كذلك، لكن هذه الفلسفة في رأي شيلنج منطقية على نحو صارم لكن بشكل يُفقدها الحيوية « إن الإدراك الدينامي للطبيعة لابد أن يُحدث تغييراً أساسياً واحداً في فكر سبينوزا Spinozism . . فالإسبينوزية صارمة صرامة شديدة كتمثال بيجماليون Pygmalion تحتاج إلى أن يكون فيها روح »[٢٥] تلك هي أفكار شيلنج كما عرضها في مقاليه : « صورة مبدئية لنظام الفلسفة الطبيعية » (١٧٩٩) ومقال آخر عن المثالية (١٨٠٠) .

واقترح شيلنج ليجعل هذه الأَحَدِيّة المنطوية على الثنائية dualistic monism أكثر وضوحاً – أن نفكر في القوة force أو الطاقة energy كجوهر داخلي (باطني) للمادة والعقل . وفي أي من الحالتين لا نعرف إلى أي منهما (المادة أو العقل) ترجع هذه القوّة، لكن ما دمنا نرى هذه (القوة) أو (الطاقة) تظهر في الطبيعة بأشكال تتطور دائماً لتكون أكثر دقّة وحذقا – تنافر الجزئيات، إحساس النبات أو تحرك زوائد الأميبا (الكائن وحيد الخلية) لتتلمس طريقها أو تتعلّق بها، وحركة الشمبانزي السريعة الذكية، والعقل الواعي للإنسان – فإنه يمكننا استنتاج أن الله المهيمن على كل شيء ليس هو المادة فقط وليس هو العقل فحسب وإنما هو وِحْدة بينهما في بانوراما باهرة من الأشكال والقوى . لقد كان شيلنج هنا يكتب شعراً وفلسفة في آن واحد، وقد وجد وردزورث وكولردج فيه روحاً مماثلة لهما تسعى لبناء عقيدة جديدة لأرواح سيطر عليها العلم لكنها تتطلّع بشوق إلى إله .

وفي سنة ١٨٠٣ غادر يينا Jena ليدرِّس في جامعة فيرتسبورج Wurzburg المفتتحة حديثاً فواصل كتابة مباحثه الفلسفية التي كان ينقصها قوة فلسفته الطبيعية وفعاليتها . وفي سنة ١٨٠٩ ماتت زوجته مُلهمة حياته كارولين، فكأنها أخذت معها نصف حيويته،

وتزوج مرة أخرى (١٨١٢) وراح يكتب بشكل متقطع ولكنه لم ينشر شيئاً بعد سنة ١٨٠٩ فقد أصبح هيجل Hegel في هذه الفترة هو سيد الفلسفة بغير منازع أو بتعبير آخر « أصبح هيجل هو نابليون الفلسفة الذي لا يجرؤ أحد على تحدّيه » .

وفي سِنِي انحداره راح شيلنج يجد سلواه في الاتجاه الباطني (الصوفية mysticism) وفي شروح وتفسيرات واقعة وراء نطاق الخبرة البشرية للتناقض الظاهري بين إله محبوب (ومُحب) وطبيعة « حمراء الأسنان والمخلب » وبين جَبْرية العلم من ناحية وحرية الإرادة (الاختيار) اللازمة للمسؤولية الأخلاقية . وأخذ عن جاكوب بوهم Jakob Bohme (١٥٧٥ – ١٦٢٤) فكرة أنَّ الله نفسه يتنازعه الخير والشر أو بتعبير آخر هو نفسه « ساحة معركة بين الخير والشر » وعلى هذا فالطبيعة (بدوْرها) تتذبذب بين موقف الكفاح لفرص النظام من ناحية والاستسلام للفوضى (الهيولى) من ناحية أخرى، وفي الإنسان نفسه شيء أساسي غير مقبول عقلياً[٢٦] . لكن في النهاية كما يعد شيلنج قراءهُ سينتهي كل شر وستنجح الحكمة الإلهية لتحويل جرائم البشرية وسخافاتها إلى الخير[٢٧] .

لكن شيلنج لم يعد مرتاحاً لفترة طويلة وهو يرى هيجل يجمع فوق رأسه كل تيجان الفلسفة، ورغم أن شيلنج عاش بعد موت هيجل ثلاثة وعشرين عاماً، إلا أن تلاميذ هيجل ظلوا بعد موته يقسمون بينهم تراث أستاذهم (الديالكتيكية) بين الشيوعية ورد الفعل. وفي سنة ١٨٤١ وجّه الملك فريدريك وليم الرابع الدعوة لشيلنج لشغل كرسي الفلسفة في جامعة برلين، وكان الملك يأمل أن يستطيع شيلنج المحافظ وقف الاتجاه الراديكالي .

لكن شيلنج لم يستطع جذب تلاميذه واندفعت الأحداث في طريقها للثورة، فكان لابد من التخلّي عن الفلسفة .

ومع هذا فقد كان وردزورث بالفعل قد صاغ أفكار شيلنج الحيّة عن وحدة الوجود في أشعار فخمة[٢٨] ، وعزا إليه كولردج – مع استثناءات معينة « أهم انتصارات الثورة الكانطية في الفلسفة »[٢٩] وبعد موت شيلنج بنصف قرن قال هنري بيرجسون – باعث المذهب الحيوي من جديد – إن شيلنج « واحد من أعظم الفلاسفة في كل العصور »[٣٠] ولو كان هيجل قد سمع هذا الكلام لاعترض عليه .

٣- هيجل: ١٧٧٠ - ١٨٣١

عندما قرأ الفيلسوف شُوبِنْهَوَر كتابات كانط، كتب في سنة ١٨١٦ «كان الناسُ مضطرين للنظر فيما هو غامض على أنَّه ليس دائماً - بلا معنى». لقد كان يظن (أي شوبنهور) أنَّ فيشته وشيلنج هما الميزة الكبيرة لنجاح كانط مع الغموض، لكن شوبنهور واصل كلامه قائلاً:

«إنَّ ذروة السخف في أن يكرس المرء هدفه لخدمة اللا معنى وأن يجمع معاً بين ما لا معنى له وحشدٍ من الكلمات المتسمة بالإسراف والمبالغة، ولم نكن نعرف كل هذا قبل أن يستخدمه هيجل إلا في مستشفى المجانين، لكنه وصل إلى هيجل أخيراً وأصبح أداةً لأكثر أنواع الغموض والتعمية جمالاً مما لم نسمع به من قبل، والنتيجة ستظهر بشكل لا يُصدق للأجيال القادمة، وستبقى دليلاً قائماً على الغباء الألماني»(٣١).

٣ / ١ تقدّم هيجل الشّاك

كان جورج فيلهيلم فريدريش هيجل حيا و مزدهراً عندما نُشر هذا اللحن الحزين (١٨١٨) وعاش بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً. وهو ابن أسرة من الطبقة الوسطى من شتوتجارت متدينة تديناً شديداً، ورهنت الأسرة أملاكها لترسل ابنها جورج (هيجل) لدراسة اللاهوت في معهد توبنجن Tubingen اللاهوتي (١٧٨٨ - ١٧٩٣) وكان هناك الشاعر هولدرلين Holderlin، ووصل إليها شيلنج في سنة ١٧٩٠، وقد استاء كلاهما من جهل مدرسيهم ورحبوا بانتصارات فرنسا الثورية، وطوّر هيجل اهتماماً خاصاً بالدراما الإغريقية، وكان امتداحه للوطنية الإغريقية مقدمة لفلسفته السياسية في شكلها الأخير:

«بالنسبة للإغريقي كانت فكرة أرض آبائه (الدولة) هي الحقيقة الأسمى غير المنظورة التي يعمل من أجلها.. وكانت ذاتيته (أوفرديته individuality) لا شيء بالمقارنة بهذه الفكرة (فكرة أرض آبائه)، فأرض الآباء تعني دوامه وبقاءه واستمرار حياته.. فالإغريقي لم يكن يرغب أو يدعو لنفسه بحياة الخلود كفرد، فهذا لم يخطر له على بال»(٣٢).

وبعد أنّ تخرّج حاصلاً على درجة علمية في اللاهوت، أزعج والديه برفضه الدخول في

سلك الكهنوت. وراح يعولُ نفسه بتقديم دروس خصوصيّة في بيرن Bern في منزل أحد الأرستقراطيين، وكان في هذا المنزل مكتبة عامرة، فراح يقرأ في هذه المكتبة (وبعد ذلك في احدى مكتبات فرانكفورت) كتابات ثيوسيديد Thucydides ومكيافيللى Machiavelli وهوبز Hobbes وسبينوزا وليبنز (ليبنش) ومنتسكيو ولوك وفولتير وهيوم Hume وكانط، وفيشته Fichte، فكيف كان يمكن لإيمانه المسيحي أَنْ يَصْمد أمام فيض أفكار هذه الثُّلّة من المتشكِّكين؟ إن التمرُّد الطبيعي لشاب متحمس نشط وجد ساحة للعربدة في مهرجان وثنى (المقصود في أفكار غير متفقةٍ مع المسيحية التقليدية).

وفي سنة ١٧٩٦ ألَّف كتابه (حياة يسوع Das Leben Jesu) الذي ظلَّ غير منشور حتى سنة ١٩٠٥. لقد كان كتابه هذا على نحوٍ من الأنحاء إرهاصاً بكتاب آخر يحمل الاسم نفسه (حياة يسوع) (١٨٣٥) الذي بدأ به ديفيد شتراوس David Strauss - أحد أتباع هيجل - هجوما ضاريا على قصّة يسوع (المسيح) كما وردت في الأنجيل. لقد وصف هيجل يسوع بأنه ابن يُوسف ومريم، ورفض المعجزات المنسوبة للمسيح، كما رفض تفسيرها تفسيرا طبيعيا. لقد صوَّر المسيح (كمصلح) يُدافع عن الوعى الفردي ضد القواعد الكهنوتية، وخلُص إلى أنّ المتمرِّد المصلوب (يقصد المسيح عليه السلام) قد تمَّ دفنه، ولم يُحدِّثنا عن قيامته. وقدم لنا وصفا للإله الذي يجب الإيمان به حتى النهاية «العقل الخالص الذي لا تحدّه حدود هو الله Deity نفسه(٣٣)».

وفي سنة ١٧٩٩ مات والد هيجل تاركاً له ٣,١٥٤ فلورين. لقد كتب إلى شيلنج يطلب مشورته عن مدينة ذات مكتبة عامرة(٣٤) و ein gutes Bier فاقترح عليه شيلنج مدينة يينا Jena وعرض عليه الإقامَة في مقر إقامته، وأتى هيجل في سنة ١٨٠١ وسُمح له بإلقاء محاضرات في الجامعة على ألاّ تدفع الجامعة له راتبا، وإنما يتلقّى أجره من طلبته الذين يجب ألاّ يزيدوا عن أحد عشر طالبا (ويُعرف المحاضر الذي يعمل على وفق هذا النظام في الجامعات الألمانية باسم Privatdozent) وبعد ثلاث سنوات من هذه المهمة الشّاقة تمَّ تعيينه (استاذا في مهمّة خاصة) أو بتعبير آخر استاذاً مكلّفاً Professor extraordinary avius، وبعد عام أصبح له لأول مرة دخل ثابت (مائة شيلر Thalers) وكان هذا بناء على تدخّل جوته

(جيتة) . ولم يكن أبداً مدرساً ذا شعبية، لكنه في يينا Jena (وبعد ذلك في برلين) أثّر في عدد من الطلبه فارتبطوا به ارتباطا خاصا مكّنهم من التوغّل إلى ما وراء القشرة الظاهرية الصعبة للغته للوصول إلى أسرار فكره المُفعم نشاطاً وحيوية .

وفي سنة ١٨٠١ بدأ في كتابة مقال مهم عن دستور ألمانيا Kritik der Verfassung Deutschlands لكنه لم يُكمل كتابته (أي تركه منقوصا) ولم ينشر هذا العمل إلاّ في سنة ١٨٩٣ . لقد راح وهو يتأمل أحوال ألمانيا يتذكر الكيانات الصغيرة التي كانت تتكوّن منها إيطاليا في عصر النهضة مما أدّى إلى وقوعها لُقمة سائغة في أفواه الغزاة الأجانب، كما راح يتذكر نصائح مكيا فيللى لأمير قوى كي يهوى بمطرقته على تلك الكيانات الإيطالية المتفرقة ليجعل منها أمّة (واحدة) . ولم يكن هيجل يُعّول على الإمبراطورية الرومانية المقدّسة وتنبأ بانهيارها الباكر: « إنّ ألمانيا لم تعد دولة . . . فمجموعة من البشر لا يمكنها أن تسمّى نفسها دولة إلاّ إذا ترابط أفرادها معا للدفاع المشترك عن كل ما يخص هذه المجموعة البشرية » . لقد دعا إلى توحيد ألمانيا لكنه أضاف قائلاً : « ولن يكون هذا أبداً نتيجة فكر أو حماسة، أنّه لا يكون إلاّ بالقوّة . . . إن جماهير الشعب الألماني لابد أن تتجّمع لتصير كُتلة واحدة لمواجهة أحد الغزاة[٣٥] » .

ومن المفترض أنه لم يكن يفكر في نابليون آنئذ، لكن عندما احتاج نابليون (١٨٠٥) النمساويين والروس في أوسترليتز ربما يكون هيجل - ساعتها - قد تساءل عمّا إذا كان هذا الرجل (نابليون) هو الذي عيّنه القدر لتوحيد أوربا كلها وليس ألمانيا وحدها . وفي العام التالي، عندما كان الجيش الفرنسي يقترب من يينا Jena وبدا مستقبل أوربا مُزَعْزَعاً غير واضح المعالم، ورأى هيجل نابليون **يمتطي** صهوة جواده في شوارع يينا (١٣ أكتوبر ١٨٠٦) كتب لصديقه نيتهامر Niethammer « لقد رأيتُ الإمبراطور راكباً يتفقّد المدينة . لقد بدا كأنّه روح العالم . يا له من إحساس رائع حقا أن يرى المرءُ مثل هذا الفرد (الإمبراطور) متمركزا هنا في بُقعة بعينها ممتطيا حصانا بعينه، ومع هذا فهوُ منتشر ممتد عبر العالم، ومن هذه البقعة يحكمه (يحكم العالم) . . . أن يحدث هذا التقدم من يوم الخميس إلى يوم الأحد، فهذا محال إلاّ إذا كان على رأس المتقدّمين رجل فذ غير عادي، إننّا

لا نملك غير الإعجاب به... إن الجميع الآن يتمنون للجيش الفرنسي حظًا طيبا[٣٦]».

وفي اليوم التالي ساد الجيش الفرنسي، وبدأ بعض الجنود الفرنسّيين ينهبون المدينة بعيدا عن عيني روح العالم (الإمبراطور) ودخلت إحدى مجموعات الجنود غرفة هيجل المستأجرة. وعبّر الفيلسوف عن أمله أن رجلا مميّزا على هذا النحو (إشارة إلى قائد المجموعة الذي يحمل فوق سترته العسكرية شارة التميز العسكري المعروفة باسم Cross of the Legion Honor) سيعامل باحثا ألمانيا بسيط معاملة كريمة. وتحلّق الغزاة (الجنود الآنف ذكرهم) حول زجاجة نبيذ لكن انتشار السلب، أرعب هيجل فلاذ بمكتب نائب رئيس الجامعة.

وفي ٥ فبراير ١٨٠٧ أنجبت كريستينا بوركهاردت Christna Burchardt زوجة صاحب الفندق الذي يقيم به اعترف به الأستاذ وهو غائب العقل (في حالة غيبوبة) أنه واحد من أعماله غير المنسوبة إليه (التي لم يكتب اسمه عليها[*]). ولأن دوق ساكس فيمار - Saxe Weimar كان يجد صعوبة في تمويل كلية يينا (هيئة التدريس بها)، فقد وجد هيجل أن الوقت أصبح مناسبا ليجرّب مدينة أخرى وامرأة أخرى وعملاً آخر، فغادر يينا في ٢٠ فبراير ليصبح محررا لصحيفة Bamberger Zeitung. وفي خضم الاضطرابات نشر (في سنة ١٨٠٧) كتابه Phanomenologie des Geistes، فلم يبدُ أن أحداً تشكك في أن هذا العمل سيصبح في وقت لاحق هو أهم أعماله، وهو الإسهام الفلسفي الأكثر صعوبة، والأكثر اسهاما في تكوين منطلقات فكرية فيما بين كانط وشوبنهَوَر.

وغادر هيجل بامبرج Bambevg (١٨٠٨) لما سبّبته له الرقابة الحكومية من إزعاج، ليكون ناظر مدرسة في نورمبرج Nuremberg، وراح يعمل في هذا المجال الجديد بإخلاص وضمير حي، يدرّس ويوجّه لكنه كان دوماً توّاقاً للعمل في جامعة مميزة تتيح له منصبا علميا آمنا يركن إليه. وفي ١٦ سبتمبر ١٨١١ - وكان قد بلغ الواحدة والأربعين - تزوّج ماري فون توشر (توخر) ابنة سيناتور نورمبرج ذات العشرين ربيعا. وبعد الزواج بفترة يسيرة فاجأت كريستينا بوركهاردت العروسين بزيارة قدمت لهما فيها لودفيج Ludwig ابن

(*) المعنى اعترف أنه نتيجة علاقة بأم الصبي.

هيجل ذي السنوات الأربع. وتقبّلت زوجة هيجل الوضع بشجاعة وتبنت الطفل وجعلته بين أفراد أسرتها.

ولأن هيجل كان يحلم بمنصب في برلين فقد قبل في سنة ١٨١٦ دعوة من جامعة هيدلبرج ليكون استاذ الفلسفة الأول بها. وبدأ يدرّس لخمسة طلاب، سرعان ما زادوا ليصبحوا عشرين قبل انتهاء الفصل الدراسي.

ونشر وهو في المنصب موسوعة العلوم الفلسفية (١٨١٧)، وكان هذا العمل أكثر مدعاة لإطراء المثقفين وحكومة برلين من عمله السابق (Logik) الذي كان قد سبق نشره في سنة ١٨١٢. وسرعان ما دعاه وزير التعليم البروسي ليشغل كرسي الفلسفة الذي ظل شاغراً منذ موت فيشته (١٨١٤). لقد كان هيجل قد بلغ الآن السابعة والأربعين من عمره، فراح يساوم حتى حصل أخيرا على المكافأة التي طال انتظاره لها والتي عوّضته عما فات. لقد طلب بالاضافة إلى الراتب السنوي البالغ ألفي ثالر Thaler مبلغاً آخر يعوّض غلاء الأسعار والإيجارات في برلين، ومبلغا للأثاث الذي اشتراه والذي عليه أن يبيعه الآن بثمن أقل من الثمن الذي اشتراه به (أي يبيعه بالخسارة) ومبلغاً كمصاريف انتقال (بدل سفر) إلى برلين مع زوجته وأطفاله، وأكثر من هذا فقد كان عليه أن يحب «وفرة بعينها في الإنتاج»[٣٧] وكان كل هذا مضموناً ففي ٢٢ أكتوبر ١٨١٨ بدأ هيجل في جامعة برلين تولّي منصب الأستاذية حتى وفاته. وفي هذه السنوات الثلاث عشرة عُرِفت محاضراته بالغموض لكنها أخيراً أصبحت ذات معان عميقة فكَثُر مستمعوه شيئاً فشيئاً حتى سعى إليه الطلبةُ من مختلف أنحاء أوروبا بل ومن خارج أوروبا. إنه الآن يقدم لنا أكثر النظم الفكرية اكتمالاً وتأثيراً في التاريخ الأوروبي بعد كانط.

٢/٣ - المنطق كميتا فيزيقا

لقد بدأ هيجل بالمنطق - ليس بمعناه الذي نعرفه اليوم كقواعد للاستنتاج، وإنما بمعناه القديم والكلاسي كنسبة ratio أو عرض للأسباب والمبادئ أو المعنى الأساسي لأي شيء وما ينطوي عليه من عمليات، وذلك على نحو ما نستخدم مصطلحات مثل الجيولوجيا لنعني

بهما معنى الأرض وما تنطوي عليه من عمليات أو مصطلح البيولوجيا لنعني به معنى الحياة وما تنطوي عليه من عمليات أو مصطلح السيكولوجيا لنعني به معنى العقل أو النفس وما تنطوي عليه من عمليات. وعلى هذا فقد كان المنطق بالنسبة إلى هيجل يدرس معنى أيِّ شيء وما ينطوي عليه من عمليات. وبشكل عام فإنه يترك العمليات للعلم، كما أن العلم يترك المعنى للفلسفة. إنه يقترح أن يحلّل لا الكلمات بطريقة عقلية (للخلوص منها باستنتاجات) وإنما «السبب» أو «العقل» أو «المنطق» في «الحقائق realities» وسيعطي لمصدر هذه الأسباب اسم الرب أو الله God وهو في هذا يشبه إلى حد كبير الصوفيين (ذوي الاتجاه الباطني) القدامى الذين يجعلون الرب the deity واللوجوس Logos (الكلمة)(*) شيئاً واحداً – منطق العالم وحكمته.

فالعقل المدرِك (الواعي) يُضفي معنى للأشياء بدراسة أبعادها في المكان والزمان وعلاقاتها بالأشياء الأخرى المُدركة أو المُتذكَّرة. وكان كانط قد أطلق على مثل هذه العلائق اسم «المقولات Categories»، وعدَّد منها اثنتي عشرة مقولة رئيسية: الوحدة والتعددّية والكلية وأيضاً الحقيقة والنقيض والقَصْر، والسبب والنتيجة والوجود والعدم، والاحتمال والحتم.

وأضاف هيجل مقولات أخرى كثيرة: الموجود المطلق، والانجذاب والتنافر، والتشابه والاختلاف. فكل شيء في نطاق خبرتنا هو نسيج معقَّد من مثل هذه العلاقات، فهذه المنضدة – على سبيل المثال – لها مكان خاص، وعمر خاص وشكل خاص وتحمُّل خاص ولون خاص ووزن خاص ورائحة خاصة وجمال خاص، وبدون هذه العلاقات الخاصة تصبح المنضدة مجرد فوضى غامضة تُعطى مشاعر متنافرة منفصلة، أمّا إن وجدت هذه العلاقات استطاعت الحواس إدراكها كموجود (مُدْرَك) موحَّد. وهذا الإدراك في ضوء ما تعيه الذاكرة، وفي ضوء فهم الغرض تُصبح هناك فكرة. ومن هنا فإن العالم – بالنسبة إلى كل منا – هو أحاسيسنا (الداخلية والخارجية) حولتها «المقولات» (بالمعنى الآنف ذكره) التي نسقتها إلى أفكار ومُدركات مختلطة بالذكريات ومتأثرة بإرادتنا.

(*) المبدأ العقلاني في الكون هو اللوجوس في الفلسفة اليونانية وهو كلمة الله (المتجسدة) في المسيحية التقليدية. (المترجم)

و« المقولات » ليست أشياء، وإنما هي طرائق وأدوات للفهم تقدم الشكل والمعنى لأحاسيسنا. إنها « المقولات » تكون النسق العقلي والمنطق والتكوين والسبب لكل شعور أو فكرة أو شيء. إنها جميعاً تكوِّن المنطق والعقل ولوجوس الكون، على وفق فهم هيجل.

« والوجود الخالص Pure Being » هو أبسط أنواع « المقولات » وأكثرها كونية فعن طريق « الوجود الخالص » نحاول فهم خبرتنا - أعني « الوجود » كما ينطبق على كل الأشياء أو الأفكار دون تخصيص. « وكونية Universality » هذه المقولة الأساسية هي أنها مقدّرة ومحتومة it's fatality: فبافتقادها أي شكل أو سمة لا تستطيع أن تمثل أي شيء موجود، ومن هنا فإن فكرة « الوجود » الخالص أو « الكينونة » الخالصة Pure Being هي من حيث نتائجها أو من حيث مفعوليتها مساوية للمقولة المناقضة لها - ونعني بها العدم أو عدم الوجود أو عدم الكينونة أو اللاشيء Nichts، ومن هنا فهما بالفعل (الوجود والعدم) ممتزجان، فما كان غير موجود (غير كائن) يُضاف للوجود (لما هو كائن) Being ويجرّده من لا حتميته أو يجرده من كونه محضاً خالصاً، فالوجود والعدم Being or nonbeing يصبحان على أية حال أمراً سالباً على نحو ما أو تحتوي الفكرة على شيء من السَّلب. أما مقولة الصَيرورة Becoming الغامضة (Werden) فهي المقولة الثالثة، وهي أكثر المقولات فائدة، فبدونها لا يمكن إدراك أي شيء وهو يحدث أو يتخذ شكلاً. وتتبع كل المقولات اللاحقة النسق نفسه أي أنها تظهر من المزاوجة بين الفكرة ونقيضها.

من هذا التلفيق الهيجلي **Prestidigitation** Heglian نشأ الكون (مثل آدم وحواء) من اتحاد أو اقتران (بين فكرتين) مما يعيد للذاكرة فكرة العصور الوسطى القائلة بأن الله خلق الكون من اللاشيء (من العدم). لكن هيجل حاجّ بأن « مقولاته » هذه ليست « أشياء »، وإنما هي طرائق لإدراك الأشياء، ولجعل « سلوكها » أو « تحركها » مُدْركاً أو مفهوماً، ويمكن التنبؤ به غالباً، بل ويمكن أحياناً السيطرة عليه.

لقد طلب منا بعض التقييد (التكييف) في معنى الفكرة ونقيضها (تلك الفكرة المقدسة في المنطق القديم) وهو أن « A P » لا يمكن أن تكون إلا « A P » أي لا يمكن أن تكون نقيض « not A P ». حسناً جداً لكن « A P » قد تصبح لا « P » أو نقيض P (- not

A) فالماء قد يصبح ثلجاً أو بخاراً. فكل حقيقة - كما أدركها هيجل - هي في عملية متطورة من المواءمة أو الملاءمة. إنها - أي الحقيقة reality ليست في حالة وجود استاتيكي (ثابت) a static Parmenidean world of Being وإنما هي في حالة سيّالة متحوّلة. فكل شيء ينساب. ففي رأي هيجل أن كل حقيقة وكل فكر وكل شيء وكل تاريخ ودين وفلسفة هي جميعاً في حالة تطور مستمر ليس من قبيل الانتخاب الطبيعي، وإنما من خلال تطور التناقض الداخلي (الفكرة ونقيضها) وما يتمخض عنه من نتائج، ومن ثم التقدم نحو مرحلة أو حالة أكثر تعقيداً.

هذا هو الديالكتيك الهيجلي الشهير (وهو ديالكتيك فيشته سابقاً، وديالكتيك تعني حرفياً الحوار). إنه ديالكتيك الفكرة thesis ونقيضها antithesis والجميعة Synthesis (أي ما يتمخض عن الفكرة ونقيضها من فكرة جديدة): فالفكرة أو الموقف ينطوي في باطنه على نقيضه ويطوّره ويناهضه ثم يتحد معه ليتخذ وَإيَّاه شكلاً جديداً. والمناقشة المنطقية لابد أن تأخذ شكل البناء الديالكتيكي من عرض ومعارضة وتوفيق. والتداول أو التشاور الحسّاس لابد أن يكون على هذا النحو - وزن الأفكار والرغبات بميزان التجربة. والمقاطعة أو التداخلات في أثناء المناقشة هي كما أصرّت مدام دي ستيل هي حياة الحوار، لكنها تصبح موتاً له (للحوار) إذا لم نجد للتناقض حلا توفيقيا، أو كانت الفكرة النقيضة غير وثيقة بالموضوع، فالجميعة الحقيقية Synthesis (أي الفكرة الناتجة عن الفكرة ونقيضها) ترفض الإثبات والنفي، وتتيح مكاناً لعناصر من الموقفين (الفكرتين) المثبتة والنافية. وكارل ماركس - تلميذ هيجل - كان يرى أنَّ الرأسمالية تحوي في طياتها بذور الاشتراكية، بمعنى أن الشكلين الاقتصاديين المتنافسين لا بد أن يتصارعا حتى الموت، وأن الاشتراكية لابد أن تسود، وتنبأ الهيجليون الأكثر تمسكاً بفكر هيجل أن الرأسمالية والاشتراكية سيتحدان معاً كما نرى في أوروبا الغربية الآن. وكان هيجل أكثر الهيجليين تطرفاً. لقد راح يتتبع المقولات - ليُظهر كيف أن كلا منها - بالضرورة - ناتج عن فكرة ونقيضها. ونظم حججه وبراهينه، وحاول أن يقسم كل عمل من أعماله في شكل ثلاثي (الفكرة ونقيضها والجميعة) وطبق ديالكتيكه على الحقائق realities كما طبقه على الأفكار. فأظهر أن

التناقض والصراع والجميعة Synthesis تظهر في السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ.

لقد كان «محققا» أو واقعيا realist بالمعنى الوسيط (المعنى الذي كان سائدا في العصور الوسطى): فالكون أكثر حقيقة من أي من أجزائه (ذراته) التي ينطوي عليها: فالإنسان يشمل كل البشر من كان منهم حيا أو من أغرق في الموت، والدولة أكثر حقيقة أو أعمق وجودا realer، وأكثر أهمية وأطول عمرا من أي مواطن من مواطنيها وللجمال قوة خالدة يبقي حتى ما مات، فتظل بولين بونابرت ويبقى الجمال حتى لو أن أفروديت لم تكن قد وجدت في يوم من الأيام. وأخيرا وجدنا الفيلسوف الملزم (بكسر الزاي) يحمل كوكبة مقولاته على المقولة الأقوى والأشمل والأبقى. إنها الفكرة المجردة التي تتمثل فيها كونية كل شيء أو فكر أو عقل أو تكوين أو قانون، إنها الفكرة التي تمسك بالكون، إنها اللوجوس Logos أو الكلمة التي تجلل الجميع وتحكمه.

٣/٣ العقل

كتب هيجل كتابه Phénoménologie des Geists في يينا Jena بينما كان جيش نابليون الأساسي يقترب من المدينة (يينا). ونشر الكتاب في سنة ١٨٠٧ عندما كان أبناء الثورة الفرنسية يدمرون بروسيا بلا رحمة وبدوا وكأنهم يثبتون أن العقل البشري قد ضل طريقه إلى الحرية في تلمسه التاريخي هذا لطريقه من الملكية إلى الإرهاب إلى الملكية مرة أخرى. وقرر هيجل أن يدرس عقل الإنسان في ظواهره المختلفة كإحساس وإدراك ومشاعر ووعي وذاكرة وخيال ورغبة وإرادة ووعي ذاتي وتفكير، فربما يستطيع في نهاية هذا الطريق أن يكتشف سر الحرية. ولم يتهيب من هذا البرنامج فقرر أن يدرس أيضا العقل الإنساني من خلال دراسته للمجتمعات والدولة، وفي الفن والدين والفلسفة. وكانت نتيجة بحثه هي تحفته الخالدة العامرة بالبلاغة والغموض، وكان لها تأثير في ماركس وكير كجارد Kierkegaard وهيدجر وسارتر Sartre بشكل أو آخر.

لقد بدأت الصعوبة مع كلمة Geist التي نشرت سحابا من الغموض واللبس على الروح والعقل والنفس (Ghost and Mind & Spirit & soul) وسوف نترجمها عادة بمقابل إنجليزي

واحد هو mind (عقل أو نفس) لكن في بعض السياقات سنجد من الأفضل استخدام كلمة « روح spirit » كما في عبارة « روح العصر Zeitgeist » . والجايست Geist (العقل أو النفس) ليس جوهراً منفصلا أو وجودا (أو كينونة) كامنا خلف النشاطات النفسية (السيكلوجية)، بل إنه هو هذه النشاطات نفسها . فليس هناك « ملكات عقلية أو نفسية faculties » منفصلة وإنما هناك فقط العمليات الفعلية التي تحول بها التجربة إلى فعل action أو فكر .

وقد جعل هيجل الجايست (العقل أو النفس) في واحد من تعريفاته الكثيرة مساويا للوعي[٣٨] . والوعي بطبيعة الحال هو سر الأسرار لأنه – أي الوعي – يشبه العضو الذي يفسر التجربة ولكنه لايستطيع أن يفسر نفسه . ومع هذا فإنه – أي الوعي – أكثر الحقائق جدارة بالملاحظة والإدراك بالنسبة إلينا . والمادة Matter التي قد تكون خارج العقل تبدو أقل غموضا رغم أن معرفتنا بها أقل مباشرة . وهيجل يتفق مع فيشته في أننا نعرف الأشياء فقط بقدر ما هي جزء منا كموضوعات مدركة (كموضوعات يمكن إدراكها)، لكنه – أي هيجل – لم يشكك أبدا في الكون الخارجي (الموجود خارج النفس أو العقل)، فعندما يكون المدرك (بضم الميم وفتح الراء) كائناً آخر بتفاعله مع العقل، يصبح الوعي واعيا بذاته عن طريق التضاد (نقيض الفكرة) عندئذ تولد الأنا (الإيجو Ego) بشكل واع وتصبح مدركة (بشكل غير مريح) . إن الصراع (أو التنافس) هو سنة الحياة . ثم يقول فيلسوفنا الصارم إن « كل إنسان يهدف إلى تدمير الآخر وموته »[٣٩] ويظل الصراع حتى يقبل أحد الطرفين التبعية[٤٠] أو يكون مصيره الموت . وفي هذه الأثناء تتغذى الأنا Ego بالتجربة كما لو أنها مدركة أنها يجب أن تتسلح وتتقوى لخوض تجارب الحياة ومحنها . كل هذه العملية المعقدة التي تحول بها المحسوسات إلى مدركات (بضم الميم وفتح الراء) تخزن ذلك في الذاكرة وتحولها إلى أفكار يتم استخدامها في تنوير الرغبات وتلوينها وخدمتها، تلك الرغبات التي تشكل الإرادة . فالأنا Ego هي بؤرة الرغبات وتعاقباتها ومكوناتها، فالمدركات الحسية والأفكار والذكريات والتفكير المتروي مثل الأذرع والسيقان هي أدوات للنفس أو الأنا Ego تبحث عن البقاء والمسرة والقوة . وإذا كانت الرغبة عنيفة مفعمة عاطفةً، فإنها

تتعزز سواء كانت رغبة صالحة أم شريرة. ولا يجب أن ندين ما هو مفعم عاطفة وحماسا، «فلا شيء عظيما في العالم يمكن تحقيقه دون عاطفة[٤١]» إنها قد تؤدي للألم لكن هذا الألم لا يساوي شيئا إن أسهم في الوصول إلى النتيجة المرغوبة. فالحياة لم توجد للسعادة وإنما لتحقيق الإنجاز[٤٢].

هل الإرادة (أي رغباتنا) حرة؟ نعم لكن ليس بمعنى عدم الخضوع للسببية أو مبدأ العلية أو القانون. إنها حرة بقدر ما تتفق مع قوانين الواقع ومنطقه، فالإرادة الحرة هي التي ينورها الفهم ويرشدها العقل. فلا يكون التحرر الحقيقي - بالنسبة إلى الأمة أو الفرد - إلا من خلال تطور الفكر، والفكر معرفة منظمة ومستخدمة. فالحرية في ذروتها هي في المعرفة بالمقولات (بالمفهوم الهيجلي السابق ذكره) وعملياتها في مسار الطبيعة وفي اتحادها مع الفكرة المجردة (بالمفهوم الهيجلي) Absolute idea التي هي الله، وتناسقها معه. وهناك ثلاثة مناهج يمكن للإنسان من خلالها أن يقترب من هذه الذروة من الفهم والحرية: عن طريق الفن والدين والفلسفة. وباختصار ففي كتابه علم وصف الظواهر **Phénoménologie** وفي كتابه الآخر الذي نشر بعد وفاته عن علم الجمال Vorlesungen uber Aesthetic) (حاول هيجل أن يخضع الطبيعة وتاريخ الفن لفكرته ثلاثية الأبعاد (الفكرة ونقيضها والجميعة)، وكان عرضه في كتابه الثاني Vorlesungen أكثر تفصيلا. واتفق أن استوحى معلومات مدهشة عن العمارة والنحت والرسم والموسيقا، ومعلومات مفصلة عن مجموعة الأعمال الفنية في برلين ودريسدن وفينا وباريس والأراضي المنخفضة. لقد شعر أن الفن هو محاولة عقلية (نفسية) - بالبديهة أو الحدس intuition أكثر منها بالمنطق والحجج العقلية (ومعنى قولنا بالحدس أو البديهة ينطوي على خبرة مباشرة وموسعة وإدراك حسّي مستمر)، والفن كمحاولة عقلية (نفسية) يقدم لنا معنى روحيا (معنويا) من خلال وسائط متعلقة بالحواس. لقد تعرف ثلاثة عهود للفن: (١) الشرقي Oriental حيث وجدنا العمارة تعمل على تدعيم الحياة الروحية والرؤى الباطنية (الصوفية) من خلال المعابد الضخمة كما في مصر والهند. (٢) الكلاسيات الإغريقية الرومانية التي تحول المثل المنطقية والعقلية ممثلة في التوازن والهارمونية من خلال أشكال نحتية كاملة (متسمة بالكمال). (٣) الرومانسية المسيحية التي راحت

من خلال الرسم والموسيقا والشعر تعبر عن العواطف وتتوق إلى الروح الحديثة. وفي هذه المرحلة الثالثة (الرومانسية المسيحية) وجد هيجل بعض بذور التحلل والفناء وافترض أن أعظم مراحل الفن قد وصلت إلى نهايتها.

لقد أزعجه الدين وأربكه في أواخر أيامه لأنه (أي هيجل) اعترف بالدور التاريخي للدين في تعديل طبيعة الإنسان وفي دعم النظام الاجتماعي، لكنه (أي هيجل) كان شغوفا جدا بالعقل شغفاً يحول بينه وبين السعي للاهوت وفهم معاناة القديسين وعبادة رب متجسد Personal God والخوف منه[٤٣]. وناضل للتوفيق بين العقيدة المسيحية وديالكتيكه (الديالكتيك الهيجلي الآنف ذكر: الفكرة، نقيض الفكرة، الجميعة) لكن قلبه لم يكن مطمئنا لهذا التوفيق، وقد فسر أكثر أتباعه تأثيرا أن رب هيجل هو عقل العالم (الكون) أو القانون غير المشخص (المتجسد) والخلود متمثلا في آثار كل لحظة بشرية على الأرض (وربما كان هذا الخلود بلا نهاية)[٤٤] وفي أواخر كتابه عن وصف الظواهر Phénoménologie استوحى حبه الحقيقي – إنه الفلسفة. لم يكن مثله الأعلى هو القديس بل الحكمة sage. وفي غمار حماسه لم يعترف بأي حد للفهم الإنساني مستقبلا. «إن طبيعة الكون ليس لها سلطان يمكنها من المقاومة الدائمة للجهود الشجاعة للذكاء البشري. فلابد أن تفتح آفاقها في النهاية لهذا الذكاء ولابد أن تفضي له بكل أعماقها وثرواتها[٤٥]» لكن لابد قبل الوصول إلى هذه الذروة الفلسفية أن ندرك أن الكون الحقيقي ليس هو الذي نلمسه أو نراه وإنما هو العلاقات والقواعد التي تضفي عليه النظام والنبالة. إنه القوانين غير المكتوبة التي تحرك الشمس والنجوم وتكوّن العقل غير المشخص (غير المتجسد) للكون. إلى هذه الفكرة المجردة أو عقل الكون يقدم الفيلسوف ولاءه. إنه (عقل الكون) هو إلهه الذي يتعبد له، ويجد عنده حريته ورضاءه التام.

٣ / ٤ الأخلاق والقانون والدولة

في سنة ١٨٢١ قد لنا هيجل عملاً كبيراً آخر هو « حول فلسفة الحق Grundlinien der philosophie des Rechs » « والحق rechts » كلمة جليلة مهيبة في ألمانيا. إنها كلمة تغطي

الأخلاق والقانون كعنصرين لازمين بينهما صلة قربى لدعم الأسرة والدولة والحضارة. وقد تناول هيجل كل ذلك في مجلد فخم ترك تأثيرا دائما في شعبه الألماني.

كان الفيلسوف عند تأليفه هذا الكتاب قد دخل عقده السادس. لقد أصبح معتادا على الاستقرار مشبعاً بالرضا. وكان يتطلع لشغل منصب حكومي[٤٦]. وكان قد أصبح بالفعل محافظاً وهو الاتجاه المناسب لهذه الحقبة من العمر. وأكثر من هذا فقد كان الموقف السياسي قد تغيرا كبيرا منذ أن احتفى (أي هيجل) بفرنسا وأعلن إعجابه بنابليون: كانت بروسيا قد هبت حاملة السلاح ضد نابليون وحاربت بقيادة بلوشر Blucher وأطاحت بالمغتصب، وأصبحت بروسيا الآن تعيد ترسيخ نفسها على أسس فريدريكية Frederican أساسها جيش منتصر وملكية إقطاعية كدعامتين للاستقرار بين شعب أصابه فقر مدقع بسبب تكاليف الحرب التي انتصر فيها، وعمته الفرضى وراوده الأمل في الثورة وكبحه الخوف منها.

وفي سنة ١٨١٦ نشر جاكوب فريز Jadob Fries الذي كان وقتها يشغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة يينا Jena بحثا عن «الكونفدرالية الألمانية والدستور السياسي لألمانيا Von Deutschem Bund & Deutscher staatsver fassung عرض فيه الخطوط العريضة لبرنامج إصلاح أرعب الحكومات الألمانية فأصدرت مراسم عنيفة في كونجرس كارلسباد (١٨١٩) وطرد فريز من منصبه كأستاذ للفلسفة وأعلن مسؤولو الشرطة أنه خارج حماية القانون (مهدر الدم)[٤٧].

لقد خصص هيجل نصف مقدمة كتابه (عن فلسفة الحق) لمهاجمة فريز Freis باعتباره مغفلاً خطرا واتهمه بأنه «مثال لضحالة التفكير». لقد كان فريز يرى أن «شعبا يحكمه حاكم شعبي أصيل لابد أن يتلقى كل ما يتعلق بالأمور العامة (التي تخص الشعب) من الشعب نفسه» وقد اعترض هيجل ذاكراً أن «هذا الرأي يعنى أن عالم الأخلاق سيترك للتقييم الذاتي (غير الموضوعي) وللأهواء. فبالعلاج الأسري البسيط الممثل في أن نعزو للشعور عمل العقل والفكر يمكن بطبيعة الحال أن نتخلص من كل الاضطرابات في البصيرة والمعرفة التي يوجهها التفكير المحفوف بالمخاطر»[٤٨] وصب الأستاذ الغاضب (فريز) جام غضبه واحتقاره على فلاسفة الحواري (يقصد هيجل من بينهم) الذي يقيمون دولاً متسمة

بالكمال بسبب الأحلام الوردية غير الناضجة[٤٩]. وأعلن فريز موقفه ضد هذا التفكير المرغوب فيه، باعتباره أساسا واقعيا لفلسفته (فلسفة هيجل) سواء السياسية أو الميتافيزيفية – وهو مبدأ «ما هو عقلي فهو عملي واقعي، وما هو واقعي عملي فهو عقلي[٥٠]. (إن ما يفرضه منطق الأحداث، هو ما يجب أن يكون في ظل الظروف نفسها) وهاجم الليبراليون الألمان المؤلف (هيجل) باعتباره طالب دنيا يبحث عن منصب ويخدم الوضع القائم وباعتباره «الفيلسوف المكلل بالغار» لحكومة رجعية.

إن الحضارة تحتاج للأخلاق والقانون معا مادامت تعني أن نعيش كمدنيين (مواطنين civils في مجتمع، ولا يمكن أن يظل المجتمع قائما إلا في ظل تقييد الحرية لضمان الحماية (للآخرين). لابد أن تكون الأخلاق ميثاقا عاما لا مجرد نزعة فردية. فالحرية في ظل القانون بناءة، والحرية بعيدا عن الالتزام بالقانون مستحيلة في الطبيعة ومدمرة في المجتمع تماما كما حدث في فرنسا في بعض مراحل الثورة. فالقيود التي تفرضها الأخلاق المعتادة على الحرية الفردية هي الأقدم والأشمل والأكثر دواما (الأحكام الأخلاقية تتطور مع تطور المجتمع). وما دامت مثل هذه القواعد الأخلاقية تنتقل أساسا من خلال الأسرة والمدرسة والكنيسة، فهذه المؤسسات أساسية للمجتمع وتشكل أعضاءه الحيوية. وعلى هذا فمن الحمق أن نترك الأسرة تقوم على أساس زواج الحب، فالرغبة الجنسية لها حكمتها البيولوجية في استمرار النوع واستمرار المجتمع، ولكنها أي الرغبة الجنسية لا تنطوي على حكمة اجتماعية تعين على حياة مشتركة طوال العمر لرعاية الممتلكات والأطفال[٥١]. ولابد أن يكتفي الرجل بزوجة واحدة، كما لابد أن توضع العراقيل أمام الطلاق ولابد أن تكون ممتلكات الأسرة مشاعا لها لكن إدارتها لابد أن تقع على كاهل الزوج[٥٢]. وللمرأة دورها المهم في الأسرة من حيث إخلاصها لها وبالتزامها الأخلاقي[٥٣]».

ولايجب أن يقيم التعليم أصناما للحرية واللعب (كما هو الحال في فكر بيستالوزي وفيشته)، فالنظام هو عصب الشخصية، «ومعاقبة الأطفال المقصود منها هو منعهم من ممارسة الحرية فهذا المنع موجود في الطبيعة، لتكون القضايا الكلية في وعيهم وإرادتهم[٥٤]».

ولايجب أن نقيم وثنا للمساواة، فنحن سواء فقط من حيث أن لكل منا روحا، ولا يجب أن نكون أداة لشخص آخر، لكن الواقع يقول إننا لسنا سواء، سواء من الناحية الجسمية أو من ناحية قدراتنا العقلية. وأفضل النظم الاقتصادية هي التي يتاح فيها لذوي القدرات الأعلى تطوير أنفسهم مع إتاحة حرية نسبية لتحويل الأفكار الجديدة إلى حقائق إنتاجية. ولابد أن تكون الملكية خاصة وبدون هذا لن يكون هناك حافز لذوي القدرات الأعلى لإجهاد أنفسهم. ولابد لتحقيق أهداف الحضارة من الإبقاء على الدين كأداة مثلى لأنه يربط الفرد بالكل.

« ما دام الدين عاملا متكاملا مع الدولة، يزرع معنى الوحدة في أعماق نفوس الناس، فلابد – حتى – أن تطلب الدولة من كل مواطنيها أن يكونوا أعضاء في الكنيسة. فالدولة لا يمكنها أن تتداخل مع الكنيسة لأن ايمان الفرد قائم على أفكاره الخاصة[٥٥] ».

ولابد أن تكون الكنائس منفصلة عن الدولة لكن لابد على الكنائس أن تنظر للدولة كأمر « متمم للعبادة » يكون فيه هدف الدين توحيد الفرد مع الكل بقدر ما تسمح الإمكانات في هذه الدنيا[٥٦]. فالدولة إذن هي أسمى إنجاز بشري .إنها عضو organ المجتمع المنوط به حماية الشعب وتطويره، إذ يقع على كاهلها والتوفيق بين النظام الاجتماعي من ناحية والنزوع الطبيعي للفردية، والصراع والغيرة بين المجموعات الداخلية (في داخل المجتمع) من ناحية أخرى. والقانون هو حرية الإنسان المتحضر لأنه يحرره من الظلم ويحميه من الخطر في مقابل موافقته على ألا يُلحق بالمواطنين الآخرين ظلما أويعرضهم للخطر. « فالدولة هي بالفعل الحرية الرصينة[٥٧] » وكي تتحول الفوضى إلى حرية منضبطة لابد أن يكون لدى الدولة الصلاحية بل وحق استخدام القوة في بعض الأحيان، فالشرطة أمر ضروري وفي الأزمات مع القوى الخارجية يكون التجنيد الإلزامي ضروريا أيضا. لكن إذا كانت الدولة جيدة التنظيم حسنة الإدارة لأمكنها أن **تدّعي** أنها تنظيم عقلي. وبهذا المعنى يمكننا أن نقول عن الدولة ما قلناه عن الكون « ما هو عقلي هو حقيقي واقع، وما هو حقيقي واقع هو عقلي ». هذه ليست يوطوبيا، فاليوطوبيا غير حقيقية. أكان هذا تقنينا مثاليا لبروسيا في سنة ١٨٢٠؟ ليس تماما. فعلى النقيض من هذا النظام، أخذت على عاتقها

النجاح الكامل لإصلاحات شتاين وهاردنبرج Stein & Hardenberg. لقد دعت إلى ملكية (بفتح الميم) مقيدة وحكومة دستورية، وحرية العبادة وإعطاء حقوق المواطنة لليهود. لقد أدانت الحكم المطلق الذي عرفته بأنه «حيث يختفي القانون، وعندما تتحكم إرادة بعينها سواء كانت إرادة العرش أو إرادة العوام (حكومة الدهماء Ochlocracy) وتصبح هذه الإرادة قانوناً أو تحل محل القانون، بينما تقتضي الدقة أن توجد الحكومة الشرعية والدستورية في وضع مثالي[٥٨]» ورفض هيجل الديمقراطية برمتها:

فالمواطن العادي غير مهيأ لاختيار الحاكم الكفؤ، وغير مهيأ لرسم سياسة البلاد. وقبل الفيلسوف (هيجل) دستور الثورة الفرنسية الصادر في سنة ١٧٩١ ذلك الدستور الذي دعا لملكية دستورية يصوت فيه الشعب لاختيار أعضاء جمعية وطنية، وليس لاختيار الحاكم. والملكية الانتخابية هي «أسوأ المؤسسات»[٥٩] لذا فقد أوصى هيجل بحكومة ذات مجلسين تشريعيين ينتخبها المواطنون ذوو الممتلكات، ومجلس وزراء تنفيذي وإداري، وملكية (بفتح الميم) وراثية في يدها القرار النهائي[٦٠]. إن تطوير الدولة إلى ملكية دستورية هو إنجاز العالم المعاصر»[٦١].

ومن غير العدل أن نصف هذه الفلسفة بالرجعية فهي متمشية تماما مع الاتجاه العقلي المحافظ لكل من مونتاني Montaigne وفولتير، وبورك Burke وماكولي Macaulay، وبها نصح بنيامين كونستانت ابن الثورة نابليون، وكذلك انتهى توكفيل بعد دراسة الحكومتين الفرنسية والأمريكية. ويترك هذا النظام مساحة لحرية الفكر الفردية والتسامح الديني. ولابد أن ننظر لهذا النظام في سياق الزمان والمكان: ولابد – كي نفهم هذا النظام – أن نتصور أنفسنا في خضم الاضطراب الهائل الذي ساد أوربا بعد فترة نابليون بما اعتراها من إفلاس وإحباط، حيث كانت حكوماتها الرجعية تحاول إعادة نظم الحكم القديمة (السابقة على الثورة الفرنسية) – لابد أن نتصور أنفسنا في فترة هذه صفاتها لنفهم رد فعل مفكرٍ كان هو أيضاً قد تقدم به العمر كثيراً بدرجة تمنعه من أن يكون مغامراً فكريا وكانت أقدامه قد رسخت رسوخاً شديداً بدرجة تمنعه من التشوق للثورة، أو المخاطرة بإحلال نظريات لم تُحككها التجربة محل حكومات قديمة أو استبدالها بحكم العامة. لقد كانت كتاباته في

هذه المقدمة متعجلة غير منظمة بعناية ولم تكن جديرة باسم فيلسوف. لقد خاف الرجل العجوز من بلاغة فريز Fries وفصاحته وما يلقاه من استقبال حافل فاستدعى الشرطة ولم يكن آسفاً «لقد التفتت الحكومات أخيراً لهذا النوع من الفلسفة»[٦٢] لقد كانت الفترة فترة محافظة لا مغامرة.

٣/ ٥ التاريخ

لابد أن تلاميذ هيجل كانوا يحبونه، فقد عكفوا بعد موته على ملاحظاته notes وأضافوا ما كتبوه في أثناء إلقائه لمحاضراته، ونظموا نتائجه في نسق منطقي، ونشروها باسمه. ومن هنا فقد ظهر لهيجل أربعة كتب بعد موته: علم الجمال Aesthetic وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ، وتاريخ الفلسفة. وكانت هذه الأعمال هي أكثر أعماله وضوحاً ففيها أقل قدر من تعقيد الفكر والأسلوب.

«فالفكرة الوحيدة التي أدخلتها الفلسفة لدراسة التاريخ وتأمله هي فكرة العقل (التعليل) البسيطة: فالعقل (التعليل) أي منطق الأحداث وقوانينها هي مَلِك العالم Sovereign of the World، وعلى هذا فتاريخ العالم يُقدم لنا عملية عقلية»[٦٣] وهنا أيضاً نجد ما هو واقع (ما هو موجود أو ما هو فعلي) هو أيضاً عقلي - إنه النتيجة الوحيدة المنطقية والحتمية لأحداث سبقت antecedents وغالباً ما يتحدث هيجل عن «العقل الحاكم Sovereign Reason» بمصطلحات دينية لكنه يعرّفه بالمزاوجة بين سبينوزا Spinoza ونيوتن Newton: «العقل هو جوهر الكون، أعني أنه به (أي بالعقل) وفيه (أي في العقل) توجد كل الحقيقة وتعيش» ومن ناحية أخرى فهو (العقل) «الطاقة المطلقة وغير المحدودة للكون» أي أن مقولات المنطق (Logik بالمفهوم الهيجلي الآنف ذكره) هي الوسائل الأساسية لفهم العلاقات الفاعلة التي تكوّن «التركيب النهائي للأشياء، وجوهرها Essence وحقيقتها»[٦٤].

وإذا كانت عمليات التاريخ تعبيراً عن العقل Reason - أي عن القوانين الملازمة لطبيعة الأشياء - فلابد أن هناك منهجاً لمسيرة الأحداث التي تبدو في الظاهر غريبة. ويرى هيجل منهجاً (method) يحكم الأحداث أو مسيرة الأحداث ونتائجها. إن فعل العقل في التاريخ

- كما هو في الفكر - هو فعل ديالكتيكي: كل مرحلة أو حالة هي فكرة (thesis) تحوي نقيضها (antithesis) وتتصارعان معاً (الفكرة والنقيض) لتظهر منهما الجميعة (Synthesis) وعلى هذا فالحكم المطلق يحاول قمع الرغبة الإنسانية في الحرية، فيقوم الراغبون في الحرية بثورة، فتكون النتيجة (الجميعة Synthesis) ملكية دستورية. أهناك إذن خطة عامة أو كلية وراء مسيرة التاريخ؟ لا، إن كان هذا يعني قوة عليا واعية تقود كل الأسباب والجهود للوصول إلى هدف محدد، ونعم إذا كان المقصود أن المجرى العريض للأحداث كالتقدم في مضمار الحضارة إنما يحركه عقل كلي total of Geist or mind لتقريب الإنسان شيئاً فشيئاً لهدفه الذي استغرقه (تشربه أو كمن فيه) ألا وهو الحرية من خلال العقل Reason. لا حرية من from القانون وإنما حرية من خلال through القانون (رغم أن الحرية من القانون قد تأتي إن وصل الذكاء البشري إلى منتهاه أي إلى ذروة تطوره)، وعلى هذا فتطور الدولة يمكن أن تكون هبة للحرية. وهذا التقدم نحو الحرية ليس مستمراً لأنه في ديالكتيك التاريخ (الديالكتيك بالمعنى الهيجلي الآنف ذكره) هناك تناقضات يتعين حلها، وتعارضات يتعين تحويلها لتندمج مع غيرها وتباينات ناشزة مندفعة بعيدة عن المركز يتعين جذبها إلى مركز واحد بحكم طبيعة العصر أو جهود بشر غير عاديين.

هاتان القوتان (الزمن والعبقرية) هما مهندسا التاريخ وعندما يعملان معاً تكون لهما قوة لا تُقاوم. واعتقد هيجل - مستوحياً أفكار كارليل Carlyle - في الأبطال وفي عبادة الأبطال. والعباقرة ليسوا بالضرورة طاهرين أخلاقياً، رغم أن من الخطأ أن نتصورهم أنانيين، فنابليون لم يكن مجرد غاز يغزو لمجرد الغزو، فقد كان - سواء كان واعياً بذلك أم لا - ممثلاً لأوربا في توقعها للوحدة وحاجتها لقوانين متماسكة لها طابع الدوام. لكن العبقرية تصبح بلا مُعين لها إذا لم تتمثل روح العصر ومتطلباته (سواء كان العبقري واعياً بذلك أم لا) «فالعباقرة لهم بصيرة نافذة بمتطلبات العصر - أو بتعبير آخر إنهم يدركون ما الذي نضج ووصل لمرحلة القابلية للتطوير. هذا هو الأكثر فائدة لعصرهم وعالمهم، أن يدركوا ما هو الذي تشكل فعلاً في رَحِم الزمن»[٦٥] إذا اعتلى العبقري هذه الموجة (مثل جاليليو وفرانكلين وجيمس وات) سيصبح قوة دافعة للتطور حتى ولو سبب بؤساً لجيل كامل،

فليس معنى العبقرية تسويق السعادة « وتاريخ العالم ليس مسرحاً للسعادة، ففترات السعادة فيه صفحات عقيمة لأنها فترات الهارمونية (التناسق) عندما تكون الفكرة المضادة antithesis في حالة معطلة (أو بتعبير آخر في لا فاعلية مؤقتة in abeyance)[٦٦] هنا ينام التاريخ.

والعقبة الرئيسية في تفسير التاريخ كحركة تقدم مستمر هي الحقيقة التي مؤداها أن الحضارة يمكن أن تموت أو تختفي تماما. لكن هيجل لم يكن هو الرجل الذي يترك هذه العوارض لتفسد ديالكتيكه. لقد قسّم ماضي البشرية (كما قلنا آنفاً) إلى ثلاث فترات: الشرقية، والإغريقية - الرومانية، والمسيحية ورأى في تعاقبها بعض التقدم. الشرقية أعطت الحرية لرجل واحد وهو الحاكم المطلق، والحضارة الكلاسية أعطت الحرية لطبقة تستخدم الرقيق، والعالم المسيحي أعطى لكل شخص روحا تسعى لتحرير الكل. لقد لاقت مقاومة في تجارة الرقيق لكن الثورة الفرنسية أنهت هذا الصراع. وعند هذه النقطة (نحو سنة ١٨٢٢) نجد هيجل يتفجر بتسبيحة شكر مدهشة لهذه الثورة أو لما حدث في أثنائها في السنتين الأوليين:

« الأوضاع السياسية في فرنسا لم تكن تقدم شيئاً إلا امتيازات كثيرة غير منظمة، كانت جميعا تُنافي الفكر والعقل وعمت المفاسد الأخلاقية وتدنت أرواح الناس. لقد كان ولابد أن يكون - التغيير عنيفاً لأن الحكومة لم تأخذ على عاتقها مهمة إعادة التحويل أو إعادة تشكيل أوضاع جديدة (فقد كان البلاط والنبلاء ورجال الدين يعارضون ذلك) .. وأثبتت فكرة الحق سلطانها، ولم يستطع النظام القديم القائم على الظلم أن يُقاوم. إنه فجر عقلي ونفسي باهر، فكل الموجودات المفكرة تشارك في التهليل والترحيب (بالثورة الفرنسية). إن الحماس الروحي ملأ العالم »[٦٧].

وسوّد الغوغاء صفحة هذا الفجر لكن بعد أن ضُمِّدت الجراح ظل التقدّم الجوهري، وكان هيجل لايزال عالمي النظرة حتى إنه اعترف بفضل الثورة الفرنسية الكثير على ألمانيا - لقد أدخلت إليها القوانين النابليونية (المدوّنة القانونية) وألغت الامتيازات الإقطاعية ووسعت قاعدة الحرية ووسعت دائرة الملاك ..[٦٨] وباختصار فإن تحليل هيجل للثورة الفرنسية في

الصفحات الأخيرة من كتابه (فلسفة التاريخ) يثبت أن هذا المحافظ العجوز لم ينبذ تماماً أفكار شبابه.

واعتبر هيجل أن الخطأ الرئيسي للثورة الفرنسية هو معاداتها للدين. « فالدين هو ذروة العقل وسنام العمل. ومن السخف أن نعتقد أن القسس قد ابتدعوا الدين ليخدعوهم به ويحققوا لصالحهم المكاسب من ورائه »[٦٩] وعلى هذا فمن الغباء أن نظن أننا قادرون على إنشاء دساتير سياسية بمعزل عن الدين »[٧٠]. فالدين هو الجو العام الذي تعطي الأمة نفسها من خلاله معياراً لما هو صحيح True،... وعلى هذا ففكرة الله God تكوِّن الأساس العام لطبيعة (شخصية) أي شعب »[٧١].

« وعلى العكس من ذلك فالشكل الذي يتمثل فيه التجسيد الكامل للروح Spirit هو الدولة »[٧٢] فالدولة كاملة التطور تصبح هي أساس كل عناصر حياة الشعب الأساسية، ومحورها – فناً وتشريعاً وأخلاقاً وديناً وعلوماً »[٧٣] وبتأييد الدين ودعمه تصبح الدولة مقدَّسة.

لقد راح هيجل يطبق ديالكتيكه في مجال بعد آخر متطلعاً إلى تأسيس نظام فلسفي موحّد يتم شرحه بصيغة فلسفية واحدة. وقد أضاف تلاميذه إلى فلسفته للتاريخ مؤلفاً آخر نشر بعد وفاته وهو تاريخ الفلسفة. فالنظم (الفلسفية) القديمة المشهورة في تحليل الكون – في هذه النظرة – تتبع نسقاً مرتبطاً بشكل أساسي بتطور المقولات (بالمفهوم الهيجلي) في المنطق Logik (بالمفهوم الهيجلي أيضاً). لقد ركز بارمينيدز Parmenides على الوجود Being والاستقرار أو الثبات Stability، وركز هيراكليوتس Heracleitus على الصيرورة والتطور والتغير. ورأى ديموقرايطس Democritus (مادة) موضوعية أما أفلاطون فرأى فكرة ذاتية (غير موضوعية) وكان أرسطو هو الذي قدم الجميعة Synthesis (بالمفهوم الهيجلي). وكل نظام (فلسفي)، ككل مقولة وكل جيل يطوّق النظم السابقة عليه ويضيف إليها، لذا ففهم آخر النظم الفلسفية فهما كاملا يتطلب فهمها جميعا. « فكل ما يحرزه جيل من تقدم في المعرفة والإبداع يرثه الجيل الذي يليه. ويشكل هذا الميراث روحه وجوهره الروحي »[٧٤] ولما كانت فلسفة هيجل هي الأخيرة في سلسلة الفلسفات العظيمة، فهي

(أي فلسفة هيجل) تضم (من وجهة نظر هيجل) كل الأفكار والقيم الأساسية لكل ما سبقها من نظم (فلسفية) فهي (أي فلسفة هيجل) تمثل الأوج التاريخي والنظري لها جميعاً[٧٥].

٦/٣ موت وعودة

كاد عصره – لفترة – يقدّره كتقديره لنفسه. لقد زاد عدد التلاميذ في فصوله رغم طباعه الصارمة وأسلوبه المبهم. لقد أتى رجال بارزون قاطعين مسافات طويلة لرؤية هيجل وهو يوازن الكون بمقولاته. لقد أتاه كوزي Cousin وميشيل Michelet من فرنسا وهايبرج من الدنمرك. وتم تكريمه في باريس في سنة ١٨٢٧ وكرّمه جوته العجوز. وفي سنة ١٨٣٠ اهتزت مسلّماته بانتشار الحركات الراديكالية والهياج الثوري، فهاجمها جميعاً وفي سنة ١٨٣١ أصدر من وراء القنال الإنجليزي دعوة لمناهضة وثيقة الإصلاح Reform Bill التي تعد علامة على قيام الديمقراطية في إنجلترا. وأعاد صياغة فلسفته لتصبح أكثر فأكثر مقبولة من رجال الدين البروتستنط، ومات في برلين في ١٤ نوفمبر ١٨٣١ إثر إصابته بالكوليرا وكان في الواحد والستين من عمره، وكان لا يزال وافر النشاط. وتم دفنه على وفق رغبته إلى جوار قبر فيشته، وانقسم تلاميذه إلى جماعتين متناقضتين – كما لو كان هذا تأكيداً لغموضه الحذر: الهيجليين اليمينيين وعلى رأسهم جوهان إردمان Erdmann وكونو فيشر Kuno Fischer وكارل روزنكرانتس Rosenkranz، والهيجليين اليساريين ومنهم لودفيج فويرباخ Feuerbach وديفيد شتراوس Strauss وبرونو باور Bauer وكارل ماركس. وقد برع اليمينيون (الهيجليون) في الدراسة وإن انحدروا بازدهار (موجة نقد الكتاب المقدس)، أما اليساريون (الهيجليون) فزاد هجومهم على السلفية الدينية والسياسية. وفسر اليساريون الهيجليون تعريف هيجل لله God والعقل Reason على اعتبار أنه يعني بهما أن الطبيعة والإنسان والتاريخ خاضعة لقوانين مجردة غير قابلة للتغيير. واقتبس فويرباخ Feuerbach من أقوال هيجل ما فسره بأن « الإنسان لا يعرف عن الله، إلا بقدر ما يعرف الله عن نفسه من خلال الإنسان »[٧٦] وعلى هذا فإن عقل الكون لا يكون واعياً إلا في الإنسان، فالإنسان وحده هو

القادر على التفكير في قوانين الكون. وكارل ماركس الذي عرف هيجل في الأساس من خلال كتاباته، حوّل الحركة الدياليكتيكية للمقولات الهيجلية إلى تفسير اقتصادي للتاريخ جعل فيه صراع الطبقات (النص حرب الطبقات) محل الأبطال، باعتبار هذا الصراع هو أداة التقدم الرئيسية. وأصبحت الاشتراكية هي الجميعة Synthesis الماركسية للرأسمالية وتناقضاتها الداخلية.

وتضاءلت شهرة هيجل لفترة حين اجتاحت آلام شوبنهور التهكمية المسرح الفلسفي. وتاه فلاسفة التاريخ مع تقدم الدراسات التاريخية. وبدت الهيجلية تموت في ألمانيا لكنها بُعثت من جديد في بريطانيا العظمى مع جون وإدوارد كيرد Caird وت. هـ. جرين Green وج. م. إ. مكتجارت Mctaggart وبيرنارد بوسانكت Bosanquet. وعندما ماتت (الهيجلية) في إنجلترا بُعثت من جديد في الولايات المتحدة. وربما ساعدت عبادة هيجل للدولة (أي توقيره الشديد لها) على تمهيد الطريق لبسمارك وهتلر. وفي هذه الأثناء وجد كل من سورن كيركجارد Soren Kierkegaard وكارل جاسبرز Jaspers ومارتن هايدجر Heidegger وجان - بول سارتر في أفكار هيجل ملاحظات وإشارات حاسمة عن التنافس البشرى في عالم بعيد عن التوجيه الإلهي، فأصبح هيجل أباً روحياً للوجودية.

وباختصار فإن عصر جوته وبيتهوفن وهيجل كان إحدى الذرى في تاريخ ألمانيا. لقد وصلت ألمانيا أو كادت إلى ذُرى لا تقل عن ذرى سبقت في عصر النهضة الأووبية (الرينيسانس) وعصر الإصلاح الديني الأوربي، لكن حرب الثلاثين عاما حطمت الحياة الاقتصادية والفكرية للشعب وجعلت روح ألمانيا قاتمة وكادت تطرح اليأس على الروح الألمانية طوال قرن. وشيئاً فشيئاً وببطء أدى النشاط والحيوية الكامنان في روح هذا الشعب، والصبر الرواقي (الراضي بالواقع) الذي تتحلى به الألمانيات، وعمق الموسيقا الألمانية وقوتها ومهارة الحرفيين في ألمانيا ونشاط التجار - إلى إعداد ألمانيا لتلقي التأثيرات الأجنبية وهضمها وتحويلها ليتفق مع الذوق الألماني والشخصية الألمانية، ومن أمثلة هذا هضم الألمان لشكسبير وأشعار إنجلترا الرومانسية، وهضمهم لحركة التنوير والثورة الفرنسية. لقد طوّرت وعدّلت فولتير إلى جوته وفيلاند Wieland، وطوّرت وعدّلت روسّو إلى شيلر وريشتر

(ريختر) Richter ، وردت على نابليون بحرب التحرير وأفسحت الطريق لإنجازات الشعب الألماني المتعددة في القرن التاسع عشر.

إن الحضارة مجال تعاون كما أنها مجال منافسة، وعلى هذا فإنه لأمر طيب أن يكون لكل أمة ثقافتها وحكومتها واقتصادها وأزياؤها وأغانيها. إنها – أي الحضارة – قد أخذت أشكالاً مختلفة من النظم والتعبيرات لتصنع الروح الأوروبية على هذا القدر من الذكاء والمهارة والتباين، ولتصنع من أوربا اليوم فتنة جميلة لا ينتهي جمالها، وتراثاً لا ينضب.



[١٧٨٩ - ١٨١٢]

١- سويسرا

شعرت هذه الأرض المباركة بنبض الثورة الفرنسية بكل مودة الجار. لقد رحب الليبراليون السويسريون بالثورة الفرنسية كدعوة للحرية، وأعلن جوهان (يوهان) فون ميلر Muller (١٧٥٢ - ١٨٠٩) أشهر المؤرخين المعاصرين في ١٤ يوليو ١٧٨٩ أن يوم قيام الثورة الفرنسية هو أفضل يوم في تاريخ أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، وعندما تولى اليعاقبة زمام الأمر، كتب لأحد أصدقائه «الذي لا شك فيه أنك تشاركني أسفي أنه في الجمعية الوطنية (الفرنسية) نجد الفصاحة والبلاغة تطغى على الفهم الصحيح، وربما تفهم أنه نظراً لرغبتهم في أن يكُونوا أحرارا إلى أقصى درجة فلن يكونوا أحرارا أبداً. ومع هذا لابد أن تتمخض الأيام عن شيء لأن هذه الأفكار تسكن في كل قلب[1]».

فريدريك - سيزار دي لاهارب Frederic - cesar desa Harpe - الذي كان قد عاد في سنة ١٧٩٦ إلى موطنه سويسرا - بعد أن أشرب عقل زارفتش إسكندر Czarevich Alexander بالليبرالية - انضم مع بيتر (بطرس) أوكس Peter Ochs وغيره من الثوار السويسريين ليكوّنوا النادي السويسري (الهلفيتي Helvetic) الذي عمل على الإطاحة بحكم الأوليجاركيات Oligarchies (الأوليجاركية نظام يقوم على حكم الأقلية) التي تحكم الكانتونات (الولايات) السويسرية. وعندما كان نابليون يمر عبر سويسرا بعد غزوته الأولى لإيطاليا، لاحظ هذه الومضات فلفت نظر حكومة الإدارة في فرنسا أنها ستجد أعوانا كثيرين إذا اختارت مواجهة النشاطات المعادية للثورة الفرنسية التي يقوم بها المهاجرون الفرنسيون الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة فيها، والذين - أي هؤلاء المهاجرون - يجدون ملجأ عند الأرستقراطية السويسرية التي لهم العون. وأدركت حكومة الإدارة في فرنسا القيمة الاستراتيجية لسويسرا في الصراع بين فرنسا والأمراء الألمان، فأرسلت جيشا إلى

الكانتونات (الولايات السويسرية) وضمت جنيف وقضت على حكم الأوليجاركات، وأقامت – بعون متحمس من الثوريين السويسريين – الجمهورية السويسرية (الهلفتية Helvetic) تحت الحماية الفرنسية (١٧٩٨).

وانقسمت الحكومة السويسرية الجديدة إلى يعاقبة (وطنيين) ومعتدلين، وفيدراليين. وقد تعاركوا وحبك كل منهم انقلابا، ولما خشوا مغبة الفوضى والحرب الداخلية طلبوا من نابليون (كان في منصب القنصل الأول في هذا الحين) أن يعطيهم دستورا جديدا. وفي سنة ١٨٠١ أرسل لهم دستورا Constitution of Malmaison كان رغم ما به من قصور أفضل دستور كانت تأمل فيه سويسرا[٢] » رغم أنه – أي هذا الدستور – احتفظ بسويسرا تحت الوصاية الفرنسية. وبعد مزيد من المعارك الداخلية أطاح الفيدراليون بالحكومة الجمهورية ونظموا جيشا جديدا واقترحوا تجديد حكم الأوليجاركية (حكم الأقلية) فتدخل نابليون وأرسل جيشا من ثلاثين ألف مقاتل لإعادة السيطرة الفرنسية على سويسرا. وطلبت الفرق المتنازعة من نابليون مرة أخرى أن يتوسط بينها. فصاغ مرسوم الوساطة الذي قبلته كل الفرق الكبيرة المتنازعة. لقد أنهى هذا المرسوم الجمهورية السويسرية (الهيلفتية) وأقام الفيدرالية السويسرية التي تشبه في خطوطها الأساسية ما عليه سويسرا الآن فيما عدا التزام سويسرا بالاستمرار في تقديم عدد من بنيها كل سنة للجيش الفرنسي. ورغم هذا العبء فقد كان مرسوم الوساطة هذا دستورا جيدا[٣] وأطلقت الكانتونات (الولايات) السويسرية على نابليون (معيد الحرية).

وعلى أية حال فقد كانت سويسرا رغم بهاء مناظرها تعتبر مجالاً ضيقا ليس به إلا مرح صغير وعدد قليل من القراء والمستمعين مما لا يرضي طموح المؤلفين والفنانين والعلماء الذين راحوا يبحثون عن بلاد أوسع ذات ميدان أرحب وفرص أكبر. فذهب جوهان (يوهان) فوسلى Fussli إلى إنجلترا ليرسم، وذهب أوجسطين دي كاندول de Candolle (١٧٧٨ – ١٨١٤) إلى فرنسا وقدم هناك وصفا للنباتات وتصنيفا لها. أما جوهان (يوهان) بستالوزى Pestalozzi (١٧٤٦ – ١٨٢٧) فبقي في سويسرا ولفت انتباه أوربا بتجاربه في حقل التعليم. وفي سنة ١٨٠٥ أسس في فيردون verdun مدرسة داخلية أدارها على وفق مبدأ

أنه – على الأقل بالنسبة إلى الناشئة – لا يكون للأفكار معنى إلا إذا ارتبطت بأشياء حسية، وأن تعليم الأطفال يكون أفضل أي ذا ثمار أحسن إن كان من خلال أنشطة جماعية. وقد جذبت المدرسة انتباه المدرسين فقدموا إليها من اثنتي عشرة دولة وأثرت في التعليم في المرحلة الابتدائية في أوربا والولايات المتحدة. ووضعها فيشته في خطته لإعادة تربية الشباب وتعليمهم.

وقضى جوهان (يوهان) فون ميلر Muller اثنين وعشرين عاما (١٧٨٦ – ١٨٠٨) في تأليف كتابه متعدد الأجزاء (تاريخ الاتحاد الكونفدرالي السويسري Geschichten Schweitzerischer Eidgenossenschaft) ولم يتابع السرد التاريخي إلا إلى سنة ١٤٨٩ ولكنه ظل كلاسيا في جوهره وأسلوبه. ولأنه كتاب ممتاز فقد أضفى على مؤلفه لقب تاسيتوس السويسري Swiss Tacitus وقد كان لوصفه الكانتونات (الولايات) السويسرية في العصور الوسطى بشكل يجعلها مثالية، بالإضافة إلى الانتصارات العسكرية أثر كبير في رفع الروح المعنوية للسويسريين. وقد استوحى شيلر Schiller من قصته ذات الطابع الأسطوري (وليم تل) الخطوط العريضة لمسرحيته الشهيرة. وفي سنة ١٨١٠ وكان قد بلغ الثامنة والخمسين بدأ ميلر Muler كتابة تاريخ عام (Vier und Zwanzig Bucher allgemeiner Geschichten). وانجذب إلى ألمانيا بسبب قرائه فعمل في خدمة الناخب (الأمير) الكاثوليكي في مينز (مينتس Mainz) وانتقل إلى العمل في خدمة المستشار الإمبراطوري في النمسا وانتهى به الأمر مديراً للتعليم في وستفاليا التي كان يحكمها وقتئذ جيروم بونابرت. وعندما مات كتبت مدام دي ستيل عنه: «لا نستطيع أن ندرك كيف يمكن لرأس رجل واحد أن يحوي مثل هذا الكم الهائل من الحقائق والتواريخ dates.. إننا إذ نفتقده نبدو وكأننا افتقدنا أكثر من واحد[٤]».

ولا يليه في فن كتابة التاريخ سوى جان – شارلز – ليونارد دي سيسموندي de Sismondi (١٧٧٣ – ١٨٤٢) الذي كان أحد مرافقي (وعشاق) المدام. ولد في جنيف وهرب إلى إنجلترا تخلصا من العنف الثوري ومنها إلى إيطاليا، ثم عاد إلى جنيف بعد استتباب الأمر فيها، وقابل جرمين Germaine في سنة ١٨٠٣ وصحبها إلى إيطاليا وراح في

٢- السويد

كان من الممكن أن ترحب السويد بالثورة الفرنسية على الأقل في مراحلها الأولى، لأنه خلال حركة التنوير السويدية في القرن الثامن عشر كان الفكر السويدي منسجماً مع الفكر الفرنسي، وكان الملك السويدي نفسه - جوستاف الثالث Gustavus III (حكم من ١٧٧١ إلى ١٧٩٢) أحد أبناء التنوير الفرنسي وكان معجبا بفولتير. لكن الملك جوستاف لم يكن يحترم الديمقراطية وإنما كان يرى في الملكية القوية الطريق الوحيد لحكم قوي تقبض على زمامه أرستقراطية ملاك الأراضي الحريصة حرصا شديدا على امتيازاتها التقليدية. لقد نظر إلى مجلس طبقات الأمة (مايو ١٧٨٩) كاجتماع مرتبط بملاك الأراضي والعقارات وعندما تطور الصراع بين هذا المجلس ولويس السادس عشر شعر بتهديد قوي لكل الملوك وليس للويس السادس عشر وحده فعرض وهو الليبرالي المتنور أن يكون على رأس تحالف ضد الثورة الفرنسية، وبينما كان منشغلا بوضع الخطط لإنقاذ لويس السادس عشر دبر بعض النبلاء السويديين مؤامرة لاغتياله. وفي ١٦ مارس ١٧٩٢ تم إطلاق النار عليه، ومات في ٢٦ مارس وعمت الفوضى السياسية في السويد حتى سنة ١٨١٠.

وكان حكم جوستاف الرابع (١٧٩٢ - ١٨٠٩) حكما تعساً. لقد انضم للتحالف الثالث ضد فرنسا (١٨٠٥) مما أعطى نابليون مبررا للاستيلاء على بوميرانيا Pomerania وسترالسوند Stralsund - وهي آخر الممتلكات السويدية على البر الأوربي المقابل لها. وفي سنة ١٨٠٨ عبر جيش روسي خليج بوثنيا Bothnia على الجليد وهدد ستوكهولم فاضطرت السويد إلى التخلي عن فنلندا مقابل السلام، وعزل الريكسداج Riksdag، جوستاف الرابع وأعاد سلطان الأرستقراطية واختار عم الملك المعزول، وكان في الواحدة والستين من عمره سهلا طيعا. إنه شارل الثالث عشر Charles XIII (حكم من ١٨٠٩ - ١٨١٨)، ولأنه لم ينجب فكان لابد من اختيار وريث لعرشه، فطلب الريكسداج Riksdag من نابليون أن يسمح لأحد أبرز مارشالاته وهو جان - بابتست بيرنادوت Jean - Baptiste Bernadotte بقبول ولاية العهد. ووافق نابليون، ربما أملاً في أن يكون لزوجة بيرنادوت التي كانت ذات مرة خطيبة نابليون وكانت أخت جوزيف بونابرت - نفوذ في السويد. وعلى هذا أصبح

بيرنادوت في سنة ١٨١٠ هو ولي عهد السويد وأصبح اسمه شارل جون Charles John.

وفي ظل حكومة هذا تكوينها واصل العقل السويدي جهوده في مضمار التعليم والعلم والأدب والفن، فكانت جامعات أبسالا Uppsala وأبو Abo ولوند Lund من بين أفضل الجامعات في أوربا. وكان جون جاكوب بيرزيليوس Jon. Jakob Berzelius (١٧٧٩ - ١٨٤٨) أحد مؤسس الكيمياء المعاصرة. إذ استطاع بدراسته المتأنية الدقيقة لنحو ألفي مركب أن يصل إلى قائمة بالأوزان الذرية أكثر دقة بكثير من قائمة دالتون Dalton ولا تختلف إلا قليلا جدا من حيث دقتها عن القائمة التي استقر عليها العلم في سنة ١٩١٧[٦]. وعزل كثيرا من العناصر الكيميائية للمرة الأولى. وراجع نظام الرموز الكيميائية الذي وضعه لافوازيه Lavoisier وقام بدراسات كلاسية في الأثر الكيميائي للكهرباء وطور نظاما ثنائيا لدراسة عناصر في التفاعل الكيميائي كموجبة أو سالبة كهربيا. وأصبح كتابه الموجز الذي نشره في سنة ١٨٠٨ وتقريره السنوي Jahresbericht الذي بدأ صدوره سنة ١٨١٠ إنجيلا للكيميائيين طوال جيل.

وكذلك كان في السويد كثير من الشعراء انقسموا إلى مدرستين شعريتين متنافستين: الفوسفوريون Phosphorists الذين ترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى مجلتهم التي أصدروها بعنوان (الفوسفوري Phosphorous) وكانوا متأثرين بالرومانسية الألمانية الوافدة وتحوي أشعارهم الكثير من العناصر الباطنية (الصوفية) أكثر من سواهم من الشعراء، والقوطيون (المدرسة الشعرية القوطية) Gothics الذين راحوا يعزفون في أشعارهم على أنغام البطولة.

وبدأ تجنر Esaias Tegner كقوطي (من المدرسة الشعرية القوطية الآنف ذكرها) لكنه كان كلّما سار قدما في مضمار الشعر راح يوسع مجالات تناوله الشعري حتى بدا وكأنه يضم بين جنبيه كل مدارس الشعر السويدية. ولد تجنر في سنة ١٧٨٢ ولم يكن قد بلغ السابعة من عمره عندما نشرت الثورة الفرنسية - وكانت كأعظم الفوسفوريين - نورها وحرارتها خلال أوربا، وما كاد يبلغ الثالثة والثلاثين حتى نفي نابليون إلى سانت هيلانه. وعاش تجنر إحدى وثلاثين سنة أخرى لكنه كان قد حقق بالفعل تفوقه وشهرته عندما منحته الأكاديمية الملكية السويدية في سنة ١٨١١ جائزة لقصيدته (Svea) التي وبّخ فيها

كـل مـعـاصـريـه لـفـشـلهـم في الحـفـاظ على عـادات أسـلافـهـم . وانـضـم (إلى الاتحـاد القـوطي Gothic Union) وسخر من الفوسفوريين (أتباع المدرسة الشعرية الفوسفورية الآنف ذكرها) متهما إياهم بالضعف الرومانسي . وأصبح وهو في الثلاثين من عمره أستاذا للغة اليونانية في جامعة لوند Lund وأصبح وهو في الثانية والأربعين (أسقف فيكسجو Vaxjo) وفي الثالثة والأربعين (١٨٢٥) نشر أشهر قصيدة في الأدب السويدي . لقد كانت هذه القصيدة الطويلة (Frithjofs Saga) سلسلة من الحكايات الأسطورية مستوحاة من التراث الشعري الأسكندنافي القديم وظن بعض النقاد(٧) أن الملحمة مغرقة جدا في الاتجاه الخطابي (ذات نبرة عالية) – فالشاعر لم يستطع استبعاد مزاجه الأسقفي، لكن بهاء قصائده وروحها الغنائية جعلتها تحظى بقبول حماسي حتى خارج السويد فبحلول عام ١٨٨٨ ترجمت إلى الإنجليزية إحدى وعشرين مرة وإلى الألمانية تسع عشرة مرة .

وبدا وكأن تجنر قد استنفد قواه في عمله الشعري هذا فبعد أن أنهاه تدهورت صحته لكنه ظل يكتب الشعر في المناسبات وأهدى إحدى قصائده لامرأة متزوجة من فكسجو Vaxjo . لقد كان ليبراليا في الأساس لكنه تحول إلى متحفظ متمسك بالاتجاه المحافظ ودخل في خلافات ساخنة مع الأقلية الليبرالية في الركسداج Riksdag. وأعقب اضطرابات ١٨٤٠ اضطراب فكري لكن واصل كتابة شعره الجيد حتى مات في سنة ١٨٤٦ في فكسجو Vaxjo وفي هذه الأثناء أصبح الملك شارل الثالث عشر مريضا بشكل مستمر، فتولى ولي العهد شارل جون الوصاية على العرش وتولى مسئولية الحكم. وسرعان ما واجه خيارا صعباً بين ولائه لوطنه الأصلي (فرنسا) والبلاد التي احتضنته (السويد)، ومادامت الدول تكون مولعة بضم بلاد أخرى تماما كمواطنيها، فإنها ترسل زوائدها الكاذبة كزوائد الأميبا المعدة للإمساك – تلك الزوائد المسماة بالجيوش – للإمساك بما يعد وجبات شهية، فقد راحت الحكومة السويدية تتطلع بنهم لامتلاك جارتها النرويج التي كانت الدنمرك منذ سنة ١٣٩٧ تدعي حق ملكيتها. واقترح ولي عهد السويد على نابليون أن تضم السويد النرويج إليها فبهذا تتوثق عرى العلاقات بين السويد وفرنسا فرفضه نابليون لأن الدنمرك كانت من أخلص حلفائه، وفي يناير سنة ١٨١٢ استولى نابليون مرة أخرى على بوميرانيا Pomerania

السويديه بحجة أنها سمحت باستيراد البضائع البريطانية وهذا إخلال بالحصار القاري الذي فرضه نابليون، فاتجه الأمير شارل جون إلى روسيا التي كانت هي بدورها تتجاهل الحصار القاري فوافقت روسيا على أن تبتلع السويد النرويج مقابل أن تؤيد السويد بما قامت به روسيا من ضم فنلندا إليها. وفي أبريل سنة ١٨١٢ وقعت السويد تحالفاً مع روسيا وفتحت موانئها للتجارة البريطانية. هذا هو الوضع في السويد عندما كان نابليون يحتفي بملوك أوربا في دريسدن Dresden في طريقه إلى موسكو.

٣- الدنمرك

لم تثر أخبار سقوط الباستيل دهشة كبيرة لدى الدنمركيين الذين كانوا بالفعل منذ سنة ١٧٧٢ قد ألغوا القنانة (عبودية الأرض) والتعذيب في أثناء المحاكمة وأصلحوا القانون والمحاكم والشرطة وطهروا مجال الخدمة المدنية من الرشوة واستغلال النفوذ وأعلنوا حرية العبادة لكل الأديان وشجعوا الأدب والفن. وكان الدنمركيون ينظرون إلى أسرتهم المالكة كأساس استقرار وسط صراع الطبقات وتقلبات السياسة. وعندما هاجم الجمهور الباريسي الملك لويس السادس عشر، وبعد الحكم عليه بالإعدام - رغم أنه أي لويس السادس عشر كان كالملك الدنمركي مؤيداً لاتخاذ إجراءات ليبرالية، كان الدنمركيون متفقين مع مليكهم على أنهم ليسوا في حاجة إلى هذا الانفعال (العنف). وسرعان مانظر الدنمركيون بتسامح إلى نابليون لتهدئته الثورة وإعادته النظام في فرنسا، فرفضت الدنمرك الانضمام لتحالف مضادٍ له.

بل على العكس فقد تحدت الحكومة الدنمركية دعاوى الأدميرالية البريطانية بحق قباطنتها في الصعود إلى أي سفينة متجهة إلى فرنسا والبحث عن البضائع المهربة فيها. وفي مناسبات عديدة في سنتي ١٧٩٩ و ١٨٠٠ اعتلى القباطنة البريطانيون سفناً دنمركية وقبض أحدهم على سبعة تجار دنمركيين ممن قاوموه واحتجزهم في ميناء بريطاني. وفي أغسطس سنة ١٨٠٠ دعا القيصر بول الأول Cesar paul I ملوك بروسيا والسويد والدنمرك للانضمام إليه في العصبة الثانية للحياد المسلح بهدف مقاومة تفتيش البريطانيين للسفن المحايدة(*).

(*) تم تأسيس عصبة الحياد المسلح الأولى في سنة ١٧٨٠ وحُلّت في سنة ١٧٩٣. (المترجم)

وفي ١٦ و ١٨ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وقعت القوى البلطيقية الأربع إعلان مبادئ وافقوا بمقتضاه على الدفاع عن الآتي:

«(١)لكل سفينة محايدة الحق في الإبحار بحرية من ميناء إلى ميناء على سواحل الدول المتحاربة. (٢) البضائع التي تخص رعايا القوى المتحاربة - باستثناء المهربة - لا يجوز التفتيش عليها إذا كانت على متون سفن تملكها دول محايدة . ....(٥) إعلان قائد السفينة (المحايدة) أن السفينة أو السفن التابع للبحرية الملكية أو الإمبراطورية.. ليس في حمولتها بضائع مهربة - يكفي لمنع أي تفتيش[٨]».

أعرب نابليون عن اغتباطه بهذا الإعلان، ودعا بول الأول فرنسا للانضمام إلى روسيا في غزو الهند للقضاء على السيطرة البريطانية هناك[٩]. وأحست إنجلترا أن النزاع وصل إلى نقطة حرجة لأن الأساطيل المشتركة للقوى المحايدة وفرنسا يمكن أن تنهي السيطرة البريطانية على البحار التي هي - أي هذه السيطرة - المانع الوحيد الذي يمنع نابليون من غزو إنجلترا، فانتهت الحكومة البريطانية إلى أن الحل الوحيد هو الاستيلاء على الأسطول الدنمركي أو الروسي أو تدميره. ومن الأفضل أن يلحقوا هذا بالأسطول الدنمركي لأن الهجوم على روسيا قد يتيح للأسطول الدنمركي الهجوم على مؤخرة الأسطول البريطاني.

وفي ١٢ مارس ١٨٠١ غادر أسطول بريطاني بقيادة السير هايد باركر Hyde Parker، ميناء يارموث Yarmouth مزوداً بتعليمات للتوجه إلى كوبنهاجن ومطالبة الدنمرك بالانسحاب من عصبة الحياد المسلح وفي حالة الرفض يقوم الأسطول الإنجليزي بالاستيلاء على الأسطول الدنمركي أو تدميره. وكان الأدميرال المساعد هو هوراتيو نيلسون Horatio Nelson وكان في الثانية والأربعين من عمره، وكان هو القائد الثاني، وكان مستاء من تبعيته للأدميرال باركر البالغ من العمر اثنين وستين عاما والذي أظهر ميلا للحذر من ميل نيلسون للخروج عن قيادته.

ووصلا إلى الساحل الغربي لجوتلاند Jutland في ١٧ مارس وأبحرا بحذر شمالا وحول رأس شجيراك Shaggerak لشبه الجزيرة ثم جنوباً في خليج كتيجات Kattegat الكبير إلى جزيرة سجالاند Sjaelland ومن ثم عبرا المضيق الضيق بين هالسنجبورج Halsingborg

السويدية وهلسنجور Helsinbarg الدنمركية فأطلق عليهم حصن كرونبورج Kronborg مدافعه، فاتجه الأسطول البريطاني جنوبا في المضيق حيث مضيق آخر هو أضيق المضايق جميعا فبدت كوبنهاجن منيعة يحميها الأسطول الدنمركي والحصون – لقد كان هناك سبع عشرة سفينة مصفوفة في خط من الشمال إلى الجنوب، وكان كل منها مسلحا بمدافع يتراوح عددها بين عشرين وأربعة وستين مدفعا. وقرر الأدميرال باركر أن سفنه الكبرى حجما ذوات الغاطس الأعمق من سفن نلسون لا يمكنها دخول هذا المضيق ذي المياه الضحلة، دون خطر الارتطام بالأرض أو التعرض للتدمير فانتقل نلسون بعلم قيادته من السفينة سانت جورج إلى السفينة إليفانت (الفيل Elephant) وقاد إحدى وعشرين سفينة أصغر من سواها في المضيق ركزها في مواجهة السفن والحصون الدنمركية مباشرة. لقد دارت المعركة (٢ أبريل ١٨٠١) وكل طرف منهما عى مقربة من الطرف الآخر حتى كادت كل طلقة أو قذيفة تحمل معها الدمار أو الموت وقد حارب الدنماركيون بشجاعتهم المألوفة، وحارب الإنجليز بنظامهم المعهود ومهارتهم في التصويب. وكادت كل سفينة من السفن المشتركة في القتال تتعرض لخطر شديد، وبدا موقف نيلسون حرجاً جداً حتى إن الأدميرال باركر أشار إليه بالإشارة رقم ٣٩ الشهيرة والتي تعني التراجع. وثمة رواية إنجليزية تذكر أن نيلسون راح ينظر للإشارة بإمعان بعينه المصابة بالعمى، وعلى أيه حال فقد أقسم في وقت لاحق أنه لم ير أبدا الإشارة التي تأمر بالتراجع، فواصل القتال. ونجح «المغامر الكبير[١٠]» فراحت السفن الدنماركية تهوي غارقة أو تصبح غير صالحة للقتال. وعرض نيلسون وقف إطلاق النار فقبل طلبه، وكان نيلسون – كنابليون – يستخدم الدبلوماسية إلى جانب الحرب لتحقيق غرضه، فاتجه إلى الساحل لمناقشة شروط السلام مع فريدريك الوصي على العرش الدنمركي وولي العهد. وكان الأمير قد تلقى أخبارا مفادها أن القيصر بول الأول قد اغتيل (٢٣ مارس ١٨٠١) وأن عصبة الحياد المسلح قد انهارت، فوافق على الانسحاب منها. وأكدت الحكومة البريطانية الاتفاق الذي وقعه نيلسون، وعاد إلى نصر آخر، فقد دعته الأمة (١٨٠٥) لينقذ السيادة البريطانية على البحار في معركة الطرف الأغر.

ونجت الدنمرك واحترمتها إنجلترا كما كانت تحترمها سائر دول أوروبا، وظلت هذه المملكة

الصغيرة طوال الست سنوات التالية تُناضل للحفاظ على حيادها بين بريطانيا العظمى وروسيا اللتين تسيطران على البحار المجاورة، والجيوش الفرنسية التي تَعِسّ في الأراضي المجاورة لهذه الشبه جزيرة التي يعمها الاضطراب. وكان الدنمركيون بشكل عام يميلون لنابليون لكنهم امتعضوا بسبب إلحاحه عليهم لمزيد من الانحياز له. وبعد سلام تيليسيت Tilsit أرسل نابليون رسالة إلى الحكومة الدنمركية ملحاً على ضرورة منع أي بضائع إنجليزية، ومطالباً بتعاون أسطول الدنمرك الجديد مع الفرنسيين.

والآن – كما كان الأمر في سنة ١٨٠١ – أخذت الحكومة البريطانية بزمام المبادرة وأرسلت أسطولاً كبيراً على متون سفنه ٢٧,٠٠٠ مقاتل إلى المياه الدنمركية (٢٦ يوليو ١٨٠٧) متذرعة بأن عملها هذا لا هدف له إلا تحقيق السلام، وحذّر وزير الخارجية البريطاني جورج كاننج حكومته من أن نابليون كان يخطط لضم الأسطول الدنمركي إلى أسطول آخر في محاولة لإنزال جنود في سكوتلندا أو إيرلندا[١١]، وفي ٢٨ يوليو أصدر كاننج تعليمات لممثلي الحكومة البريطانية في الدنمرك بإعلام ولي العهد الدنمركي أنه من الضروري لأمن بريطانيا العظمى أن تتحالف معها (أي الدنمرك) وأن تضع أسطولها تحت تصرف الحكومة الإنجليزية. ورفض ولي العهد الدنمركي واستعد للمقاومة، فحاصرت السفن البريطانية سجالاند Sjaeland وأحكم الجند البريطانيون الحصار حول كوبنهاجن، وتعرضت المدينة لقذف بالمدفعية من البر والبحر (٢–٥ سبتمبر ١٨٠٧) وكان القصف عنيفاً لدرجة أن الدنمركيين سلّموا لإنجلترا كل أسطولهم: ١٨ سفينة كبيرة وعشر فرقاطات وأربع وعشرين سفينة صغيرة[١٢]. ومع هذا فقد واصلت الدنمرك الحرب وظلت منحازة لفرنسا حتى سنة ١٨١٣.

وفي أثناء الحروب، بل وبإلهام منها في غالب الأحيان – قدم الدنمركيون إسهامات مهمة في العلوم والآداب والفنون. لقد اكتشف هانز كريستيان أورستد Oersted (١٧٧٧ – ١٨٥١) أن إبرة ممغنطة (على محور) ستعود عند الزوايا القائمة إلى الطرف الآخر حاملة تياراً كهربيا. ودخلت الكلمة (أورستد Oersted) إلى كل اللغات الأوروبية والأمريكية لتعني وحدة القوّة في مجال مغناطيسي (وحدة شدّة المجال المغناطيسي). لقد أسس

أورستد علم الكهرباء المغناطيسية خلال ثلاثين عاماً من التجارب.

وكان نيكولاي جرندتفج طوال عمره البالغ ثمانية وتسعين عاماً يبذل كل جهده ليكون لاهوتياً متحرراً وأسقفاً وفيلسوفاً ومؤرخاً ومربّيا مبدعا ورائداً في دراسة الحكايات الشعبية والتراثية من الآداب الأنجلوسكسونية وآداب سكندنافيا، وألّف بعض القصائد الملحمية والأغاني والترانيم الدينية التي مازالت محبوبة في سكندنافيا.

وكان للدنمرك في هذا العصر المفعم بالأحداث مسرح ناشط، عملت كوميدياته على وخز مظاهر الادعاء على المستوى الاجتماعي، فسخر بيتر أندرياس هايبرج Heiberg (١٧٥٨–١٨٤١) من التمييز الطبقي في مسرحيته (de vanner Og De vonner) فكثر أعداؤه بسبب ذلك حتى إنه لجأ إلى باريس طلباً للأمان فعمل في وزارة الخارجية الفرنسية مع تاليران، وقد أنجب ابنا هو جوهان (يوهان) لودفيج هايبرج (١٧٩١–١٨٦٠) الذي كان له شأن كبير في المسرح الدنمركي في الفترة التالية.

وظهر في الأدب الدنمركي شاعران على الأقل تخطت شهرتهما حدود الدنمرك واللغة الدنمركية، ولا شك أن جينز إيمانويل (عمانويل) باجسن Jens Immanuel Baggesen (١٧٦٤–١٨٢٦) كان ذا شخصية جذابة وأسلوب رشيق. ولقد افتتن دوق أوجستنبورج Augustenburg بأشعاره الأولى، فدفع للشاعر الشاب تكاليف زيارته لألمانيا وسويسرا. وقابل جينز كلاً من فيلاند، وشيلر، وهيردر وكلوبستوك، وأحس بتطلعات روسّو الرومانسية، وسعد بالثورة الفرنسية وابتهج لقيامها.

ودرس فلسفة كانط وسار في تيارها، ذلك التيار الذي أنعش الفلسفة الألمانية، وأضاف اسم كانط إلى اسمه وكتب حصاد رحلاته وتأملاته في كتاب «متاهة شاعر جوّال Labyrinthen eller Digtervandringer» (١٧٩٢) كاد يضارع فيه لورنس ستيرن Laurence Stern فكاهةً وفيضَ مشاعر. ولما عاد للدنمرك تخلّى عن إثارة فيمار وباريس، وعاش في فرنسا في الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨١١ يراقب نابليون وهو يصوغ النظام من الحرية ويحول الجمهورية إلى إمبراطورية (المقصود يحول النظام الجمهوري إلى نظام إمبراطوري أو ملكي). وفي سنة ١٨٠٧ ألف قصيدة حيوية (الشبح ونفسه Gjengengeren og ban

Slev) عرض فيها بذكاء وعمق تأرجحه بين المُثل الكلاسية من نظام وانضباط وحقيقة من ناحية، والاعتدال والتطلع الرومانسي إلى الحرية والخيال والرغبة من ناحية أخرى. وفي سنة ١٨١١ أصبح أستاذاً في جامعة كيل Kiel، وبعد ذلك بعامين دخل في معركة حامية مع أعظم شعراء الدنمرك.

لقد عاش آدم جوتلوب أولنشليجر Adam Gottlob Oehlenschlager (١٧٧٩–١٨٥٠) حياة سعيدة – بشكل غير عادي – في فترة شبابه. كان والده ناظراً لأحد قصور الضواحي التي تحيط بها الحدائق والحقول، فاستمتع ابنه بحديقة يلعب فيها ومكتبة يقرأ فيها وصالة يعرض فيها الأعمال الفنية، وحلق به خياله وتطلّع للعمل في مهنة التمثيل لكن صديقه هانز كريستيان أورستد Oersted جذبه إلى جامعة كوبنهاجن. لقد عاش خلال الفترة التي قذف فيها البريطانيون بمدافعهم الأسطول الدنمركي والعاصمة الدنمركية في سنة ١٨٠١، وأحس بتأثير الفيلسوف النرويجي هنريك ستيفنز Steffens، وأخيراً وصل إلى مكانته من الشهرة بإصداره مجموعة قصائد في سنة ١٨٠٢ رسّخت الاتجاه الرومانسي في الأدب الدنمركي.

وواصل معركته فأصدر مجموعة أشعار (١٨٠٣) يوازن فيها بين حياة المسيح والتغييرات السنوية الحادثة في الطبيعة فأدانته الكنيسة الرسمية كحلولي (قائل بوحدة الوجود) مهرطق، لكن الحكومة الدنمركية كافأته بمنحة للسفر إلى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا. وقابل جوته، وربما تعلم منه أن يراجع ذاتيته الرومانسية. وفي ديوانه قصائد شمالية، ١٨٠٧ (Nordiske Digte) استوحى الميثولوجيا الأسكندنافية بملحمة تحتفي برحلات الرب تور Thor، ودراما عن هاكون جارل Haakon Jarl الذي حكم النرويج من سنة ٧٩٠ إلى سنة ٩٩٥ وخاض معركة خاسرة لمواجهة انتشار المسيحية. وعندما عاد أولنشليجر إلى كوبنهاجن (١٨٠٩) استقبلته الدوائر الأدبية كأعظم شاعر دنمركي.

وانتهز فرصة شهرته وشعبيته فنشر سلسلة من الأعمال المتعجلة، فانتقده جينز بجسن Beggesen علناً ذاكراً أن أعماله تتسم بتدني المستوى والإهمال. واستعر الخلاف، ولم يدافع فيه أولنشليجر عن نفسه كثيرا، إلا أن أصدقاءه – على أية حال – تولوا هذه المهمة

عنه وتحدوا بجسن Baggesen بدخول مبارزة في شكل نقاش أو مناظرة باللغة اللاتينية. وفي هذه الأثناء نشر أولنشليجر عمله (Helge and Den Lille Hyrdedreng) فرحب بجسن Baggesen به لأنه عودة «آدم القديم[١٣]» وفي سنة ١٨٢٩ توّج أولينشليجر في لوند كأمير للشعراء، وقام بتتويجه تجنر Esaias Tegner وفي ٤ نوفمبر ١٨٤٩ امتدحه الشعراء المعاصرون في عيد ميلاده السبعين واصفينه بأنه آدم جبلنا المقدس[*] (The Adam of our Parnassus) وفي مضمار الفن قدمت الدنمرك لأوربا نحاتا لم يكن هناك من يضارعه عندما بلغ أوجه سوى كانوفا Canova. إنه بيرتل ثوروالدسن Thorwaldsen (١٧٧٠ – ١٨٤٤) الذي فاز بمنحة لدراسة الفن بأكاديمية كوبنهاجن واستقرفي سنة ١٧٩٧ في روما التي كانت لاتزال راضخة لإنجيل فينكلمان Winckelmann في الفن الهيليني باعتباره هو الفن الذي يجب احتذاؤه (النموذج الأمثل). لقد لفت انتباه كانوفا، وحذا حذوه في نحت تماثيل لأرباب المعتقدات الوثنية، كما نحت تماثيل للمشاهير المعاصرين له في أوضاع وملابس إغريقية أو رومانية، وعلى هذا فقد وجدناه في سنة ١٨١٧ يقيم تمثالا نصفيا لبايرون على نسق أنطونيوس الوقور. وكان يلي كانوفا من حيث المكان كزعيم للمدرسة الكلاسية الجديدة في النحت وانتشر أسلوبه النحتي انتشارا كبيرا حتى إنه عندما غادر روما في سنة ١٨١٩ ليقيم في كوبنهاجن كان يلقى ترحيباً كبيرا في أثناء مروره بفينا وبرلين ووارسو (فرسافا[١٤]). والآن (١٨١٩) وجدناه يصنع النموذج الذي احتذاه لوكاس أهورن Lucas Ahorn ونحته من حجر رملي (Lion of Lucerne) تخليدا لذكرى الحرس السويسري الذي مات أفراده دفاعا عن لويس السادس عشر في سنة ١٧٩٢. وتألمت كوبنهاجن عندما وجدته يغادرها مرة أخرى إلى روما. لكنها – في سنة ١٨٣٨ – احتفت مفتخرة بعودته. وكان في هذا الوقت قد حقق ثروة وهب جزءا منها لإقامة متحف لعرض أعماله التي كان من أشهرها تمثال له شخصيا ليس كلاسيا إذ أظهر فيه بدانته بأمانة. وتوفي في سنة ١٨٤٤ ودفن في حديقة متحفه.

(*) بارناسوس جبل أسطوري يستوطنه أبولو وربّات الفن عند الإغريق. (المترجم)

٤- بولندا

لم تكن بولندا قادرة على مقاومة روسيا وبروسيا والنمسا تلك القوى التي قسمتها مرات ثلاث (١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥ - ١٧٩٦) فيما بينها، وبهذا التقسيم لم تعد بولندا دولة لها وجود سياسي، لكنها استمرت كثقافة غنية أدباً وفنا وكشعب تواق للحرية. وكان كل البولنديين تقريبا من السلاف فيما عدا جيب ألماني في الغرب وقلة يهودية في وارسو (فرسافا) وفي شرقي البلاد. وكان البولنديون كاثوليكاً متحمسين لأن هذه العقيدة (الكاثوليكية) كانت تواسيهم في أحزانهم وتعطيهم الأمل في الخلاص وتحفظ النظام الاجتماعي في ظل دولة محطمة، لذا فقد أدانوا الهرطقة واعتبروها خيانة (المقصود بالهرطقة هنا الخروج على الكاثوليكية) فكان نزوعهم الوطني غير متسم بالتسامح ولم يكن أحد من البولنديين - خلا الذين تلقوا قسطا وافرا من التعليم - بقادر على الشعور بالتآخي مع اليهود الذين تفوقوا في مضمار التجارة والمهن، أما اليهود الفقراء الذين يحملون سمات العزلة (الجيتو) وبؤسها فكان التعاطف معهم أقل بكثير.

وقد تعجب المسيحيون واليهود البولنديون للإهانة التي ألحقها نابليون بالنمسا وروسيا في أوسترليتز Austerlitz وزاد عجبهم وإعجابهم بانتصاراته على البروسيين في يينا Jena وأورشتدت Auerstedt، والآن (١٨٠٦) فإن (نابليون) متمركز في برلين يصدر الأوامر لنصف أوربا. لقد طارد نابليون مغتصبي بولندا، وكان في طريقه لمحاربة روسيا. فإذا لم يعلن في طريقه إلى روسيا أن بولندا دولة حرة فإنه على الأقل سيقيم عليها ملكا ويمنحها دستوراً ويعدها بالحماية. ولجأ الزعماء البولنديون إليه فردهم بأدب مؤكدا لهم أنه سيساعدهم الآن بقدر طاقته، لكن تحرير بولندا متوقف على نتيجة مواجهته التالية مع الروس.

وحذر كوزكيو سكو Kosciusko أكثر الزعماء البولنديين تحفظا أهل بولندا من تعليق الآمال على نابليون. « فهو - أي نابليون - لا يفكر إلا في نفسه، وهو يكره كل أمة عظيمة، وهو طاغية ولا هم له إلا إرضاء طموحه » وعندما أرسل نابليون ليسأل كوزكيو سكو عن طلباته أجاب: حكومة كحكومة إنجلترا وإلغاء القنانة (عبودية الأرض)، وأن تحكم بولندا من داترج (دانتسج) إلى المجر، من ريجا Riga إلى أوديسا Odessa[١٥].

وفي هذه الأثناء نظم البولنديون جيشا صغيرا وطردوا البروس من وارسو (فرسافا)، وعندما دخل نابليون العاصمة في ١٩ ديسمبر ١٨٠٦ استقبلة الجماهير بحفاوة بالغة وانضم الجنود البولنديون إلى جيشه راغبين في محاربة روسيا تحت قيادته، تماما كما كان فيلق بولندي يحارب باسمه (باسم نابليون) في إيطاليا . وربما كان نابليون يقدر جمال النسوة البولنديات وسحرهن أكثر من تقديره لعروض قادتهم . لقد وجدنا مدام فالفسكا Walewska التي وهبت نفسها له في البداية كنوع من التضحية أملاً في حثه على إنقاذ وطنها، وجدناها تحبه الآن بعمق وظلت معه خلال فصل الشتاء القارس الذي دمر - تقريبا - كل جيشه في إيلاو Elau، ثم عادت إلى وارسو (فرسافا)، بينما واصل هو طريقه ليهزم الروس في فريدلاند Friedland .

وفي معاهدة تيلسيت Tilsit (٩ يوليو ١٨٠٧) أجبر فريدريك وليم الثالث على التخلي عن مزاعمه في وسط بولندا (بولندا الوسطى) واعترفت المادة الرابعة من المعاهدة بدوقية وارسو الكبيرة (والجديدة) كدولة مستقلة يحكمها ملك سكسونيا . وفي ٢٢ يوليو قدم نابليون للدوقية دستوراً مستقى من الدستور الفرنسي، والمساواة أمام القانون والتسامح الديني والتجنيد الإجباري، ورفع قيمة الضرائب وفرض رقابة على الصحف . ووضع الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة الدولة لكن كان يجب على الدولة أن تقبل بالعقيدة الكاثوليكية وتحميها . وأعطى الدستور لليهود الحقوق الكاملة لكنه اشترط توثيق الدولة لزواجهم وممتلكاتهم من الأراضي[١٦] . وكان نابليون يتوقع حربا حتى الموت مع إسكندر Alexander فأوعز أن يحوي الدستور البولندي تأكيدا بدعم بولندا لفرنسا . وبالفعل فقد ظلت كل الطبقات تؤيد نابليون حتى عام ١٨١٤ أي عندما أصبح - أي نابليون - غير قادر على حمايتها . وظلت الفيالق البولندية في جيوشه تحارب معه بإخلاص حتى النفس الأخير . لقد راح كثيرون من البو لنديين يهتفون في أثناء غرقهم عند انهيار جسر فوق البيريزينا Berezina : « عاش الإمبراطور »، رغم أنه كان عائدا من روسيا بعد أن حاقت به أكبر نكبة عسكرية في التاريخ .

٥- تركيا (الدولة العثمانية) في أوربا

كانت أيام الإنجاز العثماني في مجال الحكم والأدب والفن قد ولت، لكن الأتراك (العثمانيين) كانوا مايزالون في سنة ١٧٨٩ يمسكون بأيد غير ثابتة زمام الأمر في مصر والشرق الأدنى إلى الفرات وآسيا الصغرى وأرمينيا واليونان وبلغاريا وألبانيا وصربيا والمقاطعتين الدانوبيتين فاليشيا ومولدافيا (الأفلاق والبغدان) (الآن رومانيا) اللتين كانتا من بين مناطق متنازع عليها تركها نابليون لإسكندر Alexander في اتفاقية تيلسيت Peace of Tilsit وكان السلاطين العثمانيون قد ضعفوا بسبب الجمود الاقتصادي والتفسخ الأخلاقي، فسمحوا للباشاوات بحكم الولايات، واستنزافها دون تدخل من إسطنبول Constantinpole إلا قليلا. وسبق أن لاحظنا مع بايرون حكم علي باشا القوي في ألبانيا (١٧٨٨ - ١٨٢٢) وكيف أن (علي باشا) تجاوز حده وراح يتآمر على الباب العالي، فدبر السلطان أمر قتله.

«لقد حارب الصرب من أجل الاستقلال. وعندما أعدم الإنكشارية الباشا ذا الشعبية حاول الوطني الصربي قره جورج Karageorge (١٨٠٤) أن يؤسس جمهورية بجمعية وطنية تختار بدورها مجلس شيوخ (سينات Senate) وفي سنة ١٨٠٨ انتخب مجلس الشيوخ هذا قره جورج أميرا تتوارث ذريته الحكم، فأرسل السلطان محمود جيشا كبيرا إلى بلجراد للقضاء على هذه الجمهورية الجديدة (١٨١٣) فهرب قره جورج وآلاف من أتباعه إلى النمسا. وقامت ثورة أخرى بقيادة الأمير ميلوسي أوبرينوفتش Milos Obrenovich فاضطر السلطان محمود لقبول تسوية (١٨١٥) يمنح الصرب بمقتضاها حرية الاعتقاد (الحرية الدينية) والتجارة وأن يكون لهم نظامهم التعليمي الخاص. ودعم ميلوسي أوبرينوفتش حكمه بالأساليب السياسية والاغتيالات إذ عمل على إعدام منافسه قره جورج، وحصل من السلطان على اعتراف بأن يكون الحكم متوارثا في ذريته. وفي سنة ١٨٣٠ كانت صربيا من الناحية الفعلية دولة مستقلة».

وكانت اليونان قد سقطت في أيدي الأتراك (العثمانيين) في سنة ١٤٥٢ وظلت طوال هذه الفترة خاضعة لهم حتى كادت تنسى كبرياءها القديم. واختلطت الدماء في اليونان بعد أن غزاها «الروم» (المقصود: الأتراك العثمانيين) وهاجر إليها الصرب، وكما اختلطت

الدماء اختلطت أيضا الذكريات الوطنية (العرقية) واللهجات حتى لم تعد لغة الحديث العامة وثيقة الصلة باللغة اليونانية التي كانت سائدة أيام أفلاطون . ومع هذا احتفظ العلماء والشعراء والوطنيون بشيء من بلاء الإغريق الكلاسية وبذكرى أحد عشر قرنا (٣٩٥ - ١٤٥٢) كان اليونانيون خلالها يحكمون الإمبراطورية البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) واستمروا طوال هذه القرون يثرون العلم والفلسفة والفن . لقد ألهبت أخبار الثورة الفرنسية هذه الذكريات وجعلت اليونانيين يندهشون مع لورد بايرون (في ديوانه شايلد هارولد Childe Harold) ويتساءلون لم لا تعود اليونان حرة كما كانت؟ وأعاد ريجاس فيروس Rhigas Pheraios (١٧٥٧؟ - ١٧٩٨) كتابة نشيد المارسليز باليونانية وحوره بما يناسب أوضاع اليونان، ونشره على نطاق واسع، وكون جمعية تهدف إلى ربط اليونانيين والأتراك معا على أساس من الحرية والمساواة وكان ريجاس قد وُلد في فاليشيا (في رومانيا الحالية) في مدينة تيسالي Thessaly وعاش في فينا . وذهب قاصدا اليونان في سنة ١٧٩٧ ومعه صندوق مليء بالمنشورات[١٧] فتم القبض عليه في تريست وأعدم في بلجراد . وتم تكوين جمعية betairia أخرى في أوديسا Odessa امتدت في سائر بلاد اليونان وشاركت في تهيئة اليونان للثورة . وكرس كوريز Koraes (١٧٤٨ - ١٨٣٣) العنيد نفسه «لتنقية» لغة الحديث اليونانية ليجعلها أقرب ما تكون إلى اليونانية القديمة . وكوريز هذا يوناني من سميرنا Smyrna استقر في باريس في سنة ١٧٨٨، وقد ابتهج لقيام الثورة الفرنسية وراح ينشر المنشورات وينشد القصائد التي لم يكن يعزوها لنفسه (جعلها مجهولة المؤلف) كماراح يطبع التراث اليوناني الكلاسي، فنشر بذلك الأفكار الجمهورية والأفكار المناهضة للكنيسة - رغم أنه حذر من أن الثورة قد تكون مبتسرة (أي أتت قبل الأوان) . كانت جهوده هذه في سنة ١٨٢١ ولم تأت سنة ١٨٣٠ إلا وكانت اليونان حرة .

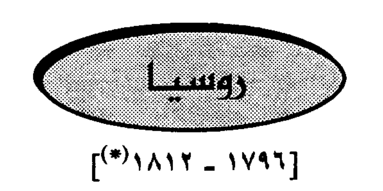
ولم تكن الحكومة التركية في ظل ظروف العصر والموقع أكثر جورا بشكل واضح - من حكومات أوربا قبل سنة ١٨٠٠ . لقد صدم بايرون وهو يرى رؤوس المجرمين المجذوذة معلقة على جانبي بوابة سيراجليو Seraglio لكن لابد أن نسلم بأن ما جزته مقصلة الحكومة الثورية الفرنسية من رؤوس الرجال والنساء كان أكثر من الرؤوس التي أمر السلاطين

العثمانيون بقطعها في أي فترة زمنية مساوية لفترة الحكومة الثورية الفرنسية. وكانت الثروة مركزة في يد قلة كما هو عليه الحال في كل مكان (أي أن ذلك لم يكن قصرا على الدولة العثمانية) وكان الأتراك (العثمانيون) أهل فلسفة وشعر كما كانوا أهل حرب، وهم يؤمنون بالقضاء والقدر خيره وشره من الله، لن يغيره تذمرهم، ويعتبرون المرأة المهذبة المعطرة أثمن من أي شيء خلا الذهب، ويؤثرون تعدد الزوجات إن استطاعوا مؤونة ذلك، فلم لا يكونون أقدر سلالة؟ ولم يكونوا في حاجة للمومسات (العاهرات) إلا قليلا، وإنما كانت مواخيرهم يرتادها المسيحيون، وكان الترك (العثمانيون) لايزالون ينتجون أدباً وفنا، فكثر الشعراء وتألقت المساجد وربما كانت إسطنبول هي أجمل مدن أوربا في سنة ١٨٠٠. لقد كان وضع تركيا من الناحية السياسية محفوفاً بالمخاطر فقد كان اقتصادها وجيشها في حالة مضطربة بينما كانت موارد أعدائها وقواتهم العسكرية في حالة نمو. وكانت عاصمتها (إسطنبول) هي أكثر النقاط إستراتيجية على الخريطة فكانت أوربا المسيحية كلها تتحرق شوقا للاستيلاء على هذه اللؤلؤة. ومدت الإمبراطورة كاترين قبضة روسيا للبحر الأسود، فاستولت على القرم Crimea من التتار Tatars وراحت – بمباركة فولتير – تحلم بتتويج حفيدها – قسطنطين – في إسطنبول (القسطنطينية) – كان هذا هو الوضع عند تولي السلطنة سليم الثالث (١٧٨٩) وهو في السابعة والعشرين من عمره، وكان قد تلقى تعليما جيدا وكون صداقة حميمة مع السفير الفرنسي، وأرسل ممثلا عنه إلى فرنسا ليكتب له تقارير عن غرب أوربا، سياسة وفكرا وأساليب حياة، وقرر السلطان أنه إذا لم يتم إصلاح المؤسسات التركية إصلاحا جوهريا فلن تستطيع تركيا التصدي لأعدائها، فعقد سلاما مع كاترين في جسي Jassy (١٧٩٢) واعترف بالسيادة الروسية على القرم ونهري دنيستر Dniester وبج Bug ثم كرس نفسه لاستحداث «نظام جديد» في الإمبراطورية العثمانية، قائم على انتخاب النواب والولاة (المحافظين)، وبمساعدة ضباط وخبراء من غرب أوربا أقام مدارس للملاحة والهندسة وكون بالتدريج جيشا جديدا. ووضع الخطط لنقض عهوده مع روسيا لكن استيلاء نابليون على مصر ومهاجمته عكا عرقلا خططه، وانضم السلطان إلى إنجلترا وروسيا لشن حرب على فرنسا (١٧٩٨) واستتب السلام في سنة ١٨٠٢ لكن الحرب

كلفت كثيرا وتمرد الولاة والرسميون الفاسدون ضد الدستور الجديد فاعتزل سليم الثالث(*) (١٨٠٧) ومع ذلك فقد قتلوه (بعد ذلك)، وبعد عام من الفوضى ساد المناصرون له وتولى محمود الثاني (ابن أخيه) السلطنة في سنة ١٨٠٨ وهو في الواحد والثلاثين من عمره. وحولت القوى المتصارعة في العالم المسيحي التحكم في سياسات الباب العالي (الحكومة العثمانية) باستخدام المال والتهديد. ولم تبق الدولة العثمانية على قيد الحياة إلا لأن واحدة من القوى الأوربية المتصارعة لم تكن لتسمح للقوى الأخرى بالتحكم في مضيق البوسفور. وفي سنة ١٨٠٦ أرسل إسكندر الأول جيشا إلى مولدافيا وفاليشيا (الأفلاق والبغدان) لضمهما إلى روسيا فحث سفير نابليون السلطان سليما على المقاومة، فأعلنت تركيا (الدولة العثمانية) الحرب على روسيا، وفي معاهدة تيلسيت Tilsit (١٨٠٧) رتب نابليون أمر السلام لكن الهدنة كانت تخرق مرارا إلى أن قرر إسكندر سحب جيوشه من الجبهة الجنوبية تحسبا للحرب ضد نابليون، وفي ٢٨ مايو ١٨١٢ قبل مغادرة نابليون - بيوم واحد - لدريسدن Dresden لينضم إلى قواته المتجمعة في بولندا، تخلت روسيا عن كل دعاويها في الولايتين الدانوبيتين (الأفلاق والبغدان). لقد أصبح في مقدور إسكندر الآن تجميع كل قواته ومدافعه لمواجهة ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الفرنسيين وحلفائهم كانوا يستعدون لعبور النيمن Niemen إلى روسيا.

(*) الحقيقة أنه أُجبر على الاعتزال. (المترجم)

الفصل الرابع والثلاثون



[١٧٩٦ - ١٨١٢[*]]

١- الظروف المحيطة بالروس

كتب تاليران في سنة ١٨١٦: «كان من الممكن أن تكون فرنسا والنمسا أقوى قوتين في أوربا لو لم تكن قوة أخرى قد ظهرت في الشمال (خلال القرن الأخير) تلك القوة الشمالية التي كان تقدمها المرعب والسريع مسببا بالضرورة للفزع، فقد كانت اعتداءاتها وتجاوزاتها قد أصبحت بالفعل سمة من سماتها، ولم تكن هذه التجاوزات سوى مقدمات لمزيد من الغزو الذي سينتهي بابتلاعها كل شيء[١]»

إن المساحة الهائلة يمكن أن تصنع التاريخ. طالع خريطة العالم من كالينينجراد Kaliningrad (التي عرفها كانط باسم كونيجسبرج Konigsberg) على بحر البلطيق إلى كامشتكا Kamchatka على المحيط الهادئ (الباسفيكي)، ومن المحيط المتجمد الشمالي إلى بحر قزوين، وروسيا تشغل كل المساحة الواقعة بين الهملايا ومنغوليا والصين واليابان. لندع الخريطة تتكلم أو لنستمع إلى مدام دي ستيل التي اتخذت طريقها من فينا إلى سان بطرسبورج في سنة ١٨١٢:

«مساحة روسيا شاسعة لدرجة أن كل شيء يضيع فيها حتى القصور الضخام بل وحتى السكان. إنه يهيأ للمسافر فيها أنه يسافر في بلاد هجرها سكانها للتو... وأوكرانيا خصبة التربة جدا.. فأنت ترى سهولاً شاسعة مزروعة حنطة فيهيأ لك أن أيادي خفية زرعتها، فعدد السكان قليل، والتجمعات السكنية نادرة[٢]».

ويحتشد السكان في قرى متناثرة لأنهم لم ينسوا بعد التتار الذي عاثوا في الأرض فسادا وراحوا يقتلون باستمتاع. لقد رحل التتار لكن قد يأتي آخرون مثلهم، وقد تركوا (التتار)

(*) التواريخ هنا تقريبية.

شيئا من قسوتهم ليؤثر في أساليب الروس في العيش ونزوعهم الشديد إلى الكد والكدح والانضباط. لقد كان الانتخاب الطبيعي (البقاء للأصلح) يعمل عمله فيهم بلا رحمة ليبقي على قيد الحياة التواقين للعمل يزرعون الأرض ويحرثون النساء بلا كلل ولا ملل، وقد جعل بطرس الأكبر من بعضهم جندا وملاحين، وجلب من أتوا بعده المغامرين الألمان، والتشيك المهرة، ودفعت كاترين الجيوش الكبيرة والجنرالات المغرورين ليتوغلوا جنوبا دافعين التتار والترك أمامهم فاستولواعلى القرم وأبحروا منتصرين في البحر الأسود.

واستمر التوسع في عهد إسكندر الأول، واستقر الروس في ألاسكا وأقاموا حصنا بالقرب من سان فرانسيسكو وأسسوا مستعمرة كاليفورنيا[٣]، لقد جعل المناخ القاسي لروسيا الأوربية - حيث لا جبال ولا غابات تحميها من برد القطب الشمالي[*] - من الشعب الروسي شعباً شديد البأس يمكنه تحقيق المستحيل إذا وجد الخبز وأتيح له الوقت. وفي ظل هذه الظروف كان من الممكن أن يكون الروس قساة لأن الحياة قاسية عليهم، وكان من المفهوم أن يكونوا معذبين للأسرى والسجناء، ذباحين لليهود. لكنهم لم يكونوا جامدين يتعذر تغيير طباعهم، فقد أثرت الحياة الآمنة فيهم بشكل متزايد فصاروا أرق حاشية وأتقى، وراحوا يتعجبون لم قتلوا؟ ولم كانوا آثمين؟ وراحوا ينظرون إلى العالم الثائر المضطرب غير المفهوم باستغراب شديد وصل بهم إلى حد الهذيان.

إلا أن الدين هدأ من عجبهم ولطف من حدة اضطرابهم. لقد قام رجال الدين هنا بدور «الجيش الروحي» لدعم قوة القانون بقوى أخرى باطنية مستمدة من الميثولوجيا لإعطاء القانون بعداً باطنيا أو لشرحه وتفسيره، وللترغيب والترهيب، تماما كما فعل رجال الدين في المراحل الأولى في مجتمعات غرب أوربا. وكان القياصرة يعلمون أهمية هذه الميثولوجيا وحيويتها لتحقيق الانضباط الاجتماعي وحث العامل على أداء عمله بصبر، والتشجيع على التضحية بالنفس في الحرب والسلم. فدفع القياصرة مرتبات عالية لرجال الدين من ذوي الرتب الكنسية العليا، ودفعوا لرجال الدين ممن هم أقل درجة مرتبات كفيلة بإعاشتهم

(*) النص against arctic cold or tropical heat وقد يكون معنى الكلمتين الاخيرتين (الحرارة العابرة) إذ من المستحيل ترجمتها بالحرارة الاستوائية. (المترجم)

وكفيلة بدعم ولائهم الوطني. وقد حمى القياصرة المنشقين الدينيين طالما ظلوا موالين للدولة ولايسببون إزعاجا. لقد تغاضت كاترين الثانية وتغاضى أيضا إسكندر الأول عن المحافل الماسونية التي كانت تدعو - بحذر - لإصلاحات سياسية.

لقد تمسك النبلاء الروس بكل حقوقهم الإقطاعية ومارسوها وكانوا يتحكمون - تقريبا - في كل جانب من جوانب حياة أقنان الأرض العاملين في أراضيهم، فكان يمكن للسيد الإقطاعي أن يبيع رقيق الأرض من العاملين عنده، كما كان يمكنه تأجيرهم للعمل في المصانع في المدن، وكان يمكنه أن يودع من يشاء منهم في السجن ويضربه بالعصا أو يجلده بالسوط. وكان يمكنه أن يعهد بهم إلى الحكومة لتشغيلهم في سيبيريا أو سجنهم هناك[٤] وكان في هذا شيء من التخفيف عليهم. وكان بيع عبد الأرض (القن) بمفرده دون أسرته أمراً نادرا، لكن بعض النبلاء أسهموا في تعليم بعض الأقنان وغالبا ما كان هذا التعليم من النوع التقني أو الحرفي الذي يفيد العمل في ممتلكات النبيل، وأحيانا يكون هذا التعليم لإعداده لمجال أوسع، فقد سمعنا أنه في نحو سنة ١٨٠٠ كان هناك قن serf يدير مشروعاً للنسيج به خمسمائة نول لكن معظم هذه الأنوال كانت في بيوت في مزارع أسرة شيرمتيف Sheremetev الشاسعة. ويشير تعداد السكان في روسيا في سنة ١٧٨٣ إلى أن إجمالي عدد السكان هو ٢٥,٦٧٧,٠٥٨ نفس، وكان هناك من بين الذكور البالغ عددهم ١٢,٨٣٨,٥٢٩ أقنان يمتلكهم أصحاب الأراضي، يبلغ عددهم (أي الأقنان) ٢٣٩و ٦٨٩ و ٦ (لكل قن منهم أنثاه) أي أكثر من نصف السكان. لقد بلغت القنانة ذروتها في تلك الفترة، وساءت في عهد كاترين، وتخلى إسكندر الأول عن محاولاته الباكرة للتقليل منها[٥].

ويشير الإحصاء الآنف ذكره إلى أن ٩٥,٥٪ من سكان روسيا من أهل الريف، لكن هذا الرقم يشتمل على فلاحين يعملون في المدن ويعيشون فيها. وكانت المدن تنمو ببطء فلم يكن يزيد عدد ساكنيها في سنة ١٧٩٦ عن ١,٣٠١,٠٠٠ نفس[٦].

وكانت التجارة فعالة ونامية خاصة على طوال السواحل وفي القنوات المائية الكبيرة - وكانت أوديسا Odessa بالفعل مركزا عامراً للتجارة البحرية، أما الصناعة فكان نموها أبطأ، فكثير من النشاطات الصناعية كان يتم في محلات ومنازل في مناطق ريفية. وكانت حرب

الطبقات أقل استعارا بين البروليتاريا وأصحاب الأعمال منها بين طبقة التجار الصاعدة - التي كان أفرادها يئنون من وطأة الضرائب - والنبلاء المعفيين من أداء الضرائب.

وكان التفاوت بين الطبقات حادا وكان القانون يقننه ويرسم له حدودا، ومع هذا فقد كان هذا التفاوت الطبقي يقل رويدا رويدا كلما تطور الاقتصاد وانتشر التعليم. وكان الحكام الروس قبل بطرس الأكبر غير مرتاحين للمدارس لأنها تفتح الطريق لراديكالية غرب أوربا، وللعقوق (اللاتقوى) ومع هذا فإن بطرس - رغبة منه في أن يكون مقبولا لدى الغرب الأوربي - أسس مدارس للبحرية والهندسة ليدخلها أبناء النبلاء ومدارس أبرشية لإعداد القسس، واثنتين وأربعين مدرسة ابتدائية يدخلها أبناء كل الطبقات ما عدا أبناء الأقنان، وكانت هذه المدارس تنحو نحواً حرفيا (تكنولوجيا). وفي سنة ١٧٩٥ أسس ب. P. شوفالوف Shuvalov جامعة موسكو بقسمين؛ قسم للنبلاء وآخر للعوام، وتأثرت كاترين بأفكار المثقفين الفرنسيين فنشرت المدارس على نطاق واسع، ودافعت عن حق المرأة في التعليم. وسمحت بإقامة دور نشر خاصة، فقد صدر في أثناء فترة حكمها ٨٤٪ من إجمالي الكتب التي نشرت في روسيا في القرن الثامن عشر. وبحلول عام ١٨٠٠ كان في روسيا بالفعل طبقة مثقفين (أهل الفكر) سرعان ما ستكون ذات شأن في التاريخ السياسي للأمة الروسية. وبحلول هذا العام أيضا (١٨٠٠) وصل بعض التجار أو أبناء التجار إلى مواقع النفوذ، بل ووصل بعضهم إلى مناصب في البلاط. ورغم لاهوت الأساقفة والقسس المحليين - ذلك اللاهوت المتسم بالحرارة والتوقد - فإن مستوى الأخلاق والطباع كان بشكل عام أدنى في غرب أوربا فيما عدا لدى القلة في البلاط. فغالب الروس كانوا طيبي القلب وكرماء، وربما يرجع ذلك إلى أنهم كانوا ينظرون إلى الآخرين كشركاء لهم في المعاناة في عالم قاس. لكن البربرية كانت تغلي في الروح متذكرة أياما كان على المرء فيها أن يكون قاتلا أو مقتولا. وكان الإغراق في الشراب ملجأ للراحة هروبا من الواقع حتى بين النبلاء، وكانت الحياة غير المستقرة التي عانى منها الكتاب والمؤلفون سبباً لإدمانهم الكحول وسبباً لموتهم المبكر[٧]. وانتشر المكر والكذب والنشل (السرقات الصغيرة) بين العوام، فكل حيلة بدت لهم جائزة في مواجهة السادة القساة، والتجار الغشاشين وجامعي الضرائب اللحوحين.

وكانت النساء صارمات كالرجال أو كن - على الأقل - يعملن بجد وشدة كالرجال، ويحاربن بضراوة، وإذا سمحت لهن الظروف حكمن بمهارة، فمن من القياصرة بعد بطرس نجح في الحكم كما نجحت كاترين الثانية؟ وانتشر الزنا بزيادة الدخول. وكان الاغتسال والنظافة أمراً نادرا خاصة في الشتاء، ومن ناحية أخرى أدمن قلة من الناس الحمامات الساخنة والتدليك (المساج) القاسي. وعمت الرشوة والفساد بدءا من القن (رقيق الأرض) للنبيل، ومن موظف المدينة للوزير الإمبراطوري. لقد كتب سفير فرنسي في سنة ١٨٢٠ «الرشوة هنا منتشرة انتشارا لايجده المرء في أي دولة أخرى. إنها عمل منظم بمعنى من المعاني، وربما لا يوجد موظف حكومي واحد لا يمكن شراء ذمته[٨].

وفي عهد كاترين وصل البلاط إلى درجة من الدماثة والكياسة والترف لم يكن يسبقه فيها سوى بلاط فرساي في عهد اللويسيْن: لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر رغم أن البربرية كانت في بعض الأحيان كامنة خلف المظاهر. وكانت اللغة المستخدمة في بلاط كاترين هي الفرنسية، كما كانت أفكار الأرستقراطية الفرنسية هي السائدة فيه مع استثناءات قليلة. وكان النبلاء الفرنسيون مثل الأمير دي لني Ligne غالباً ما يعتبرون أنفسهم في مواطنهم سواء كانوا في باريس أم في سان بطرسبرج وكان الأدب الفرنسي رائجا في هذا العاصمة الشمالية (سان بطرسبرج) وكانت الأوبرا الإيطالية تلقى استحسانا فيها كالاستحسان الذي تلقاه في البندقية وفينا. وكانت النسوة الروسيات الثريات وسليلات الأسر العريقة يضعن الشعر المستعار (الباروكات) ويمتعن رجالهن على نحو ما كانت تفعل الدوقات قبل الثورة الفرنسية (في ظل نظام الحكم القديم Ancien Regime). ولم يكن هناك شيء في المهرجانات الاجتماعية المقامة على نهر السين في فرنسا يفوق بهاء التجمعات في سان بطرسبرج وفي القصر الفخم على نهر النيفا Neva، تلك التجمعات التي تتطلع إلى شمس الصيف في سماء الليل وكأنها لا تريد أن يضيع منها المشهد[٩].

٢- بول الأول: ١٧٩٦ - ١٨٠١

وعند ذروة هذا البهاء الودود كانت توجد سيدة (مدام) . لقد كان بول (بافال بتروفيتش) ابن كاترين الثانية، لكن عبقريتها تخطت جيلا(*)، وتركت بول صغيرا نزاعاً للشك مكتئباً - رغم صغر سنه - مولعا إلى حد الجنون بالسلطة المطلقة.

لم يكن عمره قد تجاوز الثماني سنوات عندما علم أن أباه القيصر بطرس الثالث Peter III كان قد قتل وتستر على جريمة قتله أليكسى أورلوف Aleksei Orlov أخو جريجوري أورلوف العشيق الدائم لأم بول. ولم يفق بول أبداً من هذا الكابوس. وكان من الطبيعي - على وفق التسلسل المعتاد - أن يرث بول عرش أبيه، لكن كاترين نحته وقبضت على زمام السلطة كاملة. وحبكت زوجة بول الأولى - بعلمه - مؤامرةللإطاحة بكاترين وتنصيب بول قيصرا، واكتشفت كاترين المؤامرة وأجبرت بول وزوجته على الاعتراف. واعترفت الإمبراطورة كاترين به وريثاً لها لكنه لم يطمئن أبداً وكان يحس أنها ستزيحه هو أيضا، وعاشت زوجته في رعب دائم وماتت عندما كانت تضع طفلاً ولد ميتا.

ووضعت له زوجته الثانية ماريا فودوروفنا Maria Feodorovna ابنه إسكندر (١٧٧٧) وفكرت كاترين لفترة في تسميته وليا لعهدها وإزاحة بول، لكنها لم تحول هذه الفكرة الدائرة في رأسها إلى عمل، وإن كان بول قد أحس بها مما جعله مرتاباً في ابنه. وفي سنة ١٧٨٣ منحت كاترين، بول، مزرعة وعقارا في جاتشينا Gatchina على بعد ثلاثين ميلا من سان بطرسبرج، وهناك راح بول يدرب فوجاً عسكريا خاصا به ويعلمه على نسق أسلوب أبيه - أسلوب خطوة الإوزة الذي أخذ به فريدريك الكبير، وخشيت كاترين أن يقوم بمحاولة أخرى لعزلها فأرسلت جواسيسها لمراقبته، فعين هو بدوره جواسيس لمراقبة الجواسيس، وتملكته الهلاوس التي كانت تدور حول لقائه مع شبح جده بطرس الأول الكبير في أثناء الليل. وبعد اثنتين وأربعين سنة غير سعيدة اعتلى أخيراً العرش كان عقله بالفعل قد اقترب من الإفلات منه.

وفي غمرة مشاعره الطيبة أصدر بعض المراسيم الخيرة. لقد حرر عددا من ضحايا مخاوف كاترين المزمنة - نوفيكوف Novikov وراديشيف Radischev ومفكرين راديكاليين

(*) المقصود أنها تركت تأثيرها الطيب لا في بول وإنما في ابنه إسكندر. (المترجم)

وكوزكيو سكو Kosciusko وآخرين ممن سبق لهم النضال لتحرير بولندا. وكان مرتاعاً من أحوال مستشفى موسكو فأمر بتجديدها وإصلاحها وإعادة تنظيمها (١٧٩٧) فأصبحت نتيجة لذلك واحدة من أفضل مستشفيات أوربا[١٠]. وأصلح العملة وجعلها مستقرة. وخفض الجمارك، وافتتح قنوات (ترعا) جديدة لخدمة التجارة الداخلية.

وعلى أية حال فقد أصدر أوامر محمومة للجنود لتلميع أزرار ملابسهم الرسمية وإصلاحها وتنظيف باروكات الشعر، وأصدر أوامر للشعب يحدد فيها ما يجب عليهم لبسه، ومنع الأزياء التي سادت أوربا بعد الثورة الفرنسية، مهددا المخالفين بعقوبات شديدة[١١] وبحلول عام ١٨٠٠ منع استيراد الكتب المنشورة خارج روسيا ولم يشجع طباعة كتب جديدة في روسيا. وتصدى لأوتوقراطية النبلاء وأعاد لملاك الأراضي ٣٥٠,٠٠٠ قناً (من أقنان الأرض) كانوا ينعمون فيما سبق بأوضاع أيسر كموظفين في الدولة. وأقر العقوبات الصارمة التي صدرت ضد الأقنان المتمردين، على وفق رغبة الملاك[١٢]. أما جنوده الذين كانوا في وقت من الأوقات مخلصين له، فقد امتعضوا لمراقبته الصارمة ونظامه شديد الانضباط. وكانت سياسته الخارجية شديدة التقلب. لقد ألغى خطط كاترين القاضية بإرسال ٤٠,٠٠٠ جندي ضد فرنسا الثورة. واستاء من استيلاء نابليون على مالطا ومصر، وتحالف مع تركيا وإنجلترا ضده، وحث السلطان على السماح للسفن الحربية الروسية بالمرور عبر البوسفور والدردنيل. واستولت سفنه الحربية على الجزر الأيونية وأنزل جنوده في مملكة نابلي للمساعدة على طرد الفرنسيين. لكن عندما رفضت بريطانيا العظمى تسليمه مالطه باعتباره الرئيس الأعلى المنتخب لفرسان مالطه Knights of Malta (من بقايا الحروب الصليبية) انسحب بول من التحالف ضد فرنسا بل وأصبح محبا لنابليون. وعندما بدرت عن نابليون إشارات تدل على نوايا حسنة، منع كل أنواع التجارة مع انجلترا واستولى على البضائع البريطانية الموجودة في المخازن الروسية، وناقش مع نابليون إرسال حملة فرنسية روسية مشتركة لطرد إنجلترا من الهند، وتضاعفت نوبات غضبه بعد أن رأى مجريات الأمور الخارجية لا تسير على وفق هواه وبعد أن رأى مجريات الأمور في الداخل تتضاءل أمام طلباته الكثيرة. لقد عاقب بقسوة لأدنى خطأ وأبعد عن موسكو نبلاء سبق لهم أن شككوا

في سياساته وأرسل إلى سيبيريا ضباط جيش توانوا في تنفيذ الأوامر. وغالبا ما كان ابنه إسكندر موضع حنقه وسخطه[١٣]. وراح النبلاء والضباط - أكثر فأكثر - ينخرطون في المؤامرة لعزله، فأقنع الجنرال ليفين بنيجسن Levin Bennigsen الكونت نيكيتا بانين Nikita Panin وزير الخارجية، واستمالا لخطتهما الكونت بطرس فون باهلن Peter Von Pahlen الذي كان على رأس شرطة المدينة ورئيسا للعسكر فيها، وعملوا ثلاثتهم عل إقناع إسكندر بخطتهم ونجحوا أخيرا إذ وافق إسكندر شريطة عدم إلحاق الأذى البدني بوالده، فوافقوا على ذلك وهم يعلمون أن فرض الأمر الواقع سيكون هو خير دفاع، وفي الساعة الثانية صباح يوم ٢٤ مارس ١٨٠١ قاد باهلن Pahlen المتآمرين ورهطاً من الجند إلى قصر ميخائيلوفسكي Mikhailovsky وهزموا قوات الحرس وأحاطوا بالامبراطور المقاوم (بكسر الواو) وخنقوه حتى مات. وبعد ساعات قليلة أحاطوا إسكندر علماً أنه قد أصبح الآن هو قيصر روسيا الجديد.

٣- تعليم إمبراطور

من الصعب على عقول انشغلت طوال أعوام بحكاية نجم مذنب يقال له نابليون أن تدرك أن إسكندر الأول (ألكساندر بافلولوفتش ١٧٧٧ - ١٨٢٥) كان محبوباً في روسيا على نحو ما كان بونابرت محبوبا في فرنسا. لقد نشأ مثل صديقه وعدوه في رحاب التنوير الفرنسي، ومزج - مثله - أوتو قراطيته بالأفكار الليبرالية، لقد حقق ما حاول أعظم الجنرالات (المعاصرين) تحقيقه (لأنه لابد من احترام سمي القيصر[*]) وفشل - قاد جيشه عبر القارة من عاصمته إلى عاصمة عدوه وتغلب عليه، وأنه في ساعة النصر تصرف باعتدال وتواضع، وأثبت أنه من بين هذا العدد الكبير من الجنرالات والعباقرة أفضلهم أدبا وكياسة. أيمكن أن تنجب روسيا هذا المثل الأعلى؟ نعم، لكن بعد أن انغمس طويلا في آداب فرنسا وفلسفتها بفضل معلم سويسري.

إن طريقة تعليمه في حاجة إلى زينوفون Xenophon آخر ليجعله في سيروبيديا Cyropaedia أخرى عن شباب ملك وتعليمه وتدريبه. لقد تعرض تعليمه لعناصر

(*) إشارة إلى الإسكندر الأكبر المعروف في التاريخ القديم. (المترجم)

متضاربة متصارعة. فأولاً كانت هناك جدته كاترين الكبيرة المشغولة الغائبة - رغم متابعة أمره بدقة. لقد أبعدته كاترين عن أمه ونقلت له مبادئ الحكم المطلق المتنور ممتزجة بنتف من المؤلفين الذين كانت تحبهم - فولتير وروسو وديدرو Diderot - وذلك قبل أن تفقد هي نفسها هذه المبادئ. وربما بتوجيه منها تعلم منذ طفولته أن ينام بلا غطاء ثقيل والنوافذ مشرعة، على حشية من جلد مراكشي (جلد ماعز) محشوة بالقش[١٤]، فأصبح بذلك محصنا ضد تقلبات الجو وتمتع بصحة وحيوية فائقتين. لكنه مات في الثامنة والأربعين من عمره.

وفي سنة ١٧٨٤ أحضرت له كاترين من سويسرا فريدريك سيزار دي لا هارب Frederic Cesar de La Harpe - (١٧٥٤ - ١٨٣٨) ليكون مشرفا على تعليمه، وكان دي لاهارب متحمساً مخلصاً للمفكرين والمثقفين الفرنسيين. ولقن دي هارب تلميذه إسكندر طوال تسع سنوات تاريخ فرنسا وآدابها. وتعلم الأمير كيف يتكلم الفرنسية بإتقان بل وأن يفكر - غالبا - كالفرنسيين. (لا حظ أن نابليون كان يتحدث الفرنسية لكن ليس بشكل تام، وكان يفكر كإيطالي من عصر النهضة «الرينيسانس»). وكانت هناك ممرضة علمت الأمير - بالفعل - اللغة الإنجليزية، والآن فإن ميخائيل مورافيوف Mikhail Muraviov قد علمه لغة الإغريق القديمة وآدابها، ونقل إليه الكونت ن. ج. سالتيكوف N. J. Saltykov عادات الأوتوقراطية الإمبراطورية (الأوتوقراطية تعني حكم الفرد)، وكان هناك معلمون آخرون يعلمونه الرياضيات والفيزياء والجغرافيا. ونقل إليه سومبورسكى Somborsky كبير القسس الأخلاق المسيحية على وفق مبدأ مؤداه أن على كل إنسان «أن يجد في كل إنسان جاراً له لكي يحقق شرع الرب»[١٥] وربما وجب علينا أن نضيف إلى قائمة معلمي إسكندر لويزا إليزابث (من بادن - دورلاش) Luise Elisabeth of Baden - Durlach التي أصبح اسمها إليزافيتا أليكسيفنا Elizaveta Alekseevna والتي تزوجته في سنة ١٧٩٣ بناء على طلب كاترين، وكان في السادسة عشرة من عمره، ومن المفهوم أن إليزافيتا قد علمته الطرق الصحيحة لمباشرة النساء.

لقد كان هذا البرنامج التعليمي ملائما لتخريج عالم ورجل مهذب لكنه لايكاد يصلح

لحاكم مطلق يحكم الروس. وعندما خافت كاترين من التطورات التي حدثت في مسار الثورة الفرنسية لم تعد معجبة بفولتير وديدرو Diderot، وأبعدت لا هارب La Harpe (١٧٩٤) عن تولي مهمة الإشراف على تعليم إسكندر، فعاد إلى سويسرا ليقود ثورة هناك. ووجد إسكندر أن الواقع في البلاط وفي جاتشينا Gatchina يختلف بشكل مربك عن مناقشات الفلاسفة ومثاليات روسو Rousseau. لقد أصابه الرعب لتشابك القضايا التي تواجه الحكومة وتعقدها، وربما ضاع منه التفاؤل الذي علمه إياه لا هارب La Harpe واكتئاب لموت جدته (كاترين). لقد كتب في سنة ١٧٩٦ لصديقه المقرب الكونت كوشبي Kochubey:

« إنني مشمئز للوضع الذي أجد نفسي فيه. إنه بعيد جدا عن طبيعتي التي تتلاءم على نحو أكثر مع حياة السلام والهدوء. فحياة البلاط لا تصلح لي. إنني أحس بالبؤس أن أكون وسط مثل هؤلاء الناس (رجال البلاط)... وفي الوقت نفسه أجدهم يشغلون أعلى المناصب في الإمبراطورية. وباختصار يا صديقي العزيز فأنا أدرك أنني لم أولد لأشغل منصبا عاليا ذلك المنصب الذي أشغله الآن بل إنني أقل من المنصب الذي ينتظرني في المستقبل، وقد أقسمت بيني وبين نفسي أن أتخلى عنه بطريقة أو بأخرى... إن أمور الدولة مضطربة تماما، فالابتزاز والاختلاس في كل مكان، وكل الوزارات والإدارات تدار بشكل سيئ... ورغم كل هذا فلا هم للإمبراطورية سوى التوسع، وعلى هذا أيمكنني أن أدير الدولة، بل أيمكنني ما هو أكثر من هذا – أعني إصلاحها والقضاء على الشرور المتأصلة فيها؟ أظن أن **هذا يفوق طاقة أي عبقري في البال بشخص مثلي ذي قدرات عادية.**

إنني بعد أن وضعت كل هذا في اعتباري أتخذت قراري الذي ذكرته لك آنفا. إن خطتي هي التخلي عن العرش (لا أستطيع أن أقول متى) وأن استقر مع زوجتي على شواطئ الراين لأعيش حياتي الخاصة كمواطن أستمتع بصحبة الأصدقاء ودراسة الطبيعة[١٦] ».

إلا أن الحظ أتاح له خمس سنوات ليكيف نفسه مع متطلبات منصبه. لقد تعلم كيف يقدر العناصر البناءة في الحياة الروسية: المثالية والإخلاص المستوحيان من المسيحية، والاستعداد لتبادل تقديم المساعدة (التعاون)، والشجاعة وتحمل المشاق الناتجة عن الحروب

مع التتار والترك، وقوة الخيال السلافي Slavic وعمقه الذي سرعان ما أفرز أدباً عميقا وفريدا، والكبرياء الصامتة الناتجة عن الوعي بحاضر الروس والمساحة المكانية الكبيرة التي يشغلونها. وفي ٢٤ مارس ١٨٠١ وجدنا إسكندر - الشاعر محب العزلة - وقد تحدته الفرصة المتاحة له، فوجد في جذوره وأحلامه مايمكنه من فهم شعبه وقيادته نحو العظمة ليجعل من روسيا حكما (بفتح الحاء والكاف) لأوربا.

٤- القيصر الشاب: ١٨٠١ - ١٨٠٤

لم يطرد إسكندر أياً من بانين Panin أو باهلن Pahlen فجأة وهما اللذان خططا لمقتل أبيه، فقد خاف نفوذهما كما أنه لم يكن متأكدا من براءته هو نفسه (إذ كان قد وافق على تدبيرهما لخلع والده)، كما كان في حاجة إلى باهلن ورجال البوليس التابعين له لحفظ الأمن في موسكو، كما كان في حاجة إلى بانين Panin للتعامل مع إنجلترا التي كان أسطولها يهدد بتحطيم الأسطول الروسي بعد أن دمر بالفعل الأسطول الدنمركي، وعلى هذا فقد جرى استرضاء بريطانيا، وهكذا انهارت عصبة الحياد المسلح الثانية. فطرد باهلن في يونيو ١٨٠١ واستقال بانين في ديسمبر من العام نفسه.

لقد أمر إسكندر في العام الأول من حكمه بإطلاق سراح آلاف السجناء السياسيين، وسرعان ما طرد الذين كانوا مستشاري بول، ومن كانوا ضالعين في إجراءاته الإرهابية. وفي ٣٠ مارس جمع اثني عشر مسؤولاً من مسؤولي الدولة الكبار ممن هم أقل فساداً من سواهم وكون منهم «مجلساً دائما» لتقديم المشورة له في مجالي التشريع والإدارة(١٧). واستدعى بعض المبعدين من أكثر النبلاء ليبرالية وعينهم في حكومته: الكونت فيكتور كوشبي Kuchubey وزيراً للداخلية، ونيكولاي نوفوسيلاتسوف Novosiltsov وزيراً للدولة، والكونت بافال ستروجانوف Stroganov وزيراً للتعليم، كما عين الأمير آدم جرزي شارتورسكي Adam Jerzy Czartoryski - الوطني البولندي المتآلف مع السلطة الروسية - وزيراً للشئون الخارجية. وكون من هؤلاء وغيرهم من رؤساء الإدارات مجلس الوزراء Committee of Ministers كجهاز استشاري آخر. وقد استدعى إسكندر من سويسرا لا

هارب La Harpe كمستشار آخر له (نوفمبر ١٨٠١) لمساعدته في تحديد سياساته والتنسيق بين عناصرها. وكان هناك تحت هذه الأجهزة التنفيذية، مجلس (سينات) نبلاء ذو سلطات تشريعية وقضائية، لمراسيمه وقراراته Ukases قوة القانون إذا لم يعترض عليها القيصر. وظلت إدارة الولايات في أيدي معينين من قبل الحكومة المركزية.

وكل هذه التنظيمات تشبه التنظيمات الإمبراطورية في ظل نابليون باستثناء أن مجلس النواب كان في ظل نابليون يتم اختيار أعضائه بالانتخاب، كما أنّ القَنانة ظلت موجودة في روسيا ولم يكن للأقنان (عبيد الأرض) أيٌّ حقوق سياسية، وكان مستشارو إسكندر في أعوام حكمه الأولى من الليبراليين المتعلمين تعليماً جيداً، لكنهم كانوا خاضعين لطبيعة الأشياء أو لأحكام الضرورة على حد تعبير نابليون. فقد بدت «الحقوق rights» في هذه الظروف مجرد أوهام في مواجهة الضروريات، في أمة ٩٠٪ من أهلها فلاحون أشداء أميون لا يتوقع منهم أحد أن يفكروا لأبعد من القرى التي يعيشون فيها سواء من ناحية الاقتصاد أو التنظيم السياسي أو الإنتاج والتوزيع أو الدفاع. لقد كان إسكندر مُذْعناً لنظام النبالة القوي حيث كان للنبلاء تشكيلاتهم التنظيمية الخاصة، ونظامهم المحلّي لتسيير أمور الزراعة والقضاء والشرطة والصناعات الريفية. وكانت القنانة (عبودية الأرض) عميقة الجذور راسخة عبر الزمن حتى إن القيصر لم يكن يجسر على مهاجمتها خوفاً من قَلْقَلة النظام الاجتماعي وضياع عرشه. وكان إسكندر يتلقّى شكاوى من الفلاحين، وكان في حالات كثيرة يُنزل عقوبات قاسية بملاّك الأراضي المذنبين[١٨] لكنه لم يكن يستطيع أن يقيم على مثل هذه الحالات برنامجاً لتحرير رقيق الأرض. لقد كان لابد من مرور ستين عاماً قبل أن يستطيع إسكندر الثاني تحرير رقيق الأرض في روسيا (قبل إعلان لينكولن Lincoln إلغاء الاسترقاق بعامين). ولم يجد نابليون – الذي عاد من روسيا مهزوماً (١٨١٢) أن إسكندر قد أخطأ في هذا الاتجاه لقد قال نابليون لكولينكور Caulaincourt : «إن إسكندر ليبرالي جداً، وهو ديموقراطي جداً بالنسبة إلى الروس.. فهذه الأمة تحتاج لقبضة حديدية.. وسيكون أكثر ملاءمة لو حكم أهل باريس.. إنه ودود مع النساء، مجامل مع الرجال...،

وطريقته اللطيفة في التصرف تدعو إلى البهجة[١٩](*).

وفي ظل هذه الظروف المقيِّدة (بتشديد الياء وكسرها) أحدث إسكندر شيئاً من التقدم. لقد عمل على تحرير ٤٧,١٥٣ فلاحاً، وأمر أن تكون القوانين واضحة دائمة متَّسقة، فكما ورد في مذكراته التفسيرية لقوانينه «أن يقوم رخاء شعبنا على نسق قوانيننا الموحَّدة اعتقاداً منا أن هذه الإجراءات المختلفة قد تجلب للبلاد السعادة التي لا يؤكدها - للأبد - إلاَّ تلك القوانين، ولقد عملتُ منذ اليوم الأول لحكمي على استقصاء أحوال هذا الجانب في الدولة»[٢٠]. وأمر أن يكون الاتهام والمحاكمة والعقاب على وفق إجراءات محدَّدة مقنّنة ومُلزمة. كما أمر أن تقضي المحاكم العادية - لا السرية - في الجرائم السياسية. والآن فقد هذَّبت التنظيمات من أحوال البوليس السرِّي وتمّ منع التعذيب (لقد منعه بول لكنه ظل سائداً في أثناء حكمه) وتمَّ السماحُ للروس الأحرار (المقصود غير الأقنان) بالسفر خارج روسيا والعودة إليها، وسُمح للأجانب بدخول روسيا على وفق إجراءات ميسّرة أكثر من ذي قبل. وتم دعوة ١٢,٠٠٠ مَنْفِيّ للعودة إلى روسيا. وظلت الرقابة على الصحف قائمة لكنها أصبحت من اختصاص وزارة التعليم مع طلب مهذّب وهو أن تكون هيّنة ليّنة مع المؤلفين[٢١]. وتم إلغاء الحظر على استيراد الكتب الأجنبية وإن ظل هذا الحظر سارياً على المجلات، وفي سنة ١٨٠٤ تم إقرار الحرية الأكاديمية تحت إشراف مجالس جامعية، على وفق نظام أساسي.

وكان إسكندر مدركاً أنَّ أيَّ إصلاح لا يمكن أن يزدهر ويُؤتي ثماره إلاّ إذا كان مفهوماً ومؤيَّداً من نسبة كبيرة من السكان، ففي سنة ١٨٠٢ عَهِدَ إلى وزارة التعليم بمعاونة نوفوسيلستوف Novosilstov وتشارتوريسكي Czartoryski ومخائيل مورافيوف Muraviov مهمة تنسيق نظام تعليمي عام جديد. وصدر قانون (نظام أساسي) في ٢٦ يناير ١٨٠٣ يُقسِّم روسيا إلى ستة أقاليم regions يكون في كل إقليم منها جامعة واحدة

(*) كان نابليون يعرف إسكندر جيداً، ولم يكن - أي نابليون - لديه من الأسباب ما يجعله يحبّه، ومع هذا كان رأيه فيه طيباً، لكن فكرة نابليون هذه تتناقض مع فكرة بعض المؤرخين الفرنسيين المُحدثين الذين يرون أنه لم يكن مخلصاً في ليبراليته وأنه كان يغطي سياسته الخارجية المنطوية على الخيانة والخداع بمظهر كاذب وعبارات مداهنة. انظر:

- Georges Lefebvre, Napleon, I, 199 - 200.
- Louis Madelin, The Consulate & the Empire, I, 349 - 50.

وما ذكرناه في المتن يؤكد قبولنا لفكرة أنه كان مخلصاً في ليبراليته في أثناء سنوات حكمه الأولى.

على الأقل، وأن تكون هناك مدرسة ثانوية على الأقل في كل جوبرنيا Guberniya (ولاية)، وأن تكون هناك مدرسة - على الأقل - في كل مقاطعة (كونتية) ومدرسة ابتدائية على الأقل في كل تقسيم أبرشي، وبالإضافة إلى الجامعات التي كانت موجودة بالفعل (جامعات موسكو وفيلنا Vilna ودوربات Dorpat) أنشئت جامعات سان بطرسبرج، وخاركوف Kharkov وقازان Kazan، وفي هذه الأثناء كان النبلاء لايزالون يُتيحون التعليم الخاص والمدارس الخاصة لأبنائهم، ومنع الرّابيون اليهود (الحاخامات) الآباءَ من إلحاق أبنائهم بمدارس الدولة باعتبارها أداةً مراوِغةً لتدمير الإيمان اليهودي[٢٢] .

٥- اليهود في ظل حكم إسكندر

تحسَّنت أحوال اليهود بشكل ملحوظ في ظلِّ (حظائر الاستيطان Pale of settlement) أي المناطق التي سُمح لليهود بالإقامة فيها، وذلك في عهد كاترين الثانية. وفي سنة ١٨٠٠ كانت هذه المناطق Pale (الحظائر) تشمل كل المناطق البولندية التي كانت تابعة لروسيا ومعظم مناطق جنوب روسيا بما في ذلك كييف Kiev وشيرنيجوف Chernigov، وإكاترينوسلاف Ekaterinoslav والقرم. وخارج هذه المناطق Pale لم يكن أي يهودي يستطع أن يُقيم إقامة دائمة. أمّا خلال هذه المناطق فقد كان اليهودُ البالغُ عددهم ٩٠٠,٠٠٠ في سنة ١٨٠٤[٢٣] يتمتعون بكل حقوق المواطنة بما في ذلك التعيين في الوظائف الحكومية مع استثناء واحد : اليهودي الراغب في الانضمام إلى طبقة التجار ورجال الأعمال في المدن كان عليه أن يدفع ضريبة ضِعْف الضريبة التي يدفعها غير اليهودي فقد كان غير اليهودي يرى أنّ منافسة اليهودي مسألة مستحيلة وأنه إذا تُرِك الأمر تحقق دماره على يد اليهودي[٢٤] ومن هنا وجدنا تجار موسكو (١٧٩٠) يُقدمون شكوى ضد التجار اليهود « الذين يبيعون البضائع الأجنبية بأسعار أقل من أسعارها الحقيقية ومن ثَمّ يُلحقون أضراراً بالغة بالتجارة المحلية »[٢٥] وفي هذه الأثناء أدت منافسة اليهود إلى امتعاض أصحاب الحانات والخانات في الريف فبذلت الحكومةُ قصارى جهدها للإبقاء على اليهود في المدن بعيداً عن القرى. وفي سنة ١٧٩٥ أمرت كاترين ألاّ يكون لليهود حقوق مدنية إلاّ في المدن

وألا يُقيموا في الريف.

وفي نوفمبر سنة ١٨٠٢ عيَّن إسكندر (لجنة لتحسين Amélioration أوضاع اليهود) ودراسة مشاكلهم وتقديم توصيات، فدعت اللجنة الكاهالات Kahals (المجالس الإدارية التي تحكم المجتمعات اليهودية وتفرض عليهم ضرائب تصرف لصالح هذه المجتمعات) لإرسال مندوبين عنها إلى سان بطرسبرج ليناقشوا مع الحكومة المطالب اليهودية، فطلبوا بعد مناقشات مستفيضة مهلة ستة أشهر ليتمكنوا فيها من الحصول على مزيد من الصلاحيات والتعليمات من كاهالاتهم their Kahals، فأرسلت اللجنة توصياتها مباشرة إلى الكاهلات بدلاً من التباحث مع مندوبيها، فرفضت الكاهلات اقتراح اللجنة منع اليهود من امتلاك الأراضي، ومنعهم من بيع الخمور، وطلبوا تأجيل هذه الإجراءات مدة عشرين عاماً لإتاحة الوقت اللازم للتوائم مع هذه الإجراءات الاقتصادية الصعبة، ورفضت اللجنة، وفي ٩ ديسمبر سنة ١٨٠٤ أصدرت الحكومة الروسية بعد موافقة القيصر إسكندر « دستور اليهود أو الدستور اليهودي Jewish Constitution ».

وكان هذا الدستور (المشروطية) مرسوماً بالحقوق، كما كان يقصر الوجود اليهودي على المدن. وكانت الحقوق كبيرة إذ أتاح للأطفال اليهود الالتحاق بكل المدارس والجامعات في الإمبراطورية الروسية وأجازَ لهم تأسيس مدارس خاصة بهم على أن يكون التدريس فيها باللغة الروسية أو البولندية أو الألمانية وأن تستخدم إحدى هذه اللغات في المحَرّرات الرسمية. ولكلٍّ جماعة يهودية أن تختار الرَّابيين (الحاخامات) الخاصين بها وكذلك كاهلاتها Kahal على ألا يصدر الرابي قراراً بالحرمان وأن يكون الكاهال Kahal مسؤولاً عن جمع كل الضرائب التي تفرضها الدولة. ودُعي اليهود للعمل في مجال الزراعة بشراء الأراضي الشاغرة في أجزاء معينة من المناطق المتاح لهم الإقامة فيها Pale أو الاستقرار في أراضي التاج (أراضي الدولة) على أن يُعفوا من الضرائب في غضون السنوات القليلة الأولى.

وعلى أية حال فبحلول الأول من يناير سنة ١٨٠٨ يصبح ممنوعاً على أيِّ يهودي في قرية أو نجع أن يُؤجِّر أرضاً، أو يفتح حانة أو فندقاً أو صالوناً.. أو يبيع نبيذاً في القرى أو حتى أن يعيش فيها بأيِّ حجة مهما كانت » [٢٦].

وكان هذا يعني إبعاد ستين ألف أسرة يهودية عن مساكنها في القرى، ووصلت مئات الالتماسات لسان بطرسبرج يطلب مُقدِّموها تأجيل هذا الترحيل الجماعي وانضم كثير من المسيحيين إليهم يؤيدونهم في مطلبهم هذا وأشار الكونت كوشبي Kochubey إسكندر إلى أنَّ نابليون كان يخطط ليعقد في باريس في فبراير ١٨٠٧ اجتماعاً (سنهدريم) للرَّابيين (للحاخامات) من كل أنحاء غرب أوروبا لصياغة برنامج إجرائي لإعتاق اليهود ومنحهم حق الاقتراع. فأمر إسكندر بإيقاف برنامجه محل الجدل. وربما أحْيت لقاءاته مع نابليون في تيلسيت Tilsit طموحه في إقناع الغرب Westبانه حاكم متنوِّر. وفي سنة ١٨٠٩ أخبر حكومته أن خطة إخلاء اليهود الآنف ذكرها خطة غير عملية لأن «اليهود لن يكون لديهم الوسائل التي تمكنهم من الاستقرار والحصول على مساكن في الأماكن المحيطة بالقرى التي سيُطردون منها، والحكومة بدورها غير قادرة على تدبير مساكن لهم جميعاً»[٢٧] وعندما أصبح الغزو الفرنسي لروسيا وشيكاً أقنع نفسه بضرورة أن يحبه اليهود وأن يكونوا مُوالين للدولة.

٦- الفن الرّوسي

وصف الأمير دي لِنْي de Ligne الذي عرف كل شخص ذي شأن وكل شيء ذي بال في أوروبا في هذا العصر - سان بطرسبرج في نحو سنة ١٧٨٧ بأنها «أجمل مدينة في العالم»[٢٨] وفي سنة ١٨١٢ وصفتها مدام دي ستيل بأنها «من أجمل مدن العالم»[٢٩] فقد كان بطرس الأول قد بدأ في تزيين عاصمته الوليدة بعد أن تملَّكته الغيرة من جمال باريس.

وكانت كاترين تُرضى عشَّاقها الذين تخلَّت عنهم بقصور أكثر بقاء من حبها، وواصل إسكندر الأول رعايته الملكية للأعمدة الكلاسيّة التي تواجه - بصرامة - نيفا Neva. لقد كانت أوروبا تشهد موجة الكلاسيّة الجديدة في هذه الفترة، وقد نسي القيصر والقيصرة الأشكال (الأنماط الفنية) الروسية واستدعوا الأنماط الرومانية، فأرسلا إلى إيطاليا وفرنسا لدعوة المعماريين والنحَّاتين للقدوم إلى روسيا لتخليد الكبرياء السلافية Slavic بالفن الكلاسي.

فقصر الشتاء الذي بدأ العمل فيه بارتلوميو راستريلّي Bartolomeo Rastrelli في سنة ١٧٥٥ وأكمله في سنة ١٨١٧ جياكومو كارنيجي Giacomo Quarenghi وس. ج روسّي C.J. Rossi – هذا القصر كان أكثر القصور الملكية في أوروبا جلالاً ومهابة، يصبح قصرُ فرساي إلى جواره قزما وأقل بهاء: ١٥ ميلاً من الممرات (أروقة ودهاليز..) و٢٥٠٠ غرفة، وما لا يُحصى من الأعمدة الرخاميّة، وألف لوحة فنية شهيرة، وفي الأدوار الدنيا ألفا خادم، وفي جناح واحد، دجاج وبط وماعز وخنازير في مأوى مغطى بالقش(٣٠).

لقد راح إسكندر الأول بعد لقاء نابليون في تيلسيت يجد في نفسه الدافع لمنافسته ليس فقط في مجال القوّة وإنما أيضاً في أن يجعل عاصمته في مثل عظمة عاصمة نابليون. لقد أحضر إسكندر المعماريين الفرنسيين والإيطاليين ليُلْهبوا حماس البنّائين الروس ويُفجِّروا طاقاتهم بما لديهم من علم ومهارة. لقد ظل الفنانون الغربيون مرتبطين بالنماذج الكلاسية لكنهم ذهبوا إلى ما وراء روما وآثارها إلى الجنوب الإيطالي والآثار الإغريقية كمعابد هيرا في بيستيم Paestum (بيز Paese بالقرب من سالرنو). لقد كانت هذه الآثار في مثل قِدَمِ البارثينون Parthénon وتكاد تكون في مثل جمالها، وأعطت الروح الرجولية للأعمدة الدُّورية Doric (الأعمدة الإغريقية على الطراز الدّوري) روحاً جديداً للنزوع الروسي إلى الكلاسيّة الجديدة.

لكن الملمح المميّز «للنمط الإمبراطوري Empire Style في عهد إسكندر هو تخلص فن العمارة الروسي تدريجياً من التأثير اللاتيني. فبينما كان البناؤون البارزون في عهد كاترين (١٧٦٢–١٧٩٦) ثلاثة إيطاليين: بارتولوميو راستريلّي Rastrelli وأنطونيو رينالدي Rinaldi وجياكومو كارينجي Quarenghi، فإن المعماريين الأساسيِّين في عهد إسكندر الأول كانوا هم توماس ثومون Thomas Thomon وأندري فورونيكين Andrei Voronykhin وأدريان زاخاروف Zakharov وهم روس تأثَّروا بالأسلوب الفرنسي(٣١)، وإيطالي هو كارلو روسّي Rossi الذي تبوأ مكاناً رفيعاً في أواخر حكم إسكندر.

وفي سنة ١٨٠١ عَهِدَ إسكندر إلى توماس بتصميم وبناء بورصة الأوراق المالية لمواكبة نشاطات طبقة التجار والماليين الصاعدة في سان بطرسبورج. فأقام المعماري الطموح (سنة

١٨٠٧ وما بعدها) مبنى ضخماً مستوحياً فيه معابد بيستوم Paestum ومحاكياً بورصة إسكندر برونجنيار Brongniart في باريس (١٨٠٨–١٨٢٧) – تحفة فورونيكين Voronykhin الفنية هي الكازانسكي سوبور Kazansky Sobor – الكاتدرائية التي أنشئت تخليداً لذكرى سديتنا (ستّنا) ست (سيدة) قازان التي أقيمت على ضفاف نهر النيفا Neva بين عامي ١٨٠٩– ١٨١١ ، بأروقتها التي تدور مدار نصف دائرة وقبابها الثلاث المدرَّجة التي تذكرنا بأعمال بيرنيني Bernini وميكل أنجلو (ميشيل انجلو) الخالدة أو ببانثيون Panthéon سوفلو Soufflot في باريس – ومبنى الأدميرالية الأكثر مدعاة للتقدير حيث ربع ميل من الأعمدة والكارتيدات Caryatids (الكارتيد عمود على شكل امرأة) وأبراج الكنائس المدببة الذرى، ذلك المبنى الذي تم تصميمه لخدمة البحرية الروسية – ويضارع هذا مبنى الأركان العامة الذي أقامه في ميدان القصر روسّي Rossi بعد موت إسكندر بفترة وجيزة.

وبناء على وصية نيكولا (نقولا) الأول تَوَّجَ ريكارد دي مونتفرّان de Montferrand عصر إسكندر بعمود مرتفع من حجر واحد (عمود مونوليثي) ربما ذكرنا بعمود فيندوم Vendôme في باريس، فرغم أنَّ القيصر قد هزم فرنسا إلا أنه لم يفقد احترامه لفنها.

وجلس النحّاتون الروس أيضاً تحت أقدام الفنّانين الفرنسيين الذين ركعوا بدورهم أمام فنّاني روما الذي استعاروا من فن الإغريق رغم انتصار الرومان على الإغريق. وقبل كاترين الثانية الغربية الشرقية West - Oriented (المقصود تأثرها بالحضارة البيزنطية والرومانية معا)، كان تأثير الدين البيزنطي ذا طابع شرقي Oriental في غالبه يخشى الجسد البشري باعتباره أداةً للشيطان مما دفع الروس إلى الابتعاد عن معظم فنون النحت المتجسدة التي يراها المشاهد من كل الجوانب لكن شيئاً فشيئاً وببطء ومع الروح الوثنية الشهوانية للتنوير دخل النحت مع كاترين وتمَّ التخلّي عن هذه المحاذير (الطابو taboo) في خضم الحرب الداخلية وفي خضم التذبذب بين الدين والجنس. لقد ظل إتْين موريس فالكون Etienne - Maurice Falconet الذي أغرته كاترين بترك فرنسا والقدوم إلى روسيا – ينحت ويحفرُ حتّى سنة ١٧٧٨ ، وفي تمثاله المهم لبطرس الكبير لم يكتف برفع الحصان وراكبه في الهواء وإنما ترك العنان للفن الصحيح لتوصيل رسالته لا يعوقه شيء ودون أن يضع في الاعتبار شيئاً

سوى التعبير عن الجمال والحقيقة والقوّة.

وفي هذه الأثناء أتى نيكولا (نقولا) فرانسوا جل Nicolas - Francois Gilles ليدرّس النحت في سنة ١٧٥٨ في أكاديمية الفنون الجميلة التي كانت قد افتُتحت في سان بطرسبرج قبل قدومه بعام. وكان أحد تلاميذه هو اف. اف شدرين Shedrin قد تم ابتعاثه إلى باريس لمزيد من إتقانه لفن النحت بالإزميل، وقد حقق نتائج باهرة حتى إن تمثاله فينوس Venus ضارع النموذج الفرنسي (المستحمّه أو امرأة تستحم Baigneuse) الذي نحته أستاذه جبريل دلجريه d'Allegrain. وكان شيدرين Shchedrin هو الذي نحت الكارتيدات (أعمدة على هيئة نساء) الخاصة بالبوابة الرئيسية لأدميراليّة زخاروف - والأخير من بين تلاميذ جل Gilles المشاهير هو إيفان ماركوس Ivan Markos - عمل لفترة مع كانوفا Canova وثوروالدسون Thorwaldson في روما وأضاف إلى مثاليتهم الكلاسيّة شيئاً من العواطف الرومانسية التي حلت محل عصر الكلاسية الجديدة.

وقال النقاد إنه جعل الرخام يبكي وإن عمله لا يصلح إلا للقبور[٣٢]. ولازالت مقابر لينتجراد تعرض فنه.

واجتاز فن الرسم في روسيا تحولاً أساسياً من خلال التأثير الفرنسي في أكاديمية الفنون الجميلة. فحتى سنة ١٧٥٠ كاد الفن يكون دينيا تماماً إذ كان في غالبه يتكون من أيقونات Icons مرسومة بالألوان المموهة distemper، أو رسوماً جدارية (فريسكو) على الخشب. وسرعان ما أدّت الميول الفرنسية لكاترين واستدعائها للفنانين الفرنسيين والإيطاليين إلى أن قلّدهم الفنانون الروس، فانتقلوا من الرسم على الخشب إلى استخدام الكانفا Canvas ومن الفريسكو إلى الرسم بالزيت ومن الموضوعات الدينية إلى الموضوعات الأخرى المختلفة - تاريخية ووطنية وطبيعية وأخيراً شعبية.

ووصل أربعةُ فنانين إلى درجة الامتياز في عهد بول وعهد إسكندر. لقد وجد فلاديمير بورفكوفسكي Vladimir Brovikovsky (مودلات) جذابة من بين نساء البلاط الشابات بعيونهن المرحة أو المتأمّلة وبصدورهن العالية الفخورة وبملابسهن المزهرّة[٣٣]، وربما يكون قد تأثر بمدام فيجي - ليبرون Vigee- Lebrun التي كانت ترسم في سان بطرسبرج في سنة

١٨٠٠ – كما رسم كاترين المسنّة في لحظة بساطة وبراءة غير متوقّعة أبداً من هذه المرأة الشَّبقة التوّاقة للجماع، وترك لنا – في هيئة قاسية رسماً لامرأة مجهولة وعلى رأسها شعرها المستعار(٣٤) ربما كان يقصد بها مدام دي ستيل التي دارت في أنحاء أوروبا هروباً من نابليون.

أما فودور أليكسيف Feodor Alekseev فابتُعث إلى البندقية ليكون مهندس ديكور إلا أنه عاد ليصبح أحد أبرز رسّامي المناظر الطبيعية الروس. وفي سنة ١٨٠٠ رسم سلسلة لوحات لموسكو بقيت لتكون أفضل مرشد لنا لشكل المدينة قبل أن يتم حرق ثلثها وأنف نابليون يَشُم ريح الحريق.

أما سيلفستر شيدرين Sylvester Shchedrin ابن النحات الآنف ذكره فقد أحب الطبيعة أكثر من النساء كملهمة لفرشاته. ابتُعث إلى إيطاليا في سنة ١٨١٨ لدراسة الفن فأحب شمس نابلي وسواحلها وغاباتها، كما أحب كل ذلك في سورّنتو Sorrento.

أما أوريست أداموفتش كبرنسكي Orest Adamovich Kiprensky (١٧٨٢–١٨٣٦) فاقترب من ذروة العظمة بين الرسامين الروس في عصره. وكان ابناً غير شرعي أنجبته امرأة من أقنان الأرض فتبنّاه زوجها وحرّره فوجد طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة بعد أن ساعدته الظروف، ومن أفضل رسومه الأولى صورة لأبيه بالتبنّي، رسمها في سنة ١٨٠٤ وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، لقد بدا أمراً لا يُصدَّق أن يستطيع شابٌ في مثل هذه السن الوصولَ إلى الفهم والتمكّن اللذين يجعلانه يرى (وينقل) في صورة شخصية واحدة قوّة البدن وقوة الشخصية اللتين تجلّيتا في سوفورف Suvorov و كوتوزوف Kutuzov، واللتين (قوة البدن وقوة الشخصية) قادتا الروس المنتصرين من موسكو إلى باريس (١٨١٢–١٨١٣) أما الصورة التي رسمها كبرنسكي (١٨٢٧) للشاعر بوشكين فمختلفة تماماً إذ أظهر فيها الجمالَ والوسامةَ والحساسيةَ والتأملَ ورأساً عامراً بالروائع. ومرة أخرى نجد له عملاً فريداً، ونعني به تلك الصورة للضابط الفارس إيفجراف دانيدوف Evgraf Davidov، وهي صورة بالحجم الطبيعي في حلة رسمية جميلة ومظهر فخور، وإحدى يديه على سيفه وفي سنة ١٨١٣ بعد أن أصبح العالمُ مختلفاً تماماً رسم صورة للشاب إسكندر بافلوفتش باكونين Bakunin ولا ندري مدى قرابته لميخائيل ألكزاندروفتش باكونين الذي أزعج في وقت لاحق

كارل ماركس بأطروحاته المخالفة وأسس الحركة التقدميّة في روسيا Nihilist movement وكان كبرنسكي نفسه متمرداً على نحوٍ ما متعاطفاً مع حركة « الديسمبريين Decembrist » التي قامت في سنة ١٨٢٥ ولما اتضح للسلطات أنه محرِّض اتجه لفلورنسا طلباً للأمان، حيث طلب منه متحفُ أوفيزي Uffizi صورةً له. ومات في إيطاليا في سنة ١٨٣٦ واعترفت به الأجيال الروسية اللاحقة كأعظم فنان روسي في عصره.

٧- الأدب الروسي

في ظل كاترين الكبرى أزهر الأدبُ الروسيُّ وانحطّ في آن، فقلما شهد التاريخ حاكماً أبدى هذا الحماس للاستسلام لثقافة أجنبيّة، فقد أحبّت التنوير الفرنسي وجنّدت بحذق كُلاً من فولتير وديدرو Diderot وفريدريش ملشيور فون جريم Grimm كمدافعين فصحاء عن روسيا في كل من فرنسا وألمانيا. لكن عندما قامت الثورة الفرنسية اهتزّت كل العروش فتم استبعاد كل أرباب التنوير باعتبارهم أصل المقصلة (الجيلوتين). لقد ظل البلاط الروسي يتحدث فرنسية القرن الثامن عشر لكن الكتّاب الروس أظهروا ما في لغتهم الروسية من جمال، وكان بعضهم على وفق رواية مدام دي ستيل يطلقون على من يجهل لغتهم الروسية (أبكم وبه صَمَمٌ)[٣٥] ودارت معركة حامية على مستوى الأمة بين المعجبين بالأنماط الأجنبية في الحياة والأدب والمتمسكين بالأخلاق الروسية، والعادات الروسية وأساليب الحياة والحديث في روسيا، وكانت هذه الروح مفهومة وضرورية لتأكيد ذات الأمة وطبيعتها وعقلها، وفتحت الطريق لفيض العبقرية الأدبية الروسية في القرن التاسع عشر. وقد استلهمت هذه الحركة اتجاهها إلى حد كبير من حروب إسكندر ونابليون.

وكان إسكندر نفسه رمزاً لهذا الصراع في طويّة نفسه وفي تاريخه لقد كان حسّاساً جداً للجمال من الطبيعة والفن، وفي المرأة وفي طويّة نفسه، لقد اعترف للفنّ بمعجزتين، معجزة الدوام والخلود فهو يخلّد الحب العابر ويخلّد الشخصية الطارئة، ومعجزة المعنى المتنور فهو يستخرج النموذج الأمثل من الواقع غير المتجانس. لقد جعل تأثير لا هارب La Harpe وفرنسة البلاط الروسي من حفيد كاترين الألمانية رجلاً مهذّباً (جنتلمان) يضارع أيّ غالي

(فرنسي) في مسلكه وتعليمه . وكان من الطبيعي أن يشجِّع كارامزين Karamzin وآخرين على إدخال اللطائف والحدّة الذهنية في الحديث الروسي وطرق التصرف . تلك اللطائف والحدّة الذهنية السائدة في أسلوب الفرنسي إذا تحدث، وفي طريقته في التصرف، وأدّت صداقته لنابليون (١٨٠٧–١٨١٠) إلى تدعيم هذا الاتجاه الغربي Westward، لكن صراعه مع نابليون (١٨١١–١٨١٥) أدى إلى لمس جذوره الروسية فعاد ليتعاطف مع إسكندر شيزكوف Aleksandre Shiskov والسلافوفيليين Slavophils، وفي كلتا الحالتين كان إسكندر يشجع المؤلفين بالرواتب أو الوظائف الشرفية (حيث يتقاضى شاغلها راتباً دون أن يؤدي عملاً حقيقياً) أو الأوسمة أو المنح.

وأمر بأن تطبع الحكومة على نفقتها الأعمال المهمة أدبية كانت أم علمية أم تاريخية . وقدم العون المالي لترجمة أعمال آدم سميث وبنثام Bentham وبيكاريا Beccaria ومونتسكيو.

وعندما علم أن كارامزين Karamzin يرغب في كتابة تاريخ روسيا لكنه يخشى أن يفتقر نتيجة تفرغه لهذا العمل، قدَّم له ألفي روبل كراتب سنوي وأمر وزارة الخزانة بنشر مجلداته على نفقتها[٣٦].

وكان نيكولاي (نقولا) ميخائيلوفتش كارامزين (١٧٦٦–١٨٢٦) ابنا للتتري من ملاك الأراضي في ولاية سيمبيرسك Simbirsk في حوض الفولجا الأدنى . وتلقَّى قسطاً وافراً من التعليم وأتقن الألمانية والفرنسية وقام برحلة أعد لها جيداً في كل من ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا استغرقت ثمانية عشر شهراً، وعندما عاد إلى روسيا أسس مجلة شهرية (the Moskovsky zhurnal) كان من أجمل ما نشر فيها ما كتبه هو عن رحلته (خطابات رحّالة روسي) إذ كان بأسلوبه السهل الرشيق لا يصف الأشياء التي رآها فقط . وإنما يعبّر عن مشاعره إزاءها مستوحياً تأثيرات روسو والنزوع الروسي الوجداني . وسار كارامزين خطى أوسع في اتجاهه الرومانسي هذا في روايته (ليز البائسة Poor lisa) (١٧٩٢) : وليزا هذه بنت فلاحة تعرضت للاغتصاب والهجر وانتحرت . ورغم أن الحكاية لا تدّعي أكثر من كونها قصة (من نسج الخيال) فإن البقعة التي أغرقت فيها ليزا نفسها أصبحت محجاً

للشباب الروس (٣٧).

لقد كاد كارامزين يترك بصماته في كل مجالات الأدب. فقد كان لقصائده ذوات الاتجاه الرومانسي الواضح جمهور عريض. وقد صدم السلافوفيليين (الرافضين للتأثيرات الأجنبية في الأدب الروسي وأسلوب الحياة الروسية) بإدخاله المصطلحات الفرنسية والإنجليزية لتحل محل المصطلحات أو العبارات الروسية التي بدت لأذنيه – وهما أذنا رحالة – غير رشيقة أو غير دقيقة أو متنافرة النغمات. وقد اتهمه شيشكوف بأنه خائن لوطنه إلا أن كارامزين ظل متمسكا بموقفه وانتصر: فقد نقى اللغة الروسية ونشرها وجعلها لغة موسيقية نقلها واضحة نقية ليتلقفها بوشكين وليرمونتوفLermonotov.

لقد ساد اتجاه كارامزين لسبب آخر أيضا: لقد كان يطبق مايدعو إليه في اثني عشر مجلدا تكوّن أول تاريخ حقيقي لروسيا. وقد أعانته المساعدة المالية التي قدمتها له الحكومة على التفرغ تماما لهذا العمل. لقد نقل عن الحوليين الأوائل بحكمة وتمييز وأفعم سردهم البارد بالعاطفة وخفف وطأة الحكاية الطويلة برشاقة أسلوبه ووضوحه. وعندما ظهرت المجلدات الثمانية الأولى (١٨١٦ – ١٨١٨) في ثلاثة آلاف نسخة تلقفتها الأيدي فنفدت في خمسة وعشرين يوما. ولم يكن تاريخه هذا يضارع الكتابات التاريخية لفولتير وهيوم وجيبون Gibbon، ولكنه كان عملا ذا طابع وطني صريح، وكان المؤلف يرى أن الحكم الملكي المطلق هو الحكم الأمثل لشعب يناضل ليعيش في مواجهة مناخ لا يرحم وغزاة متبربرين وكان مضطرا لإيجاد قانون وهو ينتشر مبتعدا عن مصادر الخطر. وقد أثبت هذا الكتاب (تاريخ روسيا) أنه منجم نفيس استقى منه الشعراء الروائيون طوال أجيال متعاقبة فمن هنا – على سبيل المثال – وجد بوشكين قصة بوريس جودونوف Boris Godunov. لقد أسهم كتاب (تاريخ روسيا) بتواضع في صد نابليون وإبعاده عن موسكو بالسمو بالروح الروسية لتقوم بدورها المتألق والفريد في مجالي الأدب والموسيقا في القرن التاسع عشر.

وكما كان كارامزين هو هيرودوت عصر إسكندر المزدهر، كذلك كان إيفان أندريفتش كريلوف Krylov (١٧٦٩ – ١٨٤٤) هو كإيسوب Aesop في هذا العصر نفسه. وكان

إيفان ابنا لجندي بسيط في الجيش ربما أخذ من معسكرات الجيش بعض الخشونة في الحديث وبعض الشتائم الحادة التي جعلت كوميدياته حادة حتى أدمت الأوضاع القائمة، وعندما أجبرته الحكومة على السكوت انسحب من مجال الأدب إلى مجالات عملية أخرى – عمل مدرسا وسكرتيراً ومقامرا ولاعب ورق محترفاً . .وفي سنة ١٨٠٩ أصدر كتابا عن الحكايات والنوادر على ألسنة الحيوانات والطيور جعلت كل من يقرأها يغرق في الضحك على الجنس البشري إلا القارئ (أي أن القارئ في هذه الحال لا يضحك على نفسه ظنا منه أنه مستثنى من النقد والسخرية الواردين في الحكاية). وكانت بعض هذه الحكايات – كما جرت العادة غالبا في كتب الحكايات – تعكس ما رواه قصاصون سابقون، خاصة لافونتين La Fontaine وتعرض معظم حكاياته – على ألسنة الأسود والأفيال والغربان وفلاسفة آخرين – الحكمة الشعبية في أشعار شعبية يتكون البيت الواحد منها من مقطع قصير وآخر طويل، يتفق طوله مع المناسبة. وأعاد كريلوف Krylov اكتشاف أسرار الراوين الكبار لهذه الحكايات – إنها الحكمة الوحيدة المفهومة الواضحة أعني بها حكمة الفلاحين التي تظهر فيها الذات واضحة دون رياء أو غطاء كاذب. لقد عرض كريلوف رذائل الناس وغباءهم وخداعهم وفسادهم، وكان من رأيه أن هجاءه هذا كله وتعريته كتعليم وإرشاد يفوق تأثير شهر في السجن. ولم يكن هناك من يظن أن الحكاية تنطبق عليه – سوى قليل من القراء – لذا فقد أقبل القراء بشغف على شراء هذا المجلد الصغير (بيع منه أربعون ألف نسخة في عشر سنوات)، وكان هذا الإقبال غريبا في بلاد تعد معرفة القراءة والكتابة فيه مدعاة للفخر. وراح كريلوف Krylov يدمي مجتمعه بشكل دوري بنشر عشرة مجلدات أخرى في الفترة من ١٨٠٩ إلى ١٨٤٣. ولأن الحكومة كانت ممتنة لكريلوف لتحفظه بشكل العام فقد عينته في المكتبة العامة، فتولى منصبه راضيا كسولا حتى أتى يوم – وكان في الخامسة والسبعين من عمره – تناول فيه عدد كبيرا من طيور الحجل فمات[٣٨].

٨- إسكندر ونابليون: ١٨٠٥ – ١٨١٢

كاد كل منهما (إسكندر ونابليون) يصلان إلى السلطة في الوقت نفسه، وقد وصل

كلاهما إليها بعد أحداث عنف. لقد وصل نابليون إلى السلطة في ٩ نوفمبر ١٧٩٩ أما إسكندر فتسنمها في ٢٤ مارس ١٨٠١. وكما اقتربا زمانا فقد تباعدا مكانا: كقوتين متواجهتين في خلية فقد مد كل منهما سلطانه حتى مزّقا القارة الأوربية، الأول (نابليون) في أوسترليتز Austerlitz حربا، ثم في تيلسيت Tilsit سلاما. وكان كلاهما يتصارعان على تركيا لأن كليهما كان يفكر في السيطرة على القارة الأوربية، ومفتاحها إسطنبول (القسطنطينية)، وكلاهما أخذ دوره في مغازلة بولندا لأنها معبر إستراتيجي بين شرق (أوربا) وغربها. وكانت حرب ١٨١٢ - ١٨١٣ ذات هدف فقد كانت هي التي ستقرر أي قوة منهما ستسيطر على القارة، وربما تغزو الهند. لقد واجه إسكندر ابن الرابعة والعشرين في سنة ١٨٠١ هرج القوى العريقة في أساليب الخداع فتذبذت سياسته الخارجية لكنه كان يمد مجال حكمه بشكل متكرر. وتغيرت مواقفه من تركيا بين الحرب والسلام وضم جورجيا في سنة ١٨٠١ وألاسكا Alaska في سنة ١٨٠٤ وتحالف مع بروسيا في ١٨٠٢ ومع النمسا في ١٨٠٤ ومع إنجلترا في ١٨٠٥. وفي سنة ١٨٠٤ رفع له وزير خارجيته خطة لتقسيم الإمبراطوية العثمانية[٣٩] وامتدح جهود نابليون في فترة القنصلية وأدانه لإعدامه دوق دنجين d'Enghien دون محاكمة متأنية، وانضم للنمسا وبروسيا في حرب مدمرة ضد المغتصب (نابليون) (١٨٠٥ - ١٨٠٦) ثم قابله وقبله في تيلسيت Tilsit (١٨٠٧) واتفق معه على أن نصف أوربا يكفي الواحد منهم، حتى إشعار آخر.

وغادر كل منهما تيلسيت وهو مقتنع أنه حقق نصرا دبلوماسيا كبيرا، وحث نابليون القيصر إسكندر على التخلي عن إنجلترا والتحالف مع فرنسا وتقوية الحصار القاري بمنع دخول البضائع البريطانية. وقد أنقذ إسكندر مملكته من غزو مدمر بالتخلي عن حليف والتحالف مع حليف أقوى، وأمن لنفسه حرية التصرف مع السويد وتركيا، فقد كان جيشه الرئيس مبعثرا في فريدلاند Friedland. لقد امتدح الجيش الفرنسي والعاصمة الفرنسية انتصارات نابليون العسكرية والدبلوماسية، أما إسكندر فعندما عاد إلى سان بطرسبرج وجد كل من فيها تقريبا - الأسرة المالكة والبلاط والنبلاء ورجال الدين والتجار والعامة - مصدومين لأنه - أي إسكندر - وقع اتفاق سلام مهين مع مدع لص ملحد ونشر بعض

الكتاب – مثل ف. ن. جلينكا Glinka وكونت فودور روستوبشين Rostopchin (حاكم موسكو في وقت لاحق) مقالات يوضحون فيها أن سلام تيليست مجرد هدنة ووعدا بأن الحرب ستنشب من جديد ضد نابليون في الوقت المناسب وستنتهي – أي هذه الحرب – بتدميره نهائيا[٤٠].

وانضمت طبقة رجال الأعمال إلى المهاجمين لمعاهدة السلام ما دامت تعني قيام روسيا بإحكام الحصار القاري إذ كان التبادل التجاري تصديراً واستيرادا مع بريطانيا مسألة حيوية لتحقيق الرخاء، وكان منع هذه التجارة يعني تدمير التجار ورجال الأعمال وإرباك اقتصاد البلاد خاصة وأن حكومة روسيا كانت قد اقتربت من الإفلاس في سنة ١٨١٠.

واهتزت ثقة إسكندر فأحكم قبضته وأعاد فرض الرقابة على الأحاديث والصحافة وألغى خطته الإصلاحية واستقال وزراؤه الليبراليون – كوشبي Kochubey وتشارتوريسكى Czartoryski ونوفوسيلستوف Novosilstov – وغادر اثنان منهم روسيا. وكان إسكندر قد اتخذ في سنة ١٨٠٩ مستشارا أثيرا لديه وهو إصلاحي مندفع افترض أن القيصر مقبل على تكوين حكومة دستورية (ونعني به الكونت ميخائيل ميخائيلوفتش سبيرانسكي Speransky) وذلك في محاولة أخيرة من إسكندر لتحرير نفسه من التيار المحافظ المحيط به.

كان الكونت ميخائيل سبيرانسكى Speransky ابنا لقس في إحدى القرى. ولد في سنة ١٧٧٢، وطور شغفه بالعلوم ووصل إلى درجة أستاذ الرياضيات والفيزياء في معهد سان بطرسبورج ولفتت جهوده تشار يفتش إسكندر فتم تعيينه في وزارة الداخلية التي كان على رأسها في ذلك الوقت كوشبي Kochubey. فأظهر قدرة على العمل بجد شديد وتقديم التقارير الواضحة حتى إن القيصر عينه للإشراف على تقنين القوانين الروسية (تنظيمها وتقسيمها إلى مواد)، وعندما انطلق إسكندر للقائه الثاني مع نابليون اصطحب معه سبيرانسكي « كصاحب أوضح رأس في روسيا[٤١] » (المقصود أن تفكيره واضح). وثمة رواية غير مؤكدة مؤداها أن إسكندر عندما سأله عن رأيه في أحوال الدول الواقعة تحت سيطرة نابليون أجاب: « إن لدينا رجالاً أفضل، ولديهم مؤسسات أفضل[٤٢] » وعندما عادا

إلى سان بطرسبرج راح القيصر يوكل إليه المزيد من الصلاحيات حتى وجدا نفسيهما يفكران في إعادة بناء الحكومة الروسية برمتها. لقد أراد سبيرانسكي إلغاء القنانة (عبودية الأرض) ولكنه اعترف أن هذا محال في سنة ١٨٠٩، وعلى أية حال فقد اقترح إصدار مرسوم للتمهيد لذلك بالسماح لكل الطبقات بشراء الأراضي، وربما يكون في هذا متأثرا بإجراء مشابه اتخذه شتاين Stein في بروسيا. واقترح أن تكون الخطوة التالية هي أن يقوم كل الملاك في كل مدينة وزمامها (فولوست Volost) بانتخاب مجلس محلي Local duma يتحكم في الميزانية ويعين الموظفين المحليين ويختار ممثليه، ويقدم التوصيات لمجلس المركز district duma الذي يعين الموظفين على مستوى المركز ويقترح سياساتها، ويرسل مندوبيه وتوصياته إلى مجلس الولاية (أو المقاطعة) Provincial duma التي ترسل بدورها مندوبيها وتوصياتها إلى المجلس الوطني National duma في سان بطرسبرج. وليس لأحد سلطة إقرار القوانين سوى القيصر، لكن المجلس الوطني له حق اقتراح القوانين. ويوجد بين المجلس (الدوما) والحاكم مجلس استشاري يعينه الحاكم نفسه ليعينه في الأمور الإدارية والتشريعية.

ووافق إسكندر على الخطة بشكل عام لكن القوى الأخرى في الدولة عوقته. لقد شعر النبلاء أنه قلل من شأنهم، واتهموا سبيرانسكي بأنه من العوام (ليس نبيلا) وأنه منحاز لليهود[٤٣]، ومعجب بنابليون وأنه أثر في فكر إسكندر ليكون - وهو الوزير الطموح - السلطة الكامنة وراء العرش (المقصود ليكون هو الحاكم الفعلي) وانضمت البيروقراطية إلى صفوف المهاجمين لأن سبيرانسكي حث إسكندر على إصدار مرسوم (٦ أغسطس ١٨٠٩) يجعل الحصول على درجة جامعية أو اجتياز اختيار نزيه شرطا للتعيين في الوظائف الإدارية العليا. وتأثر إسكندر بهذه الاعتراضات فأعلن أن الوضع الدولي لا يسمح بتجارب جوهرية في أمور الحكم.

لقد ساءت العلاقات بين إسكندر وفرنسا بسبب زواج نابليون من أرشدوقة نمساوية وبسبب استيلائه على دوقية أولدنبورج Oldenburg (٢٢ يناير ١٨١١) التي كان دوقها هو حما أخت القيصر (إسكندر)، وتعلل نابليون بأن الدوق رفض إغلاق موانئه في وجه

البضائع الإنجليزية[٤٤] . ولم يكن إسكندر يحب قيام نابليون بإنشاء دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة القريبة جدا من المناطق البولندية التي استولت عليها روسيا مخافة أن يقوم نابليون في أي وقت بإحياء مملكة بولندا المعادية لروسيا . ووجد إسكندر أنه ليوحد بلاده صفاً واحدا وراءه، فعليه أن يقدم تنازلات للنبلاء والتجار.

لقد كان يعلم أن البضائع البريطانية (أو البضائع الواردة من المستعمرات البريطانية) تدخل روسيا بأوراق يزورها التجار والموظفون الروس لتفيد أنها بضائع أمريكية وبالتالي فدخولها مباح. فسمح بدخول البضائع البريطانية وكان جانب من هذه البضائع يتخذ طريقه من روسيا إلى بروسيا وغيرها[٤٥] . وقد أرسل نابليون احتجاجا غاضبا إلى القيصر عن طريق الوزير minister الروسي في باريس إلا أن القيصر أصدر مرسوما في ٣١ ديسمبر ١٨١٠ يجيز فيه دخول بضائع المستعمرات البريطانية وخفض التعريفة الجمركية عليها، ورفع التعريفة الجمركية على البضائع الفرنسية. وفي فبراير سنة ١٨١١ أرسل له نابليون خطابا حزينا : « إن جلالتكم لم تعودوا تكنون أي صداقة لي، فلم نعد في نظر إنجلترا وأوربا حلفاء[٤٦] » ولم يجب إسكندر وإنما حشد ٢٤٠,٠٠٠ من جنوده في نقاط مختلفة على حدوده الغربية[٤٧] . وعلى وفق ما ذكره كولينكور Caulaincourt فإن إسكندر كان قد قرر خوض حرب منذ بواكير شهر مايو ١٨١١ : « من الممكن بل ربما من المحتمل أن يهزمنا نابليون لكن هذا لن يتيح له السلام . . . إن بلادنا شاسعة يمكن أن نتراجع فيها . . . . سوف نتركه لمناخنا، ولشتائنا ليخوضا الحرب ضده . . . إنني سأنسحب إلى كامشاتكا Kamshatka لكنني لن أتخلى أبدا عن أي من ممتلكاتي[٤٨] » .

لقد اتفق – الآن – إسكندر مع الدبلوماسيين الإنجليز في سان بطرسبرج ومع شتاين Stein واللاجئين البروس في بلاطه الذين كانوا يقولون له منذ وقت طويل أن هدف نابليون هو ضم كل أوربا إلى حكمه. وليوحد الأمة ألغى كل الإصلاحات وكل اقتراح بالإصلاح، إذ كانت هذه الإصلاحات ستثير عليه أكثر الأسر الروسية نفوذا، بل لقد شعر أنه حتى العوام لم يكونوا مهيئين لها . وفي ٢٩ مارس ١٨١٢ طرد سبيرانسكي ليس من منصبه فقط وإنما من البلاط ومن سان بطرسبورج، وراح يصغي على نحو أكثر فأكثر للكونت المحافظ

أليكسي إراكشيف Aleksei Arakcheev . وفي أبريل وقع معاهدة مع السويد مؤيدا دعاويها في النرويج، وأرسل أوامر سرية لممثليه في جنوب روسيا لعقد معاهدة سلام مع تركيا حتى ولو أدى هذا إلى التخلي عن كل الدعاوى الروسية في مولدافيا وفاليشيا (الأفلاق والبغدان) ليكون الجيش الروسي كله متاحاً لمواجهة نابليون. ووقعت تركيا معاهدة سلام مع روسيا في ٢٨ مايو.

وكان إسكندر يعلم أنه يخاطر بكل شيء لكنه كان قد ارتمى أكثر فأكثر في أحضان الدين كسند يستند إليه في هذه الأيام العصيبة التي يتحتم عليه أن يتخذ فيها قرارا. لقد راح يصلي ويقرأ الكتاب المقدس المسيحي كل يوم. لقد أصبح يرى نابليون الآن أصل الشرور وتجسيداً لها أصبح يراه فوضويا مجنونا لا يشبع من التوسع، ويزداد قوة يوما بعد يوم، وأصبح إسكندر يرى نفسه بمؤازرة شعبه المؤمن، وبمساحة بلاده الشاسعة، هو الوحيد القادر على إيقاف هذا الشيطان المدمر لينقذ استقلال بلاده ويعيد النظام القديم في أوربا، وينزع الأمم من فولتير ليعيدها للمسيح.

وفي ٢١ أبريل ١٨١٢ غادر سان بطرسبرج بصحبة قادة حكومته مصحوبا بدعوات شعبه، واتجه جنوباً إلى فيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا الروسية فوصلها في ٢٦ أبريل وانتظر هناك – على رأس أحد جيوشه – قدوم نابليون.

الحَواشي

حواشي الفصل الخامس والعشرين

1. *CMH*. VIII, 783.
2. Stephens. H. M., *The Story of Portugal*, 385.
3. *Ibid.*, 395.
4. Borrow, Georges, *The Bible in Spain*, 211.
5. Caulaincourt, *With Napoleon in Russia*, 307.
6. Byron, *Childe Harold's Pilgrimage*, 1, Line 33.
7. Altamira, R., *History of Spanish Civilization*, 177-79.
8. Marchand, *Byron*, I, 194.
9. Borrow, 330-31.
10. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution*, I, 364.
11. Altamira, *Spanish Civilization*, 177.
12. Altamira, *History of Spain*, 536b.
13. Longford, Elizabeth, *Wellington: The Years of the Sword*, 17.
14. *Ibid.*, 16.
15. *Ibid.*, 19.
16. *EB*. XXIII, 395b.
17. Longford, 120.
18. Wingfield-Stratford, Esme, *History of British Civilization*, 853.
19. Marx and Engels, *The Revolution in Spain*, 8.
20. *Ibid.*, 30-31.
21. *CMH*, IX, 449.
22. Lefebvre, *Napoleon*, II, 95.
23. *Ibid.*, 94.
24. Longford, 290.

حواشي الفصل السادس والعشرين

1. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution*, I, 382.
2. *Ibid.*, 381.
3. McCabe, Joseph, *Crisis in the History of the Papacy*, 17.
4. *CMH*. VIII, 778.
5. McCabe, *Crisis*, 370.
6. Southey, *Life of Nelson*, 225-28.
7. Méneval, *Memoirs*, II, 493.
8. Bertrand, H., *Napoleon at St. Helena*, 41.
9. Lefebvre, *Napoleon*, II, 211-22; *CMH*. IX, 404; *EB*. XV, 1182.
10. *EB*. XVII, 247b.
11. Madelin, *the Consulate and the Empire*, 211.
12. *Ibid.*, 313.
13. Taine, *Modern Regime*, II, 11.
14. Madelin, 381.
15. McCabe, *Crisis*, 17.
16. Philips, C. S., *the Church in France*, 941.
17. *CMH*. IX, 402.
18. Herold, ed., *Mind of Napoleon*, II.
19. McCabe, *Crisis*, 388.
20. *Ibid.*, 389.

21. Marchand, *Bryon*, II, 679.
22. Rémusat, 259.
23. Stael, Mme. de. *Corinne*, 22.
24. McCabe, *Crisis*, 388.
25. More on Alfieri in *Rousseau and Revolution*, 336-40.
26. Marchand, II, 818.
27. Canova, Antonio, *Works*, edited by Countess Albruzzi and Count Cicognara, Plates 70-71.
28. *EB*, IV, 800c.
29. Canova, II, 3.
30. Balcarres, Lord, *Evolution of Italian Sculpture*, 340.
31. Byron, *Childe Harold's Pilgrimage*, Iv, line 55.
32. *EB*. XVI, 246b.

حواشي الفصل السابع والعشرين

1. *EB*. X, 311a.
2. Brion, Marcel, *Daily Life in the Vienna of Mozart and Schubert*, 37, Remusat, 309' Fouché, *Memoirs*, I, 343.
3. Palmer, Alan, *Metternich*, II.
4. *Ibid.*, 36.
5. Palmer, *Metternich*, 48.
6. Vandal, *Napoléon et Alexandre*, III, 14.
7. Brion, 237.
8. *Ibid.*, 228 - 29.
9. Graetz, H., *History of the Jews*, V. 414.
10. Brion 239.
11. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 64.
12. Thayer, *Life of Ludwig van Beethoven*, I, 253.
13. *Ibid.*, 183.
14. Brion 90.
15. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 67.

حواشي الفصل الثامن والعشرين

1. Thayer, A. W., *Life of Ludwig Van Beethoven*, I, 57.
2. Brockway And Eeinstock, *Men of Music, 166*.
3. Beethoven: *Letters*, tr. and edited By Emily Anderson, I, 4.
4. *EB*. 14th ed., III, 317.
5. Thayer, I, 253.
6. *Ibid.*, 90.
7. *Ibid.*, 148.
8. *Letters*, I, 6.
9. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, I, 265c.
10. Thayer, I, 175.
11. *Grove's*, I, 266c.
12. *Ibid.*, 518.
13. *Ibid.*, 191.
14. *Grove's*, I, 276d.
15. *Ibid.*
16. *Letters*, I, 58.
17. *Ibid.*, 292.
18. Noli, Bp. F. S., *Beethoven and the French Revolution*, 36 ff.

19. *Grove's* I, 58.
20. Letters to Zmeskal in Noli, 34.
21. Thayer, I, 241, 246-47' *Grove's*, I, 268c.
22. *Letters*, I.
23. Thayer, I, 352-54.
24. *Letters*, I, 65.
25. Kerct, F., *Beethoven in His Own Words*, 45.
26. *Letters*, i. 73.
27. Thayer, II, 24.
28. *Grove's*, 282d.
29. *Ibid.*, 268b.
30. Thayer, Ii, 43.
31. *Ibid.*, I, 253.
32. Letters, I, 131.
33. *Ibid.*, 163.
34. *Ibid.*, 219.
35. Thayer, I, 326 - 27.
36. *Ibid.*, II, 146.
37. *Ibid.*, 187-89.
38. *Ibid.*, 223.
39. *Ibid.*, 227.
40. 224. Thayer damns the story with faint Praise: The story may have some foundation in truth.
41. *Ibid.*, 224-26.
42. *Ibid.*, 364.
43. Letter of Jan. 23, 1823.
44. Lang, Paul Henry, *Music in Western Civilization*, 769.
45. B. F. Tovey in EB, 14th ed., III, 32Ib.
46. Thayer, II, 164.
47. *Ibid.*, 164-67.
48. Sullivan, J. W. N., *Beethoven: His Spiritual Development*, 232-39.
49. *Grove's*, I, 300c.
50. Thayer, III, 285.
51. *Letters*, III, 13342.
52. *Ibid.*, 1342.
53. Thayer, III, 307.
54. *Ibid.*, 306.
55. *Grove's*, I, 371d.

حواشي الفصل التاسع والعشرين

1. Treitschke, Heinrich Von, *History of Germany in the 19th Century*, I, 119.
2. Sorel, Albert, *Europe and the French Revolution*, I, 120.
3. *Ibid.*, 120.
4. *Ibid.*, 186.
5. *Ibid.*, 268-9.
6. *Ibid.*, 53-59.
7. Treitschke, 55.
8. *Ibid.*, 65.
9. *Ibid.*, 65.
10. In Fisher, H. A. L., 35.
11. Gooch, G. p., *Germany and French Revolution*, 369.
12. *Ibid.*, 518.
13. Seeley. J. F., *Life and Times of Stein*, I, 128, Sorel, Albert, 480.
14. Treitschke, 187.
15. *Ibid.*, 307, 321.
16. Seeley, I,203.
17. *Ibid.*, 285-97.
18. *Ibid.*, 425.

حواشي الفصل الثلاثين

1. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 84.
2. *EB*. XII, 213d.
3. Fisher, H. A. L., *Studies in Napoleonic Statesmanship: Germany*, 13 - 14.
4. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 306.
5. Fisher, 13.
6. Carlyle, *Critical and miscellaneous Essays*, II, 59.
7. Fisher, 313, 330.
8. Graetz, *History of the Jews*, V, 405.
9. Somewhere in Walt Whitman.
10. Gooch, *Germany and the French Revolution*, 363-64.
11. *Ibid.*, 388.
12. See below, Ch. XXXII, Section I, 3.
13. Paulsen, Friedrich, *German Education*, 117.
14. Fisher, 283.
15. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 116.
16. Gooch, 107.
17. Treitschke, 392.
18. Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 219.
19. *Ibid.*, 220.
20. *EB*. X, 35d.
21. Beel, E. T., 220.
22. *EB*. XI, 813d.
23. Humboldt, Alexander Von, *Cosmos*. Preface, Ix.
24. Thayer, *Beethoven*, I, 196.
25. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, I, 563n.
26. *Ibid.*, 565.
27. *Ibid.*, 635.
28. *Ibid.*, 656.
29. Mantzius, *History of Theatrical Art*, PP. Vi, 234.
30. *Ibid.*, 327.
31. *EB*. XIII, 399d.
32. Francke, Kuno, *A History of German Literature*, 469.
33. *Ibid.*, 470.

حواشي الفصل الواحد والثلاثين

1. Treitschke, 137.
2. Gooch, *Germany and the French Revolution*, 40.
3. Brandes, *Main Current*, Iv, 26.
4. Gooch, 145.
5. *Ibid.*, 143.
6. *Ibid.*, 152.
7. Schiller *Don Carlos*, Act III, Scene 6.
8. Gooch, 214.
9. *Ibid.*, 206.
10. Treitchke, 230.
11. Brandes, Iv, 35.
12. Marchand, *Byron*, II, 883.
13. Brandes, 24.
14. Gooch, 248-49.
15. In Carlyle, *Critical Essays*, II, 119.
16. Gooch, 240.
17. *Rousseau and Revolutions*, 572 ff.

18. In Francke, 416-17.
19. *Ibid.*, 418.
20. Pascal, Roy, *The German Novel*, 30.
21. *Rousseau and Revolution*, 519.
22. Francke, 420.
23. Brandes, IV, 69.
24. *Ibid.*, 91.
25. *Ibid.*, Herold, *Mistress to an Age*, 271.
26. Brandes, 91.
27. *Ibid.*, 54.
28. William Hazlitt, quoted by Francke, 151.
29. Brandes, 89.
30. Friedrich Schlegel, *Gesprache Uber Poesie*, 274, in Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 216 f.

حواشي الفصل الثاني والثلاثين

1. EB, XX, 16d.
2. *EB*. XX, 16d.
3. Lostin Whitman.
4. Gooch, *Germany and the French Revolution, 284-85.*
5. See *Rousseau and Revolutions*, 588.
6. Gooch, 290.
7. *Ibid.*
8. *Ibid.*, 291.
9. Adamson, 184, Hoffding, *History of Modern Philosophy*, II, 157.
10. Adamson, 186-88.
11. Fichte, *Science of Knowledge*, pp. av and 187.
12. Adamson, 178, 204-5.
13. *Ibid.*, 56-63; Brandes, *Main Currents*, IV, 88-89.
14. *Ibid.*, 565.
15. Adamson 77, Gooch, 293.
16. Fichte, *The Vocation of Man*, 157-60.
17. Fichte, *Addresses to the German Nation*, 163.
18. *Ibid.*, 28-29.
19. *Ibid.*, 27.
20. *xvi, xxvii.*
21. *Ibid.*, 165.
22. Adamson, 102.
23. Hoffding, *History of Modern Philosophy*, II, 163.
24. In Brandes, 82, quoting Plitt, *Aus Schelling Keben*, I, 282.
25. Schelling, *Of Human Freedom*, 21-23.
26. Schelling, *The Ages of the World*, 76.
27. *Of Human Freedom*, 26.
28. Cf. Hirsch, E. D., *Words Worth. And Schelling, Passim.*
29. Coleridge, *Biographia*, I, 104.
30. Schelling, *The Ages of the World*, introd. by Frederick Bolman, 8n.
31. Schopenhauer, *The World as Will and Idea*, II, 22.
32. Caird, Edward, *Hegel*, 31.
33. Kaufman, Water, *Hegel: Reinterpretation, Texts and Commentary*, 61.
34. Caird, 46.
35. Hegel, *The Philosophy of Georg Wilhelm Hegel*, ed. Carl Friedrich, 526, 532, 539.

36. Weidman, Franz, *Hegel, 38, quoting Hegel's Briefe*, I, 120; cf. Caird, 66.
37. Weidman, 64.
38. Hegel, *philosophy*, 414.
39. *Ibid.*, 402.
40. Findlay, J. N., *Hegel: A Reexamination*, 96.
41. Hegel, *Philosophy of History*, 23.
42. *Ibid.*, 26.
43. Caird, 153.
44. Findlay, 131, 142.
45. In Caird, 195.
46. *EB*. XI, 300d.
47. Weidman, 76.
48. Hegel, *Philosophy of Right*, Preface, 3.
49. *Ibid.*, 5.
50. *Ibid.*, 6.
51. Nos. 162-63.
52. No. 170.
53. No. 166.
54. No. 174.
55. No. 270.
56. Weidman 83 quoting Rudolf Hyam, *Hegel und seine* Zeitm, 413 ff.
57. Hegel, *Philosophy of Right*, No. 260.
58. *Ibid.*, No. 278.
59. No. 281.
60. No. 273, 280.
61. No. 273.
62. *Ibid.*, preface, 4a.
63. Hegel, *Philosophy of History*, 9.
64. *Ibid.*, 15.
65. *Ibid.*, 30.
66. *Ibid.*, 26.
67. *Ibid.*, 446.
68. *Ibid.*, 456.
69. Hegel, *History of Philosophy*, in Hegel, *Philosophy*, 168.
70. *Philosophy of History*, 50.
71. *Ibid.*
72. *Ibid.*, 17.
73. *Ibid.*, 49.
74. *History of Philosophy*, in Hegel, *Philosophy*, 168.
75. Weidman, 81, Stace, *W. T., The Philosophy of Hegel*, 31.
76. Weidman, 119.

حواشي الفصل الثالث والثلاثين

1. Gooch, *Germany and the French Revolution*, 48.
2. *CMH*, IX, 98.
3. *Ibid.*, 106.
4. Stael, Mme. de, *Germany*, I, 80.
5. *NCMH*. IX, 110.
6. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 102.
7. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 388.
8. *CMH*. IX, 46.
9. *Ibid.*, 47.
10. Our account follows Dudley Pope's *The Great gamble*.
11. *CMH*. IX, 298.
12. *Ibid.*, 236, 299 ff.
13. Horn, 237.
14. *EB*. XXI, 1082d.

15. *Cambridge History of Poland,* II, 213.
16. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland,* I, 298 - 305. Lefebvre, *Napoleon,* II, 249-51.
17. *NCMH,* IX, 546.

حواشي الفصل الرابع والثلاثين

1. Talleyrand, *Memoirs,* V, 399.
2. Stael, Mme. de, *Ten Years' Exile,* 330.
3. Lefebvre, *Napoleon,* II, 305.
4. Kornilov, Alexander, *Modern Russian History,* 26.
5. Florinsky, Michael T., *Russia: A History and an Interpretation,* II, 716.
6. Kornilov, 30.
7. Wiener, Leo, *Ambloogy of Russian Literature,* II, 6.
8. Florinsky, II, 701.
9. Maestre, *Les Soirées de Saint-Pétersbourg,* I, 2, 3.
10. Garrison, *History of Medicine,* 400.
11. Strakhovsky, L., *Alexander I of Russia,* 17; Kornilov, 56.
12. Kornilov, 54.
13. Strakhovsky, 17 - 19.
14. *Ibid.,* 28.
15. Kornilov, 69.
16. *Ibid.,* 26.
17. *Ibid.,* 81.
18. *Ibid.,* 103.
19. Caulaincourt, *With Napoleon in Russia, 276.*
20. Kornilov, 82.
21. *Ibid.,* 100; Florinsky, II, 727.
22. Florinsky, II, 723 - 27.
23. Dubnow, *History of the Jews in Russia and Poland,* I, 341.
24. *Ibid.,* 312, 317-20; Kornilov, 105-6.
25. Dubnow, I, 315.
26. *Ibid.,* 343; Graerz, IV, 473.
27. Dubnow, I, 352.
28. Gilbert. O. P., *Prince de Kigne,* 143.
29. Stael, Mme. de, *Ten Years' Exile,* 361.
30. Pope, *The Great Gamble,* 288.
31. Réau, Lois, L'*Art russe,* 90.
32. *Ibid.,* 113.
33. Fiala. Vladimir, *Russian Painting,* Plates 11 and 12.
34. *Ibid.,* Plate 13.
35. Stael, Mme. de, *Ten Years'Exile,* 303.
36. Strakhovsky, 51.
37. Kropotkin, Peter, *Ideals and Realities in Russian Literature,* 33.
38. Bruckner, A., *A Literary History of Russia,* 150.
39. Lefebvre, *Napoleon,* I, 201.
40. Kornilove. 128.
41. *EB.* XI, 9c.
42. Kornilov, 131.
43. Lefebvre, II, 269.
44. Vandal, *Napoléon et Alexander,* III, 58.
45. *Ibid.,* II, 509.
46. In Treitschke, 45.
47. Méneval, II, 787; Vandal, II, 532.
48. Florinsky, II, 638.

المحتويات